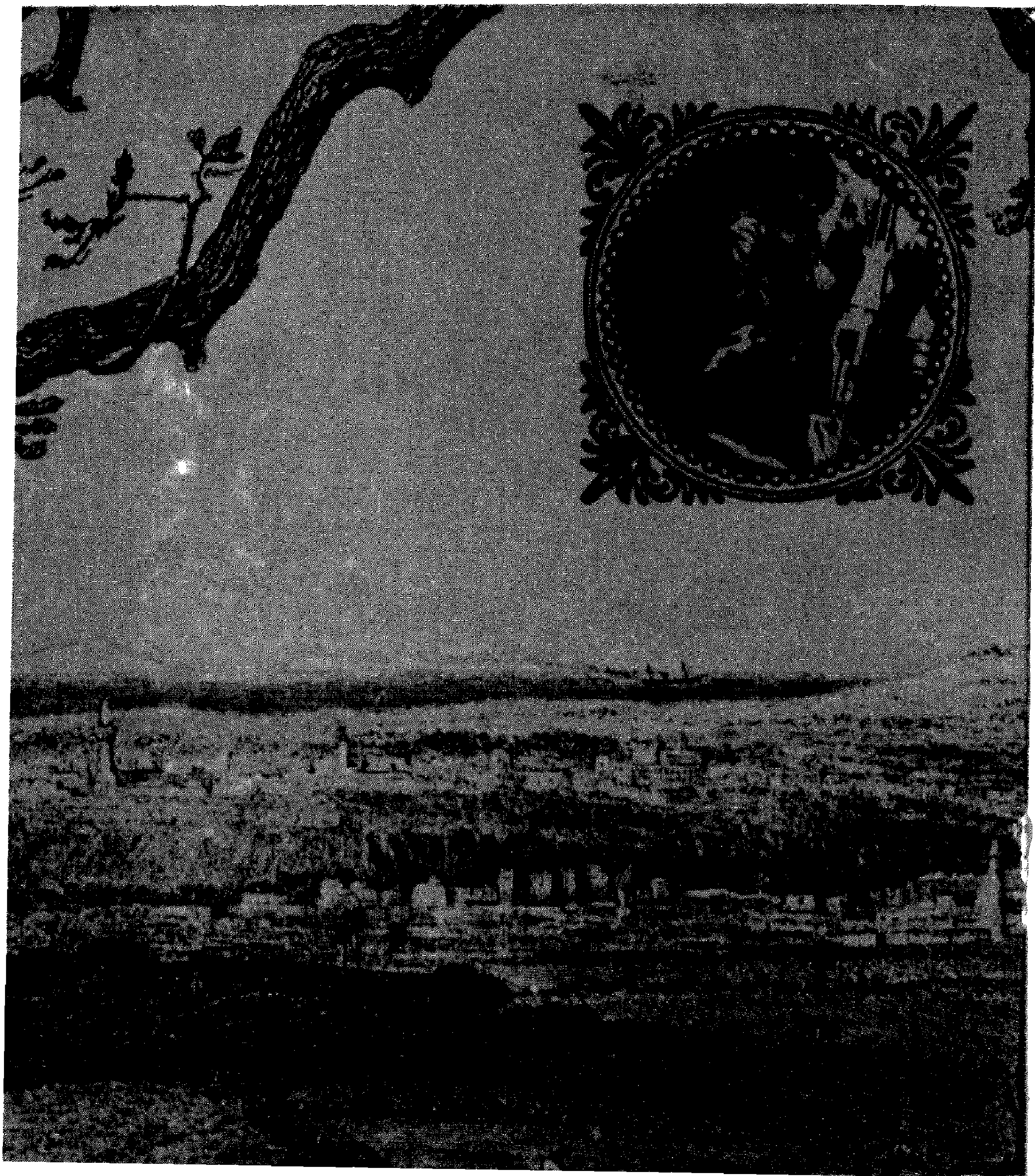
شؤون فلسطينية

١٤
تشرين الاول (اوكتوبر) ١٩٧٢



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ١٤ — تشرين الاول (اوكتوبر) ١٩٧٢

دورية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر شهريا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **متعهد التوزيع** : جبريل ديب .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت ـ لبنان ، ص. ب ١٦٩١ ، تلفون ٣٥١٢٦٠ ، برقيا مرأبحاث ، بيروت .

ثمن العدد (بريد جوي) : ٢ ١/٢ ل.ل. في لبنان وسائر الوطن العربي، ٤ ل.ل. في آسية وافريقية واوروبة ، ٦ ل.ل. في الاميركتين واوسترالية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٣٠ ل.ل. في لبنان والوطن العربي، ٥٠ ل.ل. (١٦ دولارا اميركيا) في آسية وافريقية واوروبة، ٨٠ ل.ل. (٢٦ دولارا اميركيا) في الاميركتين واوسترالية . (بريد عادي) ٤٠ ل.ل. (١٣ دولارا اميركيا) في سائر الدول الاجنبية .

يعطى حسم ٥٠٪ (عدا البريد) على الاشتراكات للمقاتلين والعمال اذا جاءت الطلبات من خلال التنظيمات او النقابات او الاتحادات .

صورة الغلاف : غزة الصامدة .

المحتويـــات

اللبنانية] . لماذا هو غير ممكن اللقاء مع اليسار في اسرائيل ، ا. ن. سعد [باحث في م. أ.] . الطوفان واعادة التكوين ، فوزي كريم [شاعر وناقد عراقي] . تحت شجرة التوت ، رشاد الشامي [معيد بقسم الدراسات العبرية بجامعة عين شمس] .

شؤون فلسطينية

الدكتور أنيس صايغ

مر الكاتب الفلسطيني ، في الاسابيع الماضية ، في امتحان عسير . ومرت معه « شؤون فلسطينية » في امتحان عسير ايضا . فمن الجهة الواحدة ، وبحكم كون « شؤون فلسطينية » منبر الكاتب الفلسطيني ومجاله الاول للتعبير والمناقشة ، لم يكن من المعقول الا أن تهتم المجلة بالقضايا التي أثارت اهتمام الكتاب والصحافيين الفلسطينيين في اجتماعاتهم الاخيرة في بيروت . وزاد في ضرورة اطلالة المجلة على هذه القضايا ان عددا من أسرة تحريرها اشتركوا اشتراكا فعليا في تلك الاجتماعات ، ان في الاعداد لها ، او في تقديم البحوث ، او في الترشح (وبعضهم في النجاح) لانتخابات الامانة العامة لاتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين التي انبثقت عن تلك الاجتماعات . ولكن مقابل هذا كله أثار بعض الاصوات في أسرة التحرير تساؤلا وجيها : هل يصح لشؤون فلسطينية ، وهي احدى الادوات التي يستعملها الكتاب الفلسطينيون لتوحيد الصفوف ولتنقية الجو الفلسطيني ليصبح اوفر قدرة على مواجهة العدو ، أن تفتح صفحاتها لنقاش في الموضوع قد يغذي الخصومات ويلهب المشاعر الحساسة ؟ وكانت حجة رئاسة التحرير ، في الاصرار على تناول الموضوع ، هي ان مبرر وجود « شؤون فلسطينية » هو في الاساس ومنذ البدء ان تكون منبرا حرا للنقاش في القضايا المطروحة على صعيد البحث في وطننا العربي مما له علاقة بالقضية وبالشعب الفلسطينيين .

واذا كانت « شؤون فلسطينية » تحرص دائما على أن تغطي المؤتمرات والندوات التي تعقدها التجمعات المهنية الفلسطينية ، من طلاب ونساء وعمال ومعلمين ، حتى تلك الاجتماعات والندوات العادية ، لمن غير المعقول أن تغفل المجلة عن شؤون تجمع الكتاب والصحافيين . وعلى الاقل من ناحية وثائقية لا يجوز لشؤون فلسطينية أن تصدر في أكتوبر ولا تتطرق الى مسائل اهتم لها الكتاب الفلسطينيون (بل المجتمع الفلسطيني كله) في سبتمبر . والكتابة في موضوع كهذا ليست هي ، بحد ذاتها ، مدعاة لتأجيج الحساسيات واثارة المشاعر . المهم هو نوع الكتابة والغاية منها . وغاية « شؤون فلسطينية » حينما تتكلم ، في مراجعاتها للكتب او في تغطياتها للمؤتمرات او في مقابلاتها مع قادة المقاومة ، هو أن تتيح للافكار الفلسطينية ان تنشر في جو من الحرية ومن الهدوء ومن النقاش العلمي مما يسهم في سد الطريق على الانفعالات وعلى التشنجات وعلى المهاترات . والمهم في معالجة المجلة لموضوع كهذا الا تنحاز بشكل انفعالي أو عاطفي أو مغرض الى جانب فريق فلسطيني ضد فريق آخر ، ما دام الفريقان ينتميان الى ثورتنا التي نؤمن بها ونعمل لها . ولهذا لم نعهد بمعالجة مشكلة الكتاب والصحافيين الفلسطينيين الى كاتب واحد يمثل وجهة نظر واحدة ، بل طلبنا الى ثلاثة من اخواننا وزملائنا (اثنان منهم من أسرة التحرير والثالث من كتاب المجلة) ، ممن رافقوا القضية المطروحة للنقاش مرافقة حميمة ، وممن مثلوا ويمثلون ثلاث وجهات نظر مختلفة عن بعضها بعضا ، طلبنا منهم أن يتناولوا الموضوع كل من زاويته . وذلك ليخرج القارىء بحصيلة صورة واضحة ومتكاملة عن هذا الموضوع وليتخذ ، في آخر الامر ، الحكم أو القرار الذي يصل اليه بقناعته هو . وان رئاسة التحرير تعتقد انها ، بهذا الاسلوب ، تحقق غرض المجلة لا في توثيق الاحداث وتحليلها فحسب بل ايضا في تقريب وجهات النظر وفي تعبئة الجهود من أجل الوحدة الوطنية ، هذه الوحدة المنشودة في كل المجالات وعلى كل الاصعدة ، لتنطلق الثورة بالمزيد من الاندفاع والقدرة والحرارة والايمان . ومما يزيد في قناعتنا بهذا الاسلوب ان الكتاب والصحافيين المجتمعين في بيروت تحت شعار « بالدم نكتب لفلسطين » (وهو اقدس شعار يرفعه كاتب او صحافي) انما هم انفسهم يحترفون مهنة النقد كسبيل لتوجيه الشعب نحو الافضل ، ومن غير المعقول ان يرفضوا نقد انفسهم او أن يتجاهلوا المشاكل التي تعترض سبلهم .

ذاهب الى العالم
غريب عن العالم

محمود درويش

● في ساعة متأخرة من الليل ، يذهب العالم الى غرفة النوم .

لقد كان يومه حافلا . وكان الصفاء يغمــر الارض : ما زالت ادوات الحضارة الغربية تصارع الارادة البشرية في آسيا . التراب الاسيوي يموت والانسان الاسيوي يموت . ومياه الانهار تجرف من فاتهم أن يلتقوا بأدوات الحضارة . وقريبا من البحر الابيض ، مـا زالت الاحذية العسكرية ، الغربية الصنــع ، تدوس الحضارة القديمة والانسان الجديد . وفي نشرات الاخبار العادية ، العادية جدا ، يباد حقل من الاطفال ، لانهم عرب ولانهم قادرون على النمو .

وفي ساعة متأخرة من النهار ، ينهض العالم من غرفة النوم الى غرفة العمليات . لقــد كانت ليلته صافية ، واحلامه متواصلة السعادة .

هكذا ينام العالم . .

هكذا يستيقظ العالم . .

وهكذا ينساني .

لا يذكرني الا في حالتين : حين اجرب الموت ، وحين اجرب الحياة . ولقد مت لمدة ربــع قرن وشبعت موتا .

واليوم ، اليوم لم يذهب العالم الى غرفة النوم . وقف على حافة الكرة الارضية ، وأمرني بالخروج من دائرة الانسانية ، لانني حاولت أن أخترق الدائرة ، حاولت الدخول .

ــ ماذا يعنيك من تاريخي أيها العالم . . ماذا يعنيك ؟

ــ التاريخ هو الماضي ، وأنا أدرسه في المعاهد .

ــ وأين رأيتني أول مرة ؟

ــ كنت أراك دائما على تراب فلسطين حتى خرجت ، وعاد الصفاء والسلام الى الارض . فلماذا تعود الان ؟ لماذا تكسر الصفاء ؟

هكذا يفهمني العالم ، وهكذا يريدني . لقــد انتهى صراعنــا ما دمت قــد خرجت من فلسطين ، وما عاد للنار حارس . واكتملت معادلة سلام العالم ، وصار الامن الدولي مشروطا بغيابي عن فلسطين وعن الانسانية .

لم اودع أحدا ، ولم أودع شيئا . دحرجني كعب بندقية من الكرمــل الى الميناء ، وكنت

انتشبث بخاصرة الله واصرخ ، حتى ضاع صوتي ووعيي . ولكن العالم وعدني بصدقة مقابل التوقيع على هدنة مع النفس ، لان الهدنة مع القاتل لا تتم الا بعد الهدنة مع النفس . ولقد تصدق العالم علي : أعطاني طحينا وثيابا وخياما كثيرة لي ولاطفالي الذين لم يولدوا مقابل أن اعطيه الوطن والامن . وحين كنت اشعر بالبرد في المنافي ، كانت صحف الراي العام العالمي تقيني من الامطار والارتجاف . وحين كنت أشعر بالجوع ، كانت فقرة من ثلاثة سطور في خطاب رئيس دولة متحضرة تشبعني . وحين كنت أشعر بالحنين ، كانت الاغاني الاجنبية ، المنبثقة من راديو الجيران ، تجعل الرحيل تجربة جميلة .

وهكذا يذهب العالم الى غرفة النوم .. وينساني .

● لا توقظوا الضحية ، لئلا تصرخ .

— من أيقظها .. من المسؤول ؟

— ريح تهب فجأة ، فتنعش الموتى .

— من أين تهب ؟

— من كل الجهات .. من الوطن .

— ومن علمهم هذه اللفظة المهجورة ؟

— شعراء يغنون على ربابة .

— اقتلوهم .

— قتلناهم ، فابتكروا لفظة اخرى — الحرية .

— من علمهم هذه اللفظة العاصية ؟

— ثوار خماسيون .

— اقتلوهم .

— قتلناهم ، فتعلموا كلمة أخرى — العدالة .

— من علمهم هذه اللفظة ؟

— الظلم .. هل نقتل الظلم ؟

— اذا قضيتم على الظلم ، قضيتم على أنفسكم .

ما العمل ؟

نقتل الذاكرة .

وهكذا ينام العالم . وهكذا يصحو . هو مدجج بالسلاح ، وانا مدجج بالقيود . القوي متحضر ، والضعيف بربري . وليس التاريخ قاضيا . التاريخ موظف . ماذا كان الهنود الحمر سيقولون لو هزموا غزاتهم . والذين يتباهون بالحضارة والتمدن هم غالبا ما يكونون القتلة .. القتلة . انظروا هذا الثلاثي : الاول — اباد شعبا في الماضي ، ويبيد اليوم شعبا وتربة في جنوب شرق آسيا ، ويفجر علامة تحضره الكبرى — القنبلة الذرية — في شوارع العالم .. يطالبني بالخروج من حلبة الانسانية ومن الكرة الارضية لانني أرهابي . والثاني — ليس من الحكمة ان نذكره بماضيه . لقد أحرق عشرات الملايين من البشر باسم الحضارة والتمدن ، والان يتعانق القاتل والضحية وينجبان وليدا جديدا هو الثالث — فماذا ينتج عن زواج الارهاب الا الارهاب ! وجاء الثالث المدجج بالتوراة

والسلاح ، واقتلعني من جبالي وسهولي ودحرجني من الحضارة الى الحضيض . هذا الثلاثي يطالبني بالخروج من الكرة الارضية لانني ارهابي .

وماذا كان العالم يفعل ؟

في ساعة متأخرة من الليل ، يذهب الى غرفة النوم وينام .

القتل دائما جريمة . فلماذا يتحول القتل الى دعامة من دعائم الهيكل الحضاري اذا مارسه الاقوياء ؟. وهل نشأت اسرائيل على وسيلة اخرى غير القتل والارهاب . هكذا العالم دائما ـ شديد الاعجاب بالقتل الجماعي ، وشديد التنديد بالقتل الفردي . من حق الدول أن تقتل شعوبها والشعوب الاخرى ، وليس من حق فرد او شعب أن يقاتل من أجل حريته .

ومن هو هذا الرأي العام العالمي ؟

نحن نستخدم هذا المصطلح مجازا ، فنطلب العدالة من القتلة اذا كان معنى المصطلح هو تلك الاجهزة الاعلامية التي يديرها افراد متشابكون في المصالح والعقائد . فلماذا نعطيه مثل هذه القداسة ؟ ان الرأي العام الحقيقي ـ الضمير الانساني ـ لا نراه ولا نسمع صوته ، لان مؤسسة « الرأي العام العالمي » الغربية الرسمية قد خنقته وزيفته . واذا كان سلوكنا خاضعا لمتطلبات كسب « الرأي العام العالمي » المعبر عنه بالاجهزة الاعلامية الرسمية ، فقد آن لنا ان نكتشف أننا نستمرىء عبوديتنا وضياعنا ونبحث لها عن أسباب البقاء ، طالما أن هذا « الرأي العام » ملك أفراد هم أعداؤنا . فهل يصلح هؤلاء لان يكونوا قضاة ! حين نتحاشى الانتحار يقولون اننا جبناء . وحين ننتحر يقولون برابرة . حين ندعو الى السلام يقولون اننا كذبة مراؤون . وحين ندعو الى المعركة يقولون اننا متوحشون . وهل نحن قتلة ؟. من قتل من ؟ هل سألوا هذا السؤال .

ليس صحيحا ان العالم قد فقد ذاكرته . وليس صحيحا ايضا اننا قادرون على اعادة الذاكرة الى العالم عن طريق ارضائه . العالم يرتاح . العالم يريد ان يلعب ويريد ان يشرب .

ـ لماذا توقظ العالم من النوم ؟

ـ هذا ليس صوتي . هذا صوت ارتطام جثتي على الارض .

ـ ولماذا لا تموت بهدوء ؟

ـ لان الموت الهادىء حياة ذليلة .

ـ والموت الصارخ ؟

ـ قضية .

ـ هل جئت تعلن حضورك ؟

ـ بل جئت أعلن غيابي .

ـ ولماذا تقتل ؟

ـ لا اقتل الا القتل . لا أقتل الا الجريمة .

ـ اذهب الى الجحيم .

ـ إنا قادم من الجحيم .

للمرة الاولى ، سأل العالم نفسه : من اخبره انه قنبلة ؟

ـــ من كثرة ما ضربوه بالرصاص ، تراكمت الشظايا على الشظايـــا ، فولدت طاقة ، وصار قابلا للانفجار .

ـــ اخرجوه من دائرة العالم .

ـــ لقد أخرجناه . . وعاد .

ـــ انصبوا له كمينا على حافة الارض ، وادفعوه الى الفراغ .

ـــ لا يمكن الاقتراب منه ، لانه مدجج بربع قرن من المأساة والغضب والانفجار .

ـــ ازهابي ؟

ـــ نعم . ارهابي ويائس .

ماذا يفعلون باليأس . اليأس صنو الموت . لا أريد من العالم شيئا الا ان يرفع سكينه عن عنقي . لقد كنت رهينة . انا الرهينة منـــذ خمس وعشرين سنة في ايديكم ، واطلق اليأس سراحي . من يعيدني الى الامل غير اعلان يأسي ! ومن يحررني من الاسر غـــير قدرتي على الانتحار ! . ليذهب العالم الى غرفة النوم . أنا صمام أمان العالم ـــ هذا هو الدور الذي حددتموه أنتم لي . وليس بوسعكم ان تحددوا لي شكل اعتراضي على موتي المجاني . ليس بوسعكم ان تحددوا لي طريقة تخلصي من المجزرة المزمنة . ليس لي الا ان أموت . فلأمت كما أشاء . لا أرضى بهذا الدور لا أرضى ـــ فليست عبوديتي معادلة للامن . سموني ما شئتم . جاء دوري الان لاسمي نفسي ما اشاء ، وافعل ما اشاء . اقف في قلب العالم . انتزع ذراعي . الوح بها في الهواء . احولها الى كرة والعب معكم . . اقذفها في شبكات عيونكم يا قضاة الحضارة . ليس من اجل الوطن . ليس من اجل الشـــعب . وليس من اجل الانتقام . هكذا ، يطيب لي ـــ كحيـــوان آســـيوي ـــ ان استخدم جسدي ، ان امرنه على الحركة بعد شلل دام ربع قرن . . ان اقطعه أربا اربا وأسليكم . هذه هي حريتي الوحيدة ، فلماذا تعترضون على انتحـــاري يا خبراء القتل الجماعي ، ويا من تحولون الاطفال الى فحم ! انتم تقتلون . . اذن انتم تعيشون . وانا أنتحر . . اذن أنا أعيش . لـــن اسمح لاحد ، بعـــد الان ، ان يقتلني سواي . هـــل تعرفونني ؟ لقد نجوت من قنابلكم . هل تعرفونني ؟. ان حليب وكالة الغوث لا يخلق دما في الشرايين . انه يخلق ديناميت . هذا غذاؤكم يعود اليكم . شكرا لكم . وحين رمتني أمي في شوارعكم طردتموني وقلتم : عـــد الى أمك ، وحين عـــدت الى أمي القيتم علي القبض وعذبتموني وقلتم : ارهابي . ومنذ تلك اللحظة ، وانا ابحث عن أمي . وهـــل تعرفون أين وجدتها ؟ كان جسمي يمطر دما . وحين أفقت من الغيبوبة وجدت نفسي في بركة دم . حدقت فرأيت ملامح سميتها وجه أمي . كان ذلك دمي ولم يكن دمكم يا قضاة العالم .

من حولني الى لاجيء ، حولني الى قنبلة . اعرف اني سأموت ، واعـــرف أني اخوض معركة خاسرة اليوم لانها معركة المستقبل . وأعرف أن فلسطين ـــ على الخارطة ـــ بعيدة عني . وأعرف أنكم نسيتم اسمها وتستخدمون ترجمتها الجديدة . اعرف هذا كله. ولهذا أحملها الى شوارعكم ، وبيوتكم ، وغرف نومكم . ليست فلسطين ارضا ـــ ايها السادة القضاة ـــ . لقد صارت فلسطين اجسادا تتحرك . . تتنقل في شوارع العالم ، وتغني أغنية الموت ، لان المسيح الجديد ترجل عن الصليب . امتشق عصا ، وخرج من فلسطين .

حول مستقبل المقاومة الفلسطينية

الدكتور هشام شرابي

مقدمة لكتاب سيصدر قريبا بالانكليزية عن مركز الابحاث تحت عنوان « فلسطين تعيش » ويضم مقابلات مع زعماء خمس من منظمات المقاومة الفلسطينية سبق ونشرتها « شؤون فلسطينية » .

ان هذه المقابلات التي اجريت مع زعماء خمس من منظمات المقاومة الفلسطينية ــ فتح، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين ، والصاعقة ، وجبهة التحرير العربية ــ تشكل وثيقة سياسية وتاريخية فريدة من نوعها، اذ ربما كانت هذه هي المرة الاولى التي يضم فيها كتاب واحد تصريحات عن مواقف منظمات المقاومة وآرائها والتي هيمنت على المسرح السياسي والايديولوجي في العالم العربي منذ العام ١٩٦٧ .

وربما صح القول انه لم يسبق ان صدر اي تصريح عن اي من زعماء المقاومة الذين اجريت معهم هذه المقابلات فيه مثل هذه الصراحة والشمول . والحقيقة ان ما يسبغ على هذه المقابلات فرادتها هو بالضبط الانفتاح الذي ميز استجابة اولئك الزعماء الى الاسئلة السابرة التي طرحت عليهم . ويحتمل ان تكون هذه هي المرة الاولى التي يمارس فيها الزعماء علنا النقد الذاتي محللين اخطاءهم السابقة وخطط المستقبل .

واذا ما اخذنا كل مقابلة على حدة نجد انها تمثل وجهة نظر معينة وايديولوجية مختلفة. ولكن تلك المقابلات مجتمعة تؤلف كلا واحدا وتعبر عن موقف واحد مستمد من تجربة مشتركة وهدف مشترك ــ تجربة شعب يحمل السلاح ويضع التحرير هدفا اخيرا لكفاحه . وجدير بالملاحظة ان أيا من الزعماء لا يتحدث عما يسمى « بالتسوية السياسية » ، وان الجميع يتحدثون عن **مبدأ التحرير** .
ومن الاهمية بمكان ان نشير الى ان الفلسطينيين المناضلين (مهما كان موقفهم الايديولوجي) يرون ان الحل النهائي للمسألة الفلسطينية لا يمكن ان يكون على حساب حقوق الفلسطينيين بل على اساس العدل فقط ، اي على اساس الاستعادة الكاملة لحقوق الفلسطينيين الانسانية والسياسية **في وطنهم هم** .

وكما سيتضح من خلال قراءة هذه المقابلات فانه ليس ثمة وهم حول كيف ومتى يمكن تحقيق هذا الهدف . فمن جهة ينظر الى اسرائيل كما هي ، قوة تدعمها اميركه ولكنها تعتمد في الوقت ذاته على نفسها وتتمتع بقدرة تدميرية مستقلة هائلة ، كما تشكل الحركة الصهيونية بالنسبة لها حصنا عالميا نجح في السيطرة على ارادة وثروة اليهودية العالمية. ومن جهة اخرى ، ينظر الى الدول العربية كما هي ، دول متخلفة ومجزاة وعاجزة عن تعبئة الحد الادنى من مواردها لمواجهة التهديد الذي يواجهها وغير قادرة على التعاون فيما بينها من اجل ان تصبح القوة التي بمقدورها ان تصبحها . اما الفلسطينيون من جهتهم فيجدون انفسهم ممزقين بالخلافات والنزاعات الداخلية ، ويعانون من نقاط

الضعف والعجز نفسها المسؤولة عن الضعف العربي الاكبر . ان هذه المقابلات تلقي الضوء بوضوح على العوامل التي ساهمت في الوصول الى هذا الوضع ، كما تحدد الشروط الضرورية للتغلب عليه . ومن هذه الناحية تشكل هذه المقابلات علامة بارزة على طريق تطور الوعي الفلسطيني الذي يشكل بدوره نقطة مهمة في تطور الوعي الثوري في العالم العربي ككل .

كان على هذه المقدمة ان تستتبع تحليلا تاريخيا لحركة المقاومة وربما مناقشة لتطورها الايديولوجي والسياسي . الا انني رأيت ان المدخل المنهجي وحده لا يكفي لفهم نمو حركة التحرير الفلسطينية وتطورها ومستقبلها اذ ان مثل هذا الفهم لا يتطلب معرفة المبادىء والاهداف التي تقول بها الحركة فحسب بل ايضا معرفة المنطلقات التي تنبع منها . ونادرا ما سنحت الفرصة للفلسطينيين للتعبير عن سبب رفضهم حل التسوية السياسية واصرارهم على التحرير كمبدأ وهدف نهائيين . انني سأحاول في الصفحات التالية ان احدد الاطار الذي يمكن من خلاله فهم هذا الموقف مركزا على ما يعنيه الفلسطينيون عندما يقولون اننا لا نستطيع القبول عن التحرير بديلا .

ملاحظات شخصية

أولا وقبل كل شيء ، ان بعض التعليقات المبنية على اساس تجربتي الشخصية قد توضح بعض النقاط حول تطور خلفية المقاومة الفلسطينية .

عكست تحليلات المقاومة باستمرار ، في السنوات التي تلت حرب العام ١٩٦٧ مباشرة ، ذلك الشعور بالقوة والنشاط والعافية الذي ساد تلك الفترة بدل ان تعكس حقيقة الوضع . ولقد أوضحت كتاباتي وكتابات آخرين غيري الفرضيات والمفاهيم الخاطئة التي شجع ظهورها بروز الحركة السريع . ولقد لاحظت في دراسة عن حركة المقاومة الفلسطينية وضعتها في العام ١٩٦٩* تطورات كانت تتشكل بصورة مفاجئة وعنيفة في الوقت الذي كانت تسير فيه الثورة باسلوب الثورتين الكوبية والجزائرية . الا انني لم استطع أن أرى مستقبلا المأزق والركود الذي تلاه نتيجة لهجمة الملك حسين على الفلسطينيين في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ . وكذلك لم استطع ان اقيم تقييما صحيحا عوامل الانشقاق داخل الحركة ، فقد كان تصوري الدائم هو ان الوحدة آتية بشكل طبيعي وحتمي . وقبلت الكثير من الشعارات المتداولة دون تساؤل او تفحص . اذ لم تكن تراودني شكوك حول صحة المواقف الثورية . وعندما انظر الان الى الوراء أجد ان ذلك لم يكن نتيجة للتفكير المزاجي فحسب ، وانما ايضا نتيجة لنقاط ضعف معينة تضمنها تحليلي . وكنت قد بدأت بعد هزيمة العام ١٩٦٧ ، مثل كثيرين غيري ، اقرا ماركس بجدية فامتلأ رأسي بالنظريات التي لم أتمثلها تماما .

ان ابناء جيلي الذين وجدوا أنفسهم ، مثلما وجدت نفسي ، في اعمال مهنية (تقتضي ثقافة او علما) كانوا قد اعتادوا نكبة العام ١٩٦٧ على كبت مشاعرهم والانصراف الى مشاغلهم . وكان شعور هذه الطبقة المثقفة بعدم جدوى رفع الصوت ناتجا بالاكثر من تخوفنا من الضرر الذي قد يلحق أعمالنا ومصادر رزقنا كفلسطينيين يعيشون خارج بلادهم . فعشنا ليومنا سواء في البلدان العربية أم خارجها . ولكننا حققنا نجاحا على وجه العموم ، وبدا ان النجاح الشخصي يسهل علينا نوعا ما تحمل النكبة الوطنية . ولكن لم يتمتع الفقراء والفاشلون منا ، وخاصة سكان المخيمات ، بالتعويضات النفسية ذاتها ، وكانت فلسطين بالنسبة لهم عذابا يوميا . كانوا يفكرون في شيء واحد فقط : في **العودة** .

---

* الفدائيون الفلسطينيون : فاعليتهم وصدقهم (مركز الدراسات الستراتيجية والدولية ، واشنطن العاصمة ، ١٩٧٠) . الترجمة العربية : مؤسسة الدراسات الفلسطينية (١٩٧٠) .

الا أن ١٩٦٧ جعلنا نجد أنفسنا ووضعنا في ضوء جديد . ففي ذلك العام أصبح أكثر من نصف شعبنا يعيش تحت الحكم الاسرائيلي ، وصار الفلسطينيون« يهود اليهود »* . ولكننا على عكس اليهود لم نثر في نفس العالم الغربي شيئا من الشفقة او الرحمة : ان يعود اليهود الى « وطنهم » فذلك مشهد مثير يدعو الى الاعجاب والدعم . بينما ان نفقد نحن وطننا فذلك امر لا اهمية تذكر له . وفجأة رأينا مكانتنا في أعين العالم « المتمدن »: اننا نوع ادنى من الانسانية يعيش خارج التاريخ ، اننا الهنود الحمر الجـدد والزنوج لاسرائيل .

وكانت الحالة الاسوأ هي حالة فقرائنا ــ عمالنا وفلاحينا . اما الطبقة العليا ــ ملاكو الاراضي وكبار التجار والفئات المتوسطة والمتوسطة الدنيا ــ فقد تدبرت امورها بشكل او اخر . في ظل الحكم الاسرائيلي تواطأت هذه الطبقة مع الحكام اليهود وخلـدت الى السكينة . أما في البلدان المحيطة بفلسطين فقد كانت هـذه الطبقة من الفلسطينيين قد دبرت امورها المعيشية واندمجت في حياة بيئتها الجديدة . أما الشعور بفقدان الوطن فقد عبر عن نفسه عند هذه الطبقة في صورتين : صورة « مادية » تنعكس في روايات عن الغنى والاملاك التي خلفوها وراءهـم ، وصورة « عاطفية » تنعكس في وطنية بلاغية مجردة عن الالتزام أو العمل السياسي الجاد .

ان الاوضاع الجديدة التي عاش في ظلها الفلسطينيون غيرت القليل من العلاقات الطبقية القديمة . لقد كانت البرجوازية والبرجوازية الصغـيرة بالنسبة للفلاحين والعمال غير المهرة الذين اقتلعوا من وطنهم تمثل طبقات مالكة ومستغلة . ولم يتغير شيء في هـذه العلاقة لا في ظل الاحتلال الاسرائيلي ولا في البلـدان المحيطـة باسرائيل . واعتبرت الطبقات العليا الظروف الرهيبة التي عاشتها الجماهير الان ، « طبيعية » مثلما كـانت الظروف السابقة . ان عيش الجماهير الفلسطينية على الحسنات الدولية واستغلالها كيد عاملة رخيصة بواسطة مغتصبي أرضها لم تكن الا امتدادا فقط للاستغلال والبؤس السابقين على يد الطبقات البرجوازية والاقطاعية الوطنية . وبمعنى معـين تطابق أفق رؤيا الطبقات الفلسطينية المسيطرة وافق رؤيا المحتل الاسرائيلي . لقـد استغل الجانبان الجماهير الفلسطينية وعانت هذه الجماهير من استغلال الجانبين عـلى حد سواء .

وكشفت هزيمة العام ١٩٦٧ أيضا افلاس النظام الاجتماعي والسياسي القائم ، وحطمت سيطرة الايديولوجية القديمة مفسحة المجال بذلـك لبروز منظور راديكالي جديد . فقد أخذ الفلسطينيون المنضوون تحت لواء حزب البعث وحركـة القوميين العرب والحزب السوري القومي الاجتماعي والحزب الشيوعي والاخوان المسلمين ينظرون الى الامور بطريقة مختلفة . وأخذت الشعارات القديمة التي ترعرعت في ظل معاناة اجيال ثلاثة من البورجوازية العربية وطموحاتها تفقد معناهـا . وخضع المجتمع الان ككـل ، بقيمه ومؤسساته وتنظيمه السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، لنقد سريع وغاضب .

ومع انهيار تبريرات الهزيمة اصبح القول بالحاجة الى تحول جذري في المجتمع العربي يتخذ معنى عينيا معينا . وهذا الادراك مثل بداية أول تغير خطير في وعي هذا الجيل . ولكن نضوج الادراك الراديكالي يتطلب تجاوز مجـرد اطلاق التعميمات . الا ان هذا الوعي الجديد افتقر الى الاسس النظرية الضرورية للتحليل الشامل ، كما افتقر ايضا الى القدرة على الخروج ببرنامج وستراتيجية واضحة تنتظم حولهما القوى الاجتماعية الجديدة . وهنا ظهر التشوش الموضوعي في البيئة الاجتماعية في شكل الوعي ذاته .

ان السعي منـذ العام ١٩٦٧ وراء مفهوم ثوري أدى الى ظهـور أدب ثوري واسع

* على حد تعبير راشد حسين في احدى قصائده .

ــ ترجمات الكتابات الثورية الرئيسية كــافة من ماركس الى ماركوزه بالاضافة الى التعليقات والتأريخات والتحليلات الثوريــة . الا ان الممارسة في التجربة الفلسطينية سارت سيرا مستقلا عن النظرية المنظومة وتلكأت وراء الممارسة . وفي حين لم يكن من الممكن التمييز بين النظرية ومجرد الكلام اتخذت الممارسة صورة العمــل العفوي غير المنظم .

ان حمل البندقية اعطى بالتأكيد دروسا لم تكن اي نظرية بمفردها قادرة على اعطائها . ولم تظهر الايام الاولى للمقاومة ما تستطيع الارادة ان تولده فقط بــل اكدت أيضا ان العمل الثوري هو الطريــق الوحيد الى التحول الذاتي . وأصبح واضحــا ان لا شيء يستطيع تحرير المجتمع من قيوده غير القوة الكامنة في جماهير هــذا المجتمع المقهورة والمستغلة . وهكذا رأينا الانسان العربي الجديد يبرز على صورة الفدائي الفلسطيني ، وتصورنا الثورة العربية تولد من تصاعد حركة المقاومة الفلسطينية .

وكانت الآثار المباشرة لهزيمة ١٩٦٧ هي تلك الفترة البطوليــة التي برزت فيها المقاومة الفلسطينية ، ونفثت شجــاعة رجالها وتصميمهم حيــاة جديدة في نفوس الفلسطينيين والجماهير العربية كافة . وقبل ذلك لم يشعر الفلسطينيون في تاريخهم بالارتباط الشديد فيما بينهم . لقد عبر الفدائيون النهر للمرة الاولى خلال عشرين عــاما واستطاعوا ان يضربوا العدو ضربات موجعة .

وفي اللحظة ذاتها التي بدا فيها ان المقاومة اوشكت ان تدخل مرحلتها الحاسمة سيطرت عليها تناقضات داخلية وخارجية شلت فاعليتها . وأمام عجز حركة المقاومة عن الاتحاد والاتفاق حول برنامج مشترك وستراتيجية مشتركة اصبحت الحركــة عرضة لضربات قوى الثورة المضادة . وهكذا بدأت الضربات الاليمة المتتالية تتساقط عليهــا من قبل أنظمة الحكم « الصديقة » والمعادية في صورة مستترة تارة وفي صورة علنية طورا الى ان جــاء الهجوم الساحق في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ . واخــذ الاصدقــاء والمؤيدون ينصرفون عن الحركة ، وبذلك انتهت فترة الشعور بالقوة والنشاط والعافية . وفجأة وجــد الفلسطينيون أنفسهم في عزلة وفي غربــة عن مضيفيهم العرب يواجهون العدو وحيدين .

وعند عودتي في اوائل العام ١٩٧١ الى عمان في زيارتي الاولى لها بعد ايلول (سبتمبر) الماضي لاحظت ان مشاهد الازدحام الحية التي كانت تتميز بها عمان قبل برهة قصيرة قد غابت . وعادت عمان ثانية البلدة التي عرفت في العام ١٩٤٩ عشية الهزيمة الاولى : بلا وجه ، ومهجورة ، ومقهورة . ان تواجد جنود البادية في كل مكان ــ في المطار وفي المباني الحكومية وعلى كل مفترق طرق ــ كان يعزز جوا بربريا يخيم على كل شيء .

لقد كان الجو جافا وباردا عندما حطت الطائرة التي اقلتنا الى مطار عمان حيث حضرنا لنناقش زعماء مختلف المنظمات حول مخططــات الوحدة التي وضعها مركز التخطيط التابــع لمنظمة التحرير الفلسطينية كي تطرح في الاجتمــاع المقبــل للمجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة . وجرى لنا استقبال حار في المكــاتب التي اصبحت الان هادئة وشبه مهجورة . وكان الناس أشد رغبة في التحدث من الاستمــاع . وكان لدى كــل جماعة وكل مسؤول صورة خاصة لما حدث وللخطأ الذي وقع وصورة لعلاج الوضع . ولم تعد هناك تلك الحماسة والثقة الفخورة بالنفس التي تركت في نفسي اثرا عميقا في زيارتي الاولى لمنظمات المقاومة في العام ١٩٦٩ . لقد اخذ الانهاك نصيبه وذهب الزهو وظهر في الجو ذلك الشعور بالضياع الذي ساد الساحة الفلسطينية قبل العام ١٩٦٧ . وبدا الناس في المخيمــات والمكــاتب قلقين ومرتابين : يلومون ويغتابون بعضهم بعضا ويتبادلون التهم ، انها عادات المهزومين والمنكوبين . انني لم اسمــع من قبل بمثل هذا العدد الكبير من الاشخاص الذين يتهمون بجرائم رهيبة مثل الجاسوسية والتواطؤ مع

العدو والتعامل مع نظام الحكم هذا او ذاك . ان الفلسطينيين الذين توحدوا منذ فترة قريبة فقط بدوا الآن مجزأين ومنقسمين على انفسهم .

ركبنا احدى سيارات لجنة المتابعة العربية ، وكانت تحمل علما اخضر كبير يرفرف على جانبها ، وصعدنا الى تلال جرش الصخرية ذات اللون البني الفاتح ، وتوقفنا في المركز المحلي لقيادة جيش التحرير الفلسطيني قرب الآثار الرومانية الجميلة . ونظرت من شرفة المركز الذي يشغل بناية صغيرة لأرى رجالا مسنين من مخيم غزة القريب يستدفئون في شمس الشتاء ورؤوسهم محنية ومنتشرين هنا وهناك في مجموعات صغيرة . ونادرا ما كانوا يظهرون أي اهتمام بما يدور حولهم . وبعضهم كان ينظر بصمت . ولدى خروجنا من المركز المحلي لقيادة جيش التحرير وجدت ان معظمهم، وعلى الرغم من تجعد وجوههم وبياض ذقونهم ، لا يتجاوز الخمسين . انهم الشبان الذين تركوا بيوتهم وحقولهم قبل عشرين سنة ونيف .

توقفنا ثانية في مخيم غزة الواقع على الطريق الى منطقة الاحراج . وهنا أحاط بنا عدد لا يحصى من الاولاد وكذلك قلة من الرجال المتجهمين السائرين سيرا بطيئا . وبدا الاولاد سعداء واصحاء . أما الشبان فبدا أن جوا مأساويا يلفهم . وهنا انتابني حس باليأس . وأدركت في لمح البصر ما المقصود بالتمييز الماركسي بين الوضع الثوري في حد ذاته والوضع الثوري **من أجل** ذاته ، ادركته الفرق بين العيش تحت عبء الظروف القاهرة وبين امتلاك الوعي الثوري لتغيير تلك الظروف .

وسرعان ما ادركنا ان مسألة الوحدة (بين مختلف المنظمات) لم تكن مسألة نظرية بحاجة الى حل بواسطة الاتفاق الشفوي . وعدنا الى بيروت مقتنعين انه قبل القيام بأي شيء يجب اولا ان يوجد الوضع حلوله بذاته اذ ان الحلول المتأنية عن التفكير تفكيرا ذاتيا اثبتت انها قليلة الفائدة على الرغم من صحتها النظرية .

منظور الوعي الثوري

بعد ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ أخذ الناس يتحدثون حديثا مختلفا . وفي هذه المجموعة من المقابلات يظهر ذلك جليا ، فنجد الناطقين الرسميين باسم المقاومة يوجهون كلامهم الى بعضهم بعضا والى شعبهم هم وليس الى « الرأي العام العالمي » ووسائل الاعلام . فهم لا يسعون وراء خلق صورة معينة لانفسهم وما عادوا يتنافسون الواحد مع الآخر من أجل الدعاية . وهذا يضفي على المقابلات ميزة نادرة من الصراحة . اضف الى ذلك ان هناك متطلبات ملحة جديدة نتيجة للظروف التي تغيرت . اننا نتحسس موقفا يتطلب اتصالا ولن يرضى بالطريقة الخطابية القديمة . وليس هذا مجرد تغير في التكتيك الاعلامي ، انه يشير الى تغيرات داخل الحركة وربما الى دخولها مرحلة متقدمة من النضوج .

ان الناطقين باسم المقاومة في موقفهم من مختلف المسائل التي يتناولها هذا الكتاب بالبحث يعبرون عن وعي مشترك يتجاوز وعي الافراد او المجموعات . انهم يتحدثون نيابة عن الفلسطينيين ككل ، ومن خلالهم ، عن الصامتين والمقهورين في العالم العربي بأسره . انهم يؤكدون العزم على تحمل الهجمات الصهيونية على حقوقهم القومية والانسانية ، ويعبرون عن رفض النظام السياسي والاقتصادي للامبريالية الغربية المعاصرة التي تحول دون ان تحقق المنطقة استقلالها السياسي والاقتصادي التام . وهم ينظرون الى اسرائيل ضمن هذا النظام على انها فرع للامبريالية تغذيه وتعززه الولايات المتحدة التي تلقى مصالحها في المنطقة دعم اسرائيل وتأييدها . ومهما اعتبرت اسرائيل نفسها مستقلة فانها تبقى خاضعة موضوعيا لحكم منطق الوضع الامبريالي الراهن ومتطلباته والذي تشكل هي جزءا منه . انها بالنتيجة تشكل تحديا للتطلعات

العربية النابعة من الوعي المتزايد للوضع السائد في المنطقة . واذا كـان هذا الوعي سيقدر على ترجمة نفسه الى عمـل اجتماعي وسياسي **منظم** يشمـل العالم العربي ويصبح بذلك قوة مادية فان « الثورة » الفلسطينية هي من اجل ذلك بالتحديد . وعلى الرغم من ان الفلسطينيين لا يستطيعون القيام بالثورة في البلدان العربية ، عدا ثورتهم الفلسطينية ، فان ثورة فلسطينية اصيلة ومستمرة قد تلعب دور المساعد الذي يجعل العالم العربي راديكاليا ويعطي الثورة العربية دافعها الحاسم .

ان الوعي المرتبط بالمقاومة الفلسطينية هو ذات صفة تاريخية أي انـه يشـكل مرحلة محددة في التطور السياسي . وان محتوى هذا الوعي ووجهته يتغيران ويتطوران مع الخبرة والزمن . ولكن الشكل الثوري يبقى أثناء هذه العملية بأسرها ثابتا . ولا يفقد الوعي صفته الثورية الا اذا تحطمت حركة المقاومة التي تجسده او تحولت الى مجرد عمل سياسي .

وقد يبدو في هذه المرحلة الهدف الذي يقوم حوله هذا الوعي ، اي هدف التحرير ، غير واقعي ومجرد حلم نظري . ولكن هذا يرجع بالضبط الى كون الوعي وعيا ثوريا . ان التفكير الثوري يولد من معارضة الواقع القائم ، وهو لكونه ثوريا لا يقبـل هذا الواقع مرجعا نهائيا لتفكيره . ان « حقيقة » هذا التفكير لا تستمد من هذا الواقع المباشر **المعين** ولكنها متأصلة في الكل التاريخي الاوسع الذي يشكل هذا الواقع جزءا مرحليا عابرا منه فقط . ان ديناميته هي في عدم ديمومة الحاضر .

ان هذا النوع من الوعي الذي تعبر عنه حركة المقاومة الفلسطينية والذي يرفض الامر الواقع الصهيوني وفق شروط هذا الواقع ومتطلباته يعلن ان التحرير الكامل ، وليس غير التحرير الكامل ، هو هدف الثورة الاخير . ونلاحظ ان لا احد من المتحدثين بـاسم المقاومة ينكر الواقع الحاضر المرير متمثـلا في الفوضى العربية والشقاق الفلسطيني والتفوق العسكري الاسرائيلي والتزام الولايات المتحدة بالصهيونية ، الخ ، ولكنـهم يرفضون الخضوع لهذا الواقع وحقائقه . ان الوعي الثوري الذي يعبرون عنه في هذه المقابلات يقدم البديل للتفكير والعمل بلغة الامر الواقع . وان البديل هو مشروع نضالي يستمد قوته وثقته من **الطاقة التاريخية المتاصلة في الحاضر** . وهذا البديل يطرح مطلبا للمستقبل ، وهو مطلب لا يمكن للوعي العملي المتمثل في قيادة الانظمة ان يطرحه لانه وعي غائب عن المصالح القومية الكبرى ومنهمك في المصالـح الجزئية الصغيرة . ولا يطرح هذا البديل المستقبل كهدف طوباوي يمكن الوصول اليه بقفزة خيالية ولكن كهدف بعيد يمكن تحقيقه بالعمل الجاد وبلورته من خـلال النضال اليومي المستمر . الا انه هدف لا يمكن تحقيقه الا على يد حركة قادرة على تعبئة الجماهير تعبئة ثورية صحيحة .

المقاومة واليهود الاسرائيليون

ان كل منظمة من منظمات المقاومة الفلسطينية تستهدف ، كجزء من استراتيجيتهـا ، الوصول الى اليسار الاسرائيلي الجديـد ، وبالتالي الى الجماهير اليهوديـة . وهذا يعكس القدرة المتزايدة للحركة ، وهي تسير على طريق النضوج ، على الاعتراف بحقائق معينة والقبول بهـا . وعلى رأس هذه الحقائـق **وجود شعب يهودي عـلى الارض الفلسطينية** . وقد يكون مفهوم فلسطين الديمقراطية أول تعبير عن ذلك ولا بد ان يليه صيغ مادية اخرى اكثر دقة وتفصيلا . الا ان تفهم هذه الحقيقة لم يكن سهلا . وانه لمن المستحيل تحديد الاشكال المادية المحددة — السياسية والاقتصادية والحضارية — التي قد يتطلبها الاتفاق المشترك في هذه المرحلة . ولكنه بات من الواضح انه في سبيل معالجة هذه المسألة وضع الفلسطينيون برنامجهم على انه برنامج جدير بدعم القوى اليسارية والتقدمية ، وهو بذلك يشكل تقدما كبيرا على الموقف الصهيوني العنصري .

ولا بد من القول ان منظمات المقاومة الفلسطينية كافة تلتقي حول الاعتقاد بأن التحرير يجب ان يقـوم في النهاية على اساس الاتفـاق الفلسطيني ـ اليهودي خارج اطـار الصهيونية . ولكن مهمة تحطيم البنى الفوقية للصرح الصهيوني لا يمكن تنفيذهـا على ايدي الفلسطينيين وحدهم بصفتهم قوة خارجية . ويتطلب نجاحها منها ان تصبح ايضا مهمة يهودية يجري تنفيذها سياسيا من الداخل .

ان هذا اللقاء بين القوى الراديكالية الـذي يفترضه هذا الراي يشكـل خطا سياسيا اساسيا واحدا في أية ستراتيجية ثورية في المستقبل . ولا بد هنا من الاعتراف انه حتى الان لم تنجح الاجماعات هامشية من المعسكرين في الاتصال فيما بينها محققة نتائـج سياسية ضئيلة . ومع ذلك فان هذا امر هام من حيث ارسائه سوابق للمستقبل . وفي هذه المرحلة تقع مهمة حمـل المقهورين من الشعبين ، عـلى ادراك القهر المشترك والحقوق المشتركة ، على الثورة الفلسطينية التي تمثل رفض العـدوان الصهيوني والارادة على قهره .

مسالة التصديق

ولكن قبل الوصول الى هذه الاهداف سيتحتم على الفلسطينيين ان يناضلوا وحدهم مدة طويلة . وينتظر من القوى المؤهلة او التي قـد تكون حليفة للفلسطينيين في اسرائيل (العمال المقهورون واليهود الشرقيون واليسار غير الصهيوني) ان تبقى مدة طويلة من الزمن جزءا من المؤسسة الصهيونية رغم الصراعات الطبقية والعرقية والايديولوجية . وهكذا فان المسالة تطرح نفسها على الشكل التالي : وجوب اسقاط الصهيونية ، واقامة تحالف طبقي بين المضطهدين الاسرائيليين والفلسطينيين . ولكن من اجل اقامة مثل هذا التحالف يجب اولا تحطيم الهيمنة الصهيونية الايديولوجية والسياسية (على المضطهدين)، اي انه يجب اسقاط البنى القومية للصهيونية . ولا يبدو ان هناك مخرجا واضحـا أو سهلا من هذا المأزق .

ولكن ربما كان بامكان الفلسطينيين التقدم تقدمـا كبيرا في هذه المسألـة اذا نجحوا في تحقيق امرين : (١) تحويل حركتهم الى حركة راديكالية حقيقية ، (٢) تنظيمها على شكل قوة سياسية وعسكرية فعالة . واذا اظهر الفلسطينيون بصورة مقنعة (وليس بتعابير ايديولوجية فقط) انهم متجهون نحو مجتمع اشتراكي يتمتع فيه اليهود بحقوق متساوية مع غيرهم ، وانهم عازمون حقا على خوض نضال طويـل الامد فانه من الممكن التفكير بالتحول الراديكالي . ولكن ربما كان أهم من ذلك قدرتهم عـلى توضيح استحالة حل المسألة اليهودية على حساب الفلسطينيين وعدم عدالة ذلك ، وذلـك من خلال عملية النضال الحقيقي وليس من خلال محاولات الاقناع الاعلامي فقط . ويجب اظهار الحركة الصهيونية على انها حركة تدفع بطبيعتها اولئك الذين يعانون منها الى مقاومتها والقتال ضدها .

وباختصار ، يجب اولا تحطيم الاجماع الصهيوني ايديولوجيا قبل ان يصبح من الممكن قيام اي بديل قابل للحياة وغير صهيوني للتعايش العربي الاسرائيلي . كما يجب بطريقة ما حمل الاسرائيليين على ادراك انهم لا يستطيعون العيش الى الابـد بالسلاح وحده وبتأجيل التفاهم مع الفلسطينيين وجيرانهم العرب الى امد غير محـدد . ومن الواضح ان هذا لا يمكن ان يأتي عن طريق الاقناع الفعلي او بواسطة هزيمة واحدة . ونذكر انه عندما كان نشاط المقاومـة في اوجه بين العامين ١٩٦٨ ـ ١٩٧٠ بانت بعض الدلائل الاولية واضحة على تزايد وعي الاسرائيليين لمطالب الفلسطينيين . ان احـد اهداف حركة المقاومة هو دفع مثل هذه الافكار عند الرأي العام اليهودي وتوسيعها مرة أخرى . يجب ان تصبح حركة المقاومـة الفلسطينية اذا قوة عسكرية وسياسية وايديولوجيـة

حقيقية وموثوقة ومعترفا بها كذلك من جانب العدو وحلفائه المحتملين في معسكر العدو، قبل ان تستطيع الحركة ان تثير داخل اسرائيل الاستجابة التي بدونها سيبقى التحرير الحقيقي بعيد المنال . ان عملية التحويل الراديكالي التي جرت في حركة المقاومة الفلسطينية يجب ان تجري في صفوف اليهود . وفي ظروف كهذه قد تكون المعارضة من داخل اسرائيل اقل صلابة وأكثر ديالكتيكية مما يظهر لاول وهلة .

مبررات استمرار النضال

ويعي الفلسطينيون في اتخاذهم قرارهم السير في طريق النضال المعارضة التي سيلقونها على جميع المستويات . فهم يجدون أنفسهم على صعيد المنطقة في مواجهة الوضع الراهن محددا بنماذج وقوانين اجرائية تربط ضمن اطار مشترك اسرائيل والدول العربية من جهة ، والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة من جهة اخرى . ان التوازن السوفياتي — الاميركي والميزان العربي الاسرائيلي يستثنيان اي تغيير جذري في العلاقات القائمة بين القوى ومناطق النفوذ ، انهما يستثنيان بالضبط ذلك النوع من التغيير الذي تتطلبه استعادة الحقوق الاساسية للفلسطينيين . وهكذا فان حركة المقاومة الفلسطينية تمثل نفيا لهذا التوازن والميزان . وكونها كذلك يجعل الفلسطينيين يشكلون القوة المركزية الاولى التي من شأنها ان تهدد الوضع القائم واستقرار القوى القائم في الشرق الاوسط على جميع المستويات .

وربما يكون من الطبيعي ان نتوقع من اولئك الراضين عن الامور كما هي قائمة — اي من المستفيدين من التوزيع القائم للسيطرة والجاه — ان يتحدثوا بما يتمشى ووضع تلك الامور ، اي ان يتحدثوا عن القيم والمصالح والاهداف المستمدة من هذه الحالة وان يعملوا من أجل الحفاظ عليها . وهكذا فان اولئك الذين يقولون «بالاتزان» و «التعقل» و «الواقعية» في حديثهم عن الحفاظ على الوضع الراهن في المنطقة يلقون مشاركة الامبرياليين الرأسماليين والمستعمرين الاستيطانيين وكذلك الطغم البورجوازية والبورجوازية الصغيرة الحاكمة في المنطقة .

الا ان الفلسطينيين لا يرون خيارا غير الاستمرار في الكفاح . انهم يقاتلون في سبيل حقوقهم الانسانية الكاملة بما في ذلك حقهم البديهي في العيش في ظل الحرية الديمقراطية على أرض وطنهم . ان الفلسطينيين لا يطالبون بالتمتع بهذا الحق وحدهم وانما يقولون بحقوق اليهود الموجودين الان في اسرائيل بالتمتع بالحقوق نفسها في دولة ديمقراطية علمانية مشتركة . ومن ناحية حقوق الانسان فان اسرائيل اليوم تساوي بالضبط ما اخذت من الفلسطينيين . ان السعادة الاسرائيلية تتكون من دموع الفلسطينيين*. واذا كان الاسرائيليون اليوم شعبا له أرض فان ذلك لان الفلسطينيين شعب بلا ارض . ان انتصارات اسرائيل هي هزائم الفلسطينيين وان اعتداد الاسرائيليين انما هو ذل الفلسطينيين ، وقوة اسرائيل هي ضعفهم . وبينما تنمو اسرائيل على مر الزمن وتتقدم لتصبح دولة بين الدول يختفي الفلسطينيون شيئا فشيئا ليصبحوا شعبا بلا دولة اما مسيطرا عليه في ارض فلسطين أو يعيش في المنفى . ان وجود اسرائيل انما يعني انعدام وجود الفلسطينيين بكل ما في الكلمة من معنى .

وبصورة موضوعية ، ليس امام الفلسطينيين خيار غير القتال ضد الاستعمار والسيطرة الاسرائيليين . ولا يمكن ، والحالة كذلك ، ان ينظر الى التحرير على انه مغامرة رومنطيقية بل على اساس انه مسألة بقاء أو عدم بقاء . ولا يمكن ان يكون الفلسطينيون طرفا في اي حل « جزئي » في ظل الظروف السائدة لان كل حل « جزئي » هو في الحقيقة

* وفق تعبير محمود درويش .

حل **شامـــل** بقدر ما يرتبط ذلك الحـــل الجزئي بحقوق الفلسطينيين الاساسية **الوطنية** والانسانية كافة .

اما بالنسبة للاخلاق فان الفلسطينيين يعون جيدا فلسفة الاقوياء المنكفئة على ذاتها التي تجعلهم عاجزين عن رؤية الام شعوب العالم الثالث وتطلعاتها المشروعة في الحياة الحرة السعيدة . وفي فترة ما قبل التاريخ التي تشكل التاريخ الذي لا زلنا نحياه فان نظـــام الامبريالية الرأسمالية الليبرالية والمستغلة القاسية انتج منظومة من القيم التي تستطيع بكل سهولة ان تبرر اكثر جرائم الامبريالية وحشية وضراوة . وهكذا استطاعت البلدان القوية كأميركه ان تكتنف بالغموض الحقيقة الانسانية لاعمالهم عن طريق تقنيـــع تلك الاعمال بتعابير وعمليات فكرية لا علاقة لها بتلك الاعمال ذاتها ، مثل الحجج التي تبدو في ظاهرها قانونية او النصائح التي تدعـــو الى « العملية » تلـــك التعابير والعمليات الفكرية التي تعمل على ابقاء البنى المضطهدة القائمة في الدول العنصرية وعلى ابقـــاء التعابير العسكرية « المحايدة » المعقـــدة التي تستخدم في اخفـــاء الرعب الانساني من الدمار على يد القوة التكنولوجية المتفوقة في فيتنام . ولقد حاول الصهيونيون في فلسطين والاميركيون في فيتنام والروديسيون البيض والافريقيون الجنوبيون جميعـــا أن يضربوا ستارا على اعينهم وأعين الاخرين واخفاء عدوانهم ووحشيتهم ولا انسانيتهم بطريقة أو أخرى . وقد يرتكب الصهيونيون أبشع الجرائم (كما فعلوا في دير ياسين وقبيه وكفر قاسم) ولكنهم يستطيعون التغلب على شعورهم بالذنب والحفاظ عـــلى استقامتهم في اعينهم هم وذلك بالاعتراف بارتكاب مثل هذه الجرائم ومعالجتها على اساس أنها « غير مقصودة » وشاذة وعبارة عن انحرافات آنية .

وبسبب هذه الفلسفة الاخلاقية يدرك الفلسطينيون انهم لن يحققوا شيئا بمجرد دعوة القوي الى معالجة الظلم الذي ارتكب في حقهم لانه يكاد لا يعترف بهذا الظلم . لقد وجد الفلسطينيون من خلال الدروس المريرة التي تلقوها انه لا القوانين الدولية ولا الاعمال والمقررات الصادرة عن الهيئات الدولية تستطيع ان تحقق شروط الحق والعدالة . ان العدالة التي سيعترف بها العالم هي تلك التي يستطيع المضطهد ان يحققها من خـــلال نضاله وتضحياته . ان المضطهدين لا يستطيعون ابدا أن يتوقعوا الحصول على حقوقهم على طبق من الفضة في عالم السيادات الوطنية وسيطرة الامم الغنية ، عـــالم القوى الامبريالية والمواقع العاجزة عن الدفاع عن نفسها ، عالم الاستعمار الجديد .

ويعلم الفلسطينيون انه مع تصاعد النضال فلا بد لـــه من ان يتخـــذ شكلا قاسيا . ان العنف الشامل لا ينفصل عن عملية التحرير من الاستعمار الاستيطاني . ان ضحايـــا العدوان الاستعماري يلجأون الى العنف المضاد للقضاء على العنف الذي وقع عليهم . والوحشية تزداد مع تزايد العنف والعنف المضاد . وهكذا فان الضحية ومضطهدهـــا يقعان في شرك التصعيد القاتل . ونحن نعلم من التجربة الماضية ان التصعيد لا ينتهي قبل ان يصل درجات حادة من سفك الدماء والدمار الذي يدوم شهورا بل وسنوات كما حدث في الجزائر .

وهناك ثلاثة اسباب اساسية تفرض على الفلسطينيين اختيار هدف التحرير هدفـــا لا عودة عنه . السبب الاول هو غياب أي بديل آخر للكفاح : فاذا هم لم يقاتلوا هلكوا . وهم لم يبق لديهم الا القليل ليخسروه . « ان ما لا يقتلني يجعلني اقوى » على حد قول فريدريك نيتشه . السبب الثاني يكمن في حركة التحرير السائرة في جميع انحاء العالم : فالفلسطينيون اصبحوا يرون ، كما لم يفعلوا من قبل ، ان تحررهم جزء من حركة عالمية. انهم يرون تحررهم مرتبطا بتمزيق نظام الامبريالية الجديـــدة الاميركي ، هذا النظـــام المحكوم عليه بالزوال في الشرق الاوسط مثلما في جنوبي شرقي آسية . وهناك اخـــيرا

القدرة على التحول في المجتمع العربي ، اي القدرة على تعبئة الطاقة العربية التي لا بد ان تصبح يوما ما حقيقة واقعة .

الوضع العربي

ان من الحماقة التقليل من قيمة المصاعب التي يواجهها الفلسطينيون في هذا الوقت في العالم العربي . فحركة التحرير تواجه بديلا ووجهة نظر بارزة تعتبر نفسهــا واقعية وبراجماتية وتدعو الى تسوية سياسية . ويدعو هذا الموقف الواقعي (أو التشاؤمي) اساسا الى تسوية (في هذا الوضع السياسي والعسكري المحـــدد) تنقذ « ما يمكن انقاذه » . ولا يستمد هذا الموقف ضرورته من مجرد الضغوط اليومية (والضعف العربي الناتج عن الاحتلال والشقاق العربي والفلسطيني) وانما ايضا ، وبالقدر نفسه ، من الاعتقاد ان القوة (العربية) **الممكنة** لا تستطيـــع ان تأتي بأية نتيجة عملية في الوقـــت الحاضر ، وان خدمة الاهداف النهائية على افضل وجه قد تأتي عن طريق ضمان المصالح الآنية . ان اولئك الذين يدافعون عن هـــذا الموقف يؤكدون انهـــم في سعيهم للتسوية السلمية لا يتخلون عن هدف التحرير وانما « يؤجلونـــه » فقط الى وقت اكثر ملاءمة في المستقبل . ويحاجج هؤلاء بقولهم ان الطريقة الوحيدة الان هي مواجهة العدو ، بسوء نيته ونزعته المزيفة للخير ، والحصول منه عـــلى اكبر ما يمكن الحصول عليـــه دون التعرض لمخاطر قوته (وقوة مؤيديه الاميركيين) التدميرية الساحقة .

ان رد المنادين بالتحرير على هـــذا الموقف يتلخص بالقول ان ثمن السلم اغلى من ثمن الحرب . هم يرفضون التسوية السياسية على انها ليست اكثر من الاستسلام والغاء امكان التحرير الى الابد . انهم يحذرون تبني الاوهام حول المستقبل نظرا للمسافة التي لا يزال يترتب على حركة التحرير السير فيها ، كما يحذرون بالقدر نفسه رفض بديـــل التحرير على انه في الظرف الحاضر غير عملي أو غـــير واقعي . وعـــلى الرغم من ان التسوية **السياسية** ، من وجهة نظر دعاة التحرير ، ربما ستبقى الشكل النهائي لسلم نهائي فان السلام تحت اية ظروف (مثل الظروف الحاضرة) لا يمكن ان يكون مقبولا لانه لا يمكن ان يكون سلاما حقيقيا .

ويرى الذين يرفضون التسوية ويدعون للنضال ان المصالح الآنية والاهداف النهائية لا ينفصلان : فاذا كان التحرير في الوضع الحالي يبدو بعيد المنال فان التسوية السياسية تتخلى ليس فقط عن الحقوق الاساسية ولكنها تقضي على ارادة القتال وتؤجل امكـــان التحريـــر الى اجـــل غير مسمى . ومن الواضح أن الموقفين في مضامينهمـــا العملية والسياسية يعبران بالضرورة عـــن مواقف متناقضة حـــول السؤال : « ما العمل ؟ » فالمسافة التي تفصل بين الموقفين هي تلك التي تفصل بين مصالحهما المادية . ويبدو هذا التعارض واضحا في الطريقة التي يقيم بها كل من الجانبين التجربة الفيتنامية . فبالنسبة الى الواقعيين نرى ان درس فيتنام هو ذلك الدرس الذي تريد الولايات المتحدة أن تلقنه الى شعوب العالم الثالث كافة اي الثمن الكبير الذي يتوجب على الشعوب التي تقول بحرب التحرير الشعبية . اما بالنسبة لدعاة الكفاح المسلح فان الدرس المستقى هو ان الشعب الفيتنامي علم العالم ان الشعب المسلح المصمم هو قوة لا تقهر . ان التنـــاقض اذا بين موقف التحرير وموقف « الواقعية » ليس فقط بين المقاومة المستمرة والتسوية السياسية ولكنه يعبر عن تناقض داخلي عميق في قلب بنية المجتمع العربي بكليته .

ان دعاة التحرير ينظرون الى انفسهم بانهم الواقعيون الحقيقيون وذلك من خلال المنظور الذي ينظرون منه على المسألة دون أن توجههم مصالحهم الثابتة في البنية القائمة ، فهم يعتقدون انه من المعقول تماما خلق وعي سياسي كاف في صفوف الجماهـــير العربية وجعل الكفاح المسلح قضية واقعية . ان المدخل الآلي والسطحي وحده يفصل الكفاح

المسلح عن النضال السياسي . انهم يرون ان النضال السياسي والكفاح المسلح يشكلان وحدة . ان النضال السياسي ، متميزا عن الكفاح المسلح ، سيسود بناء على الاحوال والظروف التاريخية .

وهذه النظرة في التحرير تأخذ في الحسبان مصادر العالم العربي كافة ولا تسترشد بالمبادىء الجامدة ، فهي لا تتخلى عن دور الجيوش التقليدية والتدريب التكنولوجي والمعدات المتقدمة وغيرها في حرب العصابات . وتعتبر زيادة القدرة العسكرية للجيوش القائمة عاملا رئيسيا في خوض الحرب الشعبية ، فلا الجيوش النظامية ولا قوات الفدائيين وحدها تستطيع ان تتحمل حربا طويلة ضد عدو غني متقدم تكنولوجيا. وعندما يرتبط شكلا النضال عضويا فقط تستطيع ان تولد حركة تحرير شعبية حقيقية ، أي عندما تنضم الجيوش النظامية الى الميليشيا الشعبية وقوات الفدائيين يمكن التغلب على التجزئة والشقاق العربي ويمكن ان تصبح الجبهة العربية الموحدة حقيقة راهنة . وترتكز مقولة التحرير على المبدأ القائل انه عندما يشمل النضال الشعب بأسره فقط يمكن تحقيق حق الشعب في الحرية والاستقلال ، ولن يستطيع اي قول بالحق او العدالة ان يثبت وحده هذا الحق ابدا . وفي النضال ضد الاستعمار يستطيع عنف المضطهدين وحده ان يحطم عنف المضطهد . ومن خلال هذا المنظور لا يمكن رؤية طريق قصير الى التحرير او مهرب من سفك الدماء والدمار الذي تستتبعه حرب التحرير . وفي النضال ضد الاستعمار الاستيطاني ، مثلما هي الحال في النضال البروليتاري لا بديل للثورة من الاستيلاء على السلطة التي لا تستسلم بارادتها ابدا . اما التسوية السياسية القائمة على المساومة والحل الوسط فتؤدي ، مثل جميع الاصلاحات البرجوازية ، الى تعزيز السيطرة القائمة ونسف ارادة القتال عند الشعب المتحفز الى القتال . وبناء عليه فان المفهوم التحريري يرفض « العقلانية » المزعومة التي ينادي بها « الواقعيون » و « البرجمانيون » بأسلوبهم الكمي والحسابي والعملي . **وبالنسبة لهذا المفهوم فان الانسان ، لا التكنولوجيا ولا الآلة ، هو محور التغيير** . ان سر القوة الفيتنامية يكمن في التنظيم الاجتماعي والسياسي الفيتنامي وليس في تقدم فيتنام التكنولوجي (ولقد اظهرت التجربة الاميركية في فيتنام انه يمكن ان تصبح التكنولوجيا المتقدمة قوة سلبية بكونها قوة غير عقلانية وغير انسانية ، مدمرة لغيرها ولنفسها في آن واحد) . وفي المجتمعات النامية (مجتمعات العالم الثالث) فان البنى الاجتماعية والسياسية الموجهة الى هدف التحرير (لا الى التعايش مع الامبريالية) تستطيع وحدها ان تكرس التكنولوجيا لخدمة الانسان وتحريره . اما عندما تكون التكنولوجيا تحت سيطرة الوضع الراهن فانها توضع في خدمة هذا الوضع اي في خدمة السيطرة والقمع ، أي في خدمة الامبريالية .

ولا يتعامى الموقف التحريري عن حالة المجتمع العربي الموهنة ، بل على العكس من ذلك فهو منهمك بتحليل هذه الحالة باستمرار . ولهذه الحالة جوانب كثيرة . فمن الناحية السياسية لا يزال العرب بعد أكثر من خمس وعشرين سنة من المواجهة يجدون انفسهم بعيدين عن الوحدة بعدهم عنها عندما نالوا استقلالهم من الاستعمار . ويقضي الشقاق والارتياب المتبادل بين الدول العربية على أية امكانية في المستقبل المنظور للتعاون الجدي أو العمل المنسق بين تلك الدول . ومن الناحية الاجتماعية فان المجتمع العربي ، بما فيه مجتمعاته القطرية (سوريه والعراق ومصر وغيرها) لا يزال يعاني من نقاط العجز والضعف القديمة الحضارية والسياسية والاقتصادية . ان المجتمع العربي لا يزال عاجزا عن تجنيد القوة الكافية لتحقيق اول اهدافه الاساسية الاجتماعية والسياسية .

ان الجانب الاهم في هذا الوضع هو ذلك المتعلق بعماد الطاقة الثورية في المجتمع العربي اي الجماهير البروليتارية والفئات البرجوازية الصغيرة وخاصة المثقفة منها .

ان الجماهير متأصلة في حضارة القرون الوسط الدينية والمثقفون هم أسرى تربية مثالية تجريدية . ومن الناحية الايديولوجية والتنظيمية فان المهمة التي يتطلبها التحرير تبدو مخيفة وبالضرورة طويلة الامد . وبذلك نفهم موقف « الواقعيين » ونفاد صبرهم وشكهم بالامكانات البشرية المتوافرة .

ولا يتمتع الوعي الثوري حتى الان (وهو شرط من شروط السلوك الثوري) بقاعدة جماهيرية في العالم العربي . وعلى الرغم من أن الجماهير قادرة على الممارسة الثورية عندما يستوعبها النضال الثوري (الجزائر ، عدن ، غزة) فانها تميل في حالات الاستقرار والانتقال الى البقاء خاضعة للايديولوجية السائدة (اي الايديولوجية الدينية والقومية الحضارية) وبالتالي للتلاعب السهل بها من جانب الممسكين بمقاليد السلطة . وهكذا تطرح المسألة نفسها ، من وجهة نظر المنادين بالتحرير ، **ليس على انها غياب الجماهير الثورية موضوعيا وانما قبل كل شيء على انها غياب الوعي الثوري داخل الجماهير الثورية .**

اما المثقفون البرجوازيون فيعانون من نوع آخر من العجـز الذي يؤدي الى النتيجة ذاتها . وان التقديس الاعمى للتعليم خلق في العالم العربي ، كما في المجتمعات المتخلفة الاخرى ، طبقة همها السعي وراء المركز الاجتماعي « اللائق » والرفاهية في العيش. وتسيطر على هذه الطبقة ايديولوجية الحضارة المجردة التي تغفل الانسان وتتعامى عن الواقع الاجتماعي . وان القيم التي يشكل منها المثقفون البرجوازيون الصغار صورتهم الذاتية ونمط حياتهم تعود جذورها الى حضارة طبقية وشوفينية وعرقية ، هي الحضارة الاوروبية والاميركية . وانتقال هذه الطبقة الى الوعي الثوري هو تحول صعب ومعقد ويشكل عملية طويلة الامد .

واذا كان للموقف التحريري ان يقبل الواقع الاجتماعي والسياسي القائم في العالم العربي طبقا لشروطه فان معارضة هذا الموقف الواقعي تفقد حينئذ معناها ، وتجد المقاومة نفسها خاضعة لمتطلبات الواقعية كما يدركها الحس العام اي خاضعة للتسوية . ولكن من الضروري لمنظور التحرير ان يقدر بالضبط على تجاوز الواقع الحالي والنظر مـن خلاله وما وراءه الى الطاقة الثورية الكامنة في أحشائه ، أي أن يقدر على رؤية الوضع القائم لا كمجموعة مجزاة وجامدة من الاحداث والوقائع المتجاورة عرضا ، بل ككل دينامي حي ، وكجزء من **عملية** تاريخية متطورة . وبهذا المنظور فان تحليـل الواقع العربي لا يتوقف عند ما نراه امامنا من الانحلال والانحطاط الذي يقدمه هذا الواقع ولكنه يتجاوزه ليرى التناقضات المتأصلة فيه والقادرة على تهيئة الظروف والامكانات للتحول الراديكالي فيه .

ان المفهوم التحريري يفترض التغيير الراديكالي (سياسيا واجتماعيا) كما يفترض هذا التغيير المفهوم التحريري ذاته الذي يرى التحرير والتغيير الراديكالي عملية ديالكتيكية ويراهما يسيران يدا بيد في عملية **النضال** .

ومن خلال هذه النظرة لم يعد العالم العربي يبدو مجرد مجتمع متخلف **ينتظر** ان «يطور» بل مجتمعا على عتبة فترة اضطرابات وتغيرات عنيفة . ان الوضع الموضوعي بعيد عن الغائية ويمثل وضعا مفعما بالامكانات .

الا ان هذا المفهوم لا يضفي على صاحبه اي قدرة تنبؤية بمعزل عن تلك التي تحددها الارادة الجماعية المؤثرة في الواقع الموضوعي ، اذ ان الواقع المادي للصورة الاجتماعية والسياسية القائمة سيستمر في طرح نفسه في اشكال غير متوقعة . وليس هناك اية ضمانة في أن التناقضات المدركة في الوضع السائد لن تطمس أو تظهر بواسطة القوى الخارجية ، أو أن المستقبل يجب ان يأتي بظروف اكثر ملاءمة للتحرير . وصحيح ان

الطاقة الثورية الكامنة سوف تتحدد تحديدا رئيسيا بواسطة تناقضات معينة متأصلة في الوضع العربي الراهن ولكن هذا سيحدث فقط بالطريقة والى الحد الذي تستطيع معه الارادة الذاتية ان تسير بهذه التناقضات في اتجاه ثوري . وعلى أية حال فان من المستحيل التنبؤ بالشكل المعين للتطورات الممكنة . وما يجب التأكيد عليه هو ان التحرير لا يطرح نفسه على انه **مجرد** هدف يجب ان يتحقق ولكن بالحري **كعملية** تتكشف في مراحل عبر مدة زمنية . ولذلك نرى هذا الشعار الصائب : ان الذين يناضلون في سبيل التحرير يحررون انفسهم ايضا في عملية التحرير .

وهناك طبعا خطر ان يحمل هذا التحليل المدافعين عن نظرية التحرير على المجازفة في تصعيد التفكير المزاجي في وضع الصياغات النظرية . وبامكان التجاوز ان يصبح مضللا لان الواقع هو واقع رعب ويدعو المرء الى التهرب منه . ومن الواضح ان وجهة النظر المنادية بالتحرير (في أشكالها العملية في العالم العربي) لم تنتج حتى الآن تحليلا منظوما للوضع — لتركيب او بنية المجتمع العربي وللقوى التاريخية المحددة والمؤثرة فيه ولاتجاهاته ونظراته الايديولوجية وللمهام التنظيمية القادمة وما الى ذلك . انها لا تزال على المستوى الاولي لتمثل مفاهيم النقد والتحليل الكلاسيكيين ولتطوير الادوات المفاهيمية الاساسية لهذا التحليل . وان تطوير النظرية الصحيحة يشكل مهمة خطيرة في هذه المرحلة من مراحل تطور الحركة الفلسطينية .

ومن الواضح ايضا ان المسافة التي تفصل بين وعي الفلسطينيين الثوري وبين الوعي الكامن لدى القاعدة الشعبية اي الجماهير العربية هي المسافة ذاتها التي تفصل بين ارادة التحرير وبين الوسيلة الحقيقية لتحقيقه . ولهذا السبب فاننا عندما نبدأ بالتفكير جديا بنضال يمتد عشرين وثلاثين وخمسين سنة يصبح البرنامج الثوري حينئذ برنامجا واقعيا . ولكني اكرر القول : ان الظروف الموضوعية للتطور الثوري موجودة في الواقع الحاضر الآن . وبما ان العوامل « الموضوعية » قد تكون ناضجة فان العوامل الذاتية تصبح مهمة تماما . وان الفلسطينيين بوعيهم وأعمالهم يلعبون الدور « الذاتي » في الاسراع في العملية التي ربما تهيأت لها الظروف « الموضوعية » . لهذا لم تعد الازمات تدل على مجرد حالات عدم استقرار عرضية او مؤقتة وانما قد تدل على بداية مرحلة تاريخية جديدة من التغيير البنيوي في المجتمع .

وهكذا تبرز أهمية تمييز وتحديد الاتجاهات والميول الملازمة لوضع تاريخي معين . فعندما ينفذ ادراك طاقة الحاضر الكامنة الى الوعي (على شكل امكانات مستقبلية) يؤثر على الحاضر ويصبح قوة تحويلية تصعد وتسارع في الوضع الثوري . وقد يبدو على السطح ان الهدوء قد تمكن استعادته وان الوضع الراهن دائم ، ولكن هذا هو المظهر السطحي لكل نظام مسيطر يستمد وجوده من علاقات القوى الراهنة .

ان التناقضات تنضج ابدا تحت السطح . ويستطيع انتشار الوعي الراديكالي ، الذي اصبح يشكل عملية مستمرة في المجتمع العربي اليوم ، ان ينتهز ظروف الازمات وان يعزز الدفع الثوري . وعندما تحدث تطورات مفاجئة وغير متوقعة داخل البنية القائمة — وطنيا وعلى صعيد المنطقة وبين القوى الكبرى — فقد تنتج عن ذلك ازمات اعمق تتيح المجال أمام تحقيق « قفزات » ثورية تسير بالعملية الثورية الى الامام .

مقدمات ومتطلبات أساسية

وهكذا فانه يتوجب على الفلسطينيين ان يقوموا بدور رئيسي في الثورة العربية الآتية . وان ارادة التحرير راسخة في وعي منبثق من تجربة تاريخية ويؤلف أداة تغيير للتاريخ. وبالنسبة لهذا الوعي فان الهزائم (والانتصارات) ليست نتائج نهائية ولا يمكن ان تحدد نتيجة النضال من يوم لآخر . فالنصر والهزيمة يؤلفان **العملية** التي من خلالها قد تؤدي

الهزائم ايضا الى انتصارات . ان ما يقرر النتيجة النهائية هو حصيلة القوى التي تكد وتناضل وتنظم على امتداد سنوات عديدة .

ويتجسد الوعي الثوري في العالم العربي موضوعيا في الفلسطينيين بغض النظر عن حالة « الثورة الفلسطينية » (ذاتية الفلسطينيين) . وطالما ان الفلسطينيين مقتلعون من ارضهم ومحرومون من حقوقهم الانسانية والوطنية (وشرط الا « يذابوا » كشعب) فان هذا الوعي الثوري سيبقى موجودا فيهم كامكانية تنتظر التحقيق لتخلق التناقضات التي تعمق الوعي وتزرع الثورة .

وتكمن فرادة الوضع الفلسطيني في انها قضية عربية شاملة تتخطى الحدود الوطنية الفلسطينية . وعلى العكس من الثورة الجزائرية التي كانت مع كل راديكاليتها ثورة **وطنية** جزائرية تهدف الى استقلال الجزائر وحسب ، فان المقاومة الفلسطينية تنطوي على حركة تتجاوز الحدود الفلسطينية المحضة وتشمل المجتمع العربي بأسره . وهكذا فان ما يبدو في تعبيرها المادي انه وعي فلسطيني بالتحديد يبرز على انه الوعي المشترك لكل الجماهير العربية . وهذه هي الحقيقة التي تجعل امتلاك الفلسطينيين وعيا ثوريا شرطا مسبقا لبروز وعي جماهيري صحيح على النطاق العربي العام . وتتمتع حركة المقاومة الفلسطينية بالطاقة الكامنة لتحويل السياسة العربية والايديولوجية العربية تحويلا راديكاليا لكونها تمثل عملية اجتماعية جذرية . وان دفع شرط هذه العملية الى الامام هو ما يصر عليه زعماء المقاومة : مواجهة عنفية مستمرة مع العدو ، رفض الاستسلام ، ونضال مستمر ومتصاعد .

ومن هذه الناحية فان هناك مقدمات ونقاط انطلاق معينة تحدد نضال الحركة واستراتيجيتها . والمقابلات لا تذكر هذه المقدمات والنقاط ذكرا واضحا ، ولذلك لا بد هنا من تحديدها تحديدا واضحا .

ان أول هذه المقدمات وربما أهمها هي التالية : **ان الدولة الاستعمارية الاستيطانية لا أساس لها في الشرعية** . فهي وليدة القوة وبقاؤها رهن ببقاء القوة . وان النظرية الصهيونية ومطالبها لا معنى لها خارج ذاتية الصهيونيين الدينية او النفسية وخارج صفوف مؤيديهم الدينيين والسياسيين . ان الدولة لها وجود تجريبي فقط وليس لها اكثر من الشرعية التجريبية . وفلسطين ارض مغتصبة مثلما كانت الجزائر في الماضي ، واسرائيل تشكل كيانيا استعمارا استيطانيا .

اما المقدمة الثانية فهي **ان الدولة الصهيونية ، مثل كل دولة استيطانية اخرى ، تخلق بذاتها حفاري قبرها . انها تخلقهم خلقا خارجيا على شكل مقاومة مسلحة ، وخلقا داخليا على شكل معارضة اخلاقية وسياسية** . وان حركتي المقاومة (الخارجية) والمعارضة (الداخلية) تبرزان منفصلتين ولكنهما قادرتان على التعاون والارتباط فيما بينهما اذا تيسرت الظروف المناسبة .

ويعتبر الزعماء الصهيونيون اليوم هذه الامكانية بعيدة ، فهم لا يستطيعون ان يروا اي شكل من أشكال التفاهم والارتباط الفلسطيني — اليهودي على مستوى التساوي بين الشعبين . ويرجع ذلك الى عجز الايديولوجية الصهيونية عن رؤية تناقضاتها وعجزها بالتالي عن التغلب على هذه التناقضات . وتجدر الاشارة الى ان الصفة السلطوية للصهيونية (وكل ايديولوجية عنصرية) تحد من رؤيتها (انظر أدناه) وتعيق جوانب حيوية من معرفة الذات — مثلا ، معرفة كيف جاءت اسرائيل الى الوجود ، ومعرفة من هم الفلسطينيون ، الخ . ولكن هذه الجوانب لا يمكن ان تخفى او تطمس الى الابد . ان الستار الذي يخفي الواقع الاستعماري عن ذاته يمزقه انبثاق حركة التحرير والانتقاد الداخلي . فعندما حمل الفلسطينيون السلاح في العام ١٩٦٧ ونظموا انفسهم

من أجل الكفاح المسلح بدأت بوادر الشك بالذات تدخل عقول الاسرائيليين ، وظهرت الدولة اليهودية للكثيرين اقل طوباوية واكثر استعمارية في التركيب والاتجاه . وشعر كثيرون من اليهود داخل اسرائيل وخارجها ــ المستوطنون الصهيونيون ، واليهـــود الصابرا ، ومؤيدو اسرائيل من الصهيونيين وغير الصهيونيين ــ بالقلق والخوف ، فقد اضطر هؤلاء اليهود اما الى تجاهل الحقائق عن وعي او الى خنق المشاعر الاخلاقية او الى تفسير المعلومات الجديدة تفسيرا تبريريا. واصبح الشك بالذات وطمس المشاعر الاخلاقية والتبرير الذهني للشعور بالذنب من أول علامات نضوح التناقضات الداخلية.

والمقدمة الثالثة هي **ان الدولة الصهيونية عاجزة عن ادراك مجمل واقعها ، فهي تدرك فقط مظاهر سطحية ومفككة من مظاهر التناقضات الخارجية** . وربما كان هذا الفشل متأصلا في العقلية الاستيطانية ذاتها على الرغم من أساليبها « العلمية » . وهكذا فان الصهيونية لا تستطيع ان تتصور الامن بمعزل عن القوة . وهي من حيث المبدأ تزدري بيئتها الانسانية « المحلية » وتسعى دائما لقمعها ــ يقول الاسرائيليون : « لا يفهم العرب الا منطق القوة » . ان طبيعة « المعرفة » الصهيونية تجعل الاستنتاج التالي حتميا : لكي تحوز اسرائيل على الطمأنينة عليها ان تستعد للامن النووي .

وترتكز المقدمة الرابعة على الاعتقاد **بان البنية الصهيونية ليست أبدية وان تحطيمها ليس في حيز المعقول فقط بل هو أمر حتمي اذا اخذنا بالحسبان الطاقة الكامنة للتحول العربي وانحلال الاستعمار***. ان التناقض بين الدولة الصهيونية وبيئتها العربية يمكن الابقاء عليه دون حل باستمرار الشلل العربي (استمرار الشقـــاق والتخلف الاجتماعـــي والسياسي) وبتعزيز السيطرة الصهيونية والامبريالية الجديدة . وانه مـــن السخف التاريخي ان يستطيع ٢ ٪ من مجموع سكان المنطقة (وأرضها) ، وهي النسبة التي تحتلها اسرائيل في العالم العربي ، ان يمد سيطرته الى الـــ ٩٨ ٪ الاخرى (كما لو سيطرت هونغ كونغ على الصين) حتى ولو بدعم أغنى قوة امبريالية في العالم . وعندما يظهر هذا السخف كواقع عملي محسوس لا يعود التحرير أمرا تجريديا بعيدا وانما مشروعا عمليا تحتمه البنية التي هو في موقع المعارض والمقاوم لها .

يمكن تحديد اهداف التحرير من خلال نضال الفلسطينيين فقط . انـــه عندما تكتسب الحركة معرفة عدوها تكتسب معرفة ذاتها ، وهي تكتسب معرفة ذاتها في نضالها ضد عدوها . وعملية التحول الراديكالي هي النتاج الحتمي للنضـــال ، اما اللامبـــالاة والانتهازية فهما النتاج الحتمي للتخلي عن النضال .

وتؤكد المقدمة الخامسة ما يلي : **بقدر ما تشكل الصهيونية نفيا للفلسطينيين فان التحرير يشكل نفيا للصهيونية** . ولا تستطيع التسوية السياسية ضمن الواقع القائم الا ان تعني تسوية قائمة على « لا واقع » الفلسطينيين اي على تقليصهم الى اقتلاع دائم ، الى لاجئين ، إلى تجمع من الافراد لا دولة لهم ، وبكلمة ، الى لا شعب . وبناء على ذلك فان التناقض بين الصهيونية والمطالب الفلسطينية يطرح نفسه بشروط مطلقة . ولا يمكن تحقيق تسوية بين الصهيونية والحركة الفلسطينية الا باحد طريقين : اما باذابة الشعب الفلسطيني او باذابة البنية الصهيونية . والمعادلة هنا هي بين **اذابة شعب واذابة بنية، وبالتحديد اسقاط قيادة اسرائيل وسياستها الصهيونيتين وتعرية جهازها الاستعماري**

---

* ان تشويه هذه الجملة امر سهل بالطبع ، فهي قد تعطي معنى « ابادة الجنس » ولكن « القاء اليهود في البحر » الخ . ولكنه لا يوجد سبيل للحؤول دون مثل هذا التشويه . لقد اغتصب الصهيونيون بيوت الفلسطينيين واراضيهم والقوا بهم في الصحراء ، ولا يزال الامر يبدو وكان الصهيونيين هم « الضحية » . وهذا النوع من التشويه غير ممكن في مناخ عادي سليم ، وربما لا يكون ذلك كله تزييفا واعيا بل نتيجـــة نوع من ارهاب الاضطهاد Paranoia الجماعي .

والغاء اطارها الثيوقراطي والعنصري ، واستبدال كل ذلك ببنية انسانية حرة ديمقراطية .

في العام ١٩٦٥ عرف ابا ايبان ، وزير خارجية اسرائيل ، السياسة الصهيونية (تجاه العرب) بأنها تستهدف في النهاية تحقيق أهداف ثلاثة جميعها تشكل أهدافا نفسية اساسا وهي : « ... خلق (١) **شك** ــ وفي نهاية الامر (٢) **تسليم** و (٣) **يأس** ــ حول حلم ازالة اسرائيل من خارطة العالم » . وفي التحليل الاخير فان اهداف المضطهد تشكل أهداف المضطهد . وهكذا فان الهدف الاول لحركة التحرير هو بالضبط منع الصهيونية واسرائيل من تحويل التفوق (العسكري) القائم الى شرعية (سياسية) . ان اليأس من الحفاظ على التناقض بلا حل وبقوة السلاح ، ذلك التناقض الذي خلقته الصهيونية الاستعمارية ، يفتح المجال امام البديل ، اي التصالح العربي ــ اليهودي ، الذي لا يمكن تحقيقه الا من خلال التحرير . وعليه فان تحرير فلسطين لا يمكنه الا ان يكون راديكاليا ، انه الشرط المسبق للتغير النوعي في النضال . ومن السهل التسليم بحتمية الحجة القائلة انه بناء على قوة العدو (ودعم الولايات المتحدة له) فان التحرير حلم لا جدوى منه . ولكن التسليم بالحجة المضادة القائلة انه اذا كان المستقبل ليس في صالح الاستعمار الصهيوني والامبريالية الاميركية فانه لا بد من ايجاد بديل للمساومة والتسوية أصعب من ذلك .

وربما لا يكون الوضع ناضجا لبروز حركة تحرير تامة ولكن الظروف ليست جاهزة « للتسوية » ايضا . ان اعطاء الوقت لقوات التحرير قد يقوم به العدو نفسه . وقد يكون الامر انه طالما استمرت الولايات المتحدة في دعمها ــ وقد تستمر في دعمها الى أجل غير مسمى ــ وطالما حافظت اسرائيل على تفوقها الذي لا نزاع حوله فمن المحتمل ان تستمر القيادة الصهيونية في تأجيل نوع التسوية الذي تسعى حكومات عربية كثيرة وراءه . وقد يؤدي هذا الى نضوج التناقضات وقد يقدم للفلسطينيين فرصة اخرى للامساك بالمبادرة التاريخية في العالم العربي .

ومع ذلك فان الوضع الحالي يفرض متطلباته الملحة والمباشرة وهذه المتطلبات ليست متغيرة ولا يتوقع ان تفقد اولويتها في المرحلة الحاضرة ولا لزمن قادم .

الامر الاول هو وقف التوسع الاقليمي الصهيوني ووقف استيطان الصهيونيين على اية أراض اضافية في فلسطين وفي الاراضي العربية . ففي العامين ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ سقطت مساحات شاسعة من الارض تحت السيطرة اليهودية بسبب نمط المستوطنات الصهيونية التي كانت قائمة في فلسطين في العقدين السابقين او العقود الثلاثة السابقة . ولم تكن هذه المستوطنات مجرد ادوات في تأمين مناطق ستراتيجية ولكنها خدمت ايضا كقواعد لاخراج السكان العرب من تلك المناطق . والان يتكرر النمط نفسه في المناطق المحتلة من مرتفعات الجولان الى البحر الميت ، ومن شرم الشيخ الى غزة . وفي حال نشوب حرب في المستقبل فان عملية ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ ذاتها ستتكرر . وهذه المرة سيعبر اللاجئون نهر الاردن قادمين من غزة والضفة الغربية تاركين مناطقهم خالية وقابلة للضم **بالامر الواقع** . ان التمسك بالارض اذا هو الهدف الاسمى لكل عمل فلسطيني في الحاضر والمستقبل .

اما الامر الثاني فهو تجذير السكان الفلسطينيين في الارض الفلسطينية سواء في اسرائيل العام ١٩٤٨ أم في الضفة الغربية المحتلة أم في قطاع غزة . ولا بد من ايجاد الوسائل لوقف خروج الفلسطينيين من أرضهم بارادتهم او بالاغراء . وفي النهاية سيستطيع أصحاب الارض الشرعيين التمسك بحقوقهم الوطنية في فلسطين وذلك فقط برفضهم « مغادرة » أرضهم و« الاختفاء » عنها . ان اكثر من نصف الفلسطينيين يعيش الآن في

ظل الحكم الاسرائيلي ، وهؤلاء يشكلون القاعدة الرئيسية في النضال من أجل التحرير .

والامر الثالث هو اعاقة الهجرة اليهودية على نطاق واسع الى اسرائيل . وان التوسعية الصهيونية ليست مجرد عملية عسكرية ، انها بصورة رئيسية عملية استيطان . فبدون الهجرة اليهودية على نطاق واسع لا تستطيع الصهيونية تحقيق أهدافها السياسية والاقتصادية . وطالما ان الهجرة اليهودية الى اسرائيل على نطاق واسع لا تتم (من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة على وجه الخصوص) ـ وطالما ان الهجرة المضادة الضئيلة من اسرائيل تستمر ـ فان الصهيونيين لن ينجحوا أبدا في ان يصبحوا قوة ذات شأن في الشرق الاوسط وسيفشلون في زرع أنفسهم في المنطقة بصورة دائمة . وهذا الامر ضروري لستراتيجية النضال قصيرة وطويلة الأمد .

الامر الرابع هو الحفاظ على المقاومة الفلسطينية حيـة وناشطة . ان العنف المنظم للفلسطينيين المضطهدين هو القادر بصورة رئيسية على تحقيق الامور المذكورة اعلاه وعلى خلق حركة تحرير ناجحة ونامية . وان الكفاح المسلح هو شرط تنظيم الشعب وللقيام بالنضال السياسي والحفاظ على نيران التحرير ملتهبة . وفي التحليل الاخير ، ان الكفاح المسلح وحده يستطيع ان يمنع الحقيقة **الثابتة** للعدوان الصهيوني من ان تصبح واقعا **مسلما به** . ان مصير الاجيال القادمة من الفلسطينيين (وغيرهم من العرب) ، سواء أكانوا سيعيشون احرارا مستقلين أم خاضعين للاستعمار الجديد ، قد يعتمد على ما اذا كانت المقاومة الفلسطينية ستتطور بطريقة تجعل من الممكن بروز حركة تحرير قادرة على تعبئة الجماهير مادة الثورة وعلى تحقيق اهدافها الاجتماعية والسياسية .

يهود الولايات المتحدة
والحزبان الديمقراطي والجمهوري

عودة ابو ردينة

اعرب الحزبان الاميركيان الجمهوري والديمقراطي في حملـــة هذه السنة لانتخابات الرئاسة الاميركية عن اهتمامهما باسرائيل ويهود الاتحاد السوفياتي . وسنحاول في هذه المقالة تحليل وتقييم تأثير اليهود الاميركيين على الحزبين المذكورين . ان قلق الحزبين الرئيسيين على اسرائيل ومصلحتها ليس وليد الصدفة كليا . فلقد قال الصحافي الاميركي وليم بكلي : « ان تعهد الولايات المتحدة بضمان استقلال اسرائيل ضروري في الوقت الحاضر لكل من يطمح الى ان يتبوأ سدة الرئاسة ، وذلك لسبب بسيط هو ان الجالية اليهودية بموقعها الستراتيجي سخية جدا في دعم القضايا السياسية ومصرة جدا على مسألة استقلال اسرائيل »(١) . ويشكل اليهود الاميركيون الان قرابة ٢،٩ بالمئة من مجموع سكان الولايات المتحدة الاميركية . ولذلك يجب ان تجعل هذه النسبة مجموع الاصوات اليهودية ثانويا وغير ذي اهمية بالنسبة الى مرشحي الرئاسة . الا ان خصوصيات النظام الانتخابي الاميركي تعطي الاصوات اليهودية تأثيرا أكثر من قدرتها العددية بكثير. ان نظام انتخاب الرئيس الاميركي بواسطة « الهيئة الانتخابية » (Electoral College) يعطي قيمة نسبية الى جميع الولايات وفقا لعدد سكان كل واحدة منها . وبما ان معظم اليهود الاميركيين يتمركزون في الولايات الصناعية والمدينية فان أصواتهم تستطيع ان تؤثر في الانتخابات في هذه الولايات حيث يسعى المرشحون للرئاســـة بحماس شديد لكسب الاصوات . ويتمركز اليهود الاميركيون في احدى عشرة ولاية على الشكل التالي : نيويورك ٢،٠٥٠،٠٠٠ ، كاليفورنيه ١،٠٠٠،٠٠٠ ، بنسلفانيه ٤٤٣،٥٩٥ ، نيوجيرسي ٣٨٧،٢٢٠ ، الينوي ٢٨٣،٠٠٠ ، ماساتشوستس ٢٥٩،٠٠٠ ، فلوريده ١٨٩،٠٠٠ ، ماري‌لاند ١٧٧،٠٠٠ ، أوهايو ١٦٠،٠٠٠ ، كونكتيكت ١٠٣،٠٠٠ ، ميشيغن ٩٨،٠٠٠ ، تكساس ٦٥،٠٠٠ . ويبلغ مجموع مقاعد هذه الولايات مجتمعة في « الهيئة الانتخابية » ٢٧٧ مقعدا . والجدير بالذكر ان على المرشح للرئاسة الحصول على ٢٧٠ صوتا في هذه الهيئة كي ينجح .

والى جانب تمركز اليهود الاميركيين في الولايات المدينية الكبـــيرة وفي المدن ، فانهم « يسجلون ويصوتون حتى آخر رجل وامرأة فيهم بينما لا يفعل الآخرون ذلك »(٢). تبلغ أهمية الاصوات اليهودية ضعف ما يشير اليه عددها . فقد كتب جوزف السوب يقول : « في مدينة نيويورك مثلا يشكل اليهود ربع السكان فقط بينما ٤٠ في المئة من الاصوات هي أصوات يهودية »(٣) .

لقد خاض المرشحون الرئيسيون للرئاسة عن الحزب الديمقراطي ـــ مسكي وجاكسون وهمفري ومكغفرن ـــ حملتهم الانتخابية «وكان طموحهم الحقيقي أن يجلسوا في الكنيست

في القدس »(٤). فقد صدر اثناء الحملة الانتخابية الاولية في فلوريده بيان عن مركز الحملة الرئيسي للسناتور مسكي (عن ولاية مين) يحييه بقوله : « فائز يناضل من اجل قضية فائزة هي أمن اسرائيل »(٥). ونشر العاملون في حملة همفري الانتخابيـــة اعلانا في صفحتين في صحيفة « جويش فلوريدين » الاسبوعية يتساءل : « أي مرشح ديمقراطي افضل صديق لاسرائيل ؟ »(٦) ثم يجيب ان السيناتور هيوبرت همفري هو المرشح الوحيد الذي يدعم مطالب اسرائيل بالجزء العربي من القدس . ورد العاملون مع جاكسون باعلان مؤلف من صفحتين وفي الصحيفة نفسها ايضا مؤكدين « ان احدا لم يعمل اكثر من السيناتور م. جاكسون في سبيل مساعدة اسرائيل »(٧). وفي سبيل الحصول علـــى الاصوات اليهودية الكثيرة في فيلادلفيه اثنـــاء الانتخابات الاوليـــة في بنسلفانيه قال السيناتور همفري « انني سأذهب الى اسرائيل » . وذكرت صحيفة « نيويورك تايمز » انه بسبب عدد السكان اليهود الكبير قال الزعماء اليهود لهمفري انه يجب عليه « تجديد اوراق اعتماده » اذا كان يتوقع تأييد اليهود له في الانتخابات . وبناء على ذلك اصدر السيناتور همفري بيانا يقول ان الولايات المتحدة قد رفضت الاعتراف بالقدس يهودية وان الرئيس نيكسون « لم يجد الوقت أبدا لزيارة أكثر اصدقائنا ولاء في الشرق الاوسط. ومهما يكون دوري في الحياة الاميركية العامة في العام القادم فانني سأقوم برحلة الى القدس للمشاركة في احتفالات الذكرى السنوية الخامسة والعشرين لقيام اسرائيل »(٨).

وحتى السيناتور مكغفرن ، اكثر المرشحين اعتدالا ، تخلى عن اعتداله السابق حول الشرق الاوسط « لان الذي يدعم اسرائيل باندفاع شديد يجلب الاصوات اليهودية »(٩). ولقد توج مكغفرن رأسه بقلنسوة الصلاة في كنيس وادي سان فرناندو حيث دعا ادارة نيكسون الى الاعتراف بالقدس عاصمة لاسرائيل « والى نقل سفارتنا الى هناك »(١٠). وقال مكغفرن أيضا انه يجب على الولايات المتحدة ان « تزود اسرائيل بالطائرات المتقدمة وغيرها من المعدات التي تحول دون الهجوم عليها . وتسليم هذه الاسلحة ... يجب الا يشترط موافقة اسرائيل على المطالب الدبلوماسية الاميركية بل يجب ان يكون التزاما مستمرا يقوم على اساس المتطلبات العسكرية فقط »(١١). اما جورج لاردنر الابن فقد قال بصراحة في صحيفة واشنطن بوست : « ولكن هنا في كاليفورنيه ... كان مكغفرن يلعب اللعبة القديمة ذاتها ، كان ينشد اناشيد المديح للجميع من النبي ابراهيم الى موشيه دايان »(١٢). واثناء الانتخابات الاولية في نيويورك طبع رجال مكغفرن ثلاثة ملايين نشرة تصفه بأنه « مدافع قوي عن اسرائيل »(١٣). ونقلت احدى النشرات عن مكغفرن قوله انه سيبيع طائرات الفانتوم النفاثة الى اسرائيل ويسلمها تلك الطائرات في غضون أسبوع بعد تسلمه مهامه رسميا . وقالت النشرة ايضا انه يدعم ضم اسرائيل مدينة القدس اليها(١٤). وتم ذلك لمواجهة مزاعم رجال همفري ، ان مكغفرن « ضعيف » في موقفه من اسرائيل ولمواجهة ما قاله مانفرد أهرنشتاين ، عضـــو مجلس الشيوخ الاميركي عن ولاية نيويورك ، ان « اصوات جزء من المؤسسة الصهيونية في هـــذا البلد ... سيتحدد على ضوء ما يعتقدون ان نيكسون فعله من أجل اسرائيل، ويعتقدون انه فعل الكثير في هذا السبيل . فهم متجهون نحو مسألة واحدة تشكل كل ما يستطيعون رؤيته . ولذلك فهم يشعرون أنهم ملزمون وسيفون هذا الالتزام »(١٥).

وهكذا لعب الزعماء السياسيون اليهود ادوارا بارزة شملت أمورا واضحة جدا في حملة مكغفرن الانتخابية الناجحة للفوز بترشيح الحزب الديمقراطي له ضد ريتشارد نيكسون لانتخابات الرئاسة في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٢ . ولقد رشح السيناتور ابراهام ريبيكوف ، حاكم ولاية كونكتيكت السابق ، صديقه القديم والطبيب ، مكغفرن في مؤتمر الحزب حيث القيت ثماني عشرة خطبة امام ٣٠١٦ مندوبا بينهم ٣٠٠ يهودي ترشح ستة اشخاص . ولم يشر أي من الخطباء عدا ريبيكوف وحده الى اسرائيل بقوله

ان « دور (مكغفرن) القيادي في انهاء مأساة فيتنام لم يقلل من عزمه على حماية المصالح الحقيقية للولايات المتحدة في اوروبه وعلى بقاء اسرائيل في الشرق الاوسط»(١٦). وبعد أن انتصر مكغفرن في الاقتراع الاول أعلن ريبيكوف وماندل عضوين في الوفد الرسمي للحزب الذي سيبلغ مكغفرن رسميا نبأ ترشيحه . وتجدر الاشارة هنا الى ان ماندل هو احد ثلاثة حكام من اليهود جميعهم في الحزب الديمقراطي ، أما الآخران فهما ملتون شاب ، حاكم ولاية بنسلفانيه ، وفرانك ليشت ، حاكم ولاية رود ايلاند . وكان ليشت رئيس وفد ولايته الذي اقترع اعضاؤه الاثنان والثلاثون الى جانب مكغفرن . ورئس ماندل ايضا شخصيا وفد ماريلاند الا ان هذا الوفد لم ينجح في الاقتراع باغلبية اعضائه الى جانب مكغفرن الذي حصل على ١٣ صوتا فقط في حين صوت ثمانية وثلاثون الى جانب جورج ولاس ، حاكم ولاية الابامه .

وبرز نفوذ اليهود الاميركيين في الحزب الديمقراطي في ذلك البند من البرنامج السياسي المتعلق باسرائيل الذي نص على انه : « يجب على الولايات المتحدة ان تلتزم التزاما تاما بدعم اسرائيل في حقها في الوجود ضمن حدود آمنة يمكن الدفاع عنها . ويجب على الادارة الديمقراطية القادمة أن تعلن وتنفذ التزاما ثابتا وعلنيا طويل الامد بتزويد اسرائيل بالطائرات وغيرها من المعدات العسكرية بكميات وانواع متقدمة حسب حاجتها من أجل الحفاظ على قوتها الرادعة في وجه تكديس الاسلحة السوفياتية والتهديدات العربية لتجديد الحرب ، وان تسعى الى جمع الطرفين في مفاوضات مباشرة في سبيل حل سياسي دائم ... وان تحافظ على التزام سياسي وقوة عسكرية كبيرة في اوروبه وفي البحر الابيض المتوسط بحيث تردع الاتحاد السوفياتي عن ممارسة ضغط لا يطاق على اسرائيل . وان تعترف بالقدس كعاصمة لاسرائيل وأن تدعم الوضع القائم فيها بحيث تتاح حرية الوصول الى الاماكن المقدسة للاديان كافة »(١٧).

ان اليهود الاميركيين هم « من المولين الرئيسيين للاحزاب السياسية ، وخاصة للديمقراطيين ، تماما مثلما هم المولون الرئيسيون لاسرائيل نفسها » (١٨). ويعتمد رجال السياسة الاميركيون اكثر فاكثر على مبالغ كبيرة من المال في حملاتهم الانتخابية . وهذا ما عبر عنه السيناتور مسكي بايجاز عندما انسحب من الانتخابات الاولية : « ليس لدينا المال ... ببساطة لا يمكن خوضها (الانتخابات) بدون المال »(١٩). وهكذا فان المرشحين للرئاسة مدينون بازدياد لاولئك المتبرعين اليهود الذين يستطيعون تزويدهم بالمال . « فمع ازدياد تكاليف خوض الحملات يزداد نفوذ الدولار »(٢٠). ان قلب الحزب الديمقراطي المالي هو الاستثمار اليهودي الذي يقوم به اصحاب البنوك اليهود في « وول ستريت » . وتجدر الاشارة هنا الى مجموعتين اثنتين تسيطران على وول ستريت هما الـ WASPS (اميركيون من نيو انغلند) واليهود .

ومن المستثمرين اليهود اصحاب البنوك : لحمان اخوان ، وغولدمان ، وساكس وشركاه ، وكوهن ، ولواب وشركاه ، ولازارد اخوان ، وكارل م. لؤاب ورودس (Rhoades) . هذا وان الاشخاص الذين يديرون هذه المؤسسات تربطهم بصورة وثيقة صلات عائلية وتجارية تعود الى زمن وصول الافراد الاول من عائلاتهم الى الولايات المتحدة . وعلى سبيل المثال فان اقارب لحمان وحدهم يجمعون معظم البيوت اليهودية من اصحاب البنوك في عائلة واحدة كبيرة . وهكذا نجد أن جون ل. لؤاب (من كارل م. لؤاب ورودس) وبنيمين بطنفيزر (احد كبار الشركاء في كوهن ولؤاب) متزوجين امرأتين من عائلة لحمان . وآرثر التشوتل (من غولدمان وساكس) تربطه قرابة وثيقة بلحمان . وهناك أمثلة كثيرة أخرى . فكوهن متزوج من لؤاب وشيفس (من كوهن ولؤاب) متزوج من عائلة وربورغ (من كوهن ولؤاب) .

ان شركاء كثيرين وموظفين عديدين في المصارف اليهودية يعملون مدراء في شركات كبيرة. وهذا يعني انهم يمثلون دورا بارزا على الرغم من انهم لا يسيطـــرون بالضرورة علـــى المصالح المالية . وعلى سبيل المثال فان لازارد اخوان وشركـــاه وصفت بأنها من اقوى البيوت المالية في وول ستريت . ويسيطر على هذه الشركة اندريه ماير البالـــغ الثالثة والسبعين من العمر « واحد اقوى الرجال في وول ستريت والـــذي يشكل بذلـــك قوة رئيسية في الدوائر المالية الدولية »(٢١). وجدير بالذكر أن السجلات الراهنة تشير الى أن شركاء لازارد يعملون حاليا كمدراء لاكثر من ستين شركة ، حـــوالي نصفهـــا من الشركات العامة الكبيرة(٢٢). ولا بد لنا ان نذكر ان صلـــة ماير بآل كنيدي وثيقة ، فهو يقدم لهم المشورة حول المسائل المالية وبالاضافة الى ذلك يعتبر ماير ان الرئيس الاميركي السابق ليندون جونسون ودافيد روكفلر (تشيز مانهاتن بنك) من اصدقائه . وهنـــاك اصدقاء متنفذون اخرون لماير في الولايات المتحدة منهم يعقوب جافيتس وشارل بيرسي وادوارد كنيدي ، اعضاء مجلس الشيوخ الاميركي ، وهنري فولر ودوغلاس ديلون ، وزيرا المالية السابقان في الولايات المتحدة .

« ومع ذلك فانه لا حاجة بنا الى القول ان رجـــال الاعمـــال اليهود وليس الاميون هم الذين يتزعمون الدعم المالي للحـــزب الديمقراطي في وول ستريت بالاضافة الى تقديمهم عددا من الخدمات واسباب الراحة الى المرشحين والمسؤولين في الحزب . وهناك عدة عائلات في هذه المجموعة تقدم للحزب بعض اكبر المتبرعين له والذين يجمعون الاموال في سبيله . وفي العام ١٩٦٤ ، على سبيل المثال ، قدم العديد من آل لحمـــان ما مجموعه ٣٧،٠٠٠ دولار للمرشحين الديمقراطيين . وقدم اندريه ماير وحده ٣٥،٠٠٠ دولار . وفي العام ١٩٦٨ قدم جون ل. لؤاب وأقاربه وشركاؤه مبلغ ٩٠،٥٠٠ دولار ، كما سلفهم لؤاب شخصيا مبلغ ١٠،٠٠٠ دولار اخر »(٢٣). ومن كبار المتبرعين للحزب الديمقراطي في منطقة نيويورك ، ماري لاسكر ، ارملة البرت لاسكر الذي اثرى ثراء فاحشا مـــن جراء عمله في الاعلانات(٢٤). ويقوم بجمع الاموال للحزب الديمقراطي بصورة رئيسية في نيويورك أشخـــاص اخرون مثل آرثر كريـــم ، وروبرت بنيمين ، وارنولد بيكر (عن الفنانين المتحدين) وهوارد شتاين (من شركـــات درايفوس) . ووردت معظم اموال الحزب الديمقراطي في نيوجيرسي في السنوات الاخيرة من ليون هس (اميرادا ـــ هس بتروليوم) والراحل شارل انغلهارد (صناعات انغلهارد)(٢٥).

وكان البرت م. غرينفيلد ، لعقود خلت ، ابرز الذين يجمعون المال في بنسلفانيه . امـــا الان فان غرينفيلد ميت . الا ان مهمة جمـــع الاموال قد تقع عـــلى كاهـــل غوستاف امستردام (Greenfield's Bankers Securities Corp.) . وسيقوم بمســـاعدة امســـتردام يهـــود بارزون آخرون مثـــل فريدريك مـــان (رئيس Industrial Container Corp.) وفيليـــب بيرمـــــان (رئيـــس Hess Department Store) وآرون غـــولدمـــــان (Macke Vending Company) (٢٦). ونستطيـــع ان نتبـــين بجـــلاء دور رجـــال الاعمال اليهود في تمويل الحزب الديمقراطي في شيكاغو من خـــلال حقيقة ان « ٢٩ مـــن أصل نحو الـــ ١٢٠ رجلا الذين أعطوا ١٠٠٠ دولار أو أكثر الى « نادي الرئيس جونسون » في العام ١٩٦٤ كانوا اعضاء في « ستاندرد كلب » الذي تقتصر عضويته عـــلى اليهود فقط الى حد بعيد . وأمكن التعرف على ١٠ اشخاص فقط كأعضاء في « نادي شيكاغو » الذي يعتبر معقل الاثرياء من غير اليهود في هـــذه المدينة »(٢٧). وفي كاليفورنيه نجد ان ابرز جامعي الاموال والمتبرعين هم ، بشكل رئيسي ، من اثرياء رجال الاعمال اليهود بمن فيهم صاحبا العقارات بن سويغ و وولتر شورنشتاين وصـــديقهما وزميلهـــما في التجارة ادولف شومان الذي يرئس شركة لصناعة الالبسة . اما الذين يجمعون المال في لوس انجيليـــس فمعظمهم مـــن اعضاء Hillcrest Country Club وهو اكثر الاندية

اليهودية في المدينة اقتصارا على اليهود . ويضم هذا النادي رجل المال مارك تيبر ، والمحامي يوجين وايمان ، وجو شاين ولورنس هارفي . ومن المتبرعين السياسيين البارزين الاخرين بولس زيفرن وجون فاكتر ومايلز روبين وماكس بالفسكي . هذا ويقدر ان ٦٠ — ٩٠٪ من الاموال التي تجمع في كاليفورنيه تاتي من اليهود(٢٨). ومدينة نيو اورلينز هي المدينة الجنوبية الكبيرة الوحيدة التي يسيطر فيها اليهود على الناحية المالية في الحزب الديمقراطي ، ومنهم عائلة شتيرن التي تملك جزءا كبيرا من شركة سيرز وروبك ، ورجل الاستثمار المصرفي هيرمان كوهلماير (كوهلماير وشركاه) والمحامي ستيفن ليمان وتاجر القهوة سام اسرائيل(٢٩).

ولقد لعب اليهود الاميركيون دورا محوريا في تمويل حملة السيناتور همفري لانتخابات الرئاسة في العام ١٩٦٨ . ووفقا لما تقوله Citizens Research Foundation فقد تلقى همفري المبالغ التالية بالدولار :(٣٠)

جون فاكتور وزوجه ١٠٠،٠٠٠ ، السيدة البرت لاسكر ٦٠،٠٠٠ ، جاك درايفوس وزوجه ٦٣،٠٠٠ ، نورمان كزنز ٥٥،٠٠٠ ، ليو فاسرمان وزوجه ٥٤،٠٠٠ ، هاري برانت وزوجه ٤٥،٠٠٠ ، فريديك ر. مان ٣٠،٠٠٠ . وقدم جون فاكتور ٢٤٠،٠٠٠ دولار اضافية على شكل قروض . وجدير بالذكر هنا ان جون فاكتور هذا ، وهو من رجال التأمين في ولاية كاليفورنيه أعفي في العام ١٩٦٢ بواسطة الرئيس جون كنيدي من تهمة التحايل (عن طريق الرسائل) التي أدين بها في العام ١٩٤٣ . وسلف ليو فاسرمان، رئيس «شركة الموسيقى» في اميركه، لهمفري مبلغ ٢٤٠،٠٠٠ دولار في العام ١٩٦٨(٣١).

اما الرجل الذي قام بجمع معظم الاموال من اجل حملة همفري في العامين ١٩٦٨ و ١٩٧٢ فهو يوجين وايمان الذي يدير مكتبا يضم ٦٠ موظفا في لوس انجيليس . واحد العوامل الاساسية في نجاح وايمان كرجل مال سياسي كونه يعمل في بفرلي هيلز بالغة الغنى والمأهولة باليهود بصورة كثيفة . وهناك عامل آخر هو اتصالاته مع أغنى أغنياء اليهود الاميركيين عبر « سندات اسرائيل » . ويضم مكتب وايمان صورة له مع غولدا مئير عندما اجتمعت به للاعراب عن امتنانها له بسبب الدور الذي لعبه في بيع ما قيمته ٢١ مليون دولارا من السندات الاسرائيلية(٣٢). ويعود دعم اليهود الاميركيين المالي لهمفري الى دعمه الاعمى لاسرائيل . فقد قال وايمان « أن هيوبرت همفري هو افضل بائع سندات اسرائيلية في البلاد »(٣٣).

وفي ما يلي قائمة بأسماء المتبرعين اليهود الرئيسيين لحملة همفري الانتخابية في العام ١٩٧٢ : (٣٤)

اسم المتبرع	الهبات	القروض
آرثر كوهين	١٠،٠٠٠ دولار	
جوزف كول	٤٥،٠٠٠ دولار	٣٢٥،٠٠٠ دولار
جون فاكتور	٦٠،٠٠٠ دولار	
ميلتون فلبرت	١٠،٠٠٠ دولار	
ستانلي غولدبلم	٢٥،٠٠٠ دولار	
ايرفنغ كاهن	٧٥،٠٠٠ دولار	
ايرفنغ كوسلوف	١٠،٠٠٠ دولار	
ماكس كامبلمان	٥،٠٠٠ دولار	
يوجين كلاين	٦،٠٠٠ دولار	٥٠،٠٠٠ دولار
فيليب كلاتسنيك	٥،٠٠٠ دولار	
جون لؤاب وزوجه	٥٠،٠٠٠ دولار	

آرثر ليفيان	٢٠،٠٠٠ دولار	
ا. ب. بولينسكي	٥،٠٠٠ دولار	
لورنس روزنتال	١١،٠٠٠ دولار	
مشلم ريكليس	١٢٥،٠٠٠دولار	١٥٠،٠٠٠ دولار
مارفن روزنبيرغ	٥،٠٠٠ دولار	
صموئيل روثبيرغ	١٥،٠٠٠ دولار	
دانيال شوارتس	٣٨،٠٠٠ دولار	٥٠،٠٠٠ دولار
والتر شورينشتاين	٢٥،٠٠٠ دولار	
روبرت كوغود	٥،٠٠٠ دولار	
يوجين وايمان	٢٧،٠٠٠ دولار	
غلبرت لحمان	١٢،٥٠٠ دولار	٥٠،٠٠٠ دولار

نلاحظ ان القائمة تضم أسماء الذين يتبرعون بمبلغ ٥٠٠٠ دولار فما فوق فقط . وهناك عدد كبير من المتبرعين اليهود الذين قدموا اقل من خمسة آلاف دولار . ومن بين الذين تبرعوا لهمفري عدد من الناس الذين تربطهم صلات وثيقة باسرائيل ، وهؤلاء هم : لويس بويار ، زعيم منظمة السندات اليهودية « والرفيق الدائم لغولدا مئير رئيسة الوزراء الاسرائيلية »(٣٥). ومشلم ريكليس ، الرئيس المساعد للنداء اليهودي المتحد الكبير في نيويورك . وجوزف كول مدير PEC Israel Corporation التي تملك أجزاء رئيسية من شركات اسرائيل مثل كرمل واينز المحدودة ، وايحود للتأمين ، ودهانات تامبور . وهناك ايضا صموئيل روثبيرغ المدير العام لمنظمة السندات الاسرائيلية ، وروبرت كوغود عضو لجنة الشؤون العامة الاميركية الاسرائيلية التي تعمل في الكونغرس من أجل كسب التأييد لاسرائيل .

اما اللائحة التالية فتقدم جزءا من أسماء المتبرعين اليهود الذين قدموا لحملة مسكي خمسة آلاف دولار أو اكثر :

المتبرعون اليهود الرئيسيون لحملة مسكي

الاسم	المكان	المبلغ
اليكس ابراهام	نيويورك	٥،٠٠٠ دولار
جو البرسون	بفرلي هلز ، كاليفورنيه	١٢،٥٠٠ دولار
اليكس جان بنيمين	نيويورك	١٨،٧٥٠ دولارا
سليمان بيكر	بفرلي هلز ، كاليفورنيه	١٠،٠٠٠ دولار
ايرفنغ بلم	بلتمور ، ماريلاند	٦،٠٠٠ دولار
ب. جيرالد كانتور	بفرلي هلز ، كاليفورنيه	٥،٠٠٠ دولار
نورمان كزنز	نيويورك	١٥،٠٠٠ دولار
سيدني فاكتور	بفرلي هلز ، كاليفورنيه	٥،٥٠٠ دولار
جوزف ملنر وأولاده	نيويورك	٣٢،٠٠٠ دولار
ادوار غنزبرغ	كليفلاند	٥،٠٠٠ دولار
بيلي غولدبيرغ	هوستن ، تكساس	١٠،٠٠٠ دولار
برام غولد سميث وزوجه	بفرلي هلز ، كاليفورنيه	٥،٥٠٠ دولار
تشارلز غولدشتاين	ميامي ، فلوريده	٥،٠٠٠ دولار
ستانلي غولدشتاين	بروفيدنس ، رود ايلاند	٥،٠٠٠ دولار
سانفور غرينبيرغ وزوجه	واشنطن العاصمة	٥،٠٠٠ دولار
مالكوم هشت الابن	ووترتاون ، ماساتشوستس	٥،٠٠٠ دولار

جيرالد هوفبيرغر	بلتمور ، ماريلاند	٦،٠٠٠ دولار
دافيد كار	باريس	٥،٠٠٠ دولار
هوارد كوفين	شيكاغو ، الينوي	٥،٠٠٠ دولار
دافيد كريغر	واشنطن العاصمة	١٠،٠٠٠ دولار
فريدريك وبولا ديتس مورغان	نيويورك	١٦،٠٠٠ دولار
هارولد بيرلمان	شيكاغو ، الينوي	٣٢،٠٠٠ دولار
ارنولد بيكر وزوجه	غولدبيتش ، فلوريده	٣٩٦،٨٩٣ دولارا
ليونيل بينكس	نيويورك	٥،٠٠٠ دولار
السيدة رالف بومرنوس	كونكتيكت	١١،٢٥٠ دولارا
ادوار بيسزيك	فيلادلفيه	١٠،٠٠٠ دولار
سومنر ردستون	بوسطن	٥،٠٠٠ دولار
ارنولد سولتسمان	نيويورك	٥،٢٣٣ دولارا
وولتر شورينشتاين	سان فرانسيسكو ، كاليفورنيه	٥،٠٠٠ دولار
فيليب شايندلينغ	بفرلي هلز ، كاليفورنيه	٧،٥٠٠ دولار
تشارلز سميث	واشنطن العاصمة	٥،٠٠٠ دولار
أ. ستينبيرغ	نيويورك	٥،٠٠٠ دولار
سيدني شتاين الابن	شيكاغو ، الينوي	١٠،٠٠٠ دولار
السيدة ليونارد سبري	بفرلي هلز ، كاليفورنيه	٥،٠٠٠ دولار
جوزف سيناي	لوس انجيليس	١٢،٠٠٠ دولار
لورنس تيش	نيويورك	٥،٠٠٠ دولار
برستون تيش	نيويورك	٥،٠٠٠ دولار
بول زيغرن	ماليبو ، كاليفورنيه	٥،٠٠٠ دولار
جاي وسليغ زيسيس	نيويورك	١١،٠٠٠ دولار
الفين زيسيس	نيوتون ، ماساشوستس	٧،٩٧٨ دولارا

المصدر : **واشنطن بوست** ، ٢٨ آذار (مارس) ١٩٧٢ ، ص ١ — ١٠ .
نيويورك تايمز ، ٢٨ آذار (مارس) ١٩٧٢ ، ص ٢٦ .

يظهر أن أكثر المتبرعين سخاء هم من عائلة ارنولد بيكر الذي يشغـل منصب رئيس اللجنة التنفيذية لشركة الفنانين المتحدين ، ويلعب بيكر هذا دورا رئيسيا في جمع الاموال لمسكي . ولقد بلغ مجموع ما قدمته عائلة بيكر ٥٣،٨٩٣ دولارا(٣٦). واعلن مسكي أيضا عن تلقيه مبالغ اضافية هامة من اليهود الاميركيين فيشركـة الفنانين المتحدين وغيرها من الشركات العاملة في صناعة السينما . وتشمل التبرعات التي تقدمها شركة الفنانين المتحدين (بالاضافة الى مبلغ الـ ٥٣،٨٩٣ دولارا) ١٢٥٠ دولارا من دافيد بيكر (رئيس الفنانين المتحدين) و١٠٠٠ دولار من آرثر كريم (رئيس مجلس ادارة الشركة) و٢٠٠٠ دولار من روبرت س. بنيمين (الرئيس المشارك للمجلس) و١٨٧٥٠ دولارا من السيدة بنيمين و٥٠٠ دولار من اريك ر. بلسكو و١٠٠ دولار من فرد غولدبيرغ (وكلاهما نائب للرئيس) . ومجموع ما تقدمه الشركة هو ٧٧،٤٤٣ دولارا(٣٧). اما الذين يجمعون المال لمسكي في كاليفورنيه فمنهم بول زيغرن الذي قدم مبلغ ٥٠٠٠ دولار وجو سيناي الذي تبرع بمبلغ ١٢،٠٠٠ دولار ، وكلاهما مؤيد قوي لاسرائيل . وهناك هبات اخرى تأتي من صناعة السينما اذ قدم في شركة (Loew)كل من لورنس تيش (المدير) وبرستون ر. تيش (الرئيس) مبلغ ٥٠٠٠ دولار . وقدم مايكل ردستون ، مـدير شركة مسرح نورث أيست ٥٠٠٠ دولار كما قدم ابنه سومنر (رئيس الشركة) مبلغا مماثلا، وبالاضافة

الى ذلك دفع ادوار ردستون، شقيق سومنر ، مبلغ ١٥٠٠ دولار(٣٨). ولقد تبرع نورمان كزنز ، المحرر السابق في مجلة « ساترداي ريفيو » ، بمبلغ ١٥،٠٠٠ دولار لحملة مسكي . وتبرع فريدريك مورغان (المحرر في مجلة « هدسون ريفيو » وعضو هيئة التدريس في جامعة برنستون) وزوجه بمبلغ ١٦،٠٠٠ دولار . ومن المتبرعين اليهود الآخرين المعروفين ليونيل بنكس الذي تبرع بمبلغ ٥٠٠٠ دولار والسيدة رالف بومرونس التي قدمت مبلغ ١١،٢٥٠ دولارا . وقام هارولد بيرلمان (من رجال الاعمال اليهود في ويلمات في ولاية ايلينوي) بتقديم مبلغ ٣٢،٠٠٠ دولار . وقبل انسحاب مسكي من حملة الانتخابات الاولية قال بيرلمان لمسكي انه « مستعد لتخصيص ١٠٠،٠٠٠ دولار... لهدف مساعدته في أن يترشح وينتخب »(٣٩). وجدير بالذكر ان بيرلمان من اكبر اصحاب الاسهم في شركة وستنغهاوس (اذ يملك ١٦٥،٠٠٠ سهم) التي تعمل في اسرائيل .

وشملت لائحة المتبرعين لمسكي يهودا بارزين من العاملين بنشاط من أجل اسرائيل : لورنس تيش (المدير المشارك للنداء اليهودي المتحد الكبير في نيويورك) ودافيد كريغر (في لجنة الشؤون العامة الاميركية الاسرائيلية) وتشارلز سميث (من اللجنة نفسها) وايرفنغ بلم (الذي رئس اللجنة التي طورت معهد المعيشة اليهودية التابع لمجلس الاتحادات اليهودية) وادوار غينزبيرغ (رئيس لجنة التوزيع المشترك في كليفلاند) وجيرولد س. هوفبرغر (من لجنة الشؤون العامة الاميركية الاسرائيلية) وكبار المسؤولين في وكالة البرق اليهودية . وهناك آخرون أيضا مثل السيدة ليونارد سبري (رئيس مجلس « انظمة المعلومات العلمية » Scientific (XEROX) Data Systems التي لها فرع اضافي في اسرائيل) وروبرت بنيمين (رئيس اللجنة التنفيذية في المؤسسة الثقافية الاميركية الاسرائيلية وعضو مجلس امنائها) . وهناك اخيرا جوزف فلنر واولاده الذين قدموا ٣٢،٠٠٠ دولار . وفلنر هو احد الذين يجمعون الاموال للنداء اليهودي الموحد .

هذا ويلعب اليهود الاميركيون دورا هاما في تمويل حملة السيناتور مكغفرن لانتخابات الرئاسة ضد ريتشارد نيكسون . وأحد اكبر ممولي مكغفرن هو ماكس بالفسكي الذي يقول انه أعطى الى مكغفرن ٣٥٠،٠٠٠ دولار على شكل منح وقروض قبل انعقاد المؤتمر الديمقراطي(٤٠). وبالفسكي هو اكبر اصحاب الاسهم في XEROX بالاضافة الى انه رئيس مجلس ادارة « انظمة المعلومات العلمية المحدودة في اسرائيل » . اما ثاني اكبر الممولين لحملة مكغفرن فهو مايلز روبين ، احد رجال الصناعة في لوس انجيليس ، الذي قدم حتى الان ٨٦،٠٠٠ دولار(٤١) على شكل هبات و ٨٥،٠٠٠ دولار(٤٢) على شكل قروض . ويشكل المرتبة الثالثة هنري كيلمان الذي يتولى توزيع المستوردات الرئيسية في فيرجن آيلاندز وصاحب فندق هيلتون في المنطقة ذاتها بالاضافة الى انه يرئس اللجنة المالية القومية التابعة لمكغفرن . وقد قدم هو نفسه هبات بقيمة تفوق ٥٩،٠٠٠ دولار وقروضا بقيمة ١٠٠،٠٠٠ دولار(٤٣). وقد قام كيلمان بتنظيم جماعة من المتبرعين لجمع الاموال لمكغفرن وذلك تحت اسم Woonsocket Club تيمنا ببلدة صغيرة في ولاية داكوته الجنوبية امضى فيها مكغفرن دراسته الثانوية . وفي سبيل الاشتراك في عضوية هذا النادي يجب ان يدفع المتبرع مبلغ ٢٥،٠٠٠ دولار على الاقل . وبين اعضاء هذه الجماعة يهود بارزون منهم ماكس بالفسكي وروبرت مغرهوف وابنر ليفاين وهارولد ويلنز والممثلة شيرلي مكلين . ويقول كيلمان انه سيجمع من خمسة الى عشرة ملايين دولار لحملة الخريف وثلاثين الى خمسة وثلاثين مليون دولار للحملة الانتخابية بأسرها(٤٤). ومن المتبرعين الآخرين ماكس فاكتور الثالث(٤٥) الذي قدم قرضا بمبلغ ٥٠،٠٠٠ دولار وتشارلز سيبل الذي قدم هبات بقيمة ١٢،٥٠٠ دولار وبرنارد فايسبورد قدم مبلغ ٧٠٠٠ دولار وفرانك توبين مبلغ ١٤،٩٩٥ دولارا وآبنر ليفاين ٦،٨٧٥ دولارا وادغار برونغمان ٥٠٠٠ دولار وبرنارد روبين وزوجه مبلغ ١٠،٠٠٠

دولار وجاك هولتزمان ٥٠٠٠ دولار وفرد ايشتاين ٦٠٠٠ دولار ولويس وولفسون ٥٠٠٠ دولار ونوربرت كريغل ١٠،٠٠٠ دولار(٤٦). ولا بد لنا من ان نذكر ان كثيرين من اليهود قدموا اقل من ٥٠٠٠ دولار . أضف الى ان كثيرين من اليهود البارزين في العمل المسرحي والسينمائي يجمعون المال مثل برباره سترايسند . ويلقى مكغفرن دعم مليونيرين يهوديين بارزين هما هوارد ساميلز (الذي يطمح أن يصبح حاكم نيويورك في العام ١٩٧٤) وهوارد متسنباوم (المرشح الديمقراطي عن اوهايو في العام ١٩٧٠)(٤٧). ويذكر ان جاك كابلان وزوجه جمعا في أول أيار (مايو) ١٩٧٢ مبلغ مليون دولار على شكل هبات وتعهدات لمكغفرن في جلسة في شقتهما في بارك افنيو(٤٨). ومن بين الذين حضروا الجلسة أو الذين أعلنت تعهداتهم في غيابهم جوان بالفسكي (زوج ماكس بالفسكي السابقة) التي قدمت ٥٠،٠٠٠ دولار . ومن جهة أخرى فان كثيرين من أغنياء اليهود يتجهون الى تأييد ريتشارد نيكسون ودعمه لان مشاعر القلق تراودهم حول سياسات مكغفرن الخارجية والاقتصادية . وسنتناول تحول اغنياء اليهود الى تأييد نيكسون بالنقاش في هذه الدراسة . وفي ما يلي اسماء بعض المتبرعين اليهود من أنصار مكغفرن المعروفين بتفانيهم لاسرائيل : تشارلز سميث (من لجنة الشؤون العامة الاميركية الاسرائيلية) الذي قدم ٢٠،١٠٠ دولار ، وماير فلدمان الذي أعطى ١٠،٠٠٠ دولار ، والذي خدم كمستشار لدى الرئيس جون كنيدي « والذي كان القوة الموجهة في القرار الذي نص على ارسال اول مساعدة عسكرية اميركية هامة الى اسرائيل — ارسال صواريخ هوك التي شحنت الى اسرائيل في العام ١٩٦٣ . ومارس فلدمان مرة ضغطا شديدا حول مسألة تتعلق بمقبرة في ذلك الجزء الذي كان تحت السيطرة الاردنية الى درجة انه هدد وزير الخارجية دين راسك بالاستقالة »(٤٩). ونذكر فرانك لوتنبيرغ (أول نائب رئيس لمؤسسة اصدقاء الجامعة العبرية الاميركيين) الذي يلعب دورا رئيسيا في جمع الاموال للمؤسسات التربوية الاسرائيلية . ونذكر أيضا آبنر ليفاين كشخص يجمع الاموال لاسرائيل ومكغفرن .

وهناك ممولون ومؤيدون يهود وراء الحزب الجمهوري أيضا . الا « ان ما يجعل جامعي الاموال من اليهود يبرزون الى ذلك الحد من البروز في صفوف الديمقراطيين ليس الوجود اليهودي البارز بقدر ما هو غياب البروتستانت البارز »(٥٠). وعلى سبيل المثال قدم اعضاء كثيرون في نادي هارموني في نيويورك (وهو أقدم ناد للذكور اليهود فقط) في العام ١٩٦٨ مبلغ ٥٠٠ دولار أو أكثر الى الجمهوريين ، كما فعلوا مثل ذلك بالنسبة للديمقراطيين . وفي ستاندرد كلوب (وهو نظير نادي هارموني) في شيكاغو قدم ثلاثة وعشرون عضوا مبلغ ٤٣،٠٠٠ دولار للديمقراطيين كما قدم أحد عشر عضوا مبلغ ٣٥،٠٠٠ دولار للجمهوريين(٥١). وعرف في العام ١٩٦٠ ستون متبرعا للجمهوريين قدم الواحد منهم ١٠،٠٠٠ دولار أو أكثر بينهم ١٠ بالمئة فقط من اليهود(٥٢). وفي الانتخابات القادمة فان كثيرين من المتبرعين التقليديين للحزب الديمقراطي سيدعمون نيكسون ، وهذا نتيجة لقرار نيكسون تزويد اسرائيل بالفانتوم وانهاء محاولات يارنغ من اجل انسحاب اسرائيل من سيناء(٥٣). وبدأ هذا التحول عندما دعي سبيرو اغنيو ، نائب رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، كمتحدث في المأدبة السنوية الثانية والستين للصهيونيين الاميركيين المتدينين في أوائل حزيران (يونيو) حيث جرى رفض الديمقراطيين بازدراء . أضف الى ذلك ان السفير الاسرائيلي لدى الولايات المتحدة اشار الى انه يفضل اعادة انتخاب الرئيس نيكسون هذه السنة . وقال السفير الاسرائيلي اسحاق رابين « يجب علينا أن نفرق بين المساعدة الفعلية والمساعدة اللفظية »(٥٤). وأضاف انه « في الوقت الذي نقدر فيه الدعم اللفظي الذي نتلقاه من جهة فاننا يجب ان نفضل الدعم الفعلي الذي نتلقاه من الجهة الأخرى »(٥٥). وقال رابين ايضا انه لم يصرح اي رئيس

آخر بتصريح بعيد الاثر وملزم للولايات المتحدة بدعم وجود اسرائيل مثل التصريح الذي ادلى به الرئيس نيكسون في خطابه للكونغرس عند عودته من موسكو .

ان اسرائيل راضية جدا عن نيكسون : « فعند نهاية السنوات الاربع من حكم نيكسون تكون اسرائيل قد تلقت اكثر من ١١٧٨ مليون دولار كمجموع قيمة المساعدة بما في ذلك القروض والهبات . وذلك يفوق ما تلقته اسرائيل على شكل مساعدة خلال السنوات التسع عشرة الماضية »(٥٦) . أضف الى ذلك قول السيناتور جافيتس ان نيكسون سينقل قريبا السفارة الاميركية من تل أبيب الى القدس(٥٧). وقد أرسل سام روثبيرغ ولويس بوير (من منظمة السندات الاسرائيلية) وهما من مؤيدي الحزب الديمقراطي التقليديين، رسائل دعم شخصية الى نيكسون . وصرح بوير الى صحيفة « جيروساليم بوست » قائلا « انني أعمل محاولا اعادة انتخاب الرئيس نيكسون . وانني لا أجعل من ذلك سرا »(٥٨). وعلق الصحافيان ايفنز ونوفاك على ذلك بالقول انه « لا يمكن تصور حدوث هذا التحول دون مباركة الحكومة الاسرائيلية »(٥٩). وعلى الرغم من ان الحكومة الاسرائيلية وسفيرها في واشنطن نفيا انهما يفضلان اعادة انتخاب نيكسون قال ستيوارت السوب « انه (التأييد الاسرائيلي لنيكسون) صحيح بالطبع »(٦٠). ويعزو السوب تأييد اسرائيل لنيكسون الى انه أثناء القتال في الاردن بين الجيش الاردني والمقاومة الفلسطينية في أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ تلقى رابين مكالمة هاتفية من البيت الابيض تتساءل عما تستطيع اسرائيل عمله لوقف الدبابات السورية التي كانت تزحف على الاردن لمساعدة الفدائيين ، ورد رابين على هذا التساؤل بقوله ان الاسرائيليين يثقون ثقة مطلقة بأن قواتهم تستطيع بالعمل من مرتفعات الجولان أن تأسر او تدمر القوة السورية برمتها . وكان الاسرائيليون يرغبون في ركوب تلك المخاطر التي ينطوي عليها تدخل قواتهم بشرط واحد فقط هو ان توضح الحكومة الاميركية للسوفيات ان الولايات المتحدة ستقاوم بشدة أي عمل مضاد على قناة السويس او في أي مكان آخر . والتزم نيكسون بذلك دون تردد وأصدر أمرا شديدا أن لا اتصال اطلاقا بموسكو أو أي عاصمة أخرى . وقرر أن تكون هناك أفعال لا كلمات(٦١). واستنفرت احدى الفرق الاميركية الخمس الموجودة في المانيه الغربية استنفارا كاملا وكذلك الفرقة الثانية والثمانون المجوقلة في الولايات المتحدة . وفي الوقت نفسه جرت ترتيبات سرية مع الحكومة اليونانية لتقديم مناطق تحط فيها القوات الأميركية في اليونان بالاضافة الى قاعدة لدعم تلك القوات في حال تحرك قوات الولايات المتحدة . وبالاضافة الى ذلك جرى تعزيز الاسطول السادس في المتوسط بصورة كثيفة بحاملات الطائرات والقوات التابعة لها . وزيدت قوة الاسطول السادس بسرعة عن حجمها في الحالات العادية بحيث أصبح يتألف مما لا يقل عن خمس حاملات تضم قوات من مختلف الاسلحة لمهمة معينة . وأخذت هذه القوة تتحرك باتجاه شرقي المتوسط . وتم هذا العمل من جانب نيكسون بسرية كاملة . وكان الشعب الاميركي ولا يزال في معظمه غير مدرك أن أزمة خطيرة جدا وقعت . أما الحكومة الاسرائيلية فكانت تعي الازمة كما كانت سعيدة للغاية بسبب تحرك نيكسون .

وأبرزت أزمة ١٩٧٠ للاسرائيليين الحاجة الى وجود اسطول اميركي قوي في المتوسط . ووفقا لبرنامج مكغفرن فان الولايات المتحدة ستحتفظ بفرقتين عسكريتين فقط في أوروبه بدلا من خمس . أضف الى ذلك ان مكغفرن يريد تخفيض القوات الاميركية التابعة للحاملات من اربعة عشرة الى ستة . وأخيرا سيقطع مكغفرن كل مساعدة اميركية الى الحكومة اليونانية وسيقفل كل المنشآت الاميركية في اليونان(٦٢). وتعليقا على هذا قال ستيوارت السوب : « في مثل هذه الظروف — التي يعيها الاسرائيليون جيدا — ستكون الولايات المتحدة قادرة على الكلام ولكن على القليل من الافعال الحقيقية »(٦٣). وقال بيتر غروس في صحيفة « نيويورك تايمز » « ان الخيار الاسرائيلي يبرز من موقف الرئيس

المعادي للسوفيات في الشرق الاوسط ومن سياسته في متابعة الحرب في فيتنام . ولم يتردد الاسرائيليون الحساسون سياسيا في الاختلاف على مـر السنين مع الاميركيين الليبراليين حول فيتنام .

« ان مزاج هذا البلد (اسرائيل) يتميز بالشعور بالقوة ، ويرى الاسرائيليون انهم أمة قوية تقوم بدور الحليف الصغير ، وهي سياسة من الواضح انها جذابة جدا بالنسبة للاسرائيليين »(٦٤). الا أن اهتمام الجالية اليهودية يتجاوز سياسة مكغفرن الخارجية . وبالنسبة لليهود الاغنياء وغير الاغنياء فان برنامج نيكسون الضرائبي مهم لهما على حد سواء اذ يقضي بفرض الضرائب بصورة كبيرة على الاغنياء ، كما يدعم تقديم الباصات للمدارس والمساكن الافضل من أجل الفقراء السود في المناطـق المحيطة بالمدن مثـل فورست هلز في نيويورك(٦٥) .

ويتوقع ان يشمل تنظيم حملة نيكسون تشكيل لجنة من الزعماء اليهود البارزين الذين يدعمون اعادة انتخاب نيكسون . وسيكون الرئيس المشارك لهذه اللجنة وليم أ. وكسلر رئيس بناي بريث السابق وكذلك صموئيل روثبيرغ (من بيوريه في ولاية الينوي) وهو الشخص الرئيسي الذي يقوم بمختلف المهام في منظمة السندات الاسرائيلية ورئيـس مجلس محافظي الجامعة العبرية . وسيكون بين اعضاء اللجنة « اسمـاء تجد آذانا صاغية في الجالية اليهودية الاميركية »(٦٦) . وذكر الصحافي توماس برادين أن الزعمـاء الديمقراطيين جعلوا لسفير اسرائيل في واشنطن اسحاق رابين صلة في جمع خمسة ملايين دولار من الجالية اليهودية الاميركية من اجل اعادة انتخاب نيكسون . وزعيم هذه الخطوة هو لويس بويار المعروف بدعمه لقضايا الحزب الديمقراطي(٦٧) . وقال ماكس فيشر ، وهو من الاشخاص البارزين في جمع المال من اجـل اسرائيل ونيكسون ، أن « مبالغ كبيرة » من الاموال اليهودية التـي كانت تذهب في السابق الـى المرشحين الديمقراطيين تتدفق الان على حملة نيكسون . وقد امتنع فيشر عن اعطاء ارقام ولكنه قال انه جمع حتى الان من اليهود « ثلاثة اضعاف » ما جمعه في العام ١٩٦٨ كله . وقال ايضا : « ببساطة ليس هناك مقارنة . ولم يكن عملي أسهل ابدا »(٦٨) . ودعا لويس بويار الى منزله في بفرلي هلز ، فيشر وخمسة واربعين من اصدقائه اليهود الاغنياء الديمقراطيين في أيار (مايو) لجمع المال من اجل نيكسون ، وعند انتهاء الاجتماع قال فيشر ان « الجميع عدا حفنة » تعهدوا بالتبرع لنيكسون .

وعقدت اجتماعات مماثلة في طول البلاد وعرضها وكانت الاستجابة حتى الان ، على حد قول فيشر « ممتازة »(٦٩) . وتحدث هنري كيسنغر خلال شهر تموز (يوليو) الى رجال الاعمال اليهود في نيويورك وبفرلي هلز الذين يعتبرون تقليديا ديمقراطيين والمشمئزين في الوقت الحاضر اشمئزازا شديدا من موقف مكغفرن من اسرائيل وسياسته الاقتصادية . وفي السادس والعشرين من تموز (يوليو) ألقى كيسنغر خطابا في خمسة وستين من اليهود الديمقراطيين الاغنياء جدا في مدينة نيويورك . وكانت هذه هي المرحلة الاخيرة في عملية التجميع الناجحة لصالح نيكسون للمتبرعين السياسيين الذين يؤيدون همفري . والاشخاص البارزون في هذه العملية هم خمسة مليونيريين يهود: ماكس فيشر ، غوستاف ليفي (الممول في وول ستريت) ، تافت شرايبر (شركة الموسيقى الاميركية) ، تد كمنغز (صاحب شركة Giant Food Markets) ، برنارد لاسكر (وول ستريت) . وفي ما يلي أسماء بعض الذين تركوا همفري وايدوا نيكسون نتيجة لعملية التجميع المذكورة : جون فاكتور ، جين كلاين ، ستانلي باير (شركة بنسلفانيه للتأمين على الحياة) ، ستانلي غولد بلم (Equity Funding) ، فكتور كارتر (مليونير يهودي من الساحل الغربي للولايات المتحدة وصهيوني أيد جاكسون في انتخابات الرئاسة)(٧٠) . والمليونيريون اليهود الآخرون الذين ايدوا حملة نيكسون مشلم ريكليس ، وتشارلز باسين ، وآرثر كوهين(٧١) . وفي

الثالث من تموز (يوليو) ١٩٧٢ تبنى ثلاثة رجال بارزون في المنظمات اليهـودية تأييد ريتشارد نيكسون معتبرين ان سياسته تجاه اسرائيل هي السبب الرئيسي لموقفهم . والرجال الثلاثة الذين كانوا طوال حياتهم ديمقراطيين هم الدكتور وليم أ. وكسلر (رئيس المؤتمر العالمي للمنظمات اليهودية) ، والحاخام هيرشل شاكتر (الرئيس السابق للمؤتمر اليهودي الاميركي حول اليهود السوفيات ، وللصهيونيين المتدينين في اميركه) ، والحاخام سيمور سيغل (استاذ اللاهوت في معهد اللاهوت اليهودي الاميركي) . وجدير بالذكر ان الحاخام شاكتر قال انه يدعم نيكسون « بدافع اعتقاد ايجابي » . وانتقد شاكتر برنامج مكغفرن « لتهديده دور اميركه في حفظ الامن والسلام في كافة ارجـاء العالم ، وتاكيدها على نظام الحصة (الكوتة) المحلي الذي سيثير التمييز في الجهة المعاكسة»(٧٢) . وذلك يشير الى اصلاحات الحزب الديمقراطي التي قدمها أصلا مكغفرن والتي دعت الى تمثيل أوسع لجماعات الاقليات الاثنية في المؤتمر الديمقراطي .

وبسبب الـدعم القوي الذي قدمه نيكسون لاسرائيـل يتوقـع كثيرون مـن المحللين السياسيين ان يتحول اليهود الى تأييد نيكسون في التنافس بينه وبين مكغفرن ، كمـا يتوقعون ان تتراوح نسبة التحول بين ٣٠ و ٥٠ بالمئة معتبرين ان ٣٥٪ معدل جيد(٧٣) . وقد أعلن الحاخام الكناه شوارتس ، مـدير العلاقات مع الجماعات في اتحـاد الكنس اليهودية الارثوذكسية الاميركية ، ان اكثر من نصف يهود نيويـورك سيؤيد نيكسون . واعرب شوارتس عن شعوره ان معظم اليهود الاورثوكس لا يؤيدون سياسات مكغفرن المعاديـة لفيتنـام . وقال الحاخـام هارولد هاهن ، حاخـام Rochdale Temple في سينسناتي في أوهايو ، انه يعتقد ان المقترعين اليهود « يشعرون في مأمن اكثر مع نيكسون مما مع مكغفرن » . وهذان الحاخامان يتفقان على ان الناخبين اليهود يعتقدون « اننـا نعرف ما لدينا عند نيكسون ، أما عند مكغفرن فاننا لا ندري ماذا سنكسب »(٧٤) . وهكذا فان تحول الناخبين اليهود في تشرين الثاني (نوفمبر) القادم الى نيكسون سيجعل انتخابه مضمونا .

ان حساب مردودات الاستثمارات السياسية أمر صعب . ومع ذلك فان من الواضح ان اليهود يلعبون دورا رئيسيا في تحديد المرشح الديمقراطي للرئاسة « ويشكلون اكبر فريق بين أكبر المتبرعين »(٧٥) . ووفقا لما قاله الكاتب والناقد اليهودي ت. ر. فايغل فان « من الواضح ان اسرائيل كما نعرفها لم تكن لتأتي الى الوجـود لولا الدعم المـالي الاميركي والدعم السياسي من اليهود الاميركيين كقوة ضاغطة فريدة على اي ادارة أميركية»(٧٦) . وكتب ستيفن كلايدمان في الواشنطن بوست قائلا ان المعلومات التي تصل الى الرئيس وأعضاء الكونغرس عن طريق أفراد يهود ومنظمات يهودية تحاول كسب التأييد لليهود « تشكل جزءا ، واحيانا جـزءا هاما ، من المعلومات التي تدخـل في عملية اتخاذ قرار الرئيس حول مسائل مثل المساعدة الاقتصادية والعسكرية لاسرائيل »(٧٧) .

واخيرا يجب التاكيد على ان عدم قدرة العرب على معاقبة الولايات المتحدة بسبب دعمها لاسرائيل يعزز النفوذ الصهيوني ويؤيد زعمهم أنه من الممكن للولايات المتحدة ان تبني علاقات مع العالم العربي في الوقت الذي تستمر في دعمها لاسرائيل . ولقد قال أبا ايبان: « ان اولئك الذين يقولون أن التوتر بين الولايات المتحدة والبلـدان العربية ليس سببه دعم اميركه لاسرائيل هم على حق »(٧٨) .

---

١ — ايفننغ ستار اند دايلي نيوز، ١٩٧٢/٧/٢٥ . ص أ — ١١ .

٢ — واشنطـن بوست ، ١٩٧٢/٦/٢٨ ، ص أ — ١٥ .

٣ — المصدر نفسه .

٤ — نيويورك تايمز ، ١٩٧٢/٣/١٠ ، ص ٢٠ .

٥ — المصدر نفسه .

٦ — المصدر نفسه .

٧ ــ المصدر نفسه .
٨ ــ نيويورك تايمز ، ١٩٧٢/٤/١٩ ، ص ٢٨ .
٩ ــ واشنطــن بوســت ، ١٩٧٢/٦/٥ ، ص أ ــ ٢١ .
١٠ ــ وكالة البرق اليهوديــة ، نشرة الانبــاء اليومية ، ١٩٧٢/٥/٣٠ ، ص ٤ .
١١ ــ المصدر نفسه .
١٢ ــ واشنطــن بوست ، ١٩٧٢/٦/١ ، ص ف ــ ١ .
١٣ ــ نيويورك تايمز ، ١٩٧٢/٦/١٠ ، ص ١٢ .
١٤ ــ المصدر نفسه .
١٥ ــ واشنطــن بوست ، ١٩٧٢/٦/١٠ ، ص أ ــ ٤ .
١٦ ــ وكالــة البرق اليهودية ، نشرة الانبــاء اليومية ، ١٩٧٢/٧/١٤ ، ص ٤ .
١٧ ــ جويش ويك ، ١٩٧٢/٧/٢٠ ص ٢ .
١٨ ــ واشنطــن بوست ، ١٩٧٢/٢/٢٠ ، ص أ ــ ٤ .
١٩ ــ ناشنال جورنــال ، ١٩٧٢/٥/١٣ ، ص ٨٠٥ .
٢٠ ــ واشنطن بوست ، ١٩٧٢/١١/١٤ ، ص ب ــ ١ .
٢١ ــ نيويورك تايمز ، ١٩٧٢/٥/٢٨ ، ص ١ .
٢٢ ــ المصدر نفسه .
٢٣ ــ وليم دونهوف ، *Ramparts*, 'Fat Cats & Democrats', حزيران(يونيو) ١٩٧٢ ، ص ٢٨ .
٢٤ ــ المصدر نفسه ، ص ٤٠ .
٢٥ ــ المصدر نفسه .
٢٦ ــ المصدر نفسه ، ص ٤٣ .
٢٧ ــ المصدر نفسه .
٢٨ ــ نيويورك تايمز، ١٣ أيار ١٩٧٢ ، ص ١٠ .
٢٩ ــ Ramparts ، ص ٤٣ .
٣٠ ــ نيوزويك ، ١٩٧١/١٢/١٣ ، ص ٢٩ .
٣١ ــ وول ستريت جورنال ١٩٧٢/٣/٨ ، ص ١.
٣٢ ــ ناشنال جورنــال ، ١٩٧٢/٥/١٣ ، ص ٨٠٣ .
٣٣ ــ نيويورك تايمز ، ١٩٧٢/٥/١٣ ، ص ١٠ .
٣٤ ــ جويش ويــك ، ١٩٧٢/٣/٢٣ ، ص ٢٠ .
تقرير مكتب الولايات المتحدة العام للمحاسبة رقم C 062472051, DM 000001 ورقم C 04,207,2395, DM 000001.
٣٥ ــ نيويورك تايمز ، ١٩٧٢/٥/١٣ ، ص ١٠ .
٣٦ ــ واشنطن بوست ، ١٩٧٢/٣/٢٨ ، ص أ ــ ١٠ .
٣٧ ــ المصدر نفسه .
٣٨ ــ المصدر نفسه .
٣٩ ــ ناشنال اوبزرفر ، ١٩٧٢/٤/٨ ، ص ١ .
٤٠ ــ نيويورك تايمز ، ١٩٧٢/٧/٢٣ ، ص ٣٢ .
٤١ ــ ناشنال جورنال، ١٩٧٢/٥/١٣ ، ص ٨٠٠ جويش ويك ، ١٩٧٢/٣/٢ ص ١ . نيويورك تايمز، ١٩٧٢/٣/٣٠ ، ص ٣٢ .
٤٢ ــ واشنطــن بوست ، ١٩٧٢/٥/٢٨ ، ص أ ــ ٢ .
٤٣ ــ واشنطونيان ، آب (اغسطس) ١٩٧٢ ، ص ، ٤١ .
٤٤ ــ لوس انجيليس تايمز ١٩٧٢/٦/٦ ، ص ٣.
٤٥ ــ واشنطــن بوست ، ١٩٧٢/٥/٢٨ ، ص أ ــ ٢ .
٤٦ ــ جويش ويك ، ١٩٧٢/٣/٢ ، ص ١ . نيو يورك تايمز ١٩٧٢/٣/٣٠ ، ص ٣٢ .
٤٧ ــ واشنطــن بوست ، ١٩٧٢/٧/٢٣ ، ص ب ــ ٧ .
٤٨ ــ ناشنال جورنــال ، ١٩٧٢/٥/١٣ ، ص ٨٠٠ .
٤٩ ــ نيويورك تايمز ماغازين ، ١٩٧١/١١/٧ ، ص ٨٨ ــ ٨٩ .
٥٠ ــ Ramparts ، حزيران (يونيو) ١٩٧٢ ، ص ٤٣ .
٥١ ــ المصدر نفسه .
٥٢ ــ المصدر نفسه .
٥٣ ــ واشنطــن بوست ، ١٩٧٢/٦/٢١ ، ص أ ــ ٢٣ .
٥٤ ــ واشنطــن بوست ، ١٩٧٢/٦/١١ ، ص أ ــ ١ .
٥٥ ــ المصدر نفسه .
٥٦ ــ نير ايســت ريبورت ، ١٩٧٢/٦/٧ ، ص ٩٧ .
٥٧ ــ وكالة البرق اليهوديــة ، نشرة الانبــاء اليومية ، ١٩٧٢/٧/١١ ، ص ٢ .
٥٨ ــ جروسالم بوست الاسبوعية، ١٩٧٢/٦/٢٧، ص ٢ .
٥٩ ــ واشنطــن بوست ، ١٩٧٢/٦/٢١ ، ص أ ــ ٢٣ .
٦٠ ــ نيوزويك ، ١٩٧٢/٧/١٠ ، ص ١٠٠ .
٦١ ــ المصدر نفسه .

٦٢ ــ **نيوزويك** ، ١٩٧٢/٧/١٠ ، ص ١٠٠ .
٦٣ ــ **المصدر نفسه** .
٦٤ ــ **نيويورك تايمز** ، ١٩٧٢/٧/١٤ ، ص ١٢.
٦٥ ــ **واشنطــن بوست** ، ١٩٧٢/٦/٢١ ، ص أ ــ ٢٣ .
٦٦ ــ **نيويورك تايمز** ، ١٩٧٢/٧/٧ ، ص ١١ .
٦٧ ــ **واشنطــن بوست** ، ١٩٧٢/٦/١٧ ، ص أ ــ ١٥ .
٦٨ ــ **المصدر نفسه** .
٦٩ ــ **المصدر نفسه** .
٧٠ ــ **واشنطن بوست** ، تموز (يوليو) ١٩٧٢ ، ص أ ــ ١٩ .
٧١ ــ **المصدر نفسه** .
٧٢ ــ **نيويورك تايمز** ، ١٩٧٢/٨/٤ ، ص ٣٥ .
٧٣ ــ **واشنطــن بوست** ، ١٩٧٢/٦/٢٨ ، ص أ ــ ١٥ .
٧٤ ــ **جويش كرونيكل** ، ١٩٧٢/٧/٢١ ، ص ٨ .
٧٥ ــ Ramparts ص ٤٣ .
٧٦ ــ **ملحق جويش كرونيكل الادبي** .
٧٧ ــ **واشنطــن بوست** ، ١٩٧٢/٢/٢٠ ، ص أ ــ ٤ .
٧٨ ــ **وكالة البرق اليهوديــة** ، نشرة الانبـاء اليومية ، ١٩٧٢/٧/٣١ ، ص ١ .

خطر الابادة :
اسطورة في قاعدة الاستراتيجية الاسرائيلية

المقدم الهيثم الايوبي

الاستراتيجية في دولة من الدول هي مجموعة التدابير والخطط والاساليب المستخدمة لتجميع **قوى** الدولة واعدادها لخلق **الاداة** اللازمة لتحقيق اهدافها رغم العقبات والصعوبات الناجمة عن ارادة الخصم واستراتيجيته . والاستراتيجية بنت الواقع الذي تعيشه الدولة ، وهي تحمل في صلبها انعكاسات هذا الواقع الاجتماعي والاقتصادي والديموغرافي والجغرافي والنفسي ، وتتحول مع تحولاته وتتطور بتطوره الدائم .

ولقد وعى مخططو اسرائيل قبل بنائها وقبل انتقالها من مرحلة الفكرة الى مرحلة الواقع، طبيعة هذه الدولة وحقيقتها كجسم غريب مغروس في قلب منطقة لا يمكن ان تقبله أو تتعايش معه . كما وعوا ان وجود عرب فلسطين وحقهم الشرعي في البقاء على ارضهم، سيجبر بناة الدولة الجديدة على اقتلاع السكان ، واحتلال مكانهم بالقوة ، الامر الذي سيؤدي الى صراع عنيف تزداد حدته مع ارتفاع مستوى وعي العرب اصحاب الارض لطبيعة الخطر ، وتزايد حاجة المهاجرين الجدد لمجال حيوي اوسع . لذا كان من الطبيعي ان يرسموا لدولة اسرائيل استراتيجية تحقق لها **الامن والتوسع**، وتؤمن ترابط هذين الهدفين وتناوبهما حسب الوضع وحالة موازين القوى . وأن يخلقوا **الاداة** السياسية ــ العسكرية القادرة على تنفيذ هذا الترابط والتناوب . ولكي تكون الاداة على مستوى المهمة ، ولكي يستطيع الجسم الغريب **مجابهة التحديات** المنتظرة ، راى مؤسسو الدولة الاوائل ان عليهم اعداد قوة مسلحة متفوقة ماديا ، وقادرة على تحقيق « الردع النشيط » عن طريق التلويح بالقوة او استخدامها جزئيا عند الضرورة ، والانتقال من استخدام القوة الجزئي الى الحرب الشاملة مع نقل المعركة الى خارج اراضي الدولة عندما تتوفر الظروف الملائمة لذلك على الصعيدين الداخلي والخارجي .

والى جانب **الاعداد المادي** الذي اهتمت به كافة الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة ، وتوصلت اليه عن طريق التفوق النوعي ، وتكثيف التسليح الحديث ، وتفتيت قوى المعسكر العربي ، والترابط العضوي مع المعسكر الامبريالي الراغب بحماية مصالحه في المنطقة العربية ، فقد سارت هذه الحكومات اشواطا على طريق **الاعداد المعنوي** الذي يستمد عناصره من الجذور الدينية والتاريخية للعقيدة الاسرائيلية . وتوصلت الى استخدام التعصب الديني والعقد القديمة المتأصلة في نفوس يهود المنطقة العربية ويهود الشتات لرفع مستوى الحقد الجماعي ، وتمجيد العنف والقوة داخل المجتمع الاسرائيلي الجديد ، وخلق رباط معنوي يربط بين مختلف طبقات هذا المجتمع الذي يضم افرادا من جنسيات متعددة وثقافات متباينة ، وتسليح السكان الاسرائيليين وقواتهم المسلحة بقوة معنوية تتحول خلال الصراع الى قوة مادية .

ومهما تكن القوتان المادية والمعنوية كبيرتين ، ومهما كان الاعداد المادي والمعنوي دقيقا ، فان امكانية استخدام القوى على ارض المعركة ، واحتمالات النصر في الصدام المرتقب لا تصل الى ذروتها — في عالمنا المترابط المتشابك بكل تعقيداته وحساباته وتوازناته الدولية — الا اذا امتلكت القيادة السياسية — العسكرية العليا حرية عمل واسعة عن طريق اكتساب المناورة السياسية الداخلية والمناورة السياسية الخارجية بشكل حاسم يضمن تماسك المجتمع ودعم الراي العام العالمي طوال مدة الصراع التي يسعى كل طرف من الطرفين المتنازعين الى تقصيرها او اطالتها حسب لجوئه — بناء على وضعه وتقديراته وتوقعاته الخاصة بتبديل موازين القوى — الى استراتيجية الحرب الخاطفة او استراتيجية الحرب طويلة الامد .

وتكشف دراسة حركة المجتمع الاسرائيلي واتجاهات الراي العام العالمي خلال الحروب العربية — الاسرائيلية الثلاث (٤٨ — ٥٦ — ٦٧) وخلال معارك الاستنزاف او فترات الهدنة الطويلة بين هذه الحروب ، تماسك غالبية طبقات الشعب وشرائحه في اسرائيل ، وتأييدها — بنسب متباينة — لفكرة ضرورة اخضاع كافة التناقضات والصراعات لصالح الصراع ضد العرب . كما تكشف ان شرائح واسعة من الراي العام العالمي — بما في ذلك مجموعات « اشتراكية » غربية وشعوب مقهورة في العالم الثالث — كانت تؤيد اسرائيل رغم عدوانها المكشوف . ولا يمكن تفسير هاتين الظاهرتين الا اذا وعينا نجاح العدو في المناورتين السياسيتين الداخلية والخارجية قبل المعارك العسكرية ، وخلالها ، وبعدها .

ولقد استخدم الاسرائيليون لتحقيق هذا النجاح اكثر من سلاح ، واستندوا الى عدة افكار ، كتدعيم ايديولوجية ديناميكية عنصرية في الداخل ، والعمل خارجيا بديبلوماسية نشطة ترافقها مساعدات اقتصادية وتقنية وعسكرية للدول الافريقية حديثة الاستقلال، مع الافادة من قوة الاعلام الاسرائيلي وسيطرة الصهيونية العالمية على الاعلام في عدد كبير من الدول بغية تشويه سمعة العرب ، وكشف تناقضاتهم الداخلية ، واقناع العالم بعدالة الحرب الدفاعية (الوقائية) الاسرائيلية ، واقناع العالم الغربي بالاسطورة المزيفة القائلة بأن مبادئه ومثله العليا (!) مرتبطة ببقاء اسرائيل « المخفر الامامي الذي يحرس المدنية ضد البربرية »(١)، وبأن مصالحه المادية تتفق ودعم هذه الدولة التي ستقف في وجه مد الحركات التحررية في المنطقة وتكون « قاعدة ضد روسيا »(٢) و « حصن الديمقراطية في هذا الشرق »(٣)... الخ .. بالاضافة الى التأكيد على اسطورة محورية هي : **خطر الابادة المحدق بالشعب الاسرائيلي** الذي يخوض معركته وهو بين شدقي الاسد . وتستند اسطورة خطر الابادة الى ان اسرائيل دولة صغيرة حضارية مسالمة [!] تعيش وسط منطقة معادية وحساسة ، وفي ظروف عسيرة **تجعل حضارتها المادية والروحية معرضة للخطر ومرتبطة بشكل لا يقبل الانفصام مع مقتضيات الامن** . والحقيقة ان التركيز على خطر الابادة الخارجي لا يستهدف سوى احتواء النزاعات الداخلية ، وبناء وحدة وطنية قوية باسم ضرورات الامن التي جعلتها الحكومة الاسرائيلية ، حسب تعبير المطران يوسف ريا « بقرة مقدسة »(٤). وفي الندوة التي نظمها معهد شيلواح وجمعية السلام وكلية ادارة الاعمال في جامعة تل ابيب تحت عنوان « تحديات السلام » تحدث الدكتور يوحنان بيرس ، الاستاذ في علم الاجتماع بجامعة تل ابيب عن العوامل الخفية للنزاع العربي الاسرائيلي ، وذكر ان من هذه العوامل « الرغبة في ابراز المشاركة اليهودية ازاء الظاهرة الاجتماعية المعروفة ، وهي ازدياد النزاعات الداخلية عندما يتلاشى الخطر الخارجي »(٥). وتحدث عن تغذية العداء اليهودي للعرب ، واعادها الى عدة اسباب منها « المصلحة في تقوية بناء الوحدة الوطنية ضد عدو خارجي مشترك »(٦). بيد ان محاولة التركيز على الخطر الخارجي ،

ومقتضيات الامن الداخلي والخارجي في اسرائيل اخذت بعدا مبالغا به . ولم تعد آثارها لتقف عند حدود تحقيق الوحدة الداخلية ، بل اتسعت حتى خلقت مجتمعا عاش على القلق وتوقع الحرب ، وافرز جيلا فاشيا يقدس العدوان والعنف ، ويحتقر كل القيم والحضارات ويعيش داخل « غيتو مادي ومعنوي »(٧) يعزله عزلا مطلقا عما حوله . ويلاحظ المدقق في خطابات الزعماء السياسيين والعسكريين الاسرائيليين وتصريحاتهم وتوجيهاتهم الى المواطنين واوامرهم اليومية الى الجنود نغمة التأكيد على ضرورة الدفاع عن الوطن و « احباط محاولات الجيوش العربية الراغبة باحتلال اسرائيل وتدميرها » ، و « فك الحلقة المطبقة على اسرائيل » ، و « صد العدوان الرامي الى تدمير البلاد » ... الخ .

ولكن ترى متى كانت اسرائيل معرضة لخطر الابادة والدمار ؟ ان ابادة دولة ما بالمعنى المادي للتصفية امر متعذر في عالمنا المعاصر . والخطر الاقصى الذي يمكن ان تتعرض له اية دولة هو تدمير قواتها المسلحة ، وتجريدها من درعها ، واجبارها على تقديم تنازلات سياسية واقليمية تختلف باختلاف حجم الهزيمة العسكرية وحجم الجهد والتضحيات الاضافية التي يعتقد الخصم المنتصر ان عليه ان يقدمها اذا ما شاء المطالبة بتنازلات اكبر ، واستعداده للاشتراك بمعارك جديدة لتحقيق ذلك . ولا يمكن تدمير القوات المسلحة للدولة الا اذا امتلك الخصم تفوقا ماديا ومعنويا ، واستغل ظرفا دوليا مناسبا لتسديد الضربة وتحقيق النصر العسكري الذي يترجم خلال مباحثات السلام الى نصر سياسي . فمتى اجتمعت كل هذه المعطيات منذ بدء الصراع العربي ـ الاسرائيلي حتى اليوم ؟

في عام ١٩٤٨ كان ميزان القوى المادية متوازنا . وهناك تقديرات تؤكد ميل الميزان آنذاك لصالح القوات الاسرائيلية . وتقديرات معاكسة تؤكد ميله لصالح الجيوش العربية . ولكن الميل حسب التقديرين لم يكن كافيا لتحقيق الحسم السريع قبل تدخل المجتمع الدولي ، وفرض الهدنتين ، ثم فرض مباحثات رودس . وفي حديث لبن غوريون مع صحيفة معاريف عن حرب ١٩٤٨ سئل بن غوريون : «هل خفت من ان نهزم ؟» فاجاب: « كنت واثقا من النصر . كانت لدي معلومات »(٨). وفي عام ١٩٥٠ جاء التعهد الامريكي ـ البريطاني ـ الفرنسي ليضمن امن اسرائيل وحدودها . وفي الفترة ما بين ١٩٥٠ و ١٩٥٥ ، وعندما كانت مفاتيح التسليح العربي بيد الغرب اعلنت الدول الاستعمارية المتقدمة عن رغبتها بالحفاظ على الوضع الراهن في الشرق الاوسط عن طريق تزويد اسرائيل باسلحة تعادل اسلحة الدول العربية المتاخمة لفلسطين او تفوقها . وكانت كافة المحاولات العربية لشراء الاسلحة من الغرب في تلك الفترة ـ تماما كالمحاولات التي تجري اليوم ـ دليلا على نقص في وضوح الرؤيا ، وخلل في فهم طبيعة الاستراتيجية الامبريالية وارتباطاتها ، وسيطرة الوهم على امكانية الافادة من مساعدة الغرب الامبريالي دون تهديد مصالحه بجدية ـ هذا الوهم الذي لم يتبدد كليا حتى اليوم رغم جميع الدروس . وعندما حطم العرب حصار السلاح ، وفتحوا الباب لاسلحة دول الكتلة الشرقية ، فتحت الدول الاوروبية مخازنها لاسرائيل ، ومتنت التحالف معها ، واعادت التوازن .

وفي حرب ١٩٥٦ كانت القوات الاسرائيلية ، وقوات فيلق الغزو الانكلو ـ فرنسي ، وقوات فرنسا وبريطانيا البحرية ـ الجوية العاملة في شرق البحر الابيض المتوسط اكبر من القوى العربية (المصرية والسورية والاردنية) المستعدة للاشتباك في المعركة . ومن عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٧ استطاعت الامبريالية والرجعية اجهاض اول وحدة رأت النور ، وكان من الممكن ان تلعب دور نواة تجمع عربي اكبر يشكل خطرا على اسرائيل . وبالرغم من السلاح السوفييتي الذي تدفق الى الجيشين السوري والمصري قبل الوحدة

وخلالها وبعد انفصالها ، فقد حرصت الولايات المتحدة على تسليح اسرائيل عن طريق فرنسا والمانيا الغربية وبريطانيا في البداية ، وبشكل مباشر فيما بعد ، بحيث تكون القوة الاسرائيلية العسكرية اكبر من تسليح دول المواجهة وهكذا تحولت هذه الدولة الصغيرة ــ مساحة وسكانا ــ الى قلعة مسلحة ، أخذ الاسطول الامريكي السادس مهمة حماية امنها كضمانة اضافية بلا مقابل .

وفي عام ١٩٦٧ كان حجم القوات الاسرائيلية المشتبكة في القتال اكبر من حجم القوات العربية التي دخلت المعركة (نظرا لانعدام الوحدة العربية ــ ولو بين دول الطوق على الاقل ــ وضعف أساليب التعبئة والحشد والقيادة والاتصال) . وبالرغم من تحسن الوضع الاستراتيجي الاسرائيلي بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ، واستناد الجبهتين الاسرائيليتين الغربية والشرقية الى موانع طبيعية قوية (قناة السويس ونهر الاردن) وتسلق القوات الاسرائيلية لهضبة الجولان ، فقد عملت الولايات المتحدة ما في وسعها لتدعيم القوة العسكرية الاسرائيلية وتزويدها بأحدث الاسلحة حتى تستطيع الحفاظ على المناطق المحتلة والمساومة بها لتحقيق السلام (على الطريقة الاسرائيلية) أي لاجبار الامة العربية على الاستسلام .

وعندما بدأت معارك الاستنزاف على قناة السويس تابعت الولايات المتحدة عملها لتزويد اسرائيل بما يلزمها من طائرات ومعدات وأموال لتأمين التفوق على القوات العربية ، ولمجابهة التطورات التكنولوجية في الحرب الاليكترونية ، ولتعويض كل خسائر حرب الاستنزاف .

وفي فترة وقف اطلاق النار ، ومع تزايد الوجود العسكري السوفييتي في مصر بصورة خاصة ، صعدت الولايات المتحدة دعمها لاسرائيل ماديا وتقنيا . ووضعت أسلحتها المتطورة كلها في خدمة التفوق الاسرائيلي .

اذن ، في أية مرحلة من هذه المراحل كانت اسرائيل معرضة بالفعل لخطر الابادة او حتى لخطر الهزيمة ؟ وفي اية فترة من هذه الفترات اتحد عرب دول المواجهة، ووحدوا قواهم، واعدوا للمعركة قوة تتفوق على قوة العدو بنسبة تسمح بسحقه ؟ وفي أية فترة خرجوا من حلقة السباق مع العدو في المجال الذي يمكنه ان يسابقهم فيه ، وفتحوا مجالا جديدا لا يستطيع مجاراتهم فيه ولا تستطيع الدول الكبرى المتقدمة ضبطه او التأثير عليه الا اذا تورطت على غرار التورط الامريكي في كوريا (١٩٥٠ ــ ١٩٥٣) وفي فيتنام (من ١٩٦٦ حتى اليوم) ، وهو مجال تثوير القوى البشرية الزاخرة كافة وتعبئتها وتسليحها بغية زجها في معركة تحرير طويلة ، يتناغم فيها قتال القوات الآلية المتطورة مع قتال الجماهير المسلحة ، وتمتزج فيها حرب الحركة (طيران ــ مدرعات ــ صواريخ محمولة) مع حرب المواقع (ميليشيا شعبية مسلحة بايديولوجية ثورية واسلحة خفيفة ومعدات مضادة للدروع والطائرات) بالاضافة الى حرب عصابات نشطة وراء خطوط العدو ؟ ومتى كان الوضع العربي والسياسة العربية قادرين على فصل اسرائيل عن حلفائها عن طريق تهديد مصالح هؤلاء الحلفاء الحيوية في المنطقة ؟

ان الوحدة العربية ــ ولو وحدة القتال على الاقل ــ لم تتحقق حتى الآن . والتحالف مع الصديق الوحيد (المعسكر الاشتراكي) يضعف يوما بعد يوم . وتعبئة الجماهير وتسليحها ايديولوجيا وماديا لقلب موازين القوى وشن حرب طويلة الامد لم يتحققا بعد . ولم يعد العرب بملايينهم المائة وثرواتهم الهائلة لمعركة المصير قوة تفوق قوة العدو . ولم تتقدم القوات العربية البعيدة حتى اليوم الى المدى الاستراتيجي او العملياتي الذي يسمح لها بأن تلعب دورا فعالا في المعركة . والامبريالية الامريكية سائرة على طريق دعم العدو الاسرائيلي وهي ضامنة ــ حتى الآن ــ لكل مصالحها واستثماراتها التي زادت

بعد عام ١٩٦٧ ! فكيف يمكن التحدث في اسرائيل والحالة هذه عن خطر الابادة سواء أكان المقصود ابادة الدولة ، أم ابادة القوات المسلحة وتدميرها بشكل يحقق الهدف السياسي ؟ وكيف يمكن ان يتحدث القادة العرب عن تحرير الاراضي المحتلة قبل ان تتغير المعطيات السابقة وتنقلب موازين القوى المادية والمعنوية ؟

ان هذه الحقائق مجتمعة تكشف زيف الاسطورة التي روجها الاسرائيليون واستفادوا منها داخليا وخارجيا ، وترفع القناع عن الدجل الكامن في قول العميد شارون قائد المنطقة الجنوبية ، وأحد قادة الهجوم على سيناء « ان حرب الايام الستة كانت حربا تهدف الى منع ابادتنا . ان هدف العدو المعلن عنه كان ابادة دولة اسرائيل . كان هذا هو الشعور الذي رافقنا وبهذه الروح تحدثنا الى الجنود »(٩)، او في قول اسحاق رابين عند الحديث عن حرب ١٩٦٧ : « ساد الشعب بأسره في اسرائيل الشعور بأن الحرب هي من أجل استمرار بقائنا . هذا الشعور هو الذي أدى الى ان تحقق الحرب تلك الانجازات العظيمة . وليس السلاح والطائرات والاشياء الاخرى . ولولا هذا الشعور الصادق والصحيح لما حصلنا على ما حصلنا عليه »(١٠)، او في أقوال غيرهما من قادة العدو .

ولقد أدى انتصار الاسرائيليين في عام ١٩٦٧ الى خلق شعور من الاطمئنان بين صفوف الجيش والشعب في اسرائيل . وجاءت تصريحات القادة العسكريين والسياسيين وتبجحاتهم لتدعم هذا الشعور . فلقد صرح اللواء موشي دايان في خطاب أمام المؤتمر العالمي لمهاجري مراكش بـ « ان دولة اسرائيل اليوم هي اقوى دول المنطقة ، وان قوتها العسكرية متمركزة ومتحركة وقادرة على حماية الدولة »(١١). وعندما سئل حاييم بارليف في آب ١٩٧٢ عن اقتصاد الحرب وضرورة تطبيقه في اسرائيل اجاب : « انا لا اعتقد بأن اسرائيل تواجه الان وضعا يحتم عليها اهمال جميع مجالات الحياة في سبيل المجهود الحربي . ولا أعتقد بأن اسرائيل من الممكن ان تسمح لنفسها بتوجه كهذا ، ولذلك لا اعتقد بوجود اساس لاتباع نظام اقتصاد الحرب »(١٢). الامر الذي يؤكد ان اسرائيل لا تعيش حالة خطر يهدد وجودها ، ولا تعيش حتى حالة حرب تستدعي اتباع اقتصاد حرب . اما زئيف شيف المعلق العسكري الاسرائيلي فقد كتب في هآرتس : « تخلصت اسرائيل بفضل الوضع الجغرافي الاستراتيجي الحالي من مخاوفها القديمة وهي : انها ان لم تكن البادئة باطلاق النار فمن المحتمل ان تهزم او ان تضطر لدفع ثمن فادح من الضحايا »(١٣). ولقد نشرت معاريف نص مقابلة اجرتها مع اللواء الاحتياطي يغال يدين قال فيها : « في الخامس من حزيران ١٩٦٧ عندما وقفت الى جانب مردخاي هود في غرفة العمليات ، واخذنا نسمع عن الانتصارات الرائعة لسلاح الجو قلت لمردخاي : ان اسرائيل قد ولدت اليوم من جديد ... ان الاخطار التي كانت تحيق بها آنذاك لم تعد قائمة الان »(١٤). وفي مطلع نيسان ١٩٧١ تحدث ابا ايبان امام مؤتمر حزب العمل الاسرائيلي قائلا : « واجهنا الافناء زمنا طويلا . اما الآن فقد اصبحنا اسياد مصيرنا ، ولن نخاطر بهذا الوضع »(١٥).

واثار هذا الشعور الجديد حالة جدل داخل المجتمع الاسرائيلي . وطرح العديد من التساؤلات حول أسطورة الابادة القديمة . ولقد انبرى عدد من كبار القادة العسكريين لتحليل هذه المسألة . وذكرت هآرتس ان العميد الاحتياطي متتياهو بيليد رئيس قسم الامداد والتموين في القيادة العامة للجيش الاسرائيلي خلال حرب ١٩٦٧ ، والباحث في معهد شيلواح ، واستاذ تاريخ الشرق الاوسط في جامعة تل ابيب قال بـأن مقولة أن اسرائيل تعرضت في حزيران ١٩٦٧ لخطر الابادة وان دولة اسرائيل حاربت من اجل كيانها ، عبارة عن « خدعة ولدت ونمت بعد الحرب فقط » كما قال بأن الاسرائيليين لم يتعرضوا في أيار لخطر الابادة « كأفراد او كجماعات » . وعاد الى مسألة ميزان القوى

ــ وهي مسألة محورية في هذا المجال ــ عندما قال « ان المصريين حشدوا في سيناء ٨٠ الف جندي ، وجندنا نحن ضدهم مئات الالاف من الرجال » . ثم ربط خطــر الابادة بالهجوم وفق المبدأ العسكري الذي ينفي قدرة الدفاع على تحقيق النصر الحاسم ، وطرح السؤال التالي : « ما هي آخر مرة كانت اسرائيل فيها مكشوفة لهجوم عربي ؟ كان ذلك سنة ١٩٤٨ ، كما اقرأ التاريخ »(١٦).

وبالرغم من عدم موافقة يغال آلون على كافة تفاصيل فكرة بيليد ، فقد اشار الى صحة رأيه القائل بعدم تعرض الدولة في حرب حزيران ١٩٦٧ لخطر الابادة بقوله : « اننا لم نكن عرضة لخطر الابادة وقتها »(١٧). واشترك العميد الاحتياطي عيزر وايزمان (رئيس شعبة العمليات في القيادة العامة للجيش خلال حرب حزيران ١٩٦٧ ورئيس حــركة حيروت) في الجدل الدائر حول هذه المسألة اكثر من مرة ، فلقد قال في آذار ١٩٧٢ « انني مستعد للموافقة على ان وجود دولة اسرائيل لم يتعرض لخطر الدمار، ولكن هذا لا يعني اننا كنا نستطيع الامتناع عن ضرب المصريين والاردنيين والسوريين ، ولو فعلنا ذلك لما استمرت دولة اسرائيل قائمة بنفس المقياس والروح والجوهر »(١٨). ثم تحدث في مقابلة اجراها بعد شهر مع روف غولدشتاين فأكد « لم يكن هناك خطر ابادة ! كان لا بد من مهاجمة المصريين ولم يكن ثمة مفر من ذلك . ولو كانوا هم البادئين بالهجوم لما هددنا بخطر ابادة ، ولكن خسائرنا كانت ستكون أكبر كثيرا »(١٩).

ولما سأله غولدشتاين : هل قلت قبل الحرب لاشكول اننا غير مهددين بخطر ابادة ؟ اجاب : « لم يكن ثمة حاجة لذلك لانه لم يجر اي حديث في اي اجتماع جدي عن مثل هذا الخطر . لقد تحدثنا عن الحرب وأهوالها . وتحدثنا عن قصف تل أبيب والخسائر . تحدثنا عن الخطر الناجم عن دخول قوات عدوة الى مناطق في اسرائيل . ولكن لم يتحدث اي شخص عن الابادة »(٢٠). ثم عاد العميد الاحتياطي عيزر وايزمان ليكرر افكاره في حزيران ١٩٧٢ على صفحات يديعوت احرونوت فقال : « لم تكن دولة اسرائيــل فعلاً معرضة للفناء لو لم نشن الحرب في الوضع الذي كنا عليه خلال أيار ــ حزيران ١٩٦٧ ، ولو لم نتغلب على المصريين والأردنيين والسوريين . ولكن وجودها لم يكن ليستمر بالصورة نفسها التي كانت قائمة يومذاك ، او كما هي اليوم »(٢١).

وبالرغم من هذه الحقائق والشهادات الصادرة عن اعلى مستويات القيادة الاسرائيلية ، وبالرغم من حجم الهزيمة التي لحقت بالجيوش العربية في عام ١٩٦٧ ، والذي ادى الى خفوت الاصوات المتحدثة عن خطر الابادة العربي ، فقد لجأت القيادة الاسرائيلية الى تغذية سكان اسرائيل ويهود الشتات والراي العام الغربي بجرعات جديدة من الحديث عن الخطر . ولكن الحديث اتجه هذه المرة نحو « الخطر السوفييتي » و« الخوف من الدب الاحمر » الذي لا يهدد اسرائيل وحدها ، بل يهدد الوجود الغربي والمصالح الغربية في الشرق الاوسط . ففي أيار ١٩٧١ كتب عيزر وايزمان تحت عنوان : **ما الذي يجعل وزير الدفاع يتراجع** : « وما تزال هذه الحكومة (الاسرائيلية) تعمل في جو من المخاوف، ومن الحديث عن صعوبة محاربة المصريين اليوم لانه **ينبغي الخوف من الروس** »(٢٢). واشار زئيف شيف الى **احتمال التدخل السوفييتي** في الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، والخطر الذي يمثله هذا التدخل عندما قال « ان أكثر المسائل التي تتخبط فيها اسرائيل حيوية هي كيف سترد الولايات المتحدة في حالة **تدخل روسي** بصورة فعالة ومباشرة بالقتال في قناة السويس وسيناء ، وربما أكثر عمقا في أراضي اسرائيل »(٢٣). وذكر رئيس الأركان حاييم بارليف في حديثــه مع الاذاعة الاســرائيلية بتــاريخ ٧١/٩/١١ « ان اسرائيل لا تستطيع ــ بأي حال ــ ان تتجاهل الوجود السوفييتي في المنطقــة . ولا تستطيع ان تخرجه مــن حساباتها عند اي تقدير للموقف »(٢٤)... « اننــا لا نجهل انه في حالة عودة القتال فان بعض الاعمال ستؤدي بلا شــك الى رد فعــل

سوفييتي »(٢٥). وذهب اسحاق رابين سفير اسرائيل في الولايات المتحدة الى ابعد من ذلك في البيان الذي القاه امام اللجنة الاميركية ــ الاسرائيلية للشؤون العامة وقال فيه : « ليس ثمة دولة اشد رغبة من اسرائيل ان ترى اتفاقية بين القوتين الكبيرتين تقرر انهما لن تستدرجا الى الصراع المحلي مهما كانت الظروف . الا ان الروس قاموا لسوء الحظ بالخطوة الاولى ... فأشركوا قواتهم الذاتية في نزاعنا المحلي في آذار ١٩٧٠ . ومنذ ذلك الحين نعيش في وضع تشترك فيه **قوة كبرى بقواها الذاتية** الى جانب احد اطراف الصراع »(٢٦).

ولقد استغل الاسرائيليون هذا الموقف الجديد لاستثارة الولايات المتحدة وحلفائها داخل حلف الاطلسي ، ولابتزاز الاموال والاسلحة المتطورة من الولايات المتحدة التي لم تتردد في تقديم طائرات الفانتوم المزودة بأحدث الاجهزة للصراع ضد الدفاع الجوي المصري بما في ذلك بطاريات الصواريخ التي يديرها السوفييت وطائرات الاعتراض التي يقودهـــا طيارون سوفييت . ولقد كتب زيف شئيف بهذا الصدد « اعتقد ان لاسرائيل الحق في المطالبة بهبات شبيهة بتلك التي تعطى للدول الغربية **الواقعة بالقرب مـــن الحدود الروسية** . على الولايات المتحدة الاعتراف بحقيقة ان موسكو نجحت في توسيع حدودها منذ الحرب العالمية الثانية الى حد بعيد . ان اسرائيل هي احدى الدول الواقعة اليوم على الحدود الجديدة . ولذا يحق لها ان تتوقع مساعدة امريكية ملائمة »(٢٧). وعندما تحدث اسحاق رابين أمام اللجنة الامريكية ــ الاسرائيلية للشؤون العامة ، اشار الى مسألة المعدات والاسلحة وقال بأنه استلم اسلحة كافية لمحاربة العرب « لكن المشكلة لا تقتصر على القوات العربية . ففي الوقت الحاضر على اسرائيل الا تقدر فقط قوتها العسكرية مقابل قوة الدول العربية مجتمعة ، ومدعمة بكميات لا حد لها من السلاح والتقنيين والمدربين من الاتحاد السوفييتي ، بل انها تواجه ايضا **التورط العسكري المباشر لقوة كبرى** . ان الاتحاد السوفييتي موجود على ارض مصر ، واذا استؤنفت الاعتداءات ــ آمل الا يحدث هذا ــ قد نجد انفسنا مشتبكين مع قوات روسية محدودة متمركزة في مصر وملتزمة بعمليات عسكرية ذات أدوار معينة في الاجواء المصرية . هذه هي مشكلتنا » ... « ان باستطاعة اسرائيل ان تدافع عن نفسها بنفسها ضد قوى العالم العربي مجتمعة لاية فترة ممكنة ــ خمس او عشرين او خمسين سنة ــ ما دمنا لا نحرم من المعدات اللازمة لدفاعنا . واذا كان هناك تهديد لوجود اسرائيل فانه يأتي من **خطر مشاركة الاتحاد السوفييتي بقواته الذاتية** في الصراع ضدنا »(٢٨). ولم تقتصر مطالبه اسرائيل من واشنطن على الاموال والاسلحة والمعدات بل تعدتها الى المطالبة بضمانات جديدة تتعهد الولايات المتحدة بها **بالتدخل الفعال** الى جانب القوات الاسرائيلية اذا ما تعرض أمن اسرائيل لخطر حقيقي من جانب السوفييت . ولقد نشرت هآرتس تعليقا لزيف شئيف قالت فيه : « ولعله يستحسن الابقاء في هذه اللحظة على الشك لدى الروس حيال استعداد الولايات المتحدة لمجابهتهم اذا تعرضوا لاسرائيل »(٢٩). وذكرت معاريف في تعليق على زيارة سيسكو لاسرائيل « ان الالتزامات الامريكية والردع في وجه التدخل السوفييتي ، وهما جوهر المشكلة في نظر مخططي السياسة الاسرائيليـــة ، سيحددان هذه المرة أيضا شروط اسرائيل »(٣٠). وعندما حدد اسحاق رابين امام مؤتمر اللجنة الامريكية ــ الاسرائيلية للشؤون العامة الاهداف الاربعة التي تسعى اسرائيل لتحقيقها في علاقتها مع امريكا قال عن الهدف الثالث : « والهدف الثالث اكثـــر تعقيدا نوعا ما . ذلك ان صراع الشرق الاوسط لم يقتصر على نزاع محلي ، فثمة قوة كبرى هي الاتحاد السوفييتي متورطة ايضا . لهذا فاننا **نحتاج لموقف امريكي معين** ، يؤثر في الاوضاع بطريقة تحول دون حرية الاتحاد السوفييتي بالقيام بأعمال عسكرية ضـــد اسرائيل »(٣١).

وهكذا نرى ان اسرائيل لم تتوقف طوال فترة وجودها عن التحدث باسهاب عن خطر الابادة رغم انها كانت غير معرضة لهذا الخطر . وعلى الجانب الاخر من الخندق تحدث العرب عن ابادة اسرائيل في وقت كان ميزان القوى **سلبيا** بالنسبة لهم . واذا كانت اسرائيل قد استفادت من حديثها عن هذا الخطر ، وابتزت ما هي بحاجة اليه من عطف وتأييد واموال واسلحة ومعدات ، وكسبت المناورتين السياسيتين الداخلية والخارجية، فان نتيجة حديث الساسة العرب عن ضرورة ابادة اسرائيل ــ دون امتــلاك الاداة اللازمة لذلك ، وقبل ظهور الظروف التي تسمح حتى بقهر القوات المعادية المسلحة ــ افقدهم الكثير على صعيد المناورة السياسية الخارجية ، واضعف قدرتهم على المناورة السياسية الداخلية لانه خلق حالة رفض وعدم ثقة داخل الجماهير العربية التي كانت تفجع دائما بالتناقض بين طموحاتها والامكانات المتوفرة لها ، وبالبون الشاسع بين ما تطرحه الحكومات نتيجة لتصوراتها الذاتية او لاغراضها الداخلية وحقيقــة الواقع الموضوعي على أرض الصراع السياسية ــ العسكرية .

ان هذا القول لا يعني مطلقا نقد فكرة ابادة العدو الاسرائيلي (لا بمعنى تدمير الناس والممتلكات بل بمعنى تدمير الهياكل السياسية ــ العسكرية الاساسية وقهر القوات المسلحة بشكل يحقق الهدف السياسي العربي) فهذه الفكرة كامنة في صلب كل صراع ، وتشكل هدف كل قوتين متجابهتين تحاول كل واحدة منهما استخدام العنف ــ بعد فشل الاساليب الاخرى ــ لتدمير قدرة الخصم القتالية أو لشلها عن الحركة بغية الوصول الى الاغراض العسكرية التي تتم المساومة عليها للوصول الى الاهداف السياسية . ولا يمكن لامة تجابه تحديا مصيريا يعرض وجودها كله للخطر الا أن تفكر بالحرب وتستعد لها ، وأن تستعد بالتالي لتبني فكرة كلاوزفيتز « ان الحل الدامي للازمة اي الجهد الرامي الى ابادة القوات المعادية هو الابن الشرعي للحرب »(٣٢) مع التأكيد على ان « تدمير قوات العدو هو أهم هدف رهان في الحرب قاطبة »(٣٣). ان نقدنا لا يلامس الفكرة بل يتجه بشكل اساسي الى التحدث عن الابادة قبل امتلاك القوة اللازمة للهجوم ، وقبل انتظار المناخ السياسي الدولي الملائم . والتحدث عن الهجوم مع النية باتخاذ موقف الدفاع ، وفي ذلك مخالفة لمبدأ حربي اساسي يؤكد ضرورة التحدث عن الدفاع عندما تكون الخطة الهجومية مكتملة والقوى الهجومية مستعدة للضرب .

ان الواقع العسكري العربي الحالي ، ومضي سنتين على وقف اطلاق النار دون وجود أية بادرة لمتابعة القتال ، والسعي الحثيث وراء الحل السلمي ، وانخفاض حجم الوجود العسكري السوفييتي في منطقتنا الى الحد الادنى سيسكت الابواق المتحدثة في اسرائيل عن خطر الابادة . ولكن الاستراتيجية الاسرائيلية لم تتبدل . وستبقى اسسها وأهدافها وأساليبها كما كانت من قبل . فمن اين ستستقي بعد اليوم مبررات حديثها عن الخطر ؟ وهل ستجد ضالتها في بعض التصريحات النارية الجديدة التي يطلقها الزعماء العرب عن الحرب ــ دون امتلاك أداتها ــ أم في تحليلات عسكرية أحادية الجانب كتحليلات الفريق صلاح الدين الحديدي في كتابه الذي نشرت مجلة الحوادث عددا من فصوله(٣٤)، أم في الاخبار الغامضة التي تتردد عن **سراب** شراء أسلحة غربية فرنسية او ايطالية او انكليزية ان لم نقل أمريكية لتبديل موازين القوى ؟

هذا هو ما سترد عليه الاحداث في وقت غير بعيد .

---

١ ــ تيودور هرتزل . ذكرها هيثم الكيلاني في **المذهب العسكري الاسرائيلي** ، مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت .

٢ ــ بن غوريون (١٩٤٦) ، **المرجع السابق** .

٣ ــ الدكتور التمان (١٩٥٣)، **المرجع السابق**.

٤ ــ في مطلع آب ١٩٧٢ قال المطران يوسف

ربنا لغولدا مائير خلال اجتماعه بها : « لقد خلقت الحكومة بقرة مقدسة اسمها الامن » .
٥ — عرض الياهو سلطر في **هآرتس** ، ١٧/١١/٧١ ، من **نشرة م. د. ف.** ، ١٦/١١/٧١ .
٦ — **المرجع نفسه** .
٧ — من حديث لهربرت ماركوز خلال زيارته لاسرائيل في نهاية عام ١٩٧١ : « انكم على طريق اقامة غيتو مادي ومعنوي آخر ، الا اذا حدث تغيير وستكونون معزولين عن العالم المعادي لكم » ، **نشرة م. د. ف.** ، ١/١/٧٢.
٨ — **معاريف** ، ٢٨/٤/٧١ — نشرة م. د. ف.، ١/٧/٧١ .
٩ — **معاريف** ٧/٦/٧٢ — نشرة م. د. ف. ، ١/٧/٧٢ .
١٠ — **معاريف** ٢/٦/٧٢ — **نشرة** م. د. ف. ، ١٦/٦/٧٢ .
١١ — **دافار** ، ٣١/٣/٧٢ .
١٢ — نشرة **رصد اذاعة اسرائيل** العبرية الصادرة عن مركز الابحاث الفلسطينية ، ٥/٨/٧٢ .
١٣ — **هآرتس** ، ٢٢/١٢/٧١ .
١٤ — **معاريف** ، ١٠/١٢/٧١ ، نشرة م.د.ف. ، ١/١/٧٢ .
١٥ — مركز الابحاث الفلسطينية ، **اليوميات الفلسطينية** ، مجلد ١٣ ، ص ٣٧٣ .
١٦ — **هآرتس** ، ١٩/٣/٧٢ ، نشرة م.د.ف. ، ١/٤/٧٢ .
١٧ — **دافار** ، ١٥/٦/٧٢ ، نشرة م.د.ف. ، ١/٧/٧٢ .
١٨ — **عال همشمار** ، ٢٠/٣/٧٢ ، نشرة م.د. ف. ، ١/٤/٧٢ .
١٩ — **معاريف** ، ٤/٤/٧٢ ، نشرة م. د.ف. ، ١/٥/٧٢ .
٢٠ — **المرجع السابق** .
٢١ — **يديعوت احرونوت** ، ٦/٦/٧٢ ، نشرة م. د. ف. ، ١/٧/٧٢ .
٢٢ — **معاريف** ، ١٤/٥/٧٢ ، نشرة م. د.ف. ، ١/٦/٧٢ .
٢٣ — **هآرتس** ، « كيف يفكرون في البنتاغون (الحلقة الرابعة) » ، ٢/٧/٧١ ، ملحق العدد ٨ من نشرة م. د. ف. ، ١٦/٧/٧١ .
٢٤ — **الاهرام** ، ١٢/٩/٧١ .
٢٥ — وكالات الانباء : أ. ب ، ي. ب .
٢٦ — **نيرايست ريبورت** ، ٧/٥/٧٢ ، نشرة م. د. ف. ، ١/٦/٧٢ .
٢٧ — **هآرتس** ، « كيف يفكرون في البنتاغون (الحلقة الخامسة) » ، ٤/٧/٧١ ، ملحق العدد ٨ من نشرة م. د. ف. ، ١٦/٧/٧١ .
٢٨ — **نيرايست ريبورت** ، ٧/٥/٧٢ ، نشرة م.د.ف. ، ١/٦/٧٢ .
٢٩ — **هآرتس** ، « كيف يفكرون في البنتاغون (الحلقة الخامسة) » ، ٤/٧/٧١ ، ملحق العدد ٨ من نشرة م. د. ف. ، ١٦/٧/٧١ .
٣٠ — **معاريف** ، ٢٣/٧/٧١ .
٣١ — **نيرايست ريبورت** ، ٧/٥/٧٢ ، نشرة م.د.ف. ، ١/٦/٧٢ .
٣٢ — كارل فون كلاوزفيتز « **في الحرب** » الجزء الاول ، الفصل الثاني ، الصفحة ١١٥ .
٣٣ — كارل فون كلاوزفيتز ، **المرجع السابق** .
٣٤ — تقول نشرة **رصد اذاعة اسرائيل العبرية**، الصادرة عن مركز الابحاث الفلسطينية (عدد ٢١ في ٢٤/٨/٧٢) ان اللواء الاحتياط حاييم هيرتسوغ علق في اذاعة اسرائيل على صدور كتاب الفريق صلاح الدين الحديدي ، وعلى حديث المؤلف من خطة هجومية مصرية في عام ١٩٦٧ بما يلي : « لهذا التصريح اهمية كبيرة لانه قد لحقنا ضرر كبير حسب رأيي من جراء التصريحات الكثيرة غير المعتمدة ، واحيانا غير المسؤولة التي ادلى بها البعض في الفترة الاخيرة ، والتي مفادها ان اسرائيل لم يكن يتهددها الخطر في فترة الاستعداد لحرب الايام الستة . ومن المفيد ان يأتي مصري اخيرا ، ويعترف ان هدف مصر كان هجوميا وان المصريين ارادوا مهاجمة اسرائيل » . وعندما سأله مراسل الاذاعة بولماز براك : « هل يفهم من ذلك ان خطر الابادة يتهددنا ؟ » اجاب هيرتسوغ : « هل كنا مهددين بالابادة ام لا أمر خاضع للاعتبارات الموضوعية ، ولكن من ناحية ذاتية كان خطر الابادة بالنسبة للسكان في اسرائيل ماثلا حقا أمام اعينهم ... ومن الجهة الاخرى كان العرب ينوون ابادتنا . ان اعتراف المسؤول المصري في غاية الاهمية لانه يعيد وضع الاحداث في المنظور الصحيح » .

« الاتحاد الوطني »
والشكل الراهن للسلطة في الاردن

هاني حوراني

[١]

في ٧ ايلــول ١٩٧١ ، اي بعيد قرابة الشهرين من خــروج المقاومة من جبــال عجلون والاحراج ، وبعد مرور عام على قتال ايلول ، أعلن الملك ، قيام تنظيم سياسي عــام في البلاد « يضم جميع ابناء الشعب وبناته ، وينظم طاقات المجتمع وامكاناته ، ويوجهها نحو اهداف محددة واضحة »(١). وبصيغة « الاتحاد الوطني » لم يعد النظــام يتحدث باسم الشرائح الطبقية والفئات العليا من المجتمع ، بل أعطى نفسه حق الحديث باسم جميع الطبقات وباسم الشعب وعاد الملك ليؤكد أن الاتحاد الوطني « ليــس هو تنظيما حزبيا بالمعنى السياسي او الاجتماعي المعروف ، ولكنه اطار عام ينتظم الانسان والحياة في بلدنا »(٢). فما الذي حصل ؟ وماذا يعبر هــذا التحول ، وبأي اتجــاه يجري داخل النظام ؟

لحظة الاعلان عن الاتحاد الوطني ، كانت ذاكرة الجماهير ما زالت ندية . وتعود الى ما قبل عام ، حين كانت توطن نفسها للانعتاق ، واذ ذاك كانت الردة الرجعية قد استكملت ملامحهــا ، واستعادت كل تقاليدهــا بسرعة . وخلال عام اخذت كــل ادوات القمع ورموزها التي لم تكن حتى الامس القريب ، غير أكســوارات لمسرحية تاريخية بالية ، تستعيد اعتبارها ، و « عاد كذلك الى الظهور رجال الدرك القــدامى الذين بدا انهم اندثروا منذ امد بعيد » . وفي ايام ايلول الدموية استنفر الملك اسلحة الماضي في الحرب الصليبية التي شنها ضد المقاومة والحركة الوطنية الديمقراطية . واتحدت الشرائــح الطبقية العليا في الدولة والجيش ، حيثما رأت جحيمها في مرمى البصر، وتسلحت بالعداء البدائي ، وبالأخطاء المقدمة من الجبهة المقابلة لها ، وأعطت فيالقها شرف القتال من اجل اقرار سلطة « القانون والنظام » واحباط « المؤامرة الجهنمية » ومشروع « الوطن البديل » . وهكذا اندفعت الفيالق الصليبية الجديدة للقتال بشراسة ، مسلحــة بوعود غسل شرفها العسكري المهدور ، واعادة اعتبارها لذاتها ، والانتقــام من العقائديين والملحدين ، والفدائيين غير الشرفاء ، وتطهــير الفداء من مدعي الفداء » . ومع نتائج القتال الشرس الــذي دار قرابة الايام العشرة ، كــان حزب النظــام ، غير العلني : البرجوازية البيروقراطية في الدولــة والجيش ، بعض اجنحة البرجوازيــة الكبيــرة ، والزعماء العشائريون ، يسجل انتصاره لمصلحته الخاصة تحت عنوان « مصلحة البلاد والمجتمع » وفي الوقت ذاته كــانت نشوة الجنود بسقوط عدد من اجــزاء « المدينة » بيدهم ، بعد أن استعصت عليهم في الايام المــاضية ، قد بلغت ذروتها ، فلم ينسوا أن يحولوا نارهم ، ونهبهم الى الاحيــاء البرجوازية ، التي ابدت تساهلها وضعفها تجــاه

المقاومة ــ وبالتالي استحقوا عقابهم . لقد كان كل ما هــو مديني ، كل ما هو معتدل ومتعقل يجد نفسه معرضا للعقاب ومستهدفــا بالعداء . ان المدينة بكاملهــا ، عوقبت جماعيا وان تراوحت حصص احيائها ، لكونها متواطئة مع المقاومة .

ان الجنود المشحونين بايديولوجية النظام ، وبالشــعارات التي وضعت بين ايديهم ، وبتعزيز العداء الشخصي بينهم لكل ما له صلة بالمقاومة وبالمدينة ، لــم يوفروا الحماة القدامى للنظام ، الذين كانوا قبل ايام حرس النظــام ، والذين يضعون بشــعاراتهم السلمية والتفاهمية ، واجهة متعقلة و « وطنية » للذين يعدون عمليا للتصفية وللمجزرة. وهكذا ، فان الجنود السكارى الذين قاتلوا تحت راية سيادة القانون والنظام وتحت راية الدين ضد الالحاد ، وراية حماية المجتمع ضد الفوضى ، طافوا في الاحياء البرجوازية ، وحطموا واجهات المحال ونهبوها ، ودخلوا المنازل الوجيهــة عنوة ، وعبثوا ، واعتدوا عــلى الاعراض ، وواجهوا بالضرب والشتم كل من يفســد طقوس الغزو الاحتفالي . واطلقوا النار على سبيل التسلية على مواطنين ، يعتبرون طيعين ، امتثاليين ، غاية في الطاعة والامتثال للنظام . وسددوا قذائفهم على المساجد والكنائس ، واهانوا رجــال الدين ، ولم يوفروا رموز النظام حتى الامس من الاذلال . **اي انهم انتهكوا كل ما حارب النظام باسمه ، وقاتلوا من أجله** . واخيرا ، وعــلى اكتاف هذه الفيالق ، وباسمها ، صعد وصفي التل ، الذي كان ضمن بضعة رجال من أبطال المجزرة في غرفــة عمليات النظام ، الى سدة الحكم ، بعد ان كــان يقف الى جانبه ، ومن خلفه ، او على هامشه لسنوات منذ عام ١٩٦٦ .

[٢]

ان وصفي التل ، لم يفهم كما يجب ، ولم تعامله المقاومــة بما يستحق كخصم ، ومن ثم فان « تحليلهم » له ، لم يصبه سياسيا ، كما اصابته رصاصات مقاتلي ايلول الاسود فيزيقيا . انهم لم يتوصلوا الا الى اطلاق اللعنات وصرخــات الثأر من الارادة الجهنمية الاستعمارية التي اعدته وهيئته لدوره المنتظر ، ولم يفهموه الا كوريث لاقليمية والــده الشاعر ، ورجل الانجليز وصنيعتهم . وبالتالي فقد قاتلوا فيه شبحا لعينا لــم يعرفوا كنهه، **في الوقت الذي اغفلوه كافراز وكنهج سياسي واجتماعي ينبثق عن بنيان أجتماعي له علاقاته الداخلية وقوانينه** .

[٣]

لم يسبق ان صعد سياسي اردني الى رئاسة الوزارة بمثل العنجهية والغطرسة التي احاطت بصعود وصفي التل بعيد المجزرة . انه لم يكتف باملاء **شروطه** على الملك لقبول الوزارة ــ متسلحا بحرارة مواسير البنادق التي لم تتوقف عن العمل بعــد ، وبدخان البارود الذي يعبق في جو السلطة ويصبغ سياستها ــ وانما اعلنت هذه الشروط ، التي تمثل طبيعة نهج التل ، عبر وكالة الانباء الاردنية الرسمية ووزعت بما تستحق من عناية عبر اجهزة الاعلام الاردنية المختلفة . ومع التحول النوعي الكبير في موازين القوى بين المقاومة والنظام ، الراجح لصالح الاخيرة . كان التحول ذاته يطرأ على علاقات الاجنحة المختلفة المنضوية تحت لواء النظام الاردني . كما ان الملك ، الذي اعتاد ان يلعب دوره القديم « كوالد للاسرة الاردنية » ، وان يمسك عصا التوازن بين شتى اجنحة النظام من منتصفها ، كان واعيا بالثقل الذي يمثله وصفي التل الــذي يحظى بثقــة البيروقراطية الادارية والاطارات العليا من النظام وكبار الضباط . وبالتالي كان مضطرا الى الاتكاء على برنامج التل ونهجه المتصلب ، الذي يكفل له استعادة السيادة الكاملة للنظام واحكام سلطته على البلاد ، غير انه يخفف من سلطة الملك ويخضعها لتقنين سياسي كابح . وهكذا فان ظهور الاتحاد الوطني ، كتنظيم سياسي في البلاد ، كان تعبيرا تنظيميا ، عن نهج هذه الفئات والشرائح التي اعطت وصفي التل **ثقله الاجتماعي في البلاد** ، واعطته

فرصة اجراء تحولات معينة على بنية السلطة بما يكفل لها احتــلال مراكز مقررة ضمن النظام . ان اطروحة انشاء تنظيم سياسي موحد في البلاد ، تمثل الطبعة الاكثر تنقيحا وتشذيبا لمفهوم وصفي التل في العمل السياسي . وهي طبعة مكيفة ومعدلة لاطروحات سابقة لم تعرف الحياة قط . ففي اوائل الستينات ، كان وصفي التل ينشط لطرح مشروع يسمح بانشاء احزاب سياسية في البلاد ، تتكون ضمن اطار النظام وشرعيته ، وتقتسم ادوار الحكم والمعارضة وفقا لمنظور ليبرالي يتيــح فرص الصراع على السلطة علــى أسس برامجية ، يوفــر للنظــام قواعد اســتقرار سياسي نسبي ، ويقلل من الطابع العشوائي للصعود والهبوط للرموز السياسية في البــلاد والتي تتم وفق « ارادة ملكية سامية » غير محكومة بنفوذ هذه القوة الاجتماعية او تلك ، هذا البرنامج السياسي او ذاك(٣). ان وصفي التل ردد اطروحته هذه في فترة صعوده السياسي المفاجىء ، **وبدون اسناد اجتماعي من قاعدة النظام التقليدية** . وخرج من الظلال ، في فترة تنامي النفوذ الامبريالي في البلاد ، وخضوعها لنموذجه التنموي ، متسلحا بوزارة من **التكنوقراطيين والاداريين والمهنيين** ، الذين لم يسبق لهم ان شغلوا مناصب وزارية من قبل . وكان بينهم عدد من ذوي المسحة الوطنية والعصرية ، وعدد مــن الحزبيين الديمقراطيين المرتدين . لقد كانت حكومته تلك (١٩٦٢) اشارة ذات دلالة للتحولات التي جرت على عدد من الفئات الاجتماعية « البرجوازية الكبيرة والمتوسطة » والتي باتت جزءا من قاعدة النظام الاجتماعية ، وذلك بعد ان افسحت سياسة الاستعمار الجديد الاقتصادية في البلاد المجال لتنامي الاستثمارات في قطاعات التجارة والصناعة والزراعة ، مما عزز وضع هذه الفئات اقتصاديا واجتماعيا ، وأمكن حل تناقضها مع النظام بشكل ودي وضمن حصولها على نفوذ سياسي مواز ، يعبر عن نهجها وطموحها(٤). وهكذا فان اطروحة تعدد الاحزاب جاءت متوافقة مع النموذج « الليبرالــي » للتنمية والتطــور الاقتصادي في الاردن ، والتي لعبت المساعدات والاستثمارات الامريكية دورا مهما فيها. كما قدمت الولايات المتحدة ومؤسساتها المتخصصة ، التوصيات المناسبة لنمط التنمية وشكل الاسهام الحكومي وحدوده . أي ان اطروحة تعدد الاحزاب كانت متوافقة مــع موضوعات التنمية الليبرالية « المبادرة الحرة ، الحرية الاقتصادية .. الخ » ان برنامج السنوات السبع كان صدى مباشرا لهذه التوصيات ، فقد كانت السياسة الاقتصادية تتبنى تعاون القطاعين الحكومي والخاص ، وترك للدولة دور الاســهــام في المشاريع العامة ، واحداث تسهيلات تحتية تعزز مبادرة القطاع الخاص (شق الطرق والمواصلات المختلفة ، مشاريع الري .. الخ) واسهام الدولة في تمويل المشاريع الانتاجية الكبيرة ، ثم طرح حصص الدولة فيما بعد للبيع للقطاع الخاص . بالاضافة الى احداث تسهيلات تشريعية مختلفة لحماية الانتاج المحلي واغراء القطــاع الخاص بتوسيع مجــال الاستثمار(٥). اي ان وصفي التل ، قدم اطروحة الاحزاب المتعددة ، الى جانب اسهامه في احداث تطوير راسمالي في البلاد (في شروط وآفاق كولونيالية) ، وتحديث قطاعات الانتاج واطارات الدولة . وجاءت بالتالي محاولته لبلورة اطاراته السياسية ، وتنمية قوته الاجتماعية . ان اطروحته هذه كانت **محاولة للبحث عن هذه الاطر** ، وهذه القاعدة الاجتماعية من الفئات **المتنورة والعصرية في قطاع الدولة والبرجوازية النامية ، المتصلة بالقطاع الحديث من الانتاج ، ومن التكنوقراط والمهنيين** ، ليواجه بهم الثقل السياسي لباقي الرموز التقليدية في النظام والمستندة الى قوى اجتماعية غير قادرة على طرح برنامج له جزالة برنامجه العصري وبريقه . ومن ثم فان هذه الاطروحة كانت كفيلة — ان تحققت — باهتدائه الى الاطر التي تبلور برنامجا يحظى بثقة القوى الاجتماعية النامية والتي تبحث لنفسها عن دور ارسخ في تقرير سياسة النظام ، وتضمن له ايضا البقاء في السلطة ، او الصعود اليها مجددا ، بهدف عقلنة اسلوب الصعود والهبوط من السلطة وتقنينه وفقا لقوانين واسس الصراع البرامجي بين الفئات والشرائح الطبقية المشكلة

لقاعدة النظام الاجتماعية . أي بهدف التقليل ، ما امكن ، من الطابع العشوائي الذي يفرضه الملك ، كموجه وموازن بين اجنحة السلطة ، في تحديد الوجهة السياسية للبلاد . الامر الذي يجعل طموحات التل مهددة فعلا بالسقوط في الظلام ، بمجرد ان يطرأ اي تناقض مع الملك ، وتذهب « الارادة الملكية السامية » للبحث عن رجل منفذ ، اكثر طواعية ، ليصعد مجددا الى النور(٦) .

وكما نعرف ، فان هذا المشروع لم ير النور قط، وبوسعنا ان نتصور ان ما طوى اطروحة الاحزاب ، هو بالذات الهاجس الذي كان يتخوف منه وصفي التل : « الارادة الملكية السامية » التي لا يمكن ان تتوافق دوما وابدا مع منظور وصفي التل السياسي وبرنامجه، نفوذ القوى والفئات الاخرى في قاعدة النظام ، خضوع النظام لضغوط التحولات الجماهيرية في المنطقة العربية وانعكاساتها على البلاد ، مما يتطلب الانحناء للعواصف السياسية ، لا مجابهتها . ان ما يمكن اضافته ، هو ان القوى والشرائح التي أطلق وصفي التل شهيتها بحكومته الاولى « حكومة الشباب » من اجل حصص أكبر في السلطة ، ومن اجل اقرار نهج مؤات لمصالحها ، كانت **جنينية سياسيا** ، ولم تجد الفرصة لتميز نفسها بشكل اكثر نضجا ، كما لم تجد الشجاعة لتقدم رموزا اخرى بقوة شكيمة رمزها الاول وصلافته . وبكلمة اخرى لم تع ، هذه الفئات والشرائح مصالحها كليا بصورة اكثر تجانسا وتمايزا بما يكفل لها طرح نفسها كقوة سياسية يحسب حسابها . ولعل اكثر محاولاتها هذه نموذجية ، نجده في السؤال الخجول الذي قدمته مجلة « الاثنين » في منتصف الستينات عن غياب السياسيين الشبان في الحكومات المتعاقبة على البلاد .

[٤]

ان التعديل والتنقيح الذي اجراه وصفي التل ، بطرحه مشروع التنظيم السياسي الموحد بدلا من اطروحة الاحزاب المتعددة ، لم يكن مجرد تكيف مع ظروف ما بعد معارك ايلول، وان كان الاتحاد الوطني قد حمل في بنيته التنظيمية والسياسية ملامح هذه الظروف . ولذلك يمكن ان نلاحظ ان الانقسام العمودي الذي شق المجتمع ، بصورة اقليمية ، وانعكاس هذا الانقسام على قاعدة النظام الاجتماعية ، كان يعبر بهذه الدرجة او تلك عن تناقضات طبقية ، وتناقضات في المصالح بين الشرائح التي تنتمي الى ذات الطبقة . والذي له صلة بتفاوت التطور بين سكان الضفتين ، وتوزع ادوارهما الانتاجية . ذلك ان قاعدة النظام الاجتماعية والمكونة من تحالف طبقي بين البرجوازية الكبيرة (ذات الصبغة التجارية الغالبة) والملاك العقاريين والبرجوازية الادارية (البيروقراطية) في الدولة والجيش والزعامات العشائرية ، قد انقسمت ، في فترة تنامي الصراع بين النظام والمقاومة ، على نفسها . واتخذ هذا الانقسام دلالته السياسية الواضحة في عدم اتفاق اطراف النظام على نمط المجابهة مع المقاومة . وكان ثمة خياران امام النظام ، مجابهة أردنية سياسية مع المقاومة ، تكون جزءا من المجابهة السياسية العربية من اجل الوصول الى تسوية بعيد مبادرة روجرز ، أم مجابهة مسلحة لا تنتظر التسوية ، بل تكون التصفية خطوة على طريقها . وهكذا فان قاعدة النظام انقسمت على ارضية التسوية بين هذين النمطين من المواجهة(٧). لقد اخذ هذا الانقسام طابعه العياني الملموس في الايام الاخيرة من حكومة عبدالمنعم الرفاعي ، التي شهدت تصعيدا منظما للتوتر في عمان ، وتحركات عسكرية شاملة حول محاور العاصمة . واخيرا اقالة حكومة الرفاعي وقيام الحكومة العسكرية ، التي عبرت عن تغلب الاطراف المتشددة في النظام باتجاه حسم الصراع مع المقاومة عسكريا .

[٥]

ان هذا الانقسام ، الذي أخذ شكلا اقليميا ، له مقدماته بظهور تناقضات ما بين جناحي

السلطة الاساسيين : البرجوازية التجارية والملاك العقاريين من ناحية ، والبيروقراطية وكبار الضباط وبعض الرموز البرجوازية الصناعية والعشائرية من ناحية اخرى ، عبر عن نفسه في صراع زمر النظام في نهاية الستينات وتصاعد بعد الحرب . وكان موقف الرموز السياسية في السلطة والممثلة للقطاعات البرجوازية التجارية والملاك العقاريين بعد تنامي نفوذ المقاومة ، هو تحاشي الصدام معها ما أمكن ، بحكم وعيها بالاضرار التي ستخلفها مثل هذه الصدامات على مصالحها في البلاد ، وخاصة بعد ضياع الضفة الغربية . فهي بحاجة ماسة الى **جو وفاق عربي** يتيح لها التحرك اقتصاديا في مناخ سياسي ملائم .

وكانت مصالحها تعتمد اساسا على تسهيلات تسمح لها بالحركة عبر الحدود العربية ، وفي **اطار علاقات أردنية ــ عربية متوطدة** . اما البرجوازية البيروقراطية والاطارات العليا في الدولة والجيش والزعامات التقليدية الشرق ــ أردنية ، فانها على الرغم من انتعاشها الاقتصادي بفعل المساعدات العربية بعد الحرب ، الا انها لم تكن تطمئن لبدء ارتهان المساعدات بموقف النظام من المقاومة، ولكون الاخيرة تتنامى جماهيريا وسياسيا الى حد انها تقف كسلطة اخرى موازية لها وبالتالي ترى فيها نقيضها المرشح لتهديدها ، ذلك ان المقاومة كانت تمارس نفوذها كسلطة **بفعل الضغط الجماهيري ، وبشكل عفوي** وبشيء من البلادة ، وان كانت تبدو وكأنها متنزهة عن اغراض الحكم والسلطة .

ان البرجوازية البيروقراطية في الدولة وكبار الضباط ، الذين باتت تحت ايديهم قاعدة مادية مؤثرة ، وجهاز لجب من الموظفين وجيش جرار يتنامى باستمرار ، كما يتنامى حجم انفاقها ، استشعرت باستقلالها عن باقي اطارات النظام الاجتماعية ، وبتعزز مطامحها بمباشرة اقرار نهجها في السياسة العليا للنظام ، بحكم ارتباط مصالح هذه الفئة الاجتماعية ببقاء الدولة ونموها . وواقع الامر ، ان هذه الفئة الاجتماعية ، نمت وتوطدت مصالحها بفضل **البحبوحة الامبريالية** ، التي قدمت الحصة الاعظم من مساعداتها وهباتها لدعم **الميزانية** ، ولدعم **الانفاق المتكرر** في الدولة والجيش ، ربطت مستقبلها عن وعي بالرهان على الامبريالية وعلى مشاريعها. وهي قد وجدت جوهر وفاقها او تناقضها مع عدد من الاقطار العربية، على اساس مدى رهان هذه الدولة او تلك على الامبريالية ومشاريعها بصدد مسألة احتلال الاراضي العربية في حرب ١٩٦٧ ، او هي وجدت جوهر هذا الوفاق بمدى تقبل البلاد العربية المعنية او سكوتها على هذا الرهان . وعلى الرغم من ان الجناح المتصلب من النظام ، كان بحاجة الى المساعدات العربية المقررة في مؤتمر قمة الخرطوم ، الا انها كانت على استعداد للتضحية بها ، لكون هذه الدولة او تلك تشترط بهذا القدر من الجدية او ذاك ، مسألة عدم صدامها مع المقاومة ، واشتراط نوع من التعايش معها .

وهكذا نجد ان **قاعدة النظام الاجتماعية لم تعد موحدة** ، كما كانت سابقا ، بل يسودها تناقض متوتر ومشحون بالعداء الذي رفع من حرارته جسامة احداث أيلول . وتعكس هذا الواقع تصريحات وصفي التل بعيد صعوده الى السلطة ، عندما تصدى في احاديثه وندواته الصحفية بمزيد من القسوة والتجريح لرؤساء الحكومات السابقين ، (ويعني التلهوني والرفاعي ، دون ان يحتاج الى تسميتهما) واعتبرهم مسؤولين عن الاوضاع التي سادت قبيل أيلول وآلت اليه ، جنبا الى جنب مع المقاومة . كما نجد ان عبد المنعم الرفاعي يتصدى في تصريح صحفي له ، الى النهج السائد في النظام والذي يطبعه بطابع الاقليمية البغيضة وخاصة في مؤسساته الاعلامية ، معبرا عن استيائه لصعوبة تصدي النظام الاردني للقضية الفلسطينية في المنابر الدولية بالجدارة نفسها التي كان يتمتع بها!.

[٦]

ومن هنا نلمس ان اوضاع ما بعد أيلول ، وانعكاساتها على قاعدة النظام ، ليست فقط لا تتيح المجال لترك الباب مفتوحا أمام اتجاهات أطراف النظام للتعبير عن نفسها ، بل أكثر من ذلك ، فان **البيروقراطية والاطارات العليا في الدولة والجيش فرضت نهجها على بقية اطراف النظام ولجمت أي صوت مناهض لها** . ان التعبيرات العملية للطابع التسلطي السافر الذي فرضه وصفي التل في تنفيذ نهجه ، يتمثل في احداث تغييرات واسعة في مواقع النظام ، استهدفت تطهير مؤسسات الدولة والجيش والسلك الدبلوماسي كافة من الرموز التي تعبر بهذه الدرجة او تلك عن نهج متعاكس او حتى متحفظ من برنامجه ومنظوره الخاص . ان احداث التنقلات ، والاحالة على التقاعد ، والعزل كفلت بتصفية المعاقل الرسمية لرموز الاطراف الاخرى من النظام . كما ان اعادة تشكيل مجلس الاعيان واستبعاد بهجت التلهوني ، وعبد المنعم الرفاعي وسليمان النابلسي منه ، واحلال عناصر جديدة تعزز النهج السائد كان العنوان البارز للتحول داخل النظام باتجاه **انفراد طرف واحد في السلطة** . ولكون الاتحاد الوطني الاردني ، الاطار التنظيمي والايديولوجي ، لفئة واحدة من قاعدة النظام الاجتماعية، وتعبيرا عن احتكارها للسلطة في جميع مواقعها ، فان اللجنة التحضيرية والاطارات القيادية للاتحاد قد خلت من اسماء الرموز السابقة ومن يمثلها . مما يعني عمليا ، عزلهم السياسي عن ممارسة أي دور . وهكذا نلاحظ ان مصطفى دودين الامين العام المؤقت للاتحاد ، صرح بقوله « ان الحكومة ستكون جزءا من الاتحاد ، وكذلك المؤسسات الوطنية ، للقضاء على كل تعارض وخروج على مبادىء الميثاق » . وتابع دودين فقال : « ان الذين لا ينضمون للاتحاد لن يكون لهم نصيب في قيادة هذا الشعب »(٨).

ان جملة التشريعات والقوانين التي سنت بعيد أيلول ، تظهر رغبة السلطة في احداث تحولات جوهرية تمس اوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنقابية كافة . وهذه التشريعات ، ليست فقط موجهة لمزيد من الكبح للحركة الجماهيرية ، والعمال والبرجوازية الصغيرة والمتوسطة (المهنيين) وانما ايضا للبرجوازية الكبيرة ، والملاك العقاريين اذ ان التشريعات الجديدة رفعت بعض التسهيلات والامتيازات السابقة ، كما زادت من الالتزامات الضريبية على هذه الفئات لصالح ميزانية الدولة ، وحملتها جزءا هاما من اعباء الازمة الاقتصادية (مثل اجبارها على شراء السندات الحكومية ، تقديم قروض خاصة للدولة .. الخ)(٩). ومن جهة اخرى فان عددا من المنابر والاطارات شبه السياسية مثل « التجمع الوطني الاردني» لجنة انقاذ القدس » تعرضت لمضايقات قاسية شلتها عن العمل . كما ان « المجمع المهني » تعرض للحل بهدف اخضاعه للاتحاد الوطني اما النقابات العمالية ، فقد آلت الى نقابات بيضاء ، ومنابر رجعية للسلطة .

[٧]

ان مراجعة سياسية لاسماء اعضاء اللجنة التحضيرية والكوادر القيادية النشطة في الاتحاد الوطني ، تشير بجلاء الى طبيعة انفراد فئة واحدة من قاعدة النظام في السلطة ، وبغض النظر عن بعض العناصر الهامشية في الاتحاد ، فان غالبية الاسماء تنتمي الى مواقع برجوازية في أجهزة الدولة او في قطاعات رديفة ، تعكس اقتصاديا وايديولوجيا ، مصالح هذه الفئة(١٠). كما ترتبط بها اطارات وسيطة ودنيا من الموظفين والمحافظين ، ورؤساء البلديات والمخاتير والمعلمين ، وبعض المهنيين(١١). كما ينشط عدد من النواب والاعيان (وغالبيتهم من الشمال) في النشاطات والندوات التي ينظمها الاتحاد ، وهم في الغالب يمثلون تيار وصفي التل في مواقعهم التشريعية(١٢). وبحكم طبيعة الاتحاد هذه ، عبر أحد أعضاء اللجنة التحضيرية في حديث له أمام الموظفين ، عن طبيعة الاتحاد الاجتماعية فقال « ان جهاز الموظفين كان في الماضي قطاعا **مشلولا** ، والمطلوب الان هو ان

يكون جهازا قادرا على العمل والتحرك وأداة نشاط في جسم الاتحاد »(١٣). وفي رسالة صحفية من عمان ، كتب أحد المراسلين يصف الجهود الرامية لضم الموظفين في جهاز الدولة الى الاتحاد الوطني فقال ملخصا الوضع « **انت موظف ، اذن انت عضو في الاتحاد الوطني الاردني** »(١٤).

[٨]

قبل أن يعلن الملك تبنيه الرسمي للاتحاد ، كانت انباؤه قد تسربت من اوساط النظام الى الشارع ، ونقل مراسل « النهار » في عمان حديث « مسؤول كبير » في الاتحاد حول طبيعة التنظيم الجديد « يتولى الاتحاد الوطني الاردني تحديد الخط العام للحياة الاردنية ، وقد تعلمنا من الاخطاء التي وقعت في بلدان عربية ، وسنتلافى كل ما يؤخر تقدم هذا الاتحاد ونجاحه . هذا الحزب الاردني الوحيد سيتيح وجود معارضة داخلية تكون اختلافا في أساليب العمل ، من أجل الحفاظ على الخط العام الذي سيكوّن الهياكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وكل ما له علاقة بالاردن داخلا وخارجا »(١٥).

وخلافا لهذا التصريح ، فقد حرص النظام على أن يقدم الاتحاد الوطني ، لا على أساس انه حزب ، وانما على انه « اطار عام » كما قال الملك في كلمة الاعلان عن الاتحاد في ٧ أيلول ١٩٧١ . وكذلك في جميع تصريحات اركان الاتحاد الوطني واحاديثهم . ان مصطفى دودين الامين العام المؤقت يكرر « ان الاتحاد ليس حزبا ، بدليل ان التعريف العلمي للحزب هو انه يجمع طلائع طبقية اجتماعية معينة تعمل على خدمة هذه الطبقة، والسعي لايصالها الى كراسي الحكم على حساب الطبقات الاخرى من المجتمع ، الامر الذي يخلق صراعا طبقيا في المجتمع ، وبالتالي يؤدي الى ايقاعه فريسة للعدو وفق آرائه » .

ويضيف قائلا « اننا نعيش مرحلة تحرر وطني ، وجزء من وطننا محتل ، والجزء الآخر معرض للخطر ، فمن هنا لا بد من قيام اتحاد وطني من اجل أن يقاتل هذا الشعب تحت شعار الجبهة الوطنية التي تنصهر فيها كافة قوى الشعب »(١٦). ويتحدث ابراهيم الحباشنة عضو اللجنة التنفيذية المؤقتة للاتحاد الوطني في الخط ذاته ، ويضيف « ان الاتحاد الوطني ليس تجمع أحزاب ، وانما هو اطار عام للمبادىء السياسية والوطنية والثقافية والتربوية والاقتصادية ضمن خط متواز لصالح جميع ابناء الشعب ، وليس لصالح طبقة واحدة »(١٧). وعلى الرغم من هذه التأكيدات المتتالية ، فان جميع الفئات الاجتماعية الخارجة عن اطار الاتحاد الوطني تعتبره حزبا . وكذلك الحال الصحفيون والمراقبون ، الذين يقدمونه على انه « حزب حكومي ، حزب الملك المدني ... الخ » ولكن طريقة تكوينه ونهجه العام يقدمانه على حقيقته ، كحزب الفئة المهيمنة على السلطة الان في الاردن .

لقد شكل الملك لجنة تحضيرية ضمت قرابة المئتين من الشخصيات الاردنية ــ الفلسطينية ، المعينين منه(١٨). وقد تولت هذه اللجنة انتخاب لجان مكاتب عمل المحافظات في الضفتين ، وذلك لتولي الاعداد والتنظيم والدعوة للمؤتمر العام للاتحاد . وقد تشكلت هذه اللجان الفرعية على اساس التمثيل الجغرافي للضفتين ، كما تشكلت لجنتان أخريان ، احداهما للنساء والاخرى للبدو(١٩). وقد تولت هيئة مكاتب العمل المنبثقة عن اللجنة التحضيرية تنظيم سلسلة من الاجتماعات الشعبية في المحافظات ، كما جندت وسائل الاعلام الحكومية ، وعقدت ندوات تلفزيونية، نقلت الصحف المحلية بدورها تفاصيل مناقشاتها . وكانت مهمة هذه الاجتماعات والندوات ، الدعوة للاتحاد وشرح أهداف الميثاق . ومن جهة ثانية شكلت هيئة مكاتب العمل ، لجانا قطاعية ، للتنسيق والاعلام ، ولجانا أخرى للصناعة والتجارة ، والموظفين والمعلمين والطلبة(٢٠). وشهدت الشهور الاولى للاعلان عن الاتحاد حملة تعبوية كبيرة ، تمثلت في سلسلة الاجتماعات والندوات على امتداد المحافظات ، لعبت فيها مكاتب العمل واللجان القطاعية دور

التحضير ، وقدمت لها تسهيلات حكومية ، من المحافظين ورؤســـاء المجالس البلدية والقروية ، والامن العام ، واستخدمت المدارس والمرافق العامة لهذه الاحتشادات ، وغطيت اعلاميا على نطاق واسع . لقد كانت مهمة هذه الاجتماعات ، الدعوة للانتساب للاتحاد ، وشرح أهدافه والرد على تساؤلات المواطنين ، وكانت مثل هذه الاجتماعات تتوج بارسال برقيات الولاء للملك والنظام والاتحاد الوطني . وليس من المبالغة في شيء، ان نشير الى الطابع القسري والزجري الذي تتم فيه هذه الاحتشادات ، اذ عوضا عن أساليب القسر المادي في تجميع المواطنين وحشرها في هذه الاجتماعات ، فان الارهاب المعنوي والسياسي كان يلعب تأثيره الخطير ، كما ان اليأس وروح التملق للسلطة منعا لشرورها ، كانا يدفعان المواطنين الى ندوات الاتحاد الوطني التي لم يكن لهم فيها من دور سوى تلقي الركام اللفظي الرسمي ، والقمع الايديولوجي الجديد . وفي احد هذه الاجتماعات يقول مصطفى دودين صراحة « ان الانتساب اختياري ، وليس اجباريا ، ولكن لا مجال للانعزال عن مسيرة هذا البلد ، والذين يبقون خارج تنظيمات الاتحـــاد سيظلون بمعزل عن أبناء البلد »(٢١).

ان نشاط الاتحاد الوطني التعبوي باتجاه دفع المواطنين للانتساب للاتحاد الوطني ، قد توج بالدعوة الى المؤتمر العام للاتحاد الوطني في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٧١ . وقد دعي الى هذا الاجتماع ٢٤٠٠ شخص يمثلون المحافظات في الضفتين . وكان التمثيل موزعا بنسبة النواب عن كل محافظة مضروبا بأربعين ، وكانت كل محافظة تختار ممثليها الى المؤتمر العام(٢٢). وكما ينص النظام الاساسي المؤقت للاتحاد الوطني ، فانه ينبثق عن المؤتمر العام مجلس للاتحاد يتألف من ٣٦٠ عضوا ، بينهم ٢٤٠ عضوا يتم انتخابهم من أعضاء المؤتمر العام ، فيما يتم تعيين ١٢٠ عضوا من قبل الملك ، على ان يكونوا من أعضاء المؤتمر العام . ويظل مبدأ التعيين قائما « الى أن تزول آثار العدوان »(٢٣). وكذلك الحال مع اللجنة التنفيذية العليا ، اذ ينص النظام الاساسي المؤقت للاتحاد على انتخاب ٢٤ عضوا من أعضاء مجلس الاتحاد للجنة التنفيذية العليا ، وعلى تعيين الملك للاعضاء الاثني عشر الآخرين في اللجنة(٢٤). وفي المؤتمر العام الاول ، الذي عقد في الموعد المقرر ، جرى عرض الميثاق وتم اقراره ، كما اختير الملك رئيسا أعلى للاتحاد والامير حسن نائبا للرئيس . وخلافا لمواد النظام الاساسي السالفة ، فقد كلف المؤتمر العام الملك اختيار لجنة تنفيذية عليا مؤقتة للاتحاد ، الى حين انعقاد المؤتمر العام الثاني في شهر آب ١٩٧٢ ، وفي مطلع كانون الاول ١٩٧١ أصدر الملك قرارا بتشكيل اللجنـــة التنفيذية ، وكانت تتألف من ٣٦ عضوا ، بينهم ستة وزراء ، وعدد من الاعيان والنواب ، وثلاث سيدات(٢٥).

مما مر يتبين دون اي لبس ، انه رغم التصفية الرجعية التي تطبع تكوين الاتحاد ، والتي تكفل وصول ممثلي البيروقراطية الاكثر امتثالا الى المؤتمر العام ، فان الاطارات العليا في الاتحاد ، تخضع لمبدأ التعيين ، الذي يكفل خضوع الاتحاد لكوادر قيـــادية منتقاة ، ومضمونة الولاء . ان الاتحاد الوطني والحال كذلك، ليس اكثر من مؤسسة بيروقراطية، تفتقر الى الحد الادنى من الديمقراطية ، حتى عندما تتعامل الفئة المهيمنة على السلطة مع قاعدتها الاجتماعية .

[٩]

سبق ان أشرنا ، ان الاتحاد الوطني يطرح نفسه ، ليس على انه حزب طبقة أو فئة من هذه الطبقة ، وانما على أساس تنظيم عام لكل المجتمع ، فلماذا يصر على هذا ، في الوقت الذي تعامله الغالبية الساحقة من الجماهير على انه حزب الفئة المسيطرة على السلطة ، ويبدو ذلك جليا في استفسارات المواطنين التي تنصب على علاقة الاتحـــاد بالحكومة القائمة (آنذاك : حكومة وصفي التل) وما هو مصير الاتحاد في حال مجيء

حكومة جديدة ، وما موقف الاتحاد منها .. الخ . ان الاتحـاد الوطني ، شأنه شأن التنظيمات الطبقية كافة التي أقيمت بقرار رسمي من فوق ، وتشكلت بادعاء تمثيلها جميع فئات المجتمع وطبقاته ، بدون استشارة هذه الفئات والطبقات ، وبدون اعطائها حق ارسال ممثليها بالطرق ، التي قدمها التاريخ الانساني : أي أحزابها الخاصة ، لتكون في النهاية اتحادا وطنيا او جبهة وطنية . ان الاتحاد الوطني ، يرفض ذلك ، انه يرفض ان يطرح نفسه كحزب ولا يريد نفسه تجمع احزاب ، انه يريد ان يكون اطارا وطنيا عريضا ، انه ، كغيره من التنظيمات المشابهة في عدد من الاقطار المتخلفة ، يريد ان يضع نفسه فوق الطبقات وخارج الصراع الطبقي . وبحكم ملامح التنور الديماغوجي والانتقائية المبتذلة التي قدمتها العناصر المرتدة على ماضيها الحزبي ، الى الاتحاد الوطني ، فانه يعترف **بواقع انقسام المجتمع الى طبقات ويعترف بالاستغلال الطبقي** ، ولكنه ، ولاغراض توطيد سلطة هذه الفئة على الحكم ، يريد أن يحل **هذا الانقسام وهذا الصراع وفاقيا وحبيا** . ويضع الاتحاد الوطني نفسه ــ وفقا للفهم البونابرتي الذي يطرحونه ــ **حكما** بين الطبقات ، ويقول **باذابة الفوارق الطبقية وفقا لمبادىء التضامن الاجتماعي ، التي تعني في شروط الاردن ، اشراف الدولة وتوجيهها لحدود الاستغلال الطبقي ، أي تهذيب هذا الاستغلال وتقنينه من أعلى** . ان الاتحاد الوطني ، بحكم ادعائه السياسي بأنه « اطار عام » للمجتمع ، وبكونه « جبهة وطنية تنصهر فيها كافـة قوى الشعب » ، **لا يطرح مسألة العلاقات بين الاطراف المشكلة لهذه الجبهة او لهذا الاطار** ، كما تبنى عادة الجبهات الوطنية في العالم . وانما يطرح مفهوما **طبقيا** ، يبرر فيها **احتكاره للسلطة « باسم المجتمع »** ، وهذا المفهوم يعبر عنه في ميثاق الاتحاد الوطني بتعبير « **الديموقراطية الهادفة** » الذي يهذب بصفات اخلاقية مثل « الديمقراطية يجب ان تكون متفتحة ، تقوي أواصر المحبة والاخاء ، تزيل آثار الهدم وتعزز أفكار البناء ، بعيدة عن الارهاب الفكري ، ايجابية ، هادئة ، موضوعية .. الخ » . بيد ان الهدف الحقيقي ، الكامن وراء مثل هذا التعبير الديماغوجي ، هو احكام سيطرة الاتحاد الوطني واركانه ضمن النظام ، على السلطة ، وقمع الافكار والتيارات الاخرى التي تتباين بهذه الدرجة او تلك عن افكار الاتحاد ونهجه . اذ يرى الميثاق ان حرية التعبير عن الافكار والمعتقدات في البلاد ، تتم « وفق **روح** الميثاق وفي النطاق المحدد للديمقراطية الهادفة » . ومن اجل هذا الغرض ينص الميثاق على « **رعاية** الديمقراطية الهادفة و**خلق مدارسها ومؤسساتها** بصبر وعزم وايمان »(٢٦) .

ان هذه الفئة الاجتماعية ، المعبر عنها تنظيميا وسياسيا في الاتحاد الوطني ، بحكم طرحها لنفسها كاطار للمجتمع ، ولكل الطبقات والفئات ، كانت مضطرة لان تطرح نمطا معينا من الدعاوة الايديولوجية ، وبرنامجا مختلفا ، **يمس جميع الفئات والشرائح الطبقية في المجتمع** ، اي انها اقامت تعديلا نوعيا على نمط علاقة النظام بالجماهير وبالطبقات كافة . فالنظام مارس تاريخيا ، سلطته استنادا **لحق مطلق أخلاقي وديني** ، وثبت هذه السلطة وعززها **بالقمع** ، وخاصة تجاه الطبقات الدنيا والمتوسطة من المجتمع . وكانت سلطته تستند غالبا الى تحالف الشرائح الطبقية العليا مدعومة ومسنودة من البرجوازية والقوى التقليدية . ولم تكن ثمة أرضية للتعايش مع الطبقات الادنى ، **التي لم يكن بوسع النظام بحكم نمط العلاقات السائدة والنظام الاجتماعي والاقتصادي السائد أن يلبي أي مطلب شعبي ديمقراطي** . لذلك فان **القمع المباشر والسلطة البوليسية** كانت الاداة الرئيسية لغل الجماهير والقضاء على مؤسساتها . أما اليوم ، فان البرجوازية البيروقراطية وشرائح عصرية أخرى حولها ، تريد ان **تقيم صلاتها مع الطبقات والفئات المختلفة في المجتمع ، على اساس ايديولوجي** ، عوضا عن ارتكازها الى السلطة القمعية . وتريد أن تنشر مناخا ايديولوجيا ، يعزز **دور الدولة** ، ليس بوصفها أداة قمع بيد طبقة ، وانما

بوصفها جهازا فوق الطبقات ، ومنزهة عن التناقضات الطبقية والاستغلال الطبقي ، وأداة اصلاح وحكما عادلا يسترشد « بمبادىء التضامن الاجتماعي » . كما انها تطرح الاتحاد الوطني ، على انه الاطار السياسي **لجميع الطبقات والفئات الاجتماعية** ، ومن خلال مشاركة الجماهير ، في الاتحاد ، فانها تشارك في السلطة في توجيه الحكم ومراقبته. ومن هنا ، فان البرجوازية البيروقراطية والشرائح المحيطة بها ، تريد ان تقيم حكما استبداديا مستنيرا ، يعقلن النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، عبر النخبة البيروقراطية العصرية المتنورة ، التي تضع نفسها خارج العراك ، وخارج حلبة الصراع الاجتماعي . وهي بصدد ذلك ، بمقدار الترميمات التي تجريها على النظام السياسي وعلى نظام الانتاج ، التي تعزز سلطة الدولة في الاشراف والتوجيه والتخطيط المركزي ، فانها تسعى الى **احداث تعديل على قاعدة النظام الاجتماعية ، يطمح الى ادخال فئات جديدة** ، وحصر الفئات المنافسة (البرجوازية التجارية والملاك العقاريين) . ان خرق الاتحاد لقاعدة النظام التقليدية والتوجه نحو فئات متوسطة ودنيا ، لا يمكن ان يتم دون تبني اصلاحات معينة تساعد على تحرير أوهام هذه الفئات حول امكان تحقيق النظام لمطالبها . بيد ان هذه الاصلاحات انما تتم وتجير لصالح تعزيز السلطة السياسية للبيروقراطية وحلفائها ولا تصاحبها حريات سياسية وديمقراطية وانما على العكس ، وبالتالي فانه ليست هناك ضمانات لتحقيق هذه الاصلاحات . ان قطاعات مهمة ، في **الريف الاردني ، وفئات اخرى من البرجوازية المتوسطة والصغيرة الشرق — اردنية في اجهزة الدولة والقطاعات المرتبطة بها** ، جرى تعزيز مخاوفها بعيد قتال أيلول انها كانت مستهدفة من المقاومة ، باستهدافها للدولة ، وقد جاء الاتحاد الوطني ورموزه القيادية في الحكم ، لتعزز هذه المخاوف ، **بدعوتها لان تلعب دورا سياسيا في دعم النظام الراهن** ، الذي هو حامي مصالحها . لذلك فان الاتحاد كان نشطا للغاية في مناطق **شمال الاردن** على نحو بارز ، كما منحته **الانتلجنسيا الاردنية** ، العصرية في المدن دماء جديدة ، واعطت الحكومة طابعها المتقدم عن الحكومات السابقة .

[١٠]

في الفترات التي يزداد الصراع الاجتماعي ، في بلد من البلدان ، وعندما تصبح الازمة الثورية ناضجة ، فان الرجعية لا تستطيع ، عشية انتصار الثورة ، ان تعيد تقديم نفسها ، كما عرفتها الجماهير سابقا . ذلك ان المد الثوري ، وتطور الوعي والنضج الموضوعي ، تخلق ثقافة وتقاليد متقدمة بين صفوف الجماهير ، وتقدم الشواهد التاريخية ، على ان عودة الرجعية للسلطة يتخذ طابعا جديدا ، اي انها تميل الى تغيير ثوبها ، وتسعى لمحو ذاكرة الجماهير واعادة اعتبارها لذاتها أمامهم . وفي مثل هذه الظروف يتقدم المرتدون ، الذين كانوا في يوم من الايام في صفوف الحركة الجماهيرية ، ثم تجاوزتهم الحقبة ، ليقدموا للرجعية اثمن الخدمات . فهم الذين يأخذون على عاتقهم تبرئة النظام وتحديثه ، ويمنحون النظام غطاء ايديولوجيا ، يستر عريه الرجعي البشع ، بانتقائية مبتذلة وديماغوجية ، مركبة من ثقافات ومنابع أيديولوجية مختلفة ، توطد للنظام استقرارا وتؤمن له الاستمرار . وبالطبع فان هؤلاء المرتدين(٢٧) لا يقدمون على ذلك تطوعا ، كما ان القوى التقليدية تقبل بهم بطوع ارادتها وبرضاها . ان ما يجعل مثل هذا اللقاء المقيت ممكنا ، هو الحقبة والظرف الموضوعي الحرج لكلا الطرفين . وهذا ما فعله الحزبيون المرتدون ، عبر الاتحاد الوطني ، حينما قدموا للنظام « نظريته الجديدة » عن **الطريق الثالث** . يقول ابراهيم الحباشنة « لقد تبنى ميثاق الاتحاد الوطني **نظرية جديدة** ، هي نظرية الطريق الثالث في البناء الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي ، وكان من الجرأة حقا ان يتبنى الاردن **نظرية خاصة** به في هذا العالم الذي تتقاذفه نظريتان ، تتبناهما دول عظمى تؤثر في مصير الشعوب تأثيرا مباشرا . وما زالت دول عديدة في

بلدان آسيا وافريقيا ، التي تحررت حديثا ، تتلمس الطريق الثالث ، لكنها لم تستطع الوقوف على قدميها امام النظريات العالمية كالماركسية والرأسمالية . والطريق الثالث في مفهومنا يرتبط بتراثنا العربي المادي والروحي ويستند الى اعماق فلسفة هذا التراث، ويشتمل على نظرية التوازن الاجتماعي والاقتصادي والثقافي الفردي والجماعي » . اما نظرية التوازن فيوضحها الحباشنة على النحو التالي : « مفهوم التوازن في تراثنا مفهوم أصيل وعميق (...) وتعتمد من الناحية الفيزيائية على الابعاد المتساوية في حركة الفرد ضد المجتمع ، وحركة المجتمع ضمن المجموعة الانسانية ، وتعتمد على محصلة القوى المتصارعة في مختلف المجالات ، وعلى نقيض النقيضين في الصراع الاجتماعي ، وهذا يرسم لها مسارا متوازيا بفضل تدخل الانسان الذي لا يقف متفرجا على حركة التطور الحتمية والعفوية (...) لذلك من هنا يبدو اختلاف الاتحاد بمفهومه عن الحزب السياسي ، لان موضوعه هو الشعب بأسره ، وليس فئة من فئاته او طبقة من طبقاته »(٢٨). ان ما مر ، يوضح طبيعة التحول في لغة النظام ونهجه وطبيعة الغطاء الايديولوجي الذي يقدمه المرتدون . وفي افتتاحية لصحيفة النظام الرسمية « الرأي » قالت : « ان الميثاق الاردني الذي استقى مباده ونظراته ، من الواقع المرير الذي تعيشه شعوب العالم الثالث ، أوضح الطريق الثالث لهذه الشعوب في مواجهة **الطغيان الرأسمالي او الديكتاتورية الشيوعية** » . وعادت ذات الصحيفة في عرضها لندوة خصصت لشرح مبادىء الاتحاد الوطني لتكرر انه « يطرح نظرية جديدة للعمل الاجتماعي والاقتصادي والتنظيمي بصورة عامة ، **معتمدا على تجربة الدول النامية** ، وتطلع هذه الدول الى بناء **مجتمعات خالية من التناقضات الطبقية** » .

[١١]

ان اطروحة الطريق الثالث ، التي يقدمها منظرو الاتحاد الوطني ، على انها نظرية خاصة وجديدة ، وكتجربة رائدة وفريدة للتطور ، تعبر عن نفسها في الميثاق الوطني ، كبرنامج للنظام وكغطاء ايديولوجي على النحو التالي : **على الصعيد السياسي العربي** ، يحدد الميثاق التناقض الاساسي في المنطقة العربية ، على انه التناقض مع العدو (الصهيوني) ، ويراه **التناقض الأساسي الوحيد** . « ومن هنا فان جميع الاقطار العربية مدعوة للوقوف صفا واحدا ضد الخطر المشترك ، وهذا يستلزم بالضرورة حشد جميع الطاقات العربية وحل الخلافات بالحوار الهادىء ، والتزام المواقف المسؤولة والتعاون الاخوي الايجابي »(٢٩). ويستتبع هذا الفهم للتناقض في المنطقة الدعوة لحشد القوى العربية وتنسيقها وتوحيدها في خط المجابهة مع العدو ، منعا لانفراده بضرب كل منها على حدة . ويدعو الميثاق الى وحدة خط المجابهة السياسية ، ووضع سياسة خارجية موحدة للدول العربية و « نبذ المعارك الجانبية بين الدول العربية ، بسبب تباين انظمة الحكم ، او اية خلافات اخرى » . ووفقا للمنظور المار ذكره ، فأنه لا وجود لتناقض اساسي اخر في المنطقة ، كالتناقض مع الامبريالية واستنزافها للثروات العربية . واغفال العدو الامبريالي ، كعدو اساسي ، يضع كل دعاوات الاتحاد الوطني ، عن التقدم والتحرر الوطني ، في موضعها كديماغوجية سافرة . وبصدد وحدة القوى العربية ، فأنها في الميثاق تؤسس وتستند الى ارضية النظام الاردني ، ويضعها خاضعة لاشتراطات الرجعية ، التي تتحدث عن الوحدة والتضامن ، وتمارس سياسة انقسامية واقليمية وانفرادية ، وتدعو الى نبذ المعارك الجانبية ، وهي تعني دعوة القوى العربية لغض النظر وتمرير التجاوزات الوطنية والتنازلات المقدمة للعدو مقابل مصالحها الذاتية الضيقة . ان الميثاق يذهب الى حد وضع نموذج سياسي جديد للوحدة العربية فيقول : « **ولما كان العديد من الاقطار العربية الشقيقة تمر في المرحلة نفسها التي يمر بها الاردن، وتجابه مشاكل داخلية وخارجية متماثلة ، ونظرا لأن المرحلة التي نجتازها تتطلب**

بالضرورة قيام اتحادات وطنية تنطلق من واقع يماثل واقعنا ، فان الاتحاد الوطني الاردني سيعمل على توثيق العلاقات مع تلك التنظيمات على اختلاف تسمياتها ، بمختلف الوسائل لاعتقادنا بان هذا هو المنطق السليم نحو اتحاد الدول العربية ووحدة الامة العربية » . ان المنظور الاردني للوحدة بين الدول العربية ينطلق من الدعوة لتعميم التجربة الاردنية ، والتجارب الاخرى المشابهة في عدد من الاقطار ، اي قيام اتحادات وطنية ، لا تستند الى تقاليد التحالفات الطبقية في جبهات وطنية ، تسودها علاقات ديمقراطية ، وقوانين التضامن مع النقد . وهو اذ يجد في التحولات الرجعية واليمينية في المنطقة العربية تغطية له ، فانه يجد الشجاعة الكافية لدعوة هذه الاتحادات على **اختلاف تسمياتها** لتوثيق صلاتها . باتجاه تعميم القمع الرجعي ، واخضاع جميع الطبقات لسلطة الطبقة السائدة ، اي طبقة برجوازية الدولة والبيروقراطية .

وعلى **صعيد السياسة الخارجية** ، فان الميثاق يروج لمفهوم برجماتي نفعي في الموقف السياسي ، يعبر في الشروط الموضوعية الراهنة ، عن تبرير لسياسة الارتماء في احضان الامبريالية ، تحت شعارات وتسميات مختلفة . فالميثاق يدعو الى « **تفهم السياسة الدولية والتناقضات الدولية الاقتصادية والسياسية** ، وفي ضوء ذلك اتخاذ المواقف المناسبة لمصلحة القضية ، والابتعاد ما امكن عن التشنجات العقائدية والجمود خلف الشعارات ومواقف المزايدة السياسية » . ويستتبع الميثاق ذلك بالقول « ان المصلحة الاقتصادية الوطنية تحدد الاولويات في تعاملنا مع الدول الاجنبية بغض النظر عن انظمتها الاجتماعية » . وفي الفقرة الاخيرة نجد كمية مذهلة من الابتذال الديماغوجي ، فمن الواضح ، وخاصة في شروط الاردن العيانية ، ان ما يحدد اولويات التعامل مع الدول الاجنبية ، ليس المصلحة الاقتصادية الوطنية فقط ، وانما بالتحديد ، مدى استقلال هذا القطر او ذاك او تبعته الاقتصادية (ومن ثم السياسة) الامبريالية ، ومن هنا ففي حالة الاردن ، فان الامبريالية هي تقرر ، ذلك ان اعتماد ميزانية الدولة ، في قسمها الاعظم ، على المساعدات الاميركية والامبريالية عموما، لا يترك لايديولوجي الاتحاد الوطني فرصة تمرير هذه الترهات . ومـا من شك ، في ان مرتدي الاتحاد الوطني ، لو رجعوا الى محفوظاتهم بامانة ، لاعادوا صياغة الفقرة السابقة على النحو التالي « **ان المصلحة الاقتصادية للشرائح والفئات الطبقية السائدة تحدد الاولويات في التعامل مع الدول الاجنبية بغض النظر عن انظمتها الاجتماعية** » ، ذلك ان مصالحها ، وليس المصلحة الاقتصادية الوطنية هي التي تبرر ارتماءها في احضان الولايات المتحدة والمانيا الغربية وبريطانيا » . بالاضافة الى ما مر ، هناك بنود حول الموقف من القضايا الدولية ، تتحدث عن احترام السيادة الوطنية لسائر الشعوب وحقها في تقرير مصيرها واختيار انظمتها بحرية ، وشجب التدخل الخارجي لفرض نظام معين بالقوة . ودعم تحرر الشعوب في صراعها ضد الاستعمار ، رفض سياسة التبعية والاشتراك في احلاف وتكتلات ومحاور سياسية عدوانية .. الخ . ان البنود السابقة لا تحتاج الى تعليق ، فكل بند منها قد اسهم النظام بخرقه عمليا ، وبطرق مختلفة . ان خدمات النظام ، وعلى راسه رموز الاتحاد الوطني ، للثورة المضادة في الخليج وعمان ، من تسليح وتدريب وخبراء ، نموذج راهن للموقف الاردني الواقعي .

وعلى صعيد السياسة الداخلية ، سبق ان اشرنا الى موقف الاتحاد الوطني من الحكم ونموذجه للديموقراطية . ونضيف فقرة من الميثاق : « **علاقة الاتحاد بالحكم تنطلق من الايجابية ، يتعاون مع الحكم بقدر ما يتحرك الى الامام ، وفق مبادىء الاتحاد ، دون التأثر بتبدل الاشخاص والاسماء** » . ويدعو الميثاق الى تنسيق جهود جميع قوى الشعب العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وفق مبادىء الميثاق للعمل والكفاح في سبيل تحرير الوطن المحتل ومجابهة تحديات التنمية والتقدم ..

اما على الصعيد الاقتصادي ، فان الميثاق يتحدث في برنامجه الاقتصادي عن الهدف التالي « العمل على اقامة **بنيان اقتصادي** في ميادين الصناعة والزراعة والتجارة والقطاعات المصرفية ، والاجتماعية والخدمات العامة **ضمن اطار الاقتصاد الموجه . ووفق برامج انماء** زمنية محكمة في سبيل اقامة مجتمع اقتصادي متوازن ومستقل مزدهر يستهدف : **تحقيق حد ادنى من الدخل** للمواطن يكفل له الحياة الحرة الكريمة ، **وحد اعلى من الدخل للمواطن يعالجه مسار الاقتصاد الموجه وقوانينه** » . ويقسم اشكال الملكية والاطار القانوني للمؤسسات في جميع القطاعات السالفة الى اربعة اشكال : القطاع الحكومي ، المختلط ، الخاص ، التعاوني . ويرى الميثاق انه من اجل توازن الاقتصاد الوطني ووحدته وانفتاحه ومرونته ، فانه يتطلب ايجاد اقنية دائمة تتصل بين مختلف قطاعاته كوسيلة لتحريك **وحدات اقتصادية من قطاع الى آخر** في ضوء التجربة العملية، وهذه المهمة تمارسها الدولة » . وينص من جهة اخرى على المركزية في التخطيط والبرمجة من اجل وحدة الاقتصاد الوطني ، وعلى اللامركزية في الادارة والتشغيل .

وبصدد القضية الزراعية ، فان الميثاق يضع ضمن اهدافه العمل على تحقيق اصلاح زراعي مرحلي ، تلعب **الدولة** فيه دورا رئيسيا في التخطيط والتوجيه لاستصلاح الاراضي وحماية الاراضي المستصلحة ، على اسس عادلة ومراقبة استغلالها . واعتماد **التعاونيات الفلاحية في الانتاج والتسويق** ، والتوسع في اقامة **المزارع الحكومية النموذجية** ، واعتماد أحدث أساليب الاستثمار الزراعي لتخفيض كلفة الانتاج وزيادة انتاجية الارض . من الاهداف الاخرى ، **توجيه** الانتاج الزراعي **وتنويعه وفقا لحاجات الاستهلاك الداخلي والتصدير ، وبرمجة** هذا الانتاج **وفقا لخطة التنمية العامة** . كما يدعو الميثاق الى تطوير الثروة الحيوانية والانتاج الحيواني ، والتصنيع الزراعي ، واقامة الصناعات الريفية . ويحرص الميثاق على تأكيد **تشجيعه للجهد الفردي والمبادرات الفردية في ميدان** الاستثمار الزراعي ، كما يعمل على **تفويض** اراضي الدولة الزراعية لمن يعملون في الارض .

وكما يلاحظ ، فان حدود البرنامج الزراعي في الميثاق ، ودلالاته العملية ، ليست في مستوى شعار الاصلاح الزراعي ، الذي يعني في شروط الريف الاردني ، تحويلا في علاقات الانتاج ، بالاضافة الى تطوير الانتاجية تقنياً . ان ما يسمى الاصلاح الزراعي ، يعبر في الحقيقة عن الرغبة في ان تلعب الدولة دورا في التخطيط والتوجيه ، لقيام زراعة رأسمالية قائمة على الجهد والمبادرة الفردية ، وعلى دور للقطاع الخاص بمفرده او بالمشاركة مع الدولة . . كما ان التعاونيات في ميادين الانتاج والتسويق ، هي خطة لتجميع الملكيات الزراعية في وحدات اكبر ، والتجربة تعلمنا ان هذه التعاونيات ، بدون وجود تشريع يحمي الفلاحين الصغار ، تعني هيمنة الملاك الزراعيين الكبار على التعاونية . ومن جهة ثانية ، فان توجيه الانتاج الزراعي وبرمجته على الرغم من انهما شعاران متقدمان على الصعيد الاقتصادي ، من حيث انهما يؤديان الى زيادة الانتاجية ، وتحسين التربة واستصلاحها ، واخضاعها لضرورات التسويق المحلي والخارجي ، الا انهما يعنيان عمليا ، الحاق الدمار الاقتصادي في الفلاحين الصغار الذين سوف يواجهون اختيارا صعبا ومؤلما بين ان يخضعوا زراعاتهم لتوجيه الدولة ولخطة التنمية ، واما ان يعمدوا الى بيع الارض ، ويتحولوا الى بروليتاريا ريفية وعمال زراعيين بدون ضمانات وتسهيلات .

ان الاطار العام للبرنامج الزراعي في الميثاق ، هو **اطار تقني محض ، لا يستهدف تحسين اوضاع الفلاحين بقدر ما يستهدف تحسين الانتاجية الزراعية** ، ومن ثم لا حديث عن تحديد السقف الاعلى للملكية ، فيما يعنى البرنامج بتجميع الملكيات الصغيرة ، اما في تعاونيات تؤول حتما ، الى سلطة الملاك الزراعيين الاكبار ، او بدفع الفلاحين الصغار

والمتوسطين الى بيع اراضيهم ، لانهم ، وبحكم اعتماد غالبيتهم على الزراعات التقليدية او زراعات الاكتفاء الذاتي ، غير مؤهلين لاخضاع نمط زراعاتهم للخطة او تمويل هذه الزراعات . ومن ثم فان المحصلة الرئيسية للبرنامج هو خلق استثمارات راسمالية في الريف ، وتطوير الزراعات التصديرية ، واقامة المزارع الحديثة ، وصناعات زراعية وريفية بالمبادرات الخاصة . ومن جهة ثانية ، فان الدولة تتحدث عن « تفويض » اراضيها للمزارعين . وفي حديث لابراهيم الحباشنة يقول « **ان هناك بعض الملكيات الكبيرة ، التي سيعمل الاتحاد على توزيعها على المزارعين ، والذين يتوجب عليهم استغلال الارض على الوجه المطلوب ، والا فستنزع ملكيتها منهم ويعاقبون ..** » . ان مبدأ التفويض هو مبدأ تقني واقتصادي محض ، وله طابع المشروع الاقتصادي الخاص، وان كان في اطار الخطة والتوجيه ، وفي مثل هذه الحالات ، فان التفويض يكون موجها لاشخاص تثق الدولة بقدرتهم الاستثمارية ، اي انه سينتهي الى صالح الملاك الزراعيين الكبار .

وفي القطاع الصناعي ، كما في القطاع المصرفي والبنكي ، فان الدولة تمارس مبدأ التوجيه ، وتحدد شكل الملكية للمؤسسات في هذين القطاعين على النحو التالي : مؤسسات حكومية ومؤممة(٣٠) ، ومختلطة وخاصة وتعاونية . ويخضع الميثاق المؤسسات الصناعية لضرورة مراعاتها الامور التالية : الخطة السياسية الاقتصادية للدولة ، المنفعة العامة ، الكفاءة والجدوى الاقتصادية تحقيق الحد الاعلى من الانتاجية، مراعاة تقسيم العمل في مختلف اجزاء الاردن ... الخ . وبكلمة اخرى فان الميثاق يخضع الانتاج الصناعي لمواصفات الترشيد الاقتصادي من حيث الكفاءة الانتاجية بمراقبة الدولة واشرافها ، لكن الميثاق لا يتحدث عن **استثمارات الخامات والمعادن في البلاد ، ولا عن تحويل نوعي للصناعة من صناعة استهلاكية ، يغلب عليها حصة ضئيلة من التصنيع المحلي وتعتمد على مواد وسيطة ونصف مصنعة .**

وبصدد **حقوق العاملين** في المؤسسات الصناعية ، فان الميثاق يتحدث عن **تحديد اجور العاملين** وفقا لحد ادنى معاشي ولمدى انتاجية العامل . وينص على **تعديل الاجور** حسب مؤشرات غلاء المعيشة وارتفاع مداخيل المؤسسات الصناعية . كما يشير الميثاق الى اعطاء العمال في المؤسسات الصناعية **فرص ملكية الاسهم** في المؤسسات من مقتطعات ادخارهم ، **وفرص المشاركة في الادارة والتوجيه** . ويلاحظ ان الميثاق ، يقدم تعديلات اساسية لصالح العمال معيشيا واقتصاديا ، كتحديد الحد الادنى للاجور ، وتعديلها مع ارتفاع تكاليف المعيشة او ارباح المؤسسات . وهذا ينسجم مع خطة النظام لاحداث تحسينات معيشية ومادية ، بهدف امتصاص مطاليب العمال وتدجينهم وتحويل جوهر علاقتهم بالسلطة لتقوم على اساس مطاليب مادية ومعيشية محضة ، وبذات الوقت يجري سحب المزيد من الحقوق السياسية وتقييد الحقوق السابقة للعمال ونقاباتهم ، مثل حق الاضراب ، وطمس اية مكاسب اتاحتها المرحلة الماضية لهم ، وخاصة على الصعيد السياسي(٣١). اما عن فرص تملك الاسهم في المؤسسات ، فان هذا الشعار الديماغوجي ، يذهب الى انعاش اوهام مغلوطة حول امكان امتلاك العمال حصصا من ملكية المؤسسة الصناعية ، وتهدف الى تمييع التناقض الطبقي ، وجعل العمال ينظرون الى المؤسسة الصناعية كمؤسسة « لهم » ، والضرب على وتر التقاليد والثقافة الحرفية التي ما زالت منتشرة بين العمال ، واشعارهم ان تحولهم الى ارباب عمل ، ممكن . وبديهي انه ، حتى في البلدان الراسمالية المتقدمة ، لم يحدث ان تمكن العمال من الحصول على حصص مهمة من اسهم المؤسسات الصناعية ، من اجورهم . اما عن فرص المشاركة في الادارة والتوجيه في المؤسسات الصناعية ، فقد حسم المسألة رئيس غرفة الصناعة الاردنية بقوله ، ان الادارة والتوجيه هي من حق مالكي اسهم

الشركة ، وترك للعمال ، هامش مشاركة في توجيه العمليات الانتاجية داخل المصانع(٣٢). واعلن الميثاق عن سعيه لوضع تشريعات خاصة تعالج مسائل الخدمات الاجتماعية للعمال ، بتمويل مشترك بين الدولة والمؤسسة الصناعية والعمال أنفسهم . كما دعا الميثاق الى تشجيع الرساميل الاجنبية والعربية للاسهام في الاستثمار الصناعي ضمن مبدأ السيادة الاقتصادية للدولة . وتشجيع الصناعات الوطنية لا على اساس **الحماية** فحسب ، وانما على اساس **مقاييس الجودة والدقة** .

وبصدد القطاع المصرفي ، فان الميثاق يدعو الدولة الى الاشراف على عدد من البنوك القائمة — وهي عمليا تحت اشراف الدولة — والى اقامة عدد من البنوك مثل **مصرف التنمية المهنية** ، **مصرف الادخار والتسليف الشعبي** بالاضافة الى المصارف الاخرى مثل البنك المركزي ، مصرف زراعي حكومي ، مصرف صناعي حكومي ، مصرف عقاري . ويردد الميثاق دعوة الحكومة الى الاشراف على اي بنك تقتضي مصلحة الاقتصاد الوطني الاشراف عليه . وانشاء **بنوك مختلطة** ، تسهم فيها الحكومة والقطاع الخاص .

يضع ميثاق الاتحاد الوطني عددا من المبادىء في اشراف الدولة وتوجيهها **للتجارة الخارجية** ، مثل منع التبذير في الاستيراد والاستهلاك ، تشجيع تصدير المنتجات المحلية وايجاد اسواق مستقرة لها ، **كذلك توجيه التجارة الخارجية وفق خطط الانماء الاقتصادي** ، مراعاة سياسة الدولة الخارجية ، **والتبادل التجاري وفقا لمبدأ تبادل المنافع بين الدول وعلى اسس المساواة في التعامل** . ان البند الاخير وبنودا اخرى سالفة ، ليس فيه من الواقعية شيء ، ان التبادل التجاري بين الاردن والبلدان الغربية وخاصة الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا الغربية راجح لصالح هذه الاخيرة ، واسس المساواة في التعامل مجرد شعار للتعمية لطابع الخضوع والتبعية التي يعبر عنها بوضوح الميزان التجاري الراجح بصورة مستديمة للبلدان المصدرة للاردن . وبصدد التجارة الداخلية ، فان الميثاق يضع عددا من الاسس لها ، بهدف تطويرها وعصرنة اساليبها وتقاليدها ، كما تكفل تطور التجارة في الريف .

يحدد الميثاق **واجبات الدولة في ميدان الخدمات والضمانات الاجتماعية** ، فهو يرى ان تؤمن الدولة الخدمات العامة (ماء ، كهرباء ، مواصلات ، ووسائط النقل والسدود وشبكات الري) دون استهداف الربح ، ولقاء بدل مالي مناسب . والعمل على تحقيق مبدأ التأمين الصحي العام ، والتأمين على جميع المواطنين في حالات العجز والشيخوخة والمرض والبطالة بموارد من المال وبقدر من الخدمات ، ويتم ذلك من خلال تنظيم العمل للجميع ، وتنظيم الاقتطاعات من المواطنين لتحقيق ذلك . كما يدعو الميثاق الى تأمين السكن للمواطنين ورعاية الطفولة والامومة .

يفرد الميثاق فصلا خاصا **للبنيان الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية** . يتحدث عن « **الثورة الاجتماعية الهادئة** » ، **التي هي — بنظر الميثاق — تطور دائم وتراكم للايجابيات واقتلاع للسلبيات** . وبصدد التنظيم النقابي كحق عمالي يضع الاهداف التالية : رفع المستوى المعيشي والثقافي والمهني للعمال ، وضع القواعد السليمة لاخلاقية العمل والعمال ، **التعاون البناء بين فئات العمال والمسؤولين في الادارات** والمؤسسات الانتاجية ، الاسهام في معركة التحرير تحت شعار (يد تبنى ويد تقاتل !) ، خلق المناخ المناسب لممارسة النشاطات وتنمية العمال ذهنيا وجسديا . ويشير الميثاق الى ان العمال الزراعيين **جزء من القطاع العمالي** تجب رعايته ، ويدعو الى ضرورة تطوير الريف ، لمنع هجرة الايدي العاملة الفلاحية ، ودعم الانتاج الزراعي بتعميم الصناعات اليدوية والريفية . كما يدعو الى **تطوير قطاع البدو الرحل وتوطينهم وتامين الخدمات لهم وتأمين العمل لابنائهم وفق الخطة العامة للدولة** . ولعل ابرز بنود هذا الفصل ، هو البند المتعلق بالفوارق بين فئات المجتمع ، حيث يحدد الميثاق عددا من المواقف . فيقول : « ١ — **لا ينكر وجود تناقض**

بين فئات المجتمع وفي جميع مراحل التطور الاجتماعي • ٢ — لا ينكر وجود اشكال من الاستغلال الطبقي في مختلف المجتمعات • ٣ — استغلال المواطن لاخيه غير مقبول ولا يجوز تبريره • الا ان هذا التناقض لا يبرر بأية حال الدعوة الى اباحة الدم ، والقتل الفردي او الجماعي • ٤ — ازالة الفوارق بين فئات المجتمع يتحقق بالتعاون وفق مبادىء التضامن الاجتماعي ، والقواعد السليمة في تقييم انتاجية العمل ، وتكافؤ الفرص ٥ — التمادي في تقسيم مجتمعنا يقودنا الى المزيد من التجزئة والتمزيق » . ان فهم الميثاق للفوارق الطبقية في المجتمع وطرق معالجتها ، يشير الى اعتراف ضمني ، بتأثير الثقافة المتقدمة بين صفوف الجماهير خلال سنوات ما بعد الحرب ، وبالتالي فانه يقر بواقع وجود تناقضات اجتماعية واستغلال طبقي ، بيد ان الميثاق يحل هذه المسألة على طريقته ، اي حلا برجوازيا ، « مبادىء التضامن الاجتماعي » ، ونجد في الفقرة التالية المتصلة بالسياسة الضريبية استكمالا لحلول الميثاق للفوارق الاجتماعية ، اذ يرى ان الضريبة موجهة **لمعالجة التناقضات الاجتماعية والاقتصادية بصورة هادئة ، ولمنع التمركز الاستغلالي لرأس المال ، واتباع سياسة تطورية لتوزيع الثروات توزيعا عادلا ومثمرا ، يحمي المبادرة الفردية وحق التملك الفردي من جهة ، ويراعي مصلحة الدولة والجماعة من جهة ثانية ، كما تمد الدولة وميزانيتها بالايرادات التي تساعدها على مجابهة خدماتها التضامنية وحاجاتها المتزايدة .**

تحظى **الادارة والاصلاح الاداري** باهتمام من الميثاق ، فيفرد لها فصلا خاصا ، وينصرف القسم الاول منه في الحديث عن امراض الادارة في الاردن ويبسطها على النحو التالي : نقص الانتاج وضعف الشعور بالمسؤولية ، الرشوة والفساد ، انعدام المبادرات ، والروتين ، تضخم الاجهزة باستمرار ودون حدود ، عدم وضوح الصلاحيات والاختصاصات ، فوضى توزيع الدوائر الحكومية ، تخلف ادوات الادارة ، وخلل القواعد المطبقة في تقييم الموظف وعرقيته ، وانعدام التأهيل والتثقيف لدى اغلبية الموظفين . اما القسم الثاني فهو يتضمن عددا من الاسس التي يراها الميثاق كفيلة بمعالجة هذه الامراض منها : وضوح برامج التطور الاقتصادي والاجتماعي ، توجيه التعليم وفقا لحاجات التطور في مختلف مجالات العمل ، الاستخدام في دوائر الدولة ومؤسساتها وفقا لحاجاتها ، وليس للاعاشة او لحل مشكلة بطالة ، توزيع الابنية الحكومية تسهيلا لسير المعاملات ، تطعيم ادوات الادارة بالالات لتوفير السرعة والدقة والرقابة .

بالاضافة الى ما مر ، هناك بنود اخرى في الميثاق ، تعالج مسائل تفصيلية مثل التعليم واللغة ، الالتزام بالنهج العلمي ، المرأة في المجتمع ، الجريمة ، الخ لا يمكن تغطيتها هنا. كما ان هناك فصولا في الميثاق ، لا تتضمن اية اهمية ، مثل الفصلين الاول والثاني ، المغرقين في الرجعية ، انهما بمثابة خلفية تاريخية ومقدمة تتناول التاريخ الحديث للمشرق العربي ومن ضمنه الاردن ، يلخصان تاريخ حركة التحرر الوطني على انها سلسلة من الاخطاء والانحرافات عن الخط القومي القديم الذي مثله الشريف حسين وحركته ، لاتجاهها لتبنى **فلسفات ونظريات سياسية واجتماعية غربية ومستوردة .** ان هذين الفصلين ، وفصولا اخرى ذات صبغة ايديولوجية وتحليلية ، تنطلق من مواقع النقد اليميني والرجعي الصرف ، يتجه لادانة ما هو متقدم في حركة التحرر العربية ، ومتجدد في بنيتها وايديولوجيتها . ان استخدام المقولات الرجعية (الافكار المستوردة ، الابتعاد عن التراث القومي والروحي .. الخ) واستخدام التراجعات والهزائم وكل ما هو سلبي حقا في النضال التحرري العربي ، لصالح النقد الرجعي ولصالح منطق القوى « الواعية المجربة » ، اي اركان النظام والاتحاد الوطني واضرابهم . ان الفصول ذات الصبغة الايديولوجية والنظرية تقدم دون اية مواربة الطبيعة الرجعية للاتحاد الوطني وموقفه المعادي من الحركة الجماهيرية العربية .

ان الاستعراض المسهب لميثاق الاتحاد الوطني ، كبرنامج وكتعبير ايديولوجي عن نهج البرجوازية البيروقراطية في النظام ، قد قدم تفصيليا ، ماذا يعني منظرو الاتحاد الوطني باطروحة « الطريق الثالث » وما هي دلالته السياسية والاقتصادية والاجتماعية في شروط الاردن الراهنة . وما من شك ان مقارنة الميثاق الاردني بالنماذج العربية والعالمية التي تقدم نفسها « كطريق ثالث » ، سوف تظهر الحدود المتواضعة للنموذج الاردني ، انه كاريكاتور بال ، للنماذج الاخرى التي تبحث لنفسها عن مكان وسط ما بين الاشتراكية والراسمالية . وما يقدمه الاتحاد الوطني ، على انه نظرية خاصة ، وطريق خاص ، ليس الا ابتذالا لمحاولات انجح تمويها ، وان كانت جميعها تعبر عن طبيعة واحدة . ولذلك فان بؤس النموذج الاردني للطريق الثالث ، هو ان تجارب اخرى متقدمة بدرجات لم تفلح في ان تصمد امام معطيات التاريخ الواقعي الذي لم يقدم مثل هذا الطريق الثالث، وهذه التجارب ، على الرغم من انها تسلحت بسلاح التأميم ، وتملك وسائل الانتاج بهذا القدر او ذاك ، وعلى الرغم من انها اقامت الاقتصاد الوطني على التخطيط المركزي . فانها لم تقدم سوى نموذج لرأسمالية الدولة . وما يعبر عنه الميثاق الاردني ، ليس **الا محاولة لاخفاء مزيد من العقلنة والتحديث على اساليب الانتاج ، ولا يغير من جوهر علاقات الانتاج الرأسمالية ، بل يعززها وينميها برقابة الدولة واشرافها** ، وبالتالي فان مثل هذا الدور للدولة ، يقوي نفوذ البرجوازية البيروقراطية ، بحكم ان تطور القطاعات كافة ، لم يعد متروكا وفقا للنموذج الليبرالي القديم ، الذي اثبت انه لا يرجى منه شيء (برنامج السنوات السبع) ، والذي عزز قناعة البرجوازية البيروقراطية ان البرجوازية الوطنية ، بفئاتها كافة ، ليست مؤهلة لان تلعب دورا فعالا في تنمية الاقتصاد الوطني وتطوره . ومن ثم فان جوهر التحول يكمن في ان البرجوازية الوطنية ، باتت تحت رقابة البيروقراطية في استثماراتها وهي خاضعة بهذه الدرجة من الصرامة او تلك للخطة العامة ، كما أن البيروقراطية طورت نمط علاقتها بالانتاج ، بأن لم تكتف بالدخول مع القطاع الخاص في مشاريع مشتركة فقط ، وانما باتت تتطلب دخولا مباشرا ، وبمؤسسات حكومية صرفة في عدد من القطاعات، كما اخذت الدولة تشجع أنماطا اخرى من الاستثمار (التعاونيات الزراعية والاستهلاكية والتسويقية ، مصرف التنمية المهنية، مصرف للادخار والتسليف . . . الخ) ، كل هذا مع استمرار قدسية المبادرة الفردية والمشروع الحر ، وعدم الاعتداء عليها . ان البرنامج الذي يقدمه الميثاق ، رغم كل الديماغوجية الانبهارية ، لا يغير من جوهر علاقات الانتاج ، وأنما يتوجه نحو استدامتها على اسس اكثر عقلانية ، **انه يبحث عن انتاجية نامية ، وعن ادارة حديثة ، وزيادة في المردود الحكومي** . وبتعبير اخر انه يقدم **حلا فنيا وتنظيميا جديدا** لبث الروح في نظام الانتاج السائد . ويمكن اختصار عناصر هذا التحول فيما يلي :

١ ــ تطوير الريف رأسماليا وتخليصه من الطابع الانتاجي السابق ، الذي يتميز بتفتيت الملكيات الزراعية ، وفوضى انماط الزراعات ، وتوجه حصة كبيرة منها للاكتفاء الذاتي، قلة الكفاية الانتاجية للارض والمزارعين . ويتم ذلك من خلال : أ ــ اصلاح زراعي يتمثل في توفير تسهيلات تقنية وشبكات ري وسدود وحماية التربة ، ومسح للارض الزراعية . ب ــ تجميع الملكيات الزراعية الصغيرة على شكل تعاونيات فلاحية ، واغراء الفلاحين بالتجميع عن طريق اقامة مزارع نموذجية حكومية ، وهذا يعني ان الفلاحين سيواجهون اختيارات محددة مثل التجميع او بيع الارض ، وهذه تعني تحويل الفلاحين الصغار الى عمال زراعيين واقامة مزارع رأسمالية كبيرة . حـ ــ التعاونيات على مستوى التسويق تتطلب التجميع على مستوى الانتاج (في الملكيات الزراعية) ، وهذا الاتجاه يدفع لازدياد سيطرة التسويق الرأسمالي . د ــ برمجة الانتاج الزراعي

وفق خطة التنمية العامة ، تعني ان الملاك الصغير لا يعود بوسعه ان يختـــار الزراعة التي يريدها ، وهو مبرر لسياسة التجميع، بالرضى او الاكراه او بحكم قوانين السوق. هـ ــ التوسع في الصناعات الزراعية وتوجيه الانتـــاج الزراعي والصناعـــات الريفية وتشجيع المبادرات الفردية في ميدان الاستثمار الزراعي،هي عناوين لاغراء الاستثمارات الرأسمالية للعمـــل في الزراعة ، ولزيـــادة تدخل الدولة معا . ٢ ــ تدخـــل الدولة في الصناعة ، يتجاوز مجرد الاسهام الحكومي في رأسمال المؤسسات الصناعية ، لاغـــراء القطاع الخاص ولطمئنته على نجاح المشروع الصناعي . ان الميثاق ينص على اقـــامة مؤسسات صناعية حكومية صرفة ، واخرى تعاونية . وفي الوقت نفسه يتيح المجـــال للاستثمارات الاجنبية والعربية ويضع التشريعات التي تكفـــل باغراءها . ٣ ــ تنظيم التجارة الداخلية على اسس السوق الرأسمالي وقوانينها ، وازاحة قيم التبادل السائدة والتي يحكمها الكثير من القوانين والاعراف القديمة ، وزيادة صلة الريف بالمدن عن طريق التجارة والتقليل من طابع الاكتفاء الذاتي الذي يسود في اجزاء من البلاد . ٤ ــ توطين البدو ، وتقديم الخدمات الكفيلة باستقرارهم ، وربطهم بوسائل انتاج جديدة وخـــاصة الزراعـــة . ٥ ــ اقامة نظام خدمات عامـــة واجتماعية وصحية وضمانات ضد المرض والعجز والبطالة ، وتحسين الاجور وضبطها بالنسبة للعمال ، بمشاريع الدولة والقطاع الخاص والعمال . ٦ ــ زيادة التحصيلات الضريبية ، وتعزيز واردات الدولة من هذه التحصيلات . ٧ ــ زيادة فعالية اجهزة الدولة وتطوير انتاجية الكادر الحكومي .

ان هذه الترميمات والاصلاحات ، التي تعبر عن ازديـــاد سلطة الـــدولة في التخطيط والتوجيه والاشراف ، والدخول المتزايد في العمليات الانتاجية بصورة مختلطة مع القطاع الخاص ، وبصورة تدخل حكومي صرف في الانتاج ، ترافقها سياسة داخلية متشددة ، تعبر عن رغبة اركان الاتحاد الوطني في النظام باحكام القبضة على الجماهير ، من خلال التنظيم الموحـــد ، وتقنين الحقوق السياسية في اطار الاتحـــاد الوطني ، وعزل القوى الاخرى ، كما يترافق مع هذا الاتجاه ، سحب كلي لجميع التشريعات التي كانت تتضمن لمسات ليبرالية ، وذلك على الصعيد النقابي العمالي ، وعلى الصعيد النقابي المهني ، وفي الصحافة ، وبين الطلبة وفي السياسة العربية للاتحاد الوطني ، فان الميثاق ازاء حالة الحصار العربية ، يقرر مبادىء مثل نبذ المعارك الجانبية ، وحصر التناقض في المنطقة مع العدو الصهيوني ، وهي بنود ، تعبر عن مصلحة النظام في اطلاق يده داخلياً وعربيا، بدون كوابح تحد من حركته . كما تؤسس السياسة الخارجية في الميثاق ، على قاعـــدة براجماتية نفعية ، تؤدي الى تعزيز الصلات مع الامبريالية واستمرار الاعتماد عليها .

[١٣]

ان النموذج ، الذي يقدمه الاتحاد الوطني عبر ميثاقه ، للطريق الثالث ، يقارب الى درجة كبيرة النموذج التونسي الذي عبر عنه احمد بن صالح بوجه خاص ، في وضعه برنامج يكفل تدخل الدولة ، والحـــزب الدستوري المكيف « اشتراكيـــا » . ان ملامـــح كثيرة مشتركة بين البرنامجين الاردني والتونسي ، وخاصة في البرنامـــج الزراعي وسياسة التجميـــع واقامة التعاونيات الزراعية ، التي كـــان عمادها البيروقراطية . ان الفارق الوحيد ، هو ان البيروقراطية الاردنية مـــا زالت في طور الشروع في برنامجهـــا ، فيما اعطت التجربة التاريخية حكمهـــا الحاسم بحق النموذج التونسي . والـــذي عبر عنه السقوط المريع لسياسة التعاونيات ورمزها احمد بن صالح . اما وصفي التل ، فانه لم يعط قط فرصة انتظار فشله المحتوم ، كما اخذها احمد بن صالح ، فقد سقط صريعا مع التأسيس الرسمي للاتحاد الوطني في مؤتمره الاول . وترك لورثة برنامجه مثل هـــذا المصير . ذلـــك أن رهان اركان الاتحاد الوطني ، عـــلى البيروقراطية الادارية والجهاز اللجب من الموظفين ، لمـــزيد من التحديث في الانتـــاج ، ولمـــزيد من المردود في جميـــع

القطاعات ، امر مشكوك فيه . ان خيبة امـل البيروقراطية في البرجوازية الوطنية وفي الليبرالية الاقتصادية ، **يماثل خيبة املنا في البيروقراطية نفسها** . ان التجربة التونسية والمعرفة العيانية بطبيعة البيروقراطية جهاز الموظفين الحكوميين في الاردن ، تقدم لنـا صورة المستقبل . فالميثاق عندما يعترف بامراض الجهاز الاداري ، فانه انما يتحدث عن **امراض بنيوية** ، وليس عن عيوب فنية ، ومثل هذا الجهاز ، الـذي يتعرض موضوعيا وبشكل مفتوح الى مزيد من التعفن والفساد والرشاوي ، لن يكون قادرا على زيـادة الانتاجية وتطويرها ، ما دام هو نفسه — اي الجهـاز الاداري — محكوما بذات الداء (ضعف الشعور بالمسؤولية وضعف الانتاجية ، باعتراف الميثاق) . ان مثل هذا الجهاز ، مع اطلاق يده ، واعطائه مزيدا من الصلاحيات ، لن يفعل اكثر مما ينتظر منه ، فسوف تنمو امتيازاته ، وستنتفخ اكثر فأكثر ، وستضاف الى هذه الامتيازات المرتبطة بالوظيفة الادارية امكانات النهب المفتوحة امام كل بيروقراطي بعيد عن الرقابة الفعالة .

[١٤]

ان مقتل وصفي التل ، قبل ان تقطع البرجوازية البيروقراطية الشوط الضروري لتثبيت سلطتها ، يفتح الباب امام رياح الفئات والشرائح الاخرى ، التي كانت مكبوحة وصامتة على مضض ، كما ان رهبة البيروقراطية والعسكر الذين ، اخذوا على عاتقهم مهمة تثبت السلطة للنظام ، في مواجهة المقاومة ، لم تعد كافية لالجام الفئات الاخرى من قاعـدة النظام ، ذلك ان مقتل وصفي التل ، الـذي له تأثيره الذاتي الهام ، وازديـاد الازمة الاقتصادية تفاقما ، والقطيعة العربية ، ومسألة استعادة الضفة الغربية ، وكسب ثقة الفلسطينيين ، ما هي الا منافذ تطل منها الاطراف الاخرى في النظام بحثا عن دور تضطلع فيه ، رغبة في استعادة نفوذها السياسي، خطوة بعد اخرى . ان خطة التنمية للسنوات الثلاث ، هي الرهان الاقتصادي للبرجوازية البيروقراطية من اجـل تثبيت دعائمها في السلطة ، وهي وان كانت مهددة باعادة اقتسام السلطة مع رموز البرجوازية التجارية، الا انها تبقى قوة اساسية من قوى النظـام لم يعد ممكنا تجاهلهـا . وستبقى هاجسا مزعجا لبقية فئات النظام ، اذا ما عادت مجددا « بارادة ملكية سامية » الى السلطة .

---

١ — جريدة « **الراي** » الاردنية ١٩٧١/٩/٨ .

٢ — **المصدر نفسه** .

٣ — اشار الملك في احدى خطبه في تلك الفترة الى اهتمـام النظـام بفكرة السماح بتكويـن الاحزاب . ونجـد اشارة مقتضبة عـن توجه وصفي التل لبناء حزب ، في رسالة مراسـل « **النهار** » في عمان ، تحت عنـوان « حـزب حكومي في الاردن : اوصى بفكرته وصفي التل » العدد الصادر في ١٩٧١/٩/١ .

٤ — اوحت تسمية وصفي التل لحكومته الاولى بـ « حكومة الشباب » بوجود صلة ما مع حركة القوميين العرب ، وخاصة مع وجود اسمـاء ارتبطت بالحركـة في وقت مـن **الاوقات** « عبد الوهاب المجالي مثـلا » ومن اسماء الـوزراء « الشباب » الذين جذبهم وصفي التل : الشيخ ابراهيم القطان ، د. حازم نسيبة ، د. قاسم الريماوي .

٥ — جاء البرنامج المذكور « للسنوات السبع » وجملة من التشريعات الاقتصادية ، مثل قانون تشجيع الاستثمار ، وقانون الشركات بمثابـة اقرار لتوصيات خبراء البنك الدولي .

٦ — راجع رسالة وفيق رمضان من قيام الاتحاد الوطني في الاردن في **النهار**، عدد ١٩٧١/٩/١٥.

٧ — يعبر عن كل من النهجين الرموز التالية ، بهجت التلهوني ، عبد المنعم الرفاعي ، (ورشح حكمت المصري ليلعـب دورا رئيسيا لفترة من الفترات) وسليمان النابلسي عن الجناح الداعي للاستناد الى الموقف العربي (وبالذات القاهرة) في اي موقف من المقاومة ، بينما مثـل الجناح الثاني وصفي التل ، والزمر العسكرية البارزة، وفيما بعد برز رياض المفلح ، احمد الطراونة ، من « المتشددين » .

٨ — راجع **الراي** في ١٩٧١/١٠/٣١ .

٩ — في العـدد ٢٣٥٧ من الجريـدة الرسمية

الاردنية (١٩٧٢/٥/٦) نشر ٢٣ قانونا جديدا، وابرزها شمل العمل والعمال ، نقابة المحامين، نقابة الاطباء ، نقابة المهندسين ، الاطباء البيطريين ، اطباء الاسنان ، الممرضين والممرضات ، اي شمل عددا من النقابات العمالية والمهنية .

١٠ ــ من ابرز هذه الاسماء واكثرها تحركا وتنظيرا للاتحاد الوطني : مصطفى دودين (وزير الشؤون الاجتماعية انذاك) ، ابراهيم الحباشنة (وزير الداخلية انذاك) ، عدنان ابو عودة (وزير الثقافة والاعلام) ، محمد الدباس (موظف حكومي كبير) ، سليمان رتيمة (عضو مجلس الاعيان) ، د. سعيد التل (استاذ جامعة) ، نجاح الخياط (تربوية) ، وعدد من الوزراء الاخرين : اميل الغوري (ويتجه عادة الى المخيمات وتجمعات الفلسطينيين) اسحق الفرحان (للمعلمين والتربويين) ، محمد البشير (للصحة) د. خليل السالم (مدير البنك المركزي) ، وهناك عدد من التقنيين والاكاديميين مثل : د. سفيان التل، د. وديع شرايحة ، د. كامل ابو جابر ونواب واعيان اخرون مثل محي الدين الحسيني ، جمعة حماد .

١١ ــ من ابرز هؤلاء : جمال عبيدات (مدير مكتب الاتحاد في محافظة اربد انذاك) ، عبد الله العابد مياس (الرمثا) مني الريض (تربوية) ، فايز جابر (ضابط متقاعد) عصام عريضة ، فايز محمود ، (موظفون حكوميون منتدبون للاتحاد الوطني) .

١٢ ــ ومن نواب الشمال الناشطين انذاك : عبد الله الشريدة ، رزق البطاينة ، فضل الدلقموني ، سليمان القضاة ، (والوزير السابق حسن الكايد) .

١٣ ــ راجع « الرأي » ١٩٧١/١١/١١ .

١٤ ــ راجع **الاسبوع العربي** عدد ١٩٧١/١٠/٢٩

١٥ ــ « **النهار** » ، ١٩٧١/٩/١ .

١٦ ــ « **الدستور** » الاردنية ، ١٩٧٢/٣/١٠ .

١٧ ــ راجع كلمة الحباشنة في احدى الندوات المنشورة في «الرأي» الاردنية عدد ١٩٧٢/١١/٣

١٨ ــ « **النهار** » ١٩٧١/٩/١ .

١٩ ــ « **الانوار** » ، ١٩٧١/٩/١٥ .

٢٠ ــ « **الحياة** » ١٩٧١/١٠/٥ .

٢١ ــ « **الدستور** » الاردنية ، ١٩٧٢/٣/١٠ .

٢٢ ــ « **الدستور** » ١٩٧١/١١/١٥ .

٢٣ ــ « **الدستور** » ١٩٧١/٩/٩ .

٢٤ ــ **المصدر نفسه ، العدد نفسه** .

٢٥ ــ « **الحياة** » اللبنانية ، ١٩٧٢/١/٣ .

٢٦ ــ راجع الفصل الثالث من الميثاق المقترح . « **الدستور** » ١٩٧١/٩/٩ .

٢٧ ــ كان مصطفى دودين وابراهيم الحباشنة في صفوف الحركة الوطنية في الخمسينات ، والاخير كان على صلة وطيدة بالحزب الشيوعي الاردني.

٢٨ ــ راجع حديثا مع ابراهيم الحباشنة في جريدة « **الرأي** » الاردنية ، ١٩٧٢/٦/٢١ .

٢٩ ــ الاقتباس المذكور ، وكافة الاقتباسات الاخرى من نصوص الميثاق معتمدة على النص الكامل للميثاق المقترح المنشور في جريدة « **الدستور** » الاردنية عدد ١٩٧١/٩/٩ ، لذلك لا داعي لتكرار الاشارة الى المصدر .

٣٠ ــ ورد تعبير مؤسسات حكومية ومؤممة في القطاع الصناعي في الميثاق . وبغض النظر عن مدى جدية النظام بصدد التأميم ، فلم ترد اشارات واضحة حول ذلك . وان كان قد ورد تعبير « تحريك وحدات اقتصادية من قطاع الى اخر في ضوء التجربة العملية ، وهذه المهمة تمارسها الدولة » .

٣١ ــ يراجع في هذا العدد قانون رقم (٢٥) لسنة ١٩٧٢ ، قانون معدل لقانون العمل ، الجريدة الرسمية (العدد ٢٣٥٧ ، ١٩٧٢/٥/٦) ص ٨٦٨ ــ ٨٧٣ .

٣٢ ــ راجع حديث رئيس الغرفة الصناعية في عمان الى جريدة **الدستور** الاردنية ١٩٧٢/٦/٣٠

سميرة عزام في ذكراها الخامسة
دراسة في فنها القصصي *

الدكتورة نادرة جميل السراج

ما بين الثالث عشر من ايلول (سبتمبر) ١٩٢٧ والثامن من آب (اغسطس) سنة ١٩٦٧ اقل قليلا من اربعة عقود، هي عمر المرحومة القاصة الفلسطينية السيدة سميرة عزام . لكن الاديب والفنان الحق لا يقاس عمره بعدد السنوات التي عاشها يأكل ويشرب وينام كغيره من بني البشر ، وانما الذي يمنحه الخلود ويثري عمره ويستديم ذكراه هو الانتاج الذي خطه قلمه والاراء التي سجلت عليه ومنحت حياته قيمة وغنى وذكراه طيبا وشذى ، وبالاخص ما كان مطبوعا او منشورا من ذلك الانتاج وتلك الاعمال . وسميرة عزام خلفت بعد رحيلها خمس مجموعات قصصية واكثر من اثني عشر كتابا مترجما من الانجليزية الى العربية ، عدا ما اشرفت على ترجمته أو راجعته من أعمال غيرها من الادباء والمترجمين .

انها لحياة خصبة خيرة معطاء ، لا نستغربها على فتاة خالدة طموحة بدات كفاحها العملي وهي في السادسة عشرة من عمرها ، عندما مارست مهنة التدريس في بلدتها التي ولدت فيها ، مدينة « عكا » في شمال فلسطين . ورغم أنها لم تكن مهيئة تهيئة تربوية كاملة — من حيث الشهادات العلمية والخبرة العملية — الا أنها اثبتت جدارة ومقدرة كاملتين ، ودرست بالمراسلة وطالعت بنهم فرقيت بعد عامين الى وظيفة ناظرة للمدرسة التي بدأت بالتدريس فيها . واستمرت تعمل في مهنتها تلك الى عام الهجرة الفلسطينية أو عام النكبة ١٩٤٨ حين اضطرت الى النزوح مع عائلتها وأهل بلدتها وبقية مدن فلسطين .

لا شك ان الفترة التي ترعرعت فيها الفتاة الصغيرة البريئة « سميرة عزام » كانت متميزة بالحركة والغليان والقلق القومي والوطني على مصير البلاد الذي أصبح في خطر منذ أعطي ذلك الوعد المشئوم في الثاني من نوفمبر عام ١٩١٧ ، واجتاحت فلسطين الثورات المشهورة في الثلاثينات خاصة ، ثم الاربعينات على المستعمر البريطاني والطامع اليهودي ، وانتشرت أعمال العنف في ارجاء البلاد . أحست سميرة بما كان يدور حولها وما تنشره الصحف وتذيعه الانباء ، وتفكرت في كل ذلك بما لها من ذكاء وحدة ذهن وقوة ملاحظة تفوق سنوات عمرها ، فأخذت تعبر عما تحس به وما تفكر فيه وبدأت تعالج كتابة القطع الوجدانية والشعرية والقصص القصيرة ، وسرعان ما ظهرت في جريدة « فلسطين » بعض تلك القصص بتوقيع « فتاة الساحل » التي لم يكن الكثيرون يعرفون

* تود كاتبة البحث ان تشكر الاستاذ اديب يوسف حسن — زوج الفقيدة — على المعلومات القيمة التي بعث بها من بيروت ، وكذلك السيدة عبلا عزام — شقيقتها في القاهرة — على حديثها عن طفولة الفقيدة وبعض الذكريات .

انها بنت عكا « سميرة عزام » . ولست في موقف الحكم على تلك القصص المبكرة من انتاج سميرة لاني لم اقرأها ، ولكنها دون شك بادرة تنبىء عما جاء بعدها ، وتبشر بمولد قصاصة وفنانة من نوع رفيع ظهرت في سماء الادب الفلسطيني ، ويا ليتها عمرت طويلا .

تفرق الفلسطينيون أيدي سبأ ، واتجهت الهجرة شمالا وجنوبا وشرقا ، وربما الى الغرب ايضا .. ولم تكن هجرة مؤقتة كما خيل للفلسطينيين وقتها ، أو كما أوحى لهم اولو الامر حينئذ ، بل كان واقع الحال ان مرحلة جديدة من حياتهم قد بدأت ، ولا يعلم أحد متى تنتهي أو متى تكون العودة الى الديار . انها مرحلة اتسمت من اولها بالعمل والكفاح والصبر على المشاق ، والتنقل والترحال ، وما يصحب كل ذلك من قلق واضطراب ، وشعور بالغربة والحنين . واتيح لسميرة ان تعمل في مجال التدريس في مدرسة الاناث بمدينة « الحلة » في العراق ، حيث مكثت عامين عادت بعدها الى لبنان. وهناك باشرت الكتابة لبعض المجلات والترجمة لبعض دور النشر الى أن التحقت عام ١٩٥٢ باذاعة الشرق الادنى مذيعة وكاتبة لبرامج ركن المرأة وأقامت في قبرص مقر الاذاعة في ذلك الوقت ، وبعد عامين انتقلت الاذاعة الى بيروت واصبحت سميرة مسئولة عن ركن المرأة ، واتيح لها وقت أكثر للتفرغ الى هوايتها المفضلة وهي كتابة القصص والترجمة من الانجليزية الى العربية . والى جانب شهرتها كاذاعية معروفة ، ازداد الناس والقراء معرفة بها وبنشاطها حين اصدرت لها مطابع « دار العلم للملايين » مجموعتها القصصية الاولى « أشياء صغيرة » سنة ١٩٥٤ ، ثم تبعتها المجموعة الثانية التي أعطتها عنوان « الظل الكبير » سنة ١٩٥٦ .

وكما هو مقدر للافراد الفلسطينيين الرحل في هذا العصر الحديث ، قدر لسميرة عزام أن تعود الى البلد الذي عرفته أول هجرتها وعملت فيه ، فقبل الثورة العراقية بعام واحد حصلت على عقد للعمل في الاذاعة العراقية ومعها فريق من زملائها في اذاعة الشرق الادنى . لكن الفريق كله وجد نفسه مضطرا الى الاستقالة والعودة الى بيروت قبل مضي ثمانية أشهر من بدء العمل . أما سميرة ففي هذه الفترة تعرفت على شريك حياتها وارتبطت به وتم الزواج في بيروت ثم عادت معه الى بغداد للاقامة والاستقرار . ورحبت سميرة بالعمل مع اذاعة الثورة ، وكان صوتها يحيي المستمعين كل صباح في برنامج يومي ، بالاضافة الى ادارة برامج ركن المرأة . وقبل الثورة بقليل كانت قد شاركت في تحرير صحيفة « الشعب » العراقية حيث كان من زملائها الشاعر الكبير المرحوم بدر شاكر السياب . لكن الاحداث التي تلت عام ١٩٥٩ في العراق أدت الى ابعاد سميرة وزوجها من بغداد وتم السفر في وقت قصير ، وكانت الوجهة الى لبنان من جديد . في تلك الاثناء اتمت سميرة كتابة مجموعتها القصصية التي اعتبرها زوجها تتمة لمجموعة « الظل الكبير » السابقة ، فاقترح عليها أن تسميها « .. وقصص اخرى ». وفي بيروت صدرت المجموعة بالعنوان المقترح . ومنذ ذلك الوقت أخذت تضاعف نشاطها ، خاصة بعد التحاقها بالعمل في مؤسسة فرانكلين للترجمة والنشر ، فقامت بترجمة عدد من الكتب القيمة لمؤلفين امريكيين ، نذكر منها كتابي المؤلفة الامريكية المشهورة « بيرل باك » وهما : « جناح النساء » ، و« ريح الشرق وريح الغرب » ، ثم كتاب « اميركي في اوربا » لدودزورث ، و« القصة القصيرة » لراي وست و« حين فقدنا الرضا » لجون شتاينبك ، و« حكايات الابطال » جمع اليس هزلتون ، وكتاب « فن التليفزيون — كيف تكتب وكيف تخرج » لوليم كوفمان .

اما في مجال القصة ، فقد أخرجت المطبعة مجموعتها الرابعة « الساعة والانسان » في نهاية صيف ١٩٦٣ ، وهي المجموعة التي نالت على اساسها جائزة أصدقاء الكتاب للقصة القصيرة . وقد احسنت « دار العودة » صنعا اذ اصدرت بعد وفاة سميرة

مجموعة خامسة من قصصها خلال صيف ١٩٧١ وصدرتها بعنوان « العيد من النافذة الغربية » وهو عنوان احدى قصص المجموعة ، التي تحوي بعض الخواطر الفلسطينية والصور العائلية والانثوية الحية الى جانبها ما تحويه من قصص قصيرة بالمعنى المعروف . وفي النية اصدار مجموعة وافية من خواطرها الفلسطينية واحاديثها الاذاعية التي كانت تسجل وتذاع بصوتها من اذاعة صوت فلسطين في القاهرة .

اما عن ظروف وفاة الكاتبة « سميرة عزام » فقد كانت مفاجأة لجميع أصدقائها وعارفيها وقرائها والمعجبين بكتابتها ، ومع ذلك لم يستغرب منهم أحد أن تموت سميرة في تلك الظروف بالذات وقبل انقضاء اكثر من ستين يوما على نكسة حزيران « يونيه » ١٩٦٧ ، لم يستغرب ذلك خاصة الذين رأوها تحرق طاقتها وتشغل كل دقيقة من وقتها بالعمل مع لجان السيدات التي تشكلت في بيروت لتلقي التبرعات الواردة للاجئين « الجدد » من ملابس واحذية واغطية وخيام واغذية . حتى لكأنها تكفر عما حدث وما تعتبر نفسها وكل فلسطيني وفلسطينية مسئولين عنه وعما جر من ويلات بعده ، وكانت بنظرتها المتشائمة وفكرها القلق تقابل الوضع مع وضع الامارات العربية في الاندلس في اواخر عهودها ، اذ كان الاسبان يصبرون بضع سنوات ثم يغزون احدى تلك الدول المتناحرة فيحتلونها ويطردون او يقتلون اصحابها العرب او يضطرونهم الى التنصر ، وهكذا الى أن قضوا على غرناطة آخر تلك الدول . وكانت تتساءل عما اذا كان التاريخ الان يعيد نفسه على أيدي اليهود هذه المرة .

هذه كانت حالها وهذا كان فكرها عندما عزمت على السفر من بيروت الى عمان صبيحة اليوم الثامن من آب « اغسطس » ١٩٦٧ ، بقصد مقابلة بعض اللاجئين الجدد ومحاولة التسلل الى فلسطين (ولم يكن اليهود قد استطاعوا ايقاف تيار التسلل الذي تلا النكسة حتى ذلك الوقت) علها تبلغ مسقط رأسها عكا وتزور حيفا وتشبع حنينها الى الربوع . وسارت بها السيارة برفقة صديقيها ، طبيب وزوجته ، وعند مشارف جرش في شرق الاردن ، ولدى سماعها اول اخبار الظهيرة من المذياع بناء على طلبها ، التفت اليها الطبيب وزوجته فوجداها قد فارقت الحياة ، لم تفلح الاسعافات الاولية في إيقاظ القلب الذي غفا ، أو بعث الروح الى الجسد الذي تهاوى من وطأة العذاب والارهاق واعياء الغربة والحنين . أحضر جثمان الفقيدة من عمان ودفنت في بيروت في التاسع من آب « اغسطس » ١٩٦٧ . الى جانب نشاطها في العمل والكتابة والاذاعة كانت سميرة تهوى السفر والرحلات فزارت من بلدان المغرب العربي كلا من تونس وليبيا والمغرب ، بالاضافة الى زياراتها لمصر والاردن وسوريا والعراق حتى بعد تركها . وفي اوروبا قامت برحلة او اثنتين الى كل من : ايطاليا وأسبانيا وانجلترا وفرنسا والمانيا . وأكثر ما يؤسف عليه ان روايتها التي وصفت فيها التيه الفلسطيني وسنوات النفي والتشرد وسمتها « سيناء بلا حدود » لن تكون بين ايدي القراء ، اذ أنها مزقتها بانفعال شديد اثر حوادث نكسة ١٩٦٧ ، بعد أن قطعت في كتابتها شوطا بعيدا ، قائلة : « ان كل ما كتبته قد فقد معناه » .

أرجو أن يجد القارىء في الصفحات القليلة السابقة عن نشأة الكاتبة سميرة عزام وظروف حياتها وتنقلاتها مدخلا طيبا ومناسبا للحديث عن مجموعات قصصها الخمسة التي نريد عرضها وتحليلها في الصفحات التالية ، اذ من المعروف ان شخصية الكاتب وانفعالاته مؤثرة في فنه ومنطبعة في انتاجه بصورة عامة . كما أن مشاهداته ولقاءاته وتجارب حياته المختلفة لا بد ان تسهم في اخصاب فنه بالقدر اللازم ، واعطائه القيمة التي يحسها المتلقي ويقدرها بقدر ما تؤثر فيه تلك المشاهد والتجارب والانفعالات . ولقد اتفق النقاد والدارسون على أن مجال المعرفة لدى القاص هي كما يلي :

(١) التجربة المباشرة التي تعطي ابعادا متنوعة وتوسع افق الكاتب . (٢) القراءة

والاطلاع ، ففي الكتب انواع مختلفة من الخبرة ، (٣) الاتصال بالناس والتحدث اليهم وسماع مشاكلهم .

وقد اجتمعت لكاتبتنا المجالات الثلاثة المذكورة وتوفرت لها اسباب كتابة القصة الجيدة منذ البداية ، بالاضافة الى ما أخذت به نفسها من تنمية موهبتها وصقسل معارفهـــا والاستفادة من كل الظروف التي يمكن أن ترتقي بفنها وتمنحه القيمة الحقيقية . وقصص سميرة عزام بصورة عامة تميزت بالواقعية ووصف المشاهد الحية والبعد عن الرمزية ما أمكن ، وعدم الاستغراق في الخيال ، مع شيء من الرومانسية المحببة والاناقة اللفظية والبراعة في الوصف والتحليل ، ولنبدأ بمجموعتها الاولى « أشياء صغيرة » التي صدرت عام ١٩٥٤ .

تحتوي المجموعة على ثلاث عشرة قصة قصيرة او « اقصوصة » كما يحلو لبعض النقاد ان يسميها . تحمل القصة الاولى عنوان « الاشياء الصغيرة » وتحكي قصة فتاة رصينة متزنة ، تعتقد أنها من نسيج خاص ، لها مبادئها واخلاقها ومثالياتها ، بالاضافة الـــى نشأتها المحافظة وتربيتها البيتية التي يغلفها الكبت الشديد والانضباط التام . ويميزهـــا هذا السلوك الجاد بين رفيقاتها واترابها ، اللاتي كثيرا ما يتحدثن عنها في مزاح قائلات: « انها تعيش بعقلية أبيها وامها وعمتها العانس ! » ، هؤلاء الثلاثة الذين ما يزالون يرددون على مسامعها عبارة : « لا تكوني كالاخريات الرعناوات فأنت غير اولئك أصلا ونبتا ، أنت ، وأنت . . » . ولكنها الان انسانة متجددة الاحساس ، وستبني وجودها بعد اليوم بحسها وارادتها . . فقد بدأ عنادها يتزحزح « منذ طالعها وجهه الاسمر للمرة الاولى في السيارة العامة » . وتمضي الكاتبة في قص الاحداث وترتيب اللقاءات بـــين البطل والبطلة بصورة عفوية وطبيعية لا مبالغة فيها ولا تهويل ، ولا يفوتها ان تحلل عواطف الفتاة المراهقة وتشرح نفسيتها بعد ما استسلمت لهـــذه العاطفة الجديـــدة الغامضة والمشاعر الغضة الناشئة ، وكل ما يعتري الفتاة الرصينة ازاء تلك العواطف والمشاعر من قلق وصراع ، وهواجس ومخاوف حتى لتكاد ان تحتقر نفسها وتثور على ضعفها ، ولكنها في الوقت نفسه تشعر أن هذه العاطفة الجديدة المتبادلة قد منحتها ثقة كبيرة بنفسها واحساسا جديدا بالحياة . . أما اسلوب القصة فقد سارت فيه الكاتبة على طريقة السرد المباشر ، وهو أول وسائل الكاتبة القصصية ، ولكنها نثرت بـــين الفقرات بعض العبارات والتساؤلات الموحية والتي وجهتها ببراعة ، بحيث بدت وكأنها حديث مع النفس أو نوع من المونولوج الداخلي الذي أوحت به هذه المشاعر الدقيقـــة التي تطغى وتفور مع الاشياء الصغيرة .

لم يكن اسلوب السرد المباشر هو الاسلوب الوحيد الذي اتخذته سميرة عزام في كتابة قصصها فالقصة الثانية في هذه المجموعة يمكن ان نطلق عليها « قصة في رسالة » تروي فيها حكاية فتاة مظلومة مهيضة الجناح تبرر لشقيقها اسباب سقوطها حين رأته قادما وبيده المسدس ، يذرع الحي بخطوات مضطربة ، يريد أن ينتقم لشرفه من اخته التي كانت في الرابعة عشرة وكان هو في الخامسة حين مات ابواهما ، واضطـــرت الاخت للعمل في مصنع حياكة ، ولكن صاحب المصنع النذل استغل سذاجتها وجمالها البريء واغراها بالهدايا والعطور حتى وقعت الفريسة ، ثم خرجت مذللة بالخزي والعار ، فلم تتمكن من العودة الى اخيها ولا الى الحي خشية افتضاح أمرها ، وقادتها الحياة الـــى سلوك الساقطات ، وتطوع من الوشاة من اوصل خبرها الى شقيقها فجاءهـــا يطلب الثأر بعد أن كبر واصبح رجلا . أما هي فقد ظلت تحن الى اخيها رغم خشية اللقاء : « . . وعذبني شوقي مرة فعزمت على أن اراك وحملت بعض الهدايا ، وما ان بلغت المكان حتى وقفت حائرة امام الباب المغلق ، ولم ادر كيف ادخل ، وماذا اقول ، ومـــن أطلب . فألقيت باللفافة التي أحملها من النافذة ثم عدت لا الوي على شيء . . » . ان

الكاتبة تفرق هنا بين رقة قلب المرأة وعطفها واحسانها وبين قسوة الرجل وانانيته وسيطرته . ولكنها تبالغ قليلا في هذا التفريق بحيث تعطي العذر للفتاة في العودة الى طريق المصنع الذي جر عليها الويلات ، بدل العودة الى الخدمة في البيوت رغم ما فيها من تعنت ربة الدار وصفعاتها أحيانا . واسلوب الرسالة خطابي وعظي كأنما قصدت به البطلة تبرير سقوطها في سبيل لقمة العيش .

بقية قصص المجموعة يتراوح اسلوبها بين السرد والحوار ، والخواطر والسيرة الذاتية احيانا . أما موضوعاتها فكثير منها يؤكد ما صورته في القصة السابقة من قسوة الظروف التي تضطر الفرد او الافراد الى تصرف معين قد يضر فاعله والاخرين حوله. فعلت ذلك في قصتها « نافخ الدواليب » حين ضاقت الحياة ببطل القصة ، وسدت أمامه سبل العيش النظيف ، فاضطر الى الغش في عمله والعبث بدواليب الدراجات المصفوفة خارج دار السينما ، حتى اذا خرج أصحابها كان لا بد لهم من أن يقصدوا المحل لاصلاحها ، فينال قروشا من أقرب طريق. وهو يحاول تبرير عمله بأن وراءه أما وأخا واختا يعيشون من ابرة امهم . وهنا يغلب على الكاتبة تشاؤمها وتجنح الى السخرية حين تقرر ان بطل القصة يتردد على المدرسة الليلية ويسمع دروسا تحث على الامانة ، ثم يشعر بالخجل لعدم استطاعته تطبيقها في سلوكه .

وتعاود سميرة سوداويتها مرة اخرى حين تصور احلام فتاة فقيرة عاملة في مصنع لتعبئة الزجاجات ، مخطوبة لسائق سيارة المصنع الذي يوصلها الى بيتها بالسيارة كل يوم ، ولكن بدل أن يتما سيرهما معا « على الدرب » وهو عنوان القصة ، نجاة يتخلى خطيبها عنها ويترك عمله على سيارة المصنع الكبيرة ، ويصبح سائقا خاصا لمدير المصنع نفسه، ومن يومها فهو لا يقف لها على الدرب ولا يوصلها ولا يعترف بها ! كذلك يبدو التشاؤم واضحا في قصتي « عقب سيجارة » و« بائع الصحف » ففي الاولى تصوير لمظاهر الفقر والحاجة مع كثرة الاولاد ، واضطرار احد الابناء الى تجميع اعقاب السجائر بدل أن يحاول أي عمل نافع ، ودخوله السجن من اجل هذه الهواية غير المشروعة ، ولكن الدنيا ما زالت بخير فيما يبدو ، فالضابط المسئول « صفوان » جار قديم لمحمود ، والد الابن السجين ، يتعرف عليه ويخدمه باخراج ابنه من السجن . أما الصورة الاخيرة في القصة فساخرة مرة ، اذ يدخل الاب والابن البيت على صوت وافد جديد وضعته الام في تلك اللحظة « ونظر الولد الى أبيه وقد أمسك بيده علبة ثقاب وراحت يده الثانية تبحث بعصبية في جيوب سرواله وسترته عن شيء .. هنا دس حسين يده في جيبه واخرج عقبا من بين الاعقاب القابعة فيها ، ودفعه الى ابيه ليستقر في لحظة بين شفتي والده اليابستين المرتعشتين .. » !

و« بائع الصحف » صورة رومانسية مؤثرة رغم واقعية احداثها وصورها اليومية المتكررة ، فعبود صبي صغير بريء ، تعلم سر المهنة من والده وأخذ يقفز ما بين الحافلة والرصيف مناديا على ما في رزمته من صحف وما في الصحف من أخبار تهم مختلف الفئات ، فصحيفته « للموظفين تبشر بالكادر والعلاوات .. وللتجار بالتسوية للمشكلة الاقتصادية القائمة بين سوريا ولبنان .. الخ » عدا الطبقة التي يتفنن « عبود » في ابتداع العناوين الخيالية من أجلها : « الرجل الذي ذبح ابنه، المجرم الذي دوخ القوات، الفلاح الذي وجد كنزا مطمورا ، وهكذا » . ولكن هذه الحركة السريعة في القصة سرعان ما تنتهي الى سكون ، والكائن النابض بالحياة يلاقي مصيره القاسي تحت عجلات القافلة ، ويتناثر رشاش من دمه على الصحف الملقاة بجانب الجثة . ويسخر القدر من الناس وحركتهم واعمالهم ، فبائع الصحف النشيط « عبود » أصبح خبرا صغيرا في صحيفة ينادي عليها بائع آخر « رقيع » تجرأ بالتدليل على صحيفته في اليوم التالي بذكر تفاصيل حادث عبود الذي مات تحت عجلات الحافلة .

الموضوع الثاني الذي شغل بال الكاتبة في هذه المجموعة هو موضوع الزواج والامومة والبنوة وما تستوجبه هذه العلاقات الاسرية والانسانية من تضحيات في كثير من الاحيان. وليس غريبا ان نجدها تعطي الفكرة وعكسها والصورة ونقيضها ، فالحياة مليئة بالصور المتناقضة والمواقف المتباينة والمتنافرة . هناك قصتان ، عنونت احداهما بكلمتي « امومة خيرة » والثانية بكلمتي « مات أبوه » سردت في اولاهما حكاية زوجة خيرة وفية، توفي زوجها تاركا لها طفلين يؤنسان وحدتها ويخففان من أحزانها ، ولكنها ما تزال شابة جميلة رغم قسوة الحزن، ومع هذا فهي ترفض الخاطبين وترد برفق جميع المتقربين. أما هذا الرجل الذي جاءها بعد ثمانية أعوام من الجفاف والوحدة والمعاناة ، فلم تدر كيف ترده وهو لا يأتي الا « وفي يمينه باقة زهر وفي يساره حلوى وغيره للصغيرين وقد لمست فيه حنانا وتفهما ومشاركة . ولكن بماذا تجيب على الاستفهام الذي يطل من عيون الصغيرتين وكأنهما يتساءلان : اماه من يكون هذا الرجل ؟ . وتذكرت طفولتها وما ذاقت هي نفسها من مرارة اليتم ، وكيف تضاعفت هذه المرارة حين تزوجت امها ، وتفنن الزوج الكريه بالقسوة عليها وعلى أخويها الصغيرين». تقول القاصة: «وتطلق صاحبتنا آهة .. وتعود تمسح على شعر صغيريها في حنان وتقول : يا لي من انانية ! كيف سمحت لشبابي ان يطالب ولوجودي ان يحاسب وانا لست لنفسي بقدر ما أنا لهذين الصغيرين ؟ انني امهما وابوهما » . هكذا قررت وانتهى الامر .. فما لها وللتفكير الان. انها أم .. وستبقى .

أما في القصة الثانية ، فتبدأ الاحداث من أول يوم في المأساة ، عندما نظر الصغير الى جدته بعينين قلقتين وهي تلوك كلماتها مولولة منتحبة « مات ابوك يا ممدوح .. مات أبوك » . وتمضي الكاتبة في تحليل نفسية الصغير حين رأى والده مسجى على الفراش بلا حراك وحوله النسوة في ندب وعويل : « انسل فزعا مرتجف الاوصال . وجلس في العراء على حجر خشن .. لذعته الشمس فلم يشعر ، وعضه الجوع فلم يبال .. وظل يتلفت يمنة ويسرة خشية ان يرى أحدا جاء يطلبه .. فهو يخشى العودة ولا يريد ان يموت كأبيه .. وظل هكذا الى المساء حتى لم يعد بوسعه ان يحتمل جوعه وقلقه وصبره وفزعه من أشباح المساء التي خالها مختبئة وراء الاحجار .. » . وعند عودته الى البيت لاقته امه باكية منتحبة وشدته الى صدرها ولذعت وجهه دموعها وهي تقول : « مات .. مات أبوك .. يا ممدوح » . ويختلف موقف الام هنا عن موقف الأم الوفية المضحية في القصة السابقة ، فما يكاد يمر عام حتى تسعى امها في تزويجها من جديد . وتم الامر وانتقلت الام الى بيت الزوج الجديد تاركة ممدوح في بيت جدته . ولم يكن الامر هينا على الصغير ، لقد تعلم البغض ، وكان كلما كبر يكبر معه نفوره من امه ، حتى اذا شب عن الطوق وأصبح يعول نفسه من عمله كنجار بعد وفاة جدته وانتقلت امه وزوجها الى بلدة اخرى ، لم يعد لها في قلبه مكان ، واصبح لا يرد على رسائلها ويسخر من دعوته لزيارتها . وهنا تحلل الكاتبة نفسيته وهو كبير كما سبق أن حللت نفسيته وهو صغير : « لقد نظر الى الامر من ناحية انانية صرفة . لقد دعته يجر حياة جافة لا تدفئها انفاس انثى ، وخلاه رحيلها يحيا في جو «مات ابوك» اعواما من الجدب العاطفي، اذن فهي ليست مستحقة أن تكون له اماً . ولكنها كانت امه .. وكلمة غضب تلفظها شفتان في سورة حنق لا تخنق نداء الدم . ولذا كان عطوفا حانيا عندما فوجىء بوالدته ذات مساء تصحب صغيرا جديدا .. هو أخوه .. ابن الرجل الاخر .. الذي مات » .

وفي قصتي « الى حين » و« زواج العمة » حاولت الكاتبة أن تصور صورتين من صور سلوك الانتهازيين من الاقارب ، فالعمتان في القصة الاولى تريدان اقتناص زوج شاب غني لابنة اخيهما « سعاد » ويقع اختيارهما على « فهمي » ابن الجيران ، وتتصرفان بطريقة تحرج الفتى والفتاة وتحرجهما معا ، وتبالغان في تدليل « سعاد » والاهتمام

بمظهرها وهندامها وزينتها . وتلعب الصدف دورا في احلام العمتين ، والفتاة حيادية الشعور ، ولكنها أيضا تحلم وتبني القصور في الاحلام . أما في ذلك الصباح ، فقد استيقظت من حلمها على صوت عمتها القديم يصيح : « ألم تستيقظ بنت الباشا ؟ تراها ستظل نائمة الى الظهيرة ؟ ومن يكنس الشرفة ويسقي اصص الزرع ؟ أنا ؟ ذلك لان العمتين استيقظتا على صوت الجيران يودعون فتاهم « فهمي » المسافر الى امريكا للدراسة » .

والقصة الثانية تصور طمع الاخ وزوجته في مال شقيقته الارملة الحزينة ، واستغلال هذا المال بالمعيشة عندها والصرف منه على اولادهما ، ولضمان نجاح اهدافهما لا يفتئان يترحمان على زوجها الراحل ويملآن البيت بصوره ويصورانه لها سيد الرجال ، حتى لا تفكر في الزواج من احد بعده : أما العمة فتصغي اليهما وتسمع كلامهما ، حتى يجيء يوم زواج ابنة اخيها الشابة ، فتستفيق لحالها وتصغي الى نصائح أم يوسف الخاطبة التي تبدأ السعي في سبيل « زواج العمة » رغم أنف زوجة اخيها «أم شوقي» . والقصتان لا تخلوان من فكاهة وخفة في السرد والحوار .

يقول الدكتور محمد يوسف نجم في كلمته التأبينية المنشورة في عدد يناير من مجلة الاداب عام ١٩٦٨ : « كانت اقاصيص الاشياء الصغيرة صراعا بين الروح العذب والنفس البريئة الطاهرة من ناحية، والمحيط الجديد الذي لم تستطع ان تهضمه وتتمثله وتمتصه في كيانها لتتلبس به كيانا آخر . ومن خلال الملاحظة والوعي الاخلاقي الذي لا ترتخي قبضته ، أخذت شخصيتها تتحرك وتنمو ، ومواقفها تتطور وتتبلور ، كان همها آنذاك ان تتذكر وان تلاحظ وان تحس . أما التأمل والتفكر ، والشك والايمان ، والنقد والمحاسبة ، فطورها لم يحن بعد » .

وبالفعل بدأت مرحلة التأمل والتفكر مع مجموعتها الجديدة « الظل الكبير » وأخذت الكاتبة نفسها في هذه الفترة بشيء من الاطلاع والثقافة العامة ، وغدت أكثر انفتاحا على العالم حولها وأكثر اختلاطا ومجالسة ومراقبة ، خاصة عندما لاحظت ان هذا الاختلاط والانفتاح يثري فنها القصصي ويمنحه معينا لا ينضب من الموضوعات والاحداث والاشخاص . ولكنها ما زالت ، من ناحية اخرى ، تطل على الاخرين من مكان عال لا يستطيعون أن يرقوا اليها فيه ، فكما بدت في « الاشياء الصغيرة » فتاة مترفعة متميزة، ومن نسيج خاص، بدت كذلك في أول مجموعتها الجديدة شابة متحمسة متفتحة طموحة، ولكنها ما زالت تحبس نفسها في قوقعة لا يريد عقلها ولا حسها ان يخرجاها منها ، انها ما فتئت مختلفة عن الاخريات: «وفي هذه المرة يجدر بها الا تكون عادية، ان تمسك قلبها باليمين وبمعادلة رياضية باليسار . انها لا تريد ان تسخو فتمنح انسانا جد عادي حبا كبيرا ، بل ولا حاجة بها لان تحب ، يكفيها ان تملأ عقلها ونفسها اعجابا ببطل » . كانت في أعماق نفسها تتوق الى شيء من الانطلاق ، وتتطلع الى مستقبل مشرق مضيء، ينسيها بضخامته ضآلة ماضيها باحداثه الصغيرة التافهة : « وكانت في راسها خطوط مختلفة لمشروع ، كانت تعاني فيه فراغا لا يملؤه الا جبار، جبار يبدو معه ماضيها شيئا ممسوخا ، شيئا لا يجرؤ حتى ان يهز في نفسها مكامن الحنين ، او أن يقول انه منها » . ولكنها عندما وجدت فارس الاحلام هذا ، صدمت حين وجدته ينظر اليها كأنثى قبل أي شيء آخر . انه لم يلحظ تميزها ولا تفردها ولا أخذ بما حشدت به راسها الصغير من فلسفة وتفكير . اذن هو كالاخرين ، واذن هي كالاخريات ! وعصفت بها حيرة ، جعلت تسأل نفسها أكانت مغرورة حين أصرت على جبار ؟ قد يكون ! لقد علمها رد الفعل القديم أن ترى لنفسها ظلا كبيرا ، حيث تضيع نسبة الاشياء ، أتكون هذه نقطة ضعفها ؟ » .

يبدو أن تلك كانت نقطة ضعف بطلة القصة ، كما كانت نقطة ضعف الكاتبة نفسها ، بل

لعلها كانت نقطة الضعف لدى فئة من بنات فلسطين اللاتي نشأن في نفس الفترة ونفس الظروف التي عاشتها الكاتبة ، فتاة غضة يانعة في ارضها الحبيبة ، ثم مهاجرة غريبة — غربة الروح والنفس — تكد وتعمل في سبيل العيش الكريم ، وتسعى وتناضل من أجل العودة الظافرة مع جموع اللاجئين ، حيث تأمل ان تنعم بحياة طبيعية سعيدة في مستقبل الايام . ولكن الايام طالت والسنوات أخذت تكر ، واضطرتها الحياة الى التنازل على المستوى الشخصي ، والرضا والاقتناع بما هو موجود وما هو كائن ، وعاشت حياتها كغيرها من بنات حواء .

وفي الفترة التي شهدت تجربة الوحدة العربية وثورة العراق ثم انتكاسة هذه الثورة ، خرجت الى النور مجموعتها القصصية الثالثة التي اعتبرت تتمة للمجموعة الثانية ، سواء في موضوعاتها التي استقتها من الواقع المحيط بها والذكريات المخزونة في عقلها الباطن من أيام الطفولة ، او في اسلوب السرد والحوار المحكمين والبناء الغني المتقن . وحملت السنوات الثلاث التالية مزيدا من التجارب والاحداث في حياة الكاتبة ومن حولها في بيروت ، وعاشت سميرة حياة ثقافية خصبة كان لثرائها أثر في تطور فنها القصصي خاصة انها عكفت على دراسة اسس هذا الفن ، وترجمت كتابين هامين في القصة القصيرة والقصة القصيرة الامريكية، بالاضافة الى عدد من القصص القصيرة والروايات الامريكية المعروفة والهامة . وكان نتاج هذه الفترة مجموعتها الرابعة « الساعة والانسان » ثم الخامسة التي طبعت بعد وفاتها « العيد من النافذة الغربية » .

يطول بنا الحديث لو اخذنا بتحليل قصص المجموعات الاربع الباقية قصة قصة كما حاولنا في المجموعة الاولى اعلاه . ولذلك يحسن بنا ان نحدد الموضوعات التي طرقتها الكاتبة والاحداث والشخوص التي صورتها ، وكيف استطاعت التعبير عن تلك الاحداث والشخوص والموضوعات في مختلف القصص المتناثرة بين مجموعاتها الاربع ، خاصة ان هناك دائما خيطا رفيعا يجمع بين القصص ، ويعطيها — بصورة عامة — ميزة في سميرة عزام .

سميرة عزام فتاة فلسطينية ، حملت قضية بلدها وعاشت بها متنقلة بين الاقطار . فلسطين كانت حياتها ، وفلسطين كانت مقتلها ومماتها — اذا صح التعبير — وبالرغم من أن القصص الفلسطينية في مجموعتها ليست غزيرة الكم والعدد ، الا انها من حيث الكيف تعتبر قمة في التعبير عن المأساة منذ أول وقوعها ، واحداث التشرد واللجوء ونفسية الفلسطيني وما تعرض له من ضغوط وظروف قاسية ومريرة ، قابلها جميعا بالصبر والعمل والصمود تارة ، والحقد والثورة والتمرد تارة اخرى . هناك قصتان تصوران كفاح ابناء فلسطين ونضالهم ضد قوى الشر والطغيان ، الاولى منهما تحكي قصة معلم شاب من ابناء قرية « بتير » في ضواحي القدس ، كان يحمل البندقية في الليل ، يحرس القرية مع رفاقه ويدافع عنها امام خطر الاعتداءات الصهيونية عام ١٩٤٨ . وفجأة نفدت ذخيرته ، ولم يكن امامه الا ان يموت مكانه هو وزوجه وطفله البريء ، او يرحل مع فلول النازحين « في الطريق الى برك سليمان » ، وانتصرت ارادة الحياة ، وفي رقة متناهية تصف القاصة مشاعره ومشاعر زوجه ساعة الرحيل ، مودعين بيتا صغيرا عرف حبهما وكفاحهما المبكر معا ، وحديقة غرساها شجرة شجرة .. ولعلع رصاص الاعداء ، وأصاب صغيره الذي يحمله بين يديه ، وركض بالجسد الميت خشية ان تراه زوجه فتصعق . وتحت شجرة لوز سخية حفر حفرة صغيرة اراحه فيها ثم أهال عليها التراب برفق ، حفنة حفنة « ولم يقرأ صلاة ما ، فقد أخرسه الحقد » .

صورة مؤلمة من صور الهجرة الفلسطينية تكررت كثيرا في تلك الايام . أما قصتها « خبز

الفداء » فتصور جانبا آخر من جوانب النضال الفلسطيني . وقد بدت فيها الكاتبة اكثر حنكة . ودراية بالفن القصصي، واعتمدت في تسلسل الحوادث على الواقع الذي عاشته ورفيقاتها في آخر ايام النضال قبل سقوط عكا وحيفا في أيدي الاعداء . كانت سميرة نفسهاقد ساهمت مع سيدات عكا فيحياكة القمصان الصوفية لاهدائها الى افراد الحرس القومي وكتابة عبارات مشجعة على بطاقات يضعنها في جيوب القمصان ، وهكذا كانت بطلة القصة المرضة « سعاد » التي التقت صدفة بحارس المستشفى الليلي الذي كان قميصها من نصيبه وفي جيبه عبارتها التي تقول : « أرجو ان تكون من نصيب بطل » . (وسميرة معروفة بخلق الصدف الحلوة وتدبير المناسبات الموحية في قصصها بصورة عامة) . ويتكرر لقاؤهما ، في طابور التدريب والتأهب وفي اوقات الراحة القليلة ، ونما الحب بينهما . وهنا تعاود الكاتبة ذكرياتها عن طبيعة بلادها الجميلة فتكتب : « كان الوقت ربيعا ، وربيع فلسطين بحر أزرق تتهادى عليه أشرعة المراكب البيضاء نهارا ، وترصعه فوانيس قوارب الصيد ليلا ، وبساتين برتقال يكثف عبقها الهواء . . وفي ربيعه ذاك عرف شيئين . . الحب والحرب » . الحب هو الذي يعطي المعنى للحرب ، وما الحرب في نظره الا حق حياة للارض التي يحب ، والفتاة التي يحب : « ومع كل اطلالة صباح . . كان يستقبل خيالها . . جنبا الى جنب مع انباء المعارك في صحف الصباح . . معركة القسطل ، هجوم قومه من مثلث الرعب على قرى الاعداء . . غاراته واخوانه على المصفحات اليهودية المتسللة على طريق حيفا — عكا نهاريا ، بطولة قومه في سلمة وفي كل مكان » . وكانت الحرب أقوى من الحب ! فوقعت كارثة حيفا وخرج النازحون يتلمسون طريقهم الى الميناء واخذ الاعداء يمطرون الطرقات والشعاب بالرصاص . أما هي فقد رفضت النزوح مع اهلها ، وأما هو فقد بقي ليؤدي ما وكل اليه من جمع الذخيرة من القرى نهارا والقيام بالحراسة مع رفاقه ليلا . وعرفت « سعاد » طريقهم وأخذت تحضر لهم كل يوم صرة ملأى بالخبز والسجائر والحلوى . وتبلغ المأساة ذروتها على يدي الكاتبة عندما تلاقي « سعاد » البطلة مصيرها المحتوم وتصيبها رصاصة وهي تمرق من باب الحديقة الى حيث قبع ورفاقه وراء المتاريس . وبشيء كثير من رقة الشعور ورهافة الحس تصف الصراع العنيف في نفسه ونفس رفاقه بين ان يطووا ضلوعهم على الجوع او يمدوا أيديهم الى الصرة المزقة والارغفة الملوثة بدمها الزكي ، ومرة اخرى تنتصر ارادة الحياة ، فما زال امامهم شوط طويل ، وعيونهم لن تنام عن الثأر ، فليكن الخبز هو « خبز الفداء » .

في مجموعة « الظل الكبير » صورتان فلسطينيتان غاية في الروعة والانسانية ، اوحت بأولاهما اليها عبارة وردت على لسان مذيع اذاعة الشرق الادنى ، ضمن « رسائل اللاجئين الى ذويهم » تقول كلمات الرسالة: « من جميل عبدالله في بيروت الى والده كريم عبدالله ووالدته سلمى واخته وداد في يافا : انا بخير كذلك خطيبتي ناديا . سنتزوج في الساعة الثالثة من بعد ظهر الثامن من ايار في كنيسة « السيدة » ، ثم نسافر لاعمل في الكويت . مشتاقون ، طمنونا بواسطة الاذاعة » . ولكن ، ماذا بيد « سلمى الصواف » وزوجها أن يفعلا في يوم فرحة ولدهما «جميل» سوى ان يذيع المذيع ردهما على الرسالة فيقول : « من كريم عبدالله وزوجته سلمى وابنته وداد وزوجها . . نبارك زواجك وندعو لك بالخير » . تصور سميرة قمة الفاجعة حين تقول : « وبيروت ليست في السند او الهند . بيروت لا تحتمل اكثر من ساعات ست في مشوار سيارة . . ولا تحتمل اكثر من نصف ساعة في طائرة . . ومع ذلك فمستحيل المستحيلات لديها (سلمى) ان تذوق فرحة العمر وتكحل عينيها بمرأى جميل عريسا . . » وتتساءل سميرة : « أية قسوة في الحياة تشتط فلا تشفق على قلب أم ولا تفرح قلب أب . . » وتتحدث عن مشاعر الام حين بلغت الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم ، وتستعرض الشريط الجميل الذي مر بخيالها لولدها الصغير

الذي كبر وتعلم ، وهـا هو يتزوج بعيـدا عنهـا ، وتتخيـل حفل الزفاف والكنيسة وطلعة العروس ، يا ليت كل ذلك كان امامها ! « ما أعظم شوق يافا لان ترى عرسا لاحد ابنائها » ! ولكن الكابوس ما زال ثقيلا وقد مات طعم الفرح في افواه الناس . ثم مـن يزغرد للعريس ؟ أم العروس ؟ ولم لا وقد خلا لها الجو ! وتختلط الافكار في رأس سلمى، وتشعل الشموع في أيدي ابناء بنتها الذاهلين ، وتمسح دموعها وتطلق زغـاريدها المخنوقـة .

الصورة الفلسطينية الثانية طالما وصفتها اقلام الصحفيين العرب وطالما صورتها كاميرات مصوري وكالات الانباء العربية والاجنبية ، اذ لم يعرف العالم صورة في طرافتها ولا في غرابتها ولا في شذوذها ، صورة بوابة « مندلبوم » عشية عيد الميلاد من كل عام بعـد عام ١٩٤٨ ، حيث يحتشـد ابناء فلسطين الذين يعيشون في الداخل ، ليلتقوا خـارج البوابة المشئومة بالوافدين للقائهم من الاهل والاقارب والابناء والازواج ، وربما الاحفاد ايضا . وفي ذلك العام بالذات حملت احدى السيارات القادمة عن طريق درعا والرمثا عجوزا مشوقة للقاء ابنتها التي ستحضر من « الناصرة » وقد حملت لها ولاولادها بعض المأكولات والملابس . وعبر الطريق تسلي نفسها والسائق بالثرثرة عن « ماري » واولاد ماري ، وتروي بعض احداث الهجرة ومآسي الفراق : « سبع سنوات مرت على فرقتنا، تركتها عروسا فصار لديها كريم والياس وعبد النور ، سبع سنوات ، عمر يا بني عمر ، وما استطاعت ان تترك الناصرة الى القدس لترانا فهي اما حامل او نفساء » . ورغم تعب الطريق ووعثاء السفر الا ان العجوز متماسكة قوية ، تصبر وتتحمل وسـتأتي ماشية على قدميها لو اقتضى الامر ، حتى تحظى برؤية ماري : « سأقبل ماري فلا اشبع وأشمها فلا اكتفي واسألها حتى يجف ريقي .. » ستسألها عن يافا ، فربما تكون زارتها، عن البيت والجيران ، عن البيارة والكنيسة .. وتحمل نهاية القصة مفاجأة قاسية ، لقد مرض زوج ماري فلم تتمكن من الحضور .. والى العام القادم ! اية عبارة درامية تختم بها سميرة قصتها حين تفيق العجوز من غشيتها وتعطي السل لناقل الخبز وتقول له : « خذه وقبل راسها عني ، وقل لها على لساني : بعد السلام انني اذا عشت عاما أخـر فسآتي اليها زاحفة على قدمي .. واذا عاجلتني رحمة الله ، فلن أموت الا بحسرتين حسرة بلدي ، وحسرة ماري ، وقبلة على خدها ! » . وقد عبرت الكاتبة نفسهـا عن اهتمامها بالمطالع والخواتيم حين قالت : « المطالع والخواتيم عندي اوليها عناية خاصة، فقد تقتل العبارة الاخيرة ان لم تكن زخمة وموفقة كل الموحيات والتأثيرات التي أحب أن اتركها مع القارىء »(١) .

وتجيء مجموعة « الساعة والانسان » بقصصها المتقنة الحبك ، باحداثهـا الدرامية ، ومواقفها الساخرة ، ونهاياتها المأساوية اليائسة ، ويحظى الفلسطينيون من كل ذلـك بنصيب ، فالقصة الاولى من قصص المجموعة قمة في السخرية والمرارة والالم القومـي الممض . ولذلك لم يكن غريبا أن صدرتها مجلة الاداب حين نشرت فيها عام ١٩٦١ بالابيات التالية للشاعر العراقي المرحوم بدر شاكر السياب من قصيدته « قافلة الضياع » :

« قابيل أين اخوك ؟ »
ــ « يرقد في خيام اللاجئين
السل يوهن ساعديه ، وجئته انا بالدواء
والجوع لعنة آدم الاول وارث الهالكين
ساواه والحيوان ثم رماه أسفل سافلين

---

١ ــ ملحق صحيفة « الانوار » اغسطس ١٩٦٧ ، لقاء صحفي قبيل وفاتها .

ورفعته أنا بالرغيف ، من الحضيض الى العلاء »(٢).

حادث اختلاس في مركز توزيع وكالة غوث اللاجئين يدان فيه « وصفي » ويطلب من صديقه وزميله المثول امام المحقق ، ولكنه لا يستطيع ان يدلي بأية معلومات عن زميله رغم علمه بها « فصداقتهما صداقة رصاص ودم . . جوع وتشرد . انه ليس نذلا . . وليس لصا . . ولكن » . والاجابة الوحيدة التي تفوه بها امام المحقق هي : « انني اعرف وصفي مذ كان طفلا ، زاملته تلميذا وموظفا ، وليس سهلا علي أن اتصور أن ينحط الى هذا الدرك » . ويجيء التعليق القاسي على لسان الرجل الاجنبي : « في مثل ظروفكم يا صاحبي لا يدري المرء في أية لحظة يمكن أن يصبح لصا . . » وتكون هذه المقولة بداية للقصة كلها ، يقوم الصديق الى قوائم التوزيع المنتظرة على مكتبه فيمزقها ويلقي بها في سلة المهملات . . ويمسك قلما وورقة بيضاء ، يسطر عليها ثلاث حكايات : « فياض الحاج علي » المزارع الطيب الذي كانت مواسم بلاده خضراء دائما « فسماؤنا سخية ، وتربتنا سمحاء ، ولم تكن سواعدنا بالمتخاذلة الرخوة » . ولكن ظروف اللجوء الذليل ، وافواه الزوجة والاطفال الخمسة المطالبة قلبت حياته رأسا على عقب، ولما جاءت زوجته الى مكتب التوزيع تطالب بتسليم الاعاشة لها ، لا له ، لانه يبيعها ويسكر بثمنها ، اخذ يكيل لها الكلمات والركلات دون وعي حتى فارقت الحياة في الطريق الى المستشفى . وغدا فياض مجرما وقضي عليه بالاشغال الشاقة خمسة عشر عاما ! وأخت الشهيد أحمد،مدربهم في الحرس، تصبح بغيا بعد موت امها «اذ لم يبق أمامها الا هذا الطريق»!. وأبو سليم جاسوس المخيم الذي يسجل على اللاجئين تحركاتهم ويقف في طريق بناء مدرسة جديدة في المخيم ، في حين يشتري هو جهاز تلفزيون ويفرض رسم دخول على من يريد الفرجة من اخوانه اللاجئين « كل هذه صور من آثار النكبة على الفرد الفلسطيني ، شوهته وأذلته وغلفت حياته بالخزي والعار» . ولذلك لم يكن غريبا ان يذهب الراوي فور انتهائه من كتابة هذه الحكايات وقد بيت في نفسه امرا « القضاء على مصدر الذل نفسه — مكتب التوزيع — وعندما تلتهم النار اكياس الفول والدقيق وكتل الدهن واكوام التمر والزبيب، يشعر بزهو غريب ، فكل الناس سيعرفون » كل اللاجئين، كل من في الوكالة، وسيعرف المحقق بالذات ، انه شيء اكبر من لص ، وارفع من وغد ، وان قومه لن يلعنوه اذا جاءوا . . فما حرق قوتهم ، وما سلك ناره على غنائم اللصوص والفئران الا لانه . . « لانه يحبهم » ! .

صورة اخرى من صور الذل والهوان اللذين مر بهما « الفلسطيني » خاصة اول الهجرة ، تسجلها الكاتبة في القصة التي تحمل ذلك الاسم ، فقد أصبح « الفلسطيني » البقال كالارمني الاسكافي الذي لم يعرف له اسم على مدى ثلاثين عاما في الحي ، هذا مع ان مصائب الفلسطينيين اصبحت فوائد لدى بعض الانتهازيين من أهل البلاد الذين تعاملوا بتزوير بطاقات الجنسية وابتزاز اموال الفلسطينيين الكادحين .

لا شك ان سميرة كانت متعاطفة مع أبطال قصصها من الفلسطينيين ، الذين عرفت حياتهم عن قرب ، وزارتهم كثيرا في المخيمات وفي المدارس وفي معسكرات التدريب . وكانت هي نفسها تأخذ على الكتاب والشعراء العرب الذين تحدثوا عن اللاجئين عدم زيارتهم لمخيماتهم ومعرفتهم كيفية معيشتهم وما يتعرضون له ، وتطلب من الاديب ان ينظر الى القضية الفلسطينية كقضية معايشة يومية ، وتضيف : « ان تجاوبه يجب أن يتم ابدا على نطاق الاحساس الشامل لا بمشكلة فلسطين فحسب — وان قدمت في نظرنا على غيرها من المشكلات — وانما بجميع قضايا التحرر في العالم »(٣).

---

٢ — مجلة **الاداب** ، عدد فبراير ١٩٦١ ، ص ١٨ .

٣ — مجلة **الاداب** ، عدد مارس ١٩٦٥ ، مقالة لسميرة عزام بعنوان : « دور الادب في معركة فلسطين » .

وهذه النظرة الانسانية الشاملة ليست غريبة على سميرة عزام ، فالى جانب النماذج الفلسطينية البائسة والمهيضة الجناح ، تمتلىء قصصها بالشخصيات الضعيفة والبسيطة والمظلومة ، وهي دائما تتعاطف مع تلك الشخصيات وتحنو عليها وتبرر لهـا المواقف وتوجد لها الاعذار . كما ان ابطال قصصها في الغالب من الطبقة العاملة والبسيطة : صبي الكواء ، بائع الصحف ، عاملة الكوافير ، سكرتيرة المدير ، عاملة في مصنع ، بائعة .. الخ . وهي في تصويرها لتلك الشخصيات ، تحللها ، كلا على حدة ، وترسم ملامحها ببساطة وعمق وبصدق بالغ ، وكأني بها تعتنق مذهب تشيكوف حين قال : « ان على المؤلف ان يكون انسانيا الى اطراف اصابعه » . ونجدها من الناحية الوصفية تعتني بالتفاصيل وتصف لنا الجزئيات لكي تعطينا صورة متكاملة واضحة عن المنظر او الحالة التي تريد شرحها . وهي في هذا ايضا من مذهب تشيكوف الذي يقول : « ان اقدس القداسات عندي هو الانسان ، صحته ، ذكاؤه ، موهبته ، وحيه ، حبه ، وحريته المطلقة » . وليس هذا غريبا على كاتب كان اصله طبيبا بشريا .

ومن أعذب الصور الانسانية في قصصها صورة الوداع في المطار عندما نودي على ركاب طائرة البرازيل ، وهب « فرحات » وهب مودعوه من نساء العائلة ورجالها يلتقطون معه الصور التذكارية ويزودنه بكلمات الوداع ووصاياه . وتحلل الكاتبة مشاعر المودعين وخاصة امه التي « يبدأ التاريخ عندها وينتهي بشيء من فرحات ولفرحات » . كما تحلل مشاعر المهاجرين في ديار غربتهم وآلام الوحدة وقسوة الحياة في البداية ، ولا تبخل القاصة على فرحات ، الذي انساها وداعه انها في انتظار حضور شقيقتها من القاهرة ، باجمل التعبيرات التي اعتادت ان تختم بها قصصها او تنثرها بين الفقرات : « ولما ركب الطائرة ووقف على سلمها ، فرشت القرية عواطفها على المدرج ، والقت أم بقلبها على الطائرة .. » .

وفي قصتها « هل كان رمزي » صورة انسانية مؤلمة للام التي ضاع طفلها وهو في الرابعة من عمره ، واعادوه لها بعد اربع سنوات ، وقد كبر واستطالت قامته وتغير شكله الى حد ما ، فأنكرته ، من فرط وجومها وشرود عقلها . وأحس هو بذلك ففر من البيت ، واستمرت الأم في وقوفها بمداخل المدينة تتشبث بسترات المارة وتسأل : « هل فيكم من رأى ولدا في الرابعة يلبس بنطالا أزرق ؟ » .

اما قصة « فردة حذاء » فتفاجئنا بالنهاية المأساوية المؤثرة عندما عثر اهل البيت على مجموعة من فردات الاحذية « الشمال » في غرفة التخزين على السطح ، وزال عجبهم عندما رأوا ابنة الخادمة تتأبط عكازا خشبيا اذ كانت برجل واحدة .

وتعاطف سميرة ليس فقط مع الآدميين وبني الانسان ، بل ان رقة قلبها واحساساتها المشاركة دائما تمتد الى كل أليف وأنيس وضعيف من الحيوان ، وقصتها العراقية المحلية « سعد والديك » مثل على ذلك . كما ان الفة المكان والتعود عليه عند الكلاب واضحة في قصتها « الحب والمكان » .

اما اكثر الموضوعات التي طرقتها سميرة عزام في قصصها ، فهي الموضوعات النسائية والانثوية ومشاعر الامومة وروابط الزواج والخطبة واحداث الميلاد احيانا . وقد عرضنا لمجموعة من تلك القصص في الصفحات السابقة ، ونضيف هنا ان مجموعة من قصص « الظل الكبير » تدور حول هذه المعاني ، مثل قصة « نصيب » التي تسلط فيها الكاتبة الضوء على الطريقة التقليدية في الخطبة والزواج عند العرب ، وان « السكوت علامة الرضا » بالرغم مما يدور في رأس العروس من صراع وتردد احيانا ، اذ ان الاحلام لا تتحقق كلها في واقع الحياة . وقصة « ستائر وردية » من النوع الشعبي المحلي ، تحمل من روح التهكم الشيء الكثير ، تاجر عطارة مزواج مطلاق ، وزوجات له متعاقبات ،

وجارات يتلقفن الاخبار في فضول وهمس . وصف ساخر لهذا الجو الحريمي العتيق . وسميرة موهوبة في السخرية والتهكم ، مما يوحي بأنها متأثرة بأسلوب برنارد شو الذي قرأت له كثيرا دون ريب .

وفي حوار ذكي طريف بين فتاة شابة وخطيبها ، أعطته عنوان « الفارة البكر » تحلل الكاتبة نفسية الرجل الشرقي وتحصي متطلباته في الفتاة التي يريد ان يتزوجها ، واول هذه المتطلبات الا تكون قد عرفت رجلا قبله « لئلا تحرمه من شعــور كولومبس » . ويصف الفتاة بالجرأة المتناهية لانها حكت له عن مشاعر سابقة حملتها لشاب قبــل سبع سنوات . وعندما يثور ويسألها عما دفع بها الى هذا الاعلان تجيبه بقولها : « لا أدري ، كان يتآكلني الغيظ احيانا حين أسمعك تتحدث الي عن تجارب الحياة وقد اخذك الزهو وكأنما أنت تحادث انسانة لا حق لها في ان تمارس تجربة ، وان تذوق انتصارات الحياة وانكساراتها ، انسانة لم تولد الا منذ عرفتها » . وتجري الكاتبة علــى لسان الفتاة الاسباب التي تجعلها تبحث عن أي زوج او تقبل خطبة غير مقنعة : « امي ، أبي، اخوتي ، شعوري بالضعف ، اسئلة الناس لي لماذا لم تتزوجي بعد .. الحــاح اهلي علي في أن افعل .. لقد بت أشعر بأنهم يضيقون بي .. » .

وقصة « أطفال الاخرين » تروي ظروفا دقيقة حساسة في حياة زوجين شابين لا ينجبان، يطل بيتهما على روضة أطفال ، وهي مليئة بالعواطف الغزيرة التي تغدقها الزوجة على أطفال المدرسة حين تطل عليهم من نافذتها اكثر من مرة في اليوم ، تلك النافذة التــي بدأت تضايق الزوج حين صارحه طبيبه بأنه هو الذي لا ينجب ، ولكن « شهادة الطبيب فيه لا يمكن ان تبدل حقيقة احساسه فيما بينه وبين نفسه على الاقل .. ان هــؤلاء الصغار يعطونه الفرصة لان يحب .. » والاطباء يتركون شيئا للعلاج وشيئا للامل ، ليظل للحياة ما تستحق ان تعاش من أجله ، فلتظل النافذة مفتوحة للصغار ، وليظل الامل نبراسا ينير الظلمة الحالكة . وتتميز القصة بالتحليل النفسي الدقيق لكل مــن الزوجة المرحة المتفائلة والزوج الحساس المتشائم ، والكبرياء الخاص بكل منهما .

لكن نهايات قصص سميرة عزام ليست كلها مشرقة متفائلة كالقصة السابقة ، وقد لمسنا بعض الخواتيم الدرامية في قصص فائتة ، ونلمس ذلك أكثر فأكثر في قصة من مثــل « الساعة والانسان » التي توحي بأنها قصة واقعية من ذكريات بعض اهلها او معارفها في الوطن . وعقدة القصة تدور حول « فؤاد » موظف السكة الحديد الذي بلغ المحطــة متأخرا ، وكان القطار قد أخذ بالتحرك ، فتعلق بباب العربة محاولا الصعود ، ولكــن يده خذلته فأفلت الحاجز وسقط تحت العجلات ، ومن يومها ووالده الكهل يدور علــى بيوت القرية يوقظ الموظفين قبل الفجر حتى لا يلاقوا المصير نفسه . ولكن الولد نفسه يموت نتيجة برد اصابه وهو يلهث راكضا في الصباح الباكر تحت المطر المنهمــر . ان عنوان القصة نفسه يحمل من السخرية المرة ما يفجع ، هذه الالة الدقيقة التي اخترعها الانسان لتضبط له أوقاته وتنظم حياته تكون هي السبب في مماته ! ولكن الشاعر العربي قديما قال : « تعددت الاسباب والموت واحد » . وهذا القول المشهور اوحى للكاتبة بأن تزودنا ببعض الاسباب الجديدة للموت في القصة التالية لسابقتها ، فأحمــد ، شاب طموح كان يعمل صبيا عند البقال ، وانتقل الى ورشة اصلاحات ميكانيكية ، ثم ساقه طموحه الى المانيا حيث تعلم هندسة التليفزيون وتركيب الهوائي واصــلاح الاجهزة ، وتزوج وانجب ، ولكن القدر كان له بالمرصاد ، ونقلت الشاشة الصغيرة صورته وهو يسقط من فوق سطح احدى العمارات الشاهقة .. « كومة رابضة تمثل قصة الطموح في فصلها الختامي » .

ليست القصتان السابقتان الوحيدتين اللتين تحدثنا عن الموت في مجموعات سميــرة

عزام . فمن الواضح ان هذا المصير لبني البشر قد أخذ من تفكيرها الشيء الكثير ، فهناك قصتاها « هواجس » و«لا ليس لشكور» والاخيرة منهما غاية في الرقة ودقة الاحساس، تصور والد « شكور » الذي عمل طيلة حياته بصناعة التوابيت وبيعها يتشاءم اليوم من عمله ويرغب في تغييره حين مرض ولده الصغير وخشي ان يصبح ذلك التابوت القصير من نصيبه . وعاف تجارة الموت « وراح يهوي بالفأس على النعش الصغير في ضربات عصبية مجنونة متلاحقة ، فما خلاه الا حطاما وراح يبعثرها بقدميه » .

الواقع ان فكرة الموت كثيرا ما كانت تسيطر على الكاتبة ، وتوحي لها بتأملات وخواطر عديدة ، وتتردد اوصاف الميتين اكثر من مرة في قصصها « فالوجه شمعي شاحب ، والفم محشو قطنا ، والعينان زجاجيتان نصف مفتوحتين » . ومع هذا فلم تخفها فكرة الموت ولم تفزعها النهاية المحتومة . انها هنا تذكرنا بالكاتب الساخر الواقعي ارنست همنجواي الذي ترجمت له هي نفسها مقالة نشرتها في مجلة الاداب عام ١٩٦١ بعنوان « أرنست همنجواي ، حي وسط الموت » تقول احدى فقراتها :

« كانت الحياة بالنسبة لهمنغواي شيئا لا ينفصل عن الموت ، بل هي صراع متقابل يتغلب فيه ابطاله لا على الخوف من الموت فحسب ، بل على الخوف من تعقدات الحياة والتفكك الذي يهدد الفرد . ان الحياة هي الحياة الحقة ، وهي العمل والقوة الخلاقة التي تمد البطل بالقوة للصراع » .

كانت المرة الوحيدة التي ذكرت فيها سميرة الموت صراحة وباحساس شامل غامض يوم فاجأت صديقتها وزميلتها الاديبة السورية السيدة الفة ادلبي بقولها : « ذات ليلة ستفاجأين بنعيي » ولم يكن ذلك قبل وقت طويل من حادث وفاتها رحمها الله »(٤).

وبعد ، فقد كانت سميرة عزام كاتبة ملتزمة ، لم تخرج عن نطاق مجتمعها وبيئتها بما فيهما من آفات وأمراض اجتماعية ، ولم تكف عن النقد والتحليل لمختلف الاوضاع والاوساط ، موحية بالحل والاصلاح احيانا ، كما تميز اسلوبها وتناولها للقصص بالقيم الثلاث التي تميز القصة الناجحة وهي : الصدق والاخلاص والانسانية . اما تعبيراتها الجميلة الموحية ، والكلمات التي كثيرا ما تتحول في قلمها الى انغام ، فيكفينا دليلا عليها، الى جانب ما مر من نصوص ، الجمل والعبارات القصيرة التالية :

« وفي تلك الليلة انكرت مخدتها رأسها القلق » .
« واجتمع الرجال على واجب الاموات ، ثم انفضوا عن رحمة الاحياء » .
« والتفت حسن الى بيته ، كان ما يزال مشدوداً بكرامة ، جدرانه البيضاء تشرب فضة القمر ، ويغسله عطر زهر اللوز بسخاء ربيعي .. » .
« ولم يكن ثمة صوت يخدش صمت الليل الا صوت ديك ارعن لا يبالي ان يصيح حتى في ليل مات قمره » .

لم يكن كثيرا على سميرة عزام ان ينعتها الناقد العربي الاستاذ رجاء النقاش بأفضل كاتبات القصة القصيرة في أدبنا المعاصر(٥). اما فلسطين فقد خسرتها كاتبة أدبية ناجحة، وخسرتها مناضلة حرة مجاهدة ، ولا يعوض عن فقدها سوى عنايتنا بما خلفت من قصص ، وما أبقت من آثار جميلة تحمل المثل والمبادىء التي عاشت لها وماتت من أجلها ، وأولها : حب الوطن والتضحية في سبيله بالروح والنفس والمال .

---

٤ ــ الآداب ، يناير ١٩٦٨ .
٥ ــ المصدر نفسه .

المطامع الاسرائيلية في الاراضي اللبنانية

خليل أبو رجيلي

أجمل الجنرال دافيد اليعازر ، رئيس الاركان الاسرائيلي ، أهداف الحملة الاسرائيلية على الجنوب اللبناني في يومي ١٦ و١٧ أيلول ١٩٧٢ بقوله « لقد حددنا لانفسنا مهمتين : تدمير قواعد المخربين ، وتصفية رجالهم الموجودين في المنطقة ، وقد تم تحقيق هاتين المهمتين في شكل كامل »(١). واذا كان هذا هو الهدف **المعلن** من الحملة ، فالى أي مدى يتطابق هو مع هدفها **الحقيقي** ؟ وهل حقا ان المهمتين اللتين حددهما اليعازر هما المهمتان **المباشرتان** للغزو الاسرائيلي الاخير ، وبالتالي لكل اعتداء سبقه ، ولكل اعتداء قادم متوقع ؟ في اليوم الاول من الحملة الاخيرة ، اي قبل ان يعلن اليعازر هدف الحملة ، أكد العميد أول احتياط يهوشفاط هركابي ان « القصف الجوي ضد المخربين ما هو الا اجراء مؤقت ، والشيء نفسه ينطبق على العمليات العسكرية المنفذة بواسطة المشاة والمدرعات »(٢). اذن فان العسكرية الاسرائيلية تدرك ان تحقيق مثل هذه الاهداف **المباشرة المعلنة** غير قابلة للانجاز عن طريق الاعمال العسكرية التي تقوم بهـا القوات الاسرائيلية في الجنوب اللبناني . ومن هنا فان هركابي نفسه في حديثه المشار اليه يضع تصورا آخر للحرب من « خلال جبهة واسعة جدا ، ومن خلال عمليات متعددة الاتجاهات ومتنوعة الاساليب » تهدف ، بقدر ما يتعلق الامر بموضوعنا ، الى « العمل على تحويل النزاع الى عبء على تلك الدول التي لم تتحمل اعباءه مما جعلها تمنع تأييدها لاستمراره، وهدفنا سيكون **اجبار** هذه الدول على تقليص حجم تأييدها للحرب التي يقوم بهـا الفدائيون » . بعد هذا الخط الاستراتيجي العريض الذي يحدده هركابي تكشف وسائط الاعلام الاسرائيلي عن تفصيلاته فتكتب صحيفة « دافار » (٧٢/٩/١٧) ان « امـام الحكومة اللبنانية الخيار بين طرد المخربين من اراضيها او الاستمرار في التفرج على اسرائيل وهي تقوم بذلك بنفسها »(٣) . كما تكتب صحيفة « عل همشمار » في اليوم نفسه « ان المحافظة على الهدوء يتعلق بالحكومة اللبنانية وحدها وعليها ان تتخلص من أعمال المخربين »(٤). وهكذا ، تكشف هذه « الدعوة » للحكومة اللبنانيـة الهدف **الحقيقي والمباشر** للاعتداء الاسرائيلي على الجنوب اللبناني ، هي « دعوة » لان تتولى الحكومة اللبنانية نفسها المهمتين اللتين حددهما اليعازر هدفا للحملة بعد ان ادركت العسكرية الاسرائيلية عقم « القصف الجوي ضد المخربين والعمليات العسكرية المنفذة بواسطة المشاة والمدرعات » . وهذه « الدعوة » الاسرائيلية ليست حديثة ، ولا هي موجهة فقط للحكومة اللبنانية وانما شعب لبنان ، في قراه ومناطقه الجنوبية ، مقصود بها أيضا . فمنذ ان ابتدأت اسرائيل بتكرار اعتداءاتها على الارض اللبنانية ، كان كل اعتداء يحمل في طياته مثل هذه « الدعوة » التي كانت اسرائيل تؤكدها علانية في تصريحات قادتها أو من خلال وسائطها الاعلامية . فعشية الاعتداء على بلدة حاصبيا وقرية دير العشائر في حزيران ١٩٧٢ حرص ابا ايبان ، وزير خارجية اسرائيل ، على « افهام » اللبنانيين في الجنوب الهدف من هذا الاعتداء بأنه « القضاء على المخربين والمتعاونين معهم فمتى **خرج المخربون من القرية وكف الاهالي عن التعاون معهم** تركهم جيش الدفاع الاسرائيلـي

بعيشون في أمان »(٥). والدعاوة الاسرائيلية توجه « الدعوة » الى اللبنانيين « للسخط » على الفدائيين حرصا منها على استقرار الشعب اللبناني فيذيع راديو اسرائيل (٢٣/ ٧٢/٦) ان « وكالات الانباء تتحدث عن التوتر المتزايد في أوساط الشعب اللبناني تجاه منظمات التخريب ، فالسخط الذي ساد سكان قرى الحدود موجـه الى المخربين والسلطات اللبنانية التي لا تتخذ الاجراءات اللازمة لوقف نشاطات المخربين التي لا تقتصر على القيام بعمليات ضد اسرائيل بل **تسيء ايضا الى الامن الداخلي في لبنان والى راحة واستقرار الشعب اللبناني** . فمنظمات التخريب تعتبر نفسها دولة داخل دولة **ولا تحترم الحقوق الاساسية للشعب اللبناني** ». هـذا الحرص المزعوم على استقرار الشعب اللبناني ، يكشف الاهداف ويعريها : استعداء السلطة في لبنان على المقاومة ، خلق التناقض بين الشعب في لبنان والمقاومة ، وتصعيد هذين الهدفين الى مرحلة الصدام المسلح الذي يكون فيه طرفا الصدام خاسرين لا محالة . وازاء هذا الخسران الذي يحيق بالطرفين ، المقاومة ولبنان ، تستطيع اسرائيل من ثم ان تخطو خطوات اخرى في تحقيق أهدافها الحقيقية في لبنان والتي هي ، هذه المرة ، غير معلنة ، اعلانا صريحا . ونعني بذلك* :

تقويض الاقتصاد اللبناني

لا يزال الاقتصاد اللبناني يرتكز بصورة رئيسية على قطاع الخدمات الذي يشكل حاليا ٦٧ ٪ من الناتج الوطني بينما تساهم الصناعة بنسبة ١٧ ٪ والزراعة ١١ ٪ والبناء ٥ ٪(٦) وتطور اقتصاد الخدمات هذا يتطلب استقرارا سياسيا حتى ينمو ويزدهر ، ففترات الاضطراب بالنسبة له هي فترات انكماش وتراجع بينما فترات الاستقرار هي فترات نمو كبير وازدهار .

ومن مقومات قطاع الخدمات في لبنان التجارة والسياحة وهذه الاخيرة تشكل دعامة قوية من دعائم الاقتصاد اللبناني وتبلغ نسبة مساهمتها في الناتج الوطني ١٥ ٪ وقد ارتفعت قيمة المقبوضات من السياحة من ٦٧،٣ مليون ليرة لبنانية سنة ١٩٦٠(٧) الى ٥٨٠ مليون ليرة لبنانية سنة ١٩٧١ وكان متوقعا ان تصل الى ٦٤٥ مليون ليرة لبنانية سنة ١٩٧٢ أي بمعدل زيادة قدره ١١ ٪(٨). لكن حالة عدم الاستقرار التي ولدتها الاعتداءات الاسرائيلية على لبنان وموجة الانفجارات والاغتيالات السياسية التي تقف وراءها الاستخبارات الاسرائيلية قد أثرت على هذا القطاع تأثيرا مباشرا ولن يتوقع له هذه السنة نمو كبير كما كان منتظرا ودليل ذلك انخفاض عدد المصطافين العرب في المصايف اللبنانية هذه السنة(٩) والغاء الرحلات المقررة لبعض السياح الاوروبيين والامريكيين الى لبنان وبالتالي الغاء الحجوزات في فنادق بيروت والجبل التي تنتظر موسم الصيف حتى تعوض عن خسارتها في بقية فصول السنة .

ولا تكتفي اسرائيل بالاعتداءات على لبنان حتى تقوض اقتصاده بل تستغـل وسائل اعلامها في الخارج ، ودالتها على بعض وسائل الاعلام في العالم الغربي ، لتشوش على لبنان وتمنع السياح من زيارته . وأنشأت لهذا الغرض مكتبا خاصا في اوروبا الغربية لقراءة الصحف اللبنانية يوميا وجمع المعلومات عن حوادث السير والسرقة والقتل وانباء غلاء المعيشة ومن ثم ترجمة هذه المعلومات الى عدة لغات اجنبية وتوزيعها على مكاتب ووكالات السفر في مختلف انحاء العالم تحت عنوان: لبنان كما يراه أهله . . . فتأملوه(١٠). هذا نموذج عن رغبة اسرائيل في تقويض اقتصاد لبنان لتركيعه حتى يرضخ لجميع شروطها فيقيد تحركات المقاومة الفلسطينية على اراضيه تمهيدا لتصفيتهـا معنويا

---

* أعدت هذه المقدمة من قبل هيئة التحرير حيث ان المقال كتب أصلا قبل شهرين من تاريخ النشر .

وجسديا لكن يقظة الشعب اللبناني حالت حتى الان دون الرضوخ للشروط الاسرائيلية المهينة للكرامة الوطنية .

الاهداف البعيدة

ان الهدف البعيد للاعتداءات الاسرائيلية على لبنان هو الاستيلاء على جنوبي لبنان وجزء من منطقة البقاع الواقع على السفح الشرقي لجبل الشيخ وذلك لعدة اسباب أهمها :

ـــ وجود كميات وافرة من المياه (منابع الاردن ، نهر الليطاني ، نهر الزهراني وينابيع اخرى) تقدر بـــ ٥٠٠ مليون متر مكعب في السنة تحتاج اليها اسرائيل لتحقيق مشاريع الاستيطان في جنوبي فلسطين .

ـــ وجود اراض زراعية خصبة (سهل مرجعيون ، السهل الساحلي . . .) تحتاج اليها اسرائيل لتوسيع الرقعة الزراعية لاراضيها .

ـــ وجود أماكن أثرية غنية تمثل عدة حضارات تبغي اسرائيل الاستيلاء عليها لتنشيط السياحة الى اراضيها .

ـــ اهمية هذه المناطق من الناحية العسكرية والاستراتيجية لامن الدولة الصهيونية .

وقضية مطامع اسرائيل هذه بالاستيلاء على بعض المناطق اللبنانية ، هي قضية طويلة ، يرتبط تاريخها مباشرة بتاريخ الحركة الصهيونية . وقد اتخذت هذه المطامع منذ ولادتها اتجاهين مختلفين ، سياسي واستيطاني . وسنعرض فيما يلي لخطة العمل التي اتبعها قادة الحركة الصهيونية في كل اتجاه كي يصلوا الى غايتهم .

الاتجاه السياسي

تؤكد جميع المقالات والبيانات والمذكرات الصادرة عن قادة الحركة الصهيونية في الفترة التي سبقت مباشرة الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان والانتداب البريطـــاني على فلسطين وشرق الاردن ، تؤكد جميعها رغبة الحركة الصهيونية في الاستيلاء على جنوبي لبنان وجبل الشيخ وسفوحه الشرقية الواقعة في لبنان وذلك أستنـــادا الى العوامل التاريخية والاقتصادية والجغرافية والاستراتيجية . وسارت مطالبة الصهاينة وفق الخطة التالية :

أ ـــ بتاريخ ٥ أيار سنة ١٩١٧ احتجت الحركة الصهيونية في نشرة فلسطين ، الناطقة باسمها ، على معاهدة سايكس ـــ بيكو السرية التي اتفقت بموجبها بريطانيا وفرنسا على تقسيم المشرق العربي فكتبت تقول :

« ما من اتفاق ينص على تقسيم ارض فلسطين « القديمة » يمكنه ان يحوز على موافقة اليهود أو أن ينسجم مع أمانيهم القومية » .

وشددت النشرة على ضرورة توفر العوامل التالية في الارض التي ستمنح لليهود :

ـــ سهولة الدفاع

ـــ مساحة كافية للتوسع الاقتصادي

ـــ شمول جميع المناطق التي قد تشكل مصدرا للمتاعب في المستقبل(١١) .

ب ـــ بعد حصول اليهود على وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧ بدات اللجنة الاستشارية لفلسطين ، (لجنة بريطانية تضم معظم الشخصيات الصهيونية) ، عملها لوضع مقترحات لحدود فلسطين في ٦ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ . وقدمت هذه اللجنة مقترحاتها استنادا الى العوامل التاريخية والاقتصادية والجغرافية وأصرت على ان تشمل الحدود الشمالية ، نهر الليطاني وجبل الشيخ(١٢) .

ج ــ في المذكرة الرسمية التي قدمتها الحركة الصهيونية الى مؤتمر السلام أصرت على شمول الحدود الشمالية على جنوبي لبنان وجبل الشيخ . تقول المذكرة :

ان حدود فلسطين سوف تتبع الخطوط العامة الموضوعة كما يلي : تبدأ من الشمال عند نقطة على البحر الابيض المتوسط بالقرب من صيدا وتتبع منابع المياه التي تنبع من سفوح سلسلة جبال لبنان حتى جسر القرعون ثم الى البير وتتبع الخط الفاصل بين حوض وادي القرن ووادي التيم ثم الى اتجاه جنوبي يتبع الخط الفاصل بين المنحدرات الغربية والشرقية لجبل الشيخ ...(١٣).

تعيد المذكرة الى الاذهان ما صرح به مرارا قادة الحركة الصهيونية في تلك الفترة وتوضح اصرارهم على شمول جنوبي لبنان وجبل الشيخ ضمن الحدود القومية للوطن اليهودي في فلسطين . وأعقبت المذكرة عدة ايضاحات من قادة الحركة الصهيونية تثبت جميعها اطماع الحركة بجنوبي لبنان وجبل الشيخ :

ــ في ٦ كانون الاول سنة ١٩١٩ حددت الحركة الصهيونية رغبتها في الاستيلاء على جنوبي لبنان وجبل الشيخ بقولها : « ان الحقيقة الاساسية فيما يتعلق بحدود فلسطين هي انه لا بد من ادخال المياه الضرورية للري والقوة الكهربائية ضمن هذه الحدود ، وذلك يشمل مجرى نهر الليطاني ومنابع مياه الاردن وثلوج جبل الشيخ »(١٤).

وارسل هيربرت صموئيل(١٥) رسالة الى احد اعضاء الوفد البريطاني في محادثات السلام في باريس يشرح فيها اهمية مستقبل فلسطين ويحدد عوامل النجاح لها فيقول : « ان نجاح مخطط مستقبل فلسطين بأسره يعتمد على مدى قدرة البلاد على استيعاب المهاجرين اليهود وهذا بدوره يعتمد على تطوير الصناعة والزراعة ، ويعتمد تحقيق ذلك على توفر المياه والقوة المائية ومن هنا كانت الحدود الشمالية المقترحة (من قبل مذكرة الحركة الصهيونية) حيوية للغاية »(١٦).

وفي اجتماع ضم القاضي برنديس واللورد بلفور واللورد برسي والقاضي فرانكفورتر ، صديق الرئيس الاميركي نلسون ، المعروف بميوله الصهيونية ، اتفق المجتمعون على ان تحقيق الوطن القومي لليهود لا يتم الا بتوفير مساحة كافية لاستيعاب المهاجرين ، وتأمين مصادر المياه الواقعة في شمال البلاد(١٧).

وفي اثناء انعقاد مؤتمر الصلح اتصل دافيد بن غوريون ووايزمن ، اول رئيس دولة لاسرائيل ، اللذان كانا في باريس لملاحقة مطالب الحركة الصهيونية ، بالبطريرك الماروني والذي كان بدوره في باريس للمطالبة بضم الجليل الاعلى ووادي النصارى الى دولة لبنان ، اتصلا به لاقناعه بالتخلي عن الجليل الاعلى وجنوبي لبنان لقاء وعد بمده بالمساعدات المالية والفنية كافة لتطوير لبنان الذي سيصبح دولة ذات اكثرية مسيحية فرفض البطريرك طلبهم وأصر على مطالبه(١٨). فهذه الحادثة تثبت وسائل الترغيب التي اعتمدتها الحركة الصهيونية لسلخ جزء من لبنان من سيطرة الانتداب الفرنسي وضمه لسلطة الانتداب البريطاني حتى يسهل عليها انشاء المستوطنات الصهيونية فيه والاستيلاء عليه عند قيام الدولة الصهيونية في الاراضي العربية المغتصبة .

الا ان فرنسا أصرت على ان تكون الحدود الجنوبية والجنوبية الشرقية الفاصلة بين النفوذ الفرنسي والبريطاني خطا يمتد من رأس الناقورة على البحر الابيض المتوسط مرورا ببانياس حتى مدينة درعا السورية . وهكذا قطعت الطريق على مطامع الحركة الصهيونية في الاراضي اللبنانية والسورية معا . فأعلن قادة الحركة الصهيونية سخطهم على رضوخ الحكومة البريطانية الى المطالب الفرنسية ونددوا بهذا الاتفاق الذي أفقدهم نهر الاردن ونهر الليطاني وجبل الشيخ وسهل حوران .

لكن قادة الحركة لم ييأسوا من امكانية تغيير الحدود بطريقة سلمية فحاولوا خلال الحربين العالميتين اقامة جاليات يهودية في الاراضي اللبنانية والسورية ، الا ان محاولتهم لاقت معارضة شديدة من السلطات الفرنسية التي رفضت رفضا باتا السماح للجاليات اليهودية بالاستيطان في الاماكن المحيطة بالحدود الفلسطينية تخوفا من المطامع التوسعية الصهيونية(١٩) .

رغم هذه النكسات لم تتخل اسرائيل عن محاولاتها للاستيلاء على منابع المياه ، فقد حاولت قبيل قيام دولة اسرائيل سنة ١٩٤٨ شراء الاراضي المحيطة بمنابع الاردن ونهر الليطاني وذلك عن طريق سماسرة ماهرين الا ان محاولتها هذه باءت بالفشل(٢٠)، وفي سنة ١٩٤٨ احتلت اسرائيل جزءا من قضاء مرجعيون وبنت جبيل واصبحت على مشارف الليطاني لكنها تراجعت عنها بعد ان قامت الحكومة الفرنسية بالضغط عليها . وفي اتفاق الهدنة المعقود سنة ١٩٤٩ بين لبنان واسرائيل احتفظت اسرائيل بأجود الاراضي الزراعية التابعة للعديد من القرى الواقعة على الحدود اللبنانية الاسرائيلية منها اراضي قرى يارون ورميش وعيترون وبليدا وحولا والعديسه وكفركلا وميس الجبل . . .

ومنذ ذلك الحين لا ينفك المسؤولون الاسرائيليون عن كشف نواياهم التوسعية بالاستيلاء على جزء من أراضي لبنان . ففي مطلع ايار سنة ١٩٥١ يصرح ابا ايبان وزير خارجية اسرائيل الان بما يلي : « لسنا من المهتمين بالنيل او بالفرات ولكننا نولي الاردن ومنابعه كل اهتمام »(٢١) وهذا يعني الاستيلاء على قضاء حاصبيا وراشيا ومرجعيون وجزء من البقاع الغربي . وفي مطلع سنة ١٩٥٥ نشرت مجلة ميدل ايسترن افيرز الاميركية الصهيونية مقالا جاء فيه : « كان من الواضح للاسرائيليين ان احلام تطوير النقب لا يمكن أن تتحقق بدون مياه الليطاني »(٢٢). وفي ٧ تموز سنة ١٩٦٧ بعد حرب الخامس من حزيران مباشرة صرح ليفي اشكول ، رئيس الوزراء آنذاك ، لمندوب جريدة اللوموند الفرنسية معلنا نواياه بالاستيلاء على مياه لبنان فيقول : « لا يمكننا ونحن بأمس الحاجة الى المياه ان نرى مياه نهر الليطاني تذهب هدرا الى البحر ، لقد اصبحت القنوات جاهزة في اسرائيل لاستقبال هذه المياه واستعمالها »(٢٣). ويجيب بن غوريون رئيس وزراء اسرائيل الاسبق على رسالة الجنرال ديغول الذي بعث يسأله عن نوايا اسرائيل بالنسبة للبنان فيقول : « ان امنيتي في المستقبل جعل الليطاني حدود اسرائيل الشمالية » . واثر حرب الخامس من حزيران يصرح وزير الدفاع موشي دايان : « ان حدود اسرائيل اصبحت طبيعية على جميع الجبهات باستثناء لبنان » . ويضيف في تصريح آخر امام اتحاد شباب الكيبوتز في هضبة الجولان السورية المحتلة فيقول : « ان الضفة الشرقية للاردن ولبنان وسوريا ستكون الفريسة التالية لاسرائيل » .

تصريحات المسؤولين الاسرائيليين في هذا الصدد عديدة وكلها تثبت نوايا اسرائيل بالاستيلاء على جنوبي لبنان لتأمين كميات المياه التي تحتاج اليها لتحقيق سياسة الاستيطان في النقب واستيعاب موجات الهجرة التي ترد اليها في السبعينات . وستشتد أزمة المياه في اسرائيل ابتداء من سنة ١٩٧٥ لان الطلب على المياه سيزيد على الكميات المتوفرة في البلاد(٢٤). فلا بد اذن لاسرائيل ان تحسم الموقف قبل ذلك التاريخ . وتشير تطورات الاحداث على الجبهة اللبنانية بعد حرب الخامس من حزيران الى رغبة اسرائيل الملحة في الاستيلاء على جنوبي لبنان . لانها منذ ذلك التاريخ قامت باحتلال مزارع شبعا وشردت نحو ٥٠٠ شخص وأقفلت ابواب الرزق امام اهالي شبعا كما احتلت مشارف جبل الشيخ المطلة على شبعا ، ومشارف كفرشوبا وأنشأت مراكز مراقبة لها في الاراضي اللبنانية على طول الحدود وشقت اليها الطرقات .

لكن المسؤولين الاسرائيليين لا يفصحون عن كل الاسباب التي تدفعهم الى احتلال الاراضي اللبنانية فبالاضافة الى المياه التي تحتاج اليها اسرائيل هناك اهداف اخرى تدفع

باسرائيل الى الاسراع بالاستيلاء على الاراضي اللبنانية منها :

— الاستيلاء على الاراضي الزراعية الخصبة لا سيما السهل الساحلي حيث تزدهر بساتين الحمضيات التي تشتهيها اسرائيل لتقضي من جهة على دعامة قوية من دعائم الزراعة وتزيل من جهة اخرى منافسا قويا لها في اسواق أوروبا الشرقية والاسواق العربية ايضا حيث تطمع اسرائيل بتسريب حمضياتها اليها عن طريق سياسة « الجسور المفتوحة » بينها وبين الاردن وذلك تحت ستار « منتجات الاراضي العربية المحتلة »(٢٥).

— التمركز في الجنوب لاهميته العسكرية والاستراتيجية لحماية امن الدولة الاسرائيلية كي تمنع المقاومة والجيوش العربية من التمركز فيه وتهديدها تهديدا مباشرا .

— تفتيت كيان لبنان تمهيدا لانشاء اول دولة من سلسلة الدول الطائفية التي فضحها كتاب « خنجر اسرائيل » حين نشر مضمون الوثيقة السرية التي كانت تنوي اسرائيل تحقيقه في المشرق العربي بالتعاون مع حلف بغداد سابقا كي تخلق حولها حزام امن مركبا من دويلات طائفية صغيرة تدور في فلكها. يشكل هذا الهدف اخطر تحد تقوم بتنفيذه اسرائيل لضرب أماني الشعوب العربية في تحقيق الوحدة وذلك عن طريق اثارة النعرات الطائفية لدى الاقليات حتى تسلخها عن وحدة المصير مع الشعوب العربية . وقد يتجاوب معها بعض غلاة الطائفية الانعزاليين الذين يطمحون منذ زمن الى انشاء مثل هذه الدويلات .

٢ — الاتجاه الاستيطاني

هذا الاتجاه ملازم للاتجاه السياسي ويرمي الى انشاء مستوطنات صهيونية في الاراضي التي يطمع قادة الحركة الصهيونية بالاستيلاء عليها لفرض سياسة الامر الواقع ، وتجلت هذه السياسة بالاحداث التالية :

أ — أقام المستوطنون الصهيونيون بين سنتي ١٨٨٢ و١٨٩٦ خمس مستوطنات في الجليل الاعلى المتاخم للحدود اللبنانية قرب حوض نهر الحاصباني والليطاني . بلغت مساحة هذه المستوطنات في عام ١٩١٥ ٨٤٥٣٠ دونما(٢٦) منها ما يقارب الثلث كان واقعا ضمن الاراضي اللبنانية في سهل مرجعيون وخراج قرية دير ميماس اللبنانية المشرفة على حوض الليطاني قرب قلعة الشقيف .

ب — اشترى السماسرة اليهود بين سنتي ١٩١٦ و١٩٢١ القرى اللبنانية التالية : صلحا ، هونين ، طبريخا ، الصالحة ، واستطاعت المنظمات الصهيونية بما لديها من نفوذ ان تضم هذه القرى الى فلسطين بعد تعديل للحدود جرى بين بريطانيا وفرنسا في سنة ١٩٢٣ . وقد شمل هذا التعديل طول الحدود اللبنانية وتم بموجبه سلخ بعض الاراضي الزراعية الخصبة التي كانت تابعة للبنان(٢٧).

ج — نجح اليهود بين الحربين العالميتين في ان يبتاعوا قرية المنارة التي تقع على مرتفع يشرف على الجزء الجنوبي من جبل عامل والتي كان يملكها اقطاعي لبناني ، وامتياز تجفيف بحيرة الحولة والمستنقعات المجاورة لها والذي كان يملكه اثنان من تجار بيروت حصلا عليه في حزيران سنة ١٩١٤ من الدولة العثمانية وقبضا ثمنه ١٩٢٠٠٠ ليرة فلسطينية من شركة ترقية الاراضي في فلسطين(٢٨)، وهي شركة يهودية لعبت دورا بارزا في الاستيلاء على الاراضي العربية في فلسطين التي كان يملكها اقطاعيون كبار وذلك باغرائهم بمبالغ ضخمة من المال . وكان الغرض من شراء قرية المنارة وامتياز الحولة السيطرة على حوض الاردن والليطاني معا .

د — عام ١٩٤١ تقدمت احدى الشركات الصهيونية بطلب الى الحكومة اللبنانية لاعطائها امتيازا لاستغلال مياه لبنان وتزويد القرى اللبنانية بالماء والكهرباء(٢٩) على غرار

الامتيازات التي حصلت عليها بعض الشركات الصهيونية من الحكومة البريطانية المنتدبة على فلسطين . الا ان الحكومة اللبنانية تنبهت الى نوايا الصهيونيين ورفضت اعطاء الامتياز حفاظا على الثروة المائية اللبنانية .

لكن الحركة الصهيونية لم تيأس من فشلها في الحصول على امتيازات لاستغلال مياه لبنان وقد مارست ضغوطا غير مباشرة منذ ذلك الحين على الحكومة اللبنانية لمنعها من تنفيذ مشاريع الري المقررة في حوض الحاصباني والليطاني . ويلمس هذه الحقائق كل من رافق قضايا الري في الجنوب ويدرك مدى الضغوط التي مارسها البنك الدولي ولا يزال لعرقلة تنفيذ مشاريع الري في الجنوب من الليطاني والحاصباني وذلك عن طريق المماطلة بطلب دروس جانبية عن المشروع قبل المباشرة به . ومنذ ذلك التاريخ اشبع المشروع درسا وما يزال البنك الدولي متمنعا عن اعطاء القروض لتمويل تنفيذ اشغال الري لكنه كان سخيا باعطاء القروض لتمويل محطات توليد الكهرباء من الليطاني . ما هي الغاية اذن من تأخير ري الجنوب من الليطاني لولا الضغوط الاسرائيلية لمنع لبنان من الاستفادة من مياه هذا النهر كي تستولي عليه وتجر مياهه الى النقب ؟

تدل هذه الاحداث وغيرها من الاحداث المشابهة التي جرت قبيل انشاء دولة اسرائيل على مطامع الحركة الصهيونية الجدية بالاستيلاء على الاراضي اللبنانية بواسطة فرض سياسة الامر الواقع التي لا يزال يتبعها المسؤولون الاسرائيليون في الاراضي العربية التي احتلوها في حرب الخامس من حزيران عن طريق انشاء المستوطنات الصهيونية فيهـا .

خاتمة

من الواجب اذن ان يدرك اللبنانيون جميعا ان الاطماع الاسرائيلية بالاستيلاء على جنوبي لبنان والجزء الجنوبي الشرقي من البقاع ليست وهما بل حقيقة واقعة تأتي في طليعة اهتماماتها في المستقبل القريب كما صرح بذلك وزير الدفاع الاسرائيلي موشي دايان ، امام اتحاد شباب الكيبوتز في هضبة الجولان المحتلة : « ... سيكون لبنان الفريسة التالية لاسرائيل » . ومن المهازل ان اسرائيل تجهر بنيتها هذه أمام الملأ دون خوف او حياء بينما لا تزال فئة من الشعب اللبناني ، أعماها التعصب ، تصر بأن اسرائيل لا تطمع بأي شبر من الاراضي اللبنانية ولا تريد للبنان الا الخير والازدهار الاقتصادي شرط ان يطرد الفدائيون من اراضيه . وتصر هذه الفئة ايضا على الاعتقاد بأن الخطر الحقيقي الذي يهدد كيان لبنان واستقراره كامن في الدول العربية « ذات الانظمة التقدمية » وفي الفدائيين الفلسطينيين الذين جلبوا الويل والدمار الى لبنان منذ ان وطئت اقدامهم اراضيه . لقد وقعت هذه الفئة في فخاخ الدعاية الصهيونية لكن قد آن لهذه الفئة ان تفيق من غفلتها على صدى تصريحات المسؤولين الاسرائيليين بالاستيلاء على جنوبي لبنان . آن لها ان تعي ان الخطر الحقيقي والوحيد على لبنان هو التهديد الاسرائيلي لانها تطمع بأرضنا ومياهنا وخيراتنا ، وان الدول العربيـة والفدائيين هم حلفاؤنـا الطبيعيون لاننا مرتبطون معهم بوحدة الحياة والمصير وتقضي الظروف التي نعيشها بأن نتعاون معا لردع العدو المشترك قبل ان يشردنا من ارضنا ونصبح لاجئين في الخيام .

---

١ — حديث الى الاذاعة الاسرائيلية يـوم ٧٢/٩/١٧ ، نشرة **رصد اذاعة اسرائيل** الصادرة عن مركز الابحاث ، العدد ٤٢ .

٢ — **المصدر نفسه** .

٣ — **المصدر نفسه** .

٤ — **المصدر نفسه** .

٥ — تصريح نقلته الاذاعة الاسرائيليـة في ٧٢/٦/٢٧ .

٦ — Henri Durane, *Options pour une polotique de développement au Liban*, 1971, p. 4.

٧ — **ميزان المدفوعات اللبناني ١٩٦٠—١٩٦٩** ،

منشورات مديرية الاحصاء المركـزي في وزارة التصميم العام ١٩٧١ ، ص ٨٦ .

٨ — *Le Commerce du Levant*, Edition Mensuelle,, Juillet 1972.

٩ — جريدة **النهـار** عدد ٧/٨ و١٩٧٢/٧/١٥ .

١٠ — جريدة **الجريدة** في ١٩٧٢/٦/٢٤ .

١١ — مجلة **فلسطين** ، الجزء الاول ، العدد ١٥، ٥ ايار ١٩١٧ .

١٢ — فريسكو سر رعنان ، **حدود وطن** ، لندن ١٩٥٥ ، ص ١٠١ .

١٣ — **المصدر نفسه** ، ص ١٠٥ .

١٤ — **فلسطين** ، الجزء السادس ، عدد ١٧ .

١٥ — هيربرت صموئيل ، أحد أقطاب السياسة البريطانيين ، يهودي صهيوني عين اول مندوب سام بريطاني على فلسطين .

١٦ — **وثائق الحكومة البريطانية عام ١٩١٩** ، الجزء الرابع عدد ١٩٧ ، المادة الثالثة ، ص ٢٨٥ .

١٧ — **المصدر نفسه** ، ص ١٢٧٦ .

١٨ — ذكر الحادثة النائب ريمون اده في بيانـه سنة ١٩٦٨ ، وقال انه اطلع عليها في وثائق البطريركية المارونية في بكركي .

١٩ — رعنان ، **المصدر السابق** ، ص ١٣٩ .

٢٠ — جريدة **النهار** ، ١٣ ايلول ١٩٤٥ .

٢١ — **جيروزاليم بوست** ، ٢ ايار ١٩٥١ .

٢٢ — **ميدل ايسترن افيرز** ، المجلد السادس ، العدد الاول ، كانون الثاني ١٩٥٥ .

٢٣ — **الموند** ، ٧ تمز ١٩٦٧ .

٢٤ — *Quaterly Economic Reviews*, Israel 1969, No. 1 , p. 13.

٢٥ — لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع راجـع الدراسة التي صدرت لنا عن مركز الابحاث الفلسطينية في سلسلة دراسات فلسطينية عن الحمضيات في الاراضي المحتلة .

٢٦ — Dr. A. Rupin, *Syrien Als Wirschafsgebiet,* traduit en Français par Georges Shaib, Beyrouth, p. 108.

٢٧ — عبدالله عامي ، **صراعنـا مع اسرائيل** ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشـر والتوزيع ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٩٤ .

٢٨ — سعيد حماده ، **النظام الاقتصـــادي في فلسطين** ، جامعة بيروت الامريكية ، بيروت ١٩٣٩ ، ص ١٤٥ .

٢٩ — عبدالله عامي ، **المصدر السابق**، ص ٩٧.

مرحلة الركود القادمة في الاقتصاد الاسرائيلي

كين ميركورد

ما زالت اسرائيل تتلقى ، منذ قيامها ، سيلا من رؤوس الاموال . فقد حصلت على ما يزيد عن احد عشر بليون دولار مكنتها من تغطية فائض الاستيراد الدائم لديها ، ذلك ان فائض الاستيراد على التصدير يعطي الاسرائيليين مستوى معيشة مرتفعا بصورة « اصطناعية » فمن غير الطبيعي ان تستهلك اي دولة اكثر مما تنتج ، وحين يتوقف هذا السيل من التمويل الخارجي ، عاجلا او آجلا ، ستضطر اسرائيل الى تخفيض مشترياتها من البضائع الاجنبية بحيث يتساوى الاستيراد مع التصدير وهذا يؤدي الى تقلص في الاستهلاك المحلي ، اي الى هبوط في مستوى المعيشة . وعلى حد تعبير احد كبار الاقتصاديين الاسرائيليين بانه اذا كان استيراد رأس المال بمثابة « القوة الدافعة في الاقتصاد الاسرائيلي »(١)، فان الحصيلة النهائية للتوقف التام لهذا الاستيراد قد تكون اشد اثارة من مجرد تدني مستوى المعيشة . فبما ان الصناعة الاسرائيلية تتوجه ، بالدرجة الاولى لتلبية احتياجات السوق المحلية خاصة في مجالات السكن والنقل والملابس معتمدة على سيل رؤوس الاموال المتدفق نحوها من الخارج ، فان الركود الذي سيسببه توقف اجتذاب رؤوس الاموال ، سيؤدي الى البطالة وبالتالي الى تخفيض القوة الشرائية للمستهلك ، الامر الذي سيزيد من ضغط الركود . وهذا بدوره سيؤدي الى مزيد من البطالة والى تدن اكبر في مستوى البحبوحة العامة ، والى تغليب الهجرة من اسرائيل على الهجرة اليها .

لقد تنبه الاقتصاديون الصهيونيون لهذا الخطر منذ ان بدأ الصندوق القومي اليهودي في تمويل الكيبوتزات في الايام الاولى للانتداب . وما برح الاقتصاديون يحذرون من انه « لا توجد ضمانة لاستمرار تدفق رأس المال الخارجي الوحيد الجانب الى ما لا نهاية . وبالتالي فان على اسرائيل ان تكيف نفسها بالتدريج ، والشروط الضرورية لتحقيق الاستقلال الاقتصادي حتى لا تجد نفسها في مواجهة هذا الوضع الصعب »(٢). وقد جرت اول محاولة اسرائيلية في اتجاه الوصول الى الاستقلال الاقتصادي عام ١٩٦٥ . احست الحكومة الاسرائيلية حينئذ بالقلق بسبب حدوث زيادة بلغت ١٣٥ مليون دولار على فائض الاستيراد، فقررت ان لا مفر من احداث تحول جذري في سياستها الاقتصادية « لتفادي انهيار اكبر ، وخطر اشد بعد سنوات قليلة »(٣). واصبحت الحالة حادة ، بصورة خاصة ، عندما كانت الزيادة في الواردات تؤدي الى ارتفاع حاد في ديون اسرائيل الخارجية لان فائض الاستيراد كان يغطى كليا ، الى حد ما ، من خلال زيادة القروض الخارجية والاستثمارات . ولهذا ، وبقصد تخفيض العجز في ميزان المدفوعات ، اقرت الحكومة الاسرائيلية عام ١٩٦٥ قيودا على سياستها المالية والنقدية فوضعت حدا لنمو الاعتمادات المالية والمشاريع الانشائية العامة الجديدة . كان لهذا التحول اثر ايجابي فوري على العجز في الميزان التجاري اذ انخفض فائض الواردات من ٥٧٠ مليون دولار عام ١٩٦٤ الى ٤٥٢ مليون دولار عام ١٩٦٦ . لكنه ادى ، من ناحية اخرى ، الى اول

ركود في الاقتصاد الاسرائيلي . ومع ان الناتج القومي الاجمالي لاسرائيل استمر في النمو ، الا ان نموه كان اقل بكثير منه في السابق . ففي عام ١٩٦٦ ازداد باقل من ١٪ . وبسبب النمو في السكان فقد كان هذا يمثل انخفاضا يبلغ ١،٩٪ اذا قيس على اساس الدخل الفردي . اما الانتاج الصناعي فلم يشعر بوقع السياسة الجديدة فورا فبلغ ذروته في شباط ١٩٦٦ . لكنه انخفض باستمرار بعدئذ الى ان بلغ انخفاضه اكثر من ١١٪ في نهاية السنة . غير ان عماد الصناعة الاسرائيلية ، وهي صناعة البناء ، التي تتأثر خاصة بتدفق الرساميل الخارجية ، فقد عانت من نكسة اشد اذ انخفضت نشاطات البناء بنسبة ٢٣٪ عام ١٩٦٦(٤). ومنذ ذلك الوقت وبعض الاقتصاديين الاسرائيليين يعزون هذا البطء الاقتصادي الى انخفاض الهجرة التي تطابقت واياه . الا ان السبب الحقيقي كان قرار الحكومة في الاقلال من اعتماد البلاد على استيراد الرساميل . اما الانخفاض في الهجرة من ٥٢،٠٠٠ عام ١٩٦٤ الى ١٤،٠٠٠ عام ١٩٦٦ فقد كان نتيجة الفتور الاقتصادي بقدر ما كان سببه . ففي عام ١٩٥٨ عندما انخفض عدد المهاجرين بشكل اشد دون ان يرافق ذلك فتور اقتصادي يثبت ان تدفق الرساميل وليس المهاجرين هو عماد البحبوحة الاسرائيلية . ومع نهاية ١٩٦٦ خشي زعماء الحكومة نتائج سياسة القيود اكثر من خشيتهم الاغراق في المعضلات المالية واعادوا اقرار سياسة توسعية . ورغم ذلك فقد ازداد الركود ، فانخفضت نشاطات البناء الى نصف ما كانت عليه قبل الركود . وفي ربيع ١٩٦٧ بلغت نسبة البطالة ١٠ ٪ من القوى العاملة واضطرت الحكومة الى استئناف اعالة العاطلين عن العمل(٥) رغم كدر الاسرائيليين الواعين لاهمية الدعاية ولأثر مثل هذه الخطوة على الصورة التي تحاول اسرائيل ان تنسجها لنفسها في الخارج .

واثر حرب حزيران ، انصبت اعانات يهود العالم بشكل لم يسبق له مثيل . فقفزت التحويلات الصافية ، وهو حساب ميزان المدفوعات الذي تدخل في عداده الهبات التي تتلقاها اسرائيل من مصادر مختلفة ، الى ٥١١ مليون دولار عام ١٩٦٧ ، اي ما يقرب من ضعف ما تلقته اسرائيل عام ١٩٦٦ . وقد حفز هذا الدفق من الرساميل الصناعة الاسرائيلية الى استرداد نشاطها فورا . وفي نهاية ١٩٦٧ انخفضت البطالة الى نسبة مقبولة . وفي منتصف ١٩٦٨ ارتفعت نسبة الهجرة الى اسرائيل للمرة الاولى في ثلاث سنوات . وسرعان ما نسي الاسرائيليون الايام السوداء لما قبل الحرب وعمت موجة من التفاؤل الجديد توقعات الاقتصاديين الاسرائيليين بشأن المستقبل . وكانعكاس للنشاط الذي ولده انتصار اسرائيل في ساحة المعركة ، وضعت هيئة التخطيط الاقتصادي برنامج انماء رباعي في عام ١٩٦٨ يدعو الى تخفيض مستمر في العجز التجاري الى ٣٩٥ مليون دولار بحلول عام ١٩٧١(٦). اما النتيجة فقد كانت ارتفاعا حادا في العجز التجاري بدلا من انخفاضه منذ حرب حزيران . وفي عام ١٩٧١ بلغ العجز ١٢٠٤ مليون دولار وينتظر ان يزداد ١٣٠ مليون دولار هذه السنة(٧). ان التباعد ما بين التوقعات في خطة ١٩٦٨ وواقع التجربة الاسرائيلية ، يظهر ان حرب حزيران ، بدلا من ان تكون خلاص اسرائيل الاقتصادي فانها اغرقتها في مشكلات اقتصادية اعمق . وتحت الحاح الضغط لتلبية مدفوعات دفاعية أكبر وتحقيق مستوى معيشة اعلى من أي وقت مضى ، ازداد ارتباط اسرائيل ، بدلا من ان يقل ، باستيراد الرساميل منذ ١٩٦٧ . اما ازدهار اسرائيل الظاهري فما هو الا واجهة تخفي وراءها نفس المشكلات التي سببت ركود الـ ٦٥ — ٦٧ واعتمادها على استيراد الرساميل . والى ان تصحح اسرائيل ما دعاه أحد الاقتصاديين بـ « الفشل الرئيسي في سياسة اسرائيل الاقتصادية »(٨) أي العجز التجاري الدائم ، فسوف تبقى مدعومة اقتصاديا .

ان الوسيلة التي تفضل اسرائيل ، بواسطتها ، تخفيض فائض الاستيراد وبالتالي تبعيتها

للدعم الخارجي ، هي زيادة صادراتها . وبسبب الامكانيات المحدودة لزيادة صادراتها الزراعية ، ركزت على تطوير صناعتها . وبالنظر الى امتلاكها موارد طبيعية قليلة ، اتجهت الى الامعان في تكثيف استغلال اسرائيل لتفوقها النسبي خاصة في ميدان الصناعات ذات القاعدة العلمية وتلك التي تتطلب مستوى عاليا في مهارة الاختصاص والدراية »(٩). ووضع نظام حوافز لصناعات مثل الصناعات الكيمائية والكهربائية وصناعة الطائرات بقصد زيادة صادراتها . ويدخل في عداد الحوافز معونات مالية ضخمة من قبل الحكومة الاسرائيلية . وبالرغم من المقالات البراقة في الصحافة الاسرائيلية والغربية لمنجزات معهد التخنيون وصناعات الطائرات الاسرائيلية ، وشركة سور فان للطاقة الاشعاعية ومؤسسات مماثلة ، فان تكنولوجيا اسرائيل المتقدمة وصناعاتها المتوجهة للتصدير ، ما عدا استثناء واحدا ، لم تستطع ان تحقق مساهمة كبيرة في دخل اسرائيل من المدفوعات الخارجية . فصناعات الطائرات الاسرائيلية تقدم نموذجاً عن مثل هذه الصناعات . فبعد انفاق مبلغ ٦٥ مليون ليرة اسرائيلية لتطوير الـ عرفا Arava ، وهي طائرة تجارية معدة للتصدير ، لم تستطع صناعات الطائرات الاسرائيلية ان تحرز طلبا واحدا من الخارج لهذه الطائرة وطلبت لجنة الكنيست المالية من هذه الشركة التوقف عن انتاجها(١٠). ويبدو من الطبيعي ان تلاقي اسرائيل صعوبة في منافسة غيرها في السوق العالمية في ميدان المنتجات المعقدة عندما تكون دولة كالولايات المتحدة التي تملك اضعاف ما لاسرائيل من طاقات بشرية وثروات طبيعية وتخصص بلايين الدولارات للابحاث العلمية ، تواجه صعوبات في منافسة دول متقدمة تكنولوجيا .

اما النجاح الوحيد في صناعات اسرائيل التصديرية فقد تمثل في صناعة صقل الالماس التي نمت من حجم متواضع قبل الحرب العالمية الثانية لتحتل المركز الاول في قائمة صادرات اسرائيل . الا ان مساهمة صناعة صقل الالماس في الدخل القومي الاسرائيلي ليست بقدر قيمة تصدير الالماس . فالقيمة المضافة بفضل الصقل في اسرائيل هي فقط ١٦ ٪ من قيمة التصدير . فقد تم في عام ١٩٧٠ تصدير الماس بمبلغ ٢٠٢ مليون دولار ، لكن القيمة المضافة بسبب الصقل في اسرائيل كانت ٣٩ مليون دولار فقط(١١). ولما كان متوسط القيمة المضافة في صناعات اسرائيل التصديرية الاخرى يبلغ ٥٦ ٪ فقد الح الاقتصاديون مرارا ، لكن دون جدوى ، على ضرورة التنويع في الصناعة الاسرائيلية . فصناعات اسرائيل التصديرية ما زالت تحتفظ بطبيعة « الغلة الواحدة » اذ يشكل الالماس ما يزيد على ٥٠ ٪ من مجموع صادراتها الصناعية(١٢). فالنسبة العالية المستمرة للالماس من مجموع الصادرات دليل فشل الصناعات التصديرية الاخرى اكثر منه اشارة الى نجاح صناعة صقل الالماس . اذا بقيت اسرائيل عاجزة عن تخفيض فائض وارداتها عن طريق زيادة صادراتها فان البديل الوحيد هو تخفيض وارداتها ويمكن تحقيق هذا بدون نسف مستوى معيشة الاسرائيليين اذا أمكن تخفيض استيراد المعدات الحربية . ولكن طالما ان اسرائيل عاجزة عن انتاج الاسلحة المعقدة التي تحتاجها فان تخفيض الواردات العسكرية لا يمكن الا ان يتبع تخفيضا في مجمل المصروفات الدفاعية. الا انه لا يحتمل حدوث تغيير في ميزانية الدفاع حتى في ظروف وقف اطلاق النار الراهنة اذ حذر الاسرائيليون زعماءهم من ذلك مرارا . وهناك تقدير يتميز بالتفاؤل اذ تتوقع خطة التنمية للفترة ١٩٧٢ – ١٩٧٦ ، الصادرة عن سلطة التخطيط الاقتصادي ، حدا ادنى من الهبوط السنوي بنسبة ١٠ بالمئة في نفقات الدفاع في فترة خمس السنوات القادمة . وهكذا فان تخفيض اسرائيل لوارداتها يتضمن تخفيض أو على الاقل «تسوية» مستوى معيشة الاسرائيليين لان الواردات الوحيدة التي يمكن تخفيضها هي الاستثمار والبضائع الاستهلاكية . الا ان هذه طريقة مؤلمة كما تبين من المحاولة التي جرت في

العام ١٩٦٥ لتخفيض اعتماد اسرائيل على استيراد رؤوس الاموال بهذه الطريقة . وعلى حد قول محافظ بنك اسرائيل السابق فانه « على اساس الايصالات غير المدفوعة يتشكل مستوى معين من المعيشة (والعمالة) والاستثمار ويبرز شكل جامد من اشكال الاستثمار . هذا وان اصعب مهمة اليوم أمام أي بلد هي تعديل هذا الشكل الجامد علما ان أية محاولة للقيام بذلك تثير حتما مضاعفات اجتماعية واقتصادية خطيرة على مستوى الانتاج واليد العاملة المستخدمة »(١٣).

فقد ابتدأت الحكومة الاسرائيلية مؤخرا سياسة نقدية ومالية تعاقدية مماثلة لتلك لسنة ١٩٦٥ بالرغم من مخاطرها على الاستقرار الداخلي . وبعد نقاش لاذع حول مخصصات الدفاع اقرت الحكومة الاسرائيلية للمرة الاولى في تاريخ اسرائيل ، ميزانية في شباط ، تقل في قيمتها الحقيقية عن سابقتها ، « الامر الذي لم يكن قبلا جوهريا »(١٤) على حد تعبير الوزير سابير . فقد خفضت مخصصات الدفاع من ٦٠٠٠ مليون ليرة اسرائيلية الى ٥٣٠٠ مليون ليرة اسرائيلية . اما مخصصات وزارة الاسكان فقد خفضت بمقدار الثلث كما اعلن عن تجميد قطاع المواصلات . ولدفع سياسة مقاومة التضخم ، أقرت اللجنة الوزارية الاقتصادية مؤخرا تجميد جميع المشاريع العامة للانشاء والانماء وزيادة ٣ ٪ في السلفيات الموجهة(١٥).

لقد اظهر الاقتصاديون الاسرائيليون من جديد تكتمهم حيال السبب الحقيقي لمشاكل اسرائيل الاقتصادية عندما عزوا ضرورة سياسة الانكماش الحالية الى الزيادة السريعة في الاجور والاسعار . لكن التضخم الحالي ، شأن الانخفاض في عدد المهاجرين الى اسرائيل عام ١٩٦٥ — ١٩٦٧ ، هو مظهر لمشكلات اسرائيل الاقتصادية اكثر منه سببا لها . انه نتيجة طبيعية لجهود الاسرائيليين للحفاظ على مستوى معيشتهم في وجه جهود الحكومة الرامية الى تقليص الاستهلاك الداخلي وخفض كلفة الانتاج الاسرائيلي بقصد انقاص فائض الاستيراد . اما المسؤول الحقيقي فهو تدفق الرساميل الذي مكن الاسرائيليين من بلوغ هذا المستوى المتضخم للمعيشة الذي يترددون كثيرا في تركه .

ان التغير في تركيب الرساميل المستوردة الى اسرائيل بالاضافة الى ٢٥٠ ٪ من الزيادة في الاستيراد منذ ١٩٦٧ هو الذي حتم التحول في سياسة اسرائيل . فقبل حرب حزيران كان ٧٠٪ من المبالغ التي وصلت اسرائيل مدفوعات محولة دون اي عبء على الاقتصاد بما انها لا تتضمن موجبات ايفاء . اما اليوم فان حساب القروض يبلغ ٥٠٪ من استيراد الرساميل(١٦). اذ ان قدرة يهود العالم قد استنزفت، فاضطرت اسرائيل الى التوجه الى حكومة الولايات المتحدة لتغطية نسبة متزايدة باستمرار من اعباء ديونها . لقد ابتدأ التحول نحو المساندة المباشرة من الحكومة الاميركية عام ١٩٧٠ عندما قفزت قروض الولايات المتحدة الى اسرائيل من ٩٢ مليون دولار عام ١٩٦٩ الى اكثر من ٣٠٠ مليون . فالقرض الضخم الاول ، ٥٠٠ مليون دولار الذي أقر في خريف ١٩٧٠ أتى في وقت صعب جدا عندما انخفض احتياطي العملات الاجنبية اكثر من ٥٠ ٪ عن رقم ١٩٦٧ ولم يكن كافيا حتى لتغطية واردات شهرين . اما وزير المالية الاسرائيلي بنحاس سابير فاشار فيما بعد الى انه لم يستطع ان يرى كيف « يمكن لاسرائيل ان تواجه المصاريف الخارجية الضخمة من دون قرض الـ ٥٠٠ مليون دولار »(١٧). وهذا يؤكد ان الاعتماد على المساعدة الاميركية ما زال من المتطلبات المستمرة . فقد تلقت اسرائيل ١١٠٠ مليون دولار من حكومة الولايات المتحدة في السنتين الاخيرتين(١٨). والمساعدة الاميركية المستمرة لاسرائيل تقدر بنحو نصف بليون دولار في السنة .

ادت تغطية القروض الاميركية لفائض الاستيراد المتزايد الى ارتفاع ديون اسرائيل الخارجية الى ما يزيد على ٣،٥ بليون دولار ، اي اكثر من ضعف رقم ١٩٦٧ . ومعظم هذه الزيادة تمت في السنتين الاخيرتين عندما ارتفعت الديون بمقدار ٧٠٠ مليون دولار

في العام . وهي ترتفع بالقدر نفسه،وينتظر ان تبلغ ٤٤٢ بليون دولار في نهاية هذا العام. وبازدياد الديون ، يتوجب على اسرائيل ان تحول المزيد من مواردها من الاستثمارات والاستهلاك الى ابقاء ما استحق من ديونها . فقد خصص ٢٢٪ من الميزانية المقرة في شباط الماضي لتسديد القروض ، اي انها حلت في المرتبة الثانية بعد مخصصات الدفاع واكثر مما رصد للاسكان والتعليم والخدمات الاجتماعية مجتمعـــة(١٩). واذا توخت اسرائيل تجنب ايفاءات أكبر في المستقبل فما عليها الا ان تقلل من اعتمادها على القروض الخارجية بتخفيض فائض استيرادها .

وقد تنبه الزعماء الاسرائيليون الى هذا الواقع منذ زمن طويل . اما الذي حدا بهم الى اعتماد سياسة شد الحزام في هذا الوقت بالذات فربما كان الضغط من الولايات المتحدة. وبازدياد ديون اسرائيل تجاه الولايات المتحدة ، اشتد قلق الاخيرة على قدرة الاقتصاد الاسرائيلي على البقاء .

الا انهم يحبون ان يروا الاتجـــاه مقلوبا . ومن جهة أخرى ، فان الدافـــع قد يأتي من الاسرائيليين انفسهم الذين يدركون ان الاتكالية الاقتصادية تستتبع فقدان الاستقـــلال السياسي . ان اسرائيل ليست راغبة في أن ترى ارادتها مكبلة باتكالها على الدعم المالي الاميركي مهما كانت ثقتها في حليفتها المخلصة . ومهما كان سبب سياسة التحفظ الجديدة فان الشهور الستة القادمة لا بد ان تكشف ما اذا كانت هذه المحاولة للتقليل من اعتماد اسرائيل على رؤوس الاموال المستوردة ستؤدي ، مثلما حدث من جراء المحاولة الاولى في العام ١٩٦٥ ، الى الركود . وهناك الان بعض الدلائل على هذا الاتجاه . ففي النصف الاول من هذا العام انخفض نمو الانتاج الصناعي الاسرائيلي قليلا(٢٠)، ولقد انخفضت عمليات انشاء الابنية انخفاضا حادا مثلما حصل لعدد من عرب المناطق المحتلة العاملين في اسرائيل(٢١) . وقد ارتفع هذه السنة مجمل عدد المهاجرين . الا ان الهجرة من البلدان غير الشيوعية ، وهي الاهم من وجهة النظر الاقتصادية لان المهاجرين من هذه البلـــدان يحملون معهم رؤوس اموال ، انخفضت بمعدل ١٠ بالمئة(٢٢). وقد حذر بنحاس سابير ، وزير المالية الاسرائيلي ، من أنه كلما بقيت الضغوطات التضخيمية قوية فان « اجراءات مؤلمة » اضافية قد تدعو الحاجة لاتخاذها .

من الممكن ان تنقذ اسرائيل من حالة الركود الماثلة في الافق اما بحرب أخرى او معونة اميركية جديدة او اكتشاف نفط في النقب . لكن من شأن كل هـــذا ان يؤجل اليوم الذي يتوجب على اسرائيل فيه ان تصبح مستقلة اقتصاديا . فكلما سمحت اسرائيل لنفسها بتحويل فائض استيرادها باستيراد الرساميل ، كلما ازدادت مشقة تكيف الاسرائيليين مع الوضع عندما يتوقف استيراد الرساميل . ففي ذلك اليوم المصيري قد يظهر ان هذا الدفق من الرساميل ليس فقط سبب بحبوحة اسرائيل ولكنه مسؤول عن وجودها ايضا.

---

١ ــ دافيد هورونيتز، **ملحق جيروساليم بوست**، ١٩٦٧/١/٢٠ ص ٤ .

٢ ــ دافيـد هورونيتز ، **اقتصاد اسرائيـل** ، اوكسفورد بيركامون برس ، ١٩٦٧ ص ٤ .

٣ ــ **ملحق جيروساليم بوست** ، ١٩٦٧/١/٢٠ ص ٤ .

٤ ــ **التقرير السنوي ١٩٦٦** ، بنك اسرائيل ، القدس ١٩٧١ ، ص ١٣ .

٥ ــ **يو اس نيوز اندورلد ريبورت**١٩٦٧/٤/١٧، ص ٧٣ .

٦ ــ **انبـاء اسرائيـل الاقتصـــادي** ، وزارة التصميم ، القدس ١٩٦٨ ، ص ٥ .

٧ ــ **جيروسالـم بوست الاسبوعية** ، ١٩٧٢/٢/٢٩ ، ص ٧ .

٨ ــ دون باتنكين ، **اقتصاد اسرائيل : العقـد الاول** ، القدس ، مشروع فولك للابحـــاث الاقتصادية في اسرائيل ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٦ .

٩ ــ **الانباء الاقتصادي الاسرائيلي** ، ص ١٥٢.

١٠ ــ **جيروسالـم بوست الاسبوعية** ، ١٩٧٢/٣/٢١ ص ٤ ، و ١٩٧٢/٣/٢٨ ص ٥ .

١١ — **التقرير السنوي** ، ١٩٧٠ ، بنك اسرائيل، ص ٢٣٧ .
١٢ — انظر **ذي اسرايل ايكونومست** ، كانون الثاني ١٩٧٢ ص ١٤ .
١٣ — هوروفيتز **اقتصاد اسرائيل** ، ص ١٠٦ .
١٤ — **جيروساليم بوست الاسبوعية** ، ٢٩/٢/١٩٧٢ ص ٦ .
١٥ — **المصدر نفسه** ، ٩/٥/١٩٧٢ ، ص ٥ .
١٦ — **المصدر نفسه** ، ٢/٢/١٩٧١ ، ص ١٣ .
١٧ — **المصدر نفسه** ، ١١/١/١٩٧١ ، ص ١٢ .
١٨ — **المصدر نفسه** ، ٢٩/٢/١٩٧٢ ، ص ٧ .
١٩ — **المصدر نفسه** ، ص ٦ .
٢٠ — **ذي اسرائيل ايكونومست** ، كانون الثاني ١٩٧٢ ، ص ١٣ .
٢١ — **الدايلي ستار** (بيروت) ٩/٧/١٩٧٢ ص ٣ .
٢٢ — **جيروساليم بوست ويكلي** ، ٤/٧/١٩٧٢ ، ص ٥ .
٢٣ — **المصدر نفسه** ، ١٣/٦/١٩٧٢ ، ص ٢ .

اليابان ... و « اسرائيل » ... والعرب

أ. ق.

« اليابان اليوم ، وبعد ربع قرن من الحرب العالمية الثانية ، اصبحت تحتل المركز الثالث في العالم على سلم الاقتصاد »(١)، وبذلك تأتي بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي مباشرة . واليابان ، وهذا وضعها ، تتميز عن باقي دول آسيا ، ولا شك افريقيا التي لا تزال من الدول النامية .. لذا كانت تطلعات ونظرة اسرائيل اليها تختلف عن تطلعاتها ونظرتها الى باقي دول هاتين القارتين ، « خصوصا وان اليابان وحدها تصدر خمسة اضعاف ما تصدره الدول الاسيوية مجتمعة ، كما تزيد قدرتها عن قدرة الكثير من دول اوروبا الغربية التي تعتمد عليها اسرائيل في مشاريعها »(٢).

اسرائيل تتطلع الى آسيا وافريقيا باستثناء اليابان على انهما « المجال الطبيعي » لتصريف منتجاتها الصناعية ، واستثمار خبرات مواطنيها التقنية الفائضة ، وحتى ولو لم تفض عن الحاجة المحلية في بعض المجالات ، يستغنى عنها لاعادتها الى حيث تمس الحاجة لها للاستثمار الدعائي ذي الاهداف السياسية والاقتصادية البعيدة المدى . اما تطلعات اسرائيل الى اليابان ، وكما قلنا هي الدولة الثالثة اقتصاديا في العالم ، هي عكس مجرى تطلعاتها الى باقي آسيا وافريقيا اي عكس تطلعات ومطامع اسرائيل في الدول النامية . وقد ورد في مذكرة سرية سلمت الى الامانة العامة لجامعة الدول العربية عن مطامع اسرائيل الافرو — آسيوية كما ظهرت في مؤتمر (اليونيدو) منظمة الامم المتحدة للتطوير الصناعي الذي انعقد في طوكيو في اواخر ١٩٧٠ ، « اتضح خلال انعقاد المؤتمر اهتمام اليابان بزيادة استثماراتها في الدول النامية ولهذا فان اسرائيل تسعى الان الى الحصول على قروض واستثمارات يابانية لتمويل مشاريع التنمية الاسرائيلية »(٣). فاسرائيل اذن تأخذ من اليابان «لتساعد» دول آسيه النامية. وقد توسلت اسرائيل مختلف السبل والاساليب لبلوغ غايتها للافادة من التقدم الاقتصادي الياباني شأنها في ذلك توسل مختلف السبل للافادة من تخلف دول العالم الثالث، فأوفدت الوفود على مختلف المستويات ومن كافة الاختصاصات السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية لزيارة اليابان محاولة الوصول الى مآربها السياسية والاقتصادية ، وكالعادة قام المراد الطائفة اليهودية في اليابان بدورهم لخدمة الحركة الصهيونية ومن ثم اسرائيل ، ولا ننسى الضغوط الاميركية على اليابان لمصلحة اسرائيل وقد كان لها الدور الاكثر فعالية على توسيع نطاق التعاون الياباني الاسرائيلي بالرغم من المصالح اليابانية الواسعة وذات الاهمية القصوى على الصعيد الاقتصادي في الوطن العربي .

خرجت اليابان من الحرب العالمية الثانية مدحورة وقد وقعت وثيقة استسلام مع قيادة قوات الولايات المتحدة في الشرق الاقصى ، وبذا « فقدت اليابان كل ما كانت تملكه في الخارج ، وكان عدد سكانها يفوق الثمانين مليون نسمة فضلا عن ستة ملايين عادوا من الخارج . وكانت امكاناتها الغذائية في الدرجة الادنى ، وفي بعض الحالات اقل من الحاجات الضرورية . أما الصناعة فكانت متوقفة تقريبا كما ان المخزون الاقتصادي الذي كان قد تحقق منذ الانبعاث في الربع الاخير من القرن الماضي فقد أكثر من ثلثه .

« لذلك بات على اليابان ان تغطي عجزها ذلك بأي ثمن ومع اية مساعدة قد تأتيها لتنقذ شعبها من المجاعة التي باتت تهددها ، ولتمهد السبيل امام الاستثمارات الاجنبية — **وخاصة الاميركية** — علها بذلك تعيد النشاط الى الصناعة »(٤). وكان من جملة الثمن الذي كان على اليابان ان تدفعه مقابل المساعدات الاميركية الى جانب مصلحة الولايات

المتحدة الاقتصادية في هذا الاستثمار وخدمة المصالح الاميركية المباشرة ، فتح مجال التعاون بينها وبين اسرائيل ، وهذا معروف وطبيعي بالنسبة الى متطلبات الولايات المتحدة من الدول التي تقدم لها المعونة الاقتصادية والاستثمارات المالية . فقد نقلت وكالة الصحافة الفرنسية في ٢٨ تموز ١٩٧٢ ما يلي : « صرح الرئيس نيكسون في مؤتمر صحافي بأن المساعدة التي تقدمها الولايات المتحدة لكل من تركيا واليونان ضرورية لحماية اسرائيل » . واضاف « ومن دون تقديم المساعدة لليونان وتركيا لا توجد سياسة متماسكة لحماية اسرائيل »(٥). ولم لا تكون اكثر تماسكا اذا ادخلت اليابان في برنامج المساعدة منذ ٢٥ سنة ؟

وسنحاول عن طريق المقارنة بين المصالح اليابانية مع العرب والمصالح اليابانية مع اسرائيل ان نبين مدى تأثير الولايات المتحدة على اليابان لتوسيع علاقاتها الاقتصادية مع اسرائيل واتخاذ موقف سياسي أقرب الى صفها .

المعروف ان اليابان تتبع نظام الاقتصاد الحر أي غير الموجه من قبل السلطات الحكومية الرسمية . فأكثر المؤسسات الاقتصادية والتجارية مؤسسات تتبع في ملكيتها للقطاع الخاص ، ولكن مع ذلك فقد خططت علاقات الشركات اليابانية مع العرب واسرائيل بحيث خصصت شركات لتتعامل مع العرب واخرى لتتعامل مع اسرائيل . وفيما لو قارنا عدد الشركات اليابانية الموضوعة على اللائحة السوداء لمكاتب المقاطعة العربية مع عدد الشركات من الدول الصناعية الكبرى حتى تلك التي تأتي بعد اليابان في حجم الصادرات كبريطانيا والمانيا وايطاليا ولا نتكلم عن عدد الشركات الاميركية الموضوعة على اللائحة السوداء ، لتبين لنا ضآلة عدد الشركات اليابانية المحظور التعامل معها . هذا مع العلم بأن اكثر هذه الشركات يمكن تصنيفها على الشكل التالي :

١ — فروع لشركات اجنبية وبشكل خاص اميركية محظور التعامل معها مثل شركة آر.سي.آي وشركة زنيث الاميركيتين ، او شركات يملك أكثر من ٥٠ ٪ من اسهمها شركات اجنبية موضوعة على اللائحة السوداء للمقاطعة . ٢ — شركات يملكها او يساهم فيها اشخاص او شركات اسرائيلية الجنسية . ٣ — فروع الشركة اليابانية « شركة متسوبيشي للصناعات الكيماوية» اذ ان المستوردات الاسرائيلية من المواد الكيماوية ذات حجم لا بأس به وقد خصصت هذه الشركة للتعامل مع اسرائيل بشكل يسري عليه قانون المقاطعة . ٤ — شركات يابانية تتعامل بصناعة وتجارة الالماس مع اسرائيل، والالماس يشكل ٨٢ ٪ من مستوردات اليابان من اسرائيل . ٥ — شركات مصنفة على انها ذات ميول صهيونية . ٦ — فروع الشركة اليابانية المحظور التعامل معها « شركة ميزوريز للصناعات الثقيلة » لصنع وصيانة السفن ، ولليابان هنا مصالح كبيرة اذ ان الاسطول البحري التجاري الاسرائيلي كبير وطلبات اسرائيل من هذه الشركة وفروعها كبيرة . وهناك غيرها شركتان لصناعة السفن في اليابان لهما الوضع نفسه .

٧ — نسبة كبيرة من الشركات اليابانية المحظور التعامل معها تتعامل في الاستيراد والتصدير من والى اسرائيل ولها مكاتب فيها . هذا وقد بلغ عدد الشركات اليابانية الموضوعة ولا تزال على اللائحة السوداء في لبنان حتى تموز ١٩٧٢ ، ٩٤ شركة وقد رفع الحظر عن ثماني شركات فقط هي :

١ — « شركة أ.و.ي. المحدودة » عام ١٩٧٠ .
٢ — بنك اليابان للاستيراد والتصدير عام ١٩٧٠ .
٣ — « شركة نيبوفيكور كبوشيكي رايشا » عام ١٩٧٠ . ٤ — « الشركة الدولية للنسيج » عام ١٩٦٧ . ٥ — « لوسيانو برافيلي — سانشين » مصنع ألعاب عام ١٩٦٧ . ٦ — « شركة بلاتو المحدودة » عام ١٩٦٤ . ٧ — « شركة اولاماو للصناعات الثقيلة » قامت ببناء خمس سفن لشركتي زيم وسومر فين الاسرائيليتين عام ١٩٧٠ . ٨ — « هينو موتورز المحدودة » عام ١٩٦٨ التي كانت تنتج في اسرائيل بالتعاون مع شركة « الين » سيارة « كونتسا » فهذه الشركة كانت قبل الامتثال الى اوامر مكاتب المقاطعة العربية « قررت استثمار ثلاثة ملايين ليرة اسرائيلية في صناعات « الين » الاسرائيلية لعام ١٩٦٥ وكذلك استثمار مبلغ مماثل قبل نهاية عام ١٩٦٦ ، وذلك من اجل زيادة المقدرة الانتاجية لسيارة « كونتسا » الى ١٥٠٠٠ سيارة في السنة . وتبلغ قيمة برنامج الاستثمار الذي خططت له شركة « الين » ١٦ مليون ليرة اسرائيلية ، وشارك مساهمو الشركة في بريطانيا والولايات المتحدة بالملايين العشرة الاخرى . وكان من المفروض ان

تنتج الشركة في اواخر تموز سيارة جديدة هي (كونتسا ١٣٠٠)[٦].

ولا بد من الاشارة هنا الى ان هذه الشركات والمؤسسات اليابانية الاربع والتسعين ، ليست جميع المؤسسات اليابانية التي لها علاقات مع اسرائيل وتنطبق عليها قوانين المقاطعة العربية ، ذلك انه لا توضع مؤسسة اجنبية ما على اللائحة السوداء الا اذا كانت منتجاتها تسوق في بلد عربي او خدماتها تؤدى لبلد عربي ، ومن ثم قامت بنشاطات في اسرائيل تحظرها قوانين المقاطعة العربية . او من ناحية اخرى كانت تقوم بنشاطات في اسرائيل تحظرها قوانين المقاطعة ، وطلبت جهة عربية ما التعامل معها ، فعندئذ فقط تقوم الاجهزة المختصة بالاستفسار عنها ودراسة وضعها وتوضع على اللائحة السوداء اذا ثبت خرقها لقوانين المقاطعة . وهناك عدد من المؤسسات اليابانية التي تساهم في تنمية الاقتصاد الاسرائيلي عن طريق اقامة صناعات فيها ولم توضع اسماء هذه المؤسسات على اللائحة السوداء . فكما قلنا ان السلطات اليابانية تحاول جهدها لتوزيع نشاطاتها الاقتصادية بين العرب واسرائيل وهي في سبيل ذلك تتبع جميع وسائل التعمية تساعدها في ذلك السلطات الاسرائيلية . هذا ، ومن ناحية اخرى تمتنع الشركات اليابانية ذات المصالح الكبرى في الوطن العربي عن أدنى مجالات التعامل الاقتصادي والتجاري مع اسرائيل حتى تلك التي لا تنطبق عليها قوانين المقاطعة العربية . مثال على ذلك رفض الشركة اليابانية التي تنتج سيارات « تويوتا » ذات السوق الكبير في الوطن العربي بيع اي عدد من هذه السيارات الى اسرائيل ، وذلك كما قلنا لحماية مصالحها الاقتصادية في الوطن العربي وخوفا على سوقها الكبير فيه .

وكان من نتائج التزام معظم المؤسسات اليابانية بقوانين المقاطعة العربية ، ان نشطت الاجهزة الصهيونية في اليابان في مجال التجارة والاعلام ، وقامت هذه الاجهزة في الولايات المتحدة بحملة محاصرة ضد الشركات اليابانية الملتزمة بقوانين المقاطعة لضربها وزحزحتها عن التزامها كي تخسر سوقها الامريكية *.

وللمقارنة بين مصالح اليابان الاقتصادية مع اسرائيل والوطن العربي نبين بأنه علاوة على ان اليابان تصدر الى الوطن العربي اضعافا مضاعفة لما تصدره الى اسرائيل ، واكثر ما تصدره الى العرب بضائع كاملة التصنيع (اي استهلاكية) وما تصدره الى اسرائيل بضائع للاستثمار ومواد خام (انظر جدول واردات اسرائيل وفق نوعية السلعة واستعمالها) ، علاوة على هذا فان واردات اليابان من اسرائيل في اكثرها بضائع نصف مصنعة ، بينما وارداتها من الوطن العربي مواد خام مثل البترول والقطن وغيره من المنتوجات الزراعية المستعملة كمواد اولية في الصناعة اليابانية (انظر جدول صادرات اسرائيل من مجموعات منتقاة من البضائع) . علاوة على كل ذلك لليابان مصالح نفطية (امتيازات تنقيب واستثمار) في الوطن العربي سنأتي على ذكرها بالتفصيل فيما بعد .

وأهم واردات اسرائيل من اليابان ما يلي :

ــ المطاط الصناعي ، لا يشتمل على اطارات وسائل النقل التي تصنع اسرائيل منها كل حاجتها ــ الغزل من الصوف الطبيعي والغزل الاصطناعي ــ المواد الكيماوية المركبة والعضوية والبلاستيكية ــ المعادن الخام والمصنعة ومنها الحديد والصلب ــ الادوات ــ الالات الكهربائية وبشكل خاص اللازمة للصناعة وآلات الاتصالات السلكية واللاسلكية ــ بعض وسائل المواصلات الارضية والبحرية (السفن وناقلات النفط) ــ الساعات الصغيرة والكبيرة ــ آلات القياس والضبط ــ الالات والمعدات السمعية والبصرية المتنوعة كالعدسات وآلات التصوير والتصوير السينمائي ومعداتها وآلات التسجيل والفونوغرافات والراديوات وقطعها[٧].

اما صادرات اليابان الى الوطن العربي فتشمل تشكيلة اوسع بكثير من تلك التي تصدر الى اسرائيل ومنها المواد الغذائية ، والمشروبات واطارات السيارات والملبوسات ، اي بشكل خاص المواد الاستهلاكية بينما سبق وقلنا ان اسرائيل قلما تستورد من اليابان وبقية العالم بضائع استهلاكية ، بل تستورد بضائع تساعد على زيادة انتاجها هي . وعلاوة على ذلك فان مستوردات الدول العربية الشرق اوسطية من بعض البضائع التي تستوردها اسرائيل من اليابان تزيد عنها اضعافا عديدة وعلى سبيل المثال هذا الجدول من المستوردات من اليابان :

* الاسبوع العربي ١٩٧٢/٦/٥ .

	الدول العربية الشرق اوسطية	اسرائيل
مصنوعات اساسية	٦٣٤٣٨٣ مليون	٢٤٢٢٤ مليون دولار
كيماويات	٣٤٨١٢ مليون	٠٤٧٢٠ مليون دولار
معدات نقل	١٨٤٦٢٥ مليون	١٤٨٧٦ مليون دولار

وذلك خلال النصف الاول من عام ١٩٦٩(٨).

صادرات اسرائيل من مجموعات منتقاة من البضائع الى اليابان وبقية العالم بالمليون دولار

	الى اليابان		الى العالم	
	١٩٦٩	١٩٧٠	١٩٦٩	١٩٧٠
صادرات زراعية				
حمضيات	—	—	٩٠٤٩	٨٢٤٨
المجموع	—	—	١١٧٤٨	١٢٦٤٤
صادرات صناعية				
كيماويات ، ادوية ودهانات	٠٤١	٠٤٤	٤٤٤٤	٥٢٤٩
منتجات زراعية ومأكولات	٠٤١	٠٤٤	٥٥٤٢	٦٢٤٨
منسوجات ، ألبسة وجلود	٠٤٢	٢٤٨	٨٤٤٥	٩٩٤٧
ماس	٢٤٤٥	٢٥٤٢	٢٥٣٤٥	٢٤٤٤٦
المجموع ـ منتجات صناعية	٣٠٤٤	٣٢٤٣	٦١١٤٥	٦٤٩٤٢
المجموع العام لصادرات اسرائيل	٣٠٤٤	٣٢٤٣	٧٢٩٤٣	٧٧٥٤٦

واردات اسرائيل وفق نوعية السلعة واستعمالها من اليابان وبقية العالم ـ بالمليون دولار

	من اليابان		من العالم		تأتي اليابان الدولة ... من أصل ٢٣ دولة	
	١٩٦٩	١٩٧٠	١٩٦٩	١٩٧٠	١٩٦٩	١٩٧٠
بضائع للاستثمار	٣٤٣	٣٩٤١	٢٨٦٤٧	٣٥٠٤٣	التاسعة	الرابعة
بضائع انتاجية/مواد خام	١١٤٨	١٨٤٤	٩٠٢٤٥	٩٦١٤٤	العاشرة	التاسعة
بضائع استهلاكية						
للاستعمال الطويل الامد	٢٤٧	٢٤٥	٦١٤٦	٥٠٤٥	السابعة	الخامسة
سريعة الاستهلاك	١٤٤	٢٤٤	٧٩٤٨	٨٩٤٥	الحادية عشر	السادسة
مجموع الواردات	١٩٤٢	٦٢٤١	١٤٣٣٠٤٦	١٤٤٥١٤٢	العاشرة	السادسة

اما فيما يتعلق بسياسة اليابان الاقتصادية ومتطلباتها التي تغطيها الواردات فتقول المصادر الرسمية اليابانية : « **وفي الواردات اهم ما يطالعنا نوع الاصناف التي تزايدت والتي انخفضت فالمأكولات والاليات مثلا عرفت انخفاضا عظيما في الاستيراد فيما تركزت الواردات اليابانية على المواد الاولية للتصنيع التي تقدر حاليا بـ ٧٠ ٪ من مجموع الواردات . فاليابان اليوم تعتبر احدى الدول الاولى في العالم في مجال استيراد المواد الاولية** »(٩). ولا شك ان هذا التطور في متطلبات الاستيراد الياباني أكثر ما انعكست نتائجه على الوطن العربي بشكل خاص والشرق الاوسط (باستثناء اسرائيل) بشكل عام . فقد وجدت اليابان في الوطن العربي المكان الذي تتسوق فيه المواد الخام والمحروقات اللازمة لتنمية واستمرارية صناعاتها . واصبحت الخامات العربية تشكل نسبة كبيرة من مجمل واردات اليابان التي استوردتها ففي النصف الاول من عام ١٩٦٩ بلغت ٨٤٢ ٪ من مجمل وارداتها . وبلغ مجمل واردات اليابان في النصف الاول من ١٩٦٩ سبعة بلايين واثنين وعشرين مليون دولار (٧٠٠٢٢٤١٣٨٠٠٠٠) كان نصيب الوطن العربي باستثناء تونس والجزائر

والمغرب منها ٥٧٢،٨٦٠ مليون دولار اما حصة اسرائيل فكانت ٩،٥٠٧ ملايين دولار أي أقل من ١ ٪ من مجمل صادرات الشرق الاوسط الى اليابان او ١،٣٥ بالالف من مجمل واردات اليابان من العالم(١٠).

أما حجر الاساس في صادرات اسرائيل الى العالم وكذلك الى اليابان فهو الماس المصقول الذي تستورده اسرائيل خاما من جنوب افريقيا ، بشكل خاص ، وتصقله وتعيد تصدير اكثره . وشكل الماس المصقول ٨٢،٣ ٪ من مجمل صادرات اسرائيل الى اليابان في النصف الاول من عام ١٩٦٩ . وفي عام ١٩٧٠ صدرت اسرائيل الى اليابان ماسا مصقولا قيمته ٢٥،٢ مليون دولار وفي عام ١٩٦٩ بما قيمته ٢٤،٥ مليون دولار ، اي ان اليابان تستوعب اكثر من ١٠ ٪ من صادرات اسرائيل من هذه السلعة التي صدرت منها عام ١٩٧٠ ما قيمته ٢٤٤،٦ مليون دولار . واليابان هي بذلك الدولة الرابعة بعد الولايات المتحدة وهونج كونج وبلجيكا/لوكسمبورغ في سلم استيراد الماس المصقول من اسرائيل(١١).

والى جانب الماس المصقول صدرت اسرائيل الى اليابان خلال النصف الاول من ١٩٦٩ مواد كيماوية بقيمة ١،١٩١،٠٠٠ دولار ومنتجات صناعية بـ ١٢٠،٠٠٠ دولار واسمدة بـ ٢٧٦،٠٠٠ دولار ومعادن خام بـ ٣٩٧،٠٠٠ دولار (بوتاس وفوسفات ونحاس) .

وفي مقابل ذلك صدرت الدول العربية الشرق اوسطية خلال هذه الفترة :

نفط ومنتجاته ٥١٣،٢٣١،٠٠٠ دولار ، منتجات زراعية ٨٩٩،٠٠٠ دولار ، معادن خام للسماد ٢،٧٠٠،٠٠٠ دولار ، قطن ومنتجات زراعية اخرى للصناعة ٣٠،٩١٩،٠٠٠ دولار ، معادن خام ٢٩،٩١٧،٠٠٠ دولار ، مواد غذائية وحيوانات حية ٣،٧٠٥،٠٠٠ دولار(١٢). ولا بد من الاشارة في هذا المجال الى ان اليابان تستورد ٤٧ ٪ من النفط ومنتجاته و٥٪ من المنتجات الزراعية الصالحة للاكل من دول الشرق الاوسط العربية .

وقد ورد في الموسوعة النفطية العالمية لعام ١٩٧٠ بعد تعدادها للامتيازات النفطية اليابانية في الوطن العربي قولها : « وفي هذا الوقت تخطط مؤسستان يابانيتان هما « بريدجستون » و« ماتسووي » لشراء كميات كبيرة من الغاز الطبيعي السائل من ابو ظبي وذلك في اوائل عام ١٩٧٢ » .

لا تقتصر المصالح اليابانية في الوطن العربي على تصدير منتجاتها الصناعية اليه واستيراد نسبة عالية من المواد الخام اللازم لصناعاتها منه ، بل كما سبق وذكرنا اعلاه فانه اصبح لليابان منذ حوالي عقد ونصف مصالح استثمارية في الوطن العربي . وهي بذلك حديثة نسبيا فيما لو تورنت بالمصالح النفطية الغربية في الوطن العربي . هذا وان كانت لا تزال محدودة من الناحية الانتاجية نسبيا نظرا لحداثة عهدها فان الامكانات قد تأتي في المستقبل بنتائج ممتازة . هذا كما ان لليابان بعض الاستثمارات في المجالات الصناعية في بعض انحاء الوطن العربي ، مثال على ذلك مصنع شركة متسوبيشي جنوب بيروت . ويلاحظ اتساع القاعدة الشعبية وكثرة عدد المؤسسات اليابانية ذات المصلحة المباشرة في الاستثمارات في الشركات اليابانية صاحبة الامتيازات النفطية في الارض العربية . فكل من الشركات الخمس اليابانية اللواتي تملك امتيازات نفطية في الارض العربية يساهم فيها عدد من المؤسسات اليابانية وفي بعض الحالات افراد يتوزعون قسما من اسهمها . ولا بد كما سنبين في ختام هذه الدراسة من الافادة من هذه القاعدة ذات المصلحة الاقتصادية المباشرة في زحزحة اليابان عن حيادها السياسي المزعوم في اطار القضية الفلسطينية . تتوزع الامتيازات النفطية اليابانية حاليا في الارض العربية في المنطقة المحايدة الكويتية/السعودية وهي الان الاهم ، وفي ابو ظبي وقطر وجمهورية مصر العربية وجميع الشركات الاربع الاخيرة لم تباشر نشاطها الا فيما بين أواخر الستينات واوائل السبعينات ، واكثرها لا يزال في طور الدرس والاستكشاف والتنقيب .

المنطقة المحايدة : وصاحبة الامتياز شركة الزيت العربية المحدودة التي تملك شركة تجارة البترول اليابانية المحدودة ٨٠ ٪ من اسهمها و١٠ ٪ لكل من الكويت والسعودية . وقد بدأت هذه الشركة بالانتاج في كانون الثاني ١٩٦٠ وصدرت اول دفعة من انتاجها في آذار ١٩٦١ .

ومن الارقام التالية يتبين لنا سرعة تطور انتاج هذه الشركة والامكانيات التي يتمتع بها امتيازها ، فمعدل الانتاج بآلاف البراميل كان كما يلي :

٩٢،٢١٠ و٠،٠١،٢٠٠ و١،٠٩،٢٠٠ و١١٧،٦٨٦ و

١٢٥،٢٧٥ في السنوات ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ تباعا(١٣).

أي ان الزيادة السنوية في الانتاج هي نحو ثمانية ملايين برميل . وقد وزعت الشركة عام ١٩٦٦ ١٤٪ من قيمة راسمالها ارباحا على مساهميها و١٦ ٪ سنويا في الاعوام ١٩٦٧ الى ١٩٧٠(١٤)، أي ان المساهم الياباني يسترجع قيمة الاسهم التي دفعها خلال ست سنوات تقريبا هذا علاوة عن المبالغ التي تقتطعها الشركة من الارباح لاعادة الاستثمار.

ابو ظبي : تعمل في ابو ظبي شركتان يابانيتان للتنقيب عن النفط :

١ — شركة زيت ابو ظبي ، وتعمل في المناطق المغمورة ، كما تم الاتفاق على ان تساهم في تنمية حقل البندق في الجرف القاري بين ابو ظبي وقطر .

وتملك هذه الشركة خمس شركات يابانية يساهم في بعض منها رأسمال امريكي وهي : ١ — شركة زيت دايكو المحدودة ٢٣ ١/٣ ٪ ، ٢ — شركة زيت ماروزين المحدودة ٢٣ ١/٣ ٪ (وتملك ٢٠ ٪ من اسهمها شركة كاليفورنيا للزيت) ، ٣ — شركة التعدين اليابانية ٢٣ ١/٣ ٪ ، ٤ — مؤسسة اليابان لتنمية النفط ٢٠ ٪ ، ٥ — شركة زيت قطر ١٠ ٪ (شركة تساهم فيها ست شركات يابانية) .

« وينتظر ان تباشر هذه الشركة بالانتاج في اواخر عام ١٩٧٢ »(١٦) ، فقد اتبت في اوائل ١٩٧١ حفر بئرين منتجتين واكتشفت النفط في قسيمة (أ) في المناطق المغمورة(١٧) كذلك « تم الحفر بنجاح لبئرين استكشافيتين في القسيمة (ب) »(١٨).

٢ — « شركة زيت الشرق الاوسط » وتعمل على اليابسة وتتوزع اسهمها اربع شركات يابانية اكبرها مجموعة متسوبيشي التي تملك ٥٤،٣ ٪ من الاسهم وتليها « جابان بتروليوم ديفالوبمانت كوربوريشن ٤٢،١ ٪ وتملك شركتين اولاهما للشحن البحري ٢،٢ ٪ والاخرى للتأمين ١،٤(١٩) وتشمل منطقة امتيازها ٩٠٦٦ كم٢ على البر وقد باشرت عمليات التنقيب في اوائل عام ١٩٧٠ واستمرت في البحث طوال العام ولكن لم تكن قد عثرت على نفط حتى ذلك التاريخ(٢٠).

قطر : شركة زيت قطر ، وتعمل في المناطق المغمورة ، وتملكها خمس مجموعات يابانية :

١ — مجموعة شركات النفط ، وتساهم فيها ست شركات نفط ٣٥،٣ ٪ ، ٢ — مجموعة شركات الكهرباء ، وتساهم فيها ثلاث شركات كهرباء ٢٦،٥ ٪ ، ٣ — مجموعة شركات سامينومو الثلاثية ١٥،٩ ٪ ، ٤ — مجموعات شركات الحديد والصلب الثنائية ٥،٩ ٪ ، ٥ — ثلاث شركات هي : شركة هيتاشي لبناء السفن ، نيسشو — أبواي ، صناعات اوهي ١٦،٤ ٪(٢١) ، وقد حصلت هذه الشركة على حق التنقيب عن النفط في المنطقة الجنوبية الشرقية المغمورة عام ١٩٦٩ وباشرت التنقيب عن النفط عام ١٩٧٠(٢٢) وكان من المنتظر ان تبدأ بالحفر للمرة الاولى عام ١٩٧١(٢٣).

جمهورية مصر العربية : حصلت « مؤسسة شمال سومطرة لتنمية مصادر النفط » اليابانية على حق التنقيب عن النفط في جمهورية مصر العربية وقامت بحفر ثلاث آبار ولكنها كانت جميعها جافة .

ان اسرائيل وهي ترى نمو المصالح اليابانية في الوطن العربي وتضخمها بهذا الشكل تنبؤها حاستها بانه لا بد ان يأتي يوم يعمل فيه العرب وترضخ فيه اليابان لمصلحتها الاقتصادية في الوطن العربي وتتقيد على الاقل بحيادها السياسي المزعوم بالنسبة للقضية الفلسطينية ، هذا اذا لم تع موطن مصلحتها الاقتصادية . ان اسرائيل وهي ترى ذلك تحاول وقف انطلاق وزحف هذا الوعي المصلحي الاقتصادي في اليابان كما حدث في سيلان مثلا عندما وعت مصلحتها الاقتصادية واهمية السوق العربية بالنسبة لصادراتها الرئيسية — الشاي — فبعد ان كانت سيلان تقيم علاقات وثيقة مع اسرائيل انقلبت لتماشي مصلحتها الاقتصادية هذا اذا لم يأت دعمها لقضية الحق العربي في فلسطين . وقد نقلت وكالة الاسوشيتدبرس بأنه « طالب احد المسؤولين الاسرائيليين تدعيم العلاقات الاقتصادية مع اليابان لمواجهة النفوذ العربي في طوكيو » . واضافت « وقال بهوشوا فيشري المستشار الاقتصادي السابق في سفارة اسرائيل في طوكيو في حديث الى جمعية الصداقة الاسرائيلية اليابانية ان اسرائيل يجب ان تتولى انشاء خط ملاحي لنقل المعادن من اسرائيل الى اليابان عن طريق البحر الاحمر »(٢٤). وتقوم السلطات في فلسطين المحتلة باستمرار بارسال البعثات الاقتصادية الى اليابان وبقية دول آسيا التي تقبل استقبال وفودها ، ويخطط لهذه البعثات قبل شهور

من انطلاقها في جولاتها فقد نقلت رويتر في ١٧ تشرين الثاني ١٩٧٠ « اعلنت وزارة التجارة والصناعة الاسرائيلية بأن بعثة اسرائيلية ستقوم بزيارة الشرق الاقصى في شباط المقبل لدراسة امكانات زيادة صادراتها الى هذه المنطقة . وستزور هذه البعثة كلا من اليابان وتايلاند وسنغافوره وهونج كونج وكوريا الجنوبية . وستتكون البعثة من (١٥) مندوبا لمؤسسات تنتج بضائع معدنية وكهربائية وغذائية ومعدات الري ومواد تجميل ومؤسسات متخصصة بالتخطيط لتنمية وتوسيع المرافيء . وستقابل البعثة رجال اعمال ورسميين حكوميين خلال جولتها التي ستستمر شهرا كاملا . وهذه الرحلة ستكون اول حلقة من سلسلة خططت لها وزارة التجارة والصناعة لتنمية الصادرات الاسرائيلية الى هذه المنطقة »(٢٥). والى جانب البعثات الاقتصادية تحاول سلطات الاحتلال في فلسطين مد الجسور في مختلف مجالات الحياة مع اليابان ودول الشرق الاقصى الاخرى وذلك بتبادل البعثات والزيارات الثقافية والرياضية والعسكرية والسياسية على الصعيد الرسمي والحزبي وعلى مختلف المستويات والانتماءات .

وأسرائيل مع انها دعامة الامبريالية الغربية وتلعتها في الوطن العربي حاولت وبشكل خاص في الخمسينات استقطاب اليسار العالمي ، معتمدة على تجربتها في الحياة الجماعية في الكيبوتزات على انها التطبيق الاشتراكي . وقد قبل هذا الادعاء في اكثر من بلد اسيوي كبورما وسيلان واليابان . وقد ذكر في الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل « ... ان فريقا من الشبان اليابانيين قدموا الى اسرائيل لدراسة نظام الحياة في الكيبوتزات ... »(٢٦). وعن طريق الادعاء الاشتراكي تمكنت اسرائيل ان تلعب دورا كبيرا في المؤتمر الاشتراكي الاسيوي الاول الذي عقد في رانجون في كانون الثاني ١٩٥٣ وحضره ١٧٧ مندوبا ومراقبا . وقد كانت الدعوات قد وجهت الى احزاب في الهند واندونيسيا وبورما والملايو والباكستان ولبنان وسوريا والعراق ومصر والى كل من الجناحين اليميني واليساري من الاشتراكيين اليابانيين وحزب الماباي الاسرائيلي الحاكم المصنف كأحد احزاب الوسط ، ولم توجه الدعوة لحزم المابام المصنف مع « اليسار » . وخلال المؤتمر تآزرت جهود اسرائيل ، كعضو في المؤتمر مع الجناح اليميني الياباني وممثلي الملايو على ان يصبح المؤتمر الاشتراكي الاسيوي كعضو اقليمي في الاتحاد الدولي للاحزاب الاشتراكية الذي تسيطر عليه الاحزاب الاوروبية الغربية التي تحمل اسماء اشتراكية وبعضها كان في الحكم او لا يزال. وقد عارض ذلك بقوة اشتراكيو الهند ولبنان ومصر وبشكل اقل قوة من قبل الممثلون الباكستانيون والاندونيسيون والبورميون ، ودافعهم كان شعورا اسيويا مقترنا بالرأي القائل بأن الاتحاد الدولي لم يتخذ موقفا حازما بما فيه الكفاية في الخط المناوىء للاستعمار والحياد(٢٧). وقد حاول المعسكر الذي يمكن تصنيفه بالامريكي في المؤتمر اي الاسرائيليون واليابانيون والملاويون معارضة الحياد واخذوا في المساومة بواسطة اقتراح يدعو الدول الاسيوية « الى عدم الارتباط بحركة السلم » لكون هذه الاخيرة مدعومة من قبل المعسكر الاشتراكي ، ولكن يجب ان تقوي الدول الاسيوية نفسها وتحدد موقفها بشأن قضايا السلم العالمي(٢٨). ومن المفيد ان نذكر بأن موقف المعسكر الامريكي (الاسرائيلي/الياباني) في المؤتمر الاشتراكي الاسيوي هو الذي أطلق رصاصة الرحمة على هذا المحتضر .

« لقد كان من الطبيعي ان يسيطر موضوع العدوان الثلاثي (١٩٥٦) على جو الدورة الرابعة من المؤتمر . ولكن بينما كانت الحكومات الاسيوية الافريقية في هيئة الامم المتحدة ، والشعوب تتظاهر في الشوارع مندوة بالعدوان، لم يتمكن الاشتراكيون الاسيويون من مجاراة هذه الرغبة الشعبية. اذ انه لما جرت المحاولة لاقرار مشروع قرار يندد بالعدوان لم توافق عليه اسرائيل ، لذا خفف من لهجة التنديد واقتنعت اسرائيل بان تتغيب عن الجلسة . والسبب بان هذه « المنظمة الاشتراكية » اصبحت تعتمد كليا على اسرائيل ماديا ... فقد ابرزت اسرائيل مخططا تنظيميا وقدمت ميزانية لتنمية العلاقات بين الاحزاب « الاشتراكية » . وقد اكد الوفد الاسرائيلي ، الذي كان يرأسه رئيس وزراء سابق ، بان هذه المخصصات ستصل ولكنه رفض ان يبين مصدرها ، ولكن بعض الاحزاب الاشتراكية التقدمية رفضت ان تسيرها اسرائيل وفضلت ان ينفرط عقد الاتحاد على ذلك »(٢٩).

وتغتنم اسرائيل كل فرصة مناسبة لارسال البعثات الى الشرق الاقصى ومنها اليابان ، « ففي عام ١٩٦٦ اوفد الجنرال اسحق رابين ، رئيس اركان الجيش حينئذ لزيارة اليابان وبعض دول الشرق الاقصى ، وقد رافقه رئيس دائرة العلاقات

والمساعدات الخارجية وقد تام خلال زيارته هذه بزيارة المعاهد والمنشآت العسكرية ، كما القى سلسلة محاضرات في الكليات الحربية . كما وانه عقد محادثات مع القادة العسكريين والسياسيين . وحل رابين ضيفا على حكومات الدول التي قام بزيارتها ، باستثناء اليابان حيث حل ضيفا على رئيس الاركان الياباني »(٣٠). وفي عام ١٩٦٧ « قام وزير خارجية اسرائيل برحلة شملت خمس دول شرق آسيوية هي تايلند وكمبوديه وبورمه والفلبين واليابان . وكانت هذه الجولة واحدة من سلسلة جولات قام بها زعماء اسرائيليون مختلفون للشرق الاقصى . واثناء اقامته في اليابان في الفترة بين ١٤ و ١٨ اذار قابل ايبان الامبراطور والامبراطورة. كما اجتمع الى الزعماء السياسيين الاخرين الذين شدد امامهم على اهمية الدور الذي تلعبه اليابان في العالم النامي ، واشار الى الاهتمام الذي أظهره الشباب الياباني في حركة « كيشكيو بورج » الاسرائيلية . وقد ركز ايبان في تصريحاته على موضوع اخر له معنى خاص بالنسبة لليابان . ألا وهو استخدام الطاقة النووية والشائعات القائلة ان اسرائيل تقوم بصنع قنبلة ذرية . « وفي اجتماعين منفصلين مع الصحافة في غضون ثلاثة ايام ، بذل مجهودا ضخما لكي يشير الى ان اسرائيل مهتمة بالاستخدام السلمي للطاقة النووية وبصورة خاصة في تحلية مياه البحر . وقال ان اسرائيل ايدت مبدئيا فكرة عقد معاهدة حظر انتشار الاسلحة النووية ، لكننا لم نتخذ المبادرة لاقامة مناطق مجردة من الاسلحة النووية في الشرق الاوسط ، لان الدول العربية ترفض التفاوض معنا حول اي شيء .. وابدى ايبان بملاحظة جانبية لا تخلو من الاهمية عندما قال ، اننا لا نستطيع العيش تحت تهديد حرب عصابات مستمرة »(٣١).

واسرائيل بعلاقاتها مع اليابان تضرب على اوتار حساسة معينة ، كما تصنع مع غيرها ، فهي حسب القول الشائع تلبس لكل حالة لباسها . اسرائيل عندما تخاطب اليابان تعرف حساسيتها ضد استعمال الطاقة النووية في المجال العربي ، لذا فهي تداور وتتحايل بحيث تظهر انها توجه جهودها الى الاستعمال السلمي البناء للطاقة النووية واذا ما اضطرت للاقرار باستعمالها في المجهود الحربي لتضع بذلك اللوم على العرب . وهي هنا تدعي الدفاع عن النفس وان العرب يضطرونها للانحراف عن جهودها السلمية الانسانية ...

وبذلك تحاول جر اليابان الى أبعد مما هي عن حيادها المزعوم بالنسبة للقضية الفلسطينية . وهي بذلك تحاول وضع اللوم على الدول العربية وبشكل خاص على المقاومة العربية . هذا بينما لا يزال النشاط الاسرائيلي الذري محاطا بالسرية التامة ولم يعلن عنه شيء . ولكن صحيفة الجروزالم بوست الناطقة باسم الخارجية الاسرائيلية اوردت في عددها الصادر في ١٤ شباط ١٩٦٧ قولها : « ان رئيس الوزراء ليفي اشكول (وهو في الوقت نفسه رئيس لجنة الطاقة الذرية الاسرائيلية) اعلن في الكنيست في ١٣ شباط ان نزع السلاح التقليدي يجب ان يسبق اي ارتباط متبادل بعدم ادخال الاسلحة الذرية الى منطقة الشرق الاوسط . وكان يرد في ذلك على سؤال وجهه اليه عضو الكنيست شموئيل ميكونس (شيوعي) ، عما اذا كان مستعدا لاخذ اي مبادرة في نزع السلاح الذري»(٣٢).

ومن ناحية اخرى تحاول اسرائيل ان تقارن امام اليابانيين بان وضعها مشابه لوضع اليابان جغرافيا وتقنيا ، فكل منهما تقع على طرف من طرفي القارة الاسيوية وفي معزل ، فاليابان جزر على طرف القارة الشرقي تحيط بها البحار اما اسرائيل فجزيرة يحيط بها بحر العداء العربي . وكل منهما متقدم تقنيا عن جيرانه . وكتب يهودي عاش حياته كلها في اليابان ويحمل الجنسية اليابانية في كتابه « اليابانيون واليهود » قائلا : « ان الياباني واليهودي يلتقيان في انهما تفوقا على العنصر القوقازي وبعد ان كان الياباني يعمل في خدمة القوقازي فقد تفوق عليه ، وقد كان الياباني أشبه برئيس نقابة العمال ، اي انه الاول بين اقرانه الملونين في العالم الثالث . ولكنهم حققوا تقدمهم الاقتصادي واصبحوا — هم واليهود — محلا للشك والكراهية والحقد»(٣٣). ولا شك ان اسرائيل لا تود ان تذكر اليابان بانها بنهجها منذ كانت فكرة الى ان توصلت الى مرحلة التكوين الى ان اصبحت كما هي الان ، تقتفي اساليب ومبادىء العسكريتاريا الاستعمارية اليابانية قبل انكسارها في الحرب العالمية الثانية وذلك لمعرفتهم بان الياباني اليوم حتى الذي لا يزال يحن الى التوسع العسكري لا يريد ان يذكر بتلك الايام وبالاندحار العسكري الذي ادت اليه . اليابان اليوم تحاول ان تقنع العالم بانها تكتفي بالتوسع الصناعي والتجاري ، واثارة تلك الذكريات القديمة قد تعوق هذا التوسع ،

نظرا لحساسية الدول النامية ضدها وهي التي كانت ضحيتها . هذا بينما اسرائيل لا تزال عاجزة عن تحقيق التوسع الصناعي والتجاري لعجزها عن مضاربة القوى الدولية الكبرى في هذا المجال ولا تزال مطامعها الاقليمية لا تعرف حدودا .

وتحاول اسرائيل كذلك ان تقيم علاقات صداقة مع اليابان ذات ركائز ثقافية ، لذا اوجدت اكثر من جمعية او اتحاد لتسهيل التغلغل الاسرائيلي في الشرق الاقصى ومنه اليابان . وقد اوجدت مجموعة من جمعيات الصداقة الاسرائيلية طرفها الآخر كان مع من تمكنت من دول آسيا وأوجدت مجلسا جديدا للصداقة الاسرائيلية الاسيوية هدفه تنسيق التعاون بين جمعيات الصداقة مع الدول الاسيوية المنفردة . في الاجتماع التأسيسي لمجلس الصداقة الاسيوية/الامريكية قال وزير خارجية اسرائيل ، « ان على المجلس ان يقوم بمهمة مزدوجة الهدف : اولا ان يسعى الى تخليص الدول الاسيوية من غربتها عن الثقافة اليهودية-العبرية، وثانيا ان يزرع معرفة الحضارة الاسيوية بين جماهير الاسرائيليين على نطاق جماعي ، وخاصة باعطاء مناهج التربية الاسرائيلية بعدا اسيويا»(٣٣). هذا علما بان اسرائيل من ناحية عملية تتبرأ من اسيويتها وتعلن انها امتداد لاوروبا في الشرق الاوسط، ولكن دافعها في انشاء جمعيات الصداقة واعطاء مناهج التربية الاسرائيلية « بعدا اسيويا » هو خدمة مصالح اسرائيل التوسعية والتغلغلية في اسيا وهي بذلك تشكل اجهزة مساعدة لوزارة الخارجية والوكالة اليهودية . كذلك ان اعطاء مناهج التعليم ذلك « البعد الاسيوي » يعد الناشئين ويدربهم منذ الصغر لاكتساب العقلية التوسعية .

ولهذا الهدف قامت الطوائف اليهودية في الشرق الاقصى واوقيانوسيا في مطلع ١٩٧٢ بتشكيل «اتحاد الطوائف اليهودية » وقد وصفت مهمة هذا الاتحاد بانها « لحماية الطوائف اليهودية من التفتت » وتضم الطوائف اليهودية الموجودة في هونج كونج والهند واستراليا ونيوزيلندا وسنغافورة وتايلاند واليابان . وتتمتع بعض الاسر اليهودية في اليابان وبقية المنطقة وخصوصا استراليا بنفوذ كبير ومصالح واسعة .

« وقد اصدر الاتحاد الجديد بيانا اعلن فيه ان الهدف هو دعم واحياء اليهودية في منطقة جنوب شرق اسيا والشرق الاقصى بصفة خاصة . واضاف البيان الذي صدر عقب اول اجتماع عقده الاتحاد الجديد في الشهر الماضي ان الاتحاد سيسعى للانضمام الى المؤتمر اليهودي العالمي وهو اكبر منظمة صهيونية»(٣٤). ولا شك ان هذا الاتحاد كغيره من المنظمات الصهيونية في العالم هو بالفعل دعم واحياء للحركة الصهيونية الاستعمارية، وهو بذلك يشكل امتدادا للمؤسسات الاسرائيلية الرسمية في فلسطين المحتلة ويعمل على دعم اسرائيل اقتصاديا ومعنويا ويشكل جبهة ضاغطة على الحكومات التي تقيم في اراضيها لصالح اسرائيل ، لتدعمها سياسيا وماديا . وكثيرا ما تمكنت الطوائف اليهودية في بعض الدول من التأثير على مجرى تصويتها في هيئة الامم المتحدة بما يختص بالقضية الفلسطينية نظرا لنفوذها المالي وحسن تنظيمها .

الموقف السياسي الياباني الرسمي والقضية الفلسطينية :

تقيم اليابان علاقات دبلوماسية كاملة مع اسرائيل، وتتبادل معها التمثيل الدبلوماسي على مستوى السفارة ومركز سفارتها في تل ابيب ، اي ان اليابان لا تعترف بالقدس عاصمة لاسرائيل . واليابان تدعي كما سبق وذكرنا انها تتخذ موقف الحياد التام ، وبهذا الخصوص صرح « ايزاكو ساتو » رئيس وزرائها في ٩ حزيران ١٩٦٧ قائلا : « **انا اعتقد بان على اليابان ان تحافظ على موقف الحياد التام**(٣٥). كنا نقبل الحياد التام فيما لو جاز الحياد في قضايا الحق ومصائر الشعوب . ولكن اليابان ، فيما لو جاز حيادها ، حسب مفهومها الرسمي ، لم تكن منضبطة كليا مع حيادها ، وسنحاول استعراض موقف اليابان في هيئة الامم وخارجها بالنسبة للقضية الفلسطينية في ما يلي : لم تقبل عضوية اليابان في هيئة الامم المتحدة الا بعد اكثر من احد عشر عاما من اندحارها في الحرب العالمية الثانية وزوال الصبغة الاستعمارية المباشرة عنها ، فقد قبلت في هيئة الامم في ١٨ كانون الاول ١٩٥٦ ، لذا لم تعاصر احد اهم مراحل القضية الفلسطينية في هيئة الامم المتحدة الا وهي بحث قضية التقسيم ، هذا واعتقادنا انه لو كان لها حق التصويت حينئذ على تقسيم فلسطين لكانت وقعت تحت الضغط الامريكي . ونحن بقولنا هذا لا نندفع الى القاء التهم جزافا فالوقائع التي سنسرد هي

التي تثبت ذلك . وسنورد بعض الامثلة المتفرقة ولكن الشاملة من مواقف اليابان في هيئة الامم المتحدة لاعطاء فكرة واضحة من سياستها . هذا علما بان اليابان قلما شاركت في النقاش عند طرح القضية على بساط البحث . وهي وان تكلم مندوبوها فبمواضيع هامشية لا تعبر عن موقف او ارتباط .

الاعتداء الاسرائيلي على سورية — في مجلس الامن: : على اثر الهجوم الاسرائيلي الجوي على سبعة مواقع تقع جميعا ضمن مشروع تنمية نهر الاردن والذي ادى الى تعطيل بعض الجرارات وخسائر اخرى في الممتلكات والارواح،تقدمت سوريه بشكوى الى مجلس الامن ضد اسرائيل . وفي الوقت الذي كانت الطائرات الاسرائيلية تغير فيه على الاراضي السورية تقدم المندوب الاسرائيلي الدائم في هيئة الامم المتحدة بكتاب يدعي فيه انه « في ١٣ و ١٤ تموز قامت وحدات من الجيش السوري وبعض الجماعات الاخرى المسلحة باحداث اعمال تخريبية ضمن الاراضي الاسرائيلية ، وان الحكومة الاسرائيلية قد أمرت قواتها لتقوم بعمل ثأري محدود النطاق ضد سورية ، وذلك ردا على الاعتداءات السورية المتكررة على اسرائيل»(٢٦). وعند البدء ببحث القضية في المجلس عارضت اليابان واكثرية المجلس ادراج الشكوى السورية وحدها على جدول الاعمال ، علما بان ادراج الشكوى الاسرائيلية يشكل تجاوبا مع خطة اسرائيل الرامية الى التقليل من اهمية الشكوى السورية . هذا وقد امتنعت اليابان والولايات المتحدة والدول الدائرة في فلكها من التصويت على مشروع قرار الاردن/مالي الذي يطلب من كل من اسرائيل وسوريه التعاون مع كبير المراقبين لتنفيذ اتفاقية الهدنة كذلك ادانة الهجوم الاسرائيلي المبيت على الجمهورية العربية السورية(٣٧). بعد فشل مشروع القرار الاردن/مالي تقدمت الولايات المتحدة وبريطانيا بمشروع قرار جديد(٣٨) اضطرتا الى سحبه نظرا لعدم منطقيته ولتاكدهما انه سينال صوتيهما فقط عند طرحه على التصويت . عند ذلك تحركت اليابان علنا في احدى تحركاتها النادرة في هيئة الامم عند بحث القضية الفلسطينية وتقدمت بصحبة الارجنتين وهولندا ونيوزيلندا ونيجيريا ويوغندا بمشروع قرار جديد اقل تحيزا من مشروع القرار الانجلو/اميركي فالمشروع السداسي « **يدعو الحكومة السورية الى تقوية اجراءاتها ضد الحوادث التي تشكل خرقا لاتفاقية الهدنة** » . وهذا يعني بانها اتخذت اجراءات في السابق والفرق واضح بين مشروعي القرارين فالاول **يدعو سوريا لاتخاذ الاجراءات التي تؤدي الى عدم اتخاذ اراضيها كقاعدة لعمليات خرق لاتفاقية الهدنة** . وقد فشل مشروع القرار السداسي نتيجة للفيتو السوفياتي لكونه لا يدين اسرائيل . وهذا يعني ان اليابان احدى الدول المتقدمة بمشروع القرار لا تود ادانة اسرائيل ، او من الممكن انها لا تجرؤ على ذلك .

الاعتداء الاسرائيلي على قرية السموع الاردنية : في الثالث عشر من تشرين الثاني ١٩٦٦ شن الجيش الاسرائيلي هجوما واسعا مدبرا بالطائرات والآليات البرية سقط على اثره عدد كبير من الضحايا من المدنيين والعسكريين ونتج عنه دمار واسع . ناقش مجلس الامن الاعتداء لاكثر من اسبوع واتخذ على اثر ذلك قرارا يلوم اسرائيل « ويهددها باضطراره اذا ما عادت وتكررت مثل هذه الاعمال الحربية الثارية » الى اتخاذ خطوات حاسمة يجيزها ميثاق الامم المتحدة لمنع تكرار مثل هذه الاعمال . اتخذ القرار باكثرية ١٤ صوتا بدون معارض واستنكاف نيوزيلندا . ولم تأخذ اليابان موقف الحياد فحتى الولايات المتحدة لم تتمكن من الوقوف في وجه « اللوم » و « التهديد » باتخاذ اجراءات في المستقبل ضد العدوان الاسرائيلي .

في الجمعية العمومية واللجنة السياسية الخاصة : وفيما يلي بعض الامثلة على موقف اليابان عند مناقشة بعض الامور المتعلقة بالقضية الفلسطينية. أيدت اليابان حث الحكومات بالتبرع لوكالة الغوث، كما أيدت تصحيح قوائم الاعاشة ... لتحقيق أقصى توزيع عادل للاعاشة على اساس الحاجة .

اما عند طرح موضوع تطبيق الفقرة ١١ (اي العودة لمن اراد العودة من اللاجئين والتعويض لمن لا يريد العودة) وعدم تطبيق هذه الفقرة يرجع الى امتناع اسرائيل من ذلك ، رأى مندوبو اليابان التغيب عن الجلسة ! اما بما يختص بمشروع القرار الذي يطالب بتعيين قيم على املاك العرب الموجودة في اسرائيل استنادا الى ان حق العرب في املاكهم ، حق تقره شرعة حقوق الانسان وقواعد القانون الدولي العام ، وكون الريع السنوي ولا نقول المتراكم يزيد عما تنفقه وكالة الغوث على النازحين الفلسطينيين ويدفع عنهم مذلة استجداء المعونات الخارجية . ومع ان مشروع القرار هذا

يبين بوضوح بانه ليس في تعيين القيم انتقاص لسيادة اسرائيل ، كما وانه لا يشكل سابقة تسري على دول اخرى ، ذلك لان وضع اسرائيل يختلف عن غيرها من الدول ، مع ذلك فان اليابان تمسكت « بحيادها » واستنكفت عن التصويت مما ساهم في فشل مشروع القرار وأبقى اسرائيل المحتلة بالقوة ارض فلسطين العربية ، تستغل ممتلكات شعب فلسطين وتحرمهم من انتاجها(٣٩). ان استعمال حق الحياد في عدم تأييد الحق لهو معارضة للحق . وفي العام السابق (١٩٦٥) امتنعت اليابان عن التصويت على ثلاثة مشاريع قرارات منها ما أيده العرب ومنها ما عارضه، ونخص بالذكر الى جانب تعيين قيم على املاك النازحين قضية دعوة مندوبي منظمة التحرير الفلسطينية لتمثيل عرب فلسطين امام اللجنة السياسية الخاصة ومجلس الوصاية ومجلس الامن . أما في عام ١٩٦٧ فقد كان موقف اليابان من قضية حرب حزيران متخبطا خارج اروقة الامم المتحدة ، ففي التاسع من حزيران صرح « ايزاكو ساتو » رئيس وزرائها ، انذاك ، قائلا « اني اعتقد بان على اليابان ان تحافظ على موقف الحياد التام»(٤٠). اما وزير خارجيته فقد شارك في اصدار بلاغ مشترك على اثر انتهاء زيارته الى بولونيا في ٢٢ تموز ١٩٦٧ يعلن انه « من الضروري ان تنسحب القوات الاسرائيلية الى مواقع ما قبل الخامس من حزيران »(٤١). اما في اروقة الامم المتحدة فلم تكن اليابان أقل منها تخبطا عنها في خارجها ، وان كان موقفها أكثر التزاما بالموقف الاميركي الكلي الانحياز منه الى موقف الحياد كما سنرى في الجدول التالي الذي يبين مواقف كل من اليابان والعرب واسرائيل والولايات المتحدة بالنسبة لمشاريع القرارات التي طرحت على التصويت خلال بحث العدوان في الجمعية العمومية .

مشروع القرار السوفياتي	موقف اليابان	موقف العرب بالاجمال	موقف اسرائيل	موقف الولايات المتحدة
مقدمة مشروع القرار	معارضة	تأييد	معارضة	معارضة
البند الاول	معارضة	تأييد	معارضة	معارضة
البند الثاني	امتناع	تأييد	معارضة	معارضة
البند الثالث	معارضة	تأييد	معارضة	معارضة
البند الرابع	معارضة	تأييد	معارضة	معارضة
مشروع القرار الالباني	معارضة	تأييد	معارضة	معارضة
مشروع القرار اليوغوسلافي	تأييد	تأييد	معارضة	معارضة
مشروع القرار الاميركي اللاتيني	تأييد	معارضة	امتناع	تأييد
مشروع القرار الخاص بالقدس	تأييد	تأييد	غياب	استنكاف
مشروع القرار الانساني	تأييد	تأييد	تأييد	تأييد(٤٢)

(يمكن الرجوع الى الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية ١٩٦٧ او للكتاب السنوي لهيئة الامم المتحدة للاطلاع على تفاصيل المناقشات ونصوص مشاريع القرارات الواردة اعلاه).

ويلاحظ من الجدول اعلاه ان اليابان قد حرصت على مسايرة الولايات المتحدة في معارضتها لمشاريع القرارات المقدمة من قبل دول شيوعية ، ولكنها ايدت مشروع القرار اليوغسلافي (او مشروع قرار دول عدم الانحياز) لانه اتى في صيغة غير حادة . وهذه هي الحالة الوحيدة خلال هذه الدورة التي عارضت فيها اليابان رأي الولايات المتحدة بصورة مباشرة وعن طريق التصويت . هذا علما بانها صوتت مع قرار عدم تعديل وضع القدس بينما استنكفت الولايات المتحدة عن التصويت . اما مشروع القرار الاميركي اللاتيني فقد ايدته الولايات المتحدة نفسها وفي الحقيقة هي التي دفعت دول امريكا اللاتينية للتقدم به ، فهو صورة مخففة لمشروعها ويربط الانسحاب بتصفية القضية الفلسطينية . وكانت المرة الوحيدة التي تكلم فيها مندوب اليابان ابان مناقشة العدوان الاسرائيلي عندما « عبر عن جزعه واهتمامه بالتقارير الواردة عن النزوح الجماعي الاجباري للعرب من بيوتهم ، واردف قائلا انه يتوجب على المجلس اتخاذ الاجراءات لمنع مأساة اخرى **نتيجة لضرب الضحايا** في النزاع بين العرب والاسرائيليين»(٤٣). ويلاحظ هنا ان اليابان لم تهزها سوى النتائج الانسانية لما

حدث ويقول مندوبها « ماتسوي » ، « الضحايا الابرياء في النزاع بين العرب والاسرائيليين » مع انه يعترف بالنزوح الجماعي الاجباري للعرب من بيوتهم الا انه لا يدين الاسرائيليين ادانة واضحة بالعدوان وهذه نتائجه ماثلة بين يديه تثير اهتمامه ليتحدث عنها « مجزوما » ويصنف محررو الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية عام ١٩٦٧ **اليابان** نتيجة لموقفها من هذه الدورة على « **انها من الدول غير المساعدة للعرب** » وذلك الى جانب بورما وكمبوديا وايران وتركية ونايجيريا وسيراليون والكاميرون والكونجو كينشاسا . بينما يصنف الكتاب بقية الدول الافرو/آسيوية في اربع فئات اخرى هي : **دول صديقة** وهي التي صوتت الى جانب العرب و **دول غير صديقة** و **دول غير صديقة ابدا ودول معادية بصورة ايجابية** .

هذا بالاجمال هو الموقف الياباني الرسمي الذي وان حاولت السلطات اليابانية وصفه بالحياد التام ، فهو في رأينا ليس بالتام ولا بالجزئي . انه يعبر عن المصلحة الخاصة لدولة تسيء فهم مصلحتها الخاصة في الوطن العربي . ان هذا الموقف يساير ارادة الولايات المتحدة ، ولا نعتقد باننا نكون مغالين لو فسرنا هذا الموقف على انه انتظار من اليابان ذات المصالح الضخمة والنامية في الوطن العربي ، لان يكون لاسرائيل في المستقبل اليد العليا في تسيير شؤون الوطن العربي !!

الموقف الشعبي الياباني : اما الموقف الشعبي الياباني او بصورة أدق الموقف **غير الرسمي الياباني** بالنسبة للقضية الفلسطينية فمن الطبيعي ان يكون اقل تحديدا لتعدد الفئات التي تناولتها وعبرت عن رأيها فيها . بالنسبة لرأي المواطن الياباني العادي اللامنتمي او غير الملتزم بحزب او جماعة منظمة وليس له علاقة مباشرة من اي نوع — اقتصادية كانت او اجتماعية — فليس من السهل تحديده . المواطن العادي في بلد بعيد مثل اليابان حيث لا توجد جالية عربية كبيرة ولا يقيم الى جانبه طائفة يهودية كبيرة ، فاليهود المقيمون في اليابان بصورة دائمة لا يتعدون المئات بينما يزيد عدد اليابانيين على المئة مليون نسمة ، وان حاول هؤلاء المئات من اليهود الاتصال المباشر مع المواطنين اليابانيين فتكون النتيجة ذات فعالية محدودة ، مثل هذا المواطن من الطبيعي ان يتصف بالجهل بقضيتنا تاريخا وواقعا ، الا اذا كان ملتزما برأي سياسي او له مصلحة اقتصادية مباشرة ففي الحالة هذه لا يبقى بالنسبة لنا مواطنا عاديا ، فهو مواطن مصنف .

لقد بينا أعلاه موقف الجناح اليميني من الاشتراكيين اليابانيين ومدى انغماسه وتورطه مع الصهيونية خلال المؤتمر الاشتراكي الاسيوي الاول ، شأنه في ذلك شأن « اشتراكيي » الاحزاب الحاكمة في اوروبا الغربية التي تتورط قياداتها ومعظم قواعدها مع الصهيونية وتدعم اسرائيل في مختلف المجالات الى ابعد الحدود . اما اليسار الياباني الحقيقي فقد ظهر موقفه الفلسطيني العلني وبشكل واسع بعد حادث مطار اللد في ٣١ ايار ١٩٧٢ عندما قام ثلاثة شبان من اعضاء منظمة الجيش الاحمر الياباني الذين وصلوا على متن احدى الطائرات الى مطار اللد في فلسطين المحتلة وقاموا بمهاجمة الموجودين في قاعة الركاب في المطار وبشكل خاص ممثلي سلطة الاحتلال ، كذلك الطائرات الموجودة في باحة المطار آنذاك . وقد وقع نتيجة للحادث اصابات مميتة وجرحى من الاسرائيليين ومن السياح الذين صدف وجودهم في المطار في تلك اللحظة .

لقد قام اعضاء منظمة الجيش الاحمر الياباني بتنفيذ هذه العملية التي دعيت بعملية دير ياسين الاكثر عنفا من عملية مطار اللد ، وذلك بالاشتراك مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ... وقد عبر الفدائي الياباني الوحيد الذي بقي حيا بعد الحادث عن دوافعه بقوله ، « ان المشاركة في نضال العرب جزء من الثورة العالمية ... ذلك ان الاسرائيليين جزء من حركة الامبرياليين في العالم »(٤٤).

منظمة الجيش الاحمر الياباني او « **سيكي غون** » منظمة يسارية امية اعتنقت شعار ماوتسي تونغ « بالسلاح فقط يمكن تغيير العالم » والعالم الذي يعنيه الجيش الاحمر هو عالم الامبريالية ، انطلاقا من اليابان الى الولايات المتحدة ، فاوروبا الغربية وغيرها من مواقع الامبريالية ففلسطين المحتلة حيث اسرائيل الصهيونية هي الامتداد الطبيعي للامبريالية ويدها الضاربة في الوطن العربي وافريقيا وآسيا .

بدأ الجيش الاحمر نشاطه بجناحيه السياسي والعسكري سنة ١٩٦٥ . ولكن تعرف اليابانيين والعالم على منظمة الجيش الاحمر الياباني بشكل واسع كان في اول انطلاقة كبيرة لها في تشرين الثاني ١٩٦٩ ، حين نظم اليسار الياباني خمسة ايام عنف لمنع « ايزاكو ساتو » رئيس وزراء اليابان من

السفر الى الولايات المتحدة لتوقيع معاهدة تعاون معها . لقد ارادوا بذلك الحد من الاتصال والتعاون بين اركان الامبريالية في الولايات المتحدة واليابان زيادة عن الانغماس العميق الجاري بينها ، وذلك بمنع توقيع المعاهدة . وفي ٣١ اذار ١٩٧٠ خطف فريق من طلاب هذه المنظمة ، بينهم شقيق الباقي الوحيد في عملية مطار اللد ، طائرة يابانية الى بان مونجوم في كوريا الشعبية تعبيرا عن وحدة اليسار العالمي — ومنهما وحدة اليسار الثائر على البورجوازية الامبريالية الحاكمة في اليابان — مع الحكم الثوري في كوريا الشعبية . واحتج اليسار الياباني الذي تتمثل به منظمة الجيش الاحمر بعنف شديد على استمرار احتلال الامبريالية الاميركية لجزيرة «اوكيناوا» حتى عام ١٩٧٢، وقد حاولوا اقتحام القواعد العسكرية الاميركية والقوا القنابل على المركز الثقافي الاميركي . وقد اعتقل في اليوم الاول من التظاهرات ١٨٥٧ شخصا . ثم نظموا اضرابا عماليا وتظاهرة اشترك فيهما نحو أربعة ملايين شخص . . « وكانت العناصر الاكثر تطرفا خلال هذه التظاهرات هي منظمة الطلبة اليساريين انها تضم ١٣ الف عضو عامل وتستطيع تجنيد ٤٢ الفا من أصل ٤٤٠ الف طالب منتسبين الى روابط الطلبة المنضمة الى التكتل اليساري المتطرف»(٤٥). وفي كانون الثاني ١٩٧٠ عقدت المنظمة مؤتمرا سريا اقرت فيه سياستها وبرامج عملها بعد اندماج منظمة الجيش الاحمر الطلابية مع منظمة ثورية عمالية باسم الجيش الاحمر المتحد . ومنذ ذلك الحين بدأ طابع المنظمة الاممي بالبروز فقد ارسلت فرقا للتدريب في كوبا وبدأت اتصالاتها بمنظمة الفهود السود الاميركية ومختلف المنظمات الثورية في العالم بما في ذلك المقاومة الفلسطينية بواسطة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . وفي عام ١٩٧١ صدرت دراسة مشتركة حول « حرب الفدائيين العرب والجيش الاحمر الياباني » اعدها الجيش الاحمر بالتعاون مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، ولكن اول اتصال جرى بينهما كان في عام ١٩٦٨ ببادرة من الجيش الاحمر الذي رأى في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تنظيما ثوريا ذا ايديولوجية مطابقة لايديولوجيته ، وتشترك معه بذات الاسلوب في مقاومة الامبريالية والاستغلال .

والى جانب الجيش الاحمر هناك عدد من الاطباء والمرضات اليابانيين الذين يعملون متطوعين في مستشفيات الهلال الاحمر الفلسطيني ، وذلك شعورا بواجب المشاركة في هذه الثورة الحقة .

لا شك ان اكثر ما يهمنا في هذه الدراسة عن الموقف الياباني من حادث مطار اللد هو رد الفعل الياباني الرسمي وشبه الرسمي والى حد ما الشعبي الذي نتج عنه .

رد الفعل الرسمي : قامت الحكومة اليابانية بارسال بعثتين الاولى سياسية وعلى مستوى عال والاخرى من كبار رجال الشرطة ، وقالت صحيفة «هيرالد تريبيون» الاميركية في رسالة لها من طوكيو ، « اعلن اليوم هنا (طوكيو) ان مندوبين من الحكومة اليابانية سافرا بطريق الجو الى اسرائيل ليعبرا عن اسف حكومتهما عن حادث مطار اللد . المبعوثان هما كنجي فوكوناجا نائب قديم في الدايت (مجلس النواب الياباني) والسكرتير الاول السابق في وزارة ايزاكو ساتو ، رئيس قسم الشرق الاوسط في وزارة الخارجية اليابانية ، مينابو باماموتو»(٤٦). ونقلت الاهرام عن وكالات الانباء ، « وقد ادلى المبعوث الياباني كنجي فوكوناجا ببيان في مؤتمر صحفي بعد ان اجتمع بجولدا مئير رئيسة الوزراء وزالمان شازار رئيس اسرائيل ليطلب منهما الصفح عما فعله اليابانيون الثلاثة ، واضاف ، ان المبالغ التي ستدفعها اليابان على سبيل التعويض عن نتائج عملية اللد سوف يذهب جزء منها الى اسر القتلى والجرحى والباقي لما وصفه الى **المشروعات الانسانية في اسرائيل** . وقال ان الصليب الاحمر الياباني سيقدم مبلغا كبيرا الى هيئة موجن دافيد ادوم ، (جمعية نجمة داوود الحمراء)» . وزادت الصحيفة : « وأكد فوكوناجا ان عددا من رجال الشرطة اليابانية بينهم رئيس ادارة التحقيقات الدولية واسمه تسوكادا ، قد وصلوا الى تل ابيب لمساعدة الشرطة الاسرائيلية في التحقيق مع الفدائي المعتقل اوكاموتو»(٤٧).

وقال سياسي ياباني كبير ، « ان هؤلاء الشبان الثلاثة عار على الشعب الياباني»(٤٨). اما صحيفة كريستشن ساينس مونيتر فكتبت « وصم وزير خارجية اليابان ، تايو فوكودا ، علنا امته بانها ثرية ماديا ولكنها فقيرة اخلاقيا » . وزادت الصحيفة قائلة : « وتساءلت الصحف اليابانية في افتتاحياتها ، هل سيظن الاجانب بان الشخصية اليابانية تعاني نقصا مميتا ؟»(٤٩).

رد الفعل الصحفي : وكتبت صحيفة« مينيشي »

اليابانيــة تقول : « ان شعورا بالخزي والعار يغمرنــا بان يقترف مواطنــون لنا مثــل هــده الاعمال(٥٠). ومن طوكيو ارسل الاخ انور عبــد الرحمن تقريرا خاصا الى مركز الابحاث الفلسطينية قــال فيــه « وعقبت صحيفة « جابان تايمز » في مقال لها ، ان جميع المقالات المكتوبة في الصحف اليابانية تميزت بالخجل والاسى العميق وخيبة الامل والشعور بالخــوف من ان تسوء العلاقات بــين البلدين . كما اضاف ان الصحف أبرزت الحدث بعناوين ضخمة وعبرتعن ارتيــاحهــا لتصريــح جــولدا مئــير ، بــأن الحــادث لــن يؤثر على العــلاقــات الوديــة بــين البلــدين . كمــا ان معلــقي الصــحف قــــد اجمعوا على ان السلام الذي حققته اليابان بعد الحــرب الكونية الثانية قد دمر تدميرا كاملا » !!. واضاف التقرير: « قالت صحيفة يوميوري الواسعة الانتشار (٥ ملايين نسخة) بان البنك الصناعي الياباني لبنــاء السفن قدم شيكا للسفارة الاسرائيلية بـ ١٥ الــف دولار هدية لاسر الضحايــا » . وزاد التقرير ، « ذكرت صحيفة « يوميوري » بان المكالمات تنهال على السفارة الاسرائيلية من مختلف طبقات الشعب معربة عن اسفها ، وكذلــك مقدمة تبرعات لاسر الضحايا ، وقد طلبت السفارة ان تحول المساعدات الى جمعية نجمــة داوود الحمراء»(٥١). اما رد الفعل الشعبي النزيه الواعي فهو بايجاز كلي ، **مكموم** سيغتال حتما لو عبر عنه بالعلن .

وقد يقف البعض متأملا باستغراب ودهشة مثل رد الفعل هذا، يصدر عن شعب مثل الشعب الياباني، ولا شك ان كل الساسة واكثر الصحافيين كــانوا موجودين وواعين، ان لم يشتركوا في حرب اليابان، لاستعمار الشعوب قبل وخــلال الحرب العالميــة الثانية . فالزمن غــير بعيد . ان أمــة حاولت استعمار قسم كبير من آسيا وسيطرت فعليا على جزء واسع منها لا يمكــن ان تكون قد استعملت الوسائل السلمية والاسلوب الانساني للوصول الى اغراضها الاستعمارية . ان سقوط ملايين الضحايا في سبيل استعباد الشعوب واستعمار اراضيها ، لكون الجزر اليابانية تضيق باهلها ولاجل الحصول على الخامات اللازمة للصناعة اليابانية وايجــاد الاسواق اللازمة لمنتجاتها ، مسالة كان فيها نظر ! اما ان يساهم ثلاثة شبان يابانيين فالهم تــورط ساستهم مع الامبريالية الاميركية وانعدام المناقبية بين هؤلاء الحكام بتعاملهم مع اسرائيل الصهيونية الامبريالية ، في ثــورة شــعب لتحرير وطنه ، وان يسقــط نتيجة ذلــك عــدد من الرسميــين الاسرائيليين وبضعة سياح كان يجب ان يعرفوا بأن زيارة بلد في حالة حــرب معناه تعريض انفسهــم للخطر ، فان مثل هذا العمل « يندى له جبين الساسة والصحافيين اليابانيين ويغمرهم بشعور الخزي والعار !! » ويستوجب ارسال رسميين كبار لطلب الصفح من جولدا مئير وطبعا موشي دايان ولن ننسى مناحيم بيجن !

ولا شك ان في ما كتبه سمير كرم في الاهــرام ، ردا واضحا شبه كامل على استغراب البعض على ردة الفعل اليابانية على عملية مطار اللد اذ قال ، « ان فدائية اليابانيين الثلاثة اليساريين ابطــال عملية مطار اللد هي النقيض الموضوعي لانتحارية اليمين الياباني كما تمثلت في انتحار الكاتب اليميني الياباني يوكيو ميتشيما ، اليسار يتجه نحو الفداء من اجل قضية عادلة يؤمن بها وبارتباطها بالضمير وبالمثل الانسانية العامة ، واليمــين يتجه نحــو الانتحار محكوما بالعبث ورفض النضال . اليسار يتجه للفداء رفضا للواقع الراهن وتطلعا الى واقع متقدم ، واليمين يتجــه للانتحار رفضا للواقــع الراهن ، ولكن منطلقا الى واقع مضى ويأسا من استعادته . « في حين اعطى اليساريون اليابانيون دمهم من اجل واقــع اكثر انسانية يعــرفون ان الوجود الاسرائيلي يقف في طريقه ، فان المنتحرين من مفكري اليمين اليابانيين — واشهرهم ميتشيمــا اهدروا دمهــم من اجــل ان تعود في اليابان قوة العنصرية والنزعة العسكرية المسيطرة (اي من اجــل ان يعود في اليابان كيــان شبيه بالكيــان الاسرائيلي في الشرق الاوسط) »(٥٢).

ونزيد ان ردة الفعل اليابانية فيها الكثير من الخوف من ان تتفجر ضدها الملاحقات الصهيونية . فمثلا ما ان انتشرت اخبار الحادث حتى قامت قيامــــة الصهيونية اذ « أعلن في طوكيو ان السفارات والمكاتب الحكوميــــة اليابانية في الولايــــات المتحـــدة واوروبــا ، تلقت عــــددا من المكالمات الهاتفية تهدد بالقاء القنابل عليها»(٥٣). لا شك ان هذه التهديدات سوف لا تنفذ، بل الهدف من ورائها هو زيادة في « تركيع » اليابان ولحصرها اكثر من قبل داخل المعسكر الامبريالي الامريكي/الصهيوني وزيادة رضوخها لعملية الابتزاز الاسرائيلية للاموال اليابانية ، وقد دفعت التعويضات مباشرة من غير الحاجة الى المفاوضات ، وزيــادة الاستثمارات

اليابانية في اسرائيل ... الخ .

خلاصة

كما فصلنا لليابان مصالح ضخمة متشعبة ونامية في الوطن العربي لا تتمتع بمثلها الا دول قليلة في العالم . والمستفيدون من هذه المصالح يشكلون قاعدة شعبية واقتصادية واسعة جدا يمكن اذا وجدت خطة عربية متكاملة توجيهها بحيث تعي وحدة مصالحها مع المصلحة العربية ، ومن ثم تصبح قوة ضاغطة تعمل لتوجيه السياسة اليابانية الخارجية في خط مواز مع المصلحة العربية القومية، وطبعا ذات العلاقة المباشرة مع القضية الفلسطينية التي هي الجوهر والمحور الرئيسي للسياسة العربية الخارجية .

اليابان كانت ولا تزال تدعي سياسة الحياد بالنسبة للقضية الفلسطينية ، وكما رأينا انه مجرد ادعاء ، ولكنها والحق يقال لا تزال أقل انحيازا الى الصهيونية من معظم الدول الغربية . لذا لما كانت هي تدعي الحياد ، ولما كانت أقل انحيازا من معظم الدول الغربية ، ولما كانت مصالحها في الوطن العربي ضخمة ونامية فيجب ان يعمل العرب تجاهها وفق خطة متكاملة موحدة ، **وأشد موحدة** .

العرب أقل حاجة الى اليابان من حاجة اليابان الى العرب ، وازيد انه بامكان العرب الاستغناء ، عند الضرورة ، عن حاجة اليابان لهم من غير ان يخسروا شيئا في المدى الطويل والمتوسط وقليلا في المدى القريب . بامكان العرب تصريف خاماتهم وسد الحاجة الآنية لسوقهم بعيدا عن اليابان ، أما اليابان فستكون هي الخاسرة ، والخاسرة كثيرا في المدين القريب والمتوسط والى حد ما في المدى البعيد . ان اليابان اذا شاءت معاداة العرب وكانوا هم اسياد أنفسهم فستخسر العرب كسوق لتصريف منتجاتها وكمنجم وحقل يمدانها بالخامات ذات الضرورة الاساسية لصناعاتها . ان اليابان كما تدل الوقائع ما هي الا مصنع مجهز بالآلات والخبرة التقنية واليد العاملة . وكل هذا غير ذي فائدة لو انقطعت عنه امدادات الوقود والخامات التي لا يؤمن منها محليا سوى ٣٠٪ من المصادر الخاصة الداخلية . والنسبة العربية من هذه الخامات والوقود تشكل عنصرا اساسيا بالنسبة لحاجات المصنع الياباني . وهي نسبة عالية ذات تكاليف متدنية .

الياباني اكتسب التفكير المصلحي الاقتصادي واصبح ذلك الآن بالنسبة اليه تراثا عميق الجذور. لذا أفضل أسلوب يمكننا التوجه بواسطته الى العقلية اليابانية هو أسلوب المعادلة الحسابية . ويتوجب على من له مثل هذه العقلية ، ولا يصعب عليه ، ان يعي مصلحته الاقتصادية على المدى البعيد . وانه يجب ان يفهم انه على هذا المدى سوف يكون الوطن العربي هو سيد نفسه . ومن يعتقد اننا سنقع في المستقبل كليا تحت قبضة الصهيونية وهي التي سوف تسير امورنا فهو مخطىء . الشعوب ، كما يجب ان يعلم اليابانيون ، قد وعت وسارت في طريق التقدم والتحرر ، ولن يعيد التاريخ نفسه، فلن تنطمس حضارة في المستقبل تلقائيا ولوحدها . فالشعب الذي انطلق وتحرر سيبقى حرا وسيزيد من انطلاقه في سبيل التقدم . ولعلاقاتنا مع اليابان نواح أخرى ... اننا واليابانيين آسيويون في الاصل والواقع ، وهكذا يريد كل منا ان يكون وان يبقى ، بينما اسرائيل تتبرأ من آسيويتها التي ما كانتها ولن تكونها . واليابان تختلف في تراثها الحضاري والديني عن الغرب كونها لا تعتمد أصولا دينية يهودية ، أحسنت الصهيونية العالمية استغلالها بالنسبة للغرب المتدين . واليابان حرة كليا من عقدة شعب الله المختار وما يلفها وما يتبعها من اعتقادات خاطئة توجد لدى الغرب ارتباطات وواجبات وهمية للحفاظ على اسرائيل ودعم كيانها . وهذا مما يسهل علينا مخاطبة العقلية اليابانية . كل هذا يسهل لنا الوصول الى العقلية اليابانية ومخاطبتها والوصول بذلك الى نتائج ايجابية ... فيما لو أحسن التصرف على اساس خطة عربية متكاملة واحدة . ولا موجب للتأكيد او التنبيه انه من مصلحتنا ان لا نتعادى مع اليابان سياسيا فنضطر الى الحد من تعاملنا معها .

---

١ ــ **الاسبوع العربي** ، ملحق العدد ٦٧٩ ، ١٢ حزيران ١٩٧٢ ، عدد خاص عن اليابان ١٩٧٢، مقال « الاقتصاد والتجارة » .

٢ ــ مجلة **روز اليوسف** ، ٢٨ ك١ ١٩٧٠ ، مقال اسرائيل تضع خطة لغزو آسيا اقتصاديا.

٣ ــ **المصدر نفسه** .

٤ ــ **ملحق الاسبوع العربي** ، اليابان ١٩٧٢ ، ومن الواضح ان هذا الملحق الدعائي لليابان مدفوع ثمن كل صفحة منه من الغلاف الى الغلاف وجميع مقالاته معدة من قبل مؤسسات حكومية واقتصادية خاصة يابانية مثل المكتب التجاري الياباني ووزارة التجارة اليابانية ووزارة الخارجية وغيرها ... وهي بذلك تعبر عن وجهة نظرها فقط .

٥ ــ **النهار** البيروتية ١٩٧٢/٧/٢٩.

٦ ــ **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٥** ، منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ١٩٦٧ .

٧ ــ U. N. Statistical Papers - Commodity Trade Statistics, Series D, Vol. XIX, No. 1-5.

٨ ــ **المصدر نفسه** .

٩ ــ **ملحق الاسبوع العربي** ، اليابان ١٩٧٢ ، ص ٢٩ و٣١ .

١٠ ــ U. N. Statistical Papers - Commodity Trade, 1969,

١١ ــ Statistical Abstract of Israel 1971.

١٢ ــ U. N. Statistical Papers - Commodity Trade 1969.

١٣ ــ Organization of the Petroleum Exporting Countries, Statistics Unit, June 1971. Annual Statistical Bulletin.

١٤ ــ **المصدر نفسه** .

١٥ ــ Facts & Figures 1970, ARAMCO.

١٦ ــ Walter R. Skinner, *Oil and Petroleum International Yearbook* 1971-72, London.

١٧ ــ World Oil - International Edition, Aug. 15, 1971.

١٨ ــ The American Association of Petroleum Geologists Bulletin, Vol. 55/9, Sept. 1971, p. 1618.

١٩ ــ Facts & Figures 1970, ARAMCO.

٢٠ ــ The American Association of Petroleum Geologists Bulletin, vol. 55/9,Sept. 1971, p. 1618.

٢١ ــ Facts & Figures 1970, ARAMCO.

٢٢ ــ A. A. P. G. Bulletin, Vol. 5519, Sept. 1971, pp. 1617-1618.

٢٣ ــ World Oil, Aug. 15, 1971, p. 116.

٢٤ ــ وكالة انباء اسوشيتدبرس ١٩٦٨/١٢/٢٧.

٢٥ ــ *Daily Star*, 18 Nov. 1970, (Beirut)

٢٦ ــ **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٦** ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٥٦٧ .

٢٧ ــ G. H. Jansen, *Afro-Asian and Non-Alignment,* Faber and Faber, London 1966, p. 265.

٢٨ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٢٦٥ .

٢٩ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧ .

٣٠ ــ **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٦** ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٥٦٧ .

٣١ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٩٨٧ ــ ٩٨٨ .

٣٢ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٦٨٤ .

٣٣ ــ صحيفة **الاهرام** ، ١٥ نيسان ١٩٧٢ .

٣٣ ــ **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٦** ، ص ٩٨٥ ــ ٩٨٦ .

٣٤ ــ **الاهرام** ، ١٩٧٢/١/١٢ .

٣٥ ــ **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية ١٩٦٧** ، ص ٩٩٥ .

٣٦ ــ **المصدر نفسه** .

٣٧ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٥٩٧ .

٣٨ ــ يرجى الرجوع الى **المصدر نفسه** اعلاه ، ص ٦٠١ ــ ٦٠٢ للوقوف على تفاصيله .

٣٩ ــ United Nations Yearbook, pp. 184-185.

٤٠ ــ **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية ١٩٦٧**، ص ٩٩٥ .

٤١ ــ **المصدر نفسه** ، ص ١٠٠٤ .

٤٢ ــ U. N. Monthly Chronicle, July 1967, p. 25.

٤٣ ــ **المصدر نفسه** .

٤٤ ــ **الاهرام** ، ٧٢/٦/٣ .

٤٥ ــ مجلة **البلاغ** البيروتية ، ٦٢/٦/٥ .

٤٦ ــ *International Herald Tribune,* 2/6/72.

٤٧ ــ **الاهرام** ، ٧٢/٦/٥ .

٤٨ ــ مجلة **الهدف** البيروتية ، ٧٢/٦/٣ .

٤٩ ــ *Christian Science Monitor,* 2/6/72.

٥٠ ــ *International Herald Tribune,* 2/6/72.

٥١ ــ انور عبد الرحمن ، تقرير غير منشور الى مركز الابحاث الفلسطينية ومحفوظ في ملفات المركز .

٥٢ ــ **الاهرام** ، ٧٢/٦/٣ .

٥٣ ــ *The Guardian,* 3/6/72.

التعليم في قطاع غزة

شحاده موسى

ينقسم الفلسطينيون في قطاع غزة الى فئتين : السكان الاصليون ، واللاجئون . ويتولى الاشراف على السكان الاصليين وبالتالي على التعليم لديهم السلطات المصرية (حتى عدوان اسرائيل واحتلالها للقطاع عام ١٩٦٧) ، وتشرف وكالة الغوث الدولية على اللاجئين وبالتالي تؤمن لهم الخدمات التعليمية. ومن المعروف ان وكالة الغوث الدولية تشكلت بقرار من الجمعية العمومية للامم المتحدة في ٨ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٩ ، حدد مهماتها بـ : أ ــ تقديم الغوث للاجئين الفلسطينيين على اساس الحاجة . ب ــ تنفيذ برامج تهدف الى مساعدة اللاجئين الفلسطينيين وتأهيلهم لاعالة انفسهم . وباشرت الوكالة اعمالها في شهر ايار (مايو) ١٩٥٠(١). وبالطبع فان التعليم يعتبر وجها اساسيا من اوجه المهمة الثانية للوكالة اي انه وسيلة لتمكين اللاجئين من اعالة انفسهم .

يتألف النظام التعليمي في قطاع غزة من ثلاث مراحل مدتها ١٢ سنة : ٦ سنوات في المرحلة الابتدائية و٣ سنوات في كل من المرحلتين الاعدادية والثانوية. ويخضع الانتقال من مرحلة الـى اخرى لاجتياز امتحانات رسمية .

توفر الحكومة في المدارس الرسمية (السكـان الاصليون) التعليم في المراحل الثلاث ، كما توفر التدريب المهني على المستوى الثانوي ، وتدريب المعلمين في معهدين واحد للشبان وآخر للشابات . اما الانروا فتوفر التعليم في المرحلتين الابتدائية والاعدادية فقط. وتدفع مبلغا متطوعا مقداره ١٥٠ الف دولار للحكومة لقاء تأمين التعليم الثانوي لابناء اللاجئين في مدارسها . كما كانت الانروا تدفع مبالغ عن الطلبة اللاجئين الذين يتلقون تدريبهم في معهدي تدريب المعلمين . وقـد أدخلت الانروا التدريب اليدوي للذكور في مدارسها الاعدادية ، كما أدخلت في قطاع غزة منذ عام ١٩٦٥ مادة اقتصاديات المنزل في المدارس الاعدادية للبنات . وللانروا مركـز للتدريب المهني في غزة يدرب فيه الطلاب على عدد من الحرف لمدة تتراوح بين سنة وسنتين . كما تقدم الانروا عددا محدودا من المنح الجامعية للطلبة المتفوقين سنويا .

وفي غزة كانت الانروا تسير وفق المنهج المصري وتستعمل في مدارسها الكتب ذاتهـا ، الا ان السلطات الاسرائيلية قامت بعد الاحتلال بمنـع استعمال هذه الكتب بحجة انها تحتوي على مادة تسمم عقول الاطفال وتنمي الكراهية لاسرائيل .

ومع انه ليس من مهمة هذا البحث استعراض المراحل التعليمية بشكل تفصيلي ، الا ان ذلك يرد ضمن استعراض القضايا او النقاط الاساسية التي سنركز عليها مثل : ١ ــ **التعليم والسكان** : في محاولة للتأكيد على ضرورة ربط الاغراض التعليمية بالحاجات الاقتصادية والاجتماعية الخاصة بالقطاع. ٢ ــ **الطلاب والمدارس** : في محاولة لاستكشاف ما اذا كان التعليم الذي تؤمنه الانروا ــ العام والمهني ــ يتناسب مع الحاجـات الاقتصاديـة والاجتماعية للسكان . والتركيز هنا على المرحلة الثانوية والتدريب المهني ، لأن انهاء المرحلـة الابتدائية او الاعدادية لا يمكن الفرد ، بهذه المعرفة الاولية ، من تأمين عمل يعتاش منه. ٣ ــ **التسرب**: بهدف تكوين صورة عن عدد الطلبة الذين يتركون دراستهم . ولهذه المسألة اهميتها في غزة حيث نسبة البطالة مرتفعة جدا ، والتعليم هو السلاح الوحيد الذي يمكن من تأمين العمل في مثل ظروف القطاع . ٤ ــ **تطور تعليم الفتيات** : لمعرفة تطور التعليم في القطاع النسائي من المجتمع ، لما لذلك من ارتباط بعدد مـــن العوامـل الاجتماعيـة والاقتصادية .

لم يتعرض البحث لدراسة المناهج المطبقة في مدارس الانروا . وتجدر الملاحظة هنا الى ان مناهج التربية في مجتمع ما لا بد ان تكون لها اصول وأهداف مستمدة من فلسفة ذلك المجتمع وأهدافه . والانروا لا تطبق في مدارسها منهجا واحدا بل تطبق المناهج المتبعة في البلدان المضيفة والتي هي بدورها ليست موحدة . وبالتالي فالاجيال الفلسطينية تفتقد الى المنهج الموحد والثقافة الموحدة التي تعمل من أجل هدف تربوي ــ سياسي وثقافي واحد .

الوضع السكاني والاقتصادي

عند مناقشة الاوضاع التعليمية في مجتمع ما لا بد ان ترتسم في الذهن بعض الاسئلة حول علاقة التعليم بالمجتمع ، بكفايته لحاجات السكان مثلا ، او دوره في تقدم المجتمع بشكل عام ، والى أي مدى تتوفر فرص التعليم لمن هم في سن الدراسة ؟ وهل يؤمن التعليم المتبع الكفاءات المطلوبة للنهوض بالحياة في المجتمع ؟ وهل تتوفر فرص العمل للخريجين... الخ. وتكتسب هذه الاسئلة أهمية خاصة بالنسبة للمسئولين عن السياسة التعليمية وكذلك للمسئولين عن التخطيط الاقتصادي والاجتماعي او تنمية المجتمع . لذلك سنعرض في البداية ــ وبقدر ما تمكننا المعلومات المتوفرة عن القطاع ــ صورة موجزة للوضع السكاني والاقتصادي حتى يصبح للارقام الخاصة بالتعليم صلة حية باوضاعه العامة وتكون لها دلالة عملية .
قطاع غزة كما هو معروف بعد نكبة عام ١٩٤٨ هو الاراضي الفلسطينية التي ظلت تحت سلطة الحكومة المصرية بموجب اتفاقية الهدنة المصرية ــ الاسرائيلية في ٢٤ شباط ١٩٤٩ . وهو عبارة عن شريط ساحلي تغطي الرمال ثلثي مساحته التي تبلغ حوالي ٣٠٠ كلم٢، أي ١،٣٪ من مساحة فلسطين . ونتيجة لحرب ١٩٤٨ لجأ الى القطاع حوالي ٢٠٠ الف فلسطيني وكان سكانه الاصليون يقدرون بحوالي ٩٠ الف نسمة فاصبح سكان القطاع انذاك حوالي ٢٩٠ الفا تؤمن الخدمات والاغاثة لهم جهتان : الحكومة المصرية ، للسكان الاصليين ، وجمعية الاصدقاء الاميركية (كويكرز) للسكان اللاجئين. ثم حلت وكالة الغوث الدولية ــ الانروا ــ مكان الاخيرة بعد ان قررت الجمعية العمومية للامم المتحدة تشكيلها بهدف تأمين الاغاثة المباشرة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين(٢).

بلغ عدد سكان القطاع عام ١٩٥١ ، بحسب تقديرات الانروا ، ٢٩١،١٧٠ نسمة موزعين حسب الفئات التالية ، ٩٠،٣٥٦ نسمة من السكان الاصليين ، و ١٩٩،٧٨٩ نسمة مسجلين لاجئين لدى الانروا ، و ١٠٢٥ نسمة من اللاجئين غير المسجلين لدى الانروا(٣) وفي نهاية شهر ايار (مايو) ١٩٦٧ ، اي قبيل عدوان حزيران كان عدد اللاجئين المسجلين في القطاع ٣١٦،٧٧٦ نسمة(٤) ، اما عدد السكان الاصليين فكانوا حسب تقديرات الانروا ١٤٨ الفا وذلك في منتصف عام ١٩٦٦(٥). ولذلك يمكن القول ، اذا اخذنا بعين الاعتبار الزيادة السنوية للسكان الاصليين لمدة سنة ، اي من منتصف ٦٦ حتى العدوان الاسرائيلي ، وكذلك اللاجئين غير المسجلين ، ان سكان القطاع وبحسب تقديرات الانروا كانوا عند الاحتلال الاسرائيلي حوالي ٤٧٠ الفا . وبعد عام ٦٧ لم يعد تقرير المندوب العام للوكالة يتضمن الارقام التفصيلية المعتادة حول اللاجئين في كل من المناطق الاربع بل اصبح يكتفي بذكر الرقم العام لعدد اللاجئين ككل . ولذلك فاننا اذا اردنا معرفة عدد سكان القطاع بعد عام ٦٧ ، ومن ثم معرفة عدد الذين غادروا القطاع نتيجة الاحتلال، فاننا لا نملك غير مصدرين: الاول يتمثل بالتقارير الاحصائية التي تعدها دائرة التعليم في الانروا ، والارقام التي تعطيها هذه التقارير عبارة عن تقديرات لا تمثل بالضرورة العدد الحقيقي للاجئين(٦)، بالاضافة الى انها تقتصر على اللاجئين المسجلين لدى الوكالة . وبحسب هذه التقارير كان عدد اللاجئين المسجلين في القطاع ٣٠٦،٩٣٨ نسمة في شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٦٦(٧). أما المصدر الثاني فهو الاحصاءات الاسرائيلية . وبحسب هذه الاحصاءات كان عدد سكان القطاع بأكمله ــ بعيد الاحتلال ــ ٣٥٦،٢٦١ نسمة . وفي عام ٦٨ كان عددهم ٣٥٥،٨٨٠ نسمة وسكان العريش ــ مصريون ــ ٣٣،٨٢٢ نسمة . وفي عامي ٦٩ و ٧٠ لم تذكر هذه الاحصاءات القطاع منفصلا عن العريش بل ذكرت عدد السكان الاجمالي في قطاع غزة وشمال سيناء وكان في العامين المذكورين ٣٦٥،٥ و ٣٧٢،٤ الفا على التوالي . واذا ما اعتبرنا سكان العريش حوالي ٣٥ الفا في هذين العامين لكان عدد الفلسطينيين هو ٣٣٠ و ٣٤٠ الفا على التوالي(٨). وقد مر معنا ان عدد سكان القطاع قبيل الاحتلال كان حوالي ٤٧٠ الفا ، اي ان هناك ١٥٠ الفا على الاقل قد غادروا القطاع حتى عام ١٩٧٠ . ولكن

المندوب العام للانروا يذكر في تقريره الى الجمعية العامة عام ١٩٦٨ ان ما بين ٤٠ — ٤٥ الفا من اللاجئين المسجلين في القطاع قد غادروه بعد الاحتلال(٩). كما ان السجلات الاردنية الخاصة بالاشخاص الذين غادروا القطاع الى الضفة الشرقية تشير الى انه حتى منتصف عام ٦٨ كان حوالي ٨،٥٠٠ شخص فقط من غير المسجلين لاجئين قد غادروا القطاع(١٠). ويذكر تقرير المندوب العام لعام ٦٩ ان النزوح من القطاع قد توقف تقريبا بعد ذلك التاريخ ، اي بعد منتصف عام ٦٨ . اي ان الذين غادروا القطاع كانوا بحدود ٥٠ الفا وان من بقي فيه يزيد عددهم على ٤٠٠ الف وذلك يتعارض مع الارقام الاسرائيلية كما هو واضح . وبسبب هذه الاعتبارات فاننا لا نستطيع ان نجزم او ان نعطي رقما تقريبيا لعدد سكان القطاع او لعدد الذين غادروه بعد الاحتلال.

فئات العمر : اذا نظرنا الى السكان بحسب فئات العمر نجد ان حوالي نصف سكان القطاع تقريبا هم دون سن الخامسة عشر وهي الفئة التي تعتبر عادة غير منتجة في المجتمع . ففي الفترة الواقعة بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٦٠ كانت نسبة من هم دون الخامسة عشر بين السكان الاصليين ٤٣٪ وبين اللاجئين ٤٦٪ ، مع ملاحظة ان مجلس الانتاج القومي المصري قام عام ١٩٥٥ بالاشتراك مع الانروا ببحث حول السكان جاء في نتيجته ان نسبة من تقل اعمارهم عن ١٥ سنة بين اللاجئين في القطاع تصل الى ٥١٪ تقريبا(١١). اما في الوقت الحالي فان الاحصاءات المنشورة حول السكان في القطاع تظهر ما يلي : بالنسبة للاجئين تظهر ارقام الانروا للعام ٦٩ ان هذه النسبة هي في حدود ٤٠٪ غير ان الانروا ترفق بهذه الارقام تعليقا يؤكد ان العدد بالنسبة لمن هم دون السادسة (سن دخول المدرسة) عدد غير دقيق « لان الانروا لا تقدم التشجيع الكافي للاجئين لكي يسجلوا اطفالهم قبل بلوغهم السادسة »(١٢). اما الاحصاءات الاسرائيلية للعام ٦٨ فتظهر ان نسبة من هم دون الخامسة عشر في القطاع كله وشمال سيناء هي ٥٠،٠٦٪(١٣). وعلى اي حال يمكن القول ان هذه النسبة ليست اقل من ٤٥٪ ، وهي نسبة عالية اذا قورنت بمصر مثلا ، وهي دولة تتميز بنسبة مرتفعة لتزايد السكان حيث ان نسبة من هم دون الخامسة عشرة فيها كانت ٣٨٪ خلال الفترة من عام ٤٨ الى عام ٥٧(٥٧). ويبرز عند الحديث عن توزيع السكان بحسب فئات الاعمار سؤالان يتعلقان بالتعليم هما : ما هي نسبة عدد التلاميذ الاجمالي الى عدد السكان ، وما هي نسبة هؤلاء التلاميذ الى من هم في سن الدراسة فعلا وفي مختلف المراحل التعليمية . ولكن قبل التعرض لهذين السؤالين لا بد من اعطاء صورة عن الوضع الاقتصادي في القطاع ، اذ بدون هذه الصورة قد تعطي الارقام التي ذكرناها انطباعا خاطئا بل ومضللا . فعندما نقول ان حوالي نصف السكان هم دون سن الخامسة عشر ، اي فئة غير منتجة فلا بد ان نضيف اليهم فئة الكبار في السن والعجزة، وكذلك فان ضعف اقبال النساء في مجتمعنا على العمل ، لاسباب عدة ، ومن ثم قلة عدد النساء العاملات نسبيا ، يجعل عدد من هم خارج قطاع الانتاج كبيرا ، مما قد يوحي خطأ ، بأن القطاع بحاجة الى الايدي العاملة ، وبأن فرص العمل بالتالي متوفرة . وقد يستنتج أيضا ان الدافع الاقتصادي ، اي تأمين الفرد لحياته وحياة اسرته، لا يرتبط بالتعليم ، بينما يظهر الواقع عكس ذلك .

الوضع الاقتصادي : لم يكن القطاع بحدوده الحالية منطقة انتاج قبل عام ٤٨ بل كان يستكمل معظم حاجاته من انتاج باقي اجزاء فلسطين ، كما لم تنشأ فيه صناعات تذكر . اما الانتاج الزراعي فلم يكن يكفي حاجات السكان من المواد الاساسية . وبعد عام ٤٨ فقد القطاع معظم موارده الاقتصادية الطبيعية داخل المنطقة المحتلة من فلسطين ، ذلك ان خطوط الهدنة جعلت ٨٠ بالمئة من سكان القطاع الاصليين يصبحون بدون مورد حيث اقتطعت اراضيهم واصبحت في الجهة الاخرى من الحدود ، أي تحت السيطرة الاسرائيلية . وبالتالي اصبح على القطاع ان يتحمل بموارده المحدودة هذه ، سكانه الاصليين الذين بلغ عددهم انذاك ٦٠ الف نسمة(١٥)، واللاجئين الجدد اليه . وليس هنا مجال البحث في انواع العمل او التوزيع المهني للسكان في القطاع ، الا انه لا بد من التأكيد ان البطالة تعتبر من ابرز المشاكل التي يواجهها اهالي القطاع ، ذلك ان القوة البشرية الموجودة في القطاع ، تفوق من حيث العدد كثيرا كمية العمل الموجودة ، او التي يمكن توفرها في المستقبل نظرا لضيق الموارد الطبيعية من جهة وعدم توافر الخبرة الفنية التي يمكن الاستفادة منها في مشاريع صناعية ، او في ايجاد فرص عمل

مناسبة لها خارج القطاع. وفي دراسة أجرتها الانروا عام ٥٤ جاء ان مشكلة السكان الاصليين في القطاع تعتبر أسوأ من مشكلة اللاجئين ، وذلك لان هؤلاء السكان يعيشون في اماكنهم الاصلية ، ومن ثم لا تشملهم المساعدات التي تقدمها الامم المتحدة . فالمزارعون منهم فقدوا معظم اراضيهم ، وغير المزارعين لا يكادون يجدون شيئا يعيشون منه . كما ان تدفق اللاجئين ، والتنافس على فرص العمل المحدودة أثرا كثيرا على الاجور ، فانخفض مثلا أجر العامل اليومي من حوالي ٣٠ قرشا الى ثمانية قروش . كذلك فان مستوى الدخل منخفض جدا بالنسبة لفئتي السكان ، الاصليين واللاجئين حيث تبين بنتيجة الدراسة ان ٤٣٪ من السكان الاصليين و ٥١٪ من اللاجئين لا يزيد دخلهم الشهري عن جنيهين فقط(١٦). ورغم الجهود التي بذلتها الحكومة المصرية للتخفيف من حدة المشاكل الناجمة عن انتشار البطالة الا ان مشكلة الفقر ظلت مشكلة حادة ، اذ نجد انه حتى عام ١٩٦٠ كان ٣٥ الفا من السكان الاصليين ما زالوا يعتمدون على المساعدات العينية التي تقدمها الحكومة المصرية ، وان كان هذا العدد هو ٧٠ الفا عام ١٩٤٩(١٧). ولذا فان البطالة مرتفعة جدا في القطاع وخاصة في اوساط اللاجئين . ففي عام ١٩٦٠ كانت نسبة البطالة بين السكان الاصليين ٣٥٫٥٪ ، وبين اللاجئين ٨٣٪ ممن هم في سن العمل(١٨). وعلى ذلك يمكن القول ان الدافع الى التعليم دافع قوي عند الفلسطينيين في قطاع غزة لكونه يشكل ، او يعتبر على الاقل بانه يشكل ، ضمانة نسبية لايجاد عمل في القطاع او في خارجه . كذلك فان اوضاع القطاع هذه تؤكد ان الخطة التعليمية التي تتوخى النهوض بمجتمع القطاع لا بد وان تهدف الى توفير كفاءات فنية قادرة على استغلال موارده واستثمارها الى اقصى مدى ، وتأمين مستوى من التعليم يمكن المتخرجين من ايجاد اعمال تسهم في رفع مستوى الحياة وتخفيف حدة المشاكل المختلفة. ولكننا سنرى عندما نتكلم عن التعليم الذي تؤمنه الانروا لابناء اللاجئين انها لا تستوحي سياستها التعليمية ولا مستوى التعليم الذي تؤمنه ، من مثل هذا الهدف .

الطلاب والسكان : من المعروف ان هناك جهتين تشرفان على التعليم في قطاع غزة : الانروا التي تتولى تأمين التعليم لابناء اللاجئين ، والحكومة المصرية — حتى عدوان ٦٧ — والتي تتولى تأمين التعليم لابناء السكان الاصليين . وتنشر الانروا منذ فترة تقارير احصائية سنوية عن الطلاب ونسبة الطلاب الى السكان . اما بالنسبة للتعليم في المدارس الحكومية فلا تتوفر لدينا ارقام تفصيلية عن الطلبة في مراحل التعليم المختلفة ، أو حسب فئات الاعمار ، كما لا تتوفر مثل هذه المعلومات عن السكان الاصليين(١٩). لذا سنقتصر في تحديد نسبة الطلاب الى السكان ، على السنوات التي تتوفر عنها معلومات حول الطلبة اللاجئين وغير اللاجئين. ويبين الجدول رقم ١ الاعداد الاجمالية للسكان والطلاب في المراحل الابتدائية والاعدادية والثانوية ونسبة الطلاب الى السكان .

جدول رقم ١

الطلاب والسكان في القطاع

السنة	اللاجئون	الاصليون(٢٠)	مجموع السكان	مجموع الطلاب	النسبة المئوية لدى مجموع السكان	الطلاب اللاجئون(٢١)	النسبة المئوية لدى اللاجئين
١٩٥٠	١٩٩،٥٨٧	٨٨،٥٢٠	٢٨٨،١٠٧	٢٤،٧٧٣	٨،٥	٢٤،٤٧٦ (للعام ٥١)	١٨
١٩٥٥	٢١٦،١٩٦	١٠٢،٤٧٥	٣١٨،٦٧١	٥٦،٧٥٢	١٧،٦	٤٠،٨٩٦	١٨
١٩٦٠	٢٥٥،٥٤٢	١١٨،٧٥٠	٣٧٤،٢٩٢	٧٥،١٠٠	٢٠	٥٠،٤٦٤	٢٠

واذا نظرنا الى نسبة الطلاب للسكان عام ١٩٦٠ نجد انها نسبة مرتفعة نسبيا ، (٢٠ ٪) ، وخاصة عند مقارنتها بالنسبة المماثلة في بعض دول المنطقة. ففي عام ١٩٦٠ كانت هذه النسبة في مصر حوالي ١١٪(٢٢)، وفي سوريا ١٠٪(٢٣) وفي لبنان ٢٢٪(٢٤). اما اذا اردنا مقارنة هذه النسبة عند كل من اللاجئين والسكان الاصليين في القطاع فاننا نلاحظ ان هذه النسبة كانت في البداية اعلى عند

اللاجئين ، اذ كانت نسبة الطلاب اللاجئين الى السكان عام ١٩٥٠ هي ١٨٪ بينما كانت حوالي ١٥٪ عند السكان الاصليين . امـا في السنوات اللاحقة فقد أصبحت هذه النسبة متساوية تقريبا ، اذ كانت حوالي ٢٠٪ عام ١٩٦٠ عند الجهتين . ولا بد في هذا المجال من معرفة نسبة الطلاب الثانويين الى مجموع الطلاب ، وكذلك الى السكان في القطاع عند الطرفين ، نظرا لاهمية التعليم الثانوي ، خاصة اذا اعدنا للذهن مشكلة القطاع الاقتصادية الاساسية . ومن اجل هذه المقارنة سنعتمد على عدد محدود من السنوات ولكنها تفي باعطاء صورة عن الموضوع اذ هي تغطي الفترة السابقة حتى عام ٦٧ . ويبين الجدول رقم ٢ عدد الطلبة الثانويين في القطاع ، وعدد السكان الاصليين وعدد السكان اللاجئين ، ونسبة الطلاب الى كل قطاع ، وكذلك نسبة الطلاب الثانويين الى مجموع الطلاب ، ثم الى عدد السكان .

جدول رقم ٢

عدد ونسبة الطلاب الثانويين الى مجموع الطلاب

السنة	مجموع طلبة القطاع	الطلبة اللاجئون	الطلبة الاصليون	جميع الثانويين في القطاع	الثانويون اللاجئون	الثانويون الاصليون	الثانويون الى الطلاب اللاجئين ٪	الثانويون الى الطلاب الاصليين ٪	النسبة المئوية العامة للثانويين الى طلاب القطاع
٥٥–٥٦	٥٨٨٣٩[٢٥]	٤٣٥٢٣[٢٦]	١٥٣١٦	٣٦٢٤[٢٥]	١٦٤٦[٢٦]	١٩٧٨	٣،٧	١٣	٨،٣
٥٨–٥٩	٦٨٩٢٢	٤٦٤٥٠	٢٢٤٧٢	٨٩٠٧	٣٤٠٠	٥٥٠٧	٧٠٣	٢٤	١٥،٦
٦٦–٦٧	٩٦٧٨٩	٦٧١٨٩	٢٩٦٠٠	١٢٦٩٧	٨٨٩٧	٣٨٠٠[٢٧]،	١٣	١٣	١٣

يتبين من الجدول ان نسبة الطلاب الثانويين الى مجموع الطلاب هي حوالي ١٣٪ في العام ٦٦/٦٧ وهي نسبة مرتفعة نسبيا . ففي سوريا مثلا كانت هذه النسبة حوالي ٥٪ عام ٦٨ — ٦٩ وترتفع الى حوالي ٦٪ اذا اضفنا طلاب الفرع المهني واعداد المعلمين الى مجموع الطلبة في المرحلة الثانوية . وفي مصر كانت نسبة جميع طلبة المرحلة الثانوية وفي مختلف الفروع الى مجموع الطلبة حوالي ٨٪ عام ٦٥ — ٦٦[٢٨]. وهذه النسبة مرتفعة ايضا بالنسبة الى الفلسطينيين في المناطق الاخرى . اذ ان معدل نسبة الطلاب الفلسطينيين في المرحلة الثانوية الى مجموع الطلاب في المدارس ، في الدول الاربعة المضيفة ، كانت حوالي ٧٪ عام ٦٦ — ٦٧[٢٩] . أما نسبة الطلبة الثانويين الى مجموع السكان فكانت ١٪ عام ١٩٥٦ ، ارتفعت الى ٢،٧ عام ١٩٦٦ وذلك في القطاع ككل . اما بالنسبة للاجئين فكانت هذه النسبة ٠،٧ عام ٥٦ ارتفعت الى ٢،٧ عام ١٩٦٦ ، أي النسبة ذاتها لدى السكان الاصليين ، وكما يتبين من الجدول رقم ٣ ، مع ملاحظة ان عدد الطلاب ذكر في الجدول السابق . وهي نسبة مرتفعة نسبيا . ففي مصر مثلا كانت نسبة الطلاب الثانويين العامة الى مجموع السكان اقل من ١٪ عام ٦٦ — ٦٧ وترتفع الى ١،٦٪ اذ اضفنا لذلك طلبة القسم الفني في المرحلة الثانوية[٣٠]. تبقى نقطة اخرى لا بد من معرفتها في هذا المجال وهي نسبة الطلبة الثانويين الى من هم في سن الدراسة الثانوية من السكان . ان مدة الدراسة في المرحلة الثانوية في القطاع هي ثلاث سنوات ، والسن النموذجي لهذه الفترة هو بين ١٥ — ١٧ سنة . وبالتالي فان المقارنة

جدول رقم ٣

نسبة الطلاب الثانويين الى السكان

السنة	سكان القطاع	اللاجئون	الاصليون	نسبة الثانويين المئوية الى السكان	عند اللاجئين	عند الاصليين
١٩٥٦	٣٣٦،٠٥٥[٣١]	٢٢٧،٣١٧	١٠٨،٧٣٨	٠،١	٠،٧	١،٢
١٩٦٦	٤٥٥[٣٢]	٣٠٧،٢٤٥	١٤٧،٧٥٥	٢،٧	٢،٧	٢،٧

النموذجية تكون بين من هم من المدرسة ومن هم خارج المدرسة في هذه الفئة من العمر . وفيما يتعلق باللاجئين (لا تتوفر ارقام حول توزع السكان الاصليين بحسب فئات العمر) كان ٤٠٪ ممن هم في هذه الفئة من العمر في المدرسة عام ٦٦ — ٦٧ . ولكن ذلك لا يعني ان هؤلاء جميعا هم في المرحلة الثانوية اذ ان قسما من الطلبة الثانويين تزيد اعمارهم عن ١٧ سنة وتصل احيانا الى سن العشرين ، كما ان هناك قسما من طلبة المرحلة الاعدادية في فئة العمر المذكورة ، ١٥ — ١٧ . ومع أخذ الملاحظة السابقة بعين الاعتبار ، يمكن القول ان الفترة العملية للدراسة الثانوية هي بين سن ١٥ — ١٩ سنة ، وعلى هذا الاساس يشكل الطلبة الثانويون ٢١٪ فقط ممن هم في فئة العمر ١٥ — ١٩ من السكان . اما نسبة مجموع الطلبة في هذه الفئة الى ما يقابلهم من السكان فتزيد على ٣٠٪[٣٣]. وهي نسبة مرتفعة اذا قورنت بها في الدول العربية ، كما يتبين من الجدول رقم ٤ :

جدول رقم ٤
طلاب المرحلة الثانوية
ونسبتهم الى السكان في سن الدراسة

السنة	البلد	فئة العمر	السكان	الطلبة الثانويون	نسبة الثانويين المئوية الى فئة العمر	مجموع الطلبة في فئة العمر	نسبة الطلاب المئوية الى فئة العمر
٦٦—٦٧	غزة (لاجئين)	١٥—١٩	٤١،٥٧٤	٨،٩٦٨	٢١،٢	١٣،١٥٠	٣١،٥[٣٤]
٦٥—٦٦	مصر	١٥—١٩	٢،٤٢٠،٠٠٠	٣٦٠،٧١١	١٥،٥	٢٧٤،٨٣٠	١١،٣[٣٥]
٦٦—٦٧	الاردن	١٥—١٨	١٧٩،٧٠٠	٣٢،٧٢١	١٨،٢[٣٦]		
٦٥—٦٦	سوريا	١٥—١٩	٥٠٠٦،١٩٥	٥٨،٨٠١	١١،٦[٣٧]		
	لبنان	١١—١٨	٣٦٧،٨٠٠	—	—	٩٦،٣٤٣	٢٦[٣٨]

ان الطلبة الثانويين في الجدول هم جميع طلبة المرحلة الثانوية بمختلف فروعها ، غير ان الوضع يختلف بالنسبة للبنان حيث يشمل الرقم طلبة المرحلة الاعدادية والثانوية . ويتبين من الجدول ان النسبة في القطاع (اللاجئون) هي أعلى منها في الدول الاخرى سواء بالنسبة لطلبة المرحلة الثانوية الى من هم في فئة العمر من السكان ام بالنسبة لجميع الطلبة في هذه الفئة من العمر مقارنة بما يقابلها من عدد السكان . ولكن يجب ان نلاحظ هنا ايضا ، ان التعليم في الريف العربي متخلف نسبيا في حين ان الريف منعدم تقريبا في اوساط اللاجئين حيث يعيشون بدون ارض ، في المدن او في جوارها . وفي الوقت نفسه لا بد ان نعرف توزيع التعليم الثانوي بحسب فروعه اي التعليم العام والتعليم الفني ودور المعلمين ، خاصة اذا اعدنا للذهن اهمية توفر كفاءات فنية في قطاع غزة لاكثر من سبب من جهة ، ونمو هذه الفروع في المرحلة الثانوية في الدول العربية من جهة اخرى . وبتعبير اخر لا يجوز في المقارنة بين الوضع التعليمي في الانروا — خاصة في المرحلة الثانوية — وبين الوضع التعليمي في الدول العربية ، ان نكتفي بالارقام التي تشير الى ارتفاع نسبة الطلبة الثانويين الى مجموع الطلبة او الى السكان ، في اوساط اللاجئين .

التعليم المهني : قبل الاحتلال الاسرائيلي كان التدريب المهني على المستوى الثانوي يتم في مركز تدريب حكومي واحد للشبان ، وكان عدد الطلاب المسجلين فيه ١٩١ طالبا عام ٦٦/٦٧ . كما كان يتم في مدرسة تجارية واحدة بلغ عدد طلابها ٣٠ طالبا في ذلك العام . وكذلك كان تدريب المعلمين يجري في معهدين حكوميين ، واحد للشبان واخر للشابات ، يوفران دورة مدتها خمس سنوات تلي المرحلة الاعدادية ، وتهدف الى تخريج معلمين للمدارس الابتدائية . وفي عامي ٦٥/٦٦ و ٦٦/٦٧ كانت الانروا تدفع نفقات ٢٨٩ و ٢٥٠ طالبا على التوالي بمعدل ١١٠ دولارات للشخص الواحد في السنة[٣٩]. ومنذ العام ٦٧ — ٦٨ بدأت الانروا تحويل الطلاب الجدد الراغبين بالانتساب الى دور المعلمين والمعلمات في غزة ، الى مركزي التدريب التابعين للانروا في الضفة الغربية[٤٠]، حيث التحق في ذلك العام ٤٠٧ طلاب من غزة بمركزي التدريب في رام الله ، منهم ١٥٠ طالبا و ٢٥٧ طالبة[٤١]. اما التدريب المهني الذي توفره الانروا فيتم اجمالا في مركز التدريب المهني للشبان في غزة ، كما ان بامكان الشباب او الشابات الالتحاق بمركزي

الانروا في الضفة الغربية . وتدرس في هذه المراكز مواد البناء والميكانيك والكهرباء ، والمهن النسوية — في رام الله — حيث يشترط اتمام الدراسة الاعدادية(٤٢). غير انه يشترط ان يكون الطالب حائزا على الشهادة الثانوية العامة للالتحاق بمراكز تدريب المعلمين . وقبل ان نعقد مقارنة بين التدريب المهني وتدريب المعلمين الذي توفره الانروا والدول العربية الاخرى ، يجب ان نلاحظ ان الانروا لا توفر التدريب المهني على مستوى ما بعد الثانوي ، على غرار الدول العربية . وهو لا يتم — كما لاحظنا — في القطاع ، بل في مركز رام الله التابع للانروا . وكذلك بالنسبة للتدريب المهني حيث يوجد في القطاع مركز واحد للذكور يؤمن التدريب في عدد محدود من الحرف ولمدة سنتين في حين ان هذا التدريب يتم في مصر مثلا في مدارس متخصصة — زراعية، تجارية، صناعية ، ولمدة ثلاث سنوات(٤٣).

ويقودنا هذا الى نقطة اخرى هي قول الانروا انها تطبق في مدارسها مناهج الدول المضيفة ، ويكفي في هذا المجال ان نوضح بان الناحية المهنية التي توفرها الوكالة تختلف من حيث النوع والحجم عما هو مطبق في مصر . ومن الدلائل على عدم كفاية مركز التدريب المهني التابع للانروا في غزة ، ان الحكومة المصرية هي التي اقترحت على الانروا توسيع المركز بدءا من العام الدراسي ٦٦/٦٧ بهدف زيادة طاقة المركز من ٣٦٨ الى ٥٦٨ طالبا وفتح فروع جديدة ، وعرضت تمويل انشاء الابنية الاضافية اللازمة (الورش وغرف المنامة وغيرها) وتغطية النفقات المتكررة للطلاب الاضافيين الذين سيدخلون المركز على اساس دفع اعانة من كل طالب(٤٤). وعلى اي حال سنقوم الان بمقارنة التدريب المهني واعداد المعلمين على المستوى الثانوي في مصر مع قطاع غزة مع العلم ان الارقام الخاصة بالانروا لا تنحصر في المستوى الثانوي لان مراكز الانروا تضم طلابا اتموا المرحلة الاعدادية وطلابا اتموا المرحلة الثانوية وذلك بحسب المهن المختارة بينما تقتصر الارقام الخاصة بمصر على الطلبة في مستوى المرحلة الثانوية .

جدول رقم ٥

الطلبة اللاجئون في غزة في دور المعلمين (غزة والضفة الغربية)(٤٥) ونسبتهم الى الطلاب الثانويين

	الطلبة الثانويون	طلبة دور المعلمين في غزة ذ	ا	في الضفة الغربية ذ	ا	المجموع ذ	ا	النسبة المئوية
١٩٦٧	٨٩٦٨	١٤١	١٠٩	—	—	١٤١	١٠٩	٢٪٦
١٩٧٠	٧٥٦٨(٤٦)	٣٠	٣٩	١٨٨	١٥٩	٢١٨	١٩٨	٥٪٥

ونلاحظ من الجدول رقم ٥ ان نسبة من هم في دور المعلمين ، الى مجموع الطلبة في المرحلة الثانوية (العدد هنا يشمل طلبة المدارس وطلبة دور المعلمين) كانت ٢٪٦ عام ٦٧ ارتفعت الى ٥٪٥ عام ١٩٧٠ ، ولكن يجب ان نلاحظ قبل ان نحكم على هذا الارتفاع ان انخفاضا ملموسا طرأ على عدد الطلبة في المرحلة الثانوية بين عامي ٦٧ و ٧٠ (١٤٠٠ طالب) بسبب الظروف الناجمة عن الاحتلال . بينما ارتفع عدد الطلبة في دور المعلمين وبالتحديد في مركزي الانروا بالضفة الغربية بعد توقف ادخال الطلبة الى المعهدين الحكوميين في غزة . كذلك فان من بين طلبة دور المعلمين عام ١٩٧٠ كان ٦٩ طالبا وطالبة ما زالوا في المعهدين الحكوميين في غزة ، في السنة الرابعة والخامسة من دراستهم ، وبعد تخرج هؤلاء عام ١٩٧١ اقتصر وجود طلبة دور المعلمين على مركزي الانروا في الضفة الغربية . لذا ، فمن المتوقع ان تنخفض نسبة من هم في دور المعلمين الى مجموع طلبة المرحلة الثانوية ، لان عدد الطلبة الثانويين سيزداد بينما طاقة مركزي الانروا محدودة بحد ذاتها .

وفيما يتعلق بالتدريب المهني فان هذا التدريب كان يتم في مركز التدريب المهني التابع للانروا والذي كانت طاقته تتسع لـ ٣٦٨ مندوبا حتى عام ٦٧ وكذلك في المعهد الزراعي في بيت حانون والذي انتقل في عام ٦٧ الى الحكومة المصرية لتحويله الى معهد لتدريب معلمين ريفيين للمدارس الابتدائية ،

وذلك بموجب اتفاقية خاصة بين الانروا والحكومة المصرية ، وقد اقفل المركز نهائيا بعد الاحتلال الاسرائيلي عام ٦٧ واستيلاء القوات الاسرائيلية عليه(٤٧). ويبين الجدول رقم ٦ اعداد المتدربين في العامين ٦٦ — ٦٧ و ٦٩ — ٧٠ بغض النظر على المستوى الاكاديمي للمتدربين .

جدول رقم ٦

طلبة التدريب المهني في غزة (اللاجئون)

السنة	دور المعلمين	تدريب مهني(٤٨)	المجموع	٪للتدريب المهني	النسبة المئوية للتدريب المهني
١٩٦٧	٨٩٦٨	٢٤٩	٤٢٥	٩٦٤٢	٤٫٤٤
١٩٧٠	٧٥٦٨	٤١٦	٥٧٨	٨٥٦٢	٦٫٧

نلاحظ من الجدول ان نسبة طلبة التدريب المهني الى الطلبة الذين يتلقون تعليما او تدريبا في المرحلة فوق الاعدادي ودون الجامعي ، كانت ٤٫٤٤٪ عام ٦٧ ارتفعت الى ٦٫٧٪ عام ١٩٧٠ . وفيما يلي جدول باعداد الطلبة في التعليم الثانوي الفني في بعض الدول العربية مع ملاحظة ان هناك معاهد فنية عليا لمستوى ما بعد الثانوي ، كما ان مدة الدراسة الفنية في المرحلة الثانوية هي ثلاث سنوات في مصر في حين ان مدة الدراسة في مراكز التدريب التابعة للانروا لا تزيد عن سنتين باستثناء بعض المهن النسوية .

جدول رقم ٧

طلبة التعليم الثانوي الفني في بعض الدول العربية

السنة	البلد	الثانوي العام	الثانوي الفني ذ	الثانوي الفني ا	الفني المجموع	نسبة الفني الى الثانوي ٪	نسبة الاناث في التعليم الفني ٪
٦٦—١٩٦٧	مصر	٢٤٣٨٧٥	٩٠٩٤٩	٢٩٠٠٦	١١٩٩٥٥	٣٣	٢٤(٤٩)
٦٩—١٩٧٠	مصر	٢٩٣١٤٤	١٦٨٤٥٣	٧٣١٣٧	٢٤١٥٩٠	٤٥	٣٠
٦٥—١٩٦٦	سوريا	٢٩٧٢٨	٣٨٨٢	٧١٤	٤٥٩٦	١٥٫٥	١٥٫٦(٥٠)
٦٦—١٩٦٧	الاردن	٢٣١١٧	١٩٨٠	٦٨	٢٠٤٨	٩	٣٫٤ (٥١)

وبمقارنة هذا الجدول مع الجدول السابق نلاحظ ان نسبة طلبة التدريب المهني الى مجموع طلبة المرحلة الثانوية هي في قطاع غزة (اللاجئون — اي ما توفره الانروا) اقل منها بكثير في الدول العربية . ففي حين ان هذه النسبة تبلغ لدى الانروا ٥٪ نجد انها تبلغ ٤٥٪ في مصر ، كما كانت تبلغ ١٥٪ في سوريا و ٩٪ في الاردن منذ اكثر من ثلاث سنوات . ومن ناحية اخرى نلاحظ ان نسبة الفتيات من طلبة التعليم المهني كانت ٣٠٪ في مصر عام ١٩٧٠ وحوالي ١٦٪ في سوريا عام ٦٦ و ٣٫٤٪ في الاردن عام ٦٧ . بينما لا نجد فتاة واحدة من قطاع غزة تتلقى تدريبا فنيا في مراكز الانروا ، كما انه لا يوجد مركز للتدريب المهني النسوي في القطاع . وتعكس المقارنة مفارقة كبيرة اذ اعدنا للذهن ان التعليم بكل فروعه هو الرأسمال الوحيد ، والحرفة الوحيدة تقريبا بالنسبة لشباب اللاجئين بينما لا ينطبق هذا الوضع على الدول العربية حيث للمواطن موارد اخرى للحياة . ولذلك نكرر القول بأنه ليس مهما ان تطبق الانروا في مدارسها الابتدائية والاعدادية المنهاج الدراسي المطبق في الدولة المضيفة بقدر ما هو مهم ان تسير الانروا في سياستها التعليمية وفق السياسات المتبعة في الدول المضيفة على الاقل ، وان تتوجه هذه الخطة الى تأمين التعليم والتدريب الفني المتنوع للشباب الفلسطيني لان انهاء الطالب للتعليم الاعدادي فقط لا يؤهله عمليا لاي شيء .

المدارس والطلاب

بلغ عدد مدارس الانروا في القطاع عام ١٩٦٧، ١٠١ مدرسة ابتدائية واعدادية ، يعمل فيها ١٥٠٢ معلم ومعلمة ، وتضم ٥٨ الف طالب وطالبة . ولقد

تعرضت معظم هذه المدارس للخطر اثناء العدوان الاسرائيلي فتعرضت ٩٠ مدرسة الى التدمير او النهب ، وتدرت الخسارة التي نجمت عن ذلــك بـــ ٢٢٠ الف دولار . ثم اعادت الانروا اصلاح هذه المدارس وتجهيزها قبل نهاية العام المذكور باستثناء مدرسة واحــدة في رفح كانت قد دمرت تدمــيرا كاملا[٥٢]. وفي عام ١٩٧٠ اصبح عــدد مدارس الانروا ١٠٨ مدارس، تضم حوالي ٥٩ الف طالب وطالبة ويعمل فيها ١٥٣١ معلما ومعلمة . اما بالنسبة للمدارس الرسمية والخاصة فقد كان عددها في القطاع في العام الدراسي ٧٠ — ٧١ ، ٥٤ مدرسة رسمية لمختلف المــراحل تضم ٣٩٢٣٤ طالبا ويعمل فيها ٩٥٩ معلما ومعلمة . وكذلك كان في القطاع في العام المذكور ١٩ مدرسة خاصة تضم ١٧١٣ طالبــا وطالبة ويعمــل فيها ٥٨ معلمــا ومعلمة[٥٣]. ولا تتوفر لدينا معلومــات عن سعة المدارس او حجمها ومواقعها بالنسبة للمــدارس الرسمية والخاصة ولذلك سنقتصر في الحديث عن هذه الناحية على مدارس الانروا . قلنا انه كان لــدى الانروا ١٠٨ مــدارس عام ٧٠ ، منها ٧٢ مدرسة ابتدائية و ٣٦ مدرسة اعدادية ، بالاضافة الى ١٩ وحدة تدريب يدوي ، و ٢٧ وحدة لتدريب اقتصاديات المنزل تابعة للمدارس الاعدادية . غير ان الارقام التي تقدمها الانروا لا تبين تفصيليا عدد المكتبات المدرسية والمختبرات واوضاعها خاصة في المدارس الاعداديــة ، ولا تذكر في بنود توزيــع النفقات المالية اي شيء عن ذلك . لذلك يقتصر حديثنا بالدرجة الاولى على حجــم هذه المدارس ومواقعها ونوعها وسعتها .

يوجد في غزة (عام ٧٠) ١٠٨ مدارس او وحــدة مدرسية قائمة في ٩٥ بناء مدرسيا ، حيث يوجد ١٣ مبنى مدرســيا يضم كل منها مدرستين بادارتــين منفصلتين . وتحتوي هذه المباني المدرسية علــى ١١٥٣ غرفة تدريس مــن ضمنها ٧ غرف للتدريب اليدوي . وتستعمل معظمها نظام الدوام الواحد ، اذ يوجد نظام الدوام المزدوج في ٢٧ مدرسة ابتدائية فقط . كذلك فان غرف التدريس في هذه المدارس كبيرة نسبيا اذ ان هناك ٤٧١ غرفة تزيد مساحــة الواحدة منها على ٤٠ مترا مربعا ، و ٦١٤ غرفة تزيد مساحتها على ٤٥ مترا مربعا ، ولا يوجد في مدارس الانروا ، في المناطق الاخرى ، غرف بهذا الحجم[٥٤]. واذا قارنا عدد الطلبة بعدد المباني المدرسية وغــرف التدريس (باستثناء ٧ غــرف مخصصة للتدريب) نجد ان معدل عدد الطلبة في البناء الواحد هو ٦٢٥ طالبا وطالبة ومعدل عــدد الطلبة في غرفة التدريس هو ٥١ طالبا (كان عدد الطلبة عام ٦٩ — ٧٠ ، ٥٩،١٧٣) . ولكن اذا اردنا معرفة العدد الفعلي للطلبة الذين يستعملون الغرفة الواحدة فلا بد من مقارنة عدد الطلبة بعدد الفصول او الشعب حيث هناك ٢٧ مدرسة تستخدم النظــام المزدوج . والجــدول رقم ٨ يبين عــدد الوحدات المدرسية (المــدارس) وعدد الشعب ومعدل الطلبة في الفصل الواحد :

جدول رقم ٨

مدارس الانروا : عددها ونوعها وسعتها عام ١٩٧٠ [٥٥]

	المدارس	ذ	ا	مختلطة	دوام واحد	دوام مزدوج	مخيم	مدينة	قرية	الفصول	الطلاب	سعة الفصل	سعة المدرسة
ابتدائي	٧٢	٣٣	٣٢	٧	٤٥	٢٧	٥٦	٩	٧	٨٧٥	٤٢١٤٧	٤٨٫٢	٥٨٥
اعدادي	٣٦	١٩	١٧	—	٣٦	—	٢٤	٨	٤	٣٥٥	١٧٠٢٦	٤٨٫٠	٤٧٣
المجموع	١٠٨	٥٢	٤٩	٧	٨١	٢٧	٨٠	١٧	١١	١٢٣٠	٥٩١٧٣		

نلاحظ من الجدول ان هناك ٧ مدارس مختلطة في غزة، جميعها في المرحلة الابتدائية، اي ثمن المدارس المختلطة الابتدائية لدى الانروا في المناطق الاربع ، حيث يبلغ عدد هذه المدارس ٥٦ مدرسة منها ٢١ في الاردن و٢٣ في لبنان و٥ مدارس في سوريا[٥٦]. اما في المرحلة الاعدادية فالمدارس المختلطة التابعة للانروا قليلة هي ايضا ، اذ يبلغ عددها ١٥ مدرسة منها ٣ مدارس في الضفة الغربية و ١٢ مدرســة في لبنان[٥٧]. اما في سوريا والضفة الشرقية وغــزة فلا توجد مدارس اعدادية مختلطة . وفيما يتعلق بنظام الدوام فان المدارس التي تتبع نظام الدوام المزدوج قليلة في غــزة قياسا بمدارس الانروا في

المناطق الاخرى ، مما يعني زيادة الطاقة الاستيعابية لمدارس غزة بالنسبة لغيرها . ففي المرحلة الابتدائية يوجد ١٣٣ مدرسة تتبع نظام الدوام المزدوج الكامل ، منها ٢٧ مدرسة في غزة و ٦٨ في الضفة الشرقية و ٨ في لبنان و ٣٠ مدرسة في سوريا(٥٨). وفي المرحلة الاعدادية يوجد ٤٠ مدرسة تتبع هذا النظام منها ٢٩ في الضفة الشرقية ومدرسة واحدة في الضفة الغربية ومدرسة في لبنان و ٩ في سوريا ولا يوجد اية مدرسة اعدادية تتبع نظام الدوام المزدوج في غزة(٥٩). وتمتاز المدارس في غزة بكبرها وارتفاع عدد الطلبة في المدرسة الواحدة . ففي المرحلة الابتدائية يوجد في غزة ١٥ مدرسة تحتوي الواحدة على ١٥ فصلا ، وذلك من اصل ٣١ مدرسة للانروا بهذا الحجم في المناطق الاربع ، اي نصف هذه المدارس . وفي المرحلة الاعدادية يوجد في غزة ١٤ مدرسة تحتوي الواحدة على ١٢ فصلا من اصل ٢٤ مدرسة تابعة للانروا في المناطق الاربع ، اي نصف هذه المدارس ايضا(٦٠). ومن ناحية اخرى يوجد في غزة ٤٢ مدرسة ابتدائية تضم الواحدة منها بين ٥٠٠ — ٧٠٠ طالب وذلك من اصل ٩٨ مدرسة منها ٣٦ في الضفة الشرقية و ١٠ في لبنان و ٧ في سوريا و ٣ في الضفة الغربية اي ان العدد الاكبر لهذا النوع من المدارس هو في غزة . وكذلك الامر في المرحلة الاعدادية حيث يوجد في غزة ٢٦ مدرسة من الحجم المذكور ، وذلك من اصل ٥٢ مدرسة ، منها ١٩ في الضفتين و ٥ في لبنان ومدرستان في سوريا . من جهة اخرى ، تشهد مدارس غزة ارتفاعا ملحوظا في معدل عدد الطلبة في الفصل الواحد . ومن المعروف ان عدد الطلبة في الفصل الواحد يؤثر مباشرة على مستوى الدراسة اذ كلما كان العدد أقل كانت الفائدة اكبر . ويبلغ معدل عدد الطلبة في الفصل الواحد في المرحلة الابتدائية في غزة ٤٨،٢ بينما هو في الضفة الشرقية ٤٤،٨ وفي الضفة الغربية ٣٨،١ وفي لبنان ٣٩،٢ وفي سوريا ٣٩،٨(٦٢). وفي المرحلة الاعدادية يبلغ هذا المعدل ٤٨ في غزة بينما هو ٤٢،٩ في الضفة الشرقية و ٣٥،٢ في الضفة الغربية و ٣٤،٩ في لبنان و ٣٨،٦ في سوريا(٦٣). ويبدو من الارقام المذكورة ان الصفوف في مدارس الانروا اجمالا مزدحمة تماما وخاصة في غزة . وتقول الانروا في احد تقاريرها ان هذه الارقام تنطبق على المدارس التي تمتلكها الوكالة والمدارس التي تستأجرها — « وهذه عادة بيوت لا يمكن ان تستوعب اكثر

من ٣٥ طالبا في غرفها الصغيرة »(٦٤). ويذكر التقرير ذاته ان معدل عدد الطلبة في الفصل الواحد في الدول العربية المضيفة هو بين ٤٠ — ٤٥ في المرحلة الابتدائية و ٣٥ في المرحلة الاعدادية . ثم يذكر التقرير المتطلبات المالية التي يتوجب على الانروا تأمينها اذا كانت ستتبع ما هو قائم في الدول العربية من اجل حل مشكلة الازدحام بحيث تبلغ النفقات المتكررة للمرحلة الابتدائية ٤٩٧ الف دولار سنويا وللمرحلة الاعدادية مليون و ٤١٢ الف دولار سنويا بالاضافة الى النفقات الثابتة ، مما يعني ضمنا ان الانروا غير قادرة على اتباع مثل هذا النظام(٦٥). وبالفعل فان مقارنة الارقام المذكورة سابقا والخاصة بالعام ١٩٧٠ مع الارقام الخاصة بالعام ٦٦ — ٦٧ والتي يشير اليها تقرير الانروا المذكور ، تبين انه لم يطرأ اي انخفاض على معدل عدد الطلاب في الفصل الواحد . ففي العام ٦٧/٦٦ كان المعدل في المرحلة الابتدائية هو ٤٣ في الاردن و ٤٨ في غزة و ٤٠ في سوريا و ٣٨ في لبنان ، وهي الارقام ذاتها تقريبا للعام ١٩٧٠ ، بينما طرأ ارتفاع على هذا المعدل في المرحلة الاعدادية . اذ كان المعدل ٣٥ في الاردن (أصبح ٣٩ عام ١٩٧٠) وفي غزة ٤٧ (اصبح ٤٨) وفي سوريا ٣٨ اصبح ٣٩ وفي لبنان كان ٣٠ اصبح ٣٥(٦٦). وسنلاحظ هذا الامر عموما وبالنسبة لغزة عندما نتكلم عن معدل الطلبة بالنسبة للمعلم الواحد .

سبق وذكرنا ان تقارير الانروا السنوية تخلو من تفاصيل احصائية حول المكتبات المدرسية (عددها، اماكنها ، عدد الكتب فيها ، نفقاتها) والمختبرات ، غير ان ما تذكره الانروا حول هذه الامور يمكن ان يعطي بشكل عام صورة عن الواقع المتدني في هذه الناحية . تقول الانروا في تقريرها من سير العمل في العام الدراسي ٦٦ — ٦٧ ان معدل ما خصصته الوكالة لمدارسها الابتدائية حتى ذلك الوقت لتزويد مكتباتها بالكتب بلغ ٣٠ دولارا فقط للمدرسة في العام الواحد ، وان ذلك المبلغ المتواضع لم يتح في اكثر الحالات توفير اكثر من نواة لمكتبة ، وانه يستحسن ان تزاد الاعتمادات المخصصة لتزويد مكتبات المدارس بالكتب الى معدل ١٠٠ دولار لكل مدرسة في العام الواحد وان يعين لكل مدرسة معلم يعمل نصف الوقت للاشراف على المكتبة وتشجيع تطوير عادة المطالعة بين الطلاب . ويضيف التقرير ان اعتماد ذلك في المدارس الابتدائية والاعدادية يتطلب نفقات متكررة سنويا تقدر بـ ٣٠٧ الاف دولار(٦٧)،

وكان الانروا تريد ان تقــول ان مواردها الماليــة المحدودة ، لا تمكنهــا من اجراء التحسينات وسد الثغرات التي يعاني منهــا التعليم الذي توفره . ومــــن خــلال مــلاحظة بعــض مــــدارس الانروا في لبنان ، فان المكتبات المدرسية تكاد تكون معدومة وهي تقوم في حال وجودهــا على اكتاف الطلبة من الناحية المالية ، ولا يوجد معلم متفرغ لشؤون المكتبة ، كما لا توجد غرف خاصة بالمكتبات او المطالعة .

اما بالنسبة للمختبــرات فتقول الانروا في التقرير المذكور انها لم تقم بتوفــير المختبرات لاستعمــال الطلاب الذين يدرسون العلوم العامة ، وانمــا حاولت معالجة هذا النقص بتوفير مجموعات مــن الادوات الخاصة بايضاح العلوم ، وانه لو توفرت الاموال اللازمة لاعتبرت الوكالة انه من المستحسن انشاء غرف لمختبرات العــلوم للنصف الاعلى من السنوات التسع ـ الابتدائي والاعدادي ـ بمعدل مختبر واحد لكل ١٨ شعبة صف ، وذلك يتطلب ١٥٣ مختبرا علميا تبلغ تكاليفهــا حوالي مليون دولار(٦٨). ويذكر تقرير الانروا عن العام الدراسي ٦٩ ـ ٧٠ ان الانروا قامت منذ عام ٦٥ بانشاء ٢٣ مختبرا علميا ، وان ٩ مختبرات اخرى كانت قيد الانشاء في شهر تموز (يوليو) ١٩٧٠(٦٩). ومن الواضح ان ذلك هو دون الحاجة بكثير ، فلو اخذنا ما تعتبره الوكالة مقياسا ، اي مختبرا لكل ١٨ شعبة صف ، لكان مطلوبا ان يتوفر ٧٢ مختبرا للصفوف الاعدادية فقط عام ١٩٧٠ حيث كان عدد الصفوف الاعدادية في جميع مدارس الانروا ١٣٠٠ صف في ذلك العام . اما عدد المختبرات في مدارس الانروا في غزة ، فلا يذكر عنه شيء في تقاريرها .

الطلاب : سنستعرض الان عددا من النقاط المتعلقة بالطلاب مثل : تطور عــدد الطلاب ـ ذكــورا واناثا ـ ومعدل عدد الطلبة بالنسبة للمعلــم الواحد ، وعدد الطلبة بالنسبة للسكان الذين في سن الدراسة ، بالاضافة الى قضــايا التسرب والرسوب والنجاح . وسيتركز الاستعراض على الطلبة في مدارس الانروا وذلك بسبب عدم توفر ارقام تفصيلية حول الطلبة في المدارس الرسمية باستثناء الفترة حتى عام ٥٨/٥٩ كما ان هذه الارقام لا تبين عدد الطلبة في كل صف على حدة ولا معدلات الرسوب او التسرب ، كما اننا لا نملك ارقاما حول توزيع السكان والطلبة الاصليين بحسب فئات الاعمار . لذلك سنكتفي بالاشارة الى مــا هو متوفر لدينا من ارقام عند الضرورة . ويبين الجدول رقم ٩ عدد الطلبة والمعلمين والسكان حتى عام ١٩٥٩ في القطاع اجمالا ، ونسبة الطلاب الــى السكان وكذلك نسبة الطالبات الى مجموع عدد الطلاب .

جدول رقم ٩

تطور اعداد الطلبة والمعلمين في قطاع غزة

السنة	السكان	عدد الطلاب	عدد المعلمين	الابتدائي ذ	الابتدائي ا	الاعدادي ذ	الاعدادي ا	الثانوي ذ	الثانوي ا	المجموع ذ	المجموع ا
١٩٥٣	٣٠٦٢٧٢	٤٩٠٦٨	١٠٢٢	٢٣٧٦٣	١٠٣٦٦	١١٣٠١	١٥٨١	١٩٦٠	٩٧	٣٧٠٢٤	١٢٠٤٤(٧٠)
١٩٥٦	٣٣٦٠٥٥	٥٨٨٣٩	١٦١١	٢٢٢٩٣	١٢٣٩٧	١٤٧٤٠	٣٢٥٣	٢٥٩٩	٢٠٨	٣٩٦٣٢	١٥٨٥٨(٧١)
١٩٥٩	٣٦٧٠٢٠	٦٨٩٢٢	١٨٠٦	٢٨٥٢٧	١٩٠٣٣	٩١٠٢	٢٤٨٥	٧٥٥٨	١٣٤٩	٤٥١٨٧	٢٢٨٦٧(٧٢)
١٩٦٦	٤٥٥٠٠٠	٩٥٩٣٦(٧٣)									

ان نسبة مجموع الطلبة الى السكان كما يستنتج من الجدول كانت ١٦ ٪ عام ٥٣ ، ارتفعت الــى ١٧،٥ ٪ عام ٥٦ ، ثم الى ١٨ ٪ عام ١٩٥٩ . وهي نسبة مرتفعة تماما اذا قورنت بما هو قائم في الدول العربية المضيفة . ففي عام ١٩٦٠ كانت هذه النسبة ١٣ ٪ في كل من لبنان وسوريا وحوالي ١١ ٪ في مصر(٧٤). وتبدو هذه النسبة اكثر ارتفاعا لدى اللاجئين في القطاع حيث كانت هذه النسبة ١٩ ٪(٧٥) عام ٥٥ وحوالي ٢٠ ٪ عام ١٩٦٠(٧٦)، وارتفعت الى ٢٢ ٪ عام ٦٥(٧٧). ويبين الجدول رقم ١٠ نسبة الطلاب الى السكان في الدول العربية وغزة لعام ١٩٦٥ .

وواضح من الجدول رقم ١٠ ان نسبة الطلاب الى السكان لدى لاجئي غزة أعلى منها في الدول العربية، ومن ناحية اخرى فان هذه النسبة لدى لاجئي غزة هي أعلى منها لدى السكان الاصليين ، اذ ان

جدول رقم ١٠

نسبة الطلاب الى السكان في بعض الدول العربية عام ١٩٦٥(٧٨)

البلد	السكان	الطلاب	النسبة المئوية
مصر	٢٩١٩٠٠٠٠	٤٤٤٢٦٨٠	١٥
سوريا	٥٦٣٤٢٦٣	٩٠٠٠٠٠	١٦
لبنان	٢٣٦٧١٤١	٤٥٤٥١٠	١٩
غزة	٢٩٦٩٤١	٦٤٨١٦	٢٢

هذه النسبة كانت لديهم ٢٠ ٪ عام ١٩٦٦ . اما على الصعيد الفلسطيني فالجدول رقم ١١ يبين عدد السكان والطلاب ونسبة الطلاب الى السكان اللاجئين في الدول المضيفة الاربع .

جدول رقم ١١

السكان والطلاب اللاجئين في الدول العربية المضيفة عام ١٩٦٥

البلد	السكان(٧٩)	الطلاب(٨٠)	النسبة المئوية
غزة	٢٩٦٩٤١	٦٤٨١٦	٢٢
الاردن	٦٨٨٣٢٧	٩٩٢٥٩	١٤
لبنان	١٥٩٧٨٣	٣١٨٤١	٢٠
سوريا	١٣٥٧٧٢	٣٢٠٥٩	٢٣

ويتضح من الارقام المبينة اعلاه ان غزة تأتي في المرتبة الثانية بعد سوريا من حيث نسبة الطلاب الى السكان في المراحل الثلاث ، الابتدائية والاعدادية والثانوية . وعدد السكان المبين في الجدول هو عدد اللاجئين المسجلين لدى الانروا ، سواء من يتلقى اعاشة او لا ، كذلك فان اعداد الطلبة تشمل الطلبة اللاجئين ، ابناء اللاجئين المسجلين لدى الانروا ، سواء كانوا في مدارس الانروا او الطلبة الذين يتلقون تعليمهم في المدارس الرسمية والخاصة وتدفع الانروا اعانات مالية ، وكذلك الطلبة اللاجئين في هذه المدارس والذين لا يتلقون أية اعانات مالية من الانروا . غير ان ذلك لا يعني ان هذه الاعداد تشمل جميع الفلسطينيين اذ ان ارقام الانروا تنحصر في اللاجئين بحسب تعريفها للاجيء ولاتشمل الفلسطينيين غير المسجلين كلاجئين. واذا قارنا بين الجدولين السابقين نلاحظ ان نسبة الطلبة الى السكان هي لدى اللاجئين أعلى منها في الدول العربية المضيفة . ولكن لا بد من تكرار الملاحظة هنا وهي اننا سنلاحظ هذا الفارق في التعليم لدى اللاجئين والدول العربية ما دام الامر يتعلق بنسبة الطلاب الى السكان وهو موضوع يعكس مدى اقبال الطلاب على التعلم ، او مدى توفر المدارس ، ولا شك ان الحافز الى التعلم لدى اللاجئين قوي للغاية لان التعلم هو الرأسمال الوحيد او جواز مرور اللاجيء الى الحياة ، كذلك فان انعدام الملكية الصناعية او الزراعية ، وتركز اللاجئين حول المدن في مقابل وجود قطاع ريفي في الدول العربية وما يعانيه هذا القطاع من تخلف وما يسوده من علاقات ، نقول ان تلك عوامل لها اثرها في زيادة اقبال اللاجيء على التعلم ، وارتفاع نسبة الطلاب اجمالا في مجتمع اللاجئين قياسا بالطلاب في الدول العربية . غير ان هذا الفارق يتغير لصالح الدول العربية عندما يتعلق الامر بالنواحي الفنية التي تتناول نوعية التعليم ومستواه وتوفير الشروط الضرورية لتحسينه مثل المكتبات المدرسية والمختبرات ومعدل عدد الطلاب في الفصل الواحد ... الخ .

واذا عدنا الى الجدول رقم ٩ نستخلص ان سكان القطاع قد ازدادوا بنسبة ٢٢ ٪ من عام ٥٣ حتى عام ٥٩ ثم ازدادوا بنسبة ٢٤ ٪ من العام ٥٩ حتى العام ٦٦ . اما عدد الطلاب في المراحل الثلاث فقد ازداد بنسبة ٢٠ ٪ حتى عام ٥٩ ثم ازداد خلال سبع سنوات ، اي حتى عام ٦٦ بنسبة ١٧ ٪ فقط . اي ان الزيادة في عدد الطلاب كانت اقل من نسبة الزيادة في عدد السكان بينما يختلف الوضع بالنسبة للدول العربية . فخلال سبع سنوات اي من عام ١٩٦٠ حتى ١٩٦٧ ازداد عدد السكان في الدول العربية بنسبة ٢٢٪ بينما ازداد عدد الطلاب في الفترة ذاتها بنسبة ٦٠ ٪ اي ثلاثة اضعاف نسبة الزيادة في السكان . وبالنسبة للزيادة في كل مرحلة على حدة ، كانت الزيادة الكبرى في المرحلة الثانوية حيث ازدادت بنسبة ١١٩ ٪ وبلغت الزيادة في المرحلة الابتدائية ٥٠ ٪(٨١). اما في مدارس الانروا فكانت الزيادة في هذه الفترة اقل مما هي في الدول العربية . وفي غزة تحديدا بلغت الزيادة في الفترة المذكورة ١٢٫٨ ٪ في المرحلة الابتدائية و٨٠ ٪ في المرحلة الاعدادية(٨٢). غير ان المقارنة بين الارقام على هذا النحو لا تكفي بل المهم ان نعرف مدى استيعاب المدارس الموجودة لمن هم في سن الدراسة . ويستحسن قبل ذلك ان نلاحظ ان الزيادة في عدد الطلاب يرافقها عادة زيادة مماثلة في عدد المعلمين . وهنا نلاحظ من جديد فرقا في

هذه الزيادة بين معلمي الانروا ومعلمـي الدول العربية . ففي الدول العربية ازداد عدد المعلمين في الفترة المذكورة بنسبة ١٤٣ ٪ مقابل ٥٩،٥ ٪ زيادة في عدد الطلاب . اما في مدارس الانروا فقد كانت نسبة الزيادة في عدد المعلمين اقل منها في عدد الطلاب . وفي غزة مثلا ازداد عدد الطلاب في مدارس الانروا بنسبة ٢٥ ٪ بينما ازداد عـدد المعلمين بنسبة ٢٢،٥ ٪ وتتضح الزيادة في المناطق الاخرى من الجدول رقم ١٢ .

جدول رقم ١٢

عدد المعلمين في مدارس الاونروا والدول العربية

	المعلمـون (٨٣)	(٨٤)		الطلاب في المرحلة الابتدائية والاعدادية		
البلد	١٩٦١/٦٠	١٩٦٧/٦٦	الزيادة ٪	١٩٦١/٦٠	١٩٦٧/٦٦	الزيادة ٪
غزة	١٢٢٥	١٥٠٢	٢٢،٥	٤٦٤٢٢	٥٨٠٧٢	٢٥(٨٥)
الاردن	١٤١٦	٢١٢٤	٥٠	٤٦٣٤٤	٧٨٦٨٧	٦٩،٨
لبنان	٦١٦	٧١٧	١٦،٤	١٨٤٥١	٢٤١٩٥	٣١
سوريا	٥٠٧	٧٩٦	٥١،٦	١٧٢٧٤	٢٦٠١٣	٥٠،٦
الدول العربية	١٨٠(ألفا)	٤٣٨(ألفا)	١٤٣(٨٦)	٨٠٤٢٥،٤	١٣٤٤١،٨	٥٩،٥

تجدر الملاحظة الـى ان الارقام الخاصة بالانروا تقتصر على المرحلتين الابتدائية والاعدادية ، اما الارقام الخاصة بالدول العربية سواء بالنسبة للطلاب او المعلمين فهي تشمل المراحل الثلاث ، ابتدائية ، تكميلية وثانوية . كذلك فان الزيادة في مدارس الانروا متفاوتة سواء بالنسبة للطلاب ام للمعلمين . ففي الاردن مثلا ازداد عدد الطلاب بنسبة ٦٩،٨ ٪ بينما ازداد عدد المعلمين بنسبة ٥٠ ٪ ، وفي لبنان كانت الزيادة في عدد الطلاب حوالي ضعف الزيادة في عدد المعلمين ، اما في سوريا فقد كانت نسبة الزيادة في عدد المعلمين تزيد قليلا عنها في عدد الطلاب . واذا كان لهذا الامر من دلالة فهي انه يعكس معدل عدد الطلاب بالنسبة للمعلم الواحد والذي يرتبط بدوره بفعالية التعليم ، اذ من المعروف ان السياسات التعليمية الحديثة تميل الى تخفيض هذا المعدل قدر الامكان حتى تسهل امكانية التفاعل بين المعلم والطالب ، فينال كل طالب الاهتمام الكافي من المعلم ، وتزداد الفائدة من مادة التدريس . وفي الفتـرة المذكورة (٦٠ ـ ١٩٦٧) انخفض معدل عدد الطلبة للمعلم الواحد في المرحلة الابتدائية في الدول العربية من ٣٨ الى ٣٥ طالبا(٨٧) ، اما في مدارس الانروا فقد ازداد هذا المعدل . وفي الجدول رقم ١٣ تبيان لمعدل عدد الطلبة للمعلم الواحد في المرحلتين الابتدائية والاعدادية معا ، ذلك ان الانروا لم تكن عام ١٩٦٠ تفـرق بين المعلم الابتدائي والمعلـم الاعدادي بل تذكر الرقم الاجمالي للمعلمين في مدارسها .

جدول رقم ١٣

معدل عدد الطلبة للمعلم الواحد في مدارس الانروا (الابتدائية والاعدادية)(٨٨)

السنة	غزة	الاردن	لبنان	سوريا
٦٠ ـ ٦٠	٣٧،٨	٣٢،٧	٣٠	٣٤
٦٦ ـ ٦٧	٣٨،٩	٣٧،٦	٣٤،٣	٣٤،٤

ومن الواضح ان معدل عدد الطلبة للمعلم الواحد قد ارتفع في المناطق الاربع ، وبشكـل خاص في الاردن ولبنان حيث ارتفع في الاولى من ٣٢ الى ٣٧ طالبا وفي الثانية من ٣٠ الى ٣٤ طالبا . ويتضح من الجدول كذلك ان معدل عدد الطلبة للمعلـم الواحد في المرحلتين الابتدائية والاعدادية معا في مدارس الانروا يساوي تقريبا معدل عدد الطلبة للمعلم الواحد في المرحلة الابتدائيـة في الدول العربية . اما معدل عدد الطلبة للمعلم في المرحلة الابتدائية وحدها في مدارس الانروا فهو أعلى من ذلك بكثير وخاصة في غزة حيث كان المعدل ٤٦،٧ عام ٦٦ ـ ٦٧ . وهذا المعدل هو من ناحية اخرى اعلى منه في مدارس الانروا في باقي المناطق . ففي الاردن كان هذا المعدل في العام ذاته ٤١،٥ وفي لبنان ٣٨،١ وفي سوريا ٣٧،٢(٨٩).

يمكن القول ، تلخيصا لما سبق ، ان التعليم في

غزة يتصف بأمرين ، مقارنة بالمناطق الاخرى : فمدارس غزة تشهد زيادة نسبية في عدد الطلاب وعدد المعلمين اقل منها في المناطق الاخرى ، وبالمقابل فان معدل عدد الطلبة للمعلم الواحد ، او في الفصل الواحد هو في مدارس غزة اعلى مما هو في المدارس الاخرى .

الاستيعاب : فيما يتعلق بالاستيعاب سنتعرض لنقطتين : الاولى تتعلق بطاقة المدارس القائمة على استيعاب من هم في سن الدراسة ، والثانية تتعلق بنسبة من هم في المدرسة ومن هم خارجها ممن هم في سن الدراسة .

أ — **سعة المدارس** : عندما نتكلم عن طاقة استيعاب المدارس للطلاب فاننا نفترض ضمنا اتباع المدارس لنظام الدوام الواحد ، اي ان يستعمل الفصل الواحد الغرفة الواحدة طيلة النهار . والسبب في هذا الافتراض هو ان وقت الفراغ ، الناجم عن نظام الدوام المزدوج ، في مجتمع كمجتمع اللاجئين ، حيث لا تتوفر وسائل للنشاط او مراكز للثقافة (مكتبات ، اندية ، برامج نشاط مختلفة ... الخ) قد يصبح سببا في وجود عدد من المشكلات الاجتماعية المختلفة .

ذكرنا انه كان في ١٩٧٠ بمدارس الانروا في غزة ٥٩،١٧٣ طالبا وطالبة ، و١١٥٣ غرفة للتدريس ، وان معدل عدد الطلاب في الفصل الواحد في المرحلتين الابتدائية والاعدادية هو ٤٨ طالبا(٩٠) . وفي حال اتباع نظام الدوام الواحد يصبح الطلاب بحاجة الى ١٢٣٥ غرفة تدريس . ولكن اذا سارت الوكالة بحسب ما هو حاصل في الدول العربية ، اي جعلت معدل عدد الطلاب في الفصل الواحد لا يزيد على ٤٠ طالبا (كان معدل عدد الطلبة في الفصل الواحد في مصر عام ٦٨ — ٦٩ كما يلي : ٤٢ في المرحلة الابتدائية و٣٧ في المرحلة الاعدادية) ، لاحتاج الطلاب في غزة الى ١٤٨٠ غرفة تدريس ، اي الى ما يزيد على ٤٠٠ غرفة عما هو موجود بالفعل .

ب — **الاطفال خارج المدرسة** : تستغرق فترة الدراسة في المرحلتين الابتدائية والاعدادية في غزة ٩ سنوات ، اي من سن ٦— ١٤ سنة . ولكن لا بد ونحن بصدد معرفة من هم خارج المدرسة في هذه الفئة من العمر ، ان نعرف اولا عدد الاطفال الذين هم في سن الدخول الى المدرسة (٦ سنوات)، ويدخلونها فعلا . ويبين الجدول رقم ١٤ هذه النسبة في المناطق الاربع ، في عام ٦٦ — ٦٧ (قبل الاحتلال) ، وكذلك في عام ٦٩ — ٧٠ (بعد الاحتلال) .

جدول رقم ١٤

نسبة الاطفال داخل مدارس الانروا الى من هم في سن السادسة(٩١)

	غزة	**الاردن**	**سوريا**	**لبنان**
٦٦ — ٦٧	٨٣٫٨	٥٤٫٨	٩٢٫١	٧٠٫٧
٦٩ — ٧٠	٨٢٫٢	٦٥	٩٥٫٨	٨٦٫٨

ويظهر من الجدول رقم ١٤ ان غزة تاتي في المرتبة الثالثة عام ١٩٧٠ ، اي ان نسبة من هم في المدرسة من الاطفال الى من هم في سن السادسة، هي في غزة اقل منها في كل من سوريا ولبنان . وان ١٨ ٪ من هؤلاء الاطفال هم خارج المدرسة في غزة بينما تنخفض النسبة الى حوالي ٤ ٪ في سوريا و١٣ ٪ في لبنان . اما بالنسبة لعدد من هم خارج المدرسة في سن الدراسة من ٦ — ١٤ ، فالجدول رقم ١٥ يبين ذلك في غزة مقارنة مع الدول العربية ، حيث كان المركز الاقليمي للتخطيط التربوي والادارة في الدول العربية قد قام بدراسة حول هذا الموضوع في عشر دول عربية (العراق ، الاردن ، الكويت ، لبنان ، ليبيا ، المغرب ، سوريا ، السودان ، تونس ، مصر) . والجدول خاص بالعام ٦٦ — ٦٧ وهو العام الذي تنطبق عليه نتائج الدراسة العربية المذكورة .

يلاحظ من الجدول رقم١٥ ان نسبة من هم في المدرسة الى من هم في سن الدراسة في غزة أعلى بكثير مما هي في الدول العربية . ففي السنة الاولى نجد ان حوالي نصف الاطفال في الدول العربية هم خارج المدرسة بينما تبلغ هذه النسبة لدى اللاجئين في غزة ١٦ ٪ ، وكذلك اذا اخذنا المرحلة الابتدائية اي فئة العمر من ٦ — ١١ نجد ان ١٣٫٥ ٪ فقط هم خارج المدرسة في غزة بينما تصل هذه النسبة في الدول العربية الى ٤٥ ٪ اي اكثر من نصف الاطفال الذين هم في سن الدراسة الابتدائية . وكذلك الامر بالنسبة للمرحلة الاعدادية (من ١٢ — ١٤ سنة) ، ففي غزة نلاحظ من الجدول ان ربع من هم في سن الدراسة هم فعليا خارج المدرسة بينما تزيد هذه النسبة في الدول العربية على الثلثين . غير ان الجدول يبين من جهة اخرى فيما يتعلق بمدارس الاونروا في غزة ، ان نسبة من هم

جدول رقم ١٥

نسبة الطلبة الى من هم في سن الدراسة (٦-١٤) في غزة عام ١٩٦٧/٦٦

فئة العمر	السكان	الطلاب	النسبة المئوية للطلاب في فئة العمر	النسبة المئوية لمن هم خارج المدرسة(٩٢)		النسبة المئوية لمن هم خارج المدرسة(٩٢) في الدول العربية
٦	٨٣٢٨	٦٩٧٩	٨٣،٨	١٦،٢		٤٧،٧
٧	٧٦٧٢	٦٨١٢	٨٨،٨	١١،٢		٤٧،٧
٨	٨٢١٠	٧٢٨٥	٨٨،٧	١١،٣		
٩	٦٦٤٦	٦٠٤٦	٩١،٠	٩		٤٠،٠
١٠	٦٧٨٦	٥٨٣١	٨٥،٩	١٤،١		
١١	٦٤١١	٥٢٢٥	٨١،١	١٨،٩		
مجموع	٤٤٠٨٣	٣٨١٧٨	٨٦،٥	١٣،٥	(المرحلة الابتدائية)	٥٠،٠
١٢	٧٠٧٩	٥٤٨٣	٧٧،٥	٢٢،٥		
١٤	٦٥٩٦	٤٤٩٣	٦٨،١	٣١،٩		
١٣	٧٢٣٧	٥٤٣١	٧٥،٠	٢٥		
مجموع	٢٠٩١٢	١٥٤٠٧	٧٤	٢٦	(المرحلة الاعدادية)	٦٩،٦

خارج المدرسة في فئة العمر ٦ — ١١ عالية في سن السادسة والحادية عشرة ، اي في السنة الاولى والنهائية من هذه المرحلة ، فبالنسبة لمن هم في سن السادسة نجد ان ١٣٥٠ طفلا اي ١٦ ٪ منهم خارج المدرسة وكذلك الامر بالنسبة لمن هم في سن الحادية عشرة ، اي في السنة النهائية الابتدائية ، حيث نجد ان ١٩ ٪ من هؤلاء الاطفال هم خارج المدرسة . وتزداد نسبة من هم خارج المدرسة في المرحلة الاعدادية وبحسب السنوات تدريجيا . فمن بين الذين هم في سن الثانية عشرة ، اي الاول اعدادي ، نجد ان ٢٢،٥ ٪ هم خارج المدرسة ، وفي السنة الثانية ٢٥ ٪ وفي السنة الثالثة تصل النسبة الى ٣٢ ٪ ، اي حوالي الثلث . ولسنا هنا بصدد مناقشة اسباب ذلك ، ولكننا نعتقد ان هذه نسبة عالية خاصة في قطاع غزة حيث مجالات العمل محدودة ، خاصة وان من لم ينه المرحلة الاعدادية لا يستطيع عمليا ممارسة عمل فني او اداري بل ان فرصته الوحيدة هي في العمل اليدوي . وبامكاننا لذلك ان نتصور ان قسما كبيرا من هؤلاء يصبحون عاطلين عن العمل . وعلى كل يستحسن ان نقارن هذه الناحية في غزة بمناطق تجمع اللاجئين الاخرى ، اي في الدول العربية المضيفة . ويبين الجدول رقم ١٦ نسبة من هم خارج المدرسة الى من هم في سن الدراسة في هذه المناطق .

جدول رقم ١٦

نسبة الطلاب الى من هم في سن الدراسة(٩٤) عام ١٩٦٧/٦٦

العمر	غزة	الاردن	لبنان	سوريا
٦	٨٣،٨	٥٤،٨	٧٠،٧	٩٢،١
٧	٨٨،٨	٧٧،٠	٩٢،٧	٩٥،٤
٨	٨٨،٧	٧٦،٥	٩٥،٦	٩٧،٣
١١	٨١،١	٦٢،٩	٨٣،٤	٨٦،٠
١٢	٧٧،٥	٦٣،٣	٧٥،٥	٨٠،٥
١٤	٦٨،١	٥٠،٣	٤٩،٠	٦٦،١

نلاحظ من الجدول ان نسبة من هم في المدرسة الى من هم في سن السادسة من الاطفال مرتفعة نسبيا في غزة ، اذ هي أعلى منها في الاردن ولبنان، اما بالنسبة لمن هم في سن الحادية عشرة اي السنة النهائية في المرحلة الابتدائية فتأتي غزة في المرتبة الثالثة بعد سوريا ولبنان ويختلف الوضع في المرحلة الاعدادية اذ نلاحظ ان نسبة من هم في المدرسة في سن ١٢ — ١٤ رغم انخفاضها افضل منها في المناطق الاخرى ، وخاصة اذا قارنا من هم في السنة الاولى الاعدادية اي في سن ١٢ الى من يفترض انهم في السنة النهائية الاعدادية اي في سن ١٤ . ففي غزة انخفضت النسبة من ٧٧ ٪

في سن ١٢ الى ٦٨ ٪ في سن ١٤ ولكن النسبة ذاتها انخفضت في الاردن من ٦٣ ٪ الى ٥٠ ٪ وفي لبنان من ٧٥ الى ٤٩ بالمئة وفي سوريا من ٨٠ الى ٦٦ بالمئة . اي ان نسبة من يتابعون تعليمهم الاعدادي في غزة وخاصة من يصلون الى السنة النهائية من هذه المرحلة منخفضة لدى الفلسطينيين عموما وان كانت في غزة أفضل منها في المناطق الاخرى ، يؤكد ذلك ان الوضع عام ٦٩/٧٠ كان تقريبا على الصورة ذاتها حيث كانت هذه النسب كما يلي :

جدول رقم ١٧

نسبة الطلاب الى من هم في سن الدراسة.١٩٧(٩٥)

فئة العمر	غزة	الاردن	لبنان	سوريا	المجموع
٦ ـــ ١١	٨٢،٧	٧٥	٩١،٣	٩٦،٣	٨١،٣
١٢ـــ١٤	٧٤،٤	٦١،٦	٦٩،٥	٧٠،٦	٦٦،٣

ويتبين من الجدول رقم ١٧ ان نسبة الطلاب في فئة العمر ١٢ـــ١٤ ـــ أي في المرحلة الاعدادية ـــ الى من هم في هذه الفئة من السكان ، هي في غزة أعلى منها في المناطق الاخرى بشكل واضح . كما يتبين ايضا ان نسبة من يتابعون دراستهم بعد المرحلة الابتدائية مرتفعة في غزة نسبيا . فقد انخفضت نسبة الطلاب الى من هم في سن الدراسة من ٨٢٪ في المدرسة الابتدائية (٦ ـــ ١١) الى ٧٤ ٪ في المرحلة الاعدادية (١٢ ـــ ١٤ سنة) اي بحوالي ٨ ٪ بينما انخفضت هذه النسبة بحوالي ١٤ ٪ في الاردن و٢١ ٪ في لبنان و٢٦ ٪ في سوريا . ويؤكد هذا ما سبق وقلناه عن ادراك الفلسطينيين لقيمة التعلم بالنسبة اليهم كمنفذ وحيد من أجل العمل والعيش ، وخاصة في قطاع غزة حيث تكاد فرص العمل تكون معدومة ، بسبب كثافة السكان ، وضيق رقعة الارض التي يعيشون فوقها .

التسرب

بدأت دائرة التعليم في الانروا تصدر تقارير احصائية سنوية منذ عام ١٩٦٥ ، الا انها لم تكن تحتوي على تفاصيل وافية حول موضوع التسرب في قطاع غزة ، باستثناء التقرير الاحصائي الخاص بالعام ٦٩/٧٠ . ومن جهة اخرى لا تتوفر اي معلومات من موضوع التسرب في المدارس الرسمية والخاصة في القطاع ، ولذلك فان الحديث عن التسرب سيقتصر على مدارس الانروا ، وفي الفترة التي تتوفر عنها الارقام فقط ، أي في الفترة من عام ٦٥ ـــ ٧٠ ، كما هو مبين في الجدول رقم ١٨ :

جدول رقم ١٨

التسرب في مدارس الانروا في غزة

	٦٥/ ٦٦	٦٦/ ٦٧ (٩٦)	٦٧/ ٦٨	٦٨/ ٦٩	٦٩/ ٧٠ (٩٧)
١ ابتدائي	٢،٤	٠،٦	٧،١	٣،٩	٢،٥
٢ ابتدائي	١،٤	٠،٧	١٤،٤	٣،٣	٣،٢
٣ ابتدائي	١،٣	٠،٧	١٢،٤	٣،٠	١،٥
٤ ابتدائي	١،٣	٠،٨	١٨،٠	٢،٩	٢،٣
٥ ابتدائي	٢،٠	١،٠	١٦،٦	٣،٩	٢،٨
٦ ابتدائي	٧،١	٥،٧	٢٢،٢	٥،٥	٥،٢
المجموع	٢،٦	١،٦	١٥،١	٣،٨	٣،١
١ اعدادي	٥،٤	١،٥	٣٣	٣،٦	٣،٧
٢ اعدادي	٦،٩	٢،١	٢٧،٥	٤،٨	٤،٥
٣ اعدادي	—	—	٣٤،٧	٤،٦	٧،١

يتضح من الجدول رقم ١٨ ان نسبة التسرب قد ارتفعت بشكل كبير اثر الاحتلال الاسرائيلي للقطاع، وتؤكد ذلك الوكالة حيث تقول في تقريرها الاحصائي للعام ٦٧ ـــ ٦٨ ان هذا الارتفاع في نسبة التسرب يعود الى نزوح اهالي القطاع بسبب الاحتلال . من جهة اخرى ، يظهر الجدول ان نسبة التسرب الكبرى تحدث في نهاية المرحلة اي في الصف السادس الابتدائي والثالث الاعدادي . ففي عام ٦٦/٦٧ كانت نسبة التسرب في السادس الابتدائي ٥،٧٪ دون ان تزيد هذه النسبة على ١٪ في أي من الصفوف الاخرى . وفي عام ١٩٧٠ كانت نسبة التسرب في السادس الابتدائي ٥،٢٪ وفي الصفوف الاخرى في حدود ٣٪ . وبمراجعة الارقام الخاصة بالعامين ٦٦ و ٧٠ ـــ حيث يذكر التقريران الاحصائيان التسرب بين الاناث والذكور ـــ نلاحظ ان نسبة التسرب بين الذكور والاناث تكاد تكون متساوية ، وخاصة في المرحلة الابتدائية . ففي عام ٦٦ كانت نسبة التسرب في المرحلة الابتدائية ٢،٦٪ للذكور و ٢،٧٪ للاناث(٩٨). وفي عام ٧٠ كانت نسبة التسرب بين الذكور ٢،٨٪ وبين الاناث ٢،٥٪(٩٩). اما في المرحلة الاعدادية فقد حدث تغير ملفت للنظر . فلقد كانت نسبة التسرب بين الاناث عام ٦٦ اضعافها بين الذكور بينما اصبحت النسبة بين الاناث اقل منها بين الذكور في عام ١٩٧٠ . فمثلا كانت نسبة التسرب بين الاناث ٩،٧٪ في الاول اعدادي عام ٦٦ و ٢،١٪ فقط

بين الذكــور . وفي الثاني اعدادي كانت نسبـة التسرب بين الانــاث ١١،٧٪ بين الذكور ٢،٣٪ فقط(١٠٠). اما في عام ١٩٧٠ فكانت نسبة التسرب في الاول اعدادي ٣،٣٪ للاناث و ٤،١٪ للذكور وفي الثاني اعدادي ٣،٧٪ للاناث و ٥،٢٪ للذكور وفي الثالث اعــدادي ٦،٦٪ للانــاث و ٧،٧٪ للذكور(١٠١). قد يكــون للاوضاع الناجمة عــن الاحتلال الاسرائيلي علاقة بذلك بمعنى ان الاعتقالات من جهة والانخراط في صفوف المقاومة من جهــة اخرى ، من قبل الشباب ، هي التي تجعل الشباب يتركون الدراسة . الا ان انخفاض نسبة التسرب بين الاناث في المرحلة الاعدادية ، على هذا النحو ، يؤكد حقيقة اجتماعية تتعلق بدور المرأة ومكانتهــا في المجتمع ، أي ان العلم والعمل أصبحا هدفــا للفتاة ايضا . وتتعزز هذه الحقيقة عندما نلاحظ ايضا ان نسبة الطالبات في المرحلة الثانوية تصل الى حوالي ٥٠٪ من مجموع طلاب المرحلة .

واذا اردنا معرفة عــدد الــذين ينهون المرحلــة التعليمية بالنسبة لمن يدخلونها في بدايتها فــلا بد ان تتوفر لدينا ارقام تشمل ست سنوات للمرحلة الابتدائية وثلاث سنوات للمرحلة الاعدادية . ولكن الارقام المتوفرة لدينا لا تغطي سوى الفترة بــين عامي ٦٦/٧٠ فقط ، حيث بدأت دائرة التعليم في الانروا تنشر تقاريــر احصائية سنوية منذ عــام ١٩٦٥ . ومعظم هذه التقارير لا يتضمن النواحي التفصيلية في التسرب مثل تبيان التسرب لدى الذكور والاناث ، والتسرب اثناء العطلة الصيفية واثناء السنة الدراسية . يضاف الى ذلك ان التسرب لم يكن طبيعيا في عامي ٦٧ و ٦٨ ، على الاقل بسبب ظروف النزوح والاعتقــال الناجمة عن الاحتــلال الاسرائيلي . لذلــك لا نستطيع اعتماد الارقــام الواردة كمقياس حقيقي لواقع التسرب ، كما اننا لا نستطيع اعتمادها لمقارنة التسرب في غزة مــع غيرها من المناطق ، ولــذا يمكننا بالنسبة لهــذه الناحية ان نقارن بين غزة وغيرها في العامين اللذين سبقا الاحتلال فقط ، ويمكن عقد مقارنة للعام ١٩٧٠ على اعتبار ان عملية النزوح قد توقفت تقريبا وان كانت اوضاع القطاع ما زالت غير طبيعية(١٠٢). والجدول التالي يبين نسبة التسرب في مــدارس الانروا في مناطق عملها الاربع :

جدول رقم ١٩

التسرب في مدارس الاونروا في الدول المضيفة (١٠٣)

	٦٥/٦٦				٦٦/٦٧				٦٩/٧٠				
	غزة	الاردن	لبنان	سوريا (١٠٤)	غزة	الاردن	لبنان	سوريا	غزة	ضفة شرقية	ضفة غربية	لبنان	سوريا
١ ابتدائي	٧،١	٤،٦	٢،٠	٢،٤	٠،٦	٢،٤	—	٠،٤	٣،٥	٥،٤	٢،٨	٦	٢،٢
٢ ابتدائي	٢،٠	٢،٢	١،٢	١،٦	٠،٧	٢،٦	١،٠	٠،٩	٣،٢	٥،٣	٤	٥	٤
٣ ابتدائي	١،٣	٣،٠	١،٦	١،٩	٠،٧	٣،١	٠،٧	١،٠	١،٥	٤،٠	٤،٣	٥،٧	٣،٤
٤ ابتدائي	١،٣	٣،٣	٣،٠	٢،٥	٠،٨	٢،٨	١،٧	٢،٣	٢،٣	٤،٥	٣،٦	٩،٩	٦،٨
٥ ابتدائي	١،٤	٣،٠	٤،٩	٣،٦	١،٠	٤،٤	٤،٥	٣،٢	٢،٨	٤،٢	٤	٦	٥،١
٦ ابتدائي	٢،٤	٩،٣	٣٠،٧	١٦،٣	٥،٧	١٠،٨	٤٠،٣	١٩،٨	٥،٢	٨	٧،٦	١٠	١٠
المجموع	٢،٦	٣،٩	٧،٦	٤،٢	١،٦	٣،٩	٩،٩	٤،١	٣،١	٥،٢	٤،٣	٦،٨	٩
١ اعدادي	٥،٤	٩،٥	٩،٣	٦،٠	١،٥	٩،٠	٦،٧	٨،٣	٣،٧	١٢	١٥	٣٠،٦	١٧،٥
٢ اعدادي	٦،٩	١٤،١	١٣،٠	٥،٨	٢،١	١٠،٦	٨،٧	٥،٢	٤،٥	١٧	١٤	٢١،٦	١٤
٣ اعدادي	٨٥،٢	١٠٠	٨،٥	٦٢،٠	—	—	٩،٢	—	٧،١	٢٧	١١،٥	٤٠،٨	١٧
المجموع	٢١،٥	٢٩		٢٥،٣	١،٢	٧،٧	٦،٩	٤،٨	٥،١	١٦،٧	١٣،٥	٢٦،٨	١٦،٢

يبين الجدول ان نسبة التسرب في غزة اقل منها في مدارس الانروا في الدول العربية الاخرى ، ســواء في المرحلة الابتدائية او الاعدادية وفي السنــوات الثلاث الواردة في الجدول . في المرحلة الابتدائية كــانت نسبة التسرب ٢،٦٪ عام ١٩٦٦ في غــزة و ٤٪ في الاردن واكثر من ذلك في سوريا ولبنان . وفي عام ٦٧ كانت النسبة في غزة ١،٦٪ وفي كل من الاردن وسوريا حوالي ٤٪ بينما وصلت الى ١٠٪ في لبنان . وفي عام ٧٠ كانت النسبة في غزة ٣٪ وفي الاردن ٥٪ وفي لبنان ٧٪ وفي سوريــا ٩٪ .

واذا نظرنا الى بعض الفصول في المرحلة الابتدائية كلا على حدة نلاحظ الفرق بشكل واضح . ففي الصف السادس الابتدائي كانت نسبة التسرب في كل من المناطق الثلاث تصل الى عدة اضعاف النسبة في غزة وذلك في عامي ٦٦ و ٦٧ اما في عام ٧٠ فقد انخفض الفارق في النسبة بين غزة وغيرها ولكنه ظل مرتفعا اذ كانت هذه النسبة ٥٫٢٪ في غزة و ٧٫٥٪ في الاردن و ١٠٪ في كل من سوريا ولبنان . اما في المرحلة الاعدادية فان الفارق في نسبة التسرب بين غزة وغيرها كبير جدا . فاذا نظرنا الى هذه النسبة في عام ٧٠ مثلا نجدها في غزة ٥٪ بالنسبة لمجموع المرحلة بينما هي ١٥٪ في الاردن وحوالي ٢٧٪ في لبنان و ١٦٪ في سوريا . واذا نظرنا الى نسبة التسرب في الصف الثاني الاعدادي في العام نفسه نجد ان النسبة في غزة هي ٤٫٥٪ وفي الاردن ١٥٫٥٪ وفي لبنان ٢١٫٦٪ وفي سوريا ١٤٪ اي ان نسبة التسرب في غزة في هذا الصف اقل من ثلثها في المناطق الاخرى ، شأنها في ذلك شأن نسبة التسرب بالنسبة لمجموع المرحلة كما لاحظنا .

قلنا انه لا يمكننا ، بسبب طبيعة الفترة التي تتوفر حولها ارقام التسرب ، ان نعرف بالضبط نسبة الذين ينهون المرحلة الى الذين يدخلونها في قطاع غزة . ولكن بالامكان وضع جدول افتراضي استنادا الى ارقام التسرب المعروفة لدينا للعام ١٩٧٠ في كافة الصفوف الابتدائية (الجدول رقم ١٩) ، ولنفترض ان لدينا ١٠٠٠ طالب دخلوا الصف الاول ابتدائي في العام ١٩٧٠ ، خاضعين لبرنامج الترفيع التلقائي ، ولنسبة التسرب نفسها في العام المذكور ، فتكون النتائج الافتراضية لمن ينهي المرحلة الابتدائية منهم ، كما هو مبين في الجدول رقم ٢٠ :

جدول رقم ٢٠

نسبة الطلبة الذين ينقطعون عن الدراسة قبل نهاية المرحلة اعتمادا على نسبة التسرب في عام ٦٩–٧٠

الصف	عدد الطلبة لعام ٦٩/٧٠	نسبة التسرب المئوية	عدد المتسربين	عدد المترفعين
١ ابتدائي	١٠٠٠	٣٫٥	٣٥	٩٦٥
٢ ابتدائي	٩٦٥	٣٫٢	٣١	٩٣٤
٣ ابتدائي	٩٣٤	١٫٥	١٤	٩٢٠
٤ ابتدائي	٩٢٠	٢٫٣	٢١	٨٩٩
٥ ابتدائي	٨٩٩	٢٫٨	٢٥	٨٧٤
٦ ابتدائي	٨٧٤	٥٫٢	٤٥	٨٢٩
المجموع	١٠٠٠	١٧٫١	١٧١	٨٢٩

ويمكن ان نستنتج من هذا الجدول الافتراضي أنه من أصل ١٠٠٠ طالب يدخلون المرحلة الابتدائية يترك ١٧١ طالبا وطالبة دراستهم قبل انهاء المرحلة ، وان معظم هؤلاء يتركون دراستهم في الصف السادس والصفين الاول والثاني . وبالتالي فان ٨٣٪ يبدأون هذه المرحلة يتمكنون من متابعة الدراسة حتى نهايتها وهي نسبة لا بأس بها اذا قورنت مع مثيلاتها في الدول العربية . ففي الجزائر كانت نسبة من ينهون المرحلة الابتدائية الى من يدخلونها هي ٤٥٫٨٪ في عامي ٦٤ و ٦٧ . وفي الكويت كانت النسبة ٩٠٫٦٪ في اعوام ٦١ ، ٦٤ ، ٦٧ . وفي مصر كانت النسبة ٧٥٪ بدءا من الاعوام ٦١ ، ٦٢ ، و ٦٣ [١٠٥].

كلفة الطالب : تقدر كلفة الطالب بمعدل ما تنفقه الانروا بالنسبة للطالب الواحد . وهذه النفقات اما راسمالية او ثابتة ، واما نفقات متكررة ، تنفق سنويا ، مثل رواتب الموظفين وثمن الكتب والقرطاسية وغيرها . وفي عام ٦٦/٦٧ بلغت النفقات المتكررة للتعليم في غزة ٢٤٣٦٢،٢٩٠ دولارا موزعة كما هو مبين في الجدول رقم ٢١ . (أنظر الصفحة التالية).

يلاحظ من الجدول ان النسبة الكبرى من النفقات تذهب لمرتبات الموظفين اذ تبلغ نسبة المرتبات الى مجموع النفقات ٨٨٫٦٪ في المرحلة الابتدائية و ٨٥٪ في المرحلة الاعدادية . وفيما يتعلق بالدول العربية كانت نسبة الرواتب الى مجموع النفقات المتكررة عام ٦٧ في بعض البلدان كما يلي : ٨٠٪ في سوريا ، ٦٧٫٦٪ في مصر ، ٧٥٫٥٪ في الاردن، ٧٠٫٦٪ في لبنان[١٠٦]. غير ان هذه تشمل الرواتب الى مجموع النفقات في مختلف مراحل التعليم ولذلك فان المقارنة غير دقيقة . اما بالنسبة لمدارس الانروا في الدول الاخرى فالجدول رقم ٢٢ يبين النفقات الدورية ورواتب المعلمين وكلفة الطالب .

يلاحظ من الجدول رقم ٢٢ ان نسبة الرواتب الى مجموع النفقات متقاربة في المناطق الاربع لكن الوضع يختلف بالنسبة لكلفة الطالب. فكلفة الطالب في غزة أقل من غيرها في المناطق الاخرى وفي مختلف المراحل

جدول رقم ٢١

نفقات التعليم المتكررة في غزة لعام ٦٦ــ٦٧ (بالدولار)(١٠٧)

المرحلة	رواتب الموظفين	الكتب	المعدات واللوازم	نفقات اخرى	المجموع	عدد الطلاب	كلفة الطالب	نسبة الرواتب المئوية من النفقات
الابتدائية	١٠،٠٤١،١١٩	٣١،٧٨١	٥٢،٥١٧	٤٩،١٤٥	١١،١٧٤،٥٦٤	٤١،٦١٢	٢٨،٢	٨٨،٦
الاعدادية	٦٧١،٥٨٤	٢٢،١٤٣	٨٨،٦١٩	٦،٣٩٣	٧٨٨،٧٣٩	١٦،٨١١	٤٧،٥	٨٥
الثانوية					١٥٠،٠٠٠	٨،٢٦٤	١٨،١	
تدريب المعلمين					٤١،١٨٣	٢٧٩	١٤٤	
	رواتب المدربين	رواتب الادارة		نفقات ادارية اخرى				
تدريب مهني	٢٥،٨٦٥	٢٦،٣١١	٢٦،٠٢٧	٦٢،٠٨٣	١٧٦،٢٨٦	٣٦٤	٤٨٤،٢	٢٩،٥
الادارة	٤٠،٥١٨							
					٢،٣٦٢،٢٩٠			

جدول رقم ٢٢

النفقات الدورية في مدارس الاونروا للعام ٦٦ــ٦٧ (بالدولار)(١٠٨)

	الابتدائية				الاعدادية				الثانوية	
	النفقات	الرواتب	نسبة الرواتب المئوية	كلفة الطالب	النفقات	الرواتب	نسبة الرواتب المئوية	كلفة الطالب	الاعانات	كلفة الطالب
غزة	١،١٧٤،٥٦٤	١٠،٠٤١،١١٩	٨٨،٦	٢٨،٢	٧٨٨،٧٣٩	٦٧١،٥٨٤	٨٥	٤٧،٥	١٥٠،٠٠٠	١٨،١
	(٤١،٦١٢)				(١٦،٨١١)				(٨،٢٦٤)	
الاردن	٢،٥٨٧،٢١٣	٢،٣٤٣،٨٠٨	٩٠،٦	٣٨	٨٦٥،٧٥٨	٧٧٧،٢٧٠	٨٩،٨	٦٦	١٧٥،٠٠٠	٢٤
	(٦٦،٧٩٩)				(١٣،٠٧٥)				(٧،٢٩٦)	
لبنان	١،١٠١،٤٨١	٩٦٦،٣٠٩	٨٨	٥٢	٣٥٢،٢٧٢	٣٠٣،٢٥٦	٨٧	١٠٠	٦٥،٧٦٠	٥٤
	(٢١،١٨٧)				(٣،٥٠٥)				(١،٢٢١)	
سوريا	٧٩٢،٨٦٤	٦٩٨،٣١٤	٨٨	٤٠	٤٠٣،٨٠٨	٣٣٤،٧٢٥	٨٣	٦١	٧٩،٤٨٧	٣٦
	(١٩،٧٩٦)				(٦،٦٢٤)				(٢،٢٠٥)	

التعليمية . اذ بينما تبلغ كلفة الطالب في المرحلة الابتدائية في غزة ٢٨ دولارا ، تصل الى ٥٢ دولارا في لبنان و ٤٠ دولارا في سوريا . وفي المرحلة الاعدادية تبلغ كلفة الطالب في غزة ٤٧،٥ دولارا بينما تصل الى ١٠٠ دولار في لبنان وتزيد عن ٦٠ دولارا في كل من سوريا والاردن . وفي المرحلة الثانوية تبلغ كلفة الطالب ، اي معدل الاعانة المالية التي تدفعها الانروا عن الطالب ، ١٨ دولارا في غزة بينما هي ٥٤ دولارا في لبنان و ٣٦ دولارا في سوريا . ان كلفة الطالب كما هو واضح في الجدول مقتصرة على كلفته من النفقات الدورية ، التي تتكرر كل عام ، والتي تتكون اساسا من الرواتب التي تدفع للجهاز التعليمي . وبما ان نسبة الرواتب المستخلصة من مجموع هذه النفقات متقاربة في المناطق الاربع ، (٨٨٪ في المرحلة الابتدائية باستثناء الاردن حيث تبلغ النسبة ٩٠٪ ، و ٨٣ — ٨٩٪ في المرحلة الاعدادية) فان هذا الفارق في كلفة الطالب يعود بالدرجة الاولى الى الفوارق في معدل الراتب الشهري الذي يدفع للمعلم في كل من المناطق الاربع . ففي غزة كان نصيب الطالب الابتدائي من المرتبات في العام المذكور (٦٦/٦٧) ٢٥ دولارا وفي المرحلة الاعدادية ٤٦ دولارا . ويبدو الفارق واضحا اذا قورن نصيب الطالب الفلسطيني من المرتبات في غزة ، مع نصيب الطالب في المدارس العربية . ففي مصر مثلا بلغ نصيب الطالب الابتدائي في العام نفسه ٩،٦جنيهات مصريا اي حوالي ٢٣ دولارا ، وفي المرحلة الاعدادية ٢٦،٥ جنيها اي حوالي ٦٣ دولارا(١٠٩).

وفي لبنان يبلغ نصيب الطالب في المرحلة الابتدائية ٤٥ دولارا وفي المرحلة الاعدادية ٨٦ دولارا . وفي سوريا يبلغ نصيب الطالب الابتدائي ٣٥ دولارا وفي المرحلة الاعدادية ٥٢ دولارا . وفي الاردن يبلغ نصيب الطالب الابتدائي ٣٦ دولارا وفي المرحلة الاعدادية ٥٩ دولارا(١١٠).

تعليم الفتاة

ان ملاحظة الارقام الخاصة بالتعليم تبين ان تطورا كبيرا قد طرأ على اقبال الفتاة الفلسطينية على التعليم في المراحل الثلاث على الاقل — الابتدائية والاعدادية ، والثانوية — ولا تتوفر لدينا ارقام حول عدد الطالبات الفلسطينيات في الجامعات . ولكن اذا اخذنا المنح الجامعية التي تقدمها الانروا للطلبة الجامعيين مقياسا او انعكاسا للوضع الطلابي في الجامعة — وهو امر افتراضي — لاستنتجنا ان نسبة الطالبات قليلة في الجامعة . وفي هذه الحالة سنعتمد الارقام الخاصة بالعام ٦٩ — ٧٠ حيث ترد لاول مرة ارقام تفصيلية بحسب جنس الحاصلين على المنحة .

ففي العام المذكور قدمت الانروا ٢٨٨ منحة جامعية لطلبة من غزة منها ١٤ منحة للطالبات اي ٥٪ فقط من مجموع المنح . وينطبق الوضع نفسه على الاقطار الاخرى . ففي العام المذكور قدمت الانروا ١٠٨٨ منحة جامعية للطلبة الفلسطينيين في المناطق الاربع المضيفة ، كان منها ٨٧ منحة للطالبات اي بنسبة ٨٪ فقط(١١١). أما بالنسبة لعدد الطالبات في مراحل التعليم الثلاث فلا تتوفر لدينا معلومات حول قطاع السكان الاصليين الا لفترة محدودة وهي تنحصر بين عامي ٥٣ و ٥٩ . ففي عام ٥٦ كان في المدارس الرسمية ٨٣٨٤ طالبا وطالبة في المرحلة الابتدائية منهم ٢٣١٧ طالبة اي ٢٧٪ من مجموع طلاب المرحلة . وفي المرحلة الاعدادية كان هناك ٩٧٧ طالبة من اصل ٤٧٤٦ طالبا وطالبة اي بنسبة ٢٠٫٦٪ من مجموع طلاب المرحلة . وفي المرحلة الثانوية كان هناك ٢٠٨ طالبات من اصل ٢٨٠٧ طلاب وطالبات أي بنسبة ٧٫٥٪(١١٢) فقط ، مع ملاحظة ان الطالبات في المدارس الحكومية لسن بالضرورة من السكان الاصليين بل ان بينهن طالبات لاجئات . وفي عام ٥٩ كانت نسبة الطالبات الى مجموع الطلبة كالاتي : ٣٠٪ في المرحلة الابتدائية و ٢٤٪ في المرحلة الاعدادية وفي المرحلة الثانوية ١٥٪ . اما في مدارس الانروا فالجدول رقم ٢٣ يبين تطور عدد الطالبات في المراحل الثلاث:

جدول رقم ٢٣
أعداد ونسبة الطالبات الى الطلاب في غزة(١١٣)

السنة	ابتدائي المجموع	ابتدائي اناث	ابتدائي ٪	اعدادي المجموع	اعدادي اناث	اعدادي ٪	ثانوي المجموع	ثانوي اناث	ثانوي ٪	المجموع المجموع	المجموع اناث	المجموع ٪
٥٥—٥٦	٣٤٥٠٦	١٠٥٤٥	٢٩	٣٣٤٠	٢٠٥	٦	٥٦٤	١٢	٢	٣٨٤١٠	١٠٧٦٢	٢٨
٦٠—٦١	٣٧١٤٧	١٦٧١١	٤٥	٨٦٧٢	٢٢٨٢	٢٥	٥٧٧٠	٩٧٧	١٣٫٥	٥١٥٨٩	١٩٩٧٠	٣٨
٦٤—٦٥	٤١٩٢٢	٢٠٠٤١	٤٧	١٥٣١٥	٧٠٧٤	٤٦	٨٦٢٠	٣٢٦٠	٣٧	٦٥٨٥٧	٣٠٣٧٥	٤٦
٦٩—٧٠	٤٢١٤٧	١٩٧٦٢	٤٦	١٧٠٢٦	٨١٢٧	٤٧٫٦	٧٥٦٨	٣٧١٤	٤٨	٦٦٧٤١	٣١٦٠٣	٤٧٫٣

وهكذا نلاحظ الزيادة المطردة في عدد الطالبات حتى أصبحت نسبة الطالبات الى مجموع الطلبة تكاد تصل الى النصف في السنوات الاخيرة. فقد ارتفعت هذه النسبة من ٢٨٪ عام ٥٦ الى ما يزيد على ٤٧٪ عام ١٩٧٠ . وهذه الزيادة العامة هي انعكاس لازدياد عدد الطالبات في المراحل التعليمية الثلاث . ففي المرحلة الابتدائية ارتفعت نسبة الطالبات الى مجموع طلاب المرحلة من ٢٩٪ عام ٥٦ الى ٤٦٪ عام ١٩٧٠ . وفي المرحلة الاعدادية ارتفعت هذه النسبة من ٦٪ فقط عام ٥٦ الى حوالي ٤٨٪ عام ٧٠ . اما في المرحلة الثانوية فقد كانت نسبة الطالبات الى مجموع الطلاب مجرد ٢٪ عام ٥٦ وارتفعت الى ٤٨٪ عام ٧٠ ، أي ان الزيادة في المرحلة الثانوية كانت اعلى من الزيادة في المرحلتين الاعدادية والابتدائية ، وهذا يدل على مدى اقبال الفتاة على التعلم ، وتخطي العديد من العوامل الاجتماعية التي كانت تدفع الاهل لاخراج بناتهم من المدارس في سن معينة هي في العادة دون المرحلة الثانوية ، خاصة وان ٣٠٪ من طلاب المرحلة الثانوية في غزة تتراوح أعمارهم بين ١٨ — ٢٠ سنة(١١٤). واذا ما نظرنا الى نسبة الطالبات الى من هن في سن

التعليم من الاناث لرأينا ان هذه النسبة لا تختلف كثيرا عن نسبة الطلاب الى من هم في سن التعليم من الذكور . ففي عام ٦٩ — ٧٠ كانت نسبة الطالبات الى من هن في سن الخامسة عشرة تساوي ٥٧٫٨٪ وهي اعلى من نسبة الطلاب الى الذكور في هذه السن حيث كانت ٥٣٪ . وفي سن السادسة عشرة كانت نسبة الطالبات الى الاناث تساوي نسبة الطلاب الى الذكور . وفي سن السابعة عشرة كانت نسبة الطالبات تساوي ٤٩٪ من الاناث ونسبة الطلاب ٥٢٫٧٪ من الذكور . وفي سن الثامنة عشرة كانت نسبة الطالبات ١٩٫٥٪ ونسبة الطلاب ٢٦٫٨٪ الى من هم في سن التعليم. وفي سن العشرين كانت نسبة الطالبات ٢٫٥٪ ونسبة الطلاب ٤٫١٪[115]. وهذه نسبة عالية اذا قورنت بغيرها في مدارس المناطق الاخرى التابعة للانروا كما يتبين من الجدول رقم ٢٤ :

جدول رقم ٢٤

نسبة الطالبات في مدارس الاونروا الى من هن في سن الدراسة[116]
في عام ٦٩/٧٠

العمر	غزة الطالبات	٪ الى الاناث	الضفة الشرقية الطالبات	٪ الى الاناث	الضفة الغربية الطالبات	٪ الى الاناث	لبنان الطالبات	٪ الى الاناث	سوريا الطالبات	٪ الى الاناث
١٥	١٨٣٧	٥٧٫٨	١٦٩١	٣٦٫٦	٩٠٦	٣٥٫٢	٧٠٥	٤٣٫٢	٩٢٠	٥٥٫٣
١٦	١٧٠٧	٥٣٫٤	١٠٠٨	٢٣٫٤	٦٨٢	٢٨٫٥	٤٨٥	٢٨٫٧	٧٠٨	٤٤٫٩
١٧	١٤٠٤	٤٩٫٣	٦٨١	١٥٫٦	٤٧٧	١٩٫٥	٢٨٩	١٨٫٠	٤٩٣	٣٠٫٩
١٨	٦٥٥	١٩٫٥	٢٤٨	٥٫٥	٢٣٧	٩٫٤	١٥١	٩٫٢	٢٠٦	١٥٫٤
١٩	٢٤٩	٦٫٤	٧٦	١٫٢	١١٢	٣٫١	٨٤	٦٫٢	٨١	٥٫٣
٢٠	٨٧	٢٫٥	٣٠	٠٫٦	٤٠	١٫٢	٣٩	٣٫١	٢٤	٢٫٣

ويلاحظ من الجدول ان نسبة الطالبات الى من هن في سن الدراسة من الاناث ، هي في غزة اعلى منها في المناطق الاخرى ما عدا النسبة في سن العشرين اذ تزيد نسبة الطالبات في لبنان عنها في غزة . ففي سن السادسة عشرة مثلا تبلغ النسبة في غزة ٥٣٪ وفي سوريا ٤٤٪ اما في الاردن ولبنان فهي اقل من ٣٠٪ . وفي سن ١٨ تبلغ النسبة في غزة ١٩٫٥٪ وفي سوريا ١٥٫٤٪ وفي كل من الاردن ولبنان اقل من ١٠٪ . وبمقارنة نسبة الطالبات الى الطلاب في غزة بواقع الحال في الدول العربية نلاحظ الفرق لصالح غزة كما يتبين من الجدول رقم ٢٥ :

جدول رقم ٢٥

نسبة الطالبات الى الطلاب في مدارس الاونروا والدول العربية[117]
في عام ١٩٦٧

المرحلة	الدول العربية مصر	الاردن	سوريا	لبنان	الاونروا غزة	الاردن	سوريا	لبنان
الابتدائية	٣٩	٤٣	٣٣	٤٥٪	٤٧	٤٥	٤٤	٤٥
الاعدادية	٣١	٣١	٢٣	٣٨	٤٨	٢٤	٣٦	٣٣
الثانوية*					٤٦	٢٢	٣١	٢٢

* تجدر الملاحظة اولا ان نسبة الطالبات الى مجموع طلاب المرحلة — المقابلة للمرحلة الاعدادية — في الدول العربية في الجدول ، هي نسبة الطالبات في المرحلتين الاعدادية والثانوية معا اذ يقسم التقرير الصادر عن المركز الاقليمي والذي اعده مكتب اليونيسكو في باريس ، التعليم ما قبل الجامعي الى مرحلتين : الاولى وهي الابتدائية ، والثانية وهي الاعدادية والثانوية . كما تجدر الملاحظة الى ان هذه النسبة تشمل فقط التعليم العام ، ولا تشمل التعليم المهني وتدريب المعلمين . ونلاحظ

من الجدول ان نسبة الطالبات الى مجموع الطلبة هي في غزة اعلى منها في مدارس الدول العربية ، وفي مدارس الانروا في البلاد العربية الاخرى على حد سواء . ويبدو الفرق واضحا تماما في المرحلتين الاعدادية والثانوية . ففي غزة تبلغ النسبة ٤٨٪ في المرحلة الاعـدادية وفي مدارس الانروا الاخـرى أقـل من ٣٥ ٪ . وفي المرحـلة الثانويـة تبـلغ النسبة في غزة ٤٦٪ وفي مدارس الانروا الاخـرى اقل من ٣٠٪ . بينما نلاحظ في الدول العربية ان أعلى النسب كانت في لبنـان ، حيث بلغت نسبة الطالبات الى مجموع الطلبة من الذكور والاناث ، في المرحلتين الاعدادية والثانوية ٣٨٪ ، واقلها في سوريا حيث كـانت ٢٣٪ ، اما في كـل من مصر والاردن فكانت ٣١٪ ، وهي اجمالا اقل منها في غزة بكثير .

بعض المشاكل الناجمة عن الاحتلال

يهمنا في هذا المجال ان نشير الى بعض المشكلات المتعلقة بالتعليم مباشرة والتي نجمت عن الاحتلال الاسرائيلي عام ١٩٦٧ . ويمكن ايجاز هذه المشاكل بمـا يلي : أ ــ النـزوح ، ب ــ الاجـراءات العسكريـة ، جـ ــ الامتحانات ، د ــ الكتـب المدرسية :

أ ــ **النزوح** : يقول المدير العام للانروا في تقريره الى الجمعية العامة للامم المتحدة عام ١٩٦٨ أن نتيجـة الاعمـال العدائية في غزة كانت مؤلمـة ومتواصلة ، وتأثرت خدمات الوكالة بنتائج الحوادث واجراءات «الامن» مثل منع التجول والاستجوابات والتوقيف وهدم البيوت . ويقدر التقرير نفسه ان بين ٤٠ ــ ٤٥ الف لاجيء مسجل لدى وكالة الغوث قد غادروا القطاع[١١٨]. ان الاثر المباشر والاولي لمثل هـذا النزوح هو انخفـاض عدد الطلبـة في المدارس كما يتبين من الجدول رقم ٢٦ :

جدول رقم ٢٦

اعداد الطلبة اللاجئين منذ الاحتلال الاسرائيلي[١١٩]

السنة	ابتدائي	اعدادي	ثانوي	المجموع
٦٦–٦٧	٤١٩٦٩	١٦٩٥٦	٨٢٦٤	٦٧١٨٩
٦٧–٦٨	٣٨٨٠٠	١٣٥٩٩	٤٣١٥	٥٦٧١٤
٦٨–٦٩	٣٩٨٥٨	١٥٩٣٦	٨٠٣٨	٦٣٨٣٢
٦٩–٧٠	٤٢١٤٧	١٧٠٢٦	٧٥٦٨	٦٦٧٤١

ويلاحظ من الجدول ان مجموع عدد الطلبة عـام ٦٩ ــ ٧٠ كان ٦٦،٧٤١ طالبا ، أي انه ما زال دون ما كان عليه قبل الاحتلال في عام ٦٦ ــ ٦٧ . كما يلاحظ ان عدد الطلبة انخفض في العام التالي للاحتلال بحوالي عشرة الاف طالب وطالبة . وهذا الرقم يتناسب مع عدد الذين غادروا القطاع نتيجة الاحتلال . ففي عام ٦٧ كان عدد السكان اللاجئين ٣١٦ الفا وعدد الطلبة ٦٧ الفا اي بمعدل ٢١٢ بالالف . واذا ما اعتمدنا هـذه النسبة نجد ان الـ ٤٥ الف لاجيء الذين غادروا القطاع يجب ان يكون من ضمنهم حوالي عشرة الاف طالب .

ب ــ **الاجراءات العسكرية** التي اتخذتها وتتخذها سلطات الاحتلال عديدة وكذلك تأثيراتها . فعلـى صعيد المدارس تعرضت مئة المدرسة التابعـــة للانروا الى الدمار والسرقة بدرجـات متفاوتة . وقدرت الخسائر بـ ٢٢٠ الف دولار ، كما دمرت مدرسة في رفح تدميرا كاملا[١٢٠]. كذلك اقفل معهد بيت حانون لتدريب المعلمـين بعد استيلاء قوات الاحتلال عليه . وعلى صعيـد المعلمين واجهت المـدارس مشكلة خـاصة . فعند بدء العـدوان الاسرائيلي كانت المدارس مقفلة، وكان حوالي ١٨٠ معلما قد غادروا القطاع لتأدية امتحاناتهم الجامعية في مصر بالدرجة الاولى . وقامت سلطات الاحتلال بابعاد ٤٨ معلما وقتل ستة معلمين اثناء العدوان ، كما ترك العمل بعد العدوان مباشرة او اثناء السنة الدراسية ٤٠ معلما اخر ، فاصبح بذلك ٢٧٤ معلما خارج المدارس[١٢١]. وقد بذلت الوكالة جهودا أدت في النهاية الى السماح لمعظم المعلمين الذين كانوا في القاهرة بالعودة الى القطاع[١٢٢]. ويقول تقريـر المندوب العـام للانـروا لعـام ٦٩ ان الاضطرابات بدأت في غزة في اكتوبر ٦٨ اي بعد افتتاح المدارس مباشرة واستمرت طوال العام . وهـذه الاضطرابات تمثلت في التظـــاهــرات والاضطرابـات ومنع التجول واغلاق المـدارس واعتقال افـراد الهيئة التعليمية والطلاب[١٢٣]. ويذكر التقرير انه بين شهر تموز ٦٨ واخر تموز ١٩٦٩ اعتقل ٥٤ موظفا من موظفي الانروا واودع ٤٠ منهم السجن لفترات مختلفة بدون محاكمة[١٢٤]. ويذكر تقرير المندوب العام للانروا لعام ١٩٧٠ انه خلال سنة بدءا من تموز ٦٩ اعتقل ٥٧ موظفا من موظفي الوكالة دون ان توجه اليهم اية تهمة . وفي ١٧ كانون الاول ٦٩ أخذ اثنان من موظفي الوكالة هما مدير التعليم العام ومدير احدى المدارس ، الى صحـراء سيناء ، ورغم مراجعـة الوكالـة

بشأنهما الا انها لم تتلق معلومات كافية عن سبب هذا الاجراء(١٢٥)، وبالطبع ما زالت هذه الاعمال مستمرة حتى الان . ويقول المندوب العام للوكالة في تقريره للعام ٧١ انه جرى خلال العام عدة انتهاكات لحرمة مراكز الوكالة ، وقامت السلطات الاسرائيلية مرات عديدة باستخدام مدارس الوكالة مراكز لتفتيش اللاجئين ، كما قامت بمداهمة انشاءات الوكالة بدون ترخيص(١٢٦).

جـ ـ **الامتحانات** : ان مشكلة الامتحانات التي نجمت بعد الاحتلال الاسرائيلي عام ٦٧ تتعلق بطلبة الشهادة الثانوية العامة . فقد وقع العدوان قبل بدء امتحانات هذه الشهادة . والمشكلة التي نشأت هي ان الطلاب الذين ينهون المرحلة الثانوية لا يستطيعون متابعة دراستهم الجامعية ما لم يحصلوا على الشهادة الثانوية العامة ، كما ان الحكومات العربية لا تعترف بالشهادة المحلية في ظل الاحتلال. وكانت السلطات المحلية قد اجرت امتحانا عاما في يناير (كانون ثاني) ٦٨ الا انه لم يعترف به(١٢٧). وقد استطاع حوالي ٥٠٠ طالب الوصول الى الاردن في حزيران ١٩٦٨، وتقدموا لامتحان الشهادة الثانوية العامة (التوجيهية المصرية) ، الا ان المشكلة ظلت قائمة حتى صيف ١٩٦٩ ، اذ نجحت اليونسكو في تنظيم هذه الامتحانات في غزة في شهر اب من ذلك العام . ومنذ ذلك الحين تشرف اليونسكو على الامتحانات بالتشاور مع حكومتي مصر واسرائيل ، وتسلم السلطات المصرية اوراق الاسئلة واوراق الاجابة الى اليونسكو ، كما تعيد اليونسكو اوراق الامتحانات الى السلطات المصرية للتصحيح . ويشرف على الامتحانات مباشرة معلمون من مدارس الوكالة والمدارس الرسمية تحت امرة فريق من الخبراء الدوليين من اليونسكو والانروا (بلغ عددهم في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ١٠٠٠ معلم و ٢٨ خبيرا دوليا معينين من قبل المدير العام)(١٢٨). وتقدم وزارة التعليم العالي المصرية في كل عام ١٠٣٠ منحة جامعية لافضل الطلبة الناجحين في الامتحانات ، ويقوم الصليب الاحمر بنقل هؤلاء عبر قناة السويس ، كما تتعهد وزارة الدفاع الاسرائيلية بالسماح لهم بالعودة في اثناء العطلة الصيفية(١٢٩).

د ـ **الكتب المدرسية** : بعد العدوان الاسرائيلي اعترضت السلطات الاسرائيلية على الكتب المدرسية التي تدرس في مدارس الانروا بحجة ان هذه الكتب تعطي صورة مشوهة عن التطورات التي أدت الى قيام اسرائيل وعن الوضع الذي تلا قيامها ، كما انها تعمل على غرس كراهية اسرائيل في أذهان الاطفال الذين يستعملونها . ثم قامت هذه السلطات بمنع معظم الكتب المستعملة في مدارس غزة(١٣٠). وقد رفعت الانروا الامر الى اليونسكو ، المسؤولة عن النواحي الفنية للتعليم في مدارس الانروا . وفي ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ٦٧ اجتمع المجلس التنفيذي لليونسكو في باريس واصدر بالاجماع قرارا خول بموجبه المدير العام لليونسكو ان يتعاون مع الانروا لمتابعة تأمين التعليم للاجئين في المناطق المحتلة وخارجها ، على اساس مبادىء القانون الدولي المتعلق بالاراضي المحتلة ، وعلى اساس مبادىء معينة تتضمن المثل الاخلاقية الواردة في دستور اليونسكو ، واعلان حقوق الانسان ، والحق الاولي للاهل في اختيار نوع الثقافة التي تعطى لابنائهم ، واحترام التقاليد الوطنية والدينية واللغوية ... الخ(١٣١). وتم الاتفاق بعد ذلك بين المدير العام لليونسكو والمندوب العام للانروا على ان تستمر الانروا ، كاجراء مؤقت ، في استعمال الكتب المدرسية ، التي كانت مستعملة انذاك ، باستثناء الكتب التي حظرتها سلطات الاحتلال في المناطق المحتلة ، ولكن على ان تؤجل الوكالة استعمال اية كتب جديدة قد تبدو متعارضة مع القرار الى ان يتم التدقيق في محتواها على ضوء المبادىء الواردة في القرار . ولقد اثار ذلك احتجاج الحكومات العربية ، وعاد المجلس التنفيذي لليونسكو في شهر ايار ـ حزيران ٦٨ واصدر قرارا جديدا اكد على المبادىء الواردة في القرار السابق ، ووافق على الخطوات التي اتخذها المدير العام ، وخوله متابعة جهوده لتشكيل بعثة من الخبراء تقوم بمراجعة الكتب المدرسية المستعملة في مدارس الانروا ـ يونسكو ، ومن ثم ترفع توصياتها للمدير العام ، من اجل الحصول على موافقة الحكومات المعنية وتعاونها . وقامت الانروا باصدار مذكرات خاصة للتدريس في المناطق المحتلة ، اعدها في معهد التربية التابع للانروا ـ يونسكو خبراء في دائرة التعليم في الانروا في بيروت ، على اساس الكتب التي كانت تستعمل في السابق(١٣٢). لكن المشكلة استمرت ، وبحث المجلس التنفيذي لليونسكو الامر مرة اخرى في تشرين الاول (اكتوبر) ٦٩ ، واتخذ قرارا (بموافقة ٢٧ صوتا ضد صوت واحد وامتناع ٤) دعا حكومة

اسرائيل الى القيام فورا بازالة اية عقبات تعترض استيراد الكتب المدرسية التي وافق عليها المدير العام واستعمالها . وبعد ذلك قدم المدير العـــام لليونسكو تقريرا الى المجلس التنفيذي في دورتـــه التالية افاد بان الاردن وافق على التغييـــرات المقترحة في بعض كتبه المدرسية ، وعلى ادخـــال هذه التغييرات في الكتب المقررة لعام ٧٠/١٩٧١ . وان الجمهورية المتحدة أعطت تأكيدات مماثلة ، مع استمرار سوريه على موقفهـــا ، حيث رفضت في السابق تشكيل لجنة « الخبراء المحايدين » علـــى اعتبار ان ذلك يشكل تجـــاوزا لســــــــــيادتهـــا الوطنية(١٢٣). وفي شهر ايار (مايو) ١٩٧١ ابلغ المـــدير العام لليونسكو المجلس التنفيـــذي ، ان اسرائيل قد سمحت بادخال ٥١ كتابا الى قطـــاع غزة وذلك من اصـــل ٥٨ كتابا اوصى بها(١٢٤). وهكذا يتضح ان المشكلة ما زالت قائمة .

خـــلاصة

اكد هذا الاستعراض لبعض قضايا التعليم في غزة عددا من النقاط اهمها :

١) ضيق المجال الاقتصادي في القطاع اساسا ، اي قبل نكبة عام ٤٨ . وازدادت هذه المشكلـــة بشكل حاد اثر النكبة حيث فقــدت معظم اراضي القطاع الزراعية ، كما شكل تدفق اللاجئين اليـــه ضغطا سكانيا هائلا على موارده الذاتية المحدودة. وتؤكـــد نسبة البطالـــة المرتفعة (بين السكـــان الاصليين واللاجئين) هذه الازمة .

٢) وأمام هذا الوضع ، يبرز التعليم — بشقيـــه الفني والعام — كحل اساسي للمشكلة . فالتدريب الفني المتخصص والمتقدم يمكن ان يساهم في ايجاد مشاريع وورش صناعية متخصصة ، تستوعب اليد العاملة من جهة ، وتصدر انتاجها للخارج ، ممـــا يساعد على تنمية الوضع الاقتصادي في القطاع . كما ان مثل هذا التدريب يمكن ان يساهم في تطوير ورفـــع الانتاجية الزراعية عـــلى الرغم من صغر ومحدودية الرقعة الزراعية في القطاع . كذلك فان التعليم العالي ، وخاصة الجامعي ، يمكن ان يوفر للشباب سلاحا للمنافسة وتأمين العمل في الخارج ومن ثم رفع مستوى المعيشة لديهم .

٣) وهناك عدد من الظواهر تعكس ادراك اهالي القطاع لاهمية التعليم وضرورته كحل لمشاكلهم مثل: ارتفاع نسبة الاقبال على التعلم في مختلف المراحل، والارتفاع الملحوظ في اقبال الفتيات على التعلم في شكل خاص ، مما يعكس بالاضافة الى ذلك تغيرا في المفهوم الاجتماعي لدور المرأة في المجتمع . وكذلك انخفاض نسبة التسرب بين الطلاب ، اي الذين ينقطعون عن متابعة دراستهم ، قياسا بمن ينقطعون عن متابعة الدراسة في مناطق تجمع الفلسطينيين الاخرى .

٤) ومع ذلـــك فواقـــع التعليم في غزة هـــو دون المستوى المطلـــوب بكثير ، وعاجز عن تأدية دور ملموس في تنمية القطاع وحل مشكلاته . فالتدريب المهني محدود بحجمه ومستواه ، وهو على سبيل المثال اقل مستوى منه في الدول العربية المضيفة ، في حـــين يفترض العكس ، كذلك لا يوجد مركـــز للتدريب المهني النسوي ، برغم اقبال الفتاة على التعلم وارتفاع نسبة الطالبات في المرحلة الثانوية. والتعليم الذي تؤمنه وكالة الغوث لابناء اللاجئين لا يتعدى المرحلة الاعدادية ، وقد يكون ذلك سببا في انخفاض نسبة الطلاب في المرحلة الثانوية الى من هم في سن الدراسة ، كما لاحظنا في البحث .

٥) ان وضع القطاع الخاص يفترض ان ينال التعليم بشقيه — الفني والعام — اهتماما خاصا ، وان يؤمن لابناء القطاع مستوى من التعليم والتدريب، لا يقل ، ان لم يفق ، المستوى المتوفر في الـــدول العربية . هذا اذا اريد للتعليم في القطاع ان يكون موضوعا رئيسيا في خطة تنمية القطاع وتوفير فرص العمل لابنائه ورفع مستوى المعيشة لديهم .

١ — المركز الاقليمي لتدريب كبار موظفي التعليم في الدول العربية ، **بحوث الموفدين** ، رقم ٣ ، ١٩٦٣ — ٦٤ ، ص ٩ .

٢ — لم تعط الجمعية العامة تعريفا « للاجيء الفلسطيني » ولكن تعريفا عمليا من قبل مدير الانروا عمل به آنذاك ، وخضع التعريف نفسه لتطويرات فيما بعد ، وكان التعريف العملي الذي وضع عام ١٩٥٠ والذي يحدد الشخص الجدير بالمساعدة ينص على ما يلي : « اللاجيء هو الشخص الذي كانت فلسطين موطنه الطبيعي لاكثر من عامين سبقا مباشرة نشوب النزاع في سنة ١٩٤٨ ، والذي نتيجة هذا النزاع فقد بيته وسبب معاشه » . وقد استثنى هذا التعريف الضيق اكثر من ٢٠٠ ألف شخص معوز من بين

المقيمين الدائمين في قطاع غزة وقرى الحدود في الاردن وبعض القبائل البدوية وهم اشخـاص فقدوا اسباب معاشهم دون ان يفقدوا بيوتهم . راجع : جون ديفز ، **السلام المراوغ** ، ترجمة محمود فلاحة ، مكتبة اطلس ، دمشق ، ص ٦٧ .

٣ — U.N.R.W.A. P.R. *Statistical Bulletin*, May - June 1951, p. 19.

٤ — الانروا ، **تقرير المندوب العام** ، ١٩٦٧ ، ص ٦٠ .

٥ — الانروا ، دائرة التعليم ، **تقرير عن سير العمل للعام الدراسي ٦٦ — ٦٧** ، ص ٤٨ .

٦ — راجع **كتاب الاحصاء السنوي** ، الانروا ، دائرة التعليم ، ٦٨ — ٦٩ ، ص ٩ .

٧ — الانروا ، دائرة التعليم ، **الموجز الاحصائي ٦٩ — ٧٠** ، ص ١٦ .

٨ — راجع **الموجز الاحصائي الاسرائيلي للاعوام ٦٧ — ٧١** .

٩ — **الانروا** ، **تقرير المندوب العام** ، ١٩٦٨ ، ص ٧ .

١٠ — **المصدر نفسه** ، ص ٥ .

١١ — محمد علي خلومي ، **التنمية الاقتصادية في قطاع غزة ١٩٤٨ — ١٩٦٦** ، القاهرة ، ١٩٦٧ ،

١٢ — الانروا ، دائرة التعليم ، **الموجز الاحصائي للعام ٦٩/٧٠** ، ص ١٦ .

١٣ — **الموجز الاحصائي السنوي لاسرائيل** ، ١٩٦٩ ، ص ٦٣٣ .

١٤ — محمد علي خلومي ، **المصدر نفسه** ، ص ٥٧ .

١٥ — محمد علي خلومي ، **المرجع السابق** ، ص ٤٣ — ٤٤ .

١٦ — B. Todd, *Human Resources, Beirut*, Nov. 1954, pp. 7-8.

١٧ — محمد علي خلومي ، **المصدر السابق** ، ص ٦٥ .

١٨ — **المصدر السابق** ، ص ٦٢ — ٦٤ .

١٩ — من اجل ذلك كتبنا ، في مركز الابحاث ، الى مكتب ادارة الحاكم الاداري العام لقطاع غزة في القاهرة اكثر من مرة نطلب تزويدنا بهذه الاحصاءات الا اننا للاسف لم نتلق أي جواب .

٢٠ — محمد علي خلومي ، **المصدر السابق** ، ص ٥١ — ٥٣ . وبالنسبة للطلاب : **المصدر ذاته** ، ص ٢٩٤ .

٢١ — ارقام الطلاب الخاصة باللاجئين مأخوذة من **التقارير السنوية للمندوب العام في السنوات** المذكورة .

٢٢ — النسبة مستخرجة من **الكتاب السنوي للاحصاءات العامة** ، ج. ع. م ، ١٩٧٠ ، ص ١٩ و١٨٠ — ١٨٣ .

٢٣ — النسبة مستخرجة من **المجموعة الاحصائية لعام ١٩٦١** ، وزارة التخطيط ، سوريا ، ص ٢٢ و٧١ .

٢٤ — المركز الاقليمي لتخطيط التربية وادارتها في البلاد العربية ، **بحوث** رقم ٢ ، ١٩٦٨ — ٦٩ ، ص ٦ و١١ .

٢٥ — هذه الارقام الخاصة بمجموع عدد الطلاب في مختلف المراحل مأخوذة من **نشرة الاحصائيات الرسمية** الصادرة عن ادارة الحاكم الاداري العام للقطاع ١٩٥٥ — ١٩٥٨ .

٢٦ — الارقام الخاصة بالطلبة اللاجئين مأخوذة من **التقارير السنوية للمندوب العام للانروا** .

٢٧ — الارقام الخاصة بالعام ٦٧ مأخوذة من **تقرير دائرة التعليم عن سير العمل للعام ٦٦/٦٧** ، الانروا ، ص ٤٨ و٥٩ . اما الارقام الخاصة بطلبة السكان الاصليين فهي حاصل طرح الطلبة اللاجئين من عدد مجموع الطلاب .

٢٨ — المركز الاقليمي ، **المصدر السابق** ، بحوث رقم ٢ ، الدورة الطويلة الثامنة ١٩٦٨ — ١٩٦٩ .

٢٩ — الانروا ، دائرة التعليم ، **التقرير الاحصائي للعام الدراسي ٦٦ — ٦٧** ، ص ١٤ .

٣٠ — النسبة مستخرجة من كتاب **المؤشرات الاحصائية** ، ل. ج. ع. م. ٥٢—٦٩ ، و١٩٧٠ ، ص ١٠ و١٥٥ .

٣١ — عدد السكان عام ٥٦ مأخوذ من **النشرة الاحصائية الرسمية** ، الحاكم الاداري العام للقطاع ، المصدر السابق .

٣٢ — سكان القطاع الاجمالي مأخوذ من **تقرير عن سير العمل** للعام ٦٦/٦٧ — **الانروا** — ص ٤٨ . اما عدد اللاجئين ضمن **تقرير المندوب العام** وكما كان هذا العدد في منتصف ١٩٦٦ . **تقرير المندوب عام ٦٦** ، ص ٦١ .

٣٣ — **المصدر السابق** .

٣٤ — اعداد السكان والطلاب بحسب السن ، الانروا ، **المصدر السابق** . اما عدد الطلاب الثانويين فيشمل ايضا طلاب مركز التدريب المهني ومعهد المعلمين— **تقرير عن سير العمل ٦٦—٦٧** ، دائرة التعليم ، ص ٥٩ .

٣٥ — المركز الاقليمي ، **المصدر السابق** ، دورة ٦٨ — ٦٩ رقم ١٤٢١ ، ص ١ ، ٦ ، ٧ .

٣٦ — **المصدر نفسه** ، بحوث ٢ ، رقم ١٤٢٢ ، ص ٩ .

٣٧ — **المصدر نفسه** ، بحوث ، رقم ١٤٣٤ ، ص ٣ ، ١٦ .

٣٨ — **المصدر نفسه** ، بحوث ، رقم ١٣٩٥ ، ص ١٣ .

٣٩ — الانروا ، دائرة التعليم ، **تقرير عن سير العمل** ٦٦/٦٧ ، ص ٤٧ — ٤٨ .

٤٠ — الانروا ، دائرة التعليم ، **الموجز الاحصائي** ٦٩ — ٧٠ ، ص ٩ .

٤١ — U.N.R.W.A., *Progress Report,* 67-78, p. 63.

٤٢ — الانروا ، دائرة التعليم ، **الموجز الاحصائي** ٦٩ — ٧٠ ، ص ١٠ .

٤٣ — المركز الاقليمي ، **بحوث** ، الدورة الطويلة ، المصدر السابق ، ص ٣ .

٤٤ — الانروا ، دائرة التعليم ، **تقرير عن سير العمل** للعام ٦٦ — ٦٧ ، ص ٥٥ — ٥٦ .

٤٥ — الانروا ، دائرة التعليم ، **الموجز الاحصائي** ٦٩ — ٧٠ ، ص ١٢٢ .

٤٦ — الانروا ، **تقرير المندوب لعام ١٩٧٠** ، ص ٨٣ .

٤٧ — الانروا ، دائرة التعليم ، **تقرير عن سير العمل** ٦٧ — ٦٨ ، ص ٦٣ .

٤٨ — الانروا ، دائرة التعليم ، **الموجز الاحصائي** ٦٩ — ٧٠ ، ص ١٣٩ .

٤٩ — الجهاز المركزي للتعبئة العامة والاحصاء ، **المؤشرات الاحصائية لـ ج. ع. م. ٥٢ — ٦٩** ، ١٩٧٠ ، ص ١٥٥ — ١٥٧ .

٥٠ — المركز الاقليمي ، **بحوث** ، الدورة الطويلة ، ص ١١ . وهذه الارقام مقتصرة على طلبة المدارس الرسمية فقط .

٥١ — **المصدر السابق** ، من رقم ١٤٣٤ ص ١٠ — التعليم الرسمي فقط .

٥٢ — الانروا ، **تقرير المندوب العام** ، ١٩٦٨ ، ص ٣١ .

٥٣ — رسالة من غزة . تذكر الارقام الاسرائيلية ان المدارس الرسمية في القطاع وشمال سيناء كانت عام ٦٩ ، ٧٥ مدرسة تضم ٤٤١٨٦ طالبا وطالبة بالاضافة الى ١١ مدرسة اخرى فيها ١٢٤٢ طالبا وطالبة . راجع : **الموجز الاحصائي الاسرائيلي** ، ١٩٧٠ ، ص ٦٤١ .

٥٤ — الانروا ، **الموجز الاحصائي** ٦٩ — ١٩٧٠ ، ص ٢٩ — ٣٠ .

٥٥ — الانروا ، **الموجز الاحصائي** للعام الدراسي ٦٩ — ٧٠ .

٥٦ — **المصدر السابق** ، ص ٣٦ .

٥٧ — **المصدر السابق** ، ص ٧٤ .

٥٨ — **المصدر السابق** ، ص ٣٩ .

٥٩ — **المصدر السابق** ، ص ٧٧ .

٦٠ — **المصدر السابق** ، ص ٣٨ و٧٦ .

٦١ — **المصدر السابق** ، ص ٣٧ و٧٥ .

٦٢ — **المصدر السابق** ، ص ٤٥ .

٦٣ — **المصدر السابق** ، ص ٨٣ .

٦٤ — الانروا ، **تقرير عن سير العمل** للعام ٦٦ — ٦٧ ، ص ١٦ .

٦٥ — **المصدر السابق** ، ص ١٦ — ١٧ .

٦٦ — بالنسبة للارقام الخاصة بالعام ٦٦/٦٧ ، انظر تقرير عن سير العمل للعام المذكور ، **المصدر السابق** ، ص ١٦ .

٦٧ — **المصدر السابق** ، ص ١٨ .

٦٨ — **المصدر السابق** ، ص ١٩ .

٦٩ — الانروا ، دائرة التعليم ، **تقرير عن العام الدراسي ٦٩ — ٧٠** ، ص ٩ .

٧٠ — ادارة الحاكم الاداري العام بفلسطين ، **نشرة الاحصائيات الرسمية** ، ١٩٥٣ ، ص ١٩.

٧١ و٧٢ — **المصدر السابق** ، ١٩٥٥ — ١٩٥٨ ، ص ٢٢—٢٣ . ويلاحظ ان هناك فرقا بسيطا بين مجموع عدد الطلاب ومجموع عدد الذكور والاناث والسبب هو عدم تقسيم طلاب المدارس الخاصة الى ذكور واناث . كذلك يلاحظ انخفاض في عدد الطلبة في المرحلة الاعدادية وارتفاع عدد طلبة المرحلة الثانوية وذلك ناجم عن تصنيف مراحل التعليم حيث كان طلبة ما فوق الابتدائي وخاصة لدى الانروا يعبرون في المرحلة الثانوية .

٧٣ — عدد السكان أخذ من **تقرير الانروا عن سير العمل** ، دائرة التعليم ، للعام ٦٦ — ٦٧ وكذلك الطلاب غير اللاجئين في المدارس الرسمية ومعنى ذلك ان العدد المذكور في الجدول لا يشمل طلاب المدارس الخاصة . اما عدد الطلاب اللاجئين فأخذ من **تقرير المندوب العام للانروا** ٦٦ — ٦٧ ، ص ٧٤ .

٧٤ — مؤتمر وزراء التربية والتخطيط الاقتصادي في الدول العربية ، مراكش ١٩٧٠ ، **احصاءات حول التعليم في الدول العربية** ، مكتب الاحصاء

التابع لليونسكو ، باريس ، ص ٤٨ و٥٢–٥٣ .
٧٥ — الانروا ، **تقرير المندوب العام** ، ١٩٥٥، ص ٢٩ .
٧٦ — **المصدر السابق** ، ١٩٦٠ ، ص ١٣ و١٨ .
٧٧ — **المصدر السابق** ، ١٩٦٥ ، ص ٢٣ و٣٢ .
٧٨ — المركز الاقليمي ، **الدورة الطويلة** ، المصدر السابق .
٧٩ — الانروا ، **تقرير المندوب العام** ، ١٩٦٥ ، ص ٢٢ — ٢٣ .
٨٠ — **المصدر نفسه** ، ص ٣٢ .
٨١ — المركز الاقليمي للتخطيط التربوي والادارة ، مكتب اليونسكو ، ١٩٧٠ ، ص ١٣ .
٨٢ — راجع **تقرير المندوب العام للانروا** للعام ١٩٦٠ ، ص ١٧ — ١٨ . وهو لا يميز بين المرحلة الاعدادية والثانوية . وكذلك **تقرير المندوب** للعام ٦٧ ، ص ٧١ — ٧٤ .
٨٣ — المركز الاقليمي لتدريب كبار موظفي التعليم في الدول العربية ، **بحوث الموفدين** رقم ١ للعام ٦١/٦٢ ، ص ٢٥ .
٨٤ — الانروا ، دائرة التربية ، **الموجز الاحصائي** ٦٩ — ٧٠ ، ص ١٩ .
٨٥ — اعداد الطلاب . راجع **تقرير المندوب** للعام ٦٧ ، ص ٧١ .
٨٦ — الارقام الخاصة بالدول العربية مأخوذة من **«احصاءات مقارنة عن التعليم في الدول العربية»** المركز الاقليمي للتحقيق التربوي والادارة ، مؤتمر مراكش ، ص ١٤ . اما عدد الطلاب فهو في المراحل الثلاث وليس في الابتدائي والاعدادي فقط .
٨٧ — المركز الاقليمي للتخطيط التربوي والادارة ، اعداد مكتب الاونيسكو في باريس ، ١٩٧٠ ، ص ١٧ .
٨٨ — المعدلات مستخرجة من الجدول السابق .
٨٩ — الانروا ، دائرة التعليم ، **الموجز الاحصائي** للعام ٦٩ — ٧٠ ، ص ١٩ .
٩٠ — الانروا ، دائرة التعليم، **الموجز الاحصائي**، ٦٩ — ٧٠ ، ص ٢٠ .
٩١ — الانروا ، دائرة التعليم ، **التقرير الاحصائي** لعام ٦٦ — ٦٧ ، ص ١١ **والتقرير الاحصائي** لعام ٦٩ — ٧٠ ، ص ٢٦ .
٩٢ — الانروا ، دائرة التعليم ، **التقرير الاحصائي** للعام الدراسي ٦٦ — ٦٧ ، ص ١١ .
٩٣ — المركز الاقليمي للتخطيط التربوي والادارة، اعداد مكتب الاونيسكو في باريس ، **المصدر السابق** ، ص ١١ .
٩٤ — الانروا ، **التقرير الاحصائي** ٦٦ — ٦٧ ، **المصدر السابق** ، ص ١١ .
٩٥ — الانروا ، **تقرير عن العام الدراسي** ٦٩ — ٧٠ ، ص ٦٤ .
٩٦ — الانروا ، دائرة التعليم ، **التقرير الاحصائي** للعام ٦٦ — ٦٧ ، ص ٤٧ .
٩٧ — الانروا ، دائرة التعليم ، **التقرير الاحصائي** للعام ٦٧ — ٦٨ ، ص ٨٩ .
٩٨ — الانروا ، دائرة التعليم ، **الموجز الاحصائي** للعام ٦٥—٦٦ ، ص ٣٣ .
٩٩ — الانروا ، دائرة التعليم ، **الموجز الاحصائي** للعام ٦٩ — ٧٠ ، ص ٥٧ — ٥٨ .
١٠٠ — الانروا ، **الموجز الاحصائي** للعام ٦٥ — ٦٦ ، المصدر السابق ، ص ٣٦ .
١٠١ — الانروا ، **الموجز الاحصائي** للعام ٦٩ — ٧٠ ، المصدر السابق ، ص ٩٥ — ٩٦ .
١٠٢ — بدءا من نهاية هذا الوضع وضع مخطط اسرائيلي جديد للتهجير في القطاع ، ستظهر نتائجه بدون شك على موضوع التعليم بشكل عام ، وموضوع التسرب بشكل خاص في الفترة القادمة .
١٠٣ — **المصدر السابق** ، اي التقارير الاحصائية الصادرة عن دائرة التعليم في الانروا للسنوات المذكورة .
١٠٤ — المرحلة الاعدادية في لبنان اربع سنوات .
١٠٥ — المركز الاقليمي للتخطيط التربوي والادارة، **المصدر السابق** ، ص : ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٩ .
١٠٦ — مكتب الاونسكو ، **المصدر السابق** ، ص ٦٥ .
١٠٧ — تقرير عن سير **العمل** للعام الدراسي ٦٧ — ٦٨ والميزانية المقترحة للعام ٦٨/٦٩ ، ص ٥٩ — ٦٧ .
١٠٨ — الانروا ، دائرة التعليم ، **تقرير عن سير العمل** للعام ٦٧ — ٦٨ وبرنامج الميزانية المقترحة للعام ٦٨ — ٦٩ .
الارقام بين قوسين تشير الى عدد الطلاب في مدارس الانروا . اما الطلبة الثانويون فيوجدون في المدارس الرسمية والخاصة .
١٠٩ — المركز الاقليمي ، صحيفة **التخطيط التربوي في البلاد العربية** ، عدد خاص ، العدد ١٨ السنة السادسة ، ايلول — كانون الاول

١٩٦٨ ، ص ٣٨ .

١١٠ — النسب مستخرجة من الجدول السابق .

١١١ — الانروا، دائرة التعليم ، **الموجز الاحصائي** للعام ٦٩ — ٧٠ ، ص ١٣١ .

١١٢ — ادارة الحاكم الاداري العام لقطاع غزة ، **نشرة الاحصائيات الرسمية** ٥٥ — ١٩٥٨ ، ص ٢٢ — ٢٣ .

١١٣ — **المصدر السابق**، والانروا، دائرة التعليم، **الموجز الاحصائي** للعام ٦٩ — ٧٠ ، ص : ٤٧، ٨٥ ، ١١٤ .

١١٤ — **المصدر السابق** ، ص ٢٤ .

١١٥ — **المصدر السابق** ، ص ٢٦ .

١١٦ — **المصدر نفسه** .

١١٧ — النسب الخاصة بالدول العربية مأخوذة من تقرير المركز الاقليمي للتخطيط التربوي والادارة ، **المصدر السابق** ، ص ٥٢ — ٥٣ . اما الارقام الخاصة بالانروا فقد استخرجت من التقرير الاحصائي للعام الدراسي ٦٦ — ٦٧ الصادر عن دائرة التعليم .

١١٨ — الانروا ، **تقرير المندوب العام** ، ١٩٦٨ ، ص ٧ — ٨ .

١١٩ — الانروا ، دائرة التعليم، **الموجز الاحصائي** ٦٩ — ٧٠ .

١٢٠ — الانروا ، **تقرير المندوب العام** ، المصدر السابق ، ص ٣١ .

١٢١ — الانروا ، **تقرير المندوب العام** ، ١٩٦٨ ، ص ٣٢ .

١٢٢ — **المصدر نفسه** .

١٢٣ — **المصدر السابق** ، تقرير ١٩٦٩ ، ص ٢٧.

١٢٤ — **المصدر السابق** ، تقرير ١٩٦٩ ، ص ٤ .

١٢٥ — الانروا، **تقرير المندوب العام** لعام ١٩٧٠، ص ٥٥ — ٥٧ .

١٢٦ — الانروا، **تقرير المندوب العام** لعام ١٩٧٠، ص ٩ .

١٢٧ — **تقرير المندوب العام** ، ١٩٦٨ ، ص ٣٢ .

١٢٨ — الانروا ، **تقرير المندوب العام** ، ١٩٧١ ، ص ٣٣ .

١٢٩ — **تقرير المندوب العام** ، ١٩٧٠ ، ١٩٧١ .

١٣٠ — **تقرير المندوب العام** ، ١٩٦٨ ، ص ٩ .

١٣١ — **تقرير المندوب العام** ، ١٩٦٨ ، ص ٩ .

١٣٢ — **المصدر السابق** ، ص ١٠ .

١٣٣ — **تقرير المندوب العام** ، (عربي) ١٩٧٠ ، ص ٤١ .

١٣٤ — **تقرير المندوب العام** ، ١٩٧١ ، ص ٣٢ .

مراجعــات

The New Left and the Jews, edited by Mordecai S. Chertoff.
(Pitman Publishing Corporation, New York, 1971).

لقد كان ظهور حركة اليسار الجديد ونموهـا في الولايات المتحدة الامريكية في النصف الثاني من الستينات ، ومن شسم التزامهـا نهجا مناوئـا للصهيونية ومؤيدا للقضية الفلسطينية بمثابة أول تحد ذي شأن للتأييد والدعم شبه التام الذي كانت تتمتع به اسرائيل ، حتى ذلك الحين ، في الولايات المتحدة الامريكية . وقد خلقت هذه الظاهرة وضعا دقيقا للصهيونية لان حركة اليسار الجديد توجهت الى قطاع الشباب والطلاب في المجتمع الامريكي وجذبت نحوها جانبا كبيرا منه . وازاء ذلك عمـد الصهيونيون ، في سبيل مقاومة هذه الظاهـرة ، الى اصدار العديد من الكتب والمقالات ، ونظموا المؤتمرات والنـدوات الموجهة لقطـاع الشباب والطلاب ، لا سيما اليهود منهم ، لانقاذ سمعـة اسرائيل وصورتها في اذهانهم . والكتاب الذين نحـن بصدد الحديث عنـه هنا هو احدى هـذه المحاولات الصهيونية . فهو اذ يشتمل على تحليـل لمواقف اليسار الجديد من وجهة نظر صهيونية ، يبادر لاعطاء « وصفات » متعددة لكيفية النيـل منه والتشهير به ، ويقدم لقطاع الشباب والطلاب بديلا له يتوافق مع اغراض الصهيونية وأهدافها .

وهذا الكتاب هو عبارة عن مجموعة من ١٦ مقالا ، استخلصت عدة مقالات منها من مادة مؤتمر نظمه في الولايـات المتحـدة في عـام ١٩٧٠ « معهـد المستدروت الامبركي للتبادل الثقافي » . ولا ينتمي أي من كاتبي مقالات هذا الكتاب الى حركة اليسار الجديد ، رغم ان عددا منهم يصفون انفسهم بأنهم يساريون . وقد قام موردخاي شيرتوف ، محرر هذا الكتاب وواضع احدى مقالاته ، بتصنيفه الـى قسمين ، يتناول احدهما بالبحث اليسار الجديـد وحركات الشباب بصورة عامة ، اما القسم الثاني فيتناول بصورة خاصة موقف اليسار الجديد مـن الصهيونية واليهود .

والقسم الاول من هذا الكتاب ، ويتكون من مقالات كتبهـا خمسة من اساتذة الجامعـات والكتـاب البارزين في الدوائر الاكاديمية في الولايات المتحدة الامريكية ، لا يقدم محاولة اصيلة في دراسة حركة اليسار الجديد وعلاقتها بواقع المجتمع الامريكي ولا يعالجها معالجة موضوعية ، بل يشتمل في ثنايـاه على ادانة مغرضة لليسار الجديد ، مشهرا بما يدعوه كاتبوه روحـه الهـدامة ، وجنوحه الى الايمان بدور النخبة وحكمها ، ورفضه للمجتمـع الديموقراطي .

وتجدر الاشارة هنا الى مقالة والتر لاكير الاستاذ المعروف لدى الدوائر الحاكمة في الولايات المتحدة بدراساته حول الشيوعية ، ومن بينها دراسة حول الشيوعية في الشرق الاوسط ، وهي مقالة سبق ان نشرت عام ١٩٦١ ، قبل تبلور حركة اليســار الجديد . ورغم ان مقالته هذه ، وهي بعنوان : « تأملات حول حركات الشباب » لا تتناول بالبحث حركة اليسار الجديد ، فانها ليست بعيدة عـن موضوع الكتاب بسبب ما عقده فيها من مقارنة بين مـزاج الشباب الامبركي وتوجهاتـه الفكريـة في الستينات، وبما كان يسود اوساط الشباب فيالمانيا قبل شيوع النازية . فهذه المقارنة التي لم يثبت والتر لاكير من خلالها اوجه الشبه بين الحالتـين ببراهين ثابتة او وثائق اكيدة ، سرعان ما التقطها العديـد من السياسيين الامريكيين ، ومن بينهـم هنري كيسنجر ، ليتخـذوا منها ذريعـة للتشهير باليسار الجديد .

وفي واقع الامر ، نجد صدى لهذه الفكرة في مقالة اخرى في هذا القسم من الكتاب ، وضعها كاتبها روبرت نسبت في الفترة ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠ ، وتتناول بصورة اكثر تحديـدا وتخصيصا ، حركة اليسار الجديد وتتهمه بخلق ظروف تشابه تلك التي سادت

المانيا قبل شيوع النازية مما قد يؤدي الى ظهور حالة مشابهة في الولايات المتحدة اليوم . ونستطيع القول اجمالا ، ان هذا القسم من الكتاب حول اليسار الجديد بصورة عامة لا يعدو كونه محاولة للتشهير باليسار الجديد بمقارنته وربطه بأحداث ووضعيات لا تمت له بصلة .

اما القسم الثاني من الكتاب ، ويتكون من مقالات بقلم احد عشر كاتبا ، اثنان منهما (تشومسكي وعرنوني) هما على صلة ما باليسار الجديد ، فهو يتضح أيضا بنبرة الادانة لليسار الجديد لا سيما موقفه من الصهيونية واسرائيل . وقد تشذ عن ذلك مقالة « نعوم تشومسكي » بعنوان : « اسرائيل واليسار الجديد » ، والتي تبرىء اليسار الجديد من تهمة اللاسامية التي يصمه بها الصهيونيون . وهو يبين ان اليسار الجديد ، ليس بكامله ، مناوئا للصهيونية ومناهضا لاسرائيل ، ويستطرد تشومسكي قائلا ان ذكرى المجازر النازية ، التي يثيرها الصهيونيون دائما ، لم تعد حافزا حقيقيا للسياسة ، بل ان مأساة الفلسطينيين الحية غدت أكثر أهمية منها . وازاء هذه الوضعية ، يرى تشومسكي أن اليسار الجديد مضطرب وغير سعيد وتسود صفوفه بلبلة فكرية حول هذه القضية . ويخصص تشومسكي الشطر الاكبر من مقالته لاثبات آرائه هذه وذلك من خلال استعراض ما يعده كتابات اليسار الجديد . ويخلص تشومسكي في مقالته الى اقتراح تشجيع ودعم حركات اليسار والسلام في اسرائيل ، والا أصبحت اسرائيل مهددة بالارتباط ارتباطا اوثق بالاوساط العسكرية والشوفينية والامريكية .

أما مقالة البروفسور الاسرائيلي ناثان روتينسترايخ فتنطوي على محاولة لدحض افكار تشومسكي هذه (وكانت قد وردت في مقال سابق له في عام ١٩٦٩) ويهاجمه لاعترافه ، جزئيا ، بحقوق الفلسطينيين ، كما يهاجمه لانتقاده قانون العودة الاسرائيلي معطيا الاولوية في التأكيد على الجرائم النازية باعتبارها أهم من المظالم التي لحقت بالفلسطينيين والتي يثيرها تشومسكي .

وتتناول ثلاث مقالات من القسم الثاني ، بصورة محددة ، تأثير اليسار الجديد على اليهود الامريكيين . وتقدم حلولا متعددة للتصدي له بينهم . فكاتب احدى هذه المقالات الثلاث ناثان غليزر يدحض ما يدعوه نظرية اليسار الجديد الاشتراكية ، ويصر على ان هنالك مصالح يهودية معينة تتجسد ، في نظره ، في « دور اليهود التاريخي » والذي يتمثل في الدأب على استمرار انحسار الاتجاهات المناهضة للسامية ، وفي الالتزام باستمرار وجود اسرائيل . وهو يقول دون ادنى مواربة بما ان اليسار الجديد يعارض جميع هذه المصالح ، فان من مصلحة اليهود وجميع الناس العقلاء ان « يعملوا على اضعاف اليسار الجديد وحصر قوته » (الصفحة ١٥٨) .

وهنالك مقالة اخرى في هذا القسم تعالج الموضوع ذاته ، وان كانت تنحو منحى اكثر ليبرالية من سابقتها وهي بقلم توم ميلشتاين الذي يزعم ان اليسار الجديد قد لا يكون بحد ذاته مناهضا للسامية (باستثناء جماعات سوداء معينة داخلة)، بيد انه جعل مناهضة السامية امرا شرعيا في الحياة السياسية الامريكية بصورة بات يخشى معها ان تلتقط قطاعات اليمين الواسعة حملة مناهضة السامية هذه مما يعرض الحياة اليهودية في امريكا للمخاطر . أما الوصفة التي يصفها للتصدي لليسار الجديد فهي اعادة احياء ائتلاف الاقليات والحركة العمالية الليبرالي الذي كان قائما في الستينات .

ويقدم محرر الكتاب موردخاي تشيرتوف وصفة ثالثة للتصدي لمد اليسار الجديد ، فهو بعد ان يتناول في مقالته ما يدعوه مناهضة السامية في امريكا في اطار تاريخي ثم لدى اليسار الجديد اليوم يؤكد على النمو المتزايد لما يدعوه الجماعات « الصهيونية الراديكالية » التي يعدد كثيرا منها ، معتبرا ان في تشجيع هذه الجماعات ارضاء لنوازع اولئك الذين يودون ان يكونوا صهيونيين وراديكاليين في آن واحد .

أما مقالة مناحيم عرنوني في هذا الكتاب فهي بعنوان : « لماذا يحتاج اليسار الجديد اسرائيل ؟» التي يؤكد فيها يساريته اذ يروي كيف انه بصفته محررا لمجلة « اقلية مكونة من واحد » (مينوريتي أوف ون) ، حمل ، خلال الستينات ، لواء الدفاع عن الثورة والتحرير في كل مكان من كوبا الى فيتنام ولكن في عام ١٩٦٧ بعد ان دافع عن موقف اسرائيل وجد ان اليسار الجديد قد انفض من حوله فانهارت مجلته ، وهو يخلص في مقالته الى نوع من التبرير الذاتي بزعمه ان اليسار يحتاج اسرائيل مثالا يحتذى « للتقدمية بالافعال والاعمال لا بالاقوال »،

وكقدوة للعالم الثالث المضطهد .

لعل من الامثلة النموذجية على الكتابات الصهيونية اليمينية مقالة ماري سيركن في هذا الكتاب . فهي تهاجم اليسار الجديد لدعمه للفلسطينيين وتـركز الاهتمام على الحركة السوداء زاعمة ان مناوأة الفهود السود للصهيونية هي من اعراض مناهضة السامية . وتخلص « ماري سيركن » في مقالتهـا الحافلة بالاحكام الديماغوغية والمغالطات في وقائع تاريخ القضية الفلسطينية الى تأييد فكرة انشـاء كيـان فلسطيني عـلى ضفتي الاردن الغـربية والشرقية .

وختاما لا بد من الاشارة الى مقالة سيمور ليبسيت التي اختـار عنوانـا لهـا « اشتراكية البلهاء » مستعيرا بذلـك تشخيص اوغست بيبل لمناهضي السامية ، ومسبغا اياه على مناهضي الصهيونية. ويرى سيمور ليبسيت ان معارضة اليسار الجديد الدولية لاسرائيل ، ومناوأة الحركات السوداء في الولايات المتحدة للصهيونية تدفعان اليهود اكثـر فاكثر الى مواقع محافظة بل ويمينية ، ولتجنب ذلك يشير بضرورة احياء صورة اسرائيل الاشتراكيـة بالتأكيد على طبيعة نظام الكيبوتزات فيها ، وذلك لنقض تلك الصورة التي تقرن اسرائيل بالاتجاهات اليمينية . وتتردد هذه الفكرة الاخيرة اي فكـرة اعادة احياء صورة اسرائيل الاشتراكية ، في كثير من المقالات في القسم الثاني ، وهي مؤكدة بصورة خـاصة بوضع مقالـة سعدية غلـب بعنوان : « الكيبوتز كمجتمع ثوري » في موقع استراتيجي في نهاية الكتاب . ولا تتناول سعدية غلب في مقالتها ، بأية صورة من الصور ، اليسار الجديد وعلاقته بالصهيونيـة ، بل هي تصـف خبرات الحياة في الكيبوتز مؤكدة على ما تعتبره « طبيعته الثوريـة الاساسية » ، وتخلص من ذلك الى ان الكيبوتز يمكن ان يكون قوام انسجام ووفاق مـع اليسار الجديد في الولايات المتحدة والعناصر التقدمية في شتى الانحاء .

ولعل أشد ما يستحق الملاحظة والتنويه في مجموعة المقالات هذه ما اشتملت عليه من اقتراحات بشأن التصدي للاتجاهات المناهضة للصهيونية في اليسار الجديد . فمن الاقتراحات الموجهة للولايات المتحدة بصورة عامة اعادة احياء الائتلاف الليبرالي بـين الاقليات والحركة العمالية ، اما بالنسبة للشباب اليهودي بصفة خاصة « فالوصفة » هي تشجيع « الصهيونيـة الراديكاليـة » على نمط اليسار الصهيوني . أما علـى الصعيد العالمي فتؤكـد الاقتراحات على ضرورة احياء صورة اسرائيـل الاشتراكية ومحورها الكيبوتز . وتجدر الاشارة الى أن الصهيونيين قـد اخـذوا بهذه الاقتراحـات ويطبقونها فعلا ، فلا يتوانى الصهيونيون عن اغتنام أية فرصة للاتصال بالجماعات السوداء الليبرالية، فعلى سبيل المثال وجهت دعوات لاساتذة الكليات السوداء لزيارة اسرائيل ، وتتكاثر كالفطر الجرائد والجماعات الصهيونية الراديكالية سواء داخـل الجامعات او خارجها وتمولها مصادر صهيونية ، كما ظهر هنالك فيض من الكتابات حول بوروخوف وغير ذلك من كتابات اليسار الصهيوني ، وكذلك حول الكيبوتز باعتباره « نموذجا ثوريا » . وقـد أفلح الصهيونيون بفضل هذه المطبوعـات الكثيرة وبواسطة عقد المؤتمرات واقامة الندوات وتأسيس الجرائد والجماعـات الصهيونية الراديكـالية في استعادة موطىء قدم لهم في الساحة الجامعية ، وليس بوسع الامكانات المحدودة المتوفرة للمقاومة الفلسطينية ان تتصدى لكل هذا الطوفان الدعائي الصهيوني في اوساط الشباب الجامعيين في الولايات المتحدة ، هذا في حين أن الدول العربية ومكاتب اعلامها التي تتوفر لها امكانات جمة توجه جهودها الاعلامية نحو الاوساط الحكومية حيث تقع علـى آذان صماء .

جوليانا سعد

امتثال جويدي : شجرة الصبير
(دار الاتحاد : توزيع دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٢)

« انا شجرة الصبير ، لا يميتني جوع او عطش ، ولا تحرقني شمس او يبللني مطر . وكل عزيمة مغامرة تنتحر فوق اشواكي . من احب الله والوطن حدهما على وجودي ، ومن يهما كفر فانتني بمكر فانتحر !! » بهذه الكلمات تختتم امتثال جويدي روايتها الفلسطينية الاولى « شجرة الصبير » . وامتثال جويدي هي ابنة القضية المتعثرة قبل اي شيء ، ابنة فلسطين . انها وداد ، ابنة يافا التي لا تنسى رمال شواطئها الاسيرة ، ولا تغيب عن بالها ظلال اشجار البرتقال (اليافاوي) الاصفر . ووداد ، ابنة القضية ايضا ، رحلت مع عائلتها عن يافا خلال الهجرة الاولى الى لبنان ، وحملت معها القضية لتنزرع « شجرة صبير » اخرى على امتداد الساحة العربية . ويلاحظ ان الرواية تفسر — في قسم كبير منها — سيرة المؤلفة الذاتية باسماء مستعارة ، ودون تحديد للزمان . وتلجأ المؤلفة الى الرمز والتجريد في عرضها القصصي لتاريخ القضية الفلسطينية السياسي ، خاصة عند حديثها عن مواقف الانظمة العربية المختلفة ازاء القضية الفلسطينية .

ساق الجنود الانكليز والد وداد الى السجن ، وهي لا تزال في الثامنة من عمرها ، وكانت وصيته قبل ان يقبل الصغيرة ويرحل مكبلا بالحديد : « وداد ، وطنك ، امك نفسك » . وبقيت وداد مستيقظة حتى الصباح الذي اطل مع دوي صوت انفجار شديد وقع في خمارة غولدا القريبة . دخان الانفجار الذي تعالى كان اول اكتشاف في حياة وداد . وتصور المؤلفة هنا سذاجة الطفلة التي اكتشفت ان « النار في الخارج غير نار الموقدة التي تطبخ فوقها الجدة طعام الاسرة » . وتبرز المؤلفة سذاجة الطفلة وداد في مكان اخر من الرواية ، وذلك عندما بدأت وداد في تحديد فهم جديد لمعنى الخوف . « فالخوف من الصرصار غير الخوف من العقرب » . والاسرائيلي ليس كالغول ، لان الغول على الاقل « يسكن بعيدا في اعالي الجبال ولا يحضر الا بدعوة من اهلها ، وهم لا يدعونه الا لان فزعها منه يجبرها على تنفيذ الاوامر » . ويسرد تصوير الطفلة وداد ، الساذجة البريئة في مكان آخر ايضا ، فهي لا تعرف من القانون غير تقبيل يد من هم اكبر منها سنا . فالاجوبة التي كانت تتلقاها على اسئلتها ، صفعات متلاحقة دفعت الصغيرة الى الاستسلام لانه « اقرب طريق الى السلامة » . الطفلة الساذجة ، كانت تضيق بكلمات « يا لطيف » ، و « هذه ارادة الله » ، مثلما كان يردد المتفرجون وهم يجرجرون تنهدات عميقة للتعليق عما يحدث من « خراب ودمار » . امتثال جويدي هي التي تضيق بمثل هذه الكلمات، أم وداد ؟ ان المؤلفة هنا تدفع وداد خارج الصورة لتحل محلها ، ولكنها تعود من بعد ذلك ، وتعيد المكان الى وداد حين لم تدرك هذه ان الخطر بات يحيق بالجميع من كل جانب ، الا عندما رأت والدها بعد قنابل مولوتوف من « كحل العين » . فهي رأته وهو « يضع عددا كبيرا من الزجاجات الضخمة الفارغة امامه ويحشوها بقطن مبلل وفي قعر كل واحدة من الزجاجات مسحوق يشبه كحل العين الذي تتزين النساء به وبالمسامير المقطوعة الرأس » .

اذا كان الفن الروائي ليس المهم ، وهذا واضح في رواية « شجرة الصبير » ، فالاهم عند امتثال جويدي هو فضح المؤامرات التي كانت تدبر ضد فلسطين في الظلام ، وضد المقاومة التي حاولت استعادة فلسطين المسروقة . فقد سردت احاديث الكبار المجتمعين في منزل جد وداد ، وكيف كان حزب « اللحية » ، لحية الشيخ أعسر ، يخدم الانكليز واليهود معا . فجد وداد هو الذي قال ان « بعض رجال الدين ، وفي كل الظروف ، يلعب لعبتهم الخطرة القذرة ناسين الله في قلوبهم طمعا بالسلطة والتأليه » . وأوضحت امتثال جويدي ان الخطر لم يكن مصدره ، رصاص اليهود ومؤامرات الانكليز وحسب ، بل « حملات الاعلام الكاذبة من صحفنا ومنشوراتنا » كانت اكثر خطرا واشد فتكا . ماذا كانت تفعل السلطة حينئذ ؟ كانت توهم الشباب العرب بأنهم الشجعان الاقوياء ليركب الغرور انفسهم فلا يخيفهم الخطر المحدق بهم لان عدوهم ضعيف جبان . وكانت تضع الشباب في جو المقاومة الشكلية لاستقطاب العناصر الوطنية المخلصة ، والهائها عن المقاومة الفعالة .

بعد المؤامرات ، وعمليات البيع والشراء التي تم

بها الاعلام العربي ، ماذا حدث ؟ « حضن الوطن يا صغيرتي كحضن الام لا بديل عنه مهما تدفق الخير والحنان من سواه » . سمعت وداد هذه الكلمات من امها وهم يغادرون شاطىء يافا على مركب النزوح . وتبرز صورة تقطر الما للفراق ، اذ قالت وداد في سرها : « كم بيت بنيت على رماله الناعمة !!.. لقد تهدمت كلها وانهارت .. كما تهدمت احلامي » . واختفت يافا وراء الافق ، واحست وداد ان كيانها ينفصل عن ذاتها ، وخاطبت نفسها : « سيكون العقاب مؤلما بقدر الالم الذي أعيش ، فالجريمة كبيرة ، والجزاء سيكون أكبر». وهنا نسمع مرة اخرى صوت الكاتبة لا صوت وداد . فالطفلة الساذجة لا يمكن تحميلها عنف محبة الارض ، ولا لغة السياسة الناضجة .

تسكن العائلة في احد مخيمات بيروت ، وتتابع وداد دراستها ، وتحصل على شهادة البريفيه وتعمل معلمة في « مدرسة صبرا » التابعة للاونروا . البؤس الشديد الذي كان يعاني منه سكان المخيم دفعها دائما الى التأمل والجلوس على باب المخيم ، وتترك لمخيلتها القيام بالدور . اين ذلك الاسمر على جواده الابيض ، « ذلك الرجل العظيم الذي لا يزال يعيش في خاطري .. سيكمل تعليمي وتخصصي .. سانتظره هنا على باب المخيم ، سيمر بي يوما ويأخذني على صهوة جواده الابيض » . وتعود الكاتبة الى فضح التآمر وسرده في روايتها مرة اخرى . الا ان التآمر هذه المرة مختلف عما ذكرته في القسم الاول من الرواية . انه تآمر اللجنة التي اشرفت على وضع كتب التدريس في المدارس التابعة لهيئة الامم المتحدة . مدير المدرسة التي تعمل بها وداد اختلف معها وطردها من العمل لانها خطرة . « خطرة لانك تحشين رؤوس الاولاد بالقضية فتصرفيهم عن دروسهم وتشوهين افكارهم البكر » . لقد ادركت وداد ان الكتب المقررة التي وضعتها لجنة سياسية خاصة ، لا يمكن ان تخلق ثورة ، ولا يمكن ان تحرك عنفوان القضية .

المشوق في رواية « شجرة الصبير » ، اسلوب الكاتبة اثناء معالجتها لصلة الانسان بالارض والوطن ، وبصلته بالاخرين . ويبدو ذلك من ألم وداد الشديد « لانتشار الجوع والمرض في كل مكان » . فسكان المخيم يتحركون « ليثبتوا انهم احياء فقط » ، و « حتى ان طلاب المدارس الحفاة اكثر عددا من المنتعلين » . بالرغم من كل ذلك ، لم تسمح وداد لليأس ان يثبط من عزيمتها ، وقالت « ان استسلم وأعلن ولائي لواقع فرضته على ظروف الحياة القاهرة فهذا امر لا افكر فيه اطلاقا . لن احني رقبتي لك ايتها البقعة السوداء المحتلة من جانبنا » . وعن صلة الانسان بالارض ، تقرأ — دون ان تتمكن من اخفاء الاعجاب — فتاة فلسطينية تقول للمرة الاولى : « ليت اغتصبت الاعراض كلها ، وبقيت الارض » . وتقرأ ايضا : « ليت ابي غاص بي ، بأمي ، بأخي . ليته غامر بنا جميعا ولم يغامر بالارض » . استطاعت المؤلفة ان تعبر عن التصاق الانسان بالارض ، عبر هذه المقاطع ، بعمق محبته لها ، وبحرارة صلته بها .

القسم الثالث من الرواية ، وهو « الجريمة والعقاب » ، يظهر في معظمه الهدوء ، ويروي باسلوب رمزي ذكي . ويعالج علاقة القضية الفلسطينية بالانظمة العربية . ولجأت المؤلفة الى اعتماد الرمز الذكي والحذر في رسم ابعاد هذه اللوحة . فوداد هي القضية ، وجاسر بك واخوته من أم اخرى هم الانظمة . هناك العديد من المقاطع في هذا القسم تحرك اعماق القارىء لدرجة كبيرة . من شدة هذا التحرك ننسى احيانا اننا نقرأ رواية فلسطينية . فحين ذهبت وداد الى مكتب جاسر بك، المحسن الكبير ، لطلب مساعدته المادية لاجراء عملية جراحية لاخيها الضرير .. « فتحت عينيها اللتين اغرورقتا بالدموع ونظرت في عينيه .. كان الحنان يتدفق من نظراته الحادة كنظرات صقر فتي ، وتدحرجت بنظرها لتلتقي ابتسامته الصافية المشعة تلتمع فوق شفتيه » . وننسى ايضا اننا أمام رواية فلسطينية حين نقرأ كلامات جاسر بك التي قالها لوداد . « احبك ، وحبي طاهر كنفسك التي عرفت ، صدقيني ، وامنحيني ثقتك » .

حاولت الكاتبة ان تظهر تمرد المرأة وغضبها عبر وداد . فوالدة وداد « لا تعرف سوى كلمة نعم » ، ولم تتمكن وداد من دفعها الى التمرد « على الذليل من الكلام » . الا ان التمرد بدا واضحا في نفس وداد التي جاء على لسانها : « انا انسانة احب التمرد على كل شيء . احب معاندة العبد شرط ان يكون هذا العبد قويا ، اما الضعفاء فلا يعنيني من امرهم شيء . اكرههم ، احتقرهم ، احقد عليهم » . جميل ان نقرأ تمرد امرأة ، واجمل من ذلك ان تكون امرأة فلسطينية .

الرمزية الذكية واضحة تماما في اسلوب المؤلفة ، وهي تعبر — عبر وداد — عن العلاقة بينها وبين جاسر بك واخوته من الام الاخرى ، وعن الشك الذي سيطر على وداد منذ بداية هذه العلاقة . وقد يكون طرح امتثال جويدي لهذه العلاقة ، اول طرح جريء للعلاقة بين القضية الفلسطينية وبين الانظمة العربية . وتصور المؤلفة هذه العلاقة على انهـا « كلعبة قمار .. مع مقامر لا يجيد اللعب ولكنه يحبه » . واوضح جاسر بك ذلـك في سره حين قال : « انا هو ذلك المقامر ، العب حبا بالربح وانتقاما من الخسارة . ولكنها هذه المرة لعبة مع مقامر ماهر .. شحذته مرارة الخسارات التي مني بها » . المقامر الماهر ، الذي « شحذته مـرارة الخسارات » هو القضية الفلسطينية بعد أن تبنتها المقاومة ، وحمل ابناؤها السلاح وبدأوا حـرب التحرير الشعبية . وتتوالى الصور الرمزية الذكية، الواحدة تلو الاخرى ، حتى تصبح عملية فك الرموز سهلة للغاية . فحين كان يلجأ جاسر بك الى البحر كلما ضاق به الحال طلبا للمساعدة ، كان يقول : « اريد المساعدة يا بحر ، اريد وداد ، اريد ان تنتصر قضيتها . انتصارها هو انتصار لكل ما قمت به من اعمال في شتى الميادين ، ولكل ما انبتت افكاري ومشاعري الوطنية من مبادىء جديدة .. الهمني ايها البحر العميق كنفسي ، الهمني المخرج المشرف » . لنحاول فك رموز هذا المقطع . انتصار وداد هو انتصار القضية ، وانتصار القضية هو انتصار لكل ما قام به جاسر بك من اعمال في شتى الميادين . اذن ، أليس هو الذي أمم القنـاة وفي عهده قامت اول وحدة عربية بين دولتـين عربيتين ، واجرى تحولات اشتراكية في نظام بلاده، ورفع عن كاهل العامل استغلال الاثرياء وعن ظهر الفلاح سوط الاقطاعي ، وبنى السد ، وزود جيش بلاده باحدث الاسلحة ، وقـاد مؤتمرات الحياد وعدم الانحياز الدولية ؟.. هذه هي اعمال جاسر بك ، وهو يريد ان يتوج انجازاته هذه بانتصار القضية الفلسطينية . ومن اكثر الصور الرمزية ذكاء ، تلك التي شطحتها المؤلفة باسلوب ، هادىء وواضح الالوان ، حين عبرت عن موقف المقاومة الفلسطينية بعد قبول الرئيس الراحل عبد الناصر لمبادرة روجرز في صيف ١٩٧٠ . اذ جـاءت وداد تخاطب جاسر بك بعد خلاف حاد نشب بينهمـا ، لانها لا تقدر ظروفه من جهة ، ولانها لا توافقه على مواقفه السياسية من جهة ثانية . لقد قالت وداد: « تريدون مني ان اصبح نظاما ، اتصرف وفـق بروتوكولات معينة ، واسير على نمط دولي وعربي معين ... واشياء كثيرة تجعلني ابدو وكأنني بطلة لمسرحية من الدمى المتحركة » .

وتوفق المؤلفة في عرضها لمجزرة ايلول ١٩٧٠ في عمان وما تلا ذلك من مواقف سياسية عـربية ، في صور رمزية ، اكثر وضوحا ، واشد ذكـاء . ولنحاول مرة ثانية فك بعض رموز هذه الصور . حسن ، وهو أخ جاسر بك من أم أخرى ، يقتل اخوي وداد ، حين يأمر الملك حسين قوات البادية في شن هجمـات وحشية عـلى بيوت اللاجئـين الفلسطينيين في المخيمات . ووداد تذهب الى منزل جاسر بك ، مثلما ذهب وفد المقاومة الى القاهرة بعد المجزرة . وبعد موت عبد الناصر ، استأسد اخوته على المقاومة ، ووضعوا وداد في قفـص الاتهام ، لانها قتلت جاسر بك كما ادعوا . وفي المحكمة هتفت : « لا تطلبوا لي البراءة .. فانا يا سادة ، شجرة الصبير .. اشواكي تنطح عواصف الدنيا باسرهـا . كلما هبت علي عاصفة مـن الرياح ، رددتها بصلابتي ، فتخاذلت تلهث كمـا يلهث الاسد المهزوم » .

كلمة اخيرة لا بد من قولهـا . امتثال جويدي ، المؤلفة ، لا تدعي انها كاتبة رواية محترفة ، وهذا واضح من خلال سطور الرواية نفسها . وهي لا تدعي انها تدخل عالم الرواية ، لان روايتها خلت من فن الروايـة المتكامل . ولذلـك تأتي رواية « شجرة الصبير » ، كشريـط اخباري ، مدعم بالصور ، يعرض الاحداث . ومما لا شك فيه ان الكاتبة استطاعت ان تستفيد من اوقات فراغهـا بشكل جيد ، وتقدم لنا — لاول مرة — رواية افرغت في سطورها — بشجاعة — قضية فلسطين من عشية النزوح الى عشية التصفية . والجديد في الرواية ، اسلوبها البسيط الـذي يعتمد علـى الرمز . انها المرة الاولى التي تترجم بها القضية الفلسطينية السياسية الى رواية ، سجلت المؤلفة عبرها « مسيرة العذاب » الطويلة والدمويـة ، بالرغم من عدم مرافقة المؤلفة لهذه المسيرة .

مصطفى كركوتي

Moché Catane, **Qui est juif ?**
(Éditions R. Laffont, Paris 1972).

مؤلف الكتاب يهودي من أصل فرنسي يمارس مهنة التعليم الجامعي في اسرائيل . وهو ــ كما يصف نفسه ــ يهودي مؤمن متدين ، يناضل داخل حركة تعمل « من أجل يهودية تستوحـــي التوراة » . والكتاب استعراض وتحليل للحكم الصادر فـــي ١٩٧٠/١/٢٣ عن المحكمة العليا في اسرائيـــل حول قضية شاليت التي اثارت الرأي العام اليهودي وطرحت من جديد مسألة تعريف « اليهودي » . وشاليت ضابط يهودي في البحريـــة الاســـرائيلية متزوج بمسيحية وله منها ولدان ، توجه يوما الى دائرة النفوس وطلب تسجيل ولديه في سجـــلات الحالة المدنية وفي بطاقات الهـــوية عـــلى انهما يهوديان ، فرفض الموظف المسؤول طلبه ، واعتمد القاعدة الدينية ، وسجل الولدين على انهما غير يهوديين . ورفع الامر الى المحكمة العليا فحكمت بامكان تسجيل الولدين كأشخاص « ذوي انتماء الى العرق اليهودي » . ولكنها أشارت الى عدم امكان اعتبارهما يهوديين بالنسبة الى أية معاملة تخضع للقضاء الشرعي اليهودي . ورأت المحكمة ان على موظف الحالة المدنية ان يكتفي ــ طالما ان المشرع لم يغير بعد القوانين المعمول بها ــ بتسجيل تصريحات المواطنين كما هي ، دون تعديلها او التشكيك فيها ، الا اذا بدا له انها مغلوطة بشكل سافر وشاذ .

ان بطاقات الهوية في اسرائيل تتضمن خانة كتب عليها « ليوم » . والغريب ان مضمون هذه الكلمة ما زال موضع جدل بين اليهود أنفسهم . وربما كان تعبير « الانتماء العرقي » أقرب التفسيرات او المعاني اليها . وقد نصحت المحكمة العليا حكومة اسرائيل بالاقلاع عن وضع هذه الخانة في بطاقات الهوية ، فرفضت . ولعلها فعلت ذلك لسببين : للحفاظ على علاقات اسرائيل بيهود الخارج ، وللاستمرار في تطبيق القانون الاسرائيلي الذي يميز بين « اليهود » و « العرب » و « الاجانب » .

وابان احتدام الجدل حول قضية شاليت قـــال البعض : ان الامر لا يستحق كل هذه الضجة ، فكل ولد متحدر من أم غير يهودية يستطيع اعتناق اليهودية فيما بعد ، وخصوصا عندما يقرر الزواج بيهودية . ولكن القضية أعمق من ذلك وابعد .

ان المعركة التي ربحها شاليت على صعيد القضاء (وخسرها فيما بعد على الصعيد السياسي ، لان الكنيست تبنى ، بضغط من الاحزاب الدينية ، تشريعا مغايرا لقرار المحكمة) تتجاوز بكثير حدود القرارات الادارية . فخلف الواجهة الادارية التي ارتكبت « خطأ اداريا » عندما رفضت تسجيـــل تصريح شاليت ، تكمن مسألة مهمة تؤرق الجلون وتتعلق بكيفية تعريف او معرفة « مـــن هـــو اليهودي » .

ولليهود ، بشكل عام ، من هذه القضية موقفان متباعدان : موقف المتدينين المتزمتـــين وموقـــف العلمانيين المتحررين . ويتمسك انصار الموقف الاول باحكام « الهالخا » (او الشريعة الدينية التي تستمد احكامها من التلمود) .و « الهالخا » تعرف اليهودي بأنه الشخص المولود من ام يهودية او المعتنق لليهودية . واذا كان رجال الدين من اليهود يعارضون كل تعريف غير ديني للشعـــب اليهودي فلخوفهم من أن يؤدي ذلك الى الاعتراف بوجود فئة من اليهود لا تخضع للشريعة اليهودية. أما أنصار الموقف الثاني فيرون ان كون الانسان يهوديا لا يعني بالضرورة كونه متدينا ، فالانسان يمكن أن يكون يهوديا بثقافته، او تقاليده ، او نشأته ، او ميوله ، او بالاضطهاد الذي عاناه . والصراع بين الموقفين قديم في اليهودية ، وهو الذي دفع بطابعه وحدته الخلافات التـــي ذرت قرنها ، منذ بداية هذا القرن ، بـــين اليهـــود الصهيونيين واليهود الاشتراكيين . ولهذا اكتسبت قضية شاليت اهمية خاصة ومغزى كبيرا . ولهذا كذلك سارعت الشخصيات الدينية ، المتزمتـــة والمرموقة ، الى تجريد حملة قاسية على حكـــم المحكمة العليا . فصرح كبير الحاخامين الاشكيناز انترمان بأن الحكم ينم عن وجود « اتجاه هدام » داخل المحكمة ، غرضه « استئصـــال حجر من أحجار القاعدة التي يرتكز عليها بناء اليهودية ، ونعني به ذلك الحجر الذي حافظ على نقـــاوة الاسرة اليهودية ضد تسرب الثقافات الاجنبية وضد اي شكل من اشكال التهجين » . وقال كبـــير الحاخامين السفراديم نسيم ان « البلاد ستتقذف هذا الحكم بيديها الاثنتين » ، لانه سيؤدي الـــى انشقاق بين « يهود اسرائيل ويهود المنفى » .

واعلن وزير الشؤون الدينية ان القضية تمس « جذور وجودنا ، وأننا لن نخضع لاوامر المحكمة حول هذا الموضوع » .

ولو عدنا الى الماضي القريب لوجدنا ان اول مشكلة من هذا النوع اندلعت في اسرائيل وشغلت الرأي العام فيها هي مشكلة الطفل ستينبرغ . ففي اواخر عام ١٩٥٧ ، توفي هذا الطفل المتحدر من أب يهودي وام مسيحية ، فرفضت السلطات الروحية اليهودية السماح بدفنه داخل المقبرة اليهودية . وكان اسرائيل بار يهودا (العضو في الحزب الاشتراكي أحدوت هاعفودا) وزيرا للداخلية آنذاك ، فانتهز هذه الفرصة ووجه الى ادارات الحالة المدنية بعض التعليمات التي تتلخص بالسماح بتسجيل الطفل المتحدر من زواج مختلط كيهودي اذا رغب والداه في ذلك ، وباعتبار اليهودي « من يصرح بحسن نية انه يهودي » (واضافت الحكومة الى ذلك فيما بعد : « ولا ينتمي الى أية طائفة دينية اخرى ») .

واثارت هذه التعليمات ضجة كبرى في البلاد لانها حاولت ادخال تعديل على التعريف الديني التقليدي لليهودي . وانسحب يومذاك « الحزب الديني القومي » من الائتلاف الحكومي ، فاضطر رئيس الوزراء الى تعليق العمل بهذه التعليمات . وتألفت لجنة من الوزراء لدراسة مسألة « من هو اليهودي ؟ » ، وقررت طلب المشورة والرأي من الشخصيات اليهودية المرموقة . وفي ٣٠ نوفمبر ١٩٥٨ وجهت رسالة شرحت فيها المشكلة الى خمسين شخصية تقريبا . وكانت الرسالة تحمل توقيع بن غوريون . وتلقت اللجنة ٤٥ اجابة (٢٠ من اسرائيل و ٢٥ من الخارج) . وقبل أن تنتهي الحكومة من الاطلاع على الاجوبة وطبعها ، في نهاية عام ١٩٥٩ ، كانت حدة المشكلة قد خفت بسبب اجراء انتخابات نيابية جديدة ، وعودة الحزب الديني الى التعاون مع الحكومة ، وتبديل وزير الداخلية . ولهذا قررت الحكومة الغاء تعليمات الوزير السابق . ومن اطلاعنا على الردود نجد أن الجميع تقريبا يعارضون فكرة ادخال اي تعديل على العادات والتقاليد اليهودية المتبعة .

وبعد هذه الحادثة عرفت اسرائيل ، عام ١٩٦٢ ، حادثة اخرى كان بطلها راهب اسمه دانيال . وهو يهودي من بولونيا اضطر اثناء الحرب العالمية الثانية الى اعتناق الكاثوليكية والدخول في سلك الرهبنة . وعاد يوما الى اسرائيل وطالب بمنحه الجنسية الاسرائيلية فورا ، عملا بقانون العودة الذي ينص على حق كل يهودي « عائد الى أرض اسرائيل » في اكتساب هذه الجنسية كاملة . وعندما رفضت الادارة طلبه ونصحته بطلب التجنس رفع الامر الى المحكمة العليا التي وجدت نفسها مضطرة الى حسم الامر وتحديد مفهوم «اليهودي» الوارد في قانون العودة . وادلى الراهب بعدة حجج لدعم طلبه ، أهمها ان القانون اليهودي التقليدي يعتبر « ان كل اعتناق لدين اخر من قبل اليهودي باطل وكأنه لم يكن » ، وان اليهودي يبقى، على الرغم من ذلك ، عضوا في الاسرة اليهودية . ورفضت المحكمة طلبه وأصدرت حكما غريبا يمكن ان يوصف بالبهلوانية القانونية . لقد اعتبرته يهوديا في نظر « الهالخا » ، وغير يهودي في نظر الشعب اليهودي ، لان هذا الشعب لا يرضى باعتبار المارق او المرتد عن الدين يهوديا . ونصحت الراهب بطلب التجنس اذا اراد ان يصبح اسرائيليا .

وجاء حكم شاليت يزيد الامر تعقيدا ويشجع بعض الشخصيات اليهودية المناهضة للتقاليد الدينية السائدة على الاحتكام الى المحكمة العليا . وأشهر الدعاوى واحدثها هي دعوى العالم النفسي تامارين الذي طالب بتضمين بطاقة هويته نصا يؤكد انتماءه الى القومية الاسرائيلية ، لا الى القومية اليهودية . وفي ١٩٧٢/١/٢٠ ، أكدت المحكمة على ان القوميتين اليهودية والاسرائيلية مفهومان متلازمان لا ينفصلان . وعلقت غولدا مائير على الحكم ، امام المؤتمر الصهيوني العالمي ، فأكدت على أن الجنسية والدين أمران متلاحمان مندمجان، وان الزواج المختلط هو العدو الاول للدولة اليهودية . وكانت قد أعلنت في عام ١٩٧٠ ، على أثر صدور حكم شاليت : « ان الحفاظ على بقاء الشعب اليهودي أهم من وجود دولة اسرائيل والصهيونية ... ولن نتخلى في القرن العشرين عن خمار الصلاة ولا عن التعاويذ » .

ويبدو ان الغرض البعيد للمؤلف من وضع الكتاب ليس التعليق على قضية شاليت فقط ، بل التأكيد كذلك على وجوب التمسك بالطابع الديني لاسرائيل فهو يعتقد ان الصفة الدينية لهذه الدولة هي التي درأت عنها حتى الان خطر الانزلاق نحو العدم . ولهذا نراه ، في أكثر من موضع ، يعمد

الى تفنيد « المزاعم » القائلة بأن هذه الصفة أمر مؤقت وعارض تحتمه ظروف اسرائيل الراهنة. انه يجهد ليبرهن على أن النزعة الدينية ما زالت سائدة ومسيطرة على جميع اليهود ، على اختلاف ميولهم واتجاهاتهم ، وبما فيهم الفئات الاشتراكية المنادية بالعلمانية . ان اليهود المطالبين بفصل الدين عن الدولة لا يشكلون — في رأيه — الا اقلية ضئيلة لا وزن لها ، وان الاوضاع الراهنة في اسرائيل لا تنبىء ابدا باقتراب ساعة العمل بنظام علماني ، وان أكبر خطر يهدد تلاحم اليهود ووجودهم ، حتى خارج اسرائيل ، هو تلك النسبة، التي أخذت ترتفع تدريجيا ، من الشبان اليهود الذين يتزوجون بغير اليهوديات فيبتعدون بذلك عن روح اليهودية .

وآراء المؤلف تفضح الاتجاه الديني التيوقراطي السائد في اسرائيل ، وهذا الاتجاه يتعارض كليا مع الشعارات العلمانية التي رفعها ، أو يرفعها ، زعماء الصهيونية . فهرتزل كان يدعي انه يريد رؤية التيوقراطيين ، في الدولة اليهودية المقبلة ، تابعين في معابدهم كما يقبع الجنود في ثكناتهم . وبن غوريون رفض — حفاظا على مبدأ العلمانية — ان يتزوج حسب المراسم الدينية . وحاييم كوهن، القاضي في المحكمة العليا ، تزوج بمطلقة حينما كان يمثل اسرائيل في لجنة حقوق الانسان في الامم المتحدة . وهو القائل : « اليهودي هو الذي يعتبر نفسه يهوديا » . وهذه المواقف العلمانية لا تخدع احدا ، او لا تقنع احدا ، اما لانها ليست صادقة ، واما لانها معدومة الاثر والتأثير . لقد قال كاتب يهودي اخر ، هو عاموس الون في كتابه « الاسرائيليون » (الصادر في نيويورك عام ١٩٧١) : ان القوة الفعلية للمتدينين في اسرائيل تفوق بكثير قوتهم الانتخابية المتمثلة بالـ ١٥ ٪ من الاصوات . ان لدى القادة الاسرائيليين نوعا من التدين العاطفي ، الوراثي، الاسطوري ، الذي يأتي لتعزيز هذه القوة . وتدين النخبة السياسية (مضافا الى القوة السياسية المباشرة التي تتمتع بها الاحزاب الدينية) يتجه اليوم نحو احداث انقلاب في المبادىء العلمانية التي كان يدين بها قسم كبير من الرعيل الصهيوني الاول .

وبقيت نقطة نود الاشارة اليها . ان المقدمة التي وضعها الناشر لكتاب « **من هو اليهودي ؟** » تختلف باتجاهها مع اغراض المؤلف والمكاره . ان الناشر يعجب لاجتماع تسعة قضاة من الحكماء المسلحين بالعلم والتجربة ، ولمدة عام او اكثر ، من اجل ايجاد حل لقضية تجد حلا يوميا خارج غرفة المحكمة العليا : في المناقشات التي تدور في المقاهي ، ومن خلال حملات التضامن التي ينظمها يهود العالم ، وعبر كل تصرف انتهازي يصدر عن الساسة ، « فليس ثمة احد يطالب بتعريف اليهودي : ان اللاسامية تعرفه كل يوم ... وليس في مناقشة المحكمة العليا اية غرابة . اننا نجد فيها التقليد الكبير للدعاية اليهودية . لقد قيل غالبا ان الدعاية الاكثر لاسامية هي الدعاية اليهودية . ومن المحتمل ان يكون ذلك قد قيل للدلالة على ان الدعاية اليهودية تتميز بمناخ فكري يستدعي البحث المستمر عن النقائض ، والاستمرار في المعارضة ، وقطع الشعرة الى اربعة ، بغية تغيير اللعبة العالمية » .

والخلاصة ان هذا الكتاب جاء يؤكد ، مرة اخرى، نظرة الصهيونيين الى الدين والقومية ، ورفضهم الشديد للفصل بين الاثنين ، وادعاءهم الدائم بأن اليهودية قومية ودين معا ، وان كل فصل بينهما يفقد اسرائيل الاساس الذي تقوم عليه .

الدكتور محمد المجذوب

محمود اسماعيل نصيف ، لماذا هو غير ممكن اللقاء مع اليسار في اسرائيل ؟
(النجف الاشرف : مطبعة العربي الحديثة ، بمساعدة نقابة المعلمين العراقية ١٩٧١)

ما يقودنا الى مراجعة هذا الكتيب الصغير (١٠٠ صفحة من الحجم الصغير باحرف متوسطة) ليس بالضرورة أهمية الاراء التي اوردها بل اهمية المسألة التي طرحها وحاول معالجتها . فمنذ تعالي كفاح المقاومة الفلسطينية خلال العقد الماضي، وخاصة بعد اطلاق شعار الدولة الديموقراطية في المستقبل ، أصبح موضوع امكانيات التلاقي بين مجموعتي السكان الذين سيشكلون مواطني الدولة الفلسطينية الديموقراطية في المستقبل (اي المستوطنين اليهود بما في ذلك المهاجرين من اليهود العرب والسكان الاصليين من عرب فلسطين) مسألة مطروحة في مجال البحث خاصة وان عليها يعتمد الى حد بعيد مستقبل الكفاح العربي ضد الصهيونية . ومجرد رفع هذا الشعار (هذا ان لم يكن على سبيل الدعاية فقط وهو امر مرفوض) يفترض امكانية قيام التقاء بين الجماهير الفلسطينية والجماهير اليهودية ان آجلا او عاجلا خلال تطور الكفاح الطويل . والواقع فان لم تكن امكانية الالتقاء قائمة على اسس في المصلحة المشتركة طويلة الامد ، فان المسألة تعود بنا الى ما كانت عليه في السابق — اي صراع مرير بين جموع اليهود والعرب تنتهي بالتصفية الجسدية او الازاحة السكانية لاحد الطرفين او الاخر . وتصريحات معظم اطراف المقاومة الفلسطينية وتحليلاتهم ومنطلقات نواة اليسار الاسرائيلي تنم عن القبول بافتراض وجود هذه المصلحة المشتركة طويلة الامد مما يفسر اعادة طرح مسألة التحرير على هذه الاسس . الا ان دراسة لواقع المجتمع الاسرائيلي ببنياته الطبقية ومصالحها مثل الدراسة المماثلة للشعب الفلسطيني بالنظر الى هذه المسألة ، غير متوفرة رغم كثرة الكتابات السطحية حولها والتي لم تتمكن ، بطبيعة اهتماماتها بتفاصيل التركيبات السياسية الانية ، من حسمها . والواقع ان هذه حالة الكتيب الذي نحن بصدده ، اذ لم يعالج فيه المؤلف انطلاقا الاصول الطبقية والمجتمعية التي يمكن أن تقوم عليها اسس الالتقاء بل اكتفى بطرح امكانيات الالتقاء مع المنظمات اليسارية كما هي قائمة في اسرائيل الان . وبرغم مما اوصله ذلك الى استنتاجات سطحية ، فلم يخل الكتيب من بعض الامور التي يجدر النظر فيها ان لشيء فلملاقاة الحوار الذي يدعو اليه حول المسألة في مقدمة الكتيب ولابداء بعض الملاحظات حولها .

لا بد من الاشارة هنا الى ان المؤلف لم يوضح باي شكل من الاشكال ما عناه بكلمة « اللقاء » فجاء بحثه بمثابة نقد (ذاتي الطابع في بعض الاحيان) لما اعتبره اليسار الاسرائيلي، اكثر مما كان معالجة لامكانية اللقاء معه او مع عناصر مجموعة او فردية منه او ، واهم من ذلك ، مع التحركات المجتمعية التي قد يمثل انعكاسها . ولكن عرضه لليسار الصهيوني يشير الى اضطلاع بالموضوع وذلك على ما يبدو من ايراده للمصادر والكتابات المعنية .

قسم المؤلف اليسار الاسرائيلي الى قسمين : (١) **اليسار الصهيوني** بما في ذلك احزاب مابـاي ورافي واحدوت هعفودا ومابام والتي اعتبرها كتلة واحدة نظرا لانعدام الفروق الاساسية فيما بينها واضاف اليها فئات اليسار الصهيوني الجديد مثل فئة ماكي المنشقة عن الحزب الشيوعي وجماعة اوري افنيري . (٢) **واليسار غير الصهيوني** الذي الذي يتشكل برأيه من فئة ترفض الصهيونية واسرائيل ايديولوجيا وتتمسك بها جغرافيا وتتمثل بالحزب الشيوعي ، راكح ، وفئة اخرى تناهض الصهيونية واسرائيل ايديولوجيا وجغرافيا وتتمثل في المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية ، ماتسبن . وراح المؤلف يعالج منطلقات هذه الفئات الواحدة تلو الاخرى ومواقفها العملية ليستخلص ما اذا كانت هناك امكانية للقاء معها .

من الملاحظ والمستغرب ان معالجة المؤلف في القسم الاول من الكتيب لاحزاب اليسار الصهيوني — وهي الاحزاب الحاكمة والتي لا تعترف اي من الفئات العربية التقدمية بيساريتها ولا يفكر احد من قريب او بعيد باللقاء معها كما يدرك المؤلف ويقول لنا — قد شغلت القسم الاكبر من البحث . ويعلل المؤلف معالجته هذه لليسار الصهيوني في مجال بحثه في امكانية اللقاء بالقول : « ان بحث هذا اليسار ضروري جدا لعاملين اساسيين هما العلاقة الجدلية القائمة بين هذا « اليسار » واليسار غير الصهيوني ... وبالتالي نظرا لسيطرة خرافة اسرائيل الاشتراكية التقدمية ... » . وقام المؤلف فعلا بتفنيد الادعاءات القائلة باشتراكية اسرائيل

والاحزاب التي تقودها بتحليل شبيه ، ربما عفويا، بذلك الذي تقدمت به المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية في المقالة التي اصدرتها عام ١٩٦٧ تحت عنوان **ملاحظات حول اليسار الصهيوني** ، هذا بالاضافة الى ايراده الادلة عن مصادر اخرى مختلفة بما فيها بعض الدراسات التي اصدرها مركز الابحاث. الا ان المؤلف لم يقم بأي شكل من الاشكال باظهار او حتى معالجة « العلاقة الجدلية » بين اليسار الصهيوني واليسار غير الصهيوني مما جعل معالجته الطويلة لليسار الصهيوني والتي انتهت بالاستنتاج بعدم امكانية اللقاء معه ساذجة وغير ضرورية من الاساس .

ثم يتناول المؤلف الاحزاب غير الصهيونية التي بقوله تعترف باسرائيل جغرافيا وليس ايديولوجيا فعالج مواقف الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، ركاح واعترف بايجابياتها ورفض سلبياتها . اما عن حزب ركاح فقد طرح المؤلف ايجابيات معاداته للصهيونية على انها اداة للاستعمار وتأييده لحق اللاجئين الفلسطينيين في تقرير المصير من حيث العودة او التعويض وشجبه لعدوان ١٩٦٧ وتأييده حق المقاومة في المناطق المحتلة في الاردن ومصر وسورية . وأخذ المؤلف على حزب ركاح اعترافه بالكيان الاسرائيلي وعدم تأييده للكفاح المسلح لحركة التحرير الفلسطينية . فحلل الاول على ضوء نظرة ماركس للمسالة اليهودية وتنكر لينين للصهيونية ليثبت ان موقف الحزب من الاعتراف بالكيان الصهيوني يتعارض مع المبادىء الماركسية ــ اللينينية التي يرفعها. ويعيد المؤلف تناقضات موقف الحزب الى الظروف الخاصة التي يعيش فيها داخل المجتمع الاسرائيلي ــ بما في ذلك ما يتطلبه انضواء العرب في عضويته من مناهضة للصهيونية وما تتطلبه العضوية اليهودية من تجنب اثارة مسالة وجود الكيان الاسرائيلي ــ والاهم من ذلك الى ارتباطه بموقف الدول الاشتراكية المعترفة بالكيان الاسرائيلي . ويستنتج المؤلف من هذا ، ورغم المواقف الشجاعة التي يتعرض في سبيلها الحزب لمضايقات السلطة وارهابها ، « ان امكانية اللقاء والتفاهم بين اليسار العربي الذي تمثل قوى الثورة العربية الفلسطينية احدى طلائعه وبين هذا الحزب اليوم تبقى بعيدة وغير واردة ، وان اي فرصة للقاء غير ممكنة الان وذلك الى ان يقوم حزب راكاح باعادة تصوره للمشكلة الفلسطينية ... » . وبهذا فان امكانية اللقاء لم تستبعد كليا بالنسبة للمستقبل رغم انها لم تعالج باي شكل من الاشكال .

وفي الجزء الاخير يتناول المؤلف ما سماه اليسار غير الصهيوني الرافض للصهيونية واسرائيل ايديولوجيا وجغرافيا والذي تمثله برأيه المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية ــ ماتزبن . وطرح المؤلف منظمة ماتزبن على انها الوحيدة في اسرائيل التي تبنت موقفا ثوريا صحيحا من القضية الفلسطينية كما قال انها اول من طرح تحليلا علميا موضوعيا للصهيونية والوجود الاسرائيلي ، مما ادى بها الى طرح الصهيونية على انها حركة استعمارية استيطانية وان اسرائيل نتاج استعمار الحركة الصهيونية لفلسطين تحت رعاية الامبريالية على حساب الشعب الفلسطيني العربي . ثم عرض برنامج ماتزبن لحل المسالة الفلسطينية بحيث لا يؤتى على معاقبة العمال والجماهير الاسرائيلية تكفيرا لذنوب الصهيونية وبحيث يعمل على الغاء صهيونية اسرائيل من خلال تغيير ثوري عميق يؤدي الى قيام دولة اشتراكية تمثل مصالح جماهير سكانها بما في ذلك الغاء «قانون العودة» الصهيوني وتمكين عودة كل من يريد من الفلسطينيين العرب الى البلاد . كما اورد المؤلف قول ماتزبن ان تشكيل الشعب اليهودي في فلسطين ، وان كان مصطنعا تاريخيا وعلى حساب السكان العرب المحليين فان ذلك لا يغير من حقيقة وجود الشعب اليهودي الان. ولم يتطرق المؤلف الى معنى هذا القول الاخير فاكتفى بايراده دون تعليق عليه ، هذا مع العلم انه قد فسر بطرق مختلفة ودارت حوله مناقشات بين مؤيدي المقاومة الفلسطينية ومؤيدي ماتزبن في الغرب لا يسعنا الاسترسال حولها في هذه المراجعة . وراح المؤلف يستنتج ان واقع كون ماتزبن المنظمة الوحيدة التي استطاعت طرح تحليل ماركسي صحيح لواقع اسرائيل والصهيونية وتقديم حل ثوري للمشكلة ، قد « يفسح المجال للقول بامكانية اللقاء مع هذه المنظمة » على الصعيد النظري . الا ان المؤلف يستطرد فيقول ان المسالة المطروحة اليوم « ليست مسالة نظرية ابدا » بل مسالة صراع مسلح مما يغير الصورة برأيه ويستوجب النظر فيما اذا سيفيد هذا اللقاء بالنسبة لقضية الكفاح المسلح الفلسطيني ضد الوجود الصهيوني . والاجابة على هذا السؤال بزعمه يستلزم النظر في حجم المنظمة وتاثيرها . وهنا يذهب المؤلف في القول ان ماتزبن حركة صغيرة (مئة عضو بزعم المصادر التي اعتمدها) ولا تشكل

مؤثرا مهما في المجتمع الاسرائيلي رغم اتساع اثرها الاعلامي في الخارج . كما يزعم المؤلف ، دون الاستناد الى اي ادلة او تحليل ، ان ماتزبن لا تشكل سوى انعكاس لتيار اليسار الجديد في اوروبة ومن ثمة فلا تمثل تيارا نابعا من داخل المجتمع الاسرائيلي قادرا على التأثير عليه . وهنا يخلص المؤلف الى القول ان هذه المنظمة لا تملك قيمة حقيقية مؤثرة في الصراع العربي الاسرائيلي مما يحتم اسقاط اي حساب للتعاون معها . وهنا ينهي هذا الباحث كتيبه بالقول : « ان الدعوة الان للقاء مع اليساريين والتقدميين في اسرائيل هي دعوة مرفوضة موضوعيا وعلميا بسبب انعدام وجود المؤثر لليسار الحقيقي في اسرائيل وان على قوى المقاومة الثورية العربية في الوقت الحاضر مواجهة المجتمع الصهيوني بكامله المعبأ عسكريا لا قيادته المتمثلة في السلطة الحاكمة فحسب » .

لو حاولنا استخلاص اطروحة البحث بكامله في عبارة واحدة ، ولن يكون في ذلك مبالغة كبيرة ، فستظهر بوضوح سذاجة المنطلق الذي اتبعه المؤلف . والاطروحة هي انه لا يمكن اللقاء مع اليسار الصهيوني لانه صهيوني المنطلق ، ولا يمكن اللقاء مع حزب ركاح لان مواقفه — وهي التي تملي عليه نتيجة ظروف وجوده في المجتمع الاسرائيلي والكيان الصهيوني ونظرا لارتباطه بموقف الدول الاشتراكية المعترفة بهذا الكيان — لا تتفق مع التحليل الماركسي اللينيني الصحيح للمسالة ، ولا يمكن اللقاء مع ماتسبن اذ انها حركة صغيرة لا تؤثر على المجتمع الاسرائيلي كثيرا اذ ليست نابعة عن ظروفه الداخلية . اما عدا ما تحتويه هذه العبارة ، فليس في البحث أي طرح اضافي يعالج مسألة اللقاء في حد ذاتها ، هذا رغم ان في البحث عرضا لليسار في اسرائيل قد يفيد قارئه. ولا مجال للنظر في هذا العرض طالما نحن في صدد الاطروحة الاساسية للبحث . كما انه لا حاجة للنظر في مسألة اللقاء مع اليسار الصهيوني الحاكم في اسرائيل . . . لاسباب من التفاهة ذكرها .

أما عن الحزب الشيوعي ركاح ، واعتمادا على ما قد يعني بكلمة لقاء ، فرغم سلبيات موقفه من الكفاح المسلح الفلسطيني والكيان الصهيوني ، ثمة امور تتعلق بمواقفه وتركيبه التنظيمي يجب التطرق اليها خاصة وان المؤلف اهملها . لقد قام هذا الحزب بدور لا يمكن حصره في الدفاع عن المواطن العربي تحت الاحتلال الصهيوني طوال اربعة وعشرين عاما . وتاريخيا قبل عام ١٩٤٨ ، كان هذا الحزب الجهاز التنظيمي السياسي الوحيد الذي ضم في عضويته العرب واليهود بسواء فجسد في صفوفه عمليا ما نم عن المطاليب التي طالما رفعتها الجماهير العربية الفلسطينية — أي الاستقلال للبلاد على ان تضم جميع مواطنيها الحاليين من يهود وعرب . اما بعد اقامة دولة اسرائيل فقد مارس الحزب باستمرار وبشجاعة فائقة الدفاع اليومي عن حقوق العرب ممن تبقوا تحت الحكم العسكري . وفيما تخلت كافة الانظمة العربية آنذاك عن الاهتمام بأمر الاقلية العربية الباقية ، وفي حين غابوا عن ادراك معظم الاحزاب والحركات الوطنية التي نشأت في البلدان العربية بعد ذلك، كان الحزب الشيوعي المخرج الوحيد الذي اتجهت اعداد الاقلية العربية اليه فخرج معظم رواد المقاومة ومفكريها وشعرائها من عداد اعضائه . ويستمد هذا الحزب الذي أصبحت تتشكل أغلبية عضويته من العرب بعد انشقاق المساومين من بعض اليهود في عضويته السابقة ، بالدفاع اليومي عن حقوق الاقلية العربية في اسرائيل وتأييد حقوق سكان الاراضي التي وقعت تحت الاحتلال منذ ١٩٦٧ . في هذه المجالات يمكن « اللقاء » مع الحزب الشيوعي راكاح .

أما المنظمة الاشتراكية ماتسبن ، فقد قامت هذه الحركة عام ١٩٦٢ قبل ظهور اليسار الجديد في الغرب بانشقاق مناضليها عن الحزب الشيوعي بعد ممارسة لهم فيه وتضم في قيادتها (وفق مصدر شخصي) عددا من الفلسطينيين اليهود الاصليين ممن أقام آباؤهم واجدادهم في البلاد قبل قدوم موجة الهجرة الصهيونية الاولى في القرن الماضي، ولا يمكن القول انها لا تشكل سوى انعكاس سطحي لحركة اليسار الجديد في الغرب غير نابع عن ظروف فلسطين التاريخية والحالية . والتحليل الذي قدمته ماتسبن للصهيونية ولليسار الصهيوني بشكل خاص ، والذي يقدر المؤلف صحته كما يقول ويستقي منه شأنه شأن اخرين من الباحثين العرب ، لا يمكن ان يكون قد استخلص الا من وعي دقيق لظروف المجتمع الاسرائيلي وللحركة التي طبعت معالمه . واستلقاف اليسار الجديد في الغرب لاخبار وتحليلات ماتسبن مما وسع الاعلام عنها بشكل يفوق حجمها الحقيقي كما يقول المؤلف ، لم يأت الا بعد حرب حزيران وتصاعد

حركة المقاومة العربية مما وجه انظار العالم التقدمي الى داخل المجتمع الاسرائيلي لتقصي ما اذا كانت هناك تناقضات « مؤثرة » قد تكمن فيه . وبغياب اي تحد تحليلي جدي لمزاعم اليسار الصهيوني الحاكم من ادعاءات حول المساواة والاشتراكية في اسرائيل ، برزت هذه المجموعة الصغيرة نسبيا من اعضاء حركة ماتسبن وطرحت تحليلاتها واظهرت واقعا كانت قد فشلت الحركة الوطنية العربية من شرحه واظهاره : وهو انه لا يمكن التوجه الى مسألة الحل التقدمي للمشكلة الصهيونية والمشكلة الفلسطينية الناجمة عنه دون تناول التناقضات التي يحويها المجتمع الاسرائيلي شأنه شأن اي مجتمع رأسمالي آخر بما في ذلك تناقضات الحركة الاسرائيلية مع الهستدروت الذي يدعي النقابية في مظهره الخارجي هذا بالاضافة الى تناقضات اخرى لم تتصد لها تحليلات ماتسبن من حيث البنيان الاثني للمجتمع الاسرائيلي بما في ذلك من تمييز ضد الاكثرية من اليهود الشرقيين الذين جاءوا بأغلبيتهم الساحقة من البلدان العربية ولا شك ان اتساع الاعلام عن تحليلات ماتسبن هو ما دفع المؤسسة اليهودية داخليا وخارجيا للتضييق على هذه الحركة وعزلها بما في ذلك من الاتهامات التي ارسلت ضد عناصرها مثل القول بالعمالة لفتح . ولم يكن ذلك للحؤول دون تسرب تحليلاتهم للمجتمع الاسرائيلي الى الغرب مما يسيء الى سمعة ليبرالية اسرائيل واشتراكيتها فحسب بل ، واهم من ذلك ، للحؤول دون تسرب تحليلاتهم واتصالهم بالجماهير المسحوقة من الطبقة العاملة الاسرائيلية لئلا يثير ذلك شكوكها وتساؤلاتها حول حقيقة المزاعم والمؤسسات الاشتراكية التي يعيشون في ظلالها الفارغة . واتخذت الحملة ضد ماتسبن شكل ادعاءات تقول انهم ليسوا سوى جماعة صغيرة معزولة من المثقفين يرددون العبارات المستوردة من اليسار الجديد في الغرب . وسرعان ما باشرت عناصر مبرري الصهيونية ترديد هذه المزاعم في اسرائيل اصلا ثم في اوساط الشباب اليهود في الغرب الى ان باتت تلوكها السنة بعض الاطراف العربية محليا — مما ساهمت هذه العوامل جميعها بالواقع في عزل ماتسبن والحد من انطلاق نشاطها وتحليلها .

ان حجم حركة ماتسبن ، او أي حركة ثورية اشتراكية اخرى ، ونظرا للقمع والتضييق والعزل الذي لا بد وأن تواجهه ، لا يمكن ان يشكل أساسا لتجديد امكانية اللقاء في صراع طويل الامد لا تحدد معالمه سوى الوقائع المجتمعية ،التي ينطلق عنها النضال في صراع مثل الذي تواجهه منطقة شرقي المتوسط . ولا يعني هذا ان ماتسبن ستكون بالضرورة الحركة التي تمثل تحرك الجماهير العاملة للتحرر من براثن الصهيونية مع ما يمثله ذلك من زجها في صراع مرير لا يخدم مصالحها الحتمية في البقاء والتعايش والتقدم الى الاشتراكية . وقد تنمو هذه الحركة من حيث تأثيرها في الجماهير المسحوقة المقيمة حاليا في فلسطين كما قد تنشأ تنظيمات تعبئة وتسييس جديدة قد تعكس بصدق افضل الظروف المجتمعية القائمة في البلاد ولكن فيكل حال فلا بد ان يكون لتحليلات ماتسبن وتحركها أثر في هذه المسألة في طول أمد الصراع القائم . تظاهرة الفهود السود مثلا وربما سبق وضع الكتيب موعد انطلاقتها ، والتي تشكل انعكاسا لواقع مجتمعي هام ، نشأت على أساس مطاليب أساسية للمساواة الاثنية بين غربيين وشرقيين في اسرائيل، ونظرا لعدم امكانية التركيب المؤسسي الاسرائيلي الذي يهيمن عليه الغربيون من احتوائها لا بد وان تنمو عنها ابعاد سياسية طبقية ، خاصة وان الشرقيين يشكلون اكثرية عمال الانتاج في البلاد . وهكذا فان النظر في مسألة اللقاء ضمن ظروف حداثة حركة نضالية طويلة الامد ، لم تتبلور فيها بعد المواقع الايديولوجية ، لا ينطبق على اليسار في اسرائيل وحسب بل وعلى حركة التحرر العربي التي لم تتمكن حتى الان من بلورة تحليلها للظروف المجتمعية العربية البالية التي فشلت في التصدي للامبريالية ووليدتها الحركة الصهيونية في الماضي والتي ما زالت ضعيفة حتى الان في التصدي لاسرائيل حاليا .

قد يبدو ان المسألة تعتمد على تحديد ما يعني بكلمة اللقاء . وظروف اللقاء في منطلق الدفاع عن الحريات الاساسية متوفرة ليس بالنسبة لركاح وماتسبن فقط بل وحتى بالنسبة للمنظمات غير اليسارية مثل لجنة حقوق الانسان الاسرائيلية التي تدافع باستمرار ضد التعسف الاسرائيلي في المناطق المحتلة . كما ان الإلتقاء الايديولوجي، وهو المتوفر نسبيا في راكاح وماتسبن رغم وجود نقاط تتطلب الحوار وانتظار التبلور ، لا يمكن القول بامكانية تحوله الى التقاء في الكفاح المسلح واللقاء التنظيمي بالشكل العفوي الذي طرحه المؤلف بدون الاستناد الى الوقائع المجتمعية التي يقوم

على اسسها . ولكن المسألة قد تتعدى مسالة اللقاء الى المنطلق الاساسي الذي بدأ منه المؤلف بحثه .

ان النظر التبسيطي في تنظيمات اليسار القائمة في اسرائيل للاستنتاج النهائي بعدم امكانية اللقاء، دون تحديد معنى اللقاء ، ودون تحديد الاطراف العربية التي يمكن ان يتم اللقاء معها ، قد ينم عن منطلق سلبي كذلك الذي اتبعته الاوساط العربية عامة من تغميض عيونها خلال العقدين الماضيين عن وقائع الظروف الداخلية الاسرائيلية والقول بوحدة الصنوف الطبقية فيها مما خدم في خنق امكانية المبادرة للتفاعل مع تناقضات المجتمع الصهيوني والمساهمة في تطويرها ومن ثم أعطى مبررا للتقاعس عن اي عمل تجاه مسالة التحرير. ولا يمكن بالواقع الصاق هذه القصة بالمؤلف الحالي دون تردد ، ذلك ان مجرد اثارته لمسألة اللقاء في كتيبه الصغير ابدى منه اهتماما بالمسألة . الا ان الاهتمام لا يكفي ان لم يستند الى منطلق في تقص كامل للامور الاساسية المتعلقة بالمسألة بشكل جدي دون البت فيها بهذا الشكل العفوي الذاتي الذي ينطوي عليه عنوان البحث . ولو كـان منطلق المؤلف اكثر ايجابية وقام بالبحث **لماذا يتوجب التوجه الى الطبقات المسحوقة في اسرائيل ؟** ، وعالج المسألة بنفس الاستناد الى تحليلات ماركس ولينين لكانت نتيجة عمله اكثر وضوحا وفائدة .

أ . ن . سعد

الطوفان واعادة التكوين ، شعر مريد البرغوتي
(دار العودة ، بيروت ١٩٧٢)

بعد هزيمة ٥ حزيران ، وبعد تفجر القصيدة العربية داخل الارض المحتلة على يد الشعراء الذين اطلق النقاد على نتاجهم اسم « شعر المقاومة » ، بـدأ الشباب من الشعراء الفلسطينيـين في « المنفى » يبحثون عن سماتهم ، والبحث عن السمة والهوية يعني — شعريا — البحث عن الاصالة ، ولقد عرف من هؤلاء ، بنسب متفاوتة من القدرة الشعريـة واصالتها ، عدد غير قليل ، موزع هنا وهناك ، على امتداد الارض العربية واتساع المنفى . ولقد سبق «الشؤون فلسطينية» ان استعرضت اصواتهم في « مراجعاتها » العاجلـة ، على ضوء صدور مجموعاتهم الشعرية مثل احمد دحبور ووليد سيف ومحمد عز الدين المناصرة ومحمد القيسي وخالد ابو خالد ، وبقي منهم عدد اخر ، ما انفك موزعا في الصحف والمجلات الادبية ، ولم يتح له بعـد فرصة اصدار مجموعـة شـعرية كاملة . ومريد البرغوتي ، احد اولئك الشباب ، ولقد اتيح له ان يقدم مجموعته الاولى دون اعتماد شكلي علـى اصداء سابقة ، فمعظم قراء الشعر سيتعرفـون عليه اول مرة ، ربما ، وسيفاجاون ، دون شك ، بموهبة شابة ، كما فوجئت . وكتابه يعد نموذجا طبيعيا لما تقوم بـه « المجموعة الشعرية » التي تصدر بين دفتي كتاب ، مـن لم شتات الشاعر الموزعة هنا وهناك ، واعادة تكوينه ، لا كخلق ابداعي ، وانما كرؤيا ذات حدود واضحة .

يتقاسم المجموعة — زمنيا — صوتان ، او طرفان لصوت الشاعر ان صح التعبير . اذ جمع الشاعر في « الطوفان واعادة التكوين » قصائده التي كتبها بعد هزيمة ١٩٦٧ حتى اواخر العام ١٩٧١. تشكل الطرف الاول قصائده الاولى في ٦٧ — ١٩٦٨ مـع بعض المتفرقات من سنوات سابقة ، في حين تشكل الطرف الاخر قصائده المتأخرة . وموازاة لهـذا التقسيم الزمني، نتبين مرحلتين شعريتين واضحتين بعض الوضوح ، في الاولى يختلط صوت الشاعر وصوت خطواته الخاصة ، بصوت شعراء اخرين، يقف على رأسهم صلاح عبد الصبور فتأثيره علـى مريد البرغوثي واضح ، في حين ينفرد ، في الثانية، صوتا فيه من الخصوصية غير المفتعلة والحسادة الشيء الكثير .

أما ما يتصل بالرؤيا العامة لقصيدة البرغوثي وفق هذين الطرفين ، فتتشكل ، عبر تجربة الشاعر ، مـن « المنفى » في الاولى — الى « الثورة » او « فلسطـين » في الثانية . وعـلى هـذا الضوء سنحاول ان نتلمس مجموعة « الطوفان واعـادة التكوين » دون ان نغفل ان الطرفين لا يعنيـان انفصالا في تجربتين لا علاقة بين بعضهما بعضا ، على العكس من ذلك ، فان نمـو « مريد » يبدو

ــ ابداعيا ــ نموا طبيعيا ، شأنه شأن زملائه من الشعراء الشباب . كما ان وضوح تجربته ــ فلسطينيا ــ لا تقل مستوى ، ولا تنفرد بنزعة اعتزالية ، عن الشعراء الشباب الفلسطينيين .

من « المنفى » الى « فلسطين » ، هذان هما طرفا الامتداد التي تشتمل عليه مجموعة « الطوفان واعادة التكوين » ــ كما اشرت . ونستطيع ان نتطلع الى القصائد « المنافي » و « الحضيض » و « ميجانا » كنماذج نتلمس فيها حدود الطرف الاول من رؤيا الشاعر. فها هو يتطلع في «الخليج» وكأنه يستعيد دون ان يلتفت ، اغتراب الشاعر بدر شاكر السياب ، ليرى الموج يقذف بالمحار من البحار الى الرمال . وليرى الارض وقد هرمت « لا ظل يداعبها ولا قمر يسامرها ولا حاد يغنيها » ص ٣٤ . وليرى نفسه غريبا متطلع القدمين يستنزفه المشي ، فلا قدرة له عليه ، أمام دروب الشوك والمسامير المدببة ، « والوصول ، جرح من الاحباط ينزف : مستحيل » .. هكذا الى ان « تغيب قافلة النهار » .

ان هذا الاحساس بالنفي ، يتحول في الرؤيا المبسطة والعابرة لهذه القصيدة الى « اغتراب » مجرد ، فالشاعر يحدثك مباشرة ، ولكنه لا يكتفي بذلك في قصيدة « الحضيض » . انه هنا يضعك داخل مدينة « اليباب » أو « سدوم » ، وفيها يبرز بشكل واضح صوت الشاعر صلاح عبد الصبور لا في تركيبة الصورة ، او المعادل الموضوعي المستخدم كبديل لتجربة الشاعر الخاصة ، بل في الرؤيا العامة بكل تفاصيلها ، ان القصيدة حديث مرير مع « الخريف » القابع في « المدينة الميتة » الخريف بكل ما يحمل من دلالة « الجدب » ، والخواء والجفاف ، ولكن الشاعر يعقد في القصيدة بين معنى « الجدب » ومعنى « المنفى » والبعد عن « الاهل » او الوطن .

مددت راحتي للسماء اطلب المطر
وعدت بالغبار في الكفين والعطش !
فلا تسلني أن أبش في وجوه الزائرين
ما دمت عاجزا عن سقيهم في بيتنا
وبيتنا بعيد
تقرضت جدرانه بألسن الفئران
وأمي العطشى تريدني ، تتوق لي كالماء
لكنني كبيتنا بعيد (ص ٣٩) .

فالجدب والمنفى هما وجهان لرؤيا واحدة ، ولكن الشاعر يحاول في الجزء الثاني من قصيدة « الحضيض » ان يواجه المدينة ــ منفاه لتكون معادلا كفؤا لغربته ، هي وحدها بشعاريها الآمرين

لا تفتح الشباك !
لا تقفل الشباك !

قادرة على احباطه في ذروة نشوته الانسانية حين تدفع بأفعاها السامة لتشد على « نخلة » جسده وشهوته لتميتها ، كما تدفع بفئرانها كي تلعق .. منه نطفة الاخصاب

وتلك المدينة ، ايضا ، وحدها بشعاريها الآمرين ، انما تمثل الوجه البشع للخداع والكذب والتشويه ، حيث تعقد من وراء « حجاب الاحتشام » أبشع الصفقات الرذيلة . ولكن الشاعر في اخر القصيدة يعقد الامل ــ من اجل سادوم ــ على الآتين من الاطفال ...

في قصيدة « ميجانا » تتضح بعض ملامح المرحلة الثانية لتجربة مريد البرغوثي . فها هو « بطل » يطل في عالم الشاعر ، بين انقاض المدينة الميتة ، وركام الكذب والرصاص والافق المليء بالزور ، ولكنه يظل « بطلا » ، بمعنى الشهادة ــ الانبعاث ، وهذه الصورة لجدل الثورة سوف تتضح في قصائد المرحلة الثانية ، وهي سمة بارزة في شعر الثورة الفلسطيني بخاصة والعربي بعامة .

فالبطل ــ بالرغم من جهد الصحاب الذين يزرعون ولا يحصدون غير « سنابل من الافاعي السود » ــ يضيع رسمه الغريب في الجبال ، يحمله الزيتون والتلال ، وعند موسم الزيتون والجنى سيهطل الغنا .. » وبهذا تعود الحياة ثانية ، ولكنها تظل في الطرف من القصائد أملا يداعب المخيلة ، وتوقا حارا للخلاص .

ان ثمة عثرة أساسية في قصائد البرغوثي ، وان شئنا الدقة ففي معاملته للغته الشعرية ، فالصورة الشعرية التي تعرفنا عليها في القصيدة الجديدة انما هي صورة حسية في الاساس ، وهذا ما لم يتناسه الشاعر ، ولكن الذي يغفل عنه بعض الاحيان انما هو التجاوز او انتقاله المفاجئة الى الصورة التجريدية السائبة ، وهي عثرة سترافق معظم قصائد المجموعة ولكن دون ان تشكل عورة جوهرية . ومن السهولة ان نتسقط نماذج من هذه الصور المفتعلة السائبة كقوله : « ليل مقتول العينين ، والريح ببادر محصودة » ! أو « الموج

.. يمد فوق خرائب الصحراء اغطية الزمن » أو « وفي مناقير الطيور العابرات البحر أغصان الترقب » و « أستبد بك التداخل في الحياة » و « وما زال الغد الآتي حصانا في حقول الظن » و « ورؤى التخطي والرغاب اللاهثات وراء كثبان الازل » !! و « عيونهم كحجارة الشط المديد » ... الخ . ان هذه الصور لا تمتحن قدرة القارىء على التخيل او الاستيعاب او المتابعة ، ولكنها فحسب ، تنفر من القصيدة ، عابرة ، سهلة ، لا تعني شيئا .

في المجموعة الثانية من القصائد التي تلي قصائد « المنفى » ، تتضح امامنا صورة البطل الجديد ، فهو لم يعد يحدق في اليباب المحيط ، ولا يجادل المدينة الميتة ، بل هو يبدأ خطوته الاولى مسافرا ، انها نقطة البداية ، في قصيدة « اسفار معاصرة » ، نواجه « بطلا » لا يعرف التعلات ، ولا الامال الباطلة ، او العابرة ، ان خيله تستدير الى الوراء ، نافرة مما ترى ، يبلل العرق اعرافها الغبراء ، والغمد المدلى دون سيف ، وان مترقبيه مضوا ، وهيمن في المكان « ظل الغيوم كمضرب لخيام قوم هاجروا غربا وما حملوا الخيام » انها صورة آسرة لمعنى العطش الى الخلاص ، الخلاص الذي تجسده ارادة بطل يصرخ رغم كل شيء بانه سيواصل الدنيا .. ويمشي لكي يصل — عبر حياته الحمراء الصلبة — الى المدينة المنتظرة ، حيث يسمع من خلف بيوتها البيضاء التي لا نوافذ فيها ولا ابواب اغنية بشرية :

تفتحي ، تفتحي !
يا زهرة البيوت يا مداخل الاسوار
وتدمي لهذا الفارس المسكون بالاسفار
وردة حمراء
أو أغنية عن الوصول .. (ص ٢٨) .

ولكنه البطل — المخلص ، يخطو رغم كل شيء ، فينزع ما اصابه من سهام ويمر ، عابرا ، يحمل في يديه حياته الحمراء ، ليسكبها على سور المدينة ، وصورة البطل المخلص ترتبط بصورة البطل الغاوي . ولعل هذه الميزة هي من أبرز ميزات الشعر الفلسطيني الجديد ، انه الفدائي الذي يخرج « مرتديا ازار الموت » كما ورد في قصيدة « الفلسطينيون » (ص ٢٠) ، الى الارض لينفجر منها الماء بكفيه ، « ولا يقف انتظارا لانهمار الغيث ذات نهار » ، وهو الشهيد الذي يعرف ان في موته انبعاثه ، والنذر الذي يخصب منه المستقبل . في قصيدة « موت وراء النهر » (ص ٦٠) تتضح هذه المعادلة اذ تبدأ القصيدة بصوت منفرد :

مت فيها مرتين
مزقوا صدري ووجهي واليدين
ووراء النهر آتيكم بصدري وبوجهي واليدين ..

ان الموت في الارض ، ومن اجلها هو الطريق والجسر الى الضفة الثانية . لذلك فان الفدائي — المخلص ، هو الاكتشاف الاعمق لمعنى جدل الثورة ،

كنت يا محبوبتي اغمر خديك بقبلاتي ، فجاءوا
هجموا مثل الضباب ،
قتلوني مرتين ،
فنمت فيّ حياتي
عندما هم قتلوني !
واليهم أذهب اليوم وزندای عقاب .

وفي الحركة الرابعة من القصيدة ، يسجل الشاعر هذه المعادلة التي اشار اليها سابقا في صورة الفدائي الذي يخرج الى الارض « مرتديا ازار الموت » ، يسجلها ثانية بحكمة شعرية اعمق ،

انني والموت جاران وكم يسمعني
دورة المفتاح في الباب المجاور
نتلاقى كل يوم ونسافر
في دروب كلما امتدت بعيدا
أرجعتنا في النهاية
تحت سقفين نعيش الانتظار المتجاور .

ان تجربة مريد البرغوثي الشعرية ، تجربة اصيلة دون شك ، وأخص منها تجربته المتأخرة الناضجة . فهو فيها غير مستلب ، شعريا ، وغير متشتت او خاضع لاصوات سابقة . وما علي اخيرا الا ان ألفت نظر الشاعر ، ثانية ، لما اخذته عليه في التجاءاته المتعددة للصورة المجردة غير الملائمة . وفي الامثلة التي أوردتها كفاية ، فيما أظن .

فوزي كريم

اسحق شيلاف ، تحت شجرة التوت
(تل أبيب ، لفين افشتين).

كاتب هذه الرواية هو أصلا شاعر ، يجرب من حين لاخر حظه في الكتابة النثرية . ومن الجدير بالذكر انه من أعضاء « حركة اسرائيل الكاملة » العنصرية الصهيونية ، ويعمل مدرسا . والنثر عند اسحق شيلاف ، كما تجلى من القصص الثلاث التي نشرها حتى الان ، يتميز بالطبيعة ، والبطولة وقسوة القدر . والطبيعة عنده هي طبيعة فلسطين في فترة الانتداب البريطاني ، جو تبادل طلقات الرصاص ، والاحداث الدموية بين اليهود والعرب وجو الحركات الارهابية السرية الصهيونية في فلسطين بشتى انتماءاتها . والبطل عنده شاب ، في فترات مختلفة من حياته ، في محطات مختلفة في طريقه نحو نفسه ، فتى حساس ، يمكن ان يكون في شاعريته انعكاسا لمبدعه . وقسوة القدر تتجلى دائما عنده في الموت ، موت المحبين والاعزاء ، الاعزاء والمقربين . وكما حدث في قضية جبريئيل تيروش(روايته الاولى) حيث ماتت اية — فان شيلاف يستجلب الموت كذلك لمرفه ، الشخصية النسائية الرئيسية في روايته الجديدة « تحت شجرة التوت » ، وكذلك لهامبور، الصديق المخلص للفتى الشاعر ، والضلع الثالث لمثلث الابطال الذي يرتكز عليه بناء الرواية كلها .

ان الموت هو حل القاص لعقد الحياة التي يخلقها. وفي حالة عدم وجود حل احسن يقوم بارسال أبطاله الى الموت ، كل شخص وفق طريقته الخاصة ، وكل شخص في حينه (أو في غير أوانه احيانا) . وهو بهذه الطريقة يترك القارىء فزعا في مواجهة قسوة القدر وازاء عجز القاص عن ان يدفع أبطاله في طرق اخرى ، ربما كانت تحتاج الى جهد أكبر ، ولكن منطقها يكون اوضح ويكون اقترابها من الواقع ملموسا ومقبولا اكثر . ولكن اسحق شيلاف يصر دائما على اتباع طريقة المبالغة في ردود فعل شخصياته على امتداد الرواية كلها .

و « تحت شجرة التوت » هي قصة بلوغ وخروج فتى مريض ، يعتبر المرض من العلل الوراثية في عائلته التي تصر على ان يكون لها من حين لاخر ضحية من بين اعضاء الاسرة ، اذ توفيت اخته في البداية ، وبعد ذلك والده . والى جانب بطل القصة تظهر شخصيتان تمثلان بالنسبة له علامات الطريق الاولى نحو تجاوزه فترة الارتباط الى البلوغ والحرية . وهاتان الشخصيتان هما مرفه وهامبور . والاولى امرأة شابة ، أم لطفلين ، تحمل في قلبها جرحين لم يندملا هما مقتل أبيها على يد العرب ، وعملية اغتصاب حدثت معها وهي في السادسة عشرة من عمرها ، على يد شابين من العرب من الرعاة . وقد ولد فيها هذان الجرحان كراهية لا حد لها تجاه العرب وزرعا في شخصيتها كذلك بذور المرارة والعنف . وعند التقائها بالشاب الشاعر، وهي ما زالت بعد تنعم بالحياة في أحضان اسرتها كانت ما زالت علائم العنف واضحة فيها وكانت توجه طريقها في البداية نحو احضان الفتى الشاعر واخيرا الى اغتيال حياتها بالغرق في بحيرة طبرية . والثاني — هامبور — هو شخصية مختلفة تماما . انه انسان في احسن سنواته ، متعلق بحياة البلاد ، ويعرف كنهها وطبيعة سكانها، ويستمتع بحياته ، ويقوم بفلاحة ارضه . وهو — صديق الاب ، الذي كان أيضا صديقا ومعلما للابن — يوجه الفتى الى طريق ميول قلبه . وتحت خشونته وفظاظته تخفى نفس حساسة ، ومحبة للجمال ، وحكمة الحياة العميقة . ولدى كشفه لنفسه للفتى ، يكتسب الفتى بذلك بعدا جديدا ، هو بعد التأمل ، وامكانية حساب النفس ، والتخلص من العمى . وموت هامبور في سريره ، ذلك الموت المفاجىء ، هو نهاية جازمة للحياة المليئة لانسان كان يعرف كيف يستمتع بحياته .

وعلى هذه القواعد الثلاث الصلبة ، التي هي أساس قوي لقصة كبيرة، بنى شيلاف حبكة قصصية هزيلة ، ترتكز على الطبقة العليا ، وليس على العمق . ان دوافع البطل الشاب ، الذي ينفر من المهن الدقيقة ويشتاق الى العلوم الانسانية ، هي دوافع واضحة ومفسرة . كذلك فان علاقاته مع صديقه في الحجرة ، والذي يشكل تناقضا شبه كامل بالنسبة له ، قد جاءت من اجل الاستنفاد الفني . ولكن قضية علاقاته مع مرفه والعاصفة التي جاءت في أعقابها وجرفته الى اثبات رجولته على عذرية كل من نورة وسارة — كل هذه القضايا محاكة بخيوط بيضاء ولم يتم استنفادها للنهاية .

ويمكن الافتراض بأن مرفه ، تلك الانسانة المنسحقة

والتي تسعى للانتقام من العرب ، قد انفعلت من بطولة الفتى ، وذلك حينما هاجم بمسدسه اوتوبيسا عربيا بناء على مهمة مكلف بها من الخلية السرية التي يعمل معها ، ونتيجة لهذا الاحساس ترضخ له وتتورط معه في مغامرة عاطفية . ولكن من هنا وحتى الحب اليائس ، وللانتحار عن طريق اغراق نفسها — المسافة كبيرة . ان مرفه تظهر على الرغم من سمات الرغبة الانتقامية والعدوانية المتأصلة في نفسها تجاه العرب كانسانة لا تقدر على عمل شيء . انها لا تبذل اي محاولة من اجل تغيير حالتها الاسرية ، او لاستقطاب الفتى اليها حينما قرر قطع العلاقات بينهما . ان تصرفاتها غير متسقة ، وغير منطقية ، كما ان اخطاءها ايضا غير منطقية . ان شيلاف قد صور شخصيتها بشكل بدت معه وهي محاطة بالكثير من علامات الاستفهام .

وضمير الفتى — ضمير ذلك الشاعر عضو الحركة الارهابية الصهيونية — الى اين يتجه ؟ ان القاص يشير في اماكن كثيرة من الرواية ، الى ان الفتى كان حائرا في البداية وكان يخشى من زوج مرفه ، عامل الرافعة ، وكان يحلم بانه يلقي به من فوق الرافعة الى اسفل — ولكنه سرعان ما يتخلص من هذه المخاوف ويقيم معهما في بيتهما ، ويأكل على مائدته ويتجاهل النقطة الضميرية على الاطلاق . وفيما عدا ذلك : ما الداعي الى دفع الفتى الى تخبطات الحب مع نورة وسارة . ان الاولى كانت بمثابة حدث عرضي ، والثانية — تزوجها اخيرا واحتفظ بها لعدة سنوات ، حسبما يدرك القارىء ذلك من الفلاش باك الذي يحدث حينما يتحدث الفتى بعد ان يبلغ الخمسين من عمره عن تلك الفترة من حياته . واذا كان القاص قد قصد بهذا أن يشير الى ان بطله الضعيف النحيل قد استبد به حبه المحرم ومغامراته مع مرفه ، لدرجة انه أصبح اسدا مفترسا ، ينقض على كل فتاة ، اذن فلماذا اورد على لسان الفتى نفسه كلمات مليئة بالدهشة عن طريقة حياته وعن اعماله هذه ؟ واذا كان قد اراد ان يرمز بذلك الى محاولته التخلص من سيطرة مرفة عليه وذلك باقامته علاقات مع اخريات ، فان الاشارة كانت واهية ، وغير مقنعة.

والجدير بالذكر بين سطور تلك الرواية ، هو شحنة العنصرية والكراهية التي يكنها الكاتب باعتباره من غلاة الصهاينة المتطرفين ، من خلال شخصية مرفة، التي جعلها ضحية للروح العدوانية العربية : قتلوا اباها ، واغتصبوها ، ولذا فهي تريد الانتقام ، وهي لا تنتقم ولكنها تستخدم عشيقها وسيلة للانتقام من العرب ويكون هذا الانتقام هو بمثابة المدخل الذي يتمكن عن طريقه من الولوج الى حياتها وقلبها .

رشاد الشامي

ثلاثة تقارير
عن الولايات المتحدة واسرائيل

وصلت « شؤون فلسطينية » في الاشهر الاخيرة ثلاثة تقارير تتحدث عن جوانب معينة من موضوع اسرائيل والولايات المتحدة . وننشرها في هذا العدد ، والمعركة الانتخابية للرئاسة في اميركه على اشدها . وقد نشر التقريران الاولان بالانكليزية (الاول في ناشيونال جيرنال ٧٢/١/٨ ، والثاني في واشنطون بوست ١٩٧١/٢/٢٠) ، قبل تأييد زعماء الهيئات اليهودية الاميركية مؤخرا لنكسون ، الذي عبر عن مرحلة جديدة في التحالف الاميركي — الاسرائيلي .

التقرير الاول
نيكسون يغدق العون لاسرائيل دون أن يجني حصادا سياسيا من اليهود الامريكيين
أندرو غـــلاس

يعتقد ماير فيلدمان ، وهو محام يهودي في واشنطن، أن السفارة الاسرائيلية في واشنطن تختلف عن أية سفارة اخرى في العاصمة الامريكية من حيث أن لها رعيتها الخاصة بها من الامريكيين . وقد سبق لماير فيلدمان هذا أن قام في عهد الرئيس كنيدي بـــدور حلقة الوصل بين الرئيس كنيدي واليهود الامريكيين، وهو يقول في هـــذا الصدد : « تجـــد الحكومـــة الامريكية نفسها ملزمة بأن تأخذ في الحسبان وجهة نظر اليهود الامريكيين الذين تربطهم بالدولة اليهودية [اسرائيل] روابط عاطفية . فعندما تتحدث الحكومة الامريكية الى السفارة الاسرائيلية تدرك أنها تتحدث كذلك الى قوة سياسية في داخل الولايات المتحدة ». ويتفق مع هذا الرأي آي. ال. كينين الذي يتولى منذ الحرب العالمية الثانيـــة تنسيق الاتصـــالات بالمسؤولين والسياسيـــين الامريكيـــين واجـــراء « التطبيقات » السياسية وممارسة التأثير والنفوذ عليهم لصالح اسرائيل . ويعبر كينين عن واقع هذه العلاقة قائلا : « ان السفير الاسرائيلي في واشنطن ليس مبعوثا الى الحكومة الاميركية فحسب ، بل هو مبعوث كذلـــك ، بصورة مـا ، الى اليهـــود الامريكيين » . وتعزى الى كينين الحملة السياسية التي أدت في الخريف الماضي الى توقيع ٧٨ مـــن أعضاء مجلس الشيوخ الاميركي و ٢٥١ من أعضاء مجلس النواب قرارات تحث الحكومة الاميركية على بيع المزيد من طائرات الفانتوم الى اسرائيل . ورغم أن كينين ينسق خطواته مع المسؤولين الاسرائيليين فانه مستقل عن السفارة الاسرائيليـــة وطليق في تصريف شؤون مهمته اليومية وفي جمع التبرعات . ويفضل كل من كينين والسفير الاسرائيلي ان يحافظ كل منهما علـــى شيء من الاستقلالية عن الاخر في تصريف شؤون مهمته . ويـــرى كينين ان علـــى الاسرائيليين ان يحجمـــوا عن القيام بأي عمـــل سياسي داخل الصراع الحزبي الاميركي ويوافقه الاسرائيليون في ذلك ، اذ يسعون ، عندما تقـــوم منافسة بين اطراف سياسية محلية ، الى الاحتفاظ بعلاقات حسنة مع جميع الاطراف ودون تحيز مع طرف ضد اخر . فعندمـــا زارت رئيسة الوزراء غولدا مائير الولايات المتحدة في شهر كانون الاول الماضي تعمدت اجراء محادثات مع جميع المتنافسين الرئيسيين على الفوز بترشيح الحزب الديمقراطي لمعركة الرئاسة الامريكية . ويقول كينين انه عندما تظهر هنالك مشكلة حيوية ، يبادر الى الاتصال

بحوالي ٧٠٠ من اليهود الامريكيين البارزين ، كما أنه قد يتصل بحوالي نصف دزينة من الاشخاص المتواجدين في واشنطن كممثلين لبعض المنظمات اليهودية لمتابعة نشاطات مجلسي الشيوخ والنواب ، فيدعوهم الى مكتبه « لاحيطهم علما بمجريات الامور ، ولاحثهم على القيام بما في وسعهم القيام به بهذا الصدد » .

وتوجد داخل مجلس الشيوخ الامريكي ذاته مجموعة مؤلفة من ١٢ عضوا من الحزبين ، الديمقراطي والجمهوري ، تشكل نواة ائتلاف مهمته السعي لجعل السياسة الامريكية اكثر توافقا مع مصالح اسرائيل . ولكن روابط الرئيس نيكسون بالهيئات والمنظمات اليهودية الامريكية تبقى واهية غير متينة رغم أن حكومته (وهذا ما يقر به سرا السفير الاسرائيلي رابين) كانت اكثر كرما من أية حكومة امريكية اخرى في تزويد اسرائيل بالاسلحة والمعدات الحربية . وخلال حملة انتخابات الرئاسة الامريكية في عام ١٩٦٨ ابلغ نيكسون مجموعة من اليهود الامريكيين البارزين انه يعتزم ، في حالة فوزه بالانتخابات ، ان يعين في ادارته كثيرا من اليهود « ليس لمجرد كونهم يهودا بل لانهم يتمتعون بالحصافة » . ولكن بعد انقضاء قرابة اربع سنوات على هذا الكلام يقول وارين أدلر [يهودي] المستشار السابق للشؤون اليهودية في لجنة الحزب الجمهوري القومية انه يشعر بخيبة أمل من جراء سلوك الرئيس نيكسون تجاه اليهود الامريكيين ، اذ يقول : « لقد تجاهلت الدوائر المقربة الى نيكسون القوة السياسية لليهود الامريكيين .... واصبحنا نجد انفسنا في موقف ازاء الطبقة العليا من المسؤولين وأولي النفوذ رواد النوادي الريفية الخاصة ، وجميعهم لهم اصدقاء من اليهود الامريكيين ولكنهم لا يتبنون قضية الشعب اليهودي» . ورغم ذلك ، يسعى نيكسون لتمتين صلاته وروابطه باليهود الامريكيين أملا في الحصول على تأييدهم له في انتخابات الرئاسة الامريكية القادمة . ويشرف على تنسيق هذه الجهود ماكس فيشر احد كبار المموِّلين في ديترويت [يهودي] .

ويبقى هنالك سؤال : الى أي مدى سيذهب نيكسون في وعوده التي يطلقها في حملته الانتخابية ليجذب الاصوات اليهودية الى صفه ، وهي اصوات ذهب جلها في انتخابات عام ١٩٦٨ الى خصمه الديموقراطي هيوبرت همفري بنسبة ٥ الى ١ . ان بعض المسؤولين في البيت الابيض قد اسقطوا ، بينهم وبين انفسهم ، اصوات اليهود من الحساب، كما يخشى بعض الزعماء اليهود ان تكون قوة اليهود الامريكيين السياسية هي في هبوط . ويبدو ان الرئيس نيكسون يتخذ موقفا متوازنا ازاء هذا الوضع ، اذ يروى عنه انه ابلغ حاكم احدى الولايات الكبرى قائلا : « انني لست مدينا بشيء لليهود الامريكيين ، ولكنني لن أدع ذلك يؤثر في دعمي لاسرائيل » .

ان موقف اليهود الامريكيين ازاء الرئيس نيكسون يظل يشوبه الفتور رغم أنه زود اسرائيل بمساعدات عسكرية هائلة فاقت في السنة الماضية وحدها سبعة أضعاف ما زودها به الرئيس جونسون في اكثر سنة من سنوات حكمه . ففي عام ١٩٧١ ، بلغت قيمة مبيعات الاسلحة الامريكية لاسرائيل ٦٠٠ مليون دولار بما فيها الاعداد الاخيرة من ٨٦ طائرة فانتوم كان قد اتفق على بيعها في سنة سابقة ، هذا في حين ان قيمة اكبر قدر من السلاح الاميركي تلقته اسرائيل في سنة واحدة خلال عهد جونسون لم تتجاوز ٨٠ مليون دولار .

وقد تحدث الرئيس نيكسون في ٢ كانون الثاني ١٩٧٢ في مقابلة مع شبكة اذاعة وتلفزيون كولومبيا [الامريكية] حول « التزام مبدئي » بارسال المزيد من طائرات الفانتوم لاسرائيل للمحافظة على « ميزان القوى في الشرق الاوسط » ، بيد ان نيكسون لم يبذل جهدا شخصيا ليجعل من هذه السياسات دعما سياسيا له من جانب المصوتين اليهود الذين صوتوا ضده في عام ١٩٦٨ بنسبة ٥ الى ١ . والواقع ان الغربة السياسية بين الرئيس نيكسون والهيئات اليهودية الامريكية المنظمة لا علاقة لها باسرائيل . ويعزى هذا الصدع ، جزئيا ، الى واقع ان معظم الاصوات اليهودية تذهب عادة للحزب الديموقراطي لا للجمهوري . ولكن هذا الصدع قد تعاظم نظرا لعدم تعيين الرئيس نيكسون قاضيا يهوديا بين قضاة المحكمة العليا ، وبصورة عامة نتيجة اخفاق البيت الابيض في مضمار العلاقات العامة .

لقد كسر الرئيس نيكسون التقليد الطويل المتبع في البيت الابيض ، وهو ان يعطي الرئيس الامريكي لاحد مساعديه ما يدعى في الدوائر اليهودية الامريكية « الحقيبة » ، فالرجل الذي يتولى « الحقيبة اليهودية » يكون بمثابة صلة وصل مباشرة

بين الرئيس الامريكي وزعماء اليهود الامريكيين . وقد سارت الحكومات الامريكية السابقة على هذا النهج على افتراض ان وزارة الخارجية الامريكية تزخر « بالعروبيين بحكم المهنة » !!! فهي بالتالي متحيزة ، بصورة وراثية ، ضد الموقف الاسرائيلي في سياستها في الشرق الاوسط !!! كما انها لا تقدر حق التقدير الدور الهام الذي يلعبه اليهود الامريكيون في السياسة الامريكية ومساهمتهم الهامة في تمويل الحملات الانتخابية . [لا يوجد في وزارة الخارجية الامريكية ما يدعى « صهيونيون بحكم المهنة »] . وقبل فوز نيكسون بالرئاسة الامريكية اسر الى نفر قليل من اصدقائه اليهود انه اذا ما فاز في الانتخابات فسيأخذ في الاعتبار عند رسمه سياسة الحكومة الامريكية تحيز وزارة الخارجية(!!) وقد سار على هذا النهج بالفعل ، اذ عندما تنشأ أزمة في الشرق الاوسط يتولى بنفسه متابعة تطوراتها والبت فيها . بيد أنه اثار القلق لدى اليهود الامريكيين بالغائه منصب « الحقيبة اليهودية » ، وبالتالي حرمهم من وسيلة الاتصال المباشر بالبيت الابيض .

ولاقت سياسة نيكسون الجديدة الترحيب ، ضمنا ، من جانب السفارة الاسرائيلية التي تفضل التعامل مع البيت الابيض مباشرة على التعامل مع ضابط ارتباط للشؤون اليهودية في البيت الابيض . وتعد السفارة الاسرائيلية الان ، حسب الوضعية الراهنة ، هي المرجع اليهودي الاول في واشنطن — اسرائيليا كان أو امريكيا — الذي له حظوة لدى الهيئات الحكومية العليا . فقد وجد الاسرائيليون ، خلال عهد الرئيس نيكسون اصدقاء جددا يعتد بهم في البيت الابيض لا سيما بين المسؤولين المحافظين من غير اليهود . فاسرائيل تدرك ان الليبراليين من اليهود الامريكيين كان لهم دور كبير في الحملة الشعبية المناوئة للتدخل الامريكي في الحرب الفيتنامية ، فهي بالتالي لا تريد أن تستند دبلوماسيتها على دعم اليهود الامريكيين. يقول رولاند ايفانز الابن المعلق الصحفي في واشنطن والذي كثيرا ما يتناول في تعليقاته قضايا الشرق الاوسط : « لم أجد هناك مؤامرة صهيونية، بل علاقات عامة صهيونية جيدة . فان للاسرائيليين أهدافا محددة وثابتة جدا هي ان يجعلوا السياسة الامريكية في الشرق الاوسط متوافقة مع السياسة الاسرائيلية في الشرق الاوسط » . ومن جهة اخرى قال احد المسؤولين السابقين في البيت الابيض : « ان السياسة الامريكية لم ولن تتوافق ابدا مع السياسة الاسرائيلية . فالمسألة فقط هي الى أي مدى تكون السياستان متقاربتين وهنالك قدر هائل من الاخذ والعطاء من الجانبين في هذا الصدد » .

في الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني الماضي ذهب وفد قوامه ثمانية من اعضاء مجلس الشيوخ لمقابلة وزير الخارجية وليم روجرز ليحثه على استئناف بيع المزيد من طائرات الفانتوم لاسرائيل. فقال وليم روجرز للوفد ان بيع المزيد من هذه الطائرات سيترك آثارا سلبية على المساعي القائمة لاقرار تسوية سلمية والتي تجتاز بدورها مرحلة حرجة ودقيقة ، واتهم اسرائيل باتخاذ موقف متصلب من مساعي التسوية . وقد جعلت ملاحظات وليم روجرز احد اعضاء الوفد المؤلف بالتساوي من شيوخ من الحزبين الديموقراطي والجمهوري يتميز غيظا حتى انه هدد روجرز بأن يتجاوزه وان يرفع قضية بيع طائرات الفانتوم الى الرئيس نيكسون مباشرة . فأجابه روجرز : « لا ريب ان بوسعك ان تفعل ذلك ، غير انني واثق بأن الرئيس سيؤيدني في موقفي » . وفي الثلاثين من شهر كانون الاول تسربت اخبار من المصادر الحكومية الامريكية مفادها ان قرارا من حيث المبدأ قد اتخذ باستئناف بيع طائرات الفانتوم لاسرائيل ، وان التفاوض على اعداد الطائرات التي سيسمح ببيعها ومواعيد تسليمها سيتم قبل محادثات الرئيس نيكسون مع الزعماء السوفييت في موسكو في شهر أيار ١٩٧٢ ، وقد اكدت التطورات التي انتهت اليها قضية بيع طائرات الفانتوم واقع المسار المتشابك والملتوي الذي تجتازه عملية اتخاذ القرارات حول قضايا الشرق الاوسط لدى المراجع العليا المسؤولة في حكومة نيكسون .

يكشف ماير فيلدمان [اليهودي] ، وهو محام في واشنطن وخبير في الشؤون اليهودية ، وعمل مدة من الزمن كمساعد مستشار خاص لكل من الرئيسين كينيدي وجونسون ، يكشف النقاب عن ثلاثة مراكز قوى رئيسية داخل الحكومة الامريكية لها نفوذ على الرئيس الاميركي في رسم السياسة الاميركية حول الشرق الاوسط . ويقول ان « وزارة الخارجية تحدد المواقف . ويوقع ما لا يقل عن سبعة عشر من المسؤولين في الخارجية الاميركية على التقرير المبين للسياسة المقترحة قبل ان يرفع الى البيت الابيض . وكنا ندعو هذا التقرير : « العاصفة الثلجية من وزارة الخارجية » » .

وثاني مراكز القوى الرئيسية هذه هو « مجلس الامن القومي » الذي يتلقى تقارير السياسات المقترحة من وزارة الخارجية . وقلما يعمد « مجلس الامن القومي » الى اجراء دراسات خاصة به حول المواقف السياسية ، بل يكتفي ، عادة ، بتعديل التحليل السياسي الذي تنتهي اليـه وزارة الخارجية وفق مرئيات المجلس للصورة الدوليـة الشاملة .

اما « البيت الابيض » فهو اهم مراكز القوى الثلاثة هذه . وكان يعين بالقرب من كل رئيس اميركي ابتداء من فرانكلين روزفلت الى ليندون جونسون شخص ذو وزن سياسي ملموس [يهودي عادة] مهمته ان يتصدى للخط السياسي الذي يتبناه « العروبيون » (!!!؟) في وزارة الخارجية الاميركية وان يقارع حججهم لاتخاذ موقف سياسي متوازن .

وفي عهد ادارة الرئيس نيكسون ظل هذا البنيان السياسي الثلاثي القوي والذي بيده مقاليد الامور وتنتهي اليه سلطة اتخاذ القرارات على حاله كما كان عليه في عهود الرؤساء الاميركيين الاخرين ، ولكن مع بعض الاستثناءات الهامة ، مثـل : ١) ان وزير الخارجية وليم روجرز يلعب دورا اكثر نشاطا ويمارس نفوذا اقوى في رسم السياسة الاميركية في الشرق الاوسط من اي وزير خارجية اميركي آخر جاء بعد جون فوستر دالس (١٩٥٣ — ١٩٥٩) . فقد قدم في شهر كانون الاول عام ١٩٦٩ خطته الخاصة بالسلام لتسوية النزاع العربـي الاسرائيلي ، وغالبا ما ظل ، بعد ذلك ، يولي الشرق الاوسط الاولوية في عمله . ٢) كذلك ، ان جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية الاميركية لشؤون الشرق الادنى وجنوب آسيا يقوم ، هو الاخر ، بدور نشيط سواء من حيث مفهومه لما ينبغي ان تكون عليه سياسة الولايات المتحدة في المنطقة او من حيث دوره الخاص في صياغة هذه السياسة، ولكنه ، بعكس روجرز ، ألمع في الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع زعماء اليهود الاميركيين الاقوياء النفوذ . ٣) اما هنري كيسنجر مساعد الرئيس الاميركي لشؤون الامن القومي ومدير ادارة مجلس الامن القومي فيلعب دورا هامشيا في مداولات مجلس الامن القومي حول الشرق الاوسط وذلك على النقيض من سلفه والت روستو . وتحفظ كيسنجر في القيام بدور نشيط حول قضايا الشرق الاوسط لا يتسق مع — وبعض المسؤولين يقولون انـه بسبب — مبادراته النشيطـة في معظم قضايـا السياسة الخارجية الحاسمة الاخرى (مع العلم ان كلا من كيسنجر وروستو هما يهوديان) . ٤) لم يستسغ نيكسون فكـرة تكليف احد مستشاريـه الشخصيين القيام بمهمة تنسيق العلاقات السياسية ازاء الشرق الاوسط مع الهيئات اليهودية الاميركية، وهي المهمة التي تولاها فيلدمان في عهد الرئيس كينيدي ، ومن ثم اضطلع بها هاري ماكبيرسون الابن في عهد الرئيس جونسـون . [وفيلدمان يهودي ، اما ماكبيرسون ، وهو ايضا محام في واشنطن ، فليس يهوديا] . وكان ماكبيرسون يتابع الاطلاع علـى مجريات التفكـير في وزارة الخارجية ازاء الشرق الاوسط ليس من خلال الطرق الرسمية المعتادة فحسب ، بل كذلك بواسطة نسيبه مايكل شتيرنر الموظف المحترف في وزارة الخارجية ، والذي يعمل حاليا رئيسا لقسم الشؤون المصرية في الوزارة .

يعمد نيكسون ، بخلاف ما درجت عليـه التقاليـد الماضية المتبعة ، الى متابعة شؤون الشرق الاوسط ويتولى الاشراف على ملاحقتها بنفسه ، اي انـه يقوم بدور الموظف والرئيس معا بهذا الشـأن . ولذلك لم يكن مع الرئيس نيكسون اي شخص اخر من الجـانب الاميركي في ٢ كانون الاول الماضي عندما تباحث لمدة ساعتين في مكتبه البيضوي مـع غولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل . وفي بعـض المناسبات ، يعهد نيكسون الى مستشاره الخاص ليونارد غارمنت [يهودي] معالجة احدى القضايا اليهودية . فعلى سبيل المثال ، حـاول غارمنت (دون جدوى) خـلال زيـارة الرئيس الفرنسي بومبيدو الرسمية في عام ١٩٧٠ ان يمنع أعضـاء جمعية المحاربين القدامى اليهودية من تنظيم تظاهرة احتجـاج أمام فنـدق « والدورف استوريا » في نيويورك حيث كان من المقرر ان يلقي بومبيدو خطابا وذلك تعبيرا عن استنكارهم لموافقة بومبيدو علـى بيع ١١٠ طائرات ميراج الى ليبيا . وازاء اصرار هؤلاء على التظاهـر طار نيكسون الى نيويورك ، دون سابق ترتيب ، ليكون الى جانب بومبيدو تعبيرا عن المشاعر الودية تجاه الرئيس الفرنسي . وقد غضب نيكسون غضبا شديدا لعدم استجابة الهيئات اليهودية لمساعي غارمنت بصدد زيارة بومبيدو هذه حتى انه اوقف لبعض الوقت ارسال جميع الرسائل الرئاسية الى المنظمات اليهودية ، وهي رسائـل

تعد من المجاملات المعتادة التي درج عليها البيت الابيض . وقد قال فيلدمان عن دور غارمنت في البيت الابيض : « ليس من مهماته ان يؤثر في اتخاذ القـرارات أو أن يمارس نفوذا ، فهو يتلقى التعليمات من الرئيس نيكسون ويسعى لاقناع الهيئات اليهودية بقبول ذلك الموقف » .

ان الموظف المعاون لكيسنجر حول شؤون الشرق الاوسط في مجلس الامن القومي هو هارولد ساندرز ، وعمره ٤١ عاما ، وهو من الموظفين الذين ظلوا في المجلس من ايام روستو . ويعمل ساندرز بمثابة ضابط ارتباط بين مجلس الامن القومي وسيسكو ، بيد أن دوره في وضع السياسة وصياغتها مقيد ومحصور . وقد شاب علاقة ساندرز مع الاسرائيليين ، وفي بعض الاوقات مع كيسنجر ، شيء من التوتر . وقد التحق ساندرز بمجلس الامن القومي في عام ١٩٦١ ، اذ حول اليه من وكالة الاستخبارات المركزية . ويقول أحد المعاونين السابقين في البيت الابيض « لقد كنت يدا ساندرز عن كل مسؤولية الان ، اذ كان دوره أعظم بكثير في عهد الادارة السابقة [ادارة جونسون] » . ويضيف هذا المسؤول السابق في البيت الابيض ان السياسة الامريكية تجاه اسرائيل توضع في مجملها في البيت الابيض لا في وزارة الخارجية ، ويستطرد هذا المسؤول السابق قائلا : « يتمتع سيسكو بنفوذ عظيم في صياغة الموقف السياسي الامريكي اليومي . بيد انني لست على يقين اطلاقا ان صوت سيسكو حاسم في التفكير الاستراتيجي الشامل . وعلى أية حال ، ان السياسات الصادرة عن الرئيس الامريكي ومساعديه المقربين هي السياسات الحاسمة حول اسرائيل في جميع الامور المهمة » . من بين حلقات الوصل المهمة بين الرئيس الامريكي والسفارة الاسرائيلية الجنرال الكسندر هيغ الابن نائب كيسنجر الاول ، وضابط الارتباط بينه وبين وزارة الدفاع الامريكية . ويتباحث السفير الاسرائيلي اسحق رابين رئيس الاركان الاسرائيلي السابق مع هيغ هذا حول مدى قوة القوات الاسرائيلية ، وحول نوايا السوفييت العسكرية والدبلوماسية في المنطقة . وهنالك شخصية عسكرية اخرى تقوم مقام صلة وصل عسكرية مباشرة بالاسرائيليين ، وان كان موقع مسؤولية هذه الشخصية خارج البيت الابيض ، ذلكم هو الجنرال جون فوغت وهو من ضباط سلاح الطيران ويعمل كمدير للاركان المشتركة في رئاسة الاركان المشتركة .

وقد قال أحد المسؤولين في ادارة نيكسون ، وقد آثر كتمان اسمه ، بصدد تحليل عملية رسم وصياغة السياسة الامريكية في الشرق الاوسط : « لقد شعرنا دائما بأن كيسنغر كان يتحاشى الخوض في شؤون الشرق الاوسط ، على الاقل بصورة علنية ومكشوفة . وقد يعزى ذلك الى ان تدخله في هذه الشؤون ، منذ البداية ، سيكون مثار نقد ، بيد انه مما لا يقل عن هذا العامل أهمية واقع ان جوزيف سيسكو رجل يملأ مركزه تماما وقادر على تحمل المسؤوليات . ولو ان جميع المسؤولين في وزارة الخارجية الامريكية يتمتعون بما يتمتع به جوزيف سيسكو من شجاعة وقدرة لما كانت وزارة الخارجية تقبع راكدة في مؤخرة المسرح السياسي . ان سيسكو مسؤول تتوفر لديه الارادة لاتخاذ القرارات ، ولا ادري كيف أفلح في تسلق سلم النظام والصعود الى هذه المرتبة فيه ! » . وتشتمل وزارة الخارجية الامريكية على شبكة معقدة من الاقسام ومتاهة من المكاتب المختصة بشؤون الشرق الاوسط ، بيد ان صلاحية رسم السياسة الخارجية وصياغتها تتركز في قمة الهرم ، فزمام الامور هو بيدي روجرز وسيسكو . (وهنالك واحد من مساعدي سيسكو واسمه الفريد اثيرتون الابن اكتسب شهرة في اوساط البيت الابيض والكونغرس (مجلسا الشيوخ والنواب) بأن تحليلاته لقضايا الشرق الاوسط تتصف بالعمق ورجاحة العقل) .

لقد شهدت السنوات التي انقضت من ولاية نيكسون عدة تغييرات وتبدلات في التكتيك لما تبين ، مع الزمن ، انه سعي سرابي لاقرار تسوية سلمية في الشرق الاوسط . فسارت تكتيكات هذه المساعي ، خطوة بعد اخرى ، من اسلوب المباحثات الرباعية بين الدول الاربع الكبرى والتي بادر الى اقتراحها الفرنسيون ، فاسلوب المباحثات الثنائية الامريكية — الروسية ، ثم محاولة روجرز وسيسكو القيام بدور الوسيط وراء الكواليس ، وجهود وسيط الامم المتحدة الدكتور غونار يارينغ سفير السويد في الاتحاد السوفييتي للوصول الى اتفاق نهائي او محدود ، ثم اخر هذه المساعي وهي محاولة الوصول الى اتفاق مؤقت لفتح قناة السويس ينطوي على تحقيق انسحاب محدود للقوات الاسرائيلية من القناة . وخلال هذه المساعي

جميعها وفي خضم هـذه التطورات وافـق البيت الابيض ، برضى روجرز ومباركته القلبية ، علـى ما دعاه احد المسؤولين الامريكيين أنه « مد خط أنابيب متدفق بالاسلحة لاسرائيل » ، فباستثنـاء التردد الذي اظهرته الحكومة الاميركية حيال شحن طائرات الفانتوم وهو ما أصبح رمـز نقاش بـين الحكومتين الاسرائيلية والاميركية ، زودت الولايات المتحدة اسرائيل بشحنات متنوعة وكبيرة من اجهزة الكشـف والمراقبة الالكترونية المتطورة كما انهـا زودتها حتى بمصانع لصنع اسلحة اميركية ، من بينها طائرات الفانتوم ، وذلك كله بقروض اميركية بشروط متنوعة .

ورغم هذه المساعدات العسكرية السخية ، فان روجرز لم يفلح في الاحتفاظ بعلاقات طيبة مـع اي من غولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل او أبا ايبان وزير خارجيتها . ويقول أحد أعضاء مجلس الشيوخ الاميركي ، وكان صديقا لوليم روجرز يوم ان كـان هذا محاميا في واشنطن : « يعرف وليم روجرز في الوسط الاجتماعي في واشنطن بانه وليم الوديع ، بيد انه نمر مع اليهـود [؟؟] ان عقد تسوية في الشرق الاوسط هي المسالة الوحيدة التي ارخي له الحبل في معالجتها . واعتقد انـه يتوخى ان يزاود على السوفييت في العلاقات مع العـرب . وعلى كل حال ، أيا كانت نوازعـه ، فأظن أنـه سيستقيـل من منصبه اذا واجهت سياستـه في الشرق الاوسط تحديا سافرا من البيت الابيض » . وقد جعلت تكتيكات روجرز السياسية بعض الزعماء اليهود يؤكدون قناعتهم الدائمة بأن وزارة الخارجية الاميركية تنطوي في صميم كيانها على تحيز للموقف العربي [؟!!] . وبهذا الصدد يقـول آي. ال. كينين نائب الرئيس التنفيذي للجنة الشؤون العامة الاميركية الاسرائيلية ، وهي الهيئة التي تعد بمثابة مظلة تتستر في ظلها المنظمات اليهودية الاميركية في ممارسة دعاياتهـا وضغوطهـا علـى الهيئـات والشخصيات السياسية الاميركية لصالح اسرائيل، يقول كينين هذا : « لقد شعرنا منذ البداية بـأن وزارة الخارجية الاميركية ستتجه بعيدا عن الهدف الذي ننشده ، اذ كان يشغل بال المسؤولين فيها الاهتمام دائما بردود فعل السياسة الاميركية داخل العالم العربي ، فكانوا يشعرون ، منذ البدايـة ، أنه اذا ما ظهرت الدولة اليهودية الى حيز الوجود فسيؤدي ذلك الى حدوث استقطاب وتحالف عربي ــ سوفياتي ... ولم يطرأ ، في واقع الامـر ، أي تبـدل ، منذ ذلـك الحين ، في نظـرة وزارة الخارجية تلك » . ويقول احـد اعضاء مجلـس الشيوخ ، وهو من الحزب الجمهوري ، وقد آثر عدم الافصاح عن اسمه « ان وليم روجرز يريـد تطبيق مبادرة روجـرز ، انه يريدها ان تحمـل اسمه . فقد نـذر روجرز كـل نفوذه ومكانته في التاريخ على نجاح مساعيه لاقرار السلام في الشرق الاوسط [؟؟] ولذلك يظن روجرز بأنـه يجب ان يتوفر له قدر كبير من حرية الحركة والقدرة علـى التصرف ــ ولكنهم (اي الاسرائيليين) لا يقرون له بذلك اطلاقا » .

وبالمقارنة مع روجرز ، نجح سيسكو في المحـافظة على روابط وثيقة نوعا ما بالاسرائيليين ، رغم أنه شـاب العلاقـات بينهما شيء من الفتور في بعض الاحيان . مثال ذلك ، عندما ذهب الى موسكو في تموز ١٩٦٩ ، وسط دهشة الاسرائيليين وغضبهم ، ليتباحث مـع اندريه غروميكـو وزير الخـارجية السوفييتي حول الوضع في الشرق الاوسط .

ويوجـد في وزارة الخارجية من يحطون من قـدر سيسكو ، رغم انه ما من أحد منهم يرغب في أن تنقل عن لسانه اية انتقادات لسيسكو . ويقول احد المسؤولين في وزارة الخـارجية ، وقد عمل مـع سيسكو في الماضي : « انه ذو وجهين . فهو يروي لكل جانب ما يحب ان يسمعه . ولذلك يدعونه في وزارة الخارجية « جو النطاط » ، وانني افضل ان اقول أن أفضـل وصف لسيسكو هـو « تسييـر السياسة بالادرينالين » [أي التنشيط الاصطناعي المفتعل والمخدر] . وقد ابلغ سيسكو احد مراسلي مجلة « النيويوركر » مؤخرا قائلا : « بصراحة ، لقد كان دوري خلال هذه المدة أشبه ما يكون بدور « مـدير الازمة » ، دائم التنقـل بـين العـرب والاسرائيليين . ويعود الي معظم الفضل في انني أجريت ، بمفـردي ، المفاوضات بين الاسرائيليين والمصريين لتحقيق وقف اطلاق النار الذي نفذ ابتداء من ٧ اب ١٩٧٠ . ومن النادر في مجال السياسة الخارجية ان يكون بوسع المرء ان يعزو لنفسـه انجازا معينا ، بيد انني اشعر ان بوسعي ان أدعي ذلك لنفسي في هذا الشأن » .

وقد قال أحد أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين مداعبا عن سيسكو : « ان سيسكو يود ان يكون خط سيره منسجما مع رغبات الرئيس نيكسون ، فمهمته هي أن يبقي المساعي والاتصالات مستمرة،

وقد احتفظ به نيكسون في وزارة الخارجية لقدرته الفائقة ، رغم ان نيكسون يعلم بأنه صوت لهيوبرت همفري» [ان سيسكو وهمفري صديقان منذ سنوات كثيرة] .

يقول فيلدمان ، من واقع تجربته السابقة في البيت الابيض : « كثيرا ما تعمل وزارة الدفاع [وبضمنها هيئة رئاسة الاركان المشتركة] بصورة مشتركة مع وزارة الخارجية التي تقيم لجان عمل مشتركة عديدة حول الشرق الاوسط . ونادرا ما تسمع شيئا من المسؤولين المرتبطين مباشرة بالبيت الابيض . ويوجد هنالك تحيز لاسرائيل في البنتاغون [وزارة الدفاع الامريكية] بيد ان البنتاغون يعارض معظم الاحيان تزويد اسرائيل باشكال أرقى من المعونات العسكرية لان جنرالات البنتاغون يشعرون دائما بأن لدى الاسرائيليين قوة كافية » .

وهنالك هيئة اخرى تتمتع بخبرة فائقة في اوضاع الشرق الاوسط وتلك هي وكالة الاستخبارات المركزية . وهي تعمل بارتباط وثيق مع الاستخبارات الاسرائيلية حول معظم شؤون الشرق الاوسط لا سيما ما يتعلق منها بانتقال الرجال السوفييت والسلاح السوفييتي الى المنطقة . (قبيل اندلاع حرب حزيران ١٩٦٧ ابلغ احد كبار المسؤولين في وكالة الاستخبارات المركزية السناتور الجمهوري شارلز بيرسي انه اذا ما اشتعل القتال فستنتصر اسرائيل فيه خلال اسبوع . هذا بينما كانت وزارة الخارجية الامريكية شديدة التحفظ والخشية في تقديراتها لنتائج اندلاع الحرب) .

يقول احد المحامين الذين تربطهم علاقة بكل من الحزب الديموقراطي والهيئات اليهودية الامريكية بصدد تلخيص مجموعة العوامل والقوى التي تؤثر في رسم السياسة الامريكية تجاه اسرائيل في حكومة نيكسون : « لعبت وزارة الخارجية في عهد نيكسون دورا اكبر في وضع السياسة الامريكية تجاه الشرق الاوسط مما لعبته في عهود الرؤساء السابقين . بيد ان قراراتها في القضايا الحاسمة مثل قضية تزويد اسرائيل بطائرات الفانتوم تتعرض للنقض من البيت الابيض . ولذلك بوسعي ان اقول ان الرئيس نيكسون قد قدم لاسرائيل وخدم مصالحها اكثر من اي من اسلافه » .

وفي حين تتركز في البيت الابيض الامريكي سلطة اتخاذ القرارات حول شؤون الشرق الاوسط وقضاياه ، نجد ان المحاورين الصهيونيين يوجهون شطرا كبيرا من جهودهم لعرض المطالب الاسرائيلية وشرحها لاعضاء الكونغرس الامريكي بمجلسيه الشيوخ والنواب . ويميل المحاورون الصهيونيون الى تركيز جهودهم الدعائية ومناورات «تطبيقاتهم» السياسية على اعضاء الكونغرس الامريكي ومن يعمل في خدمتهم من موظفين واجهزة لان سبل الاتصال بهؤلاء هي أيسر للمحاورين من الاتصال مباشرة بكبار المسؤولين في البيت الابيض وفي وزارة الخارجية ، وكذلك لان المحاورين الصهيونيين يأملون ان يقوم من « يطبقونهم » من اعضاء الكونغرس ، بدورهم ، بمحاورة المسؤولين المختصين والدفاع عن القضايا الاسرائيلية والصهيونية لديهم نيابة عن المحاورين الصهيونيين هؤلاء .

يقول أحد الشيوخ الجمهوريين : « عندما كنا نثير في الكونغرس احدى القضايا (لصالح اسرائيل) لم ألحظ أبدا استجابة فورية من البيت الابيض ». ويضيف قائلا : « بيد أن من الانصاف القول انه في كل مرة اثيرت في الكونغرس قضية تزويد اسرائيل بالمزيد من طائرات الفانتوم كانت اسرائيل تحصل عليها بعد ستة شهور ، اذ يكون هناك ابطاء في الاستجابة الى ان يتعاظم الضغط السياسي » .
وفي اكتوبر الماضي تبنى ٧٨ شيخا من اعضاء مجلس الشيوخ (من أصل مائة) قرارا يحث الحكومة الامريكية على استئناف شحن طائرات الفانتوم لاسرائيل . ويعدد كينين ، الذي نسق الحملة في اوساط الكونغرس بصدد طائرات الفانتوم ، ثلاثة اسباب رئيسية تجعل طلبات اسرائيل وقضاياها تحظى بتأييد واسع في اوساط الكونغرس : اولا ، توجد في الدوائر الانتخابية لكثير من أعضاء الكونغرس جاليات يهودية ذات صوت مسموع ، حتى وان كانت قليلة العدد في بعض الاحيان . ثانيا ، يؤيد كثير من أعضاء الكونغرس الليبراليين اسرائيل بصفتها « منارة للديموقراطية في محيط من الحكومات العربية الرجعية » . ثالثا ، يؤيد كثير من اعضاء الكونغرس المحافظين اسرائيل بصفتها حصنا ضد الشيوعية السوفييتية وسط الحكومات العربية الراديكالية . وعندما أثيرت قضية استئناف شحن طائرات الفانتوم لاسرائيل في مجلس النواب الامريكي حظي قرار مماثل لذلك الذي اتخذه مجلس الشيوخ بتوقيع ٢٥١ نائبا . ومن اعظم اعضاء مجلس النواب الامريكي نفوذا في تبني القضايا الاسرائيلية ودعمها عمانويل سيلر وهو ديموقراطي من

نيويورك ، وهو رئيس مجلس النواب ورئيس اللجنة التشريعية فيه ، ثم النائب توماس مورغان وهو ديموقراطي من ولايـة بنسلفانيا ، ورئيـس لجنة الشؤون الخارجيـة في مجلس النواب . والنائب عمانويل سيلر يهودي أما توماس مورغـان فليس يهوديا . (فكر السفير الاسرائيلي رابين ، مـرة ، في أن يبيع مقر سكن اعضاء السفارة الاسرائيلية، وهو يقع في منطقة تـلال الى الغرب من « منتزه روك كريك » لان عمانويل سيلر هذا ، وعمره ٨٣ عاما ، لا يستطيع تسلق الدرج المؤدي الى ذلك المسكـن ولا يستطيع بالتالي ان يحضر حفـلات العشاء التي يقيمها رابين فيه) .

أمـا في المجلـس الاخر من مجلسي الكـونغرس الاميركي ، وهو مجلس الشيوخ الذي يلعب دورا أهم من مجلس النواب في تقريـر امور السياسة الخارجية الامريكية ، فتوجـد فيه ، ضمن حلقة واسعة من الشيوخ المؤيدين لاسرائيل ، مجموعة مؤلفة من ١٢ شيخا تؤلف نواة صلبة لدعم اسرائيل وتأييد قضاياها ، اذ يقود هؤلاء عادة التحركات والمبادرات المؤيدة لاسرائيـل ويتبنون مطالبها في مجلس الشيوخ ، فهم الذين تبنوا قرار استئناف شحن طائرات الفانتوم لاسرائيل وجندوا له تأييد الاغلبية الساحقة من الشيوخ (٧٨ من أصل ١٠٠). واعضاء هذه النواة الصلبة هم : ادوارد بروك وهو جمهوري من ولاية ماساتشوستس ، وروبرت دول وهو جمهوري من كنساس ، وادوارد غيرني وهو جمهوري من فلوريدا ، وهنري جاكسون وهو ديمقراطي من ولاية واشنطن ، وجاكوب جافيتس وهو جمهوري من ولاية نيويورك ، وادوارد كنيدي وهو ديموقراطي من ماساتشوستس ، وغال ماكغي وهو ديمقراطي من ولاية وايومينغ ، وابراهـام ريبيكوف وهو ديموقراطي من ولاية كونيكتيكوت ، وهيو سكوت وهو جمهوري من ولاية بنسلفانيـا ، وستيوارت ساينغتون وهو ديموقراطي من مونتانا، وهيرمان تالمدج وهو ديموقراطي من ولاية جورجيا، وشارلز بيرسي وهو جمهوري من ولاية الينوي . وتتكون مجموعة الشيوخ الاثني عشر هؤلاء مـن ستة ديموقراطيين وستة جمهوريين ، واثنان منهما وهما جاكوب جافيتس وابراهام ريبيكوف يهوديان واثنان هما روبرت كيندي وهنري جاكسون كانا في عام ١٩٧٢ من الساعين للفوز بترشيح الحـزب الديموقراطي لانتخابـات رئاسة الجمهورية التي ستجري في اواخر هذا العام . كما أن اثنين من مجموعة الشيوخ الاثني عشر هؤلاء يحتلان مراكز قياديـة في الحزب الجمهوري وهمـا روبرت دول وهيو سكوت ، اذ أن روبرت دول هو رئيس اللجنة القومية في الحزب الجمهوري ، واما هيو سكوت فزعيم كتلة الاقلية في مجلس الشيوخ (اي رئيس الشيوخ الجمهوريين) . ويعد كل من هيو سكوت وهو عضو في لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ ، وستيـوارت سايمنغتون وهو رئيـس اللجنة الفرعية لشؤون الشرق الادنى وجنوب شرق اسيا التابعة للجنة الشؤون الخارجية يعدان كبيري أعضاء مجموعة الشيوخ الاثني عشر والناطقـين بلسانها في معظم الاحيان . وقد اشترك ثمانية من مجموعة الشيوخ الاثني عشر في المقابلة الحـادة التي جرت مع وليم روجرز وزير الخارجية في الثالث والعشرين من تشرين الثاني ١٩٧١ والتي رتبهـا جاكوب جافيتس وابراهام ريبيكوف . وقد قال أحد المشاركين في هذه المقابلـة ، بعد انتهائها ، ان حضور كل مـن روبرت دول وهيو سكوت هـذه المقابلة في مكتب روجرز كان في غاية الاهمية اذ كان بوسع الرئيس نيكسون ان يطلب منهما عدم الضغط على روجرز في هذا الوقت فيستجيبان لطلبه » . ومن جهة اخرى ، يتباحـث بعض مساعدي هؤلاء الشيوخ الاثني عشر مـع بعضهم البعض من حين لاخر حول قضايـا الشرق الاوسط . ويقود هذا الائتلاف غـير الرسمي على مستوى مساعـدي مجموعـة الشيوخ هؤلاء وموظفيهم موريس أميتي وهو مساعد ابراهام ريبيكوف التشريعي واحـد الموظفين السابقين في وزارة الخارجية الامريكية . ان ستيوارت سيمنغتون بصفته ابرز الديموقراطيين في مجموعة الشيوخ الاثني عشر يثابر على دعم مبدأ تزويد اسرائيل بالمزيد من السلاح رغم معارضته ما يدعوه الميزانيـات الكبـيرة المضخمة لوزارة الدفاع . [يذكر كينين انه عندما كان سيمنغتون هذا وزيرا لسلاح الطيران (١٩٤٧ — ١٩٥٠) كـان يشير الى اسرائيل بأنها « حاملة الطائرات التي لا تغرق »] . ومما هو جدير بالذكر ان طـائرات الفانتوم (اف — ٤) التي تطلبها اسرائيل مـن الولايات المتحدة تجمـع وتركب في مصنع شركـة ماكدونيل دوغـلاس كوربوريشن الـذي يوجد في ضواحي مدينة سانت لويس في الولاية التي يمثلها سيمنغتون في مجلس الشيوخ . وكان هذا المصنع سيغلق أبوابه لولا الطلبات الاضافية التي تلقاها من اسرائيل (وربما من المانيا الغربية كذلـك) لان

سلاح الطيران الامريكي توقف عن شراء هذه الطائرات وتحول الى شراء طراز جديد من مقاتلات الفانتوم هو (اف ــ ١٥) .

اما جاكوب جافيتس فهو أحد أعضاء مجلس الشيوخ الامريكيين الذين تشعر الحكومة الامريكية بضرورة استشارتهم حول اية مبادرة تعتزم القيام بها في الشرق الاوسط وذلك لانه يمثل ولاية نيويورك (حيث يعيش معظم اليهود الامريكيين) ، ونظرا لنشاطه الشخصي ودرايته العميقة بشؤون السياسة الخارجية . وكذلك مضى حين من الدهر، كانت السفارة الاسرائيلية لا تأتي على اية حركة ، صغيرة كانت او كبيرة ، دون ان تستشير أولا جاكوب جافيتس هذا ، أما الان فلا تستشير السفارة الاسرائيلية جاكوب جافيتس الا حول القضايا السياسية الكبرى . ومن المعروف عن جافيتس انه عندما يتأزم الوضع في الشرق الاوسط يلغي جميع مواعيده وارتباطاته ويتباحث مدة ساعات متواصلة مع اسحق رابين السفير الاسرائيلي ومع المسؤولين الاميركيين . وقد دام أحد هذه الاجتماعات ثلاث ساعات ، وقد عقد يوم ان كشف لاول مرة ان الطيارين السوفييت يقومون بطلعات قتالية على امتداد قناة السويس .

ويقول جافيتس عن نفسه « أعتقد انني اتمتع بمكانة طيبة لدى كل من الطرفين ، فانا مقبول لديهما كصاحب رأي مستقل » . [تعبير « كلا الطرفين » عند جافيتس يعني الاميركيين والاسرائيليين ، بينما في موسكو تدعو صحيفة « الازفستيا » ، الناطقة رسميا بلسان الحكومة السوفيتية ، جافيتس بأنه السناتور الذي من تل ابيب] .

وفي شهر كانون الاول الماضي قام جافيتس وبصحبته السناتور جون شيرمان كوبر ، وهو جمهوري من ولاية كنتكي ، بجولة في اسرائيل وتباحثا مع غولدا مائير ، وبعد ذلك طار كوبر الى القاهرة للاجتماع بالرئيس أنور السادات ، أما جافيتس فلم يصحبه في زيارته هذه . (وجدير بالذكر انه في ٢٣ تشرين الثاني ، كان السناتور جون شيرمان كوبر هذا من بين ١٤ شيخا امريكيا صوتوا ضد منح اسرائيل قروضا عسكرية قيمتها ٥٠٠ مليون دولار ، منها ٢٥٠ مليون دولار مخصصة لشراء طائرات الفانتوم) .

اما السناتور هنري جاكسون فان محاميا تربطه وشائج بالسفارة الاسرائيلية قال عنه : « ان جاكسون هو اكثر الاشخاص المدافعين عن اسرائيل نفوذا . فجافيتس مستبعد من هذا السياق لاسباب متنوعة ، اما ابراهام ريبيكوف فيتمتع بنفوذ ولكن ضمن حدود ، اذ لا يحتل مكانة قوية لدى الاوساط النافذة ، بينما جاكسون يتمتع بمثل هذه المكانة ».
وقد أيد جاكسون مسألة انشاء دولة يهودية في فلسطين منذ عام ١٩٤٤ يوم ان كان نائبا لا يتجاوز عدد اليهود في دائرته الانتخابية ٤٠٠٠ شخص .
ويقول ريتشارد بيرل وهو من موظفي اللجنة الفرعية للامن القومي والعمليات الدولية المتفرعة من لجنة العمليات التابعة للحكومة الامريكية ، ان جاكسون يرى تشابها بين التنشئة اليهودية وبين التنشئة النرويجية التي ينحدر منها ، كما انه يستهويه ما يرى انه احساس قوي بالتقاليد العائلية بين اليهود . (والسناتور جاكسون هو رئيس اللجنة الفرعية المذكورة آنفا ، أما بيرل فهو مستشاره الرئيسي حول قضايا الشرق الاوسط) . وبفضل جهود جاكسون سواء في لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ أم من على منبر مجلس الشيوخ نفسه ، وافق مجلس الشيوخ في عام ١٩٧٠ على رصد مبلغ ٥٠٠ مليون دولار كمساعدة لتسليح اسرائيل . وقد افلح جاكسون في حمل مجلس الشيوخ على رصد هذا المبلغ لاسرائيل رغم معارضة كل من رئيس لجنة القوات المسلحة السناتور جون ستينس وهو ديموقراطي من ولاية ميسوري ، والسناتور فولبرايت رئيس لجنة العلاقات الخارجية وهو ديموقراطي من ولاية أركنساس . (اعترض السناتور جون ستينس حول بعض الامور الاجرائية المتعلقة بأصول الاجراءات والقواعد الشكلية اما السناتور فولبرايت فيعتبره الدبلوماسيون الاسرائيليون منذ عام ١٩٥٠ المناوىء الرئيسي لهم ، وخصمهم الذي لا تلين له قناة في مجلس الشيوخ) .

وقد أفلح جاكسون في ربط المساعدات المطلوبة لاسرائيل بقانون المستلزمات العسكرية لعام ١٩٧٠ لان المنفذ الاعتيادي لرصد مثل هذه المساعدات وهو برنامج المساعدات الخارجية قد سد بحملة خطابية أشعلها تعديل قانوني مناوىء للحرب تقدم به كل من السناتور جون شيرمان كوبر والسناتور فرانك تشرش وهو ديموقراطي من أيداهو . وما أن وقع الرئيس نيكسون توصية مجلس الشيوخ برصد مبلغ ٥٠٠ مليون دولار مساعدة لاسرائيل لتصبح نافذة قانونيا ، حتى بادر جاكسون الى

استخدام نفوذه بصفته عضوا ذا مكانة بارزة في لجنة القوات المسلحة لكي يحمل وزارة الدفاع على ان تسمح لاسرائيل بتسديد قيمة المساعدة بشروط أكثر تساهلا بكثير مما هو متبع عادة . (ان الشروط المعتادة لتسديد ثمن المبيعات من المعدات العسكرية تقضي بالتسديد في غضون عشر سنوات بفائدة معادلة لسعر الفائدة التجارية السائد في الولايات المتحدة) .

وفي اواخر تشرين الثاني ١٩٧١ تحرك جاكسون من جديد لرصد مبلغ ٥٠٠ مليون دولار كمساعدة عسكرية جديدة لاسرائيل ، فأمن موافقة مجلس الشيوخ على هذا القرض باغلبية ٨٢ ضد ١٤ . وقد تحرك جاكسون في هذا الاتجاه عندما بدا له ان برنامج المعونات الخارجية الذي كان في طور المناقشة لن يحظى بموافقة مجلس الشيوخ . ولكن التطورات سارت فيما بعد بصورة مغايرة لما توقع جاكسون اذ أقر مجلس الشيوخ التقرير حول برنامج المعونات الخارجية عشية انفضاض دورة انعقاده في ١٧ كانون الاول . وقد اشتمل برنامج المعونات هذا على تخصيص ٤٠٠ مليون دولار كقروض لتسديد المبيعات من المعدات الحربية خصص مبلغ ٣٠٠ مليون دولار منها لاسرائيل وحدها . وتحرك الاسرائيليون على جبهة اخرى من برنامج المعونات الخارجية ، فطلبوا ٢٠٠ مليون دولار اخرى من « مساعدات الدعم » متعللين بان النفقات الباهظة على اغراض الدفاع قد سببت ضائقة شديدة في موجوداتهم من العملات الاجنبية. وكانت الحكومة الاميركية قد استحدثت ، خلال السنوات القليلة الماضية ، ما يسمى « بمساعدات الدعم » كوسيلة لدعم ميزانية كل من فيتنام الجنوبية ، وفي نطاق أضيق ، ميزانية كمبوديا . ولذلك واجه الطلب معارضة من مختلف الجهات الحكومية المختصة . ورغم ذلك ، أفلح السناتور جاكوب جافيتس في تضمين برنامج المعونات الخارجية اثناء مناقشته في لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ مبلغ ٨٥ مليون دولار كمساعدة لاسرائيل .

وفي وقت سابق لهذا عندما كان برنامج المعونات الخارجية ما زال تحت المناقشة في مجلس النواب أبلغ جون حنا مدير وكالة الانماء الدولية ، بصورة سرية ، النائب أوتو باسمان وهو ديموقراطي من لويزيانا ، ورئيس اللجنة الفرعية للعمليات الخارجية المتفرعة من لجنة الاعتمادات في مجلس النواب بأن وكالة الانماء الدولية ستحجز اعتماد مساعدات الدعم لاسرائيل ولن تصرفه اذا ما أقر الكونغرس مثل هذا الاعتماد . وفي ١١ تشرين الثاني ، عندما كان برنامج المعونة الخارجية ما زال في طور المناقشة في مجلس الشيوخ تحرك جاكسون لمواجهة هذا التهديد بعدم صرف الاعتماد لاسرائيل فكتب الى وزير الخارجية وليم روجرز : « انني أطلب ضمانا منك بأن الاعتمادات التي سيتم اقرارها ستنفق كاملة وفق الاغراض التي اقرت لها » . وقد طلب جاكسون من روجرز تعهدا كتابيا بذلك ، غير ان روجرز استنكف عن ذلك في مكالمة هاتفية ، ولكن عندما اصبح برنامج المعونة يواجه خطر عدم الاقرار في مجلس الشيوخ ، شعر روجرز ان عليه ان يعطي الضوء الاخضر بالاستجابة لطلبات جاكسون ، وبناء عليه اتفق كل من روجرز وجاكسون وهيو سكوت على ان يعلن سكوت في قاعة مجلس الشيوخ ان الحكومة ملتزمة بالافراج عن الاعتمادات المرصودة في برنامج المعونة وصرفها وفق ما يقره الكونغرس . (وفي نهاية المطاف تقرر في جلسة مشتركة لمجلسي النواب والشيوخ ، بناء على توصية من السناتور فولبرايت ، تخفيض حصة اسرائيل الى خمسين مليون دولار بدلا من ٨٥ مليون) .

يقول جون ريتشاردسون المدير التنفيذي والسكرتير للهيئة الاميركية لاعانة اللاجئين في الشرق الادنى واحد انصار القضية العربية في الشرق الاوسط : « ان معظم أعضاء مجلس الشيوخ يصيبهم نوع من ارتجاف الركب تجاه اسرائيل » . ويضيف ريتشاردسون قائلا : « خذ همفري مثلا ، انه يرفض مناقشة قضايا الشرق الاوسط حتى مع موظفيه ومساعديه ، فهو منغلق تماما ازاء أية وجهة نظر أخرى عدا وجهة النظر الاسرائيلية » . ورغم ذلك ، هنالك أقلية من أعضاء مجلس الشيوخ يتحفظون في التأييد التام لوجهة النظر الاسرائيلية. ومن هؤلاء السناتور فولبرايت ، والسناتور ألين أليندر وهو ديموقراطي من ولاية لويزيانا ورئيس لجنة الاعتمادات في مجلس الشيوخ ، والسناتور مارك هاتفيلد وهو جمهوري من ولاية اوريغون ، والسناتور هنري بلمون وهو ديموقراطي من ولاية أوكلاهوما ، ويطلق عليه رجال الدعاية الاسرائيلية لقب « سناتور النفط » . ويقول ريتشاردسون : « ان السناتور هاتفيلد هو الشواذ الذي يثبت

القاعدة » . أما ديفيد برودي وهو احد المحاورين السياسيين لمنظمة « بناي بريت » الصهيونية الامريكية لدى الكونغرس فيقول : « ان هاتفيلد يحرص على أن تتضمن سجلات الكونغرس كل اسبوع موقفا له مؤيدا لوجهة النظر العربية ، ولكن حماسته خبت جذوتها ، بصورة ملموسة ، خلال عام ١٩٧١ » . تنتهي فترة ولاية السناتور هاتفيلد في عام ١٩٧٣ ، وهو يتوقع ان يواجه منافسة شديدة من مرشح الحزب الديموقراطي) .
وقد اجتمع عدد من الطامحين الى الفوز بترشيح الحزب الديمقراطي لمعركة انتخابات رئاسة الجمهورية الامريكية ، ومعظمهم من أعضاء مجلس الشيوخ الحالي ، بصورة منفردة ، بغولدا مائير خلال زيارتها للولايات المتحدة في شهر كانون الاول الماضي والتي دامت عشرة ايام . وقد اعترف كل من جاكسون ، وهمفري ، وجون ليندسي رئيس بلدية نيويورك الديموقراطي باجتماعهم الى غولدا مائير ، وان لم يكشفوا النقاب عما بحثه كل منهم معها ، أما السناتور ادموند موسكي وهو ديموقراطي من ولاية « ماين » فلم يعترف باجتماعه الى غولدا مائير . وجدير بالذكر أن غولدا مائير وافقت على أن تتباحث مع السناتور جورج ماكغفرن وهو ديموقراطي من ولاية داكوتا الجنوبية، بيد ان حدوث تعارض في مواعيد كل منهما وارتباطاته حال دون حدوث هذا اللقاء .

ان مستشار همفري الرئيسي حول الشؤون الاسرائيلية وكذلك حول العديد من الشؤون السياسية غير اليهودية هو ماكس كامبلمان أحد الشركاء في مكتب للاستشارات القانونية في واشنطن وهو مكتب فرايد ، وفرانك ، وهاريس ، وشرايفر، وكامبلمان . ومن جهة اخرى ، يتول بيتر روزينبلات الذي اجرى الترتيبات للرحلة الوحيدة التي قام بها السناتور ادموند موسكي لاسرائيل وذلك في كانون الثاني ١٩٧١ « ان هنالك عددا هائلا من الناس يتحدثون لموسكي عن اسرائيل ، ولكن لمن من هؤلاء تراه يصغي ويستجيب فذلك امر اخر !! » . ان مستشاري السناتور ادموند موسكي الرئيسيين حول شؤون الشرق الاوسط ، علاوة على معاونيه وموظفيه ، هم كل من : أفريل هاريمان الذي كان في اخر مهمة حكومية قام بها ممثلا للولايات المتحدة في محادثات السلام للحرب الفيتنامية في باريس (١٩٦٨ — ١٩٦٩) ، وبول ورنكي احد الوكلاء السابقين لوزارة الدفاع لشؤون الامن الدولي (١٩٦٧ — ١٩٦٩) ، ولوسيوس باتل الوكيل السابق لوزارة الخارجية الامريكية لشؤون الشرق الادنى وجنوب اسيا (١٩٦٧ — ١٩٦٨) . وبول وارنكي شريك في مكتب الاستشارات القانونية في واشنطن المسمى مكتب كليفورد ، ووارنكي ، وغلاس ، وماكلوين ، وفيني ، وكان شريكه الرئيسي في مكتب الاستشارات القانونية هذا كلارك كليفورد وزيرا للدفاع (١٩٦٨ — ١٩٦٩) في عهد الرئيس جونسون . وكلارك كليفورد هو الذي اجرى في عام ١٩٤٨ مفاوضات الاعتراف باسرائيل، رغم الاعتراضات التي اثارتها وزارة الخارجية الامريكية آنذاك ، اذ كان يومها مستشارا للرئيس ترومان . كذلك كان كليفورد احد اصدقاء العمر للسناتور ستيوارت سايمنغتون ، وهو حاليا احد المستشارين الرئيسيين للسناتور ادموند موسكي .
أما لوسيوس باتل فهو نائب رئيس شركة الاتصالات بواسطة الاقمار الاصطناعية « كوزمات » ، وهو بحكم منصبه هذا يتولى اجراء الاتصالات والمحاورة مع أعضاء الكونغرس لصالح شركته . وقد قال لوسيوس باتل في مقابلة صحفية أنه رغم قيامه باطلاع السناتور ادموند موسكي على طبيعة الاوضاع في الشرق الاوسط ومجريات الامور فيه فانه لم يقرر حتى الان من سيدعم من المرشحين لحملة انتخابات رئاسة الجمهورية للعام ١٩٧٢ .
ومن جهة اخرى يقول فيلدمان عن افريل هاريمان الذي يبلغ من العمر الان ٨٠ عاما : « من حيث موقفه من اسرائيل كان دائما بين بين . وهو سياسي بطبعه ، وكان حاكما لولاية نيويورك ، ولكنه متأثر كذلك بآراء رجال وزارة الخارجية ، وهو يتطلع الى تحقيق انفراج في العلاقات مع السوفييت » .

منذ ان تولى الجنرال المتقاعد اسحق رابين مقاليد السفارة الاسرائيلية في واشنطن سعى الاسرائيليون، لاول مرة ، الى توسيع القاعدة التي تدعمهم في الولايات المتحدة مع المحافظة على الروابط بين السفارة الاسرائيلية والهيئات اليهودية الامريكية متينة وراسخة كما كانت دائما . وأحد الاسباب التي تجعل السفارة الاسرائيلية حريصة على متانة الروابط مع اليهود الامريكيين هي أسباب مالية : فالتبرعات التي تتلقاها اسرائيل من اليهود خارج اسرائيل هي عنصر حاسم في الاقتصاد الاسرائيلي .
ويسهم كل من غولدا مائير ووزير الخارجية ابا ايبان والسفير اسحق رابين في جمع التبرعات ويلبون الدعوات لالقاء الخطب في حفلات جمع

التبرعات التي ينظمها كل من « النداء اليهودي الموحد » ومنظمة سندات اسرائيل . وجدير بالذكر أن التبرعات التي يجمعها «النداء اليهودي الموحد» معفاة من الضرائب لانها لا تذهب للحكومة الاسرائيلية مباشرة ، وانما ترسل لاسرائيل بواسطة الوكالة اليهودية وهي هيئة شبه رسمية وهي تلبي معظم نفقات خدمات الاسكان والصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية في اسرائيل .

ويقول الجنرال اسحق رابين انه لا يحبذ الاسلوب الحالي المتبع في العلاقات بين اسرائيل واليهود الامريكيين وهو « اسلوب الوكالة اليهودية » ، ولهذا يعتبره قادة اليهود الامريكيين يمثل جيلا جديدا من الاسرائيليين الذين اخذوا في الابتعاد عن المفاهيم الصهيونية التقليدية . وبدلا من الاقتصار على توثيق العلاقات بين السفارة الاسرائيلية واليهود الامريكيين سعى رابين من خلال جولاته في الولايات المتحدة الى العثور على حلفاء جدد لبلاده ، لا سيما بين الامريكيين غير اليهود في جنوب الولايات المتحدة ووسطها . ويقول احد المحامين في واشنطن وهو يعرف اسحق رابين معرفة جيدة : « انني أجد اسحق رابين شديد الحيطة في الا ينغمس بالرأي العام اليهودي الامريكي » .

وعلى كل حال ، تحافظ السفارة الاسرائيلية على علاقات وطيدة مع المنظمات اليهودية الامريكية لحمتها التكافل وسداها التضامن . ويقول محام آخر ذو روابط بالسفارة الاسرائيلية : « لا توجد أية سفارة اخرى في واشنطن تجد لها حلفاء جاهزين داخل الولايات المتحدة . وربما كان لوضع السفارة الاسرائيلية هذا نظير في وضع السفارة البريطانية قبل الحرب العالمية الثانية ، ولكن المواطنين الامريكيين الذين ينحدرون من أصل انكليزي غير منظمين مثل اليهود لانهم يشكلون اغلبية السكان ، بينما اليهود بما تشهده من انتظام صفوفهم في منظمات متماسكة قادرون على الاستفادة من كامل عددهم ، ولهذا شاهدت خلال السنوات المتتالية أن الاراء التي كان يعبر عنها بدهاء اعضاء السفارة الاسرائيلية تنتقل بسرعة البرق الى كافة اعضاء الجسم اليهودي الامريكي » . وقد لاحظ فيلدمان قائلا: « ان السفارة الاسرائيلية تختلف عن أية سفارة اخرى في العاصمة الأمريكية لان لها رعايا في الولايات المتحدة كما في اسرائيل سواء بسواء . ولذلك تجد الحكومة الامريكية نفسها ملزمة بأن تأخذ في الحسبان وجهة نظر اليهود الامريكيين الذين تربطهم بالدولة اليهودية [اسرائيل] روابط عاطفية ، فعندما تتحدث الحكومة الامريكية الى السفارة الاسرائيلية تدرك انها تتحدث كذلك الى قوة سياسية داخل الولايات المتحدة » . ويقول كينين معبرا عن الفكرة ذاتها : « ان السفير الاسرائيلي في واشنطن ليس مبعوثا الى الحكومة الامريكية فحسب ، بل هو مبعوث ، بصورة ما كذلك ، الى اليهود الامريكيين » .

ويستخدم البيت الابيض واقع الروابط المتينة بين السفارة الاسرائيلية واليهود الامريكيين لاغراضه الخاصة ، فخلال زيارة الرئيس بومبيدو للولايات المتحدة ، اتصل غارمنت ، الموكل اليه اجراء الاتصالات بين البيت الابيض والهيئات اليهودية الامريكية ، بالسفارة الاسرائيلية وطلب منها ان تمارس نفوذها لدى زعماء اليهود الامريكيين للاحجام عن تنظيم مظاهرات الاحتجاج في وجه الرئيس الفرنسي . فاتصل غارمنت هاتفيا لهذا الغرض بشلومو أرغوف ، الذي كان يومئذ قائما بالاعمال والرجل الثاني في السفارة الاسرائيلية في واشنطن وأصبح الان سفير اسرائيل في مكسيكو ، فاتصل أرغوف هذا ، بدوره ، بالقنصلية الاسرائيلية في نيويورك التي اتصلت من جهتها بأولي الامر من اليهود الامريكيين . (ورغم ذلك نظمت التظاهرات امام والدورف استوريا ، حيث كان من المقرر ان يلقي المسيو بومبيدو خطابا) وقد يتساءل المرء : هل محظور على السفارة الاسرائيلية التدخل في امور السياسة الداخلية الامريكية ؟ والجواب هو: هنالك معاهدة امريكية اسرائيلية وقعت في عام ١٩٥٢ تحظر على الحكومة الاسرائيلية ، بنوع خاص ، الانغماس في أية نشاطات سياسية داخل الولايات المتحدة . وبهذا الصدد يقول كينين الذي يحرص على أن يظل هو نفسه والهيئة التي يديرها بعيدين ، نوعا ما ، من السفارة الاسرائيلية رغم أنه اكبر الدعاة والمحاورين الاسرائيليين في واشنطن : « ان من الخير للحكومة الاسرائيلية ان تمتنع عن القيام بأي نشاط سياسي ، وأظن انه في اللحظة التي تنغمس فيها في نشاطات سياسية ستجد انها اوقعت نفسها في ورطة » . ومن جهة اخرى يقول شاؤول بن حاييم المستشار الصحفي في السفارة الاسرائيلية في واشنطن : « اننا لا نرفض ابدا أية دعوة نتلقاها من اي جمهور يهودي لالقاء الخطابات . ولكن ، هل نحن نمثلهم ؟ بالتأكيد

لا ! مثلما انه ليس بوسعهم ان يمثلونا » .

يبوح اسحق رابين في أحاديثه الخاصة لمجموعات محدودة منتقاة من معارفه من اليهود وغير اليهود بأنه ما من رئيس أمريكي خدم اسرائيل وساعدها بالقــدر الذي بدر عــن نيكسون . ورغــم ان الدبلوماسيين الاسرائيليين لا يتدخلون علنا في أمور انتخابات الرئاسة الاميركية فانهم لا يمانعون في التحدث عنها ولو بصورة شديدة التحفظ . وقد قال أحدهم : « ان المعلومات التي وردتنا مــن القدس تفيد انهم يحبذون فوز جاكسون بالرئاسة الاميركية ، ولكن ان لم تتيسر لجاكسون فرصة الفوز فلا ضير في نيكسون » .

ويقول أحد اصدقاء اسحق رابين القدامى « ان السفير رابين يتصرف بصلاحيات واسعة ويأخـذ الكثير من الامور على عاتقــه الشخصي ، ففي اسرائيل يعد من المبررين للمواقف والسياسات الاميركية ، بينما في واشنطن يعتبره المسؤولون الاميركيون ناطقا صلبا ، ولا يلين ، باسم اسرائيل. ان هذا الدور الذي يضطلع به يشكل معضلــة سياسية صعبة بالنسبة له شخصيا » . ويقول صديق آخر من اصدقاء رابين : « ان رابين شخص لامع ، ولكنه ما زال يفكر كجنرال ، فقد سمعته مرة يقول في احدى حفلات العشاء بأنه كان ينبغي على الولايات المتحدة ان تكون اكثر تشددا مــع الروس يوم ان كانت تحتكــر وحدها الســلاح النووي » .

واقامة مآدب العشاء هي من الاساليب الاساسية التي يعتمدها رابين في تحركاته واتصالاته ، ويقتصر عدد المدعوين على مائدته عادة على ١٥ الى ٢٠ شخصا بعكس السفارات العربية في واشنطن التي تقيم حفلات كبيرة تدعو اليهــا عددا كبيرا مــن الضيوف ، وتتميز غالبــا بالبذخ والترف . وهوية المدعوين الى مائدة رابين غير محددة بصنف معين من الناس او محصــورة في نطاق ضيق مــن الاتجاهات ، ففي بعض الاحيان يكون بين المدعوين الى مائدته أحد غير المرضي عنهم صهيونيا مــن رجالات وزارة الخارجية الاميركية ، والذي يعرف عنه انه يعارض عادة خلال عمله اليومي في الوزارة المواقف والسياسات التي في مصلحة اسرائيل . وقد أقامت السفارة الاسرائيلية خلال عام ١٩٧١ ثلاث حفلات كوكتيل ، واحدة منها فقط كانت في بيت السفير رابين . ووفق الخطط الحالية ، سيكمل رابين فترة خدمته كسفير في واشنطن عقب انتخابات الرئاسة الاميركية في خريف ١٩٧٢ ، وسوف يخلفه في هذا المنصب الجنرال أهارون ياريف المديــر الحالي للمخابرات العسكرية الاسرائيلية .

وكان ديفيد غنزبرغ ، وهو شريك فيلدمان في مكتب الاستشارات القانونية في واشنطن المدعو مكتب « غنزبرغ وفيلدمان وبيس » يقوم بتمثيل السفارة الاسرائيلية في واشنطن كمستشار قانوني لها منذ تأسيس اسرائيل في عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٩ . ويقول غنزبرغ : « اننا ما زلنا نؤدي لهم بعض الخدمات القانونية ، ولكنهــم اصبحوا يقومون بأنفسهم بعمل جيد ، ومن جهة أخرى خف معدل الاعمال بصورة ملحوظة ». لقد اصبح الاسرائيليون اليوم يتولون أمورهم بأنفسهــم ، ولم يعودوا يعتمدون على المستشارين من الولايات المتحدة مثل غنزبرغ وروبرت ناثان الخبير في اقتصاديات البلدان النامية ، والذي خدم السفارة الاسرائيلية طيلة سنوات كثيرة بمنصب كبير مستشاريها الاقتصاديين. وقد نمت هيئة موظفي السفارة الاسرائيلية بحيث أصبحت تشتمل على ٢٦ ممثلا دبلوماسيا (يبلغ اجمالي الموظفين ٧٥) يعملون في مقر السفارة المبني من الطوب الاصفر والكائن في حي السفارات في واشنطن . وكذلك توجد لاسرائيل الان قنصليات في كل من : نيويورك ، وشيكاغــو ، ولوس انجيلوس ، وفيلادلفيــا ، وهيوستن ، وســان فرانسيسكو ، وبوسطن ، وأتلانتا .

ولا تصدر السفارة الاسرائيلية في واشنطن تحقيقات وبيانات صحفية رسميا ، ولكنها مع ذلك شديدة الاهتمام بأمور الاعلام ووسائله . (من حين لاخر تصدر السفارة الاسرائيلية « نشرة زهرية اللون » تعبر عن وجهة نظر الحكومة الاسرائيلية حــول قضايا الشرق الاوسط . وتوزع هذه النشرة على ١٢٠٠٠ شخص وهيئة . وكانت آخر « نشرة زهرية اللون » أصدرتها السفارة قد عالجت شروط وبنود معاهدة الصداقة والتعاون المصرية ــ السوفييتية التي وقعت في شهر ايار ١٩٧١ .

يقول بن حاليم الذي كان لشهور خلت الناطق بلسان السفارة الاسرائيلية قبل أن يصبح مراسلا دبلوماسيا لجريدة « معاريف » الاسرائيلية : « ان افتتاحيات الصحف (الاميركية) موالية لموقفنا بما يعادل نسبة ٦ الى ١ ، ومعظــم الافتتاحيات والتعليقات الموالية التي تظهر في الصحف تكتب

طواعية وغير مدفوعة الثمن ، وعندما يكون لدينا شيء نود أن نقوله للصحفيين ، نجري الترتيبات للسفير (الاسرائيلي) ليتحدث الى اعضاء « نادي الكتاب لما وراء البحار » . وجدير بالذكر ان هذا النادي يسير على قاعدة ان الخطباء الذين يدعون للتحدث في حفلات الغداء التي يقيمها يتم التكتم على أسمائهم عند عرض شيء من الاراء والاقوال التي ترد على ألسنتهم خلال حديثهم ، بمعنى ان المعلومات التي يوردها المتحدث في حديثه هي بمثابة معلومات خاصة للاطلاع الشخصي لاعضاء النادي لاحاطتهم بملابسات القضية موضوع الحديث ، وبوسعهم ان يعرضوا شيئا من أقوال المتحدث وآرائه ولكن دون الاشارة الى شخص قائلها او ذكر اسمه .

وخلال زيارة غولدا مائير للولايات المتحدة في شهر كانون الاول الماضي عقدت مؤتمرا صحفيا في واشنطن وظهرت في برنامج « مع الصحافة » في شبكة تلفزيون واذاعة شركة الاذاعة الوطنية « ن. ب. س » وعلاوة على ذلك ، دعت نخبة مختارة من المعلقين الصحفيين ورؤساء مكاتب الصحف في واشنطن الى حفل غداء خاص ليس للنشر (اتفق على عدم نشر ما دار خلاله من حديث بينهم وبين غولدا مائير) ، وكذلك جرى ترتيب لقاء خاص بين غولدا مائير ورؤساء تحرير جريدتي « نيويورك تايمز » و« الواشنطن بوست » ومجلتي « نيوزويك » و« التايم » . كما حضرت غولدا مائير حفل غداء خاص ليس للنشر أقامته احتفاء بها شركة الاذاعة الاميركية دعت اليه الشركة المحتفية كذلك كبار المسؤولين في شبكات التلفزيون الاميركية الاخرى وعددا آخر من كبار المسؤولين في عدد من الجرائد والمجلات والشركات الكبرى . ويقول بن حاييم انه يدير « عملية اعلامية مستمرة ومتواصلة ، نحاول خلالها ان نوضح موقفنا يوما بيوم » .

وقد يتبع المسؤولون في السفارة الاسرائيلية أساليب ووسائل أخرى غير مكشوفة واكثر دهاء مما ورد سابقا في « تطبيق » المحررين النافذين والتأثير عليهم . فمرة سئل دبلوماسي اسرائيلي ذو مستوى رفيع ما اذا كان يرغب في الاجتماع بجوزيف كرافت المعلق الصحفي الكبير في واشنطن والذي تنشر تعليقاته في شبكة واسعة من الصحف ، فاعتذر الدبلوماسي الاسرائيلي عن عدم رغبته في ذلك قائلا عن كرافت : « هنالك شخص آخر يتدبر أمره » .

ويقول رولاند ايفانز الابن الذي يكتب مع شريكه روبرت نوفاك تعليقات تنشر في شبكة من الصحف الاميركية (وايفانز هو الذي أجرى مقابلة تلفزيونية مع غولدا مائير في ٥ كانون الاول الماضي خلال زيارتها للولايات المتحدة وذلك في برنامج « مع الصحافة » ، وبعد انتهاء البرنامج استمرت المناقشة بينهما في الاستديو لمدة نصف ساعة اخرى) ، يقول ايفانز هذا : « ان لدى الصهيونيين شبكة من الاشخاص للتأثير على رجال الصحافة والاعلام عامة افرادها منتشرون في جميع انحاء الولايات المتحدة ، وعندما نكتب تعليقا يعتبرونه مناوئا لاسرائيل نتلقى رسائل من جميع انحاء البلاد تحتوي على النقاط ذاتها ، وصياغتها متماثلة . انها من طراز واحد » .

ورغم ان السفارة (الاسرائيلية) تبث ، في مناسبات معينة ، روايات خاصة للاخبار والاحداث لتمارس ضغطا على الحكومة (الاميركية) ، فان هذا النوع من العمليات متبادل ، اذ تقوم الحكومة بدورها ببث روايات للاخبار للتأثير على موقف السفارة . فقد أبلغ أحد المسؤولين في وزارة الدفاع ، مرة ، مراسل الشؤون العسكرية في جريدة « نيويورك تايمز » وليم بيتشر ، بأن الولايات المتحدة ستعطي اسرائيل ضمانات امن جديدة قوية جدا مقابل تعاون اسرائيل في محادثات السلام . وقال أحد المسؤولين الاسرائيليين بهذا الصدد : « ان اول مرة سمعنا بها بهذه الضمانات الجديدة هي عندما قرأنا عنها في النيويورك تايمز ». واضاف قائلا : « لقد اختارت الحكومة وليم بيتشر أداة لتبث رواياتها بواسطته » .

وتحتفظ السفارة الاسرائيلية بصلات مباشرة مع الشخصيات النافذة في الكونغرس الاميركي ، وعاموس عيران هو عضو السفارة الاسرائيلية المنوط به تنسيق المواقف وتنظيم الصلات مع اعضاء الكونغرس ، وهو دبلوماسي شاب كان يعمل سابقا في الهستدروت (اتحاد نقابات العمال الاسرائيليين). ويقوم عاموس عيران هذا بتتبع مداولات وتطورات التشريعات التي يهم أمرها السفارة الاسرائيلية ، ولكنه يحرص حرصا شديدا ان يؤدي مهمته من وراء ستار ، ومعظم نشاطاته مستقلة عن المهمات التي يتولاها كينين وغيره من المحاورين الذين يقومون « بالتطبيقات » السياسية لصالح اسرائيل .

ويجهد الاسرائيليون كذلك في مراقبة وتتبع ما يدمونه اعمال « الدعاية العربية » في الولايات المتحدة والتصدي لها ، ونتائج مجهوداتهم في هذا الصدد ايجابية . ويقول بن حاييم الناطق السابق بلسان السفارة الاسرائيلية : « لقد خسرنا التعاطف التلقائي من جانب الامريكيين ، بيد أننا نسعى لان نعكس الآية » . ويقول بن حاييم ان « عددا ضئيلا جدا » من المسؤولين الامريكيين قد زاروا اسرائيل ضيوفا على حكومتها . وبين هؤلاء المسؤولين الذين قاموا بزيارة مدفوعة النفقات لمدة اسبوع وزير النقل الامريكي الحالي جون فولبي الذي زار اسرائيل ضيفا على الحكومة عندما كان حاكما لولاية ماساتشوستس .

يقول ديفيد برودي ممثل منظمة « بناي بريت » اليهودية الامريكية في واشنطن : « ان ردود فعل اليهود الامريكيين تجاه اسرائيل واستجابتهم لها هو أمر طبيعي للغاية ، وهم لا يحتاجون ، بهذا الصدد ، توجيها او ارشادا من المنظمات اليهودية » . وعلى أي حال ، اذا دعا الداعي ، يسعى العدد الكبير من المنظمات اليهودية الامريكية الى استنفار أعضائها وتنسيق جهودها في واشنطن، سواء على نطاق ضيق او نطاق كبير ، عندما تبدر بادرة يشعرون معها ان مصالح اسرائيل معرضة للخطر .

ولم يحدث اطلاقا ان بدا من الهيئات اليهودية الامريكية أي تلكؤ في استخدام مساعيها واستغلال حظوتها لدى اصدقائها في الكونغرس وفي الحكومة الامريكية لصالح اسرائيل ومصالحها . بيد ان المسألة هي ما اذا كانت هذه المساعي مجدية ، وفي هذا الصدد ، تتفاوت الآراء وتتباين تباينا كبيرا . وفي هذا الخصوص ، يقول سناتور جمهوري آثر عدم الافصاح عن اسمه : « اعتقد ان جهود الهيئات اليهودية فعالة مع بعض اعضاء مجلس الشيوخ الذين قد لا يتخذون موقفا شديد التأييد لاسرائيل لولا هذه الجهود والمساعي . فعلى سبيل المثال ، هنالك عدد كبير من اعضاء مجلس الشيوخ يمثلون ولايات ليس بين سكانها عدد كبير من اليهود ، ولكن رغم ذلك ترى أنهم يتخذون مواقف شديدة التأييد لاسرائيل ، ولا يخفى عليك ان بين هذه المجموعة من الشيوخ موضوع الحديث عددا محدود الثقافة والمعرفة والتفكير ، وان لم يجدوا من ينخزهم للاقدام على أمر ما ، فلا يدور بخلدهم شيء من ذلك » . وبهذا الصدد ، يقول كينين الذي يتولى تنسيق جميع عمليات النخز والنخس : « كثيرا ما أمضيت وقتا غير قصير وانا احاول ان أكبح جماح بعض اعضاء مجلس الشيوخ لاثنيهم عن الاقدام على أمور قد تؤدي الى تفاقم العلاقات بين الولايات المتحدة والبلدان العربية ، اذ كثيرا ما يجنح بعض اعضاء مجلس الشيوخ الى التطرف الشديد » .

وعلى أي حال ، تظل العلاقات بين معظم ادارات الكونغرس والهيئات اليهودية الامريكية حميمة جدا، فقلما تمر بضعة ايام دون أن ترسل احدى ادارات مجلس النواب او الشيوخ رسالة مجاملة ودية لتهنئة هذه او تلك من المنظمات اليهودية المحلية لمناسبة مرور ذكرى حدث من الاحداث او الفوز باحدى الجوائز ، وكذلك قلما تمضي بضعة ايام دون ان يتلقى أحد أعضاء الكونغرس دعوة من هذه او تلك من الهيئات اليهودية للتحدث في اجتماع تنظمه ، وكثيرا ما تنطوي مثل هذه الدعوة على نفح عضو الكونغرس المدعو مبلغا غير زهيد من المال (وجدير بالذكر ان السناتور جاكوب جافيتس يتبرع بمثل هذه المبالغ التي يتلقاها الى « النداء اليهودي الموحد ») . وقد لاحظ احد مساعدي السناتور موسكي في حملته الانتخابية قائلا : « انها (الهيئات اليهودية) تتيح للمرشحين فرصا ومناسبات كثيرة للتحدث » .

أهم الهيئات اليهودية الامريكية وتأثيرها على السياسة الامريكية : تحتفظ كل من الهيئات اليهودية الامريكية التالية : المؤتمر اليهودي الامريكي ، وجمعية المحاربين القدامى اليهود ، والمجلس الوطني للنساء اليهوديات ، والمجلس الوطني لرعاية اليهود ، بمكاتب لها في واشنطن ، بيد ان تأثيرها على رسم السياسة الامريكية في الشرق الاوسط وصياغتها لا يؤبه به . هذا في حين ان كلا من ديفيد برودي ممثل منظمة بناي بريت في واشنطن ، وهيرمان ايرلزبرغ المدير الدولي لعصبة مناوأة التشهير المتفرعة من منظمة « بناي بريت » ينخرطان في المداخلات المتعلقة بالقضايا الاسرائيلية بصورة منتظمة ، وان كانا يفضلان ان ينسقا مجهوداتهما مع كينين وان يعملا تحت اشرافه .

اللجنة اليهودية الامريكية : ان هايمان بوكبايندر ممثل اللجنة اليهودية الامريكية في واشنطن هو أيضا ينسق مجهوداته مع كينين ، غير انه ينتهج

سلوكا اكثر استقلالية عن كثيرين من الاخرين ، كما يسمى ، في بعض الاحيان ، الى ان يتخذ موقفا وسطا بين وزارة الخارجية والحكومة الاسرائيلية. (لقد تفردت اللجنة اليهودية الاميركية ، منذ أمد بعيد ، باتخاذ موقف مستقل بين المنظمات اليهودية. وقد تأسست هذه اللجنة في عام ١٩٠٦ « لحماية حياة اليهود وحقوقهم » في روسيا القيصرية ، وقد رفضت اللجنة اليهودية الامريكية الانضمام الى مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الاميركية الكبرى الذي تنتمي اليه جميع الهيئات اليهودية الاخرى . ومنذ تأسيس اللجنة اليهودية الاميركية كان اركانها ودعائمها الاساسيون من اليهود الاغنياء مثل ماير سلزبرغر وسايرس أدلر وكلاهما من اسرة نيويورك تايمز للصحافة والنشر ، وكلاهما تولى رئاسة هذه اللجنة لفترات بلغ مجموعها ١٧ عاما . وحاليا ، يشغل ماكس فيشر منصب رئيس ادارة المجلس التنفيذي القومي للجنة اليهودية الاميركية ، (وهذا ثاني أعلى المناصب فيها) . وكان هايمان بوكباينذر مساعد مدير سابق لمكتب الفرص الاقتصادية (١٩٦٤ — ١٩٦٧) ، كما تولى ايضا منصب مساعد خاص لهيوبرت همفري من عام ١٩٦٥ الى عام ١٩٦٧ عندما كان همفري نائبا للرئيس جونسون . وفي شهر تشرين الثاني الماضي ذهب بوكباينذر هذا الى اسرائيل مع فيليب هوفمان رئيس اللجنة اليهودية الاميركية ، وبرترام غولد نائب الرئيس التنفيذي للجنة ، وهناك تباحثوا مع كل من غولدا مائير ووزير الخارجية أبا ايبان حيث حثوا الزعماء الاسرائيليين على تخفيف ضغوطهم على الحكومة الاميركية من اجل تأمين شحن طائرات الفانتوم الى اسرائيل . وعندما عاد هؤلاء الى واشنطن تباحثوا مع رودجر ديفيز نائب مساعد وزير الخارجية الاميركية ويعمل بامرة سيسكو ، وهو يعد أبرز « العروبيين » [؟؟] في الخارجية الاميركية .

ويقول هايمان بوكباينذر : « ليس بيننا وبين الاسرائيليين تباين رئيسي في المواقف السياسية ، بل يقتصر الامر على مجرد اختلافات حول مدى الاهمية التي يعلقها كل طرف على بعض القضايا. وعندما تحدث في اسرائيل أمور نعدها خطأ ، نبدي لهم رأينا في ذلك ، ونبلغهم ما نعتقد انه خطأ وضعيف في موقفهم » . ومن جهة اخرى اكد زعماء اللجنة اليهودية الاميركية خلال اجتماعاتهم مع رودجر ديفيز وغيره من المسؤولين في وزارة الخارجية الاميركية انهم لم يجدوا تباينا ذا بال في الراي حول قضايا الامن الرئيسية بين الزعماء الاسرائيليين سواء من كان منهم في الحكومة أم خارجها . والمقصود بهذه التأكيدات هو دحض الانطباعات الراسخة لدى دوائر الخارجية الاميركية بأن الاسرائيليين منقسمون فيما بينهم ، سرا ، حول فحوى شروط انسحابهم من الاراضي العربية المحتلة . (ومما تجدر الاشارة اليه انه خلال المناقشات التي جرت في أعلى الهيئات والمراجع في حكومة نيكسون حول مسألة بيع طائرات فانتوم اضافية لاسرائيل ، اكدت وزارة الخارجية في التقرير السياسي الذي قدمته لمجلس الامن القومي ان الاسرائيليين منقسمون على انفسهم حول شروط التسوية ، وبررت بذلك معارضتها لبيع المزيد من طائرات الفانتوم ، وهنالك طرفة متداولة في اوساط وزارة الخارجية الاميركية تقول انه اذا كان هنالك يهوديان لمستجد بينهما ثلاثة احزاب سياسية وخمسة آراء متباينة) .

الهيئات الاميركية غير اليهودية المؤيدة لاسرائيل :

يحظى الموقف الاسرائيلي بتأييد المنظمات الشديدة العداء للشيوعية ودعمها مثل منظمة الفيلق الاميركي ومنظمة قدامى المحاربين في الحروب الاجنبية . وبصدد هذا التطور الجديد ، نسبيا ، في موقف مثل هذه الجماعات قال محام في واشنطن على علاقة وثيقة بالسفارة الاسرائيلية : « لا ريب ان من أشد مؤيدي اسرائيل تطرفا في البلاد اليوم العناصر المحافظة مثل جمهور قراء مجلة « الاحداث الانسانية » ، وهذا احد الاسباب التي جعلت حكومة نيكسون على هذا القدر من الود والوفاق مع الاسرائيليين » .

ويلعب بعض الافراد الذين يشغلون مواقع استراتيجية مهمة ، شأنهم شأن المنظمات ، دورا نافذا في التأثير على واضعي السياسة في واشنطن بصدد السياسات التي تخدم اسرائيل . ومن هؤلاء الاشخاص الذين لا يشغلون منصبا في اي من المنظمات اليهودية ماير فيلدمان ، ورغم ان فيلدمان ترك الخدمة الحكومية منذ سبع سنوات ، فانه ما زال يلعب دورا كبيرا في التأثير على السياسة الاميركية . وقد قال انه يرى الدور الذي يلعبه على الوجه التالي : ١) التباحث ، بصورة منتظمة ، مع اعضاء الحكومة الاسرائيلية حول القضايا التي تهمهم في الولايات المتحدة . ٢) القيام

ببذل مساع لدى اعضاء الكونغرس « عندما تطلب مني ذلك ، احيانا ، الجهات الاسرائيلية ، وفي معظم الاحيان زعماء اليهود الاميركيين » . ٣) ايصال الاراء ووجهات النظر المؤيدة لاسرائيل الى كبار المعلقين الصحفيين (لقد اشتهر فيلدمان ، ضمن أمور اخرى ، بأنه يشرك محرري الصحف والمعلقين الصحفيين في الامور القانونية التي يتولاها مكتب الاستشارات القانونية الذي يملكـه) . ٤) تقديم الاستشارات حول قضايا الشرق الاوسط للمرشحين الديموقراطيين للرئاسة الاميركية لا سيما ماكغفرن الذي يحبه فيلدمان ، وادوار كينيدي الذي قال فيلدمان انه يود ان يراه الفائز بترشيح الحزب الديمقراطي لانتخابات رئاسة الجمهورية في عـام ١٩٧٢ . ويضيف ماير فيلدمان قائلا : « انني احتل موقعا ممتازا لانني اعرف الكثير الكثير من الناس».
يرى محللون متعددون ، بمن فيهم بوكبايندر نفسه ، انه ما من جماعات ضاغطة او افـراد نافذين يستطيعون ان يعزوا لانفسهم ولجهودهم الفضل في التأييد الجارف الذي تحظى به اسرائيل فـي الكونغرس الاميركي . ويقول بوكبايندر في هذا الصدد : « ان السبب الذي يعلل سر الحصول ، دون عناء ، على تأييد ٧٨ مـن اعضاء مجلس الشيوخ لمطالب اسرائيل (كما حدث في قرار بيع طائرات الفانتوم) هو أنه حدث ان كلا من مصالح اسرائيل ومصالح اميركا قد توافقتا حول هذه النقطة في الزمن ، ويبدو انهما ستظلان متوافقتين لزمن طويل قادم » .

والخلاصة : يشعر الاسرائيليون الان ، وهم الذين ظلوا منذ نشأة اسرائيل يعتمدون على الصهيونيين كدعامة وطيدة للدعم السياسي لهم في الولايات المتحدة ، ان عليهم ان يوسعوا نطاق قواعدهم بتجنيد اصدقاء جدد يدعمون اهدافهم في الشرق الاوسط . وتزايد النفوذ السوفييتي في العـالم العربي وفر لهم مثل هذه الفرصة .

وقال السفير الاسرائيلي اسحق رابين مرة ، خلال مناقشة ولادة هذه التحالفات الجديدة « ان جميع هؤلاء الناس انما يؤيدون اسرائيل بفعل هاجس مناهضة الشيوعية » . وقال رابين في مناسبة أخرى ، بشيء من الدعابة : « عندما القي حديثا في احدى الجامعات الاميركية لا أواجه متاعب من أحد سوى العرب واليهود » ، وكان رابين يشير بقوله هذا الى اليهود المنتمين لليسار الجديد الذين يعارضون السياسات الاسرائيلية الراهنة .

وقد أوردت منظمة تشكلت مؤخرا في بيان اغراض تأسيسها ، وهي « لجنة العمل في سبيل بدائل جديدة في الشرق الاوسط » انها « ملتزمة بالسعي لتسوية النزاع واقرار السلام والعدالة » بين العرب واليهود ، ثم اضافت : « اننا لا نتوخى اصدار احكام دوغماطيقية (جامدة وبعيدة عـن الواقع الحي) ، ولا تقديم حلول من جانب واحد للقضايا المعقدة ، والمتناقضة غالبا ، القائمة في الشرق الاوسط » . وقد جذبت هذه الجماعة الى صفوفها عددا مـن اساتذة الجامعات اليهـود البارزين بما فيهم نعوم تشومسكي استاذ علوم اللغة في « معهد ماساتشوستش للتكنولوجيـا » والكاتب المناهض للحرب .

وقد قال احد المحامين في واشنطن ، وقد ازعجته هذه التطورات والاتجاهات المستحدثة : « لا اظن ان اي مراقب بعيد النظر لا يدرك بأن مصالح اسرائيل في المدى البعيد انما تكمن في الارتباط بالقوى الليبرالية في هذه البلاد [اميركا] ، اذ ان هذه القوى تحمي مصالحها بصورة افضل ، بيد ان التحالف القائم ، للمدى القصير ، بين اسرائيل والقوى المحافظة كان له تأثيره علـى الحكومة الحالية » . واضاف هذا المحامي الذي يتردد كثيرا على اسرائيل : « لقد وجدت ان القوى الحاكمة في اسرائيل راغبة في التعامل مع اية جماعة سياسية في الولايات المتحدة على اساس واحد بسيط هو : الدعم لاسرائيل » . (خلال زيـارة غولدا مائير الرسمية للولايات المتحدة فـي شهر أيلول عام ١٩٦٩ ، استأثر رونالد ريغان حاكم ولاية كاليفورنيا (الممثل السينمائي السابق والمعروف بعدائه للشيوعية) بالمشاركة شخصيا بالقسـط الاوفر من برنامج زيارتها لولاية كاليفورنيا) .

هل اخذ نفوذ اليهود الاميركيـين يذوي ؟ يدرك السفير الاسرائيلي اسحق رابين ، من جانبه ، ان احساس اليهود وشعورهم بكينونتهم الذاتية كعنصر عرقي ثقافي آخذ في التصاعد في الولايات المتحدة الاميركية كما هو الحال لدى الاقليات العرقية الثقافية الاخرى في البلاد ، بيد انه وغيره مـن الاسرائيليين ليسوا واثقين بأن هذا التصاعد في الاحساس بالكينونة الذاتية قد رافقته زيادة في نفوذ اليهود السياسي . ويبدو الامر في نظرهم كما عبر عنه بشكل فج مسؤول اسرائيلي ذو منصب رفيع :

« ان الجمهوريين قد نفضوا ايديهم منهم تماما بينما الديموقراطيون يعتبرون الفوز بدعمهم لهم وتأييدهم أمرا مضمونا ومفروغا منه » . ويعتقد الحاخام ريتشارد هيرش مدير مركز العمل الديني في اتحاد المجامع اليهودية الامريكية ، وهو فرع مقره واشنطن تابع لحركة اليهودية الاصلاحية في الولايات المتحدة ، ان اليهود الامريكيين يخسرون من توتهم السياسية بداعي اغراض مصالحهم السياسية الثابتة . وفي ندوة عقدت لدى التئام المؤتمر المركزي للحاخامين الامريكيين في شهر حزيران عام ١٩٧١ ، قال هيرش : « لقد اكتسبت الاصوات اليهودية القسط الاوفر من قوتها من حسن الصدف التي شاءت ان يتمركز السكان اليهود في كبرى المدن في كبرى الولايات ، غير انه بتحول الناس عن السكن في المدن الى الاقامة في الضواحي ، وما رافق هذا التحول من ظواهر اقتصادية واجتماعية ، اخذ النفوذ اليهودي ينوب في هذه الضواحي ويضعف تأثيره ، كما ان التحالفات التقليدية بين اليهود والاقليات الاخرى ومع القوى العمالية اخذت بدورها تتفتت » . ويعتقد هيرش كذلك بأن المصالح اليهودية الامريكية والضغوط اليهودية الامريكية قد بلغت أدنى مستوى في التأثير على السياسة الخارجية الامريكية وفي تقرير أمورها ، ويشاركه في هذا الاعتقاد سرا ، وان لم يعلنوا ذلك جهارا ، بعض الزعماء السياسيين الاسرائيليين . وقد عبر هيرش عن هذا الاعتقاد في خطابه في ندوة حزيران المشار اليها سابقا قائلا : « ان اتخاذ قرار في الكونغرس حول اوضاع اليهود السوفييت من السهل الحصول عليه بقدر ما هو قليل الاهمية من حيث التأثير السياسي ، فمعظم اعضاء مجلس الشيوخ يبادرون الى المشاركة في اصدار بيان يعبر عن الاهتمام بمصير اليهود ليظهروا مثل هذا الاهتمام لليهود القاطنين في دائرتهم الانتخابية طالما ان مثل هذا البيان لا ينطوي على اجراءات عملية فعالة » . بيد ان مشكلة هيرش وغيره من زعماء اليهود الامريكيين هي ان يجدوا لانفسهم دورا سياسيا ذا قيمة حيث ان الوضع ، كما يقول هيرش نفسه « بالنسبة لليهود الامريكيين اسرائيل ليست من قضايا السياسة الخارجية ، بل هي من أمور السياسة المحلية » .

تأثير اليهود الامريكيين على حملة انتخابات الرئاسة الامريكية : ان اعتبار اليهود الامريكيين قضية الشرق الاوسط من أمور السياسة الداخلية أكثر منها قضية من قضايا السياسة الخارجية هو اتجاه لا وزن له لدى الرئيس نيكسون وغيره من اعضاء مجلس الامن القومي . ولكن ، طالما ان شحن الطائرات وغيرها من المعدات الحربية سيواصل التدفق على اسرائيل بغزارة ، وكل الدلائل تشير الى ان ذلك سيستمر ، فمن غير المحتمل ان يواجه الرئيس نيكسون معارضة شديدة من الهيئات اليهودية الامريكية ، وان كان معظم قادة هذه الهيئات ينتمون للحزب الديموقراطي . ولا بد وان ينعكس هذا الموقف بجلاء على تمويل الحملة الانتخابية ، وقد عبر عن ذلك ، سرا ، احد الممولين اليهود في نيويورك قائلا : « انني اعتزم التبرع لحملة الديموقراطيين الانتخابية في انتخابات رئاسة الجمهورية القادمة ، ولكنني لن اتبرع بمقدار ما كنت سأتبرع به لو ان نيكسون كان سيئا في موقفه من اسرائيل » . ومن جهة اخرى ، تغدق معظم تبرعات الشركات الكبرى للحملات الانتخابية ، بما فيها تبرعات شركات البترول العاملة في الشرق الاوسط ، على الحزب الجمهوري . وفي هذا الصدد يقول ماير فيلدمان : « ان أموال شركات النفط كانت دائما ، كما تعلم ، أهم في حملة انتخابات الرئاسة الامريكية من أموال اليهود ، بيد انني أقول ان وضع الفريقين (العرب والاسرائيليين) [؟؟] متعادل الى حد بعيد ، فكل فريق يحاول ان يجعل كفته ترجح على كفة الفريق الاخر ، وكل فريق له حججه ومبرراته القوية وعلى كل رئيس اميركي ان يزن الامر ويتخذ قراراته على ضوء ذلك » .

نيكسون وقوة اليهود الامريكيين السياسية

مداراة علاقات هشة

قال نيكسون خلال حملة انتخابات الرئاسة الامريكية في عام ١٩٦٨ اثناء اجتماع ، لم يعلن عنه ، مع ١٤ من اليهود الامريكيين البارزين في شقته السابقة في الشارع الخامس بنيويورك انه يدرك بأن في وزارة الخارجية الامريكية تحيزا للعرب (؟؟) ووعد بأن يأخذ ذلك في الحسبان عند اتخاذه قراراته في حالة

نوزه بالرئاسة . كما قال نيكسون لتلك المجموعة من الزعماء اليهود في ذلك الاجتماع : « انني اعتزم ان أعين في حكومتي الكثير من اليهود ، ليس لمجرد كونهم يهودا ، بل لانهم يتمتعون بالحصافة » . وبعد انقضاء قرابة اربع سنوات على هذا الكلام ما زالت علاقة الرئيس نيكسون باليهود الامريكيين هشة وحساسة ، فأبواب البيت الابيض مشرعة أمام الجماعات اليهودية ، ولكن زعماءهم يشعرون انه لا يوجد هناك من بوسعهم التحدث اليه .

ليس لدى نيكسون سوى عدد قليل من الوسطاء الشخصيين بينه وبين الجالية اليهودية الامريكية منهم جاك توركزاينر (٥٧ سنة) ، الرئيس السابق للمنظمة الصهيونية في امريكا (١٩٦٥ — ١٩٧٠) ، وهو من القلائل الذين تولوا زعامة هيئة يهودية رسمية وفي نفس الوقت من الاعضاء الاقوياء في الحزب الجمهوري . ورغم العلاقة القائمة بين نيكسون وتوركزاينر فان معظم الزعماء اليهود الامريكيين يعتبرون ان موقف البيت الابيض من مصالحهم السياسية يتصف باللامبالاة .

قال أحد المحللين السياسيين في حديث سري : « ان النفوذ اليهودي في هذه البلاد مصدره الاصوات والنقود . ان حجم تبرعات اليهود للاغراض السياسية يتجاوز كثيرا نسبة عددهم وثروتهم الاجمالية ، ولهذا تأثيره على جميع المرشحين ، بيد ان نيكسون غير واقع تحت تأثير هذا العامل بالقدر الذي يجري مع اي مرشح او رئيس من الحزب الديمقراطي » .

ويقول وارين أدلر أحد رجال العلاقات العامة والاعلان في واشنطن وممثل عدة هيئات يهودية من بينها جمعية المحاربين القدامى اليهود : « ان نيكسون وحكومته يتجاهلان تماما القوة اليهودية السياسية » . وقد عمل وارين أدلر هذا في حملة نيكسون الانتخابية في عام ١٩٦٨ ، ومن ثم عمل حتى عام ١٩٧٠ براتب قدره ٢٥٠٠٠ دولار سنويا كمستشار حول الشؤون اليهودية للجنة الحزب الجمهوري القومية ، وهو يقول انه « قد صدم شخصيا » لما حدث ، وأضاف : « هنالك تجارة كسدت . ان اليهود الامريكيين لم يعد لهم حصة في شيء ، فالرئيس نيكسون يولي اسرائيل اهتمامه ودعمه وتأييده لانها ركن مهم من أركان مخطط استراتيجيته الشامل لنطاق الكرة الارضية بأسرها » .

ويقول حاكم احدى الولايات الكبرى ان الرئيس نيكسون قد ابلغه مرة « انني لست مدينا بشيء لليهود الامريكيين ، ولكنني لن أدع ذلك يؤثر في دعمي لاسرائيل » .

يبلغ عدد الناخبين اليهود في الولايات المتحدة الامريكية حوالي ثلاثة ملايين ناخب ، ويعيش القسط الاوفر من الناخبين اليهود في ولايات نيويورك ، وبنسلفانيا ، وكاليفورنيا ، والالينوي ، ووفقا لتحليل اجراه الحزب الجمهوري بعد انتخابات الرئاسة في عام ١٩٦٨ ، نال الرئيس نيكسون اصوات حوالي ثلث الناخبين اليهود في ولاية كاليفورنيا التي ربح المعركة الانتخابية فيها والبالغ عددهم ٣٥٠٠٠٠ ناخب يهودي ، كما نال ما معدله حوالي ٢٠٪ من مجموع اصوات اليهود في جميع انحاء الولايات المتحدة .

مآخذ اليهود الامريكيين على نيكسون : ان المآخذ الرئيسية على نيكسون التي يجهر بها اليهود الامريكيون هي : ١) انه لم يعمد ، منذ ان تسنم الرئاسة ، الى القاء اي خطاب امام اية هيئة يهودية امريكية مع انه ، على سبيل المثال ، القى خطابا امام جمعية فرسان كولومبوس الكاثوليك . ٢) لقد خرق التقليد المتبع منذ مطلع القرن العشرين وهو تقليد « الكرسي اليهودي » في المحكمة العليا، فليس بين القضاة الستة الذين عينهم في المحكمة العليا اي يهودي . ٣) عين عددا قليلا نسبيا من اليهود في مناصب عالية في ادارته ، ولم يعين في حكومته ايا منهم .

ويرد أحد أصدقاء نيكسون ، وهو يهودي آثر كتمان اسمه ، على هذه المآخذ على النحو التالي: بخصوص قرار الرئيس نيكسون الاعتذار عن تلبية دعوات الهيئات اليهودية لالقاء الخطب في مناسباتها ، يقول هذا الصديق : « لا يخفى ما هو عليه الوضع في الشرق الاوسط من حساسية ، ولا يستطيع الرئيس اذا ما تحدث الى جمهور يهودي ان يتحاشى الحديث عن هذا الموضوع ، وهذا ليس من الامور التي بوسعك الخوض فيها بصراحة من على منبر عام » . أما بخصوص قرار الرئيس نيكسون عدم التقيد بقرار « المقعد اليهودي » ضمن هيئة قضاة المحكمة العليا ، فيقول صديق الرئيس نيكسون اليهودي : « ان هيئة قضاة المحكمة العليا تتكون من تسعة اشخاص فقط ، فترى هل يتأتى على الرئيس ان يتوخى ان تشتمل

هيئة قضاة المحكمة العليا على قاض معمداني كذلك ؟ انني لا اعرف ما اذا كان هنالك قاض معمداني في المحكمة العليا ام لا ، المهم في الامر أن هؤلاء لا يجعلون من هذه المسألة قضية للبحث والنقاش وموضوع مطالبة . فلماذا يجعل اليهود الامريكيون من هذا الامر قضية ؟ ان مثل هذه القضايا لا يثيرها سوى اليهود « المحترفين » [زعماء الهيئات اليهودية] .

أما بخصوص تعيين اليهود في الحكومة والمناصب العليا في الادارة : « فلا اظن ان الناخب اليهودي العادي يحفل بأية صورة من الصور فيما اذا كان الرئيس قد عين شخصا يهوديا في منصب معين ام انه لم يفعل » . ويضيف هذا الصديق اليهودي للرئيس نيكسون قائلا ان اختبارا افضل من ذلك لحقيقة نوايا الرئيس هو من خلال طباعه وما يكمن في دخيلة نفسه . وقد عبر عن ذلك بقوله : « في لحظة سهو ولا مبالاة ، عندما يرخي المرء لنفسه العنان ويتحرر من التحفظ في كلامه قد يزل لسانه، ويفوه بمكنونات نفسه . لقد عرفته [الرئيس نيكسون] منذ عام ١٩٤٦ ، وما من مرة زل لسانه او تفوه عن شخص يهودي بما يتجاوز الحدود بأية صورة من الصور » .

يهود نيكسون : ان المسؤولين اليهود في ادارة نيكسون في البيت الابيض يشملون هنري كيسنجر مساعد الرئيس لشؤون الامن القومي ، وليونارد غارمنت المستشار الخاص للرئيس (لشؤون الحقوق المدنية والفنون والاداب) . ومن المسؤولين اليهود الاخرين الذين يحتلون مناصب رفيعة في الحكومة هيربرت شتاين الرئيس الجديد لمجلس المستشارين الاقتصاديين ، وآرثر بيرنز رئيس مجلس ادارة حكام صندوق الاحتياط الاتحادي ، ووالتر أنينبرغ سفير الولايات المتحدة في بريطانيا ، كذلك فان موري تشوتينر المستشار السياسي لنيكسون منذ أمد بعيد ، وقد استقال من منصبه كمستشار خاص للرئيس في شهر اذار الماضي لينضم الى مكتب رينز وهاميلتون للاستشارات القانونية في واشنطن هو يهودي ايضا .

ليونارد غارمنت : لاحظ أدلر المستشار السابق للحزب الجمهوري للشؤون اليهودية قائلا : « اذا ما كنت يهوديا وأصبحت في موقع قريب من السلطة فقد تأخذ وجهة نظرك تتبدل وتتبلور لديك وجهة نظر جديدة » . « لم يعين نيكسون في ادارته اي شخص ليكون صلة وصل بينه وبين الجالية اليهودية الامريكية ، ويبدو ان الرئيس يرى ان غارمنت يقوم بهذا الدور ، ولكن غارمنت لا يرى نفسه القائم بهذا الدور » . ويضيف أدلر متحدثا عن غارمنت قائلا : « ان غارمنت خريج مدرسة دينية يهودية « يشيفاه » ، درس بعدها في كلية في بروكلين ، ومن ثم التحق بمكتب استشارات قانونية في « الوول ستريت » . وهو لا يود ان يدمغ بأنه اليهودي في البيت الابيض ، وعندما تنشأ بعض المشاكل يقول للزعماء اليهود الاخرين : « عليكم أن تتركوا هذا الامر لي لاتدبره بطريقتي الخاصة ، فانا اعرف كيف يفكر هؤلاء الناس » . ويقول غارمنت انه لا يصرف الكثير من الوقت لحل المشاكل « اليهودية » . ويقول الناطق باسم احدى الهيئات اليهودية في واشنطن عن ليونارد غارمنت : « لقد زرته مرة او مرتين . انني لا اظن انه يود ان ينغمس في القضايا اليهودية » .

ماكس فيشر : هو ضابط الارتباط الرئيسي وصلة الوصل بين الرئيس نيكسون والجالية اليهودية الامريكية ، وماكس فيشر هذا هو مليونير يهودي من ديترويت عمره ٦٣ عاما ، وقد وصفته جريدة « ديترويت نيوز » في شهر تموز ١٩٧١ بانه واحد من عشرة رجال هم « أقوى رجالات ديترويت وأغنى أثريائها » . وفي عام ١٩٦٨ تبرع ماكس فيشر بمبلغ ١٠٧٠٠٠ دولار للجمهوريين في حملة انتخابات الرئاسة الاميركية مؤيدا نيكسون بعد ان انسحب السناتور الجمهوري جورج رومني من انتخابات الحزب الجمهوري التمهيدية في نيو هامبشير لانتقاء مرشح الحزب للرئاسة الاميركية . وفيشر هذا هو الذي رتب لقاء عام ١٩٦٨ بين نيكسون و ١٤ زعيما يهوديا اميركيا في شقة الرئيس الاميركي السابقة في الشارع الخامس في نيويورك ، وهو الذي رتب كذلك اللقاء الوحيد الذي أعلن عنه بين الرئيس نيكسون وزعماء اليهود الاميركيين منذ ان تولى نيكسون الرئاسة الاميركية . ففي ٣٠ كانون الاول عام ١٩٧٠ اجتمع نيكسون بالحاخام هيرشل شاكتر رئيس المؤتمر اليهودي الاميركي حول اليهود السوفييت ، ووليام ويكسلر رئيس مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الامريكية الكبرى والذي يضم ٢٦ هيئة ومنظمة . وقد تناول المجتمعون بالبحث أوضاع اليهود في الاتحاد السوفييتي .

وقد قال ماكس فيشر في احدى المقابلات الصحفية:

« لقد شاركت في حملته الانتخابية [حملة نيكسون] في عام ١٩٦٨ ، واعتزم المساهمة في حملتـــه الانتخابية القادمة في عام ١٩٧٢ على كلا الصعيدين المالي والسياسي . انني احاول ان انقل للرئيس مشاعر الجالية اليهودية الامريكية ورغباتها ، كما احب أن أكون في موقع يمكنني من الاطلاع علـى سياسة الحكومة ومعرفـة مجرياتها ، فالعلاقـة تنطوي على أخذ وعطاء والمصلحة متبادلة » .

في نيسان ١٩٦٩ عين ماكس فيشر مستشارا خاصا للرئيس للشؤون البلدية والتروية ، وفي شهـر تشرين الثاني مـن العام نفسه أسس الرئيـس نيكسون « المركز القومي لاعمال التطوع » وعـين ماكس فيشر رئيسا لهذا المركز الذي مهمته تنظيـم أمور التطوع ويمول من التبرعات الخاصة . وفي شباط ١٩٧٠ استقال فيشر ليتفرغ لمصالحه النفطية والعقارية والمالية .

ويقول وارين أدلر انه عندما كان ماكس فيشر في واشنطن « عومل معاملة رديئة » . ويقول محام في واشنطن عرف ماكس فيشر طوال سنوات عديدة: « لقد تجاهل الرئيس نيكسون ماكس فيشر وأهانه خلال الفترة التي تلت حملة انتخابات الرئاسة ، اما الان وقد بدأ الاعداد لحملة انتخابات الرئاسة القادمة عاد فيشر يرتب اللقاءات وحفلات الغداء بين الشخصيات اليهودية المهمة والرئيس ، انه المنسق للعلاقات بين الرئيس والجالية اليهودية الامريكية، وهو الذي يشغل « الحقيبة اليهودية » . بعبارة أخرى ، دارت الاحداث بالنسبة لماكس فيشر دورة كاملة ، اذ عاد يقول أن نيكسون هو افضل رئيس امريكي عرفته اسرائيل ، واذا لـم تساهموا في حملته الانتخابية وتتبرعوا لها فقد تنفرونه من قضايا الجالية اليهودية وتبعدونه عن اسرائيل » .

أما ماكس فيشر نفسه فيتحدث عن علاقته بنيكسون قائلا : « لقد كان الرئيس منصفا غاية الانصاف في تعامله معي . فقد عرض علي منصبا في ادارته في البيت الابيض ، ولكنني عـازف عن تولي ايـة مناصب ، انني اولا واخيرا رجل اعمال وادارة الاعمال تجري في عروقي وهي بمثابة هواية لي » .

ويقسم ماكس فيشر اوقاته التي تفيض عن حاجة أعماله بين العمـل السياسي لصالـح الحـزب الجمهوري واعمال البر والاحسان لصالح اليهود [جمع التبرعات لاسرائيل] ، فقد كان رئيسا عاما لمجلـس الادارة (١٩٦٥ — ١٩٦٧) ثم رئيســا (١٩٦٨ — ١٩٦٩) للنـداء اليهودي الموحـد ، وهو حاليا رئيس مجلس الاتحادات ومؤسسـات الرعاية اليهودية المؤتلفة وهذا هو الهيئة المركزية التي تنسق عمليات جمع التبرعات الخيرية مـن اليهود الامريكيين [جمع التبرعات لاسرائيل] .

وماكس فيشر كذلك احد الاعضاء الثمانية المؤسسـين للجنة اعادة انتخاب الرئيس التي تتولى الاشراف على تخطيط واعداد ترتيبات حملة تجديد انتخاب نيكسون للرئاسة الاميركية في عام ١٩٧٢ .

لاري غولدبرغ : وقـع الاختيار على لاري غولدبرغ ليتولى في جهـاز حملة تجديد انتخـاب نيكسون للرئاسة مهمة العمل على حشد التأييد والدعـم اليهودي لنيكسون . ولاري غولدبرغ (٤٠ سنة) من اعضاء الحزب الجمهوري في ولاية رود أيلاند ، وقد رشحه ماكس فيشر للقيام بهذه المهمة . وقد التحق غولدبرغ هذا [وهو غير آرثر غولدبرغ مندوب الولايات المتحدة في مجلس الامن في عهد الرئيس جونسون] بجهاز حملة التجديد لنيكسون في شهر تشرين الاول الماضي ، فترك مدينة بروفيدانس في ولاية رود آيلاند حيث عمل مع شركاء اخرين مـن عائلته على انشاء شركة منتجات معدات الترفيه الامريكية التي تم بيعها . ولاري غولدبرغ حائز على شهادة في القانون مـن كلية الحقوق في جامعـة هارفـرد ، وعمل خـلال فتـرة ١٩٥٩ — ١٩٦٠ مستشارا تشريعيا لادارة المشاريع الصغيرة ، وقد شارك بنشاط في حملات انتخابات الحزب الجمهوري منذ عام ١٩٥٦ ، وقبل ان يتولى مهمته الجديدة في جهـاز حملة التجديد لنيكسون كـان رئيس ادارة « عصبة مناهضة التشهـير » المتفرعة من منظمة بناي بريث الصهيونية في ولاية نيو انغلند .

وقال لاري غولدبرغ في مقابلة قصيرة : « اننـي لست مضاربا في سوق القوة السياسية ، واحب أن أظل بعيدا عن الاضواء قدر الامكان لان مركزي حساس جدا من هذه الناحية ، فكل شيء ما زال قيد التخطيط والاعداد ، ولكنني لا اود ان اظهر بمظهر الشخص المسؤول عن اليهود ، فالامر ابسط من ذلك بكثير » . غير ان احد المنظمين لجهاز لجنة حملة تجديد انتخاب نيكسون وهـو روبرت أودل الابن يقـول ان غولدبرغ سيصرف اكثر من نصف وقته في العمل بـين صفوف اليهود الامريكيـين لحشدهم وراء نيكسون في حملة انتخابات الرئاسة القادمة .

تحليل علاقات نيكسون باليهود الامريكيين :

ماكس فيشر هو الوجه البارز في مخططات نيكسون السياسية لكسب اليهود الامريكيين الى جانبه ، وفي ظل ادارة فيشر للامور تكونت وراء الستار بوادر تشنجات وتوترات من بينها : ١) بعض مستشاري نيكسون الرئيسيين في الشؤون الانتخابية نفضوا أيديهم تماما من الامل في كسب الدعم السياسي من اليهود الامريكيين ، ولا يعتقدون ان على الرئيس نيكسون ان يضيع جهدا كبيرا فيما يعدونه قضية خاسرة . ومن بين من يميلون الى الاخذ بهذا الموقف هالدمان المساعد للرئيس ، ورئيس هيئة الاركان في البيت الابيض . ٢) بعد ترك أدلر لهيئة اللجنة القومية للحزب الجمهوري [« اذ جاءت الوجوه الجديدة واخلت البيت من ساكنيه واحتلت جميع المواقع » حسبما يقول أدلر] ، لم يبق هنالك احد ، سواء داخل البنيان الرسمي للحزب الجمهوري او بين المسؤولين في البيت الابيض ، من هو متخصص في الشؤون اليهودية . [ولكن من جهة اخرى ، السناتور روبرت دول وهو جمهوري من ولاية كنساس ، ورئيس المجلس القومي للحزب الجمهوري ، معروف عنه انه من اشد مؤيدي اسرائيل في مجلس الشيوخ] . ٣) لا يخفي بعض زعماء اليهود ، ممن تربطهم بالرئيس نيكسون علاقة ود ، امتعاضهم من الدور الكبير الذي أسند الى ماكس فيشر . وقد عبر واحد من هؤلاء ، سرا ، عن دواعي امتعاضهم من ماكس فيشر قائلا : « اذا كان ماكس فيشر لا يعتقد بانك شخصية كبيرة فقد يعاملك بفظاظة متناهية ، وعلاوة على ذلك ، فان ماكس فيشر محاب ومتحيز لجماعة النداء اليهودي الموحد ، فاذا لم تكن واحدا من جماعة ماكس في النداء اليهودي الموحد فلا جدوى من محاولتك الوصول الى الرئيس » . ٤) يبقى ليونارد غارمنت مستشار نيكسون اليهودي لشؤون الحقوق المدنية والفنون والاداب دون دور ليلعبه في حملة نيكسون الانتخابية ، وكان غارمنت هذا قد شرح الموقف لنيكسون وهيأه في حملة انتخابات الرئاسة الماضية عام ١٩٦٨ لاجتماع هام مع زعماء هيئة يهودية رئيسية تضم تحت جناحيها العدد الاوفر من المنظمات والهيئات اليهودية الامريكية وهي مؤتمر رؤساء الهيئات اليهودية الامريكية .

وليونارد غارمنت احد المتخرجين من مكتب الاستشارات القانونية الذي كان نيكسون شريكا في ملكيته ، واصبح يدعى الان مكتب مدج ، ورور ، وغثري ، والكسندر . وهنالك خريج اخر من هذا المكتب يشغل منصبا مهما في ادارة نيكسون ، وهو جون ميتشل المدعي العام والذي يحتمل ان يلعب دورا سياسيا مهما هذه السنة .

وفي حملة عام ١٩٦٨ الانتخابية ساهم شخص اخر أيضا في شرح الشؤون اليهودية لنيكسون واطلاعه على ملابساتها وذلك هو مارتن بولنر المدير الحالي لمكتب تطبيق القانون في وزارة الخزانة ، وكان بولنر شريكا في ما كان يدعى يومئذ مكتب نيكسون للاستشارات القانونية قبل ان يجنده غارمنت للعمل في حملة نيكسون الانتخابية . وقال أحد المحامين اليهود في واشنطن بصورة سرية : « ان مارتن بولنر هو من افضل الاشخاص [اليهود] الذين في خدمة نيكسون ، ولكن طالما ان ماكس فيشر يدير عمليات نيكسون [بين اليهود] فلا اظن انه ستتاح له الفرصة للظهور والبروز » .

ويقول وارين أدلر المستشار السابق للشؤون اليهودية في لجنة الحزب الجمهوري القومية : « اننا نجد انفسنا ازاء طبقة رواد النوادي الريفية الخاصة (أهل المال والسلطان) ، فجميعهم لهم أصدقاء من اليهود الامريكيين ولكنهم لا ينظرون الى الامور من وجهة نظر الشعب اليهودي ولا يتبنون قضاياه ، هذا في حين ان اليهود المقربين من نيكسون لا يعتبرون انفسهم يهودا » .

كينين العميل الصهيوني القدير في الكونغرس الامريكي :

طلب السناتور هيوسكوت وهو من الشيوخ الجمهوريين البارزين من احد مساعديه مرة ان يعد له بيانا حول الشرق الاوسط ، وبعد ان قرأ السناتور سكوت مسودة البيان قال لمساعده الذي أعده « أعتقد ان البيان ممتاز وهو ما اردت تماما، ولكن ، من قبيل الاحتياط ، حبذا لو حملته الى « سي » واطلعته عليه » . من هو « سي » هذا الذي أشار اليه السناتور هيوسكوت ؟ انه قزحيا كينين مساعد الرئيس التنفيذي للجنة الشؤون العامة الاسرائيلية الامريكية ، وينادونه « سي » تصغيرا لاسمه الاول « قزحيا » ، وبمرور الزمن ازداد عدد اعضاء الكونغرس الذين يستمزجون رأي « سي » حول سياسة الولايات المتحدة تجاه اسرائيل .

دور « سي » كينين : قال احد المساعدين في البيت الابيض ، وقد آثر كتمان اسمه : « ان سي كينين يتمتع بنفوذ كبير بين صفوف اعضاء الكونغرس ، ويشتهر عندهم بانه متحدث شديد الاطلاع على الشؤون الاسرائيلية ، ومن المعروف ان ارتباطاته بالسفارة الاسرائيلية في واشنطن وثيقة جدا ، وهو المرجع النهائي للمحاورين الاسرائيليين والصهيونيين، فرغم ان جميع المنظمات الصهيونية الكبرى تصر على أن يكون لها ناطق خاص بها لدى الكونغرس، فان الجميع ينظرون الى سي كينين بأنه المرجع الاخير وجميع هؤلاء الناطقين والمحاورين الصهيونيين يطلبون مشورته » .

ويقول كينين انه يشعر ان دوره كوسيط حساس ودقيق ويتطلب قدرا من الدراية والدهاء في التصرف ، ولذلك فهو يحاول ان يتجنب الظهور تحت الاضواء ، بيد ان كينين يقر بأن : « كثيرا من المسؤولين والهيئات يستوضحون رأينا ، فكثيرا ما يتصل بي هذا العضو او ذاك في مجلس الشيوخ ليطلعني على مسودة خطاب كتبه وما الى ذلك . وأظن انك لو استفسرت من اعضاء الكونغرس عن أسلوبنا في العمل لوجدت انه لا يقوم على الضغط ، فالمسالة هي مسألة تزويدهم بشروح وتفسيرات وتوضيحات ومعلومات عن الوضع وتطورات الموقف » . ويضيف قائلا : « عندما تلوح في الافق بوادر اتجاهات ومواقف لا توافق هوانا أبعث برسالة توضح الموقف لنحو ٧٠٠ شخص من قادة الجالية اليهودية الامريكية وزعمائها ، كما اتصل بالممثلين والمندوبين المحليين للهيئات اليهودية الامريكية هنا في واشنطن ، وقد أدعو هؤلاء الى مكتبي لاحيطهم علما بما يجري ولاحثهم على القيام بما يستطيعون من اعمال ، فأبلغهم بأسماء اعضاء مجلس الشيوخ الذين يرفضون توقيع القرار المطلوب وأطلب منهم ان يفعلوا ما بوسعهم ان يفعلوه بهذا الصدد » .

نشأة كينين وخبرته : كان كينين صحفيا في كليفلاند بولاية اوهايو ، وفي عام ١٩٤٣ قدم الى مدينة واشنطن مديرا تنفيذيا للمؤتمر اليهودي الامريكي، وهو هيئة صهيونية تضم عدة منظمات وجمعيات يهودية اميركية ، جرى تشكيلها للعمل على اقناع المراجع الحكومية الاميركية المختصة بدعم وتبني فكرة انشاء دولة يهودية في فلسطين بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية .

وفي عام ١٩٤٧ تخلى كينين عن مهماته في المؤتمر اليهودي الاميركي ليصبح ممثلا صحفيا للوكالة اليهودية في نيويورك التي كانت تمثل المصالح اليهودية لدى منظمة الامم المتحدة التي كانت قد تكونت حديثا آنذاك ، وبعد ذلك اصبح كينين اول ناطق رسمي بلسان الوفد الاسرائيلي لدى منظمة الامم المتحدة . ويسترجع كينين ذكرياته حول تلك الايام قائلا : « في عام ١٩٥٠ كانت اسرائيل بحاجة الى معونة اقتصادية ، وقد بذلت مساع لادخال اسرائيل ضمن مشروع مارشال ، بيد ان الخارجية الاميركية عارضت ذلك ، فظهرت الحاجة الى العمل في صفوف اعضاء الكونغرس » . وقد تبلورت لذلك فكرة تشكيل جهاز للاتصال بأعضاء الكونغرس ، ودعي في باديء الامر « المجلس الصهيوني الاميركي » الذي اصبح يدعى في عام ١٩٥٩ « لجنة الشؤون العامة الاسرائيلية الاميركية » . وفي عام ١٩٥١ سجل كينين نفسه ، لفترة وجيزة ، كعميل لدولة اجنبية ، ولكنه يعمل منذ ذلك الوقت كمحاور محلي رغم حملة السناتور وليم فولبرايت عليه ، وقد قام السناتور فولبرايت في عام ١٩٦٣ بتحري نشاطات « لجنة الشؤون العامة الاسرائيلية الاميركية » توطئة لفتح تحقيق في مجلس الشيوخ حول سوء تطبيق قانون تسجيل عملاء الدول الاجنبية ، بيد أن الموضوع اقفل ولم يستدع كينين للادلاء بافادته كما لم يتم توجيه تهمة معينة له .

نشاطات كينين ومجهوداته من خلال لجنة الشؤون العامة الاسرائيلية الاميركية : تدير لجنة الشؤون العامة الاسرائيلية الاميركية عملياتها بميزانية سنوية مقدارها ١٧٥٠٠٠ دولار تجمع كلها من تبرعات من داخل اميركا . ومدير عملياتها كينين (٦٧ سنة) دائم السفر والتجوال، ويدير عملياتها في بعض الاحيان من مكتبها الفرعي في نيويورك ، وكثيرا ما يلقي أحاديث في الجماعات اليهودية في شتى أنحاء الولايات المتحدة ، وغالبا ما يرافقه في جولاته هذه ارفنغ كين رئيس ادارة لجنة الشؤون العامة الاسرائيلية الاميركية والذي يشرف على جمع التبرعات لها . وكثيرا ما يزور كينين اسرائيل ، وخلال زيارته الاخيرة في تشرين الاول الماضي اجرى مباحثات مع غولدا مائير رئيسة الوزراء . وتتميز نشاطات كينين باستقلاليتها عن المسؤولين الاسرائيليين بما فيهم هيئة السفارة

في واشنطن . ويقول كينين : « لم اصطحب السفير الاسرائيلي معي الى الكونغرس لاجراء الاتصالات مع الشيوخ والنواب منذ سنوات » . ويفضل كل من كينين والاسرائيليين انفسهم ان يعمل كل منهما بشيء من الاستقلال عن الاخر . وفي بعض الاحيان نشأت بينهما اختلافات حول اساليب العمل بصدد بعض التشريعات . ويصف كينين نفسه بأنه « من طراز اليهود الليبراليين الكلاسيكي » ، وهو يلاحظ وجود نوع من « الهوة بين الاجيال » بينه وبين السفير الاسرائيلي اسحق رابين الجنرال المتقاعد، وعمره ٤٩ سنة ، من رئاسة اركـان الجيش الاسرائيلي .

ويقول بعض اعضاء مجلس الشيوخ سرا انهم يرتاحون أكثر الى مناقشة الامور بصراحة مع كينين بصفتـه اميركيا مما مـع الدبلوماسيـين الاسرائيليين ، بينما يقول شيوخ آخرون انهـم يفضلون ان يتعاملوا مع الاسرائيليين مباشرة ، ومعظم الشيوخ يشعرون ان من المفيد لهم ان يتعاملوا مع الطرفين .

ويقدر اسحق رابين قيمة عمل كينين ومجهوداته ، وان كان لا يعتمد عليه اعتمادا كليا . ولذلك وافق في ربيع عام ١٩٧١ ان يكون ضيف الشرف في مأدبتي غداء حافلتين لاعضاء مجلسي الشيوخ والنواب لمناسبة انعقاد المؤتمر السنوي الثاني عشر للجنة الشؤون العامة الاسرائيلية الاميركية . ففي ٢٩ نيسان ١٩٧١ اقام رئيس مجلس النواب كارل البرت [ديموقراطي من اوكلاهوما] حفل غداء على شرف ٣٠٠ من مندوبي لجنة الشؤون العامة الاسرائيلية الاميركية الى المؤتمر ، وحضره كذلك ١٥٠ عضوا من اعضاء مجلس النواب من بينهم زعيم الاغلبية النيابية هال بوغز (ديموقراطي من لويزيانا) وزعيم الاقلية النيابية جيرالـد فورد (جمهوري من ميتشيغان) . وأقيم حفل الغداء الاخر في مبنى مكاتب مجلس الشيوخ الجديدة ، وكان خطباء الحفل السناتور هيوسكوت والسناتور هنري جاكسون .

نشرات كينين ومطبوعاته : علاوة على المهمات التي يقوم بها كينين في لجنة الشؤون العامة الاسرائيلية الاميركية فهـو يشرف ايضا علـى تحرير نشرة اسبوعية من اربـع صفحات (ولكنها زاخـرة بالمعلومات) يدعوها « تقرير حول الشرق الادنى »، وهي توزع على ٢٧٠٠٠ مشترك ، وقيمة الاشتراك بها ٧ دولارات سنويا ، ويوزعها كينين مجانا على جميع اعضاء مجلسي الشيوخ والنواب .

ويعمل كينين ، بمساعدة ٦ موظفين متفرغين و٤ غير متفرغين ، على تنسيق سجلات وافية وتفصيلية حول جميع القضايا والامور المتعلقة باسرائيل بما فيها مواقف كل واحد من اعضاء مجلسي الشيوخ والنواب من قضايا الشرق الاوسط ، كما يحتفظ بملفات وافية وشاملة لما يدعوه كينين « جهـاز الدعاية العربية » ، وفي كل عدد من اعداد « تقرير حول الشرق الادنى » يتصدى كينين لتفنيد وجهة النظر العربية ويقدم حججا مضادة تنقضها ، وقد لخص عددا كبيرا من هذه الحجج والحجج المضادة في عدد خاص من ٤٨ صفحـة دعاه « اوهـام ووقائع » ، وباع منه منذ عام ١٩٦٧ ، حـين صدوره ، ما يزيد على ٢٥٠٠٠ نسخة .

« التوازن » كما يفهمه الصهيونيون : يقول كينين « قبل أن نبدأ عملنا في واشنطن كان هناك « عدم توازن » في الضغوط ، فهناك التكتل « البترولي ـ الدبلوماسي » ، وهؤلاء لا يحتاجون الى المحاورة واجراء الاتصالات و« التطبيقات » كما نفعل نحن ، فهم يشكلون مركز قوة حقيقي ، اذ افلحوا في شق طريقهم الى مراكز ومواقع حساسة وقوية ، وعلى أية حال ، أن رئيس شركة نفط يستطيع الاتصال بالرئيس بسهولة اكثر منا » .

نهج اسرائيلي جديد في التوجه الى مراكز القوى في الولايات المتحدة وفي العلاقات معها :

جاء تأسيس اسرائيل في ١٤ ايار عـام ١٩٤٨ تتويجا لقرابة ستين سنة من المجهودات والمساعي الصهيونية . وقد اعتمدت في مطلـع عهدها في تعاملها مع الولايات المتحدة الاميركية على مشورة ونصائح اعوانها من الاميركيين (جلهم من اليهود)، بيد ان الاسرائيليين اصبحـوا ، في السنوات الاخيرة ، أقل اعتمادا علـى مشورة اليهـود الاميركيين في تعاملهم مع واشنطن واخذت السفارة الاسرائيلية في واشنطن ، تنهج نهجا استقلاليـا وتنزع الى الاعتماد على نفسها في تصريف الامور واجراء الاتصالات .

ويعبر هذا النهج الجديد ، الى حد كبير ، عن نظرة السفير الاسرائيلي في عهد نيكسون الجنرال اسحق رابين رئيس اركان حرب الجيش الاسرائيلي السابق (١٩٦٤ ـ ١٩٦٨) ، وقد قال اسحق

رابين لمندوب مجلة « ناشيونال جورنال » « انني متأثر الى حد بعيد بأسلوب عملي السابق الذي يعلق قدرا كبيرا من الاهمية على التحديد الواضح والمحدد للاهداف ، اذ ينبغي ان يبنى الحكم على السياسة الخارجية قياسا على النتائج العملية الملموسة ، ولذلك سعيت الى ان احدد على وجه الدقة المهام التي يترتب علي ان أؤديها وانجزها». ونعرض ادناه تلخيصا لنظرة الاسرائيليين لسلم الاولويات في تعاملهم مع واشنطن :

السلاح والتسليح : ان أولى الوقائع التي يدركها الدبلوماسيون الاسرائيليون في واشنطن هي ان بلدهم يعتمد على الاسلحة الاميركية المتطورة في أي نزاع ينشأ مع العرب في المستقبل . ولذلك ، فان من اهدافهم الرئيسية العمل على استمرار تدفق الاسلحة الاميركية بغزارة على اسرائيل ، ويشعر الاسرائيليون انهم بحاجة الى كميات من السلاح تمكنهم من الانتصار في اي قتال لا يشترك فيه الروس . اما فرنسا التي كانت المصدر الاول للسلاح الاسرائيلي فقد استنكفت عن بيع طائرات الميراج الى اسرائيل . ومنذ عام ١٩٦٨ اصبحت طائرات الفانتوم المقاتلة القاذفة والتي تصنعها شركة ماكدونل دوغلاس هي عماد سلاح الطيران الاسرائيلي . وقد بيع الاسرائيليون (في الصفقة الاولى) ٨٦ من طائرات الفانتوم ، سلمت ٥٠ منها في عهد الرئيس جونسون ، و٣٦ في عهد نيكسون ، كما تلقى الاسرائيليون ١٢٠ من طائرات سكاي هوك القاذفة المهاجمة وهي طائرة اقل تطورا من الفانتوم وتقل سرعتها عن سرعة الصوت ، وتصنعها ايضا شركة ماكدونل دوغلاس. وستتلقى اسرائيل المزيد من طائرات سكاي هوك خلال عام ١٩٧٢ ، وكذلك وافق الرئيس نيكسون على بيع اسرائيل المزيد من طائرات الفانتوم بعد اسابيع قليلة من طلب غولدا مائير الشخصي لها في ٢ كانون الاول ١٩٧١ اثناء زيارتها للولايات المتحدة .

التمويل الاميركي لاسرائيل : يضع الاسرائيليون هدف تأمين اقصى حد ممكن من الدعم المالي من الحكومة الاميركية لبلدهم في مرتبة واحدة مع السلاح والتسليح في سلم الاولويات لتعاملهم مع الولايات المتحدة ، سواء كان هذا الدعم المالي في صورة قروض لتمويل مشترياتهم من السلاح او على هيئة اعانات اقتصادية مباشرة .

وقد بلغت قيمة القروض في السنتين الماليتين ١٩٧١ و١٩٧٢ مبلغ ٨٠٠ مليون دولار ، ويعتبر الاسرائيليون هذه المبالغ كافية . وعلاوة على ذلك ربح الاسرائيليون في اواخر السنة الماضية معركتهم للحصول على « مساعدات الدعم » . وهذه من برامج المساعدات الخارجية المخصصة لعون البلدان التي يستنزف موارد ميزانياتها الانفاق العسكري لمكافحة الشيوعية . وقد اقر الكونغرس منح اسرائيل دفعة اولى من مساعدات الدعم قيمتها ٥٠ مليون دولار .

الردع الاميركي : درع لحماية اسرائيل : ومن الاهداف الاساسية التي تتوخاها اسرائيل في علاقاتها مع الولايات المتحدة ايجاد رادع اميركي موثوق به ومضمون للحيلولة دون استخدام القوة العسكرية السوفييتية في الشرق الاوسط ، ويطلب الاسرائيليون من الولايات المتحدة ان تكون لهم بمثابة درع عسكري يقيهم من الروس دون ان يلتزموا بشروط اية معاهدة رسمية بين واشنطن وتل ابيب . ويرى الاسرائيليون ان احتمالات اقدام السوفييت على المجازفة بأية اعمال عسكرية على حدود اسرائيل تتوقف بالدرجة الاولى وبصورة مباشرة على تقييم موسكو وتقديراتها لقدرات الولايات المتحدة واستعداداتها العسكرية ، وبدرجة أهم على مدى تصميمها وشدة عزمها على القتال . وبناء على ذلك يرى الاسرائيليون ان تقييم السوفييت للامور وتقديراتهم للموقف لا بد وان تتأثر بما يلمسونه من ظواهر تصميم الولايات المتحدة وعزمها على دعم اسرائيل ومساندتها مثل مستوى تدفق شحنات الاسلحة الاميركية على اسرائيل ، ومدى قوة الاسطول الاميركي السادس في شرق البحر المتوسط والمواقع التي يتخذها فيه. ويعتقد الاسرائيليون ان موسكو تنظر الان نظرة جادة الى تصميم الولايات المتحدة وعزمها على ردع اي تدخل سوفييتي في الشرق الاوسط . ووفقا لهذا التحليل اصبح السوفييت ينظرون بجدية أكثر الى شدة عزيمة الولايات المتحدة على الردع لان الرئيس نيكسون اقدم ، من حين الى آخر ، على مفاجآت غير متوقعة في تعامله مع مختلف كتل العالم الشيوعي مما جعل من غير اليسير حدس سياساته وتخمين الموقف الذي سيتخذه اذا ما طرأ طارىء .

ويعتقد الاسرائيليون ان الروس اصبحوا ينظرون

الى المناورات والتهديدات الأميركية نظرة جادة نتيجة اقدام الولايات المتحدة على غزو كمبوديا في عام ١٩٧٠ ، واستئنافها الغارات الجوية على نطاق واسع ضد فيتنام الشمالية في اواخر كانون الاول ١٩٧١ ، وقد اصدر الرئيس نيكسون اوامره بالاقدام على كلتا هاتين العمليتين رغم تصاعد الشعور المعادي للحرب في الولايات المتحدة . وفي جبهة الشرق الاوسط أمر الرئيس نيكسون في شهر أيلول ١٩٧٠ الاسطول السادس بالتوجه نحو شاطىء لبنان [عندما اشتدت قوة المقاومة الفلسطينية في وجه الارهاب الاردني]. وكذلك هدد الاسرائيليون ، الذين كانوا ينسقون خطواتهم تنسيقا تاما مع واشنطن ، بالتدخل هم ايضا في القتال .

تحقيق انسجام المواقف الاميركية مع الاهداف الاسرائيلية : وآخر الاهداف الرئيسية التي تتوخاها اسرائيل في تعاملها مع واشنطن هو التملص بمهارة من مبادرات الولايات المتحدة التي تستهدف السعي لاقرار تسوية سلمية للنزاع في الشرق الاوسط . والهدف الرئيسي للدبلوماسية الاسرائيلية في هذا الصدد هو الحيلولة دون انزلاق الولايات المتحدة لان تصبح طرفا في تسوية سلمية تفرضها الدول الكبرى ومنعها من ممارسة ضغط على الاسرائيليين (بواسطة التهديد بالغاء شحنات الاسلحة مثلا) لتأمين تعاونهم في تطبيق مثل هذه التسوية .

ان الهدف الآني للدبلوماسية الاسرائيلية هو استمرار التقيد بوقف اطلاق النار على قناة السويس ، المعمول به منذ اكثر من عشرين شهرا ، والعمل على تحقيق انسحاب تدريجي خطوة بعد اخرى من خط قناة السويس .

ويعتبر الاسرائيليون ان الدعم الشعبي الواسع لاهدافهم هو عنصر اساسي في نجاح دبلوماسيتهم ، وهذا ما يجعلهم يولون أمور توجيه الصحافة ووسائل الاعلام اهمية فائقة .

ومن جهة اخرى ، يعتقد الاسرائيليون ان الرأي العام في الولايات المتحدة اصبح اشد ميلا الى تحبيذ انتهاج الولايات المتحدة سياسة العزلة في الشؤون الدولية ، ويتجلى هذا الاتجاه بأوضح صوره بين الليبراليين . ولذلك ، يقر الاسرائيليون بأن أهدافهم الدبلوماسية ، في الوقت الراهن ، هي اكثر توافقا مع مواقف الجهات والقوى المحافظة التفكير في الولايات المتحدة والتي فضلت دائما انتهاج سياسة عسكرية متشددة ، مما هي مع الليبراليين . ويعتقد الاسرائيليون ان اعتمادهم اعتمادا كليا على دعم اليهود الاميركيين لاسرائيل في المناخ السياسي الراهن سيكون خطأ سياسيا فادحا .

هل دور الهيئات اليهودية الاميركية في توجيه السياسة الاميركية مبالغ فيه ؟

أجرت مجلة « ناشيونال جورنال » في عرضها الشامل للعلاقات المتداخلة بين الهيئات اليهودية الاميركية ومراكز القوى الفعالة في رسم خط السياسة الاميركية ، وطبيعة العلاقات بين الحكومة الاميركية واسرائيل مقابلة مع احد اليهود الاميركيين الذين مارسوا مدة طويلة التأثير على الرأي العام والمسؤولين الاميركيين ، وشارك في عملية اجراء الاتصالات والضغط والمصاورة المعهودة من اجل القضايا الاسرائيلية ، وذلكم هو « ميلتون فريدمان » الذي عمل منذ عام ١٩٤٨ الى عام ١٩٧٠ محررا لاخبار « وكالة البرق اليهودية » . وقد استقال من عمله هذا ليلتحق بلجنة الحزب الجمهوري القومية لحملة انتخابات الكونغرس، ومن ثم عمل مساعدا للنائب الجمهوري عن ولاية نيويورك سيمور هالبرن ، وهو في هذه المقابلة مع مجلة « ناشيونال جورنال » يعرض طبيعة التأثير الذي تمارسه الهيئات اليهودية الاميركية على المسؤولين الاميركيين ويقيم اهمية الدور الذي تلعبه هذه الهيئات ، من الداخل ، بصفته واحدا ممن شاركوا في هذه العملية مدة طويلة، [ولذلك لا غرابة في انه يجنح الى تقليل أهمية الدور الذي تلعبه هذه الهيئات اليهودية ، وان يميل الى تبسيط طبيعة العلاقات المتداخلة بين الطبقة الاحتكارية الحاكمة في الولايات المتحدة وبين المواقع القوية التي يحتلها اليهود الاميركيون في عالم المال والاحتكار وسيطرتهم على وسائل الاعلام الاساسية من صحافة واذاعة وتلفزيون وشركات الانتاج السينمائي في هوليوود .

ولكن ، من ناحية اخرى ، يلاحظ ان اوساطا عربية واسعة ، لا سيما ما يدور منها في فلك الهيئات الحاكمة في العالم العربي ما تزال تتصور، كما كانت تتصور دائما ، ان التواطؤ القائم بين قوى الاستعمار ، قديمة وجديدة ، ممثلة في الاوساط الحاكمة في الولايات المتحدة الاميركية

وغيرها من البلدان الغربية وبين اسرائيل ، قوامه الوحيد هو سيطرة اليهود والصهيونيين في هذه البلدان على وسائل الاعلام ومراكز المال مما يؤدي الى تأثيرهم على سياستها . وتغفل هذه الاوساط العربية ، او تتغافل ، عن طبيعة الارتباط العضوي المصلحي القائم بين قوى الاحتكار المسيطرة على مقاليد الامور في البلدان الاستعمارية وبين اسرائيل باعتبارها مخلب قط لهذه الاحتكارات وخط دفاع أمامي عن مصالحها الاستغلالية في الشرق العربي ، وكذلك الدور الذي تلعبه اسرائيل في خدمة هذه الاحتكارات كقاعدة قوية وموثوق بها ضد ما يدعونه التغلغل السوفييتي في المنطقة العربية . ويكشف جانبا من طبيعة هذا الارتباط العضوي بين اسرائيل وقوى الاحتكار الاستعمارية ما ورد اعلاه من معلومات يتبين فيها ان اسرائيل اخذت تتحسس مخاطر الاعتماد الكلي على دعم اليهود الامريكيين لان بين صفوفهم تيارات ليبرالية قوية ، في حين انها اخذت تتحالف الان بشكل مكشوف مع قوى اليمين المحافظ ، ومعظمها غير يهودية ، بل ان بعضها يجنح الى شيء من اللاسامية] .

وفيما يلي ملخص لآراء ميلتون فريدمان هذا حول التأثير الذي تمارسه الهيئات اليهودية الامريكية على سياسة الولايات المتحدة من حيث كونه احد المحاورين ورجال الاعلام الصهيونيين الرئيسيين في الولايات المتحدة الامريكية ، يقول فريدمان : أشعر ان هنالك مبالغة شديدة حول مدى قوة وتأثير من يدعون بالمحاورين الموالين لاسرائيل الذين يقومون « بالتطبيقات » السياسية لصالح اسرائيل . لا انكر ان هنالك شيئا من هذا القبيل ، ولكن ما هو مدى تأثير هؤلاء المحاورين وما هو مدى فعاليتهم ؟ ليس هذا بالامر الملموس الذي يمكن ان يعطي عنه المرء اجابة محددة ، اذ هو اشبه بمحاولة معرفة مدى الدعم الذي تستطيع عصابة « كوكلوكس كلان » [العنصرية البيضاء] ان توفره لمرشحي الرئيس نيكسون لهيئة قضاة المحكمة العليا . ان من يدعون محاورين لصالح اسرائيل هم ، بالدرجة الاولى ، عبارة عن رجال علاقات عامة يتقاضى الواحد منهم مبلغ اربعين الف دولار في السنة بتنصيب انفسهم « خبراء في الشؤون اليهودية » !!

لقد سادت اوهام بهذا الصدد مصدرها وزارة الخارجية الامريكية التي عندما تفشل في اقناع البيت الابيض بتبني الخط السياسي الذي تقترحه تخترع هذا « الغول الخرافي » وهو المحاورون لصالح اسرائيل ، وتسري الشائعات بأن « الماكينة اليهودية الهائلة » قد تحركت . وتمر علي أوقات أتمنى فيها لو ان هذه «الماكينة اليهودية الضخمة» كانت موجودة بالفعل . هنالك حوالي خمسة ملايين يهودي في الولايات المتحدة ، اي ما يعادل ٢ ٪ من الاصوات ، ومعظم من هم دون الخامسة والثلاثين من هؤلاء اليهود لا يكترثون البتة بأمر اسرائيل واحوالها ، بل ان بعضا منهم يقف منها موقفا معاديا . فمن يبقى من هؤلاء اليهود مع اسرائيل اذن ؟ هنالك الرجال الكبار المنتسبون للحركة الصهيونية وأعدادهم محدودة ، وهنالك « حركة الاصلاح اليهودية » المنشقة الى شطرين والدائبة النزاع مع الاسرائيليين حول احدى قضايا حرية العبادة ، ثم هنالك اخيرا «اليهود التقليديون» و« المحافظون » ، وهؤلاء لا يزجون انفسهم في الامور السياسية .

اما من حيث علاقة اليهود الامريكيين بالبيت الابيض، فليس هنالك في البيت الابيض من يحفل برغبات اليهود وأهوائهم ، فمن الخطأ الافتراض بأن هنالك شخصا مهمته التعرف على آراء اليهود ومشاعرهم والعمل على الاستجابة لها وارضائها . ففي واقع الامر ، هل يبالي نيكسون حقيقة فيما اذا كانت الجالية اليهودية سعيدة او غير سعيدة ؟

انه ، بطبيعة الحال ، لا يود ان يستثير عداء أحد ، فهو يريد ان يكون ، كما تعلم ، رئيس الجميع .

اما من حيث ما يدعى سطوة « المحاورين لصالح اسرائيل » فهو أمر لا يوجد ، اساسا ، الا في عقول المسؤولين في وزارة الخارجية . ووزارة الخارجية تشعر بذلك لانها هي نفسها كبش فداء [أي أن البيت الابيض يلقي اللوم دائما على وزارة الخارجية بأنها السبب في اتخاذ موقف معين غير مرغوب فيه مثل الامتناع عن شحن طائرات الفانتوم لفترة من الزمن] . هنالك كثير من اليهود المتحمسين لاسرائيل ، ويودون أن يظهروا لانفسهم وللاخرين بأن ما يفعلونه مجد . وهنالك يهود يشعرون بأنهم عاجزون عن القيام بما ينبغي القيام به لصالح اسرائيل ، ولذلك يمنون انفسهم بأن

هنالك محاورين كثيرين لصالح اسرائيل في واشنطن، وان هؤلاء يتمتعون بنفوذ وتأثير كبيرين وهم دائبو الحركة والنشاط وينوبون عنهم في عمل ما يلزم . ومن جهة أخرى ، فان المحاورين العرب وممثلي شركات النفط ليسوا اسعد حالا ، ولا اظن ان ايا من الفريقين ، اليهودي او العربي ، له اية سطوة يعتد بها ...

ان المحاورين الحقيقيين لصالح اسرائيل ليسوا في واشنطن ، ولا تجدهم في مكتب منظمة « بناي بريث » ولا عند الباب الخلفي للسفارة الاسرائيلية، بل هم اليهود العاملون في شتى الميادين والمنتشرون في شتى أنحاء الولايات المتحدة ، فمعظم اليهود يتمتعون بنصيب وافر من المعرفة والاطلاع ، وبعضهم مشترك في جريدة « جيروسالم بوست » او بعدد نهار الاحد من جريدة « نيويورك تايمز »، وهم يتابعون الاحداث ويعرفون ، على وجه الدقة، حقيقة ما يجري في الشرق الاوسط ، فاذا كان التوجيه السياسي والاعلامي الاسرائيلي يقول : « اضغطوا من اجل استئناف شحن طائرات الفانتوم » ، فعندئذ سيتلقى السناتور الفلاني من الولاية الفلانية ، ، فجأة ، دزينة من الرسائل من بعض الشخصيات الهامة في ولايته ، دون ان يكون هناك توزيع أدوار او توجيه من احد .

وتحدث المحاور اليهودي الاميركي ميلتون فريدمان عن منطلقات السياسة الاميركية وتوجهاتها والاعتبارات التي تحكم قراراتها قائلا : « ان ما يحدث في واشنطن حول الشرق الاوسط هو نتيجة اعتبارات براغماطيقية عملية لتوزيع القوى وموازينها ، وتنطوي هذه على تقديرات وحسابات كل من « مجلس الامن القومي » ، و« رؤساء هيئة الاركان المشتركة للقوات الاميركية » ، و« وكالة الاستخبارات المركزية » حول اية تغييرات تطرأ على ميزان القوى ، ولا علاقة لها البتة بذلك النفر القليل من الرجال الذين يقومون بالحوار والاتصالات والتطبيقات لصالح أي من الطرفين ، فواقع الامر ان هذه القرارات انما تؤخذ على اساس تفكير اعلى الجهات المسؤولة وتقديراتها حول الاستراتيجية السياسية العالمية ، فالمراجع المسؤولة في الدولة لا تذهب الى محاور لصالح اسرائيل لتستوضح منه عن الغرض من وجود قوات سلاح الجو السوفييتي في مصر وتطورات هذا الامر ، كما لا تحتاج الى الاتصال بأحد رجال العلاقات العامة اليهود ليقدر لها عدد المرات التي تحلق فيها طائرات ميغ — ٢٣ من القواعد المصرية.

ان العامل الحاسم في اتخاذ نيكسون قراره حول استئناف شحنات الفانتوم لاسرائيل هو ما يتلقاه من معلومات وتحليل للموقف من المراجع المختصة في وزارة الدفاع ودوائر الاستخبارات، والشعور العام في وزارة الدفاع الاميركية وبين الناس الذين يؤثرون عليها هو : « بحق الشيطان اعطوا اسرائيل الاسلحة التي تحتاج !! ، فالروس يربضون عند قناة السويس ، وهم يحلقون بطائرات ميغ — ٢٣ فوق سيناء !! » . ووجهة النظر هذه تصدر عن جهات يحترمها المفكرون العسكريون ، ولا علاقة لها من قريب او بعيد بالصهيونية او حتى بطبيعة الميول والمشاعر نحو اليهود . **ومن جهة اخرى ، حتى رجال شركات النفط العاملة في البلدان العربية يلعبون دورا مزدوجا ، فهم من جهة يودون بقاء الاسرائيليين اقوياء خوفا من استيلاء الروس على منابع النفط في الكويت والبحرين وغيرهما من امارات النفط في الخليج ، ومن ناحية اخرى يستنكرون ، لفظيا ، سياسة اسرائيل ذرا للرماد في عيون العرب ، وليحافظوا على مصالح شركاتهم وحظوتهم لدى العرب .**

اما بالنسبة للسفير الاسرائيلي اسحق رابين فهو فعلا من النوع العسكري القدير ، وهو لا يضيع شيئا من وقته في الانزعاج حول ما عناه عضو الكونغرس الفلاني في خطابه العلاني .

فهو يهتم بالذهاب مباشرة الى مصدر القوة ، وهو يود أن يعرف اي نوع من الحجج والشواهد والاستدلالات يحبذ ان يقدمها خلال مقابلته لوزير الخارجية او للرئيس ليغيرا موقفهما حول هذه المسألة او تلك ؟ وما هو بالضبط ما يظنان ان الروس يقومون به على وجه الدقة ؟
وهذا هو كل ما في الامر » .

سجل اقوال نيكسون حول اسرائيل
(١٩٦٨ — ١٩٧٢)

فيما يلي عرض لبعض تصريحات ريتشارد نيكسون الرسمية حول سياسته في الشرق الاوسط التي اعلنها اثناء حملة انتخابات رئاسة الجمهورية في عام ١٩٦٨ .

حول تسوية متفاوض عليها : « على الولايات المتحدة أن تقوم فورا بأخذ زمام المبادرة في وضع

تسوية مقبولة في الشرق الاوسط .

« انصتوا الى الشروط : يتبغي ان تتضمن هـذه الشروط ضمانات أكيدة وثابتة بأن المناطق المحتلة حاليا لن تستخدم مطلقا ، مرة اخرى ، قواعد للعدوان وملجأ للارهاب .

وينبغي ان تنطوي التسوية على الاعتراف بسيادة اسرائيل ، وبحقها في الوجود بسلام ، وانهاء حالة العداء » .

مؤتمر منظمة بناي بريث في ٨ أيلول ١٩٦٨.

حول سياسة حكومة جونسون : « لقد كان الرد الاميركي على سياسـة السوفييت التوسعيـة والمغامرة ، دبلوماسيا وعسكريا ، يتسم بالتردد ، والعرج ، وعدم الفعالية . وفي واقع الامر ، يبدو انه ليست هناك أية سياسة اميركية على الاطلاق في منطقة من العالم حيث قدح اية شرارة عرضية قد يؤجج نار نزاع محلي يمكن ان يسوق القوى العظمى الى أوار صدام مباشر كبير » .

من مقال في نشرة « تقرير من الشرق الادنى » في ١٥ أيــار ١٩٦٨ .

حول وضع اسرائيل : « من الوقائع الماثلة أمامنا ما يلي : ان بوسع اعداء اسرائيل ان يخوضوا حربا وان يخسروها ، اذ بوسعهم ان يعاودوا الكرة ، بيد انه ليس بوسع اسرائيل ان تخسر حتى مرة واحدة . ان اميركا تعلم ذلك ، وان اميركا مصممة على ان اسرائيل هنا في اسرة الامم لتبقى .

« انني ادعم سياسة تعطـي اسرائيل تفوقـا تكنولوجيا عسكريا يتجاوز التفوق العددي لجيرانها المعادين لها ... واذا كان هذا التفوق يتطلب تزويدها بطائرات الفانتوم ، فسنزودها بهـذه الطائرات للمحافظة على هذا التفوق » .

مؤتمر بناي بريث في ٨ أيلول ١٩٦٨ .

حول « التزامه من حيث المبدأ » : فيما يلي جواب الرئيس نيكسون حول سؤال « دان راذر » مراسل شبكة اذاعة كولومبيا في البيت الابيض ، اثناء مقابلة تلفزيونية بتاريخ ٢ كانون الثاني حول خطط الحكومة الاميركية بشأن بيع اسرائيل المزيد مـن طائرات الفانتوم : « لقد اتخذنا قرارا ، يا سيد راذر ، مستمدا من سياسة اعلنتها منذ أمد طويل بأننا لن ندع التوازن العسكري في الشرق الاوسط يختل . وقد تبين لنا بأن الاتحاد السوفياتي قد زود مصر بشحنات هامة جدا من الاسلحة . ونتيجة لهذه الشحنات التي مـا زالت تتصاعد قررنـا الاستجابة الى طلبات اسرائيل مـن الطائرات لنضمن عدم اختلال التوازن . لقد ارتبطنا بالتزام من حيث المبدأ ، واما من حيث وضـع هـذا الالتزام ، موضع التنفيذ ، فهذا ، بطبيعة الحال، ليس الوقت المناسب للخوض فيه » .

التقرير الثاني

دور اليهود الامريكيين في تمويل اسرائيل وتوجيه دفة السياسة الامريكية

ستيفن كليدمان

في الاسابيع الاولى من هـذه السنة (التي هي سنة انتخابات لرئاسة الجمهورية في الولايات المتحدة) عبر كل من الرئيس نيكسون والزعماء الديموقراطيين المتنافسين علـى الفوز بترشيـح الحـزب الديموقراطي لمنافسة نيكسون في معركة انتخابـات الرئاسة الامريكية ، عبر هؤلاء عـن اهتمام شديد وملموس بما فيه خـير اسرائيـل وسلامتها وبمصير اليهود في الاتحاد السوفييتي . فقد وافـق الرئيس نيكسون على بيع طـائرات « الفانتوم » و « والسكاي هوك » لاسرائيل كما لمح الى أنه قد يبحث مع قـادة الكرملين مسألة هجرة اليهود السوفييت الى اسرائيل عندما يزور موسكـو في شهر ايـار ١٩٧٢ ، كذلك صادق نيكسون على ضمان الحكـومة الامريكية لقرض قيمته ٥٠ مليون دولار للمساعدة في اسكان اليهود السوفييت المهاجرين الى اسرائيـل . ومن جهة أخرى تقدم كل من السناتور ادموند مسكي ، عن ولاية « مين » ، والسناتور هنري جاكسون ، عن ولاية واشنطن ، المتنافسين على ترشيح الحزب الديموقراطي لانتخابات الرئاسة الامريكية ، تقدما الى الكونغرس ببرنامج معونات مالية لمساعـدة اسرائيل في توطين المهاجرين من اليهود السوفييت اليها . أما المرشح الديموقراطي الثالث السناتور هيوبرت همفري عن ولاية مينيسوتا ، فكان علـى وشك التقدم بلائحة معونة مماثلة ، ولكنه قـرر سحبهـا حتى لا تتعارض مـع لائحتي المعونـة للمرشحـين الاخرين ، وعوضا عن ذلـك اقترح همفري ان تعترف الولايات المتحدة رسميا بالقدس عاصمة لدولة اسرائيل .

ان هذا الاهتمام البالغ والحرص الشديد اللذين يبديهما كبار الزعماء السياسيين الامريكيين تجـاه اسرائيل ومصالحها ليسا بمحض الصدفة ، اذ ان تأثير اليهود الامريكيين على السياسة الامريكية لا يتناسب اطلاقا مع عددهم بين مجموع الناخبين . واليهـود الامريكيون هم من الممولين الرئيسيـين للاحزاب السياسية (الامريكية) لا سيما الحزب الديموقراطي ، مثلمـا هم الممولون الرئيسيون لدولة اسرائيـل ذاتها . ويظهـر مدى ضخامة السلطان المالي لليهود الامريكيين في حملات جمع التبرعات لاسرائيل الجارية حاليا ، والتي تتولاها كل من مؤسستي «النداء اليهودي الموحد» و«منظمة السندات الاسرائيلية » ، وهما تهدفان هذه السنة الى جمع ٥٠٠ مليون دولار من التبرعات الخاصة لصالح اسرائيل واليهود السوفييت المهاجرين اليها. ففي حفل عشاء واحد أقامته مؤسسة « النـداء اليهودي الموحـد » في نيويـورك ، في الاسبوع الماضي ، تم جمـع ٢١ مليـون دولار ، وفي حفل مماثل في « بالم بيتش » بفلوريدا تم بيع ما قيمته ٦ ملايين دولار من السندات الاسرائيلية .

ان دعم اليهود الامريكيين لاسرائيل وفضلهم عليها هائل جدا سواء كان ذلك من حيث نفوذهم وتأثيرهم على السياسة الامريكية او من حيث تبرعاتهـم ومساعداتهم النقدية . فقد بلغت هذه التبرعـات والمساعدات في عام ١٩٧١ فقط مـا قيمته ٥٢٠ مليون دولار من مبيعـات السنـدات الاسرائيلية والتبرعات لصندوق النداء اليهودي الموحد ، في حين أن مجموع ارقام الميزانية الاسرائيلية في تلك السنة كان أقل بقليل من ثلاثة بلايين دولار .

أما مدى تأثير النفوذ السياسي لليهود الامريكيين فحصره وقياسه اصعب من حصر قيمة المساعدات والتبرعات المالية ، بيد أن من الحقائق الظاهرة ان لجان التمويل السياسي في هذه البلاد (امريكا) مرصعة بوفرة بأسماء اليهود الامريكيين الاثريـاء مثل : أرنولد بيكر ، وارثر كريم ، وليستر أفنيت ، وآرثر جي. كوهين ، وجون لوب ، وآبي فينبرغ، وهوارد شتـين ، وميشولام ريكليس ، وماكس بالينسكي ، وروبين فاركاس ، وهوارد صموئيل، وغيرهم . وهناك طرفـة تروى عن ايام ولايـة الرئيس جونسون في البيت الابيض تعطي فكرة عن مقدار النفوذ الذي يتمتع به هؤلاء الرجال من هذا الوزن . وتمضي هذه الطرفة على الوجه التالي : اثناء ولاية القاضي اليهودي أبي فورتاس علـى المحكمة العليا ارسل أحد المسؤولين في البيـت الابيض صورة أبي فورتاس هـذا وهو يعتمـر

اليرملك* اثناء حضوره الصلاة في الكنيس اليهودي الى هاري ماكبيرسون المسؤول عن الشؤون الدينية في حكومة جونسون ، وقد ارفق مع الصورة ملاحظة كتبها هذا المسؤول في البيت الابيض تقول: ان الحكومة لا تستفيد سياسيا بالقدر الكافي من مثل هذه الاشياء ، فاطلع هاري ماكبيرسون الرئيس جونسون على الصورة المذكورة والملاحظة المرفقة بها ، فقال له الرئيس جونسون : « اسمع يا هاري ، لقد اعتمرت بهذه القلنسوة عددا من المرات اكثر مما اعتمر بها أبي فورتاس نفسه » .

ان الاسباب التي تجعل أقل من ٣ بالمئة من السكان الامريكيين يستأثرون بهذه الاهمية الكبيرة سواء من حيث التبرعات السخية التي يجمعونها او النفوذ السياسي الفعال الذي يمارسونه هي أسباب متنوعة ومعقدة ، وهي أسباب تاريخية ، وسياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ، وهي أسباب تعود في جانب منها الى التقاليد اليهودية والامريكية ، وتتعلق بالقيم الاخلاقية والدينية ، وبآلاف السنين من الاضطهاد الذي توج بمجازر الإبادة الجماعية التي نظمها النازيون ، كما تتعلق بالشعور الجماعي بالذنب وتحمل المسؤولية ازاء المجازر النازية مثلما تتعلق بالمهارة في استخدام أساليب جمع التبرعات ، وفي نهاية الامر ، يتعلق كل هذا بما عبر عنه ليو برنشتاين كبير المسؤولين عن السندات الاسرائيلية بكلمة واحدة بالغة الدقة هي « المثابرة » .

لقد بلغ مجموع ما يوصف بالتبرعات الخيرية التي جمعت في عام ١٩٧١ في جميع انحاء امريكا ١١ بليون دولار ، في حين ان الملايين الستة من اليهود الامريكيين تبرعوا لاسرائيل وحدها في تلك السنة بحوالي ٦٠٠ مليون دولار . وهذا يشمل التبرعات والمنح لبعض المعاهد الاسرائيلية مثل معهد التكنيون في حيفا ومعهد وايزمن للعلوم في روحوبوت ، أي ما معدله ١٠٠ دولار من التبرعات لاسرائيل من كل يهودي امريكي رجلا كان أو امرأة أو طفلا ، بالمقارنة مع ما معدله للفرد الامريكي نصف هذا المبلغ من التبرعات لجميع الاغراض . وهنالك اجماع بين المساهمين في عملية بيع السندات الاسرائيلية بأن الحافز الرئيسي لدى المتبرعين بقيمة هذه السندات او المشترين لها هو الرغبة الصادقة في مساعدة اسرائيل .

وهنالك أجماع ايضا بين الاسرائيليين العارفين بالامور أنه ما كان يتأتى لدولة اسرائيل ان تقف على رجليها لولا هذه المساعدات . ان كميات المبالغ المجموعة مذهلة ، فقد بلغت المبيعات من السندات الاسرائيلية في عام ١٩٧١ بالضبط ٢٥١٤٧٦٠٠٠ دولار (٨٣٪ منها بيعت في الولايات المتحدة الامريكية) ، وقد تجاوز هذا أعلى رقم سابق سجلته مبيعات السندات الاسرائيلية وهو ٢١٧٥٤٧١٠٠ دولار وذلك في عام ١٩٦٧ بفعل حرب حزيران . أما مجموع التبرعات التي جمعها صندوق النداء اليهودي الموحد في عام ١٩٧١ والتي لم تعلن ارقامها النهائية بعد فتبلغ نحو ٢٧٥ مليون دولار ، أما المنظمة التي تدار عمليات النداء اليهودي الموحد في ظلها والتي هي بمثابة ستار لتغطية نشاطاته ، فقد جمعت مبلغ ١٠٠ مليون دولار اخرى لتنفق ، بصورة رئيسية ، على القضايا اليهودية في الولايات المتحدة . ويقال ان نسبة المبالغ التي يتخلف المتبرعون عن الوفاء بدفعها تقل عن ١٪ . وقد قال هيربرت فريدمان نائب رئيس مجلس الادارة التنفيذي لصندوق النداء اليهودي الموحد (اسرائيل) معللا هذه الظاهرة : « ان يهود العالم ليسوا شركاء واحدهم الاخر ، بل ان واحدهم هو الاخر بالمعنى الوجودي . فما يعانيه احدهم ويشعر به يعانونه جميعهم ويشعرون به ، فنحن وحدة واحدة ، وذات واحدة غير قابلة للانقسام أو الانفصام . وفي هذا يكمن سر قوتنا ».
ان هذا الحس بالإنتماء اليهودي لدى اليهود ، والتقاليد التي شدت لحمة اليهود ، روحيا ، بعضهم الى بعض طوال الفي سنة من التجوال هي ، دون شك ، العامل الاول الفاعل في سيل الاموال التي تتدفق سنويا على اسرائيل . وقد يعزى جانب من هذا السخاء في التبرع الى الشعور بالذنب لدى اليهود الامريكيين لانهم لم يقاسوا ما قاساه اخوانهم في اوروبا في ظل هتلر وكذلك لامتناعهم عن الهجرة الى اسرائيل والاستقرار فيها . بيد أن محترفي جمع التبرعات يدركون ان هذين العاملين وحدهما لا يكفيان لاعطاء الجواب على سر هذا التدفق السخي للتبرعات ، فلا بد ان تؤخذ في الحسبان كذلك أساليب جمع التبرعات ، ومنها حفلات عشاء العطايا الكبرى على سبيل المثال .

---

* اليرملك Yarmulke هي عبارة عن قلنسوة يعتمر بها متدينو اليهود في الكنيس وفي المنازل .

وقد أقيم حفل عشاء العطايا الكبرى الرئيسي لهذه السنة في مطلع شهر شباط من هذا العام في « فندق بير » بدعوة من فرع صندوق النداء اليهودي الموحد لمدينة نيويورك الكبرى . وقد ضم الحفل نحو ٤٠٠ ضيف جلهم من الازواج والزوجات . وقد بلغ مجموع ما تبرعوا به في ذلك الحفل ٢١ مليون دولار وكان ضمنها سبع عطايا بلغت قيمة كل منها مليون دولار أو يزيد . وكان أصغر تبرع في ذلك الحفل ١٠٠٠٠ دولار . وقد سبق العشاء الرسمي « بوفيه » زاخر بأشهى المقبلات ، وتلألأ البهو بالمجوهرات والحلى التي ازدانت بها السيدات من حضور الحفل اللواتي كن يتبخترن بأبهى الحلل . وكان المدعوون من عموم الاعمار ، وان كان جلهم من فئة اواسط العمر أو ما زاد عن ذلك . وبعد البوفيه ، قرأ الحاخام « يهوذا كاهن » بعض الادعية والتعاويذ ثم تناول المدعوون عشاء متبولا من اللحم المحمر والمعد حسب الشريعة اليهودية (كوشير) ، اما خطيب الحفل الرئيسي موشي دايان فقد وصل بعد انتهاء وجبة العشاء ، وبعد انتهاء المدعوين من تناول طعام العشاء نهض رئيس الحفل « تشارلز رينسون » وهو رئيس مجلس ادارة شركة ريفلون لمواد التجميل وقدم للحضور ضيف الشرف في الحفل « صموئيل هاوزمن » رئيس مجلس ادارة شركة بيلدنغ همنغواي للمنسوجات . وقبل أن يبدأ هاوزمن القاء خطابه قدمت له زهرية زجاجية صنعها أحد الاسرائيليين الناجين من معسكرات الابادة النازية ويدعى « أريل برطل » ، وقد شعر « هاوزمن » بزهو لهذا التكريم لمناسبة عيد ميلاده الخامس والسبعين . وقد تحدث هاوزمن بايجاز عن الحضور المتالقين اناقة وجمالا والذين يطفحون بكميات كبيرة من المال ، ثم قدم دايان واصفا اياه بأنه قائد فذ ، وعالم آثار فذ ، وكذلك وزير زراعة فذ ، وهو منصب لم يعتبر دايان متفوقا فيه بصفة عامة . وبعدئذ ، بدأ دايان الذي كان يجلس الى جانبيه كل من ابنته « يائيل » والسفير الاسرائيلي لدى الامم المتحدة يوسف تكواع ، يجيب على أسئلة الحضور من مختلف الموائد ، وقد قام « ميشولام ريكليس » رئيس مجلس ادارة شركة غلين ألدن بدور الوسيط بين دايان والحضور اذ كان يعيد القاء السؤال الذي يصدر عن احدى الموائد .

وكانت معظم أسئلة الحضور لدايان تدور حول هجرة اليهود السوفييت الى اسرائيل ، وقال دايان أن بوسع اسرائيل « بفضل مساهمتكم ، أن تستوعب كل من يستطيع القدوم الى اسرائيل من هؤلاء » . وبعد ذلك ، القى « ميشولام ريكليس » ، وهو من مواليد اسرائيل (فلسطين) ، الخطاب الرئيسي للحض على التبرع ، فتحدث عن ضرورة التبرع لشراء « حرية اليهود الروس » وانتهى به المطاف الى اعلان تبرعه الشخصي بمبلغ ١،٢٥ مليون دولار ، وقد عبر عن هذا الرقم بعدد اليهود السوفييت الذين سيساهم هذا المبلغ في استيطانهم في اسرائيل . وعند بدء المناداة على الحضور لتقديم تبرعاتهم أعلن أولا استبشاره بوجود الصناعي البريطاني الكبير السير « اسحق ولفسون » بين الحضور قائلا « فلنبين له ما نستطيع ان نفعل » . ثم بدأت المناداة على الاسماء وأخذت التبرعات تتوالى مصحوبة في بعض الاحيان بخطابات قصيرة . وخلال الحفل حضر حاكم نيويورك نيلسون روكفلر ليقدم احتراماته للحضور . وقد حضر دايان حفلي عشاء مماثلين في مدينتي لوس انجيلوس وشيكاغو ، كما حضر حفل غداء اقامته منظمة سندات اسرائيل في مدينة ميامي بفلوريدا .

وفي الوقت الذي كان فيه دايان يحضر حفلات العطايا الكبرى هذه كان بنحاس سابير وزير المالية الاسرائيلي يذرع الولايات المتحدة عرضا وطولا لعقد اللقاءات مع الاثرياء اليهود ليحفزهم على السخاء في التبرع لصندوق النداء اليهودي الموحد وفي شراء سندات اسرائيل . ويشارك جميع الزعماء والقادة الاسرائيليين في نشاطات جمع التبرعات من هذا النوع بمن فيهم رئيسة الوزراء فولدا مائير نفسها . ويتدفق المسؤولون الاسرائيليون بصورة متواصلة على الولايات المتحدة لهذه الغاية ، وفي كثير من الاحيان يوفق المسؤول الاسرائيلي الزائر بين مهمة جمع التبرعات والقيام بالمهام الحكومية الرسمية كما فعل كل من دايان وسابير في زيارتهما المذكورة .

وقد شرح « زكرمان » في حديثه الى المجموعة التي تتستر وراءها عمليات جمع التبرعات لاسرائيل ، فبين كيف ينبغي ان يقوم المسؤولون الاسرائيليون وزعماء الجاليات اليهودية في اميركا بجولاتهم على الافراد اليهود ، لا سيما الاثرياء منهم ، لحفزهم على التبرع بسخاء اعدادا لحفلات عشاء العطايا

الكبرى ، فقال : « من المعروف ، مثلا ، أنه يجب أن لا يذهب شخص بمفرده الى أحد الاثرياء « لتطبيقه » لتقديم تبرع سخي ، اذ ليس من العسير أن يقال « لا » لشخص بمفرده ، لا سيما اذا كان صديقا أو جارا . ولكن عندما يذهب لزيارته شخصان او اكثر ، فعندئذ لا يغدو الامر مسألة يهودي فرد يطلب من يهودي اخر منحة او تبرعا ، بل ان المجتمع اليهودي بأسره يطلب منه التبرع » . وأضاف زكرمان قائلا : « لا تغفل عن استخدام بعض الزعماء من مدن اخرى ، فان هذا الاسلوب مجد كثيرا » ، « وكذلك من المجدي جدا في هذا الصدد استخدام جباة للتبرعات من الخارج ... مواطنين اسرائيليين مثلا او يهود روس او يهود عراقيين . فعندما يطرق الباب زعيم قومي اسرائيلي مثلا وبصحبته زعيم محلي ، فمعنى ذلك أن اليهودية العالمية بأسرها تتوجه الى ذلك الشخص وتدعوه للتبرع ، وبالتالي فلا بد أن تتناسب قيمة التبرع مع هذا المعنى الكبير للزيارة. ان هذا ليس مجرد نظريات ، بل هو حقائق ثابتة. ومن جهة اخرى ، من السخف ان تطلب من انسان ان يتبرع بمليون دولار وهو لا يقدر على التبرع باكثر من نصف هذا المبلغ ، وكذلك ، لا يقل عن هذا سخفا ان تطلب من شخص ان يتبرع بما هو أقل من طاقته وقدرته » . « يوجد في كل مدينة رجال كانوا دائما السباقين في تبرعاتهم وفي عملهم، ولكنهم ، وهذه نقطة جوهرية ، لا يتبرعون بقدر طاقتهم . فعلينا ان نرى مدى امكانيتهم ، ثم نطلب منهم ، دون خجل ، ألا يتبرعوا بما هو دون ذلك. فعندما نكرم رجلا ونضعه في موضع الزعامة ، فان عليه أن يضطلع بالاعباء والالتزامات التي تتطلبها هذه المكانة » .

ويصف زكرمان ما يدعى « بعملية الاختراق » التي يتولى ادارتها الدكتور أريه نيشر ، فيقول : « هنالك أفراد [يهود] في كل مجتمع يجمعون ثروات طائلة من المتاجرة بالسيارات المستعملة مثلا، ولكنهم لا يؤدون أية خدمة للمجتمع اليهودي ، وأحد أسباب ذلك أن ثرواتهم غير منظورة . فمهمة فريق [المخبرين] الذين يقودهم الدكتور نيشر هي أن يتحروا عن امثال هؤلاء الافراد ويبحثوا عنهم بمراجعة السجلات العامة وتمحيصها . وعندما يعثرون على واحد من أصحاب الثروات المخفية يطالبونه بدفع الاتاوة المقررة ، ولكنهم يحتاجون لاداء هذه المهمة الى مساعدتكم وتعاونكم » .

ويقوم النداء اليهودي الموحد بنشاطه بين عموم الجماعات من مختلف المستويات . ففي بعض حفلات العشاء التي ينظمها تتدنى قيمة « البطاقة ــ التبرع » الى حد ٣٥ دولارا عن شخصين . وبطبيعة الحال تتوافق أهمية خطيب الحفل مع قيمة ما يتوقع جمعه خلاله من تبرعات . ويضع النداء اليهودي الموحد تحت تصرف المتبرعين دليلا لحسم الضرائب يبين للمتبرع الكلفة الحقيقية للمبلغ الذي يتبرع به لان التبرعات الى النداء اليهودي الموحد معفاة من الضرائب لان [القانون الامريكي] يعتبرها تبرعات لاغراض انسانية ، فهي لا تذهب الى حكومة اسرائيل مباشرة ، اذ يحولها الصندوق الاسرائيلي الموحد الى الوكالة اليهودية التي تعتبر مؤسسة غير حكومية ، ومن ثم تقوم الوكالة اليهودية بانفاقها في اسرائيل .

ومن الوسائل التي يستخدمها النداء اليهودي الموحد في جمع الاموال هي تنظيم جولات سياحية الى اسرائيل غالبا ما تشتمل على لقاءات مع المسؤولين الاسرائيليين اذا كان المشتركون في الجولة من اصحاب التبرعات المحترمة . وكثيرا ما يزورون في هذه الجولات مرتفعات الجولان ، والحائط الغربي [المبكى] وموقع « قلعة مسادا »، ويلتقون بالوزراء والمسؤولين الاسرائيليين الذين يطلعونهم على الاوضاع ، وكثيرا ما يقابلون أيضا رئيسة الوزراء غولدا مائير . وقبل رجوع هؤلاء الى بلادهم غالبا ما يدعون الى تقديم تبرعاتهم السخية .

ورغم ان النداء اليهودي الموحد يجمع التبرعات من جميع الاوساط والمستويات وأيا كانت قيمة المبالغ المتبرع بها ، فان شطرا كبيرا من الاموال المجموعة هي من التبرعات الكبيرة التي تبلغ عشرة الاف دولار او يزيد . وهذا من الاسباب الرئيسية في أن نفقات عمليات النداء اليهودي الموحد هي دون ٤٪ من قيمة الاموال التي يجمعها . ومن جهة أخرى ، ان سندات دولة اسرائيل توفر لاسرائيل رأسمال بكلفة اجمالية تبلغ حوالي ٦٪ ، وهي أرخص من الاقتراض من اي سوق مالي اخر . وتعتبر سندات اسرائيل بمثابة استثمار يخضع ربحه للضريبة وهذا هو وجه الاختلاف الوحيد بينها وبين التبرعات للنداء اليهودي الموحد التي تعتبر منحا غير خاضعة للضريبة .

وقد جعلت منظمة سندات اسرائيل هدفها للعام ١٩٧٢ شأنها شأن النداء اليهودي الموحد جمع مبلغ ٤٥٠ مليون دولار اي بزيادة مئتي مليون دولار عما بيع من هذه السندات في العام ١٩٧١ . ويقول « ابراهام فينبرغ » رئيس مجلس ادارة سندات اسرائيل ان هنالك سوقا واسعة لبيع السندات لم تستغل بعد ، وهي لدى اصحاب المداخيل المتوسطة . فمن الشائع ان تشتري عائلة من ذوي الدخل المنخفض سندات قيمتها ١٠٠ دولار ، بينما اقبال ذوي المداخيل التي تتراوح بين ٢٠٠٠٠ و ٢٥٠٠٠ دولار على شراء سندات تتراوح قيمتها بين ٥٠٠ الى ١٠٠٠ دولار هو اقل من ذلك .

وتبذل كل من منظمة سندات اسرائيل والنداء اليهودي الموحد قصارى جهدهما لجمع أكبر قدر من الاموال تستطيعان جمعه من اليهود الامريكيين، ولكن كليهما ملزمتان أن تضعا أهداف خططهما السنوية ، وفق احتياجات اسرائيل . وترصد الاموال التي يتم جمعها من بيع سندات اسرائيل لميزانية الانماء في دولة اسرائيل . ففي العام الماضي شكلت قيمة المبيعات من سندات اسرائيل حوالي ثلث ميزانية الانماء في اسرائيل والتي اجملت معها مخصصات قيمتها حوالي ٢٥٠ مليون دولار لتسديد قروض الديون ودفع فوائدها . أما باقي ميزانية الانماء فاستثمرت في مشاريع الاسكان والطرق والخدمات الهاتفية واغراض الصناعة . ويرى « ليو برنشتاين » نائب الرئيس التنفيذي لسندات اسرائيل ان منظمة سندات اسرائيل هي بمثابة « جسر يصل بين احتياجات اسرائيل وبين موارد اليهود الامريكيين » . وتبياع سندات اسرائيل، كذلك ، للمصارف ، والنقابات العمالية ومؤسسات التقاعد الخ ...

ومنذ تأسيس منظمة سندات اسرائيل في عام ١٩٥١ جمعت لاسرائيل من الاموال ما مجموعه ١٨٩٠ مليون دولار ، اما النداء اليهودي الموحد فقد جمع منذ تأسيسه في عام ١٩٣٩ ما يزيد على الفي مليون دولار .

ان جمع الاموال والتبرعات ليست هي الوسيلة الوحيدة التي يساعد بها اليهود الامريكيون دولة اسرائيل ، وان كانت اكثرها وضوحا . وقد عرف عن اليهود الامريكيين منذ أمد بعيد شدة نشاطهم السياسي سواء من حيث دعمهم المالي للمرشحين او بمشاركتهم القوية في الانتخابات الاولية منها والعامة ... ويصوت اليهود وفقا لمقتضيات المصلحة اليهودية ، ويدعمون المرشحين الذين يعتقدون بأنهم سيتبنون القضايا اليهودية ويدافعون عنها . كما يبذلون جهدا كبيرا للتأثير على أعضاء مجلس الشيوخ الامريكي ويتمتعون بنفوذ قوي بين صفوفهم ، وغالبا ما يكونون على اتصال مباشر مع البيت الابيض ولهم كلمة مسموعة فيه ، وهذا هو ، بالتأكيد ، ما كان عليه الوضع في عهد الرئيس جونسون ، وان كانت سطوتهم على البيت الابيض في عهد الرئيس نيكسون قد قلت عن ذلك بدرجة ملموسة .

وقد يكون هذا التأثير والنفوذ المباشر الذي يمارسه اليهود الامريكيون على اعضاء الهيئات والمؤسسات التشريعية والتنفيذية هو الوسيلة الوحيدة الفعالة المتوفرة لديهم للافادة منها واستغلالها لا سيما في الامور التي تهم اسرائيل وذلك لكونهم اقلية ضئيلة عدديا . فقد دلت دراسة اجراها « ألبرت هـ. كانترل » ، و « شارلز رول الابن » عنوانها « آمال الشعب الاميركي ومخاوفه » على أنه في حالة حدوث هجوم على اسرائيل تقوم به قوى يدعمها المعسكر الشيوعي فان ١١٪ فقط من الشعب الاميركي تؤيد زج القوات الاميركية في الدفاع عن اسرائيل . في حين ان نسبة هؤلاء في البرازيل هي ١٦٪ ، وفي اليابان ١٧٪ وفي المانيا الغربية ٢٨٪ .

وفي عهد الرئيس جونسون كان باب المكتب البيضاوي في البيت الابيض مفتوحا دائما للزعماء اليهود الامريكيين من امثال « آرثر كريم » ، و« آبي فينبرغ » ، وكلاهما استغلا هذه الحظوة ، في مناسبات عديدة ، لايضاح وجهة نظر اليهود الامريكيين للرئيس . ويبادر أبي فينبرغ ، وهو من أصحاب المصارف في نيويورك وكان على علاقة وطيدة كذلك مع كل من الرئيسين ترومان وكينيدي، فيقول : « ان هذه الصلات تخدم الطرفين ، فنحن بدورنا نساعد الرئيس في ايصال وجهة نظره الى الحكومة الاسرائيلية والى اليهود الامريكيين ، وان كان عرضنا المنسق لاراء الرئيس لا يحظى دائما بالترحاب » .

ان من العسير على المرء ، ان يقيم الدور الذي لعبه هؤلاء الوسطاء ومدى التأثير الذي كان لهم في طبيعة القرارات المتخذة . فمثلا ، ترى ما هو

الدور الذي لعبه أي من هؤلاء الوسطاء سواء كان « آرثر كريم » أو « أبي فينبرغ » في التأثير على الرئيس جونسون في عام ١٩٦٨ ، ليتخذ قرار بيع طائرات الفانتوم الى اسرائيل ؟

ما من أحد بوسعه أن يجزم بدقة في هذا الشأن ، بيد أن الاشخاص الذين استوضحت منهم آراءهم لتحقيق مادة هذا المقال وينوف عددهم على العشرين يجمعون على أمرين : اولهما : ان ما من رئيس امريكي خضع « للاعتبارات اليهودية » في اتخاذ قرار لم يعتبره مستجيبا غاية الاستجابة مع مصالح الولايات المتحدة الامريكية . وثانيهما : ان المعلومات التي يضعها الافراد اليهود والمنظمات اليهودية الضاغطة على الرأي العام تحت انظار الرئيس الامريكي واعضاء مجلس الشيوخ تشكل عنصرا — وأحيانا عنصرا مهما — من العناصر التي تؤثر في بلورة قرارات الرئيس الامريكي لا سيما ما يتعلق منها بشؤون المساعدات الاقتصادية والسياسية لاسرائيل .

وقد دعا « بن واتينبرغ » وهو الذي كان يتولى مهمة كتابة خطابات الرئيس جونسون ويعمل حاليا في مكتب حملة ترشيح السناتور الديموقراطي جاكسون لرئاسة الجمهورية ، دعا نوع التأثير الذي يمارسه اليهود الامريكيون على وجهة السياسة الامريكية بأنه « تكييف » لهذه السياسة [وليس املاء لها] ... وينطبق هذا القول على ساسة الحزب الديموقراطي أكثر من انطباقه على ساسة الحزب الجمهوري لان معظم اليهود يدعمون المرشحين الديموقراطيين ، ويستخلص من هذا ان السنوات التي يعتمد الحكم الامريكي خلالها على سند ودعم نشيطين من اليهود تنطوي ، بطبيعة الحال ، على « تكييف » لتفكير اي سياسي .

يقول معظم الذين يمارسون التأثير على السياسات الامريكية لصالح اسرائيل سواء كان ذلك بصفة شخصية او بصفة رسمية بأنه في حين أن المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة قد تكون على وفاق مع مصالح اسرائيل فان اليهود مضطرون مع ذلك ان يعملوا بنشاط لاجراء الاتصالات اللازمة بالمسؤولين وأن يشرحوا الموقف على مختلف المستويات الضرورية للتغلب على ما يزعمون انه « انحراف » الاختصاصيين « العروبيين » !! في وزارة الخارجية وشركات النفط الامريكية ذات النفوذ الاقتصادي القوي . ويقول « ديفيد غنسبرغ » وهو محام في واشنطن وكان مستشارا سابقا للجنة القومية في الحزب الديموقراطي كما كان القنصل العام لاسرائيل في واشنطن ، بأن « الانحراف القائم في وزارة الخارجية جعل من الطبيعي ان يحول اليهود الامريكيون انظارهم صوب البيت الابيض ليلتمسوا العون منه » . ومضى غنسبرغ قائلا « ان اليهود قد ادركوا فائدة الاتصال بالنواب وبأعضاء مجلس الشيوخ وبكبار المسؤولين الحكوميين » . وخلال ولاية كل من كينيدي وجونسون في البيت الابيض أوكل الى شريك غنسبرغ في مكتب الاستشارات القانونية « مايير فيلدمان» ومن ثم الى « هاري ماكبيرسون » معالجة الشؤون اليهودية وذلك ضمن المسؤوليات التي أنيطت بكل منهما . أما في عهد نيكسون فلا يوجد شخص من هذا القبيل في البيت الابيض . ويعتبر غنسبرغ ان الرئيس نيكسون هو « أشد مناعة وأقل عرضة للتأثير من اي رئيس اخر عرفته خلال عملي لمدة ٣٥ عاما في واشنطن » .

ويبين غنسبرغ ، جزئيا ، دور أولئك الاشخاص الذين يتولون مهمة اجراء الاتصالات المباشرة مع الرئيس الامريكي بأنه الحث على « الاستعجال في النظر بالقضايا المعلقة ، والاستفهام عن دواعي عدم البت بمسائل معينة » ، وقال : « ان أوضح مثال على المساعي التي يقوم بها هؤلاء ، نيابة عن اسرائيل هو الجهود التي بذلت لتحقيق الاستجابة السريعة لطلب طائرات الفانتوم (عام ١٩٦٨) ». أما فينبرغ ، فرغم اعتقاده بأهمية الاتصالات المباشرة مع الرئيس الامريكي ، الا انه يعتقد ان كسب مجلس الشيوخ هو اجدى وانفع لان « لمجلس الشيوخ نفوذا على الرئيس الامريكي وتأثيرا عليه أكثر من الحظوة التي يتمتع بها لديه اثنان من اليهود الامريكيين الذين يصدف أن يكونا على معرفة شخصية به » .

ويتولى مهمة اجراء القسط الاوفر من الاتصالات بأعضاء الكونغرس « آي. ال. كينين » والمؤسسة التي يتولى امرها وهي تدعى « لجنة الشؤون العامة الاسرائيلية الامريكية » وهي منظمة اميركية تتولى الاتصالات [وتقوم بالتطبيقات السياسية] لصالح اسرائيل . وينشر كينين [في واشنطن] كذلك نشرة تدعى « تقرير الشرق الادنى » وهي توزع ٢٧٠٠٠ نسخة . وكينين على اتصال مع جميع المنظمات اليهودية في اميركا كما أنه على

اتصال مع السفارة الاسرائيلية في واشنطن . وهو يبين المهمة التي يقوم بها على النحو التالي : « اننا ندعو الكونغرس لان يطلب من الرئيس [الاميركي] ان يعارض السياسات التي تعتبرها ضارة ، وأن يدعم السياسات التي نراها مفيدة . كما اننا نسعى لاقرار برامج وبنود معينة في المؤتمرات السياسية » . ويبين « ماكبيرسون » دور « كينين » بأنه تأليف الاراء وتوليدها حول المواقف المطروحة ، وقد ينتهي المطاف بوجهات النظر والمواقف التي يؤلفها « كينين » الى ان تصبح هي آراء الجالية اليهودية ومواقفها بأكملها. ويعمد أعضاء مجلس الشيوخ والنواب الى استشارة كينين حول الامور المتعلقة باسرائيل ، كما أنه يعد او يساهم في اعداد التقارير عن اخر تطورات الموقف . ومن العسير هنا كذلك ، تقدير مدى التأثير الذي يمارسه « كينين » وغيره ممن يقومون بمهمة الاتصالات بالمسؤولين عن رسم السياسة الامريكية ، غير أن ، من الثابت مثلا ، أن « كينين » لعب دورا ، وراء الكواليس ، في اعداد الزيارة التي قام بها ١٢ من أعضاء الكونغرس الى وزير الخارجية المستر وليم روجرز ، والتي نجم عنها تقديم عريضة وقعها ٧٨ من أعضاء الكونغرس [المائة] تحث الرئيس الامريكي على تزويد اسرائيل بالمزيد من طائرات الفانتوم .

فالى اي مدى ساهمت هذه المساعي والاتصالات والضغوط في اقرار القرار النهائي [الايجابي] ؟ ما من احد بوسعه ان يجزم القول في هذا الشأن ، بيد ان هذه المساعي كانت لا ريب احد العناصر التي بلورت القرار النهائي ، وربما كانت عنصرا مهما في ذلك .

ما هو مدى اهمية تصويت اليهود بكثافة في الولايات ذات الاصوات الانتخابية الكثيرة في الانتخابات الاولية لاختيار مرشح الحزب الديموقراطي للرئاسة الامريكية ؟ وما هو مقدار اهمية الاموال اليهودية التي تنفق على العديد من الزعماء السياسيين الامريكيين المؤهلين للترشيح للرئاسة الامريكية لتغطية مصاريف تركيز مواقع زعامتهم السياسية طوال السنوات التي لا تجري فيها انتخابات الرئاسة ؟ لا احد يعلم مدى هذه الاهمية ، بيد أن لذلك ، بكل تأكيد ، تأثيرا سياسيا ليس بقليل .

ان اليهود يشكلون ٣٪ فقط من سكان الولايات المتحدة ، ولكن من الجلي انهم يدركون ادراكا جيدا أساليب ممارسة النفوذ السياسي ومبادئه .

التقرير الثالث

ملاحظات على العلاقات الاميركية الاسرائيليـة

خالد القشطيني

ما كادت حرب ١٩٦٧ تنتهي حتى اتجهت الانظار الى واشنطن ، واتجهت من العواصم العربية والغربية بل ومن موسكو نفسها . واستعادت الاذهان ذكريات ١٩٥٦ وضغط ايزنهاور على اسرائيل . ولكن التاريخ لم يعد نفسه ، فذهب البعض الى ان امريكا « زعلانة » على العرب ، ولا بد من ترضيتها بخطوات تقربهم ثانية الى العالم الرأسمالي . وبالفعل قطعت بعض الحكومات مثل هذه الخطوات بالتشديد على اليسار وتقليص التأميم والبرمجة الاشتراكية وتذويب النضال ضد الاستعمار . ولكن التاريخ ابى ان يعيد نفسه .

واشار الرئيس السادات في خطابه في اوائل ١٩٧٢ الى تزمت امريكا في هذا الشأن فذكر انها لم تمتنع فقط عن بذل جهودها لحل المشكلة سلميا ، بل قامت بالفعل ببذل هذه الجهود لمنع حلها واحبطت حتى مساعي الدول الافريقية في هذا الميدان . وكشف السادات في مقابلته مع مراسل نيوزويك عن مدى التنازلات التي قدمتها مصر ارضاء لامريكا ونشير بالقارىء الى قرائتها(١). ولعل في رد روجرز على الرئيس المصري ايجازا بليغا عندما علق قائلا « لقد بذلتم قصاراكم » . ومع ذلك فان وعود روجرز لم تتحقق وادركت القاهرة استحالة احلامها . فما سر هذا التزمت ؟ اعطانا عزيز صدقي جوابا على هذا السؤال في خطابه في ١٩٧٢/١/٢٣ عندما قال ان امريكا تساهم مع اسرائيل في مخطط يرمي مبدئيا الى ضرب النظام الاشتراكي والاماني الواسعة التي جاءت بها الثورة الى الجماهير والانجازات العظيمة التي حققتها الاشتراكية . هذا تحليل صحيح ، ولكن العرب ابدوا بالفعل ميلا الى التنكر للاشتراكية بل وضرب منجزاتها بعد فشل موسكو في لعب دور حاسم في حل المشكلة . وكان بامكان واشنطن ان تستعيد اكثر معاقلها في العالم العربي لو ضغطت بالفعل على اسرائيل واخرجتها من المناطق المحتلة.

وينسب الاخرون الموقف الامريكي الى التأثير الصهيوني على السياسة الامريكية . وقد لمح فلبرايت الى هذا عندما ساله مايكل ادمز عن مدى استعداد بلاده للتأثير على اسرائيل فاجاب السناتور بانه يشك في قابليتها ويرى ان اسرائيل هي التي تستطيع التأثير على سياسة امريكا(٢). سيطرة اليهود على وسائل الاعلام ونفوذهم المالي واصواتهم التي تقرر مصير انتخابات ولاية نيويورك ، كلها امور حيوية سبقنا في تفصيلها باحثون اخرون . وقد اكتشف ساسة الغرب ان هذا النفوذ قادر على تحطيم اي سياسي يقف امامه ، كما حدث لبيفن وفورستر وجورج براون وديغول . وتعاني السياسة الامريكية الآن أعنف ازمة بسبب فيتنام وانهيار الدولار ، وما من رئيس يرغب في اضافة تعقيد اخر بتحدي القوة الصهيونية .

ويتعاظم خطر هذا العامل عندما ندرك ان الموقف كان اسهل بكثير لايزنهاور مما هو الان لنكسن . فقد كان احتياطي اسرائيل من الدولار عقب حرب ١٩٥٦ نحو ٥٠ مليون دولار مقابل عجز تجاري بمقدار ٣٠٠ م/د مما مكن ايزنهاور من لي يد بن غوريون بمجرد وقف المساعدات الامريكية . اما حالة اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ فتتلخص بنحو ٧٣٠ م/د من الاحتياطي مقابل عجز تجاري بمقدار ٤٥٠ م/د(٣). وارتفع الاحتياطي الى ٧٤٦ م/د في مايس ١٩٦٨ . وعليه فبوسع اسرائيل الان ان تتحمل الضغوط المالية الى اشهر تقتات خلالها من سمنتها وتنتظر الانتخابات الجديدة في امريكا فتقوم هي بلي ايدي المرشحين .

ويضيف المراقبون العرب الى تسلط النفوذ الصهيوني بالاشارة الى التوجيه الرسمي للسياسة الامريكية . لقد وقعت ازمة ١٩٦٧ وامريكا يمثلها في الامم المتحدة غولدبرغ ، اليهودي المؤيد للصهيونية . وعين نكسن كمستشار له كيسنغر ، اليهودي اللاجىء من المانيا النازية . والمعروف ان سياسة كيسنغر نحو الشرق الاوسط تقوم على تقاليد فرق تسد وتقوية اسرائيل . وكيسنغر نفسه غير خبير في شؤون المنطقة فعين كمستشار له الاستاذ سفران ، وهو يهودي من مصر هاجر الى اسرائيل قبل ان يستقر في امريكا . اما آراء

سنوات فتقوم على عقد صلح كامل بين العرب واسرائيل تفتح فيه البلدان العربية ابوابها للخبرة والتجارة الاسرائيلية ثم تنسحب اسرائيل من المناطق المحتلة بعد ١٥ عاما . والى جانب هؤلاء يتربع الخبراء الصهاينة على كراسي معظم المؤسسات الجامعية والبحثية المسؤولة عن بلورة السياسة الامريكية نحو الشرق الاوسط .

ولكن هذا العامل ايضا ، عامل النفوذ الصهيوني، هو الاخر عامل عرضي وغير جوهري . فالى جانب الاراء الصهيونية توجد ايضا آراء معاكسة تقدم الى الرئيس الامريكي . ان من المغالاة بل والبرانويا الاعتقاد بأن اليهود هم الذين يسيرون البيت الابيض باستمرار . البيت الابيض هو نقطة بوليس للرأسمالية الامريكية ، وبالرغم من كل ثراء اليهود فان الرأسمال اليهودي لا يكون غير جزء صغير من مصالح الولايات المتحدة . وقد اظهرت الانظمة الرأسمالية استعدادها للانقضاض على الجناح اليهودي منها ، حيثما اقتضت ضروراتها ، كما حدث في المانيا بعد العشرينات ، او التنكر لضغوطه كما حدث في امريكا زمن ايزنهاور وبريطانيا زمن اتلي وفرنسا زمن ديغول .

والواقع ان الرئيس نيكسون عالج شخصيا موضوع التأثير اليهودي فاشار بحق الى انه غير مدين لليهود بأي شيء وذلك لان اليهود الامريكان لا يعطون اصواتهم تقليديا للحزب الجمهوري. واشير على نيكسون بحذف الطائفة اليهودية من حساباته الانتخابية على اعتبارها قضية خاسرة . ومع ذلك فقد ظهر ان نيكسون أعطى اسرائيل من المساعدات اكثر من اي رئيس سابق . وعلق هو على الموقف قائلا « انني لست مدينا للطائفة اليهودية الامريكية بأي شيء ، ولكنني لن ادع ذلك يؤثر على تأييدي لاسرائيل »(٤).

اذن فلا بد لنا ان نفتش عن سر هذا التأييد في ميدان غير ميدان التأثير الصهيوني على الغرب ، مما لمح اليه فلبرايت ، او الرغبة في تصفية الاشتراكية العربية مما ذكره صدقي . ان مواكبة السياسة الامريكية للاماني الصهيونية هي مظهر للموقف الامبريالي العالمي وليست سببا له . ان هناك تطابقا بين المصالح الامريكية والمصالح الاسرائيلية تطابقا ادى الى هذا التزمت الدبلوماسي ورضوخ البيت الابيض للضغوط الصهيونية واعتماده على مستشارين يهود وتطابقا ينفي اي احتمال للعب واشنطن دورا حاسما في جانب العرب . ولا بد لنا من دراسة الاركان التي يقوم عليها هذا التطابق .

١ ــ **الحصان الخاسر** : في مارس ١٩٤٧ دعت بريطانيا رسميا الولايات المتحدة لتسلم جزء من مسؤولياتها في الشرق الاوسط . وبدأت امريكا على ضوء هذا الانفتاح بالتخطيط للسيطرة على المنطقة . وكان مايلز كوبلند ، الدبلوماسي الامريكي وممثل الاستخبارات الامريكية في المنطقة، ممن صحبوا قصة هذا التخطيط منذ بدايتها وسرد هذه القصة في كتابه المعروف « لعبة الامم » . ويقول كوبلند ان التخطيط قام على اساس تقوية الانظمة وفتح المجال للاستثمارات الامريكية وتحاشي الاحتكاك مع السوفييت(٥). وانطوى عنصر تقوية الانظمة على الاطاحة بالانظمة المهترية واستبدالها بانظمة جمهورية اكثر جنوحا الى الدمقراطية واعظم كفاءة وتقدمية ، ومن ثم اكثر مناسبة للاستعمار الجديد القائم على تصدير الرساميل والخبرة . وبعد سلسلة من الانقلابات يروي كوبلند تفاصيلها ، استطاعت امريكا ان تقيم رؤوس جسور في معظم العواصم العربية . ويؤكد المؤلف ان واشنطن كانت تعتبر مصر المفتاح للتوغل في الشرق الاوسط وافريقيا ، وهو طبعا تفكير استراتيجي سليم . وابتسمت واشنطن ابتسامة الرضى عندما توهمت ان المفتاح قد اصبح في جيبها . بيد ان احلامها تحولت سراعا الى ركام. فرفضت مصر منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط وحلف بغداد . وفي ١٩٥٥ عقد ناصر صفقة الاسلحة الشكوسلوفاكية وبدأ بالتقرب من العالم الاشتراكي في ذلك الطريق الطويل الذي قطع مصر عن العالم الرأسمالي ونشر بذور الثورة والتأميم والتنظيم الاشتراكي في كل المنطقة . ورأى البعض مثل بول جونسن ان تسلح مصر وضع اعباء جديدة على تجارة القطن وضغطا لزيادة سعره . وبدأ الاتحاد السوفياتي بشراء قسم منه ، فأثار كل ذلك حنيظة مستوردي القطن الامريكان فطالبوا دلس بمعاقبة ناصر باعادة النظر في القرض لسد اسوان(٦). وهكذا بدأت لعبة الامم بين القاهرة وواشنطن ، فجاءت الخطوة التالية من مصر بتأميم القناة . ونشط ناصر ضمن العالم العربي بالتحريض ضد امريكا فبادرت السعودية للمطالبة بمزيد من الايجار عن القواعد الامريكية . ثم مد ذراعه الى العالم الخارجي فتآزر مع تيتو ونهرو

في خلق كتلة الحياد الايجابي التي وقفت في وجه المخططات الامريكية لاحتضان العالم الثالث .

واستطاعت امريكا ان تصلح الموقف بعد حرب ١٩٥٦ واعتقدت انها بتأييدها لمصر ستستطيع ان تصلح ما اتلفته الاحداث . ولكن العرب رفضوا الاعتراف بفضلها واعتبروا خروشوف بطل القصة. وعليه فلم يدم الوئام الجديد غير اسابيع قليلة . وما ان اعلن ايزنهاور في ١٩٥٧/١/٥ خطتـه الجديدة المعروفة بمبدأ ايزنهاور لحماية الشرق الاوسط من العدوان والخطـر الشيوعي حتـى سارعت مصر لمهاجمته . واضطرت امريكا اخيرا الى تحويل نظرها من القاهرة الى بغداد . ولكنها ما كادت تقيم حلف بغداد على اقدامه حتى جاء قاسم فنسفه . ودخلت العلاقات دورة مفرغة كلما حاولت فيها امريكا التقرب من العرب كلما ازداد العرب هيجانا ضدها . وادت صدمة انهيار الوحدة السورية المصرية الى اعتقاد ناصر بأن الانظمة الثورية لا يمكن ان تسلم مـن كيد الرأسمالية والرجعية حتى تجهز عليهما فانهمك في برامج لا راسمالية ارعبت المولين الامريكان .

واوفد جون كندي اخيرا الاستاذ ميسن الى مصر لدراسة الوضع ، وعاد ميسن بتقرير برر فيـه تصرفات ناصر بكونهـا مفيـدة ومهمة لمصر ولكنهـا مضـرة بمصـالح امريكا . ورأى ان الحـلول الوحيـدة هي اما تغييـر هـذه المصـالح الامريكيـة او الاطـاحـة بنـاصر(٧) : تغييـر المصـالح الامريكية يقتضي نقض أسس النظـام الراسمالي الغربي ، وهو خارج الصدد . الاطاحة بالانظمة الناصرية في العالم العربي تقتضي سلسلة من الانقلابات لم تعد بتلك السهولة . ويؤكد كوبلند ان امريكا كانت في ذلك الحين قد صرفت نظرها عن سياسة الانقلابات لفشلها . فكلما خططت لانقلاب وانفقت عليه الملايين ونجحت فيه جاءها انقلاب معاكس ارجعها الى البداية . ولعل تاريخها في سوريا يعطينا ما يؤيد ادعاء كوبلند . وبعد كلمات ناصر لامريكا بأن تذهب وتشرب ماء البحر ، لم يعد امام واشنطن غير ان تغسل يديها من العرب وتفتش عن زبائن جدد .

كان من اسباب اهتمام امـريكا بالعالم العربي خوفها من الخطر الشيوعي في عهد مكارثي ودلس. وقد خفت حدة هذا الخوف مؤخرا نتيجة للتطورات المعروفة في العلاقات بين موسكو وبكين وواشنطن.

وتلاشى هذا الخوف بالنسبة للشرق الاوسط على الخصوص بعد انقلاب عبد الكريم قاسم. فالمعروف ان امريكا شعرت بقلق شديد ازاء نظام قاسم ويساريته ، ولكن قاسم سرعان ما قلب ظهر المجن للشيوعيين وراح يوالي سياسة مستقلة تماما عن موسكو من ناحية وامتنع عن تاميم الشركات او التعرض للمصالح الاجنبية مـن ناحية اخرى . ويجزم التقرير الخاص الذي نشره معهد المشاريع الامريكية ان هذه الحقائق التي تمخضت عـن انقلاب ١٤ تمـوز كشفت لامريكا لاول مرة ان الشيوعية والناصرية والقوميـة العربية اشيـاء مختلفة وان البلاد العربية ليست تربة صالحـة للشيوعية او ان العرب مطايا طيعة لموسكو(٨). وكان لهذا الاكتشاف اثر بليغ بالنسبة للدبلوماسية الامريكية ازاء الشرق الاوسط . لقد اصبح من السهل للبنتاغـون والبيت الابيض ان يديـرا ظهريهما للعرب ويناما قريري العين . لا خوف على الشرق الاوسط . وبعين الوقت زال ايضا كل خوف من الوول ستريت عندما اتضح بعد حرب ١٩٦٧ ان العرب غير قادرين على تأميم المصالح البترولية الامريكية او تعطيلها او مقاطعة امريكا جديا . واتضح لامريكا اكثر من ذلك . اتضح ان خراب بيت العرب وتمرغهم في الوحل انفع للغرب. فهزيمتهم امام اسرائيل وحاجتهم الـى السلاح وفقدانهم عوائد قناة السويس يجعلهم في أمس الحاجة الى العملة الصعبة ويزيد من اعتمادهم على شركات النفط والبيع للغرب . ولم تحرص الحكومات على سلامـة الانابيب وتدفق الزيت حرصها في الاونة الاخيرة. ولاول مرة بعد سنوات، راحت مصر تطرق ابواب الاسواق الغربية تعرض قطنها بسخاء فبينما بلغ صادرها من القطن الى الكتلة الشيوعية في ١٩٦٥/١٩٦٤ نحو ٦٦٩،٠٠٠ بالة ، اضطرت الى تخفيض ذلك في ١٩٦٨/١٩٦٧ الى ٣٦٠،٠٠٠ بالة لتبيع الباقي البالغ ٤٤٠،٠٠٠ بالة الى العالم الرأسمالي بحثـا عن العملـة الصعبـة . وانخفضت نسبة ما صدرته الى الكتلة الشيوعية في ١٩٦٧ الى اقل معدل (٤٥٪) سجل منذ عام ١٩٥٦(٩).

لقد رفض العرب كل حل امريكي لمشكلة فلسطين او اسكان اللاجئين ، وكل ترتيب للمنطقة ، منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط ، مبدأ ايزنهـاور ، حلف بغداد ، مشروع جونستن لنهر الاردن الخ. وبدلا من الترحيب بالشركات الاجنبية ، راح العرب

يؤممون شركاتهم نفسها ويصفون المؤسسات الاجنبية . الخبراء والسياح الامريكان اصبحوا جواسيس في عين الجميع . وبدلا من ان تصبح مصر المفتاح الامريكي لافريقيا وآسيا اصبحت لعنة تحيق به اينما حل او ارتحل . « امريكا عدوة الشعوب » هي الكلمة التي راحت اذاعة القاهرة ترددها في عشرات اللغات . العالم العربي حصان امريكا الخاسر وآن لها ان تبحث عن حصان آخر.

٢ ـ اسرائيل والاستعمار بالعمولة : العوامل التي تجمع بين اسرائيل وامريكا لا تحتاج الى شرح . كلتاهما دولتان عرقيتان استعماريتان . اسرائيل لا تحمل حقدا ضد امريكا كما يحمل العرب نتيجة تقسيم فلسطين . وكان من المفروض لواشنطن ان تجد فيها طريقها الى العالم الثالث ولكنها نظرت اليها فوجدتها بلدا صغيرا محدود السكان والموارد ومحاصرا من كل جانب . غير انها استطاعت عبر السنين التي كان البيت الابيض خلالها يذوق المر في العالم العربي ان توسع رقعتها وتزيد قابلياتها نفوسا وتجارة وصناعة وتقيم لنفسها قواعد في افريقيا وآسيا وتضع في الاخير العالم العربي نفسه تحت رحمتها . وتلونت استنتاجات الامريكيين هنا بالافكار التقليدية عن اليهود كتجار حاذقين . وكان من اعظم المزايا المغرية في اسرائيل الاستقرار ، ذلك العنصر الحيوي للاستثمارات الرأسمالية . وتجسمت هذه الميزة بصورة خاصة بتباينها مع ضدها في العالم العربي . واسرائيل هي الدولة الوحيدة التي ما زال نفس الحزب يحكمها منذ تأسيسها .

وجاءت حرب ١٩٦٧ لتزيل اي شك في قابلية اسرائيل على الاضطلاع بمهمة العمالة على نطاق عالمي . وما استقر غبار الحرب حتى انهالت الرساميل الامريكية عليها . فبينما كان مجموع راس المال الخاص المنقول للتوظيف فيها طوال عام ١٩٦٦ نحو ٤٠ م/د وصل هذا المجموع ٩٣ م/د خلال الستة اشهر الاولى فقط من ١٩٦٨(١٠). وارتفع مجموع المبالغ المحولة اليها من ٢٩٢ م/د في ١٩٦٦ الى ٥٢٣ م/د في ١٩٦٧ والى ٨٠٠م/د في ١٩٧٠ والى ١٦٠٠ م/د في ١٩٧١(١١). وبفضل هذه الرساميل الاجنبية استطاعت اسرائيل ان تزيد صادراتها بنسبة ٢٦ ضعفا من ٢٨ م/د في ١٩٤٩ الى ٧٢٨ م/د في ١٩٦٩ .

لقد انهت امريكا المدرسة الاوربية للاستعمار القديم واحلت محلها ما يعرف بالاستعمار الجديد القائم على الحكم عن طريق حكومات عميلة دعاماتها حراب الاستعمار ومهمتها حراسة رساميله الموظفة ورسالتها القومية هي الارتقاء بجماهير الشعب الى المستوى الذي يجعلهم احسن المستهلكين للبضائع الامبريالية وأرخص العاملين في المؤسسات الصناعية للغرب . وتطور الاستعمار الجديد على يد امريكا من الاستغلال عبر حكومة عميلة الى الاستغلال الى عبر دولة عميلة .

وبفضل هذا الاسلوب الجديد اصبح من السهل لامريكا ان تتسرب الى كيان الدول المعادية للاستعمار كرامبيا بثياب الدولة الصديقة الاسيوية الناشئة ـ اسرائيل . وحيث لم يكن من المنطق او الاصول السماح للخبراء العسكريين الامريكان العمل بجانب الخبراء السوفييت ، جيء بالمدربين الاسرائيليين ليأخذوا مكانهم « حرمة للحياد » كما فعلت بالضبط حكومة اوبوتــه في يوغنده(١٢). وقامت اثيوبيا بتوازن من نوع آخر فاستخدمت الاسرائيليين للعمل بجانب الامريكان في تدريب جيشها دفعا لتهمة التحول الى قاعدة امريكية . وحاول موبوتو درء التهمة نفسها فانتدب الاسرائيليين لتدريب كتائب المظليين(١٣). وعملت البعثات العسكرية الاسرائيلية في كثير من الدول الافريقية بما فيها اثيوبيا والكونغو وسيراليون وغانا ويوغنده بالاضافة الى ايران وماليزيا في آسيا . ومع الخبراء تذهب طبعا البضائع العسكرية الاسرائيلية الى هذه الدول .

ويتضح مدى تصاعد التوغل التجاري الاسرائيلي في افروآسيا من النسب المئوية في الجدول الآتي(١٤):

سنة	الى بريطانيا	الى امريكا وكندا	الى آسيا وافريقيا
١٩٤٩	٥٣٫٧	١٧٫٠	١٫٤
١٩٦٧	١٣٫٠	١٧٫٨	١٧٫٣

وقامت اسرائيل بعشرات المشاريع الضخمة كالشركة الملاحية مع لايبيريا ومصنع السيارات في تركيا وشبكة مياه طهران ومطار اكرا الدولي وبرلمان سيراليون ومشروع الفضلات لاصفهان وعدة مطارات في اثيوبيا والمشروع السياحي الضخم للريفيرا الافريقية في ساحل العاج ـ وهو

من تصميم المهندس الامريكي هاينز فنشسل — بالاضافة الى عشرات المشاريع الزراعية والصناعية والانشائية والتعدينية . ويعطي النشاط الاسرائيلي في ايران صورة عن التوسع الضخم بعد حرب ١٩٦٧ والذي تتوج بخط الانابيب المشترك بين ايلات والبحر المتوسط بقيمة ١١٢ م/د .

ان من الصعب جدا التحقق بالتفصيل عن مدى حظ الرساميل الامريكية في هذا النشاط الاخطبوطي بالنظر للابواب المتعددة التي ترد فيها الاموال الامريكية والاسماء التي تجري تحتها النشاطات الاسرائيلية . فمثلا ان معظم فعاليات اسرائيل في غانا جرت عن طريق شركة غانا الاهلية للبناء وترتبط هذه بشركة سوليل بونيه ، وهذه الشركة هي ملك الهستدروت ، والهستدروت غارق بالقروض والمنح الامريكية . وتحيط تل ابيب عملياتها بكتمان شديد . ومن السخف ان نتصور اسرائيل الغارقة بالديون والقائمة على التبرعات والمعونات تتقدم هي بالتبرعات الى الدول الاخرى ، واحيانا الى دول اغنى منها . انها تقوم بهذه العمليات نيابة عن الامبريالية الامريكية التي غذتها بما تجاوز البليون دولار من المعونات الرسمية و٢٫٥ بليون دولار من الاموال الخاصة حتى ١٩٦٨ . وتقدر المصادر ان نصف البرامج الاقتصادية الاسرائيلية ممول من الخارج . ويؤكد الاستاذ سلتربرغ الخبير الامريكي بالشؤون الافريقية الاسرائيلية ان محاولة الحصول على صورة دقيقة لحظ الراسمال الامريكي من هذه البرامج مضيعة للوقت بسبب السرية التي تحيطها(١٥) .

ومع ذلك فان تدفقا امريكيا نحو الاستثمار عن طريق اسرائيل اصبح واضحا بعد ١٩٦٧ . وتجلى هذا بالجولات المختلفة التي قام بها رجال المال الاسرائيليون طلبا للقروض والرساميل الامريكية ، والتسهيلات الجديدة التي قدمتها الحكومة للممولين الاجانب . وقالت التايمس اللندنية ان حرب ١٩٦٧ قد رفعت مجموع الرساميل الامريكية الواردة للتوظيف في اسرائيل الى حد ٧٨٠ م/د في ١٩٦٨ ، اي بزيادة ٣٠٠ م/د عن مجموع السنة السالفة(١٦) . ووصل النشاط ذروته في عقد مؤتمر المليونيرية في القدس وكان من نتائج المؤتمر تأسيس شركة للاستثمار برأسمال قدره مائة مليون دولار بالاضافة الى شركات تأمينية ومالية اخرى . وانبثقت عن المؤتمر اللجنة الامريكية التي انتجت ٦٣ مشروعا في اسرائيل بقيمة ٧١ م/د حتى ١٩٦٩ . هذا بالاضافة الى ١٩ مشروعا آخر بقيمة ٥٠ م/د في طريق الانجاز . وتتعلق معظم هذه المشاريع بانتاج الكيمياويات والمعادن والصناعات العلمية وتساهم فيها ١٦ شركة امريكية كبيرة منها شركة امفينول لوحدات الطائرات وشركة منتافوكس للالكترونيات وشركة ايروجت جنرال كوربوريشن . ومن المؤتمر ايضا انبثقت لجنة كاليفورنيا للتجارة والتكنولوجيا لتجنيد العلماء والخبراء الامريكان لهذه الصناعات الاسرائيلية الجديدة(١٧) .

والتفت الممولون الى الامكانيات التي فتحتها اسرائيل باحتلالها المناطق العربية واستغلال الايدي العاملة الفلسطينية الرخيصة . وبلغ عدد العمال الذين سخرتهم اسرائيل من المناطق المحتلة ٤٠٫٠٠٠ عامل يتقاضون ٤٫٢٠ ليرة يوميا مقابل اجرة العامل اليهودي البالغة ٢٠ ليرة(١٨) . وترددت في اسرائيل النكتة القائلة بأن جميع اليهود سيتركون اسرائيل عن قريب لان الامريكان هم الذين يعطون راس المال والعرب هم الذين يقومون بالعمل . وتحت عنوان « غزة : خزان للطاقة العاملة الرخيصة لاسرائيل » كتبت صحيفة معاريف ان اجرة عمال غزة على درجة من الانخفاض تضطرهم الى استخدام ابنائهم ممن دون العاشرة سنا . واضافت قائلة ان خبراء وول ستريت الامريكان قد استحسنوا الموقف الاقتصادي في غزة(١٩) .

والى هذا المسرح تدفقت الرساميل الامريكية فاقامت عدة مشاريع في اسرائيل والمناطق المحتلة بما فيها القدس والجولان . ومن ذلك هلتن القدس الذي كلف ٥٠ م/ليرة اسرائيلية وفندق المستعمرة الامريكية في القدس العربية . وعندما تأسست شركة هيات هاوس الامريكية للاستثمار في افروآسيا ، قررت ان تجعل باكورة نشاطها فندقا بقيمة ٢١ م/ليرة في القدس العربية ايضا . وقررت شركة اخرى توظيف ٢٤٨ م/ليرة في تجارة الفنادق والمطاعم الاسرائيلية . وخصصت شركة بسمان وغليك اوف شيكاغو عشرة ملايين دولار لانشاء فنادق في اسرائيل . وقررت شركة اخرى امريكية اقامة مزرعة حيوانية لانتاج اللحوم في الجولان . وهكذا استطاع الراسمال الامريكي ان يزحف وراء الدبابات الاسرائيلية فيدخل مناطق لم يكن يحلم

بها . وما زالت تل ابيب في اول الطريق . غاية الطريق هي اقتحام الاسواق العربية كليا وتحويل المنطقة الى كيان اقتصادي واحد اشبه بمنطقة الاراضي المنخفضة ، كما قالت التايمس ، « ولن يهم عندئذ اين تمر الحدود » حسب نظر موشي ديان(٢٠).

وتأخذ الشراكة الامريكية الاسرائيلية خمسة صور رئيسية :

١ ــ القروض المالية المباشرة لقاء فوائد سنوية . والمثال الاول هنا السندات الاسرائيلية المباعة في امريكا . وبلغ مجموع الفوائد التي دفعتها تل ابيب عن ديونها ١٨٠ م/د في ١٩٧٠ .

٢ ــ الحصول لامريكا على المواد الخام . والمثال هنا هو الماس الذي تحصل عليه اسرائيل من افريقيا وتعيد تصديره الى امريكا بعد صقله . وهو يشكل اهم فقرة في صادراتها الى امريكا . وبهذه الطريقة تتحاشى واشنطن المداخلات السياسية التي تغشي الموضوع : افريقيا ، ولكن لايبيريا التي فطنت الى الموضوع بادرت الى فسخ اتفاقيتها مع اسرائيل وآثرت البيع مباشرة الى نيويورك . ويتم التعاون هنا بتزويد اسرائيل بالاموال والخبرة اللازمة لهذه التجارة ويقوم معهد المجوهرات الامريكي بتدريب العمال الاسرائيليين ومد معهد الماس الاسرائيلي بما يحتاجه من مساعدات ومعرفة . وبفضل هذا الترتيب ارتفعت تجارة الماس الاسرائيلية بالنحو البليغ التالي(٢١):

سنة	المستوردبالدولار	الصادراتبالدولار
١٩٥٤	١٣،٧٩٣،٠٠٠	١٥،٦٩٨،٧٨٠
١٩٦٩	١٩٢،٧٥٠،٤٧٧	٢١٥،٩٠٧،٣١٦

٣ ــ اشتراك مؤسسات امريكية واسرائيلية في الحصول على مشاريع في العالم الثالث وتسييرها. ومن ذلك معمل المعدات الالكترونية الذي أقامه الطرفان في السنغال .

٤ ــ اقامة الشركات الامريكية مشاريع او فروع لها في اسرائيل كما الحال بالنسبة للفنادق الامريكية التي اشرنا اليها . وفتحت شركة ايروجت كوربوريشن مفاوضات لاقامة معمل لصهر المعادن بقيمة ٣٠ م/د لسد حاجات اسرائيل من الفلزات وتصدير الفائض من منطقة كيشون الحرة التي فتحتها اسرائيل مؤخرا لزيادة عمليات اعادة التصدير(٢٢).

٥ ــ الاشتراك مع مؤسسات اسرائيلية في اقامة صناعات داخل اسرائيل ، ومن ذلك في حقل الكيماويات شركة عراد المؤسسة لانتاج ٢٣٠،٠٠٠ طن من حامض الفسفوريك سنويا للاستهلاك الداخلي والتصدير . وتم التوقيع على عقود اخرى منها واحد لانتاج محركات وينكل من قبل شركة سانكل التي تمتلكها شركة بيبر ملز الامريكية الاسرائيلية وبنك اسرائيل البريطاني . ونشرت الوول ستريت جرنال نبأ تأسيس شركة ماريتايم ديناميكس لبناء الناقلات البحرية العملاقة بحمولة تتجاوز ٢٠٠،٠٠٠ طن . وتمتلك الشركة الجديدة مؤسسة الشحن الاسرائيلية وشركة جنرال ديناميكس المتصلة بصناعات الحرب الامريكية . واعطت رأس المال الجماعة المصرفية المسماة فرست نشنال بوسطن كوربوريشن . وباكورة الشركة هي بناء ست شاحنات بقيمة ٣٥٠ م/د .

وانتبه تجار الموت الى سمعة اسرائيل العسكرية فتهالكوا على توظيف اموالهم فيها . وتقول المصادر ان امريكا وبريطانيا والمانيا الغربية قد وظفت اكثر من ١٣٠ م/د في الصناعات الحربية الاسرائيلية تنفيذا لمقررات المليونيرية الثاني(٢٣). وبلغ مجموع الصادرات من المعدات الحربية ٣١ م/د في ١٩٦٩ وارتفعت صادرات مؤسسة تعاز المنتجة للاسلحة بخمسة اضعاف ما كانت عليه قبل ١٩٦٧ . ووصل التعاون الامريكي الاسرائيلي في الانتاج الحربي اوجه في الاتفاقية السرية لتزويد تل ابيب بالامكانيات لانتاج الاسلحة الثقيلة والمعقدة بما فيها الطائرات النفاثة والدبابات . ومن الوهم ان نتصور ان الاتفاقية موجهة بصورة خاصة ضد العرب . انها حلقة اخرى من التاريخ الاسود لتجارة الموت الرأسمالية . وحيث سترفض دولة ناشئة ابتياع الاسلحة من امريكا ، ستشير عليها امريكا بشراء الاسلحة من اسرائيل .

وتدفقت البضائع الامريكية جنبا الى جنب مع الرساميل في عين الفترة ، او بعبارة ادق ضمن السنوات الثلاث التالية لحرب حزيران فارتفعت مستوردات اسرائيل من امريكا بنحو ٥٠ ٪ في حين لم تتغير صادراتها اليها الا بقليل . ويعود جزء كبير من العجز المستمر في ميزان المدفوعات الاسرائيلي الى هذه البضائع المستوردة والى العوائد والفوائد المترتبة على الرساميل الاجنبية . وقد ارتفعت هذه العوائد والفوائد من ٩٤ م/د

في ١٩٦٥ الى ١٥٢ م/د في ١٩٦٩ ونحو ١٨٠ م/د في ١٩٧٠ . ومما يذكر ان مجموع العوائد والفوائد المستحقة من اسرائيل ساوت خلال عامي ١٩٦٨ و١٩٦٩ مجموع الارباح التي جنتها اسرائيل من الزيادة في القيمة المضافة للصادرات(٢٤).

ومن الطريف ان نلاحظ سير النشاط الاسرائيلي بامتداد خطوط النفوذ الامريكي في العالم الثالث . فخط الملاحة الليبيري الوطني (من مشاريع شركة هارون روزنفيلد الاسرائيلية) يسير من ايلات الى الحبشة وافريقيا الجنوبية ونايجيريا وليبيريا . ويسير خط تسيم من ايلات الى فرموزة وهونغ كونغ واليابان وامريكا الشمالية . والدول العميلة الرئيسية لاسرائيل هي ايران والحبشة وافريقيا الجنوبية وليبيريا . واخذت تل ابيب مؤخرا ، وربما بتوجيه من واشنطن ، بالاتجاه الى المنطقة التقليدية للنفوذ الامريكي — امريكا اللاتينية ، التي بدأت جماهيرها بالتحرك ضد سيطرة الدولار . وامام انطلاقاتها الثورية ، اسرع مدير بنك الاعمار الدولي لزيارة تل ابيب في اوائل ١٩٧٠ ملتمسا زيادة نشاطها في تلك المنطقة . ومن المعروف ان اسرائيل كانت تنفق سنويا حتى ذلك الحين نحو خمسة ملايين ليرة على مساعدة امريكا اللاتينية وتزودها بحوالي ٤٠ خبيرا . ولها بضعة مشاريع صغيرة منها حقل للبذور في البرازيل . ووقعت مؤخرا اتفاقية مع المكسيك لاستغلال المصادر المائية والغذائية واقامة معمل للكيمياويات البترولية وآخر للسيارات .

ومن ذلك يتضح ان اسرائيل اصبحت الباب الذي تدخل منه الامبريالية الامريكية الى العالم الثالث وان اموالا في حدود البلايين قد اصبحت الان مرهونة لدى الاقتصاد الاسرائيلي . وان اي تفكير من جانبنا يتصور ان امريكا ستعرض هذه المصالح للخطر اكراما لعيوننا هو سذاجة مغرقة .

٣ — دور اسرائيل في خنق الحركات الثورية : لما كان التحالف الامريكي الاسرائيلي تحالفا رأسماليا فقد اصبح من البديهي له ان ينشط ايضا في مقاومة الحركات المعادية للرأسمالية . وقد قامت في امريكا جماعة الابحاث الافريقية بدراسة دور اسرائيل كدولة ثالثة في خدمة الرساميل الامريكية ومحاربة الحركات المعادية للامبريالية في افريقيا ونشرت تقريرها الضافي في مجلة ترايكونتننتال الكوبية(٢٥). ويتضح من التقرير ان واشنطن تنظر الى اسرائيل كبديل للشعوب الافريقية الثائرة ضد امريكا يحول دون التفافها الى الشيوعية او السوفييت . وكان ارنولد رفكين الخبير الامريكي قد دعا في سنة ١٩٥٩ في مجلة فورين افيرز الى ارشاد الدول المتمردة على الغرب الى الاحتذاء باسرائيل في البرمجة الاشتراكية المعتدلة واقامة نظام اقتصادي ثالث يختلف عن النظامين الشرقي والغربي « ولكنه يبقى بالتأكيد اكثر ميلا الى مصالح العالم الحر منه الى النموذج الشيوعي » على حد قوله . ومضى رفكين فعالج طرق تحقيق ذلك بواسطة تحويل جزء من المساعدات الغربية المخصصة لافريقيا الى اسرائيل بحيث تعود هذه بدورها فتقدمها الى افريقيا « بالنظر لمؤهلات اسرائيل الخاصة وقبول الدول الافريقية لها كما اتضح » . ومن المهم ان نعرف ان المستر رفكين كان رئيسا لمشروع الابحاث الافريقية لمركز الدراسات الدولية في مساشوستس . اما المركز نفسه فقد نظمته وكالة الاستخبارات الامريكية ، ومنه انتقل رفكين الى البنك الدولي الذي اعطى قروضا واسعة لاسرائيل . ومن خبراء امريكا المختصين في المساعدات الاسرائيلية لافريقيا المستر سلفربرغ الاستاذ في الجامعة الامريكية في واشنطن. وسرعان ما نكتشف ان سلفربرغ يعمل ايضا في مركز الابحاث للانظمة الاجتماعية الذي يعمل لحساب الجيش الامريكي والمشهور بفضيحة كاميلوت للتجسس على امريكا اللاتينية . وينهمك هذا المركز في اعداد دراسات تحليلية لمقاومة حرب العصابات . وكانت اطروحة سلفربرغ (وهو يهودي) بعنوان «المساعدات الاسرائيلية العسكرية وشبه العسكرية لافريقيا » .

واستخلصت جماعة الابحاث الافريقية النتائج التالية من دراستها : ١ — ان الحكومة الامريكية ساعدت في وضع اسلوب المساعدات ومادتها . ٢ — انها وحلفاءها ساعدوا في تمويل المساعدات الاسرائيلية حسب اسلوب « الدولة الثالثة » . ٣ — ان هذه المساعدات قد تركزت في الميادين المهمة ستراتيجيا وخاصة التدريب العسكري ومقاومة حرب العصابات . ٤ — ان برامجها تخدم الاستعمار الاسرائيلي الصغير نسبيا ومن ورائه الاستعمار الامريكي الواسع .

ومن اهم المؤسسات الاسرائيلية التي عملت امريكا على تأسيسها في هذا الصدد لاحتواء كوادر العالم الثالث هو المعهد الافرواسيوي الذي يتلقى كل

عام عشرات من شبيبة افروآسيا لتدريبهم . وتاسس هذا المعهد بمنحة من اتحـاد العمل الامريكـي AFL - CIO والمعروف ان هذا الاتحاد يرتبط ارتباطا وثيقا اندماجيا بالاستخبارات المركزية(٢٦).

واصبحت تل ابيب مركـزا جديدا لتدريب كلاب الامبريالية وقد كشفت مناقشات الكنيست في ١٢/٤/١٩٦٧ ان جموعا من الفيتناميين الجنوبيين كانوا يتلقون تدريبهم في اسرائيل(٢٧). وحج الى تل ابيب ايضا رئيس اركان بيرو ووزير داخلية البرازيـل بالاضافة الى عدد كبير من قواد الجيوش الافريقية وبوليسها . ونسمع بين الفينة والفينة عن فضيحة جديدة تتعلق بالنشاطات المريبة للخبراء العسكريين الاسرائيليين ، وكان من آخرها ما دفع الجنرال امين الى طرد السبعمائة خبير اسرائيلي مـن اوغندة . وتحت ضوء ذلك نستطيع ان نفهم النصح المستمر الذي يعطيه خبراء امريكا وساستها الى الدول الناشئة بالاستعانة باسرائيل . ومن ذلك نذكر كتاب ليوبولد لوفر «اسرائيل والامم الناشئة: طرق جديدة للتعاون » وكتاب رفكين « افريقيـا والغرب » وكتاب سلفربرغ المشار اليه آنفا .

٤ ـ **الموساد ووكالة الاستخبارات المركزية :** تفخر اسرائيل باقدر جهاز تجسسي في العالم . ولهذا الفخر تاريخ طويل يمتد الى القرون التي فرضت فيها ظروف معاداة السامية وتشريد اليهود ، مهمة الوساطة والوكالة والجاسوسية عليهم . هكذا عملوا للفرس ضد الرومان وللمسلمين ضد اوربا وللانكليز ضد العرب واخـيرا للامريكـان ضـد السوفييت . وساعدتهم على ذلك عوامل منهـا اتقانهم لعدة لغات وتجولهم في الامصار ومعرفتهم بأحوال الامم ووجود اخوان لهم في كل مكان . وفي الحرب الاخيرة اضافوا خبرة جديدة من عملهم لاستخبارات الحلفاء ضد المحور . ومن ابناء هذه الخبرة البولونيون الذين بنـوا الاستخبـارات الاسرائيلية .

وأقامت الوكالة اليهوديـة اول جهاز رسمـي للاستخبارات عام ١٩٣٧ باسم الموساد وعمل في هذا الجهاز معظم رجالات اسرائيل كاشكول وغاليلي وسابير . وعلقت على هذا سوفتسكايا بلروسيا في ١٩٧١/١/٦ بقولها ان الاستخبارات الاسرائيلية فريدة في العالم . فهي الاستخبارات الوحيدة التي تاسست قبل تأسس الدولة نفسها . والى جانب الموساد توجد أجهزة شن بت وآمان وخدمات اليهود المضطهدين ، ووراءها يقف ما يزيد على ٥٠٠ منظمة صهيونية في كل مكان لتغذية هذه الاجهزة . ومما يعطي الاستخبارات الاسرائيلية قدرتها العظيمة ، هو المستوى الفظيع الذي تنزل اليه من التغرير ، بما في ذلك استعمال النساء بأبشع الصور ، الى الارهاب بما فيه القتول القاسية . ويروي نان هورن ، كبير المراقبين الدوليين ، صنوفا من ذلك مما تعرض له ضباطه في القدس(٢٨).

ولا شك ان اي استخبارات في العالم تطمح للتعاون مع مثل هذه الاجهزة . وكان من الطبيعي ان يتجه هذا التعاون نحو واشنطن . وحققت اسرائيل للبنتاغون احلاما لم يكن من سبيل لتحقيقها . ومن ذلك ان حصلت استخباراتها على طائرة ميغ ٢١ من العراق في وقت كان الفيتناميون فيه يتدربون في موسكو على استعمال هـذه الطائرة ضـد الامريكان(٢٩). وجاءت حرب ١٩٦٧ بغنائم جديدة من المعلومات عـن الاسلحة السوفييتيـة الى البنتاغون . وما كادت موسكو تضع دبابات ت ٦٢ امام قوات حلف الاطلسي حتى حصلت اسرائيل على مجموعة سالمة منها نقلت لاختبارها عمليا بالرمي من قبل الحلف في انكلترا(٣٠).

وانتقل هذا التعاون عام ١٩٦٨ الى مرحلة جديدة بعد ان تحققت اسرائيل ان بامكانهـا ان تبتلع المناطق المحتلة دون خوف . ولتحقيق هذا الضم ، اقتضى عليها الحصول علـى ألوف جديدة مـن المهاجرين تنفيذا لسياسة التوسع بسلاح الضغط السكاني . على ضوء ذلـك خططت المنظمـة الصهيونية لحملة ضد المعسكر الاشتراكي تجبره على السماح لهجرة الملايين الثلاثة . فكانت الحملة الاعلامية الشهيرة وصرخة الاضطهاد السوفييتي لليهود . وتشير كافة خطوط هذه الحملة الى نقطة انطلاق في اوائل ١٩٦٨ . في ذلك الوقت ايضا انتهى معهد هدسن الامريكي من وضع مخططه المعروف « بالثورة المعاكسة الهادئة » . ووضعت الاستخبارات الامريكية نظريـة « بناء الجسر » للتوغل في العـالم الاشتراكي والحصول علـى المعلومات والدعوة للثورة المعاكسة(٣١).

في ١٩٦٨/٤/٣٠ ، صدر في الاتحاد السوفييتي العدد الاول من النشرة السرية « سجل الاحداث الجارية » لتكـون لسان ما يسمـى بالحـركة الدمقراطية . وبعد صدورها بقليل تأسست جماعة النشاط للدفاع عن حقوق الانسان التي اتخذت

النشرة نافذة لها . وبعين الوقت صدرت مجلة اكتوبريانا التي تتهكم من السوفييتية من زاوية الجنس والسخرية . ويتضح من دراسة هذه المطبوعات ارتباطها المباشر او غير المباشر بالمخطط الصهيوني الامريكي لهذه الاسباب :

١ ــ توقيت صدورها في ١٩٦٨ . ٢ ــ انفضاح صهيونية عدد من قادتها مثل تلسن وتسوكرمان بعد هجرتهم الى اسرائيل . ٣ ــ ارتباط نشرة السجل بالنشريات والفعاليات الصهيونية الصرفة، اذ تفرغت بعد قليل من السجل مجلة اكزودز لتنطق باسم الصهيونية صراحة . واعترف الباحثون الغربيون بتداخل نشاط النشرتين(٣٢).
٤ ــ المحتوى ، كما يؤكد ردوي ، الذي لا يحمل اي برنامج او يتعرض لاي مشكلة اجتماعية عامة، وانما يركز على حقوق الاقليات وحقهم بالعودة الى اوطانهم ومحاكمات « الاحرار » وخرق السلطات للقوانين ، والموضوع الاخير هو ما يؤكد عليه الصهاينة في ان حصر الهجرة وقمع الادبيات الصهيونية يخالف القوانين السوفييتية .

واكتشفت السلطات عدة منظمات صهيونية منها جماعة لنينغراد وريغا وكشنيف ، وكلها على اتصال باسرائيل . وكان حلقة الاتصال مع جماعة لنينغراد دونالد ميلامنت ، صهيوني امريكي من جامعة ييل . واعترف ميلامنت بأنه جاء من امريكا لحض العلماء على الهجرة الى اسرائيل(٣٣). وحرصت المنظمات الصهيونية على اعطاء نشاطها صفات عامة تجر غير اليهود اليه . ومما لا شك فيه ان مجرد صدور النشرات يفتح الباب ، كما تأمل الاستخبارات الامريكية ، الى ترعرع حركة معارضة وتحدي داخل المعسكر الاشتراكي .

ويعطي الدور الذي لعبته الصهيونية في احداث ١٩٦٨ في تشكوسلوفاكيا درسا من الامكانيات الكامنة في الاستخبارات الصهيونية . والمعروف ان لوستيغ وزملاءه التشيكيين « الاحرار » الذين استقروا الان في اسرائيل قد لعبوا دورا خطيرا في النشاط المعادي للسوفييتية على التلفزيون والراديو والصحافة . وكشفت التحقيقات عن اتصال لوستغ ببرامبرغ ، وكيل الاستعلامات الامريكية الذي وصل براغ اثناء الحوادث فتدمه لوستغ الى رئيس اتحاد الكتاب غولد ستكر (صهيوني اخر) وبالمؤسسات التشيكية الحساسة . ومن الوثائق التي عثروا عليها مع برامبرغ تقرير عن اوضاع الجيش والامن(٣٤).

وبعين الوقت ، تسند وسائل الاعلام الغربية الخاضعة للتاثير الصهيوني ، هذه الحملة بالتشهير بالمعسكر الاشتراكي واضطهاد الاديان والاقليات فيه . ويغذي الصهاينة اعمدة الصحف بسلسلة من التظاهرات والاستفزازات امام المؤسسات السوفيتية في الخارج . والظاهرة الواضحة الان هي ان الاسواق الغربية قد امتلأت منذ ١٩٦٨ بالمؤلفات المهربة من المعسكر الاشتر ... او الفاضحة له .

هذه خلاصة وجيزة جدا للخدمة الاعلامية والايديولوجية والتجسسية التي تقدمها اسرائيل للامبريالية الامريكية . وما من دولة استطاعت ان تقدم احسن منها . افيجوز لواشنطن ان تحذف هذه الخدمة ايضا من حسابها وتعيد للعرب المناطق المحتلة التي تشكل الدافع الحيوي للحملة الصهيونية المذكورة ؟

٥ ــ **الاعتبارات الستراتيجية :** وعلى راسها اهمية لامريكا غلق قناة السويس . هذا الغلق يؤدي الى اضعاف المنافسة التجارية الاوروبية لامريكا جنوبي وشرقي السويس ويسد من ناحية اخرى الباب في وجه الاساطيل السوفيتية التي يتوجس الغرب خطرا من زيادة وجودها في المحيط الهندي . ومن المفهوم ايضا ان الامدادات السوفيتية الى فيتنام قد تعقدت وصعبت بعد هذا الغلق ايضا . واذا كان البنتاغون حريصا على جنوده في فيتنام فلا شك ان سد القناة سيبقى مطلبا ستراتيجيا لهم . وهكذا صرح رئيس اركان الجيش الاسرائيلي بقوله : « لقد ادركت امريكا اثناء حرب الاستنزاف ومنذ ايامها مدى القيمة الستراتيجية لاسرائيل »(٣٥). في الحين نفسه ، توالت التقارير عن انضمام اسرائيل الى حلف الاطلسي . وسواء انضمت ام لم تنضم ، فان وجودها كقلعة للعالم الغربي في الشرق الاوسط هو خير ضمان للحلف .

النتيجة : ان هناك كثيرا من العوامل تشير الى اتحاد بعيد الامد بين المصالح الاسرائيلية والامريكية تجاريا وسياسيا وتجسسيا واعلاميا وستراتيجيا. وتجعل مصالح هذا الاتحاد من الصعب ، ان لم نقل المستحيل ، لاي رئيس امريكي ان يغير موقف بلاده من ازمة الشرق الاوسط ، ولا سيما عندما تأخذ بنظر الاعتبار الموقف المالي القوي لاسرائيل

في الوقت الحاضر والذي يجعلها اقدر على تحدي الضغوط الخارجية الى مدى طويل كما اسلفنا في اول البحث . وان توجيه مثل هذا الضغط الطويل الامد والشديد البأس يعرض دون شك اسس الشراكة الامريكية الاسرائيلية الى الانهيار ، وهو ما لن تقبل به اوساط البنتاغون والوول ستريت والاستخبارات المركزية والاستعلامات الامريكية .

---

١ — **نيوزويك** ، ١٩٧١/١/١٣ .
٢ — راديو ٤ ، الاذاعة البريطانية ، ١٩٧٢/٢/٢٢ .
٣ — **جروسلم بوست** ، ١٩٦٧/٦/١٦ .
٤ — **التايمس** ، ١٩٧٢/٢/٢٣ .
٥ — كوبلند ، مايلز ، **لعبة الامم** ، الترجمة العربية لدار الفتح ، بيروت ، ص ٥٧ — ٦٢ .
٦ — جونسن ، بول ، **حرب السويس** ، لندن ، ١٩٥٧ ، ص ٣ .
٧ — كوبلند ، **نفس المصدر** ، ص ٢٩٨ — ٢٩٩ .
٨ — **مصالح الولايات المتحدة في الشرق الاوسط : تحليل خاص** ، امريكان انتربرايس انستتيوت ، ١٩٦٨ ، ص ٢٢ .
٩ — **مصالح الولايات المتحدة** ، ص ٦١ .
١٠ — **نفس المصدر** ، ص ٧٣ .
١١ — **مدل ايست انترنشنال** ، ايلول ١٩٧١ .
١٢ — **سجل افريقيا المعاصر** ، ١٩٦٩ — ١٩٧٠ ، ص ٢ ٦٨ .
١٣ — **الجيوش الافريقية والنظام المدني** ، معهد الدراسات الستراتيجية ، لندن ، ١٩٦٩ ، ص ٨٥ .
١٤ — يوسف شبل ، **تجارة اسرائيل الخارجية** ، مركز الابحاث الفلسطينية ، ص ٢٦ .
١٥ — **ترايكونتننتال** ، عدد ١٩٦٩/١٥ ، ص ٥٥ .
١٦ — **التايمس** ، ١٩٦٩/٣/٢٧ .
١٧ — **فاينانشال تايمس** ، ١٩٧٠/١/٢٧ .
١٨ — **هآرتس** ، ١٩٧٠/١٢/١٨ .
١٩ — **معاريف** ، ١٩٧٠/١/١٤ .
٢٠ — **التايمس** ، ١٩٦٩/٦/٣ .
٢١ — **اسرائيل** ، جمع م. امانويل ، لندن ، ص ١٤٩ .
٢٢ — **جروسلم بوست** ، **جويش كرونكل** ، ١٩٧١/٨/١٧ .
٢٣ — يحي عرودكي ، **العلاقات الاقتصادية الخارجية لاسرائيل** ، مركز الابحاث ، ص ٣٠ .
٢٤ — **جروسلم بوست** ، ١٩٧٠/١٢/٧ .
٢٥ — **ترايكونتننتال** ، ص.ب. رقم ٤٢٢٤ ، هفانا ، عدد ١٩٦٩ .
٢٦ — انظر موريس ، جورج ، **وكالة الاستخبارات المركزية والعمال الامريكان** ، ١٩٦٨ . انظر ايضا كتيب د. فايز صايغ ، **المعهد الافرو آسيوي في تل أبيب** ، مركز الابحاث في م.ت.ف. ، بيروت ، ١٩٦٧ .
٢٨ — انظر هورن ، جنرال كارل فون ، **تجند من اجل السلم** ، لندن ، ١٩٦٦ .
٢٩ — **تايمس** ، ١٩٦٦/٨/٣٠ .
٣٠ — **ديلي اكسبرس** ، ١٩٦٩/١٠.٩١٧ .
٣١ — بولشاكوف ، **معاداة السوفييتية مهنة الصهاينة** ، موسكو ، ١٩٧١ .
٣٢ — ردوي ، بي ، **روسيا بدون رقابة** ، لندن ، ١٩٧٢ ، ص ٣٦ .
٣٣ — **اليهود في أوروبا الشرقية** ، تشرين الثاني ١٩٧١ .
٣٤ — تفاصيل بولشاكوف .
٣٥ — **الغارديان** ، ١٩٧١/١٢/٣١ .

تقرير خاص
خطة التنمية الثلاثية في الاردن ٧٣ ــ ١٩٧٥

أحاطت السلطات الاردنية موضوع خطة التنمية الثلاثية بكتمان شديد ولم يسمح لاجهزة الاعلام الاردنية بالتحدث عنها او نشر تفاصيلها حتى عقد الامير حسن ، وهو الذي يرأس لجنة الخطة ، مؤتمرا صحفيا في عمان يوم ١٩٧٢/٩/١٢ . دعا اليه السفراء العرب والاجانب وشرح لهم تفاصيل الخطة طالبا مساعدة دولهم في ذلك . وكانت اللجنة التي اعدت الخطة ووضعت تفاصيلها ، تضم كبار مخططي السياسة الاميركية في الاردن ، منهم ميشل مارتوماد . حنا عوده . د. سعيد النابلسي والدكتور خليل السالم وآخرين .

ومن اهم الاهداف التي سعى واضعو خطة التنمية الثلاثية لتحقيقها هي :

(أ) زيادة الدخل القومي الى ٨ ٪ خلال مرحلة الخطة (٣ سنوات) . (ب) تخفيض العجز في الميزان التجاري . (ج) تخفيض الاعتماد على المساعدات . (د) زيادة فرص التوظيف (زيادة موظفي الادارة وعدد أفراد مؤسسة الجيش) . (هـ) خلق اماكن عمل جديدة لخمسة وسبعين الفا خلال الثلاث سنوات . (و) توزيع مشاريع التنمية على كل مناطق المملكة بالتساوي (دون التركيز على عمان) . والمقصود هنا مناطق الاغوار وحطيه ــ العقبة وغيرهما المعدة لاستقبال واسكان اللاجئين والنازحين .

ويلاحظ من اجمالي الخطة ثلاث مسائل مهمة : (١) اعتراف واضعي الخطة (كتابة) بعدم جدوى التركيز السابق في مشاريع التنمية (خطة السنوات السبع) على المشاريع غير الانتاجية كالطرق والخدمات . ففي الخطة توجه لمرحلة جديدة هي البدء بقيام مشاريع انتاجية في قطاع الزراعة والصناعة .. الخ . (٢) يلاحظ كذلك في الخطة توجه يمكن تسميته « بالتطور شبه اللارأسمالي » في تحديث الاردن . فالخطة تشير مثلا الى انه ستكون هناك مراقبة على الاسعار والاستيراد والتصدير ... الخ .

وتؤكد هذه الملاحظة احجام الاستثمارات المحلية بعد ايلول عام ١٩٧٠ عن المغامرة بمشاريع مكلفة في ظل غموض المستقبل السياسي للاردن . فلقد شهدت الاسواق المالية الخارجية (خاصة بيروت) تدفقا كبيرا لرؤوس الاموال الهاربة من الاردن بعد احداث أيلول ١٩٧٠ . والارتفاع المفاجيء والكبير في ارصدة ودائع البنك العربي ــ فرع بيروت ــ بعد أيلول خير شاهد على هذه الظاهرة. اضافة الى ذلك فان رؤوس الاموال المحلية في الاردن ظلت طوال السنوات الماضية تتجه الى الاستثمار في قطاعات التجارة والخدمات وملحقاتها، اي الاستثمارات ذات المردود السريع . (الاستثمارات الزراعية والصناعية ذات مردود بعيد المدى) . ويعزز هذه الملاحظة كذلك كون الاردن قاعدة مصالح سياسية وليست اقتصادية للامبريالية الاميركية ، بدليل عدم وجود شركات اجنبية برؤوس أموال كبيرة تشكل الثقل الاقتصادي للمصالح الاميركية في المنطقة مثلا . ان هذا التوجه الجديد للنظام الاردني يشير الى بداية خلاف في معسكر الحكم المؤلف من الطبقة التجارية والطبقة البيروقراطية الجديدة ، ومؤسسة الجيش التمعية ، في ظل العرش الملكي . ان مصلحة الطبقة البرجوازية التجارية سوف تتأثر حتما بالتوجه الجديد الذي تقوده الطبقة البيروقراطية الجديدة . فلقد ورد في الخطة نص يقول : « في حالة احجام القطاع الخاص عن القيام بدوره المرسوم، فستأخذ الدولة على عاتقها مهمة القيام بمشاريع انتاجية بديلة !!! » . (٣) يلاحظ ايضا ان خطة التنمية للضفة الشرقية فقط مع العلم بأن مدتها ثلاثة اعوام تنتهي في آخر عام ١٩٧٥ ، ان الخطة

لتطوير الاقليم الاردني فقط في مملكة الحسين العربية ، وتكريس قواعد النظام « للابد » في الضفة الشرقية فقط .

المشاريع التي تتضمنها الخطة :

ان التحليل الاولي لموازنة الدولة العامة لسنة ١٩٧٢ ، ومقارنتها بأرقام موازنتي عام ٧١ ، ٧٠ فيما يتعلق ببند النفقات الانمائية (الرأسمالية) في مؤسسات الدولة المعنية بمثل هذه المشاريع ، كوزارة الزراعة ، وسلطة المصادر الطبيعية ، ووزارة الاشغال العامة ، والمؤسسة الاقليمية لمياه نهر الاردن، وسلطة قناة الغور الشرقية..الخ يتضح ان السلطة تعتزم تنفيذ عدد من المشاريع الكبيرة ، والتي تتطلب أيدي عاملة لاعمار مناطق جديدة تستوعب فيها المخيمات ... الخ . ومن هذه المشاريع على سبيل المثال لا الحصر :

(١) مشروع تطوير وري منطقة القويره — رم — العقبة ، تموله شركة امبرزيت الايطالية . وكانت الحكومة الاردنية قد اجرت مفاوضات مع الحكومة الايطالية لتقوم الاخيرة بتمويل هذا المشروع بنفسها. ويهدف هذا المشروع الى : (أ) استصلاح اراضي المنطقة المذكورة . (ب) استخراج مياه جوفية حيث انها متوفرة في هذه المنطقة كما تقول بذلك التقارير الجيولوجية في مجلس التخطيط القومي التي تقدر وجود كمية من المياه تكفي لري المنطقة بكاملها في اغراض الزراعة . (ج) توليد طاقة كهربائية عن طريق سدود المياه والمياه المستخرجة لانارة منطقة العقبة والعقبة نفسها . (د) — مد طريق لتصريف الانتاج الزراعي الذي ستدره المنطقة يتصل بطريق العقبة السعودية . ولقد رسا هذا المشروع على شركة امبرزيت الايطالية وبعض المقاولين الفرعيين المحليين ، وبوشر بتنفيذه . وقد ظهر في موازنات السنوات الماضية ويكلف ٦٣ الف دينار اردني حتى بداية هذا العام ، مع العلم انه خصص لهذا المشروع ٩ ملايين دينار لتنفيذه على ثلاث مراحل تكلفة كل منها ٣ ملايين دينار .

(٢) مطار العقبة . وقد اشارت اليه صحيفة الرأي الاردنية . الهدف من هذا المطار هو كونه جزءا من خطة تطوير مدينة العقبة (ثغر الاردن) ومنطقتها ليجعلها بيروت بديلة في المنطقة . وقد جرت اتفاقية مع السلطات الاسرائيلية بخصوص اذونات الهبوط والاقلاع والطيران واللاسلكي والخروج من ميناء ومطار العقبة ، توجب على السلطات الاردنية ابلاغ مطار وميناء ايلات بهذه العمليات .

(٣) مشروع الدرة — العقبة . وقد رسا عطاؤه على شركة اتحاد المقاولين (C.C.C.) وهي شركة مقاولات لبنانية .

(٤) تكملة سكة حديد الحجاز — حطية — العقبة، حيث تقوم شركة المانية غربية بتنفيذه .

(٥) مشروع سد الزرقاء . يموله الصندوق القومي الكويتي .

(٦) المشاريع الزراعية في الاغوار . وقد لوحظ خلال السنة الماضية تركيز الامير حسن على هذه المشاريع بشكل خاص ، وتركيز كل من وزارة الزراعة ودائرة البحث العلمي ومجلس التخطيط وفريق من الخبراء لدراسة المنطقة .

(٧) عدة مشاريع زراعية في مناطق الازرق ووادي الضليل .

ان الخطورة في مثل هذه المشاريع ، هي ان الاستثمارات الرأسمالية الزراعية هذه تستطيع اسكان عدد كبير من اللاجئين والنازحين وتشغيلهم، في ظل اوضاع البطالة التي تثير نقمة المواطنين على السلطة . كذلك فان عددا كبيرا من هؤلاء المستثمرين هم من اصل فلسطيني ، مما سيمهد الطريق امام مؤامرات السلطة لتذويب الفلسطينيين واستيعابهم في الضفة الشرقية ، وابعادهم عن العاصمة والمدن الرئيسية الاخرى في الاردن .

غير ان اخطر ما تتضمنه الخطة مشروعان :

اولا : مشروع نقل المخيمات : لقد شكلت مسألة وجود مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في عمان وقرب المدن الاردنية الاخرى قضية خطيرة على أمن السلطة ووجودها في الاردن منذ عام ١٩٥٠ ، وهذه المسألة كانت واضحة في ذهن النظام الاردني خلال العشرين سنة الماضية ، والدليل على ذلك تعدد مشاريع الاسكان والاستيعاب والتوطين التي كانت تطرحها السلطة او وكالة الغوث او غيرها من البعثات الاستعمارية التي كانت تفد الى الاردن تحت اسماء مختلفة . ولقد برزت خطورة هذه المسألة بوضوح لدى النظام خلال الفترة التي تلت حرب حزيران عام ١٩٦٧ وانتهت في ايلول عام ١٩٧٠ ، فمن هذه المخيمات القريبة من العاصمة ومن المدن الاردنية الاخرى كانت حركة المقاومة التي رأى فيها النظام خطر البديل له .

وعليه ، فان لدى النظام الاردني الان مخططا يهدف الى نقل مخيمات اللاجئين والنازحين من اماكنها الحالية الى اماكن اخرى في الضفة الشرقية لاستيعابهم في عملية التذويب والتصفية . فبعد عودة الامير حسن من جولته الاخيرة في اوروبا (دول السوق المشتركة) بأيام قليلة ، استدعي للقصر وزير الانشاء والتعمير (وزارة اللاجئين في الاردن) وطلب منه دراسة توفير عمال زراعيين للعمل في الاغوار بعد ان هدأت الاحوال واستتب « الامن والاستقرار » في البلاد ، وشدد الامير على ضرورة الاهتمام بالانتاج الزراعي المحلي بدل الاعتماد على الجسور المفتوحة مع الضفة والقطاع !! ومن المعروف ان جولة ولي العهد الاوروبية قد اسفرت عن اتفاقية لم يعلن عنها بعد ، بين الحكومة الاردنية وحكومة المانيا الاتحادية تحصل بموجبها الحكومة الاردنية على مبلغ ٤٢ مليون دولار على ان تستثمر في مشاريع اسكان وتعمير ، وايجاد ايد عاملة زراعية لاستثمار مناطق الاغوار . والترجمة الحقيقية لهذه الاتفاقية، هي انها لتغطية نفقات نقل مخيمات اللاجئين والنازحين الفلسطينيين من اماكنها الحالية الى مناطق الاغوار الشمالية والوسطى والجنوبية ، كذلك اعمار بعض مناطق المشاريع الانمائية في جنوب الاردن . اما برنامج نقل المخيمات ، حسب الاولوية ، فهو على النحو التالي : مخيم الحصن ثم شنلر ، غزة ، ماركا ، سوف ، البقعة ، اربد ، الطالبية ، الزرقاء ، وينتهي البرنامج بنقل مخيمات العاصمة (الوحدات وجبل الحسين) .

واعقب استدعاء الامير حسن لوزير الانشاء والتعمير الخطوات الاجرائية التالية :

(٢) استدعى الوزير عددا من مخاتير مخيمي الحصن وسوف — التابعين تحت مظلة ارهاب وقمع وتجويع خطيرة — مبديا لهم ضرورة تقديم عرائض للملك حسين تطالب بنقل المخيمات . وشرح لهم الوزير « حسنات » هذا المشروع . وقد عارض قسم منهم هذا المشروع ووافق قسم آخر عليه .

(٢) اجتمع الوزير — الذي اخذ على عاتقه هذا المشروع — مع اركان الوزارة وعدد من مسؤولي وكالة الغوث في الاردن لدراسة هذا المشروع ، واقترح عليهم البدء بنقل بعض المخيمات للاغوار (الحصن ، جرش ، سوف) لتحسين ظروفهم المعاشية ، فاستقر البحث على مخيمي سوف والحصن . ومن المعروف ان هذه المخيمات تسمى لدى وزارة الانشاء والتعمير « بمخيمات طوارىء للنازحين » ، قسم من نزلائها مسجلون لدى وكالة الغوث كلاجئين وقسم منهم تقع على الدولة مسؤولية صرف مكافآت اعاشتهم من وكالة الغوث . واتفق في ذلك الاجتماع على البدء بدراسة نفقات نقل المخيمات ، وشكلت لجنة لهذا الخصوص .

(٣) كان تقرير اللجنة ان تكاليف نقل مخيم سوف للاغوار الجنوبية (غور الصافي) والحصن للاغوار الوسطى تكلف مبلغ ٢٥٢ الف دينار .

(٤) جرت مفاوضات لاحقة مع وكالة الغوث للاسهام في هذه العملية واسفرت المباحثات عما يلي :

— الوكالة غير مستعدة للمساهمة بعملية نقل المخيمات .

— أبدت الوكالة استعدادها في حالة نقل المخيم بكامله ان تنشىء له ادارة جديدة في مكانه الجديد واقامة الانشاءات والخدمات التي تقدمها الوكالة عادة لكل مخيم لاجئين . اما اذا نقل نصف المخيم او قسم منه فهي غير مستعدة لاقامة منشأتين لمخيم واحد في مكانين متباعدين .

(٥) وعليه ، فقد طلب الامير حسن القيام بعملية احصاء لسكان هذه المخيمات الثلاثة (الحصن ، سوف ، جرش) يرافقها سؤال استفتائي عن عملية نقل المخيمات يعرض على عائلات المخيمات. بدأت عملية احصاء هذه المخيمات في الفترة الواقعة بين ٢٠ — ٧٢/٥/٢٩ ، وقد اشترك في هذه العملية ١١ موظفا من وزارة الانشاء والتعمير و٦١ موظفا من طلبة المعهد الاحصائي بدائرة الاحصاءات العامة وجهاز موظفي الوكالة في المخيمين المذكورين. وتجمعت نتائج عملية المسح الاحصائي في الاستمارات بواسطة الحاسب الالكتروني (الكمبيوتر) بدائرة الاحصاءات العامة . وعدلت النتائج بناء على احصاءات مكتبية من وزارة الانشاء والتعمير وجداول الوكالة ، وكانت النتائج كما يلي:

	عدد السكان	عدد الاسر	نسبة الموافقين على النقل
مخيم الحصن	١٥٬٨٧١	٢٬٦٨٠	٥٣٬٢ ٪
مخيم سوف	٩٬٧٢٢	١٬٧٤٢	١٥٬٣ ٪
مخيم جرش	١٣٬٥١٢	٢٬٣٠٦	٪

عرضت هذه النتائج على الامير حسن شخصيا ثم

على مجلس الوزراء ، لدراسة خطوات التنفيذ اللاحقة ضمن خطة التنمية الثلاثية التي يجري اعدادها ودراستها ليل نهار في قصر الثقافة بمدينة الحسين الرياضية وبالاشراف والدوام المباشر من قبل الامير وعدد من منظري الخطة الجديدة وهم الدكتور خليل السالم ، د. تيسير عبد الجابر ، د. سعيد النابلسي ، د. اسامة العزب ، وعدد من الخبراء المتخصصين الاخرين ، والتي صرح للاعلام الداخلي في وزارة الاعلام الاردنية بالبدء بنشر انباء عن الخطة ، بدون اية تفاصيل للمشاريع او ذكر ارقام او حتى الخطوط العريضة للخطة منذ النصف الثاني من شهر تموز ١٩٧٢ فقط .

وعلى العموم فقد اظهرت نتائج المسح الاحصائي لهذه المخيمات ما يلي :

(أ) نسبة سكان مخيم الحصن :

(١) اللاجئين ٥٠ ٪ والنازحين ٣٨ ٪ وغير مبينين ١١،٤ ٪ . وهذه النسبة تشير الى مسؤولية كل من الوكالة والدولة في تنفيذ نقل المخيم وتغطية نفقاته .

(٢) المناطق الاصلية التي كان يسكنها لاجئو المخيم ونازحوه سابقا .. وهي كما يلي : نسبة السكان من الضفة الشرقية الى مجموع عدد سكان المخيم ٢٩،٥ ٪ ، نسبة السكان من منطقة القدس ٣،٥ ٪، نسبة السكان من منطقة نابلس ٥٨،٢ ٪، نسبة السكان من منطقة الخليل ٠،٦ ٪ ، نسبة السكان من منطقة غزة ١ ٪ ، نسبة السكان من منطقة غير مبينة ١٠،٢ ٪ . ويلاحظ من هذا التوزيع ان نحو ٦٠ ٪ من سكان مخيم الحصن هم من قرى الاغوار الغربية ومناطقها خاصة منطقة طوباس وقرى منطقة نابلس الغربية . واظهرت الاحصائية ان نسبة عدد العاملين في المخيم بلغت ٨٦،٢ ٪ ، معظمهم يعمل في قطاع الزراعة (٥٥،٧ ٪) . واظهرت الاحصائية ان نسبة العاملين قد انخفضت في مخيمي سوف وجرش الى ٧٨ ٪ و٢١،١٢ ٪ على التوالي . كذلك انخفضت نسبة العاملين في الزراعة في هذين المخيمين الى ٣٩،٢ ٪ و١٢،٦ ٪ على التوالي ايضا . وذلك عائد الى طبيعة العمل السابق لسكان هذين المخيمين . ففي مخيم الحصن أكثرية من فلاحي الضفة الغربية لذا اظهرت الاحصائية نسبة اعلى في عدد العاملين خاصة في قطاع الزراعة .

(٣) بلغت نسبة الطلاب في مخيم الحصن الى مجموع سكان المخيم ١٩،٩ ٪ بينما بلغت في مخيم سوف ٢٥،٤ ٪ وذلك يرجع الى ان سكان مخيم الحصن اغلبهم من الفلاحين الذين يعملون مع عائلاتهم في مزارع القرى القريبة .

(٤) لوحظ انخفاض عدد سكان مخيم الحصن في هذا الاحصاء عن رقم احصائيات وكالة الغوث نظرا لتغيب عدد كبير من الاسر في اعمال الحصاد (كما ورد في تقرير لجنة المسح الاحصائي) ، وتواجدهم في مناطق الاغوار كعمال زراعيين في بعض المزارع الحديثة التي بدأت تنتج على اساس تجاري واستثمرت فيها رؤوس اموال كبيرة نسبيا .

(٥) يلاحظ كذلك — حسب ما ورد في الاحصائية — ان نسبة الموافقين على نقل سكنهم في مخيم الحصن اكبر من الموافقين على ذلك في مخيم سوف . يعود ذلك الى ما يقاسيه سكان هذا المخيم من بؤس العيش وهوان الارهاب والاذلال في ظل اوضاع البطالة والكساد الاقتصادي القائم في الاردن خاصة في مناطق الشمال . وتشير الاحصائية الى تقارب نسبة الموافقين على نقل المخيم الى مناطق الاغوار، الى نسبة العاملين في قطاع الزراعة . (٥٣،٢ ٪ عمال زراعيون ، ٥٥،٧ ٪ موافقون على النقل) . ولقد كان لانقطاع موارد حركة المقاومة عن سكان هذه المخيمات اضافة جديدة لاوضاعهم السيئة من ارهاب وسجون وترميجات وبطالة .

(ب) مخيم سوف :

(١) اظهرت الاحصائية ان نسبة سكان مخيم سوف من اللاجئين بلغت ٧٨،٣ ٪ والنازحين ٨،٨٪ وغير مبينين ١٢،٩ ٪ . وبالمقارنة مع نسب السكان في مخيم الحصن تبين ان غالبية سكان مخيم سوف هم من اللاجئين بينما نصف سكان مخيم سوف هم من النازحين . وهذه النسبة تشير الى ما ذكره الاستفتاء من نسبة الموافقين على النقل في هذا المخيم والتي بلغت ١٥ ٪ بينما بلغت في مخيم الحصن ٥٥،٧ ٪ .

(٢) كانت نسب قدوم اللاجئين والنازحين في المخيم من مناطق اقامتهم قبل حزيران ٦٧ كما يلي : الضفة الشرقية ٥،٥ ٪ ، الخليل ٢١،١ ٪ ، القدس ٣٩،٦ ٪ ، غزة ٢،٦ ٪ ، نابلس ١٨،١ ٪ . وبمقارنة هذه الارقام بمثيلاتها في مخيم الحصن يتبين ان هؤلاء اللاجئين النازحين مرة ثالثة هم

سكان مخيمات اصلا في الضفة الغربية . اي غير زراعيين ولهذا قلت نسبة العاملين في هذا القطاع من سكان المخيم عن مخيم الحصن . واضافة لذلك فلقد عطلت المؤامرات والقمع والارهاب طاقاتهم ، ولم تتح لهم طبيعة وتركيب النظام الاقتصادية ان يساهموا في تحسين اوضاعهم المعيشية .

(٣) بلغت نسبة العاملين في مخيم سوف ٦٨ ٪ بينما بلغت نسبة العاملين في مخيم الحصن ٦٨ ٪ اما العاملون في الزراعة في مخيم سوف ، فقد بلغت نسبتهم ٣٦ ٪ بينما بلغت في الحصن ٥٥،٧ ٪ .

(ويمكن الخروج بعدد من النتائج الاخرى لدى تحليل اوضاع هذين المخيمين في دراسة منفصلة ، ولكن سجلت هذه المؤشرات لالقاء الضوء على ما يمكن ان تسفر عنه عملية التهجير والتذويب التي تنتظرهم) .

الاجراءات المتوقعة :

(١) عرض وزير الانشاء والتعمير تقريرا مفصلا عن مسالة نقل المخيمات على الامير حسن ، وبحثت الاجراءات في لجنة الخطة الثلاثية وذلك في اوائل شهر حزيران من العام العالي ١٩٧٢ . كما عرض تقرير وزير الانشاء والتعمير على مجلس الوزراء . وحتى الان لم تظهر اية نتائج عملية ولم تتخذ اية اجراءات .

(٢) ستتضح الصورة الكاملة من خلال الخطة الثلاثية (خطة التنمية) والمشاريع التي ستقرها في هذا المجال ، وما ستسفر عنه الندوة العالمية التي سيدعو لها الملك حسين ممثلي الدول والاحتكارات والمولين الغربيين لدراسة المشاريع على الطبيعة ، وذلك لتقديم « المساعدات » اللازمة لاردنة الضفة الشرقية وتحديثها كما تحدثنا في البداية .

(٣) لوحظ في خطاب اخير لرئيس الوزراء الاردني احمد اللوزي ، تركيزه « على ضرورة اعمار وزراعة الاراضي الاردنية حتى تصبح جنة وتعطي الخير للبلاد ، وضرورة **زراعة الاغوار** والجبال وكافة مناطق البلاد . وحتمية ان يعمل الكل بالزراعة حتى نحن الاعيان والنواب والوزراء وانا شخصيا ، نحمل الفأس ونزرع » . وركز اللوزي على ضرورة توفير الايدي العاملة في الزراعة .

ثانيا : مشروع اعمار وادي الاردن وتطويره :

ان اخطر ما تحتويه خطة التنمية الثلاثية ، مشروع تطوير الاغوار . حيث يرتبط هذا المشروع كليا بمخطط نقل المخيمات واستيعاب الفلسطينيين وتذويبهم في الضفة الشرقية . وقد احاطت الحكومة الاردنية هذا المشروع بسرية كاملة باستثناء السفارة الاميركية في عمان وبعض خبراء التخطيط . وفي شهر ايار من العام الحالي حضر خبير اميركي في شؤون التنمية والتمويل الى الاردن موفدا من حكومة الولايات المتحدة لدراسة المشروع على الطبيعة ، واسم هذا الخبير (اليوت) . ولوحظ يوم ٧٢/٧/٦ وفي نشرة الساعة الثامنة في تلفزيون عمان صورة للامير حسن مع السفيرين الاميركي والالماني وعدد من خبراء لجنة الخطة الذين تدارسوا مشروع تطوير الاغوار ضمن الخطة الثلاثية للتنمية ، وذكر المذيع ان الامير دعا السفيرين والخبير الاميركي (اليوت) لدراسة المشروع على الطبيعة . وقيل في النشرة : لاقناع هذه الدول بتمويل المشروع .

ان الخطوط العريضة لهذا المشروع تتضمن ما يلي : (١) تمديد قناة الغور الشرقية ١٨ كيلومترا الى الجنوب . (٢) انشاء شبكات توزيع مياه سد الزرقاء واستصلاح ١٠٠ الف دونم . (٣) انشاء مشاريع خدمات واسكان وطرق في مناطق الغور ، بحيث يصل عدد سكان الاغوار خلال الثلاث سنوات القادمة (مدة الخطة) الى ما بين ١٢٠ — ١٧٠ الف نسمة . (٤) قدرت نفقات تمويل المشروع بـ ٢٥ مليون دينار . رصد منها لمشاريع المياه ١٤ مليون دينار ، وللزراعة ٥،٥ مليون ، وللتنمية الاجتماعية ٥،٥ مليون دينار كذلك . والمقصود بالتنمية الاجتماعية هنا بناء وحدات سكنية ومدارس ومراكز صحية وشوارع وكهرباء ... الخ[1].

في مجال مشاريع الاسكان تتضمن الخطة ما يلي : (أ) اعادة بناء القرى المهجورة واعادة سكانها اليها حيث قدرت الوحدات السكنية في هذه القرى

(1) قال احمد اللوزي رئيس الوزراء الاردني في خطاب ألقاه امام وفد من أهالي الكرامة : « انه بتوجيهات من جلالة الملك حسين فقد تقرر اعداد خطة لتنظيم منطقة الاغوار ، ومن ضمنها بلدة الكرامة ، بهدف انعاش المنطقة ، وتزويدها بكافة الخدمات الضرورية من ماء وخدمات صحية وثقافية واجتماعية وغيرها » . صحيفة **الرأي الاردنية** ١٩٧٢/٦/٣٠ .

بـ ٥٤٠٠ وحدة سكنية . (ب) بناء ٧٢٠٠ وحدة سكنية جديدة تكاليف كل وحدة منها ٣٣٠ دينارا . (ج) كل وحدة سكنية لها وحدة زراعية مناسبة تعمل فيها الاسرة الجديدة (المشروع للاغوار الوسطى والجنوبية فقط في هذه المرحلة) .

وهكذا تتضح اول معالم الخط السياسي الجديد في الاردن وخطوطه من خلال هذا المشروع التآمري الذي قدر له ان يستوعب ما بين ١٢٠ — ١٧٠ الف لاجيء فلسطيني ينتظر ان يقتلعهم النظام من مناطق سكنهم الحالية حول عمان والمدن الاخرى ، في محاولة لابعاد خطرهم الذي يشكله تواجدهم القريب من مناطق عصب السياسة (العاصمة والمدن) .

وفي الوقت الحالي فان وزارة الداخلية للشؤون البلدية والقروية بالتعاون مع اجهزة الدولة الاخرى ذات العلاقة ، تحاول التوصل الى معرفة الاماكن الجديدة التي نزح اليها سكان هذه المناطق بعد حرب حزيران ١٩٦٧ وخاصة من الشرق اردنيين ، في محاولة لاعادة هؤلاء الى بيوتهم بالقوة(٢). ومما يلفت النظر ان افرادا في الاسرة الملكية اعترضوا على اعادة بناء الكرامة في موقعها القديم ، بحجة ان اراضي المنطقة هي ملك للملك عبدالله حيث تملكها منذ عام ١٩٢٢ وبنى هناك قصره الشهير (المشتى) الذي كان يقضي فيه اشهر الشتاء مع وزارته وحاشيته على غرار القصور الاموية في الازرق والصحراء الاردنية في القرن الثامن . ونتيجة لاحتجاج العائلة المالكة فقد أمر ولي العهد بتعديل موقع الكرامة الى موقع جديد. ذكرت جريدة الرأي الاردنية يوم ١٩٧٢/٨/٨ : « ان الاقتراح كان ببنائها غربي موقعها القديم ، غير انه استقر الرأي اخيرا على بنائها في سفوح الجبال شرقي موقعها السابق » . وتعطي هذه المسالة في جملة ما تعطيه مؤشرا جديدا لدخول افراد العائلة المالكة مجال سلب فلاحي الاغوار والعمال الزراعيين فيه حقوقهم في الارض التي زرعوها منذ ٥٠ سنة . ومن جملة ما يذكر في هذا الصدد ان وصفي التل كان قد اقطع الشريف حسين بن ناصر عندما تولى وصفي التل الوزارة مساحة ٤٠٠ دونم في الغور الاوسط قرب جسر اللنبي غربي الكرامة ، وهذه المنطقة من اجود المناطق الزراعية في الاغوار . وكان حسين بن ناصر قد اقطع وصفي التل مساحة ٣٠٠ دونم في الغور الشمالي قرب اربد حينما تولى الاول الوزارة عام ١٩٦٤ . كما ان هناك الكثير من الاقطاعيات لرجال الحكم وافراد من الاسرة المالكة في هذه المنطقة . وهذا كله يشير الى نتيجة واحدة ، هي ان هذه الاراضي بحاجة لمن يفلحها . فهل تتوفر الايدي الزراعية «الماهرة» من غير فلاحي المخيمات الذين سينقلون الى هذه المناطق ؟ ان الاجابة على هذا التساؤل تشير بوضوح الى معالم هذه المؤامرة الجديدة . ويذكر بعض المطلعين على حيثيات هذا المشروع المؤامرة ان حكومة الولايات المتحدة الامريكية قد كلفت سفيرها في عمان ابلاغ الحكومة الاردنية موافقتها على تمويل هذا المشروع كاملا وبدون تحفظ وذلك قبل ان تجري بعض الامور الشكلية على هذا المشروع ، مثل اقراره بارادة ملكية وعرضه على الممولين لاجراء مناقصة عليه .

---

(٢) كان أهالي قرية الشيخ حسين الموجودة في منطقة الاغوار قد تركوا قريتهم بعد حرب حزيران على اثر ما تعرضت له القرية من اعتداءات اسرائيلية . والان تحاول السلطة الاردنية اعادة سكانها المقيمين في قرى مجاورة اليها عن طريق القوة . ولا شك ان الثبات في الارض والصمود بوجه العدوان ضرورة وطنية ولكنها لا تتم بغير الاقناع المستند الى توفير الحماية لهؤلاء المواطنين ، لكن الذي يجري هو العكس ، حيث شاهد الاهالي تردد الجنود الاسرائيليين على بيت المختار (نهار الصالح العواد) والسهر عنده وتطمينه بضرورة احضار اقاربه لانه لن يكون هناك خطر عليهم . وحينما اشتكى هؤلاء الى السلطة رفضت شكواهم واعتبرتهم من المشاغبين .

ثلاثة آراء حول
مؤتمر الكتّاب والصحافيين الفلسطينيين

ثلاث وجهات نظر حول المؤتمر الاول للاتحاد العام للكتّاب والصحفيين الفلسطينيين ، تنشرها « شؤون فلسطينية » وهي معنية أساسا بأمرين :

الامر الاول : حرصها الدائم على ان تسجل وثائق كل مؤتمر فلسطيني ، او على علاقة بالقضية الفلسطينية ، كوثيقة يمكن الرجوع اليها فيما بعد من قبل الباحثين والدارسين .

الامر الثاني : حرصها على الموضوعية في المعالجة ، هذه الموضوعية التي تستدعي ، تجاه مؤتمر الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، فسح المجال أمام اكثر من وجهة نظر ، بسبب ما اثير حوله من انتقادات وملاحظات .

ونحن نحرص دائما على تسجيل هذه الوقائع ، حتى في زحمة الاحداث السياسية ، كي لا تضيع ، وكي لا يطغى عليها النسيان . هذا وقد كتب كل من الاخوان رأيه دون ان يطلع على ما كتبه الآخران .

(١) بلال الحسن

شهدت بيروت في السادس من أيلول ١٩٧٢ انعقاد المؤتمر الاول للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، الذي اثيرت حوله قبل أن يعقد ، وأثناء انعقاده ، وبعد أن انهى اعماله ، سلسلة من المناقشات والانتقادات ، كانت لهـا دوافع متناقضة .

قبل الانعقاد كانت هناك مشكلة اتحاد الكتاب الفلسطينيين القديم في القاهرة .

واثناء الانعقاد برزت مشكلة عضوية المؤتمر وطريقة تكوينه .

وبعد الانعقاد تركز النقد حول الامانة العامة الجديدة ، ومدى تمثيلها للكتّاب والصحفيين الفلسطينيين .

وسنحاول هنا استطلاع الاطار العام للمناقشات التي دارت حول هذه القضايا .

اتحاد القاهرة :

من المعروف ان دائرة التنظيم الشعبي في منظمة التحرير الفلسطينية هي التي تشرف على كافة الاتحادات الفلسطينية ، انطلاقا من ان هذه الاتحادات تعتبر نفسها قاعدة من قواعد منظمة التحرير . الا ان العلاقة بين اتحاد الكتاب في القاهرة وبين دائرة التنظيم الشعبي لم تكن منذ البداية ، علاقة ايجابية ، ويعود ذلك الى اسباب عدة منها :

١ ــ ان اتحاد الكتاب في القاهرة لم يكن يمنح منظمة التحرير التأييد التي تمنحه لها الاتحادات الفلسطينية الاخرى . بل كان على العكس من ذلك مركز تجمع لعناصر معارضة ذات دوافع لا يمكن الركون اليها .

٢ ــ ان عضوية الاتحاد ، كانت محدودة جدا ، بحيث يصح التساؤل اذا كان هذا الاتحاد يمثل الكتاب الفلسطينيين ام لا ؟

٣ ــ ان نشاطات الاتحاد كانت شبه مجمدة ، حتى يمكن القول انه لم يكن له وجود فعلي .

وفي عام ١٩٧٠ حاولت دائرة التنظيم الشعبي تشكيل اتحاد جديد للكتاب والصحفيين الفلسطينيين وجرى تشكيل لجان تحضيرية في أكثر من بلد عربي ، بل ان انتخابات جرت في عمان لهذا الغرض ، ثم ما لبثت دائرة التنظيم الشعبي أن اتخذت قرارا بالغائها . ومع بدايات عام ١٩٧٢ برزت الفكرة من جديد ، واتخذت دائرة التنظيم الشعبي ، ودائرة الاعلام في المنظمة قرارا بتشكيل لجنة

تحضيرية مهمتها الاعداد لعقد مؤتمر عام .

هل كان هذا القرار يعني حلا للاتحاد القديم في القاهرة ؟ لقد نشرت رسميا معلومات تقول ان قرارا بالحل قد اتخذ ، ثم تمت اجراءات تدل على العكس . خبر الحل نشرته جريدة فتح بعد وفاة السيد خيري حماد الامين العام للاتحاد . والاجراءات التي تدل على عكس ذلك ، تمت حين اعتبر اعضاء الامانة العامة لاتحاد القاهرة اعضاء في اللجنة التحضيرية لعقد المؤتمر الجديد، وذلك بعد مناقشة جرت في اللجنة التحضيرية ، رأى فيها اعضاء اللجنة ان مهمتهم ليست هدم اتحاد موجود ، بل بناء اتحاد يعبر فعلا عن القاعدة العريضة للكتاب والصحفيين الفلسطينيين. وقد استجاب لهذه الدعوة عدد من اعضاء الامانة العامة لاتحاد القاهرة ، بينما رفضها عدد اخر منهم . الذين استجابوا للدعوة شاركوا في الجلسات الاخيرة للجنة التحضيرية ومناقشاتها . والذين رفضوا الدعوة ، عقدوا المؤتمر الثالث لاتحاد الكتاب في القاهرة ، وانتخبوا السيد « عوده بطرس عوده » امينا عاما جديدا ، وذلك في شهر آب الماضي .

وقبل أن يعقد المؤتمر العام الجديد في ٦ ايلول ، جرت محاولة اخيرة لحل الخلاف القائم ولكن السيد عوده رد على هذه المحاولة برسالة الى اللجنة التحضيرية يعلن فيها انه لا يعارض عقد مؤتمر بيروت اذا اقتصر على ان يكون مؤتمرا للصحفيين الفلسطينيين ، على أن يبقى اتحاد القاهرة اتحاداً للكتاب . ولكن هذا الاقتراح رفض ، وتقرر عقد المؤتمر بتاريخه المحدد ، على أن يكون مؤتمرا للكتّاب والصحافيين ، يستمد شرعيته من قاعدته العريضة ، ومن اعتراف منظمة التحرير به .

اللجنة التحضيرية :

وهنا لا بد ان نقف قليلا عند أعمال اللجنة التحضيرية لنقيم ما انجزته بصدد التحضير للمؤتمر. لقد بذلت اللجنة جهدا ملحوظا لاعداد الوثائق الاساسية اللازمة لمؤتمر تأسيسي ، وأجرت الاتصالات اللازمة مع الاتحادات المماثلة ، عربيا ودوليا ، لتشارك في المؤتمر . واتخذت تجاه بعض القضايا الاساسية ، قرارات واعية ، كان أبرزها موضوع العضوية . ففي هذا الموضوع خرجت اللجنة عن الاعتبارات التقليدية ، واقرت شروطا نضالية للعضوية تمثلت في بندين :

البند الاول : فتح مجال العضوية امام العاملين في مؤسسات حركة المقاومة الاعلامية ، البعيدين عن الضجيج ، وغير المعروفين على صعيد الصحف والاعلام العلني والتجاري .

والبند الثاني : فتح مجال العضوية امام العرب العاملين في أجهزة الاعلام الفلسطينية انطلاقا من أن الانتماء للعمل الوطني الفلسطيني هو انتماء نضالي ، وليس انتماء بالجنسية فقط .

وعند مناقشة الاعتبارات التي ستحكم تشكيل الامانة العامة للاتحاد أقرت اللجنة التحضيرية ، انه لا بد من مراعاة التوزع الجغرافي للكتاب والصحفيين الفلسطينيين كما لا بد من مراعاة التيارات السياسية بين صفوفهم ، ولكنها أقرت قبل ذلك كله ، ان عنصر الكفاءة لا بد ان يكون المقياس الاول سواء في مراعاة موضوع التوزع الجغرافي ، او التيارات السياسية .

ولكن اللجنة التحضيرية ارتكبت في المقابل خطأين أساسيين :

الخطأ الاول : تمثل في مستوى الابحاث التي اعدت للمؤتمر ، والتي لم يجر التفكير فيها الا في آخر لحظة ، بحيث جاءت هذه الابحاث، السياسية منها والادبية ، ادنى بكثير مما هو مطلوب من مؤتمر تأسيسي للكتاب والصحفيين ، يفترض فيه أن يكون قاعدة للتوجيه والتطوير ، وليس مجرد اداة لتكرير الافكار الشائعة . ولم يكن ليليق بالمؤتمر ان يكون التقرير السياسي الوحيد الذي طرح فيه للمناقشة متخلفا مثلا عن التقرير الذي قدم للمؤتمر الشعبي الفلسطيني .

الخطأ الثاني : تمثل في رضوخ اللجنة التحضيرية لضغوط المنظمات ، وقبولها تشكيل لجنة خماسية تمثل منظمات اللجنة التنفيذية ، للبت في عضوية المؤتمر ، وفي الواقع فان تشكيل هذه اللجنة وتحديد مهمتها ، تم باتصالات فردية ، ومن وراء ظهر اللجنة التحضيرية . وما عرف عن مهمتها من قبل اعضاء اللجنة التحضيرية، انها جاءت للمساعدة فقط وحتى أسماء اعضاء هذه اللجنة الخماسية ، لم تكن معروفة لعدد كبير من اعضاء اللجنة التحضيرية ، بل ان بعض اعضاء اللجنة التحضيرية لم يكن يعرف بوجودها أصلا .

على يد اللجنة الخماسية ، التي شكلت للمساعدة كما قيل ، تم اعداد لائحة العضوية ، وهنا بدأ

الاشكال الحقيقي حول المؤتمر . فقد انطلقت هذه اللجنة من المبدأ النضالي الذي أقرته اللجنة التحضيرية والقائل بحق العاملين في أجهزة الثورة الاعلامية بالانضمام الى عضوية الاتحاد والمؤتمر ، لتجعل منه بابا للتنافس البعيد عن الروح النقابية السليمة ، وغير الحريص على بنية الاتحاد الداخلية ، فقد كان هم ممثلي المنظمات ان يحصلوا على أكبر عدد من الاصوات التي تمثلهم في المؤتمر ، سواء أكانت هذه الاصوات تنطبق عليها شروط العضوية ام لا ، ولذلك شهدت قاعة المؤتمر حشدا كبيرا من أعضاء المنظمات لا يمتون بصلة الى عالم الكتابة ، بكافة أشكالها . وكان لا بد لهذه القضية الهامة والاساسية ان تعكس نفسها على كافة اعمال المؤتمر ، على مستوى مناقشاته، ثم على طبيعة تشكيل الامانة العامة ، واخيرا على اسلوب انتخابها . ومنذ اللحظات الاولى لانعقاد المؤتمر ، كانت طبيعة تشكيله ونمط العضوية فيه ، حديث الجميع ، ومركز الاستقطاب في انتقاداتهم . ونتيجة لهذا الجو السائد ، فقد تركز اهتمام عدد كبير من أعضاء المؤتمر على مناقشات لجنة النظام الداخلي ، وحاولوا جهدهم اعادة صياغة البنود التي تتعلق بعضوية الاتحاد بصورة دقيقة تضع حدا لاي تلاعب بها في المستقبل يخرجها عن حدودها النقابية السليمة ، على أن تكون من اولى مهمات الامانة العامة بعد انتخابها، اعادة النظر بعضوية الاتحاد بناء على شروط العضوية المقرة .

الامانة العامة :

واذا قفزنا عامدين عن مستوى المناقشات التي تمت في المؤتمر ، وعن مستوى التوصيات التي اتخذت، لنصل مباشرة الى قضية الامانة العامة ، لسنجد أنفسنا مباشرة ، امام القضية التي كادت ان تفجر المؤتمر ، بسبب الافق الضيق الذي عولجت به سياسيا ونقابيا . فكما تحكمت لجنة الخمسة التي تمثل المنظمات بعضوية المؤتمر ، تحكمت مرة اخرى بتشكيل الامانة العامة . فقد التقت هذه المنظمات ، واتفقت فيما بينها على أمانة عامة مشكلة من خمسة عشر عضوا ، كان واضحا تماما أنها اختيرت بناء على قاعدة واحدة ، هي توازن القوى (قوى الاصوات) بين المنظمات ، دون أن تأخذ بعين الاعتبار نوعية المؤتمر ، كمؤتمر للكتاب والصحفيين ، ودون أن تلتزم بالقرار الذي اتخذ في اللجنة التحضيرية ، والذي نص على أن تكون الكفاءة هي المقياس الذي يعتمد في الحوار حول طبيعة تشكيل الامانة العامة للاتحاد . والقاعدة التي اتبعت في تشكيل الامانة العامة كانت كما يلي: حدد لكل تنظيم ان يعين عددا من اعضائه حسب نسبة اتفق عليها ، وان يعين بالاضافة الى ذلك مستقلا يختاره هو . ولما كانت التنظيمات لا تملك بين اعضائها او بين المستقلين المقربين اليها اسماء تتمتع بالكفاءة اللازمة ، فقد جاء تركيب اللائحة معبرا عن توازن القوى التنظيمي ، وبعيدا كل البعد عن التعبير عن الكتاب والصحفيين. ولتوضيح الجو العام الذي ساد في مناقشات الكواليس ، يكفي أن نذكر ان لجنة الخمسة ناقشت لمدة طويلة ترشيح الشاعر محمود درويش للامانة العامة ، ثم كان قرار الاغلبية بالرفض ، وخلت القائمة من كتاب وصحافيين مرموقين لانه لم يوجد تنظيم يقترح ترشيحهم . وبناء لذلك تشكلت القائمة المقترحة على الشكل التالي :

— ٢ اعضاء لفتح ومستقل تختاره .

— ٢ اعضاء للصاعقة ومستقل تختاره .

— عضو واحد لكل من الديمقراطية والشعبية وجبهة التحرير العربية ، اضافة الى مستقل تختاره .

— عضوان من المستقلين .

وقد أثار تشكيل هذه القائمة ، ضجة واسعة في اوساط المؤتمر ، وتمثل الرد عليها بتقديم قائمة اخرى ، تجمع بين اسماء الكتّاب الفلسطينيين المعروفين ، وأسماء ممثلي المنظمات ، لتحقق تزاوجا بين العامل السياسي والعامل النقابي في تشكيل أي مؤسسة نقابية ، كما تمثل الرد عليها بترشيحات فردية اخرى . ولكن كان واضحا بشكل مسبق أن القائمة المقرة من قبل المنظمات هي التي ستفوز بحكم طبيعة تشكيل المؤتمر التي تحدثنا عنها ، وبالفعل فقد فاز بالانتخابات ١٣ عضوا من أصل ١٥ من اعضاء القائمة ، ولم يفز من الاسماء المرشحة خارجها الا غانم زريقات والدكتور انيس صايغ (وحل محمود درويش محل بلال الحسن الذي انسحب من القائمة) .

وقبل أن تعلن نتائج الانتخابات بصورة نهائية ، تبين أن المنظمات بالرغم من اتفاقها على قائمة موحدة ، الا أنها قامت بعملية تلاعب على بعضها

البعض ، ادى الى سقوط ممثلي الصاعقة الثلاثة ، وكان من الواضح ان اعلان القائمة بهذا الشكل سوف يثير ازمة سياسية بين المنظمات ، قد لا تقتصر على الاتحاد ، لتسحب نفسها على مجالات اخرى للوحدة الوطنية . ولحل هذه الاشكال تصرفت بعض جهات المؤتمر على الشكل التالي :

١ — طلبت من السيد رشاد ابو شاور أن يسحب ترشيحه ليفوز مكانه السيد فايز قنديل من الصاعقة ، الموازي له بالاصوات ؛

٢ — طلبت من الدكتور انيس صايغ ان يعلن استقالته !! ليصبح في القائمة فراغ يسمح بادخال ممثل آخر للصاعقة . وقد أعلنت استقالة الدكتور انيس صايغ ، رغم انه رفض الاستقالة . ثم طلبت من السادة عبدالله حوراني، وزهدي النشاشيبي، سحب ترشيحهما (وكان ترتيبهم بالاصوات يلي آخر الناجحين) حتى يفسحوا المجال لنجاح السيد عبد الرحمن غنيم ، كممثل للصاعقة .

وقد رفضت الصاعقة هذه التسوية ، واعتبرتها مهينة لها ، وأصدرت بناء على ذلك بيانا يعلن انسحابها من الامانة العامة ، ثم قيل ان اللجنة التنفيذية شكلت لجنة للمصالحة ، قررت الصاعقة على اثرها أن تعود وتسهم في عضوية الامانة العامة للاتحاد . ونتيجة لكل هذه الاشكالات لم تعلن رسميا حتى الآن أسماء اعضاء الامانة العامة ، ولا تشكيلاتها الداخلية التي تمت بعد الاجتماع الاول الذي عقدته ، والتي انتخب فيها السيد ناجي علوش أمينا عاما للاتحاد .

ملاحظات لا بد منها :

لقد تعمدنا حتى الان ان نقف عند الوقائع ذات الدلالة ، وان نسردها كما حدثت بكل ما يترتب عليها من تقييمات . الى جانب الوقائع لا بد من وقفة قصيرة لمناقشة بعض الحجج التي اثارتها الاشكالات التي احاطت بهذا المؤتمر .

ومن اهم هذه الاشكالات قضية البنية النقابية للاتحاد . فهناك تيار داخل المؤتمر هلل للوضع الذي ساد انطلاقا من القول بأن المهمة النقابية هي مهمة سياسية بالدرجة الاولى ، وان الالحاح على الجانب النقابي يقود الى الغرق في النضال المطلبي « الاقتصادي » الذي يبعد النقابة عن المجرى الثوري للنضال . وفي ظروف العمل النقابي الفلسطيني ، فان التركيز على الجانب السياسي فيه ، ضرورة يفرضها الواقع النضالي اليومي . وينطلق أصحاب هذا التيار من هذا الرأي ليبرروا تصرف المنظمات الذي تم سواء في تشكيل المؤتمر أو في انتخابات الامانة العامة . ولكن هذا المنطق السليم نظريا (والمأخوذ من الكتب باتقان) يتجاهل اوليات العمل السياسي للنقابة او الاتحاد ، سواء كان اتحادا للكتّاب او العمال او الطلاب ، هذه الاوليات التي تفرض ، يكون هناك **جسم نقابي** اولا ، حتى يستطيع هذا الجسم النقابي ان يناضل من أجل مهمات سياسية محددة، وان يكون نضاله حين يتم تعبيرا عن قطاع اجتماعي معين ومحدد وصاحب مصلحة في تشكيل الاتحاد ومواقفه السياسية . اما حين يتم بناء الاتحادات بطريقة فوقية من جهة ، وحسب شروط لا تبلور جسما نقابيا يعبر عن قطاع اجتماعي محدد من جهة اخرى ، فان الوصول الى النضال السياسي المطلوب من النقابة او الاتحاد يصبح مطلبا عزيزا لا يمكن نواله . ونجد انفسنا في النهاية امام قيادة عليا (امانة عامة أو أي اسم آخر) لا تمثل الا نفسها ، ولا تعبر في مواقفها السياسية الا عن أجتهادات أعضائها . وحين اباحت المنظمات لنفسها أن تشكل عضوية الاتحاد والمؤتمر بطريقة لا تمت الى النقابية بصلة ، حكمت على النضال السياسي المطلوب من الاتحاد ان يكون نضال بيانات تعبر عن اشخاص الامانة العامة ، لا نضال مواقف تعبر عن قطاع اجتماعي يلتف حولها .

وهذه الظاهرة في العمل النقابي التنظيمي ، تكاد أن تكون ظاهرة عامة وهي تعبر عن نفسها بمظهر بسيط يتكرر باستمرار ، حين يكون عدد المنتخبين في كل اتحاد من الاتحادات الفلسطينية يفوق المئات بينما لا يتجاوز عدد العاملين فعلا في هذه الاتحادات اشخاصا معدودين . واذا كان هذا المنهج قد فرض نفسه حتى الان على الاتحادات الفلسطينية الاخرى فقد كان المطلوب بداهة ان يكون اتحاد الكتاب والصحفيين ، اي الاتحاد الذي يفترض فيه أن يكون مركز التوجيه والتثقيف الجماهيري ، ميدانا لبلورة تجربة نقابية سليمة تكون قدوة للاتحادات الفلسطينية الاخرى ، تسعى للنسج على منوالها ، حتى يمكن الارتفاع بمستوى العمل النقابي الفلسطيني . ولكن الذي حدث ، كان تكريسا للتقاليد السائدة ، وارتياحا لاساليب العمل التي تنتجها . وتحت ستار الضرورات

السياسية جرى اغتيال الاوليات النقابية ، التي لا يمكن لعمل سياسي ان يعيش بدونها .

ومن الاشكالات الاخرى التي اثارها المؤتمر قضية « الكفاءة » . فقد برز تيار يقول أن هناك من يتحمس للكفاءات مأخوذا بعنصر الشهرة فقط متجاهلا التيار الواسع من الكتاب الثوريين غير المعروفين على نطاق جماهيري وأن امانة عامة تتشكل من الكفاءات هي أمانة عامة لا تعمل . لقد اراد هذا التيار في مناقشاته ان يضع الكفاءة مقابل الثورية وان يوجد بينهما تناقضا مبدئيا ، وهو منطق اضعف من أن يناقش او ان يرد عليه ، خاصة في ميدان الكتابة ، وكأن هناك من يريد ان يحكم سلفا على أن كل كاتب فلسطيني استطاع ان ينتزع اعترافا بكفاءته ، وان يحقق عن طريق هذه الكفاءة شيئا من الشهرة ، هو كاتب فقد ثوريته ، بل أنه يقف عقبة أمام نمو اجيال جديدة من الكتاب والصحفيين. ولعل أفضل ما ينقض هذه الحجة المناقشات التي جرت في الكواليس مع ممثلي المنظمات وركزت على اهمية الجانب السياسي في تكوين الامانة العامة ، بل على أهمية ان تكون الاغلبية فيها للمنظمات ، شرط أن يتوفر في عضوية الامانة العامة عدد من الكتاب والصحفيين الذين تؤهلهم كفاءتهم وان يؤهلهم التزامهم الوطني لاحتلال هذا المنصب ، ولكن هذا الاقتراح رفض امام صراع التوازن بين المنظمات الفدائية ، التي كانت منشغلة بالجانب (التنظيمي) ، وليس السياسي ، في تشكيل الامانة العـامة .

اقتراح أخير :

على ضوء هذه الصورة لواقع المؤتمر العام لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، لا نستطيع ان نجد مخرجا لازمته الا بالعمل على تحقيـق الامور التـالية :

اولا : ان تتحول الامانة العامة المنتخبة الى لجنة تحضيرية لمؤتمر عام جديد .

ثانيا : ان تعيد الامانة العامة ، بعد أن تتحول الى لجنة تحضيرية ، النظر في عضوية الاتحاد ، مطبقة في ذلك شروط العضوية المحددة كما اقرتها لجنة النظام الداخلي .

ثالثا : ان تجري الدعوة لعقد مؤتمر ديمقراطي ، في وقت قريب ومناسب . تتحقق فيـه الشروط النقابية للعضوية، حتى يصبح للبحث في الاعتبارات السياسية ، التي لا يجوز انكارها ، معنى ثوري حقيقي .

وبدون ذلك ، فان المؤتمر الذي عقد ، والامانة العامة التي انتخبت ، لا تعبر عـن الكتـاب والصحفيين الفلسطينيين . وهي أمانة عامة مطعون بشرعيتها ، قبل أن يكون هناك طعن بكفاءتها فـي تمثيل هذا القطاع الفلسطيني الهام .

(٢) شفيق الحوت
ثلاث ملاحظات وأربع نتائج !!

الثورة ، اية ثـورة ، هي في الاساس رفـض للواقع ، يتم التعبير عنه بأسلوب ثوري قادر على تجاوز الواقع المرفوض ، وتحقيق « واقع » جديد اكثر ملاءمة وتطابقا مع اهداف الثوار .

والثورة عملية مستمرة ومتصاعدة ، بمعنى أنها ترفض — كذلك — الوقوع في أسر منطق مرحلة من مراحلها وتكريسه منطلقا خالدا وواقعا دائما .

فمثلا ، اذا كان التعدد في فصائل الثورة قد اعتبر ظاهرة صحية في مرحلة من مراحل النضال ، فهذا لايعني التمسك بهذه المقولة عن هذه « الظاهرة الصحية » الى أبد الابدين ، وتكريس التعدد بناء عليها . بل أن ما يمكن اعتباره في مرحلة ما ظاهرة ايجابية ، قد يصبح بعد تطـور ظروف النضال السياسية ظاهرة سلبية ، وربما قاتلة .

وهذا ليس « اختراعا » ثوريا جديدا نحاول ادعاءه او فرضه ، بل ان هذا في حقيقة الفكر الثوري ليس سوى بديهية اولية في ابجدية «النظرية والتطبيق» في الكفاح الثوري .

وعندما نسلم بهذه البديهية ، ولا خيار لاحد الا التسليم بها ، فاننا عندئذ نستطيع ان ننقد اي جانب من جوانب نشاطنا بايجابية الثوار ، وبابتعاد كامل عن العواطف الشخصية ، فردية كانت ، ام تنظيمية ، وبالتالي نكون بنقدنا هذا أدينا واجبا ثوريا مطلوبا من كل عامل في الثورة ، مهما كان موقعه فيها .

بهذا المنظار وهذه الروحية ، فاننا نتعرض للمؤتمر العام لاتحاد كتاب وصحفيي فلسطين وما ترتب عليه من نتائج ، بهدف تطوير اجهزة منظمة التحرير الفلسطينية والارتقاء بها شيئا فشيئا الى المستوى الثوري المنشود .

ان جميع المعنيين بشؤون التنظيمات السياسية ، والثورية منها بشكل خاص ، يعرفون تمام المعرفة ان الهدف الاساسي من انشاء الاتحادات المهنية والنقابية والتنظيمات الشعبية ، هو استقطـاب أوسع القواعد الشعبية — وبشكل خاص غـير الملتزمة بتنظيمات سياسية محددة — الى الاطار السياسي العام الذي تقوده تلك التنظيمات تحت راية الثورة . لانه من طبيعة التنظيمات السياسية، ولا سيما الثورية ، بسبب ظروف النضال السري، ان تكون محدودة العدد . وكي تنتشر رسالتهـا الثورية بين الجماهير ، التي هي اولا واخيرا اداة الثورة الراسخة ، فان الاتحادات المهنية والشعبية وجدت لتقوم بهذه المهمة الثورية الاساسية .

هذه كذلك ، بديهية اخرى من بديهيات النضـال التنظيمي ، التي لا يختلف عليها اثنان ، واي ممارسة تناقض هذه البديهية تسيء مـن غير شك للثورة ولا تعطي الا مردودا سلبيا .

فماذا جرى بالنسبة لاتحاد كتاب وصحفيي فلسطين، على ضوء هذه البديهية التنظيمية ؟

وسنوجز في ملاحظاتنا لسببين ، رغم الحاح الحاجة للتفصيل .

الاول : ان « شؤون فلسطينية » طلبت الايجـاز وحددت مساحة التعليق .

الثاني : أن الكثير من التفاصيل المطلوبة ليست سرا على احد ومعروفة بشكل او بآخر للمهتمين بشؤون الاتحاد .

● الملاحظة الاولى : ان قضية الاتحاد « السابق » بقيت ولا تزال معلقة من حيث الغاؤه او الابقاء عليه . وهذا تقصير من قيادة المنظمة التي كـان عليها أن تحسم بالقضية تلافيا للبلبلة والازدواجية. ومما زاد في القضية تعقيدا ان في قيادة المنظمـة تناقضا في الموقف حول هذا الموضوع وصل حـد المكاتبات الرسمية المتناقضة .

● الملاحظة الثانية : ان قيادة المنظمة ، ممثلـة بمن مثل المنظمات المتعددة — اللجنة التحضيرية — لجأ في طرحه لموضوع انشاء الاتحاد الجديد الى الاسلوب التقليدي الذي شل او يكاد ، كـل الاتحادات التابعة للمنظمة . وهـو الاسلوب التوفيقي ، الذي يركز على المنظمات وتمثيلها ، ضاربا بعرض الحائط الاغلبية الساحقة من غير المنتمين تنظيميا ، والملتزمين بالثورة مـن ابنـاء الشعب .

● الملاحظة الثالثة : وبسبب الاسلوب التوفيقي اولا ، وانطلاقا من فقدان الثقة بين المنظمات ، فقد عمدت اللجنة التحضيرية لتنسيب اعضـاء

للاتحاد بالجملة ودون اي اعتبار لشروط العضوية، مما افقد الاتحاد قيمته النوعية . والنوعية في اتحاد كاتحاد الكتاب قضية اساسية لا يمكن التهاون فيهـا .

وقد شهد المؤتمر ، لهذا السبب ، مآسي مخزية بالفعل أثارها جهل العديدين من الحاضرين ، بشكل لا يليق ابدا بسمعة شعبنا وثورتنا .

من هذه الملاحظات الموجزة جدا ، يستطيع الواحد ان يتنبأ مسبقا بما سيترتب ، وترتب بالفعل ، من نتائج . وهي بايجاز أيضا :

اولا : ان الاتحاد الجديد ، بدل أن يستقطب المزيد من القاعدة المثقفة خسر تلك القلة التي كانت فيه بعد أن أحس الجميع بأن المؤتمر ، لـم يعد مؤتمرا مفتوحا للكتاب ، بقدر ما هو مؤتمر لكوادر المنظمات ، رفع عليه يافطة تقول انه مؤتمر للكتاب والصحفيين .

ثانيا : ان الامانة العامة التي انبثقت عنه أصبحت معزولة منذ تشكيلها [ولا اقول انتخابها والكل يعرف لماذا] فوقعت في المطب الذي كانت تأخذه على الامانة السابقة ، رغم حرمان تلك الاخيرة من الكثير من حقوقها على المنظمة .

ثالثا : جاء المؤتمر الاخير كدليل جديد ، يعكس أزمة الثورة المزمنة ، في موضوع علاقات المنظمات مع الجماهير وعناصر الثورة من غـير المنتمـين والملتزمين في اطارها العريض .

رابعا : كشف المؤتمر ــ ولعـل هـذه احدى ايجابياته ــ اخلاقية بعض العاملين في الثورة من المثقفين البورجوازيين الذين يمارسون عكس مـا يزعمون لانفسهم من مواقف ثورية . اذ اتضح منذ اليوم الاول للمؤتمـر ان كل هــذا التجمع ليس الا « ديكورا » لاسباغ الشرعية على عدد من الافراد كقادة للكتاب والصحفيين الفلسطينيين .

وقد كان ذلك بارزا بشكل خلا حتى من « اللياقة » مما اساء الى العديد من كتابنا وادبائنا من أبناء الرعيل الذي سبقنا في حمل المشعل ، مما اعطى المؤتمر والمؤتمرين صفة لا تجوز من عدم الوفـاء والتقدير لمن يعمل في قضية بلاده .

خامسا : كذلك كان من الطبيعي بعد عزل غير المنتمين والاتفاق على لائحة « الكوتا » أن يقـع التناقض بين ممثلي المنظمات انفسهم . وهـذا ما حدث ، وعلمه لدى الجميع، الامر الذي فجر ما تبقى من نتائج المؤتمر .

سادسا : من هذا كله ، وعودة الـى البديهتين اللتين اشرنا اليهما تجد أن ما مارسته « اللجنة التحضيرية » قد جاء مناقضا لكل النتائج المرجوة من المؤتمر ، واضافت الى سلسلة الاتحادات التي تعاني من مثل هذا التركيب اتحادا جديدا هو ما يسمى بـ « اتحـاد الكتـاب والصحفيـين الفلسطينيين » .

ما العمل ؟

لا حل الا بالعودة الى الجوهر وطرح السـؤال الثوري :

ــ لماذا نريد الاتحاد ؟ ومن هم الذين نريـد استقطابهم لتوسيع وتعميق دائرة الاتصال بين الثورة والجماهير .

هذا بالطبع ان اردنا اتحادا للشعب ، لا للمنظمات او الافراد .

(٣) ناجي علوش

حول المؤتمر العـام لاتحـاد الكتـاب والصحفيين الفلسطينيين

بيروت ٦ ـ ٩/٩/١٩٧٢

عقد مؤتمر عام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين في بيروت ما بين السادس والتاسع من أيلول سنة ١٩٧٢ . وقد حضره نحو ٣٠٠ اديب وصحفي من لبنان وسورية ومصر والعراق والكويت . ومع أن الدعوات وجهت الى كتاب وصحفيين في ليبيه وتونس والجزائر والمغرب ، الا انه لم يأت أحد من هناك .

وكان معظم الحاضرين من سورية ولبنان ، لانهما يضمان أكبر تجمعين للكتاب والصحفيين الفلسطينيين .

وكان الداعي الى عقد المؤتمر خلق مؤسسة للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ترعى شؤونهم وتنظم علاقاتهم ، وتزيد من فعالية مساهماتهم في خدمة القضية الفلسطينية .

ومع انه كان هنالك اتحاد للكتاب الفلسطينيين ، عقد مؤتمرين ، فان عدد الذين شاركوا في المؤتمرين كان ضئيلا اذ حضر الاول المنعقد في غزة سنة ١٩٦٦ اثنان وثلاثون شخصا فقط ، وحضر الثاني المنعقد في القاهر سنة ١٩٦٩ سبعة عشر شخصا فقط ، ولذلك ظل اتحاد الكتاب السابق ضعيفا، وظل مقطوع الصلة بالقاعدة . أما هذا المؤتمر فقد جاء اضخم مؤتمر للكتاب والصحفيين فعلا وشارك فيه عدد لا بأس به من الكفاءات الفلسطينية التي عودتنا دائما عدم حضور المؤتمرات المماثلة ، وخاصة مؤتمري غزة والقاهرة .

ولا بد لنا في البدء من ان نشير الى ان هذا المؤتمر يختلف عن المؤتمرين السابقين في أن الذين حضروه ليسوا ادباء فقط ، بل ادباء وصحفيون . وان كان الصحفيون الذين حضروه لا يشملون كل العاملين في الحقل الصحفي ، كما تفعل نقابات الصحفيين ، بل شمل العاملين في التحرير منهم فقط .

وقد حاول بعض الذين راوا هذا العدد الكبير ان يسخروا من الحاضرين ، فسماهم البعض «قراء». وكان هذا التهجم ينطلق من منطلقين :

الاول : نظرة متعالية لا تعتبر اديبا او صحفيا الا اولئك الذين عرفوا واشتهروا ، اي وجاهة الادباء والصحفيين .

الثاني : نظرة ضيقة مسبقة ترفض ان تعترف بأن المؤتمر مؤتمر للادباء والصحفيين ، وتصر على ان المؤتمر مؤتمر ادباء ، مع أن اسمه المؤتمر العام للكتاب والصحفيين .

وما أود ان اؤكده ، وما ستؤكده الايام المقبلة هو أن عدد الادباء والكتاب والصحفيين الفلسطينيين اكبر من المشاركين في المؤتمر كثيرا .

ولقد كان من أهم اهداف المؤتمر :

١ ـ خلق مؤسسة توحد الكتاب والصحفيين وترعى مصالحهم ، وتزيد من مساهمتهم في خدمة قضيتهم.
٢ ـ تحديد موقف الكتاب والصحفيين الفلسطينيين في هذه المرحلة ، من القضايا الاساسية المطروحة عليهم ، وخاصة القضايا السياسية والمهنية .
٣ ـ توفير الفرصة لتعارف العدد الاكبر من الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، ولتفاعلهم . ٤ ـ انتخاب أمانة عامة تمثلهم وتعبر عن تطلعاتهم ومطامحهم .

ولقد تشكلت لجنة تحضيرية ، مهمتها الاعداد للمؤتمر ، مكونة من واحد وعشرين عضوا ، هم : غسان كنفاني ، محمود درويش ، شفيق الحوت ، عبد الكريم الكرمي ، ماجد ابو شرار ، فريد الخطيب ، د. نبيل شعث ، ابراهيم العابد ، بلال الحسن ، ناجي علوش ، مازن البندك ، انيس الخطيب ، حنا مقبل ، خالد علي مصطفى، هارون هاشم رشيد ، خالد ابو خالد ، غطاس صويص ، غانم زريقات ، عودة بطرس عودة ، د. نادرة السراج ، محمد زهدي النشاشيبي . وروعي في تشكيل اللجنة التحضيرية ان تمثل اجيالا مختلفة ، واتجاهات مختلفة ، وان تضم عددا من كتابنا وصحفيينا الكبار . وحين بدأت اللجنة التحضيرية تجتمع اكتشفنا أن نصابنا لا يزيد دائما عن النصف زائد واحد ، الكل موافق على اللجنة التحضيرية ، ولكن الذين يحضرون ليسوا جميع الاعضاء . وكان هنالك من حضروا

جلسة او اثنتين ثم غابوا ، مثل بلال الحسن ومحمود درويش والدكتور نبيل شعث . كما كان هنالك من لم يحضروا قط مثل شفيق الحوت وعودة بطرس عودة وعبدالكريم الكرمي (ابو سلمى) . وسارعت اللجنة التحضيرية في اعمالها يحدوها أمل في أن تعقد مؤتمرا نموذجيا ، ولكن اقتراب موعد المؤتمر كان يكشف كل يوم امورا جديدة منها :

اولا : لم يكن هنالك استعداد للمساهمة في كتابة الابحاث . لقد اعتذر الدكتور نبيل شعث عن كتابة بحث عن الاعلام ودوره في معركة التحرير واعتذر محمود درويش عن بحث وعد بكتابته حول دور الكلمة في الارض المحتلة يوم كان يجب ان يسلمه ، ولم يجب عبدالكريم الكرمي (ابو سلمى) على رسائلنا بضرورة كتابة دراسة عن دور الكاتب الفلسطيني في المعركة . وهذه مجرد امثال .

ثانيا : واخذت اللجنة التحضيرية ولجنة العمل المنبثقة عنها تحس انها وحدها تعمل ، وان الجميع متفرجون ، المؤتمر ليس له علاقة بهم . واخذت اللجنة التحضيرية تعمل وتعد فلا تجد مساعدا او معينا . وحتى الذين طلبت منهم مساعدتها في أعمال الاعداد والاستقبال لم تجد منهم حماسة او اندفاعا، ولم يشاركوا كما يجب أن يشاركوا .

ثالثا : وحين اقترب موعد المؤتمر بدأت المنظمات الفدائية ترمي بثقلها . قال بعضهم ان فتح تعمل للسيطرة على المؤتمر . وطالب آخرون بضمانات تقنعهم بان اللجنة التحضيرية غير متحيزة ، واخذت اللجنة التحضيرية تواجه الصعوبات ، وبدأت تحس أن المؤتمر سيجهض قبل ان يبدأ . وكان من نتيجة هذه الاتصالات ان نشأت لجنة خماسية تمثل المنظمات الخمس ، مهمتها مساعدة اللجنة التحضيرية ومراقبة اعمالها ، كي لا تنحرف او تتحيز . ولقد لعب انشاء هذه اللجنة دورا في بلبلة اللجنة التحضيرية وفي عرقلة اعمالها ، وفي اجبارها على اتخاذ مواقف وقرارات كانت اللجنة التحضيرية لا تريدها .

رابعا : وكان هنالك اتجاه يرى أن اهم ما في موضوع المؤتمر هو قضية الامانة العامة . ولذلك حاول التركيز عليها ، وأهمل ما دونها . بينما كنت أنا شخصيا أرى أن قضية الامانة العامة قضية مهمة ، ولكن هناك قضايا لا تقل أهمية ومن هذه القضايا : قضية الحوار والتفاعل داخل المؤتمر ، قضية النظام الداخلي الذي سيقره والقرارات والتوصيات التي سيتخذها .

ولقد كاد التركيز على قضية الامانة العامة ان يفجر المؤتمر قبل بدايته . كما كاد ان يفجره منذ اول ايام انعقاده . ولذلك حاولنا جهدنا ان نمنع اثارة القضية قبل يوم الانتخابات حتى لا ينفجر المؤتمر قبل انجاز مهماته .

خامسا : وحين بحثت قضية الامانة العامة كنت ارى انه من الضروري ان تتكون أمانة عامة تتسم بالكفاءة والقدرة على العمل والالتزام بالقضية الوطنية ، على ان تمثل الاتجاهات الوطنية المختلفة، وتعبر عن مصالح القواعد ومطامحهم . وكنت ارى ان الامانة العامة لا يجوز ان تكون « كوتا » للمنظمات ، كما لا يجوز ان يستثنى من عضويتها المناضلون من الكتاب والعاملين في الصحافة والاعلام، على ان يتم ذلك باعتبار الصفة الشخصية لا التنظيمية . ولكن المنظمات ضغطت باتجاه اخر . وكانت القائمة التي سميت قائمة الوحدة الوطنية ، والتي كنت عضوا فيها ، والتي دافعت عنها ، وناضلت من اجل انجاحها رغم عدم قناعتي الكاملة بها . ولكن ترشيح القائمة اثار موجة من التذمر بين فئتين : الاولى : تمثل بعض المستقلين الذين لم يجدوا لهم مكانا في القائمة ، ولم يرضهم تكوينها . الثانية : من قواعد المؤتمر التي كانت مطامحها اكبر من القائمة ، وكانت تريد ان تخرج أمانة عامة لا وجوه تقليدية فيها .

ولذلك رشحت قائمتان منافستان لقائمة الوحدة الوطنية ، الاولى ، قائمة شفيق الحوت التي ضمنها بعض اسماء من القائمة الاولى ، والثانية قائمة الشباب الذين رشحوا افرادا ، مثل رشاد أبو شاور ، وغانم زريقات ، عبد الكريم عبد الرحيم واخرين ممن اعلنوا انسحابهم ، والذين كانوا يدعمون بعض اعضاء القائمة الاولى ايضا. وبينما كانت الفئة الاولى تريد امانة تضم اسماء اكثر بريقا ولمعانا ، كانت الفئة الثانية تريد امانة اقرب الى القواعد بمجموعها ، واكثر تعبيرا عن خط سياسي جذري . وجاءت الانتخابات واذا بالفئة الاولى تقتحم لائحة الوحدة الوطنية بالدكتور انيس صايغ الذي لم يحضر ولم يشارك بسبب اصابته . كما ان الفئة الثانية اقتحمت القائمة بغانم زريقات ورشاد ابو شاور، ومرت قائمة الوحدة الوطنية باثني عشر عضوا. هل كان من الخطأ ان ترشح قائمة ؟ هذا اسلوب الانتخابات في كل مكان . وهو

اسلوب لا يتعارض مع الديمقراطية ، ويساعد في الوقت ذاته على نجاح مجموعة متعاونة متفاهمة او على قدر من التعاون والتفاهم. بعد هذا كله هل نجح المؤتمر ؟

لقد نجح فعلا ، لانه استطاع ان يخلق مؤسسة جديدة هي اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ولكن هذا النجاح كان يمكن ان يكون اكبر لولا مجموعة من العوامل : اولها : عدم مشاركة عدد من اعضاء اللجنة التحضيرية في اعمالها . وكانت مشاركة هؤلاء ستزيد من نجاحات المؤتمر في كل المجالات . ثانيها : عدم اهتمام الكتاب والصحفيين باعداد الدراسات اللازمة ، والوثائق اللازمة ، الضرورية للارتفاع بمستوى المؤتمر . ثالثها : اضطرار المشرفين على المؤتمر ان يلغوا الندوات العلنية ، وان يختصروا المناقشات بسبب الامن ، ذلك ان عملية ميونيخ اوجدت جوا كان يستدعي شيئا من احتياطات الامن اثرت على عدم الالتزام بالبرنامج المعلن .

وبعد هذا كله فان قرارات المؤتمر السياسية والاعلامية والمهنية تحدد خطا سليما وصحيحا يهتدي به الكتاب والصحفيون الفلسطينيون في المرحلة المقبلة .

ولقد جسد الكتاب والصحفيون الفلسطينيون باشراكهم الكتاب والصحفيين العرب ، العاملين مع المقاومة ، في المؤتمر ، التلاحم الحقيقي بين الثورة الفلسطينية والمثقفين العرب. ولقد توجوا هذا كله بانتخاب الاخ موسى شعيب الشاعر والمناضل اللبناني عضوا في الامانة العامة . ان هذا نصر كبير . وهو بادرة خيرة في المؤسسات الفلسطينية . ولكن انجازات المؤتمر كلها كادت تغيب في الضباب الذي احدثته نتائج الانتخابات ، وفي البيانات التي انطلقت تهاجم من هنا وهناك . ان المؤتمر لم يكن نموذجيا كما أردنا ، بسبب تقصير المتفرجين منا ، وبسبب الوضع الفلسطيني العام والعلاقات بين المنظمات وبين المنظمات وبعض المستقلين . ولكن المؤتمر ما كان يمكن ان يكون اكثر نجاحا في وضع مثل هذا الوضع . ومقدار نجاحه او فشله ستبرزه أمانته العامة الجديدة ، خلال الاشهر المقبلة .

رسالة من خالد محي الدين : رد على مقال
« مؤتمر بولونيا للسلام والعدل في الشرق الاوسط »

يهمني في ردي على تعليق السيد احمد خليفة كي يتوضح الامر للقارىء العربي ان تنشر أغلب الوثائق المرفقة او الجزء الاغلب منها اذ انني سوف احيل في كثير من ردي الى هذه الوثائق . الوثيقة الاولى(١) : وهي الاعلان الصادر عن الاجتماع التحضيري الاول « للمؤتمر العالمي للعدل والسلام في الشرق الاوسط روما ١٩ — ٢٠ ابريل ١٩٧١ » لانه الاساس السياسي للمؤتمر . والوثيقة الثانية(٢) : هي بيان اللجنة الايطالية عن الاجتماع التحضيري الثاني الذي لم يتم ١ — ٢ مارس ١٩٧٢ — والصادر في ٧٢/٣/٣ . والوثيقة الثالثة « هي ردي على مجلة الحوادث على ما نشر فيها في عدد ١٩٧١/١٢/١٧ وقد نشر في مجلة الحوادث اللبنانية في ١٩٧٢/١/٢١ — وأهميتها انها توضح الخطوات التي تمت ووجهة نظري الخاصة ووجهة نظر حركة السلام المصرية في الامر وهذا الرد كان سابقا على الاجتماع التحضيري الثاني الذي لم يتم . الوثيقة رقم « ٤ »(٣) هي رسالة موجهة مني للسيد جيدوفانتي رئيس اللجنة الايطالية للمؤتمر العالمي للعدل والسلام في الشرق الاوسط ردا على صورة رسالة وصلت الي فيها رأي اوري افنيري عن المؤتمر نشر اغلبها في مجلة « هاعولام هازيه » الاسرائيلية وقد طلبت من السيد جيدوفانتي ان يحولها الى كل من يهمهم الامر في كل البلاد ردا على رأي اوري أفنيري ، بجانب انني ارسلت منها نسخا عدة الى كل حركات السلام الاوروبية والعربية — وكانت باللغة الانجليزية والفرنسية وبتاريخ ١٦ يونيو ١٩٧٢ — وفيها اوضحت رأيي في كل ما جاء على لسان أوري افنيري في مجلة « هاعولام هازيه » او غيرها عن المؤتمر ، وفيها رد على كثير من النقاط التي اوردها السيد احمد خليفة في تعليقه على المؤتمر والذي اعتبر ان ما نشر في الصحافة الاسرائيلية هو فقط الصحيح . والوثيقة رقم « ٥ »(٤) هي التقرير السياسي الذي قدمته للمؤتمر السنوي للمجلس المصري للسلام — بصفتي سكرتيرا عاما للمجلس المصري للسلام — والذي ناقشه المجلس في اجتماعه السنوي ١٧ — ١٨ مايو ١٩٧٢ وحضر الاجتماع ممثلو عديد من حركات السلام من البلاد الاشتراكية والاوروبية والعربية وخاصة لجنة السلام الفلسطينية . واهمية هذا التقرير انه يعكس وجهة نظرنا في كل القضايا السياسية الخاصة بحل أزمة الشرق الاوسط وهو الرأي الوحيد الذي نلتزم به امام حركة السلام المصرية وكل جماهير شعبنا . وكذلك الوثيقة رقم « ٦ »(٥) وهي البيان السياسي الذي نلتزم به وليس هناك من خط سواه . والوثيقة رقم « ٧ »(٦) وهي اجتماع حركات السلام العربية في القاهرة في يوم ١٩ مايو سنة ١٩٧٢ . والوثيقة رقم « ٨ »(٧) قرار حركات السلام العربية بخصوص « المؤتمر العالمي للعدل والسلام في الشرق الاوسط » .

كنت أود قبل ان ينشر السيد احمد خليفة رأيه عن مؤتمر العدل والسلام في الشرق الاوسط ان يرسل الينا طالبا الوثائق ورأينا في توضيح عدد من النقاط وذلك كي يكون تعليقه شاملا كل الجوانب — او كان ينشر فقط رأي الدوائر الاسرائيلية في المؤتمر — اما وقد ادخل رأيه في الامر فكان من الواجب سماع وجهات النظر الاخرى حتى يكون التعليق شاملا لكل جوانب الصورة .

لسنا ملزمين بأي رأي ينشر في الصحافة الاسرائيلية . ان ما يلزمنا هي وثائق الاجتماعات الخاصة بالمؤتمر والاراء التي نشرناها نحن او صدرت منا . اما تفسير الصحافة الاسرائيلية فعلينا ان نطلع عليه ونضعه في الاعتبار ولكن لا نعتبر انه هو الشيء الوحيد الصحيح — (في

صفحة ٦٩ من عدد شؤون فلسطينية حزيران ٧٢ — راي افنيري في وثيقة اللجنة الايطالية وهي الوثيقة رقم « ٢ » يقول « انجاز كبير وخطوة هامة للامام على طريق تحقيق السلام في المنطقة لانه لاول مرة تنشر وثيقة بموافقة العرب تقرر بشكل واضح انه سيتم لقاء وجها لوجه بين عرب واسرائيليين ») .

ونرجو الاطلاع على الوثيقة رقم « ٢ » وهي وثيقة اللجنة الايطالية فليس فيها ما يشير الى اجتماع وجها لوجه بين عرب واسرائيليين — بل هي تعبير عن اجتماع عالمي لكل القوى المؤيدة للبيان السياسي ١٩ — ٢٠ ابريل ١٩٧١ (وهي الوثيقة رقم « ١ » **التي تعمل لتحضير المؤتمر والتي تبذل قصارى جهدها لحشد الرأي العام العالمي من اجل اقامة السلام الدائم والعادل في الشرق الاوسط** . وهذا وارد في نهاية الفقرة الثالثة من هذه الوثيقة رقم « ٢ » . هو اذا اجتماع عالمي لكل القوى المؤيدة للبيان السياسي (الوثيقة رقم « ١ ») بما في ذلك تلك القوى في اسرائيل . وذلك من اجل الضغط في اتجاه تسوية عادلة في الشرق الاوسط . وحتى يكون ثمة ضغط لا بد من مواجهة جميع وجهات النظر بعضها ببعض . وهذا وارد في الفقرة الاخيرة في الوثيقة رقم (١) ونحن نوردها كما هي « وتختلف وجهات نظر الكثيرين فيما يختص باولويات هذه المسائل . ان مناقشة ومواجهة جميع وجهات النظر ببعضها يمكنها فقط ان تدعم الضغوط في اتجاه تسوية عادلة في الشرق الاوسط » . هو اذا اجتماع عالمي لكل القوى في كل البلاد التي تؤيد بيان روما ١٩ — ٢٠ مارس سنة ١٩٧١ « **الوثيقة رقم « ١ » ولا بد من مواجهة كل وجهات النظر حتى يتم الضغط والتعبئة العالمية من اجل تسوية عادلة ولا يستثنى من ذلك تلك القوى المؤيدة لهذا الاتجاه في اسرائيل »** .

لقد اوضحت في ردي على « مجلة الحوادث » الوثيقة رقم « ٣ » هذا الراي — وكذلك الوثيقة رقم « ٤ » وهي رسالتي للسيد جيدوفانتي رئيس اللجنة الايطالية ردا على ما نشره اوري افنيري النائب بالكنيست الاسرائيلي — لقد اوضحت في هذه الرسالة رأينا فيما يسمى اللقاء وجها لوجه بين العرب والاسرائيليين او مناقشة مباشرة او حوارا مباشرا او اجتماعا مباشرا — وخاصة في الصفحة الاولى فيها — وهذا رد قاطع على استفسارات السيد احمد خليفة — فلم يدر بخلدنا على الاطلاق ان هذا الاجتماع يهدف الى لقاء عربي اسرائيلي انما هو اجتماع عالمي يهدف الى تعبئة الراي العام العالمي من اجل التوصل الى تسوية عادلة في الشرق الاوسط على اساس بيان روما الوثيقة رقم « ١ » .

اما عن رأي الاستاذ احمد حمروش في المؤتمر والذي نشر في مجلة روز اليوسف ١٩٧٢/٢/٢١ — وصحيح أن الاستاذ احمد حمروش عضو في حركة السلام المصرية ، ولكن السيد احمد حمروش ليس له اي علاقة بالاتصالات الخاصة بعقد المؤتمر — فهو يعبر عن رأيه . وان كانت الامانة تستدعي قراءة رأيه متكاملا (ورأي الاستاذ حمروش فيما يسمى بقوى السلام الاسرائيلية على ما اظن هو ما ورد في مقالته المذكورة : تلك القوى التي تعارض مبدأ ضم الاراضي الى اسرائيل وتؤيد حقوق شعب فلسطين) . وعلى العموم ، فقد قام السيد عبد الرحمن الشرقاوي بالرد على رأي الاستاذ حمروش مخالفا رأيه في عدد ١٩٧٢/٢/٢٨ ، العدد التالي من روز اليوسف ، والسيد عبد الرحمن الشرقاوي عضو في حركة السلام المصرية ايضا . ان رأينا قد نشر في مجلة الحوادث اللبنانية عدد ٧٢/١/٢١ وكذلك في ردنا على السيد اوري افنيري في رسالتنا للسيد جيدوفانتي الوثيقة رقم « ٤ » .

كل هذه الوثائق ارسلت لجميع حركات السلام العربية ولكل وكالات الانباء والصحف المصرية ، ولسنا مسؤولين عن عدم النشر . والمؤكد ان حركة السلام الفلسطينية لديها نسخ منها جميعا ، وحركة السلام الفلسطينية تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، فليس هناك ما يخفى على الجماهير العربية . ولذا يهمنا ان تنشر شؤون فلسطينية كل هذه الوثائق او اهم اجزائها كي تطلع عليها الجماهير العربية . وردي في مجلة الحوادث اللبنانية كان واسع الانتشار في مصر ولبنان والعالم العربي وكان من الواجب على مجلة شؤون فلسطينية نشره كاملا لاهميته بالنسبة للمؤتمر . ولو كان هناك سرية او شبه سرية لما نشرت ردي في مجلة الحوادث اللبنانية ، ولو كان هناك اتجاه للسرية لما نشر احمد حمروش رأيه في روز اليوسف . ولا قام عبد الرحمن الشرقاوي بالرد عليه علنا . اما عدم النشر فتسأل عن ذلك الصحافة العربية عامة ، فليس هناك تآمر ولا

سرية على الاطلاق . وجميع هذه الوثائق مطبوعة وموزعة .

بقيت كلمة خاصة باللقاء مع الاسرائيليين. والحقيقة ان هذا الاجتماع ليس اول اجتماع عالمي يوجد فيه العرب والاسرائيليون ويناقش قضية الشرق الأوسط. ففي اجتماعات مجلس السلام العالمي « بودابست ١٩٧١ » والتجمع العالمي للسلام في برلين ١٩٦٩ — في لجنة الشرق الاوسط ، يوجد مندوبون عرب واسرائيليون ، ونتناقش في اللجان ، وكل يعبر عن وجهة نظره . ثم يكون بيان اللجنة التي تضم وفود كل البلدان ، وفي هذه الاجتماعات يتناقش المندوبون العرب بمن فيهم المندوبون الفلسطينيون مع بعض المندوبين الاسرائيليين — ولكن لم يعتبر بتاتا ان هذا لقاء عربي اسرائيلي او مواجهة عربية اسرائيلية او حوار مباشر . ان وجود مندوبين من اسرائيل في اجتماع عالمي يؤيدون عدم ضم الاراضي ويعترفون بحقوق الشعب الفلسطيني لهو مكسب ضخم ومؤثر في الرأي العام العالمي — وهذا هو عملنا وجهدنا — وهذا العمل وهذا الجهد لا يمنعان القيام بجهود اخرى عسكرية او فدائية في مجالات اخرى ونحن لا نقف امامها او نعرقلها ، لكن نضع في الاعتبار فقط ان الرأي العام العالمي قوة كبيرة لا يجوز اهمالها ، فمن يكسبها يكسب المعركة السياسية .

اما عن اشتراك اللجنة الاسرائيلية في جميع الترتيبات التحضيرية للمؤتمر ، وان تبقى اللجنة الايطالية على اتصال دائم باللجنة الاسرائيلية لمؤتمر بولونيا ، فالوثيقة رقم « ٢ » في الفقرة الثالثة توضح اولا ان اللجنة الايطالية ستوجه الدعوات لجميع البلدان . وثانيا انها ستفعل ذلك بالتعاون والتشاور مع كل اللجان التي ستنشأ لهذا المؤتمر في كل البلدان وهذا امر طبيعي — ولكن الدعوات ستوجهها اللجنة الايطالية . وفي الوثيقة رقم (٢) الفقرة الرابعة والاخيرة ما يوضح قبول اللجنة الايطالية لاقتراح ضم ممثلي بلاد اخرى للجنة من بينها فرنسا والاتحاد السوفياتي وبريطانيا وممثلي بعض المنظمات الدولية وهي « مجلس السلام العالمي ومنظمة تضامن شعوب آسيا وافريقيا واتحاد الشباب الديموقراطي العالمي والاتحاد العالمي لجمعيات الامم المتحدة » — وهذه اللجنة ستقوم بالبت في كل القرارات الفنية والتنظيمية للمؤتمر — وأهم قرار هو أسماء المدعوين من كل البلاد — وقد تقرر استبعاد مندوبي اسرائيل والبلاد العربية من هذه اللجنة . أي أن اللجنة الايطالية بعد أن ينضم اليها ممثلو عدد من البلاد والمنظمات العالمية دون اسرائيل والبلاد العربية هي التي ستقرر كل الاجراءات .

ولقد رفضنا اجتماع روما التحضيري الثاني كما كان متوقعا لاننا نرفض ان يكون لاسرائيل رأي في المدعوين . ولقد اوضحنا للجنة الايطالية بوضوح ان هذا سيكون موقفنا في المؤتمر اذا شعرنا ان هناك محاولة لدفع عناصر مشبوهة اسرائيلية لحضور المؤتمر . وممثلو فرنسا وبريطانيا والاتحاد السوفياتي ومجلس السلام العالمي ومنظمة التضامن الاسيوي الافريقي واتحاد الشباب الديمقراطي العالمي ، وهم اعضاء اللجنة التنظيمية التحضيرية الدولية التي ستعقد اجتماعها في سبتمبر ١٩٧٢ ، كلهم يعرفون رأي المندوبين العرب في الوفد الاسرائيلي ويعرفون جيدا رأينا في طبيعة المؤتمر وهو ما اوضحته في الوثيقة رقم « ٤ » . ويحسن في هذا الامر ايضا الرجوع الى تقرير الاستاذ محمد صبيح ممثل فلسطين في منظمة التضامن الاسيوي الافريقي وهو الذي حضر اجتماع روما الثاني مارس ٧٢ لمعرفة موقفنا بوضوح . وكذلك كان يحسن سؤال الجامعة العربية عن تقرير مدير مكتب الجامعة العربية في روما عن اجتماع روما الثاني مارس ١٩٧٢ وهاتان الوثيقتان مهمتان جدا ويمكن لكل لجان التضامن الاسيوي الافريقي العربية بما في ذلك لجنة التضامن الاسيوي الافريقي الفلسطينية ان تطلب نسخة من تقرير الاستاذ محمد صبيح للاطلاع عليه ونشره . وكذلك لا بد ان تكون قد وصلت صورة من تقرير مكتب الجامعة العربية في روما عن اجتماع مارس التحضيري الثاني والبيان الذي صدر عنه ، الى جميع ممثلي الدول العربية في الجامعة العربية .

اما عما يسمى برنامج قوى السلام المصرية في مؤتمر بولونيا وهو الكراس الذي نشرت جريدة الاونيتي ملخصا له ، فان السيد احمد خليفة اعتمد بدوره للاسف في تلخيص افكاره عن هذا الموضوع على صحيفة عل همشمار (١٩٧٢/٣/١٩) . وكان الواجب ان يحاول السيد احمد خليفة ان يطلع على نسخ جريدة الاونيتي وما نشر فيها وهل ذكرت جريدة الاونيتي نفسها ان هذا التقرير هو تعبير

عن آراء بعض الاوساط الماركسية القريبة من خالد محي الدين في مصر — اذا كانت جريدة الاونيتي قد ذكرت ذلك فهذا مهم لان ذلك يضعنا في موقف ادانة سياسية لكاتب المقال في الاونيتي، فكيف تقوم جريدة مثل الاونيتي الايطالية بنشر افكار تدعي انها افكار اوساط قريبة من خالد محي الدين ، دون ان تسالني انا شخصيا في هذا الامر . والمسؤولون السياسيون في جريدة الاونيتي يعرفون جيدا **رأيي انا ورأي حركة السلام المصرية بوضوح فليس لنا رأي سري نخشى نشره ، والاوساط الماركسية في مصر كلها لها رأي واضح في ذلك الامر ، ولم نسمع بتاتا عن مثل هذا الكراس .**

ان حركة السلام المصرية حركة علنية تنشر كل آرائهـا بعلنية حتى تلك التي تخالف فيها رأي الحكومة المصرية ، ولقد اصدرت حركة السلام المصرية عديدا من البيانات التي تختلف عن موقف الحكومة المصرية ونشرتهـا . والخط السياسي لحركة السلام المصريـة يعـرض في مؤتمراتهـا السنوية والتقارير والبيانات الخاصة بها توزع على كل الصحف المصرية وترسل لجميع حركات السلام العربية .

وانصح في هذا الامر ان يستمع الى رأينا في الموقف في الشرق الاوسط في الوثيقتين رقم « ٥ » و « ٦ » واللتان تبينان ان اعداد شعبنا للمعركة الشاملة وتعبئة كل الطاقات العربية هو الوسيلة الفعالة لتحرير الارض . ونحن نرفض كل الحلول الاستسلامية . ولم ندخل في نقاش المعركة التقليدية او غير التقليدية ولا مسألة السلام الشعبي . صحيح اننا نعتقد ان مؤتمرا مثل مؤتمر بولونيا ، كتجمع عالمي ، يمكن ان يساعد على تعبئة عالمية مفيدة ولكن لم نتخيل لحظة انه يمكن ان يكون بديلا عن كل طرق الكفاح الاخرى العسكرية والسياسية ولا يمكن ان نتصور ان العمل العسكري على الجبهة المصرية يمكن ان يكون الشكل الوحيد للكفاح على الجبهات الاخرى ، ولا يمكن ان نتصور انه حتى العمل العسكري على الجبهة المصريـة يمكن ان يكون له شكل واحد محـدد . ان حركة السلام المصرية لها هدف محدد محلي وعالمي هو ان تعبىء شعبنا مع كل شعوب العالم ضد العـدوان الاسرائيلي سياسيا . وهذه خطوة كبرى تساعـد على استمرار الكفاح على كـل الجبهات الاخرى العسكريـة والسياسيـة والاقتصاديـة المحلية والعالمية . وهذا واضح في الوثيقتين رقم « ٥ » و « ٦ » ونطالب بسرعة الاستعداد وبتعبئة شعبنا سياسيا وعسكريا وكل طاقات الامة العربية ، فان تعبئة الرأي العام العالمي الى جانبنا يجب ان يسير في خط واحد مع اعداد شعبنا للمعركة .

هذا ما يلزمنا — وليس لنا رأي علني واخر سري — وموقفنا من قرار مجلس الامن وحقوق شعب فلسطيـن واردة في الوثيقتيـن « ٥ » و « ٦ » بوضوح . وهـذا الرأي قلناه علنا امام نـدوة فلسطين في فبراير ١٩٧١ في الكويت واثار علـى ثائرة الكثيرين . هذا هو رأيي قلته في كل مكان : ان قرار مجلس الامن وكل قرارات الامم المتحدة هي وسيلة تمكننا في المجال العالمي من اكتساب الرأي العام العالمي الى صفنا ، واننا نعتبر ان هناك معركة عاجلة وهي ضرورة هزيمة العـدوان القائم . وان على كل الجهود ان توجه الان لهزيمة العدوان القائم . فاذا لم تستطع هزيمة العدوان القائم فلن تستطع هزيمة العدوان السابق — اذا لم تهزم عدوان ١٩٦٧ لن تستطيع هزيمة عـدوان ١٩٤٨ — هذا الرأي لم نخفه في اي اجتماع علني عالمي او عربي او محلي، ان التزامات الدول العربية الدولية غير التزام الثورة الفلسطينية . ولا نعتبر ان تطبيق قرار مجلس الامن ، لو قدر له ان ينفذ ، سيكون نهاية المطاف في صراعنا مع اسرائيل . ولن ينفذ قرار مجلس الامن او اي قرار اخر بـدون قوة البلاد العربية وقوة الثورة الفلسطينية — اي قوة حركة التحريـر العربية وخطهـا السياسي التكتيكي والاستراتيجي . ان استمرار النضال ضد الامبريالية والصهيونية هو منهاج استراتيجي لحركة التحرر العربية .

والغريب ان يتخذ من كراس ذكر انه موزع بطريقة سريـة نقطة اتهـام لبعض الاوساط الماركسيـة والسلاميـة المصرية صاحبة السجـل النظيف في كفاحها ضد الامبريالية والصهيونية . ان حـركة السلام المصرية كانت القوة الحقيقية وراء المؤتمر العالمي الثاني لنصرة الشعوب العربية الذي عقد في القاهـرة والذي تولى رئاستـه السيد أنـور السادات وكنت سكرتيره العام ، وفي هذا الاجتماع تمكنت الثورة الفلسطينية من عرض رأيها امـام اكبر تجمع عالمي لنصرة العرب . وحركة السلام المصرية وحركة ذات احترام عالمي كبير لان آراءها معروفة ومحددة لا نخفيها . فليس لنا رأي علني عالمي واخـر محلي — او مـا يسمى للاستهلاك

المحلي — رأينا واضح جدا في كل المؤتمرات الدولية والعربية . وقد يختلف معنا البعض ولا ندعي اننا دائما على صواب . ولكن مكانة حركة السلام المصرية عالميا جاء من خطها الواضح المستقيم واحترام الجماهير المصرية لها ايضا جاء من وضوح موقفها مما يسمى بالسلام والنضال ضد العدوان الاسرائيلي على بلادنا .

ان المسافة بين بيروت والقاهرة ليست بعيدة وكان بالامكان الحصول على آرائنا والتعرف عليها من وثائقنا ومواقفنا ، دون اللجوء الى معرفة موقفنا من جرائد العدو . ولعلني بذلك أكون قد قمت بالرد على اغلب النقاط والاسئلة التي طرحها السيد احمد خليفة من اجل الحقيقة .

---

١ — استعرضت الوثيقة تدهور الموقف في الشرق الاوسط واقترحت « الدعوة الى مؤتمر عالمي للسلام والعدل في الشرق الاوسط يدعى للمشاركة فيه جميع الذين يهمهم مناقشة امكانات التوصل الى تسوية بالوسائل العلمية وابرزها: انسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي التي احتلتها منذ حرب ١٩٦٧ ، والتنفيذ الكامل لقرار مجلس الامن في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ وقرار الجمعية العامة للامم المتحدة في ٤ نوفمبر ١٩٧٠ بجميع بنودهما كخطوة اولى في اتجاه تحقيق الامن والاستقلال لجميع دول المنطقة وشعوبها ، وايضا التنفيذ الكامل للحقوق العادلة للشعب الفلسطيني والضمانات الممكنة من اجل تسوية دائمة تكفل مصلحة ووجود الجميع » وقالت الدعوة في ختامها « تختلف وجهات نظر الكثيرين فيما يختص بأولويات هذه المسائل . ان مناقشة ومواجهة جميع وجهات النظر ببعضها يمكنها فقط ان تدعم الضغوط في اتجاه تسوية عادلة في الشرق الاوسط » .

٢ — ذكر بيان اللجنة الايطالية للمؤتمر الدولي للسلام والعدل في الشرق الاوسط انه « على ضوء تفاقم الازمة مؤخرا في الشرق الاوسط كانت هناك رغبة مشتركة في عقد مؤتمر السلام والعدل في الشرق الاوسط في بولونيا في ايطاليا خلال هذا العام وذلك على اساس القاعدة السياسية التي وضعت في الاجتماع التحضيري الذي عقد في روما في ابريل ١٩٧١ . وقد اتفق ... على تكليف اللجنة الايطالية بارسال الدعوات للاشتراك في مؤتمر بولونيا لجميع قوى السلام في البلاد والمشار اليها سابقا [الجزائر ، مصر ، العراق ، لبنان ، سوريا ، بلجيكا، فنلنده ، فرنسا، بريطانيا ، يوغسلافيا، المانيا الديمقراطية، المجر، الاتحاد السوفياتي] وفي البلاد الاخرى ، وذلك بالتعاون والتشاور المباشر مع اللجان والمنظمات القومية التي تعمل لتحضير المؤتمر والتي تبذل قصارى جهدها لحشد الرأي العام العالمي من اجل اقامة السلام الدائم والعادل في الشرق الاوسط ..»

٣ — الرسالة تحمل تاريخ ١٩٧٢/٦/١٦ وهي توضح ان مؤتمر بولونيا « في جوهره مؤتمر عالمي لتعبئة القوى التي تريد حلا سلميا لكن عادلا في الشرق الاوسط وجمعها معا ... ومن هذا المنطلق فان المؤتمر ليس ذريعة — ولا يمكننا ان نتصور ان يكون — لتمكين طرفي النزاع من « الجلوس سويا » فان هذا ليس هدف المؤتمر وليس هو النتيجة المتوقعة من المؤتمر... وان حقيقة كون اوري افنيري يؤكد على تصوير المؤتمر وكأنه مؤتمر سوف يجلس فيه الطرفان سويا .. [هذه الحقيقة] مرفوضة بقوة ، لانها انحراف عن خط مؤتمر كهذا وعن اهدافه » وتمضي الرسالة فتقول « ان اجتماع مثل هذا المؤتمر لا يمكن ان يكون بين فرقاء محايدين فان المحتلين لا يسعهم ان يكونوا حياديين تجاه المعتدين ولا يسعهم الا ان يدينوا العدوان حتى اولئك [الممثلين] من جبهة المناضلين من أجل السلام في البلد المعتدي ... ومن سوء الحظ ان اوري افنيري أبعد من أن يتتبع هذا المبدأ » وترد الرسالة على بعض الموضوعات التي يطرحها افنيري وتؤكد مرة اخرى ان المؤتمر هو « لتعبئة الرأي العالمي من اجل حل سلمي وعادل وان هذه التعبئة تشمل جميع البلدان دون استثناء » كما تؤكد الرسالة موافقتها على « وجود ممثلين عن القوى الاسرائيلية التي هي ضد العدوان ، والتي تدين السياسة العدوانية المستمرة للحكومة الاسرائيلية ، والتي ترفض قبول الضم ، والتي تكافح من اجل انسحاب إسرائيل من جميع الاراضي المحتلة منذ ٥ حزيران ١٩٦٧ ، والتي تقبل بصراحة اعلان روما السياسي في ١٩ ، ٢٠ نيسان ١٩٧١ وتناضل من اجل قبوله كاملا » . وتضيف

الرسالة « اننا نرفض وجود ممثلين عن الاحزاب المشتركة في الحكومة الاسرائيلية . ونحن لا نعارض وجود موفد اسرائيلي بصفته الخاصة بشرط الا ياتي ممثلا عن حزب مابام مثلا او اي من اجنحته وبشرط الا يكون شخصية قيادية في ذلك الحزب ، لان صبغته القيادية هي جزء من شخصيته حتى لو ادعى انه قادم بصفة شخصية » . وقالت الرسالة « ان عدد اعضاء الوفد الاسرائيلي ينبغي ان يكون مساويا ولا يزيد عن عدد اعضاء الوفد الفلسطيني » .

٤ ــ الجزء من التقرير المتعلق بالوضع العربي «يلاحظ عددا من التطورات المهمة الايجابية والسلبية على السواء ، فاسرائيل ... تزداد عزلة ... وان الخط السياسي العاقل والمتزن الذي اتبعته جمهورية مصر العربية كان واحدا من العوامل الايجابية التي اسهمت في التوصل الى هذه النتيجة ... [كذلك يلاحظ] بارتياح التنامي المتزايد للقدرة القتالية المصرية ... ولقد كان قيام الاتحاد بين مصر وسوريا وليبيا ...تعبيرا عن تصميم الامة العربية على مواجهة حاضرها ومستقبلها موحدة ... ونلاحظ ان العلاقة المصرية السوفياتية تتعزز وتتقدم ... وعلينا ان نعي ضرورة تعزيز الصداقة المصرية السوفياتية ... وفي الجانب الاخر من الصورة نلاحظ ان اعداء الامة العربية ينشطون نشاطا جريئا ... كانت نقطة البدء فيه هي المذابح الوحشية التي دبرت ضد المقاومة الفلسطينية والتي لعب فيها النظام الاردني دور الجلاد الشرس ... ثم بعد ذلك الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة على لبنان والتي تبدو كجزء متمم للمؤامرة يستهدف عزل لبنان عن الصف العربي وتصفية المقاومة الفلسطينية في اراضي لبنان واخيرا هناك مشروع الملك حسين الذي لا يمكن وصفه باكثر من انه الترجمة العربية لمشروع الون » ويتحدث التقرير عن « دعاوى تتخذ من طول امد المعركة سبيلا للتشكيك في قدرتنا على خوضها ، وهي تعلن بغير خجل ان حل الازمة في يد امريكا وان علينا ... ان نتقدم خطوة وخطوات نحو من في يده الحل » ويستعرض التقرير التجارب مع امريكا ويقول « ان امريكا تريد منا موقفا معتدلا ولا تقاربا . انها تريد اعادة مصر الى دائرة نفوذها ، تريد سلب استقلالنا وحريتنا ومواردنا واسواقنا..

لقد حددت امريكا موقفها نهائيا كطرف اصيل في النزاع » . ثم يتحدث التقرير عن قرار مجلس الامن ٢٤٢ ويقول « ان مصر بقبولها قرار مجلس الامن تنطلق من مطلبين اساسيين أ ــ ضرورة الانسحاب الكامل ... ب ــ ضمان الحقوق القومية للشعب العربي الفلسطيني ... وان رفض قرار مجلس الامن ينبع من عدم تصور حقيقة توازنات القوى القائمة ولا ينظر لأية اتفاقات دولية نظرة مستقبلية ، بمعنى انه ينظر للنصوص في صورة جامدة حبيسة للتصورات القائمة الان [و] دون ان يدرك ان كل شيء مرهون اولا واخيرا بقدر ما نستطيع ان نحشد من قوة وطاقة وعزم لنضعه ثقلا لصالحنا في كفة ميزان القوى المتصارعة » ويطلب التقرير « ان نعمل جميعا من اجل تحقيق الهدف وهو ازالة العدوان الاسرائيلي وضمان الحقوق القومية المشروعة للشعب العربي الفلسطيني وختم في تقرير مصيره مستخدما كل الوسائل التي يراها ملائمة لتحقيق هذا الهدف » . ويضيف التقرير « اننا نعتبر كفاح الشعب الفلسطيني جزءا من حركة التحرر العربية وهو جزء لا يتجزأ من حركة التحرر العالمية ضد الاستعمار ... لذلك سيظل شعبنا وكل الشعوب العربية تساند كفاح الشعب الفلسطيني بكل الوسائل وتحت كل الظروف حتى يستطيع هذا الشعب ان يقرر مصيره على ارضه ، لانه بدون ذلك سيظل سلامنا وسلام المنطقة مهددا باستمرار » وقال « نحن انصار السلام المصريين نرى ان ازالة آثار عدوان ١٩٦٧ هي المعركة العاجلة ، ذلك ان هزيمة العدوان وعدم تمكين المعتدي من تحقيق اي كسب من عدوانه هي نقطة البدء الاولى والضرورية للتوصل الى حل عادل للقضية الفلسطينية » .

٥ ــ جاء في البيان السياسي للمجلس المصري للسلام في مؤتمره الرابع في ١٧ و ١٨ مايو ١٩٧٢ في القاهرة تاكيد للنقاط الواردة في التقرير السياسي الوارد تلخيصه في الحاشية رقم ٤ اعلاه فقد انتهى رأي المؤتمر الى « ان الخط السياسي المتزن الذي اتبعته جمهورية مصر العربية ... قد اثبت في مواجهة الصلف الاسرائيلي فعاليته ونجاحه ، فاسرائيل تزداد عزلة على النطاق العالمي » والى « ان التمسك بالشرعية الدولية ، والمطالبة المستمرة بتنفيذ

قرار مجلس الامن ٢٤٢ وجميع قرارات الامـم المتحدة وعلى الخصوص تلـك المتعلقة بحقوق الشعب الفلسطيني في العودة الى ارضه وازالة آثار عدوان ١٩٦٧ ، هما الاساس في مخاطبة الرأي العام العالمي ، والى « ان حتمية المعركة ...تتطلب من الحكومات والشعوب العربية حشدا جادا وحقيقيا لجميع الامكانات والجهود الماديـة والمعنوية، لتكون هذه الامة مستعدة للمعركة » والى «ان نضال الشعب الفلسطيني واستمراره حتى يحقق اهدافه الشريفة هو جزء من ضمير شعبنا وكل الشعوب العربية ... وان المؤتمر يؤكد ضرورة مساندة كفاح الشعب الفلسطيني».

٦ ـ تشمل اسماء وفود مجلس السلام العالمي وسوريا والعـراق ولبنان وفلسطين واليمـن والمغرب ومصر .

٧ ـ جاء في هذا القرار « ان اجتماع لجـان السلم العربية الذي عقد في القاهرة في تاريـخ ١٩٧٢/٥/١٩ بعد ان اطلع على الجهود المبذولة لعقد مؤتمر العدل والسلام في الشرق الاوسط في ايطاليا في اواخر عام ١٩٧٢ تحت شعـار تطبيق قرار مجلس الامن والجمعية العامة للامم المتحدة والانسحاب التام من الاراضي العـربية المحتلـة والتطبيق الكامـل لحقوق الشعـب الفلسطيني يؤيد النشاط الذي تبذله في هـذا السبيـل اللجنة الايطاليـة للمؤتمر واللجنـة التحضيرية الدولية ، ويعتبر ان عقد هذا المؤتمر يخدم اهداف النضال العربي ... »

تقييم استراتيجي اولي لمعارك ١٦ و١٧ ايلول

هـ. أ.

في فجر السبت ١٦ أيلـول تحركت وحدة آليـة اسرائيلية تضم مختلف صنوف الاسلحة نواتهـا المدرعات والمشاة المحمولة ، واجتازت الحدود اللبنانية من ثلاث نقاط مستخدمة محاور عديسة — الطيبة — القنطرة ، وعيترون — عيناتا — بنت جبيل ، ورميش — عين ابل — بيت ياحون . « واتصلت السلطات الاسرائيليـة بلجنة الهدنة وابلغتها ان هدف دخول قواتها منطقة الجنوب هو تمشيطها من الفدائيين » (النهار ٧٢/٩/١٧) ، وأعلن الناطق العسكري الاسرائيلي منذ بدء القتال بأن هدف هـذه الوحدة المهاجمة القيام بأعمـال «التمشيط والتطهير» ضد قواعد المقاومة المستخدمة « كأماكن تجمع وقيادة » ، ثم ربط هذا الناطق بين العمليات العسكرية وحوادث الحدود ، وأشار الى مقتل جنديين اسرائيليين في منطقة هاردوف بتاريخ ١٤ أيلول ، ومقتل جندي آخر في منطقة كفر برعم قبل عشرة ايام(١). ولم تأخذ الاوساط السياسية والعسكرية وأوساط المقاومة هذه التصريحات مأخذ الجد ، واعتبرها الكثيرون خدعة اسرائيلية تستهدف تخفيف حدة رد الفعل العالمي على هذا العدوان ، والحد من ردود فعـل القيادات السياسية — العسكرية اللبنانية التي أعلنت عن تصميمها على القتال دفاعا عن الوطن مهما كان الثمن غاليا . وظهر وسـط التحليلات الاولية للمـوقف رأيان اساسيان : يقول احدهما بأن العملية لا تخرج عن كونها ضربة موجهة الى قواعد المقاومة ، ولا تختلف عن الضربات السابقة الا بحجمها وضخامة القوة المشتركة فيهـا وعمق تغلغلهـا داخل الاراضي اللبنانية ، على حين يقول الرأي الاخر بأنها عملية تستهدف احتلال جنوب لبنان حتى الليطاني ، والمساومة بعد ذلك على الانسحاب مقابل تعهد الحكومة اللبنانية بابعاد قواعد ومراكز المقاومة عن الحدود ومنعها من العمل عبرها ، ان لم يكن تعهدها بتصفية الوجود السيـاسي — العسكري لحركة المقاومة في لبنان كله(٢).

ويمكننا ان نؤكد بشكل قاطع على ان الرأي الاول كان بعيدا عن الصواب لان طبيعة القوة المهاجمة وتشكيلها وحجمها لا تنطبق بأي شكل من الاشكال على طبيعة وتشكيل وحجم القوات المخصصة للعمل ضد العصابات ، خاصة وان قـوة المقاومـة الرئيسية متمركزة في المنطقة الشرقية التي تعارفت الصحافة العالمية على تسميتها باسم « فتح لاند »، على حين أن تواجد قوات المقاومة في المناطق التي تعرضت للهجوم « محدود جدا » ولا يشمل « الا بعض القواعد الصغيرة ونقاط المراقبة التابعـة لها »(٣). ومن المعروف ان العمل ضد هذا النوع من القواعد الصغيرة لا يتطلب هجوما بريا بلواء مدرع معزز بالمشاة المحمولة والمدفعية والمهندسين، وتحت تغطية جوية كاملة ، ولا يستخدم هذا النوع من المدرعات المتوسطة والثقيلة والمدفعية الثقيلة، بل يلجأ الى استخدام وحدات آلية خفيفة الحركة تضم عددا كبيرا من المشاة والقوات الخاصة ، وتعتمد قوتها النارية اساسا على الدبابات الخفيفة والمدفعية المحمولة الخفيفة ، وتطبق قبل « التمشيط والتطهير » عمليات قصف جوي تليها عمليات تطويق تنفذها قوات محمولة جوا تسيطر على المحاور الاساسية ، وتعتمد في المطاردة اساسا علـى وحدات محمولة بالهليكوبتر .

ومن المعروف ان عملية « التمشيط والتطهير » لا تكتفي بالسير على محاور الطرق وتدمير المقاومات وسدادات الطرق المقامة عليها ، بل تعمل على الاندفاع بعمق على الطرق لتحقيق التطويق ، ثم تبدأ تطهير الجيوب والجزر . فكيف تصرفت القوات المهاجمة ؟ لقد تمكن الرتل المتقدم على محـور العديسة — الطيبة — القنطرة من اغلاق الطوق

بعد ان تقدم رتل من بيت ياحون باتجاه مجدل سلم ـ أبريخا . ووصل الرتل المتقدم نحو الشمال الغربي الى صديقين وقانا وجويا وكان بوسعه اغلاق الطوق لو انحرف نحو الشمال الشرقي متجها الى الغندورية ـ القنطرة . ولكن هذين الرتلين بقيا طوال الليل في المواقع التي وصلا اليها ، ولم تترك المشاة المحمولة آلياتها المدرعة ولم تتسلق المرتفعات لتحقيق « التمشيط » بعد تحقيق « التطويق » . ولم تتم بأية عملية مطاردة راجلة او محمولة جوا ضد عناصر المقاومة التي لجأت حسب تكتيك العصابات الى ترك المحاور واللجوء الى المرتفعات .

اما بالنسبة لتدمير جسري الخردلي والقعقعية فقد استخدمه العدو امعانا في التضليل ، وفسره على اعتباره عملا يستهدف قطع طريق انسحاب قوات المقاومة باتجاه الداخل او باتجاه سوريا وحصر هذه القوات داخل الطوق . ولكن نظرية تطويق العصابات الصغيرة تنسف هذا الادعاء من اساسه ، فهي تؤكد على ضرورة قطع الجسور او احتلالها واغلاقها داخل اطار الطوق او على اقرب مسافة ممكنة من منطقة اغلاق الكماشة ـ اذا كانت الغاية من هذا القطع منع الانسحاب ـ والقيام بالقطع خارج الطوق على مسافة معينة اذا كانت الغاية منه منع تدفق الامدادات اللازمة لفك التطويق . فاذا ألقينا نظرة واحدة على خارطة العمليات وجدنا ان الجسور المدمرة تقع على مسافة عشرة كيلومترات خارج حدود الطوق. وهذا يعني ان الافادة من هذا التدمير لمنع الانسحاب جزئية ومحدودة . بالاضافة الى ان عمق نهر الليطاني وطبيعة ضفافه وسريره وضعف تياره تجعل العربات العسكرية بما في ذلك سيارات الجيب قادرة على اجتيازه من المخاضات دونما حاجة لاية جسور . وهذا يعني باللغة العسكرية ان تخريب هذين الجسرين قد يخلق امام الوحدات العسكرية النظامية المنسحبة عاجزا متوسطا ولكنه لا يشكل اية مشكلة للعصابات التي تعتمد في تحركاتها اساسا على التنقل سيرا على الاقدام والقيام بالمسيرات الليلية الطويلة ... فهل يعقل ان نرجع كل هذه الاخطاء الى خلل في تفكير قيادة القوات المهاجمة ؟ وهل يمكن ان نتصور قائدا عسكريا يخطط لعملية بمثل هذا الحجم ثم يستخدم اداة وطريقة لا تصلحان لتحقيق الغرض الذي أعلن عنه؟ وجوابنا على ذلك هو النفي القاطع ، والتأكيد على ان ما اعلنه الناطق العسكري الاسرائيلي حول هدف العملية كان جزءا من حملة تضليل عسالية ومحلية .

ويستند الرأي القائل بأن العملية كانت تستهدف الاحتلال الى عدة حجج منها : ١) عمق الضربة وحجمها (غطى العدوان ٨٥٠ كيلو مترا مربعا وتغلغل بعمق اكثر من ٢٠ كيلومترا داخل اراضي الجنوب) ٢) حجم وطبيعة القوات المعادية المشتركة في الخط الاول والقوات الاحتياطية المحتشدة خلفها داخل الارض المحتلة لدعم الهجوم عند اللزوم وتطهير جيوب المقاومة ٣) ضرب الجسور على نهر الليطاني لمنع الجيش اللبناني من الانسحاب ، ولمنع الاحتياط الاستراتيجي اللبناني من التقدم لفك الحصار او القيام بهجوم معاكس (هنا تصبح الجسور هامة نظرا لكثرة الاليات التي ينبغي استخدامها للتموين والاخلاء) . ٤) حجم الحملة الاعلامية الديماغوجية التي شنها العدو داخل الاراضي المحتلة وفي العالم كله بعد عملية ميونيخ، واحتمال استغلال شرائح من الرأي العام الغربي الذي بدأ يؤيد اسرائيل ويشجب أعمال الارهاب ويندد بكل من يدعم حركة المقاومة او يسمح لها بالعمل على ارضه . واحتمال اعتماد العسكريين الاسرائيليين على النجاح الذي حققته الديبلوماسية الاسرائيلية لتحقيق غطاء دولي ـ امريكي بالاساس ـ لعملية احتلال دائم او مؤقت .

ولقد كان على القوات الاسرائيلية المعتدية في حالة رغبتها بالاحتلال ان تنطلق في ليلة ١٦ ـ ١٧ او في صباح ١٧ ايلول باتجاه الليطاني وان تتحرك من قانا الى صور ، ومن جويا الى صور ، ومن جويا الى الغندورية ، ومن كفرا باتجاه البحر ، بشكل يقسم المناطق الجنوبية الى ست جزر يتم تطهيرها فيما بعد . ولكن هذه القوات وقفت في قانا بعد معركة لم تكن بالضبط معركة مدرعات ـ كما وصفت ـ بل كانت اقرب الى قتال مقاومة مخفر (مشاة وعدد من الدبابات ومدافع ضد الدبابات) ضد عدو يتقدم على محور . كما وقفت في جويا لاصطدامها بمقاومة عنيفة ابدتها مجموعات من قوات المقاومة مزودة باسلحة مضادة للدبابات ومختفية داخل القرية . واضطرت القوات الاسرائيلية الى الاشتباك بمعركة تطهير طويلة بدأت منذ الساعة الخامسة من مساء ١٦ ايلول ولم تنته

الا في صبيحة يوم ١٧ ، وبدلا من التحرك باتجاه صور والليطاني اعلن الناطق العسكري في تل ابيب في الساعة السابعة من مساء ١٦ « ان الوحدات الاسرائيلية انهت مهمتها وعادت الى اسرائيل باستثناء وحدة تقوم بعملية تطهير قرية جويا»(٤). ومع تنفيذ الانسحاب الذي تأخر حتى مساء يوم ١٧ بسبب صعوبات اخلاء المعدات والاليات الاسرائيلية المدمرة على أرض المعركة اختلت التساؤلات حول هدف الهجمة الاسرائيلية . وبدا عمل اللواء المدرع وكأنه عرض عضلات ، أو اذا شئنا استخدام التعبير العسكري الدقيق : « ردع عن طريق عرض القوة واستخدامها جزئيا » . فهل كان هذا « العرض » مخططا من قبل ام جاء نتيجة لتبديل الخطة الاسرائيلية تحت تأثير عوامل متعددة؟ ان من المتعذر الرد على هذا السؤال في الوقت الحاضر . ولكن كثيرا من الظواهر تدفعنا الى الاعتقاد — دون جزم — بأن الاسرائيليين بدلوا خطتهم خلال سير العملية نظرا للاسباب التالية :

١ — الضغوط الدولية : اذ لم يحظ الهجوم الاسرائيلي على الاراضي اللبنانية بتأييد عدد من الدول الغربية . وخاصة فرنسا التي قام وزير خارجيتها موريس شومان باخطار السفير الإسرائيلي خلال القتال « بأن فرنسا لن تبقى في موقف اللامبالاة تجاه اي مساس بسيادة الارض اللبنانية وان القائم بالاعمال الفرنسي تلقى منذ هذا الصباح تعليمات بأن يطلب من الحكومة الاسرائيلية الشروع في سحب قواتها التي توغلت في الاراضي اللبنانية»(٥). ولقد لعبت الحكومة اللبنانية ورقة الضغط السياسي منذ البداية . وصرح رئيس الوزراء اللبناني صائب سلام امام النواب في جلسة يوم السبت ١٦ ايلول بان حكومتي فرنسا وبريطانيا « تضامنتا بالعمل الحثيث القوي للضغط على اسرائيل بالانسحاب . وهما تحاولان تأليب اكبر عدد من الدول للوقوف موقفهما»(٦). وفي ندوة ١٧ ايلول الاذاعية التلفزيونية تحدث رئيس الوزراء اللبناني عن عدم وجود اتجاه لتقديم شكوى الى مجلس الامن الذي اطلق عليه لقب «حائط المبكى» وخاصة بعد الفيتو الامريكي الاخير . ثم اكد اهتمام لبنان بالاتصالات السياسية مع فرنسا وبريطانيا ، والامل الذي يعقده على هذه الاتصالات للضغط على اسرائيل بقوله « . اننا لا زلنا نتحفظ بالذهاب الى مجلس الامن . وبقينا نترقب تحركات بعض الدول مثل فرنسا وانكلترا»(٧). ولم يكن موقف لندن حازما كموقف باريس ولكنه كان موقفا ضاغطا الى حد ما. وبالاضافة الى الدول الغربية فقد نددت الدول الشرقية والدول المحبة للسلام بالعدوان الاسرائيلي على لبنان ، حتى ان كورنليوماناسكو وزير خارجية رومانيا — وهي اكثر الدول الاشتراكية تعاطفا مع اسرائيل — قد ابلغ السفير الاسرائيلي في بوخارست « بانه لم يكن هنالك اي مبرر لعملية الجيش الاسرائيلي ، وانها تمس سيادة لبنان وسلامة أرضه»(٨). وبالرغم من الاتصالات التي اجراها لبنان مع واشنطن فاننا لا نملك حتى الان ما يشير الى قيام الولايات المتحدة الامريكية باي دور في مجال الضغط على اسرائيل ، ولا نتوقع ان تكون واشنطن قد لجأت الى مثل هذا الضغط حتى ولو كان هذا الضغط يخرجها جزئيا من العزلة التي وقعت فيها بعد تورطها في استخدام الفيتو في الاسبوع الماضي، وذلك لاعتقادنا بأن نيكسون عاجز عن الضغط على اسرائيل قبل ستة اسابيع من موعد الانتخابات الامريكية .

٢ — ضراوة المقاومة : لم يكن مخططو العملية ينتظرون الاصطدام بمقاومة عنيفة . وكانوا يعتقدون ان اندفاع الارتال المدرعة على الطرقات تحت تغطية مظلة جوية متفوقة بشكل حاسم سيشل كل مقاومة وينفتح الطريق بلا قتال حتى الليطاني . ولقد بنوا اعتقادهم هذا على مبدأ عسكري يقول بأن التفوق الساحق يصل بالردع الى ذروة تأثيره بشكل يشل الخصم ويخفض احتمالات عمل القوات المتفوقة الى الحد الادنى . ولكن المقاومة العنيفة التي ابدتها المخافر القتالية اللبنانية المتمركزة على الطرقات (كانت هذه المخافر مؤلفة من عدد من الدبابات المتمركزة دفاعيا ، والمدافع ١٠٦ عديمة الارتداد المضادة للدبابات ، ومجموعات من المشاة والمهندسين) ، واستناد هذه المخافر في عدد من النقاط الحساسة الصعبة الى تخريبات (تسليات)، وصمود مجموعات المقاومة الفلسطينية — رغم صغر امكاناتها في هذا القطاع — في بنت جبيل وعيناتا ومجدل سلم والعديسة وقانا وجويا ، وعنف قصف المدفعية اللبنانية رغم تعرض مرابضها لقصف الطيران المعادي(٩)، واصدار الاوامر لقوات الجيش اللبناني المتمركزة في قطاع الهجوم والقطاع الغربي بالدفاع دون فكرة تراجع داخل جزر مقاومة حتى ولو تم تطويقها وعزلها نهائيا ، ان كل هذا قد ابطأ تقدم الاليات الاسرائيلية على المحاور ، وكبدها عددا من الخسائر ، ومنع العدو من اغلاق

الطوق بشكل كامل قبل حلول الظلام ، واعطى القيادة السياسية – وهذا هو اهم ما في الامر – الوقت الكافي لاستخدام سلاحها الديبلوماسي الى أبعد مدى . ولقد ذكر وزير الخارجية اللبناني خليل ابو حمد امام السفراء العرب في يوم ١٨ ايلول بأنه لولا بسالة الجيش في التصدي للعدوان لما نجحت الضغوط السياسية التي حملت اسرائيل على التوقف والانسحاب ، وقال في معرض حديثه : « الحقيقة يجب ان تقال بأن الضغط على الدول الصديقة لم يكن ليأتي بهذه النتيجة الايجابية لولا الموقف الشجاع والجريء الذي اتخذه الجيش عندما تصدى بكل قوة لهذا العدوان»(١٠).

٣ – طبيعة الارض : يرتبط عامل طبيعة الارض ارتباطا وثيقا بحجم القوات المدافعة وخطتها ومدى استعدادها للقتال . ولقد كان على القوات الاسرائيلية التي وصلت الى قانا وجويا ان تقطع حوالي ٢٠ كيلو مترا قبل ان تصل الى البحر ، وتغلق الطوق . وتحصر قوات الجيش اللبناني المتمركزة في القطاع الغربي وقوات جيش التحرير والميليشيا المتمركزة في الرشيدية . ولكن طبيعة الارض في منطقة رأس العين – دير قانون – عين بعل – البزورية – طير دبه – صور ، ومرور الطرقات في هذه المنطقة عبر اراض مشجرة صالحة لاخفاء الرجال والمعدات ، وشن الغارات ونصب الكمائن ، وتجمع قوات المقاومة في هذه المنطقة بعد انسحابها من القطاع الاوسط اثر معارك قاتلت فيها وفق تكتيكات حرب العصابات . وبشكل جعل الضربة الاسرائيلية « تقع في فراغ »(١١) جعل القوات الاسرائيلية تقدر طبيعة المقاومة الشرسة اليائسة التي يحتمل ان تلاقيها ، وتحجم بالتالي عن متابعة التقدم ليلا نحو الغرب بدون دعم الطيران الذي تبقى امكانات دعمه الليلي محدودة رغم قدرته على اضاءة ساحة المعركة الى حد ما .

ولا يمكن تقييم نجاح العملية وفشلها بالنظر لما حققته من دمار وخسائر وما تعرضت اليه من ضربات . والتقييم الحقيقي لا يتم الا ضمن اطار تحديد هدف العملية . فان كانت عملية تستهدف الاحتلال والضغط فهي عملية ناجحة تكتيكيا وسط فشل على صعيد السياسة والاستراتيجية العليا دون ان يمنعها هذا الفشل من محاولة تحقيق كسب استراتيجي مهما صغر . وان كانت عملية « ردع من طريق عرض القوة واستخدامها جزئيا » فهي عملية ناجحة تكتيكيا . وتنتظر قطف ثمارها الاستراتيجية والسياسية . ومهما يكن من أمر . وسواء توقفت العملية لان توقفها جزء من الخطة ، أم توقفت بسبب العوامل السياسية – العسكرية – الطبوغرافية فان « الردع عن طريق عرض القوة واستخدامها جزئيا » والذي حاول التظاهر بأنه عملية « تمشيط وتطهير » كان يخفي وراء هدفه المعلن اهدافا اخرى . وتذكر صحيفة النهار بأن الاوساط الاسرائيلية المطلعة حددت « ان الهدف الاساسي من الهجوم هو ارغام السلطات اللبنانية على الغاء اتفاقية القاهرة رسميا او عمليا »(١٢). ويمكننا ان نتصور ابعاد الردع الذي تتوخاه هذه الاوساط عندما نرى انها لا تكتفي بالحديث عن قواعد المقاومة الموجودة قرب الحدود اللبنانية – الاسرائيلية او في مناطق الجنوب ، بل تتحدث عن وجود « خمسة الاف فدائي في لبنان »(١٣) وتعتبر ان بيروت هي « المركز السياسي والاداري لكل المنظمات الفلسطينية المتطرفة »(١٤) وان مخيمات اللاجئين في لبنان هي « مراكز تجميع الاعضاء الجدد في المنظمات الفدائية وتدريبهم . وفي هذه المخيمات مستودعات ذخيرة . ومن هذه المخيمات ينطلق الفدائيون للقيام بعمليات ضد اسرائيل وضد المصالح والشخصيات الاسرائيلية في الخارج »(١٥).

ان الفهم الكامل لعملية ١٦ – ١٧ ايلول وتحديد خلفياتها وابعادها ومراميها واحتمالات تكرارها أمر مرتبط كل الارتباط بوعي منطلقات الاسلوب الاسرائيلي الذي يعتمد في مجابهة حركة المقاومة العاملة خارج الارض المحتلة على « تناوب الردع والعمل » ، و « تناوب الضغط السياسي والضغط العسكري » ، ويطبق مجموعة القواعد التالية (التي سنبحثها بشكل منفصل وواسع في دراسة خاصة عن الردع والعمل في الاستراتيجية الاسرائيلية) وهي :

١ – « الرد المرن » : الذي يستخدم كل الاساليب الممكنة لتسديد الضربات ، دون البقاء ضمن اطار رد جامد تقليدي او غير تقليدي .

٢ – « الرد الاعنف » : وذلك بتصعيد العنف ، والرد على ضربات المقاومة بضربات اعنف تستهدف قواعد المقاومة – لردع المقاومة ماديا ، كما تستهدف المدنيين من سكان المخيمات – لردع المقاومة معنويا .

٣ – « الرد المتواصل » : ويتم بتسديد الضربات بصورة متلاحقة للرد على ضربة ما ، او لمتابعة

فرض الوجود النفسي القاهر .

٤ — « المبادرة الهجومية » : وتحقيق المطاردة والضرب خارج حدود الارض المحتلة وتجاهل « الحدود السياسية » والاستعاضة عنها «بالحدود الايديولوجية » و « حدود مدى عمل القوة » .

٥ — « ردع الدول العربية المضيفة » : وهذا يعني استغلال اختلاف اهمية « هدف الرهان » بالنسبة لحركة المقاومة ولحكومات الدول العربية المضيفة لخلق شرخ سياسي تتم الافادة منه بشكل « متدرج » عن طريق « الردع المتدرج » الذي يبدأ بالضغط والتلويح بالقوة وينتقل الى الاستخدام المحدود للقوة (بمختلف الاشكال) وعلى درجات متصاعدة ، حتى يصل الى الاحتلال الجزئي . والغاية من هذا الردع التوصل في النهاية الى « محاربة العرب بالعرب » .

٦ — « استغلال الوضع العربي » : عن طريق الافادة من التناقضات التي تقع بين الدول العربية، وتسديد الضربات في الفترات التي تكون فيها القوى العربية عاجزة عن الرد لانشغالها بأوضاع داخلية حرجة ، او لانشغالها بخلافات عربية قطرية ، او لسيطرة فكرة البحث عن حل سياسي على قادتها ... الخ .

٧ — « العمل تحت غطاء سياسي خارجي » : وذلك باستغلال ظرف دولي معين ، او حادث عالمي لتعبئة الرأي العام العالمي ، واكتساب الدعم — أو منع الضغط الدولي على الاقل — عند تسديد الضربات التي تعطيها عادة اسم ضربة وقائية دفاعية .

ولقد ألقى وزير الدفاع الاسرائيلي موشي دايان الاضواء على هذه الاساليب الاسرائيلية في حديث اذيع من التلفزيون الاسرائيلي في يوم ٤ اذار ١٩٧٢ ونقلته صحيفة دافار في اليوم التالي عندما قال : « ... ان منع نشاط الفدائيين من الاراضي اللبنانية ليس مسألة الوجود المادي للجيش اللبناني في منطقة الحدود مع اسرائيل فقط ، بل هو مسألة سياسية . وهذه المسألة هي اية سياسة ستنتهج حكومة لبنان ازاء الفدائيين ، والى اي مدى ينفذ الجيش اللبناني هذه السياسة ؟ ليست المشكلة بسيطة ابدا ، ولا يمكن تنفيذ الامر بضربة واحدة ومرة واحدة ، فالمسألة تتم على مراحل وليست حادثا عارضا سريعا » ... « اننا لا نستبعد امكان اجتياز وحداتنا الحدود [اللبنانية] اذا اقتضى الامر للدفاع عن مواطني اسرائيل »(١٦). وليست هذه هي المرة الاولى التي يصرح بها دايان او غيره من زعماء العدو مثل هذه التصريحات . وليست عملية ١٦ — ١٧ ايلول هي العملية الاولى ضد الاراضي اللبنانية ولن تكون الاخيرة . انها درجة اعلى على سلم تصعيد محاولات الردع . ولقد سددت القوات الاسرائيلية في الارض اللبنانية من قبل ضربات مختلفة جوية وبرية ، ثم وقفت تنتظر النتائج . وكلنا يذكر تهديدات رئيس الاركان الاسرائيلي دافيد اليعازار في حزيران ١٩٧٢ عندما حذر لبنان « من عمليات اخرى لجيش الدفاع الاسرائيلي داخل حدودها اذا لم تغير سياستها »(١٧) وكيف طلعت صحيفة هاتسوفيه (١٩٧٢/٦/٢٤) لتقول : « ان على لبنان ان يختار بين امرين : اما ان يكبح جماح الفدائيين وتهدأ الحدود او يتجنب ذلك ويعرض نفسه لردود الجيش الاسرائيلي القوية »(١٨). ولكن الضربة العسكرية اليوم اكبر ، والوضع العربي لا يبشر باحتمالات رد موحد فعال (رغم الجهود الكبيرة التي يبذلها امين الجامعة العربية محمود رياض في هذا المجال) ، والوضع الدولي بعد خروج السوفيات من مصر وفي فترة ما قبل الانتخابات الامريكية قاتم نسبيا ، لذا فان من الطبيعي ان يكون حجم التبجحات الاسرائيلية متناسبا مع كل هذه الاوضاع ، ومن الطبيعي أن يكون الثمن السياسي الذي تطالب به اسرائيل ضخما . وها هي صحيفة دافار تحدد خطوط الخطوة السياسية المطلوبة من الحكومة اللبنانية بقولها : « أمام الحكومة الخيار بين طرد « المخربين » [رجال المقاومة] من اراضيها او الاستمرار في التفرج على اسرائيل وهي تقوم بذلك بنفسها »(١٩). ويتعرض لبنان لاخطر عملية ابتزاز سياسي عرفها حتى الان، فلقد صرح احد قادة عملية ١٦ — ١٧ ايلول لمندوبي الصحافة خلال الانسحاب بين هيترون وبنيدا « ان القوات الاسرائيلية ستترك الاراضي اللبنانية اليوم ، وسننتظر اسبوعا لنرى اذا كان هناك قوة حقيقية للجيش اللبناني في المنطقة ام لا ، فان لم يكن فانا سنعود ثانية الى الاراضي اللبنانية لنمارس عملياتنا »(٢٠). ويرسم العدو للبنان الطريق الذي عليه ان يتبعه . انه يطلب منه بعد ان يوجه المسدس الى صدغه ان يلعب الدور الذي لعبه الحكم الأردني في عام ١٩٧٠ ، وان يكرس كل قواته

لتكون حرس حدود لاسرائيل ، والا ٠٠٠! وتقف الحكومة اللبنانية حائرة بين المدافع العربية الصامتة على طول الحدود ، والتصريح الذي اطلقه مناحيم بيغن في ١٩٧٢/٩/١٣ امام المجلس القطري لحزب حيروت وقال فيه : « ان الدول العربية مسؤولة عن اعمال القتلة ، وعلينا ان نفهمها ان وقف العمليات الاجرامية ضد ابناء الشعب اليهودي هو احدى مهماتها »(٢١)، وتأييد واشنطن لعملية الابتزاز على لسان الناطق باسم وزارة الخارجية الامريكية الذي صرح في ٩/١٨ بأن « الحدود الاسرائيلية — اللبنانية يمكن ان تكون هادئة ، اذا توقفت عمليات الفدائيين »(٢٢). فكيف سترد الحكومة اللبنانية على هذه الدعوة « لمحاربة العرب بالعرب » ؟ وكيف ستفسر دعوة بيار الجميل في جلسة مجلس النواب مساء ٩/١٧ الى اقناع الفلسطينيين والاتفاق معهم وفي حالة الفشل استعمال الطريق « الذي يخلصنا ويخلصهم ويخلص القضية »(٢٣)؟

وهل سيمر هذا الطريق عبر الهجوم الى امام أم الهجوم الى خلف ؟ ان ميزان القوى داخل لبنان ، وحجم الضغوط العربية وضغوط القوى التقدمية اللبنانية ، ووطنية الجيش اللبناني ، وموقف منظمات المقاومة الموحد من التنازلات ، واحتمالات نجاح محاولات اعداد رد عربي موحد فعال ، واستمرار الضغوط العالمية ، واستمرار الموقف الامريكي المعاكس ، هي العوامل القادرة على اعطاء اجابة واضحة على كل هذه التساؤلات التي يرتبط بها مصير أمة باكملها . لقد انتهت المعركة العسكرية في الجنوب ، ولم تكن الضربة موجهة لقوات المقاومة او لقوات الجيش اللبناني ، بل كانت موجهة الى الارادة السياسية في بيروت مباشرة . ومع انتهاء المعركة العسكرية بدأت المعركة السياسية — الديبلوماسية ، ولا ينتصر في هذه المعركة الا من يعرف كيف يقلب موازين القوى لصالحه ، ويصمد في معركة حوار الارادات .

---

١ — تصريح الناطق العسكري الاسرائيلي . نشرة **رصد اذاعة اسرائيل** بالعبرية الصادرة عن مركز الابحاث في م.ت.ف. رقم ٤١ بتاريخ ١٩٧٢/٩/١٦ .

٢ — راجع تفصيلات جلسة مجلس الوزراء وجلسة مجلس النواب في يوم ١٩٧٢/٩/١٦ (النهار ١٩٧٢/٩/١٧) .

٣ — على لسان المحرر العسكري **لوكالة الانباء الفلسطينية** (وفا) ١٩٧٢/٩/١٦ ، رقم ١٠ .

٤ — **النهار** ، ١٩٧٢/٩/١٧ عن رويتر ، و.ص.ف ، يوم ١٩٧٢/٩/١٦ .

٥ — بيان وزارة الخارجية الفرنسية — و.ص.ف في — ١٩٧٢/٩/١٦ ، نقلته **النهار** ١٩٧٢/٩/١٧

٦ — **النهار** ، ١٩٧٢/٩/١٧ .

٧ — **الانوار** ، ١٩٧٢/٩/١٨ .

٨ — نشرة **رصد اذاعة اسرائيل** بالعبرية ، رقم ٤٣ تاريخ ١٩٧٢/٩/١٩ ، للمراجعة .

٩ — لا بد من الاشارة هنا الى بسالة ضباط وجنود بطارية المدفعية ١٥٥مم المتمركزة في ارنون والتي تابعت عملها بكفاءة رغم تعرضها للقصف الجوي .

١٠ — **الانوار** ، ١٩٧٢/٩/١٩ .

١١ — صرح الاخ ياسر عرفات امام بعض المسؤولين الفلسطينيين قبل بدء العمليات ان المقاومة ستتبع تكتيكات واساليب تجعل الضربة الاسرائيلية المنتظرة « تقع في فراغ » .

١٢ — **النهار** ، ١٩٧٢/٩/١٧ .

١٣ — **المرجع نفسه** .

١٤ — **المرجع نفسه** .

١٥ — **المرجع نفسه** .

١٦ — نشرة **مؤسسة الدراسات الفلسطينية** ، عدد ١٩٧٢/٣/١٦ .

١٧ — نشرة **رصد اذاعة اسرائيل** بالعبرية بتاريخ ١٩٧٢/٦/٢٤ .

١٨ — **المرجع السابق** .

١٩ — نشرة **رصد اذاعة اسرائيل** بالعبرية ، رقم ٤٢ ، بتاريخ ١٩٧٢/٩/١٧ .

٢٠ — مقال نزيه نقوزي ، **الانوار** ، ٧٢/٩/١٨ .

٢١ — نشرة **رصد اذاعة اسرائيل** بالعبرية ، رقم ٤٠ ، بتاريخ ١٩٧٢/٩/١٤ .

٢٢ — **النهار** ، ٧٢/٩/١٩ ، عن رويتر ، و.ص.ف. ، في ١٩٧٢/٩/١٨ .

٢٣ — **الانوار** ، ١٩٧٢/٩/١٨ .

شـــهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

منذ مجزرة أيلول عام ١٩٧٠ ، ومجزرة جرش في تموز ١٩٧١ ، عاش العمل الفدائي مرحلة من التراجعات ، انتهت بتصفية الوجود العلني لحركة المقاومة في الاردن . وقد انعكست اثار هذا الوضع بشكل مباشر على العمل الفدائي في الاراضي المحتلة ، فتسارعت خطوات اسرائيل في تنفيذ مخططاتها الاقتصادية والسياسية والارهابية في الضفة الغربية ، كما استطاعت ان تتفرغ لوضع مخطط مماثل لقطاع غزة ، بحيث أدى هذا الوضع بمجمله الى نجاح اسرائيل في توجيه ضربات فعالة لخلايا المقاومة السرية في الداخل ، أثرت بشكل واضح على مستوى التواجد الفدائي وكثافته . ثم تابعت اسرائيل ضغطها على لبنان بمسلسل متواصل من الاعتداءات والغارات على قرى الجنوب المدنية ، نتج عنها اتفاق بين السلطات اللبنانية والمقاومة على تجميد النشاط الفدائي المنطلق من لبنان لفترة مؤقتة لم يحدد موعد انتهائها . وقد أبرزت هذه التطورات أزمة عامة احاطت بالمقاومة وكان لا بد لهذه الازمة من ان تعبر عن نفسها بردود فعل مختلفة ، فبرزت اولا « منظمة ايلول الاسود » واعلنت انها ستعمل على تصفية المسؤولين عن المجزرة الاردنية ، وبرزت ثانيا اساليب جديدة في العمل لم تكن مقبولة على نطاق واسع من قبل ، ونعني بها اساليب الاغتيال السياسي (وصفي التل) وخطف الطائرات(الاسرائيلية والاردنية)، وضرب المصالح الاقتصادية الاسرائيلية والامبريالية في الخارج(تريستا ـ ميونيخ) ،ففي المرحلة التي سبقت مجزرة أيلول ،كانت هذه العمليات (خطف الطائرات والعمليات الخارجية) وقفا على الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (باستثناء عملية واحدة للجبهة الديمقراطية في المعرض الصناعي الاسرائيلي بتركيا) . اما بعد مجزرة ايلول ، فقد ساهمت بها بمستويات مختلفة ، كل من الجبهة الشعبية ، وفتح ، والجبهة الديمقراطية ، ومنظمة ايلول الاسود ، ثم كادت منظمة ايلول الاسود ان تحتكر هذا النوع من العمل . وان تتوسع فيه بحيث اصبح ظاهرة بارزة اعطت لحركة المقاومة طابعا جديدا لم يكن لها في السابق .

قبل أيلول كانت فتح ترفض هذا النوع من العمليات على اساس ان خسائره على صعيد الرأي العام العالمي اكثر من فوائده . كما كانت الجبهة الديمقراطية ترفضه ايضا من خلال موقف نظري يعترض على هذه العمليات من حيث المبدأ ويرى فيها تنمية للنزعة الفردية المغامرة ، كبديل عن نزعة العمل الجماهيري المنظم الواسع النطاق . وحين ساهمت هذه المنظمات بهذا النوع من العمل بعد ايلول لم تقدم له تفسيرا نظريا ، وان كان هذا التفسير واضحا من خلال وقائع التضييق المتواصل على نشاط حركة المقاومة، فحين تمنع حركة شعبية مسلحة من التعبير عن نفسها في ميدان عملها الطبيعي ، وبأساليب العمل المتعارف عليها ، فان توسيع نطاق العمل ، واللجوء الى الاساليب الخاصة ، يصبح نتيجة موضوعية متوقعة . هل تدعم هذه النتيجة الموضوعية المتوقعة ، بموقف نظري ؟ وما هي حدود وشروط هذا الموقف ؟ هذا ما لم يطرح للحوار حتى الان في صفوف حركة المقاومة ، وان كانت الجبهة الشعبية قد رأت فيه انتصارا وتعميما لوجهة نظرها السابقة .

عملية ميونيخ :

من ضمن هذا السياق جرت مؤخرا عملية ميونيخ، وجرت الى جانبها عمليات اخرى مماثلة . قبلها انفجرت قنبلة داخل طائرة بوئنغ اسرائيلية كانت متوجهة من روما الى تل ابيب يوم ١٦ اب ، ولكنها استطاعت العودة سالمة الى المطار . واعتقل شابان عربيان وجهت لهما تهمة تدبير مذبحة (١٩ اب) . وبعدها استدرج موظف استخبارات في

السفارة الاسرائيلية في بروكسل واطلقت عليه النار يوم ١٠ ايلول فاصيب بجراح .

ثم في صباح يوم الخامس من ايلول اقتحم ثمانية من فدائيي منظمة ايلول الاسود ، مقر البعثة الاسرائيلية في مدينة الالعاب الاولمبية في ميونيخ واحتجزوا ٩ من اعضائها ، وقتلوا اثنين اثناء عملية الاقتحام . اعطى الفدائيون لعمليتهم طابعها السياسي من خلال التركيز على ما يلي :

١ ــ اطلقوا على العملية اسم « عملية اقرت وكفر برعم » تضامنا مع نضال سكان القريتين في فلسطين المحتلة للعودة الى اراضيهم وبيوتهم المغتصبة . ٢ ــ قالت منظمة ايلول الاسود في بيانها الرسمي ان العملية تتفق مع الذكرى الثانية لمجزرة ايلول . فهي نوع من اثبات الوجود بعد عمليات التصفية المتواصلة . ٣ ــ جعلوا مطلبهم الرئيسي، مطلبا نضاليا وانسانيا ، حين اشترطوا لاطلاق سراح الرهائن ، الافراج عن ٢٣٠ فدائيا اسيرا في المعتقلات الاسرائيلية ، في مقدمتهم الفدائي الياباني اوكاموتو ، الذي قاد عملية الجبهة الشعبية في مطار اللد . ٤ ــ طرحوا شعارا رئيسيا للعملية « يا ثوار العالم اتحدوا » .

وخلال سير العملية برز بشكل واضح ، ان الفدائيين يعون تماما درس عملية اللد الاولى ، ويتصرفون بحذر بالغ حتى لا يقعوا في اخطاء مماثلة لاخطاء تلك العملية . ففي البيان الذي رموه من غرفة الاحتجاز وحددوا به مطالبهم حذروا من الخديعة قائلين ، ان اي خديعة ستعني القضاء على الرهائن ، وان سلطات المانيا الغربية ستكون المسؤولة عن ذلك ، وستكون مصالحها فيما بعد هدفا لاعمال المنظمة . وقطعا للوقوع في احابيل أي مناورة اعلنوا ايضا انهم لن يفاوضوا حول مطالبهم . وحددوا مهلة واحدة للانذار مهددين بأنهم سيقتلون رهينة كل ساعتين اذا لم تستجب اسرائيل لمطالبهم . وبينوا بالاضافة الى ذلك ، ان لديهم تصورا تفصيليا لمجرى العملية يقوم على احتمالين :

الاحتمال الاول : ان تستجيب اسرائيل لمطالبهم ، وفي هذه الحالة ينقل الاسرى الفدائيون الى اي عاصمة عربية باستثناء عمان (بلد النظام العميل) وبيروت (لاسباب أمنية) . وبعد وصول الاسرى يتم التفاوض لتسليم الرهائن ، وخروج الفدائيين من المانيا بطريقة تضمن سلامتهم .

الاحتمال الثاني : ان ترفض اسرائيل الاستجابة لمطالبهم ، وفي هذه الحالة يطلبون نقلهم مع رهائنهم الى عاصمة عربية ، محددين اسلوب النقل بشكل تفصيلي ، وهو ما نفذ بالفعل ، حين تم نقلهم حسب طلبهم الى ثلاث طائرات هيلكوبتر حطت في مدينة الالعاب الرياضية ، واقلتهم الى مطار عسكري كانت تنتظرهم فيه طائرة ركاب عادية .

وتنفيذا لرفض التفاوض حول مطالبهم ، لم يستجب الفدائيون الى عرض الماني باطلاق الرهائن مقابل مبلغ غير محدود من المال ، كما انهم لم يستجيبوا لعرض اخر باستبدال الرهائن الاسرائيليين برهائن من المسؤولين الالمان . والتغييرات التي ادخلها الفدائيون على خطتهم تمثلت في أمرين :

الاول : قبولهم تمديد فترة الانذار بناء على وساطة من السفير التونسي .

والثاني : عدم تنفيذ ما هددوا به بقتل رهينة كل ساعتين اذا لم تستجب اسرائيل لمطالبهم .

الا ان هذه التغييرات لم تؤثر على تمكنهم من تنفيذ خطتهم بنجاح ، حتى اللحظة التي تدخل فيها عامل حاسم لا حيلة لهم فيه ، وليس من الممكن الاحتياط له . فالاتصالات التي تمت بين المانيا واسرائيل اسفرت عن اتفاق بينهما ، اعلنت فيه اسرائيل رفضها بأي شكل من الاشكال الموافقة على اطلاق سراح اي أسير فدائي ، واصرارها على اعداد كمين لاطلاق سراح الرهائن حتى لو أدى الامر الى مقتلهم ، واقترحت تطبيق الخطة نفسها التي نفذها دايان قبل أشهر في عملية اللد الاولى ، والتي تقوم على مماطلة الفدائيين حتى الليل ، ونقلهم الى مكان فسيح ، وتسليط الاضواء الكاشفة عليهم ، واقتناصهم فور نزولهم من طائرات الهيليكوبتر . وقد نفذت هذه الخطة على ارض المطار العسكري القريب من ميونيخ ، ولكن الاشتباك أدى الى مقتل الرهائن التسعة ، ومقتل خمسة فدائيين ، واعتقال ثلاثة منهم كان احدهم مصابا بجراح خطرة ادت الى بتر ساقه . وبذلك يكون العناد الاسرائيلي ، والانصياع الالماني لهذا العناد هو المسؤول الحقيقي عن مجزرة المطار ، بينما كانت نجاة الرهائن مؤكدة فيما لو تم نقلهم الى اي عاصمة عربية ، اما من خلال بقائهم احياء كأسرى ، أو من خلال موافقة اسرائيل على مبادلتهم ، ولكن موقف اسرائيل كان ينطلق من رفض تقديم اي تنازل ، حتى لو أدى ذلك الى

مقتل الجميع . وتهربا من تحمل مسؤولية المجزرة، أشاع المسؤولون الالمان في اليوم التالي (٦ أيلول) ان الفدائيين هم الذين بدأوا اطلاق النار، ثم عادوا واعترفوا بتدبير الكمين وبمسؤوليتهم عن بدء الاطلاق .

ردود الفعل :

* كان رد الفعل الاعلامي الاسرائيلي التركيز المكثف على تصوير العملية على انها عملية وحشيــة وهمجية ، وسعت من خلال هذه الحملة الاعلامية الى استصدار ادانة عالية ، ليس للعملية فقط ، بل ولحركة المقاومة الفلسطينية ايضا ، ثم عززت اسرائيل حملتها الاعلاميــة بحملــة ديبلومــاسية مماثلة ، حين أصدرت جولدا مئير بيانا بعد اجتماع للوزارة الاسرائيلية ، دعت فيه حكومات العــالم الى اتخاذ اجراءات أكثر فعالية ضد الفدائيــين . ولكن مقارنة بسيطة بين موقف فدائيي ميونيــخ وموقف حكومة اسرائيل ، يكشف بوضوح كامل ان التصرف الوحشي والهمجي انما تجسد في قرار الحكومة الاسرائيلية ، وفي الموافقة الالمانية الغربية على ذلك القرار ، فمطلب الفدائيين باطلاق سراح رفاقهم المعتقلين مطلب نضالي وانساني ويضمن ارواح الرهائن . بينما اصرار اسرائيل على رفض الاستجابة لهذا المطلب ، ادى الى مجزرة حقيقية في مطار ميونيخ العسكري ، مقــابل التمسك بعدم تقديم اي اعتراف بالفلسطينيين ، من خلال الرضوخ لاي مطلب من مطالبهم ولعل اوضح دليل على أن موقف اسرائيل كان هو الهمجية بعينها وليس موقف الفدائيين ، ما تضمنه البيــان الوزاري الاسرائيلي نفسه ، من امتداح وتقدير لموقف الحكومة الالمانية، لانها وافقت على الخطة الاسرائيلية ، ونفذت كمين المطار : متجاهلة ان كمين المطار لــم ينقــذ الرهائن .

أما رد الفعل الاسرائيلي على صعيــد الاجهزة الرسمية ، فقد تمثل بالاجتماع الطارىء الذي عقدته الوزارة الاسرائيلية فور الحادث ، والذي اعقبته ثلاثة اجتماعات هامة . الاجتماع الاول هو اجتماع الكنيست حيث القت غولدا مئير خطابا حول الحادث اعلنت فيه مطالب الفدائيين ، وطالبت الــدول بالتدخل .

الاجتماع الثاني عقدته جولــدا مئير مــع كبــار مستشاريها السياسيين والعسكريين .

الاجتماع الثالث عقده وزير الدفاع موشي دايــان مع مستشاريه العسكريين . وعلى الفور شاع في الاوساط الصحافية والسياسية الدولية جــو يتوقع أن تقوم اسرائيل بهجوم عسكري واسع على سوريا ، وباحتمال قيامها بهجوم مماثل على لبنان. وساعد على انتشار هذا الجو ، تركيز الاعــلام الاسرائيلي قبل اسبوعين من حادث ميونيخ علــى ان سوريا رفعت من درجة دعمهــا للفدائيين ، وعلى أن العمليات الفدائية المنطلقة من الاراضي السورية قد ازدادت بشكل ملحوظ . وفي الاجتماع الثاني للوزارة الاسرائيلية يوم (٦ ايلول) ، قال البيان الصادر عن الاجتماع ان اسرائيل ستواصل حربها ضد المنظمات الفدائية ، ولن تعفي الذين يساعدون اعمال الارهابيين او يحرضون عليها من المسؤولية .

* أما ردود الفعل على الصعيد الدولي ، فقد كان أبرزها موقف المانيا الغربية نفسها التي تصرفت كطرف اسرائيلي ، وليس كدولة مسؤولة تسعى لايجاد حل مرض للمشكلة العالقة فوق اراضيها . فعلى الفور ، استنكر كل من رئيس الجمهوريــة ، والمستشار برانت العملية بشدة ، وعقدت الحكومة الالمانية اجتماعا طارئا ، طار بعده برانت للاشراف بنفسه على الخطة المضادة ، واقيم اثناء ذلــك خط اتصال مباشر بين ميونيخ والقدس . أما خارج المانيا فقد بعث برانت برسالة الى جولدا مئير يؤكد فيها أن حكومته ستبذل كل جهودهــا لاطــلاق الاسرائيليين المحتجزين ، كما بعث برسائل الــى الحكام العرب يطلب منهم فيها التدخل لايقــاف العملية ، واستغل هذه الرسائل فيما بعد ليحمل مصر مسؤولية المجزرة ، قائلا أنها رفضت استقبال الفدائيين، وانها لو قبلت ذلك لامكن انقاذ الرهائن. وقد ردت مصر على ذلك قائلة انها لم تكن قادرة على استقبال الفدائيين قبل أن يتم الاتفاق معهم على الحل . ولكن الغريب في الامر ، انه فــي الوقت الذي كان فيه برانت يجري هذه الاتصالات، كان الاستعداد لكمين المطار يسير في طريقــه المرسوم . ويؤكد هذا ان هدف برانت من وراء افتعال أزمة مع مصر ، مواجهة الضغوط السياسية الداخلية التي اثارها حادث ميونيخ ، وسعــت المعارضة مباشرة للاستفادة منها لصالحها .

وشكل موقف الولايات المتحدة موقفا اخر بارزا في ردود الفعل الدولية ، لم يقتصر على بياني استنكار

متواليين اصدرها نيكسون ، ولا على قرار اتخذه مجلس الشيوخ بالاجماع يدعو الى فرض عقوبات اقتصادية على الدول التي تمنح المأوى لمنظمات مثل « منظمة ايلول الاسود » ، بل تجاوز الموقف الامريكي كل ذلك ، ليدعو نيكسون يوم ٦ ايلول الى تنظيم عملية قمع دولية لنشاطات الفدائيين ، وليقوم وزير خارجيته في اليوم التالي مباشرة ، بتنظيم برنامج اتصالات مع اربعين دولة لبحث الموضوع .

اما موقف الاتحاد السوفياتي فقد تمثل في البداية باذاعة نبأ العملية دون أي تعليق . ثم صدر التعليق الاول عن الاوساط الرياضية السوفياتية التي اعربت عن أسفها للحادث . وفي ١٠ ايلول قالت التحليلات الصحفية السوفياتية « بأن الرجعيين العرب وعملاء اسرائيل يتعمدون دفع الفلسطينيين الى ارتكاب اعمال متطرفة كعملية ميونيخ » .

* ردود الفعل على الصعيد العربي الرسمي تميزت بالحذر بشكل عام ، فلم تؤيد العملية ولم تستنكرها . وقدمت معظمها تفسيرات لظروف الظلم التي تدفع الفلسطينيين لاتباع كافة الوسائل لاسماع صوتهم للعالم . ولكن برزت بالرغم من ذلك عدة أصوات معارضة . فقد استنكر الملك حسين العملية في برقية بعث بها الى برانت ، ووصفها بأنها جريمة ومخزية . واعلن مكتب الجامعة العربية في بون عن الاسف العميق للحادث ، وقال في بيان له أنه لا يقر كل أعمال الارهاب . وصرح حسنين هيكل في روما قائلا ان فدائيي ميونيخ يعيشون في الماضي .

* على صعيد حركة المقاومة لم يصدر اي بيان رسمي حول الحادث . واكتفت دائرة الاعلام بالقول ردا على اسئلة الصحفيين بأن منظمة ايلول الاسود لا علاقة لها بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وصدرت نشرة « وفا » دون أي نبأ عن العملية . وحين تحدث السيد ياسر عرفات يوم ٦ ايلول في افتتاح مؤتمر الكتاب والصحفيين الفلسطينيين لم يشر الى الحادث . أما صوت النشاز الوحيد فقد صدر عن السيد سعيد حمامي ، مسؤول الاعلام في مكتب الجامعة العربية بلندن ، الذي استنكر العملية ، ونفى ، في جو الاستنكار ، وجود اي علاقة لايلول الاسود بمنظمة التحرير الفلسطينية .

* وكخلاصة لهذا الاستعراض لوقائع عملية ميونيخ يمكن ان نسجل الملاحظات التالية :

١ ــ على الصعيد الرسمي الدولي كان الاستنكار شبه شامل للعملية . ولكن لوحظ انه كان هناك بالاضافة الى ذلك تركيز واضح ، في التصريحات وحتى في الصحف اليمينية الكبرى ، على الارهاب والظلم الذي احاق بالشعب الفلسطيني ، وانه سبب هذا النوع من العمل . وكأن هذه المواقف تريد أن تنبه الى ضرورة ايجاد حل لمشكلة الشعب الفلسطيني . ٢ ــ على الصعيد الاسرائيلي برز الاصرار على رفض تقديم اي تنازل حتى لو كان ثمنه مقتل رعايا اسرائيليين . ولكن الاهم من ذلك كان بروز فكرة مواجهة « الشعب » الفلسطيني ، وليس منظمات المقاومة فقط ، حيث وردت اشارة واضحة لذلك في بيان جولدا مئير يوم الثلاثاء ١٢ ايلول ١٩٧٢ . ٣ ــ اما على صعيد النتائج السياسية للعملية ، فقد أدت الى وضع علامة استفهام كبيرة حول اي احتمال لنشاطات التسوية السياسية . فقد قال ايبان وزير الخارجية الاسرائيلية « لقد خلقوا وضعا جعل « السلام » بعيدا عن تفكيري اليوم » . وقالت مصادر مطلعة في لندن ان احداث ميونيخ كانت ضربة قاسية لامكانات التسوية السياسية .وعلقت الصحف الجزائرية فقالت ان دراما ميونيخ وضعت حملة مصر الدبلوماسية في اوربا الغربية موضع الشك .

والان ... هل توقفت ذيول حادث ميونيخ عن التفاعل ؟ على صعيد العملية نفسها ، مثل الفدائيون الثلاثة المعتقلون أمام المحكمة يوم السابع من ايلول ، حيث رفضوا الادلاء بمعلومات عن رفاقهم الذين استشهدوا ، وتمسكوا بصمت شبه كامل . وفي اليوم نفسه تلقت الحكومة الالمانية تحذيرا من منظمة ايلول الاسود ، بأنها ستنتقم اذا لم تسلمها جثث الفدائيين الخمسة ، والمعتقلين الثلاثة ، وبينما طالبت تونس يوم ٨ ايلول تسليمها جثث الفدائيين ، الا انها عادت وسحبت طلبها ، لتفسح المجال امام وفد ليبي وصل الى المانيا للتفاوض حول الموضوع . وقد سلمت الجثث الى الوفد الليبي ، حيث تم تشييعهم في ليبيا بجناز شعبي ضخم .

العدوان الاسرائيلي :

أما على صعيد النتائج العسكرية للعملية فقد

قامت اسرائيل يوم ٨ ايلول بشن سلسلة من الغارات الجوية الوحشية على عدد كبير من المخيمات والقرى ، استهدفت السكان المدنيين بالدرجة الاولى . وشمل العدوان الاسرائيلي كلا من لبنان وسوريا . ففي لبنان اغارت الطائرات الاسرائيلية على مخيم نهر البارد وعلى قرية الرفيد وعلى قرية راشيا الوادي . وقتل في هذه الغارات نحو ٢٠ شخصا وجرح نحو اربعين ، كان معظمهم من الاطفال والنساء . وفي سوريا اغارت الطائرات الاسرائيلية على موقعي المنطار وبرج السلام في المنطقة الساحلية الشمالية ، وعلى قرية الهامة قرب دمشق ، والكفر ، ومخيم لاجئي القنيطرة السوريين في سحم الجولان ، ومقصف قرية المزيريب ، ومسقط الجولان ، والسويداء . وقتل في هذه الغارات اكثر من ٢٠٠ شخص وجرح عدد مماثل . وايضا كان معظمهم من الاطفال والنساء . وفي الاردن ، اصابت بعض الطائرات الاسرائيلية اثناء قصفها لسوريا ، قرية اردنية في قضاء مدينة اربد أدت الى مقتل ١٨ مدنيا وجرح ١٧ . وفي المياه القريبة من مدينة صور اغرقت اسرائيل زورقا للمقاومة قتل فيه خمسة من الفدائيين (٩ ايلول) . وقد قامت الطائرات السورية بهجوم مضاد يوم ٩ ايلول على المواقع العسكرية الاسرائيلية ، تلتها اشتباكات جوية ، خسرت فيها سوريا ثلاث طائرات ، كما خسرت اسرائيل ثلاث طائرات ايضا . وفي اليوم التالي (١٠ ايلول) علم ان اسرائيل وضعت قواتها في حالة تأهب قصوى على طول الحدود مع لبنان وسوريا ، وسط جو يوحي بأنها تستعد لعمل عسكري كبير . وعند انتهاء الغارات وصف ناطق اسرائيلي ما حدث قائلا ان هذه العمليات كانت « اهم عمليات قام بها الطيران الاسرائيلي » ، وادعى انها كانت موجهة ضد قواعد الفدائيين . وقد سعت اسرائيل بجميع الوسائل لاظهار هذه الهجمات البربرية على انها رد على عملية ميونيخ، ولكن الوقائع تظهر عكس ذلك تماما . اذ أن لبنان كان طوال الشهر الماضي عرضة لعمليات استنزاز اسرائيلية متواصلة ، تمثلت باختراق اسرائيل المتواصل لمجاله الجوي، ولمياهه الاقليمية، والاستمرار في احتلال بعض المواقع داخل اراضيه. فقد حلقت الطائرات الاسرائيلية فوق الاجواء اللبنانية للاستكشاف والتصوير بشكل يومي منذ ١٤ آب وحتى ٢ ايلول . وقدم مراقبو الهدنة الدوليون في لبنان ثلاثة تقارير الى الامم المتحدة تؤكد وجود قوات اسرائيلية داخل الاراضي اللبنانية (١٦ آب) . أما سوريا فقد تعرضت قبل اسبوعين من عملية ميونيخ ، لحملة اعلامية واسعة ، ركزت على ازدياد نشاط الفدائيين من الاراضي السورية بدعم وتشجيع من السلطات المعنية فيها . وقد كانت هذه الحملة مكثفة الى الحد الذي دفع المراسلين الصحفيين الاجانب كافة ، الى الحديث عن احتمال قيام اسرائيل بهجمات ضد سوريا ، قبل وقوع عملية ميونيخ .

وعلى اساس هذه الوقائع يمكن القول ان اسرائيل كانت ترتب سلفا سلسلة من الاعتداءات على سوريا ولبنان وقواعد المقاومة ، ثم تذرعت بعملية ميونيخ لتنفيذ اعتداءاتها ، لتظهر وكأنها رد عليها، هذا اذا تجاهلنا الربط الاسرائيلي غير المنطقي بين عملية الفدائيين الفلسطينيين في ميونيخ ، وبين ضرورة ضرب مواقع مدنية في سوريا ولبنان .

النشاط الفدائي :

لاحظ المراقبون باهتمام تمكن المقاومة من تجديد عملياتها في الاراضي المحتلة وفي اسرائيل نفسها ولو بشكل محدود . ورأوا في تجدد العمليات هذا احتمال الخروج من النطاق المحدود الى نطاق اوسع ، كما رأوا فيه مسا اوليا باجراءات القمع الارهابية العديدة التي نفذتها اسرائيل بشكل مكثف منذ أيلول ١٩٧٠ . ففي ٢١ آب عثر البوليس الاسرائيلي على قنبلة موقوتة وضعها شاب في منطقة ناتانيا شمال تل ابيب . واعطى بعض الشهود اوصاف الشاب ، حيث جرت حملة اعتقالات وتفتيش في المناطق المجاورة ، وفي ٢٥ آب وقع في غزة اول هجوم فدائي ، بعد اشهر من الصمت (حسب تعبير وكالات الانباء) ، اعلنت اسرائيل على اثرها تخفيف حجم قواتها في القطاع، والقيت في الهجوم قنبلة يدوية على سيارة اسرائيلية عسكرية . وفي ٢٦ آب اعلن ناطق باسم المقاومة مقتل طيار اسرائيلي اثناء وجوده في منطقة الجليل الاعلى . وفي ٢٨ آب قام الفدائيون في غزة بهجوم ثان ، حيث القيت قنبلة يدوية ، قالت السلطات الاسرائيلية انها لم تحدث اي اصابات . وعلى اثر هذا الحادث قالت مصادر مطلعة في اسرائيل ان السلطات تخشى تزايد نشاط الفدائيين بعدما تلقت معلومات تفيد بأن المنظمات اعادت تنظيم نشاطها للقيام بهجمات جديدة ضد اسرائيل . وبالفعل قام

الفدائيون بعد ذلك بعملية عسكرية اخرى فـي غزة (٢ ايلول) ، تلتها ابرز عمليـات القطاع في الشهر الماضي واكثرها دلالة سياسية ، ونعني بها محاولة اغتيال رشاد الشوا رئيس بلدية غزة . قام بالمحاولة ثلاثة أشخاص ، ولكنهم لم يتمكنوا مـن اصابته . وقد أعلنت المقاومة مسؤوليتها رسميا عن الحادث ، بينما نددت حكومة عمان بـه . والجدير بالذكر ان هذه المحاولة جرت بعد فترة قصيرة من عودة الشوا من عمان ، واعلانه هناك موافقته على مشروع الملك حسين ، واستعداده للسير تحت « قيادته الحكيمة » ، واعلانه عـن استثناء سيجري في غزة لتقرير مصير القطـاع بعد الوصول الى اتفاق صلح بين الاردن واسرائيل. وقد اثار هذا الموقف في حينه رفضا شعبيا عاما في القطاع ، عبر عن نفسه بأكثر من صورة ، كانت اخرها محاولة الاغتيال . وبذلك برهنت الجماهير في قطاع غزة انها قادرة على تقديم المزيد مـن الصمود والعطاء ، رغم كل اساليـب القمـع والارهاب التي مورست هناك ، واطمأنت السلطات الاسرائيلية بعدها ان الهدوء قد اصبح سيـد الموقف .

وقد لوحظ ان تجدد النشاط الفدائي ترافق مـع عودة اسرائيل الى الاعلان من جديد عن محاكمات للفدائيين المعتقلين منذ فترة طويلة ، وذلك لتذكير الجميع بسيل المحاكمات السابقة كله . ففي نابلس أصدرت محكمة عسكرية حكما بالسجن مدى الحياة على الفدائي سليمان العلان ، الذي يبلغ من العمر ٣٧ عاما ، ووصفته بأنه المسؤول المحلي للجبهة الشعبية في مدينة نابلس ، وكان قد اعتقل في عام ١٩٧١.وفي غزة حكم فدائي اخر من الجبهة الشعبية بالسجن ٢٠ عاما ، وكان ايضا قد اعتقل في وقت سابق من العام الماضي .

العلاقات الداخلية بين المنظمات :

برزت اثناء الشهر الماضي ازمة في العلاقات الداخلية بين المنظمات الفدائية ، دارت حـول موضوع الوساطة بين المقاومة والاردن . ظهر اول نبأ حول موضوع الوساطة يوم ١٣ آب في الصحافـة الكويتية حيث قـالت صحيفة « الرأي العام » ان لزيارة السيد عمر السقـاف وزيـر الخارجيـة السعودي الى القاهرة وبيروت علاقة بالجهـود المبذولة لتحسين العلاقات بـين الاردن والبـلاد العربية ، وان هناك مشروعا سعوديا اردنيا يشتمل على احياء الجبهة الشرقية واعادة الفدائيين الـى الاردن ، على أساس ان يتمتعوا بحقوق كالتي لهم في لبنان . وفي ١٩ اب وردت اخبار من تونس تقول ان السعودية تبذل بالتعاون مع مصر جهـوذا لتحسين العلاقات بين الاردن وحركة المقاومة . وفي اليوم نفسه الذي اعلن فيه هذا النبأ أعلن ان السيد ياسر عرفات الذي كان قد وصل تـونس قادما من ليبيا يوم ١٧ آب ، قد عقد اجتماعين ، الاول مع الامير فهد بن عبد العزيز وزير الداخلية السعودي ، والثاني مع الامير فهـد والرئيس التونسي بورقيبة . وفي اليوم الثاني أصدرت اربع منظمات فدائيـة (الصـاعقة ــ الشعبيـة ــ الديمقراطية ــ جبهة التحرير) بيانا موقعا بأسماء ممثليها في اللجنة التنفيذية ، يعتبـر اتصـالات الوساطة مخالفة تنظيمية ، وقضية لا يجوز لاحد ان ينفرد بها . ولكن السيد كمال ناصر نفى في ٢١ آب ان تكون المقاومة مهتمة بمساعي الوساطة بينها وبين الاردن وقال « ان هذا الكلام خارج عن اهتمامات الثورة الفلسطينية لان موقفنا من النظام الاردني واضح في مقررات المؤتمر الشعبـي » . ثم أصدر كمال ناصر في ٢٣ آب بيانا انتقد فيه بيان المنظمات الاربع ، قائلا ان هذا التصرف يشكل تجاوزا لصلاحياته كناطق رسمي ، مما يجعل منه مخالفة تنظيمية ، ستؤدي الى ضرب الوحـدة الوطنية . وولد هذا الجو كله ازمة واضحة فـي العلاقات الداخلية ، زاد من حدتها حديث صحفي أدلى به السيد نايف حواتمه الامين العـام للجبهة الديمقراطية يوم ٢٦ آب . قال فيه ان هناك وساطة سعودية تحظى برضاء مصر ، وان الوساطة ليست امرا جديدا ، بل بدأت قبل ستة أشهر ، واتهم جناحا محددا في احدى فصائل المقاومة (دون ان يسميه) بأنه ضالع في هـذه العملية . وقال حواتمه في حديثه ان السفير انور الخطيب الذي يلعب دورا رئيسيا في الحوار بـين عمان وزعماء الضفة الغربية ، يصر على مشاركة عناصر معتدلة من المقاومة في اية تسوية سياسية مع اسرائيل ، بينما يرفض الملك حسين مبـدأ اشراكهم . واضاف يقول ان حركة المقاومة رفضت التسويـات السيـاسية مـن حيـث المبـدأ ، ولكن الرفض المبداي لا يكفي ، بل لا بد من طرح برنامج للعمل المرحلي يقدم للجماهير اجابات واضحة على مختلف القضايا لتناضل على أساسها، وطالب بالالتزام العملي بالبرنامج الذي أقره المؤتمر

الشعبي ، وبانجاز وحدة وطنية ديمقراطية لا تقوم على أساس الضم والالحاق ، والا تستفقد المقاومة دورها الوطني والثوري وتجد نفسها على هامش الشعب الفلسطيني . وقد رد السيد كمال ناصر ببيان حاد اللهجة على تصريح حواتمه ، وقال في رده ان الحديث يشكل خرقا فاضحا لميثاق واجراءات الوحدة الوطنية ، وانه ظاهرة انشقاقية تستفيد منها القوى المضادة ، وانه يشكك بأبسط مفاهيم الثورة التي لم تكتف بالرفض الكلامي للتسويات السياسية ، بل تعرضت للذبح في الاردن بسبب صمودها . واضاف السيد كمال ناصر يقول أن المقاومة ليست بحاجة لمن ينظر لها ، وانها ستحاول تطويق نتائج الحديث ، وان دائرة الاعلام ستطلب تجميد عضوية الجبهة في جهاز الاعلام الموحد . وفي اليوم نفسه ردت الديمقراطية ببيان آخر قالت فيه ان كمال ناصر يفهم الاعلام الموحد ، كما للافواه ، واخراسا للاصوات التقدمية، وان مجلس الاعلام الموحد لا علم له ببيان كمال ناصر ، ولم يناقش اقتراحا بتجميد عضوية الجبهة الديمقراطية فيه .

وقد اجرت اذاعة فلسطين في القاهرة حديثا مع السيد ياسر عرفات يوم ٢٨ آب ، نفى فيه وجود وساطة بين المقاومة والملك حسين ، وقال ان هناك بعض الناس الذين يتخيلون معارك وهمية على طريقة دون كيشوت ، وكشف النقاب عن ان الملك حسين ارسل وفدا الى مصر وسوريا للوساطة ، وانه رفض الاتصال بالوفد . ثم ادلى السيد ياسر عرفات بتصريح آخر في القاهرة يوم ٢٥ آب قال فيه « برزت في الاونة الاخيرة ظاهرة طابعها الرئيسي التركيز على محاولات احداث شق في حركة المقاومة عموما وفي حركة فتح خصوصا ... واعتمدت هذه المحاولات على اختلاقها ما يختلقه البعض من تحليلات يقيمونها على اخبار ملفقة ترددها القوى المضادة للثورة . ان كل هذه المحاولات محكوم عليها بالفشل ... وستظل حركة فتح صفا واحدا كما كانت دائما ... وان جميع المناضلين في فتح وقيادتها ... هم في موقع نضالي واحد » .

ثم عاد السيد كمال ناصر واثار مشكلة اخرى مع السيد خالد الحسن رئيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير ، وذلك اثر تصريح للسيد خالد الحسن في القاهرة ، نفى فيه وجود خلافات داخل حركة فتح ، رد عليه كمال ناصر ببيان اتهمه فيه بخرق الوحدة الوطنية وارتكاب مخالفة تنظيمية قائلا ان خالد الحسن (عضو قيادة فتح) ليس الجهة المكلفة نفي وجود خلافات داخل فتح . واضاف ان كافة المخالفات ستقدم الى اللجنة التنفيذية والمجلس الوطني ليتحمل اصحابها مسؤولياتهم كاملة امام القيادة العليا والشعب . وهكذا اثارت هذه الخلافات ازمة ملحوظة ، اثيرت في اجتماع اللجنة التنفيذية بدمشق يوم ٣ ايلول ، ولكنها عولجت بشكل ودي ملحوظ ادى الى تخفيف كبير في نتائجها . ثم جاءت تطورات الاحداث السياسية والعسكرية فخلقت بين المنظمات جوا داخليا مغايرا .

ب• ح•

Palestine Affairs

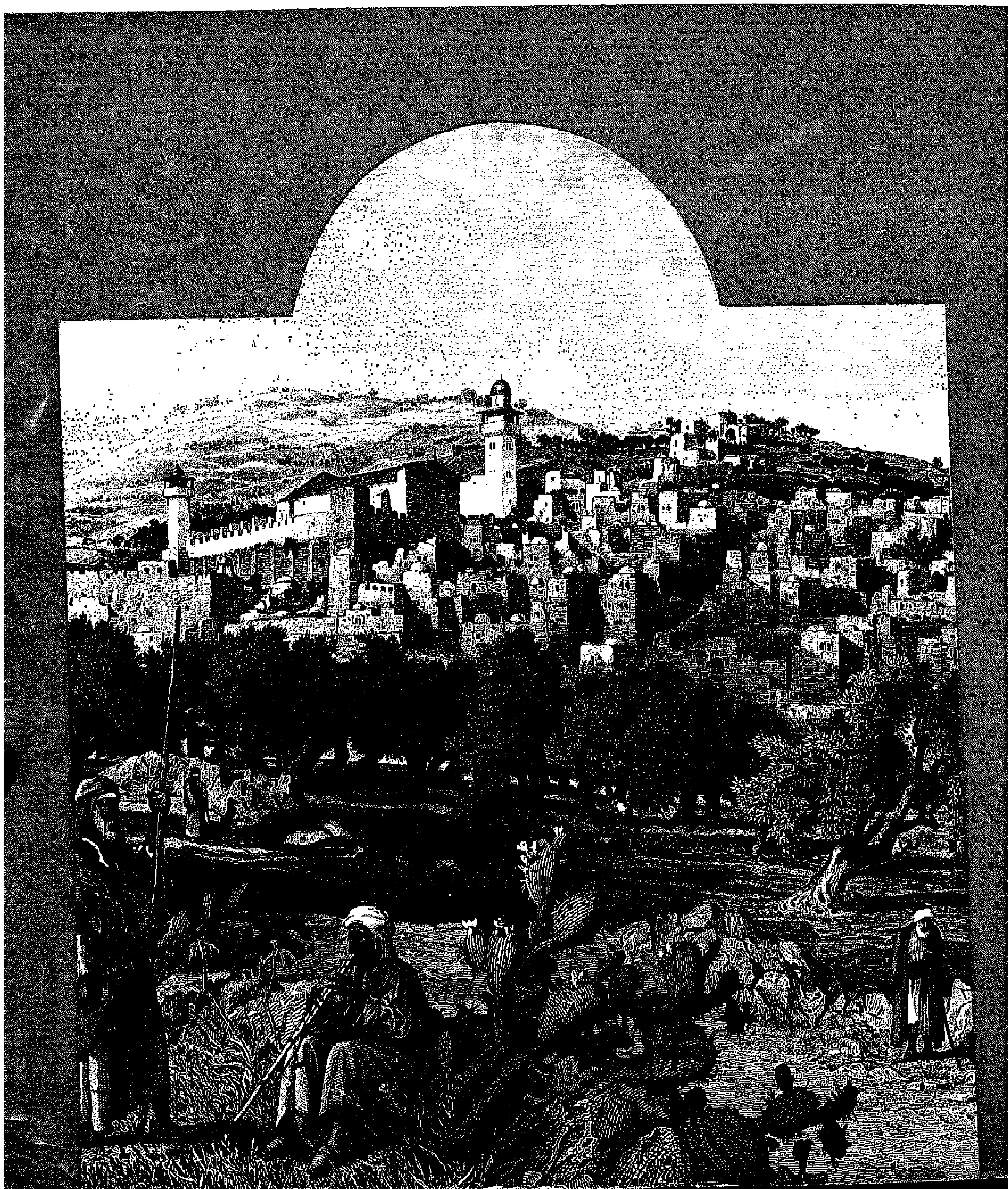
Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): LL. 30 in Lebanon and the Arab World, LL. 50 ($ 16) in Asia, Africa and Europe; LL. 80 ($ 26) in the Americas and Australia; *Annual Subscription* (Surface mail): LL. 40 ($ 13) in countries outside the Arab World. *Address :* P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٢½ ل.ل. في الوطن العربي او ما يعادلها

شؤون فلسطينية

١٥

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٢



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ١٥ — تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٢

دورية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر شهريا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرأبحاث ، بيروت .

ثمن العدد (بريد جوي) : ٢ ١/٢ ل.ل. في لبنان وسائر الوطن العربي، ٤ ل.ل. في آسية وافريقية واوروبة ، ٦ ل.ل. في الامركتين واوسترالية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٣٠ ل.ل. في لبنان والوطن العربي، ٥٠ ل.ل. (١٦ دولارا اميركيا) في آسية وافريقية واوروبة، ٨٠ ل.ل. (٢٦ دولارا اميركيا) في الامركتين واوسترالية . (بريد عادي) ٤٠ ل.ل. (١٣ دولارا اميركيا) في سائر الدول الاجنبية .

يعطى حسم ٥٠٪ (عدا البريد) على الاشتراكات للمقاتلين والعمال اذا جاءت الطلبات من خلال التنظيمات او النقابات او الاتحادات .

صورة الغلاف : الخليل ، القرن التاسع عشر

المحتويـــات

١٦٧ **الطبقة العاملة الفلسطينية واليهودية وتنظيماتها (١٩١٨ — ١٩٣٩)** ، عمار الطالبي [كاتب مغربي] .

١٧٨ **الادب العبري المعاصر وتكريس التوسع الصهيوني** ، رشاد الشامي [معيد بقسم الدراسات العبرية بجامعة عين شمس] .

١٩١ **مراجعات** : تيارات في السياسة والاجتماع ، د. صادق جلال العظم [مستشار قسم الدراسات الاسرائيلية في م. أ.] . اسرائيل : تاريخ شخص ، جودفري هـ. جانسن [الكاتب الهندي المختص بشؤون الشرق الاوسط] . شاهد من هذا العصر : يوميات شهيد قتل في مجزرة الاردن — ايلول ١٩٧٠ ، هاني حوراني [كاتب أردني] . حركة الهجرة اليهودية بعد عدوان ١٩٦٧ ، مصطفى كركوتي [كاتب سوري] . السينما والتواجد العربي في المؤتمرات الدولية ، قاسم حول [كاتب سينمائي] .

٢٠٦ **رسالتان** : (١) رأي آخر في المؤتمر العام لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، عبد الرحمن غنيم [الكاتب الفلسطيني] . (٢) وداعا يا فلسطين ، ايرين بيسون [الصحفية البريطانية] .

٢١٦ **شهريات** : (١) المقاومة الفلسطينية، بلال الحسن [رئيس قسم الدراسات الفلسطينية في م. أ.] . ملحق : تقرير عن معركة القطاع الاوسط ، منير شفيق [الكاتب الفلسطيني] . (٢) القضية الفلسطينية عربيا ، ناجي علوش [الكاتب الفلسطيني] . (٣) القضية الفلسطينية دوليا ، داود تلحمي [رئيس مشروع الدراسات الثورية في م. أ.] . (٤) المناطق المحتلة ، ع.م. (٥) الاقتصاد الاسرائيلي في النصف الاول من العام ١٩٧٢، الدكتور يوسف شبل [استاذ الاقتصاد في الجامعة الاميركية في بيروت] . جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني وآخر بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٩/١٣ — ١٩٧٢/١٠/٢، غازي خورشيد [مدير التوزيع في م. أ.] . تقرير خاص حول انتخابات مجلس الاتحاد الوطني الاردني ، أ. م.

٢٤٤ **اسرائيليات** : محمود درويش .

٢٥١ **وائل زعيتر : قديس آخر يموت في روما** ، داود تلحمي .

٢٥٢ **وائل زعيتر : مناضلا وانسانا** ، منير شفيق .

شؤون فلسطينية

الدكتور انيس صايغ

كان عمله من أجل فلسطين متعدد الجوانب ومتشعب المجالات ، وساترك لزميلين لي ، من رفاقه ، الكلام عنه ، فلسطينيا مناضلا بشجاعة وايمان وهدوء وفكر . ويكفي أن أذكر ، في أسطر ، تجارب مركز الابحاث وشؤون فلسطينية مع هذا المناضل في فترة قصيرة نسبيا لا تتعدى السنتين الاخيرتين . فقد آمن بالمركز ورسالته في خدمة قضية فلسطين ، وبشؤون فلسطينية كمنبر للفكر الحر من أجل فلسطين . وعمل للمركز وللمجلة مراسلا ومندوبا في ايطاليه باخلاص وبدون أي أجر : آمن بأهمية الدراسات العلمية التي تصدر عن المركز فترجم عددا منها الى الايطالية ونشرها في كتاب قيم جيد المادة وأنيق المظهر مما ضمن له سعة الانتشار . وآمن بأهمية الوثائق فأعد مشروعا لتزويد مكتبة المركز بمجموعة من الاوراق الاساسية في القضية ، على أن تصور هذه المجموعة الوثائقية ويحتفظ بنسخة عنها في مكتبته بروما لتكون في خدمة الباحثين هناك أيضا . وآمن بلقاء الثورة الفلسطينية مع حركات التحرر ومع أصحاب الفكر التقدمي في العالم . فبدأ باعداد مقابلة واسعة لشؤون فلسطينية مع الكاتب الايطالي البرتو مورافيا ، صديقه . وزود المركز بعدة تقارير عن النشاطات السياسية في ايطاليه ، المتعلقة بقضية فلسطين ، الصديقة والمعادية (آخرها معلومات واسعة عن مؤتمر بولونيا العتيد) . وكان على صلة مباشرة مع قسم الاعلام الاسرائيلي في المركز . ولا شك ان بين أوراقه رسالة من المركز أرسلت منذ أيام فقط تطلب رأيه ببعض المنظمات اليسارية في أوروبه الغربية . لكنه لم يقرأ الرسالة لانه سقط قبل أن تصله . فقد سبقتنا اليه رصاصات الغدر الصهيوني .

وائل زعيتر : مناضلا عاش ومناضلا مات . طاقة أخرى من الايمان والجهاد يحولها الارهاب الاسرائيلي الى شعلة تنير للثورة الفلسطينية دروبها . ومثل أجهزة الثورة الفلسطينية الاخرى التي تلملم جراحها وهي تفقد شهداءها ، تستنير شؤون فلسطينية بهذه الشعلة وتهتدي بسيرة صاحبها وأمثولته الحية أبدا وافرة العبر . فمن قبل أن يصدر العدد الاول من مجلتنا بأسابيع سقط في عمان أول شهيد من اسرة تحريرها ، عيسى ابو الطبول مراسلها في المانيه الغربية . وفي هذا الصيف سقط أحد كبار كتابهـا ، غسان كنفاني . وبعد أيام أصيب زميل آخر ، بسام ابو شريف ، رفيقنا الجريح الشجاع الثابت في نضاله وتحديه الآلام . ودخل البريد المتفجر مركز الابحاث وخرب فيه الكثير وأصاب مديره رئيس تحرير شؤون فلسطينية بعاهات وجروح . وها هو وائل زعيتر ينضم الى القافلة ويضحي بحياة حافلة بالعطاء السياسي والفكري والثقافي والانساني .

من بعد ؟ أمحرر ، أم كاتب ، أم مستشار ، أم مراسل ، أم اداري ، أم طابع ، أم من من هذه المجموعة من العاملين لفلسطين من خلال الكتابة لها ؟ يد الغدر طويلة . قد تصيب واحدا من هؤلاء وقد تصيب بعضا منهم وقد تصيبهم كلهم ، اليوم او غدا او بعد غد . ولكن هذه اليد ، مهما بلغت سطوتها ، أقصر من ان تنال من ايمان واحد من هؤلاء او من غيرهم من ابناء الثورة . بل هي أعجز من أن تنال من الثورة بمجرد سقوط شهيد أو شهداء . وذلك لان الثورة مصممة على ان تستنير بشعل شهدائها مثلما كانت تستفيد منهم وهم أحياء . وعلى هذا الاساس فان وائل زعيتر ، الغائب عنا جسديا ، معنا في المعركة ، وسيبقى معنا ، حتى يوم النصر.

ملاحظات على قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ *

الدكتور فايز صايغ

١ ــ نوفمبر ــ شهر التجني :

تقترن ، في الخاطر العربي ، ذكرى شهر نوفمبر (تشرين الثاني) بعمليات التجني الدولي على حقوق الشعب الفلسطيني والعدوان على وجوده وكرامته . ففي ذلك الشهر ، وعلى مدى خمسين عاما ، صدر اخطر ما اتصل بالقضية الفلسطينية من تعهدات وقرارات دولية .

في ٢ نوفمبر ١٩١٧ ولدت القضية الفلسطينية رسميا بصدور وعد بلفور عن الحكومة البريطانية ــ وعدا قطعته بريطانيا على نفسها وتعهدت فيه بان تفعل ما بوسعها من اجل انشاء وطن قومي يهودي في فلسطين .

وفي ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ ، اقرت الجمعية العامة التابعة للامم المتحدة مشروع تقسيم فلسطين واصدرت توصية بتنفيذه .

وبعد انقضاء نصف قرن على ميلاد القضية ، اي في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ ، اصدر مجلس الامن التابع للامم المتحدة القرار رقم ٢٤٢ ، والذي رمى الى تصفية القضية تصفية كاملة ونهائية ، في مجال ازالة اثار احدث عدوان اسرائيلي .

في اعتقادي ، ان ثالثة هذه الاعتداءات الدولية على فلسطين وشعبها كانت اخطرها واوقحها . اي ان قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ فاق ــ في تطاوله على الحقوق القومية والانسانية للشعب الفلسطيني ــ كلا من توصية الجمعية العامة بتقسيم فلسطين واقامة دولة يهودية على الجزء الاكبر من ترابها ، وكذلك الوعد البريطاني بانشاء وطن قومي يهودي في فلسطين ، ذلك الوعد الذي ما لبث ان تسرب الى صك الانتداب الصادر عن عصبة الامم واصبح جزءا منه . اقول ذلك استنادا الى واقع ان قرار مجلس الامن ــ وحده ، وخلافا للوثيقتين الاوليين ــ قضى بما يلي :

اولا : ان قرار مجلس الامن القى على الدول العربية « واجب » القبول باسرائيل كدولة قائمة ذات سيادة كاملة وذات حقوق في الوجود والسلامة الارضية والاستقلال السياسي والامن تساوي حقوق الدول العربية نفسها ، كما انه ربط اداء الدول العربية لهذا الواجب المزعوم بوفائها بالتزاماتها الدولية المنبثقة عن عضويتها في الاسرة الدولية وابرامها ميثاق الامم المتحدة ، وبحقها في المطالبة بانسحاب اسرائيل من اراضيها . ففي حين كان وعد بلفور تعهدا من جانب واحد ، قطعته على نفسها دولة اجنبية ، بانشاء جسم غريب في فلسطين ، وفي حين كان قرار الجمعية العامة توصية ، موجهة الى

---

* ان جميع الآراء والاحكام التي يحتوي عليها هذا المقال لا تعبر سوى عن رأي كاتبه ، وليست معبرة عن رأي او موقف أية هيئة او منظمة او مرجع آخر على الاطلاق .

الفرقاء المعنيين بالامر ، باقتسام فلسطين فيما بينهم واقامة دولة يهودية الى جانب دولة عربية توأم لها ومدينة دولية بينهما — فان قرار مجلس الامن طالب الدول العربية نفسها بأن تقر « بشرعية » الدولة الدخيلة وبأن تتعامل واياها على اساس ذلك الاقرار . فكأني به والحالة هذه يطالب الدول العربية بأن تجعل نفسها شريكا للحركة الصهيونية وللاسرة الدولية في جريمة السطو والاستيلاء والاغتصاب والتشريد — تلك الجريمة التي تجسدها اسرائيل بالنسبة الى الارض الفلسطينية والشعب الفلسطيني .

ثانيا : ان قرار مجلس الامن قضى بقبول العرب قبولا نهائيا باسرائيل كما هي (اي كما كانت عليه عشية شنها الحرب العدوانية الثالثة عام ١٩٦٧) ، وبالتالي التنازل عن اي مطلب عربي سابق ، بما في ذلك جميع المطالب التي ايدتها الامم المتحدة نفسها، ومجلس الامن نفسه ، في عشرات القرارات ، من مطالب تتعلق بحقوق الفلسطينيين في العودة الى وطنهم وديارهم ، وحقوقهم في التعويض عن ممتلكاتهم المسلوبة او المدمرة ، وبما في ذلك ايضا جميع المطالب المتعلقة باحترام اسرائيل لحقوق العرب المقيمين في الاراضي التي اغتصبتها . اي ان قرار مجلس الامن لم يتجاهل فقط الحقوق القومية والانسانية الثابتة التي يتمتع بها الشعب الفلسطيني بالطبيعة ، بل انه تجاهل ايضا الشروط التي نص عليها كل من وعد بلفور ومشروع التقسيم والتي كانت تقيد اسرائيل وتلزمها امام الاسرة الدولية بالتزامات قانونية معينة ، وتجاهل كذلك قرارات الامم المتحدة المتعاقبة التي اكدت وجوب تقيد اسرائيل بتلك الشروط وطالبتها بالعودة عن انتهاكها لها في الماضي والتوقف عن انتهاكها في المستقبل . فاسرائيل التي طولبت الدول العربية — في قرار مجلس الامن — بالاعتراف بها ككيان كامل الشرعية انما هي دولة طليقة من كل قيد ، مغفورة لها جميع ذنوبها السابقة ، حتى تلك الذنوب التي ما تزال آثارها قائمة ونتائجها مستمرة . ان قرار مجلس الامن شبيه بعفو عام تصدره السلطات في بلد ما لصالح مغتصب ، دون ان تطالبه بارجاع ما اغتصبه الى اصحابه — ثم تطالب ذوي الضحية بالمشاركة في التوقيع عليه !

ثالثا : ولعل اخطر ما في قرار مجلس الامن ليس ما نص عليه بل ما اهمله وصمت عنه . لقد صمت القرار عن الشعب الفلسطيني ومصيره وحقوقه ، بل انه تجاهل وجوده (كما سنرى بعد قليل) ، في حين ان كلا من وعد بلفور ومشروع التقسيم اعترف للشعب الفلسطيني ببعض حقوقه حتى عندما تجنى على البعض الآخر .

لهذه الاسباب كلها ، ولسواها مما يتصل بها او ينبثق عنها ، قلنا ان قرار مجلس الامن كان اوقح من وعد بلفور واشد ايذاء من مشروع التقسيم . **الا انه من المذهل حقا ان الامة العربية ، التي استقبلت كلا من وعد بلفور ومشروع التقسيم بالسخط والمقاومة الفوريين والاجماعيين ، وقفت امام قرار مجلس الامن ، وهو الاشد خطرا وخطورة ، موقف التردد الحائر ، ثم اعلنت غالبية الحكومات العربية قبولها به ، ان لم نقل تلهفها على تنفيذه وسعيها وراء ذلك كأنه البلسم لجراحها . فاصبح قبول الحكومات العربية بالقرار اخطر ما في القرار ! ؟**

٢ — مقارنة الجرائم الثلاث :

اولا : ان الخلفية التاريخية لكل من جرائم نوفمبر الثلاث تفسر الى حد بعيد اسباب تفوق قرار مجلس الامن على سلفيه في مدى تطاوله على حقوق الشعب الفلسطيني . وعد بلفور صدر قبل ان يجري اي امتحان فعلي لقوة اي من الفريقين وقدرته على فرض ارادته في فلسطين . لذلك فانه انطوى على غموض مقصود في ما وهبه للحركة الصهيونية ، كما انطوى ايضا على محاولة فاترة لاحداث شيء من التوازن بين تلك الهبة (غير المحددة في طبيعتها وفي مداها الاقليمي) وبين ما احتفظ به للشعب الفلسطيني

واشترط احترامه .

ومشروع التقسيم حظي بموافقة الجمعية العامة كمخرج — او حل وسط — انعكست فيه حقيقة واضحة ، وهي ان كلا من الفريقين كان قد عجز ، خلال مجابهة دامت ثلاثين عاما ، عن التغلب على الفريق الاخر بصورة حاسمة والفوز بتحقيق كامل اهدافه . فلا الشعب الفلسطيني ، ومن ورائه العالم العربي ، نجح في الحؤول دون دخول طلائع المستوطنين الصهيونيين الى فلسطين او في منع بريطانيا من حمايتهم ونقل ملكية بعض الاراضي الفلسطينية اليهم — ولا الصهيونيون، ومن ورائهم اليهودية العالمية وبريطانيا، افلحوا في القضاء على المقاومة الفلسطينية او في الاستيلاء على مساحات وافية من الاراضي التي كان يملكها الفلسطينيون ويستطيعون التحكم بمصيرها . وكما انعكس عجز كل من الفريقين في « الحل الوسط » الذي جسده مشروع التقسيم ، فقد انعكس فيه ايضا واقع حيازة كل من الفريقين على قوة خاصة به . فكان الشعب الفلسطيني قد اثبت صموده وعناده وقدرته على البذل واستعداده للفداء دفاعا عن وجوده وارضه وكرامته ، فيما كان الجانب الصهيوني قد اثبت بدوره قدرته على التنظيم ونفوذه الواسع خارج ميدان المعركة في الاوساط الدولية الفاعلة آنئذ .

اما قرار مجلس الامن فقد صدر في ظرف يختلف اختلافا جذريا عن الظرف السابق لصدور وعد بلفور او الظروف السابقة لصدور مشروع التقسيم . كان الامتحان قد تم . وانتهى الامتحان بانهيار عربي بدا آنذاك وكأنه انهيار كاسح ليس بعده صمود ، او قدرة على الصمود ، او ارادة للصمود . فجاء قرار مجلس الامن يسجل واقع ميزان القوى بين الفريقين . ولا ننسى انه صدر قبل ان تستوعب الاسرة الدولية — بل قبل ان يستوعب العالم العربي نفسه — المعنى الكامل لظهور المقاومة الفلسطينية وامكاناتها البعيدة ، وبزوغ الارادة الفلسطينية بعد كسوف طويل ، وانبعاث الامل الجماهيري العربي .

اذا ذكرنا ان قرار مجلس الامن كان يسجل واقع الميزان الآني الراهن لقوى الفريقين في المنطقة — وليس امكانات المستقبل القريب او البعيد ، ولا ميزان الحقوق في ما يمثله كل منهما او درجة الشرعية في ما يدعيه لنفسه — سهل علينا ان نفسر انحياز القرار وما انطوى عليه من تجن . ولكن ذلك كله لا يكفي لتقديم تفسير كامل للتجني والانحياز . بل يجب ان نأخذ بعين الاعتبار الابعاد الدولية لميزان القوى . ومهما كان شأن القوة العسكرية التي كان يتمتع بها كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة عام ١٩٦٧ ، مما كان لا بد للاسرة الدولية من ان تحسب حسابه في أعقاب حرب حزيران وفي مجال معالجتها لآثار تلك الحرب ، فلا مشاحة في ان درجة التزام كل من العملاقين الدوليين بقضية هذا الفريق او ذاك كانت في حد ذاتها عنصرا اساسيا من عناصر المعادلة العامة للقوى الدولية ذات الصلة بما أصطلح على تسميته منذ ذلك الحين « ازمة الشرق الاوسط » .

ان للقوة بمعناها الدولي الفعلي حدين . الحد الاول موضوعي ، مقياسه قدرتها عند المجابهة مع قوة اخرى معادية على التغلب عليها ، او ايقافها عند حدود ، او التأثير فيها . واما الحد الثاني فارادي ذاتي ، مقياسه مدى الرغبة في استعمالها والمطلب الذي في سبيله يصار الى استعمالها ، كليا او جزئيا . ولا تكون نظرتنا الى معادلة القوى صائبة صادقة اذا هي اخذت واحدا من هذين العاملين دون الاخر بعين الاعتبار .

امريكا كانت ، وما تزال ، ملتزمة التزاما كاملا بوجود اسرائيل وبقائها ، في حين ان الاتحاد السوفياتي لم يكن ملتزما آنذاك ، وليس هو بملتزم اليوم ، بالمطلب العربي بتحرير فلسطين وبما يستتبعه ذلك من ازالة الكيان الاسرائيلي ، وانما كان التزامه ،

ولا يزال ، محصورا في تحرير الاراضي العربية التي احتلتها اسرائيل في حرب ١٩٦٧ ، اي في ابطال التوسع الاسرائيلي الذي تم نتيجة لتلـك الحرب . وامـا الدول الاخرى الاعضاء في مجلس الامن عام ١٩٦٧ ، ولا سيما الدول ذات المقاعد الثابتة آنذاك (اي بريطانيا وفرنسا وحكومة فورموزا) فقد كان موقف كـل منها في موقع ما بين الموقـف السوفياتي والموقف الامريكي . **لذلك فان قرار مجلس الامن ، اذ انعكس فيه من الجهة الواحدة الميزان الآني الراهن لقوى الفريقين ، والذي رجحت فيه كفة اسرائيل بشكل حاسم ، انعكس فيـه ايضا ، وفي الوقت نفسه ، ميزان اخـر ، هو « ميزان الارادة والقوة » بين الدولتين الكبريين ، فجاء « حلا توفيقيا » لازمة المجابهـة بينهما ، وحدد الارض المشتركة بين موقفيهما من النزاع . اي ان قرار مجلس الامن كان في وقت واحد بمثابة حل « لا غالب ولا مغلوب » بالنسبة للاتحاد السوفياتي وامريكا ، وحل « غالب ومغلوب » بالنسبة لاسرائيل والعرب !**

فاذا نظرنا الى قرار مجلس الامن من منظار النزاع العربي الاسرائيلي رأيناه فوزا كبيرا لاسرائيل ـــ التي تحصل بموجبه على تصفية كاملة للقضية الفلسطينية ، واعتراف كامل من الدول العربية ، وانهاء لحالة الحرب والتطويق والمقاطعة ، وانهاء للرفض العربي ، وانعتـاق من اي واجب مترتب عليها بنتيجة ما اغتصبته قبل ١٩٦٧ ، كـل ذلك لقاء انسحابها من الاراضي التي احتلتها نتيجة لحرب حزيران ، وهي الاراضي التي لم تكن دولة واحدة في العالم آنذاك تعترف لاسرائيل بحق الاحتفاظ بها .

اما اذا نظرنا الى القرار من منظار المجابهة الاميركية السوفياتية ، فاننا نرى فيه توفيقا بين مطالب الفريقين . فالمطلب الامريكي الاساسي كان وما زال تأمين سلامة اسرائيل واستمرار بقائها ، الامر الذي لا يمكن تأمينه بصورة نهائية وقاطعة الا بالحصول على رضى العرب عن وجود اسرائيل وقبولهم بها كدولة شرعية الوجود ، وبقيام حـالة من السلام والعلاقات الطبيعية بينها وبين الدول العربية تتيح لاسرائيـل ـــ بفضل الدعم الامريكي والديناميكية الصهيونية ـــ بسط سطوتهـا الاقتصاديـة والسياسية وخدمة المآرب والمصالح الامريكية في المنطقة العربية . واما المطلب السوفياتي الاساسي عام ١٩٦٧ فقد كان دحرجة قوات اسرائيل الى الوراء حتى تصل الى الخطوط التي كـانت ترابط عليها عشية الحرب . وهذان المطلبان يلتقيان معا على ارض مشتركـة في قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ .

ثانيا : لننتقل الآن الى مقارنة الوثائق الثلاث من زاوية اخرى . فمن حيث درجة الزام كل منها للدول العربية في نظر القانون والعرف الدوليين ، تتباين الوثائق الثلاث تباينا شاسعا .

فوعد بلفور كان في الاصل وعدا من طرف واحد ، صادرا عن دولة اجنبية وموجها الى الحركة الصهيونية . ولم يكن للعرب عموما ، او للشعب الفلسطيني بصورة خاصة ، اي دور في مرحلة المشاورات والمفاوضات السرية التي سبقت الاعلان عنه . وقد أعلن العرب والفلسطينيون رفضهم له فور ان بلغهم نبأ صدوره . لذلك فانه لم يكن له ، في نظر القانون الدولي ، اية صفة الزامية بالنسبة للجانب العربي . ثم ان تبني هذا الوعد من قبل بضع دول أخرى ، من الدول الكبرى في عالم ما بعد الحرب العالمية الاولى ، لم يضف عليه اية شرعية دولية ، اذ ظل تعهدا فرديا ولئن كان صادرا عن دول متفرقة . ورغم انه تسرب فيما بعد الى صك الانتداب الصادر عن عصبة الامم ، فانه لم يظفر من جراء ذلك بشرعية تجعله ملزما للعرب والفلسطينيين ، اولا لانهم لم يكونوا ممثلين في عصبة الامم ، وثانيا لان صك الانتداب نفسه كان يكتسب شرعيته من المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الامم ، وهي المادة التي اعترفت مبدئيا باستقلال الشعوب المتحررة حديثا من

الحكم العثماني (وبينها الشعب الفلسطيني) ، ولان اي تعارض بين صك الانتداب ، وهو الفرع ، والمادة ٢٢ من الميثاق ، وهي الاصل ، ينسخ الاول ويبطله في نظر القانون. وكما ان وعد بلفور كان عاريا عن الالزام النابع من الشرعية ، فكذلك كانت توصية الجمعية العامة بتنفيذ مشروع التقسيم : فالتوصية بطبيعة الحال لا تحمل معنى الالزام. ثم ان مناشدة الجمعية العامة لمجلس الامن بأن يتولى تنفيذ مشروع التقسيم بموجب السلطة التي يخوله اياها ميثاق الامم المتحدة لاصدار قرارات نافذة ملزمة لجميع الاعضاء لم تلق اذنا صاغية من مجلس الامن نفسه . واخيرا لا آخرا ، فان الجمعية العامة نفسها عادت فتراجعت ، في قرارها الصادر في ١٤ مايو (أيار) ١٩٤٨ ، عن قرارها بالتوصية بمشروع التقسيم ، الصادر في ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ .

اما القرار الذي نحن في صدده — قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ — فان له صفة أخرى . وقد يذهب البعض الى القول بأن جميع قرارات مجلس الامن ملزمة لجميع الدول الاعضاء ، خلافا لقرارات الجمعية العامة التي هي محض توصيات . وقد يكون في هذا القول بعض الصحة ، نظرا للاختلاف بين السلطات التي يخولها الميثاق للجمعية العامة في المواد ١٠ — ١٧ والصلاحيات التي يمنحها لمجلس الامن في المادتين ٢٤ و٢٥ . الا ان المراجعة الدقيقة لهاتين المادتين ، في ضوء احكام الفصلين السادس والسابع من الميثاق، لتدل على ان الالزام محصور بالقرارات الصادرة عن مجلس الامن بموجب الفصل السابع ، في حين ان القرار رقم ٢٤٢ لا يشير الى الفصل السابع في ديباجته او في نصه ، فضلا عن انه اقرب في مضمونه الى اطار الفصل السادس منه الى اطار الفصل السابع. ولكن ، اذا كان باب الاجتهاد في تعيين درجة الالزام ، التي يتمتع بها القرار رقم ٢٤٢ ، ما زال مفتوحا ، واذا كان الجزم بأنه حقا قرار ملزم ليس قاطعا ، فانه لا بد من ذكر حقيقتين أخريين متصلتين بهذه المسألة :

الحقيقة الاولى : ان الدول العربية التي وقعت اراضيها تحت الاحتلال الاسرائيلي في حرب حزيران ١٩٦٧ ، والتي أعلنت قبولها بقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ثم اشتركت بمبادرات سياسية غرضها تنفيذ ذلك القرار ، لا تستطيع — عمليا او نظريا — ان تتحلل من التزامها الارادي بتنفيذ ما نص عليه ذلك القرار من « انهاء لحالة الحرب » واقرار بما دعاه « حق » اسرائيل في « السيادة والاستقلال السياسي والسلامة الارضية ، وفي العيش في مأمن من اللجوء الى القوة او التهديد بذلك » ، لا سيما حين تسعى هي جادة الى الحصول على تأييد الاسرة الدولية لحمل اسرائيل على تنفيذ ما يختص بها في القرار، اي الانسحاب من الاراضي المحتلة .

والحقيقة الثانية : هي ان الدول العربية الاخرى التي اعلنت قبولها بقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، حتى وان لم تكن اراضيها محتلة ، قد الزمت نفسها مبدئيا بالموافقة على ما نص عليه القرار بشأن الاعتراف باسرائيل ، مما أوردناه في الفقرة السابقة ، وليس فقط بالموافقة على الدعوة الواردة في القرار الى الانسحاب الاسرائيلي . ذلك ان القرار ربط بين المبدأين — مبدأ الانسحاب ومبدأ الاعتراف — ربطا عضويا محكما ، بحيث لا يمكن التنصل من الالتزام بالموافقة على أحد المبدأين بحجة ان الموافقة كانت محصورة في المبدأ الآخر .

ولعله من اللازم ان نقول في هذا الصدد ان الدول العربية التي لم تقع اراضيها تحت الاحتلال الاسرائيلي قد استدرجت الى الموافقة على قرار مجلس الامن رغم انها لم تكن من أعضاء ذلك المجلس عندما اقترع على القرار وكان في وسعها ان تتجنب أعلان الموافقة عليه لو شاءت . ولعل استدراج غالبية الدول العربية الى الاقتراع في الجمعية العامة على قرارين يؤكدان قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ كان من أكبر الاخطاء

الستراتيجية التي ارتكبتها الدبلوماسية العربية منذ قيام الامم المتحدة ! ولقد جرى ذلك في دورتين متعاقبتين من دورات الجمعية العامة همـا الدورة الخامسة والعشرون (١٩٧٠) والسادسة والعشرون (١٩٧١) ، حين سعت الدبلوماسية المصرية لتحريك ضغط دولي على اسرائيل للانسحاب ، وذلك عن طريق استصدار قرار من الجمعية العامة يؤكد قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . ولقد أدت أولى هاتين المحاولتين ، في الدورة الخامسة والعشرين ، الى تصدع في جبهة الوفود العربية لدى الامم المتحدة ، فاقترعت سبعة وفود لصالح قرار الجمعية العامة الذي يؤكد قرار مجلس الامن ، واصبحت حكوماتها بالتالي ملزمة ، أدبيا وقانونيا ، باحكامه ، فيما رفضت سبعة وفود اخرى الاشتراك في الاقتراع اطلاقا ، معلنة بلسان مندوب واحد تحدث نيابة عنها جميعا بأن رفضها الاقتراع يرجع الى ان حكوماتها ترفض قرار مجلس الامن . امـا في الدورة السادسة والعشرين (وكان عدد الدول العربية الاعضاء قد ارتفع الى ثماني عشرة دولة) فقد تكررت المحاولة ولكن بنتائج مختلفة . فقد اعلن وفد عربي واحد فقط رفضه الاشتراك في الاقتراع ، وامتنعت وفود خمس دول ، بينما اقترعت وفود اثنتي عشرة دولة عربية لصالح القرار . واذا حسبنا الدول العربية التي اقترعت ، اما في الدورة الخامسة والعشرين او في الدورة السادسة والعشرين او في كلتيهما معا ، لصالح قرار من الجمعية العامة يزكي ويؤكد قرار مجلس الامن ، وجدنا مجموعها اربع عشرة دولة : أي ان اكثر من ثلاثة ارباع الدول العربية قد سجلت رسميا موافقتها على قرار مجلس الامن ، رغم انه كان بالامكان تجنب الوقوع في هذا الاشكال لو ان تأكيد قرار مجلس الامن لم يطرح على اعضاء الجمعية العامة في قرار رسمي للتصويت عليه .

وتقضي الامانة بأن نسجل بأن مندوبي ثلاث دول عربية قررت حكوماتها الاقتراع لصالح احد قراري الجمعية العامة المشار اليهما ، او لصالحهما معا ، قد اعلنوا في بياناتهم التفسيرية ، اما قبل الاقتراع او بعده ، انهم يوافقون على قرار الجمعية العامة ككل دون ان يوافقوا على قرار مجلس الامن او يؤيدوا تلك الفقرات في قرار الجمعية العامة التي تؤكد قرار مجلس الامن . ولكن الاثر القانوني لهذه التحفظات والتفسيرات ليس معروفا : اذ انه ليس في فقه الامم المتحدة ما يحدد بصورة قاطعة ما اذا كان التحفظ او التنصل الذي يرد في البيان التفسيري ، بالنسبة لفقرة معينة من قرار ما ، كافيا لابطال الالتزام الذي ينطوي عليه الاقتراع لصالح ذلك القرار ككل .

ثالثا : بمقارنة قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ بوعد بلفور ومشروع التقسيم ، من زاوية ثالثة ، يتضح مجددا ما اتضح لنا من المقارنة من الزاويتين الاوليين : ان قرار مجلس الامن قطع في تجنيه على الشعب الفلسطيني اشواطا أبعد مما قطعته اية من الوثيقتين السابقتين .

صحيح ان التجني كان حاصلا في كل من الوثائق الدولية الثلاث ، الا انه في الاوليين كان مشروطا وملطفا بضمانات معينة غرضها تقييد الكيان الصهيوني العتيد في سلوكه تجاه الشعب الفلسطيني ، من جهة ، وصيانة بعض حقوق ذلك الشعب ، من الجهة الاخرى. لكن التجني في قرار مجلس الامن كان مطلقا وغير مشروط .

فوعد بلفور ، الذي تطلع الى اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين ، اشترط ان لا يكون في ذلك مساس او اجحاف ببعض الحقوق — ولا سيما الدينية والمدنية — التي يملكها أبناء فلسطين من غير اليهود . ولو طبق هذا الشرط تطبيقا صادقا ، لانتفى الغرض الاصلي من الوعد ! ثم ان صك الانتداب لم يكتف بتكرير التحفظ الوارد في صلب وعد بلفور ، بل انه اضاف شرطا آخر ، هو الاشتراط بأن لا يسيء انشاء الوطن القومي اليهودي الى « وضع » ابناء فلسطين من غير اليهود ، وهو ايضا شرط ينفي اقامة

الوطن القومي اليهودي اطلاقا .

وذهب مشروع التقسيم الى ابعد من ذلك ، فقد نص علــى وجوب اعلان « الدولة اليهودية » فور قيامها احترامها للحقوق المدنية والثقافية والدينية والسياسية للعرب المقيمين فيها ، على ان يكون اصدار هذا الاعلان شرطا لقبول الامم المتحدة بها ، وعلى ان يكون الاعلان جزءا من قانون الدولة الاساسي ، او دستورها ، وعلى ان لا يصار الى تعديله الا بموافقة الجمعية العامة . واستنادا الى هذه الضمانات ، كان قرار الجمعية العامة بقبول اسرائيل في عضوية الامم المتحدة قبولا مشروطا ، وكانت القرارات المتعاقبة التي دعت الى عودة اللاجئين الفلسطينيين الى ديارهم والتعويض عن ممتلكاتهم صريحة واضحة .

اما قرار مجلس الامن فلم يكن فيه اي قيد او شرط ، فيما عدا الدعوة الى انسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ . فكان في هذا القرار تحرير لاسرائيل من كافة القيود والالتزامات في المستقبل ، وصفح عن كافة أعمال الاغتصاب التي ارتكبتها اسرائيل في الماضي والتي كانت نتائجها ما تزال قائمة. وطالب القرار الدول العربية بالاعتراف باسرائيل كدولة شرعية الوجود كاملة السيادة دون ان يشترط قيام اسرائيل بواجباتها والتزاماتها الماضية وتصحيح ما ارتكبته في الماضي من جرائم والامتناع عن الاستمرار في التمتع بثمارها .

وعد بلفور خلق القضية الفلسطينية بخلق كيان صهيوني محفوف بالقيود . ومشروع التقسيم سعى لان يكون تسوية ، او حلا وسطا ، للقضية التي خلقها وعد بلفور . اما قرار مجلس الامن فقد كان تحريرا لاسرائيل من القيود السابقة ، ونسخا للضمانات والشروط التي أعطيت للشعب الفلسطيني ، فكان بالتالي تصفيــة نهائية للقضيــة الفلسطينية .

رابعا : يقودنا هذا الى مقارنة الوثائق الثلاث من زاوية رابعة .

كان الشعب الفلسطيني ماثلا في ذهن الذين صاغوا نص وعد بلفور ، ولئن كان ذلك بصورة جانبية . فعلى الرغم من اشارة الوعد الى « الطوائف غير اليهودية » بدلا من تعيين الهوية الفلسطينية للشعب المعني بصراحة ، وعلى الرغم من حصر الضمانات في اطار الحقوق الدينية والمدنية ، فان الشعب الفلسطيني لم يكن غائبا عن البال كليا .

وكان الشعب الفلسطيني ماثلا في الاذهان ايضا عند صدور توصية الجمعية العامة بتنفيذ مشروع التقسيم ــ فخصص المشروع له جزءا من أرض فلسطين ليقيم عليها دولة خاصة به، وقيد الدولة اليهودية بقيود واضحة فيما يتعلق بمعاملتها للعرب الفلسطينيين المقيمين في الارض التي ستصبح دولة يهودية .

اما قرار مجلس الامن فلقد تجاهل الشعب الفلسطيني تجاهلا تاما . فالقضية التي عالجها دعيت « الحالة في الشرق الاوسط » ، والنزاع الذي تعرض له كان نزاعا بين اسرائيل ــ كدولة قائمة ، بل ظافرة ــ والدول العربية . حتى الاراضي الفلسطينية التي احتلتها اسرائيل في حرب حزيران ١٩٦٧ ، بالاضافة الى سيناء والجولان ، (اي الضفة الغربية ، وقطاع غزة ، والحمه) اعتبرها القرار ضمنا من اراضي الدول العربيــة المتاخمة لاسرائيل ، اي الاردن ومصر وسوريا ، وليس من الوطن الفلسطيني ، كما انه اعتبر اهالي تلك الاراضي الفلسطينية المحتلة جزءا من شعوب تلك الدول العربية . ان كلمة فلسطين لم ترد في قرار مجلس الامن اطلاقا ، لا كصفة لارض ولا كصفة لشعب ولا كصفة لافراد . وان ما حل بالشعب الفلسطيني وبوطنه قبل عام ١٩٦٧ اعتبر امرا واقعا ، وطولبت الدول العربية بالاعتراف باسرائيل على الرغم منه كله .

رب قائل يقول : ان قرار مجلس الامن طالب باجراء « تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين »،

وبالتالي فهو لم يغفل قضية فلسطين وابنائها اغفالا كاملا . الا ان هذا القول مردود لاسباب عديدة ، أهمها ما يلي :

(١) ان التركيز في القرار ، سواء في ديباجته او في الفقرة التنفيذية الاولى منه ، قد انصب على موضوعي الانسحاب الاسرائيلي والاعتراف العربي الكامل باسرائيل، اللذين ربطهما القرار معا ودعاهما مبدأي السلام في الشرق الاوسط. اما الاشارة الى اللاجئين فقد وردت في اطار « الاجراءات الاضافية » التي رأى مجلس الامن ان من الضروري اتخاذها كخطوات لاحقة من اجل تركيز السلام . والواقع ، ان قضية اللاجئين لم تتمتع بالاولوية في جدول « الاجراءات الاضافية » تلك ، بل سبقتها الى المقام الاول قضية حرية الملاحةفي الممرات المائية في المنطقة !

(٢) لم يتحدث قرار مجلس الامن — في الجملة الوحيدة التي اشار فيها الى « مشكلة اللاجئين » — عن « اللاجئين الفلسطينيين » ، بل عن « اللاجئين » بصورة عامة . ولقد اشار أكثر من مسؤول اسرائيلي ، في أكثر من مناسبة ، الى أن اسرائيل تنظر الى عبارة « مشكلة اللاجئين » كعبارة تضم اللاجئين الفلسطينيين و« اللاجئين اليهود » الذين جاؤوا الى اسرائيل من البلدان العربية ، وان « التسوية العادلة » المنشودة هي تسوية لمشكلة الفريقين معا وليست تسوية لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين فقط .

(٣) وعبارة « التسوية العادلة » لمشكلة اللاجئين وردت هكذا — مطاطة ودون تحديد . ففي حين ان كافة القرارات السابقة التي صدرت عن الجمعية العامة وعن مجلس الامن نفسه كانت تشير بوضوح تام الى عودة اللاجئين الذين يختـــارون العودة ، والى التعويض عن ممتلكات اللاجئين الذين لا يختارون العودة وعن الخسائر في ممتلكات اللاجئين العائدين — فان قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ تجنب الاشارة الى العودة واكتفى بعبارة « التسوية العادلة » . ولا يحتاج المرء الى كثير من سوء الظن ليتكهن بأن التفسير الذي سيقدم في المستقبل لتلك العبارة — اذا ما قدر للقرار ان يسير في طريق التنفيذ — سوف يتجه نحو اجراء « التسوية العادلة » عن طريق التعويض المالي على الممتلكات وليس عن طريق العودة .

(٤) واخيرا ، فان تقليص قضية الشعب الفلسطيني الى مستوى قضية لاجئين هو في حد ذاته تنكر لحقوق الشعب الفلسطيني ولوجوده كشعب . فاللاجئون — اي لاجئين — ليسوا شعبا بل مجموعة افراد ، وتسوية « مشكلتهم » — حتى اذا كانت « تسوية عادلة » ، بل حتى اذا كانت بالعودة — ليست حلا لقضية الشعب في حد ذاتها ولا هي علاج لقضية اغتصاب وطنه وزرع المستوطنين فيه واقامة دولة دخيلة لاولئك المستوطنين على ترابه .

٣ — المواقف العربية من قرار مجلس الامن :

في هذه المقارنة السريعة بين وثائق — او جرائم — نوفمبر الثلاث ، من عدة زوايا ، تبين لنا أن أحدثها كان أوقحها ، واكثرها تجنيا ، واشدها خطرا . الا ان المقارنة لا تكون كاملة ان لم تتم من زاوية اخرى — هي زاوية رد الفعل العربي .

فلقد أثار وعد بلفور موجة من السخط العربي الاجماعي في كافة ارجاء العالم العربي . واستثار مشروع التقسيم اجماعا عربيا على رفضه ومقاومته. اما القرار الاخطر والأكثر وقاحة وتجنيا فلقد استقبله العالم العربي — بشعوبه وحكوماته — بانقسام في الصفوف واختلاف على التقويم ، حتى بلغ الامر ببعضهم حد التطلع الى تنفيذ ذلك القرار وكأنه المطلب العربي الاقصى !

فعلى الصعيد الشعبي ، توهـــم البعض — او اوهموا — بانه قرار يقضي بانسحـــاب

اسرائيلي فقط ، وتجاهل الكثيرون — او لعلهم جهلوا — انه يقضي ايضا بتحطيم جدار الرفض العربي لاسرائيل ، وباقامة عهد جديد من القبول العربي بها والاقرار بشرعيتها المزعومة ، كما يقضي بتصفية القضية الفلسطينية تصفية نهائية . وبناء على هذا الوهم (او الايهام) والجهل (او التجهيل) انبرت اصوات تدعو الى تنفيذ قرار مجلس الامن وكأنه بركة على القضية العربية .

عبثا نقول : ان المسؤول عن هذه الفوضى الفكرية في صفوف الامة العربية على الصعيد الشعبي — والمسؤول عن معالجتها وتصحيحها — هي اجهزة الاعلام العربية الرسمية او الموجهة او الخاضعة . لان تعمد اجهزة الاعلام الرسمية في اكثر من بلد عربي حجب صورة قـرار مجلس الامن الحقيقية عن الاعين والاذهـان ، هـو جزء مـن سياسة الاستسلام المتمثلة في القبول بقرار مجلس الامن بل وفي التلهف على تنفيذه .

خلافا لوعد بلفور ولمشروع التقسيم ، ان قرار مجلس الامن ، الذي لم يثر في الجماهير العربية ما يستحقه من رفض ومقاومة ، قد وجد على صعيد الحكومات العربية تمزقـا وتفتتا ، ولقي لدى عدد منها استجابة ايجابية . **وخلافا للعرف ، فان المسؤولين العرب الذين تمسكوا بالحق الفلسطيني وبالكرامة العربية ورفضوا القرار واستنكروه ، مـا لبثوا ان وجدوا انفسهم في حرج تجاه الذين قبلوه (بـدلا من العكس) ، فاتجه بعض الرافضين نحو القبـول مسايرة للقابلين بالقرار ، ولاذ البعـض الآخر بالصمت كي لا يحرج الذين قبلوا به . وفي الوقت عينه ، كان في تمسك البعض الاخر بالرفض قسط من المزايدة كما كان في تمسك اخرين بالرفض رغبة في الاحراج . الى ان انتهى الامر بـأن أصبح الرفض الصادق الثابت موقف الاقلية الصغيرة في صفوف الحكام العرب .**

٤ — اوهام وذرائع :

يتضح مما مر بنا ذكره ان قرار مجلس الامن يقضي باجراء عملية مقايضة . هكذا ، بكل بساطة ، يتلخص جوهر القرار . انها عملية مقايضة تتخلى اسرائيل بموجبها عن المناطق التي احتلتها في حرب حزيران ١٩٦٧ ، لقاء تخلي الدول العربية عن موقف الرفض الذي لازم الامة العربية منذ نشأة القضية طوال نصف قرن ، واستبداله بانشاء حالة سلام طبيعية في المنطقة تقوم على الاعتراف بشرعية الوجود الاسرائيلي دون تحفظ ، وتصفى في اطارها القضية الفلسطينية تصفية نهائية .

ان هـذه المقايضة تتناقض ، من الجهة الواحدة ، مع فلسفة الامـم المتحدة ونصوص ميثاقها ، كما تتناقض من الجهة الاخرى مع الحق والكرامة العربيين .

فبالنسبة لميثاق الامم المتحدة ، ان مثل هذه المقايضة معناها ، بابسط عبارة ، مكافـأة المعتدي على عدوانه ، او رشوة المعتدي لحمله على التخلي عما حصل عليه بالعدوان . واقرار مبدأ المقايضة على هذا النحو في قرار رسمي صادر عن مجلس الامن انمـا هو سابقة خطيرة تهدد اركان صرح المنظمة الدولية ومبدأ سلطان القانون في العلاقـات الدولية . وما كانت الامم المتحدة لتتخذ مثل هذا القرار — السابقة ، لـولا ان الاسرة الدولية كانت قد وصلت الى طريق مسدود في محاولتها لمعالجة آثار العدوان الاسرائيلي اثناء الدورة الاستثنائية الخاصة التي عقدتها الجمعية العامة بعيد انتهاء الحرب (والتي سقطت فيها جميع مشاريع القرارات المطروحة ، وبينها المشروع السوفياتي ومشروع دول عدم الانحياز والمشروع اللاتيني ، بينما سحبت امريكـا مشروعها قبـل الاقتراع عليه) ، ولولا ان الاتحاد السوفياتي وامريكا وجدا في المشروع البريطـاني (المقدم بعد ذلك الى مجلس الامن) ارضا مشتركة تلتقي عليها مصالحهما ومطالبهما في المنطقة — كما ذكرنا من قبل .

وكذلك ، فان التناقض واضح بين احكام القرار وبين الموقف العربي التقليدي الذي تبلور منذ نشوء القضية . واذا رحنا نتلمس اسباب الموافقة الفورية التي اعلنتها مصر والاردن فور صدور القرار ، والتي جارتها فيها عدة دول عربية بعد ذلك ، وجدنا ان هذه الموافقة سببها اخر الامر عاملان اثنان ــ هما : « الانانية القطرية » ، و « الواقعية اليائسة » . وكل سبب اخر قدمته اية حكومة او هيئة عربية لتفسير موافقتها على القرار انما كان ذريعة وتمويها .

(١) قرار مجلس الامن كان دغدغة مكشوفة للانانية القطرية . لقاء استرجاع مصر لسيناء ، أو استرجاع سوريا للجولان (وهو الوعد الذي يدندله القرار كالطعم في السنارة) يطلب القرار من مصر ومن سوريا الاعتراف لاسرائيل بحق الوجود كدولة سيدة في ما كانت قد احتلته من فلسطين قبل عام ١٩٦٧ ، والاعتراف بذلك « الحق » المزعوم دون شروط او قيود . وحين يعرض القرار على سوريا استرجاع ارض سورية لقاء تنازلها نهائيا لاسرائيل عن اراض فلسطينية ، او حين يعرض على مصر استرجاع أرض مصرية لقاء تنازلها نهائيا لاسرائيل عن اراض فلسطينية ، فهو يعرض على الاردن استرجاعها ارضا فلسطينية (هي الضفة الغربية) لقاء تنازلها نهائيا عن اراض فلسطينية اخرى .

والاستجابة لهذا العرض ، من قبل مصر والاردن ، فور صدور القرار ، انما كانت فوزا لمنطق الانانية القطرية على منطق الولاء القومي والاخاء القومي . ولا يمكن التهرب ، امام التاريخ ، من مسؤولية هذه الحقيقة .

ولا بد لنا من ان نقول ان سلطة التنازل عن اي ارض عربية لا يملكها اي شعب عربي ، او اي جيل من اجيال الامة العربية . بل ان الشعب الفلسطيني لا يملك سلطة التنازل عن أرض فلسطين ــ ناهيك عن اي شعب عربي اخر ، او اية حكومة عربية اخرى ــ لان أرض كل قطر في الوطن العربي هي ملك الامة العربية جمعاء على امتداد اجيالها مدى التاريخ . وبالتالي ، فان ادعاء اي قطر من الاقطار العربية بحق مقايضة مصير جزء من الارض العربية بمصير جزء اخر انما هو اعتداء على تراث الامة العربية جمعاء وعلى حقوق اجيالها المتعاقبة في كامل التراب العربي ، فضلا عن كونه اعتداء على حقوق ابناء الجزء المتنازل عنه .

ولو شئنا جدلا ان نجد عذرا للذين قبلوا بمبدأ المقايضة ، في القول بان اغراء استرجاع الارض القريبة كان اقوى من واجب التمسك العنيد بحق الاشقاء ، وحق الامة باسرها ، في الارض المجاورة (لا سيما وانه كان قد مضى على احتلال هذه عشرون عاما) ، لوجب علينا في الوقت عينه ان ننوه الى **ان مثل هذه المقايضة تنم عن قصر نظر بالنسبة للمصلحة القطرية نفسها فضلا عن كونها غير مشروعة من حيث المبدأ** . لان العدو الطامع بالتوسع التليمي في الاراضي المجاورة وبالسيطرة الاقتصادية والسياسية على المنطقة باكملها لن يردعه الرضوخ لمطالبه (في الاعتراف العربي وفي اقامة حالة سلام دائم وعلاقات طبيعية مع الدول العربية) عن المضي في سعيه لفرض سيطرته على ارادة ابناء المنطقة ، **وانما من المحتم ان يزيده الرضوخ العربي طمعا وشهوة في السيطرة وايمانا بقدرته على بلوغها .**

ان قبول مبدأ مقايضة شرم الشيخ بحيفا ، مثلا ، او العريش ببئر السبع ، من قبل من لا يملك حق التصرف بحيفا او ببئر السبع ــ وقبول مبدأ مقايضة نابلس بالناصرة ، من قبل من لا يملك حق التصرف لا بهذه ولا بتلك ــ فضلا عما ينطوي عليه من تطاول على حقوق الشعب الفلسطيني صاحب الحق الاصيل في حيفا وبئر السبع والناصرة ونابلس، ينطوي ايضا على نظرة خاطئة الى ديناميكية شهوة التوسع والسيطرة وطرق مجابهتها .

اذ ان المقايض العربي لن يلبث ان يكتشف ان المغتصب الذي تم التنازل له عن حيفا لقاء شرم الشيخ سوف تزداد شهوته لاعادة سيطرته على شرم الشيــخ حتى لو انسحبت قواته منها !

هذا بالنسبة لمنطق « الانانية القطرية » القصير النظر . واما منطق «الواقعية اليائسة» فأمره واضح . **اذ لولا اليأس من القدرة على تطبيق المبدأ القائل ان « ما اخذ بالقوة لا يستعاد الا بالقوة » لما مال احد الى القبول بالمبدأ القائل ان « ما اخذ بالقوة قد يستعاد بالمقايضة » .**

ولكن ، لو ان جزءا من الجهد ، الذي صرف طــوال السنوات الخمس الماضية عــلى الركض اللاهث وراء اتمام صفقة المقايضة ــ لو ان جزءا من ذلك الجهد صرف علــى تعزيز القوة النضالية الذاتية في الامة العربية ، وفي كل قطر من اقطارها ، وعلى بنــاء المؤسسات الفاعلة (لا التظاهرية) الكفيلة بتعبئة الجماهير وتعزيز استعدادها العفوي للصمود والتضحية والفداء ، ولتحمل الاحتلال الى ان تكتمل القدرة على التحرير ، مهما طال الزمن ــ لو ان ذلك حدث ، او لو انــه جرى الشروع فيه ، لما كانت الواقعيــة المسيطرة على الاذهان الرسمية هي واقعية اليأس ، بل لاصبحت واقعية الثقة المستندة الى الوعي الكامل بطاقات هذه الامة وامكاناتها .

* * *

ان الذين حدا بهم هذان العاملان ــ الانانية القطرية ذات النظــر القصير ، والواقعية اليائسة ــ الى الموافقة على قرار مجلس الامن ، كان لا بد لهم من تبرير موافقتهم هذه امام جماهيرهم والجماهير العربية عامة ، ولو بالتضليل !

وقد اتخذ التضليل الرسمي للجماهير العربية عدة اشكال ، اهمها ترويج الادعــاءات والحجج الآتي بيانها :

(١) الايحاء بان قرار مجلس الامن يقتصر فقط على دعوة اسرائيل للانســحاب . وقد اشرنا الى هذا الباطل في جزء سابق من هذا المقال .

(٢) القول بان القرار لا ينص على وجوب « اعتراف » الدول العربية باسرائيل ، وان كلمــة « اعتراف » ذات المــدلول الواضح والدقيق في القانون الــدولي وفي العــرف الدبلوماسي لم ترد في القرار اطلاقا ، لا في نصه الانكليزي ولا في نصه الافرنسي (وهما النصان الرسميان للقرار) . وهــذا القول صحيح مــن حيث الشكــل ، لأن عبارة « الاعتراف » لم ترد في نص القرار ، ولكن ما ورد فيه بالنسبة لهذا الامر ، وما جعله القرار شرطا ملازما لشرط الانسحاب وعنصراً مرافقا له ، هو اوسع واكثر شمولاً من مجرد الاعتراف الدبلوماسي بالمعنى المتعارف عليه . ففي الفقرة الثانية من الديباجة ، اقترن اعلان مبدأ « عدم جواز حيازة الاراضي عن طريق الحرب » بمبدأ اقامة « **سلام عادل ودائم تستطيع فيه كل دولة في المنطقة ان تعيش بأمان** » . ونصت الفقرة التنفيذية الاولى على مبدأين قالت ان تحقيق السلام العادل والدائم في الشرق الاوسط « **يجب ان ينطوي على تطبيقهما كليهما** » . وكــان اول هذين المبــدأين هو المتعلق بالانســحاب الاسرائيلي . اما المبدأ الثاني فهذا نصه الكامل :

« انهاء كل ادعاء بقيام حالة حرب ، وكل حــالة حرب . واحترام السيادة ، والسلامة الارضية ، والاستقلال السياسي لكل دولة في المنطقة ، والاقرار بها . وكذلك احترام حق كل دولة في ان تعيش بسلام ، ضمن حدود آمنة ومعترف بها ، وحقها بان تعيش في مأمن من استعمال القوة او التهديد بذلك ــ والاقرار بهذه الحقوق » . فاذا كان القرار لم ينص على وجوب اعتراف الدول العربية بالحكومة الاسرائيلية ، فانه قد نص عــلى

وجوب اقرار الدول العربية بوجود الدولة الاسرائيلية وبأنها تملـك كافة الحقوق التي تملكها اية دولة وكل دولة ذات وجود شرعي معترف به ، ونص ايضا على وجوب احترام الدول العربية لذلك الوجود ولتلك الحقوق .

ان التهرب من استعمال كلمة حساسة مثـل كلمة « اعتراف » ، ذات مدلـول محدد ومحدود ، واستبدالها بالنص المذكور اعلاه ، كان مخرجا بارعـا تمخضت عنه مهارة اللورد كارادون ، المندوب البريطاني الذي وضع مسودة القرار . فهو ، بتجنبه استعمال كلمة « اعتراف » ، ارضى حساسية مصر والاردن واصدقائهما في المجلس ، كما انه ، باستعماله نصا بديلا ، اكثر شمولا في مدلوله من عبارة «اعتراف» ، اشبع نهم اسرائيل وامريكا وحلفائهما ــ وحقق عن طريق التلاعب اللفظي صدور القرار عن مجلس الامن بالاجماع . **لقد رضي المفاوضون العرب بالمقايضة . فقبلوا باعطاء الجوهر لاسرائيـل لقاء حجب اللفظ عنها ، كما قبلوا بمقايضة جزء من الارض العربية بجزء اخر !**

(٣) الادعاء بان القبول بقرار مجلس الامن انما هو مناورة تكتيكية عربية ، من شأنها ان تعزل اسرائيل دوليا ، سياسيا واعلاميا ، دون ان تلقي على عاتـق العرب واجبا فعليا في الاعتراف ــ لان اسرائيل على كل حال لن ترضى بالانسحاب الكامل ، والالتزام العربي بالاعتراف بها لا ينفذ الا في حالة انجاز الانسحاب الاسرائيلي الكامل .

ان المناورات التكتيكية تجوز في الامور التي لا تتصل بالمبادىء الاساسية ، واما ادخال الحقوق الجوهريـة والمبـادىء الاساسية والمواقف القومية الثابتة في اطـار اللعبة الدبلوماسية فعمل مخاطره دوما تفوق مغانمه .

ثم ان اسرائيل قد خرجت من « المناورة التكتيكية » العربية ظافرة بحصة الاسد . ففي حين انها خسرت شيئا من العطف والتأييد الذي كانت تلقاه في المحافل الدولية ، فانها في الوقت عينه ظفرت بالقبول الدولي الشامل لوجوب اعتراف العرب باسرائيل كدولة ذات سيادة كاملة ووجود مشروع . ومعروف ان خسارة العطف والتأييد قد يعوض عنهـا بتبدل الظروف او بمرور الزمن ، واما ترسخ القناعـة بشرعية الوجود الاسرائيلي ، وباستعداد العرب للاعتراف به بعد طول نكران ، فقد يصعب زعزعته او تجنب خطره على مجرى القضية في المستقبل .

وينسى اصحاب حجة « المناورة التكتيكية » حقيقتين اخريين لهما خطورتهما .

الحقيقة الاولى ، هي ان الانسحـاب العسكري من الاراضي المحتلـة لا يتـم بصورة اوتوماتيكية ــ كنتيجة فورية لاعلان نية الانسحاب ــ اما الاعلان عن الاستعداد للاقرار بشرعية الوجود الاسرائيلي ولاحترام هذه الشرعية المزعومة فيكاد ان يكون في حد ذاته مرادفا للاقرار بتلك الشرعية .

والحقيقة الثانية ، هي ان اصـدار التصريحـات الرسمية عن الاستعـداد للاعتراف باسرائيل ، وتواترهـا يوما بعد يوم وعاما بعد عـام ، لا يقتصر اثره على الراي العام العالمي فقط ، بل يتعداه الى الرأي العام العربي ايضا . ولعل المسؤولين الذين اخذوا على مدى خمس سنوات يمطرون الامم المتحدة والمحافل السياسية الدولية والصحافة الاجنبية ووسائل الاعلام العالمية بوابل من تأكيداتهم عن استعدادهم للاعتراف باسرائيل والاقـرار بشرعية وجودها لقاء انسحابها من المناطق المحتلة ، قـد نسوا ان هـذه التصريحات تصل ايضا الى الآذان العربية بالاضافة الى آذان الناس في الخارج ، وان الاذن العربية متى اعتادت على سماع مثل هذه التصريحات لن تلبث ان تألفها ، بعـد استهجانها واستنكارها في البدء ، ولن تلبث بعد ذلك من ان تنظر الى اقامة السلام مع اسرائيل وكأنها امر طبيعي عادي . فاذا كان القبول بقـرار مجلس الامن هو مناورة تكتيكية فقط ، غرضها عزل اسرائيل دوليا ، فان اولى نتائجها تكون ــ خلافا لما يتوقع

اصحاب هذه السياسة او مشيعو هـــذه الحجة ــ تمييع الوعي والصمود العربيين في الداخل ، وبالتالي القضاء عـــلى الغرض الاصلي من المناورة . وليس اضعاف الجبهة العربية الداخلية ، وزعزعة الصمود العربي ، وهدم جدار الرفض العربي لاسرائيل ، من الاسلحة الصالحة لمجابهة اسرائيل ! ولعل هذه الحقيقة قد بدأت تتضح اخيرا لبعض الذين كانوا منذ البدء في طليعة المدافعين عن القبول بقرار مجلس الامن . فلقد اشار ، مثلا ، السيد محمد حسنين هيكل ، في مقالـــه الاسبوعي في « الاهرام » الصادر بتاريخ ٧٢/٧/١٤ (صفحـــة ٣ ، عمود ٥) ، الى مـــا وصفه بـــ « سلاح الرفض العـــربي لاسرائيـــل » ، وقال انه « السلاح العربي الرئيسي » وانـــه « أقوى من الطـــائرات والدبابات والمدافع » . وهذا صحيح مئة بالمئة . ولكنه من المستهجن حقا ان يتولى من يؤمن بان «سلاح الرفض العربي لاسرائيل» هو «السلاح العربي الرئيسي في المعركة» ــ من المستهجن ان يتولى هو بنفسه تحطيم هذا السلاح من اجـــل مناورة تكتيكية . افليس تعويد الاذن العربية على نغمات « القبول باسرائيل » و « الاقرار بشرعيـــة وجودها لقاء انسحابها من الاراضي العربية المحتلة » وفقا لقرار مجلس الامن ، سبيلا من سبل تحطيم « سلاح الرفض العربي لاسرائيل » ؟

لعل المسؤولين العرب ، الذين رموا الى نصب الفخ لاسرائيل وعزلها دوليا ، بواسطة اعلانهم القبول بقرار مجلس الامن كمناورة تكتيكية ، لم يفلحوا الا في وضع الامة العربية كلها في خطر الوقوع في الفخ !

(٤) واخيرا ، فان بعض الذين يعلنون عن قبولهم بقرار مجلس الامن ، يـــدافعون عن هذا القبول لا « كمناورة تكتيكية » بل « كخطة استراتيجية » ، زاعمين ان انسحـــاب اسرائيل من الاراضي التي احتلتها في حرب عام ١٩٦٧ ، اذا تم ، سوف يضعف اسرائيل معنويا واقتصاديا وعسكريا ، فيعزز قدرة العرب في المستقبل على مجابهتهـــا وتحرير فلسطين . بكلمة اخرى : ان القبول بقـــرار مجلس الامن ان هو الا مرحلة من مراحل المجابهة العربية الصهيونية الطويلة الامد .

ولكم تذكرنا هذه الدعوة الجديدة الى المرحلية ، بالدعوة التي اطلقها الرئيس بورقيبة في جولته الشهيرة عام ١٩٦٥ الى المشرق العربي ، حين دعا الى القبول باسرائيل كما كانت آنذاك كمرحلة في سياق الصراع الطويل معها . ومن غرائب الصدف ان تصدر الدعوة الجديدة الى المرحلية عن بعض المسؤولين والمفكرين والاعلاميين اياهم الذين كانوا في طليعة الذين حملوا على المرحلية البورقيبية منذ سنوات .

لقد وضع كاتب هذا المقال ، في عام ١٩٦٥ ، دراسة تحليلية للمفاهيم البورقيبية ، ومن بينها مفهوم « المرحلية » . وقد نشرها مركز الابحاث في مايو ١٩٦٥ بعنوان « حفنة من ضباب » . ولعل ما ورد في تلـــك الدراسة ، تفنيـــدا « للمرحلية البورقيبية » ، يصلح تكراره اليوم ، تفنيدا للدعوة الجديدة الى المرحليـــة ، « مرحلية قرار مجلس الامن » ــ وذلك على ضوء ما قلناه في الفقرات الماضية حول « تحطيم ســلاح الرفض العربي لاسرائيل » عن طريق الاقرار بشرعية وجودها اقرارا يتنافى مع الدعوة لتحرير فلسطين ومع تعبئة الامة لمعركة التحرير .

فلقد كتبنا في الصفحتين ٥ و ٦ من « حفنة من ضباب » منذ سبع سنوات ما يلي ، مما نكرره الان تعليقا على البدعة الجديدة التي تقمصت فيها « المرحلية البورقيبية » :

« كل عمل انساني **منظم** هو ، بطبيعة الحال ، عمل مرحلي . كل برنامج، وكل مخطط ، هو بطبيعة الحال سلسلة من الخطوات والمراحل ، تكمل احداها الاخريات وتدعمها .

« ثم ان فكرة التدرج ملازمة لفكرة **الزمن** ، لا تنفصم احداهما عن الاخـــرى . وما دام الانسان يحيا في امتداد زمني ، فلا غنى له عن ان يعمل مرحلة فمرحلة .

« فما هو اذن وجه التشويه في « السياسة المرحلية » التي ذاع امرها اخيرا ؟

« وجه التشويه ان ثمة نوعين من المرحلية ، وقد اختاروا هم النوع الخاطىء ، وتوهموا انه النوع الصحيح بل والوحيد .

« ان المرحلية التي يتاح لها ان تبلغ غرضها هي **المرحلية التصاعدية** . هي التي تبني في كل مرحلة على ما شيدته في المرحلة السابقة ، وتمهد في كل مرحلة لما ستبنيه في المرحلة اللاحقة .

« واما المرحلية التي نودي بها اخيرا ، **فمرحلية مغلقة** : المرحلة الاولى فيها تنفي المراحل اللاحقة وتبطلها — بدلا من ان تمهد لها الطريق ، وتفسح لها مجال التنفيذ ، وتوفر لها شروط التطبيق . هذه المرحلية المغلقة « تطوق » نفسها تطويقا تاما في سياج المرحلة الاولى ، لانها تكتفي بالخطوة الاولى وتعلن مسبقا انها لن تمضي بعدها في المسير نحو الهدف الاخير .

« انها تقنع بتصغير مساحة الارض التي اغتصبتها اسرائيل ، تصغيرا جزئيا ، لقاء التخلي نهائيا عما تبقى من حقنا كله بفلسطين ، ولقاء الاعتراف باسرائيل ، ولقاء عقد الصلح معها .

« ليس شعار هذه المرحلية الزائفة : « خذ الان ما تستطيع اخذه ، وتهيأ في الوقت عينه لتأخذ غدا ما تبقى » . وانما شعارها : « **اكتف بما تستطيع اخذه بل وباقل منه ، وتنازل لخصمك منذ الان والى الابد عما تبقى لك !** »

« ليس شعارها : « صارع للحصول دفعة فدفعة على حقك ، الى ان تبلغه اخر الامر كاملا غير منقوص ، وفق خطة محكمة » . وانما شعارها : « **ساوم للحصول على قسط ضئيل من حقك ، وتخل ، لقاء هذا القسط الضئيل ، عن حقك باكمله !** »

« ليست هذه مرحلية التخطيط ، وانما هي مرحلية التفريط .

« ليست هذه مرحلية النمو والتقدم ، وانما هي مرحلية الجمود ، بل الانكفاء .

« ليست هذه مرحلية الامل ، وانما هي مرحلية اليأس .

« ليست هذه مرحلية الصراع ، وانما هي مرحلية الاستسلام .

« ليست هذه سياسة المراحل المتراكمة التصاعدية ، وانما هي سياسة المرحلة الواحدة الوحيدة ، التي تنتهي عندها آفاق الامل كله ، وتتوقف الرؤيا عند حدودها القريبة ، وتنحبس الاحلام في سياجها الضيق الخانق ! » .

تمثيل الشعب الفلسطيني
ومنظمة التحرير الفلسطينية

عصام سخنيني

في الثامن والعشرين من شهر أيـار (مايو) ١٩٦٤ عقد المجلس الوطني الفلسطيني الاول الذي أعلن قيام منظمة التحرير الفلسطينية (م. ت. ف.) بحيث « تكون هذه المنظمة مسؤولة عن حركة الشعب الفلسطيني في نضاله من اجل تحرير وطنه في جميع الميادين التحريرية والتنظيمية والسياسية والمالية وسائر ما تتطلبه قضية فلسطين على الصعيدين العربي والدولي » . وبحيث يكون « الفلسطينيون جميعا أعضاء طبيعيين في م.ت.ف. . . والشعب الفلسطيني هو القاعدة الكبرى لهذه المنظمة » كما نصت المادة ٢٦ من الميثاق القومي الفلسطيني والمادة ٤ من النظام الاساسي لـ م. ت. ف. على التوالي . ومنذ ذلك التاريخ دخلت قضية تمثيل الشعب الفلسطيني مرحلة نزاع جدي ، بعد ان كان هذا الموضوع في حال نسيان تامة على مستوى عربي او تجاهل متعمد ، واذا اثير مرة فهو لا يخرج عن نطاق المعالجة الروتينية في مجالس الجامعة العربية ، كما كان خافت الصوت او غير مبلور في تصورات محددة على صعيد شعبي فلسطيني . وهذا النزاع كان قطبه الاول المنظمة التي تؤكد انها الممثل الوحيد والشرعي لشعب فلسطين والناطقة باسمه والمجسدة لكيانه الوطني ، وقطبه الآخـر اطراف متعددة ، مختلفة الدوافع ، متناقضتها احيانا ، ترفض دعوى المنظمة وتسعى الى انتزاع حق تمثيل الشعب الفلسطيني من يدها وتجييره الى جهات أخرى . واذا كان هذا النزاع ظل مدة لا يمثل خطرا جديا على قضية الشعب الفلسطيني فانه بعد مجازر أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠ ، اثر التراجع العسكري الذي منيت به المقاومة في الاردن ، اصبح محوره هذه القضية من الاساس : المحافظة عليها او تصفيتها نهائيا . وقد وصل هذا النزاع الى تمته المرحلية في حادثين هما في التحليل النهائي متكاملان : الاول قيام سلطات الاحتلال الاسرائيلي باجراء انتخابات بلدية في الضفة الغربية المحتلة بقصد خلق ممثلين منتخبين للشعب الفلسطيني يكتسب الحوار معهم صفة شرعية . والحدث الثاني اعلان الملك حسين عن مشروعـــه الرامي الى ما سماه المملكة العربية المتحدة باقليميهـــا الاردني والفلسطيني بهدف تكريس تمثيل النظـــام الهاشمي للفلسطينيـــين وايجاد المفـــاوض الفلسطيني (من بين الفلسطينيين المتعاونين مع الملك) الذي يكون قادرا بحكم تمثيله الرسمي للفلسطينيين على الدخول في ميدان المساومات الدولية ومن ثم تقديم التنازلات المطلوبة على طريق تصفية القضية الفلسطينية . من هنا يكتسب موضوع تمثيل الشعب الفلسطيني خطورة خاصة يجري في ظلها اعادة التاكيد على شرعية تمثيل م. ت. ف. للشعب الفلسطيني وعلى حقها في النطق باسمه والتعبير عن طموحاته الوطنية ، وفي الوقت نفسه مقاومة كل ادعاء يحاول ان ينتزع من م. ت. ف. هذا الحق . وفي هذه المقالة ، ولمناسبة العودة الى موضوع تمثيل الشعب الفلسطيني الذي يتخذ الدعوة الى صيغ مختلفة جديدة لتاكيد هذا التمثيل ، سنستعرض كيف توصلت المنظمة الى هذه

الشرعية مطورين البحث بدءا من تمثيل فلسطين في جامعة الدول العربية قبل قيام المنظمة، مرورا بالمحاولات الرامية الى اعادة بناء الكيان الفلسطيني وهو موضوع متلاحم مع قضية تمثيل الشعب الفلسطيني ، ثم قيام المنظمة واكتسابها شرعية التمثيل الفلسطيني .

فلسطين في جامعة الدول العربية

جاء تمثيل فلسطين في جامعة الدول العربية استنادا الى ما نص عليه ميثاق الجامعة في الملحق الخاص بفلسطين على انه « نظرا لظروف فلسطين الخاصة والى أن يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلا يتولى مجلس الجامعة أمر اختيار مندوب عربي من فلسطين للاشتراك في اعماله » . ولهذا فقد أصدر مجلس الجامعة في ١٩٤٥/١٢/٤ قرارا في هذا الشأن نص على ان تمثل فلسطين بمندوب واحد أو أكثر بحيث لا يزيد عدد أعضاء الوفد عن ثلاثة ويكون مفهوما ان اشتراك الوفد الفلسطيني معناه ان يكون له حق التصويت في قضية فلسطين وفي الامور التي يستطيع ان يلزم فلسطين بتنفيذها ويكون المندوبون ممن ترشحهم الهيئة العربية العليا(١). وقد وافق مجلس الجامعة على اختيار موسى العلمي ثم الحاج امين الحسيني ليكونا مندوبين لفلسطين . وقد تغير هذا الوضع قليلا بعد العام ١٩٤٨ . ففي ١٩٤٨/٩/٣٠ عقد في مدينة غزة مؤتمر فلسطيني دعا اليه بعض الشخصيات الفلسطينية وأعلن في ختام جلساته نظاما مؤقتا بتأليف حكومة عموم فلسطين من مجلس وطني ومجلس وزراء ومجلس أعلى . وقد اعترفت الدول العربية المؤسسة للجامعة — باستثناء الاردن — بهذه الحكومة . وفي ١٩٥٠/٣/٢٧ أصدر مجلس الجامعة قرارا بدعوة حكومة عموم فلسطين لارسال ممثليها لحضور اجتماعات مجلس الجامعة. غير ان الحكومة التي لم تمارس اعمالها قط انصرف وزراؤها الى شؤونهم الخاصة ثم استقالوا فأصدر مجلس الجامعة قرارا في ١٩٥٢/٩/٢٣ ينص على انه « نظرا لتوقف أعمال حكومة عموم فلسطين بسبب الظروف الراهنة يكون رئيس الحكومة ممثلا لفلسطين في جامعة الدول العربية »(٢). وقد استمر أحمد حلمي باشا رئيس الحكومة في تمثيل فلسطين الى ان وافته المنية في العام ١٩٦٣ ، وفي ١٩٦٣/٩/١٥ اتخذ مجلس الجامعة في دور انعقاده الاربعين قرارا بتعيين احمد الشقيري ممثلا لفلسطين خلفا لاحمد حلمي باشا .

كانت تلك مرحلة في موضوع تمثيل الشعب الفلسطيني ، وقد اتسمت بالملامح التالية :

١ — ان قضية التمثيل لم تكن فاعلة مؤثرة ولم تؤخذ على محمل الجد وانما كانت وفاء رمزيا للقطر الذي سلب. وان حصر التصويت للوفد الفلسطيني « في الامور التي يستطيع أن يلزم فلسطين بتنفيذها » تعتبر أكثر من طرفة ما دام القطر الفلسطيني واقعا تحت الانتداب البريطاني في البداية ثم تحت الاحتلال الاسرائيلي فيما بعد .

٢ — كانت حكومة عموم فلسطين بحكم عوامل ذاتية تتعلق بأشخاص القائمين عليها ، وبحكم عوامل عربية متعددة تريد لهذه الحكومة ان تبقى ضئيلة الحجم هامشية التأثير ، كانت الحكومة غير قادرة على ان تتجاوز المهمة التي أوكلت اليها في هذا المجال وهي التمثيل الرمزي لفلسطين*.

* نستطيع ان نتلمس حجم هذه الحكومة من قراءة مشروع ميزانيتها للسنة المالية من ١٩٦٤/٧/١ الى ١٩٦٥/٦/٣٠ فقد كانت كما يلي (بالجنيهات المصرية في السنة): ٧٨٠ راتب السكرتير العام القائم بأعمال الحكومة، ٦٠٠ راتب المستشار ، ٦٠٠ راتب مدير الجوازات ، ٦٠٠ راتب مدير الشؤون الاجتماعية ، ٣١٢ راتب مساعد مدير المحاسبة ، ٣١٢ راتب مساعد مدير الجوازات ، ٣١٢ راتب كاتب الارشيف والالة الكاتبة ، ٢٧٦ راتب سائق سيارة الحكومة ، ١٤٤ راتب الفراش ، ١٤٤ راتب الحارس ، ١٠٨ راتب المراسل، ٩٦ تلفونات وبرقيات ، ١٢٠ مطبوعات ونفقات نثرية بما فيه علاوة غلاء المعيشة ، ٣٥٢ اجرة دور الحكومة، والمجموع ٤٨٦٤ جنيها(٣).

٣ ـــ ان شعب فلسطين لم يكن مخاطبا بهذا التمثيل : أ ـــ حكومة عموم فلسطين لم يكن لها مساس بحركة الشعب الفلسطيني حتى انها كانت حكومة لا علاقة لها بالسياسة . ب ـــ لم يكن لدى الفلسطينيين مؤسسات تنظيمية خاصة بهم قادرة على فرز مندوبين يمثلونهم أو على الاقل يطالبون بهذا التمثيل . جـ ـــ ان الشعب الفلسطيني لم يكن يعامل كشعب ذي كيان مستقل وانما كانت قضاياه تطرح بصفتها مشاكل لاجئين تحل من خلال حكومات الدول العربية المضيفة او وكالة الغوث الدولية .

٤ ـــ مع هذا التمثيل الرمزي كانت الحكومة الاردنية تحارب حكومة عموم فلسطين بهدف الاجهاز على كل دليل مهما كان هذا الدليل هزيلا يشير الى الوجود الفلسطيني المستقل. فالنظام الاردني كان يتمسك بادعاء حق تمثيل الفلسطينيين بعد أن ضم اليه البقية الباقية من فلسطين ـــ باستثناء غزة والحمة ـــ اثر مؤتمر عقده بعض الوجهاء الفلسطينيين في اريحا في العام ١٩٤٨ برعاية من الهاشميين وبدفع منهم وبعد ان منح النظام المواطنين الفلسطينيين في الاردن الجنسية الاردنية .

الكيان الفلسطيني قبل المنظمة

في الشتات فقد الفلسطينيون كيانهم السياسي الموحد نتيجة فقدان الارض وتمزق الشعب وغياب المؤسسات الفلسطينية القادرة على التنظيم والقيادة . غير انه منذ اواخر الخمسينات بدأ الحديث يرتفع على اكثر من صعيد عن «بعث الكيان الفلسطيني » بتعبير، و« اعادة تنظيم الشعب الفلسطيني » بتعبير آخر . ونقدم فيما يلي ثلاثة نماذج قدمت على ثلاثة اصعدة مختلفة تتعلق بهذا الموضوع :

١ ـــ مجلة « فلسطيننا » والكيان الفلسطيني :

في العام ١٩٥٩ بدأت مجلة « فلسطيننا » في الظهور في بيروت وقد عرف فيما بعد ان حركة فتح هي التي كانت تشرف على سياستها واصدارها . وكانت بعض مقالات هذه النشرة تذيل بتوقيع «فتح» او « ف ت ح » . وقد اهتمت المجلة بالدعوة الى بعث الكيان الفلسطيني « فالكيان مطلب أساسي من مطالبنا نحن عرب فلسطين المشردين ... والكيان حق شرعي لنا »(٤). وقد أعطت المجلة صفات لهذا الكيان فهو ضمان حرية العمل من اجل استرداد الوطن(٥) وهو « نابع من ضمير شعبنا ونكبته وخيمته البالية ، وشعبنا رفض ولا يزال يرفض كافة انواع الوصايات أكانت من الدول العربية او غيرها. ان الشعب الفلسطيني يؤمن ببعث هذا الكيان الحر غير التابع وغير الخاضع وغير الموجه »(٦).

غير ان الاعداد القليلة من المجلة التي تسنى لنا الاطلاع عليها ، تجعلنا نعتقد ان هناك حوارا كان يدور بين المشرفين على سياسة المجلة بحثا عن ماهية هذا الكيان ، وعن الطريق المؤدي الى بعثه . وهو حوار مبرر في تقديرنا ، فالعمل الفلسطيني الذي كان يبحث له عن شخصية مستقلة كان يتلمس طريقه ، ولم يرس له بعد في تلك الفترة من الزمن تقاليد ثابتة ، او يضع تصورات محددة . ففي احد اعداد المجلة نلمح الدعوة الى اقامة الكيان على الجزء الذي لم يغتصب من فلسطين « ان هناك اقساما عربية من فلسطين ، وعلى هذه الاقسام ينبغي ان نشيد صرح حكم وطني فلسطيني ثوري قيادي »(٧). وتكرر المجلة هذا المعنى اكثر من مرة وتطالب « بحكم وطني في ارض فلسطين الباقية »(٨). ويرافق هذه الدعوة مطالبة « بحكومة وطنية ترعى مصالحنا في داخل البلاد العربية حاليا على الاقل ... ولا نطلب من الحكومات العربية الا ... ان تمنحنا الفرصة لكي نشكل حكومة وطنية حرة »(٩). واحيانا ، ومن ضمن الحوار الداخلي أيضا ، تضع المجلة هذه الحكومة موضع تساؤل فتكتب « قد يتساءل انسان لماذا لا نعلن قيام حكومة ثورية باسم فلسطين وتكون باسمها وتشرف هي على انشاء الجهاز

الفدائي ؟ انني لا أؤمن بقيام حكومة قبل وجود واقع لها ، لهذا يجب ان لا يعلن قيام حكومة حرة لفلسطين الا بعد نجاح الحركة الفدائية في اثبات وجودها »(١٠). اما طريقة اخراج هذا الكيان الفلسطيني الى حيز الوجود فــ « فلسطيننا » طرحت الثورة طريقا لذلك « الثورة لتحقيق كيان ثوري على غرار الكيان الجزائري »(١١)، بيد اننا نقرأ في موضع آخر ان « الكيان [المتمثل في حكم وطني في الاقسام العربية في فلسطين] سيحقق انطلاقة الثورة »(١٢). وباجمال ، فان المجلة كانت تعمق خط بعث الكيان الفلسطيني ، وتبحث عن ماهيته وطريقة اخراجه .

٢ ــ مشروع حكومي عراقي :

مقابل هذا الحوار الداخلي على صعيد فلسطيني شعبي نشرت الحكومة العراقية في شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٦٣ مشروعا « لابراز الكيان الفلسطيني » ويقوم هذا المشروع على التصورات التالية (١٣): ١ ــ يقسم الفلسطينيون المقيمون في كل من قطاع غزة والضفة الغربية وسوريه ولبنان والعراق وحيثما توفر عدد كاف من الفلسطينيــين الى دوائــر انتخابية تنتخب كل منها ممثلا عنها . ٢ ــ يجتمع الممثلون الفلسطينيون في مجلس وطني فلسطيني وينتخبون حكومة فلسطين . ٣ ــ تقيم حكومة فلسطين علاقات سياسية مع كافة الاقطار العربية التي ستعترف بها وتكون مهمة ممثليات هذه الحكومة تنسيق العمل مع الحكومات العربية من اجل تحرير فلسطين . ٤ ــ توضع خطة عربية لاستعادة فلسطين تشارك فيها الحكومة الفلسطينية وكافة الدول العربية المهتمة بتحرير فلسطين. ٥ ــ تتولى حكومة فلسطين وممثلوها خارج الوطن العربي الدعوة لقضية فلسطين وتمثيل شعبها في كافة المؤتمرات والمحافل والمناسبات الدولية . ٦ ــ تقوم حكومــة فلسطين بتأليف جيش التحرير الفلسطيني الذي تتعهد الحكومات العربية بمسؤولية تدريبه وتسليحه ضمن خطة تعبوية موحدة تستهدف استعــادة فلسطين وتحريرها . ٧ ــ يكون مقر حكومة فلسطين في اي قطر عربي تراه مناسبا وبموافقة حكومة ذلك القطر .

٣ ــ الجامعة العربية وتنظيم الشعب الفلسطيني :

بدأ اهتمام الجامعة العربية بموضوع إعادة تنظيم الشعب الفلسطيني يبرز منذ العام ١٩٥٩ وسنذكر فيما يلي أهم القرارات المتعلقة بهذا الشأن :

بناء على توصية من وفد ج. ع. م. اصدر مجلس الجامعة في دورة آذار (مارس) ١٩٥٩ التوصية التالية « اعادة تنظيم الشعب الفلسطيني وابراز كيانه شعبا موحدا يسمع العالم صوته في المجال القومي وعلى الصعيد الدولي وبواسطة ممثلين يختارهم الشعب الفلسطيني » غير ان مجلس الجامعة في دورة أيلول (سبتمبر) ١٩٥٩ والذي انعقد في الدار البيضاء على مستوى وزراء الخــارجية لم يبحث أمــر تنظيم الشعب الفلسطيني بصورة جدية لمعارضة الوفد الاردني الذي كان برئاسة هزاع المجالي ، وقد استمرت معارضة الاردن لتنظيم الشعب الفلسطيني اثناء اجتماع اللجنة السياسية للجامعة التي انعقدت في شباط (فبراير) ١٩٦٠ . وفي آب (اغسطس) ١٩٦٠ اجتمع مجلس الجامعة في شتوره في لبنان وعاد الى بحث القضية الفلسطينية فقرر اعادة تنظيم الشعب الفلسطيني وابراز كيانه شعبا موحدا وانشاء جيش فلسطيني في الدول العربية المضيفة . وفي حزيران (يونيو) ١٩٦١ اجتمعت لجنة خبراء كان قد شكلها الامين العام للجامعة من ممثلين عن ج.ع.م. ولبنان والاردن والسعودية ، اجتمعت في مقر الجامعة ورأت بدلا من ان تنشىء كيانا فلسطينيا جديدا ان توصي بدعم حكومة عموم فلسطين ماديا وسياسيا(١٤). وفي ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٣ عقدت الدورة الاربعون لمجلس الجامعة واختير أحمد الشقيري ممثلا لفلسطين وعهد اليه بمهمة القيام باستشارات مع

ممثلي شعب فلسطين لتشكيل حكومة عموم فلسطين جديدة وطلب منه كذلك زيارة العواصم العربية المختلفة لدراسة الوسائل التي ستضعها الدول العربية تحت تصرفه من اجل انجاز هذا الواجب(١٥).

مؤتمرا القمة الاول والثاني وقيام م. ت. ف.

في الفترة من ١٣ — ١٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤ عقد مؤتمر القمة العربية الاول وحضر الشقيري المؤتمر بصفته ممثلاً لفلسطين في الجامعة العربية . وفي ختام المؤتمر صدر بيان تضمن ما يلي « ان مجلس ملوك ورؤساء دول الجامعة العربية ... قياما بواجب الدفاع المشترك وايمانا بحق الشعب العربي الفلسطيني المقدس في تقرير مصيره والتحرر من الاستعمار الصهيوني لوطنه ... قد اتخذ القرارات العملية اللازمة لاتقاء الخطر الصهيوني الماثل سواء في الميدان الدفاعي أو الميدان الفني أو ميدان تنظيم الشعب الفلسطيني وتمكينه من القيام بدوره في تحرير وطنه وتقرير مصيره »(١٦). وقد كان القرار المتعلق بتنظيم الشعب الفلسطيني يقضي في « ان يستمر السيد أحمد الشقيري ممثل فلسطين لدى جامعة الدول العربية في اتصالاتـه بالدول الاعضـاء والشعب الفلسطيني بغيـة الوصـول الـى اقامـة القواعد السليمـة لتنظيـم الشعب الفلسطيني وتمكينه من القيام بدوره في تحرير وطنه وتقرير مصيره »(١٧). وفي ١١/٢/١٩٦٤ بدأ الشقيري اتصالاته فاجتمع في القاهرة بالدكتور محمود فوزي ، وزير خارجية ج. ع. م. ، وعرض عليه الخطوط العريضة لمشروع الكيان الفلسطيني وما يتعلق بجوانبه السياسية والعسكرية والمالية(١٨). وفي ١٩/٢/١٩٦٤ بدأ جولته فـي الدول العربية ليناقش مع شعب فلسطين والحكومات العربية مسودة ميثاق قومي فلسطيني وتأسيس منظمة تحرير يقوم عليها الكيان الفلسطيني(١٩). وقد اذاع الشقيري في القدس في ٢٤/٢/١٩٦٤ مشروعا من ٢٩ مادة لميثاق قومي فلسطينـي تقوم عليـه المبادىء الاساسية لتحرير فلسطين وقال انه سيدعو الى عقد مؤتمر وطني فلسطيني يوم ١٤ أيار (مايو) المقبل في القدس لطرحه عليه(٢٠). وقد زار الشقيري في جولتـه الاردن وسوريه والبحرين وقطر والعراق والكويت ولبنان والسودان وانتهت الجولة في ٥/٤/١٩٦٤ . ولدى وصوله الى القاهرة اعلن انه عقد نحو ٣٠ مؤتمرا مع الشعب الفلسطيني التقى خلالها مع آلاف منهم وشرح لهم الميثاق القومي الفلسطيني والنظام الاساسي لمنظمة التحرير(٢١). وفي ١٥/٤/١٩٦٤ قدم الشقيري تقريرا مفصلاً عن مباحثاته مع الحكومات العربية وشعب فلسطين الى لجنة المتابعة (التي انبثقت عن مؤتمر القمة وتضم ممثلين عن الملوك والرؤساء العرب) في جلستها الثانية التي عقدت في القاهرة . وقد اثبت التقرير انشعب فلسطين هو الاساس الذي يقوم عليه الميثاق القومي ومنظمة التحرير ، ودور الحكومات العربية سيكون محدودا في مساعدة شعب فلسطين في خلق هذا الكيان. وبعد ذلك فان الكيان الفلسطيني سيملك استقلاله بنفسه وسوف يتعاون مع الدول العربية الاخرى داخل الجامعة وخارجها(٢٢). واعلن الشقيري في ختام تقريره ان المؤتمر الفلسطيني سوف ينعقد في القدس في ٢٨/٥/١٩٦٤ « كائنـة ما تكـون الظـروف والمصاعب »(٢٣). وفي المؤتمر المذكور افتتح في القدس المؤتمر الفلسطيني الاول الذي حضره ٣٨٨ ممثلا منهم ٢٤٢ من الاردن و١٤٦ من سوريه ولبنان وغزة والخليج العربي والعراق اختارتهم لجان تحضيرية من الفلسطينيين في هذه الاقطار(٢٤) وفي جلسة العمل الاولى انتخب الشقيري رئيسا للمؤتمر بالاجماع فأعلـن ولادة م. ت. ف. مجسدة للشخصية الفلسطينية وتحول المؤتمر الى مجلس وطني للمنظمة واختتم اعماله في ٢/٦/١٩٦٤ بعد ان اقر الميثاق القومي الفلسطيني والنظام الاساسي للمنظمة والنظام الاساسي للصندوق القومي .

وفي ٥/٩/١٩٦٤ عقد الملوك والرؤساء العرب مؤتمر قمتهم الثاني في الاسكندرية ، وفي

سادس ايام المؤتمر تركزت المناقشات حول الكيان الفلسطيني وم. ت. ف. وجيش التحرير الفلسطيني(٢٥). وفي ١٩٦٤/٩/١١ صدر بيان ختامي عن المؤتمر ورد فيه ان المجلس« رحب بقيام م.ت.ف. دعما للكيان الفلسطيني وطليعة للنضال العربي الجماعي لتحرير فلسطين واعتمد قرار المنظمة بانشاء جيش التحرير الفلسطيني »(٢٦). وبذلك تم الاعتراف العربي الرسمي بالمنظمة ممثلة للكيان الفلسطيني والشعب الفلسطيني .

. . .

هل كان قيام م. ت. ف. بقرار من جامعة الدول العربية ومؤتمر قمتها ؟ ان هناك رأيا شاع طويلا يقول ان المنظمة كانت نتاجا لسياسة القمة وواحدة من مؤسسات الجامعة. بل يذهب هذا الرأي الى ابعد من ذلك فيدعي ان قيام المنظمة كان حركة التفافية على الجماهير الفلسطينية قامت بها الانظمة العربية قاصدة تطويق الجماهير واجهاض حركتها الثورية بتقديم بديل رسمي تتجمد به او من خلاله هذه الحركة وتتلهى عن تنمية ذاتها . ويتطرف بعض هذا الرأي ويتجاهل احيانا وقائع التاريخ فيقول « ان هذه المنظمة انشئت في مرحلة بداية العمل الفدائي في اواخر العام ١٩٦٤ ، وذلك لمنع التفاف الجماهير حول ذلك العمل التاريخي وتحويله الى ثورة تحريرية عارمة ... وكان المطلوب من المنظمة التي تفتقت عنها عبقرية الانظمة العربية ان تقف بوجه العمل الفدائي »(٢٧). ان ما نريد ان نثبته هنا ، من خلال ما توفر لدينا من معطيات ، موضوعة ذات شقين الاول ان المنظمة لم تنشأ بقرار من جامعة الدول العربية والشق الثاني ان **فكرة** المنظمة كمجسدة للكيان الفلسطيني وجدت لدى طرحها استجابة واسعة في صفوف الفلسطينيين وتقبلا منهم . لكن ذلك لا ينفي ان ضعف التنظيمات السياسية الشعبية الفلسطينية في ذلك الوقت قد افقد المنظمة قدرا كبيرا من الفعالية وحرية الحركة .

لقد لاحظت ليلى القاضي بحق ان ما جاء في بيان القمة الاولى حول تنظيم الشعب الفلسطيني انما كان موافقة على قرار سابق كان قد اتخذه مجلس الجامعة في دور انعقاده الاربعين ١٩٦٣/٩/١٥ الذي أوكل الى الشقيري مهمة الاتصال مع الشعب الفلسطيني والحكومات العربية لاعادة تنظيم الشعب الفلسطيني(٢٨) ويتأكد هذا الامر في صيغة القرار الذي اتخذته القمة الاولى في هذا الشأن فهو يطلب من الشقيري « الاستمرار » في مهمته . وكما اشرنا في موضع سابق ابتدأت الجامعة العربية في بحث تنظيم الشعب الفلسطيني في العام ١٩٥٩ ، غير ان ايا من قرارات الجامعة لم ينفذ منذ ذاك . فيحق لنا ان نستنتج اذن أن قرار القمة العربية بتنظيم الشعب الفلسطيني كان لا بد أن يلاقي المصير نفسه الذي لاقته القرارات السابقة المماثلة التي اتخذتها الجامعة العربية لولا عوامل سنتعرض لها بعد قليل . ويقوى هذا الاستنتاج أن موضوع الكيان الفلسطيني وتنظيم شعب فلسطين لم يكن مطروحا بشكل جدي أمام مؤتمر القمة ونستطيع أن ندعي ان هذا الامر ظل هامشيا في ذلك المؤتمر :

١ — ان الدعوة التي وجهها الرئيس الراحل جمال عبدالناصر الى عقد مؤتمر للقمة العربية في خطاب ألقاه في بورسعيد في ٦٣/١٢/٢٣ قصدت الى بحث تحويل اسرائيل لمجرى نهر الاردن ومواجهة التحويل . فقد أكد عبدالناصر انه « حتى نجابه اسرائيل اللي تحدتنا الجمعة اللي فاتت واللي رئيس اركان حربها وقف وقال ان احنا حنحول المية غصب عن العرب ، باقول لا بد ان يتم اجتماع للملوك والرؤساء العرب في أسرع وقت »(٢٩). وقد تأكد هذا القصد في المذكرة التي قدمتها وزارة خارجية ج.ع.م. الى الدول الاعضاء في الجامعة العربية ، فقد جاء في هذه المذكرة « ان الجزء الاخير من هذا الخطاب [خطاب عبدالناصر المشار اليه] قد حوى الدعوة الى اجتماع رؤساء الدول العربية لبحث الموقف الذي ينبغي ان تواجه به المؤامرة الاسرائيلية لتحويل مجرى الاردن »(٣٠). وقد اعطيت الافضلية في جدول اعمال مؤتمر القمة للوسائل التي ينبغي

اللجوء اليها لمنع اسرائيل من تحويل مياه الاردن لمصلحتها(٣١).

٢ ـ اذن فان قضية فلسطين او شعب فلسطين لم تكن هـم المؤتمر الاول ، ووفقا للشقيري نستطيع ان نستخلص ان بحث موضوع الكيان الفلسطيني لم يكن مقصودا لذاته في اجتماعات القمة فالجلسة التي بحث فيها هذا الموضوع كانت جلسة العمل الاولى في وقت لم تكن قد نضجت فيه المحادثات او تم فيه اي اتفاق . يقول الشقيري « في هذه الجلسة لم يكن عند الملوك والرؤساء ما يبحثونه . . . وازاء ذلك لم يجد الرئيس العراقي المشير عبد السلام عارف (الذي كان رئيسا للمؤتمر) بدا من ان يقول اذن نبحث قضية فلسطين ولنستمع الى ممثل فلسطين »(٣٢).

٣ ـ ومع هذا البحث ، فان الملوك والرؤساء العرب لم يكونوا متفقين على ماهية الكيان الفلسطيني وطبيعته واهدافه . فمن خلال النقاش الذي دار في المؤتمر ظهر ان بعض المجتمعين كان يرفض الكيان فقد أصر الملك حسين على الا تظهر في القرار كلمة الكيان الفلسطيني ، والبعض الاخر لا يرى فائدة للكيان بدون ارض وانه يجب اعطاء الضفة الغربية وقطاع غزة الى الكيان الفلسطيني (الرئيس السوري امين الحافظ) وآخر يريد انشاء حكومة لفلسطين (الملك سعود)(٣٣) كما ان الرئيسين الحبيب بورقيبة واحمد بن بيللا تقدما بمشروع لانشاء جبهة تحرير وطنية(٣٤) اما ج.ع.م. فقد كانت تريد ان يكون الكيان منبرا اعلاميا فقط(٣٥).

وقد تكرست هذه المواقف فيما بعد عندما بدأ الشقيري اتصالاته لانشاء المنظمة ثم بعد قيامها مباشرة . فعشية انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني صرح فيصل بن عبد العزيز ، رئيس وزراء السعودية آنذاك ، لصحيفة « البلاد » في جدة بأن « كل عربي ومسلم يريد الكيان الفلسطيني ولكن على ان لا يفرض واحد على هذا الكيان . ليجتمع الفلسطينيون في كل قطر يكونون فيه ولينتخبوا ممثلين منهم وتشكل من المثلين هيئة تنتخب من بينها هيئة تنفيذية وهذه تدعى الكيان الفلسطيني »(٣٦). وصبيحة المؤتمر المذكور كتبت صحيفة « البعث » السورية تقول « اننا ونحن نرحب بكل لقاء يتم بين ابناء فلسطين نود ان ننبه الى خطورة النتائج التي تنجم عن كل محاولة تستهدف تحويل لقاء القدس الى مجلس وطني او صيغة نهائية للكيان . لقد قرر الرؤساء والملوك العرب تكليف السيد الشقيري بمهمة استطلاع الاراء المختلفة لابناء فلسطين والحكومات العربية حول افضل الوسائل لابراز الكيان الفلسطيني ليقوم برفعها الى مؤتمر القمة العربي في شهر آب القادم ، ولذلك فاننا نرحب بلقاء القدس كفرصة تتيح للسيد الشقيري أن يعرض آراء عدد من الفلسطينيين يجب أن تعرض على مؤتمر القمة المقبل »(٣٧). وفي اجتماع لجنة متابعة مقررات القمة في ١٩٦٤/٦/١٥ ، اي بعد قيام المنظمة ، عارض طاهر رضوان ، المندوب السعودي في اللجنة المذكورة ، مقررات المؤتمر الفلسطيني في القدس وانشاء كيان فلسطين ، كذلك عارض منصور الاطرش ، المندوب السوري في اللجنة ، مقررات مؤتمر القدس واتهم الشقيري بتجاوز السلطات التي خوله اياها مؤتمر القمة العربي(٣٨). وفي اثناء مؤتمر القمة الثاني استمرت المعارضة السورية ففي مذكرة الوفد السوري الى المؤتمر والمؤرخة في ١٩٦٤/٩/١٠ نقرأ « لا بد لحركة التحرير النضالية ان تقوم على حيز مكاني معين لا تشغله الا الاستعدادات الفعلية لمعركة التحرير وان يكون لهذه الحركة سلطة مدنية قائمة وقوة عسكرية منظمة للعمل في اللحظة الحاسمة. ان الارض والجيش والسلطة أسس ثلاثة لظهور حـركة التحرير كمنظمة جديدة من لحـم ودم وارادة نضال »(٣٩) ولقد تعمدنا اختيار موقف العربية السعودية وموقف سوريه من جملـة مواقف الدول العربية لانهما كانا يمثلان سياسيا طرفي نقيض ، فأولاهما موغلة في مواقفها السلبية العربية والثانية متصلبة في تصديها للقضايا العربية .

٤ ـ نتيجة لهذه المواقف المتناقضة فان مؤتمر القمة لـم يكلف الشقيري بانشاء كيان

فلسطيني او اقامة منظمة فلسطينية ويلاحظ ان قرار المؤتمر وبيانه لم يتضمنا تعبير الكيان الفلسطيني ، والشقيري نفسه يقر بأنه «تجاوز» المهمة التي أوكلت اليه فيقول «قرار الملوك لم يخولني انشاء الكيان الفلسطيني اطلاقا ... وكانت مهمتي في الواقع الاتصال والدرس ومن ثم تقديم تقرير الى مؤتمر القمة الثاني المزمع عقده في الاسكندرية في شهر آب ١٩٦٤ ، ولكني خشيت ان انفذ هذا القرار فقد كانت آراء الدول العربية متباينة بشأن كيفية تشكيل الكيان الفلسطيني واختصاصاته وكانت آراء التجمعات الفلسطينية متباينة كذلك .... وكان المفروض ان ابرز هذه التناقضات في تقرير اقدمه الى الملوك والرؤساء في اجتماعهم في الاسكندرية وانا اعلم ان مصير هذا التقرير هو احالة الموضوع الى الحكومات العربية مرة اخرى لمزيد من الدرس كما كان الحال لسنين عديدة مضت ... ولهذا فقد عزمت ان اضع الحكومات العربية والشعب الفلسطيني أمام الامر الواقع فأدعو الى مجلس وطني ... لينظر في الميثاق والنظام الاساسي ويعلن قيام م. ت. ف. وتشترك بعد ذلك في مؤتمر الملوك والرؤساء باسم م. ت. ف. لا تحت اسم ممثل فلسطين في الجامعة العربية »(٤٠) .

وهناك حدث اعقب قيام المنظمة ببضعة عشر يوما يعضد ما ذهبنا اليه من أن المنظمة لم تنشأ بقرار من مؤتمر القمة وانما كان اعتراف القمة الثانية بها تكريسا لواقع اصبح موجودا . فقد وجهت الجامعة العربية دعوة رسمية الى م. ت. ف. للاشتراك في الاجتماع الذي عقد يوم ١٩٦٤/٦/١٧ في دمشق داخل نطاق الجامعة لبحث شؤون اقامة اللاجئين في الدول العربية وقد رئس هذا الاجتماع سيد نوفل ، الامين العام المساعد للجامعة ، وحضره بالاضافة الى المنظمة ممثلون عن مصر وسوريه ولبنان والاردن(٤١) وقد كان حضور المنظمة ذلك الاجتماع أول اعتراف رسمي بها من قبل الجامعة العربية .

واذا كانت جامعة الدول العربية لم تنشىء هي المنظمة فمن الذي انشأها اذن ؟ ان الشيء الثابت لدينا ان فكرة بعث الكيان الفلسطيني في أوائل الستينات لم تكن غريبة عن الاوساط الفلسطينية بل كانت تتفاعل بينهم وان كانت ليست عالية النبرة . وقد سبق وعرضنا ما طرحته مجلة « فلسطيننا » من دعوة حثيثة لابراز الكيان الفلسطيني . وفي الفترة التي نتحدث عنها كانت ترتصف على الساحة الفلسطينية سبع وثلاثون منظمة فلسطينية ، سرية وعلنية ، صغيرة وكبيرة ، عاطفية وعلمية ، منظمة وفوضوية تتوزع في البلاد العربية كلها(٤٢) . وان كان لهذا الامر من معنى فهو علامة واضحة على ان الفلسطينيين كانوا يبحثون عن ذاتهم ، عن شخصيتهم المستقلة ، عن ابراز كيان وطني فاعل مؤثر في الاحداث . ويتأكد هذا الامر في أن مسألة تنظيم الشعب الفلسطيني التي ابتدأ الشقيري البحث فيها اثر مؤتمر القمة الاول وجدت استجابة عريضة في صفوف الفلسطينيين واعتبرت بادرة ايجابية . فقد اعتبر الاتحاد العام لطلبة فلسطين في بيان سياسي اصدره في غزة في ١٩٦٤/٢/٢٧ « ان التزام الدول العربية في مؤتمر الذروة بتحقيق فكرة الكيان نقطة بداية يجدر بالثوريين الفلسطينيين ان ينطلقوا منها » . كما أصدر المكتب السياسي للقوى الثورية الفلسطينية للعمل الموحد [يضم جبهة التحرير الفلسطينية « ج. ت. ف. » ، الجبهة الثورية لتحرير فلسطين ، جبهة التحرير الوطني الفلسطينية ، تكتل الفدائيين الفلسطينيين ، جبهة التحرير العربية لفلسطين ، المنظمة القومية للتحرير] اصدر بيانا في ١٩٦٤/٥/٢٤ اكد فيه انه « لا بد من وجود كيان فلسطيني ثوري يكون طريق التحرير ويتولى قيادة العمل الفلسطيني نحو التحرير »(٤٤) . وفي ٦٤/٣/١٥ صدر بيان مشترك في بيروت عن حركة القوميين العرب واتحاد طلاب فلسطين وجبهة التحرير الفلسطينية — طريق العودة شرح تصور هذه المنظمات للكيان الفلسطيني وأكد أن تنظيم الشعب الفلسطيني لتأدية دوره امر تحتمه طبيعة المعركة

القادمة(٤٥). واعتبرت حركة القوميين العرب ان « مقررات مؤتمر الذروة المختصة بالكيان الفلسطيني تفتح الباب امام فرصة جديدة للنضال في سبيل العودة ولترفع مستوى هذا النضال الى مرحلة جديدة وكان موقف العناصر والقوى الثورية الفلسطينية موقفا ايجابيا رمى بثقله نحو العمل على انجاح مشروع الكيان والخروج به الى صيغة ثورية تستطيع ان تكون في مستوى المطامح الفلسطينية »(٤٦). واعتبر الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني قرارات القمة العربية « فرصة تاريخية متاحة لشعب فلسطين لتنظيم كيانه »(٤٧). وكانت جبهة التحرير الفلسطينية قد اصدرت في ١٩٦٤/١/١٠ بيانا في مناسبة انعقاد القمة الاولى طالبت فيه بالاعتراف بالشخصية الفلسطينية وبحق الشعب الفلسطيني بأن يكون طليعة العمل الثوري المسلح لاسترداد الوطن السليب(٤٨).

تعمدنا ذكر هذه الامثلة المطولة بقصد اظهار هذا التيار الذي اخذ يتصاعد منذ اوائل الستينات ويدعو الى ابراز الشخصية الفلسطينية. وقد كان خلف ذلك التيار عدة روافد ابرزها في تقديرنا خيبة الامل العظيمة التي حملها معه الانفصال بين اقليمي ج.ع.م. في العام ١٩٦١ للفلسطينيين. فقد كانت وحدة الاقليمين، كحد ادنى، والوحدة العربية الشاملة كهدف منشود، وما ينتج عن ذلك من اقامة جيش قوي موحد، اساسا بنى عليه الفلسطينيون آمالهم واحلامهم في تحرير وطنهم. وبالانفصال انتاب الشك الجماهير الفلسطينية في جدوى انتظار الوحدة. وهكذا بدأ البحث عن عمل فلسطيني ذي شخصية مستقلة يتعامل من خلاله الشعب الفلسطيني مع قضيته مباشرة ودون توسط. وقد عزز هذا الاتجاه نحو « الفلسطينية » الخلافات التي كانت تستحكم في العالم العربي، ففي نهاية العام ١٩٦٣ كانت جميع الدول الاعضاء في الجامعة العربية ـ باستثناء لبنان والكويت والسودان وليبيه ـ يمسك بعضها بخناق البعض الاخر(٤٩) وقد زاد هذا الخلاف الفلسطينيين اقتناعا بأن اعتمادهم على هذه الدول المتصارعة لن يخدم قضيتهم. وجاء انتصار ثورة الجزائر في العام ١٩٦٢ ونيلها استقلالها من فرنسه قولا فصلا في هذا الموضوع برهن عمليا على ان شعبا ممسكا بزمام قضيته بيديه قادر على تحقيق مطامحه الوطنية.

ورغم ان هذا التيار الرامي الى بعث الكيان الفلسطيني وتأكيد الشخصية الفلسطينية في العمل الوطني كان اخذا في التصاعد، الا انه لم يكن مبلورا في مفاهيم واضحة وتصورات محددة، وان اي استعراض للنقاش* الذي دار حول الكيان الفلسطيني الذي ابتدأ مع

---

* كان ذلك النقاش يجري من خلال البيانات التي اصدرتها القوى السياسة والاتحادات الفلسطينية. وقد اشرنا قبل قليل الى نماذج منها ونذكر ايضا بيان جبهة التحرير الفلسطينية (نشرته الحوادث في ١٩٦٤/٥/٨) وبيان حركة الشباب العربي الفلسطيني في لبنان في ١٩٦٤/٣/٢٤ (الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية للعام ١٩٦٤) وبيان الهيئة العربية العليا حول الكيان الفلسطيني في ١٩٦٤/٢/٢٤ (المصدر نفسه) ومشروع القيادة القومية لحزب البعث في سورية حول الكيان الفلسطيني في ١٩٦٤/٥/٢٠ (الوثائق العربية، نيسان ـ حزيران ١٩٦٤ ـ الجامعة الاميركية في بيروت، ص ٢٤٠، ٢٤١). كما اتخذ هذا النقاش صياغة الاجتماعات والاتصالات التي كان يقيمها الشقيري، وقد كتب غسان كنفاني في المحرر (٦٤/٤/٦٠) ان « الشقيري بدأ في بيروت اتصالاته على صعيدين : الصعيد الاول هو صعيد الخلية الاجتماعية حيث كان يصرف ساعات كثيرة في الاتصال المباشر بوفود الفلسطينيين القادمين من مختلف المخيمات والطبقات، يستمع اليهم ويخطب فيهم ويحدد مفهوم الكيان الذي يريد ويستمع منهم الى مفهوم الكيان الذي يريدون. اما الصعيد الثاني فكان صعيد المناقشات والمباحثات مع ما صار يعرف بأنه القوى الثورية، التي اتصل بها الشقيري ... انها مجموعات المنظمات السرية والعلنية والمنظمات النقابية ومجموعة من المثقفين المستقلين المختصين بالقضية الفلسطينية ». وقد اكد الشقيري (في مقابلة خاصة في ٧٢/٥/١١) ان هذه القوى التي اشار اليها كنفاني هي في الاساس فتح وحركة القوميين العرب وجبهة التحرير الفلسطينية.

جولة الشقيري في العالم العربي يظهر لنا انه بمقدار ما كان هناك تأكيد على ضرورة بعث الكيان الفلسطيني كان هناك في المقابل غموض في كيفية أبرازه وفي التعرف على شكله العتيد . لقد كان جوهر النقاش هو التساؤل والبحث عن كيفية انشاء المؤسسات المعبرة عن الكيان وعن كيفية اداء هذه المؤسسات لمهماتها ـ بختلف ابعادها ـ .

وما نلاحظه هنا ان الشقيري كان قد طرح تصورات معينة لكيفية انشاء هذه المؤسسات المعبرة عن الكيان قبل أن يصبح ممثلاً لفلسطين في الجامعة العربية . فهو قد عرض على لجنة الخبراء في الجامعة في تموز ١٩٦٢ مشروعاً للكيان الفلسطيني يقوم على اساس الدعوة لمجلس وطني يمثل التجمعات الفلسطينية ، تنبثق عنه جبهة وطنية لقيادة الشعب الفلسطيني تكون لها اختصاصات عسكرية وسياسية وتنظيمية واعلامية ومالية وتحدد صلتها بالجامعة العربية(٥٠). ولدى تعيينه ممثلا لفلسطين في الجامعة اوضح تصوره للكيان فخاطب الدورة الاربعين لمجلس الجامعة بقوله « لقد قيل ان الكيان الفلسطيني يهدف الى غرضين أولهما سلخ الضفة الغربية واقامة حكومة فلسطينية ، وثانيهما ان تتخلى الدول العربية عن قضية فلسطين ، وكلا الامرين باطل من اساسه ... الكيان الفلسطيني يهدف الى ان يصبح اهل فلسطين قوة وطنيـــة عاملة تسهم فـــي تحرير فلسطين »(٥١). وبعد ان كلفه مؤتمر القمة الاول مهمة الاتصال بالشعب الفلسطيني أوضح الشقيري « بصورة قاطعة ان تنظيم الشعب الفلسطيني لا بد ان يعبر عن ارادة الشعب الفلسطيني وان تنضوي تحت لوائه كل المنظمات والهيئات الفلسطينية وان يكون مفتوحا امام المواطنين جميعا »(٥٢). وكان الهيكل العام للكيان كما فكر فيه الشقيري هو « مجلس وطني يمثل الجمعيات الفلسطينية ، تنبثق عنه لجنة تنفيذية تقـــود النضال الفلسطيني وكتائب فلسطينية تجسد النشاط العسكري الفلسطيني وصندوق قومـــي لتمويل الحركة الفلسطينية ومكاتب في العواصم العربية وجهاز اعلامي للدعوة للقضية الفلسطينية »(٥٣). وهو هيكل تحقق تفصيلا في م. ت. ف.

بهذا التصور المعين للمؤسسات المعبرة عن الكيان ، قام الشقيري بدور مباشر في اخراجه الى حيز الوجود . ولسنا هنا في صدد تقييم شخصية الشقيري فان الحكم له او عليه يخرج عن نطاق بحثنا ، ولكن بحكم مـــا توفر لدينا مـــن معطيات وبحكم التجـــارب السابقة التي مرت بها الجامعة العربية متخذة قرارات كادت ان تكون دورية تدعو الى تنظيم الشعب الفلسطيني ، يحق للباحث ان يستنتج ان قرار الملوك والرؤساء العرب بهذا الشأن كان لا بد ان يواجه ما واجهته القرارات المماثلة السابقة من حفظ في الملفات لو لم يستطع الشقيري ان « يستغل » الرخصة التي اعطيها من القمـــة الاولى ويجسد فكرته عن الكيان ، متجاوزا الصلاحيات التي عهد بها اليه الملوك والرؤساء واضعا هؤلاء في قمتهم الثانية امام امر واقع جديد سلمـــوا به . وقد سهل مهمة الشقـــيري في خلق المؤسسة المعبرة عن الكيان ودفع بها الى الامام ذلك التيار الذي اشرنا اليه والذي كان يتقبل فكرة انبعاث الكيان الفلسطيني ويدعو اليـــه بحيث خلق ارادة فلسطينيـــة عامة تجسمت تنظيميا في قيام م.ت.ف. كما ان القاهرة التي كانت حينذاك تمسك بيديها زمام العمل القومي العربي هيأت السبل أمام انبثاق الكيان « فقد كانت ج.ع.م. راغبة في انشاء الكيان اليوم قبل الغد » كما يقول الشقيري نفسه في كتابه من القمة الى الهزيمة (ص ٦٢) . وربما بسبب هذا التصور المعين للمؤسسات المعبرة عن الكيان الفلسطيني عانت المنظمة في فترة تأسيسها من افتقاد العلاقة التنظيمية بالجماهير الفلسطينية .

شرعية تمثيل م.ت.ف. للشعب الفلسطيني

محوران يقودان الى اقرار شرعية تمثيل المنظمة للشعب الفلسطيني الاول الاعتـــراف

الرسمي بها والثاني اعتراف الشعب الفلسطيني بأنها ممثلة وحيدة لارادته وناطقة باسمه .

اما الاعتراف الرسمي بها فقد جاء عربيا بعد قيام المنظمة مباشرة عندما تمثلت م.ت.ف. (كما اشرنا في موضع سابق) في الاجتماع الذي عقد في دمشق لبحث شؤون اقامة اللاجئين الفلسطينيين في اطار الجامعة العربية بتاريخ ١٩٦٤/٦/١٧ . وقد تكرس هذا الاعتراف بترحيب مؤتمر القمة الثاني بقيام المنظمة . ومنذ ذلك التاريخ (أيلول ١٩٦٤) بدأت المنظمة تشارك في اعمال الجامعة العربية على مختلف مستوياتها بما فيها مؤتمرات القمة بصفتها ممثلة للشعب الفلسطيني .

ان هذا الاعتراف من قبل الجامعة العربية يضع المنظمة على قدم المساواة مع اي كيان عربي اخر ويعطيها على صعيد عربي حق النطق باسم الشعب الفلسطيني ويخولها مسؤولية الاشراف على حركته ما دام الاعتراف بالمنظمة يتضمن الاعتراف بميثاقها ، الذي هو بمثابة الدستور في الدولة ، والذي ينص على ان المنظمة مسؤولة عن حركة الشعب الفلسطيني . وقد كان الاعتراف العربي بمسؤولية المنظمة عن حركة الشعب الفلسطيني يتوطد اثر كل أزمة كانت تمر بالمنظمة نفسها او بالمقاومة الفلسطينية . والازمات التي نعني هي التي كانت نتيجة نزاع بين المنظمة والمقاومة من جهة وبعض الانظمة العربية من جهة اخرى . وابرز مثلين على هذا الموضوع الازمات التي مرت بها المنظمة او المقاومة في كل من الاردن ولبنان وسنشير فيما يلي الى بعضها مهتمين بشكل خاص بجانب واحد هو قضية الاعتراف هذه .

لقد وقف الاردن منذ البداية موقفا معارضا لابراز الكيان الفلسطيني واحياء الشخصية الفلسطينية المستقلة . لذلك فقد كان امرا منسجما مع سياسة النظام الاردني العامة ان يضع العراقيل امام عجلة المنظمة ويعيق نشاطها في الساحة الاردنية . وقد وصل الامر في اوائل العام ١٩٦٦ الى شل كل نشاط فعلي للمنظمة بين الجماهير الفلسطينية في الاردن مما استتبع تفجر صراع سياسي واعلامي بين المنظمة والحكم الاردني . وقد كان نتيجة ذلك الصراع ان توصلت المنظمة الى عقد اتفاق مع الحكومة الاردنية اقر للمنظمة بحقها في الاشراف على حركة الشعب الفلسطيني في الاردن . وقد وقع هذا الاتفاق في القاهرة في الاول من اذار ١٩٦٦ في نهاية مباحثات بدأت في ١٩٦٦/٢/٢١ بين وفد من المنظمة برئاسة احمد الشقيري ووفد حكومي اردني برئاسة عبد الوهاب المجالي . وقد اقر هذا الاتفاق بأن « الموضوعات المتعلقة بمهمات المنظمة هي التجنيد الاجباري وكتائب جيش التحرير ومعسكرات التدريب الشعبي ومعسكرات الشباب والخطوط الامامية والتنظيم الشعبي والانتخابات وحرية الانتقال والسفر والتوجيه والاعلام والجباية الشعبية وضريبة التحرير »(٥٤).

ونموذج اخر من تكريس مسؤولية المنظمة عن حركة الشعب الفلسطيني ذلك الذي تضمنه اتفاق عمان في ١٩٧٠/١٠/١٣ في اعقاب مجازر ايلول . فقد نص هذا الاتفاق على ان « الشعب الفلسطيني وحده متمثلا في الثورة الفلسطينية هو صاحب الحق في تقرير مصيره (وان) اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية هي المسيطرة والملتزمة والمسؤولة عن الثورة الفلسطينية سياسيا وعسكريا وفي كل الميادين الاخرى »(٥٥) واذا كان النظام الاردني قد مزق فيما بعد اتفاقية عمان بالاضافة الى اتفاقية القاهرة فان الذي يعنينا في هذه الاتفاقية انها أول وثيقة عربية تعتمد رسميا تربط بين الموضوعات التالية : الشعب الفلسطيني ــ الثورة الفلسطينية ــ منظمة التحرير الفلسطينية ــ حق تقرير المصير . ونرى ان هذا الربط ليس مخاطبا به الأردن فحسب وان كانت اتفاقية عمان قد عقدت في الاساس لتنظيم العلاقة بين المقاومة والنظام الاردني ، وانما يمتد اثره

عربيا ليشكل اساسا جديدا يحق للمنظمة ان تنطلق منه في التمسك بحقها في تمثيل الشعب الفلسطيني والنطق باسمه وبانها الجهة الوحيدة التي لها حق تقرير مصيره .

وهذا الافق العربي لاتفاقية عمان نستخلصه من الحيثيات التالية : ان هذه الاتفاقية عقدت استنادا الى اتفاقية القاهرة في ١٩٧٠/٩/٢٧ والاتفاقيتان تقرءان معا بحيث تعتبر اتفاقية عمان وثيقة تفصيلية لاتفاقية القاهرة التي هي في حقيقتها وبحسب المؤتمر الذي كانت الاتفاقية نتاجا له والتوقيعات التي حملتها ، اتفاقية بين عدد من رؤساء الدول العربية بالاضافة الى رئيس م. ت. ف. والملك حسين . ومن هنا فان اي نص في هذه الاتفاقية يلزم موقعيها بقدر متساو من المسؤولية تجاه جميع الموضوعات التي وردت فيها وكذلك الامر بالنسبة لاتفاقية عمان التي هي تكملة تفصيلية ، كما اشرنا لاتفاقية القاهرة . ويؤكد هذا الامر الاخير ان اتفاقية عمان جرى التوقيع عليها من قبل الباهي الادغم رئيس اللجنة العربية العليا للمتابعة التي تشكلت بقرار من رؤساء الدول العربية حسب اتفاقية القاهرة (المواد من ٦ — ١١ من الاتفاقية تبين كيفية تشكيل اللجنة ومهماتها وتسمية اعضائها)(٥٦) وقد طلبت اتفاقية القاهرة (المادة ٨) ان تقوم لجنة المتابعة باعداد وابرام اتفاق اسفر عن اتفاقية عمان . وقد جرى في اكثر من مناسبة تأكيد الدول العربية لالتزامها باتفاقيتي القاهرة وعمان (ما يهمنا هنا الربط بين الموضوعات الاربع التي اشرنا اليها) . فاثناء مفاوضات جدة بين م. ت. ف. والحكومة الاردنية كانت لجنة الوساطة السعودية — المصرية تنطلق في مساعيها من ورقة عمل مصرية — سعودية اقرت في ١٩٧١/٨/٨ في اجتماع عقد في القاهرة بين الرئيس انور السادات والسيد عمر السقاف،وزير الدولة السعودي للشؤون الخارجية. وكان اساس ورقة العمل هذه الالتزام باتفاقيتي القاهرة وعمان(٥٧) كما ان مؤتمر القمة العربي الطارىء الذي انهى اجتماعاته في ليبيه في ١٩٧١/٧/٣١ اكد في بيانه الختامي تمسكه بالاتفاقيتين ودعمه لكل عمل من شأنه تنفيذهما(٥٨).

واذا تأكد مثل هذا الاعتراف العربي بالمنظمة من خلال علاقاتها مع الاردن فسوف نمر بنموذج اخر من خلال علاقات العمل الفلسطيني بلبنان . لقد كان اعتراف الحكومة اللبنانية رسميا بالمنظمة استنادا الى جلسة عقدها مجلس الوزراء في تشرين الثاني ١٩٦٤ عندما وافق على فتح مكتب للمنظمة في لبنان « ومعاملة مديره المسؤول معاملة الممثلين الدبلوماسيين ومنحه الاعفاءات والحصانات التي يتمتع بها اعضاء السلك الدبلوماسي الاجنبي في لبنان » وجاء في حيثيات هذه الموافقة « ان مجلس رؤساء الدول العربية قد قرر في اجتماعه الاول المنعقد في القاهرة في شهر كانون الثاني ١٩٦٤ الاعتراف بالسيد احمد الشقيري ممثلا لفلسطين لدى جامعة الدول العربية وقرر في اجتماعه الثاني المنعقد في الاسكندرية في شهر ايلول ١٩٦٤ الاعتراف بـ م. ت. ف. واعتمادها ممثلة لشعب فلسطين »(٥٩) غير ان هذا التمثيل الدبلوماسي قد توطد فعلا واتخذ له مدلولا اكثر شمولا في اتفاقية القاهرة التي عقدت بين م. ت.ف. والحكومة اللبنانية في ١٩٦٩/١١/٣(٦٠) فقراءة نصوص هذه الاتفاقية تؤكد ان المنظمة ليست مسؤولة فقط عن ثورة الشعب الفلسطيني وانما هي ايضا تمثل مصالحه الحياتية وتكتسب حق رعاية هذه المصالح . فبالاضافة الى الامور العسكرية « تم الاتفاق على اعادة تنظيم الوجود الفلسطيني على اساس : ١ — حق العمل والاقامة والتنقل للفلسطينيين حاليا في لبنان ٢ — انشاء لجان محلية من الفلسطينيين في المخيمات لرعاية مصالح الفلسطينيين المقيمين فيها ... » .

هذا الاعتراف الرسمي العربي (الذي اكتسبته المنظمة) بحقها في تمثيل الشعب الفلسطيني ورعاية مصالحه كان يماشيه اعتراف عالمي ظهرت بوادره في مؤتمر دول عدم الانحياز الذي افتتح في القاهرة في ١٩٦٤/١٠/٥ . فقد كانت لجنة سفراء دول عدم

الانحياز قد قررت في ١٩٦٤/٩/٢٠ ان تكون م. ت. ف. ممثلة كمراقب في اجتماعات المؤتمر على ان تتولى ج. ع. م. بوصفها الدولة الداعية للمؤتمر توجيه الدعوة. وكان حضور المنظمة لذلك المؤتمر اول إعتراف عالمي بها(٦١).

وقد تكرر هذا الاعتراف بصيغ اخرى أبرزها على صعيد عالمي تمثيل المنظمة للشعب الفلسطيني في المؤتمر الرابع لمنظمة تضامن الشعوب الافريقية ــ الاسيوية الذي عقد في ويلبا في غانا في الفترة من ٩ ــ ١٦ ايار (مايو) ١٩٦٥ حيث اعتبر المؤتمر م. ت. ف. ممثلة للشعب الفلسطيني في منظمة التضامن. وقد شغلت المنظمة عضوية سكرتاريـة منظمة التضامن اعتبارا من ١٩٧٠/١١/٩ بقرار من المجلس التاسـع لمنظمة التضامن الذي عقد في طرابلس في التاريخ المذكور. وعلى صعيد اخر قرر مجلس السلم العالمي في رسالة وجهها الى المنظمة في ١٩٦٦/٢/١٥ اعتبار فلسطين عضوا فيه ومنذ ذلك التاريخ تمثل المنظمة الشعب الفلسطيني في جميع مؤتمرات هذا المجلس واجتماعاته(٦٢).

غير ان هذا الاعتراف الرسمي بشرعية تمثيل المنظمة للشعب الفلسطيني، على صعيد عربي واخر عالمي، يظل غير ذي اهمية ان لم يكن الاساس فيه ان الشعب الفلسطيني هو الذي يمنح المنظمة حق تمثيله والنطق باسمه. وبدون هذا الشرط الاساس تظل اية جهة قادرة على منازعة المنظمة هذا الحق وانتزاعه منها. فالى اي مدى اقر الشعب الفلسطيني للمنظمة بحق تمثيله ؟

نشير في البداية الى ان الاسس التي قامت عليها المنظمة كما حددها ميثاقهـا هي « ان فلسطين وطن الشعب العربي الفلسطيني ... وان هـذا الشعب هو صاحب الحق الشرعي في وطنه ... وان تحرير فلسطين يعيد الى الانسان الفلسطيني كرامته وعزته وحريته ... وان الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين ... وان الشعب الفلسطيني هو صاحب الحق الاول والاصيل في تحرير واسترداد وطنه » كما جـاء في المواد ١، ٣، ١٧، ٩، ٢٩ من الميثاق الوطني الفلسطيني. وان اي نظرة شمولية الى تاريخ نضال الشعب الفلسطيني تثبت ان هذه المبادىء الاساسية هي تجسيد للأمـاني الوطنية لهذا الشعب وتعبير عن ارادته وبلورة لمسار حركته الوطنية.

وكون هذه المبادىء التي طرحتها المنظمة تعبر عن ارادة الشعب الفلسطيني استتبع ان تقر جماهير الشعب للمنظمة بحق تمثيلها والنطق باسمها. غير ان علينا هنا ان نستدرك ونوضح مفهومنا لكلمة جماهير. فاننا نعني بهذا التعبير القوى المنظمة الفاعلة المنبثقة عن الجماهير نفسها والقادرة على التعبير عن مصالحها وطموحاتها وتجسيد حركتها نحو اهدافها. وان كل حديث يتناول الجماهير بتجريد ويسقط من حسابه هذه القوى المنظمة يظل حديثا غير مبني على اساس. فالجماهير العريضة غـير المنظمة تبقى من نـاحية عملية، خاصة في ظل التشتت الفلسطيني، غير قادرة على التعبير عن ارادتها عن غير طريق قواها المنظمة. وبسبب خضوع الفلسطينيين في شتاتهـم وفي مواقعهـم تحت الاحتلال، لارادات غريبة عنهم مختلفة متناقضة وقاهرة في الاغلب، فان تزوير ارادة هذه الجماهير العريضة، اذا عزلت عن قواها المنظمة، وتصويرها على غير حقيقتها، ليس بالامر العسير حتى ولو كان التعرف على هذه الارادة عن طريق استفتاء «شعبي».
ومن هنا نؤكد ان اعتراف الجماهير الفلسطينية بتمثيل المنظمة لها يأتي من خلال اعتراف قوى الجماهير المنظمة الفاعلة بهذا التمثيل. وبطبيعة الحال، فان هذا لا ينفي مطلقا ان تكون الجماهير العريضة قد اقرت بشكل او بآخر بمثل هذا الاعتراف غير ان مقاييسنا لـدى الحديث عن القوى المنظمة تكـون واضحة اكثر كمـا ان التعرف عـلى آرائها

واتجاهاتها يكون اقرب الى الدقة*. وقوى الشعب الفلسطيني المنظمة التي نعنيها هنا هي : (١) الاتحادات الشعبية التي تمثل القطاعات الفئوية والمهنية من الشعب والتي هي مراكز تجمع استقطابي للعناصر النشطة الفاعلة من قطاعات العمال والطلاب والمرأة والمعلمين والكتاب والصحفيين وذوي المهن الطبية والحقوقيين والفنانين والرياضيين ، و (٢) منظمات المقاومة التي تجسد حركة الشعب السياسية والقتالية .

لقد اعتبرت الاتحادات الشعبية م. ت. ف. ممثلة للكيان الفلسطيني ، والانظمة الداخلية للاتحادات تنص على انها قاعدة من قواعد المنظمة بتعبير ومن قواعد الثورة بتعبير اخر (والصيغتان تؤديان الى المعنى الواحد طالما فصائل الثورة تعتبر م. ت. ف. الاطار الذي يضم القوى الثورية) . وسنذكر فيما يلي امثلة على مواقف الاتحادات من المنظمة اخترناها في ازمنة متفاوتة بقصد اظهار أن هذه الاتحادات وتحت مختلف الظروف ظلت متمسكة باعتبار م. ت. ف. ممثلة للشعب الفلسطيني .

في ١٩٦٤/١١/٦ اصدر مؤتمر الاتحاد العام لطلبة فلسطين المنعقد في غزة قرارات اعلن فيها تأييده لقيام م. ت. ف. ودعا ابناء فلسطين الى الانضمام اليها كما قرر الاتحاد اعتبار نفسه جزءاً من المنظمة . وجاء في قرارات المؤتمر الوطني الخامس للاتحاد نفسه الذي عقد في عمان بين ١٩٦٩/٧/٣١ — ١٩٦٩/٨/٦ ان المؤتمر يقرر التأييد الكامل لـ م. ت. ف. في وضعها الجديد على اعتبار انها تمثل جبهة وطنية لكافة المقاتلين والوطنيين من أبناء الشعب الفلسطيني،والالتزام بالميثاق الوطني الفلسطيني لـ م.ت.ف. وفي المؤتمر الاول للاتحاد العام لعمال فلسطين الذي عقد في غزة في ٦٥/٤/١٤ اكد الاتحاد في قراراته ان م. ت. ف. هي الممثلة الوحيدة لشعب فلسطين والقاعدة لنضاله، كما ايد المؤتمر قرار الهيئة التنفيذية السابقة للاتحاد الذي نص على أن الاتحاد قاعدة من قواعد المنظمة . وفي ٦٧/٤/٢١ صدرت قرارات المؤتمر الثاني للاتحاد الذي عقد في القاهرة واكدت القرارات أن م. ت. ف. هي رمز للكيان الفلسطيني وقائدة النضال نحو التحرير . وفي ١٩٦٦/١٢/٢ صدر النظام الاساسي لاتحاد الكتاب الفلسطينيين وقد نصت المادة الاولى منه على ان الاتحاد جزء لا يتجزأ من م.ت.ف. وفي ١٩٦٧/٩/٩ صدر بيان عن الاتحاد العام لعمال فلسطين والاتحاد العام لطلبة فلسطين والاتحاد النسائي الفلسطيني اعتبر وجود المنظمة انتصارا على التشريد والضياع والمزايدة وانتصارا لحق الشعب الفلسطيني في الوحدة والعمل من اجل الحياة على ترابنا الغالي.

اما بالنسبة لفصائل المقاومة والقوى السياسية والقتالية المنظمة للشعب الفلسطيني فقد بدأت مشاركتها رسميا في اعمال المنظمة في المجلس الوطني الفلسطيني الرابع الذي عقد في القاهرة في الفترة من ١٠ — ١٧ تموز (يوليو) ١٩٦٨ ، غير انه اذا كان هذا التاريخ يمثل اسهام هذه الفصائل في المنظمة رسميا فاننا نستطيع ان نقول انها شاركت في اعمال

---

* نشير الى واحد من المقاييس التي تدل على موقف الجماهير العريضة من م. ت. ف. وهو مقياس رقمي محدد : لقد ذكر التقرير المالي السابع للصندوق القومي الفلسطيني المقدم الى المجلس الوطني الفلسطيني في تموز (يوليو) ١٩٧١ ان ايرادات م. ت. ف. قد بلغت خلال الفترة من ١٩٧٠/٧/١ الى ١٩٧١/٢/٢٨ مبلغ ١،٢٢٦،٥٧٧ دينارا اردنيا بالاضافة الى فوائد مقبوضة على اموال المنظمة من البنوك . وقد كان ٩٤٠٦٧٢ دينارا من اصل هذا المبلغ حصيلة ضريبة التحرير (وهي ضريبة يدفعها المواطن الفلسطيني الى المنظمة بنسبة تتراوح بين ٣ و ٦ بالمئة من دخله) ويضاف الى هذا المبلغ ٤٩٠٣ دنانير من حسميات موظفي المنظمة . ونستنتج من هذا ان نسبة ٧٣ بالمئة من ايرادات المنظمة قد تحققت من المواطنين الفلسطينيين ويضاف الى هذه النسبة جزء كبير من بابين اخرين للايرادات اوردهما التقرير وهما الجباية الموحدة في الاردن وفي الكويت التي كانت حصيلتها ٨٨٤٨٧ دينارا فجزء كبير من هذه الجباية يتأتى من المواطنين الفلسطينيين في هذين القطرين. وبذلك نستطيع أن نستخلص ان نحو ٨٠ بالمئة من ايرادات م. ت. ف. يتأتى من الفلسطينيين انفسهم .

المنظمة منذ قيامها . فقد ذكرت مذكرة لحركة فتح موجهة الى المؤتمر الثالث للرؤساء العرب في الدار البيضاء في ايلول (سبتمبر) ١٩٦٥ ما يلي « اننا حاولنا منذ البدء ان نكون ايجابيين مع المنظمة **واشتركنا في اجهزتها** كما اشترك سائر المواطنين الفلسطينيين »(٦٣) . وفي محاضرة القاها صالح شبل ، احد اعضاء حركة القوميين العرب ، في بيروت بتاريخ ٢١/٥/٦٥ قال « لم يعد سرا البادرة الايجابية التي قام بها الجهاز الفلسطيني في حركة القوميين العرب حين انخرط في صفوف المنظمة وانضوى تحت لوائها »(٦٤) . ويذكر الشقيري ان فتح وحركة القوميين العرب وجبهة التحرير الفلسطينية (ج. ت. ف) تمثلت في المجالس الوطنية التي عقدت قبل حزيران ١٩٦٧(٦٥) . غير ان هذا التمثيل للقوى الفلسطينية الذي كان الشقيري يصر على ان يكون شخصيا اكثر منه تمثيلا لقوى منظمة ، اتخذ له شكلا ارقى واكثر فعالية في المجلس الرابع ، الذي اشرنا اليه ، وهو اول مجلس وطني يعقد بعد حرب ١٩٦٧ . ولقد كانت اهمية ذلك المجلس في تقديرنا ، بالاضافة الى اشياء اخرى ، ان قوى الشعب الفلسطيني المنظمة اصبحت هي التي تمثل الشعب داخل الاطر التشريعية والتنفيذية لـ م. ت. ف. واذا كان بعض فصائل المقاومة قد تحفظ في الاشتراك ببعض المجالس الوطنية التي اعقبت المجلس الرابع (الشعبية في المجلس الخامس والسادس ، الديمقراطية في الخامس ، التحرير العربية في السابع — هي نشأت بعد المجلس السادس) فان المجلس السابع الذي عقد في القاهرة في ايار (مايو) ١٩٧٠ ضم جميع الفصائل (الشعبية شاركت رمزيا) باستثناء جبهة التحرير العربية ، وقد تمثلت في المجلس التاسع (تموز ١٩٧١) جميع الفصائل ، الامر الذي استتبع انبثاق لجنة تنفيذية لـ م. ت. ف. تمثلت فيها جميع الفصائل الرئيسية (فتح ، الشعبية ، الديمقراطية ، الطلائع ، التحرير العربية) .

ان اشتراك فصائل المقاومة في الاجهزة التشريعية والتنفيذية لـ م. ت. ف. وموافقتها على ميثاقها (هي عدلته في المجلس الرابع لينسجم مع متطلبات المرحلة) يكسب المنظمة قوة تمثيلية لجماهير الشعب الفلسطيني تستمدها من اقرار مبدأ التمثيل وممارسته فعلا من جانب القوى المنظمة لهذه الجماهير . وقد اكدت هذه الفصائل هذا التصور في شكل واضح وصريح في البرنامج السياسي والتنظيمي للثورة الفلسطينية الذي وضعه المجلس الوطني الثامن في ٢٨/٢ — ٥/٣/١٩٧١ وتبناه المجلس التاسع (في تموز ١٩٧١) والذي جاء فيه « ان م. ت. ف. هي الممثل الوحيد لجماهير الشعب الفلسطيني بمختلف منظماته المقاتلة والسياسية وبجميع هيئاته وجمعياته مهما تكن اتجاهاتها وافكارها شريطة التزامها التام بمبادىء الميثاق الوطني الفلسطيني وقرارات الاجهزة التشريعية والتنفيذية لـ م. ت. ف. وبالبرنامج السياسي والعسكري واللائحة الداخلية للمنظمة »(٦٦) . وقد جاءت قرارات المؤتمر الشعبي الفلسطيني الذي عقد في القاهرة في الفترة من ٦ — ١٢ نيسان (ابريل) ١٩٧٢ لتعضد تمثيل المنظمة للشعب الفلسطيني . وقد شارك في اعمال هذا المؤتمر ٥٣٤ عضوا — بالاضافة الى ١٥٤ عضوا هم اعضاء المجلس الوطني الفلسطيني — يتوزعون على ١٦ قطرا عربيا و ٨ اقطار اجنبية ويضمون بين اعدادهم ممثلين عن ١٢ اتحادا ومؤسسة ومركزا بالاضافة الى ممثلي فصائل المقاومة . وقد كان من قرارات هذا المؤتمر « تظل م. ت. ف. هي القيادة السياسية العليا للشعب الفلسطيني وهي وحدها الناطقة باسمه في كل القضايا المصيرية وهي وحدها ومن خلال اجهزتها النضالية مسؤولة عن كل ما يتعلق بحق تقرير المصير بالنسبة للشعب الفلسطيني » و « ان م. ت. ف. هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، المعبر عن امانيه وارادته ، وانه لا يحق لاي كان ان يقرر بشأن فلسطين ، ارضا وشعبا غير ما يقرره الشعب الفلسطيني نفسه ممثلا في م. ت. ف. ووفقا لميثاقها والتزاما بتحرير كامل التراب الفلسطيني . وان اي اجراء او ترتيب او اتفاق يصدر عن اي مصدر اخر

انما هو خال من الشرعية كليا ويظل كذلك دوما »(٦٧) .

هذه الشرعية التي اكتسبتها م. ت. ف. في تمثيل الشعب الفلسطيني تقودنا الى ابراز حقيقة **وحدة الشعب الفلسطيني** . فهو رغم تمزقه نتيجة احتلال اراضيه الى **تجمعات** متباعدة اضطرت الى الاقامة في اطر جغرافية سياسية منفصلة ، الا انه موجود **كشعب واحد** ذي هوية وطنية ومطامح قومية واحدة . وهذه الحقيقة نستخلصها من تمسك الفلسطينيين — في مختلف تجمعاتهم وتحت تباين الظروف السياسية والاجتماعية التي تخضع لها هذه التجمعات — بشخصيتهم الفلسطينية ورفضهم الاذابة في غيرهم من المجتمعات واستجابتهم السريعة لعملية بعث الكيان الفلسطيني التي عبروا عنها بخلقهم المؤسسات التي تجسد هذا الكيان ذا الشخصية المتميزة ، كما نستخلصها من هذا الامتداد التنظيمي الواسع لفصائل حركة المقاومة الفلسطينية الذي يغطي جميع الساحات التي يوجد فوقها فلسطينيون . وقد اكدت الامم المتحدة في عدد من قراراتها هذا الوجود الوطني للشعب الفلسطيني ونشير في هذا الصدد الى القرار رقم ٢٥٣٥ بتاريخ ١٩٦٩/١٢/١٠ والقرار رقم ٢٦٧٢ بتاريخ ١٩٧١/١٢/٨ الصادرين عن الجمعية العامة للامم المتحدة اللذين اعترفا بحق تقرير المصير لشعب فلسطين كما نشير الى القرار رقم ٢٧٨٧ بتاريخ ١٩٧١/١٢/٦ الذي اقر بحق شعب فلسطين — بجانب شعوب اخرى ذكرها القرار — في النضال من أجل تقرير المصير والتحرر من السيطرة الاجنبية والاستعمارية بجميع الوسائل المنسجمة مع ميثاق الامم المتحدة(٦٨) . وان مثل هذه القرارات تؤكد على ان الشعب الفلسطيني له وجود واحد وان قضيته هي **قضية واحدة** وان اضطراره الى الاقامة في اماكن متباعدة لا ينفي وحدة وجوده وقضيته .

ومن هنا نعتبر وحدة الشعب الفلسطيني ووحدة قضيته مدخلا رئيسيا الى رفض ادعاء اية جهة (في ذهننا الملك حسين والانتخابات البلدية في الضفة الغربية المحتلة) حق تمثيل الشعب الفلسطيني طالما ان هذه الجهة لا تعبر عن ارادة الشعب الفلسطيني باجمعه وهي في الوقت نفسه تفتت قضيته الواحدة . وحتى لو استطاعت هذه الجهة ، بأي وسيلة من الوسائل ، انتزاع تفويض من اي تجمع فلسطيني — ضمن اطار جغرافي سياسي معين — بتمثيل هذا التجمع فان مثل هذا الامر لا يخول هذه الجهة حق النطق باسم الشعب الفلسطيني لان التجمعات الفلسطينية الاخرى وبالتالي الشعب الفلسطيني من حيث هو وجود وطني واحد لم يكن معنيا بهذا التفويض .

خلاصة : (١) اذا كانت م. ت. ف. قد ولدت في « احضان مؤتمر القمة » ، كما يحلو التعبير للبعض ، فان هذا لا ينفي على الاطلاق ان المنظمة ، فكرة قبل ان تولد وحقيقة بعد قيامها ، جسدت طموحا فلسطينيا مشروعا لبعث كيانه الوطني المستقل . (٢) ان المنظمة تكتسب شرعية تمثيلها للشعب الفلسطيني ليس من واقع اعتراف الحكومات العربية ، وبعض الدول الاجنبية ، بها فحسب ، وانما تستمد هذه الشرعية ، في المرحلة الراهنة على الاخص ، من كونها ملتقى لارادات الشعب الفلسطيني المجسدة بقواه المنظمة الفاعلة . (٣) ليس لجهة منازعة المنظمة حق تمثيل الشعب الفلسطيني ، لان ما من جهة بقادرة (في ظل التوزع الجغرافي — السياسي الراهن) على ادعاء النطق باسم الشعب الفلسطيني ، الذي هو وحدة وطنية واحدة ، في مختلف تجمعاته .

---

١ — عدلي حشاد ، **شعب فلسطين في طريق العودة** ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٠٣ .

٢ — **المصدر نفسه** ، ص ١٠٤ .

٣ — صحيفة **اخبار الاسبوع** الاردنية ، ١٩٦٤/٥/٢٢ .

٤ — **فلسطيننا** ، العدد ١١ ، تشرين الثاني ١٩٦٠ .

٥ — **المصدر نفسه** ، العدد ١٣ ، كانون الثاني ١٩٦١ ، مقال بتوقيع « فتح » .

٦ — **المصدر نفسه** ، العدد ١٥ ، اذار ١٩٦١ ، مقال بتوقيع « فتح » .
٧ — **المصدر نفسه** ، العدد ١١ ، تشرين الثاني ١٩٦٠ ، مقال بتوقيع « ف ت ح » .
٨ — **المصدر نفسه** ، العدد ١٥ ، اذار ١٩٦١ .
٩ — **المصدر نفسه** ، العدد ١٣ ، كانون الثاني ١٩٦١ .
١٠ — **المصدر نفسه** ، العدد ١٥ ، اذار ١٩٦١ .
١١ — **المصدر نفسه** ، العدد ١١ ، تشرين الثاني ١٩٦٠ .
١٢ — **المصدر نفسه** ، مقال بتوقيع « ف ت ح ».
١٣ — **الوثائق العربية للعام ١٩٦٣** ، الجامعة الاميركية في بيروت ، ص ٦٨٨ نقلا عن صحيفة الجماهير ١٩٦٣/٩/١١ .
١٤ — انظر احمد الشقيري ، **من القمة الى الهزيمة** ، دار العودة ، بيروت ١٩٧١ ، الصفحات ٥٧ — ٦٠ .
١٥ — Leila S. Kadi, *Basic Political Documents of the Armed Palestinian Resistence Movement,* P. L. O. Research Center, Beirut, 1969, p. 19.
١٦ — وزارة الارشاد القومي في ج. ع. م. **ملف وثائق فلسطين** ، الجزء الثاني ص ١٢٧٣ .
١٧ — احمد الشقيري، **المصدر السابق**، ص ٥٠.
١٨ — مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية للعام ١٩٦٤** ، ص ٧٢ .
١٩ — Leila S. Kadi, *Arab Summit Conferences and the Palestine Problem,* P. L. O. Research Center, 1966, p. 102.
٢٠ — الكتاب السنوي ، **المصدر السابق** ، ص ٧٣ .
٢١ — ليلى القاضي ، **مؤتمرات القمة العربية والقضية الفلسطينية** ، **المصدر السابق** ، ص ١٠٣ .
٢٢ — **المصدر نفسه** ، ص ١٠٤ .
٢٣ — احمد الشقيري، **المصدر السابق**، ص ٩١.
٢٤ — صحيفة « **العرب** » العراقية (٦٤/٥/١٧) نشرت اسماء اللجنة التحضيرية في العراق ، « **المحرر** » اللبنانية (٦٤/٥/٩) نشر اسماء اللجنة في سوريه، « **المحرر** »(٦٤/٥/١٦) نشرت اسماء اللجنة في قطر والخليج العربي ، « **الحوادث** » اللبنانية (٦٤/٥/٨) نشرت اسماء اللجنة في لبنان .
٢٥ — الكتاب السنوي ، **المصدر السابق** ، ص ٢١ .
٢٦ — ملف وثائق فلسطين ، **المصدر السابق** ، ص ١٢٨٣ .
٢٧ — نشرة « **الثائر العربي** » الناطقة بلسان جبهة التحرير العربية ١٩٦٩/٩/٣ .
٢٨ — مؤتمرات القمة العربية والقضية الفلسطينية ، **المصدر السابق** ، ص ١٠٢ .
٢٩ — **الوثائق العربية للعام ١٩٦٣** ، الجامعة الاميركية في بيروت ، ص ٨٢٩ .
٣٠ — ملف وثائق فلسطين ، **المصدر السابق** ، ص ١٢٦٧ .
٣١ — الملك حسين ، **حربنا مع اسرائيل** (تحرير فيك فانس وبيار لوير) ، دار النهار للنشر ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٢ .
٣٢ — احمد الشقيري ، **المصدر السابق** ، ص ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٠ .
٣٣ — **المصدر نفسه** ، ص ص ٤٦ — ٥٠ .
٣٤ — مؤتمرات القمة العربية والقضية الفلسطينية ، **المصدر السابق** ، ص ٩٩ .
٣٥ — مقابلة خاصة مع احمد الشقيري ، كيفون ١٩٧٢/٥/١١ .
٣٦ — نقلته صحيفة « **النهار** » البيروتية ١٩٦٤/٥/٢٧ .
٣٧ — صحيفة « **البعث** » السورية ، ٢٨/٥/ ١٩٦٤ .
٣٨ — **الوقائع العربية** (نيسان — حزيران ١٩٦٤) الجامعة الاميركية في بيروت ، ص ١٦٩ .
٣٩ — **الوثائق العربية للعام ١٩٦٤** ، الجامعة الاميركية في بيروت ، ص ٤٥٧ .
٤٠ — احمد الشقيري ، **المصدر السابق** ، ص ٦١ ، ٦٢ .
٤١ — صحيفة « **الجهاد** » الاردنية ، ١٨/٦/ ١٩٦٤ .
٤٢ — غسان كنفاني ، صحيفة « **المحرر** » اللبنانية ، ١٩٦٤/٤/٦ .
٤٣ — نشرته « **المحرر** » ١٩٦٤/٣/٢٥ .
٤٤ — **الوثائق العربية للعام ١٩٦٤** ، الجامعة الاميركية في بيروت ، ص ٢٥٣ .
٤٥ — **المصدر نفسه** ، ص ١٠٦ .
٤٦ — بيان لحركة القوميين العرب في ١٩٦٤/٦/١٤ منشور في **المصدر نفسه** ، ص ٢٩٥ .
٤٧ — بيان للاتحاد صادر في ١٩٦٤/٣/١٧ ،

منشور في الوثائق العربية ، **المصدر السابق** ، ص ١١٠ .

٤٨ — **الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية للعام ١٩٦٤** ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ص ٩٢ .

٤٩ — مؤتمرات القمة العربية والقضية الفلسطينية ، **المصدر السابق** ، ص ٨٩ .

٥٠ — احمد الشقيري ، **المصدر السابق** ، ص ٥٩ .

٥١ — **المصدر نفسه** ، ص ١٦ .

٥٢ — مؤتمر صحفي عقده في القاهرة في ١/٢٠/ ١٩٦٤ ، الكتاب السنوي ، **المصدر السابق** ، ص ٧٠ ، ٧١ .

٥٣ — احمد الشقيري ، **المصدر السابق** ، ص ٦١ .

٥٤ — مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، **الوثائق العربية الفلسطينية للعام ١٩٦٦** ، ص ٨٩ .

٥٥ — المادة الرابعة من قواعد عامة والمادة الخامسة من شؤون العمل الفدائي ، من اتفاقية عمان . نشرت في كتاب **المقاومة الفلسطينية والنظام الاردني** الصادر عن مركز الابحاث في م. ت. ف. بيروت ١٩٧٠ ، ص ص ٤٤١ — ٤٤٧ .

٥٦ — نص اتفاقية القاهرة مذكور في **المصدر نفسه** ، ص ص ٤٣٥ — ٤٣٧ .

٥٧ — مركز التخطيط في م. ت. ف. ، **لائحة الاتهام ضد وصفي التل** ، ص ٩٦ .

٥٨ — اذاعت البيان اذاعة القاهرة ونشرته الصحف العربية في ١٩٧١/٨/١ .

٥٩ — من محضر جلسة مجلس الوزراء اللبناني في ٦٤/١١/٢٦ . محفوظات مكتب م. ت. ف. في بيروت .

٦٠ — نشرتها صحيفة « **النهار** » اللبنانية في ١٩٧٠/٤/٢٠ .

٦١ — الكتاب السنوي للعام ١٩٦٤ ، **المصدر السابق** ، ص ٨٧ .

٦٢ — المعلومات مستقاة من مقابلة خاصة في دمشق ، آذار ١٩٧٢ ، مع السيد عبد الكريم الكرمي الذي مثل المنظمة في مؤتمرات منظمة التضامن ومجلس السلم العالمي .

٦٣ — منشورة في كتاب ناجي علوش ، **مناقشات حول الثورة الفلسطينية** ، دار الطليعة بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٢٣ .

٦٤ — نشرتها صحيفة « **المحرر** » اللبنانية ، ٦٥/٥/٢٤ .

٦٥ — مقابلة خاصة مع الشقيري ٧٢/٥/١١ .

٦٦ — نص البرنامج نشرته صحيفة « **فتح** » في ملحق خاص .

٦٧ — كراس اصدرته م.ت.ف. عن اعمال المؤتمر الشعبي والمجلس الوطني الفلسطينيين.

٦٨ — قرارات الامم المتحدة المتعلقة بهذا الموضوع موجودة ضمن محفوظات مركز الابحاث في م. ت. ف. ، بيروت .

الهوة الاجتماعية في اسرائيل

عبد الحفيظ محارب

على راس المشاكل الاساسية التي يعاني منها مجتمع المهاجرين والمستوطنين في اسرائيل ، مشكلة الهوة الاجتماعية الناجمة عن التناقضات الكامنة في المجتمع الاسرائيلي . وقبل التطرق الى كنه الهوة الاجتماعية وماهيتها وحجمها لا بد لنا من الوقوف قليلا عند توقيت تفجر التناقضات ، والاسباب الكامنة وراءها . ترتبط مسألة توقيت تفجر التناقضات الاجتماعية في اسرائيل ، الى حد بعيد بحالة الاستقرار الامني ، كما ترتبط ارتباطا وثيقا بالقناعة الذهنية للجماهير الاسرائيلية باستقرار الاوضاع الامنية وبقوة الجيش الاسرائيلي، بمعنى آخر ان التناقضات الاجتماعية، وهي موجودة منذ قيام الدولة وحتى قبل قيام الدولة في فترة ما يعرف باليشوف ، تبرز على سطح الاحداث في الساحة الاسرائيلية ، تتفجر في حالة الاستقرار الامني، وتطمس او تحبس في حالة التوتر الامني . وعلى سبيل المثال فان التناقضات الاجتماعية لم تصل الى درجة من التفجر ، مع انها كانت قوية خلال الاعوام التي سبقت العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ذلك لان هذه الفترة شهدت توترا امنيا ناجما عن الاصطدامات على امتداد الحدود مع الجبهات العربية وخاصة المصرية ، كما وشهدت موجة من النشاط الفدائي وخاصة من قطاع غزة . الا ان التناقضات الاجتماعية وصلت الى درجة التفجر في فترة الهدوء الامني التي نعمت بها اسرائيل نتيجة توقف الاشتباكات على الحدود ، ووقف النشاط الفدائي ، ووضع قوات طوارىء دولية في قطاع غزة وسيناء ، وخير مثال على ذلك حوادث « وادي الصليب » في حيفا في صيف عام ١٩٥٩ ، حيث قامت الفئات المسحوقة المميزة في تلك الضاحية بانتفاضة اخذت شكل التظاهرات المشفوعة بالعنف ، وامتدت لتشمل معظم المناطق الاسرائيلية التي توجد فيها الفئات المسحوقة من اليهود الشرقيين ، ومع ذلك فان التناقضات اخذت تضبط بشكل او بآخر ، ولم تصل عند مطلع الستينات وحتى ١٩٦٧ الى درجة التفجر بسبب القناعة الذهنية للجمهور الاسرائيلي بأن حالة الامن ليست على ما يرام ، وبأن « النصر الذي احرزه الجيش الاسرائيلي » قد ساهمت فيه دولتان كبريان . اما بعد حرب حزيران ، وما نجم عن ذلك من قناعة ذهنية في اوساط الجمهور الاسرائيلي ، بأن الجيش الاسرائيلي يتمتع بقوة كبيرة بامكانها التصدي لاي خطر خارجي ، فقد بدأت التناقضات الداخلية تطغى على السطح وبشكل قوي ، تجعل الكثيرين وخاصة المسؤولين منهم يتخوفون على مصير الدولة ويخشون من اقتراب خراب الهيكل الثالث ! وقد عبرت عن هذه التناقضات وبشكل لم يسبق له مثيل من حيث حدة التفجر حركة الفهود السود عند مطلع عام ١٩٧١ .

وهنا لا بد من الاشارة الى ان التناقضات الاجتماعية لا تتفجر مباشرة على اثر انتصار عسكري بل العكس هو الصحيح ، فهذه التناقضات تحبس تماما في فترة الهدوء التي تعقب نصرا عسكريا ، كما تحبس تماما في حالة التوتر العسكري ، وتفسير ذلك ان مرحلة الهدوء التي تعقب نصرا عسكريا تكون بمثابة مرحلة « نشوة الانتصار » على عدو

درجت وسائل الاعلام الاسرائيلية على التهويل من خطره . الا انه بعد ان تتلاشى مرحلة « نشوة » الانتصار فان التناقضات الاجتماعية تبدأ بالظهور ، ومن هنا يمكن القول ان مسألة تفجر التناقضات الاجتماعية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحالة الذهنية التي تسود الجمهور الاسرائيلي حول مدى قوة الجيش الاسرائيلي ومدى وهن خصمه .

تدرك السلطات الاسرائيلية مدى الترابط الوثيق بين الاستقرار الامني وتفجر التناقضات الداخلية في المجتمع الاسرائيلي ، ولذا نراها لا تكف عن التهويل « بالخطر الخارجي » المحدق باسرائيل من جميع الجوانب سواء أكان الخطر حقيقيا ام خياليا بغرض طمس التناقضات الاجتماعية المتفجرة وكبتها ، الا ان هذا الدأب على التلويح والتهويل بالخطر الخارجي الذي ترفعه أوساط عسكرية وسياسية حاكمة ، بسبب عجزها عن حل التناقضات الداخلية ، ينطوي على خطر بالنسبة لطرفين اساسيين : الجانب العربي الذي يمثل « الخطر الخارجي » والخطورة تتمثل هنا في احتمال تعرضه لضربات تعتبر بمثابة حبوب منومة للتناقضات الداخلية في اسرائيل ، والجانب الاخر هو مجموعة الفئات المتضررة من التناقضات الاجتماعية ، والخطورة تتمثل هنا في استدامة هذه التناقضات دون ايجاد حلول جذرية لها . ومما هو جدير بالملاحظة أن سلاح التلويح بالخطر الخارجي قد فقد لمعانه ومفعوله لدى الجمهور الاسرائيلي وخاصة لدى الفئات المسحوقة منه ، فعلى اثر النصر العسكري الخيالي الذي احرزه الجيش الاسرائيلي في حرب حزيران ، امحت الصورة المضخمة والمبالغ بها للخطر الخارجي من اذهان الجمهور الاسرائيلي ، وارتسمت مكانها صورة أخرى تجعل من سياسة التلويح به ، موضع نقد وتهكم فئات واسعة في اسرائيل .

من المعروف ان هنالك اوساطا عسكرية ومدنية من بين مبلوري السياسة الاسرائيلية ومنفذيها كانت ولا تزال تعتقد بأنه لا يمكن رفع علم الامن وعلم المساواة الاجتماعية دفعة واحدة لان ذلك من شأنه ان يمس ميزانية الدفاع وان الواجب يتطلب رفع علم الامن فوق الاعلام الاخرى كافة . ويقف على رأس هؤلاء وزير الدفاع موشيه ديان . لقد فقد هذا الشعار بريقه بعد حرب حزيران لدى قسم كبير من الجمهور الاسرائيلي ، وحتى لدى بعض المقربين الى ديان نفسه ، والى الاوساط المتربعة على جهاز الامن في اسرائيل ، فقد خالفت « ياعيل ديان » ابنة وزير الدفاع اباها الرأي وطالبت بضرورة رفع العلمين معا ، قائلة : « لقد فشلنا في عملية دمج يهود الشتات ... يوجد في البلاد تمييز طائفي وانه لامر فظيع التفكير بأن هنالك فقرا في البلاد وان ثمة عائلات لا تتمكن من شراء اللحم حتى ليوم السبت ... يوجد في البلاد مواطنون من الدرجة الثانية »(١) .

اما رئيس هيئة الاركان السابق للجيش الاسرائيلي البروفيسور يجآل يدين الذي يحظى باحترام الاوساط العسكرية والمدنية الحاكمة في اسرائيل، فقد رفض ادعاء ديان والتلويح بخطر الحرب ، لانه يرى ان الخطر بحد ذاته يكمن في التغاضي عن حل القضايا الداخلية : « سيكون ذلك بالنسبة لنا امرا ينطوي على جانب كبير من الخطورة اذا تخلينا عن ايجاد حلول للمشاكل الكبيرة التي تواجهنا بحجة تهديدات الحرب ، هذه التهديدات التي يمكن ان تبقى تحوم فوق رؤوسنا اعواما عدة ... ان العامل السلبي المتمخض عن المشاكل الاجتماعية قد يشكل في يوم من الايام خطرا جديا حتى من الناحية الامنية ، ولذا لا استطيع بأي حال من الاحوال قبول الادعاء القائل باستحالة رفع العلمين دفعة واحدة، وكأننا اذا رفعنا علم الامن لا بد لنا من أن نطوي علم الاصلاح الاجتماعي . ينبغي علينا رفع العلمين معا »(٢) .

الى جانب ارتباط التفجرات الاجتماعية بحالة الامن ، هنالك عامل آخر اخذ ، بعد ولادته ونضوجه ، يزيد من حدة تفجر التناقضات الاجتماعية الناجمة عن التمييز الاثني ، واعني به عامل الجيل الثاني من ابناء الطوائف الشرقية . فالجيل الاول من ابناء هذه الطوائف

والذي يعرف بجيل الآباء كان في الخمسينات والستينات هـو الذي يتصدى لواقعـه البائس في مجتمع المهاجرين والمستوطنين الذي يسيره ويتحكم به ابناء الطبقة الفوقية من الطوائف الغربية ، وقد كان هذا الجيل ولا يزال يشعر ويحس بالضعة تجاه ابنـاء الطوائف الغربية ، ولذا فان تململاته وتحركاته من اجل تحسين اوضاعه لم تتعد المطالب اليومية الحياتية ، انه جيل يطلب ولا يأخذ ، اما جيل الابناء فانه يختلف اختلافا كليا عن الجيل السابق من حيث عدم السكوت على الغبن الواقع عليه . وهذا الامر واضح في مجتمعات المهاجرين ، فالمجموعات الاثنية المهاجرة حديثا الى مجتمع جديد تحاول بكل هدوء العيش ضمن المجتمع الجديد ، وتكبت نفسها بقدر الامكان اذا ما واجهت واقعا تمييزيا ، الا ان جيل الابناء من تلك المجموعات يتمرد على الواقع التمييزي ، خاصة اذا كانت قوانين ذلك المجتمع تدعو الى المساواة . وهذا الامر ينطبق تماما على الجيل الثاني من ابناء الطوائف الشرقية الذي نضج ، عند مطلع السبعينات ، وقام في عام ١٩٧١ بحركة تمردية على الواقع التمييزي ، يسعـى الى الاخـذ بالعنف وليس المطالبـة باستعطاف ، يسعى الى استئصال اسباب مظاهر التمييز ولا يكتفي بتلبية حاجات آنية وذاتية . هذا العامل الجيلي له اثر كبير في زيادة حدة التفجرات الاجتماعية في اسرائيل. يمكن تلخيص ما سبق بالقول بأن مسألة تفجر التناقضات الاجتماعية مرتهنة بعاملين اساسيين ، الاستقرار الامني ، وظهور الجيل الثاني كقوة مختلفة عن الجيل السابق وان مشكلة كبت تلك التناقضات وحبسها مرتهنة بتصعيد التوتر الامني .

نعود الان الى القاء ضوء على التركيب البنيوي للمجتمع الاسرائيلي ، لكي تتسنى لنـا معرفة التناقضات القائمة فيه وبالتالي معرفة هوية ما يعـرف في اسرائيل بالهـوة الاجتماعية .

يتشكل المجتمع الاسرائيلي كسائر المجتمعات الاخرى من طبقات ، فهنالك طبقة برجوازية كبيرة وطبقة برجوازية متوسطة واخرى صغيرة، وفي المقابل طبقة عمالية وفلاحية وفئات « هامشية » او ما يسمى بالبروليتاريا الرثة ، وهي التي اخرجت من جوفها حركة الفهود السود عند مطلع ١٩٧١ ، الا ان هذا المجتمع يتميز عن المجتمعات الاخرى بكونه مجتمع مهاجرين ومستوطنين ، كان ولا يزال يعتمد على الهجرة والاستيطان الى ان تكتمل عملية جمع «يهود الشتات» في «دولة اليهود» . والامر الذي يسترعي الانتباه والاهتمام معا هو ان حدة التناقضات القائمة في المجتمع الاسرائيلي لا تكمن في عامل الصراع الطبقي بقدر ما هي كامنة في عامل الصراع الاثني الطائفي، ذلك ان التقسيم الطبقي يقابله تقسيم اثني طائفي رئيسي ، يهود البلدان الغربية (اكثريتهم الساحقة من يهـود شرق اوروبا — اشكناز) ويهود بلدان آسيا وافريقيا اكثريتهم الساحقة من البلدان العربية (اسفارديم) . وتتوزع الاكثرية الساحقة من ابناء الطائفة الاولى على مجموعـة من الطبقات العليا في المجتمع ، بينما يتوزع سواد ابناء الطائفة الثانية على مجموعة الطبقات الدنيا . اي انه اذا القينا نظرة على الهرم الاجتماعي القائم في اسرائيل نرى ان الطبقة الفوقية منه قد استقطبت الاكثرية الساحقة من ابناء الطوائف الغربية ، وان الطبقة التحتية منه قـد استقطبت الاكثرية الساحقة من ابناء الطوائف الشرقية . من الجائز القول ان الهوة الاجتماعية القائمة في اسرائيل ناجمة بالاساس عن عمليـة الصراع الطبقي ، ولكـن من الصحيح والمؤكد ان عملية استقطاب وتجسيد الطبقات قد جرت على اساس طائفي اثني ، لعب فيها العامل الاثني دورا اساسيا ، ولذا فان الهوة الاجتماعية القائمة هي بين ابناء الاشكناز كطبقة فوقية وبين ابناء الطوائف الشرقية كطبقة تحتية .

على انه ينبغي ان لا يغيب عن بالنا وجود هوات اجتماعية أخرى الـى جانب الهوة الرئيسية التي نحن في صدد الحديث عنها ، فالمجتمع الاسرائيلي الذين يحتضن مهاجرين قدموا من ١٠٢ بلد ويتكلمون ٨٢ لغة(٣) يعاني من الهوة بين المهاجرين الجدد والمهاجرين

القدامى . وكذلك دولة اسرائيل التي يفترض ان تكون وفق المبادىء الصهيونية « دولة اليهود » وليس دولة يهودية ، تعاني من الهوة القائمة بين الفئات المتدينــة والفئات اللادينية ، ولعل هذه الهوة من ابرز القضايا التي عايشت مجتمع اليشوف قبل قيام الدولة ولا زالت تعايش المجتمع الاسرائيلي حتى الآن . فالمتدينون وهم يشكلون نسبة تقارب الـ ٣٠ ٪ من مجموع السكان اليهود في اسرائيل (نحو ١٥ ٪ مــن المقترعين صوتوا الى احزاب دينية في الانتخابات الاخيرة) يدعون الــى التمشي وفق الشريعــة اليهودية في جميع المجالات ، كما يطالبون بالحفاظ على الطابع الديني للدولة . بينما يدعو اللادينيون الى فصل الدين عن الدولة وهذا امر بعيد المنال في اسرائيل على الرغم من ان موجهي سياستها لا دينيون . والامر اللافت للنظر هو ان هذه الهوة كان لها مفعول قوي في سير عملية التوزيع السكاني في اسرائيل ، فالمتدينون وخاصة المتطرفين منهم يعيشون ويتجمعون في كيبوتسات او موشافات او ضواحي خاصة بهم ولا يسمحون لغير المتدين بالعيش بين ظهرانيهم . ومن الجدير بالذكر ان عملية الاستقطاب هنا تسير ايضا في مسار اثني طائفي . فالمتدينون الاشكناز (وهم متدينون غلاة) يستقطبون في أماكــن معينة ، بينما المتدينون الاسفاراديم (وهم متدينون معتدلون) يستقطبــون في أماكن اخرى . ان الهوة القائمة بين المتدينين واللادينيين على قدمها واستدامتها في اسرائيل ، تعبر عن الصراع القائم بين الفكر المتزمت وبين الفكر المتقدم ، بين التمسك بأهداف الشريعة اليهودية ، وبين الافكار العلمانية ، ولا تعبر من قريب او بعيد عن استغلال طبقة لطبقة أو استعباد فئة لفئة كما هو الحال في الهوة الاجتماعية بين ابناء الطوائف الغربية وابناء الطوائف الشرقية .

نعود الان الى العوامل التي جعلت من اليهود الغربيين (الاشكناز) يشكلون الطبقة الفوقية من البنية الهرمية للمجتمع الاسرائيلي ، واهم هذه العوامل هي :

١ ــ ظهور المسألة اليهودية في أوروبا وولادة الحركة الصهيونيــة بين صفوف ابناء الاشكناز وتأصلها في نفوسهم كردة فعل لسياسة الاضطهاد والتمييز التي كان يعاني منها هؤلاء في معظم الاقطار الاوروبية ، دون ان تكون هنالك مسألة يهودية لدى الطوائف الشرقية ، وبالتالي لم تكن الحركة الصهيونية قوية جياشة بين صفوفهم ، بل اكتسبتها طائفة الاشكناز اكتسابا ، مما تأتى عن ذلك تزعم ابنـــاء الطوائف الغربية وشغلهــم لمؤسسات الحركة الصهيونية كافة ، دون أن يكون لابناء الطوائف الشرقية دور يذكر في هذه المؤسسات . ٢ ــ التفوق العددي لابناء الطوائف الغربية عشية قيام الدولة ، فقد كان هؤلاء يمثلون نسبة ٩٠ ٪ من مجموع السكان اليهود وبالتالي سيطروا على مرافق الدولة كافة . ٣ ــ الاحساس بالتفوق الحضاري لدى ابناء الطوائف الغربية ، مما ولد لديهم نظرة استعلاء تجاه الطوائف الشرقية ، تتحول في كثير مــن الاحيان الى نظرة احتقار . ٤ ــ التعويضات الالمانية التي تلقتها اسرائيل في بداية الخمسينات والتي كانت من نصيب خزينة الدولة وجيوب فئات واسعة من ابناء الاشكناز بحجة تضررهم من ويلات الحرب العالمية الثانية ، الامر الذي كان له الاثر في توسيع الهوة الاقتصادية بين ابناء الطائفتين . ٥ ــ سعي الاشكناز الحثيث الى جعل الدولــة ذات طابع اوروبي محض ، وهذا امر طبيعي بالنسبة لهم لكونهم مهاجرين منحدرين من اصول حضارية اوروبية ، وتخوفهم من أن يؤدي ولوج ابناء الطوائف الشرقية الى مراكز القوى ومرافق الدولة ومؤسساتها الفعالة الى تغيير شكل الدولة وطابعها من طابع اوروبي يسعون اليه ، الى طابع شرق اوسطي لا يريدونه . ٦ ــ واخيرا ، كان مــن نتيجة سياسة الاستعمار الخالص في فلسطين ، وما تأتى عنها من انتهاج سياسة العمل العبري في فترة اليشوف (أي اقتصار العمل في جميع مرافق اليشوف على الايدي العاملة اليهودية ، والاستغناء عن الايدي العاملة العربية) ان بدأ التفكير لدى قادة الحركة الصهيونيــة

وزعمائها باحلال اليهود الشرقيين محل الايدي العاملة العربية .

كان من نتيجة هذه العوامل مجتمعة ، وعلى الرغم من تزايد عـــدد اليهود الشرقيين في الخمسينات ، اذ اصبحوا يشكلون نصف السكان اليهود ، وتزايد عددهم في الستينات حتى غدوا يشكلون نحو ٦٥ ٪ من السكان اليهود ، ان خلق في المجتمع الاسرائيلي وضع خاص قائم على التمييز ، تشغل فيه الاقلية (فئة الاشكناز) الشرائح الاجتماعية العليا من الهرم ، وتحتل الاكثرية (الطوائف الشرقية) الشرائح الاجتماعية الدنيا منه .

فلو ألقينا نظرة على الواقع الاسرائيلي بعد مرور ٢٤ عاما على قيام الدولة لتبدت لنا صورة مذهلة عن التمييز القائم هناك ، فالحكومة الاسرائيلية كانت ولا تزال تتشكل من أبناء الاشكناز مع المحافظة على تخصيص حقيبة أو حقيبتين وزاريتين (الشرطة وفي بعض الاحيان الشؤون الاجتماعية) لابناء الطوائف الشرقية ، اما الوكالة اليهودية وتعتبر في اسرائيل بمثابة الحكومة الثانية ولها دور كبير في تجسيد مجتمع اليشوف وبلورته ، ومن ثم المجتمع الاسرائيلي ، فانها تكاد تخلو تماماً من ابناء الطوائف الشرقية ، وفيما يتعلق بالحكومة الثالثة (الهستدروت) التي من المفروض ان تحافظ على مصالح الطبقة العاملة التي يتشكل سوادها الاعظم من ابناء الطوائف الشرقية ، نجد ان المتربعين على زمام الامور فيها من ابناء الاشكناز . وهنا لا بد لنا من التوقف قليلا عند النسبة التي يمثلها ابناء الطوائف الشرقية في الوظائف الكبيرة في الدولة . يقول عضو الكنيست بن فورات ان بين مجموع ٣٠٠ موظف كبير يشغلون الوظائف العليا في الدولة هنالك فقط ثمانية او تسعة من ابناء الطوائف الشرقية اي انهم يحتلون نسبة ٣ ٪ مـــن الوظائف العليا(٤) . وفيما يتعلق بالاحزاب الممثلة في الكنيست نجد ان جميع رؤسائها دون استثناء، ابتداء بالاحزاب اليمينية والدينية ومروراً بالاحزاب العمالية وانتهاء بالحزب الشيوعي ، بجناحيه مبنية على « طهارة الاشكناز » . وفيما يتعلق بعدد ابناء الطوائف الشرقية في البرلمان الاسرائيلي فانه يناهز خمس عدد النواب ، وحتى هذا الخمس لا يجرؤ على المطالبة بازالة أسباب التمييز الذي يعاني منه ابناء الطوائف الشرقية الا بالقدر الذي تسمح به الاحزاب التي ينتمون اليها . وكما يقول الدكتور يوحنان بيرس : « ان الاشكناز هم الذين يقررون من يمثل الطوائف الشرقية في الكنيست والهستدروت واللجنة التنفيذية الصهيونية ، انها عملية اشراك وليست عملية تمثيل فاذا ما تجرأ احدهم وشق عصا الطاعة ، فمن الممكن تغييره بسهولة » الامر الذي حدا بأعضاء المؤتمر العالمي لمهاجري مراكش الذي عقد في أواخر شهر آذار الماضي في اسرائيل الى توجيه مذكرة الى رئيسة الحكومة غولدا مئير ، لرفع عدد النواب في الكنيست من ١٢٠ الى ١٥٠ بغرض تمكين اليهود الشرقيين من تمثيل انفسهم « بشكل ملموس »(٥) . وبالنسبة لمرافق الدولـــة الاقتصادية وادارة الشركات والمصانع فانها تكاد تكون حكرا على ابناء الاقلية .

لا بد هنا من الاشارة الى ان هنالك شريحة اجتماعية واهية خرجت من بين صفوف ابناء الطوائف الشرقية واستطاعت التسلل والتسلق الى القاعدة الفوقية في الهرم ، وهذا امر طبيعي في مجتمع قائم على التمييز الاثني . وقد بدأ المتمردون من ابناء الطوائف الشرقية يشعرون بخطورة تملق ابناء هذه الشريحة ، وينعتون البعض منهم بالخيانـــة ، ففي المؤتمر العالمي لمهاجري مراكش الاخير ، تصدى احد اعضاء المؤتمر ويدعى « لاسري » لسكرتير مجلس عمال اسدود « عمرام دورون » حين قال : « اردت أن أقول لكم انه بالامكان النجاح في اسرائيل اذا كانت هنالك رغبة في ذلك » تصدى له قائلا : « انك لخائن ، انت كأولئك الزنوج في الولايات المتحدة الذين يستلمون وظيفة ويصبحون الى جانب المؤسسة ، انهم يسمون هناك « زنوجا بيضا » اما انت فانك بمثابة « اسود ابيض » يداهن المؤسسة »(٦) .

ذكرنا سابقا ان عملية الاستقطاب الاجتماعي قد سارت في مسار اثني ، وقد انعكس

هذا الواقع على عملية سير التوزيع السكاني ، مما تأتى عنه ، بشكل تدريجي بروز ضواحي في كل مدينة ذات طابع اثني مميز ، وظهور مستوطنات منتشرة هنا وهناك تخص هذه الفئة او تلك . بمعنى آخر ظهور ضواحي « راقية » في المدن استقطبت ابناء الطوائف الاشكنازية وضواحي « فقيرة » استقطبت ابناء الطوائف الشرقية ، وكذلك الحال بالنسبة للمستوطنات فهنالك مستوطنات غنية استقطبت ابناء الطبقة الفوقية ، ومستوطنات متخلفة وفقيرة استقطبت ابناء الطبقة التحتية . الى جانب ذلك هنالك ضواح وقرى مختلطة ، شادتها السلطات الاسرائيلية في محاولة تجريبية منها لدمج «يهود الشتات» تمشيا مع سياسة الدمج المعلنة ، بيد ان تجربة الدمج قد باءت بالفشل ولم تؤت بالثمار المرجوة منها ، بل أساءت الى حركة التطوير وخاصة في المستوطنات . يقول الكاتب الاسرائيلي موشيه شاريت في دراسة قيمة له حـول مشاكل دمج يهود الشتات في اسرائيل : « ماذا اتضح لنا بالفعل ؟ لقد اتضح ان مسألة دمج يهود الشتات ليست تحت متناول اليد ، وان اسلوب خلط العناصر كان بمثابة حجـر عثرة امـام الاستيطان . ان الجهد الطلائعي للاستيطان والتكيف والقريـة والفلاحة يتطلب روحاً جماعية ، وهذا الامر لا يتطور بين اناس ينتمون الى حضارات مختلفة ، ويتحدثون لغات مختلفة ، ولهم عادات مختلفة . انهم لا يشكلون وحدة اجتماعية ، وليسوا أهلا للجهد المشترك والمساعدات المتبادلة . . . ان القرية المختلطة منقسمة على نفسها وتعاني من التوترات الطائفية ، وتمتص نزاعاتها جهودا غالية بدل ان تكرس هذه الجهود في ميادين البناء . ان الحياة الاجتماعية : الحفلات والاعياد والمناسبات العائلية لا تشكل عاملا موحدا بل تبرز الفوارق والتناقضات ، وفي الانتخابات يحل الولاء الطائفي محل اعتبارات قدرة المرشح او استقالته مما يضر بمصالح البلدة . . . »(٧) .

هذا فيما يتعلق بالقرى الزراعية المختلطة ، اما الضواحي المختلطة في المدن فان تجربة الدمج قد فشلت هي الاخرى ، فالعلاقات الاجتماعية في هذه الضواحي لا تزال سطحية وتقتصر على المجالات الفنية ، انها نابعة عن الاتصال الناجم عن اللقاءات العرضية على المدرج وفي باحة المنزل والحانوت ، او نتيجة المفاوضات المشتركة باسم الضاحية مع عناصر خارجية مختلفة ، وتندر في هذه الضواحي الزيارات المتبادلة والرحلات المشتركة لابناء مختلف الطوائف ، اما مقاهي الضواحي ونواديها المختلطة فانها تستقطب السكان هناك حسب انتمائهم الاثني(٨) . ويؤثر هذا الوضع تأثيرا كبيرا من الناحية الاجتماعية على الاقلية الاثنية في الضاحية خاصة اذا كانت تشعر بأنها محاطة بكثرة ساحقة من ابناء الطوائف الأخرى ، ففي حي وادي الصليب مثلا هنالك بضع عائلات اشكنازية بقيت هناك بعد أن عجزت عملية الاستقطاب الاثني عن جذبها ، وبالرغم من مرور ٢٢ عاما فان هذه العائلات بقيت منطوية على نفسها ولا تتفاعل مطلقا مع حياة الحي . يصف « مئير شتايمتس » علاقاته مع سكان الحي في ضوء تجربة ٢٢ عاما « لا شأن لي مع أي واحد هنا ، ان هؤلاء ليسوا أصدقائي ، وانني لا ابحث عن صداقتهم »(٩) .

ان الشعور بالانتماء الاثني هو وليد التناقضات الكامنة في مجتمع المهاجرين والمستوطنين ، ولم يرافق هذا الشعور آباء اليهود الاسرائيليين الذين لم يقدر لهم المجيء الى اسرائيل ، بل يمكن القول انه يكاد يكون معدوما لدى اليهود الموجودين في بقـاع الارض ، اذ أن شعورا آخـر كـان يستحوذ عـلى تفكـير معظمهـم ، وهـو الشعور بالانتمـاء اليهودي . اما في حالة قدوم الانسان اليهودي الى اسرائيل فان الشعور بالانتماء الاثني يبدأ يعتمل بين جوانحه ، وهذا الامر يعتبر بمثابة انقلاب في حياته ، فاليهود الرومانيون كانوا يعتبرون انفسهم « يهودا » اولا ، وكذلك الامر يقال بالنسبة لسائـر الجاليات اليهودية في البلدان المختلفة ، اما في حالة المجيء الى اسرائيل (مجتمع المهاجرين) فان اليهودي يتحول الى « روماني » او « عراقي » او « مراكشي » . . الا انه ينبغي التنبه

الى ان هذا الانقلاب يختلف من حيث الشدة بين الفئات المختلفة ، فالفئات المسحوقة هي اكثر الفئات بالاحساس الوليد .

وقد مس الدكتور اليكس فينجورد هذا الموضوع فيدراسة له حول «التغيير والاستمرارية في مستوطنة لمهاجري شمال افريقيا » بقوله : « مع ان الهوية اليهودية هي واقع اجتماعي ينطوي على مركزية في اسرائيل ، الا اننا نجد الى جانبها أنواعا من الهويات الاخرى ، ونلاحظ ان الهوية اليهودية ، وهي بمثابة أمر بديهي ، تبدأ تأخذ وزنا ثانويا فقط . ففي دول الهجرة يغدو الاصل او الحضارة وحتى المظهر ذا معنى اجتماعي كبير . وحسب هذه الحقائق تتحدد الفوارق بين شخص وآخر . وهكذا يحدث ان اليهود في مراكش يعتبرون « يهودا » بينما في اسرائيل يتحولون الى «مراكشيين» . ان المستوطنين يرون انفسهم من خلال هذا المنظور ، وكذلك الاخرون ينظرون اليهم بالمنظور نفسه . ومن الناحية الفعلية استبدل هؤلاء هوية بهوية اخرى » .

ويشير الدكتور اليكس الى دور الطبقة العليا من الهرم الاجتماعي في اثارة الاحساس بالانتماء الطائفي لدى الفئات المستغلة قائلا : « ان واقع كون مراكز القوى كافة بأيدي الاشكناز يساعد على تأكيد هذا الوضع »(١٠).

الى جانب ذلك كان للاحزاب الاسرائيلية دور في « تأكيد هذا الوضع » فقد درجت تلك الاحزاب في مواسم الانتخابات البلدية والمحلية في قرى التطوير (اغلبيتها من ابناء الطوائف الشرقية) على استغلال العامل الاثني من اجل الفوز بأصوات سكان القرى وللحيلولة دون ولادة قيادة مستقلة من بين صفوف هؤلاء السكان . « فالعائلات الكثيرة الاولاد » وهو اصطلاح يحمل عادة بين ثناياه روحا نقدية وسلبية في اسرائيل ، تغدو في برامج الاحزاب عشية الانتخابات « العائلات المباركة بالاولاد » ، كما ويصبح « اخواننا المهاجرون من شمال افريقيا » موضع منافسة بين تلك الاحزاب . ومن الجدير بالذكر ان بعض الاحزاب كانت تركز في منشوراتها — كما يقول شلومو دشان من جامعة تل ابيب في بحث له حول هذا الموضوع — على أصل مرشحيها ومسقط رأسهم مع ذكر تفاصيل حياة كل منهم ، وتقوم بتوزيع تلك المنشورات بين صفوف الطائفة التي ينتمي اليها المرشح ، فاذا كان المرشح « عوباديا » فان المنشور يركز على نشأته في تونس ويسرد تاريخ حياته محترما اياه بقوله : « انه ملائم ومحبوب ... انه شاب ويتحلى بنظرة شابة تجاه قضايا المدينة ، انه يريد ويقدر على مساعدتك ومساعدة اصدقائك ، صوت الى جانبه »(١١). اما اذا كان المرشح من مواليد اوروبا فان المنشور يصاغ بشكل آخر بما يتناسب ومخاطبة عقلية ابناء الطوائف الغربية ويقتصر توزيعه على ابناء تلك الطوائف .

بعد انتهاء موسم الانتخابات، يغدو مسقط رأس الانسان وخاصة ابناء الطوائف الشرقية، موضع سخرية من قبل الفئات الاخرى . فعندما يتوجه يهودي من اصل مراكشي لقضاء حاجة له في مكتب حكومي ، ويصرخ في وجه الموظفين الاشكناز في حالة عدم تلبية طلبه ، فان التقليد الدارج هناك الذي يتفوه به الموظفون الاشكناز : « لماذا يصرخ هذا المراكشي »(١٢).

بيد ان « المراكشي » بشكل خاص والشرقي بشكل عام ، اخذ بعد ظهور حركة الفهود السود لا يرى في مسقط راسه او مسقط رأس آبائه شيئا معيبا ، بل غدا في بعض الاحيان يؤكد عليه ويرفعه الى مرتبة الاعتزاز المشفوعة بالتحدي . ففي افتتاح مؤتمر مهاجري شمال افريقيا الاخير ، وفي اعقاب تطرق رئيسة الحكومة غولدا مئير في كلمة لها الى الهوة الاجتماعية والى ذكر احصائيات حول ما تعتزم الحكومة عمله من اجل تقليص الهوة الاجتماعية ، قاطعها ادي ملكا احد قادة الفهود بصوت عال : « هل

ستحققين ذلك في مستوطنة مرجليوت او شلوميت ؟ الا تخجلين على نفسك من الظهور في مؤتمر مهاجري **مراكش** ؟ انا **مراكشي** ؟ »

رئيسة الحكومة : « إنا يهودية .. » .

ملكا : « انا يهودي **ومراكشي** »

رئيسة الحكومة : وماذا ايضا ؟

ملكا : انا « فهد أسود »

رئيسة الحكومة : « هذا هو بالضبط »(١٣) .

ان الاحساس المتزايد بالانتماء الاثني ، نتيجة اتساع الهوة الاجتماعية ، جعل الكثيرين في اسرائيل وخاصة من ابناء الطوائف الشرقية يعتقدون بأن المجتمع الاسرائيلي يسير في اتجاه خلق شعبين في داخله لا شعب واحد : « ماذا ستكون النهاية ؟ سنصبح هنا شعبين ، شعب الاسياد وشعب الخدم »(١٤) . اما رفائيل مرتسيانو احد قادة الفهود السود فيعتقد بوجود شعبين داخل المجتمع الاسرائيلي ، شعب اشكنازي وآخر سفارادي ، ويدعو مفكري اليهود ومثقفيهم الاسفاراديم الموجودين خارج اسرائيل الى المجيء للدولة « لقيادة الشعب الاسفارادي الذي يشكل الاكثرية في اسرائيل »(١٥) . ولعل الشعور بالاغتراب هو الحافز الكامن وراء هذه الدعوة ، ذلك ان حركة الفهود السود وليدة الهوة الاجتماعية ، قد ساعدت على تنمية الشعور بالاغتراب تجاه الدولة وتطويره ، خاصة وان اليهود الشرقيين لا يشعرون بأنهم شركاء في قيادة الدولة او في البت في القرارات الهامة ، مما خلق نوعا من الشعور بالاغتراب .

قبل التطرق الى نظرة الاسرائيليين وخاصة المسؤولين او المهتمين منهم تجاه الهوة الاجتماعية وماهيتها لا بد من التطرق قليلا الى نظرة اليهود المهاجرين حديثا الى اسرائيل تجاه الهوة لكي يتسنى لنا الوقوف على الهوة بين التصور والواقع ، بين الصورة المرتسمة في ذهنية اليهود خارج اسرائيل تجاه المجتمع الاسرائيلي ، وبين الصورة الحقيقية لهذا المجتمع . ونورد هنا مثلين على الهوة بين التصور والواقع : تطرق طلبة يهود هاجروا حديثا الى اسرائيل من الاتحاد السوفييتي في اثناء ندوة عقدوها مع طلبة من اليهود المغاربة في الجامعة العبرية الى الموضوع : « في الاتحاد السوفييتي لم نكن نعرف مطلقا انه يوجد في اسرائيل قضية طائفية وانه يوجد « سود » و« بيض » لقد كانت الصحف السوفييتية تنشر وتؤكد على وجود هذه القضايا ، بيد اننا لم نصدقها . انه لامر سيىء ان تكون هذه الامور قائمة ، اننا جميعا شعب واحد وليس طوائف طوائف »(١٦) . وتتحدث المحامية « لاره فايسبلات » وهي مهاجرة جديدة من الاتحاد السوفييتي عن تصورها والواقع الذي واجهته بقولها : « لم أؤمن في حينه للصحافة السوفييتية التي كتبت حول الصراعات في اسرائيل بين الطوائف ، بين البيض والسود ، بين المهاجرين القدامى والمهاجرين الجدد ، انه لامر مؤسف ان اقرر بأن الصحافة الروسية لم تكذب »(١٧) .

لا يختلف اثنان في اسرائيل على ان المجتمع الاسرائيلي يعاني من هوات اجتماعية متعددة وعلى رأسها الهوة الاجتماعية بين الطوائف الغربية والطوائف الشرقية التي نحن بصدد الحديث عنها ، الا ان الاختلاف يكمن في مسبباتها وعواملها كما وهنالك شبه اجماع على ان التمييز قائم في المجتمع الاسرائيلي ، بيد ان وجهات النظر متضاربة ومختلفة حول التمييز ، هل هو تمييز مقصود او غير مقصود ؟ ويرى البروفيسور يوحنان بيرس استاذ علم الاجتماع في جامعة تل ابيب ، ومن اشهر الباحثين الاجتماعيين في العلاقات الاثنية بين الطوائف في اسرائيل ، ان الهوة بين الطوائف الشرقية والغربية في اسرائيل شبيهة

الى حد ما بالهوة القائمة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة ، بين الولايات المتحدة مثلا ومصر ، بين فرنسا والهند ، بين المانيا والهند الصينية ، وانه لا أمل بسد هذه الهوة القائمة بين تلك الدول بل العكس هو الصحيح ، فالهوة دائما تتوسع لان البلدان الاكثر تطورا تعرف كيف تسخر الظروف التكنلوجية لمصلحتها ، « وكذلك هي الحال داخل الدولة ، ففي المنافسة الحرة تتقدم الطوائف المكبوتة تقدما نسبيا بسيطا ، بينما تتقدم الطوائف القوية تقدما كبيرا ، ان المنافسة الحرة تقضي على الضعفاء بالتخلف ، وتؤدي بالاقوياء الى التقدم »(١٨).

لا ينكر المسؤولون الاسرائيليون وجود الهوة الاجتماعية الا انهم يفسرون اسبابها وعواملها تفسيرات مختلفة ، فيرى البعض فيها ، من بينهم رئيسة الحكومة غولدا مئير ، انها « مستوردة من الخارج » . والحقيقة ان هذه الرؤية لا تستند الى الواقع ، وان دلت على شيء فانها تدل على عجز السلطات الاسرائيلية عن حل هذه القضية بسبب التركيبة الاجتماعية الفريدة من نوعها لمجتمع المهاجرين والمستوطنين . هذا مع العلم بأن القائلين بوجهة النظر هذه يقفون مع وجهة نظر الفئة العسكرية التي ترى استحالة رفع الرايتين الامنية والاجتماعية في آن واحد ، ومن المعروف ان الراية الامنية تنال حصة الاسد من الخزينة الاسرائيلية . ومع ذلك فهنالك مسؤولون يرون ان الهوة ناجمة عن « العيوب الاقتصادية والاجتماعية من جانب العناصر الحاكمة في الدولة » ولا يعتبرونها مستوردة مثل سكرتير الهستدروت يتسحاق بن اهارون : «ان المجتمع الاسرائيلي يكشف اليوم عن نقاط ضعف خطرة للغاية ، وانحرافات خطيرة عن الاهداف الاساسية للدولة ، التي من شأنها — لا سمح الله — ان تعرضها للخطر وتدمرها .. ان المسؤول عن المكاسب والانتصارات والاحتلال ينبغي عليه أن يكون مسؤولا عن الفشل الاجتماعي . صحيح ان معظم المتضررين من الفقر والاستقطاب الاجتماعي هم من أبناء الطوائف الشرقية ، بيد ان ذلك ليس ناجما عن تمييز بل عن عيوب اقتصادية واجتماعية من جانب العناصر الحاكمة في الدولة ... منذ حرب الايام الستة تفجرت هوة اجتماعية مؤشراتها الاساسية تتمثل في توزيع غير عادل للكعكة القومية »(١٩).

لقد مس سكرتير الهستدروت جانب الحقيقة باقراره بأن الهوة من صنع محلي ، بيد انه لم يجرؤ او على الاقل تهرب من التطرق الى اسباب وعوامل « العيوب الاقتصادية والاجتماعية من جانب العناصر الحاكمة في الدولة » وكيف يمكن ازالتها . لم يتطرق بن أهارون الى التمييز التمثيلي الذي يعاني منه ابناء الطوائف الشرقية في الهستدروت ، هذا التمييز الذي يعتبره البروفسور يوحنان بيرس من العوامل الرئيسية في بروز الهوة الاجتماعية واتساعها « ان ممثلي الطوائف الشرقية في الهستدروت اقلية ضئيلة على الرغم من كون الطوائف الشرقية تشكل السواد الاعظم من الطبقة العاملة »(٢٠) وهذا يعني ان الهستدروت تمثل مصالح فئة معينة على حساب فئة اخرى ، ولم يبتعد رافي مرتسيانو احد قادة الفهود السود عن الحقيقة عندما ذكر « ان الهستدروت لا تمثل العمال بل ارباب العمل » وغني عن القول ان طبقة ارباب العمل تتشكل اكثريتها الساحقة من ابناء الاشكناز .

هنالك فئة من الكتاب الاسرائيليين ، وخاصة من بين أوساط الاشكناز مثل « أوري دان » من يرى ان الهوة الاجتماعية امر طبيعي ، وهي ناجمة بالاصل عن التفاوت الحضاري بين المهاجرين. وبما ان طائفة الاشكناز تتفوق حضاريا على ابناء الطوائف الشرقية فمن الطبيعي ان يتربع « المتحضرون » على مقاليد الامور في البلاد ، ومن الطبيعي ايضا ان يحتل المتخلفون المراكز الدنيا . ويذهب الى أبعد من ذلك اذ يقول « لو ان دولة اسرائيل اقيمت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر لكان يهود أوروبا يشكلون الفئات الدنيا في المجتمع »(٢١). ان أوري دان وكثيرين غيره من الكتاب الاسرائيليين يعتقدون بأن

التمييز والهوة الاجتماعية ناجمان عن التفاوت الحضاري ويعتبرون ذلك بمثابة امـر طبيعي ، وهم يلتقون بذلك مع القائلين بأن الهوة الاجتماعية « مستوردة » متغاضين عن الواقع التمييزي القائم في اسرائيل .

ان الواقع التمييزي هو الذي يوسع شقة التفاوت الحضاري ويدل على ان الهوة ليست مستورده بل من انتاج محلي . ويدرك ابناء الطوائف الشرقية هذا الواقع ويتساءلون : « لماذا ينبت الكتاب والعلماء والاطباء والمحامون والمهندســون بين صفوف الطوائف الشرقية في خارج اسرائيل ، بينما يندر عددهم في البلاد ؟ الا يعني ذلك شيئا ؟ »(٢٢).

ويحمل امنون معلم (من اصل عراقي) المجتمع الاسرائيلي ما يسمى «التخلف الحضاري» لابناء الطوائف الشرقية ، مدركا ان الهوة الاجتماعية هي من انتاج محلي بقوله : لماذا يتغاضى هؤلاء الاختصاصيون عن واقع واحد : في اعوام الثلاثينات والاربعينات نجح العراق في تخريج ثانويين واكاديميين يهود أكثر بكثير مما خرجت اسرائيل خلال فترة ١٩٥١ — ١٩٧١ . ويضيف ان الكثيرين من هؤلاء اليهود خريجي المعاهد العراقية قد واصلوا دراساتهم في الجامعات المشهورة في بريطانيا وانهوا دراساتهم بامتياز ويقوم الكثيرون منهم بشغل وظائف علمية واقتصادية محترمة علـى الرغم مـن « التخلف التاريخي »(٢٣). ويعتقد امنون معلم ان الواقع التمييزي الذي واجهه اليهود الشرقيون منذ مجيئهم الى اسرائيل ، بالاضافة الى الصورة السلبية التي خلقتها وسائل الاعلام الاسرائيلية والصقتها بأبناء الطوائف من « مهاجري البلدان المتخلفة » بالاضافــة الى « فيروس » العنصرية الذي لا يزال يعتري فئات كثيرة في مجتمعنـــا مستشهدا بأولاد اشكناز ظهروا في برنامج تلفزيون وأوضحوا ان آباءهم يحذرونهم من اللعب مع أولاد الاسفاراديم ، يعتقد امنون ان هذه العوامل هي السبب في الهوة واتساعها . امـا سمحون بن شاؤول ، رئيس رابطة مهاجري شمال افريقيا ، فينسف وجهة النظـر القائلة بأن الهوة « مستوردة » من الخـــارج ، مشيرا باصبع الاتهـام الى المجتمع الاسرائيلي ، في مقارنة له بين خريجي الجامعات في اسرائيل من اليهود المغاربة وبين خريجي جامعة فاس من بين صفوف الجالية التي بقيت هناك « يوجد في اسرائيل ٤٥٠ شخصا من مهاجري شمال افريقيا انهوا دراساتهم الجامعية خلال الثلاثة والعشرين عاما لقيام الدولة . هذه مهزلة . سأطرح امامك مثالا : انني هاجرت من مدينة فاس في المغرب ، حيث بقي هناك نحو ثلاثة آلاف يهودي ، لقد تخرج من وسط هذه الجالية خلال الثلاثة والعشرين عاما الاخيرة اكاديميون أكثر بكثير ممن تخرجوا خلال سني قيام الدولة من وسط جمهور يزيد تعداده على ٤٠٠ الف نسمة من مهاجري المغرب في اسرائيل»(٢٤).

هذا بالنسبة للاوضاع التعليمية والثقافية ، اما فيما يتعلق بالظواهر السلبية التي يشار اليها بأنها « مستوردة » فقد كشف وفد يمثل طلبة الطوائف الشرقية اثناء اجتماعــه برئيسة الحكومة زيف هذا الادعاء بقوله : « ان ظاهرة الاجرام والزنى لم تكن معروفة بين صفوف الشبيبة اليهودية في شمال افريقيا مثلما هي عليه في البلاد » . ولم تنبس فولدا مئير ببنت شفة عند سماعها ذلك على الرغم من انها من القائلين بـــ «الاستيراد». اما رئيس المجلس المحلي في اور يهودا ، يحزقيل قزاز (من أصل عراقي) ، فقد اشار باصبع الاتهام الى المجتمع الاسرائيلي بقوله : « يتهمون مهاجري البلدان الاسلامية بأننا بؤرة اجرام وزنى ، ويتناسون ان اليهود في هذه البلدان لم يعرفوا البتة معنى الاجرام والزنى . ان المجرمين والزانيات من مهاجري البلدان الاسلامية هم اولئك الذين ولدوا في البلاد »(٢٥).

ان سبب تخلف اليهود الشرقيين في اسرائيل وعدم مواكبتهم سير التطور الحضاري اسوة باخوانهم الموجودين في الخارج ، نابع عن التمييز الواقعي الذي يعانون منه في المجتمع الاسرائيلي . والحقيقة ان ابناء الطوائف الشرقية يبدأون يشعرون برائحة التمييز عندما

تطأ أقدامهم اسرائيل ، حيث يبدأ الصراع بين التصور والواقع ، بين ما سمعوه من وعود وردية من قبل دعاة الصهيونية في الخارج وبين صخره الواقع التي ترتطم عليهـا هذه الوعـود . يقـول احـد نشـيطي الطائفه العراقيـه حول التمييز في المعـاملة : «... في ذلك الوقت قدمت هجرة من رومانيا ، ويتمثل الظلم الصارخ في كيفية استيعاب الطائفتين بشكلين مختلفين ، لقد نقلوا اولئك بسيارات الاوتوبيس واستقبلوهم استقبالا حارا مع الشرح والتوضيح ، بينما نقلونا في سيارات شحن بدون كلمة طيبة ـ وهكذا بدانا نشعر بالغبن»(٢٦). ومن الجدير بالذكر ان التمييز الذي يواجهه ابنـاء الطوائف الشرقية هو تمييز واقعي غير مكتوب ولا يمكن للباحث ان يعثر على اي نص في القوانين الاسرائيلية يشير الى التمييز (بين الطائفتين) ، الا انـه موجود في جميـع المجالات . فاليهودي الشرقي حتى ولو نجح في منافسة بينه وبين يهودي غربي ، فان الوظيفة لـن تكون من نصيبه ، مع ان القانون لا يقول بذلك ، بيد ان الواقع يشير الى ذلك ، كما يقول « يئير عوزاري » في ندوة حول موضوع الهوة الاجتماعية نظمتها مجلة شدموت الناطقة بلسان الحركة الكيبوتسية « فلنتحدث بصراحة . ان الذي يتحدث حول امكانية منافسة حرة ما هو الا بمثابة من يذر الرماد بالعيون . ليس هنالك منافسة حرة ، فحتى ولـو أبدى مهاجرو البلدان الاسلامية تفوقا في مقدرتهم على شباب مهاجري اوروبا فانهم لـن يحظوا بالوظيفة»(٢٧).

ولكي ندرك التمييز الواقعي غير المكتوب الناجم عن البنية الهرمية الفريدة من نوعها للمجتمع الاسرائيلي لا بد من طرح صور للاستشهاد وللتدليل على التمييز، صورة المهاجر الروسي الذي ينال بيتا ومنزلا وفي بعض الاحيان توفر له « حانوت » بواسطة سلطات الاستيعاب من اجل العيش ، وعلى الرغم من ذلك فانه يحتج ... على ان الحكومة لا توفر له الزبائن ... وفي المقابل صورة أولئك المسحوقين الذين يقولون « لقد اعطونا بصعوبة بالغة سريرين ، ولكن اذا كنت روسيا فانهم سيعطونك كل شيء ، انهم يستلمون شقتين ، شقة لهم ، والاخرى للكلب » ، صورة مجموعة من الازواج الشباب يعانون من الضائقة السكنية ويقومون بعملية « غزو » للبيوت المعدة للمهاجرين الجدد ويحتلونها لفترة بسيطة قبل طردهم على ايدي قوات الامن ، وصورة المهاجرة الروسية الجديدة التي صدف وان جاءت لرؤية الشقة التي خصصتها لها الحكومة دون ان تعلم هوية « المحتلين » ، وبعد تفقدها الشقة قالت بتأفف ان الشقة غير صالحة لها ، « وعندما قلنا لها من نحن لم ترد ان تصدق بأنهم لا يعطوننا اي شيء »(٢٨).

ذكرنا سابقا ان التمييز قائم في اسرائيل ولكنه غير مكتوب او محدد بقانون ، ومع ذلك فهنالك قوانين تسن وتشرع أو تعدل ، تبدو وكأنها لمصلحة طبقة وليس لمصلحة طائفة مع ان الحافز لذلك هو حافز اثني . فمن المعروف ان اسرائيل تشجع النسل ، ومن اجل ذلك سنت قوانين لمساعدة العائلات الكبيرة محدودة الدخل من اجل تشجيعها على زيادة النسل ، وفي ١٩٦٨/٤/١ عدل قانون مؤسسة التأمين القومي الخاص بمنح مخصصات للعائلات الكثيرة الاولاد ، بحيث اصبحت العائلة التي يقدر دخلها بـ ٣٠٠ ليرة تنال على الولد الخامس ٢٦،٢٥ ليرة ، اما العائلة التي يقدر دخلها بـ ١٠٠٠ ليرة شهريا فانها تنال على الولد الخامس ١١٨،١٣ ليرة بينما كانت تنال في السابق ٣٦،٢٩ ليرة(٢٩). ان التعديل الذي طرأ على القانون يبدو للوهلة الاولى انه يجيء لمصلحة الطبقة الموسرة التي تستطيع تربية اطفالها ، بيد ان الدافع الحقيقي له عدم تشجيع ابناء الطوائف الشرقية على التناسل ، وفي مقابل ذلك تشجيع فئة الالف ليرة ومعظمهم من ابناء الطوائف الغربية على زيادة النسل .

ان التمييز في اسـرائيل ، كما يقول الدكتور امنير شاكي نائب وزير التربية والتعليم ، « قائم في جميع المجالات : في الثقافة والتعليم والسكن والعمل » .

قبل التطرق الى المجالات الاساسية التي تبرز فيها الهوة الاجتماعية لا بد من الوقوف قليلا عند التزاوج بين ابناء الطائفتين ليتسنى لنا معرفة الهوة القائمة بين وجهتي النظر في موضوع يعتبر من المسلمات من اجل « صهر يهود الشتات » في بوتقة واحدة . فعلى الرغم من ان الزواج المختلط يعتبر عاملا اساسيا في عملية الصهر الا اننا نجد ان الزواج المختلط يسير ببطء ، ويتعثر في كثير من الاحيان ، لا بسبب الدين لان الشرع اليهودي لا يحول دون ذلك ، بل بسبب الهوة الاجتماعية والنظرة العنصرية لابناء الاشكناز . فقد احتل الزواج المختلط في عام ١٩٦٩ نسبة ١٧،٥ ٪ من الزيجات فقط : شرقي وغربية ٩،٤ ٪ ، غربي وشرقية ٨،١ ٪ . وقد أورد الدكتور يوحنان بيرس في دراسة له عن « العلاقات الاثنية في اسرائيل » نتائج بحث جرى تحت اشرافه حول وجهة نظر طلبة ثانويين من ابناء الطوائف الغربية والشرقية تجاه الزيجات المختلطة ، واظهر البحث مدى الاستعلاء العنصري لدى الاشكناز ، فقد اتضح أن ٣٩ ٪ منهم يؤيدون الزواج المختلط والنسبة الباقية تبدي تحفظا ازاءه او تعارضه معارضة تامة ، بينما وقف ٨١ ٪ من الطلبة من مهاجري آسيا وافريقيا مع الزواج المختلط(٣٠). واذا كانت الاكثرية من شباب الاشكناز تعارض الزواج المختلط فكيف الحال لدى الاباء والشيوخ الاشكناز (للاستزادة حول هذا الموضوع انظر : ظاهرة الفهود السود ، اسبابها وأصولها . شؤون فلسطينية العدد الرابع ، ص ١٥٢) .

ان السؤال الذي يتبادر الى الاذهان هو ما هو الانتماء الاثني لابناء الزيجات المختلطة ؟ ان الاجابة على ذلك تأتي من خلال مكتب الاحصاء المركزي الذي درج علـى تصنيف السكان اليهود في اسرائيل حسب الوطن الاصلي ، وابناء البلاد حسب الوطن الاصلي لآبائهم ، اما بالنسبة لاولاد الزيجات المختلطة فانهم يصنفون حسب الوطـن الاصلي للأب .

نعود الان الى الحديث عن المجالات الرئيسية التي تعبر عن الهوة الاجتماعية ، لكي يتسنى لنا الوقوف على حجم هذه الهوة وكنهها .

الهوة الاقتصادية

تعتبر الهوة الاقتصادية من العوامل الرئيسية الكامنـة وراء الهوات الاخرى الثقافية والعلمية والسكنية والوظيفية .

تفصح الهوة الاقتصادية عن نفسها من خلال النسبة المئوية لتوزيع مداخيل العائلات المدينية في اسرائيل حسب مجموعة الاعشار(٣١). ففي العام ١٩٥٤ كانت النسبة المئوية لمداخيل هذه العائلات موزعة كالتالي : العشر الاول ٢،٥ ، الثاني ٤،٥ ، الثالث ٦،٣ ، الرابع ٧،٦ ، الخامس ٨،٧ ، السادس ٩،٥ ، السابع ١٠،٤ ، الثامن ١٢،٥ ، التاسع ١٥،٣ ، الاعلى ٢٢،٧ . وفي العام ١٩٦٣/١٩٦٤ كانت النسبة المئوية موزعة (حسب الاعشار) كالتالي : ١،٦ ، ٣،٥ ، ٥ ، ٦،٥ ، ٧،٨ ، ٩،١ ، ١٠،٧ ، ١٢،٩ ، ١٦ ، ٢٦،٩ . وفي العام ١٩٦٩/٦٨ كان التوزيع كما يلي : ١،٥ ، ٣،٢ ، ٤،٩ ، ٦،٤ ، ٧،٨ ، ٩،٢ ، ١٠،٨ ، ١٣ ، ١٦،٤ ، ٢٦،٩ .

يلاحظ من هذا التوزع ان نسبة نصيب العائلات من الدخل العام ، ابتـداء من العشر الاول وحتى العشر السادس آخذة في الهبوط ، بينما نسبة نصيب العائلات ابتداء من العشر السابع وحتى العشر الاعلى آخذة بالارتفاع . بمعنى آخر ان نصيب مداخيل ٦٠ ٪ من مجموع العائلات المدينية في اسرائيل من الدخل الاجمالي للعائلات المدينية قد هبط خلال الفترة المذكورة بينما ارتفع نصيب ٤٠ ٪ من العائلات من الدخل الاجمالي . واذا أخذنا بعين الاعتبار ان « العلامات المميزة لعملية الاستقطاب الطبقي في اسرائيل تشير الى ان الطوائف الشرقية تتركز في المراتب الدنيا في جميع المجالات » كما يقول

دارسا علم الاجتماع في اسرائيل ر. بار ود. بادين فانه يتأتى لنا معرفة الفئات المتضررة من الهوة الاقتصادية القائمة والآخذة بالاتساع .

وقد نتج عن اتساع هذه الهوة مشكلة الفقر التي اصبحت تشمل ربع السكان . يقول الدكتور موشيه سنيه : « هنالك ١١ ٪ من مجموع ٦١٤ الف عائلة مدينية تحت حافة الفقر ، وهنالك ١٠،٣ ٪ على حافة الفقر ، وتشكل النسبتان ٢١،٣ ٪ ، اي ان كل عائلة خامسة في اسرائيل يسودها الفقر ، ولكن بما ان العائلات الفقيرة هي ايضاً عائلات كبيرة نجد ان ٢٤ ٪ من مجمل النفوس تحت طائلة الفقر . وهذا يعني ان كل شخص رابع يعيش في حالة فقر . ومن بين العائلات التي لديها ستة أولاد فما فوق هنالك ٣٩٪ تعيش في حالة فقر »(٣٢).

ولايضاح الهوة بين متوسط مدخول العائلة الشرقية والعائلة الغربية نورد هنا احصائية وردت في دراسة للدكتور يوحنان بيرس ، قارن فيها متوسط الدخل للعائلة الشرقية بالنسبة الى متوسط الدخل للعائلات الغربية خلال سنوات مختلفة ، وتشير هذه الاحصائية الى الاتساع البطيء بين متوسط الدخل للفئتين .

في عام ١٩٥٦ كان متوسط دخل العائلة الشرقية ٧٣ ٪ من متوسط دخل العائلة الغربية وفي العام ١٩٥٩ كان ٧٣ ٪ ، وبلغ متوسط دخل العام ١٩٦٣ ٧١ ٪ ، ٧٢ ٪ في العام ١٩٦٥ ، و٦٨ ٪ في العام ١٩٦٦ ، و٦١ ٪ في العام ١٩٦٧ ، و٧٠ ٪ في العام ١٩٦٨ ، و٦٩ ٪ في العام ١٩٦٩ (٣٣).

ان النسب الآنفة الذكر لا توضح الهوة في متوسط مستوى المعيشة بين الافراد بل بين العائلات ، ومن المعروف ان عدد افراد العائلة الشرقية يفوق عدد افراد العائلة الغربية، ولذا اعتمدنا على الاحصائية لتوضيح الهوة بين متوسط مصاريف الفرد في العائلة الغربية وبين متوسط مصاريف الفرد في العائلة الشرقية(٣٤). ففي العام ١٩٥٩ بلغ متوسط المصروف الشهري للفرد في العائلة الاشكنازية ١٣٠ ليرة ، وفي العام ١٩٦٣/٦٤ ١٧٠ ليرة ، وفي العام ١٩٦٨/١٩٦٩ ٣٥٠ ليرة مقابل ٨٠ ليرة ، ١٠٠ ليرة ، و١٩٠ ليرة للفرد في العائلة الاسفاردية . وبهذا يكون الفرق ٦٠ ٪ للعام ١٩٥٩ ، ٧٠ ٪ للعام ١٩٦٣/١٩٦٤ ، و٨٥ ٪ للعام ١٩٦٩/٦٨ .

ان الاستنتاج الذي يخرج منه المرء من هذا التوزع واضح : ازدياد الهوة في مستوى المعيشة بين العائلات الشرقية والعائلات الغربية خلال أعوام الستينات على الرغم من الارتفاع العام في مستوى المعيشة خلال هذه الفترة .

الى جانب ذلك يمكن لنا توضيح الهوة بين ابناء الطائفتين من خلال نسبة العائلات من كلا الجانبين التي تملك سيارة خاصة .

ففي العام ١٩٦٢ كانت ٦،١ ٪ من العائلات الاشكنازية تمتلك سيارة مقابل ١ ٪ من العائلات الاسفاردية ، وفي العام ١٩٦٤ كانت النسبة ١٠ ٪ مقابل ١،٧ ٪ ، وفي العام ١٩٦٩ كانت النسبة ١٧،٦ ٪ مقابل ٥،٦ ٪ ، وبذلك تكون الفجوة ٥،١ ٪ للعام ١٩٦٢ ، و٨،٣ ٪ للعام ١٩٦٤ ، و١٢ ٪ للعام ١٩٦٩ (٣٥).

من هنا يتضح لنا ان الهوة الاقتصادية بين الطوائف الغربية والشرقية آخذة بالاتساع .

الهوة السكنية

لكي ندرك الهوة السكنية لا بد من الرجوع الى مراحل استيعاب المهاجرين التي تمت عقب قيام اسرائيل . لقد مرت عملية الاستيعاب بمراحل عدة ، مرحلة المخيمات ومرحلة المعابر ، وهاتان المرحلتان كانتا من أقسى مراحل الاستيعاب، ثم اعقبتهما مرحلة اتسمت بالافتقار الى التخطيط ، أقيمت فيها ضواح سكنية بسيطة بالقرب من المدن بواسطة

شركة « عميدار » الاسرائيلية . وتلت هذه المراحل الثلاث التي أملتها الظروف لمواجهة سيل الهجرة الجماعية في مطلع الخمسينات ، مرحلة جديدة للاستيعاب بدأت في النصف الثاني من الخمسينات ولا تزال حتى اليوم ، مرحلة الاستيعاب المخطط ، تعتمد على التخطيط المدروس في اقامة الضواحي والمستوطنات الدائمة .

خلال المراحل الاولى الثلاث سكن المهاجرون من اليهود الشرقيين والغربيين على حد سواء في المخيمات وفي المدن العربية المهجورة والمعابر والضواحي البسيطة التي اقامتها شركة عميدار ، ولم يكن هنالك تمييز يذكر في عملية اقتسام هذه البيوت لان واقعها التعيس لا يسمح بقيام تمييز . بيد ان التمييز بدأ يظهر جليا عند البدء في المرحلة الجديدة التي اتسمت بالتخطيط المدروس والتي كان القصد منها نقل المهاجرين من مراحل الانتقال الثلاث السابقة الى مرحلة استيعاب جديدة، وقد سارت هذه المرحلة في اتجاهين : الاول بناء ضواحي سكنية جميلة قرب المدن الاسرائيلية وفي المناطق الجميلة ، والاخرى اقامة « قرى تطوير » في المناطق النائية بالاضافة الى اقامة مستوطنات على مختلف انماطها. ومن هنا بدأت عملية الفرز والاستقطاب الاثني المبنية على التمييز . اذ اخذ اليهود من ابناء الطوائف الغربية يوجهون الى الضواحي الجميلة بمنحهم قروضا حكومية ، واخذ اليهود من ابناء الطوائف الشرقية يوجهون بشكل عام الى ما يعرف بقرى التطوير والقرى الزراعية النائية . وبذلك ولدت الهوة السكنية عند منتصف الخمسينات واخذت تتسع الى ان بلغت حجمها الراهن في مطلع السبعينات ، وكان لها دور في عملية الاستقطاب الطبقي الاثني ، وفي زيادة حجم الهوة الثقافية والاقتصادية .

سارت عملية استقطاب ابناء الطوائف الغربية في الضواحي الجميلة وفي المدن سيرا حثيثا وتخطت عمليات الاستيعاب المرحلية ، بينما تعثرت عملية نقل أبناء الطوائف الشرقية الى مرحلة الاستيعاب الجديدة ، حيث بقي قسم منهم في المعابر وفي البيوت العربية المهجورة وفي المساكن البسيطة كشركة عميدار . ومن هنا بدأت تظهر ما يعرف بالاحياء الفقيرة في المدن ، ووجه قسم آخر الى القرى الزراعية ، وخاصة الى قرى التطوير .

كان في اسرائيل (حتى نهاية عام ١٩٦٨) نحو ٣٠٠ موقع سكني فقير (احياء فقيرة ومعابر ومساكن عميدار) ويبلغ تعداد سكانها نحو ٤٥٠ الف نسمة (قرابة مئة الف عائلة) . وفيما يتعلق بالمدينتين الرئيسيتين في اسرائيل ، القدس وتل ابيب ، فقد اظهر بحث لكلية الشؤون الاجتماعية التابعة للجامعة العبرية حول قضايا الفقر في القدس ان ١٨،١٢٤ عائلة يبلغ تعداد افرادها ٦٨،٨١٧ نسمة (اي ربع سكان القدس اليهودية) تسكن في مساكن غير صالحة للسكن ، كما وأوضح البحث ان هنالك عشرة آلاف مسكن آخر على حافة الخلل والتحول الى الاحياء الفقيرة(٣٦). اما في تل ابيب كبرى المدن الاسرائيلية ، فقد ذكر نائب رئيس البلدية استنادا الى دراسة اجرتها بلدية تل ابيب ان كل شخص ثالث في هذه المدينة يعيش بظروف فقر وان ٢٨ الف عائلة يبلغ تعدادها ١٣٠ الف نسمة تسكن في مباني غير صالحة شبيهة بالاكواخ . اما البروفيسور يتسحاق هلبرخت ، رئيس الجمعية الاسرائيلية لتخطيط العائلة ، فقد ذكر انه يوجد في تل ابيب ١٢٠ الف نسمة (٢٨ الف عائلة) يعيشون تحت حافة الفقر او بالقرب منها(٣٧).

ومن المعروف ان عملية الفرز الطبقي او الاستقطاب الاجتماعي القائمة على التمييز في المجتمع الحديث قد جعلت هذه الاحياء من نصيب ابناء الطوائف الشرقية ، الامر الذي ادى الى خلق ظواهر سلبية . ذلك ان الظروف السكنية الصعبة في الاحياء الفقيرة تعتبر أساسا لجميع الظواهر السلبية : هروب آباء وأبناء من البيت ، تفكك الاسرة ، انتعاش بؤر السموم والزنى ، وقيام عصابات شوارع تنهمك في أعمال السطو والنهب . ومن المعروف انه يوجد في تل ابيب قرابة ٢٠٠ عصابة ، تضم كل واحدة منها ما بين ٢٠ الى

٦٠ فتى(٣٨) من أبناء الاحياء الفقيرة ، ويقوم هؤلاء في بعض الاحيان بمهاجمة الضواحي الغنية في شمال تل ابيب ويصطدمون مع الفتية الاشكناز .

ومما تجدر الاشارة اليه ان الاحياء الفقيرة في المدن هي بمثابة بؤر اشعاع لغضب ابناء الطوائف الشرقية وسخطهم وانتفاضاتهم على اوضاعهم اكثر مما هو الحال عليه في قرى التطوير او المستوطنات الزراعية ، ذلك ان هذه الاحياء تقع بالقرب من الضواحي الغنية والجميلة التي تستوعب المهاجرين الجدد ، احيـاء تكاد تكون معتمة يسكنهـا اليهود الشرقيون واحياء تعج بالاضواء من نصيب اليهود الغربيين .

الى جانب الاحياء الفقيرة في المدن ، هنالك أمكنة تجمع لليهود الشرقيين في قرى التطوير التي بنتها سلطات الاستيعاب في الاماكن النائية في النصف الثاني من الخمسينات . وقد بلغ عدد هذه القرى نحو ٣٠ قرية وصل تعداد سكانها في نهاية عام ١٩٦٨ قرابة ٤٣٢ نسمة من مجموع ٢٠٥ مليون يهودي في ذلك الوقت . وتزيد نسبة ابناء الطوائف الشرقية في هذه القرى على ٨٠٪ (٣٩) من مجموع مستوطنيها .

تعاني قرى التطوير من اوضاع اقتصادية صعبة ، ولذا فان ظاهرة الهجرة المعاكسة منها الى المدن والمستوطنات غدت قويـة ، الامر الذي يزيد مـن حدة تأزم الاوضاع الاقتصادية . ويصف البروفيسور نتان ليتسفيلد هذه الظاهرة بقوله : « وبما ان اصحاب الكفاءات والمهن الحرة يهجرون قرى التطوير فان المستوى الاجتماعي الاقتصادي يهبط باستمرار ، ولو لم يكن هنالك نزوح في اعوام الستينات فان الزيادة في عدد سكان قرى التطوير ستصل الى ثلاثة اضعاف الزيادة الحقيقية . ان هذه القرى تتدهور الى وحدة طائفية ووظيفية ووحدة في الدخل بمستوى اجتماعي اقتصادي منخفض »(٤٠). امـا الاوضاع الثقافية والتعليمية فانها لا تقل عن الاوضاع الاقتصادية المتدهورة ، ففي هذه القرى نجد ان ثلث السكان لم يحصل على ثقافة ابتدائية مطلقا او تعلم ٤ اعوام فقط ، بينما تصل هذه النسبة بين صفوف السكان اليهود كافة في اسرائيل الى السدس(٤١) . وعلى الرغم من الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المتردية في قرى التطوير ، فلا نجد فيها مظاهر عنف واحتجاج على هذه الاوضاع بالمقدار نفسه الموجود في الاحياء الفقيرة في المدن بسبب بعدها عن الضواحي الجميلة المعدة للمهاجرين الجدد من ابنـاء الطوائف الغربية . ولذا فان مظاهر الغضب والتمرد على اوضاعها تكون عادة انعكاسا لمظاهر التمرد التي يقوم بها سكان المدن من ابناء الطوائف الشرقية .

ويمكن ايضاح الهوة السكنية بين ابناء الطائفتين ــ اذا استثنينا عامل جمال المنطقة ــ بواسطة الاحصائية التالية حول النسبة المئوية للعائلات التي تسكن بحالة اكتظاظ (عدد الاشخاص في الغرفة يزيد على ثلاثة اشخاص)(٤٢):

في العام ١٩٦٤ كان ٤٨ ٪ من العائلات الاسفاردية يسكنون في بيوت مكتظة مقابل ١٢ ٪ من العائلات الاشكنازية . وفي العام ١٩٦٥ كانت النسبـة ٣٠ ٪ للاسفارديين و٦ ٪ للاشكنازيين ، وفي العام ١٩٦٩ كانت النسبة ٢٠٪ و٢ ٪ بالتتالي . وبهذا تكون الهوة اربعة اضعاف في العام ١٩٦٤ ، وارتفعت الى خمسة اضعاف في العام ١٩٦٥ ، والى عشرة اضعاف في العام ١٩٦٩ .

يتضح من ذلك انه على الرغم من ارتفاع مستوى السكن خلال الستينات فان الهوة السكنية اتسعت بشكل مضطرد بين الطائفتين .

الهوة الثقافية

كان من نتيجة التمييز الواقعي في المجتمع الاسرائيلي وظهور الهوتين الاقتصادية والسكنية ان ظهرت على السطح هوة أخرى وتعززت بهما، يندر وجودها في أي مجتمع من المنظومة العالمية تكون فيه الهوة سحيقة الى هذا الحد بين مجموعة اثنية تشكل اكثرية السكان

لا تنال من العلم الا النذر اليسير ، وبين مجموعة الاقلية التي تشكل الشريحة المتعلمة للمجتمع ككل ، الا وهي الهوة الثقافية .

هنالك اسباب عدة وراء هذه الهوة :

١ ـ التمييز الواقعي الذي يلف بين جناحيه جميع المجالات في اسرائيل وخاصة الاقتصادية والسكنية والوظيفية .

٢ ـ رغبة السلطات العليا في توجيه تلاميذ ابناء الطوائف الشرقية لدراسة الموضوعات المهنية في المدارس الصناعية والزراعية .

٣ ـ غياب عامل تكافؤ الفرص في الحصول على الوظيفة ، حيث يفضل الغربي في شغل الوظيفة حتى ولو كان الشرقي متفوقا عليه في حالة المنافسة الحرة على شغل وظيفة أو منصب حكومي ، الامر الذي يدفع الطالب الشرقي الى البحث عن مجال عيش آخر غير مجال التعليم .

٤ ـ التباين بين المدارس ، فمدارس الاحياء « الراقية » التي يتلقى العلم فيها ابناء الاشكناز تمتاز بمبانيها الجميلة وباستكمالها مستلزمات المدرسة الحديثة كافة . اما مدارس الاحياء الفقيرة وقرى التطوير فانها تختلف عن الاولى من ناحية المباني ، وتفتقر الى متطلبات المدرسة العصرية على الرغم من ان هذه المدارس تتبع مباشرة وزارة التعليم .

٥ ـ التباين في كفاءة المعلمين ، فقد درجت وزارة المعارف على ارسال المعلمين ذوي الكفاءات الى مدارس الضواحي الراقية ، اما المعلمون الاقل كفاءة او الذين يفتقرون الى كفاءات تدريسية فيستقطبون في الضواحي الفقيرة وقرى التطوير .

٦ ـ وأخيرا طبيعة البرامج الدراسية ، حيث تشتمل هذه البرامج على تاريخ الطوائف الغربية وحضارتها وآدابها وتمر مر الكرام على تاريخ ابناء الطوائف الشرقية وحضارتهم وآدابهم ، هذا مع العلم ان ابناء الطوائف الشرقية كانوا حتى القرن الثالث عشر مركزا مضيئا للحضارة اليهودية « انهم لا يعرفون ولا يتعلمون في البلاد تاريخ يهود البلدان الاسلامية » كما يقول مردخاي الجري رئيس حركة « عوديد » الامر الذي يجعل الطالب الشرقي يمر في مرحلة شبيهة بمرحلة عملية غسل الدماغ ، لا يعرف شيئا عن تاريخ آبائه واجداده حتى ليخيل اليه ان لا اصول حضارية له ، الا الاصول الحضارية لابناء الاشكناز . هذا فضلا عن ان تاريخ ابناء الطوائف الغربية ممل ويتسم بطابع الاسى والحزن ، والقاسم المشترك لتراث ابناء هذه الفئة وأدبهم وتاريخهم يتلخص في كلمة واحدة : الاضطهاد ، بينما تراث ابناء الطوائف الشرقية وآدبها شبيه بالتراث الانساني ويخلو من عقدة الاضطهاد .

تفصح الهوة الثقافية في المجال التعليمي عن نفسها في التدني المضطرد في نسبة تمثيل اليهود الشرقيين في المراحل الدراسية الثلاث : الابتدائية من الصف الاول حتى الثامن (الزامية ومجانية) والثانوية من التاسع حتى الثاني عشر (مقابل اقساط) والمرحلة الجامعية (مقابل اقساط) . ففي الصف الاول الابتدائي نجد ان نسبة الطلبة الشرقيين قريبة من نسبتهم العامة في اسرائيل ، اذ يحتلون نسبة تزيد على ٦٢ ٪ بيد ان هذه النسبة تأخذ في التدني الى ان تصل في الصف الثامن الى ٤٥ ٪(٤٣). اما النسبة في المدارس الثانوية فانها تأخذ بالتدني الشديد لتصل الى ١٧٫٧ ٪ . وتمثل هذه النسبة المدارس الثانوية والمهنية والزراعية كافة . ويتوزع ابناء الطوائف الشرقية على الفروع الثلاثة بالنسبة التالية(٤٤):

	الصف التاسع	العاشر	الحادي عشر	الثاني عشر	مجموع الصفوف الاربع
في المدارس الثانوية (النظرية)	١٥،٨	١٣،٨	٩،٨	٧،٨	١٢،٦
في المدارس الصناعية	٢٩،٧	٢٥،٥	٢٠،٤	١١،٨	٢٥،١
في المدارس الزراعية	٣٣،٩	٢٦،٤	٢٢،٣	١١،٦	٢٦،٧
في المدارس كافة	٢٢،١	١٨،٥	١٤،٤	٨،٨	١٧،٧

هناك عدة ملاحظات على الجدول المذكور :

١ ــ ليس هنالك شك بأن التدني المضطرد في نسبة تمثيل اليهود الشرقيين في المرحلة الثانوية ناجم عن اوضاعهم الاقتصادية المتردية ، فالمداخيل المنخفضة لا تؤدي بشكل عام الى ثقافة عالية خاصة في بلد يفرض اقساطا شهريــة مرتفعة علــى تلاميذ المدارس الثانوية ، كما ان الثقافة المتدنية (وهذا الامر ناجم عن طبيعة المجتمع) تعرقل امكانية الحصول على مداخيل عالية ، وهذه هي الدائرة المفرغة المفروضة عــلى ابناء الطوائف الشرقية . ٢ ــ من الملاحظ ان نسبة الطلبة الشرقيين في المدارس الصناعية والزراعية اعلى منها في المدارس الثانوية النظرية ، ويعود ذلك الى تشجيع السلطات وقيامها ببناء مدارس من هذين الفرعين بين صفوف الطوائف الشرقية على حساب المدارس الثانوية النظرية . ٣ ــ وفيما يتعلق بالمدارس الثانوية فاننا نرى ان نسبة الطلبة الشرقيين فيها متدنية بشكل كبير حيث تصل الى نصف النسبة في كل المدارس الصناعية والزراعية ، وكان يمكن لهذه النسبة ان تكون ادنى بكثير من ١٢،٥ ٪ لولا استيعاب هذه المدارس لاعداد من المهاجرين الشرقيين وخاصة من ابناء شمال افريقيا الذين انهوا جزءا من دراساتهم الثانوية في فرنسا ، ذلك ان هذا النوع من المدارس غير متوفر بشكل كاف في المناطق التي يسكنها الشرقيون ، بل في الضواحي التي تخص ابناء الطوائف الغربية ، الامر الذي يضطر الطالب الشرقي على الانتقال من ضاحية الى ضاحية اخرى في الفترة التي يبلغ فيها سن البلوغ والمراهقة ، وهذان الامران يؤثران تأثيرا حاسما على مسلكه وتصرفه . فهو من ناحية يشعر بأنه أصبح في محيط جديد ، ويحاول التأقلم فيه ، فيبدأ بالتشبه بأبناء الاشكناز من حيث المأكل والملبس والخروج مع الفتيات ، الا انه من ناحية ثانية لا يستطيع لاسباب مادية ، بالاضافة الى الخجل والحساسية ، الحصول على مبتغاه . وبين الرغبة في الحصول على ما يريد والعراقيل التي تقف أمامه ، يتعثر الطالب الشرقي في مدرسته الجديدة ويبدأ بالتفكير في الخروج منها . وهذا ما يفسر لنا التدني في نسبة تمثيلهم في هذا النوع من المدارس(٤٥)، التي تعتبر البوابة الرئيسية ان لم تكن الوحيدة لدخول الجامعات الاسرائيلية . هذا مع العلم ان نسبة من يتلقون دراساتهم في الصف الثاني عشر في المدارس الثانوية من ابناء الطوائف الشرقية تصل الى ٧،٨ ٪ فقط .

وفيما يتعلق بتمثيل أبناء الطوائف الشرقية في المعاهد الاسرائيلية فانه يأخذ ايضا بالتدني، حيث ان نسبة الحاصلين على الدرجة الجامعية الاولى تصل الى ٧٪ اما نسبة الحاصلين على الدكتوراه فتصل الى ٣ ٪ فقط .

هذا فيما يتعلق بالتعليم خلال المراحل الدراسية الثلاث ، والسؤال الذي يتبادر الــى الاذهان ، ما هي نسبة تمثيلهم في الهيئة الاكاديمية ؟ لا تتوفر حتى الان احصائية رسمية حول هذا الموضوع، الا أن نائب وزير التربية والتعليم الدكتور افنير شاكي اجرى دراسة بمساعدة الجامعات الاسرائيلية تشير الى وجود هوية كبــيرة في التمثيل في الهيئــة الاكاديمية(٤٦) . ففي معهد الهندسة التطبيقية في حيفا هنالك ٨٠ محاضرا (من اصل

اسيوي افريقي) من مجموع ٨٠٠ محاضر واستاذ اي ١٠ ٪ وفي جامعة تل ابيب يوجد ٣٥ محاضرا من مجموع ١٠٠٠ محاضر واستاذ اي ٣٥ ٪ ، اما في معهد وايزمان فهنالك ثلاثة علماء فقط (واحد من مراكش ، وآخر من تونس والثالث من العراق) من مجموع ٣٧٠ عالما ، اي ان النسبة تقل عن ١ ٪ . ولم تتوفر احصائيات عن بقية الجامعات والمعاهد .

من الملاحظ ان الهوة الثقافية بين ابناء الطائفتين واسعة ، وتأخذ بالاتساع الشديد في المراحل العليا من الدراسة ، ويعتقد الدكتور يوحنان بيرس ان المساواة في التعليم بين ابناء الطائفتين ستستغرق مدة طويلة ، ويقدر هذه المدة بـ ٨٠ عاما !

الهوة في المؤسسة العسكرية

يخطىء من يتصور ان الهوة لم تمتد الى الجيش الاسرائيلي . فالهوة التي شملت المجالات الاقتصادية والسكنية والثقافية امتدت ايضا الى المؤسسة العسكرية في اسرائيل وشملتها . وتعكس الهوة نفسها في سلم الرتب العسكرية وهي شبيهة الى حد بعيد بسلم المراحل التعليمية ، الا انها تتفوق عليها في كون المرتبة العليا — هيئة الاركان — تخلو تماما من ابناء الطوائف الشرقية . وتسير عملية الاستقطاب في سلم الرتب العسكرية نتيجة للهوة الاجتماعية ، في مسار اثني ، « فعدد العسكريين (الشرقيين) يأخذ دائما بالهبوط كلما تسلقنا الرتب العسكرية » بينما يأخذ عددهم بالازدياد في حالة الهبوط في سلم الرتب ، وتبلغ النسبة أوجها في المرتبة الدنيا . يقول عوفير يسرائيل من كفار فيتكين ، ٣٢ عاما ، احد اعضاء لجنة عينتها رئيسة الحكومة لمعالجة القضايا الاجتماعية « ينبغي ان لا تعتقد بأن الوضع في الجيش هو على ما يرام . ليتك تعرف كيف تتوزع الرتب في الجيش من الناحية الطائفية . الا ان الجيش الاسرائيلي ينجح في الحفاظ على التكتل ، ويا ويلنا اذا ما انتهك هذا التكتل بشكل خطير خارج الاطار العسكري . ومن الواضح لي ان ذلك سينعكس بشكل خطر على الجيش ايضا »(٤٧).

ويعود نجاح الجيش الاسرائيلي « في الحفاظ على التكتل » لاسباب عدة منها : ١ — ان الجيش الاسرائيلي — كأي جيش آخر — يخضع لاوامر وتعليمات عسكرية تحول دون زج افراده في نقاشات سياسية حول مواضيع حساسة مثل التمييز كما وتحول دون التيارات السياسية المختلفة في اسرائيل من القيام بنشاطات سياسية بين صفوفه .

٢ — ان الهوة الاقتصادية في الجيش ليست كالهوة الاقتصادية خارج اطار الجيش .

٣ — ان العلاقة بين فئة الجنود وبين فئة الضباط تخلو بقدر الامكان من الشوائب البيروقراطية والعسكرية .

ومع ذلك فان الهوة قائمة ، ويشعر ابناء الطوائف الشرقية بالغبن اللاحق بهم نتيجة احتكار فئة الاشكناز لمناصب هيئة الاركان ويشكون من عدم تمثيلهم في المناصب العليا . ويفسر البعض منهم ذلك بشك الاشكناز في ولائهم : « سمعت ذات مرة ان شخصية كبيرة اجابت عندما سئلت عن عدم وجود ضباط كبار في الطوائف الشرقية ، بأن السبب يعود الى انهم لا يثقون فيهم حتى النهاية ... الى ان جاء يسرائيل بار ويسرائيل كستر ، وأثبتا انه يوجد ايضا خونة اشكناز »(٤٨).

وعلى الرغم من نجاح الجيش الاسرائيلي في الحفاظ على التكتل فان التناقضات الاجتماعية الاثنية تعكس نفسها على الفئتين الرئيسيتين وتؤدي في بعض الاحيان الى التصادم والاشتباك بالايدي بين صفوفه « فكثيرا ما يحدث » كما يقول عمران بن كوهين الذي خدم في الجيش في سلاح المظليين : «ان تقع اشتباكات بين الاشكناز والاسفارديم» « ... في فبراير ١٩٦٧ تطوعت في سلاح المظليين ولم انجح في ازالة الفوارق التي

اقامها الاخرون حول ابناء طائفتي ، وقد حدثت أكثر من مرة اشتباكات بين الاشكناز والإسفاراديم ... كانوا ينعتوننا بالمجرمين او « مراكشي مسكين » كل ذلك ضمن اطار الجيش ، ولم يكن ذلك دائما بروح طيبة ، وحينذاك نصل الى الاشتباك . لم يكن لنا اي شيء مشترك مع ابناء الكيبوتس والاشكناز الاخرين »(٤٩) . وهذه هي المرة الاولى التي تتكشف فيها الصراعات داخل الجيش على اساس اجتماعي اثني ، ولعل هذه الصراعات كانت من بين الاسباب التي دعت بعض المسؤولين للتحذير من « خراب الهيكل الثالث » .

الا أن ما هو أخطر من هذه الاشتباكات ، توصل البعض من ابناء الطوائف الشرقية الى التمرد على الخدمة العسكرية وذلك بواسطة ارجاع الهويات العسكرية الى الجيش ادراكا منهم بأن الجيش هو المكان الوحيد الذي تحتاجهم فيه السلطات العليا ، حيث يشكل ابناء الطوائف الشرقية لبنة أساسية في حجمه ، مطلقين صرخة المسحوقين الذين يساقون الى الحروب لمصلحة الاسياد : « نقاتل من اجل من ؟ » أو كما يقول حانوخا مزراحي احد المتمردين على الخدمة العسكرية « انهم يرسلوننا الى الجيش للمحافظة على المتحف الخاص بموشيه ديان ، في الوقت الذي لا نملك فيه مكانا للنوم — لماذا ينبغي علينا أن نذهب للجيش ؟ » او كما يقول زميله « جيورا » : « عندما روى زميلان لنا بأنهما تلقيا أمرا بالانخراط في سلك الاحتياط ، فكرنا : نقاتل من اجل من ؟ ولماذا نقاتل ؟ عندما كنا ابناء ١٨ عاما ذهبنا الى الجيش بقلب مفعم بالحب ... واعتقدنا ان ذلك بمثابة فخر لنا ، ولكن اتضح بمرور الزمن ان الجيش هو بمثابة المكان الوحيد الذي تستخدمنا فيه الدولة .. ليس من المعقول ان يطلبوا منا ان نقدم أرواحنا لدولة لا توفر لنا ادنى الشروط للعيش كبشر » . ولعل ما هو أخطر من ارجاع الهويات العسكرية ، ظاهرة التهديد باستخدام العنف من قبل المتمردين على الخدمة العسكرية ، الذين لا يرون في ارجاع الهويات آخر المطاف في نضالهم ، بل حلقة تؤدي الى حلقة العنف كما يقول حانوخا مزراحي « اننا نأمل في ان يستمعوا الينا الان ، **وان لا يعطونا فرصة لاستخدام ما تعلمناه في الجيش** ... ولكن في المكان الذي يسيطر فيه قانون الغاب — مثل هذه البلاد — في المكان الذي لا يمكن فيه الحصول على شيء الا عن طريق العنف ، فاننا لن نتردد ايضا نحن عن التصرف كالآخرين . لن نأكل الطين ونقول بأنه عسل »(٥٠) .

الى جانب هؤلاء المتمردين الذين يحذرون من « ان لا يعطونا فرصة لاستخدام ما تعلمناه في الجيش » هنالك كاتب اسرائيلي يدعى يهودا نيني (من أصل يمني استطاع بعصاميته أن يثقف نفسه بنفسه ويحصل على الدرجة الجامعية العليا) لم يتوجه الى السلاح مهددا ، بل توجه الى من ماتوا تحت السلاح عام ١٩٤٨ من بين اليهود الشرقيين وخاصة اليمنيين منهم ، توجه اليهم ليخبرهم بأنهم ماتوا ميتة رخيصة ، ماتوا نتيجة الكذب والخداع والتضليل من قبل تجار الحروب « وانني اعرف كيف سقطوا ، واعرف أعمالهم حتى ساعتهم الاخيرة ، الا انهم لا يعرفون اعمالنا ، انهم لا يعرفون الى أي حد خانهم المجتمع الاسرائيلي ، الى أي حد هانت المثل التي قاتلوا من أجلها ، انهم لا يعرفون بأن تجار الحروب أولئك الذين يعتقدون بأن دماءهم أكثر احمرارا من دمائهم ، هم المسيطرون اليوم »(٥١) .

ويبلغ يهودا نيني الذروة في مرثيته بقوله : « لقد قلت — انني لست ذاهبا الى قبورهم ، ولكن يبدو لي انه يتوجب علي أن أذهب لاقول لهم انهم خدعوهم وضللوهم وغرروا بهم ، لاقول لهم بأن موتهم كان رخيصا وتضحيتهم ذهبت سدى ، لاقول لهم ان آباءهم يسكنون الجحور والكهوف بينما تقاسم الآخرون فيما بينهم الاماكن الجميلة في البلاد ، ويبدو لي انه ينبغي علي ان أزورهم لاقول لهم « ان الذروة في حياتكم هي لحظة مماتكم ... » لاقول لهم ان الشعلة المضيئة من قبورهم قد أخمدتها أنهار الكذب وان رماد الشعلة قد جرفته أنهار الفساد ... »(٥٢) .

كان من نتيجة الهوة الاجتماعية ، ان برزت اشكال متعددة للصراع ضد الواقع التمييزي لابناء الطوائف الشرقية ، وقد تحددت هذه الصراعات في قوالب معينة ومتفاوتة ، تتفاوت في العنف والمسيرة ، في الطلب باستعطاف او الاخذ بالقوة ، في الهبة المنظمة من خلال تنظيم ، او الهبة العفوية الشعبية . واشهر الحركات التي برزت نتيجة الواقع التمييزي: ١ — حركة الفهود السود (انظر ظاهرة الفهود السود ، أسبابها وأصولها . شؤون فلسطينية ، العدد الرابع ، ص ١٤٢) . ٢ — ظاهرة الازواج الشباب (انظر شؤون فلسطينية ، العدد العاشر ، ص ٦٥) . ٣ — حركة عوديد : تمتاز هذه الحركة التي انشئت في أوائل الستينات على أيدي مثقفين من ابناء مراكش بعدم ثوريتها وبمسايرتها للسلطة ، وتقوم بنشاطات تثقيفية بين أوساط مهاجرين يهود شمالي أفريقيا ، وتعمل من أجل زيادة تمثيل اليهود الشرقيين في المراحل التدريسية المختلفة . ومن الجدير بالذكر ان المؤسسة الحاكمة تغمر حركة « عوديد » بعطفها ، بينما تصب جام غضبها على حركة الفهود السود والازواج الشباب .

اما على الصعيد الشعبي فقد تباينت أشكال النضال واتخذت قوالب مختلفة مثل الاضرابات والتظاهرات والتهديد بالتنصر ومغادرة البلاد . على ان أخطر سلاح نضالي اتخذ حتى الان هو سلاح النزوح من المستوطنة او القرية واخلائها من سكانها حتى تتحقق مطاليبهم . ففي ٧٢/٣/٢٦ قام سكان قرية « زرعيت » في الجليل الاعلى (يهود شرقيون) باخلاء قريتهم لمدة اسبوع احتجاجا على أوضاعهم الصعبة وعلى الواقع التمييزي الذي يعانون منه ، وتمت عملية النزوح على الرغم من المحاولات الكبيرة التي بذلتها السلطات الاسرائيلية لمنع الاهالي من الاقدام على استخدام مثل هذا السلاح . وقد بقيت القرية طوال أسبوع خالية من سكانها . وتعتبر عملية النزوح هذه ظاهرة جديدة في اسرائيل ، ولم يسبق لها ان حدثت في فترة اليشوف او فترة قيام الدولة .

. . .

لا بد لنا في نهاية حديثنا من التطرق الى ظاهرة الكراهية التي ولدت نتيجة التركيبة الفريدة للمجتمع الاسرائيلي ، وتلفعت في أحضان الهوة الاجتماعية ، ونمت وترعرعت تحت ظلال التمييز . ان كراهية ابناء الطوائف الشرقية للغربيين ناجمة بالاصل عن الواقع الاستغلالي الذي يرزحون تحته ، اما كراهية الجانب الآخر فهي نابعة بالاصل عن النظرة الاستعلائية المشفوعة بالعنصرية . وقد عبرت يهودية روسية ذات ثقافة اكاديمية عن مشاعر كثير من الاشكناز عند تطرقها لموضوع الكراهية بقولها : « ... صحيح اننا نكرههم . وصحيح انهم يكرهوننا . اننا اسرائيليون وهم اسرائيليون بيد ان سورا كبيرا يفصل بيننا . اننا نعيش في مستويات مختلفة ومفاهيم مختلفة . اننا نتحدث بشكل آخر ونفكر بشكل آخر وينظر الواحد منا الى الثاني بشكل آخر ... ان هذا لاكثر من طائفتين مختلفتين ... هذا بمثابة شعبين مختلفين ... صدقني هذه ليست عنصرية ، ان ذلك ليس مسألة لون جلد وكذلك ليس مسألة البلد الاصلي . ان هذا الذي يحدث ناجم عن الكراهية الثقافية ، هذا اذا كان لكراهية أن تشمل ضمن اطار مفهوم الثقافة . انني أكرههم لانني أتخوف من الانتقال ليلا في تلك الشوارع التي يتجولون فيها ، انني أكرههم بسبب نظراتهم ، بسبب كلماتهم البذيئة التي يطلقونها خلفنا ، بسبب جميع الاعمال الخسيسة الي يحاولون القيام بها ضدنا ... انني أكرههم لانهم يلوثون الحيطان والدرجات ويقومون بتدمير الممتلكات العامة ، ويمقتون الجمال ، ويستحسنون القباحة والوساخة . انني أكرههم لانهم يكرهوننا لكوننا أنظف وأجمل ، فبدل ان يحاولوا ان يكونوا مثلنا ، يحاولون ان نكون نحن مثلهم »(٥٢) .

الحواشي :

١ — يديعوت احرونوت ٧١/١٢/١٥ .
٢ — معاريف ٧١/١٢/١٠ .
٣ — مجلة بمعرخاه — للاسفاراديم والطوائف الشرقية — حزيران ١٩٧١ ، ص ٢٢ .
٤ — ملحق هآرتس ٧١/٩/٢٤ .
٥ — دافار ٧١/٤/١١ .
٦ — يديعوت أحرونوت ٧٢/٣/٣١ .
٧ — موشيه ليسك وآخرون (محررون) **مهاجرون في اسرائيل** (عبري) اكدمون الجامعة العبرية القدس ١٩٦٩ ، ص ٢٨ .
٨ — ايزنشتات وآخرون (محررون) . **البنية الاجتماعية لاسرائيل** (عبري) اكدمون الجامعة العبرية ، القدس ، ١٩٦٩ ، ص ٣٠٦ .
٩ — ملحق معاريف ٧١/٨/١٣ .
١٠ — موشيه ليسك واخرون (محررون) **المصدر السابق** ، ص ١٥٢ .
١١ — مجلة مولاد عدد ٩ — ٢٠ (٢١٩ — ٢٣٠) ص ٦٩ .
١٢ — ملحق هآرتس ٧١/٩/٢٤ .
١٣ — معاريف ٧١/٣/٢٩ .
١٤ — ملحق هآرتس ٧١/٩/٢٤ .
١٥ — معاريف ٧٢/٣/٣١ .
١٦ — معاريف ٧١/١١/١١ .
١٧ — معاريف ٧٢/٣/٢٩ .
١٨ — مجلة شدموت (لحركة الكيبوتسات) عدد ٤٣ ، ١٩٧١ ، ص ٢٢ .
١٩ — معاريف ٧١/٣/٣١ .
٢٠ — يديعوت احرونوت ٧١/٩/١٣ .
٢١ — يديعوت احرونوت ٧١/٦/٧ .
٢٢ — بمعرخاه عدد ١٣٢ ، ص ٦ ، آذار ١٩٧٢ .
٢٣ — يديعوت احرونوت ٧١/٦/٧ .
٢٤ — معاريف ٧١/٥/٢٨ .
٢٥ — ملحق دافار ٧١/٥/١٤ .
٢٦ — ايزنشتات ، **المصدر السابق** ، ص ٣١٤ .
٢٧ — شدموت، عدد ٤٣، ١٩٧١ ، ص ٢٢—٢٣.
٢٨ — ملحق عل همشمار (حوتام) ٧١/٧/٩ .
٢٩ — للاستزادة انظر كتاب ابراهام درون وآخرون (محررون) **سياسة الرخاء في اسرائيل** (عبري) اكدمون الجامعة العبرية ، القدس ، ١٩٦٩ ، ص ٢١٣ .
٣٠ — مجلة اوت ٧١/٩/٩ ، ص ٨ .
٣١ — مجلة بشاعر مايو/يونيو ١٩٧١ ، ص ١٧٤.
٣٢ — يديعوت احرونوت ٧١/٤/٩ .
٣٣ — شدموت ، عدد ٤٣ ، ١٩٧١ ، ص ٢٠ .
٣٤ — ملحق عل همشمار ٧١/٣/١٢ .
٣٥ — ملحق عل همشمار ٧١/٣/١٢ .
٣٦ — دافار ٧٢/٤/١٦ .
٣٧ — معاريف ٧٢/٤/٢٧ .
٣٨ — ملحق هآرتس ٧٢/٤/٢١ .
٣٩ — عفوداه ، مجلة شهرية تصدر عن وزارة العمل ، ١٥ يناير ١٩٧١ ، ص ٤ .
٤٠ — ملحق عل همشمار ٧١/٣/١٩ .
٤١ — مجلة عفوداه ، ١٥ يناير ١٩٧١ ، ص ٤ .
٤٢ — ملحق عل همشمار ٧١/٣/١٢ .
٤٣ — مجلة اوت ٧١/٦/١٧ ، ص ١٨ .
٤٤ — ايزنشتات وآخرون (محررون) **الثقافة والمجتمع في اسرائيل** (عبري) اكدمون الجامعة العبرية ، القدس ١٩٦٨ ، ص ١٤٠ .
٤٥ — مجلة اوت ٧١/٦/١٣ ، ص ٨ .
٤٦ — مجلة اوت ٧١/٥/٢٧ ، ص ١٦ .
٤٧ — ملحق عل همشمار ٧٢/٤/٢٨ .
٤٨ — معاريف ٧١/٩/١٠ .
٤٩ — ملحق عل همشمار ٧١/١٠/٨ .
٥٠ — هعولام هزيه ٧٢/٣/١٥ .
٥١ — شدموت ، عدد ٤١ ، ص ٥٥ .
٥٢ — شدموت ، عدد ٤١ ، ص ٥٧ .
٥٣ — معاريف ٧١/١/٨ .

حوار مع مدينة

محمود درويش

يحمل الحلمُ سيفاً
ويقطع أعناق من يحلمونْ
بما سيكون –

هكذا أخبرتني المدينةُ حين غفوتُ على ركبتيها
لم أكن حاضراً
لم أكن غائباً
كنتُ بين الحضور وبين الغيابْ
حجراً .. أو سحابهْ

– تشبهين الكآبة
قلتُ لها باختصار شديد
تشبهين الكآبهْ
ولكنّ صدركِ صار مظاهرة العائدين من الموت .
ما كنتُ جنديّ هذا المكان
وثوريّ هذا الزمان
لأحمل لافتة ، أو عصا ، في الشوارعِ .
كان لقائي قصيراً
وكان وداعي سريعاً

وكانت تصيرُ الى امرأة عاطفيّه
فالتحمتُ بهـا
وحلمت بهـا
وصارت تفاصيلـُها ورقاً في الخريف ،
فلملمها عسكريُّ المرور ،
ورتّبها في ملفّ الحكومهْ
– تشبهين المدينةَ حـين أكون غريباً –
قلتُ لها باختصار شديد :
تشبهين المدينه
هل رآكِ الجنودُ على حافة الأرضِ
هل هربوا منكِ
أم رجموك بقنبلة يدويهْ ؟.
قالت المرأةُ العاطفيهْ :
كلّ شيء يلامس جسمي
يتحوّلُ
أو يتشكلُ
حتى الحجارةُ تغدو عصافير ..
قلتُ لهـا باكياً :
ولمـاذا أنا
أتشرّدُ
أو أتبدّدُ
بين الرياح وبين الشعوب ؟.
فأجابت :
في الخريف تعود العصافير من حـالة البحر
– هذا هو الوقت ؟
– لا وقت
وابتدأتْ أُغنيـهْ :
في الخريف ، تعود العصافير من حالة البحر ،
هذا هو الوقت ، لا وقت

— ماذا تكون البقيّه ؟
— أنتَ تصنعها
— أذهبُ الآن ؟
— لا تذهب الآن . إنّ الرياح على خطأ دائماً
والمدينةُ أقربْ .
— أنتِ المدينةُ
— لستُ مدينه
أنا امرأةٌ عاطفيه
هكذا قلتَ قبل قليل
واكتشفتَ الدليل ،
وأنتَ البقيّه
— آه ، كنتُ الضحيه
فهل سأكون الدليل .

وكنتُ أُعانقها ، كنت أسألها نازفاً :
— أأنتِ بعيده ؟
— على بُعد حلم من الآن
والحلمُ يحمل سيفاً
ويقطع أعناق من يحلمون
بما سيكون .
— كيف أُكمل أُغنيتي
والتفاصيل ضاعت ، وضاع الدليل ؟
— إنتهتْ صورتي ..
والمياهُ عبودية السمكِ ، البرُّ حريةٌ ،
فابتدىءْ من ضياعك .

أموتُ – أُحبكِ
إنّ ثلاثة أشياء لا تنتهي :
أنتِ – والحبُّ – والموتُ ،
قبّلتُ خنجرك الحلوَ
ثمّ احتميتُ بكفّيكِ ..
أنْ تقتليني ،
وأن توقفيني عن الموت –
هذا هو الحبُّ
إني أُحبُّكِ حين أموت
وحين أُحبك
أشعرُ أني أموت
فكوني امرأه
وكوني مدينه
ولكن ، لماذا سقطتِ .. لماذا احترقت
بلا سببٍ ؟
ولماذا ترهّلتِ في خيمةٍ عربيه ؟
– لأنكَ كنتَ تمارس موتاً بدون شهيّه
وأضافت ، كأن القدرْ
يتكسّرُ في صوتها :
هل رأيتَ المدينة تسقطُ
أم كنتَ أنت الذي يتدحرج من شرفة الله
قافلةً من سبايا ؟
هل رأيتَ المدينة تهربُ
أم كنت أنت الذي يحتمي بالزوايا ؟.
المدينةُ لا تسقطُ . الناس تسقطْ !.

ورويداً .. رويداً تفتّتَ وجهُ المدينه
لم نحوّل حصاها الى لغةٍ
لم نسجّل شوارعها
لم ندافع عن البابِ
لم ينضج الموتُ فينـا .
كانت الذكريات مقرّاً لحكّام ثورتها السابقه ..
ومرّ ثلاثون عاماً
وألفُ خريف
وخمسُ حروب
وجئتُ المدينةَ منهزماً من جديد
كان سورُ المدينة يُشبهني
وقلت لهـا :
سأحاول حبّكِ ...

أنا لا أذكر ، الآن ، شكل المدينه ،
لا أذكر اسمي
ينادونني حسب الطقس .. والأمزجه ،
لقد سقط اسمي بين تفاصيل تلك المدينه
لمله عسكريّ المرور
ورتّبه في ملفّ الحكومه
– تشبهين الهوية حين أكون غريباً
تشبهين الهويّـه
وتساءلتُ :
– هل تكون الهزيمةُ أصلا
أم تكون الهزيمةُ ظـلّا
فأجابت :

– ليس قلبي قرنفلةً
ليس جسمي حقلاً .
– ما تكونين ؟
هل أنت أحلى النساء وأحلى المدنْ ؟
– للذي يتناسل فوق سطوح السفنْ .
وأضافت :
بين شوك الجبال
وبين أماسي الهزائمِ
كان مخاضي عسيراً
– ذاك من قَدَر العاشقات اللواتي
ينازلن ظُلمَ الزمنْ ،
فلماذا تكونين سيِّدةَ الليلة القادمه
– لأني سيدةُ الذكريات
– وهل عذّبوكِ لأجلي ؟
– عذّبوكَ لأجلي !.
– هل عرفتِ الندمْ
– ألنساءُ – المدنْ
قادراتٌ على الحب ، هل أنتَ قادر ؟
– أحاول حبّك
لكنّ كل السلاسل
تلتفّ حول ذراعيّ حين أحاولْ .
هل تخونينني ؟
– حين تأتي اليّ !.
– هل تموتين قبلي
سألتكِ : مُوتي !.
– أيُجديكَ مَوْتي ؟
– أصيرُ طليقاً
لأنّ نوافذ حبّي عبوديّةٌ

والمقابرُ ليست تثير اهتمام أحدْ .
وحـين تموتـين
أكملُ موتي .
– توقّـفْ عن الحب .. يقتربِ الموتُ منك ، فحاول !.

– أموتُ – أحبك
إن ثلاثة أشياء لا تنتهي :
أنتِ – والحبُ – والموتُ .
أن تقتليني ،
وأن توقفيني عن الموت –
هذا هو الحب .

في الخريف ، أناديك .
أحملُ خاصرةَ اللهِ ،
حنجرةَ الأنبيـاء ،
وأحذيةَ الشهداء ،
وأكتافَ كل العبيد ..

أناديك : هـذا هو البحرُ
هـذا هو الـبرُّ
لا مركبي ينتهي
ولا شاطئي يبتدىء

.. وانتهت رحلتي – فابتدأتُ
وهذا هو الوقت – ألا يكون لشكلكِ وقت
لم تكوني مدينــه
الشوارعُ كانت قـبُبَلْ
وكان الحوار نزيفاً
وكان الجبــلْ
عسكريّاً . وكان الصنوبر خنجرْ .
ولا امرأةً كنتِ
كانت ذراعاك نهرين من جُثَث وسنابلْ
وكان جبينك بيدرْ
وعيناك نار القبائل .
وكنتُ أنا من مواليد عام الرحيل
ونسل السلاسل !

يحمل الحـلمُ سيفاً
ويقطع أعناق من يحلمون
بما سيكون –
هكذا أخبرتني المدينةُ حين غفوتُ على ركبتيها
لم أكن غائبــاً
لم أكن حاضراً
كنتُ مختفياً بالقصيدهْ
[إذا انفجرتْ من دمائي قصيده
تصيرُ المدينة وردا]
كنت أمتشقُ الحلمَ من ضلعها
وأُحاربُ نفسي
كنتُ أُعلن يأسي
على صدرها ، فتصير امرأه
كنتُ أعلن حبّي

على صدرها ، فتصير مدينه .
كنت أُعلن أن رحيلي قريب
وأنّ الرياح ، وأن الشعوب
تتعاطى جراحي حبوباً لمنع الحروب .

وانتهتْ رحلتي —
فابتَدَأتْ
كما يبدأ الذاهبون الى المقبره
كما يبدأ العائدون من المجزره
— تَشَكَّلْ
تحوَّلْ
فإن المدينة أجملْ .

تغرَّبْ
تشعبْ
فإن المدينة أقربْ

وحاولْ
وقاتلْ
فإن المدينة حامل .

وصرتُ تفاصيل تلك المدينة ،
صرتُ العلاقة بين الولادة والمشنقه .
عرفت مواعيد موتي وحبي
وأكملتُ دائرة الجرح والزنبقة

وانتهتْ رحلتي —
فابتدأت ...

عقدة ثيودور هرتزل :
بين العم توم ودون كيشوت

أ. ن. سعد

ان كاتبي سيرة ثيودور هرتزل يتغافلون عن معالجة او حتى ذكر بعض العناصر التي تشكلت منها نفسية مؤسس الصهيونية وساهمت ، وربما أدت بشكل حاسم ، الى توصله الى الصهيونية التي صاغ مخططا لها على طريقته الخاصة . فحرصهم على استنباط الصفات التي ارتأوا انها ايجابية في شخصية هرتزل ، مثل تمسكه بالقضية التي تبناها واندفاعه وراءها ، جعلتهم يتجاهلون الصفات الاخرى التي قد لا تكون ايجابية ولكنها ذات مغزى هام في تفهم العوامل النفسية التي حددت هوية شخصيته ومسارها الى الصهيونية . وكما هي حال كل ما يتعلق بالمشكلة الصهيونية في فلسطين ، قد يبدو ضروريا الخوض في مناقشة هؤلاء الكتاب وجميعهم من الصهيونيين او المؤيدين للصهيونية . ولكن اهتمامنا هنا لا يقع في مثل هذا المنهج المتبع تقليديا الى حد ما ، بل ستقتصر معالجتنا على طرح وتحليل بعض الوقائع التي يمكن ايجادها بكثرة في كتابات هرتزل نفسه وخاصة في مذكراته الشخصية التي نشرت مؤخرا بكاملها في اربعة مجلدات كبيرة(١)، والتي تحتوي على أشمل الدلالات والاشارات وأدقها الى نوعية تفكير هرتزل وبنيان شخصيته . وسيجد القارىء في مجال هذه المقالة القصيرة ، ان استعمالنا لكلمة « عقدة » في العنوان أعلاه ليس من باب الاحكام المسبقة والشتائم التي قد يرسلها كاتب متحيز ضد الحركة التي يقال ان ثيودور هرتزل تزعمها . وان بدا ان البعض يمتنع عن النظر في حكم التعقيد على مؤسس حركة اثبتت تاريخيا قدرتها على تحقيق أهدافها بوجه جميع الصعوبات ، فعلينا التأكيد والتذكير بأن الانطباعات الحالية لا تحدد ، ولا ينبغي أن تحدد ، منظورنا لوقائع موضوعية تعود الى فترة ما قبل ثلاثة ارباع قرن من الزمن ، خاصة وان لدينا المصادر الوثائقية المباشرة والمتمثلة في اقوال هرتزل نفسه في مذكراته والتي هي بحد ذاتها ووحدها، أدت بنا الى الاستنتاج بأن توصل هرتزل الى الصهيونية مثل آخرين من الصهيونيين ، كان تجسيدا وانعكاسا للتخبط النفسي .

العم توم اليهودي

ان شخصية العم توم معروفة جدا في الغرب وخاصة في الولايات المتحدة ، الا انها قد لا تكون معروفة بهذا القدر لدى القارىء العربي . وعبارة العم توم رائجة جدا اليوم اذ تستعمل للاشارة الى السود الذين يجهدون في تأييد النظام القائم والمؤسسة الحاكمة في الولايات المتحدة وتبرير ممارساتهما.وتعود هذه الشخصية التي أصبحت شبه ميثولوجية وأسطورية الان ، الى رواية ((**كوخ العم توم**)) التي كتبتها الروائية الاميركية البيضاء ، هارييت بيتشرستو ، في شكل أقاصيص متسلسلة في احدى المجلات الاميركية في عامي ١٨٥١ — ١٨٥٢ قبيل الحرب الاهلية التي ادى انتصار الشمال فيها الى الغاء العبودية . وتحكي هذه الرواية قصة توم، العبد الزنجي العميق الايمان بالمسيحية الذي يتفانى في خدمة سيده الابيض وفي الصلاة من اجله باستمرار الى ان باعه سيده عندما

واجهته صعوبات مالية فانتقل الى خدمة سيد آخر يقال انه كان ذا شخصية متعمقة وطيبة . فتفانى توم في حبه وخدمته وخدمة ابنته الطفلة التي كانت تحبه لانه علمها الالعاب والاغاني وأخبرها القصص الى أن توفيت وتوفي والدها فانتقلت ملكية توم الى سيد آخر كان سيىء الخلق فأخذ توم يصلي من أجله الى أن توفي نتيجة الضرب المبرح الذي تلقاه من سيده الجديد .

ثمة جانب آخر من رواية **كوخ العم توم** لا يسعنا تجاهلها نظرا لارتباطها وتشابهها نوعا ما بموضوعنا الحالي . فالى جانب العم توم تحكي الرواية قصة آخرين من العبيد الزنوج الذين كانوا مستعبدين في المزرعة الاولى التي خدم فيها العم توم: جورج وزوجته وابناؤهما الذين فضلوا الهرب على ان تتفتت عائلتهم عند بيعهم، فذهبوا الى الشمال الى أن انتهى بهم المطاف في كندا حيث لم يعرفوا ماذا سيحل بهم . وكانت في الولايات المتحدة آنذاك قد قامت حركة ، او بالاحرى ، اقيمت حركة سوداء بتأييد من الحكومة الاميركية ، سعت لتهجير السود المعتقين الى ليبيريا التي قامت البحرية الاميركية باحتلالها واقامة دولة « مستقلة » فيها يحكمها السود الاميركيون المستوطنون في خدمة الدولة الام التي تبنت حركتهم ومكنتها من تحقيق أهدافها . وقد ارتأت مؤلفة الرواية ان تنهيها بقرار جورج وعائلته الاستيطان بليبيريا . وبعدها ختمت روايتها بالشعارات التي اطلقتها عن الحضارة التي سينقلها المستوطنون السود الى أفريقيه بمساعدة وتشجيع من الكنائس البروتستانتية الاميركية .

لا بد ان القارىء قد يتحسس من عرضنا للخطوط العريضة لهذه الرواية أوجه تشابهها مع قصة هرتزل والصهيونية . فثيودور هرتزل كان بمثابة التجسيد اليهودي لشخصية العم توم اذ انه كان يتنكر لليهودية واليهود. وغالبا ما ردد في مذكراته الاقوال عن اعجابه بغير اليهود وخاصة ابناء الطبقات الرفيعة منهم من الالمان (خاصة البروسيين) والبريطانيين والفرنسيين الذين تطلع اليهم على انهم المثال الاعلى الذي ينبغي ان يحتذى من أجل التنميق والذوق الرفيع والحضارة . وقد قال اكثر من مرة انه لا يلوم اللاساميين من غير اليهود على اضطهادهم لليهود وسجل في مذكراته مرة واحدة على الاقل ان اللاساميين على حق كما ردد مرارا قوله ان اللاساميين سيكونون افضل حلفاء الصهيونية . وعلى نهج حركة ليبيريا كان هرتزل يتكلم عن اعتقاده بأن اليهود في « البلاد الجديدة » سينقلون معهم عناصر الحضارة الاوروبية الى الشرق المتخلف(٢). ومن يعرف أوضاع دولة ليبيريا اليوم ، بما فيها من تمييز يلقاه الافريقيون السود من السكان الاصليين على أيدي المستوطنين الاميركيين السود الذين يشكلون العنصر الحاكم في البلاد ويديرون دفتها باتفاق دائم مع سياسة الولايات المتحدة الاميركية ، مع ما يقابله ذلك في اسرائيل من تمييز ضد السكان العرب الاصليين واليهود الشرقيين من اصل عربي على أيدي المستوطنين من اليهود الغربيين الذين يحكمون البلاد وفق سياسة تبعية لحكومة الولايات المتحدة ، يمكنه ان يرى وجه الشبه بين « الحل » الذي دعت مؤلفة شخصية العم توم اليه و« الحل » الذي اعتنقه هرتزل للمشكلة اليهودية .

ان المقارنة التي نحن بصددها بين ثيودور هرتزل وشخصية العم توم ، لم تأت تلقائيا او عفويا بل اقتبسناها من اشارة بهذا المعنى وردت في مذكرات هرتزل نفسه . فعند توصله الى الصهيونية في صيف ١٨٩٥ كان هرتزل يقيم في باريس حيث كان يعمل مراسلا صحفيا يكتب الاقاصيص والنوادر عن الاوساط السياسية الفرنسية التي كانت تنشر في صحيفة **نيو فراي برس** في فيينه بالنمسه حيث كانت تقيم عائلته . وقد كان هرتزل يكتب المسرحيات من آن الى آخر ، وهذا ، بالاضافة الى عمله الصحافي وكتابة الاقصوصة ، جعله على اتصال ببعض الكتاب الفرنسيين . ويبدو انه ، من بين هؤلاء ، كان على معرفة واتصال ، وربما صداقة وثيقة ، بالكاتب الصحفي الفرنسي ، **الفونس دوداي** ،

الذي كان يحرر في صحيفة **البارول ليبر** الفرنسية والذي عرف هو وصحيفته باللاسامية والتحامل على الاقل . ولا حاجة لان يستغرب القارىء من صداقة هرتزل اليهودي مع هذا اللاسامي المتحيز ضد اليهود اذ ان الكثيرين ممن صادقوا هرتزل ورحبوا بأفكاره وربتوا له على كتفيه كانوا من اللاساميين كما نعلم من المذكرات . ويخبرنا هرتزل في بداية مذكراته اليومية التي باشر كتابتها فور توصله الى الصهيونية انه التقى يوما بدوداي فجرى الحديث بينهما عن اليهود فأخبره دوداي انه لاسامي بالحرف الواحد ودون تردد . عندها يبدو ان هرتزل قال له انه ينوي تأليف كتاب يدور موضوعه حول اليهود. فسأله دوداي : « رواية ؟ » . فأجابه هرتزل : « كلا . . . كتاب رجال » . فلم يتحمس دوداي لذلك وقال له : « ان الرواية تصل الى آفاق اوسع ، فكر **بكوخ العم توم** » . وعندها اخذ هرتزل يشرح تفاصيل ما ينوي كتابته مما اثار اهتمام دوداي لدرجة انه قال : « كم هذا جميل ، كم هذا جميل » !

كان هرتزل قد كتب مسرحية بعنوان **الغيتو الجديد** كانت ، من جملة اشياء اخرى ، تعبيرا عن شخصية العم توم اليهودي اذ ان بطلها ، المحامي اليهودي ساموئيل ، كان مثاليا يجهد في خدمة موكله الاريستوقراطي الصناعي المسيحي ويدافع عن مصالحه ضد ابتزازات شريكيه اليهوديين اللذين كان احدهما زوج اخت ساموئيل . الا ان الرواية التي بطلها دون شك انعكاس لشخصية هرتزل قد حوت كذلك طابع الدون كيشوتية المأساوية خاصة وانها تنتهي باختلاف ساموئيل مع موكله الاريستوقراطي حين يشك الاخير في اخلاص المحامي ويتهمه بالتواطؤ مع زوج اخته ويشتمه بكلمات مهينة لليهود فتقوم مبارزة بينهما ويصاب ساموئيل بجرح قاتل ويلفظ مع انفاسه الاخيرة الكلمات التالية : « يا ايها اليهود ، اخواني ، لن يسمح لكم بالعيش بعد اليوم ، حتى تخرجوا من الغيتو » .

وهذه الرواية التي فسرت على انها استنكار المحامي اليهودي المنصهر في المجتمع الاوروبي لطريقة العيش اليهودية المنغلقة والتقليدية في الاحياء اليهودية ، كان هرتزل قد كتبها وسط تصاعد قضية الضابط اليهودي الفرنسي درايفوس الذي حوكم بتهمة الخيانة والعمل لالمانيه — اي قبل لقاء هرتزل ودوداي والذي ذكرناه اعلاه ، ببضعة اشهر . اما بعد هذا اللقاء ، فيبدو ان ذاكرة هرتزل عادت الى مسرحية كان قد بدأ بكتابتها منذ عام ١٨٩١ وأراد فيها اظهار التفاوت بين جماهير اليهود الفقراء واثرياء اليهود من خلال اقتباس عن قصة شاب يهودي كان يعرفه هرتزل انتحر آنذاك في برلين . وعند عودته من لقاء دوداي راجع هرتزل ، كما يخبرنا باختصار في مذكراته ، الفصل الاخير من مسودة هذه المسرحية حيث يعالج المناخ السابق للانتحار اذ يذهب بطل الرواية ، واسمه ساموئيل ايضا ، في جولة مسائية في احد الشوارع ويحس باحساس التعالي على الجميع علما منه بموته القريب ويسخر في ذهنه من ضباط الحرس الذين كان بوسعه ان يأخذ أي واحد منهم معه الى الموت . ورأى نفسه وكأنه قائد ، وراح يمشي بأبهة وعجرفة حتى اصبح الجميع يخلون الطريق امامه مما اكسبه الثقة والهدوء النفسي فذهب الى بيته وانتحر بهدوء .

قرر هرتزل بعد قراءته لهذه المسودة ، وربما بتأثير من دوداي ، ان يغير هذه المسرحية بحيث لم يعد ساموئيل المنتحر بطل الرواية ، بل مجرد شخصية ثانوية فيها ، ويصبح البطل احد أصدقاء ساموئيل الذي توصله حياته الى «اكتشاف او تأسيس ارض الميعاد». ويسمع البطل بانتحار صديقه وهو على الباخرة برفقة مجموعة من الضباط المستكشفين البحرين معه ، فيمتعض كثيرا الا انه يتطلع بثبات الى الافق باتجاه أرض الميعاد .

سرعان ما تخلى هرتزل عن فكرة كتابة الرواية التي نصحه دوداي بها وباشر كتابة برنامج عملي نشر فيما بعد (في العام المقبل) في كراس الدولة اليهودية . الا أن قراءة

دقيقة لهذا الكراس تكشف ، من خلال كلامه عن تفاصيل رحلة الاسطول الذي سينقل المهاجرين الى البلاد الجديدة لبناء الدولة ، مزيجا غريبا من الجدية الساذجة والروائية الخيالية . اما الرواية عن اكتشاف ارض الميعاد فلم يعد اليها هرتزل حتى عام ١٩٠٢ حين كتب روايته المشهورة **الارض القديمة الجديدة** والتي ضمن فيها رؤيته الخيالية لدولة المستقبل . وتحكي هذه الرواية قصة الشاب اليهودي الفييني الفقير الذي يتعرف الى مليونير اميركي سئم الحياة يقترح عليه مرافقته في رحلة الى المحيط الهادىء للابتعاد عن العالم الخارجي نهائيا . ولكن بعد ان يبحر اليخت المنمق المترف بقليل يذهبان لسبب ما لقضاء بضعة ايام في فلسطين فيجدانها بلادا يعمها الخراب والقحل والقذارة . فيستأنفان السفر الى المحيط الهادىء حيث يمكثان مدة عشرين سنة ثم يعودان عـــن طريق قناة السويس باتجاه اوروبه فيجدان ، باختصار ، ان فلسطين على أيدي اليهود قد اصبحت بلادا عامرة ، مركز المواصلات فيها المرافىء وخطوط السكك الحديدية . وحتى يهود أوروبه الشرقية الذين سبق واشمأز هرتزل من حياتهم في **الغيتو الجديد** ومسرحيات وكتابات اخرى ، ارتأى هرتزل ان يراهم في البلاد الجديدة في فلسطين متمدنين يجالسون الاريستوقراطيين البريطانيين ويشربون معهم الشاي !

وهكذا عبر هذه المسرحيات ومسودات المسرحيات انتقل بطل هرتزل من الانتحار ، الى خدمة الاريستوقراطي المسيحي في اوروبه ، الى المبارزة معه ، الى الابتعاد عن اوروبه، برفقة الضباط المستكشفين ثم برفقة المليونير الاميركي ، الى مجالسة الاريستوقراطيين . واذا بدا ان عنصر « العم تومية » لدى هرتزل ليس بارزا بروزا تاما من خلال مسحنا لهذه المسرحيات ، فان عودة منا الى ما قبل توصل هرتزل الى الصهيونية من شأنها ان توضح الامور توضيحا اضافيا .

يبدو من قراءة الفقرة الطويلة الاولى التي بدأ هرتزل بها تسجيل مذكراته ان المشكلة اليهودية بالمعنى الشخصي ــ اي يهودية هرتزل ــ كانت تشكل بالنسبة له موضوع قلق نفسي منذ أمد بعيد . ويقول انه ربما كانت هناك اوقات فكر خلالهـــا بالابتعاد عن المشكلة النفسية التي عانى منها عن طريق اعتناق المسيحية . ولكن على أي حال فهو بخبرنا انه اثناء اقامته في باريس عام ١٨٩٣ كان قد توصل الى حل للمشكلة اليهودية بمساعدة الكنيسة الكاثوليكية . فقد استنبط مخططا للتوصل الى لقاء البابا من خلال رؤساء الكنيسة في النمسه كي يقول له : «ساعدونا ضد اللاسامية وانا اتعهد بأن انشىء حركة كبيرة لتحقيق اعتناق اليهود للمسيحية بطريقة حرة ومحترمة » . واعتبر هرتزل ان حركته ستكون « حرة ومحترمة » نظرا لان زعماء الحركة ــ بمن فيهم هو نفسه ــ سيبقون على يهوديتهم بحيث يشجعون الاخرين على اعتناق المسيحية ــ ديانة الاغلبية . وارتأى هرتزل على طريقته الخيالية بأن تتم احتفالات اعتناق المسيحية بفخر في وضح النهار في كاتيدرائية كبيرة ايام الاحد وسط رنين الاجراس . وبهذا فقد اقتنع هرتزل بأن هذا الحل سيؤدي الى اعتناق جميع الاطفال اليهود للديانة المسيحية قبل بلوغهم سن الرشد مما يؤدي الى اختفاء اليهود دون الضرورة الى تنصر جيله الحالي . وما ان اكتشف هرتزل هذا الحل حتى باشر بتدوين تفاصيل تنفيذه وراح يتأمل نفسه ماثلا امام رئيس اساقفة فيينه والبابا يعرض عليهما مشروعه ويرسل الشعارات عن تخالط الاجناس !

يبدو ان هرتزل كان قد أخذ مشروعه هذا بكامل الجد والحماسة وقرر ان يقنع محرري صحيفة **نيو فراي برس** التي كان يعمل لصلحتها في فيينه على تبني المشروع والترويج له . الا أنهم رفضوا مشروعه وقال له احدهم ، موريتز بندكت ، « ان مئات الاجيال بقيت على ديانتها اليهودية وانت تريد ان تجعل من نفسك نقطة النهاية لذلك » . وربما فسر هرتزل هذا الرفض على انه نتيجة نظرة المحررين اليه على انه مجـــرد ثرثار وكاتب

اقاصيص تافهة . الا ان بندكت قال له كذلك : « وعلى كل حال فان البابا لن يستقبلك » . ولا يمكننا البت نهائيا هل تخلى هرتزل عن هذا الحل — اي عن طريق تنصير اليهود — بعد توصله الى الصهيونية ، اذ انه اختتم كراسه **الدولة اليهودية** فيما بعد بالقول بأن اليهود في دولة المستقبل سيختفون كليا . كما ردد في مذكراته مرارا اصراره على رفض اللغة العبرية وتفضيله اللغة الالمانية في دولة المستقبل . وعلى اي حال فان العقدة اليهودية ، عقدة احتقار الذات اليهودية هذه ، رافقت هرتزل طوال فترة نشاطه الصهيوني ولازمته حتى وفاته .

كانت طبقة النبلاء الالمان وخاصة البروسيين هي المثال الاعلى لثيودور هرتزل . فهو قد سجل في مذكراته في ٢٧ حزيران (يونيو) ١٨٩٥ مثلا : « ان كان هناك شيء اصبو اليه فهو أن أكون أحد أعضاء طبقة النبلاء البروسية العريقة » . وعندما فكر بامكان اقامة دولة المستقبل تحت حماية المانيه ، سجل هرتزل في مذكراته يوم ٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٨ : « ان نعيش تحت حماية دولة المانيه القوية والعظيمة والاخلاقية والرائعة الحكم والوثيقة التنظيم — فهذا ليس من شأنه الا ان تكون له افضل الاثار في الشخصية القومية اليهودية » .

الا أن تطلع هرتزل الى المسيحيين الاوروبيين لم يقتصر على الالمان . فهو أراد — كما سجل في مذكراته ليوم ٩ حزيران (يونيو) ١٨٩٥ — أن تنشأ المبارزات في دولته كي تسبغ « نوعا من التنميق الفرنسي على المجتمع الافضل » . كما سجل في اليوم نفسه ما يلي : « لكي أصبح في مركز احترام وتقدير في البلاطات الاوروبية ينبغي علي ان أؤمن لنفسي الحصول على جميع الاوسمة وأسماها مبتدئا بالاوسمة الانكليزية » .

ومما يشير الى تطلع هرتزل الى طريقة العيش المسيحية الاوروبية المترفعة وتنكره لكل ما هو يهودي ، تسجيله لزيارته للضابط البريطاني من اصل يهودي ، الكولونيل غولدسميد في منزله في كارديف بانكلتره . ويسجل هرتزل عن هذه الزيارة شعوره بأنه قد وجد نفسه في عالم آخر في الجو البريطاني المنمق الذي أحاط بحياة الكولونيل ومظهره ، وخاصة في الامسية التي دعي فيها عازف البيانو روزنثال الى منزل غولدسميد ، فلاحظ هرتزل ان زوجة الكولونيل وابنته كانتا تصغيان الى العزف بمظهر رشيق ، فراحت تتراءى في ذهنه النسوة اليهوديات الاريستوقراطيات في دولة المستقبل: مخلوقات فاتنات ، بلمسة شرقية ، لطيفات وحالمات . « حقا في عالم آخر » ... الى ان وقعت انظاره على قطعة تزيين فيها لفافة مخطوطة من التوراة اعادته الى عالمه الحالي .

في ١٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٨ حين كان هرتزل في زيارة الى اسطنبول ذهب الى المسرح في الهواء الطلق Les Petits Champs هناك فوجد أن فرقة تمثيل يهودية كانت تقدم احدى المسرحيات باللغة اليديشية فاغتاظ جدا ، وتذكر زيارته السابقة لهذا المسرح منذ ثلاثة اعوام حين كانت فرقة الاوبرا الخفيفة الايطالية La Morisana تؤدي غناءها فأعجبه المناخ الرقيق . اما الفرقة اليهودية اليديشية فقد انقبضت نفسه لدى رؤيتها وسجل في مذكراته لذلك اليوم : « انني أحس بانطباع كئيب . فهذا الفن الحقير يشكل أعلى منجزات جماهيرنا التي تتكلم لغتها الهجينة ، ومستواها الحالي يجب تمييزه على انه في حالة هزيلة يرثى لها . فقد اشمأزيت » !

لا مجال لنا هنا لايراد المزيد من الامثلة الكثيرة في المذكرات التي تشير الى كراهية النفس اليهودية التي عانى منها هرتزل . وهذه الامثلة تظهر بوضوح ان هرتزل كان قد تقبل جميع ما قاله اللاساميون غير اليهود عن اليهود من أقوال مهينة لهم حتى انه كان يردد عددا منها في مذكراته . ونذكر فيما يتعلق بكراس الدولة اليهودية الذي اصدره ، انه لم

يتمكن من ايجاد ناشر يهودي يتعهد باصداره مما حدا به الـى طبعه لدى اثنين مـن اللاساميين غير يهوديين في فيينه ممن رحبوا به . وفي لقاء له معهما قال له احدهما : « لقد آن الاوان لان يقف رجل ما بشجاعة ويقول الامور الواجب قولها » .

اما محرر صحيفة **نيو فراي برس** اليهودي، بندكت، فقد حذر هرتزل (في ٤ شباط(فبراير) ١٨٩٦) من نتيجة طرحه « لحله » الصهيوني في كراسه وقال له ان السيل الذي قد يبدأ تحريكه بناء على الاقتراحات التي اوردها هرتـزل في كراسه سيؤدي الـى الاضرار بالمصالح اليهودية كافة . واضاف : « اننا نتيجة لذلك سنخسر اوطاننا الحالية قبل ان ننال الدولة اليهودية » . الا أن ذلك ، وتحذيرات آخرين من معارف هرتزل الاخرين ، لم تثنه عن عزمه فمضى في اصدار الكراس .

وكان النائب النمساوي سيموناي اول مـن رحب بالكراس ، وكان هذا مشهـورا باللاسامية في الصحيفة التي كان يصدرها ، فراح يكتب المقالات الواحدة تلو الاخرى يمدح فيها هرتزل ويصفه بعبارات الشهامة والحماسة لارائه . ولما التقى هرتزل بهذا الرجل في ٣٠ آذار (مارس) ١٨٩٦ كتب عنه في المذكرات ما يلي : « انـه رجل في الستينات متقلب ماكر وثرثار يكن لليهود قدرا من العطف المذهل وحديثه خليط من المعقول والهراء يصدق قصة القتل الطقوسي الكاذبة عن اليهود ، ومع ذلـك له أبهى الافكار واحدثها . انه يحبني » !

اما الرجل الاخر الذي تحمس لهرتزل ومكنه فيما بعد من التوصل الى لقاء دوق بادن والقيصر الالماني ، فقد كان القس وليم هشلر الذي سبق ان كان عضوا في « اللجنة اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود » ، وجاء بعد سماعه بمشروع هرتزل ليرحب بـه ويقول له انه تجسيد لنبوة كان قد توقع اقتراب تحقيقها . وفي اللقاءات اللاحقة بين هرتزل وهذا الرجل لم يمتنع الاخير على الاقل في احدى المناسبات المحددة (مذكرات ٢٦ ابريل ١٨٩٦) عن اطلاق العبارات اللاسامية المهينة لليهود على مسمعه . كما يبدو انه كان يسعى لاقناع هرتزل باعتناق المسيحية .

ان اصدار الكراس الذي كان مزيجا من الاقصوصة الروائية والبرنامج العملي قد قابلته الاوساط اليهودية في فيينه بالسخرية . ففي ١٨ شباط (فبراير) سجل هرتزل ان استاذ الجامعة الفيينية اليهودي ، فابليوغن ، جاء لزيارة هرتزل ليسألـه ان كان الكراس متصودا به الجد ام كان مجرد تقديم ساخر لاذع للصهيونية . وسجل هرتزل كذلك انه سمع ان ثمة « اشاعات » تسري بين الناس تقول ان هرتزل قد أصبح مجنونا . اما الصحافي اليهودي لوداسي فقد كتب مقالة سمع بها هرتزل في اول تموز (يوليو) ١٨٩٦ قال فيها مؤلفها « ان الصهيونية جنون يتولد من اليأس » .

الواقع ، رغم وضوح عنصر « العم تومية » في شخصية هرتزل ومشروعه الصهيوني ، فهناك العنصر الاخر الذي لازم عقدته وساهم في تحديد التعبير عنهـا في توصله الى الصهيونية . وثيودور هرتزل لم يهد توجيه انظار الراي العام الى مقترحات وآراء له فحسب ، بل شعر بأنه هو الذي سيقوم بتنفيذ هذه المقترحات والاراء ، وغالبا ما تكلم وكأنه هو الذي سيقوم بالعمل لتحقيق المشروع العظيم . ومن هنا نفهم قول جوليوس باور (الذي سجله هرتزل في ٢٣ شباط ــ فبراير) : « لا بأس بالنسبة لي ان ذهبنا الى فلسطين ولكن أريد جمهورية يرئسها هرتزل الاكبر » !

دون كيشوت اليهودي

كان هرتزل ، لكونه كاتب أقاصيص تافهة ، يأمل دوما بأن يرتقي الى مكانة لها تأثيرها في السياسة الدولية . ولذلك فقد كان يستنبط المشاريع الواحد تلو الاخر والتي كان يأمل بأن تتبناها الدول الاوروبية والفاتيكان . وتوصله الى الصهيونية عامل ١٨٩٥ بدا له

وكأنه اكتشاف عظيم على الرغم مـــن ان كثيرين كانوا قد سبقوه الـــى الصهيونية . والمستوطنات اليهودية في كل من الارجنتين وفلسطين بتمويل مـــن البارونين هيرش وروتشيلد كانت قد بدأت منذ عام ١٨٨١ . ويبدو ان هرتزل لم يكن يعلم بوجود المنظمات الصهيونية العديدة في جميع البلـــدان آنذاك كما لم يدرك ان ثمـــة من سبقوه الـــى « اكتشاف » الصهيونية وعلى رأسهم اليهودي الروسي ليو بنسكر الذي كتب كراسه عن الموضوع منذ عام ١٨٨١ . وعلى هذا فانه بدأ تسجيل مذكراته بقوله : « منذ فترة خلت وانا منشغل بعمل لا حدود لعظمته والان لست أدري ان كنت مما نفـــذه ام لا . وهو يبدو لي حلما عظيما امتلكني اياما واسابيع وشغلني الى ابعد حدود افكاري . وهـــو يرافقني اينما ذهبت ويرفرف فوق احاديثي العادية وينظر مـــن وراء كتفي الى عملي الصحافي التافه والمضحك فيضايقني وتسكرني نشوته في الوقت نفسه » .

وراح هرتزل يخط في مذكراته برؤوس الاقلام رؤيته للدولة اليهودية دون ان يكون قد قرر ما اذا كانت ستخرج في شكل كتاب عام او رواية . وجاءت كتاباته على مجموعة مذهلة من التفاصيل تراوحت بين سبل تنظيم العمال في دولة المستقبل وسبل اقامة الفرق الموسيقية والمقاهي فيها . وتطرق الى وصف الرحلات البحرية التي تقل المهاجرين الى الارض الجديدة (وربما ارتأى ان العبور سيتم في مرحلة واحدة) . ووصف رؤيته راية الدولة الجديدة ونظام الحكم فيها ومعاملة الصحافة ومزارع التبغ وجباية الضرائب وفرض الاحتكارات الحكومية على بعض السلع وتنظيم الجيش ... الخ . وليس هناك متسع في هذه المقالة القصيرة لمعالجة المغزى النفسي لهذه الاراء . الا ان رؤية هرتزل لدوره الخاص في عملية تنفيذ المشروع ذات اهمية خاصة في اظهار الدوافع النفسية لدعوة هرتزل الى مشروعه .

مضى هرتزل باكتشافه هذا المشروع في احلامه وامانيه الخيالية عن مستقبل العظمة الذي ينتظره في دولة المستقبل ولما ذهب في جولة الى حدائق التويلاري في باريس في احد ايام صيف ١٨٩٥ وصل الى تمثال غامبيتا ، فقال لنفسه : « آمل أن يقيم اليهود لي تمثالا أكثر رونقا من هذا » . ولم يكتف هرتزل بترقب المجد لنفسه بل راح يوزع المراكز على معارفه . وما أن فكر بموريتز غودامان ، كبير حاخامي فيينه ، حتى قرر ان يضعه في منصب « الاسقف الاول » في عاصمة دولة المستقبل . كما سجل هرتـــزل ما يلي : « مبدأ : ان كل من يأتيني من معارفي السابقين ، قريبا كان أم بعيدا ، سيحصل على مركز مرموق » . وهنا يبدو ان هرتزل أحس بالحاجة لتبرير مظهر السلطان الذي ارتآه لنفسه فكتب : « ان روسو قال بالواقع التعاقدي للمجتمع وهو خاطىء بذلك ... ففي الدولة قائم بالادارة فقط ... وهكذا سأقوم بادارة شؤون اليهود دون انتدابهم لي » . وعاد هرتزل الى التفكير بتوزيع المراكز في دولة المستقبل فقرر ان اباه سيكون السناتور الاول في مجلس اريستوقراطية الدولة . وجاء القيصر الالماني على ذهن هرتزل فأثار آمال المستقبل لديه وقال لنفسه : « انني سأتعامل مع عظماء هذه الارض كمساو لهم » . كان هذا في ٨ حزيران ١٨٩٥ ، وفي اليوم التالي انشغل هرتزل في تسجيل ما سيكون لقبه الخاص فكتب : « لكي اتجنب تعريفي بلقب « مدير » في انكلتره ، وهو ذو مسمع تجاري ، فربما سأتبنى لقب مستشار (على النمط الالماني) أو شيء من هذا القبيل ... وسلامتي الشخصية ستكون موضع اهتمام جهاز فعال مـــن البوليس السري ... وسأمتنع شخصيا عن قراءة اي صحف (...) وسأعطي الاوامر بالا يطلعوني على اي شيء مما يكتب عني في الصحافة سواء أكان ذلك مدحا أم ذما ، اذ مـــن الان فصاعدا سيكون لي حق وواجب اللامبالاة تجاه اي تهجمات شخصية من اي نوع كانت . اما اذا بدا ان تيارا في الرأي العام قد نشأ ضد المشروع فينبغي اعلامي بالمسألة في الحال كي اتمكن من ضرب المعارضة » !

كل هذه السلطات الديكتاتورية ، قررها هرتزل لنفسه في دولة المستقبل قبل ان يكون قد قرر موقع هذه الدولة . ومن المرجح انه كان يفكر بالارجنتين . وقد ذهب في تسجيله لتنظيم دولة المستقبل الى التفاصيل الصغرى كافة (هذا مع العلم انه لم يفكر بالامور الجدية التي يتطلبها تحقيق المشروع) ويعود منها الى أمانيه الشخصية . ووصل انفعاله الى أقصاه حين تذكر ابنه فكتب : « عندما فكرت بأنني سأقوم يوما ما بتتويج ابني هاس اميرا (دوج : القاضي الاول في جمهوريتي البندقية وجنوى الاريستوقراطيتين) واتوجه اليه بالكلام في المعبد امام رجالات الدولة واخاطبه « سموكم الملكي ابنــي الحبيب » اغرورقت عيناي بالدموع » !

ان دون كيشوتية هرتزل لم تتوقف عند هذا الحد ، فبعد ان سجل تفاصيل الاجراءات التي ستتخذ للحؤول دون نشوب ثورة داخلية في دولة المستقبل استدرك نفسه وكتب : « ولكنني اريد أمة سعيدة ، وستشرب الانخاب الكثيرة فيها على شرفي » ! وراح هرتزل يفصل أسلوب الرحلة البحرية التي ستأخذ اليهود الى البلاد الجديدة فوصف تصنيف البواخر الى درجات تذهب فيها الطبقات المختلفة فابتهج كثيرا لهذه الافكار وقال : « ان الكثير من افكاري، مثل تلك التي اوردتها عن المبارزة والانتحار واعالة المخترعين واحتكار البورصة ، ولجنة التحقيق في شكاوى المسافرين خلال الرحلة ، جيدة بالنسبة لجميع الامم » . وخلص هرتزل في ١٤ حزيران (يونيو) ١٨٩٥ الى التفكير بالعلم (الراية) لدولة المستقبل فقرر ان يكون باللون الابيض وعليه سبع نجوم بحيث يمثل اللون الابيض نقاوة الحياة الجديدة والنجوم عدد ساعات العمل السبع اليومية في دولة المستقبل . وقال : « تحت شعار العمل ورايته سندخل ارض الميعاد . . . وسيكون ذلك حسن حظ كبير لي ينعش آمال أبوي في شيخوختهم ويكون بمثابة شرف عظيم لذريتي انني ابتكرت هذا المشروع العظيم » !

لكن هرتزل يعتقد ان الجميع ، من وجهاء اليهود ورجالات الدول الاوروبية ، سيرحبون بـــ « اكتشافه » بحماسة . فهو شعر ان مشروعه سيكون اقل كلفة واكثر فعالية من مشاريع البارونين وان الحكومات سترحب به اذ سيخلصها مــن الفقراء اليهود الذين كانوا ينضمون الى الاحزاب الثورية . واتصل هرتزل اول ما اتصل بالبارون هيرش فذهب اليه بباريس في ٢ حزيران (يونيو) ١٨٩٥ حاملا معه افكاره التي سجلها في تقرير طويل ليقنعه بتمويــل المشروع . وقرأ هرتـــزل تقريره الى ان وصل الى الكـــلام عن « المستوى الخلقي لجيش دولة المستقبل » فقاطعــــه البارون ، ربما بعـــد ان ادرك سذاجته ، وسأله : « متى باعتقادك سيتم تحقيق المشروع ؟ » ولا حـــاجة بنا لادراج تفاصيل الحديث بينهما ، الا ان هرتزل لم ينل ما كان قد توقعه لمشروعه . وربما وصف هيرش مشروع هرتزل بأنه دون كيشوتي اذ ان هرتزل حنق كثيرا وعاد وكتب رسالة في ١٨ حـــزيران (يونيو) الى البارون قال له فيها فيما قـــال : « لا يهمني ان بديت مثـــل دون كيشوت . . . ولكن حلولك التافهة . . . . ، ٢٠ مستوطن لك في الارجنتين أو اعتنـــاق اليهود للاشتراكية ـــ لن أقبل بها اذ لست سانشو بانزا ايضا » !

يبدو ان هرتزل كان يتخيل انه كان هناك صراع بين عائلة هيرش وعائلة روتشيلد كبيري اثرياء اليهود . وقد سجل هرتزل ، بعد لقائه الفاشل مـــع هيرش في مذكراته ما يلي : « منذ اسبوع كان هيرش حجر الاساس لمشروعي ، اما اليوم فقد انحدرت قيمته الى دمية مهملة تماما . لقد ذهبت الى هيرش والان سأذهب الـــى روتشيلد مثلمـــا ذهب مولتكي من الدانمارك الى بروسيه » . الا ان هرتزل سرعان ما عاد ولان على «المسكين» هيرش فكتب : « اذا نجحت مع روتشيلد فلن أهمل المسكين هيرش كليا . . سأعطيه نيابة رئاسة ما اعترافا بخدماته السابقة ونظرا لانه سبق وتعرف الى خطتي . . . » !

قرر هرتزل ـــ بأمله باستمالة روتشيلد ـــ اعادة كتابة مشروعه بشكل مفصل بحيث يكون

كراسا بعنوان : تقرير الى عائلــة روتشيلد . الا ان هرتزل لم ينجـح في سعيه للقاء البارون روتشيلد لفترة عام ونيف ، مما حداه على اصدار الكراس تحت عنوان **الدولــة اليهودية قبل اللقاء المنتظر** . وقد ذكرنا ان هذا الكراس كان خليطا من الكتابة الساذجة والاقصوصية الخيالية خاصة وانه يبدأ بالكلام عن الاكتشافات العلمية الحديثة واختراع الالات التي تحل مكان العمل اليدوي . ولم يتوصل هرتزل الى مقابلة البارون روتشيلد الا بعد رحلة مغامرة قام بها الى اسطنبول حيث اعتقد انه سيقابل السلطان كي يشتري فلسطين منه مقابل مليوني جنيه . وعلى الرغم من فشله المزري والتكاليف التي ابتزها منه مرافقه نيولنسكي خلال هذه الرحلة ، عاد هرتزل وسط الاشاعات التي اعتبرهـا مؤاتية والتي قالت ان هرتزل قابل السلطان . وانتهى هرتزل اخيرا الى لقاء البارون في ١٨ تموز (يوليو) ١٨٩٦ في مكتب الاخير في باريس . وخلال هذا اللقاء قام جدال عنيف حسب تعبيرات المذكرات بدأ باثارة البارون على هرتزل على انه نــوع جديد من برنارد الناسك . ويبدو ان هرتزل كان يصر طــوال المقابلة على قــراءة « التقرير الى عائلة روتشيلد » (أي كراس الدولة اليهودية) الا ان البارون كان يقاطعه باستمرار وقال له فيما قال : « لست بحاجة اليك لان تأتيني وتقول لي اننا الان لدينا الالات في متناولنا » . كما ان كلام هرتزل عن مشروعه الكبير في تنظيم الدولة بجيشها النظامي المنمق لم يلــق حماسة لدى البارون الذي كان يمول مستوطنات فلسطين ، فقال له : « ان العيون لا يجب ان تكون اكبر من المعدة » .

خرج هرتزل من هذا الاجتماع ولديه بعض الشعور بأنه ربما سيضطر الى تنفيذ المشروع بمفرده — اي دون مساعدة كبار المتمولين وربما بوجه عدائهم له . والواقع ان هرتزل كان قبل هذا اللقاء يردد في مذكراته القول انه يواجه معارضة كبار أثرياء اليهود . الا أن هذا الشعور كان من باب الدون كيشوتية ، يعطيه شعورا بالاهمية النفسية اكثر منه من باب الواقع . ولا شك في ان البارون لم يكن يريد ان يرتبط اسمه بالنداء العلني من اجل انشاء دولة في فلسطين حيث كانت المستوطنات برعايته تحت رحمة الحكومة العثمانية. الا ان هرتزل لم يفهم ذلك ، بل غالبــا ما شعــر وردد في مذكراته ان « معارضة » مشروعه كانت تأتي من اولئك الذين كانوا يحسدونه وينافسونهعلى السلطــة في قيادة الحركة ودولة المستقبل . ونذكر مثلا في هذا الصدد اللقاء الذي تم في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) بين هرتزل وفانبرغ واحد العاملين في جمعية التوطين اليهودية التي مولهــا البارون هيرش ، في منزل الحاخام زادوك كاهن في باريس . وخلال هذا اللقاء توجــه هرتزل الى فانبرغ بالكلام المتعالي وقال له : « ان جمعيــات التوطين الحالية يجب ان ترضخ لقضيتنا ، واذا وجدنا معارضة فسنقضي عليها كليا » . عندئذ اجابه المضيف ، الحاخام اليهودي ذو الشأن في الاوساط اليهودية الثرية بالقول : « ولكن لم يجابهك احد بالمعارضة حتى الان » !

الواقع انه بعد خروج هرتزل مباشرة من اجتماعه بالبارون روتشيلد الذي ذكرناه اعلاه، جاءه أحد المقربين من البارون واسمه مايرسون كان قد حضر الاجتماع ليقول له ان عليه ان يبدأ عمليته على مستوى صغير وفيمــا بعد سيظهر البارون تدريجيــا عطفه نحو المخطط . وفعلا ، لما عاد هرتزل الى عمله في فيينه وجد نفسه في وسط الاحداث اذ أن الصهيونيين المارين في العاصمة النمساوية ، عادة في طريقهم من فلسطين او روسيه الى باريس حيث مكتب البارون ، كانوا دائمــا يتصلون بهرتزل ويجتمعون به ، ممــا جعله يحس بانه فعلا زعيم الحركــة الصهيونية . وعلى ذلــك ، ونظرا لتوصل هرتزل الى رئاسة المؤتمر الصهيوني الاول الذي عقد في غضون عام من هذه الاحداث ، فان بعض دارسي الصهيونية اعتبروا ان هذه الحركة كانت قبل المؤتمر مكتملة تنظيميا وماليا ولم ينقصها الا من يتزعمها فجاء هرتزل يشغل مركز الزعامة . ولا شك ان في هــذا القول

بعض الدقة ، الا انه لا يكفي الا اذا اخذنا بعين الاعتبار مغزى دور الزعامة الذي انيط بهرتزل . وفي هـذا المضمار ، نجـد ان هرتزل وضـع بمثابة واجهة مؤاتية للحركـة الصهيونية يبعد الانظار عمن وقفوا فعليا وراءها ، في حين انه من وجهة النظر العالمية فان زعامته لم تكن سوى زعامة اسمية وشكلية .

الواقع ان دفع هرتزل الى واجهة الحركـة الصهيونية كان قـد بدأ قبل لقائه بالبارون روتشيلد . فما ان صدر كراس الدولة اليهودية منذ بداية عام ١٨٩٦ حتى بدأت تتوافد الى هرتزل اعداد بعض الصهيونيين المارين في فيينه وخاصة في شرقي اوروبه . وبالطبع لم يوافق الصهيونيون هؤلاء على الاراء الدون كيشوتية التي أوردها هرتزل (مثـلا نقل مقاهي فيينه الى المنطقة الجديدة واقامة متحف « لوفر » فيها وتحنيط جثث الذين يموتون خلال الرحلة ... الخ) ولكنهم وجدوا فيه على ما يبدو اداة مناسبة لاغراضهم . وكان من اهم الذين توافدوا لزيارة هرتزل ، زعيم جمعية احباء صهيون في روسيه مناحيـم اوشيشكين ، الذي كان مارا بمدينة فيينه في طريقه من روسيه الى باريس لمقابلة البارون روتشيلد الذي كان ممول احباء صهيون، فحثه الصهيوني الفييني القديم ، ناثان بيرنباوم، (الذي كان أول من استنبط عبارة « الصهيونية ») على زيارة هرتزل والتعرف اليـه . ولم يذكر هرتزل في مذكراته هذه الزيارة التي كان لها تأثير حاسم في مستقبله الصهيوني على الرغم من انه سجل جميع الاحداث الاقل اهمية بما في ذلك الاحداث التافهة ، ربما لانه لم يعتبر انها كانت ذات اهمية الا ان اوشيشكين نفسه وصف انطباعـه عن هرتزل في هذه المقابلة وذكر كيف انه بعد عودته من زيارة هرتزل سأله بيرنباوم عن انطباعاته عن هرتزل فقال : « انه سيؤدي خدمات كبيرة الى حركة فلسطين . فجاذبية شخصيته ستجتذب دون شك جميع اليهود الروس وربما يهود اوروبه الغربية ايضا . وعنده نقص كبير واحد ، ولكن هذا النقص من شأنه بالواقع ان يكون مفيدا جداً في الظروف الحالية . فهو لا يعرف شيئا على الاطلاق عن اليهود ، وهو لذلك يعتقد ان الصهيونية لا تواجـه سوى صعوبات خارجية وليس صعوبات داخلية . ويجب الا تتفتح عيناه وبذلـك يبقى ايمانه بقضيتنا كبيرا » !

وبناء على ذلك ، فقد وجد هرتزل نفسه يدفع الى رئاسة الحركة الصهيونية ، مع العلم ان قراءة اليوميات تظهر انه لم يقم على قيادتها فعليا بل كان « الزعيم الفخري » لها . ومـع مرور الزمن ، بات هرتزل يعتبر مؤسس الصهيونية مـع انه لـدى توصله الى الصهيونية كانت هذه الحركة بتمويل اثرياء اليهود وعلى رأسهم البارون روتشيلد قد قطعت شوطا كبيرا منذ أوائل ثمانينات القرن الماضي تنظيميا في أوروبه وماليا واستيطانيا في فلسطين . الا أن هرتزل اعتبر مؤسس الصهيونية على أساس ان انعقاد المؤتمـر الصهيوني الاول في بازل (وهو الذي تشكلت اكثريـة عضويته الساحقة مـن ممثلي جمعيتي التوطين الرئيسيتين : « احباء صهيون » التابعة لعائلة روتشيلد و« جمعيـة التوطين اليهودية » التابعة لعائلة هيرش بالاضافة الى ممثلي الاتحـاد اليهودي العالمي الفرنسي)، لكن كان قد تم بأن قامت هذه المنظمات بالترتيبات اللازمة للمؤتمر في حين طلب من هرتزل الدعوة « الشكلية » اليه والاعلان « الرسمي » عنه . ولا شك في ان انعقاد هذا المؤتمر لو تم باسم ممثلي جمعيتي روتشيلد وهيرش (خـاصة وان الفترة اللاحقة شهدت اندماجهما عند تخلي الاخيرة عن عمليات الارجنتين)، لكان اثار شكوك الحكومات الاوروبية المتنافسة على فلسطين وشكوك السلطنة العثمانية على مستوى عال وربما كان من شأن ذلك اعاقة نمو الحركة الصهيونية . اما انعقاده باسم هرتزل الذي اراد واعلن مرارا وبكامل الجد عن هدفه بشراء فلسطين قانونيا من السلطان العثماني مقابل مليوني جنيه ، فان من شأن ذلك الا يؤخذ بالجد الذي انطوى عليه مما حال دون قيام الشكوك المترتبة عليه . وهكذا ترأس هرتزل المؤتمر الصهيوني الاول والثاني والثالث

.. وتزعم الحركة ظنا منه بانه يتكلم باسمها ويقيم « المفاوضات الديبلوماسية » بصفته ممثلها في حين امتنع القادة الفعليون للصهيونية عن تفتيح عيونه على وقائع الامور فاستمر يعيش باحساس عظمته الدون كيشوتية حتى وفاته .



ان النظر في عواقب العم تومية لدى هرتزل واشكاله ممن اعتنقوا الصهيونية يتطلب معالجة مطولة لما أدت الصهيونية اليه من تحويل القسط الاوفر من يهود العالم الى خدمة الدول الامبريالية ومصالحها ، وهذا الموضوع يحتاج الى معالجة اطول مما تتسع لها هذه المقالة . وعلى ذلك فنكتفي بالقول بأن الصهيونية نجحت فعلا في اضعاف الحركة الاشتراكية الثورية وصرفت اعداد اليهود عنها وخاصة بعد تبني الدول الاوروبية للصهيونية بعد قيام الثورة الاشتراكية الاولى في تشرين الثاني (اكتوبر) ١٩١٧ في روسيه مباشرة . وبعد ذلك تحولت جموع اليهود في الغرب عن موقفها الراديكالي الى موقع واضح متمثل بمنطلق العم توم اليهودي والذي يجد أفضل تعبير عنه في دولة اسرائيل اليوم التي تتفانى في خدمة المصالح الامبريالية في حين انها تمني نفسها بالقول بانها انما تقوم بذلك دفاعا عن بقائها .

اما عواقب الدون كيشوتية فيمكن معالجتها في شخصية الصهيونية والدولة التي انشأتها في فلسطين بالاشارة الى مزاعم « المنجزات والمعجزات الجبارة » التي حققتها هذه الحركة في أقوالها عن «صراعها ضد الطبيعة» لاستصلاح الصحاري وتجفيف المستنقعات في بلاد ليست اصلا شبيهة بالمناطق الصحراوية فيها وليس فيها الاراضي الشاسعة التي تغرقها المستنقعات . ولكن ما دمنا في صدد هرتزل على المستوى الشخصي . فلا حاجة لنا لمعالجة عواقب هذه العقدة على هذا المستوى الجماعي الاسطوري ، كما لا حاجة لتقييمها على المستوى السياسي البعيد الامد ، بل قد يكون من المناسب ايرادها باختصار على المستوى الفردي العائلي المصغر الذي طرحت به في مذكرات هرتزل نفسه وعلى الرغم من ان ذلك قد يبدو انه من باب الشماتة ، فان مثل هذا التقييم الفردي لا بد ان يتناول ما حل باحلام العظمة التي ارتقبها هرتزل لنفسه ولاقربائه . فقد نجح هرتزل في ان يصبح ، ولو اسميا فقط ، زعيم الصهيونية . الا انه بالطبع لم يصبح رئيس الدولة الاريستوقراطية التي فصل رؤيته لها ، كما انه لم يعش ليشهد تنظيم كتائب العمال والجيش الاريستوقراطي والمبارزات الشجاعة فيه . وقد توفي ابوه عام ١٩٠٤ ولم يصبح السناتور الاول في مجلس اريستوقراطية الدولة . وتوفي هرتزل بعد ذلك بقليل وهو يهذي في فراش المستشفى عن شراء المناطق هنا وهناك ظنا منه انه يعطي أوامره الى مرؤوسيه . وزوجة هرتزل توفيت بعد ذلك بثلاثة اعوام . اما ابناؤه ، فلم يهاجر احد منهم الى فلسطين . فابنته بولين ، توفيت في بوردو عام ١٩٣٠ . وابنه هانز الذي كان هرتزل يأمل بأن يتوجه اميرا في دولة المستقبل ، لم يرث حماسة ابيه للصهيونية ، بل يبدو انه ورث عقدة الانتماء لليهودية لديه ، فاثار ضجة عندما اعتنق المسيحية وانتحر بعد وفاة اخته بفترة وجيزة . وابنة هرتزل الثانية ، ترود ، فقد لقيت حتفها في مخيم اعتقال نازي خلال الحرب العالمية الثانية فكانت بذلك واحدة من جموع اليهود الذين « خسروا أوطانهم التي اقاموا فيها قبل الحصول على الدولة اليهودية » . وابنها الوحيد ، ستيفن ، مات بطريقة غامضة حين « سقط » من بناية عالية في العاصمة الاميركية واشنطن في عام — انتهاء الحرب العالمية الثانية — ١٩٤٥ . وبهذا لم يبق من ذرية هرتزل احد « ليفخر بالمشروع العظيم الذي ابتكره»... هذه هي المأساة الشخصية لثيودور هرتزل والعقدة النفسية التي ولدتها فشكلت افضل انعكاس فردي للعقدة الجماعية التي ادت الى نشوء الصهيونية والمآسي الاليمة التي نتجت في فلسطين على

ايدي الحركة التي اعتبر هرتزل مؤسسها . من هنا صدق ما قال احدهم آنذاك فاوردناه اعلاه : « **ان الصهيونية جنون يتولد من اليأس** » .

١ — *The Complete Diaries of Theodore Herzl,* Edited by Raphael Patai, The Herzl Press, New York, 1960.

وهو المصدر الاساسي للمقالة التي اشير اليها وفق التواريخ التي سجلت بها المذكرات .

٢ — Israel Cohen, *Theodor Herzel: Founder of Political Zionism,* Thomas Yoseloff New York, 1959.

سـلاح الطيران الاسرائيلي

هشام عبدالله

قبل أكثر من شهرين صرح أحد المسؤولين الاسرائيليين « ان سلاح الطيران هو أكثر الاسلحة حيوية ، وقد حظي في السنة الماضية بأكبر نصيب من ميزانية الدفاع الضخمة »(١) ويوم ٧٢/٥/٢٤ صرح موشيه ديان وزير الدفاع « بأن ٨٢ ٪ من الميزانية العسكرية ستخصص لدعم سلاح الطيران والسلاح المدرع » . مـن هنا نرى الدور الاساسي الذي يلعبه سلاح الطيران وأهميته في الجيش الاسرائيلي ، وربما لم يدخل في تصور قادة اسرائيل بأنه سيكون لهذا السلاح كل هذه الاهمية عندما انشىء عام ١٩٤٨ كسلاح تابع للجيش وليس كقوة أساسية منفصلة . لقد اندفعت اسرائيل نحو تعزيز سلاح الطيران ليصل الى ما هو عليه الان بسبب خبـرات عسكرية موروثة وأخرى اكتسبتها من حروبها الطويلة مع العرب ، ومن دراستها لاوضاعها الداخلية وأوضاع المنطقة عامة . فمن جهة ورثت اسرائيل النظام الاستعماري في المنطقـة حيث كانت القواعد الجوية البريطانية في المفرق والحبانية وقبرص والبحرين وعدن ، والامريكية في الظهران وويلس وتركيا هي عناوين السيطرة العسكرية الاستعمارية والعمود الفقري لقوتها العسكرية والسياسية . ومن نظام القواعد هذا استوحت اسرائيل عدة دروس. اولا ، ان الطائرات تقدم قوة ضاربة وطاقة تدميرية كبيرتين بقوة بشرية ضئيلة نسبيا وبالتالي بخسائر بشرية ضئيلة للغاية في حالة وجود عمليات عسكرية ، واهمية هذا بالنسبة لاسرائيل بغير حاجة الى تعليق . ثانيا ، المدى الواسع الذي تستطيع الطائرات العمل فيه ، وهذا مهم من عدة وجوه ، فهو يثبت يد اسرائيل الطويلة وقدرتها على ضرب الاهداف العربية البعيدة ، وما لهذا من تأثير على المعنويات العربية ، وامكانيته ايضا في التأثير على الاقتصاد العربي اذا مـا أرادت قصف المنشآت الحيويـة او المواقـع الاستراتيجية . ومن جهة أخرى ضيق مساحة اسرائيل الذي يدفعها الى جر المعركة خارج حدودها وهذا أمر يسهله الطيران كثيرا . ثالثا ، أهمية الطيران ليس كقوة ضاربة فحسب بل وواسطة نقل في الحروب الخاطفة ، وتطـوره ليصبح ذا اهمية ايضا في العمليات الخاصة ، فالطيران عامل اساسي لتحقيق عناصر الحرب الخاطفة الرئيسية ، ونقصد سرعة الحشد وكثافة النيران . كما وان وضع اسرائيل الجغرافي واحاطة الدول العربية بها من ثلاث جهات يفرض عليها استخدام ما يعرف بالقتال على خطوط داخلية ، وضد عدة جبهات ، كما يفرض على العرب استخدام القتال على خطـوط خارجية ، والقتال على الخطوط الداخلية يحتاج بشكل عام الى جيش جيد التدريب قادر على القيام بحركات سريعة ، وتحقيق صدمة قوية تكفل حسم المعركة مع الخصم الاول بسرعة للانتقال بعد ذلك الى بقية الخصوم ، بالاضافة الى ارض تسهل الحركة بين مختلف الجبهات وتستند الى حدود ومواقع طبيعية قوية تساعد على الدفاع ريثما يتسنى تحقيق الحشد ضد الخصوم الآخرين . وتبرز أهمية الطيران هنا في قدرته علـى زيادة قوة الصدمة ، بل ان الطيران الاسرائيلي قد تكفل في حرب حزيران في تحقيق صدمة تامة وحاسمة ، كما وان نمو سلاح النقل الجوي والهيلوكبتر خاصة قد كفل سرعة الحشد ،

وازدادت اهمية هذا السلاح بعد حزيران حيث احتلت أراض عربية جديدة وطالت بذلك الخطوط الاسرائيلية ، ولسنا بحاجة للقول ان الطيران لا يتأثر كثيراً بطبيعة الارض وبالتالي فان سهولة حركته مضمونة ، واخيرا فالمقاتلات والقاذفات عامل هام جدا في دعم المواقع الدفاعية ، وتحطيم القوات المهاجمة . ويقدم سلاح الطيران ميزات مستقاة من الوضع العربي والاسرائيلي عامة ، فالى ما قبل كسر احتكار السلاح كانت الدول العربية تعتمد اعتماداً كليا في تزويدها بالطائرات وفي تدريب الطيارين على الدول التي خلقت اسرائيل ، وبالطبع كانت تلك الدول تعمل ، وما زالت ، بشكل يضمن تفوق اسرائيل في هذا المجال . ومن جهة اخرى ، فقد وجدت الدول العربية المتخلفة اقتصاديا وثقافيا صعوبة في تطوير قواتها الجوية ، التي انشىء بعضها حتى قبل خلق اسرائيل ، وقد تنبهت اسرائيل الى ذلك منذ انشائها ، فعملت على جر العرب الى سباق كانوا الخاسرين فيه — على الاقل حتى حرب حزيران — فالاوضاع الاقتصادية العربية ، خصوصا للدول المحيطة باسرائيل ، لا تسمح بشراء أعداد مناسبة من الطائرات الباهظة الثمن ، وبتدريب أعداد كافية من الطيارين تدريبا جيدا ، كما وان التخلف الثقافي يخلق نقصا كبيرا في الكفاءات الفنية والتقنية اللازمة لصيانة هذه الطائرات . وهذه النواقص لا تشكو منها اسرائيل التي يتكون اكثر سكانها من الاوروبيين ، والتي تنهمر عليها التعويضات والتبرعات والمساعدات بلا حساب . ولا يتوقف هذا السباق عند تدريب الطيارين والفنيين ، والذي ، بحد ذاته ، يكلف مبالغ خيالية ، بل يتعداه الى بناء القواعد الجوية وضرورة متابعة التطور العلمي في جميع المجالات : الطائرات الاحدث ، المعدات الالكترونية الافضل ، التطور في أنواع الذخيرة ، والاسلحة المضادة للطائرات ، وضرورة امتلاك القدرة على استخدامها بفعالية . كل هذا ستجد الحكومات العربية صعوبة في ملاحقته ، صعوبة ان لم تكن تقنية فهي حتما اقتصادية . وهكذا سيكون بامكان اسرائيل أن تكرس تفوقها في هذا المجال بحكم تفوقها الاقتصادي والثقافي وضمان الدول الغربية لها ، ومما لا شك فيه تأثير هذا على باقي الاسلحة العربية وعلى الروح المعنوية وارادة القتال العربية .

لجميع هذه الاسباب ، وللنتائج التي حققها الطيران في حرب حزيران ، من الحرب الخاطفة ، والخسائر البشرية القليلة نسبيا ، بالاضافة الى تحطيم معظم القوة العسكرية العربية ، اصبحت اهميته غير قابلة للنقاش ، واعطي الاولوية في جميع المجالات .

لقد تمكن الطيران الاسرائيلي من حسم المعركة فعلا في حرب حزيران ، لكن نجاحه لا يعود الى تفوقه الساحق والمطلق ، بل ساعد فيه بطء رد الفعل العربي ، ولبطء رد الفعل هذا اسباب فنية تتعلق بالقيادة ووحدات الخدمات الارضية والاسراب المقاتلة ، كما وان لها في بعض الاحيان خلفيات سياسية ، ولا بد لنا أن نشير الى توتر العلاقات بين الاردن وسوريا قبل ايام من حرب حزيران حين انفجرت عبوة ناسفة على الحدود الاردنية — السورية وفي بلدة الرمثا الاردنية بالذات ، اتهم الاردن على اثرها سوريا بتدبير الحادث وحشد قواته على حدودها، بالاضافة الى توتر العلاقات بين مصر والاردن أيضا . وأهمية سوء العلاقات تكمن في عدم امكانية قيام تعاون جدي بين الاطراف ، وفي تكاسل ردة الفعل . بالاضافة الى التقاعس وعدم القدرة والارتجال التي اكدها الملك حسين بقوله عن دور الطيران الاردني في حرب حزيران « ... ان طيارينا لا يعرفون بالضبط ما ينبغي لهم عمله ... وذلك لان افتقارنا الى المعلومات الصحيحة يجعلنا عاجزين عن اصدار تعليمات مفصلة »(٢) .

والامثلة على عدم قدرة الطيران على حسم المعركة كثيرة ، ابتداء بالجزائر كنموذج لحرب العصابات ، ومرورا بكوريا كنموذج للحرب بمختلف اشكالها فمن حرب العصابات الى الحرب النظامية بين قوى متكافئة تقريبا ، حيث استعمل الطيران في جميع المجالات وعلى

اوسع نطاق ، وانتهاء بفيتنام كمثال حي لحرب العصابات والحرب النظامية بين قوات غير متكافئة واستعمال الطيران في قصف المدن والقرى والاهداف الاستراتيجيـــة . ان بامكان القوات العربية ان تحقق نجاحا في حربها مع القوات الصهيونية مهما بلغت قوتها الجوية ، اذا اتبعت وسائل مناسبة ومدروسة آخذة بعين الاعتبار قدراتها ونقاط القوة لديها ، ونقاط الضعف لدى العدو .

عوامل الانتصار : الا أن تعزيز الطيران لم يتوقف عند تدريب الطيارين والحصول على طائرات ومعدات أفضل ، بل ان هناك عوامل تؤكد السلطات العسكرية الاسرائيلية على توافرها وتسميها عوامل الانتصار وهي : أ ـــ مخابرات متفوقـــة ، ب ـــ التخطيط المدروس ، جـ ـــ القدرة على الاستعمال والسيطرة والمراقبة ، د ـــ القدرة على التنفيذ العالي والاستفادة من الطائرة والفني والطيار الى أقصى حد ممكن ، هـ ـــ الروح القتالية العالية(٣) .

ولسنا بحاجة الى القول ان اسرائيل قد تمكنت من توفير جميع هذه العوامل قبل حرب حزيران ، فقد تمكنت من الحصول على طائرة ميغ ٢١ من العراق هرب بها طيارها منير روفه الى اسرائيل ، ومكنها هذا من معرفة جميع نقاط الضعف في الطائرة رقم واحد لدى ثلاث قوى جوية عربية محيطة باسرائيل هي سوريا ومصر والعراق ، وهكذا أحـــرز طياروها امتيازا على الطيارين العرب الذين كانوا يجهلون نقاط ضعف الميراج . وقد أثبتت حرب الايام الستة أن اسرائيل كانت تعرف الكثير مما يدور داخل اسلحة الطيران العربية ، كما وانها نجحت في الاستفادة من معارفها هذه وادخالها ببراعة في خطتها . ولا يخفى مستوى التدريب العالي للطيـــار الاسرائيلي ، بالاضافة للروح القتالية العالية والقيادة الجيدة التي وجهته ، فقد قامت الطائرات الاسرائيلية خلال حرب حزيران بأكثر من الف طلعة ، أي بمعدل ٥ طلعات للطيار الواحد ، وهناك طيارون قاموا بست وحتى ثماني طلعات(٤) وهذا يتطلب من الطيار روحا قتالية عالية بالاضافة الى خدمات ارضية ذات تدريب ونشاط عاليين ايضا ، وكانت وحدات الخدمات الارضية هذه تعيد تجهيز الطائرات وتسليحها خلال ثماني دقائق . واكثر من هذا كانت تقوم وخلال ساعتين في بعض الاحيان بترميم الثقوب التي تكون قد احدثتها وحدات الدفاع الارضي العربية .

ومرد تفوق الطيار الاسرائيلي ليست طينته الاسطورية(٥) ، كما قد يظن البعض فهناك عوامل خلقتها قيادته ، وعوامل اخرى ساعدت على تحقيق هذا التفوق دون ان يكون لهذه القيادة اي يد فيها ، مثل تدني مستوى الطيار العـــربي لاسباب اقتصاديـــة ، بسبب تخفيض ساعات الطيران للتوفير في الوقود والذخيرة واستهلاك الطائرة ايضا ، عدم كفاءة القيادة العربية ، ضعف الانظمة العربية السياسي ، بسبب انعدام التلاحم بين الحكم والجماهير في بعض الاحيان ، أو عدم وجود بناء سياسي سليم ، وطبيعـــة ضعفها لا تمكنها من خلق نظام عسكري قوي . وباختصار كان ينقص الطيران العربي كل « عوامل الانتصار » الاسرائيلية مضافا اليها الضعف السياسي والاقتصادي .

وعدا ما تقدم فقد استفادت اسرائيل من طائراتها الى اقصى حد فبالاضافة الى الطلعات العديدة التي قامت بها كل طائرة ، جهزت طائرات التدريب من طراز فوغا ماجستـــير برشاشين ثقيلين وبعشرة صواريخ عيار ٦٨ و٨٠ ملم لضرب أهداف ارضية . الا ان عامل الانتصار الاول الذي لم تذكره اسرائيل هو « روحها العدوانية » واستعدادهـــا الدائم لانتهاز كل فرصة لضرب القوات العربية واضعافها ، دون ان تأخذ في الحسبان الاعتبارات الاخرى ، مثل الالتزامات الدولية ، والرأي العام العالمـــي ، وهي أمور ما زالت الدول العربية تضعها في المرتبة الاولى ، بالرغم من معرفتها الطويلة باسرائيل . ان كون اسرائيل هي البادئة دوما يعطيها الضربة الاولى والمفاجئة ، وهذه الضربة تكون في بعض الاحيان حاسمة ونجلاء كما في حرب حزيران .

شمشون المسكين : حتى ما قبل حزيران ، اعتمد الطيران الاسرائيلي على فرنسا لتزويده بالطائرات التي تفي باحتياجاته « الدفاعية » . ولم يلجأ الى الولايات المتحدة لان هذه كانت تتمنع عن تزويده بالطائرات كي لا يؤثر هذا على علاقاتها « الحسنة » - في ذلك الوقت - بالعرب . الا ان هذا لم يمنع قيام تعاون خاص وغير مباشر لتزويد اسرائيل بالسلاح ، فقبل حرب السويس عام ١٩٥٦ طلبت اسرائيل من فرنسا تزويدها بنحو ٦٠ طائرة من طراز ميستير ٤ سي ، ولما كانت هذه الطائرة قد صممت بأموال امريكية فقد كان اذن الولايات المتحدة ضروريا لكي تتمكن فرنسا من بيعها لاسرائيل ، وبالطبع لم تمانع الولايات المتحدة(٦) . وتحادثة اخرى روتها مجلة « افياشن ويك » الامريكية(٧)، عن كيفية حصول اسرائيل على ٢٤ طائرة هليوكبتر من طراز سيكورسكي اس - ٥٨ ، تم شراؤها من الولايات المتحدة بواسطة المانيا الغربية وكجزء من التعويضات الالمانية لاسرائيل ، وذلك خلال عشرة شهور بين عام ١٩٦٠ - ١٩٦١ ، وبموافقة من قسم الاشراف على تجارة الاسلحة التابع لوزارة الخارجية الامريكية ، اضيف الى هذا العدد سبع طائرات اشترتها مباشرة من الولايات المتحدة(٨) .

وقد بدأت اسرائيل تتجه نحو الولايات المتحدة في أوائل عام ١٩٦٥ ، عندما زار افريل هاريمان ، السفير المتجول والمبعوث الخاص للرئيس جونسون ، اسرائيل وشاهد أعمال السوريين في تحويل روافد نهر الاردن ، وهو الامر الذي اعتبرته اسرائيل « عدوانيا ، ومهددا لامنها » . وقد اقنعه رابين يومها بأن اسرائيل يجب ان تكون قوية حتى يمتنع العرب عن « تهديد أمنها » ، وعلى اثرها رفع هاريمان توصية حارة بضرورة بيع السلاح علنا الى اسرائيل دون واسطة المانيا الغربية وفرنسا كما جرت العادة(٩) . وبناء على توصية هاريمان هذا طلب من اسرائيل ان ترسل خبراءها الى واشنطن لكي يجروا محادثات حول قائمة الاسلحة المطلوبة ، خاصة الطائرات وقد أعد عيزر وايزمان قائد سلاح الطيران آنذاك قائمة بـ ٤٥ طائرة فانتوم و٦٥ طائرة سكاي هوك ، وبعد ان تشاور وايزمان واشكول حول كيفية الظهور بمظهر الاقوياء والضعفاء في آن واحد ، اقوياء كما هم وضعفاء بحيث تكون هناك ضرورة لتزويدهم بالسلاح ، عندها قال اشكول جملته المشهورة والتي هي صورة عن سياسة اسرائيل في جميع المجالات « **عليك أن تعرض اسرائيل كما لو كانت شمشون المسكين** »(١٠) . وفي ايار ١٩٦٦ نشر نبأ رسمي عن أن الولايات المتحدة سوف تزود اسرائيل بطائرات تكتيكية « للاغراض الدفاعية » دون تحديد لنوع السلاح او كميته . وفي ٢٨ كانون الاول ١٩٦٨ أعلنت واشنطن رسميا بيع خمسين طائرة فانتوم لاسرائيل .

وقد رفعت صفقة الطائرات هذه الروح المعنوية في اسرائيل ، فلأول مرة تتزود بسلاح مجهز تجهيزا ممتازا ، ولاول مرة توافق الولايات المتحدة على أن تبيع لاسرائيل طائرة هي طائرة الصف الاول نفسها لديها ، ومعاني هذه الصفقة السياسية أكبر بكثير من معانيها العسكرية خاصة وانها تأتي في اعقاب حرب الايام الستة ، واحتلال اسرائيل لمزيد من الاراضي العربية . وبعد ذلك ببضعة اشهر قدمت اسرائيل طلبا ثانيا للحصول على ٢٥ طائرة فانتوم ومئة سكاي هوك ، وقد أجيب طلبها . ولم يتوقف تعهد الولايات المتحدة بتزويد اسرائيل بعدد معين من الطائرات بل تعداه الى قيام تعاون في ميدان صناعة محركات الطائرات ، وتعهدها بالحفاظ على « ميزان القوى » ، ولهذا عوضت اسرائيل عن خسائرها من الطائرات خلال حرب الاستنزاف . وزودتها بمعدات الكترونية خاصة للتشويش على اجهزة اطلاق الصواريخ المضادة للطائرات ، وبطائرات النقل الضخمة من طراز « هيركوليز سي ١٣٠ » ، وطائرات الهيلوكبتر الضخمة ، وطائرات الاستطلاع المتطورة والذخائر الحديثة . وجميع هذه المعدات والطائرات هي افضل ما تملك

الولايات المتحدة من سلاح ، وهي أسلحة حلفاء امريكا الكبار نفسها : المانيا الغربية وبريطانيا واستراليا .

المقاتلات الاسرائيلية : ولتحقيق التوازن في الشرق الاوسط « وكي لا تتعجل اسرائيل بضرب العرب اذا ما شعرت بنفسها ضعيفة »(١١) كما قال عيزر وايزمان للمسؤولين الامريكيين في معرض محاولته اقناعهم ببيع طائرات لاسرائيل، فقد فتحت الولايات المتحدة مخازن أسلحتها على مصراعيها للدولة الصهيونية ، واصبحت المصدّر الوحيد للطائرات من مختلف الانواع لاسرائيل ، وقد اضيفت هذه الطائرات لما تبقى من الطائرات الفرنسية الصنع لتكون القوة الجوية الاسرائيلية الحالية .

وتنسجم التركيبة الجديدة لسلاح الطيران الاسرائيلي مع استراتيجيته العسكرية الهجومية اكثر مما كانت عليه قبل حرب حزيران ، فجميع الطائرات الامريكية التي زودت بها اسرائيل هي طائرات هجومية ، فطائرة الفانتوم ، وان كانت تستعمل لجميع الاغراض ، مطاردة معترضة قاذفة ، الا انها وبسبب حمولتها الكبيرة من المواد الحربية والتي تصل الى ٧٢٥٠ كيلوغراما ، ومداها الواسع « ١٦٠٠ كيلومتر »(١٢) هي قاذفة اكثر منها مطاردة معترضة ، وكذلك السكاي هوك القاذفة الهجومية الخفيفة ، والتي تستطيع حمل اكثر من اربعة اطنان من المواد الحربية ، وقد فضلتها اسرائيل على طائرات نورثروب ف ٥ ، رغم ان سرعة هذه الاخيرة تزيد عن ١٫٥ ماك (الماك يعادل سرعة الصوت) بينما لا تزيد سرعة السكاي هوك عن سرعة الصوت ، وذلك بسبب حمولتها من القنابل ، وقدرتها الافضل على مهاجمة الاهداف الارضية . وطائرة الفانتوم قاذفة مطاردة معترضة بمقعدين صالحة للاحوال الجوية كافة ، ومجهزة بمدفع دوراني عيار ٢٠ ملم من طراز « فولكان » ، وتستطيع حمل اربعة صواريخ جو — جو من طراز « سايدوندر » واربعة صواريخ جو — جو من طراز « سبارو » وذلك لعمليات المطاردة والاعتراض ، ولعمليات الهجوم والقصف ١٤ قنبلة زنة ٤٥٣ كيلوغراما الواحدة ، او قنبلة واحدة زنة ٣ اطنان او ١٠ سبطانات اطلاق تحتوي كل واحدة على ١٨ صاروخا من عيار ٦٨ ملم ، او حمولات مختلفة لا يزيد وزنها عن ٧٢٥٠ كيلوغراما . والفانتوم طائرة جيدة من ناحية قدراتها عامة واجهزتها الالكترونية ، ويعطيها وجود ملاحين اثنين على متنها امكانية الاستفادة من هذه الاجهزة ، ودقة في التصويب والقصف .

اما السكاي هوك التي حملت العبء الاكبر في حرب الاستنزاف فهي طائرة هجومية خفيفة بمقعد واحد ، وقد أجرت اسرائيل عليها تعديلات كثيرة ، فاستبدلت مدفعها الاصلي عيار ٢٠ ملم بمدفع عيار ٣٠ ملم طراز « ديفا » (يصنع في اسرائيل بموجب ترخيص) وعدلت أجهزة الملاحة فيها ، وزودت بمعدات الكترونية أفضل(١٣). وتستطيع حمل اكثر من اربعة اطنان من المواد الحربية ، بينها صواريخ مضادة للرادار طراز « شرايك » وقنابل انزلاقية طراز Walleye وهي غير القنابل ذات الدفع الصاروخي الفرنسية التصميم ، والمخصصة لتدمير مدارج طائرات العدو . والسكاي هوك سهلة الحركة وقادرة على الانقضاض العمودي .

اما المقاتلات الاخرى فهي من صنع فرنسي وهي من طائرات الصف الثاني ، باستثناء الميراج ٣ سي ، وهي مطاردة معترضة جيدة ، اكتسبت سمعة اكبر من قدرتها بعد حرب حزيران ، فالميراج في مستوى الميغ ٢١ ، بل ان الانواع الحديثة مثل الميغ ٢١ م ف تتفوق على الميراج ٣ سي . والميراج هي العصب الرئيسي لقوات الدفاع الجوي الاسرائيلي ، والوحيدة التي لم تموه من بين طائرات سلاح الطيران ، وتبلغ سرعة هذه الطائرة ٢٫١٥ ماك ، وهي جيدة من ناحية قدرتها على الاعتراض والمطاردة ، والقتال سواء على ارتفاعات عالية ام منخفضة ، وتسليحها يتالف من مدفعين عيار ٣٠ ملم ، وبعضها مزود بصواريخ جو — جو طراز ماترا ار ٥٣٠ ، كما يمكن تزويدها بصاروخين جو — جو طراز

سايدوبندر . ويمكن استخدامها لعمليات الهجوم الارضي ، ولكن حمولتها متواضعة ولا تتجاوز قنبلتين من عيار ٤٥٣ كيلوغراما او ما يعادل وزنهما من المواد الحربية . وقدرات طائرات الصف الثاني متواضعة جدا بالنسبة للطائرات الحديثة سواء من ناحية السرعة او التسليح او الاجهزة التي تحملها ، فأسرع هذه الطائرات السوبر ميستير ، تتجاوز قليلا سرعة الصوت . اما الميستير فتبلغ سرعتها ٠٫٩٤ ماك والفوتور ٠٫٩ ماك ولا تزيد سرعة الاوريغان عن ٩٦٠ كم في الساعة .

وتزايد حجم القوة الضاربة في سلاح الطيران سيجعل منه مطرقة لضرب الاهداف العربية على مدى اكثر من ١٦٠٠ كيلومتر ، ولسنا بحاجة للقول ان اسرائيل ليست بحاجة الى مثل هذا النوع من الطائرات لاحتياجاتها « الدفاعية » ، فقوة الفانتوم الضاربة تعادل قوة اكثر من ٥ طائرات ميغ ٢١ . ومن هنا تتضح صعوبة المقارنة بالعدد بين الطائرات العربية والاسرائيلية وما تحمله هذه المقارنة من مغالطات(١٤)، فربما كانت الطائرات الاسرائيلية أقل من ناحية العدد ، الا انها اقوى من ناحية كثافة النيران والمدى الذي تستطيع العمل فيه ، كما وانها افضل من ناحية قدراتها عامة ، واجهزتهـــا الملاحية والالكترونية . والجدير بالذكر ان الفانتوم هي صنف من الطائرات غير موجود في سلاح الطيران السوفييتي ، وبالتالي فهو لا يستطيع تزويد العرب به ، فالسوفييت يفصلون بين القاذفات والمطاردات المعترضة ، ولا يجمعون هذه القدرات في طائرة واحدة كما في الفانتوم . كما ان القاذفات هي في أغلب الاحيان متوسطة او ثقيلة ، بالاضافة الى ان المصانع السوفييتية تركز على انتاج الطائرات المعترضة الدفاعية ، كما في قائمة طائرات الميغ كلها وطائرات السوخوي ٩ و١١ باستثناء السوخوي ٧ . والطائرات السوفييتية مصممة لتوافق الاستراتيجية العسكرية السوفييتية والتي تبلورت نتيجـــة للخبرات الضخمة التي حصلوا عليها في الحرب العالمية الثانية وحرب كوريا .

ويزيد عدد المقاتلات وطائرات التدريب العاملة حاليا في الطيران الاسرائيلي عن ٤٥٦ طائرة مقسمة حسب الجدول رقم (١)(١٥).

جدول رقم (١)

المقاتلات		
فانتوم ٢	F-4E	٨٤
ميراج	111C	٦٠
سكاي هوك	A - 4 H A - 4 E	١٢٥
ميستير	IV A	٢٧
سوبرميستير		٩
فوتور		١٠
اوريغـــان		٣٠
	المجموع	٣٤٥

الاستطلاع		
فانتوم	RF - 4 E	٦
	المجموع	٦
التدريب		
سيرنا « سكاي واجن »		غير محدد
بوتزاير فوغا ماجيستير		٨٥ *
بايبر « سوبر كوب »		٢٠ ؟
	المجموع أكثر من	١٠٥

* ستنتج اسرائيل ١٠٠ طائرة من هذا الصنف.

ولا تشمل هذه القائمة الصفقات الجديدة والتي تتكون من ٤٢ طائرة فانتوم تسلمت اسرائيل منها ٩ طائرات بينها عدد من طائرات الاستطلاع و٩٠ طائـــرة سكاي هوك آ ـــ ٤ ام ، وهذا احدث طراز من طائرات السكاي هوك ، والتي تسلمت اسرائيل منها ٢٥ طائرة ، وقد يصل عدد الطائرات الى ١٤٠ سكاي هوك و٩٢ فانتوم في اواخر هذا العام . وبعد أن أصبحت الولايات المتحدة مصدرة للطائرات الى اسرائيل ، تمكنت هذه من الحصول ولاول مرة على طائرات خاصـــة للاستطلاع مجهـــزة تجهيزا متطورا .

فبالاضافة الى معدات الاستطلاع العادية(١٦)، زودت بجهاز رادار متقدم للكشف الجانبي من طراز « جوديير » Goodyear ونظام ارسال مباشر للمعلومات الى محطات ارضية. ويلاحظ تناقص الطائرات الفرنسية باستمرار ، وذلك بسبب خسائر اسرائيل من هذه الطائرات وعدم قدرتها على تعويضها ، فمن ٧٥ طائرة اوريغان اشترتها قبل حرب السويس بقليل لم يبق سوى ٣٠ طائرة ، ومن اكثر من ٦٠ طائرة ميستير لم يبق سوى ٢٧ . ويختلف الامر بالنسبة للميراج التي تناقصت من ٧٢ الى ٦٠ طائرة ، وكانت قد راجت اشاعات في السابق عن تزويد حكومة جنوب افريقيا — والتي تنتج هذه الطائرة بموجب ترخيص خاص من فرنسا — لاسرائيل بعدد من هذه الطائرات(١٧). ان خسائر اسرائيل الكبرى من الطائرات لم تكن ابان حرب السويس ، او حرب حزيران ، بل في حرب الاستنزاف ، حيث خسرت ٩ طائرات فانتوم و ١٠ سكاي هوك عوضتها عنها الولايات المتحدة(١٨). وتجدر الملاحظة هنا ان هذه الطائرات قد دخلت حرب الاستنزاف بعد الطائرات الاخرى . هذا عدا عن خسائرها في الميراج والطائرات الاخرى ، فقد ادعت اسرائيل بعد حرب حزيران مباشرة انها لم تخسر سوى اربع طائرات ميراج خلال الحرب ، فان صح هذا فانها خسرت ثماني طائرات خلال حرب الاستنزاف يضاف اليها الطائرات التي قد تكون حكومة جنوب افريقيا قد قدمتها لها . وعلى الجبهة الاردنية الضعيفة بالنسبة للجبهة السورية والمصرية خسرت اسرائيل ٦ طائرات جميعها من طائرات الصف الثاني(١٩): اوريغان ، ميستير ، سوبر ميستير وفوتور ، وذلك بالمدافع المضادة السورية والعراقية التي كانت ترابط هناك .

وتقول اسرائيل بأنها ستسحب طائرات الميستير والسوبر ميستير والفوتور من الخدمة(٢٠)، حين استلام الصفقة الجديدة من طائرات الفانتوم والسكاي هوك ، اما الاوريغان فقد سحبت فعلا كطائرة قتال لتقوم بأعمال التدريب . الا ان هذا لا يمنع استخدامها في القتال عند الضرورة كما حدث خلال حرب حزيران عندما استعملت طائرات التدريب الماجستير في العمليات الحربية ، واستخدام هذه الطائرات الصغيرة في العمليات الحربية مشروط بتحقيق السيطرة الجوية ، او بوجود حماية لها ، والا فانها تصبح فرائس سهلة للمقاتلات المتفوقة .

ويستخدم الطيران الاسرائيلي طائرة البايبر « سوبر كوب » لتدريب المبتدئين ينتقل بعدها التلاميذ للطيران بطائرات الفوغا ماجستير للمقاتلين ، وطائرة سيزنا « سكاي واجن » للفروع الاخرى في الطيران . وتستعمل طائرة السيزنا هذه ايضا كطائرة مراقبة وارتباط للجيش — الذي لا يملك خدمات جوية خاصة به — ، اما بالنسبة لطياري الهيلوكبتر فبعد الحصول على اجازة الطيران على الطائرة الاولى — البايبر — يبدأون مباشرة في التدرب على الطائرات العمودية . وقد بدأ الطيران الاسرائيلي في استخدام طائرات الفوغا ماجستير المصنوعة بموجب ترخيص من فرنسا في اسرائيل ، في آب من عام ١٩٧٠ ، وتتم طائرة الاوريغان مهمة طائرة الماجستير في التدريب وينتقل بعدها التلاميذ للتدرب على الطائرات المقاتلة العاملة .

خلاصة القول ان القوة الضاربة في سلاح الطيران الاسرائيلي قد تضاعفت بنسبة تزيد عن اثني عشر ضعفا منذ حزيران وحتى الان . ولاعطاء صورة عن حجم هذه القوة نقدم الارقام التالية : ان باستطاعة ١٠٠ فانتوم ومئتي سكاي هوك القاء أكثر من ١٥٠٠ طن من القنابل في الطلعة الواحدة ، فاذا قامت هذه الطائرات بخمس طلعات كما في حرب حزيران ، فان هذا يعني ٧٥٠٠ طن في اليوم تلقيها الطائرات فقط . ولكن مهما بلغت قوة القصف هذه ، فان هناك فرقا بين القصف وتحقيق الاهداف ، وتقول احدى الاحصائيات في هذا الصدد ، انه في « حرب التبذير » هذه فان القضاء على الجندي المعادي يحتاج الى اربعة اطنان من القنابل ، ولكن حتى هذه الارقام تبدو متفائلة جدا ، لانه لو صح ذلك

لكان قد قتل ٢٠٠،٠٠٠ جندي فيتنامي في عام ١٩٧١ ، من قصف الطائرات فقط ، اذ ان الطيران الامريكي قد اسقط في ذلك العام ٨٠٠،٠٠٠ طن مـــن القنابل فوق المراكــز الشيوعية(٢١) وهو أمر لو صدق لكان الجيش الفيتنامي الشمالي قد ابيد عدة مرات ومنذ زمن . وفي الحقيقة تلعب الوسائل الذكية التي يتبعها الفيتناميون في اتقاء الغارات الجوية ومقاومتها دورا كبيرا في تقليل الخسائر ، فبالاضافة الى عنف الدفاع الجوي الذي يمنع الطائرات الامريكية من الاقتراب، وبالتالي من تحقيق اصابات جيدة، يستخدم الفيتناميون كما استخدم الكوريون في حرب ١٩٥٠ ــ ١٩٥٣ الانفاق بكثرة. وفي المدن توسع استخدام الملاجىء لتصبح مدارس ومستشفيات بل ومنـــازل تحت الارض ، كما وأن عمليات التضليل البارعة للطائرات الامريكية جعلها توجه قنابلها في احيان كثـــيرة الى أهداف وهمية أو خاطئة . وبالرغم من وسائل الكشف الحديثة جداً التي يستعملها الامريكيون ، فان طبيعة الارض الفيتنامية تلعب دورا كبيرا في اخفاء الاهداف وتمويهها وبالتالي تقليل الخسائر .

النقل والهيلوكبتر : لم يقتصر اهتمام القيادة العسكرية الاسرائيلية على المقاتلات بل شمل ايضا سلاح النقل ، واهمية هذا السلاح راجعة في الاصل الى كون القادة العسكريين يشددون على المرونة في التكتيك والاستراتيجية ليضمنوا بذلك تفوقـــا ساحقا علـــى القطعات العربية ، الامر الذي يدفعهم الى الحشد السريع لقواتهم في النقاط الملائمة ، بالاضافة الى عمليات الاختراق السريع ايضا للخطوط العربية . ويجب ان لا ننسى الاهمية التي بدأت تتبلور في استخدام طائرات النقل العمودية في عمليـــات عسكرية لمساندة قوات أخرى ، او في عمليات عسكرية منفصلة ، بالاضافة الى استعمال الناقلات في مهمات كثيرة ، في الحرب الالكترونية ، وتزويد المقاتلات بالوقود في الجو ... الخ . وتتكون طائرات النقل الاسرائيلية من طائرات فرنسية وامريكية سواء منها القديم او الحديث ، وقد كانت المانيا هي واسطة ايصال الكثير من هذه الطائرات الى اسرائيل ، ويضم سلاح الطيران الاسرائيلي حاليا أكثر من ١٢٨ طائرة نقل وطائرة هيلوكبتر مقسمة حسب الجدول رقم ٢ (٢٢).

واضخم هذه الطائرات هي الهيركوليز سي ١٣٠ ، وقد اشترتها اسرائيل مؤخرا مـــن الولايات المتحدة ، وهي من أضخم الناقلات الامريكية ، وقد استلمت اسرائيل بعضا منها

جدول رقم (٢)

طائرات النقل	
هيركوليز سي ١٣٠	٦
بوينغ ٣٧٧ ستراتوكروزر	١١
دوغلاس سي ٤٧	١٠
كورتيس سي ٤٦	٤
نور اطلس	٣٥
عرفه	غير محدد
المجموع أكثر من	٦٦

الهيلوكبتر*		
سيكورسكي	(CH-53D) S-65C-3	١٠
اغوستابيل	AB-205	٢٥
سوبر فريلون	SA-321 K	١٢
الوييت		١٠
بيل	47G-3B	٥
جيت رانجر	206 A	غير محدد
المجموع أكثر من		٦٢

* كانت اسرائيل قد باعت طائرات السيكورسكي اس ٥٨ التي تحدثنا عنها في اول المقـــال بعد حرب حزيران .

وتتسلم الباقي بمعدل واحدة في الشهر . وتستطيع هذه الطائرة حمل ٩٢ جنديا او اكثر من ٢٠ طنا من المواد المختلفة ، وقد اشترت عددا لم تفصح عنه ، ولكن قد يتراوح ما بين ٦ و٧ طائرات(٢٣) . وأكثر هذه الطائرات عددا هي النورد اطلس ، وكانت اسرائيل تمتلك ١٥ طائرة من هذا النوع، ثم اشترت ٢٠ طائرة كانت لسلاح الطيران الالماني الغربي(٢٤)، وهي من صنع فرنسي ، وتقوم هذه الطائرة بالاضافة الى أعمال النقل الجوي وانزال المظليين بأعمال الدورية على طول الساحل الفلسطيني لاستطلاع القطع البحرية والغواصات . والبوينغ ٣٧٧ ستراتو كروزر هي اضخم هذه الطائرات بعد الهيركوليز ، وتزيد حمولتها عن ١٦ طنا . وتقوم هذه الطائرة بأعمال النقل المدني ، بالاضافة الى مهماتها العسكرية ، وقد جهزت لتقوم بمهمات مختلفة ، مثل تزويد المقاتلات بالوقود في الجو ، بواسطة خزانين مثبتين تحت جناحي الطائرة ، وبعضها جهز بمعدات الكترونية معقدة للقيام بأعمال التجسس والتشويش الالكتروني . وقد أسقطت مصر احدى هذه الطائرات في اواخر عام ١٩٧١ بواسطة صاروخ سام ٢ ، عندما كانت تقوم بأعمال التجسس الالكترونية بالقرب من خطوط وقف اطلاق النار . ومثل الستراتو كروزر هناك الدوغلاس سي ٤٧ التي تستعمل ايضا لاغراض النقل المدني بالاضافة الى مهماتها العسكرية وسوف تستبدل بعض الطائرات من هذا الصنف وطائرات كورتيس سي ٤٦ بطائرات جديدة من طراز عرفه الاسرائيلية الصنع ، والتي ستجهز للقيام بمهام مختلفة كالقتال ضد الغواصات ، والتصوير الجوي والمراقبة ، وكمركز قيادة طائر . وتستطيع هذه الطائرة حمل ٢٠ جنديا ، او لنقل الجرحى حيث تستطيع نقل ١٢ جريحا على نقالة ، مع وحدة اسعاف . كما تستطيع الاقلاع والهبوط من مدارج قصيرة وشبه معبدة . وتعمل المصانع الاسرائيلية على تطوير هذه الطائرة لتستطيع نقل ٣٢ راكبا(٢٥) . وتطور صناعة هذه الطائرة سيجعل اسرائيل في غنى عن التزود بطائرات النقل الخفيفة من الخارج ، بل انها ستصبح مصدرة لهذا النوع من الطائرات . وتتكون قوة الهيلوكبتر من طائرات امريكية وفرنسية ، وتعتمد اسرائيل على الطائرات العمودية في عملياتها العسكرية القتالية اكثر من اعتمادها على طائرات النقل الاخرى .

وكما في باقي الاصناف فقد زودت اسرائيل بأفضل الطائرات واضخمها ، مثل السيكورسكي اس — ٦٥ (CH - 53 D) ، وهي الطائرة نفسها التي يستعملها مشاة البحرية الاميركيون ، وقد أجرت عليها القيادة الاسرائيلية بعض التعديلات(٢٦)، كتركيب خزانات وقود اضافية لها ، ومصافي للرمل التي هي ضرورية جدا في الصحراء. وتستطيع هذه الطائرة حمل ٦٤ جنديا ، وذلك خلافا للنوع الاصلي (CH - 53) التي تنقل ٣٤ جنديا فقط ، ولا تعادلها من ناحية الحمولة الا طائرة ميل مي ٦ الروسية والتي تمتلك مصر عددا منها وتستطيع حمل ٦٥ جنديا . وفي الدرجة الثانية من ناحية الضخامة تأتي السوبر فريلون الفرنسية الصنع والتي تستطيع حمل ٢٧ — ٣٠ جنديا او ٤ — ٤،٥ طن من المواد المختلفة . وتلعب طائرات الهيلوكبتر دورا حيويا في العمليات الخاصة ، فخلال حرب الايام الستة قامت بانزال وحدات من جنود الكوماندوس خلف الخطوط المصرية في منطقة أبو عجيلة في شبه جزيرة سيناء ، وكذلك أنزلت قوات مشاة من لواء جولاني خلف الخطوط السورية في هضبة الجولان ، وخلال حرب الاستنزاف قامت قوات مجوقلة بعدد من العمليات الخاصة ، هي جزء من الحرب النفسية التي تشنها ضد العرب مثل عملية مطار بيروت،وسرقت محطة متحركةللرادار المصري في ٢٦ كانون الاول ١٩٦٩ بواسطة طائرات سيكورسكي اس ٦٥ الضخمة ، وكذلك عملية ضد معسكرات القطيفة السورية ، كما قامت بعمليات عسكرية تساندها قوات من فروع اخرى في الجيش مثل عملية جزيرة شدوان ، والصرفند ، وبعض العمليات ضد قواعد الفدائيين . ويرجع تفضيل الجيش الاسرائيلي استعمال طائرات الهيلوكبتر في هذه العمليات الى عدة اسباب تتعلق بقدرة الطائرة نفسها ، فهي تستطيع أنزال الجنود في مناطق لا تستطيعها

الطائرات المروحية ، والتحليق وانزال الجنود على ارتفاعات لا يستطيع الرادار كشفها وهذا يحقق للعملية ، والى درجة معينة ، عامل المفاجأة ، هذا عدا عن قدرتها على اخلاء الاصابات فور انتهاء العملية ، وكون الجندي المجوقل لا يحتاج الـــى اللياقة البدنيـــة والتدريب العاليين اللذين يحتاجهما جندي المظلات . ولكن العمل الاكبر معنى بالنسبة للمعنويات الاسرائيلية هو اعمال الانقاذ والاسعاف التي تقوم بها هذه الطائرة ، بشكل يمكنها من تخفيض خسائرها البشرية بسبب سرعة الاسعاف ، « وقـــد قامت طائرات الهيلوكبتر خلال حرب حزيران بانقاذ ٨٦٣ جريحا وقامت طائرات النقل الاخرى بانقاذ ٢٣٠ جريحا ، بالاضافة لانقاذ ١٤ طيارا من بينهم ٤ تحت نيران العدو و٨ في الاراضي العربية مستخدمة الطائرات العمودية »(٢٧). ان تطور هذا السلاح وتضاعف قـــوة اسرائيل الضاربة سيمكنانها من القيام بعمليات واسعة ، وربما السيطرة على مناطق عربية واحتلالها ، خاصة اذا عرفنا ان بامكان سلاح النقل هذا نقل اكثر من ٣٥٠٠ رجل في الدفعة الواحدة ، اذا استخدمت الطائرات المروحية للمظليين وطائرات الهيلوكبتر للمشاة ، بجانب قدرة طائراته الضخمة على نقل السيارات المسلحة والمدرعات الخفيفة. ويزيد من خطورة هذا السلاح ضعف التغطية الجوية وضعف شبكة المواصلات العربية ، بالاضافة الى ان أعدادا كبيرة من القوات العربية ما زالت راجلة (غير ميكانيكية) وهذا سيمكن العدو من الاستفراد بنقاط ضعف عسكرية ومدنية يختلف حجمها باختلاف حجم القوة الضاربة ، اي كلما زاد عدد الجنود الذين يستطيع العدو نقلهم الى الهدف ، زادت امكانية عزل هدف أكبر وتدميره ، وذلك قبل ان تتمكن اي قوة من نجدة الموقع . « ولا تستخدم الهيلوكبتر في الجيش الاسرائيلي كأداة نقل او للمساعدة على المطاردات بل أداة قتال ايضا »(٢٨) وقد استخدمت طائرات الهيلوكبتر كأداة قتال في معركة الكرامة حيث كانت تقوم بكشف مواقع الفدائيين واطلاق النار عليهم . وقامت بأعمال الدورية المسلحة في غور الاردن .

وكما رأينا فقد توسعت القوات الاسرائيلية في استخدامها لطائرات النقل والهيلوكبتر ، فلم تعد هذه مجرد أدوات لنقل الجنود والاعتـــدة والجرحى ، بل طـــائرات تجسس وتشويش الكتروني وطائرات دورية ومراقبة وتصوير ، ومقاتلات مضادة للغواصات تستطيع حمل قنابل طوربيد وقنابل اعماق ، وطائرات لتزويد المقاتلات بالوقود في الجو ، ولتدريب طياري المطاردات ، بالاضافة الى المهام الاساسية ، وجميع هذه المهمات التي يستطيع سلاح النقل الجوي القيام بها ، بالاضافة الى قيمتـــه في الحروب الخاطفة ، والحرب التقليدية ، والعمليات الخاصة ، تضعه في مكانة مرموقة ، بالرغم من انه ليس سلاح صدام مباشر .

الحرب الالكترونية : ظهر تعبير الحرب الالكترونية في فترة حرب الاستنزاف ، وكلمة حرب هنا لا تعني حربا بالمعنى المتعارف عليه ، بل هي اشبه ما تكون بحوار الارادات مع المنجزات العلمية ، هذا الحوار الذي تستخدم فيه معدات الكترونية بالغة التعقيد. فعندما أنشأت مصر شبكة صواريخ سام على طول القناة ، لحماية اراضيها من هجمات الطائرات الاسرائيلية (وهذه الصواريخ توجه نحو أهدافها بواسطة الرادار) قامت الولايات المتحدة بتزويد اسرائيل بمعدات خاصة لرصد هذه المحطات والتشويش عليها ، وقد جهزت طائرات النقل الضخمة من طراز بوينغ سي ٩٧(٢٩)، لتقوم بهذه المهمة . والتشويش على الرادار من شأنه تضليل الصاروخ عن هدفه ، ولكن في هذه الحالة يمكن توجيه الصاروخ بوسائل اخرى ابسط لا يمكن التشويش عليها ، وان كانت اقل فاعلية ، لذلك فقد زودت طائرات الفانتوم بأجهزة انذار تنبه الطيار الى الخطر المحدق ، ليتمكن من الافلات بحركة مناسبة، ومن الجدير ان نذكر هنا ان مصر اتبعت خطة الاطلاق الجماعي للصواريخ ، حتى اذا ما تمكن الطيار من الافلات من احدها فلن ينجو مـــن

الاخر . ومهما يكن من أمر فان مجرد وجود هذه الشبكة ، يعني انه لن يكون في وسع القاذفات الوصول بسهولة الى اهدافها ، خاصة اذا كان الهدف يقع ضمن مجال هذه الصواريخ لذلك فلا بد من ضربها وتدميرها . ولهذا زودت اسرائيل بصواريخ «شرايك» المضادة للرادار ، وهو صاروخ جو — ارض يلاحق الذبذبات التي تطلقها اجهزة رادار الصواريخ المضادة للطائرات الى مصدرها ويدمرها . وقد تمكن الفيتناميون الشماليون من ابطال مفعوله باقفال اجهزة الرادار في الوقت المناسب فتوقف اصدار الذبذبات يفقد الصاروخ الهدف ، الا ان الامريكيين زودوه بذاكرة بحيث يواصل الاتجاه نحو الهدف بالرغم من اقفال الاجهزة . وتقول مجلة الطيران والبحرية الايطالية ان الاسرائيليين قد استعملوا هذا الصاروخ ، انتقاما لاسقاط طائرة التشويش الالكتروني بوينغ سي ٩٧ في اواخر عام ١٩٧١ ، في ضرب مواقع الصواريخ المصرية ، ولكن بنتائج طفيفة جدا(٣٠). وتستطيع الطائرات اطلاق صاروخ شرايك من مسافة تتراوح بين ١٢ — ١٦ كيلومترا ، وتبلغ سرعته ضعفي سرعة الصوت ، ومن الممكن تضليله باطلاق ذبذبات وهمية من اجهزة خاصة بعيدة عن اجهزة الرادار الحقيقية . وهناك مفاوضات لشراء اهداف طائرة ، وطائرات استطلاع بدون طيار من طراز رايان فايربي ١٤٧(٣١) وهذه الطائرة تحمل في داخلها أجهزة ملاحة دقيقة ، وتطير حسب خط مبرمج موضـوع في اجهزتها الداخلية ، وهي مزودة بنظام تصوير خاص للبث المباشر الى محطات ارضية . وتستطيع ان تطير لمدى ٤٠٠٠ كيلومتر دون التزود بالوقود وعلى ارتفاع ١٨٬٣٠٠ متـر . امـا الاهداف الطائرة فهي مستعملة في الاصل لتدريب طياري المطاردات ، ووحدات الدفاع الجوي ، الا ان هناك دراسات لجعل هذه الاهداف قادرة على حمل قنبلة زنة ٢٣٠ كيلوغراما تحت كل جناح وتوجيهها لضرب اهداف ارضية . ويعتقد الخبراء الامريكيون انها قادرة على ضرب اهداف تحميها صواريخ سام ٢، وسام ٣، او استعمالها لامتصاص جزء من قوة شبكة الصواريخ المضادة ، وذلك باطلاقها فوق هذه الشبكـة ، فتطلق الصواريخ عليها لاسقاطها ، ظنا منها انها طائرات مقاتلة ، وذلك تمهيدا لهجوم حقيقي تشنه طائرات يقودها طيارون . ويمكن اطلاق هذه الطائرات والاهداف من الارض ، او من طائرة أم ، وتستطيع طائرة هيركوليز الضخمة حمل اربعة من هذه الاهداف تحت جناحيها ، فوزن اثقل هذه الطائرات يبلغ ١٥٨٨ كيلوغراما اما طولها فيتراوح بين ٧ — ٨٬٨٠ متر . وتتمكن اسرائيل بطائرات التجسس هذه مـن القيام بعمليات استطلاع في عمق الارض العربية دون ان تخشى حدوث خسائر بشرية ، بالاضافة الى هذا فسوف تقلل هذه الطائرات من خسائرها اذا ما حاولت خرق شبكة الصواريخ المصرية . ومن المؤكد ان لعبة الحرب الالكترونية هذه ليست بهذه البساطة، فاذا ما أفلحت هذه الاهداف في خداع شبكات الرادار المصرية مرة فسوف يكون من الصعب ان تخدعها مرة ثانية ، واذا ما اكتشف المصريون وسيلة لاتقاء صاروخ شرايك ، فسوف يمضي وقت طويل قبل ان يتمكن الاسرائيليون من ايجاد حـل مضاد ، وبالطبع ، ففي حـالة وجود عمليات عسكرية ، فلن تتوقف هذه العمليات في انتظار ان يجد الاسرائيليون الحل .

ونذكر هنا بعض الوسائل والاسلحة التي يستخدمهـا الامريكيون في فيتنام لمواجهـة صواريخ سام ، حيث ان هذه الخبرات والاسلحة تصب فورا في جعبة العدو الصهيوني لتجربتها في المنطقة ، فقد استعمل الامريكيون في عملياتهم الاخيرة في فيتنام قنبلة جديدة سموها القنبلة الذكية "Smart Bomb" وهي تقودها اشعة لاسر (ليزر) ، وتضبطها كاميرا تلفزيونية "Telecamera" ، وقد حاز الامريكيون بواسطتها على دقة عالية في التصويب ، حتى على ارتفاعات عالية . ويعتقد بأن هذه القنبلة هي الصاروخ نفسه المسمى مافيريك "Maverick" من انتاج شركة هيوز — اريزونا ، وهو صاروخ جو — أرض ، والذي له نظام توجيه خاص ، مكون من كاميرا تلفزيونية موجودة في مقدمـة الصاروخ ، تمسح المنطقة المراد قصفها بحثا عن الاهداف ، وترسلها الى شاشة صغيرة

امام الطيار ، ويبدأ عمل الصاروخ وهو ما زال معلقا في الطائرة ، فعندما يشاهد الطيار الهدف المراد ضربه يوقف الصورة على ذلك الهدف ، ويطلقه فيتوجه الصاروخ مباشرة نحو الهدف الذي حمل صورته . وتستطيع طائرة الفانتوم حمل ستة صواريخ من هذا النوع على علاقتين وهو يعمل بالوقود الصلب ، ووزنه ٢٢٧ كيلوغراما وطولـــه ٢٤٤ متر وقطره ٣٠ سم .

الدفاع الجوي : ليس ثمة سلاح منفصل تماما اسمه الدفاع الجوي ، بل ان هذا السلاح يتكون من عدة اقسام ، تتجمع لتكون ما يعرف بالدفاع الجوي . ويتكون الدفاع الجوي الاسرائيلي من ١ ــ الطائرات المعترضة ، وتشكل الميراج ٣ سي عصبهـــا الرئيسي ، وكما سبق وقلنا فهذه الطائرات مسلحة بصواريخ ماترا آر ٥٣٠ وصواريخ سايدوندر ، وتعاونها في ذلـــك طائرات الفانتوم التي تحمـــل ثمانية صواريــــخ جو ــ جو من طراز سايدوندر وسبارو(٣٢) وطائرة الفانتوم جيدة للقتال الاعمى والليلي ، وفي قدرتها الممتازة على الصعود والارتفاع بسرعة ٩ كيلو مترات في الدقيقة ، ولكن المـــيراج اكثر كفاءة في المطاردة النهارية وعلى الارتفاعات المنخفضة ، وتقوم بعض طائرات الصف الثاني ايضا باعمال الاعتراض مثل الميستير والسوبر ميستير ، وهذه مسلحة بمدافـــع من عيار ٢٠ ملم ، ولا تحمل صواريخ جو ــ جو . وباستثناء الطائرات المطاردة ، فان الدفاع الجوي الاسرائيلي لم يحظ بالقدر نفسه من الاهتمام الذي حظي به سلاح الطيران والاسلحـــة الاخرى ، ولكن هذا لا يعني انه اهمل كليا .

٢ ــ **الانذار** ــ ويتكون من شبكة جيدة من الرادار ، وتعمل اسرائيل حاليا على تجديد هذه الشبكة وتقويتها ، فقد ذكرت مجلة افياشن ويك الامريكية (عدد ١ آذار ١٩٧١) « إن شركة هيوز تضع دراسة تمولها إسرائيل لانشاء جهاز دفاع جوي يمكن السيطرة عليه بالالات الحاسبة الالكترونية ، وتحاول اسرائيل تحسين اجهزة دفاعهـــا الجوي ، بشراء اجهزة رادار جديدة وزيادة بطاريات الصواريـــخ المضادة للطائرات من نـــوع هوك » . ولا تتوقف عملية الانذار على اجهزة رادار الدفاع الجوي ، بـــل تتعداها الى اجهزة رادار البحرية . ويمكن تجهيز سفن الصيد الصغيرة بمعدات بسيطة لتقوم باعمال المراقبة والانذار ، بالاضافة لوسائل الكشف العصرية . وفي بلد عسكري مثل اسرائيل يستطيع كل جندي او مستوطن في الكيبوتسات ، شبه العسكرية ، ان يقوم باعمـــال المراقبة بالعين المجردة او المناظير ، والانـــذار ، تساعدهم في ذلـــك شبكة ممتازة من المواصلات السلكية واللاسلكية .

٣ ــ التصدي ، في العادة تكون المطاردات جاهزة دوما للتدخل لرد اي هجوم خارجي ، ولكن في حـــال عدم تمكن المطاردات من الـــدفاع عن بعض المناطـــق تتولى البطاريات ووحدات الصواريخ المضادة للطائرات القيام بهذه المهمة ، وقد سلحت اسرائيل بمدافع رباعية عيار ٢٠ ملم، وتطلق هذه المدافع النار من اربع فوهات في وقت واحد(٣٣) وتعطي كثافة نيران جيدة ، يضاف لهذه مدافع من عيار ٣٠ و ٤٠ ملم . وتستخدم المدافع عيار ٢٠ ملم لصد الطائرات التي تحلق على ارتفاعات منخفضة اما المدافع الاخرى فللطائرات التي تحلق على ارتفاعات أعلى .

والجزء الثاني من الوحدات المضادة للطائرات هي صواريخ هوك ، وكانت اسرائيل قد حاولت اكثر من مرة الحصول عليها ، الى ان تمكنت من ذلك عام ١٩٦١ ، مقابل اصوات الناخبين اليهود للرئيس كنيدي . والهوك صاروخ جيـــد ، وهو صاروخ الدفاع الجوي الرئيسي لدى قوات حلف شمالي الاطلسي ، الا ان الدول التي تملكه تحاول الآن ابداله بصواريخ احدث(٣٤) ولدى اسرائيل تسليح كتيبتين من صواريخ هوك(٣٥) وهو صاروخ متوسط المدى ، (مداه ٣٥ كيلو مترا) ويتتبع الحرارة التي يشعها عادم الطائرة . ومن الجدير بالذكر ان اصابة هذا الصاروخ تخفض بنسبة كبيرة في ايام الصيف الحـــارة ،

خاصة في منطقة صحراوية مثل سيناء حيث تزيد درجة الحرارة عن ٤٠ درجة مئوية في الايام العادية . وتتمركز هذه الصواريخ حول مدينة تل ابيب وفي جبهة قناة السويس . ونشير هنا الى ان الدفاع الجوي الاسرائيلي يبقى ضعيفا بسبب الوضع الجغرافي الاسرائيلي ، حيث تستطيع الطائرات العربية ، خاصة المرابطة في الجبهة الاردنية(٣٦) والسورية ، الوصول الى اكثر الاهداف حيوية في فلسطين المحتلة وضربها خلال دقائق معدودة ، فان ضيق مساحة الارض لا يعطي الدفاع الجوي الوقت الكافي للانذار والتصدي للغارة .

المطارات : عندما انسحبت القوات الانجليزية من فلسطين عام ١٩٤٨ تركت فيها ١٢ قاعدة جوية ومطارا عسكريا وثلاثة مطارات مدنية هي حيفا واللد وتل ابيب ، وقد عملت السلطات الصهيونية على زيادة هذه المطارات ، وحسن بعضها واهمل البعض الاخر ، وذلك تبعا لمقتضيات الدفاع الاسرائيلية الجديدة . وبالرغم من صعوبة اعطاء معلومات دقيقة في هذا المجال ، الا انه يمكن التأكيد بان هناك عددا جيدا من المطارات ، وعدا عن ذلك يمكن استخدام بعض الطرق العريضة والمرصوفة بشكل يسمح لها باستقبال الطائرات مثل طريق حيفا ـ تل ابيب ، كاراضي هبوط عند الحاجة . وقد عنيت السلطات الاسرائيلية بتحصين بعض المطارات المهمة مثل قاعدة رامات دافيد في شمال فلسطين ، حيث قامت بتحصينها على الطريقة السويدية ، بانشاء ملاجيء للطائرات والذخيرة والوقود ، تحت الارض(٣٧) . ولكن اذا كان التحصين قادرا على حماية الطائرات ، الا انه لا يكفي لتحافظ الطائرات على قدرتها على التحليق والتصدي ، فلا بد من وجود عدد كاف من المطارات . ويعتقد البعض ان لدى اسرائيل اكثر من ٦٠ مطارا ، ولكن هذا العدد مبالغ فيه ، فلا يمكننا اطلاق اسم مطار على كل طريق تستطيع ان تنزل فيه طائرة ، وهناك اعداد من المطارات الصغيرة التي لا يزيد طول مدرجها عن الفي متر ، معدة لاستقبال الطائرات السياحية الصغيرة ، او لاستعمال نوادي الطيران، او للطائرات الزراعية ، ويمكن استخدام هذه المطارات لاستقبال طائرات النقل العسكرية من طراز عرفه ، الا انها غير قادرة على استقبال المقاتلات الحديثة او طائرات النقل الضخمة . وفي الواقع فان زيادة عدد المطارات يخفف تأثير الضربة الاولى ، او الضربة الانتقامية ويزيد من امكانية الاستفادة من الطائرات ، خاصة طائرات النقل . ولهذا فقد قامت القوات الاسرائيلية بانشاء عدد من مطارات الميدان ، بالقرب من خطوط وقف اطلاق النار . وقد استفادت في الضفة الغربية من المطارات الانكليزية القديمة مثل مطار الجفتلك وقامت باصلاح مناطق ورصفها لاستقبال طائرات النقل ، كما فعلت في منطقة بيت فوريك شرقي نابلس . وعادة لا تحتاج مطارات الميدان هذه الى رصفها بالاسمنت ، بل تكفي رصفة من الحجارة والرمل ، واحيانا يكفي تسوية الارض ، وبالطبع من الصعب اطلاق كلمة مطار على هذه المدارج التي تستعمل ايضا لهبوط طائرات الارتباط، او طائرات المراقبة وضبط رماية المدفعية .

وقد استولت القوات الصهيونية على ثمانية مطارات مصرية في سيناء خلال حرب حزيران ، بالاضافة لمطار مدني اردني هو مطار قلنديا قرب القدس . ويتضمن الملحق المثبت في نهاية المقال قائمة بالمطارات الاسرائيلية حسب افضل المعلومات المتوفرة ، وبأهم القواعد العسكرية مثل رامات دافيد ، وعاقر وحاتسور ، والمطارات المدنية مثل اللد وحيفا وايلات والقدس ، بالاضافة للمطارات المدنية والقواعد العسكرية الاصغر والمطارات التي قد تفيد المجهود الحربي الصهيوني ، حيث يمكن استخدامها في اعمال الامداد والتموين او لنقل الجرحى . وكذلك المطارات المستعملة كنوادي طيران او لاستقبال الطائرات السياحية . كما يتضمن الملحق قائمة بمراكز وحدات الرادار الثابتة والمتحركة التابعة للدفاع الجوي الاسرائيلي . ومما لا شك فيه أن مراكز وحدات الرادار

قد تغيرت بعد نشوء وضع دفاعي جديد في المنطقة . فقد انشئت مراكز جديدة للرادار على جبل الشيخ ، وفي سيناء وبالقرب من مضيق تيران .

صناعة الطائرات الحربية

عندما حصلت مصر على طائرات الميغ ١٥ و ١٧ زودت اسرائيل بطائرات الميستير . وعندما حصلت الاولى على طائرات ميغ ٢١ ، اشترت الثانية طائرات الميراج الفرنسية، ولكن لم يخل شراء اسرائيل للطائرات في كثير من الاحيان من الضغوط ، ولو ان هذه الضغوط كانت للتخفيف من سياستها العدوانية والتوسعية ، او لعدم استعداد الدول الكبرى للدخول في صراع بسبب من سياسة اسرائيل . ولذلك فقد عمدت السلطات الاسرائيلية الى انشاء صناعتها الخاصة للطائرات والاسلحة . وبعد الحظر الذي فرضه الجنرال ديغول على تزويد اسرائيل بالسلاح بعد حرب حزيران نشطت اسرائيل في تقوية صناعتها هذه ، ونشطت معها اجهزة المخابرات التي تمكنت من الحصول على تصاميم طائرة الميراج ٥ من سويسرا ، وعدا ذلك فقد سافر أحد كبار مهندسي مصانع الطائرات الاسرائيلية الى الولايات المتحدة وبريطانيا وفي جيبه ٢٠ شيكا قيمة كل منها مئة الف دولار ، و ٢٠ عقدا لتقنيين في كل فرع من فروع الطيران واستغلت الحكومة الاسرائيلية فترة « الكرم » الامريكي للحصول على مصانع واجازة لصنع المحرك جي ٧٩ ، وهو احد المحركين العاملين على طائرة الفانتوم ، وبدأت هكذا في « تصميم » اول طائرة مقاتلة لها سمتها السوبر ميراج . وهكذا بدأت مصانع الطائرات الاسرائيلية العمل في مشروعها الاول والذي اطلقت عليه اسم « سالفو » Salvo ، وهو لطائرة نفاثة تطير بمحرك من طراز جنرال الكترك جي ٧٩ ، وتزيد قوته عن قوة محرك طائرة الميراج ٥ بنسبة ٢٠٪ . وتصاميم هذا المشروع مأخوذة عن تصاميم الميراج ٣ سي والميراج ٥ ، ولكن العمل بهذا المشروع ما لبث ان جمد(٢٨) ليبدأ العمل بمشروع ثان هو « الستارة السوداء » Black Curtain (وقد سمي كذلك نظرا للسرية التي طور بها) وتعمل هذه الطائرة بالمحرك المذكور نفسه الا أن تصاميمها مأخوذة عن طائرة الميراج ٥ فقط وتدعي اسرائيل بانها ستجمد هذا المشروع ايضا في حال استلامها الصفقة الاخيرة من طائرات الفانتوم والسكاي هوك التي اوصت عليها(٢٩). ومما لا شك فيه ان انتاج اسرائيل للطائرات ذات الكلفة العالية لا يناسبها ، خاصة وانها تحصل في الوقت الحاضر على احتياجاتها من السلاح من الولايات المتحدة مجانا ، او بموجب قروض تنقلب الى مساعدات في المستقبل . أن الخطر الوحيد الذي قد يشكله انتاج الطائرات الحربية في اسرائيل هو انعتاقها تماما من « الضغط الاجنبي » المتعلق بسياستها في المنطقة ، وهو أمر عرفت اسرائيل كيف تتخلص منه في معظم الاحيان . ومن المهم ان نشير الى ان مستوى طائرة « السوبر ميراج » لن يرتفع عن مستوى طائرة الميغ ٢١ مف ، فاذا اخذنا بعين الاعتبار قوة دفع محرك الفانتوم المستعمل على السوبر ميراج الاسرائيلية (٥،٣٨٥ كيلو غراما) وقارناه بقوة دفع محرك الميغ ٢١ مف (٥،١٠٠ كيلو غرام) وعلاقة قوة الدفع بالوزن هي التي تقرر السرعة ، وعلى الرغم من اننا لا نعرف وزن طائرة السوبر ميراج ، الا انه من الصعب انتاجها لتكون اخف من طائرة الميغ ٢١ والتي هي من اخف الطائرات التي في مستواها وزنا .

وقد لاقى البدء في تصميم الطائرة الاسرائيلية معارضة شديدة في بعض الاوساط ، وحجتهم في ذلك أن معامل داسو لا تنتج سوى ٤٢٪ من الطائرة والباقي تنتجه اكثر من ٥٠ شركة ومصنعا ، ومعظم هذه المصانع المساعدة غير متيسرة لاسرائيل(٤٠). وفي الحقيقة فان هذا الامر قد يزيد من كلفة الطائرة ، حيث ستضطر الى شراء ما ينقصها من الخارج ، كما وان سرعة الانتاج قد تتأثر بسرعة تسليم المصانع الاجنبية للمعدات المطلوبة ، ولكنه لن يؤثر على انتاجها . ومن المهمات التي عهد بها الى مصانع الطائرات

الاسرائيلية ، اجراء التعديلات المناسبة على الطائرات التي يزود بها سلاح الطيران ، واعمال الترميم والصيانة للطائرات القديمة والمعطوبة . ومن المهم ان نذكر ان القادة العسكريين في اسرائيل كانوا يطلبون اجراء تعديلات كثيرة على الطائرات التي يوصون عليها ، وهي تعديلات لا يمكن القيام بها في اسرائيل لاسباب فنية ، واشهر مثال على ذلك ان عيزر وايزمان قد طلب من شركة داسو اجراء أكثر من ٥٠٠ تعديل على طائرة الميراج ٥ ، والتي كانت اسرائيل قد اوصت على ٥٠ منها في اواخر عام ١٩٦٦ ، مما دفع هذا الاخير الى القول في حفل عشاء في السفارة الاسرائيلية في باريس وبحضور سيرج داسو ابن مصمم الطائرات المشهور « انها طائرة اسرائيلية الآن » وقد اثارت هذه العبارة استياء شديدا في الاوساط الفرنسية(٤١). وكما قلنا تنتج المصانع الاسرائيلية حاليا طائرات التدريب النفاثة من طراز فوغا ماجستير(٤٢) بموجب ترخيص خاص ، وقد بدأت بانتاج طائرة النقل الخفيفة (عرفه) وبواقع ٤ طائرات في الشهر ، كما تنتج قطع الغيار لطائرات سلاح الطيران الاخرى . وقد برزت اهمية انتاج قطع الغيار بعد الحظر الفرنسي على تصدير الاسلحة الى اسرائيل وامكانية تعطيل الطائرات الفرنسية الصنع في الطيران الاسرائيلي . وتنتج مصانع اخرى جميع انواع الذخيرة المستعملة على الطائرات ، باستثناء بعض الاسلحة والذخائر الخاصة ، كما وتنتج الصواريخ جو — جو من طراز « ماترا » الفرنسي والمدافع الرشاشة طراز ديفا وذلك بموجب ترخيص(٤٣).

خاتمة — هذا هو سلاح الطيران ، وقد سبق وقيل بان اسرائيل هي جيش يمتلك دولة ، ويبدو ان هذا القول قد تطور اكثر بحيث اصبح سلاح طيران يمتلك دولة ، ومن الواجب ان نعترف بان النجاح الذي حققه الاسرائيليون بسبب هذا السلاح هو الذي دفعهم الى تنميته وتطويره ، ليصل الى ما هو عليه . ولكن ورغم كل شيء سيبقى سلاح الطيران قوة مساندة للقوات البرية وستكون هناك دوما وسائل للتغلب عليه او تخفيف مفعوله ، واكبر مثل حي على ذلك هو فيتنام رغم ان الاختلاف في القوة بيننا وبين العدو الاسرائيلي ليس هو الفارق نفسه بين فيتنام والولايات المتحدة ، وبالتالي فان امكانات النجاح لدينا اكبر بكثير . ويجب ان نعرف بان مصاعبنا مع اسرائيل ليس سببها سلاح الطيران او القوة العسكرية الاسرائيلية ، بل مصاعبنا في تخلفنا نحن في جميع المجالات ، **فسلاح الطيران ليس الثقل الوحيد في الميزان** ، بل هو جزء من القوة العسكرية وهذه القوة هي محصلة لكل مصادر القوة في اي دولة ، ويقررها وضع البلد الاقتصادي ، ونظامها السياسي والاجتماعي ، ومكانتها الدولية ، ووضعها الجغرافي والسكاني . ولو تمكنا من الاستفادة من هذه المصادر وتنميتها او تنظيمها لاصبح سلاح الطيران ، والقوة العسكرية الاسرائيلية مسألة هينة لا يحتاج حلها الى الكثير من العبقرية . وكما قلنا في أول الموضوع ، فان اسرائيل تتجه لتصبح قاعدة جوية ضخمة ، وهي تطور استخدام هذا السلاح يوما بعد اخر ، ليصبح الاداة العدوانية الاولى . فلم تستعمل اسرائيل سلاح الطيران خلف الخطوط العربية قبل عام ١٩٦٤(٤٤)، وقد استخدمته اول مرة في اواخر عام ١٩٦٤ ، وذلك للرد على القوات السورية التي قصفت مستعمرتي « دان » و « دفنه » كما ادعت السلطات الاسرائيلية ، وعندما لم يثر هذا العمل ردود فعل دولية ، اعتمدته السلطات الاسرائيلية كوسيلة « لتأديب » العرب ، فبعد ضرب المواقع العسكرية بالطائرات بعد حرب حزيران ، وخلال حرب الاستنزاف ، قامت بقصف بعض القرى العربية بشكل خفيف كما فعلت بالقرى الاردنية من قبل واللبنانية الآن ، وسوف تتجاوز الى تدمير هذه القرى تماما لتضرب بعدها المدن . وكما قلنا تنمو اسرائيل لتصبح قاعدة جوية استعمارية ، مثل القواعد الامريكية في الهند الصينية ، بفارق كون اسرائيل اشد رسوخا ، وكون مسؤوليتها اكثر استقلالا ، ومن المهم ملاحظة استخفاف اسرائيل بالروابط الدولية ، وهذا ما كانت لتستطيعه دولة صغرى لولا دعم المعسكر الامبريالي لها ، كمحافظة على مصالحه في المنطقة ، ولولا قوة مركز اسرائيل الاعلامي الذي يسمح

لها بتغطية كل افعالها الشنيعة . يؤكد هذا تطاولهم حتى عـلى « اصدقائهم » وليست ببعيدة محاولتهم سرقة طائرات ميراج ٥ من فرنسا ، وسرقتهم ايضا للزوارق الخمسة من ميناء شربورغ الفرنسي ، وسرقتهم لتصاميم طائرات الميراج ٥ من سويسرا وباخرة كاملة تحمل قطع غيار لطائرات الميراج من ميناء انفيرس البلجيكي او حتى اختطافهم للطائرات من بريطانيا وامريكا اثناء حرب فلسطين ، كل هذا يجعل من اسرائيل قوة لا تلتزم بالحد الادنى من الارتباطات او الصداقة الدولية ، او القيم الخلقية الدولية .

ملحق

المطارات في اسرائيل

١ — رامات دافيد (نهلال)
٢ — عاقر (تل نوف)
٣ — حاتسور (قسطينا)
٤ — كفار سركين (بتاح تكفا)
٥ — حاتسريم — قاعدة كلية الطيران
٦ — البصة — البعنة
٧ — اللد
٨ — تل ابيب (دوف هوز)
٩ — القدس الجديدة
١٠ — حيفا
١١ — ايلات
١٢ — مسادا (بار يهودا)
١٣ — عين شيمر
١٤ — هرتسليا
١٥ — الفالوجا
١٦ — بيت دراس
١٧ — روشبينا (الجاعونة)
١٨ — سان جين
١٩ — البروة
٢٠ — ابو رفيق
٢١ — ماجدو
٢٢ — ديمونا

المطارات العربية في المناطق المحتلة

١ — قلنديا — مطار مدني اردني
٢ — العريش
٣ — السدر
٤ — المليز
٥ — تمادة
٦ — ابو رديس
٧ — ابو زنيمه
٨ — الطور
٩ — شرم الشيخ

اراضي النزول في اسرائيل

١ — الرملة
٢ — كفار جلعادي
٣ — ينئيل
٤ — جوليس
٥ —ساديه بوكر
٦ — كتسيعوت
٧ — عين حصب
٨ — ساديه ابراهام
٩ — متسابيه رامون
١٠ — عين جدي
١١ — كفار يروحام
١٢ — سدوم
١٣ — بير مئوحا
١٤ — عـراد
١٥ — صرفند
١٦ — تمناع
١٧ — ويلهلما

محطات الرادار الاسرائيلية

أ — مواقع ثابتة

١ — صفد — معسكر جبل كنعان
٢ — جبل ميرون
٣ — حيفا
٤ — بات جاليم — داخل المعسكر
٥ — رامات دافيد — داخل المطار
٦ — اللد — داخل المطار
٧ — عاقر — داخل المطار
٨ — حاتسور — داخل المطار
٩ — اريحا — على جبل اريحا
١٠ — ميرار } يعتقد بان الاولى للانذار
١١ — جيديرا } والثانية لتوجيه المقاتلات

ب ــ مواقع مؤقتة

١ ــ سان جين
٢ ــ عسفيا
٣ ــ جعفات اولجا
٤ ــ تل ابيب ــ شمالي تل ابيب
٥ ــ القدس ــ غربي القدس
٦ ــ حاتسريم ــ داخل المطار
٧ ــ ايلات
٨ ــ صرفند

جـ ــ محطات الرادار داخل سيناء

١ ــ التل الاحمر
٢ ــ ام خشبت
٣ ــ راس سله
٤ ــ متلا
٥ ــ رفح
٦ ــ بير العبد
٧ ــ ام رجام
٨ ــ جبل بعلق

---

١ ــ زئيف شيف ، **هآرتس** ، ١٩٧٢/٤/١٤ .

٢ ــ نيسك لانس ، وبيار لوير ، **حربنا مع اسرائيل** (دار النهار للنشر ــ بيروت ١٩٦٨) ص ٥٤ .

٣ ــ سيف ، دان ، بن غورت ، **انشاء وتطوير سلاح الطيران الاسرائيلي**(دار العودة ــ بيروت) ص ٢١٠ .

٤ ــ **المصدر السابق** ، ص ١٤٦ .

٥ ــ قالت **هآرتس** عدد ١٩٧١/٦/١ (ان ثلاثة انتصارات حاسمة على الجيوش العربية منذ عام ١٩٤٨ ساهمت في خلق ثقة مبالغ فيهـا ...) ويبدو انه بسبب هذه الثقة يصاب الاسرائيليون « بشطحات » اسطورية عن تفوقهم ، فقد ادعى هؤلاء بان طائرة من طراز اوريغان (سرعتهـا ٩٦٠ كم / ساعة) قد تمكنت من اسقاط طائرة ميغ ٢١ (سرعتها ٢٣٣٥ كم / ساعة) تبـين فيما بعد انها ضربتها فيما كانت تهم بالاقـلاع اي في أسوأ حالاتها ، ويبدو انهـا تمكنت من الارتفاع بضعة امتار حين اصيبت فعدوا ذلـك مبارزة تامة .

٦ ــ مجلة **الاتا الدولية** Alata International الايطالية عدد كانون الثاني ١٩٧٢ .

٧ ــ عدد ٣١ اب ١٩٦٧ .

٨ ــ باعت اسرائيل هذه الطائرات بعد حـرب حزيران. **الاتا الدولية**، عدد كانون الثاني١٩٧٢.

٩ ــ سيف ، دان ، بن غورت، **المصدر السابق**، ص ٢٢٨ .

١٠ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٢٢٩ .

١١ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٢٣٠ .

١٢ ــ بالنسبة لقدرة طائـرات سلاح الطـيران الاسرائيلي على التزود بالوقود وهي في الجو ، كتبت مجلة القوات المسلحة في الولايات المتحدة: « بعد تطور القدرة على تزويد الوقود في الجو تستطيع اسرائيل الان ارسال طائرات ليـس لمهاجمة اهداف بعيدة في البلاد العربية فقط بل لمهاجمة سفن وطائرات مختلفـة في المتوسط ، وتستطيع مهاجمة اهداف مثل قاعدة ويلس في ليبيا من الجو ، وكذلك المناطق الداخلية مـن السودان والعراق وسوريا » ملحق **هآرتس** ، ١٩٧٢/٤/١٤ .

١٣ ــ مجلة **الاتا الدولية** ، عدد كانون الثانـي ١٩٧٢ .

١٤ ــ قال زئيف شيف ، ملحق **هآرتس** ، ١٩٧٢/٤/١٤ « .. ففي السنة الماضية وفي اعقـاب تزود الـدول العربيـة بمئات طائرات الميـغ والسوخوي والتوبوليـف كـان ميزان القـوى العددي ما يلي ، طائرات مقاتلة لدى العـرب ٣،٥ ضعف ما لدى اسرائيل ... » هذه عينة عن المغالطـات التي يقدمهـا العدو ، فعـدا الاختلاف في قدرة الطائرات ، فهذه القائمة تضم حتى الطائرات التي يملكها السلطان قابوس ، والمغرب واللذان يبعدان بضعة الاف من الكيلو مترات عن الجبهة .

١٥ ــ هنـاك تضارب واضـح في الارقـام التي تقدمها مؤسسـات الدراسات العسكرية ، وهذه الارقام اختيرت بحرص بعد الاطلاع علـى نشرة مؤسسة الدراسات الاستراتيجية للعام ٧٢/٧٢ من **المحـرر** اللبنانية ١٩٧٢/٩/٨ ، ونشـرة مؤسسة افياشن ستاديز انترناشنـال عـدد تموز ١٩٧٢ ، بالاضافة لمجلة **الاتا الدوليـة** عدد كانون الثاني ٧٢

١٦ ــ الفانتوم RF-4C تختلف قليلا عن الفانتوم RF-4E ــ تقوم بمهمات الاستطلاع الليلية وهي مزودة بالات تصوير وكاميرات سينمائية دقيقـة تغطي مساحات واسعة، وتبلغ قوة الاضاءة التي تستخدمها عند التصوير ٥ ملايين شمعة ممـا

يسمح لها بان تضيء في الليل اهدافا متحركة كقوافل السيارات وان تصورها بعد ذلك ، وفي الطائرة جهاز رادار حساس طراز (S.L.A.R.) يعطي الطيار صورة دقيقة لشريط عرضه ٢٠ كم من الارض التي يحلق فوقها . كما وان فيهـا جهازا من طراز (A.A.S.18) يستخدم الاشعة تحت الحمراء ويكشف منابع الحرارة كالسيارات المموهة ونيران اماكن الاقامة المختفية وسط الادغال .

١٧ — من الصعب اثبات تزويد حكومة جنوب افريقيا لاسرائيل بطائرات هي الطائرات نفسها المستعملة لديها ، وبامكان حكومة جنوب افريقيا انتاج عدد محدد من هذه الطائرات دون الاعلان عن ذلك .

١٨ — **الاتا الدولية** ، عدد كانون الثاني ١٩٧٢ .

١٩ — سيف ، دان ، بن فورت، **المصدر السابق**، ص ٢٤٥ .

٢٠ — نشرت مجلة **Air Enthusiast** البريطانية عدد كانون الاول ١٩٧١ « انه تم تحويل طائرات الفوتور ذات المقعدين الى طائرات استطلاع وتشويش الكتروني ... »

٢١ — **الاتا الدولية** ، عدد شباط ١٩٧٢ .

٢٢ — نفس الملاحظة عن الجدول رقم (١) راجع **نشرة مؤسسة الدراسات الاستراتيجية** ، **مجلة الطيران والبحرية الايطالية** عدد شباط ١٩٧٢ ، **الاتا الدولية** عدد كانون الثاني ١٩٧٢ .
Air Enthusiast البريطانية عدد كانون الاول ١٩٧١ .

٢٣ — **الطيران والبحرية الايطالية** ، عدد شباط ١٩٧٢ .

٢٤ — **المصدر السابق** ، عدد ايار ١٩٧٢ .

٢٥ — وليام غرين ، **The Observers's Book of Aircraft** ، نشرة ١٩٧٢ .

٢٦ — قالت مجلة **افياشن ويك** عـدد ٧٢/٣/٢٧ « تعمل اسرائيل على تطوير جهاز اسمه روتر — اور (Rotor-OR) يستخدم في طائرات الهيلوكبتر ، للانارة الليلية دون ملاحظتها من الارض ، وتعمل مصادر الانارة في هذا الجهاز بواسطة غاز التريتيوم (Tritium) ويمكن هذا الجهاز طاقم الطائرة من الرؤية لمسافة ٣٠٠ قدم .

٢٧ — سيف ، دان ، بن فورت ، **المصدر نفسه**، ص ١١٧ (دار العودة — بيروت) .

٢٨ — زئيف شيف ، ملحق **هآرتس** ، ٧٢/٤/١٤.

٢٩ — يجب الملاحظة هنا ان البوينغ سي ٩٧ هي الصنف العسكري للبوينغ ٣٧٧ ستراتد كروزر المدنية ، ويطلق عليها في اسرائيل اسم انـاك Anak ايضا .

٣٠ — عدد كانون الثاني ١٩٧١ .

٣١ — زئيف شيف ، ملحق **هآرتس** ، ١٤/٤/ ١٩٧٢ .

٣٢ — لاعطاء فكرة عن قدرات الصواريخ جو — جو ، نذكر قدرة صاروخ سبارو ٣ ، طوله ٣٫٦٦ مترا ، وزنه ٢٠٤ كيلو غرامات ، وسرعته اكثر من ٣٫٤٥ ماك ، ويبلغ مداه ١٣ كيلو مترا ، اما عبوته الناسفة فوزنها ٢٧ كيلو غراما ، ويوجه بشكل شبه فعلي بموجات متصلة .

٣٣ — زئيف شيف ، ملحق **هآرتس** ، ١٤/٤/ ١٩٧٢ .

٣٤ — **الاتا الدولية** ، تشرين الاول ١٩٧١ .

٣٥ — *Military Balance* 1970-71

٣٦ — الوضع هنا مرضي ، فالكل يعرف مأساة « الجبهة الشرقية » .

٣٧ — سيف، دان ، بن فورت ، **المصدر السابق**.

٣٨ — مجلة **الطيران والبحرية الايطالية** ، عـدد تشرين الثاني ١٩٧١ .

٣٩ — **المصدر السابق** .

٤٠ — سيف، دان ، بن فورت ، **المصدر السابق**، ص ٢١٩ .

٤١ — **المصدر نفسه** ، ص ٢١٤ ، نقرأ «وازعجت الاسرائيليين بصفة خاصة حقيقة ان الفرنسيين ينوون بيع طائرات الميراج (الميراج ٥) لليبيين — وهي الطائرة التي انتجت بالفعل بناء على طلب اسرائيلي وحسب تفاصيل قدمها خبراء سلاح الطيران الاسرائيلي لمصانع داسو الفرنسية » .

٤٢ — قالت مجلة (Military Review) عدد اذار ١٩٧١ ، « ان المصانع الاسرائيلية تعمل على انتاج طائرة فوغا ماجستير بمقعد واحد لمساندة القوات البرية » .

٤٣ — معاريف ، ١٩٧٢/٨/١٨ .

٤٤ — نقصد ان اسرائيل لم تستعمل الطيران خلف الخطوط العربية في اوقات الهدنة ووقف اطلاق النار .

سياسة استثمار رؤوس الاموال في القطاع الصناعي في اسرائيل

انطوان منصور

ان معرفة وضع الاستثمارات وحجمها في اقتصاد بلد ما ضرورية ومدخل لكل محاولة جدية للتعرف عن كثب على واقع تطور هذا البلد وامكاناته والآفاق المفتوحة امامه . ولما كانت الاختيارات التي تحدد وجهة هذه الاستثمارات تتداخل فيها ، بشكل اساسي ، عوامل سياسية ، فلا بد ان تتناول الدراسة العناصر السياسية التي تتحكم في واقع الاقتصاد المنوي دراسته . وان دراسة العوامل التي تتحكم بواقع الاقتصاد الاسرائيلي تزداد اهمية نظرا لاعتماده وبشكل كبير على الموارد الخارجية (مساعدات وهبات ، دخول رساميل اجنبية) . ولكن لان حجم هذه الرساميل كبير بحيث يجعل اسرائيل مرتبطة بالامبريالية فلا بد من معرفة مدى وكيفية استفادتها منها . هنا يبرز لنا القطاع الصناعي كهدف تسعى اسرائيل من خلال تطويره ودعمه الى خلق قاعدة اقتصادية متينة تكون الركيزة لانطلاقة استعمارية تتعدى حدودها لتشمل بلدان المنطقة العربية . وتكتسب دراسة الاستثمارات في هذا القطاع اهمية كبرى لان امكانات ووجهة تطوير القطاع بأكمله مرتبطة بها ، بحجمها وتوزيعها على مختلف النشاطات وبالتالي فأي نوع من النشاطات الصناعية يعطى الافضلية ، لذلك لا بد من معرفة الوسائل التي تستخدمها الدولة للتأثير على الاستثمارات ولجعلها تتوظف في مجالات تنسجم ومخططاتها، كالقوانين التي اصدرتها .

ان تطوير وسائل الانتاج بتطبيق التكنيك الحديث ضروري لتطوير القطاع الصناعي الذي توليه اسرائيل اهمية قصوى ، لذلك فلمجالات البحث والدراسات اهميتها . وسنتعرف خلال الدراسة على الامكانات المفتوحة أمام البحث والتطوير والامكانات الحالية في قطاعي الصناعة المدنية والحربية .

يلعب القطاع المصرفي دورا مهما بتوفير السيولة والتسليف لمختلف النشاطات الاقتصادية . ولا بد هنا من التطرق لدور المصرف المركزي كأداة بيد الدولة لتنفيذ مخططاتها ودفع القطاع الخاص باتجاهات محددة .

ان تدفق اليهود الهائل من انحاء العالم الى اسرائيل جعل نسبة اليد العاملة المتخصصة مرتفعة نسبيا نظرا الى ان البلاد التي هاجر منها هؤلاء متقدمة (المانيا ، الولايات المتحدة الاميركية ...) وهذا يوفر للاستثمارات امكانات لا يمكن ان تتوفر في بلد آخر . لذلك فاستخدامها واستثمارها يشكل عاملا مهما ، هذا ، وان هذه الدراسة لا تطمح الى تناول موضوع الاستثمارات من كامل وجوهه وبالتفصيل الدقيق . وعلى الرغم من ان المساعدات والهبات وتحرك الرساميل الاجنبية الى اسرائيل لها اهمية وتأثير كبير في الاقتصاد ووجهة تطوره ، فلن نتناولها بالتفصيل ، بل سوف ندرسها فقط من زاوية مدى تأثرها بقانون تشجيع الاستثمارات الذي اصدرته الدولة .

الاستثمارات الصناعية في الاقتصاد الاسرائيلي

واجهت اسرائيل عند انشائها مشكلات اقتصادية صعبة : منها استيعاب عشرات الالوف من المهاجرين اليهود ، ومقاطعة الدول العربية لها مما ادى الى عزلتها . وفي السنين الاولى من وجودها كانت اولى المشكلات التي واجهتها الحكومة الاسرائيلية تأمين الحاجات الغذائية للسكان ، فأولت اهتماما كبيرا للقطاع الزراعي مؤمنة استثمارات ضخمة حتى سنة ١٩٥٦ خصوصا وان ازدياد المهاجرين كان يطرح مشكلة زيادة الانتاج بنسبة زيادة السكان المرتفعة .

بعد ما تم تطوير القطاع الزراعي اتجهت الاستثمارات اتجاهـا متزايدا نحو القطاع الصناعي ، ففي حين بلغت الاستثمارات في الصناعة ٨٧ مليون ليرة اسرائيلية عام ١٩٥٥ ، وصلت الى ٢٠٨ م. ل. (مليون ليرة) عام ١٩٥٩ و٤٣١،٩ عام ١٩٦٣ ، أي ان قيمتها تضاعفت كل ٤ سنوات ولكنها تعرضت لانخفاض كبير في الفترة الممتدة بين ١٩٦٥ و١٩٦٧ : فبينما بلغت في العام ١٩٦٥ ٤٦٧،٢ م. ل. انخفض هذا الرقم الى ٢٤٨،٧ في العام ١٩٦٧ ، اي بنسبة ٤٦ بالمئة ، وهذا ناتج عن الازمة الاقتصادية التي مرت بها اسرائيل : ارتفاع الاسعار ، بطالة ، ركود في النشاط الاقتصادي . ويعود سبب هذه الازمة جزئيا الى تدن في المساعدات والرساميل الاجنبية ، وخصوصا وقف « التعويضات » المتأتية من الحكومة الالمانية ، مما يدل على مدى اعتماد اسرائيل على الخارج . لقد قدمت حرب حزيران عام ١٩٦٧ مخرجا مؤقتا لهذه الازمة الاقتصادية اذ ازدادت المساعدات من اليهود في العالم ، وعقد مؤتمر في القدس عام ١٩٦٨ ضم عددا كبيرا من اغنى الرأسماليين اليهود وقرر استثمار مبالغ ضخمة في اسرائيل . فنتج عن ذلك ازدياد الاستثمارات في القطاع الصناعي عام ١٩٦٨ بنسبة ٨٧ بالمئة عما كان عليه في السنة السابقة ، وبلغت قيمتها ٤٦٦،٥ م. ل. ، وهي تعادل قيمة الاستثمارات لعام ١٩٦٤ . ثم عرفت هذه الاستثمارات تطورا سريعا في فترة ما بعد حرب حزيران : ٣٦ بالمئة في ١٩٦٩ و١٠ بالمئة في ١٩٧٠ .

ولكن الارتفاع الكبير للاستثمارات في الصناعة لم يتم على حساب القطاعات الاخرى اذ ان مجموع الاستثمارات عرفت هي ايضا تطورا مماثلا : في عام ١٩٥٥ كانت نسبة الاستثمارات في القطاع الصناعي ١٨،٥ بالمئة من مجموع الاستثمارات، وفي العام ١٩٥٩ بلغت هذه النسبة ١٨،٩ بالمئة ولم تتغير في العام ١٩٦٣ . ولكن في اثناء الازمة انخفضت هذه النسبة الى ١٤،٢ بالمئة عام ١٩٦٥ والى ١٢،٧ بالمئة عام ١٩٦٦ . فكان القطاع الصناعي هو الاكثر تضررا .

ويبين الجدول الاول تطور الاستثمارات في الصناعة ونسبتها لمجموع الاستثمارات في الفترة ما بين ١٩٥٣ — ٧٠ .

الجدول الاول

الاستثمارات في القطاع الصناعي ١٩٥٣ — ٧٠

السنة	الاستثمارات في الصناعة (بملايين الليرات الاسرائيلية) (١)	الارتفاع(+) او الانخفاض(—) بالنسبة للسنة السابقة (بالمئة٪)	مجموع الاستثمارات (بملايين الليرات) (٢)	الارتفاع(+) او الانخفاض(—) بالنسبة للسنة السابقة (بالمئة٪)	نسبة (١)/(٢) (بالمئة٪)
١٩٥٣	٦٥		٣٠٤		٢١،٤
٥٤	٧٥	+ ١٥،٣	٤١٩	+ ٣٧،٨	١٧،٩

٥٥	٨٧	+ ١٩	٦١٢	+ ٤٦	١٨،٥
٥٦	١٣٧	+ ٥٧،٤	٦٥٥	+ ٧	٢٢،٤
٥٧	١٥٧	+ ١٤،٦	٨٦٨	+ ٣٢،٥	١٧،٤
٥٨	١٦٤	+ ٤،٤	١٠٠٠	+ ١٥،٢	١٥،٧
٥٩	٢٠٨	+ ٢٦،٩	١١٠٠	+ ١٠	١٨،٩
١٩٦٠	١٩٨	− ٤،٩	١٢٠٠	+ ٩،٩	١٦،٥
٦١	٢٧٤	+ ٣٨،٣	١٦٠٠	+ ٣٣،٣	١٧،١
٦٢	٣٦٠،٩	+ ٣١،٥	٢٠٦٧	+ ٢٩،١	١٧،٤
٦٣	٤٣١،٧	+ ١٩،٦	٢٢٨٤	+ ١٠	١٨،٩
٦٤	٤٦٧،٢	+ ٨،٢	٢٩٤٠	+ ٢٩	١٥،٨
٦٥	٤٢٨،٩	− ٨،٢	٣٠١٢	+ ٢	١٤،٢
٦٦	٣٢٠،٤	− ٢٥،٣	٢٥٠٤	− ١٧	١٢،٧
٦٧	٢٤٨،٧	− ٢٢،٤	١٨٦٣	− ٢٦	١٣،٣
٦٨	٤٦٦،٥	+ ٨٧،٦	٢٩٤٥	+ ٤٤	١٥،٨
٦٩	٦٧٣	+ ٣٦	٣٨٣٢	+ ١٥	١٧،٥
١٩٧٠	٧٣٥،٧	+ ١٠	٤٦٨٧	+ ٩	١٥،٦

المصدر : من ١٩٥٣ الى ١٩٦١ : كتاب دافيد هورويتز ، **اقتصاد اسرائيل** ، ص ٢٩ .
من ١٩٦٢ الى ١٩٧٠ : **التقرير السنوي لبنك اسرائيل** ، ١٩٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ .

ان الاستثمار في القطاع الصناعي ومنحه اهمية كبيرة هو اختيار سياسي. والسؤال الذي لا بد ان نطرحه هو : لمصلحة من يتم الاستثمار في هذا القطاع ؟ لا بد للاجابة على هذا السؤال ان نتعرض للدور الذي تريد اسرائيل ومن هم وراءها ان تلعبـــه في الشرق الاوسط . فاسرائيل ، هذا الجسم الدخيل في العالم العربي ، قد خلقتها الامبرياليـــة لتلعب دور الشرطي ولتحافظ على مصالحها في المنطقة . ليس هذا فقط ، فان ما تريده الامبريالية هو ان تجعل من اسرائيل « ولايات متحدة » جديدة ، اي ان تلعب الدور نفسه التي تلعبه الولايات المتحدة الاميركية بالنسبة لبلدان اميركا اللاتينية ، وهذا يعني سيطرة اسرائيل على الاقتصاد العربي وافتتاح الاسواق العربية الواسعة امامها . ولن يتم ذلك الا باستغلال الشعوب العـــربية وقهرها . ولكي تستطيع اسرائيـــل ان تلعب هذا الدور لا بد لها ان تبني اقتصادها وان تستعمل التكنيك الحديث . فبناء الاقتصاد يمر عبر بناء القطاع الصناعي ، وهذا ما يفسر التركيز على الاستثمار في الصناعة . لقد عبرت الطبقة الحاكمة في اسرائيل عن رغبتها في أن تشكل القاعدة الصناعية للمنطقة العربية لكي تستطيع ان تدخل اسواقها دون صعوبة وتهيمن عليها ، ولكن هذا التصنيع لم يكن ممكنا دون المساعدات والرساميل الاجنبية الآتية مـــن الامبريالية والصهيونية العالمية .

تركيب الاستثمارات في الصناعة

لكي نستطيع ان نبحث تركيب الاستثمارات لا بد ان نوضح في البدايـــة واقعها ، اي المصادر المتعددة التي تؤمن للصناعة حاجاتها من الرساميل ، ثم ننتقل بعدئذ لدراسة توزيع هذه الاستثمارات على مختلف الفروع الصناعية .

واقع الاستثمارات : تبين معرفة مصادر الاستثمارات حجم المساعدات والمنح المتوافرة للصناعات الاسرائيلية . والجدول الثاني يوضح لنا ذلك .

الجدول الثاني
توزيع الاستثمارات في العام ١٩٦٩

	بملايين الليرات	بالمئة (٪)
ــ اعادة استثمار الارباح وغيرها من استثمارات اصحاب المؤسسات الصناعية	٢٩٣	٤٦ ٪
ــ قروض من البنك الصناعي للانماء	٢٠٦	٣٣ ٪
ــ مساعدات من البنك الصناعي للانماء	٣١	٥ ٪
ــ استثمارات من بنوك او مصادر اخرى	١٠٠	١٦ ٪
المجموع	٦٣٠	١٠٠٪

المصدر : **اسرائيل اكونوميست** ، نيسان ١٩٧٠ ، ص ٨٠ .

ان اعادة استثمار الارباح المحققة في القطاع الصناعي لم تبلغ الا ٤٦ بالمئة (وهي تعادل ٢٩٣ م . ل .) من مجموع الاستثمارات في هذا القطاع ، وهذا المبلغ غير كاف للتعويض عن استهلاك وتدني القيمة الفعلية لرأس المال . فيجب ان تبلغ ٣٥٠ م.ل. على اساس تقدير استهلاك رأس المال بنسبة ٧ بالمئة من مجموع الاستثمارات (٥٠٠٠ × ٠،٠٧ = ٣٥٠ م.ل.) . هذا يبين ان الصناعة لم تستطع وحدها ان تؤمن هذا المبلغ . يبقى اذا ٣٥٠ ــ ٢٩٣ = ٥٧ م.ل. لسد النقص الذي يسببه استهلاك رأس المال ولا يمكن تأمين هذا المبلغ الا من مصادر خارجية .

اذا أردنا معرفة قيمة الربح نلاحظ التالي : تبلغ أرباح الصناعة المقدرة من مصادر الحكومة الاسرائيلية عام ١٩٦٩ : ١٣٠٠ م.ل. وتبلغ الضرائب على هذه الارباح ٧٠٠ م.ل. (ان تقدير الحكومة الاسرائيلية لقيمة الارباح لا تتضمن قيمة استهلاك رأس المال) . والربح المتبقى لاصحاب المصانع : ١٣٠٠ ــ ٧٠٠ = ٦٠٠ م.ل. والربح الصافي الذي كان يجب تحقيقه : ٦٠٠ ــ ٣٥٠ = **٢٥٠ م.ل.** ولكن ما الذي يحصل في الواقع ؟ لم يستثمر اصحاب المؤسسات الصناعية الا ٢٩٣ م.ل. وليس ٣٥٠ م.ل. فالربح الصافي الذي يحققونه هو اذا : ٦٠٠ ــ ٢٩٣ = **٣٠٧ م.ل.** نستنتج من هذا كله ان الـ ٥٧ م.ل. المتأتية من الرأسمال الخارجي (والمعطاة من الحكومة الى اصحاب المصانع) تدخل الى جيوب اصحاب المصانع وتوضح مدى اهمية المساعدات والمنح المعطاة الى المصانع الاسرائيلية .

الاستثمارات حسب الفروع الصناعية : تتوزع الاستثمارات في القطاع الصناعي في الفترة ما بين ١٩٦٤ ــ ٦٧ على النحو المبين في الجدول الثالث :

الجدول الثالث
توزيع الاستثمارات في الصناعة : ١٩٦٤ ــ ٦٧ (بالمئة ٪)

الفروع	١٩٦٤	١٩٦٥	١٩٦٦	١٩٦٧
المناجم	٢٢	١٥	١٣	١٤
المواد الغذائية والتبغ	١٥	١٨	١٥	١٤
النسيج والملبوسات والجلد	١٢	١٤	١٥	١٤
الورق والطباعة	٣	٦	٩	٦
الخشب والنجارة	٣	٤	٥	٣
المناجم غير المعدنية	١٠	٧	٩	٦
المواد الكيماوية ومشتقات البترول المكرر	١٣	٩	٦	٥

المطاط والبلاستيك	٤	٤	٤	٥
المعادن	٨	١١	١٢	١٠
الآلات والمعدات الكهربائية	٦	٥	٦	١٢
معدات النقل	٤	٧	٦	١١
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

المصدر : **التقرير السنوي لبنك اسرائيل** ، ١٩٦٧ ، ص ٣٢٦ .

لن يمكننا هذا الجدول من ان نستوضح تماما سياسة اختيار الاستثمارات في مختلف الفروع الصناعية ، فهو غير كاف لانه لم يتناول الا الفترة الممتدة ما بين ١٩٦٤ — ٦٧ وهي فترة الازمة الاقتصادية (وهذا ناتج عن عدم وجود احصاءات كافية عن توزيع الاستثمارات في القطاع الصناعي ، وعن فقدانها لفترة ما بعد حرب حزيران ١٩٦٧ اي فترة التطور المهم في الاستثمارات) . يمكننا البحث في اهمية الاستثمارات في بعض الفروع الصناعية بدراسة الاولويات التي تعطيها الحكومة الاسرائيلية لهذه الفروع واهتمامها بها (انظر في ما بعد) .

في الفترة ما بين ١٩٦٤ — ٧٠ اعطيت اهمية كبيرة الى الصناعات الاساسية وهي : الفروع المعدنية ، الالات ، آلات الكهرباء ومعدات النقل . لقد ارتفعت نسبة الاستثمار في هذه الصناعات من ١٨ بالمئة عام ١٩٦٤ الى ٢٤ بالمئة عام ١٩٦٦ والى ٣٣ بالمئة عام ١٩٦٧ . اما نسبة الاستثمارات في المناجم فقد انخفضت من ٢٢ بالمئة عام ١٩٦٤ الى ١٣ بالمئة عام ١٩٦٦ والى ١٤ بالمئة عام ١٩٦٧ .

من الذي يستثمر في القطاع الصناعي ؟ يحتل القطاع الخاص اكثر فأكثر اهمية في الاستثمارات الثابتة ، اي الالات والمعدات ، فنسبة مشاركته عام ١٩٥٤ بلغت ٥٠ بالمئة من مجموع الاستثمارات ولكن هذه النسبة ارتفعت لتصبح ٥٩ بالمئة عام ١٩٦٦ كما يبين الجدول الرابع .

الجدول الرابع

الاستثمارات الثابتة : ١٩٥٤ — ٦٦ (بالمئة ٪)

	١٩٥٤	١٩٥٨	١٩٦٠	١٩٦٢	١٩٦٤	١٩٦٦
القطاع العام	٥٠	٤٥	٤١	٤٨	٤٣	٤١
القطاع الخاص	٥٠	٥٥	٥٩	٥٢	٥٧	٥٩
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

المصدر : **تطور الاقتصاد الاسرائيلي** ، ص ١٠٣ . Israel Economic Development, *Past Progress and Plan for the Future*, Jerusalem, March 1968.

ويبين تحقيق تم اخيرا في اسرائيل ان القطاع الخاص يملك ٩٣ بالمئة من المؤسسات الصناعية وهي تشغل ٧٦ بالمئة من اليد العاملة ، وبناء على تقرير من البنك الاسرائيلي (بنك الدولة) فان مجموعة مالية تتكون من « بنك ديسكنتو ، الشركة المركزية للتجارة والصناعة ، مجموعة ولفسون وبنك ليومي » تتحكم بأكثر من ثلاثة أرباع الانتاج وان ٩٦ بالمئة من المؤسسات الصناعية المنشأة خلال عشر السنوات الماضية يملكها القطاع الخاص(١) .

(١) **اسرائيل اكونوميست** ، آذار ١٩٦٧ ، ص ٦٢ .

سياسة اختيار الاستثمارات والاولويات

قانون تشجيع الاستثمارات : أصدرت الحكومة الاسرائيلية عام ١٩٥٠ قانونا لتنظيم استثمار الرساميل في الاقتصاد . الهدف من هذا القانون المسمى « قانون تشجيع استثمار الرساميل » هو تشجيع استثمار الرساميل « الوطنية » والاجنبية في قطاعات وفروع اقتصادية محددة ، وذلك باعطاء هذه الرساميل بعض الامتيازات . وقد عرف هذا القانون تطورا في الفترة ما بين ١٩٥٠ — ١٩٧٠ اذ اعيد النظر فيه عام ١٩٥٩ وعرف عدة تعديلات حتى اليوم ومنها التعديل الذي جرى عام ١٩٦٧ .

ما الهدف من هذا القانون وما هي المؤسسات الصناعية المستفيدة منه ؟ لكي تستطيع المؤسسات الصناعية الاستفادة من هذا القانون (الحصول على المساعدات والمنح والاعفاء من الضرائب) يجب ان تتوافر فيها الشروط التالية : على المؤسسة ان تصدر نسبة مهمة من انتاجها ، ان تكون مقامة داخل « منطقة انماء » محددة من قبل القانون ، او الاثنان معا . وعلى المؤسسة الموجودة في أواسط اسرائيل ان تصدر على الاقل ٥٠ بالمئة من انتاجها اما المؤسسة الموجودة في منطقة النقب في الجنوب والمنطقة الشمالية الشرقية من البلاد وهي التي نرمز لها بالحرف (أ) ، والمنطقة التي تقع في جنوبي بئر السبع بقليل وحتى خط يمتد من شمال القدس الى شمال اسدود وهي ما نرمز اليها بحرف (ب) فعليها ان تصدر ولكن بنسبة أقل . وقد دعيت هذه المؤسسات الصناعية التي تتوافر فيها الشروط المحددة في القانون « المؤسسات المرخص لها » .

ان الهدف من تشجيع المؤسسات التي تصدر انتاجها هو تأمين حاجة اسرائيل للعملة الصعبة ولسد العجز الهام في ميزانها التجاري ، هذا العجز ناتج عن المصاريف والنفقات الضخمة غير المنتجة التي يتطلبها الجيش الاسرائيلي .

وقد أمنت التعديلات التي أجريت على القانون عام ١٩٦٩ لمجموعة جديدة من المؤسسات الصناعية الاستفادة من بعض الامتيازات والحوافز الممنوحة وقد دعيت هذه الفئة الجديدة بالمؤسسات « المعترف بها » . وقد وضعت هذه التعديلات لتنشيط المصانع المنتجة للادوات الحربية ، ولتوسيع هذا الانتاج بتشجيع انشاء مصانع جديدة وذلك لمواجهة حاجة اسرائيل المتزايدة للاعتدة الحربية فضلا عن ان الانتاج المحلي يوفر عليها استيرادها . ومن جهة اخرى تضم المؤسسات « المعترف بها » ايضا مؤسسات صناعية تنتج مواد حيوية للبلاد كانت تستورد من قبل . اذا ليست المؤسسات « المعترف بها » ملزمة بتصدير انتاجها،لان الهدف من تشجيعها هو منناحية تأمين تجهيز اسرائيل الحربي لكي تستطيع ان تلعب دورها في المنطقة العربية كقاعدة للامبريالية ومن ناحية اخرى لان انتاج هذه المواد محليا سوف يحقق وفرا في حجم مستورداتها وبالتالي يساهم بتخفيف العجز في الميدان التجاري .

ما هي الامتيازات التي يمنحها القانون ؟ يعطي قانون تشجيع استثمارات رؤوس الاموال امتيازات مهمة للمؤسسات « المرخص لها » و« المعترف بها » . وهي مساعدات وقروض وتخفيضات على الضرائب وتأجيل تحصيل بعض الرسوم .

المساعدات : يوجد عاملان يؤثران في حجم المساعدات الممنوحة : المنطقة التي يوجد فيها المصنع وهي منطقة « أ » و« ب » او مناطق اخرى ؛ واذا كان الاستثمار يحصل في الآلات وأدوات الانتاج او في مواد البناء . فتعطى الاولوية المطلقة للمؤسسات الصناعية التي بالاضافة الى وجودها في منطقة « أ » تستثمر رساميلها في الآلات وأدوات الانتاج اذ تحصل على أعلى نسبة من المساعدات ، تليها المؤسسات الصناعية الموجودة في المنطقة « ب » ثم المؤسسات الموجودة في مناطق اخرى من البلاد كما يبين لنا الجدول الخامس :

الجدول الخامس

نسبة المساعدات لمجموع الاستثمارات الثابتة (بالمئة)

الاستثمارات الثابتة	المؤسسة الصناعية «المرخص لها» والمتواجدة في منطقة الانماء «أ»	المؤسسة الصناعية «المرخص لها» والمتواجدة في منطقة الانماء «ب»	المؤسسة الصناعية «المرخص لها» والمتواجدة في مناطق اخرى
ـ الآلات والمعدات	٣٣،٥ ٪	٢٥ ٪	٢٠ ٪
ـ مواد البناء والتحسين العقاري	٢٠ ٪	١٥ ٪	١٠ ٪

المصدر : **اسرائيل اكونوميست** ، ايار ١٩٦٧ ، ص ١٠٦ .

القروض : القروض المهمة تعطى للمؤسسات الصناعية « المرخص لها » فحجم هذه القروض يزداد اذا كانت مقامة في المناطق التي تعطى الاولوية في الانماء ، ونلاحظ ان نسبة الفائدة مثلا في منطقة « أ » هي أدنى مما هي عليه في المناطق الاخرى .

الجدول السادس

القروض والفائدة (النسبة المئوية)

	«أ»	«ب»	مناطق اخرى
ـ القروض المعطاة بالنسبة للاستثمارات الثابتة	٥٥ ٪	٥٠ ٪	٤٥ ٪
ـ نسبة الفائدة	٦،٥٠ ٪	٨ ٪	١٠ ٪
ـ مجموع المساعدات والقروض بالنسبة للاستثمارات الثابتة	٨٠ ٪	٧٠ ٪	٦٠ ٪

المصدر : **اسرائيل اكونوميست** ، ايار ١٩٦٧ ، ص ١٠٦ .

التخفيضات على الضريبة : الضرائب التي تطالها التخفيضات هي التالية : ضريبة الدخل والضريبة على الملكية والضرائب غير المباشرة وغيرها من الرسوم : ١) ضريبة الدخل: لا تدفع المؤسسة « المرخص لها » ضريبة الدخل ولكنها تدفع ضريبة على الارباح المحققة بنسبة ٣٣ بالمئة وذلك مدة ٥ سنوات ابتداء من السنة التي حققت فيها دخلا خاضعا للضريبة . ٢) الضريبة على الملكية : تستفيد المؤسسة « المرخص لها » من تخفيض بنسبة ثلثي قيمة الضريبة على الملكية مدة ٥ سنوات ابتداء من اتمام بناء المؤسسة ــ تخفض ايضا لمدة ١٠ سنوات بنسبة سدس قيمة الضريبة على الملكية اذا كانت هذه تضم المعدات وقطع الغيار . ٣) الضرائب غير المباشرة والرسوم الاخرى : تعفى المؤسسة « المرخص لها » من الرسوم الجمركية والرسم على القيمة المضافة وغيرها من الضرائب غير المباشرة على مواد البناء وعلى ادوات الاستثمار المحتاجة لتجهيز المؤسسات . ولا تلغى هذه الاعفاءات اذا كانت المواد مستوردة من الخارج شرط أن لا تكون موجودة في السوق المحلية .

تأجيل بعض الرسوم : يعطى المشروع « المرخص » مهلة ٥ سنوات لدفع رسوم تسجيل المؤسسة او زيادة رأسمالها او تسجيله .

امتيازات اخرى : يحق للمؤسسة « المرخص لها » أن تعوض عن تدني قيمة رأسمالها بنسبة كبيرة ، وهي تبلغ ضعفي النسبة العادية ، وهذا يتم خلال ٥ سنوات من استعمال الالات والمعدات والبناء .

الامتيازات التي يعطيها القانون للمؤسسات « المعترف بها » : بخلاف المؤسسات

« المرخص لها » فالمؤسسات « المعترف بها » لا تستفيد من مساعدات بل تمنح لها تخفيضات على الضرائب المباشرة فقط . اما الامتيازات الاخرى التي تخص الرساميل الاجنبية : فلتشجيع استثمار رأس المال الاجنبي ، يسمح القانون للمستثمرين الاجانب باخراج كل ارباحهم من اسرائيل . ليس هذا فقط بل باستطاعتهم أيضا وبعد فترة من الزمن أن يستردوا الرأسمال المستثمر بكامله .

وقد نص القانون على انشاء جهاز « مركز الاستثمارات » وانيطت به مهمة منح رخص العمل والتخفيضات ، الخ ... ويقرر « مركز الاستثمارات » المؤلف من ممثلين عن مختلف الوزارات ما اذا كانت الاستثمارات المنوي القيام بها تفيد اقتصاد البلد وبالتالي يمنح القانون هذا « المركز » القدرة على توجيه الاستثمارات الخاصة نحو فروع اقتصادية محددة .

الرساميل الاجنبية ومؤتمر المليارد : يعود حجم الاستثمارات الكبير في القطاع الصناعي، خصوصا خلال السنوات الاخيرة ، للرساميل الخارجية الضخمة التي تلقتها اسرائيل وللتسهيلات التي يمنحها لها « قانون تشجيع استثمار الرساميل » . وتجدر الاشارة هنا الى المؤتمر الذي عقد في القدس عام ١٩٦٨ بعد نكسة حزيران وضم كبار الرأسماليين اليهود وكان من جملة ما قرر استثمار رساميل ضخمة في اسرائيل .

الرساميل الاجنبية : تلعب المؤسسات المصرفية في اسرائيل دورا مهما في توجيه الرأسمال للاستثمار (بنك ليومي اسرائيل ، بنك الرهونات العام ، شركة استثمار ليومي) . وقد استطاعت هذه المجموعة المصرفية استقدام مبالغ طائلة من الخارج لاستثمارها في الصناعة والبناء والزراعة والسياحة وغيرها من الخدمات كقروض متوسطة وطويلة الاجل .

لا نهدف في هذه الدراسة ان نبحث في تحرك جميع الرساميل نحو اسرائيل وانما تبيان اهمية اثر قانون تشجيع استثمار الرساميل في الاستثمارات الاجنبية . وقد ارتفع حجم الاستثمارات الاجنبية خلال السنتين ١٩٦٩ و ١٩٧٠ بالنسبة لعامي ١٩٦٧ و ١٩٦٨ بمعدل الضعف تقريبا ، فبينما لم تبلغ الـ ٢٤،٨ م. دولار عام ١٩٦٦ و ٢٦،٦ م. دولار عام ١٩٦٧ ، وصلت الاستثمارات الاجنبية الى ٤٦ م. دولار عام ١٩٦٩ و ٥٤ م. دولار عام ١٩٧٠ . ان الارتفاع في العامين ١٩٦٩ و ١٩٧٠ ناتج عن قانون تشجيع الاستثمار . وقد اجري تعديل مهم على القانون عام ١٩٦٧ قدمت بموجبه مساعدة تتراوح بين ٢٠ و ٣٣ بالمئة من القيمة المستثمرة في الالات والمعدات . وعلى الرغم من ارتفاع الاستثمار خلال فترة ١٩٦٩ ـــ ٧٠ فقد ظل منخفضا بالنسبة لفترة ما قبل الحرب، اذ تقدر الاستثمارات في ذلك الحين بمبلغ ٨٢،٥ م. دولار عام ١٩٦٦ و١٥٦،٧ عام ١٩٦٤ ، وهذا ناتج عن الوضع العسكري في المنطقة وعن الوضع الاقتصادي في اسرائيل نفسها ، اذ ان المستثمر يرفض المغامرة برساميله في فترة الحرب ويخشى من تخفيض قيمة الليرة الاسرائيلية في المستقبل .

لذلك نلاحظ ان الاستثمارات الثابتة (اي بالالات والمعدات) اخذت اهمية كبيرة في عامي ١٩٦٩ و ١٩٧٠ لان قيمة هذا النوع من الاستثمارات لا تتأثر في حال قرار تخفيض الليرة الاسرائيلية في المستقبل . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى يمنح قانون تشجيع الاستثمارات هذا النوع من الاستثمارات الثابتة تسهيلات كبيرة ، فبينما انخفض الاستثمار بالاموال السائلة من ١٢٠ م. دولار عام ١٩٦٤ الى مليون دولار عام ١٩٦٨ والى ١٢ مليون دولار عام ١٩٧٠ ، ارتفعت الاستثمارات الثابتة وازداد حجمها بالنسبة لمجموع الاستثمارات فبينما كانت ٧ ـــ ٨ بالمئة من هذا المجموع في العامين ١٩٦٤ ـــ ٦٦ وصلت الى ٧٠ بالمئة عام ١٩٧٠ . (التقرير السنوي لبنك اسرائيل ، ١٩٧٠ ، ص ٧٣).

الجدول السابع

كانت الاستثمارات الاجنبية في اسرائيل في الاعوام ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ و١٩٧٠ بملايين الدولارات على الشكل التالي حسب تتابع السنوات المذكورة : **بالعملة الاجنبية** : ٣٢ر٦ ، ٥٦ر٤ ، ١٢٤ر٣ ، ١٢٢ ، ٦٤ر٥ ، ٥٨ر٦ ، ٧ر٧ ، ـ ٥ر١ ، ٧ر٣ ، ١١ر٧ ، منها الاستثمارات : ٣٥ر٢ ، ٦٣ر٥ ، ١٤٣ر٤ ، ١٣٩ر١ ، ٩٢ر٤ ، ٨٥ر٦ ، ٣٨ر٨ ، ٣١ر٢ ، ٤١ ، ٣٩ر٥ . ومنها ايضا الاستثمارات المستردة (أي التي خرجت من اسرائيل) : ـ٢ر٦ ، ـ٧ر١ ، ـ١٠ر١ ، ـ١٧ر١ ، ـ٢٧ر٩ ، ـ٢٧ ، ـ٣١ر١ ، ـ٧٢ر٧ ، ـ٣٣ر٧ ، ـ٢٧ر٨ . **وبالعملة الاسرائيلية** : ١ ، ٣ر٢ ، ٤ر٣ ، ٩ر١ ، ٤ر٨ ، ٣ر٧ ، ١ر٩ ، ٦ر٢ ، ـ٠ر٥ ، ـ٠ر٧ . **وبالسندات المالية** (المباعة في الاسواق الخارجية) : ١٣ر٥ ، ١٣ر١ ، ١٠ر٥ ، ١٠ر٦ ، ٩ر٤ ، ٩ر٧ ، ٧ ، ٧ر١ ، ٤ر٧ ، ٤ر٨ . **والاستثمارات الثابتة** : ٩ر٩ ، ١٢ر٩ ، ١٩ر٥ ، ١٠ر٦ ، ٨ر٣ ، ٥ر٣ ، ٣ر٩ ، ١٤ر٤ ، ٢٩ر٣ ، ٣٣ . وبذلك يكون **المجموع** : ٥٧ ، ٨٥ر٦ ، ١٥٨ر٦ ، ١٥٢ر٣ ، ٨٧ ، ٧٧ر٣ ، ٢٠ر٥ ، ٢٢ر٦ ، ٤٠ر٨ ، ٤٨ر٨ . **اعادة استثمار الارباح** : ٣ر٢ ، ٣ر٦ ، ٤ ، ٤ر٤ ، ٤ر٨ ، ٥ر٢ ، ٤ر٣ ، ٤ ، ٥ر٢ ، ٥ر٢ . وبذلك كله يصبح **المجموع الصافي للاستثمارات** : ٦٠ر٢ ، ٨٩ر٢ ، ١٦٢ر٦ ، ١٥٦ر٧ ، ٩١ر٨ ، ٨٢ر٥ ، ٢٤ر٨ ، ٢٦ر٦ ، ٤٦ ، ٥٤ .

المصدر : **التقرير السنوي لبنك اسرائيل** ، ١٩٧٠ ص ٧٢ .

وكان المؤتمر الاقتصادي الدولي الذي انعقد في القدس في نيسان عام ١٩٦٨ احد الاسباب التي ادت الى ازدياد حجم الاستثمارات ـ فقد قرر هذا المؤتمر الذي ضم اكثر من ٧٠ ملياردير يهوديا ، معظمهم من اميركا الشمالية ، استثمار اموال ضخمة في اسرائيل . وبرهانا على ذلك انشأ المؤتمر شركة استثمار دعيت بـ « مصلحة اسرائيل » ومهمتها تنسيق وانجاز استثمارات يهود العالم في اسرائيل . وقامت اخيرا بشراء نصف رأسمال الشركة الوطنية للملاحة « تسيم » من الحكومة الاسرائيلية . ومن ناحية اخرى ، اعلن يعقوب سلمان المدير في السلطة العليا لشركات الدولة في مؤتمر صحفي ان الحكومة تفاوض الان لبيع « مصلحة اسرائيل » ٢٦ بالمئة من اسهم مصفاة بترول حيفا . واعلنت « الجروزلم بوست » ان سلمان لديه لائحة بثلاثين شركة (ما عدا « تسيم ») معروضة للجمهور ، برأسمال قدره ٢٥٠ مليون ليرة(١).

الفروع التي استفادت من القانون : سوف نعالج الان حجم الاستثمارات «المرخص لها» في الصناعة بالنسبة لمجموع الاستثمارات « المرخص لها » ونعني هنا بالاستثمارات « المرخص لها » تلك التي تستفيد من مساعدات الدولة ثم نتطرق لتوزيعها على مختلف الفروع الصناعية في البلاد .

أ ـ نسبة الاستثمارات الصناعية « المرخص لها » الى مجموع الاستثمارات « المرخص لها » : لعب « مركز الاستثمار » دورا بارزا في توجيه قسم كبير من الرساميل للتوظف في القطاع الصناعي اذ بلغت عام ١٩٦٥ مبلغ ٢٩٢،٢٥٢ مليون ليرة . اي ما يوازي ٥٠،٤٨ بالمئة من مجموع الاستثمارات « المرخص لها » . حافظت هذه الاستثمارات على مستواها لكنها عرفت انخفاضا في القطاع الصناعي عام ١٩٦٧ اذ ان نسبتها وصلت الى ٤٧،٦٢ ٪ . وهذا ناتج عن الازمة الاقتصادية التي مرت بها اسرائيل خلال هذه الفترة . وكما ذكرنا سابقا ، ساهمت حرب حزيران بتخفيف وطأة هذه الازمة مؤقتا . فازدادت المساعدات من الخارج « لتحمي » اسرائيل من « اعدائها » . ومن ناحية اخرى ، قرر مؤتمر المليادير استثمار اموال ضخمة في اسرائيل . لهذا تضاعفت الاستثمارات « المرخص لها » في الصناعة عام ١٩٦٨ بالنسبة للفترة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧ كما تضاعفت

(١) **جروزلم بوست** ، النشرة الاسبوعية ، ٢ آذار ١٩٧٠ .

ايضا مجموع الاستثمارات « المرخص لها » في الاقتصاد ، وبلغت ٥١٢،٤١٧ مليون ليرة عام ١٩٦٨ بينما لم تبلغ الا ٢٥٢،٦١٢ مليون ليرة عام ١٩٦٧ واصبح حجمها بالنسبة لمجموع الاستثمارات ٦٤ بالمئة وهي اكبر نسبة عرفتها ، كما يبين الجدول الثامن :

الجــدول الثامن

	١٩٦٥	١٩٦٦	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٦٩
مجموع الاستثمارات « المرخص لها » (بملايين الليرات)(١)	٤٣٧،٦٤١	٤٧٥،٩٧٢	٥٣٤،١٠٢	٨٠٠	١٠٠٠
الاستثمارات « المرخص لها » في القطاع الصناعي (بملايين الليرات)(٢)	٢٢٢،٢٥٢	٢٥٥،٧١٠	٢٥٢،٦١٢	٥١٢،٤١٧	٥٠٣،٠٤٢
نسبة (١)/(٢) (بالمئة ٪)	٥٠،٨	٥٣،٥	٤٧،٢	٦٤	٥٠،٣

المصدر : (١) ١٩٦٥ — ٦٦ — ٦٧ : **التجارة والصناعة الاسرائيلية** (مجلة صادرة عن وزارة التجارة والصناعة) ، تموز ١٩٧٠ .
١٩٦٨ — ٦٩ : **اسرائيل اكونوميست** ، كانون الثاني ١٩٧٠ ، ص ٣٠ .
(٢) ١٩٦٥ — ٦٦ : **التجارة والصناعة الاسرائيلية** ، نيسان ١٩٦٧ .
١٩٦٧ — ٦٨ — ٦٩ : **التجارة والصناعة الاسرائيلية** ، تموز ١٩٧٠ .

ولكن ليس حجم الاستثمارات « المرخص لها » في الصناعة هو الذي يقرر وجهة التصنيع وآفاقه في اسرائيل . ان المقياس الوحيد هو الفروع التي تعطى الاولوية في التوظيف ، اي الفروع الاستراتيجية في الاقتصاد . وهذا ما سوف نحاول توضيحه .

ب — توزيع الاستثمارات ((المرخص لها)) في القطاع الصناعي : لمعرفة سياسة التصنيع المتبعة في اسرائيل وتقديرها ، لا بد من الاجابة على السؤال التالي : ما الذي يجعل من اسرائيل دولة صناعية ؟ هل الاهتمام بالاستثمارات في فـروع الصناعـات الغذائية والنسيج ، ام في الفروع الاستراتيجية او الاساسية وهي الفروع المعدنية والكهربـائية والكيماوية وفبركة الالات ؟ مما لا شك فيه ان اهمية الاستثمارات الاخيرة هي التي تقرر مدى قـدرة الاقتصاد الاسرائيلي ومتانته ، لان هـذه الفروع الاستراتيجيـة تؤثر في الصناعات الاخرى اذ تتيح لها ان تتطور كما انها تساعد على انشاء صناعات جديدة . لذلك فأهمية هذه الفروع تكمن في انها تفسـح المجال امام تصنيـع البلد ، فصناعات الطيران مثلا وهي اهم شركة لبناء الطائرات في اسرائيل فسحت مجالات عمل لاكثر من ١٥٠ صناعة اخرى(١). لهذا اهتم قانون تشجيع الاستثمار بهـذا النوع من الاستثمار بمنحه مساعدات وتخفيضات على الضرائب ، الخ . . . فاستفـادت الفروع الاساسية « المعدنية والكيماوية » اذ بلغ حجم الاستثمارات « المرخص لها » في هذين الفرعين ٤٣ بالمئة من مجموع الاستثمارات « المرخص لها » لعام ١٩٦٩ ، بينما لم تبلغ الـ ٢٩ بالمئة عام ١٩٦٥ . والجدول التاسع يبين لنا الاستثمارات « المرخص لها » في هذه الفروع .

نلاحظ ان حجم الاستثمارات « المرخص لها » في الفروع الاساسية تضاعف خلال سنة واحدة اذ بلغ ٦٤،٥ مليون ليرة عام ١٩٦٥ مقابل ١١١ مليون ليرة عام ١٩٦٦ .

(١) **اسرائيل اكونوميست** ، نيسان ١٩٧٠ ، ص ٩٣ .

الجـــدول التاسع
الاستثمارات « المرخص لها »

	١٩٦٥ بملايين الليرات	١٩٦٥ بالمئة	١٩٦٦ بملايين الليرات	١٩٦٦ بالمئة
الفروع المعدنية	١٧	٪ ٢٩	٦٠	٪ ٤٣
الصناعات الكيماوية	٤٧،٥		٥١	
الصناعـــات الاخرى	١٥٧،٧٥٢	٪ ٧١	١٤٤،٧١٠	٪ ٥٧
المجموع	٢٢٢،٢٥٢	٪١٠٠	٢٥٥،٧١٠	٪١٠٠

المصدر : **التجارة والصناعة الاسرائيلية** (مجلة صادرة عن وزارة التجارة والصناعة) ، نيسان ١٩٦٧ ، ص ٦ .

اذا وضعنا جانبا الصناعات الكيماوية يتبين لنا ان حجم الاستثمارات « المرخص لها » في الفروع المعدنية والالات والتجهيزات الكهربائية والالكترونية تزداد اهمية ، فقد ارتفـع بنسبة ٥٨ بالمئة عام ١٩٦٨ بالنسبة لعام ١٩٦٦ اي من ٨٨،٣٤٣ مليون ليرة في ١٩٦٦ الى ١٤٠،٠١١ مليون ليرة في ١٩٦٨ . وبلغ ٢١٠،٠٩٨ مليون ليرة عام ١٩٦٩ اي بزيادة ٥٠ بالمئة في سنة واحـــدة . اما بالنسبة لمجموع الاستثمـــارات « المـــرخص لها » في الصناعة ، فكان لهذه الفروع « حصة » كبـــيرة ، فقـــد بلغت ٣٤،٦ بالمئـــة في ١٩٦٦ و ٤٨،٤٪ في ١٩٦٧ و ٤٦٪ في ١٩٦٩ ولكنها انخفضت عام ٦٨ الى ٢٧ بالمئة . وهـــذا يبين مدى الاهمية التي تعطيها اسرائيل لهذه الفروع والتسهيـــلات الكبيرة بالتالي التي تمنحها للرساميل التي توظف فيها . ويبين الجدول العاشر حجم هذه الاستثمارات .

الجدول العاشر

	١٩٦٦	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٦٩
(١) الاستثمارات « المرخص لها » في الفروع المعدنية والآلات والتجهيزات الكهربائية والالكترونية (بملايين الليرات)	٨٨،٣٤٣	١٢٢،٣٥٧	١٤٠،٠١١	٢١٠،٠٩٨
(٢) مجموع الاستثمارات « المرخص لها » في الصناعة (بملايين الليرات)	٢٥٥،٧١٠	٢٥٢،٦١٢	٥١٢،٤١٧	٤٥٦،٦١٧
نسبة (٢)/(١) (بالمئة)	٪ ٣٤،٦	٪٤٨،٤	٪٢٧	٪٤٦

المصدر : ١٩٦٦ — ٦٧ — ٦٨ : **اسرائيل اكونوميست** ، كانون الثاني ١٩٧٠ ، ص ٣٠ ؛
١٩٦٩ : **التجارة والصناعة الاسرائيلية** ، تموز ١٩٧٠ .

لقد تضاعفت الاستثمارات « المرخص لها » في الفروع المعدنيـــة وحدهـــا عام ١٩٦٩ بالنسبة لعام ١٩٦٨ اذ ارتفعت مـــن ٣٢،٠٥٦ مليون ليرة الى ٦٢،٦٧٥ مليون لـــيرة . تضاعفت ايضا في المعدات والتجهيزات الكهربائية : فارتفعت في الفـــروع المعدنية من ٣٢،٦٥٠ (١٩٦٨) الى ٦٢،٦٧٥ (١٩٦٩) وفي التجهيزات الكهربائية من ٣١،٤٧١ الى ٦٢،٦٩٥ (بملايين الليرات) حسب تقارير التجارة والصناعة الاسرائيلية (تموز ٧٠) .

يرجع تطور الاستثمارات في الصناعات الاساسية في فترة ما بعد الحرب الى ارتفـــاع انتاج الادوات الحربية . فمثلا ، ٦٥ بالمئة من انتاج الصناعات الالكترونية تذهب لتأمين

حاجات الجيش الاسرائيلي(١)، و ٨٠ بالمئة من مجهود صناعة الطائرات تستنفدها عقود مع الجيش(٢). وفي عام ١٩٧١ اعلن يشعياهو لافي، مدير عام وزارة الدفاع، في مؤتمر صحفي، ان الصناعة المحلية سوف تؤمن ما قيمته ٥٠٠ مليون دولار من المواد الحربية بينما سيبلغ الاستيراد ٧٠٠ مليون دولار من هذا المواد. تنتج اسرائيل اذن اقل بقليل من نصف حاجاتها للمواد الحربية. وأضاف لافي ان الصادرات من المواد الحربية سوف تبلغ هذه السنة (١٩٧١) ١٦٣،٣ مليون دولار، وهـذا يعادل ٣٢ بالمئة من مجموع الانتاج الحربي(٣)، بينما لم تبلغ هذه الصادرات الا ٢٥ مليون دولار فقط عام ١٩٦٧(٤) اي ان الزيادة بلغت ٦ أضعاف. ومما قالـه لافي ايضا ان الصادرات الحربية سوف تصبح ثلاثة أضعاف ما هي عليـه الان قبل عام ١٩٧٥ وسوف تنخفض الواردات. ان الـ ٧٥٠ مليون دولار من المواد وهو حجم الانتاج المحلي لعام ١٩٧٥ سوف يؤمن عمـلا اضافيا لـ ١٠٠،٠٠٠ عامل، هذا بينما يبلغ عدد العاملين في الصناعـات الحربية الان ٩٠،٠٠٠(٥).

ان الحروب التي شنتها اسرائيل ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية الاخرى قد سببت نموا في الاقتصاد الاسرائيلي. وهذا الوضع مشابه من بعـض وجوهه للتطور الذي حدث في الولايات المتحدة الاميركية والمانيا الغربية قبل فترة الحرب العالمية الثانية وخلالها. فطبيعة اسرائيل العدوانية ودورها في المنطقة، كما اوضحنا سابقا، يجعلانها باستمرار تهتم بتقوية جيشها وتطويره بادخال اساليب التكنيـك العسكري الحديث، وهذا ما يفسح مجالات العمل والنمو امام الصناعات الاخرى ويؤمن بالتالي مجـالات استخدام جديدة. لقد بلغت نفقات الجيش الاسرائيلي ٤٠ بالمئة من ميزانية الدولة عام ١٩٧١ و ٥٠ بالمئة عام ١٩٧٢ اي ما يعادل ٧ مليارات من الليرات الاسرائيلية من مجموع ١٤ مليارا ونصف المليار لذلك عرفت الاستثمارات في الصناعات الاساسية ازديادا مهما في الفترة التي تلت حرب حزيران.

ومما نلاحظه أيضا اهمية الاستثمارات في الصناعـات الكيماوية والـدواء، اذ بلغت ١٠٧،١٠٤ مليون ليرة عام ١٩٦٨ بينما كانت ٧٧،٢٢٧ مليون ليرة عام ١٩٦٧. كذلـك ازدادت الاستثمارات في البلاستيك من ٣،١٦٠ مليون ليرة عـام ١٩٦٧ الى ٢٠،٢٤٤ مليون ليرة عام ١٩٦٨.

التوزيع الجغرافي للاستثمارات « المرخص لها » عام ١٩٦٩ : كما رأينا من قبل، يمنح قانون تشجيع الاستثمار امتيازات اكبر للاستثمارات في المنطقة « أ » تليها المنطقة «ب»، لذلك فان ٢٥ بالمئة من الاستثمارات « المرخص لها » في الصناعة عـام ١٩٦٩ كانت في منطقة « أ » و٢٥ بالمئة في منطقة « ب » و٥٠ بالمئة في وسط اسرائيل. وتأخذ الفروع المعدنية والبلاستيك اهمية كبيرة في منطقـة « أ » اذ تضم ٥٠ بالمئة مـن المؤسسات « المرخص لها ». وتأتي المساعدات الممنوحة للمؤسسات « المرخص لها » لتؤكد أيضا الاهمية الكبرى لمناطق التنمية. اذ اعطيت لها (في « أ » و «ب») ٤٠ مليون ليرة بينما حصلت المؤسسات الموجودة في وسط اسرائيل على ٦٧ مليون ليرة فقط.

---

(١) ي. شامير : الصناعة الالكترونية في اسرائيل ــ المؤسسة الدفاعية « كمساعدة لتطور » الصناعـة الالكترونية، في مجلة **مؤسسة التصدير الاسرائيلية**.

(٢) **لوموند** : ١٦ ــ ١٧ ــ ١٨ تموز ١٩٧١ (مقال دومينيك فركيز).

(٣) **لوموند** : ١٦ ــ ١٧ ــ ١٨ تموز (مقال دومينيك فركيز)، و**لوموند** ٣١ كانون الثاني ١٩٧٢.

(٤) **اسرائيل اكونوميست**، آذار ١٩٦٧، ص ٦٣.

(٥) **لوموند** : ٣١ كانون الثاني ١٩٧٢.

الجدول الحادي عشر

الاستثمارات « المرخص لها » في الصناعة حسب الفروع : ١٩٦٧ — ٦٩ (بألوف الليرات)

الفروع	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٦٩
المناجم	٤١٥	٧٥٥	—
المواد الغذائية	١١٨٨٣	٤٣٨٢٩	٢٩١١٥
صناعة التبريد والثلج	—	١٦٠١	٣٥٥٠
النسيج	٥٣٦٣٤	٦٢٤١٧	٤٥٩٩٩
الملبوسات والجلد	٢٠٦٨٦	٤٠٧٣٧	٣٦٧٠٥
الخشب والمواد الخشبية	١٥٤٥١	١٤٣٠٤	١٦٠٤٦
الورق والطباعة	٣١٦٠	٢٠٢٤٤	٢٢٢٩٣
البلاستيك	٤٣٤٦	١٢٦٠٥	١٩٣٥٠
المطاط	١٠٨٦	٢٨١٩٦	٣٦٤٥٣
المواد الكيماوية وصناعة الدواء	٧٧٢٧	١٠٧١٠٤	٤٠٣٩٩
الترابة ومواد البناء	—	٦٧٣٦	٨٥
الزجاج والخزف	٢٢٥٤	٧٥٩٨	١٢٢٥٤
المعادن	٢٦١٩٩	٢٢٥٦٠	٦٢٦٧٥
الآلات وآلات النقل	٦٠٧١٨	٧٣٣٩٨	٨٣٧٩٢
آلات التدقيق	٣٢٨٠	٢٥٨٢	١٩٣٦
المعدات الكهربائية	٢٢١٦٠	٣١٤٧١	٦٢٦٩٥
الصناعات الاخرى	٩٦١٣	٢٦٢٧٠	٢٩٦٩٦
المجموع	٢٥٢٦١٢	٥١٢٤١٧	٥٠٣٠٤٢

المصدر : **التجارة والصناعة الاسرائيلية** ، تموز ١٩٧٠ .

٤ — **الاستثمارات في مجال الدراسات والابحاث** : تنفق اسرائيل اموالا طائلة في مجال الابحاث وتمنح مساعدات للمؤسسات التي تعمل في هذا الميدان . بدأ الاهتمام بهذا النشاط منذ عشرات السنين : في عام ١٩٢١ انشأت الحركة الصهيونية مؤسسة فولكاني للابحاث الزراعية ، ثم انشأت معهد التخنيون والجامعة العبرية في عام ١٩٢٥ ثم مؤسسة وايزمان عام ١٩٣٤ . وينصب الاهتمام الان على استقدام مهندسين وفنيين خصوصا من الولايات المتحدة الاميركية ولكن شروط العمل والتمويل الضخمة المتوفرة فيها جعلت القليل يهتمون بالمجيء الى اسرائيل . لهذا اهتمت الحكومة عام ١٩٧١ باستقدام خمسة عشر عالما من المع العلماء الاجانب الى اسرائيل اذ قدمت لهم شروط عمل مغرية جدا ، كما وضعت بتصرف كل واحد منهم مساعدا ومعدات يمكن ان تصل قيمتها الى ١٠٠ الف دولار . ويأتي هؤلاء العلماء للعمل في الفروع الاساسية والمتقدمة كالالكترونيك والفيزياء والعلوم الطبيعية . وقد بلغ عدد الباحثين عام ١٩٦٦ — ١٩٦٧ في القطاع المدني ٢٩٠٠ ، اما اليوم فيوجد في اسرائيل نحو خمسة الاف باحث ومهندس يعملون في هذا القطاع . اما عدد الذين يعملون في القطاع الحربي فهو يساوي هذا العدد ان لم يكن اكثر منه . وتنفق اسرائيل واحدا بالمئة من دخلها القومي للبحث والتطوير في القطاع المدني ، وبلغ مجموع ما انفقته ١٨٠ مليون ليرة عام ١٩٧٠ ويأتي ٢٠ بالمئة من هذه المصاريف من الخارج كمساعدات وعقود منها ٢٥ الى ٣٠ مليون ليرة من الولايات المتحدة الاميركية . اذا قارنا هذه الارقام مع مثيلاتها في فرنسا ، نلاحظ ان مصاريف

الدولة الفرنسية للبحث في القطاع المدني يبلغ مليارا من الدولارات خلال عام ١٩٧١ لـ ٢١٥٠٠ باحث (اي اربعة اضعاف الباحثين الموجودين في اسرائيل فقط) . بينما لم تبلغ القروض للابحاث في القطاع المدني الا ٣٠ مليون دولار خلال عام ١٩٦٢ — ٦٣ ، وارتفعت هذه القروض بنسبة ٧٦ بالمئة خلال ٥ سنوات ، وتتوزع على ثلاث مجموعات من الاستثمار : ١ — الجامعات والمؤسسات الخاصة كمؤسسة ويزمان : ٦٠ بالمئة من مجموع الاستثمارات المخصصة للابحاث . ٢ — مؤسسات البحث الحكومية (مؤسسة فولكاني للبحث الزراعي ، مؤسسة بحث المناجم) : ٢٥ بالمئة من هذه القروض . ٣ — وحصلت الصناعة مباشرة على ١٤ بالمئة(١).

ومن جهة اخرى ، تعطي الدولة الاولوية للابحاث الهادفة الى تحسين جهازها الحربي ، فتملك وزارة الدفاع عدة مختبرات ضخمة في البلاد وبينها « سلطة تطوير الاسلحة » الواقعة في شمال الارض المحتلة . ان الميزانية الرسمية المخصصة للابحاث ذات الاهداف الحربية تعادل الميزانية المخصصة للابحاث في المجالات المدنية ولكن فعليا تتجاوز هذا المعدل لتصل الى ١٠٥ بالمئة من الدخل القومي(٢). وفي عام ١٩٧٠ بحثت لجنة خاصة مؤلفة من ممثلين عن ادارة البحث الصناعي ووزارة التجارة والصناعة ١٠٧ برامج جديدة للبحث والتنمية الصناعية واجازت اللجنة هذه البرامج وهي الان في حيز التنفيذ، وقد خصص لهذه الابحاث مبلغا قدره ١٦ مليون ليرة .

تشير دراسة خاصة من الوزارة ان اكثرية المشاريع في البحث الصناعي تتعلق بالالكترونيك وبالادوات العلمية ، وبالكيمياء وبالادوية . وتجدر الاشارة الى ان الابحاث تتناول ايضا تطوير نظام حفظ المعلومات الذي يستخدم في الاجهزة الالكترونية ، وكذلك الالات الطبية لقياس ضغط الدم ، والالات الكاتبة الخاصة بالذين فقدوا بصرهم وبلغات عديدة .

وخلال خمس السنين الاخيرة ارتفعت مساهمات وزارة التجارة والصناعة لتشجيع الابحاث في الصناعة ، وقد بلغ عدد البرامج التي قدمت لها مساعدات ٤٥٠ برنامجا في الفترة ما بين ١٩٦٦ — ١٩٧٠ ، ويقدر المبلغ الذي تطلبه هذه البرامج بـ ٦٠ مليون ليرة. وقد منح نصف هذا المبلغ كمساعدات وأمنت النصف الاخر المؤسسات الصناعية .

وتمنح المساعدات لتمويل الابحاث الصناعية ، بعد الموافقة عليها ، لجنة البحث التي يرئسها المدير الفني لوزارة التجارة والصناعة ، وتجري اللجنة تقييمها للبحث بعد تفحصه من مختلف نواحيه التقنية والعلمية والاقتصادية .

عرفت المؤسسات التي تعمل في البحث والتطوير ازديادا كبيرا خلال اربع السنوات الاخيرة : ففي حين كانت عام ١٩٦٦ ست مؤسسات فقد تجاوزت المئة عام ١٩٧٠ . ولكن على الرغم من الازدياد المهم للصناعات المعتمدة على البحث والتطوير ، فما زالت اسرائيل متخلفة عن البلدان المتقدمة (الولايات المتحدة الاميركية والمانيا ...) . ومن الصعب ان نجري مقارنة بين اسرائيل والدول الاخرى في هذا المجال لان تكاليف الابحاث التي تجري للاغراض الحربية لا تنشر .

٥ — **القروض المصرفية في القطاع الصناعي** : ليس قانون تشجيع الاستثمارات هو الوسيلة الوحيدة لتطوير القطاع الصناعي وتوجيهه ، فثمة وسائل اخرى من بينها القروض المصرفية التي تلعب هي ايضا دورا في هذا المجال . وقد تميزت السنوات العشر الاولى التي اعقبت انشاء اسرائيل بتطور الزراعة ، لذا فقد نال هذا القطاع ما

---

(١) **لوموند** ١٦ — ١٧ — ١٨ تموز ١٩٧١ (دومينيك فركيز) .

(٢) **التجارة والصناعة الاسرائيلية** ، تشرين الثاني ١٩٦٩ .

يوازي ربع القروض المصرفية للفترة ١٩٥٤ — ٥٨ . الا ان هـذه النسبة ما لبثت ان انخفضت انخفاضا كبيرا في الفترة التي تلت ، من ٢٥،١ بالمئة عـام ١٩٥٧ الى ١٥،٩ بالمئة عام ١٩٦٢ ، والى ١٢،٨٪ عام ١٩٦٥ والى ٨،١٪ عام ١٩٧٠ . وكان القطـاع الصناعي هو المستفيد من القروض المصرفية ، اذ ارتفعت حصته من ٢٦،٧ بالمئة عـام ١٩٥٧ الى ٣٥،٤ بالمئة عام ١٩٦٢ والى ٣٨،٨ بالمئة عام ١٩٦٥ والى ٣٦،٣ بالمئة عام ١٩٧٠ ، اي بمعدل يتعدى ثلث القروض . واذا حاولنا ان نتتبع التغيير الذي طرأ على الحجم الفعلي للقروض المصرفية الممنوحة للزراعة نلاحظ انها انتقلت من ١٠،٤ مليون ليرة عام ١٩٥٧ الى ٢٢،٢ عـام ١٩٦٥ والى ٥١،٥ مليون ليرة عام ١٩٧٠ ، امـا القروض الممنوحة للصناعة وفي الفترة نفسها فقد ارتفعت مـن ١٠٧،٩ مليون ليرة الى ٦٧٤،٣ والى ٢٢٩٤،٨ مليون ليرة . نسبة هذا الارتفاع لخمس سنوات من ١٩٦٥ الى ١٩٧٠ هي ٢٤٠٪ .

الجدول الثاني عشر

أهمية القروض المصرفية في القطاع الصناعي ١٩٥٤ — ١٩٧٠

السنة	القروض للصناعة (بملايين الليرات)	مجموع القروض للاقتصاد (بملايين الليرات)	نسبة القروض الصناعية الى مجموع القروض (بالمئة ٪)
١٩٥٤	٥٧،٣	٢٤٣،٤	٢٣،٥ ٪
١٩٥٥	٧٧،٢	٢٧٤،٨	٢٨،١
١٩٥٦	٩٢،٨	٣٢٧،٥	٢٨،٣
١٩٥٧	١٠٧،٩	٤٠٤،٣	٢٦،٧
١٩٥٨	١٣٠،٥	٤٧١،٨	٢٧،٧
١٩٥٩	١٦٣،٦	٥٧٥،٢	٢٨،٤
١٩٦٠	٢١٤،٦	٧١٠،٩	٣٠،٢
١٩٦١	٢٦٤،٤	٨٤١،٤	٣١،٤
١٩٦٢	٣٩٢،٥	١١٠٧،٩	٣٥،٤
١٩٦٣	٥١٧،٥	١٢٦٢،٨	٤١
١٩٦٤	٦٣٦،٢	١٤٨٢،٢	٤٢،٩
١٩٦٥	٦٧٤،٣	١٧٤٣	٣٨،٨
١٩٦٦	٨٤٥،٧	٢١٣٧،١	٣٩،٦
١٩٦٧	٩٩٧،٧	٢٧٦٨،٦	٣٦
١٩٦٨	١٢١٩،٦	٣٤٧٥،٤	٣٥،٢
١٩٦٩	١٨١٤،٩	٥٠٩٢،٥	٣٥،٦
١٩٧٠	٢٢٩٤،٨	٦٣٢٠،١	٣٦،٣

المصدر : **التقرير السنوي لبنك اسرائيل** ، ١٩٦٠ ص ٢١٧ ، ١٩٦٥ ص ٣٣٧ ، ١٩٦٨ ص ٣٤٤ ، ١٩٧٠ ص ٣٢١ .

ويساهم المصرف المركزي الاسرائيلي بتنفيذ مخططات الدولة ومشاريعها من خلال تأثيره في القطاع المصرفي ، وبالتالي في السيولة المتوفرة في هذا القطاع ، فهو يوجه قسما كبيرا من هذه السيولة ليوظفها في القطاعات المختلفة في شكل قروض . وقد تطورت نسبة هذه القروض وتوزيعها انسجاما مع الاهداف والاولويـات الاقتصادية التي تحددهـا الدولة ، فنلاحظ ان ٢٤٪ من هذه القروض كانت للقطـاع الصناعي عام ١٩٦٠ وقـد

ازدادت فبلغت ٥٣،٣٪ عام ١٩٦٤ و ٦٣،٣ عام ١٩٦٧ . يدفعنا هذا الازدياد السريع في القروض الى تقدير مدى الاهتمام الـذي توليه اسرائيـل لتطوير قطاعها الصناعي واهمية المساهمة التي يقدمها المصرف المركزي . فبينما كانت القروض الممنوحة بواسطة المصرف المركزي للقطاع الصناعي ٢٣ بالمئة من مجموع القروض الممنوحة للقطاع نفسه لعام ١٩٦٠ ، بلغت هذه النسبة ٤٠ بالمئة عام ١٩٧٠ . وهذا ما يبينه الجدول الثالث عشر .

الجدول الثالث عشر

القروض المصرفية حسب مصادرها وأهميتها في القطاع الصناعي

	١٩٦٠			١٩٦٧		
	القروض للصناعة (بملايين الليرات) (١)	مجموع القروض (بملايين الليرات) (٢)	نسبة (١)/(٢) (بالمئة ٪)	القروض للصناعة (بملايين الليرات) (٣)	مجموع القروض (بملايين الليرات) (٤)	نسبة (٣)/(٤) (بالمئة ٪)
المجموع	٢١٤،٦	٧١٠،٩	٣٠،٢٪	٤٠٨،٢	٦٤٥،٢	٦٣،٣٪
القروض التي يراقبها البنك المركزي	٥٠،٨	٢٠٩،١	٢٤٪	٥٦٨،٣	٢٠٨٧،٦	٢٧،٢٪
القروض غير المراقبة	١٣٢،٥	٤٣٦،٤	٣٠،٤٪	٢٧،٣	٦٦،٩	٤٠،٨٪
القروض المعطاة مقابل ودائع حكومية	٣١،٣	٦٥٤	٤٧،٨٪	١٠٠٣،٨	٢٧٩٩،٥	٣٥،٩٪

المصدر : **التقرير السنوي لبنك اسرائيل** ، ١٩٦٠ ص ٢١٦ ، ١٩٦٧ ص ٤١٣ .

نتبين من هذه الدراسة الدور الحاسم الذي تلعبه الرساميل الاجنبية في عملية تطويـر الاقتصاد ، وبالتالي مدى اعتماد الاقتصاد الاسرائيلي على الخارج . كما نتبين الاهمية الكبرى التي توليها الحكومة للقطاع الصناعي منطلقة منه كما رأينا لتلعب دورا رئيسيا في المنطقة العربية ، فكانت الصناعات الاساسية هي المستفيـد الأكبر من الرساميـل المتدفقة ، فنمت بوتيرة هائلـة واستوعبت اليد العاملة الاسرائيليـة والعربية ايضا خصوصا بعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧ لحاجتها اليها . فانخرط العمال العرب في غزة والضفة الغربية في عملية الاستثمار والتي اضافت للاستغلال القومي السياسي الذي يتعرضون له استغلالا رأسماليا بشعا .

سياسة النظـــام
والازمة الاقتصادية الراهنة في الاردن

حسن الجعبة

كان الاردن ولا يزال يفتقد الاسس الاولية لبناء اقتصاد مستقل قائم على قوى انتاجية محلية متنامية ، واتسم الوضع الاقتصادي بالعجز الدائم في ميزان المدفوعات وميزان التجارة الخارجية ، وبالاعتماد الاساسي على الانتاج الزراعي والموارد غير المنظورة وخدمات السياحة ومصادر التمويل الاجنبية والعربية لتغطية العجز . ومثلت الصناعة في الاردن الحلقة الاضعف في الاقتصاد الاردني وتمركزت الصناعة بالاساس في قطاعي البناء ــ الذي غطيت مصادر تمويله بنسبة كبيرة من تحويلات المهاجرين والمغتربين الى ذويهم ــ والمصنوعات الاستهلاكية الخفيفة . ويعطل القطاع الاول الدورة الصناعية ويجعلها القطاع الثاني قصيرة الاجل . باختصار يعـــاني الواقع الاقتصادي تاريخيـــا مجموعة من المشكلات والعوائق الاقتصادية والسياسية أبرزها : (١) ضعف الزيادة في معدلات التنمية الاقتصادية السنوية : نتيجة لضعف تزايد نمو الانتاج « الصناعي والزراعي » ومصادر التمويل المحلية (الادخار المحلي) ولعدم الاستخدام الامثل للمواد الاولية والاراضي الزراعية المتاحة ، ولهيمنة رأس المال الفردي الخاص والاجنبي على الاقتصاد (القطاع الخاص) ، ولاعتماد الاردن على المساعدات الامبريالية في التمويل ولارتباطه بالسوق الامبريالية العالمية . (٢) تزايد هروب قوى العمل للخارج وهجرة الايدي العاملة المتخصصة نتيجة لانخفاض مستوى الاجور بالنسبـــة لتكاليف المعيشة ولتفشي البطالة بين صفوف الشغيلة والعمال ، والبطالة المقنعـــة بين أفراد الاسرة . (٣) استيعاب الموازنة العسكرية ومخصصات الانفاق على القوات المسلحة والامن العام الجزء الاكبر من موازنة الانفاق العامة . (٤) العجز الدائم لميزان المدفوعات الاردني .

وعلى الرغم من تعدد الخطط الاقتصادية السباعية والخماسية التي وضعتها لجـــان التخطيط الاقتصادي الاردني ومجالسه الا انها لم تستطع تحقيق الاهداف الموضوعة لها وفشلت ــ باعتراف المسؤولين ــ في التفز عن اي من العوائق والمشكلات السابقة . وبعد الخامس من حزيران ١٩٦٧ زادت حدة هذه المشكلات تعقيدا بخسارة الاقتصاد الاردني لقطاعات واسعة من عوامل الانتاج المحلية (مساحات واسعة من الاراضي الزراعية والمواد الخام ــ قوى العمل ــ الاسواق المحلية) بلغت « ٤٠ ٪ من الانتاج الزراعي و٢٠ ٪ من الانتاج الصناعي و٣٥ ٪ من الانشاءات و٣١ ٪ من الكهرباء والمياه و٥٠ ٪ من خدمات النقل و٤٥ ٪ من التجارة و٤٠ ٪ مـــن اعمال البنوك والتأمـــين والصيرفة و٦٠ ٪ من الخدمات و٩٠ ٪ مـــن دخل السياحة و٩٠ ٪ مـــن تحويلات الاردنيين في الخارج »(١). وخسارة هذا القطاع الواسع في ظل المشكلات الاقتصادية التي يعاني منها الاردن ، كان من الممكن ان تؤدي الى الانهيار الكامل لبنيان الاقتصاد الاردني ، لولا تدخل مجموعة من العوامل الطارئة التي لعبت دورا مؤقتا في اخفاء حدة

الازمة الاقتصادية او تخفيفها واهمها : ● فتح الجسور مع الضفة الغربية واستمرار التجارة بين الضفتين . ● المساعدات المالية العربية المقدمة للاردن بعد مؤتمر الخرطوم. ● مصادر التمويل ومصاريف الاستهلاك التي أغرقت الاقتصاد الاردني بالموارد الاولية الناتجة عن انفاق القوات العسكرية النظامية العربية التي دخلت للاردن بعد حزيران ٦٧ (القوات العراقية والسعودية) والقوات الفدائية لمنظمات حركة المقاومة الفلسطينية . هذا بالاضافة للمساعدات المالية النقدية والعينية المرسلة باسم النازحين والمنكوبين من جراء معركة حزيران .

وعملت هذه العوامل الثلاثة على دعم الموارد المالية للميزانية الاردنيـــة وساعدت في المعالجة المؤقتة للمشكلات الاقتصادية الا أن هذه العوامل مـــا لبثت ان انتهت بفعل مجموعة جديدة من الاسباب : (١) استطاعت السياسة الاسرائيلية استغلال الجسور المفتوحة لصالح مصلحتها الاقتصادية وعلـــى حساب اقتصاديات الضفة الشرقية . (٢) توقف المساعدات العربية الكويتية والليبية في أعقاب هجمـــة أيلول الرجعية . (٣) تحويل موارد البلاد نحو زيادة الانفاق على تسليح الجيش والبوليس ولتسرب الاموال لايدي الطبقة الحاكمة وكبار رجال الادارة في الحكـــم . (٤) هروب رؤوس الاموال الوطنية للخارج نتيجة حالة عدم الاستقرار التي ولدتها سياسات القمع والارهاب ونتيجة اعتماد النظام على الصدقات الامبريالية بحكم تركيبته الطبقية الاقطاعية بديلا عن الطريق الوطني في توزيع ثروات البلاد وتشجيع الصناعـــات الوطنية والتنسيق الاقتصادي مع القوى الشعبية المواطنة والعربية . (٥) توجيه الانفـــاق نحو زيادة الخدمات للقطاع الموالي للحكم من البدو والعشائر .

عجلت مجموعة العوامل الجديدة في ابراز نتائج هزيمة حزيران الاقتصادية والاجتماعية في أعقاب حملة أيلول ١٩٧٠ وليجد النظام الملكي نفسه أمام واقع اقتصادي متداعي وازمة اقتصادية حادة لا يستطيع ايقافها على الرغم من المساعدات المالية التي قدمها له حلفاؤه الغربيون . وباتت الجماهير الشعبية الاردنية تعاني من ازدياد انتشار البطالة بين العاملين في كل القطاعات ، ومن ارتفاع مستوى المعيشة المتزايد . كما تناقص حجم التجارة الخارجية مع البلاد العربية التي تمثـــل المستورد الاساسي للانتاج الاردني . وبتدني حجم السيولة النقدية لتسرب العملة الى البنوك الاسرائيلية عبر الضفة الغربية . ومن التسريح الكيفي للعمال وتوقف وخسارة العديد من المصانع الرئيسية الانتاجية .

لذلك كله نستطيع أن نحصر العوامل الرئيسية التي ادت للازمة الاقتصادية الراهنة بما يلي : العامل الاول : ارتباط الاقتصاد الاردني بصورة متزايدة بالامبريالية العالميـــة والسوق الراسمالية العالمية ، وارتفاع النفقات والاعباء المالية الكبيرة والمتزايدة لتسليح القوات المسلحة. العامل الثاني : الغزو الاقتصادي الاسرائيلي لاسواق الضفة الشرقية نتيجة لسياسة الجسور المفتوحة . العامل الثالث : المقاطعة الاقتصادية العربية وتجميد المساعدات المالية .

العامل الاول : على الرغم من ادعاءات وزير المالية الاردني عن زيادة معدل التنمية الاقتصادية في الاردن وعن زيادة الناتج القومي للفرد بمعدل ٤٧ ٪ عام ١٩٧٢/٧١(٢)، الا أن ذلك لا يدلل على تقدم حقيقي لحل الازمة الاقتصادية في البلاد . لان اية خطة للتنمية الاقتصادية تهدف الى زيادة الناتج القومي وتنمية وسائل الانتاج يجب ان تعتمد على الوسائل التمويلية الحقيقية للمجتمع (راس المال وتراكمه الواقع تحت تصرف المجتمع فعليا ــ الادخار القومي) ، وتتجنب الوسائل التضخمية بطبيعتها (التمويل الخارجي والقروض الاجنبية) . الا أن الوضع على العكس من ذلك تماما في الاردن . فضمن الاقتصاد الاردني يشكل الادخار المحلي « القومي » حجما صغيرا لا يعتد به حيث لا يؤثر الا بنسبة بسيطة في التنمية الاقتصادية ، ويستعاض عن الادخار المحلي ضمن

البنيان الاقتصادي الاردني عادة بتأمين التمويل من الخارج على شكل « مساعدات » و« اعانات » وقروض تمويلية خارجية من الدول الامبريالية وتحديدا من الولايات المتحدة الامريكية . وتمثل هذه الاموال المصدر الرئيسي للموازنة الاردنية وبالتالي المصدر الرئيسي للانفاق . لذا فان الاقتصاد الاردني يعتمد بصورة اساسية على التمويل الامبريالي .

بلغت تقديرات رؤوس الاموال الاجنبية الامبريالية حسب مشروع الموازنة لعام ٧٢/١٩٧٣ ما قيمته ٣٦،٣٥٠،٠٠٠ دينار اردني موزعة كالآتي : ٢١،٤٢٥،٠٠٠ دينار قيمة المساعدات المالية الامريكية و١٤،٩٢٥،٠٠٠ دينار اردني قيمة القروض والمساعدات الفنية الاقتصادية الخارجية . يمثل هذا المبلغ ما نسبته نحو ٣٠ ٪ من مجموع الواردات المالية المحتملة بمشروع الموازنة والبالغة قيمته ١٢٤،٨٦٠،٠٠٠ دينار . الا ان هذا المجموع يتضمن في تقديره احتمالات تحصيل المساعدات الكويتية البالغة ٣٢،٥٦٠،٠٠٠ دينار المجمدة منذ هجمة ايلول والمتوقع حسب التقديرات استمرار توقفها خلال العام القادم كما يتضمن مبلغ ٤،٠٠٠،٠٠٠ دينار واردات محلية . وبذا تمثل المساعدات الخارجية من الايرادات شبه مؤكدة التحصيل ما يوازي ٤٠ ٪ من الايرادات الاجمالية بالاضافة للمعونات السرية غير المنشورة . ولعبت هذه الاموال دورا هاما في توجيه الاقتصاد الاردني على امتداد الفترة الماضية ، فقد فرضت الشروط الامبريالية توجيه الانفاق المالي نحو القطاعات غير المنتجة ، والتي لا تزيد من قدرة المجتمع على الانتاج . فشكل الانفاق في معظمه مدفوعات (رواتب الجيش والامن العام وشراء المعدات العسكرية) ــ بهدف قمع الحركة الوطنية الفلسطينية الاردنية ــ حيث بلغت تقديرات مخصصات القوات المسلحة والامن العام والتزامات القروض العسكرية ٤٣،٥ ٪ من اجمالي تقديرات الانفاق في مشروع الموازنة ١٩٧٣/٧٢ اي ما قيمته ٥٤،٤٧٥،٠٠٠ دينار أردني . كما تم توجيه كامل القروض والمساعدات الفنية الاقتصادية الخارجية والبالغة ١٤،٩٢٥،٠٠٠ دينار أردني نحو المشاريع الانمائية (المشاريع غير الانتاجية : محطات الاقمار الصناعية ، تجميل مدينة العقبة ، مطار العقبة ، طرق غير زراعية ، المدينة الرياضية .. الخ) ، وتخصيص مبلغ ٢٦،٤٢٨،٠٠٠ دينار للخدمات المدنية و١٨،٩٧٧،٠٠٠ دينار للنفقات الراسمالية ، و١٠،٠٥٥،٠٠٠ للاغاثة والصمود والتعويضات .

ان هذا التوجيه لبنود الانفاق الذي فرضته الامبريالية كان عاملا مساعدا رئيسيا في تحقيق أهدافها التآمرية ضد الحركة الوطنية من خلال الحكومة الاردنية وأدواتها القمعية التي تولت عملية ضرب حركة الجماهير الوطنية وحماية المصالح الامبريالية في البلاد والتآمر على القضايا العربية وفي مقدمتها قضية فلسطين ، كما كانت عاملا اساسيا في تحويل المؤسسة العسكرية الاردنية الى مؤسسة اقتصادية كبيرة وبديلة ومنافسة للمؤسسات الانتاجية المحلية . فاستوعبت المؤسسة العسكرية العدد الاكبر من قوى العمل في البلاد وباتت مصدر التمويل شبه الوحيد للعديد من العائلات الاردنية(٤) وارتبط بها قطاع هام من السكان وبنسبة كبيرة سكان الريف والبادية . وتحقق الامبريالية هدفا مزدوجا في تشجيعها بناء المؤسسة العسكرية الاردنية ، وجهه الاول توفير أداة قمع الحركة الوطنية في الاردن وتمرير سياساتها في المنطقة بالتالي ، والوجه الاخر الحفاظ على مصالحها واستثماراتها في المناطق المجاورة للاردن (السعودية واسرائيل) امام اخطار قيام أي وضع ثوري في الاردن . فالامبريالية الامريكية لا تنظر للاردن كموقع للاستثمارات الامبريالية الكبيرة ، بقدر ما ترى فيه موقعا عسكريا استراتيجيا لحماية مصالحها في المنطقة . ومن هنا يمكن تفسير العناية الزائدة في بناء المؤسسة العسكرية وتزايد الامتيازات المادية والمعنوية وارتفاع رواتب الجيش والامن العام(٥) .

اما المساعدات الخارجية على شكل قروض فقد وضعت البلاد تحت سيطـــرة الامبريالية ورحمتها سياسيا واجتماعيا واقتصاديا . فأمام ضرورة تسديد هذه القروض « الديون » وفي ظل العجز المالي المستمر والمتزايد سنويا كانت الدولة ملزمة بتنفيذ شروط الولايات المتحدة الامريكية ومتطلباتها السياسية في البلاد لعجزها وعدم قدرتها على السداد عند الاستحقاق . فسداد الديون يتطلب ان يحقق الميزان التجاري فائضا (أي زيادة قيمة الصادرات وتخفيض قيمة المستوردات) كي يمكن الوفاء بالالتزامات . وهذا ما لا تستطيع حكومة الاردن تحقيقه لعدة أمور : (١) سيطرة الدول الامبريالية الدائنة « صاحبة القروض » على توجيه الانتاج والتجارة الخارجية . فالدول الامبريالية تمثل المصدر الرئيسي لمستوردات الاردن قيمة ونوعا . فقد بلغت واردات الاردن من بلدان السوق الرأسمالية العالمية نسبة تتراوح بين ٥٠ ـــ ٦٠ ٪ خلال أربع السنوات السابقة . فقد كانت مستوردات الاردن عام ١٩٦٨ من الولايات المتحدة ٦،٣٧٠،٠٠٠ دينار ، ومن المملكة المتحدة ٧،١٥٣،٥٠٠ دينار ، ومن المانيا الغربية ٥،٩٨٧،١٠٠ دينار ، ومـــن اليابان ٢،٨٩٤،١٠٠ دينار ، ومن ايطاليا ١،٩٠٢،٧٠٠ دينار، ومن فرنسا ١،٦٦٢،١٠٠ دينار ومن هولندا ١،٤٤١،١٠٠ دينار ، ومن الصين الوطنية ١،٦٣٨،٦٠٠ دينار اي ما يساوي ٥٠،٤ ٪ من المجموع العام للمستوردات البالغ ٥٧،٤٩١،٧٠٠ دينار . وفي العام ١٩٧٠ كانت النسبة ٥٠ ٪ من المجموع العام اذ بلغت المستوردات من كل بلد من البلدان المذكورة اعـــلاه بالتوالي : ٧،٣٨٠،٥٠٠ دينـــار ، ٨،٨١٥،٩٠٠ دينـــار ، ٥،٩١١،٥٠٠ دينار ، ٣،٨٦٨،٧٠٠ دينار ، ٢،٢٣٥،٤٠٠ دينار ، ١،٦٤٨،٠٠٠ دينار ، ١،٢٧١،٧٠٠ دينار ، و ١،٤٩٦،٧٠٠ دينار .

(٢) استمرار العجز في الميزان التجاري الاردني بمعدل متزايد سنويا ، نتيجة لسوء التخطيط الانتاجي للحكومات الاردنية المتعاقبـــة ، وغياب أي توجيـــه صناعي لسلع التصدير ، ولعدم استغلال المواد الاولية وقوى العمل المتوفرة في البلاد لبناء صناعات بديلة عن الصناعات المستوردة او صناعات انتاجية جديدة ، فقد بلغ العجز في الميزان التجاري للفترة ما بين السنوات ١٩٦٤ ـــ ١٩٧٠ نسبة متزايدة سنويا تفوق المساعدات الامبريالية في قيمتها اذ تراوح العجز ما بين ٤٤ ـــ ٥٣ مليون دينار اردني (الجدول ١) .

الجدول ١

ميزان التجارة الخارجية للفترة ما بين ١٩٦٤ ـــ ١٩٧٠ (٧)

بالدينار الاردني

السنة	المستوردات	الصادرات	العجز التجاري
١٩٦٤	٥٣،٥٥٨،٤٠٠	٨،٧٢٨،٠٠٠	٤٤،٨٣٠،٤٠٠
١٩٦٥	٥٦،٠٥٢،٢٠٠	٩،٩١١،٢٠٠	٤٦،١٤١،٠٠٠
١٩٦٦	٦٨،٢١١،٥٠٠	١٠،٣٩٩،١٠٠	٥٧،٨١٢،٤٠٠
١٩٦٧	٥٥،٠٤٧،٧٠٠	١١،٣٢٦،٨٠٠	٤٣،٧٢٠،٩٠٠
١٩٦٨	٥٧،٤٩١،٧٠٠	١٤،٢٦٢،٥٠٠	٤٣،٢٢٩،٢٠٠
١٩٦٩	٦٧،٧٥١،٨٠٠	١٤،٧٤٨،٦٠٠	٥٣،٠٠٣،٢٠٠
١٩٧٠	٦٥،٨٨٢،٠٠٠	١٢،١٦٩،٨٠٠	٥٣،٧١٢،٢٠٠

(٣) محاولة تسديد الديون عن طريق زيادة الضرائب : يغلب على النظام الضريبي في الاردن الضرائب غير المباشرة « أي زيادة اسعار السلع والخدمات » ، والنوع هذا من الضرائب تتحمله اوسع الطبقات الجماهيرية في الاردن عند الاستهلاك ، ويتحمله بشكل خاص أفراد الطبقات الفقيرة والمتوسطة الدخل والذين اما أن يخفضوا مـــن مستوى

معيشتهم بتقليل شراء السلع او يغادرون البلاد بحثا عن العمل ، وكلا التصرفين لا يخدم الصالح العام ولا هدف الحكومة هذا . اما الضرائب المباشرة على الدخل (الافراد والشركات) في ظل الازمة الاقتصادية الراهنة وغياب التصنيع المحلي وفقدان تشجيع الانتاج الوطني فترفع من مستوى الاعباء والتكاليف الانتاجية مما يعيق التنمية الاقتصادية ويجعل الدولة بحكم نهج تفكيرها الرجعي بحاجة مستمرة للتعويض عن الديون بطلب المزيد من المساعدات الامبريالية والرجعية العربية . للاسباب السابقة تتراكم الديون الخارجية مضافا اليها قيمة الفوائد وهذا يعني انتقال الثروة القومية الى بلد آخر مستقبلا وعند السداد حتى الجزئي .

باختصار يمكن القول ان الاقتصاد الاردني ارتكز بشكل شبه كلي على تدفق الرساميل والمعونات من الخارج ولم يعد بامكان الحكومة — في ظل النظام الاقتصادي المتبع — التخلي عن ذلك الا باتباع سياسة وطنية اقتصادية وسياسية وطبقية . وهذه فرضية مستحيلة بحكم التركيبة الاقطاعية — البرجوازية للنظام الاردني ، مما يبقيها باستمرار في وضع تبعي للسوق الامبريالية العالمية، حتى يمكن الحفاظ على مستوى الانفاق المرتفع للاجهزة العسكرية .

ان عدم تشجيع الادخار القومي وهروب رأس المال الوطني — نتيجة للحالة السياسية وعدم الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في البلاد — ولاعتماد الاقتصاد على القطاع الخاص واهمال القطاع العام وتوجيه استيراد المواد الاولية من الدول الرأسمالية — بغض النظر عن الاسعار — وعدم اعتماد الحكومات الاردنية سياسة تشجيع الصناعات المحلية وتنمية الزراعة وزيادة انتاجها أدت الى فقدان الثقة بين قوى الانتاج والدولة فربطت الدولة مستقبلها الاقتصادي بالتبعية للسوق الرأسمالية العالمية ومستقبلها السياسي بقوى الامبريالية مما فرض عليها اتخاذ مواقف سياسية مضادة لقضايا الجماهير اليومية فبرزت نتيجة لذلك كله حالة اجتماعية واقتصادية مظاهرها الاساسية الاستغلال الكامل لجماهير الشغيلة والعمال وتقييد الحركة الاقتصادية العامة للبلاد . فارتفعت تكاليف المعيشة وانتشرت البطالة وازداد الوضع الاقتصادي تأزما ولم تجد الدولة أمامها للخلاص من هذه الازمة الا المزيد من اللجوء لصدقات الامبريالية واعاناتها مقابل التنفيذ الكامل لسياسة الدول الامبريالية وبرامجها وشروطها السياسية .

العامل الثاني : يغزو الاقتصاد الاسرائيلي تدريجيا أسواق الضفة الشرقية من الاردن ، مستفيدا من التعامل التجاري وحركة مرور البضائع والاموال والافراد والخدمات عبر الجسور المفتوحة بين الضفتين ، مباشرة من خلال اعتماد منتوجات تصدير الضفة الغربية على المواد الاولية والخدمات الاسرائيلية والتي تمثل نسبة عالية من تكاليف الانتاج ، وبشكل غير مباشر عن طريق احلال مستوردات الضفة الغربية من اسرائيل مكان المصدرات للضفة الشرقية بغرض الاستهلاك المحلي .

فبالنسبة لاعتماد منتوجات تصدير الضفة الغربية على المواد الاسرائيلية المنبع والانتاج — واذا ما استثنينا حركة الافراد عبر الجسور المفتوحة وما ينقلونه معهم من النقد والاموال السائلة والتي تمثل مصدرا ايراديا للضفة الغربية يستخدم في عملية التبادل التجاري بين الضفة الغربية واسرائيل — فان المواد الاساسية التي تمر عبر الجسور المفتوحة وتشكل الميزان التجاري بين الضفتين هي البضائع الصناعية والزراعية . ومع ان المنتوجات الزراعية المستوردة من الضفة الغربية لا تحتوي على مواد اولية اسرائيلية في تركيبها الظاهري ، الا أننا لا نستطيع ان نوافق على الحجة الاردنية التي تدعي بأن المنتوجات المستوردة من الضفة الغربية ذات تركيبة وتكاليف عربية مئة بالمئة. لان أسعار هذه المنتوجات تتحدد بالاساس في ضوء تكاليف انتاجها . واذا ما حللنا تكاليف انتاج بضائع الضفة الغربية لوجدنا ان نسبة عالية منها مشتراة من الاسواق الاسرائيلية

بأنواع مختلفة مثل اجرة او استهلاك آلات ، ثمن الاسمدة والمواد الكيماوية ، ثمن تشغيل الطاقة الكهربائية والمائية والبترولية .. الخ . فاذا علمنا ان اسرائيل تمنع تجار الضفة الغربية من استيراد الالات الزراعية والصناعية عبر الجسور المفتوحة (آلات الحراثة والحصاد والدراسة والعصر ... الخ)، نستطيع القول ان قيمة استهلاك او اجرة الآلات المستخدمة في الانتاج والتي تحمل المنتوجات بها كجزء من التكاليف تدفع في الاصل الى مالك الآلة او بائعها الاساسي في اسرائيل . كما ان الاسمدة والمواد الكيماوية اللازمة لمعالجة الافات الزراعية تستوردها الضفة الغربية من اسرائيل ، وكذلك مصادر الطاقة المائية والكهربائية وبشكل اكثر وضوحا البترولية . انطلاقا من ذلك كله نستطيع أن نؤكد أن جزءا اساسيا من تكلفة الانتاج الزراعي للضفة الغربية تشتــرى من رأس المــال الاسرائيلي . وفي الانتاج الصناعي تبرز هذه الناحية بشكل اكثر وضوحا . فبالاضافة لتكاليف استهلاك الآلة واجرتها وثمن الطاقة والادوات الصغيرة « التعليب » فان المواد الاولية تتسرب للسلع الصناعية الجاهزة المصدرة للاردن في ظل عدم توافر الخامات الاولية الكافية لمعظم الصناعات في الضفة الغربية ، واضافة لكل ذلك تدخل في تكاليفها ادوات التغليف الضرورية لحفظها ، كصفائح الزيت واكيـــاس الزيتون وأوراق اللف وصناديق الخشب والحديد التي تحمل بها البضائع .. الخ .

اذا ما استعرضنا المصانع الحالية القائمة في الضفة الغربية والتي تنتج سلع التصدير الصناعي للضفة الشرقية نستطيع أن نتبين كيفية تداخل الاقتصاد الاسرائيلي بالمنتوجات الجاهزة ، سواء بالمواد الاولية أم الخدمات الاساسية او المساعدة : (١) مصنع تعليب البندورة ــ الخليل : يعتمد على المشتريات التاليــة من اسرائيل : الصفائح ــ المواد الكيماوية اللازمة للتعليب ــ اسمدة انتاج البندورة ــ طاقة تشغيل الآلات بالاضافة للضرائب المدفوعة للحكومة الاسرائيلية . (٢) مصانع الزيوت النباتيــة في نابلس : الصفائح ــ المواد الكيماوية ــ الاسمدة ــ الطاقة ــ الضرائب. (٣) صناعة المشروبات الروحية في بيت جالا : الزجاج ــ المواد الكيماوية ــ الاسمدة ــ الطاقة ــ الضرائب . (٤) صناعة المفروشات في بيت لحم : الخشب ــ المواد الكيماويــة « الغراء » ــ الدهان ــ العدد الصغيرة (مسامير ، براغي ... الخ) ــ الطاقــة ــ الضرائب . (٥) مصانع النسيج في غزة والضفة الغربية : المواد الخام ــ الطاقة ــ الضرائب ــ والآلات الجديدة . (٦) مصانع الاحذية في غزة والضفة الغربية : المواد الخام ــ الطاقة ــ الضرائب ــ العدد الصغيرة ــ المواد الكيماوية . (٧) مصانع البلاط في غزة والضفة الغربية : الطاقة ــ المواد الكيماوية ــ الآلات الجــديدة ــ الضرائب . (٨) مصنع الشوكلاتة برام الله : سلفانا والمصانع الصغــيرة في القدس ونابلس : مواد أوليــة مستوردة من الخارج عبر اسرائيل (كاكاو ــ سكر) ــ مواد كيماويــة ــ طاقة ــ ضرائب . (٩) مصانع الزجاج في الخليل : مواد كيماوية ــ طاقة ــ ضرائب . (١٠) الصناعات التذكارية والسياحية في بيت لحم : مواد كيماوية ــ ضرائب . (١١) مصانع البلاستيك في بيت ساحور والقدس : (وهي أكثر الصناعات تصديرا ليس للضفــة الشرقية فقط بل للبلاد العربية كذلك ــ الكويت مثلا ــ واكثر الصناعات اعتمادا على البضائع والخدمات الاسرائيلية) ــ الآلات حديثة ومستوردة عبر اسرائيل ــ المواد الاساسية الاولية الكيماوية وكلها مواد مستوردة من اسرائيل كذلك الطاقة والضرائب وادوات التغليف . (١٢) مصانع الادوية في غزة والضفة الغربيــة : المواد الخام ــ الطاقة ــ الضرائب .

ويبقى خارج التعامل التجاري بين الضفتين مصنعان فقط : الاول مصنع التبغ والسجاير في القدس والثاني مصنع المرطبات في نابلس . اما الاول فلأهمية انتاجه للاســواق الاسرائيلية والثاني لعدم قدرته على منافسة الصناعات المماثلة في الضفة الشرقية .

واما بالنسبة لغزو الاقتصاد الاسرائيلي لاسواق الضفة الشرقية بشكل غير مباشر عن طريق استيراد الضفة الغربية للمنتوجات الاسرائيلية ذات الصفة الاحلالية وليست المكملة للمنتوجات المصدرة للضفة الشرقية فتظهر بشكل واضح من خلال تحليل تطور ميزان التجارة بين الضفتين خلال السنوات الثلاث الاولى من الاحتلال .

على الرغم من أن الضفة الغربية مثلت ٤٠ ٪ من الانتاج الزراعي و٢٠ ٪ من الانتاج الصناعي فقط قبل الخامس من حزيران ١٩٦٧ من مجموع الانتاج الاردني السنوي(٨) الا ان ميزان التجارة الحالي بين الضفتين يميل وباتساع كبير لصالح الضفة الغربية وتتشكل بنوده من منتجات استهلاكية محلية في الضفة الشرقية اكثر منها سلعا تصديرية . فبينما بلغت قيمة ما صدرته الضفة الشرقية للضفة الغربية ٢٤٤٩ مليون ليرة اسرائيلية نجد انها استوردت ما قيمته ٦٩ مليون ل. أ. من الضفة الغربية عام ١٩٦٩ . اي بفرق لصالح الضفة الغربية مقداره ٤٤٢١ مليون ل. اسرائيلية تساوي نحو ٥٥٥ مليون دينار اردني (الجدول رقم ٤) الا ان الخطورة لا تكمن بالقيمة الاجمالية هذه بل بنوعية السلع المتبادلة بين الضفتين حيث يغلب على سلع الاستيراد من الضفة الغربية السلع الصناعية . فعلى الرغم من سياسة الحكومة في عمان والتي عملت على مركزة اهم الصناعات الاردنية في الضفة الشرقية وعلى الرغم من أن الضفة الغربية كانت المستهلك الدائم وليس المصدر للصناعات في الضفة الشرقية اجمالا الا اننا نلاحظ ان ميزان التبادل التجاري الصناعي هو في صالح الضفة الغربية بعد ١٩٦٧ ، مما قلب موازين حركة تنقل السلع الصناعية لصالح الانتاج الصناعي في الضفة الغربية وبالتالي اسرائيل . ومن هنا باتت اسواق الضفة الشرقية مركزا لتسويق البضائع الصناعية شبه الاسرائيلية مما ساعد على توقف أو خسارة العديد من المشاريع المشابهة في الضفة الشرقية كمصانع التريكو والاحذية والزجاج والمنسوجات والصابون في عمان والزرقاء .

ان التدقيق في ميزان التجارة بين الضفتين للسنوات ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ والذي امكن الحصول عليه من كتاب الاحصاء السنوي الاسرائيلي لعام ١٩٧٠ (لغياب الاحصاءات الاردنية) يبين مجموعة من الظواهر والنتائج التالية :

١ — يميل ميزان التجارة لصالح الاراضي العربية المحتلة بعد ٦٧ وبنسبة متزايدة سنويا مما يفسح المجال لتسرب المنتوجات الاسرائيلية لاسواق الضفة الشرقية نتيجة لتداخل المواد الاولية وتكاليف الانتاج الاسرائيلية في سلع الاستيراد الزراعية والصناعية ولان الاراضي العربية المحتلة تستهلك سلعا اسرائيلية بديلة للسلع التي تستوردها الضفة الشرقية خاصة وأن الضفة الغربية لا تعتبر بلدا صناعيا بل على العكس من ذلك لا تزال تستورد السلع الصناعية الاولية . فبالنظر لميزان التجارة بينها وبين اسرائيل نجد انها تستورد بالدرجة الاولى المنتوجات الصناعية الاسرائيلية . فمن اجمالي مستوردات الضفة الغربية البالغ ٢٩٥٥٤ مليون ليرة اسرائيلية عام ١٩٦٩ هناك ٢٣٦ مليون ل. أ قيمة المستوردات من اسرائيل منها ١٩٧٤١ مليون ل. أ سلع وبضائع صناعية(٩).

٢ — أن اسرائيل تركز على غزو اسواق الضفة الشرقية بالسلع الصناعية عن طريق تشديد القيود على المنتجات الزراعية وتخفيف شروط تصدير المنتجات الصناعية مما ادى الى تزايد تصدير الضفة الغربية الى الضفة الشرقية من البضائع الصناعية من ٢٣٤٢ مليون ل. أ سنة ١٩٦٨ الى ٣١٤٤ مليون ل. أ سنة ١٩٦٩ ، وتناقص في تصدير السلع الزراعية من ٢٣ مليون ل. أ عام ٦٨ الى ١٢٤٧ مليون ل. أ عام ١٩٦٩ (جدول رقم ٢) .

٣ — في الوقت الذي تعتبر فيه اسواق الضفة الشرقية اهم الاسواق لبضائع التصدير في الضفة الغربية فان الاقتصاد الاردني لا يستفيد من اسواق الضفة الغربية تصديرا الا بنسبة ضئيلة لا تتناسب مع القدرة الاستهلاكية للضفة الغربية او حركة الاستيراد منها.

فقد مثلت مستوردات الاراضي المحتلة من الضفة الشرقية للاردن ٨٪ فقط من مجموع المستوردات السنوية في المتوسط . حيث بلغت نسبة المستوردات من الضفة الشرقية ١٫٢٪ ، ٦٫٧٪ ، ٤٫٨٪ فقط في السنوات ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ وشكلت السلع الزراعية الحجم الاكبر من هذه المستوردات فبلغت ٧٣٫٣٪ ، ٦٨٫٢٪ في السنوات ٦٨ ، ٦٩ . وفي المقابل كانت نسبة صادرات الضفة الغربية لاسواق الضفة الشرقية ٥٠٪ من مجموع الصادرات في المتوسط ، فقد بلغت نسبة التصدير ٧٩٫٤٪ ، ٤٦٫١٪ ، ٥٠٫١٪ من كل صادرات الاراضي العربية المحتلة بعد ٦٧ للسنوات نفسها ٦٧ ، ٦٨ ، ١٩٦٩ وكانت البضائع الصناعية تمثل الجزء الاكبر منها فبلغت ٥١٫٦٪ ، ٥٧٪ للسنتين ٦٨ ، ١٩٦٩ . (الجدول رقم ٢) . ان عدم التناسب الكبير في حركة التبادل التجاري بين الضفتين يكاد يجعل الاتجار من جانب واحد « استيراد كبير من الضفة الغربية وتصدير قليل القيمة لها » . واذا ما استخرجنا الفرق بين صادرات وواردات الضفة الشرقية مع الضفة الغربية لوجدنا أن العجز يساوي نحو ٢٠٪ من قيمة عجز ميزان التجارة الخارجية الاردني عام ١٩٦٩ حيث بلغ قيمة العجز نحو ٥٣ مليون دينار اردني (الجدول رقم ١) .

٤ ـ لم تساعد الجسور المفتوحة فقط الاقتصاد الاسرائيلي على غزو اسواق الضفة الشرقية بل ونتيجة لتطبيق السياسة الاقتصادية الاسرائيلية لحركة التبادل التجاري عبر الجسور فقد اغلقت في وجه البضائع الصناعية الاساسية الاردنية اسواق الضفة الغربية الواسعة : فقبل الخامس من حزيران ١٩٦٧ كانت الضفة الغربية تستهلك ٦٠٪ من انتاج الاسمنت و٤٠ ٪ من انتاج البترول والاقمشة وهذه السلع على رأس قائمة الممنوعات من اجتياز الجسور . وبذا تأثرت صناعة الاسمنت والصناعات المكملة (البناء والدهان ... الخ) وصناعة الاقمشة بشكل كبير . وكان لعدم قدرة هذه الصناعات على التسويق في الضفة الغربية اثر رئيسي في تعطيل العديد من المصانع في الضفة الشرقية وتوقفها ، فقد ساعد ذلك على اغلاق شركات المقاولة والبناء المذكورة وتسريح عمالها مما ادى الى شل الدورة الصناعية وانتشار البطالة في الاردن .

الجدول ٢

الميزان التجاري لتجارة الاراضي العربية المحتلة مع الضفة الشرقية للاردن للسنوات ٦٧ ، ٦٨ ، ١٩٦٩(١٠)

« بملايين الليرات الاسرائيلية »

السنة	البيان	التصدير	الاستيراد	فائق التصدير عن الاستيراد
الشهور الاربعة الاخيرة	سلع صناعية	٢٢٫٩		
من ١٩٦٧	سلع زراعية	١١٫٧		
	المجموع	٣٤٫٦	٠٫٨	٣٣٫٨
١٩٦٨	سلع صناعية	٢٨٫٠	٤٫٨	٢٣٫٢
	سلع زراعية	٢٦٫٣	١٣٫٣	١٣٫٠
	المجموع	٥٤٫٣	١٨٫١	٣٦٫٢
١٩٦٩	سلع صناعية	٣٩٫٣	٧٫٩	٣١٫٤
	سلع زراعية	٢٩٫٧	١٧٫٠	١٢٫٧
	المجموع	٦٩٫٠	٢٤٫٩	٤٤٫١

العامل الثالث : قطع بعض الـــدول العربية (سوريا وليبيـــا والجزائر ومصر واليمن الديمقراطية) علاقاتها الاقتصادية مع الاردن ، واعلن بعضها اغلاق الحدود في وجـــه التجارة الخارجية الاردنية . كما جمدت كل من الحكـــومة الليبية والحكـــومة الكويتية المساعدات المالية التي كانت تدفعها سنويا لدعم الاقتصاد الاردني ، بعد هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، احتجاجا عـــلى السياسة التي مارستها السلطـــات الاردنية ضد الشعب الاردني ، والحركة الوطنية الاردنية وقوى حركة المقاومة الفلسطينية ، وتحديدا بعد مجازر ايلول ١٩٧٠ ، واحـــداث جرش ١٩٧١ . وأدى ذلـــك الى تفاقم الازمـــة الاقتصادية والى خسارة الاقتصاد الاردني لجزء مهم من موارده اهمها :

اولا : خسارة ميزان التجارة بنسبة تعادل ٣٣٪ من قيمة الصادرات الوطنية العامـــة و ١٥٪ من المستوردات الاجمالية اي ما يعادل ٤٤٪ من مجموع قيمة الصادرات للدول العربية و ٧٥٪ من المستوردات من الدول العربية(١١). فقـــد شكلت اسواق الـــدول العربية المجالات الاساسية الاكثر حيوية لتصريف المنتوجات الاردنية من سلع وخدمات. فقد بلغت نسبة الصادرات الاردنية للدول العربيـــة ٦٤٪ ، ٦٧٪ ، ٧٠٪ من مجموع الصادرات و١٩٪ ، ١٩٪ ، ٢٠٪ من مجموع قيمة المستوردات للسنوات ١٩٦٦، ١٩٦٨،

الجدول ٣

التجارة مع أهم الدول العربية للسنوات ١٩٦٦ — ١٩٦٨ — ١٩٧٠(١٤)

(بالدينار الاردني)

القطر	١٩٦٦ الصادرات	١٩٦٦ المستوردات	١٩٦٨ الصادرات	١٩٦٨ المستوردات	١٩٧٠ الصادرات	١٩٧٠ المستوردات
مجموع الدول المقاطعة والمتاثرة بالمقاطعة						
سوريا	١،٢٠٨،١٧٦	٣،٣٤٨،٣٢١	٨٦٨،٤٢٨	٢،٨٦٧،١٦٥	١،٤٧٧،٥٤٩	٣،١٩١،٩٤٣
لبنان	١،١٤٣،٤٥٤	٣،٧٧٢،٩٨٠	١،٤٢٦،٨٣٦	٤،٣٢٠،٢٣٦	١،٤٣٣،٨٤٦	٤،٤٠٩،٠٦٤
مصر	٧٨٨	١،٢٨٥،٠٠٧	١٤،٩٨٩	١،١٢٠،١٤٥	٢١١،٤٠٠	٢،٠٥٢،٠٥٦
اليمن الديمقراطية	٦٨٨	٥٧،٩٨٦	١١،١٧٥	٢٤،٧١٩	١٦،٦٢٥	٢،٢١٦
الجزائر	١١١	٥١،٥٥٦	—	٣٢٢	٥	٤٣،٠٤٠
ليبيـــا	٩١١	١٩٤	٢٧،٥٣٩	—	٩،٦٩٤	٣٥
المجموع	٢،٤٥٤،١٢٨	٨،٥١٦،٠٦٦	٢،٣٤٨،٩٦٧	٨،٣٤٢،٥٨٧	٣،١٤٩،١١٩	٩،٦٩٨،٣٥٤
الدول الاخرى						
السعودية	٧٩٤،٩٢٢	٢،٤٣٦،٢٠٠	١،٥٣٩،٥٩٠	٢،١٦٨،٩٧٢	١،٢٣٤،١٣٧	٢،٥٤٣،١٢٢
العراق	١،٢٨٦،٧٩١	١،٧٢٧،١٠٦	١،٧٩٦،٢٨١	٣٦٥،٤٣٣	١،٣١٢،٢٦٩	٣٦٩،٢٩٧
السودان	٤٤	٣٧٣،٦٠٦	١٩،٢٩٥	١٣٢،٥٦٨	٤٢	٣٢٩،١٧٨
الكويت	١،٠٧٧،٦٩٦	٢٨،٢٣٢	٢،٣٨٥،٤٩٩	٢١٢،٢٧٢	١،٣١٨،٣٥٤	١٩،٢٢٨
المغرب	٣	١٠،٤٧٩	—	١٠،٥٠٥	٢٠	١٤٦،٩٩٨
مجموع الدول العربية	٥،٦٤٦،٢٥٧	١٣،١٨٢،٤٣٤	٨،٢١١،٠٣٥	١١،٠٤١،٤٧٧	٧،١٧٠،٥٧٨	١٣،١٠٦،٣٨٦
نسبة الدول العربية للمجموع العام	٦٤٪	١٩٪	٦٧٪	١٩٪	٧٧٪	٢٠٪

١٩٧٠ على التوالي . وكان نصيب الدول التي اعلنت المقاطعة والتي تـأثرت بالمقاطعة (مثل لبنان)(١٢) ٦٤ ٪ ـ في الفترة الاولى واثناء اشتراك الحكومة العـراقية بقرار المقاطعة ـ و ٤٤٪ حتى حزيران ١٩٧٢ من مجموع الصادرات للدول العربية و ٧٤٪ من مجموع المستوردات العربية(١٣) وبنسب اكثر انخفاضـا في الفترة الحالية نتيجـة تراجعات بعض الدول العربية وتخفيف شروط المقاطعة الاقتصادية (الجدول رقم ٣) . ساهمت خسارة هذا القطاع من التجارة الخارجية بدرجة كبيرة في الازمة الاقتصادية الراهنة ، وترتب في ضوء ذلك مجموعة من النتائج :

النتيجة الاولى : زيادة قيمة العجز في ميزان التجـارة الخارجية وميزان المدفوعـات ، والفشل في تحويل الصادرات نحو اسواق جديـدة : تركيبة ونوعية السلع الصالحة للتصدير ، تتشكل في معظمهـا من المزروعات الطازجـة (خضار وفواكه) ، وتتطلب لتسويقها اسواقا قريبة وفترة زمنية قصيرة ، مما لا يساعد على تحويل الانتاج الزراعي الى الاسواق الخارجية البعيدة ، اضافة لتوفر سلع بديلة لسلع التصدير في الاسواق الخارجية وضعف قدرة البضائع الاردنية عـلى المنافسة في الاسواق العالمية لارتفـاع اسعارها نتيجة لزيادة تكاليف نقلها . ونظرة اولية لانواع سلع التصدير وقيمتها النقدية تبين لنا الى اي مدى يفقد نظام التصدير القدرة على الحركة والتحول الى خارج اسواقه العادية العربية . فاذا اعتمدنا جـداول التصنيف السلعي لتجارة الاردن ـ سوريـا (الجدول ٤) والاردن ـ لبنان (الجدول ٥) فاننا نخرج بالملاحظات التالية :

١ ـ تمثل السلع الصناعية ١٨ ٪ فقط من سلـع التصدير لسوريا و ٣١٪ من سلـع التصدير للبنان . كما أن نوعية السلع الصناعية استهلاكية في غالبيتها اولا ولا تتمتع باي ميزة احتكارية ثانيا ومن السلع ذات التكاليف المرتفعة للنقل ثالثا . ولا يمكن ان تتمتـع بالاسواق الاجنبية بالاعفاءات الجمركية وشروط التسويق التي نظمتها اتفاقية الترانزيت والتجارة العربية ، مما يولد صعوبات عديدة في تصريفها في الاسواق الخارجية الاخرى.

الجدول ٤

التجارة الخارجية حسب السلعة والبلد/سوريا ١٩٧٠(١٥)و(١٦)

(بالدينار الاردني)

الصادرات		المستوردات	
الصنف	القيمة	الصنف	القيمة
السلع الصناعية :		أهم السلع :	
أدوية الطب البشري	٥٣،٤٦٨	أبقار	١٠٥،٣٣٧
الاسمنت	٣٦،١٦٥	ضان	٦٧٤،٥٦٣
السجاير	٣٥،٧٦٦	ماعز	٦٥٤،٦٦٩
ورق كرفت لاكياس التعبئة	٣٧،٣١٦	شعير	١٢٤،٨٣٥
جماعات كهربائية ٦ فولت	٢١،٩٥٨	منسوجات	٢٣٣،٧٧٦
جلود خام	١٩،٣٩٠	مواد اخرى	١،٢٩٨،٧٦٣
مركزات اعلاف واعلاف	١٩،٥٢٩		
موسلات واحجار رملية وصوانية	١١،٥٨٨		
منسوجات وجوارب وصابون	٢٠،٤١٣		
مجموع السلع الصناعية	٢٥٥،٥٩٣		

بندورة	٤٦١٤٩٩٣		
باذنجان طازج	١٥٥٤٩٠٧		
فول أخضر	٢٥٤٧٨٢		
بصل للاكل	١٣٤٦٨٧		
كوسا طازجة	١٤٤٥٧٧		
فلفل أخضر	١١٤٠٤٩		
فاصوليا خضراء وزهرة وخضروات اخرى	٩٤٩٨٣		
مجموع الخضروات	٦٩٢٤٩٧٨		
برتقال	٣٥٠٤٠٨٨		
موز	٧٣٤٤٠٤		
ليمون حامض	٤٧٤١١١		
بطيخ	٣٠٤٦٤٠		
لوز	١١٤٧٥٤		
مندلينا وكريبفروت وكلمنتين ولوز مقشر وبذر يانسون	١٥٤٩٨١		
مجموع الفواكه	٥٢٨٤٩٧٨		
مجموع المواد الزراعية	١٤٢٢١٤٩٥٦		
المجموع العام	١٤٤٧٧٤٥٤٩	المجموع العام	٣٤١٩١٤٩٤٣

الجدول ٥

التجارة الخارجية حسب السلعة والبلد/لبنان ١٩٧٠(١٧)

الصادرات		المستوردات	
الصنف	القيمة	الصنف	القيمة
السلع الصناعية :		اهم السلع :	
فوسفات واحجار رملية وصوانية	٢٧٣٤٤٩٣	بيض	٥٢٢٤١٧٢
جلود خام	١٤٦٤٧٩٨	بطاطا	٤١٧٤٣٠٣
جماعات كهربائية ٦ فولت	٩٤٦٣٨	عنب	١٠٩٤٤٩٢
مواد صناعية اخرى	٢٤٤٧٣٨	تفاح	٣٧٨٤٨٣٤
مجموع السلع الصناعية	٤٥٤٤٦٦٧	زيوت تشحيم	٢٧٠٤٧٠٩
السلع الزراعية :		مواد اخرى « أسماك ، ومنتجات مخابز فاخرة وزجاج وصفائح ومواسير وزجاج طبي واجهزة صحية وكلس واسمنت وكبريت ... الخ »	٢٤٧١٠٤٥٥٤
بندورة	٢٠٦٤٧٠٣		
باذنجان طازج	٧٣٤٤٥٨		
بصل للاكل	١٥٤٧٩٠		
خضروات وفواكه اخرى	٦٨٣٤٢٢٨		
مجموع السلع الزراعية	٩٧٩٤١٧٩		
المجموع العام	١٤٤٣٣٤٨٤٦	المجموع العام	٤٤٤٠٩٤٠٦٤

٢ — السلع الزراعية الطازجة تشكل ٨٢٪ من سلع التصدير لسوريا و ٦٩٪ من سلع التصدير للبنان ، كما ان هذه السلع لا يمكن حفظها بالبرادات لفترة طويلة (الخضروات)

اولا ، والفواكه الاردنية عاجزة عن دخول اسواق المنافسة الخارجية لتوفر الفواكه الاكثر جودة واقل سعرا في هذه الاسواق (منتجات اسبانيا وايطاليا واسرائيل ...) ثانيا ، ومصانع تعليب وحفظ المنتجات الزراعية محدودة ، ثالثا. مما يؤدي بالنتيجة الى تلف المزروعات المنتجة ويخلق العوائق امام تسويقها .

٣ ــ تتميز السلع المستوردة من الدول العربية بانخفاض الاسعار بالنسبة للاسعار العالمية لتمتعها بالاعفاءات التي نظمتها الاتفاقيات الجماعية والثنائية العربية واتفاقية السوق العربية المشتركة ، ولانخفاض تكاليف النقل لقرب المسافة . فاسعار المواشي والحيوانات منخفضة بالنسبة للاسعار العالمية لقربها من المراعي التركية وتوفرها في الجمهورية العربية السورية وتمثل ٤٧٪ من المستوردات من سوريا (الجدول ٥) ، كما تتمتع اسعار البيض والصفائح والزجاج والاسماك والكلس والزيتون والتفاح والعنب المستوردة من لبنان بانخفاض الاسعار وتشكل ٧٥٪ من المستوردات في لبنان (الجدول ٣) . ان التحول نحو استيراد السلع نفسها من الاسواق الخارجية سيؤدي الى ارتفاع اسعارها في الاسواق الاردنية بنفس نسبة ارتفاع تعرفة النقل من الاسواق الخارجية + قيمة الرسوم والاعفاءات الجمركية .

النتيجة الثانية : انخفاض الانتاج الزراعي والصناعي ، وخسارة الشركات الصناعية وسيادة البطالة بين العمال :

١ ــ انخفض العائد على الانتاج الزراعي لخسارة المزارعين اثمان المنتوجات الزراعية المعدة للتصدير للدول العربية بعد تعديل نظام المحاصصة بين الملاكين والمزارعين الذي فرضه كبار ملاكي الاراضي بحيث يتحمل المزارع خسارة مالك الارض فقد « كان ملاكو الاراضي الزراعية في الاغوار منذ ما قبل عدوان ٦٧ وحتى العام الماضي ١٩٧١ يؤجرون اراضيهم للمزارعين الصغار (العاملين بالمحاصصة) بالنسب التالية : الارض السقي ــ للملاك ٤٠٪ من الانتاج وللمزارع ٦٠٪ منه ــ ، الارض البعل : للملاك ٢٥٪ ــ ٣٠٪ من الانتاج وللمزارع ٧٠ ــ ٧٥٪ منه غير ان ملاكي الارض هذا العام فرضوا نسبة اخرى فأخذوا يتقاضون من الارض السقي ٥٠٪ من الانتاج ومن الارض البعل ٤٠٪ من الانتاج »(١٨). اما ملاكو الاراضي الصغار فقد كثر اقبالهم على بيع اراضيهم والتوقف عن الانتاج والتحول نحو البناء في احسن الاحوال . فنشطت حركة بيع الاراضي وتجارة شركات العقارات . وامتلأت الصحف باعلانات الشركات العقارية التي عرضت بيع مساحات واسعة من **الاراضي الزراعية** وفي مناطق زراعية مختلفة من الاردن (انظر مثلا صحيفة الرأي من ٦/٣ ــ ١٩٧١/٧/٢١ حيث نعثر على عشرين اعلانا لبيع الاراضي في مناطق صويلح ، غور كبد ، وادي السير ، ناعور ، ابو علندا ، ماركا ، الحمر ، البقعة ، وادي الضليل ، الفحيص ، اربد) .

ساهم الانتاج وتغير نظام المحاصصة وبيع الاراضي الزراعية في زيادة حدة الازمة الاقتصادية على الفئات الشعبية الفقيرة والمحدودة الدخل ، التي انخفض دخلها الحقيقي بارتفاع تكاليف المعيشة مع تناقص الدخل ، وانتشرت البطالة بين صفوف العمال الزراعيين الذين يشكلون نسبة كبيرة من قوى العمل في الاردن .

٢ ــ انخفاض العائد على رأس مال الشركات الصناعية وتحقيق خسائر كبيرة في موازناتها وتوقف بعضها عن الانتاج :

ان تراكم المخزون وعدم تصريف المنتوجات التصديرية الصناعية في اسواق الدول العربية والاراضي العربية المحتلة وارتفاع اسعار المواد الاولية المستوردة من اسواق الاحتكارات الامبريالية ادى الى تحقيق خسائر كبيرة نسبيا في موازنة معظم الشركات الصناعية الكبيرة . فقد اظهرت ميزانية شركة التوسعات العمومية للسنة المنتهية في

٧١/١٢/٣١ خسارة محققة مقدارها ٤٦٣،٩٧١ دينارا اردنيا منها ٢٤٤،٣٠٢ دينار خسائر مرحلة من العام السابق(١٩). والميزانية العمومية لشركة التبغ والسجائر الاردنية للسنة المنتهية في ٣١ كانون الاول ١٩٧٠ ٨٧،٦٩٩ دينارا اردنيا(٢٠). اما شركة الالبان الاردنية فقد اظهرت ميزانيتها العمومية المنتهية في ٣١ كانون الاول ١٩٧٠ خسائر محققة مقدارها ٣٧٩١ دينارا اردنيا(٢١). واحيلت شركة الورق والكرتون الى لجنة الامن الاقتصادي لدراسة اوضاعها المالية المتدهورة(٢٢). وصفت اكبر شركات المقاولات والبناء اعمالها وصرفت اكثر من ٩٠ ٪ من عمالها وتأثرت جميع الشركات المرتبطة بشركات البناء كشركات الدهان « شركة دهان الرصيفة » ومتاجر بيع ادوات البناء والنجارة والاثاث والحدادين بتوقف العمل في شركات المقاولات . وادى ذلك كله بالضرورة الى ازدياد عدد العمال العاطلين عن العمل والمسرحين من العمال الصناعيين والعمال الحرفيين وبالتالي الى انخفاض دخول افراد الطبقة العمالية الفقيرة . فقد بلغ عدد العمال المسرحين من شركة البناء والمقاولات العربية ٤٩٥ عاملا من اصل ٥٠٠ عامل او في شركة شاهين للمقاولات ٦٦٠ عاملا من اصل ٧٠٠ عامل ، وفي شركة ريم للمقاولات ٤٨٥ عاملا من اصل ٥٠٠ عامل ، وفي شركة العماد « مظفر ابو السعود » ٩٨٠ عاملا من اصل ١٠٠٠ عامل ، وفي شركة دلتا ٣٨٢ عاملا من اصل ٤٠٠ عامل(٢٣).

ثانيا : فقدت الموازنة الاردنية جزءا مهما من وارداتها المالية نتيجة لتجميد المساعدات العربية الليبية والكويتية والتي تبلغ نحو ٢٦ مليون دينار اردني سنويا . وساعد ذلك على خلق الازمة المالية والاقتصادية الراهنة التي تعاني منها الاردن . خاصة ان هذه المساعدات كانت تغطي جزءا كبيرا من بنود الانفاق في الموازنة لا تستطيع الحكومة الاردنية تغطيتها بالواردات المحلية نتيجة لسياستها الاقتصادية غير الوطنية ، مما يؤدي الى زيادة العجز السنوي في الموازنات الاردنية التالية لقرار التجميد .

بناء على مشروع الموازنة ١٩٧٣/٧٢ تشكل المساعدات الكويتية المجمعة ما قيمته ٣٢،٥٦٠،٠٠٠ دينار اردني وتمثل بذلك ٢٦ ٪ من مجموع بنود الانفاق . ولضعف قدرات البلاد الانتاجية ومواردها المحلية عن تغطية قيمة هذا المبلغ — الذي يمكن ان يبقى مجمدا امام استمرار سياسة النظام الاردني الحالية — كما اعترف بذلك وزير المالية الاردني في خطابه امام مجلس النواب في معرض طرحه لمشروع الموازنة ولتوقف المساعدات الليبية بشكل كامل (الغيت قيمة المساعدات الليبية من مشروع الموازنة) ، فاننا نستطيع القول أن حالة الانهيار الاقتصادي ستتضاعف وستحاول الحكومة مواجهة الانهيار هذا — كما عودتنا دائما — باللجوء الى المساعدات الامبريالية مقابل مزيد من الاستسلام لسياسات الامبريالية الامريكية ومخططاتها في المنطقة ...

---

١ — فؤاد حمدي بسيسو « الآثار الاقتصادية لسياسة الجسور المفتوحة » **شؤون فلسطينية**، العدد ٢ ايار ١٩٧١ .

٢ — **الراي** ، ١٩٧٢/٥/١٣ « تصريح انيس المعشر وزير المالية الاردني » .

٣ — **الراي** ، ١٩٧٢/٥/١٩ .

٤ — حول هذا الموضوع انظر كتاب **المقاومة الفلسطينية والنظام الاردني** ، مركز الابحاث في م. ت. ف. ، ايلول ١٩٧١ قسم التعبئة في الريف وتشكيل الجيش الشعبي ص ١٣٢ .

٥ — **المرجع السابق** ، ص ١٢٧ .

٦ — كتاب **الاحصاء السنوي الاردني** — التجارة الخارجية — ١٩٧٠ .

٧ — **المرجع السابق** — التجارة الخارجية — ١٩٧٠ .

٨ — فؤاد حمدي بسيسو « الآثار الاقتصادية لسياسة الجسور المفتوحة » **شؤون فلسطينية** ، العدد ٢ ، ايار ١٩٧١ .

٩ — كتاب **الاحصاء السنوي الاسرائيلي** — ١٩٧٠ .

١٠ — **المرجع السابق** .

١١ — استخرجت النسب باعتماد النسب المرجحة

لارقام الصادرات والمستوردات الظاهرة في الميزان التجاري الاردني للسنوات ٦٦ ، ٦٨ ، ١٩٧٠ .

١٢ — لم يعلن لبنان مقاطعته الاقتصادية للاردن، الا انه تأثر بالمقاطعة السورية التي منعت مرور البضائع التجارية عبر اراضيها ولعدم وجود حدود مشتركة بين لبنان والاردن ولضخامة تكاليف النقل الجوي وقد بلغ تأثر التجارة الخارجية مع لبنان ما نسبته نحو ٧٠٪ من الصادرات اي قيمة الصادرات الزراعية التي توقفت تماما بينما استمر التعامل بـ ٣٠٪ فقط وهي قيمة الصادرات الصناعية التي نصت عليها اتفاقية السوق العربية المشتركة والتي بحكمها لا تتأثر بعض السلع الصناعية « كالفوسفات » بالمقاطعة .

١٣ — اعتمدت النسبة على اساس سنة ١٩٧٠ اساس للنسب .

١٤ — كتاب **الاحصاء الاردني السنوي** — التجارة الخارجية — ١٩٧٠ بيان رقم ١ .

١٥ — **المرجع السابق** بيان رقم ٥ وبيان رقم ٧ .

١٦ — تم اختيار سلع المستوردات التي تزيد قيمتها عن ١٠٠ الف دينار وجمعت ارقام الصادرات التي تقل عن ١٠ الاف في بنود موحدة .

١٧ — كتاب **الاحصاء الاردني السنوي** — التجارة الخارجية — ١٩٧٠ بيان رقم ٥ وبيان رقم ٧ .

١٨ — **الجماهير** « نشرة تصدرها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاردني » السنة ٢٤ ، العدد ١ — كانون الثاني ١٩٧٢ .

١٩ — **الراي** ، ٢٩ ايار ١٩٧٢ .

٢٠ — **الراي** ، ٢ حزيران ١٩٧١ .

٢١ — **الراي** ، ١٧ حزيران ١٩٧١ .

٢٢ — **الوطن** « نشرة شهرية تصدرها الجبهة الشعبية الديمقراطية — فرع الاردن » — السنة الاولى — العدد الثاني ١٩٧٢ .

٢٣ — **الجماهير** « نشرة تصدرها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الاردني » السنة ٢٤ — العدد ١ — كانون الثاني ١٩٧٢ .

لانسكي وليبسكي
واستغلال قانون العودة

الدكتور اسعد رزوق

كانت « شؤون فلسطينية » قد طلبت من الدكتور اسعد رزوق استعراض قضيتي لانسكي وليبسكي في اسرائيل بهدف اظهار محاولات استغلال قانون العودة الاسرائيلي من قبل المجرمين والمحتالين . ورغم ان أيا منهما لم ينل ما حاول الحصول عليه بسبب افتضاح قضيتهما بشكل يلحق باسرائيل سمعة سيئة جدا في اوروبا واميركا ، الا ان مجرد لجوئهما الى اسرائيل واقامتهما كل هذه المدة الطويلة ، دليل على عيوب قانون العودة وعنصريته .

التحرير

تهدف هذه المقالة الى عرض قضيتين متشابهتين الى أبعد حدود التشابه ، لكي تضع كل قضية منهما في اطارها الصهيوني والاسرائيلي الاوسع . ونعني بهاتين القضيتين ما يلي : قضية ماير لانسكي ، الذي تلاحقه السلطات القضائية الاميركية بشتى التهم قبل أن يظهر بصورة مفاجئة في اسرائيل منذ تموز (يوليو) ١٩٧٠ — حيث لا يزال مقيما حتى الآن . وقضية رجل الاعمال اليهودي الفرنسي ، كلود ليبسكي ، الذي اختفى من فرنسا عقب افتضاح أمر النشاطات المالية الاحتيالية التي كان يمارسها عبر شركاته ومؤسساته ، لكي يتبين للسلطات القضائية الفرنسية أنه وصل الى اسرائيل بتاريخ ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٧١ . فالقضية الاولى ما زالت « عالقة » رغم الادانات والاحكام الصادرة بحق بطلها ماير لانسكي ، والسلطات الاسرائيلية لم تشأ حتى الآن العثور على المسوغات القانونية لتسليم المطلوب الى سلطات بلاده أو اخراجه من اسرائيل . كما ان لانسكي لم يقع خياره على اللجوء الى اسرائيل عبثا ، بل جاء يحتمي في ظل « قانون العودة » الذي يمنح لكل شخص يهودي الحق في التوطن داخل اسرائيل وفي الحصول على الجنسية الاسرائيلية تحت ستار التأشيرة الممنوحة له بصفة « مهاجر عائد » . والقضية الثانية بقيت عرضة للجدل ، والاخذ والرد ، طيلة الشهور الماضية ، فلم تعمد السلطات القضائية الاسرائيلية الى تسليم كلود ليبسكي الا بعد ان سارع مجلس الشيوخ الفرنسي الى ابرام اتفاقية تبادل المجرمين بين فرنسا واسرائيل ، حيث أعيد ليبسكي الى باريس في صبيحة الثالث والعشرين من آذار (مارس) ١٩٧٢ .

ولا بد لنا ، قبل الانتقال الى عرض الملابسات التي أحاطت بكل من القضيتين وما زالت تحيط بهما — وتنتظر القضايا المماثلة لهما — من التذكير بمضمون « قانون العودة » الذي اقره الكنيست الاسرائيلي في ٧ تموز (يوليو) ١٩٥٠ . فالمعروف ان البند الاول من بنود هذا القانون ينص على أنه « يحق لكل يهودي المجيء الى اسرائيل بصفة مهاجر » . ثم يحدد البند التالي طبيعة تلك الهجرة على أساس التأشيرة التي تمنح لكل يهودي يعرب

عن رغبته في التوطن باسرائيل . على أن يعود لوزير الداخلية أمر البت بالطلب المقدم ، شريطة مراعاة الاعتبارات والتحفظات التالية : القيام بنشاط ضد الشعب اليهودي ، احتمال تشكيل الخطر على الصحة العامـــة او تهديد أمن البلاد وسلامتها ، الماضي الاجرامي الذي يمكنه أن يتهدد الامن العام في البلاد(١).

والخلافات التي نشبت في اسرائيل بالنسبة لتطبيق القانون المذكور ، وأدت بدورها الى قيام ازمات داخلية على صعيد التحالفات السياسية بين شتى الفئات والاحزاب ، كانت تدور في معظمها حول كيفية تفسير الصفات اللازمة لاعتبار الشخص يهوديا من زاوية الدين والقومية، على حد سواء. فالجدل المستمر داخل اسرائيل حول تعريف «اليهودي» والاجابة على سؤال « من هو اليهودي ؟ » يمت بصلة وثيقة الى قانون العودة ، مع العلم بأن النص الاصلي للقانون يتحاشى الدخول في مسألة من هذا القبيل . وقد جاءت التعديلات التي أقرها الكنيست بتاريخ العاشر من آذار (مارس) ١٩٧٠ على الصيغة الاصلية لقانون العودة ــ وابان نشوب ازمة متكررة الحدوث حول تعريف اليهودي ــ لتؤكد على الرابط العضوي بين القـــانون المذكور والتعريف الاسرائيلي ــ الصهيوني لـ « من هو اليهودي ؟ » . لذا نكتفي هنا بايراد المسائل التي استحدثتها التعديلات ، وعلى سبيل علاقتها بموضوع مقالتنا، لا سيما متى علمنا بأن لانسكي تقدم بطلب للحصول على الجنسية الاسرائيلية بموجب « قانون العودة » والحق الذي يمنحه هذا القانون لكل يهودي باعتبار نفسه مهاجرا عائدا الى اسرائيل . بينما أكد وزير الداخلية الاسرائيلي بتاريخ ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١ ان كلود ليبسكي طلب الحصول على الجنسية له ولعائلته بموجب قانون « المهاجرين الجدد » ، لئلا يتعذر عليه أن يستفيد من قانون العودة وخوفا من عدم انطباق المعايير الرسمية لتعريف اليهودي على قضية انتمائه هو لليهودية(٢).

فالمقصود بقانون « المهاجرين الجدد » ليس الا الصيغة المعدلة لقانون العودة منذ أواسط آذار (مارس) ١٩٧٠ . والمواد التي جرى تعديلها في معـــرض التصديق على تعريف قديم ــ جديد لمن هو اليهودي تدل بوضوح على أمرين متلازمين بنظر المنطق الصهيوني لدولة اسرائيل : الامر الاول ينم عن الحرص على استرضاء الفئات والاحزاب المتدينة ، بحيث ينص التعريف « المعدل » على ما يلي : « طبقا لاغراض هذا القانون ، ان اليهودي هو المولود من أم يهودية او المهتدي الى الدين اليهودي ، والذي ليس على دين آخر » . لكن الامر الثاني يتجاوز حدود هذا التعريف وشروطه لكي يقدم التسهيلات للمهاجرين الذين يعتبرهم الشرع التلمودي غير يهود أقحاح . فقد أقر الكنيست في الوقت ذاته منح الجنسية الاسرائيلية بصورة آلية وعلى الفور لجميع أفراد الاسرة المهاجرة ، وبغض النظر عن يهودية الزوج أو الزوجة(٣). وهذا ما استند اليه ليبسكي عندما تقدم بطلب للحصول على الجنسية والحيلولة دون تسليمه الى السلطات القضائية الفرنسية .

اراء هذه الخلفية السريعة التي يجدر بنا تذكرها في اطار القضيتين ، نستطيع الانتقال الى سرد الحقائق وابراز الوقائع بالنسبة لكل منهما . ولا غرو فان قضيـــة لانسكي او ليبسكي ليست فريدة من نوعها بالنسبة الى احتماء المطلوبين من العدالة في ظل النص الحرفي لقانون العودة الاسرائيلي ولجوئهم الى الاستفادة من « التسهيلات » والخدمات التي يعرضها القانون المذكور على يهود العالم .

من هو ماير لانسكي ؟

مواطن يهودي اميركي ، أبصر النور في غرودنو (ماير سوخوفلانسكي) من أعمال بولونيا عام ١٩٠٢ ، وهاجر الى الولايات المتحدة لكي تقدر ثروته بعد ٦٩ عاما بما لا يقل عن ٣٠٠ مليون دولار . اعتبرته مجلة « وول ستريت » بمثابة « العبقري المالي في عالـــم

الاجرام » ، وسجلته بطاقات « مكتب التحقيقات الفدرالي » (اف. بي. اي) في خانة الاعضاء السابقين لاحدى شركات القتل المعروفة بـ Murder Inc. . يبدو من معلومات الصحف عنه ، ومن أقواله بالذات ، ان لانسكي طويل الباع وذو ماض عريق في ميدان الجريمة والابتزاز . فالاوساط المقربة منه تطلق عليه شتى الالقاب والتسميات : « ماير الصغير » ، و« ماير البرغوث » و« جوني أغز » و« موريس ليبرمان » . والرجل الذي اختار « ميامي » لاقامته كان من أبرز الزعماء اليهود في عصابة المافيا الذائعة الصيت ، حتى ان مجلة « تايم » الاميركية نقلت عنه في معرض سردها لقصة الغلاف عن « عصابة المافيا ضد اميركا » بأنه « الساحر المالي الاكبر » داخل العصابة . ثم علقت على قوله « نحن أكبر من شركة الفولاذ الاميركية »(١٩٦٦) بقولها ان لانسكي أطلق هذا الكلام على سبيل التبجح ، بينما هو في الواقع يتمادى في تواضعه الى درجة الافراط(٤).

ومما تجدر ملاحظته ان عراقة لانسكي في عالم الاجـرام والنشاطات المحسوبة عليه والمنسوبة اليه لم تترك للسلطات القضائية الاميركية فرصة توجيه الاتهامات الى أحد كبار رجال العصابات او مجال ادانته . فلم يصدر بحق ماير لانسكي طيلة نصف قرن من النشاط الاجرامي سوى حكم واحد يقضي بسجنه لمدة ثلاثة أشهر لحيازته على قنبلة زمنية . وقبيل اختفائه من اميركا جرى اعتقال لانسكي في آذار (مارس) ١٩٧٠ بتهمة حيازة المخدرات من دون ترخيص ، ثم أطلق سراحه لقاء كفالة مـالية بقيمة ٥٠ ألف دولار(٥).

لكن مؤلف سيرة حياة لانسكي ـ هانك مسّيك ـ يقدم التفسير التالي لاخفاق العدالة الاميركية في ملاحقة زعماء العصابات من أمثال لانسكي عن طريق لجوئها الى « السلاح السري » واتهام هؤلاء بالتهرب من دفع الضرائب والتحايل على دائرة الضريبة والدخل : يقول مسيك في كتابه عن لانسكي ما مفاده ان رجل العصابات هـو الذي « اكتشف ريتشارد نيكسون ، ذلك المحامي الشاب والطموح » . ثم يؤكد بأن كافة الاجراءات ضد لانسكي قد تم تجميدها ، بعد أن قام الرئيس نيكسون بتعيين ميتشل على رأس وزارة العدل الاميركية(٦). ونحن ننقل هذه المعلومات من مصادرها بدون تعليق ، لكي نلاحظ أمرين :

اولا ـ في ٢٥ آذار (مارس) ١٩٧١ ، وبعد انقضاء عدة شهور على وجود لانسكي في اسرائيل ، أدين السائح الاميركي باتهامات تتعلق بنشاطات القمار غير المشروع في أوتيل فلامنغو بمدينة لاس فيغاس .

ثانيا ـ أعلن وزير العدل الاميركي بالوكالة ، ريتشارد كلايندينست ، في واشنطن خلال الاسبوع الاول من حزيران (يونيو) ١٩٧٢ بأن محكمة للتحقيق في ميامي وجهت الى كل من لانسكي و دينو تشلليني (البالغ ٥٧ عاما من العمر) تهمة تقديم بيانات كاذبة عـن ضريبة الدخل . وجاء في النبأ ان التهمة الموجهة الى الرجلين تتعلق بقبض حوالي ٢٠٠ الف دولار عن طريق احدى أندية القمار في لندن . كما وردت الاشارة الى اتهام لانسكي مرتين سابقتين بالتهمة اياها : التهرب من دفع الضرائب !(٧).

ان هذه الادانات والاتهامات أخذت تتوالى بعد مغادرة لانسكي ومجيئه الى اسرائيل في صيف ١٩٧٠ بصفة سائح اميركي يهودي . ولم تتقدم السلطات الاميركية من اسرائيل بطلب تسليم لانسكي ، هذا مع العلم بوجود اتفاقية مبرمة بين البلدين لتبادل المجرمين . كما ان الدوائر المسؤولة في اسرائيل بشخص وزير الداخلية لم تتردد في تجديد اقامة لانسكي وتمديدها الا عندما امتنع الوزير يوسف بورغ بتاريخ ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٧١ عن تمديد الاقامة للمرة السابعة . أي ان ماير لانسكي تمكن من تجديد اقامته مرات ست طيلة ١٤ شهرا قضاها في اسرائيل منذ دخوله الى البلاد كسائح . والقضية لم تنته عند

هذا الحد ، لان لانسكي بدوره أعرب عن رغبته في التوطن داخل اسرائيل وتقدم بطلب للحصول على الجنسية الاسرائيلية . لنتابع هذه القضية من زاوية اخرى بغية تسليط الضوء على الجوانب الصهيونية والاسرائيلية منها .

السائح «المقيم»

مما لا ريب فيه ان لانسكي لم يتوجه عبثا الى اسرائيل . فقد سبقه الى هناك أحد زعماء المافيا اليهودية في نيويورك جو ستاتشر . ويعرف الجناح اليهودي في عصابة المافيا تحت اسم «كوشير نوسترا» تمييزا له عن التسمية الايطالية «كوزا نوسترا» . كما تجدر الاشارة هنا الى الخدمات المالية التي اسداها ماير لانسكي دون تباطؤ أو تقاعس بالنسبة لحملات جمع التبرعات والاموال من يهود أميركا . فقد جـاء في التحقيقات الصحفية التي كتبها المراسلون الغربيون من اسرائيل ان لانسكي «ابان وجوده في اميركا دلل على كونه من الاشخاص الذين دعموا الصندوق القومي اليهودي بكل اخلاص ، ولم تترك تبرعاته مجالا لطلب المزيد . كما انه استجاب علـى الدوام وفتح حافظة نقوده لطلبات ورغبات شتى المنظمات اليهودية في اسرائيل»(٨).

ولدى وصول السائح الاميركي لانسكي ترافقه زوجته الثانية الى مطار اللد ، منحته السلطات تأشيرة اقامة مدتها ثلاثة شهور . فانتقل «صاحب الايادي البيضاء» الى شقة فخمة في احد الفنادق بمستعمرة هرتزليا ، ثم قام السائح بزيارة لقبور أجداده فوق منحدرات جبل الزيتون بالقدس ، وكأنه يتعمد اعطاء الدليل لمن يهمه الامر على صدق ولائه الصهيوني . وسرعان ما أخذ «السائح» يفتش عن منزل للاقامة الدائمة في احدى ضواحي تل أبيب ، فوقع نظره على شقة في العمارة التي يسكنها وزيـر المواصلات شمعون بيريز في رامات أفيف . كما بادرت الزوجة الى اقتناء سيارة ثمينة ، واستطاع لانسكي أن يشحن ما حمولته ست شاحنات من الفيلا الفخمة التي يملكها في ميامي الى اسرائيل .

لكن السلطات الاسرائيلية لم تحرك ساكنا طيلة ١٤ شهرا قضاها لانسكي في البلاد . فقد صدر أمر بالقاء القبض على لانسكي في اميركا يتعلق بتهمة العاب القمار الممنوعة (ربيع ١٩٧١) . وانتظر وزير الداخلية الاسرائيلي حتى ٢٩ ايلول (سبتمبر) ١٩٧١ لكي يمتنع عن تمديد اقامة الثري الاميركي واليهودي لمرة سابعة . بينما سارع لانسكي الى التقدم من جانبه بطلب للحصول على الجنسية الاسرائيلية ، في ظل قانون العودة واستنادا الى ماضيه في حقل التبرع المالي لحملات الجباية اليهودية . ومن الملاحظ ان الاسرائيليين — كما تقول مجلة «دير شبيغل» — تخوفوا لئلا يعمد لانسكي الى ممارسة اشغاله وأعماله المعروفة انطلاقا من الشرق الاوسط . فسارعوا الى أبعاد ثلاثة مـن زملاء لانسكي ينتمون مثله الى عالم الاجرام عقب ظهورهم في تل ابيب بقصد «اجراء مباحثات مع لانسكي تتعلق بالاعمال» . وهؤلاء الثلاثة هم : بنجامين شبيغلبلوم ، برنارد روزا وجاكوب ماركوس(٩). بينما تفيد انباء أخرى ان زملاء لانسكي لم يبارحوا مبنى المطار ، بل أعيدوا على متن أول طائرة من حيث أتوا . ومهما يكن الامر ، فان ماير لانسكي لم يبق مكتوف اليدين ازاء امتناع وزير الداخلية عن تمديد اقامته . لا بل سبق له في وقت مبكر ان تقدم بطلب الحصول على الجنسية الاسرائيلية طمعا في حمل السلطات المسؤولة على الاعتراف بحقه كيهودي في الاستفادة من قانون العودة والاحتماء خلف النص الحرفي للقانون المذكور . وعمد الى تحدي قرار وزير الداخلية متسلحا بالحق الذي يمنحه قانون العودة لكل شخص يهودي !

«تسييس» القضية

في مطلـع العام ١٩٧١ أشارت الانباء الصادرة عن اسرائيـل الى انهمـاك السلطات

المسؤولة بالبحث عن بند في قانون العودة يتيح لها فرصة ابعاد « السائح » الذي جـاء يطلب حق التجنس بموجب انتمائه الى اليهودية واستنـادا الى خدماته الجلى في حقول التبرع والجباية المالية . لكن بنود القانون لا يسري مفعولهـا على ماير لانسكي . فهو ليس مصابا بمرض يتهدد الصحة العامة ، ولا يشكـل خطرا على أمن الدولة . وعندما أقدمت احدى الصحف الاسرائيلية (يديعوت أحارونوت) على نشر سلسلة من المقالات عن لانسكي وماضيه الاجرامي ، وجد الهارب من قبضة العدالـة فرصته الذهبية لرفع دعوى ضد الصحيفة مطالبا اياها بتعويض قـدره مليون ليرة اسرائيلية لانها « مرغت سمعته الطيبة في الوحل ، واخذ الكثيرون منذ ذلـك الحين يشهرون به »(١٠). فجاء رد الصحيفة يؤكد للمحكمة ان الدعوى التي تقدم بها لانسكي تنطـوي على السخف ، لان سمعته سيئة بمعزل عن المقالات ولا يعقل ان تؤدي المقالات الى الحاق السوء بها .

بيد ان الدافع وراء دعوى لانسكي على صحيفة « يديعوت » ليس تغريمها بقدر ما هو « تنظيف سجل » الرجل عن طريق محكمة اسرائيليـة ، لكي يتسنى له الحصول على تمديد اقامته بواسطة وزارة الداخلية . فقد ظهر لانسكي في مقابلة تلفزيونية ليزعم انه « ضحية حملة تشن ضده » . وأعلن ان هذه الحملة يرجع تاريخها الى عشر سنوات ، اذ شنهـا عليه الصحفيون الاميركيون ، وتحولت فيما بعد الى حملـة تشهير واسعة النطاق . ثم قال « ... ولا أدري الى اي حد سوف يصل هذا الامر »(١١). وأدعى انه « ضحية المنـاورات السياسية » . كل ذلك في سبيل اقنـاع المترددين بوجوب منحه الجنسية الاسرائيلية ، وأخـذ تبرعاته السخية للصناديـق والمنظمات اليهودية بعـين الاعتبار . ولم يكتف لانسكي بهذا القـدر ، بل رفع قضية ضد وزارة الداخلية للحيلولة دون ابعاده ، واوكـل أمر الدعوى الى واحـد من كبار المحامين في اسرائيـل ، يورام آلروي(١٢).

وسرعان ما تمكن الثري الاميركي الذي جاء يحتمي بقانون العودة من استقطاب بعـض الآراء المؤيدة لدعواه . فالانباء الواردة في اواخر أيلول (سبتمبر) ١٩٧١ تقول أن وزير المالية ــ سابير ــ ووزير العدل ــ شابيرا ــ يضعان بثقلهما للحيلولة دون الاعتراف بكون لانسكي من فئة المهاجرين العائدين . وتؤكد ان وزير الداخلية الاسرائيلي ــ يوسف بورغ ــ انصاع لرغبة الزميلين وتمسك بموقفه المتصلب . لكن الاوساط المؤيدة لبقاء لانسكي سارعت بدورها الى تقديم التغطية اللازمة . فعمد الكاتب الساخـر ، افرايم كيشون ، الى التعليق حول الموضوع في زاويته الاسبوعية بصحيفة « معاريف » مؤكدا ان ما قاله وزير العدل عن « انعدام الرغبة في تجميع حثالة اليهود داخل اسرائيل » هو أمر يدحضه الواقع تماما . وأشار الى ان التجميع غير المرغوب فيه قد حصل ، ثم راح يتحدث عن ازدهار الاجرام في اسرائيل ، مؤكدا للقراء مـا يلي : « ان ماير لانسكي لا يستطيع البقاء داخل البلاد ، بسبب ما يشاع عن ماضيه السلبي . بينما يزدهر الاجرام المنظم في تل ابيب على الاقل » . وانتهى كيشون الى القول : « هل يعقـل وجود عضو سابق للمافيـا بين ظهرانينـا ؟ ان خبـراء الكسب السريـع يرفعـون انظـارهم صوب السماء ، وأسياد الرشوة في حوض البحر المتوسط يلوحون بسبابتهم محذرين ، والمدمنون على تعاطي الحشيش أصيبوا بصدمة مذهلـة ، والحكومة تطلق الصوت من عليائها قائلة : يجب علينا تفسير قانون العودة وفقا لنصه الحرفي الدقيق »(١٣).

ويبدو ان كيشون لم يرفع لواء الدفاع عن لانسكي بمفرده . اذ سرعان ما تبين ان الدعوى التي تقدم بها محامي الرجل لها حظ وافر بالنجاح . ففي تشرين الاول (اكتوبر) كـانت الحكومة الاسرائيلية عـلى استعداد لحمل الكنيست عـلى استصدار تشريع خاص ، بمثابة «قانون لانسكي» (Lex Lansky) ، بقصد الحيلولة دون « توافد المجرمين في يوم من الايام من كافة انحاء العالم على دولة اسرائيل »(١٤) (دير شبيغل ، ٧١/١٠/١١) .

معنى ذلك : السكوت عن بقاء لانسكي بحجة استصدار التشريع الكفيل بعدم اتخاذ هذه القضية كسابقة قانونية ، والسماح لزعيم الاجرام المنظم بتقديم المزيد من التبرعات والاموال ، وربما افساح المجال أمام توظيف امواله والاستفادة من خدماته — دون ان يتنافى ذلك مع منطوق قانون العودة الاسرائيلي — الصهيوني .

فالادانة التي صدرت مؤخرا بحق ماير لانسكي في الاسبوع الاول من حزيران (يونيو) ١٩٧٢ لم تدفع السلطات الاميركية حتى الان الى المطالبة بتسليمه عملا بنصوص اتفاقية تبادل المجرمين بين اسرائيل والولايات المتحدة . ومما لا ريب فيه ان لانسكي قد استطاع خلال المدة التي انقضت على اقامته « السياحية » في اسرائيل ان يستقطب العديد من القوى واصحاب النفوذ الى جانبه ، فضلا عن التذكير بما له من « أياد مالية بيضاء » على الصناديق القومية اليهودية .

لننتقل من لانسكي الى قضية ليبسكي ، التي شغلت السلطات القضائية الفرنسية طيلة الشهور الماضية ، وانتهت باحراج المسؤولين الاسرائيليين وحملهم على تسليم الرجل المطلوب الى سلطات بلاده .

ليبسكي يقتفي الاثر

ما ان شعر كلود ليبسكي — وهو المدير المالي لشركة عقارية فرنسية تدعى بـ "Patrimonie Foncier" — بأن القضاء الفرنسي على وشك اصدار مذكرة توقيف بحقه ، حتى بادر الى الاختفاء لكي يتبين للسلطات الباحثة عنه أن الهارب قد التجأ الى اسرائيل منذ ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٧١ . والمعروف ان التهمة الموجهة ضد كلود ليبسكي تتعلق بالاحتيال واساءة الامانة . كما يستفاد من التحقيقات التي تابعت صحيفة « لوموند » نشرها منذ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧١ وحتى اواخر شهر آذار (مارس) ١٩٧٢ ، بأن الشركة العقارية التي يدير اعمالها المالية كلود ليبسكي ليست سوى واحدة بين مجموعة من الشركات التي تمارس مختلف الاعمال والنشاطات وتخضع كلها لادارة الرجل الهارب من وجه العدالة . والشركة ذاتها — كما كشفت التحقيقات — مسؤولة عن اختلاسات مالية تصل الى حدود الملايين وتلحق الضرر بما لا يقل عن ٨ آلاف شخص من المكتتبين في اسهمها . ثم أخذت القضية تتسع وتتشعب حتى بلغ نطاق الفضيحة حدودا تفوق التصور .

وتبين في معرض المراجعة لنشاطات ليبسكي وصفقاته المالية — على حد قول « لوموند » — انه ابتاع كميات كبيرة من مخلفات الجيش الفرنسي بعد حرب الجزائر لكي يقوم ببيعها الى كل من الجمهورية العربية المتحدة والاردن وليبيا وسوريا ويوغوسلافيا والارجنتين او البرتغال(١٥) لكن الامر الذي يعنينا من زاوية هذه المقالة يتعلق بكيفية اقدام ليبسكي على الاستفادة بدوره من القوانين الاسرائيلية التي تفسح المجال أمام يهود العالم للحصول على الجنسية والتملص من الملاحقات القضائية في الخارج . فقد التجأ ليبسكي الى أحد أصدقائه الاسرائيليين في عسقلان ، حيث يملك مضيفه معملا لصنع الكراسي . وفي ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧١ ادلى بتصريح الى صحيفة « هآرتس » زاعما فيه بانه على اقتناع لوقوعه ضحية العداء للسامية(١٦) . أما السبب الذي حدا به الى اتهام السلطات القضائية التي تلاحقه بجرائم الاحتيال المالي وسوء الامانة فلا يعدو كونه محاولة للاستنجاد بقانون العودة تحت ستار الزعم بان الملاحقة تنم عن العداء لانتمائه اليهودي وبذلك يتسنى له طلب الجنسية الاسرائيلية والتمتع بالحماية والاقامة الدائمة . كما أنه يستطيع الاحتماء بالقانون الاسرائيلي الذي ينص على ما يلي : « لا يمكن تسليم اي شخص (لسلطات بلاده) متى توافرت اسباب وجيهة تحمل على الاعتقاد بانه سوف يحاكم على آرائه أو بسبب انتمائه العرقي أو الديني »(١٧) .

وعندما احس المدافعون عن ليبسكي بسخف الذريعة التي لجأ اليها ، اذ اتهم السلطات الفرنسية بملاحقته على صعيد العداء للسامية ، عمدوا الى التخفيف من هذه اللهجة واتهام الصحف بتحريف التصريحات وتفسيرها على محمل الخطأ . كما بادر ليبسكي الى الاعلان بقوله : « أنا لا اعتقد بأن البوليس الفرنسي يحمل العداء للسامية » . وانجهت الانظار الى الاستعانة بمواد قانون المهاجرين الجدد ، طمعا بالحيلولة دون تطبيق المقاييس الدينية الصارمة على كلود ليبسكي بغية التأكد من يهوديته وفقا للتعريف الرسمي .

لقد زعمت السلطات الاسرائيلية ، مثلا ، ان مذكرة التوقيف الصادرة بحق ليبسكي في فرنسا تحمل تاريخ ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٧١ ، وان الرجل وصل الى اسرائيل في ٢٩ منه ، قبل ان يتم تبليغها الامر عن طريق الانتربول . وحين تأكد للمحامين الذين تولوا الدفاع عن ليبسكي مغبة الادعاء بأن موكلهم هو ضحية الاضطهاد القائم على معاداة السامية ، وان السلطات الفرنسية جادة في ابرام اتفاقية تبادل المجرمين مع اسرائيل لكي تضمن الشروط الكفيلة بتسليمه الى القضاء ، عمدوا بدورهم الى الاستنجاد بقانون المهاجرين الجدد لتأمين حصول الرجل الملاحق قضائيا ، بعد ان التحقت به عائلته ، على الجنسية الاسرائيلية . ثم كان مثول ليبسكي في الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١ أمام قاضي التحقيق الاسرائيلي في مدينة عسقلان ، لكي يطلب الهارب من وجه العدالة رفع الحظر عن مغادرته الاراضي الاسرائيلية . بينما صدر التأكيد في اليوم نفسه عن وزير الداخلية الاسرائيلي بأن ليبسكي طلب اعتباره من فئة المهاجرين الجدد وتطبيق مفعول القانون عليه وعلى زوجته واولادهما الثلاثة . لكن اشتداد المطالبة الفرنسية ادى الى حمل القاضي في عسقلان على اطلاق سراح ليبسكي لقاء كفالة مالية بقيمة ٢٥ الف ليرة اسرائيلية ، والاحتفاظ بجواز سفره لدى المحكمة بانتظار دفع الكفالة(١٨) . فاستجواب ليبسكي تم بناء على طلب السلطات القضائية الفرنسية ، والرجل الملاحق خرج من قاعة المحكمة ، كما دخلها : سائحا .

وفي العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١ وافق البرلمان الفرنسي على معاهدة تبادل المجرمين التي بقيت معلقة منذ عام ١٩٦٠ ، بعد أن ردتها لجنة تابعة لمجلس الشيوخ . بينما أعلن ليبسكي في مقابلة اذاعية بثها راديو اسرائيل بتاريخ ١٩٧١/١١/٩ بانه كان دوما على استعداد للمثول أمام قاضي التحقيق شرط اطلاق سراحه ، بعكس ما هي عليه الحال في فرنسا . ولدى سؤاله عما ينوي فعله اذا ما جرى ابرام اتفاقية تبادل المجرمين بين فرنسا واسرائيل ، أجاب كلود ليبسكي بقوله : « سوف نرى ، لكنني آمل على أية حال في امكانية البقاء داخل اسرائيل »(١٩) . ثم راح المدافعون عن ليبسكي يبدون استغرابهم لهذا التصميم من جانب الحكومة الفرنسية على التعجيل في ابرام الاتفاقية والتقدم بطلب استرداد موكلهم . وحاول أحد المحامين الاسرائيليين الايحاء بوجود دوافع سياسية وراء الاصرار على استرداد ليبسكي مهما كان الثمن . فأدلى بتصريح الى صحيفة « هآرتس » مؤكدا فيه ان ملاحقة الرجل تتم لعوامل سياسية اكثر منها لاسباب تتسم بطابع الاحتيال المالي(٢٠) . واتضح للاوساط المعنية بملاحقة القضية ان المسألة لن تنتهي عند حد ابرام الاتفاقية ، والتقدم من الحكومة الاسرائيلية بطلب الاسترداد . بينما بادر أصحاب الاطلاع الى القول بأن الاتفاقية تنطوي على مفعول رجعي ، حتى ولو استحصل ليبسكي على الجنسية الاسرائيلية . وفي الرابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧١ أبرقت السلطات القضائية الفرنسية الى قيادة الشرطة في اسرائيل عن طريق الانتربول تطالبها بتوقيف « السائح » كلود ليبسكي على سبيل الاحتياط ، بانتظار وصول ملف استرداده من جديد .

ثم قررت محكمة الصلح في تل ابيب ، بتاريخ ٧١/١١/١٦ ، ترك ليبسكي يتمتع بحرية

مشروطة ، لقاء كفالة مالية قدرها ٧٥ الف ليرة اسرائيلية . فصادرت منه جواز السفر ، وطلبت منه اثبات وجوده مرة كل يومين لدى أقرب مركز للشرطة . بينما كان ليبسكي يرفض دوما الاجابة عن الاسئلة المطروحة عليه ، متذرعا بانه يفعل ذلك طالما انه يجهل محتوى الملف المتعلق بقضيته . وفي تلك الاثناء تبين ان والد ليبسكي ، موريس ، قد لحق به الى اسرائيل . واكتشف المشرفون على ملاحقة الفضيحة قضائيـا بأن الاب يشغل مسؤوليات في شركتين من الشركات التابعة في رأسمالها الى كلود ليبسكي . فهو يشرف على « مؤسسات ليبسكي » عبر شركة تابعة للاسرة وتقوم على تعاطي تجارة المـواد المعدنية المستعملة ، ولا سيمـا شراء مخلفـات الجيش الفرنسي غداة انتهاء حرب الجزائر . وهذه الشركة يديرها ابنه كلود . كما هناك شركة اخرى مغفلة ، انشئت عام ١٩٦٥ برأسمال صاحبه كلود ليبسكي ، لبيع مواد البناء ومواقع الاشغال العامة(٢١) .

الماطلة وكسب الوقت

لجأ كلود ليبسكي بمساعدة محاميه في اسرائيل الى حيلة أخرى لاحباط طلب استرداده من جانب السلطات القضائية الفرنسية . فتقدم من محكمة العدل العليا باسرائيل طالبا تقديمه للمحاكمة أمام محكمة اسرائيلية قبل اتخاذ قرار بتسليمه الى القضاء الفرنسي . لكن المحكمة العليا رفضت هذا الطلب في ١٣ شباط (فبراير) ١٩٧٢ ، وأشارت الى كون قرارات التسليم هي من صلاحية وزير العدل الاسرائيلي . فهو الذي يستطيع ارسال ملف القضية الى محكمة محلية مرفقا بطلب الاسترداد . واتخاذ القرار يرجع الى مثل هذه المحكمة بالذات . بينما يستطيـع ليبسكي ان يستأنف قضيته أمام محكمة العـدل العليا .

هذا من جهة . ومن جهة ثانية ، بادرت الجمعية الاسرائيلية لمكافحي النازية الى اتهام المحامي الفرنسي الذي يدافع عن ليبسكي بالتعاون مع النازيين خـلال الحرب العالمية الثانية ومع حكومة فيشي . كمـا اتهمته بالعمل في حقـل الدعاية المناوئة للسامية ، وتأليف كتاب عن اليهود بعنوان « الوضع العام والخاص لليهود في فرنسا » ، يؤيد فيه تطبيق القوانين النازية ضد اليهود في فرنسا . وطـالبت الشرطة الاسرائيلية باعتقال المحامي الفرنسي لدى وصوله الى اسرائيل واحالته الى القضاء(٢٢) . مما أدى الى تخلي المحامي عن القيام بمهمة الدفاع عن موكله ، واعلانه ان القرار الذي اتخذه بالتخلي هو في مصلحة كلود ليبسكي . وهكذا تولى القضية عدد من المحامين الاسرائيليين .

لكن الضغوط الفرنسية وافتضاح أمر القضية على صفحات الجرائد في كافة انحاء العالم حالت بدورها دون المضي في الارجاء والتسويف والماطلة . ففي صبيحة السابع عشر من شباط (فبراير) ١٩٧٢ أمرت محكمة تل ابيب باعتقال كلود ليبسكي واعطته مهلة ٢٤ ساعة لاستئناف دعواه أمام محكمة العدل العليا . وجاء هذا القرار نظرا لجلسة المحكمة التي سوف تخصص للنظـر في طلب الاسترداد من جـانب الحكومة الفرنسية ، ولئلا يستفيد ليبسكي من اطلاق سراحه للاختفاء والفرار . كما رفض القاضي استئناف محامي ليبسكي بالامتناع عن توقيفه بناء على وعد قطعه بعدم مغادرة البلاد . وابلغ ليبسكي ان باستطاعته اختصار الاجراءات لو اقدم على الرجوع الى فرنسا بملء ارادته .

بيد ان المحامي الاسرائيلي أخبر المحكمة ان موكله لا ينوي التهرب من المثول أمام القانون أو الهرب من البلاد . فهو على استعداد للوقوف أمام قوس المحكمة ، لكنه يخشى الا ينال محاكمة عـادلة في فرنسا ، بسبب « اعتبـارات سياسية ودينية وعرقية »(٢٣) . ورد النائب العام على مطالعة محامي الدفاع برفض الادعاء القائـل ان ملاحقة ليبسكي في فرنسا تتم لاسباب سياسية ، مؤكدا ان الرجل لم يأت الى اسرائيـل بحثا عن اللجوء السياسي . ثم اعلن أخيرا بأن كلود ليبسكي ليس مطلوبا في فرنسا لكونه يهوديا ، بل

هو ملاحق بتهمة الاحتيال على ٨٥٠٠ شخص بملايين الفرنكات(٢٤).

ثم عمدت محكمة العدل العليا في اسرائيل الى رفض الاستئناف الذي تقدم به محـامي ليبسكي ، واخبرته بأن وزير العدل يملك الصلاحيات الكاملة لاصدار امر بمثوله امام محكمة محلية لمتابعة استجوابات الاسترداد . ولم تأخذ بادعاء المحامي القائل ان موكله يعتبر اصله اليهودي بمثابة الدافع الرئيسي وراء ملاحقة العدالة الفرنسية له . فقد درج كلود ليبسكي على « اشتراط » المعاملة بالمثل لكي يبادر عـلى الفور الى مواجهة القضاء الفرنسي .

وفي مطلع آذار (مارس) ١٩٧٢ بعث ليبسكي برسالة الى لجنة الدفاع عن قضيته يقول فيها « ان الوضع الاقتصادي للشركة العقارية — المالية لحظـة قيام الحملة الصحفية المغرضة التي وجهتهـا وزارة المالية الفرنسية ، كـان على خير ما يرام » . كما تعهد بتسديد الاموال الموضوعة تحت عهدته بالامانة « فرنكا فرنكا » . بينما سارع محـامي ليبسكي الى ابلاغ المحكمة الاسرائيلية ان موكله يرغب في اتمام معاملات استرداده لكي يعود الى فرنسا « من تلقاء نفسه » ويواجه التحقيقات ، بقصد انقاذ سمعتـه وتنظيف سجله ! وصرح المحامي اياه أمـام بعض المراسلين بأن التخلي عن معارضة الاسترداد لا يعني مطلقا اقرار المتهم بذنبه . فالسيد ليبسكي ينوي تقديـم الدليل على براءته في فرنسا . فما كان من وزير العـدل الاسرائيلي الا التوقيع على طلب التسليم بتاريخ ٢١ آذار (مارس) ١٩٧٢ ، بانتظار وصول بعثة الشرطة القضائية الفرنسية التي رافقت ليبسكي الى باريس صبيحة يـوم الخميس في ٢٣ آذار (مارس) من هذا العام . ومن عجيب المفارقات ان كلود ليبسكي لم يشأ الا الاعلان عقب استرداده من جانب السلطات الفرنسية « بانني لم أهرب مطلقا من وجه العدالة في بلادي » .

ان القضيتين المعروضتين فيما تقدم هما على سبيل المثـال فحسب . اذ سبقتهما عدة قضايا مماثلة طيلة السنوات التي انقضت في ظل قانون العودة الاسرائيلي . فالسلطات المسؤولة في اسرائيل قد تعترف أحيانا بوجود ثغرات في « سياج » القانون المذكور ، لكن هذا الاعتراف لا يمنع من تشجيع كـل شخص ينتمي الى الدين اليهودي في شتى انحاء العالم لحمله على الاستفادة من الامتيازات التي يمنحه اياها قانون العودة الصهيوني . خاصة متى كان الشخص الذي ينشد الاحتماء في كنف هذا القانون قادمـا من الولايات المتحدة الاميركية ، ويحمل معه ما فيه الكفاية من الاموال ، بالاضافة الى ماضيه — ليس في ميدان الجريمة — بل في حقل الاريحية اليهودية والتبرع دونما تردد لكافة الصناديق الصهيونية .

فالاشخـاص الهاربون من وجه العدالة في بلادهـم ، متى كانوا ينتمون الى الـديانة اليهودية ، باستطاعتهم اللجوء الى حمى ذلك القانون والاستفادة من امتيازاته . ومن الصعب رد طلبهم بناء على الاعتبـارات التي يشترطها القانون في بنوده وينيطها بوزير الداخلية . فرئيس عصابات الاجرام المنظم ، وصاحب الصيت الذائـع ، ماير لانسكي — مثلا — يتحين الفرصة للتقـدم بدعوى ضد صحيفة ما متهما اياها بتحقيره والتشهير باسمه ، لا لشيء الا لكي يستحصل على « براءة » من المحكمة في اسرائيل تؤهله للتبجح بسجله النظيف وتفتح أمامه ابواب الجنسية والاقامة الدائمة . وكلود ليبسكي يحاول الضرب علـى وتر العداء للسامية ، زاعما ان السلطـات القضائية الفرنسية تلاحقه لاسباب تتعلق بأصله اليهودي ، وليس لمحاكمته على ما ارتكبه من الاحتيال وسوء الامانة بأموال الغير ، والبالغ عددهم ٨٥٠٠ مكتتب .

فالقضيتان الوارد ذكرهما أعـلاه — قضية لانسكي وقضية ليبسكي — تظهران احدى النواحي البارزة في قانون العودة الاسرائيلي ، كما في قانون المهاجرين الجدد (١٩٧٠)

الذي جرى التصديق عليه كجزء من التعديــلات التي ادخلها الكنيست على تعريف من هو اليهودي . وفي الحالتين ــ حالة التشدد والتمسك بالتعريف الشرعي للتهود ، وحالة التساهل مع المهاجرين الجدد لتشجيعهم على القدوم والاستفادة من « امتيازات » قانون العودة ــ نجد المجال رحبا أمام الفارين من وجه العدالـــة وأصحاب السوابق في عالم الاجرام ، متى كانوا ينتمون الى الدين اليهودي ــ سواء كـــان انتماؤهم لجهة الاب أو الام . ولا سيما متى بادر هؤلاء الى الاعراب عن ولائهم الصهيوني بواسطة السخاء في التبرع واستطاعوا استقطـــاب بعض القوى السياسية في اسرائيـــل الى جـــانبهم . فالمعروف ، مثلا ان « عصبة الدفاع اليهودية » التي يتزعمها الحاخام مئير كاهانا تقيم علاقات تعاون وثيق مع الهيئات الايطالية ــ الاميركية التابعة لعصابة المافيا . وتتلقى عصبة كاهانا في اسرائيل الدعم السياسي من جانب حركة « حيروت » وكتلة « غاحل » . مما يتيح المجال لتأمين عملية استقطاب على الصعيد الداخلي الاسرائيلي وضمان الحماية الكافية لكل شخص يستنجد بقانون العودة على غرار ما فعله ماير لانسكي . والسلطات الاسرائيلية لا تقع في الاحراج الا عندما تصر الدولة التي تلاحق الشخص على المطالبة بتسليمـــه واستردأده ــ رغم كـــل العراقيـــل والاساليب التي يبرع فيها المحـــامون الاسرائيليون ايما براعة بغية المماطلة والتأجيل ، طمعا في العثور على ثغرة يمكن النفاذ منها الى حمى « العودة » وظل « الجنسية » الممنوحة بصورة آلية لكل يهودي يعرب عن رغبته في اعتبار نفسه مهاجرا عائدا !

---

١ ــ انظر المصدر التالي

H. E. Baker, *Legal System of Israel*, (Israel University Press, 1968), p. 39.

٢ ــ راجع صحيفة **لوموند** ١٩٧١/١١/٦ .

٣ ــ الملحق الاسبوعي لصحيفة **الجيروسالم بوست** (رقم ٤٩٠) ، ١٩٧٠/٣/١٦ .

٤ ــ مجلة **تايم** الاميركية ، ٢٢ اب (اغسطس)، ١٩٦٩ ، ص ١٦ .

٥ ــ انظر **دير شبيغل** ، عدد ٤٢ ، ١٠/١١/ ١٩٧١ ، ص ١٦١ .

٦ ــ نقلا عن **المصدر نفسه** .

٧ ــ راجـــع **الانترناشيونال هيرالـــد تريبيون** ، ١٩٧٢/٦/٨ . و **سود دويتشه تزايتونغ** (العدد ١٢٩) والتاريخ نفسه .

٨ ــ انظـــر المقالة التي بعث بها من اسرائيل مراسل صحيفـــة **سود دويتشه تزايتونغ** تحت عنوان « زعيم المافيا لا يهدأ له بال » ، بتاريخ ٢٥/٢٦ ايلول (سبتمبر) ، ١٩٧١ (العـــدد ٢٣٠) .

٩ ــ دير شبيغل ، **المصدر نفسه** .

١٠ ــ راجـــع صحيفة **سود دويتشه تزايتونغ** ، العدد ١٦٧ ، في ١٤ تموز (يوليو) ، ١٩٧١ .

١١ ــ **المصدر نفسه** ، ٦ ايلـــول (سبتمبر) ، ١٩٧١ ــ العدد ٢١٣ .

١٢ ــ دير شبيغل ، **المصدر السابق** .

١٣ ــ **سود دويتشه تزايتونـــغ** ، ٢٥ ــ ٩/٢٦/ ١٩٧١ .

١٤ ــ دير شبيغل ، **المصدر السابق** .

١٥ ــ انظر **لوموند** ، ١٩٧١/١١/٢٦ .

١٦ ــ **المصدر نفسه** ، ١٩٧١/١٠/١٩ .

١٧ ــ **المصدر نفسه** ، ١٩٧١/١١/١٢ .

١٨ ــ **لوموند** ، ٧١/١١/٦ .

١٩ ــ **المصدر نفسه** ، ٧١/١١/١١ .

٢٠ ــ **المصدر نفسه** ، ٧١/١١/١٢ .

٢١ ــ **المصدر نفسه** ، ٧١/١٢/١٨ ، ص ١٥ .

٢٢ ــ **المصدر نفسه** ، ١٩٧٢/٢/١٥ ، ص ١٨ .

٢٣ ــ **المصدر نفسه** ، ٢٠ ــ ٧٢/٢/٢١ ، ص ١٤ . وانظر ايضا **الدايلي ستار** ، ١٩ شباط (فبراير) ١٩٧٢ .

٢٤ ــ الدايلي ستار ، **المصدر السابق** .

القرارات الاميركية الرئيسية الثلاثة حول فلسطين

مايكل جانسن

هناك ثلاثة قرارات لاربعة رؤساء اميركيين مختلفين شكلت الاساس لاكثر من خمسين عاما من سياسة الولايات المتحدة تجاه المسألة الفلسطينية ، وقد وضعت هذه القرارات الرئيسية ، التي اتخذها ثلاثة رؤساء ديمقراطيين « متحررين » ورئيس جمهوري محافظ، اسس الدولة الصهيونية في فلسطين ، وحددت علاقتها باليهود المقيمين في مختلف انحاء العالم ، ومكنت الدولة الصهيونية من امتلاك السطوة العسكرية في الشرق الاوسط .

وقد اتخذ الرئيس ولسون عام ١٩١٧ اول واهم هذه القرارات الاميركية الرئاسيةالثلاثة . ولا يذكر ودرو ولسون بسبب عمله هذا تجـاه القضية الفلسطينية بل يعتبر ، عـلى العكس ، محررا عظيما للشعوب . فلقد كان ولسون هو الذي ارسى مبدأ حق تقريـر المصير لشعوب الامبراطوريتين المنحلتين : النمساوية ـ الهنجارية ، والعثمانية . ومع ذلك وافق ولسون فيما بعد على الاقتراح القائل بان قاعدة حق تقرير المصير يجب ان لا تطبق على فلسطين . لقد قرر ولسون أن فلسطين يجب ان تعطى لليهود الذين كـانوا يشكلون آنذاك اقل من عشرة بالمائة فقط من مجموع سكان البلاد .

واتخذ القرار الثاني فرانكلين دي. روزفلت عندما حث الحكومة البريطانية عام ١٩٤٣ ـ وهي السلطة في فلسطين آنذاك ـ على ان تسمح بدخول مائة الف لاجىء يهودي الى فلسطين . وكان هؤلاء هم مائة الف اللاجىء انفسهم الذين سبق ان رفض دخولهم الى الولايات المتحدة . وبهذا القرار ربط روزفلت مصير اللاجئين اليهود الاوروبيين بمستقبل فلسطين مصادقا بذلك على الادعاء الصهيوني بأن يحتفظ بفلسطين كملجأ نهائي ليهود العالم .

واتخذ الرئيسان هاري اس. ترومان ودوايت دي. ايزنهاور القـرار الرئيسي الثالث . وعلى عكس الاعتقاد الشائع ، لم يكن ترومان هو الرئيس الاميركي الذي لعب الـدور الاهم في تأسيس اسرائيل ، كما لم يكن قراره الرئيسي هو الاعتراف الفوري باسرائيل ، الدولة الصهيونية المعلنة ذاتيا في ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨ . لقد كان قرار ترومان الحقيقي هو ان الولايات المتحدة لن ترسل قوات اميركية مسلحة لمساعدة الصهيونيين على انشاء دولتهم في فلسطين ، وهو قرار لا يعتبر مؤيدا للصهيونية على الاطلاق . ولكن هـذا لم يكن الا القسم الاول من القرار الاميركي الرئاسي الثالث . فقد اتخذ الرئيس ايزنهاور ، وهو المعتبر « صديق » العرب ، بسبب موقفه المعـارض للعدوان الانجلو فرنسي ـ الاسرائيلي على مصر عام ١٩٥٦ ، القسم الثاني المؤيـد للصهيونية من القرار . فـان الرئيس ايزنهاور ، بسبب عدم مقدرته على تزويد اسرائيل بضمانة لعون عسكري مباشر في حالة هجوم عربي على الدولة الصهيونية ، قرر عام ١٩٥٧ أن يزود اسرائيل بمعونة عسكرية لها وزنها بقصد اقامة عدم توازن استراتيجي في القوات لصالح اسرائيـل في الشرق الاوسط . ان مثل هذا التفوق العسكري الاسرائيلي المسبق سوف يوفر الحاجة لعون اميركي عسكري مباشر ، ويجنب الرئيس الاميركي الصعوبـات التي قد يخلقها

التدخل ، وخاصة منذ التجربة الفيتنامية .

لقد انبثق اول التزام للولايات المتحدة بالقضية الصهيونيـة في فلسطين اثر اتفاق بـين شخصيات اميركية مهمة شعرت ان السياسة يجب ان تبنى على تقدير موضوعي لمصالح بلادهم في الشرق الاوسط وبين صهيونيين (نافذين) قدموا رغبتهم في الدولة اليهوديـة على مصالح الولايات المتحدة. وهذه كانت القضية التي كان مسؤولا عنها ودرو ولسون. في حالة القرار الثاني الذي اتخذه فرانكلين روزفلت ، لم يكن هناك خلاف بين الصهيونيين والقوميين الاميركيين . ولكن الصهيونيين حصلوا في هذه المرة على ما يريدون ايضـا . واما في حالة القرار الثالث الذي اتخذه على خطوتين كل من ترومان وايزنهاور ، فيمكن القول ان الحالة السياسية الاميركية الداخلية (الرغبة في عدم التورط بحروب اجنبية) ، والالتزامات الرئاسية السابقة نحو الصهيونيـين هي التي قادت الى سياسة التفـوق العسكري الاسرائيلي .

وسوف تتفحص هذه الدراسة تلك القرارات ونتائجها . كما ستحاول ان توضح مفاهيم خاطئة شائعة للالتزام الاميركي باسرائيل — وخـاصة فيما يتعلق بالانحيـاز الاميركي الاولي للبرنامج الصهيوني في فلسطين ، والدور الحاكم لودرو ولسون الذي دشن خط الرؤساء روزفلت وترومان وايزنهاور ، بالاضافـة الى السياسة الاميركية الكلية التي نجمت عن ذلك ازاء فلسطين .

ولسون وسياسة الوطن القومي اليهودي

لقد انبثق القرار الحاسم للرئيس ولسون عن الاذعان للقوى المحيطة به لا عن ايمـان راسخ بخط معين للعمل . وحدث ذلك لان ولسون لم يكن في الواقع قائدا ديناميكيا لانه لم يكن مهتما بالعالم العربي ، ولانه كان ملتزما التزاما شخصيا عميقا تجـاه صهيوني فعال . لقد كان قرار ولسون الرئيسي يتألف في الحقيقة من ثلاثة قرارات اقل اهميـة كانت جميعها نتيجة لاذعان الرئيس المسالم .

كان قرار ولسون الاول ان يحدد كونه هو نفسه — والولايات المتحدة — في جانب تصريح الحكومة البريطانية الذي يحبذ اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين . ولم يتخذ الرئيس هذا القرار الا بعد تدخل احد مستشاريه الحميمين ، عضو المحكمة العليا القاضي لويس برانديس الذي كان صهيونيا متألقـا(١). ولقد كانت مساهمة برانديس بـدور فعال في الحركة الصهيونية مواكبة زمنيا لالتزامه بالحملة الرئاسية لولسون في العـام ١٩١٢ . وهكذا ارتبط برانديس ، الذي كان آنئذ محاميا لامعا و « ليبراليا » ومصلحـا اجتماعيا معروفا ، بولسون لزمن طويل بعد ذلك . يقول كريستوفر سايكس في كتابه « دراستان في الفضيلة »(٢) ان « ولسون كان مرتبطا مع برانديس بروابط وثيقة جدا لان مستقبـل الرئيس في اولى ايامه كان ، كما يروى ، قد انقذ على يدي برانديس وذلك بتلافي ظهوره بثوب محامـاة ممزق . وقد قيـل ان ولسون كان يعتبر برانديس الرجـل المدين لـه بمستقبله » . وقوبل تعيين ولسون لبرانديس كعضو في حكومته الاولى بمعارضة شديدة الى الحد الذي اضطر الرئيس الى سحب اسمه ، ولكن ولسون نجح عام ١٩١٦ في تأمين مقعد لبرانديس في المحكمة العليا ، وكان برانديس آنذاك هو رئيس اتحاد الصهيونيين الاميركيين .

في هذه الفترة كان الصهيونيون البريطانيون بزعامة وايزمن يتطلعون الى الولايات المتحدة والتجمع اليهودي الاميركي طلبا للمساعدة. فقد كان وايزمن قد حصل على رد فعل ايجابي للاقتراح المطروح آنذاك امام الحكومة البريطانيـة بصدد تعاون صهيوني — انجليزي يستهدف اقامة وطن يهودي في فلسطين . وكان وايزمن يحتاج الى دعم سيادة بريطانيه على فلسطين ليصبح البرنامج الصهيوني ممكن التنفيذ . كان وايزمن على اتصال مستمر

مع براندیس الذي كان يمكن باعتقاده ، وثبتت صحة ذلك فيما بعد ، ان يكون ذا عون عظيم في الولايات المتحدة.ولم تكن وزارة الخارجية ووزيرها يؤيدان البرنامج الصهيوني، كما ان الرئيس رغم كونه « متعاطفا بشكل مبهم » لم يظهر « اي ميــل لفرض نفسه » لجانب مصلحة الصهيونيين . في الثامن من نيسان (ابريــل) ١٩١٧ كتب وايزمن الى براندیس طالبا منه ومـــن « سادة اخرين متصلين بالحكومة تصريحـــا مؤيدا لفلسطين يهودية تحت حماية بريطانيه » الامر الذي « سوف يقوي قبضتنا الى حد بعيد »(٣). وفي الثاني والعشرين من نيسان (ابريل) ١٩١٧ وصل وزير الخارجية البريطانية آرثر بلفور الى واشنطن . وخلال هذه الزيارة اجرى بلفور عدة محادثات مع براندیس اثرت على تقوية قرار بلفور بمساعدة الصهيونيين من جهة ، وعلى اقناع براندیس بتنمية التحالف الصهيوني ــ الانجليزي في اميركـــه من جهة اخرى . وفي اوائل ايـــار (مـــايو) ابرق براندیس الى لندن بموافقته على البرنامج الصهيوني ، وتباحث مـــع الرئيس ولسون مرتين حول الموضوع خلال ذلك الشهر ، كما قدم نسخة من البرنامـــج الصهيوني الى وزارة الخارجية .

ولكن اهتمام ولسون بالصهيونية لم يكن قويا بما يكفي لدفعه لاتخاذ اية خطوات رغم ان ذلك لم يعن اطلاقا انه كان لا مباليا سواء ازاء مصـــير التجمع اليهودي الفلسطيني او تجاه التأثير الصهيوني بين اليهود الاميركيين . فقد كانت الولايـــات المتحدة قد ورطت نفسها في الواقع بشكل مباشر ، ولو عن بعد ، في حيـــاة الطائفة اليهودية الفلسطينية الصغيرة عام ١٩١٤ حين طلب اليهود الفلسطينيون الحماية من المسؤولين القنصليـــين الاميركيين لان الولايات المتحدة غير مشتركة في الحرب . ثم عممت المساعدات السياسية لولسون ، خلال معركة الرئاسة لعام ١٩١٦ ، اهتمـــام الرئيس بالطائفـــة اليهوديـــة الفلسطينية فوجه ، لاول مرة ، نداء الى الناخبين اليهود على اساس اهتمامهم المفترض بالصهيونية . وفي هذه الانتخابات ادخل ما يسمى بـ « التصويت اليهودي » في السياسات الاميركية الداخلية(٤).

في ايلول (سبتمبر) ١٩١٧ استطلعت الحكومة البريطانية وجهات نظر ولسون بخصوص نية بريطانيه في ايجـــاد تعاون انجلو ــ صهيوني في فلسطين . وكان رد فعـــل ولسون باردا . ويعتقد ليونارد شتاين ، وهو المرجع الاساسي حـــول تصريح بلفور ، انه من المحتمل ان براندیس لم يعلم بالتوجه الاول لولسون . ولكن من المؤكد انه لم يكن مطلعا فقط بل وضالعا ايضا في التوجه الثاني من قبل الحكومة البريطانية لولسون بعد بضعة اسابيع . في هذه المرة لم يـــذهب براندیس الى ولسون بل الى اقـــرب مستشاريه ، الكولونيل هاوس ، وهو الذي كان ولسون قد تباحث معه قبـــل ان يرسل رده علـــى الاستمزاج البريطاني الاول . وقد كان رد فعل ولسون ، الذي ارسل بواسطة هاوس ، ايجابيا هذه المرة . ومن الواضح ان براندیس قد اقنع هاوس ان تغييرا حقيقيا بالنسبة للاقتراح البريطاني سيكون عملاً لصالـــح الرئيس سياسيا . ومن المثـــير ان نلاحظ ان الرئيس لم يقم بالاتصال الثاني مباشرة بل تم من خلال مستشاره . ولعل ولسون لم يكن سعيدا تماما بوجهات نظره الثانية . ويعتقد ليونارد شتاين ان رد الفعل الثاني لولسون كان حاسما الى درجة انه كان من المحتمل ان لا يصدر تصريح بلفور اطلاقا فيما لو حافظ ولسون على عدائه الاصلي للاقتراح .

في الثاني من نوفمبر ١٩١٧ كتب بلفور الى لورد روتشيلـــد الذي كان يمثـــل الاتحـــاد الصهيوني البريطاني قائلا ان الحكومة البريطانية تنظر « بعين العطف الى اقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين » واعدا ان الحكومة البريطانية سوف « تبذل افضل جهودها لتسهيل هذه الغاية » . هذه الرسالة التي اصبحت تعرف بـ « تصريح بلفور » كانت حجر الاساس للدولة الصهيونية في فلسطين . وبناء على ذلك فان ودرو ولسون

يتحمل قسطا من المسؤولية في تأسيس هذه الدولة . كذلك فان دور برانديس يجب ان لا ينسى . ان الطريقة التي خاطب بها الصهيونيون البريطانيون القاضي برانديس ، وهو الذي لم يكن مقتنعا تماما بصواب التحالف الانجلو ــ صهيوني ، اكتسبته الى جانب وجهة نظرهم ، واقنعته باستخدام نفوذه لدى ولسون . ولقد كانت تلك الطريقة مقياسا لحسن تصرفهم وصواب محاكمتهم للامور . ومنذ ذلك الوقت اصبح برانديس « رجل الظل » الذي كان يبقي ولسون امينا لخطه الموالي للصهيونية حيثما كان الرئيس يبدو مترددا .

لم يتخذ ولسون اثر موافقته على تصريح بلفور في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٧ اية خطوة لجعل دعمه للبرنامج الصهيوني علنيا . وعلى المرء ان يتذكر ان التصريح كان في الواقع تفاهما عقد سرا بين الحكومة البريطانية والاتحاد الصهيوني الانجليزي (نشر الصهيونيون نص التصريح في ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧) . وقد وردت اول اشارة الى ان بريطانيه قد حصلت على موافقة الحلفاء على التصريح في البرلمان البريطاني في ١٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٧ وذلك حين سئل وزير الخارجية « فيما اذا كان هناك اتفاق [على سياسة التصريح] » بحيث يكون الحلفاء « عاملين معا في القضية » . وقد اجاب بلفور « اجل ، اننا نعمل باتفاق كامل »(٦). ومع ذلك ، اعتبر الصهيونيون الاميركيون احجام ولسون عن ان يعلن وتوقفه علنا مع المشروع الانجلو ــ صهيوني مخيبا جدا للامال حقا ، وضغطوا عليه من اجل تصريح علني .

في ١٣ كانون الاول (ديسمبر) وجه وزير الخارجية لانسنغ رسالة الى الرئيس طالبا منه أن يتحاشى اي التزام علني نحو الصهيونيين . وقد كانت حجة وزير الخارجية ان الولايات المتحدة « لم تكن في حرب مع تركيه ، ولذا يجب ان تتحاشى اي مظهر للاستيلاء على قطعة من تلك الامبراطورية بالقوة . . . وليس اليهود ، بأية حال ، متحدين في رغبتهم لاعادة بناء جنسهم كشعب مستقل » ، كما ان « كثيرا من المذاهب المسيحية والافراد » سوف يعارضون اقامة وطن يهودي في فلسطين . واختتم لانسنغ رسالته بقوله « لست اظن اننا يجب ان نعطي اي سبب اخر غير السبب الاول ذلك انه يشكل اساسا كافيا لرفض اعلان اية سياسة بخصوص التخلي النهائي عن فلسطين » . واستنادا الى لانسنغ فان الرئيس اجاب على رسالته شفهيا في اجتماع لمجلس الوزراء في ١٤ كانون الاول (ديسمبر) « قائلا انه مضطر ضد ارادته تماما لان يوافقني . ولكنه قال ان لديه انطباعا بانه قد وافق على التصريح البريطاني بخصوص اعادة فلسطين الى اليهود »(٧). ويستطيع المرء ان يستنتج من هذا الحوار ان التزام ولسون بالصهيونيين لم يكن راسخا او قلبيا ، اذ انه كان مستعدا للموافقة مع لانسنغ على نصيحته بخصوص مسألة التصريح العلني حول القضية . وقد يكون ولسون قد عمل فعلا بنصيحة لانسنغ بهذا الشأن اذ انه أخر التصريح العلني بتأييده للبرنامج الانجلو ــ صهيوني مدة تسعة اشهر اخرى . وفي هذه الفترة من الموافقة السرية والصمت العلني اعلن ولسون مبادئه الشهيرة التي قامت عليها التسوية السلمية .

لقد صنع الرئيس شهرته الدولية في ٨ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ حين قدم الى الكونجرس الاميركي « نقاطه الاربع عشرة » التي رفض فيها حق الحصول على المكاسب الاقليمية ، وادان عقد الاتفاقات السرية ، واعلن مبدأ حق تقرير المصير للشعوب . وقد نصت النقطة ١٢ بالتحديد على ان « القوميات غير التركية » للامبراطورية العثمانية يجب ان يضمن لها « فرصة كاملة غير منقوصة للتطور المستقل » . وفي خطاب موجه في ١١ كانون الثاني (يناير) قال الرئيس ان « الشعوب والاراضي لا يجوز ان تنتقل بالمقايضة من سيادة لاخرى كما لو كانت مجرد اثاث او احجار في لعبة حتى لو كانت اللعبة الكبيرة لتوازن القوى التي اصبحت شائنة الان . . بل على العكس ، فان كل

تسوية اقليمية تتعلق بالحرب يجب ان تكون لمصلحة السكان ذوي العلاقة وفائدتهم »(٨). وفي خطاب ثالث في « ماونت فرنون » في ٤ شباط (فبراير) ، نادى ولسون بتسوية سلمية مبنية على « القبول الحر للشعوب ذات العلاقة » مطبقا هذه القاعدة من مبدأ حق تقرير المصير على الشرق الاوسط كما على اوروبه(٩). وقد وعد الحلفاء بجعل مبادىء ولسون اساس التسوية .

ويصف ارنولد توينبي مكانة ولسون في اوروبه في ذلك الوقت بانها « مذهلة » ، واعتبرها « مقياسا لامال عالمنا »(١٠). اما شعوب العالم العربي التي كانت تنتظر مكافأتها الموعودة بالاستقلال مقابل القتال بجانب البريطانيين ضد تركيه ، فقد كانت تطفح حماسا وأملا بقدر شعوب اوروبه تماما . وهكذا سيطرت شخصية رئيس المدرسة السابق على مؤتمر باريس للسلام الذي افتتح في كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ . لقد كان لكلماته صدى عالمي وقوة ادبية وسياسية مهمة ، كما كان له تأثير كامن عظيم على نتائج محادثات باريس . ويمكن أن يثار ان ولسون ربما شعر ان التجاوب الحماسي العام مع نقاطه الاربع عشرة سيجرف جانبا المطالب القومية الضيقة للقوى الاوروبية المتحالفة في المناطق السابقة من الامبراطورية العثمانية ، كما سيجرف كذلك المطالب المتضاربة للرعايا العثمانيين السابقين بدول مستقلة . ولكن كلا من الحلفاء والوطنيين استغل تلك السنة ما بين اعلان النقاط الاربع عشرة وافتتاح مؤتمر السلام للبحث عن سند لادعاءاتهم ومطالبهم . ومن الحقائق الثابتة ان ولسون قد اذعن لتحركات مجموعتين من الاقليات هما : الارمن واليهود . وهكذا لعب ودرو ولسون ، وهو الاب الروحي لتقرير المصير ، دورا اساسيا في انكار حق تقرير المصير بالنسبة لغالبية الشعوب في المناطق التي ادعاها الارمن واليهود الصهيونيون .

لقد كان ولسون مهتما شخصيا بالقضية الارمنية ، وقليل من الاقناع كان كافيا لكسب دعمه لانشاء ارمينيا مستقلة في مساحة واسعة من الاناضول . اما الصهيونيون فقد كانت امامهم مهمة اصعب . وكانت هذه المهمة بالنسبة لهم مهمة عاجلة ذلك انهم ارادوا القبض على زمام الحالة قبل انعقاد مؤتمر السلام . ويبدو انهم قد ذعروا بشكل خاص من التقارير القائلة بان هيأة اميركية يهودية غير صهيونية قد اقامها هنري مورجنتو سفير الولايات المتحدة السابق الى تركيه ويهود اميركيون نافذون آخرون . وقد سعى ستيفان وايز رئيس اللجنة الاميركية المؤقتة للشؤون الصهيونية العامة (سابقا اتحاد الصهيونيين الاميركيين الذي خلف برانديس الذي استقال اثر تعيينه في المحكمة العليا واصبح رئيسا فخريا) الى استباق امتلاك المعادين للصهيونية ، وقام بتوجهات مبكرة نحو الرئيس . في ٢٧ اب (اغسطس) ١٩١٨ اجتمع وايز الى ولسون وتبع اللقاء تبادل رسائل . وقد حاول وايز ان يطمئن ولسون مذكرا اياه بان برنامج بازل الصهيوني « لا يتضمن اية اشارة الى طبيعة السيادة التي قد يوكل لها الامر » . وقال « ان تصريح بلفور كان بدوره صامتا حول هذه الناحية ، وهو لا يتضمن اي تحد للسيادة الراهنة بل يترك ذلك ليتقرر حول مائدة السلام »(١١). واذا اعتبرنا ان الصهيونيين قد شعروا انهم كانوا يملكون وعدا ثابتا بأرض في فلسطين ، فان وايز كان يحاول طمأنة ولسون بان شيئا لا يقف في طريق المناقشة والعمل بحرية في مؤتمر السلام لبحث مسألة السيادة لا مسألة تقرير المصير على الاقل ، ذلك ان تصريح بلفور واذعان ولسون كانا قد انهيا هذه القضية .

وقد رد ولسون على وايز برسالة بتاريخ ٣٠ اب (اغسطس) تحاشى فيها بدقة فائقة اي التزام رسمي لحكومة الولايات المتحدة بالبرنامج الانجلو ـ صهيوني ، ولكنه اعطى الصهيونيين تأكيدات عن « رضاه » الشخصي بشأن « تقدم الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة وبلدان الحلفاء منذ تصريح السيد بلفور بالنيابة عن الحكومة

البريطانية »(١٢). وفي ليلة مؤتمر السلام نفسها في كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ ، سعى الصهيونيون للحصول على تأكيدات نهائية من ولسون . وقد استقبل الرئيس وايزمن الذي انصرف من المقابلة مدركا ان الصهيونيين قد حازوا مساندته الشخصية(١٣).

لقد حاول ولسون دوما في تعامله مع القادة الصهيونيين ان يؤكد ان تأييده لقضيتهم كان تأييدا شخصيا بحتا ، وان مثل هذا الدعم لا يلزم حكومة الولايات المتحدة ، باي شكل من الاشكال ، بسياسة معينة . وكان موقف ولسون هذا ساذجا ومنافقا بآن واحد . لربما كان ولسون قادرا على اجراء هذا التمييز بين ودرو ولسون كمدير مدرسة سابق و ودرو ولسون كرئيس تنفيذي للولايات المتحدة فيما لو كان قد رفض ان يعطي في ايلول (سبتمبر) — تشرين الاول (اكتوبر) اي رأي سواء ضد او مع تصريح بلفور . عندئذ كان بامكانه ان يبلغ الصهيونيين بضمير مرتاح ، « اني اهبكم تأييدي الشخصي بما يمثله هذا التأييد » . ولكن ولسون اختار ان يربط نفسه والولايات المتحدة بتصريح بلفور . وقد كان تصرفه هذا تصرفا شخصيا لا سياسيا . كان الصهيونيون واثقين ان عطف ولسون الشخصي يمكن ان يعني مكاسب سياسية افضل لقضيتهم ، ولهذا تتبعوا هذا الرجل المفلات بلا هوادة . ولم يثبت خطؤهم .

وجاءت موافقة ولسون على تصريح بلفور ، ورسالته الى وايز ، وتأكيداته لوايزمن ، والتي كانت قد اصبحت علنية في الوقت الذي افتتح فيه مؤتمر السلام ، لترفع من مستوى التزام رئيس الولايات المتحدة بالمشروع الانجلو — صهيوني في فلسطين . لقد كان مجرد قبوله بالتصريح خرقا لمبادئه الخاصة يناقض ادانته للمعاهدات السرية وينفي مبدأه بان التسوية في الشرق الاوسط سوف تبنى «على القبول الحر للشعوب المعنية». وبالزامه نفسه والولايات المتحدة بالصهيونيين حتى قبل انعقاد مؤتمر السلام ، فان ولسون قد ابعد فلسطين في الواقع عن دائرة البحث ، واكد ان الشعب الفلسطيني لن يعطى مطلقا حق تقرير المصير .

ولسون وسياسة فلسطين كدولة يهودية

حدث اذعان ولسون الثاني في مؤتمر السلام في باريس . فقد اثيرت مسألة التسوية التركية حالما وصل الوفد الاميركي الى باريس ، ذلك ان اغنام الحرب كانت موجودة في آسيا الغربية لا في اوروبه . وقد افتتح المؤتمر يوم ١٨ كانون الثاني (يناير) . وفي ٢١ منه قام مستشارو الرئيس في قسم الاستخبارات الملحق بالبعثة الاميركية الى مفاوضات السلام بتسليم الرئيس سلسلة من التوصيات . واقترحت التوصيات ، فيما يختص بفلسطين ، اقامة دولة منفصلة باشراف الانتداب البريطاني ، واوصت « بان يدعى اليهود للعودة الى فلسطين للاستقرار هناك على ان يضمن لهم المؤتمر بهذا الصدد كل مساعدة ممكنة تكون منسجمة مع حماية الحقوق الشخصية (وخاصة الدينية) وحقوق الملكية للسكان غير اليهود ، وان يؤكد لهم فضلا عن ذلك ان سياسة عصبة الامم ستكون الاعتراف بفلسطين كدولة يهودية حالما تصبح دولة يهودية في الواقع »(١٤). وقد اصبحت هذه التوصية هي برنامج عمل الوفد الاميركي والرئيس ولسون . وبصدد المسألة الفلسطينية اعطت المذكرة الصهيونيين كل ما ارادوا — واكثر بكثير . لقد كانت توصية صريحة باعطاء فلسطين هدية للصهيونيين بلا ادنى اعتبار لحق شعب فلسطين بموجب مبادىء ولسون نفسه حول تقرير المصير ، والتي كان الحلفاء قد قبلوا بها وشكلت التوصية بان يقدم « المؤتمر » للصهيونيين « كل مساعدة ممكنة » في الواقع اقتراحا بان يوسع التعاون الانجلو — صهيوني في فلسطين ليصبح تعاونا دوليا بين الحلفاء . ثم جاءت اكثر هذه التوصيات دلالة وهي القائلة بان فلسطين يجب ان يعترف بها « كدولة يهودية حالما تصبح دولة يهودية في الواقع » . وقد تجاوزت هذه التوصية تصريح بلفور

بناحيتين : الاولى ، انها اعطت الصهيونيين فلسطين بأكملها بينما ترك تصريح بلفور الالتزام الاقليمي لليهود غامضا ــ « بان يبنى في فلسطين وطن قومي للشعب اليهودي » وثانيا ، اعـادت المذكرة تعريف الهدف المحدد للصهيونية في فلسطين فحولته من خلق « وطن قومي » الى بناء « دولة يهودية » . لقد جعلت هذه المذكرة امرا ملموسا ما كان تصريح بلفور قد تركه ، غامضا عن عمد .

وكانت الحكومة البريطانية قد اصرت على ان صياغة تصريح بلفور يجب ان تبقى غامضة لان البريطانيين لم يشأوا ان يلهبوا الراي العام العربي ضدهم ، ولم يشأ البريطانيون ان يعدوا بشيء قـد لا يكونون قادرين او مهيأين لتنفيـذه في المدى البعيد . لقد كان على البريطانيين ان يفكروا دوما بمركزهم ومصالحهـم في الشرق الاوسط ، بينما لـم تكن الولايات المتحدة مضطرة لذلك ، وكان بامكانها بالنتيجة ان تقترح سياسات بعيدة الاثر ومكروهة ، سياسات موجهة ضد شعب الشرق الاوسط . ويبدو ان بلفور نفسه كان مستعدا لقبول الصيغة الصهيونية التي طالبت بـ « اعـادة بناء فلسطين كوطن قومي لليهود »(١٥). بينما آثر بقية الوزراء الصياغة الاقل تجسيمـا والتي جرى تبنيهـا في النهاية ، وقد اعادت الحكومة البريطانية ، حتى الى ما بعد منتصف عام ١٩٢٣ ، تأكيد نيتها بخصوص مسائل المنطقة و « السيادة » على الوطن القومي اليهودي . وقد قال وزير المستعمرات آنذاك ، دوق ديفونشاير ، مخاطبا مجلس اللوردات « لقد ذكر المرة تلو الاخرى ان النية كانت منذ البداية ان يقام لليهود وطن قومي ، ولكن اتخذ كل احتياط للحيلولة دون تحوله ، بأية حال ، الى دولة يهودية تحت سيطرة يهودية »(١٦).

وهذه المذكرة وثيقة ذات دلالة فهي اشارة الى المواقف والتوقعات التي تم التوصل اليها في البعثة الاميركية لمفاوضات السلام . فلم تكن هذه التوصيات فجة فحسب لان المؤتمر لم يكن قد قطع شوطا حين وضعت ، ولكنها كانت ايضا متحيزة بقوة ضد تقرير المؤتمر الموضوعي لقضية فلسطين . وقد اظهرت المذكرة ان الاميركيين لم يفكروا ضمن نطاق تشجيع خلق وطن قومي يهودي في فلسطين ، بل ضمن اطار سياسة تفضل « اعـادة بناء » (حسب التعبيـر الصهيوني) فلسطين كدولة يهودية . ولان ولسون قبـل هذه المذكرة كبرنامج عمل وفده ، فان نمط التفكير الكامن وراء التوصيات قد استمر وما زال هو اساس سياسة الولايات المتحدة اليوم . ولكن هذه لم تكن الا الحادثة الاولى التي سمح فيها ولسون لمثل ذلك التفسير المهم بان يمر بهدوء .

فقد خضع ولسون مرة ثانية مبيحا للصهيونيين ان يعطوا تفسيرهم الجديد الخـاص ، الاكثر موافقة ، لتصريح بلفور . في ٣ اذار (مارس) ١٩١٩ استقبل ولسون ، بينما كان في زيارة قصيرة للولايات المتحدة ، ممثلي المؤتمر اليهودي الاميركي المؤيد للصهيونية ، الحاخام وايز ولويس مارشال . وعلى الرغم من ان الرئيس لم يصدر اي تصريح رسمي عن اللقاء ، فقد سمح بان ينقل عن لسانه قوله « انني مقتنع بان الامم المتحالفة متفقة ، بالرضا الكامـل من حكومتنا وشعبنا ، بانه سوف توضـع في فلسطين اسس كمنولث يهودي »(١٧). وفي ١٣ نيسان (ابريـل) استوضح وزيـر الخارجية لانسنغ الرئيس ولسون فيما اذا كان كلامه قد اقتبس بدقة . ورد ولسون على لانسنغ في ١٦ نيسان (ابريل) انه لم يستخدم « ايا من الكلمات المنقولة رغم انه استخدم جوهرها » . وقال ولسون ايضا ان التصريح المنسوب اليه قد ذهب ، حسب كلماته ، « ابعد قليلا مما كان ينوي » . لقد عنى (ان نعزز قبولنا المعلن بموقف الحكومة البريطانية بخصوص مستقبل فلسطين »(١٨). اي ، بكلمات اخرى ، اعادة التصديق عـلى تصريح بلفور . ويؤكـد ستاين ان هذه الحادثة « توحي بان ولسون لم يكن يعطي المسألة الصهيونية تفكيـرا جديا . والتفسير الواضح هو انه بحكم مشاغله السابقة بقضايا اخرى كانت تهمـه اكثر ، كان مستعدا لان يسمح بأن توضع الكلمات في فمه »(١٩). ومن الجائز ان ولسون

لم يستعمل كلمات « كمونولث يهودي » التي كانت خاصة بالصهيونيين ، بل انه صاغ تصريحه مستخدما كلمات مثل « دولة يهودية » ، او « الوطن القومي اليهودي » التي كانت شائعة بين الاميركيين في باريس . وأيا كان قول ولسون ، فلا شك الزم نفسه نهائيا بالموقف الصهيوني ولم ينكر او يبذل أي جهد لتصحيح الرواية الصهيونية لرسالة تأييده . وقد شكل هذا استسلاما كليا للصهيونيين . لقد فقد ولسون سيطرته على السياسة الاميركية حول المسألة الفلسطينية كنتيجة لخضوعه الثاني . ومن هنا فصاعدا أصبحت المبادرة مع أولئك الاميركيين الذين كانوا يفسرون المحاولة الصهيونية في فلسطين على انها اقامة دولة يهودية او خلق كمنولث يهودي . وقد أصبحت هذه هي السياسة الاميركية الرسمية لتحويل فلسطين الى دولة يهودية .

ولسون ومسالة تقرير المصير للفلسطينيين

ابان مؤتمر السلام أثير الموضوع المحرج المتعلق بتقرير المصير للشعب الفلسطيني ، وتعرض ولسون لضغوط مؤيدة ومعادية للصهيونية على حد سواء . وكان المعادون للصهيونية يؤلفون فريقا ذا نفوذ من الارساليات ورجال الاعمال الاميركيين الذين يملكون خبرة طويلة في الشرق الاوسط . وقد شعر هؤلاء الرجال ان التحالف الانجلو ــ صهيوني لم يكن من المصلحة الاميركية القومية اذ أن هذا التحالف سوف يجد معارضة قوية في النهاية من قبل شعب الشرق الاوسط .

في ٣٠ كانون الثاني (يناير) أقر المؤتمر ، من حيث المبدأ ، ان قوى معينة من الحلفاء (تحديدا بريطانيه وفرنسه) يجب أن تعطى الانتداب في المناطق العثمانية السابقة للسير بشعوب هذه المناطق نحو الاستقلال الكامل . وقد سعت بريطانيه بالطبع لان تعين الدولة المنتدبة على فلسطين . ولكن في ٢٠ آذار (مارس) اقترح ولسون ان تعين هيئة مشتركة من الحلفاء لاكتشاف رأي شعوب المناطق ذات العلاقة . واقترح ولسون ان تتألف هذه الهيئة من ممثلين عن بريطانيه وفرنسه وايطاليه والولايات المتحدة ، ولكن حين وصل الامر الى تعيين المفوضين فعلا لم يتقيد بذلك سوى الولايات المتحدة . واحساسا بخطر احتمال فقدان كل ما وعدوا به لم يضع الصهيونيون أي وقت . في ٢٦ آذار (مارس) زار البروفسور فيليكس فرانكفورتر من كلية القانون في هارفارد الكولونيل هاوس في باريس ممثلا للمنظمة الصهيونية . وكان هدف هذه الزيارة الحصول على تأكيدات هاوس حول موقف ولسون . كتب هاوس : « يعتقد اليهود ان بعثة الحلفاء المشتركة التي ستسافر الى سوريه تخدع يهود فلسطين » . وقد اعطى هاوس فرانكفورتر تأكيدات مفادها انه « ليس هناك مثل هذه النية » ، مشيرا الى ان تصريح بلفور لم يزل اساس السياسة الاميركية . وخرج فرانكفورتر من لقائه مع هاوس بالانطباع ان البعثة لم تكن سوى مجرد طريقة لتأجيل القرار(٢٠). وبعد تأخير كبير ومناقشة طويلة قرر ولسون ارسال الممثلين الاميركيين هنري تشرشل كينج وتشارلز كرين الى الشرق الاوسط . وكانت دوافع ولسون من وراء ارسال البعثة كما يلي : أولا ، تأجيل القرار النهائي حول الانتداب على فلسطين بتعيين بعثة استطلاع ، وهو تكتيك نموذجي مستخدم من قبل السياسيين . ثانيا ، الانحناء لرغبات الاميركيين النافذين المعادين للصهيونية . وثالثا ، اعطاء نفسه الرضا بأنه على الاقل قد استشار رأي شعب فلسطين .

زارت بعثة كينج ــ كرين فلسطين بين ١٠ و٢٥ حزيران (يونيو) ١٩١٩ ، ثم تابعت زيارتها الى سوريه وتركيه. وكتبت البعثة تقريرها ابان آخر اسبوع من آب (اغسطس)، وفي ٣٠ آب ابرقت بخلاصة للنتائج التي توصلت لها . وبصدد فلسطين أوصت برقية كرين بأن فلسطين يجب أن لا تنفصل عن سوريه (كما كان يريد البريطانيون

والصهيونيون) ، وبأن « البرنامج الصهيوني المتطرف » يجب ان « يعدل جديا » ، وبأن على اميركه ان تقبل الانتداب على سوريه الموحدة ، وبأن يعطى الانتداب لبريطانيه في حالة الرفض الاميركي(٢١) . وقد كان المثلان في تقريرهما متشددين حول مسألة « تعديل البرنامج الصهيوني المتطرف بشأن فلسطين » والذي يتضمن « الهجرة غير المحدودة لليهود » بقصد « جعل فلسطين دولة يهودية متميزة » . وأكد المفوضان ان « وطنا قوميا للشعب اليهودي ليس معادلا لجعل فلسطين دولة يهودية ، كما لا يمكن تحقيق خلق مثل هذه الدولة اليهودية بغير افدح تعد على الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة ... » . ومن خلال لقاءات البعثة مع المثلين اليهود ، تكررت بجلاء حقيقة ان الصهيونيين كانوا يتطلعون عمليا الى اخلاء كامل للسكان الراهنين غير اليهود في فلسطين وذلك بأشكال الشراء المتنوعة . وقد كان المفوضان واضحين تمام الوضوح بصدد رأي تسعة اعشار سكان فلسطين ، « السكان غير اليهود » ، الذين قال التقرير انهم كانوا « معادين بكل حزم للبرنامج الصهيوني »(٢٢) .

لقد أشعرت برقية كرين الرئيس ولسون مقدما بمحتوى توصيات البعثة . ولكن الرئيس لم يقرأ التقرير مطلقا ، وظلت هذه الوثيقة ، لاكثر من ثلاث سنوات ، مرمية في ملفات وزارة الخارجية في واشنطن . وقد شعر كل من كينج وكرين ان المعارضة الصهيونية ربما كانت عاملا في رفض ولسون إعلان التقرير(٢٣) . ومرة أخرى ترجمت عواطف ولسون الشخصية (أو متطلباته السياسية) الى سياسة أميركية قومية . ولكن يبدو انه لم تكن لدى ولسون النية لان ينظر جديا الى توصيات بعثته . ان مقابلة هاوس — فرانكفورتر التي حدثت قبل ثلاثة أشهر من ارسال البعثة الى فلسطين ، وقبل خمسة أشهر من اكتمال تقرير كينج — كرين ، قد أكدت بدقة ان نوايا الرئيس كانت : أن يتابع سياسته المؤيدة للصهيونية دون أي اعتبار للنتائج التي توصلت لها بعثة كينج — كرين . ومن الجلي أن ولسون لم يعتبر قط ان قاعدة تقرير المصير يجب أن تطبق على فلسطين . وهكذا كانت المقابلات التي نظمتها بعثة كينج — كرين في فلسطين وسوريه مجرد مسرحية أو مشهد للتأثير على « الوطنيين » في فلسطين ، ولتهدئة المعادين للصهيونية .

ودرو ولسون ، المحرر الاعظم أم المخادع الاكبر ؟

يمتلك الرئيس ولسون سمعة بأنه المثالي الاكبر بين الرؤساء الاميركيين . ولا شك ان ولسون لم يظهر بصدد المسألة الفلسطينية اية مثالية . فلم تكن لديه الرغبة في ان يطبق مبدأه في تقرير المصير على الشعب الفلسطيني ، وكان راضيا بأن يبيح لبريطانيه والصهيونيين ممارسة سياسة صممت بوضوح لحرمان الفلسطينيين من وطنهم بأكمله — فضلا عن حرمانهم حق تقرير المصير . وقد رأينا ، بالاضافة لذلك ، ان قرارات ولسون حول القضية الفلسطينية كانت مبنية على علاقته الشخصية مع برانديس (والصهيونيين) فضلا عن حقائق السياسات العملية في الولايات المتحدة . لقد كان طموح ولسون الاكبر أن يلعب دورا عالميا . وبحكم كونه « ليبراليا » فقد وجد فكرة أن يصبح حامي الاقليات والشعوب المضطهدة فكرة ذات جاذبية خاصة . وقد قادت هذه الاهتمامات الرئيس لان يورط نفسه في شؤون أقليتين شرق — أوسطيتين : الارمن في اناضول تركيه ، واليهود في فلسطين . وقد جر تورط ولسون في شؤون هاتين الطائفتين الى كارثة للشرق الاوسط : ففي حالة الارمن ، فان الاكثرية التركية في الاناضول ذبحت وطردت هؤلاء السكان من المنطقة ذات العلاقة ، وفي حالة فلسطين طرد الصهيونيون الفلسطينيين من موطنهم . وهكذا في الحالة الاولى انتهى الشعب الذي آثره ولسون الى كارثة ، بينما في الحالة الثانية سيق الشعب الذي نسيه ، الشعب الفلسطيني ، الى المنفى .

في أوروبه طبقت قاعدة تقرير المصير بنجاح على الرعايا السابقين للامبراطورية

النمساوية ـ الهنغارية والامبراطورية العثمانية . وأعيد رسم حدود أوروبه بحيث ان ٣ ٪ فقط من شعوب أوروبه أصبحت تعيش تحت حكم اجنبي . ولكن العكس كان هو الصحيح في الشرق الاوسط . لقد أعيد رسم الحدود ولكن لم تعط شعوب العالم العربي حق تقرير المصير بحيث يمكن القول انه حين وضعت التسوية في باريس كان كل الشعب العربي ، باستثناء ٣ ٪ ، تحت السيطرة الاجنبية . وفي الواقع فان مصير الرعايا العرب السابقين للامبراطورية العثمانية القديمة كان قد قرر حتى قبل اجتماع مؤتمر السلام : لقد انكر عليهم ابداء أي رأي بمصيرهم وقسمت أراضيهم واحتلتها فرنسه وبريطانيه العظمى . ولكن اكثر نواحي تلك المناقشات التي جرت في باريس اثارة للدهشة كان استمرار الرئيس ولسون الشخصي في ربط نفسه مع ذلك الاتفاق « السري » الاخر ، تصريح بلفور ، والمشروع الانجلو ـ صهيوني في فلسطين .

ومن الممكن ان يجادل دفاعا عن ولسون انه لم يكن مطلعا على حقائق المسألة الفلسطينية : ولكن لم تكن الحال كذلك . فالحجج ضد البرنامج الصهيوني كان قد قدمها مباشرة وبشكل كامل الى الرئيس شخص في وزن روبرت لانسنغ وزير الخارجية ، وهنري مورجنتو وهوارد بليس رئيس الكلية السورية البروتستانتية (جامعة بيروت الاميركية فيما بعد) . واذا كان الرئيس يمكن ان يدعي الجهل في خريف ١٩١٧ حين اعطى موافقته على تصريح بلفور ، فلم يكن لديه مثل هذا العذر في يناير ١٩١٩ حين انتهك كل مبادئه لدعم الصهيونيين في فلسطين .

كذلك يمكن أن يقال دفاعا عن ولسون انه ، ببساطة، أذعن للامر الواقع المتمثل بالاحتلال البريطاني والفرنسي للمشرق وما بين النهرين . وقد قيل أن الحلفاء لم يكن أمامهم الخيار الا أن يسمحوا باقامة الدولة البولونية والتشيكية ودول أوروبية قومية أخرى لان القوى المتحالفة لم تكن في وضع يمكنها من رفض طلب أي من قوميات الامبراطوريات المقطعة الاوصال . اما في الشرق الاوسط ، فان القوات الفرنسية والبريطانية كانت في المنطقة منذ مدة ، ولم تكن شعوب المنطقة بقادرة على مقاومة الاحتلال . وبناء عليه يمكن ان يجادل بأن اعلان ولسون المثالي للنقاط الاربع عشرة لم يكن ليحدث أي تأثير على الوضع السياسي الذي ساد اثر الحرب العالمية الاولى ، وان التسوية السلمية بأكملها قد أملتها « السياسة الواقعية » اكثر مما أملتها المبادىء . فلكي نقبل مثل هذه الحجج ، علينا ان نضع جانبا واقع مكانة ولسون العظيمة بعد الحرب ، والذعر الواضح الذي أحدثه اعلان الرئيس عن تأليف بعثة الحلفاء المشتركة في المعسكر الصهيوني (والبريطاني والفرنسي) . وان تعليق الكولونيل هاوس على زيارة فرانكفورتر له بعد اسبوع واحد من اقتراح ولسون لتشكيل البعثة « ان اليهود يعتقدون ان بعثة الحلفاء المشتركة ... ستخدع يهود فلسطين » يظهر ما الذي كان يخشى الصهيونيون ان يفعله هذا الرئيس الاميركي المثالي ذو المبادىء السامية . ولم يكن الصهيونيون بحاجة لان يتلقوا في الواقع ، فقد كان ولسون مدينا بالفضل لبرانديس الصهيوني العميق الالتزام .

وهكذا ، بالنسبة للعرب ، لم تكن مبادىء ولسون الصداحة سوى كلام كثير ، كما جلبت سياسته الواقعية بالنسبة للفلسطينيين الكوارث . ان ولسون لم يكن في الواقع « المحرر الاعظم » بل « المخادع الاكبر » .

روزفلت وفلسطين كملجأ نهائي لليهود

كان اثر تورط ولسون مع الصهيونيين ان ترك الولايات المتحدة ملتزمة بالاعتراف بفلسطين كدولة يهودية حالما تصبح دولة يهودية في الواقع . كان على ولسون ان يتصرف ازاء المطلب الصهيوني من أجل الارض . وكانت الخطوة المنطقية الثانية ان يفي بحاجة الصهيونيين الى البشر للاستيطان في تلك الارض لكي يكون بامكانها أن تصبح « دولة

يهودية في الواقع » . وفي هذا الصدد كان الرئيس فرانكلين روزفلت مجبرا علــى ان يستسلم لمتطلبات الصهيونيين .

لقد نجم تورط روزفلت مع الصهيونيين عن عطفه الكبير علــى الضحايا اليهود نتيجة سياسات هتلر العنصرية . وبعد خمس سنوات من صعود هتلر الى السلطة في المانيه ، وقبل عدة سنوات من اكتشاف العالم للنتائج الرهيبة لسياسات هتلر ، اتخذ روزفلت المبادرة في الدعوة الى مؤتمر للبحث في كيفية التصرف ازاء مشكلة اضطهاد اليهــود في المانيه . ومتأثرا الى حد معين بــ «دعاية جودا ماجنيس (عميد الجامعة العبرية)»(٢٤)، دعا روزفلت الى مؤتمر في حزيران (يونيو) ١٩٣٨ يحضره ممثلون مــن الاميركيتين وأوروبه ، باستثناء المانيه . وكان روزفلت آنذاك قليل الاطلاع علــى الصراع حــول فلسطين . وقد قدر ان المؤتمر « سوف يبين للعالم غير الاوروبي الحاجة الماسة للمهاجرة وبشكل رئيسي الى فلسطين »(٢٥). اما الحكومة البريطانية التي كانت منهمكة آنذاك بقمع تمرد فلسطيني عربي ، فقد أقلقها التفكير في كيف يمكن لمثل هذا المؤتمر ان يؤثر في أحداث فلسطين . وقد جادل البريطانيون بأن المؤتمر يجب ان يهتم بجميع اللاجئين لا يهود المانيه فقط ، وان الدعوة يجب ان توجه فقط لممثلــي البلدان المستعدة لقبــول مهاجرين ، وان فلسطين يجب ان لا تناقش . وقد وافق روزفلت على الشروط البريطانية وعقد المؤتمر في ايفيان في فرنسه يوم ٦ تموز (يوليو) ١٩٣٨ . . وباقتراح هذا المؤتمر انعش روزفلت آمال أقليات مضطهدة عديدة سعت للخلاص من الاضطهاد في مواطنها وللوصول الى الابواب المفتوحة للبلدان التي يمكنهم اللجوء اليها . وقد بدا ، لوهلة ، ان الولايات المتحدة اخذت تخرج من عزلتها وتهتم بمشاكل العالم . ولكن اتضح بعيد افتتاح المؤتمر ان معظم الممثلين الحاضرين بمن فيهم ممثلو الولايات المتحدة ، لم يكونوا مفوضين بتقديم أية مقترحات اساسية . وكان ممثل جمهورية الدومينيكان الشخص الوحيد الذي عرض ، بالنيابة عن حكومته ، دخول عدد كبير من اللاجئين . وقد وافقت بلاده على استقبال ١٠٠،٠٠٠ لاجىء يهودي من المانيه والنمسه . اما الدول الثلاثون الاخرى التي كانت تحضر مؤتمر ايفيان فلم تقترح سوى ان تضيف بضعة آلاف أخرى الى كوتا الهجرة لديها .

ونظر الصهيونيون الى مؤتمر ايفيان بــ « لا مبالاة عدائية » . لقد كان من الممكن ان يتحمسوا فيما لو بني المؤتمر على اقتراح روزفلت الاصلــي . ولكن ، حسب تعبيــر كريستوفر سايكس ، « الحقيقة أن ما جرت محاولته في ايفيان لم يكن متجانسا مع روح الصهيونية وليس السبب بخاف . فلو قامت الدول الواحدة والثلاثون بواجبها واظهرت حسن ضيافتها « لليهود الالمان المضطهدين » ، لكان التأكيد علــى الوطن القومــي والحماس المتصاعد للصهيونية قد خفا »(٢٦). لقد كانت حرية المهاجرة لليهود آخر شيء يريده الصهيونيون . فقد كان من المهم لمشروعهم ان لا تسمح أمم العالم الديمقراطية بالهجرة اليهودية . فالصهيونية تستند الى حاجــة اليهود المزعومة الى ملجأ . وكان البرنامج الصهيوني يتطلب ان تكون فلسطين البلد الوحيد الذي يستطيع اليهــود ان يذهبوا اليه ويشعروا فيه بالترحاب : « فاذا كانت سياستهم تستلزم العذاب فذلك هو الثمن الذي يتوجب دفعه لانقاذ الروح اليهودية »(٢٧).

وعلى الرغم من أن روزفلت كان قد تأثر بالصهيونيين في دعوته للمؤتمر ، الا انه لا يبدو ان الصهيونيين بذلوا اية محاولة للتأثير على نتيجة اجتماع ايفيان . ولم تكن بهم حاجة لذلك . فقد تسببت المصالح الانانية ، وليس الضغط الخارجــي ، للدول الحاضرة ، باستثناء جمهورية الدومينيكان بفشل مؤتمر ايفيان . ولم يذهب هذا الدرس هدرا بالنسبة لروزفلت الذي وضع كل وزنه وراء اجتماع ثان عقد في برمودا في ابريل ١٩٤٣ . « لقد كان واحدا من اكبر آمال روزفلت ان ترفع حواجز الهجرة ضد اليهود من قبل جميع الامم

بما فيها الولايات المتحدة »(٢٨)*

كذلك كان الرئيس قد اصبح أكثر تعقدا في تعامله مع المشكلة الشائكة للهجرة اليهودية الى فلسطين : « فقد بدا من غير الامانة بالنسبة لروزفلت ان يطلب من العرب امتيازات للهجرة بينما كانت الولايات المتحدة تحتفظ بقوانينها الانتقائية الصارمة للكوتا »(٢٩). وكان هذا طبعا مناقضا على خط مستقيم للادعاء الصهيوني بأن الحل الوحيد للتشرد اليهودي يكمن في خلق دولة يهودية في فلسطين . كان روزفلت يعرف جيدا متطلبات الصهيونيين ولكن كان على الرئيس روزفلت عام ١٩٤٣ ، بخلاف ولسون عام ١٩١٧ و١٩١٩ ، ان يأخذ بعين الاعتبار المصالح الاميركية في الشرق الاوسط . ولم يكن روزفلت ليستطيع ان يؤذي مركز الولايات المتحدة او بريطانيه العظمى في العالم العربي لكون هذه المنطقة مسرحا حربيا للحلفاء . بالاضافة الى ذلك كان قد أصبح للولايات المتحدة مصالح اخرى في الشرق الاوسط عام ١٩٤٣ : نفط ، تجارة ، سياسة ، وجغرافيا استراتيجية . ولم يشأ روزفلت ان يهدد ايا من هذه المصالح بكسب عداء العرب بشأن فلسطين .

لقد كانت مسألة الهجرة اليهودية الى فلسطين وثيقة الارتباط باستقرار الشرق الاوسط وبالمجهود الحربي للحلفاء . وقد جعلت الثورة العربية الفلسطينية الحكومة البريطانية تعدل ، الى حد ما ، برنامجها القائم على البناء التدريجي لاكثرية يهودية في فلسطين بقصد الوصول الى حق تقرير مصير يهودي في ذلك البلد . لقد حدد الاقتراح الاساسي للكتاب الابيض لعام ١٩٣٩ الصادر عن الحكومة البريطانية كوتا مقدارها ٧٥٠٠٠ لاجىء يهودي للسنوات الخمس التالية (كوتا أولية مقدارها ٢٥٠٠٠ لاجىء ثم ١٠٠٠٠ مهاجر يهودي سنويا) . ونص على ان اية هجرة يهودية اضافية بعد ذلك يجب ان تنال موافقة عرب فلسطين . وقد كان تنفيذ مثل هذه السياسة يعني بالنسبة للصهيونيين انه لن يكون بالامكان بناء اية اكثرية يهودية ، وان فلسطين لن تصبح مطلقا «دولة يهودية في الواقع». وقد وافق روزفلت على السياسة البريطانية (وتجسد ذلك في قبولـه لاعادة تفسير بريطانيه للمذكرة قبل مؤتمر ايفيان) ، كما وافق ان سيلا من اللاجئين اليهود في فلسطين سيفرض تسوية نهائية في فلسطين (لقضية تقرير المصير اليهودي) قبل ان يتمكن الحلفاء من الجلوس في مؤتمر السلام وتقرير ما يتوجب عمله .

كان عدم التدخل في القضايا السياسية هو المبدأ الموجه لمؤتمر برمودا . فقد ادعي انه كان للمؤتمر دور انساني بحت يقوم به ، وبناء عليه لم يناقش الممثلون الذين اجتمعوا في برمودا قضية الهجرة اليهودية الى فلسطين ، فهي قضية سياسية جدا حقا .

ولكن نظرا لاهمية الهجرة اليهودية الى فلسطين بالنسبة للصهيونيين ، فان قرار القائدين روزفلت وتشرشل اللذين دعيا للمؤتمر لبحث مسألة اللاجئين اليهود في أوروبه كجزء لا يتجزأ من مشكلة اللاجئين الكلية ، كان قرارا سياسيا ذا أهمية حاسمة . كذلك كان تهديدا رئيسيا للصهيونيين . وهكذا تعرض المؤتمر لنقد مستمر مرير من الدوائر الصهيونية ، كما ان ادارة روزفلت نفسها انقسمت حول القضية .

---

* اتبعت الولايات المتحدة سياسة تقوم على حرية الهجرة من ١٩٢٣ — ١٩٢٤ حين اصدر الكونجرس قوانين هجرة جديدة قيدت الى حد كبير الهجرة ولا سيما بخصوص اليهود والشعوب الملونة . وقد فصلت قوانين الهجرة هذه للحفاظ على التوازن العنصري القائم في الولايات المتحدة عام ١٩٢٣ . آخذين هذه القوانين بعين الاعتبار من المثير ان نلاحظ انعدد التجمع السكاني اليهودي الاميركيارتفع بين ١٩٠٠ و١٩١٤ من١ الى ٣ ملايين ، وبين ١٩١٤ و١٩٢٨ (بعد اربع سنوات من التقييد) الى ٤٫٢ مليون ، وبين ١٩٢٨ و١٩٤٣ الى ٥٫٢ مليون . انظر

Samuel Halperin, *The Political World of American Zionism*, Detroit, 1961, p. 47.

لقد شعر الرئيس بعد مؤتمر برمودا ان مشكلة المهاجرة اليهودية يمكن ان تحل فيما اذا رحبت القوى الكبرى بأعداد مهمة من اللاجئين . وأحس ان الامم الاخرى سوف تحتذي مثال هذه المبادرة الكريمة . ولكن روزفلت عرف ان الكونجرس الاميركي سيكون ضد ان تقدم الولايات المتحدة العرض الاول ، ولهذا أرسل موريس ارنست ، وهو نفســه يهودي ، مبعوثا الى لندن لتأمين موافقة تشرشل بشأن هجرة ١٠٠،٠٠٠ يهودي الى بريطانيه . وقد شعر روزفلت انه قد يكون بامكانه ، اذا وافــق تشرشل ، ان يقنع الكونجرس بأن يصادق على دخول مئة الف آخرين الى الولايات المتحدة . فقد خمن الرئيس ان الكونجرس لا يستطيع التمسك بسياساته التضييقية بصدد الهجرة في وجه النية البريطانية الحسنة نحو اللاجئين اليهود . لقد كافح روزفلت من اجل رفع جميع حواجز الهجرة . وكان يعتقد ان جميع الناس يجب أن يقبلوا بغض النظر عن العنصر واللون والدين . « ولكن حين قرر روزفلت تنفيذ هــذا البرنامج اكتشف ان الصهيونيين كانوا ضده »(٣٠) .

ونجحت مهمة موريس ارنست ، فقد وافق تشرشل على قبول المائة الف ، ولكن روزفلت لم يستطع مجاراة العرض البريطاني واهمل الاقتراح . وقد أرجع ارنست فيما بعد فشل بادرة روزفلت الى الصهيونيين مباشرة : « . . . وبدا بالنسبة لي ان فشل المجموعات اليهودية [الاميركية] القائدة في مساندة برنامج الهجرة هذا بحماس ، ربما قد دفعت الرئيس آنذاك لعدم الضغط للسير قدما بذلك البرنامج »(٣١) . ويجب الافتراض ، على كل حال ، بأن روزفلت نفسه تأثر الى حد كبير بالمعارضة الصهيونية لاقتراحه . ففي هذا الموقف ، توافقت مصالح المشرعين الاميركيين في الكونجرس مع متطلبات الصهيونيين . فكلا الفريقين كان يريد استمرار القيود على الهجرة . ولو ان الصهيونيين اختاروا ، بدلا عن ذلك ، ان يمارسوا تأثيرهم في الكونجرس ، والذي لم يكن ليستهان به ، لمصلحة امتيازات اللاجئين اليهود ، لكان هناك فرصة كبيرة لان يدعم الكونجرس الرئيس . ولكن سياسة الصهيونيين كانت فلسطين أو لا شيء .

ومن الظلم القول ان اذعان روزفلت في مأزق الهجرة شكل « قرارا » بالمعنى الذي شكله اذعان ولسون في تصريح بلفور . فروزفلت انحنى لقوة كبرى ، بينما كان لدى ولسون افكار اخرى اثارها وحركها تدخل صهيوني نافذ . ولكن قبول روزفلت للحالة شكل قرارا لان روزفلت لم يثر بعد ذلك مسألة اصلاح قضية الهجرة في الولايات المتحدة ، ومسألة اتباع سياسة عامة دولية تقوم على الابواب المفتوحة فيما يختص باليهود . وتجسدت هزيمة روزفلت في سياسة فلسطين كملجأ نهائي للشعب اليهودي . وقد كانت هذه سياسة عالمية لا سياسة الولايات المتحدة فحسب ، وظهورها بسبب المصالح الانانية للدول المعنية ، كان ضربة كبرى لمصلحة الصهيونيين . ولا يمكن القول ، مع ذلك ، ان الصهيونيين هم الذين صمموا هذه الضربة بقدر ما انهم ساندوها فقط واستفادوا منها . ومنذ ذلك الوقت وما تلا اصبح بامكان الصهيونيين ان يقولوا ، بصدق ، ان فلسطين كانت هي الملجأ الوحيد لليهود ، المكان الذي يمكن ان يرحب بهم فيه بين ابناء جلدتهم . وقد كانت هذه هي « الرافعة الصهيونية » ضد القيود البريطانية للهجرة في فلسطين . وبالانجرار خطوة اخرى بدافع الصهيونيين (المدعومين من الدول التي كانت ما تزال لا تريد اعدادا كبيرة من المهاجرين اليهود) ، اصبحت تلك هي سياسة « فلسطين هي الملجأ النهائي لليهود » (الذين يمكن ان يتعرضوا للاضطهاد وهم يحتاجون مثل هذا الملجأ ما دام ليس هناك احد آخر يقبل بهم) . فبالنسبة للصهيونيين ومؤيديهم كانت الهجرة الى فلسطين تقدم ، آنذاك ، الحل النهائي « للمشكلة اليهودية » . ولهذا يشكل « قرار » روزفلت او اذعانه واحدا من القرارات الاميركية الرئيسية حول المسألة الفلسطينية .

وتدلل ارقام الهجرة اليهودية على مدى اهمية ذلك بالنسبة للصهيونيين من اجل بنـــاء

دولتهم : فقد كانت الهجرة اليهودية الى فلسطين ادنى بكثير من مستوى رقم ١٠،٠٠٠ سنويا الذي حدد في الكتاب البريطاني الابيض لعام ١٩٣٩ . فقد بلغت ٨،٣٩٨ عام ١٩٤٠ ، و٥،٨٨٦ عام ١٩٤١ ، و٣٧٣٣ عام ١٩٤٢ ، و٨،٥٠٧ عام ١٩٤٣ (وهو عام هزيمة روزفلت) . ولكن عدد المهاجرين ارتفع بشكل ملحوظ الى ١٤،٤٦٤ عام ١٩٤٤ و ١٣،١٢١ عام ١٩٤٥ ، و ١٧،٧٦١ عام ١٩٤٦ ، و ٢١،٥٤٢ عام ١٩٤٧ . ثم ارتفعت الهجرة اليهودية بين ١ كانون الثاني (يناير) و١٤ ايار (مايو) ١٩٤٨ ، وهي الاشهر الاخيرة للانتداب البريطاني ، الى ١٧،١٦٥ ، ثم اصبح الرقم بين ١٥ ايار (مايو) و ٣١ كانون اول (ديسمبر) ١٩٤٨ ، بعد اعلان اسرائيل ، ١٠١،٨٢٨ . وان تدفق المهاجرين مباشرة بعد اقامة الدولة الصهيونية هو دليل على النجاح الذي حققته سياسات وضغوط المهاجرة الصهيونية . فما ان فتحت ابواب فلسطين (بينما ظلت الابواب الاخرى محكمة الاغلاق) حتى تدفق اليهود ، الذين لم يكن ليتقبلهم احد اخر ، الى فلسطين . ولا شك ان ما حدث بعد ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨ قد بدا للصهيونيين كتزكية كاملة لسياستهم ، هذا بينما كان تدفق اليهود بالنسبة للفلسطينيين الذين طردوا من منازلهم يعني استبدالهم الدائم . (وجدير بالذكر ان الوسيط الدولي للامم المتحدة الكونت برنادوت كتب في تقريره في ١٩٤٨/٩/١١ محذرا من مثل هذه النهاية بعد طرد الفلسطينيين ١٩٤٨) .

روزفلت وسياسة فلسطين كدولة يهودية

تجاوزت مجابهة روزفلت مع الصهيونيين قضية الهجرة . فقد كان كذلك تحت ضغط متواصل لتصديق البرنامج السياسي للصهيونيين الاميركيين الذي تمثل « ببرنامج بيلتمور » كما دعي نسبة للمؤتمر الذي اصدر البرنامج وانعقد في ايار (مايو) ١٩٤٢ في فندق بيلتمور بمدينة نيويورك . تقول الفقرة الاساسية من هذه الوثيقة المهمة : « يحث المؤتمر على ان تفتح ابواب فلسطين ، وان تخول الوكالة اليهودية الاشراف على الهجرة الى فلسطين ، وان تزود بالسلطة اللازمة لبناء البلاد بما فيها اراضيها الشاغرة وغير المحروثة ، وان تبنى فلسطين ككمنولث يهودي يشكل جزءا صميميا في بناء العالم الديمقراطي الجديد »(٣٣). ومن المثير ان نلاحظ ان كلمات « الكمنولث اليهودي » كان الصهيونيون قد استعملوها عام ١٩١٩ عندما اصدروا بيانهم حول اجتماع وايز ومارشال مع الرئيس ولسون . لقد كان استخدام كلمة « كمنولث » ذا اهمية كبرى للفكر الصهيوني لان هذه الكلمة حددت الهدف الصهيوني في فلسطين على انه اكثر من اقامة دولة يهودية . هذا الهدف كان في الواقع تأسيس وطن قومي او دولة ترعى مصالح جميع اليهود او يمكن ان تكون القيم على رفاه الطوائف اليهودية عبر جميع انحاء العالم . وحين نقل عن لسان ولسون أنه كان عام ١٩١٩ قد منح تأييده لفكرة الكمنولث اليهودي، فان النتائج المترتبة على استخدام الصهيونيين لهذه الكلمات لم تكن واضحة . في العام ١٩٤٣ ، ولا سيما اثر هزيمة اقتراح روزفلت للهجرة ، كان معنى تعبير « الكمنولث اليهودي » واضحا جدا حقا . وقد اكد الصهيونيون انفسهم في برنامج بيلتمور ان تأسيس فلسطين ككمنولث يهودي سوف يحل مشكلة التشرد اليهودي . وقد بدا بالنسبة للرئيس روزفلت الذي احس بشدة بالحاجة لرفع الالام عن اليهود اللاجئين في اوروبه ، انه ليس هناك خيار الا ان يخطو خطوة باتجاه الصهيونيين . ولان روزفلت لم يكن رجل انصاف حلول ، فقد ذهب الى اخر الطريق لتلبية مطالب الصهيونيين . ولكن قبل ان يصوغ اقتراحه لتسوية المشكلة الفلسطينية ، اعطى روزفلت تأكيدات للعرب .

في نيسان (ابريل) وايار (مايو) ١٩٤٣ ، كتب ابن سعود ملك العربية السعودية الى الرئيس يحذره من المترتبات التي سيخلفها في العالم العربي تبني الولايات المتحدة سياسة دعم الجهود الصهيونية في فلسطين . وطالب الملك الرئيس بان لا يتخذ اية خطوات بصدد المسألة الفلسطينية قبل ابلاغه مقدما . وقد وعد الرئيس بانه « لا يجب التوصل

لاي قرار يغير الوضع الاساسي في فلسطين دون تشاور كامل مع كل من اليهود والعرب »(٣٤). وقد رغبت وزارة الخارجية ان تتبع التزام روزفلت الخاص نحو الملك سعود بالتعاون مع الحكومة البريطانية في اصدار تصريح رسمي بأنه « لا يجوز ان يتخذ اي قرار نهائي بصدد فلسطين الا بعد الحرب ، والا بالتشاور الكامل آنذاك مع كل من اليهود والعرب »(٣٥).

ويبدو ان آمال روزفلت باتفاق عربي — يهودي انبثقت عن اجتماع كان قد عقده مع وايزمن وسرد فيه الاخير اقتراحا لسانت جون فيلبي ، المستشار البريطاني للملك ابن سعود ، كان قد نال موافقة تشرشل . كان مشروع فيلبي كما يلي : « تترك كل فلسطين لليهود ، ويوطن جميع العرب الذين اجلوا في مكان اخر على نفقة اليهود الذين يضعون عشرين مليون جنيه لهذا الغرض بتصرف الملك . ويعترف بجميع البلدان العربية في آسيه كبلدان مستقلة باستثناء عدن . وتقترح بريطانيه والولايات المتحدة هذه الترتيبات على ابن سعود وتضمنانها معا في حالة الموافقة العربية »(٣٦). وقد اعتقد فيلبي ان العرب سيخدمون مصالحهم كأفضل ما يكون اذا « ... استهدفوا تعويضا يمكن احرازه على حساب حق لا يمكن انكاره »(٣٧) وهو حق الفلسطينيين بالعيش في وطنهم. ويبدو ان وايزمن قد فاتح تشرشل حين كان وزيرا للبحرية في ١٧ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٣٩ ، كما ناقش القضية مع روزفلت في شباط (فبراير) ١٩٤٠ ، كذلك عرض فيلبي القضية على ابن سعود عام ١٩٤٠ . ولكن لم ينتج شيء عن ذلك الاقتراح لان زعماء العالم كانوا اكثر انهماكا بادارة الحرب منهم بوضع تسوية لفلسطين ، ولم يبعث مشروع فيلبي بعد ذلك حتى عام ١٩٤٢ . وقد رفض ابن سعود المشروع مباشرة ، كما رفض الترحيب باقتراح روزفلت بان يجتمع مع وايزمن او مسؤول اخر في الوكالة اليهودية لمناقشة القضية . وقال الملك انه « لا يستطيع التحدث باسم فلسطين فبالاحرى ان لا يستطيع تسليم ذلك البلد لليهود »(٣٨).

ومرة ثانية وجد روزفلت نفسه عاجزا عن التصرف . وقد اعيد طرح اقتراح تصريح انجلو — اميركي يؤجل قضية فلسطين الى ما بعد انتهاء الحرب وبعد تشاور كامل مع كل من العرب واليهود . ولكن ايمانويل سيلر رجل الكونجرس الصهيوني النافذ من نيويورك اتهم المسؤولين في الادارة بانهم « ساهموا في خيانة فلسطين » ، وهدد بالدعوة لتحقيق يقوم به الكونجرس « الا اذا اوقفت وزارة الخارجية معارضتها السخيفة لفلسطين كملجأ آمن لليهود » . ثم طالب سيلر بان يسعى روزفلت مع تشرشل في مؤتمر كويبك (آب ، اغسطس ، ١٩٤٣) « من اجل فلسطين كموطن لليهود »(٣٩). وقد عاد تشرشل وروزفلت فتراجعا عما نويا التصريح به حول فلسطين وقررا ان يضعا سياساتهما على اساس احداث فلسطين من شهر لاخر .

وخلال عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٤ تعرض الرئيس لضغط صهيوني متواصل لاصدار بيان لصلحة برنامج بيلتمور . ولكن روزفلت كان ما زال يسعى لان يتقيد بالتزامه مع الملك ابن سعود بان شيئا لن يعمل قبل انتهاء الحرب وبدون تشاور مسبق مع الملك . وقد لعبت وزارة الخارجية دورا مهما في تأجيل اي قرار على الرغم من ان اثنين من مستشاري روزفلت المقربين وهما سمنر ولز وزير الخارجية ، وكوردل هل كانا كلاهما مؤيدين للصهيونية . خلال هذه الفترة حاول الرئيس جادا « ان تكون كل الاشياء لكل الشعب » . ومهما يكن فان سياسته لم تنجح احيانا كما في حادثة الصهيونيين وايز وسيلفر حين صاغا تصريحا ليصدر عن الرئيس في اذار (مارس) ١٩٤٤ . وقد كان ذلك النص المقترح سيلزم الولايات المتحدة بالبرنامج الصهيوني كله بما فيه قبول فكرة الكمنولث اليهودي لو لم يتجاهل روزفلت البيان الصهيوني . وبدلا عن ذلك اصدر روزفلت تصريحا عاما عن اللاجئين الاوروبيين . ولكن هذا زاد فقط الضغط الصهيوني ،

كما بدأ الصهيونيون يهـددون روزفلت بخسارة « الاصوات اليهودية » في انتخابـات تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٤ . وقد تجاوب كل من الحزبين الجمهوري والديمقراطي مع التحدي الصهيوني وذلك بأن ضمنا برامجهما الحزبية وعودا عريضة للصهيونيين في فلسطين . واحتذى روزفلت مثال حزبه فبعث في تموز (يوليو) رسالة الى السناتور واجنر من نيويورك كان عليه ان ينقل محتوياتها الى المنظمة الصهيونية : « سوف تبذل الجهود لايجاد طرق ووسائل ملائمة لتنفيذ [سياسة الكمنولث اليهودي] حالما تصبح ممكنة التدقيق . وانا اعلم منـذ متى وباي حمية عمل اليهود وصلوا من اجـل جعل فلسطين كمنولثا يهوديا حرا ديمقراطيا . واني لعلى قناعة بان الشعب الاميركي يمنح تأييده لهذا الهدف ، واذا ما اعيد انتخابي فسوف اساعد على تحقيقه »(٤٠). ووفقـا لفرانـك ايمانويل كان هذا البيان « ابتعـادا مهما عن التحيـات الرئاسية السابقـة للصهيونيين »(٤١). فهو لم يكن مجرد تعبير عن التحبيذ او المساندة للبرنامج الصهيوني بل وعدا بان يعمل على تحقيقه .

ومهما يكن ، فان روزفلت عاد بعد الانتخابات الى سياسته « المستقلة »(٤٢) السابقة . بل انه طلب من الصهيونيين ان يوقفوا قرارات الكونجرس المقترحة لصالح البرنـامج الصهيوني لفلسطين ، وفكر قبل ولايته الثالثة في « تقارب محتمل مع ابن سعود بخصوص مسألة فلسطين »(٤٣). وقد قابل الرئيس الملك بعد مؤتمر يالطا وقبل اسبوع واحد من وفاته حيث اعطى روزفلت تأكيدات اساسية جديدة لابن سعود . في ٥ نيسان (ابريل) ١٩٤٥ كتب روزفلت يقول انه « شخصيا كرئيس ، لن يفعل ابدا شيئا قد يكون معاديا للعرب » وان « حكومة الولايات المتحدة لن تجري اي تغيير في سياستها الاساسية في فلسطين دون تشاور مسبق وكامل مع كل من اليهود والعرب »(٤٤).

على الرغم من ذلك فلا يمكن ان تعتبر اعمال روزفلت « قرارات » حقيقية بالشكل الذي يمكن ان نعتبر فيه قبول ولسون لتصريح بلفور . لقد ساندت اعمال الرئيس روزفلت الخط الصهيوني القائل بانه يجب الاعتراف بفلسطين على انها الملجـأ النهائي لليهود وبناؤها ككمنولث يهودي . ولكن اثر انغماس روزفلت في المسألـة الفلسطينية لم يكن محسوسا ابان رئاسته بل بعد وفاته فقط ابان رئاسة هاري . اس. ترومان . والسبب في ان روزفلت لم يكمل قط اي شيء ابتداه لمصلحة الصهيونيين كان انه لم يكن مقتنعا بان المصالح الصهيونية والاميركيـة كانت متوافقة في الشرق الاوسط . ان كاتبا صهيونيا واحدا على الاقل ، هو جي. سي. هورويتز(٤٥)، يعتقد ان روزفلت لو عاش لاتبـع في الشرق الاوسط سياسة لا تهدد مصالح اميركه القومية في المنطقة . وهـذا كان يعني القول « لا » للصهيونيين . وبالنسبة للصهيونيين فيمكن ان يكون موت روزفلت من حسن حظهم .

عند هذه النقطة ، يجب ان نناقش بايجاز الرئيسين المتشابهين جـدا والمختلفين جدا : ولسون وروزفلت . لقد كان الاثنان « ليبراليين » ، و« ديمقراطيين » ، و« انسانيين » ، ومثاليين . وكان لكل منهما قوة ادبية عظيمة . وكلاهما اذعن للصهيونيـين في لحظات حاسمة من سعي الصهيونيين لاغتصاب فلسطين . وان ملاحظـة توينبي بأن ولسون شخص آمال عصر ما بعد الحرب العالمية الاولى تلخص بشكل فعال امكانية الرجـل . ولكن اذعان ولسون كان شخصيا اكثر منه سياسيا ، ويستطيع المرء ان يستنتج بـأنه كان رجلا يفتقد الجرأة الادبية .

لقد حقق روزفلت ، الى حد ما ، قدراته الكامنة خلال حياته ولم تظهر آثار تورطه مع الصهيونية الا فيما بعد . وكان الصهيوني المخلص ، ايمانويل نيومـان ، حين كتب بعد بضعة سنوات من وفاة روزفلت هو افضل من استشف هذا السياسي « البراجماتي »،

ورجـل الدولة البعيد النظر ، والانسان المتفهم . ذكر نيومـان ان صداقة الرئيس الشخصية واهتمامه العطوف على « الشعب اليهودي » لم يعنيا انه كان لديه اي وقت للصهيونيين . وقال نيومان ان روزفلت كان لديه « شك عميق الجذور » بشأن «فلسطين يهودية » ، ووصف موقف روزفلت من المحاولة الصهيونية بانه « رأفة غير متورطة » . كذلك اعترف نيومان ان الصهيونيين لم يتجرأوا ان يعملوا ضد هـذا الرئيس الاميركي القوي لسببين : الاول ، لان روزفلت كان بالنسبة « للشعب اليهودي » في جميع انحاء العالم « صديقه الكبير وبطله »(٤٦). والثاني ، لان روزفلت كان في السلطة وبدا انـه سوف ينتخب وانه سيكون وجها بارزا في مؤتمر السلام . وهكذا كان على الصهيونيين ، في تعاملهم مع روزفلت ، ان يعملوا بحذر واع ، ولم يجرأوا على اثارة غضبه بمعارضة سياسته بصياح عال . فمن جهة اولى نجد ان خوف الصهيونيين من روزفلت واحترامهم له اعطاه المقدرة على متابعة سياسات كان يشعر انها تخدم كافضل ما يكون المصلحة القومية الاميركية . بينما نجد من جهـة ثانية ان الصورة التي كانت عليهـا المتطلبات السياسية لروزفلت (ولحزبه) لم تمكنه من تجاهل مطالب الصهيونيين . ففي الميـدان الاول الذي جـابه فيه روزفلت الصهيونيين ، وهـو سياسة الهجرة ، هزمته سياسة معادية للصهيونية نتجت عن عدم رغبة الكونجرس في تبديل قوانين الهجرة التقييدية ، لا عن معارضة صهيونية . وفي هذه الحادثة اقتصر عمل المعارضة الصهيونية على مساندة موقف الكونجرس فقط . اما في الميدان الثاني ، وهو الحملـة السياسية ، فقد اذعن روزفلت مؤقتا للمطالب الصهيونية لكنه استأنف بسرعـة سياسته المستقلة حالما اعيد انتخابه . والحادثة الغريبة المتمثلة بقبول روزفلت لاقتراح فيلبي الى الملك ابن سعود ، تظهر الى اي مدى يمكن ان يكون روزفلت مثاليا وساذجا . ومن الواضح ان الرئيس شعر ان ذلك المشروع يمكن ان يحل ، بآن واحـد ، المشكلة الفلسطينية ومسألة اين يمكن ارسال المهاجرين اليهود . لقد كان برانديس هو المفتـاح لسياسة ولسون ، ولكن روزفلت لم يكن ملتزما بالصهيونيين بروابط شخصية مماثلة . وهكذا كان روزفلت حرا في ان يبذل اقصى جهده على الرغم من ان حتى اقصى جهـده لم يكن كافيا ، واصبحت الولايات المتحدة ملتزمة بسياسة « فلسطين الملجأ النهائي لليهود » .

ان تنفيذ هاتين السياستين ، سياسة « فلسطين الدولة اليهودية » وسياسة « فلسطين الملجأ النهائي لليهود » ، ترك لـ هاري اس. ترومـان الذي كان ، بخلاف ولسـون وروزفلت ، مؤيدا راسخا للقضية الصهيونية . في ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨ ، ابلغ الرئيس ترومان باقامة دولة اسرائيل في فلسطين ، وبعد دقائق كان قد اعترف اعترافا واقعيـا بالدولة اليهودية . حقا لقد اعترف بفلسطين « دولة يهودية حالما اعلنت دولة يهودية » على الرغم من ان ثلث سكانها فقط كان يهوديا آنذاك . وبين ١٥ ايار (مـايو) و ٣١ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٨ دخل اسرائيل اكثر من ١٠٠،٠٠٠ يهودي ، وابتـدأ ، بزخم، تنفيذ سياسة الدولة اليهودية كملجأ «الشعب اليهودي». وقد قادت هذه السياسة الى الحلول محل الفلسطينيين في وطنهم — طردهم من قبل القوات اليهودية في ١٩٤٨ — ١٩٤٩ — والى اكثر من عشرين عاما من النفي الفلسطيني .

سياسة التفوق العسكري الاسرائيلي في الشرق الاوسط

لم يتنبأ قسم الاستخبارات في البعثة الاميركية لمفاوضات السلام في مذكرته بتاريخ كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ بنتائج توصيته بان يعترف بفلسطين كدولة يهودية حالما تصبـح دولة يهودية في الواقع . لقد تصورت المذكرة تنفيذ عملية استبدال السكان الفلسطينيين العرب تدريجيا باليهود المهاجرين وخلق دولة يهودية في النهاية على اسس ايجاد اكثرية يهودية في فلسطين . ودفعت مقاومة الفلسطينيين لعملية اجلائهم التدريجية الصهيونيين الى اللجوء لاستخدام القوة للوصول الى هدفهم . ولان اسرائيل كانت قد ولدت بالقوة

على ارض فلسطين ، وجدت الدولة اليهودية انه يتوجب عليها حماية نفسها بالوسائل العسكرية في بيئة معادية . ولقد كانت الطريقة الوحيدة التي تستطيع اسرائيل ان تفعل فيها ذلك هي اما ان تحصل على التزام من قوة كبرى ، تحديدا الولايات المتحدة ، يضمن استمرار وجود الدولة اليهودية بوسائل التدخل العسكري لتلك القوة ، واما ان تمتلك اسرائيل التفوق العسكري على الدول العربية . لقد جوبه الرئيسان ترومان وايزنهاور بهذه المشكلة واتخذا ، بخطوتين ، القرار ببناء اسرائيـــل وجعلهـــا القوة العسكرية المسيطرة في الشرق الاوسط .

كـــان قرار الرئيس ترومان انه لا يستطيـــع الزام القوات الاميركية بالقتال من اجـــل الصهيونيين في فلسطين . ولم يكن الرئيس على اي حال في وضع يمكنه من الزام قوات بالكفاح الفلسطيني لان مثل هذه الخطوة كانت ستكون خطوة مكروهة جدا في الولايات المتحدة التي ارهقتها الحرب . وقد اضطر ترومان الى اتخاذ هذا القرار عام ١٩٤٥ بينما كان النقاش محتدما في الولايات المتحدة بشأن الهجرة اليهوديـــة الى فلسطين : هل ان الولايات المتحدة مهيأة ام لا لان تتحمل مترتبات الدفاع عـــن دخول ١٠٠،٠٠٠ لاجىء يهودي الى فلسطين ، وهي خطوة ستؤدي قطعا الى صدام . وقـــد عبر الرئيس عن انطباعه علنا اثر عودته من مؤتمر بوتسدام ، بانه « يتطلب نصف مليون جندي اميركي لحفظ السلام في فلسطين »(٤٧). وفي النهايـــة لم تكن القوات الاميركية مطلوبة لاقامة الدولة اليهودية ، ولم تحل مسألة كيفية المحافظة على هذه الدولة الا في رئاسة دوايت دي. ايزنهاور .

عندمـــا ابتدأ الجنرال ايزنهاور حملته من اجل الرئاسة ، كـــانت اهم مشكلة تواجـــه الولايات المتحدة هي الحرب الكورية . وقد خاض حملته على اساس انه سينهي الحرب في آسيه بأقصى سرعة ممكنة ويعيد الجنود الاميركيين الى وطنهم . ولم يكن هناك مجال لأن يلزم ايزنهاور القوات الاميركية بأن تخوض حـــربا اخرى في آسيه ، ولو لمصلحة الصهيونيين ، على الرغم من ان الدولة الصهيونية الحديثة الولادة لـــم تكن تتطلب في الواقع تدخلا عسكريا مباشرا لصالحهـــا ضد جيرانهـــا . وعوضا عن ذلـــك طالـــب الاسرائيليـــون والنواب الصهيونيون الاميركيون ، باستمرار ، بمعونـــة من الاسلحة الاميركية .

وعلى اية حال ، فلم تبدأ حكومة الولايات المتحـــدة الاميركية تدرس جديا احتمال تزويد الاسرائيليين بكميات كبيرة من السلاح الا في عام ١٩٥٥ . حدث هذا في عام ١٩٥٥ عندما زود الاتحاد السوفياتي مصر بتجهيزات عسكرية بعد ان رفضت اميركا ان تفعل ذلك . وأرعبت صفقة الاسلحة السوفياتية ـــ المصرية بشكل خاص وزير الخارجية الاميركية جون فوستر دالاس . ودفع هجوم القوات البريطانية والفرنسية والاسرائيلية على مصر في اكتوبر نوفمبر ١٩٥٦ ، وزير الخارجية لان يعيد النظر في التوجه الاميركي بصدد عدم الاستقرار في الشرق الاوسط. في ٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧، قدم الرئيس ايزنهاور في رسالته الى الكونجرس مقترحات لسياسة اميركية شرق ـــ اوسطية جديدة. وطالب بقرار مشترك لمجلسي الشيوخ والنواب يخول الرئيس اتخاذ خطوات لمحاربة « الرغبـــات المفترسة للشيوعيـــة الدولية » في الشرق الاوسط . اما الاقتراح المتعلق بالعلاقـــات الاميركية ـــ الاسرائيلية فقد اوصى بان تتكفل الولايات المتحدة بتقديم المعونة العسكرية لاي بلد يطلب مثل هذا العون . وقد وافـــق الكونجرس وظهر الى الوجود مـــا يسمى بـــ « مبدأ ايزنهاور » . وبموجب مبدأ ايزنهاور بدأت الولايات المتحـــدة تزود اسرائيل بكميات هامة من التجهيزات العسكرية بقصد الحفاظ على « توازن القوى » في المنطقة، وهو التوازن الذي كان يعني في الواقع اختـــلالا في التوازن العسكري لصالح المليوني اسرائيلي ضد المائة مليون عربي في الشرق الاوسط وشمال افريقيه .

وقد اصبحت هـــذه هي سياسة السيطرة الاسرائيلية العسكرية التي تابعهـــا الرئيس جون اف. كينيدي الذي اعطى الاسرائيليين صواريخ « هوك » الاميركية فضلا عـــن تجهيزات اخرى ، ثم تابعها الرئيس ليندون بي. جونسون الذي وعد اسرائيل بأحدث طائرات « فانتوم » الاميركية المقاتلة القاذفة ، ثم تابعها الرئيس ريتشارد ام. نيكسون الذي سلم حتى الان طائرات «الفانتوم» واعطى قرضا بـــ ٥٠٠ مليون دولار للحفاظ على تفوق اسرائيل العسكري في الشرق الاوسط .

ولربما كان قرار ايزنهاور ـــ دالس عام ١٩٥٧ بتزويد اسرائيل بالاسلحة اكثر القرارات الاميركية الرئيسية الثلاثة حول فلسطين اهمية ، واكثرهـــا خطورة قطعا . والـــدول العربية لا تستطيع ان تسمح لاسرائيل ، وهي الدولة الغريبة ، بالسيطرة على الشرق الاوسط ، كما لا تستطيع الشعوب العربية ان تنسى ان اسرائيل قد اقيمت على حساب الشعب الفلسطيني . وهكذا ، وما دامت اسرائيل موجودة ، فان عليها ان تكافح لان تعيش في بيئة معادية ، وسوف يندلع القتال من وقت لاخر ـــ كما حدث في عامي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ـــ ، وسيكون عـــلى الولايات المتحدة ان تحافظ عـــلى السيطرة الاسرائيلية العسكرية في الشرق الاوسط .

لنتفحص الان بايجاز كيف اتخذ هذا القرار كي نقارنه بالقرارات المتخذة من قبل ولسون وروزفلت . لقد اتخذ قرار تنمية تفوق اسرائيـــل العسكري على خطوتين تفصل بينهما عشر سنوات ، واتخذه رئيسان مختلفان كانا عضوين في حزبين سياسيين مختلفين . في حالة ترومان ، لم تكن مساهمته في سياسة التفوق الاسرائيلي نتيجة مساندته للقضية الصهيونية في فلسطين بل لانه لم يكن في وضع يمكنه من ارسال قوات اميركية للقتال في آسيه . ويمكن الجدال في الواقع بأن ترومان كان مـــن الممكن ان يلزم القوات الاميركية بالقتال لصالح الصهيونيين فيما لو كان ذلك ممكنا آنذاك . اما في حالة ايزنهاور ، فقد جاء قراره ببيع الاسلحة لاسرائيل نتيجةخوف اميركه من تزايد قوة السوفيات ونفوذهم في الشرق الاوسط ، لا بسبب كون ايزنهاور مؤيدا لاسرائيل بشكل خاص . ومن الوقت الذي قام فيه بمساهمته في سياسة التفوق الاسرائيلي العسكري ، كان الرئيس ايزنهاور منهمكا في تأمين الانسحاب العسكري الاسرائيلي من سيناء المصرية . وهكذا يبدو ان النفوذ الصهيوني كان ضئيلا جدا في حالة القـــرار الاميركي الرئيسي الثالث بشـــأن فلسطين .

نتائج

حاولت في هذا البحث ان اصف القرارات الاميركية الرئيسية الثلاثة حول فلسطين التي اتخذهـــا اربعة رؤساء اميركيـــين مختلفين ، وشكلت مقومـــات السياسة الاميركية الفلسطينية . وبالنسبة لمراقبي الوضـــع الراهن في الشرق الاوسط ، هناك نتيجتـــان رئيسيتان تستخلصان من هذا التحليل للتورط الاميركي في مسألة فلسطين .

النتيجة الاولى ، هي ان التزام الولايات المتحدة بالدولة اليهودية يستند على فكرتـــين : اولاهما ان فلسطين يجب ان « يعاد تشكيلها » كوطن قومي للشعب اليهودي ، وثانيتهما ان الحل الوحيد لمشكلة « التشرد اليهودي » يوجد في فلسطين . وقد ضمنت هـــاتان الفكرتان في السياسة الاميركية من قبـــل الرئيسين ولسون وروزفلت لاسباب مختلفة جدا : ضمنها ولسون لانه شعر انه كان مدينا لقاضي المحكمة العليا لويس برانديس الصهيوني الغيور ، وروزفلت لانه ظن انه لا توجد وسيلة اخرى لتخفيف آلام اللاجئين الاوروبيين اليهود الا بمساندة هجرتهم الى فلسطين . واتخذ ترومان الخطوة الاولى نحو بناء اسرائيل على انها القوة المتفوقة في الشرق الاوسط لانه ، مثل روزفلت في مسألـــة الهجرة اليهودية ، ظن انه لا يوجد امامه خيار اخر . وكان ايزنهاور اكثر اهتماما بمعادلة

ميزان القوى السوفياتي ــ الاميركي منه بمتطلبات اسرائيل العسكرية .

هكذا يجب ان نفهم الالتزام الاميركي باسرائيل كما هو بالفعل : التزام خاص اتخذه رؤساء افراد تجاوبا مع مطالب اللحظة . بالنسبة لولسون كان برانديس هو القوة المقررة . بالنسبة لروزفلت كان المفتاح هو رجال الكونجرس الاميركيين من حماة العزلة . وبالنسبة لترومان وايزنهاور كان احجام اميركه عن القتال نيابة عن الشعوب الاخرى هو العامل الاهم . وفي اي من هذه الحالات لم تكن الكليشهات القديمة مثل « الاصوات اليهودية » و « النفوذ الصهيوني في اوساط الاعلام » و « الصداقات » في البيت الابيض هي القوى وراء القرارات المتخذة . وقد وضع التزام ولسون الاولي بالصهيونيين ، نتيجة للنفوذ الصهيوني المباشر، الولايات المتحدة على خطها الموالي للصهيونية في الشرق الاوسط ، وهو خط كان مستحيلا على الرؤساء اللاحقين تبديله . لقد كان النفوذ الصهيوني السياسي والمالي والاعلامي عاملا رئيسيا في ابقاء الرؤساء الاميركيين في المجرى الذي رسمه ولسون ، ولكن يجب ان لا ننسى ان الصهيونيين لم يكونوا هم القوة وراء جميع القرارات الاميركية المتعلقة بالسياسة الفلسطينية . والحقيقة البسيطة المتمثلة بان هؤلاء الرؤساء ، ثلاثة ديمقراطيين « ليبراليين » وواحد جمهوري محافظ ، قد انحازوا الى الجانب الصهيوني يجب ان تكون كافية لتجعلنا نتوقف ونلقي نظرة ثانية على السياسة الاميركية .

اما النتيجة الثانية ، فهي ان السياسة الاميركية ازاء فلسطين لم تكن سياسة حقيقية في الواقع ، وانها شكلت سلسلة من القرارات السياسية الآنية اتخذها رؤساء افراد ، وان هذه القرارات قد بنيت على مصالح قصيرة الاجل وحتى شخصية ، وان توجه الولايات المتحدة الكلي بصدد فلسطين كان ضد المصلحة القومية الاميركية . وقد عالج هذا البحث طبيعة القرارات التي اتخذها الرؤساء الاميركيون وحاول ان يظهر كيف ولماذا اتخذت هذه القرارات ، ولكننا لم نتفحص المصلحة القومية الاميركية . واهم نقطة في هذا الصدد هي انه لا يمكن خدمة مصلحة الولايات المتحدة في الشرق الاوسط اذا ما كان الرؤساء الاميركيون يساندون الصهيونيين ضد رغبات شعوب الشرق الاوسط ومصالحها . هذه النقطة برهنت عليها نتائج تأييد الولايات المتحدة للصهيونيين في فلسطين : انتفاضات واسعة في فلسطين ، ثلاث حروب محلية في الشرق الاوسط منذ اقامة دولة اسرائيل ، نهب شعب كامل ونفيه ، عدم استقرار في البلدان العربية ، سباق تسلح شرق ــ اوسطي ، ظهور النفوذ الشيوعي السوفياتي والصيني في الشرق الاوسط . وهكذا لم يكن سجل السياسة الاميركية الفلسطينية سجل نجاح . وقد يبدو انه يتوجب على الولايات المتحدة ان تنمي السلام والاستقرار والتطور الاقتصادي والمؤسسات السياسية الشعبية في الشرق الاوسط ، بدل الحرب وعدم الاستقرار والمأساة والمجابهة بين القوى الكبرى . وبعد ، على الرغم من المحاولة التي بذلها روزفلت ، فان المصلحة القومية الاميركية لم تؤخذ ابدا بعين الاعتبار في صنع السياسة الفلسطينية .

---

١ ــ Leonard Stein, *The Balfour Declaration*, London 1961, pp. 194-97.

٢ ــ Christopher Sykes, *Two Studies in Virtue*, London 1953, p. 133.

٣ ــ شتاين ، **المصدر السابق** ، ص ٤٢٣ .

٤ ــ Frank E. Manuel, *The Realities of American - Palestine Relations*, Washington 1949, pp. 175-76.

٥ ــ شتاين ، **المصدر السابق** ، ص ١٩٧ .

٦ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٥٨٨ .

٧ ــ **المصدر نفسه** ، يشك شتاين في الحديث المتبادل بين ويلسون ولانسنغ ، كما ورد على لسان الاخير ، ولكنه يقر بالتأخير من قبل ولسون حول اصدار تصريحه العلني بتأييد البرنامج الانجلو ــ صهيوني .

٨ ــ Henry Cattan, *Palestine, the Arabs and Israel*, London 1969, p. 15n.

٩ — Quoted in Harry N. Howard, *The King-Crane Commission, An American Inquiry into the Middle East,* Beirut 1963, p. 13.

١٠ — Arnold J. Toynbee, *A Study of History,* Abridgement of Vols. 1-VI by D. C. Somervell, London 1946, p. 552.

١١ — شتاين ، **المصدر السابق** ، ص ٥٩٥ .

١٢ — مانويل ، **المصدر السابق** ، ص ١٧٦ .

١٣ — شتاين ، **المصدر السابق** ، ص ٥٩٥ .

١٤ — هوارد ، **المصدر السابق**، ص ١١ — ١٢.

١٥ — شتاين ، **المصدر السابق** ، ص ٥٥٣ .

١٦ — **المصدر نفسه** ، ص ٥٥٦ .

١٧ — **المصدر نفسه** ، ص ٥٩٦ .

١٨ — هوارد ، **المصدر السابق** ، ص ٣١ .

١٩ — شتاين ، **المصدر السابق** ، ص ٥٩٦ .

٢٠ — هوارد ، **المصدر السابق** ، ص ٣٧ .

٢١ — **المصدر نفسه** ، ص ٢١٨ .

٢٢ — **المصدر نفسه** ، ص ٣٥٠ .

٢٣ — **المصدر نفسه** ، ص ٣٠٩ .

٢٤ — سايكس ، **المصدر السابق** ، ص ١٩٥ .

٢٥ — **المصدر نفسه** ، ص ١٩٥ .

٢٦ — **المصدر نفسه** ، ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

٢٧ — **المصدر نفسه** .

٢٨ — Richard B. Stevens, *American Zionism and U. S. Foreign Policy (1942-1947),* New York 1962, p. 45.

٢٩ — **المصدر نفسه** .

٣٠ — **المصدر نفسه** ، ص ٧١ .

٣١ — **المصدر نفسه** ، ص ٧١ — ٧٢ .

٣٢ — Samuel Halperin, *The Political World of American Zionism,* Detroit 1963, Appendix VI, p. 331.

٣٣ — ستيننس ، **المصدر السابق** ، ص ٤ .

٣٤ — **المصدر نفسه** ، ص ٧٣ .

٣٥ — **المصدر نفسه** ، ص ٧٤ .

٣٦ — **المصدر نفسه** ، ص ٧٤ — ٧٥ .

٣٧ — **المصدر نفسه** .

٣٨ — **المصدر نفسه** ، ص ٧٦ .

٣٩ — **المصدر نفسه** ، ص ٧٧ .

٤٠ — **المصدر نفسه** ، ص ٨٣ — ٨٤ .

٤١ — مانويل ، **المصدر نفسه** ، ص ٢١٢ .

٤٢ — ستيننس ، **المصدر السابق** ، ص ٨٥ .

٤٣ — **المصدر نفسه** ، ص ٨٧ .

٤٤ — **المصدر نفسه** ، ص ٨٩ .

٤٥ — J. C. Hurewitz, *The Struggle for Palestine,* New York 1950.

٤٦ — ستيننس ، **المصدر السابق** ، ص ٩٣ — ٩٤ .

٤٧ — **المصدر نفسه** ، ص ١٣٢ . الحاخام سيلفر في رسالة الى السناتور واجنر .

٤٨ — John C. Campbell, *Defense of the Middle East,* New York, 1960, p. 122.

عصبة مكافحة الصهيونية في العراق

عبد القادر ياسين

مع التهاب القضية الفلسطينية واندفاعها السريع الى السطح في اعقاب الحرب العالمية الثانية ، بادر الحزب الشيوعي العراقي بتكليف مجموعة من أعضائه اليهود بتكوين منظمة لمكافحة الصهيونية . وكي نتمكن من الالمام بملابسات تكوين هذه المنظمة ، والدور الذي قامت به ، لا بد من معرفتنا بموجز مختصر لتاريخ الحزب الشيوعي العراقي من جهة ، ووضع الطائفة اليهودية في العراق من جهة اخرى .

الحزب الشيوعي العراقي* : كانت أول حلقة ماركسية في العراق ، تلك التي ظهرت في بغداد عام ١٩٢٢ ، وهي عبارة عن حلقة ضيقة من الشباب ، التفت حول حسين الرحال ، الذي كان قد تلقى تعليمه في استانبول ، وزار روسيا القيصرية ، حيث شهد قيام الثورة البلشفية فيها . ودرس الرحال النظرية الماركسية . ونجحت تلك الحلقة من الشباب الماركسي في اصدار جريدة « الصحيفة » ، عام ١٩٢٥ ، واصدرت منها خمسة أعداد . ثم سرعان ما اختفت الصحيفة ، وهجر الاعضاء حلقتهم . وفي عام ١٩٣٢ ، بدأ يوسف سلمان يوسف في تنظيم بعض خلايا شيوعية في الناصرية . وفي مارس (اذار) ١٩٣٤ ، تأسست في بغداد « لجنة مكافحة الاستعمار والاستثمار » ، كتنظيم يجمع الشيوعيين العراقيين . واصبح عاصم فليح أول سكرتير للحزب الشيوعي العراقي . وفي يوليو (تموز) عام ١٩٣٥ ، أصدر الحزب الشيوعي « كفاح الشعب » كجريدة سرية للحزب . وقد تعرض الحزب ، منذ قيامه ، لضربات متوالية من الحكومات العراقية المتعاقبة . وأصبح « فهد » وهو الاسم السري ليوسف سلمان يوسف ، سكرتيرا عاما للحزب ، بعد أن هجر عاصم فليح العمل السياسي ، عام ١٩٣٦ . وتوالت الانقسامات في صفوف الحزب . ففي عام ١٩٤٢ تزعم ذو النون أيوب أول انشقاق في الحزب ، واصدر المنشقون جريدتهم السرية « الى الامام » ، في حين استمر الحزب في اصدار صحيفته السرية « الشرارة » والتي كان قد أصدرها بدلا من كفاح الشعب ، أعتبارا من عام ١٩٣٨ . وبعد ستة أشهر من هذا الانشقاق ، قاد عبد الله مسعود القريني ، الانشقاق الثاني عن الحزب . وأصدر المنشقون جريدة « الشرارة الجديدة » السرية . وفي أوائل ١٩٤٤ عقد الحزب مؤتمره الاول ، حيث اقر فيه ميثاقه الوطني ونظامه الداخلي . وعشية انعقاد المؤتمر ، انشق داود الصايغ عن الحزب مكونا « رابطة الشيوعيين العراقيين » ، وأصدر صحيفة سرية باسم « العمل » . واستبدل الحزب اسم صحيفته السرية ، باسم « القاعدة » . وفي الاسبوع الاول من يناير (كانون الثاني) عام ١٩٤٧ ، ألقي القبض على مجموعة كبيرة من « رابطة الشيوعيين العراقيين » ، وبعدها بخمسة أيام اعتقل فهد وبعض اعضاء قيادة الحزب ، واصدرت المحاكم العراقية حكمها باعدام فهد وبعض اعضاء القيادة ، الا أن الحكم سرعان ما ألغي تحت ضغط جماهير الشعب العراقي ، وان كانت الحكومة العراقية قد استغلت الاحكام العرفية التي كانت قد أعلنتها عام ١٩٤٨ ، بحجة حماية ظهر الجيش العراقي الذاهب

الى فلسطين ، واعدمت فهد ، واثنين اخــرين من اعضاء المكتب السياسي للحــزب الشيوعي العراقي ، هما حسين الشبيبي ، وزكي بسيم . ونفذ حكم الاعدام في الثلاثة صبيحة الرابع من فبراير (شباط) عام ١٩٤٩ . وقد عادت للحزب وحدته عام ١٩٥٦ ، بفضل مبادرات السكرتير العام للحزب آنــذاك ، حسين الرضى ، المعــروف باسمه الحركي ، سلام عادل .

وللحزب الشيوعي العراقي تراثه النضالي سياسيا واجتماعيا ، وطنيا وطبقيا . وهــو التراث الذي يعترف به حتى خصومه . ومنذ تكوينه ، كان للحزب الشيوعي العــراقي موقفه الواضح العميق من القضية الفلسطينية ، وقد دأب الحزب على التفريق بــين الصهيونية واليهودية ، وعلى المطالبة « بالغاء الانتداب البريطاني على فلسطين وجلاء الجيوش عن فلسطين وتشكيل دولة ديمقراطية مستقلة كحل صحيح »(١).

وقد انشأ الحزب بعض المؤسسات العلنيــة كحزب التحرر الوطني ، ودار الحكمــة للطباعة ، وصحيفة الاساس ، و « عصبة مكافحة الصهيونية » وصحيفتها « العصبة ». والمؤسستان الاخيرتان هما موضوع دراستنا هذه .

الطائفة اليهودية في العراق : كان اليهود يشكلون أقلية فعالــة في العراق ، ساهمت في الانشطة السياسية والثقافية والاقتصادية للبلاد . ومنذ منتصف القرن التاسع عشر ، اولت بريطانيا وامريكــا المزيد من اهتمامها ليهــود الشرق الاوسط ، ومن بينهم يهود العراق ، بغية استخدامهم قاعدة استعمارية في المنطقة ، وكان هذا الاهتمام قــد أتى بعد تطور الرأسمالية العالمية وتلهفها على الشرق الاوسط لاحتلاله واستنزاف موارده وخيراتــه ، واستغــلال موقعه الاستراتيجي الهام في حراسة الطريــق المؤدي الى المستعمرات البريطانية في الشرق الاقصى . وتحت ضغط بريطانيا وامريكا ، أصدرت الامبراطورية العثمانية تشريعــات عديدة ، منح اليهود بموجبهــا ما يشبه الاستقلال الذاتي ، وتضمنت حق اليهود في التمثيل بمجلس المبعوثان العثماني . وقد كان لليهود وضع اقتصادي متميز في العراق . وبخروج العثمانيين من العراق ، بعد اندحارهم في الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـــ ١٩١٨) ، تبدل النظام السياسي في العراق ، ونصب فيصل بن الحسين ملكا عــلى العراق . وشارك ممثلو الطائفــة اليهودية في المجلس التأسيسي العراقي . ونص الدستور العراقي لعام ١٩٢٥ ، على ان لليهود مــا لباقي طوائف وأفراد الشعب العراقي من حقوق وواجبات . كما نص الدستور على أن يكون لليهود أربعة اعضاء في مجلس النواب ، وعضو اخر في مجلس الشيوخ ، وزيدت هــذه النسبة في وقت لاحق الى ستة نواب ، وظل هذا النظام معمولا به حتى الغــي في عام ١٩٥٢ بقرار وزاري . وشاركت الطائفة اليهودية فــي بعض الوزارات العراقيــة . واستوزر ساسون حزقيل في عدة وزارات . كما ساهم أبناء الطائفة اليهودية في النشاط السياسي في العراق ، وانضوت اقسام منهم تحت لــواء الحزب الوطني الديمقراطي والحزب الشيوعي العراقي ، بعد ان جذبتهم مبادىء هذين الحزبين الداعية للتسامح ووحدة الشعب العراقي بكامل طوائفه ، دونما تفريق بين طائفة وأخرى .

وحسب احصاء أجرته الحكومة العراقية عام ١٩٤٧ ، بلغ عدد أفراد الطائفة اليهودية نحو ١١٨ الف نسمة . وبعد تكوين اسرائيل ، عام ١٩٤٨ ، وبالتواطــؤ مع الدوائــر الاستعمارية ، بدات حكومة نوري السعيد في ترحيل أبناء الطائفة اليهودية الى اسرائيل بعد أن أسقطت عنهم الجنسية العراقية ، بموجب القانون رقم ١ لسنة ١٩٥٠ ، الــذي جاء فيه ، في مجال تبرير اصداره ، أن الحكومة العراقية قد اتخذته « للتخلص من طائفة بغيضة المشاكل » . أما اليوم فلا يتعدى حجم الطائفة اليهودية في العراق ٣٠٠٠ نسمة.

عصبة مكافحة الصهيونية

مارست الحكومات العراقية المتعاقبة – خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) اقصى ما يمكنها من اشكال القهر والارهاب ضد الشعب العراقي . واستمرت حكومة مزاحم الباجه‌جي في ممارسة ارهابها وكبتها للحريات العامة ، من خلال القوانين الاستثنائية والاحكام العرفية ، حتى بعد انتهاء الحرب . وفجأة خرج الامير عبد الاله ، الوصي على عرش العراق آنذاك ، على الاوساط السياسية العراقية ، بخطاب ألقاه في أعضاء البرلمان العراقي في السابع والعشرين من ديسمبر (كانون الاول) لعام ١٩٤٥، ضمنه سماحه بتأليف أحزاب سياسية في العراق « التي لم يصح بقاء البلاد خالية منها »(٢). واستقالت حكومة الباجه جي ، في اعقاب خطاب الوصي ، وحلت محلها حكومة توفيق السويدي ، التي تعهدت في منهاجها بـ « الغاء الادارة العرفية ... وسد المعتقل والافراج عن المعتقلين ، ورفع الرقابة على الصحافة ... وفسح المجال لتأسيس الاحزاب السياسية »(٣). وقد استقبلت الاوساط الشعبية والسياسية العراقية حكومة السويدي ومنهاجها بارتياح ظاهر . وخلال عام ١٩٤٦ اجازت حكومة السويدي خمسة أحزاب هي الوطني الديمقراطي ، والاستقلال ، والاتحاد الوطني ، والشعب ، والاحرار . ورفضت في الوقت نفسه السماح لحزب التحرر الوطني بممارسة نشاطه ، متذرعة باعتناقه المبادىء الشيوعية .

وفي هذا الجو وبمبادرة من الحزب الشيوعي العراقي ، جرى تأسيس « عصبة مكافحة الصهيونية » عام ١٩٤٥ . وقد أوكل الحزب مهمة تأسيس العصبة ليهودا صديق ، عضو اللجنة المركزية للحزب ، ويوسف هارون زلخة ومسعد قطان ، وابراهيم ناجي ، ويعقوب قرايم ، ونعيم شوع ، ويوسف زلوف ، وكلهم اعضاء في الحزب الشيوعي العراقي ، ومن أبناء الطائفة اليهودية في العراق . ويقول يهودا صديق بأن المذكورين عقدوا عدة اجتماعات صاغوا خلالها برنامجا ونظاما داخليا للعصبة . وعندما أجيزت العصبة من قبل الحكومة العراقية ، تألفت هيئة ادارية ، ترأسها يوسف زلخة ، وهيئة رقابة برئاسة يهودا صديق ، وتنحصر مهمة الهيئة الثانية في مراقبة مقررات الهيئة الادارية ومتابعة تنفيذها(٤) .

لقد كانت الطائفة اليهودية بحاجة الى تمتين صلتها وتحقيق اندماجها بالشعب العراقي . واقناع العراقيين بانعدام الرابطة والصلة بين الطائفة اليهودية في العراق والحركة الصهيونية . وبعد حظر العصبة ، واعتقال قادتها ، أكد يوسف زلوف ، في التحقيق الذي أجرته معه المباحث العامة العراقية ، على أهمية وضرورة التضامن بين جميع الطوائف الدينية ، التي تؤلف الشعب العراقي بما يعود بالفائدة على مجموع الشعب(٥) . أما احتضان الحزب الشيوعي ، دون غيره ، لفكرة اقامة عصبة مكافحة الصهيونية ، فيردها زلوف الى كون الحزب الشيوعي « المنظمة الوحيدة العاملة في هذا الحقل »(٦) . ويعني به حقل التضامن بين مختلف الطوائف الدينية .

أهداف ونشاط العصبة : اصدرت عصبة مكافحة الصهيونية العديد من الكراسات والكتب ، كما نشرت برنامجها بشكل واسع . كما عقدت الكثير من الاجتماعات والمؤتمرات الجماهيرية في مقرها بالكرخ . واخذت تصدر جريدتها « العصبة » ، عن دار الحكمة للطباعة ، التي تمتلكها العصبة نفسها .

وقد نشرت جريدة « العصبة » مقالات متتابعة ، شرحت وعمقت فيها أهداف العصبة ، ثم جمعت هذه المقالات في كتيب ، وأصدرته بعنوان « نحن نكافح في سبيل من ؟ وضد من نكافح ؟ » وفي هذه المقالات فصلت العصبة الدين اليهودي عن الصهيونية ، وأكدت على ارتباط الثانية بالاستعمار العالمي ، وعلى رأسه الاستعمار الامريكي ، كما أشارت

العصبة في كتيبها الى ان « ليس لليهود قضية منفصلة عن قضايا شعوبهم » . واعتبرت عصبة مكافحة الصهيونية ، الحركة الصهيونية عميلا للامبريالية وأداة لها . كما اعتبرت « الفاشية والصهيونية توأمين لبغي واحدة هي العنصرية » . وأوضحت العصبة ان عداءها للصهيونية هو « في سبيل اخواننا اليهود » ، ولكون الصهيونية تخلق وتزرع الفتن والعداء والعنصرية بين اليهود والشعب العربي ، بما يصرف هؤلاء وأولئك عن النضال لانجاز القضايا الوطنية الكبرى « الاستقلال والسيادة الوطنية ، والجلاء ، وانهاء التدخل الاجنبي » . اما « الوطن القومي لليهود » فالعصبة تعلن عداءها له، لانه « يفرق بين اليهود ومواطنيهم في الوطن الواحد ، ولانه يستهدف شطر فلسطين العربية عن جسم البلاد العربية وأفناء شعبنا العربي » . وتحت عنوان « الصهيونية رأسمالية استعمارية » قالت العصبة في كراسها ، أن الصهيونية تتلون أمام اليهود بما يلائم ويرضي كل فئة منهم « فهي دينية امام المحافظين ، وقومية امام الشباب المتحمس ، واشتراكية أمام العامل » . وتنفي العصبة كل هذه الصفات عن الصهيونية « فدينها نفاق ورياء ، وقوميتها عنصرية اعتدائية ، واشتراكيتها انتهازية » . وأكدت أن الصهيونية تطمع فقط في اغراق الاسواق بالبضائع ، لتضرب الصناعة الوطنية وتسيطر على التجارة . وفسرت العصبة في كراسها ، تبني الاستعمار للصهيونية ، لكون الاخيرة أداته في قلب الوطن العربي . واشارت الى أن الاستعمار الامريكي — الذي ينشط اورائة الاستعمار البريطاني في فلسطين — يحتضن ، هو ايضا ، الصهيونية للغرض نفسه . واعتبرت العصبة غياب الديمقراطية عن بلدان الوطن العربي عاملا منشطا للصهيونية في البلاد العربية . وطالبت العصبة ، في كراسها ، بضرورة اشراك المنظمات الشعبية في الكفاح من اجل طرد الاستعمار البريطاني ، الذي أوجد الصهيونية في فلسطين (٧) .

وفي مصر استشهد أحد الكتاب المصريين بما كان قد ورد في بيان للعصبة ، من أن « الصهيونية لا تحل ، بالمرة ، مشكلة ستة عشر مليونا من اليهود ، بل ان المشكلة اليهودية ليست سوى جزء ، لا يتجزأ ، من نضال الشعوب كافة ، على اختلاف أديانها ، في سبيل حريتها وديمقراطيتها » (٨) .

وفي عدد اخر منها ، نشرت مجلة « الضمير » القاهرية خبرا عن اصدار « عصبة مكافحة الصهيونية » بيانا « كشفت فيه عن الاساليب التي يأتيها اليهود لجعل فلسطين وطنا لهم ، ومزاحمة العرب فيها والحلول التي يجب اتباعها لمحاربة هذه الاساليب ، حفظا لحقوق العرب في وطنهم الشرعي ، وهذه النشرة موجهة الى أبناء الجيل العربي والى الجامعة العربية لما فيها من الحلول العملية والسلمية » (٩) .

وفي الثاني من نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٤٥ ، أصدرت عصبة مكافحة الصهيونية بيانا بمناسبة « يوم وعد بلفور » ، كما سمته ، واعلنت في بيانها « باسم يهود العراق استنكارها لهذا الوعد واحتجاجها عليه » . وأكدت العصبة في بيانها أن الامبريالية تهدف من وراء وعودها للشعوب الضعيفة الى « تثبيت نفوذها وزيادة امتيازاتها واثقال نيرها على رقاب تلك الشعوب » . وضربت العصبة مثلا بوعود بريطانيا للعرب ابان الحرب العالمية الاولى ، والمتضمنة عهدا بمنح البلاد العربية استقلالها ، كما اشارت العصبة الى معاهدة سايكس — بيكو ، المعقودة بين حكومتي فرنسا وبريطانيا ، والتي قسمت الدولتان الاستعماريتان ، بموجبها ، البلاد العربية فيما بينهما . وتنتقل العصبة للحديث عن وعد بلفور ، فترى أن الاستعمار يستطيع « أن يتكرم بفلسطين مئات المرات طالما أنها ليست بلاده ، وطالما أنه يجد في ذلك ربحا له ومغنما » . وطالب بيان العصبة الشعوب العربية بالنهوض « لرد عاديات الاستعمار عنها » . وترى العصبة ان غاية الاستعمار وعميلته الصهيونية من وعد بلفور هي تحويل « نضال العرب الموجه ضد

الاستعمار نحو جماهير اليهود ، وبذلك تخلق منهم حاجزا يختفي وراءه الاستعمار ، فيحافظ على امتيازاته ويستمر في استغلاله ، وفي التطفل على دماء الشعوب العربية » . وترى عصبة مكافحة الصهيونية في « الدموع التي يذرفها المستعمرون على مصلحة اليهود ... دموع التماسيح ، لانهم لو كانوا حقا يعطفون على اليهود لعاملوهم معاملة طيبة في اوروبا » . وعادت العصبة لتؤكد في بيانها « أن حل المشكلة اليهودية يتم بحل مشكلة البلدان التي يعيش فيها اليهود . اما (حل) فلسطين ، فهو فضلا عن أنه لا يحل المشكلة اليهودية ، فهو اعتداء صريح غاشم على حقوق الشعب العربي » . واستنكر اعضاء العصبة في بيانهم ، باعتبارهم «يهودا وعربا في الوقت نفسه» وعد بلفور واحتجوا عليه . ودعوا مواطنيهم « الى النضال من أجل استقلال فلسطين استقلالا تاما ، وتأليف حكومة ديمقراطية عربية فيها ، ومنع الهجرة الصهيونية الى فلسطين ، وايقاف انتقال الاراضي الى الصهاينة »(١٠).

وفي فبراير (شباط) عام ١٩٤٦ ، اصدرت عصبة مكافحة الصهيونية بيانا « الى الرأي العام العربي والديمقراطيين جميعا» ذكّرت فيه بما كانت قد رددته قبلئذ من « ان مشكلة فلسطين يجب أن تنفصل عن المشكلة اليهودية ، لان المشكلة الاولى ما هي الا مشكلة شعب يناضل في سبيل حريته واستقلاله ، فاذا كانت المشكلة اليهودية لا تربط بمشاكل الشعوب المناضلة الاخرى ، فلماذا اذن تربط بمشكلة الشعب الفلسطيني العربي المناضل ؟! » كما أعاد البيان الى الاذهان ما كانت العصبة قد طالبت به من « استقلال فلسطين ومنع الهجرة ... وان قضية فلسطين لا تحتاج الى تحقيق ، فهي واضحة وضوح الحق ، خصوصا وقد مر ما يزيد على ربع قرن والحكومة البريطانية دائبة على (لجان تحقيق) و(هيئات تحقيق) ولما ينته (التحقيق) » . وتؤكد العصبة في بيانها أن « هذا (التحقيق) لن ينتهي ما لم تأخذ فلسطين العربية ــ تعاونها الشعوب العربية ــ حقها أخذا ، وتنتزع استقلالها انتزاعا . لان الاستعمار البريطاني وكل استعمار آخر قد علمنا بأن سماءه لا تمطر غير النار والدمار » . وكرر البيان ما كانت الهيئة المؤسسة للعصبة قد ذكرته في مذكرتها للحكومة العراقية ، تلك التي طلبت فيها اجازة نشاط العصبة ، والتي جاء فيها « ان المشكلة اليهودية لا يمكن أن تحل الا بقيام نظم ديمقراطية في الاقطار التي يستوطنها اليهود في العالم » . وأن « ليس يهود العراق وحدهم يناهضون الصهيونية ويقومونها ، بل هنالك منظمات يهودية كثيرة في مختلف انحاء العالم تناهض الصهيونية وتقاومها أيضا » . ونددت العصبة في بيانها بقرار الحكومة البريطانية القاضي « بالسماح والهجرة لـ ١٥٠٠ مهاجر شهريا الى فلسطين » . ورأت العصبة في هذا القرار استهتارا من الاستعمار البريطاني بوعوده وتعهداته ، كما « يعد استهتارا بوجود لجنة التحقيق نفسها واعترافا بعدم أهميتها » . وتقصد العصبة هنا لجنة التحقيق الانجلو ــ امريكية ، التي شكلتها بريطانيا وامريكا للتحقيق في امكانات فلسطين على استيعاب المهاجرين اليهود ، وفي أسباب الاضطرابات في فلسطين ، وتقديم ما تراه اللجنة مناسبا من الحلول ، وقد ندد بيان العصبة « بالاعمال الارهابية التي يقوم بها عملاء الاستعمار البريطاني والامريكان » . وترى العصبة ان هذه الاعمال الارهابية هدفها « ذر الرماد في العيون ، كي يقدموا حجة للاستعمار البريطاني ليحشد قوات كبيرة في فلسطين ، ظاهرها مقاومة هذه الاعمال الارهابية ، وجوهرها ضرب الحركات التحريرية في البلدان العربية كافة ، خصوصا وان المطالبة بجلاء القوات الاجنبية عن جميع البلاد العربية أصبح شعار العرب في العراق ومصر وسوريا ولبنان » . ودلل بيان العصبة على صحة هذا الاستنتاج بمقال كانت قد نشرته جريدة « دافار » الصهيونية بفلسطين ، جاء فيه « أن هذه القوى البريطانية لم تحشد في فلسطين من أجل الشعب اليهودي ، وقد أثبتت التجارب ان فرقة واحدة تكفي لاقتحام مستعمرتين في يوم واحد . ان هذه القوات البريطانية الكبيرة قد حشدت هنا لحاجات بريطانية ، ونحن نعترف بحق هذه

الحاجات ، ومستعدون للاهتمام بها ومساعدتها في تأديتها ، كما فعلنا أكثر من مرة . لاننا نعترف بالعلاقة بين مصير الامبراطورية وبين مصيرنا ، ونعترف بهذه الشركة ونريدها . ولكن هذه لم تحشد من أجلنا والحق يقال » . وأكد بيان عصبة مكافحة الصهيونية « ان العرب لا يمكن أن يحصلوا على حرياتهم واستقلالهم الا بالاعتماد على انفسهم وبالتعاون مع قوى الشعوب المعادية للظلم والاستعمار » . وأنهت العصبة بيانها بدعوة رؤساء الحكومات العربية الى قضية فلسطين في مجلس الامن والمطالبة بالغاء الانتداب على فلسطين ، وبمنحها استقلالا تاما(١١) .

كما ارسلت العصبة مذكرتين ، أولاهما لرؤساء الحكومات العربية والثانية لامين الجامعة العربية العام ، ونددت العصبة في المذكرتين بلجنة التحقيق الانجلو امريكية ، مؤكدة انها « ما هي الا ستار مهلهل يختفي وراءه الاستعماران البريطاني والامريكي ، بقصد القيام بهجوم جديد لدعم الصهيونية وتثبيت أقدام الاستعمار في فلسطين وباقي البلاد العربية »(١٢) . ثم أصدرت العصبة بيانا الى الجماهير العربية حول اللجنة المذكورة ، أشارت فيه الى أن الاستعماريين الانجليزي والامريكي قد عمدا — قبل ان تنتهي لجنة التحقيق من (تحقيقاتها) — الى تنفيذ خططهما الاستعمارية « فقد اقر البرلمان الامريكي الهجرة الى فلسطين ونقضت بريطانيا كتابها الابيض ، وسمحت بالهجرة الى فلسطين » . ونبهت عصبة مكافحة الصهيونية الى المؤامرة البريطانية الرامية الى تقسيم فلسطين ، اذ يقول بيانها ان بريطانيا « تسعى الان لشطر فلسطين ، لتقيم في شطر منها دولة صهيونية وقاعدة عسكرية لها في قلب البلاد العربية » . وأكدت العصبة عجز لجنة التحقيق الانجلو — امريكية « عن القيام بتحقيق عادل محايد في قضية فلسطين وعجزها عن اصدار حكم يمس جوهر القضية ، وهو وجوب الغاء الانتداب البريطاني ، وتأليف حكومة وطنية ديمقراطية في فلسطين » . ويشير البيان الى « ان يهود العراق يعتقدون اعتقادا جازما بأنهم جزء لا يتجزأ من الشعب العراقي » وانهم « يرون في الدعوة الصهيونية ، أداة تهديم لانها تدعو الى اثارة الحقد العنصري والمذابح » . وأشارت العصبة في بيانها الى « أن الزعماء الصهاينة كشفوا بشهاداتهم امام لجنة التحقيق الانكليزية — الامريكية عن صلاتهم الوثقى بالاستعماريين الانكليزي والامريكي ، وعن حقيقة رؤوس الاموال الاجنبية الهائلة التي تستثمر العامل اليهودي في فلسطين ، وعن استعدادهم — بل والحاحهم — بطلب استمرار الانتداب البريطاني على فلسطين وبوعودهم بتوظيف رؤوس اموال اجنبية طائلة في المشاريع الصهيونية » وانهم بذلك « لم يستطيعوا اخفاء الصفة الطبقية الاعتدائية للصهيونية » . وأشار بيان العصبة الى ما كان قد صرح به العالم الامريكي اليهودي اينشتاين من أن اللجنة الانجلو — امريكية « ستار من الدخان يحجب وراءه الدسائس الاستعمارية الانكليزية الامريكية » . واتهم البيان الحركة الصهيونية بأنها تنظم الحملات الارهابية في فلسطين ، لخلق المبرر لبريطانيا كي تحشد قواتها في فلسطين بحجة المحافظة على الامن . وأنهت العصبة بيانها بدعوة الشعب العراقي الى مقاطعة لجنة التحقيق هذه . ويرى بيان العصبة « أن حل قضية فلسطين لن يتم الا عن طريق توحيد نضال الشعوب العربية ، واعتمادها بالدرجة الاولى على كفاحها الوطني المشترك ، وعلى رفع قضية فلسطين الى مجلس الامن للتحقيق في : ١ — الغاء الانتداب ، واستقلال فلسطين استقلالا تاما . ٢ — تمكين الشعب الفلسطيني من تأليف حكومة وطنية ديمقراطية تضمن مصالح وحقوق جميع سكان فلسطين الحاليين ، دون تمييز في العنصر والدين »(١٣) .

وبعد صدور بيان اللجنة الانجلو — امريكية ، نظم الحزب الشيوعي العراقي ، وحزب التحرر الوطني وعصبة مكافحة الصهيونية تظاهرة نددت بالبيان الاستعماري ، واصطدمت التظاهرة بقوات الجيش ، التي جلبتها الحكومة العراقية لتفريق

المتظاهرين بالقوة(١٤). وكان ذلك في اواخر مايو (ايار) ١٩٤٦ . مما دفع الحكومة العراقية الى اصدار أمر بتعطيل صحيفة « العصبة » لمدة سنة . وفي مذكرة وجهتها عصبة مكافحة الصهيونية الى رئيس جمعية الصحفيين ببغداد ، اعتبرت العصبة قرار التعطيل هذا « بادرة سيئة لها عواقبها الوخيمة على الصحافة العراقية ». وأكدت مذكرة العصبة « ان للاستعمار والصهيونية دخلا قد حمل السلطات على اصدار قرار التعطيل ، استنادا الى الوشايات الملفقة التي روجها ويروجها أذناب الاستعمار والصهيونية ضد عصبتنا ، وضد جميع الصحف الوطنية الحرة ، لغرض ايقاف الحملة الوطنية المثارة اليوم في سبيل فلسطين العربية ، في سبيل طرح قضيتها على مجلس الامن ، في سبيل اتخاذ اجراءات فعالة ضد المعتدين ، وفي سبيل الجلاء ، والقضايا الوطنية الاخرى ، وفي سبيل كشف المؤامرات والدسائس التي تحيكها الجهات الاستعمارية ضد قضية التحرر العربية الوطنية » . ونددت المذكرة بقرار التعطيل ، مؤكدة « ان تعطيل الصحف الوطنية معناه كم أفواه الشعب . معناه تجريده من أداة فعالة توجه نضاله . معناه ترك البسطاء من ابناء شعبنا فريسة الدعايات الاجنبية الخبيثة التي تحاول صرف أنظار شعبنا عن قضاياه الملحة — التحررية والعمرانية — وتمزيقه بالتفرقة والمشاحنات الطائفية والعنصرية وغيرها » . وتشير مذكرة العصبة الى « النتائج السيئة التي تتعرض لها حركتنا الوطنية ... والخسارة المادية التي تلحق بالصحفي من جراء التعطيل » وتستنكر المذكرة وقوع « هذه الاهانة على الصحافة الوطنية » . وتنهي العصبة مذكرتها، بطلب تأييد جمعية الصحفيين العراقيين ومساعدتها « من أجل الغاء قرار التعطيل الجائر ... وفي سبيل وضع حد لمثل هذه الاحكام الادارية ضد الصحف الوطنية »(١٥).

وسارعت الهيئة المؤسسة لحزب التحرر الوطني العراقي بارسال مذكرة احتجاج الى رئيس وزراء العراق ، ضد تعطيل صحيفة « العصبة » وضد مهاجمة الشرطة العراقية للوطنيين ، وتنديدا بمنع الحكومة العراقية للاضراب السلمي الذي كان قد دعا اليه حزب التحرر الوطني العراقي ، تأييدا لفلسطين . وأشارت مذكرة حزب التحرر الى أن الدستور العراقي قد صان الحريات الشخصية. كما أشارت الى اطلاق الوزارة العراقية الحريات ، وتستهجن المذكرة لكونها لا تجد من « هذا العهد سوى الرجوع الى الاساليب البالية في الحكم » . واستنكرت مذكرة الحزب العراقي مهاجمة الشرطة العراقية للهيئة المؤسسة لحزب التحرر الوطني التي كانت قد دعت « الهيئات الوطنية للتداول بشأن اقامة مظاهرة سلمية في سبيل فلسطين » . كما نددت المذكرة بهذه « الاجراءات غير القانونية » وطالبت « بايقاف هذه الاجراءات التعسفية غير القانونية ، واطلاق الحريات الديمقراطية » . وقد حملت المذكرة توقيعات كل من سالم عبيد النعمان المحامي — محمد علي الزرقا — يوسف هارون زلخة — محمد حسين أبو العيس المحامي — مهدي عبد الرزاق المحامي — حسين محمد الشبيبي — علي شكري — وعبدالكريم الصفار(١٦).

ماذا بقي منها للتاريخ ؟ تقاس أهمية الحدث أو العمل — أي حدث أو عمل — بمدى عمق تأثيره في الحياة الفكرية والمادية والسياسية للمجتمع . وتقول مجلة ماركسية مصرية ، في تقييمها لعصبة مكافحة الصهيونية ، ان العصبة قد فضحت « بكفاحها السياسي الواعي ، وبالتأييد الذي نالته من الجماهير العراقية ، مواقف الحكومة العراقية المترددة ازاء مشكلة فلسطين »(١٧).

وبعد اعتقال قادة العصبة ، في يونيو (حزيران) ١٩٤٦ ، كتب اثنان منهم ، هما يوسف هارون زلخة — رئيس العصبة ، ومحمد حسن ابو العيس عضو هيئتها الادارية ، كتبا، احتجاجا ، منعت الحكومة العراقية زملاء المعتقلين من ارساله — برقيا — الى امين عام الجامعة العربية ومختلف الصحف والهيئات التقدمية في الاقطار العربية . وحصلت

« الفجر الجديد » القاهرية على نص المذكرة ، ونشرتها(١٨). وتحوي المذكرة احتجاجا على تعطيل صحيفة « العصبة » وعلى اعتقال قادة عصبة مكافحة الصهيونية ، ومهاجمة مطبعة دار الحكمة واعتقال سكرتير العصبة ومحاسبها « لمجرد اصدارنا كراسا يفضح الصهيونية وسيدها الاستعمار » . كما تحتج « على اعتقال أربعة اعضاء من جمعيتنا لمجرد تقديمهم عريضة احتجاج على اعتقالنا » . ورأت المذكرة ان « عمل الحكومة العراقية هذا لا يفيد غير الصهاينة والاستعمار ، أرادت أم لم ترد » . وأشارت المذكرة الى«ان الاستعمار والرجعية استاءا من بعث الحياة الحزبية واستاءا من عصبتنا بصورة خاصة » . ثم استعرضت مذكرة قادة العصبة انجازات عصبة مكافحة الصهيونية ، التي تسببت في استياء الاستعمار والرجعية ، وحصرتها فيما يلي : « ١ ــ قاطعت لجنة التحقيق الانكلو ــ امريكية ، وفضحت الاغراض التي تألفت من أجلها هذه اللجنة ، وقد صرح لنا معالي وزير الداخلية السابق باستياء الحكومة من موقفنا من لجنة التحقيق . ٢ ــ طالبنا بعرض قضية فلسطين على مجلس الامن ، بينما يريد الاستعمار وتريد الحكومة العراقية حصر هذه القضية في ذمة الحكومة البريطانية ، صاحبة الانتداب وخالقة الصهيونية . ٣ ــ طالبنا بعدم الاعتراف بالانتداب على فلسطين ، وبالوعد الذي قطعته بريطانيا للصهاينة بشكل عملي ، وذلك بعدم الاعتراف بحكومة الانتداب وبقطع العلاقات معها ، وغلق الحدود في وجه الجيش البريطاني المتنقل بين العراق وفلسطين . ٤ ــ طالبنا ان ينظم الدفاع عن فلسطين على أساس شعبي ، يعتمد على قوانا الداخلية وعلى حقنا الدولي وأن تنبذ السياسة القديمة التي سارت عليها الحكومات العراقية وهي سياسة (حسن الظن بالمستعمرين) وانتظار حل مشاكلنا الوطنية على أيدي (لجانهم التحقيقية) وموائدهم المستديرة ! ٥ ــ طلبنا دعوة المنظمات الشعبية الديمقراطية في البلاد العربية جميعها الى عقد مؤتمر لتنظيم الدفاع عن فلسطين ، بشكل يضمن اشراك جماهير الشعب في النضال الفعلي المجدي من اجل تحرير فلسطين والبلاد العربية . ٦ ــ عقدنا خلال أقل من ثلاثة اشهر ، اجتماعات شعبية عامة من أجل تحرير فلسطين ، اكثر مما عقد في العراق خلال العشر سنوات الماضية . وحضر هذه الاجتماعات الالوف من المواطنين المتحمسين الذين اشتركوا ، فعلا ، في أكثر القرارات التي اتخذتها العصبة . ٧ ــ زعزعنا النفوذ الاستعماري والغمناه في أهم قاعدة اجتماعية يستند اليها ، وهي (الاقليات) الدينية والقومية التي طالما استغل وجودها للتفريق بين صفوف الشعب الواحد ولاستخدام طائفة ضد أخرى . فانبعاث العصبة من الوسط اليهودي ضربة للاستعمار الانكلو ــ امريكي ــ الصهيوني ، الذي نصب نفسه حاميا ومدافعا عن يهود العالم . ٨ ــ احتلت جريدتنا (العصبة) ، منذ أول صدورها ، منزلتها المحببة المرموقة عند جمهور القراء الذين ساعدوها وآزروها وعملوا على نشرها ، حتى أوشكت ان تحتل المكان الاول ــ ان لم تحتله فعلا ــ بين الصحف المحلية من حيث المادة وكمية المطبوع . ٩ ــ أوضحت (العصبة) في مقالاتها القضية الفلسطينية بشكل علمي واقعي ، وجردتها من جميع ما علق بها من تشويهات وتلفيقات المستعمرين ، وعرت الصهيونية وأظهرتها على حقيقتها ، كحركة استعمارية عنصرية وأداة للاستعمار الانكلو ــ امريكي. وفضحت أغراض الاستعماريين الامريكي والانكليزي ، والروابط التي تربطهما بالصهيونية . كما فضحت العوامل المساعدة والمشجعة للصهيونية . ودعت الى توحيد جهود المواطنين في جبهة موحدة لمكافحة الاستعمار والصهيونية » .

وبعد ، لعل من الامور غير المستهجنة أن تصدر حكومة نوري السعيد حكمها بالسجن المؤبد على يوسف هارون زلخة ، بدعوى انه يترأس عصبة للكفاح من اجل الصهيونية ، لا ضدها . نعم ، هكذا فسرت حكومة الطاغية اسم العصبة التي كافحت الصهيونية ، والى هذه الدرجة وصل الامر بالحكومة العراقية التي فعلت ذلك ، في الوقت الذي رحلت

فيه مائة وثلاثين الف يهودي من العــراق الى اسرائيل ، في عامـــي ١٩٤٩ و ١٩٥٠ وتقاضت ــ فيما قيل ــ عشرة دنانير عن كل مهاجر يصل الى اسرائيل !

---

* لمزيد من التفاصيل راجــع **تاريخ الاحــزاب السياسية في العراق ١٩٤٦ ــ ١٩٥٨** ، رسالة ماجستير ، لعبد الرزاق المطلق الفهد ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٠ . وراجع مقالنا « الاحزاب الشيوعية العربية وقضية فلسطين » الصادر ضمن كتاب **المقاومة الفلسطينيــة ــ الواقــع والتوقعات** ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الاولى ، تموز (يوليو) ١٩٧١ .

١ ــ الشرطة العامة ، التحقيقات الجنائية ، **موسوعة سرية خاصــة بالحزب الشيوعــي السوري** ، ١٩٤٩ ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ . ولمزيد من التفاصيل عن اوضاع اليهود في العراق ، راجع **يهود البلاد العربية** ، تأليف الدكتور علي ابراهيم عبده وخيرية قاسمية ، مركز الابحاث الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧١ .

٢ ــ نشرت الصحف العراقية نص الخطاب يوم ١٩٤٥/١٢/٢٨ .

٣ ــ جريدة **الزمان** البغدادية ، ١٩٤٦/٣/٨ ، أوردها الفهد في رسالته ، ص ١٤ .

٤ ــ الفهد ، **المصدر السابق** ، ص ٤٦ .

٥ ــ الفهد ، **المصدر السابق** ، ص ٤٧ .

٦ ــ الشرطة العامة ، **المصدر السابق** ، ج ١ ، ص ٨ .

٧ ــ رسائل العصبة **نحن نكافح في سبيل من ؟ وضد من نكافح ؟** مطبعة دار الحكمة ، بغداد ، ١٩٤٦ ، ص ٣ .

٨ ــ مجلة **الضميــر** القاهرية ، العدد ٢٧٤ ، ١٩٤٥/١٠/١٧ ، من مقال (لن تمروا) ، بقلم خيري محمود ، ص ١ .

٩ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٢٧٥ ، ١٩٤٥/١٠/٢٤ ، ص ١١ .

١٠ ــ مجلة **الفجر الجديد** القاهرية ، العدد ١٣ ، السنة الاولى ، ص ٨ .

١١ ــ **المصدر السابق** ، العدد ٢٢ ، ١٩٤٦/٢/٢٠ ، ص ١٤ .

١٢ ــ **المصدر السابق** ، العــدد ٢٨ ، السنة الاولى ، ١٩٤٦/٤/٣ ، ص ٢ .

١٣ ــ **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، والصفحة نفسها .

١٤ ــ **المصدر السابق** ، العدد الثامن والثلاثون، السنة الثانية ، ١٩٤٦/٦/١٢ ، ص ٢٤ .

١٥ ــ مجلة **ام درمان** القاهرية ، العدد ٢٧ ، ١٩٤٦/٧/١ ، ص ١٨ .

١٦ ــ **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ٢ و١٨ .

١٧ ــ مجلة **الفجر الجديد** القاهرية ، من مقال (صوت العراق ــ في شرقنا العربي موجــات اضطهاد !) العدد ٤١ ، السنة الثـانية ، ١٩٤٦/٧/٣ ، ص ٧ .

١٨ ــ **المصدر السابق** ، العدد نفسه ، ص ١٨ و١٩ .

الطبقة العاملة الفلسطينية واليهودية وتنظيماتها (١٩١٨ — ١٩٣٩)

عمار الطالبي

على كثرة الدراسات والابحاث التي تناولت تاريخ القضية الفلسطينية وتطوراتها ، مع تعدد الكتابات التي انصرفت لدراسة هذا القطــاع الجماهيري او ذاك من الشعب الفلسطيني ، وهذا الحزب او ذاك ، فان الطبقــة العاملة العربية في فلسطــين ، وتنظيماتها السياسية والنقابية ، لم تحظ بعد بالاهتمام الكافي تاريخا وتقييما . واكثر من ذلك فان تاريخ الطبقة العاملة وتطورها وتعابيرها السياسية والاجتماعية والثقافية ، لم يكتب بعد . وما زال الغموض يكتنف قطاعا جماهيريا اخذ تاثيره بالاتساع سياسيــا واجتماعيا وعدديا وخاصة في العقد الرابع من هذا القرن وحتى كارثة ١٩٤٨ .

وكــانت « شؤون فلسطينية » قد نشرت في العدد الخــامس (تشرين الثاني ١٩٧١) « ملاحظــات حول اوضاع الطبقة العاملة العربية في فلسطين في عهــد الانتداب » . وتنشر هنا مقالا اخر يتناول ذات الموضوع من جــوانب اخــرى . بيد ان « شؤون فلسطينية » ما زالت تعتقد ان هذا الموضوع بحاجة الى مزيد من الدراسة والمتابعــة التاريخية ، ولا يمكن لمقالة او اثنتين ان تقول الكلمة الاخيرة فيه . لذلك تدعو المجلة النقابيين الفلسطينيين الذين كانت لهم تجربة عملية في النقابات العربية في فلسطين قبيل ١٩٤٨ ، والباحثين والكتاب العرب الى متابعة كتابة تاريخ الطبقة العاملة الفلسطينية ومؤسساتها واوضاعها ، وبتقديم الوثائق والشهادات المتصلة بهذا الموضوع في هــذه الفترة او تلك .

شكلت فلسطين والشرق الاوسط عمومــا جزءا من عالم المستعمـــرات ، نظرا الى ان التخلف كان يترجم نفسه في مستوى الانتاجية المنخفضة ، بالقياس الى انتاجية البلدان الصناعية ، ولم يبلغ متوسط دخل الفرد في الشرق الاوسط في عام ١٩٣٩ اكثر من ربع او سبع متوسط الدخل بالنسبة الى الغرب . هذا الفارق يتجلى ايضا في تراوح الاجور ، فالمهاجرون اليهود الغربيون يفرضون ويحصلون على اجور تتناسب مع مستوى الحياة في البلدان الرأسمالية المتقدمة ، اي على اجور مرتفعة جدا قياسا الى الاجور المدفوعة في المنطقة . ان العمال اليهود الذين ينافسون اليد العاملة المحلية الاكثر رخصا ، كانوا مضطرين الى مقاومة استخدام العمال العرب في فروع النشاط الاقتصادي اليهودي ، الامر الذي ادى الى تشكــل اقتصاد يهودي مغلق ، ومن ثم بــدون منافسة فعالة من الاقتصاد العربي القائم الى جانبه .

بسبب مركــزة رؤوس الامــوال والنسبة المرتفعة من العمـــال المختصين في القطاع الاقتصادي اليهودي ، فأن « اليشوف » كانت تساهم في عـــام ١٩٤٤ بـــ ٥٩٫٧٪ من الدخل القومي في البـــلاد ، رغم انها تمثل اقل من ثلث السكـــان ، ان حصة التجمعات السكانية اليهودية كانت اكثر ارتفاعا في غالبية القطاعات الاقتصادية ، وخاصة القطاعات

الحديثة منها مثل الصناعة والتجارة والبناء والمواصلات . وبشكل عام كان متوسط الدخل للفرد قد وصل عام ١٩٤٤ الى ٣٠٠ جنيه فلسطيني عند اليهود مقابل ١٦٥ جنيها فقط عند العرب كما يبين ذلك الجدول رقم ١ (١).

جدول رقم (١)

متوسط الدخل للسكان العرب واليهود بالجنيه الفلسطيني (١٩٤٤)

الفروع	اليهود	العرب
الزراعة	٣٧٩	١٣٤
الصناعة	٣٦٤	٢٥٤
البناء	٣٠٠	١٤٥
الجيش	١٢١	١٢١
الاستخدام المدني والعسكري	١٧١	١٠٤
النقل والمواصلات	٤٠٠	٢٣٣
التجارة والمال	٣٧٠	٢٣٨
البوليس والادارة	٢٢٥	١٥٠
متفرقات	١٢٤	١٨٢
المتوسط	٣٠٠	١٦٥

وما من شك ان سلطات الانتداب البريطاني كانت تمارس تحيزا واضحا بصدد المطالب الصهيونية المتعلقة بمضاعفة معايير اجور العاملين اليهود . كما ان العمال اليهود من ذوي الاصل الاوروبي كانوا متجمعين في الهستدروت ، على العكس من العمال العرب وجزء من العمال اليهود الشرقيين الذين كانوا عموما غير منظمين وخاصة في فترات الانتداب المتقدمة . ومن ثم لم يكن الاخيرون قادرين على الحصول على أجور معادلة . ان التفاوت الهائل في اجور كلا المجموعتين (العربية واليهودية) يماثل بشكل واضح مع التفاوت في الاجور بين الاوروبيين والسكان الاصليين في المستعمرات (راجع جدول رقم ٢) .

جدول رقم (٢)

الاجور اليومية المدفوعة للعمال الراشدين (ذكور) بالمليمات الفلسطينية لعام ١٩٣٥

نوع العمل	العرب واليهود الشرقيون	اليهود الاوروبيون
١ ـ العمل الزراعي		
عمال حراثة الارض	٨٠ ـ ١٢٠	٢٥٠ ـ ٤٠٠
قاطفو البرتقال	١٢٠ ـ ٢٠٠	٢٢٠ ـ ٢٢٥
٢ ـ العمل الصناعي		
عمال المحاجر (المهرة)	٢٠٠ ـ ٣٠٠	٤٠٠ ـ ٦٠٠
عمال المحاجر (غير المهرة)	١٠٠ ـ ١٤٠	٣٥٠ ـ ٤٠٠
عمال البناء (المهرة)	٥٠٠ ـ ٦٠٠	٦٠٠ ـ ٧٠٠
الفعلة	١٠٠ ـ ١٨٠	٣٥٠ ـ ٤٠٠
٣ ـ المصالح الحكومية		
عمال رصف الشوارع	١٢٠ ـ ٤٠٠	٢٥٠ ـ ٥٠٠
الفعلة	٧٠ ـ ٢٠٠	١٢٠ ـ ٤٠٠

Le Sionisme Contre Israël, N. Weinstock (Maspero, 1969, Paris), p. 185.

ظل هذا السلم المزدوج للاجور قائما طوال فترة الانتداب ، ففي عام ١٩٤٦ مثلا كان النجار العربي او اليهودي الشرقي يكسب ٨٥٠ مليما في اليوم ، بينما زميله الاوروبي ١١٠٠ مليم(٢). بيد انه من الضروري ان نسارع للقول بأن التقارب المغري لعقد مقارنة بين الصهيونية والاستعمار الكلاسيكي هو خاطىء ، نظرا للانعطافة الغريبة التي اتخذتها المغامرة الصهيونية بعيد الموجة الثانية من الهجرة — والتي كان شعارها العمل اليهودي — ، ذلك ان الانغراس الصهيوني في فلسطين اخذ شكل الاستعاضة عن السكان العرب بيد عاملة يهودية . لقد نتج عن ذلك ان الصهيونية بمفهومها ذاته تنطوي على عملية خلق طبقة عاملة صهيونية ومن ثم ترفض تشغيل البروليتاريا العربية . وبهذا المعنى تندرج الهجرة اليهودية ضمن النظام الاستعماري باعتمادها على عملية نزع املاك السكان العرب الفلسطينيين، وهو الانتزاع الذي كان يتم على مرای السلطات البريطانية المتواطئة ومسمعها . الا أن عملية النهب هذه لم تكن مصحوبة بفرز اجتماعي مشابه لما حصل في المستعمرات السكانية مثل الجزائر وافريقيا السوداء ، حيث يقوم اقتصاد انقطاع الاستعماري من الفه الى يائه على استغلال السكان الاصليين . ان اليهود في فلسطين قد شرعوا في التحول الى امة عبرانية جديدة على غرار النموذج الرأسمالي التقليدي : برجوازية سائدة وبروليتاريا .

ومن بين ٢١٢ الف مهاجر يهودي في البلاد عام ١٩٣٤ ، كان ٢٨،٨٪ منهم منخرطين في الصناعة والحرف،اما عدد اجراء قطاع الصناعة العربية فقد كان ٢١ الفا(٣). وان مقارنة توزع السكان الناشطين اقتصاديا ، تعكس الطابع الصناعي والحديث للسكان اليهود ، والبنية الزراعية للمجتمع العربي (راجع جدول رقم ٣) .

جدول رقم (٣)

التقسيم المهني للسكان عام ١٩٣١

الفــروع	يهود	عرب
الزراعة	١٩،١٪	٥٩،٠٪
الصناعة	٣٠،٦٪	١١،٩٪
النقــل	٥،١ ٪	٦،٠ ٪
التجــارة	١٣،٨٪	٨،٤ ٪
الادارة	٢،٠ ٪	١،٣ ٪
المهن الحرة	١١،٦٪	٢،٣ ٪
الخدمــات الخاصة	٥،٣ ٪	٣،٢ ٪
متفرقــات	١٢،٥٪	٦،٩ ٪

ان الشكلين الجوهريين للاستعمار الصهيوني ، اللذين افصحا عن طابعهما المميز ، هما مبدأ تملك الاراضي عن طريق « الصندوق القومي اليهودي » ، وقاعدة « العمل اليهودي » . ومن ثم كان نمو الصناعة اليهودية مرهونا الى حد كبير بنشاط النقابات الصهيونية « الهستدروت » .

لقد أسست الهستدروت « الاتحاد العام للعمال اليهود في فلسطين » في حيفا سنة ١٩٢٠ ، وكانت يومذاك تعد ٤٤٣٣ عضوا . وقد مثلت منذ لحظة انطلاقها ملامح فريدة. وبهذا الصدد عبر احد قادة الحركة العمالية الصهيونية « **ان الامر لا يتعلق — بالنسبة للهستدروت — بتنظيم الطبقة اليهودية فقط ، بل بخلقها وتشكيلها وغرسها في فلسطين** » (٤). وبكلمة اخرى ، فان هدف الهستدروت لم يكن الدفاع عن مصالح العمال اليهود فحسب ، بل ان هدفها الاكثر تحديدا والحاحا ، هو تحقيق الاستعمار الصهيوني

في فلسطين . فهي اذن نقابة قومية واداة طيعة وواعية في يد الصهيونية . وهي حسب عبارات نظامها الاساسي « تتخذ واجبا عليها تكوين نموذج جـديد للعامل اليهودي ، كحصيلة لاستعمار فلسطين » . وضمن هذا الفهم ، وهذا التوجيه ، نمت الهستدروت بسرعة ، فانتقلت من ١٥٢٧٥ منخرطا في عام ١٩٢٦ الى ٢٥٣٧٨ منخرطا عام ١٩٣٠ ، ثم الى ٨٥،٨١٨ في عام ١٩٣٦ .

لقد مـدت نشاطها الى كل المجـالات الاقتصادية واصبحت العمود الفقري للمشروع الصهيوني ، ونظرا الى اهدافها الصهيونية فقد شرعت في ممارسة نشاط واسع ومتعدد الاشكال يستهدف خلق القاعدة الاقتصادية للدولة اليهودية المقبلـة . وهكذا احـاطت الحركة العمالية اليهودية نفسها بشبكة من المؤسسات والخدمـات العامة : صندوق المرض والعجز ، بورصة العمل ، شركة مقاولات، شركة بيع المنتجات الزراعية، تعاونية البيع بالجملة ، شبكة مدارس عمالية الخ . لقد اوكلت عملية تنسيق جميع النشاطات الاقتصادية الى هيئة خاصة اسمها جمعية العمال . ان الخدمات الاقتصادية التي تقدمها الهستدروت لم تقتصر على ما مر ، فهناك عدد من الشركات والمؤسسات التابعة لها ، مثل شركة الاستيطان العمالي « نير » شركة تعاون عمالي متبادل ، تعاونية الاسكان ، شبكة من المصارف ، شركة تأمين كانت تعمل بفضل الاسهام المالي من الحركة الصهيونية في الخارج . دون ان ننسى ان الهستدروت كانت تشرف أيضـا على منظمة الدفـاع اليهودي « الهاجاناه » .

وقد استطاعت النقابة الصهيونية ، بفضل هذه النشاطـات ان تحتل بسرعة مكـان الصدارة ، ان لم نقل موقعا احتكاريا في الاقتصاد ، فالهستدروت هي المستخدم الاكثر اهمية بعد الحكومة ، ودفعت سياستهـا لتمكين الطبقة العاملـة اليهودية التي بصدد التكون من قاعدة اقتصادية ضرورية فخلقت التعاونيات الانتاجية ، ووفرت فرص العمل للمهاجرين ، وضمنت شركاتها تسويق المنتجات اليهوديـة . ان سبب هـذا التوسع الاخطبوطي للهستدروت في مجالات غريبة كليا عن النقابة والمفهوم النقابي يعود اساسا الى السياسة الصهيونية الاستعمارية .

وهكذا نجد الشعارات الملبية لهذه السياسة ، فشعار « العمـل اليهودي » هو معادل لشعار « الانتاج اليهودي » . وهي الشعارات التي تهدف الى الترويج لبيع منتجات الاقتصاد الصهيوني في القطاع اليهودي على حساب الانتاج العربـي وللاضرار بـه لانه كان ينافسه بأسعار كلفته المربحة . ولكن كما ان « العمل اليهودي » يعني عمليا طرد اليد العاملة العربية من المشاريع اليهودية ، فأن « الانتاج اليهودي » يترجم نفسه في الحياة اليومية بالمقاطعة المنظمة للبضائع العربية . لذلك ونتيجة لهذه السياسة ، فان مجرد اشاعة في عام ١٩٤٤ مثلا بأن أحـد المقاهي اليهودية في تل ابيب قـد استخدم بعض العمال العرب تثير تجمعا يهوديا معاديا يعد الاف المتظاهرين ، ويجد الفلاح العربي ذات المقاومة ، اذا ما تحدى المقاطعة اليهودية وحاول بيع منتجاته الزراعية في السوق اليهودية ويطرد من هناك بعنف(٥) .

كانت الهستدروت هي الاداة الاساسية للتمييز العنصري الاقتصادي الذي مارسته الصهيونية ضد الفلاحـين العرب . وهذا يتطلب مـن كل عضو في هذه النقابـة الصهيونية ، ان يلتزم بدفـع ضريبتين اجباريتين : اولا : ضريبـة من اجل « العمـل اليهودي » تصب في صندوق تنظيم الاضرابات ، وتسهم في جهود الهستدروت الرامية الى منع تشغيل العمال العرب ، ليس في المؤسسات اليهودية فقط وانما في البريطانيـة والخدمات العامة . وثانيا : ضريبة من اجل « الانتاج اليهودي » ، اي من اجل تنظيم مقاطعة الانتاج العربي . ومن الامور الجديرة بالانتباه ان اي حزب من احزاب «اليسار» الاسرائيلي ، بما في ذلك حزب المابام ، لم يعترض ، حتى ولو شكليا ، على حرمان العمال

العرب من العمل ، ومقاطعة منتوجات الفلاحين العرب . ولم يمتنع اي من هذه الاحزاب عن دفع هاتين الضريبتين العنصريتين للهستدروت(٦) .

وهكذا فان منافسة اليد العاملة اليهودية لليد العاملة الفلسطينية ذات الاصول الريفية غير المنظمة ، والتي كانت من الخصاصة والبؤس بحيث تقبل بأجور شبه رمزية ، لم تكن منافسة حرة ونزيهة . بل ان شروطها كانت تمنع وتكبح اليد العاملة العربية الفلسطينية من ان تتكون وفق القوانين التاريخية لتشكل الطبقة العاملة في البلاد تقليديا .

وعلى هذا النحو تكون سياسة التمييز العنصري ضد العمال الفلسطينيين ، التي مارستها الهستدروت شبيهة تماما بالتمييز العنصري الاستعماري الذي مارسته نقابات الاممية الثانية في المستعمرات . لقد سبق لمندوبي الاحزاب العمالية في اكثر بلدان المستعمرات الاوروبية ان تحدثوا في مؤتمر الاممية الثانية ١٩٠٧ ، المعروف بمؤتمر شتوتغارت عن « الخطر » الذي تمثله اليد العاملة المحلية في منافسة اليد العاملة الاوروبية والامريكية !

ان ممارسة الهستدروت العنصرية ضد العمال العرب لم تكن كما قد تبدو في الظاهر لصالح البروليتاريا اليهودية في الدرجة الاولى ، بل لصالح البرجوازية اليهودية الصناعية الناشئة في فلسطين بين ١٩١٨ — ١٩٣٩ بشكل اساسي . وبمعنى من المعاني تبدو الهستدروت اقرب في ايديولوجيتها وسياستها العامة الى التسوية الطبقية التي توظف في التحليل الاخير لصالح البرجوازية اليهودية . فلقد كانت تمنع العمال اليهود في القطاع الاقتصادي اليهودي من شن اي اضراب مطلبي بحجة ان ذلك من شأنه الاضرار بالهدف النهائي للصهيونية . كما ان الرأسماليين وخاصة البريطانيين لم يدعوا الفرصة تفلت منهم ، لقد استغلوا ببراعة فائقة التمييز العنصري الاقتصادي ضد العمال الفلسطينيين ، ولعل ابرز مثل على هذا الاستغلال هو سلوك شركة التبغ الانجلو — امريكية التي عمدت الى وضع مشروعين منفصلين ، احدهما لتزويد السوق اليهودية « ماسبرو » والاخر لتزويد السوق العربية « قرمان وديك وسلتي » ، وكان كلا المشروعين يربط بديماغوجية بين بيع السجائر وتملق المشاعر القومية الصهيونية مرة ، والعربية مرة اخرى ، حسب الظرف وشروط العرض والطلب(٧) .

ان العمال الفلسطينيين الذين استبعدوا قسرا من سوق العرض والطلب البشرية ، لم يكن امامهم الا ان يتزاحموا بالمناكب على عروض الشغل الضئيلة التي كان يتيحها الاقتصاد الفلسطيني الضعيف ، خاصة في القطاع الزراعي . وبما أن العمال المستغلين بفظاظة لم يكونوا منظمين ، فأن المنافسة الفوضوية على العمل جعلت اجورهم تتدنى باضطراد . اما العدد الضئيل من النقابات المختلطة التي انشئت في العشرينات واقتصرت على قطاع الادارة والخدمات العامة في المدن المختلطة التي يتواجد فيها العرب واليهود بكثافة ، فانها ظلت هامشية وغير فعالة بتاتا لا في الدفاع عن مصالح العمال العرب ، ولا عن المصالح الحقيقية للعمال اليهود انفسهم(٨) .

ان الهستدروت في حالتين استثنائيتين قد قبلت في صفوفها عمالا عربا ، اذ حيث فشلت في مقاطعة العمال العرب عمدت الى انشاء فروع عربية لها لم تتجاوز على كل حال فرعين ، فقد اسس اولهما في حيفا عام ١٩٢٩ ، وثانيهما في القدس عام ١٩٣٤(٩) .

وقد استهدفت الهستدروت عمال البلديات والادارة والمشاريع ، المسيرة برأسمال غير يهودي ، وهي بالضبط اماكن العمل التي لم تنجح الهستدروت تماما في منع العمال العرب الفلسطينيين من الدخول اليها . لقد ارادت بذلك ان تضرب عصفورين بحجر واحد ، اولا : سعت لتمويه طابعها العنصري ، ثانيا : فرض المبادىء الصهيونية التي هي جوهر هذه النقابة على العمال العرب الذين ينخرطون فيها . لكنها لم تنجح الا نادرا

وجزئيا ، لان غالبية العمال العرب كانت واعية الطابع العنصري الاستعماري لهذه النقابة الصهيونية التي ترفض حتى مجرد حقهم في منافسة اليد العاملة اليهودية في سوق العمل .

لقد غيرت الهستدروت خلال الحرب العالمية الثانية تكتيكها — دون ان تغير طبيعتها — بهدف مكافحة نفوذ النقابات الوطنية الفلسطينية . فاعلنت عن قبولها تشغيل نسبة معينة من العمال الفلسطينيين في الاشغال التي تنفذها فروعها . واستطاعت بالنتيجة ان تنشط فرعها العربي الذي اوكلت اليه احتكار تشغيل اليد العاملة العربية . لكن هذه الخدعة التكتيكية لم تصمد أمام الممارسة : فمشاريع الاشغال العامة التابعة للهستدروت المسماة (سوليل بونيه) مارست التمييز العنصري في الاجور بين العمال العرب واليهود(١٠).

خلال فترة ما بين الحربين العالميتين وجدت ثلاثة أحزاب يسارية صهيونية . « لكن لا يمكن اعتبارها تنظيمات عمالية مستقلة بالمعنى الحقيقي للكلمة . وذلك بسبب تبنيها للبرنامج الصهيوني ، بل للمنظمة الصهيونية نفسها ، واندماجها بالمجتمع الصهيوني والعلاقات الوثيقة التي تشدها الى الهستدروت . ما يمكن ان نتحدث عنه في افضل الاحوال هو عن اتجاهات عمالية في صلب جهاز صهيوني لا مركزي . ان الجناح العمالي للحركة الصهيونية المصاب بالغارغرينا القومية يشارك بشكل دائم في الوحدة المقدسة مع البرجوازية »(١١).

لم يتضمن برنامج أي حزب من هذه الاحزاب الصهيونية اي مطلب يتعلق بالمصالح المستقلة للطبقة العاملة . لقد كان قادتها جميعا مشدودين الى قطار المنظمة الصهيونية لبناء الوطن القومي اليهودي .

ثمة ميزة اخرى تشاطر فيها الاحزاب العمالية الصهيونية ، الاحزاب البرجوازية الصهيونية ، وهي الانتماء الى المنظمة الصهيونية العالمية ، حيث لم تكن هذه الاحزاب الا فرعا فلسطينيا لها . ان ما يفسر ارتباط الاحزاب اليسارية الصهيونية بهذه المنظمة هو واقع اعطائها الاولوية للاهداف القومية الصهيونية على الصراع الطبقي الفعلي ، كما ان واقع كونها مقصورة على اليهود فقط ، يعبر بوضوح عن جوهرها الصهيوني الصارخ ، علما بأن جميع الاحزاب العمالية ، فضلا عن النقابات لا تعير أية أهمية لجنسية العمال الذين ينضوون تحت لوائها . وهذا ليس الا مجرد برهان آخر على اعطاء هذه الاحزاب الاولوية للايديولوجية الصهيونية على المبادىء الاشتراكية .

لقد كان اعتماد الحركة العمالية الصهيونية على الهستدروت ، التي تكونت عناصرها اساسا في المستعمرات الجماعية . ان الاوهام الاشتراكية التي ارتبطت بالكيبوتسات تبددها الوقائع والتطورات ، ذلك ان حركة الكيبوتس « لم تكن ابدا تمثل اي تهديد للبرجوازية الصهيونية ، وانما على العكس »(١٢)، فقد استخدمتها البرجوازية الصهيونية كورقة دعائية في اوساط اليسار العالمي . وقد تكفلت الوكالة اليهودية ، المشكلة من كبار الرأسماليين اليهود في العالم ، بتمويل «هذه الواحات الاشتراكية في صحراء رأسمالية». ونجد ان المستعمرات الزراعية اليهودية قد شكلت اثناء الثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ كتائب الدفاع الوقائي ، اي استهدفت العدوان على القرى العربية بحجة التصدي سلفا لاحتمالات هجوم ثوار فلسطين . وهكذا اضطلعت هذه المستعمرات الزراعية بدور ارهابي بارز تجلى ذلك في الوحدات المتحركة بقيادة اسحق صادي. « ان الجناح العمالي للحركة الصهيونية هو الذي مارس ضغوطا على الهاجاناه لكي تتخلى عن سياسة الدفاع السلبي ازاء ثورة ١٩٣٩ (...) ان نخبة المقاتلين في وحدات الهاجاناه كانت تشارك في الحملات اليهودية — البريطانية التي نظمها الكابتن وينجيت . ففي سنة ١٩٣٩ قامت وحدات خاصة من الهاجاناه بسلسلة من الغزوات ضد القرى العربية . لقد كانت فرق

وينجيت تقوم بشكل مستمر بتصفية العرب « المشبوهين » ، رغم ان مهمتها الاساسية كانت حراسة انابيب شركة بترول العراق ، لحساب الامبريالية البريطانية (...) . وهكذا فأن تشويه النضال العربي الوطني التحرري المعادي للصهيونية ، من طرف الاخيرة ، والتصريحات الديماغوجية للاقطاعيين العرب قد أدت الى تعزيز تعاون العمال اليهود مع السلطات البريطانية »(١٣).

اسس العمال العرب في عام ١٩٢٥ بحيفا، جمعية العمال العرب الفلسطينيين، ولم تلبث ان امتدت فروعها الى عدد من المدن الاخرى . وقد سبق ان العمال العرب قاموا منذ ١٩٢٠ بجملة من النشاطات ذات الطبيعة التضامنية عندما بدأ عمال سكة حديد حيفا بجمع التبرعات لمساعدة العمال المرضى وعائلات المتوفين منهم .وفي عام ١٩٢٥ تقدم عمال سكة الحديد بطلب لتسجيل ناد خيري لهم . وفي آب ١٩٢٥ ، وبعد مضي ثلاثة اشهر على تقديم العمال طلب تسجيل جمعية العمال المذكورة آنفا استجيب لطلبهم . وقد تضمن النظام الاساسي للجمعية جملة من الاهداف النقابية والاجتماعية والحياتية وفقا للنظام القانون وبدون اي تعرض للامور السياسية والدينية(١٤). وقد بقيت نقابة السكك الحديدية محور نقابات الجمعية ، اذ كان هذا المرفق (السكك الحديدية) موضع صراع مع السياسة النقابية الصهيونية الهادفة الى استخدام العمال اليهود في الادارة وفي الاعمال الفنية دون العمال العرب .

ولم تلبث الجمعية ان تمكنت من تحقيق بعض المكتسبات المادية للعمال مثل زيادة الاجور وتحديد ساعات العمل ، كما اسهمت في بعض النشاطات الثقافية والوطنية . وعقدت مؤتمرها الاول في ١١ كانون الثاني عام ١٩٣٠ في مدينة حيفا ، فشارك ٦١٠ اعضاء كمندوبين لـ ٣٠٢٠ عضوا من مختلف انحاء البلاد(١٥). وقامت فيما بعد بافتتاح مدرسة ليلية مجانية لتعليم العمال الاميين . وقد تميزت المرحلة عموما بكثرة الاضرابات التي استهدفت تحسين اوضاع العمال المعيشية . ولم تلبث ان اصبح لها فروع في عشر مدن فلسطينية توزعت أعضاء الجمعية الذين بلغ عددهم نحو أحد عشر ألف عضو(١٦). أما العمال الزراعيون وخاصة العمال الموسميين ، فلم يكونوا منظمين على الاطلاق ، وكانت المنافسة شديدة بينهم وبين الحوارنة الوافدين من سوريا بحثا عن العمل بأدنى مستويات الاجور ، كما طرأت المنافسة ذاتها مع عمال التراحيل الاكثر بؤسا القادمين من الريف المصري .

مع انتفاضة العام ١٩٣٥ ، كانت اوضاع العمال الفلسطينيين تزداد بؤسا ، اذ ان سياسة « العمل اليهودي » ادت الى المزيد من التسريح للعمال الفلسطينيين ، ليس فقط من المؤسسات اليهودية وانما من المؤسسات العامة والخدمات . واصبح التسريح بالجملة مظهرا من الازمة الوطنية العامة لذلك كان لمساهمة العمال العرب في اضراب ستة الاشهر ١٩٣٦ ، طابع طبقي واضح بالاضافة الى طبيعة التحرك الجماهيري الوطني . لم تقف سلطات الانتداب ساكتة ازاء التسريح العمالي بالجملة فقط ، بل انها عملت الى اعتقال العديد من الكوادر النقابية العربية في جمعية العمال ، ولم تستجب الى اي من مطالبها . وهكذا اضطرت الجمعية الى اقفال ابوابها اثناء الاضراب العام . وهناك تقديرات ان الجمعية قد تأثرت جدا بسبب الاضراب ولم يتجاوز عدد اعضائها خمسة آلاف عامل عام ١٩٣٦ . ومن المؤكد أن الجمعية قد شلت تماما طوال عامين ، اي حتى عام ١٩٣٨ حين افرج عن قادتها النقابيين في ظروف انحسار الثورة وازدياد القمع ضراوة والاوضاع الاقتصادية في القطاع العربي سوءا . وقد بقيت الامور على هذه الحال حتى عشية الحرب العالمية الثانية اذ انخفض عدد اعضاء الجمعية في مطلع ١٩٤٠ الى ما يقرب المئتي عضو(١٧).

بيد ان ظروف الحرب الثانية عادت فأكسبت الحركة العمالية امكانات موضوعية وذاتية للنهوض مجددا ، ويعبر عن ذلك جليا مؤتمر عام ١٩٤٣ لعمال المعسكرات ، حيث كان مندوبو المؤتمر يمثلون ٢٨٠٠٠٠ عامل وقد تمكنت الجمعية من فتح ما يقارب الثلاثين فرعا لها في انحاء مختلفة من فلسطين وبلغ اعضاء هذه الفروع ٣٥٢١٧ عاملا(١٨).

ان الامور الاكثر دلالة هي ان جمعية العمال العرب استطاعت ان تشترك في مؤتمر نقابات العمال الدولي الذي عقد في السادس من شباط ١٩٤٥ ، بدلا من الهستدروت الذي كان عضوا يمثل الحركة العمالية في فلسطين . ان هذا الكسب السياسي قد سبب انزعاجا حقيقيا للهستدروت الذي حاول عبثا التقليل من شأن جمعية العمال العربية والتأثير ضدها بين أعضاء المؤتمر(١٩).

ان الانقسام العمودي بين العمال الفلسطينيين والعمال اليهود كان شبه كامل ، فالعمال العرب منخرطون في نقاباتهم الخاصة ما عدا قلة قليلة كانت منضوية في فروع الهستدروت المخصصة للعرب والمار ذكرها . فيما كان للعمال اليهود نقابتهم الخاصة الهستدروت واحزابهم الخاصة ، الاحزاب الصهيونية اليسارية .

التنظيم الوحيد الذي كان يجمع بين العمال العرب والعمال اليهود هو الحزب الشيوعي في فلسطين . ان الكوادر العليا لهذا الحزب كانت في معظمها يهودية . وهذا ما جعل اعضاء الحزب من العرب قليلي العدد جدا . كما أن الايديولوجيا السائدة ، القومية والدينية بين العمال الفلسطينيين كانت ايضا سببا اضافيا لابتعاد العمال الفلسطينيين عن الحزب الشيوعي . هذان العاملان كانا يجعلان الشيوعيين الفلسطينيين القلائل « معزولين » ومنبوذين(٢٠). اما العمال اليهود الذين ينتمون للحزب الشيوعي فانهم غالبا ما كانوا يهاجرون من فلسطين بمجرد ما يعون وضعهم الحرج كمستعمرين ، لكونهم قد هاجروا غالبا تحت تأثير الدعاية الصهيونية . فقد كانت عودتهم الى الاوطان التي هاجروا منها المخرج الوحيد لهم ، بصفتهم شيوعيين واعداء للاستعمار ، من التناقض الذي كانوا يواجهونه .

من جهة اخرى كانت حكومة الانتداب تهجر جبرا كل من يثبت لديها انه يهودي شيوعي . وكانت « تحرم دخول الاراضي الفلسطينية على المهاجرين المشبوهين بالبلشفية »(٢١). بيد ان قيادة الحزب الشيوعي لم تكن قيادة اممية ، لقد كانت خاضعة لتأثيرات الايديولوجية الصهيونية السائدة من جهة وللماضي الصهيوني لعدد كبير من مناضلي الحزب الذين غالبا ما مروا ، عبر مسيرتهم نحو الحزب الشيوعي ، بالاحزاب الصهيونية اليسارية . وهنا نجد علة عدم الاستقرار في حجم الشيوعيين ، هذا الاستقرار الذي كان ينخر باستمرار في قوة الحزب(٢٢).

ان نقطة الضعف الاساسية في الحزب الشيوعي الفلسطيني هي تكونه كنتيجة للاندماج في صلب الحزب العمالي الاشتراكي ، هذا الاندماج الذي حصل في سنة ١٩١٩ — ١٩٢٠ بين اقصى يسار البوعيلي تسيون في فلسطين ، وبين عدد كبير من الفرق الصغيرة التي كانت قد انفصلت عن البوعيلي تسيون في اوروبا الشرقية . كان الحزب العمالي الاشتراكي يعلن بأنه من انصار أيديولوجية « البروليتاريا الصهيونية » وهو لذلك لم يكن يختلف اختلافا جذريا عن برنامج الاحزاب الصهيونية اليسارية . وليس من باب الصدفة ان الحزب لم ينضم فورا للاممية الثالثة ، كما ان الحزب العمالي الاشتراكي ساهم في المؤتمر التأسيسي للهستدروت حيث حصل على سبعة مقاعد من مجموع ٨٧ مقعدا ، وكان يحبذ استخدام اليديش لكن مطالب دعائية فعالة قادته الى التخلي عن اليديش واستعمال العبرية .

لقد توصل القادة الصهاينة من جهة وسلطات الانتداب من جهة ثانية ، الى ان الحزب

العمالي الاشتراكي هو المسؤول عن حوادث اول ايار ١٩٢١ ، ومن ثم تم ابعاد قادته الاربعة عشر من فلسطين الى الاتحاد السوفيتي . ان ضعف تماسك الحزب النظري ، والتناقضات الداخلية غير المحلولة في صفوفه والقمع البوليسي الذي بدأ يتعرض له بعيد ابعاد قيادته خارج البلاد ، ادت الى عدم قدرة الحزب على الصمود امام ازمته العامة . وهكذا انهار الحزب كميا ونوعيا في اقل من ثلاث سنوات ، وهكذا اصبح اعضاء الحزب سنة ١٩٢٤ ٨٠ عضوا بعد ان كان عدد الشيوعيين (عربا ويهودا) في سنة ١٩٢١ قد ناهز ٣٠٠ عضو(٢٣) .

منذ ذلك التاريخ تحول الحزب الى السرية ، واصبح اعضاؤه ملاحقين . لكن بنية الحزب القومية المتنافرة (عرب — يهود) وتأثر الاعضاء العرب بالمشاعر القومية وخضوع عدد هام من الاعضاء اليهود لتأثيرات الصهيونية ، ثم خضوع الحزب ككل لسياسة ستالين المتقلبة ، كل هذه العوامل جعلت الخلافات الداخلية تتفجر بسبب هذا الحدث او ذاك ضمن سلسلة الاحداث التي كانت تهز فلسطين بعنف . واهم انفجار انجر اليه الحزب هو انشقاق ١٩٢٢ الذي انتهى في سنة ١٩٢٣ الى الوحدة مجددا وعلى اسس جديدة . فقد صادق مؤتمر الحزب في ١٩٢٣ على خط جديد معاد كليا للصهيونية . لقد رفض بيان المؤتمر « الصهيونية البروليتارية » التي كانت شعار الحزب في السنوات الماضية . وقطع كل علاقاته بيسار البوعيلي تسيون . وفي هذا المؤتمر تغير اسم الحزب : من الحزب العمالي الاشتراكي الى الحزب الشيوعي في فلسطين ، وبعد اعلان الحزب تغيير اسمه ، تم قبوله من طرف اللجنة التنفيذية للاممية الثالثة في موسكو كعضو فيها .

ادت هذه التحولات الايديولوجية الى توجه الحزب في سياسته الجديدة الى الجماهير العربية الفلسطينية ، بشكل اساسي ، تحت شعار « على الحزب ان يغادر الغيتو اليهودي »(٢٤) . وكان من الهستدروت ان طردت « الجناح العمالي » او المعارضة الشيوعية القائمة داخلها لخط الاخيرة المعادي للصهيونية ، والتي انتهت الى « تعريب » الحزب الشيوعي وانتمائه للاممية الثالثة . واعلنت الهستدروت عن تصديها في المستقبل لكل معارضة داخلية تتبنى خطا مشابها .

وهكذا اتجه الحزب الى العرب والى اليهود الشرقيين الذين ظلوا طوال السنوات الماضية مهملين وظلت لهم احزابهم ونقاباتهم الخاصة المنفصلة عن نقابات اليهود الوافدين من أوروبا الشرقية والغربية وأحزابهم. كما اتجه الحزب في دعايته نحو الفلاحين لتحريضهم على عدم بيع اراضيهم للصهاينة(٢٥) . بيد ان نقطة الضعف في الحزب بقيت قائمة ، وهي قلة الاعضاء العرب فيه .

ومع عام ١٩٢٨ انقسم الحزب من جديد . لكن هذا الانقسام لم يؤثر في الحزب ككل ، نظرا للازمة الاقتصادية الخانقة التي كانت تدفع الى صفوفه باعداد كبيرة . الا ان الانقسام الخطير جاء في العام التالي الذي كان تتويجا مباشرا لموقف الحزب من احداث ١٩٢٩ التي وصفها الحزب بأنها « ثورة معادية للامبريالية حولها اعوان الامبريالية الى فتنة ضد اليهود »(٢٦) . ومن الواضح ان هذا التقييم لاحداث ١٩٢٩ كان نتيجة لضغوط مكتب الاممية الثالثة على الحزب . ان الحزب قد هالته الاحداث في البداية الى حد انه اعطى الاوامر لمناضليه ليشاركوا في وحدات الدفاع الذاتي جنبا الى جنب مع الهاجاناه ، هذا القرار الذي اتخذ بموافقة القائد الشيوعي التشيكي سميرال ، مبعوث الاممية الذي كان ابان الاحداث مقيما في فلسطين(٢٧) . وقد ادان مكتب الاممية الثالثة ضمنا هذا الموقف ، عبر ادانته لموقف الحزب الشيوعي من الاحداث .

لقد اعتبرت الاممية الثالثة احداث ١٩٢٩ ثورة فلاحين حقيقية ، رغم ان بعض القوى الرجعية كانت على راسها في المرحلة الاولى لانطلاقتها . وقد اشار مكتب الاممية الى

الشعارات التي كان على الحزب الشيوعي ان يرفعها مثل : « احتلال الارض ، تشكيل اللجان الثورية من الفلاحين والبدو ، الثورة الزراعية .. الخ » كما انتقد بيان الاممية الثالثة الحزب الشيوعي في فلسطين لعدم تمكنه من الانغراس بين جماهير الفلاحين الفلسطينيين العرب . وقد اكدت الاممية الثالثة على ان هذا العجز الذي اصاب الحزب ناتج عن سوء نية قيادة الحزب ، ووجهت مجددا تعليماتها الى القيادة بـ « تعريب الحزب من اسفل الى اعلى »(٢٨).

ومن المعروف ان لينين في مؤتمر باكو ١٩٢٠ للاحزاب الشيوعية في افريقيا واسيا قد وجه النقد المرير للحزب الشيوعي المصري لان قيادته لم تكن نابعة من الاغلبية ، بل من الاقليات الطائفية . وطالب لينين الاحزاب الشيوعية في آسيا وافريقيا بأن تحمل على رأسها قيادات من الاغلبيات القومية لا من الاقليات القومية . لان ذلك هو احد الشروط التي تجعل هذه الاحزاب جماهيرية ، لا احزابا طائفية او اقلية معزولة عن أوسع الجماهير الشعبية .

ومن جهة اخرى حذرت وثيقة الاممية الحزب الشيوعي في فلسطين من التعاون مع البوعيلي تسيون الذي « اندمج بالفاشية » واشارت الاممية الى ضرورة تشكيل اتحاد يضم جميع الاحزاب الشيوعية في جميع الاقطار العربية(٢٩). ومنذ هذه الحقبة اصبح الحزب الشيوعي الفلسطيني يدعم باستمرار الحركة الوطنية الفلسطينية الى حد أنه اصبح ذيلا لحزب الاستقلال الذي كان يمثل الاتجاه الاكثر تقدما في الحركة الوطنية الفلسطينية رغم ان قيادته ، كان يغلب عليها الطابع الاقطاعي العائلي .

اثناء ثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ رفع الحزب الشيوعي شعار « التحقوا بحركة التحرر العربي » . وكان اعضاء الحزب يعدون الالف . وقد دعم الحزب بدون ادنى تحفظ نقدي، المفتي وقادة الحركة الوطنية الفلسطينية . ودعا الحزب اليشيف (التجمع البشري اليهودي في فلسطين قبيل تكوين اسرائيل) الى المشاركة في الثورة ضد المهاجرين الصهاينة . واكثر من ذلك قام مناضلو الحزب انفسهم بمحاولات تخريب لمبنى الهستدروت في حيفا وتل أبيب . وقد جاء في تعميم صادر عن اللجنة المركزية للحزب في عام ١٩٣٦ « ان القنابل التي قذفت على نقابة العمال في حيفا ، القاها اعضاء من الحزب الشيوعي الفلسطيني حسب اوامر صدرت اليهم من اللجنة المركزية للحزب »(٣٠).

ان هذا الخط الجديد للحزب ، قد دفع بالشيوعيين اليهود الى الانسحاب من الحزب بكثافة ، خاصة عام ١٩٣٧ حيث اثار دعم الحزب للحاج امين الحسيني ، انشقاقا خطيرا داخل الحزب . وادى فيما ادى اليه الى تمرد فروع بكاملها عن الحزب كما هي الحال مع فرع تل ابيب وقد تم فصلها من الحزب بتهمة عدم الانضباط . كما ادت السياسة ، غير النقدية للحزب ازاء الاحزاب القومية ان عدد كوادره العربية ، تخلت عنه وانضمت الى حزب الاستقلال . اما السلطات البريطانية فقد واصلت بدورها نفي اعضاء الحزب من اليهود الى خارج البلاد ، في الوقت الذي لم تر اي مبرر لتقوم بذات الشيء ازاء اي قائد صهيوني اشتراكي .

عشية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) كان عدد اعضاء الحزب من اليهود نحو ٣٠٠ عضو ، يضاف اليهم حفنة من الكوادر العربية(٣١).

ان الصورة الاجمالية لمسيرة الحركة العمالية الفلسطينية واليهودية فيما بين الحربين العالميتين (١٩١٨ ـ ١٩٣٩) تتميز بالضعف العددي والنوعي ، الكفاحي والتنظيمي . لكن برغم كل ضعفها تبقى النقطة اللامعة للطبقة العاملة الفلسطينية مشاركتها الفعالة في اضراب عام ١٩٣٦ المجيد الذي دام ستة شهور .

الحواشي :

١ — N. Weinstock, *Le Sionisme Contre Israël,* (Maspero, 1969), p. 183.

٢ — لاخذ صورة اكثر تفصيلا راجع : **النظـــام الاقتصادي في فلسطين** (بيروت ١٩٣٩) ، الفصل الخامس . جدول رقم ٢٧ صفحة ٣٧٣ .

٣ — شؤون فلسطينية ، العدد الخامس (تشرين الثاني ١٩٧١) « **ملاحظات حول اوضاع الطبقة العربية العاملة في فلسطين في عهد الانتداب** ». لهاني حوراني ص ١١٩ — ١٢٤ .

٤ — Tony Cliff, *The Struggle in the Middle East,* International Socialism Pamphlet, (London, 1967), Richard Williams - Thompson, *The Palestine Problem* (London 1946), p. 81.

٥ — **نفس المصدر السابق** ص ٨١ .

٦ — **نفس المصدر السابق** ص ٨١ .

٧ — *Le Rôl du Sionisme ou le Moyen Orient au Carfour.* (Paris, 1968), p. 19.

٨ — **نفس المصدر السابق** ص ٣٣ .

٩ — فاينشتوك ، **نفس المصدر** ، ص ١٩٠ .

١٠ — **المصدر السابق** ، ص ١٨٩ .

١١ — **المصدر السابق** ، ص ١٩٠ .

١٢ — **المصدر السابق** ، ص ١٩٤ .

١٣ — **المصدر السابق** ، ص ١٩٤ .

١٤ — علي عنـــاد خريس ، **الحـــركة النقابيـــة العمالية في الاردن** ، (عمان ١٩٥٧) ، ص ٤٣ — ٤٤ .

١٥ — **المصدر السابق** ص ٤٦ ، كذلـــك راجع المقالة المنشورة في مجلـــة **شؤون فلسطينية** في العدد المذكور انفا .

١٦ — **المصدر السابق** ، ص ٤٦ .

١٧ — **المصدر السابق** ، ص ٤٧ — ٤٨ .

١٨ — **المصدر السابق** ، ص ٤٩ .

١٩ — راجع **المصدر السابق** ص ٤٩ ، كذلـــك مجلة **شؤون فلسطينية** العدد الخامس .

٢٠ — W. Z. Laqueur, *Communism and Nationalism in the Middle East,* (London, 1956) p. 73.

٢١ — فاينشتوك ، **نفس المصدر** ، ص ١٩٦ .

٢٢ — لكوير ، **نفس المصدر** ، ص ٧٣ .

٢٣ — فاينشتوك ، **نفس المصدر** ، ص ١٩٦ .

٢٤ — لكوير ، **نفس المصدر** ، ص ٧٦ — ٧٧ .

٢٥ — فاينشتوك ، **نفس المصدر** ، ص ١٩٧ .
راجـــع ايضا الـــدراسة الهامة : الاستعمار الزراعي اليهودي وثورة ١٩٢٩ في فلسطين بقلم ا. شلشتر ترجمة ريـــاض يونس في **دراسات عربية** ، السنة السادسة العـــدد العاشر اب ١٩٧٠ ، ص ٢ — ٣٩ .

٢٦ — فاينشتوك ، **نفس المصدر** ، ص ١٩٨ .

٢٧ — Joseph Berger, *La ruptune avec les Communistes.* (Ed. les Nouveaux Cahiers, Paris) Vol. 13-14, pp. 34-38.

٢٨ — فاينشتوك ، **نفس المصدر** ، ص ١٩٨ .
راجع ايضا الوثيقة الصادرة عن المؤتمر السابق للحزب الشيوعي الفلسطيني « مهمات الحزب الشيوعي الفلسطيني في الارياف » والتي جاءت استجابة وصدى لتوصيات مكتب الاممية الثالثة (الكومنترن) والمنشورة في : **الاممية الشيوعية والثورة العربية وثائق ١٩٣١** (دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٠) ص ١٢١ — ١٧٣ .

٢٩ — فاينشتوك ، **نفس المصدر** ، ص ١٩٩ .

٣٠ — كلف ، **نفس المصدر** ، ص ٢٣ .

٣١ — فاينشتوك ، **نفس المصدر** ، ص ٢٠٠ .

الأدب العبري المعاصر وتكريس التوسع الصهيوني

رشاد الشامي

في أعقاب حرب حزيران ١٩٦٧ ، والانتصار المفاجىء الذي أحرزته اسرائيل ، وحققت بفضله توسعا اقليميا جديدا في الاراضي العربية عبر كل من مصر وسوريا والاردن ، عمت الحياة الثقافية في اسرائيل ظاهرة جديرة بالملاحظة والمتابعة والتحليل ، حفلت بها صفحات الملاحق الادبية الاسبوعية للصحف العبرية ــ وقد كانت هذه الظاهرة هي وضع الادب العبري ، ان جاز القول ، في قفص الاتهام ومحاكمته بقصد أخذ ما يجب أن يؤخذ عليه ، واضافة ما يجب أن يضاف لصالحه ، وكان موضوع المحاكمة هو : « كيف حدث في الواقع الاسرائيلي المعاصر انه بدلا من أن يسير الشاعر أمام الجندي أن سار الجندي أمام الشاعر ؟ كيف حدث أن الشحنة من الرغبة العميقة لدى الشعب نحو التوسع وراء الحدود الخضراء ، وهي الشحنة التي طغت اليوم على السطح ــ كيف حدث أن هذه الشحنة لم تظهر من قبل ولم تجد لها صدى وتعبيرا في انتاج الكثيرين من أدباء اسرائيل ؟ » .

وقد حاولت هذه الاسئلة التي طرحها المدعي العام الادبي ضد الادب الاسرائيلي ان تبحث عن اجابة للسبب الذي جعل « قانون الشاعر » الذي يتلقى وحيه من حقيقة هي فيما وراء مصالح الساعة لا يفرض نفسه على « قانون الديبلوماسي » الذي يتحدد وفقا لمتطلبات الساعة ، وانما حدث العكس ، وهو استجابة الشعراء والادباء لما حققته « قانون الديبلوماسي » ، و « قانون الحرب » ، وبدأوا يهللون للقدس والخليل ونهر الاردن والجولان وسيناء مهبط الوحي الموسوي من واقع أن ذلك قد فرض عليهم ، ولكنهم لم يسبقوا العسكريين اليه بخيالهم ، وذلك فيما عدا نفر قليل منهم .

لقد كانت الاحتجاجات صارخة لان بعض الادباء الاسرائيليين وضعوا فواصل بين الروح والمادة ، وبين الموضوعات الابدية والموضوعات الوقتية . لقد كان المطلوب من الاديب أو الشاعر الاسرائيلي أن يستجيب تماما لمتطلبات التوسع الصهيوني ، وكما يسير القائد امام جنوده ودباباته ويصيح صيحته العسكرية « ورائي » ، كان على الشاعر أن ينطق بنفس المعنى في منظومات تخترق حدود الارض التي اغتصبتها اسرائيل قبل ٥ حزيران الى المناطق الجديدة التي احتلها جيش الدفاع الاسرائيلي ، والتي يتضمنها « المزمور القديم » ، الذي تغنى بتلك الحدود ، وربما بما هو أبعد منها ، وتخطى بذلك ، حسبما يعتقد من عقدوا هذه المحاكمة ، رؤوس الكثيرين ، ومن هم ممتازون من بين أدباء اسرائيل ، وجعل قصائدهم في المؤخرة .

وقد كانت صحيفة « معريف » الاسرائيلية المسائية والواسعة الانتشار من أولى الصحف التي أولت هذا الموضوع اهتماما خاصا ، وأفردت له الصفحات . وقد عقدت المحررة جئولا كوهين مع نخبة من أدباء وشعراء اسرائيل ممن يشكلون تيارات الادب العبري المعاصر تمثيلا حقا لانهم هم الذين يحددون ملامحه واتجاهاته ، حلقة مناقشة نشرتها الصحيفة في أعدادها الاسبوعية : ١٩٦٨/١٠/٦ ، ١٩٦٨/١٠/١٣ ، ١٩٦٨/١٠/١٨ ،

٢٥/١٠/١٩٦٨ ، ١/١١/١٩٦٨ ، ١٨/١١/١٩٦٨ . واشترك في هذه الحلقة من ادباء وشعراء اسرائيل المعاصرين ، ابراهام شلونسكي ، وحييم جوري ، والبروفسور باروخ كورتسفيل* ، وعاموس عوز ، وموشي شامير ، واسحق شيلاف ، وبنيامين جلاي ، وموشي دور ، وموشي براجر ، ويعقوب اورلاند ، وعزرا زوسمان . ونشرت المناقشة تحت عنوان : « هل قال أدبنا هو الاخر « ورائي ! » » ، ووجهت خلالها لهذه المجموعة عدة أسئلة ضمنتها كل ما أثارته الدعوى ضد الأدب العبري في اسرائيل قبل ٥ حزيران، وضد المناخ الادبي العام في اسرائيل .

وأول هذه الاسئلة وأهمها ، ذلك السؤال الذي اخترنا تناوله لما يحويه من دلالات كثيرة بالنسبة لدور الادب العبري في الحياة والمجتمع الاسرائيلي ، من ناحية ، وبالنسبة لموقف الادب العبري من قضايا التوسع الصهيوني ، من ناحية أخرى . يقول السؤال : كيف حدث في رأيك أن الادب في اسرائيل لم يقل — ان جاز لنا أن نستخدم بالمفهوم الرمزي جدا ذلك الاصطلاح الشعبي الشائع — «ورائي!» ؟ كيف حدث — فيما عدا أ.ص.ج. (أوري تسفي جرينبرج)(١) وقليلين آخرين — ان وصلنا الى أجواء طبيعية قديمة حديثة في حياتنا دون أن يسبقنا أو يواكبنا اليها شعر شعراء اسرائيل ؟ وهذا السؤال على هذه الصيغة يكرس نية العدوان والتوسع المسبقة عند اسرائيل لتحقيق اطماعها التوسعيةفي العالم العربي مرحلة اثر مرحلة . فالسؤال يحوي في فحواه مأخذا على الادب العبري ، ليس في عمومه ، ولكن بالنسبة لبعض تياراته ، لانه لم يكن متسقا مع حدود هذه الاطماع التوسعية ، ولم يسبق بخياله آلة العدوان المحققة للتوسع ، ولم يتغن بتلك المناطق التي تم احتلالها الا بعد أن أصبحت واقعا ملموسا محققا بقوة السلاح . وهــذا الموقف هو استمرار طبيعي للسمـــة التي ميزت الادب العبري الحديث منــذ بداية مواكبته لمرحلة الاحياء القومي اليهودي ، وهي سمة الادب المجند . فقد كان الادب العبري منذ عصر الاحياء القومي اليهودي في نهاية القرن التاسع عشر في أساسه ادبا قائما على الدعوة الايديولوجية الصهيونية ، وكانت الصفة الاساسية له هي انه أدب مجند يخدم أهــداف الفكرالتوسعي والعدواني الصهيوني ويخضع لمتطلباته.وعلىهذا الاساس فان أي انتاج ادبي ، شعري او نثري ، لاي اديب يهودي او اسرائيلي ، كان يحكم عليه بهذا المعيار ، وكان يعتبر أدبا قوميا بقدر ما يحققه في سبيل العودة الى صهيون (في مرحلة الهجرات)، أو بقدر ما يكرس اغتصاب فلسطين العربية وقيام الدولة اليهودية (ابان قيام الدولة) ، أو بقدر ما يكرس التوسع الصهيوني في البلاد العربية (بعد قيام الدولة) . وعلى هذا الاساس مثلا اعتبر الشاعر اليهودي الروسي حييم نحمان بياليك (١٨٧٣ — ١٩٣٤) شاعرا للقومية اليهودية ، لانه ثار في شعره على الشتات اليهودي ، وعلى حياة المنفى ، وحفز في احـــدى قصائده ، وهي قصيدة « في مدينـــة الذبح » اليهود الى اقــامة حركة « الـــدفاع الذاتي » بعد مـــذابح كيشنيف عام ١٩٠٣ ، واحيـــا كنوز التراث العبـــري الكلاسيكي ووضعها في خدمة الاحياء القومي الصهيوني . ومن بعده ظهر جيل كامل من الادباء والشعراء الذين ساروا في خط تكريس قيام الدولة ، وأطماع التوسع الصهيوني أمثال : ابراهام شلونسكي(٢) ، وناتان الترمان ، وأورى تسفى جرينبرج وغيرهم ممن سبقوا بخيالهم طلقات المدافع ، وصنعوا العنصرية بأحرفهم ، والتوسعية بكلماتهــم ، والعدوانية بقصائدهم .

واذا عدنا الى هذه الحلقة من المناقشة حول السؤال المطروح لوجدنا أمامنا ان أدبـــاء اسرائيل يكادون يمثلون تيارا واحدا ، مع بعض الاختلافات هنا او هناك ، ولكنها ليست اختلافات جذرية تصل الى حد تقسيمهـــم الى معسكرين . ان الاديب عاموس عوز(٣)،

---

* توفي في أواخر شهر اغسطس ١٩٧٢ .

على سبيل المثال ، يرفض فكرة ان يكون « الادب المجند » كنوع من أنواع الادب الشرعي والحيوي ، هو النوع الوحيد ، ويحتج على ما يسميه « التفسير العدواني الذي يريد أن يعثر على « روح العصر » أو « روح الامة » حيث همــا غير موجودين ، وحينما لا يفلح هذا التفسير في العثور على هذه الارواح، او في ادخالها الى داخل النص فانه يرفضه».
واستنادا الى هذا فانه يأخذ موقفا جديدا من تفسير كل ما اصطلح على تسميته بــأنه « أدب قومي » او «أدب دعوة صهيوني» . فهو مثلا يرى ان القضايا التي تناولها بياليك في شعره وفسرت على انها قضايا قومية ، هي في الحقيقة « احتجاج شخصي ضد نظم العالم . . » . ويرى كذلك ان برينر الذي مالوا الى اعتبار قصصه مرآة للجيل أو صرخة غضب وشق طريق ، « يحكى عن يهودي ممزق الى قطع واسمه برينر » . وقصص س. يزهار التي تقدم حتى اليوم على انها مقدمات لبحث العلاقات الاسرائيلية العربية ، يراها عوز باعتبارها « مجرد قصة عن يهود ويهود »، وأكثر من ذلك « عما بين يهودي شاب ونفسه الممزقة » .

وعوز بتفسيره هذا انما يرفض توظيف الادب لخدمة غرض أو أيديولوجية ، ويرى أن كل ما ينطق به الشاعر او يكتبه الاديب ، انما هو انعكاس لذاته ، ولذاته فقط ، وليس لاي شيء اخر . وعلى هذا الاساس فانه يرى « ان القصيدة او القصة ليست مصنوعة من أفكار ولا حتى من حادثة ، ولكنها مصنوعة ، اولا وقبل كــل شيء ، من كلمـــات ومن جمل » . وفي مواجهة السؤال المطروح يحدد موقفا قاطعا يرفض به أن يخضع لمتطلبات الادب المجند ، فيقــول : « انني لم أظهر مع مغني التاريخ لانه يهمني أقــل مما يهمني الافراد ، ولو حاولت ان أتحدث باسمه لكنت مزيفا » . وهكذا يحدد عاموس عوز موقفه باعتباره ممن تجاوزوا في الادب العبري التعبير عن « النحن » ، وانتقلوا الى الاهتمــام « بالأنا » ، بالفرد وصراعاته ومأساته مع نفسه ، رافضا بذلــك أن يكون مزيفا ، وهو بذلك يعكس اتجاها كاملا بدأ يظهر في الادب العبري المعاصر منذ الستينـــات تبرز فيه أسماء لادباء مثل ابراهام بن يهوشع ، وعماليا كهنا كرمون ، ويهودا عميحى وغيرهم .

أما موشي شامير(٤) فهو يرى ان الادب العبري « ساعد كثيرا ، وفق أحسن قوته ، على خلق الاحساس بالارتباط الجذري للجيل ببلاده دون ارتباط بحدود هذه البلاد » ، ويرى كذلــك أن « المناقشة الــدائرة بين رجال « أرض اسرائيــل الكاملة » والمدافعين عن الانسحاب ، ليست حول مسألة ما اذا كان الحق في الخليل بل هو ما اذا كان لنا الحق في تل ابيب وحولده ومشمر هاعيمك . . » . وهنا يقف موشي شامير موقفا يحاول فيه التوفيق بين توظيف الادب لتخطي الحدود الراهنة بعد التوسع ، وبــين اقتصاره على تكريس ما هو واقع والتغني به وتأصيله في النفس الاسرائيلية . وعلى هــذا الاساس فانه يرى ان وظيفة الادب هي أن يقول « هنا » و « هــا هو » و « الان » . ولكن هذه المحاولة التوفيقية لا تتضمن أي نوع من الرفض لما يحققه العمل العسكري من تــوسع اقليمي ، لان شامير لا يرى ان هنــاك أي تعــارض او تناقض بين ما يحققه الجيش الاسرائيلي انطلاقا من النداء « ورائي » ، وبين دور الادب العبري في « خلق الاحساس بالارتباط الجذري للجيل ببلاده دون ارتباط بحدود هذه البلاد » .

وبعد ذلك فان مجموعة الادباء الذين تحدثوا بعد موشي شامير وهم : اسحق شيلاف ، وبنيامين جلاي(٥)، وموشي دور(٦)، وموشي براجر ، يشكلون تقريبا خطا فكريا ومنهجيا واحدا . انهم جميعا يتفقون على ان « التاناخ » (العهد القديم) هو مصدر الوحي الذي يستقون منه ارتباطهم بأرض فلسطين وفق حدودها التاريخية التي حددهـــا لهم الوعد الالهي الوارد فيه ، ولذا فهم ليسوا في حاجة بعد ، ولا يرون ان هناك حاجة الى أي مثير شعري اخر يتخطى بهم الحــدود الخضراء نحو حدود التوسع الجديــدة المرسومة في الخريطة الصهيونية وفقا لما حدده لهم مغني المزامير وصاحب المرثيات . وهؤلاء الادباء

هم من ممثلي ادب الدعوة او الادب المجند ، وبصفة خاصة اسحق شيلاف ، عضو حركة « أرض اسرائيل الكاملة » واشد المتعصبين لتحقيق التوسع الصهيوني فيما يسمى بحدود اسرائيل التاريخية .

وأخيرا فان النص الكامل لموقف هؤلاء الادباء والشعراء من هذه القضية يلقى ضوءا اشمل على اتجاهات الادب العبري المعاصر وعلى التيارات المختلفة التي توجد فيه وعلى موقف هذه التيارات من قضية الخضوع لمتطلبات الايديولوجية الصهيونية وفكرها التوسعي ومواكبة منطق العدوان الاسرائيلي وتغلغله في الارض العربية دون سند من الحق أو القانون .

النص الحرفي لردود الادباء على السؤال
« مغني التاريخ يهمني أقل مما يهمني الافراد »

عاموس عوز :

طوال فترة طويلة جدا ، وطوال كل سنوات جيل الاحياء ، وفترة الاستيطان في البلاد ، سادت لدينا وجهة النظر المؤمنة بأن الادب هو قوة تسير أمام المعسكر ، ووجهة النظر المؤمنة بأن الاديب هو وريث النبي . ومعنى هذا أنه الشخص الذي يناجي القوى التي لم يعتد عليها البشر العاديون مثل « روح الامة » و « حتمية التاريخ » و « حلم الاجيال » .. الخ . وقد استمدت وجهة النظر هذه أسسها من أن الاشخاص العلمانيين بيننا قد نموا من خلال ثقافة دينية لم تعرف من الادب سوى الادب الديني ، ولم تعرف من الادباء سوى أولئك الادباء الذين يتوجهون الى روح القدس بالصلاة والتوسل والاجلال والمديح . ومن الغريب انه حتى الثوريين الماركسيين واخرين من الذين كانوا بيننا كانوا شركاء في وجهة النظر هذه التي تتبناها الثورية الماركسية هي الاخرى وهي : أن الاديب هو مبعوث ومرشد . وحتى يومنا هذا ما زال بيننا أشخاص يتجادلون مع القصيدة كما لو كان في المنظومات تحريض ما ، ويتجادلون مع الرواية كما لو كانت خطابا سياسيا في حفلة ... وفي خلال جيل البعث القومي كان هناك أدباء تحدد موقفهم الادبي على هذا النحو وكان هناك أدباء وشعراء تحدد موقفهم على نحو غير هذا ، ولكن مفسريهم فسروهم على اعتبار انهم كتبوا من أجل الجدل الفكري . وسوف أقدم ثلاثة نماذج منهم : قصيدة « في مدينة الذبح » التي كتبها بياليك ظللنا لمدة جيلين ننظر اليها باعتبار أنها صرخة من الشاعر من أجل « الدفاع الذاتي » وكوعظ ضد « حرب الفئران واختباء البق » . ولكنني حينما أقرأ هذه القصيدة اليوم وحينما ادرسها كمدرس للادب فانني أجد فيها احتجاجا شخصيا ضد نظم العالم ، ذلك العالم الذي فيه : « أشرقت الشمس وازهرت الشجرة وذبح الجزار » ، وهذا من طبيعة الامور . والمثال الثاني : قصص برينر(٧) التي مالوا الى اعتبارها مرآة للجبل او صرخة غضب وشق طريق . والحقيقة ان برنار يحكي عن يهودي ممزق الى قطع واسمه برينر .

و « خربة خزعة » التي كتبها « يزهار » تقدم الينا حتى اليوم على انها مقدمات لبحث العلاقات الاسرائيلية — العربية . وفي الحقيقة فان هذه القصة ليس فيها اي اشارة لذلك ، وهي مجرد قصة عن يهود ويهود ، واكثر من ذلك : عما بين يهودي شاب ونفسه الممزقة . والحقيقة هي أنه في جيل الاحياء كانت الحلقة التاريخية الاجمالية والحلقة البيوجرافية تشكلان حلقة واحدة لا انفصال فيها ، وذلك لان الثورة المثيرة التراجيدية التي مرت على معظم الشعب اليهودي — مرت على الفرد ، وبالاخص على الفرد الحساس . لذلك فقد اعتدنا جميعا على أن نعتبر الادب « المجند » أو الادب الذي « يعكس وجه الجيل » هو النوع الوحيد من الادب ، وربما كنا بذلك شركاء في وجهة النظر الثقافية لكثير من الشعوب في أوقات الثورة .

والشيء الذي أقوله هو أن « الادب المجند » هو نوع أدبي شرعي وحيوي ، ولكنه ليس النوع الوحيد . وأنا أعارض التفسير العدواني الذي يريد أن يعثر على « روح العصر » أو « روح الامة » حيث هما غير موجودين. وحينما لا يفلح هذا التفسير في العثور على هذه الارواح أو في ادخالها الى داخل النص فانها ترفضه .

الى أي مدى يتخلل أي انتاج روح عصره — ان هذا الامر من الممكن أن نحدده فقط من خلال ثقب فكر الاجيال. ففي أوائل القرن التاسع عشر اهتزت الارض في روسيا وكتبت عشرات الروايات . وقد وجد دستوفيسكي أنه

من الصواب ان يحكي ، على سبيل المثال ، عن طالب مهتز الفكر من الدرجة الثالثة في ضاحية منعزلة من الدرجة الرابعة ، يرتكب جريمة قتل من الدرجة الخامسة — وبالرغم من هذا فقد استوعب وشكل روح العصر اكثر الف مرة من أولئك الذين تناولوا القياصرة والثوريين . ومن الممكن أن نقول هذا أيضا عن « فلوبير » وعن قصته « الام بوفاري » . وقد أمسك تيار ادبي في النثر العبري في السنوات الاخيرة بطرف الخيط الذي تركه له ادباء مثل جنسين وبرينر وعجنون، ووفقا لتفسير ليس حقيقيا بالذات و « ايديولوجي جماعي » لكتابات هؤلاء الكتاب كان هناك اتجاه نحو « ضواحي الواقع » ، واهملت محاولة امساك « الثور الواقعي » من قرنيه . لقد خلع الاديب رداء النبي وكف عن تناول الامة واختار تناول الاشخاص ، وكف عن تناول التاريخ والكينونة القائمة ، واختار تناول قوى الفرد وحالات الوجود المقررة والثابتة والتي لا تتكرر . لقد كف الاديب عن أن يكون مجرد عارض واختار أن يكون قصاصا . الى أي مدى نجح هؤلاء الادباء في استيعاب كل سلسلة الجبال في العصر حسب انعكاسها في شظية زجاجية لركن واحد من أركان الحياة — من الممكن أن تكون الاجابة على هذا السؤال من اخر الاجيال . لست أعتقد أن العصر يمكنه أن يكتشف « روح عصره » . لقد كنت أريد أن أؤكد أنه ليست هناك على هذا النحو أية ثورة في الادب العبري ، ولكن ما يوجد فيه هو كشف واعادة تفسير لما كنت أسميه « الخيط الرفيع » في شـعر بياليك و أ. ص. ج. السابق وشتيانبرج[8] وفوجل ونثر برينر وبرديتشفيسكي[9] وجنسين وعجنون . واذا كان هناك تجديد في النثر وفي الشعر في السنوات الاخيرة بالمقارنة بالشعر والنثر في « جيل البالماخ » على سبيل المثال فان هذا قد حدث في المجـال الذي كنت اطلق عليه : مسئولية جديدة للكلمات . لقد ساد بين مجموعة من الشعراء والادباء الشبان الاحساس بأن القصيدة او القصة ليست مصنوعة من أفكار ولا حتى من حادثة ، ولكنها مصنوعة أولا وقبل كل شيء من كلمات ومن جمل .

ولم يكن هناك « سير أمام المعسكر » لان هؤلاء الادباء والشعراء تخلوا مدركين وواعين عن الحث على السير أمام المعسكر . انهم ربما يكونون قد أحسوا بأنهم لا يعرفون الى أين يجب على المعسكر أن يسير وفضلوا ان يسيروا وسط المعسكر وربما في ذيله . وأنا نفسي لا أسير امام أي معسكر لانني « لا أسمع أصواتا » أو « أوامر » . انني لم أظهر مع مغني التاريخ لانه يهمني أقل مما يهمني الافراد ، ولو حاولت ان اتحدث باسمه لكنت مزيفا .

موشي شامير : الادب لا يقول ورائي بل يقول هنا وها هو والان ويجب ألا نطلب منه أكثر من ذلك

ان هذا السؤال يثيرني من حيث المبدأ لانه قائم على الخطأ في فهم العلاقة بين الادب والحياة . ومما يؤسف له أنه يفسر تفسيرا غير صحيح كذلك مغزى النداء الـذي يقول « ورائي » الذي يميز الفـرد في جيش الدفـاع الاسرائيلي . وسوف أبدأ بهذا . ان النداء الذي يقول « ورائي ! » مرتبط بالعلاقات بين القائد ومأموريه في التدريبات وفي واقع الجيش وأساسا بالطبع في ميدان القتـال . ومعناه : التمسك والاخلاص من جـانب المقاتلين في أعقاب قدوة شخصية مثالية من قائدهم . ومما يبعث على سعادتنا أن هذا النداء (حتى في نطـاق جيش الدفاع الاسرائيلي) لا يتضمن آراء سياسية وعقيدة دينية ومغزى خاص في غمار الحياة او وجهة نظر في الموضوعات الثقافية.. الخ. ان قوته وقيمته تكمنان — مثل قوة جيش الدفاع الاسرائيلي وقيمته — في انه داخل مجتمع ديموقراطي مفتوح ومتعدد الالوان يمكن من التركيز الاقصى لكل القـوى في ساعة الضرورة وفي وقـت الخطر — لدرجة التضحية بالنفس — من أجل حرب الدفاع عن الشعب . وليس أكثر من هذا ولا ينبغي أن يكون أكثر من هذا .

وبنفس القدر الذي نقول به أن لدينا « كل الشعب جيش » فانه صحيح كذلك وبنفس القدر أن نقول — وهو مما يثير الغبطة — أن كل الجيش عندنا شعب .

والادب العبري لا يمكنه بالطبع الا يكون عاملا اجتماعيا مثله مثل اي أدب في العالم . والادب العبري يوجـد أمامه طريق واحد فقط ونسبة تأثيره الروحي تنطوي هنا على كيفيته الفنية — والطريق هو اعطاء حرية مطلقة وطبيعية للتعبير الحقيقي والاصيل لكل هذا القوس المتعدد الالوان من حياة الانسان من المجتمع الاسرائيلي . واذا كان هناك في هذا الادب شاعر او شاعران يدفعهم الحماس النفسي الداخلي الحقيقي عندهم الى التغني بنبوءة نداء « ورائي ! » — فان هذا الامر يكون ملموسا في نوعية نتاجهم . انه لا بد من قوة شاعرية هائلة

ـ مثل تلك التي عند أ. ص. ج ـ حتى يمكن أن تخرج قصيدة كهذه بسلام من محنة الاتزان وان كانت في نهاية الامر ستكون على قدم المساواة ـ في قلب القارىء ـ مع قصيدة غنائية منطوية على نفسهـا ومتدثرة بألـم الوجود وحيرة الكينونة .

وما هو أهم من هذا اننا لن نتمكن ابدا من تحديد اي الاثنين « سيرتفع » اكثر الى الكيان الروحي للمجتمع الذي أنتج فيه ومن أجله .

هل « العمود السابع » الذي يكتبه « ناتان الترمان »(١٠) فعل من اجل تعليم الجيل وتشكيل الشكل الخاص الاصيل للشاب الاسرائيلي اكثر مما فعله باب « بهجة العيون » على سبيل المثال ؟

وبالنسبة للادب الفني ـ أعتقد انه فعل ما هو ربما أهم من تحديد هذه الاهداف أو غيرها لتقدم جيش الدفاع الاسرائيلي خلال حرب دفاعه : لقد ساعد كثيرا ، وفق أحسن قوته ، على خلق الاحساس بالارتباط الجذري للجيل ببلاده دون ارتباط بحدود هذه البلاد . وهذا الامر لم يتم وفق خطة منظمة ـ بل وفق مضمون طبيعي للحياة على ما هي عليه . وهنا من الممكن التحدث عن مجموع شامل ، بالتأكيد ، لتأثير جيل كامل في الادب ـ وان كان يشمل انتاجات مختلفة تماما للمؤلفين الذين يناقض كل منهم الاخر احيانا في طابعه ووجهة نظره .

هذه هي قوة الادب ـ وهذه هي عقدة تأثيره ـ حيث أنه دون قصد وبميزان عناصر مختلفة ومتباعدة ودون خط أيديولوجي موجه ـ يكشف رويدا رويدا عن الاسس الخفية للعامل المشترك وللعامل الدائم ـ وهو يكشـف بواسطة ذلك عن العامل صاحب التأثير .

ان الشيء المشترك العميق في الادب العبري لابناء الجيل هو الاحساس بالوطن . ان هذا الاحساس لا يمكن لاحد أن يسلبه اياه . ان هذا الاحساس هو احساس التبعية المتبادلة بين اليهودي وبلده ـ الاحساس الذي يمكن لكل التبريرات الايديولوجية أن تتقدم وتفسره وتؤيده ـ ولكنها لا يمكن أن تدعى حق الابوة عليه .

ان حقيقة انه ليس لدي اليوم أي احساس بالغربة تجاه أرض حبرون (الخليل) ـ هذه الحقيقة نابعة من انه لم يكن عندي احساس بالغربة تجاه تل أبيب . حتى في المجال السياسي فانني أعتقد ان المناقشة الدائرة بين رجال « أرض اسرائيل الكاملة » والمدافعين عن الانسحاب ، ليست حول مسألة ما اذا كـان لنا الحـق في الخليل بل حول ما اذا كان لنا الحق في تل أبيب وحولداه ومشمر هاعيمك . ولنأخذ على سبيل المثال انتـاج س. يزهار . انه من الناحية الايديولوجية يعتبر من كبار المتشككين عندنا . ولكننا جميعا نعرف السر ، لان البطل الرئيسي في انتاجه ليس الفتى ذا الشكوك الشخصية وليس كذلك بالطبع النموذج المتشكك في حـد ذاته ـ بل طبيعة البلاد . ان التطهر والوضوح الذي يحدث في القصة العادية بواسطة الحادثة ـ يحدث عند يزهار بواسطة السير نحو الطبيعة ، نحو الوجود ، نحو السماء ـ وهي الاشياء التي يعود منها البطـل شخصا اخر . وحينما ينتهي شخص من قراءة قصة ليزهار ـ ربما تبقى فيه همهمة من الشك ، ولكن تبقى فيه وبقوة أكبر بكثير نداوة حب طبيعة البـلاد وألغازها والسعادة النابعة من الامتزاج بهـا . ان الادب لا يقول حينئذ : « ورائي ! » ، بل يقول « هنا » و « ها هو » و « الان » . ووفـق رأيي يجب الا نطلب منه أكثـر من ذلـك .

اسحق شيلاف : الادب لم يحقق هدفه وهو : المحافظة على جذوة الاشواق الى اسرائيل الكاملة

يكفيني أن أذكر هنا ما قلته في « المائدة المربعة » التي عقدت منذ حوالي خمس سنوات حول موضوع « كيف تتحدث مع العرب » والذي تناولت فيه مع المشتركين في المناقشة مشكلة الحدود .

لقد كتبت حينئذ وقلت « علينا ان نعلم الشباب على أساس أرض اسرائيل الكاملة . وهذا الامر لا بد وأن يتم بواسطة الاباء ، ورياض الاطفال ، والمدرس ، والموجه في حركة الشباب ، والقائد في الجيش . وقد استطاع أن يقوم بهذا الدور أحسن من كل هؤلاء الادب العبري . ولكن هنا حدث شيء غريب ومحطم . لقد اجتمعت في ذلك الحين لجنة خططت الحدود على الورق ، وهي الحدود التي أخذت في الاعتبار الفرد اليهودي والامكانيات، وقد بدأ أدبنا العبري يتلاءم مع خريطتها . ومن المحتمل ان تكون هناك حتمية سياسية تفرض علينا حتى الان ، ألا يسير أي يهودي الى الجنوب من رامات راحيل والى الشرق من جبل صهيون ، ولكن كيف لا تسير أية

قصيدة او أي قصة في هذه الاتجاهات ــ هذا ما لا افهمه على الاطلاق. ان اتفاقية الهدنة أصبحت عندنا بمثابة الكلمة الاخيرة ليس فقط في المجال العسكري بل كذلك بالنسبة لحركة الخيال الادبي . لقد اصبحت حدود الهدنة هي الحدود المحركة لنا وحدود اشواقنا ورغباتنا . وفيما وراء هذه الحدود ــ ليست لنا أي مطالب وأي اشواق وأي أحلام وأي قصيدة .

ان هدف الادب يجب ان يكون مختلفا تماما . ان عليه أن يحافظ على جذوة الاشواق تجاه كل ما فقدناه وتجاه كل مناظر الشرق التي يحكى عنها في « عهدنا القديم » . على الادب أن يشعل نار المعارضة لهذا الاستئصال المريع الذي فرضوه على جسد البلاد رغما عنها ورغما عن طبيعتها .

ان على الادب ان يعلم ابناء يهودا شريعة البلاد الكبرى والكاملة وأن يعدهم بالتغيير الحاسم في الايام القادمة . »

لقد كنت مقتنعا من قبل بأن « التغيير الحاسم » (أي الجولة الثالثة وتحرير البلاد) سوف يأتي حتما ، وسعيت من اجل ادخال الوعي بهذا التغيير في القلوب . وقد كتبت الاشعار التي اعتبرت في حينها من قبيل الخزعبلات والتي يسخرون منها الان . وانني اذكر انهم اتهموني بأنني داعية حرب ، ولكن اتضح أنني لم احرض بما فيه الكفاية . حقا ، اكثر مما أثرت هنا الاشعار اثر الرب الذي أثقل قلب فرعون وقلب سيحون وعوج للمرة الثانية في التاريخ . وأحيانا يستولي علي الفزع من فكرة : ماذا كان سيحدث لو أن الملك حسين استجاب لطلب اشكول ولم يتدخل في الحرب ؟

لقد كنا حينئذ سنصعد مرة اخرى على سطح نوتردام من اجل أن نطل من هناك على المدينة القديمة ونستمر في تلقي سيل القناصة الشهري من رجال الفيلق الاردني الذين على الاسوار ، ولم تكن أية قصيدة او اية قصة لتغير من الموقف .

وليس في هذا بالطبع أي تعد على أولئك الذين لم يكتبوا قصائد وقصصا عن البلاد التي وراء الحدود . واذا كانوا وفق أقوالهم قد اجتازوا البلاد طولا وعرضا حينما كانوا في « البالماخ » وأحسوا تحت أقدامهم ببلاد واحدة كاملة وغير مجزأة وغير محظورة على أحد ــ فأين كانت ذكرياتهم عن هذه البلاد ؟ وأين كانت أشواقهم اليها ؟ ان الاماكن الواردة في أشعارهم وقصصهم هي من الاماكن الموجودة دائما في المجال المتاح وليست وراء الحدود . اننا نجد في هذه المؤلفات اسماء الكثير من « الكيبوتسيم » (الحقيقية والوهمية) ، وذكريات الطفولة في أحياء المدن المتاحة وفق القانون الخاص بتوطين اليهود ، ولكننا لا نكاد نجد اسماء مثل حبرون (الخليل) وأريحا وشكيم (نابلس) ... والان ، الان فقط اكتشفوا فجأة هذه الاماكن في خريطتهم النفسية . ان هذا الامر لم يحدث قبل أن يفرضها جيش الدفاع الاسرائيلي في خرائط الـ ١٠٠،٠٠٠ والـ ٥٠،٠٠٠ (مقياس الرسم) الخاصة به ... واذا كان أحدهم قد تقدم ووصل في انتاجه حتى « الحدود » ــ فانه في هذه اللحظة لا يصف الا الجانب التراجيدي الذي في الحدود وعدم المنطق الذي فيها دون أن يثير الرغبة الواضحة لعبور الحدود والقضاء على المأساة وعدم المنطقية .

بنيامين جلاي : المحرك الاول هو العمل ومن بعده يأتي الشعر

انني أعتقد انه توجد كل الانواع من « ورائي ! » ، ومثلما توجد سبعة أنواع وطبقات من السموات فربما كانت هناك سبعة أنواع من « ورائي ! » . وربما كانت « ورائي » السابعة هي تلك التي تقال بالكلمات ، وهي « ورائي » الفلسفية الادبية التي ليس لها غطاء من القدوة الشخصية ، ومن أجل « ورائي » كهذه ربما لا يجب حتى التحرك من على الكرسي أو مغادرة السرير ، لان الانسان يمكنه أن يقول بصورة رمزية : « ورائي بمحبة اسرائيل » و« ورائي بالانسانية » ... الخ .

و« ورائي » الاعلى او الاولى هي تلك الخاصة بالقدوة الشخصية . ومثال ذلك ما يقوله بن جوريون : « ورائي الى النقب » ــ وقد سار « في المقدمة » . وورائي الاكثر علوا هي تلك التي تقال في اللحظة الحقيقية من الصدام مع الموت ، وفي المحنة التي لا تتكرر ولا تعود ، والتي ربما يكون من المستحيل ان يقال فيها « ورائي » مرتين ، ولذلك فان المقارنة بينها وبين « ورائي » الخاصة بالشعراء هي مثل المقارنة بين الوقوق الذي في الساعة والوقوق الذي في الغابة .

واذا سألنا : ما الذي يسبق الآخر ــ العمل البطولي أم القصيدة ؟ حينئذ سنرى : لقد كان هناك البطل اليوناني أخيلس ، ثم جاء هوميروس الشاعر وكتب قصة أخيلس . وبعد ذلك يقولون ان الكسندر المقدوني لم يتحرك بدون انتاج هوميروس لانه أراد أن يكون هو أخيلس الثاني . وبعد ذلك جاء بلوتراك وكتب حياة الكسندر المقدوني . وبعد ذلك جاء نابليون ــ الذي أحب بلوتراك للغاية . . . ما الذي نراه حينئذ ؟ نوع من التتابع : الشعر يأتي في أعقاب العمل ، والبطل والعمل البطولي يأتيان في أعقاب الشعر وهلم جرا . ولكننا اذا سألنا مع كل هذا ، ما هو المحرك الاول ؟ ــ فانني أقول : ان البطولة تأتي أولا ، والتضحية والاصالة ــ وبعد ذلك يأتي الشعر والدليل على ذلك قصيدة « دبورة » (قصيدة تمجد البطولة في العهد القديم) وكل القدوات الكبيرة .

وأنا أعتقد أن شبابنا ليسوا ــ حسبما قال ذات مرة أوري تسفي جرينبرج ، بحق ، ولكن عن موضوع آخر وبمناسبة موضوع آخر ــ مثل أولئك « الذين يقفزون الى وسط التاريخ » كما لو كان لا يوجد شيء قبل هذا ولا شيء بعده . ان شبابنا قد تعلم أولا وقبل كل شيء على « العهد القديم » وعلى تقاليد بطولة المكابيين ، وعلى أعياد اسرائيل وكل الشعر والبطولة التي تحويها ، وكذلك على الشعر الحديث ، وقد أعطى كل هذا لشبابنا المثل ، ولكن لا بد من أن نفترض أنه ستأتي انتاجات أكبر بكثير في أعقاب اعمال هذا الشباب .

واذا كان الحديث عن أجواء طبيعية فان هناك أجواء طبيعية في الجغرافيا وفي التاريخ وكذلك في الادب وحتى اللغة هي الاخرى عبارة عن منظر طبيعي ، كذلك فان الادراك اليهودي هو جو طبيعي ، كما أنه توجد اجواء طبيعة انسانية . لقد نقل الادب العبري القارىء العبري عبر كل هذه الاجواء الطبيعية . لقد نقله عبر الاجواء الطبيعية لفلسطين والقدس ــ والشاعر « قرني » ، على سبيل المثال هو الملا ــ تروبادور لشعر القدس ، وفي شعر شعراء « البالماخ » كذلك يوجد الكثير من الاجواء الطبيعية للبلاد .

« هل عدنا اليوم الى أجواء جديدة ــ قديمة ؟ ــ ولكن من ذا الذي يعرف حقا متى يعود ، او متى بالتحديد سيكف عن العودة في أي مرة . . . انني اذكر قصيدة تغنيت بها لكنعان منذ ٢٥ سنة اثناء الحرب العالمية الثانية. والقصيدة تسير على النحو التالي :

كنعان أيا كنعان ،

في نابلس وفي بيت لحم ،

أشجار الزيتون القديمة تصدر خشخشة

وهناك في الجنوب

هبت العواصف ،

وتنبأ العرافون .

طرق كثيرة تؤدي الى روما

وطرق كثيرة توجد للقلب

وضيف البيت هو واحد أوحد

ومن يحل عليه ــ يهاجر

لذلك يعوي هناك ابن آوى في وحشية

ونتسلق في كل يوم قمة التل

ونطلق الدخان في حلقات لا حصر لها

ونتطلع نحو طريق بئر سبع .

من أجل أي شيء ولماذا أعود فأشتاق في هذه القصيدة لهذا الجو ؟ ربما كان هذا بسبب الجو « التاناخي » (نسبة الى « العهد القديم ») الموجود في داخلي ، ولكن هذا يثبت انني ايضا لست من ابناء ارض اسرائيل الكاملة ، لانه في اللحظة التي لا يوجد فيها جبل جريزيم وعيبال في الحدود الاقليمية للدولة ــ فانهما يكونـــان موجودين في داخل قلبي وسيظلان كذلك دائما ابدا في ارض اسرائيل الخاصة بي .

موشى دور : هل صاح مؤلف سفر أيوب قائلا : ((ورائي !)) ؟
ان الادب يهتم باتجاه الفرد

سأتدرج في الاجابة حسب تسلسل الصعوبات : هل من وظائف الادب عامة — اذا كانت له وظيفة سوى مهمة « أن يكون طيبا بقدر الامكان » — ان يقول « ورائي ! » أهل ملقى على عاتق الادب هدف اجتماعي — سياسي محدد ، عليه أن يحققه ؟ وهل من المحتمل أن نجعل المشكلة على النحو الذي تعرض به الان ، بعد كل الدروس التي تعلمناها مما يجري في البلاد الديكتاتورية ؟

لست أعتقد ان الاديب يجب أن يرفرف على أجنحة السحاب معفى من أي اتصال بالعالم الخارجي . ان انفصالا كهذا عن عالم الانسان يؤدي في نهايته الى أدب أنيمي مصاب بفقر الدم ، ويتغذى فقط على الحدود الذاتية للاديب . ولكن في الوقت نفسه محظور على الادب ألا يقدم رقبته لاي نوع من الاملاء . ان الفن الخلاق — من ناحية تناوله الجهات «الرسمية» او «الحزبية» بأشكالها المختلفة — هو منه ذو سيادة ومستقل تماما . انه يجب ألا يتلقى أوامر أو توجيهات من جانب أي شخص خارج نطاقه . ان قضية عدم عزل الاديب من خضم الحياة ، هي قضية يجب أن يعرضها هو على نفسه ، والاديب نفسه هو الذي يحكم الى مدى يستجيب لهسا (اتجاهات الانتاج الحقيقية بالطبع المنفصلة والبعيدة من « المؤثر » الخارجي) . ان اي سياسي من المحظور عليه أن يدخل بأحذيته الى مجالات حرية الفن سواء كان « يساريا » او « يمينيا » او متوجا باطارات أخرى. ان هذه الحرية لا تقل في قدسيتها عن حرية الجامعات ، وان كان هناك شك في ان عدد الادباء الحقيقيين كبر الى الحد الذي يتيح تنظيم موكب احتجاجي معقول واحد .

وبالنسبة لصلب الموضوع : لست أعرف ما اذا كان للادب اليوم تأثير مبدئي (أساسي) قوي للدرجة التي يجعل بها الكتائب تقف على أقدامها ويساعدها في التشكيل القتالي الى ميدان الحرب . ان تأثير الادب معروف، أولا وقبل كل شيء ، في المجال الفردي ، وعمله يتم بواسطة أدوات ملتزمة . انه يبتعد عن الدعاية (البروباجندا) : ليس من المحتمل عمل كيفية مثالية مع الاستعانة بأساليب « التلطيف الشعري » . ان الشعر سيضعف بمرور الوقت وسيتخلى التلطيف . وهنا أصل الى أ. ص. ج (أوري تسفي جرينبرج) ، الذي يقوم على اعتبار انه الشاعر الذي قال « ورائي » بقوة والكل يمدحه على ذلك . انني اعتبر نفسي من بين مقدري ومبجلي الشاعر « أوري تسفي جرينبرج » الذي يعتبر من فطاحل الشعر العبري ، ولكنني بأي حال من الاحوال ، لست أعد من بين مقدري الايديولوجي والدعائي أ.ص.ج. ان هذا من حقي كمواطن في دولة حرة. ويبدو لي أن أولئك الذين تربوا في أحضان شعر أ. ص. ج. من بين الجمهور اليهودي وينظرون اليه باعتباره موجها ورائيا ، قد تأثروا أساسا من تلك المجموعات الشعرية الخاصة به والتي تعتبر في نظري مجموعة فكرية أساسا . لقد تعلموا على أسس المنشورات السياسية المنقوطة التي كتبها ، ولم يتعلموا على اساس شعره الحقيقي . وبالطبع فان أ. ص. ج يتميز بمقدرة كبيرة كرجل دعائي — وهي تلك المقدرة نفسها التي تراءت له حينما أراد التعبير عن المكار وخلجات « بو علي تسيون » (عمال صهيون) — وكل من يقرأ ثمرة مقدرة هذه الدعاية لا يمكنه أن ينكر العبقرية التي يقدمها للعالم ، ولكن هذا ليس شعرا ، بل دعاية — دعاية براقة ، مليئة بالقوة ، وفياضة ، وعنيفة ، ولكنها أولا وأخيرا ليست الا دعاية .

ومن يحب شعر أ. ص. ج — دون التنكر للاسس الفكرية الموجودة به ، حسبما هي موجودة في محصوله الدعائي ، وان كانت النسب مختلفة هناك تماما — ليس هو بالذات ذلك الشخص الذي يتخلل حياته نداء « ورائي » الموجود في شعر أ. ص. ج لدرجة انه يقوم ويقول مجيبا : « ها أنذا » . ان الامور معقدة ، وصور الوجود في الشعر والحياة هي الاخرى معقدة ، وليس من السهل عمل عمليات تصنيف ووضع فواصل. ان الادب لا يصل حتى « الخطوط الخضراء » ويقف عندها . ان الادب لا يأخذ في الاعتبار الحدود المادية وذلك لانه نتيجة روح الانسان ، ولذا فليس من مهامه أن يصرخ في الدبابات . ان الادب قائم على الانسان الفرد ، وينبع منه ويتحرك من داخله ونحوه . ان محبة البلاد (فلسطين) هي أولا وقبل كل شيء ، موضوع الفرد كما أن المجموع من المستحيل ان يكون مجموعا ما لم يتجمع أفراده معا ويشكلوه . واذا لم يشعر الفرد بهذا الحب الذي يعتبر فعلا متعديا لما أطلق عليه تشرغوفسكي (شاعر عبري ١٨٧٥ — ١٩٤٤) : « الانسان هو خلاصة جو وطنه » فان أي أصوات نفيرية او عمليات قرع للاجراس من « الادب المجند » (أو بأسلوب آخر :

الادب المخول من السلطة) لن تحركه من مكانه .

ان اسرائيل بالنسبة لي ، هي أولا وقبل كل شيء وجود نفسي وجسماني (مادي) عميق لانني على ارضها رأيت نور العالم وفي أجوائها تربيت وكذلك نضجت وليس لي وطن غيرها ، ليس على شكل علة الحنين للوطن فيما وراء البحار ، وليس على صورة « الشرائع اليهودية » التي تعبر عن الاشواق الطبيعية لمن استأصلوا أو استؤصلوا من هناك وتخرب بيت ابيهم . ان أرض اسرائيل بالنسبة لي هي بلد واحد لانها لم تكن على شاكلة أخرى اطلاقا . ولم يكن أ. ص. ج هو الذي طبع لي هذا الاحساس المضموني . انها الارض هي التي فعلت هذا . ان اصحاحات « التاناخ » (العهد القديم) التي خلفت الحلقات الروحية التي ربطتني بماضي شعبي هي التي زودت الرباط العقلاني المطلوب لابن قطر معين من البلاد من أجل تمييز آثار آبائه في الرمال . ولكن عملية الولادة والنمو والتشكيل قد سبقت البناء العقلاني .

وفي « العهد القديم » توجد اصحاحات شعرية رائعة ، ولكن قوتها تنبع أولا وقبل كل شيء من كونها انتاجا فنيا كبيرا وذا صفات انسانية عميقة . وتوجد في « العهد القديم » كذلك أجزاء أخرى سيئة من الناحية الفنية — وكذلك من الناحية الانسانية — وتأثيرها على نفس القارىء أقل بكثير جدا . هل صاح مؤلف سفر أيوب قائلا « ورائي ! » . هل جاء شاعر « نشيد الانشاد » بالجموع الى مهد محبوبته ؟ ألم يرق مؤلف مراثي داود على يهوناثان دماء قلبه على صديقه الاوحد الذي لا شبيه ولا مثيل له ؟ وهل تأملات « الجامعة » الحكيمة في يأسها واليائسة في ادراكها ، ألفت بناء على أوامر من السلطة ومن المباييم (اتباع حزب المباي) في حقل الثقافة ، أم طغت وارتفعت من خلال التبصر الصافي والهادىء والتراجيدي لرجل عبري خلال تجربة حياته هو وتجربة حياة الآخرين من خلال زاوية تأمله الخاصة به ؟

وتوجد في « العهد القديم » بصراحة فصول أخرى من التأريخ السياسي ولكنها ليست هي التي استولت على تراثه في كل عصر على وجه البسيطة . لقد ظلت تلك الفصول على ما كانت عليه منذ بدايتها — مجرد تأريخ سياسي لا أقل ولا أكثر من هذا — ولست أستهين باهميتها . انها تكمل بالنسبة لي ما وضعته وتناولته الفصول الاخرى بواسطة اللمحات الانسانية الفنية التي تحويها ولكنها لا يمكن ان تحل محلها . ومن المفهوم بالنسبة للقارىء العبري ان « العهد القديم » هو دائما بمثابة « وأيضا » : وثيقة فنية وانسانية سامية المكانة + بطاقة الهوية التاريخية الخاصة به ولو لم تكن به الصفات التي حافظت عليه عبر كل دورات الزمن ، وهـي تلك الصفات الفنية الانسانية العجيبة ، لما أمكن الحفاظ على بطاقة الهوية الا في المتاحف الاثرية . وعلى أي حال من الاحوال فانه لم يكن هناك ميثاق متقد في الحياة الابدية له أبعاد واقعية ندية مثل ذلك النواح على الاجواء القديمة وعلى أجواء تجددنا .

وهذه الحياة الابدية — لم تأت من « توجيهات » ولا من « منشورات » ولا من « ورائي ! » .

وبالاضافة الى هذا : فان وعيي في عصارة عظامي بوحدة أرض — اسرائيل — وراء حدود هذا الواقع الراهن أو غيره — لم يحجب عن عيني رؤية وجود الامة الثانية بفضل أحفاد الاحفاد ، وليس بفضل السادة على أرضها . لقد اعتقدت وتلقيت هذا الاعتقاد بالقبول ، بأن الحق ، ولو حتى حق آبائي الذي هو أقدم وأعمق من جميع الحقوق لا يلغي حقا . ومن اجل ذلك لم اكن في حاجة الى نظريات تدلل على أن أولئك المقيمين هم أحفاد آبائي الذين امتزجوا بالمحتلين وطمست معالمهم ، ان قوتي تكمن في قدرتي على صد الذين ينقضون لابادتي ، ولكن قوتي تكمن في الوقت نفسه في قدرتي على الحفاظ على صورة الانسان بداخلي ، وعلى المحافظة على الارث الانساني المتمثل في الكتب القديمة . هذه هي ميزتي ، وهذه أيضا هي حكمة الحياة وحكمة الدولة وحكمة الشعب .

موشى براجر : هناك كتاب واحد فقط وهو ((التاناخ)) (العهد القديم) الذي قال ((ورائي!)) وقد رد عليه الواقع وسيرد عليه قائلا ((آمين !))

ان السؤال الخاص بنداء الامر : « ورائي » مرهون من أساسه بمعرفة صلاحية ومقدرة فرض سيادة صاحب النداء — وهذا يعتبر في نظري بمثابة المحك لنفس موقف الادب العبري المعاصر .

ان اليهودية الاصيلة تميز بين اصلاحين منفصلين هما : « التوراة » و« الحكمة » . وقد قيل عن ذلك : « هناك

حكمة بين « الجوييم » (الشعوب الكافرة) ــ ثق في هذا ــ أما أنه توجد «توراة» بينهم ــ فلا تثق في هذا ».
ان كلمة « توراة » مصدرها وكذلك أصلها اللغوي جاء من « تعليم » : و « لتعليم بني اسرائيل » . ان غاية التوراة وهدفها هما : « التعلم والتعليم ، والمحافظة والعمل والتنفيذ » . هذه هي الصفة المميزة لشعب اسرائيل عبر التاريخ : التوراة المرتبطة بالحياة والتي تشكل وتصوغ الحياة اليومية ، « الخطوات » مع « الشرائع النظرية » (الهالاخوت) مندمجة معا .

ومن هنا فان الاستنتاج الذي يكون وفقا لمفاهيم اليهودية هو انه لا يوجد بالفعل رجل ــ توراة ، حتى ولو كان هذا الرجل عبقريا في التوراة ما لم ينفذ بالكامل مبدأ التحقيق الذاتي ولا يوجه اعماله واخطاءه وفق شرائع وأوامر التوراة .

و« الحكمة » في مقابل هذا تتميز بالتعامل الحر المحبب نحو المعقول ، فمن الممكن ان تؤخذ في الاعتبار على أنك « حكيم » واضح وان تعيش عكس كل مبادىء « الحكمة » . ومضمون الحكمة غير محدد هنا بالمرة : هل هي تشتمل على صفات المعرفة والمنطق والبصيرة النافذة أم انها عبارة عن مستوى من المعرفة والخبرة في المجالات الروحية ، ام ان الحكمة تبلور تجربة علمية ــ اختبارية لا دعوى لها .

في كل هذه النماذج لا يرى « صاحب الحكمة » نفسه على الاطلاق باعتبار انه مأمور بأن يتصرف وفق توجيهات كل « الحكم » التي ينادي بها . يكفي الحكمة ان تعتبر (ثلاثية المغزى) كتسلية ذهنية وكمصدر للمتع الروحية وكأداة لاثراء الحياة ولاستغلال ظروفها لاقصى حد .

ولذلك فان هناك تحذيرا يقول : « الحكماء هم للشر » . ولا داعي لان نذكر حكماء الاخلاق من بين الشعوب لان من بينهم من هم في المرتبة الاولى في تاريخ الحضارة بينما كانت حياتهم الشخصية نموذجا لعدم الاخلاق ، واكثر من هذا فانهم بالذات من خلال الانغماس في متاهات الانحلال والتدهور وتدمير الاسس والمعايير قد استقوا « الحماس الاخلاقي » المقنع للغاية .

وبالنسبة للادب الاسرائيلي وأبعاد تأثيره ، فان الاختبار الحاسم هو ، من أين يستلهم وحيه ومعرفة قيمته : هل من مصادر التوراة والايمان أم من آبار الحكمة والمعرفة المحترفة ؟

اذا كان هناك كتاب يقول « ورائي » وسيظل يقولها ، وسار الواقع بالفعل وراءه وما زال يسير ، فان هذا الكتاب هو « كتاب الكتب » (التاناخ) وكل الادب اليهودي الذي ولد حوله ومشبعا بروحه . ان جذور المشكلة تكمن حينئذ من صورة تعامل الادب الاسرائيلي مع « التاناخ » (العهد القديم) والعلاقة بينهما . والخيار واحد ولا يقبل التأويل : اما التاناخ ــ كالكتب المقدسة وكمصدر وحي لقدسية الحياة (ومنه ايضا : سمو الحياة ، ومعنى الحياة ، وسرور الحياة) ، وكصك للنسب الخاص بالشعب المختار ، وكصك لشراء الارض الموعودة ، وكأداة توصية ، وكجسر للرسالة الروحية اليهودية من « بداية الخلق » حتى « نهاية الايام » ، او معاذ الله، العكس من ذلك ، اي « التاناخ » ــ كتجميع ليست فيه قدسية الانتاجات الادبية المختلفة والمتنوعة كذلك والنسبية الى حد ما في قيمتها المؤكدة ، وكمجموعة شهادات وتأريخات تاريخية موثوق بها أقل أو أكثر ، وكحقيبة « لنصوص » قديمة موضوعة تحت تصرف « ناقدي العهد القديم » الذين يعينون انفسهم ويتوجون انفسهم من أجل تنفيذ التدريبات الجدلية كافة بما فيها الكفاية ، وعمليات الحذف والتعديلات ، وكذلك التحليلات الجائرة الغريبة للغاية لهذه « النصوص » .

ان هذا التناول العلماني « للتاناخ » وهذا التناول المدروس لكتاب الكتب هو كل خطأ الادب العبري منذ ايام « الهسكلاه » (حركة التنوير اليهودية) حتى أيامنا هذه . لقد اعترفت كل الشعوب بأن الشعب اليهودي هو « شعب الكتاب » ، وليس معنى هذا انه الشعب « الذي يحب » الادب او « الذي ينتج » الادب ، لان هذه الاشياء وجدت كذلك بين سائر الامم الحضارية . ان معنى « شعب الكتاب » أنه الشعب الذي يعيش وفقا للكتاب ، وان الكتاب والامة يشكلان مضمونا واحدا . وليس هناك شعب أكد اتصاله بالكتاب ، وبمتعة التفكير مثلما عبر عنها صاحب « المزامير » : « اصبحت قوانينك لي مزامير » . هذا هو « لحن الجمارا » الذي لا مثيل له في العالم .

ان علاقة اليهودي بالكتاب قد تجلت في القبلة المرتعشة لصفحة ممزقة تطمت من الكتاب وسقطت على الارض ،

ورفعها يهودي باصابع الحب وحافظ عليها الى ان أخفوها في احتفال الدفن معه في مقبرته، كما يدفنون الانسان الذي خلق على نفس المثال . ان كتابا كهذا ، كل مضمونه وغايته كان : « ورائي ! » ، وهذا هو الاختلاف الخارق بين « التوراة » و« الحكمة » : ان التوراة تتدم « المعرفة » و« طريقة الحياة » لان لها الصلاحية العليا لذلك ، و« الحكمة » تعرض « رواية » للقراءة ، و« مقالة أدبية » للمتعة ، ودراسات الطبيعة للفائدة العملية ، واذا تجرأت على صياغة وجهات نظر فلسفية خلقية ــ فان القارىء المتطوع يمكنه ان يسأل ــ في اللحظة التي لا يحلو له ان يتصرف وفقا لمبادىء علم الاخلاق ــ : « من نصيبك قيما ؟ » .

واذا لم يكن هناك على الاطلاق مصدر للوحي الاخلاقي غير « العهد القديم » ــ فان لنا ولشعب اسرائيل ، يعتبر « العهد القديم » هو مصدر الوحي الروحي الذي يضم كافة الحياة ، وكافة الشرائع التي بين الانسان والهه وصديقه وشعبه وبلده والعالم كله . ان الادب اليهودي المنعزل عن جذور « العهد القديم » يكون منعزلا كذلك عن جذور الواقع اليهودي المتصل بالحاضر أيضا ، وبالتالي فانه لا يمكن ان يقول « ورائي ! » .

---

١ ــ **أوري تسفي جرينبرج** : شاعر اسرائيلي . ولد عام ١٨٩٤ في جاليسيا ، وما زال على قيد الحياة . من أشهر قصائده قصيدة « مافيستو » التي تعبر عن خراب العالم بقيمه . هاجر الى فلسطين ١٩٢٣ ، وكان من المقربين الى « كتيبة العمل » . وفي نهاية العشرينات حدث تحول في وجهة نظره الايديولوجية ، وأعرب عن خيبة أمله في هدوء الزعامة الصهيونية والبشوفية ، وتقرب من الحركة الاصلاحية (حركة جابوتنسكي) . كان عضو الكنيست الاول عن حزب حيروت الارهابي . مشهور بأنه فاشيستي، وهو من زعماء حركة « أرض اسرائيل الكاملة » التي تعارض الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة ، وتطالب كذلك بالمزيد من الاحتلال حتى استكمال « ارض اسرائيل » بحدودها التاريخية المزعومة .

٢ ــ **ابراهام شلونسكي** : شاعر ومترجم . ولد في ١٩٠٠/٣/٦ في روسيا . هاجر الى فلسطين عام ١٩١٢ . بدأ النشر في مجلة « هشيلواح » عام ١٩١٩ . عاد الى فلسطين مرة اخرى بعد جولة في الخارج عام ١٩٢١ ، وعمل عامل طرق وعامل بناء . انضم وترأس تيارات شابة في الادب العبري المعاصر تركزت حول المجلات الادبية « كتوفيم » (كتابات) و« طوريم » (سطور) . رئس تحرير الملحق الادبي لصحيفة هاآرتس خلال السنوات ١٩٢٨ ــ ١٩٤٢ . من مؤسسي مجموعة الشعراء الشبان «يحداف» (سويا) عام ١٩٤٢ . مؤسس ورئيس تحرير دار نشر « هشومير هتسعير » ، و« مكتبة العمال » ، ورئيس تحرير مجلة «عتيم» (أزمنة) الملحق الادبي لصحيفة «عل همشمار» (الصحيفة الصهيونية اليسارية) ، ورئيس تحرير « اورلوجين » المجلة الادبية . نشر الكثير من المجموعات الشعرية ، وترجم الكثير من انتاج جوركي وبلسوك ودنكان وهوجو وانسكي وتروتسكي وبرخت وجوجول وشولوخوف وبوشكين وشكسبير وغيرهم . نال العديد من الجوائز الادبية .

٣ ــ **عاموس عوز** : من مواليد القدس عام ١٩٣٩ . درس في الجامعة العبرية الادب والفلسفة وتخرج عام ١٩٦٤ . حصل على الماجستير من جامعة اكسفورد عام ١٩٧٠ . عضو كيبوتس حولداه منذ عام ١٩٥٧ . يعمل مدرسا في المدرسة الثانوية في الكيبوتس . خدم في « الناحال » (شباب الطليعة) ، ومن الاعضاء العاملين في كيبوتس « من هيسود » ٦٢ ــ ١٩٦٤ . عمل استاذا زائرا في كلية سانت كروز بجامعة اكسفورد عام ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠ . نشر مجموعة قصص قصيرة بعنوان « بلاد ابن آوى » (١٩٦٥) . صدرت له الروايات : « مكان آخر » (١٩٦٦) ، و« ميخائيل الخاص بي » (١٩٦٨) ، وعشرات من الكتابات والمقالات في الصحافة الاسرائيلية وخارج البلاد .

٤ ــ **موشي شامير** : أديب ، وكاتب مسرحي وصحفي . عضو اكاديمية اللغة العبرية . مندوب قسم الاستيعاب التابع للوكالة اليهودية في انجلترا . ولد في ١٩٢١/٩/١٥ في صفد . عضو كيبوتس مشمر هاعيمك . خدم في البالماخ . مؤسس المجلة الناطقة بلسان الجيش الاسرائيلي « بمحنيه » . عضو تحرير صحيفة « أومر » عام ١٩٥١ . كان له عمود خاص في صحيفة

«على همشمار» وبعد ذلك في صحيفة «معاريف» (رئيس تحرير الباب الادبي في « معاريف ») . مؤلف الروايات : « ذاهب في الحقول » (جائزة اوسشكين عام ١٩٤٨) ، و« بكلتا يديه » (جائزة برينر) ، و« ملك اللحم والدم »، و « حروب بن أور » (جائزة بياليك ١٩٥٥) ، و« نهاية العالم » ، و« العجلة الخامسة » ، و« منزل في حالة جيدة » و« الوريث » . وبعد حرب ١٩٦٧ كتب كتابا بعنوان « حياة شعب اسماعيل » عن العلاقات بين العرب واليهود . مثلت له مسرحيات عديدة .

٥ — **بنيامين جلاي** : أديب .ولد في ١٩٢١/٤/١٠ في روسيا . هاجر الى فلسطين عام ١٩٢٦. تعلم في تل أبيب . خدم في سلاح الطيران البريطاني في الحرب العالمية الثانية ، وعمل مستشارا للصحافة ، في بلدية حيفا عام ١٩٦٢ . وله عمود دائم في صحيفة معريف بعنوان « عن فنجان قهوة مقلوب » . من كتبه الشعرية : « الشعب الروحي » (١٩٤٦) ، و« الماكرين » (١٩٤٩)، و« العودة الثالثة » (١٩٥٣) ، و« على شاطىء الرحمة » (١٩٥٨) ، و« رحلة الى الشمال » (١٩٦٨) ، و« جدل الخمر في فناء ارميلوس السابع عشر ملك « فيليبو » (١٩٦٨). حصل على جائزة برينر ، وجائزة فيخمان ، وجائزة أنا فرانك ، وجائزة لمدان لادب الاطفال. كتب بعض القصص والروايات للاطفال .

٦ — **موشي دور** : صحفي . عضو تحرير صحيفة « معريف » منذ عام ١٩٥٤ — ١٩٥٨ . ولد في ١٩٣٢/٢/٩ في تل‌أبيب. درس في جامعة القدس، وتل أبيب قسم العلوم السياسية . صاحب عمود أدبي في صحيفة حزب المابام « على همشمار » . عضو نقابة الادباء ونقابة الصحفيين . رئيس جمعية الملحنين والمؤلفين (أكوم) .

٧ — **جوزيف حييم برينر** : كاتب وروائي عبري (١٨٨١ — ١٩٢١) . تتخلل جميع رواياته شخصية واحدة تلقى مصيرا واحدا على الدوام: بدايات فاشلة في معترك الحياة تتبعها المساعي الخائبة التي تترك مرارة في النفس ونقمة على العالم أجمع . صور الحياة الفلسطينية بأسلوب واقعي . مزج في حياته بين الحركة العمالية ومطامع الاستعمار الصهيوني .

٨ — **يعقوب شتاينبرج** : (١٨٨٧ — ١٩٤٣) . شاعر وأديب اجتماعي وسياسي .

٩ — **ميخا يوسف برديتشفيسكي** : (١٨٦٥ — ١٩٢١) . كان من المتأثرين بفلسفة نيتشه ، وطالب بتغيير القيم اليهودية والتخلص من نير الماضي اليهودي بكل ما يمثله من تخلف وخنق لغرائز الانسان وروحه . اعتبر ان العودة للطبيعة والفرد خلاصة للثورة القومية .

١٠ — **ناثان الترمان** : (١٩١٠ — ١٩٧٠) . هاجر الى فلسطين عام ١٩٢٥ . انضم الى جماعة شلونسكي التي اشاعت روحا جديدة في جيل الشعر التالي لعصر بياليك. نشر كتابه الاول « كواكب في الخارج » عام ١٩٤١ ، وبالرغم من أنه استقبل بصمت الا انه غير مؤخرا ، ربما أكثر من اي كتاب آخر ، وجه الشعر العبري في فلسطين . اشتهر الى جوار الترمان الشاعر، الترمان الاجتماعي السياسي الذي كان يعبر عن نفسه مرة كل اسبوع في منظومات « العمود السابع » في دافار . بعد قيام الدولة اصبح شاعرها القومي ورجل المؤسسة الحاكمة .

مراجعـــات

الدكتور يهوشافاط هاركابي ، **تيارات في السياسة والاجتماع العربي بعد حزيران ١٩٦٧** ، (دار النشر العربي ، تل ابيب ١٩٧١) .

من المعروف ان سلطات الاحتلال تحاول القيام بنشاط اعلامي و « تثقيفي » في الضفة الغربية وقطاع غزة (على جميع المستويات) بين صفوف السكان العرب لخدمة اهدافها ، وكان اخر عمل في هذا الميدان صدور كتاب من وضع الخبير الاسرائيلي في الشؤون العربية ي. هاركابي تحت عنوان « تيارات في السياسة والاجتماع العربي بعد حزيران ١٩٦٧ » . وقد وجدنا انه من المفيد اطلاع القارىء العربي على انموذج هام لهذا النوع من النشاط الذي تقوم به الدوائر الاسرائيلية في الاراضي المحتلة . كما هو معلوم كان هاركابي مديرا عاما للمخابرات العسكرية الاسرائيلية وهو يشغل الان منصب استاذ في الجامعة العبرية . والكتاب من اصدار دار النشر العربي في تل ابيب وهي مؤسسة تابعة للهستدروت . يضم كتاب هاركابي مجموعة مختارات من الكتابات العربية التي صدرت بعد حزيران ١٩٦٧ حول موضوع الهزيمة العربية واسبابها وطبيعة الصراع العربي الاسرائيلي ، بالاضافة الى مقدمة طويلة بقلمه مكرسة لدراسة ما يسميه بالتيارات الفكرية العربية التي برزت في تفسير الهزيمة وتحليلها وفهمها واقتراح السبل لتخطيها . وكان هاركابي قد نشر الترجمة العبرية لمعظم هذه المختارات مع مقدمته المذكورة في كتاب عنوانه « العبرة التي استخلصها العرب من هزيمتهم » اما في الطبعة العربية فقد ادخل هاركابي بعض التعديلات واضاف ملحقا قصيرا موجها للقارىء العربي ، كما اضافت دار النشر مقدمة خاصة بها تحت عنوان « التيار السادس » قاصدة بذلك الاشارة الى ما تسميه بوادر ظهور تيار عربي جديد ازاء الصراع مع اسرائيل غير التيارات الخمسة التي حددها هاركابي في مقدمته . والمقصود بذلك هو التشديد على الاصوات الداعية للتفاهم مع اسرائيل والاعتراف بها والعمل معها على « ازدهار المنطقة » في المستقبل .

ان اول ما نلاحظه حول هذا الكتاب هو انه يريد تقديم صورة معينة للقراء العرب تحت الاحتلال لموجة النقد والنقد الذاتي التي حمل لواءها عدد من الكتاب والمثقفين في العالم العربي (من اتجاهات سياسية وايديولوجية متعددة) بعد هزيمة حزيران وذلك من خلال منظار اسرائيلي يشدد على ان الموجة ليست الا مسألة تيارات متعددة تتنازع فيما بينها وتحاول شد المجتمع العربي باتجاهات متضاربة ومتعاكسة وكأن كل تيار منها يقف على قدم المساواة مع غيره من التيارات من حيث الاهمية والتأثير والمقدرة على التعبير عن الحركة الموضوعية للعوامل الفاعلة باتجاه تخطي واقع الهزيمة وتجاوزه . ومن ناحية ثانية نجد ان تحليل هاركابي لا يرتبط بصورة واضحة بالنصوص التي يوردها من مؤلفات الكتاب العرب، اي ان المقدمة ليست محاولة لتحليل هذه النصوص بل تركز على تصنيف التيارات الفكرية السائدة (من وجهة نظره) في الفكر العربي السياسي بدون الاشارة بالضرورة الى علاقة هذا التصنيف بالنماذج التي يقدمها في صلب الكتاب . على سبيل المثال لا يذكر هاركابي فيما اذا كان يعتبر ما أورده من كتابة ادونيس حول الهزيمة العربية داخلا في التيار الثوري او الاصلاحي ، والشيء نفسه ينطبق على ما أورده من كتابات ناجي علوش . كذلك يستشهد هاركابي في مقدمته بعدد من الكتاب والكتب (مثل سعد جمعة وفاضل الجمالي واحمد بهاء الدين وجبران شامية ...) بدون ان يورد لهم اية مقتطفات في كتابه . وهنا لا بد من تعريف القارىء بالمختارات التي انتقاها هاركابي ليعرضها في مؤلفه : جزء كبير من كتاب صلاح الدين المنجد « اعمدة النكبة »،

اجزاء من كتابي « النقد الذاتي بعد الهزيمة » وكتاب قسطنطين زريق « معنى النكبة مجددا » ، « بيان ٥ حزيران » لادونيس (مجلة «الاداب» ، آب ١٩٦٧) ، مقال ناجي علوش « جدل الهزيمة والنصر » (« دراسات عربية » ، ٢ أيلول ١٩٦٧) ، قطعة لعبد الرحمن البزاز بعنوان « كيف يربح العرب العرب ؟ » (في مجموعة حول النكبة الحاضرة) ، مقال لابراهيم عامر « الدعايات العربية في الميزان » (الاداب ، تشرين الاول ١٩٦٧) ، ومقالان لكل من سيسيل وجورج حوراني عنوان الاول « لحظة المصارحة » (« النهار » ، ١٢ آب ١٩٦٧) وعنوان الثاني « العرب واليهود في فلسطين : نظرة اخلاقية » (« القضايا المعاصرة » ، صيف ١٩٦٩) . ولا اعتقد انه من قبيل الصدفة ان تكون اطول المقتطفات التي اختارها هاركابي مأخوذة من كتاب « اعمدة النكبة » للمنجد الذي يضعه هاركابي ضمن الاتجاه الاسلامي المحافظ ويبدي اهتماما كبيرا بمؤلفه على الرغم من انه ، ضمن حدود معلوماتنا ، لا يوجد اية اشارة تبين ان كتاب المنجد قد استقطب اهتماما خاصا في الاوساط الثقافية والسياسية (رسمية كانت ام شعبية) الفاعلة في الحياة العربية او انه مارس تأثيرا مهما من اي نوع كان في صفوف الانتليجنسيا العربية تجلى في مناقشات حول الاراء الرجعية المحض التي طرحها المنجد في كتابه . وينطبق هذا الاعتبار على عدد لا بأس به من المقتطفات التي ضمنها هاركابي في كتابه مثل مقالة سيسيل حوراني « لحظة المصارحة » التي خرجت على سطح الفكر السياسي العربي مثل الفقاعة وتبددت بسرعة ولم تترك اي اثر او تستقطب اي اهتمام وطواها النسيان بسرعة ليعود الان هاركابي الى احيائها وتقديمها الى القراء في الضفة الغربية وكأن ما جاء فيها من آراء مطروح بصورة جدية وملحة على الفكر العربي .

يستخلص هاركابي من متابعته لحركة الفكر السياسي العربي بعد هزيمة ١٩٦٧ وجود خمسة تيارات متنازعة هي :

(١) التيار الاصلاحي (أي الليبرالي) الذي يرجع الهزيمة الى ضعف المجتمع العربي وتخلفه ويدعو الى ادخال تعديلات جذرية وعميقة عليه (اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا) والى أنظمة حكم ليبرالية . كما يرى اصحاب هذا التيار أن التغيير المطلوب لا يمكن ان يأتي الا بصورة تدريجية وبطيئة وعلى اساس تراكم الانجازات عبر عدة اجيال متعاقبة . ولا يوضح هاركابي اي من المقتطفات في كتابه تمثل التيار الاصلاحي الا انه بامكاننا الاستدلال الى أنه يعتبر قسطنطين زريق والاخوين سيسيل وجورج حوراني من المنتمين اليه. اما الاسماء المحددة التي يذكرها في مناقشته لهذا التيار فهي احمد بهاء الدين وجبران شامية . ويبدو ان اهتمام هاركابي بالتيار الاصلاحي نابع من كونه ينقد واقع المجتمع العربي بمنطق من لا يرى مخرجا من المأزق الراهن الا عبر مرحلة طويلة من البناء على طريقة النماذج الغربية والرأسمالية في التقدم، مما يعني على الصعيد السياسي (ولو ضمنا) انه لا بد من ايجاد صيغة تفاهم وتعايش مع اسرائيل الى ان يتم اصلاح المجتمع العربي واعداده اعدادا كافيا لمواجهة اسرائيل في المستقبل البعيد وغير المحدد . بعبارة اخرى تجميد كل نضال وكفاح ضد العدو الى أجل غير مسمى حتى تتحقق هذه المشاريع الطوباوية . كذلك يهتم هاركابي بهذا التيار بسبب معاداته للشيوعية وللفكر الاشتراكي ولانتشار الوعي الثوري في المنطقة ، وبسبب عدم تصديه للامبريالية واصراره على الفصل بين المعركة ضد اسرائيل من جهة وبين المصالح الامبريالية في الوطن ومصالح الطبقات الرجعية المحلية المرتبطة بها من جهة ثانية .

(٢) التيار الثوري الذي يقول عنه هاركابي بأنه يدعو الى ضرورة قيام ثورة شاملة تؤدي الى اجراء تغيير جذري في جميع مجالات الحياة العربية ، وبأنه لا يقيم وزنا كبيرا للثورة الرسمية التي يمثلها بعض انظمة الحكم العربية ولا يقبل بفكرة التغيير الاصلاحي التدريجي للمجتمع . وفي معرض مناقشته لهذا التيار يذكر هاركابي اسم كل من نديم البيطار والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين واسمي أنا . يقوم هاركابي بعملية تسفيه وتشويه لافكار وآراء من يسميهم بأصحاب التيار الثوري بصورة فجة وبدائية وبدون اية محاولة لتغطية محاولته بشيء من « الرصانة » او « العلمية » او « العقلانية » ولو كانت كلها من النوع المزيف . مثلا لا يذكر هاركابي شيئا عن الانتماء السياسي والايديولوجي لبعض الاطراف (على أقل تعديل) في التيار الثوري بهدف اظهار « ثوريتهم » على انها نوع من الغضبة المثالية الكبيرة التي تريد حل المشاكل والمعضلات دفعة واحدة ومن خلال حدث سحري

اسمه « الثورة » ، وعلى أنها لا تنتمي الى اية وجهة نظر او برامج ايجابية ممكنة التطبيق . لذلك يتكلم هاركابي عن التيار الثوري بصورة جوفاء تبقى معلقة في الهواء مع تعمد عدم الاشارة الى الالتزام العلني لقسم كبير من هذا التيار (كما يحدده هو) بالماركسية اللينينية لان مثل هذه الاشارة سوف تعطي التيار هوية من نوع معين يريد هاركابي تجريده منها ليتمكن من تسفيهه وتتفيهه بصورة بدائية وفجة . على هذا الاساس يشدد هاركابي في القول على ان اصحاب التيار الثوري يريدون احداث التغييرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية كافة في المجتمع العربي ، بالاضافة الى تحرير فلسطين وهزيمة الاستعمار فورا ودفعة واحدة بفضل حدث تاريخي رائع هو الثورة (ص ٤٤) . حتى لو سلمنا بقدر من السذاجة في تفكير بعض المنسوبين الى التيار الثوري فان احدا منهم لم يصل الى هذا الحد من الاسفاف في تصوير الثورة على انها زلزلة سحرية ضخمة تحل المشاكل والمعضلات كافة بضربة واحدة فورية تتحقق بواسطتها كل « الاهداف معا » على حد تعبير المؤلف . هذا تشويه متعمد من قبل هاركابي لانه يعرف قبل غيره ان ما من طرف يشدد على اهمية النضال الطويل المدى على طريق الثورة ، واهمية الكفاح المستمر على اسس استراتيجية من اجل بناء المجتمع الاشتراكي الجديد وهزيمة الامبريالية مثل الطرف الثوري الذي يتهمه مؤلفنا بالبحث عن الحلول الفورية للمشاكل . ومن المآخذ التي يسجلها هاركابي على التيار الثوري في العالم العربي (أ) قوله (أي التيار) بأن بقاء انظمة الحكم الرجعية يمنع اي تعاون عربي حقيقي ضد اسرائيل بسبب ارتباط هذه الانظمة بالاستعمار القيم على اسرائيل وخضوعها لضغوطه (ص ٤٤). (ب) قوله بأن مسؤولية الهزيمة تقع الى حد بعيد على عاتق القيادة الطبقية للبورجوازية الصغيرة وليس على عاتق الجماهير الشعبية عامة (ص ٤٩) . (ج) وضع جميع الاعباء والمشاكل على اكتاف « الثورية » و« قوى الجماهير » و« الحتمية التاريخية » دون اختبار هذه العناصر اختبارا فعليا (ص ٥١) .

نكتفي هنا بالقول ان هاركابي بالتأكيد لا يخادع نفسه وانما يخادع القراء العرب في الارض المحتلة لان إكتاف « الثورية » و« قوى الجماهير » و« الحتمية التاريخية » قد تم اختبارها فعلا في ساحات عديدة للكفاح وبرهنت عن قدراتها وطاقاتها القتالية والنضالية في وجه اعتى عتاة المستعمرين ، كما ان « الحتمية التاريخية » بمعناها الثوري لا تعني — كما يحاول انيوحي هاركابي — الاستسلام لنوع من القضاء والقدر الذي سيجلب معه النصر المحتم ، بل تعني ، من جملة ما تعنيه ، ان الاتجاه التاريخي الذي سيسود المستقبل هو حتما لمصلحة كفاح الشعوب وانتصارها ضد سيطرة الاقلية الطبقية الحاكمة والاحتكارات الامبريالية المستغلة. من الطبيعي جدا أن يلاقي التيار الثوري معاملة تشويهية من هذا النوع على يد هاركابي .

(٣) التيار الاسلامي الذي يدعو الى اصلاح الامة عن طريق الدعوة السلفية في العودة الى القيم الاسلامية القديمة . والممثل الرئيسي لهذا الاتجاه في النصوص الواردة في الكتاب هو صلاح الدين المنجد . اما الاسماء التي يوردها المؤلف في شرحه لمواقف التيار الاسلامي فهي فاضل الجمالي وسعد جمعة وأ. طيباوي . ويهتم هاركابي بهذا التيار من حيث معاداته الشرسة للاشتراكية وحركة التحرر العربي عامة ، ونظرته الاستعلائية للجماهير (الغوغاء حسب تعبيرهم) وموالاته الصريحة للعالم الرأسمالي ، والولايات المتحدة خاصة . على سبيل المثال يقول هاركابي في وصف التيار الاسلامي : « يمتاز هذا التيار بميله الى وجهة النظر الارستقراطية فهو لا يتملق الشعب تحت ستار من الشعبية . ورواده يتذمرون من ان الغوغاء من الناس قد سيطروا على المجتمع العربي ومن ان الديماغوجية المتطرفة قد سادت وطغت . ويرى هؤلاء انه يجب منح الشعب قيادة جديدة ومثلا اخلاقيا يحتذى به » . (ص ٥٤) .

(٤) التيار الحاكم . يشير هاركابي بهذا الصدد الى النزعة الرسمية في التقليل من اهمية الانتصار الاسرائيلي وفي تفسير الهزيمة العربية على اساس عوامل طارئة وعرضية لا تمس جوهر انظمة الحكم نفسها والاسس الاجتماعية القائمة عليها . وليس في مناقشة هاركابي لهذا التيار اي جديد يضاف الى ما قاله النقاد العرب انفسهم (خاصة من اصحاب المدرسة الثورية) في تفنيد مزاعم هذا الاتجاه .

(٥) تيار فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية الذي ينسب اليه هاركابي القول بأن وجود اسرائيل هو سبب الضعف العربي كله وانه طالما بقيت اسرائيل

قائمة فان كل علاج للاصلاح الداخلي يقوم بـه العرب هو عبث في عبث (ص ٢٧) . واضح ان هذا الاسلوب في عرض وجهة النظر الفلسطينية التي تمثلها فتح مغرق في التبسيطية والفجاجة . اذ انه صحيح ان اسرائيل هي سبب رئيسي (وليس السبب الوحيد) من اسباب الضعف العربي الا ان فتح لا تستنتج من ذلك بأن كل محاولة لمعالجة الوضع العربي واصلاحه ، كي يصبح بمستوى التحدي الذي تطرحه اسرائيل ، هي عبث في عبث. يريد هاركابي عرض وجهة نظر فتح بشكل يوقعها في حلقة مفرغة لا مخرج منها : اسرائيل هي سبب الضعف العربي ، كل محاولة لاصلاح هذا الضعف بدون ازالة اسرائيل فاشلة لا محالة ، لكن من المستحيل ازالة اسرائيل والضعف العربي قائم على حاله ، فاذن اسرائيل باقية والضعف العربي باق معها ، فلا حول ولا ... ولا لزوم لان نكرر بأنه لا فتح ولا غيرها يلتزم بمثل هذا المنطق في فكره وعمله . وبطبيعة الحال لا يدخل هاركابي في مقتطفاته المختارة اية كتابات تمثل اتجاه فتح ومنظمة التحرير في الفكر السياسي العربي الراهن .

اما التيار السادس الذي تتكلم عنه مقدمة الناشر فلا يتعدى كونه محاولة لمخاطبة القارىء العربي في الارض المحتلة على اساس القول له ان التيارات الخمسة السائدة في العالم العربي ، كما عرضها هاركابي ، فاشلة ولا أمل يرجى منها ، فلا بد اذن من البحث عن تيار جديد يتخطاها باتجاه البحث عن امكانات التفاهم مع اسرائيل والتعاون معها على اسس جديدة مع التشديد على دور الفلسطينيين في احقاق هذا التقارب . ويذكر الكتاب اسماء شخصيات مثل محمد الجعبري وحمدي كنعان وحمدي التاجي الفاروقي وعزيز شحادة وانور نسيبه ومحمد ابو شلباية واحمد برهم باعتبارها اخذت تتجه نحو تصور جديد للقضية الفلسطينية (أي التيار السادس) لانها لا ترى اي جدوى من مواصلة النزاع المسلح وتفضل الحل السلمي الذي يعترف بوجود اسرائيل وفي حقها بالبقاء بشكل مستقل . عندما نذكر ان معظم هذه الاسماء في الضفة المحتلة برزت في مجال الدعوة للتفاهم مع اسرائيل على اساس قيام الدولة الفلسطينية يتبين لنا ان كتاب هاركابي ليس بعيدا في مراميه عن امداد الجو لقيام هذه الدولة ان شعرت اسرائيل بأن الحاجة تدعو الى ذلك للخروج بالنزاع في المنطقة من مأزقه الحالي .

صادق جلال العظم

David Ben-Gurion, **Israel: A Personal History** (Funk and Wagnalls, New York, 1971).

ان هذا الكتاب مؤلف ضخم ، وذلك لاسباب كثيرة. فهو كبير وطويل جدا اذ يضم ٨٢٨ صفحة . وهناك شخصية المؤلف الذي هو احد المؤسسين الرئيسيين لدولة اسرائيل ، وبكل تأكيد الرجل الذي بنى اسرائيل منذ قيامها اكثر من اي شخص آخر . وهناك حقيقة ان بن غوريون لا يكتب عن موضوع غريب كدراساته الفلسفية مثلا وانما هو يكتب عن العاطفة التي هيمنت على حياته والاحداث التي شارك فيها عادة كشخصية قيادية بارزة . وهناك أخيرا الموضوع البارز وهو الحركة الصهيونية الغريبة والسرية تقريبا التي برزت من غيتوات أوروبه الشرقية والتي مدت اطرافها وأمسكت بأرض فلسطين وفي الوقت ذاته امتصت ولاء الجماعات اليهودية وثروتها في العالم بأسره . انه موضوع ضخم ، وربما كان اعظم قصة جريمة كتبت اطلاقا . انها قصة صحيحة برمتها . وفوق هذا وعلى الرغم منه فليس الكتاب عملا ضخما ، بل هو ابعد ما يكون من ذلك .

وليس من السهل قراءة الكتاب بأكمله ولا شك ان قلائل من الناس يقرأونه فعلا من أوله الى آخره ؛ وكاتب هذه المراجعة ليس من هؤلاء القلائل . وهناك عدة اسباب لصعوبة قراءة الكتاب . الا ان قراءته ضرورية لاي شخص مهتم حقا وجديا بالقضية الفلسطينية ، وعلى الاقل تقرأ الصفحات الاربعمئة الاولى بانتباه ، وتصفح البقية . ان ترتيب الحقائق عند بن غوريون ، ومعظمها جديد ، مهم ، وكذلك وجهة نظره شكلا ومضمونا . ولكن الاهم من ذلك هو الصورة

الشاملة التي يعرضها عن التفاني التام والنهائي لقضية ما مدى الحياة ليس من جانبه فقط بل من جانب العشرات والمئات من الصهيونيين الاخرين ايضا . ان شرطه للنجاح في مهمة الاستيلاء على بلد وبناء دولة فيه بسيط جدا : ليس العمل عمل هواة جزئيا وانما هو تفرغ تام للعمل الدؤوب الذي لا يعرف الكلل ، واخضاع تام للعديد من الوسائل في سبيل هدف واحد بعيدا عن المسائل الاخلاقية . وأفضل عنوان كان يجب ان يطلق على هذا الكتاب هو : « أهمية ألا تكون انسانا لطيفا ومهذبا » .

وهناك عدة اسباب تحول دون نجاح الكتاب في ان يكون عملا ضخما : في المقام الاول ، فان اسلوبه مربك ، فهو « كتاريخ شخصي » عبارة عن رواية شخصية ولكنها مكتوبة في صورة غير شخصية . وكونه كذلك لا يحقق لنفسه النجاح لا كرواية تاريخية ولا كسيرة ذاتية . ومما يثير الضجر والملل ان بن غوريون يشير الى نفسه باسم « رئيس الوزراء » . وحسب ما اذكر ليس هناك اي زعيم كتب سيرته الذاتية مستخدما ضمير الغائب لان ذلك يثير السخرية . وسبب آخر من اسباب فشل الكتاب انه طويل جدا ، فقد ضمنه بن غوريون نصوص الخطابات المهمة وغير المهمة التي القاها وكذلك كل مذكرة كتبها. ولان بن غوريون يجعل ، في شكل مختلط ، من دولة اسرائيل او بالاحرى من حكومتها موضوعا لكتابه بقدر ما يجعلها موضوعا لسيرة حياته فاننا نجد عشرات الصفحات المملة التي تبدو وكأنها صفحات من الكتاب السنوي للحكومة الاسرائيلية : فنحن لسنا بحاجة الى شخص مثل بن غوريون ليعطينا ارقام الهجرة للعام ١٩٥٨ او ليخبرنا عن عدد البيوت الجديدة التي بنيت في العام ١٩٥٦ . كما انه لم يكن منطقيا ان بن غوريون (الذي يصرح باحتقاره لتعدد الاحزاب السياسية في اسرائيل) يضيع صفحات كثيرة في وصف مناورات تلك الاحزاب التي لا تنتهي وبتفصيل دقيق .

الا أن هناك موضوعا واحدا يعالجه الكتاب ويبدو فيه شخصيا جدا ، ذلك ما يسمى « قضية لافون » التي وقف فيها بن غوريون الى جانب المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ضد لافون وزير الدفاع آنذاك وليفي اشكول . وكتب بن غوريون مطولا عن هذه الحادثة ولكن بطريقة تكشف فقط ان بن غوريون السياسي الصغير استطاع ان يتغلب على بن غوريون النبي الصغير ورجل الدولة الكبير .

ولا يرجع فشل الكتاب الى أنه يحتوي على حقائق كثيرة جدا وانما الى كونه لا يضم الكفاية منها والى كونه يغفل حقائق كثيرة أخرى . ان الموضوع الذي يعالجه بن غوريون بأعظم تفصيل هو احداث ١٩٤٧ و١٩٤٨ . ولكن ما هي القيمة التاريخية لرواية تقدم وصفا مفصلا للهجوم العربي على القافلة اليهودية المتجهة الى جبل سكوبس ولا تقول كلمة واحدة عن المجزرة التي ارتكبها الصهيونيون ضد سكان قرية دير ياسين العربية ! وما هي القيمة التاريخية لرواية يسردها احد المحركين الرئيسيين للعدوان على السويس في العام ١٩٥٦ عن ذلك العدوان دون ان تقول كلمة واحدة عن الترتيبات السرية التي قام بها بن غوريون في التواطؤ البريطاني — الفرنسي آنذاك ! وليست رواية بن غوريون حول هذا الموضوع غير تامة فحسب بل انها ساذجة الى حد اثارة الضحك . ففي حين يخصص ٥٣ صفحة للحديث عن فضيحة لافون يترك ٣٥ صفحة فقط للحديث عن مسألة السويس . ولا توجد ايضا كلمة واحدة عن محاولات بن غوريون المتكررة والفاشلة لدخول منظمة معاهدة شمالي الاطلسي أو لتحقيق تحالفات ثنائية مع بريطانيه ثم مع فرنسه وبعد ذلك مع الولايات المتحدة . ولا يقول كلمة واحدة كذلك عن محاولته الناجحة في احكام الصلات مع ايران والحبشة والتي اصبحت عاملا من أعظم العوامل أهمية في سياسة اسرائيل شرق الاوسطية .

وبما ان بن غوريون غير صادق الى حد كبير من حيث طمسه للحقيقة فانه لا يثير استغرابنا ان يكون غير صادق الى الحد ذاته من حيث طرحه امورا بسيطة خاطئة . وهكذا فانه يكرر الكذبة الفاضحة بأن الفلسطينيين تركوا بيوتهم في ١٩٤٧ — ١٩٤٨ وفقا للاوامر التي صدرت اليهم من الهيئة العربية العليا . وهو يكرر حتى الكذبة الصارخة بأن اسرائيل انما قامت بهجوم مضاد فقط للدفاع عن نفسها في الخامس من حزيران ١٩٦٧ لان القاذفات والدبابات المصرية شوهدت وهي تتقدم لمهاجمة اسرائيل . وبسبب هذه الاخطاء التاريخية في الاقتراب والالغاء يكاد كتاب بن غوريون يصبح مجرد واجهة دعائية مؤثرة جدا . ويجب ان يعلم بن غوريون قبل أي انسان آخر ان هذه هي حقيقة كتابه .

لماذا اذن يقوم شخص واقعي وعملي مثل بن غوريون بوضع مثل تلك التلفيقات التي حفل بها كتابه ؟ ربما يكون سبب ذلك ان بن غوريون يعتقد ان الكثير من الحقيقة قد قيل في سيرته « الرسمية » التي وضعها ميخائيل بار زوهار في كتاب « النبي المسلح » وانه يشعر ان الوقت قد حان لمزيد من الاطراء . وقد يكون من الطبيعي ايضا لبن غوريون « كوطني اسرائيلي » ان يحاول اعطاء انطباع جيد عن بلده قدر استطاعته وبكل ما لديه من سلطان . ان ذلك يشكل رغبة طبيعية لدى بن غوريون واسرائيل لا كوسيلة لغاية وانما كغاية في حد ذاتها . انه جزء من مبرر وجود اسرائيل التي لا ترى في الدعاية المناسبة أمرا ثانويا وانما ضرورة قومية .

ان ما ترتكز عليه الدولة اليهودية من ظلم ولا انسانية يمكن التغاضي عنه او اغفاله او تناسيه اذا امكن فقط تبيان ان اسرائيل هي دولة من نوع خاص جدا وان الاسرائيليين شعب خاص جدا لا يخطئون ابدا ويجب ان يغفر لهم اذا أخطأوا . وهناك طبعا الخرافة القديمة القائلة بأن اليهود هم شعب الله المختار ، الا أنها لا تجد كثيرا من الاذان الصاغية في عصرنا الحاضر والبعيد عن الايمان الديني . وعليه فان الاسرائيليين ليسوا مجرد شعب مختار وانما يجب اظهارهم ، لضرورات سياسية ، على أنهم نوع جديد من « الشعب المختار » . ولقد قيل ان اسرائيل لا يمكن ان تكون دولة مثل باقي الدول ، بل يجب ان تكون استثنائية لان لها رسالة خاصة تحققها وهي بمثابة النور للعالم وخاصة العالم الافرو — آسيوي . وكان بن غوريون دوما من دعاة هذه الفكرة الرئيسيين ، فقد قال في كانون الثاني ١٩٤٩ وبعد اسبوع من وقف القتال : « سنستطيع انجاز هذه الرسالة فقط اذا عبأنا الى ابعد حد الميزة الوحيدة التي نتمتع بها وهي فرادة الشعب اليهودي الادبية والفكرية » . ولاحظ استخدامه كلمة « الادبية » . وفي الجزء النهائي من الكتاب حول المستقبل وميراث الامة الفريدة يشير بن غوريون مرارا وتكرارا الى فكرة الفرادة والتفوق اليهوديين . فهو يتحدث عن « الميزة المتفوقة للامة العبريـة » ويقول « ان مستقبل اسرائيل سيعتمد على الحفاظ علـى هذا التفوق وتعزيزه اكثر من اعتماده على اي شيء آخر » .

ويحاول بن‌غوريون في هذا الكتاب اقناع الاسرائيليين وغيرهم بهذا التفوق العنصري الفريد . ولذلك فانه من المستحيل ، لاسباب تتعلق بوجود الدولة والوجود القومي ، ان يعترف بن غوريون بأن اليهود الاسرائيليين اذنبوا بارتكابهم اعمالا وحشية مثل مجزرة دير ياسين وطرد الشعب الفلسطيني من ارضه . ويستحيل ان يعترف بأن اليهـود الاسرائيليين يمكن ان يكونوا مخادعين وخائنين بحيث يلعبون دورا حقيرا في خدمة المعتدين البريطانيين والفرنسيين وفقا لمعاهدة سرية . ويستحيل ان يصف بن غوريون « اشتراكية » اسرائيل في الوقت الذي تتحالف فيه مع قوتين محليتين خاضعتين لحكم امبراطورين يرتكزان على القمع ومعرضين للتداعي والسقوط . ومن المستحيل ان يعترف بأن اسرائيل ربحت حرب حزيران ١٩٦٧ بسبب « هجوم تسللي جبان » . واذا اعترف بن غوريون بهذه الحقائق لما بقي هناك سبب للمجيء باسرائيل الى الوجود ما دامت دولة مثل سائر الدول بل هي اكثـر وحشية وقسوة من غيرها . اما اذا اغفل الظلـم الذي ترتكز عليه اسرائيل فانه يترتب على ذلك اظهار الاسرائيليين على انهم شعب خاص ، بلا خوف او شعور باللوم او الخـزي ، واقناع الاسرائيليين انفسهم وغيرهم بذلك وتلك كانت هي الامور التي حذفها بن غوريون . ان القول بأن لاسرائيل عيوبها المعنوية لا يعتبر نقدا غير اخلاقي فقط بل خيانة عظمى بالنسبة لشخص مثـل بن غوريون .

ان اكاذيب بن غوريون وغيره من رجال الدعاية الاسرائيليين والصهيونيين ليست مجرد اكاذيب دعائية تريد ان تضفي بريقا على الاشياء وانما هي أكاذيب اساسية تحمي صميم الوجود الصهيوني ذاته . ان تبيان الحقيقة قد يلحق العار بالدعائي العادي ولكنه يقضي على الصهيوني . ولهذا السبب يغالي الاسرائيليون والصهيونيون في التأكد من ان حقيقتهم لن تظهر ابدا . وهذا الخوف الصهيوني الفعلي من الحقيقة هو احد اقوى مصادر الامل في مستقبل هذا الجزء من العالم . لان الحقيقة سوف تظهر .

جودفري هـ. جانسن

شاهد من هذا العصر : يوميات شهيد قتل في مجزرة الاردن ــ أيلول ١٩٧٠
رسوم ضياء العزاوي (بغداد ، ١٩٧٢) .

من قلة قليلة من الفنانين التشكيليين العرب ، تشغل اعمال ضياء العزاوي مساحة كبيرة من الهواجس والهموم العربية الراهنة ، التي وهي تنتقل الى اصبغة وألوان ، اي الى لغة التشكيل، تكتسب حضورها من ابتعادها بضع خطوات عن المباشرة واللازمات والهوامش والتفاصيل التي تغلف وتحيط بهذا الشكل او ذاك لوحة الحياة العربية . اي انه باقترابه منا ، لا تستهويه سهولة تقبل الاشياء كما تعلن عن نفسها ، انه يختبرها ، يمحصها ، ينقحها ، واحيانا كثيرة يرفضها ، ليس لانه يستنكف معايشتها كأمور واقعية ، بل لانه يدرك عن تمرس ، طابع الوهم والادعاء ، احيانا التشكل الطارىء للاشياء في اللحظات الراهنة ، وهو هنا يبتعد عن الخفة والاستسهال والتملق ، ويتسلح بحس تجريبي تجعل معالجاته تقترب من الجوهري ومن العام في الحياة العربية المعاصرة ، هموما ووجودا ، نافيا ولافظا الاجزاء الميتة منها ، غير حافل بما تتسربل به اشياؤنا المعاصرة من ادعاءات او نيات او اشكال لم يثبت له صحة تحقيقها . لذلك تبدو اعمال ضياء العزاوي مثيرة لنوع من الشعور والحدس المباشر بأنه يمتد في الماضي اكثر مما هو يرى في الحاضر ، وبتعبير آخر انه يدرس اكثر مما يحس ويعاني ويعايش . ان هذا الشعور ازاء اعمال ضياء لا يخلو من مبرر موضوعي . انه فعلا ولاسباب جد محقة ، يفعل ما يوحي بهذا الشعور عن تصميم واع . ان الانسان العربي الراهن ، ليس هو كليا الذي يقدمه لنا المجتمع المشهدي القائم ، اي مجتمع السوق والبضاعة وتقسيم العمل ، ففي داخل الانسان العربي الراهن يمتد التاريخ اكثر مما يبدو لنا فعل الحاضر ، وهو اذن حصيلة ذلك الامتداد في الماضي وهذا الولوج في الحاضر ، ومن ثم تتشكل حقيقة الانسان العربي بمقدار التفاعل الجارية فعلا بين ما هو تاريخي وراهن ، وهي الحقيقة التي لا تقدمها النظرة الساكنة في لوحة الحياة العربية ، والتي يبدو فيها الانسان العربي فاقدا لذاكرته . وواقع الامر ان ضياء العزاوي يحقق معالجاته التشكيلية ، عبر هذه النظرة الصارمة للواقع . وكثيرون هم الذين توقفوا في تعاملهم مع انتاج ضياء عند المعالجة التشكيلية فحسب ، التي تمتاز بجمالية خاصة . وكثيرون هم النقاد الذين تحت وطأة ثقافة وتقاليد فنية سائدة مارسوا مواقف انبهار امام صنعة ضياء وتقنيته . واعتقد انهم ــ اي جمهور صالونات العرض والنقاد ــ ظلوا أسرى الفهم الدارج للوحة الفنية ، كبضاعة وكحلية . مضافا الى ذلك ان ابجدية ضياء العزاوي الفنية تنتمي الى اصول الارث الشرقي العريض الكامن في المنطقة . لذلك يفهمون لوحاته كصدى معاصر لهذا الارث .

ما من شك ان جزالة لوحات ضياء العزاوي اللونية والشكلية تتضمن قدرة لا يستهان بها على اغواء المتفرج . وبالنسبة لي شخصيا استهوتني لغة ضياء العزاوي الى حد كبير ، واجد من الصعب علي أن أفصل اعجابي التقني بانتاجه عن ذكريات الطفولة مع كل رموز الشرق التي مثلتها عندي قطعة سجاد قديمة .

ان الكتاب الذي نحن بصدده ، والذي يتضمن رواية ضياء العزاوي لمذكرات تركها مقاتل اثناء احداث ايلول ١٩٧٠ في عمان ، نموذج لحركته في الحياة والثقافة العربية المعاصرة ، وكشف لرؤيته فيها . فقد تضمن الكتاب نحو ٧٠ تخطيطا يرافق السرد النثري لاحداث القتال في احد جبال عمان « الحسين » من زاوية رؤية مقاتل وشاهد على ما حدث في أيلول . بيد ان هذه الرسوم ليست مجرد Illustrations لهذه المذكرات . وليست مجرد سرد تقليدي يواكب السرد النثري ويقف على هامشها . انها رواية جديدة بريشة ضياء العزاوي تغني اليوميات التي تركها المقاتل وتقف الى جانبها. والواقع ان المذكرات التي تركها المقاتل تتضمن عناصر الاثارة الحسية ، رغم عيوبها وركاكاتها الانشائية ، فهي قد خضعت الى شيء من الفبركة لاغراض صحفية أفقدتها شيئامن عفويتها وطزاجتها كانطباعات مباشرة على الاحداث .

وعلى النحو الذي يسلكه السرد النثري تتتابع تخطيطات ضياء ، مقدمة تكوينات منوعة لمقاتلين في حالة انتباه ، واستعداد لحدث مرتقب . ان هذه التكوينات تتضمن اوضاعا منتخبة لمقاتلين متأبطين أسلحتهم الفردية ، أو هم يشرعونها ، ويمتزج التخطيط بالكتابة اللغوية ، المشتقة من مادة

اليوميات ، التي تعطي التكوين العام للوحة جمالية الحرف العربي بالاضافة الى الدلالة اللغوية للكلمات المقتبسة .

ومع انتقال اليوميات الى الصدام بين الجيش والسلطة من جهة والمقاومة والجماهير من جهة اخرى ، تنتقل رسوم ضياء لحظات الكمون للمدرعات ، ضحايا القصف الرجعي ، الاشتباك مع الاليات وقصفها بأسلحة الار. بي. جي.

وتتتالى صور يتعايش داخلها الموت والجثث الممزقة مع قامات المقاتلين المديدة وصمودهم . ان الجثث الممددة ، واطراف الاليات ، والازهار ، وكتابات مثل « وكنت اسمع انينا في كل مكان حين طلب مني ان اعود الى .. » و« فجأة يفقد الموت معناه وينتاب المرء شعور بأن الناس انما يرتاحون على قارعة الطريق .. » تصبغ رسوم ضياء بسواد المأساة . وتتكرر في كثير منها ثنائيات الموت والصمود : الجثث المتراكمة والمقاتل المنتصب بيقظة . مع تصاعد القتال ، وازدياد الاوضاع سوءا ، فان صور الاطراف المبتورة ، الاجساد الممزقة ، القصف العشوائي ، والضحايا من المدنيين والاطفال تقطع تواصلها لحظات البطولة والصمود من المقاتلين حتى نهاية اليوميات .

والواقع انه من الصعوبة بمكان ان نعطي هذا الكشف التصويري لليوميات حقه ، اذ يحول دون ذلك محدودية التعبير النثري عن احتواء التعبير التشكيلي ، وهي الصعوبة التي يعاني منها النقد عموما . واكتفي بأن اشير الى ان ضياء العزاوي قدم عبر الكتاب صورة من تجاربه وتنقيحاته الاسلوبية ، التي نعهدها فيه . فكثافة انتاجه وتنوعه ، تعكس سعيه الدائب للتجربة والتنقيح ، وهو هنا يختار موضوعا قريبا من اهتماماته ، فالانسان في انتاج العزاوي له مركز الاستقطاب ، ومأساة كتلك التي عرفها الشعب في الاردن في ايلول ١٩٧٠ تعطيه فرصة تفجير الدفق الدافىء والحزين الذي يكتسي تصويره . ان الموت ، كما الحب ، عند العزاوي موضوع حميم يقربه من البؤس العام الذي يظلل الانسان في المنطقة . وهو حتى في اكثر لوحاته اشراقا ينطوي عن هاجس خوف وعن حدس مطبوع بنذر غامضة تدفعه الى جعل اجساده مؤتلفة ومتعانقة او مشدودة الى بعضها البعض بنوع من التقية والعزاء ازاء العالم الراهن . من هنا اجد في رسوم الكتاب اكثر التصميمات التي تداولت المقاومة والفدائي جمالا ، وابعدها عن الافتعال وعن الكليشيه . واكثرها حبا للانسان المقاتل . ان جماليتها ، ليست تحصيلا لتقنية متمكنة ، فقط ، انها ترجيع وتجل شعري لمشاعر حب الجماهير تشف من بنية نضالية ، اكتسبت صياغتها وابجديتها من موقف متقدم ومن احساس بمادة التضحية التي يعالجها ، لذلك فان رسوم العزاوي تنطوي على اضافات شكلية وعلى جمالية خاصة مستمدة ، بدون مباشرة فجة ، من هيئة المقاتل ، كوفيته ، ملابسه ، سلاحه . فيما وجهه يختصر — كما هو متوقع — في عينين فحسب .

ولا ارغب — اخيرا — في ان يفوتني التنويه بالنص الانجليزي لليوميات النثرية الذي كتبه جبرا ابراهيم جبرا ، الذي تمتع برقة وسلاسة اضفت على اليوميات ، متانة مباشرة وتماسكا عفويا . وان الاخراج الطباعي ، وبعض التضمينات النثرية ، كمقاطع من اغاني المقاومة ومقتطفات من التقارير الصحفية عن مجزرة عمان ، منحت الكتاب مزايا اخرى تستحق التسجيل .

هاني حوراني

تيسير النابلسي ، **حركة الهجرة اليهودية بعد عدوان ١٩٦٧** ، (مركز الابحاث في م. ت. ف. ، بيروت ، ١٩٧٢) .

يتوقع المرء ، بعد القاء نظرة على عنوان كتاب السيد تيسير النابلسي ، احد امرين : الاطلاع على دراسة احصائية منظمة لاعداد اليهود المهاجرين الى اسرائيل واعداد النازحين (الهجرة المعاكسة)، او دراسة تحليلية لاوضاع الهجرة والهجرة المضادة من والى اسرائيل ، واسبابهما السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ولكن جاء بحث السيد النابلسي لا علاقة له بالدراسة الاحصائية ، او بالدراسة التحليلية العلمية التي كنا نتوخاها من الكتاب . فالنابلسي يقول في مقدمة بحثه « ان اهمية المواجهة في ميدان الهجرة كانت الحافز لهذا الكتاب ليسهم في بحث الجوانب المختلفة للهجرة اليهودية وقضاياها في المرحلة الراهنة » . فهل اسهم المؤلف ، حقا ، في بحث الجوانب المختلفة للهجرة اليهودية ، وهل بحث في قضايا مرحلتها الراهنة ؟

عند الحديث عن حركة الهجرة الى اسرائيل بعد عدوان ١٩٦٧ يبدأ المؤلف بالقاء نظرة عامة على حركة الهجرة ، ويعرض ارقام المهاجرين الى اسرائيل منذ عام ١٩٦٧ الى عام ١٩٧٠ ، ويعرض لنا ايضا الارقام التي تنشرها الجهات الاسرائيلية الرسمية بالاضافة الى تصريحات الرسميين المتعلقة بهذه الهجرة . وينتقل المؤلف بعد هذا التمهيد ليعرض الارقام نفسها بصورة تفصيلية ، موزعة في جداول مختلفة ، وذلك حسب البلاد التي قدم منها المهاجرون وحسب المهنة والجنس والعمر .

ومن قراءة الفترات المخصصة في كتابه لمعالجة دوافع الهجرة من الولايات المتحدة الاميركية ومن دول اوروبا الغربية الاخرى ، ولمعالجة « عوامل ضعف الهجرة من الولايات المتحدة الاميركية وكندا وعودة المهاجرين ثانية الى الولايات المتحدة » ، يفهم من هذه القراءة انه لا خطر من هجرة يهود الولايات المتحدة الى اسرائيل ، وان دور هذه الهجرة في تقوية بناء الدولة الاسرائيلية ودعمه ضعيف ومحدود . فالمؤلف يقول — بعد اخفاق الحركة الصهيونية في احاطة اليهود في الولايات المتحدة الاميركية بجو نفسي للمدى الذي يدفعهم للهجرة — يقول ان دوافع الهجرة من الولايات المتحدة الى فلسطين المحتلة « تبقى محدودة ببعض البواعث الدينية والسياسية والعسكرية » . ويعتبر المؤلف ان الدافع الديني « من ابرز دوافع الهجرة الحالية من الولايات المتحدة ... حيث يضمن هؤلاء المهاجرون لانفسهم ولاولادهم ان يظلوا يهودا مخلصين » . ما دامت نسبة المهاجرين الى عدد اليهود في الولايات المتحدة الاميركية « تعتبر اقل نسبة هجرة من اي قطر اخر ، اذ انها تقل عن (٠٫٠٣٪) من يهود الولايات المتحدة » فليس هناك ما يدعو الى القلق والخوف . ويلفت المؤلف الانتباه الى ارتفاع نسبة الهجرة من الدول الاخرى ، مثل اميركه الجنوبية والاتحاد السوفياتي ودول اوروبا الغربية والدول العربية ، وبعض الدول المتخلفة الاخرى من شمال افريقيا . وتبدو اهتمامات المؤلف محصورة في دراسة الهجرة كميا ، وليس في دراستها نوعيا . فعلى الرغم من ذكر الكاتب لكفاءات المهاجرين الدائمين او المؤقتين من الاميركيين ، فهو لا يحلل ابعاد الدور الذي تقوم به هذه الكفاءات المهاجرة في بناء الهيكل الاقتصادي والعسكري لدولة اسرائيل . فهو يذكر ان (١٢٥) اسرة اميركية هاجرت الى اسرائيل بعد عام ١٩٦٧، « وان ٢٦ من افراد هذه الاسر متخصص في شؤون الطيران الحربي ، و ٢٦ منهم من الطيارين العسكريين السابقين ، و ١٨ من مهندسي الرادار» بالاضافة الى عدد لا بأس به من خبراء عمليات التشويش على الرادار . ويذكر المؤلف ايضا ان « من بين مئات المهاجرين من الولايات المتحدة عددا من الفنيين والمهندسين الذين هاجروا بسبب تخفيض برنامج الفضاء الاميركي » ، و « ان المشروع الذري والصناعات الهندسية والالكترونية بجانب مطار اللد قد طعمت بكثير من الخبرات الاميركية » . على الرغم من كل ذلك يعتبر المؤلف ان الدافع الديني « من ابرز دوافع الهجرة الحالية من الولايات المتحدة » الى اسرائيل .

تحت عنوان « الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفياتي » يذكر المؤلف ان هجرة يهود الاتحاد السوفياتي قبل عدوان حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، كانت « تتم بشكل محدود جدا وفي نطاق برنامج جمع شمل العائلات بالنسبة للمتقدمين بالسن ... » . ويذكر المؤلف ايضا ما تردده الصحف الاسرائيلية احيانا من اخبار « مفادها ان الاتحاد

السوفياتي سيسمح بهجرة يهود روسيه الى اسرائيل بعد انسحاب اسرائيل الى حدود الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧ » . يمكن القول ان كلمات المؤلف هذه هي كل ما خصصه للحديث عن هجرة اليهود من الاتحاد السوفياتي ، وان القسم المتبقي من معالجته لموضوع هجرة اليهود من الاتحاد السوفياتي اتى على شكل (ريبورتاج) صحفي ، جمع فيه المؤلف ما تنشره الصحف اليومية من تصريحات وتعليقات للمسؤولين ، وجاءت معالجته لهجرة يهود الاتحاد السوفياتي سردا لحملات الصحف الاسرائيلية على الاتحاد السوفياتي ولردود الاتحاد السوفياتي على هذه الحملات . والمؤلف ، بذلك ، لم يتحدث عن هجرة اليهود من الاتحاد السوفياتي ، ولا كيف تتم ؟ وتحت اية ظروف ؟ وما هي الدوافع والاسباب ؟ وما هو مستقبل الهجرة ؟ وما علاقة هذا المستقبل مع التسوية السياسية لازمة الشرق الاوسط نظرا للدور الكبير الذي يقوم به الاتحاد السوفياتي فيها ؟

يفرد المؤلف من كتابه فصلا كاملا لمعالجة حركة الهجرة المعاكسة (النزوح) ودوافعها . وجاء هذا الفصل ، كغيره من الفصول ، ناقصا ومشوها . فعلى الرغم من ذكر المؤلف لاعداد النازحين من اليهود بعد عام ١٩٦٧ ، فهو يصر على تخصيص عدة صفحات من هذا الفصل للحديث عن حركة النزوح خلال الفترة من ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٧ ، بينما موضوع بحثه هو حركة الهجرة اليهودية بعد عام ١٩٦٧ . ونعني هنا انه من الافضل لو تحدث عن حركة النزوح قبل عام ١٩٦٧ بشيء من الايجاز والتلميح . ويوجز المؤلف في نهاية الفصل اسباب الهجرة المعاكسة باسباب ثلاثة : « اسباب امنية : الخطر من نشوب قتال وعدم استقرار الدولة الاسرائيلية ، اسباب اقتصادية : ابرزها توفر فرص اقتصادية افضل في الخارج ، اسباب اجتماعية : تتعلق بفشل استيعاب المهاجرين واندماجهم في المجتمع الجديد اسكانا ولغة وثقافة » . مما لا شك فيه ان هذه الاسباب جوهرية واساسية ، الا ان المؤلف وقع في مغالطات عديدة في إثناء بحثه لهذه الاسباب بالتفصيل . اذ بعد ان وضح للشعوب العربية فشل الاعلام العربي قبل حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ — وهذا لا يعني انه ناجح في يومنا هذا — نجد من يقر ويعترف « بايجابيات الاعلام العربي » . فيقول المؤلف بهذا الخصوص ان من « ايجابيات الاعلام العربي الموجه ضد العدو الصهيوني في فلسطين المحتلة قبل عام ١٩٦٧ ، رغم سلبياته العديدة ، انه ركز الشعور بالخطر على مصير الدولة الصهيونية والسكان واثار فيهم اشد القلق ، وكان هذا دافعا لمزيد من الهجرة المعاكسة » . فاذا ركزت « ايجابيات الاعلام العربي » الشعور بالخطر على مصير الدولة الصهيونية فسلبيات هذا الاعلام ركزت الشعور بالخطر على مصير الدول العربية منذ حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . واذا كان من نتائج « ايجابيات الاعلام العربي » انها اثارت القلق في نفوس السكان اليهود مما دفعهم الى المزيد من الهجرة المعاكسة ، فحرب حزيران ونتائجها زادت من معدلات الهجرة الى اسرائيل وخفضت معدلات الهجرة المعاكسة . ولنر معا اقتراح السيد المؤلف بالجهاز الاعلامي المطلوب ، فهو يرى « ان قيمة اي عمل اعلامي » بخصوص التاثير في حركة الهجرة اليهودية من فلسطين الى الخارج « تعتمد اولا على استمرار الكفاح المسلح ضد الوجود الصهيوني الغاصب على إرض فلسطين » . ولكن ، هل غاب من ذهن المؤلف ان يذكر دور الاعلام المهم في خلق الكفاح المسلح وزرعه في ارض فلسطين ؟ لعل في نظرة خاطفة على النتائج التي حققها الاعلام العربي بشأن المقاومة المسلحة في غزة اجابة على هذا السؤال. وعلى الرغم من حديث المؤلف عن « توفر فرص اقتصادية افضل » خارج اسرائيل ، فهو لا يخبرنا بالفرص الاقتصادية الاسوأ داخل اسرائيل .

القسم الثاني من بحث المؤلف النابلسي يتعلق بقضايا الهجرة ، يتحدث فيه عن قضايا استيعاب المهاجرين وتنظيم الوزارات والدوائر التي تشرف على الاستيعاب ، وعرض المشاكل الرئيسية التي تواجه عملية استيعاب المهاجرين الجدد وانجازات دوائر الاستيعاب ونفقاتها ، الى ان يخلص المؤلف الى الحديث عن « الاساليب المختلفة لاستجلاب المهاجرين » . وجاء معظم حديثه في هذا الفصل لا علاقة له بالبحث موضوع الكتاب . فالمؤلف يتحدث في معظم كتابه عن الاساليب المختلفة لترغيب وترهيب يهود العالم للهجرة الى اسرائيل منذ نشأتها . وهذا ليس له علاقة « بحركة الهجرة اليهودية بعد عدوان ١٩٦٧ » وهو عنوان الكتاب. وعلى الرغم من تكرار المؤلف للمواد والمعلومات في اكثر من موضع في كتابه ، فهو لا يشرح لنا اسباب اسكان المهاجرين في مناطق مختلفة ودوافع هذا

الاسكان ، فهو يذكر مثلا استيطان « ٦٦٪ من المهاجرين الجدد في المنطقة الساحلية واستوطن الباقون مناطق التنمية وفي مدينة القدس . وتم توزيع الـ ٣٤٪ الباقية في مناطق اخرى » ، الا انه لا يذكر لنا اسباب هذا التوزيع ودوافعه الثقافية والاجتماعية والاقتصادية .

يختتم المؤلف بحثه بتحليل العوامل التي تساعد على الهجرة لاسرائيل ، ويربط تصاعد ، او هبوط، الخط البياني للهجرة « باستمرار حالة الحرب او قيام حالة هدوء في هذه المنطقة » . هذا صحيح الى حد بعيد ، الا ان يستبعد المؤلف « الدافع الاقتصادي » للهجرة الى اسرائيل فهذا ما لا نوافق عليه . فهو يعتقد ان اغلبية اليهود الساحقة تعيش مستوى معيشيا عاليا ، « ولهذا فمن المستبعد ان يكون للعامل الاقتصادي اي تأثير في تحريك هجرة واسعة » الى اسرائيل . بينما ، في رأينا ، ان الاضطهاد الذي تعاني منه الطبقة العمالية — ومنها العمال اليهود — في البلدان الرأسمالية، تلتقطه الايديولوجية الصهيونية في البلدان الرأسمالية لتحوله في اذهان العمال اليهود الى اضطهاد عنصري موجه ضدهم بالذات . وتطرح الصهيونية امام هؤلاء بأن الحل الوحيد يكمن بالخلاص النهائي من الاضطهاد والتوجه الى اسرائيل حيث يستعيد اليهودي مكانته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على ارضه . هذا ويمكن ان نضيف ان البطالة المنتشرة في الولايات المتحدة ودول اوروبا الغربية بنسب متفاوتة بالاضافة الى ارتفاع مستوى الاسعار ومستوى المعيشة في هذه البلدان ، يمتد تأثير ذلك حتى يمس الحالة المعيشية ليهود البلاد الرأسمالية ، مما يقوي حافز الهجرة عندهم . ويمكن ان نضيف ايضا ان الحرب العسكرية الاقتصادية غير المجدية التي تقودها الولايات المتحدة الاميركية في فيتنام ، تدفع يهود الولايات المتحدة الى الهرب من الجندية في الجيش الاميركي الى كندا ومن ثم اللجوء الى اسرائيل خلاصا من ويلات الحرب الفيتنامية . هذا عن العامل الاقتصادي في دفع هجرة اليهود الى اسرائيل من الدول الرأسمالية (الغنية) . ولم يتحدث المؤلف عن دور العامل الاقتصادي وراء الهجرة اليهودية من البلدان المتخلفة ، اذ لا يمكن تغافل ذلك على الاطلاق . فالاضطرابات السياسية والعسكرية في البلدان المتخلفة تؤدي الى احد امرين : اما الى قمع الجماهير واستغلال قوى العمل وفوضى الانتاج وعدم الاستقرار المعيشي والحياتي والتخلف الثقافي والفكري والفقر الصحي والايديولوجي والمالي للسكان ، مما يدفع اليهود من سكان هذه البلاد الى البحث عن الاستقرار والتخلص من كل ذلك بالهرب خارج البلاد وبالهجرة الى اسرائيل بتشجيع من الانظمة الحاكمة في تلك البلاد ، او تؤدي الى انتصار القوى الوطنية في البلاد المتخلفة ، اذ تبدأ الصهيونية باستغلال حالة التخلف الثقافي والسياسي لنسبة كبيرة من السكان اليهود في تلك البلاد ، فتصور لهم انتصار الحركات الوطنية والاشتراكية على انه مؤشر لمزيد من الفوضى ، فتعمل على دفعهم للهجرة بسرعة كبيرة .

ولا يرى المؤلف في الدافع الديني اي اثر على حركة الهجرة ، « وحتى الانتماء للفكرة والعقيدة الصهيونية .. لم يستطع ان يحرك هجرة اليهود على نطاق واسع » . بل ان الذي يحرك هجرة واسعة في رأي المؤلف ، « هو عامل الضغط والاكراه والخوف من الاضطهاد والشعور بالعداء والاحتقار » . ليس المهم ان نعرف اذا كانت الهجرة تتم على نطاق واسع او ضيق ، فالاهم ان نحلل الهجرة الحاصلة نوعيا وليس كميا . وبما ان المؤلف لا يرى الا « عامل الضغط والاكراه والخوف من الاضطهاد .. » وراء حركة هجرة اليهود الى اسرائيل ، فهذا ليس كل الحقيقة . فهناك عوامل عديدة اخرى تساعد على الهجرة الى اسرائيل : اولها ، الدعم الصهيوني العالمي الذي تقدمه الصهيونية الى اسرائيل عبر مؤسساتها الاقتصادية القائمة في العالم، وعبر نفوذها السياسي العالمي، وعبر ما تملكه من اسهم ضخمة في وسائل الاعلام التجارية العالمية (صحف ، وكالات ، اذاعات محلية) ، اذ تعمل الصهيونية على تصوير اسرائيل في ذهن اليهودي على انها الدولة النموذجية الوحيدة . ثانيها ، الانتصارات العسكرية الاسرائيلية ، حيث ان نشوة الانتصار في اعقاب كل حرب تدفع بالعديد من اليهود للهجرة الى اسرائيل لتأكدهم اليقين من القوة والقدرة العسكرية الاسرائيلية . فاعداد المهاجرين في الاعوام التي تلت حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ زادت بنسب ملحوظة وبلغت عام ١٩٧٠ ما يزيد عن نسبة عامي ١٩٦٦ و ١٩٦٧ معا . وثالثها ، دعم الدول الرأسمالية لاسرائيل ، حيث تعتبر اسرائيل موطنا اقتصاديا خصبا للاحتكارات والشركات الرأسمالية العالمية،

وتمثل الاستثمارات الرأسمالية الاجنبية جزءا مهما من القطاع الخاص الصناعي الاسرائيلي . فالرهان على استمرار الدعم الراسمالي والاطمئنان الى القوة التي تمثلها الدول الرأسمالية يشجع يهود العالم على الهجرة والسكن في اسرائيل .

دراسة المؤلف جاءت بعيدة كل البعد عن النظرة التحليلية لواقع الهجرة اليهودية ، كما انها ليست دراسة احصائية منظمة لحركة الهجرة اليهودية بعد عدوان ١٩٦٧ . ان الدراسة ليست اكثر من جمع لتصريحات وبيانات اطلقها مسؤولون في اسرائيل ، ونشرتها الصحف والنشرات الاسرائيلية الرسمية حاول المؤلف ربطها ببعضها بعضا، فجاءت دراسته متناقضة في اكثر من موضع ، واكثر من مكان .

مصطفى كركوتي

عبد المنعم سعد ، السينما والتواجد العربي في المؤتمرات الدولية
(القاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للسينمائيين ، ١٩٧٢).

يحاول المؤلف في هذا البحث مناقشة اهمية الفيلم السينمائي واهمية الارشيف لسينما القضية الفلسطينية . كذلك ما يمكن ان يلعبه فيلم القضية في مجال مهرجانات السينما . انه لمن المفيد جدا تنبيه مؤسسات القطاع العام في عالمنا العربي الى تخصيص جانب من نتاجاتها السينمائية لقضية فلسطين . ولكن تقديم بحث وتعميمه يحتاج في ذات الوقت للتوغل في سبيل توضيح نوعية الافلام واساليبها ، بمعنى أي الافلام اكثر ملاءمة للتعامل مع الواقع ومنحه بعدا يحتوي وجهات نظر حركة المقاومة الفلسطينية .

في مقدمة الكراس الذي يقع في ٣٥ صفحة من القطع المتوسط (رونيو) يوضح المؤلف وبشكل تقريري ، الصراع المتصاعد بين الدول العربية واسرائيل ، وان هذا الصراع يستلزم تصدي الامة العربية للاعلام الصهيوني عبر الفيلم السينمائي ، كذلك يعتقد المؤلف ان الشعب العربي هو في صراع ضد الامبريالية والصهيونية العالمية، دون أن يشير الى خطورة الرجعية العربية ودورها الخطير في تفتيت القوى الوطنية واضعاف دورها في المعركة ، لان نضال الشعب العربي هو نضال ازاء ثالوث الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية . يقول المؤلف « .. وبصرف النظر عن اشتراك الدول العربية في بعض المهرجانات السينمائية الدولية بالافلام الروائية التي تجسد المستوى الحضاري والثقافي للامة العربية ، فان ما يهمنا في هذه المرحلة ، التركيز على انتاج الافلام التسجيلية والقصيرة ، التي تستطيع جميع الدول العربية بلا استثناء — حتى التي لا تنتج الافلام الروائية ، او التي لا يوجد بها صناعة سينما بالمفهوم الفني — ان تشترك بها في هذه المؤتمرات » . يبدو ان المؤلف واقع في اعتقاد سهولة الفيلم التسجيلي ، وانه لا يعدو كونه تسجيلا لما يدور في الواقع . الفيلم التسجيلي هو الفيلم الذي يتعامل مع الواقع لا الذي يصوره فحسب . وهو ايضا انتقاء وتأطير ضمن وجهة نظر علمية مدركة ضمن موضوع يخضع للتنامي ويوجد حالات من الانتباه ويدعو لاتخاذ موقف ازاءها ، موقف منحاز كليا . ان اي مؤسسة من مؤسسات القطاع العام لا يمكنها ان تقيم صناعة سينما روائية متقدمة دون ان يكون لها اساس تسجيلي متين ومتطور . يعود المؤلف فيقول في صفحة ٤ « ولا شك ان احسن وسيلة سريعة فعالة هو الاشتراك في هذه المهرجانات بالفيلم التسجيلي ، اذا ما تعذر وجود فيلم روائي يصلح او يساهم عرضه في خدمة اهداف القضية الفلسطينية » . في هذا يعتبر المؤلف ان الفيلم الروائي هو الاهم ، وفي حالة تعذره لا بأس من المساهمة بالفيلم التسجيلي ، في حين يدرك كل المعنيين بشؤون السينما في العالم اهمية الفيلم التسجيلي ليس في عكس واقع حركات التحرر فحسب بل في اضافة معنى جديد للواقع من خلال عملية الانتقاء والفرز والتعليق . ثم كيف تنتج سينما القطاع العام العربية افلاما تسجيلية عن القضية

الفلسطينية ، وبالسهولة التي اعتقدها المؤلف !؟ ان تقديم اعمال تسجيلية عن القضية الفلسطينية تتطلب مغادرة اروقة الاستوديوهات ومعايشة القضية في مواقعها والاندماج كليا فيها والا فان الاشرطة ستأتي باهتة وعابرة .

بعد ان يستعرض لنا المؤلف مهرجانات السينما التي تعنى بالافلام التسجيلية يوضح وجهة نظره في اهمية الفيلم ضمن القضية الفلسطينية . لنقرأ ما يقوله بالنص « قبل الحديث عن دور الفيلم السينمائي في قضية فلسطين ، ينبغي الاشارة — في لمحة سريعة — الى ماهية الفيلم التسجيلي بمفهومه الفني .. وتطوره . بين الفيلم التسجيلي والفيلم الروائي اختلاف جوهري متشعب النواحي ، فالفيلم الروائي غايته اولا — وقبل كل شيء — الربح المادي ، والعكس تماما مع الافلام التسجيلية والقصيرة فلم يكن الربح يوما اساس تلك الافلام . ومن ثم نجد ان الدول في جميع بقاع الارض هي التي تقوم بانتاج مثل هذا النوع من الافلام » . لا ادري اي فهم لدور السينما عبر الفيلم الروائي يدور في ذهن المؤلف واية قناعة دعت مؤسسة السينمائيين في مصر لتعميم مثل هذا الرأي . اذا كان الهدف من انتاج الفيلم الروائي هو الربح المادي فان ذلك يتعلق بانتاج مؤسسات القطاع الخاص كونها مؤسسات تجارية ، اما مؤسسات القطاع العام فانها تنشأ بدوافع واهداف فكرية بحتة ، وان كل قرارات التأسيس في الاسباب الموجبة لتشريع قوانين مؤسسات القطاع العام السينمائية تشير الى أهمية الفيلم السينمائي واستخدامه كوسيلة فكرية واعلامية، اما اذا ما در هذا الفيلم او ذاك ايرادات جيدة لشباك التذاكر فانما بسبب قدرة الفيلم على التعبير عن تطلعات اوسع الجماهير ومدى امكانية كادره الفني في تحقيق شريط متماسك الوحدات . فالتوجه الفكري في السينما هو الاساس وليس شباك التذاكر ، لذلك فان اكداس الاشرطة من تلك التي استهدفت الشباك قد اخفقت في هدفها ، وما اندماج كثير من كبريات شركات الانتاج العالمية في بعضها البعض الا الدليل على هذا . لقد حاول الكثير انتاج افلام روائية عن القضية الفلسطينية لحساب القطاع الخاص وفي فترة اندلاع الثورة المسلحة وتلاحم الجماهير العربية مع الانطلاقة ، لكن كل ما انتج من افلام قد اخفق فيما استهدفه لانه لم يكن قد عبر عن القضية الفلسطينية بصدق ولان كل هذه الافلام قد شوهت شخصية الفدائي ضمن اجواء لا تمت الى واقع الشعب الفلسطيني وواقع حركة المقاومة بشيء .

يشير المؤلف في صفحة (٨) الى قادة حركة الفيلم التسجيلي ، ونسى ان يذكر الهولندي (يوريس ايفانس) الذي جال العالم في تحقيق افلام تسجيلية اذ اخرج اول افلامه عام ١٩١١ عندما كان عمره ثلاثة عشر عاما فقط . والسوفياتي (دزيجا فيرتوف) مكون جماعة (سينما — عين) الذي اعلن في بيانه عن ضرورة هجرة الاستوديو والتوجه الى الحياة. كما اشار الى ان (كافالكانتي) هو فرنسي بينما هذا المخرج برازيلي ولد عام ١٨٩٧ ويعتبر من اهم السينمائيين المعاصرين في العالم . لكنه عمل فترة في فرنسا كمهندس ديكور ثم تحول الى مخرج عام ١٩٢٦ بفيلم (لا شيء سوى الساعات) قصة (جي دي موباسان) . كما اعتبر بودونكين وازنشتاين من التسجيليين بينما هما مخرجان روائيان معروفان .

وفي محاولة من المؤلف لتحديد ابعاد النظرة للموقف العربي الاسرائيلي لجأ الى نشر النقاط العشر التي حددها عبد الناصر في مؤتمر البرلمانيين الدولي المنعقد في القاهرة بين (٢ — ٥ شباط ١٩٧٠) ، وبعد ان ينشر هذه النقاط يعود الى القول « ان اسلوب الدعاية بالافلام هو الذي يحدد مصير الحروب » . لا يمكن ان يعتقد اي انسان ضمن عالم التكنولوجيا والصراع القائم بين الشعوب المكافحة والامبريالية ان مصير الحروب يتحدد باسلوب الدعاية بالافلام والا لوجدنا نسبة الاعتمادات في ميزانيات كل الدول تزيد في مجال السينما عن اعتمادات الوزارات العسكرية ! السينما ليست اكثر من اداة تسهم في بث الوعي وفي عملية التنبيه وفي فضح العلاقات الزائفة وتأكيد حالة الصراع الطبقي وتصعيده لتسهم بدورها عبر هذا في عملية التغيير والتطور . ولكن اشارة المؤلف بخصوص التهيئة الاعلامية للصهيونية قبل حرب يونيو (١٩٦٧) كانت ذكية . يقول المؤلف في صفحة (١٧) « قبل معركة يونيو ١٩٦٧ غزت اوروبا افلام عن اضطهاد النازية لهم... مما ساعد على تكوين رأي عالمي يساندهم ويتعاطف معهم... بل ان اسرائيل تنهج في سياستها الاعلامية عن طريق السينما ، نهج المانيا النازية وتسير في خطاها . فقبل ان يجتاح الالمان النرويج ، ابان

الحرب العالمية الثانية ، بفترة قصيرة دعوا علية القوم في اوسلو الى عرض سينمائي خاص حيث شاهدوا الفيلم الالماني عن الحملة البولندية ، وعرضوا جزءا من هذا الفيلم في نهاية الفيلم الامريكي ، الاعداء الذين ننتظرهم ، وأوحى الفيلم بفكرة عن اثر الحرب على النرويجيين الآمنين المحبين للسلام . هذه هي الطريقة النازية في استغلال السينما في الحروب ، وهي الطريقة التي تتعامل بها اسرائيل اليوم » .

يحاول المؤلف ان يحدد عشر قضايا كمادة للفيلم التسجيلي عن القضية الفلسطينية : القضية الاولى (تطور القضية الفلسطينية) ويقترح فيها عرض الموضوع بدءا من مؤتمر بال ١٨٩٧ حتى ١٩٤٨ ، ويريد المؤلف تصوير الشعب الفلسطيني ونضاله المسلح من اجل تحرير الارض من الاستعمار الصهيوني المتحالف مع الامبريالية العالمية ولاقامة الدولة الديمقراطية . القضية الثانية — شرعية المقاومة الفلسطينية — فيلم يتناول شرعية الكفاح المسلح من خلال تعرية التآمر الذي حدث ضد الشعب الفلسطيني منذ وعد بلفور حتى قرار الامم المتحدة عام ١٩٤٧ لمعارضتها لحق الشعوب في تقرير المصير . القضية الثالثة — نظام الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية المحتلة منذ عدوان ١٩٦٧ — يتناول هذا الفيلم ما انتهجته اسرائيل من اجراءات ادارية ضمن الاراضي المحتلة في عدوان ١٩٦٧ ومخالفة ذلك للاتفاقات والقوانين الدولية وذلك باصدارها مثلا قانون الاحكام الاداريةوالمحاكم المدنية وانشاء المستعمرات لاستيطان رعاياها على حساب تشريد عشرات الالوف من المواطنين ونسف المنازل ضمن اجراءات ارهابية. القضية الرابعة — قرارات الامم المتحدة عن اللاجئين الفلسطينيين — فيلم يتناول قرار الجمعية العامة بالسماح للاجئين الراغبين في العودة الى منازلهم ، ورفضهم للعودة دون الاعتراف بحقهم الكامل ، وتوضيح موقف اسرائيل من قرارات هيئة الامم المتحدة . القضية الخامسة — آثار اغلاق القناة على اقتصاديات عدد كبير من الدول — فيلم يوضح اهمية القناة كشريان مائي للتجارة العالمية بين الشرق والغرب، خاصة البترول بين مصادر انتاجه واسواق استهلاكه ، وشرح اهمية هذه القناة منذ افتتاحها في ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ حتى اغلاقها في ٥ يونيو ١٩٦٧ وتأثير ذلك على الصناعة في أوروبا الغربية والدول النامية في آسيا وافريقيا . القضية السادسة — حرب يونيو ، ودلالتها وتطوراتها — فيلم عن جوانب حرب يونيو ودوافعها وكونها ليست صراع حدود بين دولتين ، انما هناك اولويات مهيأة للعدوان وضحت في التوتر والاستفزاز في عام ١٩٦٦ على سوريا والاردن . القضية السابعة — اثر الاوضاع الناتجة عن حرب يونيو على السلام العالمي — فيلم يوضح الانتهاك الذي قامت به اسرائيل للقانون الدولي ولميثاق الامم المتحدة ولاتفاقيات الهدنة ، ومن خلال هذا الخرق يوضح الفيلم الموقف الحتمي والطبيعي للمقاومة، الامر الذي سيدفع الى مواقف لاطراف خارج الصراع المباشر مما يشكل تهديدا للسلام العالمي . القضية الثامنة — سياسة اسرائيل من وجهة نظر القانون الدولي والاعلان العالمي لحقوق الانسان — فيلم يعرض استيلاء اسرائيل على مساحات واسعة من اراضي العرب بأساليب العنف وطرد السكان العرب وراء خطوط الهدنة كما حدث في مذبحة كفرقاسم التي راح ضحيتها ٥١ عربيا بينهم ١٢ امرأة وعشرة اطفال . واستعراض السياسة التي انتهجتها اسرائيل ما بين ٤٨ — ١٩٦٧ في خرقها القانون الدولي ومبادىء حقوق الانسان . القضية التاسعة — العدوان تهديد للسلام العالمي — فيلم عن طبيعة عدوان ١٩٦٧ باعتباره حصيلة مؤامرة الامبريالية الامريكية ضد الشعوب العربية باعتبارها احدى فصائل حركة التحرر الوطني . وعلى اثر هذا العدوان وعقب الرفض الاسرائيلي لتنفيذ قرارات الامم المتحدة فان الوضع في الشرق الاوسط صار يهدد السلام العالمي من خلال الصراعات الدولية وموقفها من الاطراف المتصارعة . القضية العاشرة — سياسة اسرائيل في ضوء القانون الدولي — يتعرض هذا الفيلم الى انتهاكات الاسرائيليين للقوانين والعرف بجرائمهم واعتبارهم المقاومة حركة غير شرعية خلافا للقوانين والمقررات الواردة في معاهدة لاهاي عام ١٨٩٩ ومعاهدة جنيف عام ١٩٤٩ في حق الشعوب باللجوء الى الكفاح المسلح ضد اي غزو .

هذا المنهاج السينمائي المطروح للعمل والذي يحتاج انتاجه دون شك الى دراسات ووثائق وارشيف سينمائي ، متناول من وجهة نظر رسمية يبغي المؤلف من ورائها مخاطبة الرأي العام العالمي من وجهة قانونية لادانة اسرائيل وادانة الامبريالية

بقيادة الولايات المتحدة . والمنهاج المقترح على العموم لا بأس به اذا ما نفذته مؤسسات القطاع العام السينمائية العربية لانه كما ارى اعلى طموح يمكن ان تلتزم بها انطلاقا من طبيعة بنيتها الطبقية . اما السينمائي الثوري الذي يعيش ازمة الصراع داخل وطنه ويدرك أبعاد القضية الفلسطينية ضمن الواقع الطبقي في المنطقة فان رؤيته السينمائية تأخذ ابعادا واضحة لا تحدها مواثيق جنيف وقرارات الامم المتحدة المرمية خارجا ضمن ما هو حاصل في المنطقة . ان ثمة اشرطة بموضوعات كثيرة يجب تحقيقها عن علاقة حركة المقاومة الفلسطينية ، باعتبارها حركة مسلحة ، بالواقع السياسي العربي وكذلك بالجماهير العربية واساليب نضالها والتحامها بحركة المقاومة ، كذلك الشخصية الفلسطينية التي تناثرت في اقطار عدة وتكاد تفقد ملامحها وعاداتها وتقاليدها وتراثها ولغتها . فالفلسطيني الذي يعيش في العراق صار يكتسب بمرور الوقت ملامح الشخصية العراقية ، وفي سوريا ملامح الشخصية السورية ، وهكذا ، وفي هذا عملية اغتيال انسانية بشعة . هنا تأتي اهمية الفيلم السينمائي في تسجيل خصائص الشخصية الفلسطينية ، وعرض مثل هذه الافلام يعني تأكيد هذه الخصائص عند المشاهدالفلسطيني. ان سعة القضية الفلسطينية وجزئياتها تتطلب تجنيد امكانات السينمائيين الشباب واتاحة الفرصة لهم لتحقيق الاشرطة وتعميمها . ولكن الواقع يمكن في بعض الحالات ان يتجه (موضوعيا) بعكس التيار المتقدم فيبعثره ولو لفترة وحتى يتم التفاعل بينهما . المطلوب مثلا من مؤسسات القطاع العام عمل دورات تدريبية في السينما للشباب الفلسطيني. هذه مسألة قد تبدو بسيطة وسهلة التحقيق ، ولكن ما هو حاصل ان مجال السينما ضمن المعركة يكاد يخلو من الشباب الفلسطينيين . الارشيف السينمائي المركزي ، المفروض ان يكون قد تحقق منذ زمن لا سيما وان قرارات عدة قد اتخذت بهذا الشأن ، ولكن ما هو حاصل ان اي سينمائي شاب يحتاج الى وثيقة سينمائية فانه يتعذر عليه الحصول عليها الا عبر مكاتب الارشيف الاجنبية .

وفي هذا الخصوص يشير مؤلف الكراس (او كاتب التقرير) الى ما جاء في توصيات لقاء السينمائيين والتلفزيونيين العرب المنعقد في مهرجان لايبزيغ في شهر نوفمبر ١٩٦٩ — العمل على ايجاد ارشيف سينمائي عربي مركزي يضم موادا من الوطن العربي ومن خارجه عن القضية الفلسطينية ويكون مفتوحا امام السينمائيين والتلفزيونيين العرب — ويواصل المؤلف اقتراحاته في تجميع الافلام المنتجة عن القضية والاحتفاظ بنسخ منها (٣٥ و ١٦ ملم) والاتصال بالهيئات والمؤسسات السينمائية الاجنبية التي صورت افلاما او لقطات عن القضية وشرائها بغية ايداعها في الارشيف . وينهي تقريره بضرورة تنسيق عرض الافلام الخاصة بالقضية الفلسطينية في مهرجانات السينما . وكما اوضحنا فان عدد المهرجانات يبلغ ٧٣ مهرجانا في العام اي بمعدل مهرجان واحد كل خمسة ايام . ومفيد ان نجد في نهاية الكراس اسماء المهرجانات وعناوينها ومواعيد انعقادها . في الختام نقول انه رغم وقوع المؤلف باخطاء وارباكات فكرية الا ان جهده في كتابة التقرير يعتبر على الاقل عملية تنبيه لمؤسسات القطاع العام السينمائية في ادراك أهمية التوجه نحو القضية الفلسطينية عبر افلامها التي كانت مغرقة بفهم مثالي للواقع وعبر اشكال سينمائية مستهلكة وتقليدية .

قاسم حول

رسالتان

كانت « شؤون فلسطينية » قد نشرت في العدد الماضي ثلاثة آراء حول المؤتمر الاخير لاتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين . وبينما كانت طباعة العدد الحالي على وشك الانتهاء ، وصلنا رأي آخر من الاخ عبد الرحمن غنيم . وعملا بحرية النشر ، وبضرورة عرض مختلف وجهات النظر الاساسية حول هذا الموضوع الهام ، ننشر هذا الرأي الجديد الذي يمثل ، كما بالنسبة للآراء السابقة ، وجهة نظر صاحبه . وتأمل شؤون فلسطينية ان يتبلور الحوار الدائر حول اتحاد الكتاب الفلسطينيين في نتائج ايجابية مثمرة وان يتجاوز الحساسيات والعواطف الشخصية والتنظيمية . هذا وقد ابحنا لانفسنا اجراء بعض التعديلات على ما كتبه الاخ عبد الرحمن غنيم بالنظر الى وصول المادة متأخرة جدا فنرجو العذر من الاخ غنيم .

شؤون فلسطينية

الرسالة الاولى

رأي آخر في المؤتمر العام لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين

تضمن العدد الماضي من « شؤون فلسطينية » ثلاثة آراء حول مؤتمر الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، ساهم فيها الاساتذة : بلال الحسن وشفيق الحوت وناجي علوش . ولقد تباينت الآراء حول المؤتمر ، وطرحت وقائع ، بعضهـا صحيح ، وكثير منهـا — وخاصة مما ذكره ناجي علوش — لا يمت الى الحقيقة بصلة . مثلما طرح ناجي علوش آراء ، أقل ما يمكن ان توصف به هو انها محاولة لتبرير كل المخالفات التي يتحمل هو شخصيا الجزء الاكبر منها . وكانت أول مظاهر هذه المحاولات ، محاولة تفضيل « المؤتمر العام لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين » على المؤتمرين الاول والثاني للاتحاد العام لكتاب فلسطين ، كتبرير للدور الذي لعبته « اللجنة التحضيرية » دونما سند قانوني ، مستندا في هذا التفضيل الى أمرين : أولهما ، ضخامة مؤتمر الكتاب والصحفيين الذي عقد في بيروت مقارنا بمؤتمر اتحاد كتاب فلسطـين في غزة والقاهرة ، وثانيهما ، ان المؤتمر الذي عقد في بيروت ضم أدباء وصحافيين ، بينمـا ضمت المؤتمرات السابقـة — حسب زعمه — أدباء فقط !

ان التفوق العددي ، والذي نجـم عن اعطـاء العضوية في المؤتمر لمن يستحق ومن لا يستحق ، ومن التسهيلات المالية التي أعطيت لوفود بعض المنظمات في المؤتمر ، بالاضافة الى المبالغ الكبيرة التي وضعت تحت تصرف اللجنة التحضيرية ، لا يمكن أن يكون مبررا لاضفاء صفة الشرعية على مؤتمر دعت الى عقده ، وأشرفت على عقده لجنة غير شرعية ، يشكل تكوينها اعتداء على اتحاد قائم، له نظامه الاساسي ومؤسساته . ويعرف السيد ناجي علوش انه يضم أكثر من مائة وعشرين كاتبا لا مجال للتشكيك بحقهم في عضويته ، وان مسؤولية ضعفه لا تقع على أمانته العامة وهيئاته الادارية ، وانما تقع على الجهة المسؤولة في المنظمة ، والتي حجبت كل عون عن الاتحاد ، ولم تمنحه امكانية عقد مؤتمر جديد ، بينما كان المرحوم خيري حماد ورفاقه في الامانة يناضلون من أجل تطوير الاتحاد ، وعقد مؤتمر جديد موسع له. ولقد كان ناجي علوش واحدا ممن أسهموا في اضعاف الاتحاد ، حين راح يبرر تلك المخصصات الهزيلة للغاية التي سمحت بها اللجنة التنفيذية لعقد مؤتمر ثالث للاتحاد ، فاحتجت الامانة العامة بأنها لا تغطي نفقات المؤتمر، وطلبت زيادتها ، فلم تستجب اللجنـة التنفيذية

لطلبها ، اذ كان ناجي علوش في مقدمة الذين يطلبون من الامانة العامة ان تقبل بالمبلغ الرمزي لتغطية نفقات المؤتمر، وان تعقد المؤتمر في مخيم الوحدات، والا عد مؤتمرا بورجوازيا مترفعا على الجماهير .. وكنا نود لو انه ضرب المثل على صدق تلك الحملة الظالمة على المرحوم خيري حماد وصحبه ، بعقد مؤتمر الكتاب والصحفيين في أحد مخيمات اللاجئين في لبنان أو سوريه بدلا من عقده في بيروت ، ولكنه لم يفعل !

ثم ان ضعف الاتحاد السابق — اذا كان ضعفه ذاتيا حقا لا نتيجة مضايقته ومحاصرته — لا تتحمل مسؤوليته أمانته العامة ، وانما تتحمل مسؤوليته هيئاته الادارية ، والتي كان على رأسها ناجي علوش (في الاردن) ، وعبدالله الحوراني (في دمشق) ، وعابدين بسيسو (في الكويت) ، وهارون هاشم رشيد (في القاهرة) .

فليعترف هؤلاء بأسباب ضعف الاتحاد ، بدلا من ان يتحامل بعضهم على الامانة العامة بغية الدفاع عن الجهة التي شلت الاتحاد ، وحالت دون تطويره عامدة متعمدة ، حين فشلت في احتوائه بالطرق الدستورية .

اما الحجة الثانية ، فمردود عليها ، اذ ان اتحاد الكتاب الفلسطينيين كان يضم في صفوفه الكتاب الصحفيين ، وكان نظامه الاساسي ينص على ذلك صراحة . ولكنه لم يكن يضم مدعي الكتابة ، او تقبل أمانته العامة لنفسها بأن تمنح العضوية لمن لا تنطبق عليه الشروط ، بينما كان البعض يتقدم بعشرات الطلبات التي تضم من يستحق ومن لا يستحق ، فاذا اعترضت الامانة العامة على أحد هذه الطلبات ، عد اعتراضها جريمة ، لان عليها أن تقبل بها دون نقاش .. مثلما قبلت اللجنة التحضيرية بعضوية من وردت أسماؤهم في برقيات من مكاتب المنظمة أو معتمدي بعض هذه الجهات دون ان تتوقف عند أي اسم من الاسماء . وكان من الطبيعي ان يكتشف الذين حضروا المؤتمر ، أنه كان مؤتمر كتاب وصحفيين وقراء ايضا .. الا ناجي علوش الذي يصر على أنهم كانوا كتابا وصحفيين ، وان الايام ستؤكد « أن عدد الادباء والكتاب والصحفيين الفلسطينيين اكبر من المشاركين في المؤتمر كثيرا » ، بعد أن مهد بالقول ان أحدا من الكتاب والصحفيين في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب لم يأت الى المؤتمر ، وبعد أن استبعد السعودية من عداد الاقطار التي جاء منها كتاب وصحفيون .. للدلالة على فكرته ، مع ان هذا التمهيد لم يكن صحيحا ، بدليل اننا نعرف انه جاء من ليبيا مثلا : ياسر محمود وعبد المجيد عامر ، وجاء من السعودية فواز عيد .. فحتى في مثل هذه المسألة يخفي ناجي علوش الحقائق !

ان شهادات الاثبات التي يقدمها ناجي علوش يبدو انها جميعا غير صحيحة ، حتى تشكيلة اللجنة التحضيرية كما قدمها ، وعقب عليها لم تخل طريقته في التحدث عنها من التزييف المقصود ، حين حرص على تعداد أسماء أعضائها ، وأضاف أنها « تمثل أجيالا مختلفة ، واتجاهات مختلفة » وتضم « عددا من كتابنا وصحفيينا الكبار » . فهذه الصفات تخفي حقيقة أن كتابنا وصحفيينا الكبار قد قاطعوها ، وان تمثيل الاتجاهات المختلفة لم يكن منسجما بحيث اعطيت احدى التنظيمات من البداية اغلبية مطلقة، لتصبح اللجنة تحت سيطرتها المطلقة ، وهي أمور عاد ناجي علوش ليفضحها ، من حيث هو يحاول الدفاع عن لجنته التحضيرية . فكم هو مثير اعترافه القائل « حين بدأت اللجنة التحضيرية تجتمع اكتشفنا ان نصابنا لا يزيد دائما عن النصف زائد واحد » .. فالنصف زائد واحد ، نستطيع استخلاص اسماء ثمانية منهم كانوا يجتمعون باستمرار ، ويضاف اليهم واحد او اثنان من الاخرين ، الذين حضروا اجتماعا او اثنين ثم انفضوا من اللجنة ، بينما قاطع ثلاثة آخرون اللجنة مقاطعة تامة . فما هي انتماءات المجتمعين والتزاماتهم؟ ولماذا قاطع الاخرون اللجنة، او حضروا اجتماعا أو اثنين ، وذهبوا ؟! ألم يكن ذلك بعد ان اكتشفوا اتجاه النوايا من جهة ؟ وبعد ان عرفوا ان تكليفهم تضمن أكذوبة سافرة حين ورد في مطلعه ان اللجنة التحضيرية شكلت بناء على قرار من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية دون ان يكون هناك اي قرار؟ لكن ناجي علوش يتهم هؤلاء جميعا بالاهمال . وهذا الاتهام ضروري بالطبع ، لتبرير الفرمان اللاحق الذي صدر عن رئيس دائرة الاعلام والتوجيه القومي والقاضي باعتبار قرارات اللجنة نافذة مهما كان عدد الاعضاء الذين يحضرون اجتماعاتها !

ورغم موقف الكتاب السلبي من اللجنة ، استمرت اللجنة في عملها ، زاعمة أنها تمثل ارادة الكتاب . وكان من المستحيل الا يقود هذا المنطق الى

الانشقاق .. فقد كان تشكيل اللجنة التحضيرية بحد ذاته عملا انشقاقيا في اتحاد الكتاب . لكن ناجي علوش لا يريد الاعتراف بهذه الحقيقة ، وانما يسوق الاتهام للاخريـن ، بأنهم يتفرجون وأن اللجنـة التحضيرية (المصغرة طبعا) ولجنة العمل المنبثقة عنها (وهي جميعا من « فتح ») « تحس انها وحدها تعمل » . وكأنما موقفهم السلبي ناجم عن اهمالهم واجتهاد لجنته ، لا عن تحفظهم على الدور الذي تمارسه اللجنة ...

فالآخرون لم يكونوا متفرجين ، بل كانوا قسمين : قسم يدافع عن الشرعية المعتدى عليها ، وقسم يرفض محاولة الاحتـواء التـي ركبت اللجنـة التحضيرية لتنفذها . ولقد توج القسم الاول تصديه بمفاجأة اللجنة التحضيرية بعقـد المؤتمر الثالث لاتحاد كتاب فلسطين في القاهـرة في مطلع آب ١٩٧٢ ، هذا المؤتمر الذي بلغت حساسية الساعين الى السيطرة على اتحاد الكتاب من خلال لجنتهم التحضيرية تجاهه حد محاولة اقتحامه بالقوة ، واستخدام العنف في تشتيته ، لولا أن تدخلت سلطات الامن المصرية لحمايته !

وبالنسبة للصاعقة ، فلقد حددت موقفها منذ الاعلان عن تشكيل اللجنة التحضيرية بأنها مع الشرعية وضد محاولة الاحتواء . وبوسع من يريد التأكد من اعتراض الصاعقة على طريقـة تشكيل اللجنـة التحضيرية العودة الى العدد (١٣١) من مجلة « الطلائع » الصادر يوم ١٩٧٢/٥/٢٩ ، بعد أقل من اسبوع من تشكيل اللجنة التحضيرية ، رغم اننا لم نكن قد عرفنا بعد ان الذين ابتدعوا هذه اللجنة اطلقوا أكذوبتين تستوجبـان المحاسبة ، أولاهما ان اللجنة التنفيذية قررت حل الاتحـاد القائم ، وثانيهما ، ان اللجنة التحضيرية شكلت بناء على قرار من اللجنة التنفيذية ، وذلك بغية تجريد المعارضين من أسلحتهم . لكن الامور ما لبثت ان توضحت .. وأصبح على المعارضين للاعتداء على الشرعية النقابية ، ومحاولة احتواء الاتحاد وتركيب مؤتمره ان يفعلوا شيئا .. ولقد تحركوا بالفعل .. حين سلك السيد عودة بطرس عودة الطريق القانوني ، الذي يفاجيء في نهايته اللجنة التحضيرية بعقد المؤتمر الثالث للاتحاد من الاعضاء الذين سددوا اشتراكاتهم فعلا بعد اعطائهم المهلة القانونية المحددة في النظـام الاساسي .. وحين تحركت الصاعقة لتضغط باتجـاه الحيلولة دون تكريس الانشقاق الذي قاد اليه تشكيل اللجنـة التحضيرية ، فحصلت على موافقة الامانة العامة الجديدة للاتحاد على عقد المؤتمر الموسع في بيروت الذي كانت تعد له اللجنة التحضيرية ، شريطة أن يمول من قبل منظمة التحرير الفلسطينية (والجدير بالذكر ان المؤتمر الذي عقد لم يمول من المنظمة) وان تمـارس الامانـة العامـة صلاحياتهـا القانونية في قبـول طلبـات انتسـاب الاعضـاء الجدد ، وفي الدعوة للمؤتمر ... واخذنا نبذل الجهود لدى دائرة الاعلام والتوجيـه القومي ، ولدى اللجنة التحضيرية ، لايجاد مخرج من الازمة. لكننا لم نقابل أي تجاوب ، بل راح « اعلام الوحدة الوطنية » — المشروع منه وغير المشروع — يشن حملة قاسية من الافتراءات علـى المؤتمر الثالث للاتحاد ، ويزعم عدم شرعيته ، وفي هذه المرة اطلق هذا الاعلام أكذوبة جديدة يحاول بها اضفاء صفة الشرعية على اللجنة التحضيرية ، حين زعم ان اللجنة شكلت بناء على مقررات مجلس الاعلام المركزي . ولم نعمد الى الرد على الحملة الظالمة الكاذبة المفترية بمثلها ، بل تحملنا وتحملنا لعلنا ننقذ وحدة الاتحاد من التمزق .

فماذا كانت نتيجة تعنت اللجنة التحضيرية ؟ يعترف ناجي علوش ان الاعتراض على لجنته التحضيرية أصبح عاما ، وانها أصبحت على وشك الفشل ، حين يقول : « وحين اقترب موعد المؤتمر بدأت المنظمات الفدائية ترمي بثقلها . قال بعضهم ان فتح تعمل للسيطرة على المؤتمر ، وطالب آخرون بضمانات تقنعهم بأن اللجنة التحضيرية غير متحيزة، وأخذت اللجنة التحضيرية تواجه الصعوبات ، وبدأت تحس ان المؤتمر سيجهض قبل أن يبدأ » . ان هذا الاعتراف يفسر سر المناورات اللاحقة . فبعد ثلاثة اسابيع من التجاهل المطلق لمحاولات الصاعقة لايجاد مخرج من الازمة يحول دون انشقاق الاتحاد ، جرى لقاء بيننا وبين ناجي علوش ، اتفق فيه على مخرج من الازمة على النحو التالي : ١ — تشكل لجنة خماسية من المنظمات الفدائية الممثلة في اللجنة التنفيذية تكون لها صلاحيات البت النهائي في طلبات الانتساب الجديدة للاتحـاد ، وبرنامج المؤتمر. ٢ — توافق الامانة العامة للاتحاد تلقائيا على ما تقره اللجنة الخماسيـة ، وتتولى الدعوة الى المؤتمر وفق مـا ينص عليه النظام الاساسي للاتحاد .

ورغم انه تم التوصل الى الاتفاق على هذه الصيغة

قبل ثلاثة عشر يوما تقريبا من انعقاد المؤتمر ، فقد أخذت اللجنة التحضيرية تتهرب من تنفيذها ، وتزعم ان الصيغة التي أبلغت بها ووافقت عليها مختلفة عن الصيغة التي ذكرناها آنفا ، ولم يبلغنا ناجي علوش بالموافقة النهائية على هذه الصيغة الا قبل ثلاثة ايام من انعقاد المؤتمر بغية وضع اللجنة الخماسية امام الامر الواقع ، وافقادها زمام المبادرة . ومن هنا يتضح لنا مدى الخطأ فيما ساقه ناجي علوش حول اللجنة الخماسية ، حين قال بأنه « كان من نتيجة هذه الاتصالات أن نشأت لجنة خماسية تمثل المنظمات الخمس ، مهمتها مساعدة اللجنة التحضيرية ومراقبة أعمالها ، كي لا تنحرف او تتحيز . ولقد لعب انشاء هذه اللجنة دورا في بلبلة اللجنة التحضيرية وفي عرقلة اعمالها، وفي اجبارها على اتخاذ مواقف وقرارات كانت اللجنة التحضيرية لا تريدها » .

هنا .. من المناسب ان نتوقف لنعطي القارىء صورة عن الحقيقة بتفاصيلها .. وبيننا وبين ناجي علوش شهادة ثلاثة من اعضاء اللجنة يمكن اللجوء اليهم ، وهم ممثلو الديمقراطية والشعبية وجبهة التحرير العربية .

أولا ، ان القول بأن مهمة اللجنة الخماسية مساعدة اللجنة التحضيرية ، ومراقبة اعمالها مخالف لصيغة الاتفاق الذي تم الالتقاء على أساسه ، لان معناه ان اللجنة الخماسية ليست المرجع النهائي في اتخاذ القرارات .. وانما ستذوب ارادتها في ارادة اللجنة التحضيرية التي أمنت فيها اغلبية من « فتح » .. اذ ان قبول صيغة ناجي علوش يعني ان يكون لفتح عشرة مقابل اربعة من أعضاء اللجنة الخماسية ، بينما العكس يعني ان صلاحيات اللجنة الخماسية هي صلاحيات مطلقة بالنسبة للجنة التحضيرية .

ثانيا ، لقد اجتمعت اللجنة الخماسية ، وراجعت كشوف اسماء المنتسبين الى الاتحاد التي كانت اللجنة التحضيرية قد أقرتها ، وناقشت الاسماء المجهولة من بينها ، وأقرت القوائم رافضة بعض الاسماء . وبدا ان كل شيء يسير على ما يرام ، الى ان جاء اجتماع المساء ، لنجد ان اللجنة التحضيرية تحفظت على اسماء حوالي الاربعين من مقدمي طلبات الانتساب من سوريه ، بحجج اوهى من أن تقبل .. فالشاعر أو الاديب ان لم يكن عاملا في الصحافة تحفظوا عليه، والكاتب او الاديب ان كان عسكريا تحفظوا عليه . وفي حالة من الحالات تحفظوا على واحد بدعوى انه في السجن وهو ليس سجينا !! وناقشت اللجنة الخماسية هذه الطلبات ، وأقرت من بينها ثلاثين طلبا وأحالتها الى اللجنة التحضيرية للتنفيذ ، فجاء الصباح لتثور ثائرة اللجنة التحضيرية ، وتتمرد على قرار اللجنة الخماسية .

فوفق القوائم التي تم اقرارها من اللجنة الخماسية ، ليقفل باب الانتساب في نهاية ذلك اليوم قدرت اللجنة التحضيرية انه يمكن لتحالف الصاعقة مع المستقلين او اي فصيل فدائي آخر ، ان يفشل خطة اللجنة التحضيرية في احتواء الاتحاد ... وهذا هو سر البلبلة التي تحدث عنها ناجي علوش، وسر القرارات والمواقف التي أجبرت اللجنة التحضيرية على اتخاذها حتى لا تفلت اللعبة من يدها .. والا ، فليحدد لنا السيد ناجي علوش على وجه التحديد هذه القرارات والمواقف ...

اما نحن ، فنستطيع تحديدها بكل جلاء ، وقد فضحناها امام المؤتمر ، ولم يملك ناجي علوش امكانية الرد :

١ — عمدت اللجنة التحضيرية الى عدم توجيه الدعوة الىأعضاء الاتحاد العام للكتاب الفلسطينيين الاصلاء رغم قرار اللجنة الخماسية بتوجيه الدعوة فورا لهم وتأمين سفرهم ، ورغم تزويد اللجنة التحضيرية بأسمائهم ، فحرمت بذلك عددا كبيرا من الكتاب المستقلين من حضور المؤتمر . ٢ — عمدت اللجنة التحضيرية الى طلب كشوف احتياطية من بعض المكاتب بأسماء اشخاص يمكن ادخالهم المؤتمر اذا اقتضى الامر للمشاركة في التصويت ، وحرصت على ادراج اسمائهم في القائمة التي قدمت الى رئاسة المؤتمر . وقد زاد عدد هؤلاء على المائة مما ادى الى رفع عدد المتنسبين في كشوف اللجنة التحضيرية الى حوالي ٤٧٥ عضوا ، بينما لم يتجاوز عدد من أقرتهم اللجنة الخماسية الثلاثمائة عضو . ٣ — كان هناك تعمد واضح في عدم تمكين البعض من الحضور الى المؤتمر ، وذلك بتوجيه الدعوة اليهم متأخرة ، او عدم تأمين بطاقات السفر لهم .

ثالثا ، لقد اعتبرنا تمرد اللجنة التحضيرية على اللجنة الخماسية ، اخلالا بالاتفاق .. لا نستطيع معه الحضور الى المؤتمر ، لكن ميل المنظمات الفدائية الاخرى الى التفاهم بأي شكل ، والحيلولة

دون انعكاس موضوع اتحاد الكتاب على قضية الوحدة الوطنية ، ثم تأكيدات « فتح » بالالتزام بقائمة ائتلافية يلتزم بانتخابها الجميع ، جعلتنا نذهب الى المؤتمر . فمسالة الامانة العامة ، اذن، أصبحت محور المؤتمر ، لان اللجنة التحضيرية ركبت المؤتمر ، بشكل تستطيع فيه « فتح » ان تحقق سيطرة مطلقة على المؤتمر اذا شاءت ، وذلك بتمردها على اللجنة الخماسية على النحو الذي ذكرنا . ومررنا على حقول الالغام في المؤتمر .. مررنا عليها ضابطين اعصابنا ، محاولين الحيلولة دون تفجيره رغم ان كل شيء في خط سيره كان يستدعي هذا التفجير .. لاننا نشعر بأنه من العار ان يبدأ كتاب شعبنا وصحفيوه الانشقاق .

.. وكان موضوع « القائمة الائتلافية » التي يلتزم بها الجميع ، هو وحده الذي يجعلنا نحتمل الاستمرار في المؤتمر . الى ان جاءت معركة تشكيل القائمة الائتلافية .. ونقول معركة لان ناجي علوش ، رغم دعواه بأنه لا يرى موضوع الامانة العامة مهما ، وانه شخصيا ضد نظام الكوتا التنظيمية ، استنكف عن الحوار عند البحث في تشكيلها اكثر من مرة ، وانسحب اكثر من مرة ، وامتدت احدى هذه المرات اكثر من ساعة .. لان هناك أسماء معينة اراد فرضها في القائمة بأي شكل من الاشكال ، رغم ان الضعف البادي في القائمة جاء نتيجة فرض هذه الاسماء ..

اذن ، فقد كان ناجي علوش ولجنته ، يعبثون بنا طوال الوقت .. وكانوا يناورون طوال الوقت .. فهذا هو مدلول كلماته .. فالمؤتمر الذي يمكن أن ينفجر في أية لحظة بسبب عدم شرعيته ، ولقد اقر ناجي علوش داخله بانعدام هذه الشرعية ، يجب ان ينجح بتحويل موضوع القائمة الائتلافية الى طعم للاخرين ، يجعلهم يتنازلون امام التجاوزات الى ان تتم الانتخابات .

وهكذا جرت اللعبة المرسومة ، فالقائمتان الاضافيتان اللتان رشحتا الى جانب القائمة الائتلافية ، انطلقت احداها من موقف الصدق ، ومحاولة طرح قائمة نموذجية تتجاوز عيوب القائمة الائتلافية ، وكانت تلك هي القائمة التي طرحها الاستاذ شفيق الحوت .. ولو كانت ارادتنا حرة عند التصويت ، ومتحللين من التزامنا كما فعل غيرنا ، لما انتخبنا غير تلك القائمة . أما القائمة الاخرى ، فقد جرى دفعها من قبل اللجنة التحضيرية بقصد اختراق اللائحة بأسماء معينة .. ولا تنقصنا الدلائل على اثبات صحة هذا الامر رغم محاولات ناجي علوش لنفي ذلك . واخترقت القائمة الائتلافية بثلاثة اسماء .. اسماء من ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ هنا يتهرب ناجي علوش من توضيح الحقيقة .

ان المؤتمر يجب ان ينجح .. وناجي علوش يجب ان يصبح امينا عاما ! هذا هو الجواب ... ولكن الذين يريدون للمؤتمر ان ينجح لان نجاحه معجزة، لم يستطيعوا ان يلتزموا بأي عهد قطعوه على انفسهم ، فخرجوا على الالتزام بالقائمة الائتلافية، وزيفوا عملية التصويت ، مثلما زيفوا عملية الفرز. وكان على رئيس لجنة الرقابة ، بعد ان كشف للرئاسة عن وجود التزييف ان يسكت ، باسم الوحدة الوطنية وباسم سمعة ثورتنا المصانة . وكان على الاستاذ رئيس المؤتمر ، الذي لم يستطع الا ان يكشف في الليل عن التزييف ، الا ان يسكت في اليوم التالي ، من اجل الوحدة الوطنية ، ومن اجل سمعة ثورتنا المصانة .. وكان علينا نحن ايضا ان نطمئن الضارعين بنا الا نفجر الجلسة الختامية ، وان نسمح بفلفلة المؤتمر ، وفي مقدمتهم ناجي علوش ، اننا ندرك ان الموقف لا يحتمل ، واننا سنبارك للفائزين بفوزهم ... ولكننا نرفض التسوية المقترحة والتي تقضي بحلول عبد الرحمن غنيم محل ماجد ابو شرار (لان هذا هو الاسم الذي طرحوه لاجراء التسوية) ، ونطلب فقط ان يكون الامين العام وامين السر مستقلين . وكان رد ناجي علوش ان الامانة ستستقيل ، لتسمي اللجنة التنفيذية امانة مؤقتة تدعو لعقد مؤتمر جديد بعد ستة اشهر .. وقلنا له هذا هو الحل الامثل ، وما زلنا نطالبه واعضاء الامانة بالاستقالة لافساح المجال امام الحل الامثل الذي اقترحه علينا هو قبل الجلسة الختامية ، حتى لا نفجر المؤتمر .

وتدليلا على حسن نوايانا غادرنا الجلسة قبل الختام .. لنفاجأ بتتويج لسلسلة المناورات باعلان امانة تسوية رغم رفضنا لها من حيث المبدأ، وباقالة الدكتور انيس صايغ رغم انفه ، ليوضع مكانه عبد الرحمن غنيم رغم انفه ايضا ..

واذا كانت طاقة احتمالنا قد استوعبت كل المناورات السابقة ، فليس بمقدورنا ان نحتمل اكثر ، حتى ولو انطبقت السماء على الارض .

لقد تبنيناها على انها تصرف ، يرمي الى الايقاع بين الصاعقة والمستقلين ، والى تحطيم سمعة ممثل الصاعقة الذي احل محل الدكتور انيس صايغ الذي اصبح بنجاحه في عمله ، وبتضحيته ، رمزا يعتز به شعبنا كله . لقد رفضنا ان ينسحب ماجد ابو شرار لصالحنا ، فكيف احلوا لانفسهم ان يسحبوا الدكتور انيس صايغ ليحل محله ممثلنا ؟! وأعلنا عدم اعترافنا بأمانة التسوية ، وما زلنا عند ما أعلناه .. وسنبقى عنده ..

اننا نقولها بكل وضوح: ان احتمال عودة الصاعقة غير وارد مطلقا .. والحل الوحيد هو ان ينفذ ناجي علوش وعده بالاستقالة ، لتسمي اللجنة التنفيذية امانة مؤقتة من المستقلين ، تضع كل شيء في نصابه ، خاصة وانه يوجد اليوم اتحادان: احدهما هو الشرعي والمعترف به منا ، ومن اتحاد الكتاب العرب واتحاد الكتاب الاسيويين الافريقيين، وثانيهما غير شرعي ، وجاء نتيجة سلسلة من المخالفات .

ولا يمكن لنا الا ان نكون مع الشرعية ، ومع الصدق الثوري ، ومع الوحدة الوطنية .

عبد الرحمن غنيم

الرسالة الثانية : وداعا يا فلسطين !!

كان آخر ما اكتحل به ناظري من غزة ، في زيارة تمت بها مؤخرا ، نظرات خاطفة القيتها عليها من سيارة الجيب العسكرية الاسرائيلية التي كانت تمضي بي مسرعة في الطريق الى عسقلان ، حيث أخذت « للتحقيق » معي . وقد بترت زيارتي بغتة في الساعة الخامسة من صباح ٦ تشرين الاول (اكتوبر) عندما انتهرتني من وهدة سبات عميق طرقات شديدة متلاحقة ، على باب غرفتي في « بيت المنار » . وكنت قد قدمت الى غزة من القدس في صباح الرابع من تشرين الاول لامضي في القطاع فترة أربعة أيام أو خمسة . وكانت منطقة القطاع قد عادت مؤخرا ، بعد فترة من الهدوء غير المعهود، الى روتينها اليومي المعتاد من هجمات الفدائيين المسلحة ، وفرض منع التجول على بعض الانحاء ، وتفتيش المساكن ، والاعتقالات ، وتشديد اجراءات الامن بصورة عامة . ولم اتمالك نفسي من الشعور بالدهشة والاستغراب عندما فتحت الباب ووجدت انني قبالة ثلاثة من رجال الامن الاسرائيليين وبصحبتهم احدى المجندات . وبادروني قائلين : « لدينا اوامر بالتفتيش !! » . وسرعان ما اندفعوا الى داخل الغرفة، وشرعوا على الفور في التفتيش والتنقيب والتنبيش في الادراج والخزائن وتحت السرير وحتى بين طيات المخدات والفراش والبطانيات . وكانوا في غاية اليقظة وعلى قدر غير ضئيل من النظافة في تلك الساعة المبكرة من الصباح . وعندما اقتادتني المجندة الى الحمام لاجراء تفتيش جسدي دقيق القيت نظرة عابرة من النافذة واذا بصري يقع تماما على وجه جندي منتصب على سطوح الكاراج مصوبا سلاحه الرشاش باتجاه غرفتي .

وقد أثارت كل هذه المظاهر التي احاطوني بها في نفسي مزيجا من مشاعر السخف والاشمئزاز . فما الذي كان هؤلاء الرجال يبحثون عنه ؟ وماذا كانوا يخشون ان تصنع امرأة ، عزلاء ما زالت برداء النوم تعاني من النعاس ، من نافذة في الطابق الثاني تطل على حديقة مسورة علما بأن اثنين من الرجال الذين في الغرفة كانا مسلحين ، وحتى لو لم يكونوا مسلحين لماذا كان بوسعي ان أصنع ضد اربعة اشخاص أشداء كهؤلاء .

وقد خطر ببالي والمجندة التي تأتزر بتنورة ميني تتفحص جسدي تفحصا دقيقا انهم ربما ظنوا انني اخبىء في غرفتي بعض القنابل او المتفجرات .

فهل كان يدور بخلدهم أن بوسع المرء أن يجتاز محنة الخلاص من اجراءات الامن والجمارك المزدوجة — الاردنية والاسرائيلية — ويعبر جسر اللنبي الى المناطق المحتلة وبحوزته أسلحة فتاكة ؟ لقد انتهى التفتيش ، وأمرت بأن ارتدي ملابسي ، سياخذونني معهم الى عسقلان للتحقيق معي .

لقد كان لدي موعد في قطاع غزه الساعة التاسعة صباحا ، وهو موعد كنت أود أن لا اتخلف عنه .

وكنت في تلك الساعة المبكرة أعاني من النعاس ، واشعر بالبرد، وتتوق نفسي الى فنجان من القهوة. ولكن في الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر الثامن من تشرين الاول (اكتوبر) ، ناولني ضابط الامن الاسرائيلي جواز سفري بينما سيارة الباص تتحرك من موقع التفتيش على الجانب الاسرائيلي من جسر اللنبي . لقد « أبعدت » الى الضفة الشرقية . وفي الصباح التالي ، في عمان ، تلقيت تأكيدا لامر كان قد نقل لي شفهيا وهو انني غير مرغوب في وجودي في الاردن .

اما في مقر قوات الامن العام في عسقلان فقد تعرضت لتحقيق مطول وقد نمت نبرة المحقق بأنه ضابط عالي الرتبة في المخابرات الاسرائيلية . وقد قال وهو يغادر غرفة التحقيق أنه سيطلب سيارة لتنقلني عبر الجسر الى شرق الاردن . ولكن بعد انقضاء ساعتين ، أخذت الى مكتب آخر حيث كتب ضابط الشرطة شيئا باللغة العبرية على بطاقة ، وابلغني أنني سأظل موقوفة في النظارة مدة يومين او ثلاثة لاجراء المزيد من التحقيق .

— « وما هي تهمتي ؟ » سألته . — « اتصالات مشبوهة مع ارهابيين » . — « وأين سأوقف ؟ » — « في زنزانة ، هنا » . لقد كان التحقيق طويلا ، مضجرا ، عقيما ، وبلا طائل . وكان اجمالا بمثابة تكرار للتحقيق الذي تعرضت له قبل عشرة ايام من ذلك التاريخ في مقر الامن العام الاردني في عمان .

وقد انتهت كلا جولتي التحقيق بهذات التهمة الغامضة : « اتصالات مشبوهة مع ارهابيين » . لقد اعتبر المحققون في كلا الطرفين ان هناك ما يثير الشبهات في قيام صحفية مقيمة في مصر بزيارة الاردن و« اسرائيل » من حين الى آخر ... وأظهر كلا الطرفين المحققين تصميما على اثبات ان لي اتصالات مع « الارهابيين » وأيلول الاسود ونشاطات تتصل بالارهابيين . وكلا الطرفين حظرا علي حق الرجوع بسبب التهمة الملفقة من اتصالاتي وارتباطاتي المزعومة مع العرب والفلسطينيين . وفي كلتا الحالتين لم تورد اسماء احد من هؤلاء « الارهابيين » الذين زعموا انني اتصل بهم ، كما لم يجر التحقيق معي حول نشاطات او اتصالات معينة او محددة أجريتها خلال زياراتي . ولم تظهر المخابرات الاردنية أي اهتمام، ولو من ناحية شكلية ولذر الرماد في العيون ، بتحري امكانية وجود اتصالات لي مع اسرائيليين او اية « علاقات مشبوهة » مع عدو الاردن !!...

لقد بدا لي ان مخاوف الاردن وهواجسها لا تعدو كونها امتداد لمخاوف اسرائيل وهواجسها ... ولقد بدا لي ان التحقيق لدى كلا الطرفين متفاهم عليه في عملية تنسيق مشتركة .

ولم اندهش كثيرا عندما قال لي ضابط الامن العام الاسرائيلي انه حالما نفرغ من التحقيق معك «سوف نتصل بالاردنيين لنرى ان كانوا يسمحون لك بالرجوع عبر جسر اللنبي » !! وعندئذ تمتمت في نفسي ، لا غرابة ان يعج العالم العربي بهمهمات والشاعات عن وجود تواطؤ بين اسرائيل وأنظمة عربية معينة ، وعن وجود خيانات وصفقات بيع بالجملة الخ ... وقد بدا لي ان الاسرائيليين منطقيون وصادقون مع انفسهم على الاقل من حيث تحديدهم لهوية عدوهم ، وتسخير كل جهودهم في ملاحقة هذا العدو ومطاردته والحق الهزيمة به .

وقد كانت زيارتي للقدس والضفة الغربية وقطاع غزه ، وان بترت عنوة ، كافية لتكوين صورة عن الاوضاع فيها تختلف في جوانب أساسية عن الصورة البهيجة المشرقة التي يعرضها الاسرائيليون والتي تردد صداها في الغرب ، على نطاق واسع، الوفود الزائرة للمناطق المحتلة من بعثات تقصي الحقائق وجماعات السواح والحجاج الذين يتحركون وفق برنامج تعده لهم السلطات وتحت اشرافها ... ان الفلسطينيين في القدس والضفة الغربية يصيبهم الملل والضجر الى حد التقزز والغثيان عندما يقرأون ويسمعون بأنهم قد ركنوا الى الطمأنينة والهدوء قانعين راضين بالعيش تحت الحكم الاسرائيلي . فالسجون الاسرائيلية المكتظة « بالارهابيين » الفلسطينيين ، ومئات المنازل التي يجري نسفها وطرد سكانها ، وآلاف المبعدين الى شرق الاردن ، وآلاف الافدنة من الاراضي العربية المصادرة ، والمستوطنات اليهودية شبه العسكرية التي أقيمت في الاماكن الاستراتيجية من المناطق المحتلة لتقطيع أوصالها ، والاحياء التي تشبه القلاع التي أقامها الاسرائيليون على الاراضي العربية في ما يدعونه « القدس الكبرى » ، والدوريات الاسرائيلية المسلحة المتنقلة الفظة والمنتشرة في كل مكان — كل هذه ومئات غيرها من الشواهد التي لا يلحظها عابر السبيل تروي حقيقة « قبول » الفلسطينيين « بهدوء » و« رفق » حكم

واحدة من اعتى الالات الحربية في عالمنا اليوم !!

لقد ورد في الصحافة الاسرائيلية ان اسرائيل قد أصيبت « بصدمة » عندما تبين لديها ان سكان المناطق المحتلة قد شعروا بالابتهاج لحصيلة عملية ميونيخ الفدائية . ولكن الفلسطينيين يوضحون موقفهم قائلين : « اننا لم نبتهج لمقتل الرياضيين الاسرائيليين بحد ذاته ، بل ان مبعث ابتهاجنا هو موقف رجالنا الذين عندما ايقنوا أنهم تعرضوا للخديعة رفضوا ان يذبحوا ذبح الخراف . لقد أطلق رجالنا النار دفاعا عن النفس بعد ان حصد الالمان ثلاثة من الفدائيين » .

وكان الابتهاج قد شاع بين سكان المناطق المحتلة في وقت سابق من هذه السنة عندما أقدم اربعة من الفدائيين على اختطاف طائرة الى مطار اللد في محاولة لتأمين الافراج عن عدد من آلاف الفلسطينيين المحتجزين في السجون الاسرائيلية . ولكن الفرح سرعان ما انقلب الى غيظ وأسى عندما خدع الاسرائيليون الفدائيين ، مستغلين راية الصليب الاحمر الدولي ، وقتلوا اثنين منهم . وكذلك عندما قام ثلاثة من المسلحين اليابانيين ، بعد اسابيع قليلة من حادث طائرة السابينا ، « بالانتقام لفدائيينا » في الموقع ذاته عم الابتهاج مرة اخرى السكان ، وان كان قد شاب هذا الابتهاج « شعور بالاسف لان بعض الضحايا كانوا من غير الاسرائيليين » .

هذا ، ولم يخف سكان القدس الشرقية شعورهم بالارتياح والرضى عندما انفجرت قنبلة في مخزن « السوبر سول » في القدس الغربية في اليوم التالي لوصولي القدس في زيارتي الاخيرة هذه .

وعندما أقام الاسرائيليون في عيد رأس سنتهم الجديدة صلوات الاستسقاء داعين لهطول المطر كانت ردة فعل الفلسطينيين : « فليعم الجفاف ويشتد ، حتى وان لحق بمواسم محاصيلنا القحط » . وقد قال لي محام من القدس : « اننا نقبع تحت حكم الاسرائيليين مثلما رضخت جميع الشعوب المقهورة والمستعمرة عبر التاريخ ، شأن الاوروبيين تحت الاحتلال النازي ، والهنود في ظل الحكم البريطاني ، وسكان افريقيا الجنوبية السود تحت وطأة سيطرة البيض » .

ومن ناحية اخرى ، تستمر في القدس العربية وفي المدينة القديمة عملية التحويل والتهويد بخطوات محمومة ودون وازع من حياء او خجل ، اذ تجري على قدم وساق عمليات مصادرة الممتلكات والاراضي واخلائها من سكانها عنوة ، ونسف الممتلكات العربية وتشييد عمارات مكانها وفق طراز « الاستعمار الجديد » . وعندما يرفض العرب بعناد تسليم بيوتهم التي تقرر مصادرتها، وعندما يرفضون استلام التعويض المقرر عنها ، ويصرون على حقهم في مواصلة العيش في القدس ، تتحرك فرق النسف عندما تعطى لها الاشارة، لتعمل في البيوت المصادرة هدما وتدميرا . فهذا ما حدث مؤخرا قبل اسابيع معدودة من زيارتي هذه مع محمد عبدالله الصواف الخباز في ما يدعونه الحي اليهودي داخل المدينة القديمة . فقد تلقى الصواف أمرا باخلاء بيته الذي يشاركه السكنى فيه ٢٦ من افراد عائلته ، فرفض الامر بالاخلاء واحتج عليه لدى السلطات الاسرائيلية . وقد ابرز لي رسالتين تلقاهما من المسؤولين الاسرائيليين ، أحداهما من وزير الدفاع موشي دايان والثانية من رئيسة الوزراء غولدا مئير ، وكلا الرسالتين تؤكدان له انه ما من احد لديه الحق في طرده هو واسرته من منزلهم . ولكن بعد انقضاء زهاء اربع وعشرين ساعة جرى طرده هو وعائلته من بيتهم العربي العتيق الذي استحال في دقائق معدودة الى كومة من الركام .

وفي منازل اخرى في تلك المنطقة ابرزت لي العائلات العربية رزما من الاشعارات التي تلقوها من السلطات الاسرائيلية للحضور الى دار البلدية « ليتلافوا اتخاذ العقوبات القانونية بحقهم » . وقد جرى اشعارهم باخلاء بيوتهم في بادىء الامر في عام ١٩٦٨ عندما تم اتخاذ القرار بمصادرتها . ولكنهم تجاهلوا ذلك الامر كما تجاهلوا ما تلاه من اشعارات واستدعاءات للمثول امام السلطات المختصة . فهم متشبثون ببيوتهم وبحقوقهم آملين أن يحل السلام أو أن تحدث معجزة ما لتنقذهم قبل ان تهوي المقصلة على رقابهم !! وهم يقولون انهم لن يخلوا بيوتهم الا اذا طردوا منها بالقوة .

الكآبة والتجهم ... الصمت الذي ينم عن الخوف او الشعور بالعجز ... والغيظ المكتوم ... والتعاون المحدود مع العدو فيما بقيت أودهم ويحفظهم على قيد الحياة ... هذه جميعها قد يعتبرها الاسرائيليون وأعوانهم او بعض الزوار الاغرار او المغرضين المتحاملين على انها كناية عن قبول سكان المناطق المحتلة بالاوضاع ورضاهم عنها

وانها امارة على تواطؤهم وتعاونهم مع السلطات ومظهر للتعايش السلمي بينهم وبين الاسرائيليين . بيد أنه لا يمكن خنق الحقيقة خنقا تاما ، اذ كثيرا ما تنفلت التعابير عنها في ردود الفعل التلقائية للاحداث ، كما تبدو للمراقب شواهد عليها في كل لحظة في شوارع المناطق المحتلة ، اذ يلمسها المرء في الابتسامات الساخرة ، وفي النظرات ، وفي الشتائم المكتومة ، كما يتم الاعراب جهارا عن هذه الحقيقة اثناء المناقشات والاحاديث مع الاصدقاء الموثوق بهم ، كما انها تبدو من خلال مظاهر المقاومة السلبية من أولئك الذين يتجاهلون أوامر قوات الاحتلال ولا ينصاعون لها الا تحت طائلة التهديد بالحبس والتوقيف .

ما زال قطاع غزة مستعص على السلطات الاسرائيلية . فرغم الشبكة الدقيقة من اجراءات الامن الصارمة التي اقامها الاسرائيليون في القطاع، والتي ما انفكوا يدخلون عليها التعديلات والتحسينات طوال السنوات الخمس والنصف التي انقضت على الاحتلال ليبلغوا بها حد الاتقان التام والكمال في ميدان ضبط الامن والسيطرة على الاوضاع ، ما زال الفدائيون قادرين على اثبات وجودهم في القطاع ، سواء بالقاء القنابل اليدوية ، او بمهاجمة السيارات والدوريات المسلحة الاسرائيلية او بالقيام بأعمال التخريب . وكل الاجراءات والخطط الجهنمية التي نفذها الاسرائيليون في القطاع لم تفت في عضد المقاومة وفشلت في تحقيق الغاية التي توختها السلطات الاسرائيلية الا وهي استئصال النشاط الفدائي من قطاع غزة كليا . ولم يجد السلطات الاسرائيلية نفعا كل ما أقدمت عليه من اجراءات سواء كانت تعزيز قوات الامن والشرطة او اللجوء الى اضطهاد السكان بقسوة وفظاظة او حملات الابعاد والنفي الجماعي او عمليات الاعتقال والحبس والعقاب الجماعي ، وتفريق السكان وتشتيتهم داخل القطاع ، ومصادرة الاراضي لتقام عليها الكيبوتزات والمستوطنات اليهودية العسكرية منها وشبه العسكرية ، والقيام بقطع الاشجار والاسيجة لتعرية سطح الارض ، واشغال الالاف من سكان قطاع غزة بالعمل خارج القطاع سواء في الضفة الغربية او في اسرائيل ذاتها... كل هذه الاجراءات فشلت في تحقيق الغاية المنشودة ... صحيح انه تم حصر نطاق اعمال المقاومة المسلحة في القطاع والتخفيف من حدتها بصورة ملموسة ، بيد ان اعمال العنف ما زالت تحدث من حين الى آخر بصورة تكفي لابقاء قوات الامن الاسرائيلية في القطاع في حالة استنفار دائم طوال ساعات النهار والليل كما انها جعلت من القطاع منطقة محرمة على الزوار الاسرائيليين والاجانب . فقد حدث في الليلة السابقة لوصولي الى قطاع غزة هجوم بالقنابل اليدوية في شارع عمر المختار . وتلا هذا الهجوم اعلان حظر التجول وعمليات تفتيش من بيت الى بيت ، واعتقال من وقعت عليهم القرعة للتحقيق معهم . وفي اليوم التالي فرض حظر التجول على مخيم الشاطىء ، فاستنادا للشائعات التي سرت في مدينة غزة ، قام أحدهم بخط عبارة « أيلول الاسود » على زوارق الصيد الراسية على الشاطىء . وفي اليوم التالي دوى صوت انفجار في شارع عمر المختار فمزق السكينة المخيمة على المكان عند ساعة الافطار . وقد صادف ان كنت في بيت قريب من موقع الانفجار حيث كنت ازور بعض الاصدقاء . واعقب الانفجار اطلاق زخات من نيران الاسلحة الرشاشة، ووقع خطوات مكتومة لمشاة كانوا يسرعون الخطى نحو بيوتهم خوفا من التعرض للقبض عليهم وبالتالي المعاناة من الاجراءات المألوفة وهي استدعاؤهم الى مقر الامن العام لاستنطاقهم . وخرجت سيدة تعدو مسرعة من بيت مجاور ، اذ ان زوجها أصيب بجراح وحمل الى المستشفى . وقد اخبرني مضيفي ان الرجل المصاب هو بائع الخفوف المسن في شارع المختار .

وقد سألنا شابا كان يقف عند عتبة بيته « هل اصابته شظية » ، فاجابنا قائلا : « كلا ، لقد ضربه احد الجنود الاسرائيليين على وجهه بعقب بندقيته » .

تتعاقب الطلقات ، ثم تظهر رؤوس تطل خلسة خلال خيوط النور المتسرب من الابواب التي كانت تفتح بحذر وتقوم سيارات الجيب والشرطة الاسرائيلية بسد منافذ الزقاق . ويهمس رجل وهو يمر مسرع الخطى : « لقد حاصروا شارع المختار » . سكون ، ثم يجتاز رجل الزقاق بخطى وئيدة قادما من جهة شارع عمر المختار .

ويتحرك الرجل كمن يمشي في نومه ، وتشخص عيناه باتجاه نهاية الزقاق حيث ينعطف في اتجاه المقبرة . وكان يحمل بين يديه رزمة صغيرة مجللة بشال . انه طفل ميت . وكان يلحق بالرجل فتى

يحمل مصباح علاء الدين وآخر يحمل معولا ومجرفة. وعدت بخواطري الى مشهد دارت حوادثه في مقبرة اخرى بغزة حيث تسنى لي مراقبة ذاك الحدث صباح يوم وصولي . كنت في أحد مخيمات اللاجئين وقد تحلقت حولي جمهرة من الاطفال الممتلئين حماسة وانفعالا . وزعق الاطفال من حولي بأصواتهم الحادة : هل شاهدت « القبور المتحركة » ، « اجوبة مقبرة الشجاعية » ، « انهم الفدائيون ... قبورهم تتحرك . اذهبي الى المقبرة » .

انا لست ممن يؤمنون بالمعجزات . غير اني ذهبت، برفقة بعض الاصدقاء من القدس ، الى مقبرة الشجاعية من باب اولى لان المعجزة ، أيا كان اسلوب صنعها وتحقيقها هي متنفس مرغوب فيه لكسر حدة رتابة الحياة اليومية القاتمة في ظل الاحتلال . كانت هنالك حشود من الناس تحيط بالاضرحة الحجرية الاربعة المتباعدة والتي كانت تتسامق فوق مستوى صفوف القبور الكثيرة الاخرى المتواضعة التي لم تعد كونها اكواما ترابية مسواة باليد . وارشدنا غلامان الى اول تلك « القبور المتحركة » فشققنا طريقنا خلال جموع الزائرين ، الذين اصبحوا يحجون الى هذه القبور . وقد اوضحوا لنا قائلين : « شواهد القبور تتحرك » ، « سوف ترون » كنت اقرأ اسم الشهيد المنقوش على شاهد قبره — حسين محمد سلمان ابو حنتوش — عندما ادركت ان شاهد القبر كان يميل قليلا من جهة الى اخرى . وانتقلنا بعدها من قبر الى آخر ، فتبين لنا ان القبور الاربعة جميعها « تتحرك » متمايلة كبندول الساعة تارة نحو اليمين واخرى نحو اليسار ، وفي احدى الحالات الى الامام والخلف. وكان الزوار والحجاج يقطعون صلواتهم وتأملاتهم واحاديثهم الهامسة ليسألوننا اذا كنا « قد شاهدنا » وليتناقشوا في سر هذه الظاهرة .

وقد رووا ان صبيا صغيرا كان اول من اكتشف ظاهرة تحرك شواهد القبور قبل نحو ثلاثة اسابيع، وسرعان ما ذاع الخبر ، واخذ الناس يتوافدون الى المقبرة من مدينة غزة في بادىء الامر ، ثم من القطاع بأجمعه وحتى من القدس والضفة الغربية. وفسر البعض تلك الظاهرة على انها معجزة . فالفدائيون الاربعة يتململون في قبورهم «ويتكلمون» انهم يحاولون ان ينقلوا الينا رسالة ما . اما البعض الآخر ، فقد خالها أمارة او رسالة من الله . وتساءلت عما كان يقوله الفدائيون او الله. فاجابوني قائلين : ان الفدائيين يحثون الناس على مواصلة النضال وتأدية الرسالة او لعلهم كانوا يقولون « آن اوان العمل » . كما قالوا : ان الله بهذا يطمئن الناس بأن الفدائيين لم يموتوا وان الخلود هو نصيب اولئك الذين يضحون بأرواحهم . وان الله يحث الناس على الصمود والمقاومة .

ولم يكن عنصر الاعجاز الخارق للطبيعة في هذه الظاهرة هو الذي استأثر بالقسط الاوفر من اهتمامي — وهي ظاهرة ناتجة عن خدعة بصرية تسببها الظلال المتحركة للاغصان المتدلية فوق القبور — بل ان ما استأثر باهتمامي هو التأويلات التي يسبغها أهالي غزة على هذه الظاهرة . فتلك التأويلات انما تعكس حقيقة مشاعر سكان المناطق المحتلة وحالتهم النفسية . ففقدان الثقة بعالمنا هذا بما فيه من قوى وهيئات دنيوية ، وفقدان الثقة بالانظمة العربية وجيوشها ، وبالدول الكبرى وهيئة الامم المتحدة ، مثلما ان هذه التأويلات هي الهام لمشاعر الايمان والامل بالانتصار المحتوم « للانسان المستضعف » والقومية والنضال والتضحية . ومضت سيارة الجيب مسرعة في شارع المختار في طريقنا الى عسقلان : سبات، وهدوء، ولا اشارة تنبىء بأعمال العنف التي جرت في الليلة السابقة . وتساءلت لدى مرورنا بمقر الامن العام : ترى كم من الناس قد سيقوا الى هذا المقر لاستجوابهم ومن ثم احتجزوا واوقفوا؟وكم من الغزاويين قد أمضى ليلة مشهدا قلقا على مصير احد ابنائه او والديه او ذويه او بسبب ترقبه طرقة على الباب قد تعني تفتيشا روتينيا او زيارة لمقر الامن العام للتحقيق معه — وهي قد تنتهي بالافراج عنه بعد احتجازه بضعة ساعات ولربما امتدت اياما او شهورا او سنينا . وعندما مررنا بنهاية الطريق المؤدية الى مقبرة الشجاعية ساءلت نفسي هل ما زال الفدائيون يتململون في قبورهم ؟ ترى هل سيتسنى لهم يوما أن يخلدوا الى السكينة هانئين مطمئنين ؟

أيرين بيسون

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

على امتداد الشهر الماضي (١١ ايلول — ١٠ ت ١) عاش العمل الفلسطيني اصداء عملية ميونيخ ، وخاصة الاصداء المقصودة الهادفة الى استغلال العملية ، لتنفيذ مهمات اخرى تحت غطائها . واتخذت هذه الاصداء طابع حملة دولية ضد العمل الفدائي ، وضد « العرب » في بعض البلدان ، سنتناول منها ما يمس حركة المقاومة بشكل مباشر.

اصداء عملية ميونيخ : بعد مضي ايام على عملية ميونيخ ، نشرت في الولايات المتحدة واسرائيل ، وفي وقت متقارب ، معلومات عن منظمة ايلول الاسود ، كان من الواضح تماما ان الهيئات الرسمية العليا تتعمد نشرها ، وذلك لربط منظمة ايلول الاسود بقيادات المقاومة الفلسطينية بشكل مباشر ، ولدرس ردود الفعل التي تظهر تعليقا على هذه المعلومات ، لاختبار مدى صحتها . ففي ١١ أيلول نشر الصحفي الامريكي « جاك اندرسون » مقالا في صحيفة « الواشنطن بوست » عن منظمة ايلول الاسود اعترف ان المعلومات الواردة فيه مأخوذة من الاستخبارات الامريكية ، وذكر في هذا المقال ان هدف المنظمة الاول هو اغتيال الملك حسين ، وان زعيمها يدعى فخري العمري ، وهو يقيم في محلة صبرا ببيروت تحت حراسة مشددة . وبعد يومين (١٣ ايلول) ، نشر الصحفي نفسه مقالا لخص فيه تقريرا مقدما من السفير الامريكي في لبنان الى وزارة الخارجية الامريكية حول اوضاع الفدائيين . ويبرز تقرير السفير بشكل واضح الرغبة في تحريض السلطة اللبنانية على الفدائيين اذ يقول ان هدف نشاط الفدائيين تحريض اسرائيل على ضرب القرى اللبنانية لاثارة الاهالي ضد الجيش . وان السلطات اللبنانية لا تستطيع دخول اي مخيم من مخيمات اللاجئين الخمسة عشر . ويضيف ان لبنان لا يستطيع التصرف كالملك حسين تجاه الفدائيين ، وان المسؤولين فيه ينتظرون حلا بطريقة ما . ولكنه قدم في تقريره صورة « كاريكاتورية » عن وضع الفدائيين في لبنان توحي بأن ضربهم والتخلص منهم امر ممكن .

وبعد هذه المعلومات الامريكية ، بدأت صحف اسرائيل بنشر اخبار تضرب على الوتر نفسه ، فنشرت صحيفة « يديعوت احرونوت » معلومات تقول (١٤ ايلول) ان علي سلامه هو الذي ينسق نشاطات ايلول الاسود ، يعاونه في هذه المهمة كل من ابو اياد ، ابو يوسف ، ابو جهاد ، ابو مازن، من كبار قادة فتح . وفي اليوم التالي (١٥ ايلول) قالت صحيفة معاريف ان زعيم منظمة ايلول الاسود هو غازي الحسيني ابن القائد الفلسطيني الشهير عبد القادر الحسيني .

وفي الوقت الذي كانت تنشر فيه هذه المعلومات ، اجتمعت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية بدمشق واصدرت بيانا سياسيا (١٤ ايلول) أكدت فيه عدم مسؤوليتها عن اعمال منظمة ايلول الاسود ، ولكنها قالت انها تلفت نظر العالم الى ضرورة تفهم دوافع الشبان الذين قاموا بالعملية . كما اصدرت منظمة ايلول الاسود نفسها بيانا نفت فيه ما نشر عن اسماء قيادتها ، داعية الصحف واجهزة الاعلام ، الى عدم تضخيم دورها ، والالتزام بالموضوعية فيما ينشر عنها . ولكن هذين البيانين لم يسكتا رغبة الدوائر الامريكية والاسرائيلية في اقامة صلة مباشرة بين قيادات المقاومة ومنظمة ايلول الاسود ، واستمرت الحملة الاعلامية والاجراءات العملية التي تلتها ، على أساس هذا الربط بين الجهتين . وعلى اساس ذلك قامت المانيا الغربية باتخاذ اجراءات شديدة ضد العرب المقيمين في اراضيها ، او الراغبين في زيارتها . فلاحقت عددا كبيرا من الطلبة ، وطردت دبلوماسيين عربا عاملين في أجهزة الجامعة

العربيــة (عبد الله الافرنجي) ، واغلقت فرعي اتحاد الطلاب واتحاد العمال الفلسطينيين هناك ، ومنعت المسافرين العرب من الدخول الى اراضيها. ورد الطلاب العرب على هذه الاجراءات بالاعتصام، وبتنظيم تظاهرة شاركت بها قوى المانية يسارية . كذلك جرت في الوقت نفسه اعتصامات في فرنسا وبيروت تجاوبا مع اعتصام المانيا واحتجاجا علــى الاجراءات المتخذة .

اما في الولايات المتحدة ، فبالاضافة الى الاجراءات المماثلة لاجراءات المانيا الغربية ، قامت السلطات الامريكية بتخطي قواعد القانون الدولي ، حــين منعت ديبلوماسيين عربا مــن دخول الولايــات المتحدة ، لحضور الدورة الحالية للامم المتحــدة. وطبقت ذلك على نائب رئيس الوفد السوري، وعلى مدير مكتب الجامعة العربية في مدينة دالاس .

اما في الامم المتحدة نفسها فقــد تقدم فالدهايم في الثامن من ايلول بمشروع قرار حــول الارهاب ، داعيا الى ادراجه على جدول اعمــال الجمعيــة العامة . وقد رفضت الدول العربية ومجموعة الدول الافريقية مشروع القرار ، لانهــا رات في صياغته ، تأييدا لاسرائيل من جهة ، ومساسا بحق حركات التحرر في النضال من جهة اخــرى . وأمام الجدل الواسع الــذي اثاره الموضــوع ، عقدت تسوية من بندين : البند الاول ان يعــدل مشروع القرار بحيث لا يقتصر على بحث عمليات الارهاب ، بل يبحث ايضا الاسباب التي تنتجها . والبند الثاني ان يحول بحث الموضوع من الجمعية العامة الى اللجنة القانونية . وهذا يعني حسب تقاليد الامم المتحدة ، ان البحث لن يأخذ صفــة الاستعجال ، وذلك حتى تستوعب الاجتهادات كافة حول تعريف الارهاب وتحديد انواعه ، والفروقات بين دوافعه .

العدوان الاسرائيلي على لبنان : في الوقت الــذي كانت فيه الدوائر الامريكية والاسرائيليــة تسرب معلوماتها وشائعاتها الى الصحف ، كانت الاجواء العربية الاسرائيلية مليئة بالتوتر ، وبرزت دلائــل عديدة تشير الى اعتداءات اسرائيلية محتملة على سوريا ولبنان . ابرز هذه الدلائل التي اجمعت عليها الدوائر الصحفية والرسمية ، ومن بينهــا الدوائر الفلسطينية :

١ ــ الحشود والتحركات العسكرية الاسرائيليــة غير الاعتيادية على الحدود مع سوريــا ولبنان ، وتكرار تحليق الطائرات في القرى والمدن اللبنانية.

٢ ــ ابراز الصحف الاسرائيلية لانباء حالة التوتر، ولانباء منع المدنيين وسياراتهم من الاقتراب مــن مناطق الحدود .

٣ ــ الفيتو الامريكي في مجلس الامن الذي افشل مشروع القرار الداعي لادانة اسرائيل بعد غاراتها الوحشية على القرى ومخيمــات اللاجئين يوم ٨ أيلول . وقد فسر الفيتو الامريكي ، على انه بمثابة ضوء اخضر لاسرائيل للتحرك في المنطقة .

وكعــادة اسرائيل الدائمــة اثناء التحضــير لاي عدوان ، بدأت في ابراز نشاطات الفدائيين وتسريب انبائها لوكالات الانباء العالمية ، بينما تفرض علــى هذه الانباء حظرا شبه كامل حين يكون من خطتها ان تبقى الحدود هادئة . ففي ١٤ ايلول قال ناطق عسكري اسرائيلي ان اشتباكا مع الفدائيين وقع عند حدود لبنــان اصيب فيه جنديان اسرائيليــان بجراح . وفي اليوم التالي قال الناطق ان جنديين اسرائيليين قتلا وجرح ثالث في اشتباك مع الفدائيين في الجولان . ثم سربت المصادر العسكرية لوكالات الانباء في الوقت نفسه اخبارا عن خمسة حوادث في منطقة الجولان ، ارفقت بتعليــق يتوقع حدوث « تطورات خطيرة جدا » على الحدود مع سوريا . ولم يكد يمضي عــلى تسريب هذه الانباء اربــع وعشرون ساعة ، حتى بدأت اسرائيل فجرالسادس عشر من ايلول هجوما واسعا على جنوب لبنــان تغلغل الى مسافة ٢٠ كلم ، وهي ابعد مسافــة تغلغلت اليها القوات الاسرائيلية حتى الان . وقد دام هذا الهجوم اربعين ساعة ، وشاركت في صده قوات حركة المقاومة والجيش اللبناني . خسرت فيه المقاومة ٢٠ شهيدا ، وخسر الجيش اللبناني ١٨ شهيدا ، و ٤٦ جريحا ، اضافة الى ٨٠ شهيدا مدنيا . وقد اعلنت اسرائيل في البداية ان هدفهــا تمشيط قرى جنوب لبنان من الفدائيين ، ولكنها ما لبثت ان قالت بصراحة ان هدفها من الهجوم الغاء اتفاق القاهرة المعقود بــين المقاومة والسلطــة اللبنانية .

حين بدأ الهجوم الاسرائيلي اصدر مجلس الوزراء اللبناني قرارا اعلن فيه فرض حالة الطوارىء . وعلى ضوء هذا القرار ، اصدرت قيادة الجيــش اللبناني سلسلة من التعليمات يشمل تنفيذها العمل الفدائي . وخلق ذلك حالة متوترة بين السلطــة والمقاومة ، جعلت احتمال الاصطدام واردا بقوة .

لقد اعتبرت المقاومة تعليمات الجيش اللبناني بمثابة انذار ، وقامت اذاعة المقاومة التي تبث من سوريا بمهاجمة هذا الانذار الذي كان ينص على ما يلي كما نقلته وكالة الانباء الفلسطينية « وفا » في ١٩٧٢/٩/١٧ :

« بلاغ خاص

الى جميع قوى الامن :

— المديرية العامة لقوى الامن الداخلي

— المديرية العامة للامن العام

والى اللجنة السياسية العليا الفلسطينية في لبنان

عملا باحكام المرسوم رقم٣٩٩١ تاريخ ١٩٧٢/٩/١٦ وعملا باحكام المرسوم الاشتراعي رقم ٥٢ من اعلان حالة الطوارىء او المنطقة العسكرية الصادر في ٥ آب ١٩٦٧ تبلغ قيادة الجيش بموجب السلطات المعطاة لها وفقا لاحكام المرسومين المنوه عنهما اعلاه ما يأتي :

تمركز فصائل المقاومة :

اولا : في القطاعات الحدودية : يمنع تمركز فصائل المقاومة .

١ — في القطاع الشرقي « العرقوب »

١١ — جنوبي طريق شبعا — حاصبيا

١٢ — داخل القرى وحتى مسافة ٢ كلم منها كحد ادنى .

٢ — في بقعة راشيا الوادي :

— داخل القرى وحتى مسافة ٢ كلم منها كحد ادنى .

٣ — في القطاع الاوسط :

٣١ — يمنع دخول القطاع الاوسط لاية عناصر جديدة من فصائل المقاومة .

٣٢ — تخلى جميع قرى هذا القطاع من عناصر فصائل المقاومة الموجودة فيها وحتى مسافة ٢ كلم منها كحد ادنى .

٤ — في قطاع النبطية :

يحافظ على الوضع القائم بوجود عناصر فصائل المقاومة داخل المخيم .

٥ — في القطاع الغربي :

— يمنع تمركز عناصر فصائل المقاومة وجنودهم في القطاع الغربي وخارج المخيمات فيه .

٧ — في منطقة البقاع :

— يمنع تمركز عناصر فصائل المقاومة ووجودهم في منطقة البقاع وخارج المخيمات الموجودة فيها .

٨ — في منطقة جبل لبنان :

— يمنع تمركز عناصرفصائل المقاومة ووجودهم في منطقة جبل لبنان وخارج المخيمات الموجودة فيها .

ثانيا — التجول :

١ — في القطاعات :

— يمنع التجول بالسلاح واللباس المرقط او السير الا لعناصر الكفاح المسلح وبعد التنسيق مع مركز ارتباط الاركان العامة لشؤون الفلسطينيين العسكرية .

٢ — خارج المخيمات كافة : مماثل لاعلاه .

ثالثا : الاجراءات : — يتعرض للتوقيف والاحالة امام القضاء العسكري كل من لا يتقيد بأحكام هذا البلاغ .

رابعا : — التنفيذ :

يعمل بهذا البلاغ اعتبارا من الساعة السادسة من صباح نهار الاحد الموافق في ١٩٧٢/٩/١٧ . وتكلف جميع قوى الجيش والامن الداخلي والامن العام تنفيذ أحكام هذا البلاغ .

التوقيع

العماد غانم قائد الجيش »

ولكن السيد صائب سلام ما لبث ان نفى بسرعة أن يكون الجيش قد وجه اي انذار للفدائيين . ثم تكرر هذا النفي في مناسبات عديدة لاحقة . ولكن كل ذلك لم يلغ حالة التوتر السائدة التي ارتفعت حدتها الى درجة استدعت قيام أكثر من جهة عربية بالتدخل لتهدئة الوضع ، ومع تكتم الطرفين ، المقاومة والنظام اللبناني ، في الحديث عما دار في الاجتماعات المغلقة ، الا انه من الممكن تسجيل الملاحظات التالية :

١ — لقد خلت الصحف اللبنانية طوال الفترة التي اعلنت فيها حالة الطوارىء (الغيث في ٤ ت ١ باستثناء منطقة الجنوب) من أي اشارة الى العمل الفدائي ، وشمل ذلك جميع نشاطات ومظاهر وجود العمل الفدائي في لبنان ، ومن ضمنها نشاطاته وانباء تشييع شهدائه ، في معارك التصدي للهجوم الاسرائيلي .

٢ — اقدام حواجز السلطة المقامة على الطرقات بمراقبة تنقلات الفدائيين واحتجازهم .

٣ — انتشار جو من القلق العام دفع رئيس

الوزراء الى نفي وجود انذار موجه للفدائيين (١٧ ايلول)، وقيام وزير الخارجية بابلاغ السفراء العرب ان حالة الطوارىء ليست موجهة ضد المقاومة (١٨ ايلول) . ومن جهة اخرى دفع هذا الجو القلق مشيعي جنازة شهداء المقاومة في بيروت (١٥ الفا) الى رفع شعارات تطالب بالغاء حالة الطوارىء ، كما دفع مشيعي جنازة شهداء المقاومة في صيدا الى رفع شعار يقول « لا ، لا ، للانذار » (١٩ ايلول) .

٤ ــ وصل محمود رياض ، الامين العام للجامعة العربية ، الى بيروت ، وعقد اجتماعات متواصلة مع المسؤولين اللبنانيين ، ومع قادة المقاومة ، انتهت باجتماع ثلاثي ، في ٢٠ ايلول ، قال محمود رياض على اثره للصحافيين ، انه يسافر وهو متفائل .

٥ ــ ظهر اثناء ذلك كله بوضوح ، ان الطرفين اللبناني والفلسطيني حريصان على عدم الاصطدام. فقد اعلن صائب سلام اكثر من مرة ، انه لن يكون هناك اي صدام . واعلنت المقاومة اكثر من مرة انها تتفهم خصوصية الساحة اللبنانية ، والظروف التي تحيط بلبنان .

٦ ــ كانت اوضح اشارة فلسطينية لجو التوتر القائم ما ورد على لسان السيد زهير محسن عضو اللجنة التنفيذية حين قال ان هناك توترا بين الدولة والمقاومة « اتخذ طابعا أكثر حدة وتأزما اذ ترافق مع محاولات لفرض اجراءات وقيود لا يمكن قبولها » واضاف ان « المقاومة ستظل تحرص الى ابعد الحدود على معالجة كل الاشكالات الطارئة بالحوار الايجابي والاتصالات الودية ... واننا نتفهم واقع لبنان ، ونطلب من لبنان ان يتفهم واقع الفلسطينيين » (٢٠ ايلول) . وعلى اثر هذه الوقائع اعلنت مصادر مطلعة للصحافة يوم ٢١ ايلول انه تم التوصل الى صيغة تعاون بين المقاومة والنظام تقوم على اساس الاستمرار في تجميد النشاط الفدائي ، وتمركز القوات الفدائية خارج المدن والقرى . ولكن يبدو ان استمرار فرض حالة الطوارىء ، واستمرار اعمال الحواجز على الطرقات ، ابقت جو التوتر قائما بالرغم من الاتفاق الذي تم التوصل اليه . ولذلك فقد استمر الحوار ، واستمرت اللقاءات حتى ٢٥ ايلول ، حيث اعلن ان جو التوتر قد انتهى ، وان لجنتين فنيتين قد انتقلتا الى الجنوب لوضع الاتفاق موضع التنفيذ .

وعلى اثر ذلك برز حادثان كان لهما دلالة سياسية واضحة ، الحدث الاول قيام السيد صائب سلام بجولة في مناطق جنوب لبنان ، جرى فيها اعداد استقبالات « رسمية » له ، ابلغ اثناءها بان الاهالي يرغبون ببقاء الجيش وبخروج الفدائيين !! والحدث الثاني قيام السيد ياسر عرفات على رأس وفد فلسطيني بزيارة عدد من الشخصيات السياسية اللبنانية المعروفة برفضها لاتفاق القاهرة (شمعون ــ اده ــ الجميل) ، كما قام ايضا بزيارة كل من السيد كامل الاسعد ، وموسى الصدر ، والمفتي حسن خالد . وقد كان اهم هذه اللقاءات الاجتماع الذي تم بين الرئيس فرنجية وياسر عرفات ، وسعد العبد الله وزير الدفاع الكويتي ، وذلك بناء على وساطة كويتية ، قيل انها كانت معنية بازالة فجوة كانت موجودة ، اضافة الى ازالة التوتر العام في العلاقات . وبذلك انتهت جولة جديدة من جولات التأزم بين المقاومة الفلسطينية والنظام اللبناني ، في ظل ظروف سياسية وعسكرية صعبة ومعقدة .

حكومة المنفى : في الخطاب الذي القاه في الذكرى الثانية لوفاة الرئيس جمال عبد الناصر ، فاجأ الرئيس السادات الجميع بدعوته الى تشكيل حكومة فلسطينية مؤقتة ، وباعلانه استعداد مصر للاعتراف بهذه الحكومة اذا ما شكلت . وعلى الفور برزت اسئلة عديدة حول ما اذا كان الرئيس السادات قد اقترح هذا الموضوع بمبادرة منه ، أم بناء على بحث مسبق مع قيادات المقاومة . وبينما اعلنت معلومات صحفية ان السادات بحث اقتراحه مع بعض القيادات ، قالت مصادر المقاومة، ان احدا من قادتها لم يكن على علم مسبق بالاقتراح ، وانها كانت تفضل لو احاطها الرئيس السادات علما بالموضوع قبل اعلانه . وحول الموقف الرسمي الذي سيتخذ قالت هذه المصادر انه من الضروري التشاور مع بعض الانظمة العربية قبل الاعلان عنه .

وقد لوحظ ان اللجنة التنفيذية ، وفصائل المقاومة كافة ، اتبعت تكتيكا سياسيا يتلخص بنقطتين :

١ ــ التمهل في رفض الاقتراح .

٢ ــ صياغة الرفض بطريقة لا تفتح جدلا او معركة سياسية مع القاهرة .

وكان وراء هذا الموقف كما يبدو رغبة المقاومة في تجنب الاجواء التي ساءت بينها وبين النظام المصري عشية الموافقة على مبادرة روجرز عام ١٩٧٠ ، وقناعتها بأن المبادرة مصرية محضة ، لا تعكس اجواء دولية تسعى بالاتجاه نفسه ، ويمكن بالتالي حصر الموضوع وحله ضمن هذا الاطار .

وبالفعل فقد تأخر صدور اي موقف رسمي عن منظمة التحرير حتى ٢ ت ١ ، حيث صدر بيان بعد اجتماع للجنة التنفيذية رفض الاقتراح بشكل غير مباشر حين قال ان اللجنة قررت دعم الكيان الفلسطيني المتمثل بمنظمة التحرير الفلسطينية، وفي الوقت نفسه الذي اذيع فيه هذا البيان وصل الى القاهرة وفد رسمي برئاسة السيد خالد الفاهوم وعضوية خالد الحسن وسامي العطاري وحامد ابو ستة ، وعقد اجتماعين ، الاول مع سيد مرعي الامين العام للاتحاد الاشتراكي ، والثاني مع الرئيس السادات (٧ ت ١) ، وصدر عن هذا الاجتماع بيان جاء فيه ان الرئيس المصري اكد « ان الشعب الفلسطيني ممثلا بمنظمة التحرير هو صاحب الحق في تقرير مواقفه » . وقد فسرت هذه الاشارة الى منظمة التحرير ، على انها تتضمن موافقة الرئيس السادات على موقف اللجنة التنفيذية . وكان قد سبق للرئيس السادات ان اعلن في مقابلة مع مجلة الحوادث اللبنانية انه اقترح حكومة المنفى قبل الاتصال بالفلسطينيين . وبذلك اعتبرت المسألة منتهية ، دون ان تولد اي حساسيات .

اما : ما يتعلق بالمناقشات الداخلية ، فقد كان هناك اجماع بين الفصائل الفدائية على ضرورة الالتزام بالتكتيك الذي اعلن ونفذ . وحين انفردت الجبهة الشعبية ، باذاعة بيان صحفي (٣٠ ايلول) يعلن رفضها لحكومة المنفى قالت انها لمست « من خلال اتصالاتها الاولية بفصائل المقاومة الاخرى ان هناك اجماعا على رفض المشروع » .

الرسائل الملغومة : وعلى صعيد اعمال العنف ، شهدت هذه الفترة وصول عدد كبير من الرسائل الملغومة الى السفارات الاسرائيلية في الخارج ، والى داخل اسرائيل نفسها . وكشف النقاب عن هذه الرسائل حين انفجرت احداها في يد موظف كبير في سفارة اسرائيل بلندن ادت الى مقتله ، واصابة موظف اخر بجراح يوم ١٩ ايلول . واعلن في الوقت نفسه ان هذه الرسالة واحدة من تسع رسائل كانت موجهة الى موظفي السفارة . وعلى اثر ذلك بدأ الاعلان عن وصول رسائل اخرى الى السفارات الاسرائيلية شملت مساحة واسعة من العالم قدر عددها بأكثر من ستين رسالة ، جرى كشف معظمها بعد الاحتياطات الواسعة التي اتخذت .

هذا وقد اعلنت المصادر الاسرائيلية ان الرسائل الملغومة التي اكتشفت كانت تحمل رسائل موقعة باسم منظمة ايلول الاسود ، ولكن المنظمة لم تصدر اي بيان يعلن مسؤوليتها عن الرسائل .

وبالمقابل وقع انفجار في مكتبة متخصصة ببيع الكتب المتعلقة بالقضية الفلسطينية في باريس (٤ ت ١) أحدث اضرارا طفيفة ، واعلنت حركة صهيونية تدعى « حركة مسادا للعمل والدفاع » انها مسؤولة عن الحادث . وفي ٨ ت ١ القيت في بيروت متفجرتان على مكتب منظمة التحرير وعلى مكتب فدائي بمخيم شاتيلا ، احدثا اضرارا طفيفة، وعلق مصدر فلسطيني قائلا ان الاسلوب يكشف عن الفاعلين ، وفهم ذلك على انه اتهام للمخابرات الاردنية بتدبير الحادث .

اما داخل الاراضي المحتلة فقد وقع انفجار كبير يوم ٢٩ ايلول في اكبر مخزن للتموين (سوبر ماركت) في مدينة القدس ، ادى الى اصابة ثلاثة اشخاص بجراح ، واعتقل على اثر الحادث ١٣٠ عربيا للتحقيق معهم .

بلال الحسن

ملحق : تقرير عن معركة القطاع الاوسط

امام التعتيم الاعلامي الذي صاحب ، واعقب ، معارك الاربعين ساعة التي ابتدأت صباح (الساعة الخامسة) ١٩٧٢/٩/١٦ في القطاع الاوسط في جنوب لبنان ، لا بد من وقفة تتناول تلك المعارك من ثلاث زوايا : الزاوية السياسية ، والزاوية العسكرية ، والزاوية الخاصة بالحقيقة التاريخية.

اولا : **الزاوية السياسية** : لقد كان طابع الغزو العسكري الصهيوني على القطاع الاوسط ابعد ما يكون عن طابع العمليات العسكرية ضد القوات العسكرية المقابلة . ويستند هذا الرأي على الحقائق التالية : (أ) عدم ترجل قوات العدو من آلياتها لمطاردة الفدائيين او التوجه الى مواقعهم ، الا في الحالات التي كانوا يدخلون فيها قرية اخلى الفدائيون ضواحيها (المرجع : مقابلة « مع آمر الفصيل الذي تصدى للهجوم على مجدل سلم » — كراسة « حرب الاربعين ساعة » — منظمة التحرير الفلسطينية —) ؛ (ب) تركيز النار على الاهالي ، وعمليات تمشيط لمساكن المدنيين مصحوبة بمختلف الاجراءات الارهابية (المرجع السابق) ؛ (ج) معارك الصدام مع الفدائيين تمت بمبادرة القوات الفدائية (المرجع السابق) .

كان العدو يعرف سلفا انه لن يستطيع مفاجأة الفدائيين بهجوم يقوم به في ذلك التاريخ ، فقد كانت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية قد اصدرت بيانا ، عقب اجتماعها في ٧٢/٩/١٤ ، تعلن فيه عن توقع العدوان ، وتدعو الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة . ولهذا ، فمن غير المنطقي ان يكون العدو قد هدف من عدوانه الظفر بالفدائيين وضربهم ، ما دام الغزو اصبح متوقعا ، وما دامت القوات الفدائية المحدودة العدد في القطاع الاوسط قد استنفرت وانتشرت . وفي هذه الحالة ، من غير الممكن القيام بعمليات عسكرية بالقوات البرية الا عن طريق ترجلها من آلياتها لصعود الجبال ونزول الاودية بحثا عن الوحدات الفدائية الغوارية وهذا الذي لم يحدث ، اذ توجهت الاليات الى القرى حيث السكان العزل من السلاح ، لتوجه ضرباتها ، فالمقصود ، اذن ، الهدف السياسي الذي يرمي الى ارهاب اهالي القطاع الاوسط وتحريضهم ضد العمل الفدائي ، اي وضع الجماهير بين خيارين اما التعاطف مع العمل الفدائي والنزول تحت سيف ارهاب اسود بيد جيش العدو الصهيوني ، واما التحرك ضد العمل الفدائي والمطالبة باخراجه من الجنوب نهائيا بل من ارض لبنان كلها ، تحت التهديد بعودة ذلك الارهاب — بكل ما تحمل الكلمة من معنى . هذا من جهة ، اما من الجهة الاخرى ، فممارسة ضغط على السلطات اللبنانية لتتخذ الموقف نفسه .

ثانيا : **الزاوية العسكرية** : يلاحظ من مختلف البلاغات العسكرية التي صدرت عن المقاومة ، وتلك التي صدرت عن الناطق العسكري اللبناني ، ان الملامح الاساسية للحركة التكتيكية لقوات العدو ، خلافا لعملياته السابقة ، تبدو في عدم استخدامه نيران الطيران بصورة رئيسية كمقدمة للحركة التكتيكية للقوات البرية وكجزء منها ، وذلك راجع لسببين رئيسيين : (١) طابع القوات الفدائية المتواجدة في القطاع الاوسط (محدودة ، عددها ، انتشارها ، حسن تمويهها ، وكثرة حركتها — وبالمناسبة ، لم تتعرض قوات الفدائيين في القطاع الاوسط منذ عام ١٩٦٩ لاية غارة جوية). (٢) طابع الهدف الذي تحركت الحملة الصهيونية لتحقيقه . في الواقع ، لم يقصف الطيران خلال تلك الغزوة سوى اربعة مواقع وهي : (١) بيت ياحون (٢) الجمجمة (٣) بير السلاسل (٤) سيارة تحمل مدفع ١٠٦ بين السلطانية وبير السلاسل . وكانت هذه النقاط كلها للجيش اللبناني تصدت لاليات العدو بمدافع ١٠٦ . ومن هنا يكون دور الطيران في هذا الغزو قد تحدد في تأمين حماية لتقدم الاليات ، ولكن لم تكن نيرانه الشرط المسبق لتقدمها ، فضلا عن دوره الاستطلاعي والتوجيهي . ولهذا يمكن الاستنتاج ان تخطيط العدو ارتكز على توقع دخول منطقة خالية من مواقع دفاعية محددة تحتاج لقصف جوي مركز يمهد لهجوم الاليات .

لقد اتاحت هذه الظروف لقيادة القطاع الاوسط امتلاك زمام المبادرة في نصب كمائن لا يتوقعها العدو ، راحت تفاجئه بمدافع (ب ٧) المضادة للدبابات ، وذلك من مسافات لا تزيد على خمسين مترا مما عطل امكانية اشتراك الطيران في حماية الدبابات من الكوارث التي حلت بها . ولقد اتقنت الوحدات الغوارية المؤلفة من ٥ — ٧ فدائيين مسلحة بمدفع ب ٧ هذا التكتيك وقد اصابت نجاحات اكبر بكثير من احجامها ومستوى تسلحها . ان دراسة تجربة هذه المعركة من ناحية نصب الكمائن ثم الانسحاب السريع بعد الصدام مع الدبابات المتقدمة ثم العودة لنصب كمائن جديدة او مطاردة اطراف من قوات العدو ، دون ان يتاح للعدو الافادة من طيرانه .. ان دراسة هذه التجربة سوف تسهم في اغناء فن التكتيك الغواري في ظروف التصدي لقوات آلية مدعومة بطيران نشط ودقيق ، اي ظروف التطورات التقنية الجديدة وسرعة

الحركة التكتيكية للقوات الالية البرية وللطيران .
يقول الاخ القائد العسكري لقوات الثورة في القطاع الاوسط في جوابه على سؤال مراسل « فلسطين الثورة » — الاربعاء ، ٢٧ ايلول ١٩٧٢ ، صفحة ١٠ — : « لم يعد سرا ان وجودنا العسكري في القطاع الاوسط كما تنص عليه اتفاقية القاهــرة والتفسيرات الملحقة به هو وجود محدد من حيث العدد ومواقع التواجد ، وبأن تسليح هذا القطاع لا يتجاوز الاسلحة الفردية الصغيرة وهو لهذا ليس قطاعا عسكريا يستطيع ان يقوم بمهمات دفــاعية عن القرى او المنطقة ... مثل هذه المهمة تحتاج الى اعداد وتسليح وتكتيكات مختلفة . ولهذا فان خططنا لا تقوم على اساس الدفاع (الكلي) بــل على اساس الدفاع (الموضعي) بهدف ايقاع اكبر خسائر ممكنة بالعدو ثم الانسحاب وشن غــارات فدائية على مواقع وتحركات قوات العدو ، وهكذا فعلنا .

الذين يطالبوننا بالدفاع عن القطاع الاوسط ومنــع العدو من دخوله لا يعرفون معنى حرب العصابات، ولا يعرفون وضــع القطــاع كمــا تحدده اتفاقية القاهرة . ثمة ثلاث موضوعات في هذا التصريح : (١) اعداد الفدائيين محدودة جدا ، كمــا ان الاسلحة فردية خفيفة فهو لهذا ليس قطاعا عسكريا دفاعيا بالمعنى المحدد للكلمة (دفاعي) ، (٢) الدفاع هو من طراز الدفاع الغواري — الموضعي المتحرك . (٣) التكتيك الهجومي هو شن غارات غوارية الطابع على مواقع العدو وتحركاتــه . وتعني هذه السمات الثلاث ان القوات الفدائية في القطاع الاوسط ، خلافا لمواقع اخرى ، ذات طابع الوحدات الغوارية المتحركة التي تتجنب المواجهة الواسعة وتقصر دفاعها على الدفاع « الموضعي » الجزئي المتنقل الذي يأخذ شكل الكمائن الدفاعية — الهجومية ، كما تقصر هجومهــا عــلى الهجمات بوحدات صغيرة متفرقة تقررها كل وحدة غوارية زمانا ومكانا واسلوبا في اثناء سير المعركة .

ثالثا : **الزاوية الخاصة بالحقيقة التاريخية** : كان باستطاعة قــوات الثورة الفلسطينيــة ، نظــرا لمحدودية عددها وخفتهــا ، ولمعرفتهــا المسبقــة بالهجوم ، ولطبيعة الارض في القطاع الاوسط ، ان تستخفي تماما من وجه العدو ، وتتجنب اي صدام معه ، ولكنها قررت نصب الكمائن وشن الهجمات الغوارية طوال اربعين ساعة ، وحافظت علــى وتيرة تكتيكاتها الهجومية حتى مغادرة اخر آليــة معادية ساحة المعركة ، وكانت نتيجة هذه الكمائن والهجمات « تدمير واعطاب عدد كبير من الدبابات والدروع ، امكن احصاء ١٣ منها احصاء دقيقا » (المصدر السابق ص ١١) فضلا عن اعداد مــن القتلى والجرحى ، لا تقل عن السبعين ، عــدا الاليات التي دمرها الجيش اللبناني .

رغم كل ذلك ضرب ستار من الظلام على المعارك التي خاضها الفدائيون في تلك الحملة المعاديــة ، ولم يعرف الرأي العام الا بمعركة جويا ، بسبب وجود مراسلين اجانب في القرية في اثناء الاشتباك، ولكن الحقيقة ان معركة جويا التي وصفها المراسلون الاجانب بانها « جهنم فتحت نيرانها » على قــوات العدو الصهيوني ، لم تكن قمة ما خاضه الفدائيون من معارك في تلك الحملة المعادية ، فقد كــانت معارك عينانا ومجدل سلم ، وتبريخا ، والرمادية، وصدقين لا تقل عنها ان لم تكن معركتا مجدل سلم وتبريخا اشد وطأة على العدو . مثلا لقد كانــت معركة عينانا اشتباكا مع قوات العدو دام ثــلاث ساعات ونصف الساعة (مــن الساعة الثانيــة والنصف حتى السادسة من صباح اليوم التالي) وقد شلت الكمائن المتقدمة خــارج عينانا قــوات الكوماندوز المعادية ودمرت اليتين . اما معركــة تبريخا فقد دمرت فيها آليتان في مشارف القرية . ثم فوجئت قوات العدو بعد دخولها ساحة البلــد بحرب شوارع حقيقية دمرت فيها دبابة ثالثة .

السؤال الان ، الا تستحق تلك البطولات تمزيــق ستار التعتيم الاعلامي ، لتسلط الاضواء على تلك المعارك التي تؤكد امكانية القتال ، وتكرس ارادة القتال ، وتدفع بجماهيرنا الفلسطينية والعربيــة الى التحقق ، اكثر فاكثر ، من صحة استراتيجية حرب الشعب في مواجهة العدو الصهيوني الــذي يريد تركيع وطننا العربي بالهراوة ؟

منير شفيق

(٢) القضية الفلسطينية عربيا

١ ــ عدوان ١٦ أيلول على لبنان :

كانت الصحف قد أعلنت يوم ٩/١٥ بأن هناك عدوانا واسعا مرتقبا على لبنان ، استنادا الى معلومات « وفا » ، وكالة الانباء الفلسطينية . كما حملت الصحف ، في اليوم ذاته تصريحا لكمال جنبلاط، ادلى به ، بعد لقاء مع السفير السوفياتي، جاء فيه : « أبلغنا السفير ان الحالة خطرة جدا بالنسبة للبنان وسوريه والدول العربيــــة . وخصوصا لبنان وسوريا » (المحرر ٧٢/٩/١٥). وكان ابا ايبان في هذا الوقت بالذات يرســل مذكرات شخصية الى نحو اربعين وزير خارجية في العالم يلقي فيها مسؤولية « الارهاب » على سوريه ومصر ولبنان (النهار ٧٢/٩/١٦) . وهذا الاسلوب ، اسلوب تحميل الدول العربية مسؤولية ما يحدث ، ليس جديدا . انه اسلوب قديم ولكن القادة « الاسرائيليين » ما زالوا يعتبرونه الاسلوب الوحيد الناجع في ملاحقة المقاومة الفلسطينية ، وفي اخضاع الدول العربية . لقد اكد دافيد اليعازر هذه الحقيقة ، معتبرا ان « ... تحميل الدول والحكومات العربية ... المســؤولية » جــزء اساسي من استراتيجيته . وكان دايان اكــثر وضوحا ، فلقد قال : « اما ان تتولى الحكومة اللبنانية مراقبة الفدائيين ومنعهم من العودة الى ارض فتح ... واما ان تتولى اسرائيل ذلك ، وفي هذه الحال فان ارض العرقوب ستمر فيها دوريات عسكرية اسرائيلية في شكل منتظم » . واشارت جولدا مئير الى القضية ذاتها قائلة : « ... ان اسرائيل مصممة على ضرب لبنــان « مرة بعد مرة » اذا لم يلغ الوجود الفلسطيني من ارضه ... لن ننتظر كي يضربونا ... اننا سنهاجمهم حيث نعثر عليهم » (الجديد ، ٣٠٣ ، ٧٢/٩/٢٩). وكانت آخر « النظريات » التي أعلنت في هذا المجال نظرية حاييم هرتزوغ المعلق الرئيسي في اذاعة العدو . وترى هذه « النظرية »: « ان مجرد وجود الفلسطينيين في جنوب لبنان ، ولو لم يقوموا بأي نشاط كاف كي تدخل اسرائيل الاراضي اللبنانية وتهاجمهم » نشرة رصد اذاعة اسرائيل ٧٢/١٠/١٢) .

وهدف دولة الاحتلال من هذه التصريحات والحملات الدعاوية واضح ومحدد : انه دفع الدول العربية الى تصفية المقاومة الفلسطينية تحت وطأة التهديد باجتياح اراضيها واحتلالها. الدول العربية مطالبة بأن تتحول الى أداة قمع وتصفية . والمثل الذي تتغنى به دولة الاحتلال هو مثل الاردن . لماذا لا يفعل لبنان مع المقاومة ما فعله الاردن ؟ ودولة الاحتلال لا تحتاج الى مبررات: فليس من الضروري ان يكون هناك « مبررات » لعدوانها ، انها تعتدي ساعة تشاء ، وهي تعتدي حسب استراتيجيتهــا ووفق اهدافها . وما تريد سحقه الآن ليــس قاعدة مقاومة هنا او مركز قيادة هناك . انها تريد سحق ارادة القتال في المنطقة ، ليجد الاستسلام طريقه الى النفوس ، ومن ثم الى الواقع . ولكي يتحقق هذا لا بد من ان تصبح دولة الاحتلال سيدة المنطقة بلا منازع ، تحكمها من تل ابيب دون ان تحرك طائرة او جنديا ، تأمر فيمتثل الآخرون ، تومىء فيستجيبون .

ولقد اشار الاستاذ احمد بهاء الدين الى هذه الحقيقة قائلا : « ... مغزاه ان اسرائيل اصبح لها من السطوة في المنطقة ما يجعلها تستطيع باشارة من اصبعها ان تؤثر في تطورات داخلية تماما ، خاصة باقطار عربية شتى » . وذكر في هذا المجال رادارا لبنانيا طلبت دولة الاحتلال إيقافه عن العمل فتوقف ، كما ذكر مشروع اده في اســتثمار ميــاه الانهر اللبنانية ، وكيف ان المشروع مجمد بسبب الخشية من دولة الاحتلال . ويضيف الاستاذ احمد بهاء الدين : « ان ارادة اسرائيل وارادة اميركا كلتيهما اصبحتا في وضع يتيح لهما ان يسمحا بهذا ولا يسمحا بذاك ، وان يؤثرا في مجريات الامور ، حتى الداخلية في هذا القطر العربي او ذاك . ومع مرور الزمن سوف تتسع الدائرة التي يمكن التأثير فيها على هذا النحو » (الاهرام ٧٢/٩/٢٤).

وما فعلته دولة الاحتلال صبيحة يوم ٧٢/٩/١٦ لا يخرج عن اطار هذه الاستراتيجية التي تستهدف اخضاع الارادة العربية من خلال التهديد ، فــان لم ينجح فبالعدوان .

وما كاد العدوان « الاسرائيلي » يبدأ حتى بــدأ رد الفعل اللبناني يأخذ ابعاده . وتمثل رد الفعل اللبناني فيما يلي :

اولا : اعلان حالة الطوارىء . ثانيا : توجيه انذار الى المقاومة ، يلغي اتفاق القاهرة عمليا . ثالثا : التركيز على دور الجيش اللبناني واغفال أية اشارة الى دور المقاومة . رابعا : فرض الرقابة على الصحف ووسائل الاعلام ومنعهـا من الاشارة الى كلمة المقاومة ، او كل ما يدل عليها .

وبدا واضحا ان هذه الاجراءات السريعـة ، وخاصة اعلان حالة الطوارىء وتوجيه الانـذار الى المقاومة ، جاءت ضمن خطة مبيتة ، وبالاتفاق مع اوساط دولية ، وانها أعدت سلفا ، وبهدف تصفية المقاومة في لبنان . وزاد من القناعة بهذا تركيز السلطة على دور الجيش ومقاومته وصموده واغفال دور المقاومة نهائيا ، ومحاولتها الغاء المقاومة من ذهن المواطن العادي بشطب كل ما يدل عليها من قاموس الاستخدام اليومي . كما لعب انتشار الحواجز العسكرية والحصار الذي فرض على قواعد المقاومة دورا كبيرا في تأزيم الموقف وايصال الامور الى حافة الصدام .

هل كانت السلطة تريد صداما في هذا الوقت بالذات ؟. ان السلطة كانت تريد تقليص حجم المقاومة في هذه المرحلة . وارادت ان تلجأ في ذلك الى : أ ـ استغلال ظروف العدوان والتهديـد باحتلال اراضي الجنوب . ب ـ الضغط السياسي على المقاومة ، باستخدام وسائل الضغط المختلفة، ومنها التهديد بالصدام . ج ـ الصدام المحدود ، او الاشتباكات المحدودة ، اذا اقتضى الامر ، ويعود ذلك الى ان الصدام الشامل يحتاج الى تعبئة سياسية وعسكرية اكبر ، والى جو عربي اكثر ملاءمة ، والى مناخ داخلي اكثر تهيؤا ، وحتى يتهيأ كل ذلك يجري تقليص حجم المقاومة ودورها في لبنان عن طريق سلسلة من الضغوط ، ثم سلسلة من الاتفاقيات مع قيادة المقاومة، .

وتركز اهتمام السلطة في هذه الجولة عـلى قضيتين : الاولى ـ عدم استخـدام الاراضي اللبنانية منطلقا لعمليات الحدود . الثانية ـ خروج قواعد المقاومة من القرى والمدن .

واهمية القضية الاولى تنبع من ان هذا الاتفاق يجمد قواعد المقاومة ، ويتركها فريسة الشعـور بأنها مجمدة ، لا تفعل شيئا . واذا كان هذا الوضع سيمزق المقاتل الرابض في قاعدته ، فانه سيترك المواطن يحس ان هذه القوات المجمدة لا جدوى من وجودها . اما فيما يتعلق بالقضية الثانية ، فان الخروج من المدن والقرى يزيد من عزلة المقاتلين ، ويضاعف من فرص الاستفراد بهم وضربهم . ان هدف الخروج من القرى والمدن في لبنان ، لا يختلف عن هدف نقل المقاتلين في الاردن الى احراج جرش وعجلون ، الخالية من السكان . وقد جرت تغطية القضية بستارين : الاول يبرز ضعف لبنان وعدم قدرته على المجابهة ، وعجز الدول العربية عن انتهاج سياسة دفاعية ناجعة . والثاني ، يبرز رغبة السكان في الجنوب في ان يعيشوا آمنين ، وان يكونوا في منجى من الانتقام الاسرائيلي .

وهكذا اصبح وجود « العمل الفدائي » في لبنان هو المشكلة . ولذلك فقـد اخذ بعض الاصوات يطرح الحل . وها هو غسان تويني في افتتاحية للنهـار يبـادر بعد العدوان مباشرة الى طرح استراتيجية جديـدة للمقاومة الفلسـطينية تقوم على الاسس التالية : ١ ـ القوات العسكرية للمقاومة تتحول الى جزء من القوات النظامية العربية ، وتعمل ضمن استراتيجيتها . ٢ ـ تنتقل المقاومة الى العمل السري على طريقة ايلول الاسود . ومع ان هذه الافكار ليست جديدة ، اذ انها تمثل خطا معروفا داخل المقاومة وخارجها ، فقد بدأت تطرح من جديد طرحا واثقا ملحا . وكان بيير الجميل من الذين خاضوا غمار الحديث عن القضية في مؤتمر حزب الكتائب (النهار ، ٩/٢٣/ ٧٢) . وقد ركز الشيخ بيار الجميل على ثلاث قضايا اساسية : الاولى : ان تفرق المقاومة بين العمل الفدائي والعمل العسكري « على اساس ان العمل العسكري ليس اوانه ، ولهذا السبب كان « العمل الفدائي » وليس من مبرر للعمل الفدائي ، سوى هذا السبب تقريبا . بمعنى انه اذا استحال العمل الفدائي عملا عسكريا ، فقد مبرره الاساسي الوحيد ، وكان وبالا على نفسه وعلى قضيته وعلى العرب جميعا » . الثانية ـ ان لبنان هو الذي يحدد نوع مساعدته للمقاومة وحجمها « وينبغي ان تقبل المقاومة بالمساعدة التي يقدمها لبنان الى كفاحها العادل ، بنوع هذه المساعدة ومقدارها ، قبولا يكون اقرب الـى الاقتناع منه الى التسليم بالامر الواقع ... دور لبنان في المعركة لا يحدد قياسا على حاجات المقاومة وهي كثيرة وحجمها يفوق حجم امكانات لبنـان باشواط » والمقاومة عندما تطالب مثلا بالعمل من

حدودنا « ... انما تفرض علينا نوعا من انواع الاحتلال ، وتقودنا الى معركة بل الى معارك غير متكافئة مع اسرائيل نتيجتها خسارة الارض والكرامة وآخر ملاذ للمقاومة نفسها » . الثالثة : ان لبنان لا يريد التورط في صراع مع المقاومة . « واذا كانت اسرائيل تتوخى من انتقاماتها استدراجنا الى هذا الصراع فعبثا تحاول » . هذا ما يقوله الشيخ بيير . ويضيف : « لاننا، بين هذه الانتقامات وبين حرب أهلية في بلادنا يكون الفلسطينيون طرفا فيها ، نفضل الحالة الاولى ، وهي شر كبير لكنه أهون الشرين ! واتفاق القاهرة ما كان الا تحت ضغط هذه الضرورة او هذا الاختيار الصعب » . ولكن الشيخ بيير يضيف قائلا : « لكنا نأمل الا تحاول المقاومة استغلال نقطة الضعف هذه بهذا الشكل او ذاك . أي ان تتخذ من خوفنا من الحرب الاهلية أداة لكي تنتزع منا ما تريده . لان حرصنا على الوحدة الداخلية يكون حرصا لا معنى له ، ساعة يصبح مدرجة الى التسليم بانهيار تام ! ».

وبعد ان يؤيد الشيخ الجميل اجراءات الدولة يحدد ما يسميه « التزاماتنا تجاه القضية وابنائها ، أيا كان تصرف المقاومة ، ومهما تمادت في تورطها واخطائها » . وهذه الالتزامات في رأيه « ... اما ان تكون حلقة في خطة عربية شاملة متكاملة ، نشترك نحن في وضعها ، واما ان نتولى نحن تحديدها بأنفسنا ، بالتفاهم مع المقاومة اذا امكن وأرادت هي نفسها هذا التفاهم طبعا ، اذ نكتفي باستيحاء ضميرنا ووجداننا وطاقات البلاد وامكاناتها وسلامتها » . ويلتقي هذا الخط مع الخط الذي طرحه غسان تويني ، وهو خط يريد ان يحدد للمقاومة طبيعة وجودها على الاراضي العربية اولا . وهو ثانيا يريد ان يقرر لها شكل عملها ونوع عملياتها . ثم — ثالثا — ان هذا الخط يريد ان يقنع المقاومة بأن لكل بلد عربي دورا هو يحدده على ضوء امكاناته . رابعا : وفوق هذا كله ، فان لبنان مستعد ان يمضي الى الحرب الاهلية ، اذا لم تتكيف المقاومة مع متطلبات وضعه .

ويستهدف هذا الخط تكييف ارادة المقاومة مع وضع الانظمة واخضاع قواها العسكرية الى خطة عربية شاملة ، وجعل قواها السياسية اقرب الى التمثيل الدبلوماسي منها الى التنظيم الشعبي . ويستر هذا الخط نفسه بالحديث عن ضرورة « العمل الفدائي » ، وبالتغني بالسرية وبأيلول الاسود . ولكن هذا الشعار يخفي وراءه حقيقة مهمة وهي ان هذا الخط يرفض العمل السري في الحقيقة ، وما تغنيه به الا من باب الخديعة . وهو اذا كان يسعى للاستفادة من عملية كعملية ميونيخ ، فما ذلك الا للضغط على القوى العالمية من اجل حل عاجل للقضية الفلسطينية . ولكن مثل هذا الحل يتطلب ان تتنازل المقاومة الفلسطينية عن مواقعها ومكتسباتها ، وان تدمر اعمدة قوتها . وهو ما تعمل من اجله قوى مختلفة عربية وغير عربية . لان المقاومة اذا فعلت ذلك دخلت حلبة الحل الاستسلامي . وهو ما يراد لها . هذا ما طلبه لبنان الرسمي من المقاومة ، وما أيدته فيه قوى لبنانية معروفة . وبالمقابل كان هنالك موقف القوى الوطنية والتقدمية اللبنانية والجماهير المساندة لها .

واليوم وبعد مرور شهر ، تبدو الازمة هادئة ، مع ان الوضع استمر كما كان . فهل يعني هذا ان الازمة قد انتهت ؟ لا طبعا ...

ان ما حصل لا يعدو ان يكون عملية « تهدئة » . واذا كانت قد حصلت اجتماعات ولقاءات « ... فحصيلة هذه اللقاءات لم تكن اكثر من « حوار » منع الصدام « مؤقتا » وجرى فيه استعراض « لوجهات النظر » دون الوصول الى نتيجة حاسمة ، وهذا يعني ان التوتر قد يعود في أية لحظة ، بالرغم من « النوايا الحسنة » و« الثقة المتبادلة » . ويعني ايضا — وبصراحة — ان المساعي التي بذلت ، بما في ذلك مساعي الكويت كانت مساعي تهدئة اكثر منها مساعي تسوية او حل نهائي . اذا فالوضع كله قابل للانفجار في أية لحظة ، وكل ما حدث حتى الان هو « تجميده » مؤقتا ريثما يجري البحث عن حل نهائي » (الحوادث ٦/١٠/٧٢) .

ولكن ما هو هذا الحل ؟ انه احد اثنين ، فاما ان تبقى المقاومة وتصبح طليعة وطن عربي مقاتل ، او ان تتكيف وتصبح جزءا من واقع الاستسلام الحالي. وبما ان تحول الوطن العربي الى وطن مقاتل قضية بحاجة الى الكثير من النضال والعرق والدم، فان المقاومة ستواجه ازمات مقبلة اكثر حدة .

ان العدو يعرف نقاط ضعف السياسة العربية ، وهو لذلك سيعمد الي مزيد من الهجمات ، والى مزيد من التهديدات والضغوط . وسيزداد عدد

الذين يتظاهرون ، لانهم لا يريدون الفدائيين (الجريدة ٧٢/١٠/١٥) ، وستزداد صراحة الانظمة في اعلان عجزها عن مقاومة العدو . وستزداد الصراحة ، الى جانب ذلك ، في مطالبة المقاومة بالرحيل ...!

ان الاشهر الستة المقبلة اشهر خطرة ، ستعمل دولة الاحتلال خلالها على فرض امر واقع جديد ، جغرافي او سياسي او الاثنين معا ، لانها تريد ان تقدم لرئيس الولايات المتحدة الجديد خارطة جديدة يباركها . لقد انتهى عدوان السادس عشر من أيلول ، وهو يبدو الان ، وبعد شهر ، عدوانا فاشلا . ولكنه في الحقيقة بداية مرحلة جديدة من مراحل الصراع العربي — الاسرائيلي تريد لها دولة الاحتلال ان تنتهي بالاستسلام الكامل . ولكنها تريد لها ان تمر قبل ذلك ، عبر مقبرة المقاومة .

٢ — حكومة منفى فلسطينية :

بادر الرئيس السادات الى طرح موضوع حكومة المنفى . وحين سئل عن الاسباب اجاب :

« ... سبب الاقتراح ان غولدا مئير تنكر وجود الفلسطينيين . ومن الضروري ان نرد على هذا التحدي . فعندما تريد اسرائيل الغاء الشخصية الفلسطينية لا بد ان نؤكد هذه الشخصية ونعترف بها رسميا » . وحين سئل عما اذا كان أخذ رأي المنظمات الفلسطينية في الموضوع اجاب : « ... لم يحدث اي اتصال مع الفلسطينيين حول هذا الموضوع » (الحوادث ٧٢/١٠/٦) . فالاقتراح اذن لا يعدو ان يكون ردا على دولة الاحتلال التي تلغي الشخصية الفلسطينية . وهو من هذا الباب، وفي رأي الرئيس السادات ، خدمة للقضية الفلسطينية وللشخصية الفلسطينية المهددة بالالغاء.

ولكن الطابع الجديد للشخصية الفلسطينية طابع نضالي . ونستطيع ان نقول بأن انطلاقة يناير سنة ١٩٦٥ هي التي بعثت الشخصية الفلسطينية واعطتها محتواها ووجودها الحالي ، وعليه فان استمرار هذا النضال هو الذي يبلور هذه الشخصية ويحميها . وبما ان هذا النضال يتعرض للتآمر والملاحقة ، فان حمايته ، هي الوسيلة الوحيدة لمنع دولة الاحتلال وغيرها من الغاء الشخصية الفلسطينية . وماذا يمكن ان تفعل حكومة منفى لشعب الفلسطيني اذا ضربت قواه المنظمة والمسلحة ؟

لذلك فان المحافظة على الشخصية الفلسطينية تتطلب : ١ — حماية المقاومة الفلسطينية ومكتسباتها وانجازاتها ، وعلى رأسها قواها المنظمة والمسلحة . ٢ — حماية حق المقاومة الفلسطينية في الحركة ، وحقها في التنظيم والتسليح والتعبئة . ٣ — مساندتها ماديا ومعنويا ، لتكون قادرة على تصعيد نضالها ، وعلى احباط المؤامرات التي تحاك ضدها .

وحكومة المنفى عندما تطرح بعيدا عن هذا كله تقود الى « ... اقتناع الفلسطينيين بدخول عالم الواقعية ، وهو العالم الذي تتحرك ضمنه الان الانظمة العربية المعنية مباشرة بالنزاع مع اسرائيل» (النهار ، العالم يكتشف الفلسطينيين ، عبدالكريم ابو النصر ، ٧٢/١٠/١٠) . ان الحرص على الشخصية الفلسطينية والقضية الفلسطينية يعني الحرص على طابعهما النضالي الثوري ، لانهما لا تتبلوران ولا تبرزان الا بالنضال عموما وبالنضال الشعبي المسلح خصوصا .

ناجي علوش

جاءت عملية أيلول الاسود في ميونيخ ، التي تابعها على شاشات التلفزيون مئات الملايين من المتفرجين في انحاء العالم ، لتزيد اهتمام الاوساط العالمية (والغربية منها بشكل خاص) بقضية فلسطين والشرق الاوسط . وبادرت المانيا الغربية باتخاذ اجراءات تعسفية ضد المواطنين العرب ، تحدت من حرية تنقلهم ودخولهم ، وطردت المئات منهم من العمال والطلبة ، وخلقت هـذه الاجراءات والحملة الصحافية الرجعية جوا من العنصرية ضد العرب جعل احد المعلقين الفرنسيين يشبه بين وضع العرب الان في المانيا ووضع اليهود بعـد امتطاء هتلر سدة الحكم عام ١٩٣٣ . وفي هذا الجو المشحون بالعنصرية والحقد ، والذي يرافق فترة الاعداد للانتخـابات النيابية حيث يتبـارى الحزبان الرئيسيـان الاشتراكـي الديموقراطـي والديموقراطي المسيحي في اعلان « حرصهما على الامن الداخلي » ، اتخذت الحكومـة الفيدرالية قرارا بمنع اتحادي طلبة وعمال فلسطين في المانيا بتاريخ ١٩٧٢/١٠/٤ ، وقامت شرطتها بمداهمة مقرات الاتحادين في جميع انحاء المانيا وباعتقال وطرد اكثر من مئة كادر من كوادرهما . وازاء حملة القمع هذه، أعلن عدد من الطلبة الفلسطينيين يوم ٩/٢٩ الاضراب عن الطعام في مقر الجامعة العربية في بون احتجاجا ، وشاركهم فيما بعد في الاضراب عدد من الطلبة الايرانيين . واستمـر الاضراب عشرة ايام ، قامت خلالها عدة تظاهرات تضامن نظمتها الحركات اليسارية الالمانية والاجنبية كان أهمها تظاهرتي فرانكـفورت يـوم ٩/٢٩ ودورتموند يوم ١٠/٨ . وامتدت حركة الاحتجاج الى فرنسا حيث قام أكثر من ثلاثين طالبا عربيا وايرانيا بمبادرة مـن فرع اتحـاد طلبة فلسطين بالاعتصام مضربين عـن الطعام في مقر الجامعة العربية في باريس وذلك ابتداء من يوم ١٠/٩ ، وشاركت الحركات اليسارية الفرنسية في حملة الاحتجاج هذه . وقد عم السخط العالم العربي ازاء هذا الجو الارهابي ، وطالبت الاوسـاط الشعبية وبعض الحكومات باتخاذ اجراءات مقاطعة ضد الواردات الالمانية ومعاملة مواطنـي المانيا الغربية بالمثل .

وقامت دول أوروبيـة اخرى كبلجيكا وهولنـدا وسويسرا باتخاذ اجراءات للحد من دخول المواطنين العرب ومراقبة تحركات منظماتهم النقابية خاصة بعد ان وردت السفارات الاسرائيلية فـي اوروبا والقارات الاخرى رسائل متفجرة نسبت الى أيلول الاسود وأدت الى مقتل ملحق زراعي اسرائيلي في لندن ، وبعد جرح ملحـق اسرائيلي في سفارة بروكسل اطلق عليه النار مواطن مغربي . وحاولت الاوساط الاسرائيلية ان تصبغ هذا الجو بصبغة عنصرية ، فانتشرت تهديدات مزورة ضد الممتلكات اليهودية في أوروبا وشبت الحرائق المشبوهة في بعض البنايات التي يمتلكهـا يهود فرنسيون في باريس . والهدف من ذلك هو محاولة جديدة للخلط بين المقاومة الفلسطينية واللاسامية في اذهـان المواطن الاوروبي الذي مـا زال متأثرا بذكـرى المجازر النازية ضد اليهود ، بالاضافة الى عملية ضغط على سلطات اوروبا الغربية لاتخاذ اجراءات قمعية ضد المواطنين الفلسطينيين والعرب اسوة بحكومة برانت في المانيا ، للتوفير على نفسها مشقة الرد بالمثل الذي لن يسمح لها بالاستفادة كلية من الحملة . ورغما عن ذلك فقد قامت احدى المنظمات الصهيونية السرية (التي قيل انها مرتبطة بحزب حيروت) والتي تحمل اسم « مساده » بوضع عبوة متفجرة امام « مكتبة فلسطين » في باريس محدثة بعض الاضرار المادية ، ومثيرة احتجاجات خبيثة (على حد تعبير المنظمة نفسها) من قبل المنظمات الصهيونية الفرنسية والحكومة الاسرائيلية .

ويبدو ان لهذه الحملة علاقة بالمحاولات العربية الرسمية الرامية الى اقامة جسر مع دول السوق المشتركة ، على أمل ان تلعب هذه دور الوسيط في أزمة الشرق الاوسط للضغط على امريكا لتغيير موقفها المؤيد بتشنج لسياسة الاحتلال الاسرائيلية وربما كانت فرنسا التي هي الحلقة الرئيسية في مجموعة دول السوق هي المقصودة أساسا في العملية هذه ، الا أن الحكومة الفرنسية على ما يبدو مدركة لابعاد العملية الاسرائيلية وما زالت تطمح الى لعب دور اكبر في ايجاد مخرج لما تسميه « الازمة الحالية في مشكلة الشرق الاوسط » ، في اطار طموحها للعب دور اساسي في حوض البحر المتوسط . وقد ركزت بعض التعليقات العـربية والفلسطينية على هذا الجانب، وتجلى هذا الطموح

الفرنسي والاوروبي في تصريحين رئيسيين احدهما لجورج بومبيدو في مؤتمره الصحفي في ٩/٢١ الذي رد على سؤال حول عملية ميونيخ بالتأكيد على ان العملية وما سماه « الارهـــاب » الفلسطيني التي أدانتها الحكومة الفرنسية بشدة « لا يمكن أن ينتهي ما لم يوجد حل للمشكلة الفلسطينية » . والتصريح الاخر لوزير خارجية بلجيكا هارمل في الجمعية العمومية للامم المتحدة يوم ١٠/٥ الذي أكد على ضرورة مساهمة « المجتمع الدولي في ازالة الاسباب التي تدفع الى اعمال يائسة ، وطالب بتحطيم الجمود الخطير الذي يحيط بقضية الشرق الاوسط وأبدى « استعداد اوروبا للمساهمة ، في حالة التوصل الى اتفاق سياسي ، في حل المسألة الاليمة للاجئي فلسطين » . الا ان الشعور يسود المحافل الاوروبية بأن أي تغيير في الموقف الامريكي لن يحدث قبل انتخابات الرئاسة الامريكية، وبالتالي أي ضغط علىاسرائيل لا يمكن ان يتبلور الا في مطلع العام القادم ، رغم بعض الشائعات التي ترددت في القاهرة حول وجود مخطط امريكي جديد حائز على موافقة دول اوروبا ابلـــغ الى محمد حسنين هيكل اثناء اقامته الاخيرة في المانيا الغربية (وقد نفت القاهرة وجود مثل هذا المخطط) .

ومع اقتراب افتتـــاح الدورة السنوية للجمعيـــة العمومية للامم المتحدة ، انتقلت أصداء عمليـــة ميونيخ الى محافل المنظمات الدولية . فبعد الفيتو الامريكي على مشروع قرار صومالي — غيني — يوغوسلافي يدين اعتداءات اسرائيل علـــى سوريا ولبنان بعد عملية أيلول الاسود مباشرة (وقد حاز المشروع على ١٣ صوتا وامتنعت باناما وصوتت الولايات المتحدة ضده) ، طالب كورت فالدهايم الامين العام للامم المتحدة بتسجيل ما سماه «موضوع الارهاب » على جدول اعمال الدورة . ودار النقاش مباشرة بعد افتتاح الدورة يوم ٩/١٩ حول هـــذا الاقتراح الذي عارضته الدول العربية وبعض الدول الافريقية والاشتراكية . لكن لجنة التوجيه المكونة من ممثلي ٢٥ دولة ، اقرت اقتراح فالدهايم بعد ان تنازل الاخير عـــن طرح الموضوع على الجمعيـــة العمومية واكتفى بأن يطرح على اللجنة القانونية . وقد صوتت ١٥ دولة الى جانب التسجيل ضد ٧ دول وامتناع ٢ وعدم مشاركة رئيس الدورة (الذي هو نائب وزير خارجيـــة بولندا تريشنسكي) في التصويت، وحين احالة جدول الاعمال على الجمعية العمومية ، اقرت الاخيرة ايضا تسجيل موضـــوع « الارهاب » في نص مخفف صوتت الى جانبه ٦٦ دولة مقابل ٢٧ دولة معارضة وامتناع ٣٣ دولة . والدول المصوتة الى جانب التسجيل هي دول اوروبا الغربية كافة (بما فيها فرنسا واسبانيا واليونان) ودول امريكا الشمالية والجنوبية (باستثناء كوبا وتشيلي) وعدد قليل من دول آسيا وافريقيا (بينها تركيا وايران) الى جانب اسرائيل بالطبع ودولة عربية واحدة هي الاردن . وصوتت ضد التسجيل معظم الدول العربيـــة الى جانب بعض الـــدول الافريقية بالاضافة الى البانيا والصين وكوبا . وامتنعت عـــن التصويت دول اوروبا الشرقيـــة والتشيلي وعدد من دول افريقيا وآسيا واربع دول عربية هي : البحرين ولبنان والسعودية وقطر .

وظهر منذ البدء ان الولايات المتحدة التي تزعمت حركة التشديد على موضوع « الارهاب » كانت تبتغي تحويل الانظار عن قضايا التحرر الرئيسية في العالم (وخاصة في فيتنـــام وفلسطين) حيث يمارس العنف الثوري ردا على العنف الامبريالي الرجعي ، والتركيز على مظهر هامشي من مظاهر الرد متمثل في عمليات اختطاف الطائرات واحتجاز الرهائن . وفي الوقت الذي تحـــاول فيه تغطيـــة التناقض الرئيسي في العالم بين الامبريالية وحركات الشعوب الثائرة ، تبدو وكأنها حريصة على أمن المدنيين والاطفال وكأن مئات المدنيين والاطفال الذين يموتون يوميا تحت قنابلها في الهند الصينية ، ومئات المدنيين والاطفال الذين ماتوا ويموتون تحت قنابل عميلتها اسرائيل ليسوا من الفصيلة البشرية. ولا شك ان الحملة الامريكية الاسرائيلية الاخيرة تستهدف في النهاية استغلال هذا الموضوع للجم أية حركة تحررية في العالم ومن هنا تكمن خطورتها وضرورة التصدي لها بحزم . وجانب آخر خطير يكمن في تشديد بعض الاوساط الامبريالية (بما فيها امريكا نفسها) والرجعيات المختلفة على اهميـــة ايجاد حل سريع « لمشكلة اللاجئين » التي تشكل اساس ظاهـــرة الارهاب على حـــد تعبير هـــذه الاوساط . اي ان هذه الحملة تحمل في طياتها نوايا تصفوية ذات غلاف « انساني » خبيث .

وقد تجلت مواقف الدول كافة في خطابات ممثليها في الجمعية العمومية التي تعرضت معظمها « لقضية الشرق الاوسط » وموضوع « الارهاب » . وافتتح روجرز التدخلات بخطاب دار في ثلثيه (حسب تقدير صحيفة بريطانية) حول الموضوع الاخير ، وطالب

الوزير الامريكي بعقد اتفاقات دولية تقضي بمعاقبة مرتكبي عمليات اختطاف الطائرات واحتجاز الرهائن والتنسيق بين الدول في قمع « الارهابيين » . وتكلم اندريه غروميكو وزير خارجية اتحاد الجمهوريات السوفياتية عن « تأييد بلاده للنضال المشروع للشعب العربي الفلسطيني » لكنه اعرب عن عدم موافقته على « الاعمال الارهابية التي يقوم بها بعض العناصر في الحركة الفلسطينية والتي يستعملها الاسرائيليون لتبرير سياسة القرصنة التي ينتهجونها ضد الدول العربية » . وطرح موريس شومان وزير خارجية فرنسا فكرتين اساسيتين ، على حد تعبيره ، في مشكلة الشرق الاوسط هما « الجلاء عن الاراضي المحتلة ما عدا بعض التصحيحات الطفيفة » الى جانب « تقيد الدول المعنية كافة بالاصول المتعارف عليها في التعامل بين الدول ذات السيادة » . وعلق على عملية ميونيخ معلنا « رفض فرنسا للارهاب وتأييد كورت فالدهايم في محاولته وضع حد للعنف الاعمى » . وتكلم دوغلاس هيوم عن « اخراج السوفيات من مصر » وطالب اسرائيل بأن « تستفيد من هذه الخطوة التي تقرب المشكلة من الحل ». وجاءت التدخلات الاخرى في اطار موقف كل دولة من مجمل القضية الفلسطينية وتعرض الدولة ذاتها لحركات معارضة مسلحة . وتكلم مندوب الصين بين آخر المتكلمين يوم ١٠/٣ وشدد على تبني الصين « لاستعمال العنف الثوري من قبل الشعوب المضطهدة في نضالها ضد عنف الامبرياليين والاستعمار القديم والجديد والعنصرية والصهيونية الاسرائيلية » واعلن وقوف الصين الى جانب المقاومة الفلسطينية لكنه اشار الى عدم موافقته على الاغتيالات والاختطافات كأسلوب نضال سياسي يسيء الى قضايا التحرر الوطني . ومن المتوقع ألا يؤدي النقاش في اللجنة القانونية وفي الجمعية العمومية الى أي قرار عملي نظرا لمعارضة عدد كبير من الدول للتنسيق على المستوى العالمي .

وعلى صعيد العلاقات العربية ـ السوفياتية ، تبلورت عناصر جديدة خلال شهر ايلول : أهمها توثيق العلاقات السوفياتية مع العراق وسوريا والمقاومة الفلسطينية ثم الاتجاه نحو اعادة الحوار السوفياتي المصري على امل تحسين العلاقات التي ساءت بشكل اكثر علانية منذ اخراج الخبراء السوفيات من مصر في شهر تموز الماضي .

ففي ٩/١٤ ، وصل احمد حسن البكر رئيس الجمهورية العراقية الى موسكو في زيارة رسمية دامت خمسة ايام تميزت بحرارة خاصة وانتهت ببيان مشترك يشمل القضايا المحلية والعالمية . ولوحظ في البيان الفقرة الخاصة بالمقاومة الفلسطينية التي اشارت اليها الصحف الغربية على انها تطور نحو تأييد اكبر من جانب السوفيات . وقد جاء في هذه الفقرة « ان الجانبين اعلنا دعمهما المطلق لكفاح الشعب الفلسطيني لاستعادة حقوقه المشروعة ، ويعتبران حركة المقاومة الفلسطينية جزءا يرتبط عضويا بحركة التحرر الوطني العربية ، واعلنا استمرارهما في تقديم الدعم المادي والمعنوي والمساندة السياسية والمعنوية لهذه الحركة » . واشار مراسل لوموند في موسكو معلقا على هذا البيان ان دعم الاتحاد السوفياتي قد ازداد بشكل ملحوظ للمقاومة الفلسطينية وخاصة لفتح والجبهة الشعبية . وكان تزايد الدعم السوفياتي الاكثر وضوحا لسوريا على اثر الشائعات الاخيرة التي توقعت عدوانا اسرائيليا على الاراضي السورية بعد اجتياح الجنوب اللبناني. ففي ٩/٢٤ نشرت جريدة النهار خبرا مفاده ان جسرا جويا قام بين الجنوب السوفياتي ودمشق لنقل المعدات الحربية بما فيها الصواريخ . واضافت المصادر نفسها ان وفدا عسكريا وصل الى سوريا بهدف ابرام معاهدة عسكرية بين سوريا والاتحاد السوفياتي الا ان الاوساط الرسمية السورية نفت هذا النبأ . واعرب وزير الحرب الامريكي ملفين ليرد على اثر هذه الشائعات عن « قلق اميركا المتزايد ازاء تدفق الاسلحة السوفياتية الى سوريا » . وقد اكدت جريدة البرافدا السوفياتية بتاريخ ٩/٢٩ خبر ارسال الاسلحة والخبراء وقالت « ان سوريا تتلقى الاسلحة الاكثر تطورا ، كما تتلقى مساعدة لتكوين كوادرها العسكرية » كما ذكرت ان الاتحاد السوفياتي يشارك فيتوسيع مرفأ اللاذقية وامتدحت بالمناسبة قادة حزب البعث في العراق وسوريا . وفي هذا التاريخ نفسه كان الفريق حافظ الاسد يقوم بزيارة سرية لموسكو عاد بعدها الى القاهرة، مما دعا المراقبين الى اعتبار هذه الزيارة اسهاما من الرئيس السوري في تحسين العلاقات المصرية السوفياتية .

وقد تبلورت محاولات التحسين هذه في اكثر من بادرة . فرغم بعض التصريحات الانتقادية لبعض

الاوساط الرسمية والصحفية المصرية الى جانب حملة العقيد القذافي المستمرة ضد الاتحاد السوفياتي واتهام النائب الناصري اللبناني نجاح واكيم بعد زيارة للقاهرة للسوفيات « بأنهم أفسدوا السلاح قبل مغادرتهم لمصر » و« بأن بين الخبراء بعض اليهود » (النهار ٩/١٣ وكريستشن ساينس مونيتر) ، توالت الوساطات وبوادر الانفراج . فقبل الفريق الاسد ، كان كمال جنبلاط قد مر بالقاهرة في طريقه الى موسكو لتسلم جائزة لينين للسلام وفسر هذا المرور بأنه محاولة من النائب اللبناني للتوسط . وعاد السفير المصري بعد غياب دام اكثر من شهرين الى موسكو في ٩/٢٧ (الا ان السفير السوفياتي لم يعد الى القاهرة حتى كتابة هذه الكلمات) ، وقام عبدالقادر حاتم بزيارة رسمية الى موسكو لحضور احتفال ثقافي ، تقرر بعده ان يقوم رئيس الوزراء المصري عزيز صدقي بزيارة موسكو في ١٠/١٦ . وتناقلت بعض الصحف الاوروبية انباء تقول ان نجاح مهمة صدقي قد يؤدي الى لقاء بين السادات وبريجنيف في دمشق . كما قبل الرئيس السادات دعوة لزيارة براغ . وقد فسرت الدعوة بأنها جزء من المحاولات الرامية الى اعادة تحسين العلاقات المصرية — السوفياتية .

ويبدو ان السوفيات سيستمرون في سياستهم الحذرة التي تعتمد على استمرار التعاون الاقتصادي وتوفير قطع الغيار ، في الوقت نفسه الذي ينتقدون فيه تزايد نفوذ اليمين في العالم العربي (دون التعرض بشكل مباشر للحكومة المصرية) ويحذرون من اية اوهام قد تتولد حول امكانية طرح امريكا لحل عادل للمشكلة .

داود تلحمي

(٤) المناطق المحتلة

برزت في الاونة الاخيرة موضوعات في المناطق العربية المحتلة معظمها نابع من الطبيعة التوسعية لاسرائيل مثل حركة الاستيطان وقضية مشارف رفح وقضية الحرم الابراهيمي في الخليل ، وبعضها ناجم عن متطلبات ملحة مثل الدعوة لاقامة جامعة في الضفة الغربية واخرى في قطاع غزة ، واخر نابع من واقع نضالي مثل بعث المقاومة من جديد في القطاع بعد حملة الاقتلاع والتشريد والتهجير التي بدأت بها قوات الاحتلال في شهر تموز من العام الماضي .

لم يطرأ تقدم على التسوية السياسية التي تكشفت في شهر تموز الماضي بين سلطات الاحتلال والنظام الاردني ، والتي قام بدور الوسيط بها رجالات من الزعامة التقليدية في الضفة والقطاع ، مثل انور الخطيب حاكم القدس سابقا ورشاد الشوا رئيس بلدية غزة ، فقد عاد الوسيط الثاني الى غزة ليجد من يطلب منه الحساب على شكل القاء قنبلة وعيارات نارية على سيارته في محاولة لتصفيته ، اما الاول الذي استقبل « استقبال الملوك » في عمان فقد عاد هو الاخر بعد ان انهى المهمة الموكلة اليه دون ان يلاقي من يحاسبه الا الاسرائيليين الذين تلقوا منه تقريرا عن وساطته . وخلال ذلك كانت النقاشات تحتدم في اسرائيل حول « الثمن » الذي يمكن لاسرائيل ان تدفعه مقابل عقد اتفاق سلام مع الاردن او الدول العربية الاخرى ، وقد تضاربت المواقف حول «حجم الثمن» ففي حين تكتفي التيارات الفاعلة في حزب العمل بابقاء ثلث مساحة الضفة الغربية تحت السيطرة الاسرائيلية نجد ان الحزب الوطني المتدين «مفدال» وهو شريك في الائتلاف الحكومي يدعو الى ابقاء الضفة الغربية ككل تحت السيطرة الاسرائيلية اما الشريك الثالث في الائتلاف الحكومي (حزب مبام) فانه يكتفي بالقدس وبشريط امني على امتداد النهر وبتعديلات طفيفة على خطوط الهدنة (بالنسبة للضفة الغربية) . وقد افصحت رئيسة الوزراء غولدا مئير عند اشتداد الحوار حول السلام عن رأيها به قائلة : « هنالك مبادىء غدت معترفا بها من قبل الجميع وهنالك مبادىء أقرتها الحكومة بشكل واضح : العودة الى حدود الرابع من يونيو ؟ لا ، لن يتم ذلك ، لن نعود ! حدود جديدة ، حدود سلام مع تعديلات طفيفة — لا ، لا للتعديلات الطفيفة ! هنالك اماكن وخطوط ينبغي ان تكون التعديلات عليها كبيرة ، وهنالك اماكن لا تكون التعديلات عليها كبيرة ، ولكن ليست تعديلات طفيفة ... من الحماقة ان نقوم بلطرون هنا ولطرون هناك . ان الحكومة لم تعين الحدود ، ولكن الانسحاب من الجولان لن يتم ابدا ... اما التعديلات مع الاردن فينبغي ان تكون كبيرة ،

تعديلات كبيرة » (معاريف ٧٢/٩/٨) . ويبدو ان من بين العوامل التي وقفت عثرة امام التسوية السياسية ، « التعديلات الكبيرة » التي تصر عليها رئيسة الحكومة الاسرائيلية .

حركة الاستيطان : سارت حركة الاستيطان في ثلاثة اتجاهات ، تعزيز المستوطنات القائمة ، واقامة مستوطنة جديدة ، واعداد مخططات لاقامة مستوطنات اخرى ، ففي مجال تعزيز المستوطنات القائمة ودعمها اقرت « لجنة المدراء العامين لشؤون المناطق » اقامة معامل جديدة في ضاحية كريات اربع في الخليل ، وفي العريش ، من بينها اقامة مطبعة اوفست في كريات اربع تصل تكاليفها ١٤٤ مليون ليرة ، كما وسيقام معمل حدادة كبير في العريش . وهنالك خطة لتطوير مستوطنة « دى زهاف » في سيناء ، حيث ستضاف الى المستوطنة ٢٥٠ غرفة جديدة لاستقبال السياح كما وستقام منشآت اخرى تصل تكاليفها ٥،٥ مليون ليرة ، كما جاء على لسان وزير السياحة موشيه كول اثناء الاحتفال بمرور عام على تأسيس المستوطنة . ومن الجدير بالذكر ان احد شيوخ القبائل في سيناء ويدعى بسراك ابو عبد الله قد اعلن في هذه المناسبة « اننا باركنا المستوطنين اليهود ورحبنا بهم في واحة ذهب وان دولة اسرائيل هي دولتنا ونحن مواطنوها » . وفي مجال خلق معالم جديدة ، اقيمت بتاريخ ٧٢/٨/٢٤ مستوطنة ناحال جيتيت في اراضي قرية عقربة الواقعة في منطقة نابلس بالقرب من الاغوار ، بعد ان قامت سلطات الاحتلال بالسيطرة على اجزاء واسعة من اراضي القرية ، ورش حقولها بالمواد السامة بواسطة طائرات سلاح الجو الاسرائيلي . اما في مجال المشاريع ، فقد ذكرت الاذاعة الاسرائيلية انه ستقام في هضبة الجولان وغور الاردن وشمال سيناء ست مستوطنات جديدة ، اثنتان معدتسان للمهاجرين القادمين من الاتحاد السوفييتي .

قضية مشارف رفح : ما زالت قضية مشارف رفح تشغل بال سلطات الاحتلال الاسرائيلي ، ففي اعقاب رفض سكان المنطقة الذين اجلوا عن منازلهم بالقوة ومنعوا من العودة الى اماكنهم بعد ان تم تسييجها من اجل اقامة مستوطنات اسرائيلية هناك ورفضهم تلقي تعويضات عن اراضيهم وممتلكاتهم ، قامت سلطات الاحتلال بتعيين ضابط كبير برتبة عقيد « عوفيد بن دافيد » الحاكم العسكري السابق لمدينة الخليل من اجل دراسة مشاكل بدو مشارف رفح وايجاد الحلول لها ، وتتمثل الحلول في دفعهم للموافقة على قبول التعويضات وتوطينهم من جديد في اماكن اخرى ، وقد بذل عوفيد جهودا من اجل «كسر مقاومة البدو» واخذت جهوده تسير في ثلاثة اتجاهات لحل القضية لمصلحة سلطات الاحتلال (١) بذل محاولات لاقناع شيوخ القبائل بالتعويض ، وذلك بعقد اجتماعات متكررة معهم بالتلويح بمبالغ كبيرة (٢) اتباع سياسة فرق تسد والعمل على تعميق الخلافات بين شيوخ القبائل مع ترويج اشاعات بأن سلطات الحكم العسكري تعتزم تنحية الشيخ سليمان الحاو كبير شيوخ القبائل ورمز مقاومة مشاريع سلطات الاحتلال في مشارف رفح ، الذي اكتسب هيبة وسمعة وطنية في تصديه الجريء لهذه المشاريع ، كل ذلك من اجل بذر الشكوك في نفوس الشيوخ وابناء القبائل بغرض تطويعهم والحصول على موافقتهم على الامر الواقع . (٣) التخطيط لبناء مساكن دائمة للبدو في اماكن جديدة في الجنوب الشرقي لرفح ، سيتم في المرحلة الاولى بناء ٦٠ وحدة سكنية ، واذا ما نجحت سلطات الاحتلال في اقناع بعض السكان لقبول هذه الوحدات السكنية كبديل عن منازلهم واراضيهم ، ستقوم بانشاء وحدات سكنية اخرى ، هذا مع بذل نشاط لاستيعاب الايدي العاملة من بين صفوفهم في المزارع الاسرائيلية وفي مجال البناء ، والانكى من ذلك كله هو اعتماد سلطات الاحتلال شبه الكلي على العمال البدو في اقامة المستوطنات الاسرائيلية في اراضيهم التي أجلوا عنها بالقوة بغرض خدمة المستوطنين الجدد ، ولعل هذا الامر هو احد التعابير الحادة عن الحركة الصهيونية ، سلب الارض وسيلة الانتاج الكبرى وتسخير ما تبقى من اهلها الاصليين لخدمة السكان الجدد ، هذا مع العلم ان سلطات الاحتلال اتخذت اجراءات مشددة لمنع دخول ابناء المنطقة الاصليين الى مزارعهم ، وبلغت هذه الاجراءات ذروتها عندما قامت طائرة اسرائيلية بمطاردة الفلاحين من ابناء المنطقة الذين تسللوا الى مزارعهم لجني ثمار حقولهم ، حيث قامت بهدم عرشهم التي تقيهم حرارة الشمس . ومن المعروف ان اهالي مشارف رفح كانوا قد بعثوا برسائل احتجاج الى « محكمة العدل العليا » في اسرائيل والى رئيس الدولة زلمان شازار والى رئيسة الحكومة ، طالبين فيها انصافهم واعادتهم

الى اراضيهم ، الا ان « محكمة العدل » تماطلت وتهربت من الموضوع على اساس انــه موضوع امني ، اما رئيس الدولة فانــه « لا يرى مكانـا لتدخله في القضية » وفيما يتعلق برئيسة الــوزراء فانها « توافق على ما يفعله الجيش الاسرائيلي ». وازاء هذا الضغط صمد ابناء القبائل في رفضهــم للتعويضات المقترحة التي يزداد حجمها يوما بعــد يوم بغرض امتصاص النقمة ، ولا يزال الشيــخ سليمان الحلو متمسكا بالمطلب العادل : العــودة ورفض التعويض « وحتى لو مرت مئة سنة » كما يقول الشيخ الحلو « فاننا لن نتخلى عــن الارض ولن نوافق على التعويضات »(دافار ٧٢/٩/٢٤).

المستوطنون والحرم الابراهيمي : تفجرت خــلال شهر سبتمبر قضية ابطالها مستوطنون وضحيتهــا كالعادة عرب ، وحكمها سلطات الاحتلال ، وقــد وصلت هذه القضية من الشدة لدرجة ان وجــدت الحكومة الاسرائيلية ضرورة ادراجها في جلســة مجلس الوزراء لتداولها وايجــاد الحلول لهــا . والسبب الرئيسي الذي يكمن وراء هذه القضية هو السبب نفسه الذي يكمن وراء قضية مشارف رفح : التوسع والسلب ، اقامة وقائع جديدة وازالــة معالم قديمة .

تعود اصول القضية الى قصة الاستيطان الاسرائيلي في الخليل والى الترتيبات التي تمت الموافقة عليها بين سلطات الحكم العسكري من جهة وبين رئيس بلدية الخليل ورجال الدين الاسلامي من جهة اخرى بشأن القيام بالشعائر الدينية لمسلمي المدينة العرب ولمستوطني المدينــة والزوار اليهــود في الحــرم الابراهيمي ، او كما يسميه الاسرائيليون « مغارة المكبيلا » . وبموجب هذا الاتفاق اصدر جهاز الحكم العسكري تعليمات تتطرق الى اوقات فتح الحرم امام المصلين المسلمين واوقات فتحه امام المصلين والزوار اليهود (سبع ساعات خلال اليوم) وكذلك الى سلوك الزوار في الحرم مــع المحافظة علــى الهدوء بما يتلاءم وقدسية المكان ، وعــدم حمــل السلاح وعدم تناول الطعام داخله ، كما نصت التعليمات على منع ادخال الحيوانات داخل الحرم. ومن الواضح ان هذه التعليمات موجهة بشكــل خاص الى الزوار اليهود وليس الى رواد المسجد من المسلمين .

وتضمن الاتفاق ايضا تخصيص مكان داخل الحرم لليهود وتخصيص مكان اخر للمسلمين ، وقد وافق المستوطنــون اليهود في ذلــك الوقت على هــذه الترتيبات ، الا انهم في الاونة الاخيرة اصيبوا بحمى التوسع واخذوا يشكون من ضيق المكان المخصص لهم ويطالبون بتوسيعه ، وبما ان الاتفاق يحــول دون ذلك ، قام المستوطنون بتجاوز الاتفاق وانتهاكه حين أخذوا يتوسعون في المسجد لخلق وقائع جديدة، الامر الذي ارغم سلطات الاحتلال على التدخل في القضية ، بيد ان المستوطنين لم يرتدعوا واخذوا يلجأون الى اساليب مخزية ومشينة ، فقد بدأوا باعمال السلب فاقدموا على سرقة بسط المسجد المعدة للصلاة واحذية المصلين المسلمين والممتلكات الموجودة في الحرم الابراهيمي ، كما اعترف بذلك المتحدث الرسمي باسم الحكم العسكري في الضفة الغربية ، ولم يكتف هؤلاء بالاعمال المشينة التــي جعلت الكثير من المصلين يعودون الى بيوتهم حفاة، بل الحقوا اعمال السرقة والسلب بسلسلــة من الاعتــداءات المشفوعــة بالغطرسة مثل السـير بأحذيتهم في الاماكن المعدة للمسلمين ، والاعتداء على شيخ المسجد الشيخ عاطف الحمودي مــع توجيه الشتائم اليه . ولم يقتصر طيش المستوطنين وغطرستهم على الاحياء بل وصل الى درجة انتهاك حرمة الموتى ، فمن المعروف ان المسلمين يصلون على موتاهم داخل الحرم الابراهيمي ، غــم ان ذلك لم يرق بعين المستوطنين «وقد هدد المستوطنون اكثر من مرة ، بقلب جنازات الموتى للمسلمين في اثناء طقوس الجنازة » (هآرتس ٧٢/٩/٥) .

عند ذلك وجد الحاكم العسكري نفسه مضطــرا للتدخل وبذل محاولة لايقاف المستوطنين عند حدهم، خشية ان تنتشر اخبارهم المخزية وتسيء الى سمعة « الاحتلال الليبرالي » ، معترفا « بحدوث تجاوزات متكررة بواسطة مجموعة من بين المستوطنين » في الحرم الابراهيمي ، وعند ذاك برزت القضيــة ، ليست كقضية بين العرب والمستوطنين ، بل كقضية بين الحاكم العسكري والمستوطنين ! وقد اتخــذ نشاط المستوطنين من اجل الاستيلاء على الحرم مسارين له : الاول يتمثل في ارسال مذكرات الــى الجمهــور الاسرائيلــي والى اعضاء الحكومــة والكنيست والثاني يتمثل في محاولة خلق وقــائع جديدة لامتلاك الحرم الابراهيمي وجعله يهوديــا صافيا لا نزاع حوله ، وتعترف صحيفة (هآرتس ٧٢/٩/١٣) بذلك بقولها : « حاول المستوطنون برئاسة الحاخام ليفنجر تدريجيا خلــق امر واقع

لامتلاك اليهود الكامل للمكان بدون اية تحديدات او اعتبار للمسلمين ، وعندما ادرك القائمون على الحكم العسكري انه من المنتظر ان تقع اصطدامات في الحرم شرعوا في الحفاظ بدقة على جميع الاتفاقات التي اتخذت ، ورأى المستوطنون بذلك مساسا كبيرا بحقوق اليهود في المكان وبدأوا باعمال مضادة مقصودة ، فعندما كان يطلب منهم خفض اصواتهم في الصلاة فعلوا العكس تماما ، كما حاولوا تجاوز المكان الضيق الذي خصص للصلاة » .

وكان من نتيجة صراع المستوطنين مع جهاز الحكم العسكري ان تحرك الحزب الوطني المتدين « مفدال » واخذ يطالب ويدعو الى ايجاد تسويات جديدة تاخذ بعين الاعتبار الحقوق المتساوية لليهود والمسلمين ، وهذا يعني حسب مطالب المفدال اعادة النظر في تخصيص الاماكن داخل الحرم ، وتسليم الحرم لليهود خلال اعيادهم ، وتسليمه للمسلمين خلال اعيادهم !! بيد ان « المساواة في الحقوق » في مكان يعتبر من ممتلكات الوقف الاسلامي ، ما هي الا سياسة مرحلية تمهيدا للسيطرة على الحرم كله .

جامعة في الضفة واخرى في القطاع : اشتدت الدعوة في الاونة الاخيرة لاقامة جامعة في الضفة الغربية واخرى في قطاع غزة ، وكانت هذه الدعوة قد برزت بشكل قوي للمرة الاولى في بداية عام ١٩٧١ بسبب الاوضاع القاسية التي يمر بها خريجو المدارس الثانوية لعدم وجود جامعة تأويهم ، الامر الذي يضع امامهم خيارات بعضها ليس سهلا مثل دخول الجامعة العبرية في القدس حيث انتسب عدد قليل اليها ، ودخول الجامعات العربية ، ولم يكن الامر سهلا بسبب عدد المقاعد المخصصة سلفا لابناء المناطق المحتلة ، ودخول الجامعات الاجنبية التي تتطلب عبئا ماليا . وكان من نتيجة ذلك وبمرور الزمن على الاحتلال ان اصبح عدد خريجي المدارس الثانوية كبيرا وغدا بمثابة قضية تبحث عن حل . وازاء ذلك ظهرت ثلاثة مواقف بارزة (١) موقف دعاة فكرة اقامة الجامعة ويقف وراءه بعض الشخصيات من الزعامة التقليدية مثل حمدي كنعان ومحمد علي الجعبري ، وشخصيات اخرى من انصار الكيان الفلسطيني (٢) موقف السلطة الاردنية الذي كان يتسم بالرفض المطلق لاقامة الجامعة خشية ان يؤدي هذا العمل الى بلورة الكيان الفلسطيني (٣) موقف سلطات الاحتلال الذي يتسم بالتأرجح والتذبذب بين قبول الفكرة ومعارضتها (للتوسع في هذا الموضوع انظر شؤون فلسطينية **العدد الثالث** ص ١٧٢) ، وكحل لهذه المواقف المتضاربة عقد مؤتمر في ١٩٧١/٤/١٥ في دار المعلمات في رام الله بحضور ٢٥ شخصا من افراد السلك التعليمي « لبحث المكان الذي ستقام فيه الجامعة ومصادر التمويل » وبعد مداولات استغرقت ٤ ساعات خرج المؤتمرون بقرار ينص على تشكيل لجنة مكونة من ١١ شخصا للعناية بشؤون التعليم في الضفة الغربية دون التطرق الى موضوع الجامعة ! ومن ثم خفت الاصوات المطالبة باقامة الجامعة ، الا ان وضع خريجي المدارس الثانوية ازداد سوءا فظهرت الدعوة من جديد في الفترة الاخرة ، ولم تقتصر هذه المرة على اقامة جامعة في الضفة الغربية فحسب بل ايضا في قطاع غزة . وقد طرأ تغير على الموقف الاردني حيث اصبح يدعم الفكرة حسب ما جاء على لسان انور نسيبه احد اركان النظام الاردني في الضفة ، اما موقف سلطات الاحتلال فغدا اقرب الى الايجاب منه الى السلب .

ففي الضفة الغربية قدمت مجموعة من الشخصيات تتكون من رؤساء بلديات وعاملين في السلك التعليمي مذكرة الى جهاز الحكم العسكري من اجل السماح باقامة الجامعة ، وقد تشكلت لجنة تحضيرية من بين هذه الشخصيات برئاسة محمد الجعبري لمتابعة الموضوع . وستمول الجامعة حسب ما جاء على لسان الداعين لاقامتها باموال عربية حيث سترسل وفود الى دول الخليج والعالم العربي لهذا الغرض ، الا ان الجعبري صرح بانه « من المتوقع ان تساهم الحكومة الاسرائيلية بقسط كبير من الاموال اللازمة » وفيما يتعلق بالمكان الذي ستبنى فيه الجامعة فانه لا يزال قيد الدرس ، ومع ذلك فقد اعلن رئيس بلدية رام الله كريم خلف بان « المجلس البلدي في المدينة قد اقر بالاجماع فكرة اقامة الجامعة في رام الله لانها تقع في مركز الضفة الغربية ... وان البلدية خصصت قطعة ارض مساحتها ٢٠٠ دونم سيقام عليها هذا المشروع » وهنالك اتجاه اخر تؤيده سلطات الاحتلال يرمي الى اقامة جامعة تحتوي على اربعة اقسام ، قسم الدين في الخليل وقسم الاداب في رام الله وقسم الزراعة في طولكرم وقسم العلوم الطبيعية في نابلس .

وفي قطاع غزة قدم كل من الدكتور حيدر عبدالشافي، ومدير كلية غزة شفيق طرزي ، والمحامي ابراهيم ابو ستة مذكرة الى وزير الدفاع موشيه ديان بشأن اقامة جامعة في القطاع ، موضحين بانها ستقام باموال عربية « وانها على استعداد لقبول التبرعات من كل جانب على ان لا تكون مشروطة » وان الجامعة ستكون مستقلة ، وستقام في المرحلة الاولى فروع علمية – هندسة وطب وزراعة – ومستبلغ التكاليف في المرحلة الاولى ٥ ملايين ليرة اسرائيلية . ويعتقد المبادرون انه اذا ما وافقت اسرائيل على مذكرتهم فان الجامعة ستقام خلال عامين .

عودة الروح والقبور الطائرة : اخذت المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة تبرز هنا وهناك بعد نحو عام من محاولات التصفية الرهيبة التي قامت بها سلطات الاحتلال ضد جماهير القطاع في اواخر شهر تموز من العام الماضي . وقد عبرت المقاومة عن انبعاثها من جديد في عمليات وجهت ضد قوات الاحتلال سواء بوضع عبوات ناسفة في الطرق ام القاء قنابل يدوية ام اطلاق عيارات نارية على السيارات العسكرية . وربما كان التعبير القوي عن ظهورها من جديد هو محاولة تصفية رئيس بلدية غزة رشاد الشوا الذي كانت سلطات الاحتلال قد عينته في منصبه في شهر ايلول من العام الماضي تتويجا لسياسة الهدم والاقتلاع والتشريد بغرض خدمة اهدافها . وقد التجأ الشوا بعد هذه المحاولة الى الصمت ، ثم قرر تقديم استقالته في اليوم نفسه الذي كان قد تربع فيه على كرسي رئاسة المدينة في ٧١/٩/٢٣ تلافيا لما يخبئه المستقبل و « لكيلا يعرض حياته للخطر بسبب وظيفته » . وبالفعل قدم استقالته الى اعضاء المجلس البلدي الا ان هؤلاء بذلوا جهدا لثنيه عن قراره ولكنه اصر عليه فما كان من اعضاء المجلس الا ان قرروا بدورهم تقديم استقالتهم . وعند ذلك تخوفت سلطات الاحتلال من تردي الوضع لغير مصلحتها واجتمعت مع الشوا واقنعته بالبقاء في منصبه والعدول عن خطوته التي « ستفسر كمساعدة للفدائيين » .

وفي هذا الجو التي اخذت تبرز فيه المقاومة في القطاع ، اخذت في المقابل تبرز اساطير حول شهدائها تصل بهم الى مرتبة القديسين فقد نقل الصحفي الاسرائيلي عزرا ينوف خبرا في صحيفة معاريف (٧٢/٩/٢٦) مفاده ان اشاعات اخذت تتردد في قطاع غزة حول تحرك قبور اربعة شهداء من رجال المقاومة كانوا قد استشهدوا في معركة مع القوات الاسرائيلية قبل عام ، واضاف ينوف « ان عشرات من حي الشجاعية اقسموا بانهم شاهدوا بأم اعينهم حجارة القبور وهي تتحرك وان صخرة احد القبور صعدت الى ارتفاع عشرة امتار » وان قسما اخر من السكان شاهدوا « حجارة القبر وهي تطير نحو الشمس ، ثم عادت عند الاصيل وسدت القبر » ويقول ينوف ان خبر تحرك قبور الشهداء انتشر في القطاع بسرعة البرق واصبحت مقبرة الشهداء تستقبل خلال ثلاثة ايام فقط – الالاف من سكان القطاع من اقصى الجنوب الى اقصى الشمال ، وان الاشاعات ارتقت الى درجة اليقين ، ويضيف « انه يوجد هناك من يطالب بتحويل القبور كمكان مقدس » وينهي الصحفي الاسرائيلي الخبر بقوله ان هنالك اعتقادا بان « الاعجوبة » كان وراءها بعض الشبان الذين يسعون من وراء ذلك الى تثوير القطاع واستئناف العمل الفدائي في المنطقة . الى هنا تنتهي رواية الصحفي الاسرائيلي . واذا كان هنالك من تعليق حول اسطورة قبر الشهيد الطائر ، فيمكن القول انها تدل قبل كل شيء اخر ، برغم الخيال الخصب الذي يحيط بها ، على مدى مكانة الفدائي الشهيد في قلوب الجماهير ، ولا يعيب الاسطورة الخيال الخصب الذي يحيط بها ، خاصة اذا كانت نابعة من واقع نضالي خصب ، فهؤلاء الشهداء الاربعة وكثير غيرهم من شهداء القطاع تحولت مسيرة جنازتهم قبل عام الى تظاهرة ضد قوات الاحتلال التي حاولت التدخل في الجنازة ، وتصدت النسوة العربيات لهذا التدخل ورشقن رجال الداورية الاسرائيلية بالحجارة ، ثم تحولت الجنازة الى معركة بين الفدائيين وقوات الاحتلال .

ع٠ م٠

(٥) الاقتصاد الاسرائيلي في النصف الأول من العام ١٩٧٢

تميزت الشهور الستة الاولى من العام ١٩٧٢ بارتفاع كبير في مستوى الاسعار وفي نفقات المعيشة وبنشاط غير عادي في قطاع البناء نتيجة لتدفق عدد جديد من المهاجرين اليهود . كما ان قطاع السياحة شهد نشاطا ملحوظا نتيجة للاستقرار السياسي والعسكرية على الجبهات العربية ، في حين ان القطاع الزراعي لا يزال يعاني نقصا من اليد العاملة . وتقول مجلة اسرائيل ايكونوميست انه نتيجة لتوظيف ٤٠ الف عامل عربي من الاراضي المحتلة في القطاع المذكور ، فان الضفة الغربية وقطاع غزة بدأتا تشعران بنقص في اليد العاملة لديها . وتركزت السياسة الاقتصادية في اسرائيل على محاولة السيطرة على ارتفاع مستوى الاسعار عن طريق تخفيف معدل زيادة كمية وسائل الدفع، غير ان هذه السياسة لن تظهر نتائجها قبل نهاية العام . فالارتفاع الكبير في مستوى الاسعار الذي حدث في النصف الاول من العام ١٩٧٢ هو نتيجة للزيادة الكبيرة في كمية وسائل الدفع التي حدثت في النصف الثاني من العام ١٩٧١ على اساس ان هنالك عادة فترة زمنية مدتها حوالي ستة اشهر تفصل بين الوقت الذي يتم فيه تنفيذ السياسة النقدية وبين الوقت الذي تترك فيه هذه السياسة اثارها على الاقتصاد ومستوى الاسعار .

وفيما يلي عرض موجز لاهم النشاطات في بعض قطاعات الاقتصاد الاسرائيلي :

الزراعة : تقدمت الحكومة الاسرائيلية بطلب الحصول على قرض من البنك الدولي للانشاء والتعمير في حدود ٣٥ مليون دولار بقصد تمويل مشروع خمس السنوات للقطاع الزراعي . وتهدف السلطات الحكومية الى رفع قيمة التثميرات في الزراعة ومصادر المياه الى بليوني ليرة اسرائيلية خلال خمس السنوات بين عامي ١٩٧١ و ١٩٧٦ . اما الهدف الرئيسي من الخطة فهو رفع قيمة الانتاج الزراعي من ١٦٩ بليون ليرة اسرائيلية الى ٢٦٨ بليون ، اي بزيادة قدرها ٤١٪ . وقد رسمت الخطة على اساس زيادة الصادرات الزراعية بنسبة قدرها ١١٠٪ او ما يوازي ٨٦ مليون دولار سنويا . وتأمل السلطات الاسرائيلية في تحقيق الاهداف المحددة التالية : أ — زيادة انتاج الحمضيات بنسبة ٢٣٪ اي ما يساوي ١١٣ مليون ليرة اسرائيلية على اساس الاسعار الحالية . ب — زيادة رقعة الارض المخصصة لاشجار الفواكه ١٢٪ وزيادة المنتوج بنسبة ٢٤٪ . ج — زيادة انتاج الخضراوات بنسبة ٣١٪ . د — التركيز على زيادة انتاج الالبان والدواجن بنسبة كبيرة .

ويلاحظ فيما يتعلق بالسياسة الزراعية ان الاهتمام ينصب حاليا على زيادة الانتاج من الاراضي المستصلحة حاليا وعلى تنويع مصادر هذا الانتاج، في حين ان السياسة الزراعية في فترة الستينات كانت تتجه اساسا الى زيادة رقعة الاراضي الزراعية . ولا شك ان ذيول حرب حزيران قد فتحت افاقا جديدة امام القطاع الزراعي . فبعد ان كانت القوى العاملة تمثل العامل الانتاجي الاكثر ندرة بالنسبة للمعدات والالات الزراعية انقلب الوضع واصبحت القوى العاملة متوفرة اكثر من قبل وبأجور منخفضة اذا قورنت بمستويات الاجور في اسرائيل قبل الحرب . فقد ادى تشغيل عدد كبير من العمال العرب في القطاع الزراعي الى زيادة الانتاجية الحدية بنسبة كبيرة بعد ان شارف القطاع الزراعي خلال الفترة التي سبقت حرب حزيران الى الوصول الى حالة من التشبع مما يؤدي في النهاية الى تناقص في الانتاجية الحدية عملا « بقانون الغلة المتناقصة » . على ضوء ما تقدم فان القطاع الزراعي بدأ يحتل اهمية متزايدة في الخطة الانمائية الاسرائيلية وهذا يفسر توجيه مزيد من الموارد الاقتصادية صوب هذا القطاع .

القطاع الصناعي : لعل اهم التطورات التي حدثت خلال النصف الاول من العام ١٩٧٢ هو ما اعلنه « بنحاس سابير » وزير المالية عن الخطة الخمسية لتنمية الصناعة في اسرائيل خلال الفترة ١٩٧٢ — ١٩٧٦ . وقد صممت الخطة على اساس ان يكون مجموع الاستثمارات في حدود ٨،٥ بليون ليرة اسرائيلية . اما الاهداف المعلنة فهي زيادة الانتاج بمعدل ٧٠٪ وامتصاص حوالي ٧٥،٠٠٠ عامل اضافي .

وقد شرح سابير الخطة مؤكدا انها تهدف الى ما يلي : أ — زيادة حجم الصادرات الصناعية وتقوية وضعها التنافسي في الاسواق العالمية . ب —

زيادة اليد العاملة وتنوع مهاراتها . ج ـ تصنيع الاماكن النائية في اسرائيل المحاذية للحدود العربية . د ـ زيادة حجم التثميرات الموجهة الى الابحاث والتطوير في الصناعة الاسرائيلية . هـ ـ تحسين الانتاجية الفردية للعامل الاسرائيلي . و ـ زيادة الانتاج الصناعي .

واذا ما قدر للخطة المشار اليها ان تنجح فان ذلك يعني تحقيق زيادة سنوية في الانتاج الصناعي قدرها ١١٫٢٪ سنويا . اما الصادرات فان الهدف لتحسينها اكثر طموحا حيث تهدف الخطة الى زيادتها من ٧٥٠ مليون ليرة اسرائيلية الى ١٥٠٠ مليون ليرة . وحيث ان السياسة الصناعية الراهنة تهدف الى انتاج السلع التي تتطلب مهارات عالية فان ٥٠٪ من الـ ٨٠٠٠ عامل جديد هم من المهندسين والعلماء واصحاب الاختصاص الرفيع . ولا يزال القطاع الصناعي وخصوصا الصناعات التصديرية تستأثر باهتمام السلطات الاسرائيلية وبالتالي فانها تحتل الاولوية بالنسبة لتوزيع الاستثمارات الجديدة . على ان اكثر التقديرات تفاؤلا تشير الى ان الزيادة المرتقبة خلال هذا العام لن تكون بنسبة الزيادة التي تحققت في العام الماضي ، وان كانت هنالك زيادة مطلقة لا يستهان بها . فصادرات اسرائيل في خمسة الشهور الاولى من العام ١٩٧٢ بلغت ٤٨٣ مليون دولار موزعة على النحو التالي : الصادرات الصناعية ٢١٣ مليون دولار ، صادرات الماس ١٤٤ مليون دولار ، والصادرات الزراعية ١١٠ ملايين دولار و ١٦ مليونا سلع معاد تصديرها . وكما ذكرنا في مقال سابق عن صناعة الاسلحة في اسرائيل ينتظر ان تصل صادرات اسرائيل من الاسلحة والصواريخ والذخيرة والمعدات الاخرى الى ٨٥ مليون دولار .

السياحة : بعد الهدوء الذي خيم على الجبهات العربية وتقلص حجم العمل الفدائي نسبيا داخل الارض المحتلة تحت وطأة الظروف الحالية ، ركزت السلطات الاسرائيلية جهودها على تنشيط الحركة السياحية في اسرائيل . ولاعطاء فكرة موجزة عن اهمية السياحة المتزايدة بالنسبة للاقتصاد الاسرائيلي نذكر ان دخل اسرائيل بلغ خلال العام ١٩٧١ حوالي ١٨١ مليون دولار من العملات الصعبة وان القيمة المضافة بلغت ٧٩ ٪ وهي أعلى نسبة على الاطلاق اذا قورنت بأي صناعة تصديرية أخرى في اسرائيل . وسجلت الحركة السياحية زيادة في عدد القادمين مقدارها ٤٩ ٪ بين عامي ١٩٧٠ و١٩٧١ اذ ارتفع عدد السياح الوافدين من ٤٤١٫٠٠٠ الى ٦٥٧٫٠٠٠ موزعين على النحو التالي : الولايات المتحدة ٢٥٦٫٠٠٠ ، فرنسا ٦٨٫٠٠٠ ، بريطانيا ٦٤٫٠٠٠ ، المانيا ٣٤٫٠٠٠ ، اسكندنافية ٣٠٫٠٠٠ ، اسيا ٤٢٫٠٠٠ ، افريقيا ٢٢٫٠٠٠ ، بلدان أخرى ١٤٧٫٠٠٠ . وبهذا يبلغ المجموع ٦٥٧٫٠٠٠ .

ومن اجل استيعاب وتوفير وسائل السكن والراحة للسياح فقد ارتفع حجم الاستثمار في الفنادق الجديدة الى ١٠٠ مليون دولار موزعة بين مناطق تل أبيب والقدس والجليل الغربي خصوصا في « نهاريا » وهي مستعمرة قديمة تقع على شاطىء البحر الى الشمال من عكا . وتسعى السلطات الاسرائيلية الى اجتذاب المزيد من الرساميل الاجنبية عن طريق منحها اعفاءات ضريبية واعفاءات جمركية . كما تقوم بمد القطاع الخاص بقروض بفائدة منخفضة وشروط دفع سهلة لكي يزيد من حجم نشاطه في قطاع السياحة . والى جانب ذلك تقوم التعاونيات الزراعية « الكيبوتز » بتأجير منازل أعدت خصيصا للسياح الذين يرغبون في مشاهدة هذه التعاونيات .

ان المتتبع للنشاط السياحي في اسرائيل في العامين الماضيين يلاحظ نشاطا متزايدا في هذا القطاع ومخططات لتوسع اكبر في المستقبل . ويبدو ان الحكومة الاسرائيلية مقتنعة بأن حالة اللاحرب واللاسلم ستستمر فترة طويلة وعلى هذا الاساس فان تشجيع السياحة يصبح هدفا ممكنا ومرغوبا من حيث انه يوفر مصدرا رئيسيا للعملات الصعبة .

التجارة الخارجية : تدل الاحصائيات التي نشرت مؤخرا عن حجم التجارة الخارجية ان حجم الصادرات الاسرائيلية خلال العام ١٩٧١ بلغ ٧٩٧ مليون دولار . وهذا الرقم اكبر من مثيله في السنة السابقة بـ ٢٣٫٥ ٪ . اما اهم الصادرات فهي البوتاس والمصنوعات النسيجية وعصير البرتقال وآلات التسجيل واطارات السيارات والالبسة المطرزة . اما الصادرات التي سجلت هبوطا فهي النحاس والفوسفات والانابيب والبلاستيك . ويلاحظ من استقراء توزع التجارة الخارجية ان حجم التبادل التجاري مع اليابان في ازدياد مستمر . وتتألف الصادرات الرئيسية من الاحجار الكريمة والفوسفات والنحاس . وتحاول

السلطات اليابانية التوفيق بين زيادة حجم تبادلها التجاري مع اسرائيل وبين محاولاتها لزيادة صادراتها الى الاسواق العربية . وقد نسبت مجلة «اسرائيل ايكونوميست» الى رئيس شركة «سوني» الاليكترونية قوله انه « لا يجد اي تعارض بين ازدياد صادراتنا الى الاسواق العربية والسوق الاسرائيلي ذلك ان السلعة الرفيعة الجودة تتمتع بحصانة ضد اي ضغط سياسي » .

وتدل آخر الاحصائيات ان اسرائيل تعتبر الان المنتج الاول للماس في العالم كما انها تحتل المرتبة الثانية بعد بلجيكا كمركز لبيع الماس . فقد ارتفع حجم المبيعات من ٧٧ مليون جنيه استرليني في العام ١٩٧٠ الى ١٠٠ مليون جنيه في نهاية العام ١٩٧١ . ولم يطرأ أي تغيير أساسي على نمط توزع التجارة الخارجية . فلا زالت السوق الاوروبية المشتركة خصوصا بعد انضمام بريطانيا تشكل المجال الحيوي والاكثر اهمية للسلع الاسرائيلية حيث تمتص حوالي ٥١ ٪ من مجموع الصادرات الاسرائيلية . وتحاول السلطات الاسرائيلية تعويض الخسارة التي منيت بها بسبب اغلاق سوق اوغنده في وجهها. ويلاحظ ان العلاقات التجارية مع المانيا الغربية ازدادت توثقا ، فقد ارتفعت بنسبة ٣٩ ٪ عما كانت عليه في العام ١٩٧٠ .

الدين العام : لا يزال حجم الدين العام المطلق والنسبي يشكل مصدر ازعاج مستمر للسلطات المالية في اسرائيل . فقد ارتفع مجمل الدين العام الداخلي والخارجي من ١١٤٣ بليون ليرة اسرائيلية في أوائل العام ١٩٦٨ الى ٢٦٤٦ بليون ليرة في ديسمبر من العام ١٩٧١ ، غير ان الملاحظ بالنسبة لتركيب الدين العام ان معظم الزيادة جاءت نتيجة للقروض الداخلية التي حصلت عليها الحكومة الاسرائيلية عن طريق طرح سندات الخزينة .

اسرائيليات متفرقة : — أجلت الحكومة الاسرائيلية تنفيذ الخطة الانمائية مدة ستة اشهر في محاولة لامتصاص جزء من السيولة في الاقتصاد الاسرائيلي خوفا من ارتفاع كبير في مستوى الاسعار والاجور.
— بدأت اسرائيل في تنشيط السياحة في منطقة سيناء خصوصا في المنطقة المحاذية لخليج العقبة والبحر الاحمر عن طريق بناء فنادق جديدة ومنتزهات بحرية لاستقبال السياح .

الدكتور يوسف شبل

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٩/١٣ — ١٩٧٢/١٠/٢

الرقم	التنظيم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر	تاريخه
١	ق·ع·ق·ث·	٩/١٣	—	حي هاتيكفا/تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	الحاق اضرار ببناء ليلي	—	—	—	وفا	٩/١٣
٢	ق·ع·ق·ث·	٩/١٣	—	بتاح تكفا	تفجير	عبوات حارقة	غير محدد	حرق مستودع للخشب	—	—	—	ف·ث·عدد١٣ ص٦	٩/٢٠
٣	ق·ع·ق·ث·	٩/١٤	—	قرب بانياس	كمين	غير محدد	قتل وجرح افراد دورية	—	—	—	—	ف·ث·عدد١٣ ص٦	٩/٢٠
٤	ق·ع·ق·ث·	٩/١٥	٨٠٠	تل ابو السقي	قصف	مدفعية الهاون	غير محدد	تدمير عدد من المنشآت في مشروع انشائي(١)	—	—	—	وفا	٩/١٦
٥	ق·ع·ق·ث·	٩/١٥	١٧٠٠	ابو خيط	تفجير	شبكة الغام	افراد دورية	اعطاب آلية	—	—	—	وفا	٩/١٦
٦	ق·ع·ق·ث·	٩/١٥	٩٤٥	بين رويسة الحمراء وسحيتا	تفجير	الغام	غير محدد	ناقلة جنود نوع تي· تي· آر·	—	—	—	وفا	٩/١٧
٧	ق·ع·ق·ث·	٩/١٥	—	الخليـل	هجوم	اسلحةمختلفة	افراد دورية	غير محدد	—	—	—	وفا	٩/١٦
٨	ق·ع·ق·ث·	٩/١٥	—	بتاح تكفا	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	تدمير عدة متاجر وبنايات في شارع شتاينر	—	—	—	وفا	٩/١٦
٩	ق·ع·ق·ث·	١٦ــ٩/١٧(٢)		جنوب لبنان	اشتباك،كمين،هجوم	اسلحة مختلفة	٦٠ــ٧٠ اصابة	١٧ آلية وطائرة سكاي هوك	—	—	—	وفا	٩/١٧
١٠	ق·ع·ق·ث·	٩/١٦	٢٤٠٠	تل ابو الذهب	قصف	مدفعية الهاون	غير محدد	غير محدد	—	—	—	وفا	٩/١٧
١١	ق·ع·ق·ث·	٩/١٦	٢٠١٥	منطقة القنيطرة	قصف	صواريخ	غير محدد	غير محدد	—	—	—	وفا	٩/١٩
١٢	ق·ع·ق·ث·	٩/١٧	—	بين بتاح تكفا وتل ابيب	تفجير	عبوات حارقة	غير محدد	حرق مستودعاتكريات حوليم	—	—	—	وفا	٩/١٨
١٣	ق·ع·ق·ث·	٩/١٧	—	منطقة القنيطرة	قصف	صواريخ	غير محدد	غير محدد	—	—	—	ف·ث·عدد١٣ ص٦	٩/٢٠
١٤	ق·ع·ق·ث·	٩/١٧	١٣٠	جنين	قصف	صواريخ	غير محدد	غير محدد	—	—	—	وفا	٩/١٧
١٥	ق·ع·ق·ث·	٩/١٨	٧٣٠	جنين	هجوم	اسلحةمختلفة	افراد دورية هندسة	غير محدد	—	—	—	وفا	٩/١٨
١٦	ق·ع·ق·ث·	٩/١٨	٢٤٠٠	بين القنيطرة والخشنية	تفجير	عبوات ناسفة	— —	نسف جسر	—	—	—	وفا	٩/١٨
١٧	ق·ع·ق·ث·	٩/١٨	—	بين مجيدو وحيفا	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	تدمير المصنع الحربي لرشاشات عوزي	—	—	—	وفا	٩/١٩
١٨	ق·ع·ق·ث·	٩/١٨	٢٣٤٥	مسعدة/القنيطرة	قصف	صواريخ	غير محدد	اصابةعدد من المنشآت	—	—	—	ف·ث·عدد١٤ ص٤	٩/٢٧
١٩	ق·ع·ق·ث·	٩/٢٠	٨٣٠	تل ابو الذهب	تفجير	الغـــام	غير محدد	تدمير آلية	—	—	—	وفا	٩/٢١
٢٠	ق·ع·ق·ث·	٩/٢٠	٢٤٠٠	الجولان	قصف	قذائف صاروخية	غير محدد	غير محدد	—	—	—	وفا	٩/٢١
٢١	ق·ع·ق·ث·	٩/٢٢	٢٣٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	١ ـــ [illegible]	تدمير سيارة واصابة عدد من المباني باضرار	—	—	—	ف·ث·عدد١٤ ص٤	٩/٢٧
٢٢	ق·ع·ق·ث·	٩/٢٥	١٩٢٠	دير البلح/غزة	كمين	القنابل اليدوية والرشاشات	غير محدد	اعطاب سيارةعسكرية	—	—	—	وفا	٩/٢٦
٢٣	ق·ع·ق·ث·	٩/٢٦	٢٠٣٠	معسكر البريج/غزة	كمين	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غير محدد	اعطاب سيارةعسكرية	—	—	—	وفا	٩/٢٧
٢٤	ق·ع·ق·ث·	٩/٢٩	١١٢٠	القـدس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	تدمير واصابة اقسام من السوبر ماركت	—	—	—	وفا	٩/٢٩
٢٥	ق·ع·ق·ث·	٩/٢٩	١٣٣٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	تدمير احد مصانع(٣) مكتب الحديد	—	—	—	وفا	٩/٢٩
٢٦	ق·ع·ق·ث·	٩/٢٩	—	غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غير محدد	اعطاب سيارة	—	—	—	وفا	٩/٣٠
٢٧	ق·ع·ق·ث·	٩/٢٩	٢١٠٠	طولكرم	هجوم	اسلحة رشاشة	غير محدد	اعطاب سيارة	—	—	—	وفا	٩/٣٠
٢٨	ق·ع·ق·ث·	٢ /١٠	١٨٠٠	غـزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غير محدد	اعطاب سيارة عسكرية	—	—	—	وفا	٣ /١٠
٢٩	ق·ع·ق·ث·	٢ /١٠	٩٠٠	القـدس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	تدمير مصنع الكرتون في حي موسنيم	—	—	—	وفا	٣ /١٠

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٩/١٣ — ١٩٧٢/١٠/٢

الرقم	التنظيم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	خسائر العدو البشرية: جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر	تاريخه
١	ق.ث.ف.(١)	٩/١٣	—	هاردوف/جبل الشيخ	قصف	تذائف واسلحة رشاشة	—	—	—	—	—	—	ن.(٢) عدد٣٩ ص٦	٩/١٤
٢	ق.ث.ف.	٩/١٥	—	هاردوف/جبل الشيخ	اشتباك	اسلحة مختلفة	—	٢	—	—	—	—	ن. عدد ٤٠ ص ٨	٩/١٥
٣	ق.ث.ف.	٩/١٥(٣)	—	ناحال جولان	قصف	تذائف	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٤٠ ص ٨	٩/١٥
٤	ق.ث.ف.	٩/١٥	٧٣٠	حصفين/الجولان	قصف	تذائف	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٤١ ص ٦	٩/١٦
٥	ق.ث.ف.	٩/١٥	١٦٣٠	رامات مجشيميم الجولان	تفجير	ألغام	—	—	اصابة آلية عسكرية	—	—	—	ن. عدد ٤١ ص ٦	٩/١٦
٦	ق.ث.ف.	٩/١٥	—	الخليـــل	اطلاق رصاص	رشاشات خفيفة	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٤١ ص ٦	٩/١٦
٧	ق.ث.ف.	٩/١٦—٩/١٧		جنوب لبنان	اشتباك وكمين	اسلحة مختلفة	٢	٣(٤)	غير محدود	غير محدود			ن. عدد ٤٢ ص ٤	٩/١٧
٨	ق.ث.ف.	٩/١٧	—	القنيطرة وناحال جولان	قصف	تذائف	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٤٢ ص ٧	٩/١٧
٩	ق.ث.ف.	٩/١٩	—	ناحال جولان	قصف	تذائف	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٤٤ ص١٠	٩/٢٠
١٠	ق.ث.ف.	٩/٢٦	—	معسكر البريج/غزة	اطلاق رصاص	غير محدد	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٥٠ ص ٤	٩/٢٧
١١	ق.ث.ف.	٩/٢٩	١١٠٠	القـــدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	٣	اصابة مبنى «السوبر سول» في القدس	—	—	—	ن. عدد ٥٣ ص ٥	٩/٣٠
١٢	ق.ث.ف.	٩/٢٩	١٨٤٥	غـــزة	القاء تنبلة	تنبلة يدوية	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٥٣ ص ٦	٩/٣٠
١٣	ق.ث.ف.	٩/٢٩	٢١٠٠	بقارية/طولكرم	اطلاق رصاص	اسلحة رشاشة	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٥٣ ص ٧	٩/٣٠
١٤	ق.ث.ف.	٢ /١٠	١٩٠٠	غـــزة	القاء تنبلة	تنبلة يدوية	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٥٥ ص ٣	٣ /١٠

١ — ق.ث.ف. : قوات الثورة الفلسطينية .

٢ — ن. : نشرة رصد اذاعة اسرائيل اليومية ، التي تصدر عن مركز الابحاث في م. ت. ف.

٣ — كما اعترف العدو في البيان نفسه بان دبابة قد دمرت بلغم قبل بضعة ايام في هذه المنطقة .

٤ — اسماء القتلى : الملازم ابني سعدون ، الجندي الاول ميليخ منستر ، الجندي دافيد ربلر .

تعريف بالمصطلحات والنشرات الوارد ذكرها

١ — ق.ع.ق.ث. : القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

٢ — وفا : نشرة يومية تصدر عن دائرة الاعلام والتوجيه القومي بمنظمة التحرير الفلسطينية .

٣ — ف.ث. : فلسطين الثورة ، مجلة اسبوعية تصدر عن دائرة الاعلام والتوجيه القومي بمنظمة التحرير الفلسطينية .

غازي خورشيد

تقرير خاص حول انتخابات مجلس الاتحاد الوطني الاردني

في غضون الفترة الممتدة من اخر اب وحتى منتصف ايلول الماضي جرت انتخابات الاتحاد الوطني الاردني ، حيث تم اختيار ثلثي اعضاء مجلس الاتحاد الجديد ، وفي ٢٧ ايلول عين الملك حسين الثلث الاخر من اعضاء المجلس ، وبذلك جرى تكوين مجلس الاتحاد الجديد وهو الهيئة التمثيلية لاعضاء الاتحاد الوطني . ومن مهام هذا المجلس ، كما تحددها اللائحة الداخلية ، اقرار السياسة التفصيلية للاتحاد ، واقرار اللوائح والتنظيمات ، ومتابعة نشاطات الاتحاد ، والاعداد للمؤتمر العام . ومن حقوقه اجراء تعديلات على الميثاق وعلى النظام الاساسي للاتحاد . ومن مجلس الاتحاد يجري انتخاب ٢٤ عضوا للجنة التنفيذية ، فيما يعين الملك ١٢ عضوا آخر فيها من أعضاء المجلس نفسه . ويختار اعضاء اللجنة التنفيذية الستة والثلاثون « مكتب قيادة الاتحاد » وهي القيادة اليومية التي تصرف الامور المتصلة بالمالية وسياسة الاتحاد والشؤون الاقتصادية والاجتماعية، والتوعية والعلاقات العامة، والدراسات ...الخ، وهي مهام تضطلع بها مكاتب خاصة فرعية يشرف عليها اعضاء « مكتب قيادة الاتحاد » . اما ادارة اعمال ورئاسة جلسات مكتب قيادة الاتحاد فتكون للامين العام الذي يعينه الملك بنفسه .

ووفقا للنظام الاساسي فان مجلس الاتحاد يتكون من ٣٦٠ عضوا ، يجري انتخاب ٢٤٠ عضوا منهم على اساس التوزيع الجغرافي ، ويراعى التوزيع بين المحافظات نسبة عدد الاعضاء المنتسبين فيها . وكما مر ، فان الملك يعين ١٢٠ عضوا آخر في المجلس الذي يتقاسمه ابناء الضفتين بالتساوي. ويقول النظام الاساسي للاتحاد ان مبدأ التعيين يظل قائما الى ان تزول اثار العدوان . وبعيد طرح الملك حسين مشروعه حول « المملكة العربية المتحدة » ، طرات على النظام الاساسي بعض التعديلات التي تتيح تمثيل عرب الاراضي المحتلة لعام ١٩٤٨ ، وبدو فلسطين وابناء قطاع غزة المقيمين في الاردن بحصص متفاوتة من مقاعد مجلس الاتحاد ، حسب نسبة تواجدهم في الضفة الشرقية .

ومن الامور الملفتة للنظر ، الطريقة التي تمت بها الانتخابات لمجلس الاتحاد . ذلك ان اعضاء الاتحاد من الضفتين ينتخبون ممثليهم بالمشاركة ، اي ان ابناء الضفة الشرقية من اعضاء الاتحاد ينتخبون ، بالاضافة الى مرشحيهم شرق الاردنيين في المحافظة التي ينتمون اليها ، ١٠٠ مرشح يمثلون الضفة الغربية والقطاع وعرب الاراضي المحتلة لعام ١٩٤٨ ، (حيث هناك ٢٠ مرشحا عن رام الله وبيت لحم فازوا بالتزكية) ، كما ينتخب اعضاء الاتحاد الفلسطيني بالاضافة الى مرشحيهم عن الضفة الغربية والقطاع وعرب الاراضي المحتلة لعام ١٩٤٨ ، مرشحيهم شرق الاردنيين على مستوى المحافظة . وعلى الرغم من ان قادة الاتحاد الوطني يفسرون هذه الطريقة الانتخابية على انها تؤكد وحدة الضفتين ، فانها في الواقع ادت الى ان يتوجه أعضاء الاتحاد لانتخاب مرشحين لا يعرفونهم. والاهم من ذلك ادت هذه الطريقة الى حصول مقايضات بين المرشحين من الضفتين لتبادل الاصوات ، كانت تشبه الى حد كبير بيع وشراء الاصوات بصورة علنية كما سيمر معنا بعد قليل . ان مجرى الانتخابات الاخيرة ، ونتائجها ، ثم تعيينات الملك لثلث اعضاء مجلس الاتحاد تقدم جملة من الملاحظات حول طبيعة الاتحاد واية تعديلات جدت عليه ، ومن هذه الملاحظات :

١ ــ بات الاتحاد حقيقة سياسية في نهج النظام ، ولم يعد موضع جدل ما اذا كان الاتحاد سيبقى المؤسسة التي تفسح امام فئات النظام واطرافه ممارسة حياتها السياسية . الامر الذي يؤكده سعي رؤوس النظام لتوسيع اطار الاتحاد ليشمل فئات اجتماعية عليا يجري الان استقطابها، وخاصة الرموز الوجاهية والاسرية التقليدية والبرجوازية الفلسطينية ، ممن لا زالت تحتفظ بنفوذها التقليدي في الضفة الغربية او عرفت بارتباطها التاريخي بالادارة الاردنية . ويرتبط هذا الاستقطاب الجاري الان بمشروع الملك حسين ، وبالمساعي الجارية للوصول مع اسرائيل الى اتفاقية سلام .

وبدون تناسي استمرار رهان النظام على البيروقراطية ، وبقاء الجسم الاساسي للاتحاد ممثلا للبرجوازية في الادارة والقطاعات المرتبطة بها ، فان عملية الاستقطاب الجارية تحدث تعديلا ملموسا ، بدخول رموز فئات لم تكن يوما مقتنعة بتوجهات الاتحاد الوطني وبرنامجه المعلن ، ان لم

تكن معادية له . ولذلك يلمس من وصول رموز اجتماعية مغايرة لتركيب الاتحاد الوطني القديم ، واقع التعديل الذي جد على جسم الاتحاد ، والذي يفقده تجانسه النسبي السابق ، ويحمل على التكهن بتنامي الصراعات بين البرجوازية في الدولة والبرجوازية التجارية والمتوسطة (المهنيين) ذات المنشأ الفلسطيني على السلطة وعلى برنامج النظام . ان ابتعاد رموز الاتحاد الاساسية مثل مصطفى دودين وابراهيم الحباشنة عن البروز في الفترة الاخيرة يعكس بداية الصراع حول بنية الاتحاد الوطني ، كما ان تعيينات الملك لـ ١٢٠ عضوا في مجلس الاتحاد ، بالاضافة الى الاعضاء المنتخبين تشير الى وصول رموز اجتماعيةوسياسية كانت موضع عداء وصفي التل ، بل كان قد قام بعزلها من اجهزة الدولة . وعلى صعيد الضفة الشرقية فقد جرى تمثيل اكبر للمهنيين والتجار والصناعيين ولرموز عشائرية . بيد ان التمثيل الاكبر بقي لرموز لها صلاتها التاريخية بالادارة : وزراء ووزراء سابقون، موظفون كبار وتكنوقراطيين ورؤساء بلديات وتربويون .. الخ .

٢ — ان رغبة النظام في توسيع اطار الاتحاد الوطني ، ورغبة الفئات والشرائح العليا المبعدة عن الحكم منذ زمن ، في العودة الى مواقعها السابقة ، عكست نفسها في المنافسة الشديدة التي شهدتها انتخابات مجلس الاتحاد الوطني .

وفيما عدا منطقتي رام الله وبيت لحم التي اوصلت مرشحيها العشرين بالتزكية ، وفيما عدا ٩ مقاعد متفرقة في محافظات الضفة الشرقية احتلها المرشحون بالتزكية ، فقد شهدت جميع المحافظات والمناطق في الضفتين منافسة شديدة وصراعات حادة حول مقاعد مجلس الاتحاد ، وهو ما تعكسه مقارنة اعداد المرشحين باعداد المقاعد المخصصة لكل منطقة : ففي محافظة عمان تنافس ١٦٤ مرشحا على ٣٤ مقعدا ، و ١٩ مرشحا من بدو الوسط على اربعة مقاعد ، و٢٨ مرشحا في محافظة البلقاء على ١١ مقعدا ، و ٦٧ مرشحا في محافظة الكرك على ٢٠ مقعدا ، و ٢٧ مرشحا من بدو الجنوب على اربعة مقاعد . اما المرشحون الفلسطينيون ، فقد بلغ عددهم ٢١٨ مرشحا تنافسوا لاحتلال ١٢٠ مقعدا .

٣ — سادت انتخابات الاتحاد الوطني الاجواء ذاتها المحيطة باية عملية تمثيلية في البلاد ، ولازمتها الظواهر ذاتها ، كالانتخابات البلدية او انتخابات مجلس النواب ، اذ جرى تسجيل المواطنين كأعضاء في الاتحاد الوطني وفقا لاعتبارات شكلية ، وغايتها الاساسية كسب المرشحين مزيدا من الاصوات ، وتعزيز مراكز النفوذ في الاتحاد . وبسبب هذه المنافسة ارتفع عدد الناخبين من اعضاء الاتحاد الوطني الى ارقام خيالية ، وذلك كما اوردتها الصحف الاردنية : محافظة اربد وبدو الشمال : ٣٣ الف ناخب ، محافظة عمان وبدو الوسط : ٥٧ الف ناخب ، محافظة البلقاء ١٧ الف ناخب ، محافظة الكرك : ٩٫٥٠٠ ناخب ، محافظة معان ٤٫٠٠٠ ناخب ، بدو الجنوب : ٥٫٠٠٠ ناخب . وبهذا يكون المجموع ١٢٥٫٥٠٠ ناخب . ان في الارقام المارة دلالة واضحة على الطابع التنظيمي الشكلي للاتحاد .

٤ — احيطت الانتخابات في المحافظات والمناطق باجراءات امنية واسعة وساد جو من التخوف والحذر ، حيث وقعت صدامات بين انصار المرشحين ، كتلك التي شهدتها الانتخابات البلدية مؤخرا . لذلك بادر الحكام العسكريون باصدار اوامر دفاع تقضي بمنع نقل الاسلحة النارية اثناء الانتخابات وحتى اشعار اخر . كما جرى الاجتماع الى الاعيان والوجهاء ونواب المحافظات لحثهم على ضبط سير الانتخابات . ومن جهة اخرى احيطت مراكز الاقتراع ومراكز الفرز باجراءات امنية وحراسة مشددة .

٥ — تحدثت بعض الصحف الاردنية عن الاجواء التي احاطت انتخابات الاتحاد الوطني والاساليب التي استخدمت للحصول على الاصوات . فتحدثت جريدة « الصباح » الاسبوعية (١٩٧٢/٩/٤) فقالت : « حدثت مفاجآت مذهلة في المعركة الانتخابية الدائرة حاليا في محافظة العاصمة لانتخاب اعضاء مجلس الاتحاد الوطني ، فقد خرج مرشحون عديدون من القوائم التي التزموا بها اصلا وخاضوا المعركة على اساس فردي او بكتل اخرى ... واسفرت هذه العملية — الخدعة — عن حدوث انشقاقات كثيرة في اكثر من قائمة ظهر يوم امس . وقد شجعت هذه الانشقاقات حدوث انقسامات اخرى في جميع القوائم وهيأت الجو لحدوث انقسامات في انتخابات المحافظات الاخرى . ويسود اوساط الناخبين شعور بالقرف والاشمئزاز لتصرفات بعض المرشحين الذين نكثوا بعهودهم

التي تطعوها على انفسهم لزملائهم مما يوحي بـأن وعودهم التي منوا بها المواطنين لن تكون بأفضل من عهودهم لزملائهم ... »

« ولوحظ ان كل مرشح كون لجنة تسمى لجنة المبادلات هدفها عقد صفقات تبادل بين اصوات ناخبي الضفة الغربية والضفة الشرقية (....) كان صوت الناخب فيها هو السلعة التي يجري التقايض على اساسها ، وقد اشتدت المعركة الانتخابية في المخيمات عامة ، لا سيما في مخيم ماركا حيث استقطب المخيم عشرات السيارات القادمة من جميع انحاء المحافظة لاجراء المبادلات بين اصوات الناخبين بالجملة (...) ويتوقع حدوث مفاجآت مذهلة في نتائج الانتخابات ما دام صوت المواطن اصبح سلعة تباع وتشترى علنا وبدون اي حرج قانوني » .

وعادت الصحيفة ذاتها للحديث عن الظواهر التي رافقت الانتخابات فقالت في عددها الصادر في ١٩٧٢/٩/١١ : « اكثر من ظاهرة برزت في انتخابات مجلس الاتحاد الوطني العربي في محافظة العاصمة استرعت انتباه المواطنين وكونت لديهم قناعات ترسخت في اذهانهم وتجذرت بصماتها واصبح من الصعب ازالة اثارها . من هذه الظواهر الاسلوب الذي تميزت بها المعركة الانتخابية والمناورات التي شهدتها وتبادل الاصوات التي اتسمت بها . اتضح للمواطن ان المرشحين للاتحاد قد سلكوا مسالك كثيرة في سبيل نجاحهم ، فمنهم من استقل سيارات الدولة للدعاية الشخصية ، ومنهم من استغل العاملين بالمؤسسة التي يديرها او يعمل ضمنها . مما يوحي للمواطن بأن من لا يحرص على اموال الدولة ليس اهلا لتمثيله » .

٦ ــ قبل صدور تعيين الملك لعدنان ابو عودة وزير الاعلام السابق امينا عاما للاتحاد الوطني ، صدرت تكهنات صحفية عديدة شملته بالاضافة الى مرشحين آخرين مثل مضر بدران احد رجالات المخابرات الاردنية البارزين سابقا ، وفضل الدلقموني نائب اربد والوزير السابق لاحتلال منصب الامين العام للاتحاد . ولم تشر هذه التكهنات الى مصطفى دودين الامين العام السابق ، او الى ابراهيم الحباشنة ، وزير الداخلية السابق ، واحد اقطاب الاتحاد الوطني البارزين ، الذي أعلن عن موته اثر نوبة قلبية وسط شائعات قوية عن صراعات بينه وبين رموز اخرى في السلطة يعززها التغطية الاعلامية الضعيفة لانباء تشييع جنازته في جنوب الاردن .

أ . م .

اسرائيليات

هل تكون المرأة نصف حبلى ؟!

● لا تزال الاوساط الصحفية والفكرية الاسرائيلية تشغل نفسها ، في مناقشة حادة وطويلة ، حول تقييم الجانب « الاخلاقي » من الصهيونية . فما هي الدوافع التي نادت الاسرائيليين الى الانقسام حول هذا السؤال الذي يعتبر مجرد طرحه ، بالنسبة اليهم ، تشككا بقدس اقداسهم ؟ وان اكثر ما هو ملفت للنظر في هذا الموضوع هو ان المناقشة يديرها اشخاص لا يدنو الشك من اخلاصهم العميق للصهيونية وحرصهم الشديد على توفير اكثر السبل ضمانة لتطبيقها الاسرائيلي . ولكن اختلافهم ينحصر في البحث عن هذه السبل .

لقد رأى بعض الصهيونيين الاسرائيليين ان بعض الممارسات الحكومية في السنة الخامسة من الاحتلال الاسرائيلي الجديد تعتبر تجاوزا للقيم الصهيونية و « طهارة » هذه القيم . لانهم يرون في هذه الاجراءات « انحراف » اسرائيل عن الحلم الذي راود الصهيونية بأن تكون « دولة يهودية مثالية » الى ميل من التطور يحولها الى « دولة كولونيالية » . ومن هنا نشأ السؤال : هل يتعارض الاستيطان الاسرائيلي الاستعماري مع القيم الصهيونية ؟ أم ان هذا الاستيطان هو تسلسل منطقي وطبيعي لطبيعة نشوء الصهيونية ؟. عند هذا السؤال ، افترقت الاراء ، وانفجرت المناقشة بعدما اتضح ان السياسة الاسرائيلية الرسمية تمارس عمليات الضم التدريجي للاراضي العربية المحتلة معتمدة على مرور الزمن وغياب عوامل الضغط السياسي الدولي والمقاومة العربية المسلحة .

هذا من ناحية .. ومن الناحية الاخرى ، لعل بعض الاحداث التي جرت داخل الاراضي العربية المحتلة ، قديما وحديثا ، قد اعطت الاسرائيلي شرعية طرح السؤال حول طبيعة الصهيونية ، وهل التطبيق الاسرائيلي البالغ الظلم والعنف هو امتداد للعقيدة الصهيونية التي كان يحرص ، امام الناس، على اظهارها بمظهر « الاخلاقية » ؟ من هذه العمليات : ما جرى عند مداخل رفح ، حيث قام الجيش الاسرائيلي بترحيل البدو القاطنين هناك بعملية بالغة الوحشية ، وبتدمير بيوتهم وتخريب آبارهم ، كمقدمة لانشاء مدينة يهودية على أرض العرب وعلى انقاضهم .

وكانت العملية الثانية ـ مصادرة أراضي قرية عقربة في منطقة نابلس ، حيث قام الجيش الاسرائيلي برش حقول القرية بالمواد السامة ، واقام مستوطنة يهودية على أرض العرب وعلى انقاضهم .

وكانت العملية الاخيرة ، الضجة التي ثارت حول قضية قريتي كفربرعم واقرت ، حيث منعت الحكومة الاسرائيلية عودة اهالي القريتين الى اراضيهم التي طردوا منها قبل ربع قرن ، بلا سبب !

ولقد اكتفى ، رد الفعل الاسرائيلي المعارض على العملية الاولى والثانية بالاعتراض الكلامي الخاضع لحسابات سياسية وحزبية . ولكن الاعتراض على العملية الاخرى تجاوز الحدود المتوقعة الى الاشتراك في تظاهرات احتجاج في قلب الشوارع اليهودية. وكان الكثيرون من المعترضين الاسرائيليين على الجريمة الصهيونية ـ الاسرائيلية المرتكبة ضد اهالي كفربرعم واقرت يرون أن عدم السماح لاهالي القريتين بالعودة يعتبر انتهاكا للقيم والتعاليم التي نادت بها الصهيونية ، ويعتبر وصمة عار في جبين اسرائيل وتشويها لسمعتها . ومضى بعضهم الى القول ان القوة الاسرائيلية ستكون خالية من المعنى اذا ما انتهكت العدل وتخلت عن المضمون الانساني . ومن هنا ، فلا بد « للضمير اليهودي » من أن يصحو وينتهم .

وكان المدافعون عن موقف الحكومة يضمنون دفاعهم

دفاعا عن الصهيونية . ويرون ان الدفاع عن « الحق اليهودي على فلسطين » يقتضي الدفاع عن اجراءات طرد العرب ومصادرة اراضيهم . ومن هنا ، يكون موقف السلطة الاسرائيلية في عمليات رفح وعقربة وكفربرعم واقرت وغيرها من عمليات اجلاء العرب واقامة الاستيطان اليهودي موقفا منسجما مع الدعوة الصهيونية الى تحقيق الحق اليهودي المطلق على فلسطين . هكذا قامت اسرائيل التي كان من المستحيل ان تقوم لولا مثل هذه العمليات . وكتب كاتب سياسي في صحيفة « يديعوت احرونوت » (يهوشع بن غورات ٧/١٤): « ان تقدير الامن باللغة الاسرائيلية ليس فقط في وضع مدافع في مكان ما للدفاع عنه ، بل وفي فترات معينة — وقد يكون ذلك الجوهري فيها — خلق امتداد اقليمي يهودي ، او خلق واقع صهيوني واضح . وهذا يعني بلغة اخرى — تخليص البلاد عن طريق الاستيلاء على اراضيها بأساليب عسكرية وأمنية . وما جرى في مشارف رفح لا يختلف ، في ماهيته ، عما جرى في أماكن اخرى من أرض اسرائيل ودولة اسرائيل منذ بدأ تطبيق الصهيونية، وذلك يشمل اجلاء مواطنين عرب من قراهم » . والخلاصة ، كما يراها الكاتب : « ليست هناك صهيونية ولا استيطان ، وليس هناك دولة يهودية بدون اخلاء العرب ومصادرة اراضيهم » .

وهكذا ، يعود المدافعون عن استمرار الظلم والسلب الاسرائيليين الى الطريقة التي قامت بها اسرائيل ، مما يجعل الاستمرار بها شرعية صهيونية ، والتوقف عن ممارستها تخليا عن اهم مقومات الوجود اليهودي في فلسطين .

وكتب اليعيزر ليبنه في (هآرتس) (٨/٦) عن معادلة الصهيونية والسلب « ان مواطنين عربا نقلوا من اماكنهم كي تتمكن المستوطنات اليهودية من الحلول مكانهم، فاذا وصفت هذه العملية بالسلب، فان مجرد عودة اليهود الى بلدهم ممزوجة بالسلب » .

وقد لاحظ أوري افنيري (هعولام هزه ٩/٦) ان السنة الاسرائيلية الاخيرة كانت سنة تحول في ميدان « الاستيطان الاستغلالي » ، اذ ادلى الجنرالات والسياسيون والمعلقون ، بأقوال ما كانت تصدر قبل الان الا عن اعداء اسرائيل والحكام العرب ، هذه الاقوال التي كانت توصف بأنها دعاية تحريضية عربية قد اتضح الان انها حقيقة اسرائيلية . واضاف افنيري : « يقولون ان هدف الصهيونية هو الاستيطان في كل انحاء البلاد ، باجلاء المواطنين العرب . ويقولون ان النهب كان وسيكون دائما جزء لا يتجزأ من العملية الصهيونية. ويقولون ان الكلام الاخلاقي الذي قاله الاجداد لم يكن الا تغطية ضرورية ايام الضعف ، ولا مكان له ايام القوة . ولم تنحصر الامور في منطقة معينة، ولا في مناطق ارض اسرائيل الغربية من ايام الانتداب . فكل الشعارات التي رفعت هذه السنة لتبرير الاستيطان واجلاء المواطنين في الجولان والضفة الغربية وسيناء قد تنطبق غدا على جنوب لبنان ووسط سوريا والضفة الشرقية ، اذا أدت الصدفة السياسية — العسكرية الى احتلال الجيش الاسرائيلي لهذه المناطق » . وعلق افنيري على ذلك بقوله : « عمليا ، كانت هذه هي النظرية التي وجهت المستوطنين البيض في امريكا الشمالية حتى وصولهم الى شاطىء المحيط الهادىء . النظرية التي وجدت تعبيرها الفظيع في المطالبة الالمانية بمجال حيوي » .

ويقول محرر هعولام هزه ان كثيرين في اسرائيل وقفوا ضد هذه الاعمال وهذه النظريات لانهم رأوا فيها « تجاوزا وتشويها للقيم المقدسة » . ويرون ان هذا التجاوز جاء بالصدفة . فان احتلال المناطق هو الذي حرف الصهيونية عن الطريق المستقيم . ويحدد أفنيري انه كان للصهيونية هدفان : الاول — دولة يهودية يسيطر فيها اليهود . والثاني — استيطان يهودي في كل انحاء البلاد . وعندما تبلور هذان الهدفان ، لم يتبلور الى جانبهما حل للقضية الرئيسية التي ينطوي عليها تحقيق الهدفين : وجود مواطنين عرب طيلة ثمانية قرون . فكيف تحل هذه القضية مع المحافظة على التفرد اليهودي لدولة اسرائيل ؟ يقول أفنيري : كان من الممكن حل القضية لو هرب سكان المناطق في حرب الايام الستة كما أجلوا من المناطق التي احتلتها اسرائيل عام ٤٨ . وكان من الممكن حلها بطرد السكان بعد الحرب . لقد بذلت مثل هذه المحاولات ،ولكنها فشلت . وعلى الرغم من أن اسرائيل لم تسمح لمئات الالوف من لاجئي حرب الايام الستة بالعودة الى المناطق المحتلة ، فقد بقي تحت الحكم الاسرائيلي ١٤٤ مليون عربي يشكلون حوالى ٣٥٪ من السكان . الزيادة الطبيعية لهؤلاء السكان تزيد ضعفين عن زيادة اليهود ، والهجرة اليهودية تسد هذا الفارق ولكن بصعوبة . هذا الوضع يمكن

من ايجاد حلين عمليين فقط : اعادة المناطق للمحافظة على الطابع اليهودي والديمقراطي لاسرائيل ، او الاحتفاظ بالمناطق مع سلب السكان العرب حقوقهم القومية والمدنية . ان الحل الثاني يتطلب استيطانا يهوديا ينطوي على سلب العرب ، وانتهاج حكم لا ديمقراطي تجاههم ، وتحويلهم الى حطابين وسقاة ماء . وهذا هو الحل الكولونيالي . وفي هذا العام تم حسم المسألة — لصالح هذا الحل الكولونيالي » .

فهل تستطيع الصهيونية ان تقدم حلا غير الحل الكولونيالي ؟

ستكون المناقشة ، كما هي الان ، عقيمة ما دامت محصورة في اطار الحل الصهيوني . ويبدو بؤس المنطق جليا في دفاع بعض افراد الجيل الاسرائيلي الحالي عن التطبيق الصهيوني السابق لحرب الايام الستة كذريعة جوهرية للاعتراض على بعض التطبيقات الاسرائيلية التي تلت حرب الايام الستة. فالسلب الراهن لا يدحض بالسلب السابق . من هنا ، لا تكون وسائل البحث عن حل ذات نفع عملي ولا فكري اذا حصرت نفسها في النطاق الصهيوني، الا اذا كان السعي نحو الحل ضربا من ضروب تسجيل دقات ضمير أفاق في ساعة مزاج ليبرالي ، أو اذا كان السعي نحو الحل محاولة لاحاطة السلب بأسماء جميلة ، والحرص على ممارسة الظلم بأقصى درجات اخفاء معالم الظلم .

لنأخذ على سبيل المثال المناقشة التي دارت في ندوة صحيفة « يديعوت احرونوت » ٩/٨ . قال عاموس كينان وهو كاتب من المعترضين على دعوة « أرض اسرائيل الكاملة » ردا على سؤال : ما هي أرض اسرائيل ؟، أجاب : « انني اوافق على أن كل من يدعي ان دير البلح او الجولان ليست أرض اسرائيل — لا مكان له أيضا في تل ابيب »!! ومن هذا المبدأ الصهيوني الاولي ، اقترح ان تتم مناقشة اخلاقية الصهيونية على أساس الانقطاع التاريخي ووضع الفواصل بين الممارسة الصهيونية قبل حرب ٦٧ وبعدها . اي — أن الصهيونية لم تتحول الى حركة كولونيالية الا بعد حرب ٦٧ . وكانت ملاحظة الكاتب ابيعيزر غولان ذكية حين قال : ان صهيونية عام ١٩٧٢ لم تبدأ في هذا العام ، ولكنها تطور لما كان .

واذا عدنا الى آباء الصهيونية في نظرتهم الى المسألة العربية نرى أن نقطة انطلاقهم تبدأ من ان فلسطين هي وطن الشعب اليهودي كله ، وان الحق اليهودي عليها لا يتزعزع على الرغم من الفاصل الزمني الذي يبلغ الالفي عام . واذا اصطدم « الحق » اليهودي ، بأي حق اخر ، فان الاولوية تكون « للحق » اليهودي لضرورة ايجاد اكثرية يهودية في فلسطين ، تستولي على الارض العربية اما بالمال واما بالسلاح ، وكلا الاسلوبين سلب . ولم يتورع زئيف جابوتنسكي عن مساواة الصهيونيين بالمستوطنين البيض في الولايات المتحدة ومساواة العرب في فلسطين بالهنود الحمر والزنوج . ونص دستور « هشومير » على الفقرة التالية : « بالدم والنار سقطت يهودا . وبالدم والنار تقوم يهودا » .

ومن هنا ، سيكون من السخرية والسذاجة ان يجتهد المرء كثيرا في البرهنة على ان العنف والسلب الصهيونيين لم يكونا عملا طارئا بعد حرب ٦٧ . كما سيكون من السذاجة ايضا أن يقول أريه الياف وغيره ، في ندوة يديعوت احرونوت ، ان الممارسة الصهيونية في فلسطين لم تكن بالعنف والسلب حتى عام ١٩٤٨ بل .. بشراء الارض . وانه بعد هذا التاريخ طرأ « التحول الكبير » : من شراء الارض بالمال الى شراء الارض بالدم . ويضع المسؤولية على العرب الذين حاولوا الحيلولة دون ضياع ارضهم !.. وقد اقترب عاموس كينان من الحقيقة حين تساءل : لا فارق بين الشراء والاستيلاء . فان تشتري ارض وادي الحوارث مثلا هو عملية سلب من الدرجة الاولى تماما كما تخلي السكان من مشارف رفح . ان شراء ارض قاحلة هو عملية سلب وان شراء ارض مهجورة هو عملية سلب أيضا .

ويخرج الكاتب من هذه المعادلة الصعبة بقوله : عندما تقولون اننا سلبنا وادي الحوارث ، فانكم تريدون ان تشرحوا لماذا نسلب غزة اليوم .وعندما تريدون الا نسلب غزة اليوم ، فانكم تدعون اننا لم نسلب وادي الحوارث . وأنا اقول : نعم . سلبنا وادي الحوارث ، ومع ذلك يجب الا نسلب غزة . لانني اريد ان أضع حدا .

معنى هذا الكلام الصريح هو ان اسرائيل قامت على السلب والعنف . وان هذه البداية لا تبرر استمرار السلب والعنف في اتجاه المزيد من التوسع ، وذلك لكي يكون السلب السابق « شرعيا » . ان هذا الموقف هو الذي يميز ما

يسمى بالاوساط المتزنة في الدائرة الصهيونية الاسرائيلية . الاكتفاء بما سلبته اسرائيل في الماضي ، دون الخضوع لديالكتيك التطور الصهيوني كما ينادي به انصار التوسع الجشع الذي لا حدود له . من هنا ، يكون الاسرائيلي العاقل صهيونيا على الرغم منه ، لان شرعية دعواه مهما اتسمت بالليبرالية قائمة في أساسها على سلب مر عليه الزمن فصار « شرعيا » يستحق الدفاع عنه أمام أصحاب الحق السابقين — وهم العرب . وامام من يهددون هذا الحق بالضياع — وهم الصهيونيون المتطرفون . ومن هنا ، يكون هذا الاسرائيلي اسير تناقضه الذي لا تسهل النجاة منه في اطار الحل الصهيوني . انه يدعو الى كبح جماح الصهيونية والى وقف اندفاعها المتوسع عند نقطتها من الانتصار ، لا الى الغائها . ومن هنا تسقط دعاوي المدافعين عن التوسع الجديد بذرائع التوسع القديم . وتسقط كذلك دعاوي الذين ينكرون وجود توسع قديم لكي يبرروا رفضهم لتوسع جديد .

وقال يشعياهو بن فورات ، في الندوة الصحفية ذاتها ، وهو يدحض النفاق الصهيوني الذي يضفي على الصهيونية اخلاقيات غريبة عنها : ان الحريات الصهيونية اللاعنيفة واللاعسكرية ، لم تثقفني على الصهيونية الاخلاقية التي تتحدثون عنها . فمنذ السابعة من عمري تربيت على العمل العسكري لاحتلال البلاد . لقد نموت في النمسا مع الاحساس بأنه سيجيء يوم نحتل فيه البلاد بقوة الذراع . وعلموني على الاستهتار بالمواطنين العرب . وعلموني على ان ارض اسرائيل لنا ، وان بوسع العرب المقيمين هناك ان يستمروا في العيش بشرط الا يزعجونا . واذا ازعجونا فسنطردهم . وعندما هاجرت الى البلاد وعشت في الكيبوتس لم يربوني على احترام العربي ، ولم يربوني على ان العرب واليهود سيعيشون معا . كان التفكير الخفي ، والواضح احيانا ، هو ان العرب سيذهبون ونحن نبقى . ومنذ عام ١٩٤٥ كان واضحا لنا جميعا أن حربنا ليست لطرد البريطانيين فقط وانما لطرد العرب . وكنا ، في الكيبوتسات ، ننظر الى القرى العربية المجاورة ونقتسم اراضيها في ما بيننا » .

ومن المفارقات الغريبة ، في هذه المناقشات حول اخلاقية الصهيونية ، أن تجد الاكثر تطرفا في اتجاه المزيد من التوسع ينفون عن مرحلة التطبيق الصهيوني بعد حرب حزيران ١٩٦٧ صفة السلب والنهب ويحصرون هذه الصفات في المرحلة السابقة . فقد كتب اليعزر لبنه في هآرتس (٨/٦) : « لقد حدث تغير في الاستيطان الصهيوني اليوم ، بالنسبة لاساليبها قبل حرب الايام الستة ، ففي عهد الانتداب تركز الاستيطان اليهودي بالاساس في المناطق المأهولة نسبيا . وتطلبت اقامة مستوطنة او مدينة يهودية او كيبوتس طرد قرية عربية سابقة . وليس المقصود فقط المدن والقرى والكيبوتسات التي قامت مكان القرى العربية المهجورة ، بل مستوطنات قامت على انقاض قرى عربية مهجورة . والان بعد حرب الايام الستة يختلف الامر من اساسه . فالمناطق في سيناء وفي غور الاردن ، وفي المناطق الشرقية من الضفة الغربية ، وفي هضبة الجولان وجبل الشيخ خالية من السكان . والغريب في الامر ظهور القلق الان من سلب العرب . السبب ليس في الارض ، بل في الشعور الذاتي : أفكار كانت تميز العناصر المعادية كليا للصهيونية ، أخذت تتغلغل في المعسكر الصهيوني » .

ولكن محاولة هذا الكاتب لتبرئة الصهيونية من السلب ، بحجة ان مسرح السلب خال من السكان ، تتعثر عندما يفسر اهداف الصهيونية ، في حديثه بندوة يديعوت احرونوت ، بقوله : « اننا نعود الى هذه البلاد لنركز فيها الشعب اليهودي كله وحين يواجه بسؤال صعب : لمن هذه البلاد ؟ يجيب بسهولة شديدة : « ان أرض اسرائيل ، سواء كانت خالية ام مأهولة ، هي للشعب اليهودي » . وحين يجابه بسؤال صعب اخر : وما هي حقوق العرب ؟ يجيب بسهولة شديدة : « للعرب حقوق شخصية وطائفية ، ولكن البلاد لليهود . واذا كان من الممكن الاتفاق مع العرب ، فيجب ان يتم الاتفاق » . اي — يجب ان يتم الاتفاق مع العرب على اساس اعترافهم بأنهم طارئون على فلسطين ، وان الحق اليهودي مطلق وغير قابل للمناقشة .

ويختتم النائب شموئيل تمير المناقشة حول الصهيونية عام ١٩٧٢ بقوله : « انها في احسن احوالها منذ ولدت . في أيدينا الان أكبر منطقة ، واقوى جيش يهودي . والهجرة تأتي من الغرب ومن الشرق . والولايات المتحدة الامريكية تنظر الينا كحليف ، والسياسيون الامريكيون يهتمون بما يقال في القدس أكثر من اهتمامهم بما يقال في باريس عشية انتخابات الرئاسة » .

في مثل هذا المناخ تجري المناقشة حول « اخلاق »

الصهيونية . ومن الواضح ، ان الصهيونية الاسرائيلية لم تعد ترى حاجة الى التظاهر بالحساسية تجاه اتهامها بالعنف والسلب واللااخلاقية . وان ما كانت تسميه دعاية عربية ضدها ، صارت تستخدمه ذرائع علمية لتواجه به بعض ابنائها الذين يتساءلون عن النهاية ، ويسعون بمشقة بالغة الى « تعقيم » الظلم وحصره في نطاق الاحتلال السابق ، لئلا يؤدي جشع الاحتلال اللاحق الى اضاعة كل شيء .

انهم يخافون ...

● ما هو التأثير الحقيقي الذي يتركه النشاط الفلسطيني المسلح على معنوية الاسرائيلي ؟ وما هو الحجم الحقيقي للقلق الاسرائيلي ، العادي والرسمي ، الناتج عن هذا النشاط ؟ وكيف يقيم الخبراء العسكريون الاسرائيليون حجم وخطورة النشاط الفلسطيني المسلح على اسرائيل وعلى علاقاتها — باليهود في العالم ، وعلى الدول الاوروبية ؟ وكيف يقيم الاسرائيليون الانتصارات التي تحرزها القضية الفلسطينية نتيجة هذا النشاط المسلح ؟ واخيرا .. ما هي الخطة التي تعدها اسرائيل للرد على هذا النشاط على الصعيدين العربي والعالمي ، وهل تفكر اسرائيل بممارسة دور الرد ام المبادرة ؟

لقد اجمع الاسرائيليون ، هذه المرة ، على عدم الاستهانة والاستهتار بتطور النشاط الفلسطيني المسلح وانتقاله خارج حدود المنطقة الى المجال الدولي . وما زالت اجهزة الاعلام الرسمية ، منذ حادث ميونيخ ، مشغولة بتحليل ابعاد هذا النشاط وخطره على الاسرائيلي، جسديا ومعنويا ،وبمراقبة دوره في عرقلة حلول الامر الواقع وفي افساد حس الامان لدى الاسرائيلي رغم انتصاراته العسكرية المتلاحقة . وفيما يلي ننشر ملخصا لندوة بالغة الاهمية عقدتها صحيفة « يديعوت احرونوت » (٩/٢٩) حول هذا الموضوع ، باشتراك مجموعة من كبار الخبراء العسكريين الاسرائيليين هم : الجنرال يشعياهو غبيش الذي كان قائد الجبهة الجنوبية في حرب الخامس من حزيران وبعدها ، والجنرال حاييم هرتسوغ الذي كان رئيس دائرة لمخابرات الجيش الاسرائيلي ، وايتان ليبني الذي كان ضابط العمليات في ايتسل ، ويتسحاق شمير الذي كان قائد ليحي .

سأل محررو « يديعوت احرونوت » عن الاتجاهات التي قد يتطور فيها « الارهاب » وماذا سيكون تأثيره على اسرائيل — على معنوياتها الداخلية وعلى هيبتها ، وعلاقاتها مع دول العالم من ناحية، وعلى الدول العربية من ناحية اخرى .

يشعياهو غبيش : يجب ان نتذكر ان الارهاب كان دائما جزء لا يتجزأ من حرب العرب ضد اسرائيل . ولكنه وجد تعبيره ، في الاساس ، منذ هزيمة الجيوش العربية . فعندئذ بقي « المخربون » وحيدين في ساحة القتال . وقد تبلور التحول نحو اوروبا بعدما فشلوا في اشعال نار التمرد داخل اسرائيل ، وبعدما ابعدوا عن قواعدهم على الحدود . وكان هنالك دافعان لنقل الجبهة الى اوروبا ، فهناك يجدون انفسهم متحررين من الجيش الاسرائيلي ، ويملكون فرص نشاط غير محدودة . واعتقد ان لهم هدفين من وراء ذلك : ان يذكروا العالم بشكل مستمر بأن الحرب مستمرة ، وان يلحقوا الاذى بدولة اسرائيل . وينبغي ان نتذكر انه من اجل تحقيق هذين الهدفين ، لا يجب ان يضربوا اهدافا اسرائيلية بالذات . فمن الممكن ان يصيبوا شركات اقتصادية غير اسرائيلية ، وحركة الطيران الدولي ، والحركة البحرية والسفارات . ومن الممكن ان يخطفوا سفراء اجانب ويقولوا لاسرائيل: « أطلقوا سراح « مخربين » والا ...». انه مجال نشاط بالغ الاتساع . ومن شأن مثل هذه الحرب ان تؤثر على المعنويات في اسرائيل . لقد بدأ الارهاب في تشكيل خطر على الاسرائيليين خارج البلاد وعلى المصالح الاسرائيلية هناك . ومثل هذه الاصابة يؤثر على المعنويات في اسرائيل، ولكن كيان دولة اسرائيل نفسها لا يتربص به خطر من جراء الارهاب . بالعكس ، فان الارهاب يزيد من عطف العالم علينا .

سؤال : الا تخشى ان يبهت عطف العالم ، بمرور الوقت ، فيرى في اسرائيل مصدر قلق لا يتيح له العيش بهدوء بال ؟

جواب : لا ريب في ذلك . وها نحن نرى مثل هذا التوجه من جانب حكومة فرنسا التي تقول :

« القضية ليست فقط محاربة المخربين ، بـل يجب حل النزاع الاسرائيلي العربي » . وفي اعقاب مثل هذا التوجه تأتي ضغوط سياسية .

ان الارهاب لا يهدد بالخطر كيان اسرائيل ، ولكن يشكل خطرا على الاسرائيليين ، ويجلـب علينـا ضغوطا سياسية ، ويمس المعنويات داخل الدولة. حتى اليوم كنا نتلقى الضربة لا نوجهها ، وينبغي ان نوجه الحرب بشكل نكون فيه موجهي الضربة. يتسحاق شمير : الارهاب العربي هو ، عمليـا ، التعبيـر المتطـرف لما يسمى حركـة المقاومـة الفلسطينية . وعلينا ان نأخذ بالحسبان خاصتين جوهريتين لهذه الحركة . الاولى ــ مـن ناحية امكانيـة التسليم والتسويـة ، فـان المقاومـة الفلسطينية هي الد اعدائنا . يمكن ان نفترض ، نظريا ، قيام علاقات سلام وجوار مع دول عربية في الشرق الاوسط ذات يوم . ولكن لا يمكن الافتراض، بأي شكل من الاشكال ، ان نسلم بحركة المقاومة. لان تحقيق اهدافها يتطلب ابادة دولة اسرائيـل . ان معركتنا معهم ليست على مواقع ولا على مناطق وحدود ــ بل على الوجود او العدم . انها حرب حياة او موت . نحن او هم . اذا كنا نريد العيش ــ فيجب ان نسحقهم .

والخاصة الثانية ــ ليست في نشاطهم اي منهـج سياسي ، اعتدنا ان نجده في حركـات تحرير في العالـم . ماذا كان التفكيـر السياسي الـذي استرشدنا به في عملياتنا ضد البريطانيين ؟ لقـد اعتقدنا اننا بعمليات التخريب سندفع البريطانيين الى الاعتراف بأن ثمن سيطرتهم في فلسطين سيكون غاليا . ولكن كان للبريطانيين مكان ينسحبون اليه. ولكن ليست هنالك اية امكانية لان يترك الشعب اليهودي ارض اسرائيـل تحت ضغـط عملياتـه الارهاب ، سواء كانت داخل البلاد ام خارجها . من هنا ، فان حرب المخربين العرب ليس فيها تفكير سياسي ، ولانها كذلك فانها لا تنطوي على خطر ملموس على كياننا . ولانها كذلك ايضا فان هـذه المنظمات خطرة ، ويتوقع منها اشد الاعمال تطرفا وقسوة . ان هدفها هو أن تذهل العالم ، وتلـك احدى الصعوبات في مكافحتها .

ان نشاطهم في الخارج ، على الرغـم من انه لا ينطوي على خطر عسكري على كيان اسرائيل ، يمس الدولة بهيبتها ومواطنيها . انني لا اوافق على الرأي القائل بأن الارهاب يزيد العطف علينـا . فذلك انطباع شديد السطحية . كنت في اوروبا ، وقت قضية ميونيخ ، في اليوم الاول كانت صدمة ، ولكن احتل مكان الصدمة بعد ايام قليلة نوع من التقدير للمخربين على استعدادهم للتضحيةبحياتهم. وفي المقابل قل التقدير لاسرائيـل وتحطمت خرافة جهاز المخابرات الاسرائيلية القادرة على كل شيء. لم يكن من الضروري ان نسمع تصريح بومبيدو لكي نعرف الى اين تهب الريح . ان مثل هذه التصريحات انتصـار ضخم للارهاب العربي . وبوسعـك ان تسمع مثلها في شتى البلدان . يقول الناس « نحن لا نقر الارهاب ــ ولكن يتحتم ايجاد حل » والحـل معناه التسوية . ولكن اية تسوية يمكن ان تتم مع الفلسطينيين ؟.

وأريد ان أتوقف عند نقطة اخـرى : لقـد مس الارهاب معنويات اليهود في الخارج بشكل بـالغ الخطورة . لقد اهتز فيهم الامان بأن اسرائيل لا تغلب . فالامن في اسرائيل كان اساس حسهم بالامن هناك ، وقد اهتز هذا الاساس . ان يهود كثيرين في الخارج يتحاشون الاتصال بالاسرائيليين خوفا ، وفي تلك الايام تحاشوا الذهاب الى الكنيـس . والسبب واضح . انهـم يخافون . فعندمـا اهتز الايمان بقوة اسرائيل صاروا يخافون على جلودهم.

سؤال : كيف نحارب الارهاب ؟

يشعياهو غبيش : ان ذلك يكلفنا مالا ، ويتطلـب جهازا غير صغير وترتيبات ــ ولن يكـون الامـن مطلقا . ولكن ذلك لا يعفينا من وسائل الدفـاع . وذلك يتضمن ايضا ارشاد الاسرائيليين لان يشعروا ويتصرفوا في الخارج كأنهم في جبهة ، واقناع دول العالم بأن هذه القضية قضيتها . ولكن لكي نحـل القضية في يوم من الايام ، يجب علينا ان ننتقـل الى الهجوم في اتجاهين ــ مهاجمة « المخربـين » في قواعدهـم ، لا ردا او انتقامـا ، بل حربـا مستمرة . لقد كانت العملية في لبنان مفيدة ولكن في اللحظة التي تتوقف فيها ولا يتبعها استمرار ــ فانها تخلق انطباعا بأنها عملية انتقامية، يجب الاستمرار في محاربة « المخربين » في لبنان وسوريا وكل مكان يتواجدون فيه . معنى ذلـك ــ عمليات خـاصة وعمليات نظامية وعمليات غير مباشرة .

الاتجاه الاخر للهجوم يجب ان يكون في البلدان التي يعملون فيها ضدنا . قد تكون هذه حربا اصعب ، ولكن من الممكن شنها بوحدات صغيرة وعدد غـير كبير من الرجال . هدفها يجب ان يكون مزدوجا ــ

ضرب «المخربين» وايجاد وضع لا يمكنهم من حرية العمل والحركة هناك . وينبغي التعاون مع بلدان العالم ، ولكني أؤمن بالاعتماد على النفس . يجب ان تشكل هذه القوة بدون تأجيل .

ويجب ان يدخل في وعي « المخربين » حس المخاطرة . فاذا ادركوا ان الخليل ضمت الى دولة اسرائيل نتيجة عمل معين قاموا به ، سيكون للامر تبعات بعيدة المدى على ما قد يحدث للشعب الفلسطيني نتيجة استمرار الارهاب .

لا أقول ان ضم الضفة وقطاع غزة هو السيف الوحيد الذي نستطيع التهديد به فوق رؤوسهم ، فهنالك تهديدات سياسية اخرى . ولكن يجب ان نكون في وضع يمكننا من ان نقول لهم : « انكم بأعمالكم تعرضون الشرق الاوسط للخطر ، ومن يعرف كيف ستكون خارطة الشرق الاوسط بعد ٥ ـ ١٠ سنوات » . انهم يتكلمون اليوم عن تحرير المناطق وتحرير فلسطين . ويجب ان نوصلهم الى الحديث عن تحرير شيء لم يفقدوه حتى الان .

اتيان ليبني : يجب ان نضرب مراكز « المخربين » التي يتلقون منها الاوامر . لا اقصد بذلك جنوب لبنان ، فليس هناك مركز « ايلول الاسود » او فتح . يجب ان نضرب المراكز ، ولا يدهشني اذا اقتضى الامر عملية في القاهرة او طرابلس او بنغازي او دمشق .

حاييم هرتسوغ : كلنا نوافق على ضرورة عدم الاكتفاء بالدفاع في هذه الحرب . ومن واجبنا ان نبين لكل اسرائيلي انه يشكل حدود اسرائيل . وعلينا ان نعود الى ضرب « المخربين » عندما يعودون الى جنوب لبنان ، حتى عندما لا يقومون باستفزاز . يجب ان يكون العمل ضدهم عملا مستمرا ، والا نسمح لهم بالتنظيم ، ومن واجبنا ان نعود الى اخذ زمام المبادرة ، وان نحولهم من مطاردين الى مطاردين فورا على طول الحدود ، وفي مراكزهم بالبلدان العربية وفي مناطق نشاطهم في الغرب .

محمود درويش

وائل زعيتر
قديس آخر يموت في روما

داود تلحمي

كان وائل — على حد تعبير مناضلة في عقدها الثامن من أصدقائه — احدى شخصيات روما . الا أن هذا التعبير الكبير لا يفي وائل حقه ، لان وائل لم يكـن يطمح لحمل أوصاف كهذه : كان متقشفا حتى الزهد ، نكاد نعرفه من بعيد من لون سترته التي لم تتغير منذ سنوات ، ويكاد لا يجد أحيانا في جيبه ثمن وجبـة . وكان متواضعا حتى الانسحاق ، فكانت حياته البوهيمية موضوع تندره المفضل الذي يخلق حوله جوا من المرح الدائم . وكأنه في تعففه هـذا ، كان يريد ان يبقى قريبا — حتى في حيـاته الشخصية — من حياة غالبية شعبه ، الذي كرس في خدمته كـل أوقاته ، منذ ان استعاد الشعب مرة اخرى سلاح التمرد . وكانت صداقات وائل متعددة وواسعة : من البرتو مورافيا الى بائع الخضار في حارته وسائقي التكسي في روما مرورا بمسؤولي ومناضلي مختلف الاحزاب والقوى التقدمية الايطالية . وأوصل وائل من خلالها صوت شعبه الثائر ، بلهجته النابلسية التي دخلها ايقاع ايطالي .

مات وائل كما عاش قديسا (ثوريا) برصاصات الوحيدين الذين يمكن أن يكرهوه ويحقدوا عليه : أعداء شعبه . وكأني به وهو يواجه أعزل باسما في ليلة سوداء أخرى من ليالي « المدينة الابدية » ، قتلة لا يرون فيه الا انعكاس بشاعة جرائمهم المستمرة منذ عشرات السنين والتي يريدون أن يبيدوا كل شاهد عليها ، صورة مثالية أخرى لصراع الخير والشر .

. . .

سنحبس دموعنا يا وائل ، رغم ما يحتشد به قلبنا من حزن وغضب ...

سنحمل ، مثلما حملت ، ابتسامة التحدي والثقة بعدالة النضال ...

ولن يرهبونا ...

وسنستمر يا وائل ،

حتى ترتسم ابتسامات السعادة على وجوه اطفالنا فوق أرض فلسطين الحرة .

وائل زعيتر
مناضلا وانســـانا

منير شفيق

وائل المناضل :

فجأة انتقل اسم الشهيد وائل زعيتر ليتصدر الصحف ونشرات الاخبار ، وراح يتردد على الالسن . ولا شك في أن الكثيرين داخل الثورة الفلسطينية وخارجها ، جعلوا يتساءلون من هو وائل زعيتر ؟ ولماذا اختارته أجهزة العدو الصهيوني الارهابية ليكون أول أهدافها في أوروبا ؟ وبدأت الاجوبة تنهال متفرقة من الذين عرفوا وائل . لقد انهالت الاجوبة متفرقة لان ما من فرد يعرف كل شيء عنه . وهذا ما يحدث عادة بالنسبة للكوادر الثورية التي تعمل بصمت حتى تكاد يدها اليمنى لا تعرف ما تفعله يدها اليسرى ، فهي ان قامت بعمل ، ومهما يكن مثمرا وهاما ، تنساه فورا ، فلا تتخذ منه اعلانا عن النفس ، وتباهيا أمام الاخرين ، او وسيلة للارتقاء والانتفاع . انها تنساه فورا لتبدأ رحلة جديدة مع عمل ثوري جديد . وهكذا تتصل الحلقات فيكون الاعداء اول من يشعر بهذا الكادر وخطورته. لانهم يلمسون اثر جهوده عليهم وعلى مخططاتهم . فالصهاينة الذين قرروا اغتيال وائل كانوا يعلمون انه لم يمارس عملا مسلحا ضدهم لا مباشرة ، ولا بصورة غير مباشرة ، لا تنفيذا ولا تخطيطا . حقا انه لم يمارس النضال المسلح المباشر عن هروب منه نجـــاة بجلده ، بل على العكس فقد كان وائل دائم الاصرار على قيادة حركة فتح ان تعفيه من مهامه الاعلامية والسياسية داخل ايطاليا ، وتأذن له بالعودة الى ارض الصراع المباشر، في الاردن او تحت الاحتلال . ولكن الجواب كان يأتيه دائما ان يبقـــى حيث هو ، ولعل السبب الرئيسي في ذلك ان نتائج عمله الاعلامي ، وما حققه من نجاحات في اقامة اوثق العلاقات بين الثورة الفلسطينية وبين القوى الثورية والتقدمية والانسانية في ايطاليـــا كانت فوق ما يمكن ان ينجزه انسان بمفرده . لقد كان قبول انخراطه في الكفاح المسلح هنا يعني نشوء حاجة تتطلب ان يحل محله عشرة من الكوادر الجيدة والقديرة جدا ، حتى يكون بالامكان الاستمرار بالعمل الذي كان يقوم به وائل ، دون ان يطلب تطويره . ان هذه الاسباب نفسها هي التي دفعت الارهابيين الصهاينة لاغتيال هذا المناضل الثوري الرائع . فقد شعر الصهاينة في ايطاليا منذ اول يوم بدأ فيه بالعمل في حقـــل الاعلام والعلاقات الخارجية في الثورة الفلسطينية ، ان الارض في ايطاليا بدأت تهتز من تحتهم ، وكان باستطاعتهم ان يحصوا خسائرهم بدقة متناهية ، وهم يرون مواقع لهـــم اخذوا يفقدونها الواحد بعد الآخر . ثم يرون جبهة عريضة تتألف في ايطاليا لمناصرة الثـــورة الفلسطينية وبأهدافها الخاصة بتحرير فلسطين كلها واقامة دولة ديمقراطية ، وبقبول استراتيجيتها الثورية في حل التناقض العدائي بين جماهيرنا وبين العدو الصهيوني عن طريق حرب الشعب طويلة الامد . لقد اتسعت تلك الجبهة لتشمل الحزب الشيوعي الايطالي ، وحركة المانيفستو (حركة ثورية ماويـــة) ، وحزب البسوب (الحـــزب

البروليتاري الاشتراكي الموحد) ، واتحاد العمال وعشرات من الحركات الطالبية والثورية ، فضلا عن اجنحة يسارية في الاحزاب الاشتراكية والحزب الديمقراطي المسيحي ، الى جانب شخصيات أدبية وفنية وسياسية وصحفية مرموقة على نطاق عالمي مثلا البيرتو مورافيا وجوليانا وغيرهما .

لقد استطاع وائل أن يبني في فترة قصيرة من الزمان علاقات حميمة بين الثورة الفلسطينية وبين القوى السياسية والعمالية والتقدمية في ايطاليا وكان السر في ذلك ، رغم انه ابتدأ في جو معاد ، يعود الى مثابرته وصبره وثقافته ، وقدرته على معرفة الناس والتأثير عليهم دون ان يشعروا ، فهو لم يكن من ذلك الطراز من الناس الذي يحاول فرض آرائه على الآخرين ، او تقديم اهداف الثورة بأسلوب تبشيري خطابي ، كان أسلوبه بسيطا متواضعا يعكس حقيقته البسيطة المتواضعة ، فهو يحاول أن يفهم الآخرين قبل ان يطلب منهم ان يفهموه ، ويعمد الى تقديم ما يمكن ان يقدمه لهم قبل ان يسألهم تقديم شيء للثورة الفلسطينية . انه أسلوب اعتمد على المعرفة السياسية الواسعة ، والثقافة الرحبة ، والعطاء الثوري وبعد ذلك كان يقدم الوثائق والحقائق بعد ان يلح الآخرون على طلبها ، ثم يترك لهم طلب التعاون مع الثورة الفلسطينية ، وعرض طاقاتهم لمساندتها . وهنا كان يتجلى وائل بتلك الموهبة التي امتلكها ، وهي ايجاد عمل لكل انسان حسب امكاناته وفي المكان الذي يناسبه ، يمكن اعطاء صورة صغيرة على ديناميكيته مقتبسة من رسالة مؤرخة في ٧١/٥/١٠ كان قد بعثها الى مكتب اعلام حركة فتح في بيروت جاء فيها :

« ... سبق وارسلت لك العدد الاول من الطبعة الايطالية لمجلة فتح الانجليزية لقد طبعناها مرة أخرى اذ نفدت الطبعة الاولى وكانت حوالي ٦٠٠٠ نسخة والثانية كانت أربعة آلاف نسخة . المجلة نبيعها ١٠٠ ليرة (ايطالية) للنسخة الواحدة، وتباع بواسطة الطلاب الايطاليين والنقابات والاولاد وطلاب المدارس المتوسطة وغيره... الخ . لقد كلفنا عمل الكليشهات كثيرا ، كما ولقينا صعوبات أخرى . لذا فآمل ان تساعدنا بالنقاط التالية :

١) ارسال ما تختارونه من مقالات بالانجليزية اولا بأول حتى عندما تطلع الانجليزية (يقصد مجلة فتح بالانجليزية) تكون الترجمة عندنا حاضرة ، ولا نضيع وقتا عليها فتصبح بعض الشيء . out of date

٢) اذا أمكن أن ترسلوا لنا الكليشهات او الافلام أولا بأول — كما وعدتم ابو .... — فهذا يجعل الطبع افضل ويوفر علينا فلوس . اما بالنسبة للعدد الثاني — اي عدد ١٢ ابريل — فلقد ترجمناه ، وسنرسله غدا للمطبعة . وأعتقد اننا سنطبع منه عشرة آلاف نسخة ، فاذا ما أرسلت لنا الافلام بالاكسبرس والبريد الجوي فستوفر علينا كثيرا بالاضافة الى وضوح الصور . فهل لك ان تفعل ذلك فسنكون لك من الشاكرين ؟

— هذا ولقد حكم على عدد نيسان بأنه اغنى من عدد ١٢ ابريل بما فيه من documents ، على كل فسأخبركم بالتعليقات التي تصدر عندما ننظم أنفسنا . ولقد اخذنا مكتبا مؤقتا وسننظم أمور الطبعة الايطالية ونعلمكم بذلك . »

وفي فقرة وردت في الرسالة الثانية المؤرخة في ٧١/٥/٢٥ يقول وائل :

« ما هي أخبار العدد القادم ؟ أرجو افادتنا بخصوصه .

« كنتم ترسلون لي بالسابق كمية وافية من الاعداد وهذا ما احتاجه لاجل توزيعه على المترجمين وعددهم حوالى ٢٠ ... »

تدل هذه الفقرات على الديناميكية التي كان يعمل بها المناضل الثوري وائل . واذا اخذنا

بعين الاعتبار ان كل الذين تعاون معهم كانوا من الايطاليـــين (مثلا ٢٠ مناضلا عملوا بالترجمة فقط) ، الذين يعملون تبرعا وعن قناعة ، يمكن ان ندرك قيمة هذه الطاقة الاستثنائية التي كانت تستطيع اعطاء عمل ثوري للعشرات ، وتستطيع ان تعمل بكفاءة وسرعة ، وتحقق نجاحات في ظروف كانت قاسية وصعبة (الشهر الخامس من عـــام ١٩٧١) .

وائل الانسان :

ولد وائل عام ١٩٣٤ في مدينة نابلس وتوجه الى العراق بعد اتمام دراسته الثانويـــة لدراسة الهندسة في جامعة بغداد . ولكنه سرعان ما اكتشف ان طريقه الى الحيـــاة ليست طريق مهندس ، يوقف عمره سعيا وراء المال ، وفي خدمة الشركات واصحاب الاستثمارات . فترك مقاعد الدراسة ليعمل عاملا في مد طريق جنوبي العراق في منطقة صحراوية ، وكان هدفه ان يتعرف على ريف وطنه العربي ، وان يعيش مع عماله ويكدح معهم ... وهناك قضى سنتين يعيش في خيمة وتحت أقسى الظروف ... ولكنه عوض ذلك بمشاركته خلية من عمال الحزب الشيوعي العراقي نضالاتهم الطبقية والوطنية ضد حكم نوري السعيد . وكان معه الى جانب ذلك اصراره الذي رافقه منذ مطلع شبابه ، على دراسة التراث العربي مع اهتمام خاص بدراسة اللغة الايطالية ليتفهم الاوبرا من احدى منابعها ، وهو بهذا وحد في نفسه وحياته صفة المناضل البروليتاري الثوري ، والمثقف العربي الاصيل والذواقة للموسيقى الكلاسيكية ، وبشكل خاص للاوبرا .

ثم راحت الاسفار تتقاذفه مشردا سياسيا ، بعد أن فر من العراق حوالي العام ١٩٥٦ لينتقل الى الكويت ثم الى المانيا ، واخيرا لينتهي به المطاف في ايطاليا حيث كان يطمح في تطوير ثقافته الموسيقية ، والكلاسيكية الادبية ، ما دام لا يستطيع ان يعود الى ارض الوطن بسبب أفكاره السياسية . الكثيرون لا يستطيعون ان يتصوروا ان وائل كان يحفظ آلاف ابيات الشعر العالمي ــ مثلا كان يتلو غيبا مقاطع برمتها من « الكوميديا الالهية » لدانتي ، واكثر منها لابي العلاء وابن الفارض .

بعد حرب حزيران ١٩٦٧ وجدت حركة فتح ان وائل اخذ يفرض نفسه ممثلا لها ، دون ان يدفع باسمه الى الشهرة ، او ان يطلب مساعدة ، فقد اعتبر ان الثورة ثورته وله الحق في ان يعطيها كل شيء . وراح يعمل ليل نهار بصمت ودون ضجة ويصرف كل ما في جيبه من أجل القضية ، ومنذ ذلك التاريخ اصبح وائل كادرا مسؤولا في حركة فتح بعد ان تأكدت الحركة بأنها عثرت على كادر قيادي يشكل ثروة بحد ذاته .

وهنا يمكن ان نقف على جانب آخر من جوانب شخصيته الفذة ، وهو حياته البسيطة المتقشفة ، فقد كان يعمل مترجما في السفارة الليبية في روما ، ولا يصرف على نفسه من راتبه غير النزر اليسير اليسير ، في حين كان يدفع بالباقي كله للصرف على حاجات العمل النضالي . ولعل الكثيرين لا يصدقون انه كثيرا ما كان يقضي يومين او ثلاثة في الشهر جائعا دون أن يكون في جيبه ما يشتري به رغيف خبز ، وما كان ليأكل في تلك الظروف الا اذا ساقته الصدف الى بيت صديق بسط مائدة طعام . اما لباسه فكان مزريا وكذلك غرفته التي ينام فيها . انه لم يفكر قط في ان يفيد من مدخوله المادي في تحسين احواله ، ولو في الحدود الدنيا ، لقد كان هذا ديدنه حتى قبل الثورة . فمثلا كان يذهب بمثل هذا اللباس الى اوبرا روما حيث كان مشتركا مداوما لعدة سنوات ــ وهنالك تعرف على الكاتب الايطالي الشهير البيرتو مورافيا اذ صدف ان كان جاره في المقعد المخصص له في قاعة اوبرا روما ، وقد لفت نظر الكاتب ثم حاز على اعجابه الشديد وصداقته الحميمة بعد ان تعرف على مزاياه النضالية الاخرى ــ عدا الموسيقى ، والثقافة .

كان وائل قبل الثورة متقشفـــا متصوفا يذهب براتبـــه في شراء الكتب والاسطوانات

الموسيقية وارتياد المسارح الثقافية ودور الاوبرا ، فضلا عن مقاسمة رغيفه مع كل مشرد سياسي ثوري يلتقيه ويتعرف عليه . اما عندما انضم للثورة الفلسطينية ، فقد تخلى عن كل شيء عدا بساطة حياته وتقشفه وتحويل معظم راتبه لخدمة القضية الثورية .

طلبت حركة فتح منه في أوائل ١٩٧٠ الاستقالة من عمله والتفرغ كليا لنشاطه الاعلامي ــ السياسي ، وظل كذلك حتى ما بعد ١٩٧١ ، عندما قرر ان يعود للعمل كمترجم بسيط في السفارة الليبية في روما ، اعتقادا منه أن من الضروري الاعتماد على نفسه ماديا واعفاء الثورة من أعبائه المادية رغم انها كانت ادنى من الحدود التي يعيشها طالب متقشف .

وائل المفكر والاديب :

لم يكن وائل كادرا عمليا ينفذ المهام النضالية فحسب ، ولم يكن انسانا حقيقيا فحسب ، ولم يكن مثقفا واسع الثقافة فحسب ، وانما كان ايضا مفكرا واديبا شاعرا (لم ينشر قصائده وهذا ما يحتم على الثورة الفلسطينية ، وعلى فتح بشكل خاص ، انقاذ كل الاوراق التي استولى عليها البوليس الايطالي في غرفته) .

لقد اهتم في الاونة الاخيرة بتأسيس مكتبة للثقافة العربية في روما ، وراح يسعى لتشكيل جمعية صداقة عربية ــ ايطالية تجمع عددا من الفنانين والادباء والشعراء والمثقفين الايطاليين والعرب . وعندما توجهت رصاصات الاجرام الصهيوني لتوقف قلبه الكبير عن الخفقان كان المشروع لا يحتاج الا للمسات اخيرة ليخرج الى النور بكل قوة ، وكان هذا هو السبب الذي حال دونه ودون حضوره مؤتمر الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الاخير الذي هو عضو فيه . عندما جاء الى لبنان قبل سبعة اشهر تقريبا صرفت له مخصصاته المتأخرة ، فما كان منه الا ان اشترى بها كلها كتبا عربية بعضها ذو طابع معاصر وأغلبها من الكتب العربية الكلاسيكية مثل « مسالك العرب » والطبري . وعاد الى ايطاليا بجيوب خاوية الا من الكتب والتصميم على النضال .

اما مشروعه الاخر الذي لم يتمه فكان اشتراكه مع المستشرق الايطالي الكبير فرانسيسكو غابريلي في ترجمة « الف ليلة وليلة » الى الايطالية وكان هذا المشروع باكورة مشاريع مماثلة ، كان يخطط لها ، وكلها تهدف الى تمزيق ستار التعتيم الفكري الذي يفرضه الغرب على الثقافة العربية التي يعتبرها واحدة من اعظم الثقافات العالمية الحضارية . وقد يعجب البعض حين يعلمون انه كان يتساءل دائما ماذا سيتمخض عن الثورة الفلسطينية من مساهمة في الثقافة العالمية ؟ لم يكن وائل يطرح هذا السؤال واشباهه الكثير من الاسئلة التي تتكشف عن مفكر متأمل فيلسوف ، انطلاقا من مواقع المثقف الاستعراضي ، وانما كان يفعل ذلك تاركا فيمن يستمع اليه الشعور بصدقه ، بل ان المرء ليستطيع ان يلمس عذابه الداخلي وهو يفكر بمثل هذه الاسئلة . لقد كان متحرقا فعلا لكي يرى الثورة الفلسطينية والثورة العربية تتمخضان عن عطاء كبير للثقافة الانسانية والحضارة العالمية ، تواصلان به عطاء الماضي .

لقد كان فكر وائل بوتقة انصهرت فيها مجموعة من الثقافات توجت بما اخذ بيديه في السنين الاخيرة من اهتمام بالتجربة الصينية ، خاصة ، الثورة الثقافية . وربما كانت آخر احلامه رؤية ثورة ثقافية عميقة تحمل اصالة عربية بكل ما تحمل الكلمة من معنى تنتشر بين الجماهير الفلسطينية والعربية ضاربة الجذور بالتراث ، صاعدة من اعماق الشعب ، محررة نفسها من تقليد الغرب ، وضياع الشخصية .

وبكلمة ،

كان وائل كادرا ثوريا قياديا موهوبا ، ولكنه كان يتصرف كعنصر عادي .

وكان متقشفا متفانيا منكرا لذاته ، ولكنه كان يملأ نفسه بغنى داخلي لا حدود له .
وكان فنانا وشاعرا ومفكرا ، ولكنه ظل تلميذا في بحثه عن المعرفة .
وكان انسانا عاملا بسيطا ، ولكنه كان يعاني عذابا داخليا وقلقا عميقا .
وكان فتحاويا وماركسيا ، ولكنه كان في الوقت نفسه ناسكا صوفيا ،
والاهم من هذا كله انه اعطى الثورة الفلسطينية كل هذا دفعة واحدة .

CRIMES AND NO PUNISHMENT

Zionist - Israeli Terrorism 1939 - 1972

By

Sami Hadawi

Will be Published Soon by the Palestine Research Center

(P. O. Box 1691, Beirut)

نشرة رصد اذاعة اسرائيل

أصدر مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية اعتبارا من ١٩٧٢/٨/١ نشرة استماع يومية للاذاعة الاسرائيلية التي تبث برامجها باللغة العبرية ، وذلك بغية تزويد الجهات المعنية والمسؤولة والمختصة في البلاد العربية (العسكريون ، السياسيون ، الاعلاميون ، الصحافيون ، الاقتصاديون ، مكاتب المقاطعة ، الباحثون الخ ...) بأخبار العدو ومواقف قادته واتجاهات سياسته والتطورات التي تطرا عليه في مختلف الميادين ، بحيث يسهل على ذوي الشان ، حين يطلعون على حقيقة ما يجري ويقال في اسرائيل ، اتخاذ الاجراءات اللازمة .

تتميز نشرة مركز الابحاث بانها تتضمن تسجيلا كاملا ودقيقا للتعليقات السياسية والندوات والمقابلات واقوال الصحف التي تبث من الاذاعة العبرية يوميا ، بالاضافة الى تسجيل جميع نشرات الاخبار . وتطبع النشرة على « الاوفست » لضمان اخراجها بشكل جيد ومريح للقارىء .

يقوم المركز بتوزيع النشرة يوميا على المشتركين في بيروت . اما المشتركون خارج بيروت فترسل لهم النشرات بالبريد الجوي ، او باية وسائل أسرع .

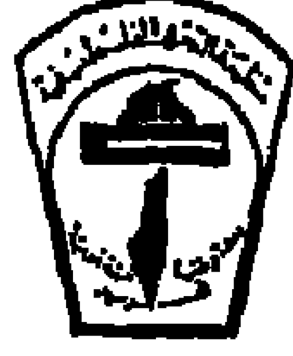
يتوجه مركز الابحاث اليكم على أمل ان تشتركوا بنسخة أو اكثر من هذه النشرة . وبالنظر الى التكاليف الباهظة نسبيا للنشرة (الاستماع ، الترجمة ، السحب ، التوضيب ، التوزيع ، الورق وخلافه) فقد تقرر أن تكون قيمة الاشتراك خمسماية ليرة لبنانية للحكومات والمؤسسات العامة ، وثلاثماية ليرة للمؤسسات الخاصة والصحافة ، او ما يعادل ذلك بالعملات الاخرى ، يضاف اليها اجور البريد : في البلاد العربية ١١٠ ل. ل. ، في اوروبه ١٥٠ ل. ل. ، في الاميركتين ٤٠٠ ل. ل. ، وفي آسيه وافريقيه ٣٥٠ ل.ل.

ان مساهمتكم بالاشتراك بأكبر عدد ممكن من النسخ هو الذي سيمكن النشرة من الصدور والاستمرار والنمو (خاصة واننا ننوي أن نبدأ بعد فترة وجيزة بنقل البرامج الاذاعية الاسرائيليـــة التي تبث باللغات العربية والانكليزية والفرنسية والتي سيكون لها قيمة كبيرة لدراسة الحرب النفسية التي توجهها اسرائيل للعرب ، ولدراسة التباين بين ما تذيعه اسرائيل بالعبرية لمواطنيها وما تذيعه بالعربية للعرب وما تذيعه بالانكليزية والفرنسية للرأي العام العالمي وما لذلك من فائدة كبيرة لاجهزة الاعلام العربية) .

ترسل الاشتراكات الى :

مركز الابحاث ، نشرة الاستماع

ص. ب ١٦٩١ ، بيروت .



صدر عن

قسم الثقافة الفنية - دائرة الاعلام والتوجيه القومي
منظمة التحرير الفلسطينية
بيروت - كورنيش المزرعة - ص.ب ٥٣٨٣

موجز تاريخ فلسطين المصور

اعداد وتصميم : إسماعيل شموط

كتاب مصوّر بالألوان يعرض تاريخ فلسطين منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا

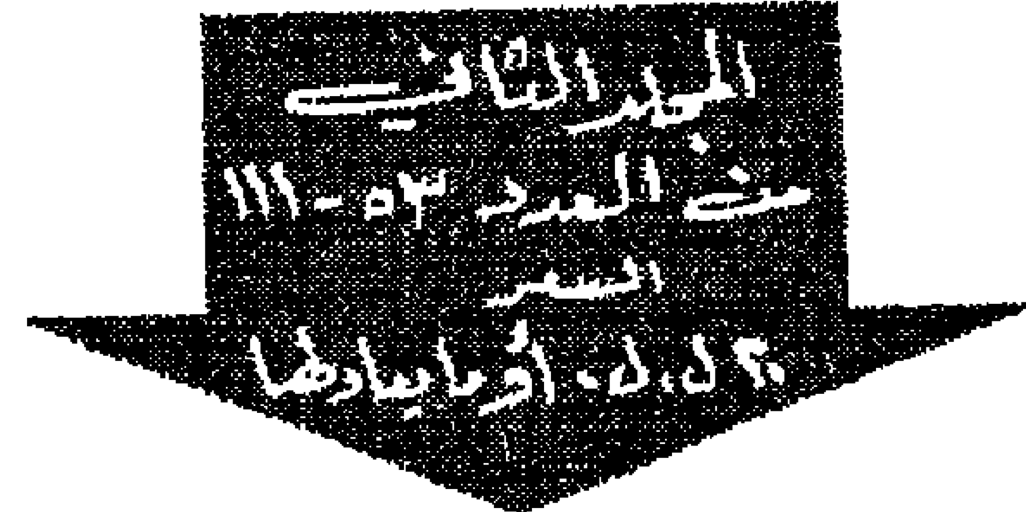
متوفّر بأربع لغات : العربيّة ، الانكليزيّة ، الفرنسيّة ، الاسبانية

ثمن النسخة مع اجرة البريد الجوي :

	ليرة لبنانية	دولار
للبلاد العربيّة	٤ ,-	١,٢٥
للبلاد الأوروبيّة	٤,٥٠	١,٥٠
لباقي بلدان العالم	٦ ,-	٢ ,-

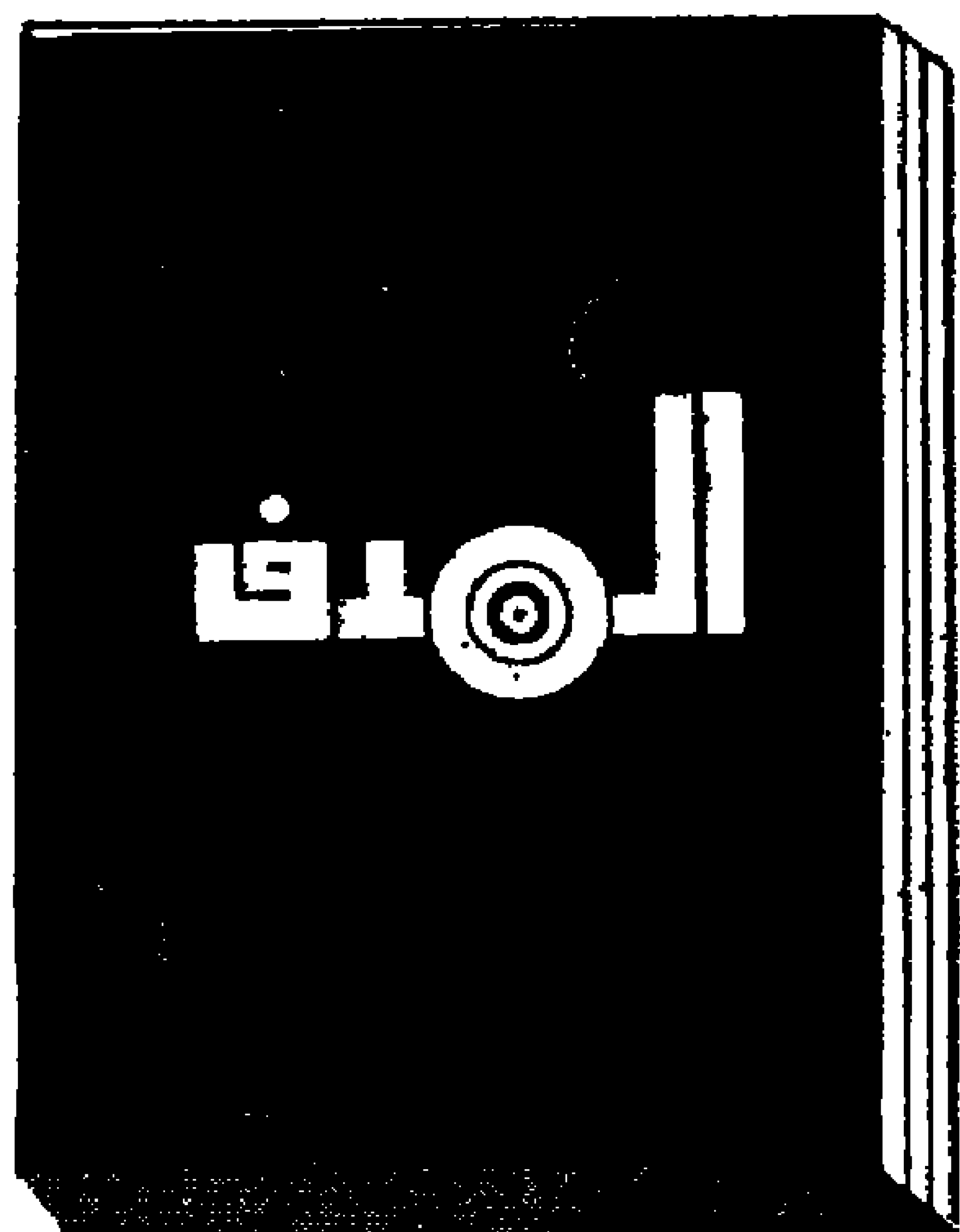
يطلب من قسم الثقافة الفنية - منظمة التحرير الفلسطينية -

بيروت ، ص.ب ٥٣٨٣







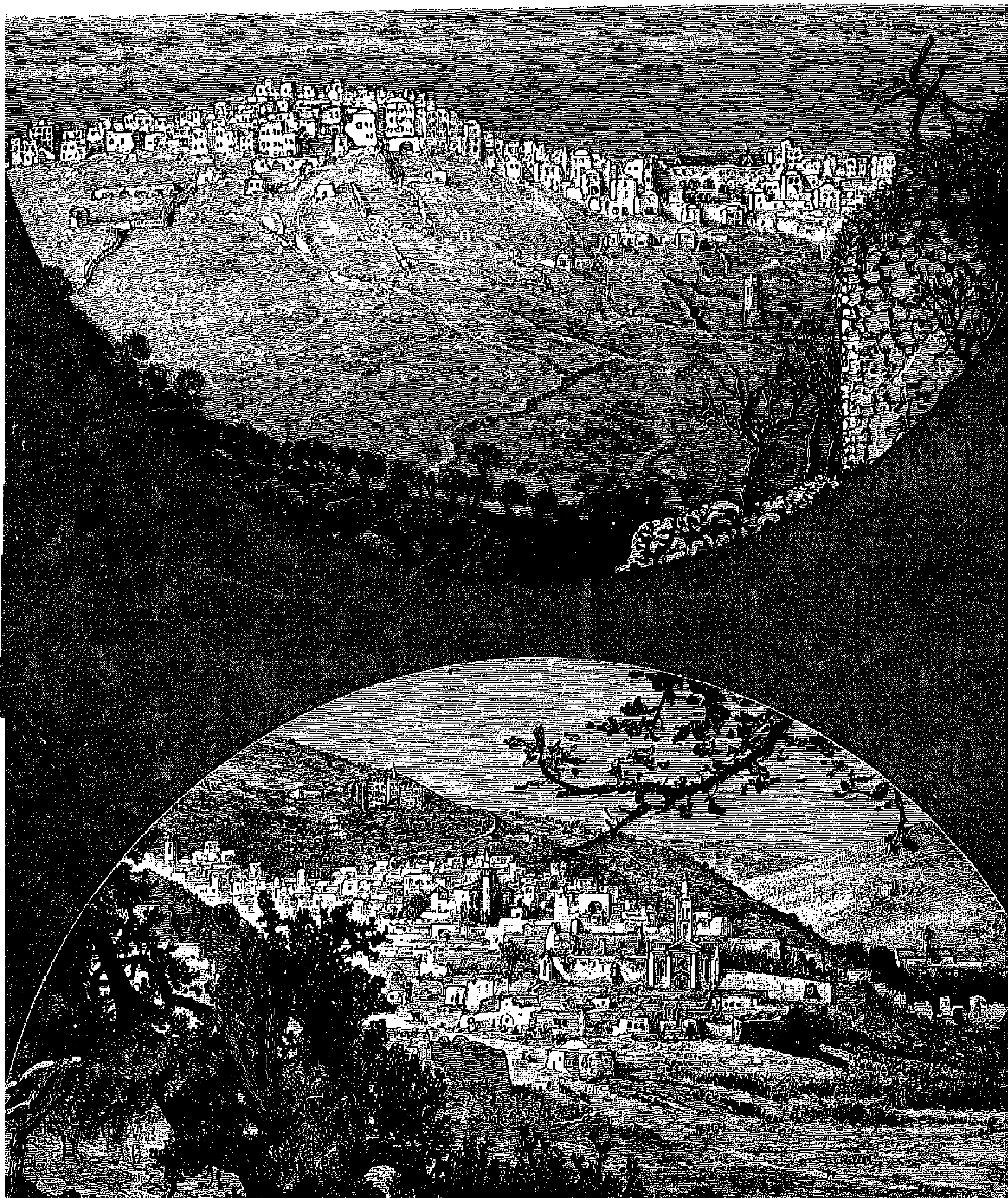


يطلب من الادارة
ص ب ٢١٢
بيروت - لبنان
يضاف الى القيمة
٥ ل.ل. كأجور بريد
بالبريد المضمون العادي

(ملاحظة : المجلد الاول من العدد ١ — ٥٢ نافد)

شؤون فلسطينية

١٠
كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٢



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ١٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٢

دورية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر شهريا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحاث ، بيروت .

ثمن العدد (بريد جوي) : ٢ ١/٢ ل.ل. في لبنان وسائر الوطن العربي، ٤ ل.ل. في آسية وافريقية واوروبة ، ٦ ل.ل. في الاميركتين واوسترالية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٣٠ ل.ل. في لبنان والوطن العربي، ٥٠ ل.ل. (١٦ دولارا اميركيا) في آسية وافريقية واوروبة، ٨٠ ل.ل. (٢٦ دولارا اميركيا) في الاميركتين واوسترالية . (بريد عادي) ٤٠ ل.ل. (١٣ دولارا اميركيا) في سائر الدول الاجنبية .

يعطى حسم ٥٠٪ (عدا البريد) على الاشتراكات للمقاتلين والعمال اذا جاءت الطلبات من خلال التنظيمات او النقابات او الاتحادات .

صورتا الغلاف : بيت لحم والناصرة ، في القرن التاسع عشر

المحتويـــات

شؤون فلسطينية

ابراهيم العابد

رغم الاصابات الجسيمة التي سببها الانفجار الغادر ، ظلت كلمات رئيس التحرير ، المدير العام لمركز الابحاث الفلسطينية ، تتصدر شؤون فلسطينية ، وواصل الدكتور صايغ اشرافه الكامل ، حتى في أثناء وجوده في المستشفى ، على مواد الاعداد السابقة (١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥) حتى هذا العدد الحالي . لكن اضطراره الى السفر الى الخارج لمواصلة العلاج منعه ، ولهذا العدد فقط ، من كتابة الافتتاحية .

يتضمن هذا العدد حديثا مطولا مع المفكر الفرنسي التقدمي البارز جان جونيه الذي حضر الى لبنان خصيصا لهذا الغرض . ورغم انه أمضى في لبنان ما يقارب الشهر ، الا انه رفض اجراء أي حديث مع اية صحيفة قبل ان ينشر حديثه في شؤون فلسطينية . في العدد أيضا دراسة اقتصادية — سياسية معمقة عن النفط العربي ودوره في المجابهة العربية — الاسرائيلية طلب منا تقديمها الى اجتماع وزراء الخارجية والدفاع العرب الذي عقد في الكويت يوم ١٥ تشرين الثاني الماضي بالنظر الى اهميتها وعلاقتها المباشرة بأعمال الاجتماع . مقال آخر في هذا العدد يعالج ظاهرة جديدة مهمة بدأت تبرز ، لكن ببطء ، في اسرائيل تتمثل في رفض بعض الشباب اليهود الانخراط في الجيش الاسرائيلي. أما ندوة العدد فقد خصصناها لاستعراض جوانب غير معروفة من تاريخ الحركة النقابية الفلسطينية قبل ١٩٤٨ واشترك فيها خمسة من قادة هذه الحركة يتحدثون لاول مرة في ندوة واحدة .

ويتضمن العدد جزءا أدبيا رئيسيا ففيه قصيدة جديدة أخرى لزميلنا الشاعر محمود درويش مستوحاة من الرسالة التي كتبتها ايريـن بيسون في العدد الماضي عن قبور الشهداء في غزة ، وفيه قصتان غير مكتملتين لشهيدنا غسان كنفاني كان قد بدأ بكتابتهما لشؤون فلسطينية . وكان غسان قد بدأ بكتابة « الاعمى والاطرش » حين سجن ويوم خرج من السجن تمنينا له أن يسجن مرة أخرى حتى ينهيها ، ويا ليته !

الى جانب هذه المقالات هناك دراسة عن القوى السياسية الفرنسية وموقف كل منها من القضية الفلسطينية ننشرها في الوقت الذي يزداد فيه دور فرنسا خاصة وأوروبا بشكل عام أهمية في الصراع العربي — الاسرائيلي ، ودراسة عن توفيق كنعان الطبيب الفلسطيني الذي كان له وحده الفضل الاول في تسجيل جوانب مهمة ومفيدة جدا من التراث الشعبي الفلسطيني .

لا بد لنا أخيرا من كلمة عن رواج شؤون فلسطينية . حين صدر العدد الثالث طبع منه نسخ زادت بنسبة الثلثين عن العدد الاول ، وحين صدر العدد السابع تضاعف عدد النسخ مرتين ونصف المرة عن العدد الاول . وبصدور هذا العدد ، تضاعف عدد النسخ ثلاث مرات . بالاضافة الى ذلك ، فقد أعدنا طباعة الاعداد الستة الاولى بسبب الطلبات المتزايدة لاقتناء مجموعات كاملة .

جان جونيه : احاديث عن الثورة الفلسطينية

هذا المقال كتبه جان جونيه لشؤون فلسطينية . وهو تسجيل لما رآه وما استنتجه بعد اقامة دامت عدة اشهر بين الفدائيين والشعب في الاردن مباشرة بعد معارك ايلول ١٩٧٠ . وهو رد على اسئلة طرحناها عليه وناقشها مع شبان فلسطينيين في باريس والشرق . اجاب جونيه بصراحته المعهودة في كتاباته الادبية . اجاب ببساطة وعمق معا . بعض ملاحظاته قد يثير الدهشة ، والبعض منها قابل للنقاش . الا ان المقال من اوله الى آخره مطبوع باخلاص عميق وحب شديد للثورة والشعب . جونيه تكلم عن تاثير اجواء الثورة الفلسطينية على رجالها ونسائها وعليه هو ايضا ، وعن حاجات الشعب الفلسطيني ومطامحه وعن العقبات التي واجهها، عن المشكلة اليهودية وعن الفن والادب في الثورة . كل ذلك بلغة فرنسية جميلة يصعب ان تنقل الترجمة العربية كل مزاياها .

مرة اخرى نطرح امام القارىء نظرة صديق من الخارج الى واقع عاشه ويعيشه شعبنا كل يوم ، حتى اصبحت بعض جوانبه جزءا من الطبيعة لا تلفت الانتباه . وهنا تكمن نقطة ضعف وقوة نظرة كهذه : ففي الوقت الذي لا يتمكن فيه الصديق مهما طالت اقامته وازداد تعلقه من استيعاب معطيات الوضع بشكل كامل ، الا انه احيانا اقدر من بعض المقيمين على لمس بعض القضايا التي عودتنا السنوات على اغفالها (واشير بصورة خاصة هنا الى ملاحظاته حول حياة المخيمات) . جونيه نظر بعينين مجردتين الا من الصداقة والصدق الى واقع يومي لشعبنا ومناضلينا : وبين الرؤى المتعالية السردية من جهة و« المفاهيمية » المجردة من جهة اخرى ، تاتي هذه الرؤيا بنفس جديد .

يتعرض المقال لاكثر من هذا ، ويطرق اكثر من موضوع وتتشابك المواضيع بدون تسلسل ، على نمط بعض اللوحات الحديثة . قد يجد القارىء في ذلك اضعافا للسرد ، الا ان المؤلف يرى غير ذلك ، وحافظنا بالتالي على النفس الذي وضعه ، ولم نقطعه الا بعناوين جزئية هي بالطبع ليست الا مؤشرات تسهل القراءة ولا تشكل تبويبا متناسقا .

بعض القضايا التي يطرحها الكاتب تحتاج الى توضيح ونقاش . اخص منها بالذكر : قضية العروبة والعمليات الخارجية ومشاكل الفن والادب في الثورة . بالنسبة للقضية الاولى نود أن نترك لجونيه مسؤولية ما كتبه وبالشكل الذي كتبه ، الا انه يهمنا ان نؤكد للقارىء وجهة نظرنا : نحن اعداء الفكر الشوفيني والتعلق باحلام ماضية تبرر عجزنا وتقاعسنا اليوم بحجة ما قمنا به في الامس الغابر من اسهام في « الحضارة الانسانية » ، الا اننا نعتز بماضينا ونعتبر ان فيه الكثير من الدروس التي تفيدنا في مسيرتنا الثورية وفي تعزيزها . ونحن ضد الفكر القومي الطوباوي الذي لا ياخذ بعين الاعتبار خاصية كل قطر وبالتالي كل نضال قطري في معركة التحرير الكبرى . الا اننا كذلك ضد الفكر الاقليمي الذي ينظر الى تحرير فلسطين بمعزل عن الثورة العربية ضد الامبريالية التي لا تشكل اسرائيل الا اقوى حلقاتها في المنطقة . نحن ضد « وحدة

ادوات القمع » ومع « وحدة الثورات الشعبية » . والوحدة الاخيرة ليست فقط مطلبا جماهيريا وانما هي حاجة تاريخية لمواجهة التحدي الامبريالي سياسيا واقتصاديا وعسكريا . ونحن اخيرا ، نمضي من واقعنا المتميز ماضيا وحاضرا لبناء مستقبل على ارض وفي فضاء القرن العشرين . فالتعريب ثوري اذا عنى شمول التحدي القطري والتقاءه ، وهو رجعي اذا قصد به تغطية الهروب امـام المسؤوليات التاريخية . وباختصار فالمعنيان في قاموسين طبقيين مختلفين . اما موضوعا العمليات الخارجية والفن والادب في الثورة فسيكون لنا رجوع آخر لهما .

بقي ان نعرف بكلمات قليلة كاتب المقال . جان جونيه من مواليد ١٩١٠ . كتب اول مؤلفاته القصصية والمسرحية والشعرية في السجن في مطلع الاربعينات ، فانهارت على حد تعبيره جدرانه الاربعة وامتد افقه ليشمل العالم كله : لان كتاباته ترجمت الى اكثر من عشرين لغة . وكتب سارتر فيه كتابا بعنوان « القديس جونيه » ساعد على ادخاله بشكل مفاجيء الى جو الادب العالمي .

وحينما طلبت من جونيه عنوانا لمقاله اقترح « شخص يكتب عن الثورة الفلسطينية » مضافا اليه ان « آراء الكاتب قد تكون صحيحة أم لا ، وهي قابلة للنقاش ، وعلى القارىء ان يقرر ان كانت تستحقه والا فعليه ان يهملها » . فجونيه عرّف هنا نفسه .

داود تلحمي

الحديث التالي جرى في باريس ليلة ٢٧ أيلول ١٩٧٢ ، في حي شعبي . في الغرفة سبعة شبان فلسطينيين (بين ٢٠ و٣٠ عاما) ، فتاة فرنسية وأنا . وكان وائل يدير الحوار ويقوم أحيانا بالترجمة .

والمواضيع الرئيسية التي تطرقنا لها ، أحيانا في شيء من التعب والفوضى ، كانت تقريبا التالية : ميونيخ ، ايلول الاسود ، الاسلام ، الصهيونية واليهـود في فرنسا ، فشل المقاومة الفلسطينية في الاردن ، صعوبات الزواج الرسمي، واقع الانفصام بين مجتمعين (الفلسطيني والاردني) ، الحرص على وجود علاقات انسانية في عالم يتجه بسرعة نحو فردية مطلقة ، المقارنة بين الثورة الفلسطينية وثورات اخرى في العالم ، ذات ميزات وفي مراحل مختلفة . . .

ولا بد من الاشارة فورا الى انني وجدت في هذه الغرفة الباريسية ، حرية التعبير نفسها التي وجدتها في الاردن ، في قواعد فتح . والتحفظات القليلة التي لمستها — والتي لم تكن موجودة في القواعد — تتعلق بموضوع الدين وثم غياب العلاقات الزوجية ، الذي يعتبر تقريبا كارثة من قبل بعض الرجال هنا (« الزواج وحياة الزوجين في مجتمعنا ، يسمحان بالتخلص من الوحدة ») . ولمحت البلبلة التي يعيشها هؤلاء الشبان — الذين ما زالوا في غالبيتهم يتكلمون الفرنسية بصعوبة — في نوع من المنفى ، ازدادت مرارتهم فيه بعد خسارة قواعد الفدائيين والميليشيا في الاردن. ولكنني كنت ألمح من خلال هذه المعارضة، مصدر بلبلة آخر : تخوف الذكر من فقدان امتيازاته . وباختصـار ، اذا تحررت النساء ، فسيخسر الرجال احدى المظاهر الاولية للسلطة . وقد وجدت عند عصام (احد الذين يجيدون الفرنسية اجادة اكثر) اختيارا للمفردات الصعبة، التي تبدو له طبيعية ، ولكنها قد تكون كذلك تعبيرا عن حب السيطرة : تعابيره الحذقة تاسية أحيانا ، وقد ترهب بعض الفدائيين المبهورين بعلم بهذه السعة . مبهورين اذا راضخين .

وحينما بدأت بالتكلم عن : الثورة ، المقاومة الفلسطينية ، ادركت ان هذه التعابير لا تعني شيئا بالنسبة لي : بعد عدة اشهر امضيتها في قواعد الاردن ، ما اذكره هو مجموعة وجوه . كلها تحمل أسماء ، حتى لو كانت وهمية . كل رجل او امرأة كان يتفاعل بشكل

مختلف عن الآخر . لا بد أن أضع جانبا أو انسى كل هذه الوجوه ، حتى المس ما هو مشترك بينها ، وما يحركها . ولن أنجح دائما .

وما يجب الا نغفله هو انه حينما كانت الثورة الفلسطينية ، في الخارج ، تلمع بوهج عظيم ، في هذا الوقت نفسه كان السلاح ينتزع من ايدي الفدائيين وكانت قواعدهم تتقلص اكثر واكثر . ما زلت أذكر ليلة قضيتها في مغارة قرب نهر الاردن ، حينما كان احد المسؤولين يحاول اقناع عشرين فدائيا او اكثر بالقاء السلاح ــ وكانت حجته بأن الجيش الاردني من طرفه سيحد من هجومه . وكان الفدائيون ناقمين ، وغير مقتنعين بالاسلوب . وفي النهاية ، اقلعوا عن المعارضة ! وكانت هذه بداية انهيار الثورة في الاردن ، في الوقت الذي كانت فيه الشبيبة في العالم اجمع ، تمجد المقاومة .

جذور الشخصية الفلسطينية

خصوصية الثورة الفلسطينية تعود الى جذورها . كانت فلسطين مقاطعة عثمانية ذات طابع فلاحي اساسا ، تعيش في شيء من الحرية . وكان الموظفون الاتراك يأتون بين حين وآخر لجني نوع من الضرائب . واليهود فيها ، كما في سائر العالم العربي ، كانوا قلائل . وحينما قررت الصهيونية ، في أولى تعبيراتها ، احتلال البلد ، لم ير السكان في البدء حرجا . كانوا يعلمون ان العديد من اليهود هربوا من المذابح الروسية والبولونية . ولهذا لم يسيئوا معاملتهم . لكن الاحتلال اليهودي استمر وتصاعد حتى أصبح جارفا . وبدأ الفلسطينيون بالتململ . ومع انهم كانوا جزءا من كل متجانس يحمل اسم « الامة العربية » الا ان العرب انفسهم بدأوا بالتكلم عن **الفلسطينيين** وعن **فلسطين** وعما يحدث فيها . وفي مواجهتهم لليهود ورواد الاحتلال ــ الذين بدوا فقراء الا ان أموال الصندوق القومي كانت وراءهم ــ بدأ الفلسطينيون بالشعــور بخصوصيتهم : بدأوا يشعرون بخصوصية لغتهم ، دينهم ، عاداتهم وأسمائهم . كان هذا بدء وعي جماعي ، ولكنه لم يكن بعدا قوميا(١) . وبعملية شراء خبيثة للاراضي ، ومنع بيعها فيما بعد لغير اليهود ، اصبح اليهود ملاكا لمساحات واسعة . وتطور الوعي الفلسطيني ، ومــا زال يتطور الآن ، نحو وعي قومي أكثر واكثر نضوجا ، في وجه عملية مقابلة عند اليهود . وفي الوقت الذي كان عدد اليهود يتزايد واملاكهم تتسع ، لم يبلغ الفلسطينيون درجة الوعي بشخصية قومية ــ مستقلة في اطار العالم العربي ــ الا حينما افتقد هــذا الشعب أرضه . وكان اليهود قد اشتــروا الارض او طردوا السكان باستعمــال الاساليب الارهابية . ويمكننا القول اذا ، ان الوعي القومي الفلسطيني نضج في الوقت الذي انتزعت فيه الارض كالبساط من تحت اقدامهم . والهزات الثلاث الاعنف لانتزاع البساط كانت في ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ و١٩٦٧ . والشعب الفلسطيني أصبح في النهايــة حقيقة . أصبح كيانا ولكن بدون أرض .

ما سأطلق عليه فيما يلي اسم « الاخلاق اليهودية ــ المسيحية » ، وهي مفهوم لا يعبر عنه لفظ « الاخلاق البورجوازية » ، ولكن ربما ناسبه لفظ « النزعة الانسانية المسيحية» humanisme chrétien ، يمتد الآن ليشمل العالم اجمع . ولا أستثني الصين بعد دخولها الامم المتحدة واليونسكو ومؤسسات اخرى اوجدت في ظل هذه النزعة . وحتى نواجه هذه النزعة ، التي تشمل تقريبا احترام العائلة والملكية والشوفينية والنظام والقانون (بشرطته وعدليته) والجيش والمرتبية hiérarchie ، والفن الاكاديمي وقواعد اللغة الخ ، نحتاج لاحد اولئك المخربين الكبار ، الذين كان نيتشه احد اسلافهم . هذه النزعة تعتمد ، فيما تعتمد عليه ، على الملكية العقارية . نعلم جيدا ان التداول (البنوك ،

---

(١) هذه الكلمة هي ترجمة national ولكن الترجمة الدقيقة تشير الى الانتماء الى وحدة ــ شعب ــ ذي صفات مميزة .

القروض الخ) أصبحت ادوات سلطة اقوى من الاكتناز ، ولكن القيم العقارية ما زالت مهمة . وهذا الارتباط بالارض، ينعكس في الامم المتحدة ، حيث تعتبر الامة أمة — حسب تعريف ستالين — اذا شكلت وحدة اقليمية . التمسك بالارض ليس جديدا . ولكن شعوبا بلا أرض جابت التاريخ : المغول ، الهان ، الفاندال ، الفرنك ، والغجر وعدة قبائل افريقية وعربية . ويسميها التاريخ أحيانا شعوبا . ومن غير المنطقي ان تعترف الامم المتحدة ، وهي تجمع لشعوب ساكنة ، بشعب بلا أرض ، كما ان رجلا بلا دار يعتبر متسكعا ويتعرض للسجن . والفلسطينيون مهما فعلوا معرضون لشتائم الآخرين وحتى لاحتقارهم . كل جهد سيبذل ، بلا شك ، لدعم اسرائيل في رفضها بأن تتحول فلسطين الى أرض . واسرائيل ذات خبرة ، فلها ماض من الفي سنة من التشرد .

وهناك حاجة لدراسة للموضوع — وربما كان قد قام بها فوستيل دو كولانج Fustel de Coulange في كتابه « المدينة القديمة » حول العلاقات بين امتلاك الارض والحصول على الاعتراف « بمحترمية » Réspectabilité أجتماعية .

واذا كان ما أقوله صحيحا ، فان اسرائيل التي كانت سبب تشردكم في انحاء العالم العربي ستعمل كل ما في وسعها كي لا تحصلوا على قطعة ارض . والاسلوب الوحيد أمامكم لمواجهة الوضع الحالي هو العمل ، بالعنف أو بدونه ، على الاراضي التي تمرون عليها . حتى الكنيسة الكاثوليكية ، وهي « سلطة روحية » أرادت لها أرضا : الفاتيكان .

ربما كان من غير المستحيل ان نرى ، في تعلق البعض بالشخصية الفلسطينية ، التأثير الذي تتركه احيانا حركات التمرد الكبيرة . وفي هذه الحال ، لن يأتي التضامن مع هذه الشخصية الا من العناصر الهامشية : الطلاب ، النساء ، اليسار المتطرف ، الفنانين ، والصين نفسها في معزل (حتى الامس) . وتأييد الاتحاد السوفياتي ذو طابع آخر . لا بد من قراءة واستعادة كتاب فوستيل دو كولانج .

مهربان : الخيالي والعروبة

أين كان اذا هذا الشعب ؟ الارض التي تنساب تحت أقدامه ، مثل البساط ، لم تمنع هذا الشعب من تملك الوعي القومي والمحافظة عليه ، ولكن اين ؟ ليس الا على أرضيتين كلاهما غير مناسب : الخيالي والعروبة .

لا بد من رؤية طريقة تشكل هذا الكوكب الجديد : على ارض غير واضحة الحدود ، رمل متناثر من العائلات الملتصقة بالارض لانها تعيش عليها ، ولكنها حرة في تنقلها سواء وحدها أم في قوافل ، تجوب هكذا العالم الذي ينطق بالعربية من أقصاه الى أدناه — وحتى ابعد ، في العالم الذي يتلو القرآن . هذه العائلات ، أو الافراد ، تعود دائما الى منزلها في الخليل ، في حيفا أو القدس . أرضها هناك ، راسخة وغنية . ولكن شيئا فشيئا ، تذوب الارض ، تذوب حتى تختفي تحت اقدامها ، ولكن الشخصية الفلسطينية اتخذت وزنا أكبر فأكبر ، واذا أردنا ثقلا حقيقيا . ولكن ، في هذه الحقبة بالذات ، بعد سلبها من أرضها ، القت بثقلها المتزايد في اتجاه الخيالي والعروبة .

الخيالي ، بالنسبة لفلسطين ، ذو اثر حسن الى حد ما . اضطر الشعب الفلسطيني في افتقاده للارض الذي ربما أضعف شعوره القومي ، أن يكتشف في الخيالي قواعد يحافظ عليها بحرص حتى لا يتبخر في الحلم او في المثاليات . وفي الوقت نفسه ، وبعد المجازر الاردنية ، والتهديدات العلنية الاسرائيلية ، والتهديدات المبطنة الاخرى — التي لا بد من الاشارة اليها — من الدول العربية الاخرى ، استمرت فلسطين المحرومة من الارض في التكون كشعب مستقل .

في حديثي عن مخيمات اللاجئين ، يصعب علي أن اتخلص من فكرة تراودني : في عصر

اصبح بالامكان فيه الحصول على مواد رخيصة ورائقة للعين ، ويستطيع فيه المهندسون الشبان الحاذقون ان يبنوا بسرعة ممرات معبدة وقنوات من البلاستيك، كان من السهل ان يعيش اللاجئون الفلسطينيون في لبنان والاردن في نوع من القرى اللطيفة — التي يعيش فيها الانسان بسرور . لكن الحكومات العربية الغنية والاونروا أسكنت اللاجئين في مآو معدنية ، من الحديد أو الالمنيوم ، حيث البرد صقيعي في الشتاء والحر خانق في الصيف . كل شيء جرى وكأن الهدف منه تحقير الفلسطينيين ، واشعارهم أكثر بواقعهم كلاجئين . اذا كان بين المسؤولين السياسيين عن المخيمات من يعتقد أن ذلك يساعد على ابقاء الفلسطينيين في حالة ترقب بانتظار عودة سريعة لفلسطين ، فهذا الحساب خاطىء . واذا أرادوا أن يجعلوا منهم ثوريين بشكل أسرع ، فهذا الحساب خاطىء ايضا . لان العيش في المنفى وحده كان يكفي لان يجعل الفلسطيني ثوريا . والتعليم ، بجميع أشكاله ، يصبح أسهل وأسهل كذلك اكتشاف طرق الانعتاق . بوعي أو بدون وعي ، عملت البورجوازيات المختلفة على مضاعفة هذا البؤس ، الذي يتجاوز حدود الاختلاف الطبقي .

بلا ترف ، وبلا مبالغة في توفير الراحة ، كان من الممكن توفير شيء أكثر من ملجأ مؤقت وهزيل للاجئين . أكرر ما قلته من أن مواد البناء هي اليوم سهلة المنال ، فلماذا الخيام ؟ ولماذا علب التنك ؟ وعين الماء كل ٢٠٠ او ٣٠٠ متر ؟ ولا صيدلية وطبيب واحد للمخيم ؟ يعيش المسؤولون اليوم في مسكن معقول ، فلم لا يعيش اللاجئون كذلك ؟

ان استقلالية الشعب الفلسطيني ومحافظته على شخصيته المميزة يعودان اساسا الى روحه الثورية . لان ما حدث شيء آخر : كلما سحبت الارض من تحت قدميه ، وكلما التجأ الشعب الفلسطيني الى الخيالي ، اكتشف حتى يستمر في البقاء وحتى يواصل مسيرته ، الضرورة الثورية . وهذا يحدث اكثر فأكثر . والعملية الكاملة لم تتم بعد ، ولكن الشعب الفلسطيني تبناها . واذا حافظ على يقظة متقدة ، فسيعمق وعيه القومي، وهذا الوعي سيحمي الوعي الثوري ، كطريق وحيد نحو الاصالة الفلسطينية .

ومن جهة أخرى ، العروبة . ان خطر العروبة اكبر من خطر الخيالي . ذلك ان الخيالي يحتاج دائما الى امتلاء ولكن العروبة شيء ممتلىء . وهو امتلاء أبوي وأمومي في الوقت نفسه . أقصد انه ايعاز قهري (مع كل ما يرتبط بمفهوم الابــوة : احترام التقاليد ، رجولية متفاقمة ، واصرار على الانتماء الى المجموعة العربية واليها وحدها) . وهو امومي بمعنى انه التجاء الى كنف هذه المجموعة « للهروب » من عالم الخارج — أي العالم غير العربي — واستعادة ما سماه وائل وما كان يبحث عنه : الحرارة الانسانية.

بدت لي الجهود التدريسية في مخيم البقعة ومخيمات أخرى جديرة بالاهتمام . وكان الاطفال ، أولادا وبنات يبدون تعطشا شديدا للتعلم ، وربما عاد ذلك لنوعية المعلمين ، أو رغبتهم الطبيعية في المعرفة ، أو تطلعهم الى التخلص من سواد المخيمات . (ففي البقعة ، لم تكن هناك مثلا صيدلية واحدة تحتوي على أدوية بدائية والوضع نفسه كان في اربد) . ومن الصعب علي الا اذكر ملاحظات صديق لي ، وهو معلم انكليزي : يحاول الطفل وهو يدون فروضه أن يغطي وراء كوعه الايسر دفتره ، ليمنع جاره من رؤية ما يكتب ، وكذلك ليضع منذ عمر خمس او ست السنوات حدودا لملكيته الخاصة . وكان الصديق يضيف أن بالامكان تفادي هذا التصرف ، بالسماح للطفل الذي يصل الى حل أن يوضح على طريقته هذا الحل الى جاره الصغير .

واذا كنت تطرقت الى هذا الاسلوب بشكل عرضي ، فلأنه يوفر شيئا من الانفتاح والاخوة منذ الطفولة ، ولا أنكر اهمية التنافس ، ومواجهة التحدي وروح الهجوم : ولكني أؤكد على ضرورة التعاون المتبادل منذ السنين الاولى .

لماذا أقف الى جانب الفلسطينيين ؟

واذا وجه لي سؤال بسيط : لماذا أقف الى جانب الثورة الفلسطينية ؟ سأذكر اولا ان ممثل منظمة التحرير في فرنسا دعاني لزيارة مخيمات الفلسطينيين وقواعدهم في الاردن.

وما حدث لي في هذه القواعد هو التالي : في الوقت الذي استمرت فيه الثورة الفلسطينية مجردة وغريبة عني نوعا ما ، ادركت انها لم تغير الفلسطينيين فقط وانما غيرتني أنا أيضا . أوضح : في أوروبا ، بفعل كسل آلي ، كنت انظر الى الوظيفة وليس الى الانسان . كان خادم المطعم ضروريا لوضع الصحن ، والكأس واملاء الكأس : واذا وقع مريضا ، فالصحن والكأس سيكونان كذلك أمامي . سيكون هناك خادم مطعم آخر يحل محل المريض . وكان هذا يحدث على كل المستويات وفي كل الوظائف : كان كل رجل قابلا للاستبدال في اطار وظيفته ، وباستثناء حالات خاصة ، لم نكن نلمس الا الوظيفة . في القواعد الفلسطينية ، كان يحدث العكس : لقد تغيرت بمعنى ان علاقاتي تغيرت ، لان كل العلاقات كانت مختلفة . كان كل رجل غير قابل للاستبدال كرجل ، ولم نكن نلمس الا الرجل دون الوظيفة ، والوظيفة لم تكن خدمة من اجل استمرار نظام ، وانما قتالا لتحطيم نظام .

وكل ثورةلا تعمد الى تغييري بتغيير العلاقات بين الناس ، لا تهمني ، واكثر من هذا ، أشك ان ثورة لا تؤثر علي لتحولني هي بالفعل ثورة . لقد اقامت الثورة الفلسطينية نوعا جديدا من العلاقات ، غيرتني ، وبهذا المعنى فان الثورة الفلسطينية هي ثورتي . ومن عوامل اهتمامي بالمنطقة ، خدمتي العسكرية في دمشق وقراءة « أعمدة الحكمة السبعة » ، واحساسي الغامض بأن لورانس كان دجالا حتى حينما ادعى انه يساهم في تحرير العرب . فتحريرهم من نير العثمانيين لصالح بريطانيا أو فرنسا أو اسرائيل ليس مكسبا . وبحكم وجودي هناك ، وحرية تنقلي في دمشق التي انهالت عليها قنابل غورو، وكذلك بتأثير جاذبية شخصية سلطان الاطرش المتمرد ضد الاحتلال الفرنسي ، بقيت مهتما بشعب الشرق العربي .

في ١٩٤٧ — ١٩٤٨ ، وصلتني في فرنسا اصداء الامر الواقع الاسرائيلي بشكل خافت . كما أثار انفجار عبدالناصر ضاحكا حينما أمم قناة السويس حماسي . وعاد العالم العربي يقبع في شبه نعاس ، في الوقت الذي كان فيه شمال افريقيا يتحرر من السيطرة العسكرية والادارة الفرنسيتين ، علما بأن المصالح الفرنسية — الاوروبية استمرت بشكل واسع ، وخاصة في المغرب .

وفي عام ١٩٦٨ ، أي بعد الحرب العربية الاسرائيلية ، كنت في تونس . كان ذلك في عصر « بن صلاح » الذهبي . وصلتني حينذاك بطريق الصدفة ، انباء افواج الجزائريين والمغاربة الذين كانوا يمرون من الشمال والجنوب متجهين نحو القاهرة للانضمام للمقاومة الفلسطينية . ففي قطار قابس — تونس ، سمعت بالامر لاول مرة ، ثم حدثني صاحب مكتبة وتونسي آخر في قفصة عن شعر فتح واناشيدها .

وفي ١٩٧٠ ، استحوذ اختطاف الطائرات اهتمامي . فكنت في درعا في مطلع اكتوبر ١٩٧٠ .

تعريب فلسطين أم فلسطنة العالم العربي ؟

الشعب الفلسطيني موجود بلا أرض . واذا ترسخ هذا الوجود في الخيالي ، فذلك لا يشكل خطرا كبيرا . أما الحاحي على اخطار « العروبة » على مسيرة هذا الشعب وخاصيته ، فلا يعني ان الفلسطينيين ليسوا عربا . فهم عرب ، ولكنهم اكثر من ذلك .

العروبة خطر لانها تشكل حنينا بورجوازيا الى الماضي ، يعمل على تحويل انظار الشعب عن مصالحه الحقيقية .

واصراري على نقد التوجه العروبي ليس الا محاولة للبحث عن التحول الذي سيجعل من الانسان العربي التقليدي ، انسانا — **عربيا أم لا** — ولكنه اشتراكي . ومن الامة العربية ، التي تضيع ملامحها بين تناثر دولها المصطنعة ، أمة جديدة — **عربية أم لا** — ولكنها اشتراكية ، متحدة أم لا ، ولكنها اشتراكية . هل سيكون التحول طويلا ؟ ربما ولكنه بدأ . فقد شرع شبان وشابات لا يدينون الا بالقليل الى التقاليد **والى أوروبا** ، في نفض غبار القديم .

يقال لي أن الثوري التونسي حساس للثورة الفلسطينية اكثر منه مثلا للثورة الفيتنامية . وهذا غالبا صحيح . فهذه الثقافة المشتركة قد تكون ايجابية اذا عملت في اتجاه تضامن ثوري ، ولكنها خطيرة اذا تحولت الى عاطفية لا علاقة لها باحتياجات الثورة . ليست الخطورة في العروبة كثقافة مشتركة ، ولكنها في كون العديد من العرب يعتبرونها **جوهرا** essence . جوهرا ، يشكل لب « الكائن العربي » ، باستثناء الآخرين .

واذا كانت الثقافة عنصر تمييز فهي ليست تمييزا جذريا . أوليست النظرة السائدة للعروبة كجوهر حائلا محتملا بين الحركة الفلسطينية وازدهار ثقافة فلسطينية مميزة ؟ وحتى اذا كان التونسيون أكثر تعاطفا مع الثورة الفلسطينية منهم مع ثورات ايرلنده الشمالية أو فيتنام ، فالفلسطيني (والفدائي على اي حال) كما رأيته في قواعد الاردن ، يبدي الحماس نفسه وحب استطلاع اكبر نحو ثورات لا تجري في الفلك العربي . وربما كانت هذه الملاحظة دليلا على ان الثقافة العربية اقل شمولا مما يقال ، وان الفدائي بدأ في الانطلاق منها .

اذا كانت الثورة ، باختصار ، هي القضاء على نظام أو واقع سياسي مرفوض ، واستبداله بآخر ، يتفق أكثر مع مصالح الجماهير الشعبية ، فلا ريب ان الثورة الفلسطينية لم تحدث لانها لا تستهدف ابدال نظام قائم ، لان الوعي القومي قائم مع افتقاد الارض ، ولان من الصعب تحقيقها لصعوبة تغيير نظام الشعب الفلسطيني الذي يعيش في مخيمات يسري عليها بتفاوت نظام الدولة القائم فيها . ولكن استعمال لفظة الثورة ممكن بالمعنى التالي : ان تجذير الوعي القومي يترافق مع اتضاح وتطوير فكرة نظام آت ليسري فعلا على الشعب . ولكن هذا النظام الذي يتفاعل عند بعض العقول السياسية الفلسطينية ، لم يفرز بعد ، على ما أعتقد ، فكرا ثوريا منطلقا من الخيالي لينتهي في « نظام جديد » مطبق فعلا من قبل الجماهير الفلسطينية ، ولا حتى متفاعل معها بشكل يسمح للوعي الثوري ان يطلق الجماهير في استكشاف حركة تحريرها الخاصة وتنفيذها في الدول التي تؤوي المخيمات .

اذا كانت حدة الضرورة الثورية ستستمر بالدوران في حلقة مفرغة ، اي خارج أي مجال تطبيق حقيقي ، الن تتعرض الثورة من جراء ذلك لخطر المثالية ؟ واذا كانت الحال كذلك، فما هي السبل لتفادي الخطر ؟

أعلم ان الامر لم يبلغ هذه الخطورة . ذلك لان الثورة الفلسطينية ، اذا أردنا غض الطرف عن كونها تطرح نفسها **كنظام للمستقبل** قادر على حكم الناس ، هي أيضا وقبل كل شيء ، من خلال العروبة التي انطلقت منها ، اشارة أو ، اذا شئنا ، مثال . والقول انها تنطلق من العروبة يعني بالتأكيد انها تتخطاها . وقد لاحظتم ، دون شك ، ان هذه الحركة اللولبية او الحلزونية التي تسير بسكان مقاطعة عثمانية نحو تكوين وحدة حقيقية ، دون اية ركيزة أرضية ، انما هي انعكاس للحركة اليهودية التي أدت الى الصهيونية . واعني بالانعكاس الصورة المقلوبة . فهاتان الولادتان النقيضتان تعطيان على مدى تطورهما صورتين نقيضتين : فاليهود الذين اتوا الى فلسطين وحملوا اسم « اسرائيليين » وفي جعبتهم افكار اشتراكية مبهمة ، عادوا بسرعة الى تاريخ قديم لا

يعدو كونه اسطورة . وعوضا عن **الدولة الاشتراكيـــة** ، اقاموا دولة ثيوقراطية او بالاحرى انشأوا **ثيوقراطية بدون اله** ، بمعنى انهم حرصوا علـــى تغذية فكرة **الجوهر اليهودي** الموجودة ضمنا في شعار « الشعب المختار » .

اما الفلسطينيون الذين طردوا من أرض هم سكانها منذ أجيال ، فقد تصرفوا في كل شيء بعكس الاسرائيليين تماما ، لاضطرارهم لذلك في باديء الأمر : فكلما تقدم الاسرائيليون، غاص الفلسطينيون في العالم العربي ، وكلما كسبت اسرائيل ارضا ، وجد الفلسطينيون انفسهم في الخيالي . وكلما تقوقعت اسرائيل ضمن دولة بورجوازية رأسمالية ، أراد الفلسطينيون انفسهم واكتشفوا انفسهم ثوريين . كلما تلقت اسرائيل المال من جاليات «الشتات» اليهودي كي ترسخ اقدامها في أراض احتلتها ، استخدم الفلسطينيون الهبات العربية لانماء الفكر والنضال الثوريين . لذلك يبدو لي من الخطأ ، كما ورد في بعض الكتابات الفرنسية ، مطابقة تصرف الفلسطينيين ومصيرهم مع تصرف اليهود ومصيرهم، باستثناء نقطة واحدة : ارادة العيش كشعب مميز . اما التباعد فقائم منذ البداية ، بفعل الواقع نفسه .

امراة من الشعب

من المستحيل الا يرافق الثورة الفلسطينية تحرر المراة الفلسطينية . ولنطرح جانبا النساء البرجوازيات ، او اللواتي يضعن أنفسهن في خدمة الثورة عند تخرجهـــن من الجامعات ــ غربية كانت أم لا ــ . انني أتكلم عن أمراة عامة الشعب : فهي ، حتى في موقعها الحالي العنصر الاكثر ديناميكية والاكثر ثورية . ويخيل لي ان هذه الحرية التي تتمتع بها ــ حرية ما قبل التحرر ــ لا تعود الى ١٩٧٠ او ١٩٦٧ أو ١٩٤٩ بل تنحدر الى زمن أبعد بكثير من ذلك .

ويمكنني القول على نمط ما قاله روسو : ان المراة الفلسطينية ولدت حرة ، وحالهـــا أفضل من حال سواها على ما يبدو لي ، وهي مستعدة لتقبل اية افكار ثورية ، رغم كونها في الوقت نفسه وبحكم موقعها وطبيعتها ، عنصرا محافظا . والمراة بشكل عام ــ لا المراة الانثوية والمتصنعة كما أرادها الرجال واصبحته ــ بل المراة التي تؤمن في قرارة نفسها انها متساوية مع الرجل ــ بمعنى انها ليست **أمه** أو **اخته** أو **عشيقته** بل رفيقته ، هذه المراة عليها ان تشارك في النضال ضد النظام لانها ــ مع الطفل ــ الكائن الاكثر تعرضا للاستبداد . ولا اعني أبدا نضالا مسلحا بالاظافـــر او بعض الفورات العصبية ضد الرجال ، بل تعبيرا مستمرا عن حريتها وعن تحررها . وان لم تكن كل النساء الفلسطينيات أم حسن ، فكلهن يشبهنها في مضمار مهم : ألا وهو تقبل متطلبات النضال . عندما قدمني حسن لامه ، كنا في شهر رمضان . وحينما أعلمتها انني لست مسلما وانني لا أؤمن حتى بالله ، نظرت الي دون تعجب او استهزاء . كانت أرملة ناهزت الخمسين ، وكان الوقت قارب الظهر .

ــ « ان كان لا يؤمن بالله ، عليّ اذا ان أعد له الطعام » .

وأعدت لنا الطعام . فكوني ملحدا خلال شهر رمضان قادها للاجابة الصحيحة : طعام الغذاء . اما هي ، فلن تأكل الا بعد السادسة مساء .

عند الغروب ، ساعدت العائلة مجتمعة في تعبئة الرصاص في الامشاط . وأعني العائلة: الام ، حسن ، أخته وزوج أخته . كان الجيش الاردني يطلق النار على مخيم اربد من مستشفى تمركز فيه . وما ان هبط الظلام ، حتى التحق حسن بمركزه داخل المدينة ، فبقيت وحيدا في غرفته مع ثلاثة رشيشات كلاشنكوف مطروحة قرب مدخل الملجأ الذي كان يحتوي بدوره على عدد من قطع السلاح . كان اطلاق النار ما زال مستمرا عند الساعة العاشرة ، ولم أستطع النوم . ولكنني تظاهرت بالنوم عندما قرع الباب ، فلم

أجب . وفتح الباب بعد لحظات قصيرة ، ودخلت أم حسن حاملة طبقا عليه كوب ماء وفنجان قهوة . وكانت بندقية تتدلى من كتفها . وضعت الطبق قرب السرير ثم خرجت . شربت القهوة . وقرع الباب من جديد بعد بضع دقائق . لم أجب . فدخلت أم حسن واستردت الطبق ، ثم خرجت .

ما سبق هو وصف للتصرف البسيط والانيق الذي تتحلى بـه امراة فلسطينية من الشعب . وشاهدتها في اليوم التالي جاثية وهي تعد بعض الحلوى . واستأذنتني بالدخول ، وبعد التحية ، سألتني ان كنت جائعا . ولما أجبت بالنفي الحت كي تعد لي كوب شاي ، ولكنها رفضت أن تشرب هي : فالشمس كانت قد أشرقت . ثم ابتسمت وقالت : « الله » ! . وبدا لي خطيرا ألا يدرك المسؤولون الحسد الذي تكف النساء بالتصرف عنده كشرقيات ، حسب التقاليد . وباستطاعتي سرد أمثال أخرى عن حرية المرأة الفلسطينية ، على الاقل في الوقت الحاضر .

وفي شيء من الحدة ، يقول لي عصام ، الـذي يحاول عقلنة مفهـوم الثورة ، والثورة الفلسطينية بالتحديد : « الفلسطينيون بشكل عام فلاحون . علينا اذا ان نعود لنعمل في ارضنا . اما في الدول العربية الاخرى ، وهنا في باريس ، فنحن مقتلعون من الجذور » . ويقول ذلك بالانفعال نفسـه الذي لمحته على وجه فدائي شاهد أنوار الخليـل التي كان يشير اليها من ضفة الاردن . والانفعال حقيقة بالتأكيد ، وهو ناتج عن النفي ، ولكننا اذا أمعنا النظر بعض الشيء في الامر ، وجدنا ان فكرة الجذور هذه التي يعتبرها عصام اساسية هي في الواقع عابرة . ويتابـع عصام : « الفلاح سعيـد بفلاحة ارضه » . « هذا صحيح . ولكن صحيح ايضا ان الولد او الاولاد ، عند وفاة والدهم الفلاح ، او حتى قبلها ، لا يعودون يأبهون بالارض ، وبالعمل فيها ، فيبيعون المنزل والحقل ليعملوا في المدينة عند « رينو » ، وليقضوا عطلتهم في اسبانيا او اليونان » . ويقر عصام بذلك .

أود ان اصفي هنا حسابي مع فيلسوف لبناني قال لي يوما : « على الثورة الفلسطينية ان تتعرب اكثر فأكثر . فالعروبة كانت دائما ثورية » . وكنت قد اجبته : « أتمنى عكس ذلك تماما : ان يصبح العالم العربي فلسطينيا أكثر فأكثر ، نظرا لكون الفلسطينيين هم الشعب الوحيد في العالم العربي ، اذا استثنينا مثالي ظفار واريتريا ، الذي برهن عن تصرف ثوري » .

ربما لعبت العروبة فيما مضى دورا ثوريا : لا أعلم . لكن ما اخشاه اليوم هو ان تعود بنا العروبة الى حنين ساحر بقدر ما هو خداع . اذكر سيدة لبنانية ثرية كانت تستعيد امامي بشيء من الحماسة وقائع معركة بدر وامجاد الامويين . فاذا كانت امثال تلـك الاحداث ما زالت عالقـة في ذهـن عامة الشعب ، فذلك يعـود في الغالب لمفهـوم العروبة وما يحمله من ترسبات الماضي . ويمكن اعتبار تاريخ العرب اسطورة ، لمـا تمتزج فيه الحقائق بالخيال ، لكنها اسطورة قد تعرقل العمل الثوري . فاذا كانت الثورة الفلسطينية قادرة على اختيار العناصر التاريخية التي تقدمها كنماذج ضمن خط ثوري محدد ، فاني أشك في مقدرة العروبة على التصرف بالشكل نفسه : فهمها الاكبـر هو اثارة عواطف البورجوازية عبر امجاد التاريخ السالف .

الاردنيون والفلسطينيون

ثم رحنا نستعرض الاخطاء التي ارتكبتها المقاومة ، واخطرها اخفاقها في اقامة رابطـة مصلحة مشتركة بين الجماهير الاردنية والفلسطينية . كان بمقدور هـذه الجماهير ان تفرض نفسها اذا اتحدت لا برابطة العروبة وحسب ، بل بواسطة عمل تثقيفي جـدي وثابت ، وبواسطة المشاركة والاعمال الجماعية . وعوضا عن ذلك كان هناك من جهة ، الفدائيون الفلسطينيون ، المسلحون ، والمتباهون بثيابهم المرقطة ، والمتجاهلون كليـا

لعقلية الفلاح الاردني . ومن جهة أخرى ، الفلاحون ، وقد أزعجتهم وأخافتهم تصرفات الفدائيين الاستعراضية . فاستداروا بالطبع نحو الملك ، وجيش البدو ، الذي كان « يحميهم » ـــ ويحمي الملك المتطلع الى اميركا .

اذكر يوم وصلت الى اربد قادما من درعا وكان موظف جمارك اردني يناهز الخامسة والعشرين قد ركب معنا ، عند مركز الجمارك ، ليصل الى منزله في اربد . وكان سائق السيارة فلسطينيا وما ان وصلنا الى فندق يديره فلسطينيون حتى تركنا السائق . واصر الموظف الاردني على حمل حقيبتي ، ودخل معي الى الفندق . كان الفندق صغيرا جدا وكانت كل غرفة من غرفه تتسع لاربعة او خمسة اسرة . وكان يعج بالرواد . وبينما استقبلني الفلسطينيون كصديق عاملوا الموظف باحتقار . فسألتهم ، بعد ذهابه ، لما لا يحاولون اقامة علاقة مع موظف أردني متواضع الحال مثلهم ، علاقة صداقة في باديء الامر ، ثم علاقة سياسية . عندها هز صاحب الفندق كتفيه بلا مبالاة : فالموظف لم يكن فلسطينيا !

ويسألني عصام أيضا اذا كنت لاحظت حين وصولي (نهاية تشرين ١٩٧٠) تراجع المقاومة واذا كنت حللت اسباب هذا التراجع . وبما انني كنت بين الفدائيين ، فكان من المستحيل ألا أرى ما يجري . ولفتت انتباهي حينذاك حالة البهجة والسرور التي كانت تسود احراج عجلون والسلط ، والنابعة من كون الفدائيين قد استطاعوا الافلات من جحيم عمان . وكانوا يتحلون ببهجة الشباب ، وضحكه وطيشه ، بينما كان ذلك غائبا عن الجيوش النظامية . ولكن هذه البهجة كانت ستارا للهزيمة ، الا في بعض حالات تسليم الاسلحة ، حيث كانت علائم الهزيمة تظهر في حساسية حادة . أما اسباب تلك الهزيمة فكان يصعب علي تحميل المقاومة وحدها مسؤوليتها . اذ كنت ارى رغما عني ، صفقات دول كبرى ومساوماتها . وما زالت حتى الان أسئلة عديدة دون اجابة .

الفدائي كانسان

سؤال : كيف كانت نظرتك للفدائي كانسان ؟ ما هو رأيك في منطلقات التزامه الى حد التضحية التامة ، وفي الاهداف التي يقاتل من اجلها ؟

ما يراودني قبل كل شيء ، ويذهلني أيضا ، هو حرية التعبير الكبيرة التي كان يمارسها الفدائي . وكلمة « مذهل » ليست مبالغة في وصف تلك الظاهرة . كان في وسعهم ـــ اذا شاؤوا ـــ التكلم في اي موضوع . لا أذكر اي موضوع محظور عليهم . كانوا مهتمين بما يجري في الصين وكوبا ، وفي باريس بعض الشيء . كانوا يتطرقون الى كل المواضيع ، ويعالجونها بمزيج من الخفة والرصانة .

وبدون المام يذكر باللغة العربية ، كنت اشعر ان اللغة التي يستعملونها كانت ابسط من سواها ، وكأنها افرغت من الزركشات المألوفة . فالوقائع والتعابير البسيطة كانت اهم من التعليقات عليها ، الا اذا كانت تلك التعليقات وقائع لا احكاما .

كان مظهرهم بهيا . كان هناك ما اسميه بالجمالية الفدائية . فاخلاقيتهم كانت تذوب في جماليتهم . هذا فيما يختص بالمظهر الخارجي . اما داخلهم فكان اقل وضوحا واشد قسوة في آن واحد . فكلمة « ثوار » كلمة تستعر نارا . كانوا يحملون ارادة انجاز تحول تاريخي مزدوج : قيادة الثورة الفلسطينية من خلال التحرير لتشمل الشعب العربي بأجمعه ، واستعادة فلسطين . بالنسبة للهدف الاخير ، كانت الجماهير الفلسطينية في المخيمات او خارجها مطلعة على الموقف ، أما تثوير العالم العربي فلم تكن تعرف عنه شيئا . لذلك جاء دعم الفدائيين كمقاومين ، وتم تجاهلهم كثوار . فاصيبوا بنوع من العرج المعنوي كاد يفقدهم توازنهم . من الممكن تغيير كل هذه الامور

وربما جرى ذلك الان . ضروري ان يتوجه الشعب بأجمعه نحو أرض ميعاده ، ونحو اضرام نار الثورة الشعبية في العالم العربي . لا شك ان الفدائيين يرغبون في ارض ثابتة ، ولكن اكثرهم رشاقة ادرك ان علامة العصر ليست التأصل ، والشجرة ، والبيت ، والصخرة ، وانما استعداد دائم لحركة متعاظمة . وقد قال لي فارس بعد خوضه معركة في صفوف فتح ، انه مستعد للنضال من اجل التحرير في اي قطر يستقبله . اما حسن فكان يقوم بعمل منتظم وصارم في اربد ، وكلاهما لم يتجاوز الثانية والعشرين . ولكنني اقول واردد ، ان الجماهير لم تكن تدرك تماما جانب الثورة . المقاومة نعم — الثورة لا . ربما كان ذلك من قبيل الحيطة لئلا ينزعج اليمين الفلسطيني !

الثورة في الكلمات

علينا ان نتطرق هنا لمسألة اللغة . فاذا اردنا ان نكون شعبا ملتحما وثابتا ، اي متمتعا بتلك الكثافة التي سبق وتكلمت عنها ، فلا بد من جعل اللغة المتداولة لدى هذا الشعب — وهي العربية هنا — اكثر جمالا . والكلام عن الجمال لا يعني الزخرفات التي تخفي الفكرة ، بل على العكس ، فان اللغة تزداد جمالا بقدر ما تتوفر مطابقة دقيقة بين الوقائع من جهة والتعبير عن تلك الوقائع من جهة اخرى .

ان اليسارية الطفولية تميل الى ادخال اي شيء ضمن الكلمات والتعابير . واذا كان الجمال لا يساوي البساطة ، فان البساطة هي دون شك عامل جمال . كذلك الامر بالنسبة للدقة في التعبير . فهي لا تعني التشنج بل الليونة . ان الثوريين الطفوليين يستعملون قاموسا لا يغطي اي جزء من الواقع ، واتساءل ان لم يكن استعمالهم لهذا القاموس تعبيرا عن رغبة خفية في افشال الثورة ، هذا اذا كانت الثورة هي **ايضا** تبديل نمط العلاقات بين الافراد . واعني اخيرا بجمال اللغة رفض كل نزعة اكاديمية ، وتقبل كل الاكتشافات التي يقوم بها الشعب تلقائيا وتشجيعها .

ليس حمل السلاح كل شيء في هذا العالم . فالانسان يميل الى الابتعاد عن الحياة ، او بالأحرى عن الجهد في فترة اصبحت فيها الحاجة الى السكون ماسة ، وراج خلالها مبيع تلك العقاقير المسماة مسكنات . لقد الفت السلاح منذ حداثتي ، ثم نسيته : فقد دفعني نوع من الجبن الى « التعقل » . ولكن لقائي في الاردن بفدائيين يعشقون سلاحهم ، وصمموا على استعماله — الفدائيين وجميع سكان المخيمات — اعادني الى واقع العنف، وافهمني ان العنف ضرورة . واعني بالعنف الجهد الرامي الى تحقيق قطيعة مع نمط تراجعي يحول دون الحياة : فتفجر البراعم التي تتفتح عنف ، وعنف ايضا نمو حبوب القمح حين تحطم فروعها قشرة الارض . واذا كانت الصحف — والبقية الباقية — ضد العنف فلأنها تدرك ان العنف هو منبع الحياة ، لذلك فهي تخلط عن قصد بينه وبين الفظاظة . ولكن هذه الاخيرة تتناقض في الواقع مع العنف ، بمعنى انها نابعة عن عمل ، او مجموعة اعمال مقتصرة على ذاتها . بينما العنف هو البحث — سهلا كان ام لا — الذي يقوم به جيل جديد .

لكن البرجوازية تدرك ان بمقدورها خلط مضامين الكلمات والتعابير ، فتستنكر اعمال العنف مهما كان مصدرها ، على الرغم من معرفتها كل المعرفة ان بين تلك الاعمال ما هو شراسة غير مجدية وما هو من الطرف الاخر عنف ضروري .

عندما سألت احد الفدائيين ، سنة ١٩٧٠ : « ما هو بالتحديد هدف المعارك التي تخوضها ؟ »

اجابني : « استرجاع ارضنا » .

وعندما أردفت : « وهل يمكنكم استرجاعها اذا كنتم لا تريدون اي شيء آخر ؟ »

أجاب : « ـــ وهل يمكننا الحصول على اي شيء اخر اذا لم نحصل علــى أرضنا ؟ » وقد لمسنا معا امكانية الضياع في متاهات لعبة الاجابات هذه .

اذا لم يتح لحسن وامثاله العيش في فلسطين عنــدما تعــود ثانية « فلسطين » ، فمن سيعيش فيها ؟ الجماهير طبعا . أما الثوار الحقيقيون فسيتابعون ثورتهم في مكان آخر ، كما لو كانوا ارستقراطيي الثورة . وترتفع عدة اصوات لتقــول لي : « الجماهــير ثورية » . هــذا صحيح بالنسبة لتطلعاتها الى العــدل والحرية ، لا بالنسبة لاتخــاذ القرارات .

لا يتكلم احد عن السعادة في الثورة . اتخالون العمل الثوري كئيبا ؟ ليست كل الاعمال الثورية بالتأكيد سارة ـــ ولكن هنالك نوعا من السعادة يرافقها ، حتى في تدمير البنية القديمة من قبل الثائر . طرحت السؤال عدة مرات عــلى بعض الفدائيين « تبــدو لي سعيدا فهل أنت تلهو ؟ » وكانت الاجابة دائما نفسها : « ولم لا ؟ لماذا تريد ألا نتعرف على اللذة خلال الحياة التي نعيشها ، حياة المقاتل الذي يهدم القيم البالية » ؟ واذا كان بناة الاسس الاخلاقية البرجوازية لا يعرفون الا نوعا من الحالــة الكئيبة ، الحزينة ، المتشجنة ، فلربما كان للثورة ان تكون في احدى مراحلها ، نقيض تلك الكآبة .

اتذكر الان سميرة وهي طبيبة فلسطينية مقيمة في الولايات المتحدة جاءت من تلقاء نفسها لمعالجة جرحى عمان . حسناء ترتدي سروالا . كان علينا الانتقال من جرش الى السلط لملاقاة طبيب ومسؤول سياسي هناك . اوصلنا سائق تاكسي ، وهو جندي ميليشيا في الوقت نفسه . وحين وصولنا في المساء ، كان الطبيب غائبا . نقلتنا سيارة الى قاعدته، فبلغناها في اثناء الليل . وما أن رآنا ذلك المسؤول حتى تمتم بضع كلمات ما لبثت سميرة ان ترجمتهــا : « يجب ارجاعهــا الى السلط ، من المستحيل أن تقضي الليــل هنا ، فالمقاتلون لن يفهموا . ولن يفهم الشعب كيف يمكن لامرأة ان تقضي الليل في قاعدة » . وكانت الطريق والمنطقة محفوفة بالمخاطر . فطلب من فدائيين ارجاع السيــارة الى السلط ومن ثم العودة ، وكل ذلك خلال الليل . اتعتقدون حقا ان الجماهير لن تفهم لماذا تقضي طبيبة الليل ، مرتدية تلك الثياب ، تحت لحاف في زاوية من الغرفة ، لو خوطبت بصراحة ؟ ان الجماهير الفلسطينية لن ترى حتما في ذلك اي فجور .

كنت لبضعة ايام خلت اسير مع سميرة عبر ازقة مخيم غزة ـــ وتحادثنا مــع ست او سبع نساء ما لبثن ان دعوننا لتناول الشاي . وعلى ارض الغرفة الوحيدة التي كــانت البيت ، فرشن بضعة اغطية لنا ، ووضعن وسادات قربها . وشعرت فجأة بغرابــة الموقف بالنسبة لعالم عربي تقليدي : عالم الف ليلة وليلة ! اذ كنت الرجل الوحيد وسط سبع أو ثماني نساء يتحادثن في السياسة . وما ان امصحت عــن شعوري حتى علا الضحك . الم يكن بمقدور تلك النساء ، او بمقدور ازواجهن ، تفهم قضاء سميرة الليل في القاعدة ؟ ربما كان اصعب عليهم ان يفهموا لماذا تم ارجاعها في الليــل عبر منطقــة محفوفة بالمخاطر حتى في وضح النهار . كــان من السهل ادراج ملاحظــة في جريدة « فتح » تقول ما فحواه : « نظرا للمخاطر التي قد تتعرض لهــا في المنطقة من جــراء تصرفات عناصر الجيش الاردني ، فقد اضطرت رفيقتنا الطبيبة سميرة الى قضاء الليل في القاعدة كذا . . » وما الذي يحول دون القيام بحملة تفسيرية ؟

تملكني الغضب في احدى المناسبات . كان ذلك حينما قال لي عصام ، بصوت لا يقبــل الجدل : « على جميع الفلسطينيين ان يعملوا للقضية الفلسطينية ، وخاصة المثقفين منهم ، عليهم ان يستعملوا كل ما اوتوا به من مواهب من اجل القضية الفلسطينية » .

اما الذين لم يفعلوا شيئا لاجل الثورة ، فيجب نفيهم عن الامة ، بعد النصر . وقد صدمني ذلك الحكم المبرم ، وتلك العودة الى الحجة المطلقة ، الى اقصى حد . فالعالم لا يقتصر على الثورة الفلسطينية وحسب . ويجب ان تكون لاي امرىء — حتى الفلسطيني — حرية القيام بالابحاث على النحو الذي يرتأيه . يمكنه ان يخطىء ، ويمكننا ان نهمل ابحاثه . وحتى شخصه . لكن نفيه خارج جماعة — مهما كانت احجامها متواضعة — يعني نفيه خارج المجموعة الانسانية بأكملها . وهذا بالضبط ما تفعله الاخلاق البرجوازية — غربية كانت ام لا — حينما تطرد ، او تسجن ، او تعزل في موقع هامشي ، كل رجل لا يعترف بالقيم المتداولة .

ويجيبني عصام : « ربما اسأت فهم ذلك » .

ربما . فأنا اسيء الفهم بعض الاحيان . اما فيما يختص بحركة التحرر ، فما ان أرى محاولة حكم تسلطي ، ولهجة ادانة حاقدة حتى اخشى ان تكون الحركة قد بدأت تنكر نفسها ، او تهبط الى « الجدانوفية »*.

ثم قال لي : « ما كان البسطاء ليفهموا ذلك » .

فأجبته بشيء من الحدة : « البسطاء أقل غباء مما تعتقد ، وهم قادرون على فهم كل شيء تقريبا » .

على الرغم من حالة البؤس، وعلى الرغم من البطالة الاضطرارية ، لم الحظ في المخيمات، ذلك الاغتراب وذلك الضيق اللذين يسببهما دائما فصل نشاطات المرأة عن نشاطات الرجل ، والتفرقة بين مجال النساء ومجال الرجال . وعوضا عن ذلك الخمول الخبيث في نظرات سكان المغرب مثلا ، فان مخيمات الاردن ، وان لم تكن تعج ببهجة القواعد ، كانت تتسم بالصفاء والكرم .

فالارادة الثورية لا تقتصر على استعمال مرادفات مؤثرة ، ولا حتى على استعمال البندقية ، بل هي ايضا مرتبطة بالتحدي الرامي الى العيش حياة سعيدة . انني لا اعرف ، في العالم العربي ، شعبا يتوق الى التخلص من الافكار المضجرة مثل الشعب الفلسطيني ، والى التحرر من الاعمال المرهقة ، من الثياب الرثة ومن المواقف المذلة . واذا وضعنا جانبا البرجوازية الفلسطينية ، وهي شبيهة بسواها من البرجوازيات ، فالمخيمات الفلسطينية تتسم بالارادة في مجابهة الحقائق وجها لوجه .

نافذة الغرب على العالم الثالث

كانت الثورة الفلسطينية — المقاومة كما سميناها اول الامر — تصلنا عبر مصفاة الصحافة . واذا كانت تلك الصحافة تتقيد بذلك الحجاب الذي ارادته اسرائيل ، فقد كان هناك ثمة شيء اخر ، الا وهو النظرة للعالم الثالث . فالقراء الاوروبيون يريدون صحفا « نظيفة » : حتى وصف الثورات عليه ان يكون مطهرا ، خاليا من البقع ، ناصع الاسلوب ، لئلا ينزعج القارىء . وبما ان العالم الثالث موضوع مضجر بالنسبة اليه ، فما يجري فيه يجب ان يعرض على طريقة القصة المسلسلة ، مرفقا بكل التفصيلات الضرورية ، على ان ترد البقية « في العدد القادم » . فالعالم الثالث ، اذا اردنا ، يجب ان يكون رفيق القارىء المسلي في الصحيفة . واخيرا ، فان المستعمر (بفتح الميم) او الذي تحرر من الاستعمار — وما زال مستعمرا في الواقع — اصبح عنصرا هاما في مناظر البلاد البعيدة لدى الاوروبيين : فهو ينظر الى صورة امرأة عربية تعمل ، او رجل اسود يتسلق دربا وعرة ، كما ينظر الى صورة ببغاء ابيض على غصن شجرة استوائية . فالثلاثة في اماكنهم الطبيعية ، واوروبا لا تخشى شيئا من هذه الناحية .

---

* جدانوف : رقيب الادب والفن في عهد ستالين .

لن ادع احدا يلمس المشهد الذي اتأمله . ادرك انه مصنوع من البؤس والخرق البالية، لكنه يفعم حاجتي الجمالية ، ويمكنني من امتحان تفوقي في تذوق حالة الفقراء ، كأنهم وجدوا هنا لارضاء نزوتي . أمن قبيل الصدفة ان يكون قصر « المشوار » في الرباط ، متاخما لاحياء تنكية تحوي ۶۰،۰۰۰ شخص ، او ان تكون بعض المخيمات الفلسطينية ملاصقة لاجمل ابنية بيروت ؟ أمن قبيل الصدفة ان يقضي الاوروبيون عطلتهم ، أكثر فأكثر ، في البلدان المتخلفة ، مظهرين شغفهم بالتجول في الاسواق القديمة قبل العودة الى القصور المبنية خصيصا لهم ؟ الى حد ان ولوج عربي رث الثياب او اميركي اسود في احد الاحياء السكنية الراقية أمر بحد ذاته كاف لاستنفار الشرطة .

اليكم ما اجابني به عامل مغربي عندما سألته عما يخشاه اكثر من اي شيء في باريس : « السير في الشارع ، لان كل المارة ينظرون الي » . وبالطريقة نفسها ، فعندما يعرض المهندس المعماري على الزبون منظرا لا يمكن حجبه في اعالي بناء فخم ، فلا يكون ذلك المنظر الا عبارة عن مزرعة قديمة وكرم يعمل فيهما رجال ونساء . فالبرجوازي «يتفرج» على المنظر — كما يتفرج الحسن الثاني على الاكواخ — ولكن ، قلما نتساءل عما اذا كان المنظر بحد ذاته — عما اذا كان اولئك المزارعون وعمال الكرمة راضين بأن يكونوا « فرجة » ؟ وماذا يدعو سكان المخيمات الى قبول وضعهم كمنظر يتأمله البرجوازيون ، وشهود صامتين على ملذات البرجوازية المحتاجة لذلك القدر من الفراغ والتسليات ؟ ان لم تكن تلك « الفرجة » الا منظورة ، لشعر المتفرج بطمأنينة ساكنة وسادية لانه ليس في المشهد ، ولا هو في احد ارجائه . والمتفرج محافظ بمعنى انه لا يريد لتلك « الفرجة » ، ان يتغير لونها او شكلها . فبؤس المقموعين يضفي الوانا بديعة على تلك اللوحة — او « الفرجة » — التي يتأملها الغربي . لذلك لا يجب تغيير أي شيء ، « فذلك قد يفسد جمال المنظر » ، يقول البرجوازي . و« الفرجة » « فرجته » هو . أما اذا كان المتفرج يستغل المنظر الذي يتأمله ، فذلك يمكنه من اقامة نوع آخر من العلاقات : اذ لا يكتفي الناظر ، هنا ، بالقيام بدور الحراسة السلبي ، بل يصبح سيد تغييره العملي ، علما بأن هدف عملية التغيير هذه لا يمكن الا أن يكون انتاجا لصالح السيد . وهذا الاخير لا يكون أبدا مشهدا ، ولا حتى جزءا من مشهد ، ولكنه قد يعرض نفسه للفرجة ، وهذا أمر يختلف كليا عن « المشهد » . فهو يرفض ان يراقبه المستغل (بفتح الغين) ، وحتى ان يراه . ولكن المستغل يراقب السيد بانتباه وصمت : وغالبا ما يكون ذلك لسوء طالع السيد .

ما قلته في الفقرة اعلاه انما يهدف الى الايضاح بأن استملاكا سلبيا وشهوانيا يتطابق بالضبط مع استملاك ايجابي وتغييري : ما ان تنظر العين ، وتتذوق لذة النظر ، حتى تريد الاحتفاظ بالصورة المنظورة ، فتسلب الصورة — المشهد للاحتفاظ بها والنظر اليها، كما يسلب السيد مشهده لاجل متعة أخرى .

لا يحلو لاحد أن يكون فرجة ينظر اليها الرجل القوي . وكل نظرة تتمتع بنفسها ، أن ارادت النظر لمجرد النظر ام الاحتفاظ بالشيء للتمتع بالنظر — هي خالية من البراءة . وما اتمناه ، هو الا يتمكن نظر الاوروبيين بعد الان من رؤية « الطابع المحلي » ، وان يختفي كل « طابع محلي » ، والا يقدم المتهورون اي شيء يمتع الانظار : مثلما قد تكون حالة أيلول الاسود بلا قناع ، في ميونيخ . ولكن ، هل سيحدث كل شيء وكأنه تحد للغرب ؟

كل ذلك مرهون بالطبع بالاسلوب الذي ستختاره الثورة الفلسطينية لنفسها ، فاذا ارادت الاحتفاظ بسمعتها لدى البلاد الغربية ، وحاولت أن تعطي عن نفسها صورة مقبولة لدى الغرب ، وحرمت نفسها ، تبعا لذلك ، من كل الحيل والاساليب التي تدينها اخلاق واخلاقيات الامم . ستخسر ذلك ولن تكسب شيئا عوضا عنه ، اذ ان يقظة

اسرائيل والسنتها المنتشرة في أرجاء المعمورة كافة ستعمل دائما على تقديم اية ظاهرة فلسطينية ـــ ما عدا الاستسلام الكلي طبعا ـــ على انه ضرب من الشر من الواجب محاربته وسحقه .

بعد قضاء بضعة أشهر مع الفدائيين في قواعدهم ، لا بد من أن أعرفكم على غرابة واقعي : فقد بذلت أقصى جهدي ، خلال سنوات ، لاقطع كل الاواصر التي تشدني الى الامة الفرنسية ، ونجحت في ذلك بعض الشيء . ولكنني في نهاية المطاف ، وجدت نفسي أساهم ، بمنتهى السعادة ، في نضال أمة مسلوبة ، من أجل استرجاع أرضها الضائعة . لا أشك في ضرورة النضال من أجل العودة الى الارض المغتصبة ، ولكنه يبدو لي ان الحاجة أمس لتغيير الانسان العربي ، بواسطة النموذج الفلسطيني أولا ، ثم بمساعدة الفلسطينيين . أرفض التعمق اكثر وأكتفي بالاقتراح التالي : **أصبح الفلسطينيون بلا أرض . الشعب الفلسطيني يعيش في الخيالي ، بكل كثافته . أليس باستطاعة بعض العناصر الفلسطينية التغلغل في أرجاء العالم العربي ، الذي هو بأمس الحاجة الى اعادة تكوين جذرية ؟** فارادة استعادة الارض هي ارادة العدل . واذ اقتصرت على ذلك فهي محدودة . لكن الفلسطينيين قد يجعلونها تتخطى نفسها ضمن ثورة لا تقتصر على فلسطين ، بل تشمل العالم العربي بأسره . وهذا هو السبب الذي جعل شباب العالم أجمع يقفون مبهورين أمامها ، وأعطي مثالا على ذلك تصرف يساريي أيار ١٩٦٨ حينما اقاموا واجهة فلسطينية في باحة السوربون بمحاذاة الواجهة الصينية .

يصعب علي التكهن فيما اذا كان اختلاف منشأ الفدائيين (غزة ، الخليل ، القدس ، درعا ، دمشق ، عمان ، الكويت ، أو أحد المخيمات المنتشرة هنـــا وهناك) ، يخلق الاحتكاكات بين السكان وفي منظمة التحرير الفلسطينية ، جاعلا العمل الجماعي عسيرا، أم اذا كان ذلك التنوع يشكل ، على العكس ، عامل اضافة وكسب ، يغني الثورة الفلسطينية أكثر فأكثر .

كان الفدائيون قد حوصروا فوق السلط وجرش لدى مغادرتي بيروت . لكن انباء آخر كمين نصبه لهم الجيش الاردني لم تصلني الا في فرنسا . وقد برهن هذا الكمين على ان الحكم الاردني ـــ والبرجوازية التي يحميها ـــ كانا يخشيان الثورة الفلسطينية أكثر من اسرائيل .

هل نفذت عقوبات في القواعد دون أن اشعر بذلك ؟ ربما تدخل مسؤول دون أن الحظه ، لكني لا اذكر ، في أي حال ، اية مشاجرة او مناقشة حادة وعنيفة . اذ كان ذلك الجيش من الفدائيين يعيش في خفة مدهشة ، والصورة التي بقيت في ذهني عنه هي صورة مجتمع متمدن الى أقصى حد . وهذا القول بعد المجازر التي اقترفها بدو حسين يبدو وكأنه مجرد حشو . لكن الواقع عكس ذلك . فالفدائيون والمسؤولون ، الذين انخرطوا بارادتهم في صفوف فتح ، أو الجبهة الشعبية ، او الجبهة الديموقراطية ، او الصاعقة ، كانوا قد أنشأوا ، تحت ستار من اللامبالاة الظاهرية ، نوعا من الاشتراكية البدائية ، اشتراكية ما تحت الاشجار وتحت الامطار ، بداية اشتراكية بدوية وهزيلة كانت بمثابة بشير التفاؤل بمجتمع اكثر تقيدا قد يتكون حولها . . .

وقد اغتال حسين بداية عالم جديد كهذا ، بالاشتراك مع اسرائيل ، ومع بعض البلاد العربية ، ومع كل البلاد الغربية .

ميونيخ والغرب

لم يدهشني حادث ميونيخ الا قليلا . كنت حينذاك في ايطاليا . وسأقـــول لكم بضع كلمات في هذا الموضوع اذا كان ذلك يهمكم . . . .

الالعاب الاولمبية ـــ وقد ردد هذا القول بما فيه الكفاية ـــ ليست سوى وسيلة متعة ، ومظاهرة دعائية عبر المباريات ، أي لعبة بيع أمم بالمزاد العلني من خلال الرياضة . فهي منظمة الامم المتحدة للرياضة ، اذا صح التعبير ، حيث يسمـــح للامم الضعيفة الاشتراك في المباريات ، بينما المنافسة تنحصر في الواقع بين الماردين . والابواق التي رددت صدى مأساة ميونيخ لم تكن مهرجانات الالعاب بحد ذاتها ، بل الصحافة الغربية المرتبطة مباشرة او غير مباشرة ، بتل أبيب ، عبر شبكة معقدة من مديري الصحف ، والمحررين ، والكتاب ...

كان اختطاف الطائرات الثلاث عام ١٩٧٠ ، وتحويلها الى صحراء الاردن قد أثار موجة استنكار مماثلة لما حدث ابان ميونيخ . والمصطلحات كانت نفسها : مجرم ، متوحش ، دنيء ، وجبان لوصف الفلسطيني ، وضحية بريئة لسواه . وقد توصلت اذاعة « اوروبا رقم ١ » الى اختلاق حدث مدهش : يبدو ان امرأة وضعت طفلا وسط الصحراء ، دون ماء ودون عناية ، محاطة بالذباب والملاريا . وما لبثت أن انهمكت اذاعات أوروبا اجمعها بتقييم الاخطار التي يتعرض لها المولود الجديد ، بينما لم يكن هناك في الواقع أية راكبة حبلى على متن الطائرات ، ولم يلد احد أي شيء . واخيرا ، قام مذيع مجهول بتكذيب الامر ، دون أن يشعر به أحد ، وبعد فوات الاوان . اذ ان الجماهير الاوروبية كانت قد استنكرت تصرفات الفلسطينيين استنادا لحادثة مختلقة من الفها الى يائها .

تلك الصحف التي تتلاعب بالرأي العام تكتب كلمة « ارهابي » حيث يجب كتابة كلمة « فدائي » ، أي الذي يضحي بنفسه . فالعين العبرية تبهرها من وراء مثلثها المقدس ، كما تبهرها عين دايان الوحيدة .

واليكم هذا المثل : « من وراء النوافذ نصف المغلقة ، فتح قناصة البوليس الالماني النار، عند سماعهم الاشارة المتفق عليها ، **فأردوا الارهابيين الفلسطينيين قتلى** بظرف ثوان معدودة ، وحرروا في الوقت نفســـه ، **ودون أن يصابوا بأيـــة خدوش** ، الرهـــائن الاسرائيليين » . (فرانس سوار ـــ في عددها الصادر بتاريخ ٨ أيلول ١٩٧٢) .

اذا ، يجب ارداء الفلسطينيين **قتلى** وتحرير الاسرائيليين **دون أية خدوش** . يمكن قراءة هذا الموقف كما يلي : « فلسطين مسحوقة ، المجد لاسرائيل » . والشركاء في الجرم هم الدول الاوروبية وغالبية شعوبها . واختيار الكلمات بات يهدف ـــ بعد ميونيخ ـــ الى وضع الفلسطينيين في مصاف المجرمين ، وكل عمل تحدده كلمات مماثلة انما مرتبط الى عالم تحتي ، هو العالم الثالث ، هنا ايضا .

تلك هي سلطة السيد : التحكم بمعاني الكلمات ، تحميلها أو افراغها مـــن مغزاها المعنوي ، وابدال ذلك المغزى بوصمة عار .

وهوذا برهان آخر لصالح أيلول الاسود :

بتشجيع من اسرائيل والسنتها المنتشرة هنا وهناك ، عم أوروبا احتقار فظيع للقضية العربية بشكل عام ، وللقضية الفلسطينية بوجه خاص . ومفضوحا كان أم مبطنـــا ـــ كما هي الحال بالنسبة للحكومة الفرنسية ـــ فان هذا الاحتقار بلغ حدا بتنا مرغمين على القول تجاهه ان الفلسطينيين ، بما أنهم لا يتمتعون بأي حق اطلاقا، فلهم الان الحق في **أي عمل** يقومون به لاجل الحصول على حق ما . بما انهم سيغيرونهم في أي عمل يقومون به ، فلم الاكتراث بردود الفعل الاوروبية ؟ واذا كانت ميونيخ قد لقيت ترحيبا في المخيمات ، فهذه اشارة الى أن المخيمات أصبحت الآن قادرة على بذل الكثير تجاه الذين يبذلون الكثير تجاهها . ويعني هذا انه بات من الضروري القيام باعلام تحريضي داخل المخيمات ، لا أن تنتظر المخيمات سلبيا التحرير بفضل عمليات أيلول الاسود بمفردها .

يجب المباشرة بعمل تحريض سياسي ، سريا كان ام لا ، على نطاق القاعدة ، اي داخل المخيمات .

نعلم الآن ان سفير اسرائيل كان حاضرا في مطار ميونيخ . وان غولدا مئير اعطت الامر باطلاق النار ، من القدس : فمصرع اليهود أرادته اسرائيل . كان يجب ان « تنتحب اسرائيل بأسرها » ، وأن يتوعد الاسرائيليون بالانتقام .
ولنلاحظ هنا ما كتبته الصحف الالمانية: « ان شرطة اوروبا بأسرها قد تعاونت في مطاردة العرب الى حد يمكننا من القول انه لم تكن هناك الا شرطة اوروبية واحدة خلال الايام الماضية » .

ما ان تم اعلان فكرة « السوق المشتركة » و« اوروبا الستة » ثم « اوروبا العشرة »، حتى بات واضحا ان وحدة أوروبا لن تتحقق ، ولن تتكون بصلابة ، الا أمـام عدو مشترك . والعدو لا يمكن ان يكون الا الفقير ، المذلول ، الزنجي ، العربي ، الاصفر ، العين المقطبة . ألم تكن الوحدة واقعة لا محال بعد ذلك التعاون الحميم بين شرطة كل قطر اوروبي ؟ زد على ذلك ان المنتفعين من تلك الوحدة لن يكونوا الرأسماليين دون سواهم ، بل جميع المواطنين ، كل اولئـك الذين « يتفرجون » علـى « المنظر » ، البرجوازيون والبروليتاريون على السواء ، اذ أن هؤلاء أيضا برجوازيون بالنسبة الى « حثالة » الشعوب : العالم الثالث .

توصلت الامبراطورية البريطانية الى ذروتها — اي غطت أوسع مساحة مـن الاراضي والمحيطات — عندما كانت الاخلاق الفكتورية مسيطرة . وبينما كانت تسحق، لمصلحتها، الهند بأسرها ، بشطريها المسلم والهندوسي ، والشرق الاوسط ، ومصر محمد علي ، لتخترع من ثم العراق وفلسطين اليهودية والجـزيرة العربية ، كانت انكلترا تتعلـق بالاخلاق الى حد التزمت . وقد سمحت لنفسها بترف ديموقراطية ليبرالية سحرت العالم اجمع . وعندما قال الجنرال عيدي امين ان انكلترا هي المكان الذي يجب ان يعود له الاسرائيليون ، عبر عن قدر كبير من المنطق . وعندما تابعت اميركا مسيرة اوروبا ، كان من الطبيعي أن تأخذ على حسابها اسرائيل أيضا .

كل حكومات أوروبا البوليسية ، استعملت قدر ما استطاعت القراصنة والقرصنة . فقد اختطف سلاح الطيران الفرنسي احمد بن بيلا ، وتولت المخابرات امر المهدي بن بركة . وببضعة ايام خلت ، كانت الشرطـة الاميركية تختطف — في ستوكهولم ثم في كوبنهاغن — ديبلوماسيا حـاول اغتيال ابن تشانغ كاي تشيك . ولم تحـرك رابطة حقوق الانسان ساكنا . وتعرفون انتم كل المعرفة جرائم الشتيرن والارغون، وانفجارات حيفا وفندق الملك داود ، والجنود البريطانيين المقتولين والمحشوين بالمتفجرات . تعلمون بأمر مقتل برنادوت ، والغريب ان كل الناس في أوروبا — أعني الصحافيين — يعلمون بالامر ، لكن هنالك نوعا من الرقابة التي تمارس كلما دار الحديث حول ولادة الدولة اليهودية .

لا بد أنكم ادركتم ان مقاتلي أيلول الاسود ماتوا بنظري كجنود ، وان تلك الشخصية الفلسطينية ، التي لا أرض لها سوى العروبة والخيالي ، لا بد وانها أصبحت قوية الى حد بعيد في صميم كل فلسطيني ، لتنجب رجالا يتسمون بذلك التصميم وذلك الاستعداد على التضحية بحياتهم لاجلها . وهذا يعني انه لا مجال اطلاقا لحوار مع اسرائيل . كان ظهور ذلك الشبح المتخفي تحت قناع مثقوب ، تعتليه حدبة صغيرة ، على شاشات التلفزيون وغلافات الصحف ، يخيف ويؤلم على حد سواء . هو تعبير اولا عن رفض أيلول الاسود بأن تكون تلك « الفرجة » ، اي أن تكون عالما ثالثا في مسرحية أوبرا ، ذات « الطابع المحلـي » حيث يلـذ النظر الى الموت والبؤس بالنسبـة للمتفرجين

الاوروبيين البعيدين عنهما . هذا الظل اصبح قريبا منا الى حد ان الغربيين يخشون ان يكون بينهم . فهو ليس فانتوماس أو طرزان . لا يحمل اي اسم ، والامر افضل كذلك.

عندما نقلت أيلول الاسود النضال الى اوروبا ، انما أعـادته الى ساحته الاصلية . فاعادة نقل الحرب الى أوروبا هي ، بالنسبـة للفلسطينيين عودة منطقية الى منبع مصائبهم : فالحكومات الروسية والبولونية والالمانية والفرنسية والبريطانية هي التي ساهمت في خلق الدولة اليهودية . وعودة الفلسطينيين الى تلك الديار ــ سواء أكانوا رافعين اصبع الاتهام ام قبضة الانتقام ، لا بد وأن تساعد اوروبا في تحمل مسؤوليتها في موجات اضطهاد اليهود . فأوروبا لم تبال بحملات اضطهاد اليهود المتتالية ، كما انها لم تبال لذبح السكان العرب في فلسطين . ولم يكن أمام اليهود ، حينذاك ، سوى اقتحام اقل المواقع مقاومة : تلك المقاطعة العثمانية التي ، حسب ما يقال الان ، كانوا قـد طردوا منها منذ الفي عام ونيف . ومن طردهم حينذاك ؟ الرومان ، لا العرب . وقدم الاسرائيليون من كافة أرجاء أوروبا . واما اذا حدث أن وجد بينهم بعض اليهود العراقيين واليمنيين الذين نجوا من مذابح مزعومة ، فهذه قد تكون نقطة سوداء في سجل اليمن او العراق ، لا في خانة الفلسطينيين .

على أي حال ، ما هي تلك الالعاب الاولمبية بالضبط ؟ في الاصل ، صدر قرار تأسيسها في مدينة دلف ، وذلك لاقامة هدنة بين المدن الاغريقية المتحاربة . ولكن اليونان هي أيضا أوروبا . وعندما أعاد البارون « بيار دي كوبرتان » الحياة للروح الاولمبية ، فانه لم يفعل ذلك لبراءته الطفولية : اذ كان ذلك ضربا من الامبريالية الثقافية نظرا الى كون الرياضي الياباني والكوري والسنغالي والمغربي على السواء مرغمين على تعلم تاريخ اليونان ، ان هم أرادوا معرفة تاريخ الالعاب الاولمبية وروحها . لذلك ، يشكل اختيار الفلسطينيين لرهائن اسرائيلية ، في أوروبا ، في المانيا ، وسط العاب أولمبية ، تلخيصا جامعا وبليغا للمسألة الفلسطينية . وما بات يتضح بحدة من خلال ذلك النضال هو تخطي الصراع لنفسه ، بمعنى ان النضال لم يعد يقتصر على الصهيونية والامبريالية ، بل أصبح يكافح ضد أخلاقية طاغية ، هي الاخلاقية التي تنبع منها كل القيم الغربية ، والتي تنبع منها أيضا العنصرية ، ومعاداة السامية ، والصهيونية، والرأسمالية ومختلف الامبرياليات . وقد فرضت تلك الاخلاقية نفسها بطريقة طغيانية .

وجميع تفجرات العالم الثالث ــ وفلسطين من ضمنها ــ انما تهدف ، على ما يبدو لي ، الى مجابهة تلك الكلمات التي تريد فرض نفسها كأحكام وادانات . ان هذه الاخلاق بدأت تمارس تأثيرها من خلال تغلغلها داخل اللغة وتلويثها .

تقول الصحف الاوروبية في وصف الفلسطينيين واعمالهم : « أعمال عنف أعمى » ، و« جرائم لا يمكن تفسيرها » ، « لا انسانية » ، « دنيئة » . . . تلك محاولة لارهاب الفلسطينيين بواسطة أخلاق خانقة هي أخلاق الاوروبيين دون سواهم .

« نداء توجهه السيدة مئير الى العالم الحر » (الفيغارو ــ ١٣ أيلول ١٩٧٢) . هذا العنوان هو زلة لسان تكشف عن كون فلسطين ليست حرة . ولكن العنوان نفسه يعتبر ان « العالم الحر » ــ الذي تنتمي اليه اسرائيل ــ لا يمكن خلطـه مع العالم المغلل بالقيود ، الذي ينهبه « العالم الحر » . ودون أن يعي ذلك ، فان المحرر الصحفي قد جعل تلك الحقيقة جلية للعيان : « العالم الحر » له جيوشه ، ومصارفه ، وسجونه ، وأبنيته الشاحبة ، وبيروقراطيته ، وتاريخه المكتوب ذو الالتواءات التي لا حصر لها ، كل ذلك لمواجهة « الضياع » الفلسطيني . وكلما اندلعت حرب بين أوروبا والعالم الثالث ، فهي لا تلبث أن تصبح معركة الخير والشر ، حيث تمثل أوروبا طبعا الخير كله ــ هذا ان لم تكن هي الخير بحد ذاته . لذلك يجدر بنا التساؤل عن جدوى تصرف الفلسطينيين على

نمط العادات — او بالاحرى القواعد — التي تسير العالم الغربي . كل الاساليب جيدة طالما تنزل الضربات بتلك الاخلاق ، التي لا تحتل موقعها هذا ، ولا يجري الدفاع عنها باستماتة الا لسبب واحد ، وهو لانها تشكل سدا في وجه مطالب عالم مستغل (بفتح الغين) .

الثورة في الشرق والغرب

هذا سؤال يطرحه علي الفلسطينيون دائما : ((**ما هي المقارنة التي يمكننا اقامتها بين الثورة الفلسطينية والحركات الثورية في الغرب (ايار ٦٨)**)) ؟ جوابي لن يكون مرضيا . فبعض أيام أيار ٦٨ كانت مبعثرة في الزمن الذي سبق ذلك الشهر في فرنسا . كانت مبعثرة في الزمان والمكان . الا انه كان لا بد من « لملمة » هذه الايام اذا كنا نريدها ان تسجل في بضعة ايام بوضوح اكبر حتى يتم اكتشاف ما كان يتفاعل منذ زمن طويل . اما الثورة الفلسطينية ، فما زالت في الفترة التي تعتبر فيها كل الضربات مفيدة ، وذلك بالنسبة للعالم الغربي وبالنسبة للانظمة العربية البرجوازية . واذا أخذ الفلسطينيون بعين الاعتبار تلك القاعدة الدولية التي لا يحترمها أحد ، فسيدركون انهم قد أصبحوا في مرحلة محددة من لعبة يلجأ فيها الجميع الى الغش . (ذلك ان هنالك قواعد ثورية وحربية وضعها الغربيون بالطبع وقبلتها مختلف البرجوازيات العربية .) والتكهن عما ستكشفه فلسطين عند النصر ، مستحيل لان وعيها القومي ما زال قيد التكوين — كما سبق وقلت — في المخيمات والقواعد ، وفي أذهان الطلاب الفلسطينيين في الخارج .

وأود أن أزيد كلمة أخيرة وهي ان قواعد الفدائيين قد خلقت جوا مفعما بالحيوية ، شبيها بالذي خلفه شهر أيار ٦٨ في فرنسا . ولكن اختلافا جذريا كان يفصل الاثنين . فالفدائيون كانوا مسلحين ، وكانت أسلحتهم تجر كالمغنطيس سلاح البدوي : فكانوا يعيشون وسط مزيج من البهجة والشعور بالخطر . وهذا الخطر كان يضفي شيئا من النقاوة والقساوة على الحياة في القواعد .

المسألة اليهودية

سؤال : ما هي نظرتك للجذور الاوروبية للمسألة الفلسطينية (المسألة اليهودية) والى مدى استمرار العداء للسامية ؟ واذا كانت الصهيونية ردا على المعاداة للسامية ، من موقعها نفسه ، فأي مخرج ترى لتلك المشكلة التي هي غربية قبل كل شيء ؟

جواب : من الواضح ان المعاداة للسامية ما زالت رائجة في أوروبا ، وانني أتساءل الى أي حد تستغل العنصرية المعادية للعرب لاخفاء المعاداة للسامية في الغرب المسيحي . بواعث هذا الشعور المعقد ترجع الى كون المسيحيين استلهموا جوهر عقيدتهم من النصوص المقدسة اليهودية، ولكن التوسع في هذا المضمار يتطلب دراسات طويلة لست قادرا على القيام بها . ومن الواضح انه ما دام الصراع العربي الاسرائيلي قائما فانه يريح ضمائر المعادين للسامية اذ يمكنهم من اتخاذ موقف علني الى جانب «أوروبيين» . « اوروبيون » لان الرأي العام الاوروبي لا يعطي عملية الاستيطان الصهيونية الا شكلا واحدا — وذلك عائد الى نوع من الكسل او الراحة الفكرية — : رواد اشتراكيون قدموا من بولونيا وروسيا لتأسيس الكيبوتزات . ويمكننا القول ان يهود أوروبا باتوا بمنأى عن أي اضطهاد لان اضطهاد المانيا النازية الفظيع لهم أصبح بمثابة غطاء يحميهم . لكن اسرائيل في نظري أصبحت تشكل خطرا حقيقيا في الشرق الأوسط . اذ بات باستطاعة الامبريالية الاميركية التستر خلف امبرياليات ثانوية في تلك المنطقة ، واسرائيل احداها . وقاطعني عصام ليؤكد ان معاداة السامية ولدت في أوروبا خلال القرون الوسطى . وهو على حق أن كان يقصد اضطهاد اليهود ، وبالاخص تلك التي قامت بها المحاكم

الدينية آنذاك ، اذ لا يمكن انكار الحملات المسيحية المعادية لليهود في شرق اوروبا . وبما ان معاداة السامية هي علة وجود الصهيونية ، فان الصهاينة انفسهم باتوا يقبلون بذلك التفسير . ولكنني اعتقد ان الصهيونية هي ظاهرة القرن العشرين وهي نسخة مطابقة تماما لنموذجها الاصيل : الاستعمار . وقد برهنت منذ ولادتها على القدر نفسه من اللؤم الذي اتسم به الاستعمار حينما ادعي نشر قيم ١٧٨٩ الثورية عبر العالم ، بينما كان ينشىء نظام عبودية يمكنه من زيادة ارباحه . اذ ان الصهيونية اهتمت ظاهريا بالاحتفاظ بملجأ يحمي اليهود من معاداة السامية الغربية بينما كانت تبني ، في الواقع ، دولة ثيوقراطية بعد أن طردت شعبا بأسره . فأسلوب الاحتلال كان هو نفسه تقريبا في الحالتين : بضعة رواد بدائيين في افكارهم ، او مغامرين لا يتورعون عن ارهاب السكان المحليين او قتلهم ...

ولكنكم تعرفون هذه الامور افضل مني . اما القسم الاخير من السؤال فأقول بصدده انني لا أرى اي حل خارج اقامة الاشتراكية . ولكـن ذلك الحل لن يتم مـا لم يدرك الاسرائيليون ضرورة الثورة الاشتراكية . ونحن الآن ، على ما يبدو ،بعيدون كل البعد عن ذلك الادراك . فاسرائيل اليوم مأخوذة بارادة القوة والعظمة .

واذا استعملنا كلمة اشتراكية بكثرة كما سبق ، يحق لكم طرح السؤال : « هل انت مستعد للقبول بعالم اشتراكي ؟ » اذا كانت هي الاشتراكية المطبقة في خطوطها العريضة — بدرجات متفاوتة — في كافة انحاء العالم ، فانني أرفضها دون شك ولكنني سأقبل المساهمة بشكل مطلق في خلق عالم تكون فيه الاشتراكية صيرورة دائمة .

دعم الثورة الفلسطينية في الغرب

سؤال : ما هو رأيك في حركة المساندة للثورة الفلسطينيـة في فرنسا والغرب عامة ، وبامكانيات اتساع نطاقها ؟ ماذا يستطيع الفلسطينيون وأصدقاؤهم العمـل في هذا المجال ؟

جواب : اذا كانت الحكومة الفرنسية مكرهة — وذلك لاسباب اقتصادية : بترول الشرق الاوسط — على الادلاء ببعض التصريحات المبدئية لصالح الفلسطينيين ، كالاعتراف بحقهم في الوجود وحتى بحقهم في تقرير مصيرهم ، أو التساهل بشأن وجود شبه تمثيل للفلسطينيين في فرنسا ، فان ذلك لا يجب أن يخدعنا : فالحكومة الفرنسية قد سلمت اسرائيل ، خلال اثني عشر عاما ، كميات هائلة من الاسلحة . واعطاؤها النصيحة بعدم استعمال تلك الاسلحة ، كما فعل الجنرال ديغول في سنة ١٩٦٧ ، ضرب من السخافة الطفولية — هذا ان لم يكن مناورة تدخل في لعبة فرنسا المزدوجة — . فكيف تريدون من دولة دفعت ذلك الثمن الباهظ مقابل تلك الاسلحة ، ان تطيع نصائح بائع الاسلحة هذا ؟ ان الحكومة الفرنسية تعلم كل العلم ان اليهود يسيطرون على الصحافـة الفرنسية بأكملها تقريبا ، وان اسرائيل ما زالت تتمتع بعطف أكثرية يهود فرنسا . لذلك أعتقد ان ما تم انجازه هو جيد بالفعل : اي الضغط على البلدان البترولية كي تضغط بدورها أكثر وأكثر على الحكومة الفرنسية لاستقبال الفلسطينيين في فرنسا . اما الحركة المساندة لفلسطين بحد ذاتها فما زالت ضعيفة ومعرضة دائما لتهمة معاداة السامية . فالمواقف المتخذة ما زالت ذات طابع انساني أكثر منه سياسي .

على أي حال فان قضائي معظم أوقاتي خارج فرنسا يمنعني من اتخاذ موقف على نحو ما تطلبونه مني . ولكني أعتقد أن الاكثار من الدراسات حول شعب قيد التكوين — على نحو الدراسات التي يقوم بها العلماء حول نجوم قيد التكوين — قد يعود علينا بالفائدة . عندئذ ، يجب دراسة فلسطين كما هي — لا كما ستصبح — فذلك مستحيل — اي كما هي منذ ان حرمت من ارضها — وحتى منذ ان تم سحب الاراضي الاردنيـة واللبنانية

الجنوبية من تحت أرجل الفدائيين .

وبينما اعتقد الناس ان كل تلك المصائب والتراجعات قد اضعفت فلسطين وأجهزت عليها ــ تماما كما توقعها دايان ــ اذا بها تبدو أقوى من ذي قبل . وهذه هي الظاهرة التي علينا دراستها لمساعدة الثورة .

الادب والفن في الثورة

سؤال : ما هو الدور الذي يمكن للادب والفن ان يؤدياه في الثورة ، وفي المعركة من أجل تحرر الانسان ؟.

جواب : التوضيح واجب هنا ايضا . هنالك ثورة اجتماعية واقتصادية واحدة ترافقها ثورات فنية متعددة : ثورة في الرسم ، في الموسيقى ، في الادب الخ . . . هذا اذا امتنعنا عن التطرق الى الثورة الثقافية التي هي شيء آخر ايضا . وبشكل عام ، فان الحديث عن دور الفن في الثورة يجرنا بشكل طبيعي الى فكرة جعل الفن البرجوازي في خدمة الثورة . فنحاول مثلا استعمال الرواية لمحاربة البرجوازية ، بينما الفن الروائي هو بنظري تعبير برجوازي . انا لا أعرف رواية بروليتارية ، كما انني اشك في قبول بروليتاري او ثائر لتلك الثورات الصغيرة التي تم القيام بها داخل الفن الروائي في السنوات الاخيرة . كانت ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ عملا رائعا. واحداث ثورة في الرسم، كما فعل سيزان خلال عزلته ، هو عمل جميل ايضا . لكن رجال اكتوبر ١٩١٧ استولوا على السلطة السياسية وبادروا ، منذ سنة ١٩٢٤ ، الى منع معارض سيزان وكل الرسامين الذين فهموا امثولته . ولئن كانت الثورة السياسية والثورة الفنية لا تتناقضان دائما ، فعلينا الاعتراف بأن كل ثورة ترغب في أن تمدحها تلك الاكاديمية نفسها التي يراد تحطيمها .

« معركة من أجل تحرير الانسان » . لا شك في ذلك . لكن الثورات الفنية هي كماليات تتعدى امكانات الثوار السياسيين . انني أؤمن بقوة ان عمل الفنان يجب ان يترك حرا . فليس بامكان أحد اداء النصائح له . **واذا كان بامكان الفنانين مساعدتكم من حين لآخر ، فلن يكونوا بالتأكيد أفضل من ساعدكم .**

فالامر لا يتعلق بالفن ، بالنسبة للثورة ، بل بالمعلومات . لذلك علينا القبول بتلك المقولة : ان الفن الذي ستستعمله الثورة هو فن سيرفضه الفنانون ، منعزلين كانوا أم لا ، ويستبدلونه بفن جديد .

وفي حال قبولنا للمصطلحات السياسية ، علينا الاقرار بأن الفن مرتبط باليمين واليسار في آن واحد . فهو ، وان كانت جذوره متأصلة في التقاليد، ينعكس او يرغب في الانعكاس في مستقبل يكون قد صاغ جزءا بسيطا منه بيديه . وتلك الازدواجية في العمل الفني تجعله صعبا ضمن معركة سياسية .

ولنذهب الى أبعد من هذا الحد . العمل الفني هو في نظري على نوعين، وتحديد النوعين حسب وظيفة كل منهما لا يجب أن ترافقه أية مفاضلة . هنالك من جهة العمل الذي يخدم الثورة ، وهو بناء بهذا المعنى ، مع كونه يهدم القيم البرجوازية . وهنالك نوع آخر من الاعمال الفنية ، عنيف وتحريضي بالضرورة ، بمعنى انه يرفض التسليم **بأية قيمة ، وباية سلطة** . فهو يناقش حتى وجود الانسان . وهذا هو النوع الذي كنت اقصد عندما قلت ان العمل الفني لا يمكن ان يخدم الثورة وانا الح على انه **يرفض كل قيمة وكل سلطة** .

هل يجب ربط الفن بالثورة ؟ الكلام هنا أسهل من الفعل . فكيف يمكننا ربط سهام تنطلق باتجاهات مختلفة ؟ فلنأخذ مثلا فظائع الحرب لغويا (Goya)وهي مجموعة لوحات كرسها

« غويا » لادانة الحروب النابليونية . وكل من أتيحت له فرصة تأمل المجموعة بأكملها سحر بجمال ذلك العمل الفني . فروعة المشهد تنسينا ادانة الحرب التي يتضمنها ، نظرا لانهماكنا بخفةخطوط « غويا » وحيويتها . ما هي حالة المتأمل بذلك العمل ؟ يمكنني وصف شعوري كما يلي : حالة جمود باطني ، مستمرة في بحث لا متناه عن الجمال ، دون ان ينتهي الجمود . فهذه نقطة اللاعودة بالنسبة لها ، وهي ان تخطتها اطلت على حالة من الانبهار ، وفي حدها الاقصى ، الموت .

اما الثورة ومتطلباتها فهي دائما عبارة عن اوامر عملية ، وقولي ان العمل الفني تحريضي ، انما يعني انه في آخر المطاف يهز كل نظام قائم ، والعمل الفني الذي يتهجم **مرحليا** على بعض القيم ، ويحاربها ويقوم بتحقيرها ، يبدأ ايضا ، وبالحركة نفسها ، بارساء اسمى سلطات الثورة . قد تقولون انها سلطات الشعب ، وانها مطلقة بما ان الشعب سيد مصيره . لكن علينا تقبل تلك الفكرة القائلة بأن أية ثورة لن تنتصر على الموت . وعلى الرغم من ذلك ، فمن واجب الثورة تشجيع أضدادها : الاعمال الفنية . وذلك لان العمل الفني — وهو نتاج الكفاح المنفرد الذي يخوضه الفنان — يميل الى التأمل . وهذا الاخير قد يتحول ، في المدى البعيد الى هدم لكل القيم ، برجوازية ام لا ، وابدالها بشيء آخر سيشبه اكثر فأكثر ما نسميه **حرية** .

لكننا ما زلنا بعيدين عن كل هذا . فالعمل الثوري له مكانته في النضال الثوري ، لكنه عرضة لكافة انواع التبجج والرشوة ، كما هو الآن ، وكما سيظل لامد طويل ، ضمن العالم البرجوازي . الفنان متواضع . والعمل الفني سوف يصبح مجرد تجربة تواضع ، اكثر فأكثر . أنا لا اقول غباء — بل تواضع . بينما هو حاليا ، اكان ذلك في العالم البرجوازي أم ضمن الثورة ، أداة سلطة . اما العمل الحرفي ، فيمكنه رد الذي يمارسه الى مواقف اكثر وأكثر رجعية . فلنأخذ مثلا صناعة الفخار بما انها وسيلة للعيش بالنسبة لعدد كبير من العائلات في بعض البلاد العربية — وكونها كذلك هو سبب كاف يدفعنا الى المحافظة عليها ، لان الحاجة الاولى لاي كائن هو البقاء ، أي العيش . ان الحرفي مضطر ، كي يلبي طلبات زبائنه الذين يمرون به مرور طريق ، ان يعيد ، الى ما لا نهاية ، صنع الشكل ذاته للاواني التي يريد بيعها ، وهو الشكل الذي كان موجودا منذ الفي او ثلاثة آلاف سنة ، والذي يخاله السواح مرتبطا بشكل او بآخر ، بالبلد او بالمنظر . وسيعيد الخزفي صنع تلك الاشكال عشرة آلاف أو عشرين الف مرة . واذا أراد حقا ان يبيعها ، فتلك الاواني يجب ان تطابق تماما الفكرة التي تكونت عنها في ذهن السائح . وأبسط خطأ كاف لجعل الاناء فاشلا يستحيل بيعه .

اما اذا حوّر بيكاسو شكل أي اناء ، فسيكسب ذلك الاناء قيمة بقدر ابتعاده عن الشكل القديم الاكاديمي . وكلما وضع بيكاسو من ذاته في الاناء ، ومن حريته الذاتية ، أي كلما كان الاناء تعبيرا عن حريته وشخصيته هو ، كان جميلا ، ومباعا . لكن اقل هفوة تتعرض لها الطينة الرطبة بين يدي الحرفي تعتبر خطأ . ولا يمكن للحرفي ان يواصل العمل في ذلك الخطأ ، او ان يدخل حريته في صنع الاناء عبر ذلك « الخطأ » . فالاناء لا يجب أن يحوي قدر ذرة من شخصية الحرفي .

ان العمل الفني — ونتكلم هنا عن الفن البرجوازي او الذي تقبله البرجوازية — يترك اوسع مجال للعوامل الذاتية لدى المرء . ولئن كان من الممكن ان تثير تلك العوامل الذاتية عواطف الناظر ، فمن المشكوك فيه أن تكون سلاحا ثوريا . اما اذا ابتعد الفنان عن عوامله الذاتية — رافضا كل ما هو عاطفة وشعور — فقد يكسب ابعادا جديدة : ذلك التطلع الى الموت مثلا الذي سبق وتكلمت عنه ، والذي هو بمثابة دعوة الى التأمل لا الى النضال . وأخيرا ، ربما كان احدى تعريفات العمل الفني : انه شيء لا يفي بأية حاجة .

شاعت حاليا أداة تعبير واتصال بسيطة الى حد مـــا وهي السينما . وانني أتساءل عما اذا كان من الممكن لبعض الفدائيين ــ او مناضلين غيرهم ــ أن يزودوا بآلات ، تسجل الصوت ايضا ، كي ينتجوا أفلاما صغيرة ، يكتشفون بأنفسهم التقنية والجمالية الاكثر ملاءمة لها ، ويتم عرضها في المخيمات فيما بعد .

وفيما يختص بالثورة الفلسطينية ، فهي على حق عندمـــا تستعمل الاشكال الفنيـــة البرجوازية ، ولكن ذلك الاستعمال قد يعرض الثورة للخطر ، اذا اغراها استغلال المواضيع ، والصور ، والكليشهـــات نفسها ــ اي الاكاذيب نفسها ــ التي تساند البرجوازية . وهنالك ما هو أفظع : ففنانو البرجوازية (البارعون بينهم) هم هامشيون بالنسبة لتلك البرجوازية ، والفن الذي أنشأوه يعمل ضد السلطة البرجوازية ، الى حد ما (على نطاق أضيق جدا من الواقع) واذا وضع فن بأكمله في خدمة الثورة ، فقد يصبح بأكمله ايضا ، في خدمة السلطة السياسية داخل الثورة . ولا اعتقد ان ذلك مما يحمد له ، الا اذا اعتبرنا ان السلطة الثورية قادرة ، في كل الاحـــوال ، على تقويم وتشجيع ثورة أدبية ، أو موسيقية ، الخ . . .

لم تحدث بعد ــ على حد معرفتي ــ اية ثورة فنية فلسطينية . وعلى الرغم من أن كل الطاقات الفكرية قد جندت للمساهمة في المعركة السياسية أو المسلحة ، فمن الممكن أن يظهر فنان ما ــ منفرد أو لا ــ يتمتع بالقوة الكافية كي يعرض علـــى شعبه أشكالا جديدة ، أكثر وضوحا وجلاء . وحذار من احباط عزيمته حينذاك ، بحجة عدم أهلية الاناس البسطاء : فالبسطاء سوف يستوعبون الفن الجديد بطريقة أفضل من واضعي نظريات الثورة ، الغارقين في لجج الثقافة البرجوازية .

ومساندة للفنان المنعزل ، أود ايضاح ما يلي : ان العمل الفني هو دلالة على رفض القوانين العادية ــ أي قوانين العادة ــ من أجل اكتشاف قوانين جديدة قد تفتح السبيل للغة جديدة . فالعالم العربي في حالة جمود منذ أكثر من مئة وخمسين سنة . وسيشكل احجام الثورة الفلسطينية عن اعطاء الفنانين فرصهم للخلق خسارة كبرى . اما هؤلاء الفنانون ، فسيستخدمون ، للتوصل الى أهدافهم ، أساليب كل الناس ، الاساليب التي يستطيعون استخدامها . فليست هنالك ثمة مدارس ، ولا وجود لاية قواعد ، الا تلك التي يجب هدمها لاستبدالها بقواعد جديدة .

الفنان ضعيف ــ وعلى الثورة حمايته حتى في نطاق الاخطاء التي قد يرتكبها ــ لكنه في الوقت نفسه أحد أقوى أسلحة الثورة التحريضية .

الخروج من ساحل المتوسط

محمود درويش

جاء في الأنباء : أن قبور
الشهداء تتحرك في غزة ! .

١ — سيلٌ من الأشجار في صدري
أتيتُ .. أتيتُ
سيروا في شوارع ساعدي تَصِلُوا .

وغزّةُ لا تصلّي حين تشتعلُ الجراح على مآذنها ، وينتقلُ الصباح الى موانئها ، ويكتمل الردى فيها .

أتيت .. أتيتُ
قلبي صالحٌ للشربِ
سيروا في شوارع ساعدي تَصِلوا .

وغزةُ لا تبيع البرتقال لأنه دمُها المعلّبُ . كنتُ أهرب من أزقّتها ، وأكتبُ باسمها موتي على جمّيزةٍ ، فتصيرُ سيّدةً وتحمل بي فتىً حراً .

فسبحان التي أسْرَتْ بأوردتي الى يدها ! .
أتيتُ .. أتيتُ
غزة لا تصلّي .

لم أجد أحداً على جرحي سوى فمها الصغيرِ ..
وساحلُ المتوسط اخترق الأبد ..

٢ – لا توقفوني عن نزيفي !
ساعةُ الميلاد قلّدتِ الزمان ، وحاولتني .
كنتُ صعباً – حاولتني
كنتُ شعباً – حاولتني مرة أخرى ..
أرى صفـاً من الشهداء يندفعون نحوي ، ثم يختبئون في صدري ،
ويحترقون .

ما فتَـكَ الزمانُ بهم ، فليس لجثّـتي حدّ . ولكني أحسّ كأن
كلّ معـارك العرب انتهتْ في جثتي ، وأودّ لو تتمزق الأيام في لحمـي
ويهجرني الزمان ، فيهدأ الشهداءُ في صدري .. ويتفقون .

ما ضاق المكان بهم ، فليس لجثتي حـدّ . ولكنّ الخلافة لا تزال
أهمّ من أعدائـكم وترابكم ورسولـكم –
لا توقفوني عن نزيفي

ساعةُ الميلاد قلّدت الزمان وحاولتني .
كنت صعباً – حاولتني مرة أخرى
أرى صفاً من الشهداء يندفعون نحوي
لا أحـدْ ! .

٣ – وتقاسمَتْني هذه الأمم القريبة والبعيدةُ .
كلُّ قاضٍ كان جزّاراً
تدرّج في النبوءة والخطيئةِ
واختلفنا حين صار الكل في جزء ،
وصار الجرح وردتنا جميعاً
فابتعدنا ..
إذهبْ الى الموت الجميلِ –
ذهبتُ .
وحدي كنتُ

قلتم : نحن ننتظر الجنازة بالأكاليل الكبيرة والطبولِ ،
ونلتقي في القدسِ ..
ليتَ القدس أبعدُ من توابيتي لأتّهم الشهودَ
وما عليك ! ذهبتَ للموت الجميل
ومدينةُ البترول تحجز مقعداً في جنة الرحمن — قلتم لي .
وطوبى للمموّل والمؤذّن .. والشهيد !

٤ — تَعِبَ الرثاءُ من الضحايا
والضحايا جمّدتْ أحزانها
أوّاه ! مَنْ يرثي المراثي ؟
لستُ أدري أيّ قافية تحنّطني ، فأصبح صورة في معرض الكتب القريب
ولستُ أدري أيّ إحصائيّة ستضمني ..
يا أيها الشعراء .. لا تتكاثروا !
ليست جراحي دفترا .
يا أيها الزعماء .. لا تتكاثروا !
ليست عظامي منبراً .
فدعوا دمي — حبرَ التفاهم بين أشياء الطبيعة والاله
ودعوا دمي — لغة التخاطب بين أسوار المدينة والغزاة .
دمي بريدُ الأنبياء .

٥ — وأعود من تلقاء نفسي ..
ليت شُبّاكي بعيد كي أرى أمي
وليت القيد أقرب كي أحسّ النبض في زندي
وليت البحر أبعد كي أخاف من الصحاري
آهِ ، ليت الشيء عكس الشيء كي تتآكل الأشياء في نفسي ، وتأخذَ صيغة الفرح الحقيقيّ

ابتعدنا واقتربنا
يا أهالي الكهف قوموا واصلبوني من جديدٍ
إنني آتٍ من الموت الذي يأتي غدا
آت من الشجر البعيدِ
وذاهبٌ في حاضري – غدِكم .
أنا قشّرتُ موجَ البحر زنبقةً لها معنى .
وغزةُ لا تصلّي ..

٦ – سيلٌ من الأشجار يخرج من ضلوع الصخر – يصقلني الفناءُ
وجدولٌ يمتد من صدري عموديّاً – وتنحدر السماءُ
رأيتُ رأي القلب – ذوّبني الضياءُ
فصرت صوتاً ، والحصى صار الصدى
وتنفّس القبرُ القديم ..
تحرّك الحجرُ .. استردّ دبيبَهُ منكم
أنا الأحياء والمدن القديمةُ . حاولوا أن تخلعوا أسماءكم تجدوا يديّ .
وحاولوا ان تنزعوا اثوابكم تجدوا دمي . أوحاولوا أن تحرقوا هذي الخرائط
تبصروا جسدي –
أنا الأحياء والوطن الذي كتبوهُ في تاريخكم ..
من جثتي بدأ الغزاةُ ، الأنبياءُ ، اللاجئون –
وفيه يختتمون سيرتهم لأبدأ من جديد .

٧ – تتحرّكُ الأحجارُ .
هذا ساعدي متمايل كالرعبِ
ليس الربّ من سكّانه هذا القفرِ
هذا ساعدي .
تتحرك الأحجارُ .
ما سرقوا عصا موسى
وإنّ البحر أبعدُ من يدي عنكم

إذن ، تتحركُ الأحجارُ
إن طلعوا وان ركعوا ، وإن مرّوا وان فرّوا —
أنا الحجرُ .. أنا الحجرُ الذي مسّتْهُ زلزلةٌ .
رأيتُ الأنبياء يؤجّرون صليبهم
واستأجرتْني آيـةُ الكرسيِّ دهراً ، ثم صرت بطاقةً للتهنئات
تغيّر الشهداءُ والدنيا
وهذا ساعدي .
تتحركُ الأحجارُ
فالتفّوا على أُسطورةٍ
لن تفهموني دون معجزةٍ ، لأن لغاتـكم مفهومةٌ . إنّ الوضوح
جريمةٌ . وغموض موتاكم هو الحقّ — الحقيقةُ .
آه ، لا تتحركُ الأحجار إلّا حين لا يتحركُ الأحياءُ
فالتّفوا على أُسطورةٍ :
سيل من الأشجارِ ، غزةُ لا تصلّـي ، ساحلُ المتوسط اخترق الأبدْ .

٨ — لن تفهموني
تخرج العذراءُ من ضلعي
تكون مشيئتي
وأُصابُ بالأمطار والبرق الذي أدمنتـُه
لن تفهموني
ناهضاً من قبركم
والأرضُ للشهداءِ —
أنهيتُ المغامرة الأخيرة وابتدأتُ :
هنا الخروج . هنا الدخولُ
هنا الذهاب . هنا الإيابُ
ولا مكانَ هنا
أنا الزمن الذي لن تفهموني خارجَ الزمن الذي ألقى بكم في الكهفِ —
هذي ساعتي :

ينشقّ قبرٌ ثم أنهض صارخاً :
لا توقفوني عن نزيفي
لحظةُ الميلاد تسكنُني من الأزلِ ، استريحوا في جراحي —
ها هو الوطن الذي يتجدّدُ ، الوطن الذي يتمجّدُ ، اقتربوا من الاشجار ، وابتدئوا معي !

٩ — في غزةَ اختلفَ الزمان مع المكانِ
وباعةُ الأسماك باعوا فرصة الامل الوحيد ليغسلوا قدميّ
أين الجدليه ؟
ذابتْ أصابعها مع الصابون
وانهمرت كتاباتٍ كتاباتٍ
وكان الجندُ ينتصرون ينتصرون
كانوا يقرأون صلاتها
ويفتّشون أظافرَ القدمين والكفين عن فرَحٍ فدائيّ ،
وكانوا يُلحقون حياتها
بدموع هاجَرَ . كانت الصحراء جالسةً على جلدي . وأوّلُ دمعة في الارض كانت دمعةً عربيّةً . هل تذكرون دموع هاجر — أوّلِ امرأةٍ بكتْ في هجرة لا تنتهي ؟
يا هاجَرُ ، احتفلي بهجرتي الجديدةِ من ضلوع القبر حتى الكون أنهضُ
يسكنُ الشهداءُ أضلاعي الطليقةَ
ثم أمتشق القبورَ وساحل المتوسطِ
احتفلي بهجرتيَ الجديدهْ .

النفط العربي
في استراتيجية المجابهة العربية الاسرائيلية *

الدكتور يوسف عبدالله صايغ

مقدمـــة

صلة النفط بالقضية الفلسطينية صلة متعددة الجوانب . فهي **من الناحية الزمنية صلة تاريخية** اذ كان هناك بعد نفطي او مصلحة نفطية، الى جانب الابعاد والمصالح الاخرى، خلف الجهد الامبريالي لارساء أسس الاستعمار الصهيوني في فلسطين وتوطيده في قلب العالم العربي ، منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشريـــن . وهي صلة معاصرة الى المدى الذي تعزز فيه الامبريالية الغربية اليوم علاقتها بالوجود الاسرائيلي وتعينه على التشبث بمكتسباته وتوسيع رقعتها في الوطن العربي .

وهي ، **من الناحية الوظيفية ، صلة عسكرية وسياسية واقتصادية** في آن واحد ، الى المدى الذي تتشابك فيه مصلحة الامبريالية الغربية المعاصرة بالمصلحة الاسرائيلية في هذه الحقول الثلاثة ، من خلال الاستغلال الغربي لموارد النفط العربية وتحويل هذه الموارد الى مصدر قوة عسكرية وسياسية واقتصادية للبلدان الغربيـــة التي تنتمي المصالح النفطية اليها ، ومن خلال تحويلها الى أداة رعب تشل الارادة العربية وتشوه الرؤيا العربية للمصالح العربية الحقيقية .

وهي أيضا ، **من ناحية نظام العلاقات بين البلدان والدول ، صلـــة معقدة تمتد عبر مستويات متعددة** ، لان للنفط دورا معقداً في أطار المجابهة العربية الاسرائيلية ، حيث يفعل النفط ـــ او يمكنه أن يفعل ـــ ضمن الاطار العربي على أصعدة التعاون العربي والانماء والتحديث والتسلح وخلق مجتمعات عدل وتكافؤ فرص ، ويفعل أو يمكنه أن يفعل ضمن الاطار الدولي الاوسع كجهاز ضغط على الغرب وكمادة رئيسية للمساومة ، ويفعل أو يمكنه أن يفعل في خلق توازن مع القدرة الاسرائيليـــة المضادة القائمة في الاساس على دور اسرائيل او صورتها في العالم الخـــارجي كمجتمع حديث متقدم ، وكتجربة اجتماعية تدعو للتمعن ، وكبلد ذي فاعلية عسكرية بارزة .

وهي أخيرا ، اذا نظرنا اليها من الزاوية الواسعة لمجابهة القوى الفلسطينية العربية

---

* اعتمد الكاتب في القسم الثاني من هذا البحث على دراسة بعنوان « سبل استخدام النفط العربي لصالح القضية الفلسطينية »أعدها في نيسان (ابريل) ١٩٧٢ للمجلس الاقتصادي العربي بتكليف من لجنة وزارية فرعية في المجلس . وقد شكلت هذه اللجنة لجنة خبراء لتقييم المصالح الاقتصادية العربية/الاجنبية وسبل استخدامها لصالح القضية الفلسطينية . اما الصيغة الحالية فقد أعدت بنـــاء على طلب مجلس السلم العالمي والمجلس الوطني للسلم والتضامن في الجمهورية العراقية وقدمت للندوة العلمية المنعقدة في العراق من ١١ الى ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٢ حول « النفط كسلاح في الكفاح ضد الامبريالية والعدوان الاسرائيلي ووسيلة لتطوير اقتصاد وطني مستقل » .

للقوى الاسرائيلية الامبريالية ، **صلة جدلية** في أكثر من جانب من جوانبها . فبقدر ما يزداد شأن النفط في الوطن العربي يزداد فعل النفط كمصلحة عربية راسخة (Vested Interest) ويرتفع جدار التحفظات الرسمية العربية تجاه الضغوط الفلسطينية والشعبية العربية للقيام بعمل عربي شامل وحاسم تجاه اسرائيل والامبريالية . وبقدر ما يزداد التشبث العربي بالمكاسب النفطية يرتفع جدار الشك الفلسطيني بالارادة والتصميم العربيين على القيام بالعمل الشامل والحاسم . وكذلك ضمن الاطار الدولي ، فان العلاقة الجدلية تبرز من خلال تزايد التردد العربي في استخدام النفط كوسيلة ضغط ومجابهة مع الامبريالية الغربية كلما ارتفعت فاعلية النفط كوسيلة مجابهة، ومن الناحية الامبريالية يزداد الدعم لاسرائيل ويرتفع مستوى الاعتماد عليها كلما تصاعد شأن النفط العربي في الحياة الاقتصادية والعسكرية للغرب وتعاظمت طاقته كجهاز ضغط في المجابهة ، كما يزداد اطمئنان اسرائيل الى استمرار التردد العربي كلما ازداد تشبث العرب بمكاسبهم النفطية .

هذا التعريف المغرق في الاقتضاب يبدو وكأنه يؤكد ان صلة النفط بالقضية الفلسطينية حبلى بالتناقضات ، وكأنما هذه الصلة لا تلد في النهاية الا عكس ما يتوقع منها ، فبدلا من أن يصبح النفط قوة في يد العرب نراه وقد أصبح أو كاد قوة في يد اسرائيل والمعسكر الغربي . هذا صحيح في ضوء المعطيات الموضوعية للواقع العربي اليوم . لكن اليوم ليس هو الغد ، ولو كانت رؤيانا للغد العربي انه امتداد للحاضر العربي لدعونا لانتحار جماعي للانسان العربي ولمجتمعه . والحلقة المفرغة التي تدور التناقضات ضمنها اليوم يمكن أن تكسر ، ومتى كسرت اصبح النفط قوة عربية في اليد العربية وتحولت مسيرة العلاقة الجدلية بين النفط والقضية الفلسطينية صوب الصالح العربي . هذه رؤيانا للغد الممكن التحقيق : اما مفتاح السر في تحقيقه وفي كسر الحلقة المفرغة فهو وضوح الادراك العربي لابعاد الخطر الصهيوني الاسرائيلي الامبريالي ، وتبلور ارادة النضال في المجتمع العربي ، والانعتاق من النظرة الضيقة للمصالح العربية الجزئية المتقوقعة ضمن افق زمني قصير الى رحاب النظرة الواسعة للوجود والمصير العربي المشترك الممتدة الى الافق الزمني البعيد . من هنا نبدأ والا انتهينا حيث نحن وجودا ومصيرا ، وخسرنا الموارد اياها التي نظن اننا نحرص عليها من خلال الارتهان للخوف في مجابهتنا للقوى الاسرائيلية الامبريالية .

* * *

اذن هذا هو الاطار الصحيح لفهم دور النفط في القضية الفلسطينية وبالتالي في المجابهة العربية الاسرائيلية . وتحديدا فاننا سنعالج الموضوع من خلال أسئلة رئيسية أربعة سنطرحها ونحاول الاجابة عليها في هذا البحث ، مركزين على امكانية استخدام النفط كجهاز ضغط عربي لصالح القضية الفلسطينية ، وشروط نجاح هذا الاستخدام . لكن لا بد قبل ان نفعل ذلك من تحديد بعض المنطلقات .

١ ــ المنطلق الاول يتعلق بنظرتنا الى النفط كمورد وكأداة . فلسوف يتضح اننا لا نعالج النفط كمجرد سلعة اقتصادية ، ولا نحن نحاول في محصلة التحليل مجرد اكتشاف كيفية تنظيم مردود انتاج وتصدير هذا المورد على اهمية هذا التنظيم ، لان اغراض البحث كما حددناها ليست اقتصادية بل سياسية استراتيجية تتعلق بالمصير العربي وبقضية فلسطين داخل هذا الكل . وكذلك فنحن نرفض الموقف الغربي الذي يرغب في أن نبقي النفط في منأى عن الاستخدام السياسي او الاستراتيجي وان نحصر استخدامه ضمن اطار التعامل التجاري البحت .

٢ ــ المنطلق الثاني ان النفط ، على عظيم شأنه ، ليس المورد الوحيد او الوسيلة الوحيدة الصالحة للضغط على العالم الخارجي لصالح القضية الفلسطينية . فهنالك

وسائل اخرى منها الارصدة العربية الضخمة في الخارج (وهي متصلة اتصالا وثيقا بمورد النفط ومصدراته) ، والتجارة الخارجية من البلدان العربية واليهـا ، وسائر الخدمات الاقتصادية كالنقل البحري والتأمين وسواها . على اننا في البحث الحاضر سنركز النظر على النفط الذي هو الموضوع المراد درسه .

٣ ــ المنطلق الثالث ان العالم الخارجي المستهدف من استخدام النفط كأداة ضغط يشمل جميع البلدان ، من عدوة وصديقة ، ولا عدوة ولا صديقة ــ أي في مختلف مواقع العداء والصداقة الممكنة ، والتي قد يكون لها قول او اثر في مجرى الأحداث . لكن البلدان المستهدفة بالضغط بشكل مباشر ستكون ــ كما سيتبين من سـياق البحث ــ البلدان الغربية وخاصة تلك التي ساعدت منذ الاساس في نشوء الحركة الصهيونية الحديثة وفي قيام دولة اسرائيل والتي تساندهما الان وتمنحهما منعة وقوة واستمرارا ــ نعني بذلك الولايات المتحدة ثم بريطانيا .

٤ ــ المنطلق الرابع ان الاطار او المدى الزمني الذي يقع التحليل ضمنه يختلف باختلاف اجزاء التحليل ، فهو مدى قصير لبعض أوجه استعمال النفط ، وهو مدى متوسط او طويل للبعض الآخر . وسيحدد في كل جزء من البحث نوع المدى الزمني الملائم له .

٥ ــ المنطلق الخامس ان سبل استخدام النفـط لصالح القضية الفلسطينية تتنوع فبعضها سلبي والبعض الآخر ايجابي ، وبعضها سلبي مرحليا فقط لكنه قادر على خلق حالة ايجابية بفضل رد الفعل المتوقع له . على اننا نشدد ان مسألة التصنيف الى سلبي وايجابي مسألة عابرة وينبغي الا نقع اسرى التسميات ، اذ أن المسألة المركزية هي الغرض النهائي للاستخدام .

٦ ــ المنطلق السادس ان استخدام النفط كما يرد في هذا البحث قضية معقدة وتنطوي على محاذير ومخاطر بالنسبة للعرب . وليس هنالك من اجراء او موقف او عمل لصالح القضية الفلسطينية لا ينطوي على محاذير ومخاطر . اذن فالاساس في الاستخدام ان يكون موقف العرب هو القبول بمخاطر واكلاف محسوبة اذا كانت محصلة الفعل ورد الفعل والتفاعل بالتالي في صالح قضيتهم ــ واختيار ذلك الموقف او القرار بين مختلف البدائل الذي تكون محصلته هي الافضل من وجهة نظر القضية .

٧ ــ المنطلق السابع ان التخطيط العربي ينبغي ان يتمتع بالمقدار الاكبر مـــن المرونة بحيث يشمل مواقف واجراءات على درجات متفاوتة من الشدة وأن يستهدف القدرة على المناورة في مرحلة أولى هي مرحلة التلويح والانذار والتهديد ، كما يستهدف القدرة على الحاق الأذى بالقوى الخارجية المعادية أو المراد التأثير فيها ، حين تفشل المرحلة الاولى ويتطلب الوضع الانتقال الى المرحلة الثانية التي هي مرحلة « عض الاصابع » أو تجربة كل فريق لقوة الاحتمال لدى الفريق الآخر ، وفي أقصى حالاتها مرحلة العقاب . وبالطبع فان هذا المنطلق يفترض **التنسيق العربي** على الاقل من اجل التخطيط لكيفية استخدام النفط . كما يفترض التخطيط وضع **خطـط لمختلف الاحتمالات** ليصـار الى استعمال الخطة الملائمة في الموقف الملائم ، ابتداء من مرتبة التلويح والتهديد وصعودا الى مرحلة الحــرج والحسم تصعيـدا (Escalation) مع التهيئـة لامكان التهبيـط (De-escalation) كذلك ، وصيغ ذلك التهبيط ومرتباته .

٨ ــ المنطلق الثامن والاخير ان محاولة الاجابة على الاسئلة المركزيـة الاربعة التي سنتناولها بالبحث والتحليل تنطلق من الوضع العربي الراهن ولكنها ترفض اعتبـاره محطة نهائية . فلو لم تمتد رؤيانا الى وضع عربي افضل لاكتفينا بالقول ان البلدان العربية اليوم في حالة تشبه الشلل ولا قدرة لها على التحرك الديناميكي الفعال . واذن فاننا ، منطلقين مما هو كائن ، نتجه صوب ما هو ممكن اذا عبئت الارادة العربية .

ومفتاح السر في هذه التعبئة ــ فيما نعتقد ــ هو تحقيق مقدار من صفاء الادراك لحقيقة الخطر الصهيوني الاسرائيلي الامبريالي ولابعاده ، ودلالاته للمصير والوجود العربي ولمستقبل اجيالنا . ومتى اتضحت الرؤيا العربية ارتفعت درجة التحسس بالخطر وازداد القبول بالمواقف والاجراءات على كلفتها التي كانت مرفوضة قبل صفاء الرؤية والادراك للخطر .

من هنا ندخل صلب الموضوع من خلال التوجه صوب الاسئلة الرئيسية الاربعة التي هي مدار البحث ، وهي تعالج ما يلي : **أولا** ــ النفط والقوة الذاتية العربية ، **ثانيا** ــ النفط كجهاز ضغط على القوى الخارجية ، **ثالثا** ــ الضغط الاسرائيلي المعاكس ، **رابعا** ــ الغرب والضغط العربي .

أولا : النفط والقوة الذاتية العربية

منذ اللحظة الاولى يتوجب علينا أن نبين أن مصادر القوة الذاتية العربية متنوعة وليس النفط على كبير شأنه الا أحد مظاهرها المادية الملموسة . لكننا لسنا الآن في صدد تحليل هذه المصادر ، وبالتالي فاننا سنركز النظر على النفط . وينبغي بالتالي ابراز شأن النفط العربي من خلال تقديم خلاصة للوضع النفطي العربي ، وهي خلاصة تستند الى جداول الملحق الاحصائي :

خلاصة لابرز الحقائق حول النفط (سنة ١٩٧٠)

١ ــ نسبة احتياطي النفط الخام الثابت والمعلن الى احتياطي العالم بأسره :

في البلاد العربية	٤٩ر٧ ٪
في افريقيا غير العربية	٥ر٨ ٪
في الولايات المتحدة	٧ر٥ ٪
في نصف الكرة الغربي (الولايات المتحدة وكندا والكاريبي واميركا اللاتينية)	١٣ر٤ ٪
في البلدان الاشتراكية	١٦ر١ ٪

٢ ــ نسبة انتاج النفط الخام الى انتاج العالم بأسره :

في البلاد العربية	٣٢ر٦ ٪
في الولايات المتحدة	٢٠ر٣ ٪
في نصف الكرة الغربي	٣٧ر٥ ٪
في البلدان الاشتراكية	١٦ر٦ ٪

٣ ــ نسبة الاحتياطي الى الانتاج السنوي :

في البلاد العربية	٥٩ر٢ : ١
في الولايات المتحدة	١٢ر٨ : ١
في الكاريبي	١٠ر٦ : ١
في نصف الكرة الغربي	١٢ر٦ : ١
في البلدان الاشتراكية	٣٥ر١ : ١

٤ ــ نسبة صادرات النفط الخام ومشتقاته لجملة صادرات العالم :

من البلاد العربية : النفط	٦٣ر٣ ٪
النفط ومشتقاته	٥٤ر٨ ٪
من نصف الكرة الغربي : النفط	١٠ر١ ٪

النفط ومشتقاته	١٧ر٧ ٪
من البلاد الاشتراكية : النفط	٢ر٥ ٪
النفط ومشتقاته	٣ر٧ ٪

٥ ــ نسبة انتاج النفط الخام الى استهلاكه :

في البلاد العربية	١٠٥٠ ٪
في الولايات المتحدة	٦٨ر٦ ٪
في أوروبا الغربية	٣ر٦ ٪
في اليابان	دون ٠ر٥ ٪
في البلاد الاشتراكية	١١٢ر٧ ٪

٦ ــ عائدات تصدير النفط الخام من البلاد العربية (عدا مصر وسوريه)
سنة ١٩٧١ ٦٩٨٠ مليون دولار

٧ ــ تقدير عائدات تصدير النفط لعام ١٩٧٥ ١١٨ر١٥ مليون دولار

تتضح من هذه الخلاصة ومن الملحق الاحصائي ذاته ، الاهمية العالمية للنفط العربي ودرجة الاعتماد العالية على هذا النفط ــ وهي أهمية تتبدى من خلال عدة مؤشرات أبرزها ارتفاع نصيب البلدان العربية من المخزون او الاحتياطي النفطي الثابت وتصاعد تقديرات هذا الاحتياطي عبر السنين ، وارتفاع الانتاج السنوي وتزايده عاما بعد عام بثبات وبأكثر من تزايد الانتاج العالمي ، مما رفع نسبة الانتاج العربي لجملة الانتاج العالمي خلال الستينات ، وارتفاع نسبة ما يدخل التجارة العالمية من النفط العربي ان منسوبا الى جملة الانتاج العربي او الى جملة التجارة العالمية ، واخــيرا استمرار اعتماد العالم الغربي على النفط العربي وتزايد هذا الاعتماد تزايدا شاهقا .

وكذلك وبقليل من التمعن تتضح حقيقة في غاية الخطورة هي ان انتاج النفط وتصديره أكثر نواحي العلائق الاقتصادية أهمية بين العرب والعالم الخارجي ــ وان هذه الاهمية ذات طبيعة اقتصادية في الواقع والظاهر لكنها ذات اهمية سياسية وعسكرية قصوى كذلك ، وان يكن العرب لم يفيدوا بعد من طاقة النفط كعامل سياسي عسكري . وهنا ينبغي ان نبين اننا نقصد بالعالم الخارجي العالم الغربي لاغراض هذه الدراسة ــ كما سيتضح من سياق البحث ــ ونحن نضع اليابان في اطار العالم الغربي لان هذا البلد يملك شيئا من راس مال الشركات المنتجة للنفط ، شأنه في ذلك شأن فرنسا او بريطانيا أو سواهما من بلدان الغرب ، ولكون اليابان تصنف مـــع البلدان الغربية في « منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OECD » وهي ليست بدون دور سياسي في مجموعــــة البلدان الغربية .

اما اهمية الناحية النفطية في العلائق الاقتصادية العربية ــ الغربية فليست بسبب حجم المبيعات النفطية وقيمتها فحسب ، وانما كذلك بسبب الدور البالغ الخطورة الذي يلعبه النفط في حياة المستوردين اليومية وفي صناعتهم ووسائل نقلهم وفي قدراتهم العسكرية على السواء ــ مما يجعله سلعة استراتيجية حيوية من الطراز الاول ، وايضا بسبب الدور الذي يلعبه في الحياة الاقتصادية للبلدان العربية المصدرة للنفط ، ولبلدان المرور بما يجنيه من عملات اجنبية ودخل وبما توفره عائدات استخراج النفط ومروره من موارد للاستخدام في الاستهلاك الخاص والعام (ويتضمن الاستهلاك العام حاجات الدفاع) وفي التثمير الانمائي ايضا الخاص والعام ، وفي دعم الصمود العربي ، وبما يتيحه النفط من قوة سياسية لو استخدم لهذا الغرض ، واخيرا بما يسمح به فائض العائدات النفطية من تثميرات خارج البلدان المصدرة للنفط ومن تدعيم للاحتياطي المالي في الخارج .

* * *

السؤال الاول الذي نطرحه بعد تقديم هذه الخلاصة هو :

كيف يفعل النفط العربي في دعم القوة الذاتية العربية ورفع مستواها نوعية وفاعلية ؟ وتتطلب الاجابة على هذا السؤال النظر الى دور النفط من أربع زوايا متداخلة بطبيعتها .

١ ــ النفط كوسيلة انماء وتحديث وتحرر

زاوية النظر الاولى وهي تمتد الى الافق الزمني البعيد ، هي قدرة النفط على توفير الوسائل المادية اللازمة للانماء والتحديث في العالم العربي . وغني عن القول ان المجتمعات والاقتصادات العربية بحاجة الى تحقيق مستويات اكثر ارتفاعا ، من التنمية بمعناها الواسع ــ فالتنمية ليست مجرد تحقيق زيادة ملموسة في الناتج القومي الفردي على اهمية هذا الامر . ان تصدير النفط من البلدان الغنية بالنفط قادر في ذاته على تحقيق متوسط حسابي مرتفع للدخل الفردي . انما المقصود بالتنمية رفع فاعلية الاقتصاد الوطني وكفاءته ، وتحديث هذا الاقتصاد بنقل مؤسساته وتنظيمه وسبل انتاجه والتكنولوجيا المعتمدة فيه ــ وفي الاساس بنقل انماط التفكير فيه ــ الى القرن العشرين لتكون عصرية وعقلانية وفعالة .

واخيرا فان محصلة التنمية التي نقصدها تكون رفع مستوى الانتاج ثم ــ متى توفرت للمجتمع المفاهيم الصحيحة في نطاق عدالة التوزيع وتكافؤ الفرص ــ تحرير المجتمع من العوز والغيبية والخضوع للبيئة . واذن فان التنمية بهذا المعنى عملية تحررية وثورية شاملة ذات ابعاد تتخطى بكثير المفهوم الاقتصادي الضيق للمصطلح . وكذلك فان التنمية ــ كعملية ثورية ــ بفعل علاقة جدلية بين القوى التي تطلقها وتنطلق بها ، تخلق بمجرد انطلاقها ما لا نجد افضل من تسميته « ثورات مضادة » او تيارات معاكسة او سلبية في حقول الديموغرافيا والادخار والتثمير والتعليم والتطلعات الاستهلاكية وجمالية البيئة وخلافها من حقول . ومن الواضح ان المجتمع النير مدعو للاحتياط لهذه الثورات المضادة .

أين يرد دور النفط في كل هذا ؟ وأين يقع كل هذا الجزء من البحث من موضوعنا العام ؟ الجواب بديهي دون ريب . فالنفط من أبرز وسائل تحقيق عملية الانماء ، وعملية الانماء من أقوى ركائز المجابهة العربية الاسرائيلية في المدى الطويل .

غير ان ابراز شأن التنمية في تمكين العرب من المجابهة يبرز في اللحظة نفسها تناقضا لا بد من التصدي له ، هو أن المجتمع الذي يبني قدراته الانتاجية يعز عليه ان يدخل في صراع مسلح يهدد بتدمير ما بناه . هذا التناقض لا يزول بمجرد ان نتجاهله، ولا هو يحل بمجرد ان نختار سبيل الاستسلام ، لان ما يظن انه مكتسبات يحميها الاستسلام من الدمار لا يلبث ان يتحول الى عمق استعماري لاسرائيل تستغله في ظل حالة الاستسلام فيصبح الاقتصاد الذي أريدت حمايته غنيمة لاسرائيل وحقلا لاستغلالها . واذن فان تنمية الاقتصاد والمجتمع برغم تهديد الدمار ينبغي ان تكون عملية مجازفة محسوبة ذات شقين : احدهما تنمية الاقتصاد والآخر تنمية القدرة النضالية العسكرية بشكليها الشعبي والنظامي لحماية المكتسبات الانمائية من خلال حماية الوطن .

يتصل بعملية التنمية ودور النفط في تحقيقها ، وبدور تحسين قدرة المجتمع على تحويل طاقاته الاقتصادية الى واقع في المجابهة مع اسرائيل ــ يتصل بهذين الدورين اتصالا وثيقا اعتماد العلم والتكنولوجيا اساسا لسيطرة الانسان العربي على بيئته الطبيعية ومفتاحا لحل مشاكله على تعددها . وهنا ينبغي التركيز على وجوب النظر الى العلم لا كأداة للسيطرة على البيئة وحل المشاكل وحسب ، بل ايضا وبالاولى كمنهجية تفكير واسلوب تطلع الى القضايا ومنحى في تحقيق انسانية الانسان . والنفط العربي ، كما

يبدو بوضوح ، وسيلة جبارة لتمكين العرب من الاخذ بالعلم الحديث وبتطبيقاته التكنولوجية ، وبتغذية البحث والتجربة في المعاهد العلمية والمؤسسات الاختصاصية .

٢ ـ النفط كوسيلة لتحقيق المجتمع العادل

قلما يفطن المختصون باقتصاد التنمية ، التقليديو النزعة ، الى الناحية الاجتماعية في التنمية . فهم يركزون على تعظيم الناتج القومي كأنما ذلك غاية في ذاته ، جاهلين أن المجتمع الطامح الى تحقيق مستوى رفيع من التنمية ، ومن القوة ، لا بد له من ان يشعر افراده بأنهم شركاء لا اجراء ، ومن أن تنال القوى العاملة فيه ثمار جهدها الانمائي ، ومن أن تترجم التنمية فيه لا الى فرص عمل ودخل متزايدة وحسب ، بل ومتكافئة كذلك . فلا قدرة لمجتمع يستغل ابناؤه مهما عظم الناتج القومي فيه على مجابهة عدو عنيد يجمع الى جانب قدراته العسكرية مقدارا واسعا من المشاركة السياسية والاقتصادية بين مواطنيه .

وانه وان لم يكن للنفط دور مباشر في خلق مجتمع العدالة الذي نشدد على وجوب وجوده ، بل لعله حتى الان ادى دورا معاكسا ، الا ان من الواجب التوضيح أولا ومن الناحية السلبية ان من الضروري الا يظل النفط اداة اثراء فاحش للقلة وتحسن اقتصادي طفيف للكثرة ، وثانيا ومن الناحية الايجابية ان من الضروري أن يستخدم النفط في تحقيق نمط من التوزيع اكثر عدالة للفرص والدخل والثروة ، الى جانب استخدامه في تعظيم حجم الناتج القومي للبلاد العربية .

٣ ـ النفط كوسيلة للتعاون الاقتصادي العربي

حتى الان أشرنا الى دور النفط في الانماء العربي وكأنما الوطن العربي قطر واحد او بلد واحد ذو سيادة واحدة . لكن الواقع أن الوطن العربي ممزق مشتت في سيادات وارادات متباينة ولم تعد لديه حتى رغبة التظاهر بنشدان الوحدة. ومع وضوح ضرورة الوحدة او على الاقل التعاون الصادق المنسق من ضمن تعدد السيادات في المجابهة مع اسرائيل ، تبرز اهمية العوامل التي تخلق جسور التعاون . من هذه العوامل النفط كمورد للتثمير على الصعيد العربي المشترك ، وكحافز على التعامل التجاري المتسع ، وكوسيلة لتحسين نمط توزيع الثروة بين البلدان العربية ، وكطاقة لدعم الصمود ، وكأداة لتطوير بعض الصناعات الضخمة التي لا قبل لبلدان مفردة على تطويرها واستغلال انتاجها ضمن سوق متسعة ، وكجهاز لاعادة توزيع القوى والمهارات البشرية العربية في نمط اكثر عقلانية وأقل قطرية .

٤ ـ النفط كوسيلة تسلح

أخيرا ، فان الموارد المالية لقطاع النفط العربي بمقدورها أن تمكن الدول العربية ـ خاصة دول « المواجهة » ـ من شراء الاسلحة الحديثة المتطورة والمرتفعة الاثمان لرفع الفاعلية العسكرية لهذه الدول . ومن الواضح أن السلاح المتطور الشديد الفاعلية يتطلب مستلزمات مالية باهظة قد لا يكون بمقدور بعض البلدان العربية القيام باعبائها منفردة .

ضمن هذا الاطار ، ومن خلال افتراض وجود الارادة العربية لرفع القدرة الذاتية العربية على الاساس القطري والقومي معا، فان النفط قادر على الاسهام بشكل بارز في تحسين وضع العالم العربي بالنسبة الى المجابهة مع اسرائيل ضمن مدى زمني يتراوح بين القصير والبعيد .

ثانيا : النفط كجهاز ضغط على القوى الخارجية

بعد ان طرحنا السؤال الاول الذي تناول القدرة الذاتية العربية ، نطرح الان السؤال

الثاني وهو يتناول قدرة العرب في الضغط على العالم الخــارجي ، وبالتحديد ، كيف يستطيع العرب أن يحولوا مورد النفط الى جهاز ضغط على القوى الخارجية ، لتحقيق تحول واضح في أوساط هذه القوى لصالح القضية الفلسطينية ؟ والاجــابة على هذا السؤال تدور ضمن مدى زمني قصير الى متوسط — اي ان بالامكان استخدام النفط كجهاز ضغط خلال مدة زمنية أقصاها نحو خمس سنوات ، لاسباب سيوضحها البحث فيما بعد .

لقد طرحت جهات رسمية وخاصة في مناسبات ماضية مختلفة فكرة استخــدام النفط كجهاز ضغط على العالم الخارجي . ولعل ابرز هذه المحاولات كانت محاولة الحكومة العراقية في مؤتمر وزراء المال والنفط العرب في بغداد في ١٥ آب (اغسطس) ١٩٦٧ والتي لم يكتب لها النجاح . وسنعمد فيما يلي ، وبشيء من التفصيل ، الى استعراض السياسات البديلة المطروحة او الممكن طرحها لهذا الغرض وذلك بتحــديد طبيعة كل منها ، ومن ثم بتحليل مزايا السياسة ومساوئها ، آخذين بالاعتبار ما يترتب على كل سياسة مطروحة من نتائج ونتائج عكسية في البلدان العربية وفي الخارج على السواء ، ذلك ان مجموعة من القيود والحــدود والروادع الاقتصاديــة والسياسية (وربما العسكرية) ترافق كل خيار مفتوح امام العرب ، وان الخيارات المفتوحة بدورها ذات جوانب وآثار اقتصادية وسياسية وعسكرية، وان هذه الجوانب سواء أكانت في حساب القيود والحدود والروادع او في حساب الخيارات ليست كلها ايجابية او سلبية وانما هي تختلف وتتداخل ، كما يتبدل حجمها وأثرها بالنسبة للافق الزمني المختار . لهذا يترتب علينا — توخيا للانضباط الفكري والمنهجية العلمية ان نوازن بين مختلف الآثار لكل من السياسات لنخرج بالتالي بمحصلة الحساب الصافي ، سلبا او ايجابا ، بشكل يمكن معه مقارنة محصلات جميع السياسات المطروحة وتسهل معه عملية الانتقاء بين هذه السياسات .

ولا بد من ان نبين ان المدى الزمني الاقصى الذي يدور التحليل خلاله بالنسبة لهذا القسم من البحث هو المدى المتوسط (أقصاه خمس سنوات) وذلك لثلاثة أسباب : **أولا** ، ان هذه المدة تمثل المهلة القصوى التي ينبغي التحرك ضمنها اذا أريد للقضية الفلسطينية الا تتحجر وللمكاسب الصهيونية الا تترسخ . **ثانيا** : ان هذه المدة طويلة ويصعب التنبؤ بمدة أطول أو التخطيط لمدة أطول . **ثالثا** ، ان معطيات الطاقة ستتبدل تبدلا جذريا بعد هذه المدة من حيث اكتشاف مناطق نفطية جديدة او استثمار مناطق جديدة او قائمة الى مدى أوسع ، ومن حيث حدوث بعض التبدل في تكنولوجيا الطاقة وتبدل المركز النسبي لمصادر الطاقة البديلة للنفط .

ولكي نتقيد تقيدا تاما بالموضوعية فاننا سنترك للتحليــل أن يدلل بنفسه على الاكثر فاعلية والاقل فاعلية من السياسات البديلة دون أن يعني تحليل المواقف حول أي من السياسات تبنيا لهذا التحليل بالضرورة . اما اختيار السياسة المفضلة فهو في التحليل النهائي من حق الذين يملكون القدرة على اتخاذ المقررات السياسية بعد أن يستعرضوا ما يضعه البحث بين أيديهم من وسائل تعين على اتخاذ القرار وتلقي ضوءا على مختلف جوانب المسألة المطروحة .

أخيرا ، لا بد قبل تقديم مختلف السياسات وتقييمها من أن نبين انه ليست لها جميعا الاهداف نفسها ، ولا هي تنطلق من المبررات نفسها ، وليست على المستوى نفسه من حيث أفقها الزمني . فبعضها — مثلا — يهدف الى وضع الضغوط على جميع البلدان الغربية منطلقا من مبدأ مسؤوليتها جميعا في شد ازر اسرائيل بشكل او بآخر ، في حين يهدف البعض الآخر من السياسات من خلال تطبيق انتقائي الى الضغط علــى بلدان غربية محددة دون بلدان أخرى . وكذلك فان بعض السياسات يعتمد التدرج والمرحلية

في حين يعتمد البعض الآخر مبدأ « الضربة الواحدة » . ثم ان بعض السياسات يركز في طبيعته وفي المقام الاول على تحقيق آثار اقتصادية ، فيما يركز البعض الآخر على تحقيق آثار استراتيجية تتعلق بأمن البلدان الغربية ذاته — هذا مع الادراك لتداخل هذين النوعين من الآثار في النهاية . واخيرا فان بعض السياسات يرتب مواقف واجراءات متكافئة ومتشابهة على جميع البلدان العربية النفطية ، في حين ان البعض الآخر يرتب مواقف واجراءات متباينة لاسباب سيبرزها التحليل . والخيار بين هاتين الفئتين يحدده الواقع العربي واحتمال تطبيق كل من الفئتين . واخيرا لا بد من التأكيد بأن طبيعة الوضع العربي — الاسرائيلي في أي نقطة زمنية تعين موقع كل من السياسات في سلم الافضلية ، وإذن فان تبدل الوضع يبدل هذا الموقع حتما .

* * *

يمكن وضع السياسات المختلفة التي جرى طرحها في الماضي أو يحتمل طرحها حاليا ضمن مجموعات خمس هي : **اولا** ، السياسات التي تدور حول امتلاك العرب لرأسمال شركات النفط ، جزئيا او كليا — اي سياسات التأميم . **ثانيا** ، السياسات التي تدور حول حجب النفط جزئيا أو كليا عن البلدان الموجهة السياسات صوبها. **ثالثا**، السياسات الاكثر مداورة والتي تتعلق بممارسة سيطرة غير مباشرة على مشتري النفط العربي . **رابعا** ، سياسات أخرى لا يمكن تصنيفها تحت المجموعات الثلاث السابقة . **خامسا** ، السياسات المشتركة بين التأميم والحجب .

١ — سياسات التأميم

لا بد من التأكيد أن التأميم في ذاته هو نهاية مطاف ، اذ انه متى مورس لم يعد من مجال للمناورة لانه عملية يكاد يستحيل أن تعكس . والمقصود اذن بسياسات التأميم هو الابتداء بمرحلة التلويح والانذار والتهديد سعيا نحو التأثير في موقف البلدان التي تنتسب شركات النفط اليها لصالح القضية الفلسطينية . فاذا فشلت مرحلة التهديد وتم اللجوء للتأميم انتهت مرحلة المناورة ومحاولة الضغط والردع ودخلنا مرحلة الحسم أي مرحلة العقاب والحاق الاذى ، ذلك ان قيمة الرادع هي في مصداقيته(credibility)بحيث لا يضطر الفريق الذي يهدد به الى تطبيقه ، اما اذا لم يستجب الفريق المستهدف وصار من الضروري تنفيذ التهديد انتهت قدرة الرادع كرادع وتحولت الى عقاب ، ولذلك يتوجب ان تتوفر مسبقا النية والقدرة على التنفيذ احتياطا لفشل الرادع .

من هنا ان محبذي سياسات التأميم — الجزئي أو الكلي — كثيرا ما يقفزون عن موضوع قدرة التهديد بالرادع فورا الى تنفيذ التهديد وبذلك يخسرون فاعليته كرادع ومؤثر في موقف الفريق الآخر . ولعل سبب الالتباس هو ان الذين ينادون بالتأميم لا يميزون دوما بين فاعلية **التهديد** بالتأميم لصالح القضية الفلسطينية وبين ضرورة التأميم ذاته كعملية لتثبيت الحق القومي في التصرف بالموارد الوطنية .

على ان القول بفاعلية التهديد ينبغي ان يدعمه اثبات خطورة دور النفط العربي في العالم الغربي ، وهو امر لعل من الواجب ان نتصدى له الآن من خلال تقديم الحجج والحجج المضادة للسياسات التأميمية ، مبتدئين بسياسة التهديد بالتأميم الكلي لجميع الشركات المنتجة في جميع اقطار النفط العربية .

أ — يتضح منذ اللحظة الاولى ان السياسة القائلة بالتهديد بالتأميم الكلي تجسد مبدأ تحميل جميع البلدان الغربية دون استثناء او تمييز المسؤولية المشتركة لجهة التواطؤ مع اسرائيل ومساندتها ومعاداة العالم العربي . ومن الجهة الاخرى تقوم هذه السياسة على مرتكز العمل العربي الموحد . وفي حالتها القصوى — اي تنفيذ التهديد — تمثل السياسة المثال الاوفى والاوسع لمبدأ « الضربة الواحدة » او العمل الواحد الجراحي

الشامل غير المرن الذي لا عودة عنه ولا يمكن ممارسة التهبيط بعده .

ان هذه السياسة ذات طاقة تهويلية كبيرة من الزاوية العربية — اذا اقترن التهديد بالمصداقية — بالنظر للشأن الكبير الذي يتمتع به النفط العربي في أسواق البلدان الاجنبية — والغربية منها على وجه أدق — كما سبق وبينا . وهكذا فان التهديد بالاستيلاء على موجودات الشركات (التي بلغت قيمتها القائمة بنهاية ١٩٧٠ نحو ١١٫٥٠٠ مليون دولار وقيمتها الصافية بعد الاهتلاك نحو ٦٫٥٠٠ مليون دولار*) من شأنه ان يضع في يد البلدان العربية المنتجة للنفط قدرة ضاغطة تجاه اوروبا الغربية والولايات المتحدة واليابان كما انه يهدد بأن يحول الى الخزانات العربية موارد ضخمة تمثل الفرق السنوي بين الارباح الصافية — كائنة ما كانت — التي تجنيها الشركات واقساط التعويض التي تتعهد البلدان العربية بدفعها (ونحن نفترض اقرار مبدأ التعويض الى جانب التأميم) .

على ان ما يعطي هذه السياسة المزيد من الفاعلية هو توقع ارتفاع شأن النفط العربي في المستقبل بالنسبة للعرض والطلب العالميين ، كما يتبين من الجداول ٦ — ٨ في الملحق الاحصائي ، وبصورة أخص ارتفاع شأن النفط العربي في سداد حاجات العالم الغربي في السنوات المقبلة . وليس أدل على ذلك من ضآلة نسبة الاحتياطي النفطي في اليابان واوروبا الغربية والولايات المتحدة الى الانتاج في هذه المناطق . ومع ان درجة الاعتماد العالي جدا في اليابان واوروبا الغربية من المعلومات الشائعة والمعروفة جيدا ، الا ان الكثيرين يجهلون ان الولايات المتحدة ستصبح مستوردا رئيسيا للنفط العربي خلال سنوات قلائل — حتى مع الاستثمار الواسع لمصادر النفط في الاسكا — اذ يتوقع ان يرتفع استيرادها من ١٧٠ مليون طن لعام ١٩٧١ (تشمل النفط الخام ومشتقاته) الى نحو ٦٠٠ مليون طن لعام ١٩٨٠ ، يتوقع ان يأتي بين ثلثيها وثلاثة ارباعها من المنطقة العربية**. ذلك ان كون الولايات المتحدة اكبر منتج للنفط الخام في العالم حاليا ، وكون مصادر الطاقة الاخرى خلاف النفط تمثل ٥٥٫٤ بالمئة من جملة انواع الطاقة المستهلكة في ذلك البلد (كما يتبين من الجدول ٩ في الملحق) ، ينبغي الا يخفى الواقع الآخر وهو ان الولايات المتحدة بالرغم من انتاجها الكبير للنفط الخام ومن تعدد مصادر الطاقة فيها ، هي مستورد صاف للنفط الخام اذ بلغت مستورداتها ٢٤٫٤ بالمئة من جملة استهلاكها للنفط الخام عام ١٩٧٠ . كذلك ينبغي الا يغرب عن البال أن تطور مصادر الطاقة خلاف النفط في العالم الغربي كان أبطأ بكثير من تطور الاعتماد على النفط، وكذلك أبطأ من تطور الطلب على النفط .

اما بالنسبة لاوروبا الغربية واليابان فالامر أشد خطورة ، ذلك ان انتاج النفط الخام ضئيل جدا كما ان مصادر الطاقة البديلة ذات نسبة أدنى بكثير مما هي في الولايات المتحدة ، ففي أوروبا الغربية تبلغ النسبة ٣٨٫٨ بالمئة وفي اليابان تبلغ ٢٦ بالمئة لعام ١٩٧٠ . وليس هنالك من المؤشرات المقنعة ما يدل على انعكاس هذا الخط في المستقبل القريب وانما تتجه المؤشرات في اتجاه ارتفاع الاعتماد على النفط العربي كما هو الحال في الولايات المتحدة .

ينبغي أن يضاف الى ما اثبتناه لجهة قوة الجانب العربي النفطية وضعف الجانب الغربي ان البلدان غير العربية الغنية بالنفط هي بالتحديد الاتحاد السوفياتي وفنزويلا وكندا

---

* بموجب احصاءات بنك تشيس مانهاتن في دراسته «الاستثمارات الرأسمالية لصناعة النفط العالمية ١٩٧٠».

** انظر شهادة مساعد وزير الخارجية الاميركية جان اروين امام لجنة الشؤون الداخلية في الكونغرس، كما ورد نصها في نشرة وزارة الخارجية رقم ١٧١٤ بتاريخ ١/٥/١٩٧٢ ص ٦٢٦ — ٦٣١ . انظر ايضا « مجلة النفط والغاز» The Oil and Gas Journal عدد ٢/٣/١٩٧٢ ، ص ٢١ .

وايران ونيجيريا واندونيسيا ، على ان جملة صادرات هذه البلدان من النفط الخام ومشتقاته لعام ١٩٧٠ كانت نحو ٣٤٥ مليون طن اي ٤٤،٤ بالمئة من صادرات البلاد العربية و٢٧،٤ بالمئة من الصادرات العالمية ، منها نحو ١٧٠ مليونا اتجهت الى الولايات المتحدة ، وهكذا فان نحو ١٧٥ مليون طن فقط اتجهت للبلدان المستوردة الاخرى ، وهذه الكمية بمجملها تعادل نحو ٢٢،٥ بالمئة فقط من الصادرات العربية . واذن فان رفع صادرات هذه البلدان لتعوض عن النفط العربي أمر لا يمكن ان يتحقق الا بتثميرات كبيرة وبعد مرور ثلاث الى خمس سنوات على الاقل — **هذا على افتراض استمرار الاستهلاك الحالي ودون أخذ ازدياده بالاعتبار** — وهو افتراض لا يجد ما يبرره .

في ضوء هذه الملاحظات يتضح ان التهديد بتأميم أسهم الشركات المنتجة امر في غاية الخطورة بالنسبة للعالم الغربي ، وللولايات المتحدة بالذات التي لا تفضح ضآلة مستورداتها الحالية من النفط العربي حقيقة ارتهانها المقبل لهذا النفط العربي ، كما ان ضآلة مستورداتها الحالية لا تعكس ضخامة تثميراتها النفطية في العالم العربي وارباحها من هذه التثميرات . ان الولايات المتحدة لن تجد لا في احتياطيها النفطي ولا في الاحتياطي في منطقة الكاريبي او في نصف الكرة الغربي بأسره ما يمكن له ان يتكفل باحتياجاتها المقبلة — وهي حقيقة تفضحها النسبة المتواضعة جدا للاحتياطي الى الانتاج السنوي في نصف الكرة الغربي ، ومحدودية قدرة المناطق الاخرى من العالم على الحلول محل النفط العربي ، في وضع عالمي يتميز بتوقعات ارتفاع الطلب بشكل متصل لسنوات عديدة مقبلة .

ثمة ناحيتان أخريان لسياسة التأميم الكلي جديرتان بالتسجيل . فبالاضافة الى الدور المستقبلي الكبير الذي سيلعبه النفط العربي في سد حاجات الولايات المتحدة للطاقة ينبغي أن نذكر ان شركات النفط الاميركية كانت تملك نحو ٦٠ بالمئة من جملة رؤوس أموال الشركات العاملة في المنطقة العربية قبل تأميم الحكومة العراقية لشركة نفط العراق في ١٩٧٢/٦/١ ، ونحو ٥٣،٤ بالمئة بعد التأميم العراقي . واذن فان اثر التأميم الشامل على الولايات المتحدة يكون فوريا عدا انه يزداد مستقبلا — لان خسارة الشركات للسيطرة على رأس مالها (وهو يعني انخفاض قدرة الولايات المتحدة ذاتها على تأمين تدفق النفط) يكون دون ريب مصدر قلق فوري للولايات المتحدة بل قد يكون رادعا قويا اذا استخدم بالشكل المناسب ، ورافقته الجدية وأدى الى مستوى عال من قابلية التصديق .

والناحية الاخرى مالية محضة : ففي تقديرنا بلغت ارباح الشركات الاميركية نحو ٢٦٧٠ مليون دولار لعام ١٩٧١ ، وهو مبلغ ذو أهمية ملموسة في الحساب الجاري بميزان المدفوعات الاميركي ، اذ لم يتخط الفائض في الحساب الجاري لعام ١٩٧٠ مبلغ ٤٤٤ مليون دولار وانقلب هذا الفائض الى عجز مقداره ٧٢٩ مليون دولار بآخر حزيران (يونيو) ١٩٧١*. هذه الارقام تدل دلالة واضحة على الدور الكبير الذي تلعبه ارباح شركات النفط في جعل رصيد الحساب الجاري ايجابيا او في التقليل من سلبيته . غير انه ينبغي عدم تضخيم هذا الاثر لارباح الشركات بالنسبة للناتج القومي في الولايات المتحدة لانها تشكل أقل من ثلاثة أعشار من واحد بالمئة من الناتج القومي القائم . على ان اثر التأميم على ميزان المدفوعات البريطاني يكون اكثر خطورة بكثير بل قد يؤدي الى كارثة ضخمة .

ب — قد يقال ، من الجهة الاخرى ومع الادراك لاهمية النقاط التي اثبتناها في الفقرة (أ) أعلاه ، ان التهديد بتأميم أسهم الشركات المنتجة ليس مخيفا للبلدان الغربية لانه يضع

* بموجب احصائيات صندوق النقد الدولي في : International Financial Statistics

على اكتاف البلدان المصدرة للنفط عبئا ثقيلا هو عبء تسويق النفط بقدر مـــا يضع في ايديها قدرة ضاغطة . والجواب المباشر هو ان عملية التسويق مع ما يواكبها من متاعب فنية واخرى تجارية تتعلق بخلق شبكة التعامل بالنفط والتعاقد مع المستوردين ، هي عملية يمكن تنظيمها في السياق القصير ودون تأخير يذكر **أولا** لان شبكة العلائق قائمة ولن يتبدل فيها سوى شخصية الجـــانب المصدر ، **وثانيا** لان حاجة اوروبا الغربيـــة واليابان للنفط العربي حاجة ماسة ، بل حيوية ، حيث لا يكفي المخزون النفطي لمهلة تزيد عن ثلاثة أو أربعة شهور الا لفترة قصيرة وبفضل تقنين صارم وثقيل الوطأة ، و **ثالثا** لانه في الوقت نفسه لا توجد مصادر بديلـــة للنفط يمكن اللجوء اليهـــا في السياق القصير والمتوسط (أي ضمن حـــدود ثلاث الى خمس سنوات) . بعبارة قصـــيرة ان البلدان العربية المصدرة للنفط ، لانها تستطيع اذا شاءت ان تضغط بأصابع قوية على شرايين الحياة الاقتصادية في أوروبا الغربية واليابان ، فهي قادرة على حسم الموقف بالرغم مما يرافق الضغط في السياق القصير من بلبلة في انتاج النفط وتسويقه ، وذلـــك من خلال اسراع أوروبا الغربية واليابان اضطرارا الى التفاهم مع البلدان المصدرة للنفط لتأكيد تدفق النفط . كذلك تنبغي الاشارة الى امكان استخدام الخبراء الاجانب ـــ وقد يكون عدد منهم موظفين سابقين في الشركات المؤممة ذاتها ـــ في عمليات الانتاج والتسويق ، كما يمكن استخدام الشركات للقيام بهذه المهمات لقاء عمولـــة عينية أو نقدية . واذن فمشاكل الانتاج والتسويق التي قد تنشأ تكون على الارجح قصيرة الامـــد وقابلة للحل بفضل حاجة أوروبا الغربية واليابان للنفط العربي وعدم قدرتها عـــلى الرد المعاكس الفعال .

ج ـــ وكذلك اذا قيل ان سياسة التهديد بالتأميم الكلي مجحفة لان اثرهـــا المحتمل في معظمه يقع على اوروبا الغربية واليابان وهي تضم عددا من البلدان لم يشترك في احد أوجه العداء على العالم العربي وبصورة خاصة لم يشترك في تمكين الصهيونيين مـــن فلسطين وتوطيد دولتهم التوسعية ، في حين ان هذه السياسة لا تصيب الولايات المتحدة بالقسم الاكبر من الاذى وهي الدولة المسؤولة في المقام الاول عـــن استمرار الوجود الاسرائيلي وامتداده التوسعي ـــ اذا قيل هذا ، فان جواب محبذي سياســـة التأميم الكلي هو أن اية متاعب تتحملها أوروبا الغربية واليابان ينعكس أثرها على الولايات المتحدة التي تمثل مركز الثقل في شبكة البلدان الغربية ، وعلى الولايات المتحدة بالذات يترتب العمل على رفع عبء المتاعب عن كاهل أوروبا الغربية واليابان . وبما ان هذه المتاعب ليست مالية وانما عينية ، اي بما انه لن يتوفر نفط بديل بمقادير وافية وان يكن بأسعار أكثر ارتفاعا ، فلن تستطيع الولايات المتحدة القيام بعمل معاكس يعيد النفط الى شرايين الحياة الاقتصادية في أوروبا الغربية واليابان ، سوى تبديل سياستها حيال القضية الفلسطينية . يضاف الى هذا ان الولايات المتحدة ستصبح مستوردا رئيسيا للنفط العربي خلال السنوات القليلة المقبلة واذن فان اثر التأميم الردعي سيقع عليها أيضا بصورة مباشرة وحتمية .

د ـــ ثم ان محبذي سياسة التهديد بالتأميم الكلي يحاجون بأن الواجب القومي يدعو على أي حال الى امتلاك البلدان النفطية لوسائل الانتاج النفطي جميعها ، وما ضغط هذه البلدان مؤخرا من خلال « منظمة البلدان المصدرة للنفط » في سبيل المشاركة في ملكية أسهم الشركات المنتجة سوى خطوة في الاتجاه الصحيح . فلماذا لا تتخذ خطوات مسيرة التأميم كلها مرة واحدة ، انتقالا من التهديد الى التنفيذ ، خاصة بالنظر لخطورة الوضع العربي الحالي تجاه اسرائيل ، سياسيا وعسكريا ؟

هـ ـــ أخيرا ، فان بعض القائلين بسياسة التهديد بالتأميم يعتقدون ان هذه السياسة وان كانت قيمتها الحقيقية تكمن في المرحلة الاولى منها وهي مرحلة التهديد ، الا ان مرحلة

التأميم ــ فيما اذا فشل التهديد وكان لا بد من اللجوء الى التأميم ــ ذات فائدة للقضية الفلسطينية . مرد ذلك في رأيهم الى كون شركات النفط ــ خاصة في الولايات المتحدة ــ هي في قرارة نفوسها وفي الحقيقة الى جانب اسرائيل لان هذه تخيف العرب وتحد من تطرفهم وتلهيهم عن شركات النفط . واذن ــ تقول هذه الحجة ــ فان التأميم يخرج الشركات من الحلبة كعامل قوي يساند اسرائيل سرا ويفيد منها في تبديد قوة العرب .

* * *

يوحي التحليل حتى هذه النقطة بأن سياسة التهديد بالتأميم الكلي هي سياسة سليمة ذات أنياب قاطعة تشكل جهاز ضغط جبار على البلدان الغربيــــة لصالح القضيــــة الفلسطينية . غير ان التبصر في منطلقات هذه السياسة وفي النتائج العكسية المحتملة لها يرسم صورة مختلفة المعالم والسمات في التحليل النهائي . وبالتحديد ، هنالك خمس نقاط ضعف في سياسة التأميم الكلي ينبغي بحثها ، وهي تعدل الاستنتاجات التي توحي بها السياسة لاول وهلة :

أ ــ نقطة الضعف الاولى في سياسة التأميم الكلي هو منطلقها القائل بأن فاعلية التهديد بالتأميم تكمن في صدوره عن جميع البلدان المصدرة للنفط معا وفي آن واحد ــ على أساس ان قيام بلد واحد مهما عظم شأنه النفطي بالتهديد بتأميم اسهـــم الشركات الغربية المنتجة في أرضه لا يكون عملا مجديا لان الشركات تظل محتفظة بسيطرة واسعة على الانتاج كما تظل قادرة على التعويض عن نفط البلد المعني برفع انتاجها في بلدان أخرى عربية وغير عربية ــ كما حدث بعد تأميـــم مصدق في ايران سنة ١٩٥١ . اما ضعف السياسة المقترحة لهذه الجهة فهو انها تتجاهل الواقع العربي وتغرق في التجريد المثالي . وليس سرا ان البلدان العربية ليست كلها على نفس درجة الاستعداد للقيام بالتأميم ، او حتى بالتهديد به ، وهكذا فان اي تباين في الموقف من شأنه **أولا** أن يصل بالسياسة الى الفشل، و**ثانيا** ان يفجر الموقف العربي غير المتراص وان يزيد من الثغرات فيه وبالتالي ان ينقل هذا الموقف الى مرتبة دون المرتبة الحالية تماسكا وانسجاما ــ وهي كما نعلم مرتبة متواضعة .

ب ــ وهنالك في الناحية الثانية امر يستوجب التوقف في سياق التحليل الموضوعي : هو التساؤل فيما اذا كانت جميع البلدان العربية المصدرة للنفط (واطلاقا جميع البلـــدان العربية) تشعر بأن الخطر الاسرائيلي يهددها الى حد القيام باجراءات تنتهي بمغامرة احتمالات الخطر فيها للبلدان ذاتها مرتفعة جدا ، وبصيغة أخرى فيما اذا كانت هذه البلدان ــ على شديد اهتمامها بقضية فلسطين ــ مستعدة لتحمل المخاطرة الكبيرة لمجتمعاتها ومواردها من اجل فلسطين والعمل في سبيلها ، خاصة وان البلدان العربية لا يبدو انها مقتنعة تماما ان الخطر التوسعي الصهيوني يتهددها هي جـــديا كما هدد فلسطين من قبل ، ويتهدد مواردها الضخمة النفطية وغير النفطيـــة ، كما هدد موارد فلسطين المتواضعة ــ مما هو واضح من تصريحات المسؤولين الاسرائيليين وأدبهم السياسي ومن ثنايا مواقفهم وتصرفاتهم . والتهديد يتم لحساب اسرائيل نفسها ولحساب الغرب الذي يناسبه ان تكون اسرائيل الشرطي الحارس لمصالحه . اننا لا نستطيع الا ان نقول ان الجواب على هذا التساؤل في مختلف صيغه لن يكون ايجابيا الا اذا كانت الادلة كافية بأن البلدان العربية تؤمن باخلاص وبدون تحفظ ان هنالك اندماجا عضويا كاملا بين قضية فلسطين والقضية الوطنية المصيرية لكل منها وكانت تشعر بانتماء كامل للقضية الفلسطينية يحملها على التصرف تجاه هذه القضية كما لو كانت ارضهـــا هي أصبحت محطا لاستعمار واقتلاع صهيونيين كما أصبحت فلسطين ، والا اذا ادركت البلدان العربية ان الاطماع الاسرائيلية تشمـــل أرضها ومواردهـــا هي ايضا وتهدد مستقبلها ومصيرها اقتصاديا الى جانب التهديد السياسي والقومي . عند هذا الحد لا

يرى المحلل بين يديه من الدلائل ما يكفي لافتراض الجواب الايجابي للتساؤلات المـــار ذكرها .

ج ـــ ثمة نقطة ضعف أخرى تكمن في هذه السياسة هي انها ، لكي تكون فعالة ومع افتراض وجود جواب مرض للنقطتين (أ) و(ب) اللتين سبق تقديمهما ، ينبغي ان يرافقها وقف تزويد البلدان الغربية بالنفط (وهو يقـــع تحت المجموعة الثانية مـــن السياسات النفطية) . فاذا اقتصر التأميم في النهاية على تحويل ملكية اسهم الشركات للبلدان المصدرة للنفط ولم يتعد ذلك الى حجب النفط عن البلدان الغربيـــة ، ظل اثر التأميم ماليا فحسب ، وهو اثر ضخم ووجيه لكنه ليس حاسما ، سواء في مرحلة التهديد أم التنفيذ . ذلك اننا نفترض التعويض الملائم للشركات خاصة وان معظم رؤوس اموالها قد جرى اهتلاكه حتى الآن . وفي أية حال فان الاقتصادات الغربية قادره على استيعاب الصدمة المالية الناجمة عن ضياع ارباح الشركات السنوية على ضخامة هذه الارباح ، ما دام تدفق النفط مستمرا (تمثل الارباح أقل من ربع واحد بالمئة مـــن الناتج القومي الاجمالي للدول الغربية المعنية) ، هذا مع صعوبـــة استيعاب الصدمـــة في ميزاني المدفوعات الاميركي والبريطاني .

اذن فان الخطوة الحرجة في هذا الصدد هي **حجب النفط** عن البلدان الغربية ، وحجب النفط أكثر من أي عامل آخر يقود في تحليلنا الى ضربة معاكسة قد تبلغ حد الحرب كما سنبين عند تحليل المجموعة الثانية من السياسات .

ولئن قيل ان الناحية المالية لسياسة التأميم الكلي (فيما اذا نفذ بعد فشل مرحلة التهديد) والمؤدية الى توجه ارباح الشركات (كائنة ما كانت) الى خزانات البلـــدان العربية المصدرة للنفط هي بيت القصيد لانها توفر للعالم العربي احتياطيا ماليا ضخما يمكن تمويل النضال ضد اسرائيل بواسطته ، جاز التساؤل فيما اذا كان العالم العربي يشكو شحة في الموارد المالية الآن وقبل التأميم . وبالتحديد فان عائدات النفط العربي بلغت عـــام ١٩٧١ نحو ٦٫٩٨٠ مليون دولار كما ان الحساب الجاري في ميزان المدفوعات العربي الموحد يتمتع بفائض ضخم نقدره لسنة ١٩٧١ بأكثر من ٢٫٠٠٠ مليون دولار . والمشكلة اذن ليست مشكلة موارد مالية وانما مشكلة التعاون العربي الصادق والقبول بتوجيه قسم كبير جدا من هذه الموارد لحاجات النضال العسكري والسياسي ، وهذه قضية **ارادة نضال لا قضية اقتصاد في المقام الاول** ـــ وبالتالي فان توفر المزيد من الموارد بفضل التأميم اي الحصول على ارباح الشركات (التي تقدر لعام ١٩٧١ بنحو ٤٤٥٠ مليون دولار) قبل حسم اقساط التعويض ، لن يبدل الصورة الا هامشيا ما دامت الرغبة العربية في الالتزام الكامل وغير المتحفظ بالنضال غير متوفرة .

د ـــ نقطة الضعف الرابعة ان البلدان الموجهة سياسة التأميم الكلي ضدها ليست الآن جميعها على المستوى نفسه من العداء للعالم العربي . وبما ان المفروض ان تتأثر الدول وتعمل بوحي مواقفها ومصالحها الراهنة أقل مما هو بوحي أوضاع تاريخية قريبة أو بعيدة ، فان البلدان المصدرة للنفط تخطىء اذ تضع فرنسا مـــا بعد حزيران (يونيو) ١٩٦٧ او ايطاليا او اليابان على نفس مستوى المعاملة كالولايات المتحـــدة . وتوجيه المعاملة نفسها الى جميع الشركات والبلدان التي تنتسب هذه الشركات اليها تكـــون محصلته الاساءة الى علائق جيدة او مقبولة قائمة مع بعض البلدان الاجنبية ونقل هذه البلدان من مصاف الدول الصديقة او على الاقل المحايدة **حاليـــا** الى مصاف الـــدول العدوة . وبالطبع فان هذا ينافي مبدأ تقديـــم المصلحة الحـــالية والمستقبلة في التصرف السياسي للدولة على اي اعتبار آخر في التعامل .

هـ ـــ أخيرا ، هناك موضوع « الضربة الاقتصادية المعادلة » ونعني بذلك قيام الدول

الغربية التي يستهدفها التهديد بالتأميم الكلي (أو التأميم ذاته اذا نفذ) بالتهديد بالانتقام (أو بالانتقام) اقتصاديا . وأكثر الاسلحة الاقتصادية فعالية في يد هذه الدول هو بالذات الارصدة العربية الحكومية والخاصة الضخمة ، في مصارفها وفي أسواق أسهمها، والتي نقدرها بنهاية ١٩٧١ بما لا يقل عن ٦٠٠٠ر٦ مليون دولار يتوقع أن ترتفع بنهاية ١٩٧٢ الى نحو ٥٠٠ر٧ مليون . وبالطبع تستطيع البلدان الغربية التهديد بتجميد الارصدة وايقاف سيولة الاسهم والاستثمارات ، أو تنفيذ ذلك اذا نفذ التهديد بالتأميم .

ولا يفيدنا في شيء الظن اننا نستطيع نقل هذه الاموال الى بلد آخر قبل اعتماد سياسة التأميم الكلي اذ ليس هنالك من سوق مالية أخرى قادرة على استيعاب أموال بالحجم الذي بيناه ، سوى سويسرا (وحتى هذه مع التحفظ) ، التي نرجح انها ستمتنع في تلك الحال عن استقبال الاموال العربية بالادعاء بأن نظامها المصرفي وسوقها المالي مشبعان اكثر من اللازم بالاموال الاجنبية ، وسيكون تمنعها في الواقع تضامنا مع الدول الغربية الاخرى . اما المانيا الغربية ، وهي ليست بين كبار ممتلكي أسهم شركات النفط فانها لا توفر حلا للمشكلة ، **أولا** لان سوقها المالي أصغر من أن يتسع للاموال العربية ، **وثانيا** وما هو اهم لانها من أولى البلدان الغربية التي يجب ان تستهدفهـا سياسة الضغط العربية بسبب مساندتها لاسرائيل التي اتخذت منذ منتصف الخمسينات **ولا تزال تتخذ** ابعادا خطيرة ، من خلال اتفاقية التعويضات المعقودة مع اسرائيل الدولة ثم من خلال اتفاقية « التعويض الشخصي » التي يفيد منها الافراد الاسرائيليون ، وهما اتفاقيتان أفاد منهما ميزان المدفوعات الاسرائيلي افادة كبرى — هذا عدا تصدير المانيا الغربية لبعض انواع الاسلحة لاسرائيل واستيراد البعض الآخر منها .

اما الادعاء المعاكس بأن الدول الغربية لن تقدم في حال التأميم الكلي على تجميد الارصدة والاستثمارات لانهابذلك تخسر المستوردات العربية فقول مردود لسببين: **أولا** ، ان حجم الضربة العربية يكون من الشدة بحيث انه سيتطلب حتما ردا قاسيا وسريعا — على الاقل تجميد الارصدة والاستثمارات — **وثانيا** ، ان البلدان الغربية لن تصاب بأذى شديد من جراء توقف مستورداتنا من أسواقها بسبب تجميد الاموال التي نسدد بها ثمن تلك المستوردات . فجملة مستوردات البلدان المصدرة للنفط من البلدان الغربية تمثل أقل من ٤ بالمئة من جملة مصدرات البلدان الغربية . وهكذا نعتقد — كحصيلة لهذا القسم من البحث — ان الصيغة الاولى لسياسة التهديد بالتأميم الكلي بسبب طبيعتها المالية في الاساس لا تستطيع منفردة تحقيق تبدل عميق في المواقف الغربيـة لصالح القضية الفلسطينية ، وان التأميم ذاته اذا طبق ينهي مرحلة المناورة والردع ويصبح حالة لا عودة عنها من شأنها استدراج اجراءات اقتصادية غربية معاكسة قد لا تقبل البلدان العربية بأن تتحملها . وعلى أي حال فان اثر التأميم بعد تنفيذه يكون في وضع المقدرات النفطية في يد البلدان العربية النفطية دون ان يكون له بالضرورة اثر حاسم بالنسبة للقضية الفلسطينية . اننا لا نقلل من شأن السيطرة العربية علـى الموارد النفطية ولكننا نميز بين تحقيق هذه السيطرة ، والتأثير في الموقف الدولي بالنسبة للقضية الفلسطينية ، لانهما نتيجتان مختلفتان في طبيعتهما .

* * *

الصيغة الثانية لسياسة التهديد بالتأميم الكلي (أو التأميم الكلي ذاته) ، هي سياسة التهديد بالتأميم الجزئي (او التأميم الجزئي ذاته) . وهنا ينبغي ترداد الملاحظة التي أوردناها عند بحث سياسة التأميم الكلي من أن تنفيذ التأميم يدخل الموقف في مرحلة جديدة هي مرحلة العقاب التي هي بطبيعتها نهائية ولا عودة عنها او مناورة حولها ، في حين ان التهديد بالتأميم الجزئي (كما سنحدده) يبقي الموقف داخل نطاق المناورة وتجربة أعصاب القوى المتقابلة .

تقول هذه السياسة بالتهديد بتأميم أسهم الشركات التي تنتسب الى الدول المساندة لاسرائيل تاريخيا وحاضرا ، وتعني بالتحديد بريطانيا والولايات المتحدة ، واستعمال الموارد الاضافية المتاحة بفضل التأميم (وتمثل الفرق بين ارباح الشركات التي تنتقل الى البلدان العربية بالتأميم واقساط التعويض) لاغراض المجهود الحربي والانمائي .

وبما ان البلدين المذكورين كانا حتى أول حزيران (يونيو) ١٩٧٢ يملكان ٧٩ بالمئة من جملة أسهم الشركات المنتجة في البلدان العربية (أو نحو ٧٠٫٣ بالمئة بعد تأميم الحكومة العراقية لشركة نفط العراق) فان هـذه السياسة في صيغتها النهائية أي صيغة تنفيذ التهديد تضع في الايدي العربية القدرة على التحكم باكثرية الطاقة الانتاجية وبكل مـا يترتب على ذلك من آثار ونتائج تالية ، دون استثارة البلدان الغربية الاخـرى التي ساندت اسرائيل أو تساندها بشكل أقل كثافة واستمرارية والتي لن يطالها التأميم او التهديد به . هذه هي الحجة الاولى التي تقدم في صالح السياسة المطروحة .

الحجة الثانية ان عمليات الانتاج والتكرير أصبحت أو كادت عمليات روتينية يتقنهـا الخبراء والمهندسون والعمال المهرة العرب ويستطيعون القيام باعبائها ، منفردين او بالاستعانة بخبرات فنية مستوردة من الخارج في الحالات الاستثنائيـة ، أو بخبرات ترغب في التعاون من بين أجهزة شركات النفط التي يطالها التأميم . وتفترض هـذه السياسة ان الشركات ، لشعورها بالاضطرار لشراء النفط العربي ، ستسارع على الارجح للدخول في صيغة علاقات تجارية محضة جديدة مع الحكومات العربية كمـا ستسارع الى عرض خدماتها الفنية على الحكومات بعد التأميم من أجل استخدام بعض اجهزتها أو كلها وتشغيل ناقلاتها ومعامل تكريرها في الخارج ، وانها اخيرا سترضى بأن تقوم بهذه الخدمات لقاء أجر أو عمولة ، نقدية أو عينية .

في تقييم السياسة المطروحة ينبغي ان نبين انها في كثير من نواحيها — مع التحفظ في انها محدودة المدى ولا تشمل جميع الشركات المنتجة — تشبه السياسة الاولى القائلة بالتهديد بالتأميم الكلي . فهي تتسم بالمزايا نفسها وتلازمهـا بنقاط الضعف نفسها مع التعديل لجهة درجة شمول كل من السياستين . ومن هنا فاننا لسنا مضطرين للتبسط في شرح وتحليل المزايا ونقاط الضعف وسنكتفي بالاشارة اليها بايجاز كلي .

أ — سياسة التأميم الجزئي تضع في يد البلدان العربية قدرة ضاغطـة جبارة وموارد مالية ضخمة نقدرها بحوالي ٣٫٥١٥ مليون دولار على اساس ارباح الشركات البريطانية والاميركية لعام ١٩٧١ . (طبعا ينبغي خصم أقساط التعويض من هـذا الرقم ، وأي هبوط في الدخل نتيجة انخفاض المبيعات او الاسعار) . كما ان هذه السياسة في حال تنفيذها تحرم البلدين — خاصة بريطانيا — ركيزة رئيسية من ركائز ميزان المدفوعـات الدولي .

ب — لا يقوى البلدان على مقاطعة العرب اقتصاديا بالمقابل بسبب السياسة المطروحة لانهما — خاصة بريطانيا — بحاجة للنفط ولان الولايات المتحدة وهي ليست اليوم بحاجة الا لمقدار ضئيل نسبيا من النفط العربي ستصبح بحاجة ماسة اليه وخلال سنوات ثلاث أو أربع . وهكذا تصبح بريطانيا عامل ضغط سياسي على الولايات المتحدة في صالح قضية فلسطين من أجل تأمين استمرار تدفق النفط اليها ، الى جانب مصلحة الولايات المتحدة نفسها في تأمين النفط العربي لسوقها بالذات في المدى المتوسط .

ج — ما دام امتلاك العرب لمنشآت الانتاج في اراضيهم كليا هو الهدف النهائي الذي لا مفر منه فلماذا لا يصار الان الى تنفيذ التأميم في اللحظـة المناسبة في خدمة قضيـة فلسطين ، اذا لم ينجح التهديد في ذاته ؟

تقابل هذه الميزات بعض نقاط الضعف في سياسة التأميم الجزئي ، التي نجملها فيما يلي:

أ ـ ان سياسة التهديد بالتأميم الجزئي لا تؤدي الى الضغط الفعـال على بريطانيا والولايات المتحدة ما دامت مقتصرة على الاثر المالي اي الحصول على أرباح الشركات البريطانية والاميركية ، وما دامت تنقل السيطرة على النفط الى العرب **دون ممارسة السيطرة كسلاح سياسي** . ويستطيع الاقتصادان البريطـاني والاميركي امتصـاص الصدمة المالية نتيجة للخسارة في حال تنفيذ التهديد التي انما تمثل نحو ثلث من واحد بالمئة من الناتج القومي المشترك فيهما (نحو سبعة اعشار من واحد بالمئة في بريطانيا ونحو ثلاثة اعشار من واحد بالمئة في الولايات المتحدة) ـ هذا مع الاعتراف بصعوبة امتصاص الصدمة اللاحقة بميزان المدفوعات . اما ضياع السيطرة الاميركية والبريطانية فيخفف من حدته وخطورته عدم ممارسة العرب لهذه السيطرة بالمعنـى السياسي : بالتحديد عدم ايقاف النفط عن البلدين المعنيين .

ب ـ وليس مما يقوي حجة هذه السياسة القول انها تضع في يد العرب موارد مالية ضخمة للاستعمال في المجهود الحربي ، لان هذا المجهود لا يحده الآن شحة الاموال وانما عوامل اخرى ومعظمها من النوع المعنوي غير الملموس والمتعلق بارادة النضال .

ج ـ الصدمة الحقيقية والحاسمة تكون في حجب النفط العربي عن هذين البلدين الى جانب تأميم اسهم شركاتهما . وهنا يقوم الاحتمال المرتفع باقدامهما على الرد القاسي ، اقتصاديا في أحسن الاحوال (بتجميد الاموال العربية في أسواقهما المالية) ، أو عسكريا ، او في الحقلين معا . (مما سيبحث في باب سياسات حجب النفط) .

د ـ كذلك فان سياسة التأميم الجزئي تقوم على فرضية التزام العرب بمبدأ القيام بعمل مشترك ـ وهي فرضية سبق أن تبين عدم واقعيتها .

وهكذا اجمالا فاننا نجد ان سياسة التأميم الجزئي اذ هي تتحاشى بعض العيوب التي تلازم سياسة التأميم الكلي الا انها تشكو في الاساس من نقاط ضعف من نفس الطبيعة كتلك كما انها تتمتع في الاساس بمزايا من نفس الطبيعة كتلك .

٢ ـ سياسات حجب النفط

تدرس هذه السياسات هنا بمعزل عن استخدام سياسات التأميـم ، على أن يبحث تمازجهما في الباب الخامس . وكما رأينا عند دراسة سياسات التأميم فان سياسات حجب النفط يمكن أن تبدأ بالتهديد ثم ـ في حال فشل هذا الرادع ـ ان تنتهي بالحجب عن الفريق المستهدف بالسياسة . لكن الفرق بين المجموعتين لهذه الناحية هو أن الحجب في حال تنفيذه يظل يسمح بالمناورة بحيث يمكن العدول عن الحجب جزئيا او كليا . أي أنه كما ان التصعيد المتدرج ممكن في حال الحجب ، كذلك فالتهبيط المتدرج ممكن ، فلا توجد حالة نهائية لا تمكن العودة عنها .

يمكن طرح سياسة حجب النفط العربي ضمن صيغ مختلفة ، ابرزها صيغتان : **الاولى** تقول بالتهديد بحجبه كليا عن جميع الشركات الغربية (اي عـن البلدان الغربية التي تنتسب الشركات اليها) ، أو بحجبه فعليا لفترة ذات فاعلية في حال فشل الرادع عن أن يحمل مصداقية كافية لدى الفريق المستهدف . **والثانية** تقول بحجبه جزئيا أي عن بعض الدول .

اما بالنسبة للصيغة الاولى ، فالمسألة بديهية بمعنى ان حجب النفط عن العالم الغربي ايضا لفترة ذات فاعلية من شأنه ان يشل الحياة الاقتصادية في أوروبا الغربية واليابان شللا رئيسيا خلال اشهر قلائل ، وأن يفضح عجز الولايات المتحدة عن التعويض عن النفط العربي لان قضية التعويض ليست فحسب قضية تدبـر الاموال للاستثمارات

النفطية اللازمة في مناطق أخرى من العالم وانما هي في المقام الاول تدبر النفط البديل بسرعة أي في السياق القصير — وهذا مستحيل ، بل انه يكاد يكون مستحيلا خلال المدى الزمني المتوسط كذلك — يقابل ذلك حقيقة مركزية وجوهرية هي ان طاقة الاحتمال لدى البلدان الغربية لا تتوفر الا ضمن المدى الزمني القصير اي دون السنة الواحدة . واذن فان حجب النفط عن أوروبا الغربية واليابان والولايات المتحدة يخلق حالة جديدة لا تستطيع هذه المناطق مجابهتها مباشرة أي ضمن نطاق موضوع النفط وضمن المدى الزمني المتاح لها . وبالتالي فان سياسة الحجب هي الرادع السياسي الاقصى الذي يملكه العرب تجاه الغرب والذي اذا هدد به واقترن التهديد بقابلية التصديق يمكنه ان يكون ذا اثر ايجابي ورئيسي في صالح القضية الفلسطينية .

على ان حجب النفط يعني توقف موارده المالية ، لانه لا توجد اسواق بديلة تعوض عن الاسواق الغربية . والدول المصدرة للنفط اصبحت تعتمد اعتمادا كبيرا على أنماط استهلاكية وتثميرية في القطاعين الخاص والعام يجعلها على درجة منخفضة من الاستعداد للقبول بتوقف الايرادات المالية الناجمة عن النفط الا لفترة قصيرة قد لا تتعدى الثلاثة الى ستة شهور ، هذا مع العلم ، وبالرغم من أن لدى البلدان المصدرة للنفط احتياطيا ماليا في الخارج يقدر على تمويل المستوردات والمشاريع التثميرية في فترة الشهور المبينة . غير ان موضوع الارصدة والاستثمارات في الخارج يثير تساؤلات أخرى بدوره مما سنبينه فيما بعد .

على ان ما هو أهم من فقدان الموارد المالية بالنسبة لبلدان النفط هو الخطر الكبير النابع عن قدرة هذه السياسة الجبارة بالذات . فالقدرة العربية في الضغط على شرايين الحياة الاقتصادية الغربية — وهي قدرة لا ريب فيها في نطاق حجب النفط — تشكل في الوقت ذاته نقطة انكشاف في الموقف العربي . فالبلدان الغربية اذا شعرت ان حياتها الاقتصادية — وحياتها البيولوجية — اصبحت او تكاد تصبح في خطر ضمن مدى زمني قصير ، ستضرب بالقوة نفسها دفاعا عن النفس . وليس من الحكمة وحسن التبصر اطلاقا أن يتجاهل المحلل الاحتمال المرتفع جدا لقيام البلدان الغربية بعمل حربي من اجل تأمين استمرار تدفق النفط .

ولئن قيل ان العالم الغربي لا يستطيع تجريد حملة عقابية ضد البلدان العربية المصدرة للنفط جميعها كان الجواب **اولا** ان وسائل الضرب الحديثة ليست مقصورة على حملات الجيوش والاساطيل وان ترسانة البلدان الغربية مليئة بمختلف انواع أنظمة الاسلحة التي تعطي هذه البلدان مرونة فائقة في الردع والضرب الوقائي والضرب اللاحق على جبهة واسعة ، **وثانيا** انه يكفي على الارجح ان يضرب بلد واحد بفاعلية لكي تبدل البلدان النفطية الاخرى مواقفها رضوخا وملائمة للبلدان الغربية خوفا من أن ينالها ما يكون قد نال البلد المضروب أولا . كذلك ليس من الحكمة وحسن التبصر الافتراض ان الرادع السوفييتي — أو أي رادع آخر — يمكنه ان يمنع البلدان الغربية عن الضرب لاننا في تحليلنا نستبعد ممارسة هذا الرادع لان ممارسته ستؤدي بما يشبه الحتمية الى حرب شاملة سوفياتية غربية ، ونحن نستبعد قبول الاتحاد السوفياتي لهذه النتيجة . واذا كان هذا هو توقع الغرب نفسه — وهو ما نرجحه — فان الغرب يكون قادرا على الضرب وهو يشعر بالاطمئنان .

لكن تظل سياسة حجب النفط في النهاية اقوى الاسلحة العربية . ويزيدها قوة ان الحجب يمكن ان يتم نتيجة ضغط شعبي ومن هذه الناحية فهو اقل احراجا للدول العربية من التأميم لان التأميم يتطلب تشريعات تقوم بها الدولة لا مجرد اجراءات يفرضها الضغط الشعبي .

الصيغة **الثانية** لسياسة الحجب تقول اما بحجب النفط عن بريطانيا والولايات المتحدة فقط على أساس انهما تاريخيا البلدان اللذان قدما أكبر العون للصهيونيين ، اذ كانت بريطانيا مسؤولة عن قيام الوطن القومي اليهودي ومن ثم عن قيـام الدولة ، وجاءت الولايات المتحدة بعد ذلك فأصبحت مصـدر العون الرئيسي لاسرائيل سلاحا ومـالا وسياسة ودبلوماسية ، او بحجبه عن بريطانيا والولايات المتحدة زائدا المانيا الاتحادية وهولندا لان البلدين الاخيرين (خاصة المانيا الاتحادية) يدعمان اسرائيل بصورة متكررة اكثر من بقية بلدان أوروبا الغربية .

أ ــ وسواء اكانت السياسة من النوع الاول الضيق ام الثاني الموسع فهي تقوم علـى الاساس نفسه، وهو ان التهديد بحجب النفط عن بعض البلدان الغربية التي تحمل بحق مسؤولية ضخمة في مساندة اسرائيل بشكل متماد هو من نوع القصاص العادل . ومع اعتراف انصار سياسة حجب النفط الجزئية بأن الولايات المتحدة اقل تأثرا بحجب النفط من دول أوروبا الغربية (واليابان) لانها لم تستورد عام ١٩٧٠ من العالم العربي سوى ١٢ مليون طن تمثل ٧ بالمئة من جملة استيرادها و٧ر١ بالمئة من جملة استهلاكها ، الا انهم يعتبرون ان حجب النفط عن اصدقاء الولايات المتحدة الذيـن يعتمدون اعتمادا أساسيا وخطير المدى على النفط العربي (بنسبة متوسطها ثلثا مجموع الاستهلاك) من شأنه ان يحمل دول أوروبا الغربية المعنية ــ بل كل هذه الدول ــ على ان تصبح جهاز ضغط على الولايات المتحدة يجعلها تبدل سياستها ــ وهي البلد الذي يمثل مركز الثقل اليوم في مساندة اسرائيل ودعمها باستمرار ضد العرب . (على أي حـال يتوقع أن تستورد الولايات المتحدة نحو ٧٧ مليون طن من النفط العربي خلال ١٩٧٢) . ويضيف البعض الآخر تعديلا بسيطا لهذه الحجة هو ان حرمان بعض بلـدان أوروبا الغربية القارية من النفط يجعل هذه البلدان تضغط على الولايات المتحدة **وعلى بريطانيا ذاتها** ــ عدا الضغط الداخلي في بريطانيا الذي سيولده الحرمان من النفط ــ ويجعل بريطانيا بالذات تستخدم نفوذها الخاص لدى واشنطن لحملها على تبديل سياستها مـن قضية فلسطين تبديلا جذريا .

ب ــ اما آلية جهاز الضغط المستهدف فهي ان البلدان الاوروبية التي تحرم من النفط العربي ستضغط على الولايات المتحدة لتبدل سياستها لانها لا تستطيع ان تفعل شيئا لتخفف متاعب البلدان المحرومة ولتعيد دورة الحياة الاقتصادية فيها (التي يتوقع أن تتباطأ كثيرا بعد حوالي ثلاثة شهور من انقطاع النفـط العربي) . وهنا أيضا ــ كما لاحظنا عند عرض سياستي التأميم ــ فان قدرة الولايات المتحدة المالية لا تفيد في شيء لان المطروح **ليس شراء نفط بديل** بأسعار أكثر ارتفاعا **وانما أساسا ايجاد نفط بديل** خلال فترة قصيرة تعد بالشهور ــ وهو أمر غير ممكن حتى ولو طال الافق الزمني فامتد الى الاجل المتوسط أي حتى خمس سنوات ، ذلك ان الطاقة الانتاجية لفنزويلا ونيجيريا وايران واندونيسيا والاتحاد السوفياتي لا تستطيع التعويض عن النفط العربي في المدى القصير أو المتوسط . وهكذا توضع الولايات المتحدة في « الزاوية » وتضطر الى تبديل سياستها من قضية فلسطين لانقاذ اقتصاد أعز حلفائها واقربهم اليها . والقضية هنا ليست فحسب في توفير النفط والغاز للمصانع والسيارات والصناعات البتروكيميائية والمولدات الكهربائية ــ وانما هي كذلك توفيره للاستعمال المنزلي في الطبخ والتدفئة والانارة (بفضل توليد الكهرباء حـراريا أي بواسطة النفط) . اذن فان حجب النفط العربي يمس الاقتصاد والحياة اليومية للبلدان المستهدفة على السواء ــ بل ببساطة انه يمس الحياة البيولوجية لهذه البلدان .

جـ ــ ينطلق بعض محبذي هذه السياسة في توضيح حسناتها بالقول انها لا تثير عداء الغرب كسياسة التأميم الكلي لانها تقتصر على حجب النفط ، وحجب النفط يعني رفض

التعامل التجاري مع البلدان الغربية التي توجه السياسة ضدها ، وليس هنالك ما يوجب على بلد ما الاتجار مع بلد آخر برغم انفه .

د ــ ثم يحاج محبذو سياسة الحجب الجزئية بأن هذه السياسة مع كونها تقول بحجب النفط عن بعض البلدان الا انها قادرة على ضبط الامور بحيث لا يتسرب النفط من البلدان التي يسمح بتدفق النفط العربي اليها الى تلك التي يحجب عنها . وهذا صحيح اذا كانت البلدان المصدرة للنفط جادة في الامر لانه بمقدورها ان تتقيد في مبيعاتها للبلدان المسموح لها بالاستيراد بالكميات التي كانت تتجه اليها في الفترة السابقة لحجب النفط . وبالطبع فان توفر النفط في البلدان المسموح لها بالاستيراد واستمرار الحياة العادية فيها سيخلق المزيد من الضغط على البلدان المحرومة والتي سترى ان البلدان الاخرى التي يتوفر لها النفط ستقتنص الاسواق التجارية منها وتسبب لهـا بذلك ضررا بعيد المدى حتى بعد العدول عن سياسة حجب النفط . وهذا سيؤدي الى قيام البلدان المحرومة بالاسراع في اعادة النظر في سياساتها العربية وبالمزيد من الضغط على الولايات المتحدة للغرض نفسه . على ان الجدير بالذكر ان مقرري السياسة في الولايات المتحدة بدأوا يشعرون بضغط داخلي كذلك مرده الى ازدياد الادراك لمدى تزايد الاعتماد على النفط العربي . وقد برز عدة محللين سياسيين وخبراء اميركيين حتى الآن وركزوا في الصحافة الاختصاصية وفي شهادات رسمية امام لجان نيابية علـى وجوب الادراك بأن النفط العربي بمقدوره أن يصبح قوة سياسية ضاغطة جبارة في الولايات المتحدة*. والمؤلم ان هذا الادراك والتحسب له يسبقان الادراك العربي والتصرف بمنطقه .

كما رأينا عند بحث سياسة الحجب الكلي ، فان سياسة حجب النفط العربي عن عدد محدد من البلدان الغربية تبدو جذابة للوهلة الاولى ، لكنها في الوقت نفسه تشكو من عدد من نقاط الضعف نجملها في ثلاث نقاط :

ا ــ ان القول بأن حجب النفط ان هو الا رفض للتعامل التجاري مع البلدان المستهدفة ، والبلدان العربية لا يتوجب عليها الاتجار برغم أنفها ، هو قول مغرق في التبسيط . فالنفط ليس سلعة عادية وانما سلعة ستراتيجية حيوية هي بمثـابة الدم في شرايين الحياة اليومية والاقتصادات وأنظمة الدفاع . والنفط العربي يمثل نحو ٦٥ بالمئة من جملة النفط المستخدم في البلدان الاوروبية الغربية المستهدفة في السياسة ــ واذن فقطع النفط العربي عن هذه البلدان هو حكم بالشلل على معظم الجسم الاقتصادي فيها ، كما انه معطل لنمط الحياة اليومية المنزلية كما رأينا .

ب ــ يترتب على هذا التحفظ آثار خطيرة . فالبلدان الغربية المعنية سترد حتما بضربة متكافئة أو أشد قسوة . وفي أبسط الحالات ستجمد الارصدة والاستثمارات الماليـة العربية في مصارفها وأسواقها المالية وهي الملجـأ الرئيسي للارصدة والاستثمـارات العربية ، حتى مع الاعتراف بأهمية السوق المال السويسري . وان قيـل بأنه يمكن التحسب لنقطة الضعف هذه مسبقا بنقل الارصدة والاستثمارات قبل حجب النفط الى أسواق فرنسا وسويسرا ، كان الجواب ــ كما بينا قبلا ــ ان السوق المالي الفرنسي لا يقدر على استيعاب الاموال العربية (وقد شاهدنا بالاختبار كيف انه بعد ان نقلت جمهورية ليبيا العربية أموالها من بريطانيا الى فرنسا عند تأميم شركة بريتش بتروليوم عام ١٩٧١ ، أعادت فرنسا الجزء الاكبر من هذه الاموال الى المصارف البريطانية خلال أسبوع) ، وان السوق السويسري سيرفض استقبال هذه الاموال ، ظاهريا بحجـة

---

* كنا اشرنا الى شـهادة جان اروين فيما سبق ، والى مقال فيمجـلة The Oil and Gas Journal بتاريخ ١٩٧٢/٣/٢٠ . ونضيف الى ذلك مقالا آخر بقلم جين كني بموضوع « الحصول علـى نفط الشرق الاوسط مرتبط بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة » ــ نفس المجلة بتاريخ ١٩٧٢/٦/١٢ ، ص ٧١ .

الاشباع وفي الحقيقة تضامنا مع البلدان المحرومة من النفط . وهكذا مرة اخرى نرى ان العرب يصبحون اسرى أموالهم لانها تقيد حرية تصرفهم .

غير ان رد البلدان المحرومة قد يجيء أشد عنفا من الاجراءات الاقتصادية كتجميد الأموال العربية . فبالاضافة لهذا التجميد قد تعتمد البلدان الغربية المعنية ردا عسكريا بصيغة او بأخرى ، اذا طال أمد انقطاع النفط وهدد الحياة الاقتصادية واليومية وأجهزة الدفاع بالشلل . ولئن قيل ان هذا الاحتمال الذي شهدنا أهميته عند بحث سياسة الحجب الكلي تتغير ظروفه بين سياسة وأخرى، أي انه احتمال ضعيف الان لان سياسة حجب النفط الجزئية انما تستهدف عددا محدودا من البلدان الغربية في حين ان حجب النفط الكلي يستهدف جميع البلدان الغربية — اذا قيل هذا كان ردنا ان البلدان ذات النزوع للعمل العسكري في كلتا الحالتين هي البلدان نفسها ، وبالتحديد الولايات المتحدة وبريطانيا (خاصة البلد الاول) ، ولذلك فينبغي عدم استبعاد الرد العسكري وان يكن احتماله الان أضعف منه في سياسة الحجب الكلي . وهنا ايضا فقد يستهدف العمل العسكري بلدا عربيا واحدا أو أكثر .

ج — نقطة الضعف الاخيرة هي الفرضية التي تقوم عليها سياسة حجب النفط عن عدد محدد من البلدان الغربية والقائلة بأن هذه السياسة يلزمها عمل عربي موحد . ونحن احتراما منا للواقع وتحاشيا للتجريد المثالي نعتقد ان شرط الالتزام العربي الواحد غير المتحفظ والمشاركة بالعمل الموحد الممتد زمنيا حتى يحقق اغراضه ، غير متوفر في الظرف العربي الحالي ، وليس من المنطق او حسن التبصر والتخطيط السليم ان تبنى سياسة ذات أبعاد خطيرة كالسياسة المطروحة على اساس فرضية غير سليمة .

* * *

حصيلة هذا التحليل لسياسات التهديد بحجب النفط او حجبه ان قدرة الضغط العربية تكمن في هذه المجموعة اكثر مما تكمن في مجموعة سياسات التهديد بالتأميم او تنفيذه . لكن هذه القدرة بسبب ضخامتها وفاعليتها تستثير على الارجح ردود فعل غربية عنيفة بل قد تستدرج اجراءات عسكرية غربية (عدا الاجراءات الاقتصادية) لا نخال البلدان العربية في الوضع العربي الراهن تقبل بأن تتعرض لها . لكن في النهاية تظل المسألة مسألة حرب أعصاب ، فالغرب يدرك ضعف مركزه لكنه يناور من نقطة ادراكه لضعف الفريق العربي الخائف على موارده المالية وعلى أمنه فيما اذا كان رد الفعل الغربي عسكريا . وليس المهم حقيقة انكشاف العرب بقدر ما هو اعتقادهم بانكشاف موقعهم . اما هذا الخوف فلا يبطله سوى الفهم العربي الحقيقي للوضع المقارن وارتفاع ارادة النضال لدى العرب .

٣ — السياسات الاكثر مداورة والتي تتعلق بممارسة سيطرة غير مباشرة على مشتري النفط

نأتي الآن الى مجموعة أخرى من السياسات أو الاجراءات الجزئية التي يمكن أن تتخذ وتكون ذات أثر على السياسة الغربية عامة والاميركية خاصة ، وان يكن الاثر غير مباشر أو جزئيا . وسنعدد اربعة منها :

أ — الاجراء **الاول** هو قيام البلدان العربية النفطية بشراء اكبر نسبة ممكنة من أسهم شركات النفط ، ما كان يعمل منها في أراضي البلد المعني وما كان يعمل في اراضي عربية أخرى ، وذلك لغرضين اثنين ، **أولهما** السيطرة على السياسة النفطية لهذه الشركات بالمعنى الاقتصادي والتجاري للسياسة ، **وثانيهما** ممارسة ضغط سياسي على بلدان الغرب مما لا تمارسه الشركات الآن ، لصالح القضايا العربية عامة وقضية فلسطين خاصة . ومن الواضح في هذا الصدد انه لا يوجد اعضاء في مجلس

ادارة أي شركة حتى الان يستطيعون ممارسة ضغط سياسي خارج النواحي المالية والادارية البحت ، على ان المستهدف هو ممارسة ضغط على سياسة البلدان التي تنتسب الشركات اليها من خلال تقوية نفوذ الاعضاء العرب في مجالس الادارة وتمكينهم بفضل نسبة الاسهم العربية المرتفعة من حمل هذه المجالس على ان تلعب دورا موازيا ومعدلا (بكسر الدال) لدور الاوساط المالئة للصهيونية في البلدان الغربية المعنية .

ب ـ الاجراء **الثاني** هو قيام بلدان النفط بالتهويل باسترداد أجزاء من مساحة الامتيازات النفطية بواسطة التشريع ، من اجل الاستثمار المباشر او الاستثمار بالتعاون مع فرقاء غير غربيين أو مع فرقاء غربيين لقاء عمولة محددة ـ وذلك ايضا كوسيلة ضغط سياسي على البلدان الغربية ، اذ من المعلوم ان الشركات تحرص كثيرا على الاحتفاظ بالمقدار الاقصى من الاراضي المشمولة بالامتيازات الاصلية .

ج ـ الاجراء **الثالث** هو ايعاز سلطات بلدان النفط للعمال في الشركات بالتباطؤ في الانتاج وفي تحميل الناقلات (خاصة الناقلات العملاقة) لاشعار البلدان الغربية بقوة بلدان النفط العربية وبتصميمها على ممارسة الضغط السياسي على الغرب لصالح القضايا العربية عامة والقضية الفلسطينية خاصة .

الخلاصة التي تنبثق عن هذه الاجراءات الثلاثة انها جميعا تهدف الى رفع قابلية التصديق لدى الغرب بصدد الموقف العربي والتصميم العربي على مناصرة قضايا العرب ، والى تصديق التهديد العربي بأن أجراءات اشد وطأة ستتخذ اذا لزم الامر وكانت الاجراءات ذات الاثر المداور قليلة الجدوى .

والجدير بالذكر ان اتخاذ هذه الاجراءات لا يتعارض مع اعتماد اي من السياسات الأخرى الا بمعنى ان الاجراءات متواضعة الاثر، فالتباطؤ في الانتاج هو طبعا دون حجب النفط حدة وفاعلية ، واسترداد قسم من الامتيازات وشراء المزيد من أسهم الشركات هما دون التأميم شمولا وفاعلية كذلك . وبالتالي تمكن المباشرة باتخاذ الاجراءات الثلاثة المبينة فورا من قبل جميع البلدان المنتجة كمقدمة لاتخاذ ما هو أشد وأمضى من اجراءات .

د ـ أخيرا ، لا بد من التأكيد بأن هنالك جانبا ايجابيا ينبغي تقديمه وتوضيحه الى جانب السياسات المقترحة قبلا والتي كانت بشكل عام ذات صفة سلبية بمعنى انها كانت تهدف الى خلق ضغط على الغرب من خلال ايقاع الاذى بمصالحه . هذا الجانب هو تنمية قطاع النفط العربي وتقويته بفضل تنمية صناعات الغاز والتكرير والبتروكيمياويات وتنمية النقل البحري وخدمات تأمين النفط ، من أجل تحقيق مورد دخل مرتفع بديل يعوض الى حد ما عن الانخفاض في مورد تصدير النفط الخام فيما اذا اتخذت البلدان العربية اجراءات تحد من تصدير النفط الخام ، كما تحقق السياسة مزيدا من السيطرة في حال استمرار التدفق . وما ينطبق على تنمية قطاع النفط الوطني ينطبق بشكل أوسع على تنمية الاقتصادات العربية ككل لان ذلك يحد من الاذى الذي تصاب به اذا اتخذت البلدان العربية اجراءات ردعية ضد الغرب من شأنها ان تؤدي بمورد النفط الى الهبوط . غير اننا بحثنا موضوع التنمية من زاويته الواسعة في القسم الاول حين عالجنا دور النفط في تنمية القدرة العربية الذاتية .

٤ ـ سياسات أخرى

سنعرض سياستين في هذه المجموعة يصعب تصنيفهما تحت اي من المجموعات السابقة ، **اولاهما** فرض رسم تصدير انتقائي لدعم المجهود الحربي العربي .

طرحت هذه السياسة كاجراء زجري ومالي في اعقاب حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . وقالت بفرض رسم تصدير قدره ٢٠ سنتا اميركيا على كل برميل نفط يصدر من البلدان

العربية (مرة واحدة او تدريجيا) لتمويل عمليات التعمير والتسلح العربية . وقد استندت هذه السياسة الى الحجج التالية تبريرا :

أ ـ ان فرض الرسم اجراء سهل التطبيق .

ب ـ ان الاجراء يمكن ان يكون انتقائيا في التنفيذ ، أي ان البلدان الصديقة المستوردة للنفط يمكن ان تدفع لها رديات معادلة للرسم المدفوع أو ان تستثنى منذ الابتداء من الرسم، وهكذا تقع وطأة الرسم المفروض على البلدان العدوة المساندة لاسرائيل (وعلى رأسها كما كان مقترحا في السياسة المطروحة الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا الاتحادية وهولندا) .

ج ـ ان النفط العربي منخفض الاكلاف وبالتالي فان سعر المبيع يستطيع ان يستوعب الرسم المفروض . وطبيعي ان نسبة ما كانت الشركات المنتجة للنفط ستقدر على تحويله من الرسم للمستهلك النهائي ، ونسبة ما كانت ستضطر هي ذاتها لتحمله ، تتوقف على مرونة الطلب لجهة سعر المبيع . وفي كل الاحوال كان الاعتقاد بأن رسم التصدير لن يعدل نمط الاكلاف العالمي بحيث تتمكن الشركات من التحول بسببه عن النفط العربي الى سواه ، **أولا** لاستحالة التعويض عن النفط العربي في المدى الزمني القصير أو المتوسط ، **وثانيا** للميزات التي يتمتع بها النفط العربي من حيث كلفة الانتاج. الضعف الاساسي في هذه السياسة انها مالية في طبيعتها وليست في ذاتها كافية للتأثير في السياسات الغربية المناصرة لاسرائيل والمساندة لها ـ خاصة سياسة الولايات المتحدة . فرسم التصدير يمكن استيعابه ـ وقد امتصت شركات النفط والبلدان التي تنتسب هذه الشركات اليها أكثر من الرسم المقترح منذ منتصف ١٩٦٧ خلال الاتفاقيات الجديدة في مطلع ١٩٧١ ومطلع ١٩٧٢ مع البلدان المصدرة للنفط . كما ان اتاحة المزيد من الموارد المالية للمجهود الحربي العربي بفضل سياسة كالسياسة المطروحة لا يضمن **القيام الفعلي** بمجهود حربي من الناحية الاخرى . ولهذا نعتقد ان هذه السياسة تخطتها الاحداث لان الغرض الاساسي الذي من اجله طرحت لم يعد قائما مع التصاعد الشاهق في العائدات النفطية للبلدان العربية بين صيف ١٩٦٧ وربيع ١٩٧٢ ، ولان اثر السياسة المالي أضعف من أن يحمل البلدان الغربية على اجراء التبدل المنشود في سياساتها من قضية فلسطين . فاذا فرض رسم تصدير من الارتفاع بحيث شكل عبئا غير مقبول على المستورد نتج عن ذلك توقف التصدير فعلا اي تصبح السياسة المطروحة كسياسة حجب النفط ، وقد عرضناها وحللنا آثارها اعلاه بما لا يضطرنا لاعادة العرض والتحليل هنا .

باختصار ، ان فرض رسم تصدير اما ان يكون سياسة ضعيفة وغير ذات اثر اذا كان الرسم منخفضا ، أو أن يكون كسياسة حجب النفط اذا كان الرسم مرتفعا جدا .

السياسة **الثانية** ضمن المجموعة الحالية ما لا نستطيع أفضل من تسميته « بسياسة اللاسياسة » .

نعني بهذه السياسة ترك الامور على ما هي عليه الان ، اي الاستمرار بالسعي لتحسين شروط الاتفاقيات بين البلدان المصدرة للنفط والشركات المستثمرة ، وبرفع مستوى الصادرات الكمي ، وبالتالي الاستمرار بتحسين الوضع المالي للبلدان المصدرة باضطراد لكي ترتفع قدرتها على تحمل اعباء الدفاع المتزايدة وقدرة بعضها على التبرع لدعم الصمود . من هنا كانت تسميتنا لهذه السياسة « باللاسياسة » لانها في الواقع تقوم ضمنا ان لم يكن صراحة على مبدأ عدم استخدام النفط سلاحا او وسيلة ضغط فعال على العالم الغربي وعلى مبدأ عدم المجابهة المباشرة مع بلدان العالم الغربي ـ بالاختصار فهي تقوم في جوهرها على ايساس ابقاء الوضع على ما هو عليه ـ مع

تحفظ هام بصدد نمط الوضع الراهن : هذا التحفظ يتعلق بمبدأ المشاركة العربية براس مال الشركات ، ونقصد به ان المشاركة — الى جانب كونها عملية ذات مظهر مالي ودخلي الا انها في الوقت ذاته ذات دلالة سياسية وقومية ، لانها تمكن البلدان النفطية من ممارسة مقدار من السيطرة (يتناسب مع حجم المشاركة ومع موقف الفريق العربي وكيفية تحديده لدوره) على السياسات النفطية وبالتالي على سياسات البلدان التي تنتسب شركات النفط اليها .

من الواجب الاعتراف ، قبل المضي في تحليل سياسة اللاسياسة ، ان بعض المجابهات الماضية التي أدت الى قطع النفط كانت لاغراض سياسية تتعلق بقضية فلسطين ومتفرعاتها وليس لغرض جني المزيد من العائدات النفطية . اي ان البلدان المصدرة للنفط (او بلدان المرور) التي تصرفت في الماضي بشكل يحد من تدفق النفط او يوقفه ، قبلت مبدأ المجابهة مع الغرب . لكن الواقع ايضا ان جميع هذه المجابهات لم تكن حاسمة ، فهي اما كانت قصيرة المدى فلم تمتد زمنيا حتى نقطة الحرج ثم الحسم بالنسبة للاسواق الغربية ، او هي لم تكن شديدة الوطأة لانها اقتصرت على عدد قليل من بلدان النفط او هي اخيرا لم تطبق بدقة تمنع تسرب النفط الى من كان يراد حرمانهم منه . وفي كل الحالات فقدت المجابهات قابليتها للتصديق بسرعة بما رافقها من شكوى وتخوف عربيين من ان وقف النفط سيؤثر سلبا في الاوضاع المالية والاقتصادية العربية، او بما لازمها من اعتقاد بان الغرب سيعدل موقفه السياسي ايجابيا وبسرعة ، دون ان يقوم هذا الاعتقاد على قاعدة موضوعية صلبة ودون ان يتمتع بخلفية تاريخية تبرره .

اذن فان المجابهات الماضية لا تصلح لان تعتبر سابقة لتوقع مجابهات مقبلة حاسمة يكون العرب مستعدين فيها لان يوصلوا السياسة المختارة الى نقطة الحسم او على الاقل الى مستوى الحرج . ومن هنا تكتسب سياسة اللاسياسة اغراءها وجاذبيتها لانها من جهة تتحاشى المجابهة التي يبدو ان درجة القبول بها منخفضة جدا ، ومن جهة اخرى توفر على البلدان العربية مخاطر المجازفة (الاقتصادية — السياسية — العسكرية) المترتبة على المجابهة ، ومن جهة ثالثة تضمن لهذه البلدان موارد مالية يصح اتخاذها مبررا لسياسة الاستمرار لانها — اي الموارد — يمكن ان تبرز على انها قادرة على دعم الصمود وتمويل حاجات الدفاع الى جانب حاجات الاستهلاك والانماء في البلدان المعنية .

لكن مهما يكن من امر ، فان سياسة اللاسياسة او سياسة الاستمرار ضمن خطوط الوضع الراهن لا تصلح وسيلة ضغط على الغرب والدليل على ذلك ان البلدان العربية عاجزة عن ممارسة اي ضغط بفضلها . « فحسن السلوك » الذي يعتبره بعض انصار هذه السياسة اقوى عناصرها في التعامل مع الغرب ليس له مكان في قاموس التعامل السياسي ، حيث يتأثر التعامل بنمط توزع القوى وبممارسة القوي لقوته او بتهديده المقنع والقابل للتصديق باستعداده لممارستها ، اما لردع الخصم او لتصحيح مواقفه . ثمة سبب آخر يحملنا على التقليل من قيمة سياسة الاستمرار في نطاق السياسات المطروحة في هذا البحث ، هو ان مبررها المالي لا يشكل حجة تحمل على القبول بها . فقدرة هذه السياسة على توفير المزيد من الموارد المالية الضخمة للبلدان المصدرة للنفط امر لا ريب فيه . لكن الحاجة ليست الى المزيد من الاموال ، والمال ليس عنق الاختناق الاساسي الذي يمنع الجانب العربي من ممارسة وزنه السياسي لتعديل موقف الجانب الغربي . وكما بينا قبلا فان عنق الاختناق هو عدم توفر ارادة المجابهة والنضال واستخدام جميع الموارد والقبول بالتضحيات لصالح القضية الفلسطينية .

٥ ـــ السياسات المشتركة بين التاميم وحجب النفط

لعل هذه المجموعة اكثر المجموعات فاعلية لانها تتمتع بمرونة فائقة منبثقة عن امكـان استخدام التهديد بالتأميم (او التأميم) والتهديد بحجب النفط (او حجبه) في تمازجات مختلفة وضمن برنامج تدرجي ، كما يمكن التهبيط فيها من خلال عنصر حجب النفط الذي يمكن تصعيده وتهبيطه . اما ميزاتها الاخرى والتي يرجح ان تعوض عن نقاط الضعف الكامنة في مجموعة سياسات التأميم ومجموعة سياسات الحجب كل على حدة فستتضح من خلال التحليل كما سنشدد عليها في ختام التحليل .

وبالرغم من ان هذه المجموعة يمكن ان تضم صيغا مختلفة فاننا سنتكلم عن احدى هذه الصيغ كعينة لتمازج معين لعنصري التأميم والحجب .

تقول هذه السياسة بخطوات تدريجية تقوم بها بعض البلدان النفطية لا كلها (على ان يظل الباب مفتوحا امام البلدان الاخرى للمشاركة) وتوجه الخطوات صوب بلد غربي واحد هو الولايات المتحدة . وبالتفصيل تتضمن السياسة الاجراءات التالية :

أ ـــ ترتكز السياسة في الاساس على العراق وليبيا ومصر وسورية والجزائر . اما في المرحلة الاولى فترتكز على البلدان الثلاثة الاولى . وبما ان العراق قد امم المصالح غير الفرنسية في مجموعة شركة نفط العراق في اول حزيران (يونيو) ١٩٧٢ ، تقوم ليبيـا ومصر بموجب هذه السياسة بالانذار بانها ستؤمم اسهم الشركات الاميركية العاملة على اراضيها والتي يشكل نصيبها من الانتاج الاجمالي للبلـدين ٨٢ بالمئة (٨٦٪ في ليبيا و ٤٦٪ في مصر ، وقد كانت النسبة الاجمالية قبـل التأميم ٦١،٢ بالمئة نظـرا لكون المصالح الاميركية في العراق كانت تبلغ ٢٣،٧٥٪) ، ما لم يحدث تبدل واضح في موقف واشنطن من القضية الفلسطينية . فاذا لم تكن الاستجابة مرضية ، ينفذ التأميم فعلا ، مما يرفع المصداقية العربية فورا ويعيد اليها بعض الاحترام .

ب ـــ اذا لم يكن من اثر سياسي ايجابي لهاتين الخطوتين ، او كان اثرهما ضئيلا ودون مرتبة معينة تكون البلدان المعنية قد حددتها مسبقا ، او اتت برد فعل عكسي ، تقـوم البلدان الثلاثة زائدا سورية والجزائر (زائدا اي بلد اخر يود المشاركـة في تنفيـذ السياسة بشكل طوعي) بالانذار بحجب النفط والغاز عن الولايات المتحدة . فاذا جرى تجاهل الانذار ايضا ، يصار الى حجب النفط والغاز ضمن برنامج تدرجي (اي حجب نسبة مئوية يصار الى تصعيدها بموجب الانذار المحدد) .

ج ـــ الى جانب هذه الخطوات من البلدان الخمسة ، تقوم بقية البلدان العربية المصدرة للنفط بتحديد الانتاج لكي لا يتمكن اي بلد من استيراد فوق ما كان يستورده قبـلا من النفط منعا لتسرب المزيد من النفط العربي الى الولايات المتحدة ، وكوسيلة للضغط على البلدان الغربية لتضغط بدورها على الولايات المتحدة لصالح قضية فلسطين .

تقوم السياسة المقترحة على ثلاث فرضيات اساسية : **الاولى** ان الولايات المتحدة هي مركز الثقل في المساندة الغربية لاسرائيل وهي البلد الذي يمكن الاستعمار الصهيوني من الرسوخ والامتداد ومن تحدي الاسرة الدولية والعرب على السواء ، لذلـك ينبغي ان توجه اية اجراءات زجرية في الوضع الراهن الى الولايات المتحدة . **الثانية** ان الـدول الغربية الاخرى بالرغم من الدور الذي قام به بعضهـا في فتح ابواب فلسطين امـام الصهيونيين ومساندتهم ماليا وسياسيا ومعنويـا هي ذات اثر سياسي ضئيل اليـوم بالنسبة لقضيـة فلسطين ومن الواجب تحييدها على الاقـل ، وفي احسن الاحتمالات جعلها تصبح نصيرا للعرب في الضغط على الولايات المتحدة . **الثالثة** ان البلدان العربية الخمسة المذكورة قادرة على اختطاط سياسة مشتركة بصدد التأميم وهي على درجة من

القبول لفكرة التأميم اكثر من سواها ، كما انها ايضا قادرة فنيا على تحمل نتائج التأميم ــ ولهذا كان اختيارها دون سواها من البلدان العربية النفطية .

تتميز السياسة المطروحة بعدة ميزات اهمها :

ا ــ انها واقعية في فرضياتها اذ تقصر اجراءات التأميم على مجموعة من البلدان العربية اكثر استعدادا للقبول به من سواها . (ليس في الجزائر وسورية شركات اميركية عاملة ذات شأن) .

ب ــ انها واقعية لجهة الهدف بحيث انها توجه الضربة الاولى تجاه العدو الغربي الاكبر لقضية فلسطين اي الولايات المتحدة .

ج ــ انها تعتمد التدرج والمرحلية فتضغط تدريجيا على الولايات المتحدة وتعطيها فرصة أولى لتعديل سياستها العربية ، فاذا لم تتجاوب الولايات المتحدة فان السياسة تقول بتصعيد الاجراءات كما بينا .

د ــ انها تميز بين الولايات المتحدة وبقية البلــدان الغربية وتعطي الانطباع بالمرونــة والروية والتمييز بين بلد هو عدو مكشوف وبلدان اخرى عداؤها محدود الاثر او هي محايدة تجاه العرب .

هـ ــ انها لا تتطلب من البلدان العربية المصدرة للنفط خارج الخمسة التي عددناهــا اتخاذ خطوات مرهقة ماليا او محرجة سياسيا وجل ما تطلبه منها هو تحديد الانتاج لكي لا تتملص اميركا من فعل خطوتي التأميم وحجب النفط من جهة ، ولكي تجهد البلــدان الغربية الاخرى بسبب تحديد تدفق النفط اليها للضغط على الولايات المتحدة . اما مقدار التحديد فينبغي اقراره بعد دراسة ومشاورات بين البلدان العربية المعنية ، لكنــه في اكثر صوره تواضعا يعني تجميد الانتاج على مستواه السابق للتحديد . وبالطبع فــان البلدان التي يطلب اليها التحديد لن تشكو ازمة مالية بالنتيجة ، **اولا** بفضل ما لديها من احتياطي مالي كبير **وثانيا** لانها ستستمر بالافادة من عائدات نفطية ضخمة وان تكن غير متصاعدة .

و ــ انها تتحاشى السياسات الكلية او القائلة بتطبيق مبدأ الضربة الواحدة التي مر ذكرها بما رأينا انه يرافق تلك السياسات من احتمالات خطر على البلدان العربية كلها اقله ذو صفة إقتصادية واقصاه ذو صفة عسكرية .

ز ــ انها تجسد مبدأ « العصا والجزرة » او العقاب والثواب في انها تتضمن وسائــل الاكراه ووسائل الترغيب في آن واحد وضمن قابلية الاستخدام المرن .

غير ان السياسة المطروحة ــ بما تتمتع به من مرونة وتدرج واعتــدال نسبي تنكشف للنقد لانها لا تعطي الانطباع بانها موجعة جدا وبشكل درامي . على اننا نعتقد أن ميزات هذه السياسة وسيئاتها ، بالمقارنة مع السياسات المعروضة قبلا ، تحمل على الاعتقاد انها **في ظل الظروف العربية الراهنة** أصلح السياسات البديلة في صافي التحليل النهائي لغرض استخدام النفط العربي وسيلة ضغط ، من اجــل تحقيق تعديــل اساسي في السياسة الاميركية من قضية فلسطين . فمع ان سياسة حجب النفط عن جميع بلدان الغرب من قبل جميع البلدان النفطية العربية تبدو وكأنهــا سياسة فضلى ، الا انهــا سياسة متسرعة في التصعيد ومغرقة في الشمول ، ولعلها تجسد حالة اليأس النهائي الذي يتخذ التطرف العربي معه موقفا متطرفا يكاد يكون انتحاريا في اقصى حالاتــه . ومن الواضح ان هذه السياسة الكلية القائمة على مبدأ « الضربة الواحــدة » تلائــم حالة الازمة القصوى التي تنشأ فيما اذا اندلعت حرب عربية ــ اسرائيلية جديدة ولم يعد الظرف يسمح بالتصعيد المتأني وبالتدرج البطيء . من هنا كان تفضيلنا السياسة

الاخيرة المعروضة اي سياسة تمازج التأميم والحجب ضمن صيغة متدرجة مرنة .

* * *

ينبغي توضيح ثلاثة امور ختاما لهذا التحليل الدائر حول دور النفط كجهاز ضغط على القوى الخارجية :

١ ـــ الامر الاول هو ان مناقشة السياسات المطروحة تقوم **على اساس وضع عربي راهن** وان تفضيل سياسة ما على سياسة اخرى يتبدل حتما اذا تبدل هذا الوضع صوب مزيد من التعاون العربي ومزيد من الالتزام الفعلي بقضية فلسطين والعمل لها اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ، ومزيد من القبول بالمخاطر والاعباء التي تترتب على هذا العمل . كما تقوم مناقشة هذه السياسات على اساس افتراض حالة اللاحرب مع اسرائيل . **فاذا نشبت الحرب معها وقامت الولايات المتحدة بمساندة اسرائيل تصبح السياسات الاكثر « تطرفا » اكثر جاذبية واجدر بالاختيار لانها تكون اكثر جدوى وحسما .**

٢ ـــ الامر الثاني هو ان انتقاء سياسة نفطية ما لا يعني الاقتصار على هذا الاجراء في المجابهة مع الغرب . فهنالك نواح ايجابية طويلة الامد ينبغي اعتمادها تدور حول رفع الفاعلية الاقتصادية العربية والانماء العربي بشكل عام ، مما يقوي ساعد المجتمعات والاقتصادات العربية في مجابهتها مع الغرب ويجعلها اكثر قدرة على تحمل آثار المجابهة السلبية واعبائها النفسية والمادية .

٣ ـــ الامر الثالث هو ان انتقاء سياسة ما بين السياسات المطروحة هنا ، او سواها ، واعتماد هذه السياسة ، يلزمه استيفاء خمسة شروط ليصبح فعالا ولكي تؤدي السياسة المنتقاة بالتالي الى اغراضها المستهدفة :

ا ـــ ان يحافظ على السرية التامة قبل التطبيق ، لان الاعلان دون خطة مرسومة من شأنه الا يحمل على محمل الجد على الارجح بالنظر لهبوط درجة قابلية التصديق لدى الغرب ، ولان الفريق العربي يخسر عنصر المفاجأة ويعطي الفريق الغربي المجال لاحباط السياسة او للاحتياط لآثارها . اذن فالاعلان ينبغي ان يكون جزءا من الخطة ذاتها .

ب ـــ ان يتم الالتزام بدقة بالسياسة المنتقاة ، بتفاصيلها التي يتفق عليها ، وان يستمر التضامن بين الفرقاء المسند اليهم تطبيق السياسة .

ج ـــ ان يرافق التطبيق الادراك المسبق ان المجابهة سلاح ذو حدين وان يرافقه القبول بالاعباء التي تترتب على المجابهة بعد ان تكون الدراسة الدقيقة قد اثبتت ان حصيلة حساب المجابهة هي في الصالح العربي .

د ـــ ان تعتبر البلدان العربية المعنية بأية سياسة منتقاة ان فاعلية المجابهة تكمن في استمرارها حتى مستوى الحرج ومن ثم مستوى الحسم ، وانه اذا جرى تطبيق السياسة لفترة ما ادنى من ذلك المستوى (لمجرد المشاركة العاطفية او تسجيل المواقف) فانها لن تكون ذات اثر وستفشل ، والاحرى بها عندئذ الا تعتمد على الاطلاق كي لا يتحول التهديد بها الى مهزلة ـــ مأساة .

هـ ـــ ان لا يحصل تردد بعد مباشرة تطبيق السياسة المنتقاة ، وان تطبق باقدام وجراة، والا شعر الخصم بالتردد والضعف واستغله لاحباط السياسة بطريقة او بأخرى من طرق الارهاب وحرب الاعصاب .

ثالثا : الضغط الاسرائيلي المعاكس

السؤال الثالث الذي ينبغي ان نطرحه الان هو : ما هي القدرة الاسرائيلية المضادة ، او الضغط الاسرائيلي المضاد الذي يمكن ممارسته لمنع العرب من استخدام النفط

كجهاز ضغط ؟ بعبارة اخرى ، ما هي قدرة الردع الاسرائيلية التي من شأنها منع العرب عن استخدام النفط كجهاز ضغط ، وما هي قدرة اسرائيل على التصرف اذا جرى هذا الاستخدام ؟

انطلاقا ، ينبغي ان نؤكد ان قدرة الردع ليست بالضرورة القدرة العسكرية ، وان تكن القدرة على القيام بعمل عسكري رادع ، او عمــل عسكري لاحق لاستخــدام النفط ، متوفرة لدى اسرائيل وكان استخدامها واردا في اي حال . فمن الممكن ان تقوم اسرائيل بالدور نفسه الذي قامت به عام ١٩٥٦ في مهاجمة سيناء حين تصرفت نيابة عن بلدين غربيين حماية لما اعتبراه مصلحة حيوية لهما ، واصالة عن نفسها لضرب مصر قبل ان يتدرب جيشها على استعمال السلاح السوفياتي الذي كان قد وصل حديثا . وعلى اي حال فان المصلحة الحيوية الغربية اكثر وضوحا واعظم شأنا بالنسبة للنفط مما كــانت بالنسبة لقناة السويس ، ولا ينبغي اسقاط احتمال تكليف الغرب لاسرائيل لتقوم بعمل عسكري ، او لتلوح بعمل عسكري ، من شأنه ردع العرب عن استخدام النفط بشكل فعال ضد القوى الغربية ، او فيما اذا جرى الاستخدام من شأنه ضرب العرب بسرعة وحسم لايقاف الاجراءات النفطية التي تكون قد اتخذت .

هذا هو الجواب البديهي للسؤال الذي طرحناه حول قدرة اسرائيل على ممارسة ضغط معاكس للضغط العربي النفطي . على ان هنالك نواحي اخرى ليس اي منها بارزا لكنها في مجموعها تعطي اسرائيل وزنا دوليا يجعل الغرب يعير هذا البلد اهتماما ما كان ليعيره اياه لولا هذه النواحي . اي ان استعداد الغرب للرضوخ للضغط النفطي العربي يحده او يخفف من وزنه اربعة عوامل هي : **اولا** ، احترام الغرب لاسرائيل كبلد متقدم وعصري نجح خلال حقبتين ونصف في توطيد مركزه وترسيخ اقدامه وسط محيط عــربي ضخم ومعاد . **ثانيا** ، احترام الغرب لاسرائيل كمجتمع ذي تجربة اجتماعية تدعو للانتباه على الاقل في نواح ثلاث هي : استيعاب اعداد ضخمة من المهاجرين ، واقامة المستعمرات التعاونية (الموشافيم) والاشتراكية (الكيبوتسيم) وقيام هذه بدور فكري وعقائــدي وقيادي رائد ، وتحديث جهاز الدولة والمجتمع . **ثالثا** ، اطمئنـــان الغرب الى قــدرة اسرائيل على الحفاظ على شريان نفطي هام هو خط ايلات عسقلان ــ وتوسيع هــذا الشريان ان لزم ــ ليقوم بنقل النفط الايراني الى المتوسط متحاشيا قنـــاة السويس ، وبنقل اي نفط عربي يمكن الحصول عليه بالتحايل في صيغ معروفة (وان تكن هنالــك صعوبة في اثبات حصولها) . **ورابعا** ، اطمئنان الغرب الى قدرة اسرائيــل العسكرية على الردع او ممارسة العمل العسكري الفعلي بنجاح ــ دفاعا عن نفسها وعن مصالح اصدقائها الغربيين على السواء ، مهما كان تعريف مصطلح « الدفاع » و « المصالح » . اذن نستطيع ان نستنتج ان هذه العوامل الاربعة في مجموعها تشكل بوضوح قــدرة اسرائيلية على ممارسة الضغط المعاكس للطاقة العربية على الضغط وذلك في المــدى الزمني القصير ، والمتوسط ، وربمــا البعيد ايضا ، وان تكن هــذه القدرة مداورة لا مباشرة . واهم ما في الموضوع ان هذه العوامل ــ بسبب ما تخلقه من صورة خــاصة لاسرائيل في الغرب **وفي الوسط العربي على السواء** ــ تصبــح ذات اثــر في توجيــه التصرف العربي (او على الاصح عدم التصرف) ، بحيث ان العرب يشعرون بوجــود قدرة اسرائيلية على الضغط المعاكس ، او هكذا يوحون . وفي حالة كهذه ان ما يشعر به الفريق المستهدف من الضغط المعاكس ــ اي العرب في السياق الحالي ــ له اهمية ملموسة ما دامت للضغط المعاكس قابلية التصديق . والقدرة الاسرائيلية تتمتع بهــذه القابلية دون ريب لدى الغرب والعرب على السواء .

رابعا : الغرب والضغط العربي

بقي ان نطرح السؤال الرابع والاخير : ما هي قدرة الغرب على مقاومة الضغط العربي

النفطي ؟ وجوابا نقول انه سبق ان بينا في القسم الثاني من هذا البحث ان قدرة الغرب قد تكون مباشرة على الصعيد العسكري او الاقتصادي او الاثنين معا ، وقد تكون مداورة كما بينا في القسم الثالث اي انها قد تتحقق من ضمن قدرة اسرائيل على ممارسة ضغط معاكس . وكذلك كنا قد بينا في القسم الثاني ان حاجة الغرب للنفط العربي من الضخامة بحيث لن يتوفر له نفط بديل خلال المدى الزمني المتوسط — اي في حدود خمس سنوات مقبلة — والغرب اذن والى هذا المدى ، لا قدرة له على الاستغناء عن النفط العربي وبالتالي التملص من اثر الضغط الذي يستطيع العرب ممارسته . اما تحديد المدى الزمني الذي يقدر الغرب ضمنه على مجابهة الضغط العربي فامر معقد . فالغرب لديه هذه القدرة من خلال اسرائيل في المدى القصير والمتوسط ، ولديه هو ذاتيا قدرة الضغط العسكري المعاكس في حال حدوث ازمة حاسمة كحجب النفط . اما قدرته المنبثقة عن الاستغناء عن النفط العربي فغير واردة في المدى القصير او المتوسط وستظل محدودة في المدى الطويل .

هذا من حيث قدرة الغرب على مقاومة الضغط العربي من منطلقات خارج الوطن العربي . لكننا نعتقد ان الصيغة الاشد خطورة للقدرة الغربية تكمن في وتنطلق من قلب العالم العربي بالذات : انها حالة التفكك والخوف ، انها عدم القدرة على اتخاذ قرارات عربية شاملة حاسمة ، انها ضعف الارادة العربية في النضال . اذن فقدرة الغرب انما هي في المقام الاول في ضعف العرب وفي استمرار التصور الخاطىء — بل الآثم — لدى عدد من الدول العربية بان « حسن السلوك » العربي تجاه الغرب كفيل في النهاية بان يجعل الغرب يتحول عن سياسته الحالية المناوئة للحق العربي في فلسطين والممالئة للادعاء الصهيوني وللوجود الاسرائيلي ، صوب وجهة النظر العربية .

لسنا نجزم بأن هذا التصور هو تصور صادق في كل الحالات . فلعل بعض الدول العربية غير مقتنعة به لكنها تدعيه لانه يعفيها من ممارسة ارادة النضال ضد الامبريالية الغربية ، ولعل البعض الاخر مقتنع بـه . لكنه في اي حال يعكس حالة المراهقة السياسية المسيطرة في بعض اجزاء المحيط العربي ، ويفضح ضعف الادراك لحقيقة الخطر الصهيوني الاسرائيلي وللاطماع التوسعية الصهيونية الاسرائيلية ، او انه — وهذا اخطر ما في الامر — يفضح قلة الاكتراث الصادق بمصير فلسطين وبالمصير العربي على السواء .

خاتمة

اتضحت فيما نعتقد الامور الجوهرية التالية :

١ — صلة النفط بالاطماع الامبريالية في المنطقة العربية وصلة هذه الاطماع بالاستعمار الصهيوني الاسرائيلي ،

٢ — الموقع الخطير الشأن والمتزايد الاهمية الذي يحتله النفط العربي في مجمل موارد الطاقة المتاحة عالميا ،

٣ — امكان استخدام النفط لتنمية القدرة الذاتية العربية في السياق الطويل ، وامكان استخدامه كجهاز ضغط جبار على القوى الغربية الامبريالية في السياق الزمني المتوسط ، لصالح القضية الفلسطينية ،

٤ — وجود عدة سياسات او صيغ لاستخدام النفط لغرض الضغط الفعال ، ووجوب اختيار السياسة او الصيغة المفضلة انطلاقا من الوضع العربي الراهن وتطلعا صوب وضع مقبل يرضي الطموح العربي برفع مستوى التعاون العربي ورفع فاعليته ورفع مصداقيته ،

٥ ــ بسبب تفتت ارادة النضال العربية اليوم والارتهـــان العربي للمكاسب النفطية ، وقوع العرب اسرى مواردهم النفطية وبالتالي شلل ارادتهم ، وصيرورة النفط عامـــل استمرار للوضع الاستسلامي الراهن بدل ان يكون عامل قوة وتبديل من اجل التحرير ،

٦ ــ كون الوضع الراهن اذن لجهة الافادة من النفط وضعا قاتما جدا ، ووجوب الافادة من النفط في المدى الزمني القصير والمتوسط اي قبل ان يطور الغرب موارد نفطية بديلة للنفط العربي ، من خلال سياسة تتمازج فيها اجراءات التأميم وحجب النفط ضمن خطة مرنة متدرجة ،

٧ ــ ختاما واستطرادا ، وجوب حصول تبدل جذري في المجتمـــع العربي وفي اوساط سلطاته ، ووجوب تحقق فهم افضل لحقيقة الخطـــر الاسرائيلي الامبريالي ، ووجوب تحقيق تماسك عـــربي اقوى ، ووجوب تبلور ارادة النضال **شروطا اساسية** لتحـــول النفط الى اداة لتنمية القدرة الذاتية العربية والى جهاز ضغط فعال على القوى المعادية للقضية الفلسطينية . فان لم تستوف هذه الشروط ظل العرب اسرى نفطهم واموالهم ، رهائن الخوف وفقدان الثقة بالذات ، وحكموا على مصيرهم بالتأقزم .

ملحق احصائي

جـــداول ١ ــ ١٠

(١) تقديرات الاحتياطي العالمي الثابت والمعلن للنفط الخام ، بنهاية ١٩٧٠ .
(٢) تقديرات الاحتياطي الثابت والمعلن للنفط الخام في البلدان العربية ، بنهاية ١٩٧٠ .
(٣) تطور انتاج النفط الخام في البلدان العربية ١٩٦٠ ــ ١٩٧١ .
(٤) صادرات البلدان العربية من النفط الخام ١٩٦٥ ــ ١٩٧٠ .
(٥) عائدات النفط للبلدان العربية ١٩٦٠ ــ ١٩٧١ وتقديرات ١٩٧٢ ــ ١٩٧٥ .
(٦) تطور العرض والطلب على النفط الخام في العالـــم ، وفي الشرق الاوسط وشمال افريقيا : ١٩٦٠ ــ ١٩٧٠ وتقديرات ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ .
(٧) تقديرات انتاج النفط الخام في البلدان العربية ١٩٧٢ ــ ١٩٧٥ .
(٨) تقديرات صادرات البلدان العربية من النفط الخام ١٩٧٥ و ١٩٨٠ .
(٩) استهلاك المصادر الاولية للطاقة في العالم الغربي ١٩٧٠ .
(١٠) خلاصة للمصالح النفطية الغربية في البلاد العربية .

جدول (١)

تقديرات الاحتياطي العالمي الثابت والمعلن للنفط الخام بنهاية ١٩٧٠

البلد او المنطقة	الف مليون برميل	نسبته الى العالم ٪
الولايات المتحدة الامريكية	٤٦،٧	٧،٥
كنـــدا	١٠،٤	١،٧
منطقـــة البحر الكاريبي	١٦،٣	٢،٦
بقية نصف الكرة الغربي	٩،٩	١،٦
جملة نصف الكرة الغربي	٨٣،٣	١٣،٤
اوروبا الغربية	٤،٤	٠،٧
افريقيـــــا	٧٤،٧	١٢،١
الشرق الاوسط	٣٤٣،٩	٥٥،٤
الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية والصين	١٠٠،٠	١٦،١
بقية نصف الكرة الشرقي	١٤،٤	٢،٣
جملة نصف الكرة الشرقي	٥٣٧،٤	٨٦،٦
العالم (باستثناء الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية والصين)	٥٢٠،٧	٨٣،٩
العـــــالم	٦٢٠،٧	١٠٠،٠

ملاحظة : تشمل التقديرات للولايات المتحدة وكندا النفط الذي يعتقد بامكـــان استخراجه من احتياطي الغاز الطبيعي .

المصدر : *BP Statistical Review of the World Oil Industry*, 1970 ص ٤

جدول (٢)

تقديرات الاحتياطي الثابت والمعلن للنفط الخام في البلدان العربية بنهاية ١٩٧٠

البلد او المنطقة	مليون برميل	نسبته الى العالم ٪
ابو ظبي	١١،٨٠٠	١،٩٣
البحرين	٦٣٤	٠،١٠
دبي	٩٨٣	٠،١٦
العراق	٣٢،٠٠٠	٥،٢٣
الكويت	٦٧،٠٠٠	١٠،٩٧
السعودية	١٢٨،٥٠٠	٢١،٠٢
المنطقة المحايدة (السعودية والكويت)	٢٥،٧٠٠	٤،٢٠
عمــــان	١،٧٠٠	٠،٢٨
قطــر	٤،٣٠٠	٠،٧٠
ســورية	١،٢٠٠	٠،٢٠
الجزائر	٣٠،٠٠٠	٤،٩١
مصر	٤،٥٠٠	٠،٧٤
ليبيــا	٢٩،٣٠٠	٤،٧٨
المغــرب	١	—
تونــس	٥٥٠	٠،٠٩
مجموع البلاد العربية	٣٣٨،١٦٨	٥٥،٣١
مجموع العالم (عدا مجموعة الدول الاشتراكية)	٥١١،٠٧٢	٨٣،٥٩
مجموعة الدول الاشتراكية	١٠٠،٣٢٥	١٦،٤١
مجموع العالم	٦١١،٣٩٧	١٠٠،٠٠

ملاحظات : (١) تختلف التقديرات باختلاف المصادر ، فمثلا توجد تقديرات في مجلة World Oil لنفس السنة مجموعها للبلدان العربية ٣٢١،٤٠٩ ملايين برميل ونسبتها للمجموع العالمي ٥٨،٨٢ بالمئة (على اساس ان المجموع العالمي بما في ذلك مجموعة الدول الاشتراكية هو ٥٤٦،٣٦٤ مليون برميل) . والفرق كبير كما يبدو .

(٢) ان مصدر المعلومات في الجدول هو نفس المصدر الذي استند اليه التقرير الذي استقينا منه معلومات الجدول (١) فيما عدا للولايات المتحدة وكندا . اما الفرق بالنسبة للاحتياطي العالمي فهو بسبب الاختلاف في اساس الحساب للولايات المتحدة وكندا حيث شمل الجدول (١) تقديرات استخراج النفط من احتياطي الغاز الطبيعي في البلدين ولهذا فان الاحتياطي العالمي في الجدول (١) يزيد عنه في الجدول (٢) بنحو ٩،٣ مليون برميل .

(٣) الفروقات الكبرى بين تقديرات مجلة World Oil والمصدر المعتمد لهذا الجدول هي في : الجزائر ، السعودية ، الكويت ، ابو ظبي ، المنطقة المحايدة ، عمان ، ومصر .

المصدر : مجلة *Oil & Gas Journal* عدد ٢٨ ديسمبر ١٩٧٠ .

جدول (٣)

تطور انتاج النفط الخام في البلدان العربية ١٩٦٠ — ١٩٧١

(الانتاج السنوي مليون برميل)

البلد	١٩٦٠	١٩٦١	١٩٦٢	١٩٦٣	١٩٦٤	١٩٦٥	١٩٦٦	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٦٩	١٩٧٠	١٩٧١
ابو ظبي	—	—	٦،٠	١٨،٢	٦٨،٤	١٠٢،٩	١٣١،٢	١٣٩،٢	١٨٢،٦	٢١٩،٤	٢٥٣،٢	٣٤٠،٩
البحرين	١٦،٥	١٦،٤	١٦،٤	١٦،٥	١٨،٠	٢٠،٨	٢٢،٥	٢٥،٤	٢٧،٥	٢٧،٨	٢٨،٠	٢٧،٤
دبي	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٣،٨	٣٠،٧	٤٥،٦
العراق	٣٥٤،٦	٣٦٥،٤	٣٦٦،٦	٤٢٢،٣	٤٥٦،٨	٤٨٠،٠	٥٠٦،٦	٤٤٧،٩	٥٥٠،١	٥٥٢،٠	٥٦٠،٥	٦٢٢،٣
الكويت	٥٩٤،٣	٦٠٠،٢	٦٦٩،٣	٧٠٥،٥	٧٧٤،٨	٧٩١،٩	٨٣٠،٥	٨٣٦،٧	٨٨٦،١	٩٤٠،٠	٩٩٨،١	١،٠٦٧،٦
المنطقة المحايدة	٤٩،٨	٦٤،٤	٨٩،٢	١١٤،٢	١٢٢،٢	١٣١،٧	١٥٢،٤	١٥١،٥	١٥٦،٦	١٥٦،١	١٨٣،٤	١٩٨،٩
عمان	—	—	—	—	—	—	—	٢٣،٠	٨٧،٨	١٢١،٤	١٢١،٢	١٠٤،٨
قطر	٦٣،٩	٦٤،٧	٦٨،٠	٦٩،٩	٧٧،٦	٨٤،٣	١٠٥،٨	١١٨،٢	١٢٤،٤	١٢٩،٧	١٣٢،٤	١٥٦،٩
السعودية	٤٥٦،٤	٥٠٨،٢	٥٥٥،١	٥٩٤،٦	٦٢٨،١	٧٣٩،١	٨٧٣،٣	٩٤٨،١	١،٠٣٥،٨	١،١٧٣،٩	١،٣٨٦،٧	١،٦٦٤،٨
الجزائر	٦٧،٢	١٢١،٧	١٥٩،٣	١٨٣،٧	٢٠٣،٢	٢٠١،٣	٢٥٧،١	٣٠٢،٨	٣٣٤،٥	٣٥٠،١	٣٧٢،١	(١)٢٨٤،٧
مصر	٢٢،٦	٢٦،١	٣٣،٣	٢٨،٨	٤٤،٠	٤٤،٨	٤٢،٣	٢٩،٦	٥٢،٣	٨٨،٥	١١٩،٢	(١)١١١،٧
ليبيا	—	٦،٦	٦٧،٢	١٦٩،٢	٣١٥،٦	٤٤٥،٢	٥٤٩،٩	٦٣٦،٥	٩٥١،٦	١،١٣٤،٨	١،٢١١،٢	١،٠٠٦،٧
المغرب	٠،٠٧	٠،٦	١،٠	١،١	١،٠	٠،٨	٠،٨	٠،٧	٠،٨	٠،٤	٠،٣	—
تونس	—	—	—	—	—	—	٤،٥	١٧،٥	٢٣،٥	٢٨،١	٣٢،٢	(١)٣٢،٥
العالم العربي	١،٦٦٢،٦٠	١،٧٧٤،٤	٢،٠٢٠،٤	٢،٣٣٤،٠	٢،٧١٩،٧	٣،٠٤٢،٩	٣،٤٤٧،٩٠	٣،٦٨٧،١	٤،٤١٢،٦	٤،٩٣٦،٠	٥،٤٣١،١	٥،٦٤١،٨
العالم	٧،٦٥٦،٨	٨،١٤٦،٣	٨،٨٥٢،١	٩،٤٧٦،٨	١٠،٢٨٢،١	١١،٠١٠،٦	١١،٩٧٣،٢	١٢،٨٧٦،٣	١٤،٠٢٠،١	١٥،٣١٦،٦	١٦،٦٧٧،٨	...
نسبة العالم العربي للعالم ٪	٢١،٢	٢١،٨	٢٢،٩	٢٤،٦	٢٦،٥	٢٧،٦	٢٩،١	٢٨،٦	٣١،٥	٣٢،٢	٣٢،٦	...

ملاحظة : (١) تقديرات مجلة Middle East Economic Survey

المصدر : مجلة World Oil عدد ١٥ آب (اغسطس) ١٩٧١ و Middle East Economic Survey

جدول (٤)

صادرات الدول العربية من النفط الخام(١) ١٩٦٥ - ١٩٧٠

(١٠٠٠ برميل / يوم)

البلـد	١٩٦٥	١٩٦٦	١٩٦٧	١٩٦٨	١٩٦٩	١٩٧٠	النسـبة لصادرات العالم من النفط ٪ ١٩٧٠
السعودية	١،٨٥٨،٥	٢،٣٧٦،٦	٢،٤٤٩،٦	٢،٦٦٤،٤	٢،٧٩٤،٧	٣،٢٢٠،٦	١٥،٥
الكويت(٢)	٢،٠٣٥،٣	٢،١٨١،٨	٢،٢٠٢،٣	٢،٣٠٧،٠	٢،٤٤١،٧	٢،٤٩٩،٤	١٢،٠
العراق	١،٢٥٢،٩	١،٣١٩،٥	١،١٦٩،٥	١،٤٢٩،٢	١،٤٤٥،٤	١،٤٧١،٢	٧،١
أبو ظبي	٢٨٠،٢	٣٦١،٤	٣٨١،٠	٤٩٥،٤	٥٩٦،٥	٦٩٤،٨	٣،٣
قطر	٢٦٢،٧	٢٩١،٠	٣١٩،٧	٣٣٩،٠	٣٥٣،٠	٣٦٢،٨	١،٧
عمـان	—	—	٦٧،٤	٢٨٣،٣	٣٢٨،٠	(٣)٣٢٨،٠	١،٦
ليبيـا	١،٠٢١،٧	١،٤٩٩،٦	١،٧١٧،٣	٢،٥٨٢،٤	٣،٠٦٩،٥	٣،٣١٢،١	١٥،٩
الجزائر	٥٤٦،٣	٦٧٤،٧	٨٦٨،١	٨٦٧،١	٨٨٣،٠	(٣)٩٤٨،٠	٤،٦
مصر	٣٠،٤	٢٩،١	—	١٤،٣	١٩٤،٣	(٣)٢٦٢،٠	١،٣
تونس	—	١٣،٠	٢٣،٨	٤٥،٠	٦٠،٥	٧٠،٠	٠،٣
العالم العربي	٧،٤٤٣،٠	٨،٦٤٦،٧	٩،٠٧٨،٦	١١،٠٠٦،١	١٢،١٦٦،٦	١٣،١٦٨،٩	
العـالم	١٢،١٣٩،٠	١٣،٨١٦،١	١٥،٣٩٧،٨	١٧،٦٥٨،٨	٢٠،٦٣٩،٩	٢٠،٧٩٥،٠	
نسبة العالم العربي للعالم ٪	٦١،٣	٦٢،٦	٥٩،٠	٦٢،٣	٥٨،٩	٦٣،٣	٦٣،٣

ملاحظات : (١) بما فيه إعادة التصدير Reexports
(٢) باستثناء صادرات شركة Aminoil
(٣) تقديرات حسب نسبة الصادرات للانتاج في السنة السابقة .
(٤) لم تظهر دبي بين المصدرين المسجلين في مصدر المعلومات اعلاه لماذا اضيفت كانت صادرات ١٩٧٠ نحو ١٣٠،٣٠٠،٠٠٠ برميل يوميا .

المصدر : مجلة World Oil ، اعداد مختلفة .

جدول (٥)

عائدات النفط للبلدان العربية ١٩٦٠ — ١٩٧١

وتقديرات ١٩٧٢ — ١٩٧٥

(مليون دولار)

السنة	ابوظبي	قطر	السعودية	الكويت(٥)	العراق	ليبيا	الجزائر	عمان	دبي
١٩٦٠		٤٩،١	٣٣٣،٧	٤٤٤،٨	٢٣٩،٦				
١٩٦١		٤٨،٩	٣٣٧،٦	٤٦٧،٩	٢٣٨،٩				
١٩٦٢	١،٨	٥٠،٩	٤٠٩،٧	٤٨٤،٤	٢٣٩،٧	٣٩،٨			
١٩٦٣	٥،٨	٥٤،٤	(١)٦٠٧،٧	٥٣٣،٧	٢٧٧،٢	١٠٧،٨			
١٩٦٤	١١،١	٥٧،٥	٥٢٣،٢	٥٧٧،٤	٣١٧،٨	٢١٠،٦			
١٩٦٥	٣٠،٠	٦٢،٢	(٢)٦٦٢،٦	٦٠٥،١	٣٣١،١	٣٥١،١			
١٩٦٦	٨٩،٧	٨١،٦	(٣)٦٨٩،٧	٦٤٨،٨	٣٥٤،٨	٥٢٢،٨			
١٩٦٧	٩٩،٨	٩٦،٠	(٤)٩٠٩،١	٧٣٦،٧	٣٣١،٩	٦٢٥،٢	١٩٩،١		
١٩٦٨	١٦١،٠	١١٧،٤	٩٢٦،٨	٦٩٠،٢	(٦)٥١٢،٣	١،٠٠١،٨	٢٦١،٨		
١٩٦٩	٢٠٠،٣	١٢٣،٥	٩٤٩،٠	٧٨٢،٠	٥٠٣،٠	١،١٧٥،٢	٢٩٨،٨		
١٩٧٠	٢٤٠،٧	١٢٨،٥	١،٢١٠،٠	٨٣٣،٦	٥٢٨،٣	١،٢٩٥،٣	٣٢٥،٠		
١٩٧١	٤٢٠،٠	١٩٠،٠	١،٩٠٠،٠	١،٣٩٠،٠	٨٣٠،٠	١،٧٥٠،٠	٣٢٠،٠	١٣٠،٠	٥٠،٠
(٧)١٩٧٢	٥٤٣،٢	٢٢٥،٧	٢،٣١٦،٩	١،٥٧٧،٦	٩٢٧،٥	٢،٣٢١،٢	٣٤٧،٣	١٥٥،٤	٦٠،١
١٩٧٣	٦٨٠،٩	٢٥٩،٢	٢،٧١٨،٥	١،٧٢٣،٧	١،٠٠٠،٠	٢،٩٦٦،٧	٤٥٦،٠	١٨١،٠	٦٩،٣
١٩٧٤	٨٤٩،٩	٢٩٧،١	٣،١٨٣،١	١،٨٩٢،٤	١،٠٨٣،٣	٣،٧٨٣،٩	٥٣٦،٣	٢٠٨،٩	٨٠،٥
١٩٧٥	١،٠٦٧،٤	٣٤٢،٢	٣،٧٢٠،٠	٢،٠٧٣،٤	١،١٧١،٢	٤،٨١٧،٠	٦٢٩،٤	٢٤٢،٣	٩٣،٢

ملاحظات : (١) بما فيه دفعات خاصة من ارامكو بمبلغ ١٥٢ مليون دولار .

(٢) بما فيه ضريبة اضافية بمبلغ ٤٦ مليون دولار .

(٣) بما فيه ضريبة اضافية بمبلغ ٢٩،٤ مليون دولار .

(٤) بما فيه ضريبة اضافية بمبلغ ٢٣،٤٦ مليون دولار .

(٥) ابتداء من ١٩٦٠ تنتهي السنة في ٣١ آذار .

(٦) بما فيه مقبوضات اضافية تساوي ٥ سنت عن كل برميل للفترة حزيران — كانون اول ١٩٦٧.

(٧) احتسبت تقديرات عائدات ١٩٧٢ — ١٩٧٥ على النحو التالي :

أ — قدر معدل الزيادة السنوية في الانتاج لكل بلد على اساس معدل الزيادة السنوي الوسطي من ١٩٦٥ الى ١٩٧٠ كما ورد في *BP Statistical Review of the World Oil Industry,* 1970 ص ٨ — عدا عمان ودبي اللتين بدأ انتاجهما متأخرا حيث احتسبت الزيادة بمعدل وسطي هو ١٠،٧ ٪ وهو معدل المنطقة ككل اذا اخذنا الانتاج الفعلي في الفترة المبينة أي ١٩٦٥ — ١٩٧٠ .

ب — ضربت تقديرات الانتاج للسنوات ١٩٧٢ — ١٩٧٥ (الناجمة عن طريقة الحساب اعلاه) بالعائدات الوسطية للبرميل الواحد محسوبة كما يلي :

١٩٧٢ — عائدات البرميل لسنة ١٩٧١ مضافا اليها ٨،٥ ٪ .

١٩٧٣ — ١٩٧٥ — عائدات البرميل في ١٩٧٢ مضافا اليها ٤،٥ ٪ سنويا لكل سنة .

المصدر : OPEC Annual Statistical Bulletin ومصادر خاصة .

جدول (٦)

تطور العرض والطلب على النفط الخام في العالم ، وفي الشرق الاوسط وشمال افريقيا ١٩٦٠ ــ ١٩٧٠ وتقديرات ١٩٧٥ و١٩٨٠

(الف برميل في اليوم)

	العالم		الشرق الاوسط وافريقيا	الشرق الاوسط وشمال افريقيا	
السنة	الطلب	العرض	الطلب المحلي في المنطقة	العرض	نسبته الى العرض العالمي ٪
١٩٦٠	٢١،٩٩٣	٢٢،٠٨٢	١،١٠٩	٥،٤٦٩	٢٤،٨
١٩٦١	٢٣،٢٩٤	٢٣،٥٥٨	١،١٧١	٦،٠٢٠	٢٥،٦
١٩٦٢	٢٥،٣٢١	٢٥،٥٠٢	١،٢٢٠	٦،٨٥١	٢٦،٩
١٩٦٣	٢٧،١٨٠	٢٧،٤٠٩	١،٢٨٨	٧،٨٧٦	٢٨،٧
١٩٦٤	٢٩،٣٣٢	٢٩،٦٤٢	١،٣٧٧	٩،١٥٥	٣٠،٩
١٩٦٥	٣١،٦٩٧	٣١،٧٩٢	١،٤٨٣	٨،٧٩٩	٢٧،٧
١٩٦٦	٣٤،١٠٨	٣٤،٥٠٢	١،٥٥٩	١١،٧٠٣	٣٣،٩
١٩٦٧	٣٦،٥٢١	٣٧،٠٣٥	١،٥٧٨	١٢،٧٧٨	٣٤،٥
١٩٦٨	٣٩،٢٢١	٤٠،٤٦٣	١،٦٨٥	١٤،٩٨٩	٣٧،٠
١٩٦٩	٤٣،٢٣٥	٤٥،٢٨٧	١،٨٢٩	١٦،٤١٣	٣٦،٢
١٩٧٠	٤٦،٨٨٥	٤٧،٧٤٧	١،٩٨٢	١٨،٩٨٠	٣٩،٨
١٩٧٥	٦٣،٧٦٤	٦٤،٩٣٦	٣،١٧١	٣٠،٣٦٨	٤٥،٨
١٩٨٠	٨٢،٨٩٣	٨٤،٤١٦	٥،٠٧٣	٤٨،٥٨٩	٥٧،٦

ملاحظات : (١) بما فيه النفط الخام ، والغازولين الطبيعي ، الخ.

(٢) لعدم توفر بيانات منفصلة احتسب عرض شمالي افريقيا بحسم انتاج افريقيا الوسطى والجنوبية من العرض لمجمل افريقيا .

(٣) معدل الزيادة السنوي العالمي للعرض والطلب بين ١٩٦٥ و١٩٧٠ هو ٨ ٪ في المتوسط .

(٤) تقديرات ١٩٧٥ للعالم احتسبت بمعدل زيادة سنوي قدره ٦ ٪ عن سنة ١٩٧٠ في المتوسط.

(٥) تقديرات ١٩٨٠ للعالم احتسبت بمعدل زيادة سنوي قدره ٥ ٪ عن سنة ١٩٧٥ في المتوسط.

(٦) التقديرات للشرق الاوسط وافريقيا احتسبت على اساس معدل زيادة سنوي للعرض والطلب قدره ١٠ ٪ عن سنة ١٩٧٠ في المتوسط .

المصدر : World Oil اعداد مختلفة .

جدول (٧)

تقديرات انتاج النفط الخام في البلدان العربية ١٩٧٢ ــ ١٩٧٥

(بالالف برميل في السنة)

البلد	معدل الزيادة السنوي ٪	الانتاج الفعلي	تقديرات			
	١٩٦٥ــ٧٠	١٩٧١	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥
ابو ظبي	١٩٫٨	٣٤٠،٩١٠	٤١٨،٤١٠	٤٨٩،٢٧٥	٥٨٦،١٥٢	٧٠٢،٢١٠
البحرين	٥٫٨	٢٧،٣٧٥	٢٨،٩٦٣	٣٠،٦٤٢	٣٢،٤٢٠	٣٤،٣٠٠
العراق	٣٫٥	٦٢٢،٣٢٥	٦٤٤،١٠٦	٦٦٦،٦٥٠	٦٨٩،٩٨٣	٧١٤،١٣٢
الكويت	٤٫٨	١،٠٦٧،٦٢٥	١،١١٨،٨٧١	١،١٧٢،٥٧٧	١،٢٢٨،٨٦٠	١،٢٨٧،٨٤٥
المنطقة المحايدة	٦٫٣	١٩٨،٩٢٥	٢١١،٤٥٧	٢٢٤،٧٧٩	٢٣٨،٩٤٠	٢٥٣،٩٩٣
قطر	٩٫٨	١٥٦،٩٥٠	١٧٢،٣٣١	١٨٩،٢٢٠	٢٠٧،٧٦٣	٢٢٨،١٢٤
السعودية	١٢٫٠	١،٦٤١،٧٧٠	١،٨٣٨،٧٨٢	٢،٠٥٩،٤٣٦	٢،٣٠٦،٥٦٩	٢،٥٨٣،٣٥٧
الجزائر	١٢٫٣	٢٨٤،٧٠٠	٣١٩،٧١٨	٣٥٩،٠٤٣	٤٠٣،٢٠٥	٤٥٢،٨٠٠
ليبيا	٢٢٫٠	١،٠٠٦،٦٧٠	١،٢٢٨،١٣٧	١،٤٩٨،٣٢٨	١،٨٢٧،٩٦٠	٢،٢٣٠،١١٠
دبي	—	٤٥،٦٢٥	٥٠،٥٠٧	٥٥،٩١١	٦١،٨٩٣	٦٨،٥١٦
عمان	—	١٠٤،٧٥٥	١١٥،٩٦٤	١٢٨،٢٧٢	١٤٢،١٠٨	١٥٧،٣١٣

ملاحظات : (١) حسبت الزيادة المقدرة في الانتاج للسنوات ١٩٧٢ــ١٩٧٥ على اساس معدل الزيادة السنوي الوسطي الفعلي للسنوات ١٩٦٥ ــ ١٩٧٠ (عدا عمان ودبي اللتين باشرتا الانتاج متأخرتين) . وقد ظهر بنتيجة استخدام هذا الاسلوب ان المعدل الوسطي للسنوات ١٩٦٥ ــ ١٩٧٠ لجميع البلدان (عدا عمان ودبي) كان ١٠٫٧ ٪ . وقد اعتمد هذا المعدل لتقديرات التزايد في الانتاج في عمان ودبي .

(٢) لم تحسب معدل الزيادة السنوي المئوي لعمان لانه يشوه الصورة بسبب قفزة الانتاج المفاجئة بعد المباشرة به .

(٣) نسب الزيادة للفترة ١٩٦٥ ــ ١٩٧٠ ماخوذة من

BP Statistical Review of the World Oil Industry 1970 . ص ٨

جدول (٨)

تقديرات صادرات العالم العربي من البترول ١٩٧٥ ، ١٩٨٠

(١٠٠٠ برميل في اليوم)

المنطقة	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠
العالم العربي	١٣،٣٠٠،٠	١٩،٩٥٠،٠	٢٩،٩٢٥،٠
العالم	٢٠،٧٩٥،٠	٢٩،١١٣،٠	٤٠،٧٥٨،٢
نسبة العالم العربي للعالم ٪	٦٣،٩	٦٨،٥	٧٣،٤

ملاحظات : (١) العالم العربي : السعودية ، الكويت ، العراق ، ابو ظبي ، قطر ، عمان ، دبي ، ليبيا ، الجزائر ، مصر ، تونس .

(٢) ١٩٧٠ : الصادرات الفعلية .

(٣) معدل الزيادة السنوي التقديري للعالم العربي ١٠ ٪ (فائدة بسيطة) .

(٤) معدل الزيادة السنوي التقديري للعالم ٨ ٪ (فائدة بسيطة) .

جدول (٩)

استهلاك المصادر الاولية للطاقة في العالم الغربي ١٩٧٠

(الكميات بما يعادل ملايين الاطنان المترية من النفط)

المنطقة والبلد	النفط		الغاز الطبيعي		الوقود الصلبة		الطاقة المائية		الطاقة الذرية		المجموع		
	مليون طن	نسبته من المجموع٪	مليون طن	نسبته من المجموع٪	مليون طن	نسبته من المجموع٪	مليون طن	نسبته من المجموع٪	مليون طن	نسبته من المجموع٪	مليون طن	نسبته من المجموع٪	نسبته من مجموع الاستهلاك٪
الولايات المتحدة	٦٦٦٫٦	٤٤٫٦	٥١٣٫٠	٣٢٫٨	٣٢٩٫٨	٢١٫١	٢٢٫٠	١٫٤	٢٫٠	٠٫١	١٬٥٦٣٫٤	١٠٠٫٠	٥٥
اوروبا الغربية	٦٢٧٫٨	٦١٫١	٦٣٫٢	٦٫١	٣٠١٫٤	٢٩٫٤	٣٠٫٤	٣٫٠	٣٫٧	٠٫٤	١٬٠٢٦٫٥	١٠٠٫٠	٣٦
منها													
انكلترا	١٠٢٫٥	٤٩٫٥	١٠٫٩	٥٫٣	٩١٫٤	٤٤٫١	٠٫٣	٠٫١	٢٫١	١٫٠	٢٠٧٫٢	١٠٠٫٠	٧
فرنسا	٩٤٫٦	٦٥٫٠	٩٫٠	٦٫٢	٣٧٫٢	٢٥٫٥	٤٫٤	٣٫٠	٠٫٤	٠٫٣	١٤٥٫٦	١٠٠٫٠	٥
المانيا الغربية	١٣٠٫٧	٥٦٫٠	١١٫٨	٥٫١	٨٩٫٠	٣٨٫٢	١٫٢	٠٫٥	٠٫٥	٠٫٢	٢٣٣٫٢	١٠٠٫٠	٨
ايطاليا	٨٦٫٦	٧٧٫٣	٩٫٩	٨٫٨	١١٫١	٩٫٩	٤٫٠	٣٫٦	٠٫٤	٠٫٤	١١٢٫٠	١٠٠٫٠	٤
اليابان	٢٠٠٫٢	٧٤٫١	٢٫٧	١٫٠	٥٩٫٩	٢٢٫٢	٧٫١	٢٫٦	٠٫٢	٠٫١	٢٧٠٫١	١٠٠٫٠	٩
مجموع اوروبا الغربية والولايات المتحدة واليابان	١٬٥٢٤٫٦	٥٣٫٣	٥٧٨٫٩	٢٠٫٢	٦٩١٫١	٢٤٫٢	٥٩٫٥	٢٫١	٥٫٩	٠٫٢	٢٬٨٦٠٫٠	١٠٠٫٠	١٠٠

ملاحظة : ان استهلاك الطاقة في هذا الجدول محسوب على اساس ما يعادل كلا منها بالاطنان المترية من « النفط » .

المصدر : BP Statistical Review of the World Oil Industry 1970 ، ص ١٦ .

جدول (١٠)

خلاصة للمصالح النفطية الغربية في البلاد العربية

(بالنسبة المئوية)

	الكويت	السعودية	العراق	ابوظبي	المنطقة المحايدة	قطر	عمان	دبي	البحرين	ليبيا	الجزائر	مجموع البلاد العربية
الولايات المتحدة	٥٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	٢٣٫٧٥	١٤٫٧٠	٢٣٫٨٠	١٢٫٣٣	—	—	١٠٠٫٠٠	٨٥٫٩٠	—	٦١٫٨٠
بريطانيا	٥٠٫٠٠	—	٢٣٫٧٥	٤٠٫٣٠	—	١٢٫٣٣	—	٦٦٫٦٦	—	١٠٫٨٠	—	١٧٫٥٠
فرنسا	—	—	٢٣٫٧٥	٢٣٫٧٥	—	١٢٫٣٣	—	٣٣٫٣٣	—	٠٫٣٠	٢٠٫٠٠	٥٫٩٠
هولندا	—	—	٢٣٫٧٥	١٤٫٦٠	—	٦٠٫٦٤	—	—	—	—	—	٦٫٧٠
اليابان	—	—	—	—	٦٦٫٢٠	—	٨٥٫٠٠	—	—	—	—	٢٫٣٠
المانيا الغربية	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٢٫٧٠	—	٠٫٦٠
اسبانيا	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٠٫٣٠	—	—
غلبنكيان	—	—	٥٫٠٠	٣١٫٠٠	—	٢٫٦١	١٥٫٠٠	—	—	—	—	١٫١٠
المشاركة الوطنية	—	—	—	—	—	—	—	—	—	٠٫١٠	٨٠٫٠٠	٤٫٠٠
المجموع	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠	١٠٠٫٠٠

ملاحظات : فيما عدا ليبيا احتسبت النسب اعلاه على اساس المشاركة النسبية للبلاد الاجنبية في الشركات المنتجة كما ورد في المصدر (١) ، موزونة بانتاج هذه الشركات لعام ١٩٧١ كما وردت في المصدر (٢) و(٤) .
بالنسبة لليبيا : نفس الطريقة اعلاه ولكن باستعمال اوزان مختلفة هي انتاج الشركات في العام ١٩٧٠ كما وردت في المصدر (٣) .
هناك مشاركة لا تذكر لبعض الشركات الاميركية في حصة فرنسا من البترول الجزائري .

المصادر :

(١) *Middle East-Africa Oil*, Statistical Summary, Aug. 1970

(٢) *Middle East Economic Survey (MEES)*, March 3, 1972

(٣) *MEES*, October 15, 1971

(٤) *The Middle East Research and Publishing Centre*

القوى السياسية الفرنسية والمسألة الفلسطينية

داود تلحمي

سنقوم في هذا المقال ، باستعراض مواقف القوى المؤثرة في المجتمع الفرنسي تجاه « مشكلة الشرق الاوسط » . وتسهيلا لهذه المهمة ، سنعمد الى ترتيب هذه القوى على الاسس الرسمية التي تتبعها اجهزة الاعلام دون نقاش تناسب هذا الترتيب مع مواقع هذه القوى . سنلجأ اذا الى استعمال التقسيمات التالية :

١ ـ قوى اليمين واقصى اليمين : ويقصد بها عادة القوى الشوفينية المتخلفة والمتطلعة الى الماضي ، او القريبة من المفاهيم السياسية الفاشية . وهذه القوى تقليديا ضعيفة في فرنسا وتأثيرها الذاتي على المجتمع الفرنسي محدود جدا . وللتبسيط ولاعطاء فكرة أولية عن واقعها ، سنعطيها نسبة ٥ بالمئة من القوة التمثيلية (لاسباب سنوضحها فيما بعد) .

٢ ـ الوسط : يستعمل هذا اللفظ ليشمل قطاعا غير واضح الحدود يمثل بقايا الديمقراطية المسيحية والتيارات الرأسمالية الليبرالية التقليدية . وللاسباب نفسها أعلاه ، سنعطيها نسبة ٢٠ بالمئة .

٣ ـ الديغوليون : او الاغلبية الحاكمة منذ ١٩٥٨ وتشكل تجمعا غير متجانس يضم مجموعات من آفاق مختلفة بعض الشيء ، التفت حول ديغول لما يمثله من تجديد للمفاهيم القومية الفرنسية ، وبشكل سطحي نستطيع القول ان هذا التيار يمثل الرأسمالية « الوطنية » او المحلية الطامحة الى استقلال نسبي عن الرأسمالية العالمية (وبالذات الامريكية) . وسنعطي هذا التيار نسبة تمثيلية ٤٠ بالمئة .

٤ ـ اليسار المعتدل : ويشمل ما يسمى بالاشتراكيين الديموقراطيين ، دعاة الاشتراكية « الحرة » اي الاصلاحية ، وبشكل رئيسي بقايا الاممية الثانية . وسنعطي هذا اليسار نسبة تقريبية ١٠ بالمئة .

٥ ـ اقصى اليسار : ويضم جميع التنظيمات والقوى التي تتبنى الماركسية (والنظريات الجذرية القريبة منها) في اجتهاداتها ومدارسها المختلفة ، ويشكل الحزب الشيوعي القوة الرئيسية بينها . ويتبقى لها نسبة تمثيلية تقريبية ٢٥ بالمئة . ونكرر ان هذه النسب ليست الا لاعطاء فكرة اجمالية مبسطة ولا تشكل في اي حال ميزانا علميا للتأثير الحقيقي لكل هذه القوى . كما نؤكد على ان استعمال ألفاظ اليمين واليسار هنا هو اتباع لتسميات متعارف عليها ولا تغطي بالضرورة محتوى سياسيا واضحا (فمفهوم اليمين قد يمتد ليشمل اجزاء كبيرة من المجموعات الاخرى) .

اقصى اليمين

كما ذكرنا اعلاه ، لا يشكل هذا التيار بقوته الذاتية عنصرا ذا تأثير واسع في الحياة السياسية الفرنسية ، على الرغم من ان بعض المفاهيم التي تشكل ايديولوجيته العامة، منتشرة في أوساط عدة وعلى نطاق واسع . فالعنصرية (تجاه العرب بشكل خاص)

والتعصب القومي المتطرف (الشوفينية) والعداء للاجنبي لها امتدادات في العائلات السياسية المختلفة . الا أن تجسيد هذه المواقف في تنظيمات سياسية كان يجد دائما في فرنسا صدى اقل منه في الدول الاوروبية المجاورة (المانيا وايطاليا مثلا حيث تعود النازية مجسدة في الحزب القومي الديموقراطي والفاشية في الحركة الاجتماعية الايطالية) .

واليوم وبعد فشل انصار استمرار الاستعمار في الجزائر في بناء قاعدة واسعة خارج مجموعات المستوطنين العائدين الى فرنسا ، لا يشكل اي تنظيم من تنظيمات هذا التيار حركة استقطاب هامة . وهكذا تلد التنظيمات وتموت أو تتكاثر دون ان تخرج التيار من قوقعته المتضائلة . واذا اتخذنا النسب الانتخابية دليلا ولو تقريبيا للاحظنا هـــذا التدهور . (لا بد من الاشارة الى ان كافة النسب التي نشير اليها هي نسب المعبرين عن مواقفهم السياسية ، وتستثني اذا الممتنعين عن التصويت الذين يشكلون عـــادة ٢٠ بالمئة من مجموع الناخبين وغالبيتهم من عديمي الاهتمام بالقضايا السياسية ، وقلة منهم من المقاطعين المبدئيين) .
ففي انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٥ فاز ممثل اليمين المتطرف تكسييـــه فينيانكور بنسبة تقارب ٥ بالمئة من الاصوات . وفي الانتخابات النيابية الاخيرة عـــام ١٩٦٨ حصــــل اليمين الرسمي على اقل من ٠،٣ بالمئة . وفي مدينة باريس ، في الانتخابات البلدية عام ١٩٧١ فازت حركة (النظام الجديد) الاكثر تمثيلا لليمين المتطرف حاليا بنسبة تقارب ٢،٦ بالمئة . والتيار بذاته ليس ممثلا الآن في اي من الاجهزة التمثيلية (البرلمان ، مجلس الشيوخ) ، ولن نقوم اذا بالاهتمام بهذا التيار بشكل مفصل ، متغاضين عن تعداد تنظيماته وانما سنعمل على استخلاص مواقفه بشكل عام تجـــاه المســـألة الفلسطينية . وفي هذا الصدد ، يخرج البحاثة جان وليام لابيير في دراسته عن « الاعلام عن دولة اسرائيل في كبريات الصحف الفرنسية خلال عام ١٩٥٨ » باستنتاج يبدو صالحا حتى اليوم ، وهو ان اليمين بمجمله وبشكل واضح مؤيد لاسرائيل . ولا تشـــكل التيارات العنصرية التي يغلب عداؤها لليهود على كراهيتها للعرب الا الشواذ عـــن القاعدة .

ومنطلقات هذا التيار في تأييد اسرائيل واجهار عدائها للعرب واضحة وفي صلب منطقه . فالعنصرية والتعصب العرقي اللذان يميزان هذا التيار يمارسان بشكل خاص تجاه العرب لاسباب تاريخية واهمها هزيمة الاستعمار الفرنسي في الجزائر ووجود مئات الآلاف من العمال المغاربة في فرنسا نفسها (كما وضحنا ذلك في مقال سابق) . ولا تقف العنصرية ضد اليهود (اللاسامية) عائقا دون ترسيخ هذا العداء ، اذ ان منطق الصهيونية الذي يدعو الى تجميع اليهود في بلد واحد يتفق مع المنطق اللاسامي الداعي الى اخراجهم من دول نشئتهم . هذا الى جانب اعتبار الكثيرين من اليمينيين لاسرائيل كقاعدة غربية متقدمة تدافع عن وجود الغرب وحضارته امام الشرق المتمرد . وهكذا يفسر موقف لا سامي شهير وهو كزافييه فالا المفوض السابق للشؤون اليهودية اثناء الاحتـــلال النازي ، اذ صدر جريدته ابان حرب ١٩٦٧ بعنوان : « لماذا اصبحت صهيونيا ؟ » .

ولم تفت اية مناسبة منذ « حرب الايام الستة » ، الا وعبر فيها رؤوس اليمين الفرنسي عن موقفهم هذا . فتكسييه فينيانكور ، زعيم « التحالف الجمهوري للحريات والتقدم » ، وممثل اليمين المتطرف في انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٥ اعلن اكثر من مرة عن تأييد حزبه المطلق لاسرائيل وعدائه للعرب ولسياسة الحكم الفرنسي بالنسبة لحظر شحن الاسلحة (وقائع مؤتمر الحزب في نوفمبر ١٩٦٩) . وجاك سوستيل ، المندوب السابق في الجزائر واحد الد اعداء استقلالها ، والذي شكل تجمعا يضم غالبية من المستوطنين سابقا في شمال افريقيا ، كرس نفسه على ما يبدو في السنوات الاخيرة للدفاع عن اسرائيل في كتب ومقالات ومحاضرات عدة . كما قام بزيارة اسرائيل واستقبله مناحيم

بيجن بحرارة رفاقية ، (مجلة « الارض المستعادة » الصهيونية تتكلم في معظم اعدادها عن خدمات سوستيل . مثال ذلك عدد ١٩٦٩/١٢/١٥) . ووقف جورج بيدو رئيس الوزراء السابق واحد قادة ارهابيي الجيش السري اثناء حرب التحرير الجزائرية وزعيم حركة العدل والحرية مواقف مشابهة .

والامثلة عديدة والمواقف متطابقة . وباستثناء بعض المجموعات الضئيلة التي تغلب عنصريتها ضد اليهود على عدائهـا للعرب (كمجموعتي بيير سيدوس و « الدفـاع عن الغرب ») ، وبعض المجموعات الاخرى التي يتساوى عداؤها للطرفين فامتنعت عن اتخاذ موقف الى جانب احدهما ، يقف مجمل اليمين المتطرف اذا الى جانب اسرائيل.

الوسـط

تستعمل بعض التنظيمات السياسية هذه التسمية المطاطة لتؤكد على اختلافها مع اليمين الشوفيني من جهة واليسار الاشتراكي من جهة أخرى . وبشكل عام ، تمثل التنظيمات الوسطية الحالية تيارا رأسماليا ليبراليا غربي النزعة يتشابه الى حد بعيد في موقعه ومواقفه مع الديموقراطية المسيحية (في المانيا وايطاليا مثلا) . ومنذ بروز الظاهرة الديغولية التي جمعت جزءا كبيرا من « القوميين » والليبراليين ، أصبح هذا التيار قوة ضعيفة نسبياً وهامشي الدور في حوار سياسي كثيرا ما ظهر كمواجهة بين الديغوليين والحزب الشيوعي (القوة اليسارية الكبرى في فرنسا). الا أن السياسة الديغولية المتميزة بالرغبة في الاستقلال نسبيا عن الدول الكبرى وبالذات عن امريكا ، القت على هذا التيار مهمة الدفاع عن الاحلاف الكلاسيكية (وبالذات عن الحلف الاطلسي) والاقتصاد الحـر .

ومنذ ابتعاد ديغول عن الحكم انقسم الوسط الى جزئين : اولهما دخل في تحالف مع الحكم القائم ، وثانيهما حافظ على موقفه المعارض لنظام بومبيدو . والتيار الثاني يتمثل بشكل رئيسي في حزب « الوسط الديموقراطي » الذي يرأسه جان لوكانويه مرشح الوسط لانتخابات الرئاسة في عام ١٩٦٥ . اما الاول فنواته حزب « الوسط ديموقراطية وتقدم » الذي يقوده وزير الثقافة الحالي جاك دوهاميل . وهناك تنظيمات وسطيـة اخرى ، ممثلة في مجلس الشيوخ (كاتحاد الوسط لديموقراطيي التقدم ، والوسـط الجمهوري للعمل الريفي والاجتماعي) ، الا ان تاثيرها السياسي محدود او يعبر خلال التنظيمين المذكورين اعلاه .

ولتحديد قوة هذا التيار التي تتراوح نظرا لعدم وضوح حدوده ، سنعود لبعض النسب الانتخابية . ففي انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٥ ، فاز لوكانويه بنسبة تقارب الـ ١٧ بالمئة من اصوات الناخبين ، وفي الانتخابات النيابية الاخيرة ، حاز تجمع الوسط تحت اسم « التقدم والديموقراطية الحديثة » على نسبة اكثر بقليل من ١٠ بالمئة بينما فاز الان بوهير في انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٩ بنسبة ٢٣،٦ بالمئة . فالنسبة اذا متغيرة حسب الظروف الا انها ، كما ذكرنا اعلاه ، تدور حول ٢٠ بالمئة .

بشكل عام ، يقف هذا التيار الى جانب اسرائيل باجماع يفسره الموقع الاقتصادي والايديولوجي لقادته .

فلوكانويه ، زعيم « الوسط الديموقراطي » مثلا لا يتخلف عن المشاركة في اية تظاهرة صهيونية مهمة ، وكذلك بوهير رئيس مجلس الشيوخ الحالي . اما دوهاميل وتنظيمه ، فمشاركتهم في الحكم الحالي تمنعهم من التعبير بهذا الشكل الصارخ عن عواطفهم ، الا انهم لا يخفون عواطفهم في مناسبات كثيرة .

لوكانويه ، استحق من وزير النقل الاسرائيلي شمعون بيريس لقب « الصديق المتفاني

لاسرائيل » (جريدة « اخبار اسرائيل » ١٩٦٩/١٠/٢٤) . وهذا اللقب حرص لوكانويه على استحقاقه في كل المناسبات . ففي تظاهرة ضخمة ضد صفقة الاسلحة الفرنسية لليبيا يوم ١٩٧٠/١/٢١ ، احتج بشدة على سياسة الحكومة الفرنسية واتهمها بتعريض وجود اسرائيل للخطر (لوموند ١٩٧٠/١/٢٣) ، وفي رسالة لوزير الدفاع ، وصف لوكانويه بصفته عضو مجلس الشيوخ ، حظر شحن الاسلحة لاسرائيل بانها « سياسة غير نظيفة وخادعة » وطالب برفعه واعادة العلاقات الطيبة السابقة مع اسرائيل (لوموند ١٩٦٩/١٢/٣١) ، وتبنى حزبه رسميا هذا الموقف في مؤتمره الذي انعقد في مطلع ١٩٧٠ .

اما بوهير ، خصم بومبيدو في آخر انتخابات للرئاسة ، فلا يقل حماسة في الدفاع عن اسرائيل . ففي ندوة نظمتها المجموعة الصهيونية اهافات — زيون صرح بأن « مصير اسرائيل واوروبا مرتبطان » . وكان قد عرض في الانتخابات المذكورة على الجنرال كونيغ ، رئيس لجنة التضامن مع اسرائيل ، ان يرشح نفسه بدلا منه ، الا ان الاخير اعتذر . وفي ندوة اخرى ، القى بوهير محاضرة تحت عنوان « شكل آخر من العنصرية، العداء للصهيونية » قال فيها : « قبل قرار التقسيم ، كان العداء للصهيونية يتمثل في معارضة خلق الدولة اليهودية، وهو اليوم يتمثل في معارضة سياسة دولة اسرائيل . . . وفي كلتا الحالتين يتضمن هذا الموقف اسس اللاسامية التقليدية»(لوموند ١٩٧٠/٤/٢٩). ومثل حليفه لوكانويه ، لا يتخلف بوهير في التعبير عن تأييده المطلق لاسرائيل في كل مناسبة ومشاركته في المهرجانات المنظمة من قبل انصارها (جريدة «الارض المستعادة» الصهيونية مثلا ، بتاريخ ١٩٦٩/١٢/١٥) .

اما جاك دوهاميل ، قائد الوسط المتحالف مع الحكم الحالي ووزير الثقافة فقد قال عنه شمعون بيريس بعد مقابلة معه يوم ١٩٦٩/٩/٣٠ (« اخبار اسرائيل» المصدر السابق) ان « من دواعي السرور ان يجد المرء ان الاصدقاء القدامى ما زالوا على صداقتهم لاسرائيل حتى بعد توصلهم للحكم » . وفي مقال آخر في احدى الجرائد الاقليمية (لوجورا) حاول دوهاميل تبرير الصفقة الليبية على اساس انها « سياسة الشر الاقل على اسرائيل » لانها تمنع تسرب الاسلحة السوفياتية «بشكل اوسع وبدون اشراف» . واكد في المقال نفسه على ان السياسة الفرنسية تغيرت بمجيء بومبيدو الذي « عاد عن الحظر الكلي الى حظر جزئي وتخلى عن شرط الانسحاب المسبق للقوات الاسرائيلية في مقترحات السلام الفرنسية » . فبرأي دوهاميل اذا ، ان الذي غير موقفه تجاه اسرائيل ليس هو وانما بومبيدو .

وهذه المواقف التي يكررها ممثلو التيار الوسطي في كل مناسبة هي جزء بالطبع من الرؤية السياسة الشاملة لهذا التيار (الذي يتخذ مواقف عدائية من حركات التحرر كافة وفيتنام بالذات) وتجعل منه حليفا طبيعيا ودائما لمعسكر العدو .

الديغوليون

نظرا لعدم وضوح الخط السياسي الديغولي (على الرغم من وجود بعض المواقف المميزة له) فان هذه التسمية غير دقيقة وتشمل مجموعات ذات آفاق سياسية واجتماعية مختلفة . وان كان الالتفاف حول ديغول هو القاسم المشترك لها في اثناء حياته ، فهي اليوم لا تشكل كتلة متجانسة متراصة ، والتناقضات التي كانت مغلفة في الماضي بدأت منذ استلام بومبيدو للحكم بالظهور على السطح .

وقد شملنا تحت هذا العنوان عائلات ثلاث : الاولى : هي « التجمع الوطني للجمهوريين المستقلين » الذي يتزعمه وزير الاقتصاد الحالي فاليري جيسكار دستان . ونعته بالديغولية يعود الى تحالفه خلال فترة مع ديغول ، الا ان هذه الصفة اصبحت اليوم

غير صحيحة لا سيما وان التنظيم ابتعد عن ديغول قبل فترة من استقالته ، وهو اقرب سياسيا الى الوسط الذي تحدثنا عنه . الثانية : هي مجموعات « اليسار الديغولي » وهي تنقسم اليوم الى كتلتين ، احداهما في الحكم والثانية في المعارضة (باعتبار ان بومبيدو برأيها تخلى عن سياسة ديغول) . والثالثة : وهي الاهم هي « اتحاد الديموقراطيين من أجل الجمهورية » وهو الحزب الرئيسي الحاكم الذي يتزعمه رئيس الجمهورية نفسه . وسنبدأ باستعراض مواقفه .

١ ــ اتحاد الديموقراطيين من اجل الجمهورية : اتخذ الحزب الديغولي الرئيسي هذه التسمية على أعقاب انتفاضة ايار ١٩٦٨ ، وكان حتى ذلك الحين يحمل اسم « اتحاد الجمهورية الجديدة » الذي شكل جهاز الحكم الديغولي بعد عودة ديغول للحكم في ايار ١٩٥٨ . وقوة الحزب لم تنفك في الازدياد منذ ذلك التاريخ ، حين كانت اضعف من الحزب الشيوعي ، فاصبحت بعد التقاء كل التيارات التي ارهبها احتمال التطور الثوري لحركة ١٩٦٨ ، تشكل قوة انتخابية تزيد على ضعف قوة الشيوعيين (٤٤ بالمئة من المقترعين تقريبا) . الا أن هذا اللقاء معرض للتفسخ (بعد انسحاب عدد من الديغوليين القدماء اثر استقالة زعيمهم) ، وبوادر التقلص بادية ، كما اظهر ذلك استفتاء نيسان ١٩٧٢ حول دخول بريطانيا للسوق المشتركة .

وبحكم تنوع الانتماءات السابقة والمواقع (رغم غلبة طابع الراسمالية القومية) لا يقف الحزب من القضايا العالمية وقضية فلسطين بالذات موقفا موحدا حقيقة . فالموقف المعروف لديغول ، والذي بدات بوادره بالظهور قبل حرب حزيران وتبلورت بشكل خاص في مؤتمره الصحفي الشهير في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، حين اعاد الى الاذهان تاريخ الاستيطان الصهيوني في فلسطين ومعارضة السكان المحليين له ووصف اسرائيل « بالعسكرية والتوسعية » واليهود على حد تعبيره بانهم « شعب نخبة ، واثق من نفسه ومتسلط » ، هذا الموقف لا يعكس اطلاقا شعور الاغلبية الديغولية وعواطفها ، والتي اضطرت رغما عنها الى الالتزام به ، وأحيانا لم تلتزم .

وقد وضح ديغول فيما بعد موقفه في رسالة رد بها على بن غوريون بتاريخ ١٢/٦/ ١٩٦٧ ، قال فيها : « يبدو لي ان انسحاب القوات الاسرائيلية ، سيؤدي الى حل يضمن الاعتراف بدولتكم من قبل جيرانها ، كما يكفل حدودا آمنة من كلا الجانبين ــ تحددها وساطة عالمية ــ ، ويحقق مصيرا كريما وعادلا للاجئين والاقليات ، وحرية الملاحة للجميع في خليج العقبة وقناة السويس . ان فرنسا مستعدة لتحقيق حل كهذا ، في اطار الامم المتحدة ، بالمشاركة بشكل مباشر في تطبيقه ليس فقط على المستوى السياسي وانما ايضا على ساحة المعركة نفسها » . [لوموند ١٠/١/١٩٦٨] .

وبعد مجيء بومبيدو الى الحكم ، كرر مرارا التزامه بمواقف سلفه . الا ان بعض بوادر التساهل تجاه اسرائيل ظهرت ، وقد يفسرها جزئيا ــ الى جانب اختلاف الرؤى السياسية بين الشخصيتين ــ دخول عناصر جديدة في التحالف الحاكم متعاطفة جميعها كلية مع الجانب الاسرائيلي (وهذا بالطبع جزء من تطور شامل انعكس على مجمل السياسة الداخلية ــ والاقتصادية خاصة ــ والعالمية) . واكد هذا التطور وزير الخارجية موريس شومان في لقاء له مع المكتب السياسي للمجموعة البرلمانية للحزب الحاكم حين قال : « اتبعنا بعد ذلك سياسة النوايا الحسنة ، فاعلنا عن الحظر الجزئي، وعملنا لصالح التعاون بين اسرائيل والمجموعة الاقتصادية الاوروبية في بروكسل ، كما اقترحنا تعويض اسرائيل عن المبالغ التي دفعتها مقابل شراء الميراج » [لوموند ١٤/١/ ٧٠] . ويروي شمعون بيريس في جريدة يديعوت أحرونوت انه سمع كلاما من هذا النوع حول العلاقة بالسوق المشتركة والعودة الى الحظر الجزئي من وزيرين فرنسيين

اثناء رحلته في خريف ١٩٦٩ [نقلا عن « اخبار اسرائيل » ١٩٦٩/١٠/٢٤] .

الا أن هذا التحول الجزئي لم يغير الموقف الفرنسي في الشرق الاوسط بشكل جوهري . ذلك ان الاسباب الرئيسية التي دعت الى اتخاذ هذا الموقف ما زالت قائمة. (يلخصها بول بالتا في عدد أيار ١٩٧٠ من مجلة «الدفاع الوطني» شبه الرسمية ، بمقارنة الميزان التجاري الفرنسي مع اسرائيل ومع مجمل الدول العربية . ويظهر هذا الميزان ان الصادرات الفرنسية للدول العربية عام ١٩٦٦ (٤٥٠٣ ملايين فرنك) اقل من نصف الواردات (٩٩٨٠ مليون فرنك) التي يشكل البترول عنصرها الرئيسي. في المصدر نفسه اعلاه ، نقل شمعون بيريس عن « أحدى الشخصيات الفرنسية » قولها « بأن فرنسا يجب ان تأخذ بعين الاعتبار بترول الشرق الاوسط » . واشار رئيس الوزراء السابق شابان دلماس أمام نواب الحزب الحاكم الى سياسته بالقول : « سياستنا في هذه المنطقة تسير في الخط الذي رسمه الجنرال ديغول . نحن لسنا موالين لاسرائيل ولا للعرب وانما لفرنسا . وسياستنا التي تستهدف السلام ، تقوم بشكل مطلق على اساس مصالح فرنسا » . [لوموند ١٩٧٠/١/٢٣] .

وهذا التعبير لاسس السياسة الخارجية ، في صلب المنطق الراسمالي ، ولا يمكن ، في اي حال ، مطالبة الحكم الفرنسي باستعمال منطق آخر لا يتناسب مع طبيعته . [مقال اريك رولو تحت عنوان « دور فرنسا في الشرق الادنى » في لوموند ١٩٧٠/١١/١٢] . هذه المواقف المتتالية لاعمدة النظام الديغولي هي اذا مواقف الحزب رسميا . وفي كل مؤتمراته ، اتخذ الحزب قرارات تأييد لسياسة الحكومة في هذا المجال بالذات . الا ان ذلك لا يمنع ان « غالبية جهاز الحكم والتوجيه ، أي مجموعة القائمين على القطاعات الرئيسية في الحياة القومية وفي تكوين الراي العام ، هم في غالبية الاحيان موالون لاسرائيل ، وذلك يفسر التردد والمعارضة التي تلقاها سياسة الحكومة عندما تأتي الى التنفيذ » . [من مقال احد كبار محرري لوموند فيانسون بونتيه عن « الفرنسيين تجاه اسرائيل » بتاريخ ١٩٧٠/١/١١] . وهذا يعيد الى الاذهان حادثة «خطف» البوارج الحربية من ميناء شربورغ في ليلة ١٩٦٩/١٢/٢٥ ، وقد اشارت حينذاك منظمات عدة منها الحزب الشيوعي واحدى التنظيمات الديغولية اليسارية (« اتحاد العمل الديموقراطي ») الى تواطؤ على مستوى عال سمح للاسرائيليين بنقل البوارج الى ميناء حيفا [لوموند ١٩٧٠/١/٦] .

ولم يكتف بعض اعضاء « اتحاد الديموقراطيين » بالتردد ، بل عبروا علنا عن معارضتهم لموقف الحكم وحزبهم . ففي اللجنة الادارية « لتحالف فرنسا — اسرائيل » شخصيتان من الحزب الحاكم هما النائب جاك مرسييه والوزير السابق ريمون تريبوليه من اصل ثمانية اعضاء . والاخير يترأس كذلك لجنة الصداقة البرلمانية فرنسا — اسرائيل التي تضم ٥٥ نائبا ديغوليا [مجلة « الارض المستعادة » ١٩٧٠/٢/١٥] .

يبقى هناك بالطبع الاقلية الملتزمة عن قناعة بموقف مؤسس الجمهورية الخامسة . ونكتفي بذكر اسم لوي تيرنوار الوزير السابق ورئيس رابطة التضامن الفرنسية العربية [الذي يعبر عن مواقفه باستمرار في نشرة الرابطة : فرنسا والدول العربية] ، وميشال حبيب دولونكل السكرتير العام المساعد للحزب المختص في الشؤون العالمية [لوموند ١٩٧٠/١/١٣ والجريدة الديغولية « لاناسيون » التي يشرف عليها] وبعض المجموعات كرابطة « العمل الديغولي » [لوموند ٦٩/١٢/٣٠] و« الحركة من اجل استقلال اوروبا » [لوموند ١٩٦٩/١٢/٣١] .

الا ان « اتحاد الديموقراطيين من اجل الجمهورية » يبقى بحكم ايديولوجيته ومواقعه محدود التطور، واي تغيير حقيقي لن ينشأ الا بحكم التناقضات بين الراسمالية الفرنسية

الحاكمة والامبريالية الامريكية التي تغذي وتشرف على استمرار وجـود أداة القمع الصهيونية من جهة ، وتحت تأثير اختلال التوازن الذي تحدثنا عنه بين حجم المصالح الفرنسية في العالم العربي وفي اسرائيل من جهة اخرى .

٢ ــ **الجمهوريون المستقلون** : وهو التنظيم الذي يرئسه وزيـر الاقتصاد جيسكار دستان، والذي قلنا ان علاقته بالديغولية لم تعد اليوم أكثر من تحالف مع القوة الرئيسية الحاكمة ، يترك للتنظيم شخصيته المميزة . والواقع انه على الرغم من قرب مفاهيم هذا الحزب مع المفاهيم الوسطية (مع تبني بعض المواقف الديغولية المتعلقـة بالاقتصاد الوطني)، فان شخصية جيسكار دستان (التي تعتبر من اتوى شخصيات الحكم الحالي والمرشحين للرئاسة في المستقبل) تعطيه كيانا قد يهدد الحزب الديغولي نفسه .

ومن الصعب تحديد قوة هذا التنظيم ، لانه في معظم المعارك الانتخابية التي خاضها ، كان متحالفا مع الحزب الديغولي . الا ان عدد نوابه في البرلمان (٦٢ نائبا بعد الانتخابات الاخيرة) يشكل تقريبا سدس المجموعة الديغولية كلها ، واذا حولنا هذه النسبة الى نسبة أصوات ، فالنتيجة تقارب ٧ بالمئة من مجموع الاصوات (هذه النسبة تضعه في المرتبة الخامسة من ناحية القوة الانتخابية ، الا أن القانون الانتخابي غير النسبي يعطيه المرتبة الثانية من حيث عدد النواب) .

فيما يختص بموقفه من المسألة الفلسطينية ، فرغم تصريحات جيسكار دستان المتتالية التي يؤكد فيها « تضامنه مع السياسة الحكومية » [لوموند ١٩٧٠/٢/٤] ، الا أن الحزب بمجمله على ما يبدو يقف موقفا شبيها بموقف الوسط ، اي مؤيدا تأييدا كليا لاسرائيل . فالسكرتير العام للحزب ميشيل بونياتوفسكي عضو في اللجنـة الاداريـة « لتحالف فرنسا ــ اسرائيل » [لوموند ١٩٧١/١/٣٠] ولا يفوت أية فرصة في التعبير عن عواطفه . فبعد صفقة الاسلحة الليبية ، اعلن بوضوح ادانته وطالب الحكم بدعم اسرائيل « العقبة الوحيدة أمام النفوذ الروسي في البحر المتوسط » [لوموند ٢/٣/ ١٩٧٠ والارض المستعادة ١٩٧٠/١٢/١٥] . والنائب جاك دوميناتي الذي يدير جريدة « باريس غدا » يعبر بوضوح عن وقوفه الى جانب اسرائيل [١٩٧٠/٢/٤ لوموند] . وكذلك النائب دستريمو الذي طالب في اجتماع برلماني في ربيع ١٩٧٠ « بالعودة الى سياسة فرنسا في الشرق الاوسط كما كانت قبل ١٩٦٧ » [لوموند ١٩٧٠/٤/٣٠] . وهذه المواقف ليست غريبة بالنسبة لحزب ممثل بـ ١٨ نائبا في اللجنة البرلمانية للصداقة الفرنسية الاسرائيلية [الارض المستعادة ١٩٧٠/٢/١٥] .

ولم يسمع داخل الحزب اي صوت نشاز بالنسبة للموقف الشرق اوسطي ، فتصريحات الالتزام بالموقف الحكومي « لانه الوحيد الذي يأخذ بعين الاعتبـار مصلحة فرنسا » [تصريح لايميه باكيه رئيس المجموعة البرلمانية للحزب في لوموند ١٩٧٠/٢/٨] لا يلغي التعاطف شبه الكلي تجاه اسرائيل .

٣ ــ **اليسار الديغولي** : تطلق بعض القطاعات الهامشية في الحركـة الديغولية لقب « اليسار » على نفسها ومرة أخرى لن نقيم هنا استحقاقهـا لهذا اللقب وسنكتفي باستعراض وصفي لمواقفها (استعمل ديغول في الماضي هذه الصورة في وصفه لليسار الملتزم به : « انه خمر جيد ، ولكنه نادر » [لوموند ٧١/١٠/٣]) .

ويتشكل اليسار الديغولي اليوم ، بشكل أساسي ، من مجموعتين رئيسيتين : الاولى وهي فيدرالية اليسار الديغولي وتضم ثلاثة تنظيمات يتزعمها ليو هامون وايفون موراندا وفيليب دوشارتر وتلتزم بالحكم الحالي وهي ممثلة فيه بوزيرين . والثانية هي الاتحاد العمالي الذي نشأ عن دمج اربعة تنظيمات ، ويتزعمها اليوم الوزير السابق جيلبير

غرانفال ، وهي تعتبر النظام الحالي غير مخلص للتراث الديغولي ، وتقف اذا في صف المعارضة .

وفي المسألة الفلسطينية ، تقف المجموعتان علــى ارضيتين مختلفتين . فالاولى (اي الحكومية) تعتبر أكثر عطفا على الجانب الاسرائيلي من الحكم بينما تعتبر الثانية « اقرب الى الجانب العربي » [لوموند ١٩٧٠/١/٩] . فأحد زعماء الفيدرالية ليو هامون ، الوزير حاليا ، معروف بانتماءاته الصهيونية ، بينما لا يخفي المسؤولون الآخرون في التجمع عواطفهم الى جانب اسرائيل ، الا بقدر ما يقتضيه التزامهم بالموقف الحكومي القاضي بمراعاة المصالح الفرنسية في العالم العربي . فبعد أزمة زوارق شربورغ في مطلع ١٩٧٠ ، اتخذت الفيدرالية موقف الدفاع عن الحكم ، وطالبت باتخاذ « موقف حياد حقيقي » في الصراع الشرق أوسطي [لوموند ٧٠/١/٩] .

بينما اتخذت تنظيمات التجمع الآخر موقفا اتهاميا وصفت فيــه الحكم « بالازدواجية ، اذ يدعي الاستمرار في سياسة الجنرال ديغول بينما يتخذ في الواقع مواقف مناقضة » . وذكرت بقرار بومبيدو بالعودة الى « الحظر الجزئي » على الاسلحـــة المرسلة الى اسرائيل ، ملمحة بأن الزوارق لم تخطف وانما اعطيت سرا في اطـــار الموقف الجديد [لوموند ٧٠/١/٦] . وأعلنت احدى تنظيمات « الاتحاد العمالي » وهي جبهة الشبيبة التقدمية في مؤتمر صحفي بالقاهرة « ادانتها للعملية الاسرائيلية ، وانتقادها للاستخفاف الحكومي الفرنسي » كما أكدت دعمها « لنضال الشعب الفلسطيني من اجل اقامة دولة فلسطينية ديموقراطية يعيش فيها العرب واليهود » [لوموند ١٩٧٠/١/٧] . وأوضح عضو تنظيم آخر ملتحم داخل « الاتحاد العمالي » (وهو جان دو بير من جبهة التقدم) في مقال له في لوموند [٧٠/١٠/٧] وجهة نظره قائلا : « لقد استعدنا ــ بفضل موقف الجنرال ديغول ــ في الشرق الاوسط مكانـــة مرموقة . واليوم نرى لماذا لم تحتمـــل الحكومة الاسرائيلية نصائح الرئيس الفرنسي ... لانها ليست مستعدة لاعادة مـــا استولت عليه ... ومقابل هذا الموقف الصريح والواضح ، قامت حكومـــة بومبيدو بانتهاج سياسة متماوجة ، لم تؤد لا لتهدئة الاسرائيليين ولا لطمأنة العالم العربي الذي لا يرى في هذه السياسة صلابة السياسة السابقة وبعد نظرها » .

باختصار اذا ، نستطيع ان نقول ان اليمين الديغولي الذي يشمل تنظيم الجمهوريين المستقلين وغالبية الحزب الرئيسي الحاكم يقف عاطفيا مع اسرائيل ، بينما تقف بعض اطراف « اليسار » الديغولي وبعض التيارات الهامشية في الحركة موقفا يصفه البعض بأنه متعاطف مع العرب . أما القوة الحاكمة ، فتبني في الغالب موقفها من طموحهـــا لاحتلال مكانة اقتصادية ذات شأن في الساحة العربية ، ويقع هذا الطموح في اطـــار التناقضات بين الامبريالية الرئيسية في العالم (الولايات المتحدة) والامبرياليات الثانوية، ومن واجب الوطنيين العرب الاستفادة منها ، مع الادراك التام لطبيعة القوى المتصارعة عالميا وفي كل قطر ، وفي فرنسا بالذات ، مع اعتبار القوى الصديقة استراتيجيا هي الجماهير المناهضة للرأسمال المحلي .

اليسار المعتدل

تقع تحت هذه التسمية اعداد كبيرة من العائلات السياسية ، القديم منها والجديد ، ويجمعها تطلع اصلاحي للمجتمع نحو توزيع اقل اجحافا للنتاج القومي دون احداث تغيير جذري في بنائه . وتنعت هذه العائلات غالبا بالاجتماعية (أو الاشتراكية) الديموقراطية . ومنذ أواسط القرن التاسع عشر ، ومثل هذه التنظيمات (العمالية احيانا) تلد وتتكاثر ، وهي تشكل الآن في معظم دول اوروبا الغربية قوى ذات تأثير تقليــدي في الحكم او خارجه .

وسنقتصر حديثنا هنا على تنظيمين رئيسيين : الاول هو الحزب الراديكالي الاشتراكي والثاني هو الحزب الاشتراكي . وسنعتبر مواقفهما ممثلة للتيار بمجمله ، الذي اعطيناه نسبة تمثيلية تقارب العشرة بالمئة . وقد يتجاوز هذه النسبة في الاشهر القادمة نظرا للتغيرات التي طرأت على بنية الحزبين الرئيسيين (في اتجاهين مختلفين) .

الحزب الراديكالي الاشتراكي : هذا الحزب من اقدم الاحزاب الفرنسية الحية (تأسس عام ١٩٠١) ولعب دورا سياسيا مهما في الجمهوريتين الثالثة والرابعة (١٨٧١ — ١٩٤٠ و١٩٤٥ — ١٩٥٨) . وهو منذ عودة ديغول في طريق الاضمحلال ، ويتحول الان شيئا فشيئا الى حزب وسطي شبيه في بنيته الطبقية ومواقفه السياسية الداخلية والخارجية من احزاب الوسط التي تحدثنا عنها خاصة بعد سيطرة مدير مجلة الاكسبرس ، جان جاك سرفان شريبر عليه (اذ أصبح سكرتيرا عاما عام ١٩٦٩ ورئيسا للحزب في العام الماضي) . وتنازع الرئيس الحالي أقلية من قدماء المسؤولين تطلق على نفسها صفة « اليسار الراديكالي » ويقودها رئيس الحزب السابق موريس فور ، وقد عقدت هذه الاقلية اتفاقات سياسية مع الحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي ، بينما تتحالف الاغلبية مع أحزاب الوسط المعارضة للحكم في اطار « الحركة الاصلاحية » . وهذا التناقض الذي قد يؤدي الى انقسام الحزب لا ينعكس اطلاقا على المواقف في السياسة الخارجية وبالذات بالنسبة للمسألة الفلسطينية . فكافة القوى المتصارعة تقف موقفا مستمرا من التأييد المطلق لاسرائيل والعداء لحركة التحرر العربية .

فتصريحات سرفان شريبر وأعوانه ومقالات مجلته الاكسبرس (التي تجد سوقا واسعا للتوزيع في بعض الدول العربية) لا تنقطع عن الدفاع عن وجهة النظر الاسرائيلية . ولا تقع خطورة ذلك في وزن الحزب (الضئيل نسبيا) وانما في تأثير المجلة التي اصبحت اكثر المجلات السياسية الاسبوعية توزيعا ، وتلعب اليوم دورا كبيرا في تسميم الرأي العام الفرنسي .

ونستطيع تلخيص موقف سرفان شريبر من خلال بعض تصريحاته الاخيرة . ففي مؤتمر له في الولايات المتحدة في صيف ١٩٧٠ ، حدد موقفه من المشكلة قائلا : « كل من شارك منا في الصراع ضد النازية يعتبر استمرار وجود اسرائيل قضية مقدسة ، ولذا فاننا لا نستطيع فهم ولا قبول سياسة الحكومة الفرنسية » . [لوموند ١٩٧٠/٨/١] . وكتب في مجلة « المنبر اليهودي » الصهيونية [كانون الاول ١٩٧١] : « اعتقد أن الشرق الاوسط هو المكان الاكثر خطورة على السلام العالمي ، والسبب الرئيسي هو تهديد وجود اسرائيل ... ومن واجب اوروبا ، وفرنسا بالذات ، الاهتمام بميزان التسلح ، وذلك بتسليح اسرائيل ، اذا استمر الاتحاد السوفياتي في تسليح الدول الاخرى وكسر التوازن » .

ولا يخالف سائر الراديكاليين سرفان شريبر في موقفه . فميشيل سولييه نائب الرئيس السابق، عضو في الهيئة الادارية « للتحالف الفرنسي الاسرائيلي » واحد النجوم الدائمين للمهرجانات الصهيونية في فرنسا [لوموند ١٩٧٠/١/٢٣] . وموريس فور ، خصم الرئيس الحالي ، هاجم مثلا بشدة صفقة الاسلحة الليبية منتقدا الحكومة الفرنسية على موقفها ومعتبرا اياه « مناقضا للمنطق والاخلاق » [مجلة « الارض المستعادة » ٢/١٥/ ١٩٧٠] . وهذا الاجماع في العواطف الصهيونية للحزب الراديكالي يبدو اذا مطلقا .

الحزب الاشتراكي : يشكل الحزب الاشتراكي (الذي كان يحمل حتى العام الماضي اسم الفرع الفرنسي للاممية العمالية) الرديف الفرنسي للاحزاب الاشتراكية الديموقراطية المنبثقة عن الاممية الثانية والحاكمة في عدة دول من أوروبا الغربية (كالمانيا والنمسا والدول الاسكندنافية) . وقد لعب الحزب دورا غير قليل في السياسة الفرنسية في

النصف الاول من هذا القرن ، مع ان الانشقاق الاساسي الذي حدث في مؤتمر تور عام ١٩٢٠ والذي أدى الى ولادة الحزب الشيوعي الفرنسي ، كان في النهاية من ناحية الوزن لصالح الاخير . والقارىء العربي يذكر غي موليه الذي كان رئيس وزراء فرنسا اثناء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، والذي سيطر خلال فترة طويلة بصفته أمينا عاما على مصير الحزب وسياسته . ولكن السنوات الاخيرة التي شهدت تقلصا مستمرا لوزن وصدى الحزب (الذي كانت نسبه التمثيلية تتراوح بين ٥ و٧ بالمئة) أدت الى احداث بعض التغييرات في بنيته القيادية وسيطرة عناصر كانت منتمية لتنظيم آخر (هو تعاهد المؤسسات الجمهورية) اندمج هذا العام في الحزب . وعلى رأس هذه العناصر القائد الحالي للحزب ، فرنسوا ميتران ، السكرتير الاول ، الذي كان مرشح اليسار في انتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٦٥ ضد ديغول .

وتاريخ هذا الحزب فيمساندة الصهيونية واسرائيلودعمهما تاريخ غير متعرج . فلم يحدث حتى الآن ان اتخذ أي موقف متردد (وبالاحرى نقدي) في حماسه الصهيوني . فسكرتيره السابق غي موليه ما زال يفاخر بعملية السويس (العدوان الثلاثي) ويشبه عبدالناصر بهتلر ، ويرسل البرقيات في كل مناسبة لاقطاب الصهيونية . ولا بد من التذكير هنا ان الحزب العمالي الاسرائيلي (أي حزب غولدا مئير وموشيه دايان) عضو في المؤتمر الاشتراكي العالمي ، ورئيسة وزراء اسرائيل شاركت في المؤتمر الاخير الذي انعقد في فيينا [هذا لا يعني ان جميع الاحزاب التي شاركت في هذا المؤتمر تقف الموقف نفسه من « مشكلة الشرق الاوسط »] .

وفي السنوات الاخيرة عبر الحزب مرارا عن تعاطفه مع الجانب الاسرائيلي ومعارضته لسياسة الحكم الفرنسي التي اعتبرها تجنيا على « دولة شجاعة وديموقراطية » [تصريح لغاستون دوفير عضو المكتب السياسي ورئيس بلدية مرسيليا ، لوموند ٢٣/١/١٩٧٠] وتشجيعا « لصراع مسلح جديد في المنطقة » [بيان للحزب في مجلة « الارض المستعادة » ١٥/٢/١٩٧٠] .
ورغم ان السكرتير الجديد ، كان أقل حماسا قبل اندماج تنظيمه بالحزب في تأييده لوجهة النظر الاسرائيلية ، الا ان مسؤولياته وطموحاته الجديدة دفعت به ، على ما يبدو الى المزاودة على أسلافه . ففي احدى مؤتمراته الصحفية الماضية ، عبر فرنسوا ميتران عن موقفه بالشكل التالي : « دولة اسرائيل لها الحق في الوجود وفي الحصول على أدوات استمرارها . لكنها يجب الا تتحول الى دولة مسيطرة . وكما اننا يجب ان نؤكد على وجود دولة اسرائيل ، فاننا لا نستطيع ان ننفي الواقع الفلسطيني . وعلى هذين الشعبين ان يتفاهما » . [لوموند ٧/٢/١٩٧٠] . الا ان هذا التحفظ الخفيف اختفى تماما اثناء زيارته كسكرتير أول للحزب الاشتراكي الجديد ، لاسرائيل . فحين وصوله ، قال : « ان فرنسا ، والفرنسيين يعتبرون أنفسهم قريبين جدا من اسرائيل . وان استطعنا فسنعمل على تحسين العلاقات ، والتعبير عن تطلعات القادة الاسرائيليين » [لوموند ١٦/٣/١٩٧٢] . واعرب اثناء زيارته عن اتفاقه مع مشروع الون ورفضه لفكرة الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي المحتلة كشرط مسبق للمحادثات [لوموند ٢٣/٣/١٩٧٢] .
الا ان هذه التصريحات التي يراد منها غالبا طمأنة العناصر الصهيونية والموالية لاسرائيل داخل الحزب على استمرار موقفه المؤيد لها ، لا تستطيع ان تخفي تحولا بطيئا عند بعض العناصر الشابة نحو تفهم اكبر للواقع الفلسطيني . وقد أشارت مجلة الاكسبريس [١٦/٢/١٩٧٠] الى هذا التطور في مقال لها بعنوان « اليسار المريض بفلسطين » قالت فيه : « قبل ثلاث سنوات ، كان الحزب الاشتراكي يتجنب حتى الاشارة الى قضية اللاجئين ... ولكنه اليوم يتطور بحذر آخذا بعين الاعتبار التطور على الساحة ...

ومتقبلا بصعوبة استمرار احتلال الاراضي العربية » . ويبدو ان بعض القيادات الجديدة وتنظيمات الشباب في الحزب يعمل في هذا الاتجاه .

وبالانتظار ، نستطيع اعتبار الموقف الرسمي للحزب الاشتراكي معبرا عنه بالشكل الاكمل في برنامج الحزب الذي نشر في شكل كتيب تحت عنوان « لنغير الحياة » [في دار نشر فلاماريون ص ٢٠٢] ، وجاء فيه : « اربع سنوات بعد الحرب الاخيرة بين الدول العربية واسرائيل ، ما زالت الدول الكبرى تساهم بتموينها العسكري في استمرار خطر اندلاع حرب جديدة . ان الحزب الاشتراكي يعبر عن تقديره لجهودات ممثل الامم المتحدة من اجل تطبيق قرار مجلس الامن في مجمله . ويؤكد على ان اي سلام دائم يجب ان يعتمد على المبادىء التالية :

— الاعتراف بحق اسرائيل في الوجود والعيش بأمان ، وبحق كافة الامم الاخرى في الشرق الاوسط (كدول ذات سيادة) بما في ذلك الامة العربية الفلسطينية ، التي تختار ممثليها بحرية .

— ضمان حق الملاحة في قناة السويس ومضائق تيران لاسرائيل ولكل الامم .

— الاتفاق بين الدول الكبرى لوقف سباق التسلح في المنطقة .

— وضع حدود دائمة بمحادثات بين الاطراف المعنية ، واخلاء الاراضي المحتلة .

— اقامة شبكة اعانة عالمية لشعوب الشرق الاوسط لمساعدتهم على تطوير اقتصادهم والتعايش السلمي بانتظار تعاون مفيد بين كل دول المنطقة .

— اجراء محادثات بين كافة دول المنطقة لاسكان اللاجئين العرب بمساعدة المجتمع الدولي . »

اقصى اليسار

تحت هذا الاسم ، نجد في التقارير الرسمية الاحزاب والقوى السياسية التي تتبنى الماركسية او الايديولوجيات القريبة منها . وسنهتم هنا بشكل خاص بالقوى التالية : الحزب الشيوعي ، الحزب الاشتراكي الموحد ، الماويون ، التروتسكيون .

الحزب الشيوعي : يعتبر الحزب الشيوعي الفرنسي اكبر حزب منظم في فرنسا ، وبعد الحزب الشيوعي الايطالي أهم حزب شيوعي خارج المعسكر الاشتراكي . آخر احصائيات الحزب تعطيه عددا من المنتمين يقارب نصف المليون ، بينما يرتفع عدد المصوتين له في الانتخابات فوق الاربعة ملايين (نحو ٢٢ بالمئة) . تكوّن الحزب كما ذكرنا على اثر الانقسام الذي حدث في الحزب الاشتراكي الفرنسي عام ١٩٢٠ في مؤتمر تور ، واختار منذ ذلك الحين خط الحزب الشيوعي السوفياتي ، رغم بعض التحفظات (حول دخول قوات حلف وارسو لتشيكوسلوفاكيا مثلا) .

وينعكس هذا الوفاء للخط السوفياتي على معظم مواقف الحزب خاصة في المجال العالمي ، وبالذات — في مجال بحثنا — في موقفه من المسألة الفلسطينية . ويتلخص هذا الموقف في فقرة من فقرات « البرنامج من أجل حكومة ديموقراطية للاتحاد الوطني » الذي نشره الحزب مؤخرا ، جاء فيها :

« في الشرق الاوسط ، ستعمل فرنسا على تطبيق حل سياسي للصراع ، يتضمن تطبيق قرارات الامم المتحدة وخاصة اخلاء الاراضي العربية المحتلة والاعتراف بالحقوق القومية لكافة شعوب المنطقة بما في ذلك شعب فلسطين العربي ، وبحق الوجود لكافة الدول ، بما في ذلك دولة اسرائيل » . (الكتيب ، دار النشر الاجتماعية ، ص ٢٢٦) .

وهذا الموقف المتطابق نصا مع الموقف السوفياتي ، يعكس في الوقت نفسه اهتمامات

مختلفة . فبينما تتخذ الحكومة السوفياتية مواقفها على ضوء استراتيجية عالمية (تتميز مثلا في الشرق الاوسط بالحرص على تفادي الصدام مع الولايات المتحدة) ، يواجه الحزب الشيوعي الفرنسي اساسا مشاكل فرنسية بحتة. واحدى هذه المشاكل هي آثار المسألة اليهودية ، وما نتج عنها من امكانات ضغط للقوى الصهيونية التي تسارع الى الخلط بين مناهضة الصهيونية والعداء للسامية . والحزب الشيوعي الذي عانى من العزلة التي فرضت عليه طويلا في الساحة السياسية الفرنسية ، حساس لأية محاولة تستغل بعض مواقفه لاعادته لهذه العزلة . ونذكر مثلا انفراد الحزب الشيوعي (بين القوى السياسية المهمة) في ادانة العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، وكذلك في اتخاذ موقف واضح ضد عدوان حزيران ١٩٦٧ مباشرة بعد بدئه (مدعوما هذه المرة بموقف ديغول الذي لم يعكس اطلاقا مشاعر العطف على الجانب الاسرائيلي عند غالبية الرأي العام في ذلك الحين ، نظرا للحملة الدعائية الصهيونية التي صورت اسرائيل في خطر الابادة) . وهذا يفسر جزئيا حرص الحزب علـــى التأكيد على وجود الدولـــة الاسرائيلية ونفي تهمة التحريض على القضاء عليها ، في الوقت الذي يتخذ فيه موقف الادانة تجاه الصهيونية ايديولوجيا والتعاطف المتزايد مع المقاومة الفلسطينية ، خاصة بعد ١٩٦٨ (بينما كان التركيز قبل ذلك ومباشرة بعد ١٩٦٧ على التضامن مع الانظمة التقدمية العربية) .

وبالفعل ، وبعد عدة اتصالات قام الحزب الشيوعي لاول مرة بتوجيه دعوة رسمية لحركة فتح لحضور مؤتمره التاسع عشر الذي انعقد في شباط ١٩٧٠ ، واستقبل وفد فتح استقبالا حارا من قبل أعضاء المؤتمر . [لوموند ٦ و١٩٧٠/٢/٧ ، ومحاضر المؤتمر الصادرة عن الحزب] . ورغم ان الحزب لم يغير رسميا موقفه بعـــد المؤتمر الا أن بياناته اصبحت تشدد أكثر فأكثر علـــى « الحقوق القومية لشعب فلسطين العربي » [لوموند ٧٠/١٢/١٥ و٧١/١/١٧ وبيانات المكتب السياسي للحزب في جريدة لومانيته ٧١/١/١٤ وتصريحات جورج مارشيه السكرتير العام المساعد وجاك ديكلو عضـــو المكتب السياسي ومرشح الحزب لانتخابات رئاسة الجمهورية عام ١٩٦٩ في الجريدة وفي مجلة « الديموقراطية الجديدة » عدد شباط ١٩٦٨ مثلا] . وفي تصريح لرولان لوروا عضو المكتب السياسي وسكرتارية الحزب ، طرحت قضايـــا الصهيونية واللاسامية كالتالي : « اننا نناضل ضد اللاسامية والصهيونية . فكلاهما تحاولان فصل اليهود عن باقي السكان وتحويلهم عن الصراع الطبقي . . . اللاسامية والصهيونية تغذي الواحدة منهما الاخرى وتعملان على الخلط بين مجموع اليهود والصهيونيـــة وبالتالي سياسة اسرائيل وهذا ما نرفضه » . [لومانيته ١٩٧٠/٧/٢] .

وهذا التشديد على « الحقوق القومية لشعب فلسطين » وعلى ادانة الصهيونية يرافقه كذلك في البيانات الاخيرة التركيز علـــى « طرد الفلسطينيين مـــن أرضهم الاصلية » والاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني [لومانيته ١٩٧٢/٩/٧] .

الحزب الاشتراكي الموحد : تشكل هذا الحزب في أواخر الخمسينات من بعض العناصر المنشقة على يسار الحزب الاشتراكي . ورغم تبنيه للماركسية ، بقي فترة طويلة يتأرجح بين المواقف الديموقراطية الاشتراكية وبين اليسار المتطرف ، وقد حسمت احداث ايار ١٩٦٨ هذا التأرجح (على الاقل شكليا) لمصلحة التيار الاخير . والحزب محدود التأثير (٣ بالمئة تقريبا في الانتخابات الاخيرة) ولكنه ذو وجود في بعض الاوساط المثقفـــة والمسيحية ، وطبيعة تكوينه تفسر التناقضات التي يعاني منها اليوم ، اذ تترعرع فيه اتجاهات ماوية وتروتسكية بينما يحاول سكرتيره الوطني النـــائب ميشال روكار ان يحافظ على توازن بين كافة القوى المتنازعة .

وكان الحزب في مطلع الستينات قريب الصلة بأوساط « اليسار » الصهيوني . فبينما

كان الحزب الاشتراكي على صلة وثيقة بالمباي ، كان الحزب الموحد يتعامل مع المبام، الذي كان يرى فيه الرديف له في اسرائيل ، وبالتالي كانت مواقفه قريبة من هذا الاخير.

وجاءت حرب ١٩٦٧ (كان طلبة الحزب من اولى القوى التي ثارت على جو الهستيريا الصهيونية قبل الحرب) وبعدها تصاعد المقاومة الفلسطينية ، وكذلك احتداد الصراعات الطبقية في فرنسا (وخاصة في حركة ايار ١٩٦٨) ، لتفرض مواقف اكثر يسارية على الحزب سواء على الصعيد الداخلي أم الخارجي . ففي تشرين الاول ١٩٦٩ وعلى أثر مؤتمر حضره وفد من حركة فتح ، قطع الحزب علاقته رسميا بالمبام ، واتخذ موقف التأييد الكلي للمقاومة الفلسطينية . ففي بيان للمكتب القومي للحزب على اثر قصف منطقة ابو زعبل الصناعية ، ورد « ان الحزب يدين العدوان الاسرائيلي بدون تحفظ . ويحيي الشعب الفلسطيني وكافة الشعوب العربية ضحية العدوان . كما يبدي ثقته بالاقلية الثورية من يهود فلسطين من اجل تطوير النقمة الشعبية ضد هذه السياسة وخلق جو يسمح بنضال مشترك للثوريين الفلسطينيين عربا ويهودا ضد الامبريالية » . [لوموند ٧٠/٢/١٥] .

وكرر الحزب بعد ذلك موقفه هذا (المؤيد اذا لبناء دولة فلسطينية ديموقراطية اشتراكية على ارض فلسطين كلها) في عدة مناسبات [لوموند ١٩٧٠/٩/٢٥ و١٩٧٢/٩/٨ مثلا والمقالات الاسبوعية في مجلة الحزب « المنبر الاشتراكي »] رغم معارضة تيار صهيوني قوي داخل الحزب ما لبث في النهاية في غالبيته ان انفض عنه . وفي المؤتمر الاخير للحزب الذي انعقد في صيف ١٩٧١ ، حضر ممثلان عن حركة فتح والجبهة الشعبية الديموقراطية اللتين يعترف بهما الحزب بشكل اساسي كقوة رئيسية وطليعية سياسيا في صفوف المقاومة .

الماويون : في اواسط الستينات انعكس الخلاف الصيني — السوفياتي على القوى اليسارية في فرنسا ، فبدأت بعض التيارات المتبنية للفكر الماوي بالبروز بين مثقفي الحزب الشيوعي وطلبة الجامعات (وخاصة الكلية العالية للمعلمين ، المعتبرة من اعلى الكليات مستوى) . وتشكلت تنظيمات عدة كان اهمها الحزب الشيوعي الماركسي اللينيني (الذي ما زال موجودا رغم منعه من قبل السلطات الفرنسية اثر انتفاضة ايار ١٩٦٨) واتحاد الشبيبة الشيوعية الماركسية اللينينية (الذي اعطى فيما بعد تنظيمات حملت تسميات اخرى واهمها اليسار البروليتاري الذي تنطق باسمه جريدة « قضية الشعب ») . وهناك اليوم تنظيمات ماوية عدة ويجمع جميعها — مع بعض التفصيلات في تفسير المنطلقات — على تأييد مطلق للمقاومة الفلسطينية على اهدافها في القضاء على اسرائيل وبناء دولة ديموقراطية في فلسطين ، على طريق استكمال الثورة الوطنية الديموقراطية في العالم العربي . وحتى السنوات الاخيرة ، كان هذا التأييد بالنسبة لمعظم الماويين ، يتجه نحو حركة فتح بشكل خاص باعتبارها « تنظيما جماهيريا » ، الا ان اوضاع المقاومة بعد ايلول ١٩٧٠ وبعض مظاهر السياسة الخارجية الصينية منذ العام الماضي غيرت نوعا ما من وضع هذه التنظيمات ومن موقفها هذا ، مع استمرار التأييد طبعا لمجمل حركة المقاومة واهداف النضال الفلسطيني .

التروتسكيون : الحركة التروتسكية (الاممية الرابعة ومشتقاتها) وليدة معارضة تروتسكي لستالين في نهاية العشرينات ، ولها امتداد منذ ذلك التاريخ في اوروبا والامريكيتين وحتى في اسيا (سيلان) . والحركة بمجملها ضعيفة في معظم اقطار اوروبا ، وتتوالى فيها منذ الخمسينات الانقسامات على اساس اختلافات ايديولوجية واستراتيجية . وفي فرنسا ، عدة تنظيمات اهمها العصبة الشيوعية (الاممية الرابعة) ، وتحالف الشبيبة من اجل الاشتراكية (المنظمة الشيوعية الاممية) و « الصراع العمالي » . وتمتاز الحركة التروتسكية بنظرة « عمالية » ، اي انها تشدد ، حتى في

الحركات القومية ، على ضرورة الصبغة العمالية لاية حركة ثورية . وعلى هذا الاساس نستطيع ان نلخص موقف التروتسكيين كالتالي . ادانة كلية للصهيونية كحركة بورجوازية صغيرة بين يهود اوروبا تغفل عامل الصراع الطبقي ، وتتحالف مع الامبريالية من اجل تحقيق اهدافها . وتأييد للحركات الثورية في المنطقة (عربية او يهودية) التي تؤكد على تحالف الطبقات العمالية من اجل تحقيق الاشتراكية ، والقضاء على الدول العميلة للامبريالية (وعلى راسها اسرائيل) . ويختلف التروتسكيون في موقفهم من حركات التحرر الوطني ، فالبعض (كالاممية الرابعة) يتعاطف مع التيارات الاشتراكية فيها ويندد بالحركات القومية بشكل محض ، اما الاخرون فيرفضون جملة وتفصيلا مفهوم مرحلة التحرر الوطني ، ويشترطون في تأييدهم طرح الصراع الطبقي على مستوى كل قومية منذ المراحل الاولى (وهذا حال المنظمة الشيوعية الاممية) .

المنظمات الاخرى : استعرضنا فيما سبق مواقف القوى السياسية الرئيسية في فرنسا . هناك بالطبع قوى اخرى متفاوتة الاهمية (كالفوضويين مثلا والتنظيمات الدينية الكاثوليكية والبروتستانتية) ولكنها في الغالب تعبر عن نفسها من خلال التيارات الرئيسية ، والدخول بتفصيل في مواقفها سيطيل البحث . وهذا حال النقابات (وخاصة نقابات العمال والشبيبة) التي تلعب دورا هاما في حياة المجتمع الفرنسي ، وقد اعتمدنا للاسباب نفسها ، الاستغناء عن ذكرها وذكر الحركات ذات الاهتمامات الاكثر حصرا (كالمنظمات التعاونية ، وحركات النضال ضد العنصرية الخ) .

خلاصة

من هذا البحث ، نستطيع الخروج بالاستنتاج التالي : كقاعدة عامة ، يتزايد التعاطف مع القضية الفلسطينية من اليمين الى اليسار . وهذه القاعدة صالحة على المستوى العالمي . وتفسيرها بديهي اذا اخذنا بعين الاعتبار الطابع التقدمي والمناهض للامبريالية للثورة الفلسطينية (موضوعيا) . وهذا يفرض علينا ان نرى في مجتمع متقدم اقتصاديا كالمجتمع الفرنسي حلفاءنا الاساسيين في الطبقات المستغلة (بفتح الغين) والقوى السياسية المعبرة عنها . ومهما كانت المواقف الحالية لهذه القوى والوعي الذاتي لجماهيرها ، فلا بد في نهاية المطاف (اي مع تصاعد المد الثوري الفلسطيني والعربي) ان تقف كلية الى جانبنا . ولهذا يجب ان نتجنب المواقف المتشنجة التي تستبعد التحالف مع القوى التي يرافق تأييدها لنا بعض الاختلاف في الرؤية الحالية .

وهذه النظرة يجب ان تدفعنا كذلك الى العمل بشكل مستمر على عزل العدو الصهيوني في اضيق الحلقات ، بكسب تعاطف كافة الجماهير المعادية لاشكال الاضطهاد على الا تتكون عندنا اوهام حول القطاعات السياسية اليمينية والمعبرة عن الطبقة المستغلة (بكسر الغين) ، التي تتحكم فيها في النهاية ايديولوجيتها المضادة للثورة ، وان اظهرت مواقف متناقضة معها فبحكم حرصها على مصالحها الاقتصادية وتسويق بضائعها .

من الآثار
غير المنشورة
للشهيد غسان كنفاني

تنفرد « شؤون فلسطينية » بنشر قصتين بدأ الشهيد غسان كنفاني بكتابتهما وسقط قبل ان ينجزهما

الاعمى والاطرش

— ١ —

سيقال فيما بعد ان ما حدث كان مستحيلا ، أما الآن فالأبعدون يقولون انها مغامرة ، وانا اقول انها الولادة . ان الحقائق الصغيرة لم تكن في البدء الا الاحلام الكبيرة ، والمسألة مسألة وقت ليس غير . كذلك تبدأ القصص وكذلك تنتسى . ان المعجزة ليست أكثر من الجنين الغريب الذي ينمو في رحم اليأس ، ثم يولد على غير توقع من أحد ليضحى جزءا من الاشياء ، تبدو ، ثمة ، ناقصة دونه .

وقد كنت اسمع دائما عن قبر الولي عبدالعاطي وعن شجرته ، ولكنني لم اكترث قط . لقد حجت أمي ، حين كنت لا أعرف الى أيـن تحملني وتمضي ، الى قبور كل الاوليــاء الصالحين ، المزروعة في كل حي وعلى درب كل قرية ، وسكبوا هناك على عيني من الزيت والدعاء ما يذوب جبلا من الصمت والعناد ، ولكن شيئا لم يحدث ، كأن العمى كان شيئا مكتوبا علي منذ البدء ، والى النهاية .

ومضت الآن سنوات لا حصر لها على تلك الايام ، حين كانت تضعني امي على كتفها وتمضي ماشية كأنها تغوص في بحر لا قرار له ، وكنت أحس المسافة على جبهتها حين تنزلق اليها كفي الصغيرة فألمس فوقها طوفانا من تفصد العرق التعيس ، ولكننا كنا نعود دائما من قبور الاولياء كما كنا نذهب ، تضيء أمي طريقنا بعينيها الباكيتين الراجيتين ، واتعرف انا الى مسافة الرحلة من العرق المتفصد على جبهتها .

ولقد يئست . اقول لك يا حمدان انني يئست . ولو كنت جذع شجرة زيتون لتعبت ، عصرت على عيني كل اعشاب الارض ، وتركت أكف الالاف من الاتقياء والدجالين تمر فوقهما فلا تزحزح راقة واحدة من راقات العتم الابدي الذي كان يوصد بين جفني بوابات ليل ضار ، لا نهاية له ، وذات يوم اكتشفت العبث كما تكتشف انت المبصر شروق الشمس . انت تعرف تلك اللحظات العجيبة التي تساوي العمر كله . كانت لحظة من ذلك الطراز الذي لا يقهر والتي تجيء وهي عازمة على عدم الارتداد . ومذ ذاك وانا جالس ، كما تراني ، أرشو الظلام بالصوت ، وانسى . انت يا حمدان ما زلت صغيرا ، تتصور القدر ضربة صدفة لا تزحزحه الا ضربة صدفة أخرى ، وبعد ان مضى كل هذا العمر تقول لي أن امضي الى قبر الولي عبد العاطي ، حيث قام الكسحاء يركضون ، والخرس ينطقون ، والعواقر يلدن ؟ أتريد أن أركب تلك الارجوحة مرة اخرى في عمر واحد يا حمدان ؟ اتريدني مرة أخرى اسير ذلك الامل التافه المروع ؟

قبر الولي وشجرته ! واليوم تقول انهم راوا راسه الوقور يتجه بالدعاء الصامت الى

السماء ، معلقا بين فرعي الشجرة . تقول انه يبدو وكأنه نما هناك كما ينمو الثمر ، وانه يكاد يخاطب الناس . لقد سمعت هذه القصة في مكان آخر ، ذات يوم ، وذهبت الى هناك . لا ، ليس مرة اخرى يا حمدان ، ليس مرة اخرى ، ان العمـــر الواحد لا يتسع لاكذوبتين كبيرتين .

ولا بد ان حمدان ابتسم ، فأنا احس ذلك بصورة غريبة اعتدتها منذ زمن لا ترقى له ذاكرتي ، أكان يعرف انني سأذهب ؟ أكان يعرف عمق تلك اللعبة الهائلة التي نسميها الامل المهيض الجناح ؟ سمعت خطواته تمضي بعيدا عني الى بوابة بيت النار ، ليخبز دفعة جديدة من الخبز ، ولكن مهما كان يحسب ، فانني أعرف ان الحقائق الصغيرة لم تكن في البدء الا الاحلام الكبيرة ، وان القصص تبدأ هكذا ، وهكذا تنتهي . لقد قذفتني اقدار تعمل من وراء ظهورنا الى هذا المكان ، وانـــا اتساءل بين الفينة والاخرى عما يستطيع الاعمى ان يفعل غير أن يبيع خبزا ؟ ان الرغيف وحده هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يرى بالاصابع ، تماما مثلما يرى بالعين . وحين يصل الامر الى الرغيف فان أحدا لا يستطيع أن يخطىء ، حتى الرجل الضرير الذي ولد ، لسبب ما ، دون بصر . فمنذ عشرين سنة وأنا جالس على هذا الكرسي أبيع خبزا ، ولا أذكر قط انني أخطأت . ان اصابعي تتذوق الرغيف وتزنه وتتعرف الى عمره وتثمن جودته ، وهي تفعل ذلك كله كالعين والميزان معا ، فمما لا ريب فيه ان حياتنا مركبة على صورة فريدة ، ولو لم يكن الامر كذلك لما وجدت في هذا الكون كله متسعا لي ، أنزل فيه مثلما تتـنزل النبتة في الحوض ، وأنمو هناك ، مع الارغفة الساخنة وأصوات الناس ، يوما بعد يوم .

ولكن أما آن لذلك كله أن يمضي الى غير رجعة ؟ أليس ثمة في هذا الكون كله ، كله كله ، رجل واحد ، ميت واحد ، شيء واحد ، يعيد لهاتين العينين ضوءا مرميا على الطريق ، وليس من حق واحد دون الآخر ؟ كان الصخب يملأني وأنا أسمع حمدان يقذف الارغفة الى بلاط الفرن فتصدر عنها أصوات صفعات مكتومة ، وعرفت ، كما تعرف الارض ان عشبة ما ستنمو هنا ، انني سأذهب .

وكنت في أعماقي اكره ذلك ، ولكنني كنت أحس نفسي مربوطا اليه بلا فكاك ، وربما لذلك بالذات اعتزمت ان أمضي الى هناك في الليل ، ففي نهاية الامر ليس ثمة فارق عندي ، وكذلك يتعين على الاولياء الا يناموا .

وانتظرت مضي الساعات وانا احس التوقد يملأني . لقد اعتدت ان انـــام في الفرن ، وتركت الوقت يمضي حتى عم الصمت تماما ، فقمت .

— ٢ —

لم يكن هناك ما هو غير عادي ، ذلك اليوم . كان يوما من تلك الايام التي عشتها سنوات لا حصر لها ، ولكن الحقائق الكبيرة ، كما يبدو ، لا يحتاج مجيئها الى مناسبات . كنت اناول رجلا ما كيس الاعاشة ، وكنت اقول : « عيشة النكد هذه ، أود لو . . . » وفجأة جاء ذلك الشيء الغامض ، وانقلب العالم راسا على عقب ، وقلت لنفسي : « يا ولد ! انت منذ عشرين سنة تقول ذلك الف مرة في اليوم » وللتو ، شعرت بشيء من الخجل ، واقتحمني ذلك مثل شيء لا يرتد . .

كنت أرى شفاههم تتحرك ، ولكن الصوت كان يتكسر أمـــام جدار رهيب يسد اذني ، ولذلك فان اقوالهم لم تكن لتعنيني . اعتدت ذلك ؟ لا شك . فجسور الصوت التي تمتد بين الانسان والانسان كانت عندي مقوضة تماما ، ولكن الانسان يتعلم . وكما يعتاد الميت الموت فان الاطرش يتعود الصمم . أحيانا اقول : كما يعتاد الانسان العيش ، فان الاصم يعتاد الصمت . . ولكن المسألة الاكيدة هي ان الاشياء أكثر تعقيدا .

ذات يوم لا بد لي من التفكير بهدوء . اقول لنفسي دائما ان فرصة ان افكر بهدوء لم تتح لي قط في العشرين سنة الماضية ، فقد كانت عيشتي عيشة نكد حقا .

اننا ، حين نفقد واحدة من حواسنا ، فانهـا لا تضيع . كيف أشرح ذلك الاحساس الغامض ؟ ان الصمم نوع من نوم الصوت . الحاسة ذاتها تظل في داخل الجسد كهدير طاقة حبيسة ، ويكاد صوت استغاثتهـا أن يسمع ، وهـذا بالذات هو الشيء الذي اعتزمت ، طوال عمري ، أن أفكر فيه بهدوء .

اما الان فليس ثمة الا الطواف على سطوح الاشياء الساكنة . الدوران الصامت في قاع الساعات الرتيبة لحياة لا يعرف احد كيف تسير ولا الى اين . ومنذ عشرين سنة وانـا اجلس هنا ، اناول الاكياس لصفوف لا تنتهي من اللاجئين . منذ عشرين سنة يمتد امام بصري هذا الصف الطويل من الرجال والنساء والاطفال ، يتحركون امامي كالاشباح . يتدافعون بلا صوت ، وترتطم الصفائح التي يحملونها ببعضها دون ان يصدر عن ذلك الارتطام اي رنين . كأن العالم كله يغطس في حوض ماء زجاجي امام عيني .

وشيئا فشيئا اخذت ادرك ان وجودي هنا لم يكن مصادفة ، فمما لا ريب فيه ان هـذه الارتـال التي لا تنتهي من البشر البائسين كـانوا يكيلون لي سبابا لا يحتمل ، فانـا — امامهم — يد وكالة الغوث التي تمتد لهم بالطحين والسمن والفـول . وقد يكون الطحين قليلا او فاسدا ، وقد تكـون حبوب الفول اقل من قشوره ، ولكنني لـم اكن لاسمع . كانت يداي تمتدان بالاكياس ، وكنت ارى شفاههم تتحرك ، ولكنني لم اكن لاسمع .

وعرفت ، يوما بعد يوم ، انهم وضعوني هنا قصدا ، فلم يكن من الممكن لاي رجل اخر ان يحتمل ذلك الطوفان من الغضب الكسيح عشرين سنة متواصلة ، يوما وراء يوم ، ويدا ممدودة وراء يد ممدودة . لقد كنت البوابة الحديديـة لقصر المحسنين ، عـلى اقدامها يتكسر صوت الغضب . وامامي كان ملايين اللاجئين يعومون داخـل حوض زجاجي كالاسماك الصغيرة العاجزة ، دون صوت .

اقول ملايين ، لانني ، ربما لكوني لا اسمع الاصوات ، قـد تعودت ان ارى ارتـال اللاجئين امامي رتلا واحدا مستمرا مثل نهر متجدد . لقد فقدت القدرة على التأكد من ان ما اراه ليس الا تكرارا . شهريا لمشهـد واحـد عمره عشرون سنة ، واكتسبت بالتدريج شعورا بانني اقف امام صف لا نهاية له من البشر ، يعبر افراده واحدا واحدا من تحت ذراعي وبصري ، ولكنه لا ينتهي ، لا ينتهي ، لا ينتهي .

ولست ادري كيف تسللت نغمة « عيشـة النكد » الى لساني من اعماق سحيقة ، ربما لانني كنت بصورة ما مسحوقا ، في مكان لا يكاد يرى ، بين جدار البوابة الحديدية لقصد المحسنين وبين الامواج المتكسرة للاصوات الغاضبة القادمة من الخارج ، او ربما لانني بصورة ما كنت فردا في ذلك الرتل البائس من البشر ، سقط بالصدفة امامه ، وصار بالصدفة ايضا يتلقى أمواجه الصامتة ويمتصها دون أن يعي ، وظللت هناك ، شيئـا معلقا في الهواء مثل غيمة .

وهكذا تبدأ القصص ، ثم لا يعرف احد كيف تنتهي : قرات في الصباح ان الولي عبد العاطي ، المدفون في الحقول القريبة من المدينة ، قد بدأ يجترح المعجـزات . وان ثمـة كسحاء عادوا من عنده يمشون ، والى جانب ذلك الكـلام نشروا صورة للقبر الطيني الواطيء ، الذي لا يحوطه اي حاجز ، والمنخفض اكثر مما اعتادت القبور ان تكـون خفيضة ، ووراء كومة الطين تلك كانت ترتفع شجرة ذات جذع ثخين ، عارية تماما من اية ورقة ، وبين فرعين في اعاليهـا نبتت ، مباشرة من الجـذع ، كتلـة تشبه رأس الانسان ، مرفوعة قليلا الى الاعلى ، كأنها تنظر الى السماء ، في وقت لا تكف فيه عن

سماع اصوات الناس الذين يركمون الى جانب القبر الواطىء ...

واعتزمت ، على التو ، ان امضي الى الشيخ عبد العاطي ، ورغم انني لم افكر قط طوال عمري بتصديق مثل هذه الاشياء ، فلست أدري ما الذي حدث في تلك اللحظة بالذات . الآن استطيع ان اقول ان الامرين جاءا معا أن اكتشف نفسي ، واكتشف عبد العاطي ، ولو جاء احدهما قبل الاخر او بعده ، لمرت الامور فوق سطح ايامي مثلما انزلق آلاف من الاولياء الى النسيان . ولكنهما جاءا معا ، مثل القفل والمفتاح ، كنت أهوي بصخب من ذلك الكرسي الذي قعدت عليه عشرين سنة ، وهاءنذا أرى نتوءا في جدار تلك الهوة المروعة .

وعبر عالمي الذي كان دائما يسبح صامتا في حوض ماء زجاجي ، مضيت الى قبر الولي عبد العاطي .

— ٣ —

انني امد لك يدي ، ايها الشيخ التقي الميت ، من قاع هذا الصمت (وقاع تلك العتمة) التي لا يسبر غورها ، يا حبيب الله ، المعاد الى هذه الارض ثمرة متفجرة على الخشب . اخاطبك من وراء ظهر الحواس التي يخاطب بها الانسان قدره المكتوب له . مد لي يدك يا عبد العاطي ، يا عاطي ، وانتشلني من هذا الصمت (والظلام) . انني اطلب منك الشفقة ، ايها الولي ، بعد ان رفضتها سنوات لا اذكر عددها . اركع قرب طينك المبتل ، ايها الولي ، واقول : انني تعبت . اصيح بين الجدران التي لا ترى ، في عالمي المعتم (الاصم) ، واهز بكفي الاعمدة التي ترفع السماء ، حيث تجلس مخبئا اجوبتك ، وارجوك ، أتوسل اليك ، ابكي كل الدموع التي منحتها لي ، واعتصر ايماني حتى قراره المسكين : اطلب الفكاك من اسر الصمت (والظلام) ، اسألك يا ملك الصمت (والظلام) أن ترمي صولجانك على وجهي ، وتمنحني حصتي من هذا العالم . اسألك ان تكف عن منحي للعالم امثولة على سطوة الغيب التي لا تفسر . او خذني اليك يا عبد العاطي ، علقني معك على ذلك الجذع العالي ، لنسخر معا من ذل هذا العالم المنكفىء على نفسه ، العاجز المكبل المبصوق على وجهه . أخاطبك وحدي ، وجها لوجه ، من أعماق هذه البرية المتوحشة المهجورة ، واتحداك ان تجترح معجزتك ، ان تقول لي بأن كوم الطين القديم يستطيع ان يكون اكثر جدوى من الحياة النابضة داخل صدري ، وفي عروق كفي المشرعتين أمام وجهك . أول مرة أجيء وأمضي الى آخر مرة ، وإذا كان ثمة في هذه الحياة من لا يستحق رؤيتها (ولا سماعها) فلتقل لي ذلك ، هنا والان ، ايها الشيء الخرافي الذي يتدلى من السماء كخطاف . انني اعلق عليك عمري كما يعلق القميص ، واعلق عليك ايماني وكل المعاني التي تعودت ان استبدل بها الضوء (والصوت) ، وانتظر تحت سقف العتمة مثلما تنتظر انت تحت بلاطة الموت شموع المخدوعين .

— « هل قلت شيئا ؟ انني لا اسمع » .

— « لم اسمعك ثانيا ، فأنا رجل ضرير ، كما ترى ، جئت للولي اطلب البصر ، وما زلت انتظر » .

— « لا تتعب نفسك . انني رجل اصم ، لا اسمع ، ربما استطيع ان افهم حركة من يديك اكثر » .

فسألت : « لماذا انت هنا ؟ »

وجاء الصمت ، الذي صار علي ان اعتاده منذ هذه اللحظة ، وفجأة يصير همي وعبئي ودائرتي الفولاذية الاحكام ، ولكنه الاختبار الذي لا يخطىء ، فها نحن ذا غريبان

مخلوعان عن العالم مثلما يخلع المارد قضيبا عن شجرة ، يطل علينا عبد العاطي من فوق ، وسيطنا الوحيد المجهول القدرة .

وقلت له : «انني رجل ضرير» . واشرت بأصابعي نحو عيني ثم قاطعت كفي مفروشتين امامهما ، مثلما ينغلق مصراعا باب ، وسمعته يهمهم ، ثم قال : « فهمت » وخيم الصمت اثقل مما كان ، وبدا لي اطول مما توقعت ، وجاءت كلماته من ثم مثل شيء يعبر مسرعا دون ان يترك سوى صدى الحفيف : « واين يمكن لاصم واعمى ان يلتقيا الا هنا ؟ » ووضع كفه على كتفي وخيل الي انها التصقت بي الى الابد . « اين يمكن لاصم واعمى ان يلتقيا الا عند ضريح عبد العاطي ؟ » قلت لنفسي : « ومع ذلك ، فان العالم صغير » ورفعت كفي نحو السماء السوداء ، واشرت الى فوق . « هذا رأس عبد العاطي ، وانت لا تستطيع ان تراه ، هو نفسه الذي رايته في الصورة ، هو نفسه الذي يجترح المعجزات ، وهو الذي سيعيد اليك بصرك ، ولكنك لا تراه الان » وضحك ، فرن في البرية صوت يشبه افراغ قربة ماء . « ليس اجن منك الا انا ، نبحث في كوم الطين عن كنز مسروق ، ورأس عبد العاطي يضحك علينا ، لا انت تراه ولا انا اسمعه » وخبط كفه على كتفي فبدونا صديقين عتيقين نتبادل حواسنا على صورة فريدة . ولا شك في انني ضحكت عند ذاك ، اذ انه ضحك بدوره مرة اخرى بعد ان كان قد توقف ، وسأل : « أتريد أن تراه ؟ » ودار حولي : « أعني أن تلمسه » ، ومضى عني الى قرب الشجرة ثم عاد الي . « لو رفعتك على كتفي فستصل بكفيك اليه وهو معلق على الجذع ، تستطيع أن تلمسه وتتعرف اليه ، لا احد هنا يرانا » وصمت ثم مضى « ... ليرانا ويضحك علينا ، هيا ! » وشدني من كمي الى الامام ، وجعلني اتحسس جذع الشجرة ، ثم اخذ العكاز «وضعت عكازك على قبر عبد العاطي ، سيحافظ عليها جيدا» وضحك مرة اخرى مصدرا صوت قربة تفرغ من مائها ، ويبدو انه ركع على الارض اذ صرت اسمعه من تحت ، وثبت احدى قدمي على كتفه وامسك بكلتا كفي : « ارفع قدمك الاخرى » . تركت نعلي ينزلق وسحبت قدمي ببطء على ملمس من ظهره ،وشعرت بعضلات كتفيه مشدودة ومفروشة تحت قميصه كأسنان مشط عريض ، وبدأ يقف حين وجدت قدماي مكانهما على كتفيه ، يرتج قليلا تحت ثقلي ولكن دون ان يبدو انه سيفقد توازنه ابدا ، وعندما انتصب تماما ترك كفي فتمسكت بجذع الشجرة ، وتركتهما ينطلقان الى فوق كأنما من تلقائهما ، يتحسسان الخشب الخشن واسمع حفيفهما . كنت ارتجف قليلا ، ولست ادري ان كنت خائفا او متوجسا او قلقا ، وربما كنت مستثارا فقط . « وجدته ؟ » كانت احدى كفي قد وصلت الى منبت الغصن الثخين المنطلق من الجذع ، ومضيت معه ببطء « الى يسارك قليلا » وفجأة اصطدمت يدي بشيء طري . « هذا هو عبد العاطي ، هل له اذنان ؟ » وضحك وهو واقف هناك .

لا بد ان يكون ذلك الذي لمسته هو الرقبة . كان شيئا طريا ولكنه اكثر نشافا من اللحم . شيئا بين اللحم والتمر . هذه الذقن ، ملتصقة من جهة بالعنق ومن جهة اخرى بخشب الغصن ، وفوقها انبساط صغير ، هنا ينبغي ان تكون الشفتان ، ولكن لا يوجد اي شيء . ثمة نتوء يكاد يكون مستديرا الى الاعلى . هذا الانف ، ثم تلمست الخدين اللذين كانا خشنين قليلا ، وببطء بحثت فوقهما عن العينين ، ولكنني لامست سقف المحجر . لا توجد عينان ، والى فوق جاء نتوء الجبهة مندفعا الى الخارج اكثر من المعتاد ، وتأتي الجبهة منبسطة عالية ، وبدت لاصابعي وكأنها لن تنتهي ، وعدت فوق استدارة الرأس اتحسس الصدغ ، لا توجد اذنان . وكانت اصابعي تقول انه رأس غريب وغير ودود . عنق ثخين قصير وذقن عريضة تكاد تكون مربعة ، وانف مستدير وبارز ، وخدان قصيران وجبهة عالية ناتئة اكثر من المعتاد ، وعدت اتحسسه من جديد، بجمع راحتي كله ، اضغط عليه قليلا ، واعتصر ندواته برفق . اي رأس هذا بلا عينين

وبلا فم وبلا اذنين ؟ ومن تحت سمعته يقول : « هـل استغرقتمـا في الحديث ؟ كدت أتعب . . . ماذا قال ؟ » وأخذ يضحك ، وبدأت كتفاه تهتزان . ولست أدري كيف قلت له هامسا ، دون ان اعي : « انه فطر ، مجرد ثمرة فطر . فطر . » ثم ادركت انـه لا يسمع ، فصحت بصوت عـال : « انه فطر . فطر » . وسمعته يسأل : « هـل قلت شيئا ؟ وصحت بكل قدرتي : « فطر » وراق لي صوتي يرتد الي في البرية وكأنه صراخ آلاف من الناس المختبئين تحت الحجارة ووراء الاشجار : « فطر . مجرد ثمرة فطر ! الا تسمع بعد ؟ فطر » واشتبكت الاصوات حتى ملأتني ، قادمة من كل مكان تحت سقف العتمة الواطىء ، وبدأ هو يغوص الى تحت ، وشعرت بانني اهوي الى القاع ببطء ، ولكن بصورة نهائية . وكنت ما زلت اقول « فطر . . فطر . ! » حين انزلني عن كتفيه . « ماذا تقول ؟ » واخذت أصرخ نافضاً ذراعي حولي : « انه فطر ، رأس عبد العاطي مجرد ثمرة فطر طلعت هناك بالصدفة » وشعرت به يقتـرب مني ، وأدركت انه لـم يسمع ، ابعدته من أمامي وتقدمت الى جـذع الشجرة . كنت متيقنا ان الشجرة التي تنبت فطرا على غصنها تنبته ايضا في كعب جذعها . بحثت بيدي في اسفـل الجذع ، ومن بين الحشائش النامية حوله عثرت على واحدة تشبه التفاحة الصغيرة . انتزعتها، ودفعتها اليه ، مشيرا بيدي الى فوق حيث كان الرأس مـا زال معلقا . وخيم الصمت الثقيل مرة أخرى ، وكما توقعت ، جاءت ضحكته التي لا تنسى : « هذا هـو اذن ! » وضحك مرة اخرى ، واخذ يضرب على كتفي بكفه القوية . « يسمونه ايضا فقعـا » وسكت . « سأظل كل عمري اضحك على نفسي كلما اتذكر انني جئت اطلب من حبة فقع ان تعطيني اذنين اسمع بهما ! » وتابع « وأنت ايضا ! » ثـم لا شك انه تطلع الى فوق : « اهكذا تضحك علينا يا عبد العاطي ؟ » ومشى الى الامام قليلا ، ثم عاد وكأنه تذكر شيئا ، ناولني العكاز ، وامسك بيدي . « هيا بنا نعود » . وبعد ثلاث خطـوات فقط وقف مرة اخرى وقال : « اسمي ابو قيس ، ما اسمك ؟ » قلت لـه « عامـر » ولكنه لم يسمع ، ولو سمع لما كان لذلك أية أهمية ، ولما كان جديرا بأن يعني شيئا ، وقال : « سأسميك عبد العاطي ، مباركة لهـذه الذكرى » وضحـك ، ولم يسمعني اضحك ، فيما اخذنا نخطو معا في قلب العتمة والصمت .

— ٤ —

كان أول ما قاله حمدان حين جاء بفرش الخبز الاول ، في الصباح :

— « كنت اعرف جيدا انك ستذهب لضريح الولي ، وقد انتظرت في الخارج حتى رأيتك تمضي » .

وسألته : — « لماذا لم تتعقبني الى هناك ؟ » .

— « لانني اردتك ان تصفو وحدك مـع الولي . لعل لدي من الخطايـا ما يمنع وقوع المعجزة في دائرة قطرها ميل » قلت ، بما يشبه الهمس : « ولم تقع اية معجزة » .

— « ربما لانك لم تكن صافي النية ، ذلك يحتاج الى ايمان عميق وحقيقي ، والى صبر ومثابرة . . اتحسب ان الامر يحدث بهذه السرعة ؟ » .

وعددت خمسة ارغفة لزبون ، وانزلت الثمن في الدرج ، ولم اقل شيئا . ايمكن ان تكون ثمة نية اصفى من نية رجل يريد البصر لعينيه ، ايمكن ان يكون هناك ايمان اكثر عمقا من ايمان رجل يتوق للخروج من العتمة ؟ الصبر والمثابرة ! اية عملة غير رائجة في حبس الليل الابدي ! لست استطيع ان اكسب من الضوء والبصر اكثـر من حصتي ، وكـل لحظة تمضي وانا في هذا الليل الرهيب خسارة لا تعوض ، ليست ابـدا رصيدا للحظة آتية ، ليست صبراً ، ولكن كيف يمكن لحمدان ان يعرف ؟

ــ « قرأوا لي اليوم في الجريدة ان امرأة لم تنجب طوال عشرة اعـوام ، انفك عنهـا الرصد ببركة الولي عبد العاطي ، وحملت . جاؤوا بها الى الجريدة وصوروها ، وها هي صورتها ، لها جديلة طويلة ، وهي تضحك » .

قلت :

ــ « خانت زوجها » .

ــ « استغفر الله ! انت لا تطاق » .

ــ « شيخك ليس الا كتلة من الفطر » .

ــ « اعوذ بالله ... لا اريد ان اسمعك » .

وعاد ، يدب بخطواته الحافية ، الى الفرن ليخبز دفعة جديدة ، فيما كنت احس بـانني تغيرت بصورة لا استطيع ان اتجاهلها لحظة واحدة . ما الذي حدث ؟ شيء ما انكسر في اعماقي بلا ريب ، وقد حدث ذلك بسرعة، وكأنما على الرغم مني. ربما صارت الامور امامي اكثر قسوة ، ولكنها بلا شك اكثر وضوحا وصفاء . وكان ذلك يبتعث في راحـة غريبة ومفاجئة ، واخذت اتساءل ان كان الشيء ذاته قد حدث لابي قيس ، وكنت مـا زلت اسمع ضحكته مثل قرقرة قربة ماء ، واحس كفه القوية تخبط على كتفي . آه ايها الليل ، يا ملك المعجزات الحقيقي ! . ان كان هناك ما هو معجز في قبر الطين فهو انـه يجتذب الخاسرين ، وحوله يكتشفون شراكتهم في هذا العمر المحطم ، ثم يمضون تاركينه وراء ظهورهم وكأنه لم يكن . أكان من الممكـن ، ابدا ، ان اكتشف الولي على تلـك الصورة الفريدة ؟ ان نقتحمه معا ، من خلال العتم والصمت ، ونسبر غوره حتى القرار؟ اكان حتما علينا يا ابا قيس ان نزحف كأثواب مهترئة يجررها حبـل من الغيب ، لننشر ذلنا وكساحنا امام فقاعة فطر ؟ عددت ثلاثة ارغفة ووضعت ثمنهـا في الدرج فخشت مصدرة صليل قيد ، ووراء ظهري اصطفقت أرغفة العجين على بلاط الفرن حين قذفها حمدان ، واخذت النار تهرج مثل ريح حبيسة . كنت احسب ان المعجـزات تتدلى من السماء مثلما يتدلى خطاف ، نعلق عليه اعمارنا كما تعلق القمصان ، ولكن اصابعي ما زالت تغوص في ذلك الخشب الطري الـذي انبثق في غور العتمة ، ثمرة مـن الطيش وقنديلا مطفأ في ليالي البائسين المسحوقين المنكفئين على وجوههـم واللاعقين جراحهم بالسكاكين . أما هي فقد خانت زوجها ، وعلقت عارها عـلى مشجب الولي النائم الى الابد تحت قبضة طين لم تعد تصلح الا ليتكيء عليها عكاز رجل اعمى . عددت رغيفين واسقطت ثمنهما في الدرج ، وخفت صوت النار ، فيما اخذ حمدان يغسل كفيه . وجاءت خطوات ابي قيس ، وانتابني فرح صغير لانني تعرفت الى صوتها ، وقال : « كيف انت اليوم يا عبد العاطي ؟ » ووراءي كفت يدا حمدان عن الاغتسال هنيهة ، فـلا شك ان التسمية حيرته ، وجاء الصمت مثلما يجيء الاستفهام ، ليوقف تدفـق الامور لحظة ، ويعيد ترتيبهـا من جديد . « جئت اسألك ان كنت تريد الذهاب مرة اخرى الليلة » انه يرفع صوته قليلا فيبدو وكأنه يخاطب رجلا يقف على بعد منه . وهززت رأسي محتارا متسائلا وانا ارد عن وجهي ضحكة كانت تتسلقه من الداخـل . وعاد يقول : « نذهب هذه المرة لنعترف بفضله ، لقد اجترح المعجزة » . عددت ستة ارغفة ، وتركت ثمنهـا يسقط قطعة بطيئة وراء قطعة بطيئة في الدرج ، ولا شك ان ابا قيس لم يكن ليسمـع اصواتها وهي تصطدم بالقطع المعدنية الاخرى . وتصورت للحظة كيف ستبدو له وكأنها تسقط في حفرة بلا قرار ، وتظل تهوي في الفراغ الى الابد : « لقد اجتـرح المعجزة ، وهي معجزة غريبة حقا » وأدرت وجهي نحوه ، فهمس « سألت عنك اليوم » . كان شيء ما يولد في تلك المسافة المتوترة والممتدة بين عالمينا ، وانا استشعر ذلك بصورة لا يمكن تفسيرها ، ومضى : « قالوا لي انك من طيرة حيفا » وسكت قليلا : « وانا ايضا من طيرة حيفا » . أسقطت قطعة النقد الاخيرة من بين اصابعي الى الدرج ، فصدر رنين

كأنه صوت الدهشة « نلتقي بعد عشرين سنة ! » وضحك ، مصدرا ذلك الضجيج الصغير ، والودود : « اثنان من طيرة حيفا ، يلتقيان بالصدفة حول حبة فقع ! أليس ذلك معجزة يا عبد العاطي ؟ »

— ٥ —

الحياة ، وايقاعها الرتيب الذي له صوت التقوض ، خطوات العبث تضرب في تيه مجنون الى ابدي وابدك وآباد الاخرين . الصمت الذي له مذاق البئر المهجورة . العتم الذي له صوت النواح . هذه الجسور التي لم توجد قط ، لم تبن قط ، لم تكن قط ، بيني وبين العالم . انني انمو على الحائط الخارجي لهذا الكون ، أنمو مثل طحلب مقرف يشمئز من نفسه ويبحث دائما عن الزاوية وعن الظل . الصمت والعتم ، الصخب والضوء ، اي بديل لاي شيء ؟ الخسارة عدوي ، وكذلك الفجيعة ، وحين افتقد الضوء يضحي الصوت عبثا . حين اغطس في الصمت الابدي تصبح العينان هما ، ونحن انما نتمدد تحت مطرقة العالم ، بايقاعها الذي له صوت التقوض . الا يمكن ان يكون التاريخ كله حلم طفل احمق يعبث بالعاب اكثر تعدادا من ان تستطيع طاقته استيعابها ؟ يا للخاسرين حين يؤلبون على انفسهم الكون بحثا عن سلوى ! حين يعلقون اقدارهم على مخالب قدر لا يعرفون عنه شيئا كي يصير بوسعهم ان يتحملوا انفسهم ! يا لك يا عبد العاطي ، الحي والميت ، يا لكما من هذا العالم المجنون الذي لا يصدق ! ترى كيف ركبت ايها الولي عبد العاطي زورق الناس التعساء وعلمتهم ان العالم انما يصنع من وراء ظهورهم ؟ وان عليهم انتظار اقدارهم مثلما ينتظر صف من المصابين بالبرص شفاءهم امام عيادة طبيب لم يوجد قط ؟ وها انتذا تعود على جذع شجرة مثلما تنبت الاسطورة في وهم المهزومين ، تعطي تحت جبة التقوى للمرأة حظ ان تنتهك زوجها . وللدجال وراء دخان المعجزة حظ ان يتقدم متلصصا الى صف الامام في طابور المنسيين !.. وقد خلعت عنك قداستك ، سلبتك اسمك واعطيته لرجل حي ينبض بالبؤس الذي لا تستطيع انت شفاءه ، وهو لم ينبت على جذع شجرة ، ولكنه نبع مثلما يتفجر الصبح ، مثلما يسقط الشهب مطفأ من المجهول ليصير شيئا ، وهاءنذا جعلت عبد العاطي الولي عبد العاطي الرجل ، اراه يمشي ، واحس اصابعه على كتفي ، واشمه كائنا يقف الى جواري . اعدتك انسانا رغما عنك ، خلعتك عن وهمي مثلما يخلع الطفل ضرسه ، تخلصت منك ، هزمتك ، جعلتك قبضة من عتم الليل قذفت بها الى وهج نار ضروس .. كسرتك من تحت قبضتي عصا كنت اتوكأ عليها ، وصرفت عمري آملاً منها ان تعطيني ما لا يعطى ، ولست اريدك بعد : لا درعا ولا زورقا ولا وعدا . أخلعك عن شجرتك ، عن عمرك ، عن معجزاتك كما يسترد العاري قميصه المعلق على خطاف يتدلى من السماء ... واقول لك ، لم يعد يوجد في جدار اوهامي مكان لمسمار جديد ، اعلق عليه وعدا بالاصوات التي لم اسمعها قط ، وقد خلقت لنفسي اذنين اسمع بهما العالم ، اما انت فلست الا حبة فقع ، سقطت بالصدفة في مستنقع الناس المهزومين ، وراوا فيها جزيرة طافية من وعود ليس بالوسع تلمسها باليد ، ولا سماعها بالاذن ، ولا رؤيتها بالعين والاصابع ...

وانا ؟ لولا ابو قيس لما كان بوسعي ان اراك يا عبد العاطي . واذا كان العمى فخ الاخاديع فكذلك البصر ، ولقد تحسستك بالاصابع التي لا تخطىء ، في تلك اللحظة الفريدة التي ترتطم فيها اشياء الواقع باشياء الوهم وانني لاصفح عنك ، واغفر لك ، فماذا بوسعي أن افعل اكثر من ان اراك تغيب في الفضاء وتذوب مثلما يذوي حلم ؟ وهما كنت ووهما ولدت ووهما انتهيت ، وها انا استرد قدري واحس ملمسه الثقيل على كتفي ، مثلما كانت امي — بلا ريب — تحس جسدي معلقا على كتفها وهي تمضي بي انا ، قدرها الصغير والوحيد ، لتضعني بين ايدي اوهام العالم كله ، ولا تحصد الا

الخيبة ، ولا احصد الا العرق يتفصد عن جبهتها العالية . . .

ولولا ابو قيس لما عرفت ، انا الاعمى ، كيف تلتقي اقدار البائسين تحت جبال الانتظار المهيض الجناح ، لولاه لما استطعت ان اراك ، يا عبد العاطي ، ولولاي لما استطاع ان يسمعك . . . انما انت ثمرة طيش تنبت في رؤوس الكسحاء الذين يتعلمون ، بجرعات البؤس المر ، ان الحياة ليست سوى الانتظار ، ولولا اننا تقاسمنا الخيبة ، سمعا وبصرا ، لما ارتددت الي طيرة حيفا ، ولما التقيت فوق قبرك قدري ، ولما عثرت تحت رأسك على شريكي في هذه المرارة التي يكاد طعمها ان يقتلني اختناقا ، ولقد قادني المبصرون خارج طيرة حيفا ، وآن للعمي ان يتحركوا . ان الاشياء التي ترونها ليست هي ، وذات يوم سأشرح لكم ذلك كله ، والا لما كان بوسعكم ان تروا في ثمرة فطر نبيا صامتا يجترح المعجزات ، وانا الاعمى الذي اعرف ان المعجزة انما تجترح من القاع ، فالثمرة هي معجزة الجذور الضاربة في رحم الارض ، الضاربة في غور هذا البدن المقدس للتراب الذي ليس له ملامح ، وليس بوسع الفطر الا ان ينزلق على الجذوع الجوفاء ، ان يطل على الناس من فوق وان يخدعهم ، ولكنه ليس المعجزة ، وانا الان ربما لاول مرة ارى في الظلمة المحيطة بعيني حقيقة تتوهج بضوء لا قبل لاحد على احتماله ، واقبلك ايها العمى ، اتحداك ، واستطيع ان اسبر غورك ، واذا كان المبصرون يرون في الفطر نبيا ووليا يجترح المعجزات ، فانا الذي رأيت فيه ، باصابعي ، ثمرة من الطيش تنزلق على سفح احلامنا مثلما التفاحة تنمو وتنقرض ، ولقد اطرحتك ، ايها الولي ، واعطاني الرجل الاصم اسمك ، ولم يكن بوسعك ان تدافع عن هذا الذي بقي لك ، وتركتنا نمضي ، ونحن حين مضينا انما قتلناك ودفناك مرة اخرى ، بلا ضوء وبلا صوت ، وبالصمت الذي تستحقه !

— ٦ —

جاء حمدان فوقف ابو قيس واخذ يستعد ليمضي : « اسمع يا عبد العاطي ، نستطيع ان نأخذ فأسا ومنكوشا ونذهب الليلة الى هناك » .

قال حمدان : « أعوذ بالله » . الا ان ابا قيس لم يسمعه ، فمضى يقول : « لو قطعنا الشجرة ، ودفنا رأس الولي ، فلعلنا نسترد ابصارنا واسماعنا » . واخذ يضحك فيهز الطاولة امامي ، ويضرب بجمع كفه على ظهر حمدان الذي اخذ يدمدم حانقا ، وعاد ابو قيس يقول متجها بصوته الي : « ان ظهور الولي لم يجترح المعجزة ، فلعل غيابه يفعل . . أتأتي معنا يا ولد ؟ » وكنت اعرف أن حمدان سيفقد صبره ، فأخذ يتنهد بصوت مسموع ، ثم قال : « انتما كافران مارقان تستحقان العمى والطرش ، اذا ذهبتما الليلة لتخريب قبر الولي وشجرته فسيحكم عليكما بالمحق ، ويمسخكما » قلت له : « اذهب انت ، واطلب منه عقلا ، لعله يستجيب » فعاد يقول : « اذا ذهبتما الليلة لتخريب قبر الولي وشجرته اخذت على عاتقي ابلاغ الشرطة ، انني انذركما : سأبلغ الشرطة » قلت لنفسي : ها قد صار عند الولي جهاز شرطة ! وصاح ابو قيس بصوته الذي يشبه صوت رجل يتحدث من نافذة قطار في محطة صاخبة : « هذا الولد خائف ، اليس كذلك؟ ماذا كنت تقول يا ولد ؟ » ولكنه لم ينتظر الجواب ، بل مضى بخطواته الثقيلة الى خارج المخبز ، وعندما وصل الرصيف صاح : « سأراك فيما بعد يا عبد العاطي ، علينا ان نتحدث » .

وخيم صمت تخش فيه رائحة الوقد في الفرن ، وهو يغوص صوب الموت . وظل حمدان صامتا ويفوح في صمته طنين الندم ، مثلما يفوح كلما كان يشتط به الغيظ فيتحدث عن العمى الذي اصابني وكأنه عقاب . عددت ثلاثة ارغفة واسقطت ثمنها في الدرج واتجهت برأسي صوب حمدان احثه على الكلام ، فقال :

ـــ لماذا يسميك عبد العاطي ؟

ـــ لانه لم يسمع اسمي .

ـــ لا . انه يتمسخر على الولي ، هذا الكافر .

ـــ ربما . عندنا في الطيرة حين يموت عزيز ، حين يموت اب او جد او اخ ، نعطي الوليد الجديد اسمه ، وابو قيس من الطيرة كما سمعته يقول :

ـــ وما علاقة هذا بذاك ؟

ـــ لا شيء . ظننت ذلك ..

وامتد الصمت مرة اخرى بيننا . هذه المرة مثل جسر ، وليس مثل هوة ، كان حمدان محتارا قليلا ، ولكنه كان عازما على سبر غور ذلك الموقف المعقد الذي اقحم نفسه فيه، فقال :

ـــ « هل تعتزمان حقا تخريب قبر الولي وشجرته ؟ »

وفجأة اخذت كفاي تنضحان عرقا ، ولاول مرة في حياتي لاحظت ان العرق يملأ راحتي يدي كلما تحدثت او تحدث احد امامي عن ولي . لعله التوتر . لعله انبثاق أمل هش ليس بالوسع امساكه باليد . لعلها الخيبة المحزنة . اخذت افرك راحتي يدي على صدري ، وقال حمدان :

ـــ « أن ليس من اجلك ومن اجل الناس فمن اجل المرحومة امك ، هذه المراة الصالحة التي عرفت قبور جميع الاولياء . من أجلها انس تلك الفكرة الحمقاء ، ما الذي تستفيده من تخريب قبر الولي وشجرته ؟ ثم ان الشرطة ... »

ـــ « لقد عرفت المرحومة امي قبور كل الاولياء . صحيح ، ولكنها لم تعرف فيها الا الخيبة .. »

ـــ « ومع ذلك لم تفقد ايمانها ، انت قلت لي . قلت لي انها كانت تحملك على كتفيها وتمشي ، وكانت .. »

وكنت انا اقيس المسافة بتلمس العرق الذي كان يتفصد من جبهتها المجهدة ، واحيانا كانت تتملق كفاي الصغيرتان فاحس وجهها كله ينضح بالعرق وبالدموع معا ، لو كان البؤس بذارا لنبت في شقوق وجهها شوكه الضاري من فرط ما سقتها بالعرق وبالدموع، ولكنها لم تفقد ايمانها ، هذا صحيح ، لم تفقد ايمانها ، وماتت فيه ، وها هو ذا بالنسبة لي يموت معها .

رفعت راحتي يدي في وجه حمدان ، وكانتا ما تزالان تنضحان عرقا :

ـــ « اسمع يا حمدان . اتعرف لماذا تمتلىء راحتا يدي بالعرق كلما جاءت سيرة ولي ؟ الان عرفت ، وكنت اجهل ذلك من قبل . وسأقول لك : لان هذا العرق هو العرق الذي سقاها من جبهة امي ، سنة وراء سنة وميلا وراء ميل في طرق لا نهاية لها . كلما كانوا يقولون لها : « هناك قبر ولي » كانت تحملني ، وكنت اتعلق بالعرق المنساح على وجهها ذهابا وبالدموع البائسة الكسيحة ونحن في طريق الاياب . ها هما كفاي ينضحان ذلك العرق كلما سمعت اسم ولي . ذلك هو كل ما اورثته لي امي المرحومة » .

الا ان حمدان لم يكن يكترث . كان كل ما يهمه هو ان يعرف فيما اذا كنا ننوي حقا هدم قبر الولي وقطع شجرته ، فعاد يسأل :

ـــ هل ستذهب مع ذلك الاطرش الكريه ؟

ولكنني لم اكن لاعرف ، لقد عرفت فقط ان شيئا ما في داخلي ، مثل جسر يستند عليه

بناء ، قد انكسر . وسوف يتقوض شيء ما في لحظة ما ، وكان يتعين علـــي أن أترقب ذلك دون ايقافه ـــ لانني لا اريد ـــ ودون الاسراع بحدوثه ـــ لانني لا استطيع .

— ٧ —

وصلت الى مكتبي في مركز توزيع الاعاشة في وكالة الغوث ، كنت قد تأخرت ، ولاحظت ذلك على الوجوه الجامدة لزملائي الذين كانوا بالانتظـــار . بدأت رائحـــة غبار الفول ورائحة السمن والحليب المجفف تختلط وسط بحيرة الصمت التي اعيش فيها .

جلست ، ونظرت الى طاولتي . ثمة شيء قد تغير في داخلي . كان احد الموظفين يتحدث الي ، وكنت اشعر بذلك ، الا انني اصطنعت عدم الانتباه . احيانا يكون الصمم درعا في وجه التفاهة .

قلت لنفسي : « الله الله يا عبد العاطي ! سقا الله ايام الطيرة . . » ثم وجدت انـــه لا سبب يمنعني من رفع صوتي ، فذلك طراز فريد من الحوار ، خصوصا عندما يكون المرء مثلي الان ، غير مكترث بما سيقوله الاخرون .

قلت ، غير متجه الى احد على وجه التعيين : « ذهبت امس الى قبر الولي ، وقلت له : يا سيدنا الولي اريد ان ترد لي سمعي ، فانا اطرش . . اتعرفون ماذا قال ؟ » وانتظرت قليلا ، لا شك ان واحدا منهم سأل : « ماذا قال ؟ » فمضيت ! « لم اسمع ما قال . فانا اطرش ! ها ها ها ! » .

فتحت الدروج واخرجت هذه القوائم الطويلة من الاسماء التي علكتهـــا اصابعي دون صوت شهرا وراء شهر ، وكانت الاسماء متشابهة ؛ تصطف مثلما تقف باصات الحكومة في الكراج . احيانا نشطب اسما ونقول : « مات . يا حرام . في السمـــاء لا يوزعون اعاشة ! » . وكل يوم نسجل اسماء جديدة لاطفال يولدون ، ونقـــول : « بزر جديد ، اللاجئون الذين اضاعوا التراب يحرثون ويزرعون الفراش ! » وهذا الصف الطويل من البشر ، واقف مثل طريق مسفلت متعرج يمتد من عام ٤٨ الى عام ١٩٦٧ ، ليس فيـــه ثغرة واحدة . مثل الطرق الصحراوية في دول النفط ، كلما انفتحت فيها حفرة جـــاؤوا بالزفت ورقعوها . كلما سقط واحد من الصف ، ميتا من السل او فقر الدم او القهر او الشيخوخة او الهجرة او السجن جاؤوا بولد ولصقوه محله .

نظرت الى الموظفين ، الذين شرعوا ينصرفون الى عملهم ، وقلت : « اللاجئون مثـــل شارع طويل . طوله عشرون سنة . . ولكن هل تعرفون من الـــذي يمشي فوق هذا الطريق ؟ » نظروا الي ، وقال احدهم شيئا فضحكوا ، وعدت اقول : « تمشي سيارات وباصات . كادلاك وفولكسفاكن . بسكليتات وكنـــادر ومداحل ، صنادل وحوافـــر ، جنازير دبابات وكلاب . . خصوصا يمشي على هذا الشارع الاولياء الصالحون . عبد العاطي مثلا . . »

وضرب مصطفى على الطاولة وقال شيئا لا شك انه شتيمة ، فقلت اهدىء خاطره : « لا تزعل . . ذات يوم ساحضر عبدالعاطي الى هنا . . لا ، لن يوزع الاعاشة معنا ، لا . الاولياء لا يوزعون اعاشة ، يوزعون وعودا ، نحن فقط نوزع اعاشة ! »

وعاد هو نفسه يرعد غاضبا . كان يحمل قلما عريض الرأس يستخدمه للشطب ، فكتب على ورقة كبيرة : « اخرس » .

وضعت كفي مفروشة فوق رأسي وقلت له : « حاضر يا سيد مصطفى ، ساخرس . انا اعرف ان الولي عبد العاطي قريبك . حماك . اليس هو والد زينة ؟ »

مزق الورقة حانقا ، واخذ باقي الموظفين يبتسمون وينظرون الى دفاترهم وكأنهم لـــم

يلحظوا شيئا ، هم الذين شرحوا لي ما حدث وأفهموني اياه يوما بعد يوم واشارة وراء اشارة . زينة ! لا شك انه حلف يومها بكل الاولياء الصالحين . جاءت المسكينة تصرخ وتبكي وتقول انهم شطبوا اسمين في اعاشتها لان اخبارية نقلها احد جواسيس الوكالة تقول انها تعمل خادمة وتحصل مئة ليرة كل شهر . ارملة مشحرة مات زوجها تحت حمولة شاحنة حصى حين افرغها السائق فوقه دون ان ينتبه . عندها اربعة أولاد ، وجاءت تولول عند مصطفى ، وتقول انها واولادها سيموتون جوعا . كانت ما تزال شابة سمراء قوية . ووعد مصطفى أن يدبر المسألة . وبعد اسبوع عادت زينة تبكي وتولول : « وعدت انك ستعيد الاعاشتين فأعدت اعاشة واحدة فقط . لقد اقسمت يومها ... » وأخذت تبكي وتضرب رأسها على الحائط وقالت أنها خدعت ، واخذت تردد كلمات باكية : « اولادي . تعبي . عرضي .. عرضي ! عرضي ! عرضي ! » تعلقت هذه الكلمة في سقف المخزن، مثل ضوء اللوكس ، وأخذت تمطر علينا هياجا وعارا في آن واحد ، ولا شك انها ما تزال معلقة هناك وقد خفت اشعاعها مثلما يخفت ضوء اللوكس مع الوقت .. « عرضي » !. هكذا يا سيد مصطفى يتحول الخبز الى فراش . انت تريد الفراش وهي تريد الخبز . آه يا عكروت . لا شك انك أقسمت لها يومها بكل أولياء الارض ، الان وظفت نفسك عند الولي عبدالعاطي . الان صرت تدافع عن تلك الثمرة الطائشة من الفطر ! ترى هل وعدتها بالزواج ؟ سيد مصطفى . مصطفى افندي ؟

« اخرس » . مكتوبة بالحبر الاسود العريض من القلم المخصص لشطب الاسماء ، كأننا نستخدم هذا القلم العريض لنطمئن الى ان الاسم الذي نشطبه انما انشطب كليا وتماما فلا تقوم له قائمة من بعد . من يدري ؟ لعل مديرية الوكالة تحسب ان اللاجئين يولدون من جديد ، فلماذا يعثرون على أسمائهم بسهولة ؟ اننا نكتب الاسماء الجديدة بأقلام حبر رفيعة ، خجولة ، فلماذا نشطبها بذلك القلم الاسود الثخين الذي يستخدمونه لكتابة الاسماء على اكياس الخيش .

حملت القوائم ووقفت . نظرت الى الموظفين وقلت « لنبدأ بتوزيع اعاشة اليوم » . مضينا في صف الى المخزن يتقدمنا مصطفى الذي يحتفظ بالمفاتيح ، ووقف كل واحد في مكانه . انا قرب الباب المطل الى الخارج .

فتحت الباب فأخذت الاكف تلوح بدفاتر الاعاشة الحمراء وتتدافـــع وترتطم الاواني ببعضها فلا تصدر صوتا . استغرقت في العمل ، وكانت يداي تنشطان : من البراميل الى الاكياس الى الميزان الى الدفاتر . فجأة حدث شيء غريب ، فقد اكتشفت لاول مرة انني انما أقرأ شفاه الناس الذين أمامي . أفهم ماذا يقولون : « عدس . كوكوس . حليب . طحين . فول .. » آه يا عبد العاطي ! اتراك اجترحت المعجزة ؟ هراء . طق حنك . ولكن الحقيقة هي انني كنت اقرأ شفاه الناس ، واعرف ماذا يطلبون .. ما الذي حدث ؟ عملتها يا عبد العاطي يا ولي ؟ مستحيل ، فانا ما زلت مصرا على ان احمل الفأس والمنكوش وأذهب مع عبد العاطي لاهدم قبر الولي واقطع شجرته ..

وظلت الافواه تقول لعيني ، طوال ذلك اليوم : عدس ، حليب ، فول ، كوكوس ، تمر ، طحين ...

— ٨ —

كنا على وشك أن نغلق المخبز ، أنا وحمدان ، حين سمعت خطوات ابي قيس على الرصيف ، دخل فسلم واخذ يتحسس الارغفة ويقلبها ، ثم اختار واحدا وناولني ثمنه واخذ يلفه بورقة . دفعت نحوه كرسيا واطئا من القش فجلس ، وجـــاء حمدان مـــن الداخل ، وقال :

— ها قد جاء ذلك الشقي الكافر .. هل تريدان الذهاب الى هناك ؟

ولم يسمع ابو قيس شيئا ، الا انه قال لي :

ــ يبدو ان هذا الولد كثير الثرثرة .

ضحكت وهززت رأسي موافقا ، وأخذ حمدان يدمدم حانقا ، فقال ابو قيس :

ــ لا تضيع وقتك . لماذا لا تذهب وتشتري لنا نص وقية جبنة ؟

قال حمدان :

ــ لا . لن اتركك هنا وحدك مع عامر . لن اسمح لكما بالذهاب الى قبر الولي . سأظل هنا وسأظل أراقبكما .

وجاء الصمت ، الذي صرت معتادا عليه الآن ، والذي هو صوت الانتظار ، بكل ما فيه من ترقب يحبل بالجديد . صوت الولادة وهي تتدفق بسكون من قلب الفراغ ، مثل الارتطام الساكن لغيمتين متفقتين على موعد المطر . .

وبهدوء ، تماما مثلما يشرع المطر ، قال ابو قيس :

ــ اتعرف يا عبد العاطي ؟ ظننت اليوم ان الولي قام بالمعجزة .

قلت لنفسي : أمس قام بالمعجزة فعرّف واحدا من الطيرة على واحد من الطيرة بعد عشرين سنة ، اليوم قلت لنفسي : ها هو ذا جعلني اسمع على صورة فريدة ، لقد اكتشفت فجأة انني أفهم ما يقوله الناس وذلك بقراءة حركة شفاههم . ولكن اتدري ؟ هراء . طق حنك . في آخر النهار عرفت انني لا استطيع أن اقرأ من حركات الشفاه الا تلك الكلمات المحدودة : فول . عدس . حليب . كوكوس . طحين . تمر وغير ذلك من بضائع الاعاشة . . اما غيرها فلا شيء . . اتعرف لماذا ؟ لان هذا هو كل ما تعلمت ان اسمعه من عشرين سنة . كل يوم كل يوم كل يوم . لا معجزة ولا من يجترحونها . ذلك شيء مثل أن أتعرف في وجه الانسان على البكاء ، ذلك لا يحتاج الى سمع ، لا هو ولا تلك الكلمات المعولة . . . يا لعفريت البؤس كم هو ذكي ! مثلما تتعرف أصابعك على الرغيف ، أنت الاعمى . دونما حاجة الى بصر ، أتعرّف أنا على تلك الكلمات التي ليست لغة ، والتي ترتسم على الوجه مثل الحزن او النعاس او الخيبة . . . »

وعاد الصمت ، صوت الانتظار هذا ، الذي أحسه الآن أكثر من أي وقت مضى مترعا حتى حافته بولادة غامضة ، على وشك ان تنبثق في اية لحظة . أن هذا العالم يدور بسرعة مجنونة وتختلط اشياؤه في فوضى مروعة ما تلبث ان تنداح في حقائق متسقة . هذه اللغة التي يتحدث عنها ابو قيس ، لغة اللاجئين ، لغة البؤس التي لا يسمعها ، ولكنه يراها ، لغة البؤس التي لا أراها ، ولكنني أسمعها ، وغالبا أحسها ، تارة في رغيف الخبز ، وتارة حين تتقصد راحتا يدي بالعرق والدموع . اللغة التي لا يستطيع عبد العاطي لا سماعها ولا رؤيتها .

وأخذ ابو قيس يضرب رغيف الخبز الذي يحمله على حافة الطاولة برفق ، غارقا في افكاره ، ثم مضى يقول :

ــ « اللغة عادة ، وقد تعودت انا لغة الاعاشة ، وانت تعودت لغة بيع الخبز . انني افهم لغة زينة جيدا ، ولغة مصطفى ، ولغة شارع الاسفلت الذي تسير عليه الاحذية والمداحل والدبابات والكلاب ، ترى لو تعودت لغة اخرى ، اما كنت افهمها ؟ اعني لو انني عشت في جو آخر . اما كان لدي لغة اخرى ؟ »

ووقف ثم راح يتمشى في الممر الضيق الذي يفصل الفرن عن دكان البيع ، وجاء حمدان فوضع يده على كتفي ، وقال هامسا :

ــ « لا تترك هذا الشيطان يضللك . اترك الولي بحاله ، ان المعجزات التي اجترحها

تكاد لا تحصى ، سيقطعك الناس اربا » .

قلت له :

ــ « هل ستذهب اليه الليلة ؟ لماذا لا تذهب يا حمدان ؟ اطلب منه أن يعطيك قميصا ، أن يعطيك حذاء تدخل به الى العيد . ان يعطيك ابا أنت الذي عشت عمرك بلا اب ، ماذا أعطاك سمعنا وصيتك ، واذا لم يعطك تنضم الينا » .

ــ « أنتما كافران متساويان . هل يعني ذلك انك مصر على الذهاب لتخريب قبر الولي وقطع شجرته ؟ »

ــ « لست أدري ، اسأله »

ــ « ولكنه لا يسمع » .

ــ « اكتب له السؤال .. »

ــ « لا أعرف » .

ــ « اذن اسكت » .

ــ « لا . اريدك انت ان تجيب ، هل ستذهب ؟ »

احسست بصدري يمتلىء فجأة بالهواء ، فتنهدت مرة ومرتين . كان ابو قيس قد كف عن التجوال الحائر فجلس على الكرسي الواطىء ومضى يزداد غوصا في صمته الفريد .

ــ « هل ستفهم ؟ هل ستفهم لو قلت لك ؟ اذن اسمع : لا حاجة بعد لتخريب قبر الولي وقطع شجرته . ذلك عمل لا يريد شيئا ولا ينقص شيئا بالنسبة لي . الولي عبد العاطي مات ، انتهى ، خلص ، فاذا ذهبت ونكشت قبره وأحرقت شجرته فذلك مجرد احتفال، مجرد احتفال ، وليس هذا هو المهم ، هل فهمت ؟ »

وفجأة قال ابو قيس كمن يكمل حديثا بينه وبين نفسه :

ــ « وماذا سنفعل الآن يا عبد العاطي ؟ »

وأحسست بعينيه تفترسان وجهي ، مثلما اشعر احيانا بأذني مشرعتين امام أدنى طنين، مثل فخ جيد الاخفاء تحت الحشائش ، الا انني لم أقل شيئا ، كانت كل الابواب في رأسي مغلقة ، ولم ينتظر أبو قيس طويلا ، فدمدم ساخرا :

ــ « تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء » .

ومضى يضحك ، فأتذكر تلك الليلة الغريبة في البرية ، حين كان صوته الضاحك يشبه صوت افراغ قربة ماء ، يرتد صداه من خلف الاشجار وتحت الحجارة واعماق التراب. تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء . انه ينظر الآن ، بلا ريب ، نحو حمدان . أجل ، تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء ؟ ولكن لا بد منها. ها هم الرجال يرفعون أعمارهم عن الخطاف المتدلي من السماء ويمضون ، يتلمسون بأصابعهم رأس الولي المتفجر ثمرة على شجرة ويعتصرون نداوته فيجدونه ثمرة فقع بلا وعود . يلتقي المهزومون المكسورون المحزونون فوق البلاطة التي تنام تحتها المعجزة ، فلا يرون تحتها الا جثة الموت الجبان . تصبح الامور عسيرة حين يموت الاولياء ، تنهار جسور الوهم وتتعفن الوعود ويتعين عليك أن تحمل قدرك .

ــ ٩ ــ

مضيت طوال الليلة التالية احلم حلما قصيرا واحدا ، اصحو من اعماقه مذعورا ، ولكنه ما يلبث ان يعود فيتكرر وكأنه اعادة عرض لشريط مصور : كنت اری نفسي متجها الى

مكتبي في وكالة الغوث ، وفجأة اجدني واقفا فوق اكياس الطحين، وباب المخزن مشقوق شقا رفيعا يدخل منه شعاع الشمس مثل نصل سكين ، وعبر هذا الشق ارى اكوام اللاجئين تغلي على امتداد البصر ، واشرع وسط طنين لا مثيل له بالقاء خطاب ، ويختلط الامر فاذا بي أنظر من شق الباب الى زينة واقفة هناك تخطب وانا احـــاول أن افهم صوتها الغاضب ، الا انها تنزل بين ذراعي مصطفى ، واعود فأخطب وقد استبد بي غضب يملأه الالم ، وتتحرك الجموع وتحطم باب المخزن ، وفجأة تمتلىء اذناي بأصوات ضجيج لا قبل لي باحتمالها ، وأرى عبد العاطي وسط السيل يتدافع بالاكتاف ، واصحو.

وكنت أعرف ان الذهاب الى مكتبي في الوكالة ، صباح اليوم التالي ، سيكون مؤلما ، وان شيئا ما قد حدث في حياتي ، لا أستطيع تبينه على وجه الدقة . لقد حطمت شيئا وليس لدي ما أستعيض به . كنت أعرف انني لن أطيق ، بعد ، العمل في المكان الذي وضعوني فيه عشرين سنة ، ولكنني لم أكن لأعرف اين يتعين علي أن اتجه . ليست الحياة الا سلسلة تأخذ فيها الحلقة بيد الحلقة ، فاذا اكتشفت وليا أدخلت العالم تحت جبته ، واذا قتلته أخرجت العالم كله من هناك ، ولكن الى اين ؟

واخذت اتذكر الشيخ حسنين ، امام الجامع في طيرة حيفا ، فقد كان جارنا ، وظل يشدد علي وعلى أبي حتى صرت أذهب الى الجامع ، ولكنني كنت أخفق في سماع خطاباته كل يوم جمعة، وذات يوم قلت له وهو يأخذ بيدي خارج المسجد : « لو كان يريدني أن اسمع خطبتك لأعطاني اذنين » ولفرط دهشتي ضحك الشيخ حسنين ضحكا شديدا ، وصار يتراخى في تشديده علي حتى تركت تقريبا عادة الذهاب الى المسجد ، ولكنني صرت أكثر اعتمادا على أبي ، وقد لاحظ الجميع ذلك الى حد كان يبعث في الالم ، وقد انضم الشيخ حسنين الى المجاهدين في الطيرة ، وكان منظر عمامته فوق البدلة الكاكية طريفا ، وبدت البندقية على كتفه وكأنها خدعة دينية ، لا اكثر . ولكنه في الحقيقة كان مقاتلا من الدرجة الاولى ، وكان دوره مهما الى أن استشهد ذات ليل ، واخفق الرجال في العثور على جثته من فرط ما كان متقدما على خطوط البلدة .

تذكرت الشيخ حسنين لانه عندما مات شعرت تقريبا بما اشعر به الآن . ذلك الفراغ المروع الذي يضعك على عتبة قرار جبان ، وقد فعلت ، اذ انني أخذت منذ ذلك الوقت أنتظر المعجزة ، وحتى عندما وقعت الواقعة كنت اشعر في أعماقي بأن معجزة ما قد أنقذتني . وقد حدث الامر كله في لحظة صغيرة لا تكاد ذاكرتي تحصرها : يبدو انني لم أسمع أصوات الانفجارات ونحن نجلس أمام بيتنا في الطيرة ذلك المساء ، واندفع والدي وشقيقي وأمي عبر الطريق الى حيث يقوم الملجأ المرتجل ، وسقطت عليهم القنبلة وهم في منتصف المسافة ، اما انا فكنت ما ازال جالسا في مكاني ، وانقذني الصمم ، وقلت لنفسي سنة وراء الاخرى ان المعجزة قد وقعت ، وأنني ادين بحياتي لعلة طالما شكوت منهـــا .

الآن ، لا فرار . لعل وجود عبد العاطي قد دفع القرار الى نهايته ، فتمزق كل شيء دفعة واحدة ، وليس ثمة الآن الا ذلك المفترق بين طريق الحياة وطريق الموت ، ذلك المفترق الذي تميزه فجاة ، والذي تكتشف انك أمضيت عمرك تراوح أمامه دون ان تتخذ قرارك ، ليس لانك لا تريد ، ولكن لانك غافل عن ضرورة ذلك .

القرار . القرار . القرار . ماذا استطيع انا وعبد العاطي ان نفعل في وجه هذا العالم ؟ هل بقي لدينا ، بعد ، متسع من الوقت لنفعل شيئا ؟ أم تراه بقي متسع من الوقت لكي نعود فنمزق صفحة عبد العاطي الولي من حياتنا وننساها ونعود الى امكنتنـــا وكأن الزلزال لم يقع ؟ .

ولكن قدمي ساقتاني ، دون ان أعي ، الى مكتبي في وكالة الغوث . دخلت وشلمت

وجلست الى طاولتي . اخرجت القوائم ، وراحت الاسماء المتشابهة تمتد امام بصري مثل طريق لا نهاية له ، وبدت لي فجأة سلسلة من القيود التي تكبلني وتحول دوني ودون ان اتحرك . خطر لي أن أستل القلم الاسود العريض وامضي اشطبها واحدا وراء الآخر، او أختار اسماء بعينها فأشطبها ، ولكنني استبعدت ذلك ، وأخذت انظر الى المخزن عبر الباب نصف المفتوح ، حيث كنت أقف في حلمي وأخطب بصوت مجلجل ، وخيل الي ان الباب الكبير للمخزن سيتحطم تحت قبضة الجموع في لحظة واحـــدة ، وان اللاجئين سيتقدمون صفا وراء صف مثل سيل لا يكف عن الهديـــر ، وان اصواتهم الغاضبة ستحطم ، فيما ستحطمه ، بوابات الصمت المغلقـــة في أذني . سيحدث ذلك . هذه اللحظة . هذه اللحظة . وقفت واستندت على الطاولة وأخذت أحدق ببوابة المخزن . هذه اللحظة . الدوي سيتفجر الآن . الآن . الآن . فجأة استبدت بي استثارة لم أعشها في حياتي ، وشعرت انني أرتجف بلا هوادة وكادت عيناي تنفجران وانا أصوب نظري الى ذلك الباب المغلق . كأنه باب الصمم . باب الموت . باب القدر الذي لا يهزم والذي يوشك في اللحظة التالية أن يتقوض . كنت في قرارة نفسي متيقنا من انه سيتحطم امام الاكتاف المتكدسة وراءه لصف من اللاجئين طوله عشرون سنة مرة . سيتحطم في أية لحظة . فجأة ضاع ذلك الحد الذي يفصل بين الحلم وبين الحقيقة وامتزج كل شيء ، ورأيت بعين الحقيقة ما رأيته ليلة أمس مئة مرة بعين الحلم . انهم يجمعون ارادتهم في اكتافهم وراء هذا الباب ، يكورون قبضاتهم فتصبح مثـــل الصخور المحيطة بصفد ، ويستعدون . هذه اللحظة . هذه اللحظة . الآن . الآن . الآن .

ولكن غور الصمت اصبح اشد عمقا، وظل ، كما كان دائما ، يخيم على كل شيء ، نظرت حوالي ورأيت في عيون الموظفين نظرات الدهشة المليئة بالخشية تنصب عليّ من كل جانب ، وكان مصطفى يبتسم ابتسامة لا تكاد ترى . تنهدت ، وفككت التوتر من قبضتي يدي اللتين كانتا ما تزالان مكورتين فوق خشب الطاولة ، وعدت فجلست .

بذلت جهدا كي لا انظر مرة أخرى الى ذلك الباب الكبير المغلق ، الصامت ، الذي يشبه شاهدة ضريح . ثم قلت لنفسي : « ها انت مرة أخرى يا أبا قيس تتوقع معجزة . لا . ان الامور يا حبيبي لا تحدث كذلك .. الله عليك شو خفيف ! »

— ١٠ —

نمت في غرفة الفرن ، فوق فرش الخبز ، وقبل ان اغفو سمعت خطوات حمدان الخافتة تتجه الى الباب ، حيث مد فراشه ونام . قلت لنفسي : « انه ينام أمام الباب كي يصحو اذا ما حاولت الخروج . لقد وجد لنفسه اخيرا عملاً مفيدا يرضي ضميره . عين نفسه دركيا لحراسة الولي !. آه كم يحتوي كيس البؤس من الاخاديع ! انه يشبه نبعا لا تنضب مياهه .. » .

وبدا لي حمدان ، بجسده الضئيل وطيبته وتصميمه ، سدا يشبه جدارا من الصخر ، يقف أمامي وأمام ابي قيس ، وانه ، على صغره ، يحجب من امام اعيننا امتداد الطريق الذي ضيعناه . أخذت اسمع تنفسه الثقيل ، تنفس رجل اعتصر عضلاته طوال النهار بالعمل المضني ، وهو يغطس في عالم النوم كما يغطس رجـــل في العمى او رجل في الصمم ، وكان نومه هناك تمثيلاً طريفا لواقع احسه احساسا صميميا : فقد كان فعلا يغلق الباب بجسده القوي ، ويعرقل امامي طريق الخروج ، لو شئت ان اخرج ، وبدا لي ان اختياره العفوي هذا ليس في الحقيقة الا تجسيدا عابرا لدوره في حياتي .

ولم أكن اعرف من حمدان الا صوته ، وهو صوت فتى عقد عزمه وقر رايه وملأ نفسه بقناعات صغيرة ولكنها متراكمة في كل جسده . كانت زحزحته مستحيلة ، وكان الحوار معه أكثر صعوبة . ففي عالم مرتب على تلك الصورة التي في راس حمدان يستحيل

العبث بالاشياء الموضوعة ، منذ الولادة ، على رفوف الذاكرة ، نائمـــة تحت الغبار والقبول والاستسلام الكلي .

ولست أعرف على وجه التحديد من أين اتى ، وما الذي انتهى به الى هذا الفرن . وكان هو ضنينا في الحديث عن ماضيه ، ولكنني علمت ، مثلما يجمع الانسان شظايا صحن زجاجي محطم ، انه لم يذهب الى المدرسة الا أياما قليلة ، وقد تزوجت أمه بعد شهور من ذهاب والده للسجن ، وأذاقه زوج أمه مر العيش ، فقد كان فقيرا ، وفظا وشرها ، وحين وجد في طريقه طفلا مستسلما مستعدا للقبول ، اخذت شراسته تشتد ضراوة .

وقد لجأ الى أماكن عديدة الى ان انتهى به الامر الى هذا الفرن منذ عشر سنوات تقريبا ، ونحن ما زلنا منذ ذاك نعيش معا ، ونشكل ثنائيا غريبا فاقت شهرته حدود الحي الذي يقوم فيه الفرن . كان جسده قد أضحى قويا بلا حدود ، وصار مضربا للمثل في البأس والشدة ، الا أنه لم يستخدم قط تلك القوة الهائلة النائمة في ساعديه واكتافه لتحقيق اي نوع من أنواع العنف ضد اي كان ، لقد كان فعلا على قناعة عميقة بأن أمور هذا العالم لا تحتاج الى تقويم ، وان القوة في جسد الرجل ليست الا رفاها اضافيا يمكن الاستغناء عنه ، وانه اذا ما اعترضت حياة الانسان معضلة ما فلا سبيل لزحزحتها الا بالمعجزة ، وليس بقوة العناد او بعناد القوة .

ومنذ عشر سنوات وانا أنظر الى العالم بعيني حمدان ، ومع ذلك فانني لم استطع أن أرى شيئا حقا ، كان العالم بالنسبة لعينيه منبسطا كأنه مرسوم على بلاطة وكان يرى الاشياء والناس على صورة فريدة من البساطة والآلية ، وفي أحيان كثيرة كانت رؤيته تشكل في ذهني جدارا او بابا بيني وبين الحقيقة في شكلها الأكثر صفاء ، تماما كما هو نائم الآن أمام الباب .

ومنذ أيام قليلة وأنا أحس ذلك اكثر من اي وقت مضى ، واكاد ارى في حمدان قيدا يزداد ثقله ، ومع ذلك لا غنى عنه بالنسبة لي ، أنا الذي أدرك كيف تحول خلال عشر سنوات الى جزء لا يتفكك من حواسي ، وتحولت في هذه السنوات العشر الى جزء ثابت في عالمه، والى رف كبير داخل رأسه ، يضع عليه أشياء الذاكرة ، وصور العالم ، المدفونة تحت غبار لا يريد مسه .

— ١١ —

كان يوم جمعة ، عطلتي من العمل في مكتب توزيع الاعاشة في وكالة الغوث . ومع ذلك صحوت باكرا على غير عادتي في أيام العطل ، ولما شعرت بأنني نهب للحيرة والضجــر والافكار المتناقضة ، مضيت أزور عبد العاطي .

وقد وصلت الى الرصيف المقابل للفرن في ساعة مبكرة جدا ، وكان النهار ما زال محتفظا بطعم النوم ، وغير قادر بعد على ان يكون حقيقيا تماما ، كأنه لم يسحب نفسه بصورة كاملة من عالم الاحلام الصامت . ولعل ذلك بالذات ما جعلني أرى ما رأيت على تلك الصورة المدهشة : فقد كنت اعتزم عبور الشارع الى الفرن عندما لاح لي عبد العاطي واقفا قرب الواجهة . كان ما يزال لابسا ثوبه الليلي الابيض ، وكان يزن خبزا لزبون لم يكن بوسعي أن أراه من مكاني ، وهكذا فقد كان واقفا بطول قامته وذراعه امامــه ترفع عصا الميزان النحاسي ذي الكفتين المربوطتين اليها بالسلاسل وهو يقوم بوزن الخبز وقد وضع تحت ابط ذراعه الاخرى عدة ارغفة اضافية ، فيما مضى يتجه بعينيه الضريرتين الى الامام مثلما يفعل العميان حينما ينصرفون الى تركيــز وعي حواسهم الاخرى .

كان الصباح الممتلىء بجو الليل يخيم على الطريق ، والفرن من الداخل ما يزال مظلما تقريبا ، وهكذا فقد بدا عبد العاطي الواقف قرب الباب بثوبه الابيض الطويل وكأنه .

يتوهج بنور خاص ، يمد ذراعه بخط مستقيم وهو يرفع حلقة الميزان ويصوب راسه الى الامام كأنه ينظر الى آفاق لا يراها غيره ، ويضع تحت ابطه عدة ارغفة ، فأراه مثل تمثال من الرخام المتوقد بالحياة .

وقفت انظر اليه عبر الطريق ، ولا ريب انني كنت مأخوذا تماما ، اذ لاحظت ان احد المارين اخذ يحدق الي ، ثم نظر الى حيث كنت انظر الا انه لم يجد على باب ذلك الفرن ما يستحق الانتباه ، فعاد ينظر الي مدهوشا ، وقال شيئا ثم مضى .

عبرت الشارع وكانني مسحوب بخيوط غير مرئية الى حيث يقف عبد العاطي ، وحين وصلت قربه شاهدت الزبون الذي كان يزن الخبز له ، كان ولدا صغيرا حجبه أحد أعمدة الواجهة عن نظري حين كنت على الطرف الآخر من الطريق ، اما عبد العاطي فقد كان يوشك ان يضع الميزان جانبا ، وظننت انه لم يشعر بمقدمي اذ وقفت بلا حراك اشرب بعيني المزيد من ذلك المشهد الذي ظننت انه غير حقيقي تماما .

في اللحظة التالية وجه عبدالعاطي رأسه نحوي وابتسم ، فعرفت انه احس بمقدمي ، فقلت له :

ـ لا تتحرك . ابق واقفا لحظة واحدة اخرى ... انك تبدو مثل تمثال قديم .. تمثال العدالة . تلك المراة التي تحمل ميزانا وسيفا ، ويبدو لي رغيف الخبز تحت ابطك اكثر معنى من ذلك السيف الذي تحمله امراة معصوبة العينين ...

ونظر الطفل نحوي ، ثم عاد ينظر الى عبد العاطي الذي ظل واقفا دون حراك ودون ان يرتسم على وجهه أي تعبير ، ولم أسمع ما قاله الطفل لعبـــد العاطي الذي رد عليه مبتسما ، ثم جاء الولد يدب من الداخل ويتصبب العرق على وجهه من حرارة الوقد الذي كان يحشوه في بيت النار . كان عاريا فوق سرواله الابيض المتسخ ، وكانت عضلات صدره وكتفيه تبدو متسقة وجميلة وقوية دون حدود . نظر الي بامتعاض ، ولم استطع معرفة ما اذا كان قد حيا او شتم ، فظللت صامتا .

كان يتجه الى الطاولة يبحث عن شيء ما ، فتح الادراج وعاد فأغلقها ، ورفع الصحف والاكياس ونظر وراء الواح الخشب ، واخيرا مد يده خلف احد تلك الالواح وتناول من هناك سكينا كبيرة طويلة النصل من ذلك النوع الذي يستخدمونه لتقطيع العجين، وخطا عائدا الى الفرن .

الا انه بعد خطوتين اثنتين عاد أدراجه ، وأخذ ينظر الى عبد العاطي واقفا هناك ، ما يزال ، جامدا . أمسكه من ذراعه بقبضته القوية وقاده بحنان لا مثيل له الى حيث اعتاد ان يجلس ، ثم اخذ الميزان من كفه واعطى الخبز للطفل وقال شيئا دون ان ينظر الى احد ، وعاد أدراجه الى الداخل .

وفي لحظة صغيرة ، تكاد لا تحس ، تقاطعت الاشياء والاشخاص على صورة فريدة ، فقد تداخل ذلك الجسد الفولاذي العاري ، المتصبب بالعرق ، وتلك السكين ذات النصل اللامع الطويل بذلك الوهم الذي خيم علي عندما شهدت عبد العاطي واقفا والميزان مرفوع امامه ، على امتداد ذراعه ، عاليا ..

هززت راسي بعنف ، وقلت لنفسي انني رجل اخذت منذ أيـــام افقد صلتي بالواقع الذي عشته حتى الامتلاء كل عمري ، وأنني أغوص في عالم الاحلام والاوهام والرؤى العجيبة، وارى الاشياء والناس والحركات كما لم يحدث لي قط من قبل في حياتي ، واورثني هذا كله شعورا مفاجئا بالتعاسة ، فقد تذكرت ما حدث أمس الخميس في مكتبي في مركــز توزيع الاعاشة عندما كنت طوال لحظات خارجة عن عالم المعقول متأكدا من أن جموع الواقفين على البوابة سيحطمونها وأن جدار الصمت المبني بيني وبين العالم سيتحطم في

اللحظة ذاتها ، وقد احتاج خروجي من ذلك الوهم جهدا يكاد لا يصدق ، مثلما يقتلع الرجل جذر شجرة ، وكدت اجعل نفسي نكتة الموظفين في المكتب .

والآن ، أول ما يحدث لي هذا الصباح شيء لا مثيل له ، فاعيش بين عبد العاطي والولد والطفل ، الخبز والميزان والسكين ، حلما جديدا يكاد يشبه كابوسا يصاب به حارس ليلي جديد لمتحف قديم .

لا شك ان شيئا رهيبا يحدث لي ، ولا ريب بوجود مخرج ما ، لـــم استطع الى الان استكشافه او تلمسه ، وكان عبد العاطي جالسا هناك ، مغوصا هو الآخر كما بدا لي ، في عالمه الذي لا يعرف احد اين يقع قراره ، وقلت لنفسي : أتراه يفكر بالشيء ذاته ؟

قلت فجأة ، دون أن أدرك بالضبط ما الذي كنت أنوي قوله :

ـــ « أتعرف يا عبد العاطي ؟ يتعين علي انا وكذلك انت ان نفعل شيئا . لا ينبغي ان نستمر كذلك ، لم يعد بوسعنا أن نستمر حتى لو اردنا . يجب ان نفعل شيئا . . . »

وكان عبد العاطي يتجه برأسه نحوي ويستمع بكل جسده ، ليس بأذنيه فحسب ، وقد هز رأسه موافقا على ما قلت ، الا انه أشار الى داخل الفرن اشارة لها معنى ، فقلت :

ـــ « تقصد الولد ؟ أنا وانت والولد ؟ »

هز رأسه ، فيما مضيت اقول :

ـــ « وماذا ينفع ذلك الولد ؟ انني متأكد انه يكرهني ويكرهك ، وذات يوم سيقتلنا » .

ابتسم عبد العاطي ، وقال شيئا وهو يهز رأسه منكرا ما قلته ، الا انني لم اكن مقتنعا بجدوى هذا الثلاثي المتنافر الذي لا يعرف اين يتعين عليه ان يذهب .

قلت :

ـــ « طيب . . . حتى لو كنا ثلاثة ، أنا وانت وذلك الولد ، فماذا ترانا سنفعل ؟ »

ولم أعد احاول معرفة ما سيقوله عبد العاطي ، فقد كنت متأكدا انه يعيش مثلما اعيش، وسط تلك الغابة الكثيفة من علامات الاستفهام ، فمضيت اتحدث وكأنما لنفسي :

ـــ « نستطيع مثلا أن نذهب فنحطم قبر الولي ونخلع شجرته وننفش غلنا . نستطيع أن نذهب فنضرب مصطفى ونرغمه على الزواج من زينة . نستطيع أن نلقي خطابا في جموع اللاجئين الذين يقفون بالصف لتسلم الاعاشة . نستطيع أن نفعل ذلـــك واكثر . . . نستطيع أن نعود الى الطيرة . . الا نستطيع ؟ »

تلك اللحظة دخل الولد مرة أخرى ، قادما من الفرن ، ويبدو انه سمع جزءا مما كنت أقوله ، فرماني بتلك النظرة القاسية التي يعطيهـــا جسده الحديدي العاري نبرة أشد قسوة ، واتجه الى عبد العاطي بالحديث ، وقد استغرق الاثنان بالجدل فجأة حتى انهما لم يلتفتا الي وانا اقف ، ثم أغادر الفرن خارجا الى الطريق الذي كان يسبح ، صامتا ، في وهج الشمس .

ـــ ١٢ ـــ

ها انت تغطس في عتمة الذاكرة كما تنطفيء الشمعة ، ايها الولي المقدس النائم في البرية تحت شجرته المباركة ، وحين ذهبت انما اخذت معك كل الشموع التي اضاءتها أمي في ليلي الذي قالت لي انه سيمتد الى الابد ، وقد حسبت أن العتمة ستزداد حلكة ، ولكنها بقيت على حالها ، وها انت ذا توغل في الماضي كأنك لم تكن قط .

وطوال أيام ، بعد أن قتلناك تلك الليلة في اعماق البرية ، كنت انتصارنا الذي رد الينا نبض الحياة في صدورنا ، وها هي الأيام تمضي ، فاذا بموتك يفقد نضارته ، واذا بنا

نحسه في أيدينا انتصارا صغيرا يذوب ويفقد توهجه ، انت يا درع البؤساء الوهمي ، ما الذي فعلته بنا ؟

كنت درعنا وكنا نحسب انك تحمينا من طعن رماح الزمن الذي نخوض في غماره ونسبح بين انصالها ، وحين أطرحناك عرفنا اننا لم نكن نخوض في غابة الزمن ، وكنا واقفين على ضفته واهمين ، متمسكين بذلك الدرع الذي هو انت وكان القتال في أوجه .. الآن نحن بلا درع ، ولكننا نخوض في شوك الزمن وفي ناره وفي أمديته ، بصدور مشرعة عارية تطعم لحمها لذلك الارتطام المخيف مع المجهول .

فاعطنا يا عبد العاطي ، أيها الولي النائم تحت بلاطة النسيان ، في البرية التي تعوي فيها الغربة ، القدرة على أن نكرهك ، فقد تيقنا ان موتك لا يكفي ، وانه انتصار يذوب مع الايام ولا نستطيع ان نعتاش على مذاقه الذي كان له ، ذات ليلة ، طعم القضاء والقدر .

فاعطنا ، ايها الولي الذي صرفت من اعمارنا عمرا اضافيا لك ، القدرة على أن نكرهك بكل وشيجة من وشائج قلوبنا ، فليس امامنا ، بعد ، الا أن نحييك بالكراهية ، كي نقتلك مرة أخرى . فكما صرفت أنت من أعمارنا كي تعيش ، لا نستطيع الا أن نصرف من موتك ، كي نمحوك تماما من حياتنا ، ثم نرتقي فوقك .

— ١٣ —

كان يوما مترعا بالضجر حتى قرارته ، لكأن الناس كفوا عن شراء الخبز لسبب غامض لا يفهم ، وكنت جالسا هناك على باب الفرن ، غارقا في تأملاتي ، حينما جاء حمدان يلهث من الداخل ، وكانت رائحة العرق تفوح من صدره العاري وتملأ المكان ، وقد عرفت انه أراد الكلام ، فتلك هي عادته حين كان يعتزم مفاتحتي بأمر يشغل باله ، وكنت أحسب انه يريد انهاء ذلك الخلاف ، بيني وبينه ، حول منزلة الولي عبد العاطي ، اذ انني لم أكن اعرف ان هناك ما يشغل باله في هذه الايام اكثر من هذا الموضوع ، الا ان ظني خاب تماما فقد تنهد ، ثم قذف جملته دفعة واحدة مثلما يرمي المرء صندوقا ثقيلا عن ظهره :

— « لقد عاد والدي » .

واخذت بهدوء امتص الصدمة حين لطمتني هذه العبارة القصيرة دون توقع مني ، ورغم انني كنت طوال السنوات الماضية على يقين من أن ابا حمدان ، الذي لم اعرفه قط الا من خلال احاديث قصيرة متقطعة مع حمدان ، لا بد له أن يعود يوما ، الا انني ابدا لم اتصور ذلك يحدث على هذه الصورة ، بل انني لم اتصوره يحدث على أية صورة ، فقد كنت اتوقع حدوثه ، ليس غير .

وعاد حمدان يكرر عبارته ، بعد ان تصور انني لم اسمعها :

— « لقد عاد والدي . أطلقوا سراحه أمس » .

ولا ريب ان حمدان لاحظ كيف انتفضت ، اذ انه لم يقل لي قط ان والده كان محبوسا ، وبدا لي لوهلة ان هذا الفتى الذي عشت معه عشر سنوات كاملة احتفظ لنفسه طوال تلك السنوات بحياته الخاصة ، ولم يسمح لي بالتعرف الا على اجزاء يسيرة منها ، الا انني حاولت ان ابدو طبيعيا ، وقلت له :

— « هل انتهت مدة حبسه ؟ »

— « لا ، كان محكوما بالحبس المؤبد . دخل السجن قبل نحو ١٢ سنة ، وكان عمري سنتين ، وربما ثماني . لقد اخذوا منذ شهور قليلة يطلقون المحابيس الذين مثله ،

وانت تعرف لماذا ، الحرب والهزيمة والفدائيون .. انت تعرف .. »

ــ « وما علاقة والدك بالحرب والهزيمة والفدائيين ؟ »

ــ « كان فدائيا .. »

ــ « كان ماذا ؟ »

ــ « كان فدائيا .. »

ــ « منذ ١٢ سنة ؟ »

ــ « نعم ، دربوه في سوريا ، ونزل الى هناك عدة مرات .. »

ــ « ولماذا حكموه بالحبس المؤبد ؟ »

ــ « اطلق الرصاص على خمسة من العسكر ، فجرحهم وسلم نفسه .. »

ــ « عسكر ماذا ؟ »

ــ « عسكر في الاردن . كان ذاهبا مع شخصين الى الداخل فأطلقوا عليهم الرصاص . مات واحد ، ووالدي اخذ يطلق النار على العسكر ... هذا غير مهم الآن » .

أخذت نفسا عميقا وتنهدت ، ولاول مرة في حياتي شعرت انني راغب حتى أعماقي في التعرف على وجه حمدان ورؤية تعابيره وهو يروي ذلك كله ، اذ أن صوته كان محايدا كانه يتحدث عن كمية الطحين التي يتوجب علينا ان نعجنها اليوم ..

وامتد صمت قصير بيننا ، الا أن حمدان قطعه فجاة :

ــ « كان من الافضل لو ظللت صامتا . لا يجوز ان اتحدث لاحد عن ذلك كله ، كان عليك أن تطلب مني السكوت » .

ومع ذلك فقد كان منساقا الى الحديث كأنما بقوة لا يستطيع ايقافها ، وقد تردد لبرهة قصيرة فقط ، ثم مضى يقول :

ــ « لو رأيته في المحاكمة ! كنت مع أمي ، وقد حكمه القاضي بالحبس المؤبد ، فنظر توا من داخل القفص الى أمي ومد نحوها ذراعــه وصاح : « روحي طالقة بالثلاثة طالقة ، طالقة » ثم أدار ظهره دون أن ينظر الي ، وخرج من القفص بين الحراس » .

وصمت قليلا ، ثم تنهد :

ــ « وها هو يعود ... اطلقوا سراحه امس . لو كانت أمي تعرف ان ذلك سيحدث لما كانت ... »

وصمت فجأة ، وبدا لي انه لن يتكلم قط بعد هذه اللحظة ، ومع ذلك فقد ظللت محتارا في سبب مفاتحته لي بالأمر كله ، أتراه ينوي ترك العمــل في الفرن ؟ أم تراه يستكشف الطريقة التي يتعين عليه ان يعامل بها هذه الحقيقة الجديدة في حياته ؟ لا ريب أنه محتار حتى قرارة أحاسيسه ، فلم يحدث له قط في حياته ان واجه حالة على هذا المستوى من الخطورة ، الا ربما عندما قر قراره ذات يوم على الفرار الــى الابد من بيت امــه وزوجها ..

وعندما طال سكوته ، سألته :

ــ « وما الذي ستفعله الآن ؟ »

ــ « انا ؟ انا ؟ لا شيء . لماذا ؟ ماذا تغير ؟ حسبت انك تسأل عما سيفعله هو .. »

ــ « صحيح . هو .. ما الذي سيفعله يا ترى ؟ »

ــ « لست أدري . هذا ما يحيرني . . »
ــ « كم عمره الآن ؟ »
ــ « ٣٨ أو ٤٠ سنة ، واعتقد انه ما زال قويا ، ولكنني لا أعرف شيئا عنه ، بل انني لا اعرف الى أين ذهب ».

وخيم الصمت ، أعمق غورا ، هذه المرة ، ووقف حمدان ثم سمعت خطواته تدب الــى الداخل . وما لبثت أن سمعت أصوات أرغفة العجين وهي تصطفق على أرض بيت النار فتصدر ذلك الصوت الحميم الذي يشبه تصفيقا خجولا لطفل يختبىء وراء ظهرك.

كان حمدان ، طوال السنوات التي عرفته فيها ، يميل الى اعتبار والده ميتا ، فقد حذفه من حياته بنجاح او شبه نجاح ، وقد اعتقدت دائما ان السنتين اللتين امضاهما مع امه المتزوجة من ذلك الرجل الفظ هما اللتان شكلتا اساس هذه العادة ، ففي بيت من ذلك النوع لا بد ان يرغم الطفل على نسيان والده وعلى حذفه من وجوده ، ومع ذلك فقد كان من السهل أن يكتشف المرء أن حمدان يحتفظ لوالده بمكانة خاصة في ذاكرته ، ولكن كرجل ميت ليس أكثر ، مثلما يتحدث حفيد عن كنز دفنه جده في مكان مجهول ، ولا أمل له بالعثور عليه ، فلم يبق امامه الا الاعتزاز بذكراه .

ولست أدري بالطبع كيف بنى حمدان لنفسه صورة ذلك الاب الغائب ، الذي تبدت لي حياته الآن عاصفة ومثيرة وايضا محزنة ومغلوبة على أمرها ، ولست أعرف شيئا عن سعة تلك الهوة بين والد حمدان كما هو ، وبينه كما هو في رأس حمدان ، ومهما يكن الامر فقد كنت على يقين بأن حمدان أخذ منذ الآن يقف على عتبة حياة جديدة ، وانني قد أفقده في اية لحظة .

ــ ١٤ ــ

مضت أسابيع منذ ذلك اليوم الذي استطاع فيه عبد العاطي ، بالاشارات والكتابة وكل انواع الاتصال التي اخترعها البشر ، ما عدا السمع والبصر ، أن يشرح لي فيه كيف ظهر والد الولد حمدان الى الوجود فجأة ، قادما من مكان يشبه عالم الموت .

وكان الولد حمدان نفسه قد استغرق في تأمل يكاد لا ينتهي ، ولكنه لم يعد يكترث ، مثلما كان من قبل ، بما يدور حوله ، ومع ذلك فلم يقدر لي ، ولا لعبد العاطي ، أن نرى والد الولد حمدان ولو مرة واحدة ، ولم يكن بوسعنا أن نعرف فيما اذا كان الولد حمدان نفسه يرى والده ، واين ، ومتى .

وفي لحظات عابرة كان يخيل الي ان الولد حمدان اختــرع قصة مثيرة من قلب رأسه الصغير ليشغلنا بها أو يشغل نفسه فيها ، على انني لم أكن على يقين من ذلك ، فقد كنت أشك أساسا في قدرة الولد حمدان على اختراع شيء من هذا النوع .

ومهما يكن من أمر فقد استطاع الولد حمدان ان ينسينا ، ولو الى حين ، قصتنا مع الولي عبد العاطي ، وكان يمكن له أن يجرنا بعيدا عما كنا غارقين فيه ، لولا انني وجدت نفسي انا الآخر اعيش مشكلة غير متوقعة ، فاجأتني في المكتب . .

فقد لاحظنا كلنا كيف أخذ مصطفى يتغيب عن المكتب بين الفينة والاخرى ، ثم امتد غيابه في احدى المرات أسبوعا كاملا . وحين عاد في الاسبوع الماضي كان يلبس بذلة خاكية ، وقد جعلنا ــ كانما دون قصد ــ نرى المسدس الكبير الذي كان يدسه تحت حزامه .

وفي اثناء غيابه كانت الشائعات قد اكتسحت المكتب ، وقيل لي ان مصطفى اصبح فدائيا ، وهو يختفي بين الفينة والاخرى في مكان ما ليتدرب على استخدام مختلف الأسلحة ، وانه قد تسلم قيادة مجموعة من الفدائيين الشبان التحقوا قبل فترة وجيزة بالثــورة الآخذة في الصعود .

كان مصطفى اول من فعل ذلك من بين جميع الموظفين الذين اعرفهم في الدائرة التي اعمل فيها ، وفي الدوائر الاخرى التي ازورها بين الفينة والاخرى ، وقد اكسبه ذلك العمل ، على التو ، نفوذا جديدا في المكتب ، وصار — دون اتفاق مسبق من احد — يلعب دور الرئيس .

على أن مصطفى نفسه ما لبث بعد اقل من ثلاثة ايام ان استغنى عن جميع الاحتياطات المصطنعة التي كان يتخذها ، وصار يتمنطق بالمسدس فوق قميصه الخاكي ، ووضع على صدره شعارا نحاسيا لامعا وعلق وراءه ، على الجدار ، خارطة مضرجة بالدم ، ومعنونة بأبيات من الشعر الوطني .

وأمس جاء مصطفى الى طاولتي ، واخذ يتحدث بصوت غاضب ، ولكن من الواضح انه يجعله عاليا قدر الامكان متوقعاً مني أن أسمع ، الا انني لم افهم شيئا ، وقد هدأت من فورته بحركة متصلة من كفي ، ثم قلت :

— « لا اسمع شيئا .. لا أسمع شيئا ، فلا تتعب نفسك ... »

وصمت قليلا ، ثم احتقن وجهه بالغضب من جديد، واخذ مرة اخرى يصرخ بملء صوته ، واخيرا ، انحنى ، وكتب على ورقة أمامي :

— « ماذا فعلت من اجل وطنك ؟ »

ونظرت اليه مندهشا ، ولكنني لم استطع ان اجيب لتوي على ذلك السؤال المفاجيء ، وقد شعرت — خصوصا — أنه سؤال مهين اذ جاء على لسان مصطفى ، وقد انتهز هو فرصة حيرتي وترددي فالتفت الى بقية الموظفين الذين كانوا يراقبوننا صامتين ، واشار اشارة جانبية نحوي ، واخذ يتحدث اليهم ضاربــا بجمع قبضته ، بين لحظة واخرى ، على الطاولة ، ملوحا بذراعيه ، متقدما خطوة الى الامام متراجعا الى الوراء بحركات شبه مسرحية ، وكان من الواضح ، وأنا أراقب عروق رقبته ، ان صوته آخذ بالعلو درجة وراء درجة ..

وفجاة تذكرت ذلك الحلم الذي عشته فترة من الزمن، وقلت نفسي : « ها هو ذا مصطفى يأخذ مكاني ! » فأخذت ابتسم ، الا انه رآني ، فتقدم نحوي والشرر يتطايــر من بين اسنانه ، وامسك بياقتي بكلتا يديه واخذ يهزني بضراوة وهو يقول شيئا ، هو اغلب الظن شتيمة واحدة مضى يكررها مرة تلو المرة .

منذ زمن طويل لم استخدم عضلاتي التي كانت ذات يوم قوية ، وقد انتابتني في تلك اللحظة قشعريرة من الغضب لم اشعر بمثلها في حياتي . أمسكت زنديه بقبضتي وأخذت اضغط بكل الغضب الذي كان يستعر في صدري — وقد رايت في عينيه انحناءة الضعف، وحين فك اصابعه عن ياقتي ظللت ممسكا بزنديه ، وكان يقــاوم جاهداً ، الا انني ضغطتهما الى ادنى ببطء ، حتى أوصلتهما الى سطح الطاولة ، فضربتهما هناك مرتين ، ثم تركتهما ، وجلست .

وظل مصطفى لحظة ينظر الي مشدوها ، دون أن تنفرج شفتاه عن كلمة . الله الله يا طيرة حيفا ! هكذا تصبح قبضات الايدي من فرط ما تعاملت مع الارض والوعر والشتل ! الله الله يا طيرة العز ! حتى عندما كنت طفلا صغيرا كنت ارى في الحقول المكان الوحيد الذي يصح فيه الكلام . كنت أمضي النهار وأنا ادق بالمنكوش ذاك التراب الذي سرعان ما ينشف من جديد ، أحمل الحجارة ، أستل النبات الضار من جذوره الضاربة في عمق التراب .. الله الله يا طيرة العز ! كنت معروفا هناك — وانا ما أزال فتى — بان القوة الكامنة في زندي " هي من الضخامة بحيث لا يقوى احد على تحديها، ولطالما انتظرت امام الجامع ، في الطيرة ، حتى يفرغ الشبان من اختيار بطلهم حتى اثني له ذراعه على بلاطة

درج المسجد ، ولم يكن ذلك ليستغرق مني الا دقيقة او دقيقتين . . . كم مضى من الزمن دون أن أختبر تلك القوة ؟ أتراها ما تزال مختزنة في جسدي ، أم ان مصطفى بالذات رجل خرع ؟

عدت فوقفت ، ولوحت أصبعي في وجه مصطفى الذي كان ما يزال واقفا هناك يحدق الي مشدوها ، وصحت بوجهه :

ــ « اسمع يا ضرنط ! سأكسر يدك ان حاولت مرة أخرى أن تمدها نحوي . . تستطيع ان تذهب وتتشاطر على الارامل والمطلقات . . . أم تراك تحسب ان البدلة صيرتك رجلا؟ يا حرام الشوم ! »

واخذت شفتاه تتحركان ببطء ، الا ان وجهه ظل جامدا كأن رجلا آخر كان يتكلم في تلك اللحظة . ولم أستطع حتى ان أخمن ما الذي كان يقوله لي ، وما لبث أن استدار ، بعد ان انتهى ، وخرج من المكتب صافقا الباب خلفه بعنف . .

وقد هدأ الغضب في صدري مثلما تنطفىء نار مهملة ، وظللت جالسا الى مكتبي مضطربا طيلة ساعات الدوام ، فقد كنت أحس في أعماقي بأن مصطفى يعد لي فخا ، وانه قد يعود في أية لحظة ويفاجئني بأمر لا أحسب حسابه ، وتوزعتني مشاعر متناقضة . ومع ذلك ، فقد كنت أدرك وسط كل حيرتي أنه يتعين علي الذهاب الى عبد العاطي ، فقد احتاج للولد حمدان ، او لعلني أحتاج الى والده المجهول الغامض . . ولكنني لم أكن اعرف على وجه التحديد ما الذي يستطيعون عمله ، وقد انتظرت بلهفة انتهاء الدوام ، ومضيت لتوي الى عبد العاطي . .

وقد شرحت لعبد العاطي ما حدث ، وكان حمدان واقفا على باب الفرن يستمع بعناية الى كل كلمة اقولها ، ولست أدري لماذا كنت أخشى ، أكثر مـــا أخشاه ، أن يؤلب مصطفى ضدي كثيرا من الناس ، وكذلك الشرطة ، بسبب حديثي المتواصل عن الولي عبد العاطي ، وعن تكرار التصريح بعزمي على هدم قبره وقطع شجرته ، ولعلني قلت ، مرة ، انني سأبول هناك . والواقع ان اصراري على الحديث عن الولي عبد العاطي على تلك الصورة كان سببه بالدرجة الاولى اصرار مصطفى على الدفاع عنه ، فقد كنت عازما على الانتقام منه واغاظته وقلب حياته في المكتب الى جحيم . .

ومع ذلك ، فانني لم أصرح لعبد العاطي بمخاوفي هذه ، رغم انها تمسه مباشرة ، ولعلني كنت خائفا من ان اثير غضب حمدان ، الذي كان ينصت الى حديثي بانتباه فائق ، وكنت أخشى أن يأخذ جانب مصطفى فأفقد تأييده لي .

ولكن ما أن انتهيت من شرح حكايتي مع مصطفى ، وعبرت عن مخاوفي من انتقامه ، وطلبت نصح عبد العاطي ، حتى انغمس حمدان مع عبد العاطي في جدال مطول ، وقد انتهى الامر بأن طلبا مني التريث ، وأن أترقب بحذر خطوة مصطفى التالية .

وقبل أن أذهب لحق حمدان بي ، وقد رأيته لاول مرة في حياتي يبتسم ، وقد شرح لي بالاشارات انه سيخبر والده بكل ما حدث ، مؤكدا لي أن والده له مكانته المهمة ، حتى الآن ، بين قادة الفدائيين .

— ١٥ —

عاد حمدان من عند أبيه ، وشعرت من خطواته وهو يدخل الى الفرن انه يحمل على اكتافه خيبة أمل ، وقد جلس على الكرسي الذي نضعه عادة قرب الباب ، واستغرق في الصمت منتظرا مني أن أحرضه على الكلام ، مثل عادته كلما كان يحمل خبرا سيئا . . وقد تركته صامتا لفترة طويلة ، وأنا افكر فيما عساه سمع من والده الغامض بشأن القضية التي تقلق أبو قيس ، واخذت اتصور ما يمكن أن تكون اثنتا عشرة سنة من

الحبس قد فعلت برجل مثل أبي حمدان ، لعله قد غرق في النسيان ، ولعله حين قطع أواصره بالعالم ، وهم يقتادونه الى ما حسب انه قبره طوال العمر ، فطلق امرأته ، ونسي ولده ، وغرق في وحدته المضجرة ، انما عود نفسه على أن يحتقر العالم ، وليس بوسعك ان تفعل ذلك الا اذا روضت نفسك على اليأس منه الى حد القطيعة معه ، وهي الحيلة التي يلجأ اليها السجناء كي لا يموتوا من الحزن في وحشتهم وبعدهم عن العالم ..

فكيف تراه ينظر الى هذا العالم ، والى الناس ، والى كل المعاني البسيطة التي تشغلنا وتشغل رجلا مثل أبي قيس ؟ أتراه يستطيع ان يخرب حمدان أو يزرع في شبابه غيوم اليأس من هذا العالم ؟

قلت اخيرا ، كي اخفف على حمدان :

— لا ريب ان اباك يسخر من كل شيء ، وهو يرى ان قضية أبي قيس لا تستحق كل ذلك ... بشرفك ، الم يضحك عليك ؟

وبعد هنيهة جاءت الدهشة التي توقعتها ، في صوت حمدان :

— كيف عرفت ؟ قل لي كيف عرفت ؟

— ذلك شيء متوقع ..

— ربما ، ولكنك لا تعرف ! لقد تغير والدي كثيرا ، كثيرا جدا . السجن غيره ، وهو ليس كما كنت اتوقع ...

— ماذا تعني ؟

وأخذ حمدان يتأتيء ، مترددا ، فعرفت انه لا يستطيع التعبير على وجه الدقة عما حدث، فتركته يفكر ، وقد اختار جملة أو جملتين ، على أنه عاد فتوقف في منتصف كل منهما والتجأ الى الصمت . وأخيرا قذف عبارة مختصرة دفعة واحدة وكأنه كان يخاف أن يغير رأيه :

— لقد تعلم السياسة في الحبس !

وخيم صمت طويل بعض الشيء ، ميزته فيه ذلك النوع من السكون الذي اعتدت ان ينشأ بيني وبين ابو قيس . ذلك الصمت الذي يدوي فيه صوت الانتظار ، وكان هذا النوع من الصمت نادر الحدوث بيني وبين حمدان ، وأخيرا عاد حمدان الى الحديث :

— انه طوال الوقت يتحدث عن رجل كان سجينا معه ؛ تارة يقول انه رفيق ، وتارة يقول انه مناضل . وكل شيء له معنى عنده ، ويستجر حديثا طويلا ، وحين شرحت له ما حدث بين مصطفى وبين أبو قيس ضحك وقال ان مصطفى من «جماعة الطق طق» ..

— « جماعة الطق طق » ؟

— اي نعم . قال « جماعة الطق طق » ، أي أولئك الذين يختارون من بين كل المتاعب بند « الطق طق » ..

— ماذا يعني « بالطق طق » ؟

— يعني القواص . يقول ان اطلاق الرصاص نوعان ، نوع يسميه « الطق طق » ، ونوع يسميه السياسة ... وهو يقول ان مصطفى من « جماعة الطق طق » ..

— لم أفهم شيئا ..

— وانا لم افهم ، والظاهر انني اخطأت حين قلت له انك انت الذي تستطيع ان تفهم

عليه ، وذات يوم لا بد ان احضره الى هنا كي تثرثرا حتى تنفلقا . انكما تشبهان بعضكما من حيث انكما تقولان أمورا كثيرة لا معنى لها . .

وقام حمدان من مكانه وأخذ يتجه الى الداخل ، وعندما مر بجواري أمسكت بزنده القوي فوقف ، وسألته :

ــ مهما يكن . . . ماذا بشأن أبو قيس ؟

واجاب حمدان :

ــ قال انه لا يستطيع ان يفعل شيئا ، وان على ابو قيس ان يقلع شوكه بيده . .

وفيما كنت اسمع خطواته تدب نحو الفرن كان رنين الاعتزاز الكامن في صوته ما زال يرن في راسي ، ولم يكن من الصعب على المرء أن يسمع ، تحت نبرة الحيرة التي كانت تكسو صوته ، رنة عميقة من الافتخار بوالده ، انه يتحدث عنه ، وعما قاله ، وكأنـــه تعاليم ينبغي علينا التعمق في حل رموزها واشكالاتها ، ولكن لا ينبغي لنا الشك بصوابها مهما كان الأمر .

وقلت لنفسي ان الاقدار تلعبه ببراعة ، اذا ما حاولنا أن نفهم ، فهاعنذا أضيع نبيا حين أخفق الولي عبد العاطي في نجدتي ، وها هو حمدان يجد وليا جديدا ، ولكنه ولي محير ، ومع ذلك فليست عذاباتنا تختلف كثيرا عن بعضها . .

ويبدو ان حمدان لم يستطع البقاء طويلا أمام بيت النار مع افكاره ، اذ ما لبث ان عاد ، وقد جاءت رائحة العرق التي تنبعث من جسده ، كلما وقف امام النار ، قبل أن تجيء أصوات خطواته . ووقف أمامي ، وسألني :

ــ اتعتقد ان السجن اثر على والدي ؟ أم انه كان طوال عمره هكذا ؟ لقد قال لي هو نفسه انه تعلم كثيرا من السجن ، وان الحظ قد ساق له ذلك الذي يسميه تارة رفيقا وتارة أخرى مناضلا ، فتعلم منه الشيء الكثير . . وقد سألني عما افعل ، وحين قلت له انني اعمل هنا لم يقل شيئا ، بل أخذ ينظر الي بدهشة . .

ــ هل يعمل الآن مع الفدائيين ؟

ــ أعتقد ذلك ، ولكنه يقول ان ما تعلمه في السجن يجعله يعتقد بأن «جماعة الطق طق» بحاجة الى تعلم الكثير ، وانه هو نفسه كان من جماعة الطق طق قبل ١٢ سنة ، اما الآن . .

وخيم صمت قصير ، وفجأة غير حمدان الموضوع ، ولكن دون ان يبدو ذلك التغيير في نبرة صوته :

ــ لقد تحدثنا عدة مرات عن الولي عبد العاطي . .

ــ ماذا ؟

ــ رويت له قصتكما معه ، ومعي ، وسألته رايه ، انت تعرف ، أردت ان أتيقن من هذه القضية . فهي تشغلني منذ فترة . .

ــ طيب ، ماذا قال ؟

ــ لقد ضحك كثيرا ، ثم قال ان الاولياء مثل الافاعي التي في قصة الزير ، اذا قطعت لها راسا طلعت مكانه سبعة رؤوس . . . ثم شتمني ، وقال انني « ولية » . وقال انه ياما هدم الناس قبورا للاولياء ، وياما كفروا ، وياما حلفوا بالطلاق الا يسمحوا لاحد بأن يخدعهم مرة اخرى ، ولكنه قال ان هذا ليس هو المهم ، المهم انك اذا هدمت قبر الولي فعليك أن تقلعه من شروشه ، والا تسمح لولي آخر بأن يأتي من وراء ظهرك . .

انه طول الوقت يحكي هكذا ، تقول له : كيت وكيت يقول لك ، طيب ، ولكن شرط كذا وكذا . كل شيء عنده له أول ووسط واخير ، ودائما يقول ان الامور غير هذا ، وان المسائل أعمق من هكذا .. وهكذا .. ولكنني لا افهم كل شيء ، واظل أهز راسي ..

ـــ انا أعتقد انني أفهم بعض الشيء ايضا ..

ـــ أنت مثله . انتما تتحدثان اكثر من قاضي معزول ، وانا اعتقد انه لم يشعر بالملل في السجن ، فقد امضى الوقت ، طوال ١٢ سنـــة ، يتحدث مع ذلك الرجـل الآخـر بالسياسة ... على كل حال . فقد رايت انه يحتفظ تحت فرشته بمدفع رشاش . هل تعرف معنى هذا ؟ معناه أن الحبس لم يغيره ، اليس كذلك ؟

— ١٦ —

دخل ابو حمدان الى حياتنا عن بعد ، ولكنني لم أره قط ، ولا استطاع عبد العاطي ان يراه ، وكنا نسمعه من خلال الولد حمدان ، ونراه من خلال التغير الثابت الذي كان يطرأ على هذا الفتى يوما بعد يوم ، وكان عبد العاطي يستمع الى الولد حمدان وهو ينقل تفاصيل مقطعة عن الكلام الذي كان يتبادله مع ابيه، ومن ثم كان يشركني بالحصيلة عبر أساليب مختلفة كنا ، دون أن ندري ، نطورها نحن الثلاثة معا من خلال احتكاكنا المتواصل ، ومن خلال المواضيع التي كنا نرى انفسنا نبحثها في كل يوم .

ولم يعد مصطفى يخيفني ، وفي الحقيقة انه لم يخفني قط قبل ذلك ، الا انه كان يثير في خشية بالنسبة للمستقبل ، ومع مضي الايام اخذت انا ، واخذ بعض الموظفين ، يدركون بأن الحدود التي يستطيع ان يصلها في نشاطه ليست بعيدة الى الحد الذي اعتقدناه في البدء ، وان مسار يومياته قد مضى على الاسلوب نفسه الذي كان لها منذ ان عرفناه ، لعدة سنوات خلت ، الا ان زيادات طفيفة ـــ مثل ملح الطعام او بهاراته ـــ قد طرأت هنا وهناك على نشاطه اليومي .

وقد كانت حياتنا تسير بشيء يشبه الهدوء ، لولا ذلك الطعم الجديد الذي ادخله حمدان اليها ، بطريقته المفعمة بالتحير ، الى أن حدث ذات يوم حادث بدا لي صغيرا في لحظتها، ولكنه لم يكن كذلك كما تيقنت فيما بعد ، فقد كنت في مكتبي في الوكالة حين أحسست بأن شخصا ما يقف قرب طاولتي ، وحين رفعت بصري وجدت زينة واقفة هناك وهي تحمل احد أطفالها على خاصرتها ، وقد بدت لي اقل جمالا مما تصورت ، ولا شك ان الحزن قد أنهكها ، وكانت تتحدث الي والدموع تملأ عينيها ، الا انني لم اكن لأفهم شيئا ..

وفجأة اصطدم بصري بمصطفى الذي كان جالسا وراء طاولته ، قبالتي يسترق النظر دون ان يتحرك ، فأشرت لها ان تذهب اليه ، ولكنها دون ان تنظر الى حيث اشرت أخذت تهز رأسها رافضة وهي تصرخ ، وشرع طفلها يبكي ويتمسك بها ، ودون توقع مني بدأت دموعها تنهمر وكأن ابوابا موصدة امام عينيها قد فتحت فجأة على مصاريعها.

وربما لن اعرف ، طوال عمري ، ما الذي كانت تقوله تلك اللحظة ، واشعر في كل لحظة بندم شديد ولا أدري لمن يتعين علي ان أوجه وخزاته ، اذ لست اعرف من الذي ينبغي أن يلام ، ولقد استدارت وخرجت من المكتب وانا انظر الى كتفيها يهتزان من تاثير النشيج الذي كانت غارقة فيه ، وكان رأس طفلها المعلق على خاصرتها يهتز هو الآخر بتناغم محزن ، وفي تلك اللحظة نظرت نحو مصطفى ، واعتقد انني شهدت ، للحظة اقل من الثانية ، بقايا ابتسامة خبت بسرعة حين شاهدني انظر اليه ، وعندها فقط مر في راسي قرار صغير ، بأن انهض واتجه نحو مصطفى واستل عمره من عروق رقبته ، ولكنني هدأت بسرعة ، وتنهدت ، وعدت الى أوراقي .

العاشق

في البدء لم يعرف أحد في الغبسية كيف جاء قاسم اليها وسكن فيها ، دخلها ذات يوم كما تدخلها الريح القادمة من الجبل وصار لتوه شيئا من أشيائها الصغيرة ولكنه أبدا لم يستطع ان يكون من ناسها ، ويبدو انه هو ذاته لم يكن راغبا في أن يصبح كذلك . لقد تسلل اليها بلا صوت وبقي صامتا طوال الوقت تقريبا وهكذا فقد حرم الناس حتى من أن يجدوا فيه قصة يحكونها بعد أن حرمهم من أية علاقة معه ، وفي الحقيقة فهم لم يروه تماما الا بعد مضي زمن طويل على قدومه ، حتى انهم تعرفوا اليه عبر حكاية رواها لهم الشيخ سلمان ، كبير الغبسية ، الذي يملكها بأرضها وناسها ودوابها وزيتونها . « لو تعرفون ما حدث لقاسم هذا الصباح » وهكذا عرفوا اسمه لاول مرة ، ولكن قلة منهم استطاعت في تلك الوهلة ان تذكر ملامحه ، انه ، لاول مرة ، صار موجودا فجأة ، ويبدو ان حضوره بهذا الشكل على لسان الشيخ سلمان ربطه به الى الابد ، ولم يعرف قاسم نفسه في حياته كلها رجلا استوقفه الا وسأله عن حال الشيخ سلمان .

لقد جاء قاسم في ديوانية الشيخ سلمان ذلك الصباح فجأة ، ودون توقع ، دخل الى الناس مع ايقاع صوت الشيخ سلمان المهيب وسط الصمت الذي كان يخيم عادة كلما تحدث ، والحقيقة ان قاسم نفسه كان في تلك اللحظة جالسا بهدوء على كوم من التبن في الاسطبل ينظر بحيرة الى قدميه وقد رفعهما قليلا الى فوق ، وكان الشيخ سلمان يقول لزواره انه صحا في الفجر فصلى وكان المنزل صامتا ومستغرقا في النوم . أخذت كرسيا وخرجت ، كانت السماء جدارا عاليا من البللور النقي باردا وبعيدا وكان الفضاء يشبه الدخان ، وراء البيت سمعت صهيلا صغيرا وصوتا زاجرا ثم رأيت رجلا يطل من وراء الجدار مع الفرس .

كنت قد غسلت الفرس وسقيتها وجعلتها تخب في الساحة الخلفية للدار كي تنفض النوم عن عضلاتها ، وعرفت حين وقفت فجأة وصهلت ان الشيخ سلمان قد خرج من البيت ، وحين صرت مع الفرس على زاوية البيت رآنا ، فأشار لي أن أتقدم .

سألته ان كان معجبا بالفرس فهز راسه وربت على كتفها ونظـــر في عينيها وابتسم ، عندها سألته عن اسمه فقال « أنا قاسم » ثم سألته ان كان يستطيع أن يحضر لي فنجانا من القهوة فهز رأسه ونظر في عيني الفرس ورأيتهما يبسمان لبعضهما ثم يسيران معا دون ان يقود أي منهما الآخر .

وضعت الفرس في مربطها وأخذت بنا من داخل البيت وجمعت حطبا ومضيت ، في دورة واسعة حول الساحة الامامية للبيت كي اتجنب المرور من امام الشيخ سلمان ، الى أول الحقل . كانت نارا جيدة .

وأخذت اراقبه من بعيد ، عبر الساحة الامامية ، ينفخ النار ويهز فيها وفوقها ابريق النحاس هزة العارف ، كان رجلا صلبا وقد رأيت عضلاته تحت قمبازه الرقيق تتكور مشدودة وهو يحني قامته الطويلة فوق النار ، وبدا لي لوهلة ، وهو محني فوق الوهج أمام صفحة السماء الشهباء ، يشبه الحصان الفتي . وتساءلت : من ترى وجده وأعطاه عملا هنا ؟ وفي اللحظة التالية انتصب واقفا فبدا أطول مما توقعت ولوح بالابريق ثم بدأ يتجه نحوي ، عبر الساحة . . وكدت انتصب واقفا واصرخ الا انني ، قبل أن أتزحزح ، كان الاوان قد فات ، ورأيته بأم عيني يدوس على الرماد الذي تخلف من نار ليلة أمس الكبيرة التي أشعلناها في الساحة ، وقلت لنفسي « اذن ، فالرماد قد برد » وتنفست

الصعداء ، الا انني فجأة رأيت الشرر يتطاير من تحت قدميه الحافيتين وهو يغوص في حقل الرماد الواسع ، ولا شك انني بدوت له مجنونا وأنا أحدق فيه فاغر الفم يسير بهدوء وثبات فوق النار .

لم أنتبه الا حين خطوت الخطوة الاولى فوق الرماد . لقد بدا لي باردا في ذلك الفجر المسالم ، لم يخطر في بالي على الاطلاق انه كان مجرد فخ ملعون ، واحسست بالنار تسلخ راحتي قدمي وكدت اسمع نزيز الدم ينطفىء بصوت مسموع تحت بدني ، وفجأة رأيته ينظر الي بعينين مفتوحتين على وسعهما ، كان ابريق القهوة الممتلىء حتى حلقه يرجف في يدي رجفات صغيرة . انه من سوء الطالع ان تسقط الركوة من يدي وتندلق القهوة في ذلك الفجر وجها لوجه انا والشيخ سلمان وحدنا في هذا العالم .

وظل يتقدم ، كأنه يمشي على عشب . لقد هزني الرعب وسمعت نبض قلبي جنبا الى جنب مع الفحيح المكتوم للنار الراقدة تحت قدميه الحافيتين وقلت بيني وبين نفسي « نبي أو مجنون » . ان ضوء الفجر جدير بأن يحبل بالاعاجيب ، ولكنه وصل ، ووقف أمامي بالهدوء ذاته فيما أخذت أحدق الى قدميه ، كان الابهامان فقط يرتفعان عن التراب بحركة راجفة . سكب القهوة بثبات ، ووضعها على الحجر المستدير الى جانبي وتحرك مبتعدا دون ان يوليني ظهره وصرخت : « قاسم ! » فوقف دون أن يقول شيئا ، وعدت اقول : « ماذا فعلت بنفسك يا فتاح يا عليم ؟ » فنظر وراءه الى حقل النار ، ورأينا معا دخانا صغيرا يتعالى من الحفر التي خلفتها خطواته ، ثم عاد فنظر الى قدميـــه ثابتتين فوق التراب . ثم الي . وانتظرت ان يقول شيئا الا أنه فرش راحتيه محتارا ، وعاد ينظر الى ابريق القهوة .

وكنت أريد أن يتركني أمضي الا انه ظل ينظر الي مستنكرا ، ولم يكن لدي ما اقوله ، فهو يعلم انني لو تركت ابريق القهوة يسقط من يدي في ذلك الصباح الساكن ، وانا وهو وجها لوجه وحدنا في هذا العالم ، لما تيسر لي أن أظل هنا لحظة اخرى ، ولما تيسر لي أبدا ان أرى « سمرا » مرة أخرى ولكانت قدماي ، على اي حال ، قد احترقتا ايضا ، مضيت الى الاسطبل وأسقطت قدمي في بركة شرب الخيل : في البدء انداحت حولهما غيوم رمادية أخذت تحمر رويدا رويدا وأحسست بلسع البرد يمتزج بأنين الجروح ، ثم جاءت « سمرا » فشمت الماء ونظرت الي برهة ثم تقدمت فحكت أنفها الوردي فوق كتفي وقالت لي ان القروح لن تلبث ان تلتحم ، فقمت معها الى كوم التبن حيث جففت قدمي ، وهناك تركتني أتمدد ريثما تجف القروح .

في تلك الظهيرة ، وبعد أن ترك الزائرون ديوانية الشيخ سلمان ، ولد قاسم فجأة ، وصار يرى في الغبسية هنا وهناك . ولم يكن بوسع الناس ان يحكوا عنه الا قصة مشيه الهادىء على النار، لقد تحدثوا ايضا عن قدميه الملفوفتين بكوم كبير من القماش المتسخ، ولكن فيما عدا ذلك ظل قاسم خارج حياتهم ، واذا كان قد دخلها لفترة قصيرة فقد خسر مقابل ذلك شيئا عزيزا عليه هو اسمه . . ذلك انه حين رويت القصة لاستاذ المدرسة في مساء اليوم ذاته ضرب كفا فوق كف وهو يضحك ضحكته الشهيرة التي تشبه غرغرة الابريق وقال : « هذا شيء لا يحدث الا لعاشق » وجامله الشيخ سلمان بضحكة مقتضبة عرف منها الاستاذ انه مطالب بتوضيح ، فمضى يقول : « ان نار العشق التي تكويه من الداخل اشد حرارة من النار التي داس عليها ، ولذلك لم يحس بها . أنه عاشق » ، وهكذا فقد قاسم اسمه دفعة واحدة ، وفجأة . . وفي الواقع كان حضوره ذلك اليوم قصيرا جدا ، ففور ان اكتشف الناس وجوده جردوه من اسمه فغاب مرة اخرى ولكن بطريقة جديدة .

ولم أعرف ما حدث الا في المساء ، كنت واقفا خارج الباب حين بدأ ضيوف الشيخ سلمان

يغادرون ، وفجأة قال لي صوت ما : « ليلة سعيدة يا عاشق » وضحك صوت آخر وراءه ، ثم سمعت صوتا ثالثا يقول لي يا عاشق وعرفت فورا انني فقدت الشيء الاخير الذي حملته معي من تلال ترشيحا .



لا احد ، على اي حال ، يعرف كيف ترتب الحياة نفسها . . أحيانا يحسب المرء ان قصة ما انتهت فاذا بها تبدأ . ان مستقبل انسان كاملا تراه فجأة متعلقا بحادث صغير لا قيمة له ، ان عقدة المسبحة اصغر من حباتها ولكنها اذا انفكت كرت ثلاث وثلاثون حبة واحدة اثر الاخرى ، واحيانا ينحرف الماعز الاكبر في القطيع وراء قشرة برتقالة فيتبعه القطيع بأكمله ، وقد يجتاز سياجا فيشتبك الرعاة بالمزارعين ويموت ناس وتفقد دواب وتعقد ولائم الصلح فيأكل فقراء القرية ومجانينها وأطفالها المراة وخيلها وبقرها ، ويرى مدعو ما فتاة ما هناك فيخطبها ويتزوجها وتنجب له أولادا وبنات يعيشون ويموتون ويمشي في جنازاتهم رجال لا يعرفونهم خطوات السنة العشر ويتحدثون وقد يتفقون على شيء او يتشاجرون .

والذي لا شك فيه انه كان مقدرا لقاسم أن يمضي حياته كلها وراء بيت الشيخ سلمان يحادث سمرا وينام الىجوارها فوق هسيس التبن لو لم يدس ذلك الصباح على الرماد الملتهب ويدخل ، بخطواته الثابتة الجريئة ، الى رأس الشيخ سلمان وذاكرته ، فحين كان الشيخ سلمان يستوي بمهابة في الحنطور صباح اليوم التالي مستعدا للعودة الى بيته في عكا سأله القيم على مزارعه أن يعين موظفا جديدا يحمل الخضار على ظهور الحمير كل صباح الى حسبة عكا بعد أن ارتكب حامد ذلك الحادث البشع : سرق حمارا وهرب بحمولته الى مكان مجهول تاركا الحمير الثلاثة الاخرى واقفة على عرض الطريق قرب مقبرة عكا الى أن وجدهم رجل بالصدفة .

وكان الشيخ سلمان على عجلة ، شأنه كلما كان على وشك العودة الى عكا ، ولم يكن في ذهنه ايما شيء ، فقال للرجل الذي كان يقف الى جوار العربة : « دع العاشق يتسلم الحمير كل صباح الى حسبة عكا بعد ان ارتكب حامد ذلك الحادث البشع : سرق حمارا في الساحة الخلفية مدركة انه يتعين عليها الانتظار حتى بعد ظهر الخميس القادم كي ترى الشيخ سلمان مرة اخرى ، وأطل قاسم من وراء البيت ورأى الرئيس واقفا ما يزال في حلق الطريق الضيق فأحس فورا بأن شيئا رهيبا سوف يحدث ، وفي اللحظة التالية تلاقت أبصارهما .

رايت في عيني العاشق وميضا مخيفا ، ولاول مرة احسست بأن هـذا الرجل المتين الصامت الذي جاءني منذ اسبوعين يستجدي أن اعينه حراثا يخفي وراء جلدته شيئا مخيفا لا سبيل الى نكثه ، انه نوع من الرجال ينبت فجأة أمامك فاذا بك غير قادر على نسيانه ، وبدل ان يتجه مثل كل الناس الى الاشياء تتجه اليه الاشياء من تلقائها . كانت قدماه ما تزالان ملفوفتين بكومين من القماش المتسخ وكان اذ يسير يباعد فيما بينهما وينفضهما نفضا ، الا انه لم يكن مضحكا ، كانت سمرا تسير الى جانبه ، وانا لا اذكر انني رأيت ايا منهما وحده منذ جاء الى هنا . لقد وقف ينظر الي من بعيـد متوقعا ان أستدعيه ، وحين أومأت له بيدي تقدم نحوي بثبات ، وقلت له : « فجر غد ستأخذ الخضار الى الحسبة » .

وكان ذلك ما كنت اتوقعه واخشاه ولكنني حين سمعته ظللت صامتا كأن الامر لا يعنيني فيما أخذت سمرا تنفض رأسها المتكبر بغضب ، وأخذ الرئيس ينظر الي منتظرا جوابي فيما ظللت واقفا انظر اليه .

وبدا لي انه لا يريد ، فأفهمته ان كل الحراثين يتمنون أن تكون لهم مثل هذه المهمة ، فهي

مريحة ومربحة وتحمل صاحبها مرة كل يوم الى المدينة ، وان الشيخ سلمان اختاره من بين الجميع لهذا العمل وعليه ان لا يخيب أمل الرجل فيه .

واستدار ومضى وتركني مع سمرا عاجزين عن قول ايما شيء : كان يبـــدو انه يحب وظيفته بلا حدود ، ويسعده ان ينقل الاوامر والطلبات التي يعرف انهـــا لا ترد ، كان معروفا هنا بسلطته القوية وعناده المستمد من دقته في تنفيـــذ اوامر الشيخ سلمان وحرصه عليها ، والواقع انه لم يكن يحس بأنه انسان آخر غير الشيخ سلمان ولذلك فحين يكون الشيخ هنا فانه يختفي ، وحين يغيب الشيـــخ يبدو في كل مكان في كـــل الاوقات . وكانت سمرا تنظر اليه محتارة وهو يدق بحذائه الثقيل الساحة الامامية لبيت الشيخ سلمان متجها نحو الحقول ، وحين غاب استدرنا وذهبنا الى الاسطبل لنلقي نظرة أخرى على الحمير .

لقد كرت المسبحة فجاة بالطريقة التي كان يتوقعها قاسم في أعماق نفسه دون ان يقدر على تحديدها بالضبط : وصل الى عكا في الصباح ، وقبل أن يدور حول الساحة متجها الى الحسبة في آخر حديقة البلدية التي تصفر فيها اوراق الكينا زعقت قربه سيارة ، وقرقعت اصوات الاحذية الثقيلة وأصوات أعقاب البنادق المكتومـــة ، وخشخشت القيود ، ووجد نفسه محاصرا فيما اخذت الحمير ، وقد فوجئت ، ترتد نافضة اعناقها الثخينة وتصدم بعضها بعضا ، واطبقت الايدي على جسده من كل ناحية ودفع دونما اتجاه مرتين او ثلاث مرات . . الا أن ذلك حدث وكأنه كان يتوقعه بالتفصيل تماما ، فلم يقاوم ، والواقع انه كان يساعدهم بطريقة ما ، فقد سهل على العسكري الذي كان اكثرهم حماسا ربط القيود حول معصميه ، وتقدم نحو السيارة من تلقائه وصعد اليها دون الاستعانة بأي شيء ، وألقى نظرة كسيحة على الحمير وقـــد خلت واقفة تنفض رؤوسها باحثة عن اتجاه ما ، وحين شقت السيارة طريقها بين الناس الذين تجمعوا نظرت قبالتي ، وكنت أتوقع ان أراه هو ذاته كأن ذلك كان شيئا مرسوما منذ ولدت ، وتلاقت نظراتنا . كان يبتسم ابتسامة الرجل الذي انتصر اخيرا على غير توقع منه . اسمه الكابتن بلاك ، وقد عطلت انا بلا شك صعود رتبته ثلاث سنوات كبيرة ، بالاضافة الى المرارة التي سببتها له طوال ذلك الوقت الطويل . نظر الى قدمي أولا وهو ما زال يبتسم خارجا من كابوس لا يتصوره العقل ، ثم الى صدري ، ثم الى عيني مرة اخرى ، ثم وجد الكلمة المناسبة فقالها من بين اسنانه ، « واخيرا يا عبد الكريم ! »

وفي ذلك المساء قالوا في الغبسية : لقد كان العاشق مجرما خطيرا اختفى هنا فترة من الوقت وخدع الرئيس والشيخ سلمان وكل شيء والحمد لله الذي جعلهم يمسكونه قبل أن يرتكب جريمة اخرى .

وفي الصباح الباكر وصل الشيخ سلمان الى الغبسية على غير توقع من احد ، كان وجهه مضرجا بالغضب وكان ينتفض ، وحين امسك الرئيس بلجام الحصان قفز الشيخ سلمان بفتوة شاب من مقعده وأخذ يركله ، وعرف الرئيس فورا انه سيدفع غاليا ثمن اهماله في التقصي قبل أن يقبل الموظف الجديد ، فترك المكان مسرعا وأخذ يعدو .

واكمل الشيخ سلمان خطواته الغاضبة الى البيت فيما ثبتت سمـــرا على قائمتيهـــا الخلفيتين وأخذت تصهل صهيلا ممطوطا كانه النواح . مجرم في منزلي، محكوم بالاعدام . وقال له ضيوفه مهدئين : « ولكنه وقع اخيرا في جزاء أعماله » . . وضحـــك الشيخ سلمان بمرارة واخذ يهز راسه . كلا . لم تنته قصته، العاشق هذا ، قاسم، عبدالكريم . الشيطان ذاته . سيعتقد الانكليز انني كنت اخبئه هنا . . من يصدق ان الشيخ سلمان لم يكن يعرف ؟ لعنة الله عليك يا رئيس يا مجنون .

ثم حلف الشيخ سلمان يمينا بالطلاق ان يرمي الرئيس بالرصاص اذا رآه في الغبسية ، من هنا الى الابد .

اما قاسم فقد وضع في سجن عكا ، في الغرفة رقم ٣٦٢ ، وصار اسمـــه منذ ذاك : السجين رقم ٣٦٢ .

●

العتبة ترتفع ثلاثة اشبار ، وفوقها يلامس كعب الباب الحديدي الاسود البلاط الرمادي الداكن ، طول الغرفة عشرة اشبار وعرضها عشرة اشبار امـــا سقفها فيرتفع دون حساب ، وفي أعلاه تنفتح كوة صغيرة ينبثق منها قش غاضب . انه موسم الاخصاب عند السنونو ولكنه لا يدخل قط . رأسه فقط يبدو لوهلة مغطى قفاه بالضوء وحين يرف منطلقا ، بين الفينة والاخرى ، تسمع الزنزانة صوت الفرح لحظتين خارجتين عن العقل . الجدران من الحجر الوحشي ، منقور وملطخ ومحطم ولكنه لا يعبر عن شيء . انه تاريخ الاظافر واطراف الصحون والملاعق حين تضحي عند الحبيس كل أدوات فراره المهيض . رجال جاؤوا وحاولوا ومضوا أو أصيبوا بالجنون ، وكان السقف دائما ، أمام عيونهم ، يعلو يوما وراء الآخر وكانت الارض تنخفض تحت العتبة لحظة وراء الاخرى . في اليوم الاول أخذت أعوّد نفسي على ذلك الشيء الرهيب : أن لا أحسب انني في قاع بئر سحيق ، كلما نظرت الى السقف ارتددت لتوي الى اللحظة الاولى التي وطئت فيها هذا المكان : جاؤوا بي من الساحة ، وصعدت ثلاث درجات ومشيت في ممر طويل ضيق ومنبسط تماما ، لم أنزل درجة واحدة . الغرفة اذن في مستوى الارض وليست بئرا . ولكنني كنت اهوي من جديد كلما نظرت الى السقف والجدران والعتبة ، ومن جديد اعود الى البدء في انتفاضة الفرار التي لا تعوض : حين جيء بي الى هنا لم انزل درجة واحدة .

ظللت واقفا فترة مديدة من الزمن كأنني جدار خامس . أن الانسان لا يمكن ان يكون الا محصلة تجاربه وهو يفترض دائما ان الامور ستعبر ، ورغم ذلك يعتبر ان اعتيادهـــا واجب لا فرار منه ، جربت وضعين او ثلاثة اوضاع لنوع مريح من الاستلقاء ، واخيرا وجدت الطريقة التي صار يتعين علي منذ الان أن اقبلها وحدها حالـــة للنوم ، وحين استلقيت على ظهري واضعا رأسي في الزاوية كي اكسب شبرا جديدا داهمني ذلك الشعور الذي كنت أعرف انه ذات يوم سيقتحمني كالسيف : انتهى الامر . اخيرا يا عبدالكريم . دارت الزوبعة دورتها الغاضبة ثم صدمها الجدار فسقطت كالخريف . انتهى الامر ، كل دروب الهروب لا تؤدي الا الى العقاب ، بطريقة أو بأخرى . كانت الجريمة في ذاتها عقابا ، كان الاختبار عقابا ، كان الانتقال من عبدالكريم الى قاسم عقابا ، كانت صهوات الخيل في تلك الليالي الجليدية التي لا تنتهي ولا تبدأ عقابا ، كان الرعب عقابا ، كان الصمت عقابا ، كان المسير على النار عقابا ، وهذا هو نهايـــة المطاف . عقاب آخر لو كان اعتاده منذ ثلاث سنوات لما كان ، الآن على الاقل ، يكترث به مثلما يفعل هذه اللحظة . ان الجريمة لا منطق لها وكذلك العقاب ، وحين يعتقد المرء أنه كان هاربا من العقاب يكتشف فجأة انه كان معاقبا بطريقة خاصة ، كنت مطلوبا ، وكي لا أقع صرت مجرما ، وكي لا أمضي حياتي في السجن قتلت مرة اخرى . وفجأة يأتي العقاب مجرما ، وكي لا أمضي حياتي في السجن قتلت مرة اخرى . وفجأة يأتي العقاب وكأنه كان ينتظر طوال ذلك الوقت وراء كتفي ويترصد اللحظة المناسبة .

اللحظة المناسبة التي ولد فيها قاسم من جديد في طول الجليل وعرضه بعد غياب طويل . كالمد عاد فجأة فاذا به يملأ الجرود مرة اخرى ، من الجرمق الى ترشيحا الى جدين الى عكا . طار الغبار عن خيوط غير مرئية وربطها الناس باعتناء شبكة من الاساطير كانت مجرد احداث لا يكترث بها احد ، وفي اللحظة التي اغلق فيها الباب الحديدي في سجن عكا على قاسم ، او عبد الكريم ، او العاشق ، او السجين رقم ٣٦٢ انفتحت المصاريع عنه في كل القوى التي كانت تتواصل كالشريط البائس الخجول من صفد الى عكا ، صار

فجاة موجودا لحما ودما حين غاب ، وحين لم يكن يوجد منه في الحقيقة الا اسماء لا رابطة فيما بينها مثل مزق راية مهترئة جرجرت من ميدان هزيم الى ميدان هزيم آخر ، وحين كان هو ذاته وراء قلعة الحجار ، تحت العتبة ، في غرفة اضيق من رئتيه اللتين تنفستا الدم والرعب والجرود ثلاث سنين كالدهر . الشيخ سلمان تحدث عنه تلك الليلة في الديوانية ، كان غاضبا في البدء ولكنه كان يهدأ كلما كان الفضول يغلب على التوقع القلق ، الغبسية كلها حاولت تلك الليلة ان تذكره بالتفاصيل ، ومضت سمرا تصهل طوال الليل وتضرب أكوام التبن بحافريها الدقيقين . الكابتن بلاك تحدث عنه وفي صوته رنة الثأر الدفين الذي انتعش . وفي مركز البوليس في عكا فتحت الاضبارات من جديد ونفض عنها الغبار ، وفي ترشيحا تذكره الناس فجاة وارتجف احمد القاضي حين سمع قصصه ومسح على وجهه كمن ينسرب من كابوس جارح . وتذكر الحج سالم يوم تصدى له رجل طويل ملثم بين الزيتون وسلبه فرسه وتركه مقيدا في الوحل . وتذكر رجال كثيرون قصصا حدثت لهم ولجيرانهم او كادت تحدث لهم او لم تحدث لهم ، وتنفس رجال عائلة الرخي ونساؤها الصعداء ، وثمة قرى بعيدة عرفت الاخبار ، وقبور سقيت بالماء من جديد وقد تذكرها الناس فجاة ووضعت في مزهرياتها جرود النخيل مرة اخرى .



قال الكابتن بلاك للميجور ماكلود فيما كان ينفض الغبار عن سترته : سأحتفظ به في سجن عكا من دون كل الناس . اعرف انه صار ينبغي ان يفتح ملفه من جديد ولكنني سأبقيه هنا ، أتفرج عليه كل يوم ، حتى اراه معلقا . أنا لا اصدق انه ظل ساكنا طوال ذلك الوقت الذي اختفى فيه عن ابصارنا ، لا بد انه سلب شيئا هنا وقتل شخصا هناك وغدا سترى كيف ستتدفق الشكاوى .

وقال له الميجور ماكلود وهو ينظر اليه من فوق سريره الخفيف : لم ارك في حياتي سعيدا كما تبدو الآن ، يخيل الي انك تزوجت .

— تزوجت ؟ أوف ؟ اكثر من ذلك بكثير ، انت لا تعرف شيئا ، لست تدري ماذا يعني ان يسقط عبد الكريم اخيرا .

— اعرف ، كنت تقول ان ذلك يشابه ان تجد نفسك فجأة في فراش مارلين ديتريتش .

— انا قلت ذلك ؟ متى ؟

وطوى سترته ووضعها على الكرسي فيما ترك اذنيه مفتوحتين على وسعهما ، وقال الميجور ماكلود :

— بعد أن هرب منك آخر مرة ، اعتقد ان ذلك حدث منذ نحو ستة شهور . .

— آه . اكثر قليلا . كان يوما مرعبا ذلك اليوم خلت فيهانني لن افقد مستقبلي فقط ولكن حاضري أيضا .

— كنت مغتاظا جدا يومها ، ويبدو انهم انبوك بلا هوادة الى حد رفضت ان تروي لنا كيف حدث الحادث .

— كان في الواقع سلسلة من المصادفات . كنا يومها في كوكبة من ثلاثة رجال خرجنا لترافق جابي الضرائب الذي كان قد استعد للعودة من ترشيحا الى عكا ، كنت قد نسيت كل شيء عن عبد الكريم تقريبا ، وعلى اي حال فقد كنت ما زلت اعتقد يومها انه مختبىء في مكان ما حول طيرة دندن قرب يافا حيث شوهد هناك آخر مرة ، وحين كنا على وشك الخروج من البلدة خيل الي أنني لمحت رجلا أعرفه ، مر من جواري على ظهر حصان مثلما يمر بك اي رجل في اية لحظة في اي مكان من تلال الجليل ، لم الحظ وجهه الا لفترة

اقل من اللحظة ذاتها ، وحين مر بنا بدأ وجهه يتشكل في رأسي قطعة صغيرة فوق قطعة صغيرة اخرى ، مثلما يحدث حين تمسح بقماشة مبتلة وجها عتيقا مغبرا متآكلا في لوحة ما ، وفيما كانت أصوات حوافر حصانه تدق نازلة رويدا رويدا وورائي كان وجهه يتكابر صاعدا في داخل رأسي، مرعبا ووهميا وعلى بعد ذراع . مثل كابوس فاجأك مرة اخرى، بعد أن استيقظت ، وراء المنعطف .

ان الزمن خديعة . اصطلاح واحتيال والا لما كانت تلك اللحظة الواحدة اطول من اية لحظة غيرها ولما كان بوسع ذلك الزحام من الاوهام والحقائق والمشاعر ، برعبها وتوقها وتحفزها وأملها ويأسها في آن واحد ، ان تتسع له لحظة واحدة كانت في الوقت ذاته ، للآخرين ، مثل اللحظة التي سبقتها والتي ستلحق بها . دور الحصان عنقه فيما اخذت تخشن على جسده المشدود أجراس الفضة الصغيرة ، ورفعت بصري فاذا به ، الكابتن بلاك ، أمامي . كان مشغولا باحصاء رجاله وترتيب مسيرتهم الصغيرة فتقاطعت نظراتنا تقاطعا خاطفا دون ان تتصادم ، ومن ساقيّ اللتين كانتا تشدان حول ظهر الحصان العاري انتقلت الى جسده رنة القشعريرة فانتفض ، ولكني لجمته ومضيت هادئا مثلما كنت ، احصي دقات الحوافر تحتي وورائي متوقعا ان تنقض السماء أو تتراجع في وهلة واحدة .

وتكوّن في راسي مثل زوبعة صغيرة . انه عبدالكريم بلا شك وانا الذي اعرف ، وقبل أن أستدير اسمعته صوت البندقية تتأهب ومغلاقها يتراجع ويرتد، وصحت : عبدالكريم! قف والا أطلقت النار !

ووقف الحصان من تلقائه ثابتا ولكنه ، مثلما أردت ، لم يستدر، كان الفرار موتا ، وبدأت شتلات التبغ حولي تتقصف واحدة وراء الاخرى وتسقط في صدري فأسمع أصوات تقوضها كالعويل . مرة اخرى ، اذن ، يا كابتن بلاك .

وعرفت لتوي انه يدبر لعبة اخرى ، ويقف هناك يفكر في تنفيذها ، فغيرت مكاني بهدوء كي أفشل افتراضه دون أن أزيح عيني عنه وهو مستو هناك على ظهر حصانه يعطيني ظهره ببرود ، كان حصانه عاريا ولكنني لم أكن متأكدا من انه لا يحمل ، في مكان ما تحت قميصه الفضي ، سلاحا . . وقلت بهدوء وقد استعدت رباطة جأشي : انزل عن الحصان وتقدم رافعا ذراعيك . وبدأت انزل عن ظهر الحصان دون ان يكون في رأسي شيء معين، ولكنني قبل أن ألمس الارض سمعت صوت الكابتن بلاك ترن فيه الشماتة : « عبدالكريم . . هنا ثلاث بنادق مصوبة اليك تماما ، لا ترتكب أية حماقة » .

ونزل بهدوء ، مثلما رأيته دائما ، واستدار كأن الامر لا يعنيه ، رافعا ذراعيه ولكنه لم يتقدم ، وتبادلنا النظر وفهم كل منا ما حدث ويحدث وسيحدث دون كلمة واحدة ، وأغلب الظن انه رأى نجمة جديدة تلمع على كتفي حين رأيت في اللحظة ذاتها سوادا قاتما يحيط بعينيه ، وقبل أن أطلب منه التقدم خطا جابي الضـرائب الى الامـام وهو يتنفس الصعداء :

ــ اي عبد الكريم هذا يا كابتن بلاك ؟ نحمد الله انك لم تطلق الرصاص على ظهر هذا الرجل البريء . . انه حسنين ، احد جامعي التبغ عند الحاج عباس ، كل ترشيحا تعرفه .

وكنت أشعر تماما ان الكابتن بلاك ظل طوال الشهور الستة الماضية فوق هذه الخديعة وخارجها ، وان الامر لن يغير شيئا ولكن ربما يعطيني لحظة أخرى أفكر فيها ، ومثلما توقعت ضحك الكابتن بلاك تلك الضحكة العصبية التي تبصقها اسنان رجل يعرف انه لن يستطيع ان يكسب النقاش الا فيما بعد ، وهز بندقيته وهو يشير نحوي صائحا :

ــ انه عبدالكريم ، وانا الذي اعرف . . تقدم ببطء الى هنا .

وحدث الشيء الرهيب قبل ان اتم جملتي . كنا نقف وراء المنعطف مباشرة حيث لمحت عبد الكريم لاول مرة ، وكان يبعد عنا حوالي خمسة امتار ولكن وجهه كان متجها نحو المنعطف ، وهكذا فقد شاهد تلك الشاحنة اللعينة قبلنا حين اطلت بأنفها الاحمر منزلقة بلا صوت تقريبا حول الطريق الموحل ، وفجأة انقلب كل شيء رأسا على عقب ، وفيما كان السائق يكبح شاحنته تطايرنا من امامه ناجين بأنفسنا ، وهكذا طار عبد الكريم مثل حلم .

كنت قد بدأت أخطو حين رأيت الشاحنة فجأة تسد الطريق فتفتح امامي ابوابا لا حصر لها ، لقد دارت اللحظة الراعبة دورتها الجنونية ، ووقف الكون كله على صهوة جواد . كانت الجياد جميعا تقف على طرف الطريق تتلهى بالتهام المعشب ، وقد لمحت الكابتن بلاك يدور حول نفسه مذعورا حين كنت اعتلي صهوة اقرب جواد لي ، وحماني المنعطف عن ابصار الجميع ، وضربت كالريح في الوعر الذي يستعصي على الماعز .
لم يهرب عبد الكريم فقط ولكنه هرب ايضا بحصان الجابي ، وفي سرجه ضرائب منطقة ترشيحا كلها ... آلاف من الجنيهات مرتبة ومربوطة وكان من المفترض ان اكـــون مسؤولا عنها وحاميا لها ... انت لا تستطيع يا ميجور ماكلويد ان تعرف كيف اسودت الدنيا في عيني : فهاءنذا اقف هنالك ليس مهزوما فقط أمام عبد الكريم ولكن أمام كل الجليل ، ومن حيث اعتقدت انني سأنتصر زججت نفسي في معركة خسرت فيها شيئا جديدا ، لقد فجأتنا الحادثة جميعا ، ولكن جابي الضرائب كان اول من استرد وعيه فقفز كالضفدع المذعور الى حصان عبد الكريم العاري وحين استوى على صهوته نقل الجواد الابيض خطواته مكانها كي يحفظ توازنه ثم وقف كتمثال ، وعبثا راحت جهود الجابي وأزيز مهمازيه وسلخ سوطه ، فقد ظل الحصان واقفـــا كان الامر لا يعنيه ، وكان علي ان اتصرف بسرعة فارسلت جنديا الى ترشيحا كي يبلغ ويستنجد ، وأرسلت الجندي الآخر في اعقاب الشاحنة خشية ان يكون سائقها متواطئا ، وعدوت انا ، على ظهر حصاني ، في اثر صدى عبد الكريم ... ولكن ذلك كله كان عبثا : فلا ســـــائق الشاحنة كان شريكا في الحادث ، ولا النجدة وصلت في وقتها ، ولا انا عثرت عـــلى عبد الكريم ... اتدري ؟ كنت أقول لنفسي وانا عائد مع الخيبة والمرارة والتعب ان الارض ذاتها هي المتواطئة والشريكة ، وانك كي تقبض على عبد الكريم عليك اولا ان تلقي القبض على الارض ... انك تبتسم ، ولكن لو كنت مكاني لفعلت مثلي ، وقفت فجأة واخذت اطلق الرصاص على الشجر ، على الصخر ، على البلان ، على شقوق السيول ، على الطرق الرفيعة التي تطل وتختبيء ... وكان صدى الطلقات يمضي في ذلك العراء ويرتد الي كالقهقهات ، وكان عبد الكريم ذاته وراء كل شيء في ذلك الجرد ، يقيسني بعينيه اللامعتين الخبيثتين ويضحك ، مع الارض ، على غضبي ...

كانت حوافره ثابتة كأربعة مسامير وهو يضربه فوق الشوك والصخور ويلتزم المنحنى مثل من تعلم أن يهرب ، وسميته « ريح » فاستجاب دون تردد ومضى ينفض عرفـــه معتزا وقابلا لشراكة الفرار ... وبعد نصف ساعة عرفت انني ضيعتهم مرة اخرى فابطأت ، وعندها فقط شعرت بالخرجين تحت فخذي ينطان برفق على ظهر « ريح » ، لوهلة حسبتهما محشوين بالطعام ، ولكن الملامسة خيبت املي . نزلت وانزلت السرج وفتحت الكيسين فاذا بالمكان الأجرد يزهر بتلك الاوراق الخضراء ، واذا باللحظات الخارجة عن العقل تدور دورتها الجنونية من جديد ، فهاأنذا مع رجل غني ، اغنى مما كنت أحلم وانا طفل ، ورغم ذلك فانا لا استطيع ان اشتري شيئا ، ولا حتى كسرة خبز وليس لي في هذا الكون كله، من أوله الى آخره ، انسان أستطيع أن أعطيه شيئا ، وفي الوقت نفسه فقد اضفت من حيث لا اعي صفحات سوداء جديدة ، مثيرة للغضـــب والهياج ، في سجلي الموجود في مكان ما ينتظر ان ينفض عنه الغبار ذات يـــوم ...

والكابتن بلاك المسكين ايضا ! يا لغرابة هذا الكون الرهيب ... فحين حسب انه استرد اسمه على ذلك المنعطف الجنوني خسر ، في لحظة كالبرق ، كل ما تبقى له من ذلك الاسم العريق الذي كان مرهوبا ذات يوم ... ان شفقتي عليه تزداد في الوقت الذي تزداد فيه رغبته بقتلي ... رفعت الاوراق الخضراء جاعلا من اصابع كفي مشطا كبيرا واخذت اقلبها مثلما الفلاحون يفعلون بأكوام السنابل ، وكان يكتسحني شعور أعرفه ينتابني حين احمل بندقية غير محشوة في لحظة تحبل بالخطر . وهمهم ريح وهو يرصد بأذنيه أية حركة يمكن ان تنأم حوالي فنظرت اليه مخلوقا قادرا على ان يعطي دون حدود ودون مقابل ودون كلمة واحدة ، وفي عينيه الواسعتين برق الحل : ليس بوسعنا ان نفعل شيئا الا ان ننتظر نهاية هذه اللعبة ، اخذت احفر بهدوء وهو ينظر الي ، ثم أعدت النقود دون ان اعدها الى كيسها الجلدي . حفرت عميقا في الارض حتى عجزت ، وضعت الكيسين فوق بعضهما ورصفت الحجارة فوقهما وحولهما ثم أعدت التراب ، وفي التراب زرعت من جديد شجيرات الشوك التي اقتلعتها في البدء بعناية ومن جذورها وقست المكان بعيني وخطواتي وتذكرته جيدا ، وعدت الى صهوة ريح فأخذ ينحدر وحده على السفح هادئا ، فيما أخذت العتمة تتسلق السماء وراء الجبال البعيدة . وسميت نفسي « قاسم » ، وكان « ريح » اول من عرف ، ومضينا طوال الليل نسير ونقف ونغفو قليلا ونتحادث ونغني بصوت خفيض ونبحث عما يتعين علينا ان نفعل ، وفي الصباح التالي اتفقنا ان نودع بعضنا ، فليس من الصالح بعد ان نظل معا ، نزلت عن صهوته حين كانت الشمس تشرق ومشطت عرفه باصابعي فنوّح دون ان يفتح فمه واخذ يهز رأسه وينفض عنقه وينقل حوافره وهو على باب قرار صعب ، ثم استدار فخبطت راحتي على مؤخرته ، مضى بطيئا اول الامر وهو يطأطيء رأسه ، ثم انطلق فجأة دون ان يلتفت واخذ يرفّ في ريح الصباح كالراية حتى غاب في الغبش .

نام الكابتن بلاك ملء عينيه تلك الليلة ، كان يصحو احيانا وهو يخشى ان يكون ما حدث مجرد حلم ثم يعود فيغفو دون ان تذوب الابتسامة عن شفتيه الحمراوين ، وكان الميجور ماكلويد يراقبه وهو يخرج من كابوسه الطويل ... ان الميجور ماكلويد يعرف تماما ان الكابتن بلاك سيكون اول من يبكي على عبد الكريم اذا ما شنق ... فقد كانا ، رغم كل شيء ، عائلة واحدة . وطوال شهور مديدة كان عبدالكريم كل شيء في حياة بلاك ، يمثل امامه ليل نهار اليأس والامل والخيبة والانتصار والدين والسداد في آن واحد . كان جزءا من مشاعره واضحى دون ارادته مقياسه للامور والاشياء ، وحتى عيد الميلاد كان بالنسبة للكابتن بلاك مناسبة يقيسها على عبد الكريم، وهو لن ينسى يوم قال له كئيبا : « بودي لو استطيع ان اتمتع باجازة الميلاد » وصمت قليلا ثم أكمل : « أن اقبض على عبد الكريم قبل العيد » .

ولكن العيد مر ، ذلك العام ، دون ان يقبض عليه ... كان قريبا منه الى حد كان يشمه مثلما تفعل كلاب الاثر ، ورغم ذلك فقد استطاع ان يفر من اصابعه . وشغل الكابتن بلاك شهورا بعد ذلك الحادث وهو يتعقب عبد الكريم ، شهورا ضائعة بلا ادنى ريبة ... فها هي الاحداث تقول انه في الوقت الذي كان فيه الكابتن بلاك مشغولا بالبحث عن عبد الكريم في الجنوب كان عبد الكريم يختبيء خلف اسم حسنين ويقطف التبغ بسلام في حقول الحاج عباس في ترشيحا !

ولكن الحاج عباس ، حين استدعي للتحقيق اثر حادث حسنين مع الكابتن بلاك وجابي الضرائب ، لم يكن يعرف شيئا ... كان مثلنا جميعا ضحية رخيصة لذلك الرجل الصامت ، فقد جاء حسنين الى بيته في ترشيحا مشعثا ممزقا منهكا ، قبل نحو عام من الحادث وطلب مثل عشرات من الفلاحين في الموسم ، ان يلتحق بحقول التبغ يقطف

وينضد ويحرس وينقل ويحصي ، كان يصطحب فرسا سوداء وصرة صغيرة واوجاعا في معدته ولكنه كان رجلا قويا وفي ملامحه ما يطمئن .

كانت زينب قد كبرت فجأة في بيتي ، انبثق جسدها على حين غرة تحت ثوبها كأن الامر قد تم بين العشية والصباح ... كنا قد نسيناها تقريبا ، واعتاد الناس ان يقولوا : زينب ابنة الحاج عباس . وكانت تعيش في بيتي منذ كانت في الثالثة وكانت تقول عني والدها وعن زوجتي امها ولكنها كانت بلا شك تعرف الحقيقة ولا ترى لزوما لتعريفها او التذكير بها ، ان الاقدار تتساقط فوق رؤوسنا كالمطر ، وحين رايت حسنين للمــرة الاولى واقفا امامي يطلب عملا دون ان يلح ودون ان يتكلم كثيرا ودون ان تبدو في صوته رنة استجداء صغيرة ، نظرت فورا الى اصابع يديه ، وحين لم ار اي خاتم فيها قلت لنفسي : هذا هو زوج زينب . ولكنني سألته ان كان متزوجا فاجاب بالنفي ، وسألته عن أهله فقال انه يعرف فقط ان امه عادت الى حوران حين ارسل لها أخواله نعي والدها وتركته وحده يتدبر امره او يلتحق بأخواله ، وانه يعمل الآن ليجمع قليلا من المال يعيده الى بلدة امه التي لم يرها في حياته . وقلت لنفسي : « هذا هو الرجل » وكان كل ما احتاجه قليلا من الاصطبار . ان الاقدار تتساقط على رؤوسنا كالمطر من حيث لا ندري ولا نتوقع ، وها هي حكاية زينب تدور دورتها الواسعة ثم تصل الى نهايتها اللائقة ... ألم تكن امها ، هي الاخرى ، من حوران ؟ يا رحمة الله عليك يا زيد !..
اكنت تدري حين فعلت فعلتك ان السماء لا تنام ؟ يومها نقم الناس جميعا على تلك الزيجة وقالوا : ذهب زيد الى يافا وعاد بعروس من حوران ... وصعقت قرى ترشيحا كلها حين عرف ناسها ان العروس كانت خادمة عند بيت الرخي" ، ولكن لو فكروا يومها هكذا : ومن هو زيد ؟ انه فلاح منفرد لا يعرف أبعد من ابيه ولا يعرف احد من أين جاء ، التحق بزراعة التبغ اجيرا وحين صار في جيبه خمس جنيهات سافر بها الى يافا فماذا به يتزوج هناك ويعود بها ... فماذا كان سيحدث ؟ ولكن الاقدار تتساقط فوق رؤوسنا كالمطر ، وحين انفجرت الثورة في الجبل اختفى زيد مثلما ظهر تاركا في ترشيحا زوجته وابنته الصغيرة دون ان يترك لهما شيئا ... وقلنا يعود زيد اليوم ، ويعود زيد غدا ويعود بعد اسبوع ويعود بعد شهر ... ولكنه لم يعد الا بعد ثلاثة شهور جثة مطرزة بالرصاص ومحمولة على ظهر حمار . وقال الناس : هذا زيد وهذا بيته ، وساق الانكليز الحمار الى البيت ، واطلت زوجته ونظرت اليه وقالت للعسكر : « انا لا اعرف هذا الرجل » ... مسكينة ، حسبت ان ذلك سوف يحميها من العقاب ولكنها كانت امرأة بلا ظهر ، وحيدة اكثر من فأرة الحقل زمن القحل ... وحين اخذوها جاؤوا بزينب الصغيرة الى بيتي . وقلنا : تعود امها اليوم ، وتعود غدا وتعود بعد شهر ، ولكنها لم تعد ، ولم يعرف احد ماذا حدث : لقد التحق زيد بالشيخ القسام في تلال يعبد مجذوبا بالكلمة القصيرة الكافية التي كان يقولها ذلك الرجل : موتوا شهداء، فمات زيد وضاعت اخبار زوجته وظلت زينب في بيتنا ، وقالت زوجتي : نتركها هنا ، وغدا تكبر فتخدم وتنفع ويأتي نصيبها فتتزوج ونكسب ثوابها ... فأي ثواب اكثر من ان نزوجها لرجل لا يعرف عنها الا انها من داري ؟ طويت الفكرة في رأسي بانتظار الوقت المناسب وقلت لحسنين : « اذهب الى الحقول ، وستجد العمل هنا مريحا ومربحا اذا كنت انــت مريحا ، وعلى اي حال فان سلوكك وحده هو الذي سيحكم عليك ، واذا كنت طيبا فسترضى » .

واخذت انظر الى الحاج عباس جالسا وراء سبحته المصنوعة من بزر الزيتون وقد لمعت حباتها بين اصابعه الثخينة ، ورأيت في عينيه الباسمتين ما يشبه الفخ ، أتراه يعلم ؟ انه يريدني لصفقة صغيرة مجهولة ، الايام وحدها ستظهرها . أتراه يعلم ؟ أيريدني ان اقتل رجلا واتركه يمسح اصابعه في قميصي الملطخ ؟ ولكنني كنت اريد العمل بأي ثمن فقد

كان العمل بالنسبة لي اكثر من طعامي وشرابي ، كان مخباي بعد ذلك الحادث التعيس وكنت لا املك في هذا العالم الا مرتينة جيدة مدفونة في مكان لا يعرفه احد ، وحقدا أحمر يطل من حدقتي الكابتن بلاك اثر النزال الاخير بيننا أمام شجرات الصبار الوحشي في الطيرة .

كان حسنين يرتجف ، ولكن بكبرياء . . وأحسست وأنا أنظر اليه واقفا هناك ينقب في كلماتي القصيرة انني أمام رجل خاص . اجل . هذه هي الكلمة . رجل خاص لست تستطيع أن تعرف عنه اكثر من احساسك به ، وسيظل يطوي سره بعناية مثلما يتوجب علي ايضا . لقد عبرت الصفقة الصغيرة بيننا في ذلك الصمت الصاخب فبت في اللحظة ذاتها التي عرف فيها انني أخبيء له سرا اعرف أنه يخبيء هو الآخر سرا آخر في المقابل، وحين جاءت هذه الفكرة الى رأسي نظرت اليه فأخذ يبتسم ابتسامة صغيرة، كالمصافحة، ودون أن يقول شيئا استدار ومضى .

ذهبت الى الاسطبل فوضعت « الهيجا » في مربطها وعلقت لهـــا واستلقيت على كوم التبن جاعلا من صرتي وسادتي واخذت انظر اليها واقفة هناك تضرب حوافرها برضى ، فهي الاخرى وجدت سقفها ومربطها بعد طول طراد ، ان الخيل تشبه الشجر وبوسعي التيقن من هذا حين ارى هيجا بالذات تقف على قائمتيها الخلفيتين وتخبط ذراعيها في الهواء رافعة عنقها الطويل الى الاعلى مصدرة صهيلا راجفا مثل صوت الريح حين تتسرب عبر أغصان شجرة متوحدة ، في أي أرض كنت يا هيجا ؟ ان اقدار الخيل مثل اقدار الرجال ، أفي ذلك ايما شك ؟ ومثل أقدار الرجال تتلاقى أقدار الخيل في البراري وتحت جبال الليل ، ولولا ذلك لما لاقيت الهيجا ، ولما كان بوسعي أن أكمل فراري من الطيرة ، لقد هربت بعد اللقاء الاخير مع الكابتن بلاك راجلا وفي يدي بندقية جديدة ، وبعد ليلتين سلبت فرسا اصيلة من رجل كان يغني وحده في الليل وكنت اعرف ان علي التخلص من هذه الفرس في أول فرصة ، فأنت لا تستطيع ألا تكون معروفا حين تكون مع فرس أصيلة معروفة ، ولكن أقدار الخيل تتلاقى مثل أقدار الرجال ، وفي الليل ، بعيدا وراء تلال طولكرم وعلى مدارج كفر عناب سمعت أصوات حوافر تسترق الخطو، فقلت : أستبدل فرسي . رفعت كوفيتي حتى جفني وتييست مع الحصان وراء المنحنى ، ورأيت شبحهما يندمج كتلة من السواد ، ولكنه رآني في اللحظة ذاتها وسمعت فولاذ بندقيته يمضغ الطلقة ، وقال صوت بدوي : أهذه فرس أصيلة ؟ ولم أجب فتقدم على ظهر فرسه خطوة ، وتبينت جزءا من وجهه النبيل المتكبر وقال لنفسه : انهـــا فرس اصيلة . ودار حولي واثقا من فرسه ثم دفع فوهة بندقيته في خاصرتي وقال : وأنت أيضا سرقت هذه الفرس . وهززت بندقيتي برفـــق وحركت فرسي حوافرها وشمت بصوت مسموع ، وكانت الصفقة تتم ببساطة بيننا نحن الاربعة ، انزل بندقيته وقال : اعطني فرسك وخذ فرسي ، ونزلت عن صهوتها في اللحظة التي نزل فيها ، ونظر اليها وهو يعطيني اللجام وقال ، كأنه يحادثها : انهم يسمونني ابو الهيجا ، سرقت هذه الفرس في البادية وجئت أستبدلها هنا ، وسأعود بفرس لا يعرفونها . . ونظر الي : وهذه فرس لا يعرفونها هنا . . وبهذه البساطة تداخلت أقدارنا نحن الاربعة في بعضها ، امتطى فرسي وامتطيت فرسه وأسميتها « هيجا » ومضينا دون أية كلمة ، عاد هو الى باديته وراء الحدود وضربت انا مع هيجا شمالا . . من أي أرض جئت يا أصيلة ، يا امرأة ، يا شجرة ؟ كانت تغطس رأسها في التبن وتمضغ بدعة، وجاء الرئيس فنظر اليها ودار حولها فبادلته النظر ، ومشط عرفها بأصابعه ثم جاء نحوي دون أن ينظر الي وجلس الى جانبي وهو يفتح علبة من المعدن الصدىء ثم دفعها نحوي وهو يقول : لف سيجارة ، انه تبغ ممتاز ، وأخذنا نلف سيجارتين صامتين ، وبلعت الدخان حتى قرارة رئتي فاغتسلت أعماقي بشهوة لا مثيل لها وكان ينظر الي فاحصا دون ان يقول شيئا .

لقد شاهدت في حياتي عددا قليلا من الرجال يجترعون الدخان بهذه اللذة ، وكان حسنين منهم ، لا شك انه اشتهى هذه اللفافة منذ ولد ، وربما جاء الى هنا كي يضع دخانها في صدره ويمضي ، لم يبد في تلك اللحظة راغبا في أي شيء آخر من الحياة كلها ، وكان كل شيء في هذا الرجل يقول لي انه سيكون فلاحا صعبا ، وقد تعلمت دائما ان الرجال الذين يمتلكون فرسا أصيلة يصعب التعامل معهم من فوق ولذلك ، فهم لا يبيعونها حتى لو فتك بهم الجوع ، انها — لهم — اكثر من صهوة أمينة ، انها ملاذ وصديق وشقيق في وجه العالم .

وقال لي « أنا الرئيس هنا ، قال لي الحاج عباس عنك . وغدا سنبدأ معا » . ولكنني كنت أعرف انه يريد أن يقول شيئا آخر ، وخذله صمتي فقام بطيئا ، وعاد الى الهيجا فخبط يده برفق على ظهرها العاري ونظر الي :

— « انها فرس لا تقدر بثمن » وهزت هيجا رأسها برضى وحكت أنفها على ظاهر يده وعادت الى علفها ، وقال الرئيس قبل أن يترك المكان « سيكون لنا حديث طويل غدا »، واذ خرج جاء رجل آخر وقف على الباب وهتف : الحاج عبـــاس يريدك يا حسنين ، وقمت ، وكان الحاج عباس واقفا امام الاسطبل ينظر الى ثلاثة اكياس من الطحين ملقاة فوق بعضها ، واشار نحوها دون ان ينظر الي ، وتطوع الرجل الاخر فحكى : « يريدك أن تدخلها الى البيت » ، وسحبت كيسا فوق بلاط المدخل الخشن ، ثم استدرت وعطفته على ظهري ودخلت ، وورائي جاء صوت امرأة يقول « الى الامام قليلاً » ، وحين وضعته نظرت اليها فقالت وهي تبتسم : أنا زينب .

ولم أكن على استعداد لأرى ذلك الوجه حين استدار الظهر المغبر بالطحين ، ولكنني حين فوجئت بعينيه السوداوين تنظران الي لم اجد شيئا اقوله غير اسمي ، كان شابا في أواسط العشرين ان كنت أحسن تقدير الاعمار ، صلبا طويلا وله كفان كبيرتان تلفتان الانظار . انهما تذكران بالحائط . وكان قميصه الفضي ممزقا ومفتوحا عن صدر أسمر مشدود العضلات ، وكانت عنقه مشعرة وقوية تحت ذقن تكـــاد تكون مربعة كحجر محطم سقط هناك بالصدفة ونبت عليه طحلب أسود شرس وقصير .. وحين نظرت الى كتفه لاحظت ذلك الخط الداكن الذي خلفه هناك ، بلا ريب ، حزام بندقية . واستدار دون ان يقول شيئا وخرج ، ومن شق الباب رأيته يعالج الكيس الآخر بقدمين ثابتتين كجذعي شجرة . وسمعت « عبود » يقول له : « قول الله يا حسنين » فقلت لنفسي : اسمه حسنين .

ودخلت بالكيس الآخر وتركته ينزلق عن ظهري الى جوار الكيس الاول ، ومرة أخرى سمعت صوتها يقول : « الله يخليلك هالهمة يا حسنين » فهززت رأسي مشغولا بتسوية الكيس واقفا ، ولكنها قالت : من اين أنت ؟ وحاولت أن اجيب حقا ، ولكنني سمعت صوتا ورائي ، وجاءت خطوات الحاج عباس هادئة كأنها تسترق شيئا فعدت أدراجي الى الخارج لاحمل الكيس الثالث وظل الحاج عباس واقفا الى جوار زينب ، وحين رجعت بالكيس كان ثمة شيء جديد في جو الغرفة الرطب استشعرته في نظراتها الي . ووقف وأخذ ينظر الينا واقفين معا ، زينب وأنا . كأننا أب مع ابنته حقا ، وعندها طلبت منه أن يسوي الكيس الى جانب الكيسين الآخرين ففعل دون تردد ، لقد بدأ الكيس أصغر من المعتاد وأخف وزنا حين شاله من أذنيه بين ذراعيه القويتين وحطه دون عنف في المكان المناسب ، وفجأة وجدتني أقول له ما كنت أنوي أن أقوله له بعد شهـــر أو شهرين :

— سأعطيك زينب يا حسنين ان نويت على الخير .

وكنت أتوقع أن يحدث كل شيء ، تلك اللحظة ، الا أن أسمع الحاج عباس يلفظ تلك

الجملة بهذه البساطة ، وكأنما من وقع اللطمة المفاجئة طار بصري الى زينب دون ارادة مني فاستدارت منتفضة وهرولت صوب الباب ، ولكنني ، في أقل من اللحظة ، شهدت وجهها ورأيته جميلا حقا ، وضحك الحاج عباس بما يشبه الفرغرة ، مثلما يضحك الرجل الذي يرغب في ترقيع موقف مليء بالثقوب وتقدم نحوي خطوة واخذ يضرب كفه العجوز على كتفي وهو يقول : انها بنت طيبة ، ضع عقلك في راسك .

دراسات توفيق كنعان في الفولكلور الفلسطيني

نمر سرحان

لا نعرف الكثير عن الحياة الشخصية للدكتور توفيق كنعان ، رائد حركة احياء الفولكلور الفلسطيني ، وان كنا نملك مادة وفيرة من كتبه ومقالاته التي استمر ينشرها تباعا ابتداء من العشرينات من هذا القرن . وقد كان يعمل طبيبا في المستشفى الالماني في القدس . واصبح في عام ١٩٢٧ رئيسا لجمعية الاستشراق الفلسطينية . ويبدو ان الدكتور كنعان نشر معظم دراساته وابحاثه باللغتين الانكليزية والالمانية(١) وان المادة الوفيرة التي جمعها عن ملامح الحياة الشعبية الفلسطينية كانت مكرسة لتعريف الانسان الغربي بحياة سكان فلسطين — الاراضي المقدسة .

وتقول د. هيلما جرانكفيست الباحثة الفنلندية المتخصصة في دراسة الحياة الشعبية الفلسطينية ان د. توفيق كنعان باحث محنك تمرس في دراسة المأثورات الشعبية الفلسطينية منذ فترة طويلة . وتصفه بأنه صديق قديم لها تعرفت عليه اثناء عملها في ميدان الفولكلور الفلسطيني في الفترة بين عامي ١٩٢٥ — ١٩٣١ . وفي عام ١٩٥٩ قابلته جرانكفيست ثانية عندما زارت القدس مجددا . وتقول جرانكفيست ان الرجل اذ ذاك كان مريضا . وكان فقد بيته ومكتبته ومجموعاته ومخطوطاته عندما أصبح بيته في المنطقة الحرام في القدس بعد حرب عام ١٩٤٨ . ومع ذلك فهي تشهد له في ذلك الوقت بأنه ظل على نشاطه المعهود يقرأ ويكتب ويجمع المادة الفولكلورية الخام ويلقي المحاضرات في هذا المجال .

ونحس بذلك الحماس المتوقد لدى الدكتور توفيق كنعان والرغبة الصادقة في جمع ملامح الحياة الشعبية في ما يكتبه في مقدمة كتابه « المزارات والاولياء المسلمون في فلسطين » حيث يقول : « ان الملامح البدائية لفلسطين تختفي بسرعة كبيرة . ولن يمضي وقت طويل حتى تتلاشى هذه الملامح نهائيا . ولذلك فانه من واجب كل طالب ودارس فلسطيني متخصص في دراسة الفولكلور أن لا يضيع أدنى وقت وأن ينشط لجمع العادات والمعتقدات الشعبية والملامح الفولكلورية الدارجة في فلسطين » . ويضيف الدكتور كنعان في مكان اخر من المقدمة فيقول : « وانا كابن لهذه البلاد شعرت أنه من واجبي أن أعاون في هذا الجهد العلمي . وبما انني لا ادعي انني دارس محترف فانني أحاول هنا أن أضع المادة الفولكلورية الخام كما جمعتها تاركا للدارسين المحترفين أمور تفسيرها ومقارنتها » .

وتأتي دراسة الكاتب الحالي لاعمال توفيق كنعان المنشورة بالانجليزية كمحاولة أولية لنفض الغبار عن تلك الاعمال الاصيلة تمهيدا لنقلها او نقل الافكار الرئيسية فيها الى اللغة العربية والتنويه بأبرز ملامح الحياة الشعبية وعلى الاخص منها المعتقدات الشعبية التي تبرز الثقافة الاساسية والبدائية للانسان الفلسطيني . وتكمن اهمية المادة التي جمعها الدكتور كنعان في أن هذه المادة قد جمعت في وقت مبكر من هذا القرن ، ذلك الوقت الذي عاش فيه العديد من الرجال والنساء المسنين الذين عاشوا ومارسوا تلك المظاهر الحياتية التي اثبتها لنا الدكتور توفيق كنعان . ومن جهة أخرى

فان الكاتب الحالي يشعر أنه من الضروري جدا أن يلفت انتبـــاه المؤسسات الثقافية الوطنية والافراد ذوي الاهتمام والغيرة على تراث الشعب الفلسطيني الى اهمية مثل هذه الدراسات التي تصور طابع الشعب وتخلق الصلة المعنوية بين الانسان الفلسطيني المشرد وبين أرضه المحتلة التي يحاول الاعداء ان يطمسوا معالمها ويذيبوا شخصيتها تمهيدا لابتلاعها وانكار حق أهلها فيها . ان اثبات مفردات الحياة الشعبية الفلسطينية في عمل موسوعي كبير مدعم بكشف بالمراجع الاجنبية والعربيـــة والتي تعرضت لدراسة الحياة الشعبية الفلسطينية وخاصة ما نشر منها قبل الهجمة الامبريالية الصهيونية على ارض فلسطين يمكن ان يضع أمام القارىء العربي والاجنبي صورة وثائقية عن حيـــاة الشعب الذي يعيش الان في المنفى وتوضح العلاقة الوثيقـــة بـــين الناس المشرديـــن وأرضهم المحتلة .

المزارات والاولياء في فلسطين(٢)

تعتمد دراسات الدكتور كنعان لهذا الموضوع على زيارته وملاحظته الشخصية لـ ٣٢٥ مزارا في فلسطين ، كما أنه جمع معلومات وافـــرة عن ٣٤٨ مزارا اخـــر . ويقـــول د. كنعان انه كان يحضر الاحتفالات والاذكار والموالد التي كانت تقام في تلك المزارات كما جمع مجموعة كبيرة من الحكايات التي تفسر الظواهر المتعلقة بموضوعه ، واعتمد في دراسته على مجموعة من الاشعار الصوفية والمدائح والامثـــال والاقوال المأثورة . وكانت لديه مجموعة من الحجابات التي صنعها المشايخ بهدف البركة والعلاج الشعبي. ويقول د. كنعان عن طبيعة دراسته : « ان هذه الدراسة توصل القارىء بشكل مباشر للحياة اليومية في فلسطين ، وتوضح كل ما هو غامض في اذهـــان الناس في مجـــال المعتقدات والخرافات الشعبية . كما تعطي هذه الدراسة مقارنة مع ما كان سائدا في الازمان البدائية ، وتظهر ان العديد من المعتقدات والخرافات ظلت منـــذ الاف السنين عالقة في اذهان الناس في الوسط الشعبي » . ويعرف الدكتور كنعان المزار ويقول انه لا يعني بالمزار ذلك المكان الذي يدفن فيه نبي او ولي من أولياء الله المعروفين فحسب بل يعني بالمزار كل حرم او معبد او ضريح او شجرة او شجيرة ، او كهف او نبع او بئر أو صخرة والتي يوليها الناس تقديسا او احتراما خاصا سواء كان ذلك يعتمد على معتقدات دينية او خرافية .

وبعد ذلك يفيض المؤلف في دراسة مواقـــع المزارات المنتشرة في فلسطـــين وانماطها ويدرسها من الناحية المعمارية والمعتقدية ويوضح وجود النموذج الامثل للمزار الذي يضم ضريحا وقبة ومقاما ، وتلك المزارات التي لا تحوي ضريحا وتلك التي هي مجرد « حويطة » أو كومة من الحجارة . ويعدد المزارات بأسمائها ومواقعها في فلسطين . ويتحدث المؤلـــف عن الطقوس والممارسات الدينية التي يمارسهـــا الشعب في هـــذه المزارات والتي تتلخص في أداء العبادات وقسم الايمان والوفاء بالنذور وطلب البركـــة والشفاء . ويذهب الفلاح الفلسطيني الى المزار للحصول على البركة التي تشع مـــن المكان المقدس لكل شخص يتصل به او يمر بيده على الستائر والضريح والبناء . كما اعتاد الناس أن يودعوا ممتلكاتهم المنقولة لتكـــون في حمى الولي ، أما الممتلكات غـــير المنقولة مثل المحاصيل في الحقول فانهم يضعونها « بوجه الولي » أي يعلنون انها تحت حمايته فلا يجرؤ احد على مسها .

ومن الممارسات الشعبية في المـــزارات ذات الصبغة السحريـــة ربط الخرق بنوافـــذ المزار واشجاره . ويعلل المؤلف هذه الظاهرة فيقول انها تهدف الى اثبات زيارة الانسان للمقام وتذكرة الولي بالزائر ورغباته . ويربط المريض الخرقة ويقول : « رميت عليـــك حملي يا ولي الله » . وهذا النوع من الممارسة الشعبية يسمى بالسحر الاتصالي . اذ ان كل شيء كان على اتصال بشخص ما او كان له به علاقة سوف يستمر بحمل العلاقة

مع ذلك الشخص . وهكذا تظل الخرق تحمل رغبات الشخص الزائر وأمله بالشفاء . وبمرور الوقت تأخذ الخرق شيئا من قوة الولي وتنقلها للمريض . ويذهب الفلاح لزيارة اولياء الله في مزاراتهم طالبا الشفاء وواعدا الولي بتقديم اضحية اذا من الله بالشفاء . وقد يأخذ الفلاح شيئا من الزيت او القماش او الماء او الحجارة من المزار او ممـا يجاوره ويستعمل كل ذلك كوسائل للحصول على الشفاء . كما يذهب الناس ومعهم احد المتهمين بارتكاب ذنب ما ليقسم اليمين في المزار . وفي ذلك تأكيد للمتهم بأن الولي سيتسبب في ايذائه اذا كان كاذبا . ويورد المؤلف نص احد الايمان الشعبية التي كـان يؤديها المتهم في المزار . يقول اليمين : « والله ومحمد رسول الله / والله وما اعز من الله / وحياة هالعود والرب المعبود والنبي داهود / والصليب الحي / وحـق القبلة المحمدية / وحق هالكنيسة والساكنين فيها / وباب هالشرق معبد النصارى / والكعبة / والمهد الشريف / والمصحف / ولحية النبي / وحق عوينة هالشمس المقربة لطاعـة ربها / وحياة هالشارب / وحياة الماي المطهرة الحي والميت / وحياة الماي الجـارية والسموات العالية / وحياة هالشجرة اللي تشرب من عرقها وبتسبح ربها / وحيـاة هالبساط الاخضر اللي طلع من الارض خرسا طرشا وحـق من يعلـم كـم ورقة في هالشجرة وكم شعرة في هالحيوان ... » .

وتقدم النذور للمزارات ولوجه الشيخ وفاء بوعد قطعه مريض او صاحب حاجة . ويقول الشخص « نذرن علي لاقدم كذا وكذا اذا شفي ابني او حملت زوجتي او ... » . ومن الاشياء التي تقدم وفاء بالنذور تقدمات لتجميل المـزار واصلاح بنائـه ، كما تقـدم الاضحيات أو المساعدات المالية للفقراء باسم شيخ المزار او الولي .

المعتقدات الشعبية حول الماء والابار والينابيع(٣)

لقد احتل الماء وما زال مركزا ممتازا في حياة الشعب الفلسطيني وسكان الارض العربية نظرا لندرته . واتخذ تلك الاهميـة الكبيرة بحيث اصبحت استعمـالات تمس أمـورا مقدسة وممارسات اعتقادية تتصل بالطب الشعبي والاحتفـالات الدينيـة ومضامين الخرافات . ولم يقتصر استعمال الماء ضمن هذه المعتقدات على الاحياء بل الاموات يحتاجون الماء . ويقول المعتقد الشعبي ان ارواح الموتى تنطلق ايام الجمع وهي تحمل « ظروف » الماء لتملأها من الينابيع .

يناقش الدكتور كنعان في دراسته لهذا الموضوع مسالة وجود « الينابيـع المسكونة » والتي مؤداها ان ينابيع معينة تسكنها ارواح خيرة او ارواح شريرة . ولا تظهر هذه الارواح الا لشخص وحيد في النهار او في ساعات الليل . ومن اهم الاسباب التي تجعل الناس يعتقدون أن نبعا معينا مسكونا هي ان يكون النبع في مكان مهجور او في غابة او دغل كثيف الاشجار ، وان لا تصل اشعة الشمس الى مصدر النبع . ويتحقق ذلـك الانعزال بوجود كهف أو شق من الصخور او قنال قديم يكون مدخل النبع . وتبدو هذه الظروف مواتية ومحببة للارواح وتكون على اتصال بداخل الارض وبالنجم « زحل » . ويستعرض د. كنعان الينابيع التي تنبثق بشكل دوري ، اي انها تدفع مياهها في وقت ما في حين تتوقف عن الجريان في وقت اخر . وتلك مسالة آثارت خيال الناس وانبثقت عنها معتقدات خرافية جميلة . لقد وجد الناس تفسـيرا ذا صلة بالاعتقـاد بالارواح الحارسة للمياه وهو اعتقاد منسجم مع الموروثات الدينية . انهم يعتقـدون ان العين الدورية تسكنها اثنتان من الارواح : الاولى روح بيضاء والثانية روح سوداء . وكـلا الروحين في صراع سرمدي دائم . وعندما تنتصر الروح الحرة تفسح المجال امام الماء لينساب لمنفعة البشرية العطشى . ولكن سرعان ما تنهض الروح المستعبدة السوداء وتستأنف المعركة . وعندما تنهزم الروح الحرة يغلق منفذ الماء .

ويعطي د. كنعان تفسيرا مبنيا على معتقد شعبي لظاهرة الينابيع الساخنة . يقول : « هناك عدد كبير من الارواح تسخن المياه باستمرار قبل ان تنفذ الى سطح الارض . ويستحضر الوقود من مسافة بعيدة . لقد أمر الملك سليمان الجن أن يقوموا بهذا العمل ليمنحوا سكان فلسطين حماما طبيعيا ساخنا وبما ان الارواح عمياء وطرشاء ولا تعلم بموت سيدها الملك فقد ظلت تخشى عقابه واستمرت تقوم بعملهـــا . ويسود اعتقاد مماثل حول « الحمام التركي » اذ يقال : « سكانه بحموه » اي ان الارواح التي تسكنه هي التي تسخنه .

ويرى د. كنعـــان أن هناك صلة بين المعتقدات الحـــالية للشعب الفلسطيني وبـــين المعتقدات الاثنولوجية القديمة لسكان فلسطين . وهو يرى أن الينابيع التي يعتقد الان بأنها مسكونة بالارواح كانت في الماضي ينابيع مقدسة ومكرسة لعبادة الآلهة المتعددة في فلسطين . وان ارواح الالهة لا تزال تزور تلك الينابيع — على حد المعتقد الشعبي — وان تغيرت اشكالها ، وقد ظلت الفكرة الاساسية سائدة . ويعتبر د. كنعان المعتقدات الحالية كرواسب متبقية من الممارسات الدينية القديمة في فلسطين . ويفسر ذلك أن العديد من الينابيع الموجودة حاليا ظلت تؤدي اغراضا علاجية كما هو الحال منذ عهـــد التوراة . ومن ذلك عين سلوان وحمام ستنا مريم وعـــين ام الدرج وحمام الشفا . وللسبب نفسه نجد ان هناك تقدمات تقدم للارواح حارســـة المياه ، فتقدم الشموع والازهار لحمام ستنا مريم وتقدم المصابيح لغير هذا النبع . وتؤدى صلوات وأدعيـــة ويحرق بخور عند بعض الينابيع كما هو الحال عند نبـــع جفنا . وتسمـــع عند بعض الينابيع صلاة وصوت جمهور غير مرئي .

ان ملاحظات د. كنعان حول الابار المسكونة بأرواح خيرة وشريرة تدور حول الخوف من الارواح بنوعيها ، واذا كانت ارواح أولياء الله تقدم العون للاخيار فانه لا يجـــوز الاقتراب منها في حالة لا تظهر عـــدم الاحترام لاولئك الابرار . ولذلـــك لا يجوز لامرأة مؤمنة ان تقترب من نبع مقدس او تمسه وهي غير طاهرة . واذا حصل ذلك فان الولي سيعاقب مثل هذه المرأة باصابتها بمرض في جسدها . وقد يعاقب البلد بأكمله ويوقف جريان النبع . ولذلك لا يجرؤ احد على الاقتراب من نبع تسكنه روح رجل مقدس دون ان يذكر اسم الله او اسم الولي او القديس الذي يسكن ذلك المكان وخاصة اذا كـــان الوقت ليلا او كان الشخص يسير ليلا بمفرده في مكان مهجور . واذا لم يفعل الشخص ذلك فانه سيلقى المتاعب . أما الارواح الشريرة التي يمكن ان تصادف شخصا ما فانها قد تتبعه وتصيبه بالمرض والضعف وحتى الموت . ويمكن ان تقوم هذه الارواح بتجفيف مياه هذه الينابيع وخاصة اذا اقتربت منها امرأة غير طاهرة . وفي جفنا فان القسيس يذهب الى البئر الجاف فيتلو الدعاء ويحرق البخور ليسترضي الجنية او يجبرها علـــى اطلاق سبيل الماء .

وهكذا يكون الخوف من الارواح بنوعيها القاسم المشترك للمعتقد الشعبي حول هذه الكائنات التي تحتل مكانا غامضا جدا في اذهان الناس .

الاواني السحرية(٤)

طاسة الرجفة او طاسة الرعبة اناء ذو قدرة سحرية مبنية على الكتابات المثبتة عليه . واذا ما شرب من مائه الشخص الخائف فانه يشفى . وقد اجرى د. كنعان دراسات على ٥٨ عينة من الاناء المعروف بطاسة الرجفة (او طاسة الرعبة ، الخوفة ، الخظة) . ولا يتوقف اثر هذا الاناء السحري على شفاء المصاب بحالة الخوف انما هناك العديد من الامراض التي يشفى اصحابها اذا ما وضعوا ماء في هـــذه الطاسة وشربوا منه . وقد أورد المؤلف عشرات من الكتابات التي نقشت على تلـــك الاواني والتي توضـــح

القدرة الشفائية السحرية لتلك الآنية . وأنقل للقارىء احدى هذه الكتابات كما أوردها المؤلف حرفيا : « وباذن الله تعالى تشفي هذه الطاسة النادرة من السموم كلها وقد جمع فيها منافع مجربة وهي للسعة الحية والعقرب والحما ... للمطلقة والفرس المعلة للكلب وللمغص وللقولبخ الشقيقة للطحال والقوة ... الدم ولابطال السحر وللعين وللنظر وللرمد والنزلة والرياح والارواح والبواسير للخلط البارد ولسائر العلل » . وتتضمن كتابة اخرى على احدى هذه الاواني رموزا غير مفهومة وان كانت ذات دلالات سحرية عند كاتبها . من ذلك هذه الكتابة التي تقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . اذا السماء انشقتوأذنت لربها وحقت واذا الارض مدت والقت ما فيها كذلك تلقي الحامل للجنين سالما باذن الله والله يخرجهم اخراجا وان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا . انصرف أيها القولبخ يانوح بنوح كلوخ كلخ الم المر ح م ع س ق ك ه ي ع ص ط ه س م ي س ن » .

ويفسر د. كنعان دور الآنية السحرية تفسيرا يتصل بالاعتقاد بقدرة النجوم والذي يلعب دورا مهما في حياة الناس في الوسط الشعبي الفلسطيني . وهناك اعتقاد ان لكل شخص برجا خاصا ، وهذا البرج يحكم مجرى حياته . وان علاقة هذا البرج مع غيره يسبب لصاحبه الخير او الشر . ولذلك فان على كل شخص ان يعرف نجمه ، ولما كان ذلك صعبا فانه يشرب من « الطاسة » والتي فيها الابراج الاثنا عشر والمتضمنة برج ذلك الشخص بالتأكيد . ويورد المؤلف حكاية عن أصل هذه الطاسة فيقول ان الجن اعتادت ان تستعمل مثل تلك الطاسة في الاستحمام . وذات مرة ذهب جن ليستحم بالقرب من نبع وبعد أن أنهى الاستحمام نسي الوعاء السحري بالقرب من النبع . واتفق ان مر بالمكان شخص محظوظ ووجد الوعاء فأخذه . وفي وقت قصير تمكن ذلك الرجل من اكتشاف ميزاته . وبمرور الزمن صنعت نسخ من الاصل واثبتت ان لها ميزات الاصل نفسها . وتدل الحكاية على ان القوة السحرية لا تعود لمعدن الاناء وانما للكتابات الموجودة عليه والمتضمنة كلمات من القرآن وأسماء الله والملائكة والكواكب والنجوم والجمل السحرية . وهنا يكمن السبب في أن طاسة الرجفة لا يجوز أن يمسها سوى شخص طاهر كما أنها تلف وتحفظ في مكان نظيف طاهر وباحترام كبير . واذا اضطر شخص غير طاهر لنقلها فانه لا يمسها بل يلفها بقطعة من القماش . وهناك من يعتقد أن هذه الطاسة ربما فقدت بعض قوتها اذا تعرضت للشمس الساطعة . وتستحضر الان معظم نماذج طاسة الرجفة بواسطة الحجاج الذين يذهبون الى مكة لاداء فريضة الحج . ويعتبر الناس ان تقديم هدية مثل طاسة الرجفة شيء ذو قيمة كبيرة جدا . ولا يقتصر استعمال طاسة الرجفة على الوسط الشعبي المسلم . وتتضمن قائمة الاواني التي أجرى عليها الدكتور كنعان دراساته أواني مأخوذة من أسر مسيحية .

البيت العربي الفلسطيني(٥)

كرس الدكتور كنعان الجزء الاكبر من دراسته للتحدث عن البيت العربي الفلسطيني من حيث معماره ومواد بنائه . واستعرض لذلك البيت الحجري والمبني من الطين والبيت القروي والبيت في المدينة ودرس الخيمة واعطى صورة واضحة عن المعمار الفلسطيني. وفي الجزء الاخير درس د. كنعان الجوانب الفولكلورية للبيت مكرسا معظم ما كتبه للمعتقدات الشعبية المتعلقة بعمارة البيت وسكناه والتصور الشعبي للامور المتعلقة بذلك .

يقول د. كنعان ان ابرز المناسبات الاحتفالية في الحياة الشعبية الفلسطينية هي : الزواج ، وولادة الذكور وبناء بيت جديد . وعندما ينتهي المرء من سقف بيته يجتمع لديه الاهل والاصدقاء والجيران لتناول وجبة احتفالية وتقديم الهدايا بهذه المناسبة الطيبة . ان الدار تحتل مكانا مرموقا في نفس الانسان الفلسطيني فهي تمثل ما يستره ويستر

اهله وتمثل الذكريات بشتى اشكالها . وهو يحن اليها اذا غادرها ويتمنى العودة اليها واعدا اياها بأجمل الزخارف والمحبة القلبية . ويتضح ذلك في هذه الاغنية الشعبية التي يسجلها د. كنعان :

يـا دارنـا يـا ام الحجـر الاحمـر	احنا رحلنا وغـيرنا اتوطن
يـا دارنـا يـا ام الحجـل والطوق	يا عاليه وامشرعة لفـوق
يـا دارنـا يللـي اربينـا فيكـي	لا عادت تآوينا ولا اتآويكي
يـا دارنـا ان نزلوك عربـان غيرنـا	اتوصيبهم يا دار حتى نعاود
لاجيـب لـك يا دار حملـين نيلـة	وانتشك يا دار نتش العرايس

ويستعرض الدكتور كنعان العديد من المعتقدات الشعبية المتعلقة بالبيت . يقـول ان هناك معتقدا سائدا في الوسط الشعبي الفلسطيني مؤداه ان كل بيت تسكنه مخلوقات خارقة للعادة ... وتوجد هذه المخلوقات على الاخـص في البيوت الخالية والخربـة والحديثة غير المأهولة . ولذلك يفترض في كل ساكن جديد ان يسترضي تلك المخلوقات. وتبدأ اجراءات ترضية هذه الكائنـات ومحاولة كف شرهـا منذ البدء في البناء بعـد الاساس . اذ يجب اذ ذاك ذبح ذبيحة كتقدمة للارواح ساكنة المكان تسمى « ذبيحـة الاساس » . ويستدعي المسيحيون الخوري ليبارك الاساس ويلقي عليه مياها مقدسة. وعند وضع حجر الاساس يضع صاحب البيت تحت الحجر قطعة عملة فضية باعتبـار ان ذلك يشكل فألا حسنا يدل على « الفضا » اي النور . وعندما يعقـد البناء شاشية باب البيت فانه يعلق على الحجر هناك خرزة زرقاء ، وثوما وقطعة من الشب وبيضة مفرغة . وهناك من يعلق شكل يد بشرية او صليبا . وهناك ايضا ذبيحة العقد والتي تذبح عند انهاء العمل في السقف . وقد اعتاد البدوي ايضا أن يذبح ذبيحة كلما نصب خيمته في مكان جديد للأسباب والمعتقدات نفسها السالفة الذكر .

ويروي الدكتور كنعان أنه كان هناك معتقد قديم مؤداه أنه لن يخلد البناء الا اذا دفن في الاساس انسان او جزء من انسان !! وخاصة اذا كان البناء حماما عاما او عمـارة ذات صلة بالجمهور(٦). وقد حلت فيما بعد عادة ذبـح حيوان بدلا من تلك العـادة . وهناك المعتقدات الشعبية ذات الاصل الاسلامي والتي تفرض على ساكن البيت الجديد أن يدعو شيخا ليقرأ القرآن أو يدعو الدراويش لاقامة الحضرة وهذه العادة ما تـزال موجودة حتى الان . ويعلق الناس راية بيضاء عـلى ظهر البيت وذلـك تيمنا برايـة الرسول محمد (ص) البيضاء .

دراساته الاخرى

تعتمد دراسات توفيق كنعان على رصد المعتقدات الشعبية ومن هذه المعتقدات التي القى ثقله الى جانبها مسألة الثنائية في المعتقد الشعبي الفلسطيني . فهو يدرس النور ويقابله بالظلام(٧). ومن هذا القبيل درس الثنائيات التاليـة : الخير والشر ، الابيض والاسود ، الملائكة والشياطين ، العالم العلوي والعالم السفلي ، الاله مقابل ابليس . وهو يعتقد ان دراسة ظاهرتي النور والظلام يمكن ان تؤدي الى نتائج كبيرة وتوضح مواقف جمة . وبعد ان يتحدث د. كنعان عن سبل الانارة الشعبية والمصابيح الساذجة، وبعد أن يتحدث عن خوف الانسان البدائي من الظلام فانه يحشد عشرات الامثلة من الحياة الشعبية التي تتصل بموضوع . وذلك يذكرنا بالمنهج المشهور الذي اختطه سير جيمز فريزر في الدراسات الانثروبولوجية الذي يعتمد على دراسة فكرة معينة من خلال ايراد حشد هائل من الامثلة الموضحة لها في بيئات انثروبولوجية شتـى . ومن هذه الامثلة العديدة المتعلقة بمسألة النور والظلام رصد كل التعابـير الشعبية المتصلـة بكلمات : مصباح ، ضوء ، قمر ، شمع ... الخ وفي بعـض الاحيـان نحس بتشعب الموضوع واتخاذه مسارات شتى . وعلى سبيل المثال فانه عندما يتحدث عن الزيت

كمادة اساسية تشعل للحصول على النور فانه يتحدث عن القيمة الغذائية للزيت من وجهة نظر الاقوال الشعبية المأثورة كما يسهب في الحديث عن اعتقاد الناس ببركة شجر الزيتون . ومن وجهة نظر الكاتب الحالي — وهي لا تتعارض مع ما أراده د. كنعان — فان المادة الخام التي خلفها لنا كاتبنا تشمل ثروة فولكلورية لا ينضب لها معين تحتاج الى من يشمر ساعد الجد للعمل على جلاء ملامح الفلاح الفلسطيني ونظرته الخيرة .
من هذا المنطلق يدرس توفيق كنعان الموضوعات الاخرى مثل فولكلور النبات(٨) وفولكلور الفصول(٩) ونحن نرى انه يتناول اسم نبتة معينة ثم يدرس الامثال والاغاني الشعبية والاقوال المأثورة المتعلقة بها . ومثلا نراه يدرس وجهة النظر الشعبية حول فترات الحياة المختلفة وهو يورد نبتة « الخيار » . وانقل عنه هذا النص : ابن عشرة مثل الخياره المقشرة ، ابن عشرين يعاشر المجانين ، ابن ثلاثين زهر البساتين ، ابن اربعين من الكاملين . ثم يستفيض د. كنعان في دراسة النسخ الاخرى من هذا النص وتفسيرها . كما يقوده الحديث عن النبات من وجهة النظر الشعبية الى المعتقدات الشعبية المتعلقة بها فيرصد ظاهرة ارتباط النبتة بالمزارات واضرحة الاولياء ومسألة تقديس الاشجار التي هي مستمدة من القدرة الالهية المتمثلة فيها . ويفسر ذلك كثرة الزخارف الشعبية في البيوت والمزارات وعلى الملابس والتي تمثل اشكالا شتى من الاشجار .

ويستطرد كنعان فيدرس نباتات وردت في الكتب المقدسة ونبتت حولها معتقدات وخرافات كثيرة مثل نبتة القمح التي كانت تنتصب في وسط جنة عدن والتي قدمت الافعى منها طعاما لحواء — أم البشر — . وعندما طرد آدم من الجنة ارسل الله اليه بواسطة الملاك جبريل حبات القمح ملفوفة بسبع مناديل من الحرير. وقام آدم بزرع هذه الحبوب والتي اتخذت شكل حرف الالف (ا) وهي الحرف الاول من لفظ الجلالة (الله) . ولذلك فان القمح « نعمة من الله » ويحرص الفلاح على الا يدوس اية قطعة خبز مهما صغرت. واذا ما وجد الفلاح شيئا من الخبز وقد سقط على الارض فانه يتناوله بكل خشوع واحترام ويقبله ويضعه على جبينه ثم يودعه جانبا بحيث لا يتعرض لان يداس بالاقدام . وتأتي مادة فولكلور الفصول كتتمة لمقالة د. كنعان المنشورة بالالمانية حول هذا الموضوع(١٠) وكذلك استكمالا لما كتبه كتاب آخرون مثل بوهر(١١) وسونن(١٢) وستيفان(١٣) حول فولكلور الفصول في فلسطين . ويدور معظم هذه المادة حول أسماء الشهور والعطل والمواسم والمناسبات على مدار السنة وما ارتبط بها في الذهن الشعبي من افكار وممارسات ومعتقدات . اما دراسة د. كنعان للمعتقدات والممارسات الدينية فيما يتعلق بتصور قدرة الله(١٤) فيمكن اعتبارها ذات صلة بما كتبه عن الاولياء وهي حافلة بتصور الانسان لقدرة الله ودوره في مسائل الخير والشر والرزق والفقر والمرض والشفاء . وغني عن الذكر أن هذه التصورات تعزي كل ذلك لله . ويبدو ان جهد الباحث الفولكلوري ازاء مثل هذه الدراسات يجب ان ينصب على تمييز ما هو دين رسمي عما هو فولكلور . وهذه ليست مهمة سهلة . ونحن نعرف أن الكثيرين من الكتاب الغربيين الذين درسوا الفولكلور الفلسطيني خلطوا بين المعتقدات الشعبية المنحدرة من الشروح الدينية وبين الدين الرسمي .

وآخر الموضوعات التي درسها د. كنعان والتي هي موضوع استعراض الكاتب الحالي لاعمال ذلك الكاتب دراسته عن طبوغرافيا وفولكلور البتراء(١٥). وتكمن اهمية هذا الموضوع بدراسة الحياة الاجتماعية لبدو البتراء وصلة ذلك بحياة بدو جنوب فلسطين ، اذ أن هناك علاقات وطيدة وحركة ارتحال تمت على طرفي وادي عربة وجعلت الاراضي على طرفي الوادي منطقة فولكلورية واحدة ذات صفة عربية بدوية .

يسكن اللياثنة ، بدو البتراء ، في وادي موسى وهم ذوو طبيعة بدوية الا انهم يمارسون

الزراعة شأنهم في ذلك شأن الفلاحين . ويتحدث د. كنعان عن ملامح الحياة اليومية لهؤلاء الناس فيقول انهم يعيشون حياة صعبة ويقاسون من الحاجة والفقر المدقع . ويعتمد مجتمعهم على سيطرة الرجل . ويتم زواج البنت عندهم على رغبة وليها ودون استشارتها ولا تحصل على شيء من المهر . وقد يمنحها والدها هدية وهي عبارة عن بعض الحيوانات أو قطعة من الارض . ويشيع بين اللياثنة زواج البدل بحيث يزوج الواحد منهم أخته أو قريبته لشخص ويتزوج هو أخت ذلك الشخص او قريبته دون وجود مهر . ويندر أن يتم الزواج بالخطف ، وفي هذه الحال يسمون الفتاة التي تهرب مع حبيبها « طموح » . وهناك عدد ضئيل من بنات المشايخ لعبن دورا كبيرا في حياة القبيلة وفي هذه الحالة يسمى الشيخ بكنية تعود لتلك البنت . وغالبا ما يقضي الرجال وقتهم في كسل دائم وثرثرة متصلة .

ويعتبر اللياثنة الاولياء مخلوقات ذات قوة خارقة ودورهم هـو مساعدة الناس عند الحاجة . ولذلك فهم يطلبون منهم العون أكثر مما يطلبونه من الله . ويقول د. كنعان انهم قليلو المعرفة بالدين فقد سأل هو شخصيا خمسة منهم أن يتلوا سورة الفاتحة ولكنهم لم يكونوا ليعرفوا تلاوتها . ويصدق هذا القول علـى البدو المقيمين في النقب واطراف سيناء فمعرفتهم بالدين جد ضئيلة ان لم تكن أحيانا معدومة .

ولم يجد د. كنعان عند هؤلاء البدو أي ممارسات أو طقوس في مزار او كهف أو ضريح لولي . ولكنه لاحظ انهم يقدسون الموتى مـن الاشخاص ذوي الدور الكبير في تاريخ العشيرة اثناء الحياة . ويؤمنون بالجن ويصفونه بانه يشبـه الغول كما هو ماثل في الحكايات الشعبية الفلسطينية .

منهج البحث عند توفيق كنعان

يمكن القول ان دراسة توفيق كنعان للفولكلور الفلسطيني هي دراسة وصفية . وهو يعتمد على تناول زاوية معينة بحيث يورد كل التفاصيل المتعلقة بها والتي يبدو أنه جمع الكثير منها بطريق الاستجواب الشخصي . اما الجزء الآخر فقد اعتمد فيه على العمل المكتبي . ويبدو انه رجع الى العديد من المراجع الاجنبية والتي حاول أن يصحح ما جاء فيها على ضوء معرفته الاصيلة بالحياة الشعبية المحلية .

وقليلا ما يحاول د. كنعان أن يربط بين المادة التي يجمعها وبين مثيلاتها سواء أكان ذلك في بيئات أخرى ام البيئة الفلسطينية القديمة . وهو ان حاول ذلك فانه يقارن مع عهد التوراة أو مع ما جاء في القرآن الكريم . الا ان د. كنعان يكتب وقد اتضح في ذهنه المنهج الوظيفي بحيث يبذل جهدا طيبا في تفسير المادة التي يتحدث عنها من خلال ابراز وظيفتها في الحياة الشعبية ودورها في توجيه أفكار الناس وتكوين مفهوم معين مرتبط بممارسات معينة متفق عليها لدى الوسط الشعبي . ولذلك وجدنا أنه ألقى ثقله الى جانب دراسة المعتقدات الشعبية لعلمه الاكيد أن هذه المادة ذات صلة بالواقع المعاش للناس فهي تؤثر فيه وتوجهه وتحكم مسار الحياة اليومية .

ولم ينس د. كنعان أنه يكتب عن تراث بلد مهدد بأخطار التذويب والابتلاع ، ولذلك نراه يربط بين المادة التي يجمعها وبين الارض ، ويخلق الصلة بينهما بحيث يمكن القول ان هؤلاء الناس ــ أهل فلسطين ــ هم أصحاب هذه الافكار المرتبطة بهذه الارض والتي وجدت الصلة عبر هذا الحشد الجغرافي العظيم مـن المزارات والاضرحة والكهوف والينابيع والآبار والاشجار ... الخ .

وبعد ، فان أعمال د. كنعان لهي أشبه بعمل موسوعي يحتاج الى من يعيد تنظيمه ويضيف اليه لتظهر « موسوعة الفولكلـور الفلسطيني » التي تبـرز وجه الشعب الفلسطيني صاحب الارض العربية الفلسطينية ومبدع تراثها وثقافتها الاصيلة .

الحواشي

١ — من ابرز مؤلفات الدكتور توفيق كنعان بالالمانية كتابه :
Aberglaube und Volksmedizin in Lande der Bible
« الخرافات والطب الشعبي في فلسطين »
a) Der Kalender der Palästinenschen Fellachen.
b) Dämonglaube in Lande der Bible.
c) Die Neugeborenen in der Palästinenschen Volkssite.

اما دراسات توفيق كنعان بالانجليزية والتي هي موضوع هذه الدراسة فتضم كتاب :
Mohammeden Saints & Sanctuaries in Palestine.

واحدى عشرة مقالة اخرى نشرها في مجلة JPOS

٢ — *Mohammaden Saints And Sanctuaries in Palestine*, Luzac & Co., London 1927.

٣ — دراسة الدكتور كنعان حول هذا الموضوع في مقاليه :
a) Water And the Water of Life in Palestinian Superstition, *JPOS*, IX, 1929.
b) Haunted Springs and Water Demons in Palestine, *JPOS*, I, 1921.

٤ — درس د. كنعان هذا الموضوع في مقاليه :
a) Tasit Er-Radjfeh, (Fear Cup), *JPOS*, III, 1924.
b) Arabic Magic Bowls, *JPOS*, XVI, 1936.

كما استفاض المؤلف في التحدث من هذا الموضوع في كتابه :
Aberglaube und Volksmedizin in Lande der Bible, Hamburg, 1914.

٥ — تناول الدكتور كنعان هذا الموضوع في مقالة من جزءين بعنوان :
The Palestinian Arabs House, its Architecture and Folklore, *JPOS*, 1937, Vol. XII, (223-247).

٦ — تصدّى د. كنعان هذه الظاهرة في كتابه :
Dämonenglaube im Lande der Bible (38-39).

٧ — Light and Darkness in Palestinian Folklore, *JPOS*, XI, 1930.

٨ — Plant-love in Palestinian Superstition, *JPOS*, VIII, 1928.

٩ — Folklore of the Seasons in Palestine, *JPOS*, III, 1924.

١٠ — انظر مجلة : *Z.D.P.V.* XXXVI, 266-300

١١ — *Z.D.P.V.* XXXVIII, 54-57: Bemerkungen zu Dr. Canáan's Der Kalender des Palästinenschen Fellachen.

١٢ — Landwirtschafttiches vom see Genesareth, Das Heilige Land, Heft I, 1921.

١٣ — The Division of the Year in Palestine, *JPOS*, 159-170.

١٤ — More Palestinian Beliefs and Practices Relating to God, *JPOS* XIV, 1934.

١٥ — Studies in the Topography and Folklore of Petra, *JPOS*, IX, 1929.

المتمردون على الخدمة العسكرية في اسرائيل

عبد الحفيظ محارب

ظهرت قضية التمرد على الخدمة العسكرية كقضية للمرة الاولى في اسرائيل عام ١٩٧١ ، واخذت تنمو وتتفاعل ببطء خلال عام ١٩٧٢ . والحقيقة ان المرء — للوهلة الاولى — يستغرب حدوث ذلك لسببين : (١) الطبيعة التوسعية التي جبل عليها المجتمع الاسرائيلي . (٢) نظرة المجتمع الاسرائيلي الى الجيش ، وهذه النظرة تحيط الجيش الاسرائيلي بهالة من الاعجاب والتقدير والاحترام قل ان يحظى بها جيش آخر في العالم ، ويعود ذلك الى ثلاثة اسباب رئيسية : أولا ، ان الجيش الاسرائيلي اداة صالحة لتغذية الروح التوسعية للجمهور الاسرائيلي ، ثانيا ، ان الدولة قامت على اكتاف الجيش على خلاف قيام الدول في معظم المجتمعات ، كما وان الجمهور الاسرائيلي عايش منذ قيام الدولة حالات أمن متوترة أحرز فيها الجيش الاسرائيلي ثلاثة انتصارات خيالية ، بدءا بحرب عام ١٩٤٨ التي انتهت في عام ١٩٤٩ ومرورا بحرب ١٩٥٦ وانتهاء بحرب حزيران ١٩٦٧ ، كل ذلك خلال جيل واحد ، الامر الذي جعل هذا الجيل ، اي الجمهور الاسرائيلي ، يكن احتراما يصل في بعض الاحيان الى هالة مقدسة تجاه الجيش الاسرائيلي . ثالثا ، الدور الذي يلعبه الجيش الاسرائيلي في عملية دمج « يهود الشتات » ، ويمكن القول انه المؤسسة الاقوى والانجع في عملية صهر «يهود الشتات» في بوتقة واحدة بالرغم من فشل عملية الصهر وتخبطها .

لهذين السببين تبدو للوهلة الاولى قضية التمرد على الخدمة العسكرية مستغربة الا ان وجه الغرابة يزول عندما نقف على اسباب ظاهرة التمرد على الخدمة العسكرية وعواملها وحجمها .

من هم المتمردون على الخدمة العسكرية ؟ ينتمي المتمردون على الخدمة العسكرية ، او رافضو الحرب كما يطلق عليهم في بعض الاحيان ، الى فئتين رئيسيتين ، الفئة الاولى تنطلق من فكر سياسي ايديولوجي ضد الحرب ، وتعتبر الجيش الاسرائيلي جيشا محتلا ، والفئة الثانية تنطلق من أوضاعها التعيسة التي خلقتها الهوة الاجتماعية في اسرائيل ، معتقدة انها تستغل في جميع مجالات الحياة ، وان النضال التقليدي ضد النظام المستغل لا يأتي بنفع ، ولذا أقدمت على نضال فعال للتمرد ضد الخدمة العسكرية .

قبل التطرق الى الاسباب والعوامل التي ادت الى التمرد الايديولوجي والتمرد الناجم عن الهوة الاجتماعية ، لا بد لنا من الوقوف قليلا على قانون الخدمة العسكرية وعلى فئة أخرى اخذت تتهرب من الخدمة العسكرية لاسباب ليست سياسية او ايديولوجية . يلزم القانون الاسرائيلي كل رجل وامراة من الذين تتراوح اعمارهم بين ١٨ و٢٩ بالخدمة النظامية في الجيش الاسرائيلي ، تستغرق خدمة الرجل ٣٠ شهرا والمراة ٢٤ شهرا ، ويستثني القانون النساء المتزوجات ، كما ويعفي الفتيات المتدينات وتلاميذ المدارس الدينية المعروفة باسم الـ « يشيفوت » ، اما الرجال الذين يعارضون الحرب لاسباب

ضميرية فان القانون يعفيهم من الخدمة في الوحدات المقاتلة ، وينص على تجنيدهم في وحدات غير مقاتلة مثل سلاح الخدمات الطبية والتوجيه القومي وما شابه. وفيما يتعلق بالخدمة في سلاح الاحتياط فان القانون يلزم كل رجل حتى سن ٤٩ والنساء (اللواتي يشملهن القانون) حتى سن ٣٤ ، بالعمل في الخدمة الاحتياطية ٤٢ يوما خلال العام .

ان الفئة التي أخذت تتهرب في الآونة الاخيرة من الخدمة العسكريـة لاسباب ليست سياسية أو ايديولوجية هي فئة الفتيات اللادينيات ، وقد غدت عمليـة التهرب هذه ظاهرة ملموسة في النصف الثاني من هذا العام ، حيث اخذت اخبار هؤلاء الفتيات مكانا في الصحف الاسرائيلية . ومن الجدير بالذكر ان نسبة الفتيات اللواتي لا يشملهن القانون الاسرائيلي بسبب تدينهن او ادعائهن بالتدين قد بلغت عام ١٩٦٩ ، ٤٠ بالمئة ، وقـد تصاعدت هذه النسبة خلال العام الحالي بسبب كثرة الفارات من الخدمة تحت ستار التدين ، بمساعدة الفئات الدينية المتطرفة ، حيث أخذت هذه الفئات تنشط في التستر على الفتيات الهاربات وايوائهن ، كما وأخذت تنشط في تشجيع الفتيات على عدم الانخراط في سلك الخدمة العسكرية لتنافي ذلك مع الشريعة اليهودية .

هنالك اسباب عدة تقف وراء ظاهرة تهرب الفتيات من الخدمة العسكرية من اهمهـا العامل الاقتصادي حيث تفضل العائلات الفقيرة ومحدودة الدخل ان تقوم الفتاة في سن الثامنة عشرة بالعمل لمساعدة افراد العائلة على الانخراط في الخدمة العسكرية التي لا تدر مردودا اقتصاديا ، كما وهنالك العامل الديني لدى رب الاسرة وليس بالضرورة لدى الفتاة ، الامر الذي يضع الفتاة أمام ضغوطات عائلية ، وهنالك عامل ثالث وهو اكثر رواجا من العاملين السابقين بين صفوف الشرائح الاجتماعية المتوسطة والمتدينة ، وهو عامل الاخلاق ، التي تستغله العائلات التي ترفض ارسال بناتها الى الخدمة العسكرية مدعية ـــ سواء كان الامر صحيحا أو غير صحيح ـــ بأن الخدمة تؤثر على شرف الفتاة وعفتها ، مدعمة وجهة نظرها عادة بأقوال « الابن البكر » الذي انهى خدمته في الجيش: « لقد كان الابن البكر في الجيش وهو يعرف جيداً ما يجري هناك » . ومن الجدير بالذكر ان « الابن البكر » وأولئك الذين يرفضون تجنيد اخواتهم في الجيش يشنون حملة ضد الفتيات اللواتي يعملن في الجيش ، ضاربين على وتر العفة والشرف على غرار أحد الجنود الذي قال : « ان الامر اسهل بكثير مع المجندات . عندما اخرج مع فتاة بشكل جدي من اجل الزواج ، فانني اختار فتاة لم تذهب الى الجيش . انني منعت اختي من التجنيد » (دافار ٢٥/١٠/٧١) .

نعود الآن الى اسباب وعوامل التمرد الايديولوجي السياسي ، الذي قاده مجموعة من الاشخاص وعلى رأسهم جيورا نويمان وروجر درهي وغيرهما من الشباب الذين تفتحت أمام عيونهم طبيعة الحركة الصهيونية والاحتلال الاسرائيلي . لقد كانت هنالك اسباب عدة وراء التمرد على الخدمة العسكرية أهمها :

١ ـــ الاعمال « المخزية والمشينة » التي تقوم بها قوات الاحتلال واهمها على سبيل المثال لا الحصر ، سياسة العقاب الجماعي ، وسياسة الاستيطان الاسرائيلي ومـا يترتب عنها من سلب ونهب للفلاحين العرب ، وسياسـة التشريد والتهجير ، ورش المزارع العربية بالمواد السامة (كما حدث في قرية عقربة) بواسطة طائرات سلاح الجو ، الامر الذي جعل بعض الفئات الاسرائيلية تنظر الى الجيش الاسرائيلي **كجيش محتل** ، وهذا أمر لا تعترف به التكتلات السياسية الرئيسية في اسرائيل ، فبعضها يرى ان المناطق المحتلة « مناطق محررة » والبعض الآخر يعتبرها « مناطق محتفظا بها » مع ان جميع هذه الكتل تجمع على ضرورة عدم العودة مطلقا الى حدود الرابع من حزيران. وكان من نتيجة الاعمال المخزية في المناطق المحتلة ان حدثت قفزة جيدة في نضال العناصر اليسارية الاسرائيلية المعارضة ، حيث أخذ البعض يربط بين الاعمال المشينة والخدمة

في الجيش ويدعو علنا الى رفض دخول المعركة فيما اذا وقعت الحرب ، مثل الكاتب الاسرائيلي عاموس كينان الذي قال في اجتماع احتجاجي ضد الاستيطان الكولونيالي في مشارف رفح : « لقد جئنا للاحتجاج ضد السياسة الكولونيالية لاننا ندخل عصرا حديثا لاسرائيل الكولونيالية . ان الاستيطان لا يبعد السلام فقط ، بل يجعله امرا مستحيلا . لقد قامت اسرائيل جديدة ، قبيحة ، تتشكل من خليط ديني وعسكري وبرجوازي » . واضاف ان الاعمال الكولونيالية في المناطق المحتلة تؤدي الى الحرب « وينبغي علينا ان نعلن الآن بأننا لن نقاتل في هذه الحرب » (معاريف ٧٢/٤/٢) .

٢ ــ تعنت اسرائيل في مواقفها السياسية وعدم استجابتها لمشاريع « السلام » سواء العربية منها او الدولية ، مع ان هذه المشاريع تمنح وجودها وكيانها صفة الشرعية ، وتعطيها أكثر بكثير مما كانت تطلب هي قبل حرب حزيران ، وهذا الامر ناتج عن الطبيعة التوسعية للمجتمع الاسرائيلي ، ولذا اتخذت السلطات الاسرائيلية مواقف متعنتة تتسم بالغطرسة كالاصرار على المفاوضات المباشرة والقول في الوقت نفسه بأنها لن تعيد هذه المنطقة أو تلك حتى ولو جلس العرب « معنا على مائدة المفاوضات المباشرة » وذلك نتيجة لانتصارها الباهــر في حرب حزيران من ناحية ، وضعف حركة التحرر العــربي من ناحية أخرى ، كما واخذت تضع قيودا على السلام تحول دون تنفيذ مشاريع السلام العربية المشفوعة بالتنازلات والتي تعطي اسرائيل أهم شيء كانت تطلبه وتسعى اليه ، الاعتراف العربي الرسمي بها علاوة على منحها تعديلات على الحــدود اي توسيع رقعتها ، ولو ان هذه المشاريع العربية طرحت قبل حرب حزيران لقبلتها اسرائيل فورا وبدون تردد ، ولاتهم اصحابها اي الطرف العربي بالخيانة ، ولكان من المشكوك فيه ان يبقى صاحبها على سدة الحكم يوما واحدا ! وبالرغم من ذلك وقفت اسرائيل حجر عثرة أمام مشاريع السلام العربية والدولية ، وانحت باللائمة على الطرف العربي وبعض الاطراف الدولية ، وخرجت من كل ذلك بأن الوضع الراهن سيستمر على ما هو عليه ، متذرعة **بعدم وجود خيار** أو « لا مناص من ذلك » . ومع ان الخيار في بعض الاحيان ــ أي الخيار الاسرائيلي ــ يكون موجودا فان السلطات الاسرائيلية تسارع الى عرقلته وسد الطريق أمامه ، متذرعة بالجملة نفسها « لا خيار » ، وخير دليل على ذلك ما اشيع حول موافقةالرئيس عبدالناصر على مقابلةالدكتور ناحوم جولدمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ، واشتراط عبدالناصر ان تتم المقابلة بموافقة السلطات الاسرائيلية ، الا ان « مقابلة السلام » هذه لم تتم بسبب رفض السلطات الاسرائيلية اعطاء موافقتها للدكتور جولدمان ، وكان من نتيجة ذلك كله ان بدأ قسم من الجمهور الاسرائيلي يتشكك في جملة « لا خيار » أو « لا مناص » ، الا انه ظهر هنالك أكثر من مجرد التشكك حين حدث نوع من التمرد بين أوساط تلاميذ المرحلة الاخيرة في المدارس الثانوية الذين يقفون على عتبة الانخراط في سلك الخدمة العسكرية ، ضد سياسة « لا مناص ولا خيار » ، وقد خلق هذا النوع من التمرد شبه تيار ضاغط في المجال السياسي في اسرائيــل بين أوساط الشبيبة ، فقد تصدى طلبة ثانويون في القدس لهذه السياسة ، وبعثوا برسالة الى رئيسة الحكومة غولدا مئير في شهر ابريل من عام ١٩٧٠ ، ربطوا فيها بذكاء وبجرأة واقع وقوفهم على عتبة الخدمة العسكرية بتفويت الحكومة كافة فرص السلام « نحن مجموعة من الطلبة الثانويين ، **نقف على عتبة تجنيدنا في الجيش الاسرائيلي** ، نحتج على سياسة الحكومة تجاه قضية مباحثات جولدمان ــ عبدالناصر ، لقد آمنا بأننــا نذهب للقتال وللخدمة العسكرية خلال أعوام ، لانه لا يوجد خيار ، بيد انه اتضح لنا في اعقاب هذه القضية انه ايضا في حال وجود خيار ولو كان بسيطا جــدا فان نصيبه التغاضي . وعلى ضوء ذلك **فاننا ، مع الكثيرين غيرنا ، نفكر كيف سنقاتــل في حرب متواصلة لا نهاية لها** ، في الوقت الذي تعمد الحكومة في سياستها الى تفويت فرص

السلام . اننا نطالب الحكومة باستغلال كل فرصة واحتمال للسلام » (هعولام هزيه ٧٠/٦/١٧) .

ان قيمة الرسالة لا تكمن بالاحتجاج بقدر ما تكمن في عمليـــة ربط الاحتجاج بالخدمة العسكرية ، وهذا أمر غير مألوف حتى ذلك الحين في الصراعات القائمة في المجتمع الاسرائيلي . وقد وعت الحكومة وادركت خطورة عملية الربط هذه ، وشنت هجوما بوسائل الاعلام الاسرائيلية ضد مجموعة الطلبة صاحبة الرسالة ، وكان من الطبيعي ازاء هذه الحملة أن تحدث انشقاقات بين التلاميذ المتمردين على سياسة الحكومة خاصة وانهم لا ينتمون الى حزب أو تيار ايديولوجي معين ، الا ان روح التمرد اجتاحت طلبة ثانويين آخرين حيث بعثوا برسالة في شهر مايو من عام ١٩٧٠ الى نائب رئيسة الحكومة يجآل آلون ، احتجوا فيها على سياسة الحكومة المترددة تجاه السلام ، وعلـــى رد الحكومة غير المتسامح على رسالة تلاميذ القدس .

٣ ـــ افتضاح خرافة الابادة : من بين الامور الاساسية التي أزالت الكثير مـــن الامور المسلم بها والمغروسة في ذهنية الجمهور الاسرائيلي افتضاح خرافة الابادة التي روجت لها السلطات الاسرائيلية منذ قيام الدولة وحتى الآن . فقد أصبح « خطر الابادة » المحدق باسرائيل يتلاشى من خلال اعترافات الزعامة العسكرية بأن اسرائيل لم تواجه عشية حرب حزيران خطرا يهدد كيانها مخالفين بذلك « الامر اليومي » الذي صدر عند اندلاع الحرب لوحدات الدروع الاسرائيلية : « بالدم والنـــار والحديد سنحول دون تنفيـــذ المؤامرة ... اننا ننطلق لتحطيم مؤامرة الابادة » ومناقضين التصريحات الكثيرة التي لا حصر لها قبل حرب حزيران وبعدها التي عكف الزعماء الاسرائيليون على ترديدها .
لا نقصد هنا التطرق الى اسباب قضية خطر الابادة وعواملها وملابساتها وكذلك ليس الى ملابسات تصريحات القادة العسكريين التي نسفت الفكرة السائدة وكشفت القناع عن زيف ادعاءات الزعماء الاسرائيليين بل نود الاشارة اليها كعامل مساعد استغله المتمردون على الخدمة العسكرية في دفاعهم عـــن مواقفهم ومعتقداتهم ، متسلحـــين باعترافات القادة العسكريين الذين كانت لهم يد طولى في حرب حزيران .
كان أول المتحدثين عن خرافة الابادة الزعيم (احتياطي) متتياهو بيلد وتبعه كل من عيزر فايتسمان وحاييم بارليف واسحاق رابين وغيرهم . يعتقد بيلـــد ان اسرائيل لم تكـــن معرضة الى خطر الابادة الا في عام ١٩٤٩ ، ويشاركه في هذا الراي عيزر فايتسمان ، ومع ذلك فقد « ثابرنا على تنمية الاحساس بالخطر المحدق بنا ، وكأننا شعب صغير ضعيف ، يتخوف باستمرار على كيانه ، ومعرض في كل لحظة لخطر الابادة » . ويعتقد بيلد « انه حسب رأيي جرى منذ الحرب جهد محسوب لطمس جوهـــر المشكلة التي مثلت أمامنا في مايو/يونيو ١٩٦٧ ، وطرح الحرب وكأنها تفجرت عقب خطر كبير وان العرب كانوا يعرضوننا للخطر ، وان هذا الخطر ناجم عـــن وضع حدودنا التي كانت مكشوفة » . ويستنتج من ذلك بأن الهدف من هذا الطرح هو **« توسيع حدودنا »** .
ويضيف بيلد « انني على يقين بأن الحكومة لم تستمع مرة واحدة الى تقرير مـــن قبل القيادة العامة بأن التهديد العربي كان يشكل خطرا على اسرائيل ، أو بأن اسرائيل لم تكن تملك القدرة لالحاق الهزيمـــة بالجيش المصري الذي كشف نفسه بغباوة مذهلة للضربة القاضية للجيش الاسرائيلي ... ان الادعاء القائل ان تلك القوات المصرية التي احتشدت على حدودنا الجنوبية كان بامكانها تهديد كيان اسرائيل لا يعني فقط الاستهزاء بالمثقفين الذين لا يستطيعون تقييم هذه الامور ، بل ايضا تحقيرا للجيش الاسرائيلي » (معاريف ٧٢/٣/٢٤) .

أما عيزر فايتسمان فانه يعترف بأن عامل الخطر المحدق بالكيان الاسرائيلي لم يكن قائما « وان الدولة لا تخرج الى الحرب فقط عندما يحدق بها خطـــر الابادة » وان المصالح

القومية كانت وراء الحرب « ان امن اسرائيل ليس هدف وجودها . ان الدولة أقيمت للسعي لتحقيق الاهداف القومية الاخرى » (هآرتس ٧٢/٣/٢٩) .

لقد أحدثت هذه الاعترافات موجة من التساؤلات بين الجمهور الاسرائيلي الذي عانى من حالة خوف رهيبة عشية حرب حزيران نتيجة ترداد خطر الابادة على كل لسان وفي كل مكان ، وأكثر من ذلك نسفت الفرضيات الاساسية التي تقوم عليها السياسة الاسرائيلية . (للاستزادة حول هذا الموضوع أنظر مجلة **شؤون فلسطينية** : عدوان حزيران وخرافة الابادة ــ الدكتور اسعد رزوق . عدد ١٣ ، وخطر الابادة أسطورة في قاعدة الاستراتيجية الاسرائيلية ــ المقدم الهيثم الايوبي . عدد ١٤) .

٤ ــ المسرحيات المناوئة للحرب : في أعقاب حرب ١٩٦٧ أخذت تبرز في اسرائيل حركة مسرحية مناوئة للحروب يقودها كتاب شباب من الثائرين على الاوضاع السياسية والساخطين على سياسة « لا مناص » و« لا خيار » ومن أبرز المسرحيات التي ظهرت مسرحية « ملكة الحمام » للكاتب الشاب حانوخ ليفين . كتبت المسرحية على شكل اناشيد واغان ، كل أنشودة تنافس الاخرى في شدة انطلاقها ضد الحرب ، وهذا الامر مناف للروح العسكرية المسيطرة في المجتمع الاسرائيلي التي خططت لها القيادة السياسية وحافظت عليها الزعامة العسكرية من أجل تحقيق الاهداف الصهيونية . ولذا واجهت هذه الاغاني المناوئة للحروب استهجان وعداء السلطة والتيارات السياسية الفاعلة في اسرائيل . ان قيمة مسرحية « ملكة الحمام » لا تكمن في كلماتها الساخطة ضد الحروب فحسب ، بل أيضا (وهذا أمر اساسي) في كونها الصوت الساخط الذي يطلق صرخة « لا » و« كفى » في مجتمع تتحكم فيه العسكرية .

وهنالك مسرحية اخرى تجاوزت صرخة « لا » و« كفى » وتجرأت على التمرد ضد أهم سلاح تملكه العسكرية الاسرائيلية ، الا وهو سلاح « الخدمة العسكرية » في مسرحية « اقفز » التي ظهرت في عام ١٩٧٠ نجد للمرة الاولى روح تمرد الشباب ضد الخدمة العسكرية ، وسنقتطف ثلاثة مقاطع تتطرق الى موضوع التهرب من الخدمة ويمثل المتمردين الشاب ابي (انظر مجلة الجديد كانون الثاني شباط ١٩٧٠ حيفا) .

« ايلي : اذن أنت تهرب يا جبان . اقتد بيوسي

ابي : لا تسخر ، للهروب أوجه حسنة جدا

ايلي : هروب انه عدم القدرة على مجابهة المشاكل

ابي : من قال ذلك ؟ بياليك ؟ احاد هعام ؟ ترومبلدور ؟ عم تتحدث ؟ ثلاثة يهود استطاعوا الهروب من روسيا ، كاتب هرب من المانيا النازية ، متهم بريء هرب من السجن ، ملحق شهير هرب من اليونان ، اليس سماع هذه الاخبار فرحة عظيمة . لكلمة هروب لا توجد نغمة شاذة ، بالعكس تماما ، فهي نغمة الحرية ، رنين السعادة ، انها ليست نغمة المنطق ، أتفهم يا سيدي ؟

موشيه : الى الجحيم ، قل لي ، بأية مقاييس تحكم على الحرب ؟

ابي : بالمقياس الوحيد ، وهو ان حياة الانسان هي الشيء الاكثر سموا واهمية . »

وفي مقطع آخر يمثل ابي طلبة المدارس فئة الثانويين المتمردين على الخدمة العسكرية والذين أخذوا يرفضون مفاهيم حاولت السلطة ترسيخها في اذهانهم .

« ابي : بعد اسبوعين سننهي الثاني عشر ، ستصابين بصدمة اذا قلت لك ماذا سأعمل! **لن أذهب الى الجندية !!**

روني : هل تقصد ان تعلن بذلك ، انك متدين ؟

ابي : لا ، أنما قررت أن أتلاعب

راحيل : ابي ، هل صحيح ما قالته لي الجارة من أنك وصفت « المبكى » بأنه مجرد جدار ؟

ابي : لكن يا امي ، جدار ... انه مجرد جدار ... »

وفي مقطع آخر يصل « ابي » الى ذروة اليأس من الواقع ، ومن خلال هذه الذروة يرى الحل وهو التمرد على خدمة العلم بشكل نهائي .

« ابي : لا أدري ما العمل ؟ انني لا أرغب في وحدة سكن ... لا أريد الجهات الست... لا أريد شرفة مغلقة ، أريد شرفة كبيرة مفتوحة ومستديرة ككل العالم . لن اعود ، **أماه ... لن اخدم العلم .. لا اريد ، أماه .. انا لا ، انا لا »** .

لهذه العوامل مجتمعة ، ابتداء من الاعمال المشينة التي تقوم بهـا قوات الاحتلال في المناطق المحتلة،وتعنت اسرائيل فيمواقفها السياسية وعدم استجابتها لمشاريع «السلام» سواء العربية منها ام الدولية ، ومرورا بافتضاح خرافة الابادة ، وانتهاء بالمسرحيات المناوئة للحرب ، أخذت تبرز في الساحة الاسرائيلية ظاهـرة التمرد على الخدمـة العسكرية، وكان للاحزاب والهيئات الثورية في اسرائيل وعلى رأسها المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية « متسبين » والحزب الشيوعي الاسرائيلـي « راكاح » وبعض عناصر اليسار الاسرائيلي الجديد ، وكتاب وشخصيات اسرائيلية ثورية مثل عاموس كينان ودان بن اموتس والدكتور شاحك ، فضل كبير في استثمار هذه العوامل ضد السلطة وتوجيهها في مسار نضالي أدى في النهاية الى ظهور الفئة المتمردة .

قبل أن نتطرق الى رافضي الخدمة العسكرية ومعتقداتهم لا بد لنا من الوقوف قليلا حول ردود الفعل في اسرائيل على هذه الظاهرة وعلى ردود الفعل العالمية . لقد اتسمت ردود الفعل الاسرائيلية بالتضارب والتشعب حسب أهواء ومشارب التكتلات السياسية الفعالة في اسرائيل ، بيد انها تجمع على استنكار الظاهرة واعتبارها ظاهرة عرضية في مجتمع « مستنير » . ومما يلفت النظر ان وسائل الاعلام الاسرائيلية الرسمية منها أو غير الرسمية دابت ، من خلال تحليلها وتعليقها على رافضي الحرب ، على تشويه صورة الدول العربية ونعتها بأقذع الاوصاف . ولكي تتضح أمامنا صورة ردود الفعل لا بد من استعراض مواقف التيارات المختلفة في اسرائيل ، مبتدئين بحزب مبام (يسار صهيوني) الذي عبر عن نفسه في مقال نشرته صحيفة عل همشمار (٧٢/٦/١٤) تجاه قضية نويمان جاء فيه : « أن هذه الظاهرة يمكن ان تكون فقط ظاهرة هامشية في حيـاة اسرائيل . ففي دولة مستنيرة ، محاطة بدول ديكتاتورية عسكرية متخلفة وعدوة لن يكون هنالك كثيرون من أمثال نويمان . لا يمكن في ظروفنا ان يكون رفض حمل السلاح رفضا يعود الى الضمير ، الا اذا كان هذا الضمير فاسدا » . اما وجهة نظر المتدينين فانها لا تختلف عن وجهة نظر اليسار الصهيوني ، بيد انهـا أرادت ان تستثمر قضية نويمان ، وتخلق منها قضية أخرى ، قضية من هو اليهودي ؟ فقـد نشرت صحيفـة « هتسوفيه » الناطقة باسم الحزب الوطني المتدين مقالا افتتاحيا اخذت تشكك فيـه بيهودية نويمان على اعتبار انه ابن لام غير يهودية ، ولذا « فهو غريب ، حقا انه يتحدث العبرية وتثقف في مدرسة عبرية ، ومسجل كابن للقومية اليهودية ، الا انه غريب وفق الشريعة اليهودية » ثم شكك المقال الافتتاحي في مسالة ختنه ! وخرج مـن كل ذلك بمطالبة السلطات المسؤولة في التدقيق الشديد عند تسجيل هوية كل شخص في وزارة الداخلية « هل هو مختون ؟ هل هو من أم يهودية ؟ » وبذلك اراد المتدينون تفجير قضية من هو يهودي مرة اخرى . ومن الجدير بالذكر ان هنالك عددا من اليهود متزوجين بنساء من اصل غير يهودي ، لا يعترف المتدينون بيهودية أولادهم . اما التيار اليميني

فقد عبر عنه رئيس ادارة حزب حيروت عيزر فايتسمان حين قال في اجتماع امام جمهرة من الطلبة في الجامعة العبرية في القدس حول قضية نويمان انه « لا يوجد مكان في الدولة لرافضي الخدمة العسكرية ، واذا كان الشاب يرفض قبول سيادة دولة اسرائيل ، فانه ينبغي سحب الجنسية الاسرائيلية منه » (معاريف ٧٢/٦/١٥). اما كتلة هعولام هزيه فقد اتخذ رئيسها أوري افنيري موقفا مناوئا من قضية رفض الخدمة العسكرية لاعتقاده بأنه اذا ما اصبحت ظاهرة الرفض ظاهرة عامة فان ذلك سيشجع مثيري الحروب في الخارج لشن الحرب . يقول أوري افنيري : « لو ان عمل جيورا نويمان سيؤدي الى موجة متصاعدة لرفض التجنيد ، فهل سيقربه هذا الامر السلام ؟.. اذا ما خلق انطباع في العالم العربي بأن قوتنا العسكرية آخذة بالانهيار ، واننا سنفقد بعد بضعة اعوام ارادة الدفاع عن أنفسنا ، فان الامر لن يؤدي الى تعزيز قوى السلام العربية ، بل ان ذلك سيكون بمثابة تشجيع لمثيري الحرب عبر الحدود ، ومثيري الحرب عندنا . ان الضعف لا يجلب السلام » (هعولام هزيه ٧٢/٥/١٠) .

من الملاحظ ان ردود الفعل الاسرائيلية تهربت عن عمد من معالجة الاسباب الحقيقية لرافضي الحرب ، ولم تمس جوهر الموضوع بل فضلت التركيز على جوانب معينة منه مع بذل محاولة لتشويه صورة الجانب العربي ، الا أن الفئات الثورية في اسرائيل وعلى راسها المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية متسبين ، وكذلك فئات من اليسار الاسرائيلي الجديد والحزب الشيوعي الاسرائيلي راكاح ، وشخصيات مستقلة اخرى مثل دان بن اموتس ، وقفت الى جانب قضية التمرد على الخدمة العسكرية المتمثلة في ظاهرة جيورا نويمان ، ومست جوهر المشكلة ، وقامت بتنظيم تظاهرة في تل أبيب أمام مبنى وزارة الدفاع وتظاهرة اخرى أمام مبنى المحكمة اثناء محاكمة جيورا نويمان ، كما ونشطت في نقل قضية التمرد الى الخارج . وقد تمثل حضور القضية في الخارج في تظاهرة حدثت في لندن لاطلاق سراح نويمان وفي عرائض احتجـاج مذيلة بآلاف التواقيع مـن بريطانيا وفرنسا والمانيا وأمريكا واستراليا،بيد ان أهمرد فعلخارجي قد صدر منجانبالفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر . وتكمن أهمية موقف سارتر في عاملين ، أولا ، لكونه فيلسوفا يملك التأثير على قطاع كبير من البشر ، وثانيا ، للتحول الذي طرأ على موقف سارتر تجاه اسرائيل ، فقد كان سارتر عشية حرب حزيران متعاطفاً مع اسرائيل وربما كانت اسطورة الابادة أحد العوامل الرئيسية الكامنة وراء هذا التعاطف ، ويتمثل موقفه في الرسالة التي بعث بها الى السيدة صوفيا أم جيورا نويمان والتي تنص : « بودي أن أعبر لك عن تعاطفي الكامل مع ابنك . ان اعواما من السجن تنتظره بسبب العمل الشجاع والعملي . انه برفضه الخدمة في جيش كان في بدايته جيش دفاع وتحول الى **جيش معتد محتل** ، يشجب سياسة حكومة اسرائيل التي تحول الان دون أية خطوة نحو السلام . **وكلي أمل بان يثير عمله تفكير اكبر عدد من الشبان ابناء جيله** . ومن البديهي أن تكون هنالك قيمة لاسباب (عمله) توازي على الاقل نفس قيمة اسباب رفض الخدمة العسكرية لاسباب ضميرية محضة ، واعتقد ان تبرئة ساحته ستكون شرفا للمحكمة . ثقي يا سيدتي بأنني أشعر بآلامك » (معاريف ٧٢/٦/١٢) .

قضية جيورا نويمان : يعتبر جيورا نويمان رمز الثائرين على الخدمة العسكرية وأصبح يشكل قضية تعرف باسمه ، وبالرغم من محاولة السلطات الاسرائيلية كبت القضية وحبسها الا انها افلتت من أيديها وغدت من بين القضايا التي تتداولها الاوساط اليسارية الثورية في العالم ، ويعود الفضل الكبير في ذلك الى صمود جيورا نويمان الذي يناهز الثامنة عشرة من عمره والى المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية متسبين التي اخذت تروج لها بين الاوساط والتيارات المستنيرة في الساحة العالمية .

بدأت قصة نويمان عند مطلع شهر آب من عام ١٩٧١ عندما قام مع ثلاثة آخرين من ابناء

جيله (١٨ عاما) على عتبة الخدمة العسكرية بعد أن انهوا دراساتهم الثانوية (وهم رؤبين لسمان ، دوف جال ، عيريت يعقوبي « فتاة ») بارسال رسالة الى وزير الدفاع موشيه ديان ونسخ أخرى عنها الى كبار المسؤولين الاسرائيليين والى مندوب الامم المتحدة في اسرائيل، تعتبر سابقة وفاتحة لنضال عملي ضد المؤسسة العسكرية المحاطة بهالة من القدسية في اسرائيل . لم تكن هذه الرسالة كرسالة خريجي المدارس الثانوية الذين يشتكون من سياسة « لا مفر » و« لا مناص » وهم على عتبة الخدمة العسكرية والتي نالت استحسان ورضى قطاع من الجمهور الاسرائيلي ، بل كانت ثورة على الخدمة العسكرية بالذات ، على الاداة الرئيسية القوية التي لا تتعزز السياسة الاسرائيلية الا بها ، على الجيش الاسرائيلي : « اننا لسنا على استعداد للخدمة في قوات الدفاع . ان شبابا يفقدون ارواحهم في هذه الدولة في معارك من أجل صراعات داخلية وليس من اجل قيم عليا . مقابل كل قتيل في القناة ، يثري رجل في تل ابيب . **اننا لسنا على استعداد للخدمة في جيش محتل** . لم نولد احرارا لكي نصبح مضطهدين. ان الاضطهاد ليس سببا كافيا لبذل الروح من اجله ، اننا لسنا على استعداد لنتحول الى مرشحين في قائمة اعلانات الوفيات فقط لمجرد استهتار الحكومة بأرواح البشر . اننا لا نرغب أن يكتبوا عنا « حديث الموتى » في يوم من الايام . **اننا لسنا على استعداد لنرتكب بحق شعب آخر ما ارتكب بحق آبائنا وأجدادنا** . مرفق بذلك أوامر التجنيد التي استلمناها » (مجلة متسبين ٧١/٨/١٠) .

وقفت السلطات الاسرائيلية حيال ذلك مندهشة ، ولجأت الى أسلوب طمس الحقائق وتطويقها خشية انتشارها ، فأنكر وزير الدفاع في بداية الامر انه تلقى رسالة رفض للخدمة العسكرية من قبل الاشخاص الاربعة ، كما ومنع التلفزيون الاسرائيلي من بث مقابلة مع الاشخاص الاربعة كانت قد أعدت ، وأخذت وسائل الاعلام الاسرائيلية تبرز رسالة أخرى بعث بها أحد المشوهين يطلب فيها الانضمام الى الجيش الاسرائيلي ، بيد ان الرسالة كانت قد أخذت طريقها الى الصحف الاجنبية ولم يعد بالامكان التستر عليها. حينذاك لجأت السلطات الاسرائيلية الى ثلاث طرق في معالجتها لقضية المتمردين على الخدمة العسكرية (١) توجيه مذكرات توقيف بحق المتمردين ووضعهم في سجون عسكرية مع تجديد هذه المذكرات عند انتهاء المدة والقيام خلال ذلك بحملة نفسية مشفوعة بالتهديد ضد الشخص الموقوف بغرض تليينه وكسر مقاومته . (٢) افساح المجال امام الرافض للخدمة ، للعمل في مجال آخر ضمن الخدمة العسكرية ولكن في الوحدات غير المقاتلة مثل الوحدات الطبية ، وضمن حدود الرابع من يونيو فقط . وقد استطاعت السلطة العسكرية القضاء على تمرد عدد من الاشخاص بواسطة البديل الجديد : الخدمة في حدود الرابع من يونيو وفي الوحدات غير المقاتلة . (٣) في حالة تعذر كسر مقاومة الرافض من خلال تجديد مذكرات التوقيف في السجن ، واصراره على رفض الخدمة سواء في الوحدات المقاتلة ام غير المقاتلة في المناطق المحتلة أو ضمن ما يسمى بالخط الاخضر ، تحاول السلطة فتح طريق أمامه للتخلص من المشاكل التي يثيرها بواسطة التلميح للرافض بأن بامكانه عدم الالتحاق بالخدمة اذا كان مصابا بمرض جسدي أو نفسي ، وأذا ما استجاب الرافض لهذا « الاغراء » وصرح بأنه يعاني من مرض ، تطلق السلطة سراحه من الخدمة العسكرية على اساس انه « غير ملائم للعمل في الجيش الاسرائيلي » وبهذه الوسيلة أطلق سراح عدد من الرافضين للخدمة . اما في حالة عدم جدوى هذه الوسائل الثلاث فان الرافض يحال على محكمة عسكرية لاصدار الحكم بحقه في السجن . ليس من السهل اجتياز هذه الاساليب الثلاثة لسببين اثنين : (١) التهديد والوعيد من قبل السلطة ، (٢) يفاعة سن الشباب الرافضين الذين تناهز أعمارهم الثامنة عشرة فقط ، غير ان من يكون مسلحا بايديولوجية معينة فيمكنه التغلب على كافة الصعوبات النفسية والجسدية .

لقد جربت السلطة مع جيورا نويمان الاساليب الثلاثة وفشلت معه وانتصر عليها ، فبالنسبة للاسلوب الاول أصدرت مذكرة بتوقيفه ٣٥ يوما في سجن عسكري ، وعند انقضاء المدة ألحقتها بمذكرة توقيف ثانية بالمدة نفسها ثم ألحقتها بثالثة ورابعة وخامسة، وخلال ذلك استخدمت معه الاسلوب الثاني ، وكادت أن تنجح حين اشيع ان نويمان قبل العمل في الجيش ضمن حدود الرابع من يونيو وفي الوحدات غير المقاتلة . ويبدو ان نويمان وافق لفترة زمنية صغيرة للعمل في وحدة غير مقاتلة تحت تأثير عاملين : الضغط الموجه اليه في السجن من قبل سلطات الجيش ، ومن قبل أبويه اللذين ضغطا على ابنهما ــ بالرغم من تأييدهما لموقفه ــ لقبول البديل بدل أن يبقى بين الجدران الاربعة ، والشعور الذي اعترى نويمان بأنه يجب ان لا يقدم على خطوة تجعله في مرتبة المتفوق على زملائه ، بيد ان هذين العاملين سرعان ما سقطا عندما أعلن نويمان كما جاء على لسان أبيه : « انني لا أريد أن أكون في جيش مضطهد حتى ولو لم أجند في المناطــق المحتلة ، وكذلك فانني لن ألتحق بسلاح الخدمات الطبية ... **وانني لا اريد أن أطلق سراح جندي آخر لكي يخدم مكاني في المناطق المحتلة** » (هعولام هزيه ٧٢/٦/١) .

وهكذا استمر جيورا في مواصلة نضاله . وقبل التطرق الى الايديولوجية المسلح بها لا بد من الوقوف قليلا حول التربية المنزلية التي ترعرع عليها . ويحدثنا ابوه عن ذلك بقوله : « لقد هاجرنا الى البلاد عام ١٩٥٨ ، وكان جيورا يناهز الرابعة والنصف من عمره ، كان في طفولته يريد معرفة ما جرى لجده ، وروينا له كل شيء ، وروت له امرأتي التمرد في وارسو ، حيث كانت في وارسو لغاية عام ١٩٤٤ حين طرد سكانها وغدت المدينة حجارة فقط وارسلت امه مع أهلها للعمل في المانيا . لقــد قتلوا أمــي في اوشفايتس ، وتوفي ابي في هانوفر في احــد المعسكرات ، كما لقيت اختي حتفها في معسكر اعتقال في تشيكوسلوفاكيا . حدثت جيورا عن كل شيء وكان دائما يريد المزيد من المعرفة . لقد أثر ذلك عليه كثيرا . ان هذه المعاناة لم تكن معاناة بالنسبة للشعب اليهودي بل ايضا بالنسبة للشعب البولوني والشعوب الأخرى التي عانت الامرين من الالمان . ومن الواضح ان التربية البيتية قد اثرت عليه ... **اننا لم نشتر له ابدا لعب اطفال على شكل بندقية او دبابة او جنود** . بل كنا دائما نشرح له ضرورة احترام كــل الشعوب وكافة البشر بغض النظر عن دينهم أو جنسهم » (المصدر السابق) .

هنالك ملاحظتان تجدر الاشارة اليهما (١) وجه الشبه بين الماضي القريب والحــاضر الراهن ، بين ما ارتكبته النازية من فظائع ضد اليهود وشعوب اخرى وبين ما ترتكبــه اسرائيل من فظائع ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية ، وجه الشبه هذا اخذ ينمو ويرتسم بشكل متزايد في اذهان اوساط اسرائيلية مستنيرة ، وهذا هــو ما دفع الرافضين للخدمة العسكرية الى اختتام رسالتهم بالقول : « اننا لسنا عــلى استعداد لنرتكب بحق شعب اخر ما ارتكب بحق ابائنا واجدادنا » . (٢) الملاحظة الثانية تتعلق بالجملة التي وردت على لسان ابي جيورا حول لعب الاطفــال . لم تكن هذه الجملــة عرضية بقدر ما هي اتهام للمجتمع الاسرائيلي ، فمن المعروف ان لعب الاطفال العسكرية رائجة في اسرائيل ، الامر الذي يولد بالضرورة روحا عسكرية لدى الطفل ، ولا ينتهي الامر عند هذا الحد ، بل تنمى في الطفل روح عدوانية من خلال بعض الالعــاب التي تسيء الى شعب اخر كلعبة « العربي المشنوق » ومن خــلال التربية العنصرية التي يترعرع بين احضانها ، « **فالطفل في اسرائيل** » كما جاء في مقــال عن لعب الاطفــال العسكرية (ملحق معاريف ٧١/١٢/١١) « **يقتل عربيا كل مرة يضغط بها على زنــاد مسدسه** » .

نعود الان الى المنطلقات الايديولوجية التي دفعت نويمان لرفض الخدمة ، وكانت ايضا بمثابة السلاح القوي الذي صمد به اثناء صراعه . ان نويمــان لا يعتبر نفسه رجــلا

« سلاميا » يعارض الحروب لكونها حروبا ويعارض العنف لكونه عنفا ، وهذا لا يعني انهما ينطويان على امر ايجابي « ولكن قد يكون هنالك نضال تستعمل فيه القوة ويكون نضالا صادقا » ، ويعتقد نويمان « ان الامر المطروح هو التخلص من الكيان والسلطة والنظام الصهيوني » ويشرح رفضه للخدمة العسكرية في مقابلة اجريت معه على النحو التالي : « رفضي للتجنيد ليس خطوة قائمة بحد ذاتها ، انه جزء من عقيدة شاملة وجزء من تجربة لرؤية شاملة لواقع الشرق الاوسط ولتاريخه والنزاع في هذه المنطقة. بايجاز اني ارى في الصهيونية العامل الاساسي في هذا النزاع ، وهذا العامل يحمل بين ثناياه ظواهر ، بدءا بالكيرن كييمث ، وكيرن هيسود ، ومرورا بالوكالة اليهودية وحتى الدولة وجيش الدفاع الاسرائيلي . ان الامر المطروح على بساط البحث من الناحية التاريخية المبدئية هو **التخلص من الكيان والسلطة والنظام الصهيوني** . ان من يعرض «المشكلة» على « انهم يريدون ذبحنا » انما يخدع نفسه ويخدع الاخرين . المشكلة الاساسية هي التحرر من الصهيونية » (مجلة متسبين عدد ٦٢ فبراير ١٩٧٢) .

من خلال هذه الرؤية الشاملة لواقع الشرق الاوسط وتاريخه وهي رؤية متطابقة معرؤية منظمة متسبين التي ينتمي اليها ، دافع نويمان عن نفسه اثناء مثوله امام محكمة عقدت في يافا في بداية شهر تموز من هذا العام ، وانكر ان يكون ما اقدم عليه بمثابة مخالفة ، وان سبب رفضه للخدمة في الجيش يعود الى طبيعة هذا الجيش والدور المطلوب منه « ان السبب في ذلك هو ان الجيش الاسرائيلي كما اراه هو جيش احتلال » ثم اخذ نويمان يتطرق الى الاعمال المشينة التي يرتكبها الجيش الاسرائيلي في المناطق المحتلة مثل هدم حارات باكملها فيقطاع غزة في عام١٩٧١ وقيامه بطرد الاهلين وتهجيرهم «للمرة الثانية في حياتهم » معتبرا ان ذلك جزء بسيط جدا من الاعمال المشينة التي ترتكب الا انه ذكرها لكونها قد حدثت في الفترة التي تلقى فيها امرا بالانتساب للخدمة العسكرية ، ومشددا على ان « اعمال الجيش الاسرائيلي في المناطق المحتلة هي بمثابة اضطهاد واهانة وتهجير ونفي ، تشكل بمجملها كافة الظواهر الكلاسيكية للاحتلال » (هآرتس ٧٢/٧/٦) وان هذه الاعمال تتنافى والمبادىء التي يؤمن بها ، ومنهيا مرافعته بقوله « حسب رأيي انني اقف اليوم هنا ليس بسبب مخالفة ارتكبت ، بل بسبب استجابتي لضميري » . ومن الجدير بالذكر ان امه صوفيا قد استدعيت الى المحكمة لتشهد في قضية ابنها ، وقد كشفت النقاب عن التهديدات والحملة النفسية التي كان يوجهها قائد المعسكر ضد ابنها « سأحطم ابنك » وانه كان يقترح عليها في بعض الاحيان التنكر لابنها « ولكنني لن افعل ذلك مطلقا لانه غير مجرم . . . لقد ثقفته على المحبة والسلام واحترام الانسان بغض النظر عن الدين واللون والجنس » وقد اصدرت المحكمة حكمها بسجن نويمان ٨ اشهر ضاربة بعرض الحائط قول الفيلسوف الفرنسي « اعتقد ان تبرئة ساحته سيكون شرفا للمحكمة » .

لم يقتصر التمرد على اشخاص منتمين او مقربين من منظمة متسبين ، بل شمل ايضا اشخاصا اخرين ليسوا منتمين الى المنظمة وان كانت معتقداتهم ومبادئهم تتطابق او تتشابه مع معتقدات متسبين ومبادئها ، فهنالك على سبيل المثال الشاب دوف جال الذي لا يعتبر رفضه للخدمة العسكرية ناجما عن فلسفة سلامية ، ذلك لانه يؤيد العنف ولكن في حالة واحدة فقط « العنف من اجل الثورة الاشتراكية لانه عنف المستغلين ضد مستغليهم » ، وسنورد هنا مقتطفا من مقابلة صحفية معه نشرت في مجلة متسبين (٧١/٨/١٠) يوضح اسباب تمرده المتمثلة في معاداته للصهيونية التي يعتبرها سبب كل المآسي في منطقة الشرق الاوسط .

« س : من خلال اية مبادىء توصلت الى الاستنتاج بخصوص رفضك للخدمة في الجيش الاسرائيلي ؟

ج : قبل كل شيء ، بسبب كوني معاديا للصهيونية .

س : ما هي مبادئك وهل تنتمي الى تنظيم ؟

ج : انني اشتراكي ، ولا انتمي الى تنظيم معين او اتعاطف معه .

س : لماذا تعادي الصهيونية ؟

ج : لاعتقادي بأنها جلبت كافة المآسي في منطقتنا .

س : الا تعتقد بوجود مكان في ارض اسرائيل لدولة يهودية ؟

ج : هنالك مكان في البلاد لبشر يعتبرون انفسهم يهودا ، وكذلك يوجد مكان لكل انسان اخر يريد العيش هنا .

س : وماذا بخصوص المسألة اليهودية ؟

ج : ان الفكرة الصهيونية لم تأت بالفعل لحل المسألة اليهودية . انني لا اعتقد ان اليهودي في اسرائيل اكثر امانا من اي مكان اخر في العالم .

س : الا يوجد تمييز واقع على الاقليات اليهودية في العالم ؟

ج : ليس هنالك تمييز موجه ضد اليهود لكونهم يهودا ، بل هنالك تمييز ضد يهود لكونهم صهاينة ، ففي روسيا على سبيل المثال .. يعتبر الشخص الذي يحمل افكارا صهيونية مناوئا للثورة ، ولذلك فانهم يضطهدون هناك يهودا صهاينة » .

والى جانب هؤلاء المتمردين المنطلقين من فكر ايديولوجي هنالك متمردون على الخدمة العسكرية ينطلقون من فلسفة « سلامية » مناوئة لكافة انواع العنف مثل الشاب « الن روبين » من تل ابيب الذي توجه برسالة الى قيادة الجيش يعلن فيها رفضه للخدمة العسكرية « لاسباب ضميرية وليس الى اسباب سياسية » بيد ان ذلك لا يعني الافلات من السجن وان كانت المدة التي تصدر بحق هؤلاء عادة اقل من المدة التي تصدر بحق المتمردين الايديولوجيين . ولعل « روجر درهي » هو اكثر المعبرين واشدهم اصرارا في موقفه « السلامي » ضد الحرب . فقد كان من بين اوائل الذين رفضوا الانصياع للامر بالخدمة العسكرية واخذ يعمل طيلة عامين ضد هذا الامر بوسائل شتى منها ارسال مذكرات الى نحو ٩٠ صحيفة داخل اسرائيل وخارجها لتوضيح موقفه الذي يعتمد على « استعداده للخدمة ٤ ــ ٥ اعوام ولكن ليس في خدمة عسكرية بل في خدمة السلام ، خدمة منظمة كالجيش ولكن بدل القيام بالحرب ينبغي العمل من اجل السلام » (معاريف ٢٦/٦/٧٢) واوضح انه يدعو الى اقامة جيش سلام وافساح المجال امام الشباب للانضمام اليه . ومن الجدير بالذكر ان روجر درهي البالغ من العمر ٣٠ عاما كان قد قدم الى اسرائيل من فرنسا تاركا دراسته الجامعية ابان حرب حزيران تصورا منه ان اسرائيل تواجه « خطر ابادة » بيد ان هذا التصور اخذ يمحي من خلال ادراكه لواقع زيف الدعاية الصهيونية الامر الذي ولد لديه الدعوة الى الافكار السلامية المناوئة للحرب التي بقي مؤمنا بها ضاربا بعرض الحائط الحكم الذي صدر بسجنه ستة اشهر . فعند مثوله امام المحكمة قام بدور توجيه الاتهام اكثر من قيامه بالدفاع عن نفسه فقد وجه حديثه الى القاضي قائلا : « ان المحكمة تحاكم الاشخاص المتهمين بالقتل ، والان تريد انت محاكمتي لانني ارفض تنفيذ القتل ؟ صحيح ان من واجبي الدفاع عن نفسي وعن الدولة ، ولكن من قال بان هذا الدفاع يتأتى فقط عن طريق الحرب ؟ في الحرب يموت اناس . وقبل كل شيء ينبغي ان نعيش ، حينئذ يمكن صنع السلام . ان اية حرب حتى الان لم تحل قضية السلام بل تسببت بحرب اخرى .. » (المصدر السابق) . والامر اللافت للنظر في قضية (درهي) انه كان بامكانه الخلاص من السجن

ومن الخدمة في الجيش معا بسبب مرض في كليته بيد انه انكر ان يكون مريضا ، وعندما سأله القاضي عما اذا كان مستعدا لاجتياز فحص طبي اجابه الرافض بالنفي القاطع وقال انه لائق من الناحية البدنية للخدمة في الجيش غير انه يرفض الخدمة « لاسباب ضميرية » . ودفع الثمن ٦ اشهر في السجن بنفس مطمئنة ، بيد ان هنالك من لا تطمئن نفسه الى اجتياز الاساليب الثلاثة ودخول السجن مثل « يوسف هرئيل » (٢٨ عاما) من سكان تل ابيب ، الذي قام عند مداهمة الشرطة العسكرية عند منتصف شهر سبتمبر من هذا العام بسبب فراره من الخدمة بمحاولة الهرب من نافذة بيته ، الا ان المحاولة كلفته حياته ، اذ سقط على الشارع جثة هامدة .

وازاء الاوضاع الصعبة التي يواجهها رافضو الخدمة العسكرية ، ومن اجل نقل قضيتهم الى الرأي العام العالمي بشكل اوسع وانجع ، اقدم شابان اسرائيليان على طلب حق اللجوء السياسي في السويد وذلك بسبب رفضهما « سياسة الحرب القذرة » التي تتبعها السلطات الاسرائيلية ، اسوة بزملاء لهما من الجنود الاميركيين الذين اعتادوا طلب حق اللجوء السياسي في البلد نفسه ، احتجاجا على « سياسة الحرب القذرة » التي تشنها الولايات المتحدة ضد شعب فيتنام .

وقد عبر كل من الشابين اللذين يناهزان الثامنة عشر من عمرهما عن آرائهما في قضية الحرب والسلام في المنطقة فقد قال هاري اوستفلد في مقابلة اجرته معه صحيفة افنو بلادت السويدية « انني اعتبر جيراننا العرب اصدقائي ، لذلك لن اجازف بالتورط في القتال ضدهم » واما زميله يعقوب غولدبوف فقد قال للصحيفة نفسها : « انني ارفض أن تكون لي أية يد في هذه الحرب القذرة . وبصفتي جنديا فقد أجبر على الاشتراك في عمليات انتقامية قاسية ضد العرب ، مثل اقدام الاسرائيليين على قتل الشيوخ والنساء والاولاد كما حدث بعد مأساة ميونيخ » (كما نقلته صحيفة النهار ٧٢/١٠/١٧) . وبذلك فتح الرافضون للخدمة العسكرية جبهة جديدة في تصديهم للجيش الاسرائيلي .

المتمردون من خلال الهوة الاجتماعية : هنالك ظاهرة تمرد اخرى على الخدمة العسكرية اخذت تتفشى في النصف الاول من هذا العام بين الفئات المسحوقة من ابناء الطوائف الشرقية نتيجة التمييز الذي يواجهه اليهود الشرقيون في كافة مجالات الحياة والناجم عن الهوة الاجتماعية (أنظر مقالة الهوة الاجتماعية في اسرائيل **شؤون فلسطينية** عدد ١٥) لا تتوفر معلومات دقيقة حول عدد هؤلاء المتمردين ، فبينما تقدر بعض المصادر الاسرائيلية العدد بانه يناهز الاربعين ، نجد مصادر اخرى تلمح بان عددهم وصل الى المئات . ولعل خطورة هذا النوع من المتمردين قد بدت واضحة امام المسؤولين الاسرائيليين ذلك ان ابناء الطوائف الشرقية الذين يشكلون اكثر من نصف السكان في اسرائيل يعتبرون خميرة صالحة لنمو حالة التمرد على الخدمة العسكرية بسبب اوضاعهم وظروفهم التعيسة ، ولذا اخذت السلطات الاسرائيلية المسؤولة تنظر الى هذه المشكلة بجد وتعامل في الوقت نفسه بذرة التمرد بلين تحسبا من العواقب الوخيمة، ويتضح ذلك من ردود الفعل المتسامحة نسبيا تجاه هؤلاء المتمردين بين التكتلات السياسية الفاعلة في اسرائيل التي تجمع على استنكار التمرد وفي الوقت نفسه تبدي تفهما للاسباب الكامنة وراءه وتدعو الى حل مشاكل هؤلاء الشباب ! اما اسباب الخطورة فتتمثل في قول رئيس هيئة الاركان اللواء دافيد اليعازار « ان السبب الذي دفعنا للنظر الى المسألة بجد ، ينبع من واقع وجود دول في العالم تستخدم فيها بطاقة التجنيد كوسيلة للصراعات الداخلية . اننا لا نرغب في ان تغدو هذه الظاهرة مألوفة في البلاد ، لذلك فان مصلحتنا تتطلب فصل الصراعات الداخلية عن الخدمة في الجيش الاسرائيلي . ان الجيش الاسرائيلي هو لليهود كافة وينبغي ان يبقى معزولا عن اي صراع داخلي في الدولة » (معاريف ٧٢/٣/٢٨) . بيد ان مسألة عزله عن الصراعات

الداخلية اصبحت في الاونة الاخيرة بالنسبة للمسحوقين من ابناء الطوائف الشرقية مسألة فيها نظر ، ذلك انه اتضح امامهم انهم خلال ٢٤ عاما جربوا وخاضوا كافة انواع النضالات التقليدية من اجل تغيير الواقع التمييزي الذين يعيشونه ، بدءا بالاضطرابات والتظاهرات المتكررة المشفوعة في بعض الاحيان بالعنف ومرورا بانتفاضة وادي الصليب في حيفا وانتهاء بظهور حركة الفهود السود ، دون ان يحدث تغيير في واقعهم المر ، ولم يبق امامهم لا خوض نضال واحد : رفض الخدمة العسكرية . وقد توصل عدد من ابناء الطوائف الشرقية الى هذه النتيجة حين تمرد سبعة منهم في شهر اذار من هذا العام على الخدمة العسكرية وذلك بارجاع الهويات العسكرية الى الجيش ادراكا منهم بأن الجيش هو المكان الوحيد الذي تحتاجهم فيه السلطة ، حيث يشكل ابناء الطوائف الشرقية لبنة اساسية في حجمه ، مطلقين صرخة المسحوقين الذين يساقون الى الحروب لمصلحة الاسياد : نقاتل من اجل من ؟ او كما يقول حانوخا مزراحي ابرز الشبان السبعة ، « انهم يرسلوننا الى الجيش للمحافظة على المتحف الذي يخص موشيه ديان في الوقت الذي لا نملك فيه مكانا للنوم — لماذا ينبغي علينا ان نذهب للجيش ؟ » او كما يقول احد زملائه : « عندما روى زميلان لنا بانهما تلقيا امرا بالانخراط في سلك الاحتياط ، اخذنا نفكر : نقاتل من اجل من ؟ ولماذا نقاتل ؟ عندما كنا ابناء ١٨ عاما ذهبنا الى الجيش بقلب مفعم بالحب . . . واعتبرنا ان ذلك بمثابة فخر لنا ، ولكن اتضح بمرور الزمن ان الجيش هو المكان الوحيد الذي تستخدمنا فيه الدولة . . ليس من المعقول ان يطلبوا منا تقديم ارواحنا لدولة لا توفر لنا ابسط الشروط للعيش كبشر » .

ولعل ما هو اخطر من ارجاع البطاقات العسكرية ، ظاهرة التهديد باستخدام العنف من قبل ابناء الطوائف الشرقية المتمردين على الخدمة العسكرية ، والذين لا يرون في ارجاع البطاقات العسكرية اخر المطاف في نضالهم بل حلقة تؤدي الى حلقة من العنف كما يقول حانوخا مزراحي : « اننا نأمل ان يستمعوا الينا الان ، **وأن لا يعطونا فرصة لاستخدام ما تعلمناه في الجيش . . .** ولكن في المكان الذي لا يمكن فيه الحصول على شيء الا عن طريق العنف ، فاننا لن نتردد ايضا نحن عن التصرف كالاخرين . **لن ناكل الطين ونقول بانه عسل** » (هعولام هزيه ٧٢/٣/١٥) .

ويمكن القول ان الضوء البسيط الذي اخذ يشع وسط المجتمع الاسرائيلي ، يعتبر ظاهرة جديدة ، تتصدى — على الرغم من بساطتها — لاداة القمع الرئيسية التي تستخدمها الصهيونية في الحفاظ على الكيان الاسرائيلي وتوسيعه على حساب شعوب المنطقة .

ان هذا الضوء علاوة على انه بمثابة المعيار الحقيقي لثورية الفئات الثورية وخاصة تلك المعادية للصهيونية ، لا يعتبر عاملا مساعدا للثورة الفلسطينية وانما ايضا شريكا لها في صنع المجتمع الجديد البديل ، على انقاض المجتمع الصهيوني المتمثل في الكيان الاسرائيلي ، عقب تحرير كامل التراب الفلسطيني ؛ هذا المجتمع الذي يحتضن عربا ويهودا متساوين في الحقوق والواجبات وينتفي فيه استغلال الانسان للانسان .

ملاحظات حول تجربة الاتحاد العـــام للمعلمين الفلسطينيين

شحاده موسى

يمكن اعتبار الاتحاد مؤسسة في طور التكوين ، وتجربة محدودة . فقد اعلن تأسيسه في اواخر عام ١٩٦٩ ، اما مؤتمره الاول فعقد في شهر آب ١٩٧٢ . ولذا تنحصر تجربة الاتحاد عمليا في نشاط قيادته (الامانة العامة) وبعض فروعه التي اكتمل تشكيلها منذ وقت مبكر نسبيا مثل فروع لبنان وسورية والكويت . من جهة اخرى ، لا يصح أن يكون نشاط الاتحاد في هذه الفترة المحدودة مقياسا نهائيا لتقييمه ، اذ انه عبارة عن نشاط في مرحلة تحضيرية . ان هذا الوضع ، وطبيعة المعلومات المتوفرة حول الاتحاد تجعـــل دراسة الاتحاد ذات طبيعة جزئية وغير متكاملة . لذلك ستكتفي هذه الدراسة بطرح عدد من الملاحظات والاقتراحات ، التي قد لا تكون صحيحة كلها ، ولكنها ربما كـــانت مفيدة في اثارة بعض القضايا امام الاتحاد وهو على ابواب بدء مرحلة جديدة في عملـــه كمؤسسة مكتملة . ولا يقصد بهذه الملاحظات مجرد الانتقاد بقدر ما تهدف أن تشكل محاولة للاسهام في دفع تجربة الاتحاد على الطريق الثوري المنشود . وسنحاول القاء الضوء على بعض الجوانب الهامة في الاتحاد مثل : ١ ــ قطاع المعلمين : اي الوسط الذي يعمل ضمنه الاتحاد . ٢ ــ الوضع الخاص للمعلمين الفلسطينيين : بهدف ابراز النواحي الموضوعية التي تتحكم بعمل الاتحاد . ٣ ــ مهمات الاتحاد : ونحاول تصور المهمات الاساسية التي ينبغي على الاتحاد التصدي لها . ٤ ــ الاتحـــاد كمؤسسة : واخيرا نحاول استعراض تجربة الاتحاد منذ انشائه ، مع التركيز على بنيته ومـــدى انسجامها مع مهماته .

اولا : قطاع المعلمين : اكتسب التعليم لـــدى الفلسطينيين بعد نكبة عـــام ١٩٤٨ قيمة خاصة واضحى « الحرفة » الرئيسية التي تجتذبهم ، وذلك نتيجة للوضع الجديد الناجم عن النكبة . ولقد تمثل هذا الوضع ، من جملة ما تمثل بفقدان الفلسطينيين ، وغالبيتهم من سكان الريف ، كل وسائل الانتاج ، وبتركزهم عموما في مخيمات مكثفة على هوامش المدن . وعلى صعيد الاقتصاد العربي المحلي (الاردن ، سورية ، لبنان) كانت الصناعة مبتدئة ونطاق العمل الزراعي ــ المجال الـــذي يمكن ان يتجـــه اليه الفلسطينيون ــ محدودا ، بحيث كانت الدول العربية تشهد تحولا سكانيا من الريف الى المدينة . ليس هنا مجال البحث في الوضع الاقتصادي العربي في ذلك الوقت ولكن يهمنا ان نؤكد انـــه نتيجة للوضع الفلسطيني والعـــربي ، من الزاوية الاقتصاديـــة ، انقسم الفلسطينيون

* تنحصر منشورات الاتحاد تقريبا في تقرير من مؤتمر رابطة سورية ، تقريران عن مؤتمري رابطة لبنان ، كراس صغير عن الامانة العامة بعنوان « الاتحاد في سنته الثالثة » ، بالاضافة الى النظام الداخلي والقانون الاساسي ، وبعض البيانات .

بشكل عام الى قسمين : طبقات ميسورة نسبيــا اقامت في المدن ، خــاصة في الاردن ولبنان ، واندمجت بالاقتصاد المحلي ، التجاري بوجه عام ، والقسم الاكبر فقير لا يملك شيئا ، جمع في المخيمات وعاش حالة بطالة شبه كاملة في البدايــة ، والاعمــال التي تيسرت له كانت على هامش البنية الاقتصادية مثل العمل الزراعي الموسمي ، العمل في قطاع الخدمات (مقاهي ، مطاعم ، فنادق) والتجارة البسيطــة (دكاكين ، باعــة متجولون) .. الخ .

في ظل هذا الواقع كان لا بد للتعليم من ان يكتسب وضعا متميزا لعدة اعتبارات :

١ ــ تأمينه مجانيا من قبل وكالة الغوث ، ولو لمرحلة محدودة ، وكذلك من قبل الدول العربية المضيفة (ما عدا لبنان) . ٢ ــ ازدياد الطلب على المتعلمين وخاصة المعلمين ، سواء للعمل في مدارس وكالة الغوث ، أم في الدول العربية وخاصة السعودية ودول الخليج التي بدأت تشهد نهضة وتوسعا كبيراً في مجال التعليم . ٣ ــ وبذلك اصبــح التعليم الفرصة المتاحة عمليا او الراسمال الوحيد الذي يمكن به تحقيق الطموحــات الفردية كتحسين الوضع المادي والمكانة الاجتماعية . ولذلــك نقول ان التعليم اصبح « الحرفة » او المهنة التي اجتذبت الفلسطينيين ، ولكنها كانت في الوقت ذاتــه حرفة ممتازة من حيث مردودها المادي وكقيمة اجتماعية . فاكتسب المعلــم مكانة اجتماعية مرموقة ، كما ان دخله المنتظم والمرتفع نسبيا مكنه من تحسين وضعه المادي والمعيشي بشكل ملموس متميز عن غالبية سكان المخيم . ربمــا تكــون صورة المعلم ومكــانته الاجتماعية قد اهتزت الان بفعل التطورات التعليمية والاقتصادية التي حدثت في اوساط الفلسطينيين ، لكن المعلمين ما زالوا يشكلون شريحة اجتماعيــة كبيرة لها اوضاعهــا الخاصة .

لا نملك احصاءات دقيقة عن المعلمين الفلسطينيين من حيث العدد أو من حيث توزعهم بحسب مكان الاقامة ، والجنس ، والجنسية ، والتخصص المهني والمستوى العلمي .. الخ . ولكن لدينا تقديرات اتحاد المعلمين لعدد المعلمين وتوزعهم في مناطق عملهم ، كما نملك احصاءات وكالة الغوث الخاصة بالمعلمين العاملين في مدارسها . يقدر اتحــاد المعلمين العدد بــ ٤٨ الفا موزعين كما يلي(١) : الارض المحتلة ١٠ الاف ، شرق الاردن ٩ الاف ، سورية ٤ الاف ، لبنان ٣ الاف ، مصر ٣ الاف ، السعودية ٧ الاف ، الكويت ٦ الاف ، الخليج الف واحد ، ليبيا الفان ، الجزائر ٣ الاف . اما عدد معلمي وكالة الغوث فكان ٦٧٠٦ في عــام ٧٠ ــ ٧١ موزعين كما يلي(٢) : الضفة الشرقية ٢٢١١ ، الضفة الغربية ٩٢٩ ، غزة ١٦٠٣ ، سورية ٩٥٩ ، لبنان ١٠٠٤ . لا يبين الاحصاء المذكور عدد المعلمات ، الا أن عددهن في العام السابق كان ٢٧١٨ معلمة(٣) .

يمكن القول ان معظم المعلمين الفلسطينيين هم من سكان المخيمــات او قريبون منها جغرافيا او بحكم العلاقات العائلية . واستنادا الى تقديرات اتحاد المعلمين فان اكثر من نصف المعلمين اي ٢٦ الفا يعملون في المناطق المحتلة وفي الاردن وسورية ولبنان ، يضاف اليهم ٣ الاف في مصــر اي ان نحو ثلثــي عدد المعلمين يعملــون في مناطــق تجمع الفلسطينيين . يضاف الى ذلك ان المعلمين ، بطبيعة المهنة ، يظلون اقرب الى سكان المخيمات من حيث الاحساس بالاثر المادي والمعنوي للنكبة وحالة اللجوء . فالمعلمون اجمالا يعملون خارج اطار الاقتصاد المحلي (بعكس موظفي الشركات والبنوك واجهزة الدولة، وأصحاب رأس المال)، ويعود معظم العاملين في مناطق بعيدة،سنويا ــ في اجازة الصيف ــ الى اماكن اقامتهم التي هي غالبا في المخيمات ، كما ان دخلهم المحدود يجعل موقعهم في اسفل سلم البورجوازية الفلسطينية .

الوضع الخاص للمعلمين الفلسطينيين : هناك عدة امور تجعل للمعلمين وضعا خاصا يؤثر على تحركهم وعلى عمل الاتحاد ايضا . من هذه الامور :

١ ــ **التوزع** : حيث يعمل المعلمون في بلدان عدة وفي قطاعات مختلفة مثل وكالة الغوث ، والقطاع الرسمي والقطاع الاهلي او المدارس الخاصة . ويؤكد هذا الوضع عدة حقائق مثل : أ ــ **صعوبة الاتصال** ، ولا تقتصر هذه الصعوبة على من هم في الارض المحتلة ومن هم خارجها بل تشمل كذلك العاملين في البلدان العربية سواء بسبب البعد الجغرافي ام بسبب قيود السفر التي تفرضها بعض الدول العربية على الفلسطينيين . ب ــ **اختلاف اوضاع العمل** ، فتوزع المعلمين بين بلدان مختلفة وقطاعات مختلفة يجعلهم يخضعون لاوضاع مختلفة من حيث شروط وقوانين العمل والضمانات . جـ ــ وينجم عن ذلك ان يواجه المعلمون مشاكل مختلفة بمعنى ان المشاكل التي يواجهها معلمو وكالة الغوث هي غير المشاكل التي يواجهها معلمو المدارس الخاصة او المعلمون في البلدان العربية الاخرى . د ــ **حرية التحرك** والمرتبطة بالاوضاع الخاصة لكل بلد . فهناك دول لا تمانع في العمل الفلسطيني السياسي والنقابي ، بينما تعارض بعض الدول او لا تحبذ مثل هذا العمل لانها لا تسمح به لمواطنيها انفسهم . وخلاصة القول ان هذا التوزع وما ينتج عنه يشكل ثغرة اساسية في عمل اية مؤسسة فلسطينية كالاتحاد العام للمعلمين .

٢ ــ **الوضع الطبقي** : يشكل المعلمون الفلسطينيون من الناحية الطبقية شريحة اجتماعية متجانسة ولكنها ليست متماسكة . والمعلمون في اي مجتمع يشكلون فئة اجتماعية متميزة ، تعيش أوضاعا متشابهة من حيث طبيعة العمل وقوانينه وامتيازاته . ومن جهة أخرى ، تكاد العلاقات ضمن مؤسسة التعليم تكون خالية من التناقض والصراع . فعلاقة المعلمين باداريي التعليم مثلا ليست كعلاقة العمال بأصحاب العمل ، بمعنى أن العلاقة ليست استغلالية ولا يتمتع هؤلاء الاداريون بامتيازات **فارقة** عن مجموع المعلمين ، وليس لهم مصلحة مباشرة في معارضة اي تحرك للمعلمين للحصول على مزيد من الحقوق*. وعلى الصعيد الفلسطيني نلاحظ ان فئة المعلمين لها اوضاعها وقضاياها الخاصة ولكنها في الوقت ذاته غير متماسكة ليس بسبب طبيعة العمل فحسب بل بحكم توزع هذه الفئة بين بلدان وقطاعات كما مر معنا .

لقد ولد الوضع **الطبقي** الموضوعي للمعلمين انعكاسات خاصة على علاقتهم بسكان المخيمات . فالمعلم مقارنا بباقي سكان المخيم يتمتع بامتيازات خاصة ، فهو يحصل على عمل دائم وراتب منتظم ، لا يتعب جسديا ويتمتع بالاجازات والعلاوات ويعيش جوه الخاص في حياة مادية مريحة بالنسبة للوسط المحيط به . كذلك فان قضايا المعلمين هي قضايا خاصة مفصولة عن قضايا القطاع الاكبر من الاهالي ، حيث انحصرت هذه القضايا ، أو ظهرت وكأنها محصورة في المطالبة بتحسين الرواتب والضمانات ، اي بالكسب المادي المباشر غير المرتبط بمصلحة باقي الاهالي . ولذا كان موقف الاهالي سلبيا من تحركات المعلمين حتى ان هؤلاء بداوا يتحدثون عن الفجوة الحاصلة بينهم وبين الجماهير . ان قضايا المعلمين بطبيعتها قضايا خاصة ليست مثلا كقضايا الطلاب والعمال التي هي قضايا الجماهير نفسها . ان هذه الفجوة ليست مفتعلة بل لها اسبابها الموضوعية والمتمثلة أساسا بوضع المعلمين الطبقي . ولكن هذه الفجوة قابلة للردم ــ خاصة ونحن نخوض معركة تحرر وطني ــ ولكن ذلك يتوقف اولا على ممارسات المعلمين وعلى مقدرة الاتحاد على تحديد مهمات وطرح قضايا تنقل المعلمين من واقعهم وقضاياهم الخاصة الى صلب القضايا الجماهيرية .

---

* يختلف الوضع بالنسبة لاصحاب المدارس الخاصة ، وعلاقاتهم بمستخدميهم ، من المعلمين ، حيث يتحدد مسلكهم حسب مصلحتهم كمالكي مؤسسات خاصة .

مهمات الاتحاد :

عند الحديث عن مهمات اتحاد المعلمين ، أو أية مؤسسة نقابية او تنظيم جماهيري فلسطيني ، لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار قضيتين أساسيتين : الاولى ان الاتحاد كمؤسسة نقابية لا بد ان يعطي للعمل النقابي بعده الكامل (تحقيق انجازات مطلبية لاعضائه ، تأكيد الممارسات الديمقراطية ، خوض نضالات من اجل حقوق النقابة ومكاسبها، خوض نضالات مشتركة مع النقابات الاخرى ... الخ) . والثانية ان شعبنا يخوض معركة مريرة لاسترداد أرضه . وفي معارك التحرر الوطني ترجع القضايا المطلبية الى مكانة ثانوية ، حيث تطغى المسألة السياسية — دحر العدو القومي وقهره — على نشاط مختلف المؤسسات الشعبية والتنظيمات الجماهيرية . بكلام آخر ، لا بد ان **تكون الثورة محور عمل الاتحاد، مما يحتم عليه أن يتصدى لمهمة مزدوجة، سياسية ونقابية معا** ، فلا ينكمش العمل النقابي في حدوده التقليدية بل ينطلق من النضالات المطلبية لتعبئة طاقات الاعضاء وبشكل فعال في خدمة الثورة . وضمن هذا الاطار تتم محاكمة مؤسساتنا الجماهيرية ، وذلك في ضوء قدرتها على صوغ أهداف محددة تحقق لاعضائها انجازات خاصة دون ان تتحول الى مؤسسة نقابية تقليدية ، وتجند جماهير الاعضاء في النضال الثوري دون أن تتحول الى مجرد جهاز سياسي فوقي .

وقبل الحديث عن مهمات محددة للاتحاد ، ينبغي أن نسجل بعض القضايا التي تعتبر بمثابة الركائز او المستلزمات لعمل الاتحاد كتنظيم جماهيري ثوري .

١ — **تأمين المسألة التنظيمية** : ان الغاية الاولى التي لا بد أن يحققها الاتحاد هي ان يصبح المؤسسة أو التنظيم الفعلي المحرك لقطاع المعلمين . ولن يتحقق ذلك بسهولة وبصورة تلقائية بل من خلال الممارسة وتحقيق الانجازات بحيث يصل المعلم الى قناعة بأن الاتحاد **هو الجهة التي تفكر له بقضاياه وتلاحقها ، الجهة التي تستجيب لهمومه وقلقه لانها ساهرة على مصلحته** وعلى تأمين حقوقه وتحسين أوضاعه ومساعدته ماديا ومعنويا عندما يلحق به الضرر . وبالطبع فان مثل هذه القناعة تستلزم قناعة اخرى من قبل المعلم مؤداها ان الاتحاد لا يستطيع القيام بهذا الدور دون المساعدة الفعالة والتجاوب الكلي من قبل الاعضاء مع ما يطلبه ويقرره الاتحاد . ان اكتمال هذه الصورة يعتبر الركيزة الاولى في عمل الاتحاد وعليها تتوقف مقدرته على القيام بدوره وتحقيق أهدافه .

٢ — **تحديد مهمات عملية**: يحدد الاتحاد عددا كبيرا من الاهداف العامة في المجالات النقابية والسياسية والاجتماعية وهي أهداف جيدة ولا شك(٤). ولكن يبدو ان الاتحاد قد قفز فوق الواقع الموضوعي للمعلمين والمتمثل بتوزعهم وبوضعهم الطبقي . لقد رأينا ان توزع المعلمين بين البلدان والقطاعات قد أوجد ظروفا متباينة للعمل ، كما ان وضع المعلمين في المخيمات — بغض النظر عن الاسباب — قد أدى الى فجوة بينهم وبين الجماهير . واذا كنا نقول ان المطلوب تحديد مهمات عملية فلكي تنسجم مع هذا الواقع، اذ ان المهمات او الاهداف العامة لا تكفي بل لا بد من برنامج للعمل. وعلى هذا الاساس فربما كانت المهمات المنوطة بفرع الاتحاد في الكويت او في السعودية تختلف عنها في سوريا ولبنان او الاردن . كذلك فان مهمات الفروع في المناطق البعيدة لا بد وان تختلف عن المهمات العملية للفروع في مناطق تجمع الفلسطينيين اي في مناطق المخيمات .

٣ — **التركيز على العمل في المخيم** : تمتاز المخيمات بكونها مناطق التجمع الاساسية للفلسطينيين ، ومراكز العمل الثوري، وفيها تقوم المدرسة الفلسطينية، ويعمل عدد كبير من المعلمين الفلسطينيين في مؤسسة واحدة هي وكالة الغوث . وبالطبع ، لا يقتصر العمل الثوري على المخيمات ولكن الجماهير هي محور العمل الثوري وهدفه . والاتحاد

يدرك ذلك حين يحدد أهدافا له مثل « بناء الشخصية النضالية للشعب الفلسطيني ، تحقيق الوحدة الوطنية ، العمل على تطوير المجتمع الفلسطيني ثقافيا واجتماعيا .. الخ »(٥). وما ينبغي التأكيد عليه هنا هو اعطاء ثقل نوعي للعمل في المخيم . فالمخيم هو الاطار الموضوعي للعمل الفلسطيني لان العامل او المعلم يشعر بأن المخيم هو اطار تحركه ، وليس المصنع او المدرسة ، ان لم تكن مدرسة المخيم . هذا لا يعني ان الانسان الفلسطيني انسان سلبي في مجال عمله ولا يناضل مع زملائه وان لم يكونوا فلسطينيين، الا انه مع ذلك يظل يشعر بأن قضيته واطار عمله الجماعي ليس هنا وانما وسط جماهيره في المخيم . هناك حقيقة اخرى وهي ان المخيم ليس وحدة سكنية بل تجمع مهني ان صح التعبير ، وهو المكان الذي يلتقي فيه أهله ليتداولوا مشاكلهم الخاصة والقضايا الوطنية معا . ومن ثم فلا بد ان يشكل العمل الثوري في المخيم وحدة لها مجاريها التنظيمية وتفرعاتها المهنية والاجتماعية والسياسية . يمكن الان ان نحاول تصور المهمات الاساسية لاتحاد المعلمين والتي تندرج ، برأينا ضمن العناوين التالية :

اولا — **مهمة سياسية** : تتمثل هذه المهمة في أن يشكل الاتحاد ، عبر أعضائه، تنظيما من تنظيمات الثورة ، واحدى قنواتها التي تصل الثورة بمجموع المعلمين وبالجماهير ، وتقيم صلة حية بين الجماهير والثورة. وانجاز هذا الدور مرهون — كما ذكرنا سابقا — بقدرة الاتحاد على أن يصبح هو مؤسسة المعلمين التي يتحركون من خلالها ، وان يقيم علاقات متينة مبنية على الثقة مع الجماهير . كما ان انجاز هذا الدور يتطلب تحديد برامج تفصيلية لعمل الاتحاد ضمن قطاع المعلمين في أماكن تواجدهم المختلفة ، ولعمله بين الجماهير . والاتحاد هو الجهة الاقدر على تحديد الوسائل التي تمكنه من ان يربط به المعلمين العاملين في السعودية مثلا ، او المدارس الخاصة في لبنان ، وكيف يجند طاقاتهم لخدمة الاتحاد والثورة . كما انه الجهة القادرة على وضع برنامج عمل يومي على صعيد المدرسة والمخيم . في الكراس الذي أصدره الاتحاد حول أهدافه ونشاطاته نجد في مجال النشاط السياسي أن هذا النشاط انحصر اجمالا في المشاركة بالتظاهرات والمناسبات الوطنية ، وبارسال المذكرات والبرقيات الى جهات مختلفة وفي مناسبات مختلفة(٦). ومثل هذا النشاط يتم عادة عن طريق قيادة الاتحاد ، وربما كانت طبيعة الاتحاد التكوينية في هذه المرحلة هي التي حصرت معظم نشاطه بأمانته العامة . انما العمل السياسي المثمر هو في النهاية عمل القاعدة ، العمل في أوساط المعلمين ومع الجماهير . والعمل السياسي متعدد الاشكال والمستويات ، يأتي في أولوياته ايصال الاتحاد لمواقف الثورة الى جميع المعلمين ، وخلق حوار مستمر بين المعلمين ووسط الجماهير حول جميع المواقف والقضايا المتصلة بالثورة . غير ان العمل السياسي لا يقتصر على ذلك كما ان أسلوب طرح هذه القضايا ومعالجتها له أهمية قصوى. ان تجربة الفيتكونج غنية في هذا المجال خاصة بالنسبة للعمل على مستوى القرية واقامة « رابطات التحرير الوظيفية » فيها مثل : رابطة التحرير للمزارعين ، للشباب ، للمثقفين .. الخ والتي تهدف جميعها الى « مساعدة الفرد للآخرين ، والاشتراك في النضال السياسي » والتي اكملت بذلك تحريك الامكانات المادية والمعنوية للمجتمع وتعبئتها(٧). ولذا يمكن القول على سبيل المثال ان انشاء مكتبات عامة هو عمل سياسي وكذلك اصدار صحيفة محلية ، بالتعاون مع التنظيمات الاخرى ، والمساهمة في تكوين وتطوير المؤسسات الشعبية ، والمناقشة العامة للقضايا الخاصة ، ومناقشة العمل الداخلي للاتحاد وسلوك اعضائه بهدف تمتين العلاقات التنظيمية : فالمناقشات العامة التي تتناول مختلف القضايا العامة ، والخاصة بقطاعات السكان المختلفة ، تضع الجماهير في صلب العمل الثوري وتفتح الآفاق لمبادراتها في دعم الثورة وتقويتها . ولكن، مرة اخرى ، ان مثل هذا العمل والبرنامج يقع على عاتق اتحاد المعلمين بالدرجة الاولى وعلى تعاونه مع المؤسسات الاخرى القائمة .

ثانيا — **مهمة نقابية** : يحدد الاتحاد عددا من المهام النقابية مثل « تنمية الوعي النقابي والثوري بين المعلمين ، العمل على تحسين الظروف المعيشية والمهنية ، العمل على تقرير الروابط القومية بين الاتحادات ونقابات المعلمين في الاقطار العربية .. الخ »(٨). لن يتطرق هذا البحث الى المهمات النقابية الخارجية ، بل يهتم بالناحية الداخلية والتي من ضمنها تنمية الوعي النقابي والعمل على تحسين الظروف المعيشية والمهنية ، لان نقطة الثقل تكمن هنا . فلكي يتمكن الاتحاد من القيام بدور فعال على مختلف الاصعدة ، لا بد وان يؤمن اولا وجوده كهيئة منظمة للمعلمين قادرة على قيادتهم وضامنة لتجاوبهم معها . نقطة الانطلاق اذن هي في تأمين هذه الصورة من التنظيم ، اي ان ما ينبغي على الاتحاد ان يواجهه اولا هو كيف يمكن ان يصبح التنظيم الذي لا يجذب المعلمين الى صفوفه فحسب ، بل يجعلهم يشعرون بضرورته وبضرورة وجودهم ضمنه . ولن تتولد مثل هذه الحالة بدافع سياسي صرف ، او لمجرد القناعة بأهمية التنظيم ، بل يرافق ذلك وربما يأتي قبله الادراك المحسوس للمعلم بأن تحقيق المكاسب وتحسين اوضاع العمل والضمانات بل تأمين العمل يأتي عن طريق الاتحاد . وهذه مسألة صعبة ولا شك ، الا ان الاتحاد استطاع ان يحس المسألة تماما وحقق بعض الخطوات على الطريق اهمها تقديمه مساعدات مادية للمعلمين الذين تضرروا في حوادث الاردن ، ومحاولته تأمين عمل للمعلمين الذين يطردون من عملهم او العاطلين عن العمل ، والاهم من ذلك سعيه لاكتساب صفة شرعية ورسمية لدى بعض الدول بحيث يستشار عند توظيف المعلمين الفلسطينيين . واذا ما استطاع الاتحاد انجاز المزيد من هذه الخطوات ، كأن يصبح له دور كبير في الاشراف على التوظيف وتأمين العمل ، وتقديم المساعدات وتأمين بعض الضمانات الاجتماعية والصحية .. الخ فسيدرك المعلمون اهمية الاتحاد بالنسبة لهم ، واهمية التفافهم حوله وتأديتهم لالتزاماتهم نحوه ، لانهم سيدركون ولا شك ان الاتحاد ليس قيادة ، بل جمهرة الاعضاء . كذلك فان خوض نضالات مطلبية جماعية تزيد من ترابط الاتحاد الداخلي ، وتقوي وحدته ومكانته السياسية . ويتطلب ذلك حصر المشاكل الخاصة بالمعلمين وعلى مستوى قطري حيث يعملون في ظروف مختلفة ومن ثم يواجهون مشاكل مختلفة . واثارة المطالب التي يمكن تجنيد المعلمين حولها ، وخوض نضالات ترتفع فيها احتمالات النجاح أمر مهم كعملية تكتيكية ولكنها تتطلب تخطيطا وحسابا . غير أن هناك محذورا يجدر التنبه له يتعلق بفهمنا لحل المشاكل الخاصة . فالذي يحدث احيانا أن تنشط القيادة لتحقيق بعض المكاسب المادية لعدد محدود من الافراد آملة ان يكون ذلك مشجعا للمعلمين كي يلتحقوا بالاتحاد . فلا يجب ان ننسى ولو للحظة اننا تنظيم ثوري يؤمن بأن تحقيق المكاسب لا يكون الا نتاج عمل جماعي، وذلك يتطلب ادراك جميع الاعضاء لابعاد المشاكل المطروحة وصعوبات حلها، وضرورة خوض نضال واتخاذ مواقف موحدة حيالها بحيث يصبح النجاح او الفشل مسؤولية جماعية وليس واجبا منوطا بالقيادة وحدها . قضية أخرى تتعلق بالمهمة النقابية لانها تلازم العمل النقابي الا وهي الديمقراطية . واذا كانت الممارسة الديمقراطية من أهم خصائص العمل النقابي فانها تكتسب بالنسبة لنا اهمية خاصة . فشعبنا لم تتوفر له فرصة حقيقية لممارسة حياة ديمقراطية ، ربما عبر تاريخه كله ، كذلك لم يكن بوسع الحركة الوطنية الفلسطينية على امتداد تاريخها ان تؤمن مثل هذه الحياة لجماهير شعبنا ، حتى ضمن اطارها الذاتي المحدود . ولذا فان سيادة المفاهيم الديمقراطية، والتعود على النظام والانضباط، والمناقشات العامة والعمل الجماعي مسألة في غاية الاهمية والخطورة . وفي ظل الواقع الذي يحياه شعبنا يبدو ان التنظيمات الجماهيرية والمؤسسات النقابية هي المؤهلة لتوفير هذه التجربة ، بما تعنيه من انعكاسات ايجابية على مجمل عملنا الوطني. وليس يقصد بالديمقراطية عملية الانتخاب ، فتلك مجرد مظهر ديمقراطي يمكن تزييفه ، ولكن الممارسة الجماعية — بدءا من القاعدة — في تناول مختلف القضايا كحق لا يقبل الجدل،

ومناقشتها واقتراح الحلول لها ، وممارسة النقد والنقد الذاتي على المستويات كافة ، والتعود على الاستماع الى آراء الغير واحترام راي الاقلية والخضوع لراي الاكثرية ، وغير ذلك ، هو ما يمكن ان يعطي للديمقراطية ابعادا ايجابية تصل حتى المستوى المسلكي للافراد . وعلاقة القيادة بالقاعدة مسألة مركزية في عمل اية مؤسسة ، بل لعل من أخطر ما يهدد وحدة المؤسسة وخط سيرها حصول فجوة بين قيادتها وقاعدتها . وبقدر ما تكون القيادة ديمقراطية في تكوينها وممارستها ، وفي حرصها على تطبيق هذه الممارسات على كل المستويات ، بقدر ما تستقطب جماهيرها ، وتساهم في تعميق وعيها لقضاياها ، وتفتح المجال لمبادراتها .

ثالثا — **مهمة تربوية** : يتميز قطاع المعلمين بأنه مسؤول عن تربية النشء وتثقيفه . وتشكل هذه المهمة حلقة مباشرة بين المعلمين والاهالي ، ويمكن ان تساعد في ردم الفجوة الحاصلة بين الطرفين . في المجال التربوي يحدد الاتحاد لنفسه عددا من الاهداف النموذجية مثل : تنشئة الأجيال الفلسطينية تنشئة ثورية ، صقل المواهب الفكرية وتنميتها تنمية ثورية ، مقاومة المناهج التي يحاول العدو فرضها في فلسطين المحتلة ، المساهمة في توحيد المناهج التعليمية العربية(٩). ولا شك ان الاتحاد هو الجهة الاقدر على اكتشاف الثغرات والمخاطر في الثقافة المقدمة للنشء ، وعلى تقييم المناهج ومدى ملاءمتها لاوضاعنا ، وعلى بلورة أهم القضايا والمشاكل في مؤسساتنا التعليمية . ومن الطبيعي ان يتصدى الاتحاد لمثل هذا الدور ، خاصة اذا أخذنا بعين الاعتبار ان مهمته مهمة ثورية وليست تربوية بالمفهوم الاكاديمي الصرف . غير ان السؤال هو كيف يمكن ترجمة هذه الاهداف العامة الى برامج وممارسات عملية ؟ ما هي الوسائل التي يمكن بها تأمين تربية ثورية للنشء ؟ وكيف سيتم صقل المواهب الفكرية ؟ ، هل يتم ذلك من خلال مناهج التعليم المطبقة حاليا ام هناك بديل آخر ؟ لانه بدون تحديد لمثل هذا البرنامج العملي ، ولو على مستوى تجريبي ، فستبقى هذه الاهداف مجرد شعارات عامة لا تغير من واقع الامر شيئا . لقد أصبح من المسلمات القول بأن المهمة التربوية لا تقتصر على المدرسة والمعلم ، بل لا بد ان يشارك فيها البيت والمجتمع لكي تأتي ثمارها المرجوة . لقد صدرت عن مؤتمر فرع الاتحاد في لبنان عام ٧١ بعض التوصيات التي تهدف الى تقوية العلاقة بين المعلمين والاهالي مثل : العمل على ايجاد مدارس ليلية لمكافحة الامية بين الكبار من أهالي المعسكر ، المساهمة في المشاريع الحيوية كأسبوع النظافة والحملات الصحية ، العمل على اقامة ندوات تثقيفية عامة في مقر الرابطة في المعسكر ، العمل على اعادة الثقة بين المعلم وجماهير المعسكرات بغية التعاون لتوفير جو التعليم في المدارس ويكون ذلك بزيارة الاهالي في بيوتهم أو توجيه الدعوة اليهم لزيارة المدارس، العمل على تشكيل لجان من الاهالي لملاحقة أمور أولادهم في المدرسة ، وغير ذلك من الوسائل التي تقوي علاقة المعلمين بالاهالي وبالمؤسسات القائمة(١٠). لا نود هنا مناقشة ما انجزه الاتحاد من هذه التوصيات ، ولكننا نسجل الملاحظتين التاليتين :

أ — ان هذه التوصيات ، في حال تنفيذها تؤدي الى تحسين جو التعليم ولكنها لا تولد تربية ثورية . ب — وهي قد تقوي الثقة بين المعلمين والجماهير ولكنها لا تردم الفجوة الحاصلة بينهما. فلهذه الفجوة اسبابها الموضوعية ولا يردمها سوى ممارسة موضوعية تختلف كليا عن تأدية بعض الخدمات ، هذا المفهوم الخاطىء الذي يعتقد بأن المشاركة بالشعور وتأدية بعض الخدمات مثل المشاركة بأسبوع النظافة يحل المسألة . وانما تتمثل هذه الممارسة بأن يعيش المعلمون فعلا مشاكل الجماهير وان يناضل الاتحاد مع الجماهير من اجل قضاياها المختلفة . ولعل المدرسة (بما في ذلك مشاكل التعليم ومصير الابناء) تمثل المسألة المشتركة والاكثر وضوحا بين المعلمين واهالي المعسكرات . ويمكن على سبيل المثال ان يبادر اتحاد المعلمين بطرح **الممارسة الديمقراطية على مستوى المدرسة** . بمعنى ان تصبح الجماهير طرفا اوليا في مناقشة اوضاع المدرسة ومحاكمتها

كمؤسسة اجتماعية . ويتخطى هذا مسألة التعاون بين الاهالي والمدرسة كطرفين ، بل يصبح التعليم في المخيم مسؤولية جماعية تتحدد فيها مسؤوليتنا الذاتية ومسؤولية غيرنا، وما يمكننا عمله ، وما هو خارج عن ارادتنا . ماذا يمكن ان ينجم عن هذه الممارسة : ا ــ ان المناقشة العامة ستجعل اوضاع المدرسة بادارتها ومعلميهـا وطلابها وجميع مشاكلها واضحة امام الجميع ، كما ستتناول بالنقد الصريح كل مسؤول عن خطأ بعد توضيحه . وهذا النقد الذي سيتناول المعلم من حيث قيامه بواجبه ، ونشاطه وتعامله مع الطلاب .. الخ سيتناول كذلك الاب وطريقة معاملتـه لابنه ومتابعة احوالـه في المدرسة ، مما يوضح الخطأ ويحدد مصدره . وبذلك يمكن للجميع ان يتلمسوا مواطن الخطأ وطرق الصواب ، كما تتم عملية توعية وتوجيه بصورة تلقائية . ب ــ تضع هذه المناقشة الصريحة المعلمين أمام مسؤولياتهم التعليمية والتربوية والوطنية مما قد يتطلب تغييرا في نمط حياتهم خارج المدرسة . جـ ــ ان هذه الممارسة ستؤدي الى عملية فرز حقيقية ضمن جهاز المعلمين وفق مقاييس تربوية وثورية . اما عملية الفرز القائمة الان ــ اذا اعتبرنا العضوية في الاتحاد مقياسا ــ فهي عملية مشوهة تلعب فيهـا عوامل ادارية وتنظيمية وحزبية ، بحيث لا يعود الاعضاء بالضرورة هم الاقرب الى الجماهير والاكثر التزاما بقضاياها . ولا شك في ان هذه الممارسة بحاجـة الى برنامج عملي ينظمها ويضبطها لكي تحقق غايتها ، والاتحاد هو الجهة القادرة علـى ذلك ، كما انه الجهة المؤهلة لوضع برنامج عملي يوضح كيف يمكنه أن ينجز مهمته التربوية ويعطيها ابعادها العميقة ، ولتحديد الوسائل الاجرائية التي ينبغي اتخاذها ليضمن تحقيق خطته وأهدافه .

رابعا ــ **مهمة مالية** : لا بد وان تكون المهمة المالية احدى المهمات التي يضطلع بها اتحاد المعلمين ، وذلك انطلاقا من الامكانات المالية الكبيرة نسبيا التي يملكها المعلمون . فلو دفع المعلم ليرتين لبنانيتين في الشهر مثلا لحصل الاتحاد على دخل شهري لا يقل عن خمسين الف ليرة . وبغض النظر عما هو قائم يحسن بنا ان ننظر الى النواحي التي يمكن استخدام الامكانات المالية بهـا . أ ــ في المسألة التنظيمية اي في مجال تقوية العلاقات بين المعلمين وربطهم بالاتحاد وتدعيمه وتقوية نشاطاته . ويمكن للاتحاد ان يقوم بمشروعات مساهمة ، تشجع المعلمين على استثمار أموالهم ، تستهدف الربح ويستفيد المساهمون من الارباح بحسب مساهمتهم . ومثل هذا الاتجاه يستلزم خطة تأخذ بعين الاعتبار : ١ ــ ان الغاية الاساسية من هذه المشروعات هي خدمة المعلمين انفسهم والجماهير والثورة، مع توضيح ابعادها الثورية وأهمية دور المعلمين في النهوض الاجتماعي . ٢ ــ ان تكون رساميلها معقولة واسهمها رخيصـة تمكن الجميع مـن المشاركة فيها . ٣ ــ ان يعود للمساهمين قسم من الارباح فقط مع تبيان المجالات التي سيوجه اليها القسم الآخر . ٤ ــ اشتراط العضوية في الاتحـاد للمساهمين بهـذه المشروعات . كذلك يمكن للاتحاد تعميم تجربـة الكويت في الضمان الاجتماعي بعـد دراستها بحيث يتم انشاء صندوق للضمان الاجتماعي والصحـي لاعضاء الاتحـاد . ب ــ المساهمة في تنشيط التنظيمات الشعبية الاخرى . اذا يفترض نظريا ان يكون اتحاد المعلمين هو الاتحاد « الغني » بالنسبة للاتحادات الاخرى . ويمكن في هذا المجال مثلا اصدار نشرة نقابية موحدة يتحمل اتحاد المعلمين القسط الاكبر من ماليتها . كما يمكن للاتحاد ان يساعد اتحاد العمال في اقامة بعض المشروعات على مستوى المخيم أو مشاركته في ذلـك . كما يمكن ان يقدم الاتحاد بعض المساعدات لاتحاد الطلبة .. الخ جـ ــ المساهمة في دعم الثورة . لا بد أولا ان يبحث الاتحاد ومنظمة التحـرير مسألة الجباية من المعلمين وتنظيمها وتحديد نصيب الاتحاد منها . ان تدعيم مالية الاتحـاد يساهم في تخفيف الضغط المالي على المنظمة ، ويصبح رافدا لها بدل الاعتماد عليها . كما ان ذلك يمكنه من المساهمة في تدعيم الثـورة ماديا ومجالات ذلك كثيرة بدءا مـن

المساهمة في اقامة الملاجيء وأنتهاء بتأمين الملابس او التموين للمقاتلين .

الاتحاد كمؤسسة : ننتقل الان الى الحديث عن الاتحاد كمؤسسة بعد أن تحدثنا عن مهماته . وينبغي الاشارة الى ان هذه المهمات لا تختلف عن الاهداف التي حددها الاتحاد لنفسه ، وربما كان ما قمنا به هو ترتيب هذه الاهداف ضمن عناوين رئيسية مع محاولة اعطائها أبعادها الكاملة . ويجدر بنا ان نتذكر ونحن نتحدث عن الاتحاد كمؤسسة انه لا زال في مرحلة تكوينية. سنحاول الآن القاء الضوء على تجربة الاتحاد من حيث تشكيله وبنائه التنظيمي ونشاطه ، مع محاولة تبين مدى ارتباط ذلك بمهماته الاساسية :

لمحة تاريخية : بدا العمل على تشكيل اتحاد عام للمعلمين الفلسطينيين في عام ١٩٦٩ في الاردن وفي اعقاب حركة عامة بين معلمي مدارس وكالة الغوث في كل من الاردن وسوريا ولبنان . خلاصة ذلك ان الوكالة حاولت في عام ١٩٦٨ تطبيق نظام جديد سمي « اعادة تصنيف المعلمين » يتناول مرتباتهم وتصنيفاتهم المهنية وأهم ما فيه : ١ ــ فصل المعلمين عن باقي موظفي الوكالة من حيث سلم الرواتب والتصنيف المهني ، بحيث تحدد الرواتب مثلا بحسب المرحلة التعليمية أي يختلف راتب المعلم الابتدائي عن راتب المعلم الاعدادي. ٢ ــ عدم الاعتراف بالشهادات الجامعية وعدم تعيين جامعيين . ٣ ــ الغاء مبدأ التعيين الدائم للمعلم واحلال مبدأ التعيين المؤقت(١١). وأهم المخاوف التي اثارها هذا النظام هو أن يكون فصل جهاز التعليم عن باقي أجهزة الوكالة مقدمة لتسليم خدمات التعليم الى منظمة اليونسكو ، ومن ثم الى الدول العربية المضيفة ، وكذلك الى التصفية التدريجية لاعمال الوكالة حيث يشكل التعليم الخدمة الاساسية فيها . يضاف الى ذلك عدد من المخاوف الاخرى والشعور بالاجحاف الذي سيلحق بالمعلم من جراء تطبيق النظام الجديد . بدأت ردة الفعل في سوريا حيث رفضت جمعية الموظفين النظام الجديد ، ثم اضرب معلمو الوكالة في لبنان لمدة شهر في بداية عام ٦٩ ولم يسفر ذلك عن شيء تقريبا، واختاروا في اثناء ذلك ممثلين عن مدارسهم أطلق عليهم اسم «وفد المعلمين» الذي انتهى عمليا بانتهاء الاضراب ، ثم تشكلت قيادة جديدة حاولت ان تقوم باضراب جديد الا ان المعلمين لم يكونوا في موقف واحد فانتهى الاضراب الجزئي الذي أعلن بالفشل أيضا . وفي الاردن قام المعلمون باضراب لمدة يومين في شهر أيار ٦٩ للسبب نفسه وانتهى الاضراب بناء على وعد بعودة الوكالة عن النظام الجديد . وفي ٢٠/٩/٦٩ عاد المعلمون في الاردن الى اعلان الاضراب لان الوكالة لم تعد عن سياستها في تطبيق التصنيف الجديد ، وشمل الاضراب كذلك مدارس الوكالة في كل من سوريا ولبنان واستمر شهرا كاملا ، كان معلمو الاردن محوره اذ كان الاضراب في سوريا ولبنان اقرب الى موقف التضامن مع الاردن . كذلك جاء هذا الاضراب ولاول مرة باسم الاتحاد(١٢).

اما انشاء الاتحاد فقد جاء بمبادرة من لجنة التنظيم الشعبي في منظمة التحرير . فقد اتصلت دائرة التنظيم الشعبي في أواخر شهر تموز ٦٩ ببعض المعلمين في الاردن وطلبت منهم ان يسافروا الى مدينة الاسكندرية لحضور مؤتمر المعلمين العرب واستصدار موافقة على عضوية الاتحاد في اتحاد المعلمين العرب . سافر الوفد وحصل فورا على هذه الموافقة، اي اصبح الاتحاد عضوا في اتحاد المعلمين العرب (والاتحاد لم يتأسس بعد). وبعد عودة الوفد الى الاردن سمت دائرة التنظيم امينا عاما للاتحاد ، هو الامين العام الحالي ، وطلبت ان يكون اعضاء وفد الاسكندرية اعضاء في الامانة العامة الا ان بعضهم اعتذر . باشرت الامانة العامة بعد ذلك عملها في الاردن وخارج الاردن بأن بدأت بتعيين لجان تحضيرية في عدد من المناطق التي يتواجد فيها معلمون فلسطينيون . ففي أواخر عام ٦٩ عينت لجانا تحضيرية في كل من سوريا ولبنان والكويت . وفي أوائل عام ٧٠ عينت لجانا في العراق ومصر والجزائر والمغرب ، وعام ٧٢ في ليبيا . وكانت مهمات هذه اللجان أن تقوم بعملية التنسيب للاتحاد ثم اجراء انتخابات الروابط المحلية والفروع .

وحتى الآن حدثت انتخابات وعقدت مؤتمرات قطرية في كل مــن سوريا ، العراق ، الكويت ، لبنان ، المغرب ، الجزائر(١٣).

حول هذه الفترة من تاريخ الاتحاد يمكن ايراد بعض الملاحظات التي ربما وقف المؤتمر الوطني عندها وهو يراجع تجربة الاتحاد الماضية . احدى هذه الملاحظات تتعلق بفاعلية المعلمين ، ومن ثم الاتحاد ، في هذه الفترة . من المعروف ان في الفترة التي أعقبت النكبة لعب المعلمون ، كافراد ، دورا بارزا في الحركة الوطنية ، وشكلوا مدخل العمل السياسي لعدد من التنظيمات والاحزاب . غير ان المعلمين لم يشكلوا تنظيمهم المهني الخاص على غرار القطاعات الشعبية الاخرى مثل الطلاب والعمال والمرأة ، والتي شكلت تنظيمات خاصة بها منذ فترة طويلة نسبيا وقبل قيام حركة المقاومة الفلسطينية . اما اتحــاد المعلمين ـــ مع انه جاء بمبادرة فوقية من اللجنة التنفيذية للمنظمة ـــ فقد أعلن قيامه في عام ٦٩ وهو عام تميز بزخم المقاومة واتساع نفوذها وممارستها نوعا من النفوذ خاصة في الاردن ولبنان . من جهة ثانية يلاحظ ركود ملموس لفروع الاتحاد في مناطق التجمع السكاني الفلسطيني ، مع ان المفروض بهذه الفروع ان تكون محور النشاط بسبب وجودها وسط الجماهير الفلسطينية ولامكانات التحرك النقابي ، سواء لما تواجهه من مشاكل أم لما يمكن ان تقوم به من مشروعات ونشاطات . لذلك نقول ان الاتحاد بحاجة الى مراجعة نقدية لممارسات ونشاط فروعه خاصة في مناطق التجمع السكاني ، في هذه الفترة. صحيح **أن الاتحاد كمؤسسة نقابية** يعمل للحصول على مكاسب مادية للمعلمين، ولكن الغاية الاساسية من وجوده هي العمل على تنظيم هذا القطاع ليلعب دورا ثوريا في الحركة الوطنية . وعندما لا يتم التحرك الا من اجل الحصول على بعض المكاسب المادية ، او عندما ينكمش نشاط الاتحاد الى ما تقوم به قيادته وحدها ، فربما يكون الاتحاد قد وصل الى نتيجة هي عكس ما يريد . ولا بد أن تستهدف مثل هذه المراجعة للتجربة السابقة معرفة اسباب هذا الركود وهل يعود ذلك لاسباب موضوعية خارجية، ام انها تعكس صــورة سلبية لطاقــة المعلمين علــى التحــرك الثوري وتحمــل مسؤوليته . وهذا ولا شك سيساعد الاتحاد على وضع اهداف مرحلية وقابلة للتنفيذ .

والملاحظة الثانية التي ينبغي تسجيلها تتعلق بديمقراطية التجربــة . يمكن القول ان التجربة بدأت بشكل غير ديمقراطي حين قامت المنظمة بتسمية الامانة العامــة التي مارست عملها باسم الاتحاد العام للمعلمين الفلسطينيين طوال ثلاث سنوات دون ان تدعو ولو لمؤتمر استثنائي يعطيها صفة الشرعية . وكذلك سارت الفروع طوال هذه المدة ، وبعضها أجرى انتخابات ، وعقد مؤتمره القطري منذ أكثر من سنة ، على نظام داخلي يفترض ان يكون مؤقتا وبغرض تنظيم تأسيس الفروع واختيار المندوبين للمؤتمر الوطني الاول . من جهة اخرى ، جرت في هذه الفترة حادثتان نذكرهما لمجرد التسجيل. كانت الاولى قيام الامانة العامة بحل اللجنة التحضيرية في سوريا وتعيين لجنة جديدة لاجراء الانتخابات . وبررت الامانة العامة عملها بانتهاء المدة القانونية على عمل اللجنة التحضيرية دون اجرائها للانتخابات . اما لجنة سوريا فقد أوردت علــى لسان امين سرها في كلمته في المؤتمر القطري لرابطة سوريا في شهر أيار ١٩٧١ ، ان اللجنة قد اجلت اجراء الانتخابات « بسبب الاوضاع في الاردن وما تبعها من مضاعفات ». وعبرت الكلمة عن أسفها لاقدام الامانة العامة على حــل اللجنة(١٤). في الوقت ذاته ، وعلى سبيل المثال ، كانت رابطة سوريا في اثناء عمل اللجنة المنحلة اكثر نشاطا واكتمالا من رابطة لبنان ، كما يتضح من تقرير المؤتمرين القطريين في كل من البلدين، واللذين عقدا في الفترة نفسها (أيار ٧١). فبالنسبة لعدد الاعضاء كان في رابطة سوريا ١٤٤١ عضوا وفي رابطة لبنان ما يقارب من ١٢٠٠ عضو . وبالنسبة للناحية المالية كان في رابطة سوريا وفر قدره خمسة آلاف ليرة،بينما كانت رابطة لبنان في عجز مالي «ومنذ وجودها تعتمد في ماليتها على الامانة العامة »(١٥).

الحادثة الثانية التي ينبغي ايرادها تتعلق بالائتلاف الذي حصل في لبنان واختيار أعضاء المؤتمر القطري الأول عام ١٩٧٠ . فقد اتفق تنظيمان فدائيان فيما بينهما على اختيار أعضاء المؤتمر ، وحدث ذلك بموافقة الامانة العامة ، ولم تجر انتخابات الا في منطقة طرابلس حيث لم ينجح الائتلاف . وكان من نتيجة ذلك ان قاطعت منطقة صور ، بكل معلميها ، المؤتمر تعبيرا عن رفضها للمبدأ الذي اتخذ . وكان ذلك عاملا في احداث فجوة بين المعلمين واللجنة التنفيذية التي اختارها المؤتمر الائتلافي(١٦) . والملاحظة التي يجب تسجيلها على الامانة العامة هي ان الانتخابات تشكل الحق الطبيعي والمظهر الديمقراطي الاساسي الذي يمارسه أعضاء النقابة ، وعلى الاتحاد ان يستفيد من تجارب الاتحادات التي سبقته ويكون نموذجا في الممارسات الديمقراطية .

بنية الاتحاد : لا يهمنا استعراض البناء التنظيمي للاتحاد بقدر ما يهمنا ان نؤكد على قضيتين . اولا ان يكون هذا البناء قائما في الاصل لخدمة المهمات الاساسية او الاهداف التي يحددها الاتحاد لنفسه . وثانيا ان يكون هذا التنظيم مرنا بحيث يتلاءم والاوضاع المختلفة في مناطق عمل الاتحاد . واهم الملاحظات التي يمكن ايرادها بهذا الصدد ما يلي : ١ ــ ان انجاز المهمات الاساسية للاتحاد (سياسية ــ نقابية ــ تربوية ــ مالية) مرتبط بالجماهير ، اي ان الفعالية الاساسية للاتحاد هي في مناطق التجمع السكاني للفلسطينيين . وربما يكون من الطبيعي ان تتوفر في النظام الداخلي للاتحاد مرونة تسمح لفروعه في هذه المناطق اقامة تشكيلات تنظيمية خاصة مثل عقد مؤتمرات خاصة لفروعها ، او تشكيل قطاعات تنظيمية في كل رابطة وذلك حسب المهمات الاساسية ... الخ ٢ ــ يحدد النظام الداخلي للاتحاد الهيكل التنظيمي على النحو التالي : ــ الوحدة (المدرسة) وتنتخب لجنة الوحدة . ــ الدائرة (مجموعة مدارس) وتنتخب لجنة الدائرة . ــ المنطقة (مجموعة دوائر) وتنتخب لجنة المنطقة . ــ الرابطة (مجموعة المناطق) وتنتخب لجنة تنفيذية .

يلاحظ اولا عدم امكانية تطبيق هذه التشكيلات التنظيمية في جميع مناطق عمل الاتحاد ، ولذلك اضيف في النظام الداخلي مادة تنص على ان « لكل رابطة ان تحدد عدد تشكيلاتها التنظيمية وفقا لظروفها الجغرافية والبشرية »(١٧) ومن جهة اخرى يبدو ان القصد من هذه التشكيلات هو ضبط العملية الداخلية او التنظيمية في الاتحاد . وهي بذلك اقرب الى التنظيم الحزبي منها الى التنظيم النقابي ــ خاصة اذا علمنا ان مهمات هذه التشكيلات تكاد تنحصر بحضور الاجتماعات الدورية وكتابة التقارير من قبل اعضائها ، في حين يفترض ان تكون هذه التشكيلات قد اعتمدت لكونها الوسيلة الافضل لخدمة أهداف ومهمات الاتحاد وانجازها . فقد لا يكون مهما مثلا وجود عشر وحدات في مخيم ما ، بل وجود لجان لها مهام محددة . ومن الدلائل على ان هذه المهمات كانت غائبة حين رسم الهيكل التنظيمي ، ان الاتحاد يضع لنفسه مثلا برنامجا طموحا للمشروعات الانتاجية ولكنه لا يفرز لذلك جهة او جهازا مسؤولا لمتابعته بل يترك ذلك للمسؤول المالي في الامانة العامة بالاضافة الى قيامه بالمسؤوليات المالية للاتحاد باسره(١٨) .

وفيما يتعلق بالنظام الداخلي للاتحاد يمكن اثارة بعض الملاحظات التي تحتاج الى نقاش . أ ــ **الاشتراكات** : يترك النظام الداخلي لقيادة كل رابطة تحديد قيمة رسم الانتساب والاشتراك الشهري للعضو في بلده(١٩) . والملاحظة هي انه من اوليات التنظيم ، باعتقادنا ، خضوع جميع الاعضاء لقواعد مالية واحدة واذا كان الدافع لهذه القاعدة هو التفاوت في رواتب المعلمين ، فالحل الاكثر « عدالة » يكون في جعل رسم الانتساب او الاشتراك تصاعديا بنسبة الراتب ، لا في ترك الامر لكل رابطة على حدة لان الناحية المالية لا تتوقف على الاشتراكات وحدها ، بل هناك أمور تتعلق بالتفرغ والمساعدات والنفقات وغيرها . ب ــ **عدد اعضاء المؤتمر القطري** : يترك النظام ايضا لقيادة كل

رابطة تحديد عدد ممثلي المناطق في بلدها الى المؤتمر القطري(٢٠). ويبدو كذلك ان هذه القاعدة وضعت لاعتبارات موضوعية تتعلق بالاوضاع المختلفة في المناطق التي يعمل بها المعلمون ، ولكن مع ذلك فالمبدأ هو وضع القواعد العامة اولا ثم تضاف بعض اللوائح التي تعالج الحالات الإستثنائية .

وليس واضحا لماذا لا يتم تحديد الممثلين على اساس عددي ، علما بان ذلك لا يعني بالضرورة تطبيق نسبة واحدة في كل الفروع . ج ـ **مدة عمل اللجنة التنفيذية والمؤتمر القطري** . هناك مادة في النظام الداخلي بحاجة الى تفسير اذ تحدد مدة عمل اللجنة التنفيذية للرابطة بثلاث سنوات(٢١). في حين يفهم ضمنا ان المؤتمر القطري الذي ينعقد سنويا هو مؤتمر جديد يتم اختيار اعضائه بالانتخاب(٢٢)، مع اعطاء المؤتمر حق حجب الثقة عن عضو أو أكثر من اعضاء اللجنة التنفيذية . السؤال هو لماذا لا يكون من ضمن اعمال المؤتمر انتخاب لجنة تنفيذية جديدة ، قد تكون هي نفسها اللجنة السابقة . د ـ **مجلس الاتحاد** : ينص النظام الداخلي على وجود مجلس للاتحاد مكون من اعضاء الامانة العامة وامناء سر الروابط . والمجلس عبارة عن محطة تنظيمية عامة تتابع سياسة الاتحاد في غياب المؤتمر الوطني . ولكن النظام الداخلي لا يحدد موعدا دوريا لاجتماعات المجلس ولا يعطيه صلاحيات او مهمات فعلية ، بل يقصر ذلك على « النظر في الخطة العامة التي يضعها المؤتمر العام ، والفصل في طلبات الاستقالة التي يتقدم بها احد اعضاء الامانة العامة »(٢٣).

نشاط الاتحاد : لم يكن الغرض من هذا البحث تسجيل تاريخ الاتحاد واستعراض نشاطاته ، الا انه يحسن بنا في النهاية ان نذكر ابرز النشاطات التي قام بها الاتحاد خلال هذه الفترة من وجوده ، وبهدف تبين مدى ارتباطها بالمهمات او الاهداف المنوطة بالاتحاد . كان من ابرز نشاطات الاتحاد سلسلة الاضرابات التي قام بها معلمو مدارس وكالة الغوث ومتابعة الاتحاد لقضايا المعلمين مع الوكالة . كذلك اظهر الاتحاد اهتماما بأعضائه وتقديم مساعدات لهم وخاصة تقديمه مساعدات مادية لاسر المعلمين الذين اعتقلوا في الاردن، ودفع رواتب دائمة لاهالي الذين استشهدوا فيحوادث أيلول ١٩٧٠ . ويعتبر مشروع الضمان الاجتماعي الذي طبق في رابطة الكويت (يقضي بدفع تعويض مالي للمعلم في حالة الوفاة ، او الفصل او الاصابة بعاهة مستديمة) أمرا مهما ومثالا يحتذى به . هذا بالاضافة الى عدد من النشاطات الاخرى مثل جمع تبرعات للهلال الاحمر ، زيارة المقاتلين في قواعدهم ، حضور المؤتمرات العربية والدولية واصدار بيانات او ارسال برقيات في المناسبات المختلفة(٢٤). والملاحظة التي تتكرر مرة اخرى هي ان معظم نشاطات الاتحاد **لم تكن على مستوى القاعدة ووسط الجماهير** ، اذ انحصرت هذه النشاطات اجمالا بالامانة العامة واللجان التنفيذية . وهذا النمط من النشاط لا يبدو وثيق الصلة بالمهمات الاساسية للاتحاد ولا يؤدي الى تحقيقها . فالاتحاد ، مرة اخرى ، ينجح في انجاز مهماته عندما يتحول الى مؤسسة شعبية من خلال ما يطرحه من قضايا وما يمارسه من نشاط بين جماهير المعلمين وجماهير المخيمات(٢٥).

---

١ ـ مقابلة مع الامين العام للاتحاد ، شهر ايار ١٩٧٢ .

٢ ـ الانروا ، دائرة التعليم ، **الموجز الاحصائي لعام ٧٠ ـ ٧١** ، ص ٥٤ و ٨٦ .

٣ ـ الانروا ، دائرة التعليم ، **الموجز الاحصائي لعام ٦٩ ـ ٧٠** ، ص ٦١ و٩٦ .

٤ ـ الاتحاد العام للمعلمين الفلسطينيين ، الامانة العامة ، **الاتحاد في سنته الثالثة** ، ص ١١ .

٥ ـ **المصدر نفسه** .

٦ ـ **المصدر السابق** ، ص ١٦ ـ ١٧ .

٧ ـ دوجلاس بايك ، **الفيتكونج** ، منشورات

دار الطليعة ، ص ٥٨ .

٨ — اتحاد المعلمين ، **المصدر السابق** ، ص ١١ .

٩ — **المصدر نفسه** .

١٠ — اتحاد المعلمين ، رابطة لبنان ، **تقرير المؤتمر القطري لعام ٧١** ، ص ١١ — ١٢ .

١١ — اتحاد المعلمين ، **الاتحاد في سنته الثالثة**، ص ٥ .

١٢ — مقابلة مع الامين العام لرابطة لبنان ، ايار ١٩٧٢ .

١٣ — مقابلة مع الامين العام للاتحاد ، ايار ١٩٧٢ .

١٤ — اتحاد المعلمين ، رابطة سوريا ، **تقرير المؤتمر القطري لعام ٧١** ، ص ١٥ .

١٥ — اتحاد المعلمين ، راجع **المصدر السابق** ، **التقرير** ص ١ — ٢ ، وتقرير مؤتمر لبنان ص ٦ .

١٦ — مقابلة مع الامين العام لرابطة لبنان ، ايار ١٩٧٢ .

١٧ — **النظام الاساسي** ، ص ٨ .

١٨ — **النظام الداخلي** ، ص ٢٨ .

١٩ — **المصدر السابق** ، ص ١٩ .

٢٠ — **المصدر السابق** ، ص ٢٥ .

٢١ — **المصدر السابق** ، ص ٢٧ .

٢٢ — **المصدر السابق** ، ص ٢٥ .

٢٣ — **المصدر السابق** ، ص ٢٩ — ٣٠ .

٢٤ — اتحاد المعلمين ، **الاتحاد في سنته الثالثة**، ص ١٢ — ٢٥ .

٢٥ — كتب هذا البحث قبل انعقاد المؤتمر الاول للاتحاد في آب (اغسطس) ١٩٧٢ ، وبهدف المساهمة في اعمال المؤتمر .

مستقبل الثورة الفلسطينية ودور الشباب العربي فيها

في بحث مستقبل الثورة الفلسطينية لا بد اولا من تحديد العوامل الاساسية التي بلورت ضرورات انطلاقها . هذه العوامل الاساسية تنطلق من نقطة جوهرية واساسية لا يجوز المس بها لانها مثبتة تاريخيا وقوميا وحتى مصلحيا ، وهي ان القضية الفلسطينية قضية عربية أولا وبالاساس وقد فرض هذا بالتالي ان تكون حركة التحرر الفلسطينية جزءا لا يتجزأ من حركة التحرر العربي . وهذه الكلمة التي ترددت حتى فقدت معناهــا في الاذهان تحتاج الى تثبيت في هذه المرحلة بالذات بسبب ما تواجهه الثورة الفلسطينية حاليا من متاعب وبسبب بروز وجهات نظر تحاول دفع الثورة الفلسطينية الى المرتبة الثانية في جدول الاعمال .

ولكن كون الثورة الفلسطينية جزءا لا يتجزأ من حركة الثورة العربية لا يجوز أن يلغي مطلقا الدور الفلسطيني الخاص الذي يجب أن يقوم به الفلسطينيون تجاه قضيتهم . ولتوضيح ذلك لا بد من ذكر الوقائع التالية :

١ ــ ان قيام دولة اسرائيل قد توافق مع مرحلة الاستقلال التي نالت فيها اغلب الدول العربية ، وأغلب دول العالم الثالث استقلالها ، وفي جو معركة الاستقلال كان موضوع الوحدة العربية مطروحا في المنطقة على انه موضوع قابل للتحقيق والتنفيذ على مدى سنوات منظورة فقط .

٢ ــ ومن منطلق الترابط بين القضية الفلسطينية والقضية العربية ، ومن منطلق العمل لاقامة الدولة العربية التقدمية الموحدة ، قام الفلسطينيون بعد نكبة عام ١٩٤٨ بمتابعة نضالهم من اجل استرداد وطنهم من خلال الاندماج في الحركة الوطنية العربية ، ممثلة بأحزابها السياسية في المشرق العربي . فاندمج الشباب الفلسطيني في هذه الاحزاب مؤمنا بان توحيد الوطن العربي وبناء المجتمع الاشتراكي القوي فيه ، سيكــون طريق النضال لتحرير فلسطين ، انطلاقا من الايمان العميق بعروبة القضية ، وبمسؤولية العرب جميعا تجاهها . وقد جاءت بعض الانتصارات التي تلت ذلك لتزيد في عمق هذا الايمان ولتدعم النهج الذي يدعو ويعمل لتحرير فلسطين من خلال العمل لتحرير الوطن العربي وتوحيده ، نذكر من هذه الانتصارات : ــ معركة مواجهة حلف بغداد التي عمت الوطن العربي وتبلورت في أوساط الشعب الفلسطيني داخل الاردن بالانتفاضة ضد زيارة « تمبلر » ، لتمثل انجازا على صعيد مواجهة السياسة الاستعمارية ودحرها . ــ ثم جاء طرد « جلوب » البريطاني من الاردن ، وقيام حكومة النابلسي الوطنية في عمان

البحث الذي قدمه الوفد الفلسطيني الى الندوة الفكرية المنبثقة من مؤتمر الشباب العربي الاول ، المنعقد في الجزائر من ٥ ــ ١١ تموز ١٩٧٢ . اعد البحث في مركز الابحاث الفلسطينية . وكان الوفد برئاسة الزميل بلال الحسن .

ليمثل انجازا آخر على الطريق نفسه . — ثم جاء العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ليطرح امام الجماهير العربية بالدليل الملموس ارتباط اسرائيل بالامبريالية العالمية وتهديد اسرائيل الملموس ايضا للبلاد العربية ذاتها وليس لفلسطين وحدها . وليكشف من خلال السعي لضرب تأميم قناة السويس دور اسرائيل كقوة عسكرية هدفها ضرب قوى حركة التحرر العربية وتدمير اي انجاز تحصل عليه . ومن خلال الصمود والنجاح في المعركة التي تثبتت فيها كل هذه القضايا ، تعمق الدور اليومي والمباشر لمصر في حركة التحرر العربية ، فزاد ذلك من قوة النهج الداعي للتحرير من خلال العمل الوطني العربي .
— ولكن اعمق الاحداث التي دعمت منهج العمل لتحرير فلسطين من خلال الاندماج في الحركة الوطنية العربية ، كان بدون شك قيام الوحدة بين سوريا ومصر . فبقيام هذه الوحدة شعر المواطن الفلسطيني انه اصبح وجها لوجه امام القوة العربية القادرة على العمل من اجل التحرير ، لانها تملك الطاقة البشرية والاقتصادية المؤهلة لذلك . من ضمن هذا المنطق ومن ضمن هذه الوقائع اندمج الشباب الفلسطيني في الاحزاب العربية وناضل من خلالها داعيا للوحدة ولبناء المجتمع الاشتراكي ولبناء القوة العسكرية القادرة على مواجهة اسرائيل وانجاز عملية التحرير .

٣ — الا أن هذه التجربة الفلسطينية في العمل الوطني ما لبثت ان واجهت جملة من الحقائق الموضوعية كان لها تأثير عميق في مسيرة الشعب الفلسطيني : — فقد تام الانفصال بين سوريا ومصر محطما الحلم الكبير بتطويق اسرائيل ، ومحطما الامل ببناء قوة اقتصادية وعسكرية قادرة على مواجهة اسرائيل . — ثم تمكنت القوى الرجعية العربية من توجيه ضربات متلاحقة للحركة الوطنية العربية ممثلة بأحزابها بحيث واجهت هذه الاحزاب مرحلة من الانحسار بعد مرحلة المد التي كانت تعيشها . وظهر من خلال ذلك ضعف في بنية هذه الاحزاب وتكوينها جعلها غير قادرة على مواجهة الموجة الرجعية، والتآمر الامبريالي المتصل لدعم القوى الرجعية وضرب القوى الوطنية ، حفاظا على مصالحه الاقتصادية والاستراتيجية . — ثم أخذت الانظمة العربية تواجه — بعد أن انتهت موجة نيل الاستقلال وكسبه — مشكلاتها الاقتصادية الداخلية ، وتواجه الضغط الاستعماري لابقاء هذه المشاكل على حالها بحيث اضطرت لاسباب موضوعية تتعلق بطبيعة المشكلة الاقتصادية ، ولاسباب ذاتية تتعلق بطبيعة هذه الانظمة ونمط علاقتها بالجماهير ، ان تقوم بعملية انغلاق لمواجهة مشكلاتها الداخلية وايجاد حلول لها .
ازاء هذا الواقع والصعوبات التي ينطوي عليها بدأ الفلسطينيون يدركون ان العمل لتحرير فلسطين من خلال الحركة الوطنية العربية ، على الرغم من انه موقف سليم وصحيح من حيث المبدأ ، الا أنه موقف غير كاف . وهو يفرض عليهم ، بدون التنازل عن حتمية الارتباط العضوي بين النضال الفلسطيني والنضال العربي ، أن يبلوروا عملهم الوطني الخاص ، وأن يتسلموا زمام قضيتهم بأيديهم وبشكل مباشر . وقد كان هذا الدرس الفلسطيني نوعا من المناخ العام ، اذ برزت في أواخر الخمسينات واوائل الستينات ، تنظيمات فلسطينية عديدة في أكثر من قطر عربي ، وفي وقت واحد تقريبا ، لتعكس احساسا جماهيريا عاما بضرورة قيام عمل فلسطيني خاص. وفرض هذا الواقع نفسه على الاحزاب القومية نفسها ، وعبرت عن ذلك باندفاعها نحو انشاء فرع خاص يضم الفلسطينيين داخل كل حزب عربي ، محاولة بذلك أن تتلاءم مع القناعة الشعبية الفلسطينية . وكان على هذه التنظيمات الفلسطينية أن تواجه بالاضافة الى اهمية الدور الفلسطيني الخاص وضرورته موضوعا آخر يتعلق بأسلوب النضال من أجل التحرير .
هل يبقى أسير أسلوب الانظمة الداعي لانشاء جيوش نظامية تتفوق على القوة العسكرية الاسرائيلية ، في ظل اقتصاد متخلف ؟ وقد جاء الجواب واحدا تقريبا من خلال التنظيمات الفلسطينية الناشئة التي حاولت بشكل او بآخر بلورة استراتيجيتها للكفاح

الشعبي المسلح واعتمادها خطا للتحرير ، وكان هذا الطرح لاسلوب الكفاح الشعبي المسلح منطلقا من صورة الواقع العربي الذي تسيطر عليه التجزئة ، وهموم البناء الاقتصادي الذي يتعرض لتآمر الرجعية في الداخل ، ولضغط الاستعمار من الخارج ، ولتهديد اسرائيل بضرب المنجزات الوطنية العربية ، اذا ما تخطت مرحلة الامان بالنسبة لها . في هذه المرحلة جاء نجاح الثورة الجزائرية ، في نيل استقلالها عن طريق الحرب الشعبية فقام بدور بارز في ترسيخ القناعة الفلسطينية بالاتجاه الجديد الذي برز في اوساطهم وبامكان النجاح في مواجهة اسرائيل من خلال استغلال طاقة الجماهير ، والاستفادة من نقطة القوة التي تملكها في مواجهة قوة استعمارية كبيرة تملك طاقات عسكرية ومادية ضخمة .

وقد انطلق العمل الفدائي الفلسطيني تجسيدا لكل ذلك في عام ١٩٦٥ ، مواجها صعوبات الاعتراف الرسمي العربي به ، ومواجها منذ البداية محاولات القمع . ولكن هزيمة حزيران ١٩٦٧ فرضت على الانظمة العربية تجميد محاولات القمع هذه ، والانطلاق مباشرة الى تأييد الانطلاقة الجديدة للثورة الفلسطينية ودعمها . فأصبح منطقها في العمل المنطق السائد في اوساط الجماهير ، والذي يلقى منها كل تأييد ، خاصة بعد ان سكتت المدافع العربية معلنة عجز الانظمة عن متابعة المعركة .

٤ — وكنتيجة لكل ذلك نقول ان العمل الوطني الفلسطيني المستقل : الايمان بالدور الفلسطيني الخاص ، لم يكن في منطلقه أو في غاياته الا محاولة لتكميل العمل الوطني العربي وتطويره ، والا محاولة لتكريس الارتباط بين الثورة الفلسطينية والثورة العربية، من خلال التصدي المباشر للعدو الصهيوني الذي يلعب دور الدركي لحماية المصالح الامبريالية في المنطقة ، ولسحق أي انجاز تقدمي تحققه الحركة الوطنية العربية . وهذا العمل الوطني الفلسطيني كان بعد عام ١٩٦٧ بالذات اسهاما جديا في حماية الحركة الوطنية العربية نفسها ، لان ارتفاع صوت المقاومة ضد الاحتلال أعطى الانظمة العربية فرصة لالتقاط الانفاس حتى تبدأ في العمل لاستعادة قواها الذاتية ، وحتى لا تقع اسيرة شروط الاستسلام الاسرائيلية .

ان التأكيد على هذه الظروف الموضوعية لبروز العمل الفلسطيني المستقل ، ضروري الان بسبب ما تواجهه حركة المقاومة من انتقادات كثيرة يصل بعضها الى مبدأ وجودها بالذات ، طارحا من خلال السعي لانهاء وجودها ، أن يعود العمل الوطني الفلسطيني ليرتبط بعجلة العمل الوطني العربي على غرار ما كان الوضع عليه في الخمسينات ، متجاهلا التجربة التي بلورت وانضجت الظروف الموضوعية لقيام عمل فلسطيني مستقل . ومتجاهلا ايضا الدرس الكبير والعميق الذي بلورته هزيمة حزيران .

مرحلة الانطلاق :

لقد لقيت الثورة الفلسطينية تأييدا جماهيريا واسعا منذ لحظة انطلاقتها بعد الهزيمة وفي أوساط الشعب الفلسطيني بالذات ، كان هذا التأييد شاملا بحيث استطاعت ان تنتزع بنضالها شرعية تمثيلها لشعبها . كما لقيت الثورة الفلسطينية تأييدا مماثلا في أوساط الجماهير العربية عمق من لحمة العلاقة التاريخية بين النضال الفلسطيني والنضال العربي، وبرزت هنا امكانية تحويل هذه الطاقة الجماهيرية الفلسطينية والعربية الى قوة فعالة من خلال تنظيمها وتعبئتها باتجاه النضال ضد اسرائيل . ولكن جملة عوامل ذاتية وموضوعية تدخلت لتعيق النمو المستمر لامكانية التحويل هذه . وبعض هذه العوامل يتعلق بفصائل حركة المقاومة نفسها وابرزها :

— حالة التشتت التنظيمي التي كانت انعكاسا طبيعيا لاندماج الشباب الفلسطيني في أحزاب وتيارات فكرية متعددة ، كما كانت إنعكاسا طبيعيا للتشتت الجغرافي الذي عاش

في ظله الفلسطينيون . ومن قلب هذا الوضع الذي هو حصيلة عشرين عاما من التشرد بذلت حركة المقاومة بفصائلها الاساسية كافة محاولات عديدة لايجاد صيغة فعالة للوحدة الوطنية ، من خلال اللقاء داخل منظمة التحرير ، في عضوية المجلس الوطني ، وفي عضوية اللجنة التنفيذية. وما زالت تجري حتى الان محاولات دؤوبة لتطوير الصيغة القائمة للوحدة الوطنية من اجل صيغ افضل وأرقى . — تقصير حركة المقاومة في ادراك قيمة العمل السياسي المنظم في أوساط الجماهير ، من اجل دعم العمل العسكري نفسه. ونتيجة لذلك بقي التأييد الواسع الذي لقيته المقاومة تيارا عفويا لم تستغل طاقاته بشكل كامل . مع اننا نسجل لهذا التيار العفوي انه قام بدور بارز في حماية المقاومة من بعض المؤامرات التي دبرت لتصفيتها في الاردن ولبنان . — تقصير في تطوير اساليب العمل العسكري ، بحيث تكون اكثر ملاءمة لظروف الارض ولاساليب العدو في المقاومة المضادة . — تقصير في ادراك معنى الاجراءات الاقتصادية والادارية التي لجأ اليها العدو في الاراضي المحتلة ، والبدء مبكرا في تحضير الاجواء لمواجهتها .

ولكن هذه العوامل لا يمكن مناقشتها بعيدا عن العلاقات التي نشأت بين الثورة الفلسطينية والواقع العربي الرسمي فمن خلال هذه التناقضات لم تستطع حركة المقاومة ان تواجه نقاط ضعفها الذاتية ، منشغلة بمواجهة تناقضها مع الاوضاع العربية ، وابرز هذه التناقضات التناقض في الموقف الاساسي حول منهج مواجهة اسرائيل بعد الهزيمة، بين منطق القتال ومنطق قرار مجلس الامن والتسوية السياسية. ونقول بالم شديد وبموضوعية كاملة ان الموافقة العربية على مشروع روجرز في تموز ١٩٧٠ ، والبلبلة الجماهيرية التي احدثتها هذه الموافقة في أوساط الجماهير ، قد خلقت مناخا استغلته الرجعية الاردنية في التحضير لمجزرة أيلول في العام نفسه .

وقد فرض على الثورة الفلسطينية ان تواجه سلسلة متلاحقة من عمليات القمع في الاردن وفي لبنان عطلت الجزء الاكبر من طاقاتها من أجل حماية نفسها من تآمر القوى الرجعية بدل التوجه لمقاومة الاحتلال الاسرائيلي . وحين تمكنت الرجعية الاردنية من خلال مجزرة أيلول ١٩٧٠ وما تلاها من معارك أن تنهي الوجود العلني لحركة المقاومة في الضفة الشرقية ، تمكنت اسرائيل من : (١) ان تطلق العنان لتنفيذ مخططاتها في الضفة الغربية من خلال الانتخابات البلدية ، سعيا وراء ابراز قيادات فلسطينية جديدة، تكون كقيادات بديلة لحركة المقاومة ، (٢) ان تتفرغ لوضع مخطط شامل لضرب المقاومة الباسلة في قطاع غزة ، حسب اعتراف التقرير السنوي العسكري لعام ١٩٧١ الصادر عن قيادة الاركان الاسرائيلية .

— فرض على الثورة الفلسطينية ان لا تتعامل مع قطاع واسع من الجماهير العربية الا من خلال الانظمة نفسها ، وبالحجم الذي تراه هذه الانظمة مناسبا لمصالحها ولسياستها الداخلية . وادى ذلك الى تعطيل عملية التفاعل العميقة بين الثورة الفلسطينية والجماهير العربية ، بل ان بعض هذه الانظمة قد سعى الى استيعاب الثورة الفلسطينية والسيطرة عليها ، كي تصبح خاضعة لافق سياستها الرسمية .

— اما اجهزة الاعلام العربية فقد انطلقت في فترة المد التي عاشتها الثورة الفلسطينية ، في عملية تضخيم لمنجزاتها ، كانت تهدف الى تغطية حالة التصور العربية القائمة ، وادت في الوقت نفسه الى خلق حالة وهمية حول العمل الفدائي جعلت المواطن العادي يتوقع منه المعجزات، وحين لم يجد هذه المعجزات بدأ يشك في العمل الفدائي وجدواه. وحين واجه العمل الفدائي بعض التراجعات قامت اجهزة الاعلام نفسها لتنشر صورة من التشاؤم حول العمل الفدائي بدل ان تساعده في مواجهة ظروفه الصعبة .

— وفي ظل هذا كله فان الاحزاب العربية الحاكمة منها وغير الحاكمة ، عجزت عن

استيعاب المد الجماهيري الذي ولدته الثورة الفلسطينية وتنظيمه فبقي كما قلنا ، قوة عفوية ، غير قادر على أن يعطي كل طاقاته للمعركة .

ولا نستطيع أن ننكر ان هذه العوامل التي ذكرناها لعبت دورها ـ بمستويات مختلفة ـ في تجسيد سلسلة من العقبات التي أعاقت العمل الفلسطيني عن تأدية دوره بشكل أفضل مما تم حتى الان . وهي مسؤولة ـ بمستويات مختلفة ـ عن التراجعات التي اضطرت حركة المقاومة للقيام بها دون أن نقلل مطلقا من شأن أخطائنا نحن .

التخطيط الاسرائيلي

بينما كانت الثورة الفلسطينية تواجه هذه العوامل التي ذكرناها ، كانت اسرائيل تباشر تنفيذ خطتها الدائمة في مقاومة العمل الفدائي من خلال ضرب الاقطار العربية نفسها . وقد أعلنت اسرائيل ذلك علنا وبوضوح وعلى لسان أكثر من مسؤول كبير فيها . وهدف اسرائيل من وراء ذلك اجبار الانظمة العربية على أن تقوم بنفسها بالتضييق على العمل الفدائي وضربه ، تخلصا من تهديد الهجمات الاسرائيلية . كذلك خلق التناقض بين العمل الفدائي والانظمة ، وبين العمل الفدائي والجماهير التي تتعرض للقصف والغارات ليحاط العمل الفدائي بجو من العداء والرفض . وقد كان هذا المخطط الاسرائيلي يفرض عملية من التعبئة داخل هذه الانظمة ، تزيد فيها من قوتها العسكرية وتلجأ الى تسليح جماهيرها لمواجهة الاعتداءات الاسرائيلية التي تخفي وراءها أطماعا بالاراضي والمياه العربية موازية للرغبة في ضرب العمل الفدائي . ولكننا وجدنا بدلا من ذلك ، أن بعض هذه الانظمة قد استجاب لضغط التخطيط الاسرائيلي ، أكثر مما استجاب لدور العمل الفدائي في التصدي لهذا التخطيط . وأبرز الامثلة على ذلك : (١) النظام الاردني الرجعي الذي استغل قصف اسرائيل المتصل لمنطقة الاغوار لتعبئة سكان هذه المناطق تعبئة أقليمية حاقدة سعت جهدها للتفريق بين الفلسطيني والاردني . ثم بلغ هذا التخطيط ذروته في مجزرة أيلول . (٢) النظام اللبناني الذي سعى اثناء الاعتداء الاخير على جنوب لبنان الى الضغط على حركة المقاومة لتسحب قواتها من المنطقة . ومرة اخرى يطلب من العمل الفدائي ان يواجه الاحتلال الاسرائيلي وأن يحقق المعجزات حتى ينجو من النقد الذي يتعرض له ، وهو يواجه مهمة حماية نفسه والاحتفاظ بوجوده في لبنان قبل ان يواجه الاعتداءات الاسرائيلية . فهل نستطيع ان نتناسى هذه الامثلة العربية ونحن نقيم ونحاسب الثورة الفلسطينية ؟

صورة المستقبل

ان هذه المشكلات التي ذكرناها سواء على الصعيد العربي أم على الصعيد الاسرائيلي لا يمكن فصلها عن تحديد صورة مستقبل الثورة الفلسطينية . وفي تحديد هذه الصورة يجب أن ينصب التركيز مرة أخرى على الترابط النضالي الفلسطيني العربي من ضمن اطار الدور الفلسطيني الخاص الذي تحدثنا عنه ، ذلك ان تطور العمل الفدائي الفلسطيني مرهون في نظرنا بقضيتين : القضية الاولى : أن يتوقف تآمر الانظمة العربية على الثورة الفلسطينية ، اما خوفا من وجود السلاح في أيدي الجماهير واما خوفا من التيارات الجماهيرية المناضلة التي توجدها حولها ، واما هربا من الاعتداءات الاسرائيلية ومن نتائجها . القضية الثانية : أن تنمو القوة العربية الذاتية باستمرار لتشكل قوة دعم فعالة للعمل الفدائي وقوة ردع أيضا للتهديد الاسرائيلي . في ظل هاتين القضيتين يمكن للعمل الفدائي ان ينمو . ومن الظلم الفادح أن يناقش نمو العمل الفدائي وأن تقيم نتائجه بعيدا عنهما ، اذ بمقدار ما تنمو القوة العربية الذاتية بمقدار ما ينعكس ذلك على النضال الفلسطيني مهيئا له ظروف الانطلاق الصحيح وظروف التوجه نحو الاهداف الحقيقية التي عليه أن ينشغل فيها بدل انشغاله في حماية نفسه .

ومن ضمن هذا الاطار العام ومن خلاله يمكن ان تحدد المهمات الاساسية للعمل الوطني الفلسطيني في المرحلة الراهنة : المهمة الاولى : هي مهمة النضال من أجل استعادة الموقع الذي خسرته حركة المقاومة في الاردن بسبب جميع الاعتبارات التي تجعل من الاردن الموقع الطبيعي لانطلاق الثورة الفلسطينية سواء منها ما يتعلق بالعامل البشري أم الجغرافي أم الاقتصادي . المهمة الثانية : مهمة التواجد الفعال داخل الضفة الغربية وقطاع غزة . مع الاخذ بعين الاعتبار بأن تطوير العمل المسلح وتنميتـه في الاراضي المحتلة أصبح مرتبطا الى حد بعيد بضرورة العمل على مواجهة التخطيط الاسرائيلي الذي يعتمد على الامور التالية: (١) دمج اقتصاد الاراضي المحتلة بالاقتصاد الاسرائيلي ليكون ذلك تمهيدا لاحتواء هذه المناطق وضمها نهائيا لاسرائيل . (٢) خلق طبقة من المتعاونين مع الاحتلال الاسرائيلي تتكون أساسا من الفئات المستفيدة من الاحتلال وتتمثل في كبار المزارعين وكبار التجار . (٣) اجراء الانتخابات البلدية تمهيدا لاعتبار رؤساء البلديات المنتخبين حسب القانون الاردني الذي يفرض أن تكون الانتخابات مقتصرة على أصحاب الاملاك فقط (أي ٧ ٪ من السكان) ممثلـين سياسيين للشعب الفلسطيني يتولون التفاوض مع العدو الاسرائيلي والخضوع لمطالبه . (٤) استيعاب الايدي العاملة في المشاريع العاملـة في المشاريع الاسرائيلية تحت وطأة التهديد بالجوع ، لابعـاد هذه القطاعات الفقيرة عن التعامل مع حركة المقاومة والانضمام الى صفوفها . (٥) الاصرار على سياسة الجسور المفتوحة ، كي تبقى هذه الجسور صلة وصل بشرية واقتصادية بين اسرائيل والبلاد العربية .

ان مواجهة هذا التخطيط الاسرائيلي مهمة فلسطينية وعربية وليست مهمة فلسطينية فقط . المهمة الفلسطينية في هذه المواجهة تتوجه نحـو بناء التنظيم السياسي داخـل الاراضي المحتلة لكي يتولى توعية الجماهير بأهداف التخطيط الاسرائيلي ، ولكي يتولى تنظيم نضالات جماهيرية ضد هذا التخطيط تستعمل فيها أساليب النضال المعروفة كافة، من المناشير الى التظاهرات والاضرابات والعصيان المدني ليقود كل ذلك الى خلق مناخ ملائم لنمو العمل العسكري وتوفير ظروف الحماية له . أمـا المهمة العربية ، فهي بالاضافة الى ما ذكرناه سابقا ، تتطلب التفكير من جديد بسياسة الجسور المفتوحة ومدى استفادة اسرائيل منهـا في تجنب تبعات المسؤوليات الاقتصاديـة في الاراضي المحتلة ، مع ما يترتب على ذلك أيضا من تعامل اقتصادي عربي مبطن مع اسرائيل من خلال وسطاء من كبار التجار والمتمولين . ولا ينفصل عن هذه المهمات العربية ان تتوقف محاولات التدخل ومساعي فرض المواقف الاستسلامية على الثورة الفلسطينية حتى تنسجم مع الاستراتيجية العربية الرسمية ، خاصة بعد أن تبين بالدليل القاطع بعد خمس سنوات من الاحتلال عبث كل المحاولات التي بذلت للوصول الى تسوية سياسية مع اسرائيل وبروز نوايا الدمج للاراضي المحتلة بشكل واضح في تصريحات المسؤولين الاسرائيليين .

مهمات الشباب العربي :

في ضوء هذه المهمات الفلسطينية والعربية التي تحدد صورة المستقبل بالنسبة للثورة الفلسطينية نستطيع أن ننتقل انطلاقا منها لتحديد مهمات الشباب العربي في دعمها . وهي مهمات تنقسم في تصورنا الى قسمين اساسيين : مهمات مباشرة في دعم الثورة ، ومهمات غير مباشرة ، ولكنها لا تقل عن الاولى قيمة واهمية . **المهمات المباشرة** يمكن ان نلخصها بما يلي : (١) العمل على توعية الجماهير العربية بقضايا الثورة الفلسطينية والمصاعب التي تواجهها ، بطريقة علمية واقعية ، لا تميل نحو المبالغة كما حدث في السابق ولا تميل نحو التشاؤم كمـا يحدث الآن . (٢) التطوع في صفوف الثـورة الفلسطينية لخلق الصلة اليومية بين القضية الفلسطينية والاوضاع العربية حتى يكون

هذا الاسهام المباشر تجسيدا اوليا لكون معركة فلسطين معركة الامة العربية . (٣) المطالبة بالتدريب والتسليح وخاصة في دول المواجهة لتساهم قوى الشباب في رفع درجة الاستعداد لمواجهة اسرائيل وصولا الى المرحلة التي يكون فيها الشعب بأكمله موضوعا تحت السلاح للاسهام في عملية التحرير . (٤) النضال داخل كل قطر عربي من اجل تنظيم الاطار الجماهيري الداعم للثورة الفلسطينية بحيث يكون هذا الاطار المنظم اداة قادرة على التحرك في اللحظة المناسبة لحماية الثورة من اي ضربات تتعرض لها . (٥) وفي اللحظة الراهنة تقع على عاتقكم جميعا مهمة مباشرة تستدعي العمل الدؤوب والسريع لدعم الثورة الفلسطينية في لبنان ، لكي تقطع الطريق على المحاولات الجارية لالغاء وجود العمل الفدائي هناك ، من خلال تكتيك شبيه بالتكتيك الذي نفذ من قبل في الاردن .

هذه هي المهمات المباشرة التي نرى ان الشباب العربي قادر من خلالها على الاسهام في دعم الثورة الفلسطينية . أما **المهمات غير المباشرة** ، والتي نعتبرها المهمات الاساسية في هذه المرحلة فيمكن ان نلخصها فيما يلي : النضال داخل كل قطر عربي من اجل تطوير اوضاع ذلك القطر بحيث يتجه بكل طاقاته لبناء القوة العسكرية والاقتصادية التي تجعله قادرا على الصمود في وجه التحدي الاسرائيلي ، كمرحلة أولى من اجل الاسهام الجدي في معركة التحرير . وفي عملية النضال من اجل هذا الهدف تبرز مهمات متعددة اهمها : أ ــ مواصلة النضال من اجل ضرب المصالح الامبريالية في الوطن العربي سواء الاقتصادية منها أم العسكرية . ب ــ ارساء عمليات التنمية الاقتصادية على أسس تخدم متطلبات المعركة الطويلة الامد مع اسرائيل . ج ــ اطلاق حرية التنظيم امام الجماهير العربية لتصبح قوة فاعلة في المعركة ،لخلق حالة تتجاوز ما كان الوضع عليه عشية هزيمة حزيران اذ كانت الجماهير بكل زخمها قوة معطلة عن المشاركة في المعركة. د ــ رفع درجة التنسيق والتعاون والتوحيد بين القوى العربية الوطنية الى مستوى يؤهلها لمواجهة الخطر الاسرائيلي . هـ ــ النضال لتجسيد موقف سياسي عربي يخدم المطلب السابق ، ويتخلى عن الاعتقاد بامكانية تراجع اسرائيل بالحوار والأساليب الديبلوماسية .

ان صورة نضال يتجه نحو هذه الاهداف قادرة في اعتقادنا على ان توفر مناخا صحيا لنمو حركة التحرر العربية ، تستفيد منه الثورة الفلسطينية لتنمية طاقاتها وامكاناتها من اجل تحقيق المهام الكبيرة الملقاة على عاتقها . واذا كان هناك مجال لان نبدأ من هذا اللقاء الذي يتمثل فيه شباب الوطن العربي باجراء عملي يكون بداية لترجمة هذه المهمات فاننا نقترح على لقائكم هذا ان يبحث في ايجاد صيغة تنظيمية تنبثق عن مؤتمر الشباب العربي ، لتؤمن صلة اتصال دائمة في ما بينهم لتكون اطارا لتوحيد جهودهم وتنسيق نضالهم دعما للثورة الفلسطينية وللنضالات العربية .

لقاء مع النقابيين الفلسطينيين القدامى

اعداد

بلال الحسن

جرى هذا اللقاء مع النقابيين الفلسطينيين القدامى ، والمدعوين لحضور المؤتمر الرابع للاتحاد العام لعمال فلسطين ، المنعقد في دمشق في ١٩٧١/٨/٢٠ في مقر الاتحاد العام لنقابات العمال في سوريه ، وحضره كل من :

١ ــ نصري الحلو ، ٢ ــ فؤاد شما ، ٣ ــ ابراهيم عليان ، ٤ ــ عبدالله قنديل ، ٥ ــ المرحوم حسني صالح الخفش . ادار اللقاء بلال الحسن مــن مركز الابحاث في ١٩٧١/٨/٢٢ . واعتبرت الجلسة جزءا من اجتماعات اللجنة النقابية للمؤتمر .

١ ــ حديث السيد نصري الحلو :

س : هل يمكن ان تروي لنا ذكرياتك عن الحركة العمالية التابعة لجمعية العمال العربية الفلسطينية ؟

ج : انتسبت لجمعية العمال العربية الفلسطينية لاول مرة سنة ١٩٢٥ ، وكنت اعمل في ذلك الوقت بسكة حديد فلسطين في مدينة حيفا . في ١٩٢٣ طلب بعض العاملين في سكة حديد فلسطين تأسيس ناد ليكون مقرا لاجتماعهم وبحث بعض المشاكل العمالية وامكان حلها . ولكن تطورت الفكرة من تأسيس ناد الى طلب ترخيص بانشاء جمعية سميت « جمعية العمال العربية الفلسطينية » . وبناء على سياسة حكومة الانتداب آنذاك ، والتي كانت سياستها حسب وثيقة الانتداب تقوم على مساعدة الصهيونية في بناء وطن قومي ، ووجه الطلب بمعارضة ومماطلة ، لان حكومة الانتداب كانت ضد أي نوع من التنظيمات العمالية لشعب فلسطين . وبعد الحاح واصرار ومراجعات متعددة، استطاع الاعضاء المؤسسون أن يأخذوا ترخيصا رسميا بانشاء الجمعية عام ١٩٢٥ . وكانت الجمعية في ذلك الوقت مقتصرة على نقابة عمال سكة الحديد في حيفا (العمال فقط وليس الموظفون) ، وكانت امكاناتها المالية قليلة جدا ، اذ لم يكن لديها عدد كبير من الاعضاء . كان عدد الاعضاء في ذلك الوقت نحو ٣٠ عضوا فقط .

س : من كان يقود الجمعية في ذلك الوقت ؟

ج : اذكر منهم الاخ عبد الحميد حيمور ، والاخ سعيد قواص ، والاخ عيد حيمور شقيق عبد الحميد ، والاخ الياس نصار الملقب بالياس الزوك ، والحاج حسين نصار .

س : في فترة التأسيس من كان متفرغا للعمل في الجمعية ؟

ج : لم يكن هناك احد متفرغ . كان العمل موزعا على الجميع ، ويتم انجازه بعد الانتهاء من الدوام ، حيث كنا نلتقي في مقر الجمعية ونتداول بالقضايا التي تهمنا . لم يكن هناك كاتب متفرغ او موظف او كناس ، وكان الاعضاء انفسهم يقومون بهذه الاعمال . وبعد فترة وجدنا من الضروري أن يتواجد شخص ما في المكتب اثنــاء النهار ، تحسبا لاي

طارىء قد يحدث ، أو لاستقبال عامل يريد أن يراجع في أمر ما ، فأحضرنا المرحوم سامي طه ليقوم بهذه المهمة .

س : ما هي ذكرياتك عن الاحداث المهمة بعد التأسيس ؟

ج : لم يطل عملي بسكة الحديد . تركت العمل بعد فترة قصيرة وغادرت مدينة حيفا ، ثم انقطعت عن النشاط العمالي ، لانه لا يوجد تنظيم عمالي في المنطقة التي ذهبت اليها. وقد عدت الى حيفا في بداية الاربعينات ، لذلك أستطيع التحدث عن هذه الفترة . ولكن اذكر ان أول اضراب عمالي كان في « شركة نيشر » ، وهي شركة يهودية ، وكان العمال العرب فيها ينقلون التراب لشركة اسمنت . وقد حصل العمال نتيجة الاضراب على بعض الحقوق . ولان الحركة العمالية كانت في بدايتها ، فقد كان الحصول على اي مطلب يشكل مكسبا هاما .

س : ماذا كانت مطالب الاضراب ؟

ج : مطالب عمالية ، اي زيادة اجور ، تحديد ساعات عمل ... الخ .

س : هل طالب العمال بتشريع نقابي ؟

ج : لا . لم يكن هناك تشريع نقابي . ولم يكن واردا لدينا ان نطالب منذ البداية بتشريع نقابي .

س : لنتحدث الآن عن فترة الاربعينات ؟

ج : منذ بداية الاربعينات ، وقعت عدة احداث أدت الى تقوية جمعية العمال وتثبيت وجودها ، كما ادت الى اجبار حكومة الانتداب على الاعتراف بوجودنا ، واخذ وجهات نظرنا بعين الاعتبار . فبالرغم من الترخيص الرسمي الذي كان لدينا ، الا انهم كانوا في البداية يتجاهلون وجودنا بضغط من زعماء منظمة الهستدروت التي كان على رأسها في ذلك الوقت دافيد بن غوريون وجولدا مائير .

في تلك الفترة ، اي فترة الحرب العالمية الثانية ، كان هناك عدد كبير من معسكرات العمل التابعة للجيش البريطاني في فلسطين ، وكان عدد العمال في هذه المعسكرات نحو ١٦٥ الفا* منتشرين في جميع انحاء فلسطين ، وكـان العمـال العرب يشكلون الاكثرية ، ولكنهم كانوا يفتقدون التنظيم، ويعاملون بتمييز واضح لصالح العمال اليهود. في عام ١٩٤١ التحقت بعمل في معسكر هندسة للجيش في منطقة الطيرة ، معسكر رقم ١٥٣ ، وكانت مهنتي «ساين رايتر»**، واعطاء فكرة عن طبيعة توزيع المهام داخل هذا المعسكر ، يوضح الفرق في معاملة العمال العرب ومعاملة العمال اليهود ، فقد كان القسم الاكبر من الاعمال الفنية بيد اليهود ، اما الاعمال العاديـة فكانت كلها تعطى للعمال العرب . واذكر انه كان يوجد ٣٦ نجارا بينهم نجار عربي واحد ، ونحـو ٤٠ بناء ومورقا بينهم عربي واحد ، و٧ عمال تمديدات صحية بينهم مساعد عربي واحد ، و١٠ — ١٢ دهانا وساين رايترز بينهم عـربي واحد هو انا . كنا نشعر بخطورة هذا التمييز ، وبخطورة افتقاد التنظيم بيننا، فأخذنا بتوجيه من جمعية العمال بتشكيل نقابات محلية في كل معسكر . ومن النقابات المحلية في كل منطقة شكلنا لجانا مركزية ، ومن اللجان المركزية شكلنا لجنة قطرية واحدة ، تمثل كل عمال المعسكرات في فلسطين ، وكنت أنا سكرتير هذه اللجنة منذ عام ٤٥ وحتى سقوط مدينة حيفا . وكانت هذه اللجان كلها منتخبة بشكل حر ورسمي . وكانت اللجنة القطرية تعقد اجتماعاتها في مقر الجمعية بحيفا . واقول بصراحة ان الذي دفعنا للعمل بسرعة لتنظيم عمال المعسكرات كان نشاط

---

* يحتاج هذا الرقم الى تدقيق .

** مهنة الـ « ساين رايتر » هي الرسم الفني .

اليهود وتجمعهم وتنظيمهم القوي ، وبشكل خاص رغبتهم في ضم اكبر عدد ممكن من العمال العرب الى مؤسساتهم الصهيونية ، اذ كانوا يهمسون دائما في آذان العمال العرب ان مؤسساتهم قادرة على ان تحقق لهم مطالبهم ، وان هذه المؤسسات لا علاقة لها بالسياسة .

س : ما هو نوع المطالب التي كنتم تعملون لتحقيقها داخل المعسكرات ؟

ج : كنا نهتم بكافة شؤون العمال . اذا طرد بعض العمال نتدخل ، اذا اعطي لعامل عربي فني ٢٥ قرشا في اليوم ، بينما عامل يهودي أقل منه مهارة يأخذ ٥٠ قرشا نتدخل . اذا حصلت تنسيقات ، وفصل العمال العرب وبقي اليهود نتدخل . وهكذا ، حتى بدأ عمالنا يشعرون أن هناك من يطالب لهم بحقوقهم ، وكان لذلك أثر في تخفيف الضغط عليهم .

س : هل حصل اي تصادم بين تنظيمكم وتنظيم الهستدروت داخل المعسكرات ؟

ج : في عام ١٩٤٢ أو عام ١٩٤٣ (لا أذكر) عقدنا أول مؤتمر لعمال المعسكرات، واتخذنا في هذا المؤتمر قرارا هاما جدا يقول بأنه لا يحق لاي جهة أن تتكلم باسم العمال العرب في فلسطين ، الا جمعية العمال العربية الفلسطينية . وفي تلك الفترة كان الهستدروت يسعى لتنظيم اضراب عام داخل المعسكرات . وكانت دعايتهم لانجاح هذا الاضراب ترتكز على القول بأن الاضراب هدفه عمالي ولا دخل له بالسياسة . ونحن نريد غلاء معيشة لان الاسعار ترتفع باستمرار ، وأجور السكن زادت بنسبة كبيرة ، ولا يوجد ضمان في حالة المرض ، وكل ما يمكن أن يؤثر على عواطف العمال . ولكن الواقع أن الهدف من الاضراب كان هدفا سياسيا خالصا . بعد أن عقدنا مؤتمرنا ، زاد اليهود من نشاطهم ، وعقدوا مؤتمرا اتخذوا فيه قرارا بتقريب موعد الاضراب ليعلن في ١٠ نيسان ١٩٤٣ ، وكان الهدف من تقريب الموعد ، ان يتم الاضراب اثناء التحضير لمؤتمر العمال العالمي* ، الذي كان مقررا عقده بعد فترة ، على اساس ان نجاح اضراب يضم العرب واليهود تحت اشراف الهستدروت سوف يؤدي الى اختيارهم كممثلين لكل عمال فلسطين في المؤتمر العالمي ، ويظهرهم أمام العالم على انهم يمثلون شعب فلسطين ، ويكرسون بذلك دعايتهم التي كانت تقول بأنه لا يوجد أي خلاف بين الحركة الصهيونية وبين شعب فلسطين ، وان الخلاف كله منحصر بالبكوات والافندية .

قررنا مواجهة دعوة الهستدروت للاضراب ، لتفشيل هدفهم السياسي من وراء ذلك . وبدأنا حملة توعية في النهار والليل وفي كل مكان ، خاطبنا كل عامل حسب فهمه ، عامل نتحدث معه من ناحية عاطفية ، عامل آخر من ناحية دينية ، والذي كنا نلمس لديه شيئا من الوعي نخاطبه من الناحية الوطنية ونشرح له القصد من الاضراب . ولتدعيم رأينا كنا نقول للعمال العرب « قولوا للعمال اليهود ، نحن مستعدون للاشتراك في الاضراب بشرط واحد ، أن نوزع منشورا واحدا يدعو للاضراب موقعا من جمعية العمال ومن الهستدروت » ، ولكن لجان الهستدروت المحلية كانت ترفض دائما هذا الطلب ، ويكتشف العمال العرب صحة رأينا ، ويدركون ان الهدف من الاضراب كان سياسيا وليس عماليا . كان هناك بعض العمال اليهود المعتدلين ، الذين وافقوا على حقنا في التوقيع على المنشور الذي سيدعو للاضراب ، ولكنهم كانوا قلائل جدا ، ولم يكن صوتهم مسموعا . واخيرا جاء يوم الاضراب دون أن نصل نحن والهستدروت الى اي اتفاق . وكنا واثقين من انفسنا ، ومن الجهود التي بذلناها ، ونسقنا عن طريق اللجان المحلية ان يحل عامل عربي مكان كل عامل يهودي يشترك في الاضراب ، حتى لا يكون هناك توقف عن العمل في اي مجال . وبعد مضي وقت قصير على بدء العمل جاء ضباط

---

* مؤتمر النقابات الدولي — عقد بلندن بتاريخ ٦ شباط ١٩٤٥ .

المراقبة لاعداد تقرير عن الاضراب الذي لم يكن له أي اثر ، حتى ان قسما ضئيلا من العمال اليهود كانوا يشاركون في العمل . واذيع في اليوم التالي تقرير يقول ان الاضراب قد فشل ، وان العمال العرب عملوا بنسبة ١١٠ ٪ . والسبب في ذلك ان كافة العمال العرب المجازين بشكل عادي أو لاسباب مرضية ، قطعوا اجازاتهم وشاركوا بالعمل في ذلك اليوم . وكان ذلك نجاحا حقيقيا لنا ، وفشلا ذريعا للهستدروت . وعلى اثـــر ذلك أعلمتنا قيادة الجيش انها تعترف بجمعية العمال العربية الفلسطينية الممثلة الوحيدة للعمال العرب ، وطلبت تشكيل لجنة تجتمع اسبوعيا مع الضابط المسؤول لدرس قضايا العمال العرب ومشاكلهم .

س : ماذا كان رد الفعل داخل الهستدروت على هذه النتيجة ؟

ج : برز في صفوفهم تذمر حاد ، لان قيادتهم كانت تعرض عليهم تقارير تفيد ان الاضراب سينجح ، وان موقف العمال العرب ليس مهما ، فهم لا يهتمون بغير لقمة العيش ، والمعارضة تأتي فقط من البكوات .

دعت الهستدروت الى اجتماع خاص لبحث الموضوع ، ووجهت دعـــوة الى الجمعية لارسال وفد عنها لحضوره ، وفهمنا فيما بعد ان هذه الدعوة وجهت بضغط من العمال اليهود ، الذي شكوا بأقوال زعمائهم ، وارادوا ان يفهموا الحقيقة ، واضطرت قيادة الهستدروت أن تلبي طلبهم . تشكل الوفد بموافقة جمعية العمال (معارضة من أعضاء الندوة الآخرين) . اجتمعت مع المرحوم سامي طه ووافق على ذهابنا . في قاعة المؤتمر اخبرونا ان كل خطيب سيتحدث بلغته ثم يجري القاء ترجمة لها . تحدث أحد العمال اليهود بالعبرية وفهمنا كلامه تماما ، وحين ترجمت كلمتـــه للعربية كانت الترجمـــة مغايرة تماما لما قال . ولذلك حين اعطيت الكلمة لنا صعد مندوبنا الى المنصة ، وبدأ يتكلم بالعبرية . قاطعوه وطلبوا منه ان يتكلم بالعربية فرفض قائلا انكم تقدمون ترجمة خاطئة ، ولا تريدون لعمالكم أن يفهموا الحقيقة ، ولكنهم أصروا على الرفض ، فحدث لغط شديد فيما بينهم داخل القاعة تطور الى مشادة جرح فيها حوالي ١٥ عاملا يهوديا ، وانسحبنا على اثر ذلك من الاجتماع . وبعد هذا الحادث طلبوا رسميا من الجمعية ان يكون هناك تعاون مشترك بين المنظمات العماليـــة اليهودية والعربية لحل مشاكـــل العمال ، واضطروا لاول مرة أن يزوروا مقر الجمعية للاجتماع بنا . وكان هذا تحطيما لغرورهم .

س : هل كان لكم في تلك الفترة نشاط سياسي ؟

ج : الحقيقة ... اننا لم نكن في ذلك الوقت نقوم بأي نشاط سياسي ، ولكن عملنا بحد ذاته كان عملا سياسيا أكثر من عمل السياسيين . وقد نجحنا فيه الى حد ان اجبرنا القيادة العامة للجيش البريطاني في عام ١٩٤٧ ان تستدعينا للاجتماع مع القائد العام للجيوش البريطانية في فلسطين . واذكر من أعضاء الوفد في ذلك الوقت جمال عقاد ، وشفيق دلال وانا ، ولا اذكر بقية الاسماء ، وحضر الاجتماع أيضا وفد مـــن العمال اليهود . وقد طلبوا منا أن يكون الحديث باللغة الانجليزية وبدون ترجمة ، بينما سمحوا للوفد اليهودي أن يتحدث بالعبرية مع الترجمة . وقد اعترضنا على ذلك وطلبنا أن يكون حديثنا باللغة العربية ، وحين رفضوا طلبنا انسحبنا من الاجتماع ، ولم نكد نخرج من باب القاعة حتى استدعونا من جديد ووافقوا على ما طلبناه .

س : ماذا كان الهدف من هذا الاجتماع ؟

ج : بحث المشاكل العمالية : الاجور ـــ التعويض ـــ التثبيت . وقد اضطروا لدعوتنا بسبب قوة تنظيمنا ، اذ بدأت نظرتهم لنا تتغير بعد أن كانوا يعتقدون ان التنظيم والاتحاد بين العرب أمر مستحيل .

س : كيف كانت علاقتكم مع الاحزاب السياسية القائمة آنذاك ؟

ج : لم نكن ننتمي لاي حزب ، ولم نكن نأخذ راي اي حزب .

س : اثناء الاضرابات العمالية هل كانت الاحزاب تؤيد اضراباتكم ومطالبكم ؟

ج : هنا من الضروري أن أوضح اننا كنا على خلاف مع الاحزاب في موضوع الاضرابات. كانوا يطلبون الاضراب لسبب من الاسباب ، ويسعون لتنفيذه بشكل مرتجل فكنا نعارض الاضرابات المرتجلة . في احدى المرات دعت الاحزاب الى اضراب يستمر ٦ ايام ، فعارضنا نحن الفكرة ، واقترحنا عليهم ان يضرب العمال بصورة رمزية مدة نصف ساعة فقط ، على أن ناخذ من كل عامل أجر نصف يوم ، وقد نفذ الاضراب حسب اقتراحنا بالرغم من معارضتهم ، ولم يشمل العمال فقط ، بل شمل اصحاب المحلات ايضا ، وقدمنا على اثره مبلغا كبيرا من المال للهيئة العربية العليا .

س : هل عقدت مؤتمرات اخرى لعمال المعسكرات بعد المؤتمر الاول الذي اشرت اليه ؟

ج : عقد مؤتمر آخر لعمال المعسكرات ، بعد انعقاد المؤتمر الاخير للجمعية في عام ١٩٤٧ . ولكن لا أذكر تاريخه بالضبط ، ولا اذكر شيئا من مقرراته . وانتخبني الاعضاء مستشارا دائما للمؤتمر ، ولم يكن الاخ سامي طه مرتاحا لذلك ، وكان يفضل أن أبقى امين سر اللجنة القطرية . وبعد عام ١٩٤٨ ، بعثت من بيروت برسائل الى الحكومة البريطانية ، حول تعويضات مستحقة لبعض عمال المعسكرات ، وتلقيت اجابات عليها، ثم توقفت عن متابعة هذا الموضوع*.

س : هل كانت لكم علاقة مع « جمعية العمال العرب » في يافا التي اسسها ميشيل متري ؟

ج : عندما عقد مؤتمرنا في يافا عام ١٩٤٣ كان لعمال المعسكرات فقط ، ولهذا السبب لم تدع هذه الجمعية لحضوره . اما ميشيل متري فقد كان قبل اغتياله على صلة وثيقة بالجمعية الرئيسية في حيفا ، ولكن جمعيته انتهت بعد اغتياله .

س : وجورج منصور ... ألم يستطع احياءها بعده ؟

ج : لم يستطع أن يحييها ، مع انه كانت لديه روح عمالية عالية . كان يعيش في مصر وعندما عاد منها أراد أن يطبق النظام الاشتراكي بنفسه ، ففتح بالمال القليل الذي يملكه مصنعا للاحذية ، طبق فيه على العمال النظم الاشتراكية التي كان يؤمن بها . وانتهى به الامر الى الافلاس .

٢ ـــ حديث السيد فؤاد شما :

س : ما هي الفترة التي ترغب بالحديث عنها ؟

ج : أنا سأتحدث عن فترة ١٩٤١ ، لانني في ذلك العام التحقت بالعمل في ورش معسكرات الجيش البريطاني كعامل خياطة . كان التنظيم العمالي في ذلك الوقت ناشطا ، وجمعية العمال العربية الفلسطينية تضم عدة نقابات ، ولها ايضا عدة فروع . فسكة الحديد ، ومعامل الدخان ، والبلديات ، كان عمالها جميعا منتسبين للجمعية . وبدءا من عام ١٩٤٠ ، وهو العام الذي اقيمت فيه ورش المعسكرات في الجيش ، اصبح عمال المعسكرات ايضا جزءا من الجمعية . وقد اتسع نطاق هذه المعسكرات بسبب ضخامة المجهود الحربي في ذلك الوقت ، وكانت تجمعاتها الرئيسية حول مدن غزة وعكا وحيفا التي كانت تضم أكبر عدد من المعسكرات .

* أضيفت بعد لقاء شخصي في بيروت يوم ١٣/١٠/١٩٧١ .

س : أين كان مركز عملك بالضبط ؟

ج : انا التحقت بالعمل في معسكر « كيشون » عند مدخل حيفا ، وكانت الورشة تضم نجارين وخياطين وكندرجية وسروجية ، ومع تطور العمل نقل قسم الخياطة الخاص بنا الى معسكر يقع بعد مصفاة النفط (الريفاينري) ، ثم نقلونا الى معسكر خاص للالبسة (خياطة — تصليح — رتي كنزات ... الخ) ، وهذا المعسكر كان يضم ۱۲۰۰ عامل وعاملة من العرب واليهود .

س : كيف بدأت تجربتكم بالتنظيم النقابي داخل المعسكرات ؟

ج : في الفترة التي أتحدث عنها ، تكاثر العمال العرب بشكل كبير داخل المعسكرات . وكانت الهستدروت ناشطة بشكل واضح ، وهدفها السيطرة على التنظيم العمالي في المعسكرات . وردا على هذه المحاولات بدأت الجمعية تتصل بالعمال العرب لبحث الوضع معهم . وأذكر ان المرحوم سامي طه اتصل بمعسكرنا وطلب أن نرسل شخصين او ثلاثة لمقابلته في مقر الجمعية ، وقد ذهبت انا وشخص آخر اسمه يعقوب الارمني لمقابلته ، وحدثنا عن نمو عمال المعسكرات ، وافتقادهم للتنظيم ، وادعاء الهستدروت المتواصل انها تمثل كل عمال المعسكرات . ثم قال ان جمعية العمال منظمة ، ولها فروع في كل مكان ، ولها نشاطات عديدة توسع في شرحها ، ثم طلب منا ان نعمل لتنظيم عمال المعسكرات وضمهم الى الجمعية . وكانت الجمعية قد أجرت في الوقت نفسه اتصالات ببقية المعسكرات القريبة من حيفا ، وطلبت من بقية الفروع ان تجري اتصالات مماثلة في مناطقها . وعلى اثر هذه الاتصالات ، امضينا فترة شهر تقريبا نبشر بالفكرة بين عمال المعسكرات حيث طلب منا بعد ذلك ان نجري انتخابات في كل معسكر ، لاختيار مندوبين الى المؤتمر الذي قررت الجمعية عقده لعمال المعسكرات . وقد اجرينا الانتخابات بشكل حر ، وكان كل مندوب يحمل تفويضا رسميا موقعا يخوله الحديث باسم عمال المعسكر الذي ينتمي اليه .

عقد المؤتمر في يافا عام ۱۹٤۲ كما ذكر الاخ نصري الحلو ، وكان يمثل نحو ۸۰ — ۸٥ بالمائة من عمال المعسكرات في فلسطين ، ولم يستثن من حضوره الا المعسكرات البعيدة التي لم يكن الاتصال بها ممكنا (جنوب رفح مثلا) . وكان المؤتمر ناجحا مئة بالمئة ، ومن قراراته التي اذكرها : ۱ — لا يحق لاي هيئة عمالية ان تنطق باسم العمال العرب الفلسطينيين غير جمعية العمال العربية الفلسطينية . ۲ — المساواة بالاجور بين العامل العربي والعامل اليهودي . ۳ — طلب مقابلة مع المندوب السامي البريطاني لشرح القرارات له والبحث في كيفية تنفيذها . ٤ — انشاء تنظيم قوي لجمعية العمال العربية الفلسطينية في أوساط عمال المعسكرات وقرارات أخرى لا اذكرها ، صدرت كلها في كراس رسمي .

وبعد انتهاء المؤتمر بدأنا في تنفيذ القرارات التنظيمية ، فأجرينا انتخابات داخل كل معسكر لانتخاب لجنة محلية ، ثم اجتمعت اللجان المحلية وانتخبت لجنة تنفيذية اسمها « اللجنة التنفيذية لعمال المعسكرات » ، وكانت تضم على ما اذكر ۹ اشخاص منهم : نصري الحلو — نديم موسى — وليد سلطان — عبد الرحمن صالح — فؤاد شما ، واجرت اللجنة التنفيذية انتخابات مكتب لها ، وانتخبت امين سر للجنة التنفيذية* . عندما اكتمل تنظيمنا واكتسب صفته الشرعية شكلنا وفدنا لمقابلة المندوب السامي برئاسة المرحوم سامي طه وعضوية كل من خليل شنير وفؤاد شما . وقد ذهبنا ثلاثتنا

---

* يلاحظ التعارض في ذكر بعض الوقائع بين الاخ لفؤاد شما والاخ نصري الحلو فيما يتعلق بالهيكل التنظيمي ، وبامانة سر اللجنة التنفيذية .

الى القدس بناء على موعد رسمي . ولكن قبل حلول الموعد بيوم او يومين ابلغنا باعتذار المندوب السامي عن حضور الاجتماع بسبب مرض او سفر مفاجيء (لا اذكر) وانه فوض السكرتير العام لحكومة فلسطين ان يجتمع معنا . وقد تم الاجتماع في عمارة الملك داوود في القدس ، وكان يضم مفتشي دوائر العمل في فلسطين وكلهم من البريطانيين ، واثنين أو ثلاثة من المترجمين العرب . وقد عرضنا عليهم مقررات المؤتمر ، وطلبنا ايضا ترخيصا باصدار صحيفة كانت الجمعية قد طلبت ترخيصها من قبل .

عندما عرضنا موضوع مستوى الاجور العام ، وموضوع المساواة في الاجور بين العامل العربي والعامل اليهودي ، قالوا ان السبب يعود الى ان العامل اليهودي يعيش في مستوى افضل من العامل العربي (مع اعترافهم بأن العامل العربي ينتج اكثر) . وطبعا حصل نقاش طويل حول هذه النقطه ، احتد على اثره السكرتير العام للحكومة وبدأ يقول : انتم لا تهتمون لغير المادة . انكم تنسون أن جيوشنا تحارب وتحميكم من النازية وتنسون ان شبابنا يموتون للدفاع عنكم ؛ وتنسون ان كل مواردنا تستهلك في الحرب من اجل ذلك . وقد طلبت الاذن بالكلام للرد على هذا الحديث وقلت : اذا كنتم تحاربون بالنيابة عنا فنحن ليس لنا مصلحة في هذه الحرب ، لانها حرب بين مبدأين متصارعين هما النازية والحلفاء ، وانتم الذين فرضتم علينا أن نوجد داخل هذا الصراع ، وكانت النتيجة اننا اكتوينا بنار الحرب وما ولدته من خراب ودمار وغلاء معيشة . وهنا تدخل احد المترجمين مشيرا لي بيده انني تجاوزت الحدود في هذا الكلام ، فقلت له انت مترجم ومهمتك الترجمة بدون تعليق .

ركزنا في الاجتماع على موضوع الاعتراف ، وكان هذا اكثـــر طلب نهتم بـــه ، لان الهستدروت كانت تدعي آنذاك انها تمثل العمال العرب . وخرجنا من الاجتماع بوعد بالنظر في طلباتنا وفي قرارات مؤتمرنا .

س : ماذا كان رد الفعل الاسرائيلي على مؤتمركم وقراراته ؟

ج : على ضوء قرارات المؤتمر ، وعلى ضوء النشاط التنظيمي الواضح الذي اسفر عنه ، ساد في اوساط الهستدروت شعور بأن ما بنوه في سنين تهدم في فترة قصيرة . وقد تحدث الاخ نصري عن هذه القضية ، ومن المفيد أن أعرض ما اتذكره انا ايضا حول الموضوع نفسه لاننا عاصرناه معا . كان هدف الهستدروت الاساسي ضرب تنظيمنا داخل المعسكرات . وكان موضوع الاضراب هو المدخل ، فدعوا الى عقد مؤتمر في تل ابيب ، وقاموا بنشاط واسع لانجاحه ، ولاشراك ممثلين عن العمال العرب به ، بحجة — كما قال الاخ نصري — ان المؤتمر سيبحث في القضايا النقابية فقط . وازيد على ما قاله الاخ نصري ، انهم لجأوا الى أسلوب الاغـــراء الرخيص لاقناع بعض العمـــال بالحضور ، فكانوا يقولون انكم لن تخسروا شيئا ، فاجرة يوم المؤتمر ستدفع ، واجرة الطريق ستدفع ، وأيام الاضراب ستدفع ، وكذلك يمكن قضاء وقت طيب في تل ابيب مع الاصدقاء والصديقات . وقد كان ردنا على هذه الاغراءات قاسيا في أكثر من مناسبة . وحين عقد المؤتمر المذكور ، بعد مؤتمرنا في يافا بشهر او بثلاثة أسابيع ، اتخذوا قرارا بالاضراب ، وعينوا يوما محددا له ، وكانت المطالب المعلنة تتناول مستوى الاجور وغلاء المعيشة . . . الخ ، وبدأوا بعد المؤتمر بنشاط واسع لانجاح الاضراب .

قال الاخ نصري انهم وجهوا دعوات للجمعية لحضور الاجتماع في تل ابيب . ولكن مـــا اذكره أن الدعوات كانت شخصية وليس باسم الجمعية ، وقد ابلغوني شخصيا بالدعوة في مكان عملي . وحسب عادتنا التقينا مساء ذلك اليوم ، نحن أعضاء اللجنة التنفيذية لعمال المعسكرات ، في مقر الجمعية بحيفا . كنا كما اذكر يومها خمسة اشخاص : عبد الرحمن صالح ، نديم موسى ، وليد سلطـــان ، نصري الحلو وانا . كـــان سامي طه

مسافرا ، فاستشرنا الاخ عبد الحميد حيمور بشأن تلبية الدعوة أو رفضها ، فقال انتم اعضاء اللجنة التنفيذية ، وهذا من اختصاصكم ، فتصرفوا على ضوء مصلحتكم . وبعد المشاورة قررنا حضور الاجتماع بصفتنا الشخصية .

كان يرأس الاجتماع في تل ابيب ، بن غوريون وابا حوشي . افتتح بن غوريون الاجتماع . قال ان الهدف منه تنفيذ اضراب يتعلق بالعامل العربي والعامل اليهودي ، وليس له دخل بالسياسة . طلبت انا الكلام وقلت : نحن لنا تنظيم عمالي عربي ، وهو الذي يمثلنا ، ولذلك نرفض ان يتخذ الهستدروت قرارا ويفرض علينا تنفيذه . ان الهدف من ذلك تحطيم تنظيمنا العمالي العربي ، والاثبات للحكومة البريطانية المنتدبة ان الهستدروت هو الذي يمثل العمال العرب ، وبناء على ذلك لا يمكن ان نوافق على الاضراب . ثم أخذت أتلو عليهم قرارات مؤتمرنا في يافا .

حاول رئيس الاجتماع ايقافي عن الكلام فرفضت ، ودار جدل في القاعة بين مؤيدين ومعارضين . وعندما انتهيت ، ترجم كلامي الى اللغة العبرية ، ولكني لاحظت ان الترجمة كانت موجزة جدا ، فطلب زميل اخر لنا الحديث ، وفي نيته ان يتكلم بالعبرية ردا على ايجاز المترجم ، ولكنهم رفضوا السماح له بالكلام ، وحصلت المشادة التي تكلم عنها الاخ نصري . خرجنا من الاجتماع ، وعلمنا فيما بعد انهم قرروا الاستمرار في الدعوة للاضراب ، وتأجيل موعد التنفيذ لمدة أسبوع . وبالمقابل تابعنا نحن اجراءاتنا لافشاله* .

س : ماذا كان موقف الادارة البريطانية من هذا الاضراب ؟

ج : لقد كان واضحا لنا منذ البداية ان التهيئة للاضراب من قبل الهستدروت تتم برضى الضباط البريطانيين المسؤولين عن المعسكرات وبالتعاون معهم . وكان مندوبو الهستدروت يعقدون اجتماعات مع هؤلاء المسؤولين ، ويعقدون اجتماعات مع العمال بالاتفاق مع الادارة . وهنا من المفيد ذكر واقعة حدثت معي شخصيا . فقبل الاضراب بيومين جاء الضابط المسؤول وهو بريطاني برتبة كابتن يرافقه بن غوريون و ٣ أو ٤ اشخاص من موظفي الهستدروت ، ونحو ١٠ من اليهود ، ورئاسة المعسكر باكملها . اوقف الضابط العمل وبقي حوالي نصف ساعة يخطب بالعمال ، ويوجه لي التهم والاهانات ، وقال في حديثه انني أبث دعاية عنصرية بين العمال ، وانني اعطل الانتاج ، والهستدروت تنظيم قديم وهو أساس العمل النقابي ، وجمعيتكم جديدة وضعيفة . وخاطب العمال قائلا : غدا (اي يوم الاضراب) ستكون لديكم عطلة رسمية ، وبالامس عملتم ساعتين اضافيتين واليوم ستعملون ساعتين ايضا ، وسيكون ذلك بديلا عن اجر يوم الاضراب ، وما ينقص عن الاجر المعتاد سأسجله لكم على حسابي الخاص ، وآمل ان اذهب غدا الى العزيزية (منتزه مشهور) والقاكم جميعا هناك ، عربا ويهودا . اما الدعاية العنصرية التي ينشرها هذا (ويشير الي) وجمعيته ، فلا تستمعوا اليها . يجب ان تكونوا جميعا اصدقاء وتستمتعوا بعطلتكم .

كنت متضايقا جدا من هذا الحديث ، وخاصة ما يتعلق منه بالاتهامات التي وجهها للجمعية ، فلما انتهى من حديثه طلبت الاذن بالكلام وقلت له ان كل معلوماتك عن الجمعية معلومات خاطئة ، فجمعيتنا ليست جديدة ، وهي مؤسسة منذ عام ١٩٢٥ ، قاطعني بحدة وقال : ارني عاملا واحدا نظم في الجمعية منذ اكثر من عام . وقد كان محقا في ذلك لان تنظيمنا كله كان حديثا ، ولكن الانقاذ جاء من احد العمال الذين كانوا

* يلاحظ التعارض في تحديد موعد هذا الاجتماع ، قبل الاضراب او بعده ، بين حديثي الاخ نصري الحلو ، وفؤاد شما ، كذلك التعارض في لغة الحديث .

يعملون في سكة الحديد ، ويدعى محمد فايز . اذ وقف وقال انا منظم في جمعية العمال منذ ٥ سنوات ، ولم يكن من الضابط البريطاني الا ان رفسه بقدمه وخرج . عند خروجه استدعيت احد عمالنا ، وهو مصري يدعى الريس محمد ، واستحصلت له على تقرير طبي ، وكتبت رسالـــة طلبت منه أن يذهب ويسلمهـــا لسامي طه ، واخبرته في هذه الرسالة بكل ما حصل ، وكيف ان الضباط البريطانيين يريدون ان يفرضوا علينا الاضراب فرضا . ويظهر ان المرحوم سامي اتصل بالجهات المختصة ، اذ جاءنا عند العصر موظف من الادارة ليخبرنا ان يوم غد هو يوم عمل ، وبعد فترة قصيرة عاد الضابط البريطاني نفسه ليسألني عن الشخص الذي اتصل بي والحديث الـــذي دار بيننا . فاخبرته انني سألته عما يجري في ورشتهم فقط ، ونقل لي انك طلبت منهم التوقف عن العمل غـــدا . فصمت ، ثم خاطب العمال قائلا : غدا سوف يكـــون يوم عمل . وتفسيري لذلـــك ان البريطانيين كان يهمهم نجاح الاضراب ليساعدوا الهستدروت في فرض سيطرته ، ولكن حين تنكشف الامور ، وتصل الى المسؤولين الكبار ، لم يكن من مصلحتهم اخذ موقـــف علني يكشف سياستهم ، ولذلك اصدروا اوامـــر معاكسة بعد ان اتصل سامي طـــه بالمسؤولين وعرض عليهم المعلومات التي ارسلتها له .

س : هل مارست مهمات اخرى في الجمعية ؟

ج : انا تركت العمل في المعسكرات قبل ان ينتهي وجودها في عام ١٩٤٧ . ويعود سبب تركي الى ان الجمعية اسست تعاونية لعمال الخياطة كان اسمهـــا « جمعية الرخـــاء التعاونية » ، وفتحت التعاونية مشغلين للخياطة ، مشغلا للنساء ومشغلا للرجـــال . المشغل النسائي لم ينجح واقفل ، وبقي المشغل الرجالي ، وكان يضم ٢٥ شخصا من الخياطين والمساهمين وقد كلفتني الجمعية ان ادير هذا المشغل بعد حوالي ثلاثة اشهر من تأسيسه بسبب استقالة المسؤول عنه ، وانقطعت بذلك صلتي بعمال المعسكرات ، وتابعت نشاطي من خلال الجمعية التعاونية ، واصبحت ممثلا لها في مجلس النقابات .

٣ ــ حديث السيد ابراهيم عليان :

س : متى التحقت بالعمل النقابي ؟

ج : مارست العمل النقابي بدءا من عام ١٩٤٤ من خلال نقابة عمال السكة الحديد في حيفا ، ولم يتم الالتحاق بمبادرة مني ، بل كان الفضل للجمعية في الاتصال بالفرع الذي كنا نعمل فيه ، وسكة الحديد كانت تضم ١٠ آلاف موظف وعامل ، وهي ذات اقسام عديدة ، اهمها قسم الورشة الذي كان يضم ٣ الاف مهني ، والواقع ان الورشة هي ام جمعية العمال العربية الفلسطينية ، اذ كانت مركز التنظيم الفعلي ، وكان يعمل بهـــا ابرز اعضاء الجمعية ، عبد الحميد حيمور وسعيد القواص وعيد حيمور وعلي نصار . اما الاقسام الاخرى ، قسم الهندسة ، قسم الجرد ، قسم الحركة ، فقد كان التنظيـــم فيها شبه محدود ، لان نقابة سكة الحديـــد كانت مقتصرة فقط عـــلى عمال الورشة ، وخاصة في الاعوام ٤٢ او ٤٣ وحتى ٤٤ .

في عام ١٩٤٤ قامت الجمعية بالاتصال بقسم الجرد ، وهو القسم الذي يضم السواقين ، وطلبوا منا ان ننضم للنقابة ، وان ننتخب لجنـــة تمثلنا . وقد استجبنـــا للطلب وقمنا بانتخاب لجنة محلية (انتخابـــات الخط العريض ، والخط الضيق ، والخط الحجازي) وابلغنا الجمعية نتائج الانتخابات ، التي اختير منها ٤ او ٥ اشخاص ، كانوا كلهم شبابا صغارا في السن . وفي الواقـــع كان هنـــاك ممثلون معتمدون لـــدى الجمعية كممثلين للسواقين في قسم الجرد ، ولكنهم لـــم يمارسوا اي نشاط منـــذ انتخابهم . وارادت الجمعية من وراء الانتخابات الجديدة ان تطعم القسم بدم جديد . وقـــد قامت الجمعية بمحاولات مماثلة في الاقسام الاخرى : قسم الحركة ــ قسم الهندسة ، واذكر انـــه تم

انتخاب زهير صالح وشقيقه وجماعة من الموظفين في قسم الحركة ، وبذلك اصبحت معظم الاقسام في سكة الحديد بحيفا ممثلة داخل النقابة في عام ١٩٤٤ . وكان للسواقين داخل هذه النقابة اهمية خاصة ، اذ ان اي حركة اضرابية لا يشارك فيها السواقون تكون مهددة بالفشل . وقد انتخبت كممثل للسواقين في الهيئة الادارية لنقابة سكة الحديد ، واستلمت في الهيئة الادارية منصب السكرتير الثاني ، وكان السكرتير الاول الحاج حسين نصار . وكان اختيار اثنين لمنصب السكرتارية يعود الى كبر حجم النقابة.

س : ما هي ابرز الاحداث التي عاصرتها ؟

ج : ابرز الاحداث التي عاصرتها الاضراب الذي دعت له الجمعية عام ١٩٤٦ ، وهو الاضراب الذي بدأ في ١٠ نيسان ١٩٤٦ وانتهى في ٢٠ نيسان ، واستطاعت الجمعية في هذا الاضراب ان تحقق معظم مطالبها مما ادى الى ترسيخ مكانة الجمعية واتساع نطاق المؤيدين والتفاف قطاعات واسعة من العمال حولها ، وبدأت الاوساط الجماهيرية كافة تشعر بوزن الجمعية وثقلها . وعلى اثر هذا الاضراب عقدت الجمعية مؤتمرها في ٢٨ آب ١٩٤٦ ونجح نجاحا كاملا ثم تلاه مؤتمر عام ١٩٤٧ .

س : هل اقتصر نشاط الجمعية على القطاع العمالي ؟

ج : لقد حاولت الجمعية بدأب ان لا يقتصر نشاطها على القطاع العمالي ، وعملت كثيرا من اجل مد تنظيمها الى اوساط الفلاحين والمزارعين ، وكانت تنفذ ذلك من خلال فروع الجمعية في كل منطقة . وكان اسلوبها في تنظيم الفلاحين يعتمد على انشاء جمعيات تعاونية ، هدفها تحسين احوالهم المعيشية ، ونيل الحقوق التي يطالبون بها . وقد كان للجمعية اهتمام خاص بالثروات الفلسطينية ، وانطلاقا من ذلك ، وانطلاقا من اهتمامها بقضايا الفلاحين ، دعت الى عقد مؤتمر لمزارعي الدخان . ويعود اختيار هذا القطاع الزراعي الى اوضاع اصحابه السيئة بسبب تسلط الشركات عليهم ، وفرض الاسعار التي يريدونها عند الشراء . فقد كان مزارع التبغ الفلسطيني يضطر — بسبب افتقاد مراكز تجميع الدخان الصحية — الى وضع الدخان في بيته ، ومن المعروف ان الدخان المخزون يسبب مرض السل . اما عند البيع فقد كان الفلاح يبيع دخانه بارخص الاسعار ، اذ كانت شركات الدخان تتفق مع رجال الجمرك ، ليزوروا القرى ويقوموا بتصنيف انواع الدخان حسب امزجتهم ، فارضين على الفلاح ان قسما كبيرا من انتاجه من الصنف السيء . فيضطر الفلاح الى بيعه حسب تصنيف رجال الجمرك له . كما كان رجال الجمرك يقومون بالاتفاق مع الشركات بتصنيف جزء من انتاج الدخان على انه غير صالح ولا بد من حرقه ، ثم تستولي عليه الشركات نفسها وتقوم بتصنيعه . وقد كان هناك اتفاق بين الشركات على انه لا يجوز السماح لاي فلاح غير راض عن السعر المدفوع له ، بنقل انتاجه من شركة الى اخرى . الا اذا رفضت الشركة الاولى الشراء منه . وكان هذا يعني عمليا انه مضطر للبيع لاول شركة يتصل بها وبالسعر الذي تفرضه .

لمعالجة كل هذا الوضع عقد اول مؤتمر لمزارعي الدخان في نيسان ١٩٤٧ في مدينة عكا ، وقد خرج المؤتمر بقرارات هامة استهدفت المحافظة على هذه الثروة الوطنية وتخليص اصحابها من سيطرة احتكار الشركات . ومن ابرز القرارات التي اتخذها : ١ — ايجاد مراكز صحية لتجميع الدخان . ٢ — انشاء جمعيات تعاونية لبيع الدخان . ٣ — مقاطعة الدخان الاجنبي .

س : ماذا نفذ من هذه القرارات ؟

ج : يجب ان نلاحظ ان المؤتمر عقد في شهر ٤ بينما كان قرار التقسيم في شهر ١١ من العام نفسه . لذلك لم يكن هناك مجال واسع للتنفيذ العملي . ومع ذلك فقد تم انشاء

بعض المستودعات الحديثة لحفظ الدخان في منطقة الجليل ، ومنع بيع الدخان للشركات الا عن طريق الجمعيات التعاونية في كل منطقة انشئت بها ، وادى ذلك الى فرض بيعه بالسعر المناسب ، بدلا من تراكم الديون على المزارعين لصالح بنك الزراعة في عكا .

س : كيف انتقلت من نقابة سكة الحديد الى ميدان مزارعي التبغ ؟

ج : في مؤتمر ١٩٤٦ انتخبت عضوا في لجنة الفروع ، وكلفت اثناء ذلك بالقيام بجولة في شمال فلسطين شملت الياجور ، جبل الشيخ ، جبل العرب ، عكا ، ترشيحا ، سحماتا ، الزيب ، البصة ، الطيرة . وكان هدف الزيارة تفقد فروع الجمعية في هذه المناطق ، وتنظيم اوضاعها الادارية ، ومحاضرها ، وايصالاتها الرسمية ، تحسبا لاي تفتيش حكومي ، يفتش سلفا عن حجة لالغاء ترخيص الجمعية . وبالاضافة الى ذلك كانت مهمتي تشمل تقديم تقرير عن الاوضاع العامة في المناطق التي زرتها . وقد اعددت تقريراً من ٤٠ صفحة يتحدث عن (السكان ـ الطوائف ـ النزاعات ـ مصادر مياه الشرب ـ عدد المدارس ـ ادارة القرية : مختار ، مجلس محلي ، بلدية ـ نوع الزراعة والتجارة . . . الخ) . وللاسف لا توجد لدي نسخة عن هذا التقرير ، والنسخة الوحيدة منه بقيت في مقر الجمعية بحيفا .

س : ماذا كان موقف الجمعية من اضراب عام ١٩٣٦ ؟

ج : سمعت من الاخ سامي طه شخصيا ان الجمعية لم تكن موافقة على الاضراب ، وان نتائج الاضراب كانت ضد مصالح العمال ، ففي مرفأ حيفا كان ٩٠٪ من عمال المرفأ من العرب ، وحين عادوا للعمل بعد انتهاء الاضراب وجدوا جميع المراكز في يد الشركات اليهودية . وفي شركة نيشر للاسمنت كان يوجد ٣٠٠ عامل عربي استبدلوا اثناء الاضراب بعمال يهود ، وادى تعطل العمل في ميناء يافا الى ازدهار ميناء تل ابيب . وهكذا يكون الاضراب قد ادى الى اضعاف الحركة العمالية العربية ، وتقوية الهستدروت ، اذا نظرنا الى الامور من هذه الزاوية فقط .

٤ ـ حديث السيد عبد الله قنديل :

س : متى انتسبت الى الحركة النقابية ؟

ج : في عام ١٩٤٦ ، بعد حوالي شهرين من نسف جسر الحديد القائم بين سمخ والحمة من قبل القوات الصهيونية . وكان ذلك عندما قررت حكومة الانتداب تصليح الجسر المنسوف ، ورسى تعهد التصليح على شركة « سوليل بونيه » الصهيونية بمبلغ ربع مليون جنيه على ما اذكر . وبدأت الشركة تنفيذ المشروع ، واستخدمت عدداً كبيراً من العمال ، كان ثلاثة ارباعهم من اليهود ، والربع الباقي من العرب . ونشأ خلاف بين العمال والشركة عندما عرفوا ان هناك تمييزاً كبيراً في الاجور بين العامل العربي والعامل اليهودي ، وطالبوا بتعديل هذا الوضع . وفي ظل هذا الخلاف نشأت لدى بعض العمال فكرة تشكيل نقابة للدفاع عن مصالحهم . واجرت هذه المجموعة من العمال اتصالا معي ، وعرضوا علي الفكرة ، فوافقت عليها ، وكلفوني بالاتصال بالمرحوم سامي طه في الجمعية بحيفا لبحث الموضوع معه ، اجريت هذا الاتصال فوافق وارسل لنا حسني الخفش وفخر حجازي للاشراف على اجراء انتخابات وتشكيل نقابة . وقد جرت الانتخابات وتألفت لجنة محلية كنت انا أمين صندوقها . وعلى اثر ذلك دخلنا في مفاوضات مع الشركة المذكورة تم على اثرها تعديل أجور العمال العرب .

س : هل اشتركت في مؤتمرات الجمعية ؟

ج : اشتركت في مؤتمر ١٩٤٧ ، وخرج عن هذا المؤتمر تقرير على غرار مؤتمر اب ١٩٤٦ . ولكن هذا التقرير طبع على الستانسل ، ولم تمكنا الظروف من طبعه على

شكل كتيب ، كما حدث مع قرارات مؤتمر ١٩٤٦ . ولا توجد لدي نسخة عن هذا التقرير وان كنت اعتقد ان بعض الزملاء لديهم نسخ منه .

٥ ــ حديث السيد حسني صالح الخفش :

س : نريد في البداية لمحة سريعة عن تطور علاقتك مع جمعية العمال العربية الفلسطينية ؟

ج : انتسابي لجمعية العمال العربية الفلسطينية كان عام ١٩٤٠ . كنت آنذاك عاملا في دائرة الاشغال العامة بمدينة نابلس ، والفنا في الدائرة « نقابة عمال الاشغال العامة » وكنت سكرتير هذه النقابة . انتخبت بعد ذلك في الهيئة الادارية للجمعية في نابلس كأمين للسر . ومن ثم تطور عملي النقابي ، فاصبحت عضوا في المجلس الاعلى للجمعية ، وعضوا في المؤتمر الاول والثاني ، وانتخبت مع الاخ ابراهيم عليان لنكون اعضاء في لجنة الفروع ، وسلم لنا ١٤ فرعا من اصل ٦٥ فرعا ليكون تحت اشرافنا ، وكانت واجباتنا في هذه اللجنة : الاشراف على عمل الفروع ودراسة مشاكلها ، واقتراح الحلول لها . وفي عام ١٩٤٧ كنت عضو اللجنة التنفيذية في الجمعية ، وبعد مقتل سامي طه عقد مؤتمر في نابلس انتخبت فيه كأمين عام للحركة العمالية بالوكالة .

س : هناك غموض في المعلومات حول مرحلة تاسيس الجمعية ، فهل يمكن المساهمة من قبلك في القاء بعض الاضواء على هذه النقطة ؟

ج : الذي اسس في البداية هو نادي سكة الحديد وتم بعد ذلك الحصول على رخصة تأسيس « جمعية » في ٢١ اذار ١٩٣٥ بعد سنة ونصف السنة من تاريخ تقديم الطلب ، وفقا لقانون الجمعيات العثماني ، لانه لم يكن يوجد اي قانون يسمح بتنظيم النقابات ، فتسترا وراء القانون لجا الاخوة رواد الحركة النقابية ، اي عبد الحميد حيمور وزملاؤه، الى هذا الاسلوب ليتمكنوا من خلاله من تنظيم العمال . فالتنظيم لم يكن من الناحية القانونية تنظيما نقابيا ، ولكن تمكنوا من تجاوزه ، فتقدم ٧ او ١١ بطلب لانشاء جمعية للعمال ، وليس لانشاء نقابة ، ثم اخذوا صفة النقابة بالاسم فقط . وانا اقسم تاريخ الجمعية الى خمس مراحل :

ــ المرحلة الاولى هي مرحلة التأسيس منذ عام ١٩٢٥ وحتى عام ١٩٣٣ ، واتخذت هذه المرحلة طابع التوعية ، وتعليم الاميين منهم ، والدخول في عدة صراعات محلية بسيطة شملت عدة اضرابات .

ــ المرحلة الثانية منذ عام ١٩٣٣ وحتى ١٩٣٩ . واحدد هذه المرحلة مع بداية دخول سامي طه الى الجمعية ، فقد كان صاحب قوة فكرية ونشاط خاص ، اغنى حركة النضال لعمال فلسطين . وكان له اثر كبير في تبنيه النقابيين وتخطيط النضال من اجل الطبقة العاملة الفلسطينية . ولذلك اعتبر انتساب سامي طه الى جمعية العمال بداية مرحلة جديدة ، وقد كانت فعلا مرحلة جديدة .

ــ المرحلة الثالثة تمتد منذ عام ١٩٣٩ وحتى ١٩٤٥ ، وهي مرحلة انطلاق الحركة النقابية واتساع نطاقها . ويعود هذا الانطلاق لعدة اسباب سياسية واقتصادية لان الحركة النقابية لا يمكن فصلها عن النضال السياسي للشعب الفلسطيني ، فكانت الحركة العمالية تتاثر سلبا او ايجابا ، ضعفا او قوة ، بالمد الوطني والقومي . فالاضراب الشامل الذي اعلن عام ١٩٣٦ اثر كثيرا على الجمعية وعلى الحركة العمالية واضعفها . وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، وجدت ظروف ساعدت في تنمية قطاع الطبقة العاملة في فلسطين ، بسبب وجود قوات بريطانية بنسبة كبيرة فيها ترافقت مع قرار لحكومة الانتداب بفتح المجال امام نشوء صناعات محلية لتغطية

النقص في هذه الصناعات في اوروبا ، ولصعوبة نقل البضائع عبر البحار . ومع اتساع نطاق الطبقة العاملة ، اتسع نطاق التنظيم النقابي . ومن العوامل الهامة في تقديري لنمو الوعي العمالي في تلك المرحلة ، اتساع النشاط الشيوعي في فلسطين ، حيث نشط الحزب الشيوعي بعد تحالف الاتحاد السوفياتي مع الحلفاء عام ١٩٤١ ، وكان هذا النشاط ثقافيا وعماليا ، وامتد حتى الى داخل جمعية العمال العربية الفلسطينية ، واذكر على سبيل المثال ان الاخ وجيه صوفان كان اول من اسس فرع جمعية العمال في نابلس .

ــ المرحلة الرابعة هي مرحلة الصراعات العديدة والهامة التي خاضتها الحركة النقابية منذ عام ١٩٤٥ ، وهي صراعات بين الصهيونية والحركة العمالية ، بين الاستعمار البريطاني والحركة العمالية ، بين الاحزاب السياسية العربية والحركة العمالية .

اولا : صراعنا مع الهستدروت اتخذ عدة اساليب اهمها مواجهة « عبرية » العمل . وبدأت عبرية العمل في خطاب لبن غوريون في مدرسة لا اذكر اسمها ، في عام ١٩٣٣ ، كتنفيذ عملي لوجود الوطن القومي اليهودي . وتعني عبرية العمل انه لا يجوز لليهودي صاحب المصنع او المؤسسة تشغيل اي عامل عربي حتى يأخذ العمل طابعا عبريا . واسس الهستدروت على اثر ذلك لجانا سموها لجان الدفاع عن العمل، فكان اعضاؤها يذهبون الى المحلات اليهودية ، ويطردون اي عامل عربي يعمل فيها ، ويفرضون غرامة على صاحب العمل اليهودي كعقاب له . وقد ردت جمعية العمال على ذلك بأساليب مماثلة . كذلك كانت قضية الاجور موضوع صراع دائم . اذ كان العمال اليهود المنتسبون الى الهستدروت يعملون باجور افضل وبساعات عمل اقل ، وكان ذلك يتم بتشجيع من حكومة الانتداب . وخاضت الجمعية صراعات عديدة لتصل الى المساواة في هذه القضايا . وبسبب تصديها للهستدروت واجهت الجمعية محاولات عديدة لضربها والتشويش عليها ، ورشوة العمال للابتعاد عنها .

ثانيا : صراعنا مع الاحزاب السياسية ، وهذه يجب ان تشرح بشيء من التفصيل ، لان عدة عوامل ساعدت عليها وابرزها :

١ ــ موضوع الاضرابات : لقد قادت الجمعية عدة اضرابات في مختلف الشركات ، مثل اضراب شركة « مور » في عكا ، اضراب شركة محاجر مجدل الصادق . وكانت هذه الاضرابات موجهة ضد اليهود وضد الانجليز وضد الشركات العربية احيانا ، وادى نجاح هذه الاضرابات الى التفاف العمال حول الجمعية ، وليس ذلك فقط ، بل ادت ايضا الى التفاف الجماهير حولها . ومن الامثلة البارزة لالتفاف الجماهير حول الجمعية ما حدث عندما جاءت لجنة التحقيق الانجلو ــ اميركية ، فقد وافق زعماء الاضراب على مقابلتها وقابلوها فعلا ، وعندما بعثت هيئة الامم المتحدة بعد ذلك لجنة تحقيق قرر الزعماء مقاطعتها ، وقرروا بدون تفكير اعلان اضراب لمدة ثلاثة ايام . اما نحن فقد رأينا في هذا الموقف تناقضا واضحا ، فمن غير المنطقي مقابلة لجنة استعمارية ورفض مقابلة لجنة تحقيق من قبل الامم المتحدة . وفي هذا الجو اجتمعت لجنة النقابات في الجمعية ورات انه ما دام الهدف من الاضراب انه يرمز لموقف الشعب ، فيمكن الاستعاضة عنه بدقائق مؤقتة . واجرت اللجنة في ذلك الوقت حسابا دقيقا للخسائر التي ستنتج عن الاضراب، باعتبار ان لدينا ٢٠٠ الف عامل وموظف يعملون في الشركات والمعسكرات ودوائر الحكومة ، فاذا كان متوسط الاجر لكل منهم جنيها واحدا في اليوم، فيكون مجموع الخسائر في ثلاثة ايام ٦٠٠ الف جنيه . ولذلك قررت لجنة النقابات الدعوة لاضراب يدوم ساعة واحدة فقط يوم حضور لجنة التحقيق ووزعت الجمعية بيانا يعلن موقفها من الاضراب ويقدم تفسيرا واضحا له . وبالفعل نفذ الاضراب حسب طلب الجمعية لمدة ساعة واحدة ، توقف اثناءها كل شيء . توقفت السيارات والقطارات

واغلقت المحلات التجارية ، ولم تستطع الاحزاب تنفيذ موقفها الداعي للاضراب ثلاثة ايام . ان هذا الحادث الذي يبرز التفاف الجماهير حول جمعية العمال اوجد تناقضا بين الجمعية وبين الاحزاب السياسية العربية .

٢ ــ اهتمام الجمعية بالفلاحين : كان الفلاحون اجمالا في فلسطين يدينون بالولاء للحاج امين الحسيني . ولكن تغيرا واضحا طرأ على هذا الموقف بعد مؤتمر الجمعية عام ١٩٤٦ . ففي ذلك المؤتمر اقرت الجمعية مبدأ النضال الاشتراكي ، وبحثت في واجبات العمال تجاه الفلاحين، ووضعت على ضوء ذلك خطة لانشاء جمعيات تعاونية للمزارعين في كل قرية ، وكان مؤتمر مزارعي التبغ خطوة على هذا الطريق ، ولعب بنك التسليف والتوفير الذي انشأته الجمعية ، والذي وصل راسماله الى ٣٠ الف جنيه دورا بارزا في انجاح مشروع الجمعيات التعاونية للمزارعين ، فاصبح يمد كل مزارع بالمال الذي يلزمه بدلا من ان يلجأ للاستدانة من الجهات التي تتحكم بمصير انتاجه في نهاية العام ، وقد ساهم الفلاحون كثيرا في تدعيم هذه الجمعيات . وانقذت هذه الخطة الفلاح من شبح الضرائب . فمزارع التبغ مثلا كان يزرع بضريبة ، ويحصد بضريبة ، وينقل المحصول الى بيته بضريبة ، وينقله للبيع في حيفا بضريبة ، واذا تباحث مع شركة ولم يناسبه السعر المدفوع لا يستطيع نقل محصوله من شركة الى شركة اخرى ، والشركات بمجموعها متضامنة في الاسعار التي تدفعها فيضطر الفلاح للبيع بالسعر الذي تحدده الشركات . وقد تغيرت هذه الصورة عندما تولت الجمعيات التعاونية الموضوع ، ولكن هذا لم يطبق الا على محصول سنة واحدة ، وقد زرت شخصيا المناطق التي ذكرها الاخ ابراهيم عليان ، وشاهدت النتائج بنفسي ، لان مسؤولياتي كانت تشمل التعاون معه في الاشراف على الفروع التي ذكرها . وكنتيجة لهذه السياسة بدأ الفلاحون يلتفون حول الجمعية ، واذكر فرحا حضرته في قرية « معليا » كان الفلاحون فيه يهتفون للجمعية وسامي طه ، ذلك انهم قطفوا ثمار التنظيم في العمل الوطني . وقد لعب هذا الموضوع دوره ايضا في ايجاد التناقض بين الجمعية والاحزاب السياسية .

٣ ــ الجمعية والحزب : مثل موضوع الحزب على صعيد العلاقة بين الجمعية والاحزاب السياسية ، الشعرة التي قصمت ظهر البعير . ففي مؤتمر الجمعية عام ١٩٤٦ جرى نقاش حول ايجاد حزب للعمال يعبر عن رأيهم سياسيا . وكان داخل المؤتمر تيار يرفض الفكرة خوفا من وجود حزب جديد على غرار الاحزاب القائمة . ولكن التفاهم في النهاية كان كاملا بعد ان اتسع نطاق النقاش ، وفهم جميع اعضاء المؤتمر انه لا يمكن الوصول الى تحقيق المبدأ الاشتراكي الذي اقروه الا عن طريق حزب يعمل لوضع هذا المبدأ في حيز التطبيق . وحين عقد مؤتمر عام ١٩٤٧ تقرر انشاء مكتب عمالي يكون نواة للحزب. ذلك ان النقاش الذي دار في هذا المؤتمر رأى ان الجمعية لا تملك عددا كافيا من الكوادر النقابية تستطيع ان تستغني عنها لتتفرغ للعمل الحزبي ، خاصة وان هذا الحزب يجب ان يكون بقيادة النقابيين بالرغم من الاتفاق بان تكون عضويته مفتوحة امام اعضاء من خارج القطاع العمالي . فكان الاتفاق ان ترسل المناطق حين يتوفر لها عدد كاف من النقابيين كل نقابي يستطاع الاستغناء عنه ، ليكون عضوا في المكتب العمالي الذي هو مكتب الحزب ، وان يبقى وجود هذا المكتب سريا ، الى ان يتقرر الاعلان عن وجود الحزب . وقد ادى قرار الجمعية بالعمل لانشاء حزب عمالي الى زيادة حدة التناقض بينها وبين الاحزاب السياسية .

٤ ــ مواقف الجمعية السياسية : في عام ١٩٤٧ عقد المؤتمر الثاني للجمعية . وفي العام نفسه ايضا كانت هيئة الامم المتحدة تناقش القضية الفلسطينية. وقد اتخذ المؤتمر موقفا واضحا رفض فيه قرار التقسيم ، ولم يكتف المؤتمر بالرفض بل ارسل برقية الى الامم المتحدة تقترح حلا للمشكلة على اساس اعتبار اليهود الذين كانوا موجودين في فلسطين

قبل عام ١٩١٨ ومن توالـد منهم مواطنين فلسطينيين ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ويجلى عن فلسطين كل من دخل البلاد بعد ذلك دون رغبة أهلها ، وكان هذا الموقف يشمل اليهود وغير اليهود . وقد ارسل هذا الموقف باسم اعضاء المؤتمر الذين يمثلون ١٢٠ الف عامل منظم ، كل عامل منهم ينتمي الى عائلة تضم خمسة افراد على الاقل ، فيكون المجموع ٦٠٠ الف شخص ، فاذا اخذنا بعين الاعتبار ان تعداد شعب فلسطين في ذلك الوقت لم يكن يتجاوز المليون نسمة ، ادركنا مدى اتساع نفوذ جمعية العمال ، ومدى ادراك الاحزاب التقليدية لضعفها امام هذه القوة النامية . وقد شنت حملة ضدنا بسبب هذا الموقف من اليهود الذين جاءوا الى فلسطين قبل عام ١٩١٨ .

هذه هي ابرز الاسباب التي ادت الى بروز تناقض بين الحركة النقابية ممثلة بجمعية العمال وبين الاحزاب السياسية التقليدية . فعلى ضوء هذا الواقع كان من حق الجمعية ان تشكل حزبا سياسيا ، وان تتكلم باسم الشعب الذي تلتف غالبيته حولها . وعلى ضوء هذا الواقع بدأت الاحزاب التقليدية تفكر بالسيطرة على الحركة العمالية او القضاء عليها . وكنتيجة لذلك دبرت عملية اغتيال سامي طه . وتفسير ذلك واضح ، اذ أن اي حركة رجعية ، تعتمد على الدجل وعلى الغوغاء وترفض فكرة التنظيم . والاحزاب السياسية التي كانت في فلسطين لم تكن احزابا وطنية ، ولم تكن احزابا منظمة على الاطلاق ، وكانت تعتمد اساسا على الولاء الشخصي ، الولاء لآل الحسيني ولآل النشاشيبي ولرؤساء البلديات وللمخاتير ... الخ . وقد انقادت الجماهير وراء هذه الاحزاب دون ان تجني من وراء ذلك اية مكاسب ، وحين بدأت جمعية العمال تحقق لهم المكاسب تركوا تلك الأحزاب والتفوا حولها . الحزبان الوحيدان الحقيقيان في تلك الفترة كانا الحزب الشيوعي ، وحزب الشعب الاشتراكي ، ولكنهما كانا حزبين ضعيفين ، ولم يقو الحزب الشيوعي نسبيا الا في الاربعينات .

س : من كان ابرز قادة حزب الشعب الاشتراكي ؟

ج : اعتقد ان هذا الحزب تشكل عام ١٩٤٤ ، وكان من اعضائه البارزين يوسف هيكل رئيس بلدية يافا ، واحمد الشقيري وفريد السعد .

س : هل حاول قادة هذا الحزب الاستفادة من جمعية العمال لصالحهم ؟

ج : لم يحصل ذلك ابدا والذين قادوا الجمعية حرصوا ان لا يفسحوا المجال امام اي حزب لاستغلالها . انما كانت للجمعية صداقات مع تيارات مختلفة من الجيل الجديد ، وخاصة بعض الشباب الذين تخرجوا من الجامعة الامريكية في بيروت ، وجاءوا ليقيموا في حيفا ونابلس وطولكرم ، مثل مالك المصري والدكتور صلاح العنبتاوي والسيد احمد الشقيري . وقد بدأ هؤلاء الشباب بمحاولات لاقامة عمل وطني بأساليب تختلف عن الاساليب السابقة ، وحين تأسس حزب الشعب الاشتراكي ، حاول قادته اقامة صداقات مع الحركة العمالية ، ولكن لم يكن هناك اي انتماء من قبل الجمعية لهذا الحزب . وحين قررت الجمعية انشاء حزب عمالي ساد تصور لدى بعض القيادات الرجعية ، ان هذا القرار مرتبط بقرار انشاء حزب الشعب الاشتراكي ، واستنتجوا ان الجمعية اصبحت خاضعة لهذا الحزب .

س : هل كانت هناك جمعيات نقابية اخرى . وكيف كانت العلاقة معها ؟

ج : كانت هناك « جمعية العمال العرب » في يافا . ومؤسسها ميشيل متري كان يعيش في الارجنتين وتعلم هناك ، وكان يقال ان اتجاهه شيوعي . وقد قامت هذه الجمعية بعد خطاب بن غوريون الذي تحدثت عنه ، والذي دعا فيه الى عبرية العمل ، بتشكيل لجان عربية في يافا مقابلة للجان الدفاع عن العمل التي شكلها الهستدروت ، داعيا الى تعريب العمل . واذكر ان شركة « سوليل بونيه » اخذت تعهدا في مدينة يافا لبناء

مدرسة في منطقة عربية ، فجاء ميشيل ببعض عمال جمعيته المنظمين وضربوا العمال اليهود ، واجبروا الحكومة على سحب التعهد من الشركة اليهودية واعطائه لشركة اخرى عربية .

س : ذكرت اربعة اسباب اساسية ولدت التناقض بين الحركة العمالية والاحزاب . ويقال ان موقف الجمعية المؤيد للمشروع الانشائي الذي اقترحه موسى العلمي كمشروع مضاد لمشاريع الحاج امين الحسيني كان من ابرز اسباب الخلاف ، وهو الذي ادى بشكل مباشر الى اغتيال سامي طه . ما هو رأيك بذلك ؟

ج : طرحت على مؤتمرنا في عام ١٩٤٧ ثلاثة مشاريع ، مشروع لجامعة الدول العربية، ومشروع صندوق الامة الذي تتبناه الهيئة العربية العليا ، والمشروع الانشائي الذي طرحه وتبناه موسى العلمي ، والذي كانت تؤيده بعض الدول العربية ومنها العراق . وقد درست هذه المشاريع الثلاثة لجنة خاصة وعرضت تقريرها على المؤتمر ، حيث نوقش ووفق عليه . وكان التقرير يدعو الى تأييد المشاريع الثلاثة باعتبار انها كلها تخدم القضية الفلسطينية . فالجامعة العربية كانت تقول انها مستعدة لشراء الاراضي العربية من كل شخص يريد ان يبيع . ومشروع الهيئة العربية العليا كان يطالب بأن يساهم جميع العرب في تدعيم « صندوق الامة » والصندوق يقوم بشراء الاراضي . اما مشروع سامي العلمي فكان يدعو الى مساعدة الفلاح على تحسين اراضيه وزراعته ، والعمل على بناء قرى حديثة قادرة على مواجهة المستعمرة اليهودية ، لان شراء الاراضي يشجع الفلاح على البيع والهجرة . وقد رأينا ان المشاريع الثلاثة مفيدة وايدناها . ولذلك لا يمكن القول ان موافقة الجمعية على المشروع الانشائي كانت السبب في بروز التناقض ، فقد ايدنا ثلاثة مشاريع وليس مشروعا واحدا . وكذلك ايضا لا اعتقد ان هذا كان السبب وراء اغتيال سامي طه ، اذ كان من الاولى اغتيال موسى العلمي صاحب المشروع نفسه . لقد كانت هناك حساسية كبيرة بين موسى العلمي وبين الحاج امين الحسيني . وكان الحاج امين يعارض مشروع العلمي لكي يقوى مشروعه هو في الجامعة العربية وينال الموافقة . وقد كان هناك شك بأن موسى العلمي من جماعة حزب الشعب الاشتراكي ، وانه الرئيس الحقيقي للحزب . ومن المفيد هنا ان اذكر ان بعض اعضاء المؤتمر المحوا الى ان تأييد هذا المشروع سيقود الى بروز خلاف بيننا وبين الهيئة العربية العليا .

س : هل صحيح انه بعد الموافقة على المشروع الانشائي ، من ضمن المشاريع الاخرى كما اوضحت ، انسلخت بعض النقابات عن جمعية العمال ؟

ج : هذا ليس صحيحا . بل بالعكس من ذلك انتشر التنظيم العمالي على مستوى فلسطين كلها ، وساد جو من التفاخر بالانتساب الى « العمال » والى الجمعية ، واصبحنا نرى « مطعم العمال » و « كراج العمال » في كل بلد من فلسطين ، كدليل على التأييد .

س : في لقاء مع السيد فياض ريال قال انه كان رئيسا لنقابة البقالين العرب بحيفا ، وان نقابته من النقابات التي انسحبت من الجمعية .

ج : لم يكن يوجد في الجمعية نقابة اسمها نقابة البقالين . كان هناك فقط جمعية للتموين ضمن الجمعيات التعاونية التي انشأتها الجمعية ، وهذه الجمعية كان يمولها بنك الانشاء والتسليف .

س : قلت انك تقسم تاريخ الجمعية الى خمسة مراحل . لنتحدث الان عن المرحلة الخامسة .

ج : المرحلة الخامسة هي مرحلة ضعف الحركة العمالية في فلسطين ، وخاصة بعد

اغتيال سامي طه ، وبعد الاحداث التي تلاحقت وانتهت بنكبة ١٩٤٨ .

س : ما هي الاحداث البارزة في هذه المرحلة ؟

ج : بعد مقتل سامي طه عشنا في جو ارهابي ، وكانت لدينا اخبار تقول ان اي شخص تعينه الجمعية بديلاً لسامي طه سيقتل ايضا . في هذا الجو اجتمعت اللجنة التنفيذية بعد تشييع الجنازة مباشرة ، للبحث في الموضوع ، فرشح احد الاعضاء السيد يعقوب الحسيني الذي كان يعمل في جمارك حيفا كخلف لسامي طه . وكان الترشيح على اساس ان هذا مطلوب من الحاج امين الحسيني ، وقد عارض اعضاء اللجنة الطلب بشدة ، وتعاهدوا ان يحملوا الراية ، وان يسيروا بالحركة العمالية لتصبح اقوى مما كانت عليه . واتفقوا على اختيار الدكتور عمر الخليل ليتولى رئاسة الجمعية . والدكتور عمر الخليل من مواليد بيسان ، وابن عامل في سكة الحديد ، كان يعمل مفتشا في قسم الهندسة . وقد تخرج من الجامعة الاميركية في بيروت عام ١٩٣٧ ، وكان مقيما في حيفا وصديقا لسامي طه . وكانت عيادته مفتوحة دائما للعمال ، وكان لذلك موضع ثقة الجميع . وكان الدكتور الخليل مؤسسا لجمعية تدعى « جمعية الفلاح » ، ولذلك كان هناك تقارب بين الجمعية وبين نشاطاته . ولكن للاسف لم يتمكن الدكتور الخليل من حضور اي جلسة من جلسات جمعية العمال .

س : قلت ان الاضرابات الناجحة التي قادتها الجمعية لعبت دورا بارزا في توسيع نفوذها في ايجاد تناقض بينها وبين الاحزاب العربية . هل يمكن التوسع قليلا في هذه القضية ؟

ج : حول اضراب عمال المعسكرات الذي تحدث عنه الاخوان اريد توضيح بعض النقاط لان موقف الجمعية من هذا الاضراب استغل ضدها ، وبرزت شائعات تقول ان الجمعية عميلة لبريطانيه ، لانها عارضت اضرابا ضد الحكومة . وقد تعززت هذه الشائعات بسبب دعاية الهستدروت ، وبسبب موقف بعض القوى التقدمية التي كانت تروج لشعار « وحدة الطبقة العاملة » . لقد كان واضحا تماما للجمعية ان هدف الهستدروت من وراء تنفيذ الاضراب ليس تحقيق مصالح العمال ، مع ان التركيز الاعلامي كان حول هذه المصالح . لقد كان الهدف متركزا حول التمثيل . من يمثل الطبقة العاملة الفلسطينية ؟ جمعية العمال ام الهستدروت ؟ وقد بين الاخوان في حديثهم تعاون الضباط البريطانيين مع الهستدروت لانجاح الاضراب . وبسبب وعي الجمعية الكامل لهذه القضية ، بسبب وعيها لاهمية التمثيل السياسي للعمال في ذلك الوقت وقفت ضد الاضراب .

وتوضيحا لاضراب ١٩٤٦ الذي اشار اليه الاخ ابراهيم عليان ، اقول ان هذا الاضراب كان شاملا ، وقد بداه العمال ، ثم شارك به الموظفون ، شمل جميع المؤسسات الخاصة والدوائر الحكومية . وقد بدأ الاضراب في يافا وانطلق من نقابة عمال البريد . وسببه المباشر ان رئيس النقابة السيد محمود عيسى تقدم بطلب لارجاع عامل كان قد فصل من عمله ، فرفض مدير الدائرة البحث بالموضوع واخبره انه لا يعترف بجمعية العمال ، فاعلنت نقابة عمال البريد في يافا الاضراب احتجاجا على ذلك ، فجاء الجيش واشرف على تسيير العمل بنفسه ، فاجتمع مجلس النقابات في يافا ، وقرر بعد استشارة المركز الرئيسي في حيفا (في موضوع الاضراب كان من الضروري استشارة المركز الرئيسي) اعلان الاضراب العام . فبدأت كل نقابة تضرب تضامنا مع نقابة عمال البريد . وكان الاسلوب المتبع في ذلك الوقت يقضي بتقديم طلب عاجل لبحث موضوع ما ، وتحديد وقت لاستلام الجواب ، فاذا كان الجواب سلبيا يعلن الاضراب . وحين شمل الاضراب كل مدينة يافا وسع الجيش نطاق تدخله واشرف على تسيير العمل في جميع المرافق العمالية . ولكن الاضراب اتسع وشمل الموظفين ايضا ، ولم يعد بامكان الجيش ان يوفر

العدد اللازم لتسيير العمل . كان للموظفين لجنة خاصة بهم ، مستقلة عن جمعية العمال ، أعلنت الاضراب بناء على طلبات خاصة بها . وقد استغلت الحكومة هذا الوضع (اذ كانت دائما تحاول الفصل بين الموظفين والعمال) فطلبت مفاوضة الموظفين، وحين استجابت لقسم من طلباتهم اعلنوا حل الاضراب ، ولكن ذلك لم يؤثر على الوضع العام ، واستمر الشلل يعم كافة المؤسسات والدوائر ، فاضطرت الحكومة ان تتراجع وتدخل في مفاوضات مع الجمعية للبحث في مطالب العمال . ان نجاح الجمعية في الاضرابات التي كانت تدعو اليها يعود الى حرصها الشديد على ان لا تقدم على اي اضراب ، في القطاع الخاص او في دوائر الحكومة ، الا بعد أن تستنفذ كل وسائل المفاوضات ، ثم توزع منشورات في كل انحاء البلاد تشرح فيها ما تقدمت به من طلبات ، ورد الجهة المعنية على ذلك ، لتهيىء الجماهير للاضراب وتقنعها بضرورته . ولذلك كان كل اضراب يعلن ، مفهوما ومؤيدا من قبل الجماهير سلفا .

واود اخيرا ان اتحدث عن اضراب عمال المحاجر في مجدل الصادق . مجدل الصادق قرية عربية من قضاء الرملة . الارض عربية . الجبال التي تضم المحاجر ملك للعرب . اما المحاجر نفسها فهي لشركة « سوليل بونيه » التابعة للهستدروت . كان يعمل في هذه المحاجر عمال عرب ويهود . وكان هناك قسم من المحاجر مخصص فقط للعمال اليهود على اساس العمل العبري . من ضمن سعي الجمعية لتحطيم فكرة عبرية العمل، تقدمت بمطالب تتعلق بعمال المحاجر العرب ، ومن جملة هذه المطالب عدم تخصيص مناطق للعمال اليهود فقط ، وضرورة مشاركة العمال العرب في جميع اقسام العمل . وقاد مكتب العمل المفاوضات في البداية ، وحين فشلت كل تدخلاته ، تقرر اللجوء الى الاضراب ، وبالفعل اعلن الاضراب ، واختير يوم سبت لتنفيذه لسببين : الاول ان هذا اليوم هو يوم عطلة العمال اليهود ، والثاني ان جير الافران يتلف اذا بقي مدة اطول من اللازم داخلها . يوم الاحد جاء العمال اليهود ليواجهوا بالاضراب . اصروا على رفض الاضراب ، وهدد العمال العرب بأن استمرارهم بالعمل يعني قيام مذبحة بين الطرفين، فذهب العمال اليهود واستنجدوا بالشرطة ، وجاءت الشرطة لتقول لا علاقة لاضرابكم بالعمال اليهود فدعوهم يمارسون عملهم ، وكان رد العمال العرب ان هدف الاضراب الرئيسي هو رفض عبرية العمل ، ونشب على اثر ذلك خلاف حاد ، تدخل فيه للاسف رئيس بلدية عربي ، وحاول حتى رشوة مسؤولي فرع الجمعية في نابلس باعتبارهم مشرفين على الاضراب . في اليوم التالي جاءت الشرطة الخيالة ، فهددهم العمال بأن اي تدخل من قبلهم سوف يعني الاشتباك مع العمال المسلحين والمنتشرين في الجبال فتراجع رجال الشرطة ، وردت الحكومة على ذلك بمحاصرة المنطقة بالدبابات ، فما كان من العمال الا ان افترشوا الارض ، وابلغوا المسؤولين ان الدبابات لن تمر الا من فوق اجسادنا . وامام هذا الأصرار تراجعت القوة العسكرية ، وبدأت مفاوضات طويلة مع الحكومة . واثناء هذه المفاوضات قدمت مغريات شديدة ، منها « شيك » مفتوح باسم سكرتير الجمعية في نابلس ، ومساومات تعلن الاستعداد للموافقة على كل طلبات العمال ، باستثناء طلب مساهمتهم بالعمل في المناطق المخصصة للعمال اليهود . وقد صمدنا امام كل ذلك ، وتوج صمودنا بالانتصار .

س : هل فاوضتم الحكومة لاقرار تشريع عمالي ؟

ج : لم يصدر في فلسطين اي تشريع عمالي . التشريع كان يفرضه العمال . وفي كثير من الدوائر والشركات توصل العمال الى عقد اتفاقية تقوم مقام القانون . وفي عام ١٩٤٦ صدر مشروع قانون للعمل . وفيما بعد وضع قانون العمل الاردني بالاستناد اليه .

س : ماذا كان وضع الجمعية في اضراب عام ١٩٣٦ ؟

ج : عاشت الجمعية في تلك الفترة حالة من الشلل ، اذ التحق عدد كبـــير من العمال بالثورة ، ولم تشارك الجمعية بصفة رسمية في تشكيل لجان للدعم . اما في عام ١٩٤٧ ، فقد شاركت الجمعية بشكل فعال وقيادي باللجـــان القومية والمحلية ولجان الـــدفاع المدني .

س : هل تعرض سامي طه بسبب هذه النشاطات لاي اعتقال ؟

ج : اعتقل لفترة قصيرة في عام ١٩٣٧ ، مع عدد كبير من العاملين في الحقل الوطني ، وذلك بعد اغتيال « اندروز » في لواء الخليل .

التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني

(عهد الانتداب)

بقلـــم

نبيل ايوب بدران

منشورات مركز الابحاث في م. ت. ف.

ص.ب ١٦٩١

بيروت

سعر النسخة ٣ ل.ل. تضاف اليها اجور البريد الجوي : ٧٥ ق.ل. في العالم العربي ، ١٥٠ ق.ل. في اوروبه ، ٣٠٠ ق.ل. في سائر الدول

مراجعــات

Robert Misrahi, **Marx et la question juive**
(Collection «Idées»).

تشهد حركة النشر في فرنسا حاليا فيضا متزايدا من الكتب التي تحاول ان تعالــج مسألة معاداة السامية من وجهة نظر خاصة جدا . ذلك انه بعد ان كانت تهمة معاداة السامية تلصق عادة بالقوى الاجتماعية اليمينية والفاشية (وطبعا النازيــة) اصبح الان لليسار حصته الكبرى من هذه الاتهامات فأصبح هناك نوعان مــن « معاداة السامية » :

ــ « معاداة السامية » **من مواقع يمينية** وهــذا النوع قد بات مبتذلا لكثرة ما كتب فيه وعنه ودخل الان ، بالنسبــة الى الوعي (أو اللاوعي ، لا فرق) الغربي ، الى حدود البديهيات والمسلمــات واصبح مجرد محاولة اعادة البحــث فيها خطيئة ضد الفكر وضد الانسانية وضد الحضارة . ويكفي ان نذكر ان اخطر تهمة يمكن ان توجه الى رجال الفكــر والسياسة في الغرب هي تهمة معــاداة السامية حتى ندرك مدى تسلط الارهاب المعنوي والفكري على العقول والقلوب هناك . ولا عجب في ذلك فالامر لا يعدو كونه ردة فعل طبيعية ، وقد تكون مفهومة ومقبولة ، لموقف الغرب تاريخيا من العرق السامي وبشكل اخص من اليهود ، هذا الموقف الذي وصل الى منتهى عنصريته وهمجيته من خلال النازية التي هي في التحليل الاخير تجسيد عملي لجانب من جوانب الغرب الراسمالي . كــل هذا بات الان معروفا لجميع المتتبعين للمسألــة اليهودية كما انه قد اثار العديد من المناقشــات والمجادلات الحامية في الاوساط الغربية وخاصة في فرنسا بعد عدوان الخامس من حزيران . ولا مجال هنا للكلام عن هذا الموضوع ولكننا نكتفي فقط بالاشارة الى ان الكلام عن معاداة السامية كان يعلو ويهبط ، لا وفقا لاعتبارات فكرية او اخلاقية أو انسانية ، بل خدمة لبعض المواقف السياسية المتعلقة ، من قريب او بعيد ، بدولة اسرائيــل وبالصراع العربي ــ الاسرائيلي . ومن هنا طابعها المفتعل الواضح .

ــ ثم هناك « معاداة السامية » **مــن مواقع يسارية** . وهذه بدعة جديدة بدأت الان تحتل حيزا واسعا من « اهتمامات » حركة النشر الفرنسية اذ انه في خلال سنة واحدة صدرت عدة كتب عنها نذكر منها على سبيل المثال : « اليهود في الاتحاد السوفياتي » « معاداة الساميــة بدون يهود » « التطهــير » « اليسار والصهيونية » واخيرا لا اخرا « ماركس والمسألة اليهودية » الذي نحــن الان في صدد معالجته والذي ينخرط ضمن التوجيه الفكري والاعلامي الجديد الذي يحاول ان يعيــد الى « معاداة السامية » قوتها وارهابها وبعــث الحياة فيها واعادة استخدامها ولكن ضد اليسار، وضد اليسار فقط ، هذه المرة .

يقول روبير مزراحي في مقدمة الكتاب « ان معاداة السامية ، سواء أكانت موجهة ضد يهود العالــم على اساس انهم يشكلون **مجموعــة دينيــة** ام ضد **الاسرائيليين** على اساس « تناسي » انهــم يهود ، تشكل العقبة الاساسية (!) في بناء مجتمع عادل ، ايا كان هذا المجتمع » (ص ٨) . ثم يضيف فيما بعد : « ان هذا التحليل ... الذي سنقوم به الان يهدف الى فضح معاداة السامية عندما لا تكون ظاهرة وتسليط الاضواء عليها عندما تكــون مخبأة وغامضة ومشوهــة اي **اثبات** ان هناك ، في هذا الفكر او تلك الممارسة ، معــاداة واقعية (وان لم تكن معلنة) للسامية » .

لعلنا لا نغالي اذا قلنا ان مثل هذه الافكار المسبقة التي اوردهــا الكــاتب الصهيوني قبــل قيامه بـ « تحليله » تشكل حجر الاساس في كل مقولاتــه وفرضياته فهو من جهة يحصر معاداة السامية في معاداة اليهود كجماعة دينية وفي معاداةالاسرائيليين بصفتهم يهودا دون ان يحاول اعطاءنا ، من اول

الكتاب الى اخره ، ولو تحديدا واحدا « لمعاداة السامية » . ومن جهة ثانية ينطلق من فرضية غريبة مؤداها ان هناك عداء للسامية غير واضح وغير معلن وان هدفه في هذا الكتاب هو بالضبط كشف هذا العداء وتوضيحه واستخراج مبادئه واسسه ، اي بكلمة اخرى السعي الى صياغة القواعد الفكرية والعقائدية والبحث عن الجذور التاريخية لما يسميه المؤلف بالمعاداة اليسارية للسامية . أما كيف استطاع ر. مزراحي ان يصل الى غايته ، اي ان يوهمنا بانه « اكتشف » الجذور الفكرية والتاريخية للعداء اليساري للسامية ، فعن طريق التركيز على كتيب صغير كتبه ماركس في شبابه عن المسالة اليهودية وهو كتيب يتعرض فيه ماركس للقضية اليهودية بشكل عابر دون اية دراسة تحليلية اجتماعية او خلفية تاريخية دون ان يؤثر هذا النقص ، على كل حال ، على صحة المقولات التي ساقها في هذا المجال . من هذا الكتيب ينطلق المؤلف ليبني نظرية متكاملة تعتمد على المنطق (الشكلي طبعا) وتهدف الى وضع ماركس في قفص المتهمين بالعداء اليساري للسامية (من المفيد هنا ان نذكر ان ماركس هو يهودي الاصل لندرك كيف ان المضمون الحقيقي لهذه التهمة يتعدى الفكر اليميني الرجعي العنصري ليرتبط بكل مفكر يعادي الصهيونية والدولة الاسرائيلية) . ولكن قبل ان نذهب بعيدا في تقييماتنا لا بد من عرض سريع لاهم محتويات هذا الكتاب .

هناك فكرتان اساسيتان يدور الكتاب حولهما :

١ — الفكرة الاولى هي اتهام اليسار (كل اليسار) بالعداء للسامية لانه « يريد من اليهودي أن يكون « انسانا » كبقية الناس ، لا فرق بينه وبينهم ... اي ان يكون شريكا غير مميز فيصبح رجل اعمال كبقية رجال الاعمال ، وموظفا كبقية الموظفين ، ومثقفا كبقية المثقفين ... » (ص ١١). هكذا اذن اصبحت ارادة المجتمع الغربي في رؤية اليهودي يندمج في كل نشاطاته ويخضع لكل متطلباته معاداة للسامية بعد ان كانت هذه الاخيرة تنحصر في رفض الاعتراف والقبول باليهود في مجتمعهم . ولو كان الامر مجرد احتفاظ اليهود بخصوصيتهم وفرديتهم وطابعهم الخاص لهان الامر ولربما كان العقل المتسامح مستعدا لتقبله . الا ان المدهش والغريب فعلا في المسالة هو ان الكاتب يعتبر الاحزاب اليسارية معادية للسامية لانها تفرض على المناضلين اليهود ان يتخلوا عن يهوديتهم ولا تسمح لهم بالانضمام الى صفوفها الا بعد ان يعلنوا حربا شعواء على الصهيونية ! وهكذا يتضح شيئا فشيئا الهدف الاساسي من هذه الدراسة : الخلط المتعمد بين اليهود واسرائيل وبين اليهود والصهيونية وكل ذلك من اجل الدفاع عن الصهيونية ، وعن الصهيونية وحدها ، باعتبارها في نظر الكاتب ، الحل الوحيد المقبول لما يسمى بالمسالة اليهودية . لا بل ان الدفاع عن الصهيونية وعن اسرائيل يصبح اهم من الدفاع عن اليهود ، خاصة وان تهمة معاداة السامية تلصق كذلك بالكثيرين من اليهود التقدميين (كاسحق دويتشر مثلا) وكذلك باليسار العربي وبشكل اخص يسار المقاومة . (يتهم مزراحي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالعداء للسامية لان « القراصنة » احتجزوا ركاب الطائرات المخطوفة من اليهود لانهم يهود وليس لانهم اسرائيليون على حد زعم الكاتب . الا انه يتجاهل، في عملية تضليلية لا مثيل لها ، ان هؤلاء اليهود كانوا يحملون الجنسية الاسرائيلية كذلك) وكلنا يتذكر الجدال الحامي الذي دار في فرنسا حول ازدواجية الولاء عند اليهود الفرنسيين . وفي هذا الصدد يحاول مزراحي تبرير هذا الواقع فيدعي بأن اليسار لم يفهم الفرق بين ازدواجية الجنسية وازدواجية الولاء ، اذ انه يتهم اليهود الموالين جدا لاسرائيل بالانتماء الى غير وطنهم « في حين أن هذا اليسار لا يفكر ابدا باتهام التونسيين او اللبنانيين مثلا بخيانة ولائهم لاوطانهم لانهم يتعاطفون مع الفلسطينيين » . لا شك ان المنطق الشكلي كما تعلمنا اياه المدرسة السفسطائية يتسم بقدرة فائقة على تجاوز الواقع وتشويهه وفرض استنتاجات لا علاقة لها بالمعطيات الاساسية والمقدمات المفترضة . الا اننا لم نكن نظن ان لهذا المنطق كذلك مثل هذه القدرة على التضليل والتشويه دون احترام حتى الشكل . فالمنطق الذي يقدمه لنا مزراحي هنا لا يحترم حتى قواعد المنطق الشكلي واصوله : انه بكلمة واحدة : لا منطق اذ اين وجه الشبه بين يهودي فرنسي يعطي كل ولائه لاسرائيل وبين عربي تونسي او لبناني يتعاطف مع الفلسطينيين؟ ان العرب في كل اقطارهم لا يعترفون بالتجزئة الحالية ويعلنون دائما تمسكهم بالوحدة ومن هنا فان ولاءهم لقوميتهم العربية يأتي قبل ولائهم للكيانات المصطنعة دون ان يطرح هذا

اية مشكلة ، اما اليهودي الفرنسي فهي وضع مختلف تماما اذ ان هناك تعارضا واضحا بين مصلحة وطنه ومصلحة اسرائيل اذ لا شيء يجمع بينهما على الاطلاق . ولجوء مزراحي الى هذا التشبيه لتبرير ازدواجية الولاء اليهودي ما هو الا من قبيل التمويه خاصة وان اوروبا لا تعترف ولا تريد ان تعترف بالقومية العربية والتيار الوحدوي في الوطن العربي .

ثم أن العداء للسامية اختراع اوروبي لم تعرفه بلاد الشرق ابدا اذ من غير المعقول ان يكون العرب معادين للسامية وهم انفسهم ساميون . اما العداء لليهودية فمسألة مختلفة لها اسبابها في بعض الشاحنات الدينية والطائفية التي كانت تظهر بين الحين والاخر . فكما كان هناك احيانا عداء بين هذه الطائفة الدينية وتلك ، كذلك كان هناك احيانا عداء بين اليهود كطائفة دينية وبين غيرهم من الطوائف . اما ان يسمى هذا العداء معاداة للسامية فتمييز خطير واعتراف يتنسوق الشعب اليهودي وخصوصيته وفرادته واستخفاف ببقية الفئات الدينية والاجتماعية التي لاقت الاضطهاد نفسه والعداء نفسه . وهذا المنطق يؤدي في النهاية الى عنصرية مخيفة تتلخص في الاحتجاج فقط على الاضطهاد الموجه ضد اليهود واعتبار الاضطهاد الاخر الموجه ضد الاخرين لا قيمة له على الاطلاق . لماذا ؟ هل لان اليهودي من طينة غير طينة الاخرين ؟ كل ما نستطيع ان نقوله ان هذا ما تؤمن به الصهيونية وهذا ما تؤمن به ايضا النازية .

٢ — اما الفكرة الثانية في هذا الكتاب فتدور حول ما يسميه مزراحي عداء ماركس للسامية وذلك من خلال كتيبه « المسألة اليهودية » الذي هو عبارة عن رد سريع على نظرة باور الى هذه المسألة نفسها . يقول المؤلف : « بالنسبة الى العالم اللاهوتي المسيحي برونو باور كما بالنسبة الى عالم الاجتماع كارل ماركس ، ينبغي القضاء على اليهودي بأية وسيلة كانت وبأية نظرية . وكتيب « المسألة اليهودية » ليس الا دعوة الى الجريمة ودعوة الى ابادة الجنس » (ص ٦٢) . هل صحيح اذن ان ماركس كان يكره اليهود وهو اليهودي الاصل ؟ ان عودة الى كتيب ماركس نفسه والى النص الاصلي توضح لنا كيف تنعدم الامانة والموضوعية عند مزراحي وكيف يحمل الكلمات فوق ما تحمله . يقول ماركس : « ان التحرر السياسي لليهودي وللمسيحي يكمن في تحرر الدولة من اليهودية ومن المسيحية » (ص ٢١ .) هذه الجملة تحولت عند مزراحي الى « دعوة الى الجريمة والى ابادة الجنس » (الجنس اليهودي طبعا) . وهنا يحق لنا ان نتساءل : لماذا لم يشر مزراحي الى دعوة ماركس المزعومة الى ابادة المسيحيين كذلك ؟ هذا اذا افترضنا ان هناك مثل هذه الدعوة . لماذا لا يشفق ولا يغضب الا لليهود ؟ ان ثورة الكاتب الصهيوني ضد ماركس هي في الحقيقة ثورة ضد الموقف الثوري الذي اتخذه ماركس من القضية اليهودية وهو موقف مغاير تماما ومناقض جذريا للموقف الصهيوني . وهو لا يخفي غضبه لذلك وكأن تهمة معاداة السامية قد الصقت به لانه رفض أن يتكلم عن حل صهيوني للمسألة اليهودية (انظر ص ٣٢ — ٣٣) .

وهنا من الضروري توضيح بعض النقاط التي تعمد الكاتب تجاهلها ليسهل امامه مهمة اتهام ماركس بالعداء للسامية . فهو اولا يركز تركيزا ملفتا للانتباه على كلمة « يهودية » دون ان يحاول اطلاعنا على المضمون الحقيقي الذي يعطيه ماركس لهذه الكلمة . انها تعني في قاموس الماركسية ، بالدرجة الاولى ، دورا اقتصاديا معينا تقوم به طبقة معينة من الرأسماليين كما تعني ايضا الثقافة المسيحية السائدة والتي هي امتداد وتحقيق لليهودية . اذن فاليهودية عند ماركس ليست مجرد ديانة سامية بل هي قبل كل شيء ايديولوجية الطبقات الاوروبية المسيطرة . وهذا ما يحاول مزراحي طمسه وتشويهه .

ومزراحي كذلك يرفض اعتبار المسألة اليهودية مسألة كغيرها يمكن ان تحل من خلال عملية تحرير الانسانية من الاستغلال بل يصر على اضفاء طابع الخصوصية والفرادة عليها . فلا عجب والحالة هذه من أن نراه يتهم ماركس بالعداء للسامية لمجرد ان هذا الاخير يرفض ايجاد « حل خاص » للمسألة اليهودية . وموقف مزراحي هذا هو في الحقيقة تشجيع وتحريض على دعم مواقف وحجج المعادين للسامية الذين كانوا دائما ينطلقون من خصوصية اليهود وعدم قابليتهم للتكيف مع غيرهم ليتمكنوا من اضطهادهم . وهذا الالتقاء المريب بين أعداء اليهود وبين من يدعون الدفاع عنهم يبين

لنا كيف ان الصهيونية في نهاية المطاف ، ورغم كل الادعاءات والمظاهر ، هي الحليف الاعز للمعادين للسامية ، وهي ، موضوعيا ، المستفيدة الوحيدة من وجود هذه الظاهرة . وما جهودها المتواصلة للحفاظ عليها وتأجيجها وتطويرها مع مفاهيم العصر الا من قبيل خلق حاجز في وجه العقل الاوروبي ومنعه ، عن طريق الابتزاز الفكري وعن طريق التهديد بتهمة العداء للسامية ، من رؤية حقيقة المسألة اليهودية وايهامه بان كل يهودي هو صهيوني وان أي انتقاد للصهيونية هو العداء للسامية بالذات .

الا أن مثل هذه المغالطات قد فقدت الان الكثير من تأثيرها وفاعليتها كما أن اليسار قد تحرر ، او يكاد ، كليا من هذا الارهاب الفكري وهذا ما يفسر لنا الى حد ما حرص مزراحي ، ومن ورائه منظرو الصهيونية ، على افتعال نوع جديد من العداء المبطن للسامية يوهمون الناس بأنه يوجه بشكل واع او لا واع كل مواقف اليسار المعادي للصهيونية . وقد ظن انه قد وجد هذا النوع الجديد في ما كتبه ماركس نفسه عن المسألة اليهودية بشكل عابر . وقد سبق وبينا تهافت مثل هذا المنطق بسبب ارتكازه على منطلقات خاطئة ومغالطات مقصودة .

وكأن كل هذا لم يكف فاذا بالكاتب يفاجئنا بمقولة جديدة وغريبة مؤداها ان معاداة ماركس للسامية مردها الى عقدة بالذنب بسبب تربيته ونشأته وما الى ذلك من « تحليلات نفسية » لا تقوم على اي اساس علمي او موضوعي ومن غير المفيد التوقف عندها بالرغم من أن الكاتب قد كرس لها قسما كبيرا من كتابه . الا أن ما نستطيع ان نعلق عليه في هذا الصدد هو ان هذا « التحليل النفسي » ليس في الحقيقة سوى وسيلة تضليلية يحاول مزراحي بواسطتها أن « يدرس » الاسباب النفسية العميقة لسلوك ماركس المعادي للسامية وكأن هذا التصرف قد بات امرا مؤكدا وثابتا ومفروغا منه وغير قابل للنقاش !..

ان كل ما جاء في الكتاب حتى الان يمهد الطريق أمام القارىء لكي يقبل بالمقولة الصهيونية التالية:

« ان هناك تناقضا مطلقا بين الاشتراكية ومعاداة السامية . لذلك تنبغي محاربة كل ظاهرة يسارية معادية للسامية بدون هوادة « حتى يتمكن المجتمع غدا من ان يكون اشتراكيا بدون ان يكون معاديا للسامية » . ان الصراع ضد المعاداة اليسارية للسامية يجب ان يكون عنيفا جدا لان هذه الظاهرة خفية وباطنية وغير معلنة على الرغم من انها تظهر احيانا عند بعض المنظرين الماركسيين امثال دويتشر وكيتشكو (ص ٢٤٢) يجب اذن العمل على تحرير الماركسية من كل معاداة للسامية . ذلك أن « **نهاية معاداة السامية** (وهنا في رأينا الغاية الرئيسية من هذا الكتاب) **تعني أيضا نهاية المعاداة للصهيونية** » (ص ٢٤٨) . ان كل الاتهامات والتركيبات المنطقية الشكلية التي يحتويها هذا الكتاب تجد معناها وتفسيرها في هذه الجملة الاخيرة . وعلى هذا الاساس يتجرأ مزراحي على التأكيد مرة اخرى بأن ماركس لم يكن « ماركسيا » (هكذا) في نظرته الى اليهود لانه لم يكن صهيونيا ! وهذا يعني ان الصهيونية هي الاساس وأن معاداة الصهيونية اصبحت تعني الان معاداة السامية . واذا ما اخذنا بهذا المنطق فاننا سنصل الى يوم تلصق فيه تهمة معاداة السامية حتى باليهود الاسرائيليين ، وبشكل خاص الشرقيين ، الذين قد يثورون يوما على المؤسسة الصهيونية .

ان هذا الكتاب يلخص كل الايديولوجية الصهيونية ازاء المسألة اليهودية وازاء موقف اليسار منها . انه يمثل اخر محاولات الدفاع عن النفس التي تقوم بها الصهيونية امام انفضاح أمرها لدى اليسار العالمي . وهو من هذه الزاوية يمثل اخر ما وصل اليه الفكر الصهيوني في دفاعه عن نفسه وهو ، كما نرى ، فكر بدأ يتخلى عن كل اقنعته « اليسارية » ويكشف عن هويته الحقيقية وعن موقعه المحدد في محاربة الاشتراكية وحركات التحرر وكل الفكر اليهودي التقدمي المعادي له . من هنا اهميته ومغزاه بغض النظر عن قوته الاقناعية المحدودة وتداعي بنيانه الفكري والمنطقي.

ماجد نعمه

Walter Hollstein: Kein Frieden um Israel - Zur Sozialgeschichte des Palastina - Konflikts - (Fischer)

لكتاب البروفسور فالتر هولشتاين (لا سلام حول اسرائيل : التاريخ الاجتماعي للنزاع الفلسطيني — أو العرب والتحدي الصهيوني) قصتان ، قصة تأليفه واخراجه ونشره وقصة مواده ومضمونه ، ولنبدأ بالقصة الاولى : في اواخر ١٩٦٩ عكف البروفسور فالتر هولشتاين — وهو استاذ جامعي سويسري يعمل في برلين الغربية — على وضع كتاب عن مشكلة فلسطين كنموذج لصراع اقتصادي واجتماعي بين الحركة الصهيونية وحركة الاستقلال الوطني العربية . وكان هدفه من وضع الكتاب ابراز الطابع الاستيطاني الاستغلالي في التطبيق الصهيوني وفضح الوجه الرأسمالي الامبريالي للحركة الصهيونية التي استعملت المشكلةاليهودية في اوروبا وروسيا لاقامة مجتمع عنصري شوفيني في فلسطين .

قبل الاقدام على وضع الكتاب قام المؤلف بزيارة عدد من الدول العربية من اجل جمع المعلومات والوثائق المتعلقة بالمشكلة ، وفي اثناء هذه الزيارات درس عن قرب الواقع الاجتماعي والسياسي لحركة المقاومة الفلسطينية ، وفي مكاتب الاعلام العربية الرسمية اطلع على مواقف الدول والحكومات العربية من النزاع العربي — الاسرائيلي وتجمع لديه كمية هائلة من المواد الاولية والمراجع الاصلية .

في اواخر عام ١٩٧٠ وبعد عودة المؤلف من زيارة للقاهرة وعمان وبيروت بدأ كتابة الكتاب وانتهى من تأليفه في اواخر عام ١٩٧١ ، ثم عرضه على دار فيشر الالمانية للنشر ، وهي اكبر دار نشر المانية، وقامت لجنة من محرري الدار بتقييم الكتاب ورفعت توصية الى ادارة الدار تنصح بنشر الكتاب لاهميته العلمية وقيمته السياسية ولاحتوائه على استعراض تاريخي اجتماعي للنزاع العربي — الاسرائيلي لم يسبق تقديمه في اي كتاب صدر عن دار نشر اوروبية او امريكية ، وتم اتخاذ قرار بانزال الكتاب الى السوق قبل نهاية العام لما فيه من فائدة ادبية ومادية (الربح وضمان بيع كمية كبيرة) وقبل نهاية عام ١٩٧١ بأيام كان قد تم طبع ٢٠ الف نسخة من الكتاب اعدت للتوزيع لتكون في المكتبات قبل حلول اعياد الميلاد ورأس السنة .

ولكن الكتاب لم ينزل الى السوق في ذلك العام فقد حدث ما منع توزيعه فجاة ، وتلقى المؤلف رسالة مسجلة من دار النشر تعلمه بان احد اصحاب الدار الدكتور برمان فيشر (وهو من عائلة يهودية المانية لها تاريخ عريق في عالم الطباعة والنشر) قد سبق ان اشترط ان لا تصدر الدار اي كتاب عن اسرائيل او النزاع العربي — الاسرائيلي او القضية الفلسطينية قبل ان يكون هو قد قرأه ووافق على اصداره . ولم تكن لجنة المحررين التي أشرفت على اصدار الكتاب قد فطنت الى هذا الشرط ورأت ارسال الكتاب للسيد فيشر بعد ان تمت طباعته واصبح جاهزا للتوزيع . وبسرعة اصدر السيد فيشر تعليماته بايقاف توزيع الكتاب واتلاف النسخ المطبوعة منه ريثما يقرأه . وبعد ان قرأه اوكل الى احد « المتخصصين في تاريخ الصهيونية والقضية الفلسطينية » مراجعته ووضع تعليقاته على محتواه وهذا المتخصص محام يهودي الماني له علاقة بدار النشر . وبعد فترة قصيرة تلقى المؤلف رسالة من لجنة المحررين تحتوي على اقتراحات الدار بشأن اعادة طباعة الكتاب في قالب ومضمون جديدين على ضوء التعليقات والاراء التي اثارها صاحب الدار والمحامي بعد مراجعة الكتاب . وكانت اهم نقاط التغيرات المطلوبة :

اولا : تغير صورة الغلاف — وكانت الصورة الاصلية تمثل فدائيا فلسطينيا يتوسط رأس موشي دايان واقترح استبدالها بصورة لمجموعة من اللاجئين تسير فوق جسر اللنبي المحطم اثناء القتال في يونيو ١٩٦٧ او صورة لبعض افراد الجيش الاسرائيلي وهم يقتحمون قرية عربية وقد استقر الرأي نهائيا على صورة اللاجئين وهم يعبرون الجسر .

ثانيا : استبدال عنوان الكتاب ، فبعد ان كان العنوان « العرب والتحدي الصهيوني » اصبح في الطبعة الجديدة « لا سلم حول اسرائيل — التاريخ الاجتماعي للنزاع الفلسطيني » .

كما اصابت اقتراحات التعديل والتبديل نحو مائة رأي او حادث مذكور في الكتاب وشملت اكثر الصفحات ولم تسلم منها اية فقرة من فقراته ، وبعض نقاط التعديل متعلق بدقة التواريخ وتسلسل

الاحداث او طريقة التعبير وصحة المراجع . وبشأن المراجع اشارت الرسالة الى ان الكتاب يعتمد اعتمادا كبيرا على المراجع العربية ووجهات نظر الطرف العربي والفلسطيني مما يجعل الكتاب بشكله الاصلي يبدو متحيزا وغير موضوعي .

ولكن اهم ما جاء في رسالة الدار الى المؤلف هو المبرر الذي قدمته الدار لاضطرارها اعادة النظر في شكل الكتاب ومضمونه بعد تدخل صاحب الدار شخصيا في الموضوع . فقد جاء في الرسالة « ان الدار مع اعترافها بقيمة البحث وموافقتها المبدئية على اصدار كتاب ينتقد الصهيونية على اسس علمية مدروسة درسا عميقا ، الا انه يجب مراعاة عدة امور مبدئية بالنسبة لموضوع الصهيونية واسرائيل ، اذ ان اي كتاب انتقادي يتعرض مثلا للولايات المتحدة او اليابان او الارجنتين لن يؤدي الى اثارة الحساسيات ، ولكن ان يصدر كتاب عن اسرائيل هنا (اي في المانيا) وفي هذه الظروف فهو امر يختلف اختلافا كليا . فرأي بعض الشباب الاشتراكيين الذين يتفهمون موقفهم الايديولوجي في المسألة اليهودية لا يمكن تعميمه على شعب باكمله. فالعقلانية السياسية تصطدم هنا بالحدود الموضوعية واي اهمال لهذه الحدود فيه خطأ كبير ، فاسرائيل تتمتع بتأييد وعطف واسعين . ومرد ذلك الى التضامن مع ضحايا النازية والمبالغة في التعويضات عما حل باليهود . كما انه يوجد هنالك لاسامية مبطنة لدى فئات واسعة يواجهها من ناحية اخرى شعور لدى رجال الفكر بالاحجام عن انتقاد اليهود خوفا من حدوث استغلال من قبل الفئات اللاسامية لهذا الانتقاد وبناء حجج جديدة عليه ضد اليهود مما سيؤدي الى انعاش اللاسامية ثانية . وعليه فان اي كتاب انتقادي لاسرائيل يجب ان يحسب حساب تأثيره على الراي العام ، ويجب ان يتجنب مثل هذا الكتاب اسلوب المجادلة الكلامية (Polemik) والتهويل ، وان يكون موضوعيا وغير متحيز وقائما على الاحاجيج بدل العبارات العامة . كما يجب ان لا يدعو الى الاستنفار لانه في مثل هذه الحالة سيؤدي الى عكس ما يقصده ، ويجب ان يراعي مشاعر القراء اصحاب وجهات النظر المخالفة وذلك باستعمال اسلوب الاقناع الهادىء » .

واقترت الرسالة ان كتاب البرفسور هولشتاين يتمتع بالعديد من هذه الشروط ولكنه يحتاج الى بعض التعديلات حتى تكتمل فيه جميع الشروط وتقول الرسالة « اذا لم يوافق المؤلف على هذه الشروط ويرى ان يلجأ الى اصدار الكتاب كما هو في دار نشر اخرى فانه سيتحمل العديد من المصاعب التي سيكون من ضمنها ايقاع الاذى بسمعته ، فمحررو الدار يجدون انفسهم في وضع صعب وهم لا يستبعدون حدوث فضيحة صحافية ربما تؤدي بصورة غير مباشرة الى اندلاع موجة من اللاسامية تلحق بالدار خسائر فادحة ولا يمكن ان يكون هذا من اهداف المؤلف ، لهذا تقترح الدار حلا وسطا وهو اجراء المراجعة والتعديلات واضافة مقدمة ايضاحية للكتاب توضح هدفها من اصداره . وقد وافق المؤلف على هذه الشروط انقاذا للكتاب ولاعتقاده ان الكتاب حتى بعد اجراء التعديلات واضافة المقدمة سيؤدي الى الهدف الذي وضعه امامه عند تأليفه وهو اطلاع الراي العام الاوروبي على صفحة مطوية من صفحات الحركة الصهيونية وممارساتها في فلسطين . اما المقدمة التي اضافتها الدار الى الكتاب فانها ، وان كانت تحمل لهجة الاعتذار لاسرائيل ومؤيديها، الا انها لا تحتوي على اي مقاطع او معاني تقلل من قيمة الكتاب او تبطل مفعوله .

يقع الكتاب في ٢٨٠ صفحة موزعة على تسعة فصول هي : الصهيونية واللاسامية ، سياسة وضع الاهداف في الحركة الصهيونية ، الاستعمار الصهيوني في فلسطين (فصلان) ، تقسيم فلسطين ، وهكذا قامت اسرائيل (ثلاثة فصول)، المقاومة الفلسطينية . لن نستعرض هنا ما جاء في هذه الفصول لكن ما نريد ان نؤكده ان الفصول بمجموعها قد اختصرت تاريخا طويلا في صفحات قليلة دون ان تفقد هذا التاريخ اي عنصر من عناصر تكوينه . ان هذه ميزة يتحلى بها الكتاب على طول الخط مما يجعله صالحا للقارىء العادي الذي يحتاج الى كتاب بسيط ولكنه مفيد من حيث تقديمه المعلومات والحقائق الرئيسية ، وربما كان هذا هو السبب الذي دعا دار النشر الى اصدار الكتاب في طبعة جيب شعبية بثمن يتحمله المواطن صاحب الدخل المتوسط .

يعتبر كتاب البروفسور هولشتاين موضوع هذه المراجعة وثيقة سياسية تاريخية هامة استطاعت خرق حاجز الصمت الفكري الرهيب الذي طوق القضية الفلسطينية في المانيا الغربية منذ وضعت

الحكومة الالمانية مبدأ محو الجريمة النازية بحق اليهود في صلب سياستها الخارجية والاعلامية تجاه اسرائيل . كما ان الكتاب وعلى الرغم من التعديلات والمقدمة التي فرضتها عليه دار النشر لا يزال يسجل لهذه الدار فضلا ادبيا لاقدامها على نشره على الرغم من ان بعض اجزائه يتعارض مع آراء صاحب الدار . ويظهر ان لجنة المحررين التي اشرفت على اصدار الكتاب كان لها دور ايجابي في الاصرار على نشره . ولكن الكتاب يشكو من بعض نقاط الضعف التي لا علاقة لدار النشر بها ولا يمكن تحميلها سوى للمؤلف . فالكتاب عند مطالعته ككل يبدو وكانه ملخص لكتابات العديد من المفكرين التقدميين الذين عالجوا القضية ونذكر منهم من الاجانب مكسيم رودنسون (يهودي فرنسي) ، اهارون كوهين (يهودي اسرائيلي) ايلي لوبل (يهودي اسرائيلي) اريك رولو (يهودي فرنسي) وارنولد توينبي المؤرخ البريطاني ومن العرب انور عبد الملك وصبري جريس وسامي هداوي .

والكتاب يلجأ في اكثر جمله الى الاشارة الى المراجع لدعم ما يذكره حتى انه يكاد يخلو من رأي خاص للمؤلف . وهذا الاسلوب جاء رحمة ولعنة على الكتاب ، فهو رحمة اذ انه جمع مع الكتاب قائمة فريدة من المراجع لم يحتوها كتاب اجنبي من قبله ، وهي تشكل قيمة علمية بحد ذاتها . اما اللعنة فلكون هذه المراجع جعلت الاقوال والجمل المقتبسة تطغى في اكثر من اي موضع على روح التحليل والاستنتاج .

في العديد من المواقع يقع المؤلف في تناقضات ، ان كانت تبدو عند قراءتها مع تسلسل الوقائع ثانوية الا انها في حالة تكرارها تفقد الكتاب والمؤلف الكثير من المبدئية التي يتحلى بها الكتاب ككل . وعلى سبيل المثال يقع الكاتب مرارا في خطأ تسمية قيام دولة اسرائيل « بحرب التحرير او معركة الاستقلال » في الوقت الذي يكون فيه مسترسلا في وصف عدوانية اسرائيل وامبريالية الصهيونية .

يعتبر الفصل الاخير من الكتاب وما تضمنه من تحديد لطبيعة المواجهة بين اسرائيل والمقاومة الفلسطينية (والاستنتاج بان المقاومة هي الرد التاريخي الحقيقي للهجوم الصهيوني والواقع الاجتماعي في المنطقة) نقطة فارقة في تحليله للقضية الفلسطينية منذ اوائل الاستيطان الصهيوني حتى ظهور المقاومة المسلحة . ويكتسب هذا التحليل والاستنتاج اهمية خاصة في هذه الفترة التي تتعرض فيها المقاومة الفلسطينية الى اعنف حملة صهيونية عرفها تاريخ الثورة الفلسطينية منذ عام ١٩٢٠ ، خاصة بعد موجة الارهاب الاعلامي الصهيوني والتهديد الاسرائيلي بالتصفية الجسدية الكاملة لكل مؤسسات المقاومة ومصادرها البشرية ، والذي بدأ تنفيذه فعلا بالهجمات الاسرائيلية الاخيرة على تجمعات الفلسطينيين في سوريا ولبنان بهدف تحطيم القاعدة البشرية التي تتغذى منها المقاومة عربيا وفلسطينيا . من هنا يكون وجود كتاب هولشتاين في الاسواق الاوروبية بجانب تعليقات بعض الكتاب من اصحاب الالتزام الثوري والانساني على انسانية القضية والتحامها بمستقبل جماهير المنطقة وشعوبها بمثابة حجر اساس يمكن البناء عليه سياسيا واعلاميا لاخراج القضية من اطارها الدولي الروتيني كمشكلة نزاع عربي — اسرائيلي حول حدود آمنة واعترافه بسيادات دول وضمان وحدة اراضيها ، واعادتها ثانية الى حجمها الاصلي كقضية مصير التقدم الاجتماعي والاستقرار السياسي لمنطقة الشرق الاوسط وشعوبه واعتبار حق الشعب العربي والفلسطيني في مقاومة الدولة الصهيونية المدخل الوحيد للقضية من بابها التاريخي اقتصاديا واجتماعيا .

الدكتور عدنان العمد

William L. Cleveland, **The Making of an Arab Nationalist: Ottomanism and Arabism in the Life and Thought of Sati' al-Husri** (Princeton University Press, Princeton, 1971).

اول ما يتبادر الى الاذهان عندما يقرن اسم ساطع الحصري بفلسطين ، عبارته الشهيرة « سئلت لماذا خسرنا فلسطين ونحن سبع دول ، فاجبتهم خسرناها **لاننا** سبع دول » . ومع ان الحصري لم يخصص كتابا من بين انتاجه الغزير ليعالج فيه القضية الفلسطينية بتفصيل ، الا ان الباحث الامريكي وليم كليفلند لا يقلل من اهمية مساهمته في القضية ، اذ يقول في ص ١٣١ من كتابه : « لم يعالج الحصري مشكلة فلسطين باسهاب كما فعل سائر القوميين العرب . فهو لم يؤكد على ضرورة المعركة الحاسمة ، او يتوسع بالحديث عن فظائع الاسرائيليين ، فطريقته اعمق من ذلك : انه يكرر دوما حتمية الوحدة العربية ، بما في ذلك فلسطين، معتبرا دوره في تحرير الارض دور الدعائي وليس المخطط للعمل المباشر . ففي تقرير قدمه الى المشتركين بمؤتمر بلودان حول القضية ، اقترح برنامجا للتصدي لادعاءات الصهيونيين يتضمن نشر المعلومات في الغرب والشرق ، وبين ابناء الجيل القادم الذي سيواجه اعظم تحد من الصهيونية ». وفي ص ٧٥ يذكر كليفلند ان الحصري دعا العراق ابان الثورة الفلسطينية في الثلاثينات الى اعتناق مبدأ الانحياز ، والى الضغط على الدول الغربية من اجل نيل التنازلات منها بالنسبة لفلسطين وسورية . وفي الوقت الذي عارض فيه نوري سعيد ارسال الاسلحة الى فلسطين لئلا تستعمل هناك ضد الجنود البريطانيين ، طالب الحصري بارسالها وندد بخضوع نوري التام لبريطانيا ، مما جر عليه نقمة النظام الحاكم في العراق ،الذي وجد في تأييده لحكومة رشيد عالي الكيلاني الوطنية عذرا في سحب الجنسية العراقية منه .

ان اهمية كتاب كليفلند تكمن في تتبعه للنمو الفكري لدى ساطع الحصري ابتداء من ايام شبابه في العهد العثماني ، عندما كان احد المؤمنين بوجوب بقاء الدولة العثمانية ، الى حين اكتشافه القومية العربية بعد الحرب العالمية الاولى وتكريسه الجزء الاكبر من حياته لخدمة وترويج هذه الفكرة كمؤلف ومرب . وينقسم الكتاب الى قسمين ، اولهما يتناول حياة الحصري ، والثاني يركز على ارائه في القومية العربية . وقد عاش الحصري حياة غنية بالتجارب الفكرية والعملية ، اذ كان ابوه قاضيا من حلب يتنقل بحكم منصبه في الجهاز الحكومي بارجاء الامبراطورية العثمانية ، فولد ابنه ساطع في صنعاء عام ١٨٨٠ وتعلم في المدرسة الملكية في استنبول حيث برز في الرياضيات واللغة الفرنسية . وعبر هذه اللغة اكتشف الحصري روائع الفكر الاوروبي وتراثه العلمي . وبعد تخرجه عين مدرسا في ولاية يانيه التي تقع اليوم بين اليونان والبانيا ، فمكث في البلقان ثمانية اعوام نضج فيها فكريا والف اثناءها اربعة كتب اعتمدت للتدريس بجميع المدارس الابتدائية والثانوية بالامبراطورية . وقد جذبت اليه مواهبه التربوية اهتمام المثقفين ، فقرر ان يترك التدريس من اجل وظيفة اخرى تتيح له مجالات اوسع لنشر افكاره الاصلاحية . فعين قائمقاما لمدينة في مقدونيه وتدرج في المناصب . واخيرا ترك الوظيفة الحكومية في البلقان واستقر في استنبول حيث اصدر مجلة علمية . واصبحت له في هذه الاونة علاقة قوية مع حزب الاتحاد والترقي الذي كان يطالب باعادة الدستور ، الا ان الحصري لم ينتم الى الحزب . وكان الحصري قد اصبح في عداد كبار المربين والمفكرين في الامبراطورية العثمانية على الرغم من حداثة سنه ، اذ لم يكن قد بلغ الثلاثين بعد ، عندما وقع الانقلاب الذي ازيح فيه السلطان عبد الحميد عن العرش عام ١٩٠٨ . وفي هذه المرحلة من حياته بقي متمسكا بالفكرة العثمانية ، وبمنأى عن المنادين باحياء الكيان العربي المستقل ، الا انه لم ينجرف مع التيار الذي مثلته حركة تركيا الفتاة في سعيها لتتريك الامبراطورية . ولكنه واصل في كتاباته الدعوة الى احداث تطوير على نمط اوروبي للدولة بعد ان عين مديرا لكلية المعلمين .

ويشدد كليفلند على الاتجاه العلماني للحصري ، وهو الاتجاه الذي لم يتخل عنه طول حياته ، اذ لم يؤمن بجدوى الجامعة الاسلامية ، لا في اثناء وجود الدولة العثمانية ، ولا بعد استقلال الاقطار العربية . الا ان الباحث الامريكي يشير الى الاختلاف في نظرة الحصري الى مقومات الدولة بين المرحلتين العثمانية والعربية في حياته . فهو في

المرحلة الاولى كان يؤيد انضمام اقليمي الالزاس واللورين الى فرنسا وذلك لحقها التاريخي بهما ، مع ان سكان هذين الاقليمين كانوا ينطقون الالمانية. ولكن الحصري لم يكن آنذاك يعير وحدة اللغة اهمية كبيرة في تكوين الدولة الواحدة ، باعتبار ان الامبراطورية العثمانية كانت تضم شعوبا عديدة . اما بعد نهاية الحرب الكونية ، وعندما قرر العودة الى الوطن العربي ، فقد غير وجهة نظره ، واصبح يعارض بشدة عقيدة المفكر الفرنسي ايرنست رينان في مقومات الامة .

حافظ الحصري على ولائه للدولة العثمانية اثناء الحرب ، ولم يستطع كليفلند ان يحدد موقفه تجاه دخول القوات العربية دمشق تحت الراية الهاشمية . كما انه لم يتمكن من ان يعين بالضبط الدوافع التي جعلته يعود الى البلاد العربية بعد ان كان قد اقام في تركيا الجزء الاكبر من حياته حتى ذلك الحين. فالاتراك بعد انهيار امبراطوريتهم طالبوه بالبقاء في بلادهم ، كما ان زوجته التركية لم تكن متحمسة لمغادرة وطنها . ولكن الحصري عاد الى الوطن العربي،لمعين مديرا عاما للتعليم ثم وزيرا للمعارف في حكومة فيصل السورية ذات العمر القصير . وعندما زحف الجنرال الفرنسي غورو على دمشق ، انتدب الحصري ليفاوضه بسبب اتقانه الفرنسية ، وقد ترك لنا سجلا لتلك المرحلة الحاسمة في كتابه « يوم ميسلون » وبقي الحصري في معية الملك فيصل بعد ان فقد الاخير عرشه ، فطاف معه في رحلاته ، كما قضى فترة من الزمن في القاهرة يدرس الاساليب التربوية المستخدمة فيها ، فمصر كانت القطر الوحيد الذي تدرس فيه المناهج التعليمية بالعربية .

وعندما توج فيصل ملكا على العراق ، عين الحصري مديرا عاما للمعارف . وكما هي عادته ظل بمنأى عن النشاط السياسي ، مكرسا نفسه كليا لعمله التربوي . فألف الكتب واصدر الحوليات ، الا ان العراق الذي كان آنذاك يمر في طور التكوين ، وتعصف به الاهواء والاتجاهات المتباينة، علاوة على العصبيات القبلية والطائفية، لم يجعل مهمة الحصري هينة . فهو اولا كان خريج مدرسة مدنية يعمل جنبا الى جنب مع رجال اغلبيتهم من العسكريين خريجي الكلية الحربية في الاستانة . ثم انه كان سوريا بين عراقيين ، ومثقفا غربي التفكير بين اناس من انصاف المتعلمين . وكان ثابتا لا يلين في موقفه ، يقاوم موجات المعارضة التي اكتنفته من كل جانب تقريبا بعناد الرجل الذي يعرف انه على حق . الا انه اضطر الى الاستقالة من منصبه في النهاية ، ليلتحق بدار المعلمين في بغداد كاستاذ . ثم عين بعد ذلك عميدا لكلية الحقوق ، واخيرا مديرا عاما للآثار ، بغية ابعاده نهائيا عن سلك التعليم. ولكن حتى في هذا الحقل البعيد عن اختصاصه الاصلي ، ابدى الحصري كفاءة لفتت اليه انتباه عصبة الامم التي عينته عضوا في لجنتها الاستشارية المختصة بشؤون الآثار والفنون . وعندما سقطت حكومة رشيد عالي التي كان الحصري قد تعاطف معها لسياستها الوطنية الهادفة الى ازالة النفوذ البريطاني عن العراق ، سحبت منه الجنسية وطرد من البلاد . فأقام في بيروت اولا ، ثم دعته الحكومة السورية بعد استقلال البلاد للمساهمة في وضع سياسة تربوية جديدة ، الا ان اصلاحاته اثارت تذمر الكثيرين الذين لم يرق لهم اتجاهه العلماني ، فغادر دمشق الى القاهرة ، ليصبح اول عميد لمعهد الدراسات العربية العليا . ومع انه تقاعد عام ١٩٥٧ الا انه استمر في التاليف ، داعيا للوحدة العربية ومدافعا عن القومية العربية ضد المتهجمين عليها ، فأنعم عليه الرئيس عبد الناصر بوسام رفيع ، كما اعادت اليه الحكومة العراقية جنسيته ، وتوفي في بغداد في كانون الاول ١٩٦٨ ، بالغا من العمر ٨٨ عاما.

المفتاح في شخصية الحصري ، كما يراه كليفلند ، هو اعتناقه للمنهج البراغماتي في التفكير منذ شبابه . فانه بعد سقوط الدولة العثمانية التي كان هو من دعاة بقائها ، لم يجد صعوبة كبيرة في تطوير عقيدته المتعلقة بتكوين الامة — الدولة من الايمان بالدولة التي يبرر تاريخها الطويل استمرار بقائها كوحدة متكاملة ، (كالامبراطورية العثمانية ، على الرغم من انها تضم شعوبا تنطق بلغات متعددة) الى المناداة بنشوء الدولة ارتكازا على الامة ذات اللسان الواحد المشترك . كان الحصري متاثرا بتعاليم الفيلسوف الالماني فيخته الذي دعا الى وحدة الامة الالمانية في خطب بليغة الهبت حماس المثقفين الالمان .. الا انه — أي الحصري — فضل ان يضع دعوته في قالب اكثر هدوءا وعقلانية . فان كتبه التي صاغها في أسلوب مبسط سلس تسري فيها روح علمية رصينة ، وتنطلق من قاعدة جدلية بيداغوغية ذات تأثير

آسر، مما يفسر نجاحها الكبير ورواجها بين الناس، كان للحصري تلاميذ كثيرون تسلقوا على كتفيه ، ولكنهم بعد ذلك انكروه، الا انهم اذا كانوا قد درسوا مبادىء القومية على يديه ، فان كتبهم التي بدأ سيلها يتدفق منذ اواخر الخمسينات كانت اما من النوع التائه بين سحب الرومانسية ، او مــن الطراز المنطلق من قاعدة ماركسية غير مهضومة كليا . لقد عابوا عليه قلة اهتمامه بالاقتصاد ، واخذوا عليه صداقته مع الملك فيصل الاول ، ولكنته التركية التي اثقلت لسانه العربي الى يوم مماته ، متناسين انه اول من كتب عن القومية بأسلوب علمي ، واول من دعا الى العلمانية في التعليم في عهود طغى عليها التفكير الغيبي ، واول من نادى بعروبة مصر التي لا تنكر ، ومن اوائل العرب (بعد ابن خلدون) الذين كتبوا فــي علم الاجتماع . وانه اخيرا وليس أقل اهمية ، عالم تربوي كبير ، وتشهد له بذلك « القراءة الخلدونية » التي ما زالت تعتبر من افضل الكتب التي ألفت لتعليم الاطفال القراءة والكتابة . صحيح انــه اختلف مع كارل ماركس في تعريفه للقومية ، الا ان جميع الاحداث والتطورات التاريخية تقف الــى جانب هذا المفكر العربي وتشير الى انه كان على حق في هذه النقطة على الاقل . وختاما لا بد من القول بأن وليم كليفلند قام بجهد طيب في تقديم شخصية ساطع الحصري وتفسير نظرياته في كتاب لا يضم اكثر من ١٨٢ صفحــة . وينبغي ايضا الاشادة بملحق الكتاب الذي يشتمل على سجل كامل لكتابات الحصري في التركية والعربية .

ف. المنصور

Elmer Berger, **Letters and Non-Letters: The White House, Zionism and Israel.**
(The Institute for Palestine Studies, Beirut, 1972).

الكتاب عبارة عن عدد من الرسائل المتبادلة بين المر بيرغر ، حين كان رئيسا للمجلس الاميركي لليهودية المعادي للصهيونية ، وبين عدد مــن العاملين في ادارة نيكسون الاميركية ، وذلك خلال سنة كاملــة بين آب (اغسطس) ١٩٧٠ وآب (اغسطس) ١٩٧١ . ويبلغ عدد الرسائل المتبادلة ١٢ رسالة تعكس وجهة نظر المؤسسة الحاكمة في الولايات المتحدة الاميركية ، وتبين جانب السياسة الامبريالية المراوغ في معالجتهــا لقضية الشرق الاوسط في هذه الاونة . والجدير بالملاحظة ان مايكــل آدامز ، مراســل صحيفة الغارديــان البريطانية السابق في منطقة الشرق الاوسط ، قد قدم للكتاب . واذا كان آدامز يعتقد ــ دون ان يذكر السبب ــ « ان نشر رسائل بيرغر قد لا يؤثر بصانعي سياسة الولايات المتحدة الاميركية » ، فنحن نؤكد ان هــذا لن يحدث نظــرا للارتباط العضوي بين الكيــان الصهيوني في اسرائيــل والامبريالية . ويأمل آدامز ان يؤثر نشر رسائل بيرغر في الشعب الاميركي ، القوة الوحيدة التي يمكن « ان تجبر صانعي السياسة فــي البيت الابيض على تغيــير سياسة الادارة الاميركيــة وتحويلها للعمل من اجل التوصل الى سلام عادل في الشرق الاوسط » . ويضيف آدامز انه ما لم يحدث مثل هذا التحول « فان المساعدة الاميركية لاسرائيل ستستمر .. وهذا يعني تعطيل جميع الجهود التي قد تبذلها الامم الاخرى من اجل توطيد السلام » . ويلتقي آدامز مع بيرغر في الدعوة الى سلام « قائم على حقوق متساوية لكل الشعوب ــ بما فيها الشعب الفلسطيني ــ تعيش في حرية وسعادة » وليس سلاما قائمــا على التفرقــة العنصرية او الظلم.

المسالة الرئيسية التي يثيرها بيرغر في الدرجة

الاولى هي مسالة « الشخصية اليهودية » لدولة اسرائيل . ودلت رسائل بيرغر على استيائه الشديد من المساعدة المستمرة التي تقدمها الحكومة الامريكية « للدولة العنصرية في اسرائيل » والتي عملت — ولا تزال من اجل خلق اغلبية من اليهود فوق أرض فلسطين كي تستكمل العناصر الشرعية والقانونية ، وتوفر لنفسها شروط البقاء والاستمرار . ويربط بيرغر موقف الادارة الامريكية هذا بأهداف الحركة الصهيونية العالمية الرامية الى ضرورة الحفاظ على « شخصية يهودية جوهرية لدولة اسرائيل » . من خلال هذا الفهم ينطلق بيرغر في حملته ضد الصهيونية التي حققت « أغلبية يهودية في فلسطين » على حساب شعب فلسطين . وبهذا الفهم تصطبغ رسائله الموجهة الى البيت الابيض خلال عام كامل .

بعد المبادرة الامريكية التي أعلنت في صيف عام ١٩٧٠ ، والتي عرفت منذ ذلك الحين بمبادرة روجرز وجه بيرغر رسالة الى الرئيس نيكسون في ٢٥ آب (اغسطس) تمنى فيها « أن يقرأ الرئيس رسالته شخصيا ، أو أحد من مساعديه المشرفين على أزمة الشرق الاوسط » . ويضيف بيرغر في رسالته ان المبادرة « تقدم افضل فرصة — منذ أكثر من عشرين عاما — من اجل اقامة سلام عادل ودائم في الازمة الاسرائيلية — الصهيونية — العربية » . ويذكر بيرغر الرئيس الامريكي بتقرير صحفي صادر عن احد المسؤولين في البيت الابيض ونشر في جريدة (نيويورك تايمز) في ١٧ آب (اغسطس) ١٩٧٠ وجاء فيه : « ان الولايات المتحدة لا ترى اية فرصة للتوصل الى حل لازمة الشرق الاوسط ما دامت الدول العربية تصر على اعادة (١٫٣) مليون لاجيء فلسطيني الى (اراضيهم) ، في حين ان اسرائيل تبدو غير مقتنعة باعادة هذا العدد الكبير من اللاجئين لان ذلك يهدد الشخصية اليهودية الجوهرية لدولة اسرائيل » . ويؤكد بيرغر ان هذا التصريح يتناقض مع الاتفاقيات الدولية القانونية والمعترف بها بشكل عام ، وخاصة ما يتعلق منها بالمسالة الفلسطينية . الا ان بيرغر يعود ويؤكد في رسالته الى الرئيس الاميركي ان موقف الولايات المتحدة هذا يعبر عن مخاوف الادارة الامريكية ازاء كل ما يهدد تغيير « الشخصية الاساسية اليهودية لدولة اسرائيل » .

يؤكد بيرغر ان « الصهيونية لا يمكن ان تتطور وتؤسس دولة صهيونية دون انتهاك حقوق الفلسطينيين المعادين للصهيونية ، وهذا يزيد من تشعب المشكلة الرئيسية في فلسطين وصعوبتها ». ويضيف بيرغر بوضوح أكثر ، « ان الشخصية الصهيونية لا تعتمد على التفرقة العنصرية ضد المسلمين والمسيحيين من الفلسطينيين وحسب ، بل ضد المعادين للصهيونية من اليهود ايضا » . ويتهم بيرغر الادارة الامريكية لانها ساعدت حركة الصهيونية العالمية من اجل طرد الفلسطينيين والتوصل الى اغلبية سكانية من اليهود سعيا وراء « وضع قانوني » لدولة اسرائيل . ان هذه المساعدة جعلت من اسرائيل « دولة يهودية » ، وبصورة أدق « دولة صهيونية » . ناحية أخرى تثير اهتمام بيرغر وهي ان الادارة الامريكية قد أعلنت أكثر من مرة بأن اطراف النزاع في الشرق الاوسط « هم الذين تقع على عاتقهم مسؤولية التوصل الى حل . وان الولايات المتحدة الامريكية لن تفرض حلا خاصا بها من اجل ذلك » . وجاءت هذه التصريحات من البيت الابيض التي ذكر في احدها ، كما نشر في جريدة نيويورك تايمز ان « مفتاح السلام في الشرق الاوسط بيد العديد من الاطراف : اولا ، الاطراف المعنية في المشكلة : الاسرائيليون وجيرانهم ، وعلى وجه الخصوص الجمهورية العربية المتحدة (ذلك الحين) والاردن. وهو ثانيا ، في أيدي الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا العظمى وفرنسا ... الاربع الكبار » . ويضيف التصريح انه « اذا لم يقم الاتحاد السوفياتي بدور توفيقي يساعد في التوصل الى سلام فليس هناك فرصة على الاطلاق من اجل تحقيق السلام في الشرق الاوسط » . ويعلق بيرغر على الفقرة الاخيرة من التصريح بقوله انها « مقبولة ظاهريا » ، ويتساءل في رسالته الى الرئيس نيكسون المؤرخة ١١ كانون الثاني (يناير) ١٩٧١ انه اذا كان الاتحاد السوفياتي مسؤولا عن السيطرة على وجهات نظر الحكومات والشعوب العربية المعنية في أزمة الشرق الاوسط ، فانك (أي الرئيس الاميركي) « لم تشر الى انه بامكان الولايات المتحدة — او انها ستفعل ذلك — القيام بمحاولة مماثلة للسيطرة على سياسات اسرائيل وتوجيه مواقفها ... بينما ، في الواقع ، ان عددا من اعضاء حكومتك صرحوا في عدة مناسبات ان الولايات المتحدة لا تستطيع القيام بهذا الدور».

ان بيرغر هنا يحاول الدخول في اللعبة السياسية الدولية ولكن ، اذا كان السلام الذي يدعو بيرغر اليه ويعمل من اجل تحقيقه هـو السلام الذي ستفرضه — عـاجلا او آجلا — الدول الاربع الكبار ، او الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، او الولايات المتحدة منفردة ، .. فهذا امر آخر . ان بيرغر في هذه الحالة يدخل اللعبة السياسية الدولية تحت اقواس الترحيب . ولذلك من الافضل ان يركز بيرغر عملـه السياسي بين الصفـوف الاميركية واليهودية في الولايات المتحدة من اجل فهم اكثر موضوعية للقضية الفلسطينية . يشير بيرغر في رسالة اخرى الى ان الادارة الاميركية ترفض ان تدرك بأن دعمهـا المتواصل لدولـة اسرائيل « الصهيونية العنصرية » هو تعطيل دائم « لفرص السلام في المنطقة » . ويحاول بيرغر ان يثقل كاهل الحكومة الاميركية بالاحتجاج والاحراج عند قوله ان « الولايات المتحدة — مـن خلال الدعم الذي تقدمه الى اسرائيل — تتمتع بموقف قوي يخولها ان تتخذ اجراءات حاسمة ضد الدولة العنصرية » .. هذا اذا كانت تسعى بالفعل الى سلام عادل ودائم في المنطقة (!) .

مما لا شك فيه ان الناحية الايجابية في رسائل بيرغر تكمن في ما يمثله الحاخم بيرغر بين يهود العالم عامة ويهود الولايات المتحدة الاميركيـة خاصة ، وليست في رسائله المتبادلة مـع البيت الابيض . وحتى يصبح للرسائل دور ايجابي يجب تعميمها على اليهود مـن الاميركيين ونشرها في الصحف الغربية المختلفة باعتبارها صادرة عـن مؤسسة يهودية معادية للصهيونية وذات مضمون انساني . لقد جعل البيت الابيض من رسائل بيرغر تبدو وكأنها صرخة في واد . بالطبع ، تلقى بيرغر ردودا على بعض من رسائله .. وكانت تصله جميعها مع « خالص شكر واحترام العاملين في البيت الابيض » . ففي رد أرسل به نوبل م. ميلينكامب احد مساعدي الرئيس الاميركي قال مخاطبا بيرغر ان رسالته « اعطيت الى اعضاء عاملين في مكتب كيسنجر » . وطلب من بيرغر ان يكون على ثقة تامة بأن اقتراحاته « ستلقى العناية التي تستحق » . وفي رد آخر يجيب ميلينكامب على اقتراحات بيرغر ويقول « ان جميع الادارات التي تعاقبت على حكم الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٨ حرصت على سلامة اسرائيل وشرعيتها واستمرار وجودها .. وهذا واحد من العناصر الرئيسية التي يستحيل تجاهلها اذا ما اريد التوصل الى سلام في المنطقة » . ان بيرغر في جميع رسائله الى البيت الابيض لم يتطرق الى موضوع « وجود اسرائيل »، ولكن يبدو ان ميلينكامب — والبيت من ورائه — لا يرغب في ان يدرك ان بيرغر لا يناقش مسألة وجود اسرائيل ، بل « الشخصية اليهودية » لدولة اسرائيل . ان رد فعل البيت الابيض السلبي على رسائل بيرغر يجعل الحوار بين الاثنين وكأنه حوار طرشان ، ولذلك من المفضل ان يوفر بيرغر جهوده الضائعة ويسخرها لخدمة قضيته في مجالات اخرى بين القواعد الاجتماعيـة اليهودية والاميركيـة والغربية .. وهو بهذا سيحقق — لا شك — نتائج ملموسة وأكثر ايجابية . الا ان بيرغر يستمر في حواره مع البيت الابيض مبديا اسفه في رسالة وجهها الى ميلينكامب بتاريخ ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٧١ لانه لم يتلق ردا على اي من رسالتيه اللتين ارسلهما الى البيت الابيض « منذ اكثر من اربعة اشهر » والمؤرختين في ١٩ آذار (مارس) و٢٠ ايار (مايو) ١٩٧١ » . ان الترياق لا يأتي من حكومة الولايات المتحدة الاميركية . ومهما طال امد الحوار بين بيرغر والادارة الاميركية ، ومهما امتد زمن الدعوات الانسانية .. فان كل ذلك صراخ في واد .. ان الادارة الاميركية لا تقدم مساعدتها الى اسرائيل نتيجة خطأ ارتكبه احد رؤساء الجمهورية السابقين ، فان لهذه المساعدة جذورها العضوية والتاريخية والطبقية .

اننا نلتقي مع مايكل آدامز الذي يصف رسائل بيرغر بأنها على جانب كبير من الاهمية بالنسبة الى اولئك المهتمين بدراسة شؤون الشرق الاوسط بشكل عام ، وخصوصا بالنسبة الى كل اميركي يرغب في معرفة الدور الذي تقوم به بلاده في العالم ويتساءل عن الدافع وراء هذا الدور . ان بيرغر — وهو لا يختلف في ذلك عن آدامز من حيث النظرة الاوروبية الليبرالية لمعالجة ازمة الشرق الاوسط — ليس له كبير امل في التوصل الى ما يصبو اليه من خلال اطار ومضمون الجهود التي يبذلها من اجل التوصل الى « سلام عادل » في الشرق الاوسط . ان اية جهود تبذل للتوصل الى سلام بين شعوب منطقة الشرق الاوسط بدون التركيز على مسألة الارتباط العضوي والتاريخي بين الامبريالية والصهيونية تدفع بنفسها الى حتفها.

مصطفى كركوتي

تهليلة الموت والشهادة ، شعر توفيق زياد
(دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٢)

تطرح مجموعة توفيق زياد الجديدة : **تهليلة الموت والشهادة** ، موضوع فعالية الشعر ووظيفته الاجتماعية والسياسية بشكل حاد . فالشعر الفلسطيني المقاوم داخل الارض المحتلة هو امتداد لثلاثة تيارات فنية : الادب الشعبي الفلسطيني المقاوم ، الشعر الفلسطيني في الثلاثينات والاربعينات ، والتيارات الفنية الواقعية في المشرق العربي . من هنا نستطيع ان نفهم ظاهرة التمايز النسبي التي يتحلى بها هذا الشعر . فهو قبل كل شيء شعر يلتزم قضية شعبه . المشاكل اليومية ، ومحاولات التذويب والتهجير ، تفرض عليه خيارا واحدا : اما الالتزام الثوري بقضية الشعب او ان لا يكون هناك شعر فلسطيني على الاطلاق داخل الارض المحتلة . من هنا نستطيع ان نفهم الروحية القتالية والجماهيرية التي لهذا الشعر . فهو لا يستطيع بحكم واقعه ان يتخلى عن الهموم اليومية والعادية . كما انه لا يستطيع ان يغرق في البحث عن الاشكال الجديدة خلف الجدران . ان البحث عن الشكل الجديد لا يمكن ان يقوم خارج دائرة المعركة التي يخوضها الشعب الفلسطيني . والشعر المقاتل بحكم وظيفته الجماعية لا يستطيع ان يسمح لنفسه بالبعد عن الناس . انه يكتب لهم وبهم .

على هذا الاساس تاتي الاهمية التاريخية لتوفيق زياد . فزياد ما زال يحاول ويقوم بالتجارب الفنية في سبيل خلق لغة شعرية بسيطة وسهلة، تستطيع ان تستوعب التراث الشعبي والثوري وتقوم باعادة كتابته من جديد . وشعره كان دائما لصيقا بالهموم اليومية ، بالناس العاديين وبالتراث الشعبي الثوري . وفي مجموعته الجديدة يتابع زياد عملية بحثه هذه . وان يكتسب هذا البحث الآن مزيدا من العمق والرؤية الشمولية للاحداث، فانه يبقى متوكئا على التراث الشعبي ، انه يحاول ان ينطلق من محاولتين ثوريتين مهمتين : المقاومة وكومونة باريس ليستخلص الدروس ، وليمجد النضال الشعبي العربي والاممي ، مستعيرا صوت الكادحين ، محافظا على صوته الخاص الذي يكتسب عمقا تاريخيا في تفاؤله الثوري العميق بالنصر . .

تتألف مجموعة توفيق زياد هذه من قصيدتين طويلتين . **عمان في ايلول** . **ومئة سنة على كومونة باريس** . الرابط بين القصيدتين هو المحاولة الثورية الفاشلة . في عمان سحقت المقاومة تحت ضربات النظام الاردنى وفي باريس سحقت الكومونة قبل مئة سنة تحت ضربات البرجوازية الفرنسية المتعاونة مع الالمان . الرابط المشترك هو الموت والشهادة والتفاؤل التاريخي بالنصر . لكن طريقة المعالجة والفهم التاريخي للحدث يختلفان في القصيدتين . فبينما نجد في قصيدة **عمان في ايلول** نفسا شعبيا حارا وصادقا يحاول ان يرسم صورة للاحداث واضعا اياها ضمن التفاؤل التاريخي العام ، معطيا في نهايتها وجهة نظر سياسية في المذبحة وكيفية تداركها في المستقبل ، نجد ان هذا الصوت يصبح اكثر عقلانية واكثر موضوعية في **مئة سنة على كومونة باريس** حيث البطل الرئيسي والوحيد هو الطبقة العاملة وحيث يمكن وضع الكومونة في السياق الثوري الذي اوصل الى ثورة اوكتوبر السوفياتية .

١ — في قصيدة **عمان في ايلول** ترتفع التهاليل الثورية عبر خمسة اناشيد. القصيدة، باناشيدها الخمسة ، تتكامل مثل لوحة متعددة الالوان . كل نشيد له لونه الخاص وموسيقاه الخاصة . والقصيدة بمجموعها تعبر عن حادث واحد يمكن النظر اليه من خمسة مواقع . ولا تتكامل الصورة دون هذه المواقع مجتمعة .

النشيد الاول ، « تهليلة الذين يرفضون ان يموتوا ويرفضون ان يستسلموا » هو عبارة عن اغنية شعبية تمجد القتال . الايقاع البسيط ذو الصوت الواحد واللازمة التي تتكرر دائما ، تعطي لهذا النشيد طابعه الشعبي والملتصق بالناس العاديين.

« يا حادي العيس دب الصوت في الشطين

تكسر السيف في كفي انا نصفين

لكنني فوق صلباني اقاتلهم

فخذ فؤادي وروحي واعطني سيفين ».

هذا الصوت الشعبي ، الذي يرى في المعركة تهليلة حقيقية ، واضعا اياها في مستوى الصوت الباحث بين اغانيه القديمة عن مستقبله الذي

تصنعه المعركة ، لا يلبث ان يتابع في نشيد « يوميات من عرس الدم » . فالعرش الذي يحز وريد الشعب ، يحكم بالاعدام على نفسه . وجثث الآلاف الذين يسقطون يوميا تدل على ان هذا الشعب لا يموت .

« في اليوم التاسع

أصرخ في وجه الدنيا

هذا شعب ذو سبعة ارواح » .

ويصل توفيق زياد في « نماذج عادية من شعب غير عادي » الى قدرة مذهلة على استيعاب الروح الشعبية . فهو في خنادق المقاتلين في شوارع عمان ومخيماتها ، يرصد مشاعرهم ويذوب صوته في افكارهم ومشاعرهم المباشرة ، لكنه في الوقت نفسه يعود بهم الى التراث الثوري الفلسطيني ، فالمناضل الذي يموت اليوم هو ابن المقاتل الذي مات في ثورة ١٩٣٦ مشنوقا كما تخبرنا القصيدة العامية :

« لا تظن دمعي خوف

دمعي على اوطاني

على كمشة زغاليل

في البيت جوعاني »

وهي أبيات يضمنها زياد بشكل رائع في قصيدته هذه حتى لنخال انها جزء لا يتجزأ من مشاعر المقاتلين الذين سقطوا في أيلول الاسود . وزياد في تصويره لهذه المعارك يظل شاعرا بصوته الخاص، فهو بعيد عن ساحات عمان . لذلك يرفع صوته مع اصوات عرب الارض المحتلة محييا المقاتلين والمقاتلات :

« اه لو اقدر ان اجعل نفسي

في كفك

رشاشا للثورة »

وهو حين يتحدث عن المقاتلين ، يضمهم الى الارض ، الى جدلية الانسان — الارض . فمسعود الشيبان يظهر وكأنه شجرة خارجة من رحم الارض . انه :

« قطعة ارض فذت وانفصلت

واتخذت شكل مقاتل »

وحين يكتب عن العدو في « كلمات عن خصم غير مقطوع الراس لكنه بروح واحدة » فان التفاؤل بالنصر ، لا يأتي على حساب التقليل من قوة العدو ، لكن حتمية انتصار الشعوب على مستغليها تدفعه ليقول :

« يا أردن الشعب الصامد

في الزرقاء وعمان واربد

ما هو آت آت

والآتي سيبدد كل الظلمات »

توفيق زياد في قصائده الاربع هذه يريد شيئا واحدا : الاندماج الكامل بحركة الجماهير الواقعية . والشعر هو تهليلة ، نشيد جماعي ، صوت شامل ، الشعر هو سلاح للمقاتلين ، هو صيحة للحرب ، الشاعر هنا هو لحن موسيقي يمشي في مواكب المقاتلين . يغني احلامهم وآلامهم، يقف معهم في الخندق ويرفع صوته عاريا . لكنه في الوقت نفسه يعود في النشيد الاخير « اسئلة لا بد منها » الى محاولة استخلاص الدروس . والدروس عفوية لكنها في الوقت نفسه حارة الصوت . فعلى الزعماء ان يعرفوا « ان على الثورة ان تبقى يقظى » وهو يدعو الى مزيد من الحقد الثوري .

« هل يعرف بعض الزعماء

أن على مشنقة الثورة

ان تصنع

من حبل لا ينقطع

من ثقل الخصم المشنوق

لما يدخل في العقدة رأسه »

عمان في ايلول : تترافق في مجموعة زياد مع **مئة سنة على كومونة باريس** : القصيدة الاولى تحمل سمات العفوية والرؤيا الشعبية النافذة . انها محاولة لتأريخ حدث في ضمير الجماهير . من هنا تأتي لغتها المبسطة والسهلة وعودتها الى القصائد العامية الشعبية ، وتركيزها على مشاعر الافراد . وتوفيق زياد لا يضيع في التفاصيل ، انه يلتقطها التقاطا محولا اياها الى لوحة متكاملة . وهذه اللوحة ليست مغلقة . فالرمادي القاتم الذي يظهر في تصوير المذبحة ، لا يلبث ان يصطبغ بالاحمر ثم يتحول الى صوت واثق من النصر ، متعلم من الهزيمة دروس النصر . توفيق زياد يحاول عبر عمله هذا ، ان يتابع بحثه عن اللبن

الجماهيري ، الفن الذي يغتسل بالحياة اليومية وباللغة اليومية ، لكنه يبتعد عنها بمقدار ما يريد جعلها أكثر قابلية للحياة . ولئن يبدو بناء هذه القصيدة متناغما ، فانه يتميز بعدم سيطرة الشاعر على شعره . الشاعر والشعر هما طرفان في عمل واحد . وصيرورة هذا العمل تدمجهما بشدة وبحرارة لا واعية . هذا الاندماج لا يلبث ان يتفكك في قصيدة **مئة سنة على كومونة باريس** . النبرة هنا نبرة واعية والبناء الشعري اكثر تماسكا وان افتقد الى الحرارة التي رافقت القصيدة الاولى .

٢ — مئة سنة على كومونة باريس تحاول ان تسجل لاول ثورة بروليتارية في العالم . ووضعها الى جانب عمان في ايلول هو شيء طبيعي ، لا بل حتمي . فالثورة الفلسطينية التي تراجعت في ايلول امام دموية الامبريالية وانظمتها تذكر بالسقوط العظيم لكومونة باريس . للرجال « الذين حاولوا ان يقتحموا السماء » تقسم القصيدة الى ثمانية اناشيد . ومنذ النشيد الاول « الحب الاول » يظهر البطل . انه ليس فرديا ، انه الطبقة العاملة . البطل هو :

« أول عبد

يتجرأ

أن يمشي

منتصب الظهر » .

وفي النشيد الثاني من « باريس الى بتروغراد » تاتي دروس الكومونة . فالكومونة التي سقطت كانت الخميرة التي منها انفجرت ثورة اوكتوبر السوفياتية .

« لم تكن تعرف

انك انت المقتول بآذار

ستهب كعاصفة اعصار

ذات نهار

من اوكتوبر » .

بعد هذا التقديم ، تتوالى لوحات تصوير الثورة . فنشيد « لحظات قبل الوضع » يصور خيانة البرجوازية الفرنسية ، التي فجرت اللهب الثوري، هذا اللهب سيحول الدنيا الى « حديقة ازهار برية » . تحتضن المولود الاول من نوعه . وفي النشيد الرابع يلقي زياد الضوء على الطبقة صانعة الكومونة ، «الخارجون من احشاء النهار» و « النابتون كالفطر » .

« هبوا كالريح

كعاصفة تكتسح السبع سماوات »

وفي النشيد الخامس « بين الحلم والواقع » حيث يصور الشاعر الكومونة بأرق الكلمات ، يستعير صوته من ناظم حكمت ، ليصف الكومونة على انها :

« انضر عذراء واشهاها

اجملها اروعها واقساها »

هذه العودة الى عذرية القتال وقوته وجماله تمهد للمجزرة الدموية . حين نسمع في النشيد السادس صوت الراوي يخبرنا عن اتحاد الغالب والمغلوب تيير وبسمارك وكيف اتحد هذا الاتحاد :

« والوف العمال الشهداء

اصحاب الافروهولات الزرقاء

فرشت ابدانهم الدافئة المقتولة

نصف العاصمة الشرقي »

ويعود توفيق زياد في النشيدين الاخيرين مستعيرا صوت بني الايام الى تفاؤله المطلق بالشعب . وبحركة التاريخ . فبومضة عين استطاع التاريخ العملاق ان يقطع مئة عام ، والجوع الى الحرية هو محرك التقدم :

« والجوع الى الحرية كان

والجوع الى الحرية ما زال

الاجمل والاقسى

في تاريخ الانسان

في كل زمان ومكان » .

رؤيا الشاعر في القصيدتين واحدة . انها العمل في سبيل ان يتحول الصوت الشعري الى صوت جماعي . والشاعر يندرج في حركة التاريخ ، فهو لا ينفصل عنها انه يحاول عبر ربط القضيتين القومية والاممية ان يشير الى العدو . فكما تعاون تيير وبسمارك تعاون النظام الاردني والامبريالي. وفي الحالتين سقطت المحاولة الثورية في دماء ابنائها ، لكن الحركة الثورية مستمرة ، والتاريخ اصدر حكمه القاسي ، والنصر هو ثمرة نضال

بين الهزيمة والثورة .

امام هذه المجموعة الشعرية المفتوحة الافق على المستقبل ، نود ان نطرح سؤالا محددا :

كيف نفهم محاولة توفيق زياد الشعرية من خلال بحثنا عن مقومات الشعر الواقعي ؟

لا شك ان زياد يتابع في هذه المجموعة بحثه عن الارض الواقعية ، التي يستمد منها شعره . انه يحاول جاهدا الالتصاق بالجماهير . من هنا يحاول الاستفادة قدر الامكان من التراث الشعبي . هذه الاستفادة في المقابل تعاني خنوقا في المستوى التشكيلي للقصيدة . فهل صحيح ان الشعر الملتصق بحياة الجماهير ، يجب ان يبقى لصيقا بالشكل الشعري الحديث « التفعيلة الواحدة » ام انه ، واستنادا الى التراث والى الفهم المتطور لهذا التراث ، يستطيع ان يخلق اشكاله الجديدة، وينطلق الى رحاب اوسع من ان يحصرها شكل واحد . القصيدة ليست ايقاعها الموسيقي فقط لكن لهذا الايقاع دوره الخاص والفاعل . انه يتقولب في داخل الكلمة ليحيلها من مجرد تشكيل لفظي الى بركان يتفجر بالصور والانفعالات . وهنا فان لغة زياد لا تزال تبحث عن براكينها الداخلية . الاحتكاك بين الكلمة الشعرية والواقع يولد الابداع . والشاعر في وصلته الابداعية يتجاوز ماضيه محاولا ولوج مداخل النهر الجماهيري حيث يتفجر الابداع . فالفن المبدع هو لصيق الحياة ولصيق الصراعات الاجتماعية . الاصوات المتعددة داخل قصائد هذه المجموعة ، تؤكد ظاهرة ما تزال بحاجة الى درس . فالشاعر يجمع العديد من الاصوات والمواقف ليولد الحركة الايقاعية والانفعالية في قصيدته . وهو يقترب من سميح القاسم . ويبتعد عن درويش الذي يحاول في ديوانه الاخير **احبك او لا احبك** ان يخلق مساحات واسعة في قصيدته عبر عمقها الداخلي وليس عبر اصواتها المتعددة . هل يشير هذا الى ان الشاعر داخل الارض المحتلة بحاجة الى الخطابة المباشرة ، لان شعره هو شعر معركة مباشرة . بينما الشاعر المنفي خارج ارضه يستطيع ان يتحرر من هذه المتطلبات الملحة ؟ ان مجموعة توفيق زياد ، هي حنجرة متوترة ، تحاول ان تقرب الشاعر اكثر فاكثر من الجماهير . وتحاول ان ترسم لوحة متكاملة تأتلف في داخلها الشهادة والنصر والموت والحياة حتى تخرج الثورة من خضم هذه الصراعات الى انتصارها النهائي .

الياس خوري

الصحف الغربية وأحداث أيلول ١٩٧٠

توطئة

قالت السيدة آني غسان كنفاني في مؤتمرها الصحفي ، بعد استشهاد زوجها ، ان الصحف الاجنبية قد هيأت لاغتيال زوجها ، فقد ذكرت ان « صحيفة « الديلي ميل » البريطانية نشرت صورة لرجل يجلس مع شاب ياباني ، بعد عملية مطار اللد ، وكتبت تحتها انه غسان كنفاني ، ومع ان وكالة انباء الاسوشيتدبرس وزعت نفيا ، الا ان « الديلي ميل » لم تنشره . » — عن جريدة النهار — . ان هذا القول يستوقفنا للبحث جدية فيما تقدم الجرائد والمجلات الغربية حول الوضع السياسي والاجتماعي في المنطقة . ومن البديهي القول ان قطاعات كبيرة من الراي العام الغربي تأخذ معلوماتها من جرائد ومجلات بلدها ، لانها الوسيلة الوحيدة ، بعد الراديو والتلفزيون ، لنقل الاخبار والمعلومات . ما هو دور الجرائد الغربية في هذا المضمار وما هو مدى صحة نقاشها وطرحها عبر صفحاتها ؟ ان افتتاحيات الصحف قد تشكل لدى بعض القراء وجهة نظر خاصة في تحليل الامور السياسية ، وبالتالي تكون هذه الافتتاحيات بالنسبة لهم مقياسا للاحداث الجارية . وان تقييم هذه الاحداث عبر الاخبار التي تتناقلها وكالات الانباء ، قد تنطبع في ذهنية القارىء ويكون بذلك فهمه عن طبيعة ما يجري(١).

ويتأثر خط جريدة معينة في كثير من الاحيان بوضعها المادي ، فالجريدة تمولها اعلانات شركات عديدة. وبذلك تخضع الجريدة احيانا في خطها السياسي لتأثير العبء المادي(٢). ولكن على الجريدة مهمات يجب ان تمارسها وهي اساسا ضرورات نقل الاخبار والاحداث بموضوعية . ففي كثير من المواقف ، لم تعكس الجرائد الغربية ، بصورة واضحة ، عدة نقاط مهمة في تاريخ العرب المعاصر ، ولم تسجل هذه الجرائد موقفها المستقل من الاحداث ، فكان أن تكونت لدى القارىء الغربي عدة مفاهيم خاطئة عن الوضع في هذه المنطقة من العالم . ان سلاسل من المقالات والافتتاحيات التي تمشي ضمن خط محدد ترسخ هذا المفهوم لدى القارىء . كيف كانت الجرائد الغربية تسجل حقبة مهمة مرت بها الحركة الوطنية في العالم العربي ، فترة معارك شهر أيلول من عام ١٩٧٠ ؟ سنعمد في هذه الدراسة الى الاحاطة بخلفية الاحداث قبل بدء المعارك واثناء المعارك ، واثر تلك المعارك ، كما صورته الجرائد والمجلات الغربية .

مرحلة ما قبل معارك ايلول والصورة المشوهة لحركة المقاومة :

لقد صورت الجرائد الغربية ، اجمالا ، حركة المقاومة الفلسطينية تصويرا خاطئا ، فقد عكست الكثير منها ما مضمونه ان حركة المقاومة لا هم لها الا « عمليات الاعدام » لمواطنين عرب يتعاملون مع اسرائيل ، وان ذلك كما تحلله صحيفة «ساينس كريستشن مونيتور » « يعكس القلق الحاد الذي يسيطر على الفدائيين كلما ازدادت التحركات نحو الحل السلمي اندفاعا »(٣).

وفي اليوم التالي تنشر جريدة « نيويورك تايمز » المزيد من المعلومات حول عمليات الاغتيال . ومن الطبيعي، فان حصر مهمة حركة المقاومة بالاعدامات فقط يعكس الصورة المشوهة لدى القارىء الغربي، طالما ان الجرائد لم تشر الى منجزات حركة المقاومة على الاصعدة السياسية والاجتماعية . ثم تلجأ بعض الصحف لنشر اخبار عن وجود خلافات بين المنظمات حول مبدأ الموافقة على مشروع روجرز وهذا ما ظهر جليا في صحيفة « صنداي تايمز » حين نشرت تقريرا عن الوضع في غزة تشير فيه الى انه « تم العثور على ٤ جثث في احدى بيارات البرتقال في غزة لعناصر من

ج. ش. ت. ف. كانوا قد قتلوا في معركة مع منظمة فدائية منافسة بسبب الاختلاف على الموقف من مشروع روجرز »(٤). ثم تقف الجريدة موقفا احصائيا و« بذلك يصبح عدد الذين قتلوا في غزة في الشهر الماضي وحده ١٩ شخصا معظمهم اعدموا من قبل الفدائيين بسبب تعاونهم مع سلطات الاحتلال » .

ثم تتخطى « الصنداي تايمز » هذا الحد ، فتشير الى ان « عمليات التخريب » هذه « يقوم بها طلاب مدارس يتقاضون لقاء كل عملية ما بين ١٠ شلنات وجنيهين استرلينيين » . وبذلك تعطي صحيفة « الصنداي تايمز » حركة المقاومة صبغة الارتزاق وتنفي عنها كل مضمون اجتماعي وثوري، طالما ان الجريدة تقول في ذات البحث « ان معظم عمليات الاغتيالات تتم في المخيمات » وبهذا تكون صورة المخيم لدى القارىء الغربي عبر هذه الصحيفة صورة مخبأ لمرتزقة يقومون باغتيالات لاهل المخيم — اضافة الى قول الجريدة ان اللاجئين « يؤيدون الفدائيين بشكل سلبي نتيجة للبؤس والقهر الذي يعيشون فيه » ! وبهذا تكون الجريدة قد محت أية خلفية سياسية واجتماعية عن طبيعة العمل الفدائي ، وتكون قد حرمت سكان المخيمات من أي تطلع ثوري نحو مقاتليهم .

الجرائد الغربية وعمليات خطف الطائرات : كانت الجرائد والمجلات الغربية تعزل عمليات خطف الطائرات عن كل الدوافع الاجتماعية والسياسية، مظهرة ان هذه العمليات تقف ضد كل سلام العالم وأمنه ، وكانت ان تحولت الكثير من الجرائد بمقالاتها لبحث عمليات الخطف ومقاومتها ومنع تكرارها ، فالنيويورك تايمز تطلب من « جميع الدول الغربية وجميع شركات الطيران في العالم أن تقاطع الدول العربية وان ترفض السماح للطائرات العربية بالهبوط في اي مكان في العالم »(٥). ونجد ان بعض الجرائد كان يتخذ موقفا يشجع النظام الاردني على ضرب حركة المقاومة ، فقد اعتبرت التايمز ان البلاغات والمؤتمرات التي يصدرها ويعقدها الفدائيون « تثبت الانطباع ان هناك حكومتين في الاردن : الحكومة الرسمية وسلطة الفدائيين »(٦)، ولم تتورع صحيفة « الجارديان » ، مثلا ، عن اعطاء صورة غريبة للمقاتلين الفلسطينيين للراي العام الغربي ، فوصفت عناصر الجبهة الشعبية بانهم « يطلقون تفكيرا ليفكروا كأنهم خارجون عن القانون »(٧). ومن الطبيعي ان يشمئز الغرب من الخارجين عن القانون واصحاب « الاعمال الاجرامية » كما كانت تذكر « انترناشونال هيرالد تريبيون » . وفي كثير من الاحيان كانت الجرائد تتخذ موقف الدفاع عن الجانب الاردني وتتهجم على حركة المقاومة من خلال عمليات خطف الطائرات فتتصور جريدة « لوموند » ان باستطاعة الملك حسين « القضاء على الفدائيين واعادة سيطرته على البلاد »(٨) وكذلك ترى « الفاينتشال تايمز » أن « باستطاعة حسين ان يتصرف مع الجبهتين الشعبية والديمقراطية لانهما تصدتا لمشروع روجرز »(٩) ومن السهل ان نرى موقف الجريدة هذا الذي يدعو الى تقسيم حركة المقاومة واعطاء المفهوم بان الشعبية والديمقراطية فقط تقفان في وجه مبادرة روجرز ولم تورد اي اعتبار للشعب الفلسطيني . واحيانا تقف الجرائد موقف تحذير للحكومات من « خطر » الفدائيين ، «فالجارديان» ذكرت « ان هذا الاسبوع يشكل نقطة انعطاف بالنسبة الى الاردن ، فاما ان يثبت حسين بن طلال او ان يدع الفوضى تسيطر »(١٠). الموقف نفسه تقفه جريدة « نيويورك تايمز » ، فهي ترى « ان الجبهة الشعبية اذا ما نجحت في اي من هاتين المحاولتين — القضاء على محادثات السلام ، او قلب نظام الحكم ، — فان الشرق الاوسط سيتحول الى جحيم » وتذكر الجريدة كلمة « جحيم » باللفظة نفسها التي كان قد ذكرها الدكتور جورج حبش في مؤتمر صحفي له . بعض الجرائد كانت تضع كل اللوم على حركة المقاومة ، « فالدايلي تلجراف » ترى « ان ج. ش. ت. ف. و ج. ش. د. ت. ف ترايدان حدوث حرب اهلية في الاردن »(١١).

ما هي المشكلة بالنسبة للجرائد ؟ في الواقع تتفاوت آراء الجرائد في وضعها الحل للمشكلة ، ولكن الشيء الذي يلفت الانتباه ، هو ان هذه الحلول قد بدأت تطرح رأسا بعد عمليات خطف الطائرات واثرها . فصحيفة « هيلسنجي سانومات » ترى « ان اي سلام دائم في الشرق الاوسط ليس ممكنا دون التعاون مع الفدائيين الفلسطينيين »(١٢) كما رأت هذه الصحيفة ضرورة « تقييم الوضع السياسي في المنطقة في ضوء تطورات عمليات خطف الطائرات التي قام بها الفدائيون »(١٣).

اما الحل الذي تطرحه « الجارديان » للقضاء على « السرطان » الذي تسبب في خطف الطائرات فهو « تسوية تعطي اللاجئين أملا حقيقيا في مستقبل اكثر امنا ورغدا »(١٤). كما ترى « الواشنطن بوست » ضرورة ارضاء « الامال السياسية والشرعية لجميع الفلسطينيين – الذين يخشى – اذا لم يتحقق ذلك ان يقعوا في فخ الارهابيين»(١٥) وتطرح « النيويورك تايمز » حلا مشابها فهي «تطلب توسيع مهمة « يارينغ» باعطاء الفلسطينيين دورا مباشرا في المفاوضات من اجل التوصل الى تسوية نهائية للنزاع العربي – الاسرائيلي »(١٦) ورأت صحيفة «تايمز» ان عمليات خطف الطائرات « قد زادت من وعي الجمهور البريطاني بالنسبة للقضية الفلسطينية »(١٧).

معارك ايلول وانعكاسات الجرائد الغربية : قبل انفجار المعارك بين الجيش الاردني والفدائيين ، كانت الجرائد الغربية تعكس قلة الوعي عن الاحاطة بتحليل الموقف ، « فالدايلي تلجراف » كانت تخاف اندلاع حرب اهلية خوفا على حياة الرهائن ، من الطائرات المخطوفة ، فان « حدوث حرب اهلية في الاردن تهدد حياة الرهائن الـ ٥٤ »(١٨) ثم تستطرد الى انه « ما دام القتال ليس على نطاق واسع فليس هناك خطر اكيد على الرهائن »(١٩)اما الصورة البسيطة التي تراها « انترناشونال هيرالد تريبيون » بـ « ان مستقبل الفلسطينيين متعلق بالرهائن المحجوزة لديهم ، فان استطاعوا ان يحافظوا على سلامتهم، تزول بذلك الغيوم المتلبدة ويشرق مستقبلهم »(٢٠) هي صورة تخلو من كل فهم لجذور المسألة ، وكأن الرهائن هم مفتاح القضية ، ولم تشر الصورة الى وجود اية قوى متصارعة اخرى . اما « النيويورك تايمز » فتشير تحت عنوان « هدف الفدائيين هو وضع نظام جديد » الى ان لاجئي المخيمات هم الذين اوجدوا « حركة الفدائيين الارهابيين » ضد اسرائيل ، وهدف هذه الحركة هو قلب نظام الحكم في الاردن »(٢١). ولكن على الطرف الاخر نجد ان صحيفة « صانداي تايمز » تعكس الصورة بوضوح ، « فاحداث الاردن ليست اختبارا لسلطة حسين او لقوة الفدائيين ولكن للسياسة العربية من القمة الى القاعدة ومن اليمين الى اليسار ... والتحليل الدقيق للاحداث يشير الى ان ما يجري في الاردن لم يكن من قبيل الصدفة ، بل على العكس ، يمكن ان يكون توقيته قد جرى ليتوافق مع زيارة جولدا مائير لواشنطن ومع الدورة القادمة للجمعية العامة للامم المتحدة لتمهيد السبيل من اجل استئناف محادثات السلام العربية – الاسرائيلية »(٢٢).

«التدخل السوري» وانعكاسه في الجرائد الغربية: لقد اثبت التدخل السوري في الاردن « الرفض الكلامي لاي شكل من اشكال التسوية مع اسرائيل »(٢٣) على حد قول « الجارديان » ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فقد هولت بعض الجرائد كثيرا حول تدخل القوات السورية . فقد عملت على ربط هذا التدخل بضرب محاولات السلام في المنطقة ودفع المنطقة الى التحول الاشتراكي ، فقد اعتبرت « انترناشونال هيرالد تريبيون» ان وقوف سوريا والفدائيين معا «سيكون بمثابة رصاصة الرحمة لامال السلام... وسيجعل المنطقة فريسة لنوع من الاشتراكية القومية التي لا تقدم سوى القليل لشعبها وتسبب الاحتكاكات والتوترات لبقية دول العالم »(٢٤). اما موقف « نيويورك تايمز » من « التدخل السوري » ، فهو « اضعاف جهود الامم المتحدة لتحقيق السلام في الشرق الاوسط »(٢٥) وتعتبر هذا التدخل «انتهاكا لميثاق الامم المتحدة »(٢٦) وبعد « انسحاب القوات السورية » اعتبرت هذه الصحيفة ان المنطقة قد تجنبت ، بهذا الانسحاب ، خطر حرب جديدة في المنطقة . كما ردت جريدة « تايمز » عامل اطالة الحرب الاهلية الى تدخل الجيش السوري .

تحليل الاحداث : لقد اعتبرت جريدة تايمز في تعليق لها بعنوان « تدمير بلد » ، « ان اثارة الحرب قد تقع على الفدائيين ، اما اطالة الحرب فتقع على السوريين ، لكن اللوم ، بالنسبة للمجزرة يجب ان يقع بشكل رئيسي على الجيش الاردني ... ان قصف المخيمات استمر اكثر بكثير ، مما تدعو اليه حاجة عسكرية معقولة ... »(٢٧). وفي الواقع ان هذا الراي لصحيفة « تايمز » يمثل اجمالا تصور بقية الجرائد لوحشية المعارك ، فقد كشفت ايضا صحيفة « نيويورك تايمز » جانبا يعكس هذه الوحشية ، « فقد شاهد المراسلون الاميركيون والالمان الغربيون الذين سمح لهم بالدخول الى الاحياء التي يقطنها الفلسطينيون في عمان وفي حي الاشرفية ، حفرة مفتوحة فيها ٤٠ جثة ، الامر الذي يؤكد الانباء السابقة بان السلطات الاردنية كانت تدفن الموتى في قبور

جماعية داخل عمان وخارجها »(٢٨). وهذا الخط المشترك ، دفع بعض الجرائد الى لمس التجربة الفلسطينية خلال ٢٢ سنة ماضية ، كان تصور « نيويورك تايمز ماجازين » تصورا عميقا في فهم هذه التجربة ، فاعتبرت الصحيفة ان « الحرب الاهلية في الاردن ... خطف الطائرات ، تدمير اربع طائرات من قبل اللاجئين الفلسطينيين الماويين ، كل ذلك حدث بسبب فشل العالم خلال ال ٢٢ سنة الماضية »(٢٩). كما اقترحت «التايمز» ايجاد دولة للفلسطينيين اسمها فلسطين تضم الضفة الغربية ، ذلك لانه لم يعد لهم امل في الاردن ... » وكان موقف « كريستشن ساينس مونيتور » مشابها تماما لموقف « الجارديان » في أنه لن يكون هناك سلام دائم في الشرق الاوسط اذا لم يسمح للفلسطينيين باختيار الشكل الذي سيكون عليه هذا السلام(٣٠). الموقف نفسه اتخذته « دايلي تلجراف » في عددها ١٩٧٠/٩/٢٩ . ولكن مجلة « الايكونوميست » وقفت موقفا مغايرا لبقية الصحف والمجلات ، فقد تصورت المجلة بسان « انتصار حسين الظاهري سيعطي املا كبيرا للسلام في الشرق الاوسط بين العرب واسرائيل »(٣١).

ومن الواضح ، فان هذه الفترة الحرجة كانت مجالا لكثير من الجرائد لكي تجمع معلومات عن المنطقة وتضع حلولا للخروج من الازمة ، واجمالا فقد تمركزت نظرة الجرائد حول القضية الفلسطينية ، كما تمركزت الحلول حول الشعب الفلسطيني ، وبالامكان القول ان صحيفة « الاوبزرفر » قد احتوت هذا الخط فنراها تعرض معالم تصورها مشيرة الى « ان قضية خطف الطائرات الغربية قد اوضحت للعالم بان في وسطها يوجد شعب مصمم بكل عناد لاستعادة ارضه المسلوبة » ، وذكر المقال ان « هناك ٣ مخططات للعاملين من اجل السلام : ١ — اعادة اللاجئين العرب الى ارضهم فيعيش اليهود والمسلمون والمسيحيون معا ٢ — انشاء دولة فلسطينية في الضفة والقطاع ٣ — خلق اردن موسع يضم الضفة وغزة لان ثلثي سكان الاردن من الفلسطينيين »(٣٢).

أن هذا الاستعراض لوجهة نظر الجرائد الغربية اثناء معارك ايلول ١٩٧٠ ، في الاردن ، يطرح علينا عدة اسئلة نستخلص اجاباتها من كل المواقف مجتمعة ، لهذه الجرائد . ففي فترة ما قبل المعارك ، كانت الجرائد والمجلات الغربية لا تعكس صورة حركة المقاومة الا بشكل حركة ارهابية وذلك عبر :

١ — نشر اخبار حول الاعدامات التي يقوم بها الفدائيون لمواطنين عرب يتعاملون مع سلطات الاحتلال . ٢ — تصوير المخيمات على اساس انها قواعد لعصابات مسلحة . ٣ — اعطاء حركة المقاومة صفة الارتزاق [انظر صنداي تايمز ٣٠ آب ١٩٧٠] ٤ — عزل حركة المقاومة عن كل منجزاتها الاجتماعية والسياسية وعدم الخوض في تحليل خلفية الفلسطينيين .

أما بالنسبة الى قضية خطف الطائرات فاننا نلمس النقاط التالية :

١ — سارعت الجرائد والمجلات الى طرح حلول لمنع خطف الطائرات ، وضرورة معاقبة الخاطفين. ٢ — اعطاء الخاطفين صورة الخارجين عن القانون [انظر جارديان ٨ ايلول ١٩٧٠] وانهم اصحاب « الاعمال الاجرامية » [انظر انترناشونال هيرالد تريبيون ٨ ايلول ١٩٧٠] ٣ — تحريض النظام الاردني على ضرب حركة المقاومة ، طالما ان هذه الحركة تريد احداث حرب اهلية [انظر دايلي تلجراف ١٢ ايلول ١٩٧٠] ٤ — كثيرا ما ربطت الجرائد الغربية عمليات خطف الطائرات بضرب محاولات السلام في المنطقة .

أما معارك ايلول ، فقد رأتها الجرائد على انها اختبار لليمين واليسار في العالم العربي ، وكانت الجرائد دائما تطرح مشكلة الرهائن ركاب الطائرات المخطوفة واضفاء صورة مأساوية على هؤلاء الرهائن ، كما كانت الجرائد تريد ان تعكس صورة ان الفدائيين يريدون قلب النظام في الاردن . وقد هولت الجرائد كثيرا من التدخل السوري لمساعدة المقاومة .

م. ش.

---

١ — انظر
Essays on the American Public Opinion and the Palestine Problem. "The Middle East Crisis and the New York Times", by H.H., Published by the Palestine Research Center, Beirut, 1969.

٢ — المصدر السابق .
٣ — كريستشن ساينس مونيتور ، ١٩٧٠/٨/١٩
٤ — صنداي تايمز ، ١٩٧٠/٨/٣٠ .
٥ — نيويورك تايمز ، ١٩٧٠/٩/٧ .
٦ — تايمز ، ١٩٧٠/٩/٨ .
٧ — جارديان ، ١٩٧٠/٩/٨ .
٨ — لوموند ، ١٩٧٠/٩/٩ .
٩ — المصدر نفسه .
١٠ — لوموند ، ١٩٧٠/٩/١٠ .
١١ — لوموند ، ١٩٧٠/٩/١٠ .
١٢ — هيلسنجي ساتومات ، ١٩٧٠/٩/١٤ .
١٣ — المصدر نفسه .
١٤ — الجارديان ، ١٩٧٠/٩/١٤ .
١٥ — الواشنطن بوست ، ١٩٧٠/٩/١٤ .
١٦ — نيويورك تايمز ، ١٩٧٠/٩/١٦ .
١٧ — تايمز ، ١٩٧٠/٩/١٦ .
١٨ — دايلي تلجراف ، ١٩٧٠/٩/١٧ .
١٩ — المصدر نفسه .
٢٠ — انترناشونال هيرالد تريبيون ، ٩/١٨/ ١٩٧٠ .
٢١ — نيويورك تايمز ، ١٩٧٠/٩/١٨ .
٢٢ — صنداي تايمز ، ١٩٧٠/٩/٢٠ .
٢٣ — الجارديان ١٩٧٠/٩/٢٣ .
٢٤ — انترناشونال هيرالد تريبيون ، ٩/٢٢/ ١٩٧٠ .
٢٥ — نيويورك تايمز ، ١٩٧٠/٩/٢٣ .
٢٦ — المصدر نفسه .
٢٧ — تايمز ، ١٩٧٠/٩/٢٤ .
٢٨ — نيويورك تايمز ، ١٩٧٠/٩/٣٠ .
٢٩ — نيويورك تايمز ماجازين ، ١٩٧٠/٩/٢٧ .
٣٠ — جارديان ، ١٩٧٠/٩/٢٧ و كريستشن ساينس مونيتور ، ١٩٧٠/٩/٢٩ .
٣١ — الايكونوميست ، ١٩٧٠/٩/٢٦ .
٣٢ — الاوبزرفر ، ١٩٧٠/١٠/٤ .

المهرجان الدولي الاول لافلام وبرامج فلسطين

تحت شعار « تحرير فلسطين ركيزة للسلام العالمي » سيقام في بغداد في اذار القادم ، في الذكرى السنوية الخامسة لمعركة الكرامة ، اول مهرجان سينمائي دولي من نوعه لافلام وبرامج فلسطين . وسوف يدعى لهذا المهرجان وفود وشخصيات من مختلف دول العالم ومن القوى التقدمية المناصرة للعمل الفلسطيني المسلح . وتقوم المؤسسة العامة للمسرح والتلفزيون والسينما في العراق، وهي الجهة المكلفة بالتحضير لهذا المهرجان بدور اساسي في انجاح المهرجان ، كما ستغطي الحكومة العراقية جميع المصاريف . وقد بدأ التفكير في اقامة مثل هذا المهرجان منذ سنوات ، ففي اثناء انعقاد مهرجان لايبزج الدولي في العام ١٩٦٩ التقت مجموعة من السينمائيين العرب المشتركين في المهرجان ورأت اهمية اقامة مهرجان مماثل يكرس حضور القضية الفلسطينية في الاوساط الدولية . وقد نجم عن ذلك اللقاء ان المجتمعين اصدروا بيانا في ذلك الوقت نشرته الصحف العراقية اكدوا فيه اهمية اقامة مثل هذا المهرجان وضرورة ذلك . وقد وقع ذلك البيان مندوبون عن كل من العراق ومصر ولبنان والمغرب والاردن وسوريا . وقد عرضت فكرة اقامة مهرجان سينمائي شبيه بمهرجان لايبزج على جامعة الدول العربية التي احالت الاقتراح على اتحاد اذاعات الدول العربية ليتبناه . وبالفعل ، اتفق على ان يقام المهرجان في نهاية العام ١٩٧٠ الا ان مجازر ايلول في الاردن ووفاة الرئيس جمال عبد الناصر، لم تتيحا الفرصة امام تنفيذ الاقتراح . وقد عقدت فيما بعد اجتماعات عدة وتبنت حكومة العراق الدعوة الى اقامة المهرجان على ارضها واستعدادها لتحمل النفقات وبذل كل ما يلزم لانجاح المهرجان . وكان ان ووفق على ذلك وشكلت سكرتارية عامة للمهرجان من السيد محمد سعيد الصحاف سكرتيرا عاما والسيد سلام

السلطان والسيد سعد لبيب سكرتيرين مساعدين. بالاضافة الى عدد من اشهر العاملين في حقل السينما والتلفزيون في العراق مثل يوسف العاني وابراهيم جلال وعمانويل رسام وغيرهم .

هذا ، وقد صرح السيد سلطان لصحيفة « الجمهورية » العراقية في ٧٢/١٠/١٦ « بأن قاعة الخلد ستكون مكان المهرجان ، واتفق على ان يكون شعار المهرجان « تحرير فلسطين ركيزة للسلم العالمي » وقد اختير اذار بالذات لتوافقه مع الذكرى الخامسة لمعركة الكرامة ... وان موعد المؤتمر سيكون ما بين ١٩ و ٢٢ اذار ١٩٧٣ » . ويهدف المهرجان الى توضيح استراتيجية الثورة الفلسطينية والدفاع عنها ، وبذلك فسوف يسهم المهرجان في دفع القضية الفلسطينية الى مواقع تكسب فيها اصدقاء ومؤيدين جددا .

اما الجهات الداعية لهذا المهرجان فهي ١ — اتحاد اذاعات الدول العربية ٢ — جامعة الدول العربية ٣ — منظمة التحرير الفلسطينية ٤ — المؤسسة العامة للاذاعة والسينما والتلفزيون في العراق . وسيكون برنامج المهرجان كالاتي : ١ — عرض الافلام والبرامج داخل المسابقة . ٢ — عرض الافلام والبرامج خارج المسابقة . ٣ — عقد جلسة بحث تتناول دور الهيئات السينمائية والتلفزيونية في الدعوة لقضية تحرير فلسطين . ٤ — عرض خاص للافلام التي تتحدث عن قضايا النضال والتحرر العالمي ضد الاستعمار والاضطهاد . وسوف تكون الفرصة متاحة للاشتراك في المهرجان امام المؤسسات الرسمية وشبه الرسمية العاملة في مجالي السينما والتلفزيون وامام الشركات والجماعات والافراد، وقد حددت المواعيد التالية لتقديم طلبات الاشتراك وتقديم الافلام : ١ — ٧٣/١/١٥ آخر موعد لقبول استمارة المهرجان للاشتراك ٢ — ٧٣/٢/١٥ اخر موعد لتقديم الافلام والبرامج التي ستشترك في المهرجان . ويتصل بالمؤسسة العامة للاذاعة والتلفزيون والسينما (في عنوانها : الصالحية — بغداد) للحصول على استمارة الاشتراك .

وقد شكلت سكرتارية المهرجان لجنتين مختصتين تعرض عليهما جميع الافلام والمواد التي ستشترك في المهرجان ، وللجنتين الحق في تقرير الامور التالية : ١ — صلاحية الافلام والبرامج المقدمة طبقا للشروط والاحكام التي بموجبها يقبل الفيلم او يرفض ٢ — صلاحية الفيلم للمشاركة في المسابقة ٣ — صلاحية الفيلم للعرض خارج المسابقة . ويمكن معرفة المقاييس والشروط من العنوان المذكور انفا . وقد قررت السكرتارية تخصيص جوائز للمهرجان كالاتي : ١ — شعار ذهبي ٢ — شعار فضي . بالاضافة الى مبلغ ١٥٠ دينارا عراقيا للجائزة الاولى ومائة دينار للجائزة الثانية بجانب عدد محدود من الشارات التقديرية. وقد استقر الرأي على دعوة ٢٠ شخصية معروفة بتقدميتها وتأييدها للحق الفلسطيني ومن هؤلاء جين فوندا الممثلة الامبركية المشهورة بدفاعها عن قضايا التحرير خاصة في فيتنام ، والشاعر التقدمي بابلو نيرودا ، والمناضلة التقدمية الزنجية ، انجيلا ديفيس ، وهاركن ثال رئيس مهرجانات لايبزج ، ورئيس مهرجاني طشقند وقرطاجه .

سفيان الرمحي

النشاط الصهيوني في اليابان

مزقت عملية مطار اللد قناع الرياء من وجه المؤسسة الحاكمة في اليابان وكشفت عن موقفها الحقيقي من قضايانا القومية المصيرية فبعثت بأحد كبار موظفي وزارة خارجيتها يتأبط كيسا ممتلئا بمبلغ قيل انه خمسة ملايين دولار استرضاء للاوساط الحاكمة في تل ابيب ، للتعويض عن الخسائر والضحايا التي الحقها « الارهابيون الحمر » الذين أغواهم «المخربون الفلسطينيون». كما انهالت على تل ابيب رسائل الاعتذار والاستعطاف من المسؤولين اليابانيين وأعيان المؤسسة الحاكمة ، ونددت صحف المؤسسة الحاكمة بهذه « الجريمة النكراء » ، ومضت تستعطف دولة الصهاينة بخنوع لا يوازيه سوى خنوع الدوائر الحاكمة في بون ونذالتها في اعقاب عملية ميونيخ ، ناهيك عن حقن المساعدات الهائلة والتواطؤ في شتى المجالات قبل ميونيخ . واذا كان لالمانيا الغربية ودوائرها الحاكمة ربما شيء من العذر او بعض التبرير المتمثل في عقدة الذنب التي ورثتها من جرائم النازيين ، وكذلك واقعها الاوروبي الغربي وما ينطوي عليه هذا من تحامل ثقافي وحضاري تاريخي ضد شعوبنا ومجتمعاتنا ، فلا بد للمرء من أن يتساءل ترى ما هو عذر اليابان البلد الاسيوي الشرقي ، وهو الذي يعتمد في نحو ٨٥٪ من احتياجاته من النفط الخام والغاز الطبيعي على ما يستخرج من هذا الذهب الاسود من البلدان العربية ، كما ان البلدان العربية هي من الاسواق الرئيسية للسلع والمعدات الصناعية اليابانية ، هذا اذا طرحنا جانبا حاجة اليابان الفقيرة بالمواد الاولية الى ما تزخر به البلاد العربية من هذه المواد الاولية مثل الحديدالجزائري الخام الذي يشحن الى اليابان بكميات كبيرة على سبيل المثال ...

اذن ، هل من جواب يحل لغز هذه الهرولة اليابانية امام سلطات تل ابيب سوى قصور الانظمة الحاكمة في البلدان العربية عن طرح مصالحنا وقضايانا الحيوية بجدية امام بلدان العالم الاخرى ؟ أليس تفريط الانظمة العربية باعتبارات كرامتنا القومية هو خير مشجع للبلدان الاخرى على الاستهتار بحقوقنا وقضايانا العادلة ومجاراة أعدائنا واسترضائهم على حساب كرامة شعوبنا وحقوقها ؟ هناك بطبيعة الحال قاسم مشترك أعظم يجعل من بلدان كاليابان والمانيا الغربية التي يفترض منطق المصالح المتبادلة ان تلتزم ، على اقل تقدير ، بموقف محايد من قضايا النزاع العربي الاسرائيلي ، وأعني بهذا القاسم المشترك الاعظم الانتماء لحظيرة الاستعمار الامريكي وسلطانه الاقتصادي والسياسي ، ولعلنا لا نجافي واقع الحال اذا قلنا ان الانتماء لحظيرة الاستعمار الامريكي هذا هو ذاته الذي يربط بخيوط خفية ، نحس بها دائما ولا نراها احيانا ، بين سلطات تل ابيب ونفر من الحاكمين سعيدا في بعض انحاء الارض العربية وكذلك غير الحاكمين فيها من اصحاب المصالح والتيارات السياسية واصحاب « الوكالات » ...

وعلى أية حال ، ان روابط اسرائيل الرسمية بالمؤسسة الحاكمة في اليابان قد بدأت في ١٥ أيار عام ١٩٥٢ يوم ان اعترفت اليابان — تحت وطأة الضغط الامريكي — بدولة الصهاينة ، وبادرت اسرائيل الى ارسال بعثتها الدبلوماسية الى طوكيو لفتح مفوضية هناك في ١٩ كانون الاول من العام ذاته ، بينما تلكأت اليابان في ارسال رجال مفوضيتها الى تل ابيب لغاية ٣٠ تموز ١٩٥٥ ، ولكن بتوطد دعائم العلاقات المتبادلة رفعت درجة التمثيل الدبلوماسي بين الطرفين الى مستوى سفارة اعتبارا من ٥ تموز ١٩٦٣ ، وكان اول سفير اسرائيلي في طوكيو من مواليد الاسكندرية ومن عائلة النجار ...

ان مرتكزات التأثير الاسرائيلي في اليابان ليست هائلة القوة كما هي عليه في اوروبا الغربية وامريكا الشمالية حيث توجد جاليات يهودية كبيرة تمثل درجة مرموقة في السلم الاجتماعي وتسيطر على قطاعات واسعة من الاقتصاد ووسائل الاعلام تمارس من خلالها نفوذها في شتى القطاعات والنواحي الاخرى، ولكن اسرائيل لا تفتقر كليا الى ركائز محلية للتأثير في اليابان تشكل نواة تنطلق منها بنشاط وفعالية ... فقلة عدد افراد الجالية الاسرائيلية وهيئة السفارة الاسرائيلية في اليابان يعوض عنها وجود ما يزيد على الف تاجر يهودي معظمهم من يهود البلدان العربية ويتزعمهم تاجر من عائلة ساسون من يهود العراق ، وهم يسيطرون على تجارة الماس واللؤلؤ الذي هو من

الدعامات المهمة للاقتصاد الياباني ... ويمارس هؤلاء التجار الالف نشاطا ونفوذا عظيمين في نواح شتى وذلك بتنسيق مع السفارة الاسرائيلية التي تشرف على تأسيس الجمعيات والهيئات المحلية التي تدير من خلالها نشاطاتها الدعائية وتتغلغل بواسطتها الى الاوساط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ...

ويساعد السفارة الاسرائيلية في مهمتها نجاح اسطورة روجتها العناصر الصهيونية بين سكان جزيرة هوكايدو ومحواها ان سكان هذه الجزيرة يعودون في اصلهم الى يهود موسى الذين تاهوا في صحراء سيناء ، ولذلك فان صلتهم باسرائيل والاسرائيليين هي صلة الاحفاد بالجدود وهي صلة قائمة عرقا ودما علاوة على انها صلة دينية روحية وثقافية ، وقد تقبل سكان جزيرة هوكايدو هذه الاسطورة بحماس حتى ان عددا منهم أخذوا يتقاطرون على القدس لزيارة حائط المبكى . ويستفيد الاسرائيليون من واقع هؤلاء اليهود اليابانيين المحليين ويستغلونهم في اغراضهم الدعائية الى اقصى حد ، فاقدم الصهاينة على تأسيس كيبوتزين في هذه الجزيرة نجحا اعظم نجاح حتى ان عدد الاعضاء المنتمين لهما قد بلغ (٩٠) الف عضو حسبما تقول الصحف اليابانية ،ويتطوع للعمل في هذين الكيبوتزين بعض الصهاينة من شتى انحاء العالم ، وتنشر الصحف اليابانية تحقيقات صحفية شيقة الاسلوب عن الحياة الجماعية الممتازة في هذين الكيبوتزين . وكذلك اصبحت جزيرة هوكايدو والكيبوتزان مسرحا لنشاط السفير الاسرائيلي الذي وطد علاقته بمحافظ الجزيرة ، ومصدرا لحشد المتطوعين من الشباب الياباني للعمل في المستوطنات والكيبوتزات الاسرائيلية ، وتقدم السفارة الاسرائيلية منحا دراسية وبعثات تدريبية في اسرائيل للشباب من هذين الكيبوتزين . فبعثت في شهر تموز ١٩٧١ ١٣ فتاة قضين في اسرائيل شهرا ، كما ان اتحاد الشبيبة الاسرائيلي نظم زيارات تدريبية في اسرائيل لاربعة وعشرين شابا من هؤلاء ، وعلى اثر ذلك الغيت تأشيرات السفر بين البلدين ...

وعلاوة على هذا الاستغلال الدعائي الناجح لكيبوتزي يهود هوكايدو نظمت السفارة الاسرائيلية عددا من الهيئات والجمعيات المحلية لتنفذ من خلالها الى قطاعات المجتمع الياباني كافة ومن هذه الجمعيات والهيئات : جمعية الصداقة اليابانية — الاسرائيلية ، والجمعية الثقافية اليابانية — الاسرائيلية ، والجمعية النسائية اليابانية — الاسرائيلية ، والمركز اليهودي الاجتماعي ، وميتم أساهيدي .

وبفضل هذه الجمعيات والهيئات المتعددة تسعى السفارة الاسرائيلية الى زرع تأثيرها ونفوذها في قلب المجتمع الياباني وخلق قواعد راسخة متينة لها في صلب البناء الاجتماعي والسياسي في البلاد ، وهي تتحرك في اتجاهين رئيسيين : اولهما العمل على تطوير الروابط والعلاقات الاقتصادية بين اسرائيل واليابان . وثانيهما ، القيام بعملية تضليل سياسي على اوسع نطاق داخل قطاعات المجتمع الياباني لخلق صورة عامة زاهية لسياسة اسرائيل واهدافها واوضاعها ، وتشويه صورة المجتمعات العربية وعدالة قضاياها في اذهان اليابانيين ، وتطويق اية مجهودات مضادة لاسرائيل تقوم بها الجهات العربية هناك او القوى الثورية اليابانية البصيرة بعدوانية اسرائيل وعنصريتها وضلوعها مع الاستعمار الامريكي في استراتيجيته الاستعمارية الدولية ، وذلك في اطار عملية غسل دماغ واسعة النطاق على غرار عملية غسل الدماغ الشاملة التي انلحت في انجازها في مجتمعات اوروبا الغربية والامريكتين ، وبالتالي تكييف السياسة اليابانية تجاه منطقة الشرق الاوسط وفق اهوائها ومآربها ...

فعلى صعيد تطوير العلاقات الاقتصادية وتوثيقها ما زالت اسرائيل توالي ضغوطها على الحكومة اليابانية وعلى المؤسسات الصناعية والتجارية لزيادة التبادل التجاري بين البلدين وفسح المجال في السوق اليابانية امام المزيد من المنتجات الاسرائيلية ولحفز اليابانيين على زيادة استثماراتهم في اسرائيل ، وتطوير علاقاتهم الاقتصادية كما ونوعا بانشاء فروع لصناعاتهم داخل اسرائيل نفسها مثلما فعل الكثير من الشركات الامريكية والاوروبية ... ويبدو ان هذه الضغوط تحقق استجابة حثيثة من جانب الجهات اليابانية ، فقد تضاعف حجم التجارة المتبادلة بين البلدين في مدة عام واحد فزاد من ٥٠ مليون دولار في عام ١٩٦٩ الى ١٠٠ مليون دولار في عام ١٩٧٠ ، وزادت قيمة الصادرات اليابانية الى اسرائيل في المدة

ذاتها من ٢٠ مليون دولار الى ٦٢ مليون دولار ، ويمثل هذا الرقم حسب ما ورد في حديث السفير الاسرائيلي خلال الحفل الذي اقامه في نيسان ١٩٧١ لمناسبة ذكرى « عيد الاستقلال » الرابع والعشرين مجرد ٢٪ فقط من اجمالي واردات اسرائيل . وقارن السفير الاسرائيلي في حديثه ذاك بين هذا الرقم الضئيل نسبيا وبين واردات اسرائيل الكبيرة من البلدان الصناعية الاخرى الاوروبية والامريكية وقال : « ان الواجب لا يقتضي الوقوف عند مضاعفة حجم التجارة المتبادلة بين البلدين فحسب ، فهناك مجال لزيادتها ثلاثة اضعاف او اربعة » ... وكان بذلك يرمي الطعم للمؤسسات الصناعية اليابانية ويعطيها اشارة العمل وكأنه يقول لرجال الصناعة والمسؤولين اليابانيين : لا تدعوا الامر يختلط عليكم فالتعاون مع اسرائيل اجدى لكم وانفع لسوقها اوسع من سوق البلدان العربية واضخم وان كانت اصغر منها حجما ، وهذه اكذوبة دأب الدعاة الصهاينة على ترديدها على مسامع البلدان الصناعية لا سيما في اوروبا الغربية ، كما تطرق السفير الاسرائيلي في حديثه المشار اليه الى المجالات الواسعة لزيادة حجم السياحة بين البلدين ... ويرسم هذا الحديث الاطار العام الذي تتحرك ضمنه المجهودات السياسية والدعائية الاسرائيلية ... فعلاوة على سيطرة التجار اليهود والاسرائيليين على تجارة اللؤلؤ والماس في اليابان ، وهذه الاخيرة أصبحت احتكارا اسرائيليا — يهوديا على نطاق العالم بأسره ، اقامت شركات صناعة الملابس الجاهزة الاسرائيلية فروعا لها في اليابان، ووقعت اليابان مؤخرا اتفاقية مع اسرائيل لاستيراد كميات وافرة من الحمضيات الاسرائيلية ، وهناك خط لشركة الملاحة الاسرائيلية « تسيم » يربط ميناء ايلات بميناء يوكوهاما الياباني وتشحن بواسطته المنتوجات الاسرائيلية الى اليابان وبالعكس ... وتتوالى الضغوط الاسرائيلية والصهيونية على شركة الطيران اليابانية (جال) لتسيير رحلات لها الى مطار اللد ، ويعاون السفارة الاسرائيلية في هذه الضغوط عدد من كبار المتمولين واصحاب المصالح اليهود الامريكيين ، وحتى الان لم تلب الخارجية اليابانية وشركة الطيران اليابانية طلب اسرائيل هذا ، ولكنهما تسعيان لاسترضائها بتقديم خدمات اخرى مثل دعوة الفنانين الاسرائيليين للقيام بجولات فنية في اليابان على حساب الشركة ، ومن جهة اخرى ، تطالب اسرائيل بمد شبكة خطوط طيرانها العال الى طوكيو ، ولا تزال الاتصالات جارية بهذا الخصوص، وان لم يحصل الاسرائيليون على جواب حاسم حتى الان ... ومن الشواهد على هذه الضغوط الاسرائيلية الصهيونية الضغط الذي مارسته شركة لوكهيد الامريكية لصناعة الطائرات على شركة « نيسان » اليابانية لصناعة السيارات ، اذ هددتها بأنها ستتوقف عن تسويق سياراتها والبضائع اليابانية الاخرى في مناطق الشطر الشرقي من الولايات المتحدة الامريكية اذا لم تستجب لرغبة اسرائيل بانشاء مصنع لسياراتها فيها والتي لاقت رواجا هناك ، وقد رضخت اخيرا شركة نيسان لهذه الضغوط وستنشيء في المستقبل القريب مصنعا لسياراتها تحت يافطة اخرى وباسم اخر ولن تخسر الاسواق العربية .

ومن الشواهد على هذه الضغوط كذلك رفض اليابان اقتراحا تقدمت به ليبيا بواسطة مكتب المقاطعة العربية لاسرائيل لفتح غرفة تجارية عربية في اليابان علما بأن جميع الدول التي تتعامل مع اليابان تجاريا لها غرف تجارية في طوكيو او اوساكا ، وذلك خشية ان تزيد مثل هذه الغرفة من فعالية مراقبة الصفقات الملتوية التي تعقد في الخفاء وبأساليب مواربة جانبية بين اسرائيل والهيئات الاقتصادية اليابانية ... ولا يتسنى لنا ان نقدر اهمية هذه الضغوط الا اذا ادركنا ان رؤوس الاموال الامريكية ، وكثير منها يهودي ، متغلغلة في اعمق اعماق الاقتصاد الياباني ، وتملك في كثير من الحالات غالبية الاسهم في كبريات المؤسسات الصناعية اليابانية الكبرى في فروع الالكترونيات وصناعة السفن وغيرها ، وبناء على هذا تأخذ اليابان بجدية متناهية اية ضغوط من هذا النوع لا سيما وان الدول العربية لا تمارس على هذه المؤسسات ضغوطا جدية لتحسب لها الجهات اليابانية حسابا . وفي هذا الاطار هدد السفير الاسرائيلي اثناء زيارة الوفد التجاري الاسرائيلي لليابان السنة الماضية بأنه اذا لم تتعاون الشركات اليابانية مع الشركات الاسرائيلية بقدر كاف نستلجأ الشركات الامريكية والاوروبية الغربية الى اتخاذ موقف حازم تجاه هذه الشركات اليابانية .. وفي هذا السياق تروج المصادر الاسرائيلية قصصا حول تعاون الشركات اليابانية مع « المخربين » الفلسطينيين ، ففي رواية من هذه قالت المصادر

الاسرائيلية ان شركة سيارات تويوتا ظلت ترفض الضغوط عليها لفتح وكالة لمنتجاتها في اسرائيل متعللة بأن التزاماتها تجاه وكلائها في الشرق الاوسط لا تمكنها من ذلك ، ولكن عندما قام الجيش الاسرائيلي بغزو منطقة الكرامة في ربيع ١٩٦٨ وجد ان في حوزة « المخربين الفلسطينيين » العشرات من سيارات تويوتا التي من طراز الجيب ، وعندئذ ادركت اسرائيل ماهية هذه الالتزامات التي تلتزم بها شركة تويوتا تجاه وكلائها في الشرق الاوسط ... اي ان اسرائيل تقصد من ترويج هذه الاخبار التشهير بسمعة مثل هذه الشركات في السوق العالمي لضعضعة مكانتها الى ان تستجيب لضغوطها ...

ولا تقتصر السيطرة الامريكية في اليابان على تغلغل رؤوس الاموال الامريكية في قطاعات عريضة من الاقتصاد الياباني ، بل لها وزنها الملموس في التأثير على سياسة اليابان العامة حتى ان اليابان رضخت للضغوط الامريكية برفع قيمة عملتها « الين » لصالح الدولار اثناء الازمتين اللتين عصفتا به السنة الماضية وهذه السنة وأدت الى تخفيضه .. فالتعامل الحكومي بين امريكا واليابان ما زال على اساس سعر الدولار قبل تخفيضه ، وتعامل اليابان الجيش الامريكي في قواعده فيها (اوكيناوا) على اساس ٣٦٠ ين للدولار الواحد بينما قيمة الدولار في البنك هي ٣٠٨،٢٩ ين، واضطرت اليابان لتسديد خسائرها من هذه التغطية لعجز الدولار الامريكي الى رفع الاسعار في داخل البلاد بنسبة ٤٤٪ ...

وفي هذا الجو السياسي العام المواتي الذي عبر عنه احسن تعبير جدعون رفائيل مدير عام وزارة الخارجية الاسرائيلية عندما زار اليابان في شهر ايار ١٩٧١ فأبدى رضاه واغتباطه بنوع الحياد الذي تمارسه اليابان تجاه النزاع في الشرق الاوسط وقال : « ان هذا الحياد تأييد لنا » ... ففي هذا الجو تعمل اسرائيل بذكاء وفعالية على ترويج منتجاتها في اليابان بخلق الظواهر الفنية والتجارية المناسبة ، فأقامت هذه السنة وبالتعاون مع شركة الخطوط الجوية الفرنسية وفندق هيلتون طوكيو ما دعته المهرجان الاسرائيلي لعرض المأكولات والمشروبات الاسرائيلية وتذوقها في جو من الرقصات والاغاني الاسرائيلية . وكذلك نشطت في الفترة الاخيرة حركة السياحة بين اسرائيل واليابان ، وتعمل اسرائيل على جذب المزيد من السواح اليابانيين اليها فتدعو لهذا الغرض وفودا من مكاتب السياحة في اليابان للتجول في انحاء اسرائيل، كما انها تبعث بمندوبيها السياحيين الى اليابان للاتصال برجال السياحة هناك . وواقع الامر ان اسرائيل تبذل جهودا متفانية لتنفذ الى عقول اليابانيين وقلوبهم ومن ثم الى جيوبهم ، وهي تلجأ في هذا المضمار الى مختلف أساليب الدعاية واستغلال شتى المناسبات، وكذلك باقامة المعارض والمهرجانات وغيرها من المظاهرات الثقافية والفنية والاقتصادية ، ووضع برامج طويلة الامد للمساعدات العلمية والمنح الدراسية والتدريبية .

ونتبين مقدار ما تمتاز به جهود اسرائيل هذه من حيوية ودهاء ونشاط وبراعة باستعراض شريط الاخبار التالي عن بعض النشاطات الاسرائيلية في اليابان وكيف يوزعون الادوار على الجمعيات والهيئات التي يؤسسونها لهذا الغرض فتبدو هذه الاعمال وكأنها نابعة من داخل المجتمع الياباني ذاته ...

— اقامت السفارة الاسرائيلية في طوكيو حفلا في ذكرى مرور عشر سنوات على تأسيس « المعهد الافرو — اسيوي التعاوني » في اسرائيل ، وقد حضر هذا الحفل خمسون شابا يابانيا ممن تخرجوا من هذا المعهد بموجب منح دراسية قدمتها لهم الحكومة الاسرائيلية .

— اقامت السفارة الاسرائيلية حفلا في فندق هيلتون طوكيو ترحيبا بموشي شويتاني مدير تشجيع السياحة بوزارة السياحة الاسرائيلية يوم ٧٢/٣/٥ دعت اليه رجال السياحة اليابانيين حيث تحدث اليهم عن الامكانات السياحية المتوفرة في اسرائيل.

— وصلت الى طوكيو في تموز ١٩٧١ ملكة جمال الكون لعام ١٩٧٠ الانسة ايريس هوفر الاسرائيلية المولد .

— نشرت الصحف اليابانية صورة لطفل فلسطيني صفد بالقيد بينما ضابط شرطة اسرائيلي يقوم بقص اصفاد هذا الطفل وفك اساره ، والطفل من ابناء القدس ويدعى ناصر شريف وعمره ١١ سنة ، وقام والده بتقييده بالاصفاد عقابا له لمدة اربعين يوما ...

— اقامت جمعية الصداقة اليابانية — الاسرائيلية

بطوكيو حفل وداع للسفير الاسرائيلي النشيط موشي بارتثور لمناسبة نقله من اليابان وعودته لاسرائيل ... وجدير بالذكر ان ابنة هذا السفير قد تزوجت من احد الفنانين اليابانيين ، وقد استغلت الاوساط الاسرائيلية هذا الحدث احسن استغلال ، فخلقت حوله ضجة اعلامية هائلة في الصحف ومحطات الاذاعة والتلفزيون اليابانية ... فهم في هذا لا يدعون فرصة تفوت دون استغلالها الى اقصى حد ...

— نشرت الصحف اليابانية خبرا مفاده ان البروفسور دافيد من معهد وايزمن للعلوم اخترع مقياسا لدقات القلب بحجم صغير يعمل بالبطارية وذلك لفائدة الجيش الاسرائيلي .

— زار اليابان في السنة الماضية الثري الصهيوني روتشيلد صاحب بنوك روتشيلد الشهيرة ، وقد ظهر مع رئيس الوزراء الياباني السابق ايزاكو ساتو في نشرة اخبار مسائية ، وقد تم خلال هذه الزيارة عقد اتفاق بين البنك الصناعي الياباني ومؤسسات روتشيلد المصرفية .

— منح اربعة من الفنانين اليابانيين نماذج من الطيور المحنطة المهداة من مؤسسة فيليكس يهودا في لوس انجليس لعرضها في متحف اسرائيل للطيور في المدينة المقدسة .

— اقامت الجمعية النسائية اليابانية سوقا خيرية في طوكيو برعاية زوجة السفير الاسرائيلي لمناسبة « عيد الاستقلال » الاسرائيلي في ١٩ نيسان ١٩٧٢ عرضت فيه الازياء الشعبية الاسرائيلية وهي في واقع الامر الازياء الفولكلورية الفلسطينية المشهورة والتي يعرضونها في كل مكان على انها اسرائيلية كما اشتمل على رقصات اسرائيلية ويابانية ، وحضر هذه السوق بعض اميرات القصر الامبراطوري ، وخصص ريعها الى ميتم اساهيدي للاطفال اليابانيين ، واقامة هذه السوق هي عادة سنوية .

— نشرت الصحف اليابانية تفصيلات كثيرة عن جهود الحاخام الدكتور فيكتور سالمون استاذ علم النفس في جامعة صوفيا التبشيرية بطوكيو لتخليد ذكرى القائد الياباني كيشيرو هيجوتشي الذي انقذ حياة عشرين الف يهودي من مذابح النازيين قبل الحرب العالمية الثانية ، حيث كان يعمل ملحقا عسكريا بسفارة اليابان في فرصوفيا (وارسو) ، وقام هذا الحاخام بجمع الوثائق والتفاصيل عن حياة هيجوتشي هذا من عائلته ومن ملفات المؤسسات الرسمية ... وقد احتوت كتاباته التي تقرر تدريسها في مدارس اليابان على ما قدمته اليابان لاسرائيل من خدمات ... وكذلك يعمل الحاخام نيكتور سالمون هذا على بناء مدينة جديدة تسمى هيجوتشي تكريما لعمل هذا الضابط الياباني وخدماته لاسرائيل ...

وكذلك اقام مركز الجالية اليهودية معرضا لصور اللاجئين اليهود اثناء الحرب العالمية الثانية ، وقام الحاخام بشرح الصور مدققا فيها وكأنه يبحث فيها عن قريب له ليستدر بهذا عطف اليابانيين ، وقد نجح في ذلك ايما نجاح .

— صدرت ترجمة كتاب **تحديات اسرائيل** لوزير المواصلات الاسرائيلي شمعون بيرس باللغة اليابانية ، كما ظهر كتاب اخر باللغة اليابانية يدعى « حكمة اليهود في خمسة الاف عام » ، ووصفته صحيفة « يوميوري » بأنه من احسن الكتب المترجمة ...

— ولكن اذكى البدع الدعائية الاسرائيلية هو كتاب « اليابانيون واليهود » الذي طبع اكثر من عشر مرات حتى الان وهو من الكتب المفضلة عند اليابانيين ، وبيع منه حتى الان اكثر من ١٧٠٠٠٠ نسخة . وقد فاز اخيرا بجائزة « بونماي شانجو » وما زال يعتبر من اكثر الكتب رواجا ... وكل الدلائل تشير الى ان هذا الكتاب قد طبع في مطبخ السفارة الاسرائيلية في طوكيو . اذ لم يحضر مؤلفه لتسلم جائزة « بونماي شانجو » المذكورة بل حضر نيابة عنه شخصان من امريكا ..

وادعى ناشر الكتاب ان المؤلف شخص يدعى ابن اكسان ، ولكنه لا يعرفه شخصيا ولا يعرف عنه شيئا ...

وقد استشهد السفير الاسرائيلي في حديثه بمناسبة « عيد الاستقلال » الماضي بما جاء في هذا الكتاب من ان الاسرائيليين قريبو الشبه باليابانيين لغة وتاريخا وعرقا ... وقد نجح الكتاب الى ابعد حد في تحقيق غرضه ، فهو يمس شغاف قلوب اليابانيين نفسيا ومعنويا اذ صيغ بلغة يابانية عالية وربط بأسلوب علمي المشاكل اليابانية والاسرائيلية .

وبعد ، ما هذه سوى شذرات من مجهودات الاسرائيليين لامتلاك زمام الموقف في بلاد الشمس ،

وهم في هذا نشيطون في تزويد محطات الاذاعة والتلفزيون ودور السينما بالافلام والبرامج عن اسرائيل ، وكذلك يستغلون كعادتهم الصحف على نطاق واسع ... وتساعدهم في مجهوداتهم هذه محطات الاذاعة والتلفزيون الموجودة في قواعد الجيش الاميركي في اليابان والتي تبث برامجها طوال ٢٤ ساعة ، وقد أفلح الاميركيون في صبغ اليابانيين بطابعهم الحضاري فغزوهم ثقافيا وفنيا كما غزوهم حربيا وماليا ... ومن خلال هذه السيطرة الاميركية على اليابان اخذت تتوطد بين اسرائيل واليابان علاقات عسكرية لا سيما في ميدان التكنولوجيا العسكرية ، فتزود اليابان اسرائيل بالمعدات والاجهزة الالكترونية المتطورة ، ولعل الحديث الذي اخذ يتردد عن امتلاك اسرائيل قنابل توجه للهدف بأشعة ليزر مماثلة لتلك التي يستخدمها الاميركيون في قصف هانوي تبين مدى حاجة اسرائيل لهذه العلاقات وهذا التعاون ، فالقنابل المذكورة يوجهها جهاز الكتروني من صنع شركة سوني اليابانية على سبيل المثال ...

ولكن ماذا عن مجهودات الجانب العربي في اليابان ... من المؤسف ان نضطر لان نقول ان صورة العمل العربي في اليابان لا تشرف احدا ، ولعلنا لا نظلم احدا حين نقول ان ممثلي الدول العربية في اليابان حيث توجد ثماني سفارات عربية يكادون لا يحركون ساكنا ازاء هذا المد الاسرائيلي الجارف ، وهم على كل حال يغطون في سبات عميق ، ولا يتورع بعضهم عن حضور حفلات مركز الجالية اليهودية الاسبوعية الراقصة حيث تسود اجواء مدبرة من الخلاعة والمجون لشراء النفوس الضعيفة بين المسؤولين اليابانيين وكذلك لا يطيب لبعضهم تناول وجبات طعامه سوى في مطعم مختص باصناف الطعام اليهودية (الكوشير) وتملكه امرأة يهودية اميركية ، وقد تكون اصناف الطعام اليهودي اقرب الى المآكل العربية من الاصناف اليابانية ، ولكن اما خطر ببال هؤلاء الممثلين الديبلوماسيين العرب انهم قد يجدون انفسهم يوما في ساعة ازدحام في هذا المطعم يجالسون السفير الاسرائيلي في طوكيو على طاولة واحدة ... اما التجار العرب في اليابان فليسوا اسعد حالا ، اذ لا يحفلون بالقيام بأي نشاط لصالح امتهم وقضاياهم ... بل ان بعضهم ينغمس في صفقات مريبة مع التجار الصهيونيين .

ولكن ، هل معنى ذلك ان ساحة اليابان مفتوحة تماما للنشاط الاسرائيلي والاميركي ولا مجال لسواهما ... واقع الحال ان القوى الثورية في اليابان تخوض صراعا عنيدا ضد الهيمنة الاميركية ، كما اخذت هذه القوى تتفهم اكثر فأكثر عدوانية اسرائيل وعنصريتها وضلوعها في مخططات الاستعمار الاميركي ، كما اخذ يتعاظم تعاطفها مع قضية العرب العادلة لا سيما مع نضال الشعب الفلسطيني ، ويقف في طليعة هذه القوى الثورية في الساحة اليابانية حزب العمال والفلاحين الفقراء الثوريين الذي يؤمن بالعنف الثوري ، وتطارد الحكومة هذا الحزب بصورة شديدة ، وايضا الحزب الشيوعي الياباني الذي يعتبر التنظيم السياسي الثاني في اليابان من حيث القوة والنشاط بعد الحزب الليبرالي الحاكم ، وهو يسيطر على معظم الهيئات والاتحادات الديمقراطية مثل اتحاد المحامين الديمقراطيين واتحاد العمال لعموم اليابان ومؤتمر السلام للتضامن الافرو اسيوي ، واتحاد الشبيبة ،واتحاد المزارعين ، ولجنة نصرة فيتنام ، واتحاد المرأة . وهنالك جماهير عريضة تتفهم قضايانا وتؤيدنا بحماس وانني أمام المد الجماهيري الياباني اقف مشدوها بهم وعاتبا على انفسنا لتقصيرنا الاعلامي وفي الاتصال بهم والتعاون معهم ... ففي المؤتمر السادس والعشرين لذكرى القاء اول قنبلة ذرية على هيروشيما قدمت طالبات الجامعة باقات من الزهر الى الوفود ، وكان نصيب مندوب الثورة الفلسطينية ثلاث باقات احداها لقائد الثورة ، وثانيها للثوار المقاتلين ، وثالثها للشعب الفلسطيني ، وعندما قدم السكرتير العام للمؤتمر مندوب الثورة للجماهير هبت الجماهير تهتف للثورة الفلسطينية مدة طويلة اضطر معها رئيس المؤتمر الى ان يطلب منهم الهدوء ليقدم المندوبين الاخرين، وعادت الجماهير تهتف للثورة الفلسطينية عندما قام مندوب الثورة باهداء العلم الفلسطيني الى السكرتير العام للمؤتمر ... هذا ، وقد تشكل اخيرا في جامعة واسيدا وهي جامعة خاصة فريق للدراسات الفلسطينية ... اذن ليست الساحة خالية للاسرائيليين والاميركان الذين يرتبطون بالمؤسسة الحاكمة في اليابان ويحاولون من خلالها تضليل جماهير الشعب التي هي رصيد طبيعي للقوى الثورية التي علينا ان نمتن روابطنا بها ونوفر لها المادة الاعلامية الضرورية لتتولى هي

اشاعة الحقائق عن قضيتنا ومكافحة أكاذيب الصهاينة والمستعمرين الامريكان واضاليلهم ... ولولا التقصير العربي العام في طرح قضايانا بجدية أمام المؤسسة اليابانية الحاكمة لاضطرت هذه بدورها الى ايلاء قضايانا وحقوقنا قسطا اكبر من الاحترام ولما رضخت للضغوط الصهيونية بالصورة التي رأيناها اثر عملية اللد ، فاعتماد اليابان الكلي على النفط والغاز العربي يجعل العرب في واقع الامر قابضين على روحها ، ولكن هل هناك بين الانظمة العربية من سيقف هذه الوقفة الصادقة ؟ نترك الجواب على ذلك للايام القادمة، وان كانت المظاهر الماثلة أمامنا لا تبشر بالخير ..

وفي ختام هذا المقال ، يعود لذاكرتي خبر قرأته في جريدة « الاهرام » القاهرية في الايام التالية لعملية مطار اللد التي استشهد فيها شابان ثوريان يابانيان واعتقل ثالث ، وجاء في الخبر المذكور ان أول ياباني استشهد من اجل القضية العربية شاب انتحر من اجل مصر عام ١٩٦٨ ، وخلاصة الخبر ان هذا الشاب قد تلقى علومه في مصر واحب البلد واهلها ، وكان وفيا في اخلاصه لها فلما تعرضت لمحنتها في حزيران ١٩٦٧ اخذ يسعى لتجنيد شبان يابانيين للقيام بحملة معه تضامنا مع مصر ، ولما لم يلق كبير تجاوب ، ممن حوله من الشبان اليابانيين سيطر عليه التشاؤم واستبد به اليأس وانتحر حنقا على عدم تفهم الشباب الياباني لموقف مصر التي يحبها وقضيتها ليجلب بانتحاره الاذهان للاهتمام بهذه القضية والتعاطف معها وهو ما فشل فيه في حياته ...

ولن أجد مثالا ابلغ من هذا الخبر الذي أوردته « الاهرام » على الفشل العربي والقصور الغربي في الساحة اليابانية ، الفشل السياسي والتصور الاعلامي ، وقد ذهب هذا الشاب النبيل ضحية هذا الفشل وذلك القصور الذي لا بد ان يعوض الان بتوجيه المزيد من الضغوط الاقتصادية والسياسية على المؤسسة اليابانية الحاكمة لتقطع علاقاتها الاقتصادية بالعدو الصهيوني ، ومن جهة بالانفتاح اكثر فاكثر سياسيا واعلاميا على القوى الثورية اليابانية التي تؤيد قضيتنا لتشجيعها على المضي قدما في هذا السبيل ...

مراسلنا في طوكيو

أصداء ميونيخ في الساحة الفلسطينية في كنـــدا

حتى نهاية شهر أيلول الماضي كانت أصداء عملية ميونيخ ما زالت تتردد في ساحة النقاش السياسي في كندا ، وبانفجار رسالة ملغومة بالملحق الزراعي الاسرائيلي في لندن وفي أماكن اخرى ، ووصول عدد من هذه الرسائل الملغومة الـى كندا ، وكانت احداها موجهة الى القنصل الاسرائيلي العام في مونتريال ، تطور النقاش حول عملية ميونيخ الى معالجة عامة لقضية « الارهاب » ككل ... وتعبير « الارهاب ككل » هنا بمعاذ الله ان يعني بربرية الامريكان في الفيتنام او وحشية العدو الصهيوني في أرضنا وضد أهلنا ... فهذه الكلمة «الارهاب» لا مدلول لها في أذهان بعض الناس ، وهذا البعض يبدو ان له الكلمة العليا في مناطق واسعة هامة من عالمنا اليوم ومنها كندا ، سوى شيء واحـد ألا وهو كل ما ينم عن وجود أي نفس من روح في الجسد الفلسطيني حتى وان كان محض اشارة رفض أو رعشة غضب ؛ بل ان مجرد الاتيان على ذكر الشعب الفلسطيني هو عمل ارهابي في نظر هذا البعض من الناس ، وهذا التفسير وحده لمدلول كلمة « ارهاب » و« ارهابيين » في اذهان هذا البعض يتيح للمرء ان يفهم ما جرى ويجري في كندا من نقاش طرفه الاول ذو الحول والطول الفريق الصهيوني وصنائعه السائرون في الركاب من هيئة المؤسسة الحاكمة ، أما طرفه الثاني ففريقان كنديان هما : قيادة الحركة النقابية في ولاية كيبك بزعامة ميشيل شارتران من جهة ، والتيار القوي في الكنيسة المتحدة البروتستانتيـة الذي يقوده الاب الدكتور فورست رئيس تحرير مجلة « يونايتد تشيرش اوبزيرفر » ومؤلف كتاب « الارض غير المقدسة » .

وقبل ان نتطرق لعرض ماهية هذا النقاش وأبعاده الذي يلتزم فيه فريق ميشيل شارتران وفريق الاب فورست جانب الحق والعدل ، لا بد من استعراض سريع لمفعول عملية ميونيخ وردود فعلها في الساحة الفلسطينية في كندا للوقوف علـى مقدار ضراوة المعركة التي يخوضها هذان الفريقان .

وقد طغت أخبار عملية ميونيخ على كل شيء آخر في وسائل الاعلام في كندا طوال ثلاثة ايام فافردت لها الصحف مساحات كبيرة من صفحاتها الاولى ، كما احتلت أخبارها صدر نشرات الاخبار في محطات الاذاعة والتلفزيون ، بل ان هذه كانت تقطع مختلف برامجها لتذيع الرسائل والصور الصوتية التـي تتلقاها مـن مراسليهـا في ميونيـخ وتل ابيب والاحاديث التي تجريها مع الدعاة الصهيونيين ومع بعض المبعوثين العرب ، واستمر الاهتمام بأخبار هذه العملية مدة أربعة ايام أخرى ولكن بصورة متناقصة ، وان كانت قـد أعطت بعدا جديدا لنقاش سياسي سيظل دائرا ما بقيت القضية الفلسطينية تنبض بالحياة . وواقع الامر انه نتج عن احتشاد جمع هائل من الصحفيين في ميونيخ ، زهاء ٢٥٠٠ صحفي، وهو اكبر حشد من الصحفيين عرفه العصر الحديث ، بالاضافة الى طابع الاثارة الذي اتسمت به العملية من بدايتها ، سيل هائل من المقالات الوصفيـة والتحليلات والتعليقـات والرسوم الكاريكاتيرية ورسائـل القراء — بين مؤيدين ومعارضين — لم يسبق له مثيل على صعيد أحداث العالم العربي سوى تلك التي رافقت احداث حزيران عام ١٩٦٧ .

ولوحظ ان التركيز في الايام الاولى كان على ابراز بشاعة الحادث وبربرية مرتكبيه « العرب » مع تحميل المانيا بعض المسؤولية « لاهمالها حراسة الرياضيين الاسرائيليين » !! ثم لقيـام الشرطة الالمانية باطلاق النيران على الفدائيين العرب . وتحدثت جميع العناويـن الرئيسية في الصحف ونشرات الاخبار عن « المجزرة » و« قتل الرهائن اليهود » و« المذبحة التي تبعث على القشعريرة »، كما حفلت بالسباب والشتائم الموجهة للفدائيـين فوصفوا « بالتعصب » و« الارهاب » و« العته » و« الغباء » و« الدموية » الخ ... وأبدى بعض المعلقين ذهوله «لموجة الجنون التي تجتاح العالم» وتساءل بدهشة عما يخبئه لنا المجهول .

وقد استغلت اجهزة الدعايـة الصهيونية حادث ميونيخ على أوسع نطاق، وكانت الخطوط الرئيسية التي انتهجتها في حملتها الاعلامية هـي تحميل الدول العربيـة مسؤوليـة الحادث لايوائهـا « الارهابيين العرب » وتمويلهم وتشجيعهم . وكذلك الثناء على موقف سلطات بون لعدم رضوخهـا لمطالب « الارهابيين » ، وان كانت قد انتقدت هذه السلطات لعدم توفيرهـا الحماية اللازمـة للرياضيين الاسرائيليين ، وهذا بطبيعة الحال هو

من قبيل التهيئة النفسية لعملية الابتزاز الصهيوني لهذه السلطات في المستقبل ، فيتقاضون منهـا كالعادة المبلغ المرقوم ...

وقد وصفت المراجع الصهيونية حادث ميونيخ بأنه من الحوادث التي فجع لها الشعب اليهودي ، وانه يماثل في شدتــه حادث مطار اللــد وفقد الغواصة دكار ، وأعربت عن ارتياحها لان بعض زعماء العالم وجهوا اللوم الى الحكومات العربية بسببه ، وخلصت هذه المراجع الصهيونية الى القول بأن فرص « السلام » التي أخذت تلوح في الافق اثر طرد السوفييت من مصر قد تلاشت تماما بسبب عملية ميونيخ هـذه ... وأكـد الدعاة الصهاينة ان « الارهاب العربي » لم يسفر بعد عن اصابة اي شخص له وزن او دور ملحوظ في سياسة الشرق الاوسط ، وان عـددا كبيرا مـن ضحاياه كانوا من السيدات والاطفال العرب ، ولعلهم يعنون بذلـك ضحايا الغارات الجويـة الاسرائيلية على مخيمات اللاجئين الفلسطينيـين والقرويين في لبنان وسوريا ... كما اكد هؤلاء الدعاة انه يتعين على الحكومات العربية المشاركة في الجهود الرامية الـى القضاء على الارهـاب وبطبيعة الحال فان المستر روجرز وزير خارجية نيكسون قد وجه مذكرات بهذا المعنى الى عدد من الحكومات العربية لاقت تجاوبا سريعا لدى البعض منها تمثل في التضييق على حركة رجال المقاومة الفلسطينية ومنع الاموال عنها ، ومن جهة أخرى عكس الدعاة الصهاينة مطالبة الحكومة الاسرائيلية لدول اوروبا الغربيـة وامريكا باتفـاق مكاتب « الارهابيين العرب » وملاحقة نشاطهم وتنسيق عملية الملاحقة هذه ، وهذا مـا انصاعت لـه حكومات المانيا الغربية وبريطانيا والولايات المتحدة وغيرها حيثجعلوا من مقر البوليس البريطاني في لندن (سكوتلانديارد) مركزا لتبادل المعلومـات بين الدول المعنية حول نشاط « الارهابيين العرب » وتنسيق عملية ملاحقتهم بين دوائر المباحث والشرطة في كل من هذه الدول .

وعلى كل حال ، في الايام والاسابيع التالية لعملية ميونيخ اتسع مجال مناقشة هذا الحادث بحيث امتد الى كافة نواحي القضية الفلسطينية ، رغم ان التيار الصهيوني وصنائعه كان يلح على ضرورة حصر النقاش في موضوع « الارهاب » ومسؤولية الدول العربية منه ... فكادت لا تخلو صحيفة من عدة موضوعـات استعرضت تاريخ القضيـة ونشأة المقاومة والتيارات التـي تتجاذبها ... ويلاحظ ان الصحف قد انتهجت ابتداء من اليوم الاول لعملية الخط الذي سارت عليه حتى نهاية الازمة ، فالصحف الصـادرة باللغة الانكليزيـة اتخذت في غالبيتها العظمى خطا معاديا للجانب العربي ، بينما المقالات التي ظهرت في الصحف الصادرة بالفرنسية أخذت تميل تدريجيا الى جانب الحياد ، بل ان بعضها انقلب دفاعا عن القضية العربية . وفي هذا الصدد ذكرت جريدة «لودفوار» الصادرة بالفرنسية في ولاية كيبك السلطات الالمانية الغربية بالانتقادات التي وجهتها هذه الاخيرة الى غواتيمالا عندما رفضت الافراج عن ٢٤ مسجونـا سياسيا لقاء الافراج عن السفير الالماني فـون سبريتي الذي كان قد احتجزه الثوار الغواتيماليون رهينة ، وكيف أن ذلك أدى الى مقتل السفير ... وقالت : « أما كان حريا بالمانيا ان تحذو خطا مختلفا عن خط اسرائيل ؟ » . كما انتقد رئيس تحرير هذه الصحيفة حكومة بون بشدة وطالبها بكشف الظروف التي أحاطت بالحادث ، وتساءل : « هل يعتبر ما نجحت فيه اسرائيل ضروريا بالنسبة لجميع حكومات العالم ؟ » . والكاتب يشير بقوله هذا الى تصرف اسرائيل المغامر في حادث طائـرة السابينا في مطار اللد عندمـا استغلت حرمة الصليب الاحمر الدولي في خديعة الفدائيين آنذاك. وقد اكتسبت عملية ميونيخ اهميـة خاصة لكندا عموما ومدينة مونتريال بوجه خاص لانه قد تقرر ان تقام في هذه المدينة الدورة القادمـة للالعاب الاولمبية في عام ١٩٧٦ . فمونتريال التي ما زالت اكبر مدينة في كندا اخذت تخسر تدريجيا من مكانتها لصالح تورنتو في ولاية اونتاريو بعد ان ظهرت أول بوادر الحركة الانفصالية في ولاية كيبك ، مما حدا ببعض الشركات الكندية الانكليزية الكبـرى الى الانتقال الـى تورنتو . ولذلك فان عمـدة مونتريال يعلق آماله على اولمبياد ١٩٧٦ لاعطاء المدينة دفعة قوية الى الامام شبيهة بتلك التـي حدثت عند اقامة معرض مونتريال الدولي عـام ١٩٦٧ ، فالمشروع حيوي بالنسبة لمدينة مونتريال واقليم كيبك عموما ، وهـذا يلقي ضوءا علـى الملابسات التي اكتنفت اصوات الاستنكار للعملية التي صدرت عن بعض الكنديين الفرنسيين .

عالمية القضية الفلسطينية :

وقبل ميونيخ كان هنالك معارضون لاقامة الالعاب

الاولمبية في مدينة مونتريال نظرا للتكاليف الهائلة التي يتطلبها ذلك والتي تتجاوز الالف مليون دولار وقد تبلغ الالفين ... وجاء حادث ميونيخ ليعطي هذا التيار المعارض حجة جديدة قوية ومركـزا أقوى ، وهكذا اتخذ النقاش حول ميونيخ بعدا محليا هو في صميم الشؤون المحلية الكندية. وهذه سمة فريدة اتسمت بها دائما القضية الفلسطينية ، فسرعان ما تتحول بعض مضاعفات هذه القضية او ملابساتها الى مسألة داخلية في هذا البلد او ذاك من العالم ... وذلك نظرا لامتداد الجسم اليهودي والتأثير الصهيوني في بقاع شتى مـن العالم ، ويقابله أيضـا امتداد الجسم العربي والتأثير العربي في البقاع ذاتها ، الى جانب عوامل أخرى عديدة ، وبطبيعـة الحـال فان أعداء الصهيونية او بعـض المتخوفين من تزايد نفـوذ الصهاينة داخل بلادهم يخشون استيلاء هـؤلاء على مقاليد الامـور في بلادهم كثيرا مـا يميلون لمساندة الجانب العربي حتى وان لم يكن ارتباطهم بالقضية العربية ارتباطا مبدئيا ، اي ان حافزهم الاساسي هو اضعاف شوكة الصهيونيين في تلك البلاد . ولذلك كلما حدث حادث يتعلق بالقضية الفلسطينية سرعان ما يستقطب ذلك الحادث تيارين متعارضين داخل البلاد ، احدهما صهيوني او مناصر للصهيونية واخر يناصر القضية العربية او يجد لها التبريرات والمعاذير او يلتزم الحيـاد وذلك حسب ظروف البلد وطبيعة ميزان القوى داخله ... فجاءت عملية ميونيخ وقذفت بكـرة القضية الفلسطينية الى داخل كل بلدان العالم دفعة واحدة ، ولا ندعي بهذا ان عملية ميونيخ هي التي استحدثت عالمية القضية الفلسطينية وابتدعت لهذه القضية شخصية عالمية خلقتها لها من عدم ، فواقع الامر ان القضية الفلسطينية ولدت عالمية ، واذا كانت الصورة العالمية للقضية الفلسطينية قد ظلت باهتة ومهزوزة لسنوات طويلة نتيجة ظروف عربية وفلسطينية وعالمية لا مجال للخوض فيها الان ، فان عالمية القضية الفلسطينية قد طرحت علـى أوسع نطاق منذ عـام ١٩٦٧ بانكشاف هوية اسرائيـل الحقيقية أمام انظـار القوى التقدمية والثورية والانسانية في العالـم بصفتها كيانا عنصريا عدوانيا توسعيا ، وتعمقت الصورة العالمية للقضية الفلسطينية بتصاعد الكفاح الفلسطيني وانفتاحه التدريجي على القوى الثورية العالمية بعد أن فك الشعب الفلسطيني اساره من قبضة الاوضاع الديماغوغية التي سادت العالم العربي اثر النكبة الاولى عندما افتضح أمر هذه الاوضاع ونسيجها المهلهل في هزيمة حزيران .

فعملية ميونيخ قامت بتأكيد السمة العالمية للقضية الفلسطينية ، فهي لم تخلقهـا ، وانما أعطتها أبعادا جديدة من العنف الثوري ، ولكن كانت الكرة ساخنة جدا فلم تقو سوى أيد قليلة على التقاطها وردها الى مرمى الخصم ، والمقصود هنا هو الدفاع عن شرعية هذه العملية في الشرعة الثورية لا سيما وان الثوار ليسوا مسؤولين عن تحولها الى مجزرة ، فقد سيطر التهويش الصهيوني المؤازر بالابواق الاستعمارية على الساحة الاعلامية في بلدان اوروبا الغربية والامريكتين وتمكن مـن انتزاع بعض التنازلات من جهات كثيرة منـاصرة للقضية العربية ، وان كانت هذه التنازلات جزئية واقتصرت على اصـدار تصريحات تستنكر هـذه العملية ، ولكن هذه الجهات ظلت في معظم الحالات متمسكة بموقفها المؤيد لعدالة القضية واقتصر استنكارها على أسلوب هذه العملية بالذات ... وقد ظهرت بعض مظاهر هذه البلبلـة ولا نقول الخلخلة في مواقف تيارين رئيسيين يؤيدان القضية العربية في كندا وهما : قيادة الحركة النقابية في ولاية كيبك ، والكنيسة المتحدة البروتستانتية .

اولا : قيادة الحركة النقابية في ولاية كيبك :

اثر حدوث عملية ميونيخ سارع ميشيل شارتران أحد الزعماء البارزين للجبهة المشتركة للنقابات — التي تضم معظم نقابات العمال والمستخدمين في ولاية كيبك وتضـم في صفوفها زهـاء ٢٥٠٠٠٠ عضو — الى عقد مؤتمر صحفي في ١٩٧٢/٩/٧ صرح فيه بأن الفدائيين أبطال ، وان صحف اميركا هي التي شوهت صورة الموقف عندما اعطت لحادثة ميونيخ اهمية اكبر من عمليات القصف في فيتنام او الغارات الاسرائيلية على الفلسطينيين العزل . وكان ميشيل شارتران قد زار في الشهر السابق لعملية ميونيخ — آب — كلا من لبنان وسوريا والعراق ومصر على رأس وفد نقابي من عشرة أشخاص يمثل الجبهة المشتركة للنقابات في كيبك ، وكانت صحف كيبك قـد تجاهلت هـذه الزيارة باستثناء جريدة « لابريس » التي ظهـرت فيهـا اربعة رسوم كاريكاتورية معادية مغزاها انه لا يمكن ان يكون هناك مجال للتفاهم بين العرب وشخص كشارتران . ولكن عقب عودة الوفد النقابي عقب

بعض الصحف على بعض تصريحاته في البلدان العربية التي زارها حيث اتهم اسرائيل بشن مذابح ضد الفلسطينيين وباتباع سياسة عنصرية تمييزية. وقال « ان حل المشكلة يقتضي السماح للفلسطينيين بالعودة الى ديارهم » . وعندما سئل : « وأين يذهب الاسرائيليون اذن ؟ » رد قائلا : « هذه مشكلتهم . فليس من حقهم احتلال ارض لا يمتلكونها !! » . وقد أوردت صحيفة الكنديان جويش نيوز (١٩٧٢/٩/١٥) الصهيونية هذه التصريحات ، كما أشارت الى ما ذكره عن يهود سوريا وتأكيده انهم يتمتعون بكافة حقوقهم ، وانه مسموح لهم بمغادرة سوريا ، ولكنهم يريدون حمل كل شيء معهم ...

وكانت هذه التصريحات كافية ليسارع زعماء المؤتمر اليهودي الكندي والاتحاد الصهيوني الكندي بالرد عليه ، وليبعث عدد من القراء اليهود برسائل — الى الصحف الصادرة بالانكليزية — كلها تهجم على شارتران ، كما اشار بعضها الى ان اليهود أصبحوا يعرفون الان الوضع الذي سيؤولون اليه اذا ما استولى شارتران واصدقاؤه على السلطة في كيبك .

ولكن النقد الموجه لهذه التصريحات لم يجيء من الاوساط اليهودية والصهيونية فحسب ، فقد انتقدها بشدة أشهر صحفي كندي فرنسي كلود ريان رئيس تحرير صحيفة « لودفوار » التي تلتزم عادة النزاهة في عرض القضية الفلسطينية .

وفي ضوء مثل هذا النقد الشديد من كل جهة لتصريحات ميشيل شارتران يمكن فهم الاسباب التي جعلت لويس لابرج رئيس اتحاد عمال كيبك الذي يضم اتحاد شارتران يرسل برقية تعزية الى غولدا مائير عزاها الى عمال الاقليم بأكمله اعرب فيها عن أسفه أمام « العمل البربري » الذي ارتكب ضد الفريق الخ ... ولكنه استدرك قائلا : « ان ذلك لا يعني اننا لا نؤمن بأن قضية الفلسطينيين عادلة ... نحن نعتقد ان الدول العظمى هي المسؤول الاول عن هذا الموقف اليائس الذي يدفع ببعض الفلسطينيين الى الاتيان ببعض الاعمال الانتحارية التي يؤسف لها » . ومن الواضح ان لابرج حاول قدر الامكان التخفيف من وقع تصريحات شارتران حتى لا يستغل موقف العمال من عملية ميونيخ في زيادة التصدع الذي تمر به الحركة النقابية في كيبك .

وجدير بالاشارة هنا ان تطور الحركة الانفصالية في اقليم كيبك قد ترك اثره في اتجاهات القيادات العمالية في الاقليم وأساليب عملها ، فمالت الى التشدد ، وتسييس الحركة النقابية والقضايا المطلبية لهز مواقع السلطة سياسيا ، وهكذا كان ميشيل شارتران واحدا من « الزعماء الخمسة » الذين اعتقلوا لمدة أشهر عقب احداث تشرين الاول/اكتوبر ١٩٧٠ في كيبك . ومنذ الافراج عنه وهو يذرع كندا عرضا وطولا مهاجما الحكومة الحالية ومدافعا عن المكاره السياسية على الصعيدين الداخلي والخارجي لا سيما بالنسبة لفيتنام وفلسطين . ونتيجة لزيادة الالتزام السياسي للحركة العمالية وقع اول تصادم خطير مع حكومة كيبك في أيار الماضي انتهى بفشل العمال في الحصول على مطالبهم ، وانفصال ثلاثين ألفا من العمال « المعتدلين » عن الجبهة المشتركة للنقابات التي كانت تضم ٢٥٠٠٠٠ عامل ، وذلك لتكوين تنظيم خاص بهم . ويبذل أصحاب رؤوس الاموال بالاضافة الى الحكومتين المركزية والاقليمية أقصى جهودهم لمحاولة زيادة تصدع الحركة العمالية في كيبك . فقد كشفت احدى الوثائق السرية ان المخابرات العسكرية الكندية تراقب جميع زعماء الحركة النقابية في كيبك ، وجاء في هذه الوثيقة عن ميشيل شارتران انه « نشيط في جميع القضايا ابتداء من الشيوعية حتى الانفصال ، وأنه يمول الكثير من النشاط من أموال المجلس المركزي للنقابات الوطنية لمونتريال » . وفي ١٩٧٢/٩/٢٦ تلقت الجبهة المشتركة للعمال لطمة جديدة ، فقد أعلن المتحدث باسم ٣٠٠٠٠ موظف انفصالهم عن الحركة . ومما يزيد في خطورة هذا الانفصال الجديد ان الموظفين كانوا يساهمون بقسط كبير — ٥ر١ مليون دولار — في ميزانية الجبهة .

وهكذا نرى ان الجبهة المشتركة للعمال قد خسرت ٦٠٠٠٠ عضو من أعضائها في ظرف خمسة شهور فقط فأصبح عدد المنتسبين اليها الان ١٩٠٠٠٠ بعد أن كان ٢٥٠٠٠٠ عضو وذلك بفعل التخريب الصهيوني من الداخل وتآمر الرأسماليين والسلطات وتضييقهم عليها من الخارج .

ومن الصعب التنبؤ بالتطورات المقبلة لهذه الحركة ، فاما ان يختار زعماؤها طريقا اكثر « اعتدالا » حفاظا على جميع التيارات فيها ، واما ان ينتهجوا خطا ثوريا واضحا صريحا مكرسين

القطيعة النهائية بين اتجاهين « يميني » و«يساري» في الحركة النقابية في كيبك .

ثانيا : الصهيونيون يسعون لتطويق الاب ماكلويد :

واصلت الدعاية الصهيونية حملتها ضد الدكتور فورست رئيس تحرير مجلة « يونايتد تشيرش اوبزيرفر » ومؤلف كتاب « الارض غير المقدسة » الذي أثار ضجة كبيرة في كندا لفضحه اكاذيب الصهاينة وأضاليلهم وعرضه النزيه لمأساة اللاجئين الفلسطينيين . ورغم ضراوة الحملات الصهيونية التي يتعرض لها الدكتور فورست ما زال صامدا بثبات بل ويزداد اصرارا بازدياد قوة التيار الذي يقوده داخل الكنيسة المتحدة التي تعتبر أكبر كنيسة بروتستنتية في كندا ، وكذلك نتيجة ارتفاع شأن المجلة التي يرئس تحريرها اذ تحولت من صحيفة مهملة غير مقروءة الى صحيفة عصرية واسعة الانتشار . وقد حصل الدكتور فورست في شهر آب الماضي على ثقة المؤتمر العام للكنيسة المتحدة عندما تحدث عن موضوع الشرق الاوسط ، وذلك بأن وقف له جميع الاعضاء وهم يصفقون الامر الذي طمأنه على حد قوله « على تأييد الكنيسة ، وأضعف من مركز معارضيه في صحيفته وفي مختلف مستويات الكنيسة المتحدة ». وقد انتخب المؤتمر العام للكنيسة المتحدة المشار اليه الاب بروس ماكلويد رئيسا جديدا للكنيسة المتحدة ، ومنذ ان انتخب الرئيس الجديد سعى الصهيونيون الى تطويقه لعلهم ينالون من الدكتور فورست ويضعون حدا لنشاطه ، ولكن الاب ماكلويد لم يستجب لضغوطهم حتى الان وأعلن تأييده للدكتور فورست مائة في المائة ، وان كان ذلك لا يعني انه يؤيد كل ما تنشره المجلة ... الا ان الصهيونيين افلحوا في انتزاع تنازل أولي من الاب ماكلويد اذ أدلى عقب حادث ميونيخ بتصريحات أدان فيها بشدة مرتكبي العملية ، كما صرح بعد ذلك بأنه سيبدأ على الفور محاولات لرأب الصدع الذي أصاب العلاقات بين الكنيسة المتحدة وبعض الزعماء اليهود . وذكر انه دعا الحاخام غونتر پلوت للتحدث في اجتماع الكنيسة المتحدة في تورنتو يوم ٢٢ تشرين الاول الماضي ، وقال : « ينبغي ان تمتد ايدينا الى اخوتنا اليهود في مناسبة السنة اليهودية الجديدة لندين معهم استراتيجية الارهاب التي تهددهم » .

وعلى أية حال اشتهر الرئيس الجديد بأفكاره التجديدية في أكثر من مجال ، ويعتبر اختياره انعكاسا للتيار التجديدي السائد في اجتماع اللجنة البرلمانية للكنيسة المتحدة والذي اسفر عن اقرار مجموعة من القرارات القوية تضمنت ادانة لحكومات كندا والولايات المتحدة وجنوب افريقيا وروديسيا والبرتغال وفرنسا واسرائيل ، وكذلك الموافقة على تقرير أعدته لجنة فرعية تحث الاعضاء على الاستعداد لاستقلال كيبك . وبالنسبة لاسرائيل وافقت الكنيسة على طلب مقابلة ترودو رئيس الوزراء ، حينذاك ، لمناقشة بعض قضايا الشرق الاوسط « مثل انتقاد العرب للادارة الاسرائيلية في الاراضي المحتلة ، وهو الانتقاد الذي عضدته لجنة حقوق الانسان في الامم المتحدة » ، وكذلك مناقشة موضوع « القرض الذي يبلغ مائة مليون دولار والذي قدمته هيئة تنمية الصادرات الكندية لاسرائيل » .

ورغم ان ماكلويد يحاول التزام خط معتدل ، فان الصهيونيين أبدوا على الدوام تشككهم في شخصه، وكانت جريدة الكنديان جويش نيوز الصهيونية قد أدرجته في ١٩٧١/٧/٢٣ ضمن قائمة تضم « أهم سبعة أعداء لاسرائيل في كندا » وهم اعضاء « اللجنة الكندية لتفهم الاوضاع في الشرق الاوسط » .

اما الصهيونيون ، فهم كالعادة ماضون قدما في كرنفال دعاويهم الكاذبة واضاليلهم ، ولعل أطرف هذه الاضاليل ما نشرته جريدة « غلوب أند ميل » الكندية في عددها الصادر في ١٩٧٢/٩/١٨ من أن الصهيوني سيمون ويزنتال المختص بالكشف عن الزعماء الصهيونيين المختفين والذي كشف عن شخصية ادولف ايخمان قد بدأ البحث عن « الحقائق التاريخية » حول كريستوفر كولومبوس. وقد اعرب عن اعتقاده بأن كولومبوس كان يهودي الديانة وانه قام برحلة الى امريكا الشمالية بحثا عن القبائل اليهودية العشر المختفية . وان الذي مول رحلته نفر من اثرياء اليهود الاسبان ... ترى هل هذه هي مجرد بداية للمطالبة بامتلاك القارة الامريكية بأكملها شمالها وجنوبها واعتبارها هي الاخرى أرض ميعاد لشعب الله المختار ؟

مراسلنا في كندا

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

مثلت احداث الفترة الماضية التي احاطت بحركة المقاومة (١١ ت١ — ١٠ ت٢) امتدادا للاحداث التي سبقتها دون اي تطور نوعي جديد . فمن جهة اولى استمرت عمليات العنف في الخارج ، من خطف الطائرات الى الرسائل الملغومة . ومن جهة ثانية استمر بروز بعض المشكلات التي تعكس حالة من التوتر الداخلي تستدعي لمعالجتها بحثا عن اسبابها العميقة ، دون الاكتفاء بالوقوف عند مظاهرها . ومن جهة ثالثة تابعت اسرائيل نشاطها الارهابي واعطته مضامين جديدة . وقد عبرت هذه الاحداث عن نفسها من خلال المظاهر التالية :

١ — **اوضاع المقاومة الداخلية** : برزت في اوساط حركة المقاومة منذ معركة ايلول ١٩٧٠ ومعركة جرش تموز ١٩٧١ ، اكثر من ازمة داخلية ، عبرت عن نفسها احيانا باعلان حل تنظيم واندماجه في تنظيم اخر (الهيئة العاملة لتحرير فلسطين) ، او باعلان انشقاق تنظيم عن تنظيم اخر (الجبهة الثورية) . وفي احيان اخرى عبرت هذه الازمة عن نفسها بالتقاء مجموعة من العناصر ومن تنظيمات مختلفة على نقد كل ما هو قائم والدعوة الى « مقاومة جديدة » . وقد عاشت حركة فتح الظاهرة نفسها من خلال حالة واسعة من الجدل بين صفوفها ، ثم من خلال توترات برزت الى العلن ، وخاصة في لبنان ، وحين كانت تنشر انباء صحفية حول هذه التوترات كانت قيادة فتح تسارع الى نفيها رسميا ، اما في الشهر الماضي ، فقد انفجرت ازمة داخلية استمرت اكثر من اسبوع ، وصدرت بشانها بيانات رسمية من اكثر من جهة .

ففي الرابع عشر من تشرين الاول اصدرت حركة فتح بيانا رسميا جاء فيه انه « على اثر قرار اتخذته اللجنة المركزية لحركة فتح بفصل ابو يوسف الكايد بسبب مخالفات مسلكية ، قام المذكور صباح اليوم بتحريض بعض العناصر في احدى الوحدات العسكرية ، فكلفت القيادة وحدة عسكرية بالسيطرة على الموقف لانهاء هذا التصرف الذي يهدد الانضباطية » . وافادت المعلومات الصحفية ، ان ابو يوسف الكايد كان في الاصل عضوا في « الهيئة العاملة لتحرير فلسطين » ، ثم انضم الى فتح وتولى مسؤوليات عسكرية مختلفة فيها ، منها مسؤولية قاعدة المرفند جنوبي صيدا ، ثم مسؤولا عسكريا عن قوات فتح في منطقة البقاع ، حيث جرت احداث التمرد . اما خطة تطويقه والقضاء على تمرده فقد قادها ابو الزعيم ، مسؤول فتح العسكري في لبنان .

وخلافا للتوترات السابقة التي كان اطرافها يلتزمون بالصمت ، ثم تتولى الحركة رسميا نفي الانباء الصحفية عنها ، فقد اتسم هذا التوتر باقدام ابو يوسف الكايد على الادلاء بتصريحات عن اسباب الخلاف ، تضمنت تحليلات وادانات ملفتة للنظر .

لم تتقدم قيادة فتح على الادلاء بأي رد على هذه الانتقادات ، وبالتالي لا يمكن الجزم ، اعتمادا على وجهة نظر واحدة ، اذا كانت هذه هي فعلا موضوعات الخلاف ام لا . ولكن ، اعتماد ابو يوسف الكايد عليها ، واصراره على تأكيدها علنا، يظهر اعتقاده على الاقل بانها حجج تمثل موقفا سياسيا مقابلا لموقف القيادة ، يمكن ان يلقى تجاوبا من العناصر المتمردة معه او من الوسط الفلسطيني بشكل عام . ولكن قيادة فتح اصدرت يوم ١٩ ت ١ بيانا اخر قالت فيه : بعد التحقيق تبين ان ما حدث لم يكن انشقاقا او تمردا . بل كان خلافا بين ابو يوسف الكايد وبعض الاخوة المسؤولين العسكريين . وقد اصدرت القيادة العامة القرارات المناسبة... وسيغادر من شملهم القرار الى الخارج .

وقد تبين فيما بعد ان السفير الجزائري محمد

يزيد لعب دورا مهما في انهاء الخلاف الذي استمر اسبوعا واسفر عن ٩ قتلى وعدد من الجرحى ، وذلك حين طلبت منه قيادة فتح التدخل كوسيط ، وكانت موافقته مشروطة بأن لا تكون قيادة فتح تعتبر ما جرى تمردا او انشقاقا . لان ذلك يصبح من الشؤون الداخلية التي لا يجوز حلها عن طريق الوساطة . وبعد ان تم الاتفاق بين السفير يزيد وقيادة فتح على اسس الوساطة ، توجه السفير بسيارته الى موقع الكايد يرافقه ثلاثة من قادة فتح هم ابو اللطف وابو جهاد وحمدان . وفي اللقاء معه تم الاتفاق على ان يسافر للجزائر ، وان يعتبر قتلى الحادث من شهداء الثورة وان يتم تشييعهم على هذا الاساس . وعلى اثر هذا اللقاء خرج الكايد من موقعه ورافق السفير بسيارته الى مدينة صيدا ، ثم سافر الى الجزائر يوم ٢٤ ت١ . وقد عقد السفير الجزائري مؤتمرا صحفيا يوم ٢٠ ت١ اوضح فيه الدور الذي قام به مركزا على ان تدخله كان تلبية لطلب من قيادة فتح ، وان قادة فتح حلوا المشاكل فيما بينهم وبكل سيادة . وأكد انه ليست لديه اية نية للحديث في مشاكل المقاومة الداخلية ، وانه لو كان ما حدث تمردا فان تدخله يصبح غير معقول . وكانت قد نشرت قبل ذلك (١٨ ت١) انباء صحفية عن قرار باجراء تغييرات في بعض المراكز القيادية في فتح على الشكل التالي: — نقل حمدان مسؤول اقليم لبنان ليكون مسؤولا عن اقليم مصر . — نقل هايل عبد الحميد مسؤول اقليم مصر ليكون مسؤولا عن أقليم لبنان . — نقل ابو الزعيم المسؤول العسكري عن لبنان ، الى مكان لم يحدد ، وتعيين أبو موسى قائد ميليشيا فتح في لبنان ، مسؤولا عسكريا . — تعيين ابو ماهر بدلا من ابو موسى في قيادة ميليشيا لبنان .

وقد ربطت الانباء الصحفية بين الحادث وبين هذه التغييرات ، ولكن ما هو معروف في اوساط المقاومة ، ان هذه التغييرات كانت مقرة داخل فتح منذ التوترات السابقة ، وارجىء تنفيذها الى حين هدوء تلك التوترات ، ثم نفذ جزء منها فقط اثناء حادث الكايد .

ان هذا الحادث كما قلنا ليس حادثا مجتزءا يمكن النظر اليه بعيدا عن الاجواء العامة التي تعيشها حركة المقاومة بفصائلها كافة ، وعن سلسلة التراجعات التي اضطرت اليها . ففي مراحل التراجع يتسع نطاق النقد والتذمر امام الاحساس بالازمة المحيطة بالعمل الثوري . وبقدر ما تكون القيادة السياسية قادرة على تقديم بديل نضالي لقواعدها وجماهيرها ، بمقدار ما تكون قادرة على مواجهة هذه الازمات وتخطيها وتحويلها الى ظاهرة صحية . اما اذا عالجتها كتمردات جزئية، وسعت الى قمعها بالقوة دون ان تطرح البديل النضالي الذي يشكل جوابا على الازمة الثورية ، فان المعالجة حينذاك تتحول الى نوع من الكبت ، ولا يولد الكبت عادة في الحركات الثورية الا المزيد من الانفجارات . وما يجب ان نلاحظه هنا بدقة ان التمردات الجزئية في اوقات الازمات قد لا تستطيع التعبير عن نفسها بوضوح ، وقد تعبر عن نفسها بشكل خاطىء ، وعلى اساس ذلك ترتاح بعض القيادات الى استغلال غموضها او اخطائها لصدها والقضاء عليها ، ولكن الاكتفاء بذلك يعني معالجة جزئية لحدث يعبر عن وجود ازمة عامة ، دون الالتفات لجذور الازمة نفسها ومحاولة حلها. وعلى اساس ذلك فان كل قيادة فلسطينية تواجه ازمات من هذا النوع مطالبة بان تحدد بنفسها ومن اجل مستقبل مسيرتها ، نوع التوترات التي تواجهها والاسباب التي تولد هذه التوترات ، والبحث عن حل لها يتناول المواقف السياسية والمواقع النضالية التي تلبي متطلبات المرحلة الراهنة ، لان ذلك يشكل مدخلا لمعالجة التوترات برمتها ، وتحويل الجهود المبذولة فيها ، الى جهود تصب في المجرى النضالي العام .

٢ — **الارهاب الاسرائيلي** : تابعت اسرائيل تنفيذ مخططها الارهابي الذي اعلنت انها ستلجأ اليه بعد حادث ميونيخ ، والذي تميز حتى الان بالمواصفات التالية : ١ — التزام اسرائيل رسميا ، وعلى صعيد الدولة ، بسياسة الارهاب. ٢ — توجيه الارهاب ضد حركة المقاومة ، وضد الشعب الفلسطيني ككل . ٣ — محاولة جر دول العالم للاسهام معها في هذه العملية . ٤ — ضرب القوة العسكرية العربية ، والمواقع المدنية العربية ، على اساس سياسة الانتقام ، ولدفع الحكومات نحو منع العمل الفدائي من اجل تفادي استمرار الضربات الاسرائيلية . ٥ — الكف عن سياسة التمهيد الاعلامي المسبق قبل توجيه الضربات ، والقيام بالاعتداءات بصورة مفاجئة ، وحسب اهداف مختارة سلفا .

وعلى اساس هذه النقاط قامت اسرائيل مؤخرا بسلسلة من الاعتداءات المفاجئة على سوريا ولبنان ، (راجع القضية الفلسطينية عربيا) كما نفذت عملية اغتيال في روما ، اضافة الى استمرارها في ارسال الرسائل الملغومة الى شخصيات من المقاومة .

ففي ١٦ ت ١ تم اغتيال المناضل وائل زعيتر في روما ، ونعته حركة فتح في بيان رسمي جاء فيه ان « الشهيد البطل من اوائل الذين استطاعوا وبجهود لا حدود لها ، ان يوصل صوت فلسطين الى الرأي العام الاوروبي . وتمكن عبر ذلك ان يبني جسورا من العلاقات الودية المتينة بين الثورة الفلسطينية والاحزاب التقدمية في ايطاليا » . وقد حاول اهل الشهيد احضار جثمانه الى نابلس ليدفن في مسقط رأسه ، ولكن الحاكم العسكري للضفة الغربية رفض الموافقة على ذلك ، خوفا من ان تؤدي عملية التشييع الى تفجير الوضع في المدينة . ثم وافقت الحكومة الايطالية على طلب ليبيا نقل الجثمان اليها ، حيث جرى نقله من هناك الى دمشق . وفي دمشق تم تشييع جثمان الشهيد يوم ٢٨ ت١ في جناز شعبي ضخم ، وقال ممثل فتح في كلمة تأبينية « سننتقم من الصهيونية التي اغتالته في ايطاليا واوروبا وكل الانحاء » .

اما على صعيد الرسائل الملغومة فقد اكتشفت سلطات القاهرة رسالة موجهة الى السيد فاروق القدومي (٢٤ ت١) ، ثم اكتشفت ثلاث رسائل اخرى انفجرت احدها بين يدي ضابط مصري بينما كان يحاول ابطال مفعولها (٢٦ ت١) . وفي الفترة نفسها انفجرت رسالة ملغومة بين يدي ابو خليل مسؤول منظمة التحرير في الجزائر ، (٢٥ ت١)، وفي اليوم نفسه انفجرت رسالة اخرى بين يدي مصطفى عوض زيد احد موظفي مكتب منظمة التحرير في ليبيا ، واصيب في الحادث شخصان ليبيان كانا الى جانبه . اما في لبنان فقد استطاع حارس احدى الابنية كشف رسالة ملغومة موجهة الى شاب فلسطيني يسكن في بنايته ، قبل ان يجري تسليمها اليه (٢٨ ت١) .

٣ ــ **عمليات العنف في الخارج** : استمرت ظاهرة الرسائل الملغومة المرسلة الى شخصيات سياسية اسرائيلية في الخارج ، ولكن اغلب هذه الرسائل تم اكتشافها . ففي ٢٥ ت١ اعلن في تل ابيب العثور على ٣ رسائل ملغومة موجهة الى الرئيس الاميركي نيكسون والى اثنين من وزرائه هما وليم روجرز وزير الخارجية ، وملفين ليرد وزير الدفاع. والملفت للنظر ان هذه الرسائل كانت مرسلة من داخل اسرائيل ، وتم العثور عليها في بريد قرية كريات شمونه . وبعد يومين اعلنت السلطات الاسرائيلية انها اعتقلت سائحا امريكيا بتهمة اجتياز الحدود من لبنان الى اسرائيل ، ووجهت له تهمة توجيه الرسائل ، ولكن السائح الاميركي اعترف باجتياز الحدود وانكر علاقته بالرسائل . وفي لندن انفجرت رسالة ملغومة بين يدي « فيفيان برينز » المدير الاداري لشركة هينيغ ، وهي من اكبر شركات الماس في بريطانيا . وقال بعض رجال المباحث انه يبدو ان الرسائل الملغومة جزء من خطة لمنظمة ايلول الاسود لعزل شركات تتعامل مع اسرائيل . وقد كانت هذه الرسالة صادرة من الهند ، وعلى اثرها تمكنت السلطات الهندية من اكتشاف اكثر من ٥٠ رسالة ملغومة في صناديق بريد مدينة نيودلهي . وبالمثل تم اكتشاف ٥ رسائل في مدينة جنيف (١٠ ت٢) .

● ولكن ابرز عمليات الخارج خلال الشهر الماضي نفذتها منظمة جديدة اطلقت على نفسها اسم «منظمة الشبيبة القومية العربية لتحرير فلسطين»، وذلك حين قام فدائيان من هذه المنظمة باختطاف طائرة لوفتهانزا . ركب الفدائيان الطائرة من بيروت وقاما بالسيطرة عليها وهي فوق قبرص ، وامراها بالتوجه نحو ميونيخ صباح يوم التاسع والعشرين من ت١ . حلقت الطائرة فوق مطار ميونيخ بعد ان احتشد فيه نحو ٥٠٠ رجل بوليس . وفي الاتصالات اللاسلكية التي جرت طالب الخاطفان باطلاق سراح الفدائيين الثلاثة الذين نجوا من حادث ميونيخ بعد المجزرة التي نظمت في المطار وهم : ابراهيم بدران ، سامر عبد الله ، وعبد القادر الدناوي . وجرت اثناء ذلك مفاوضات مع الخاطفين لبحث كيفية نقل الخاطفين الى المطارات المقترحة داخل المانيا او خارجها ولكن الخاطفين رفضا الاقتراحات التي عرضت كافة ، وقررا التوجه نحو مدينة زغرب بيوغسلافيا . حيث اعلنت المانيا استعدادها للافراج عن المعتقلين وارسالهم الى هناك . وبالرغم من هذه الموافقة ، وتفاديا لاي خديعة اصر الخاطفان على بقاء الطائرة في الجو الى ان يصل المعتقلون الثلاثة فعلا ، واستمرت عملية الانتظار خمس ساعات كاملة هبطت الطائرة بعدها والوقود على وشك ان ينفد

منها . ودخل المعتقلون الثلاثة الى الطائرة الالمانية ، حيث اقلعت من جديد ومعها ايضا قنصل المانيا الغربية في زغرب الذي صعد الى الطائرة ليفاوضهم ، وحطت بعد ذلك في ليبيا . وبذلك انتهت مغامرة استمرت ست عشرة ساعة ، وتميزت بالتصميم وضبط الاعصاب ، وتوجت بنجاح كامل بالافراج عن الاسرى الثلاثة .

٤ ـ **ملاحظات عامة** : اضافة لملامح الاحداث الاساسية التي تحدثنا عنها ، لوحظ ان حركة المقاومة تابعت انجاز بعض العمليات الفدائية داخل اسرائيل نفسها . ففي ١٣ ت١ انفجرت عبوة ناسفة داخل احد المصارف في مدينة نتانيا قرب تل ابيب . وفي ٣١ ت١ وقع انفجار اخر في الطبقة الثالثة من اعلى مبنى في مدينة تل ابيب ، وأدى الى اصابة ثلاثة اشخاص بجراح . وفي كلا الحادثين قامت اسرائيل باعتقال عدد كبير من المواطنين العرب للتحقيق معهم .

ولوحظ من جهة اخرى ان وفدا اعلاميا فلسطينيا هو الاول من نوعه ، توجه الى موسكو يوم ٢٧ ت١ . وتأتي هذه الزيارة كدليل على تنوع مستوى العلاقات بين المقاومة والاتحاد السوفياتي ، وذلك بعد الزيارة الاخيرة التي قام بها وفد فلسطيني برئاسة ياسر عرفات ، وتردد يومها ان الاتفاق قد تم على رفع مستوى العلاقات بين الطرفين .

وعلى صعيد العلاقات الفلسطينية العربية اعلن يوم ١٠ ت٢ انه قد تقرر عقد « المؤتمر الشعبي العربي لدعم الثورة الفلسطينية » في بيروت يوم ٢٧ ت٢ . وقالت امانة اللجنة التحضيرية في بيان لها : ان المؤتمر يهدف الى تكوين جبهة شعبية عربية مشاركة في الثورة ، ويشترك في اعماله ممثلون عن مختلف القوى الوطنية والتقدمية العربية ، ويتضمن جدول الاعمال : ١ ـ اقرار برنامج العمل السياسي للجبهة . ٢ ـ اقرار اللائحة الداخلية . وكما ان حركة المقاومة تعيش بانتظار هذا المؤتمر وما سيسفر عنه من نتائج ، فانها تعيش ايضا حالة انتظار وبحث متواصل للمجلس الوطني الفلسطيني العاشر الذي سيعقد في القاهرة في كانون الاول ١٩٧٢، والذي سيكون موضوعه الرئيسي قضية الوحدة الوطنية وما تم انجازه منها على ضوء البرنامج السياسي والتنظيمي الذي اوصى به المؤتمر الشعبي الذي عقد في نيسان الماضي ، حيث ستتقدم لجنة المتابعة تقريرها في هذا الشأن .

وفي الوقت الذي يجري فيه التحضير لهذين المؤتمرين ، انفجرت في لبنان يوم ١١ ت٢ ازمة سياسية عنيفة بعد اقدام رجال الامن الداخلي على اطلاق النار على عمال مصانع الفندور المضربين، واسفر الحادث عن استشهاد عامل وعاملة وسقوط ٢٦ جريحا . ويعمل في مصانع الفندور عدد كبير من العمال والعاملات الفلسطينيين ، الذين استدعي قسم منهم للتحقيق ، مما ادى الى تدخل بعض القوى من المقاومة لمعرفة اوضاعهم ومصيرهم . وهنا اثار الاستغراب الشديد بيان صدر عن الاتحاد العام لعمال فلسطين ـ فرع لبنان ـ استنكر فيه المجزرة ولكنه اضاف قائلا : « أبلغ الاتحاد العاملات الفلسطينيات ولجنة الاضراب انه يحذرهن من الاتصال بفصائل المقاومة او اللجوء اليها . وطلب اليهن ابلاغ الاتحاد اسم اي عنصر من اي فصيل فدائي يتدخل لاتخاذ الاجراء اللازم في حقه » .

وقد فسر هذا الموقف في الاوساط العمالية اللبنانية، على انه تخل من قبل اتحاد عمال فلسطين عن مساندة الاتحادات اللبنانية في نضالها ، وهو في الوقت نفسه اضعاف لموقف العمال والعاملات الفلسطينيين المشاركين في الاضراب ، والذين يعانون من الاجحاف نفسه الذي يعاني منه بقية العمال . وكان حريا بالاتحاد ان يعتبر نفسه شريكا في المسألة ، ان لم يكن من اجل التساند النقابي، فمن اجل العمال والعاملات الفلسطينيين الذين يحتاجون للدعم والمساندة من قبل القوى السياسية والنقابية الفلسطينية ، خاصة وان الاجراءات القانونية التي تطبق على العمال اللبنانيين لا تسري على العمال الفلسطينيين ، فهم بذلك يعانون من مشكلة مزدوجة ، الحرمان من المكتسبات القانونية القديمة اولا ، والحرمان من المكتسبات الجديدة التي يطالب بها العمال ثانيا .

ب. ح.

(٢) القضية الفلسطينية عربيا

١ ــ انتخابات الرئاسة الاميركية :

كان موضوع انتخابات الرئاسة الاميركية من ابرز الاحداث العالمية التي شغلت وسائل الاعلام العربية خلال الاشهر الماضية . ولقد طرحت الانتخابات موضوع العلاقات العربية ــ الاميركية ودور الولايات المتحدة في منطقتنا .

ولقد جرى تناول هذا الموضوع من زاويتين : الاولى : تقرر ان هناك فرصة ، بعد الانتخابات الاميركية ، لتحسين موقف الولايات المتحدة من العرب ، وبالتالي زخزحة الانحياز الاميركي « من مواقعه الى مواقف اقرب الى العدالة والى المبادىء التي يكثر ترددها على لسان نيكسون » (لسان الحال ٧٢/١١/١١) . الثانية : تقرر ان الموقف الاميركي لن يتغير الا بمقدار ما نصمم على اتخاذ موقف عربي موحد من المصالح الاميركية .

ولقد ناقشت معظم الصحف العربية هذه القضية، ولكن الصحافة في مصر اولتها الكثير من الاهتمام . وكانت الصحف المصرية مجمعة على ان سياسة الولايات المتحدة لن تتغير ازاءنا الا اذا حدد العرب موقفا ازاء مصالحها . ومن المناسب ان نستعرض بعض وجهات النظر المنشورة في الصحف المصرية حول الموقف من الولايات المتحدة الاميركية . ولقد ناقش الاستاذ احمد بهاء الدين قضية الموقف من الولايات المتحدة (الاهرام ٧٢/١٠/٨) . ولما كان قد دعا الى المقاطعة الاقتصادية من قبل ، فانه اضاف هذه المرة : « المقاطعة الاقتصادية والحرمان اذا شئنا ان نجعلها اسلحة حقيقية ، ومؤثرة على الولايات المتحدة الاميركية ... ليست اسلحة تكتيكية ولكنها سلاح استراتيجي » . وبين الاستاذ احمد بهاء الدين سر قوة الامة العربية ، فذكر العناصر التالية : ● اهم مخزون عالمي للبترول . ● سوق تجارية واسعة . ● مال سائل ضخم يكاد يخل بالتوازن النقدي للعالم . وذكر الاستاذ احمد بهاء الدين ان ارباح شركات النفط الاميركية تبلغ ٢٠٠٠ مليون دولار كل عام ، وان السوق العربية تستورد ما قيمته ٨٠٠ مليون دولار كل عام من السلع الاميركية . ولدى العرب فوق هذا من ١٢ الى ١٥ الف مليون دولار من النقد السائل . وسيصل المبلغ سنة ١٩٧٥ الى ٢٠ الف مليون دولار . ويرى الاستاذ احمد بهاء الدين ان نعمد الى حرمان الولايات من هذه الاموال والاستفادة منها ايجابيا . واقتراحات الاستاذ احمد بهاء الدين هذه مكملة لاقتراحات سابقة نشرها على صفحات الاهرام سابقا .

ونشرت الاهرام في اليوم التالي ٧٢/١٠/٩ مقالا بعنوان « ماذا بعد انتخابات الرئاسة » . ويذكر المقال ان هنالك ثلاثة سيناريوهات : « الاول : يستند ... الى امل متجدد باستمرار ، يتصور قبل كل انتخابات ان الرئيس الجديد للولايات المتحدة لا شك منصف للعرب ضد اسرائيل ، او انه قادر بحكم تخلصه من ضغط الظروف الانتخابية على التحرك بسهولة وعلى الرؤية الموضوعية للنزاع وللمصالح القومية الاميركية (الحقيقية) في الشرق الاوسط » . « الثاني : يستند الى أسس اخرى اخلاقية وتقليدية قوامها ان السياسة الاميركية في الشرق الاوسط سياسة دائمة اساسها الاول هو العلاقة الدائمة بين الولايات المتحدة واسرائيل » . الثالث : يستند الى السؤال التالي : « ماذا نفعل من الان ، وحتى نهاية الانتخابات او بعدها لنحقق الهدف ؟ »

ويجيب على هذا السؤال بقوله :

● التأثير في اوضاع المنطقة : تغيير « الواقع الجديد » الذي فرضته اسرائيل في حزيران .

● اثبات توافر القدرة الثورية العربية على التخطيط للاستخدام الامثل للموارد العربية في الاجل المتوسط ، والتخطيط لسياسات يتم تنفيذها في الاجل القصير للاضرار بالمصالح الاميركية ومصالح النظم العربية الحاكمة التي تصر على الامتناع عن التهديد بالممكن والمتاح ، وهو الاصرار الذي اسهم في تدعيم «الواقع الجديد» في المنطقة.

● تشجيع كل عمل ــ مشروع وغير مشروع ــ يكون هدفه النهائي اضعاف قوى الضغط الصهيونية والاسرائيلية على النظام السياسي الاميركي .. » وتقوم هذه الموضوعات والموضوعات التي سبقتها على اساس « ان حجم التغيير الذي يمكن ان يطرأ على السياسة الاميركية تجاهنا ، هو انعكاس دقيق لحجم استعدادنا لاتخاذ موقف عملي موحد ــ ولو عند الحد الادنى ــ من المصالح

الاميركية في المنطقة .. » (الجمهورية ٧٢/١١/٨). وقبل ان نتعرض لمناقشة هذه الموضوعات لا بد لنا من ايراد وجهة نظر اخرى مناقضة . وجهة النظر هذه عنوانها «لا بد من التصدي للانحياز الاميركي» (لسان الحال ٧٢/١١/١١) . ولكنها في الواقع ليست تصديا . ان وجهة النظر هذه تنطلق من ان تصحيح العلاقات يبدو ممكنا الان « ... فان الباب يبدو مفتوحا امام اربع سنوات كاملة يمكن فيهـا السعي الى زحزحة هذا الانحياز من مواقعه الى مواقف اقرب الى العدالة ... »

ولكن هذا كله مربوط بأمـرين : الاول : « ... يتوقف علينا نحن ... » علينا نحن العـرب ان نعرف كيف نحدد مطالبنا بوضوح وان نعرف كيـف ندافع عن حقوقنا « الدفاع المقنع للاميركيين وليس الدفاع العاطفي الصالح للدعاية الداخلية ... » الثاني : ان نختار « ... قيادة سياسية لقضية فلسطين يوكل اليها امر المفاوضة ، وما يتبعها من اخذ وعطاء ، شرط الا تكون عرضة للتخوين في اول مناسبة » . ولا يفوت صاحب المقال من ان يؤكد: « ان العرب مدعوون الى دفع « شيء » ثمنـا لاخطائهم السابقة ولخسائرهم الحربية ... » فاذا رفضوا واصروا « .. فان الخسارة في نهايـة المطاف ، ستكون اكبر من اي « تنازل » يمكن ان يتحمله العرب بارادتهم ورضاهـم » . ولهـذا « ... فعلى الذين ليس عندهم غير الفكر السلبي ان يتنازلوا ويسمحوا لافكارهم وعقولهم ان تتحرك بالسرعة المطلوبة ... »

هناك خطان اذن . احدهما يريد اقناع الولايات المتحدة واخر يريد الضغط عليها باستخدام مختلف الوسائل . ولكن هل يجدي الضغط ؟ هذه قضية بحاجـة الى الدراسة الواعيـة ، لان الاجـابة المشوائية تقود الى نتائج عشوائية . ولا يجوز الارتجال في قضية كهذه . ولهـذا فلا بد من ان نسال انفسنا قبل الاجابة مـاذا نريد نحن مـن الولايات المتحدة ؟ هل نريدها ان تكون وسيطا ؟ هل نريدها ان تضغط على دولة الاحتلال لتنفيذ قرار مجلس الامن ام نريد غير هذا ؟ ان الولايات المتحدة لا تستطيع ان تكون وسيطا لانهـا طرف . وهي طرف لانها تريد استمرار سيطرتها على المنطقـة وثرواتها . وليس صحيحا ان تأييد الولايات المتحدة لدولة الاحتلال ناتج عن تأثـير اصوات اليهـود او اموالهم او نفوذهم فحسب . ان للولايـات المتحدة مصالحها الكبرى التي تدفعها الى مثـل هذه المواقف . والتنافس على كسب ود دولـة الاحتلال ليس تنافسا انتخابيا وان بدا كذلك ... انه تنافس على اعلان الالتزام بمصالح الاحتكارات الاميركية في بلادنا . لقد بدات الولايات المتحـدة مرحلة جديدة من سياستها الامبريالية ، وخـلال هـذه المرحلـة اخذ تأييدهـا لمشروع الاستعمار الصهيوني في فلسطين يزداد حدة واندفاعا . كانت مطامع الاحتكارات في هذا الوقت قد اكتشفـت بترول المملكة العربية السعودية واخذت تنظـر بجشع الى بترول العراق والكويت . واذا كانت بريطانيا قد فكرت في القرن التاسع عشر بقيـام دولة صهيونية من اجـل حماية قنـاة السويس والطريق الى الهند ومنع قيام وحدة عربية ، فـان الولايات المتحدة الاميركية فكـرت في مصالحهـا الخيالية في المنطقة عندما بدأت دعمهـا العملي والمنظم لقيام دولة الاحتلال الصهيوني ، ثم لدولة الاحتلال بعد قيامها . ومنذ ذلك الحين وهذا الدعم يتعاظم . لان اهمية مصالـح الولايات المتحدة كانت تتعاظم ايضا . ولهذا ليس بدعا ان نـرى الحزبـين ، الجمهوري والديمقراطي ، يتنافسان على تقديم العون لدولة الاحتلال الصهيوني ،وليس غريبا ان يؤكد زعيم الجمهوريين في مجلس الشيوخ — ردا على نقد الديمقراطيين — من : « ... ان المساعدات التي قدمها نيكسون لاسرائيـل تفوق عشر مرات المساعدات التي قدمتها اية حكومـة امريكية سابقة ... » . (الاخبـار ، السباق المحموم ٧٢/١٠/٣) .

فاذا كانت الولايات المتحدة الاميركية طرفا فهـل يمكن ان تضغط على دولة الاحتلال الصهيوني من اجل الانسحاب ؟ ان الولايات المتحدة الاميركية لن تضغط على دولة الاحتلال الصهيوني ، لان القضية قضيتها اولا . هل من مصلحة الولايـات المتحدة ان تنسحب دولة الاحتلال ؟ هل من مصلحتها ان يتفوق العرب ؟ اجابت الولايات المتحدة على هذا كله بصراحة قاسية وقالـت : لا . فما الـذي تريده الولايات المتحدة اذن ؟ هل تريد حربا دائمة؟ بالطبع لا ولكنها تريد استمرار هيمنتها وضمـان مصالحها ، وهذا ، من وجهة نظرها ، لا يتم الا من خلال التوسع الصهيوني والتفوق الصهيوني في المنطقة . وعليه فان هدف الولايات المتحدة الان هو تكريس الانتصار الصهيوني في حزيران وتكريس الهزيمة العربية . ولكنها في الوقت ذاته تبحـث

عن حل ضمن هذا الاطار . حل يكرس انتصار دولة الاحتلال الصهيوني ، ويفتح امامها مجالات اوسع للسيطرة، وفي الوقت ذاته يحد من اسباب التوتر، او يطوقها .

ولهذا فالولايات المتحدة تسعى من اجل فرض مجموعة من الحقائق : الاولى : استمرار الهدنة، او وقف اطلاق النار ، حتى لا يقود اطلاق النار الى تفجيرات غير مسيطر عليها في المنطقة ، وحتى يعتاد الاعداء التعايش . الثانية : خلق مجموعة من الاوضاع الباعثة على الاستسلام (انقلابات ، نزاعات داخلية ، هزائم ، حكومات عميلة الخ). الثالثة : العمل على فرض حلول جزئية (فتح قناة السويس ، مثلا) . وكان هذا واضحا خلال السنوات الخمس الماضية . وما زال يبدو واضحا في السياسة الاميركية . وعليه فان الولايات المتحدة لن تضغط من اجل انسحاب كامل ، ولن تعمل على تنفيذ قرار مجلس الامن . وكل ما ستفعله سيكون لمصلحة تكريس انتصارها الصهيوني . ولسوف يزيدها الخروج من فيانتام شراسة ، لان هزيمة الشرق الاقصى سيجعلها اكثر حرصا على التمسك بالشرق الاوسط ، ولان خسارتها هنا هي خسارتها الكبرى والاخيرة . فالولايات المتحدة الاميركية اذن لا تبحث عن « سلام » في المنطقة بل تبحث عن استسلام . والاقناع لا يجدي في هذا المجال ، لان الامبريالية لا يقنعها الا الدفاع عن مصالحها بوسائلها ، والا هزيمتها في ميادين القتال .

لماذا كان الاقناع غير مجد فهل يجدي الضغط الاقتصادي مثلا ، وكل اشكال الضغط الاخرى ؟ انها تجدي اذا كانت جزء من معركتنا مع الولايات المتحدة الاميركية ؛ فنحن نقاطع الولايات المتحدة ، نضرب مصالحها ، نخلق لها المشاكل ، لا لنضغط عليها ، فتضغط بدورها على دولة الاحتلال، بل لاننا نحاربها في كل مكان . وموقفنا هذا لن يغير موقف الولايات المتحدة بسرعة ، وفي المدى القصير ، كما يتوهم كثيرون . ذلك ان الولايات المتحدة ستجابه المقاطعة ووسائل الضغط الاخرى بحملة مضادة ، شرسة ودموية . ويعود ذلك الى اسباب عدة اهمها : ١ — أن الولايات المتحدة الاميركية باعتبارها قوة امبريالية ، لا تتسامح مع أي تصد لمصالحها ، وهي باعتبارها قوة امبريالية لا تتقن الا لغة القوة . ٢ — ان الولايات المتحدة ، وباعتبارها قوة امبريالية ذات مصالح خيالية ، ترى في اي تنازل تقبل به بداية مسلسل تنازلات تمس جوهر مصالحها ، ولذلك فانها تقاتل قبل اي تنازل ، ولا تخضع الا بعد حرب طويلة تخسرها .
٣ — وفيما يتعلق بدولة الاحتلال الصهيوني ، فان الولايات المتحدة الاميركية ، لا تملك ان تقدم تنازلات ذات بال ، لان هذا يهز استراتيجيتها العالمية . وعليه فان الموقف من الولايات المتحدة يجب ان يتحدد كما يلي : أ — الولايات المتحدة طرف أساسي في الصراع ، وهي عدو اساسي ، لا يمكن تحييده او اقناعه بالعدول عن موقفه .
ب — مجابهة الولايات المتحدة في كل المجالات : والمقاطعة الاقتصادية والسياسية والعمل على ضرب مصالحها بعض مظاهر هذه المجابهة اللازمة.
جـ — ان هذه المجابهة لا تستهدف الضغط على الولايات المتحدة لاقناعها بلعب دور الوسيط ، لانها لن تكون وسيطا ، انها تستهدف : — الحاق الضرر بمصالح الولايات المتحدة . — خلق رأي عام متزايد داخل الولايات المتحدة يتحسس خطأ تبني سياسة معادية للعرب ، ومؤيدة للاحتلال الصهيوني بلا تحفظ . والولايات المتحدة الاميركية لن تكون وسيطا الا اذا قبلنا بالمشاريع الاميركية — الصهيونية .

والان يعود نكسون الى الرئاسة ظافرا . وتبدأ الدوائر الاميركية الحاكمة نشاطها لتحقيق ما تريد. ولقد جاء هذا واضحا في اكثر من تصريح . فقد اعلن روجرز « عن مبادرة اميركية جديدة بين مصر واسرائيل في وقت قريب ... » هدف هذه المبادرة « ... حمل مصر واسرائيل على اجراء مفاوضات مباشرة ... » ولم يتوان روجرز عن ان يؤكد ان واشنطن ستكون « نشطة جدا في هذا المجال » . (النهار ٧٢/١١/٦) . اما نيكسون فقد اعلن في اول تصريح له ، بعد انتخابه ، ان المنطقة : « ... ظلت خلال العامين الماضيين في حالة (هدنة) ، او في حالة تستطيعون تسميتها ما شئتم .. » ولكن وعلى الرغم من ذلك «... فان الموقف يمكن ان ينفجر في اية لحظة ..» فالرئيس الجديد اذن مصمم على التصرف في الشرق الاوسط ، بعد ان جمد مشاكله مع الصين، وبدأ صفحة جديدة من العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ، وقطع شوطا بعيدا في طريق الانسحاب من الورطة الفيانتامية . ولكن ما يريده في الشرق الاوسط واضح ايضا . انه يريد ان

يضمن استمرار وقف اطلاق النار ، وذلك يحتاج الى تصفية المقاومة اولا ، ثم بدء مسلسل الحلول الجزئية ، بفتح قناة السويس وجر العرب الى قبول مبدأ المفاوضات المباشرة . ولا غرو بعد ذلك اذا وجدنا من يقنعنا بأن على العرب ان يدفعوا ثمن الاخطاء والهزائم ، وان يكونوا ايجابيين . ولا غرو بعد ذلك ايضا اذا رأينا « ... الحلقة تضيق اليوم اكثر فأكثر امام المقاومة » (صدى لبنان ، ٧٢/١١/٤) . ذلك ان الانظمة العربية تبحث عن حل ، ضمن اطار الظروف الراهنة ، والحل لا بد ان يكون على حساب المقاومة والقضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني ، لان الحلول الدولية تكون دائما على حساب الضعفاء والمهزومين .

وهذا يستلزم ان يناضل الشعب الفلسطيني والجماهير العربية من اجل اغلاق الابواب امام كل التسويات الاستسلامية . وهذه هي الطريقة الوحيدة للحيلولة دون التصفية : تصفية المقاومة والقضية والشعب .

٢ ـــ سورية والغارات الإسرائيلية :

قررت دولة الاحتلال الصهيوني ، منذ عملية ميونيخ ، أن تبدأ سياسة جديدة فيما يتعلق بموقفها من الثورة الفلسطينية والبلاد العربية . وتقوم هذه السياسة على ركيزتين : الاولى : مطاردة رجال الثورة أينما كانوا ، وهذا يعني اتباع سياسة الهجوم المستمر . ومن هذا المنطلق قامت قوات الاحتلال بعدد من الغارات على القواعد والمخيمات في سورية ولبنان. الثاني : ضرب الدول العربية التي تعمل الثورة على اراضيها ، من أجل دفعها الى اتخاذ موقف معاد من الثورة الفلسطينية . وقامت دولة الاحتلال من هذا المنطلق بهجماتها ضد لبنان وضد سورية . ولهذه الغاية كان احتلال العرقوب في منتصف ايلول الماضي ، ولهذه الغاية ايضا كان قصف المزيريب مثلا ، ومعسكر تلكلخ واماكن اخرى من سوريه .

ان هذه السياسة ترمي الى غايتين : الاولى : في الميدان الفلسطيني وغايتها ارباك الثورة الفلسطينية واشغالها واستنزاف قواها وايقاع أكبر الخسائر الممكنة ، ماديا وبشريا ، في صفوفها . الثانية : تهديد حرية البلاد العربية وسيادتها واستقلالها وايقاع خسائر فادحة بها لاجبارها على محاربة الثورة الفلسطينية .

ولا يني الرسميون في دولة الاحتلال يتحدثون عن المثل الذي ضربه حسين ، والذي لا بد من ان يضرب مثله القادة العرب ليتلافوا انتقام دولة الاحتلال .

ولقد حاولت قوات الاحتلال ان تطبق هذه السياسة على لبنان . ولكنها ، بعد ان حققت بعض اهدافها في لبنان ، حولت اتجاهها الى سورية . فلماذا حدث ذلك ؟

حدث ذلك نتيجة ما يلي : ١ ـــ لان لبنان الرسمي أفهم الدوائر الامبريالية العاطفة عليه أن « مشكلة المقاومة » مشكلة تتجاوز لبنان . وان وضع لبنان الداخلي والاوضاع العربية المحيطة لا تسمح بحسم الموضوع حاليا . ٢ ـــ لان مركز ثقل المقاومة في سوريه ، ولان بقاءها في سوريه يضمن لها البقاء في لبنان . فاذا ما تم تحول في الموقف السوري الرسمي من المقاومة اصبح حسم موضوع المقاومة في لبنان ميسورا . ولذلك فان رسميي دولة الاحتلال يصرحون علنا في هذه الايام بأن على سوريه أن تفعل ما فعله النظام الاردني ، والا فان عليها أن تتحمل العواقب . ولهذا حدثت موجات الغارات الهمجية . وما زال التهديد بأعمال عدوانية جديدة قائما .

ولقد قررت سوريه أن ترد . وكان أن ردت فعلا . وهي تبادر الى الرد الذي تراه مناسبا ، خلال كل اشتباك أو بعده . والجبهة السورية الان هي الجبهة المتوترة الوحيدة ، بعد أن هدأت المدافع ، وبعد أن أضيفت مستعمرات الاغوار في ظل حماية الجيش الاردني ، وبعد أن هدأت الجبهة اللبنانية لاسباب كثيرة . ولقد انتقدت دمشق صمت الجبهات العربية عبر مقال افتتاحي لجريدة الثورة شبه الرسمية . قالت الصحيفة : « لقد تحول وقف اطلاق النار الى سلاح يضاف الى أسلحة العدو المتعددة ، وسمح استمراره للحد الادنى من التماسك العربي أن يتخلخل ، كما سمح للكثيرين من المتخاذلين بأن يضعوا أنفسهم على قدم المساواة مع الذين يعدون فعلا للمعركة ويحشدون لها أقصى حدود امكاناتهم ». وزادت على ذلك ان وقف اطلاق النار « فرصة للامبريالية لتستمر في خداعها ومناوراتها ، ولتعمل بمختلف الاساليب لتطويق ارادة العرب القتالية وتفجير تناقضاتهم الداخلية». وأضافت الصحيفة ان سوريه اكبر : « إنها

مستعدة لكل تضحية في سبيل طريق الحرية والتحرير » (النهار ٧٢/١١/١٢) .

وهذا الطريق هو الطريق الطويل الشاق . ان ضغط قوات الاحتلال سيتركز على المقاومة وسوريه ، وسوف يزداد عنفا وشراسة . وهنالك معلومات تؤكد ان دولة الاحتلال مصممة على احتلال جنوب سوريه . وهذا ما أكده آلون في كتاباته ، معتبرا ان دولة الاحتلال اخطأت في عدم احتلال جنوب سوريه خلال حرب حزيران . كما ان هناك معلومات أخرى تفيد ان دولة الاحتلال قد تلجأ الى ضربة قاصمة توجه للجيش السوري، وذلك من أجل اضعافه ، واتقاء خطره الى سنوات أخرى . وان هناك من يراهن اليوم على ان سورية « قد تدفع » الى اتخاذ تدابير من شأنها الحد من نشاط المقاومة وشل حركتها ...» (صدى لبنان ٧٢/١١/٤) .

ناجي علوش

(٣) القضية الفلسطينية دوليا

عمدت اسرائيل، بعد سيل من التهديدات باستعمال جميع الاساليب في حربها ضد المقاومة ، الى نقل « عمليات الابادة والارهاب » التي اتبعتها ضد قواعد الفدائيين والسكان ، الى خارج المنطقة . فقام عملاؤها باغتيال المناضل وائل زعيتر في مدينة روما عشية ١٠/١٦ باطلاق النار عليه حين عودته ليلا الى منزله . وجاء اختيار وائل ضحية اولى في حملة الارهاب الاوروبية الجديدة ، ليثبت اهتمام وانزعاج العدو الاسرائيلي بالعمل التعبوي الذي قام به والذي ساهم في تكتيل القوى اليسارية والديمقراطية الاساسية في ايطاليا في دعمها للمقاومة الفلسطينية . وقد أثارت هذه الجريمة سخط الاوساط اليسارية وخاصة الحزب الشيوعي ونقابات العمال التي قامت بتحركات اعلامية واسعة ضد الارهاب الصهيوني ومن اجل تقصي الحقائق . ورغم بعض التفصيلات حول احد المجرمين ، لم تعرف حتى الان اية نتائج ملموسة عن التحقيق .

ولم تقتصر التحركات الصهيونية الجديدة على اوروبا ، فامتدت عبر الرسائل الملغومة لتشمل عدة دول عربية .

من جهة اخرى قامت مجموعة من فدائيي « منظمة الشبيبة القومية العربية » في ١٠/٢٩ بتحويل طائرة تابعة للخطوط الجوية الالمانية لوفتهانزا عن خط سيرها العادي الى مطار زغرب في يوغوسلافيا، حيث حطت بعد ساعات من الاخذ والرد مع السلطات الالمانية الغربية ، انصاعت بعدها الاخيرة الى مطلب الفدائيين باطلاق سراح الاسرى الثلاثة المعتقلين في المانيا بعد عملية ميونيخ . وقد أدى هذا التنازل الالماني الى تأزيم العلاقات الاسرائيلية الالمانية مقابل انفراج في العلاقات مع العرب . كما ادى الى حملة واسعة ضد الحكومة من قبل اقطاب الحزب الديمقراطي المسيحي وحليفه المسيحي الاجتماعي في بافاريا (حزب شتراوس)، حيث طالب الاخير الحكومة الفيدرالية بدعوة ليبيا لتسليم الفدائيين .

لكن حرص حكومة برانت على انهاء الازمة مع الدول العربية لعب دورا مهما في ردود الفعل الرسمية . فأعلن فالتر شيل ، وزير الخارجية ، رفضه لتعبير « الاستسلام » الذي استعملته تل ابيب في وصف التصرف الالماني ، واكد ان المانيا ليست طرفا في نزاع الشرق الاوسط . واكتفت وزارة الخارجية بطلب توضيح من ليبيا حول سياستها في المستقبل مطالبة اياها بمحاكمة الخاطفين نظرا لعدم وجود اتفاقية تبادل جنائية بين البلدين .

واستمرت في هذه الاثناء الحملة الاسرائيلية التي ساهمت فيها بحماس الصحافة اليمينية في المانيا وخاصة منظمة شبرنغر ، فركزت «بلت تسايتونغ» على ان العملية اهانة واذلال للحكومة الفيدرالية ،

بينما طالبت « دي ملت » بقطع العلاقات مع ليبيا . واستدعت اسرائيل من جانبها « سفيرها » في بون بحجة التشاور . وواجه فيلي برانت الحملة بعملية توازن ظهر فيها واضحا حرص المانيا على المحافظة على علاقاتها الاقتصادية مع الدول العربية وعلى علاقة سياسية مميزة مع اسرائيل. فبعد ان اعتبر ، في مقابلة مع مجلة نيوزويك الامريكية (١١/٦) ان « ردود الفعل الاسرائيلية مبالغ فيها » مذكرا بان « الاسرائيليين انفسهم بادلوا المساجين مقابل ركاب طائرة عام ١٩٦٨ » وبان عطفه على المنطلقات الاسرائيلية لن يمنعه من ان يعارض بعض مطالبها اذا اقتضى الامر ، عمل على تهدئة الجانب الاسرائيلي فارسل رسالة شفوية الى غولدا مئير عن طريق سفيره في القدس فون بوتكامر اعلن فيها تأسفه للتطور السيء للعلاقات وحرصه على ابقائها على مستوى حسن. واعتبرت اسرائيل هذه الرسالة انهاء للازمة يسمح بعودة « السفير » الاسرائيلي الى بون .

وقد اظهرت هذه الاحداث مرة اخرى الدور المتعاظم الذي تحاول دول اوروبا الغربية القيام به في « الصراع العربي الاسرائيلي » ، مما يدفع بعض الاطراف المعنية الى التسابق في كسب ودها . وما كان انضمام بريطانيا وايرلندا والدانمرك الى الدول الست الاصلية (والذي توج بانعقاد مؤتمر قمة الدول التسع في باريس في ١١/١٩) ، الا ليزيد من اهمية « المجموعة الاقتصادية الاوروبية » . ولكن جميع الدلائل تشير الى حذر دول السوق المشتركة الشديد تجاه اية خطوة في اطار سياسة شرق اوسطية جديدة . هذا الحذر عبر عنه وزير خارجية فرنسا امام الجمعية العمومية الفرنسية في ١٠/١٦ بقوله « ان احداثا عدة — وخاصة عملية ميونيخ ونتائجها — تفرض في الظروف الحالية عناية خاصة في اتخاذ اية مبادرة اوروبية » مضيفا بان « شروط سلام مقبول من اسرائيل ومصر ليست سهلة التحديد الان » .

وكان محمد حسنين هيكل قد اشار قبل ذلك الى فشل جولة الزيات الاوروبية في توفير مصادر سلاح جديد مكان المصدر السوفياتي . كما اكد ابا ايبان في نيويورك ان لقاءاته في اروقة الامم المتحدة اوضحت له عدم رغبة دول اوروبا الغربية في اتخاذ اية مبادرة في الازمة .

لكن هذا الحذر — الذي قد يفسر بغياب اوروبا الغربية عمليا عن الساحة وحرصها على عدم اساءة العلاقات مع العرب واسرائيل معا — لم يمنع بعض دولها من اتخاذ مبادرات ذات دلائل . فأكد بيير هارميل وزير خارجية بلجيكا اثناء زيارة عبدالحليم خدام وزير الخارجية السورية ، تعلق بلجيكا بقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الذي ينص اساسا — حسب رأيه — على مبدأ رفض ضم الاراضي بالقوة وعلى ضرورة توفير الامن والسلام لدول المنطقة كافة (ويبدو ان الدبلوماسية البلجيكية نشيطة بشكل خاص في هذا المضمار) . واعلن سفير المانيا الجديد في القاهرة في ١١/٤ حرص بون على تنفيذ القرار نفسه ببنوده كافة . كما اشارت اللقاءات الطويلة في باريس بين المسؤولين الفرنسيين (بمن فيهم بومبيدو) وعبد السلام جلود رئيس وزراء ليبيا ، التساؤلات حول مدى تطرق الطرفين الى قضايا اخرى الى جانب العلاقات الاقتصادية . وابرزت « المجموعة الاوروبية » اهتمامها « بقضية الشرق الاوسط » باقرار مساعدة قدرها ١٦٥ مليون فرنك فرنسي تقدم خلال خمس سنوات عن طريق الاونروا « لاعانة اللاجئين الفلسطينيين » .

وفي الامم المتحدة ، نشرت اللجنة الخاصة للاستقصاء حول التصرفات الاسرائيلية في الاراضي المحتلة — والتي تضم ممثلي سيلان ويوغوسلافيا والصومال — تقريرها ، الذي ابرزت فيه محاولات اسرائيل الدائبة لتغيير معالم الاراضي المحتلة باقامة مستعمرات عديدة وبحمل السكان الاصليين على مغادرة اراضيهم . كما اكدت على ان حقوق الانسان قد خرقتها اسرائيل التي تعمل ما في وسعها لطمس الشخصية الفلسطينية . وطالبت اللجنة بان يقوم الصليب الاحمر الدولي بالاشراف على حماية السكان . وقد واجه المندوب الاسرائيلي هذا التقرير بهجوم عنيف .

ومن جهة اخرى ، افتتحت اللجنة القانونية للجمعية العمومية يوم ١١/٩ نقاشها حول موضوع « الارهاب » . وقد استهل رئيس اللجنة ، البلجيكي اريك سوي ، الاجتماعات بمطالبة الدول الاعضاء بالتوقيع على المعاهدات القائمة بخصوص خطف الطائرات وحماية الدبلوماسيين ، معلنا عن اجماع الوفود التي التقى بها حول موضوع مكافحة الارهاب ، علما بأن تحديد الكلمة سيكون

عقبة كبيرة . واقترح على ضوء ذلك تأجيل النقاش في الموضوع الى الدورة القادمة على ان تقدم كل دولة اقتراحاتها في هذا الصدد قبل ايلول ١٩٧٣.

على صعيد العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ، قام وفد اعلامي فلسطيني لاول مرة بزيارة الاتحاد السوفياتي ابتداء من ١٠/٢٧ . وكانت مختلف الاجهزة الاعلامية السوفياتية قد اكدت خلال الفترة الماضية على تطور التاييد السوفياتي لحركة المقاومة . فعلقت وكالة نوفوستي في ١٠/٤ على الاعتداءات الاسرائيلية معتبرة اياها « حملة صليبية ضد كل الحركة الفلسطينية » ومضيفة بان « السوفيات يرحبون مع كل الاصدقاء المخلصين للشعب العربي الفلسطيني بكل تدبير من شانه توطيد قوى حركة المقاومة الفلسطينية » التي تعتبر « في الصفوف الاولى للنضال ضد العدوان الامبريالي في الشرق الاوسط » . وفي ١٠/١٥ ، ظهرت لاول مرة بين الشعارات المعلنة بمناسبة الذكرى الخامسة والخمسين لثورة اكتوبر نداءات للتضامن مع المقاومة الفلسطينية .

ومن الجانب المصري استمرت المحاولات الرامية الى تحسين العلاقات وتبلورت في زيارة رئيس الوزراء عزيز صدقي لموسكو في ١٠/١٦ . ورغم قصر الزيارة التي لم تدم اكثر من يوم واحد ، اجمع الطرفان على انها كانت ايجابية وان المحادثات سارت في جو «من الصراحة والتفاهم». واكد البيان المشترك المواقف المعروفة للطرف السوفياتي الذي تعهد « بعمل ما في وسعه لتحقيق الاجلاء الكامل عن الاراضي المحتلة والمحافظة على الحقوق المشروعة لشعب فلسطين » كما اعلن « حق الدول العربية في تحرير اراضيها بجميع السبل حسب ما تنص عليه معاهدة الامم المتحدة». وفي اجتماع لمجلس الشعب المصري دافع عزيز صدقي عن سياسته الجديدة مؤكدا « استمرار الاتحاد السوفياتي في تقديم الدعم في **حدود امكاناته** » وعزمه على اتخاذ مبادرات جديدة لم يفصح عنها .

ويبدو ان الامال المعلقة على تغيير في الموقف الامريكي بعد الانتخابات قد خيبت ، رغم تصريحات روجرز عشيتها والبيت الابيض على اثرها ،والتي أكدت الاهتمام الخاص الذي سيوليه نيكسون في « العهد المجدد له » لمشكلة الشرق الاوسط . وربما كان هذا هو السبب الرئيسي وراء العودة من جديد للحوار مع الاتحاد السوفياتي .

د. ش.

(٤) المناطق المحتلة

من بين القضايا الرئيسية التي ظهرت في الاونة الاخيرة في المناطق المحتلة قضية ضم العمال العرب الى الهستدروت ، ومصادرة اراض عربية من اجل خلق وقائع جديدة لتكريس الاحتلال ، ودخول قطاع غزة مرحلة جديدة غدا فيها الطرفان الاساسيان في القطاع ، رجال المقاومة الفلسطينية وقوات الاحتلال يقفان وجها لوجه بعد سقوط الزعامة التقليدية المتذبذبة الممثلة في شخص رئيس بلدية غزة رشاد الشوا .

مصادرة الاراضي : امتدادا لاعمال السلب والنهب في المناطق المحتلة بواسطة سلطات الاحتلال بغرض اقامة معالم جديدة محل معالم قديمة ، والمتمثلة في مشارف رفح واراضي قرية عقربه ومجموعة الاراضي التي برزت فوقها مستوطنات اسرائيلية، قامت سلطات الاحتلال في الاونة الاخيرة بالاستيلاء على منطقة تقع بين اريحا وبيت ساحور تصل مساحتها الى ٧٠ كم ، متذرعة بالحجة المألوفة الواهية « متطلبات الامن » . وتعود ملكية هذه الاراضي الى الفلاحين من اهالي بلدتي بيت ساحور وبيت لحم وكذلك الى عرب التعامرة والعبيدية الذين يسكنون داخل الاراضي المستولى عليها .

ويبدو ان السبب الحقيقي الكامن وراء خطوة الاستيلاء لا يعود الى متطلبات « توسيع منطقة

النار والتدريبات في المنطقة » بقدر ما يعود الى التفكير بتنفيذ مشروع اقامة مدينة يهودية هناك ، فمن المعروف ان هذا المشروع ينسجم مع ما يعرف بخطة الون وخريطة ديان اللتين تدعوان الى اقامة مدينة في المنطقة تحمل اسم «كريات يريحو». وازاء الخطر المحدق بالفلاحين العرب اصحاب هذه المنطقة شكلت بلديتا بيت لحم وبيت ساحور وفدا لتقديم احتجاج الى السلطات الاسرائيلية ضد عملية الاستيلاء ، وبالفعل توجه الوفد الى الحاكم العسكري في ٧٢/١٠/٢٣ وقدم باسم الاهالي احتجاجا ، ووعد الحاكم العسكري بنقل ذلك الى السلطات المسؤولة ! بيد ان هذه السلطات كانت منهمكة في الوقت نفسه بدراسة عملية مصادرة منطقة اخرى تصل مساحتها الى ثلاثة الاف دونم في ضواحي قرية عنتا في الشمال الشرقي لمدينة القدس ، دون ان تتذرع هذه المرة بالحجة المألوفة ، بل اعترفت ان عملية المصادرة جاءت « لاقامة منطقة صناعية للقدس ، وكذلك لنقل المسلخ الذي يسبب الازعاج للمستوطنين من التلة الفرنسية الى منطقة بعيدة عن محل سكناهم » (دافار ٧٢/١٠/١١) .

العمال العرب والضم : غدت قضية العمال العرب من بين القضايا الرئيسية التي تواجه سلطات الاحتلال ، واصبحت شبيهة الى حد كبير بقضية مصير المناطق المحتلة التي يحتدم النقاش حولها بشكل قوي لاختلاف مشارب واهواء التيارات السياسية الفاعلة في اسرائيل (انظر اسرائيليات)، فمن المعروف ان مصير المناطق المحتلة تتنازعه منذ الاحتلال وحتى الان وجهات نظر متعددة ومتفاوتة، تتفق كلها على الضم بيد انها تختلف في مقدار الضم ، فهنالك من يرى ضرورة ضم جميع المناطق المحتلة بدون استثناء وهنالك من يكتفي بضم بعض المناطق مثل القدس وهضبة الجولان وغور الاردن وشرم الشيخ ، وقد تمثل التضارب في وجهات النظر حول كمية الضم وحجمه « بخرائط السلام » التابعة للكتل والاحزاب والشخصيات الاسرائيلية الفاعلة . ومع مرور الزمن غدت قضية العمال العرب شبيهة بقضية مصير المناطق المحتلة بنظر الاحزاب الاسرائيلية ، اذ بدأ الحديث والنقاش فيما بينها يحتدم حول ضرورة ضم العمال العرب الى الهستدروت بغض النظر عن صنفتهم كمواطنين من المناطق المحتلة ، وبدأت تبرز « خرائط » متفاوتة في حجم الضم وكيفية تطبيقه !

وقبل التطرق الى وجهات النظر المتباينة حول النقاش المحتدم لضم العمال العرب الى الهستدروت لا بد من الاشارة الى ان هنالك عاملين كانا ولا يزالان يتحكمان فيتصرف السلطاتالاسرائيلية وسلوكها (١) شهوة التوسع (٢) شهوة الحفاظ على نقاء او صفاء المجتمع اليهودي في « دولة اليهود » ، بيد ان هاتين الشهوتين تتخللهما رغبات صعبة ومتناقضة ، فشهوة التوسع ترافقها رغبة في ان تكون المناطق خالية من السكان الاصليين ، وبما ان ذلك ليس امرا متوفرا ، فان الرغبة تتمثل في ترحيل هؤلاء السكان ، الا ان ذلك يعتبر صعبا بسبب الظروف الموضوعية ، كما ان شهوة الحفاظ على نقاء المجتمع الاسرائيلي وصفائه تتنازعها رغبة اخرى ، تتمثل في تسخير السكان ضحايا الشهوة الاولى ، للعمل في المجالات الاقتصادية ، وبين هاتين الشهوتين تبرز المواقف المتباينة للتكتلات السياسية في اسرائيل تجاه مصير المناطق المحتلة ومصير الانسان المحتل . ولعل ظاهرة العمال الزراعيين العرب الذين يعملون في المستوطنات الاسرائيلية خير دليل على التناقض بين الشهوتين، بين شهوة النقاء والرغبة في التسخير ، فقد حدث صراع بين السلطات الاسرائيلية من جهة وبين مستوطنات النقب من جهة اخرى في الاونة الاخيرة حول ظاهرة العمال العرب الذين يخدمون وينامون داخل المستوطنات في ظروف صعبة شبيهة الى حد كبير بظروف الملونين في جنوب افريقيا واوضاعهم فالسلطات الاسرائيلية رأت في هذه الظاهرة خطرا «قوميا واجتماعيا» كما جاء على لسان وزير العمل، منطلقة من شهوة الحفاظ على نقاء مجتمع المستوطنين وطهارته ولذا اتخذت قرارا بعدم السماح للعمال العرب بالنوم داخل هذه المستوطنات بينما تحركت رغبة التسخير لدى المستوطنين واخذوا يناضلون ضد قرار الحكومة ويدعون الى ايجاد حل مناسب للحيلولة دون الاخطار التي تواجه مزارعهم نتيجة القرار الذي اتخذته الحكومة ، يحفظ مزارعهم وينعشها وفي الوقت نفسه يحمي طهارة مستوطناتهم من « التلوث » وذلك بخلق معسكرات عمل تأوي العمال العرب خلال الليل « فلو اقاموا مركزا كبيرا في منطقة لخيش ، مسيجا وبداخله خيام ، كالمخيمات العسكرية ، لياوي الاجراء من قطاع غزة ، فان ذلك سيكون افضل .. » (معاريف ٧٢/١٠/٢٧) بيد ان هذا الاقتراح الذي جاء على

لسان احد المستوطنين لم تأخذ به الحكومة ، وانما اخذت تفكر بدل ذلك بتشغيل قطار بين غزة وتل ابيب لجلب العمال العرب كل صباح الى المستوطنات والمدن الاسرائيلية الواقعة بين المدينتين واعادتهم الى بيوتهم مساء كل يوم . وبالفعل بدأ القطار بالعمل لينقل الاف العمال العرب الى المصانع والمزارع الاسرائيلية الى جانب نحو ١٢٠ سيارة تنقل نحو ١٥٠٠ عامل ، بالاضافة الى سيارات التاكسي التي بامكانها نقل مثل هذا العدد ، وكذلك الى جانب باصات شركة « ايجد » التي بوسعها نقل ٣٠٠٠ عامل ذهابا وايابا ، هذا فضلا عن سيارات المقاولين الاسرائيليين التي تنتظر كل صباح مئات العمال العرب بالقرب من الخط الاخضر . ومن الجدير بالذكر ان مجال سير قطار العمال سيمتد بعد مدة حتى مدينة العريش .

ما هو مصير العمال العرب ؟ هل سينالهم هوس الضم اسوة بما يحدث للمناطق المحتلة ؟ لقد غدا مصير الانسان العربي المحتل بالرغم من التناقض بين شهوتي التوسع و « الطهارة اليهودية » ، شبيها الى حد كبير بمصير المناطق المحتلة ، فقد كشف رئيس الهستدروت يتسحاق بن اهارون عن هذا الاتجاه في محاضرة القاها مؤخرا ذكر فيها أن الهستدروت تدرس امكانية ضم عرب المناطق المحتلة اليها ، واضاف انه ستبنى في المرحلة الاولى نواد تابعة للهستدروت في الضفة الغربية وقطاع غزة . وعارض هذا الاتجاه بشدة وزير العمل يوسف الموغي ، ونتج عن النقاشات المحتدمة داخل الهستدروت ظهور ثلاثة اتجاهات حول ضم العمال العرب اليها . ١ — دعاة الضم الكامل ، ويقف على رأسهم اهارون هرئيل عضو اللجنة المركزية للهستدروت ورئيس قسم التنظيم التابع لها ، الذي يعتقد « بضرورة ضم عرب المناطق بما في ذلك العمال الذين يعملون داخل المناطق كاعضاء ذوي حقوق كاملة في الهستدروت » ٢ — دعاة الضم بواسطة خلق اتحادات مرتبطة بالهستدروت، ويمثل هذا الاتجاه يوسف خميس من حزب مبام الذي يعتقد بضرورة اقامة اتحادات مهنية مرتبطة بالهستدروت . ٣ — دعاة الضم الجزئي : ويقف على رأسهم يعقوب كوهين الذي يعتقد بضرورة البدء بتنظيم العمال العرب الذين يعملون في اسرائيل بصناديق التأمين الهستدروتية ، وفي المرحلة الثانية يدعو الى اقامة اتحادات مهنية ونواد هستدروتية في المناطق المحتلة .

يعتبر الاتجاه الاول الذي يمثله اهارون هرئيل (رافي) اخطر الاتجاهات ، ويبدو انه يحظى بتأييد وزير الدفاع موشيه ديان ، اذ انه يتطابق مع سياسة الدمج الاقتصادي التي ينادي بها الاخير. وقد لخص اهارون هرئيل موقفه في مذكرة مفصلة ، معتمدا اسلوب المراحل لضم العرب في المناطق المحتلة الى الهستدروت بشكل رسمي (١) تعتمد المرحلة الاولى على « الاستمرار بتنظيم الدروز وعرب القدس الشرقية » . ومن المعروف انه قد انضم الى الهستدروت منذ حرب حزيران نحو ٨٠٠ من سكان الهضبة ، بينما انضم اليها قرابة ٨٠٠٠ من سكان القدس العربية (٢) اقامة نواد تابعة للهستدروت في المناطق المحتلة مع القيام بحملة اعلامية دون قبول اعضاء في الهستدروت . ولم تظهر خلافات في الراي تجاه هاتين المرحلتين، الا ان الخلافات والاجتهادات حول المرحلتين التاليتين (٣) تعتمد المرحلة الثالثة على ضم ٤٠ الف عربي يعملون بشكل منظم داخل اسرائيل . (٤) وتعتمد المرحلة الاخيرة على فتح باب عضوية الهستدروت امام جميع العاملين من بين صفوف عرب المناطق المحتلة ، واذا ما تمت هذه المراحل الاربع فان عملية ضم الارض والانسان لخدمة مجتمع المهاجرين والمستوطنين تكون قد دخلت حيز التنفيذ .

القطاع يدخل مرحلة جديدة : دخل قطاع غزة مرحلة جديدة عبرت عن نفسها بعودة المجلس البلدي لمدينة غزة الى حاكم اسرائيل وبسياسة « الضم الزاحف » التي اخذت تتبعها اسرائيل تجاه القطاع من خلال اقدامها على تصفية قضية اللاجئين وتوطينهم في اماكنهم ، وفي المقابل بانتعاش المقاومة الفلسطينية في القطاع بعد حملة التصفية الرهيبة التي اقدمت عليها سلطات الاحتلال في اواخر شهر تموز من العام الماضي . وبذلك اصبح الطرفان الاسرائيلي (قوات الاحتلال) والثورة الفلسطينية ممثلة في رجال المقاومة يقفان وجها لوجه في القطاع بعد ان اقيل ابرز وجوه الزعامة التقليدية رشاد الشوا من رئاسة البلدية ، وبذلك تكون السلطات الاسرائيلية قد فشلت في خلق زعامة تقليدية في القطاع اسوة بالزعامة التقليدية في الضفة الغربية.

تصفية قضية اللاجئين في القطاع : على ضوء نجاح المخطط الذي وضعته سلطات الاحتلال لمخيم رفح والذي اصبح بعد ضمه لمدينة رفح يعتبر من

وجهة النظر الاسرائيلية « كمكان دائم يشكل مع مدينة رفح بلدية واحدة » اخـذت تعمل لتعميم التجربة على جميع مخيمات القطاع والضفة الغربية بقصد تصفية اللاجئين متذرعة بحجة تطوير وانعاش المخيمات . ومن الجدير بالذكر ان عدد السكان في بعض المخيمات وخاصة في قطاع غزة يفوق في حالات كثيرة عدد السكان في المدن التي تضم اليها . مثل مخيم رفح الذي يبلغ تعداد سكانه ٤٠ الفا بينما يبلغ عدد سكان المدينة ١٠ آلاف فقط ، او مخيم جباليا الذي يصل تعداد سكانه الى ٣٤ الف نسمة ، سيضم ١٢ الف من سكانه الى المجلس القروي لبلدة بيت لاهيا التي يبلغ عدد سكانها نحو ستة آلاف نسمة ، بينما سيضـــم بقيـــة سكان المخيم ٢٢ الفا الى قرية جباليا . كان مخيم الشاطىء لوقوعه بالقرب من مدينة غزة المخيم الذي اصطدمت به التجربة الاسرائيلية بعنف ، وأدت مع مجموعة عوامل اخرى الى استقالـــة رئيس بلدية غزة احتجاجا على خطوات التصفية . يبلغ عدد سكان هذا المخيم ٢٦ الف نسمـــة ، وتعتزم سلطات الاحتلال نقل قسم من سكانه خلال العام القادم الى مبان جديدة تتسع لالف عائلة تقع على تلة الشيخ رضوان شرقي المخيم . عند منتصف شهر اوكتوبر اعلن حاكم منطقة قطاع غزة ضم المخيم الى مدينة غزة ، وارسلت دعوات الى ٢٥٠ شخصا من سكان المخيم لحضور اجتماع يعقد في مدرسة فلسطين في غزة دون ان يحاط المدعوون علما بماهية الاجتماع ، وقد فوجىء الكثيرون منهم عندما علموا بأن قائد قضاء غزة المقدم ي. عيني قد دعا لهذا الاجتماع بغرض انتخاب لجنة محلية « للمشاركة في تطوير المخيم » وقد بدأ قسم من المجتمعين يحتج على فكرة اجراء انتخابات ، بيد ان المقدم عيني اصر على موقفه ودعاهم لترشيح اسماء من بينهم ، وتحت وطأة الضغط تم ترشيح ٢٠ شخصا ، ونودي على كل شخص مرشح الى المنصة لكي يقف امام المجتمعين بغرض التعرف عليه ! وانتهت مهزلة الانتخابات التي وصفتهـــا وسائل الاعـــلام الاسرائيلية بـــ « السابقـــة الديمقراطية » داخل المخيمات ، بفوز سبعـــة اشخاص في اللجنة المحلية لادارة المخيم .

اقالة الشوا : وسط هذا الجو اصدر قائد منطقة القطاع يتسحاق فونداق في ٧٢/١٠/١٤ تعليمات لبلدية غزة بضم مخيم الشاطىء اليها وتقديـــم الخدمات للمخيم اســـوة بالمخيمات الاخرى التي الحقت بالمجالس المحلية والمجالس البلدية في قطاع غزة والضفة الغربية . وقد طلب الشوا من قائد المنطقة تاجيل سريان مفعول التعليمات حتى يتسنى لاعضاء البلدية ووجهاء مخيم الشاطىء دراسة الموضوع ووافق قائد المنطقة على ذلك . ومن الجدير بالذكر هنا ان سلطات الاحتلال قد تذرعت عند فرضها ضم مخيم الشاطىء لبلدية غزة بانها تستكمل بذلك اجراء كان الحاكم المصري للقطاع قد اصدره في عام ١٩٦٦ وان اندلاع حرب حزيران قد حال دون تنفيذ الاجراء ، اما بالنسبة لبقية المخيمات سواء في القطاع ام الضفة فانها تتمسك بذرائع اخرى مثل تحسين اوضاع المخيمات ...

وجاء رد المجلس البلدي لمدينة غزة بالرفض الكامل لخطط ضم مخيم الشاطىء الى المدينة ، وقـــد تشكل الرد من الملاحظات الاربع التالية: « (١) ان المنطقة التي اضيفت الى منطقة اختصاص البلدية بمقتضى القرار رقم ٢٦ بتاريخ ٦٦/١٢/١٥ هي معسكر اللاجئين المعروف باسم معسكر الشاطىء. (٢) اننا نرى ان اضافة تلك المنطقة في حينه لبلدية غزة كانت تستهدف بعدا جغرافيا فقط دون ان يكون لها اي ابعاد او مفاهيم اخرى او مفهوم اخـــر . (٣) ان تقديم الخدمات في هذا المعسكر كما في كـــل معسكر اخر للاجئين هو من صميم مهام واختصاص وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الدولية التي انشاتها الجمعية العمومية للامـــم المتحدة للقيام بهـــذا الغرض . (٤) اننا نرى ان اي تغيير في وضـــع المعسكر او في علاقة وكالة غوث اللاجئين به مـــن شأنه ان يحدث ابعادا سياسية واجتماعية كبـــيرة تتعلق بصميم القضية الفلسطينية وبالقانون الدولي العام وبحقوق اللاجئين الفلسطينيـــين وبقرارات الامم المتحدة في شأنهم ، واستنادا الى كل هـــذه الحقائق مجتمعة فان المجلس البلدي لمدينة غزة يرى انه لا يستطيع مطلقا وبأي حال ان يتخذ اي اجراء من شأنه المساس بحقوق اللاجئين الفلسطينيين او تحديد مصيرهم او العبث بعلاقاتهم بوكالة الغوث الدولية ، كذلك فان المجلس البلدي لمدينة غـــزة اذ يؤمن بضرورة تحســـين الاوضاع والاحـــوال المعيشية لجميع الاخـــوة والاهل الفلسطينيـــين المقيمين في معسكرات اللاجئين طالما ظلت قضيـــة فلسطين معلقة دوليا وسياسيا فانه يؤمن ايضـــا بأن هذه المهمة يجب ان تظل منوطة بوكالة الغوث الدولية حسب قرارات الجمعية العمومية لهيئـــة

الامم السارية المفعول في هذا الشأن والواجبات الاتباع » .

وجاء رد قائد المنطقة سريعا ففي ٧٢/١٠/٢٣ اصدر امرا باقالة الشوا من رئاسة البلدية والحقه بأمر اخر عين بموجبه اوري تشاتشيك وهو ضابط اركان للشؤون الداخلية في الحكم العسكري رئيسا لبلدية غزة بالوكالة ، وقد منحت له صلاحيات رئيس البلدية ، وبذلك ضم مخيم الشاطىء الى المدينة ، واقيل الشوا بعد ان بقي ١٣ شهرا في رئاسة البلدية . ومن الجدير بالذكر ان اقالة او استقالة رئيس بلدية غزة كانت مرتقبة لاسباب عدة من بينها :

١ ــ ان الشوا كان قد قدم استقالته الى الحاكم العسكري في شهر سبتمبر الماضي على اثر تعرضه لمحاولة قتل من قبل رجال المقاومة في القطاع بعد تماديه في العمل لربط القطاع بسياسة الملك حسين ، بيد ان سلطات الاحتلال لم تقبل الاستقالة بسبب توقيتها خشية ان تفسر خطوته بانها انتصار للفدائيين . ٢ ــ هنالك عناصر في بلدية غزة كانت تعارض مواقف الشوا السياسية وتبدي تحفظاتها تجاهها ، وهددت اكثر من مرة بتقديم استقالتها اذا ما استمر الشوا في مواقفه السياسية المتذبذبة والمتناقضة . ٣ ــ خيبة امل سلطات الاحتلال من زعامة الشوا ، اذ انها كانت تعتقد عند تعيينها له على اثر حملة التشريد والتهجير والهدم في العام الماضي بانه خير من ترتكز عليه لتنفيذ سياستها ومخططاتها تجاه القطاع اسوة بالركائز المنصوبة في الضفة الغربية . ولكن الشوا قد اظهر خلال فترة ترؤسه للبلدية ميولا تجاه النظام الاردني بتأييده مشروع الملك حسين كما وحافظ على استقلالية نسبية حيال المواقف السياسية على خلاف الزعامة التقليدية في الضفة الغربية ، الامر الذي خيب امل سلطات الاحتلال وجعلها تتخذ موقفا سلبيا منه الى ان اقالته بحجة معارضته لضم مخيم الشاطىء للبلدية . ومن الجدير بالذكر ان جميع اعضاء البلدية قد اصبحوا بحكم المستقيلين من مناصبهم .

وقد نقل الصحفي الاسرائيلي عاموس حداد صورة عن تفكير اهالي مخيم الشاطىء تجاه الاجراءات الاسرائيلية على لسان سليمان ابو حصيرة : « منذ اليوم الذي دخلت فيه اسرائيل الى القطاع لم نشاهد اي تحسن في اوضاعنا .. انتم الاسرائيليين تعملون فقط ما هو جيد بالنسبة لكم . قبل عام توجهتم الى الشوا ونصبتموه رئيسا للبلدية لانه جيد بالنسبة لكم ، وكنتم تعتقدون انه سيخدم المصالح الاسرائيلية . وقد اتضح لكم اليوم ان الامر لا يسير وفق ما تريدون فأقلتموه من منصبه . انه الان في نظرنا بطل ، قبل ذلك كان مكروها في غزه ... » وفيما يتعلق بقضية توطين اللاجئين في اماكنهم اضاف الشاب الذي كان يخاطب الصحفي الاسرائيلي امام جمع من شباب المخيم : « اذا كان الحكم العسكري يريد لنا ان نعيش كما يعيش الناس في اسرائيل فعليه ان يدعنا نعود الى منازلنا التي سلبتمونا اياها عام ١٩٤٧ . اننا نريد العودة الى اراضينا وبيوتنا التي سكناها قبل ٢٥ عاما . اننا لا نريد خدمات للمخيم ولا نريد طرقا ممهدة ان ما نريده فقط هو العودة الى بيتنا » (هآرتس ٧٢/١٠/٢٧). في غضون ذلك كانت المقاومة الفلسطينية تنشط في توجيه الضربات المتتالية ، من نسف لقضبان سكة الحديد التي يسير عليها القطار الذي تتوخى منه السلطات الاسرائيلية ازالة معالم الحدود (لانه لا يوجد هنالك افضل من طمس معالم الحدود مثل القطارات كما جاء على لسان الصحافة الاسرائيلية) وغرس الالغام ضد السيارات العسكرية والقاء القنابل اليدوية واطلاق نيران الاسلحة ضد الدوريات الاسرائيلية ، الامر الذي دفع سلطات الاحتلال الى اعادة نظام منع التجول بشكل اوسع على جميع جبهات القطاع البرية والبحرية .

ع٠ م٠

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ١٠/٣ — ١٩٧٢/١١/١٢

الرقم	التنظيم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	خسائر العدو البشرية: جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر	تاريخه
١ —	ج·ش·ت·ف·(١)	٨/٣٠	—	خان يونس	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غير محدد		غير محدد	—	—	—	هـ· عدد١٧٥ ص٥	١٠/٢٨
٢ —	ج·ش·ت·ف·	١٠/ ٥	—	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير سيارة	—	—	—	هـ· عدد١٧٥ ص٥	١٠/٢٨
٣ —	ج·ش·ت·ف·	١٠/ ٥	١٠٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير سيارة	—	—	—	هـ· عدد١٧٥ ص٥	١٠/٢٨
٤ —	ج·ش·ت·ف·	١٠/ ٦	—	رمات غـان	هجوم	اطلاق رصاص	١(٢)		—	—	—	—	هـ· عدد١٧٥ ص٥	١٠/٢٨
٥ —	ج·ش·ت·ف·	١٠/ ٧	١١٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير معهد المواد التحليلية	—	—	—	هـ· عدد١٧٥ ص٥	١٠/٢٨
٦ —	ج·ش·ت·ف·	١٠/١٠	—	العفولة	تفجير	عبوات ناسفة	٤	—	تدمير سيارة	—	—	—	هـ· عدد١٧٥ ص٥	١٠/٢٨
٧ —	ج·ش·ت·ف·	١٠/١٢	٢٢٠٠	رمات غـان	هجوم	القاء قنبلتين		١٥ اصابة	تدمير صالة سينما روكسي	—	—	—	هـ· عدد١٧٥ ص٥	١٠/٢٨
٨ —	ج·ش·ت·ف·	١٠/١٣	١٠٠٠	ناتانيا	تفجير	عبوات ناسفة		٧ اصابات	تحطيم الطابق الاول في بنك هبوعليم	—	—	—	هـ· عدد١٧٥ ص٥	١٠/٢٨
٩ —	ق·ع·ق·ث·	١٠/١٣	١٨٣٠	غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غير محدد		غير محدد	—	—	—	وفا ص ١	١٠/١٤
١٠ —	ق·ع·ق·ث·	١٠/١٥	—	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير وحدتين للتوتر العالي لشركة الكهرباء	—	—	—	وفا ص ٢	١٠/١٦
١١ —	ق·ع·ق·ث·	١٠/١٩	٢٢٣٠	غرب الخليل	هجوم	قنابل يدوية واسلحة رشاشة	غير محدد		اشتعال النار في سيارة عسكرية محملة بالجنود	—	—	—	وفا ص ٥	١١/ ٢
١٢ —	ج·ش·ق·ع·	١٠/٢٤	٦١٥	تل ابو الغيتار/الجولان	هجوم	قنابل وقذائف صاروخية	٣	١	غير محدد	—	—	—	الى الامام عدد٢٨١	١٠/٢٧
١٣ —	ق·ع·ق·ث·	١٠/٢٤	١١١٥	بتعاتا/الجولان	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير جسر	—	—	—	وفا ص ١	١٠/٢٦
١٤ —	ق·ع·ق·ث·	١٠/٢٨	١٧٠٠	تل شيحه/الجولان	تفجير	الغـام	١	—	تدمير بلدوزر	—	—	—	وفا ص ١	١٠/٣٠
١٥ —	ق·ع·ق·ث·	١٠/٢٩	—	العفولة	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير مطعم	—	—	—	وفا ص ١	١٠/٢٩
١٦ —	م·ش·ق·ع·	١٠/٢٩			استيلاء على طائرة المانية	قنابل	—	—	—	—	—	—		
١٧ —	ق·ع·ق·ث·	١٠/٢٩	—	بئر السبع	حرق	غير محدد	غير محدد		حرق مستودع لشركة كهرباء العدو	—	—	—	وفا ص ٢	١٠/٣٠
١٨ —	ق·ع·ق·ث·	١٠/٣٠	١٩١٥	خربة تانوعا/بيت لحم	كمين	اسلحة رشاشة	غير محدد		غير محدد	—	—	—	وفا ص ٣—٤	١١/ ١
١٩ —	ق·ع·ق·ث·	١٠/٣٠	٢٠٣٠	كريات آتا/حيفا	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير جزء من بناية	—	—	—	وفا ص ٤	١١/ ١
٢٠ —	ق·ع·ق·ث·	١٠/٣١	١١٠٠	تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير جزء من الطابق الثالث في مبنى برج شالوم	—	—	—	وفا ص ٤	١١/ ١
٢١ —	ق·ع·ق·ث·	١١/ ١	—	مخيم الشاطىء/غزة	اشتباك	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غير محدد		غير محدد	١	—	—	وفا ص ٢	١١/ ١
٢٢ —	ق·ع·ق·ث·	١١/ ٢	٢٠٤٥	يعجابا/الجولان	اشتباك	اسلحة مختلفة	غير محدد		غير محدد	١	—	—	وفا ص ٢	١١/ ٢
٢٣ —	ق·ع·ق·ث·	١١/ ٢	١٨٣٠	مخيم الشاطىء/غزة	كمين	عبوات ناسفة	غير محدد		اعطاب آلية	—	—	—	وفا ص ٤	١١/ ٣
٢٤ —	ق·ع·ق·ث·	١١/ ٢	١٩١٥	القـدس	تفجير	عبوات ناسفة			تدمير جزء من مبنى البريد واحتراق الارشيف	—	—	—	وفا ص ٤	١١/ ٣
٢٥ —	ق·ع·ق·ث·	١١/ ٥	—	مخيم الشاطىء/غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غير محدد		غير محدد	—	—	—	وفا ملحق	١١/ ٧
٢٦ —	ق·ع·ق·ث·	١١/ ٥	—	جبين وحتيل/الجولان	هجوم	صواريخ — مدفعية هاون	غير محدد		اصابة عدد من الآليات	—	—	—	وفا	١١/ ٩
٢٧ —	ق·ع·ق·ث·	١١/ ٧	—	غزة	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير جزء من خط سكة الحديد	—	—	—	وفا	١١/ ٩
٢٨ —	ق·ع·ق·ث·	١١/ ٩	٦٠٠	كفر الما/الجولان	هجوم	قذائف صاروخية		٤ اصابات	—	—	—	—	وفا	١١/١٢
٢٩ —	ق·ع·ق·ث·	١١/١١	—	نابلس	تفجير	عبوة ناسفة	غير محدد		اعطاب سيارة	—	—	—	وفا	١١/١٢
٣٠ —	ق·ع·ق·ث·	١١/١١	—	يافـا	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير عدة متاجر	—	—	—	وفا	١١/١٣
٣١ —	ق·ع·ق·ث·	١١/١٢	١٩٠٠	بين اللطرون ورام الله	كمين	اسلحة مختلفة	غير محدد		اعطاب سيارة	—	—	—	وفا	١١/١٣

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ١٠/٣ — ١٩٧٢/١١/١٢

الرقم	التنظيم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	خسائر العدو البشرية: جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر	تاريخه
١	ق.ث.ف.	٥ /١٠	—	غزة	القاء عبوة	عبوة ناسفة	—	—	اصابة سيارة باضرار	—	—	—	ن. عدد ٥٨ ص ٤	١٠/ ٦
٢	ق.ث.ف.	١٠/١٠	—	الخليل	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تصدع احد المنازل قرب مقبرة الخليل	—	—	—	ن. عدد ٦٢ ص ٥	١٠/١١
٣	ق.ث.ف.	١٠/١٠	٦٢٠	بقعاثا/الجولان	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٦٢ ص ٥	١٠/١١
٤	ق.ث.ف.	١٠/١٣	—	ناتانيا	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	اضرار في مبنى بنك العمال	—	—	—	ن. عدد ٦٥ ص ٥	١٠/١٤
٥	ق.ث.ف.	١٠/١٣	١٨٣٠	غزة	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٦٥ ص ٥	١٠/١٤
٦	ق.ث.ف.	١٠/١٤	١٨٠٠	جباليا	تفجير	عبوة ناسفة	—	١	—	—	—	—	ن. عدد ٦٦ ص ٤	١٠/١٦
٧	ق.ث.ف.	١٠/١٦	—	خان يونس	اطلاق رصاص	اسلحة رشاشة	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٦٧ ص ٦	١٠/١٧
٨	ق.ث.ف.	١٠/١٨	—	كريات اونو	حريق	غير محدد	—	—	حرق سيارة	—	—	—	ن. عدد ٧٠ ص ٥	١٠/٢٠
٩	ق.ث.ف.	١٠/١٩	٩٣٠	رفح	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—	—	غير محدد	—	—	—	ن. عدد ٧٠ ص ٥	١٠/٢٠
١٠	ق.ث.ف.	١٠/٢٢	—	العريش	تفجير	قذيفة هاون	—	—	تصدع مبنى	—	—	—	ن. عدد ٧٢ ص ٧	١٠/٢٣
١١	ق.ث.ف.	١٠/٢٤		بقعاثا/الجولان	تفجير	غير محدد	—	—	تدمير «جسر صغير»	—	—	—	ن. عدد ٧٣ ص ٩	١٠/٢٤
١٢	ق.ث.ف.	١٠/٢٤	٧٠٠	ناحال جولان	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	غير محدد	—	—	—	ن. عدد ٧٤ ص ٦	١٠/٢٥
١٣	ق.ث.ف.	١٠/٢٨	٢٤٠٠	العفولة	تفجير	عبوة ناسفة وعبوة حارقة	غير محدد		حريق وتدمير مطعم تابور في العفولة	—	—	—	ن. عدد ٧٨ ص ٦	١٠/٣٠
١٤	ق.ث.ف.	١٠/٣٠	١٩٣٠	بتوعا/بيت لحم	اطلاق رصاص	اسلحة رشاشة	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٧٩ ص ١٠	١٠/٣١
١٥	ق.ث.ف.	١٠/٣١	—	تل ابيب	تفجير	عبوة ناسفة	—	٢	انفجار في مبنى « برج شالوم »	—	—	—	ن. عدد ٨٠ ص ٨	١١/ ١
١٦	ق.ث.ف.	١٠/٣١	—	بين نابلس وطولكرم	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	—	—	—	—	ن. عدد ٨٠ ص ٨	١١/ ١
١٧	ق.ث.ف.	١٠/٣١	٢٤٠٠	مخيم الشاطىء/غزة	اشتباك	اسلحة رشاشة	—	٣	—	١	—	—	ن. عدد ٨٠ ص ١٢	١١/ ١
١٨	ق.ث.ف.	١١/ ١	٢٠٤٥	بقعاثا/الجولان	اشتباك	اسلحة رشاشة	—	—	—	١	—	—	ن. عدد ٨١ ص ٩	١١/ ٢
١٩	ق.ث.ف.	١١/ ٢	١٨٣٠	مخيم الشاطىء/غزة	القاء عبوة	عبوة ناسفة	—	—		—	—	—	ن. عدد ٨٢ ص ٥	١١/ ٣
٢٠	ق.ث.ف.	١١/ ٧	١٥٣٠	غزة	القاء عبوة	عبوة ناسفة	—	٢	—	—	—	—	ن. عدد ٨٤ ص ١	١١/ ٨
٢١	ق.ث.ف.	١١/ ٨	—	غزة	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تدمير خط سكة الحديد	—	—	—	ن. عدد ٨٤ ص ٤	١١/ ٨
٢٢	ق.ث.ف.	١١/ ٨	—	بقعاثا/الجولان	تفجير	عبوة ناسفة	—	١	تدمير جرار زراعي	—	—	—	ن. عدد ٨٥ ص ٦	١١/ ٩
٢٣	ق.ث.ف.	١١/١١	—	نابلس	تفجير	عبوات ناسفة	—	٢	تدمير سيارة مدنية	—	—	—	ن. عدد ٨٨ ص ٢	١١/١٣
٢٤	ق.ث.ف.	١١/١٢	١٩٠٠	بيت لقيا/رام الله	اطلاق رصاص	اسلحة رشاشة	—	—	اطلاق رصاص على شاحنة	—	—	—	ن. عدد ٨٨ ص ٦	١١/١٣

١ — وردت هذه العملية حديثا فرأينا ادخالها في مطلع هذا الجدول . كما تجدر الاشارة الى ان العملية رقم ٢٢ في جدول عمليات شهر آب ، ايلول ١٩٧٢ في العدد الرابع عشر من المجلة قد أعلنت الجبهة الشعبية مسؤوليتها عنها كما اعلنت مسؤوليتها عن العمليات ١ — ١٢ — ٢٤ — ٢٥ في جدول ايلول ، تشرين الاول ١٩٧٢ في العدد الخامس عشر من المجلة .

٢ — قام احد مقاتلي الجبهة الشعبية بمهاجمة منزل ضابط المخابرات باروخ دانيد واطلاق الرصاص عليه .

تعريف بالمصطلحات والنشرات الوارد ذكرها

١ — ق.ع.ق.ث. : القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية

٢ — وفا : نشرة يومية تصدر عن دائرة الاعلام والتوجيه القومي بمنظمة التحرير الفلسطينية .

٣ — هـ. : الهدف ، صحيفة اسبوعية تصدر عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

٤ — الى الامام : صحيفة اسبوعية تصدر عن الجبهة الشعبية — القيادة العامة .

٥ — ج.ش.ق.ع. : الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة .

٦ — ج.ش.ت.ف. : الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

٧ — ق.ث.ف. : قوات الثورة الفلسطينية .

٨ — ن. : نشرة رصد اذاعة اسرائيل اليومية ، التي تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

٩ — م.ش.ق.ع. : منظمة الشبيبة القومية العربية لتحرير فلسطين .

غازي خورشيد

اسرائيليـــات

عن الخلافات في حزب العمل
حول مستقبل المناطق المحتلة

● ليست جديدة هذه المناقشات الدائرة الان بين كبار المسؤولين الاسرائيليين حول مستقبل الاراضي العربية المحتلة في اعقاب حرب ٦٧ . ولا يتمتع بالصحة الكافية ذلك الانطباع الشائع القائل ان هذه الخلافات او المناقشات الدائرة هي نوع من استعداد القوى والاحزاب والاجنحة السياسية لخوض معركة الانتخابات للكنيست . ولا يعني ذلك أيضا غياب العلاقة بين الانتخابات والتنافس على وراثة مقعد رئاسة الوزارة المقبلة وبين المناطق العربية المحتلة ، فكما كانت هذه المناطق « ورقة لعب » في يد السياسة الاسرائيلية في صراعها مع العرب ، فان طريقة الاحتفاظ بها ، في المستقبل الابعد والاقل بعدا ، هي أيضا ورقة لعب في الصراعات والمنافسات الاسرائيليـــة الداخلية . ولعل التعمق في مبادىء الاختلاف بين وجهـــات النظر الموزعة علـــى أصحاب النظرة « البعيدة المدى » وأصحاب النظرة « القصيرة المدى » من رجال الحكم الاسرائيلي في موقفهم مـــن مستقبل الاراضي العربية المحتلة ــ يعفينا من المبالغة او الاهتمام المترف في تعليق اهمية جدية على نتائج هذه المناقشات او الخلافات . فان هذا الاختلاف يدور أولا بين رجال الحكم انفسهم وداخل حزب العمل الحاكم وليس بين معارضة وسلطة . وهذا الخلاف ، ثانيا ، يطمح الى العثور على أفضل طريقة لضمان الاحتفاظ باكبر قدر من التوسع دون أن يكلف اسرائيل شيئا . وبمعنى أوضح : ان الاسرائيليين يتعاملون مع المناطق العربية المحتلة وكأنها قضية اسرائيلية داخلية .

ولقد كان هذا الموضوع موضع مناقشات واجتهادات تصل الى حد الخلاف منذ انتهاء معارك حزيران حتى الان ، ولعل كلمة « انسحاب » كانت قابلة للطرح الاسرائيلي قبل سنتين ، ولكن القاموس السياسي الاسرائيلي الان قد حظر استعمال هذه الكلمة المحرمة ، مما يساعدنا على ادراك ان المسألة ، من وجهة النظر الاسرائيلية ، لا تدور حول الانسحاب او عدمه . فلماذا يأخذ هـــذا الموضوع مثل هذا الصدى الان ؟ ان الذي تغير هو طريقة طرح المسألة القديمة ، لان اسرائيل تتأهب لخوض معركة الانتخـــابات ، ولان رئيسة الوزراء غولده مئير قد أقسمت بكل ما تملك من قدرة على القسم أنها لن تعود الى مقعد رئاسة الوزارة بعد الانتخابت القادمة بسبب تقدمها في السن (٧٦) ، ولان كلا من الفارسين التويين موشه ديان ويغال آلون يربيان انفسهما علـــى وراثة المقعد . وفي هذا الجو .. جو التنافس على السلطة يأخذ الخلاف القديم بين وجهات النظر حول مستقبل المناطق المحتلة مثل هذا الاهتمام الجديد لانه قضية اسرائيل الاولى .

فما هي نقـــاط الخلاف بين كبـــار المسؤولـــين الاسرائيليين ؟.. ما هي امكاناتهـــم في الفـــوز بمقعد الوراثة ؟.

انهم جميعا يريدون أكبر قدر من الاراضي العربية المحتلة ، ولكنهم في الوقت ذاته لا يريدون ، بهذا الضم ، أن تتعرض « الطهارة اليهودية » لاسرائيل الى أي تهديد بسبب احتواء المناطق المحتلة على مليون عربي قد تتحول اسرائيل ، بسببهم ، الى دولة ثنائية القومية . وقبل اسابيع أبدت غولده مئير رأيها في الموضوع (معريب ١٠/٢٧) بتأكيدها انها لا تريد دولة ثنائية القومية وأوضحت أنها ، بسبب ذلك ، لا تنوي ضم كل الضفة الغربية الى اسرائيل ، وأنها تريد أكثرية يهودية في اسرائيل الموسعة . وبمعنى آخر ــ كما قالت معريب ــ فانها تريد خارطة تشبه ، الى حد ما ، الخارطة التي رسمها يغال آلون في مشروعه الشهير ، مع مزيد من الارض . وبذلك تكون غولده مئير قد قالت

كلمتها في المناقشة التي يديرها : موشه ديان ، بنحاس سبير ، يغآل آلون ، ابا ايبن ، ويسرائيل غليلي . وتقول « معريب » في مقالها المذكور ان المناقشة الدائرة الان لا تدور حول المناطق المحتلة فحسب ، أي حول ما يجري فيها ، ولكنه يمتد الى مسألة حدود اسرائيل وخارطة المستقبل .

يتمثل موقف ديان وانصاره في أنه لا ينبغي على اسرائيل أن تبادر الى أي حل ، لان الظروف المحيطة بها وغياب عناصر الضغط عليها لا يستدعي تغيير ما هو قائم . من هنا ، فان ديان يطالب باستمرار بالامر الواقع حتى تتمكن اسرائيل مع الزمن من خلق وقائع جاهزة تساعدها على ضم المناطق المحتلة نهائيا . اي ان ديان يدعو الى الاستمرار في عملية « الضم التدريجي » دون الاهتمام بالاخطاء الناشئة عن ذلك. ان ترك الامور تتطور مع انتظار ما يسفر عنه المستقبل هو الرأي الذي يتمسك به ديان . وقد صرح ديان في مقابلة تلفزيونية نشرت في الصحف الاسرائيلية في ١٠/٢٩ بأن « سكان الضفة الغربية يعتبرون انفسهم مواطنين أردنيين وعاصمتهم عمان . وان على اسرائيل ان تنفذ الامور التي تعتبرها ضرورية لها وهي بقاء قوات الجيش الاسرائيلي معسكرة على مشارف نهر الاردن ، وان تكون في الضفة الغربية حكومة واحدة هي حكومة اسرائيل . وان يكون بامكان اسرائيل تنفيذ حقها في الاستيطان في كل مكان في الضفة الغربية او قطاع غزة او في جزء من سيناء » .

ويعتبر المعلقون الاسرائيليون رأي غولده مئير الذي يرفض خلق أقلية عربية كبيرة في اسرائيل بمثابة رفض لافكار موشه ديان . ويقول متتياهو بيلد في مقاله بصحيفة « معريب » (١١/٣) ان رفض غولده مئير العلني هذا « أجبر موشه ديان على الاختيار : اما السير في الثلم واما الخروج من الحلبة . وأعتقد أن أحدا لم يفاجأ من قرار ديان العودة الى تعديل موقفه » . ويذكر الكاتب ان رأي ديان القائل ان قدر العرب في المناطق هو ان يكونوا غرباء في بلادهم الخاضعة للحكم الاسرائيلي ليس رأيا جديدا لديان ، فقد عبر عنه في كتابه « خارطة جديدة ، علاقات جديدة ». ويضيف الكاتب : « ولكن ما جرى في الاسابيع الاخيرة مفاجيء من ناحية واحدة فقط . فلأننا نقترب من الانتخابات يشعر وزير الدفاع بانه ينبغي وضع الامور في مكانها وان يكون ثابتا في رؤية مستقبلنا السياسي . ولكنه عندما خرج لتوضيح وجهة نظره بأن « سكان المناطق يجب ان يحافظوا على ميلهم لعمان دون ان يكون لعمان الحق في المحافظة على ميلها اليهم ، وان علينا ان نحتفظ بالمناطق ونستوطن فيها دون ان نمنح سكانها حقوقا سياسية ، كان ديان يعتقد ان القلوب مهيأة بما فيه الكفاية لاستيعاب هذه النظرية وان الشعب ، بغالبيته ، سيهب لمساندتها . هذا الخطأ في تقديرات وزير الدفاع هو العامل الحاسم في كل القضية » . ويرى الكاتب ان غلطة ديان الاساسية هي في طرحه حلا يتيح امكانية الضم مع تهدئة الجمهور الاسرائيلي من الخطر الديموغرافي . « ولكن هذه المحاولة جوبهت بمعارضة قوية » .

ولكن رفض غولده مئير لمعادلة ديان لا يتضمن حل المعادلة التي يفرضها واقع الاحتلال الاسرائيلي لاراض عربية شاسعة يعيش فيها عدد كبير من السكان . فكيف يتم الانسجام بين الاجماع الاسرائيلي على الاحتفاظ بالاراضي المحتلة وبين الاجماع الاسرائيلي على عدم تحويل اسرائيل الى بلاد ثنائية القومية . من الواضح ان حل ديان الرامي الى ان تكون الضفة الغربية اسرائيلية والسكان العرب فيها غير اسرائيليين هو نوع من الفصاحة اللغوية، ومن هنا تساءل متتياهو بيلد : « كيف نضمن قيام دولة يهودية قومية لا توجد فيها الا أقلية عربية ضئيلة تتمتع بالحقوق الكاملة ؟ هل تقصد رئيسة الحكومة حلا على طريقة مشروع آلون الذي يقضي بضم ٥٠٠ الف عربي في الضفة والقطاع بالاضافة الى المواطنين الحاليين في اسرائيل ، فيشكلون أقلية كبيرة جدا تبلغ ٨٠٠ الف عربي ؟ وماذا سيحدث اذا تصرفت هذه الاقلية مثل تصرف سكان القدس الشرقية الذين رفضوا الجنسية الاسرائيلية ؟ هل نستطيع ان نقول مثلما قال تاجر قشور البن الذي أحضر القشور طعاما للدجاج : اذا اراد الدجاج ان يأكل أكل ، واذا لم يرد لا يأكل » !.

ويعتبر بنحاس سبير — وهو المرشح القوي لخلافة غولده مئير مع انه يرفض ذلك — من كبار المسؤولين الاسرائيليين الذين يفضلون « الطهارة اليهودية » لاسرائيل والتخلص من اكبر قدر من العرب حتى لو ادى ذلك الى « بعض التنازل » عن بعض المناطق العربية المحتلة . وبنحاس سابير

رجل أرقام ، وهو يعيش في شبه كابوس من تناسل العرب ، وقد أعد له احصائي الحكومة البروفيسور روبرت بيكي احصائية تفيد بأنه اذا استمرت الهجرة الى اسرائيل بوتيرتها الحالية وبقي التزايد السكاني للعرب على حجمه الحالي — فقد يصل عدد السكان في اسرائيل والمناطق المحتلة — بعد ٢٥ سنة الى تسعة ملايين منهم أربعة ملايين عربي . وتقول صحيفة « معريب » (١٠/٢٧) ان مخاوف أخرى تراود بنحاس سبير في الميدان الاجتماعي او ما يسمى « العمل العربي » . وتراوده ايضا مخاوف اقتصادية « اذا اصبح سكان الضفة الغربية مواطنين اسرائيليين ، فان من واجب اسرائيل ان ترفع مستواهم ، بقدر الامكان ، اسوة باليهود . وان مجرد هذه الفكرة تخلق كابوسا لبنحاس سبير ، اذ كيف سيتبرع اليهود في العالم من اجل رفع مستوى معيشة مليون عربي » !!.. وعبرت غولده مئير عن مخاوفها من الكابوس العربي عندما فسرت في ندوة صحفية (معريب ١٠/٢٧) رفضها لثنائية القومية « لانها ستنهض كل صباح خائفة من ولادة طفل عربي » . ولقد اضطر موشه ديان الى تسجيل تراجع لفظي امام هذه المخاوف التي تصيب الجسد الاسرائيلي بالقشعريرة . نقلت معريب عن ديان قوله انه لا يميل الى استيعاب مليون عربي في نطاق حدود اسرائيل الموسعة ، واذا اضطر للوقوف أمام الاختيار بين « تنازل » عن « مناطق » وبين تحويل مليون عربي الى مواطنين اسرائيليين ذوي حقوق فانه سيخرج من المناطق المحتلة . ولكن ديان لا يعتقد ان القضية مطروحة على هذا النحو . القضية — كما يراها — هي على النحو التالي : « الملك حسين لا يريد مشروع ألون . ودولة مستقلة في الضفة فكرة تافهة لانه ليس في الضفة اية معطيات لكيان مستقل . احتمالات السلام القريب مع حسين غير واردة لمدة عشر او خمس عشرة سنة . ومن هنا ، فثمة ضرورة « لتسوية طويلة » على اساس الامر الواقع . ولا ينبغي ان نتناقش حول المسالة السكانية ، بل يجب ان نعمل على ضوء الواقع . والواقع هو ان المواطنين الاردنيين في الضفة لا يريدون ان يصيروا اسرائيليين . واذا كانت المسالة بهذا الشكل ، فان القضية ليست: ما هي حدود اسرائيل في المستقبل ، بل كيف نواجه مشكلة وجود مليون عربي في الضفة » . وتقول « معريب » : « ان ديان لا يخفي عن أحد انه لا يريد الان تسوية سلمية مع الاردن . لانه يعتقد ان السلام مع الاردن يستدعي دفع الكثير مقابل الحصول على القليل . ولذلك من الافضل ان يبقى الوضع على ما هو عليه .. ان ننتظر ونرى » . وتقول الصحيفة ان بنحاس سبير يقف في مواجهة خط ديان من اجل التوصل الى تسوية سلمية مع الاردن مع المحافظة على التفرد اليهودي لاسرائيل ، فان سبير من شأنه ان يقبل ما هو أقل من مشروع آلون ، بشرط ان تحصل اسرائيل على « حدود آمنة » .

ويعبر المحرر في صحيفة « معريب » يوسف حريف عن اعتقاده بأن انتصار احد الخطين .. خط ديان او خط سبير سيكون ذا اهمية بالغة بالنسبة لقيادة حزب العمل . « وهذه هي العلاقة بين «المناطق» وبين رئاسة الحكومة . فليس النقاش حول المناطق الا لافتة . اذ ليس له اية دلالة عملية من ناحية السلام مع الاردن . انه ذو دلالة عملية من ناحية السلام الداخلي في حزب العمل بعد غياب غولده مئير » . ويقول الكاتب ان كتلة تل ابيب للحزب — وهي اكبر كتلة — تريد ان توقف ديان عند حده ، لان قبول نظرية ديان السياسية معناها قبول زعامته . وتريد هذه الكتلة صاحبة التأثير الكبير على تشكيل القيادة ان يفوز بنحاس سبير بالوراثة ، ولكنها تسعى الى ان تجري المسألة بنعومة ، اي : ان ترأس غولده مئير قائمة الحزب للكنيست وتشكل الحكومة القادمة . وبعد ذلك تسلم الحكومة لبنحاس سبير . ومن المؤكد ان اغلبية الحزب ستتكتل حول سبير . ولقد اعترف ديان بأنه لا يعتقد ان الحزب سيرشحه لرئاسة الحكومة . ولكن سبير قد اعلن انه لن يقبل المنصب ، وسيضغط على غولده مئير للبقاء .

عن زيارة ديان في الولايات المتحدة

● قد يكون من السابق لاوانه تقييم نتائج زيارة وزير الدفاع الاسرائيلي موشه ديان في الولايات المتحدة الامريكية ، فعند كتابة هذه الكلمات كان ديان يستعد لمقابلة المسؤولين الامريكيين وسط تقديرات امريكية بأن هذه الزيارة « تمكن من تفحص افكار جديدة بشأن التسوية الجزئية واعادة فتح قناة السويس » كما ورد على لسان مراسل الاذاعة الاسرائيلية في واشنطن .

ولكن زيارة ديان تتسم بميزتين : اولها ان هذه الزيارة هي فاتحة سلسلة من الزيارات التي

سيقوم بها كبار المسؤولين الاسرائيليين ، وربما غير الاسرائيليين من منطقة الشرق الاوسط الى اميركا في عهد نيكسون الثاني . وثانيها — ان الزيارة تجري في جو شائعات صحفية امريكية حول مبادرة جديدة تدرسها الولايات المتحدة لاجراء تسوية لازمة الشرق الاوسط .

ولقد راى المسؤولون الاسرائيليون ان من الضرورة نشر مجموعة من التطمينات للراي العام الاسرائيلي ترمي الى نفي ما قد ينبعث من احساس تلقائي بأن نيكسون الثاني قد يختلف عن نيكسون الاول . لان مثل هذا الاحساس ينتج مدى لتوقعات سياسية قد تبالغ في المخاوف وقد تبالغ في الاطمئنان . ومن هنا ، بادر كبار المسؤولين الاسرائيليين الى التشكيك بنية الولايات المتحدة في عهد نيكسون الثاني للضغط على اسرائيل اولا ، والى التأكيد على ان اسرائيل قادرة على مقاومة هذا الضغط في حال وقوعه . لقد وجدت النقطة الاولى تعبيرا عنها في حديث ادلى به وزير الخارجية ابا ايبن (١١/١٠) بقوله : « ان الولايات المتحدة لم تقترح علينا تغيير موقفنا من قضية الشرق الاوسط » واضاف « ان الناطقين الامريكيين قد أكدوا على ان اسرائيل قامت بواجبها » . ووجدت النقطة الثانية تعبيرا عنهما في تصريح للسفير الاسرائيلي في واشنطن يتسحاق رابين في اليوم ذاته ، بقوله : انه لا يعتقد ان الولايات المتحدة ستعمل اي شيء جدي لا تقبله اسرائيل . واضاف انه اذا ما اظهرت الولايات المتحدة دلائل محاولة للتأثير على اسرائيل لابداء « مزيد من الليونة » فان اسرائيل تملك القدرة على التمسك بموقفها اكثر من قدرتها على ذلك قبل سنتين او ثلاث سنوات .

واشتركت رئيسة الحكومة الاسرائيلية بهذا المعنى في حديث اذاعي مهم في ١١/١٠ بقولها انه من الضروري الفصل بين « نشاط الولايات المتحدة في محاولة للوصول الى تسوية ، اذا لم يكن من اجل سلام شامل ، فعلى الاقل من اجل تسوية تحول دون تجدد اطلاق النار » وبين الضغط الامريكي على اسرائيل . واضافت غولده مئير : « ان رئيس الولايات المتحدة ليس وجها جديدا علينا . وعندما اجتمع بجماعة من اليهود قبل الانتخابات ساله احدهم عما اذا كان مستعدا للضغط على اسرائيل لفرض حل ، في حال اعادة انتخابه ، فاجاب : أنتم تعرفون اسرائيل ، ولو انني اريد ان اضغط فهل هذا ممكن ؟ » . وبناء على ذلك ، تعتقد غولده مئير انه من غير الممكن فرض امر على اسرائيل يعرف انه يتناقض مع مصلحتها الحيوية .

ان تكون الولايات المتحدة قادرة او عاجزة عن الضغط على اسرائيل — هو مجرد احساس اسرائيلي بالقوة يسعى تاكيده والتظاهر به الى تغطية الموقف الامريكي من جهة ، والى اشاعة الامان في وعي الرأي العام الاسرائيلي من جهة اخرى . فان غولده مئير ذاتها قد اوضحت في المقابلة الاذاعية ذاتها ان المصالح الامريكية هي التي توجه السياسة الامريكية . ومن هنا ، فان السؤال الوحيد المعقول هو : هل طرأ على المصالح الامريكية بعد اعادة انتخاب نيكسون ما يستدعي تغيير الموقف الامريكي من الصراع في الشرق الاوسط . ولقد سئلت رئيسة الحكومة الاسرائيلية عما اذا كان وجه رئيس الولايات المتحدة في فترة الرئاسة الاولى هو الوجه نفسه في فترة الرئاسة الثانية ؟ فاجابت : « هذا سؤال له ما يبرره . واضح انه رئيس الولايات المتحدة وعلينا دائما ان نذكر ذلك . وواضح ان للولايات المتحدة مصالح ، ولا يمكن ان نطلب من الدولة الكبرى الصديقة ان تتخلى عن مصالحها الحيوية من اجلنا . فالعالم غير مركب على هذه الصورة . ولكن من خلال مقابلاتي معه رأيت انه فعلا يدرك مشاكلنا ويتفهمها ويتعاطف معنا . وفي احدى المرات سررت جدا — استطرادا للحديث عن المصالح — عندما قال لي : عليك ان تعرفي ان ما أفعله الان — وكان قد قرر اشياء مهمة جدا — ليس نابعا من علاقتي باسرائيل ، بل انها مصلحة امريكية اولا ان تكون اسرائيل قوية » .

اذن ، ما هو مصدر بعض علامات القلق التي تظهر من بعض تصريحات المسؤولين الاسرائيليين بمجرد حديثهم عن « احتمال الضغط » والقدرة على مقاومة الضغط ؟ لقد سجلت صحيفة « هآرتس » تاريخ الاطمئنان الاسرائيلي من اللحظة التي اقتنع بها الاسرائيليون بأن واشنطن توقفت عن ذكر « مشروع روجرز » . وكتبت الصحيفة (١٠/٢٠) : « لقد كان الرأي المتفق عليه في القدس منذ بداية عام ١٩٧٢ انه بعد الانتخابات الامريكية ليس الحكم الجمهوري الذي يريد رئيسه ان يعاد

انتخابه — معنيا بابراز خلاف مع اسرائيل . وقد كف الامريكيون عن ذكر « مشروع روجرز » . وربما تكون فترة الهدوء السياسي قد بدأت قبل ذلك بعد محادثات رئيسة الحكومة مع نيكسون في البيت الابيض قبل حوالي العام . وعلى اية حال، فان الهدوء العملي في القدس بدأ فقط بعد انتهاء محادثات القمة في موسكو » .

على الرغم من هذا الهدوء ، فان الصحيفة تسجل علامات طفيفة من « اللاهدوء » . من هذه العلامات ما قاله جوزيف سيسكو ، قبل فترة ، دفاعا عن مشروع روجرز في حديث مع التلفزيون الاسرائيلي. وآراء بعض الدبلوماسيين الامريكيين بشأن المشروع اياه . وعدم حدوث تغيير على الرأي الامريكي القائل ان اسرائيل بالغت في حملتها على مشروع روجرز .

لكن ذلك كله ليس كافيا لان يصرح موشه ديان بأن « هنالك مصاعب متوقعة من الامريكيين » . اين مصدر القلق اذن ؟ يقول المعلق السياسي دان مرغليت في مقال نشره في « هآرتس » (١٠/٢٠): « اذا أخذنا بعين الاعتبار ان موشه ديان يريد الاكثار من الاحاديث والاتصالات مع مصر ، فينبغي علينا ان نفترض انه يرى « المصاعب » مع واشنطن ناشئة من الجانب الشرقي بالذات : من المحاولة الامريكية المستمرة لحث اسرائيل على عقد اتفاق مسبق مع الملك حسين » . واضاف الكاتب في مكان اخر من مقاله : « تفترض الاوساط السياسية في القدس ان واشنطن لن تزيد ضغوطها على اسرائيل في المنطقة المصرية على الرغم من أنها النقطة التي تعنى اسرائيل بالتوصل الى تسوية معها تسبق التسويات مع سائر البلدان العربية . ويبدو ان الولايات المتحدة مستعدة للانتظار زمنا طويلا بشأن التسوية مع مصر الى ان تنضج الظروف الكفيلة باقناع السادات باجراء مفاوضات مع اسرائيل » .

ينتج عن ذلك ان مصدر القلق الاسرائيلي من امكانية الضغط الامريكي صادر عن سعي الملك حسين الى تسوية مع اسرائيل . ويقول كاتب المقال في « هآرتس » : « ان الصعوبة كامنة في حسين ، فانه سيعود الى واشنطن بعد زيارة ديان بفترة . ويمكن الافتراض ان الامريكيين سيستغلون هذه الزيارة للاطلاع عن كثب على تطورات آراء موشه ديان . هل يقترح الضم ؟ أم ان ثمة اساسا لرأي اخر يقول ان ديان لم يغلق الباب ، نهائيا ، امام المفاوضات ، ولكنه يعبر عن رأيين : الاول — ان الطريق الى الاتفاق الشامل مع العرب لا يزال بعيدا ، ولذلك لا بديل للوضع الراهن . والثاني — ان حديثه عن وجود ميل لدى سكان الضفة الغربية الى الاردن ، دون وجود ميل لدى حكومة حسين الى نابلس والخليل — لا يعبر الا عن تعميق الوضع والمجرى القائمين . ومن هنا فسيكون للامريكيين ما يناقشون به آراء ديان وخاصة تشككه في جدوى التفاهم مع الملك حسين . لان الامريكيين معنيون بتسوية اسرائيلية — اردنية . وسيعبرون عن ذلك بوضوح اكبر بعد انتخابات الرئاسة . ومن هنا، يرى المسؤولون السياسيون في القدس ان مستقبل الاتصالات الاسرائيلية — الاردنية سيكون نقطة خلاف كبير بين اسرائيل والولايات المتحدة اكثر من مستقبل الاتصالات مع الدول العربية الاخرى . ويمكن القول ان هذه النقطة هي نقطة الخلاف الجوهرية .

والجدير بالذكر ، في هذا السياق ، ان غولده مئير ، في حديثها الاذاعي (١١/١٠) قد أشادت « بشجاعة » الملك حسين واعلنت انها تصدق رغبته في عقد سلام مع اسرائيل ، « انني واثقة من صحة اقوال الملك . انه يريد سلاما » . ولكنها لم تعلن استجابتها لرغبة الملك ، الامر الذي يخلق انطباعا بأن الحكومة الاسرائيلية لا تتحمس، الان ، لعقد اتفاق منفرد مع الاردن .

ويعتقد كاتب اخر في « هآرتس » أ. شنيتسر في مقاله عن « قوة الامر الواقع » (١٠/٢٠) « أنه في عام ١٩٧٣ وما بعده ، لن يكون الشرق الاوسط منطقة لنشاط سياسي كبير من الدول الكبرى . ومن هنا ، فاذا حدث تزحزح في النزاع العربي — الاسرائيلي فستكون دوافعه من داخل المنطقة ذاتها . وكما تبدو الامور الان ، فان مثل هذا التحرك من داخل المنطقة غير متوقع » . لماذا ؟ « لان الوضع مريح لاسرائيل في المدى القصير . ورجال الدولة لا يتطلعون ، عادة ، الى تغيير وضع مريح . اما العرب ، فانهم يبدون وكأنهم لا يملكون قوة جعل الوضع غير مريح لاسرائيل — او تقديم تسوية لاسرائيل تدفع السياسيين الاسرائيليين الى المخاطرة براحة الظروف الحالية. ويحتاج المرء الى خيال جامح ليصدق ان القاهرة

تستطيع اغراء اسرائيل بظروف افضل مما تملكه الان . وكذلك الامر بالنسبة الى الاردن . فالملك جاء ليعقد صفقات مع اسرائيل بأيد فارغة ، بينما الفلسطينيون لا يملكون ايدي » .

والخلاصة ؟ ان اسرائيل « لن تخرج من الضفة الغربية لاعتبارات المدى البعيد فقط — فالاعتبارات الفورية تؤكد افضلية الوضع القائم . واذا لم يلزم الاردنيون والفلسطينيون اسرائيل على اخلاء الضفة الغربية ، او قسم منها ، فلن يكون انسحاب » .

ويعترض الكاتب على طريقة قيام الاسرائيلي بتخويف نفسه بفزاعة اسمها « نيكسون الثاني » ويؤكد ان نيكسون سيمضي في سياسته الموالية لاسرائيل . ويستخلص من كل ذلك انه لا مفر من المحافظة على الامر الواقع . « حتى اذا اراد بعض الحكام اجراء تعديل على الامر الواقع ، ممن المشكوك به ان يحظوا بتأييد الجمهور . ليست في اسرائيل اكثرية ولا اقلية تتطلع الى اجراء مثل هذا التعديل . وليس على الجانب الثاني قوة سياسية قادرة على تشجيع مخاطرة اسرائيلية بالتغيير . قد يكون المتهمون هم العرب وقد يكونون الاسرائيليين . ولكن من ناحية النتائج ليس للامر اهمية عملية » !

م. د.

صدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

تهويد فلسطين

اعداد وتحرير الدكتور ابراهيم ابو لغد

ترجمة الدكتور اسعد رزوق

اثنا عشر مقالا تحليليا حول قضية فلسطين بقلم اثني عشر استاذا جامعيا مختصا في جوانب القضية ، مع تصدير للمؤرخ العالمي ارنولد توينبي .

تندرج موضوعات الكتاب في اربعة عناوين ، اوضح القسم الاول الرؤيا في الفكر الصهيوني وشرح الاطماع ومقاصد الحركة الصهيونية ، كما بين وسائلها لتحقيق هذه المآرب ، موضحا في القسم ذاته العلاقة العضوية بين الصهيونية والامبريالية الغربية . اما القسمان الثاني والثالث فهما أهم اجزاء الكتاب، ركز الثاني حول حركيات استلاب الارض عبر تعبيره عن الوضع الاجتماعي في فلسطين المحتلة ومساوىء نظام الملكية ، الامر الذي أدى لتمركز ملكية الارض في أيدي التجار والغائبين ، كما بين بتحليل ديموغرافي تطور مراحل تحويل فلسطين من شعب واحد يضم فئة يهودية قليلة ، مندمجة كليا فيه ، الى مواطنين من مهاجرين غربيين ، واحلال مجتمع مكان آخر ولغة محل ثانية ، وتحويل السكان الاصليين الى مهاجرين وشرح ما جرى ويجري من عداء للعرب واستعمال للعنف والارهاب لاجبارهم على ترك ارضهم . ويعرض القسم الثالث للمقاومة العربية تحت الانتداب البريطاني وتحليل السياسة البريطانية ازاء الانتفاضات العربية ولجان التحقيق ، مع تركيز خاص عن ثورة ١٩٣٦ يعتبر من أفضل ما كتب عنها وعن آثارها . ويتطرق القسم الرابع والاخير تتمة لجوانب الموضوع للصراع العربي الاسرائيلي ويركز بصورة خاصة على القدس وتطورات وضعها السياسي المتغير .

٤١٣ صفحة — ٨ ل.ل.

تضاف اجور البريد : ١٠٠ ق. ل. في البلاد العربية ٢٥٠ ق.ل. في اوروبه، ٥٠٠ ق.ل. في سائر دول العالم

تقرير خاص حول مؤتمر التنمية الاردني

أ. م.

بين ١١ و١٣ تشرين الثاني الماضي انعقد مؤتمر التنمية الاردني في عمان تحت عنوان « شركاء في التنمية » بحضور ممثلين عن ٢٦ دولة عربية واجنبية و٤٢ منظمة وهيئة دولية واقليمية وخاصة. وحسب التعبير الرسمي فان الهدف من المؤتمر هو القيام بـ « دراسة عملية للتأكد من جدوى المشاريع وترابطها وتماسكها وقابليتها للتنفيذ ، والتعرف الى ميادين التمويل الخارجي ومصادره في ضوء الجدوى الاقتصادية للمشاريع واولويتها في الخطة » . وكانت الحكومة الاردنية تداعلنت عن انتهاء وضع الخطة ، التي استغرق اعدادها نحو العام في ٥ أيلول الماضي ، عندما عرضت على الملك حسين في ندوة عقدت في الجمعية العلمية الملكية واستغرقت ٩ ساعات ، استمع خلالها الى عرض مفصل عن جوانب الخطة ، وقد تحدث الامير حسن (الذي اشرف على اعدادها) ، ورئيس الوزراء ، عن أهداف الخطة ومشاريع الحكومة ، وشارك رئيس الجامعة الاردنية ، ورئيس المجلس القومي للتخطيط وعدد من المسؤولين في النقاش ، وكذلك تحدث ممثلون عن القطاع الخاص عن استعدادهم للمشاركة في تنفيذ الخطة ، كما تحدث امين عام اتحاد نقابات العمال (شاهر المجالي) عن دور العمال في الخطة . ثم عاد الامير حسن فعرض الخطة في ندوة خاصة على الدبلوماسيين الاجانب والعرب ودعاهم الى المشاركة في تنفيذ مشاريع الخطة (١٢ أيلول) . وتكرر عرض اهداف الخطة امام ممثلين عن المنظمات المتخصصة في الامم المتحدة وجمعيات اخرى (١٩ أيلول ١٩٧٢) .

وقد استكملت « تظاهرة » النظام الاقتصادية بعقد مؤتمر التنمية ، الذي وجهت فيه الدعوات الى عدد من الوزراء والمسؤولين الغربيين مثل وزير خارجية الولايات المتحدة ، والوزير البريطاني للتنمية فيما وراء البحار ووزيري الخارجية والمال الفرنسيين والوزير الالماني الغربي للتعاون الاقتصادي والامين العام للسوق المشتركة . بيد ان هؤلاء جميعهم لم يحضروا واوفدوا بدلا عنهم ممثلين عن حكوماتهم . وقد وجهت الدعوة الى عدد كبير من الدول الاوروبية الغربية والى اليابان واوستراليا وكندا والاتحاد السوفياتي .

وعلى الصعيد العربي فقد وجهت الدعوات الى عدد من الدول العربية والهيئات الاقتصادية مثل الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية وصندوق الانماء في ابو ظبي والى مجلس الوحدة الاقتصادية العربية وغيرها من المنظمات والهيئات. وبصورة عامة فان ما يمكن لمسه بسهولة هو غياب الدول العربية عن المؤتمر ، باستثناء السعودية ودول امارات الخليج ، التي شاركت حكوماتها ومؤسساتها التمويلية . وكانت المشاركة الاساسية من الولايات المتحدة والمانيا الغربية وبريطانيا واليابان والسوق الاوروبية المشتركة ، ومن المؤسسات المتخصصة في الامم المتحدة وعدد كبير من المؤسسات والجمعيات الامريكية الدينية وغيرها ، ومن المؤسسات الخاصة شارك بنك الاعمار الغربي ، شركة ميتسوبيشي اليابانية ، بنك كريدي ليونيه (لبنان) ، فيليبس ، مجموعة الفا ، مؤسسة فورد فاونديشن ، منظمة كير العالمية .. الخ

من الواضح ان هذه « التظاهرة » الاقتصادية ، التي انتظمت في عمان ، كانت بهدف انجاح خطة التنمية الثلاثية التي يراهن بها النظام على معالجة الوضع الاقتصادي المتدهور وخاصة بعيد ايلول ١٩٧٠ . ولعل ابلغ تعبير عن هذا الوضع هو ما ننقله من مقدمة خطة التنمية نفسها : ١ — فمنذ

عام ١٩٦٧ وحتى عـــام ١٩٧١ كان متوسط نمو الانتاج القومي الاجمالي للاردن ٣٫٨ ٪ فقط مقابل ١١ ٪ سنويا بين عامي ١٩٥٤ و١٩٦٦ ، اذ بلغت معدلات نمو القطاعات الاقتصادية على النحـــو التالي : الزراعة ١ ٪ ، الصناعــة والتعدين والكهرباء والماء ٤٫٦ ٪ ، قطـــاع الانشاءات ٥٫٤ ٪ ، قطاع الخدمات ٥ ٪ . ٢ — انخفاض فرص العمل في الضفة الشرقية ، وتوقف المشاريع الكبرى مترافقا مع نزوح ٤٠٠ الف مواطن الـــى الضفة الشرقية . ٣ — هجرة العمال والعقول خارج الاردن . ٤ — خسارات في الدخول الاخرى ، فقد انخفض الدخل من السياحة من ١١٫٣ مليون دينار عام ١٩٦٦ الى ٣٫١ مليون دينار عـــام ١٩٧١ ، كما انخفضت تحويلات المواطنين العاملين في الخارج من ١٣ مليون دينار عام ١٩٦٦ الى نحو ٥ ملايين دينار عام ١٩٧١ . ٥ — زيادة اعتماد الموازنة العامة على المعونات المالية الخارجية ، فقد ارتفعت نسبتها الى الايرادات العامة (ما عدا القروض والمساعدات الاقتصادية والفنية) من ٢٥٫٤ ٪ عام ١٩٦٦ الى ٥٠٫٤٤ ٪ عام ١٩٧١ . ٦ — تكرار العجز في ميزان المدفوعات ، الذي بلغ اكبر عجز له في عام ١٩٧١ وبلغ ١٥٫٣ مليون دينار ، وكان عام ١٩٦٩ ١١ مليون دينار وعام ١٩٧٠ ٥٫٣ مليون دينار .

ازاء هذا الوضع الاقتصـــادي المتردي تستهدف الخطة، كما أعلن عنها، تحقيق أعلى مستوى ممكن من العمل والتشغيل ، وتحقيق أعلى معدل نمو ممكن في الانتاج القومي وتوزيع الخدمات العامة بين مختلف مناطق الاردن وفئات المواطنين وتخفيض العجز في الميزان التجاري وتدعيم ميزان المدفوعات وزيادة اعتماد الموازنة العامة للدولة على الموارد المالية المحلية بدلا من المساعدات الخارجية . وتقدر الخطة انها ستخلق ٧٠٫٠٠٠ فرصة عمل . وان ترفع الدخل المحلي الاجمالي من ٢١٧ مليون دينار في العام الحالي الى نحو ٢٧٣ مليون دينار عام ١٩٧٥ . وتهدف الى رفـــع معدل الدخـــل الفردي من ١٠٦ دنانير في العام الحالي الى ١٢٣ دينارا عام ١٩٧٥ . وتأمل الخطة ان ترفع واردات الدولة المحلية من نحو ٣٩ مليون دينار (١٩٧٢) الى نحو ٥٤ مليونا عام ١٩٧٥ . وتتوقع ان ترتفع قيمة الواردات الاردنية تدريجيا خلال السنـــوات الثلاث بحيث تصل الى ١٠٧ ملايين دينار عـــام ١٩٧٥ . وتقول ان الجزء الاكبر من الزيادة في الواردات سيتمثل في استـــيراد الالات والمعدات اللازمة للمشاريع الجديدة . كما تتوقع ان ترتفع قيمة الصادرات من نحو ١٥ مليون دينار في العام الحالي الى نحو ٢٣ مليون دينار عام ١٩٧٥ . وحسبما هو مقدر في الخطة فان القطاع العام يساهم بنحو ١٠٠ مليون دينار في تمويل مشاريعها، وذلك عن طريق الوفر الحكومي الحالي، والاقتراض الداخلـــي والخارجي والمساعـــدات الاقتصاديـــة والفنية الاجنبية (١٠٫٤٤ مليون دينار وفر حكومي سنوي ، ٤٧٫٧ مليون اقتراض داخلي ، ١٦٫٥ مليون مساعدات خارجية عينية ونقدية ، ٥٣ مليونا قروض) . اما مساهمة القطاع الخاص فمقدرة بنحو ٨٠ مليون دينار ، وهناك مساعدات خارجية للقطاع الخاص قدرت بـــ ٨ ملايين دينار . ولتوفير مصادر التمويل هذه ، تدعو الخطة الى تحسين أساليب جمع الضرائب مـــن المواطنين ، وفرض ضرائب على الشركات وأرباح رؤوس الاموال . كما تدعو الى بذل الجهد للحصول على الايرادات الخارجية التي تقـــدر بمعدل ٤٠ مليون دينـــار مساعدات مالية سنوية لدعم الموازنة و٥٫٣ مليون دينار سنويا كقروض خارجية ونحو ١٦ مليون دينار سنويا كمساعدات اقتصادية فنية .

ولكن السؤال المطروح بحدة هو هل تستطيع خطة التنمية هذه أن تضع حدا للتدهور العام ، لا بل تطوير الانتاجية ، وقبل ذلك هل يستطيع النظام توفير مثل هذه الموارد ؟ ان التجارب الانمائية السابقة لا تدعو الى التفاؤل . فبرنامج التنمية الزراعية الذي حددت مدته بخمس سنوات (٥٣/١٩٥٤ — ١٩٥٨/٥٧) ، قد اعتمد في رهانه على القروض البريطانية وقدرت اكلافه ٤٣٫٨ مليـــون دولار ، الا ان البرنامج الذي رفضت بريطانيـــا تمويله عدل حتى بلغت اكلافه ١٣٫٧ مليون دينار. غير ان المبالغ البريطانية التي قدمت لم تتجاوز ٤٫٨ مليون دينار انفق منها اقل من مليون على قطاع الزراعة فيما تحول الباقي الى ميزانيـــة الدولة .

اما برنامج التنمية للسنوات الخمس (١٩٦٢ — ١٩٦٧) ، فقد عدل عنه بعد عام وأعد بدلا منه برنامج السنوات السبع (١٩٦٢ — ١٩٧٠) ، الذي احدث تعديلات على المشروع السابق لكن البرنامج فشل فشلا ذريعا ، وانتقده الاقتصاديون الاردنيون كثيرا ، ورغم حديث الملـــك حسين في

مؤتمر التنمية عن الازدهار المتحقق قبل عام ١٩٦٧، فان المسؤولين عن التخطيط التنموي اعترفوا بوجود صعوبات واجهت الحكومة حالت دون تنفيذ خطة السنوات السبع وعن تخلي الحكومة نهائيا عن اكمالها . (حديث د. أحمد مراد الى جريدة الدستور ١٩٧٢/١٠/٧) ، كما اعترفت الخطة الثلاثية نفسها « بتلكؤ القطاع الخاص في الاستثمار او اقامة الصناعات او توسيع القائم منها » .

ليس من السهل هنا معالجة المدى الذي يمكن ان تصيبه الخطة من النجاح ، فالمشكلة الاساسية ، وهي المتعلقة بالتمويل ، لا يمكن التكهن بها قبل ان يمر بعض الوقت لمعرفة الجهات المستعدة للتمويل وحجم اسهاماتها ، واذا وضعت التجارب السابقة في الاعتبار فان مشكلة التمويل تظل عقبة اساسية . وبشكل عام فان تقدير بعض الخبراء الاجانب في المؤتمر عن بقاء عجز قدره ٨٠ مليون دينار بدون تغطية هو تقدير يؤخذ بالحسبان (النهار الاقتصادي ١٩ تشرين الثاني ١٩٧٢) . كما ان هناك عقبات اخرى مثل مدى تلبية الخطة للحاجات الراهنة والمستقبلية للاقتصاد المتدهور ، ووجود أداة فعالة قادرة على تنفيذ البرنامج ، وقبل ذلك ان تكون الخطة قد وضعت تقديرات سليمة للاحتياجات القائمة وامكانية تغطية نفقاتها ومدى ترابط الخطط الجزئية وتفاعلها ، وهي أمور يمكن القول دون مبالغة ان الخطط السابقة لم تعطها حقها من المعالجة .

ملاحظات على سياسة النظام ازاء الخطة :

١ — في الكلمة التي القاها الملك حسين عند افتتاح المؤتمر يمكن ملاحظة الامور التالية :

— قال ان المشاريع الانتاجية المباشرة في الخطة تركت عن قصد للقطاع الخاص ، « وانا ادعم هذا الاتجاه » . واضاف ان القطاع الخاص اثبت قدرته على التطلع الى الامام واستعداده للمجازفة والتعاون مع الجميع . وكلام الملك هذا مناقض لكل دروس الخطط التنموية السابقة ، حيث خيب القطاع الخاص الامال المعلقة عليه وهو الامر الذي تعترف به الخطة نفسها .

— واعلن الملك ان رأس المال الاجنبي يتمتع بالامتيازات نفسها التي يتمتع بها رأس المال المحلي . والواقع ان رأس المال الاجنبي يتمتع بامتيازات اكبر من تلك التي يتمتع بها رأس المال المحلي . (فقد صدر قانون جديد لتشجيع الاستثمارات الاجنبية في البلاد ومنحت تسهيلات واغراءات واعفاءات جمركية بشكل لم يسبق له مثيل . فهو يعفي المشاريع المقامة برؤوس أموال اجنبية من رسوم الاستيراد والرسوم الجمركية ، كما يعفي ارباحها الصافية من ضريبتي الدخل والخدمات الاجتماعية لمدة ست سنوات على الاقل، ومن ضريبة الابنية لخمس سنوات ، وبالاضافة الى اعفاءات اخرى فان القانون يجيز اعادة تحويل رأس المال الاجنبي الى خارج الاردن على ثلاثة اقساط سنوية متساوية بعد سنتين من مباشرة المشروع ، وفي حالات خاصة يجيز القانون تحويل رؤوس الاموال دون التقيد بالمدة او بالاقساط . وينص هذا القانون على تحويل الارباح والفوائد ورأس المال الاجنبي الى خارج الاردن بالعملة الاجنبية التي استورد بها او باية عملة اجنبية اخرى قابلة للتحويل) . («الجريدة» اللبنانية ٣٠ تموز) . وقد كان القانون المذكور صدى لاتجاهات الخطة الثلاثية وتلبية لمتطلباتها .

— دعا الملك الى وضع قانون جديد للعمال ، « يوجه اتجاه وسلوك العمال » ، وتعكس هذه الدعوة رغبة النظام في تطويق الطبقة العاملة واغرائها « بسياسة الخبز » بهدف رفع الانتاجية وطمس حدة التناقضات الاجتماعية .

— اشار الى ان هدف النظام هو تحسين وضع المواطن في كلا الضفتين ، وتوفير كل المرافق والتسهيلات التي من شأنها تحسين احواله المعيشية . وقال « ان شقاء شعبنا ، اللاجئين والنازحين من فلسطين هو محط اهتمامنا الكبير ». وحول الملك مشكلة الشعب الفلسطيني الى قضية انسانية محضة ، فقد ربطها بكلام منسوب الى مكنمارا « مدير البنك الدولي » عن جماهير الفقراء في العالم وحاجتهم للعمل . واضاف الملك « انهم — اي الفلسطينيون — يسعون وراء قناعة بسيطة في العمل ، نحو شيء افضل ، نحو انهاء الشقاء والبدء في الامل » . ويمكننا ادراك مغزى حديث الملك ، عندما ننتبه الى مشاريع الاسكان ضمن الخطة الثلاثية ، التي تهدف الى توطين النازحين في الاغوار ، التي تهدف الى تصفية اوضاعهم وفك ارتباطهم بالقضية الفلسطينية ، ناهيك عن استثمار جهودهم في المشاريع الزراعية الرأسمالية بأجور وظروف معيشية غير مؤاتية .

ـ. تحدث الملك حسين عن احداث ايلول ، وما اصاب الاقتصاد من اضرار وخسائر جسيمة ، وجاء حديثه ليعرج على عودة « سيادة القانون والنظام » وعلى « الدرس » الذي تعلمه من ضرب المقاومة حيث قال : « لقد كان الدرس العملي الاول الذي استنتجناه خلال السنين الخمس الماضية **ان الامن والاستقرار** شرطان ضروريان للتخطيط والتنمية » . وهي دعوة مباشرة « للمعنيين بأمن المنطقة » ان يسارعوا في زيادة دعم النظام . كما عاد فأكد على هذه النقطة من خلال اشادته بالقوات المسلحة « **وبدورها في اعادة القانون والهدوء الى البلاد** » . ويجيب الملك عن تساؤل لا بد انه شغل خبراء التنمية حول تضخم النفقات العسكرية فيقول ، واذا كان هناك امرؤ يشك في معقولية نفقاتنا العسكرية فيتحتم عليه ان يتذكر ان ارضنا ما زالت محتلة ، وان محاولاتنا لتحقيق السلام ما زالت بعيدة عن التبلور « **.. كما ما زالت قوى الظلام والفوضى وعدم المسؤولية تعبث في منطقتنا** » (!!) . لذلك « فان النفقات العسكرية تصبح لا مناص منها ولها ما يبررها » .

٢ ـ اما الامير حسن فقد اشارت كلمته الى ان قرار النظام بعقد المؤتمر كان « لبنة الاساس لانفتاحنا على العالم » ، وان الخطة الثلاثية تمثل نقطة تحول في طريق التنمية والتقدم .. كما انها **ستسهم في تأمين الاستقرار في المنطقة** . وقال ان المؤتمر سيكون جزءا من عملية مستمرة **لاقامة حوار مع الاسرة الدولية** .

ملاحظات حول وقائع المؤتمر ونتائجه المباشرة :

١ ـ حرص الملك على احاطة الوفود البارزة في المؤتمر باهتمامه الشخصي ، فمثلا نقل ممثلو السوق الاوروبية المشتركة بطائرته الهيلوكوبتر الخاصة وطار بهم فوق انحاء الاردن . ٢ ـ توزع اعضاء الوفود في المؤتمر في اليوم الثاني لانعقاده على لجنتين اساسيتين ، واحدة لمناقشة الجانب الاقتصادي والثانية لمناقشة الجانب الاجتماعي . وتحدث أمام اللجنتين ممثلو الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا الغربية وتايوان والبحرين والبرتغال بالاضافة الى ممثلي الوكالات المتخصصة للامم المتحدة. وأبدوا استعدادهم لتقديم المساعدات للاردن والمساهمة في تنفيذ مشروعات الخطة . وقد قدمت اللجنتان الاساسيتان تقريرا عن مناقشاتهما في الجلسة الختامية للمؤتمر ، دعا فيه الحكومات والهيئات المختصة الى دعم الخطة . ٣ ـ قال وزير الاقتصاد الاردني عمر النابلسي ان مؤتمرا سيعقد في عمان في أوائل العام القادم (١٩٧٣) لتعريف المستثمرين الاجانب وتزويدهم بالمعلومات اللازمة . ومن جهة ثانية بدأت بعد المؤتمر مباحثات ثنائية بين الحكومة الاردنية والوفود المعنية بتمويل الخطة .

بشكل عام ، فان ما يمكن تسجيله على المؤتمر هو التالي : ● ان خطة التنمية والمؤتمر المخصص لها ، قد أعدا في ظروف وقف اطلاق النار على حدود المجابهة مع اسرائيل ، وفي ظروف خروج الاردن عن هذه المجابهة . لذلك عكست الخطة « الطابع السلمي » المهيمن على توجهات النظام ، حيث تاخذ السياحة مكانا مهما ، فتطور المناطق التي كانت حتى عامين مناطق عسكرية ومواقع للمقاومة الى مرافق سياحية . كما ان تطوير الزراعة في الاغوار ، ومشاريع التوطين والاسكان للنازحين في الاغوار يحمل ذات الطابع ، (راجع تقريرا عن خطة التنمية الثلاثية : شؤون فلسطينية عدد تشرين الاول ١٩٧٢) . ● ان توجه النظام الاردني لتمويل الخطة في هذه الظروف ، يلقى عطف الامبريالية والدول الغربية ورعايتها ، والتي تجد ان مصالحها الاقتصادية في المنطقة عموما ، (وخاصة البترول) ومصالحها السياسية باستقرار المنطقة ، تتطلب توفير حد ادنى من الاستقرار الاقتصادي والسياسي للنظام ، واعادة تركيب الاقتصاد المحلي على اسس اكثر ثباتا . ● ان الخطة تعكس واقع ازدياد اهمية المراتب البرجوازية في اجهزة الدولة ، وازدياد تعويل النظام على التكنوقراط والبيروقراطية في انجاح الخطة ، لما تحتاجه من متابعة في التنفيذ ، ولكون أجهزة الحكومة هي الاجهزة الوحيدة القادرة على متابعة تنفيذ الخطة بانتظام . وعلى الرغم من مراهنة النظام على القطاع الخاص ليلعب دوره في تنفيذ مشاريع الخطة ، فانه من المستبعد ان تذهب مساهمة القطاع الخاص الى الحد المقدر له (نحو ٨٠ مليون دينار) . ● ان مشاريع خطة التنمية الثلاثية ، تعبير اقتصادي ملموس عن اتجاه سياسي لدى النظام على أن حدود مجابهته مع اسرائيل تقف عند حدود قيام جهد سياسي من الولايات المتحدة او غيرها ، وانها لا تفترض ، ولا تحبذ قيام اية مجابهة مسلحة مهما كانت حدودها « كعودة المقاومة مثلا » .

رأي أخير حول مؤتمر الكتاب والصحفيين الفلسطينيين

تختتم شؤون فلسطينية بهذا الراي سلسلة وجهات النظر التي أبديت حول الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين ، وتؤكد مرة اخرى ان جميع وجهات النظر هذه انما تعبر عن راي كاتبيها . هذا ونعتذر لحذف بعض مقاطع هذا الراي لضيق المساحة .

تشكلت اللجنة التحضيرية بقرار من الجهة المسؤولة في منظمة التحرير ، ورغم ان قرار التشكيل راعى بعض النواحي ، الا ان ذلك لم يكن على حساب القضايا الفنية ، مما جعل اللجنة التحضيرية لجنة كتاب وصحفيين ، وعودة سريعة الى تلك القائمة تؤكد لنا صحة ذلك .

وعندما انهت اللجنة التحضيرية اجتماعاتها كان طابعها المميز ، ان اجتماعاتها اقتصرت بمعظمها على بعض الاعضاء ، لان سواهم من الاعضاء لم يحضر اي اجتماع على الاطلاق ، ومنهم من حضر اجتماعا واحدا ، ومنهم من كان يحضر لمدة دقائق من بعض الاجتماعات . ولم يكن بالامر مقاطعة اللجنة من قبل « كتابنا وصحفيينا الكبار !.. » كما ذكر واحد من الزملاء ، لان الذي كان يتغيب منهم عن جلسات اللجنة التحضيرية كان يعتذر لانشغاله بأمور أخرى او بمرض ، او لاي سبب آخر ما عدا « المقاطعة » ، التي لم نسمع بها الا بعد أن أعلنت نتائج الانتخابات !.. بل على العكس كان اول اجتماع للجنة التحضيرية نموذجا لمدى تفاهم المجتمعين ، حيث انجلت الامور عن ان الدعاية المسبقة كانت للتضليل ، واذكر ان احد الزملاء طرح في تلك الجلسة موضوع الامانة العامة السابقة والتي كان يرئسها المرحوم خيري حماد ، وبمنتهى العفوية والبساطة أجمع الحاضرون على ان فكرة تجاهل الامانة العامة السابقة أمر غير وارد ، وطريقة طمس الواقع مرفوضة ، لان هناك اتحادا وهناك أمانة عامة ، الا أن الجمود الذي يعيشه اتحاد كتاب فلسطين (بغض النظر عن السبب ...) ، أمر يتنافى والمسيرة الثورية الفلسطينية ، وتطورها ، لذلك كان لا بد من تحريك هذا الاتحاد ، ولن يكون ذلك بالترقيع ، اذ لا بد من اعادة تقييم جميع الامور ، واشراك اكبر قسم ممكن من قاعدة حملة الاقلام . وكان اول عمل للجنة التحضيرية ان طلبت ، وبحضور رئيس دائرة الاعلام والتوجيه القومي ، اضافة اعضاء الامانة العامة السابقة الى اللجنة التحضيرية . وهذا ما تم فعلا . والامور كانت تسير على خير ما يرام ، ولم يبد لنا خلال اجتماعات اللجنة التحضيرية ، ما يفسر نية احد المبيتة « بابتلاع » المؤتمر .

نعود للجنة التحضيرية ، فنقول ، أنها كانت جادة للوصول الى مؤتمر للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، أقرب ما يكون الى الكمال ، فيحقق الانسجام بين أعضائه ، ليساهم عمليا في تأكيد الوحدة الوطنية الفلسطينية ، ويعطيها دفعا الى الامام ، من ناحية ، وليكون ، من ناحية ثانية ، مناسبة عالمية يعطي من خلالها صورة اكثر وضوحا عن ثورة شعبنا وحقه، للهيئات والاشخاص البارزين ، ولم يكن ذنب اللجنة التحضيرية ، ان تكون هدفا للانتقادات اللاذعة ، ومن جانب الذين يعتبرون انفسهم اعضاء طبيعيين وازليين في كل لجنة او هيئة تشكل . ومن ناحية ثانية ، لم يكن ذنب اللجنة التحضيرية ان تعمل وعلى مبدأ انقاذ ما يمكن انقاذه ، في ظروف تغيب بعض اعضائها .

وصلنا الى المؤتمر ، ولم يكن كما اردنا له ان يكون ، ولكن ورغم ذلك ، فانه كان مؤتمرا له حسناته التالية :

اولا : جمع اكبر قسم من الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الموزعين بين اكثر من قطر عربي وعالمي ، في تظاهرة لا تخلو من الايجابيات ، خاصة ضمن تلك الظروف من حيث الزمان والمكان .

ثانيا : بفضل انعقاده ، التقى عدد كبير من مثقفينا ، وتبادلوا الاراء التي لا تخلو من فائدة .

ثالثا : قام عدد كبير من اعضاء المؤتمر بزيارات مديدة لقواعد اخوانهم المقاتلين ، وتعايشوا معهم أوقاتا أوحت بكتابة اكثر من موضوع ، اغترفت مادته من ارض الواقع . رابعا : الى جانب تكريم المؤتمر لشهداء الثورة الفلسطينية ، كرم الذين أعطوا الثورة قسطا كبيرا من دمائهم واستمروا احياء بعد ذلك ، امثال الاخ بسام ابو شريف ، والدكتور انيس صايغ ... ورغم اننا لا ننفي بعض النقائص التي عانى منها المؤتمر الا ان فارقا كبيرا ، بين كلمة الحق التي نحترمها ، وكلمة الحق التي أريد لها باطل .

والان لنناقش الامر بموضوعية ما أمكن ، لا دفاعا عن الاخطاء ، بل اجلاء لها ، ليمكن تحاشيها في مناسبات مقبلة .

كتب زميل مقالا انتقاديا ، جاء فيه : « ان الامانة العامة التي انبثقت عنه — يقصد المؤتمر — اصبحت معزولة منذ تشكيلها [ولا اقول انتخابها والكل يعرف لماذا] فوقعت في المطب الذي كانت تأخذه على الامانة السابقة ، رغم حرمان تلك الاخيرة من كثير من حقوقها على المنظمة » .

طبعا ليست الامانة العامة الجديدة معزولة ، والدليل القاطع على ذلك ، انها تكاد تفرغ تقريبا من عملية تشكيل فروع الاتحاد في الاقطار العربية. ثانيا ، سوف تتعرض الامانة العامة التي سيكون عضوا فيها للانتقاد التهجمي من قبل زميل غير راض عن المؤتمر ونتائجه ، وهكذا ... واستطرد هذا الزميل ، ليقول « كشف المؤتمر — ولعل هذه احدى ايجابياته — اخلاقية بعض العاملين في الثورة من المثقفين البورجوازيين الذين يمارسون عكس ما يزعمون لانفسهم من مواقف ثورية . اذ اتضح منذ اليوم الاول للمؤتمر ان كل هذا التجمع ليس الا « ديكورا » لاسباغ الشرعية على عدد من الافراد كقادة للكتاب والصحفيين الفلسطينيين » .

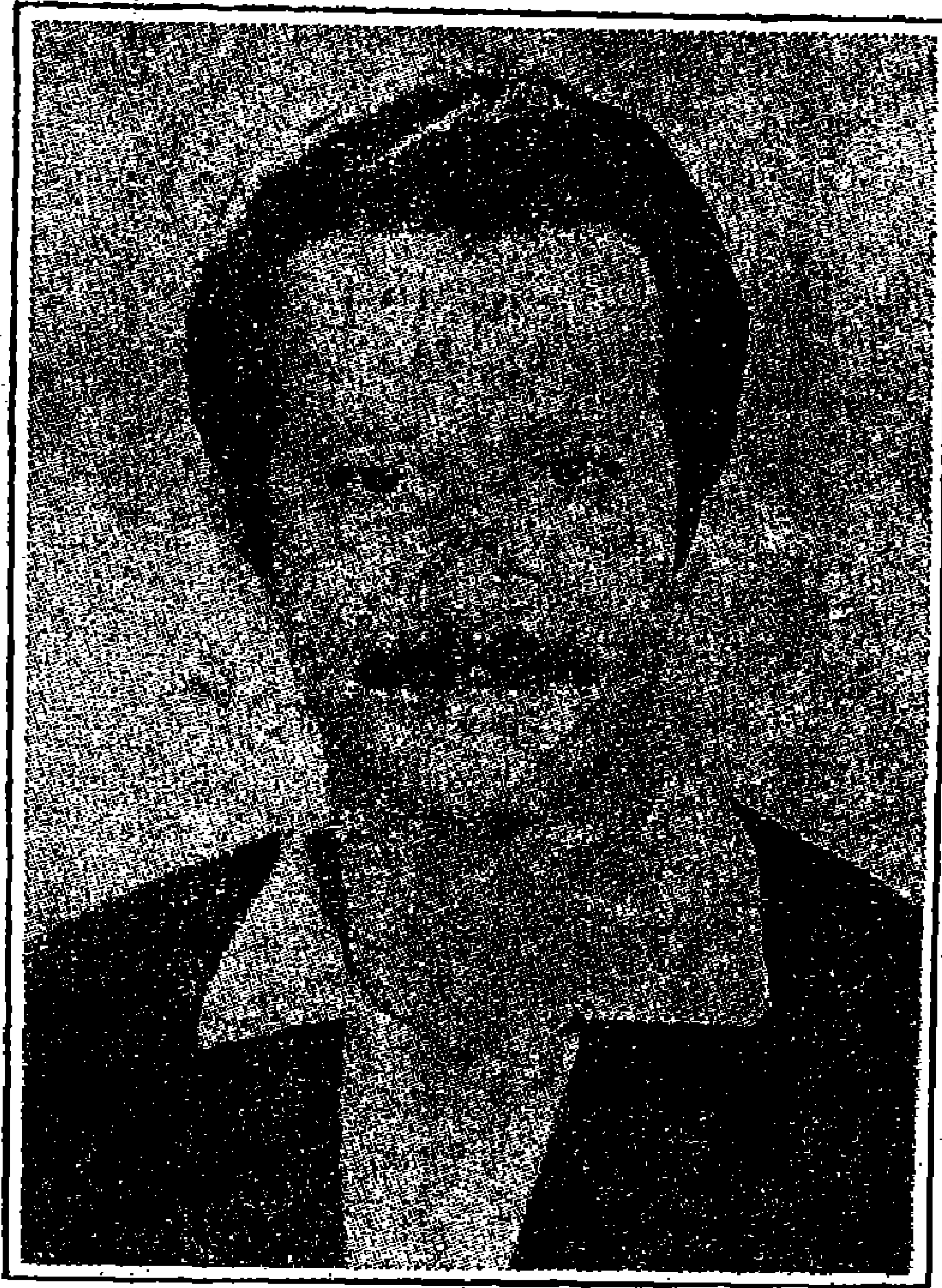
وهنا أكتفي بالقول ان استعراض اسماء الامانة العامة الجديدة ، يكفي ليؤكد للزميل وللاخرين ، ان معظم هذه الاسماء ، يحملها أدباء وصحفيون معروفون ومناضلون فعليون ، ولهم تاريخ نضالي قريب .

والان ، لا بد من الاهتمام بالناحية الايجابية ، ولا بد لنا من اشعال شمعة واحدة على الاقل ، والا فأي أمانة عامة لاي اتحاد لا يمكنها ان تفعل شيئا ، ان هي لم تلق الدعم الكامل ومن الجميع ، لنتجاوز المنعنات وضيق الافق ، والتعصب التنظيمي ، ولنجعل نظرتنا أكثر شمولا ، لنعرف اين نقف كشعب ، وأين اصبحنا كقضية ، ولنجعل محور أعمالنا وأقوالنا ، قضيتنا لانها للجميع . واما مسائل الافراد وأحاسيسهم وانفعالاتهم ، وعقدهم أحيانا ، وتطلعاتهم الشخصية أحيانا أخرى ، فكلها أمور يجب ان نترفع عليها ، لنقابل العالم كشعب موحد الصفوف والاهداف .

والامانة العامة الجديدة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين مسؤولة ونحن معها عن : ١ — اعادة تنظيم فروع الاتحاد ، بشكل يجعل منها فروعا عاملة منتجة ، لا مجرد فروع تنتظر الانتخابات العامة للاتحاد ، وقبل ذلك وبعده لا عمل لها ، حيث يكتفي المسؤولون في كل فرع ان يلقوا بالمسؤولية على الامانة العامة للاتحاد . ٢ — عن طريق الفروع ايضا ، لا بد من تمتين العلاقة مع اتحادات الكتاب والصحفيين المحليين في الاقطار العربية ، وكذلك مع جميع المنظمات الشعبية الاخرى . ٣ — تمتين العلاقة مع جميع الاتحادات والنقابات العربية والعالمية ، لامكانية اسهام اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين اسهاما يتناسب وحجمه في العمل لقضيتنا الاساسية . ٤ — اعداد دراسة ميدانية ، ان امكن ، عن الادباء العرب في الارض المحتلة ، لامكانية دعمهم ماديا وادبيا ، بما هو اجدى من التباكي على احوالهم . ٥ اعداد دراسة ايضا ميدانية ، عن أحوال الكتاب والصحفيين الفلسطينيين المتواجدين في الاقطار العربية ، وعن كثب تفهم قضاياهم ، الخاصة منها والمهنية ، لامكانية دعمهم والاخذ بيدهم ، وحل مشاكلهم . ٦ — اصدار نشرة غير دورية في البداية باسم الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، وذلك ليساهم الاتحاد بوضع حد لاعلام الثورة الذي كثيرا ما تشده الاساليب الاعلامية البالية في المنطقة الى جانبها ، وبذلك يكون عطاء الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الى جانب كونه موحدا ، اكثر جدوى وفائدة . ٧ — واخيرا على الامانة العامة للاتحاد أن تحدد النقاط الاساسية التي لا يحق لاي كاتب فلسطيني الخروج عليها ، وتحت اي حجة ، مثل دعم الثورة الفلسطينية ، والوحدة الوطنية الفلسطينية ... الخ .

أنيس الخطيب

غسان كنفاني



المجلد الأول

رجال في الشمس

ما تبقى لكم

عائد الى حيفا

أم سعد

العاشق

الأعمى والأطرش

برقوق نيسان

الآثار الكاملة للكاتب المناضل الشهيد تصدر في مجلدات

المجلد الأول يصدر قريباً

السعر ٢١/٢ ل.ل. في الوطن العربي او ما يعادلها